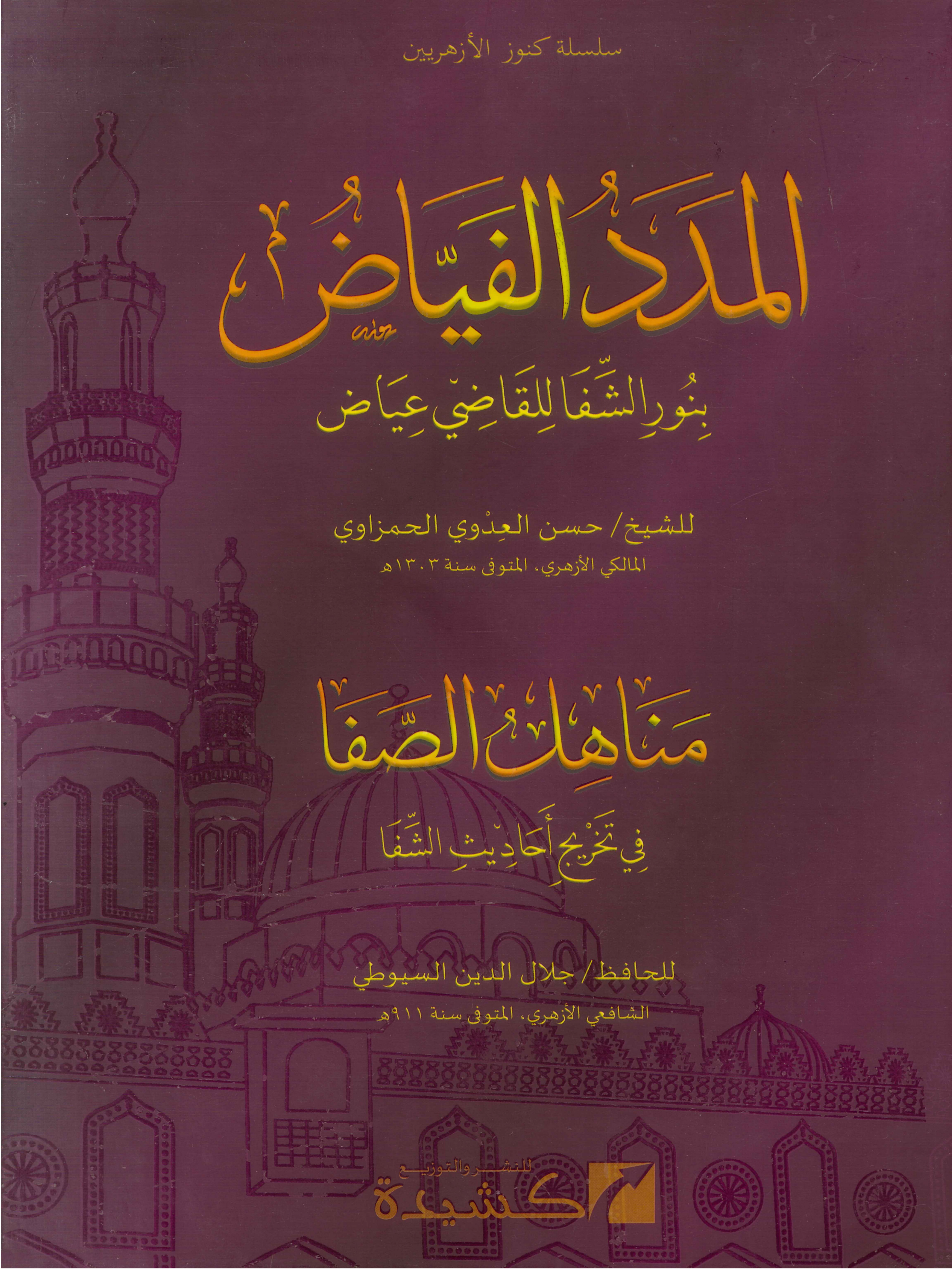


سلسلة كنوز الأزهريين

المَدَدُ الفيّاض

بِنورِ الشِّفا لِلقاضِي عِياض

للشيخ/ حسن العِدْوي الحمزاوي
المالكي الأزهري، المتوفى سنة ١٣٠٣هـ

مَناهِلُ الصَّفا

فِي تخرِيجِ أحادِيثِ الشِّفا

للحافظ/ جلال الدين السيوطي
الشافعي الأزهري، المتوفى سنة ٩١١هـ

كشيدة
للنشر والتوزيع

سلسلة كنوز الأزهريين

المَدَدُ الفيَّاضُ بِنور الشِّفا لِلقاضي عِياض

للعلامة الشيخ

حسن العِدْوي الحمزاوي

المالكي الأزهري، المتوفى سنة ١٣٠٣هـ

ومعه:

مناهِلُ الصَّفا بتخريج أحاديث الشِّفا

للحافظ

جلال الدين السيوطي

الشافعي الأزهري، المتوفى سنة ٩١١هـ



العِدوي، حسن العدوي الحمزاوي، (١٨٠٦-١٨٨٦م)
المدد الفياض بنور الشفا للقاضي عياض/ لحسن العِدوي الحمزاوي، ومعه:
مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا/ لجلال الدين السيوطي -
الشرقية: كشيدة للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
٧٨٤ ص؛ ٢٨ سم (سلسلة كنوز الأزهريين)
تدمك ٨ ٠٠٧ ٨٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١- السيرة النبوية
أ- الجلال السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ١٤٤٥-١٥٠٥م (مؤلف)
ب- العنوان ٢٣٩

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م
كشيدة للنشر والتوزيع

ضبط لغوي: محمود مازن محمد عطية
تخريج أحاديث: محمد عبد اللطيف محمد الطيب
تنسيق ومراجعة: إيهاب أحمد محمد علي
خطوط الغلاف: أحمد الهواري

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٨/٨٠٠٩
الترقيم الدولي ISBN
978-977-848-007-8

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر
info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده ونبيه المصطفى، صلى الله عليه وعلى آله وكل من اقتفى، أما بعد،

فإن كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض من أنفس ما كتب في التعريف بشمائل المصطفى ﷺ وحقوقه، أبدع القاضي عياض في تقسيمه وتبويبه وتفصيل موضوعاته، وأتى فيه بما لم يُسبق إليه من مسائل محررة، فحاز من القبول والانتشار ما لم يحزه كتاب آخر بعد كتاب الله عز وجل، وتلقته علماء الأمة بالقبول كمرجع للخصائص والشمائل المحمدية.

يقول الشهاب القسطلاني في مبحث الإسراء من كتابه «المواهب اللدنية بالمنح الأحمدية»: كل من صنف في شيء من المنح النبوية والمناقب المحمدية لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض عياض، والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء شفائه المبري لمعضل الأمراض.[1]

وقد تجلت عناية الأمة الإسلامية ورعايتها بكتاب «الشفا» في كثرة المؤلفات التي كتبت حوله، شرحا وتخريجا، ونسخا واختصارا، ومحاذاة ونظما، إلى غير ذلك من أوجه العناية والاحتفاء.[2]

ويعد هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم ضمن سلسلة «كنوز الأزهريين» نموذجا من نماذج عناية علماء الأمة الإسلامية بصفة عامة، وعلماء الأزهر الشريف بصفة خاصة، بكتاب القاضي عياض، إذ يشتمل كتابنا على متن الشفا مضبوطا بصورة كاملة، ومؤلف الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي الأزهري، الذي اعتنى فيه بتخريج أحاديث الشفا، ومؤلف العلامة الشيخ حسن العِدوي الحمزاوي، المالكي الأزهري، الذي قام فيه بشرح متن الشفا والتعليق عليه بصورة موجزة.

***

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ج٣ ص١٨.

(٢) من أجمع وأمتع المصنفات التي كتبت في تتبع المؤلفات المعنية بـ«الشفا» والتعريف بها، كتاب «المدخل إلى كتاب الشفا» الذي كتبه العلامة الحافظ محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني، المتوفى سنة ١٣٨٢هـ، وهو تاريخ مفصل لكتاب الشفا وما كتب حوله ونسخه وعناية الأمة المحمدية به، كتبه كمقدمة لنظم الشيخ القاضي أحمد سكيرج لمتن الشفا. وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الحديث الكتانية سنة ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، بعناية خالد بن محمد المختار البداوي السباعي.

ترجمة القاضي عياض[1]

هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وصنف التصانيف المفيدة، منها «الإكمال في شرح كتاب مسلم» أكمل به «المعلم في شرح مسلم» للمازري، ومنها «مشارق الأنوار» وهو كتاب مفيد جدا في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة وهي الموطأ والبخاري ومسلم، وشرح حديث أم زرع شرحا مستوفى، وله كتاب سماه «التنبيهات» جمع فيه غرائب وفوائد، وكتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وبالجملة فكل تواليفه بديعة.

ذكره أبو القاسم بن بشكوال في كتاب «الصلة» فقال: دخل الأندلس طالبا للعلم، فأخذ بقرطبة عن جماعة، وجمع من الحديث كثيرا، وكان له عناية كبيرة به والاهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضي ببلده -يعني مدينة سبتة- مدة طويلة حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده فيها. انتهى

وكان مولد القاضي عياض بمدينة سبتة في النصف من شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة (٤٧٦هـ)، وتوفي بمراكش سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٥٤٤هـ). وقد جمع المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) سيرته وأخباره في كتاب «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض».

***

من صور احتفاء الأمة وعلمائها بكتاب «الشفا»

اعتنى العلامة الشيخ محمد عبد الحي الكتاني في مدخله بالتعريف بمختلف صور عناية علماء المسلمين بكتاب الشفا، وإضافة إلى تخريج أحاديث الشفا وشرح نصوصه، أورد الشيخ الكتاني العديد من صور العناية الأخرى ؛ منها:

- التعريف برجال «الشفا»، وممن قام بذلك الحافظ السخاوي، وعالم الديار التونسية الشيخ قويسم بن علي التونسي.

- اختصار متن «الشفا»، وممن قام بذلك الشمس محمد بن أحمد بن علي بن عمر الإسنوي، ابن عم جمال الدين الإسنوي، والعلامة شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم البارزي الحموي.

- ترجمته لغير العربية، فممن قام بترجمته إلى التركية شيخ الإسلام بالأستانة، المولى إسحاق ابن شيخ الإسلام الرومي.

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ترجمة رقم ٥١١. وانظر ترجمة الشهاب الخفاجي له التي أوردها الشيخ العِدوي في هذا الكتاب (ص١٨}.

- نظم متنه شعرا، وممن قام بذلك في القرن الثاني عشر العلامة الأديب الشمس محمد بن عبد الرحمن الدلائي، وفي العصر الحديث العلامة أبو العباس أحمد بن العياش سكيرج الفاسي.

- ومن مظاهر الاحتفاء التي تناولها العلامة الكتاني أيضا احتفاء الملوك بكتاب الشفا، ووقفهم على إقرائه، وينقل عن الحافظ السخاوي قوله في الجواهر والدرر: «إن الشفا كانت تقرأ بضريح الشافعي بمصر، وعليها إذ ذاك أوقاف تفرق على المشتغلين بها، من الملوك المتقدمين»[1].

يقول العلامة الكتاني في المدخل: أما ملوك آل عثمان فقد كان كتاب الشفا من أهم ما يهدى لمكتباتهم العامرة، ... ، ويوجد في مكتبة السلطان محمد الفاتح بالأستانة ٢٧ نسخة، جلها مذهب مزخرف حسبما في برنامجها، فإذا كان في مكتبة واحدة هذا العدد، فانظر ماذا في مجموع المكاتب هناك، ولعلها بالمئات، وهذا كله يرجع إلى شيء واحد هو إعظام كل ما يمت إلى هذا النبي الكريم بصلة أو سبب، أو له به أدنى علاقة:

فما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

ويقول: «وهنا نكتة بديعة، وهي أن أشهر المصنفات التي يتداولها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ويعددون منها النسخ، وقلَّ أن تخلو دار مسلم منها، ويتباهون في التحصيل على نسخها المزخرفة المذهبة، بعد القرآن الكريم، ... ثلاثة هي: دلائل الخيرات، والبردة للبوصيري، والشفا لعياض.[2]

***

تخريج أحاديث «الشفا»

لا خلاف بين العلماء في مكانة القاضي عياض بين علماء الحديث، ويشهد لذلك مؤلفاته الحديثية المتعددة، التي من أبرزها شرحه لصحيح مسلم، و«مشارق الأنوار» الذي كتبه في تفسير غريب البخاري ومسلم والموطأ.

وينقل المقري التلمساني عن ابن خاتمة الأنصاري، أحد علماء الأندلس الذين ترجموا للقاضي عياض، قوله: «كان لا يُبلغ شأوُه ولا يُدركُ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار»، وقوله: «وكان رحمه الله معتنيا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها، وكتابه «المشارق» أزكى شاهد على ذلك، ولقد كان بعض من لقيته من صلحاء عصرنا وعلمائه يقول: لا أحتاج في كتب الحديث إلا للمشارق، فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدت منها». [3]

---

(١) المدخل إلى كتاب الشفا، ص١٦٨

(٢) المدخل إلى كتاب الشفا، ص١٧١-١٧٢

(٣) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج٣ ص٢٠-٢١

ويقول الحافظ السخاوي متحدثا عن تلك المكانة: «لا يخفى جلالة عياض في الحديث، بحيث اعتمده فيه جمهور من جاء بعده، وقد أراد الزين العراقي أن يعزو أحاديثه ويتكلم عليها ثم رجع عن ذلك قائلا: هذا كتاب قد تلقي بالقبول، فلا أحب التعرض له».[1]

على الرغم من ذلك، ونظرا لما حازه الشفا من قبول وانتشار، اتجهت عناية العلماء لتخريج ما فيه من أحاديث، فممن هؤلاء الحافظ ابن قطلوبغا الحنفي المصري (ت ٨٧٩هـ)، أشار إليه الشهاب الخفاجي في شرحه على الشفا، حيث قال: «... وقد ساقها كلها وذكر رواية كل واحد منهم على حدة الشيخ قاسم بن قطلوبغا في تخريجه لأحاديث هذا الكتاب كما رأيته بخطه»[2].

ومنهم أيضا الحافظ السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، فله على الشفا كتاب مفرد بناه على أربعة أبواب، الباب الثالث منه في تخريج ما فيه من الأحاديث وبيان أمرها وتعيين ما لم يقف عليه منها.

ثم الحافظ جلال الدين السيوطي الذي يقول في مقدمة كتابه: «هذا كتاب نفيس ألفته، وتأليف شريف وضعته، خرجت فيه أحاديث الشفا للقاضي عياض تخريجا محررا، سالكا فيه طريقا موجزا مختصرا، ولم أستمد فيه من شيءٍ من الكتب المؤلفة عليه، بل اعتمدت فيه على حفظي ونظري، وراجعت الأصول المعتمدة، والجوامع، وسميته: **مناهل الصفا، في تخريج أحاديث الشفا**».

وقد قام أحد حفاظ المغرب، وهو الحافظ أبو العلاء إدريس بن محمد بن حمدون العراقي الحسيني الفاسي (ت ١١٨٣هـ) بكتابة تذييل عليه سماه: «موارد أهل السداد والوفا في تكميل مناهل الصفا».

***

ترجمة الحافظ السيوطي[3]

هو الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، بن كمال الدين أبي بكر، بن ناصر الدين محمد، ابن سابق الدين أبي بكر، بن فخر الدين عثمان، بن ناصر الدين محمد، بن سيف الدين خضر، ابن نجم الدين أبي الصلاح أيوب، بن ناصر الدين محمد، ابن الشيخ همام الدين الخضيري الأسيوطي.

وُلِد بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة (٨٤٩هـ)، وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وأسند وصايته إلى جماعة منهم العلامة كمال الدين ابن الهمام، فأحضر ابنه عقب موته فقرره في وظيفة الشيخونية ولحظه بنظره.

---

(١) المدخل إلى كتاب الشفا، ص٩١

(٢) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، ج٢ ص٢٠٥.

(٣) الطبقات الصغرى للشعراني ص١٦، الكواكب السائرة: ت٤٦١/ ج١/ ص٢٢٧.

وختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثماني سنين، ثم حفظ عمدة الأحكام، ومنهاج النووي، وألفية ابن مالك، ومنهاج البيضاوي، وعرض الثلاثة الأولى على مشايخ الإسلام العلم البلقيني والشرف المناوي والعز الحنبلي وغيرهم وأجازوه، وحضر مجالس الجلال المحلي سنة كاملة؛ يومين في الجمعة، وحضر مجلس زين الدين رضوان العقبي، وأحضره والده قبل موته وهو صغير مجلس رجل كبير من العلماء أخبره بعض أصحاب أبيه أنه مجلس الحافظ ابن حجر.

وشرع في الاشتغال في العلم من ابتداء ربيع الأول سنة أربع وستين وثمانمائة، فقرأ على مشايخ عصره، ولزم درس شيخ الإسلام العلم البلقيني، ودرس شيخ الإسلام الشرف المناوي، ودرس العلامة التقي الشمني، وقد ذكر تلميذه الداوديُّ في ترجمة أسماء شيوخه إجازة وقراءة وسماعا، مرتبين على حروف المعجم، فبلغت عدَّتُهم أحدًا وخمسين نفسًا.

كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مجبولاً على الخصال الحميدة من صفاء الباطن وسلامة السّريرة وحسن الاعتقاد، زاهداً ورعاً، مجتهداً في العلم والعمل، لا يتردّد إلى أحدٍ من الأمراء والملوك، ولا إلى غيرهم مدّة حياته، وكان يظهر كلّ ما أنعم الله عليه به من العلوم والأخلاق، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمه، عملاً بقوله تعالى ﴿وأمَّا بنعمة ربِّك فحدِّث﴾، وكان من لا يعرف حاله يقول: «إنّ عنده دعوى عظيمة». وكان يقول: «ينبغي للمدرّس أن يقرأ سورة تبارك الملك، وسورة الإخلاص، والمعوّذتين، والفاتحة كلّما يريد أن يدرّس»، وينقل ذلك عن الشيخ علم الدّين صالح البلقينيّ، وكان يقول: «أخذت العلم عن ستّمائة نفسٍ، وقد نظمتهم في أرجوزةٍ، وهم أربع طبقاتٍ» إلى آخر ما ذكر. قال: «ولمّا حجَجْتُ شربْتُ ماء زمزم على نيّة أن أكون في الفقه كالشيخ سراج الدّين البلقينيّ، وفي الحفظ للحديث كالحافظ ابن حجرٍ».

وللشّيخ من المؤلّفات أربعُمائةٍ وستّون مؤلّفاً، من عشرة مجلّداتٍ إلى ما دونها، وقد انتشرت مؤلّفاته في الحجاز والشّام وحلب والبصرة والرّوم وبلاد التّكرور والمغرب والهند واليمن.

توفّي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة (٩١١هـ) في منزله بروضة المقياس، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وقبره ظاهرٌ يزار.

***

شروح «الشفا»

كتب الله عز وجل لكتاب الشفا القبول والانتشار في ديار المسلمين شرقا وغربا، وانعكس ذلك بصورة واضحة في كثرة شروحه، وقد أحصى العلامة الحافظ محمد بن عبد الحي الكتاني الحسني تسعة وأربعين شرحا للشفا.[1]

(١) المدخل إلى كتاب الشفا، ص١٢٨-١٥٣.

وفي تعريفه بـ«المدد الفياض» قال: وممن كتب عليها من المتأخرين بمصر، شيخ كثير من شيوخنا، محدث مصر، النور حسن بن علي العِدوي الحمزاوي المالكي الأزهري، المتوفى عام ١٣٠٣هـ، له عليها تعليق سماه «**المدد الفياض بنور الشفا للقاضي عياض**» قصد به ضبط الصحيح وفك ما يعجم من ألفاظه اللغوية، مع بذل الجهد في تصحيح متنه مع الشكل.[١]

***

ترجمة الشيخ حسن العدوي الحمزاوي[٢]

هو الراوي العلامة، خادم السنة وضياء الدجنة، الجهبذ الكامل والعالم العامل حسن العِدْوي الحمزاوي. ولد -رحمه الله تعالى- سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف (١٢٢١هـ)، وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بالجامع الأزهر فتعلم العلم به، فتلقى الفقه والتفسير والحديث عن العلامة الشيخ محمد الأمير الصغير، وبعض الأدب والمنطق عن البرهان القويسني شيخ الجامع الأزهر، والسعد والمطول وجمع الجوامع عن الشيخ مصطفى البولاقي.

وجلس للتدريس في سنة اثنتين وأربعين (١٢٤٢هـ) فقرأ جميع الفنون المتداولة بالأزهر، وانتفع به الطلبة، واشتهر بحفظ السنة وسير الصالحين، وأخذ عنه كثير من مدرسي الأزهر.

له تآليف رزق فيها القبول منها: مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار، وإرشاد المريد في التوحيد، والنفحات النبوية في الفضائل العاشورية، والنفحات الشاذلية شرح البردة البوصيرية، والنور الساري على البخاري، والمدد الفياض بنور الشفا للقاضي عياض، وحاشية على شرح الزرقاني على العزية في الفقه، وبلوغ المسرات على دلائل الخيرات، وتبصرة القضاة في المذاهب الأربعة، وكنز المطالب في فضل البيت والحجر وما في زيارة القبر الشريف من المآرب.

وله حب شديد للطلبة، فتراه دائما يسعى في مصالحهم والشفاعة لهم وتنفيس الكربات عنهم، وأمراء مصر يكرمونه ويقبلون شفاعته. وقد بنى مسجدين عظيمين، أحدهما ببلده والآخر بالقاهرة، واشتهر بكرمه الزائد وأخلاقه الزكية.

وتوفي رحمه الله في القاهرة ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف (١٣٠٣هـ).

***

منهج الشيخ العِدوي في «المدد الفياض»

تحدث الشيخ العدوي في مقدمة كتابه عن منهجه في «المدد الفياض»، فأوضح أن هدفه هو نشر

(١) المدخل إلى كتاب الشفا، ص١١٤

(٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج١/ ص٥٨٢، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، ج١/ ص١٢٦.

وطبع كتاب «الشفا» ليعم النفع به، مستشهدا في ذلك بتجربته في طباعة ونشر بعض كتب الإمام الشعراني، حيث قام بذلك «حبا في نشرها للأمة المحمدية» فوفقه الله لطباعة العديد من تلك الكتب «وصار بها النفع بعد اندراسها».

وتماشيا مع هذا الهدف، كان جُلُّ اهتمام الشيخ العِدوي منصبا على تقديم متن «الشفا» بصورة صحيحة مضبوطة، مع ما يتطلبه ذلك من شرح يسير وتعليقات بسيطة، واستعان لذلك بالعديد من شروح الشفا، أشار إليها في تعليقاته وشرحه، وكان من أبرزها:

١- مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا، لتقي الدين الشمني (ت ٨٧٢هـ).

٢- الاصطفا لبيان معاني الشفا، لشمس الدين الدلجي (ت ٩٤٧هـ).

٣- شرح النور علي بن سلطان الهروي القاري (ت ١٠١٤هـ).

٤- نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، للشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ).

يعد لذلك كتاب «المدد الفياض» حاويا لنسخة من أدق نسخ متن الشفا، استخلصها الشيخ العِدوي بعد دراسة ومقارنة للعديد من نسخ وشروح الشفا التي توفرت له، مضيفا إليها تعليقات يسيرة لضبط ألفاظ المتن وشرح غريبها.

***

عملنا في هذا الكتاب

يشتمل هذا الإصدار على ثلاثة كتب مدرجة مع بعضها البعض (الشفا، ومناهل الصفا، والمدد الفياض)، واعتمدنا في إخراجه -بصورة أساسية- على الطبعة الحجرية التي أصدرها الشيخ العِدوي من كتابي «المدد الفياض» و«مناهل الصفا»، مع الاستعانة بشرحي الشهاب والقاري لاعتماد الشيخ العِدوي عليهما بصورة كبيرة.

ويتوزع عملنا في هذا الإصدار على جانبين:

الجانب الأول: إدراج الكتب الثلاثة مع بعضها البعض، وتنسيق نصوصها بصورة مريحة للعين، تتيح للقارئ التمييز بينها والاستفادة منها بأقصى صورة ممكنة، حيث قمنا بتنسيق نصوص «الشفا» بخط كبير داخل صندوق مظلل، مع إدراج نصوص/ تخريجات «مناهل الصفا» في نفس الصندوق أسفل نصوص الشفا. أما نصوص «المدد الفياض» والتعليقات عليها فجاءت خارج ذلك الصندوق المظلل.

الجانب الثاني: خدمة النصوص والتعليق عليها لغويا وحديثيا بما ييسر قراءتها ويعظم أوجه الاستفادة بها، وذلك كالتالي:

١. ضبط نصوص «الشفا» و«المدد الفياض» ضبطا كاملا، ومقابلتها مع بعضها البعض ومع نسختي الشهاب والقاري.

٢. تخريج الآيات الواردة في النصين (الشفا والمدد الفياض)، مع الترجمة لبعض الأعلام، والتعليق لغويا على بعض المسائل القليلة.

٣. توثيق عزو «مناهل الصفا» للأحاديث، وذلك بذكر رقم الحديث فيما هو مرقّم من دواوين السُّنة، وذكر الجزء والصفحة فيما عدا ذلك، مع وضع العزو بين قوسي إدراج [].

٤. استكمال «مناهل الصفا» بتخريج الأحاديث التي لم يُخرِّجها السيوطيُّ، أو بيَّض لها ولم يعزها، وهي ليست بالقليلة، وذلك حسب الاستطاعة وحسبما توفر من مصادر حديثية، حيث كان الحافظ السيوطي يعزو أحيانا لبعض الكتب والأجزاء الحديثية المفقودة أو التي لم تطبع كاملة. وأوردنا مثل هذه التخريجات أيضا بين قوسي إدراج [] وبخط أصغر حتى لا تلتبس بتخريجات السيوطي.

٥. تخريج أحاديث «المدد الفياض» تخريجًا متوسِّطًا، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفينا بالعزو إليهما، أو إلى أحدهما، وإن لم يكن في الصحيحين عزونا إلى دواوين السُّنة من غير استقصاء.

٦. إضافة عناوين للفصول التي لم يعنون لها القاضي عياض في «الشفا»، مستخرجين لتلك العناوين من نص المتن، مع إدراجها بين قوسي إدراج [] تمييزا لها، وإثبات تلك العناوين في فهرس المحتوى.

***

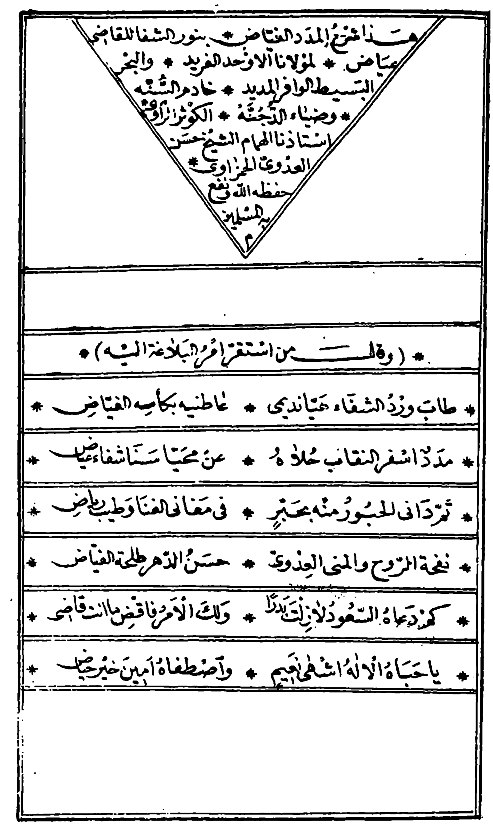
وختامًا نقول: إنه لمن دواعي سرورنا أن يصدر هذا الكتاب الجامع ضمن سلسلة «كنوز الأزهريين»، كإضافة مضيئة لمجموعة إصداراتنا المتمحورة حول سيرة وشمائل الحبيب المصطفى ﷺ، داعين الله عز وجل أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يسلكنا في سلك من تنالهم دعوة القاضي عياض التي دعا بها في خاتمة الشفا حيث قال:

«... ويجعله لنا ولمن تهمّم باكتتابه واكتسابه، سببًا يصلنا بأسبابه، وذخيرةً نجدها يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضرًا نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه».

كما نسأله -سبحانه- أن يعيننا على إصدار المزيد من كنوز وتراث علماء الأزهر الشريف، وأن ينفع بها وبدارسيها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

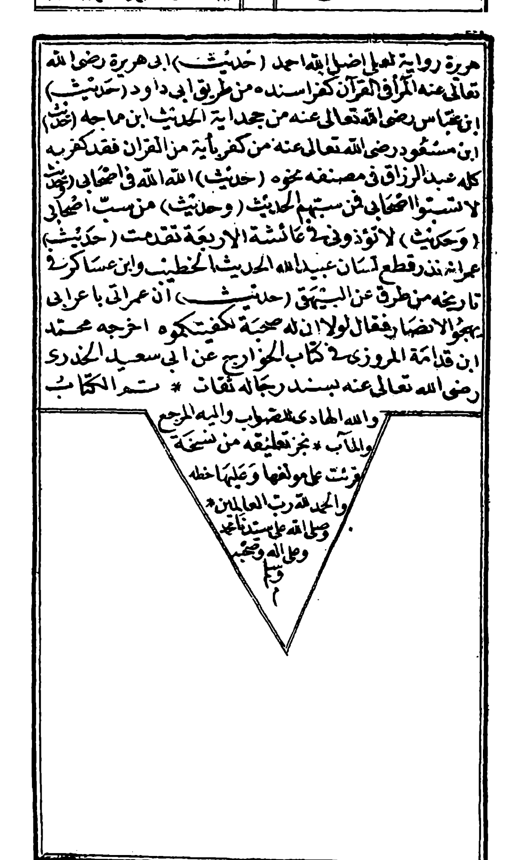
الناشر

إيهاب أحمد محمد علي









الصفحتان الأولى والأخيرة من أصلي الكتابين المعتمد عليهما في إخراج هذا الإصدار.

مقدمة الشيخ حسن العِدوي لكتابه المدد الفياض

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

الحَمدُ للهِ الَّذي أَبْرَزَ مِن نورِ جَمالِه نورًا اقْتُبِسَتْ مِنْه حَقائقُ الكائناتِ، وشَفى به صُدورَ قَوْمٍ بِفَتْحِ عَينِ بَصائِرِهم فصاروا هُداةً رَحمةً لِلمَخلوقاتِ، والصَّلاةُ والسلامُ على مِفْتاحِ رَحْمةِ المَوْجوداتِ، وإنسانِ عَيْنِ الكَمالِ والسَّعاداتِ، وعلى آلِه وأصحابِه الَّذينَ أَنْقَذَهم اللهُ به مِنْ شَفا جُرُفٍ فبَذَلوا مُهَجَهم في مَرْضاتِه وتَبْليغِ سُنَّتِه فنالوا أَعْلى الدَّرَجاتِ، ولا سيَّما أنصارُه الَّذينَ آثَروا على أنفُسِهم مَعَ الخَصاصةِ مَن هاجَرَ إِلَيْهِم لِقوّةِ يَقينِهم ففازوا بأَقْصى الغاياتِ، وبَعْدُ..

فيَقولُ أَسيرُ الشَّهَواتِ، وكَثيرُ الهَفَواتِ، حَسَنٌ العِدْويُّ الحَمْزاويُّ، سامَحَه اللهُ مِنَ التقصيرِ والمَساوي:

إنَّه لَمَّا تَوَلَّعَ قَلْبي بِحُبِّ بَعْضِ كُتُبِ قُطْبِ الواصِلينَ، وإمامِ العارِفينَ، سَيِّدي ووَليِّ نِعْمَتي الشَّيْخِ عَبْدِ الوَهّابِ الشَّعْرانيِّ[1]، حُبًّا في نَشْرِها لِلأُمّةِ المُحَمَّديّةِ، وللهِ الحَمْدُ ساعَدَتِ المَقاديرُ بِطَبْعِ أَلْفِ نُسْخةٍ مِنَ «الميزانِ الكُبْرى»، وطَبْعِ «الطَّبَقاتِ»، وكِتابِ «الجَواهِرِ والدُّرَرِ»، و«المِنَحِ السَّنيّةِ»، و«البَدْرِ المُنيرِ في غَريبِ أَحاديثِ البَشيرِ النَّذيرِ»، وصارَ بِها النَّفْعُ بَعْدَ انْدِراسِها.

فخَلَجَ في صَدْري أَنْ أَطْبَعَ كِتابَ «الشِّفا»، وأَخْدُمَه على هامِشِه بشَرْحٍ يَسيرٍ يَكونُ لِقَلْبي شِفًا:

- مُقْتَصِرًا على حَلِّ رُموزِ مُشْكِلِه، وفَكِّ ما صَعُبَ مِنْ مُعْجَمِه،

- ضابِطًا لِبَيانِ ما أَجْمَعَ عَلَيْه الشُّرّاحُ مِنَ النُّسَخِ الصَّحيحةِ، حَيْثُ إنَّ أَغْلَبَ نُسَخِه مَعَ كَثْرَتِها فيها بَعْضُ تَحريفٍ وغَيْرُ مَضْبوطةٍ.

فكُنْتُ أُقَدِّمُ رِجْلًا وأُؤَخِّرُ أُخْرى، وأَقولُ: أَنَّى لِمِثْلي وأَهْلَ هذا المَيْدانِ، ولَمْ أَتَفَوَّهْ بذلكَ قَطُّ لِاسْتِغْرابِه على مِثْلي.

---

(١) هو الإمام الفقيه الصوفي العارف ولي العلماء وعالم الأولياء أبو المواهب عبدالوهاب بن أحمد الشعراني، ولد سنة ٨٩٨هـ، بقلقشنده بمصر، ونشأ بساقية أبو شعره من قرى المنوفية وإليها نُسب، أخذ عن الشمس الدواخلي، والجلال المحلي، ونور الدين الجارحي، وغيرهم، ويروي عامة عن القاضي زكريا والحافظ السيوطي والكمال الطويل القادري والقلقشندي، وصَحِبَ الخَوّاص والمرصفي والشناوي، وتآليفه كثيرة في علوم الشريعة وآلاتها، منها: البدر المنير في غريب حديث البشير النذير، وكشف الغمة جمع فيه أدلة المذاهب الأربعة، ومختصر الفتوحات المكية، واليواقيت والجواهر، وغيرها. انظر ترجمته: في «الكواكب الدرية للمناوي» (٣/ ٣٩٢)، و«الكواكب السائرة» للغزي (٣/ ١٥٨)، و«فهرس الفهارس» للكتاني (٢/ ١٠٧٩).

فتَوَجَّهتُ قُبَيْلَ المَغْرِبِ على عادَتي لِلصَّلاةِ ولزيارةِ مَنْ أنا بِجوارِه ورِحابِه وتَحْتَ ظِلِّه، وَلِيِّ نِعْمَتي الإمامِ الحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأَمَدَّني بِمَدَدِه، وبَعْدَ أنْ صَلَّيْتُ المَغْرِبَ في المَقامِ الشريفِ، جَلَسْتُ مع الأستاذِ الأَوْحَدِ علّامةِ الزَّمانِ، وبَدْرِ بُدورِ العُلَماءِ الأَعْيانِ، السَّيِّدِ مُصطَفى الذَّهَبيِّ[1]، فبادَرَني: يا فُلانُ، أُحِبُّ مِنْكَ أنْ تَطْبَعَ كِتابَ «الشِّفا»، وتَخْدُمَه على هامِشِه بِشَرْحٍ يَسيرٍ، تُبَيِّنُ بِه ضَبْطَه الصَّحيحَ، وفَكَّ ما يُعْجَمُ مِن ألفاظِه اللُّغَوِيَّةِ، مَعَ بَذْلِ الجُهْدِ في تصحيحِ مَتْنِه، خِدْمَةً لِلسُّنَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ، لا سيَّما مَعَ الشَّكْلِ؛ فإنَّ أَغْلَبَ الناسِ لا يَعْرِفونَ النَّحْوَ؛ فيَلْحَنونَ في الحديثِ!

فسُرِرْتُ بذلكَ، وقُلْتُ: سَمْعًا وطاعةً، ولَوْ مَعَ شَغْلِ البالِ، فلَعَلَّ وعَسى بإشارةِ هذا الإمامِ في هذا المَقامِ يَكونُ ذلكَ إذنًا إلَهِيًّا بتَشَرُّفي بخِدمةِ سَيِّدِ الأنامِ، وتُساعِدُني المَقاديرُ على ذلكَ ولَوْ مِنْ غَيْرِ استعدادٍ مِنّي.

فانشَرَحَ لِذلكَ صَدْري، فجَمَعْتُ ما تَيَسَّرَ مِن مَوادِّه مِن شُرّاحٍ وحَواشي، لِيَكونَ ذلكَ أَبْلَغَ في تَصحيحِ نُسَخِه، وأُنَبِّهَ على ما اختَلَفَتْ فيه بَعْضُ الشُّرّاحِ مِنَ النُّسَخِ، وأَعْزِيَه لِصاحِبِه، وبَذَلْتُ الوُسْعَ على تَفتيشِ أَصَحِّ المُتونِ مِنْه في مِصْرَ، فحَصَلَ الإسعافُ الرَّحْمانيُّ بوُجودِ نُسْخةٍ مُصَحَّحةٍ على الأَصْلِ، وكانَ يَرْجِعُ إلَيْها عُلَماءُ العَصْرِ، وعَلامةُ الإذْنِ التَّيْسيرُ، فشَرَعْتُ فيه، وسَمَّيْتُه بـ

«المَدَد الفَيّاض بِنورِ الشِّفا لِلقاضي عياضٍ»

أَسأَلُ اللهَ الرحمنَ الرحيمَ، بوَجاهةِ وَجْهِ نَبِيِّه الكَريمِ، أنْ يَجْعَلَه خالِصًا لِوَجْهِه العَظيمِ، وأنْ يُطَهِّرَ قَلْبي مِنَ العَوائقِ والأَغْيارِ بِجاهِ سَيِّدِ الأَخْيارِ، عَلَيْه الصلاةُ والسلامُ.

***

قالَ إمامُ التحقيقِ، وقُدوةُ أرْبابِ المَعالي والتدقيقِ، الشِّهابُ الخَفاجيُّ[2] في شَرْحِه لِهَذا الكِتابِ:

اعلَمْ أنَّ كِتابَ **«الشِّفا بِتَعْريفِ حُقوقِ المُصْطَفى»** قَدْرُه جَليلٌ، وهوَ على جَلالةِ مُصَنِّفِه أَدَلُّ دَليلٍ،

---

(١) فقيه، مُفسِّر، مُشارك في بعض العلوم، ولُد بمصر، وأخذ عن الدمنهوري والفضالي والقويسني وغيرهم، وتصدَّر للاقراء والتدريس. مِن آثاره: رسالة في تحريم الدرهم والمثقال والرطل، الرسالة الذهبية في المسائل الدقيقة المنهجية، رسالة في المناسخة، ورسالة في تفسير غريب القرآن، توفي ١٢٨٠هـ. انظر: «الأعلام» (٧/ ٢٣٢) للزركلي، «معجم المؤلفين» (١٢/ ٢٤٩) لكحالة.

(٢) أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري: قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة. نسبته إلى قبيلة خفاجة. ولد ونشأ بمصر، ورحل إلى بلاد الروم وولي القضاء، له مؤلفات من أشهرها كتاب شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل، ونسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض وهو من أجل شروح «الشفا»، والمصنِّف هنا يُكثر النقل عنه، توفي في رمضان عام ١٠٦٩هـ، وقد أناف على التسعين. انظر: «الأعلام» للزركلي (١/ ٢٣٨)، «فهرس الفهارس» للكتاني (١/ ٣٧٧).

فإنَّـه -كَـما في «مَطْمَـحِ الأنفُسِ»[1]- مِـنْ أَجَلِّ أَعْيـانِ الأندُلُـسِ، جـاءَ بِهـا عـلى قَـدَرٍ، وسَـبَقَ لِنيـلِ المَعاني وابتَـدَرَ، فاسـتَيْقَظَ لَهـا والنـاسُ نيـامٌ، ووَرَدَ ماءَهـا وهُـم صيـامٌ، فتَحَلَّـتْ بـه لِلعُلـوم نُحـورٌ، وتَجَلَّـتْ لَهـا مِنهـا عَرائِسُ الحـورِ، كأنَّهُـنَّ الياقـوتُ والمَرْجـانُ، لَمْ يَطْمِثْهُـنَّ إنسٌ قَبْلَهـم ولا جـانٌّ، أَلْقَـتْ إلَيْـه الرياسـةُ مقاليدَهـا، ومَلَّكَتْـه طَريفَهـا وتَليدَهـا، وهـوَ عـلى اختِصاصِـه بهـذه المَرْتَبـةِ الرَّفيعـةِ، واعتِنائِـه بأَعْلى مَعـالِمِ الشَّريعـةِ، يَعْتَني بإقامـةِ أَوَدِ الأَدَبِ، ويَنْسِـلُ إلَيْـه أربابُـه مِـنْ كُلِّ حَـدَبٍ، وقَـدْ وَفى بِبَيـانِ بَعْـضِ مـا يَجِـبُ مِـنْ آياتِـه، ونَـشَرَ عـلى كاهِـلِ الدَّهْـرِ أَلْويـةَ الثَّنـاءِ بَـيْنَ يَـدَيْ صِفاتِـه، مِمّـا يَحِـقُّ لـه أنْ يَكْتُـبَ بالنّـورِ في صحائـفِ وجَنّـاتِ الحـورِ، ويَنْقُـشَ بقَلَـمِ العَقْـلِ معانيَـه، ويَخُـطَّ عـلى أَلـواحِ الأذهـانِ لِأَطْفـالِ الأرْواحِ مَبانيَـه:

صُحُفٌ أَتْرَعَتْ بِشَهْدٍ حَلا في * كُلِّ ذَوْقٍ لِذاكَ كانَ شِفـــا

ولَعَمْري لَقَدْ نَثَرَ الدُّرَّ فيه مِنْ فِيهِ، وبَلَغَتْ أَمانيه ما كانَتْ تَنْويهِ مِن التَّنْويهِ:

ولَوْ أنَّ مَيْتَ الرَّمْسِ نوديَ باسْمِه * لَأَصْبَحَ حَيًّا بَعْدَمـا ضَمَّه القَبْرُ

قالَ المُحَقِّقُ المَذكورُ:

وقَـرَأْتُ في ديـوانِ ابـنِ المُقْـري اليَمَنـيِّ الشـافِعيِّ[2] -رَحِمَـه اللهُ-: إنَّ كِتـابَ الشِّـفاءِ مِمّـا شـاهَدوا بَرَكَتَـه، حَتّـى لا يَقَـعُ ضُرٌّ بِمَـكانٍ كانَ فيـه، ولا تَغْـرَقُ سَـفينةٌ كانَ فيهـا، وإنَّـه إذا قَـرَأَه مَريـضٌ أَوْ قُـرِئَ عَلَيْـه شَـفاه اللهُ، وكانَ ابْتُـليَ بمَـرَضٍ فقَـرَأَه فشَـفاه اللهُ. قـالَ: وقـالَ في ذلـكَ الكِتـابِ:

لَيْـسَ الكِتـابُ هَـوايَ لَكِـنَّ الهَـوى * أَمْسـى بِمَـنْ أَمْسـى بـه مَكْتوبـا
كالـدارِ يَهْـوى العاشِـقونَ بِذِكْرِهـا * شَـغَفًا بِهـا لِشُـمولِها المَحْبوبـا
أَرْجـو الشِّـفاءَ تَفـاؤُلًا باسْـمِ الشِّـفا * فحَـوى الشِّـفاءَ وأَدْرَكَ المَطْلوبـا
وبِقَـدْرِ حُسْـنِ الظَّـنِّ يَنْتَفِـعُ الفَتـى * لا سـيَّما ظَـنٌّ يَصيـحُ مُجيبــا

قالَ المُحَقِّقُ: «وأنا مِمَّن جَرَّبَ بَرَكَتَه وشاهَدَها، ولله الحَمْدُ، وإنّي لَأَرْجو فَوْقَ ذلكَ مَظْهَرا».

***

(١) كتـاب «مطمـح الأنفـس ومسـرح التأنـس في مُلَـح أهـل الأندلـس»، لأبي نـصر الفتـح بـن محمـد بـن عبيـد الله بـن خاقـان ابـن عبـد الله القيـسي الإشـبيلي، المتـوفى سـنة ٥٢٩هـ.

(٢) إسـماعيل بـن أبي بكـر بـن عبـد الله المقـري اليـماني الحسـيني الشـافعي، ويعـرف بابـن المقـرئ. ولـد سـنة ٧٥٥هـ في الشرجـة مـن سـواحل اليمـن، ونشـأ بهـا ثـم انتقـل إلى زبيـد، وتفقـه بالجـمال الريمـي شـارح التنبيـه فقـرأ عليـه المهـذب وسـمع غـيره في آخريـن تفقـه بهـم، وأخـذ العربيـة عـن علـماء وقتـه، ومهـر فيهـما وفي غيرهمـا مـن العلـوم، وتعانـى النظـم فـبرع فيـه. أبـرز مؤلفاتـه كتـاب «الـشرف الـوافي» وهـو مشـتمل مـع الفقـه عـلى نحـو وتاريـخ وعـروض وقـواف، وكـذا اختـصر الروضـة والحـاوي الصغـير، وشرحـه في مجلديـن. تـوفي سـنة ٨٣٧هـ بزبيـد. [الضـوء اللامـع، ج٢/ ٢٩٢]

والفقيرُ يقولُ:

قَدْ وَقَعَ لي سَنةَ ثَمانٍ وستّينَ بَعْدَ المائتَيْنِ والأَلْفِ كَرْبٌ شَديدٌ، كادَ يَذْهَشُ العَقْلُ مِنّي، فلا أكادُ أَنْطِقُ بالضّروريِّ؛ فَضْلًا عَنْ فَهْمِ العُلومِ، فصادَفَني عِندَ زيارةِ القُطْبِ الدَّرْديرِ[1] الأستاذُ الأوحدُ وَليُّ اللهِ المَجْذوبُ سَيِّدي العَلّامةُ الشيخُ محمدٌ السِّباعيُّ[2]، فبادَرَني بقولِه: يا فُلانُ، اقرأْ كِتابَ «الشفا» لِإخوانِكَ بالأزهرِ بقَصْدِ فَكِّ الكَرْبِ عَنِ المؤمنينَ.

فوَقَعَ في صدري أنَّ بذلكَ يَكونُ حُصولُ الفَرَجِ لي، فامتَثَلْتُ أَمْرَ الشيخِ، وبادَرْتُ بالقِراءةِ فيها لِلإخْوانِ دَرْسًا بَيْنَ المَغْرِبِ والعِشاءِ، وأنا في شِدّةِ الكَرْبِ، فبَعْدَ قِراءةِ دُروسٍ قَليلةٍ حَصَلَ لي اللُّطْفُ الكَبيرُ بِبَرَكتِه، وأَتَمَّه اللهُ على أَحْسَنِ حالٍ مَعَ الإخوانِ. والآنَ أَرْجو مِن اللهِ بتلكَ الخِدمةِ هذه المَرّةَ تَمامَ المَقْصودِ، مِنْ سَعةِ الفَضْلِ والجودِ.

***

قالَ المُحقِّقُ الشِّهابُ:

ومُؤَلِّفُه القاضي عياضُ بنُ عُمَرَ بنِ موسى بنِ عياضٍ اليَحْصَبيُّ السَّبْتيُّ الغِرْناطيُّ المالِكيُّ، قاضي سَبْتةِ المَغْربِ مُدّةً طَويلةً، ثُمَّ نُقِلَ إلى قَضاءِ غِرْناطةَ في سَنةِ إحدى وثَلاثينَ وخَمْسِمائةٍ، ولَمْ يَطُلْ أَمْرُه بها، ثُمَّ وُلِّيَ قَضاءَ سَبْتةَ ثانيًا، وكانَ مَوْلِدُه بِسَبْتةَ في شَهْرِ شَعْبانَ سَنةَ سِتٍّ وسَبْعينَ وأربعِمائةٍ (٤٧٦هـ)، فهوَ سَبْتيُّ الدارِ والميلادِ، أندُلُسيُّ الأصلِ، فإنَّ أُصولَه نَشَؤوا قَديمًا بالأندُلُسِ، ثُمَّ انتقَلوا إلى مَدينةِ فاسَ، وكانَ لَهُم استقرارٌ بالقَيْرَوانِ، ولَه التصانيفُ الجَليلةُ كشَرْحِ مُسْلِمٍ وغَيْرِه، كالمَشارِقِ في تَفسيرِ حَديثِ المُوَطَّأِ والبُخاريِّ ومُسْلِمٍ، وضَبْطِ الألْفاظِ، والتَّنْبيهِ على بَعْضِ مَواضِعِ الأوْهامِ والتصحيفاتِ، وضَبْطِ أسماءِ الرِّجالِ.

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات المالكي الأزهري الخلوتي الشهير بالدردير. ولد ببني عدي سنة ١١٢٧هـ، تعلم بالأزهر على عددٍ من شيوخه، ولزم شمس الدين الحفني وبه تخرَّج في طريق القوم، وتفقَّه على الشيخ علي الصعيدي ولازمه، انتهت إليه مشيخة المالكية مع كمال الورع والزهد، له مؤلَّفاتٌ منها: شرح مختصر خليل، وأقرب المسالك لمذهب مالك، ورسالة في متشابهات القرآن، ونظم الخريدة البهية في التوحيد وشرحها. تُوفِّي بالقاهرة سنة ١٢٠١هـ وصُلِّي عليه بالأزهر. تاريخ الجبرتي (٢/ ٣٣)، الأعلام (١/ ٢٤٤).

(٢) أبو السعود محمد بن صالح بن محمد بن صالح المصريُّ الصعيديُّ العدويُّ، السباعيُّ بلدًا، المالكيُّ مذهبًا، الأشعريُّ عقيدةً، الخلوتيُّ الحفناوي طريقةً الأزهريُّ. وآل السباعي بيت علم وفضل، أخذ عن والده وشيخ والده الدردير، والأمير الكبير ومصطفى العقباوي وغيرهم، وله مؤلَّفاتٌ كثيرةٌ منها: حاشيته على الجلالين، وحاشيته على شرح شيخه الدردير على مختصر خليل، وحاشيته على شرح شيخه الدردير على الخريدة، وشرح بانت سعاد وغيرها كثير. وما في ترجمته من «الأعلام» للزركلي من أنه شافعيٌّ وَهْمٌ سرى إليه مِن «إيضاح المكنون»، وإلَّا فهو مالكيٌّ كما صرَّح بذلك بنفسه في «الحاشية على الخريدة» وكما ذكره في عقيدته التي شرحها البرهان الباجوري. تُوفِّي سنة ١٢٦٨هـ.

قالَ: فهوَ كِتابٌ لَوْ كُتِبَ بالذَّهَبِ، أوْ وُزِنَ بالجَوْهَرِ لَكانَ قَليلًا في حَقِّه، وفيه أَنْشَدَ بَعْضُهم:

مَشَـــــارِقُ أنْوارٍ تَبَدَّتْ بِسَبْتَةٍ * ومِنْ عَجَبٍ كَوْنُ المَشارِقِ بالغَرْبِ

وكانَ لـه تَبَحُّرٌ في العُلـومِ النَّقْليّـةِ والعَقْليّـةِ، وأمّـا أَدَبُـه وبَلاغـةُ شِعْرِه فحَـدِّثْ عَـنِ البَحْـرِ ولا حَـرَجَ، ووَفاتُـه يَـوْمَ الجُمُعَـةِ بمَراكِـشَ في جُمـادى الآخِـرةِ سَـنةَ أَرْبَـعٍ وأربَعـينَ وخَمْسِـمائةٍ (٥٤٤هـ).

***

قلْتُ: وأَنْشَدَ فيه عَلِيُّ بنُ هارونَ بقوله:

ظَلَمـوا عياضًـا وهْـوَ يَحْلُـمُ عَنْهُـمُ * والظُّلْـمُ بَـيْنَ العـــالَمِينَ قَديـمُ

جَعَلـوا مَـكانَ الـراءِ عَيْنًا في اسـمِهِ * كَـيْ يَكْتُمـوه وشَـأْنُه مَعلـــومُ

لَـوْلاه مـــا فاحَـتْ أباطِـحُ سَـبْتَةٍ * والـرَّوْضُ حَـوْلَ فِنائِهـا مَعْـدومُ

***

قـالَ: وفي «طَبَقـاتِ ابـنِ فَرْحـونٍ[1]» -مِـن عُلَـماءِ المالكيـةِ- أنّـه كانَ إمامًـا في الفِقْـهِ والتفسـيرِ والحديـثِ وسـائرِ العُلـومِ وخَطيبًـا، وذَكَـرَ مِـن تأليفِـه نَحْـوَ ثلاثـينَ تأليفًـا، ومِـنْ كَلامِـه:

اللهُ يَعْلَـمُ أنّي مُنْـذُ لَمْ أَرَكُـــمْ * كَطائِــرٍ خانَــهُ ريـشُ الجَناحَـيْنِ

وَلَـوْ قَـدَرْتُ رَكِبْـتُ الرِّيـحَ نَحْوَكُـمُ * وإنْ يَكُـنْ بُعْدُكُـم عَنّـي جَنـا حَيْني

قـالَ: (واليَحْصَبيُّ) -بفتـحِ المُثَنّـاةِ التحتيـةِ وسـكونِ الحـاءِ المهمَلـةِ وتثليـثِ الصـادِ المهمَلـةِ- نِسـبةٌ إلى يَحْصَـبَ بـنِ مالـكٍ أبـو قَبيلـةِ اليَمَـنِ، (والغَرْناطـيُّ): نسـبةٌ إلى «غَرْناطَـةَ» -بفتـحِ الغَـينِ المعجَمـةِ وسـكونِ الـراءِ المهمَلـةِ ونـونٍ وألِـفٍ بَعْدَهـا طـاءٌ مهمَلـةٌ وهـاءٌ، ويُقـالُ «أَغْرناطـةُ» بألِـفٍ قَبْـلَ الغَـيْنِ أيضًـا، و«سَـبْتَةُ» مدينـةٌ مشـهورةٌ. اهـ.

***

(١) هـو إبراهيـم بـن علـي بـن محمـد بـن أبي القاسـم بـن محمـد بـن فرحـون، وُلِـدَ بالمدينـة ونشـأ بهـا وتفقَّـه وبـرع وصنَّـف وَجمـع وَولي قَضَـاء المدينـة، مِـن مُصنَّفاتـه طبقـات المالكيـة واسـمه «الديبـاج المذهـب في معرفـة أعيـان علـماء المذهـب»، وشرح مختـصر ابـن الحاجـب سـمّاه «تسـهيل المهـمّات في شرح جامـع الأمّهـات»، وغيرهمـا، مَـات في عـشر الأضحـى مـن ذي الحجّـة سـنة ٧٩٩هـ عـن نحـو مـن السـبعين. انظـر ترجمتـه: «الـدرر الكامنـة» لابـن حجـرٍ (١/ ٥٣)، و«شـذرات الذهـب» لابـن العـماد (٨/ ٦٠٨)، و«نيـل الابتهـاج» لاحمـد بابـا التنبكتـي (١/ ٣٢).

[مقدمة الشيخ حسن العِدوي لمناهل الصفا]

يَقولُ أَسِيرُ الشَّهَواتِ، وكثيرُ الهَفَواتِ، حَسَنٌ العِدْويُّ: إنَّه لَمَّا كانَ كِتابُ «الشِّفاءِ» أَشْرَقَتْ في سَماءِ المِلَّةِ المُحمَّديةِ أَنوارُه، وتَحلَّتْ بسُندُسِ الحقيقةِ آياتُه فخَيَّمَتْ على قلوبِ المؤمنِينَ أسرارُه، وسَرَتْ أَرواحُ قُدسِه تُبارِزُ أرواحَ نَعْمانْ؛ وكَيْفَ لا وناظِمُ جُمَانِه عَلَّمَه الرَّحمنُ البَيَانْ، فهُوَ قُدْوةُ الراسِخِينَ، وسِراجُ الصِّدِّيقِينَ.. خَرَّجَ أحاديثَه كَوكبُ الحُفّاظِ وبَدْرُ العُلَمَا، مَنْ بِهِ تَجدَّدَ الدِّينُ القَويمُ وسَمَا، الإمامُ السُّيوطيّ، وأَغْدَقَ في دَفعِ الاشتباهِ في أَسَانِيدِه مَزِيَّةَ البراهينْ، وأَذَّنَ يَرَاعُه على مَنارةِ الصُّحُفِ: إنَّ كِتابَ القاضي عِياضٍ هُدًى لِلمُتَّقِينْ، فهَذا الكِتابُ -ولا شَكَّ- مَناهلُ الصَّفَا، بَلْ هُوَ الجَدِيرُ بأنَّه الصَّفَا وحَقِّ المُصْطَفَى.

ولَمَّا مَنَّ اللهُ علَيْنا بإلباسِه دِيباجَ الطَّبْعِ، وأَشْرَقَتْ في سَماءِ تَجلِّيَاتِه شُمُوسُ النَّفْعِ، ضَمَمْتُه مَعَ كِتابِ المَدَدِ الفَيّاضِ (شَرْحِ الشِّفَا)؛ لِيُسْفِرَ بِهِما النِّقابُ عَنْ سَنَا مُحَيَّاه ويَبْدُو الوَفَا.

والتَّشَبُّهُ بالكامِلِينَ فَلَاحْ، والمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وأَنْعِمْ بذلكَ مِنْ نَجَاحْ، فالحَمدُ للهِ وكَفَى، وسَلَامٌ على عِبادِه الَّذِينَ اصْطَفَى.. هذا وأَعتذِرُ مِمَّا وَقَعَ مِن بعضِ الإخوانِ المُنتسِبِينَ إليَّ في كِتابةِ طُرَّةِ شَرْحِنا المذكورِ مِمَّا لَسْتُ على ذَرَّةٍ مِنْه، ولَمْ أَطَّلِعْ عليْه إلَّا بعْدَ الطَّبعِ، واللهُ أعلَمُ.

ومِن أَلْطَفِ ما لِبَعضِ الفُضَلاءِ:

إِلَى المَنَاهِلِ رُوحِي قَدْ سَرَتْ وَصَبَتْ * إِلَى زُلَالٍ ذَرَاهَا مُهْجَةٌ وَصبَتْ
وَقَدْ كَفَانِي الصَّفَا رِيًّا وَمَكْرُمَةً * وَدَارَ دَرُّ وِصَالِي مِنْ يَدٍ سَلِمَتْ
أَنْعِمْ بِخَاتِمَةِ الحُفَّاظِ قَاطِبَةً * أَكْرِمْ بِهِ مِنْ جَلَالٍ شَمْسُهُ بَزَغَتْ
للهِ فِطْنَتُهُ مَا إِنْ لَهَا مَثَلٌ * عَنِ «الشِّفَاءِ» أَزَالَتْ مِنْعَةً حَجَبَتْ
وَقَدْ تَأَسَّسَ بُنْيَانُ «الشِّفَاءِ» بِهِ * عَلَى سَبِيلِ التُّقَى، لَا فِي شَقًا ذَهَبَتْ
وَهَاكَهُ يَا أَخَا الْإِسْلَامِ مُتَّئِدًا * وَدَعْ سَبِيلَ ذُرَى الدُّنْيَا وَمَا جَمَعَتْ

***

[خطبة «الشفا»]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[خطبة «مناهل الصفا»]

قال الشيخ الإمام العالم العلّامة جلال الدين عبد الرحمن الأُسيوطيُّ الشافعيُّ تغمده الله برحمته:

الحمدُ لله الذي إذا وَعد وَفَى، وإذا أَوْعد عَفَى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمَّد الذي هدى وشَفَى مَنْ كان مِن الضَّلالة على شَفَا، وعلى آلِه وصحبِه أولي الفضْلِ والوَفا.

هذا كتابٌ نفيسٌ أَلَّفتُهُ، وتأليفٌ شريفٌ وضعتُهُ، خرَّجتُ فيه أحاديثَ الشِّفا للقاضي عياض تخريجًا مُحرَّرًا، سالكًا فيه طريقًا موجَزًا مختصَرًا، ولم أَستمِدَّ فيه مِنْ شيءٍ مِنَ الكُتُبِ المؤلَّفة عليه، بل اعتمدتُ فيه على حِفْظي ونظري، وراجعْتُ الأصولَ المعتَمَدة، والجوامع، وسمَّيتُهُ «مناهلُ الصفا، في تخريج أحاديث الشِّفا» وعلى اللهِ الاعتِمادُ، وإليه الإِسنادُ، وبِه الاكتِفا.

(بسـمِ اللهِ الرحمـنِ الرحيـمِ): الـكَلامُ علَيْهـا -وإنِ اشـتَهَرَ- لا يُـترَكُ تحصيـلًا لِلبَرَكـةِ، فبَـدأَ المؤلِّفـونَ كُتبَهـم بهـا اقتِـداءً بِكِتـابِ اللهِ، وعَمَـلًا بخَـبَرِ (تخَلَّقـوا بأخـلاقِ اللهِ)[1]؛ أي فيـما يُمكِنُنـا فيـه ذلـك ولمْ يَمْنَعْـه الـشَّرْعُ.

فيُقـالُ هُنـا: إنَّ البـاءَ مُتَعَلِّقـةٌ بمحـذوفٍ، الأَوْلى أنْ يُقـدَّرَ «أُؤَلِّـفُ» ونحْـوَه؛ لِأَنَّ كُلَّ شـارعٍ بـادٍ بهـا يُضمِرُ في نفْسِـه مـا جُعِلَـتِ التسميةُ مَبْدَأً لـه، وهـيَ في الفاتحـةِ ونَحْوِهـا مِـن بَقيّـةِ السّـوَرِ متعلّقـةٌ بقَـوْلٍ محـذوفٍ؛ أي: قولـوا «بسـمِ اللهِ»، لِأَنّـا مأمـورونَ بِتِلاوَتِهـا أوائـلَ السّـوَرِ نَدْبًـا في غـيرِ الفاتحـةِ في الصـلاةِ، ووُجوبُـها في الفاتحـةِ عِنْـدَ الشـافعيِّ، وتقديـرُ القـولِ هنـا -بـأنْ يقـالَ: أَقـولُ «بسـمِ اللهِ»، أو قولـوا، خِطابًـا لِـكُلِّ شـارعٍ في أمـرٍ مُهِـمٍّ، ومِـن جُملتِـه التأليـفُ- وإنِ اسـتقامَ بـه الـكلامُ إلا أنّـه لا داعـيَ لِتَقديـرِه هُنـا لِفَـواتِ النُّكتـةِ السـابقةِ، بخِلافِـه في البَسـملةِ أوائـلَ السّـوَرِ لِأنَّ القـرآنَ مقـولٌ عـلى ألسِـنةَ العِبـادِ.

ثُـمَّ إنَّ جملـةَ المتعلَّـقِ ابتدائيـةٌ، وتُسَـمّى مسـتأنفةً أيضًـا كالجُمَـلِ المُفتَتَحـةِ بهـا السـوَرُ، والجُمَـلِ المنقطعـةِ عَـمّا قَبْلَهـا، نَحْـوُ: مـاتَ فـلانٌ رَحِمَـه اللهُ، وهذا المتعلَّـقُ ليـسَ مِـن القـرآنِ؛ ضرورةَ أنّـه اللفـظُ المُنزَّلُ عـلى محمـدٍ ﷺ، وتَوَقُّفُ المعنـى عليـه لا يوجِـبُ نقصًـا؛ لِأنّـه مِـن الإجمـالِ، وهـو مِـن الكَـمالِ حيـثُ قُصِـدَ، فالمتعلَّقـاتُ مُـرادةٌ لـه تعـالى، وليسَـتْ مِـن كَلامِـه. اهـ. عَطّـارٌ[2] عـلى «المُغني» بِتَـصَرُّفٍ.

---

(١) لم أجـده بهـذا اللفـظ مُسـنَدًا فيـما اطّلعـت عليـه مـن مصـادر. وورد عـلى ألسـنة شُرّاح الحديـث النبـويِّ، وذكـر الحكيـم الترمـذيُّ في «نـوادر الأصـول» (٤/ ٣٩) [الأصـل الحـادي والسِّـتُّون والمائتـان - في أَخْـلَاق الله] عـن عثـمان بـن عفّـان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ يرفعـه إلى النبـيِّ ﷺ، وفيـه: (فـإذا أرادَ الله بعبـدٍ خـيرًا وفّقـه لأخلاقـه فتخلَّـق بهـا).

(٢) حسـن بـن محمـد بـن محمـود العطـار أصلـه مـن المغـرب، ولـد بالقاهـرة سـنة ١٨٨٢، ورحـل إلى بـلاد الـروم والشـام والأراضي الحجازيـة، وتتلمـذ عـلى عـددٍ مـن كبـار علـماء عـصره، كالمرتـضى الزبيـدي، والأمـير، والصبّـان، وعرفـة الدسـوقي وأحمـد السـجاعي، و أحمـد العـروسي، وعبـدالله الشرقـاوي، وكان متفننـا في العلـوم. تـولَّى إنشـاء جريـدة (الوقائـع المصريـة)، ثـمَّ مشـيخة الأزهـر سـنة ١٢٤٦هـ، ومـن أشـهر تلاميـذه رفاعـه الطهطـاوي، ولـه رسـالة في الفَلَـك، وكتـاب في الإنشـاء والمراسـلات، وديـوان شـعر، ومنظومـات وحـواش في العربيـة والمنطـق والأصـول، وأفـرده محمـد عبدالغنـي حسـن بالترجمـة، تُـوفِّي سـنة (١٢٥٠). انظـر: الإعـلام للـزركلي (٢/ ٢٢٠)، وحليـة البـشر للبيطـار (١/ ٤٨٩).

والأحسنُ جَعْلُ الباءِ لِلمصاحَبةِ التبرُّكيّةِ، ويؤيِّدُه حديثُ (بسمِ الله الذي لا يَضُرُّ مَعَ اسمِه شَيْءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ)[1]، وحصولُ البَرَكةِ لِمثْلِ الحديثِ والقرآنِ بِدَفْعِ الوَسْوَسةِ عَنِ القارئِ معَ إجزالِ الثوابِ؛ فلا يَرِدُ أنّ كُلًّا مِنْهما كاملٌ في نفْسِه.

وجعلُها لِلاستعانةِ -كَما قيلَ به- يَلْزَمُ عليْه جَعْلُ اسمِ الله آلةً لِغَيْرِه، وفيه إساءةُ أدَبٍ؛ وإنْ أُجيبَ عنْه بأنَّ لِلآلةِ جهتَيْنِ: توقُّفَ الفِعلِ عليْها بحيثُ لا يَتمُّ إلا بها، وكونَها وسيلةً، والمنظورُ له الجِهةُ الأولى لا الثانيةُ، فإنّه لا يَمنعُ بَقاءَ الإيهامِ؛ لكنْ قالَ المحقِّقُ البرهانُ العدَويُّ[2]: لَمْ يُعتبَرْ هذا الإيهامُ لأنّه وَرَدَ في الشرعِ ما يَدُلُّ على جَوازِ «استعَنْتُ بالله»، قالَ: ومَحَلُّ مَنعِ الموهِمِ ما لَمْ يَرِدْ وإلا لَمْ يُمنَعْ ويؤوَّلُ كـ«الصبورِ». اهـ.

وناقشَ فيه بعضُ المحققينَ بأنّ الباءَ في نحوِ «استعنْتُ بالله» ليسَتْ لِلاستعانةِ، بل لِمُجَرَّدِ التعديةِ كَما صرَّحَ بذلك العلامةُ الشَنوانيُّ[3] إلا أنه ربّما يقالُ: إنّ البرهانَ العدَويَّ لاحَظَ اشتراكَ كُلٍّ مِن المادتَينِ في تَضَمُّنِ معنى الاستعانةِ وفي إيهامِ أنّ المستعانَ به غيرُ مقصودٍ.

***

ثُم إنّه يقالُ: إنّ البسملةَ عَمَلٌ يَصدُرُ مِن المكلَّفِ فتَعتريه أحكامُ الشرعِ، فحينئذٍ يُسألُ: هلِ التكليفُ بها وبغيرِها مِن بقيّةِ الأفعالِ يَكونُ بالمَعْنى الحاصلِ بالمَصدَرِ أو بالمَعْنى المَصدريِّ؟ وحاصلُ الفَرقِ بينَهما أنَّ المعنى المصدَريَّ هوَ تَعلُّقُ القدرةِ الحادثةِ ومقارَنتُها بالفِعلِ، والمعنى الحاصلَ بالمَصْدَرِ الأثرُ الحاصلُ عِنْدَ تَعَلُّقِها بالفِعلِ، وهذا الذي صَرَّحَ به المحقِّقُ السيدُ الشريفُ[4] -قَدَّسَ الله سرَّه- خِلافًا لِما يُفيدُه

(١) أخرجه أحمد (رقم ٤٤٦) والطيالسي (رقم ٧٩)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (رقم ٦٦٠)، وابن ماجه (رقم ٣٨٦٩)، والترمذيُّ (رقم ٣٣٨٨)، و الحاكم (١/ ٥١٤) وغيرهم من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصحَّحه الحاكم وقال الترمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ».

(٢) البرهان بن الشمس العدوي النحريري الشافعي الرفاعي، ويعرف بابن البديوي. ولد بعد سنة ثمانين وسبعمائة بالنحرارية، عرض على السراجين البلقيني وابن الملقن، وبحث في التبريزي والألفية على النور علي بن مسعود النحريري ووالده الشمس، وسمع «الشفا» على البرهان إبراهيم بن أحمد بن البزاز. وعني بنظم الشعر، وسلك طريق ابن نباتة ففاق والده في ذلك. توفي في جمادى الأولى سنة ٨٦١هـ بالنحرارية. الضوء اللامع (١/ ١٥٤).

(٣) أبو بكر بن إسماعيل بن شهاب الدين عمر بن علي الشنواني: نحويٌّ. تونسيُّ الأصل. وُلد في شنوان (بالمنوفية - بمصر). وإليه انتهت رئاسة العِلم بمصر. تخرَّج بابن قاسم العبادي ومحمد والد شهاب الدين الخفاجي والشهاب ابن حجر المكّي وغيرهم. له مُصنَّفاتٌ مِنها حواشٍ علي «الأجرومية» و«الشذور» و«القطر» وعلى «ديباجة مختصر خليل» وغيرها، تُوفِّي في ذي الحجّة سنة ١٠١٩هـ. انظر «شجرة النور الزكية» لمخلوف (١/ ٤١٩).

(٤) عَلّي بن محمَّد بن علي السَّيِّد الزين أبو الحسن الحُسيني الجرجاني الحنفي عالم الشرق، ويُعرف بالسيِّد الشريف، ولد سنة ٧٤٠هـ، اشتغل في بلاده وقدم مصر، وتصدَّى للإقراء والإفتاء وَأخذ عَنهُ الاكابر وبالغوا في تَعْظِيمه لاسيما عُلَماء الْعَجم وَالروم فإنهم جَعَلُوهُ هُوَ والسعد التفتازاني حُجَّةً في علومهما، وله تصانيف يُقَال إِنَّهَا تزيد على الخمسين في علم الكلام والتفسير واللغة=

كلامُ الفَنَـاريِّ[1] عـلى «المُطَـوَّلِ» مِـن أنَّ المعنـى المصدَريَّ نَفْسُ الحَـرَكاتِ والسَّـكَناتِ، والحاصـلَ بالمَصْدَرِ هـوَ الهيئـةُ الناشـئةُ عَـنْ ذلـك، و«بَسْـمَلَةٌ» في اللغـةِ كـ «دَحْرَجـةٍ»؛ مَصـدرٌ، والمَصـدَرُ يُسـتعمَلُ تـارةً ويُـرادُ مِنْـه المَعْنـى المصـدريُّ، وهـوَ تأثـيرُ الفاعـلِ، أَعْنـي تَعَلُّـقَ قُدْرَتـه بالمفعـولِ فهـوَ أمـرٌ اعتبـاريٌّ نِسـبيٌّ، وهـوَ بهـذا المَعنـى لا يُنسَـبُ إلا لِلفاعـلِ، ويُطلَـقُ تـارةً ويُـرادُ مِنْـه الحاصـلُ بالمَصْـدرِ وهـوَ أَثَـرُ التأثـيرِ، والحَركـةُ أَثَـرُ التَّحـركِ، ويُقـالُ لِلمعنـى الحاصـلِ بالمَصـدرِ بهـذا المَعنـى حَـدَثٌ لِحُدوثِـه عَـن فاعـلٍ، ومفعـولٌ مطلَـقٌ لِأنَّـه مفعـولُ الفاعـلِ وهـوَ التكليـفُ بـه بالمعنـى الأَوَّلِ والثـاني.

فأقـولُ: قَـدِ اشـتَهَرَ عَـن أهـلِ التحقيـقِ أنَّ التكليـفَ بالمَعنـى الحاصـلِ بالمَصـدرِ لا بالمَعْنـى المصـدَريِّ، فالواجـبُ عَلَيْنـا البَسـملةُ عِنْـدَ الذَّبْـحِ مَثَـلًا بمَعْنـى الحَرَكـةِ المخصوصـةِ لا بمَعْنـى تَعلُّـقِ القُـدرةِ، وكـذا الصـلاةُ فيُقـالُ الصـلاةُ واجبـةٌ عَلَيْنـا بمَعْنـى الحَـرَكاتِ المخصوصـةِ لا بمَعْنـى تَعلُّـقِ القُـدرةِ.

واختـارَ بَعْـضُ الحُـذّاقِ أنَّ التحقيـقَ خِـلافُ مـا اشـتهرَ -وهـوَ أنَّ التكليـفَ إنَّـما هـوَ بالمَعْنـى المصـدَريِّ؛ وذلـك لِأنَّـه لا مَعْنـى لِكَـوْنِ هـذه الحَـركاتِ واجبـةٌ علَيْنـا مِـن حيـثُ ذاتُهـا، إنَّـما الواجـبُ علَيْنـا تحصيـلُ هـذه الحَـركاتِ، ولا معنـى لِتحصيلِهـا إلا التأثـيرُ فيهـا والكَسْـبُ لهـا بقُدرتِنـا الحادثـةِ الـذي هـوَ المَعنـى المصـدريُّ، وهـوَ وإنْ كانَ ظاهـرًا يطمَئِـنُّ لـه القلـبُ إلا أنَّـه خـلافُ مـا اشـتهرَ.

قـالَ بعـضُ المحقِّقـينَ: وإذا أمعَنْـتَ النظَـرَ تَجِـدُ الخـلافَ لفظيًّـا لِأنَّ المعنـى الحاصـلَ بالمصـدَرِ لا يَنفَـكُّ عَـنِ المعنـى المصـدريِّ وبالعكـسِ؛ فهُـما متلازِمـانِ قطْعًـا إلا أنَّ مَـن جَعـلَ التكليـفَ بالحاصـلِ نظَـرَ لِلمقصـودِ، ومَـن جَعلَـه بالمصـدريِّ نَظَـرَ لِكَونِـه وسـيلةً؛ لِأنَّـه لا يُعقَـلُ حركـةٌ إلا بتَحـرُّكٍ، ولا مُحَصَّـلٌ إلا بتحصيـلٍ، ولكـنْ يُبعِـدُ جَعـلَ الخِـلافِ لفظيًّـا قولُهُـم «التحقيـقُ» لِأنَّـه إنـما يُعـبَّرُ بـه في الخـلافِ الحقيقـيِّ.

وبالجملـةِ فـكُلٌّ مِـن المَلْحَظـينِ صحيـحٌ، واتِّبـاعُ القـومِ في مقالَتِهـم هـوَ الحَـريُّ بالاعتـمادِ؛ وهـوَ استعمالُ المصـادرِ في كُلٍّ مِـن المعنيَـينِ حقيقـةً، أو هـوَ حقيقـةٌ في المعنـى المصـدريِّ، مَجـازٌ في الحاصـلِ بـه .

=وغيرهـا، تُـوفِّيَ فِي يَـوْم الْأَرْبَعَـاء سـادس ربيـع الآخـر سـنة ٨١٦هـ بشـيراز. «الضـوء اللامـع» للسـخاوي (٥/ ٣٢٨)، و«البـدر الطالـع» للشـوكاني (١/ ٤٨٨).

(١) حسـن شـلبي بـن مـلا شـمس الدّيـن مُحَمَّـد شـاه بـن الْعَلامَـة المـولى شـمس الدّيـن مُحَمَّـد بـن حَمْـزَة الرُّومـي الْحَنَفِيّ وَيعرف كسـلفه بالفنـاري وَهُـوَ لقـب لجد أَبِيـه، ولـد سـنة أَرْبَعِـينَ وَثَمَانِمائَـة بِبِـلَاد الرّوم، ولـه حاشـية عـلى «المطـوَّل»، وعـلى «المواقـف»، و«التلويـح». مَـاتَ ببـلاده فِي جُمَـادَى الْآخِـرَة سـنة ٨٨٦ هـ. ترجمـه السـخاويُّ في «الضـوء اللامـع» (٣/ ١٢٨)، وابـن العـماد في «الشـذرات» (١٠/ ٨)، والشـوكاني في «البـدر الطالـع» (١/ ٢٠٨).

نقلَ بعضُ فضلاءِ الرومِ عَن السيدِ الشريفِ أنَّها حقيقةٌ فيهما، وعَنِ العلّامةِ الفناريِّ علىٰ «المطَوَّلِ» أنَّها حقيقةٌ في المصدَرِ مجازٌ في الحاصلِ بهِ، ورَجَّحَ بعضُ المتأخِّرينَ -عكسَ ما لِلعلامةِ الفناريِّ- أنَّها حقيقةٌ في الحاصلِ بالمصدَرِ، مجازٌ في المعنىٰ المصدريِّ، وهوَ مُرسَلٌ عَلاقتُه اللزومُ بَيْنَ الأثَرِ والتأثيرِ؛ وذلكَ أنَّ العَرَبَ كانَتْ تَستعمِلُ المصادرَ مُرادًا بها الحَرَكاتُ والسكناتُ التي يَفعلُها الفاعلُ، وأمّا المعنىٰ المصدريُّ -وهوَ تَعلُّقُ القدرةِ- فلا يَعرِفُ أنَّه معنىٰ لفظِ المَصدرِ إلا مَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ في العُلومِ، وما كانَ متبادرًا لِاستعمالِ العرَبِ بدونِ قرينةٍ يُحْكَمُ علَيْه بالحقيقةِ.

فتوضيحُ المَقامِ هُنا: أنَّ البسملةَ حقيقتُها إمّا تَعلُّقُ القُدرةِ بحَرَكةِ اللِّسانِ والشفتَيْنِ عِنْدَ قولِه «بسمِ الله»، أو نَفْسُ الحركةِ المذكورةِ، فإطلاقُها علىٰ لَفْظِ «بسمِ الله» المسموعِ بالأُذُنِ مجازٌ، مِن إطلاقِ الشيءِ علىٰ لازمِه المُسَبَّبِ عَنْه لِأنَّ اللفظَ مُسَبَّبٌ عَنِ الحركاتِ أو عَن تَعلُّقِ القدرةِ بالحركةِ، ثُمَّ تَجَوَّزوا مجازًا علىٰ مجازٍ، وأطلَقوها علىٰ «بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ»، وصارَتْ حقيقةً عُرفيةً بحيث لا يُفهَمُ عُرْفًا مِن «بَسمَلةٍ» عِندَ الإطلاقِ إلا «بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ».

***

واختُلِفَ في جملةِ البسملةِ هلْ هيَ خبريةٌ مطلَقًا أو إنشائيةٌ مطلَقًا؟ قيلَ بكُلٍّ، واستَظهَرَ بعضُ المحقِّقينَ أنّها خبريةُ الصدرِ لِصدقِ تعريفِ الخبَرِ علَيْه؛ أَعني عَدَمَ توَقُّفِ ثبوتِ مَدلولِه خارجًا عَنِ النُّطقِ، إنشائيةُ العجُزِ؛ أَعني الجارَّ والمجرورَ لِتوَقُّفِ الاستعانةِ أو المصاحَبةِ التَّبرُّكيةِ علىٰ النُّطْقِ بذلكَ.

قالَ المحققُ الشهابُ: وها هُنا إشكالٌ أبْداه شيخُ مشايخِنا الشيخُ عيسىٰ الصفَويُّ[1] -رحمه الله تعالىٰ، وتَلَقّاه مَن بَعْدَه بالقَبولِ مِن عامّةِ مَن رأيْناه؛ وهوَ أنَّ جملةَ البسملةِ لا تَخلو مِن أنْ تَكونَ خبريةً أو إنشائيةً.

ويَتَّجِهُ علىٰ الأوَّلِ أنَّ مِن شأنِ الخبرِ الصادقِ أنْ يَتحقَّقَ مَدلولُه بدونِه في نفسِ الأمرِ، فيَكونُ الخَبَرُ حكايةً عنْه كَما اتَّفَقوا علَيْه، وما نحنُ فيه ليس كذلكَ لِأنَّ مصاحَبةَ الاسمِ والاستعانةَ بهِ مِن تَتِمَّتِه، وهُما لا يَتحققانِ إلا بهذا اللفظِ؛ اللهُمَّ إلا أنْ يَجوزَ مِثْلُ ذلكَ في نحوِ قولِكَ: «أَتكلَّمُ»، و«أقومُ» مُتكلِّمًا مخبِرًا بتكَلُّمٍ حصَلَ بهذا اللفظِ، وفيه تَوَقُّفٌ.

---

(١) قطب الدِّين أبو الخير عيسى بن محمد بن عبيد الله بن محمد الشريف العلّامة المحقّق المدقّق الحسني الحسيني الأيجي الشافعي الصّوفي، المعروف بالصّفوي، نسبة إلى جدّه لأمّه السيد صفي الدّين، ولد سنة تسعمائة، اشتغل بالهند وسمع بها ثُمَّ حجَّ ودخل مكّة والمدينة ثُمَّ بلاد الشام ودرّس بها، ثُمَّ دخل مصر واستوطنها. له مؤلّفاتٌ، منها «شرح مختصر على الكافية» و«شرح الغرّة» في المنطق للسيد الشريف، و«شرح الفوائد الضيائية» في المعاني والبيان. توفي سنة ٩٥٣هـ. «الشذرات» لابن العماد (١٠/ ٤٢٨)، «الكواكب السائرة» للغزي (٢/ ٣٠).

وعلى الثاني أنَّ مِن شأنِ الإنشاءِ أنْ يَتحققَ مدلولُه به، وأصلُ جملةِ البسملةِ ليس كذلك غالبًا؛ إذِ الأكلُ والسفرُ ونحوُهما ممّا ليسَ بِقَولٍ لا يَحصُلُ بالبَسملةِ، فإنْ كانَتْ لإنشاءِ المصاحَبةِ والاستعانةِ يَلْزَمُ أنْ تَكونَ الجملةُ لإنشاءِ متعلِّقِها، والأصلُ غيرُ مقصودٍ بوَجْهٍ، ولَوْ قيلَ: إنَّ المعنى «أَبْتَدئ» أو «أَفْتَتِحُ»، أي أَجْعَلُه بدايةَ الفِعلِ، والجملةُ لإنشاءِ الجَعلِ، وإنّه بدايةُ كُلِّ شيءٍ -كَما نُقِلَ عَن الإمامِ- لا يَلْزَمُ ما مَرَّ؛ إلا أنّه خِلافُ الظاهرِ، ولا يَتِمُّ أيضًا على تقديرِ الخبَريةِ لِأنَّ المصاحَبةَ والاستعانةَ بِه مِن تَتِمّةِ الخَبَرِ، وهُما لا يَتحقَّقانِ إلا بهذا اللَّفْظِ، وهوَ شأنُ الإنشاءِ؛ على أنَّه لا يَجْري حقيقةً إلا في نحوِ التأليفِ مِمّا يُمكِنُ أنْ يَكونَ بدايةً له حقيقةً، وإجراؤه فيما سِواه يَحتاجُ لِلمسامَحَةِ.

أقولُ[1]: الظاهرُ أنَّ هذه الجملةَ إنشائيةٌ لِإنشاءِ التبرُّكِ الموقوفِ على التلَفُّظِ بالبَسملةِ، فما تَوَهَّمَه هذا القائلُ على تقديرِ الإنشائيةِ مِن الخيالاتِ الواهيةِ والأوهامِ الفارغةِ، وقولُه: إنَّها حينَئِذٍ لِإنشاءِ المتعلِّقِ، ومِثْلُه في غايةِ الندورِ، عدمُ صِحَّتِه في غايةِ الظهورِ؛ ألا تَرى أنَّ أدواتِ الاستفهامِ بأسْرِها تَدخلُ على الجُملِ المتحقِّقِ مضمونُها خارجًا فيَصيرُ بجملتِها إنشاءً كَما يَقولُ مَن رأى شخصًا قائمًا لَمْ يُحِطْ بتَشَخُّصِه وأحوالِه خُبْرًا: مَنْ قامَ، أو على أيِّ حالٍ قامَ؟

وهكذا مِمّا لَمْ يُحِطْ بِه نِطاقُ الحصرِ، ولَمْ يَحُمْ حَوْلَه النُّدورُ، ولا يقالُ إنه مع تحقيقِ القيامِ في الخارجِ لإنشاءِ المتعلِّقِ.

وأمّا كونُه لإنشاءِ الجَعْلِ فتَعَسُّفٌ مِن غيرِ داعٍ لِارتكابِ مِثْلِه، وأنا أعجَبُ مِن هذا الفاضلِ كَيْفَ زَعَمَ وُرودَ ما قالَ، ومِمَّنِ ارتَضاه بَعْدَه مِن فحولِ الرجالِ!

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلةٌ * كَما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَساويا

***

أقولُ[2] -وبالله التوفيق-:

إنَّ قولَ الإمامِ المحقِّقِ الشهابِ «إنَّ ما ارتَكَنَ إلَيْه الإمامُ الصفَويُّ مجرَّدُ أوهامٍ فارغةٍ وخيالاتٍ واهيةٍ، وعدمُ صِحَّتِها في غايةِ الظهورِ»، وتعجُّبَه مِمَّن تَبِعَه واستَظهرَ مِن نفْسِه إنشائيَّتَها فقطْ، تَوَرُّكٌ غيرُ ظاهرٍ وغيرُ لائقٍ ببارعِ دِقَّتِه مِن وُجوهٍ ثلاثٍ:

الأوَّلُ: أنَّ فرْضَ كلامِ الإمامِ الصفويِّ في أصلِ جملةِ البسملةِ؛ أَعْني أصْلَ مدلولِ رُكْنَي الإسنادِ المستفادِ مِن جَوْهَرِ اللفظِ دونَ فَضْلَتِها، ولا شَكَّ أنَّ ذلك المدلولَ يَتَحَقَّقُ في الخارجِ مِن غَيْرِ تَوَقُّفٍ على النُّطقِ بِرُكْنَي الإسنادِ، كـ«أُؤَلِّفُ» مَثَلًا، فاستُشْكِلَ كونُه إنشاءً قاطِعًا النظرَ عَن الفَضلةِ لِأنَّها مِن تَعَلُّقاتِها الخارجيةِ، ومَطمَحُ النظَرِ الغالبُ هوَ المعنى المقصودُ مِن رُكْنَي الإسنادِ، وكونُ الفضلةِ قَدْ تُقْصَدُ لِتَوَقُّفِ المَعْنى عَلَيْها كالحالِ في قولِه تعالى:

(١) أي الشهاب الخفاجي.

(٢) أي العلامة النور الحمزاوي.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] فنادرٌ لا يُلْتَفَتُ إليه، نَعَمْ في كَلامِه تَلفيقٌ بَيْنَ القولِ بأنَّ فَضَلاتِ الجُملةِ مِنْها والقولِ بعدَمِه، فبَنى صدْرَ استشكالِ كوْنِها خبريةً على القولِ بأنَّ فضَلاتِ الجملةِ مِنْها كما حَقَّقَه الرَّضيُّ[1]؛ وحينَئذٍ يَتَّجهُ له الإشكالُ، وجَرى في استشكالِ الإنشائيةِ على أنَّها ليسَتْ مِنْه حيثُ قالَ: وأَصْلُ جُملةِ البسملةِ... إلخ.

الوجه الثاني: أنَّ قولَ المحقِّقِ «إنَّ بدخولِ أدواتِ الاستفهامِ على الجملةِ المحقَّقِ مدلولُها خارجًا يَصيرُ جملتُها إنشاءً» ظاهِرُه: أي مع عدَمِ اعتبارِ صحّةِ كونِها خبريةً أيضًا في جميعِ الأدواتِ الداخلةِ على الخَبَرِ، مَعَ أنَّ الإمامَ البارعَ ابنَ الحاجبِ[2] ذَكَرَ في «كَمْ رَجلٍ عِندي» -وإنْ كانَتْ تكثيريةً- صِحّةَ اعتبارِ الإنشاءِ والخبرِ فيه؛ فالإنشاءُ باعتبارِ التكثيرِ، فإنَّه معنًى ثابتٌ في النفْسِ لا وُجودَ له في الخارجِ إلا بهذا اللفظِ، والإخبارُ باعتبارِ العِنديةِ؛ فإنَّ كوْنَهم عِنْدَه له وُجودٌ في الخارجِ، فالكلامُ محتمِلُ الأمرَينِ بالاعتبارَيْنِ المذكورَيْنِ.

الوجه الثالث: أنَّ قياسَ المحقِّقِ المذكورَ «فضلاتُ الجملةِ على أدواتِ الاستفهامِ» قياسٌ معَ الفارقِ؛ فإنَّ مِن البداهةِ أنَّ ذِكْرَ الفضلةِ وعَدَمَه سيّانِ في عَدَمِ نَقْلِ معنى الجملةِ المقصودِ مِن رُكْنَي الإسنادِ، نَعَمْ ذِكْرُ الفضلةِ زيادةُ قَيْدٍ في المعنى الأصليِّ بخِلافِ أدواتِ الاستفهامِ؛ فإنَّها تَنْقُلُ عَن المعنى الأصليِّ إلى غيرِه، ويَصيرُ الأصليُّ معَها حاصلًا غَيْرَ مقصودٍ.

ويؤيِّدُ هذا كُلَّه ما ذكَرَه خاتمةُ المحقِّقينَ العلّامةُ الصَّبّانُ[3] في بَسْملتِه، ونَصُّه: «وهَلْ هيَ -أي الجملةُ- إنشاءٌ أو خَبَرٌ؟ لَنا في ذلك تفصيلٌ حَسَنٌ؛ حاصلُه: الباءُ إنْ كانَتْ لِلاستعانةِ

---

(١) العلامة محمّد بن الحسن رضي الدين الأستراباذي، نسبة إلى أستراباذ من أعمال طبرستان في شمالي فارس، الإمام المشهور صاحب شرح الكافية والشافية لابن الحاجب. قال السيوطي في بغية الوعاة: «ولم أقف على اسمه ولا على شيء من ترجمته؛ إلا أنه فرغ من تأليف هذا الشرح سنة ثلاث وثمانين وستمائة» توفي سنة ٦٨٤هـ، وقيل: ٦٨٦هـ، وقيل غير ذلك. انظر: بغية الوعاة للسيوطي (ت: ١١٨٨)، وشذرات الذهب لابن العماد (٧/ ٦٩١)

(٢) أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر يونس، المعروف بابن الحاجب المصريُّ ثُمَّ الدمشقيُّ ثم الإسكندريُّ، الفقيه الأصوليُّ المتكلِّم النظّار، وُلِد في أواخر سنة سبعين وخمسمائة بأسنا مِن صعيد مصر، وكان أبوه حاجبًا للأمير عز الدّين موسك الصلاحي، وكان ركناً مِن أركان الدين عِلْمًا وعملًا، له التصانيف البالغة غاية التحقيق والإجادة، مات بالإسكندرية في شوال سنة ٦٤٦هـ، وفي «حسن المحاضرة» مات عن ٨٥ سنة. انظر: «الديباج» لابن فرحون (٢/ ٨٦)، و«الشذرات» لابن العماد (٧/ ٤٠٥)، و«شجرة النور الزكية» لمخلوف (١/ ٢٤١).

(٣) محمد بن علي الصبَّان الشافعيُّ، ولد بمصر وحفظَ القُرآنَ والمتونَ، واجتهدَ في طلب العِلم وحضرَ أشياخ عصره وجهابذة مصره، فحضرَ على الملَّويِّ والمدابغيِّ والعشماويِّ وغيرهم، ومِن تآليفه «حاشية على الأشموني» سارت بها الركبان، و«حاشية على شرح العصام على السمرقندية»، و«حاشية على شرح الملوي على السلم»، وله منظومات في الحديث، والعروض، وأسماء أهل بدر، وله غير ذلك كثير، وفضله وعُلاه شهير، تُوفِّي الثلاثاء من شهر جمادى الأولى سنة (١٢٠٦)، وصُلِّي عليه بالأزهر الشريف. «تاريخ الجبرتي» (٢/ ١٣٧).

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ،

أو المصاحَبةِ فالجملةُ المقدَّرةُ -أعني أُؤَلِّفُ مَثَلًا- خَبَرٌ، لِصِدْقِ حَدِّ الخبرِ علَيْه؛ وهوَ الكلامُ الذي يَتَحقَّقُ مدلولُه خارجًا بدونِ ذِكْرِه لِتَحقُّقِ التأليفِ مَثَلًا بدونِ ذِكْرِ «أُؤَلِّفُ»، ومتعلَّقُها -أعْني الجارَّ والمجرورَ- إنشاءٌ لِصِدقِ حَدِّ الإنشاءِ علَيْه؛ وهو الكلامُ الذي لا يَتحققُ مدلولُه خارجًا بدونِ ذِكْرِه لِعَدَمِ تَحقُّقِ الاستعانةِ باسمِه تعالى والمصاحَبةِ له بدونِ ذِكْرِ «بسمِ الله».

فإنْ قلتَ: الجارُّ والمجرورُ لَيْسَ بكلامٍ، فكيفَ جُعِلَ إنشاءً؟! قلتُ: هوَ في معنى الكلامِ؛ لِأنَّه في معنى «أَستعينُ باسمِ الله»، أو «أُصاحِبُ اسمَ الله»؛ فبانَ أنَّ مجموعَ «أُؤَلِّفُ باسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ» على تقديرَيِ الباءِ المذكورَيْنِ خَبَرٌ صدْرًا، إنشاءٌ عَجُزًا.

وجَوَّزَ بعضُهم أنْ يَكونَ العَجزُ خبرًا عَنِ استعانةٍ أو مصاحَبةٍ حاصلةٍ به قياسًا على ما قيلَ في قولِكَ «أَتَكلَّمُ» أنَّه يجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرًا عَن تكَلُّمٍ حاصلٍ بهذا القولِ؛ لَكِنْ قالَ ابنُ قاسمٍ[1] في المَقيسِ عَلَيْه أنَّه مَحَلُّ نَظَرٍ تامٍّ، فتَدَبَّرْ؛ ولعلَّ وجْهَه أنَّ الخبرَ حكايةٌ، ولا بُدَّ مِن تغايُرِ الحكايةِ والمحكيِّ بالذاتِ.

وإنْ كانَتْ لِلتعديةِ فإنْ جُعِلَتْ متعلِّقةً بفضلةٍ، نَحْوُ «مبتدِئًا ومستعينًا ومُتبرِّكًا» فالمجموعُ كذلك؛ أي خبرٌ صدْرًا، وهوَ «أُؤَلِّفُ» مثلًا، إنشاءٌ عجُزًا، وهوَ الفضلةُ مَعَ ما تَعَلَّقَ بها مِنَ الجارِّ والمجرورِ، أي لِإنشاءِ الابتداءِ باسمِ الله، أي جعْلِه بدايةً، أو الاستعانةِ به، أو التبرُّكِ به، وإنْ جُعِلَتْ متعلِّقةً بعُمدةٍ، نحوُ «أَبتدِئُ، وابتدائي، وأَستعينُ، واستعانَتي، وأَتبرَّكُ، وتَبَرُّكي»، فالمجموعُ إنشاءٌ، أي لِإنشاءِ ما ذُكِرَ، ويأتي في المجموعِ على هذا، وفي العجُزِ على ما قبْلَه. اهـ. وهذا تحقيقُ المَقامِ، فتَدَبَّرْه منصِفًا!!

***

ثُم إنَّ في النسخةِ الصحيحةِ التي بيَدِنا بَعْدَ البسملةِ: **(وصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنا محمدٍ، وعلى آلِه وصَحْبِه وسَلَّمَ)** بصيغةِ الماضي، والنسخةُ الَّتي حَلَّ علَيْها المحقِّقُ المُلَّا عَليٌّ القاريُّ[2] بصيغةِ الطلَبِ الدعائيِّ، ونَصُّه: قالَ **(بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ)** اقتِداءً بالكلامِ المَجيدِ،

---

(١) الإمام العلامة شهاب الدّين أحمد بن قاسم العبّاديّ القاهريّ الشافعيّ، أخذ عن الشيخ ناصر الدّين اللقاني، ومحقّق عصره بمصر شهاب الدّين البرلسي المعروف بعميرة، والعلّامة قطب الدّين عيسى الصّفوي، وبرع وساد، وفاق الأقران، ومن مصنّفاته «الحاشية على شرح جمع الجوامع» المسماة بـ«الآيات البيّنات» و«حاشية على شرح الورقات» و«حاشية على المختصر في المعاني والبيان» و«حاشية على شرح المنهج»، وتُوفّي بالمدينة المنورة ودُفن بها عائدًا من الحجّ سنة ٩٩٤هـ. انظر: الكواكب السائرة للغزي (٣/ ١١١)، وشذرات الذهب لابن العماد (١٠/ ٦٣٦، ٦٣٧).

(٢) هو الشيخ الإمام، العلامة، أبو الحسن نور الدين علّي بن سلطان القاريّ الهرويّ، الحنفيّ، الشهير بمُلّا عليّ القاري. ولد بهراة، ورحل مع أسرته إلى مكّة، وتتلمذ على علمائها المشهورين، ومنهم ابن حجر الهيتمي الفقيه، وكان بديع الخطّ، وكان مِن المكثرين مِن التأليف وتصانيفه تجاوزت المائة. وهي نفيسةٌ في بابها، منها «شرح الشفا»، والمصنّف يُكثر النقل عنه، تُوفّي رحمه الله في شوال سنة ١٠١٤هـ بمكة المشرّفة، ودُفن بمقبرة المعلاة. «معجم المفسرين» (١/ ٣٦١)، الأعلام (٥/ ١٢).

واقتفاءً بالحديثِ الحميدِ، ثُمَّ قالَ (**اللهُمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِه**) أيْ أتباعِه المتضمِّنينَ لِأصحابِه (**وسلِّمْ**)، وقالَ: وهذه طريقةُ المَغاربةِ حيثُ يأتونَ بالصلاةِ والتحيةِ بَيْنَ البسملةِ والحمْدلةِ كَما في «الشاطبيةِ». ولَعَلَّ فيه إشعارًا بأنَّ البسملةَ المشتملةَ على نعتِ الألوهيةِ وصفاتِ الرَّحمانيةِ والرَّحيميةِ بمنزلةِ شَطرِ الشهادتَيْنِ مِن كَلِمةِ التوحيدِ؛ فلا بُدَّ مِن انضمامِ الشطرِ الآخَرِ لِإتمامِ مَعْنى التحميدِ ليَتَرَتَّبَ على توفيقِ تحصيلِ هذا المَقامِ مَقالُ التحميدِ.

ثُمَّ قالَ: وفي بعضِ النُّسخِ المصحَّحةِ قَبْلَ قولِه «الحمدُ لله»: (**قالَ الفَقيهُ القاضي الإمامُ الحافظُ أبو الفَضلِ عياضُ بنُ موسى بنِ عياضٍ اليَحْصَبيُّ -رَحِمَه اللهُ**). قالَ: ولا شَكَّ أنَّ هذا الإدخالَ مِن المَقالِ، صَدَرَ مِن أربابِ الكمالِ، مِن تلاميذِ المصنِّفِ أو مِمَّنْ أتى بعْدَه. اهـ.

والَّذي حَلَّ علَيْه الإمامُ الشمنيُّ[1] وكلٌّ مِن الشيخِ العلاّمةِ تاجِ الدِّينِ اليَمَنيِّ[2] والعلاّمةِ الرَّمْليِّ[3] والشيخِ رسلانَ[4] بَعْدَ البسملةِ: (الحمدُ لله)، مِن غيرِ زيادةِ شيءٍ بينَ البسملةِ والحَمْدلةِ.

ووافقَهم الشِّهابُ في حلِّه حيثُ لَمْ يَذكرِ الصلاةَ والسلامَ مَتْنًا ولا تنبيهًا مِنه علَيْها، وإنَّما قالَ: وفي بعضِ النُّسخِ بعْدَ البسملةِ (**قالَ القاضي الفقيهُ الإمامُ أبو الفضلِ عياضُ بنُ موسى بنِ عياضٍ اليَحْصَبيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**).

قالَ: و(يَحْصَبُ) -كَما في «القاموسِ»- مُثَلَّثةُ الصادِ، والنِّسبةُ مثلَّثةٌ أيضًا، لا بالفتحِ فَقَطْ

---

(١) أحمد بن محمَّد بن محمَّد بن حسن بن علي التقي أبو العبَّاس القسنطيني الأصل، السكندريُّ المولد، القاهريُّ المنشأ، المالكيُّ ثُمَّ الحنفيُّ وَيعرف بالشُّمُنِّي، وُلِدَ سنة ٨٠١ بالإسكندرية وقدم القاهرة مع أبيه. بَرَعَ في جميع المعارف وصنَّف «حَاشِيَة المغنى» و«مزيل الخفاء عَن ألفاظ الشِّفَاء» وشرحًا مُتوسِّطًا لـ«النقاية» في فقه الحنفيَّة، وتزاحم النَّاس عليه في آخر أيامه وصار شيخ الفنون بلا مدافع في زمانه، مات في ذي الحجَّة سنة ٨٧٢هـ. انظر: البدر الطالع للشوكاني (١/ ١١٩).

(٢) عبدالباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليمني المخزومي المكيّ، تاج الدين، ولد بمكة في رجب سنة ٦٨٠ ورحل إلى الشام ومصر، واستقرَّ باليمن فولي الوزارة، ثُمَّ عُزِلَ وصُودر، ورد إِلَى مصر وفُوِّض إِلَيْهِ تدريس المشهد النفيسي. له نظمٌ واشتغالٌ بالأدب والتاريخ، ومِن مُصنَّفاته: الاكتفا في شرح ألفاظ الشفا، وبهجة الزمن في تاريخ اليمن، توفي بالقاهرة سنة ٧٤٣هـ. انظر: «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٥).

(٣) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين الرمليُّ، فقيه الدِّيار المصرية في عصره. يُقال له: الشافعيُّ الصغير، وذهبَ جماعةٌ الى أنه مُجدِّد القَرْن العاشر. نسبتُه إلى (الرملة) مِن قرى المنوفية بمصر، ومولده ووفاته بالقاهرة. أخذ عن والده الشهاب الرملي وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري وغيرهما، ولِيَ منصبَ افتاء الشَّافِعِيَّة وأَلَّفَ التآليف النافعة منها: «شرح المنهاج» أتى فيه بالعَجَبِ العُجاب، و«شرح البهجة الورديَّة»، و«غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان» وغيرها، تُوفِّي سنة ١٠٠٤هـ. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٣/ ٣٤٢).

(٤) أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبريّ: أحد الزهاد الصالحين المشهورين، من أهل دمشق. وقبره فيها معروفٌ. يقال له (الشيخ رسلان) تخفيفًا. له رسالةٌ في التوحيد، وللنابلسي شرحٌ لها سمَّاه «خمرة الحان». «الأعلام» للزركلي (١/ ٢٨٨).

الحَمْدُ لله المُنْفَرِدِ باسْمِهِ الأَسْمَى،

كَما زَعَمَ الجَوهَرِيُّ، و(يَحْصَبُ): قَلعةٌ بالأندُلُسِ، ثُمَّ نَقَلَ عَنِ ابنِ الأثيرِ في المنسوبِ: بفتحِ الياءِ وسكونِ الحاءِ وكسرِ الصادِ -قالَ وقيلَ بِضَمِّهَا- وكَسْرِ الباءِ، قالَ: وهذه النسبةُ إلى (يَحْصَبَ)، وهيَ قَبِيلَةٌ مِن حِمْيَرَ؛ سُمِّيَتْ باسمِ أَبِيها يَحْصَبَ بنِ مالِكٍ.

قالَ: وهذه الأوصافُ ليسَتْ مِن كَلامِ المؤلِّفِ رحمه الله؛ وإنَّما كَتَبَها مَن بَعْدَه توقيرًا له، ولُقِّبَ بأبي الفضلِ كَما قيلَ:

أبا الفضلِ مَنْ أَجْرى إليَّ الفضْلَ نافعًا ❊ فصارَ به يُدْعى وصـــــارَ به يُكْنى

❊❊❊

قالَ المصنِّفُ: (**الحمدُ لله المنفردِ باسمِهِ الأَسْمى**): قالَ المحققُ المُلّا عليٌّ القاريُّ: اختارَ الجملةَ الاسميةَ لِإفادةِ الديمومية لِأَنَّ الفِعلَ دالٌّ على اقترانِ مدلولِه بزمانٍ، والزمانُ لا ثَباتَ له؛ فكَذا ما قارَنَه، واللامُ فيه لِلاستغراقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ. اهـ.

والَّذي حَقَّقَه العلّامةُ الأميرُ[1] في حاشيتِه على الملويِّ وغيرُها نَقْلاً عَن إمامِ الفنِّ الجرجانيِّ أنَّ كُلًّا مِنَ الاسميةِ والفعليةِ لا يُفيدُ بالنظَرِ لِذاتِه وَضْعًا إلا مُجَرَّدَ الثبوتِ، وإفادةَ الدوامِ والاستمرارِ إنَّما تُؤْخَذُ مِن مَعونةِ المَقامِ والقرائنِ، فـ«زَيدٌ مُنطلِقٌ» لا تُفيدُ إلا مُجَرَّدَ الانطلاقِ.

قالَ المحقِّقُ الشِّهابُ: والحمدُ هوَ الوَصْفُ بالجميلِ على الجميلِ الصادرِ بالاختيارِ حقيقةً أو حُكْمًا على وَجْهِ التعظيمِ ظاهِرًا وباطِنًا بأَنْ لا يَصْدُرَ ما يُخالِفُه، ولا يَلْزَمُ اعتقادُ اتِّصافِ المحمودِ بالجميلِ المذكورِ عِنْدَ متأخِّري المحقِّقينَ. اهـ.

وهيَ خَبريةٌ لفظًا، إنشائيةٌ مَعْنًى، وصَحَّحَ بعضُهم أنَّها خبريةٌ لفظًا ومعنًى لِأنَّ المخبِرَ بالثناءِ يُعَدُّ مُثنِيًا، فيكونُ الإخبارُ مِن أفرادِ الحمدِ، والإنشاءُ لِلثناءِ بالمضمونِ لا إنشاءِ المضمونِ؛ لِأنَّ مضمونَ الجملةِ هوَ المَصدَرُ المُتَصَيَّدُ مِن الخَبَرِ المضافِ إلى المبتدإِ كالاستحقاقِ والاختصاصِ مَثَلًا، وهذا أَمرٌ ذاتيٌّ لِلباري ليسَ في قدرةِ العبدِ إنشاؤُه كَما ذَكَرَه المحقِّقُ الصَّبّانُ في حاشيتِه على ملويِّ السُّلَّمِ.

قال العلّامةُ تاجُ الدّينِ اليمنيُّ في شرحِه لِهذا الكِتابِ: واللامُ لِاستغراقِ جِنْسِ الحَمْدِ لِأنَّ كُلَّ حَمْدٍ يَصدُرُ مِن الحامدِ كانَ لله أو لِغَيرِه فهوَ مصروفٌ إلى الله. ومِمّا يُستأنسُ به في هذا المَعْنى قولُ أَبي نواسٍ:

وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يَوْمًا بِمِدْحةٍ ❊ لِغَيْرِكَ إنسانًا فأنتَ الذي نَعْني

---

(١) محمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز المالكي الأزهري الشهير بالأمير الكبير، وُلِد في شهر ذي الحجَّة سنة ١١٥٤، وحضر دروس أعيان عصره، واجتهد في التحصيل، ولازم دروس الشيخ الصعيدي في الفقه وغيره من كتب المعقول، صنَّف عِدَّة مؤلَّفات في غاية التحرير، منها «المجموع» في الفقه المالكي، جمع فيه الراجح في المذهب وشرحه شرحاً نفيساً، و«حاشية على المغني لابن هشام»، و«حاشية على شرح الملوي على السمرقندية» وهي المقصودة هنا، وغيرها، توفِّي يوم الاثنين عاشر ذي القعدة الحرام ١٢٣٢ . انظر: «شجرة النور الزكية» لمخلوف (١/ ٥٢٠).

المُخْتَصِّ بِالْمُلْكِ الأَعَزِّ الأَحْمَى، الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ مُنْتَهَى وَلَا وَرَاءَهُ مَرْمًى،

و(المُنفَرِدِ): قالَ المحقِّقُ ملا علي قاري: وفي نسخةٍ «المُتَفَرِّدِ»، مِن بابِ التَّفَعُّلِ، بمعنى التوحُّدِ؛ فمَآلُهما واحدٌ في المَعْنى وإنِ اختَلَفا في المَبْنى. و(الأَسْمى): أَفعلُ تفضيلٍ مِنَ السُّموِّ، وهوَ الارتفاعُ أي المتازِ عَنِ المشارَكةِ في اسمِه الأَعْلى، والإضافةُ لِلتعميمِ؛ فإنَّ لله الأسماءَ الحسنى، وكُلُّ واحدٍ منها في مرتبتِه هوَ الأعلى، وأَغْرَبَ الشمنيُّ في تفسيرِه «الأَسْمى» بالعالي. اه. ولَعَلَّ هذا كانَ في نسخةٍ اطَّلَعَ عليها هذا المحقِّقُ فتَعَقَّبَه بما قال، أو منسوبٌ له في كِتابٍ آخَرَ اطَّلَعَ عليه، وإلا فالنُّسَخُ التي بيَديَّ لِلإمامِ الشمنِّيِّ ليسَ فيها ذلك التفسيرُ.

وقال الشهابُ: قال الراغبُ[1]: و(المنفرِدُ) هوَ الفَرْدُ الذي لا يَختَلِطُ بغَيرِه، ويقالُ في الله «فَرْدٌ» تنبيهًا على أنَّه مخالِفٌ لِلأشياءِ كُلِّها، وقيلَ: مَعْناه المستغني عمّا عداه، فمَعْناه مُنْفَرِدٌ بوَحدانيَّتِه، مستَغْنٍ عَن كُلِّ تركيبٍ.

قالَ: و«منفرِدٌ» في كلامِ المصنِّفِ -رحِمَه الله- ضُبِطَ بالنونِ والتاءِ الفوقيةِ مِن بابِ الانفعالِ والتَّفعُّلِ، وفُسِّرَ أيضًا بعَدَمِ مشارَكةِ غيْرِه له في ذاتِه وصِفاتِه، قالَ: وإطلاقُه علَيْه تعالى إمّا لِثُبوتِه كَما يُشعِرُ به كلامُهم أو لِلاكتفاءِ بورودِ ما يشارِكُه في مادَّتِه ومَعْناه، أو لِجَوازِ إطلاقِ ما لا يوهِمُ نقصًا مطلَقًا، أو على سبيلِ التوصيفِ دونَ التسميةِ كَما ذَهَبَ إلَيْه الغَزاليُّ[2].

وقولُه (باسمِه): الباءُ صلةُ (المنفرِدِ)، فالباءُ إمّا لِلتعديةِ لِأنَّه يقالُ: تفَرَّدَ وانفَرَدَ بكذا إذا استَقَلَّ به، أو لِلملابَسةِ.

***

قال المصنِّفُ: (**المُخْتَصِّ بِالْمُلْكِ الأَعَزِّ الأَحْمى، الَّذي لَيْسَ دونَهُ مُنْتَهًى وَلا وَراءَهُ مَرْمًى**): فـ(المختصُّ) صِفةٌ لله كـ(المنفرِدِ)، ويَجوزُ قطعُها بالنصبِ أو الرفعِ[3]، قالَ الملا: أي المخصوصِ باختصاصِ الاستيلاءِ على البِلادِ والعِبادِ ظاهرًا وباطِنًا على الوَجْهِ الأَعَزِّ الذي لا يَحومُ

(١) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم، المعروف بالراغب الأصفهاني، اشتهر بالتفسير واللغة. أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. من كتبه «تحقيق البيان في تأويل القرآن» و«المفردات في غريب القرآن»، وهو من أهم الكتب المفسرة لألفاظ القرآن. توفي سنة ٥٠٢هـ. «معجم المفسرين» لنويهض (١/ ١٥٨)، و«الأعلام» للزركلي (٢/ ٢٥٥).

(٢) محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن أحمد الطوسي الإمام الجليل أبو حامد الغزاليُّ حُجَّة الإسلام وفخر الأنام، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الرادكاني ثمَّ قدم نيسابور واختلف إلى دروس أمام الحرمين وجدَّ في الاشتغال حتَّى تخرَّج في مُدَّةٍ قريبةٍ وصار مِن الأعيان في زمن أستاذه، له مُصنَّفاتٌ مشهورةٌ: منها: «إحياء علوم الدِّين»، و«البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز» و«الخُلاصة» وهذه الأربع في الفقه، وله «المُسْتَصْفى» في أصول الفقه و«بداية الهِدَايَة»، و«تهافت الفلاسفة»، و«جواهر القرآن»، و«المنقذ من الضلال»، وغيرها كثير وفضله وعُلاه شهير، وكانت وفاته قدَّس الله روحه بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥هـ. انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للسبكي (٦/ ١٩١)، و«الوافي بالوافيات» للصفدي (١/ ٢١١)

(٣) بالرفع خبرًا لمبتدإٍ محذوف وجوبًا لأنه لإنشاء المدح، وبالنصب مفعولاً لفعل محذوف وجوبًا أيضًا، وجملتها استئنافية على الأشهَر.

الظَّاهِرِ لَا تَخَيُّلًا وَوَهْمًا، البَاطِنِ تَقَدُّسًا لا عُدْمًا، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا،

حَوْلَه ذُلٌّ ومغلوبيةٌ لِأَنَّه في غايةِ المَنَعةِ ونهايةِ الحِمايةِ. اهـ.

وفي «الشِّهابِ»: (الأَعَزِّ) أَفعَلُ تفضيلٍ مِنَ العِزِّ والمَنَعةِ، و(الأَحْمى): أَفعَلُ تفضيلٍ مِن حَمَيْتُه حِمايةً، فهوَ مَحْمِيٌّ وحِمًى إذا صُنْتَه، والمَحْمِيُّ مَصونٌ. اهـ. و(المُلْكِ): بضمِّ الميمِ وعَلَيْه النُّسخُ المصحَّحةُ والأصولُ المعتمَدةُ، وقالَ التِّلمسانيُّ: هوَ بضَمِّ الميمِ وكسْرِها.

وقولُه (الذي ليسَ دونَه): أي قَريبٌ مِنه، (مُنْتَهَى): أي موضعُ غايةٍ ومحَلُّ نهايةٍ، فيفيدُ معنى البقاءِ، أو المرادُ أنَّه ليسَ لِلقرْبِ مِنْه نهايةٌ يُدْرِكُها أَحَدٌ ولَوْ كانَ مِن أَهْلِ غايةٍ. قالَ المُلّا: ويُلائمُه قولُه (ولا وراءَه مَرْمًى)، وهوَ مقتبَسٌ مِن قولِه ﷺ: (ليسَ وراءَ الله مَرْمًى ولا مُنْتَهًى)[1]، أي ليسَ غَيْرَه أو بَعْدَه مقصدٌ لِلوَرى، قالَ: وفي «النهايةِ»: أي ليسَ بَعْدَ الله لِطالبٍ مَطْلَبٌ. اهـ.

والأظهَرُ أنَّ (دونَ) بمعنى «غَير»، والمعنى -كَما أفادَه الشمنِّيُّ- أنَّه تعالى ليسَ في جِهةٍ ولا حَيِّزٍ ولا مسافةٍ وامتدادٍ، لِأنَّ كُلَّ ذي جِهةٍ ومسافةٍ لِلقُرْبِ مِنْه نهايةٌ، وليسَ لِلقُرْبِ مِنْه تعالى نهايةٌ؛ فلَيسَ في جِهةٍ، فهوَ مِن بابِ نَفْيِ الشيءِ بنَفْيِ لازمِه.

***

قالَ المصنِّفُ (**الظاهرِ لا تَخَيُّلًا ووَهْمًا**): أي الظاهرِ بالأدلّةِ الدالّةِ على وُجودِه، وكَمالِ كَرَمِه وَجودِه، يَقينًا وقَطْعًا، (**لا تَخَيُّلًا**): أي لا ظَنًّا بالقوّةِ الخياليةِ، (**ووَهْمًا**): بسكونِ الهاءِ، قالَ ملا قاري: أي ولا وَهْمًا كَما [في] نسخةٍ مصحَّحةٍ، ولا غَلَطًا بالقوّةِ الوهميةِ.

***

قالَ المصنفُ: (**البْاطِنِ تَقَدُّسًا لا عُدْمًا**): وفي نسخةٍ «والباطِنِ»، أي باعتبارِ ذاتِه فلا يُدْرَكُ كُنْهُه، (**تَقَدُّسًا**): أي تَنَزُّهًا، فإنه -كَما قالَ الغزاليُّ وغيرُه- كُلُّ ما خطَرَ ببالِكَ فاللهُ وراءَ ذلك، و(**عُدْمًا**): بضمٍّ فسكونٍ، وفي «الصِّحاحِ»: عَدِمْتُ الشيْءَ عُدْمًا وعَدَمًا؛ بالتحريكِ على غيرِ قياسٍ: فَقَدْتُه، إذْ لا يَقتضي عَدَمُ ظهورِه نَفْيَ وُجودِه ونورِه لِأنَّه قَدْ ثَبَتَ بالدليلِ القطعيِّ قِدَمُه، وما ثَبَتَ قِدَمُه استحالَ عَدَمُه، و«تَقَدُّسًا» و«عُدْمًا» مَنصوبانِ على التمييزِ.

***

قالَ المصنِّفُ (**وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحمةً وعِلْمًا**): أي أَحاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمُه ورحمتُه، فلا يَستغني شيْءٌ عَن رحمتِه إيجادًا وإمدادًا، وهوَ اقتباسٌ مِن قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (رقم ٩) بلاغًا، ولم يسنده ابن عبد البر. وأخرجه البزّار كما في «كشف الأستار» (رقم ٣٢٠٣) من حديث عبدالرحمن بن عوف مرفوعًا. وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ١٨٨): «رواه البزّارُ، وفيه نُعَيْمُ بنُ مُوَرِّعٍ، وهو ضَعِيفٌ». والحديث عند مالك والبزار دون قوله: «ولا منتهى».

وَأَسْبَغَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ نِعَمًا عُمًّا، وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْفَسَهُم عُرْبًا وَعَجَمًا، وَأَزْكَاهُمْ مَحْتِدًا وَمَنْمًى، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَحِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعَزْمًا، وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً وَرُحْمًا،

قال المصنفُ (**وَأَسْبَغَ عَلى أَوْليائِهِ نِعَمًا عُمًّا**): قال القاريُّ: أي أَكْمَلَ بالرحمةِ الخاصّةِ والعِلمِ المختَصِّ بالهدايةِ، (**على أوليائه**): أي المؤمنينَ على قَدْرِ كَمالاتِهم ومَراتِبِ حالاتِهم. و(**نِعَمًا**): بكسرٍ ففتْحٍ جمعُ «نعمةٍ»، وفي نسخةٍ بضمٍّ فسكونٍ مقصورًا؛ لُغةٌ في النِّعمةِ لَكِنَّه غيرُ مُلائمٍ لِقولِه «عُمًّا». و(**عُمًّا**): -بضمِّ المهمَلةِ وتشديدِ الميمِ- جمعُ «عَميمةٍ»، وهيَ العامّةُ الشاملةُ التامّةُ.

ولِلعلّامةِ الرَّمليِّ في حاشيتِه هُنا: (**عُمًّا**) -بضمِّ العينِ وتشديد الميمِ- أصلُها «عُمُمًا» جمعُ «عَميمٍ»، كسريرٍ وسُرُرٍ، ورَغيفٍ ورُغُفٍ. اهـ. ولِلمحقِّقِ الشِّهابِ: (**عُمًّا**) إمّا منَوَّنٌ أو غيرُ مُنَوَّنٍ مقصورًا، وإنَّه يَجوزُ فيه أنْ يَكونَ جَمْعًا ومُفْرَدًا بمعنى «عَظيمةٍ»، أو عميمةٍ شامِلةٍ، و«الوَلِيُّ» مِن الموالاةِ، وهيَ الاتصالُ والقُرْبُ، ويَكونُ ذلك في النَّسَبِ والدِّينِ والصَّداقةِ والنُّصرةِ، ولَه معنًى يَعُمُّ كُلَّ مؤمِنٍ، وآخَرُ يَختَصُّ بمَنْ أَخْلَصَ لله فوَلّاه أمْرَه، وأَخَصُّ مِنه وهوَ مَن أفاضَ اللهُ عليْه ما فَضَّلَه به على غيْرِه مِن أسرارٍ ومَعارِفَ إلهيّةٍ أَنارَ بها بصيرتَه حَتّى شاهَدَ صُنْعَه، وانكشَفَ لِنَفْسِه القُدسيةِ خَفايا المُلْكِ والمَلَكوتِ، وهيَ مَرْتَبةٌ جَليةٌ. اهـ.

***

ولَمّا كانَتْ بَعثةُ الرُّسُلِ أَجَلَّ النِّعَمِ، وأَجَلُّها بَعثةَ خاتَمِ الرسُلِ عَطَفَ على قولِه «أَسْبَغَ» قولَه: (**وبَعَثَ فيهم رَسولًا مِن أنفُسِهم أَنْفَسَهم عُرْبًا وعَجَمًا وأَزْكاهم مَحْتِدًا ومَنْمًى**)، فقولُه (**مِنْ أَنْفُسِهم أَنْفَسَهم**): الأوَّلُ بضَمِّ الفاءِ، أي مِن جِنْسِ العَرَبِ والبشرِ دونَ المَلَكِ، والثاني بفتحِ الفاءِ، أي أشرَفَهم وأعظَمَهم في نفوسِهم، فالأَوَّلُ جَمْعُ «نَفْسٍ» بسكونِ الفاءِ، والثاني أفعَلُ تفضيلٍ مِنَ النَّفاسةِ، قالَ العلّامةُ الرَّمليُّ: ومِنْه قولُه ﷺ لَمّا سُئِلَ: أيُّ الرِّقابِ أفضَلُ؟ قالَ: (أنفَسُها عِندَ أهلِها)[1] أي أفضَلُها.

و(**مَحْتِدًا**): -بفتحِ الميمِ وكسرِ التاءِ الفوقيةِ والدالِ المهمَلةِ- الأصلُ، أي أزْكاهم أصْلًا، يقالُ «فُلانٌ مِن مَحْتِدِ صِدْقٍ» أي أصلٍ، و(**مَنْمًى**): -بفتحِ الميمِ وإسكانِ النونِ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى النُّموِّ- أي زيادةً.

***

قالَ المصنِّفُ: (**وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَحِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعَزْمًا، وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً وَرُحْمًا**): (**أَرْجَحَهم**) بالنصْبِ عطفًا [على] (أنفَسَهم) الثاني، أي أَرْزَنَهم، (**عَقْلًا**): أي تَعَقُّلًا، (**وحِلْمًا**): أي تَحَلُّمًا.

ولله دَرُّ زُهَيرٍ حيثُ قالَ حينَ جاءَ تائبًا مَعَ أهلِ قبيلتِه هَوازِنَ بَعْدَ أَخْذِ سَباياهم، فَرَدَّ ﷺ عَلَيْه وعلى أهلِ قبيلتِه ما أُخِذَ مِنهم مِن السَّبايا وغيرِها، ولَفْظُه -كَما في «المَواهِبِ»[2]-:

---

(١) متفقٌ عليه أخرجه مُطَوَّلاً البخاريُّ (رقم ٢٥١٨)، ومسلمٌ (رقم ٨٤)، وغيرهما من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) المواهب اللدنية [الفصل العاشر: في ذكر من وفد عليه ﷺ وزاده فضلا وشرفا لديه].

زَكَّاهُ رُوحًا وَجِسْمًا، وَحَاشَاهُ عَيْبًا وَوَصْمًا، وَآتَاهُ حِكْمَةً وَحُكْمًا،

أُمْنُنْ عَلَيْنا رَسولَ الله في كَرَمٍ * فإنَّكَ المَرْءُ نَرْجوهُ ونَدَّخِرُ
أُمْنُنْ على بَيْضةٍ قَدْ عاقَها قَدَرٌ * مُشَتَّتٌ شَمْلُها في دَهْرِها غيَرُ
إنْ لَمْ تَدارَكْهُمْ نَعْماءُ تَنْشُرُها * يا أَرْجَحَ النّاسِ حِلْمًا حينَ يُخْتَبَرُ[1]

(وأَوْفَرَهم): أي أَتَمَّهم (عِلْمًا وفَهْمًا) وفي نسخةٍ بالعكسِ رِعايةً لـ«حِلْمًا»، والفَهْمُ هوَ العِلْمُ، أو سُرعةُ إدراكِ الشيْءِ، والحَملُ على المعنى الثاني أَوْلى.

و[قوله (وَأَقْواهُمْ يَقينًا وَعَزْمًا)]: اليقينُ إتقانُ العِلْمِ بنَفْيِ الشُّبَهِ عَنْه. قالَ المحَقِّقُ الشِّهابُ: والعَزْمُ والعزيمةُ عَقْدُ القلبِ على إمضاءِ الأمرِ لِقوّةِ البَأسِ في تنفيذِ أوامِرِ الله وتَبليغِ شَريعتِه، ولا يَجوزُ إطلاقُهُ على الله، قالَ: والعَرَبُ تَتَمَدَّحُ بقوَّتِه لِدَلالتِه على قوّةِ الطبيعةِ وعَدَمِ التزلزُلِ في الرأيِ والتدبيرِ.

وقوله (وأَشَدَّهم رأفةً ورُحْمًا): «الرُّحْمُ» -بضَمِّ الراءِ وسكونِ الحاءِ- الرحمةُ، قالَ: يقالُ «رَحِمَه رَحمةً ورُحْمًا» وكـ«رُجْعى»، فهو هنا منصوبٌ أو مقصورٌ، والرحمةُ الشفَقةُ، والرأفةُ بمَعْناه؛ فهوَ توكيدٌ أو عطفُ تفسيرٍ، وقيلَ الرأفةُ أَخَصُّ لِأنّها أَشَدُّ الرحمةِ ولِكَونِ الباري جَعَلَه أَكمَلَ العالَمينَ.

لِذا قالَ المصنِّفُ: (**زَكّاهُ روحًا وَجِسْمًا، وَحاشاهُ عَيْبًا وَوَصْمًا، وَآتاهُ حِكْمةً وَحُكْمًا**): (زَكّاه) -بالتشديدِ- طَهَّرَه، و(روحًا وجِسْمًا) بَدَلانِ مِن الضميرِ، قالَ المُلّا: فإنَّه عَيْنُهما لا غيرُهما على خِلافِ التمييزِ، قالَ: وإيرادُ هذه الفِقرةِ بلا عاطفٍ دونَ ما قبْلَها لِكَمالِ الانقطاعِ بَيْنَهما لِاختلافِهما ثُبوتًا وسَلْبًا. قالَه دلجيٌّ[2]. قال: وهوَ وهَمٌ مِنه وغفلةٌ صدَرَتْ عَنْه؛ لِأنَّ هذا الكلامَ إنّما يَصِحُّ لوْ عَطَفَ في (زَكّاه)، وتَرَكَ العطفَ في (حاشاه). اهـ، وهوَ كلامٌ ظاهرٌ.

و(**حاشاه**): بَرَّأَه، (**عَيْبًا ووَصْمًا**): أي عارًا كما في «القاموسِ»؛ فالوَصْمُ -بفتحِ الواوِ وسكونِ الصادِ المهمَلةِ- العَيبُ والعارُ، كما في «الصِّحاحِ» أيضًا، ولله دَرُّ صاحبِ الهَمْزيةِ[3]؛ حيثُ قالَ:

خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِن كُلِّ عَيْبٍ * كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَما تَشاءُ

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في معاجمه الثلاثة: الكبير (٥/ ٢٦٩)، والأوسط (رقم ٤٦٣٠)، والصغير (رقم ٦٦١) من حديث زهير ابن صردٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وله شاهدٌ مِن حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (ص ١١٦)، والبيهقيُّ في «الدلائل» (٥/ ١٩٤) وغيرهما. وحسَّنه الحافظ ابن حجرٍ كما في «لسان الميزان» (٥/ ٣٢٤).

(٢) شمس الدِّين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الدَّلجيُّ العثمانيُّ الشافعيُّ الإمام العلاَّمة، وُلِد سنة ٨٦٠هـ بدَلْجة، وأخذ عن البرهان البقاعيِّ، والحافظ برهان الدِّين النَّاجي، والقطب الخيضريِّ، والشمس السّخاويِّ وغيرهم، وله شروحٌ على «الخزرجية» و«الشِّفا» للقاضي عياض، و«الأربعين النواوية»، وغيرها وأخذ عنه جماعةٌ، منهم النَّجم الغيطي، تُوفِّي سنة ٩٤٧هـ. انظر: «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» للغزي (٢/ ٦)، و«الشذرات» (١٠/ ٣٨٦).

(٣) ليس المقصود همزية البوصيري، بل قصيدة سيدنا حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الهمزية، القائل فيها:
وأَحْسَنُ مِنك لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْني * وأَجمَلُ منك لم تَلِدِ النِّساءُ

و(عَيْنًا ووَصْمًا): منصوبانِ على نَزْعِ الخافضِ، و(آتاه): -بالمدِّ- أي أَعطاه (حِكمةً وحُكْمًا)، وفي الشمنيِّ: «الحِكمةُ» عِلْمُ الشرائعِ، وقيلَ: كُلُّ كَلامٍ وافَقَ الحَقَّ، و«الحُكْمُ» -بضمِّ المهمَلةِ- القَضاءُ. انتهى.

***

قالَ المصنِّفُ: (وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وآذانًا صُمًّا): أي فَتَحَ اللهُ بسَبَبِه عَيْنًا عَمْياءَ عَنْ رؤيةِ الحَقِّ وطريقِ الرَّشادِ، و(عُمْيًا): -بضمٍّ فسكونٍ- جَمْعُ «عَمْياءَ» -بفتحٍ فسكونٍ فمَدٍّ بَعْدَ الياءِ.

و«القلوبُ» جَمْعُ «قَلْبٍ»، وهوَ العُضوُ المعروفُ، وقدْ يُرادُ به العَقْلُ، قالَ المحقِّقُ الشِّهابُ: وهوَ الظاهرُ هُنا؛ لِقَوْلِه (غُلْفًا) -بضمِّ الغَينِ المعجَمةِ وسكونِ اللامِ، جمعُ «أَغْلَفَ» بمعنى ذي غِلافٍ وغِطاءٍ، فهيَ مُغَطّاةٌ في أَكِنّةٍ، و«الآذانُ» -بالمَدِّ- جمعُ «أُذُنٍ» بضمتينِ وتُسَكَّنُ تخفيفًا، و(صُمًّا): -بالضمِّ ثُمَّ التشديدِ؛ جمعُ «صَمّاءَ»، كـ«عُمْيٍ»، لا «أَصَمَّ»- أي لا تَسمَعُ النصيحةَ.

***

قالَ المصنف: (فَآمَنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعادةِ قِسْمًا): (عَزَّرَه): -بمهمَلةٍ مفتوحةٍ فزايٍ مشدَّدةٍ فراءٍ- أي وَقَّرَه وعَظَّمَه. أفادَه الشمنيُّ، و(قِسْمًا): -بكسرٍ فسكونٍ- أي حَظًّا ونَصيبًا.

قالَ المصنف: (وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آياتِهِ): (كَذَّبَ): -بالتشديدِ- أي كَفَرَ، و(صَدَفَ): -بالدالِ المهمَلةِ المخفَّفةِ والفاءِ- أي أَعرَضَ (مَنْ كَتَبَ اللهُ عليْه الشقاءَ حَتْمًا)، و(حَتْمًا): -بفتحِ الحاءِ فسكونِ الفوقيةِ مُنَوَّنًا- أي لازمًا لِسَبْقِ قضائِه به؛ ولِذا قالَ المصنِّفُ: (وَمَنْ كانَ فِي هذه أَعْمى فهوَ فِي الآخِرةِ أَعْمى) أيْ عَن طريقِ النَّجاةِ.

***

قالَ المصنفُ: (ﷺ صَلاةً تَنْمو وَتُنْمى): (تَنْمو): -بفتحِ فسكونٍ؛ مِن النُّموِّ- أي تَزيدُ دائمًا، و(تُنْمى): -بصيغةِ المجهولِ؛ مِن الإنماءِ- أي يَزيدُ اللهُ فيها. قالَ الملّا: وهذه هي النسخةُ المصحَّحةُ، قالَ: وفي بعضِ النُّسَخِ بَدَلَ (تنمو) «تَنمي»، وغالبُ النُّسَخِ بالواوِ؛ وإنْ كانَ الجِناسُ المستحسَنُ بالياءِ. انتهى.

قالَ الشِّهابُ: موجودٌ في أكثرِ النُّسَخِ (وسَلِّمْ تسليمًا) بصيغةِ الماضي أو الأمرِ، وقدْ سَقَطَ ذلك مِن بَعْضِها كَما في بعضِ الشروحِ، قالَ: وهوَ يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ تسليمًا على مَن ذُكِرَ قَبْلَه تأكيدًا له بحَسَبِ المَعنى بِفِعْلِه ومَصْدَرِه أو لِقَوْلِه (وعلى آلِه) بعَطْفِه على صِلةِ الصلاةِ السابقةِ على السَّلامِ.

***

وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وآذَانًا صُمًّا،

فَآمَنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْمًا،

وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آيَاتِهِ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا،

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى.

ﷺ صَلاةً تَنْمُو وَتُنْمَى، وَعَلَى آلِهِ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ، أَشْرَقَ اللهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ، وَلَطَفَ لِي وَلَكَ بِمَا لَطَفَ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ،

قال المصنف: (أَمَّا بَعْدُ): أتى بها اقتداءً به ﷺ؛ فإنَّه كانَ يأتي بها في خُطَبِه ومراسَلاتِه، كقولِه في خطابِه للنجاشيِّ (أمَّا بعدُ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ)[1] كما في «المَواهبِ»، وما قيلَ أنَّ أوَّلَ مَنْ تكلَّمَ بها سَحْبانُ[2] -بَليغٌ يُضْرَبُ به المَثَلُ- ففيه نَظَرٌ لِما عَلِمْتَ مِن أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقولُها في خُطَبِه وهوَ قَبْلَ سَحْبانَ بالإجماعِ؛ لِأنَّه كانَ في زَمنِ معاويةَ، ويَبْعُدُ أنْ يُقالَ: إنَّ ذلك لِما بَعْدَ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الصَّحْبَ كانوا في غايةِ شِدَّةِ الحِرْصِ في التأسّي به ﷺ، فلا يَتركونُها في خُطَبِهم بَعْدَما سَمِعوها مِنْه.

وقولُه: (أَشْرَقَ اللهُ... إلى آخِرِه): أي أَضاءَ ونَوَّرَ، ويُستعمَلُ لازِمًا كقولِه تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ [الزمر: ٦٩]، ومُتَعَدِّيًا كَما هُنا؛ إمّا لِتَضَمُّنِه «أضاءَ» أو «صَيَّرَ».

وقال: (ولَطَفَ لي ولَكَ): قال المُلّا: باللامِ فيهما على الأصولِ المصحَّحةِ لا بالباءِ الموحَّدةِ. انتهى، قلتُ: ويَشْهَدُ القرآنُ لِكُلٍّ: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ فيَتَعَدّى لِمَفعولِه باللامِ والباءِ.

وقولُه: (بِما لَطَفَ بأوليائِه): أي بِمِثْلِ ما، وفي نسخةٍ «كَما لَطَفَ بأوليائِه»، وفي نسخةٍ صحيحةٍ «بِما لَطَفَ لِأوليائِه»، فـ«ما» موصولةٌ، وفي نسخةٍ «لِعِبادِه»، و(لَطَفَ) بفتحِ الطاءِ، مِن اللُّطْفِ بمعنى الرِّفْقِ والرأفةِ، وفي «الصِّحاحِ» بمَعنى التوفيقِ والعِصمةِ، وأمّا بالضمِّ فمَعْناه «دَقَّ وصَغُرَ»، و(المُتَّقينَ): جَمعُ «مُتَّقٍ»، ومَراتِبُه ثَلاثةٌ:

- تَقْوى الشِّرْكِ وهوَ يَعُمُّ المؤمنينَ،

- وتَقْوى الخاصّةِ وهوَ -كَما قالَ الجُنَيْدُ[3]- أنْ لا يَراكَ حيثُ نَهاكَ، ولا يَفْقِدُكَ حَيثُ أَمَرَكَ،

- وتَقْوى خَواصِّ الخَواصِّ تَقوى الأغيارِ، كقَوْلِ سلطانِ العاشِقينَ ابنِ الفارِضِ[4]:

---

(١) ذكره ابن إسحاق في «سيرته» (ص ٢٢٨)، ومن طريقه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٢٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٠٨).

(٢) سَحْبان بن زفر بن إياس الوائلي الباهليُّ: كان خطيبًا بليغًا يُضرب المَثل بفصاحته، يقال: «أخطب من سَحْبان» و«أفصح من سَحْبان». اشتهرَ في الجاهليَّة وعاشَ زمنًا في الإسلام. وكان إذا خطبَ يسيل عرقًا، ولا يعيد كلمة، ولا يتوقَّف ولا يقعد حتى يفرغ. أسلم في زمن النبيِّ ﷺ ولم يجتمع به. وقد ورد أنه توفِّي سنة ٥٤هـ. انظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (٥/ ٢٨٣)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٨/ ٧١)، و«الأعلام» للزركلي (٣/ ٧٩).

(٣) الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، ثم البغدادي القواريري. هو شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين وتفقه على أبي ثور، وسمع من السري السقطي وصحبه، وصحب أيضا الحارث المحاسبي وأبا حمزة البغدادي، وأتقن العلم، ثم أقبل على شأنه، وتأله وتعبد، ونطق بالحكمة. كان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي سنة ٢٩٧هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء/ الطبقة السادسة عشر».

(٤) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض: سيِّد شُعراء عصره ويُلقَّب بسلطان العاشقين. وُلِدَ في=

الَّذِينَ شَرَّفَهُم بِنُزُلِ قُدُسِهِ، وَأَوْحَشَهُمْ مِنَ الخَلِيقَةِ بِأُنْسِهِ، وَخَصَّهُمْ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمُشَاهَدَةِ عَجَائِبِ مَلَكُوتِهِ وَآثَارِ قُدْرَتِهِ بِمَا مَلأَ قُلُوبَهُمْ حَبْرَةً،

وإنْ خطَرَتْ لي في سِواكَ إرادةٌ * على خاطِري يَوْمًا حَكَمْتُ بِرِدَّتي

وقوله: (**الذينَ شَرَّفَهم بنُزُلِ قُدُسِه**): وفي نسخةٍ بزيادةِ لَفظِ الجلالةِ، و(نُزُلِ قُدُسِه): بضمتينِ ويُسكَّنُ الثاني فيهما، و«النُّزُل» ما يُهَيَّأُ لِلضيفِ مِن الكرامةِ لِأُنْسِه، قالَ المُلّا: وفي نسخةٍ «بِنورِ قُدُسِه» وهوَ أَظْهَرُ مَعنًى؛ لِأنَّ المرادَ به وبِما بَعْدَه مَقاماتُ العارِفينَ في الدنيا.

قوله: (**وأَوْحَشَهم**): مِن الوَحْشةِ، وقوله: (**مِنَ الخَليقةِ**): وفي نسخةٍ «مِن بَيْنِ الخَليقةِ»، (**بأُنْسِه**): لِأنَّ الاستئناسَ بالناسِ مِن عَلامةِ الإفلاسِ، ولِلسيِّدةِ رابعةَ العَدَويةِ[1]:

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ في الفُؤادِ مُحَدِّثي * وأَبَحْتُ جِسْمي مَنْ أَرادَ جُلوسي

فالجِسْمُ مِنّيَ لِلجَليسِ مُؤانِسٌ * وحَبيبُ قَلْبيَ في الفُؤادِ أَنيسي

قولُه: (**وخَصَّهم مِن مَعْرِفَتِه**): وفي نسخةٍ «بِمَعْرِفَتِه»، والمَعْنى على الأولى: جَعَلَهم أَهْلَ الخُصوصِ مِن أَجْلِ مَعرِفَتِه، وعلى الثانيةِ: جَعَلَهم مخصوصينَ بها بحيثُ لا يَلتَفِتونَ إلى مَعرِفةِ غيْرِه. وقوله: (**ومُشاهَدةِ عَجائبِ مَلَكوتِه**): «فَعَلوتٌ» مِن المُلْكِ بزيادةِ الواوِ والتاءِ لِلمبالَغةِ، وإذا اجتمَعَ المُلْكُ والمَلَكوتُ لَفْظًا خُصَّ الأَوَّلُ بعالَمِ الظُّهورِ، والثّاني بعالَمِ الخَفاءِ.

قولُه: (**حَبْرةً**): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ، وسكونِ الباءِ الموحَّدةِ- أيْ مَسَرّةً؛ مِن الحُبورِ وهو السرورُ. قالَ المُلّا: «وما ذكَرَه التِّلِمْسانيُّ[2] مِن أنَّه يقالُ بفتحِ الحاءِ والموحَّدةِ وتسكينِها؛ فوهَمٌ؛ لِأنَّ الفتحَ[3] إنَّما جاءَ بدونِ التاءِ -على ما في «القاموسِ»».

=ذي القعدة سنة ٥٧٦هـ، ونشأ في بيت علم ووَرَع. ولمّا شَبَّ اشتغلَ بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذريُّ وغيره. ثُمَّ حُبِّب إليه سلوك طريق الصوفية، فتزهَّد وتجرَّد، وذهب إلى مكَّة في غير أشهر الحجِّ، فكان يُصَلِّي بالحرم، ويُكثر العزلة في وادٍ بعيدٍ عن مكة، وفي تلك الحال نَظَمَ أكثر شعره. وعادَ إلى مصر بعد خمسة عشر عامًا، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر، وقصده الناسُ بالزِّيارة، ووقع الخلاف عليه، وأكثر أهل العلم على تعظيمه واعتقاد الولاية فيه، تُوفِّي في ثالث جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ. انظر: شذرات الذهب (٧/ ٢٦١)

(١) رابعة بنت إسماعيل أم الخير، مولاة آل عتيك، العدوية البصرية العابدة المشهورة، ذكرها أبو نعيم في «الحلية والرسائل»، وابن الجوزي في «صفوة الصَّفْوَة»، والشيخ شهاب الدين السهروردي في «المعارف»، والقشيري. وَأَثْنَى عَلَيْهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، وقد ذكروا لها أحوالًا وأعمالًا صالحةً، ورُئيت لها منامات صالحة. توفِّيت بالقدس الشريف سنة ١٥٣هـ، وقيل ١٨٥هـ. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١١/ ١١٧) و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٤/ ٣٧)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٢٠١).

(٢) محمد بن علي بن أبي الشرف الحسني التلمساني، أبو عبد الله: أخذ عن ابن غازي والمواق والدقون، له شرح كتاب «الشفا»، سمّاه «المنهل الأصفى في شرح ما تمس الحاجة اليه من ألفاظ الشفا» في مجلدين، قال في «كشف الظنون»: وهو من أجود شروحه، فرغ منه يوم الاثنين رابع عشر من صفر سنة ٩١٧. توفِّي سنة ٩٢١ رحمه الله. انظر: شجرة النور الزكية (١/ ٤٠٠)، والأعلام للزركليِّ (٦/ ٢٨٩) ومعجم أعلام الجزائر (١/ ٧٩).

(٣) أي فتح الباء.

وَوَلَّهَ عُقُولَهُمْ فِي عَظَمَتِهِ حَيْرَةً، فَجَعَلَ هَمَّهُمْ بِهِ وَاحِدًا، وَلَمْ يَرَوْا فِي الدَّارَيْنِ غَيْرَهُ مُشَاهَدًا؛ فَهُمْ بِمُشَاهَدَةِ جَمالِه وَجَلَالِهِ يَتَنعَّمُونَ، وَبَيْنَ آثَارِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ عَظَمَتِهِ يَتَرَدَّدُونَ، وَبالانْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالتَّوكُّلِ عَلَيْهِ يَتَعَزَّزُونَ، لَهِجِينَ بِصَادِقِ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]،

وقولُه: (ووَلَّه عقولَهم): «ولَّهَ» بالتشديد، أيْ جعلَها والِهةً بتَفكُّرِها. وقولُه: (في عَظَمَتِه) وفي نُسخةٍ «مِنْ عَظَمَتِه»، وقولُه: (حَيْرَةً): أيْ ذاتَ تحيُّرٍ بما غَشَّاها مِن ضياءِ جَمالٍ وبَهاءِ كَمالٍ؛ وفي نُسْخةٍ «ووَزَرَ عُقولَهم»: أيْ تركَها مُتحَيِّرةً؛ ولا يَخفى الجِناسُ بينَ «حَيْرةً» و«حَيْرةً»!!

قولُه: (فجَعَلَ هَمَّهم به): أيْ باللهِ؛ قائمينَ بحُقوقِ أُلوهيَّتِه، ووَظائفِ عُبوديَّتِه. وقولُه: (واحِدًا): أيْ همًّا واحدًا؛ إشارةً إلى قولِه ﷺ (مَنْ جَعَلَ الهُمومَ همًّا واحِدًا؛ كَفاهُ اللهُ هَمَّ الدنيا والآخرةِ)[1]، والمُرادُ بالهَمِّ هُنا القَصْدُ والعَزْمُ.

وقولُه: (مُشاهَدًا): -بضمِّ الميمِ وفتحِ الهاءِ- أيْ مَشْهودًا؛ وفي هذا المَعْنى قالَ بَعْضُ أهْلِ الوَلَهِ: «أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا». قالَ المُلّا: وفي نُسخةٍ بكَسْرِ الهاءِ، وهوَ لَطيفٌ جِدًّا موافِقٌ لِلَفْظِ «واحدًا»؛ فإنّه يُفيدُ بانضِمامِ الفتحِ لِأربابِ الفتوحِ، أنّه شاهِدٌ ومَشهودٌ، كَما أنّه حامدٌ ومحمودٌ.

وقولُه: (فَهُمْ بِمُشاهَدةِ جَمالِه وجَلالِه يَتَنعَّمونَ) -وفي أصلِ التلمسانيِّ «يتمتَّعون»- والمَعْنى أنَّهم بمُطالَعةِ صفاتِ إنعامِ وَلائِه، ونُعوتِ بَلائِه وابتِلائِه؛ يَتَلَذَّذونَ، فاسْتَوى عِندَهُمُ المِنْحةُ والمِحنةُ في ثُبوتِ كَمالِ المَحبّةِ؛ وفي هذا المَعْنى قالَ بعضُ أربابِ الكَمالِ:

وَلَيْسَ لي في سِواكَ حَظٌّ * فكَيْفَما شِئْتَ فاختَبِرْني

قالَ المُلّا: وفي كَثيرٍ مِنَ النُّسَخِ المُصَحَّحةِ «كَمالِه» بَدَلَ «جَمالِه»، وهوَ غَيْرُ مُلائمٍ لِمُقابِلِه؛ لِأنَّ الكَمالَ هوَ الجَمْعُ بَيْنَ الجَمالِ والجَلالِ.

قولُه: (والتَّوكُّلِ عَلَيْهِ يَتَعَزَّزونَ): حَقيقةُ التَّوكُّلِ الاعتِمادُ على اللهِ، مَعَ السَّبَبِ؛ ألا تَرى إلى قولِه ﷺ: (لَوْ تَوَكَّلْتُمْ على اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِه لَرَزَقَكُم كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدو خِماصًا وتَروحُ بِطانًا)[2] فغُدُوُّها ورَواحُها تَسَبُّبٌ. وقولُه (يَتَعَزَّزونَ): أيْ لا يَرْفَعونَ قَصْدَهم لِسِواهُ.

وقولُه: (لَهِجِينَ بِصادِقِ قَوْلِه: «قُلِ اللهُ...»): (لَهِجينَ): -بفَتْحٍ فكَسْرٍ- أيْ مواظِبينَ مُتَمَسِّكينَ بِصادِقِ قَوْلِه؛ مِنْ إضافةِ الصفةِ لِلموصوفِ؛ أيْ بقَوْلِه الصادِقِ المُطابِقِ (قُلِ اللهُ): أيْ مَوجودٌ أوْ مَعْبودٌ؛ أوْ لَيسَ في الكَوْنِ سِواه، وقولُه (ثُمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبونَ): أيِ اترُكْ أَهْلَ اللهْوِ واللَّعِبِ والاشتِغالِ بِما لا يَعْنيهم ولا يَجْمَعُهم على رَبِّهِم.

***

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٤٣) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبيُّ.

(٢) أخرجه أحمد (رقم ٢٠٥)، وعبد بن حميد (رقم ١٠)، والترمذيُّ (رقم ٢٣٤٤)، وابن حِبَّان (رقم ٧٣٠)، والحاكم (٤ / ٣١٨)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصحَّحه الترمذيُّ والحاكم.

فَإِنَّكَ كَرَّرْتَ عَلَيَّ السُّؤَالَ فِي مَجْمُوعٍ يَتَضَمَّنُ التَّعْرِيفَ بِقَدْرِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ تَوْقِيرٍ وَإِكْرَامٍ، وَمَا حُكْمُ مَنْ لَمْ يُوفِ وَاجِبَ عَظِيمِ ذَلِكَ الْقَدْرِ، أَوْ قَصَّرَ فِي مَنْصِبِهِ الْجَلِيلِ قُلَامَةَ ظُفْرٍ، وَأَنْ أَجْمَعَ لَكَ مَا لِأَسْلَافِنَا وَأَئِمَّتِنَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَقَالٍ، وَأُبَيِّنَهُ بِتَنْزِيلِ صُوَرٍ وَأَمْثَالٍ. فَاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّكَ حَمَّلْتَنِي مِنْ ذَلِكَ الْقَدْرِ أَمْرًا إِمْرًا،

وقولُه: (**فإنَّكَ كَرَّرْتَ عَلَيَّ السؤالَ**): جوابُ (أمّا)؛ قالَ الشِّهابُ: «والخِطابُ لِسائلٍ مُعينٍ محققٍ سألَه، أوْ لِغيرِ مُعيَّنٍ -مفروضٍ- والجملةُ الدعائيّةُ معترِضةٌ بَيْنَهما».

قولُه: (**في مجْموعٍ يتضمَّنُ التعريفَ بقدْرِ المصطفى ﷺ**): أيْ بتعظيمِه؛ لقولِه تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ قالَ المُلّا: «وتَوهَّمَ الحَلَبيُّ[1] أنَّ المرادَ بالقَدْرِ المِقدارُ، فقالَ: لَوْ قالَ: (ببعْضِ قَدْرِه) لَكانَ أحْسَنَ» اهـ.

و(**المصطفى**): المختارُ المجتبى؛ وفي هذا إشارةٌ لِحديثِ (إنَّ اللهَ اصطفى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفى قريشًا مِن كنانةَ، واصطفى مِن قريشٍ بَني هاشمٍ، واصطفاني مِن بَني هاشمٍ، فأنا خيارٌ مِن خيارٍ مِن خيارٍ)[2].

قولُه: (**وما يَجِبُ له مِنْ تَوْقيرٍ وإكرامٍ**): أيْ وَيتضمَّنُ بيانَ ما يجبُ مِن تعظيمٍ واحترامٍ.

قولُه: (**وما حُكْمُ مَنْ لَمْ يوفِ واجِبَ عَظيمِ ذلك القَدْرِ**): (يوفِ) -بالتخفيفِ، ويَجوزُ التشديدُ- أيْ مَن لمْ يُكمِلْ.

وقولُه (**ذلك القَدْرِ**): قال الشهابُ: «أيْ مقامِه الشريفِ»؛ وإضافةُ «واجبِ» لـ«عظيمِ» لاميّةٌ؛ والمُرادُ بعَدَمِ توْفيةِ حقِّه تَرْكُ ما حَقُّه أنْ يُذكَرَ كلُّه أو بعضُه؛ والتقصيرُ تَرْكُ ذِكرِه على عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ بـ«أوْ»، وتأباهُ النُّحاةُ[3].

قولُه: (**قُلامةَ ظُفْرٍ**): -بِضَمٍّ فسُكونٍ- قالَ المُلّا: «واختيرَ للسجعِ؛ وإلّا فبضمَّتَيْنِ هوَ الأفصحُ»، قالَ: «ويَجوزُ كَسْرُ الظاءِ وسكونُ الفاءِ»؛ والقُلامةُ: -بالضَّمِّ- ما يَسقطُ مِن الظُّفرِ؛ وهوَ كِنايةٌ عَنِ الشيءِ اليسيرِ.

قولُه (**بتنزيلِ صوَرٍ وأمثالٍ**): أيْ بِتَصَوُّرِ مَسائلَ، وتقريرِ محامِلَ يَزولُ به الإشكالُ؛ إيضاحًا لِلمعنى، وإيصالًا إلى الذِّهْنِ في المَبْنى.

قولُه: (أكْرَمَكَ اللهُ): أيْ كَما قَصَدْتَ إكرامَ النبيِّ ﷺ.

قولُه: (**حَمَّلْتَني**): -بتشديدِ الميمِ- أيْ كلَّفْتَني، وقولُه (**مِنْ ذلكِ الأمرِ**): أيِ الأمرِ الّذي سألْتَني. وقولُه (**أَمْرًا إمْرًا**): -الأوّلُ بفتحِ الهمزةِ، والثاني بكسرِها- أيْ أمْرًا شاقًّا، وأمّا قولُه تعالى ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] أيْ: عَجَبًا، أوْ مُنْكَرًا.

---

(١) هو علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين أصله من حلب، ومولده ووفاته بمصر صاحب كتاب السيرة الحلبية المسمَّى «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»، توفِّي سنة ١٠٤٤هـ. انظر شذرات الذهب لابن العماد (١/ ٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (رقم ١٦٩٨٦)، ومسلمٌ (رقم ٢٢٧٦) [كتاب الفضائل - بابُ فضلِ نسب النبيِّ ﷺ]، والترمذيُّ (رقم ٣٦٠٦) [أبواب المناقب - بابٌ في فَضلِ النبيِّ ﷺ]، وغيرهما من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا.

(٣) لأن عطف الخاص على العام يكون بالواو وحتى.

وَأَرْهَقْتَنِي فِيمَا نَدَبْتَنِي إِلَيْهِ عُسْرًا، وَأَرْقَيْتَنِي بِمَا كَلَّفْتَنِي مُرْتَقًى صَعْبًا، مَلأَ قَلْبِي رُعْبًا؛

فَإِنَّ الكَلَامَ فِي ذَلِكَ يَسْتَدْعِي تَقْرِيرَ أُصُولٍ، وَتَحْرِيرَ فُصُولٍ، وَالكَشْفَ عَنْ غَوَامِضَ ودَقَائِقَ، مِنْ عِلْمِ الحَقَائِقِ، مِمَّا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَيُضَافُ إِلَيْهِ، أو يمتنِعُ أو يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَعْرِفَةَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَالمَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ، وَخَصَائِصِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ.

وَهَهُنَا مَهَامِهُ فِيحٌ تَحَارُ فِيهَا القَطَا،

قولُه: (**أَرْهَقْتَني**): الإرهاقُ تَكْليفُ ما لا يُطاقُ. قوله: (**فيما نَدَبْتَني**): أيْ دَعَوْتَني. قوله: (**إليه عُسْرًا**): -بضمٍّ فسكونٍ- أيْ أَمْرًا عَسيرًا؛ أيْ لا أَقْدَرُ عَلَيْه مِن التحفُّظِ عَنِ السَّهْوِ اليَسيرِ. قولُه: (**أَرْقَيْتَني**): أيْ أَصْعَدْتَني. قوله: (**مُرْتَقًى**): -بضمِّ الميمِ، وسكونِ الراءِ؛ مصدرٌ ميميٌّ- أيِ ارتقاءً، وقولُه: (**صَعْبًا**): أيْ شَديدًا. قَوْلُه (**رُعْبًا**): أيْ خَوْفًا وفزَعًا؛ وفي بَعْضِ النُّسَخِ «خَوْفًا ورُعْبًا»، وهوَ خِلافُ ما في الأُصولِ الصحيحةِ؛ وضَميرُ «مَلأَ» راجِعٌ إلى «ما» أوِ «المُرْتقى»، والثاني أَقْرَبُ، ويُؤَيِّدُ الأَوَّلَ قولُه:

(**فإنَّ الكلامَ**) أي: التكلُّفَ (**في ذلك يَستدعي تقريرَ أصولٍ**) أيْ تمهيدَ قواعِدَ (**مقرَّرةٍ، وتحريرَ فصولٍ**) أيْ وتشييدَ فروعٍ مُحَرَّرةٍ مِمّا يَجِبُ له ﷺ ويجوزُ ويَمْتنعُ.

قولُه (**والكَشْفَ عَنْ غوامِضَ**): جَمْعُ «غامِضةٍ»، وهوَ ما لا يُدْرَكُ إلّا بَعْدَ رَوِيّةٍ، وقَوْلُه (**ودَقائقَ**) أيْ مِمّا يَدِقُّ فَهْمُه في كُلِّ قَضيّةٍ، وقَوْلُه (**مِنْ عِلْمِ الحقائقِ**): بيانٌ لِما قبْلَه، وقولُه (**مِمّا يَجِبُ لِلنبيِّ**): أيْ إثباتُه، وقولُه (**ويُضافُ إلَيْهِ**): أيْ وُجوبًا؛ بِدَليلِ قَوْلِه (**أوْ يَمتنعُ أو يَجوزُ**).

وقولُه (**ومَعرفةَ النبيِّ والرسولِ**): أيْ بالحُدودِ؛ ويَجوزُ نَصبُ «معرفةَ» مَعمولًا لـ«يستدعي»، أوْ مَجرورةٌ عَطفًا على مَدخولِ «مِن» أو «عَنْ»، وقولُه (**والرِّسالةِ والنُّبوّةِ**) -بالجرِّ لا غَيْرُ- والمُرادُ بِهِما الحالانِ، فهُما مُغايِرانِ لِما قبْلَهما. وقَوْلُه (**والمَحبّةِ والخُلّةِ**): -بضمِّ الخاءِ- وهيَ نِهايةُ المَحبّةِ -على ما سيأتي، ولَمْ يَجتمِعا في غَيْرِ نَبيِّنا ﷺ. وقولُه (**وخصائصِ هذه الدرجةِ العَليّةِ**): جَمْعُ «خَصيصةٍ؛ وهيَ ما يُخْتَصُّ به الشخصُ؛ و(الدرجةِ): المَنْزِلةُ.

وقولُه (**وهَهُنا مَهامِهُ فيحٌ تَحارُ فيها القَطا**): أيْ وهَذه في المَواضِعِ المَذكورةِ... إلخ؛ فالهاءُ لِلتنبيهِ، و(**هُنا**): إشارةٌ إلى المكانِ القريبِ، و(**مَهامِهُ**): -بفتحِ الميمِ الأولى وكسرِ الثانيةِ- جَمْعُ «مَهْمَهٍ» -بفتحٍ فسكونٍ ففتحٍ؛ كـ«جَعْفَرٍ»- أيْ مفازةٌ بعيدةٌ؛ و(**الفيحُ**) -بكسرِ الفاءِ، ومُثنّاةٍ تحتيّةٍ ساكنةٍ فحاءٍ مهمَلةٍ- جَمْعُ «فَيْحاءَ» -بفتحِ الفاءِ، والمَدِّ- بمَعْنى «واسِعةٍ»؛ يقالُ: دارٌ فيحاءُ: أيْ واسعةٌ. قالَ المُلّا: لا جَمْعُ «أَفْيَحَ» كَما تَوَهَّمَه التِّلِمْسانيُّ. اهـ. لَكِنْ في «الشهابِ» ما يوافِقُه، تأمَّلْ.

وقولُه (**تَحارُ**) -بفتحِ التاءِ- أيْ تَتَحيَّرُ؛ وفي نسخةٍ بالياءِ؛ قال الشهابُ: حارَ، يَحارُ -كـ«خافَ، يَخافُ»- إذا لَمْ يَهْتَدِ لِقَصْدِه؛ و(**القَطا**): -بفَتْحِ القافِ مَقْصورًا- طَيْرٌ يُضْرَبُ بِه المَثَلُ في كَمالِ الهِدايةِ؛ يُقالُ: هوَ أَهْدى مِنَ القَطا. قالَ المُلّا: قيلَ: إنَّه يَتْرُكُ فِراخَه، ويَطْلُبُ الماءَ مَسيرةَ عشَرةِ أيّامٍ فأكثَرَ، فَيَرِدُ ويرجِعُ فيما بينَ طلوعِ الفجرِ وظُهورِ الشمسِ ولا يُخْطِئُ صادِرًا ولا وارِدًا. وهوَ اسمُ جِنْسٍ خِلافًا لِمَنْ نَقَلَ أنَّه جَمْعُ قَطاةٍ؛ وفي «الشِّهابِ»:

والناسُ أهدى في القبيحِ مِنَ القَطا * وأضَلُّ في الحسنى مِن الغِرْبانِ

وَتَقْصُرُ بِهَا الخُطَا، وَمَجَاهِلُ تَضِلُّ فِيهَا الأَحْلَامُ، إِنْ لَمْ تَهْتَدِ بِعَلَمِ عِلْمٍ وَنَظَرٍ سَدِيدٍ، وَمَدَاحِضُ تَزِلُّ بِهَا الأَقْدَامُ، إِنْ لَمْ تَعْتَمِدْ عَلَى تَوْفِيقٍ مِنَ اللهِ وَتَأْيِيدٍ.

لَكِنِّي لِمَا رَجَوْتُهُ لِي وَلَكَ فِي هَذَا السُّؤَالِ وَالجَوَابِ، مِنْ نَوَالٍ وثَوَابٍ، بِتَعْرِيفِ قَدْرِهِ الجَسِيمِ، وَخُلُقِهِ العَظِيمِ، وَبَيَانِ خَصَائِصِهِ الَّتِي لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلُ فِي مَخْلُوقٍ، وَمَا يُدَانُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ أَرْفَعُ الحُقُوقِ؛ ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]،

وَلِمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ،

وَلِمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو الوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ الفَقِيهُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ النَّمَرِيُّ،..

وقولُه **(وتَقْصُرُ بها الخُطا)**: بِضَمِّ الصَّادِ، وفي نُسخةٍ «فيها» بَدَلَ «بها»، و**(الخُطا)** -بضمٍّ ففتحٍ- جَمْعُ «خُطْوةٍ» -يُضَمُّ ويُفتَحُ.

وقولُه **(ومَجاهِلُ)** -عَطْفًا على «مَهامِهُ»- جَمْعُ «مَجْهَلٍ» لِلمَكانِ الَّذي لا عِلْمَ فيه يُهْتَدى به، و**(تَضِلُّ)**: -بفتحٍ فكسرٍ- أيْ تَضيعُ وتَهْلِكُ؛ و**(الأحلامُ)**: جَمْعُ «حِلْمٍ» -بكسرِ الحاءِ وسكونِ اللامِ- أي العقلِ. قوله **(بِعَلَمِ عِلْمٍ)**: الأَوَّلُ بفتحِ العينِ واللامِ: العلامةُ والجَبَلِ؛ والثاني بكسرِ العينِ؛ أي بعَلامةٍ يُعْلَمُ بها، فـ«العِلْمُ» بمَعْنى «المَعْلوم»؛ وقالَ الدَّلَجيُّ: «مِن إضافةِ المشبَّهِ به للمشبَّهِ؛ أيْ بِعِلْمٍ كالعَلَمِ». وقولُه **(مَداحِضُ)**: -بالرفعِ- أيْ مَزالِقُ **(تَزِلُّ بها الأقدامُ)** -بفتحٍ فكسرٍ- أيْ بِسَبَبِها.

قولُه **(لكِنّي لِما رَجَوْتُه)**: أيْ مَعَ هَذا كُلِّه مِنْ صعوبةِ الحالِ؛ قَبِلْتُ السؤالَ؛ «لِما رَجَوْتُه»؛ بكَسْرِ اللّامِ وتخفيفِ الميمِ؛ على أنَّ اللّامَ لِلعِلّةِ، و«ما» مَوْصولةٌ أوْ مَوْصوفةٌ؛ وهوَ بصيغةِ المُتكلِّمِ؛ قالَ المُلّا: ويَبْعُدُ كونُه بصيغةِ الخِطابِ، ولا يَبعدُ تشديدُ «لَمّا» على الظرفيةِ. وقولُه **(لي ولَكَ)**: مُتَعَلِّقٌ بـ«رَجَوْتُ»، **(في هذا السُّؤالِ والجَوابِ)**: نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّبٍ، وقَدَّمَ نفْسَه في الدُّعاءِ لِأَنَّه المُستحَبُّ. قوله **(مِنْ نَوالٍ)**: بَيانٌ لِـ«ما»؛ أيْ حُصولِ حُسْنِ مَنالٍ وطيبِ حالٍ، وقولُه **(وثَوابٍ)**: أيْ وتَحصيلِ جَزاءٍ وعَطاءٍ في العقبى.

وقولُه **(ما يُدانُ اللهُ تعالى به مِنْ حَقِّه)**: أيْ يُطاعُ اللهُ تعالى به، ويُتَّخَذُ دينًا. قولُه **(لِيَسْتَيْقِنَ)**: أيْ لِيَتَيَقَّنَ بنبُوَّتِه إيقانًا... إلخ، وقولُه **(ويَزْدادَ الَّذينَ آمَنوا... إلخ)**: يُريدُ العَوامَّ، أوِ الأَعَمَّ.

قولُه **(ولِما أَخَذَ اللهُ... إلخ)**: عَطْفٌ على «رَجَوْتُ»؛ أيْ ولِأَجْلِ ما أَخَذَ اللهُ على الذينَ... إلخ، وقولُه **(لَيُبَيِّنُنَّه)** بفتحِ اللامِ على أنَّه جَوابٌ لِلقَسَمِ الَّذي نابَ عَنْه (أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ) أي استحلَفَهم، والمَعْنى: لَيُظْهِرُنَّ أَمْرَ محمدٍ جميعَه، وقولُه **(ولا يَكْتُمونَه)**: أيْ شَيْئًا مِنه، وهوَ المُناسِبُ لِلمَقامِ، أوِ الضميرُ لِلكِتابِ، وهوَ مُشْتَمِلٌ على المَرامِ؛ قالَ المُلّا: وفي بَعْضِ النُّسَخِ بالخِطابِ فيهما؛ وهوَ صَحيحٌ. اهـ.

قولُه **(الحُسَيْنُ بنُ محمَّدٍ)**: زادَ في نُسخةٍ «الجَيَّانيُّ» بجيمٍ مفتوحةٍ وسكونِ التحتيةِ، وهمزةٍ ممدودةٍ فنونٍ فياءٍ. وقولُه **(أبو عُمَرَ)**: بضَمِّ العَينِ، و**(النَّمَريُّ)**: -بفتحِ النونِ المشددةِ، والميمِ المفتوحةِ- وهوَ الإمامُ المحيطُ ابنُ عَبدِ البَرِّ. قالَ المُلّا: وشَرَحَ التِّلِمْسانيُّ على نُسخةٍ فيها زيادةُ (حدَّثَنا أبو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَليِّ ابنِ الخَطيبِ)، وهذه زيادةٌ لَيْسَتْ مَوجودةً في أغلبِ النُّسَخِ الصحيحةِ.

.. حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَبْدِ المُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا أَبُو بكرٍ مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا سُلَيمَانُ بْنُ الأَشْعَثِ، قَالَ حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنا حَمَّادٌ، قَالَ: أَخبَرَنَا عَلِيُّ بنُ الحَكَمِ عَنْ عَطَاءٍ، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ سُئِلَ عَن عِلْمٍ فكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ)[1].

فَبَادَرْتُ إِلَى نُكَتٍ مُسْفِرَةٍ عَنْ وَجْهِ الغَرَضِ، مُؤَدِّيًا مِنْ ذَلِكَ الحَقَّ المُفْتَرَضَ، اخْتَلَسْتُهَا عَلَى اسْتِعْجَالٍ، لِمَا المَرْءُ بِصَدَدِهِ مِنْ شَغْلِ البَدَنِ وَالبَالِ، بِمَا طُوِّقَهُ الإِنْسَانُ مِنْ مَقَالِيدِ المِحْنَةِ التي ابْتُلِيَ بِهَا فَكَادَتْ تَشْغَلُ عَن كُلِّ فَرْضٍ وَنَفْلٍ، وَتَرُدُّ بَعْدَ حُسْنِ التَّقْوِيمِ إِلَى أَسْفَلِ سُفْلٍ.

وَلَوْ أَرَادَ اللهُ بِالإِنْسَانِ خَيْرًا لَجَعَلَ شُغْلَهُ وَهَمَّهُ كُلَّهُ فِيمَا يُحْمَدُ غَدًا أَوْ يُذَمُّ مَحَلَّه، فَلَيسَ ثَمَّ سِوى حَضْرَةِ النَّعِيمِ أَو عَذَابِ الجَحِيمِ، ..

(١) حديث أبي هريرة (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلم فكتَمَه ...): أسنده المصنِّف من طريق أبي داود [٣٦٥٨]، وأخرجه أيضًا التِّرمذيُّ [٢٦٤٩] وحسَّنه، وابن حِبَّانَ [٩٥]، والحاكم [١/ ١٠١] وصحَّحه، وابن ماجهْ [٢٦١] بسند صحيح من طريق محمد بن سيرينَ عن أبي هريرةَ.

قولـه (أبـو محمـد بـن عبـدِ المؤمـنِ): أَحَـدُ رواةِ أبي داودَ، ولـه مَشْيَخةٌ علـى أبي نعيـم الأصبهـانيِّ. قولـه (سليمان بـن الأشعـثِ): هـوَ الإمـامُ الحافِـظُ أبـو داوُدَ صاحـبُ السُّنَنِ، وأَخَـذَ عَـنِ الإمـامِ أحمـدَ بـنِ حَنبَـلٍ، وقَـدْ ألانَ اللهُ لـه الحديـثَ كَـما أَلانَ اللهُ الحديـدَ لِـداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قولـه (مَـنْ سُئِلَ عَـنْ عِلْـمٍ فكتَمَـه): أيْ بَعْدَمـا عَلِمَـه؛ والمُـرادُ بـه مـا يَتَعَـيَّنُ تَعْليمُـه؛ أوْ خُصـوصُ الحديـثِ، أوِ العِلمُ الشرعـيُّ وهـوَ الأظهَـرُ؛ كـما قـال بـه الأكثَـرُ، ويُؤَيِّـدُه حديـثُ (مَـنْ كَتَـمَ عِلـمًا ممـا يَنفَـعُ اللهُ بـه النـاسَ في الدِّيـنِ... إلـخ)[1]. ومحـلُّ الوعيـدِ إذا كَتَمَه عنْ أَهْلِـه، ولِـذا وَرَدَ عَـنْ أَنَـسٍ مَرْفوعًـا (طَلَـبُ العِلـمِ فريضـةٌ، وواضِـعُ العِلـمِ في غَـيْرِ أَهْلِـه كمُعَلِّـقِ الجَوْهَـرِ واللؤلـؤِ عـلى الخنزيـرِ)[2].

وقولُـه (فبـادَرْتُ): عَطْـفٌ عـلى الجَـزاءِ المُقَـدَّرِ -أيْ أَقْبَلْـتُ فبـادَرْتُ، وقولـه (مُسْـفِرة) -بكسـرِ الفـاءِ- أيْ مضيئـة؛ وفي نُسـخةٍ «سـافرة»: أيْ كاشـفة، وقولـه (المُفـتَرَض): بفتـحِ الـراءِ.

وقولـه (بـما طُوِّقَـه الإنسـانُ) -كـما في نسـخةٍ صحيحـةٍ؛ وهـو بضـمِّ الطـاءِ وكسـرِ الـواوِ المشـدَّدةِ- أيْ كُلِّفَـه، وفي نسـخةٍ صحيحـةٍ «قُلِّدَه»: أيْ أُلْزِمَـه كالطَّـوقِ في عنقِـه؛ علـى حَـدِّ:

أقامَتْ في الرقابِ له أيادٍ * هي الأطواقُ والناسُ الحَمامُ

وقولُـه (تَشْـغَل): بفتـحِ التـاءِ والغـينِ المعجمـةِ. وقولُـه (سُـفْلٍ): هـوَ -بضـمِّ السـينِ وكسرِهـا- ضِـدُّ العُلْـوِ؛ والمعنـى إلى قُبْـحِ التنـزُّلِ بارتـكابِ الفِعـلِ الذَّميـمِ.

وقولُـه (فيـما يُحْمَـدُ): بصيغـةِ المَعْلـومِ، وقولُـه (أَوْ يُـذَمُّ مَحَلَّـه): بفتـحِ الحـاءِ؛ ويجـوزُ كسرُهـا؛ وفي نسـخةٍ صحيحـةٍ «ولا يُـذَمُّ» -بصيغـةِ المجهـولِ فيـه وفيـما قبْلَـه.

(١) أخرجـه ابـن ماجـه (أبـواب في فضائـل أصحـاب رسـول الله، بـاب مـن سـئل عـن علـم فكتمـه) مـن حديـث أبي سـعيد الخـدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجـه ابـن ماجـه (رقـم ٢٢٤) مـن حديـث أنـسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًـا. وهـو حسـنٌ بطُرُقـه وشـواهِدِه كـما ذهـبَ إليـه المِزِّيُّ والسيوطيُّ وغيرهما، دون قولـه: «وواضِـعُ العِلـمِ عنـد غـير أهلِـهِ ...» إلـخ، فضعيـفٌ جـدًّا، فـإنَّ حفـص بـن سـليمان- وهـو الكـوفي القـارئ- مـتروك الحديـث. وانظـر «المقاصـد الحسـنة» ص (٤٤٠).

.. وَلكَانَ عَلَيْهِ بخُوَيْصَّتِه، وَاسْتِنْقَاذِ مُهْجَتِه، وَعَمَلٍ صَالِحٍ يَسْتَزِيدُه، وَعِلْمٍ نَافِعٍ يُفِيدُه أو يَستفيدُه. جَبَرَ اللهُ صَدْعَ قلوبِنا، وَغَفَرَ عَظِيمَ ذُنُوبِنا، وَجَعَلَ جَمِيعَ اسْتِعْدَادِنَا لِمَعَادِنَا، وَتَوَفُّرَ دَوَاعِينا فيما يُنْجِينا وَيُقَرِّبُنا إِلَيْهِ زُلْفَى وَيُحْظِينَا بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِه.

وَلَمَّا نَوَيْتُ تَقْرِيبَه، وَدَرَّجْتُ تَبْوِيبَه، وَمَهَّدْتُ تَأْصِيلَه، وَخَلَّصْتُ تفصيلَه، وَانتَحَيْتُ حَصْرَه وَتَحْصِيلَه، تَرْجَمْتُه بِـ«الشِّفَا بتَعريفِ حُقوقِ المصْطَفَى»، وَحَصَرْتُ الكَلامَ فيهِ في أَقْسَامٍ أَرْبَعَةٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: في تعظيمِ العَلِيِّ الأَعلى لِقَدْرِ هَذا النَّبِيِّ المصطفَى قَوْلًا وفِعْلًا، وَتَوَجَّهَ الكَلامُ فيه في أَربعَةِ أَبْوَاب:

- البابُ الأَوَّلُ: في ثَنائِه عَلَيْه، وَإظهارِ عَظِيمِ قَدْرِه لَدَيْه، وَفيه عَشَرةُ فصُولٍ.

- البابُ الثاني: في تكميلِه تَعالى لَهُ المحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَقِرَانِه جَمِيعَ الفضَائِلِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويةِ فيه نَسَقًا، وَفيه سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ فَصْلًا[1].

- البابُ الثالثُ: فيما وَرَدَ مِن صَحيحِ الأخبَارِ وَمَشهُورِها بعَظيمِ قَدْرِه عِنْدَ رَبِّه وَمَنزِلَتِه، وَمَا خَصَّهُ به في الدَّارَيْنِ مِنْ كَرَامَتِه، وَفيه اثنَا عَشَرَ فَصْلًا[2].

- البابُ الرابعُ: فيما أَظْهَرَه اللهُ عَلى يَدَيْهِ مِنَ الآيَاتِ وَالمُعجِزاتِ، وَشَرَّفَهُ بِهِ مِن الخصَائِصِ والكرَامَاتِ، وَفيهِ ثلاثُونَ فَصْلًا.

القِسْمُ الثَّاني: فيما يَجِبُ عَلى الأنَام، مِن حُقوقِه عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسلام، وَيَترَتَّبُ القَولُ فيه في أَربَعةِ أَبْوَاب:

- البابُ الأَوَّلُ: في فَرضِ الإيمانِ بِه، وَوُجُوبِ طَاعَتِه وَاتِّبَاعِ سُنَّتِه، وَفيه خَمسَةُ فصولٍ.

- البابُ الثاني: في لزومِ محبَّتِه وَمُناصَحَتِه، وَفيهِ سِتَّةُ فصُولٍ.

- البابُ الثالثُ: في تعظيمِ أَمْرِه، وَتَوقيرِه وَبِرِّه، وَفيهِ سَبعةُ فصُولٍ.

- البابُ الرَّابعُ: في حُكْمِ الصَّلاةِ عَلَيْه، وَالتسليمِ وَفَرْضِ ذَلِكَ وَفضيلَتِه، وَفيهِ عَشَرةُ فُصُولٍ.

وقولُه (بِخُوَيْصَّتِه): -بضَمٍّ ففتحٍ فسكونٍ فمهمَلَةٍ مشدَّدةٍ- تصغيرُ «خاصَّةٍ».

قوله (ويُحْظِينا): -بضمِّ أولِه وكسرِ الظاءِ- أيْ يَرْفَعُ قَدْرَنا ويَخُصُّنا بالمَنْزِلةِ العَلِيَّةِ.

وقولُه (وانْتَحَيْتُ): هوَ بالحاءِ المُهْمَلةِ، أيْ قَصَدْتُ.

وقولُه (وتَوَجَّهَ الكَلامُ): هوَ بِصيغةِ الماضي، أيِ انْحَصَرَ.

قوله (وقِرانِه): -بكسرِ القافِ- مَصْدَرُ «قَرَنْتُ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ».

قوله (نَسَقًا): -بفتحتَيْنِ- أيْ جَمْعًا متتابِعًا.

---

(١) [باعتبار مقدمة الباب فصلا، وينطبق ذلك أيضا على ما يلي من عد فصول الأبواب].

(٢) [المعدود خمسة عشر فصلاً، ولعل بعضها كان مضموما إلى بعض ثم فصل بعد ذلك].

القِسْمُ الثالثُ: فيما يَسْتَحِيلُ في حَقِّهِ، وَمَا يَجُوزُ عليْهِ وَمَا يَمتنِعُ وَيَصِحُّ مِنَ الأُمُورِ البشريَّةِ أنْ يُضَافَ إلَيْه

وَهَذا القِسْمُ -أكرَمَكَ اللهُ- هُوَ سِرُّ الكِتَابِ، وَلُبَابُ ثَمَرةِ هذِهِ الأبْوابِ، وَمَا قَبْلَهُ لَهُ كَالقواعِدِ وَالتَّمهِيداتِ، وَالدَّلائِلِ عَلَى ما نُورِدُه فيهِ مِن النُّكَتِ البيِّنَاتِ، وَهُوَ الحَاكِمُ عَلى مَا بَعْدَه، وَالْمُنجِزُ مِنْ غَرَضِ هَذا التَّأليفِ وَعْدَه، وَعِنْدَ التَّقَصِّي لِمَوْعِدَتِهِ، وَالتَّفَصِّي عَنْ عُهْدَتِهِ، يَشْرَقُ صَدْرُ العَدُوِّ اللَّعِينِ، وَيُشْرِقُ قَلْبُ المُؤْمِنِ باليَقِينِ، وَتَمْلأُ أنْوَارُهُ جَوَانِحَ صَدرِه، وَيَقْدُرُ العَاقِلُ النَّبِيَّ حَقَّ قَدْرِه، وَيتحَرَّرُ الكَلامُ فِيهِ في بابَيْنِ:

- البابُ الأوَّلُ: فيما يَختَصُّ بالأمُورِ الدِّينيَّةِ، وَيَتشَبَّثُ بِهِ القَوْلُ في العِصْمَةِ، وَفيهِ ستَّةَ عَشَرَ فصْلًا.

- البابُ الثاني: في أَحوالِه الدُّنيويَّةِ، وَمَا يَجُوزُ طُرُوءُهُ عَلَيْهِ مِنَ الأَعرَاضِ البَشَرِيَّةِ، وَفيهِ تسْعةُ فصُولٍ.

القِسْمُ الرابعُ: في تَصَرُّفِ وُجوهِ الأحكامِ عَلى مَنْ تَنَقَّصَهُ أَوْ سَبَّهُ عَليْه السَّلامُ، وَيَنقَسِمُ الكَلامُ فِيه في بَابَيْنِ:

- البابُ الأوَّلُ: في بيانِ مَا هوَ في حَقِّهِ سَبٌّ وَنَقْصٌ، مِنْ تَعريضٍ أَوْ نَصٍّ، وَفيهِ عَشَرَةُ فصُولٍ.

قوله (**والمُنجِز**): -بصيغةِ الفاعلِ مُخَفَّفًا- أيِ الموَفِّي مِنْ غَرَضِ هذا التأليفِ وَعْدَه.

قوله (**عِنْدَ التَّقَصِّي لِمَوْعِدَتِه**): -بفتحِ المُثَنَّاةِ والقافِ، وبالصادِ المُهْمَلةِ- قالَ في «الصحاحِ»: «استقصى فُلانٌ في المَسْألةِ، وتَقَصّى، بمَعْنًى، أيِ استقصى وتتبَّعَ»، أيْ وعِنْدَ بُلوغِ المَقصدِ الأقصى لِمَوْعِدَتِه -بفتحِ الميمِ وكسرِ العينِ، والتاءُ فيه للوَحدةِ- والمُرادُ به المَصْدرُ، وإنْ كانَ يَصْلُحُ أنْ يَكونَ زمانًا أو مكانًا.

قولُه (**والتَّفَصّي**): -بتاءٍ مُثَنّاةٍ ثُمَّ فاءٍ ثُمَّ صادٍ مُهْمَلةٍ- بمَعْنى التَّخَلُّصِ؛ يقالُ: تَفَصَّيْتُ مِن الدُّيونِ؛ إذا خَلَصْتُ مِنها.

قوله (**يَشْرَقُ**): بِفَتْحِ أوَّلِه وثالِثِه، قالَ الشُّمُنِّيُّ: «يقالُ: شَرِقَ صَدْرُه بكذا -بكسرِ الراءِ- أيْ ضاقَ به جِدًّا حَسَدًا كما يَضيقُ صَدْرُ مَنْ شَرِقَ بريقِه عِنْدَ المَوْتِ».

قوله (**ويُشْرِقُ قَلْبُ المُؤْمِنِ**): قالَ الشُّمنيُّ: «بضمِّ أوَّلِه وكسرِ ثالثِه، أيْ يُضيءُ»، ولا يَخْفى ما بَيْنَ اللفظَيْنِ مِنَ الجِناسِ.

قوله (**جَوانِح صَدْرِه**): جَمْعُ «جانِحةٍ»، وهيَ الأضْلاعُ الَّتي تَحْتَ التَّرائِبِ مِمّا يَلي الصَّدْرَ -كالضلوعِ مما يلي الظَّهرَ-، والتَّرائبُ عِظامُ الصَّدْرِ ما بَيْنَ التَّرْقوةِ، والتَّرْقوةُ -بفَتحِ المُثَنّاةِ الفَوْقيةِ- العَظْمُ الَّذي بَيْنَ نُقْرةِ النَّحْرِ والعاتِقِ.

قوله (**يَقْدُرُ العاقلُ**): -بضمِّ الدّالِ- أيْ يعرِفُ؛ وفي نُسخةٍ «الغافلُ».

قوله (**يَتَشَبَّثُ**): -بالشّينِ المُعْجمةِ ومُثَلَّثةُ الآخِرِ- أيْ يَتَعَلَّقُ.

قوله (**وفيه تِسعةُ فُصولٍ**): قالَ المُلّا: بَلْ ثمانيةٌ.

- البابُ الثاني: في حُكْمِ شانِئِهِ وَمُؤذِيهِ وَمُنْتَقِصِهِ وَعُقوبَتِهِ وَذِكْرِ اسْتِتابَتِهِ وَالصَّلاةِ عَلَيْهِ وَوِراثَتِهِ، وَفيهِ عَشَرَةُ فُصُولٍ.

- وَخَتَمْناهُ بِبابٍ ثالِثٍ، جَعَلْناهُ تكمِلَةً لِهذِهِ المسْألَةِ، وَوُصْلَةً لِلْبابَيْنِ اللَّذَيْنِ قَبْلَه في حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللهَ وَرُسُلَه وَمَلائِكَتَهُ وَكتُبَه وَآلَ النبيِّ ﷺ وَصَحْبَه، وَاخْتُصِرَ الكَلامُ فيهِ في خَمسَةِ فصُولٍ.

وَبِتَمامِها يَتَنَجَّزُ الكِتابُ، وَتَتِمُّ الأَقْسامُ والأَبْوابُ، وَتَلُوحُ في غُرَّةِ الإِيمانِ لَمْعَةٌ مُنيرةٌ، وَفي تاجِ التَّراجِمِ دُرَّةٌ خطيرَةٌ، تُزيحُ كُلَّ لَبْسٍ، وتُوَضِّحُ كُلَّ تخمينٍ وحَدْسٍ، وَتَشْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤمِنينَ، وَيَصْدَعُ بالحَقِّ وَيُعرِضُ عَنِ الجاهِلينَ، وَباللهِ تعالَى -لَا إِلهَ سِواهُ- أَسْتَعِينُ.

***

قولـه (وفيه عشَرَةُ فصولٍ): قالَ الحَلَبيُّ نَقلًا عنِ العلّامةِ مُغلطايْ[1]: «الصوابُ خمسةٌ».

قولـه (واختُصِرَ الكلامُ فيه): بالبناءِ لِلمجهولِ، وفي نُسخةٍ «وأَختَصِرُ» -بصيغةِ المتكلمِ-، وقوله (في خَمسةِ فُصولٍ): قالَ التِّلمسانيُّ، والحلبيُّ: «بَلْ عشَرةٌ» كما سيأتي له.

قولـه (وتَلوحُ في غُرّةِ الإيمانِ لمعةٌ): أيْ تُضيءُ في غُرّةِ الإيمانِ»: أيْ بَياضِ جبهتِه؛ «ولُمعةٌ»: -بالضَّمِّ، ويجوزُ الفتحُ- أيْ قِطعةٌ مُنيرةٌ؛ و«الغُرّةُ» مُستعارةٌ لِلشَّرَفِ والشُّهرةِ.

قولـه (التَّراجِمِ): بكَسْرِ الجيمِ، وقولُه (خَطيرةٌ): بالخاءِ والطاءِ، أيْ ذاتُ خَطَرٍ وقَدْرٍ؛ وكلٌّ مِن «لُمعةٌ»، و«دُرّةٌ» مَرْفوعٌ على الفاعِليّةِ؛ لِأَنَّ «لاحَ» لازمٌ، وجَعَلَهُما التِّلمسانيُّ مَنصوبَيْنِ على الحالِ.

قولـه (تُزيحُ كُلَّ لَبْسٍ): مِنَ الإزاحةِ، أيْ تُزيلُ، و(لَبْسٍ) -بفتحِ فسكونٍ- أيْ إشكالٍ وشُبهةٍ.

قولـه (كلَّ تخمينٍ) أيْ قَولٍ مِنْ غَيْرِ تحقيقٍ، وقوله (حَدْسٍ): أيْ صادِرٍ عَنْ ظَنٍّ ووَهَمٍ.

قوله (يَصْدَعُ): -بفتحِ المثناةِ التحتيةِ وثالثِه- أيْ يجهرُ.

***

(١) مغلطاي بن قليج بن عبد الله الحكرى الحنفي الحافظ علاء الدِّين صاحب التصانيف ولد بعد سنة ٦٩٠، سمع من أحمد بن علي ابن دقيق العيد أخى الشيخ تقيّ الدين والدبوسى وغيرهما، وأكثر جدًّا من القراءة بنفسِه والسَّماع، ولازم الجلال القزويني، ودرَّس بالقاهرة في الحديث وصنَّفَ تصانيف منها «شرح البخاري» و«ذيل المؤتلف والمختلف» و«الزهر الباسم في السِّيرة النَّبويَّة». قال ابن رجب إنَّ مُصنَّفاته نحو المائة وأزيد. مات في شعبان سنة ٧٦٢. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٤٣٣)، و«تاج التراجم» لابن قطلوبغا (١/ ٣٠٤)، و«البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٣١٢).

الْقِسْمُ الأَوَّلُ: فِي تَعظِيمِ العَلِيِّ الأَعْلَى لِقَدْرِ هَذا النَّبِيِّ المُصْطَفَى قَوْلًا وَفِعْلًا

قَالَ الفَقِيهُ القَاضِي الإِمَامُ أَبُو الفَضْلِ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه:

لَا خَفَاءَ عَلَى مَنْ مَارَسَ شَيْئًا مِنَ العِلْمِ، أَوْ خُصَّ بِأَدْنَى لَمْحَةٍ مِنَ فَهْمٍ، بِتَعْظِيمِ الله تَعَالَى قَدْرَ نَبِيِّنَا ﷺ وَخُصُوصِهِ إِيَّاهُ بِفَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ وَمَنَاقِبَ لَا تَنْضَبِطُ لِزِمَامٍ، وَتَنوِيهِهِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ بِمَا تَكِلُّ عَنْهُ الأَلْسِنَةُ وَالأَقْلَامُ.

فَمِنْهَا مَا صَرَّحَ بِهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَنَبَّهَ بِهِ عَلَى جَلِيلِ نِصَابِهِ، وَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ، وَحَضَّ العِبَادَ عَلَى التِزَامِهِ وَتَقَلُّدِ إِيجَابِهِ، فَكَانَ -جَلَّ جَلالُهُ- هُوَ الَّذِي تَفَضَّلَ وَأَوْلَى، ثُمَّ طَهَّرَ وَزَكَّى، ثُمَّ مَدَحَ بِذَلِكَ وَأَثْنَى، ثُمَّ أَثَابَ عَلَيْهِ الجَزَاءَ الأَوْفَى، فَلَهُ الفَضْلُ بَدْءًا وَعَوْدًا، وَالحَمْدُ للهِ أُولَى وَأُخْرَى.

وَمِنْهَا مَا أَبْرَزَهُ لِلْعِيَانِ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى أَتَمِّ وُجُوهِ الكَمَالِ وَالجَلَالِ، وَتَخْصِيصِهِ بِالمَحَاسِنِ الجَمِيلَةِ، وَالأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ، وَالمَذَاهِبِ الكَرِيمَةِ، وَالفَضَائِلِ العَدِيدَةِ، وَتَأْيِيدِهِ بِالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ، وَالبَرَاهِينِ الوَاضِحَةِ، وَالكَرَامَاتِ البَيِّنَةِ، الَّتِي شَاهَدَهَا مَنْ عَاصَرَهُا، وَرَآهَا مَنْ أَدْرَكَهَا، وَعَلِمَهَا عِلْمَ يَقِينٍ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ، حَتَى انْتَهَى عِلْمُ حَقِيقَةِ ذَلِكَ إِلَيْنَا، وَفَاضَتْ أَنْوَارُهَا عَلَيْنَا، ﷺ كَثِيرًا.

قوله (لا خَفاءَ): -بفتح الخاءِ- أي لا يَخْفى، وقوله (على مَنْ مارَسَ): أيْ لازَمَ ودارَسَ.

وقوله (أوْ خُصَّ): بصيغةِ المَجْهولِ، وقوله (لَمْحةٍ): -بفتحِ اللامِ- أي النظرةِ الخَفيّةِ، وفي نُسخةٍ: «لحظةٍ»، قال المُلّا: «وقولُ التلمسانيِّ: بِضَمِّ أوَّلِه؛ لمحُ البصرِ- غيرُ سديدٍ». قوله (مِنْ فَهْمٍ) وفي نُسخةٍ بالتعريفِ.

قوله (بتعظيمِ الله): الباءُ ظرفيّةٌ متعلِّقةٌ بـ«خَفاء»، وقوله (لزمام) بكسرِ الزاي، وفي نُسخةٍ بالباءِ.

وقوله (مِنْ عظيمِ قَدْرِه): أيْ مِنْ قَدْرِه العَظيمِ؛ وفي نُسخةٍ «بعَظيمِ قَدْرِه».

قوله (تَكِلُّ) -بفتحٍ فكسرٍ- أيْ تَعجِزُ.

وقوله (وأثْنى): أيْ عَلَيْه، معَ أنّه مِن آثارِ فِعْلِه وأنوارِ فَضْلِه، فهوَ الحامِدُ والمحمودُ.

قوله (بَدْءًا وعَوْدًا): أيْ فلَه الإحسانُ على وَجْهِ الزّيادةِ، في الابتداءِ والإعادةِ.

وقوله (والحَمْدُ لله أولى وأُخْرى): أيْ في الدُّنيا والعُقْبى؛ وفي نسخةٍ «والحمدُ أولى وأُخرى»، عَطْفٌ على الفَضلِ.

وقوله (للعيانِ): -بكسرِ العينِ- أيْ لِلمُعايَنةِ.

وقوله (مِن خَلْقِه): -بفتحِ الخاءِ- قال المُلّا: خِلافًا لِمَنْ تَوَهَّمَ وضَبَطَه بالضَّمِّ؛ إذِ المُرادُ هُنا شَمائلُه الظاهِرةُ، و«مِنْ» لِبيانِ «ما» الموصولةِ.

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قِرَاءَةً مِنِّي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ المُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الجَبَّارِ وَأَبُو الفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ خَيْرُونٍ، قَالا: حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى البَغْدَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى بْنُ سَوْرَةَ الحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِالبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ مُلْجَمًا مُسْرَجًا، فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: أَبِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذَا؟! فَمَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْهُ، قَالَ: فَارْفَضَّ عَرَقًا.[1]

***

قوله (**أَحْمَدُ بنُ خَيْرُونَ**): بفتحِ المعجمةِ فسكونِ التحتيّةِ، ممنوعًا؛ وقَدْ يُصرَفُ.

وقوله (**ابنُ سَوْرَةَ**) -بفتحِ المهمَلةِ وسكونِ الواوِ وفتحِ الراءِ- هوَ الإمامُ التِّرمذيُّ الجليلُ، وكانَ أَحدَ الأوتادِ الأربعِ، كما نَصَّ عليه القُطبُ الشَّعرانيُّ في «طبقاتِه».

قوله (**أُتِيَ بالبُراقِ**): -بالبِناءِ لِلمَجْهولِ- أيْ جيءَ؛ و«البُراق» -بضمِّ الموحَّدةِ وتخفيفِ الراءِ- سُمّيَ بِهِ لِسُرْعةِ سَيْرِه كالبَرْقِ.

قوله (**فارْفَضَّ عَرَقًا**): -بتشديدِ الضادِ المعجَمةِ- أيْ سالَ؛ و«عَرَقًا»: نُصِبَ على التمييزِ؛ مُحَوَّلًا عَنِ الفاعلِ.. وهَلْ رَكِبَه أَحَدٌ قَبْلَه، أوْ هوَ خاصٌّ بِهِ؟! خِلافٌ.

***

(١) حديث أنس (أن النبي ﷺ أُتِيَ بالبُراق ..): أسنده المصنِّف من طريق الترمذيِّ [٣١٣١]، وقد حسَّنه، [وأخرجه أيضًا أحمد (١٢٦٧٢) والبيهقيُّ (الدلائل ٢/ ٣٦٤)].

البَابُ الأَوَّلُ: فِي ثَنَاءِ اللهِ عَلَيْهِ وَإِظْهَارِ عَظِيمِ قَدْرِهِ لَدَيْه

اعْلَمْ أَنَّ فِي كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- آيَاتٍ كَثِيرَةً مُفْصِحَةً بِجَمِيلِ ذِكْرِ الْمُصْطَفَى، وَعَدِّ مَحَاسِنِهِ، وَتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، وَتَنْوِيهِ قَدْرِهِ، اعْتَمَدْنَا مِنْهَا عَلَى مَا ظَهَرَ مَعْنَاهُ، وَبَانَ فَحْوَاهُ، وَجَمَعْنَا ذَلِكَ فِي عَشَرَةِ فُصُولٍ:

***

الفَصْلُ الأَوَّلُ: فِيمَا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ مَجِيءَ المَدْحِ وَالثَّنَاءِ وَتَعَدادِ المَحَاسِنِ

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآيَة. قَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ: وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ﴿مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ -بِفَتْحِ الفَاءِ[1]، وَقِرَاءَةُ الجُمْهُورِ بِالضَّمِّ.

قَالَ القَاضِي الإِمَامُ أَبُو الفَضْلِ -وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى-:

أَعْلَمَ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَوِ العَرَبَ أَوْ أَهْلَ مَكَّةَ أَوْ جَمِيعَ النَّاسِ -عَلَى اخْتِلافِ المُفَسِّرِينَ مَنِ المُوَاجَهُ بِهَذَا الخِطَابِ- أَنَّهُ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَعْرِفُونَهُ، وَيَتَحَقَّقُونَ مَكَانَتَهُ، وَيَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ؛ فَلَا يَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ وتَرْكِ النصيحةِ لَهُم لِكَوْنِهِ مِنْهُم، ..

(١) قوله (وقرأ بعضهم ﴿مِنْ أَنْفَسكم﴾ بفتح الفاء..): الحاكم في «المستدرَك» [٢/ ٢٤٠] عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأها كذلك.

قوله (وإظهار عظيم قدْره)، وفي نسخةٍ «وإظهاره».

***

قوله (وتَعْداد المحاسِنِ): -بفتحِ التاءِ المثناةِ فوقَ- أيْ ومجيءِ تكرارِ أخلاقِهِ الحسنةِ -جمعُ «حُسْنٍ» على غيْرِ قياسٍ- ونَصبُه -على ما في نسخةٍ- غيْرُ مُستقيمٍ. اهـ المُلّا.

وقوله (كَقَوْله تعالى)، وفي نسخةٍ بالـلّامِ، وقوله (مِنْ أَنْفُسِكُم...) الآيةَ [التوبة: ١٢٨]؛ بَدأَ بها لِاشتمالِها على جُملةٍ مِن امتِنانِه -سبحانَه- مِمّا يوجِبُ تَعْظيمَ رَسولِه، والتَّنويهَ بِعُلوِّ قَدْرِه.

قوله (السَّمَرْقَنْديّ)[1]: -بفَتْحِ السِّينِ المهمَلةِ والميمِ، وسكونِ الراءِ- قالَ المُلّا: وهوَ المَشهورُ على الألسنةِ، وما ضبطَه التِّلمسانيُّ وغَيْرُه مِنْ سُكونِ الميمِ وفَتْحِ الرّاءِ فهوَ لَحنٌ -على ما صُرِّحَ به في القاموسِ.

قوله (مَنِ المواجَهُ بِهذا الخِطابِ): يَعْني في ﴿جاءَكُم﴾؛ فـ«مَنِ»: بفَتْحِ الميمِ مَوصولةٌ، وكَسرِ نونِه لِلوَصْلِ؛ و«المواجَهُ»: -بصيغةِ المجهولِ- مرفوعٌ، والظاهرُ العمومُ الشاملُ لجميعِ الإنسِ؛ بَلْ والجِنِّ.

قوله (يَعْرِفونَه): أيْ مَحَلَّه ومَرْتَبَتَه.

وقوله (وتَرْكِ النصيحةِ لَهُم): أيْ وبِتَرْكِ إرادةِ الخيرِ لهُم، فلا يتَّهمونَه بذلكَ.

(١) الإمام الفقيه المحدِّث الزاهد أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي المعروف بإمام الهدى تفقَّه على الفقيه أبو جعفر الهندواني، ويروي عن: محمد بن الفضل بن أنيف البخاري، وجماعة. ومن مصنفاته: تفسير القرآن، وكتاب النوازل في الفقه، وخزانة الأكمل، وتنبيه الغافلين، وغيرها قال الذهبي: «تروج عليه الأحاديث الموضوعة»، توفي سنة (٣٧٥). سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٣٣)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٤٦).

.. وَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِي العَرَبِ قَبِيلَةٌ إِلا وَلَهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وِلَادَةٌ أَوْ قَرَابَةٌ[1]، وَهُوَ -عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ- مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2] [الشورى: ٢٣]، وَكَوْنِهِ مِنْ أَشْرَفِهِمْ وَأَرْفَعِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ عَلَى قِرَاءَةِ الفَتْحِ، وَهَذِهِ نِهَايَةُ المَدْحِ.

ثُمَّ وَصَفَهُ بَعْدُ بِأَوْصَافٍ حَمِيدَةٍ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَحَامِدَ كَثِيرَةٍ، مِنْ حِرْصِهِ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَرُشْدِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ، وَشِدَّةِ مَا يُعْنِتُهُمْ وَيَضُرُّ بِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ وَعِزَّتِهِ عَلَيْهِ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِمُؤْمِنِيهِمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ: أَعْطَاهُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ، «رَؤُوفٌ، رَحِيمٌ».

(١) قوله (وأنَّه لَمْ تكُنْ في العَرَبِ قَبيلةٌ إلا ولَهَا على رسولِ الله ﷺ ولادةٌ أو قَرابةٌ): أخرجَه أبو نُعَيم في «الدلائلِ» [الدر المنثور (٤/ ٣٢٧)] من طريقِ الكَلبيِّ عن أبي صالحٍ عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم﴾ قال (لَيْسَ مِنَ العَرَبِ قبيلةٌ...) فذَكَرَه.

(٢) قوله (وهُوَ عِنْدَ ابن عبّاس وغَيْرِه مَعْنَى قوله ﴿إلا المَوَدَّةَ في القُرْبَى﴾ ...): له طُرقٌ كثيرةٌ عن ابن عبَّاسٍ؛ فأخرجه البخاريُّ [٣٤٩٧] من طريق طاوسٍ عنه، قال: (إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قَرابةٌ، فقال: إلَّا أنْ تَصِلُوا ما بَيْنِي وبَيْنَكم مِنَ القَرابةِ). وأخرج الطبرانيُّ [١١/ ٤٣٦] نحوَه من طريق سعيد ابن جبير عنه. وقد استوفَيْتُ طُرُقَه في التفسير المسنَد [٧/ ٣٤٦].

قولـه (وأنَّـه لَمْ تكُـنْ... إلـخ): -بالفتـحِ عَطْفًـا عـلى «أنَّـه» السابقِ الواقـعِ مَفعـولًا ثانيًـا لـ«أَعْلَمَ». وقولُـه (مِنْ أشرَفِهـم): أيْ نَسَبًا، (وأَرْفَعِهـم): أيْ حَسَـبًا، (وأَفْضَلِهـم): أيْ سَـخاوةً ونَجابـةً.

وقولـه (مـا يُعْنِتُهـم): -بضـمِّ أوَّلِـه- أيْ يَشُـقُّ عَلَيْهـم؛ قـالَ اللهُ تعـالى: ﴿وَلَـوْ شَـاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُـمْ﴾ [البقـرة: ٢٢٠]، قـالَ الإمـامُ الرَّمـليُّ: «ويجـوزُ التَّشـديدُ، وفي الحديـثِ عَنـه ﷺ: (إنَّ اللهَ لمْ يَبعثْني مُعَنِّتًـا)[1]». قولـه (ويَـضرُّ بِهـم): قـالَ المُـلاّ: ضُبِـطَ في نُسـخةٍ بِضَـمِّ اليـاءِ وكَـسْرِ الضـادِ، وهـوَ غَـيْرُ صَحيـحٍ؛ لِوُجـودِ البـاءِ في مفعولِـه؛ وقـولُ الدلجـيِّ: «إنَّ البـاءَ زائـدةٌ» غـيرُ صحيـحٍ؛ ففـي «القامـوسِ»: ضَرَّ بِـه، وأَضَرَّ؛ قـالَ: فالصَّـوابُ ضَبطُـه بِفَتْـحٍ وضَـمٍّ؛ والتقديـرُ: ومـا يَضُرُّهُـم. اهـ؛ وفي «الرمـليِّ» مـا يوافِـقُ الدلجـيَّ؛ ونَصُّـه: «بِضَـمِّ اليـاءِ وكَـسْرِ الضـادِ؛ يقـالُ: ضَرَّ بي الـشيءُ، وأَضَرَّ بي».

قولُـه (رَحْمَتِـه بمؤمنيهـم) وفي نسـخةٍ بالإفـرادِ؛ عـلى إرادةِ الجنسِ. قولـه (أَعْطاهُ اسمَيْنِ مِنْ أسمائِه): قـالَ الزمخشريُّ[2]: «لمْ يَجمَعِ اللهُ اسمَيْنِ مِن أسمائِه لِأحدٍ مِن الأنبياءِ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ»[3].

(١) أخرجـه مسـلمٌ في صحيحـه (رقـم ١٤٧٨) [كتـاب الطـلاق - بـاب بيـان أنَّ تخيـير امرأتـه لا يكـون طلاقًـا إلَّا بالنيَّـة]، وغـيره مـن حديـث جابـر بـن عبـدالله رَضِوَاللهُعَنهُ.

(٢) محمـود بـن عمـر بـن محمـد بـن عمـر الزمخشري، أبـو القاسـم النحـوي، مـن أهـل خـوارزم، وزمخـشر إحـدى قراهـا، ولـد سـنة (٤٦٧)، وكان إمامًـا في النحـو واللغـة، تشـد إليـه الرحـال، سـمع مـن أبي الخطـاب بـن البطـر، وتوجَّـه إلى الحجـاز فحـجَّ وجـاور مـدة، وعـاد إلى خـوارزم وأقـام بهـا؛ وصنَّـف التصانيـف البديعـة: منهـا «الكشَّـاف» في تفسـير القـرآن العزيـز، لم يصنَّـف قبلـه مثلـه، و«الفائـق» في تفسـير الحديـث، و«أسـاس البلاغـة»، وغيرهـا. تُـوفِّي سـنة (٥٣٨) بكركانـج، وهـي قصبـة خـوارزم. انظـر «إنبـاه الـرواة بأنبـاء النحـاة» للقفطـي (ت: ٧٥٣) [حـرف اليـاء في آبـاء المحمديـن]، و«وفيـات الأعيـان» (ت: ٧١١) [حـرف الميـم].

(٣) ذكـره الزمخـشري في «الكشـاف» [تفسـير سـورة التوبـة - الآيـة ١٢٨] دون نسـبة إلى قائلـه، ونسـبه القرطبـي في تفسـيره إلى الحسـين ابـن الفضـل النيسـابوري المفسـر (ت: ٢٨٢هـ).

وَمِثْلُهُ فِي الآيَةِ الأُخْرَى قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآيَة [آل عمران: ١٦٤]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾ الآيَة [الجمعة: ٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ..﴾ الآيَة [البقرة: ١٥١].

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْهُ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، قَالَ: نَسَبًا وَصِهْرًا وَحَسَبًا، لَيْسَ فِي آبَائِي مِنْ لَدُنْ آدَمَ سِفَاحٌ، كُلُّنَا نِكَاحٌ.[1]

قَالَ ابْنُ الكَلْبِيِّ: كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَمْسَمِائَةِ أُمٍّ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِنَّ سِفَاحًا، وَلَا شَيْئًا مِمَّا كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ عَلَيْهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قَالَ: مِنْ نَبِيٍّ إِلَى نَبِيٍّ حَتَّى أَخْرَجَكَ نَبِيًّا.[2]

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: عَلِمَ اللهُ عَجْزَ خَلْقِهِ عَنْ طَاعَتِهِ فَعَرَّفَهُمْ ذَلِكَ؛ لِكَيْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَنَالُونَ الصَّفْوَ مِنْ خِدْمَتِهِ، فَأَقَامَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مَخْلُوقًا مِنْ جِنْسِهِمْ فِي الصُّورَةِ، أَلْبَسَهُ مِنْ نَعْتِهِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَأَخْرَجَهُ إِلَى الخَلْقِ سَفِيرًا صَادِقًا، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَتَهُ، وَمُوَافَقَتَهُ مُوَافَقَتَهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) قوله (وروي عن علي بن أبي طالب عنه ﷺ في قوله: ﴿من أنفسكم﴾ قال: نَسَبًا وصِهْرًا): ابن أبي عمرَ العَدَنيِّ في مسندَه [الدر المنثور (٤/ ٣٢٧)].

(٢) قوله (وعن ابن عباس في قوله: ﴿وتَقَلُّبَكَ في الساجدينَ﴾ قال: مِنْ نَبِيٍّ إلى نَبِيٍّ حَتَّى أَخْرَجْتُكَ نَبِيًّا): ابن سعد [١/ ٢٥]، والبزّار [كشف الأستار ٢٢٤٢]، وأبو نُعيم في «الدّلائل» [١٧] بسند صحيح.

وقولُه (نَسَبًا): أيْ قَرابةً مُختصّةً بالآباءِ؛ على ما في «القاموسِ»، ونَصْبُه على التَّمْييزِ؛ وكَذا قولُه (وصِهْرًا).

وقولُه (ليسَ في آبائي): أسْلافي مِنَ الأَبِ والجَدِّ والأُمِّ والجَدّةِ.

قوله (مِنْ لَدُنْ آدَمَ): بفتحِ اللامِ وضَمِّ الدالِ وسُكونِ النونِ.

قوله (سِفاحٌ): بكسرِ السّينِ، وهوَ ماءُ الرَّجُلِ بِلا عَقْدٍ؛ والأَوْلى أنْ يُرادَ به الوَطْءُ مِنْ غَيْرِ مُجَوِّزٍ شَرْعِيٍّ.

قولُه (كُلُّنا نِكاحٌ): أيْ ذو عَقْدٍ؛ أو كُلُّ واحدٍ مِنّا ناكِحٌ؛ أوْ قُصِدَ به المُبالَغةُ؛ قالَ التِّلِمْسانيُّ: «وفي نسخةٍ: كُلُّها نِكاحٌ»؛ قالَ المُلّا: «ولَعَلَّ التقديرَ: كُلُّ المُجامَعةِ ذاتُ نِكاحٍ».

وقولُه (حَتّى أخرَجَكَ) وفي نُسخةٍ صحيحةٍ «حَتّى أَخْرَجْتُكَ» (نَبِيًّا).

وقولُه (فعَرَّفَهم) -بالتشديد- أيْ فأَعْلَمَهُم (ذلكَ): أي العَجْزَ.

وقولُه (وأَخْرَجَه إلى الخَلْقِ سَفيرًا): قالَ الشُّمُنّيُّ: في «الصِّحاحِ»: «السَّفيرُ: الرسولُ، والمُصْلِحُ بينَ الخَلْقِ»، وقولُه (طاعَتَه طاعَتَه) -بنَصْبِهِما- أيْ كطاعةِ الله فيما يأمُرُه ويَنهاهُ؛ وكذا قولُه (وموافَقَتَه موافَقَتَه).

وقولُه (إلّا رَحْمةً للعالَمينَ): رَوى الحاكِمُ عنْه ﷺ: (إنَّما أنا رَحْمةٌ مُهْداةٌ)[1].

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

قَالَ أَبُو بَكْرِ ابْنُ طَاهِرٍ: زَيَّنَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا بِزِينَةِ الرَّحْمَةِ؛ فَكَانَ كَوْنُهُ رَحْمَةً، وَجَمِيعُ شَمَائِلِهِ وَصِفَاتِهِ رَحْمَةً عَلَى الخَلْقِ، فَمَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ رَحْمَتِهِ فَهُوَ النَّاجِي فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَالوَاصِلُ فِيهِمَا إِلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ فَكَانَتْ حَيَاتُهُ رَحْمَةً، وَمَمَاتُهُ رَحْمَةً، كَمَا قَالَ ﷺ: (حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ، وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ)[1]، وَكَمَا قَالَ ﷺ: (إِذَا أَرادَ اللهُ رَحْمَةً بِأُمَّةٍ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا)[2].

وَقَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ: «رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» يَعْنِي لِلْجِنِّ وَلِلْإِنْسِ، وَقِيلَ لِجَمِيعِ الخَلْقِ، لِلْمُؤْمِنِ رَحْمَةً بِالهِدَايَةِ، وَرَحْمَةً لِلْمُنَافِقِ بِالأَمَانِ مِنَ القَتْلِ، وَرَحْمَةً لِلْكَافِرِ بِتَأْخِيرِ العَذَابِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ؛ إِذْ عُوفُوا مِمَّا أَصَابَ غَيْرَهُمْ مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ»[3].

وَحُكِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَخْشَى العَاقِبَةَ، فَأَمِنْتُ لِثَنَاءِ اللهِ تَعَالَى عَلَيَّ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذِي قُوَّةٍ

(١) حديث (حَيَاتِي خَيْرٌ لكم، ومَوْتِي خَيْرٌ لَكُم): الحارث ابن أبي أسامة في مسنده [٩٥٣] من حديث بكر بن عبد الله المُزَنِيِّ، والبزّار [١٩٢٥] من حديث ابن مسعود بسندٍ صحيح.

(٢) حديث (إذا أَرَادَ اللهُ رَحمةً بأُمَّةٍ قَبَضَ نَبِيَّها قَبْلَها، فجعَلَه لها فَرَطًا وسَلَفًا): مسلم [٢٢٨٨] عن أبي مالك الأشعري.

(٣) قوله (قالَ ابنُ عَبَّاس: هُوَ رَحمةٌ للمؤمنِينَ...) إلى آخره: ابنُ جرير [١٦/ ٤٤١] وابنُ أبي حاتم [الدر المنثور ٥/ ٦٨٧] في تفسيرَيْهما، والطبرانيُّ [١٢/ ٢٣]، والبيهقيُّ في «الدَّلَائل» [٥/ ٤٨٦].

قولـه (أَبُو بَكْرِ ابنُ طاهرٍ)، وفي نسخةٍ «محمَّدُ بنُ طاهرٍ».

قولـه (فكانَ كَوْنُه رحمةً): أيْ وُجودُه؛ قالَ المُلّا: «وأغربَ الدلجيُّ في قولِه: فكانَ كَوْنُه مَوْصوفًا بالرَّحمةِ رَحْمةً».

وقولُه (وجَميع شَمائِله): جَمْعُ «شِمالٍ» -بالكسرِ- وهوَ الخُلُقُ -بالضَّمِّ- والمُرادُ بها أَوْصافُه الباطِنةُ.

وقولُه (ومَماتُه رَحْمةً): قالَ المُلّا: ولَيْسَ هُناكَ مَوْتٌ ولا فَوْتٌ؛ بَلِ انتِقالٌ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، وارْتِحالٌ مِنْ دارٍ إلى دارٍ؛ لِأَنَّ المُعْتَمَدَ المُحَقَّقَ أنَّه حَيٌّ يُرْزَقُ، وأَعْمالَنا تُعْرَضُ علَيْه، فيَشْفَعُ في غُفْرانِ سَيِّئاتِنا، ويَدْعو لَنا في تَحسينِ حالاتِنا.

وقولُه (فَرَطًا وسَلَفًا): أيْ بَيْنَ يَدَيْها كما في «الصحيح» -وهُما بفتحتينِ- أيْ مقدَّمًا وسابقًا، وأَصْلُ الفَرَطِ هوَ الَّذي يَتَقَدَّمُ الوارِدينَ لِيُهَيِّئَ لَهم ما يَحتاجونَ إلَيْه عِنْدَ نُزولِهم في مَنازِلِهم.

وقَوْلُه (هَلْ أصابَكَ مِن هذه الرَّحمةِ شيءٌ): أيْ مِنَ الرَّحْمةِ مُخْتَصٌّ بكَ.

وقوله (قالَ: نَعَمْ؛ كُنْتُ أَخْشى العاقبةَ): أيْ آخِرَ أَمْري مِنْ سوءِ الخاتِمةِ؛ لِما وَقَعَ لِإبليسَ مِنَ الذِّلّةِ.

وقولُه (فأَمِنْتُ): بفتحٍ فكسرٍ، وضَبَطَه التِّلِمسانيُّ بصيغةِ المَجهولِ؛ وفي القاموسِ: الأَمْنُ: ضِدُّ الخَوْفِ؛ وأَمِنَ كـ«فَرِحَ»، قالَ المُلّا: ولا يَخْفى أنَّ بِناءَه لِلمَجهولِ غيرُ ظاهرٍ في المَعْنى؛ إذِ المُرادُ: فَصِرْتَ آمِنًا بِبَرَكةِ القرآنِ الَّذي نَزَلَ عليكَ.

عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠-٢١].[1]

وَرُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]: أَيْ بِكَ إِنَّمَا وَقَعَتْ سَلَامَتُهُمْ مِنْ أَجْلِ كَرَامَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيَةَ [النور: ٣٥].

قَالَ كَعْبٌ وَابْنُ جُبَيْرٍ: الْمُرَادُ بِالنُّورِ الثَّانِي هَهُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَوْلُهُ ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾، أَيْ نُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ[2].

وَقَالَ سَهْلُ بنُ عَبْدِ اللهِ: الْمَعْنَى: اللهُ هَادِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: مَثَلُ نُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذْ كَانَ مُسْتَوْدَعًا فِي الْأَصْلَابِ كَمِشْكَاةٍ صِفَتُهَا كَذَا، وَأَرَادَ بِالْمِصْبَاحِ قَلْبَهُ، وَبِالزُّجَاجَةِ صَدْرَهُ، أَيْ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحِكْمَةِ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، أَيْ مِنْ نُورِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ.

(١) حديث (أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريلَ: هَلْ أَصابَكَ مِنْ هذه الرحمةِ شيءٌ...): لَمْ أجدْه [ذكره السيوطي في كتابه «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص»، وحكم ببطلانه وكذبه].

(٢) قوله (قالَ كعبٌ وابنُ جُبير ...) إلى آخره: أخرجَه عنهما ابنُ أبي حاتم [١٤٥٧١].

وقولُه (ثَمَّ): -بفتحِ المُثلَّثةِ- أيْ فيما هُنالِكَ، وقولُه (أمينٍ): أيْ على أمْرِ الوَحْيِ وغَيْرِه؛ ووَجْهُ الاستدلالِ به أنَّه -سُبْحانَه- حيثُ مدَحَه في مُحكَمِ كِتابِه العَظيمِ، وأخبرَ عن حُسنِ حالِه لِلنبيِّ الكريمِ، لا يُتَصَوَّرُ تبدُّلُ حالِه ولا تغيُّرُ مَآلِه.

قولُه (مِنْ أَجْلِ كَرامةِ مُحمَّدٍ ﷺ): أيْ بالشَّفاعةِ العُظْمى؛ فإنَّها شاملةٌ لِلنفوسِ العُلْيا والسُّفْلى؛ وفي نُسخةٍ «كَرامة لِمُحَمَّدٍ»، وفي أُخْرى «بمحمَّدٍ»؛ قالَ المُلَّا: في النُّسَخِ المُصحَّحةِ والأصولِ المعتمَدةِ على الإضافةِ إلى المفعولِ؛ وهو الظاهرُ في المَعنى؛ والأظْهَرُ أنَّه التِفاتٌ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبةِ، وأنَّ الخِطابَ في ذلكَ لِلنَّبيِّ ﷺ، والتقديرُ: «فسلامةٌ عظيمةٌ لِأَجْلِكَ وبِسَبَبِكَ حاصِلةٌ لِأَصحابِ اليَمينِ»؛ فقولُه «مِنْ أَجْلِكَ» تَوْضيحٌ لِقَوْلِه «بِكَ»، عَطْفُ بَيانٍ أوِ استئنافٌ.

قولُه (قالَ كعبٌ): وفي نُسخةٍ «كَعْبُ الأَحْبارِ» -بالحاءِ المهملةِ، وهوَ كَعْبُ بنُ ناتعٍ -بالمُثَنّاةِ فوقُ، أَدْرَكَ زَمَنَ النبيِّ ﷺ ولَمْ يَرَه، وأَسْلَمَ في خِلافةِ أبي بَكرٍ أوْ عُمَرَ -خِلافٌ. قولُه (سَهْلُ بنُ عبدِ الله): هوَ التُّسْتَرِيُّ[1]، مَنْسوبٌ إلى «تُسْتَرَ»، وهوَ بِمُثنّاتَيْنِ مِن فَوْقُ؛ الأولى مَضْمومةٌ، والثانيةُ مَفْتوحةٌ، بَيْنَهما سينٌ مُهْمَلةٌ؛ ويُقالُ: «شُشْتريٌّ» -بِشينَيْنِ معجمتَيْنِ، قالَ التلمسانيُّ: بضمِّهِما.

وقولُه (مُسْتَوْدَعًا): بفَتْحِ الدّالِ، وقولُه (كَمِشْكاةٍ): هيَ الكَوّةُ -أيِ الطّاقةُ- تكونُ في الجِدارِ غَيْرَ نافِذةٍ، وقوله (دُرِّيٌّ): بضمِّ أوَّلِه وتشديدِ آخِرِه. قوله (يُوقَدُ): بصيغةِ المَجْهولِ مِنْ «أَوْقَدَ»، وبصيغةِ الماضي المعلوم[2]؛ فقراءةُ التأنيثِ مرجِعُها الزجاجةُ، وقراءةُ التذكيرِ مرجعُها مِصباحُ الزجاجةِ.

(١) سهل بن عبد الله بن يُونُس بن عِيسَى بن عبد الله بن رفيع التُّستري الصَّالح المشهور، مولده سنة ٢٠٠ وقيل ٢٠١، لم يكن له في وقته نظِير في المُعاملات والورع وكان صاحب كرامات، تخرَّج عن خاله محمَّد بن سَوَّار، ولقي ذا النُّون المصري بمكَّة، وكان عامَّة كلامه في تَصْفِيةِ الأعمال وتَنْقِيةِ الأحوال عن المَعايِبِ والأعْلال. وفاته سنة ٢٨٣ وَقيل سنة ٢٧٣. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ١٨٩)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٢٩).

(٢) أي: تَوَقَّد.

وقولُـه (تَبِـينُ): -بفَتْـحِ الفوقيـةِ وكَسْـرِ المُوحَّـدةِ- أيْ تتَّضِـحُ وتَظهَـرُ لِلنّـاسِ قَبْـلَ كَلامِـه بادِّعـاءِ النبـوّةِ؛ لِقـوّةِ مـا فيهـا مِـن الأنـوارِ الإلهيـةِ.

قولـه (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) ولِكَـوْنِ «لَـكَ» مجمَـلًا يَشْـمَلُ جميـعَ أجزائِـه؛ فَـسَّرَه بقَوْلِـه «صَـدْرَكَ»؛ فهـوَ تَفصيـلٌ بَعْـدَ إجمـالٍ، والاسـتِفهامُ هُنـا لِلتقريـرِ، وهـوَ حَمْـلُ المُخاطَـبِ على الإقـرارِ بِـما عَلِـمَ مِـنَ الحُكْـمِ، وهـوَ مَدخـولُ النَّفْـيِ. وجَعَلَـه المُـلّا مِـن قَبيـلِ الاسـتفهامِ الإنـكاريِّ؛ قـالَ: إنـكارُ النَّفْـيِ نَفْـيٌ لَـه، ونَفْـيُ النَّفـيِ إثبـاتٌ، أيْ قَـدْ شرَحْنـا لـكَ.

قلـتُ: ويُؤيِّـدُ التقريـرَ الَّـذي صَدَّرْنـا بـه؛ مـا رَواه ابـنُ عسـاكرَ، والإمـامُ الـرازيُّ؛ عَنْـه ﷺ: لَقَـدْ سـأَلْتُ رَبّي -عـزَّ وجـلَّ-، فقُلْـتُ: يـا ربِّ؛ إنَّـه كانَـتْ أنبيـاءُ قَبْـلي، مِنهُـم مَـنْ سَـخَّرْتَ لـه الرّيـحَ... إلى قولِـه: فقـال: يـا محمـدُ؛ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، ووضَعْنـا عنـكَ وزركَ؟! قُلْـتُ: بَـلى!![1] ولِهَـذا فَسَّرَه المُصَنِّـفُ فيـما يـأتي بِقولِـه «هـذا تقريـرٌ مِـن اللهِ -جَـلَّ اسـمُه- لنبيِّـه... إلـخ».

قولـه (يَعْني قَبْلَ النُّبوّةِ): أقـولُ: هـذا تسـليمٌ بحُصولِ الذَّنْـبِ قَبـلَ النبـوّةِ، وأنَّ العِصمـةَ مِنْه بَعْـدَ النُّبـوّةِ فقـطْ، والَّـذي ذَكَـرَه العَلّامـةُ الأَمـيرُ نَقْـلًا عَـنْ أَئمّـةِ التحقيـقِ: العصمـةُ مِـن الذنـبِ مطلَقًـا؛ قبـلَ النبـوةِ وبَعدَهـا؛ كَـما سـيأتي لِلمُصَنِّـفِ أيضًـا.

قولُـه (السُّلَمِيُّ): هـوَ -بضـمِّ المهملـةِ وفتـحِ الـلامِ- أبـو عبـدِ اللهِ النيسـابوريُّ شـيخُ الصوفيّـةِ[2].

(١) أخرجـه الطـبراني في «الكبـير» (١١/ ٤٥٥)، و«الأوسـط» (رقـم ٣٦٥١)، والحاكـم (٢/ ٥٢٦)، وابـن عسـاكر وغيرهـم مـن حديـث ابـن عبّـاسٍ، وصحّحـه الحاكـم.

(٢) هـو أبـو عبـد الرحمـن مُحَمَّـدُ بـنُ الحُسَـيْنِ السُّـلَمي، الإمـامُ الحافِـظُ المُحَـدِّثُ، شَـيْخُ خُراسَـان، ولـد ٣٣٠هـ، شـيخ الصوفيـة وصاحـب تاريخهـم وطبقاتهـم وتفسـيرهم، تـوفّي سـنة ٤١٢هـ. انظـر تاريـخ بغـداد (٢/ ٢٤٦)، وسـير أعـلام النبـلاء (١٧/ ٢٤٧) وطبقـات السـبكي (٤/ ١٤٣).

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾، أَيْ تَـكَادُ نُبُـوَّةُ مُحَمَّـدٍ ﷺ تَبِـينُ لِلنَّـاسِ قَبْـلَ كَلامِـهِ كَهَـذا الزَّيْـتِ.

وَقَـدْ قِيـلَ فِي هـذه الآيَـةِ غَـيْرُ هَـذَا، وَاللهُ أَعْلَـمُ، وَقَـدْ سَـمَّاهُ اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ، فِي غَيْرِ هَـذَا المَوْضِعِ نُـورًا وَسِـرَاجًـا مُنِـيرًا، وَقَـالَ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحـزاب: ٤٥-٤٦].

وَمِـنْ هَـذَا قَوْلُـهُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ إِلَى آخِـرِ السُّـورَةِ، شَرَحَ: وَسَّـعَ، وَالمُـرَادُ بِالصَّـدْرِ هُنَـا القَلْـبُ. قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ: شَرَحَـهُ بِالإِسْـلَامِ[1]، وَقَـالَ سَـهْلٌ: بِنُـورِ الرِّسَـالَةِ، وَقَـالَ الحَسَـنُ: مَـلَأَهُ حُكْـمًا وَعِلْـمًا، وَقِيـلَ: مَعْنَـاهُ أَلَمْ نُطَهِّـرْ قَلْبَـكَ حَتَّـى لَا يُؤْذِيَـكَ الوَسْـوَاسُ.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، قِيـلَ: مَـا سَـلَفَ مِـنْ ذَنْبِـكَ -يَعْنِي قَبْـلَ النُّبُـوَّةِ، وَقِيـلَ: أَرَادَ ثِقَـلَ أَيَّـامِ الجَاهِلِيَّـةِ، وَقِيـلَ: أَرَادَ مَـا أَثْقَـلَ ظَهْـرَهُ مِـنَ الرِّسَـالَةِ حَتَّـى بَلَّغَهَـا -حَـكَاهُ المَـاوَرْدِيُّ وَالسُّـلَمِيُّ، وَقِيـلَ: عَصَمْنَـاكَ، وَلَـوْلَا ذَلِكَ لَأَثْقَلَـتِ الذُّنُـوبُ ظَهْـرَكَ، حَـكَاهُ السَّـمَرْقَنْدِيُّ.

(١) قوله (قالَ ابنُ عبّاسٍ: شَرَحَه بالإسلامِ): أخرجَه ابن مَردوَيْه وابن المنذِر في تفسيرَيهما من طَريق عَطاءٍ عنه، وأخرجه ابن أبي حاتم عن عِكرمة [الدر المنثور ٨/ ٧٤٥].

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: قَالَ يَحْيَى بْنُ آدَمَ: بِالنُّبُوَّةِ، وَقِيلَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي -يَعْنِي قَوْلَ «لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، وَقِيلَ فِي الأَذَانِ.

قَالَ الفَقِيهُ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا تَقْرِيرٌ مِنَ اللهِ -جَلَّ اسْمُهُ- لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ لَدَيْهِ، وَشَرِيفِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ وَكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، بِأَنْ شَرَحَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ وَالهِدَايَةِ، وَوَسَّعَهُ لِوَعْيِ العِلْمِ وَحَمْلِ الحِكْمَةِ، وَرَفَعَ عَنْهُ ثِقَلَ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ، وَبَغَّضَهُ لِسِيَرِهَا وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ؛ بِظُهُورِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَحَطَّ عَنْهُ عُهْدَةَ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ لِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَتَنْوِيهِهِ بِعَظِيمِ مَكَانِهِ، وَجَلِيلِ رُتْبَتِهِ وَرِفْعَةِ ذِكْرِهِ، وَقِرَانِهِ مَعَ اسْمِهِ اسْمَهُ.

قَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلا يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ[1].

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ: تَدْرِي كَيْفَ رَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي)[2].

قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: جَعَلْتُ تَمَامَ الإِيمَانِ بِذِكْرِي مَعَكَ، وَقَالَ أَيْضًا: جَعَلْتُكَ ذِكْرًا مِنْ ذِكْرِي؛ فَمَنْ ذَكَرَكَ ذَكَرَنِي.

وقَالَ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ: لَا يَذْكُرُكَ أَحَدٌ بِالرِّسَالَةِ إِلا ذَكَرَنِي بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَشَارَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَى الشَّفَاعَةِ.

(١) قوله (قالَ قتادةُ: رَفَعَ اللهُ ذِكْرَه ...) إلى آخره: ابن أبي حاتم [١٩٣٩٢] والبيهقي [دلائل ٧/ ٦٣].

(٢) حديث أبي سَعيدٍ الخُدْريُّ (أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: أَتاني جبريلُ، فقالَ: إنَّ ربِّي وربَّكَ يقول: تَدْري كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ ...): أبو يَعلَى في مسنده [١٣٨٠]، وابن حِبّانَ في صحيحه [٣٣٨٢].

قولُه (ثِقَلَ أُمورِ الجاهليّةِ): -بكسرِ المثلثةِ وفتحِ القافِ- ضِدُّ الخِفّةِ؛ وبسكونِها: واحدُ الأثقالِ، وبفتحِهما: مَتاعُ المُسافرِ.

وقولُه (وحَطَّ عَنه عُهْدةَ أَعْباءِ الرِّسالةِ): العُهْدةُ هُنا: التكليفُ، والأعباءُ -بفتحِ الهَمزةِ- جَمعُ «عِبْءٍ» -بكسرِ فسكونٍ فهمزٍ- أيْ ثِقْلَها؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

وقولُه (لتبليغِه لِلناسِ)، وفي نسخةٍ بالباءِ، ومآلُهما واحدٌ.

وقولُه (وتنويهِه): بالجَرِّ عَطْفًا على «تبليغِه»، والتنويهُ إعلامٌ مَعَ إظْهارٍ، وقولُه (ورِفعةِ ذِكرِه) وفي نُسخةٍ «ورَفيعِ ذِكرِه».

وقولُه (تَدْري) وفي نسخةٍ صحيحةٍ «أتدري».

وقولُه (قُلْتُ: اللهُ ورَسولُه أَعْلَمُ) وفي نُسخةٍ «فقُلْتُ»، والمُرادُ بالرَّسولِ هُنا جبريلُ؛ وفي بعضِ النُّسخِ الاقتصارُ على الجَلالةِ.

وقولُه (إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي): الأوَّلُ لِلمُتكلِّمِ، والثاني لِلمُخاطَبِ.

وقولُه (بِذِكْري مَعَكَ) وفي نُسخةٍ صَحيحةٍ «بِذِكرِكَ مَعي»، قالَ المُلّا: «وهوَ الأظْهرُ».

وقولُه (فَمَنْ ذَكَرَكَ ذَكَرَني): أيْ مَعَه؛ أوْ ذكَرَني على الحقيقةِ.

قوله (مِن ذِكرِه): جارٌ ومجرورٌ ومضافٌ [إليه]. قوله (أَنْ قَرَنَ): بفَتْحِ (أن) المَصدريّةِ.

وقولُه (المشرِّكة): -بتشديدِ الراءِ، وفي نُسخةٍ بتَخْفيفِها- أَيِ الجاعِلةِ لِلمَعْطوفِ اشتِراكًا في المَعْطوفِ علَيْه بالنِّسْبةِ إلى الفِعْلِ المُسْنَدِ إلَيْه.

قولُه (ولا يَجُوزُ جَمْعُ... إلخ): قالَ الشِّهابُ: غَيْرُ مُسلَّمٍ؛ بَلْ هو جائزٌ، وقدْ وَرَدَ؛ قالَ تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ ولا مانِعَ مِنْ أنْ يُقالَ: أَطِعِ اللهَ وأَطِعِ القاضيَ. اهـ.

أقولُ: إنَّ المُرادَ جَمْعُ هذا الكَلامِ في غَيْرِ حَقِّه ﷺ؛ أيْ لا يَكونُ في مَرْتَبَتِه مِنْ وُجوبِ الإيمانِ والإسلامِ؛ وإلّا فيُقالُ: آمِنوا بِاللهِ ومَلائِكَتِه.

قولُه (الجَيّانيُّ): بفَتْحِ الجيمِ وتَشْديدِ الياءِ، وقولُه (السِّجْزيُّ): بتشديدِ السينِ المهمَلةِ وسُكونِ الجيمِ فزايٍ مكسورةٍ. وقولُه (لا يقولَنَّ أَحَدُكُم... إلخ): مَجْزومٌ بـ«لا» الناهيةِ، ودَخَلَتِ النّونُ لِلتوكيدِ، وقولُه (وشاءَ فُلانٌ): مَعَ إعادةِ الفِعلِ بصَريحِه، فكَيْفَ معَ حَذْفِه؟!!

وقولُه (ثُمَّ شاءَ فُلانٌ): نَهاهُ عَنِ التَّشْريكِ في المَشيئةِ بَيْنَ اللهِ وغَيْرِه؛ لِإيهامِه أنَّ مَشيئةَ اللهِ مَوْقوفةٌ على مَشيئةِ غَيْرِه؛ فإذا لَوْ خَلَصَتِ المَشيئةُ للهِ؛ جازَ أنْ يُعلَّقَ الفِعلُ على مَشيئةِ غَيْرِه مجازًا بـ«ثُمَّ» الَّتي لِلتَّراخي، بخِلافِ الواوِ الَّتي هيَ لِلاشتِراكِ في الحُكمِ أوْ في الوُجودِ مِن غَيْرِ إفادةِ تَراخٍ أوْ عَدَمِه، فلَيْسَ في ذِكرِها رِعايةُ الأدَبِ؛ بَلْ ربَّما توُهِّمَ عَدمُ التفاوتِ؛ ولا سيَّما إذا لوحِظَ العُدولُ عنْ «ثُمَّ» إلَيْها.

قولُه (ومثلُه الحديثُ): أيْ في الجَمْعِ بَيْنَ مَشيئةِ اللهِ ومَشيئةِ فُلانٍ.

وَمِنْ ذِكْرِهِ مَعَهُ تَعَالَى أَنْ قَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ وَاسْمَهُ بِاسْمِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، **و﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾** [النساء: ١٣٦]، **فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا بِوَاوِ العَطْفِ المُشَرِّكَةِ، وَلَا يَجُوزُ جَمْعُ هَذَا الكَلَامِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ﷺ.**

حَدَّثَنَا الشَّيْخُ الإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الجَيَّانِيُّ الحَافِظُ فِيمَا أَجَازَنِيهِ، وَقَرَأْتُهُ عَلَى الثِّقَةِ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أبو عُمَرَ النَّمَرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ السِّجْزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ)(١).

قَالَ الخَطَّابِيُّ: أَرْشَدَهُمْ ﷺ إِلَى الأَدَبِ فِي تَقْدِيمِ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَشِيئَةِ مَنْ سِوَاهُ، وَاخْتَارَهَا بِـ«ثُمَّ» الَّتِي هِيَ لِلنَّسَقِ وَالتَّرَاخِي، بِخِلَافِ «الوَاوِ» الَّتِي هِيَ لِلاشْتِرَاكِ.

وَمِثْلُهُ الحَدِيثُ الآخَرُ: أَنَّ خَطِيبًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (بِئْسَ خَطِيبُ القَوْمِ أَنْتَ! قُمْ، أَوْ قَالَ: اذْهَبْ)(٢).

---

(١) حديث حُذيفةَ (لا يقولَنَّ أَحَدُكم ما شاءَ اللهُ...): أسندَه المصنِّفُ من طريقِ أبي داودَ [٤٩٨٠]، وأخرَجه أيضًا النَّسائيُّ في «اليوم والليلةِ» [٩٨٥]، وابنُ أبي شَيبةَ في «المصنَّفِ» [٢٦٦٩٠].

(٢) حديث (أنَّ خطيبًا خطَبَ عِندَ النبيِّ ﷺ، فقالَ: مَنْ يُطِع=

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: كَرِهَ مِنْهُ الْجَمْعَ بَيْنَ الاسْمَيْنِ بِحَرْفِ الْكِنَايَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْوِيَةِ، وَذَهَبَ غَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَرِهَ لَهُ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِهِمَا».

وَقَوْلُ أَبِي سُلَيْمَانَ أَصَحُّ؛ لِمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى»، وَلَمْ يَذْكُرِ الْوُقُوفَ عَلَى «يَعْصِهِمَا».

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ وَأَصْحَابُ الْمَعَانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، هَلْ ﴿يُصَلُّونَ﴾ رَاجِعَةٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَالْمَلَائِكَةِ أَمْ لَا؟

فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ، وَمَنَعَهُ آخَرُونَ لِعِلَّةِ التَّشْرِيكِ، وَخَصُّوا الضَّمِيرَ بِالْمَلَائِكَةِ، ..

=الله ورَسُولَه...): مسلمٌ عن عَدِيٍّ ابنِ حاتمٍ [٨٧٠، وأخرجه أبو داود (١٠٩٩)، وفيه وقف الخطيب على قوله: ويعصهما.. فقال ﷺ (قُم - أو: اذهب - بئسَ الخطيبُ»، ولفظ مسلم: أن رجلا خطب عند النبي ﷺ، فقال: من يطع الله ورسوله، فقد رشد، ومن يعصهما، فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله»].

قولـه (كَرِهَ مِنْهُ الجَمْعَ... إلخ): أيْ كَرِهَ أنْ يُعَبِّرَ عَنْهُما بضميرٍ واحدٍ؛ ففيهِ مضافٌ مقدَّرٌ؛ أيْ بَيْنَ مُسَمَّى الاسمَيْنِ بكَلِمةٍ واحدةٍ -وهيَ ضَميرُ التثنيةِ في قولِه (يَعْصِهِما)، وقولُه (بحَرْفِ الكِنايةِ): أيْ بكَلِمَتِها، وقولُه (لِما فيه مِنَ التسويةِ): أيْ إيهامِ التسويةِ؛ لِأنَّه يُؤَوِّلُ على أنَّ المَعْصيةَ لا تكونُ إلا بِمُخالَفَةِ اللهِ ورَسولِه مَعًا، مَعَ أنَّها تَحْصُلُ بمُخالَفةِ أَحَدِهما.

وقولُه (لِما رويَ في الحديثِ الصحيحِ أنَّه قالَ: ومَن يَعْصِهِما): أقولُ: قالَ الإمامُ النَّوَويُّ[١]: «الصَّوابُ أنَّ سَبَبَ النَّهْيِ أنَّ الخِطابَ مِنْ شَأْنِه الإيضاحُ واجتِنابُ الرَّمْزِ -ولِهذا كانَ ﷺ إذا تكَلَّمَ بكَلِمةٍ أعادَها ثَلاثًا- لا كراهةُ الجَمْعِ بَيْنَ الاسمَيْنِ بالكِنايةِ؛ لِأنَّه وَرَدَ في مَواضِعَ؛ مِنْها قَوْلُه ﷺ: (أنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا سِواهما)[٢].

قولُه (فأجازَه بعضُهُم): أيْ مِمَّنْ قالَ بالجَمْعِ بَيْنَ المَعنيَيْنِ المشتركَيْنِ في إطلاقٍ واحدٍ؛ فإنَّ الصلاةَ مِن اللهِ إنزالُ الرحمةِ، ومِنَ المَلائكةِ الاستغفارُ والدُّعاءُ.. ومِنْهم الشافعيُّ وأتباعُه. اه. المُلّا.

قولُه (ومَنَعَه آخرونَ لِعِلَّةِ التشريكِ): أيْ بَيْنَ المَعْنيَيْنِ، ومِنْهم أبو حَنيفةَ وأشياعُه؛ والمُحَقِّقونَ يَجْعَلونَه مِنْ بابِ عُمومِ المَجازِ، ويَقولونَ: التقديرُ: إنَّ اللهَ وملائكتَه يُعَظِّمونَ النبيَّ ﷺ، كُلٌّ بِما يُناسِبُه مِن أنواعِ التعظيمِ وأصنافِ التكريمِ؛ قالَ المُلّا: «والأَوْلى أنْ يقالَ: الضميرُ راجعٌ إلى الكُلِّ؛ والمَعنى: يُثْنونَ عليه... إلخ». اه.

---

(١) الشيخ الإمام العلامة محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري ابن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي الدمشقي، ولد في نوى من أرض حوران في الجنوب الغربي من سورية، وذلك سنة ٦٣١هـ، ونشأ نشأة صالحة، وصنّف التصانيف النافعة في الحديث والفقه وغيرها كـ«شرح مسلم» و«الروضة» و«شرح المهذب» و«المنهاج» و«الأذكار» و«رياض الصالحين» و«التقريب» و«تهذيب الأسماء واللغات»، وغير ذلك، وبارك الله في علمه وتصانيفه، ولم يتزوج وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بعد أبي شامة فلم يتناول منها درهمًا، تُوفِّي في رجب سنة ٦٧٦هـ، وأفرده الحافظ السخاوي بالتصنيف في «المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي»، وانظر: «طبقات الشافعية» للسبكي (ت: ١٢٨٨)، و«طبقات الحفّاظ» للسيوطي (ت: ١١٢٨)، و«شذرات الذهب» (ت: ٢٥).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٦) [كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان]، ومسلمٌ (٤٣) [كتاب الإيمان - باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان]، وغيرهما من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

.. وَقَدَّرُوا الآيَةَ: «إِنَّ اللهَ يُصَلِّي، وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ». وَقَدْ رُوِيَ عَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللهِ أَنْ جَعَلَ طَاعَتَكَ طَاعَتَهُ؛ فَقَالَ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠].[1]

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ الآيَتَيْنِ [آل عمران: ٣١].

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يُرِيدُ أَنْ نَتَّخِذَهُ حَنَانًا كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى عِيسَى؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فَقَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ رَغْمًا لَهُمْ.[2]

(١) حديث (أَنَّ عُمَرَ قالَ: مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللهِ أَنْ جَعَلَ طاعتَكَ طاعتَه...): لَمْ أَجِدْه.

(٢) قوله (رُوِيَ أنَّه لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ -يعني قوله: ﴿قلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ﴾=

أَقولُ: والأَظهَرُ -على ما قالَه ابنُ هشامٍ[1]- أنَّ الصَّلاةَ مَعْناها شيْءٌ واحدٌ؛ وهوَ العَطْفُ، فهيَ مِن قَبيلِ المُشْتَرَكِ المَعْنَويِّ؛ وهوَ ما اتَّحَدَ وَضْعُه ومَعْناهُ، معَ اختِلافِ أَفرادِ المَعْنى فيه؛ لِكُلِّيَّتِه وحينئذ فمَعنى «يُصَلّونَ»: يَعطِفونَ؛ والعَطْفُ مِنَ اللهِ على نَبيِّه: رَحْمَتُه اللائقةُ بمَقامِه الشَّريفِ؛ ومِن ملائكتِه: الثَّناءُ والدُّعاءُ.

قولُه (وقَدَّروا الآيةَ: إنَّ اللهَ يُصلِّي...): قالَ السَّيِّدُ: وضُعِّفَ هذا؛ فإنَّ الشائعَ الحَذْفُ مِنَ الثاني بِقَرينةِ الأَوَّلِ عِندَ اتِّحادِ المَعْنى. قولُه (أنْ جَعَلَ): -بفَتْحِ الهَمْزةِ- مُبتَدأٌ، خَبَرُهُ ما قَبْلَه -أو بالعَكْسِ، وقولُه (طاعَتَه): -بالنَّصْبِ- أيْ كطاعَتِه.

وقولُه (وقالَ اللهُ تعالى... إلخ): قالَ المُلّا: «الظاهِرُ أنَّه لَيْسَ مِن قَوْلِ عُمَرَ، وعَطَفَه علَيْه لِقُرْبِه مِنه مَعْنًى». قولُه (يُحْبِبْكُمُ اللهُ): قالَ المُلّا: «حاصِلُه أنَّه -تعالى- سَدَّ بابَ المَحَبّةِ على جَميعِ الخَلْقِ إلّا بمُلازَمةِ بابِ الحَبيبِ، ومتابَعةِ آدابِ الطبيبِ، الجامِعِ بَيْنَ المَرْتَبةِ المُحِبِّيّةِ والمَحبوبِيّةِ».

قولُه (نَتَّخِذَه حَنانًا): قالَ العَلّامةُ شِهابُ الدّينِ الرمليُّ ابنُ رسلانَ: «الحَنانُ -بفتحِ الحاءِ المهملةِ والنونِ المخفَّفةِ-: الرحمةُ؛ يُقالُ مِنه: حَنَّ عَلَيْه، يَحِنُّ حَنانًا؛ ومِنْه قَولُه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [مريم:١٣]؛ وعَنِ ابنِ عَبّاسٍ في هذهِ الآيةِ: ما أَدْري ما الحَنانُ!![2]؛ والحَنّانُ -بالتشديدِ- ذو الرحمةِ؛ على سبيلِ الاستعارةِ». اهـ. والمعنى -كما في «الشهابِ»- أنَّ محمدًا ﷺ يُريدُ أنْ يَجْعَلَنا مِمَّنْ يَتبرَّكُ به ويَخْضَعُ له خُضوعًا يُؤَدّي لِعِبادتِه كما عَبَدَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مَرْيَمَ. اهـ. وقالَ المُلّا: «حنّانًا -بالتشديدِ- أيْ ربًّا ذا رَحمةٍ»؛ إلّا أنَّه ناقَضَ نفْسَه؛ حيثُ قالَ: «ومِنْه قولُه تعالى ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾»؛ فإنَّه لا يُناسِبُه إلّا التخفيفُ.

قولُه (رَغْمًا لهم): بفَتْحِ الرّاءِ وضَمِّها، معَ سُكونِ الغَينِ فيهما، وأَرْغَمَ اللهُ أَنْفَه:

---

(١) الإمام العلامة عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام جمال الدين أبو محمد النحوي، وُلد سنة ٧٠٨هـ وتفقَّه للشافعي ثم تحنبل، وأتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ، وتخرَّج به جماعة من أهل الديار المصرية، ومن أهل مكة لما جاور بها، وله مصنفات جليلة منها: أوضح المسالك على ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وعمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب، والإعراب عن قواعد الإعراب، وشذور الذهب، وقطر الندى. قال عنه ابن خلدون: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام انحى من سيبويه» توفي سنة ٧٦١هـ. انظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (٣/ ٩٣)، «أعيان العصر» للصفدي (٣/ ٥).

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٤٧)، وعزاه السيوطي لعبد ابن حميد كما في «الدر المنثور» (٤/ ٣٠٧).

وَقَدِ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أُمِّ الكِتَابِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؟!

فَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ: الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَخِيَارُ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ[1]، حَكَاهُ عَنْهُمَا أَبُو الحَسَنِ المَاوَرْدِيُّ.

وَحَكَى مَكِّيٌّ عَنْهُمَا نَحْوَهُ، وَقَالَ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَاهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَحَكَى أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ مِثْلَهُ عَنْ أَبِي العَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ الحَسَنَ؛ فَقَالَ: صَدَقَ -وَاللهِ- وَنَصَحَ.

وَحَكَى المَاوَرْدِيُّ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ.

وَحَكَى [أَبُو] عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ الآيَةَ [البقرة: ٢٥٦، لقمان: ٢٢] أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقِيلَ: الإِسْلَامُ، وَقِيلَ: شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ.

=قالوا: إنَّ محمَّدًا يُريدُ أنْ نَتَّخذَه حَنَانًا...): أخرجَه ابنُ المُنذرِ نحوَه عن مجاهدٍ وقتادةَ.

(١) قوله (قالَ أبو العاليةِ والحسنُ البَصريُّ ﴿الصراطُ المستقيمُ﴾...) إلخ: أخرجه بلفظ مكّيٍّ ابنُ جرير [١/ ١٧٥] وابنُ أبي حاتم [الدر المنثور ١/ ٣٩، ٤٠]، وأخرجَه في «المستدرَك» [٢/ ٢٥٩] من روايةِ أبي العاليةِ عنِ ابن عبّاس وصَحَّحَه.

أَلْصَقَه بالرَّغامِ؛ قالَ في «الصِّحاحِ»: «بفتحِ الراءِ؛ وهوَ التُّرابُ». اهـ. الرمليُّ؛ وفي «الملّا»: فَتْحُ الرّاءِ أشْهَرُ؛ ففي القاموسِ: «الرَّغْمُ: الكُرْهُ، ويُثَلَّثُ». وأَصْلُ هذه الكَلمةِ مِنَ الرَّغامِ -وهوَ التُّرابُ- يُقالُ: رَغِمَ أَنْفُه -بالكَسْرِ- إذا لَصِقَ بالرَّغامِ؛ فالمَعْنى: إلصاقًا لِأُنوفِهِم بالتُّرابِ؛ جَزاءً لِأَنَفَتِهِم عَنْ مُتابعةِ هذا الجَنابِ.

قولُه (في أُمِّ الكِتابِ): سُمِّيَتْ بذلكَ لِأَنَّها مَبْدَؤُه ومُفْتَتَحُه، فكَأَنَّها أُمُّه؛ أوْ لِاشْتِمالِها على أُصولِ مَقاصِدِ القرآنِ مُجْمَلًا مِنَ الثَّناءِ والتكليفِ، والوَعْدِ والوَعيدِ، والسّعادةِ والشقاوةِ، والقَصَصِ وغَيْرِ ذلكَ؛ ووَجْهُ التَّسْميةِ لا يَلْزَمُ اطِّرادُه. اهـ. سَيِّدٌ[1].

قولُه (هوَ رَسولُ اللهِ): قالَ السَّيِّدُ: عَلى حَذْفِ مُضافٍ؛ أيْ طريقُ رَسولِ اللهِ ﷺ كَما حَكاه في «المَعالِمِ» بِذِكْرِ المُضافِ». اهـ.

قولُه (أبو بكرٍ وعُمَرُ): قالَ السَّيِّدُ: «لَعَلَّ تَخصيصَهما؛ لِاختِصاصِهما بالاستِقامةِ قَوْلًا وفِعلًا -بإجماعِ الصَّدْرِ الأَوَّلِ».

قولُه (مِثْلُه): قالَ الشهابُ: «المُرادُ بالمماثَلةِ مشارَكةٌ في تفسيرِ الصِّراطِ بالنبيِّ ﷺ وأصحابِه؛ وإنِ اختُلِفَ في تَخصيصِ الأصحابِ وعَدَمِه.

وقولُه (قالَ): -أيْ أبو الليثِ- (فبَلَغَ ذلك): أيْ فوَصَلَ تفسيرُ أبي العاليةِ، (الحَسَنَ): أيِ البَصريَّ، (فقالَ: صَدَقَ): أيْ في البَيانِ، (ونَصَحَ): أيِ الأمّةَ في هذا التِّبْيانِ.

قولُه (أنّه): أيِ العروةَ الوُثْقى؛ وتَذْكيرُه باعتِبارِ خَبَرِه؛ وهوَ محمَّدٌ ﷺ؛ إذْ مَنْ وَثِقَ بِهِ نَجا، ومَنْ تَبِعَه اهْتَدى.

---

(١) هو السيد الصفوي، وقد سبقت ترجمته.

وَقَالَ سَهْلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨] قَالَ: نِعَمَتُهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ...﴾ الآيَتَيْنِ [الزمر: ٣٢-٣٣]، أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَهُوَ الَّذِي صَدَّقَ بِهِ، وَقُرِئَ ﴿وَصَدَقَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ: الَّذِي صَدَّقَ بِهِ «الْمُؤْمِنُونَ»، وَقِيلَ: أَبُو بَكْرٍ، وَقِيلَ: عَلِيٌّ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا مِنَ الأَقْوَالِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، قَالَ: بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ.[1]

***

(١) قوله (وعَنْ مجاهدٍ في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ﴾...) إلخ: ابنُ أبي حاتمٍ [الدر المنثور ٤/ ٦٤٢] وابنُ جَريرٍ [١٣/ ٥١٩].

قوله (قالَ: نِعْمَتُه بمحمَّدٍ): أيْ إنعامُه؛ قالَ السَّيِّدُ: «لَعَلَّ المُرادَ عَدَمُ إحصاءِ فَضائلِه؛ أوْ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيْه لَنا مِن الفَوائدِ؛ فاندفعَ مُنافاتُه لِعَدَمِ الإحصاءِ».

قولُه (وقيلَ: أَبو بَكْرٍ؛ وقيلَ: عَليٌّ): خصَّهُما بالذِّكرِ؛ لِأَنَّ التحقيقَ أنَّ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الرِّجالِ عَلى الإطلاقِ الصِّدِّيقُ، وأَوَّلَ مَن آمَنَ مِنَ الصِّبيانِ عَليٌّ؛ وأَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ النِّساءِ خَديجةُ، وأَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الحَبَشِ بِلالٌ -كَما نَقَلْناه في كِتابِنا «مشارِقِ الأنوارِ» عَنْ شيخِ الإسلامِ زَكَرِيّا الأنصاريِّ[1]؛ جَمْعًا بَيْنَ الرِّواياتِ.

قولُه (قالَ: بمحَمَّدٍ): أيْ بِما يُرْوى عَنْه وعَنْ أصحابِه مِمّا تَطْمَئِنُّ بِهِ القُلوبُ؛ أوْ بِمُجَرَّدِ ذِكْرِه وذِكْرِ أصحابِه؛ فإنَّه عِنْدَ ذِكْرِ الصالحينَ تَنزِلُ الرحمةُ، وعِنْدَ نُزولِ الرحمةِ يَحصلُ لِلقلوبِ الاطمئنانُ والسكينةُ.

***

(١) شيخ الإسلام زكريَّا بن محمَّد بن أحمد بن زكريَّا الأنصاريُّ قاضي القضاة الشافعيُّ، وُلِدَ سنة ٨٢٦هـ، وأخذ عن جماعة منهم البُلقيني والشرف السبكي وابن حجر وغيرهم، وقرأ في جميع الفنون وأَذِنَ له شُيُوخه بالإفتاء والتدريس، وله تصانيف مشهورة في كلِّ فنٍّ من الفُنُون، وكَثُرت تلامذته وألحق الأحفادَ بالأجداد، وعُمِّرَ حتَّى جاوز المائة أو قاربها، ومات سنة ٩٢٦هـ. انظر: «الضوء اللامع» (٣/ ٢٣٤) و«شذرات الذهب» (١٠/ ١٨٦).

الفَصْلُ الثَّانِي: فِي وَصْفِهِ تَعَالَى لَهُ بِالشَّهَادَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الثَّنَاءِ وَالكَرَامَةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

جَمَعَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ ضُرُوبًا مِنْ رُتَبِ الأُثْرَةِ، وَجُمْلَةَ أَوْصَافٍ مِنَ المِدْحَةِ؛ فَجَعَلَهُ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ بِإِبْلاغِهِمُ الرِّسَالَةَ -وَهِيَ مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ، وَمُبَشِّرًا لأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَنَذِيرًا لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، وَدَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا يُهْتَدَى بِهِ لِلْحَقِّ.

حَدَّثَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَتَّابٍ، حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِمِ حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا البُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، حَدَّثَنَا هِلالٌ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ:

لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ:

(يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ، ..

قوله (في وَصْفِه تعالى له) وفي نسخةٍ «في وصفِه له تعالى»؛ وهيَ خطأٌ فاحِشٌ.

قوله (ضُروبًا): أيْ أنواعًا وأصنافًا.

قوله (مِن رُتَبِ الأثَرةِ): -بضمِّ الراءِ وفتحِ التاءِ- جَمْعُ «رتبةٍ» بمعنى المَنزلةِ؛ و«الأُثْرةِ»: -بالضمِّ وبالكسرِ- ما يستأثرُ به على غيرِه؛ وقال النوويُّ: «بفتحتينِ هو الأفصحُ»، وهي المَكرُمةُ والفضيلةُ -كما في «الشهابِ».

قوله (ابنِ عتّابٍ): بفتحِ العينِ وتشديدِ الفوقيّةِ فموحَّدةٍ، وقوله (القابِسيّ): بكسرِ الموحَّدةِ.

قوله (ابنِ سِنانٍ): -بكَسْرِ السينِ- مَصروفٌ وممنوعٌ، وقوله (ابنِ يَسارٍ): بفتحِ التحتيّةِ، وتخفيفِ المهمَلةِ.

قوله (فُلَيْحٍ): -بضَمِّ الفاءِ وفتحِ اللامِ وسُكونِ التحتيةِ- تصغيرُ «فالحٍ»[1].

قوله (عَبدَ الله بنَ عمرِو بنِ العاصِ): كانَ بَيْنَه وبَيْنَ أبيه عَمرٍو في السِّنِّ اثنتا عشْرةَ سَنةً، وأسْلَمَ قَبْلَ أبيه.

قوله (فقلتُ) -وفي نسخةٍ «قلتُ»- (أَخبِرْني عَنْ صِفةِ رَسولِ الله... إلخ).

وقوله (قالَ: أَجَلْ): أيْ نَعَمْ أُخبِرُكَ؛ فقَولُه (أخبِرْني) بمَعْنى «أَتُخبِرُني؟!»، أوْ «ألا تُخبِرُني؟!» على ما هوَ مُقْتَضى حُسْنِ الأدَبِ في العِبارةِ.

قوله (عَنْ صِفةِ رَسولِ الله): أيْ في التَّوْراةِ؛ بدَليلِ قَولِه في الجوابِ (إنّه لَموصوفٌ في التوراةِ). اهـ. الشهابُ.

قوله (حِرْزًا لِلأمّيّين): أيْ حِفْظًا لِلعَرَبِ لِغَلَبةِ الأُمّيّةِ فيهم؛ وخَصَّهم معَ عُمومِ دَعْوَتِه؛ لِشَرَفِهم. اهـ. الشهابُ.

(١) فُليح مصغر «فَلَحٍ» أو «أفلح»؛ أما «فالح» فتصغيرها «فويلح».

.. لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ وَلا صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلا اللهُ»، وَيَفْتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا)[1].

وَذُكِرَ مِثْلُهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ[2]، وكَعْبِ الأَحْبَارِ[3]، وَفِي بَعْضِ طُرُقِهِ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ:

(وَلَا صَخِبٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا مُتَزَيِّنٍ بِالفُحْشِ، وَلَا قَوَّالٍ لِلْخَنَا، أُسَدِّدُهُ لِكُلِّ جَمِيلٍ، وَأَهَبُ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلُ السَّكِينَةَ لِبَاسَهُ، وَالبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالحِكْمَةَ مَعْقُولَهُ، وَالصِّدْقَ وَالوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالعَفْوَ وَالمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالهُدَى إِمَامَهُ، وَالإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدِي بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ، وَأُعَلِّمُ بِهِ بَعْدَ الجَهَالَةِ، وَأَرْفَعُ بِهِ بَعْدَ الخَمَالَةِ، ..

---

(١) حديثُ عبدِ الله بن عَمرو في صِفَتِه ﷺ في التوراة: أسندَه المصنِّفُ مِن طريقِ البُخاريِّ [٢١٢٥].

(٢) حديثُ ابن سَلَام: عند البخاري تعليقًا [٣/ ٦٦]، وأسنده الدارميُّ [٧].

(٣) حديثُ كَعْب: أخرجه الدارميُّ [٨] من رواية أبي واقدٍ الليثيِّ الصحابي عنه.

قولـه (لَيْسَ بِفَظٍّ): فيـه التِفاتٌ؛ تَنْشيطًا لِلسامعِ؛ والمَعْنى: ليسَ هـوَ سَيِّئَ الخُلُقِ قَليلَ التُّؤَدةِ، (ولا غَليظٍ) أيْ قاسي القَلْبِ، قَليلِ الرحمةِ.

قوله (ولا صَخّابٍ): بصادٍ مهملةٍ وتشديدِ المعجمةِ، ويُرْوى «سَخّابٍ» -بالسّينِ- مِنَ السخَبِ؛ بمَعْنى رَفْعِ الصَّوْتِ؛ وصيغةُ «فَعّالٍ» لِلنسبةِ، كـ«تَمّارٍ». قوله (في الأسْواقِ): قَيَّدَ بهِ لِأَنَّ الغالِبَ أَنَّها يَقَعُ فيها ارتفاعُ الأصْواتِ.

قوله (ولا يَدْفَعُ بالسَّيِّئةِ السيِّئةَ): أيْ لا يُقابِلُ بالسَّيِّئةِ مِنْه السَّيِّئةَ الواصِلةَ إِلَيْه مِنْ غَيرِه -وسُمّيَتِ السيئةُ الثانيةُ سيئةً لِلمُشاكَلةِ-، فكانَ دَأْبُه مُقابَلةَ السَّيِّئةِ بالإحسانِ، فَلِذا قالَ: (ولكِنْ يَعْفو) عنِ الخطّائينَ؛ في الباطنِ، (ويغفرُ) في الظاهرِ.

وقوله (المِلَّةَ العَوْجاءَ): أيْ غَيْرَ المستقيمةِ؛ لِأَنَّ العرَبَ غيَّرَتْها عَنِ استقامتِها فصارتْ كالعوجاءِ، فالمرادُ بها مِلّةُ إبراهيمَ.

وقوله (ويَفْتحَ): بالنصبِ عَطفًا على «يُقيمَ». قوله (أَعْيُنًا): جَمْعُ عَيْنٍ، و(عُمْيًا): جَمْعُ «أَعْمى».

وقولُه (وآذانًا): بالمَدِّ، (صُمًّا): جمعُ «أَصَمَّ»، و(غُلْفًا): جمعُ «أَغْلَفَ»، و«الغَلَفُ»: غِشاءُ القَلْبِ.

قوله (وذُكِرَ): بصيغةِ المجهولِ. قوله (ابنِ سَلامٍ): بتخفيفِ اللّامِ.

قوله (ولا صَخِبٍ في الأسواقِ): بفتحِ الصادِ وكسرِ الخاءِ. قوله (ولا قَوّالٍ لِلْخَنا): أيِ الفُحْشِ؛ وقيلَ: الكَلامِ القبيحِ.

قوله (والبِرَّ شِعارَه): البِرُّ: الطاعةُ والإحسانُ؛ والشِّعارُ: هوَ اللِّباسُ الَّذي يَلي الجَسَدَ.

قوله (مَعْقولَه): أيْ بِعَقْلِه وإدراكِه؛ أو ما يَعْقِلُه كُلُّه حِكَمٌ ومَواعِظُ وعُلومٌ نافِعةٌ. قوله (إمامَه): بكَسْرِ الهَمْزةِ.

قوله (أَهْدي): -بفتحِ الهمزةِ- أيْ أُرْشِدُ، وقوله (وأُعَلِّمُ): بضَمِّ الهَمْزةِ وتَشْديدِ اللّامِ المَكْسورةِ. قوله (بِه): أيْ بالوَحْيِ إِلَيْه، وإنزالِ القرآنِ علَيْه، وقولُه (بَعْدَ الخَمالةِ): -بفَتحِ الخاءِ المعجَمةِ- بمَعْنى الخُمولةِ.

وَأُسَمِّي بِهِ بَعْدَ النُّكْرَةِ، وَأُكْثِرُ بِهِ بَعْدَ القِلَّةِ، وأُغْنِي بِهِ بَعْدَ العَيْلَةِ، وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الفُرْقَةِ، وَأُؤَلِّفُ بِهِ بَيْنَ قُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ وأُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَأَجْعلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[1].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ صِفَتِهِ فِي التَّوْرَاةِ: (عَبْدِي أَحْمَدُ المُخْتَارُ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ بالمَدِينَةِ -أَوْ قَالَ: طَيْبَةَ-، أُمَّتُهُ الحَمَّادُونَ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)[2].

(١) قوله (وفي بَعض طُرُقه...) إلى آخره: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير سورة الفتح [الدر المثور ٣/ ٥٨٠] عن وَهْب بن مُنَبِّه.

(٢) حديث (أخبَرَنا رسولُ الله ﷺ عَن صفَته في التوراة...): الطبرانيُّ [في «الكبير» (١٠/ ١٠٠٤٦)] وأبو نُعيم في «الدلائل» عن ابن مسعود قال (قالَ رسولُ الله ﷺ: صِفَتي...) فذكَره، وأخرَجَه الدارميُّ [١٠] عن كعب مَوقُوفًا.

وقولُه (وأُسَمّي به بَعْدَ النُّكْرةِ): أُسَمّي -بضمِّ الهمزةِ وفتحِ السينِ وتشديدِ الميمِ المكسورةِ- كذا ضبَطَه الشُّرّاحُ، ولا يَبعُدُ أنْ يَجوزَ بتخفيفِ الميمِ؛ أيْ أُشهِّرُهُ بالمَعرفةِ بَعْدَ النُّكْرةِ؛ بضمِّ النونِ.

قولُه (وأُكَثِّرُ): -بضمِّ الهَمْزةِ وتشديدِ المُثلَّثةِ- مِنَ «التكثيرِ»؛ قال المُلّا: ويَجوزُ مِنَ «الإكثارِ»؛ أيْ أَجْعَلُ الكَثْرةَ ببرَكَتِه بَعْدَ القِلّةِ؛ أيْ في مالِه؛ أوْ في عَدَمِ اتِّباعِه.

قولُه (وأُغْنِي به... إلخ): -بضمِّ الهمزةِ وسكونِ المعجمةِ- مِنَ الإغناءِ؛ أيْ أجعلُه غَنيًّا، أوْ أُمّتَه أغنياءَ؛ ببرَكةِ نُبوَّتِه، و(العَيْلةِ): -بفتحِ العينِ- هيَ الفَقْرُ؛ قالَ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨].

قولُه (أَجْمَعُ... إلخ): -بفتحِ الهمزةِ والميمِ- فيه إيماءٌ لِقَولِه تعالى: ﴿واعتَصِموا بِحَبْلِ الله جَميعًا وَلا تَفَرَّقوا واذكُروا نِعمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخوانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ وهذا قَوْلُه بَعْدُ: (وأُؤَلِّفُ): أيْ أوقِعُ الأُلْفةَ والمَوَدّةَ بَيْنَ قُلوبٍ مُختَلِفةٍ.

قولُه (أَهْواءٍ): -بهَمْزةِ قَطعٍ وسكونِ الهاءِ- أيْ آراءٍ مُشَتَّتةٍ مُبتَدَعةٍ. قولُه (وأُمَمٍ مُتفَرِّقةٍ): مِنْ قَبائلَ مُتَبايِنةٍ، قالَ المُلّا: «وَقَعَ هُنا بخَطِّ المُصَنِّفِ بتَقْديمِ التّاءِ على الفاءِ -مِن التفرُّقِ-، وبِتَقْديمِ الفاءِ على القافِ -مِنَ الافتراقِ-؛ وهيَ نسخةُ العوفيِّ». اهـ.

قولُه (أَحْمَدُ المُخْتارُ): أيْ على سائرِ الأخْيارِ؛ وفي نُسخةٍ بالجرِّ؛ قال المُلّا: «فاللّامُ لِلجِنسِ الاستغراقيِّ؛ أيْ أَحْمَدُ كُلُّ مَنِ اختَرْتُه واصطفيتُه مِنَ الأنبياءِ».

قولُه (مَوْلِدُه): أيْ مَكانُ وِلادَتِه. قولُه (ومُهاجَرُه): -بضَمِّ الميمِ وفَتْحِ الجيمِ- أيْ مَوْضِعُ هِجْرَتِه؛ ليَحصُلَ لِلحَرَمَيْنِ الشَّرَفُ أوَّلًا وآخِرًا. قولُه (أوْ قالَ: طَيْبةَ): -بفَتْحِ الطّاءِ- اسمٌ مِن أسماءِ المَدينةِ كـ«طابةَ»، وفي الحديثِ: (مَنْ سَمّى المَدينةَ بيَثْرِبَ فلْيَستغفِرِ اللهَ؛ هيَ طابةُ؛ هيَ طابةُ). رواهُ أحمدُ في «مسنَدِه» عنِ البراءِ[1].

قولُه (الحَمّادونَ» وفي نُسخةٍ «الحامِدونَ». قولُه (عَلى كُلِّ حالٍ): أيْ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ.

(١) أخرجه أحمد (رقم ١٨٥١٩)، وأبو يعلى (رقم ١٦٨٨)، وفيه يزيد بن أبي زياد، وقد ضُعِّف، وبقيَّة رجاله ثقات.

وقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ): قيلَ: (ما) مَزِيدةٌ لِلمبالَغةِ؛ والأظهرُ أنَّها مُبهَمةٌ يُفَسِّرُها (رَحْمَةٍ)؛ أيْ فبِرَحْمةٍ عَظيمةٍ لِنْتَ لهم[1].

قوله (ذَكَّرَهُمُ اللهُ... إلخ): بتشديدِ الكافِ، وفي نسخةٍ «ذَكَرَه». قوله (أنَّه): بالضميرِ، أي اللهِ -سبحانَه-، ويُروى «أنْ جَعَلَ».

وقولُه (خَشِنًا): أيْ غَليظًا في القَوْلِ.

وقوله (سَمْحًا): -بفَتْحِ السينِ المهمَلةِ وسكونِ الميمِ- أيْ جَوادًا.

وقولُه (طَلْقًا): بسُكونِ اللّامِ؛ قالَ الرمليُّ: «وهي مِنَ الماضي مضمومةٌ[2]، يقالُ: رَجُلٌ طَلْقُ الوَجْهِ؛ وطَليقُه»، وقال السيدُ الصفويُّ: «طَلْقًا؛ بالتثليثِ كما في القاموسِ»، أيْ مُنبَسِطَ الوَجْهِ مُتَهَلِّلَه.

قوله (بَرًّا): -بفتحِ الباءِ- أيْ كثيرَ الإحسانِ.

قوله (أَبانَ): -بفَتْحِ الهَمْزةِ- أيْ أَظْهَرَ. قوله (وفَضَّلَ أُمَّتَه): بتشديدِ الضادِ. قوله (وكذلك قولُه): مُتَعَلِّقٌ بقولِه (أبانَ).

قوله (الآيةَ) وفي نسخةٍ «تمامُ الآيةِ».

قوله (عَدْلًا) وفي نسخةٍ «عُدولًا».

قوله (خَصَّصْناكُم): -بالتشديدِ- ويجوزُ تخفيفُها.

---

(١) على أنها إبهامية تكون نكرة تامة -غير موصوفة-، و«رحمة» بدل منها على سبيل التوضيح.

(٢) طَلُقَ من باب «ظَرُفَ».

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الآيَتَيْنِ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨]، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٥٩].

قَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ: ذَكَّرَهُم اللهُ تَعَالَى مِنَّتَهُ أَنَّهُ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ، رَؤُوفًا لَيِّنَ الجَانِبِ، وَلَوْ كَانَ فَظًّا خَشِنًا فِي القَوْلِ لَتفرَّقُوا مِنْ حَوْلِهِ؛ وَلَكِنْ جَعَلَهُ اللهُ سَمْحًا سَهْلًا طَلْقًا بَرًّا لَطِيفًا، هَكَذَا قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قَالَ أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ: أَبَانَ اللهُ تَعَالَى فَضْلَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَفَضَّلَ أُمَّتَهُ بِهَذِهِ الآيَةِ، وفِي قَوْلِهِ تعالى فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ على الناسِ...﴾ [الحج: ٧٨]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ...﴾ الآيَةَ [النساء: ٤١]، وَقَوْلُهُ (وَسَطًا): أَيْ عَدْلًا خِيَارًا.

وَمَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ: وكَمَا هَدَيْنَاكُمْ فَكَذَلِكَ خَصَّصْنَاكُمْ وَفَضَّلْنَاكُمْ بِأَنْ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً خِيَارًا عُدُولًا؛ لِتَشْهَدُوا لِلأَنْبِيَاءِ عَلَى أُمَمِهِمْ، وَيَشْهَدَ لَكُمُ الرَّسُولُ بِالصِّدْقِ. قِيلَ إِنَّ اللهَ -جَلَّ جَلَالُهُ- إِذَا سَأَلَ الأَنْبِيَاءَ هَلْ بَلَّغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَتَقُولُ أُمَمُهُمْ: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، فَتَشْهَدُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلأَنْبِيَاءِ وَيُزَكِّيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ.[1]

---

(١) قوله (قيلَ: إنَّ اللهَ إذا سَأَلَ الأنبياءَ: هَلْ بَلَّغْتُمْ؟...) إلى آخره: هذا حديث مرفوع أخرجه البخاري [٣٣٣٩] من حديث أبي سعيد الخُدريِّ.

وَقِيلَ مَعنَى الآيَةِ: «أَنَّكُمْ حُجَّةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَكُمْ، وَالرَّسُولُ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ» حَكَاهُ السَّمَرْقَنْدِيُّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

قَالَ قَتَادَةُ والحَسَنُ وَزَيْدُ بنُ أَسْلَمَ (قَدَمَ صِدْقٍ) هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهُمْ[١]، وَعَنِ الحَسَنِ أَيْضًا هِيَ مُصِيبَتُهُمْ بِنَبِيِّهِمْ[٢].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: هِيَ شَفَاعَةُ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، هُوَ شَفِيعُ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ[٣].

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله التُّسْتَرِيُّ: هِيَ سَابِقَةُ رَحْمَةٍ أَوْدَعَهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ: «هُوَ إِمَامُ الصَّادِقِينَ وَالصِّدِّيقِينَ، الشَّفِيعُ المُطَاعُ، وَالسَّائِلُ المُجَابُ، مُحَمَّدٌ ﷺ» حَكَاهُ عَنْهُ السُّلَمِيُّ.

***

قوله (أَنَّكم): -بالفتحِ، ويَجوزُ الكَسْرُ- أيْ أَيَّتُها الأُمَّةُ.

قوله (وزَيْدُ بنُ أَسْلَمَ): هوَ أَبو أُسامةَ مَوْلى عُمَرَ.

قوله (إِمامُ الصادِقينَ): -بكسرِ الهَمزةِ- أيْ قُدْوَتُهم؛ وبِفَتْحِها، أيْ مُقَدَّمُهم خِلْقةً ورُتْبةً.

***

(١) قوله (قالَ قَتادةُ والحَسَنُ وزَيدُ بنُ أَسْلَمَ: «قَدَمَ صِدْقٍ» هُوَ محمدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهم): أخرَجَ ذلك ابنُ جَرِيرٍ عَنْهم [١٢/ ١١٠، ١١١].

(٢) قوله (وعَنِ الحَسَنِ أيضًا: هِيَ مُصِيبتُهم بنَبيِّهم): أخرجه ابنُ أَبِي الدُّنيا في كِتَابِ العِزَّةِ [وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٠٢٠١) عن الحسن].

(٣) قوله (وعَنْ أَبِي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ: هِيَ شَفاعةُ نَبيِّهم...): أَخرَجَه ابنُ مَرْدَوَيْه في تفسيره، وأَخرَجَ مِثْلَه عَن عَليٍّ أَيْضًا [الدر المنثور ٤/ ٣٤٢].

الفَصْلُ الثَّالِثُ: فِيمَا وَرَدَ فِي خِطَابِهِ إِيَّاهُ مَوْرِدَ المُلاطَفَةِ وَالمَبَرَّةِ

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيٌّ: قِيلَ هَذَا افْتِتَاحُ كَلَامٍ بِمَنْزِلَةِ: «أَصْلَحَكَ اللهُ» و«أَعَزَّكَ اللهُ»، وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَخْبَرَهُ بِالعَفْوِ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالذَّنْبِ.(١)

وَحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ مَعْنَاهُ: عَافَاكَ اللهُ يَا سَلِيمَ القَلْبِ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ؟

قَالَ: وَلَوْ بَدَأَ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهِ ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ لَخِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْشَقَّ قَلْبُهُ مِنْ هَيْبَةِ هَذَا الكَلَامِ؛ لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ أَخْبَرَهُ بِالعَفْوِ حَتَّى سَكَنَ قَلْبُهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الصَّادِقُ فِي عُذْرِهِ مِنَ الكَاذِبِ، وَفِي هَذَا مِنْ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ، وَمِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَى إِيَّاهُ وَبِرِّهِ بِهِ مَا يَنْقَطِعُ دُونَ مَعْرِفَةِ غَايَتِهِ نِيَاطُ القَلْبِ.

قَالَ نِفْطَوَيْهِ: ذَهَبَ نَاسٌ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُعَاتَبٌ بِهَذِهِ الآيَةِ، وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ

---

(١) قوله (وقالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ الله: أَخْبَرَه بالعفْوِ قَبْلَ أنْ يُخْبِرَه بالذَّنْبِ): أخرجَه ابنُ أَبِي شَيْبَةَ [٣٤٩٦٢]، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتم [١٠٠٧٤]، وأبو الشيخِ في التفسيرِ [الدر المنثور ٤/ ٢١٠] بلفظ: ما سَمِعْتُ مُعاتَبَةً أَحْسَنَ مِن هذا؛ بَدَأَ بالعفْوِ قبلَ المعاتَبَةِ.

قولـه (مَوْرِد): -بفتحِ الميمِ وكسرِ الراءِ- محلُّ وُرودِ الكلامِ؛ و(المَبَرَّة) -بفتحتينِ وتشديدِ الراءِ- بمعنى «البِرِّ»؛ وهوَ الاتّساعُ في الإحسانِ -على ما في «القاموس».

قوله (عَفا اللهُ عَنْكَ): مُعاتَبةٌ على وَجْهِ المُلاطَفةِ، وقولُه (لَهُم): أيْ لِلمُنافِقينَ.

وقوله (أَعَزَّكَ): أيْ هَلَّا شَرَّفْتَني بزيارَتِكَ لي؟!.. ونَحْوِ ذلكَ مِمّا يُخاطَبُ بهِ المُلوكُ والعُظَماءُ.

قوله (عَوْنٌ): -بفتحِ العَيْنِ- هوَ ابنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتبةَ بْنِ مَسْعودٍ الهُذَليُّ.

قوله (قَبْلَ أنْ يُخْبِرَهُ): بِضَمِّ المُثنّاةِ التحتيّةِ، وسُكونِ المُعْجَمةِ، وكَسْرِ المُوَحَّدةِ الخفيفةِ.

قوله (وحَكى السَّمَرْقنديُّ) وفي نسخةٍ «وحَكاهُ» وهيَ غَيْرُ ظاهرةٍ.

قوله (ولَوْ بَدَأَ): -بالهَمْزِ- أي ابتَدَأَ اللهُ النَّبِيَّ؛ وفي نُسخةٍ «ولَوْ بَدَأَه بقولِه: لِمَ أَذِنْتَ.. إلخ».

قوله (يَنْشَقَّ قَلْبُه): أيْ يَنصَدِعَ ويَنقَطِعَ.

قوله (وَفي هَذا): أيِ الخِطابِ في مَقامِ العِتابِ؛ وفي نُسخةٍ «وهَذا... إلخ».

قوله (نِفْطَوَيْهِ): بِكَسْرِ النّونِ وسُكونِ الفاءِ وفَتْحِ الطّاءِ المهمَلةِ وواوٍ فَسُكونِ التحتيّةِ فهاءٍ مَكْسورةٍ، وفي نُسْخةٍ بِضَمِّ الطاءِ وسُكونِ الواوِ وفَتْحِ الياءِ، والتاءُ منقلِبةٌ عَنْها الهاءُ. وفي «السيدِ الصفويِّ»: كسرُ النونِ أَفصحُ مِن الفتحِ، قالَ: «قالَ ابنُ الصَّلاحِ: أَهْلُ العَرَبيّةِ يَقولونَه ونَظائِرَه بواوٍ مَفْتوحةٍ مَعَ ما قَبْلَها، وياءٍ ساكِنةٍ».

مُخَيَّرًا، فَلَمَّا أَذِنَ لَـهُمْ أَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا لِنِفَاقِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي الإِذْنِ لَهُمْ.

قَالَ الفَقِيهُ القَاضِي:

يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ المُجَاهِدِ نَفْسَهُ، الرَّائِضِ بِزِمَامِ الشَّرِيعَةِ خُلُقَهُ، أَنْ يَتَأَدَّبَ بِآدَابِ القُرْآنِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَمُعَاطَاتِهِ وَمُحَاوَرَاتِهِ؛ فَهُوَ عُنْصُرُ المَعَارِفِ الحَقِيقِيَّةِ، وَرَوْضَةُ الآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَلْيَتَأَمَّلْ هَذِهِ المُلَاطَفَةَ العَجِيبَةَ فِي السُّؤَالِ مِنْ رَبِّ الأَرْبَابِ، المُنْعِمِ عَلَى الكُلِّ، المُسْتَغْنِي عَنِ الجَمِيعِ، وَيَسْتَثِيرُ مَا فِيهَا مِنَ الفَوَائِدِ، وَكَيْفَ ابْتَدَأَ بِالإِكْرَامِ قَبْلَ العَتْبِ، وَآنَسَ بِالعَفْوِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، إِنْ كَانَ ثَمَّ ذَنْبٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

قَالَ بَعْضُ المُتَكَلِّمِينَ: عَاتَبَ اللهُ الأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بَعْدَ الزَّلَّاتِ، وَعَاتَبَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ قَبْلَ وُقُوعِهِ؛ لِيَكُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ انْتِهَاءً وَمُحَافَظَةً لِشَرَائِطِ المَحَبَّةِ، وَهَذِهِ غَايَةُ العِنَايَةِ.

قوله (**لَقَعَدُوا لِنِفاقِهِم**): أيْ وهُمْ -كما قالَ السيدُ الصفويُّ- يُظهِرونَ بالاستِئذانِ أنَّكَ لَوْ لَمْ تَأْذَنْ لَنا لَخَرَجْنا؛ فالاستفهامُ ليسَ لإنكارٍ شَرْعيٍّ؛ بَلْ لِفَواتِ ظُهورِ الحالِ؛ أيْ لَوْ لَمْ تَأْذَنْ لَبانَ الحالُ.

قوله (**الرائِضِ**): -بكَسْرِ الهَمزةِ- اسمُ فاعلٍ مِنْ «رُضْتُ المُهْرَ»: أَذْلَلْتُه؛ قالَ السيِّدُ: «أيِ المُذَلِّلِ نَفْسَه بِزِمامِ الشريعةِ؛ و«الزِّمامُ» -بالكسرِ- بمَعْنى اللِّجامِ، وهوَ مُسْتَعارٌ للأحْكامِ.

قوله (**بآدابِ القرآنِ**) وفي نُسخةٍ «بأدَبِ القرآنِ»؛ فهوَ مَصْدَرٌ بمَعْنى المَفْعولِ؛ أيْ بِما يُتَأَدَّبُ به مِنْه. قوله (**ومُحاوَراتِه**): -بالحاءِ المهملةِ- أيْ مخاطباتِه. قوله (**وعُنْصُرُ**): -بضمِّ العَينِ والصادِ؛ وتُفتَحُ- الأصلُ.

قوله (**وليَتَأَمَّلْ**): قالَ السيدُ الصفويُّ: «في النُّسَخِ بصيغةِ أَمْرِ الغائبِ لِلمُسلِمِ». قوله (**ويَستَثيرُ**): -بفتحِ التحتيةِ وسكونِ المهمَلةِ وفَتحِ الفوقيةِ وكسرِ المثلَّثةِ- مِنْ «ثارَ الشَّيْءُ»: إذا ارتَفَعَ؛ أيْ يَبْحَثُ ويَستخرِجُ ما في هذه المُلاطَفةِ العَجيبةِ؛ قالَ المُلّا: «والظاهرُ جَزْمُه عطفًا على (يَتَأَمَّلْ) كَما جَزَمَ به الدلجيُّ، ويَجوزُ رَفْعُه كما في نسخةٍ».

وقوله (**وكَيْفَ ابتَدَأَ بالإكرامِ قَبْلَ العَتْبِ**): -بفَتْحٍ وسُكونٍ- أيْ قَبْلَ بَيانِ العِتابِ.

وقوله (**وآنَسَ**): بالمَدِّ، وفي نُسخةٍ بالفَتْحِ والتشديدِ، (**قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ**) وفي نسخةٍ «قَبْلَ ذِكْرِه الذَّنْبَ»؛ والمُرادُ بالذَّنبِ باعتبارِ الصورةِ الظاهرةِ المأخوذةِ مِنَ المعاتَبةِ المُعَبَّرِ عَنْها بخِلافِ الأَوْلى؛ لِما قيلَ: حَسَناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المُقَرَّبينَ؛ ولِذا استَدْرَكَ المُصَنِّفُ بقولِه (**إنْ كانَ**): أيْ بالفَرْضِ والتقديرِ.

وقولُه (**ثَمَّ**): -بفَتْحٍ فتشديدٍ- أيْ هُناكَ؛ والمَعْنى: لا ذَنْبَ هُناكَ حَقيقةً؛ وإنَّما وَقَعَ بصورةِ المَعْتَبةِ؛ قالَ السيدُ الصفويُّ: «وكَوْنُه ذنبًا بالنسبةِ لِعُلوِّ مَقامِه؛ يَعْني: معَ كَوْنِه خِلافَ الأَوْلى».

قوله (**بَعْدَ الزَّلّاتِ**): -أيِ الخَطايا- بالنسبةِ إلى عُلوِّ مَقامِه، وإنْ لَمْ تَكُنْ خَطيئةً حَقيقةً، فلا يُنافي عِصْمَتَه. وقولُه (**قَبْلَ وُقوعِه**): أيِ الذَّنْبِ؛ قالَ السيِّدُ الصفويُّ: «وكانَ اللّائقُ أنْ يَقولَ: معَ عَدَمِ وُقوعِه، فالقَبْليّةُ بمَعْنى وُقوعِه في زمنٍ لَمْ يَكُنِ الذنبُ فيه؛ نَحْوُ قَوْلِه تعالى ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]».

ثُمَّ انظُرْ كَيْفَ بَدَأَ بِثَبَاتِهِ وَسَلَامَتِهِ قَبْلَ ذِكْرِ مَا عَاتَبَهُ عَلَيْهِ، وَخِيفَ أَنْ يَرْكَنَ إِلَيْهِ، فَفِي أَثْنَاءِ عَتْبِهِ بَرَاءَتُهُ، وَفِي طَيِّ تَخْوِيفِهِ تَأْمِينُهُ وَكَرَامَتُهُ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ...﴾ الآيَةَ [الأنعام: ٣٣].

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ، وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ حَزِنَ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: مَا يُحْزِنُكَ؟ قَالَ: كَذَّبَنِي قَوْمِي، فَقَالَ: إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّكَ صَادِقٌ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ.[2]

فَفِي هَذِهِ الآيَةِ مَنْزَعٌ لَطِيفُ المَأْخَذِ مِنْ تَسْلِيَتِهِ تَعَالَى لَهُ ﷺ وَإِلْطَافِهِ فِي القَوْلِ بِأَنْ قَرَّرَ عِنْدَهُ أَنَّهُ صَادِقٌ عِنْدَهُمْ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَذِّبِينَ لَهُ، مُعْتَرِفُونَ بِصِدْقِهِ قَوْلًا وَاعْتِقَادًا، وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ الأَمِينَ، فَرَفَعَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ ارْتِمَاضَ نَفْسِهِ بِسِمَةِ الكَذِبِ، ثُمَّ جَعَلَ الذَّمَّ لَهُمْ بِتَسْمِيَتِهِمْ جَاحِدِينَ ظَالِمِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾.

---

(١) حديثُ عليٍّ (قالَ أبو جَهلٍ للنبيِّ ﷺ: إِنَّا لا نُكَذِّبُكَ، ولكنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ...): التِّرمذيُّ [٣٠٦٤] والحاكمُ [٢/ ٣١٥]، وصَحَّحَه.

(٢) حديث (أَنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا كَذَّبَه قَوْمُه حَزِنَ، فجاءَه جبريلُ، فقالَ: ما يُحْزِنُكَ؟ فقالَ: كَذَّبَنِي قَوْمِي، فقالَ: إنَّهم يَعْلَمونَ أنَّكَ صادقٌ، فنَزَلَتِ الآيةُ): لم أَجِدْه. [ذكره في «الدر المنثور» وعزاه لابن جرير، وهو فيه (٩/ ٢٢١)].

قولُه (ثُمَّ انظُرْ كَيْفَ بَدَأَ... إلخ): قالَ السيِّدُ الصفويُّ: عَطْفٌ على مُقَدَّرٍ؛ وهوَ «تَأَمَّلْ ما ذُكِرَ»، و«ثُمَّ» لِلبُعْدِ الرُّتْبيِّ؛ أوْ لِأَنَّ الفَراغَ مِن ذلك التأمُّلِ إنَّما يكونُ بَعْدَ مُهْلةٍ.

قولُه (ففي أثناءِ عَتْبِه): -بفتحِ العينِ- مُضافٌ إلَيْه، وقولُه (براءتُه): -بالرفعِ- مُبتدأٌ.

وقولُه (ومِثْلُه): قالَ السَّيِّدُ: أيْ مِثْلُ ﴿عفا اللهُ عَنْكَ﴾ في المُلاطَفةِ بِتَهْوينِ ما وَقَعَ؛ قالَ: ويُحتَمَلُ: أيْ مِثْلُ ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ في الشفَقةِ والرحمةِ تَسْليةً.

قولُه (ولكِنْ نُكَذِّبُ بما جِئْتَ به): أيْ مِنَ القرآنِ الدالِّ على التوحيدِ والدِّيانةِ، وقولُه (فأنزَلَ اللهُ): قالَ المُلا: وفي نُسخةٍ: «فنزَلَتْ».

وقولُه (لمَّا كَذَّبَه): بتشديدِ الذالِ، وفي نُسخةٍ «أَكْذَبَه». قولُه (حَزِنَ): -بكسرِ الزاي- أي اغْتَمَّ.

وقولُه (مَنْزَعٌ) -بفتحِ الميمِ وسُكونِ النونِ وفتحِ الزاي- أيْ مَأخَذٌ ومَشْرَبٌ، وقولُه (وإلطافِه): -بكسرِ الهمزةِ- مَصْدَرُ «أَلْطَفَه بِكَذا: بَرَّه بِه». اهـ الشُّمُنيُّ.

قولُه (فرَفَعَ) وفي نسخةٍ «فدَفَعَ»، وقولُه (بهذا التقريرِ): أيِ الذِّكْرِ؛ في قَوْلِه (بأنْ قَرَّرَ) وفي نسخةٍ لِلتِّلِمْسانيِّ بالدالِ بَعْدَ القافِ؛ بمَعْنى الفَرْضِ والتصويرِ. وقولُه (ارتِماضَ نَفْسِه): قالَ الشُّمُنيُّ: هوَ -بالراءِ الساكنةِ والمُثَنّاةِ المَكْسورةِ والضادِ المعجمةِ- مَصْدَرُ «ارتَمَضَ الرجُلُ مِن كذا: اشتَدَّ عَلَيْه وأَقْلَقَه». قال المُلا: وارتِماضُ نفْسِه: أيْ إحراقُها وإقلاقُها. قالَ: وقولُه: (بِسِمةِ الكَذِبِ): -بكسرِ السينِ- أيْ بِوَسْمَتِه وعَلامتِه -مِن «الوسمِ»-.

فَحَاشَاهُ مِنَ الوَصْمِ وَطَوَّقَهُمْ بِالمُعَانَدَةِ بِتَكْذِيبِ الآيَاتِ حَقِيقَةَ الظُّلْمِ؛ إِذِ الجَحْدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ عَلِمَ بِالشَّيْءِ ثُمَّ أَنْكَرَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثُمَّ عَزَّاهُ وَأَنَّسَهُ بِمَا ذَكَرَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُ، وَوَعَدَهُ النَّصْرَ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآيَةَ [الأنعام: ٣٤].

فَمَنْ قَرَأَ ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ: لَا يَجِدُونَكَ كَاذِبًا، وَقَالَ الفَرَّاءُ وَالكِسَائِيُّ: لَا يَقُولُونَ إِنَّكَ كَاذِبٌ، وَقِيلَ: لَا يَحْتَجُّونَ عَلَى كَذِبِكَ وَلَا يُثْبِتُونَهُ. وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ فَمَعْنَاهُ: لَا يَنْسُبُونَكَ إِلَى الكَذِبِ، وَقِيلَ: لَا يَعْتَقِدُونَ كَذِبَكَ.

وَمِمَّا ذُكِرَ مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ وَبِرِّ اللهِ تَعَالَى بِهِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَاطَبَ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ بِأَسْمَائِهِم، فَقَالَ: يَا آدَمُ، يَا نُوحُ، يَا إِبْرَاهِيمُ، [يَا موسى]، يَا دَاوُدُ، يَا عِيسَى، يَا زَكَرِيَّا، يَا يَحْيَى، وَلَمْ يُخَاطَبْ هُوَ إِلا: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ، يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ.

***

وقوله (**فحاشاه**): أيْ نَزَّهَهُ، وقولُه (**مِنَ الوَصْمِ**): أيِ العَيْبِ؛ وهوَ بسُكونِ الصادِ، وقولُه (**وطَوَّقَهم**): -بتشديدِ الواوِ المفتوحةِ بَعْدَ طاءٍ مَفْتوحةٍ- أيْ أَلْزَمَ أطواقَهُم في أعْناقِهِم، وقولُه (**حَقيقةَ الظلْمِ**): مَنصوبٌ على المفعولِ الثاني لِ(طَوَّقَ)؛ قالَ المُلا: وفي بَعْضِ النُّسخِ «حقيقةَ المُعانَدةِ».

وقولُه (**ثُمَّ عَزّاه**): -بتشديدِ الزّاي- أيْ سَلّاه وصَبَّرَه، وقولُه (**وأَنَّسَه**): مُشَدَّدًا، ويَصِحُّ مُخَفَّفًا مَمْدودًا. قوله (**عَمَّنْ قَبْلَه**): قالَ السيدُ: رويَ: «كانَ قَبْلَه» أيْ مخبرًا عَنِ الأنبياءِ؛ فإنَّ موافقَتَهم نِعمةٌ، قال: والمصيبةُ إذا عَمَّتْ طابَتْ.

قوله (**وقيلَ: لا يَحْتَجّونَ على كَذِبِكَ**) وفي نسخةٍ «أيْ لا يَجْتَمِعونَ»؛ بِمَعْنى أنَّ مِنْهم مَنْ يَعرِفُ بُطْلانَ قَوْلِهِم، فلا اعتِدادَ به.

وقوله (**وبِرِّ الله تعالى به**): -بكَسْرِ الباءِ- أيْ إحسانِه؛ وعَدّاه بالباءِ ولَمْ يُعَدِّه بـ«إلى»؛ قالَ السَّيِّدُ: لِأَنَّه ضَمَّنَه مَعْنى اللُّطْفِ.

وقوله (**جَميعَ الأنبياءِ**): قال السيدُ: «أي المَشْهورينَ المَذكورينَ في القرآنِ».

قوله (**يا أيُّها المُزَّمِّلُ**): قالَ السيدُ: «أصلُه: المُتَزَمِّلُ، أيِ المُتَلَفْلِفُ بالثَّوْبِ؛ وقيلَ: المُتَحَمِّلُ بالقرآنِ، و«المُدَّثِّرُ» أصلُه «المُتَدَثِّرُ»، أيْ لابِسُ الدِّثارِ؛ وهوَ ثَوْبٌ فَوْقَ الشِّعارِ، أيْ ما يَتَّصِلُ بالشَّعْرِ والجَسَدِ؛ قال السيدُ: ومِن عادةِ العربِ عِنْدَ المُلاطَفةِ وإظهارِ المَوَدّةِ مُخاطَبةُ المَرْءِ بِما هوَ مُشْتَقٌّ مِنْ صِفَتِه، مُلابِسٌ لها؛ ففي الخِطابَيْنِ تَعظيمٌ بإظْهارِ المُلاطَفةِ والمَوَدّةِ؛ كقولِه ﷺ لِعَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ -وقدْ نامَ في الترابِ-: (قُمْ أبا تُرابٍ)[1]، فَقَدْ خاطَبَه ﷺ باسْمٍ مِنَ الحالةِ الَّتي هوَ فيها مُلاطَفةً.

***

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (رقم ٤٤١) [كتاب: الصلاة، المناقب] و(رقم ٣٧٠٣)، ومسلمٌ (رقم ٢٤٠٩) [كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم] من حديث سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ: فِي قَسَمِهِ تَعَالَى بِعَظِيمِ قَدْرِهِ ﷺ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. اتَّفَقَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذَا أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللهِ -جَلَّ جَلَالُهُ- بِمُدَّةِ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَأَصْلُهُ ضَمُّ العَيْنِ مِنَ «العُمْرِ»، وَلَكِنَّهَا فُتِحَتْ لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ، وَمَعْنَاهُ: «وَبَقَائِكَ يَا مُحَمَّدُ»، وَقِيلَ: «وَعَيْشِكَ»، وَقِيلَ: «وَحَيَاتِكَ»، وَهَذِهِ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ، وَغَايَةُ البِرِّ وَالتَّشْرِيفِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا خَلَقَ اللهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا سَمِعْتُ اللهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ.[1]

وَقَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ: مَا أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّهُ أَكْرَمُ البَرِيَّةِ عِنْدَهُ.

(١) حديثُ ابن عبّاس (ما خَلَقَ اللهُ وما ذَرَأَ...): أبو يَعْلَى، وأبو نُعَيم [٢١]، والبَيهقيُّ في «الدلائل» [٥/ ٤٤٨].

قوله (في قَسَمِه): -بفتحتَيْنِ- أي الحَلِفِ، وقوله (لَعَمْرُكَ): أيْ يا محمدُ؛ وقالَ البَيْضاويُّ[1]: «خِطابٌ لِلوطٍ، والقَسَمُ على هذا القَوْلِ مِنَ المَلَكِ؛ لئلّا ينافيَ ما رَواهُ البَيْهقيُّ عَنِ ابنِ عباسٍ: (ما حَلَفَ اللهُ بحياةِ أَحَدٍ إلّا بحياةِ محمدٍ؛ قالَ: لَعَمْرُكَ)[2]».

قوله (وأصلُه): أيْ أَصلُ الاستعمالِ «لَعُمرُكَ» بضمِّ العينِ؛ قال المُلّا: «ولا يُستعمَلُ في القَسَمِ إلا بالفتحِ؛ لِخفّةِ لَفْظِه».

وقولُه (وبقائِكَ): أيْ ومُدّةِ بَقائِكَ في الدنيا. وقوله (وعَيْشِكَ): أيْ وطيبِ مَعيشَتِكَ في الكَوْنَيْنِ؛ في الدنيا بالزُّهْدِ فيها، والصَّبْرِ على مُرِّها.

قوله (وما ذَرَأَ وما بَرَأَ): الذَّرْءُ: الخَلْقُ -مُختَصٌّ بالذُّرّيّةِ، والبَرْءُ: الخَلْقُ؛ مِن البَرى، وهوَ التُّرابُ، أَعَمُّ مِمّا قَبْلَه، أَوْ توكيدٌ له كَما قيلَ. وقولُه (نَفْسًا): أيْ شَخْصًا ذا نَفْسٍ؛ قالَ السيدُ: المُرادُ بالنفْسِ هُنا الذّاتُ؛ فيَشْمَلُ جميعَ بَدَنِه الشريفِ؛ ولَوْ قالَ: «روحًا» لَمْ يَشْمَلْ بقيّةَ بَدَنِه، معَ أنَّ جميعَ بَدَنِه أَكْرَمُ على اللهِ.

قوله (قالَ أبو الجَوْزاءِ): -بفتحِ الجيمِ، وواوٍ ساكنةٍ وزايٍ فهَمْزةٍ مَمْدودةٍ- أَوْسُ بنُ عَبْدِ اللهِ البصريُّ؛ يَرْوي عَنْ عائشةَ وغَيْرِها؛ وأَمّا أبو الحَوْراءِ -بالحاءِ المهمَلةِ والراءِ- فَراوي حديثِ القُنوتِ[3].

---

(١) ناصر الدّين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي قاضي القضاة البيضاوي الشافعي عالم آذربيجان وشيخ تلك النّاحيَة، له مُصنَّفاتٌ منها «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المعروف ب«تفسير البيضاوي»، و«طوالع الأنوار» في التوحيد، و«منهاج الوصول إلى علم الأصول» وغيرها، توفي سنة ٦٩١، وقيل ٦٨٥هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٩٢)، من حديث ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وأخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/ ٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أبو الحوراء: هو ربيعة بن شيبان السعدي تابعيٌّ ثقةٌ، انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٣/ ٢٥٦). وحديث القنوت أخرجه أحمد (١٧١٨) [مسند أهل البيت - حديث الحسن بن علي]، وأبو داود (١٤٢٥) [كتاب الصلاة - باب القنوت في الوتر]، والترمذي (٤٦٤) [أبواب الوتر - باب ما جاء في القنوت في الوتر]، والنسائي (١٧٤٥) [كتاب قيام الليل - باب الدعاء في الوتر]، وابن ماجه (١١٧٨) [أبواب إقامة الصلاة - باب ما جاء في القنوت في الوتر]، وغيرهم من طريق أبي الحوراء السعدي عن الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «اللهمّ اهدني فيمن هديت، وعافني=

وَقَالَ تعَالَى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ...﴾ الآيَاتُ: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى (يس) عَلَى أَقْوَالٍ: فَحَكَى أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيٌّ أَنَّهُ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ: (لِي عِنْدَ رَبِّي عَشَرَةُ أَسْمَاءٍ)(١)، ذَكَرَ أَنَّ مِنْهَا طَه وَيس -اسْمَانِ لَهُ.

وَحَكَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمٰنِ السُّلَمِيُّ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ أَنَّهُ أَرَادَ: يَا سَيِّدُ؛ مُخَاطَبَةً لِنَبِيِّهِ ﷺ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يس يَا إِنْسَانُ»(٢)، أَرَادَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَقَالَ: «هُوَ قَسَمٌ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى»(٣).

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: قِيلَ مَعْنَاهُ: يَا مُحَمَّدُ، وَقِيلَ: يَا رَجُلُ، وَقِيلَ: يَا إِنْسَانُ. وَعَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: «يس يَا مُحَمَّدُ»(٤).

وَعَنْ كَعْبٍ: يس قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

---

(١) حديث (لِي عِنْدَ رَبِّي عشَرةُ أسماءٍ...): أبو نُعيم في «الدلائل» [٢٠]، وابن مَردَوَيْه في تفسيره [الدر المنثور ٥/ ٥٥١] من طريقِ أبي يَحيَى التيميِّ -وهو وَضّاعٌ- عن سيف بن وهب -وهو ضعيفٌ- عن أبي الطُّفيل.

(٢) قوله (وعَنِ ابنِ عبّاسٍ: يس يا إنسانُ...): ابنُ أَبي حاتم [١٨٠٢٤].

(٣) قوله (وقالَ: هُوَ قَسَمٌ، وهُوَ من أسماءِ اللهِ تعالى): أخرَجه ابنُ جَرير [١٩/ ٣٩٨].

(٤) قوله (وعَنِ ابنِ الحَنَفيةِ: يس يا محمدُ): البيهقيُّ في «الدلائل» [١/ ١٥٨].

قولُه (لِي عِنْدَ رَبِّي عشَرةُ أسماءٍ): قالَ المُلّا: لا يُنافي الزيادةَ؛ لِأنَّها قارَبَتِ الخمسَمائةِ، قالَ السَّيِّدُ: لَيسَ القَصْدُ الحَصْرَ.

قوله (ذَكَرَ): أي النبيُّ -أوِ الرّاوي.

وقولُه (أَرادَ يا سَيِّدُ) اكتِفاءً بِبَعْضِ الكَلِمةِ؛ على عادةِ العرَبِ.

وقولُه (يا إنسانُ): قالَ الصفويُّ: والظاهرُ أنَّ المُرادَ مِنْه ومِنْ سابِقِه محمدٌ ﷺ إلّا أنَّه حينَئِذٍ يَصيرُ مُرادًا مِن يس بالواسِطةِ، وفي الأَوَّلِ بدونِها؛ وإنَّما ذَكَرَ القَوْلَ الأَخيرَ معَ أنَّه قَدْ سَبَقَ؛ إتْمامًا لِقَوْلِ الزَّجّاجِ(١).

قوله (عَنِ ابنِ الحَنفيّةِ): هوَ أبو عبدِ الله محمدُ بنُ أميرِ المؤمنينَ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، و(الحنفيّةِ): أمُّه خَوْلةُ -مِن سَبْيِ بَني حَنيفةَ، ولَعَلَّ النِّسبةَ إلى الأمِّ لِلتمييزِ عنِ السِّبْطَيْنِ؛ أَخْرَجَ له الشيخانِ، وُلِدَ في أواخرِ خِلافةِ عُمَرَ.

قوله (بأَلْفَيْ عامٍ): قالَ المُلّا: الظاهرُ أنَّ المرادَ به الكثرةُ لا التحديدُ أنَّه -سُبحانَه- أَقْسَمَ برَسولِه الكَريمِ في كلامِه القديمِ.

=فيمن عافيت، وتولَّني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت».

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج النحوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنَّف كتاباً في معاني القرآن وله كتاب الأمالي، وكتاب الاشتقاق، وغير ذلك. أخذ الأدب عن المبرِّد وثعلب، وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب، فنسب إليه، توفي سَنَةَ ٣١١هـ وقيل غير ذلك. «وفيات الأعيان» (١/ ٤٩)، و«بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة» للسيوطي (١/ ٤١١).

قولـه (**ويُؤَكِّـدُ**): بضـمِّ أوَّلـه، وقولـه (**فيـه**): أيْ في لَفْظِ «يـس»، قولـه (**القَسَـمَ**): أيْ إرادةَ القَسَـمِ، وقولـه (**عَطْـفُ**): -بالرفـعِ- فاعـلٌ مؤخَّـرٌ.

قولـه (**وإنْ كانَ**) -أيْ مجمـوعُ «يـس»- (**بمَعْنـى النِّـداءِ**): أيْ ولَيْـسَ المُـرادُ بـه أنَّـه مِـنَ الأسـماءِ.

وقولـه (**والشَّـهادةِ بِهدايَتِـه**) ﷺ؛ حيـثُ قـال: ﴿علـى صراطٍ مسـتقيمٍ﴾ أيْ بَعْـدَ قَسَـمِه بقولِـه: ﴿إنَّـكَ لَمِـنَ المرسَـلينَ﴾.

قولـه (**ولا عُـدولَ عَـنِ الحَقِّ**): تَفْسيرٌ لِقَوْلِـه (**لا اعْوِجاجَ فيـه**)، وقولُـه (**وفيـه**): أيْ في هَـذا التخصيصِ.

وقولُـه (**عـلى تأويـلِ مَـنْ قـالَ** -أيْ في (يـس)-: **إنَّـه «يـا سيِّدُ» مـا فيـه**): أيِ الَّـذي فيـه مِـنْ غايـةِ التفْخيـمِ.

قولـه (**لا أقسـم بهـذا البلـد وأنـتَ حِـلٌّ بهـذا البَلَـدِ**): قـالَ المُـلَّا: إدخـالُ النافيـةِ لِلتَّوْكيـدِ سـائغٌ في كَلامِ العَـرَبِ وعُلَـماءِ الأدَبِ، فالمَعْنـى أنَّـه -سُـبحانَه- أَقْسَـمَ بالبَلَـدِ الحَـرامِ؛ وقَيَّـدَه بحُلـولِ رَسـولِه ﷺ بـه إظهـارًا لمَزيـدِ فَضْـلٍ، وإشـعارًا بـأنَّ شَرَفَ المَـكانِ بـشَرَفِ أهْلِـه؛ وهـذا المَعْنـى باعتِبـارِ مَفْهومِـه يُفيـدُ مـا عَـبَّرَ عَنْـه المُصَنِّـفُ بِقَوْلِـه (**قيـلَ: لا أُقسِـمُ بِـه... إلـخ**).

وقولـه (**حَـلالٌ**): قـالَ السـيِّدُ: «لِأنَّهـا حَلَّـتْ لـه سـاعةً مِـنَ النَّهـارِ يَـوْمَ فَتْحِها؛ وهـوَ مِـنْ ضَحْـوةِ النَّهـارِ إلى بَعْـدَ العَـصْرِ، وقيـلَ: إلى الـزَّوالِ، أيْ حَـلَّ لَـكَ مـا فَعَلْـتَ فيـه مِـن قَتْـلِ بَعْـضِ المُشْركـينَ عـامَ الفَتْـحِ. وقَـدْ أشـارَ إلى ذلـكَ ﷺ بقَوْلِـه (إنَّ مَكَّـةَ حَرَّمَهـا اللهُ -تعـالى- يَـوْمَ خَلَـقَ السـمَواتِ والأرضَ، لَمْ تَحِـلَّ لِأَحَـدٍ قَبْـلي، ولا تَحِـلُّ لِأَحَـدٍ بَعْـدي؛ وإنَّـما حَلَّـتْ لي سـاعةً مِـن نَهـارٍ ثُـمَّ عـادَتْ حُرْمَتُهـا اليَـوْمَ كَحُرْمَتِهـا بالأمـسِ)[1].

---

(١) متفقٌ عليـه أخرجـه بنحـوه مُطـوَّلاً البخـاريُّ (رقـم ١٨٣٣) [كتـاب جـزاء الصيـد]، ومسـلمٌ (رقـم ١٣٥٥) [كتـاب الحـج]، وغيرهمـا مـن حديـث أبي هريـرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًـا.

ثُـمَّ قَـالَ: ﴿وَالقُـرْآنِ الحَكِيـمِ * إِنَّـكَ لَمِـنَ المُرْسَـلِينَ﴾، فَـإِنْ قُـرِّرَ أَنَّـهُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ ﷺ، وَصَـحَّ فيـه أَنَّـهُ قَسَـمٌ، كَانَ فِيـهِ مِـنَ التَّعْظِيـمِ مَـا تَقَـدَّمَ، وَيُؤَكِّـدُ فِيـهِ القَسَـمَ عَطْـفُ القَسَـمِ الآخَـرِ عَلَيْـهِ،

وَإِنْ كَانَ بِمَعْنـى النِّـدَاءِ فَقَـدْ جَـاءَ قَسَـمٌ آخَـرُ بَعْـدَهُ لِتَحْقِيـقِ رِسَـالَتِهِ وَالشَّـهَادَةِ بِهِدَايَتِـهِ، أَقْسَـمَ اللهُ تَعَـالَى باسْـمِهِ وَكِتَابِـهِ إِنَّـهُ مِـنَ المُرْسَـلِينَ بِوَحْيِـهِ إِلَى عِبَـادِهِ، وَعَـلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ مِـنْ إِيمَانِـهِ، أَيْ طَرِيـقٍ لَا اعْوِجَـاجَ فِيـهِ ولا عُـدُولَ عَـنِ الحَـقِّ.

قَـالَ النَّقَّـاشُ: لَمْ يُقْسِـمِ اللهُ تَعَـالَى لِأَحَـدٍ مِـنَ أَنْبِيَائِـهِ بِالرِّسَـالَةِ فِي كِتَابِـهِ إِلَّا لَـهُ، وَفِيـهِ مِـنْ تَعْظِيمِـهِ وَتَمْجِيـدِهِ عَـلَى تَأْوِيـلِ مَـنْ قَـالَ إِنَّـهُ «يَـا سَـيِّدُ» مَـا فِيـهِ، وَقَـدْ قَـالَ ﷺ: (أَنَـا سَـيِّدُ وَلَـدِ آدَمَ وَلَا فَخْـرَ)[1].

وَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿لا أُقْسِـمُ بِهَـذَا البَلَـدِ * وَأَنْـتَ حِـلٌّ بِهَـذَا البَلَـدِ﴾:

قِيـلَ: «لَا أُقْسِـمُ بِـهِ إِذَا لَمْ تَكُـنْ فِيهِ بَعْـدَ خُرُوجِكَ مِنْـهُ» حَـكَاهُ مَكِّـيٌّ، وَقِيـلَ: «لَا» زَائِـدَةٌ، أَيْ أُقْسِـمُ بِـهِ وَأَنْـتَ بِـهِ -يَـا مُحَمَّـدُ- حَـلَالٌ، أَوْ حِـلٌّ لَـكَ مَـا فَعَلْـتَ فِيـهِ -عَـلَى التَّفْسِـيرَيْنِ، وَالمُـرَادُ بِالبَلَـدِ عِنْـدَ هَـؤُلَاءِ مَكَّةُ.

---

(١) حديث (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ...): مسلم عن أبي هريرة [٢٢٧٨، دون قوله (ولا فخر)، وأخرجه بهذه الزيادة الترمذيُّ (٣٦١٥)، وغيره. والحديث متفقٌ عليه بلفظ (أنا سيد الناس يوم القيامة)].

وَقَالَ الوَاسِطِيُّ: أَيْ نَحْلِفُ لَكَ بِهَذَا البَلَدِ الَّذِي شَرَّفْتَهُ بِمَكَانِكَ فِيهِ حَيًّا، وَبِبَرَكَتِكَ مَيِّتًا، يَعْنِي المَدِينَةَ.

وَالأَوَّلُ أَصَحُّ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَمَا بَعْدَهُ يُصَحِّحُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ﴾.

وَنَحْوُهُ قَوْلُ ابْنِ عَطَاءٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ﴾، قَالَ آمَنَهَا اللهُ تَعَالَى بِمَقَامِهِ فِيهَا، وَكَوْنِهِ بِهَا؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ أَمَانٌ حَيْثُ كَانَ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، مَنْ قَالَ: أَرَادَ آدَمَ فَهُوَ عَامٌّ، وَمَنْ قَالَ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ وَمَا وَلَدَ، فَهِيَ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- إِشَارَةٌ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَتَتَضَمَّنُ السُّورَةُ القَسَمَ بِهِ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «هَذِهِ الحُرُوفُ أَقْسَامٌ أَقْسَمَ اللهُ بِهَا»[(١)]، وَعَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ فِيهَا غَيْرُ ذَلِكَ.

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ: الأَلِفُ هُوَ اللهُ، وَاللَّامُ جِبْرِيلُ، وَالمِيمُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَحَكَى هَذَا القَوْلَ السَّمَرْقَنْدِيُّ، وَلَمْ يَنْسِبْهُ إِلَى سَهْلٍ، وَجَعَلَ مَعْنَاهُ: «اللهُ أَنْزَلَ جِبْرِيلَ عَلَى مُحَمَّدٍ بِهَذَا القُرْآنِ لَا رَيْبَ فِيهِ».

---

(١) حديثُ ابنِ عَبَّاسٍ في (الم): هذه الحروفُ أقسامٌ أَقْسَمَ بها اللهُ: ابنُ جرير [١/ ٢٠٧] وابنُ أبي حاتم [تفسير ابن أبي حاتم (١٥٥١٧)].

قوله (**والأَوَّلُ أَصَحُّ**): أيْ مِنْ كَوْنِ البَلَدِ مَكّةَ.

قولـه (**آمَنَهـا اللهُ**): بهمزةٍ ممدودةٍ، ويجوزُ بالقَصرِ والتشديدِ، وقولـه (**فـإنَّ كَوْنَـه**): أيْ وُجودَه.

قولـه (**وما وَلَدَ**): قالَ السيِّدُ: عَدَلَ عَن (مَنِ) الَّتي لِمَنْ يَعْقِلُ؛ إشارةً إلى التعجُّبِ بـ«ما» تَعظيمًا لِهَذا النبيِّ ﷺ.

وقولُـه (**فتتضَمَّنُ السورةُ**): أيِ المَسْطورةُ، وقولُـه (**في مَوْضِعَيْنِ**): أيْ بِحَسَبِ المُتعاطِفَيْنِ؛ مِن حَيثُ كَوْنُه وَلَدًا لِإبراهيمَ، وكَوْنُه والِدًا -بشَهادةِ ما في «الكَشّافِ» ونَصَرَه القرطبيُّ- لقولِه ﷺ: (إنَّما أنا لَكُم بمَنْزِلَةِ الوالِدِ)[(١)].

قولـه (**هـذه الحروفُ**): أيِ المُقَطَّعةُ في أوائلِ السورةِ وأمثالُها (**أقسامٌ**): جَمعُ قَسَمٍ؛ بمَعْنى مُقْسَمٍ بِهِ.

قولـه (**غَيْرُ ذلك**): قيلَ فيها سَبعونَ قَولًا، وأَرْجَحُها «اللهُ أَعْلَمُ بمُرادِه بذلك»؛ وعَنِ ابنِ عَبّاسٍ «أنَّ الألِفَ آلاءُ اللهِ، واللامَ لُطْفُه، والميمَ مُلْكُه»[(٢)]، وقيلَ: هي أسماءُ اللهِ؛ بشَهادةِ قولِ الإمامِ عليٍّ «يا كهيعص، يا حم عسق»[(٣)].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود (رقم ٨)، وأخرجه أحمد (رقم ٧٣٦٨) والحميدي (٩٨٨)، وابن ماجه (٣١٣)، والدارمي (٦٧٤)، وابن حِبَّان (١٤٣١)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ...» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٢٠٩) مِن كلام الربيع بن أنس.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٥/ ٤٥١)، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢/ ٦٨٠) وعزاه الى ابن ماجه في التفسير.

وَعَـلَى الوَجْـهِ الأَوَّلِ يَحْتَمِـلُ القَسَـمُ أَنَّ هَـذَا الكِتَابَ حَـقٌّ لَا رَيْـبَ فِيـهِ، ثُـمَّ فِيـهِ مِـنْ فَضِيلَـةِ قِـرَانِ اسْـمِهِ بِاسْـمِهِ نَحْـوُ مَـا تَقَـدَّمَ.

وَقَـالَ ابْـنُ عَطَـاءٍ فِي قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ق * وَالقُـرْءَانِ المَجِيـدِ﴾: أَقْسَـمَ بِقُـوَّةِ قَلْـبِ حَبِيبِـه مُحَمَّـدٍ ﷺ؛ حَيْـثُ حَمَـلَ الخِطَـابَ وَالمُشَـاهَدَةَ، وَلَمْ يُؤَثِّـرْ ذَلِـكَ فِيـهِ لِعُلُـوِّ حَالِـهِ.

وَقِيـلَ: هُـوَ اسْـمٌ لِلْقُـرْآنِ، وَقِيـلَ: هُـوَ اسْـمٌ لله، وَقِيـلَ: جَبَـلٌ مُحِيـطٌ بِـالأَرْضِ، وَقِيـلَ غَـيْرُ هَذَا.

وَقَـالَ جَعْفَـرُ بْـنُ مُحَمَّـدٍ فِي تَفْسِـيرِ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَـوَى﴾: إِنَّـهُ مُحَمَّـدٌ ﷺ، وَقَـالَ: «النَّجْـمُ» قَلْـبُ مُحَمَّـدٍ ﷺ، «هَـوَى» انْـشَرَحَ مِـنَ الأَنْـوَارِ، وَقَـالَ: انْقَطَـعَ عَـنْ غَـيْرِ الله.

وَقَـالَ ابْـنُ عَطَـاءٍ فِي قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَالفَجْـرِ وَلَيَـالٍ عَـشْرٍ﴾: الفَجْـرُ مُحَمَّـدٌ ﷺ؛ لأَنَّ مِنْـهُ تَفَجَّـرَ الإِيـمَانُ.

***

قولـه (ثُـمَّ فيـه): أيْ في القَسَـمِ -والكتـابِ عـلى الاحتـمالِ الثـاني.

وقولـه (مِـن فضيلـةِ قِـرانِ اسمِه... إلـخ): وهـوَ -بكَسْرِ القـافِ- بمَعْنـى «مُقارَنَتِـه»، وقولُـه (نَحـوُ مـا تقـدَّمَ): أيْ في التشَـهُّدِ والخُطبـةِ -كَـما قـالَ حَسّـانٌ:

وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ لِإسمِه
إذا قال في الخَمْسِ المؤذِّنُ أشهَدُ

قولـه (حَيْـثُ حَمَـلَ الخطـابَ... إلـخ): قـالَ السـيِّدُ: هَـذِه حَيْثِيّـةُ تَعْليـلٍ؛ كَـما في قَوْلِهـمُ «الزِّنـا مِـن حيـثُ هـوَ زِنًـا؛ يوجِـبُ الحَـدَّ»: أيْ لِأَجْـلِ كَوْنِـه زِنًـا.

قولـه (وقيـلَ هـوَ): أيْ «ق»، (اسـمٌ لِلقـرآنِ): أيْ بِطَريـقِ الإشـارةِ؛ وأمّـا بِطَريـقِ العِبـارةِ فهـوَ اسـمٌ لِلسّـورةِ، وقولـه (مُحيـطٌ بـالأرضِ): ﷺ لِأنّـه النَّجـمُ الأكـبرُ.

وقولـه (انـشَرَحَ مِـنَ الأنـوارِ): لِمـا بُـثَّ فيـه مِـنَ الأسرارِ، قـالَ السـيدُ: (مِـنْ) بمَعْنـى الـلّامِ؛ أيْ لِلأنـوارِ؛ والمُـرادُ بـ(الأنـوارِ): العُلـومُ والأحـكامُ.

وقولـه (تَفَجَّـرَ الإيـمانُ): أيْ تَبَـيَّنَ مِنـه الإيقـانُ وظَهَـرَ مِنْـه العِرْفـانُ؛ والمَشْـهورُ عِنْـدَ المُفَسِّريـنَ أنَّ الفَجْـرَ هـوَ الصُّبـحُ، والليـاليَ العَـشْرَ مِـن ذي الحِجّـةِ.

***

الفَصْلُ الخَامِسُ: فِي قَسَمِهِ -تَعَالَى- لَهُ لِيُحَقِّقَ مَكَانَتَهِ عِنْدَهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى...﴾ السُّورَة: اخْتُلِفَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقِيلَ: كَانَ تَرْكُ النَّبِيِّ ﷺ قِيَامَ اللَّيْلِ لِعُذْرٍ نَزَلَ بِهِ، فَتَكَلَّمَتِ امْرَأَةٌ فِي ذَلِكَ بِكَلَامٍ.[1]

وَقِيلَ: بَلْ تَكَلَّمَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ عِنْدَ فَتْرَةِ الوَحْيِ؛ فَنَزَلَتِ السُّورَةُ.[2]

قَالَ الفَقِيهُ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَنْوِيهِهِ بِهِ وَتَعْظِيمِهِ إِيَّاهُ سِتَّةَ وُجُوهٍ:

---

(١) قوله (اختُلِفَ في سبَبِ نُزولِ هذه السُّورةِ -يَعْني «الضُّحَى»-، فقيلَ: كانَ النبيُّ ﷺ تَرَكَ قِيامَ اللَّيْلِ، فتكلَّمَت امرأةٌ في ذلك بِكَلَام): أخرجَه الشيخانِ [البخاريُّ (٤٩٥٠)، ومسلمٌ (١٧٩٧)] عن جُندَبٍ قال: اشتكَى ﷺ فلَمْ يَقُمْ لَيلةً أو ليلتَين، فأتَت امرأةٌ، فقالَتْ: يا محمدُ، ما أَرَى شيطانَكَ إلا قَدْ تَرَكَكَ؛ فأنزَلَ اللهُ ﴿والضُّحَى...﴾ الآيات، وأَخرَجَ الحاكم [٢/ ٥٢٦] من حديث زيد بن أَرْقَمَ أنَّ المرأةَ المذكورةَ امرأةُ أَبي لَهَب.

(٢) قوله (وقيلَ: بلْ تكلَّمَ به المشركونَ عندَ فَتْرةِ الوَحْيِ، فنَزَلَتْ...): أخرجَه التِّرمذيُّ [٣٣٤٥] من حديث جُندب قال: (كُنتُ معَ النبيِّ ﷺ في غارٍ، فدَميَتْ إصبَعُه...) الحديث، وفيه (فأَبْطَأَ عليْه جِبريلُ)، فقالَ المشرِكون: قَدْ وُدِّعَ محمدٌ.

قولـه (في قَسَمِه تعالى): قالَ السيِّدُ: ورويَ: (جَدُّه) أيْ عَظَمَتُه وغِناه؛ ورويَ (له ﷺ)؛ فـ«الجَدُّ» -بالفتحِ- العَظَمةُ؛ قالَ تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا﴾ [الجن: ٣]؛ وفي الحديثِ: (كانَ الرَّجُلُ مِنّا إذا قَرأَ البقرةَ وآلَ عِمرانَ؛ جَدَّ في أنفُسِنا)[1] أيْ عَظُمَ؛ وعنِ الحَسَنِ: غِناه، بشَهادةِ حديثِ (ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ[2])؛ أيْ لا يَنْفَعُ ذا الغِنى مِنْكَ غِناه؛ وإنَّما يَنْفَعُه إيمانُه وإحسانُه.

وقولـه (إذا سَجى): أيْ رَكَدَ ظَلامُه، أوْ سَكَنَ أَهْلُه؛ قالَ الملّا: الأنسبُ في تحقيقِ المَرامِ أنَّ «الضُّحى» إيماءٌ إلى وَجْهِه ﷺ، كَما أنَّ في «اللَّيلِ» إشعارًا إلى شَعَرِه ﷺ.

قولـه (فتكلَّمَتِ امرأةٌ في ذلك بِكَلام): قالَ السيدُ: في صَحيحِ البخاريِّ عَنْ جُنْدَبٍ: فقالَتْ لـه امرأةٌ: إنّي لأَرْجو أنْ يَكونَ شَيْطانُكَ قَدْ تَرَكَكَ؛ لِما رأيْتُ مِن عَدَمِ قيامِكَ!! فأَنْزَلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- ﴿والضُّحى﴾، قال: وصَحَّحَ الحاكمُ أنَّها زَوجةُ أبي لَهَبٍ أُمُّ جَميلٍ[3]. قالَ: لَكِنْ في «النَّهرِ»[4] وغيره عنِ ابنِ عباسٍ: أَبْطَأَ الوَحْيُ مَرّةً على رَسولِ الله ﷺ وهو بمكّةَ، حتّى شَقَّ ذلكَ عليْه، فقالَتْ له أُمُّ جَميلٍ امرأةُ أبي لَهَبٍ: يا مُحمَّدُ؛ ما أَرى شَيطانَكَ إلّا تَرَكَكَ؛ قالَ السيِّدُ: وبَيْنَهُما نَوْعُ مُنافاةٍ، فعَلَيْكَ بالجَمْعِ؛ فتَدَبَّرْ!!

وقولُه (فنَزَلَتِ السّورةُ) وفي نسخةٍ «هذه السورةُ».

---

(١) أخرجه أحمد (رقم ١٢٢١٥)، وغيره من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأصله في الصحيحين.

(٢) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (رقم ٨٤٤) [كتاب الأذان]، ومسلمٌ (رقم ٥٩٣) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة]، وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٢٦) من حديث زيد ابن أرقم. وقال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ كما حدَّثناهُ هذا الشَّيخُ إلَّا أنِّي وَجَدْتُ له عِلَّةً».

(٤) تفسير «النهر الماد» للإمام يوسف بن حيان الغرناطي الشهير بأبي حيان، وله تفسير كبير يسمى «البحر المحيط».

الأَوَّلُ: القَسَمُ لَهُ عَمَّا أَخْبَرَهُ بِهِ مِنْ حَالِهِ بِقَوْلِهِ ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، أَيْ وَرَبِّ الضُّحَى، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ دَرَجَاتِ المَبَرَّةِ.

الثَّانِي: بَيَانُ مَكَانَتِهِ عِنْدَهُ وَحُظْوَتِهِ لَدَيْهِ، بِقَوْلِهِ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، أَيْ مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ، وَقِيلَ: مَا أَهْمَلَكَ بَعْدَ أَنِ اصْطَفَاكَ.

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَيْ مَآلُكَ فِي مَرْجِعِكَ عِنْدَ اللهِ أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاكَ مِنْ كَرَامَةِ الدُّنْيَا، وَقَالَ سَهْلٌ: أَيْ مَا ذَخَرْتُ لَكَ مِنَ الشَّفَاعَةِ وَالمَقَامِ المَحْمُودِ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا أَعْطَيْتُكَ فِي الدُّنْيَا.

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، وَهَذِهِ آيَةٌ جَامِعَةٌ لِوُجُوهِ الكَرَامَةِ وَأَنْوَاعِ السَّعَادَةِ وَشَتَاتِ الإِنْعَامِ فِي الدَّارَيْنِ وَالزِّيَادَةِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: يُرْضِيهِ بِالفَلَجِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابِ فِي الآخِرَةِ، وَقِيلَ: يُعْطِيهِ الحَوْضَ وَالشَّفَاعَةَ.

قوله (**عَمّا أَخْبَرَه به**): أيْ على أَمْرٍ أَخْبَرَه اللهُ به -على مَذْهَبِ مَنْ جَوَّزَ إقامةَ حُروفِ الجَرِّ بَعْضِها مَقامَ بَعْضٍ.

قوله (**مِنْ أَعْظَمِ دَرَجاتِ المَبَرّة**): اسمٌ لِلبِرِّ -أَي الإحسانِ.

قوله (**وحُظْوَتِه**): -بالحاءِ المُهْمَلةِ المَضمومةِ والظّاءِ المُعْجَمةِ الساكِنةِ- مِن «حَظيَتِ المَرأةُ عِنْدَ زَوْجِها». واعْلَمْ أَنَّ كُلَّ اسمٍ على «فُعْلةٍ» لامُه واوٌ بَعْدَها هاءُ التأنيثِ؛ فإنَّه مُثَلَّثُ الفاءِ. اهـ. الشمنيُّ.

قوله ﴿**ولَلْآخِرةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولى**﴾: اللّامُ لامُ ابتِداءٍ؛ أوْ جَوابُ لِقَسَمٍ.

قوله (**أيْ ما ذَخَرْتُ لَكَ مِنَ الشفاعةِ**): وقيلَ: الأحوالُ الآتيةُ لَكَ خيرٌ مِن السابقةِ في الدّارَيْنِ.

وقوله (**شَتاتِ الإنعامِ**): -بفتحِ الشينِ المعجَمةِ والتاءِ- أيْ مُتفرِّقاتِ أنواعِ الإكرامِ؛ مِمّا لا يَعلَمُ كُنْهَه أحدٌ.

وقوله (**والزيادةِ**): -بالجرِّ- أيْ وجامِعةٌ لِلزِّيادةِ على ما أَعْطاه في الدنيا، ووَعَدَه في العُقْبى مِنْ أنواعِ الكَرامةِ.

(**قالَ ابنُ إسحاقَ: يُرضيه بالفَلَجِ في الدنيا**): قالَ السيدُ: هوَ بالفتحِ المَصدرُ، وبالضَّمِّ الاسمُ، وقالَ المُلّا: الفَلَجُ -على ما في الصحاحِ: بفتحِ الفاءِ واللامِ، وبالجيمِ؛ والاسمُ بضمِّ الفاءِ وسكونِ اللامِ- أي الفَوْزُ بأحبابِه، والظَّفَرِ بأعدائِه؛ ومِنْه قولُه ﷺ في وصفِ القرآنِ (مَن قالَ به صَدَقَ، ومَنْ حَكَمَ به عَدَلَ، ومَنْ خاصَمَ به فَلَجَ)[1]؛ قالَ ابنُ هِشامٍ: «مَعْناه: ظَهَرَ وغَلَبَ وظَفِرَ»؛ والحاصِلُ أَنَّ في الأصلِ نُسختَيْنِ مَضبوطتَيْنِ؛ وفي المَثَلِ (مَن يَأْتِ الحَكَمَ وَحْدَه يَفْلُجْ)[2] أيْ يَظفَرْ على خَصْمِه.

(١) أخرجه بهذا اللفظ سعيد بن منصور كما في كتاب «التفسير من سنن سعيد بن منصور» للجوزجاني (٢/ ٢٧٢) بإسنادٍ ضعيف جدًّا.

(٢) مثل يضرب للرجل يسبق إلى الحاكم فيلقي في قلبه التهمة على صاحبه. [الأمثال لأبي عبيد ابن سلام، باب المماكرة]

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ آلِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ أَرْجَى مِنْهَا، وَلَا يَرْضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ النَّارَ.(١)

الْخَامِسُ: مَا عَدَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ وَقَرَّرَهُ مِنْ آلائِهِ قِبَلَهُ فِي بَقِيَّةِ السُّورَةِ مِنْ هِدَايَتِهِ إِلَى مَا هَدَاهُ لَهُ، أَوْ هِدَايَةِ النَّاسِ بِهِ -عَلَى اخْتِلَافِ التَّفَاسِيرِ-، وَلَا مَالَ لَهُ؛ فَأَغْنَاهُ بِمَا آتَاهُ أَوْ بِمَا جَعَلَهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَالْغِنَى، وَيَتِيمًا فَحَدَبَ عَلَيْهِ عَمُّهُ وَآوَاهُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: آوَاهُ اللهُ، وَقِيلَ: يَتِيمًا وَلَا مِثَالَ لَكَ فَآوَاكَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَلَمْ يَجِدْكَ؛ فَهَدَى بِكَ ضَالًّا، وَأَغْنَى بِكَ عَائِلًا، وَآوَى بِكَ يَتِيمًا، ذَكَّرَهُ بِهَذِهِ الْمِنَنِ، وَأَنَّهُ -عَلَى الْمَعْلُومِ مِنَ التَّفْسِيرِ- لَمْ يُهْمِلْهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ وَعَيْلَتِهِ وَيُتْمِهِ وَقَبْلَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَلَا وَدَّعَهُ، وَلَا قَلَاهُ، فَكَيْفَ بَعْدَ اخْتِصَاصِهِ وَاصْطِفَائِهِ؟!

السَّادِسُ: أَمَرَهُ بِإِظْهَارِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ وَشُكْرِ مَا شَرَّفَهُ بِهِ، بِنَشْرِهِ وَإِشَادَةِ ذِكْرِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ الْحَدِيثَ بِهَا، وَهَذَا خَاصٌّ لَهُ، عَامٌّ لِأُمَّتِهِ.

(١) قوله (ورُويَ عَن بعضِ آلِ النبيِّ ﷺ قال: ليسَ في القرآنِ آيةٌ أَرْجَى مِنْها -يعني: ﴿ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾...): أخرَجه أبو نُعيم في «الحِليَة» [٣/ ١٧٩] عن علي بن أبي طالب موقوفًا، وأخرَجه الدَّيلميُّ في «مسنَد الفِردوس» [٦١٩٥] من حديثه مرفوعًا.

قولـه (**ولا يَـرْضى رسـولُ الله ﷺ أنْ يَدْخُـلَ... إلـخ**) وفي «مسـلِمٍ» أنَّـه ﷺ قـالَ: (أُمَّتـي!! وبَكـى...) إلى قولِـه (فقـالَ تعـالى لجبريـلَ: اذهَـبْ إلى محمـدٍ، فَقُـلْ: إنّـا سَـنُرْضيكَ في أُمَّتِـكَ ولا نَسـوءُكَ)(١)؛ ورويَ: (أَشْـفَعُ لِأُمَّتـي حَتّـى يُنـادى لي: أَرَضيـتَ يـا محمـدُ؟! فأقـولُ: رَبِّ؛ رَضيـتُ)(٢)، أَوْ كَـما قـالَ. اهـ الصفـويُّ.

قولـه (**وقَـرَّرَه مِـن آلائِـه**): قـالَ السـيِّدُ: أيْ نِعَمِـه؛ جَمْـعُ «أَلًا» -بفتـحِ الهمـزةِ والتنويـنِ؛ وقيـلَ: بكَسْرِهـا، مـعَ التنويـنِ؛ كـ«مِعًـى»- وفي بعضِ النُّسَـخِ «عَـدَّدَه» -بدالَـيْنِ- قـالَ السـيدُ: وهـيَ أقعَـدُ. قولـه (**قِبَلَـه**): -بكسـرِ القـافِ وفَتْـحِ الموَحَّـدةِ- أيْ عِنْـدَه.

وقولُـه (**حَـدَبَ عَلَيْـه عَمُّـه**): فهـوَ بحـاءٍ مهمَلَـةٍ مفتوحـةٍ ودالٍ مهمَلـةٍ وموحَّـدةٍ؛ قـالَ في «الصِّحـاحِ»: «حَـدَبَ علَيْـه، وتَحَـدَّبَ؛ أيْ تَعَطَّـفَ».

قولـه (**وإشـادةِ ذِكْـرِه**): قـالَ الشـمنيُّ: هـوَ مَصـدَرُ «أَشـادَ بِذِكْـرِه» -بالـدّالِ المهمَلـةِ- أيْ رَفَـعَ مِـن قَـدْرِه.

قولـه (**وهَـذا خـاصٌّ لَـه**): أيْ أَمْـرُه، وقولـه (**عـامٌّ لِأُمَّتِـه**): لِأَنَّـه إمامُهـم، فأَمْـرُه كأَمْرِهـم؛ وقـالَ مُجاهِـدٌ: مَعْنـى قَوْلِـه ﴿وأَمّـا بِنِعْمَـةِ رَبِّـكَ فحَـدِّثْ﴾ بَـثُّ الشَّرائـعِ، والقـرآنِ المُشـتَمِلِ عـلى البَدائـعِ؛ والأَوْلى حَمْـلُ الآيـةِ عـلى عُمـومِ النِّعْمـةِ؛ ولَعَـلَّ هـذا مَنْشَـأُ مـا كانَ بَعْـضُ الصالِحِـينَ يُخْبِرُ بِجَميـعِ مـا يَفْعَلُـه مِـنَ الطاعـاتِ، كَأَنَّـه يَنْحـو إلى أنَّهـا نِعمـةٌ أَنْعَـمَ اللهُ -سُـبْحانَه- بِهـا عَلَيْـه؛ فيَجِـبُ عَلَيْـه التَّحَـدُّثُ بهـا، مَـعَ أَنَّـه قَـدْ يَقْصِـدُ أنَّ النـاسَ يَقتَـدونَ بـه في فِعْلِهـا.

(١) أخرجـه مسـلم (رقـم ٢٠٢) [كتـاب الإيـمان] مـن حديـث عبـدالله بـن عمـرو بـن العـاص.

(٢) أخرجـه البـزّار (رقـم ٦٣٨)، وابـن خزيمـة في «التوحيـد» (٢/ ٦٣٧)، والطـبرانيُّ في «الكبـير» (٣/ ٥٨)، و«الأوسـط» (رقـم ٢٠٦٢)، وغيرهـم مِـن حديـث علـيِّ بـن أبي طالـبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وحسَّـن إسـناده الحافـظ المنـذريُّ كـما في «الترغيـب والترهيـب» (٤/ ٢٤١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ بِأَقَاوِيلَ مَعْرُوفَةٍ: مِنْهَا النَّجْمُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَمِنْهَا الْقُرْآنُ، وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَالَ سَهْلٌ: هُوَ قَلْبُ مُحَمَّدٍ.

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾: إِنَّ النَّجْمَ هُنَا أَيْضًا مُحَمَّدٌ ﷺ حَكَاهُ السُّلَمِيُّ.

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَاتُ مِنْ فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ العِدِّ مَا يَقِفُ دُونَهُ العَدُّ، وَأَقْسَمَ -جَلَّ اسْمُهُ- عَلَى هِدَايَةِ المُصْطَفَى، وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الهَوَى، وَصِدْقِهِ فِيمَا تَلَى، وَأَنَّهُ وَحْيٌ يُوحَى، أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ عَنِ اللهِ تعالَى جِبْرِيلُ وَهُوَ الشَّدِيدُ القُوَى، ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ فَضِيلَتِهِ بِقِصَّةِ الإِسْرَاءِ وَانْتِهَائِهِ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَتَصْدِيقِ بَصَرِهِ فِيمَا رَأَى، وَأَنَّهُ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى، وَقَدْ نَبَّهَ تعَالَى عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ «الإِسْرَاءِ».

وَلَمَّا كَانَ مَا كَاشَفَهُ ﷺ مِنْ ذَلِكَ الجَبَرُوتِ، وَشَاهَدَهُ مِنْ عَجَائِبِ المَلَكُوتِ، لَا تُحِيطُ بِهِ العِبَارَاتُ، وَلَا تَسْتَقِلُّ بِحَمْلِ سَمَاعِ أَدْنَاهُ العُقُولُ، رَمَزَ عَنْهُ تَعَالَى بِالإِيمَاءِ وَالكِنَايَةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْظِيمِ، فَقَالَ: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾،

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الكَلَامِ يُسَمِّيهِ أَهْلُ النَّقْدِ وَالبَلَاغَةِ بِالوَحْيِ وَالإِشَارَةِ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَبْلَغُ أَبْوَابِ الإِيجَازِ، وَقَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾، انْحَسَرَتِ الأَفْهَامُ عَنْ تَفْصِيلِ مَا أَوْحَى، وَتَاهَتِ الأَحْلَامُ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الآيَاتِ الكُبْرَى.

قوله (تَضَمَّنَتْ هذه الآياتُ): أيْ مِن قولِه ﴿والنَّجْمِ إذا هَوى﴾ [النجم: ١] إلى قولِه ﴿لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾ [النجم: ١٨].

وقوله (مِن فَضْلِه وشَرَفِه العِدّ): -بكسرِ العينِ وتشديدِ الدالِ- أي الشيء الكثير الذي لا تَنقَطِعُ مادَّتُه؛ وأصلُه في الماءِ؛ يقالُ: «ماءٌ عِدٌّ»: إذا كانَتْ له مادّةٌ غَيرُ مُنقطعةٍ -كماءِ العَينِ والبِئرِ.

وقوله (ما يَقِفُ): أي العِدُّ الذي يَقِفُ دونَه مِنها العَدُّ -بالفتحِ- أي الإحصاءُ؛ والعَدُّ أيضًا: العَدَدُ.

قوله (الجَبَروتِ): -بفتحتَينِ؛ فَعَلوتٌ- مُبالَغةٌ مِن الجَبْرِ، بمَعْنى القَهرِ، والمُرادُ أنّه رَأى ما يَدُلُّ عليْه إذْ هوَ معنًى لا يُشاهَدُ؛ إلّا أنْ تُحْمَلَ الرُّؤْيا على رُؤْيةِ البَصيرةِ.

قوله (ولا تَستَقِلُّ): -بتشديدِ اللامِ- أيْ لا تَسْتَبِدُّ. وقولُه (رَمَزَ): جَوابُ (لمّا).

قوله (وتاهَتِ الأحلامُ): أيْ وذَهَبَتِ العُقولُ مُتَحَيِّرةً.

وقوله (في تعيينِ تلكَ الآياتِ الكُبرى)؛ فلَمْ تَهْتَدِ إلى مَعرِفةِ شيْءٍ لِكَثْرتِها.

وفي نُسخةٍ: «في تَعبيرِ تلكَ الآياتِ»؛ أيْ تَبيينِها وتفسيرِها، قالَ المُلا: والعَقْلُ مَحَلُّه القَلْبُ لِقَولِه تعالى ﴿فتكونَ لهم قُلوبٌ يَعقِلونَ بها﴾ [الحج: ٤٦].

قَالَ القَاضِي -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى-: واشتَمَلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ عَلَى إعْلَامِ اللهِ تَعَالَى بتَزْكِيَةِ جُمْلَتِهِ ﷺ وَعِصْمَتِهَا عِنَ الآفَاتِ فِي هَذَا المَسْرَى؛ فَزَكَّى فُؤَادَهُ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ، فَزَكَّى قَلْبَهُ بِقَوْلِهِ ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، وَلِسَانَهُ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾ وبَصَرَهُ بِقَوْلِهِ ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.

وَقَالَ تعَالَى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ١٥-١٦]:

﴿لَا أُقْسِمُ﴾، أَيْ أُقْسِمُ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، أَيْ كَرِيمٍ عِنْدَ مُرْسِلِهِ، ذِي قُوَّةٍ عَلَى تَبْلِيغِ مَا حُمِّلَهُ مِنَ الوَحْيِ، ﴿مَكِينٍ﴾ أَيْ مُتَمَكِّنِ المَنْزِلَةِ مِنْ رَبِّهِ، رَفِيعِ المَحَلِّ عِنْدَهُ، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أَيْ فِي السَّمَاءِ، ﴿أَمِينٍ﴾ عَلَى الوَحْيِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى وَغَيْرُهُ: الرَّسُولُ الكَرِيمُ هُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَجَمِيعُ الأَوْصَافِ تُعَدُّ -عَلَى هَذَا- لَهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ جِبْرِيلُ؛ فَتَرْجِعُ الأَوْصَافُ إِلَيْهِ.

قوله (**قال القاضي**) أبو الفضلِ؛ قالَ المُلّا: كذا في نسخةٍ.

قولـه (**في هـذا المَسْرى**): -بفتحِ الميمِ والراءِ- مَصْدَرٌ ميميٌّ أو اسمُ مَكانٍ.

قولـه (**وما ينطِقُ عَنِ الهَوى**): أيْ لا يَصْدُرُ نُطْقُه عَنْ هَواه؛ بَلْ يوحى مِنَ الإلهِ جَليًّا كالكِتابِ، وخفيًّا كالسُّنّةِ، قالَ المُلّا: وَقَدْ تَعَلَّقَ بظاهِرِ الآيةِ مَنْ لمْ يُجوِّزْ له الاجتهادَ، قالَ: وهوَ بَعيدٌ عَنْ طَريقِ السَّدادِ.

قولـه (**وما طَغى**): أيْ ما تجاوَزَ عَن رُؤيةِ ما أُمِرَ برُؤيَتِه في المَقامِ الأعلى.

وقولُه (**بالخُنَّسِ**): قالَ المُلّا: أيْ بالكواكبِ الرّواجعِ؛ مِنْ «خَنَسَ»: إذا تأخَّرَ، قالَ: وهيَ ما عَدا النيِّرَيْنِ، وهيَ زُحَلُ، والمُشْتَري، والمِرّيخُ، والزُّهَرةُ، وعُطارِدُ، ومجموعُ السَّبْعةِ السيّارةِ، نُظِمَتْ في قولِه:

زُحَلٌ شَرى مِرّيخُه مِن شَمْسِه * فتزاهَرَتْ بعُطارِدٍ أقمارُ

قولُه (**الكُنَّسِ**): أي السيّاراتِ الّتي تختفي تحتَ ضَوءِ الشمسِ؛ مِن كَنَسَ الوَحشُ: أيْ دَخَلَ كِناسَه.

قولـه (**أيْ أُقسِمُ**): قالَ المُلّا: يَعني على القولِ بزيادةِ (لا). قوله (**ما حُمِّلَه**): قالَ المُلّا: بتخفيفِ الميمِ على صيغةِ الفاعلِ، وكذا بصيغةِ المَفعولِ مُشَدَّدًا، وقوله (**المَحَلِّ**): -بفتحِ الحاءِ، وجوِّزَ كسرُها- أيْ على الشأنِ. قوله (**مُطاعٍ**): أيْ ذي طاعةٍ مَعَ كَوْنِه صاحبَ طاعةٍ.

قوله (**تُعَدُّ على هذا**): أيْ على هذا القولِ، (**له**): أيْ لِمحمدٍ ﷺ، وقوله (**فترجِعُ الأوصافُ إليه**): أيْ بخلافِ ﴿وما صاحبُكم بمَجنونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]؛ فإنَّ المُرادَ به محمدٌ ﷺ بإجماعِ المُفسِّرينَ؛ وذلكَ أنَّ المشركينَ قالوا: ﴿يا أيُّها الذي نُزِّلَ عليه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمجنونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فنَفى اللهُ -سبحانَه- عَنْه ذلكَ بهذه الآيةِ، وبقوله -سبحانَه- ﴿ما أنتَ بنِعمةِ ربِّكَ بمَجنونٍ﴾. وقدْ تمَسَّكَ [بِهِ] بَعْضُ المُعتزلةِ وطائفةٌ مِن أهلِ السُّنّةِ في تفضيلِ الملائكةِ لِعَدِّه فضائلَ جبريلَ عليه السلام واقتصارِه على نَفْيِ الجنونِ عَنْه ﷺ، وضُعِّفَ بأنَّ المَقصودَ مِنه نَفيُ قولِهم ﴿إنّما يُعَلِّمُه بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿أفْتَرى على اللهِ كَذِبًا أمْ بِهِ جِنّةٌ﴾ [سبأ: ٨]، لا عَدُّ فَضلِهما والموازَنةُ بَيْنَهما.

قولـه (وقـالَ تعـالى: «ن»): إقسـامٌ بالحَـرفِ أوِ الحوتِ الَّـذي عَلَيْـه الأرضُ، أو اللهُ أعلـمُ بمُـرادِه بذلكَ.

قولُـه (ومـا يسـطُرونَ): أيْ يَكتبُـونَ، والكَتَبـةُ هُـمُ الحَفَظـةُ ﴿كِرامًـا كاتِبـينَ﴾ [الانفطـار: ١١]، أوِ الأعَـمُّ.

قولـه (نهايـةُ المَـبَرّةِ): -بفَتْـحِ الميـمِ والبـاءِ- أيْ غايـةُ الإحسـانِ.

وقولُـه (تَتْميـمًا لِلتمجيـدِ): -مِـنَ المَجْـدِ، وهـوَ الكَـرَمُ والعَظَمـةُ- أيْ تكميـلًا لِلتعظيـمِ والتكريمِ.

وقولـه (القـرآنُ): أيْ مـا فيـه انجِـماعُ مَـكارِمِ الأخـلاقِ، وهَـذا القَـوْلُ هـوَ المَـرْويُّ عَـنْ عائشـةَ رَضِوَاللَّهُعَنهَا لَمَّـا سُـئِلَتْ عَـنْ خُلُـقِ رَسـولِ اللهِ ﷺ فقالَـتْ: كانَ خُلُقُـه القـرآنَ يَـرْضى بِرِضـاه ويَسْـخَطُ بسُـخْطِه[1].

وقولُـه (لَيْـسَ لَـكَ هِمّـةٌ إلّا اللهُ): أيْ مَقْصِـدٌ، فـكانَ مـعَ الخَلْـقِ بقالَبِـه مُبايِنًـا لهـم بقَلْبِـه، وهَـذا القـولُ مَنسـوبٌ لِلجُنَيْـدِ.

قولـه (لِأنّـه جَبَلَـه): أيْ طَبَعَـه وخَلَقَـه، (عـلى ذلـكَ الخُلُـقِ) وفي نسـخةٍ «عـلى تِلـكَ الخُلُـقِ»؛ فالخُلُـقُ بمعنـى السَّـجيّةِ.

قولـه (الجَـوادِ): -بالتخفيـفِ- أيِ الكَثـيرِ العَطـاءِ والجـودِ.

وقولـه (الحَميـدِ): أيِ الَّـذي يَحْمَـدُه كُلُّ أحَـدٍ مِـن مَخلوقاتِـه؛ قـالَ المـلّا: وفي أصـلِ الدلجـيِّ «المَجيـدِ»: أيْ ذي المَجْـدِ والكَـرَمِ؛ ففـي الحديـثِ القـدسيِّ كَـما رَواه التِّرمـذيُّ والبَيهقـيُّ (أنّي جَـوادٌ ماجِـدٌ)[2].

﴿وَلَقَـدْ رَآهُ﴾: يَعْنِـي مُحَمَّـدًا ﷺ، قِيـلَ: رَأَى رَبَّـهُ، وَقِيـلَ: رَأَى جِبْرِيـلَ فِي صُورَتِـهِ، ﴿وَمَـا هُـوَ عَـلَى الغَيْـبِ بِظَنِـينٍ﴾: أَيْ بِمُتَّهَـمٍ، وَمَـنْ قَـرَأَهُ بِالضَّـادِ فَمَعْنَـاهُ مَـا هُـوَ بِبَخِيـلٍ بِالدُّعَـاءِ بِـهِ، وَالتَّذْكِـيرِ بِحُكْمِـهِ وَبِعِلْمِـهِ، وهَـذِهِ لِمُحَمَّـدٍ بِاتِّفَـاقٍ.

وَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿ن * وَالقَلَـمِ ومـا يَسْـطُرُون...﴾ الآيَـاتِ.

أَقْسَـمَ اللهُ تَعَـالَى بِـمَا أَقْسَـمَ بِـهِ مِـنْ عَظِيـمِ قَسَـمِهِ عَلَى تَنْزِيـهِ المُصْطَفَـى مِمَّـا غَمَصَتْـهُ الكَفَـرَةُ بِـهِ وَتَكْذِيبِهِـمْ لَـهُ، وَآنَسَـهُ وَبَسَـطَ أَمَلَـهُ بِقَوْلِـهِ مُحْسِـنًا خِطَابَـهُ: ﴿مَـا أَنْـتَ بِنِعْمَـةِ رَبِّـكَ بِمَجْنُـونٍ﴾، وَهَـذِهِ نِهَايَـةُ المَـبَرَّةِ فِي المُخَاطَبَـةِ، وَأَعْـلَى دَرَجَـاتِ الآدَابِ فِي المُحَـاوَرَةِ، ثُـمَّ أَعْلَمَـهُ بِـمَا لَـهُ عِنْـدَهُ مِـنْ نَعِيـمٍ دَائِـمٍ، وَثَـوَابٍ غَـيْرِ مُنْقَطِـعٍ، لا يَأْخُـذُهُ عَـدٌّ، وَلَا يُمْتَـنُّ بِـهِ عَلَيْـهِ، فَقَـالَ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ثُـمَّ أَثْنَـى عَلَيْـهِ بِـمَا مَنَحَـهُ مِـنْ هِبَاتِـهِ وَهَـدَاهُ إِلَيْـهِ، وَأَكَّـدَ ذَلِـكَ تَتْمِيـمًا لِلتَّمْجِيـدِ بِحَـرْفَيِ التَّوْكِيـدِ؛ فَقَـالَ: ﴿وَإِنَّـكَ لَعَـلَى خُلُـقٍ عَظِيـمٍ﴾، قِيـلَ: القُـرْآنُ، وَقِيـلَ: الإِسْـلَامُ، وَقِيـلَ: الطَّبْـعُ الكَرِيـمُ، وقِيـلَ: لَيْـسَ لَـكَ هِمَّـةٌ إِلَّا اللهُ.

قَـالَ الوَاسِـطِيُّ: أَثْنَـى عَلَيْـهِ بِحُسْـنِ قَبُولِـهِ لِمَـا أَسْـدَاهُ إِلَيْـهِ مِـنْ نِعَمِـهِ، وَفَضَّلَـهُ بِذَلِـكَ عَـلَى غَـيْرِهِ؛ لأَنَّـهُ جَبَلَـهُ عَـلَى ذَلِـكَ الخُلُـقِ؛ فَسُـبْحَانَ اللَّطِيـفِ الكَرِيـمِ، المُحْسِـنِ الجَـوَادِ الحَمِيـدِ، الَّـذِي يَسَّـرَ لِلْخَـيْرِ وَهَـدَى إِلَيْـهِ.

---

(١) أخرجـه بهـذا اللفـظ البيهقـيُّ في «دلائـل النبـوة» (١/ ٣٠٩)، والحديث في صحيـح مسلم (٧٤٦) بلفظ: «فَـإِنَّ خُلُـقَ نَبـيِّ الله ﷺ كَانَ القُـرآنَ».

(٢) أخرجـه مطـوَّلاً أحمـد (٥/ ١٥٤)، والترمـذيُّ (رقـم ٢٤٩٥)، وابـن ماجـه (رقـم ٤٢٥٧) والبـزّار (رقـم ٤٠٥١)، وغيرهـم مـن حديـث أبي ذرٍّ رَضِوَاللَّهُعَنهُ، وحسَّـنه الترمـذيُّ.

ثُمَّ أَثْنَى عَلَى فَاعِلِهِ وَجَازَاهُ عَلَيْهِ، سُبْحَانَهُ، مَا أَغْمَرَ نَوَالَهُ، وَأَوْسَعَ إِفْضَالَهُ!

ثُمَّ سَلَّاهُ عَنْ قَوْلِهِمْ بَعْدَ هَذَا بِمَا وَعَدَهُ بِهِ مِنْ عُقْبَاه، وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ...﴾ الثَّلَاثَ الآيَاتِ.

ثُمَّ عَطَفَ بَعْدَ مَدْحِهِ عَلَى ذَمِّ عَدُوِّهِ، وَذِكْرِ سُوءِ خُلُقِهِ، وَعَدِّ مَعَايِبِهِ؛ مُتَوَلِّيًا ذَلِكَ بِفَضْلِهِ، وَمُنْتَصِرًا لِنَبِيِّهِ، فَذَكَرَ بِضْعَ عَشْرَةَ خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الذَّمِّ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِالوَعِيدِ الصَّادِقِ بِتَمَامِ شَقَائِهِ وَخَاتِمَةِ بَوَارِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، فَكَانَتْ نُصْرَةُ اللهِ لَهُ أَتَمَّ مِنْ نُصْرَتِهِ لِنَفْسِهِ، وَرَدُّهُ تَعَالَى عَلَى عَدُوِّهِ أَبْلَغَ مِنْ رَدِّهِ، وَأَثْبَتَ فِي دِيوَانِ مَجْدِهِ.

***

قوله (**ما أغْمَرَ**): بالغَينِ المعجَمةِ فميمٍ وراءٍ، وفي نسخةٍ «ما أَعَمَّ»، وقولُه (**نوالَه**): -بفتْحِ النونِ، والصيغةُ لِلتَّعَجُّبِ- أيْ ما أَكْثَرَ إحْسانَه.

وقولُه (**ثُمَّ سَلَّاه**): -مِنَ التَّسْليةِ- أيْ أزالَ عنْه ما حَزَنَه مِنَ الغَمِّ، وقولُه (**عَنْ قَوْلِهم**): مُتَعَلِّقٌ بـ«سَلَّاه»، وقولُه (**مِنْ عُقْباه**): -بِضَمِّ العَيْنِ- أيْ مِن سوءِ عاقِبَتِهم[1].

وقولُه (**على ذَمِّ عَدوِّه**): قيلَ: هوَ الوَليدُ بنُ المُغيرةِ، وقيلَ: أَبو جَهْلٍ.

وقولُه (**خَصْلةً**): -بفَتْحِ الخاءِ- أيْ خَصْلةً قَبيحةً.

وقولُه (**وخاتِمةِ بَوارِه**): أيْ هَلاكِه، (**بقَوْلِه: «سَنَسِمُه على الخُرطوم»**): أيْ سَنَكْويهِ على أَنْفِه إهانةً له، وقيلَ: يُجْعَلُ على وَجْهِه يومَ القيامةِ سِمةٌ سَوْداءُ تَكونُ مُنَبِّهةً عَلَيْه.

***

(١) وفي شرح الشهاب الخفاجي: أي عقبى النبي ﷺ في نصره عليهم والانتقام منهم.

الفَصْلُ السَّادِسُ: فِيمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي جِهَتِهِ ﷺ مَوْرِدَ الشَّفَقَةِ وَالإِكْرَامِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: قِيلَ: (طَهَ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ، وَقِيلَ: هُوَ اسْمٌ للهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَا رَجُلُ، وَقِيلَ: يَا إِنْسَانُ، وَقِيلَ: هِيَ حُرُوفٌ مُقَطَّعَةٌ لِمَعَانٍ، قَالَ الوَاسِطِيُّ: أَرَادَ يَا طَاهِرُ، يَا هَادِي.

وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ مِنَ الوَطْءِ، وَالهَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ الأَرْضِ، أَيِ اعْتَمِدْ عَلَى الأَرْضِ بِقَدَمَيْكَ وَلَا تُتْعِبْ نَفْسَكَ بِالاعْتِمَادِ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، نَزَلَتِ الآيَةُ فِيمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَكَلَّفُهُ مِنَ السَّهَرِ وَالتَّعَبِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ.(١)

أَخْبَرَنَا القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ القَاضِي أَبِي الوَلِيدِ البَاجِيِّ إِجَازَةً، وَمِنْ أَصْلِهِ نَقَلْتُ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَمُّوِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ خُزَيْمٍ الشَّاشِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ القَاسِمِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ عَلَى رِجْلٍ وَرَفَعَ الأُخْرَى، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿طَهَ﴾، يَعْنِي: طَإِ الأَرْضَ يَا مُحَمَّدُ، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي هَذَا كُلِّهِ مِنَ الإِكْرَامِ وَحُسْنِ المُعَامَلَةِ. وَإِنْ جَعَلْنَا (طه) مِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ كَمَا قِيلَ، وَجُعِلَتْ قَسَمًا، لَحِقَ الفَضْلُ بِمَا قَبْلَهُ.

(١) قوله (نَزَلَت الآيةُ -يعني أول طه- فيما كانَ ﷺ يَتكلَّفُه من السَّهَر والتعب وقيام الليل): أسندَه من تفسير عَبْد بنُ حُمَيْد [الدر المنثور ٥/ ٥٤٩] عَن الرَّبيع بن أَنَس، وهو من التابعين، وقدْ وَرَدَ ذلكَ موصو لًا عن عليٍّ أخرجَه ابن مَرْدَوَيْه [الدر المنثور ٥/ ٥٤٩] بلفظ (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يا أيُّها المُزَّمِّل قُم الليلَ إلا قَليلًا﴾، فقامَ الليلَ كُلَّه حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاه، فجعَلَ يَرْفَعُ رِجْلًا وَيَضَعُ أُخْرَى، فهبَطَ عليه جبريلُ، فقالَ: ﴿طَهَ﴾ طَإ الأرضَ بقَدَمَيكَ يا محمدُ؛ ﴿ما أَنْزَلْنا عليكَ القرآنَ لِتَشْقَى﴾ ...)، وأَخرَجَ نَحْوَه عَن ابنِ عَبَّاس.

قوله (قيلَ: طَهَ اسمٌ مِن أسمائِه ﷺ): كما في حديثِ (لي عِنْدَ رَبِّي عَشَرةُ أسماءٍ)(١) وذكَرَ مِنْها «طَهَ».

قوله (وقيامِ اللَّيْلِ): أيْ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماه كما رويَ عَن أَبي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: كانَ رَسولُ الله ﷺ يُصَلِّي حتَّى تَورَّمَ قَدَماه، قالَ: فقيلَ له: أَتَفعَلُ هَذا وقَدْ جاءَ أنَّ اللهَ -تعالى- قَدْ غَفَرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأَخَّرَ؟! قالَ: (أَفَلا أَكونُ عبدًا شكورًا)(٢).

قولُه (أبو محمدٍ الحَمّويُّ): بفتحِ المهمَلةِ وضَمِّ الميمِ المشدَّدةِ وكسرِ الواوِ وياءٍ؛ نِسْبةً إلى جَدِّه حَمّوَيْهِ.

قوله (الشّاشيُّ): بشينَيْنِ مُعْجَمَتَيْنِ.

قوله (وحُسْنِ المُعامَلةِ): أيْ له ﷺ بإعلامِ حُسْنِ القيامِ.

قوله (لَحِقَ الفَضْلُ بما قَبْلَه): أي اتَّصَلَ هَذا الفَضْلُ بِما قَبْلَه لإنبائِه بِما أَقْسَمَ به -تعالى- تَحقيقًا لِمكانَتِه.

(١) تقدم تخريجه. انظر ص٦٩.

(٢) أخرجه الترمذيُّ في «الشمائل» (٢٥٩)، وابن ماجه (١٤٢٠) وابن خزيمة (١١٨٤)، والبزّار (٢٣٨٢) و(٢٣٨٣)، وغيرهم من حديث أبي هريرة. والحديث متفقٌ عليه من حديث السيِّدة عائشة والمغيرة بن شعبة.

وَمِثْلُ هَذَا مِنْ نَمَطِ الشَّفَقَةِ وَالمَبَرَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، أَيْ قَاتِلٌ نَفْسَكَ لِذَلِكَ غَضَبًا أَوْ غَيْظًا أو جزَعًا.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَن لَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ..﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [الحجر: ٩٤-٩٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآيَةَ [الأنعام: ١٠].

قَالَ مَكِّيٌّ: سَلَّاهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا ذَكَرَهُ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنَ المُشْرِكِينَ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ مَنْ تَمَادَى عَلَى ذَلِكَ يَحُلُّ بِهِ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

وقولُه (مِنْ نَمَطِ الشَّفَقةِ): -بفَتْحِ النونِ والميمِ- أيْ مِنْ نَوْعِ المَرْحَمةِ.

(قولُه تعالى: «فَلَعَلَّكَ»): خَبرٌ لِقَوْلِه (مِثْلُ هَذا): أيْ ما ذُكِرَ مِنْ كَوْنِ طَهَ مِنْ أسمائِه ﷺ أوْ مُقْسَمًا بِه، (فَلَعَلَّكَ): أيْ لِفَرْطِ إعراضِهم، وقولُه (أَسَفًا): أيْ حُزْنًا، وقولُه (قاتِلٌ نَفْسَكَ): يَجوزُ بالإضافةِ والنَّصْبِ على المَفعوليّةِ مَعَ التنوينِ.

وقولُه (ومِثْلُه): أيْ مِثْلُ (فَلَعَلَّكَ باخِعٌ... إلخ) مِمّا وَرَدَ مَوْرِدَ الشَّفقةِ والإكرامِ.

وقولُه (ثُمَّ قالَ): أيِ اللهُ -سُبْحانَه- تَسْليةً لِشَأْنِه (إِنْ نَشَأْ... إلخ).

قولُه (مِنْ هذا البابِ): أيْ بابِ الشفَقةِ والإكرامِ، (قولُه تعالى: «فاصدَعْ بِما تُؤْمَرُ»): أيْ فاجْهَرْ بِهِ وأَظْهِرْه؛ مِنْ «صَدَعَ بالحُجّةِ»: إذا تَكَلَّمَ بِها جَهْرًا، وأَفْرَقَ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وأَصْلُه الإبانةُ والتمْييزُ، و(ما): مَوصولةٌ وعائدُها مَحذوفٌ؛ أيْ «بِما تُؤْمَرُ بِه».

قالَ المُلّا: وجَوَّزَ الدلجيُّ كَوْنَ (ما) مَصدريةً هُنا وهوَ بَعيدٌ عَنِ المَعْنى كَما لا يَخْفى. انتهى.

أَقولُ: لا بُعْدَ فيه؛ بَلْ هوَ في غايةِ الظُّهورِ، ولِذا جاءَ مُصَرَّحًا به في قولِ أَبي طالِبٍ:

فاصْدَعْ بأَمْرِكَ ما عَلَيْكَ غَضاضةٌ * حَتّى أُوَسَّدَ في الترابِ رَهينا

وقولُه (بِما يَقولونَ): أيْ فينا، أوْ في القرآنِ، أوْ فيكَ.

وقولُه (سَلّاه اللهُ -تعالى- بِما ذَكَرَه): أيْ مِن قَوْلِه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾، وقولُه (ما يَلْقى) وفي نسخةٍ «ما يَلْقاه»، وقولُه (مِنَ المُشْرِكينَ): أيْ مِنْ فَرْطِ الإيذاءِ.

قولُه (وأَعْلَمَه أنَّ) وفي نُسخةٍ «أنَّه»، وقولُه (يَحُلُّ بِهِ): -بِضَمِّ الحاءِ- أيْ يَنْزِلُ بِهِ، ومِنْه قَولُه تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ وأَمّا «يَحِلُّ» -بكَسْرِ الحاءِ- مَعْناه «يَجوزُ».

قولُه (وَمِنْ هَذا): أيِ البابِ، وفي نسخةٍ «ومِثْلُ هَذه التسليةِ»، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ البَليّةَ إذا عَمَّتْ طابَتْ -كَما قالَتِ الخَنْساءُ:

وَلَوْلا كَثْرةُ الباكِينَ حَوْلي * على قَتْلاهُمُ لَقتلْتُ نَفْسي

وما يَبْكونَ مِثْلَ أَخي ولَكِنْ * أُعَزّي النفسَ مِنّي بالتَّأَسّي

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، عَزَّاهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ وَمَقَالِهَا لِأَنْبِيَائِهِمْ قَبْلَهُ وَمِحْنَتِهِمْ بِهِمْ، وَسَلَّاهُ بِذَلِكَ عَنْ مِحْنَتِهِ بِمِثْلِهِ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَ ذَلِكَ.

ثُمَّ طَيَّبَ نَفْسَهُ، وَأَبَانَ عُذْرَهُ بِقَوْلِهِ: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أَيْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]، أَيْ فِي أَدَاءِ مَا بُلِّغْتَ، وَإِبْلاغِ مَا حُمِّلْتَ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، أَيِ اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ؛ فَإِنَّكَ بِحَيْثُ نَرَاكَ وَنَحْفَظُكَ، سَلَّاهُ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا فِي آيٍ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا المَعْنَى.

***

قولُه (عَزّاه اللهُ): -بتشديدِ الزاي- أيْ حَمَلَه على الصَّبْرِ.

وقولُه (ومَقالِها): أيْ وأقاويلِ تلكَ الأُمَمِ، وفي نسخةٍ «ومَقالَتِها».

وقولُه (وَمِحْنَتِهِم): أيِ ابتلائِهم، وفي نسخةٍ «ومِحَنِهِم» بفَتْحٍ فسُكونٍ؛ قالَ الملّا: ووَهِمَ الحِجازيُّ حيثُ قالَ: بفتحِ النونِ، أيْ بامتحانِ أنبيائِهِم.

قوله (وأَبانَ عُذْرَه): أيْ أَظْهَرَه بِقولِه (فتَوَلَّ عَنْهم) أيْ إشفاقًا عَلَيْه.

وقولُه (فَما أنتَ بمَلومٍ): فما تُلامُ في إعراضِكَ عَنْهم بَعْدَما كَرَّرْتَ عَلَيْهم؛ مُبالِغًا في تبليغِ ما أُمِرْتَ به.

***

الفَصْلُ السَّابِعُ:
فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ، وَشَرِيفِ مَنْزِلَتِهِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ، وَحُظْوَةِ رُتْبَتِهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]: قَالَ أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ: اسْتَخَصَّ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ بِفَضْلٍ لَمْ يُؤْتِهِ غَيْرَهُ، أَبَانَهُ بِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ.

قَالَ المُفَسِّرُونَ: أَخَذَ اللهُ المِيثَاقَ بِالوَحْيِ؛ فَلَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلا ذَكَرَ لَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَنَعَتَهُ وَأَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُ إِنْ أَدْرَكَهُ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ، وَقِيلَ: أَنْ يُبَيِّنَهُ لِقَوْمِهِ، وَيَأْخُذَ مِيثَاقَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: الخِطَابُ لِأَهْلِ الكِتَابِ المُعَاصِرِينَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا مِنْ آدَمَ فَمَنْ بَعْدَهُ إِلا أَخَذَ عَلَيْهِ العَهْدَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ لَئِنْ بُعِثَ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ، وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَيَأْخُذَ العَهْدَ بِذَلِكَ عَلَى قَوْمِهِ[١].

وَنَحْوُهُ عَنِ السُّدِّيِّ وَقَتَادَةَ فِي آيٍ تَضَمَّنَتْ فَضْلَهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ وَاحِدٍ.[٢]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ...﴾ الآيَةَ [الأحزاب: ٧].

---

(١) حديثُ عليٍّ (لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا مِنْ آدَمَ فَمَنْ بَعْدَه إلّا أَخَذَ عليْه العَهْدَ...): ابنُ جَرير في تفسيره [٥/ ٥٤٠].

(٢) قوله (ونحْوُه عَنِ السُّدِّيِّ وقَتَادةَ): أخرجَه عنهما ابنُ جَرير أيْضًا [٥/ ٥٤٠، ٥٤١].

قوله (وحُظْوةِ رُتْبَتِه): بكسرِ الحاءِ وضَمِّها وسُكونِ الظاءِ المعجَمةِ.

وقولُه (لَمَا آتَيْتُكم): اللّامُ موطِّئةٌ لِلقَسَمِ؛ لِأَنَّ أَخْذَ الميثاقِ بِمَعْنى الاستِحْلافِ، و(ما): شرطيةٌ، والتقديرُ «مَهْما آتَيْتُكُم»، وهوَ ظاهِرُ قولِ سيبويه، ودَخَلَتِ اللّامُ علَيْها كَما تَدخُلُ على «إنْ» إذا كانَ جوابُها قَسَمًا؛ نَحوُ قولِه تعالى: ﴿ولَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، أوْ مَوصولةٌ، صِلَتُها ما بَعْدَه، والعائدُ محذوفٌ؛ أي «الَّذي آتَيْتُكُموه مِنْ كِتابٍ... إلخ».

وقولُه (لِمَنْ بَعْدَهم): -وفي نسخةٍ «لِمَنْ بَعْدَه»- أيْ وهَكَذا إلى أنْ يُبعَثَ ويؤمَنَ بِه.

وقولُه (المعاصِرينَ لِمحمدٍ): -اللّامُ لِلتقويةِ، وفي نسخةٍ بدونِ اللّامِ- أيِ الذينَ كانوا في زمانِه.

قوله (لَيُؤمِنَنَّ به ولَيَنصُرَنَّه): بفتْحِ ما قَبْلَ النونِ الثقيلةِ فيهما لإفرادِ الضميرِ بِهِما.

قوله (ويأخُذَ): بالنصبِ[١] بفتحِ الذالِ عَطفًا على ما دَخَلَه اللامُ، ونونُ التوكيدِ مُرادةٌ كإرادتِها في قولِه:

لا تُهينَ الفَقيرَ عَلَّكَ أنْ تَرْ
كَعَ يومًا والدهرُ قدْ رَفَعَهْ[٢]

---

(١) يقصد: «بالبناء على الفتح»؛ فالفعل ليس منصوبا بل مبني على الفتح لمباشرته نون التوكيد الخفيفة المحذوفة لالتقاء الساكنين -نون التوكيد الخفيفة ولام التعريف في الكلمة بعدها- في محل رفع.

(٢) أراد «لا تهينن» فحذفت نون التوكيد لما استقبلها ساكن.

وَقَالَ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٧١].

رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي كَلامٍ بَكَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ بَلَغَ مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللهِ أَنْ بَعَثَكَ آخِرَ الأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَكَ فِي أَوَّلِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ...﴾ الآيَةَ [الأحزاب: ٧]،

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ بَلَغَ مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللهِ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوَدُّونَ أَنْ يَكُونُوا أَطَاعُوكَ، وَهُمْ بَيْنَ أَطْبَاقِهَا يُعَذَّبُونَ، يَقُولُونَ: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦].[1]

قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (كُنْتُ أَوَّلَ الأَنْبِيَاءِ فِي الخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ)[2]؛ فَلِذَلِكَ وَقَعَ ذِكْرُهُ مُقَدَّمًا هُنَا قَبْلَ نُوحٍ وَغَيْرِهِ.

(١) حديثُ عُمَرَ أنَّه قالَ (بأَبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ اللهِ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللهِ أَنْ بَعَثَكَ آخِرَ الأَنْبِياءِ...): لَمْ أَجِدْه.

(٢) حديثُ (كُنْتُ أَوَّلَ الأنبياءِ في الخَلْقِ، وآخِرَهم في البَعْثِ): ابنُ أبي حاتم في تفسيره [١٧٥٩٤]، وابنُ لالٍ في «مَكارم الأخلاق»، وأبو نُعيم في «الدلائل» [٣] من حديث أبي هريرة.

وقولُه (﴿...كَما أَوْحَيْنا إلى نوحٍ﴾ إلى قَوْلِه: ﴿وَكيلًا﴾): وفي نسخةٍ صحيحةٍ ﴿شَهيدًا﴾ وهوَ الصوابُ[1]، وفيه تَلْويحٌ إلى فَضْلِه حيثُ قَدَّمَه على رُسُلِه، والواوُ -وإنْ لَمْ تَقتضِ الترتيبَ- لَكِنَّ العربَ تُؤْثِرُ تقديمَ المُتَقَدِّمِ في الذِّكْرِ على المُتأخِّرِ في اللَّفْظِ، وإلَيْه أشارَ رسولُ اللهِ ﷺ حيثُ قالَ عِنْدَ الصَّفا: (ابدؤوا بما بَدَأَ اللهُ بِه)[2].

قولُه (بِأَبي أنتَ وأُمّي): مُتَعَلِّقٌ بمُقَدَّرٍ، أيْ أَفْديكَ بأَبي وأُمّي، وقَدْ يُذكَرُ الفعلُ، كقولِ الصدّيقِ: «فَدَيْناكَ بآبائِنا وأُمَّهاتِنا»[3].

وقولُه (وذَكَرَكَ في أوَّلِهم): أيْ في أوَّلِ بَعْضِهم عِنْدَ ذِكْرِهم إجمالًا في مَعْرِضِ الكَرَمِ والجودِ، فقالَ ﴿وإذْ أَخَذْنا...﴾ إلخ. قالَ المُلّا: ومِنْ جُملةِ ما قالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بِأَبي أنتَ وأُمّي يا رَسولَ اللهِ؛ لَقَدْ بَلَغَ مِن فَضيلَتِكَ عِنْدَ اللهِ أنْ جَعَلَ طاعتَكَ طاعتَه، فقالَ: ﴿مَن يُطِعِ الرسولَ فقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، بِأَبي وأُمّي أنتَ يا رسولَ اللهِ؛ لَقَدْ بَلَغَ مِن فَضيلَتِكَ عِنْدَه أنْ أَخبَرَكَ بالعَفْوِ قَبْلَ أنْ يُخبِرَكَ بالذنبِ، فقالَ: ﴿عَفا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لهم﴾ [التوبة: ٤٣]، بِأَبي أنتَ وأُمّي يا رسولَ اللهِ؛ لَئِنْ كانَ موسى بنُ عِمرانَ أعطاه اللهُ حَجَرًا يَتَفَجَّرُ مِنْه الأنهارُ، فما ذلكَ بأعجَبَ مِن أصابِعِكَ حينَ نَبَعَ مِنها الماءُ، بأَبي أنتَ وأُمّي يا رسولَ اللهِ؛ لَئِنْ كانَ سليمانُ بنُ داودَ أَعْطاه اللهُ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُها شَهْرٌ، فما ذاكَ أعجَبَ مِن البُراقِ حينَ سِرْتَ عليه إلى السماءِ السابعةِ ثُمَّ صَلَّيْتَ الصبحَ مِن لَيْلَتِكَ بالأبطَحِ... إلى آخرِ الحديثِ[4].

(١) أي أن المقصود الآيات من ١٦٣ إلى ١٦٦ فقط.

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٢١٨)، وغيره من حديث جابر بن عبدالله بلفظ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ».

(٣) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٣٩٠٤) [كتاب مناقب الأنصار]، ومسلمٌ (٢٣٨٢) [كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ]، وغيرهم من حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) ذكره القسطلانيُّ في «المواهب» (٣/ ٥٧٥)، وقال: «ذكره أبو العباس القصار في شرحه لبردة البوصيري».

قَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ: فِي هَذَا تَفْضِيلُ نَبِيِّنَا ﷺ لِتَخْصِيصِهِ بِالذِّكْرِ قَبْلَهُمْ وَهُوَ آخِرُهُمْ، المَعْنَى: أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ المِيثَاقَ؛ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ كَالذَّرِّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ الآيَةَ [البقرة: ٢٥٣]: قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ؛ لِأَنَّهُ بُعِثَ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَأُحِلَّتْ لَهُ الغَنَائِمُ، وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ المُعْجِزَاتُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ فَضِيلَةً أَوْ كَرَامَةً إِلا وَقَدْ أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ مِثْلَهَا.

قَالَ بَعْضُهُمْ: وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَاطَبَ الأَنْبِيَاءَ بِأَسْمَائِهِمْ، وَخَاطَبَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فِي كِتَابِهِ؛ فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

وَحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ عَنِ الكَلْبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣] أَنَّ «الهَاءَ» عَائِدَةٌ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، أَيْ إِنَّ مِنْ شِيعَةِ مُحَمَّدٍ لَإِبْرَاهِيمَ، أَيْ عَلَى دِينِهِ وَمِنْهَاجِهِ، وَأَجَازَهُ الفَرَّاءُ، وَحَكَاهُ مَكِّيٌّ، وَقِيلَ: المُرَادُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

***

قولُه (إذْ أخرَجَهم مِنْ ظَهْرِ آدمَ كالذَّرِّ): وهوَ صِغارُ النملِ، قالَ الملّا: والمَعْنى أنَّ لِلأنبياءِ ميثاقًا خاصًّا بعْدَ دُخولِهم في الميثاقِ العامِّ المَعْنيِّ بِقَوْلِه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قالوا بَلى﴾ بتبليغِ الرسالةِ، وأخَصَّ مِن هذا الميثاقِ -ميثاقِ الأنبياءِ أصالةً، وأُممِهم تبَعًا- أنَّه ﷺ لَوْ فُرِضَ أنَّه وُجِدَ في أيِّ زَمانٍ مِن الأزمنةِ لَتبِعَه جميعُ الأنبياءِ وجميعُ أُممِهم مِن العُلَماءِ والأَوْلياءِ والأصْفياءِ؛ فكأنَّهم تابِعونَ بالقوّةِ وعلى فَرْضِ وُقوعِه بالفِعْلِ. انتهى ملّا.

قولُه (تلكَ الرُّسُلُ... إلخ): الإشارةُ إلى مَنْ ذُكِرَتْ قِصَصُهم أوْ إلى كُلِّهم المَعهودينَ في العِلْمِ، واللّامُ استغراقيةٌ، ثُمَّ فَصَّلَه -سبحانَه- بِقَوْلِه: ﴿مِنهم مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ بلا واسطةٍ؛ وهوَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسَيِّدُنا محمدٌ ﷺ ليلةَ المِعراجِ في مَقامِ النورِ حينَ كانَ قابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنى.

قولُه (لأنَّه بُعِثَ): أيْ بالحُجَجِ المتكاثِرةِ والآياتِ المُتعاقِبةِ المتواترةِ.

وقولُه (إلى الأحمَرِ والأسوَدِ): أيِ العَرَبِ والعَجَمِ لِغَلَبةِ الحُمرةِ والبَياضِ على ألوانِ العَجَمِ، والأُدْمةِ والسُّمْرةِ على ألوانِ العَرَبِ، وقيلَ: الجِنُّ والإنسُ.

قولُه (مِثْلَها): أيْ مِثْلَ تلكَ الفَضيلةِ؛ بلْ معَ الزِّيادةِ جِنْسًا لا نَوْعًا كانشِقاقِ القَمَرِ في مُقابَلةِ انفِلاقِ البحْرِ لِموسى وغَيْرِ ذلك مِمّا لا يُحْصى.

وقولُه (بأسمائِهم): أيْ كـ«يا آدمُ، ويا نوحُ».

قولُه (وأجازَه الفَرّاءُ) وفي نُسخةٍ «واختارَه»، وعَوْدُ الضميرِ على غَيْرِ مُتقدِّمٍ لَفْظًا شائعٌ سائغٌ، لِقَوْلِه تعالى: ﴿حَتّى تَوارَتْ بالحِجابِ﴾ [ص: ٣٢].

***

قوله (خَلْقَه): مَنصوبٌ بالمَصْدرِ، أيْ مَخلوقاتِه، وقولُه (وِولايتِه): بكَسْرِ الواوِ وقَدْ تُفْتَحُ.

قوله (ودَفْعِه العَذابَ): مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أيْ «دَفْعِ اللهِ»، وفي نسخةٍ بالرّاءِ اختارَها الحَلَبيُّ، ونَسَبَها المُلّا لِلتحريفِ؛ قالَ: «الرَّفعُ لا يُستعمَلُ إلّا بَعْدَ الوُقوعِ».

قولُه: (أيْ ما كُنْتَ بِمَكّةَ): أيْ مُدّةَ كَونِكَ فيها؛ إذْ جَرَتْ سُنّةُ اللهِ -تعالى- أنْ لا يُعَذِّبَ قَومًا عَذابَ استئصالٍ ما دامَ نَبيُّهم بَيْنَ أَظْهُرِهم؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ العذابُ إذا نَزَلَ بِقَومٍ أُمِرَ نَبيُّهم بالخُروجِ بِمَنْ آمَنَ.

قولُه (أن لا يُعَذِّبَهم اللهُ): أيْ وما يَمْنَعُ مِنْ تَعذيبِهم بَعْدَ أنْ فارقْتَهم والمؤمنونَ؟! وكَيْفَ لا يُعَذَّبونَ وهُمْ يَصُدّونَ عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ؟!

قولُه (وهذا): أيْ ما ذُكِرَ مِن دِلالةِ الآيةِ على تأخيرِ العَذابِ عَنْهم وهوَ فيهم، وقولُه (مِن أَبْيَنِ ما يُظْهِرُ مَكانَتَه): أيْ مِن أَظْهَرِ دَليلٍ يُبَيِّنُ رِفعةَ مَرْتَبَتِه.

قولُه (ودَرْأَتَه): قالَ المُلّا: وَقَعَ بِخَطِّ بعضِ الأكابِرِ هُنا «دَرَأَ بِهِ»؛ على أنّه فِعْلٌ ماضٍ وجارٌّ ومَجرورٌ، أيْ دَفَعَ بِه، والظاهِرُ أنّه تصحيفٌ، والصوابُ أنّه بِكَسرِ الدالِ المُهمَلةِ[1]، وسكونِ الراءِ وهَمْزٍ وتاءٍ، أيْ ومِنْ أَبْيَنِ ما يُظهِرُها دَفْعُه سُبحانَه. قولُه (بِسَبَبِ كَوْنِه): أيْ وُجودِه، المُتضَمِّنِ بكَرَمِه وَجودِه؛ لِأنّه بُعِثَ رَحمةً لِلعالَمينَ. قولُه (ثُمَّ كَوْنِ أصحابِه): بِجَرِّ الكَوْنِ عَطْفًا على ما تَقَدَّمَ. وقولُه (حَكَّمَ فيهم سُيوفَهم): بِتَشْديدِ الكافِ المَفْتوحةِ.

قولُه (زَوْجِ الحُرَّةِ): بِضَمِّ حاءٍ مُهْمَلةٍ وتَشديدِ راءٍ. قولُه (السِّنْجيُّ): تَقَدَّمَ أنّه بِكَسْرِ السينِ المهمَلةِ وسُكونِ النونِ فجيمٍ فياءٍ.

الفَصْلُ الثَّامِنُ: فِي إِعْلامِ اللهِ تَعَالَى خَلْقَهُ بِصَلاتِهِ عَلَيْهِ، وَوِلايَتِهِ لَهُ، وَدَفْعِهِ العَذَابَ بِسَبَبِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾: أَيْ مَا كُنْتَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، وَبَقِيَ فِيهَا مَنْ بَقِيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، نَزَلَ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا...﴾ الآيَةَ [الفتح: ٢٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ...﴾ الآيَةَ [الفتح: ٢٥]، فَلَمَّا هَاجَرَ المُؤْمِنُونَ نَزَلَتْ ﴿وَمَا لَهُمْ أَنْ لَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ مَا يُظْهِرُ مَكَانَتَهُ ﷺ وَدَرْأَتَهُ العَذَابَ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ؛ بِسَبَبِ كَوْنِهِ -ثُمَّ كَوْنِ أَصْحَابِهِ بَعْدَهُ- بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَلَمَّا خَلَتْ مَكَّةُ مِنْهُمْ عَذَّبَهُمْ بِتَسْلِيطِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَغَلَبَتِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَحَكَّمَ فِيهِمْ سُيُوفَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

وَفِي الآيَةِ أَيْضًا تَأْوِيلٌ آخَرُ:

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ وَأَبُو الحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى بْنُ زَوْجِ الحُرَّةِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَحْبُوبٍ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى الحَافِظُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ

---

(١) بل بفتحها؛ في «اللسان»: «دَرَأَهُ يَدْرَؤُهُ دَرْءًا ودَرْأَةً: دَفَعَهُ».

وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ، عَنْ عَبَّادِ بْنِ يُوسُفَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيكُمُ الاسْتِغْفَارَ)[1].

وَنَحْوٌ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، قَالَ ﷺ: (أَنَا أَمَانٌ لِأَصْحَابِي)[2]، قِيلَ: مِنَ الْبِدَعِ، وَقِيلَ: مِنَ الاخْتِلَافِ وَالْفِتَنِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْأَمَانُ الْأَعْظَمُ مَا عَاشَ، وَمَا دَامَتْ سُنَّتُهُ بَاقِيَةً فَهُوَ بَاقٍ، فَإِذَا أُمِيتَتْ سُنَّتُهُ فَانْتَظِرُوا الْبَلَاءَ وَالْفِتَنَ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الآيَةَ [الأحزاب: ٥٦]: أَبَانَ اللهُ فَضْلَ نَبِيِّهِ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ بِصَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ.

---

(١) حديث أبي موسى (أَنْزَلَ اللهُ عليَّ أمانَيْن...): أسنده المصنِّفُ من طريق التِّرمذيِّ [٣٠٨٢]، وإسماعيلُ بنُ إبراهيمَ بن مهاجر ضعيفٌ، وقَدْ أخرجَه ابنُ أبي حاتم [٩٠٢٥] عن ابن عباس موقوفًا، وأبو الشيخ [الدر المنثور ٤/ ٥٧] عن أبي هريرة موقوفًا نحوه.

(٢) حديث (أنا أمانٌ -وفي لفظ: أَمَنَةٌ- لِأصحابي): مسلم [٢٥٣١] عن أبي موسى.

قولُه (ابنُ نُمَيْرٍ): بِضَمِّ النونِ، وفَتْحِ الميمِ، وسُكونِ الياءِ. قولُه (ابنِ مُهاجِرٍ): [هو بجلي، من تبع التابعين][1].

وقولُه (فإذا مَضَيْتُ): -بتاءِ المُتكلِّم- أي انتقَلْتُ إلى دارِ القَرارِ.

وقولُه (أَنا أَمانٌ لِأَصْحابي) وفي لَفْظٍ (أَنا أَمَنَةٌ لِأَصحابي).

قولُه (سُنَّتُه باقيةً): أيْ ثابتةً مَوْجودةً، وهيَ بالنَّصْبِ؛ خَبَرُ (دامَ). قولُه (فإذا أُميتَتْ سُنَّتُه): أيْ تُرِكَتْ ولَمْ يُعْمَلْ بها.

وقولُه (فانتظِروا البَلاءَ) وقيلَ: المَعْنى: فإذا أُميتَتْ سُنَّتُه بِمَوْتِ أَهْلِها فانتظِروا البَلاءَ والفِتَنَ؛ بدَليلِ حديثِ (إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انتزاعًا يَنْتزِعُه مِنَ الناسِ؛ ولكِنْ يَقْبِضُه بِقَبْضِ العُلَماءِ حَتّى إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا -أوْ لَمْ يَبْقَ عالِمٌ- اتَّخَذَ الناسُ رُؤوسًا جُهّالًا، فأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فضَلّوا وأَضَلّوا)[2].

قولُه (أَبانَ): أيْ أَظْهَرَ وبَيَّنَ. قولُه (بِصَلاتِه عَلَيْه): أيْ أَوَّلًا تعظيمًا.

قولُه (ثُمَّ بِصَلاةِ... إلخ): ثانيًا تكريمًا.

قولُه (وَأَمَرَ عِبادَه... إلخ): بِقَوْلِه -تعالى-: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا صَلّوا عَلَيْه وسَلِّموا تَسليمًا﴾، وفي نسخةٍ «وأَمْرِ عِبادِه»؛ بالجَرِّ والإضافةِ عَطْفًا على (صَلاتِه)؛ أيْ وبِأَمْرِ عِبادِه بِهِما عَلَيْه ثالثًا بِأَنْ يَقولوا: اللهُمَّ صَلِّ على محمدٍ... إلخ.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من الشرح، وأثبتناه من شرح الشهاب الخفاجي.

(٢) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١٠٠) [كتاب العلم]، ومسلمٌ (٢٦٧٣) [كتاب العلم]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر. وفي الباب عن جماعةٍ من الصحابة.

قولُه (فُورَك): -بِضَمِّ الفاءِ وفَتْحِ الراءِ- ممنوعٌ مِنَ الصرفِ لِلعلَميّةِ والعُجْمةِ، وقيلَ: مَصروفٌ.

قولُه (وأَمْرِهِ الأُمَّةَ بذلكَ): أيْ بالصَّلاةِ عَلَيْه.

قولُه (والصَّلاةُ مِنَ المَلائكةِ... إلخ): تَقدَّمَ الكَلامُ عَلَيْها أوَّلَ الكِتابِ.

وقولُه (قَدْ فَرَّقَ النبيُّ... إلخ): أيْ في حديثِ (قَدْ أُمِرْنا أنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ، فقالَ: قولوا: اللهُمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كَما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمدٍ... إلخ)[1]؛ قالَ المُلّا: الأَظْهرُ أنْ يُرادَ بِقَوْلِه (يُصَلّونَ): يَعطِفونَ أوْ يُثْنونَ لِيَشْمَلَ جَميعَ الألفاظِ الوارِدةِ الَّتي مِن جُملتِها التَرحُّمُ.

قولُه (حُكْمَ الصَّلاةِ... إلخ): أيْ مِنَ الفَرْضيّةِ والسُّنّيّةِ، وهَلْ فَرْضُ عَيْنٍ أوْ كِفايةٌ، وما يَتعَلَّقُ بالمَسألةِ.

قولُه (وذَكَرَ بَعْضُ المُتكلِّمينَ): أيْ مِنَ المُفسِّرينَ.

وقولُه (في تفسيرِ... إلخ): أيْ أنَّها مأخوذةٌ مِن كِفايةِ اللهِ وتَعظيمِه وهِدايَتِه.

قولُه (وإنْ تظاهَرا)[2] وقَرأَ الكوفيّونَ بالتخفيفِ.

قولُه (أيْ وَلِيُّه): أيْ ناصِرُه ومُتوَلّيه.

قولُه (على ظاهِرِه): بِناءً على أنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ [بظاهِرِه صالِحٌ][3].

***

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٦٣٥٧) [كتاب الدَّعوات]، ومسلمٌ (٤٠٦) [كتاب الصَّلاة] من حديث كعب بن عُجْرَةَ. وفي الباب عن جماعةٍ من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

(٢) أصلها (تتظاهرا): فقرأ الكوفيون (تظاهرا) بالتخفيف على حذف التاء الثانية، وقرأ الباقون (تظّاهرا) بالتشديد على إدغام التاء في الظاء.

(٣) ساقط من الشرح وأثبتناه من شرح الشهاب.

وَقَدْ حَكَى أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ أَنَّ بَعْضَ العُلَمَاءِ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ ﷺ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)[1] عَلَى هَذَا، أَيْ فِي صَلَاةِ اللهِ عَلَيَّ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَأَمْرِهِ الأُمَّةَ بِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَالصَّلَاةُ مِنَ المَلَائِكَةِ وَمِنَّا لَهُ دُعَاءٌ، وَمِنَ اللهِ رَحْمَةٌ، وَقِيلَ يُصَلُّونَ: يُبَارِكُونَ، وَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ عَلَّمَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ بَيْنَ لَفْظِ «الصَّلَاةِ» وَ«البَرَكَةِ» وَسَنَذْكُرُ حُكْمَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ المُتَكَلِّمِينَ فِي تَفْسِيرِ حُرُوفِ ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] أَنَّ «الكَافَ» مِنْ كَافٍ، أَيْ كِفَايَةُ اللهِ لِنَبِيِّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وَ«الهَاءَ» هِدَايَتُهُ لَهُ؛ قَالَ اللهُ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وَ«اليَاءَ» تَأْيِيدُهُ لَهُ؛ قَالَ ﴿وَأَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وَ«العَيْنَ» عِصْمَتُهُ لَهُ؛ قَالَ ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَ«الصَّادَ» صَلَاتُهُ عَلَيْهِ؛ قَالَ ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أَيْ: وَلِيُّهُ ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤] قِيلَ: الأَنْبِيَاءُ، وَقِيلَ: المَلَائِكَةُ، وَقِيلَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ، وَقِيلَ: المُؤْمِنونَ عَلَى ظَاهِرِهِ.

***

(١) [هو جزء من حديث «حبب إلي من دنياكم ...». انظر تخريجه ص ١٣٠].

الفَصْلُ التَّاسِعُ: فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ الفَتْحِ مِنْ كَرَامَاتِهِ ﷺ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾ [الفتح: ١-١٠]: تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَاتُ مِنْ فَضْلِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَكَرِيمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَنِعْمَتِهِ لَدَيْهِ، مَا يَقْصُرُ الوَصْفُ عَنِ الانْتِهَاءِ إِلَيْهِ، فَابْتَدَأَ -جَلَّ جَلَالُهُ- بِإِعْلَامِهِ بِمَا قَضَاهُ لَهُ مِنَ القَضَاءِ البَيِّنِ، بِظُهُورِهِ وَغَلَبَتِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَعُلُوِّ كَلِمَتِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَأَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ غُفْرَانَ مَا وَقَعَ وَمَا لَمْ يَقَعْ، أَيْ أَنَّكَ مَغْفُورٌ لَكَ.

وَقَالَ مَكِّيٌّ: جَعَلَ [اللهُ] المِنَّةَ سَبَبًا لِلمَغْفِرَةِ، وَكُلٌّ مِنْ عِنْدِهِ -لَا إِلَهَ غَيْرُهُ- مِنَّةً بَعْدَ مِنَّةٍ، وَفَضْلًا بَعْدَ فَضْلٍ.

ثُمَّ قَالَ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: قِيلَ: بِخُضُوعِ مَنْ تَكَبَّرَ لَكَ، وَقِيلَ: بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ.

وَقِيلَ: يَرْفَعُ ذِكْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَيَنْصُرُكَ وَيَغْفِرُ لَكَ؛ فَأَعْلَمَهُ بِتَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ بِخُضُوعِ مُتَكَبِّرِي عَدُوِّهِ لَهُ، وَفَتْحِ أَهَمِّ البِلَادِ عَلَيْهِ وَأَحَبِّهَا لَهُ، وَرَفْعِ ذِكْرِهِ، وَهِدَايَتِهِ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، المُبَلِّغَ الجَنَّةَ وَالسَّعَادَةَ، وَنَصْرِهِ النَّصْرَ العَزِيزَ، . .

قولُه (فيما تَضَمَّنَتْه سورةُ الفَتْحِ... إلخ): اعْلَمْ أنَّ هَذِه السورةَ نَزَلَتْ على النبيِّ مُتَفَرِّقةً، وقيلَ: نَزَلَتْ بالمَدينةِ، ولَعَلَّ بَعْضَها نَزَلَ بِها، وقَدْ ثَبَتَ في فَضْلِها أحاديثُ.

قولُه (عَنِ الانتِهاءِ إلَيْه): أيْ لِقُصورِ إحاطةِ العِلْمِ بِهِ. قولُه (بإعْلامِه) -أيْ بإعْلامِ اللهِ نَبِيَّه- (بِما قَضاه... إلخ). قولُه (وَشَريعتِه): أيْ طَريقتِه، وفي نُسخةٍ «شيعَتِه».

قولُه (وأنَّه): عَطْفٌ على (إعلامِه)؛ أيْ «وبِأنَّه مَغفورٌ... إلخ». قولُه (مُؤاخَذٍ): بالهَمْزِ ويُبدَلُ واوًا، وهوَ تَوكيدٌ لِما قَبْلَه. قولُه (بِما كانَ وما يَكونُ): حيثُ قالَ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ...﴾ إلخ.

قولُه (وكُلٌّ): أيْ مِنَ المِنَّةِ والهِدايةِ والمَغْفِرةِ حاصِلٌ (مِنْ عِنْدِه)؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء: ٧٨].

قولُه (ويُتِمَّ نِعْمَتَه... إلخ): أيْ بِجَمْعِه لَكَ النُّبوَّةَ والمُلْكَ وظُهورَ دينِكَ وغَيْرَ ذلكَ. قولُه (ويَغْفِرُ لَكَ): بِصيغةِ الفِعْلِ؛ تَفسيرٌ على وَفْقِ المُفَسَّرِ، وهوَ قولُه (ويُتِمَّ... إلخ)، وهوَ الأظْهَرُ، وقالَ التِلمسانيُّ: «بِباءِ الجَرِّ وكُلُّها مَصادِرُ، ويَجوزُ الفِعْلُ».

قولُه (وفَتْحِ أَهَمِّ البِلادِ... إلخ): لِأنَّ مَكَّةَ كانَتْ صُقْعَ المُشْرِكينَ، وكانَتِ العَرَبُ إنَّما تَستَنظِرُ بالإسلامِ ما يَكونُ مِن أهْلِ مَكَّةَ معَ النبيِّ، فإنْ أسْلَموا أسْلَموا؛ فكانَتْ مَكَّةُ لِهَذا المَعْنى أهَمَّ البِلادِ.

قولُه (وهِدايَتِه... إلخ): وكَذا ما بَعْدَه فبِالجَرِّ؛ إلّا أنَّه عَطْفٌ على «تَمامِ»؛ أيْ وأعْلَمَه بِهدايَتِه إلى الصراطِ... إلخ، أيْ في قولِه ﴿ويَهْدِيَكَ﴾ إلخ، و«الصِّراطُ»: بالصادِ والسينِ وإشْمامِ الزّايِ في السَّبْعةِ، وبالزّايِ الخالِصةِ في الشاذَّةِ.

قولُه (المُبَلِّغَ): -بِكَسْرِ اللامِ المُشَدَّدةِ، ويَجوزُ تَخفيفُها- نَعْتٌ لِلصراطِ.

.. وَمِنَّتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ المُؤْمِنِينَ بِالسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي جَعَلَهَا فِي قُلُوبِهِمْ وَبِشَارَتِهِمْ بِمَا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ بَعْدُ، وَفَوْزِهِمُ العَظِيمِ، وَالعَفْوِ عَنْهُمْ، وَالسَّتْرِ لِذُنُوبِهِمْ، وَهَلَاكِ عَدُوِّهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَعْنِهِمْ وَبُعْدِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَسُوءِ مُنْقَلَبِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾ الآيَةَ، فَعَدَّ مَحَاسِنَهُ وَخَصَائِصَهُ مِنْ شَهَادَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ لِنَفْسِهِ بِتَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ لَهُم، وَقِيلَ: شَاهِدًا لَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَمُبَشِّرًا لِأُمَّتِهِ بِالثَّوَابِ -وَقِيلَ: بِالمَغْفِرَةِ، وَمُنْذِرًا عَدُوَّهُ بِالعَذَابِ، وَقِيلَ: مُحَذِّرًا مِنَ الضَّلَالَاتِ؛ لِيُؤْمِنَ بِاللهِ ثُمَّ بِهِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ الحُسْنَى.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أَيْ تُجِلُّونَهُ، وَقِيلَ: تَنْصُرُونَهُ وَقِيلَ: تُبَالِغُونَ فِي تَعْظِيمِهِ وَتَوْقِيرِهِ، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أَيْ تُعَظِّمُوهُ، وَقَرَأَهُ بَعْضُهُمْ (وَتُعَزِّزُوهُ) -بِزَاءَيْنِ- مِنَ العِزِّ، وَالأَكْثَرُ وَالأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى. قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: جُمِعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نِعَمٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الفَتْحِ المُبِينِ وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الإِجَابَةِ، وَالمَغْفِرَةِ وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ المَحَبَّةِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الاخْتِصَاصِ، وَالهِدَايَةِ وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الوِلَايَةِ، فَالمَغْفِرَةُ تَبْرِئَةٌ مِنَ العُيُوبِ، وَتَمَامُ النِّعْمَةِ إِبْلَاغُ الدَّرَجَةِ الكَامِلَةِ، وَالهِدَايَةُ وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى المُشَاهَدَةِ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ أَنْ جَعَلَهُ حَبِيبَهُ، وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، وَنَسَخَ بِهِ شَرَائِعَ غَيْرِهِ، وَعَرَجَ بِهِ إِلَى المَحَلِّ الأَعْلَى، وَحَفِظَهُ فِي المِعْرَاجِ حَتَّى مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى، وَبَعَثَهُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَأَحَلَّ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ الغَنَائِمَ، وَجَعَلَهُ شَفِيعًا مُشَفَّعًا وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَرِضَاهُ بِرِضَاهُ، وَجَعَلَهُ أَحَدَ رُكْنَيِ التَّوْحِيدِ.

وقولُه (والطُّمَأْنينةِ): عَطفُ تفسيرٍ، وهو بضمِّ الطّاءِ وبهمزٍ ويُسهَّلُ فيُبْدَلُ؛ مَصْدَرُ «اطْمَأَنَّ»: سَكَنَ. قولُه (وبِشارَتِهم): بكَسْرِ الباءِ. وقولُه (بَعْدُ): -بِضَمِّ الدالِ- أيْ بَعْدَ حالِهم.

قولُه (والسَّتْرِ): بالفتحِ مَصدَرٌ، وبالكَسْرِ اسمٌ؛ ﴿لِيُدْخِلَ المؤمنينَ﴾ إلخ.

قولُه (وهَلاكِ عَدوِّه): أيْ أعْداءِ النبيِّ والمؤمنينَ. قولُه (مُنقلَبِهم): -بِفَتْحِ اللّامِ- أيْ قُبْحِ مُنْقَلَبِهم.

قولُه (أَرْسَلْناكَ شاهِدًا): أيْ مُزَكِّيًا لِلأَصْفياءِ، أوْ مُشاهِدًا لِلِّقاءِ، في مَقامِ البَقاءِ. قولُه (ومُبَشِّرًا ونَذيرًا): أيْ لِلمُؤْمنينَ والكافِرينَ على اللَّفِّ المُرَتَّبِ.

قولُه (مِنْ شَهادَتِه على أُمَّتِه): بِخِلافِ سائرِ الأنبياءِ؛ فإنَّها لا تُقْبَلُ شَهادتُهم على أُمَمِهم لِأَنْفُسِهم، بلْ يَحتاجونَ لِشَهادةِ هذه الأُمّةِ بِتَبْليغِ الأنبياءِ لَهُم. قولُه (ثُمَّ بِهِ): أيْ بِرَسولِه. وقولُه (الحُسْنى): أي المَنْزِلةُ الأَسْنى، وهِيَ الجَنّةُ العُلْيا أوِ المَثوبةُ.

قولُه (أيْ تُعَظِّموه): الأَظْهَرُ أنْ يُقالَ: «تَهابوه وتُكرِموه». قولُه (وتُعَزِّزوه -بِزاءَيْنِ-): -بالياءِ بَعْدَ الأَلِفِ، وبالهَمْزِ-، وكِلاهُما صَحيحٌ. ذَكَرَه التِّلِمْسانيُّ.

قولُه (وعَرَجَ بِهِ إلى المَحَلِّ الأَعْلى): -بِفَتْحِ الرّاءِ- أيْ صَعِدَ، والمُرادُ بـ«المَحَلِّ الأَعلى»: مَقامُ قابِ قَوْسَينِ أوْ أَدْنى.

ثُمَّ قَالَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاكَ، ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يُرِيدُ عِنْدَ البَيْعَةِ، قِيلَ: قُوَّةُ اللهِ، وَقِيلَ: ثَوَابُهُ، وَقِيلَ: مِنَّتُهُ، وَقِيلَ: عَقْدُهُ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ وَتَجْنِيسٌ فِي الكَلَامِ، وَتَأْكِيدٌ لِعَقْدِ بَيْعَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَعَظِيمِ شَأْنِ المُبَايَعِ ﷺ.

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وَإِنْ كَانَ الأَوَّلُ فِي بَابِ المَجَازِ، وَهَذَا فِي بَابِ الحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ القَاتِلَ وَالرَّامِيَ بِالحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ تَعَالَى، وَهُوَ خَالِقُ فِعْلِهِ وَرَمْيِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَلِأَنَّهُ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ البَشَرِ تَوْصِيلُ تِلْكَ الرَّمْيَةِ حَيْثُ وَصَلَتْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَمْلأْ عَيْنَيْهِ، وَكَذَلِكَ قَتْلُ المَلَائِكَةِ لَهُمْ حَقِيقَةٌ.

وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الآيَةِ الأُخْرَى: إِنَّهَا عَلَى المَجَازِ العَرَبِيِّ وَمُقَابَلَةِ اللَّفْظِ وَمُنَاسَبَتِهِ، أَيْ مَا قَتَلْتُمُوهُمْ، وَمَا رَمَيْتَهُمْ أَنْتَ إِذْ رَمَيْتَ وُجُوهَهُمْ بِالحَصْبَاءِ وَالتُّرَابِ، وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى قُلُوبَهُمْ بِالجَزَعِ، أَيْ أَنَّ مَنْفَعَةَ الرَّمْيِ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ اللهِ فَهُوَ القَاتِلُ وَالرَّامِي بِالمَعْنَى، وَأَنْتَ بِالاسْمِ.

***

قولُه (يُرِيدُ عِنْدَ البَيْعَةِ): قالَ المُلّا: أيْ على طَرِيقِ الخُصوصيّةِ، قالَ التِّلِمْسانيُّ: قولُه (يُرِيدُ عِنْدَ البَيْعَةِ) صَوابُه: مَعْناه عِنْدَ البَيْعةِ؛ وإلّا فالإرادةُ والعِنايةُ في كَلامِ المَخْلوقينَ، ولا يَنبَغي أنْ يَقولَ المُفسِّرُ: «يَعْني»، ولا «يُرِيدُ»؛ ولَكِنْ يَقولُ: «مِنْ مَعْناه»، أوْ «يَجوزُ» ونَحْوَ ذلكَ.

قولُه (وقِيلَ: مِنّتُه): أيْ عَطيّتُه، يُقالُ: «لِفُلانٍ عَلَيَّ يَدٌ»، وفي الحديثِ: (اللهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفاجِرٍ عَلَيَّ يَدًا يُحِبُّه قَلْبي)[1]، ولِلإمامِ الشاطبيِّ: إلَيْكَ يَدي مِنْكَ الأَيادي تَمُدُّها[2].

وقولُه (وَقِيلَ: عَقْدُه) وفي نُسخةٍ «عَفْوُه»، وهوَ تصحيفٌ.

قولُه (وهَذِه): أيِ الأقوالُ المُختَلِفةُ المَعاني في لَفْظِ اليَدِ هَلْ هيَ على سبيلِ الاشتِراكِ والحقيقةِ أوْ على سَبيلِ النَّقْلِ والمَجازِ؟ المُخْتارُ أنَّها استِعاراتٌ، أيْ إطلاقاتٌ مَجازيّةٌ لِمُناسَباتٍ سَبَبيّةٍ. وقولُه (وتَجْنيسٌ في الكَلامِ): أيْ تَفَنُّنٌ في العِباراتِ. قولُه (شَأْنِ المُبايَعِ): بِصيغةِ المَفْعولِ.

قولُه (إنَّها على المَجازِ العَرَبِيِّ) -بالباءِ- أيِ اللُّغَوِيِّ، أعْني استعمالَ اللَّفْظِ في غَيْرِ ما وُضِعَ له لِعَلاقةٍ... إلخ، وفي نسخةٍ «العُرْفِيِّ»، وهوَ ما تُجُوِّزَ بِهِ عَن ما وَضَعَه طائفةٌ مُعَيَّنةٌ فهوَ المَجازُ العُرْفِيُّ الخاصُّ، وإن لمْ تَكُنْ مُعَيَّنةً فالعامُّ، كالدّابّةِ لِلشّاةِ[3].

***

---

(١) أخرجه الديلميُّ في الفردوس (٢٠١١) من حديث معاذٍ بلفظ: «اللهمَّ لا تَجْعَلْ لفاجرٍ عِنْدِي نِعْمَةً أُكافِئُهُ بها في الدُّنْيا والآخِرَةِ». قال الحافظ العراقيُّ في تخريج أحاديث الإحياء: «رواه الديلميُّ من حديث معاذٍ بسندٍ ضعيفٍ مُنقطعٍ».

(٢) صدر بيت من الشاطبية، وتمامه:

إِلَيكَ يَدِي مِنْكَ الْأَيَادِي تَمُدُّهَا * أَجِرْنِي فَلاَ أَجْرِي بِجَوْرٍ فَأَخْطَلا

(٣) المجاز اللغوي: استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة أو مناسبة بين المعنى المجازي والحقيقي مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. والمجاز العرفي العام: هو اللفظ المستعمَل في غير ما وُضِع له، لمناسبة أو علاقة عُرفية عامة. والمجاز العرفي الخاص: هو اللفظ المستعمَل في غير ما وُضِع له، لمناسبة أو علاقة عُرفية خاصة.

الفَصْلُ العَاشِرُ:
فِيمَا أَظْهَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ سِوَى مَا انْتَظَمَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ

مِنْ ذَلِكَ مَا نَصَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ قِصَّةِ الإِسْرَاءِ فِي سُورَةِ «سُبْحَانَ» وَ«النَّجْمِ»، وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ القِصَّةُ مِنْ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ وَقُرْبِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ مَا شَاهَدَ مِنَ العَجَائِبِ.

وَمِنْ ذَلِكَ عِصْمَتُهُ مِنَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيَةَ [الأنفال: ٣٠]، وَقَوْلِهِ ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، وَمَا دَفَعَ اللهُ بِهِ عَنْهُ فِي هَذِهِ القِصَّةِ مِنْ أَذَاهُمْ بَعْدَ تَحَزُّبِهِمْ لِهُلْكِهِ، وَخُلُوصِهِمْ نَجِيًّا فِي أَمْرِهِ، وَالأَخْذِ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، وذُهُولِهِمْ عَنْ طَلَبِهِ فِي الغَارِ، وَمَا ظَهَرَ فِي ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَنُزُولِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِ، ..

قولُه (**ما نَصَّه اللهُ**): أيْ صَرَّحَ بِه، وفي نسخةٍ «قَصَّه». وقولُه (**مِنْ قِصّةِ الإسراءِ**): وفي نسخةٍ «في قِصّةِ... إلخ».

قولُه (**واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ**): أيْ يَحْفَظُكَ مِنْ تَعَرُّضِ أعدائِكَ لَكَ؛ رَوى التِّرمذيُّ: كانَ النبيُّ ﷺ يُحْرَسُ حتّى نَزَلَتْ، فقالَ: (يا أيُّها الناسُ، انصرِفوا؛ فقَدْ عَصَمَني اللهُ)[(١)]، قالَ المُلّا: ولا يُنافيه ما في البخاريِّ وغَيْرِه مِنْ شَجِّ وَجْهِه الشريفِ وكَسْرِ رَباعيَتِه يَوْمَ أُحُدٍ[(٢)] لِخُصوصِ العِصْمةِ بالقَتْلِ تَنْبيهًا على أنَّه يَجِبُ على النبيِّ أنْ يَتَحَمَّلَ ما دونَ النفْسِ لِأَنَّ الأنبياءَ أَشَدُّ النّاسِ مِنْ جِهةِ البَلاءِ.

قولُه (**وإذْ يمْكُرُ بِكَ الذينَ كفَروا... الآيةَ**): ذَكَرَه -سُبحانَه- بَعْدَ الفَتْحِ بِمَكْرِ قُرَيْشٍ به بِمَكّةَ قَبْلَ الهِجْرةِ لِيَشْكُرَ نعمةَ رَبِّه بخَلاصِه مِنْ مَكْرِهم بِه واحتيالِهم عَلَيْه؛ فالقَضيّةُ مَكّيّةٌ، والآيةُ مَدَنيّةٌ، وقيلَ: مَكّيّةٌ.

وقولُه (**إلّا تَنْصُروه**): أيْ إنْ لَمْ تَنصُروه، فـ«إنْ» شَرطيّةٌ مُدْغَمةٌ في النافيةِ[(٣)]، ولَيْسَتْ هيَ استثنائيّةً كَما يَتَوَهَّمُه بَعضُ الناسِ.

وقولُه (**تحَزُّبِهم**): -بِضَمِّ الزّايِ المُشَدَّدةِ- أيْ تَجَمُّعِهم، وفي نُسخةٍ «بَعْدَ تَحَرِّيهم» -بِراءٍ مَكسورةٍ مُشَدَّدةٍ فتَحْتيّةٍ- أيْ قَصْدِهم. وقولُه (**لِهُلْكِه**): -بِضَمِّ أوَّلِه وسُكونِ ثانيه- أيْ هَلاكِه.

وقولُه (**وخُلوصِهم**): أيْ وبَعْدَ انفرادِهم خالِصينَ مِن مُخالَطةِ غَيْرِهم، ولِذا قالَ: (**نَجيًّا**): أيْ مُتَناجينَ ومُتَشاوِرينَ في أَمْرِه: على أيِّ صِفةٍ يُؤْذونَه؟!

قولُه (**والأَخْذِ على أبصارِهم**): قالَ المُلّا: في أكثَرِ النُّسَخِ بالجَرِّ عَطْفًا على «تَحَزُّبِهم وخُلوصِهم».

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٠٤٦) [أبواب تفسير القرآن]، والحاكم (٢/ ٣١٣) [كتاب التفسير]، وأبو نعيم (٦/ ٢٠٦) من حديث السيدة عائشة مرفوعًا. وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبيُّ.

(٢) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٢٩١١) [كتاب الجهاد والسير]، ومسلمٌ (١٧٩٠) [كتاب الجهاد والسِّير]، وغيرهما من حديث سهل ابن عبدالله. وفي الباب عن آخرين في الصحيحين وغيرهما.

(٣) أي في «لا» النافية.

.. وَقِصَّةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ، حَسَبَ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الحَدِيثِ وَالسِّيَرِ فِي قِصَّةِ الغَارِ وَحَدِيثِ الهِجْرَةِ[1].

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا أَعْطَاهُ، وَالكَوْثَرُ حَوْضُهُ، وَقِيلَ: نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، وَقِيلَ: الخَيْرُ الكَثِيرُ، وَقِيلَ: الشَّفَاعَةُ، وَقِيلَ: المُعْجِزَاتُ الكَثِيرَةُ، وَقِيلَ: النُّبُوَّةُ، وَقِيلَ: المَعْرِفَةُ، ثُمَّ أَجَابَ عَنْهُ عَدُوَّهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أَيْ عَدُوَّكَ وَمُبْغِضَكَ، وَالأَبْتَرُ الحَقِيرُ الذَّلِيلُ، أَوِ المُفْرَدُ الوَحِيدُ، أَوِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]: قِيلَ: السَّبْعُ المَثَانِي السُّوَرُ الطِّوَالُ الأُوَلُ، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ أُمُّ القُرْآنِ.

وَقِيلَ: السَّبْعُ المَثَانِي أُمُّ القُرْآنِ، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ سَائِرُهُ، وَقِيلَ: السَّبْعُ المَثَانِي مَا فِي القُرْآنِ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَبُشْرَى وَإِنْذَارٍ وَضَرْبِ مَثَلٍ وَإِعْدَادِ نِعَمٍ، وَآتَيْنَاكَ نَبَأَ القُرْآنِ العَظِيمِ.

---

(١) حديثُ الهجرة: البخاريُّ [٣٦٥٢] عن أبي بَكْرَةَ.

قولُه (حَسَبَ): -بِفَتْحِ الحاءِ والسِّينِ، وقَدْ يُسَكَّنُ الثاني- أيْ «على قَدْرِ». قولُه (والسِّيَرِ): بِكَسْرٍ ففَتْحٍ.

قولُه (فَصَلِّ لِرَبِّكَ): فيه التِفاتٌ، وقولُه (وانْحَرْ): أيْ ضَحِّ بالبُدْنِ الَّتي هيَ خيارُ أموالِ العرَبِ.

قوله (هوَ الأَبْتَرُ): أيْ مَقطوعُ الخَيْرِ والبَرَكَةِ.

قولُه (السُّوَرُ الطِّوالُ): -بِكَسْرِ الطاءِ- جَمْعُ «طويلةٍ» كَما صَرَّحَ بِه الشُّرّاحُ خِلافًا لِمَنْ تَعَقَّبَه.

قولُه (والقرآنَ العظيمَ): بالنَّصبِ على الحِكايةِ، ويَجوزُ رَفْعُه مُبتدأً خَبَرُه (أُمُّ القرآنِ): أيْ أَصْلُه أوْ بِمَنزلةِ أُمِّه لِاشتِمالِها على كُلِّيَّاتِ مَعانيه، ومُهِمّاتِ مَبانيه؛ إذْ أَوَّلُها تَمَجُّدٌ، وأَوْسَطُها تَعَبُّدٌ، وآخِرُها وَعْدٌ وتَوَعُّدٌ؛ فكَأَنَّها هوَ في التحقيقِ دونَ التَّعَدُّدِ.

قولُه (وقيلَ: السبعُ المَثاني... إلخ): هوَ المَحْكيُّ عَنْ عُمَرَ وعَليٍّ والحَسَنِ البَصريِّ. قولُه (سائِرُه): أيْ باقيه أوْ جَميعُه بِناءً على أنَّه مأخوذٌ مِنَ السؤْرِ -بالهَمْزِ- بِمَعْنى البَقيّةِ، أوْ مِنَ السُّورِ الَّذي هوَ الجَمْعُ والإحاطةُ والشُّمولُ.

قولُه (ما في القرآنِ): أيْ هوَ جَميعُ القرآنِ.

قولُه (مِنْ أَمْرٍ): إيجابًا؛ كـ«أَقيموا الصَّلاةَ»، أوْ نَدْبًا كـ«افعَلوا الخَيْرَ». وقولُه (ونهيٍ): أيْ تحريمًا كـ«لا تَقْرَبوا الزِّنا»، أوْ كَراهةً كـ«لا تَيَمَّموا الخبيثَ مِنْه تُنفِقونَ».

وقولُه (وبُشْرى وإنذارٍ): أيْ مِن بِشارةٍ لِلمُؤمنينَ وتَخويفٍ لِلمخالِفينَ.

قولُه (وضَرْبِ مَثَلٍ): كَقولِه تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذوا مِن دونِ الله أولياءَ كَمَثَلِ العَنكبوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وقولُه (وإعدادِ نِعَمٍ): -بِكَسْرِ الهَمْزةِ- أيْ تَعدادِ نِعَمٍ كَثيرةٍ، وهوَ بالمَعْنى المَصْدَريِّ أَنْسَبُ لِلعَطْفِ على ما قَبْلَه، وقالَ الدلجيُّ -تَبَعًا لِبَعْضِهم-: بِفتحِ هَمْزَتِه؛ جَمْعُ «عَدَدٍ»، وأَغْرَبَ التلمسانيُّ بِقَوْلِه: ولا يَصِحُّ الكَسْرُ هُنا لِمُخالَفةِ المَعْنى. اهـ مُلّا.

قولُه (وآتَيْناكَ نَبَأَ... إلخ): أيْ أَعطَيْناكَ عِلْمَ ما اشتَمَلَ علَيْه مِمّا ذُكِرَ مِن قِصَصٍ وبَلاغةٍ ومَواعِظَ... إلخ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ أُمُّ القُرْآنِ «مَثَانِيَ»؛ لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ.

وَقِيلَ: بَلِ اللهُ تَعَالَى اسْتَثْنَاهَا لِمُحَمَّدٍ وَذَخَرَهَا لَهُ دُونَ الأَنْبِيَاءِ ﷺ.

وَسُمِّيَ القُرْآنُ مَثَانِيَ؛ لأَنَّ القِصَصَ تُثَنَّى فِيهِ.

وَقِيلَ: «السَّبْعُ المَثَانِي» أَكْرَمْنَاكَ بِسَبْعِ كَرَامَاتٍ: الهُدَى وَالنُّبُوَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَاعَةِ وَالوِلَايَةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالسَّكِينَةِ.

وَقَالَ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ...﴾ الآيَةَ [النحل: ٤٤].

وَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وَقَالَ: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ الآيَة [الأعراف: ١٥٨].

قَالَ الفَقِيهُ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَهَذِهِ مِنْ خَصَائِصِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فَخَصَّهُمْ بِقَوْمِهِمْ وَبَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، كَمَا قَالَ ﷺ: (بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ).

قولُه (**تُثَنَّى**): قالَ السيدُ الصفويُّ: صَحَّحوه بالسُّكونِ، وقالَ التلمسانيُّ: عَن كَثيرٍ بالفَتحِ وتَشديدِ النونِ، أيْ تُكَرَّرُ. وقولُه (**في كُلِّ رَكْعةٍ**): -وفي بَعْضِ النُّسَخِ «كُلِّ رَكْعةٍ»- أيْ صَلاةٍ؛ تَسْميةً لِلشيْءِ باسْمِ جُزْئِه، أوْ في كُلِّ قَوْمةٍ باعتِبارِ الرَّكْعةِ.

قولُه (**استَثْناها**): أيْ خَصَّها مِنْ بَيْنِ الآياتِ. قولُه (**وذَخَرَها**): بالمُعجَمةِ، ورويَ «ادَّخَرَها» -بتشديدِ الدالِ المُهمَلةِ- بِمَعْناه، وفي «القاموسِ»: «اختارَها واتَّخَذَها». قولُه (**دونَ الأنبياءِ**): أيْ لَمْ يَدَّخِرْها لِغَيْرِه مِنْهم، أوْ مُغايِرًا إيّاهم، والمُرادُ أنَّ الفاتِحةَ لَمْ يُعطَوْها.

قولُه (**القِصَصَ**): بكَسْرِ القافِ؛ جَمْعُ قِصّةٍ، وهوَ الظاهرُ، وفي «المُقتَفى»: بفَتْحِ القافِ؛ مَصْدَرٌ، والمُرادُ: ما يُقَصُّ. قولُه (**تُثَنّى فيهِ**): -بالتأنيثِ والتذكيرِ- أيْ تُكَرَّرُ، و«المَثاني»: جَمْعُ «مَثْنًى» أوْ «مَثْناةٍ».

قولُه (**الهُدى**): هوَ وما بَعْدَه مَجْرورٌ؛ بَدَلٌ، أوْ مَرفوعٌ؛ خَبَرٌ لِمُبتدأٍ مَحذوفٍ -أيْ هيَ الهُدى-، أوْ مَنصوبٌ بتقديرِ «أعْني» مَثَلًا، والمُرادُ بالهُدى: الهِدايةُ الكامِلةُ، لا ضِدُّ الضَّلالةِ كَما ذَكَرَه التِّلْمِسانيُّ؛ لِأنَّه لا يُلائمُ المَقامَ. اهـ مُلّا. وقولُه (**والنُّبوّةِ**): أيِ المُتضمِّنةِ لِلرِّسالةِ، وقولُه (**والشَّفاعةِ**): أيِ العُظمى.

قولُه (**وأَنزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ**): أيِ القرآنَ، سُمّيَ بهِ لِأنَّه يُذكَرُ بهِ الرحمنُ.

قولُه (**إلّا كافّةً لِلناسِ**): أيْ لِجَميعِهم لا لِبَعْضِهم كَما زُعِمَ، وقيلَ: أيْ جامِعًا لِلناسِ بالدَّعْوةِ، أوْ كافًّا لَهم عَنِ المَعاصي. اهـ صَفَويٌّ. قولُه (**بَشيرًا ونَذيرًا**): أيْ مُبَشِّرًا لِلأبرارِ، ومُخَوِّفًا لِلفُجّارِ.

قولُه (**بِلِسانِ قَوْمِه**): أيْ بِلُغةِ قَبيلَتِه. قولُه (**لِيُبَيِّنَ لَهم**): أيْ ما أُمِروا بهِ وما نُهوا عَنْه.

قولُه (**إلى الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ**): أيِ العَرَبِ والعَجَمِ، أوِ الإنسِ والجِنِّ.[1]

(١) هو جزء من حديث: «أعطيت خمسا..» المخرَّج في الصحيحين وغيرهما، وهو حديث متواتر أخرجه السيوطي في مناهل الصفا (انظر ص٢١٠) عن عشرة من الصحابة، وانظر: الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة للسيوطي (٩٩) [باب المناقب].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ، أَيْ مَا أَنْفَذَهُ فِيهِمْ مِنْ أَمْرٍ فَهُوَ مَاضٍ عَلَيْهِمْ، كَمَا يَمْضِي حُكْمُ السَّيِّدِ عَلَى عَبْدِهِ.

وَقِيلَ: اتِّبَاعُ أَمْرِهِ أَوْلَى مِنِ اتِّبَاعِ رَأْيِ النَّفْسِ.

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾: أَيْ هُنَّ فِي الْحُرْمَةِ كَالْأُمَّهَاتِ، حَرُمَ نِكَاحُهُنَّ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ؛ تَكْرِمَةً لَهُ وَخُصُوصِيَّةً، وَلِأَنَّهُنَّ لَهُ أَزْوَاجٌ فِي الْآخِرَةِ.

قولُه (**أَوْلى بالمُؤمنينَ**): ويَدْخُلُ فيه النِّساءُ بأَحَدِ الوَجْهَيْنِ المُفَصَّلَيْنِ في عِلْمِ الأُصولِ.

وقولُه (**وأَزْواجُه أُمَّهاتُهم**): أيْ كأَنَّهُنَّ أُمَّهاتُهم، أوْ علَى المَجازِ، جَمْعُ «أُمٍّ»، أَصْلُها «أُمَّهةٌ» وهيَ لُغةٌ، قيلَ: مُختَصّةٌ بالآدَميّاتِ، والأُمّاتُ بالحَيَواناتِ، وقيلَ: الهاءُ زائدةٌ.

قولُه (**أَهْلُ التفسيرِ**): أيْ بَعْضٌ مِنهم، وهوَ ابنُ زَيْدٍ.

قولُه (**ما أَنْفَذَه**): أيْ أَظْهَرَه. وقولُه (**ماضٍ**): أيْ نافِذٌ.

قولُه (**كَما يَمْضي حُكْمُ السَّيِّدِ على عَبْدِه**): تَوْضيحُه أنَّ العَرَبَ تَقولُ: السَّيِّدُ أَوْلى مِن نَفْسِه؛ بِمَعْنى أنَّ ما حَكَمَ فيه فهوَ نافِذٌ، فحَمَلَ الآيةَ علَيْه مَجازًا وكِنايةً.

وقولُه (**أَوْلى**): مأخوذٌ مِنَ الوِلايةِ والتَّسَلُّطِ، أوْ بِمَعْنى: الأَحْرى بِنَفاذِ الحُكْمِ وجَرَيانِه.

قولُه (**اتباعُ أَمْرِه أَوْلى... إلخ**): أيْ أَوْلى في اتِّباعِ الأمْرِ، وفي «الصفويِّ» مِنَ «الكَشّافِ»: أيْ أَوْلى في جميعِ أُمورِ الدِّينِ والدنيا مِمّا عُرِفَ أنَّه سَبَبٌ لِلحَياةِ الأَبَديّةِ، وفي صَحيحِ البُخاريِّ عَنْه ﷺ: (ما مِنْ مُؤمِنٍ إلا وأنا أَوْلى الناسِ بِه في الدنيا والآخِرةِ؛ اقرَؤوا -إنْ شِئْتُمْ- ﴿النبيُّ أَوْلى بالمُؤمنينَ مِن أنفسِهم﴾؛ فأَيُّما مُؤمِنٍ تَرَكَ مالًا فلْيَرِثْه عُصْبَتُه، فإنْ تَرَكَ دُنْيا أو ضَياعًا فَلْيَأْتِني فأنا مَوْلاه)[1]. اهـ.

قولُه (**أيْ هُنَّ**) وفي نُسخةِ التلمسانيِّ «أيْ هُمْ»، وهوَ سَبْقُ قَلَمٍ كَما ذَكَرَه الصفويُّ، وقيلَ: عَبَّرَ بِضَميرِ جَماعةِ الذُّكورِ اعتِبارًا لِلَفْظِ الأزواجِ -كَما ذَكَرَه المُلّا.

قولُه (**في الحرمةِ**): أيِ الاحترامِ والتعظيمِ، أوْ في تحريمِ النِّكاحِ.

قولُه (**حَرُمَ**): بِفَتْحِ الحاءِ وضَمِّ الراءِ، ويَجوزُ ضَمُّ الحاءِ وكَسْرُ الراءِ المُشَدَّدةِ، وفي نسخةٍ «حَرامٌ» بزِيادةِ الأَلِفِ.

قولُه (**بَعْدَه**): أيْ بَعْدَ تَزَوُّجِه لَهُنَّ، ولَوْ أُريدَ بَعْدَ مُفارَقَتِه لَشَمِلَ المُطَلَّقةَ على القولِ بالحُرمةِ؛ فَتَدَبَّرْ!! اهـ صفويٌّ.

قولُه (**وخُصوصيّةً**): بِضَمِّ الخاءِ المعجَمةِ، وقَوْلُ الحِجازيِّ بفَتْحِها سَهْوٌ[2]. اهـ ملا.

قولُه (**ولأَنَّهُنَّ له أزواجٌ في الآخِرةِ**): وكَذا سائرُ الأنبياءِ كَما ذَكَرَه المُلّا تَبَعًا لِلبَغَويِّ، وفي نسخةٍ «في الجَنّةِ».

وقالَ المُلّا: الظاهرُ أنَّ هذا مُقَيَّدٌ بِمَنْ ماتَ مِنْهُنَّ في عِصْمَتِه أوْ هوَ تُوُفِّيَ عَنْهُنَّ وهُنَّ في عِدَّتِه لِتَخْرُجَ مَنِ اختارَتِ الدنيا حينَ نَزَلَتْ آيةُ ﴿قُلْ لِأَزْواجِكَ إنْ كُنْتُنَّ...﴾ إلخ [الأحزاب: ٢٨].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٣٩٩) [كتابٌ في الاستقراض..]، و(٤٧٨١) [كتاب تفسير القرآن]، وغيره من حديث أبي هريرة.

(٢) في «اللسان»: «خَصَّهُ بالشَّيْءِ يَخُصُّه خَصًّا وخُصوصًا وخُصُوصِيَّةً وخُصُوصِيَّةً، وَالْفَتْحُ أَفصح»، وفي «المصباح»: «وَخصُوصِيَّةً بِالْفَتْحِ وَالضَّمُّ لُغَةٌ».

قولُـه (**وقَـدْ قُـرِئَ**): أيْ في الشَّـواذِّ؛ قيـلَ: هـيَ قِـراءةُ مُجاهِـدٍ، ونُسِـبَتْ إلى أُبَيِّ بـنِ كَعْـبٍ أيْضًـا، (وهـوَ أَبٌ لَـهُـم): إذْ كُلُّ نَبـيٍّ أَبٌ لِأُمَّتِـه، كَـما قـالَ اللهُ تعـالى: ﴿مِلَّـةَ أَبيكـم إبراهيـمَ﴾ [الحـج: ٧٨].

قولُه (**ولا يُقْرَأُ بِهِ**): بصيغةِ المَجهولِ.

وقولُـه (**المُصْحَـفَ**): بتثليـثِ الميـمِ والضـمُّ أَتَـمُّ؛ وهـوَ مـا جُمِـعَ فيـه القـرآنُ لِقَـوْلِ عائشـةَ: (مـا بَـيْنَ دَفَّتَـي المُصحَـفِ كَلامُ اللهِ)[1].

قولُـه (**وأَنْـزَلَ اللهُ عَلَيْـكَ**... إلـخ) وفي نُسـخةٍ «وأَنْزَلْنـا عَلَيْـكَ... إلـخ»، وهـوَ لا يَصِـحُّ؛ لِمُخالَفَتِـه تنزيـلَ الآيَـةِ.

قولُـه (**بالنُّبُـوّةِ**) وفي نسخةٍ «النبـوةُ». قولُـه (**بِـما سَـبَقَ لـه في الأَزَلِ**): فيَشْـمَلُ كُلَّ مـا أَعْطـاه إلى الأَبَـدِ.

قولُه (**إلى أنَّها**): أيْ هذه الآيَةَ.

***

(١) لم أجده فيـما اطَّلعـتُ عليـه مـن مصـادر حديثيـة، وذكـره القـاري في «شرح الشِّـفا» (١/ ١٤٨)، ولم يعزه.

وَقَـدْ قُـرِئَ: (وَهُـوَ أَبٌ لَـهُـمْ)[1]، وَلاَ يُقْـرَأُ بِـهِ الآنَ لِمُخَالَفَتِـهِ المُصْحَـفَ.

وَقَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَأَنْـزَلَ اللهُ عَلَيْـكَ الكِتَـابَ وَالحِكْمَـةَ وَعَلَّمَـكَ مَـا لَمْ تَكُـن تَعْلَـمُ وَكَانَ فَضْـلُ اللهِ عَلَيْـكَ عَظِيـمًا﴾ الآيَـةَ [النسـاء: ١١٣]: قِيـلَ: فَضْلُـهُ العَظِيـمُ بِالنُّبُـوَّةِ، وَقِيـلَ: بِـمَا سَـبَقَ لَـهُ فِي الأَزَلِ.

وَأَشَـارَ الوَاسِـطِيُّ إِلَى أَنَّهَـا إِشَـارَةٌ إِلَى احْتِـمَالِ الرُّؤْيَـةِ الَّتِي لَمْ يَحْتَمِلْهَـا مُوسَـى، عَلَيْهِـما الصَّـلَاةُ وَالسَّـلَامُ.

***

(١) قوله (وقَدْ قُرِئَ «وهُوَ أَبٌ لهم»...): أخرجها ابنُ راهَوَيْهِ في مسنَدِه [الدر المنثور ٦/ ٥٦٧] عن أُبَيِّ بن كَعْبٍ.

البابُ الثاني: في تكميلِ اللهِ لَهُ المحَاسِنَ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَقِرَانِه جَميعَ الفَضَائِل الدِّينِيَّة وَالدُّنْيَوِيّة فِيهِ نَسَقًا ﷺ

اعلَمْ -أيُّهَا المُحِبُّ لِهَذَا النَّبِيِّ الكَرِيمِ، البَاحِثُ عَنْ تَفَاصِيلِ جُمَلِ قَدْرِهِ العَظِيمِ- أنَّ خِصَالَ الجَلَالِ وَالكَمَالِ فِي البَشَرِ نَوْعَانِ: ضَرُورِيٌّ دُنْيَوِيٌّ، اقْتَضَتْهُ الجِبِلَّةُ وَضَرُورَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمُكْتَسَبٌ دِينِيٌّ: وَهُوَ مَا يُحْمَدُ فَاعِلُهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ زُلْفَى.

وقولُه (**البابُ الثاني**): أيْ مِنَ القِسمِ الأوَّلِ، وفُصولُه سَبعةٌ وعِشرونَ[1].

قولُه (**المحاسِنَ**): جَمْعُ «حُسْنٍ» على غيرِ قياسٍ، وفيه إشارةٌ إلى النَّوْعِ البَشَرِيِّ على الكَمالِ؛ فإنَّه أحسَنُ تقويمًا. قولُه (**خَلْقًا وخُلُقًا**): بِفَتْحِ الخاءِ المُعجَمةِ في الأوَّلِ، وسُكونِ اللّامِ وضَمِّها في الثاني؛ وهُما مَنصوبانِ على التمييزِ.

قولُه (**وقِرانِه**): أيْ وفي مُقارَنةِ ذاتِه ﷺ. قولُه (**نَسَقًا**): -بفتحتَيْنِ- أيْ مِن جِهةِ كَوْنِ بَعْضِها تَبَعًا لِبَعْضٍ مِنَ الصِّفاتِ المُتَتابِعةِ والمَكارِمِ المُتعاقِبةِ.

قولُه (**اعلَمْ... إلخ**): خِطابٌ عامٌّ في مَوْضِعِ التفخيمِ، أوْ خاصٌّ بِمَنْ سَألَه هذا التأليفَ المُتضمِّنَ لِلتعليمِ، ويُؤيِّدُه قولُه (**الباحِثُ**): أيِ المُفتِّشُ.

قولُه (**جُمَلِ قَدْرِه... إلخ**): -[بِضَمِّ الجيمِ] وفَتْحِ الميمِ- جَمْعُ جُمْلةٍ؛ بمعنى [مجمَل] بالفتحِ، وهوَ الخَلْطُ، والإجمالُ والمُجمَلُ مُقابَلةُ التفصيلِ والمُفَصَّلِ؛ فالأَلْيَقُ: «إجمالاتِ أوْ مُجمَلاتِ قَدْرِه». اهـ صفويٌّ.

وقولُه (**قَدْرِه العَظيمِ**): أيْ مَبْلَغُه مِنَ الكَمالِ، ويُطْلَقُ على المَرْتَبةِ. قولُه (**البَشَرِ**): أيِ الإنسانِ، والجَمعُ الأبْشارُ؛ قُيِّدَ بِهِ لِأنَّ المَقصودَ بَيانُ حالِه.

قولُه (**دُنيَويٌّ**): أيْ لا يَتعَلَّقُ بِه ثَوابٌ. قولُه (**الجِبِلَّةُ**): -بِكَسْرِ الجيمِ والباءِ وفَتْحِ اللّامِ المُشَدَّدةِ- أيِ الخِلْقةُ الَّتي خُلِقَ علَيْها، وقالَ التِّلْمسانيُّ: بِتَثْليثِ الجيمِ وسُكونِ الباءِ وفَتْحِ اللّامِ المُخفَّفةِ وبالهاءِ وبِدونِها، و«الجِبِلُّ» يُضَمُّ ويُشَدَّدُ، ومِنْه قولُه تعالى: ﴿ولَقَدْ أَضَلَّ مِنكُم جُبُلًّا﴾[2] [يس: ٦٢].

قولُه (**وضَرورةُ الحَياةِ الدُّنيا**): أيْ واقتَضَتْه الحاجةُ الضروريّةُ الكائنةُ في الحَياةِ الدُّنْيا؛ قالَ الصفويُّ: الظاهرُ أنَّه قِسْمٌ مِنَ الضروريِّ، والأَوْلى: «أوْ ضَرورةُ... إلخ».

قولُه (**ومُكتَسَبٌ دينيٌّ**): أيْ لَمْ يَكُنْ حاصِلًا فيَحْصُلُ في أثناءِ حَياتِه. قولُه (**ويُقَرِّبُ**): بكَسْرِ الراءِ المشدَّدةِ، وفي نسخةٍ بصيغةِ المَجهولِ؛ أيْ «ما يُقَرَّبُ بِهِ... إلخ».

وقولُه (**زُلْفى**): أيْ قُرْبةً، اسمُ مَصْدَرٍ لِـ«أزْلَفَه»، قالَ المُلّا: وفيه أنَّ التقسيمَ غَيْرُ جامعٍ؛ لِأنَّه غيرُ شامِلٍ لِلوَهْبيِّ الحاصلِ بالجَذْبةِ دونَ الخِلْقةِ الأصليّةِ، ولا بالتعلُّقاتِ العارِضيّةِ.

(١) بل ستة وعشرون فصلا، إضافة إلى مقدمة الباب.

(٢) بضم الجيم والباء وتشديد اللام على قراءة روح عن يعقوب، وبكسر الجيم والباء وتشديد اللام على قراءة نافع وعاصم وأبي جعفر.

ثُمَّ هِيَ عَلَى فَنَّيْنِ أَيْضًا: مِنْهَا مَا يَتَخَلَّصُ لِأَحَدِ الوَصْفَيْنِ، وِمِنْهَا مَا يَتَمَازَجُ وِيَتَدَاخَلُ.

فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ المَحْضُ: فَمَا لَيْسَ لِلْمَرْءِ فِيهِ اخْتِيَارٌ وَلَا اكْتِسَابٌ،

مِثْلُ مَا كَانَ فِي جِبِلَّتِهِ مِنْ كَمَالِ خِلْقَتِهِ، وَجَمَالِ صُورَتِهِ، وَقُوَّةِ عَقْلِهِ، وَصِحَّةِ فَهْمِهِ، وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِّهِ وَأَعْضَائِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ، وَشَرَفِ نَسَبِهِ، وَعِزَّةِ قَوْمِهِ، وَكَرَمِ أَرْضِهِ.

وَيَلْحَقُ بِهِ مَا تَدْعُوهُ ضَرُورَةُ حَيَاتِهِ إِلَيْهِ مِنْ غِذَائِهِ وَنَوْمِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَسْكَنِهِ وَمَنْكَحِهِ وَمَالِهِ وَجَاهِهِ.

قولُه (**ثُمَّ هيَ**): أيِ الخِصالُ. وقولُه (**علَى فَنَّيْنِ**): -بفتحِ الفاءِ وتشديدِ النونِ- أيْ ضَرْبَيْنِ آخَرَيْنِ.

قولُه (**ما يَتَخَلَّصُ لِأَحَدِ الوصفَيْنِ**): أيْ ما يَتَمَحَّضُ لِأَحَدِ الوصفَيْنِ الضروريِّ والكَسْبيِّ. وقولُه (**ويَتَداخَلُ**): عَطْفُ تفسيرٍ.

قولُه (**لِلْمَرْءِ**): -مُثَلَّثُ الميمِ، والجُمهورُ على فَتْحِ الميمِ وسُكونِ الراءِ- الإنسانُ أوِ الرَّجُلُ. اهـ صفويٌّ.

قولُه (**مِن كَمالِ خِلْقَتِه**): أيْ كَوْنِه تامَّ الأجْزاءِ. وقولُه (**وجَمالِ صورَتِه**): أيِ النوعيَّةِ.

وقولُه (**وفَصاحةِ لِسانِه**): أيْ كَلامِه؛ قالَ السيِّدُ: ولا يَخْفى أنَّ الفَصاحةَ بَلِ القوةَ مِمّا يَتكامَلُ بمُباشَرةِ الأسبابِ، ويَكونُ جِبِلّةً أيضًا؛ فهيَ مِنَ المُمتَزِجِ ولَعَلَّ المُصنِّفَ أرادَ القَدْرَ الجِبِلِّيَّ السَّليقيَّ.

قولُه (**وأعضائِه**): -جَمْعُ «عُضْوٍ»؛ بِضَمِّ العينِ وكَسْرِها- أيْ جَوارِحِه، وقَدْ قيلَ: لَيْسَ في الإنسانِ جارِحةٌ أَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ اللِّسانِ، ولِذلكَ أَنْطَقَه اللهُ بالتوحيدِ. اهـ ملا.

قولُه (**واعتِدالِ حَرَكاتِه**): قالَ السيِّدُ: الحَرَكةُ ضِدُّ السُّكونِ، وهيَ الانتِقالُ مِن مَكانٍ إلى آخَرَ، والاعتِدالُ كَوْنُها بَيْنَ الإفراطِ والتفريطِ في السرعةِ على اللائقِ، والحَرَكةُ -وإنْ كانَتْ كَسبيّةً- لَكِنْ يَجوزُ أنْ لا تَكونَ صِفاتُها بالاختيارِ، لِجَوازِ أنْ يَغْفُلَ عَنْها وفي جِبِلَّتِه أنْ يأتيَ بِها على ما يَنبغي؛ فهذا الاعتدالُ غَيْرُ صادِرٍ بالاختيارِ عِنْدَ المُحقِّقينَ.

قولُه (**وعِزَّةِ قَوْمِه**): أيْ وغَلَبةِ قَبيلَتِه. قولُه (**وكَرَمِ أَرْضِه**): أيْ طيبِ مَكانِه الَّذي نَشَأَ فيه بأنْ يَكونَ بَلَدَ المسلِمينَ ونُزُلَ الصالِحينَ، وأَبْعَدَ التِّلِمْسانيُّ في تخصيصِ أَرْضِه بأرضِ مَكّةَ؛ إذْ لَيْسَ الكَلامُ في خُصوصِه ﷺ. اهـ ملا. قالَ السيدُ: والمُرادُ ممّا كانَ في الجِبِلّةِ أنْ يَكونَ المَرْءُ مَخْلوقًا عَلَيْه، سواءٌ كانَ في طبيعتِه أوْ لِأَمْرٍ خارجٍ، فَصَحَّ جَعْلُ الثلاثةِ الأخيرةِ مِنْه؛ فتَأَمَّلْ!! اهـ.

قولُه (**ويَلْحَقُ بِه**): -قالَ السيِّدُ في «المُقْتفى»: بِضَمِّ الياءِ، وفي النُّسَخِ بالفَتْحِ- أيْ بالضَّروريِّ المَحْضِ أوْ ما لَيْسَ فيه اختيارٌ، لا بالجِبِلّيِّ كَما تُوُهِّمَ. قولُه (**ما تَدْعوه**): بالضميرِ، وفي نُسخةٍ بِعَدَمِه.

قولُه (**مِنْ غِذائِه**): -بِمُعجَمَتَيْنِ وكَسْرِ الأولى- ما يُتَغَذّى بِهِ مِنَ الطعامِ والشرابِ.
قولُه (**ومَسْكَنِه**): -بفَتْحِ الكافِ وكَسْرِها- المَنزِلُ، وقولُه (**ومَنْكَحِه**): بفَتْحِ الكافِ؛ مَصادرُ وأَسماءٌ لِما يُلْبَسُ ويُسْكَنُ ويُنْكَحُ.

وَقَدْ تَلْحَقُ هَذِهِ الخِصَالُ الآخِرَةُ بِالأُخْرَوِيَّةِ، إِذَا قُصِدَ بِهَا التَّقَوِّي وَمَعُونَةُ البَدَنِ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا، وَكَانَتْ عَلَى حُدُودِ الضَّرُورَةِ وَقَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا المُكْتَسَبَةُ الأُخْرَوِيَّةُ: فَسَائِرُ الأَخْلَاقِ العَلِيَّةِ، وَالآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ، مِنَ الدِّينِ، وَالعِلْمِ، وَالحِلْمِ، وَالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ، وَالعَدْلِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَالعَفْوِ، وَالعِفَّةِ، والجُودِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالحَيَاءِ، وَالمُرُوءَةِ، وَالصَّمْتِ، وَالتُّؤَدَةِ، وَالوَقَارِ، وَالرَّحْمَةِ، وحُسْنِ الأَدَبِ، وَالمُعَاشَرَةِ وَأَخَوَاتِهَا، وَهِيَ الَّتِي جِمَاعُهَا حُسْنُ الخُلُقِ.

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ هَذِهِ الأَخْلَاقِ مَا هُوَ فِي الغَرِيزَةِ وَأَصْلِ الجِبِلَّةِ لِبَعْضِ النَّاسِ، وَبَعْضُهُمْ لَا تَكُونُ فِيهِ؛ فَيَكْتَسِبُهَا، وَلَكِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنْ أُصُولِهَا فِي أَصْلِ الجِبِلَّةِ شُعْبَةٌ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَتَكُونُ هَذِهِ الأَخْلَاقُ دُنْيَوِيَّةً إِذَا لَمْ يُرَدْ بِهَا وَجْهُ اللهِ تَعَالَى وَالدَّارُ الآخِرَةُ، وَلَكِنَّهَا كُلَّهَا مَحَاسِنُ وَفَضَائِلُ بِاتِّفَاقِ أَصْحَابِ العُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي مُوجِبِ حُسْنِهَا وَتَفْضِيلِهَا.

***

قولُه (وقَدْ تَلْحَقُ): ضُبِطَ معروفًا ومجهولًا. وقولُه (الآخِرةُ): -بالمَدِّ والكسرِ- أي المذكورةُ آخِرًا.

قولُه (التَّقَوِّي): -مَصْدَرُ «تَقَوّى» مِنْ بابِ التَّفَعُّلِ- أيْ طَلَبُ القوّةِ، وفي نسخةٍ «التَّقْوى»: -بالتخفيفِ- أيْ إذا كانَتْ مُقْتَرِنةً بتقْوى الله.

قولُه (على سُلوكِ طَرِيقِها): أيْ سَبيلِ الآخرةِ، وأَبْعَدَ الدلجيُّ تَبَعًا لِلتِّلِمسانيِّ في قولِه: «أيْ في طريقِ الخِصالِ الأُخْرَويّةِ». اه مـلّا، وعِبارةُ الصفويِّ تَشْهَدُ لِكُلٍّ، ونَصُّه: «والمُرادُ أسلوبٌ ينفعُ في [الآخِرةِ] أوْ طريقٍ إلى ثوابِ الآخرةِ ونعيمِها».

قولُه (وقوانينِ الشريعةِ): أيِ الأُصولِ الشرعيّةِ مِمّا أُبيحَ وجوِّزَ له مِنِ ارتكابِه، وهذا مَعْنى قَوْلِهم في حديثِ (إنَّما الأعمالُ بالنِّيّاتِ)[1]: «إنَّ العاداتِ تَصيرُ بالنِّيّةِ عِباداتٍ». اه مُلّا. وفي شَرْحِ الصفويِّ: والتحقيقُ أنّه إذا صارَ بحيثُ يُحَسِّنُه الشَّرْعُ مَعَ النيّةِ -سَواءٌ كانَ في حَدِّ ذاتِه مُباحًا أوْ لا- فهوَ كَمالٌ أُخْرَويٌّ؛ فإنّه لا يَكونُ إلّا مَمدوحًا في الشَّرْعِ. اه.

قولُه (والعِفّةِ): وهيَ قَمْعُ النفْسِ عَنِ المَعْصيةِ أوْ مُخْتَصّةٌ بالزِّنا، وأَغْرَبَ التِّلِمْسانيُّ بِقَولِه: «وهيَ العَفْوُ عَمّا يَشينُ ويَعيبُ».

وقولُه (والشَّجاعةِ): وهيَ صِفةٌ حَميدةٌ مُتَوَسِّطةٌ بَيْنَ التَّهَوُّرِ والجُبْنِ.

***

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١) [بدء الوحي]، ومسلمٌ (١٩٠٧) [كتاب الإمارة] من حديث عمر بن الخطّاب.

فَصْلٌ:

[فِي اجتِماعُ خِصالِ الكَمالِ والجَلالِ فيه ﷺ]

قَالَ الفَقِيهُ القَاضِي -رَحِمَهُ اللهُ-:

إِذَا كَانَ خِصَالُ الكَمَالِ وَالجَلَالِ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَوَجَدْنَا الوَاحِدَ مِنَّا يَشْرُفُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا أَوِ اثْنَتَيْنِ، إِنِ اتَّفَقَتْ لَهُ فِي كُلِّ عَصْرٍ وأوانٍ، إِمَّا مِنْ نَسَبٍ أَوْ جَمَالٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ حِلْمٍ أَوْ شَجَاعَةٍ أَوْ سَمَاحَةٍ؛ حَتَّى يَعْظُمَ قَدْرُهُ، وَتُضْرَبَ بِاسْمِهِ الأَمْثَالُ، وَيَتَقَرَّرَ لَهُ بِالوَصْفِ بِذَلِكَ فِي القُلُوبِ أُثْرَةٌ وَعَظَمَةٌ، وَهُوَ مُنْذُ عُصُورٍ خَوَالٍ رِمَمٌ بَوَالٍ ..

.. فَمَا ظَنُّكَ بِعَظِيمِ قَدْرِ مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ هَذِهِ الخِصَالِ، إِلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ عَدٌّ وَلَا يُعَبِّرُ عَنْهُ مَقَالٌ، وَلَا يُنَالُ بِكَسْبٍ وَلَا حِيلَةٍ إِلَّا بِتَخْصِيصِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ، مِنْ فَضِيلَةِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَالخُلَّةِ وَالمَحَبَّةِ، وَالاصْطِفَاءِ وَالإِسْرَاءِ، وَالرُّؤْيَةِ وَالقُرْبِ، وَالدُّنُوِّ وَالوَحْيِ، وَالشَّفَاعَةِ وَالوَسِيلَةِ، وَالدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، وَالبُرَاقِ وَالمِعْرَاجِ، وَالبَعْثِ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَالصَّلَاةِ بِالأَنْبِيَاءِ، وَالشَّهَادَةِ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأُمَمِ، وَسِيَادَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَلِوَاءِ الحَمْدِ وَالبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ، وَالمَكَانَةِ عِنْدَ ذِي العَرْشِ، وَالطَّاعَةِ ثَمَّ، وَالأَمَانَةِ وَالهِدَايَةِ، وَرَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ، وَإِعْطَاءِ الرِّضَى وَالسُّؤْلِ وَالكَوْثَرِ، وَسَمَاعِ القَوْلِ وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ، وَالعَفْوِ عَمَّا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَشَرْحِ الصَّدْرِ، وَوَضْعِ الوِزْرِ، وَرَفْعِ الذِّكْرِ، وَعِزَّةِ النَّصْرِ، وَنُزُولِ السَّكِينَةِ، وَالتَّأْيِيدِ بِالمَلَائِكَةِ، وَإِيتَاءِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي وَالقُرْآنِ العَظِيمِ، وَتَزْكِيَةِ الأُمَّةِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَصَلَاةِ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ، وَالحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاهُ اللهُ، وَوَضْعِ الإِصْرِ وَالأَغْلَالِ

قولُه (**وَوَجَدْنا**): -وفي نُسخةٍ «وَرَأَيْنا»- أيْ عَلِمْنا.

وقولُه (**يَشْرُفُ**): -بِضَمِّ الرّاءِ- أيْ يَصيرُ شَرِيفًا، وفي نُسخةٍ بِصيغةِ المَجْهولِ مِنَ التشريفِ؛ أيْ يُكَرَّمُ ويُعَظَّمُ، وفي أخرى: «يَتَشَرَّفُ»؛ أيْ يَفتَخِرُ.

قولُه (**إنِ اتَّفَقَتْ**): أيْ هذه الخَصْلةُ، وفي نُسخةٍ «اتَّفَقتا».

وقولُه (**في كُلِّ عَصْرٍ**): مُتَعَلِّقٌ بـ«اتَّفَقَتْ»، و«العَصْرُ» مُثَلَّثٌ، وأَبْعَدَ الدلجيُّ في تجويزِ تَعَلُّقِه بـ«يَشْرُفُ» وتَقديمِه. قولُه (**وَأَوانٍ**): عَطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ فإنَّ العَصْرَ الدَّهْرُ؛ وهوَ الزَّمانُ، و«الأَوانُ» زَمانٌ مَخصوصٌ، وفي بَعْضِ النُّسَخِ حَذْفُ «وَأَوانٍ».

قولُه (**إمّا مِنْ نَسَبٍ**): تفصيلٌ وبَيانٌ لِما مَرَّ؛ أيْ رِفعةِ نَسَبٍ. وقولُه (**أَوْ جَمالٍ**): أيْ حُسْنِ صورةٍ.

وقولُه (**حَتّى يَعْظُمَ قَدْرُه**): غايةٌ لِوَصْفِه بِما ذُكِرَ. قولُه (**وتُضْرَبَ**): -بصيغةِ المَجهولِ- أيْ تُبَيَّنَ، وقولُه (**باسْمِه الأَمْثالُ**): في حَياتِه ومَماتِه، فيُقالُ: أَجْوَدُ مِنْ حاتِمٍ، وحَسّانُ زَمانِه، وأَشْجَعُ أَقْرانِه.

قولُه (**أُثْرةٌ**): -بِتَثْليثِ الهَمْزةِ وسكونِ المُثَلَّثةِ- أيْ مَكْرُمةٌ يَنْفَرِدُ بِها. قولُه (**عُصورٍ خَوالٍ**): أيْ دُهورٍ باليةٍ.

قولُه (**ولا يُنالُ**): -بِضَمِّ الياءِ- أيْ لا يَحْصُلُ بِكَسْبٍ.

قولُه (**ووَضْعِ الإِصْرِ**): -بِكَسْرِ الهَمزةِ؛ قيلَ: وتُضَمُّ- أيْ حَطِّ العَهْدِ الثَّقيلِ.

عَنْهُـمْ، وَالقَسَـمِ بِاسْـمِهِ، وَإِجَابَـةِ دَعْوَتِـهِ، وَتَكْلِيـمِ الجَـمَادَاتِ وَالعُجْـمِ، وَإِحْيَـاءِ المَوْتَـى، وَإِسْـمَاعِ الصُّـمِّ، وَنَبْـعِ المَـاءِ مِـنْ بَـيْنَ أَصَابِعِـهِ، وَتَكْثِـيرِ القَلِيـلِ، وَانْشِـقَاقِ القَمَـرِ، وَرَدِّ الشَّـمْسِ، وَقَلْـبِ الأَعْيَـانِ، وَالنَّـصْرِ بِالرُّعْـبِ، وَالاطِّـلَاعِ عَـلَى الغَيْـبِ، وَظِـلِّ الغَـمَامِ، وَتَسْبِيحِ الحَـصَى، وَإِبْـرَاءِ الآلامِ، وَالعِصْمَـةِ مِـنَ النَّـاسِ..

.. إِلَى مَـا لَا يَحْوِيـهِ مُحْتَفِـلٌ، وَلَا يُحِيطُ بِعِلْمِـهِ إِلَّا مَانِحُـهُ ذَلِـكَ وَمُفَضِّلُـهُ بِـهِ لَا إِلَـهَ غَـيْرُهُ..

.. إِلَى مَـا أَعَدَّ اللهُ تَعَـالَى لَـهُ فِي الـدَّارِ الآخِـرَةِ مِنْ مَنَـازِلِ الكَرَامَـةِ، وَدَرَجَـاتِ القُـدْسِ، وَمَرَاتِـبِ السَّـعَادَةِ، وَالحُسْـنَى وَالزِّيَـادَةِ، الَّتِي تَقِـفُ دُونَهَـا العُقُـولُ، وَيَحَارُ دُونَ أَدَانِيهَـا الوَهْـمُ.

***

قولُـه (**وتَكْليـمِ الجَـمادَاتِ**): لِحَديـثِ البُخـاريِّ: (إنِّي لَأَعـرِفُ حَجَـرًا بِمَكَّـةَ كانَ يُسَـلِّمُ عَـلَيَّ)[1]؛ قيـلَ: هـوَ الحَجَـرُ الأَسْـوَدُ، وقيـلَ: هـوَ الحَجَـرُ المَرْكـوزُ في زُقـاقِ الحِجْـرِ.

قولُه (**رَدِّ الشمسِ**): أيْ في الخَنْدَقِ، وصَبيحةَ الإسراءِ[2].

قولُـه (**وقَلْـبِ الأَعْيـانِ**): أيِ الـذَّواتِ؛ لِحَديـثِ عُكاشَـةَ: (كانَ مـعَ النبـيِّ ﷺ يَـوْمَ بَـدْرٍ عَصًـا، فصـارَتْ بيَـدِه سَـيْفًا صارِمًـا)[3].

قولُـه (**يَحـارُ**): -بِفَتْـحِ اليـاءِ- أيْ يَتَحَـيَّرُ في مَعْرِفَتِهـا، وفي نُسـخةٍ «عِنْـدَ إدراكِهـا». وقولُـه (**الوَهْـمُ**): أيْ أَوْهـامُ الخَـواصِّ والعَـوامِّ.

***

(١) أخرجـه مسـلمٌ (٢٢٧٧) [كتـاب الفضائـل]، وغـيره مـن حديـث جابـر بـن سَـمُرَةَ. ولم نجده في «صحيـح البخـاريِّ».

(٢) سـيأتي الـكلام عليهـا (ص٣٢٥)، ووَرَد أنَّ الشـمسَ رُدَّت عـلى النبـيِّ ﷺ، فـرواه الطحـاويُّ في «مشـكل الآثـار» (١٠٦٧)، و(١٠٦٨) مـن طريقـين عـن أسـماء بنـت عميـس. وقـال الطحـاويُّ: «هـذان الحديثـان ثابتـان ورواتُهُـما ثقـات، ونُقِـل عـن الإمـام أحمـد بـن صالـح المصريِّ أنـه كان يقـول: «لا ينبغـي لمـن كان سـبيله العلـم التَّخَلُّـف عـن حِفـظ حديـث أسـماء، لأنـه مـن علامـات النبـوة».اهـ. ورواه الطـبرانيُّ في «الكبـير» (٢٤/ ٣٩١) بإسنادٍ حسنٍ كـما نـصَّ عليـه الحافـظُ أبـو زُرعـة ابـن العراقـيِّ في: «شرح التقريـب» (٧/ ٢٤٧)، و للحافـظ السـيوطيِّ جـزء «كشـف اللَّبـس عـن حديـث ردِّ الشـمس».

(٣) أخرجـه ابـن سـعدٍ في «الطبقـات» (١/ ١٨٨)، والبيهقـيُّ في «الدلائـل» (٣/ ٩٨، ٩٩).

قولُه (ابنِ أبي هالةَ): -بفتحِ الهاءِ واللّامِ- هو مِن خديجةَ الكُبرى؛ فهو ربيبُه ﷺ، واسمُه هِندٌ.

قولُه (جُحَيْفةَ): بِضَمِّ الجيمِ وفتحِ الحاءِ. وقولُه (سَمُرةَ): بِضَمٍّ ففتحٍ.

وقولُه (أُمِّ مَعْبَدٍ): بفتحِ الميمِ والباءِ الموحَّدةِ.

قولُه (ومُعَرِّضٍ): بِضَمِّ الميمِ وفتحِ العينِ المهمَلةِ وتشديدِ الرّاءِ المكسورةِ؛ قالَ المُلّا: وقالَ التِّلِمْسانيُّ: بكَسْرِ الميمِ وسُكونِ العَينِ وفَتْحِ الرّاءِ، قالَ التجانيُّ: كذا في روايَتي لِلكِتابِ. وقولُه (مُعَيْقِيبٍ): -بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِ العَينِ وسُكونِ التحتيّةِ وموحَّدةٍ- صَحابيٌّ على الصحيحِ كَما ذَكَره ابنُ الجَوْزيِّ. اهـ صفويٌّ.

قولُه (الطُّفَيْلِ): -بِضَمِّ الطاءِ المُهْمَلةِ وفَتْحِ الفاءِ وسُكونِ التحتيّةِ- عامرُ بنُ واثِلةَ الكِنانيُّ.

قولُه (والعَدّاءِ بنِ خالِدٍ): أي العامِريِّ؛ وهوَ بِفَتْحِ العَينِ المُهْمَلةِ وتَشديدِ الدالِ المُهْمَلةِ أيضًا مَمْدودًا.

قولُه (خُرَيْمِ): بِضَمِّ الخاءِ المُعْجَمةِ وفَتْحِ الرّاءِ المُهْمَلةِ وسُكونِ التحتيَّةِ. قولُه (فاتِكٍ): بِكَسْرِ المُثَنّاةِ الفَوْقيّةِ.

قولُه (حِزامٍ): -بِكَسْرِ الحاءِ وبالزايِ- أخُ لِخَديجةَ أُمِّ المؤمنينَ.

قولُه (أَزْهَرَ اللَّوْنِ): أيْ نَيِّرَ اللَّوْنِ أوْ حَسَنَه؛ قالَ السيدُ: وفي «القاموسِ» أنّه اللَّوْنُ الأبْيَضُ، والمُنيرُ المُشْرِقُ.

قولُه (أَدْعَجَ): قالَ السَّيِّدُ: رِوايةُ التِّرْمِذيِّ «أَدْعَجَ العينَيْنِ»[1]، والدَّعَجُ: -بالتحريكِ- شِدّةُ سَوادِ العَينْ -يَعْني الحَدَقةَ- مَعَ سَعَتِها.

قولُه (أَنْجَلَ): -بالنّونِ والجيمِ- أيْ ذا نَجَلٍ -بفتحتَيْنِ-؛ قالَ السيِّدُ: سَعةٌ في العَينِ مَعَ الحُسْنِ.

(١) سنن الترمذيِّ (٣٦٣٨) [باب ما جاء في صفة النبيِّ صلَّى ﷺ] من حديث علي بن أبي طالبٍ.

فَصْلٌ: [في جمالُ صُورتِهِ وحُسْنُ تناسُبِ أعْضائِه ﷺ]

فَإِنْ قُلْتَ -أَكْرَمَكَ اللهُ-: لَا خَفَاءَ عَلَى القَطْعِ بِالجُمْلَةِ أَنَّهُ ﷺ أَعْلَى النَّاسِ قَدْرًا، وَأَعْظَمُهُمْ مَحَلًّا، وَأَكْمَلُهُمْ مَحَاسِنَ وَفَضْلًا، وَقَدْ ذَهَبْتَ فِي تَفَاصِيلِ الخِصَالِ مَذْهَبًا جَمِيلًا، شَوَّقَنِي أَنْ أَقِفَ عَلَيْهَا مِنْ أَوْصَافِهِ ﷺ تَفْصِيلًا، ..

.. فَاعْلَمْ -نَوَّرَ اللهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ، وَضَاعَفَ فِي هَذَا النَّبِيِّ الكَرِيمِ حُبِّي وَحُبَّكَ- أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى خِصَالِ الكَمَالِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مُكْتَسَبَةٍ، وَفِي جِبِلَّةِ الخِلْقَةِ، وَجَدْتَهُ ﷺ حَائِزًا لِجَمِيعِهَا، مُحِيطًا بِشَتَاتِ مَحَاسِنِهَا، دُونَ خِلَافٍ بَيْنَ نَقَلَةِ الأَخْبَارِ لِذَلِكَ، بَلْ قَدْ بَلَغَ بَعْضُهَا مَبْلَغَ القَطْعِ.

أَمَّا الصُّورَةُ وَجَمَالُهَا، وَتَنَاسُبُ أَعْضَائِهِ فِي حُسْنِهَا، فَقَدْ جَاءَتِ الآثَارُ الصَّحِيحَةُ، وَالمَشْهُورَةُ الكَثِيرَةُ، بِذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَالبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَعَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، وَابْنِ أَبِي هَالَةَ، وَأَبِي جُحَيْفَةَ، وَجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، وَأُمِّ مَعْبَدٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُعَرِّضِ بْنِ مُعَيْقِيبٍ، وَأَبِي الطُّفَيْلِ، وَالعَدَّاءِ بْنِ خَالِدٍ، وَخُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ، وَحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ أَنَّهُ كَانَ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ، أَدْعَجَ، أَنْجَلَ، ..

.. أَشْكَلَ، أَهْدَبَ الأَشْفَارِ، أَبْلَجَ، أَزَجَّ، أَقْنَى، أَفْلَجَ، مُدَوَّرَ الوَجْهِ، وَاسِعَ الجَبِينِ، كَثَّ اللِّحْيَةِ تَمْلَأُ صَدْرَهُ،

قولُه (أَشْكَلَ): روايةُ مُسلِمٍ عَن جابرٍ: «أَشْكَلَ العينَيْنِ»(١)؛ أيْ في بَياضِهِما حُمْرةٌ على الصحيحِ، وذلكَ محمودٌ.

قولُه (أَهْدَبَ الأَشْفارِ): -قالَ السيدُ: رَواه التِّرْمذيُّ عَن عَليٍّ(٢)- أيْ كَثيرَ شَعْرِ حُروفِ أجفانِ عَيْنَيْه، وهوَ الهُدْبُ، جَمْعُ «شُفْرٍ» بِضَمٍّ وفَتْحٍ، وهوَ الشُّفيرُ؛ حَرفُ العَيْنِ، وعَنِ ابنِ عَبّاسٍ مَرفوعًا: (إنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ حِسانَ الوُجوهِ سودَ الحَدَقِ)(٣)؛ يَعْني مِنَ المُسْلِمينَ.

قولُه (أَبْلَجَ): -روايةُ البيهقيِّ: «أَبْلَجَ الوَجْهِ»(٤)- قالَ السيدُ: أيْ مُضيئًا مُشْرِقًا، والعَرَبُ تُحِبُّ البَلَجَ، وتَكْرَهُ القَرَنَ.

قولُه (أَزَجَّ): قالَ السيِّدُ: في «الصِّحاحِ»: الزَّجَجُ: دِقّةٌ في الحاجِبَيْنِ وطولٌ. قالَ: وفي «النِّهايةِ»: تَقَوُّسٌ في الحاجِبِ مَعَ طولِ أطرافِهما(٥).

قولُه (أَقْنى): روايةُ التِّرْمذيِّ «أَقْنى العِرنينِ»(٦)؛ قالَ السيِّدُ: وفي «النِّهايةِ»: العِرْنيْنُ الأَنْفُ، وقولُه (أَقْنى): أيْ مُرْتَفِعَ قَصَبةِ الأَنْفِ مَعَ احْديدابٍ يَسيرٍ فيها، هذا؛ والمَشْهورُ أنَّه ﷺ كانَ أَقْنى الأَنْفِ، أيْ مُرْتَفِعَ قَصَبتِه مَعَ استِواءِ أَعْلاه.

قولُه (أَفْلَجَ): بالفاءِ والجيمِ؛ روايةُ التِّرْمذيِّ: «مُفَلَّجَ الأسْنانِ»، وفي روايةٍ: «مُفَلَّجَ الثَّنايا»؛ قالَ السيِّدُ: في «النِّهايةِ»: الفَلَجُ -بالتحريكِ- فُرْجةُ ما بَيْنَ الثَّنايا والرَّباعيّاتِ.

قولُه (مُدَوَّرَ الوَجْهِ): قالَ السيِّدُ: إدارةً مُنافيةً لِلطُّولِ المُفْرِطِ، وما وَرَدَ مِنْ أنَّه مُدَوَّرُ الوَجْهِ كالبَدْرِ ففي الضِّياءِ والحُسْنِ.

قولُه (واسِعَ الجَبينِ): هوَ ما اكْتَنَفَ الجَبْهةَ مِنْ يَمينٍ وشِمالٍ.

قولُه (كَثَّ اللِّحْيةِ): -بِتَشْديدِ المُثَلَّثةِ- قالَ السَّيِّدُ: «الكَثاثةُ في اللِّحْيةِ: أنْ تَكونَ غَيْرَ دَقيقةٍ ولا طَويلةٍ»، و(اللِّحْيةِ): -بِكَسْرِ اللّامِ، وفي «الكَشّافِ»: أنَّ الفَتْحَ لُغةُ أَهْلِ الحِجازِ- الشَّعْرُ النابتُ على الذَّقَنِ خاصّةً. قولُه (تَمْلَأُ صَدْرَه): أيْ أَعْلى الصَّدْرِ؛ وإلّا لَطالَتْ، وقيلَ: تَمْلَأُ ما يُقابِلُ الصدرَ، فاستَوَتْ طولًا وعَرْضًا.

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٣٩) [كتاب الفضائل] من حديث جابر بن سمرة.

(٢) سنن الترمذيِّ (٣٦٣٨) [باب ما جاء في صفة النبيِّ ﷺ] من حديث علي بن أبي طالب.

(٣) ذكره السيوطيُّ في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ١٠٤) وعزاه إلى الديلميِّ، وسكتَ عنه، وقال ابن عرَّاق في «تنزيه الشريعة» (١/ ١٧٤): «في سنده جعفر ابن أحمد الدَّقَّاق وهو آفته فيما أظنُّ والله أعلم».

(٤) دلائل النبوة للبيهقيِّ (١/ ٢٧٩).

(٥) عبارة «النهاية»: «الزَّجَجُ: تَقَوُّس فِي الحَاجِبِ مَعَ طُول فِي طَرَفه وامْتِدَاد».

(٦) أخرجه الترمذيُّ في «الشمائل» (رقم ٧) من حديث هند بن أبي هالة.

سَوَاءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ، وَاسِعَ الصَّدْرِ، عَظِيمَ المَنْكِبَيْنِ، ضَخْمَ العِظَامِ، عَبْلَ العَضُدَيْنِ وَالذِّرَاعَيْنِ وَالأَسَافِلِ، رَحْبَ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، سَائِلَ الأَطْرَافِ، أَنْوَرَ المُتَجَرَّدِ، دَقِيقَ المَسْرُبَةِ، رَبْعَةَ القَدِّ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ البَائِنِ وَلَا القَصِيرِ المُتَرَدِّدِ -وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ يُمَاشِيهِ أَحَدٌ يُنْسَبُ إِلَى الطُّولِ إِلَّا طَالَهُ ﷺ[1]، رَجِلَ الشَّعْرِ، ..

(١) حديث (أنَّه كانَ رَبْعَةً ومَعَ ذلك لَمْ يَكُنْ يُماشيه أحدٌ يُنْسَبُ إلى الطُّولِ إلا طالَه...): ابنُ أبي خَيْثَمَةَ في تاريخه، والبَيْهَقيُّ [الدلائل ١/ ٢٩٨] عَنْ عائشةَ.

وقولُه (سَواءَ البَطْنِ والصَّدْرِ): -قالَ السيِّدُ: بالإضافةِ أوِ التنوينِ، ونَصْب (سَواءَ) كما في المُلَّا، ورفعها قَدْ شاعَ عَنْ هِنْدٍ- أيْ مُعْتَدِلَهما.

قولُه (واسِعَ الصَّدْرِ) وفي رِوايةٍ «رَحْبَ الصدرِ»، وقولُه (عَظيمَ المَنْكِبَيْنِ): -بكسرِ الكافِ- مَجْمَعُ رأسِ العَضُدِ والكَتِفِ.

قولُه (ضَخْمَ العِظامِ): -وفي رِوايةٍ «ضَخْمَ الكَراديسِ»- قالَ السيدُ: قيلَ: هيَ العِظامُ، وقيلَ: رُؤوسُ العِظامِ.

قولُه (عَبْلَ العَضُدَيْنِ): -«العَبْلُ»: بفتحِ المهمَلةِ وسُكونِ المَوحَّدةِ- أيْ ضَخْمَ العَضُدَيْنِ؛ ما بَيْنَ المِرْفَقِ والكَتِفِ. قولُه (والأَسافِلِ): أيِ الساقَيْنِ؛ قالَ السيِّدُ: ما بَيْنَ الكَعْبِ إلى الرُّكْبَةِ.

قولُه (رَحْبَ الكَفَّيْنِ والقَدَمَيْنِ): أيْ واسِعَهُما، و«رَحْبٌ»: بِفَتْحِ الراءِ وسُكونِ الحاءِ.

قولُه (سائلَ الأطرافِ): أيْ مُمْتَدَّ الأطرافِ؛ وهوَ بالسينِ المُهْمَلةِ أوِ بالمُعْجَمةِ.

قولُه ([أنْوَرَ] المُتَجَرَّدِ): -بالراءِ المُشَدَّدةِ- أيْ كانَ المُتَجَرَّدُ مِنْ بَدَنِه عَنْ ثيابِه أَشْرَقَ مِن غَيْرِه.

قولُه (دَقيقَ المَسْرُبةِ): -بِفَتْحِ الميمِ وسُكونِ السِّينِ المُهْمَلةِ وضَمِّ الرّاءِ وقَدْ تُفْتَحُ- وهوَ شَعْرٌ دَقيقٌ مِنَ الصَّدْرِ إلى البَطْنِ.

قولُه (رَبْعةَ القَدِّ): روايةُ البخاريِّ (رَبْعةً مِنَ القومِ)[1] أيِ المتوسِّطَ بَيْنَ الطّولِ والقِصَرِ، وروايةُ التِّرْمِذيِّ وغَيْرِه (أَطْوَلَ مِن المَرْبوعِ)[2]؛ ولِذا قالَ المُصَنِّف (لَيْسَ بالطويلِ البائنِ): أيِ مُفْرِطِ الطّولِ.

وقولُه (المُتَرَدِّدِ): أيِ المُتَناهي في القِصَرِ مِنَ الارتدادِ بِمَعْنى الرُّجوعِ. قولُه (إلّا طالَه): أيْ غَلَبَه النبيُّ ﷺ في الطّولِ؛ مَزيّةٌ خُصَّ بِها تَلْويحًا بأنَّه لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أفضَلَ مِنْه؛ لا صورةً ولا مَعْنًى. اه مُلّا، قالَ السيدُ: وهَلْ ذَلكَ إرادةٌ أو إطالةٌ ثُمَّ عَوْدٌ حقيقةً؟ فيه تَرَدُّدٌ. اه، وما اشْتَهَرَ على أَلْسِنةِ بَعْضِ الفُقَهاءِ في مَوالِدِهم «وإذا مَشى مَعَ القَصيرِ حاذاه» فباطِلٌ لا أَصْلَ له في السُّنَّةِ لِما عَلِمْتَ مِنْ حِكْمةِ الطّولِ.

قولُه (رَجِلَ الشَّعْرِ): في صحيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ[3] بفَتْحٍ ثُمَّ كَسْرٍ؛ قالَ السيِّدُ: وجازَ فَتْحُهما، قالَ السيِّدُ: في «المَواهِبِ» إنَّ شَعْرَه بَيْنَ شَعرَينِ لا رَجِلٌ ولا سَبِطٌ؛ مبالَغةً في قِلّةِ التَّثَنّي.

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٤٧) [كتاب المناقب] من حديث أنس بن مالكٍ.

(٢) الشمائل المحمدية للترمذي (٨) [باب ما جاء في خَلْق رسول الله ﷺ].

(٣) صحيح مسلم (٢٣٣٨) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «كانَ شَعَرًا رَجِلاً لَيْسَ بالجَعْدِ..» الحديث.

إِذَا افْتَرَّ ضَاحِكًا افْتَرَّ عَنْ مِثْلِ سَنَا الْبَرْقِ، وَعَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ رِيءَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ ثَنَايَاهُ(١)، أَحْسَنَ النَّاسِ عُنُقًا، لَيْسَ بِمُطَهَّمٍ وَلَا مُكَلْثَمٍ، مُتَمَاسِكَ الْبَدَنِ، ضَرْبَ اللَّحْمِ.

قَالَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(٢).

(١) حديث (أنّه كان إذا تكلَّمَ رُئِيَ كالنورِ يَخرجُ من ثناياه): الدّارميُّ [٦٣]، والبيهقيُّ [الدلائل (١/ ٢١٥)]، والتِّرمذيُّ في «الشمائل» [١٤] عن ابن عبّاسٍ.

(٢) حديث البراء (ما رأيتُ من ذي لِمَّةٍ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٥٥١)، ومسلمٌ واللفظ له (٢٣٣٧)].

وقولُـه (**إذا افْـتَرَّ ضاحِـكًا... إلـخ**): -بتشـديدِ الـرّاءِ- أيْ إذا أَبْـدى أسـنانَه حـالَ كَوْنِـه ضاحِـكًا.

(**افْـتَرَّ... إلـخ**): أي انكَشَـفَ. قولُـه (**سَـنا الـبَرْقِ**): -بالقَـصْرِ وقَـدْ يُمَـدُّ، وقيـلَ: بالقَـصْرِ النـورُ، وبالمَـدِّ الـشَّرَفُ والعُلُـوُّ.

قولُـه (**حَـبِّ الغَـمامِ**): أيِ السَّـحابِ، وهـوَ الـبَرَدُ بفتحتَـيْنِ؛ يَعْنـي مِثْلَـه في البَيـاضِ والصَّفـاءِ وامتِـزاجِ المـاءِ.

قولُـه (**ريءَ**): بكـسرِ الـراءِ وسـكونِ اليـاءِ التحتيـةِ فهَمـزةٍ مَفتوحـةٍ، ورويَ «رُئـيَ» بتقديـرِ أنَّـه مَبْنيٌّ لِلمَجهـولِ؛ مِـنَ الرُّؤيـةِ وهـوَ ظاهِـرٌ، قـالَ السـيِّدُ: الظاهـرُ أنَّ المَعْنى أنَّـه يَخْـرُجُ مِـنَ الفَلَـجِ مـا يُشْـبِهُ نـورَ النَّجْـمِ، وقيـلَ: يَخـرُجُ مِـن صَفـاءِ الثَّنايـا تَلَألُـؤٌ، وقـالَ الطيِّبـيُّ: في (**يَخـرُجُ**) ضَمـيرٌ لِلـكَلامِ؛ فهـوَ تشْـبيهٌ في الظُّهـورِ إلى النـورِ، والـكافُ زائـدةٌ.

قولُـه (**لَيْـسَ بمُطَهَّـمٍ**): -بتشـديدِ الهـاءِ المفتوحـةِ بَعْـدَ الطـاءِ المَفتوحـةِ- أيْ لَمْ يَكُـنْ مُـدَوَّرَ الوَجْـهِ مُجْتَمِعَـه.

قولُـه (**ولا بالمُكَلْثَـمِ**): -بفَتْـحِ المُثَلَّثـةِ- أيْ لا بمُجْتَمِـعِ لَحْـمِ الوَجْـهِ؛ بَـلْ مَسـنونُ الوَجْـهِ، و«الكُلْثـومُ»: كَثـيرُ لَحْـمِ الوَجْـهِ والخَدَّيْـنِ كَـما قالَـه «الجَوْهَـريُّ».

قولُه (**مُتماسِكَ البَدَنِ**): أيْ مُعتَدِلَ الخَلْقِ؛ كأنَّ أعضاءَه يُمسِكُ بَعْضُها بَعْضًا.

قولُه (**ضَرْبَ اللَّحْمِ**): في «البَيْهقيِّ»: «رَجُلٌ ضَرْبٌ لَيْسَ بناحِلٍ ولا مُنتَفِخٍ».

قولُـه (**مِـنْ ذي لِمَّـةٍ**): -بكَـسْرِ الـلَّامِ وتشـديدِ الميـمِ- مـا جـاوَزَ مِـنْ شَـعْرِ الـرأسِ شَـحمةَ الأُذُنِ عـلى المَشْـهورِ، و«الجُمَّـةُ»: مـا سَـقَطَ عَـنِ المَنْكِبَـيْنِ، و«الوَفْـرةُ»: مـا سـالَ عـلى الأُذُنِ أوْ جـاوَزَ الشَّـحْمةَ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا ضَحِكَ يَتَلَأْلَأُ فِي الجُدُرِ(١).

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَكَانَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ، وَكَانَ مُسْتَدِيرًا(٢).

وَقَالَتْ أُمُّ مَعْبَدٍ فِي بَعْضِ مَا وَصَفَتْهُ بِهِ: أَجْمَلُ النَّاسِ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْلَاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ(٣).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ أَبِي هَالَةَ: يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ(٤).

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي آخِرِ وَصْفِهِ لَهُ: مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ، ﷺ.(٥)

وَالأَحَادِيثُ فِي بَسْطِ صِفَتِهِ مَشْهُورَةٌ كَثِيرَةٌ؛ فَلَا نُطَوِّلُ بِسَرْدِهَا، وَقَدِ اخْتَصَرْنَا فِي وَصْفِهِ نُكَتَ مَا جَاءَ فِيهَا، وَجُمْلَةً مِمَّا فِيهِ الكِفَايَةُ فِي القَصْدِ إِلَى المَطْلُوبِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَقَدْ خَتَمْنَا هَذِهِ الفُصُولَ بِحَدِيثٍ جَامِعٍ لِذَلِكَ، نَقِفُ عَلَيْهِ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

***

(١) حديثُ أَبِي هريرةَ (ما رأيْتُ شيئًا أَحْسَنَ من رسولِ اللهِ ﷺ ...): الترمذيُّ [٣٦٤٨]، وأحمدُ [٨٦٠٤]، وابنُ حِبَّانَ [٦٣٠٩].

(٢) حديث جابر بن سمرة (وقال له رجلٌ كانَ وَجْهُ رسولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ...): الشيخان [مسلمٌ (٢٣٤٤)، وأخرجه البخاريُّ (٣٥٥٢) من حديث البراء].

(٣) حديثُ أُمِّ مَعْبَدٍ (أَجْمَلُ الناسِ مِنْ بَعيدٍ، وأَحْلاه وأَحْسَنُه مِن قَريبٍ): البيهقيُّ في «الدَّلائل» [١/ ٢٧٨] مِن حديثِ حُبَيْشِ بن خالدٍ الصحابيِّ عَن أُختِه أُمِّ مَعْبَدٍ عاتكةَ بنتِ خالدٍ [وأخرجه عنه أيضًا مطوَّلًا الحاكم (٣/ ١٠)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٤/ ٤٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (رقم ٤٨٣)، وغيرهم].

(٤) حديثُ هند بن أَبي هالةَ: سيأتي [ص١٩٦].

(٥) حديث عَليٍّ (مَنْ رآه بَديهةً...): الترمذيُّ [٣٦٣٨].

قولُه (كَأَنَّ الشمسَ تَجْري... إلخ): أيْ تَتوَهَّجُ لِشدَّةِ بَهاءِ بَياضِه ونورِه؛ ولِذا قالَتْ عائشةُ: «كُنْتُ أُكَلِّمُ النبيَّ ﷺ والبيتُ لا سِراجَ فيه، فإذا تَكَلَّمَ امتَلأَ نورًا»(١).

***

(١) لم أجده بهذا اللفظ فيما اطَّلعت عليه من مصادر حديثية. وفي معناه من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قولها: «استعرتُ مِن حفصة بنت رواحة إبره كنت أخيط بها ثوب رسول الله ﷺ فسقطت مِنِّي الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها فدخل رسول الله ﷺ فتبيَّنْتُ الإبرة من شعاع نور وجهه».
أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٣/ ٣١٠)، والديلميُّ في مسنده كما في كنز العمال (١٢/ ٤٢٩)، وإسماعيل بن محمَّدٍ الأصبهانيُّ في دلائل النبوة (رقم ١١٧) وأخرج نحوه أيضًا الخطيب في تاريخه (١٣/ ٢٥٢-٢٥٣)، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (٢٨/ ٣١٩) ، وابن عساكر في تاريخه (٣/ ٣٠٨، ٣٠٩) ، وأبو نعيم في الدلائل، والديلمي في مسنده كما في الخصائص (١/ ١٦٧)، وفيه: «وجعل عرقه يتولَّد نورا فبهت».

فَصْلٌ: [في نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ﷺ]

وَأَمَّا نَظَافَةُ جِسْمِهِ، وَطِيبُ رِيحِهِ وَعَرَقِهِ، وَنَزَاهَتُهُ عَنِ الأَقْذَارِ وَعَوْرَاتِ الجَسَدِ، فَكَانَ قَدْ خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ بِخَصَائِصَ لَمْ تُوجَدْ فِي غَيْرِهِ، ثُمَّ تَمَّمَهَا بِنَظَافَةِ الشَّرْعِ، وَخِصَالِ الفِطْرَةِ العَشْرِ، وَقَالَ ﷺ: (بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ)(١).

حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ العَاصِي وَغَيْرُ وَاحِدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «مَا شَمَمْتُ عَنْبَرًا قَطُّ، وَلَا مِسْكًا، وَلَا شَيْئًا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّهُ ﷺ مَسَحَ خَدَّهُ، قَالَ: «فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا وَرِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ»(٣).

قَالَ غَيْرُهُ: مَسَّهَا بِطِيبٍ أَمْ لَمْ يَمَسَّهَا، يُصَافِحُ المُصَافِحَ؛ فَيَظَلُّ يَوْمَهُ يَجِدُ رِيحَهَا، وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ، فَيُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ الصِّبْيَانِ بِرِيحِهَا(٤).

وَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي دَارِ أَنَسٍ، فَعَرِقَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ بِقَارُورَةٍ تَجْمَعُ فِيهَا عَرَقَهُ، فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ(٥).

قولُه (قَالَ: مَا شَمَمْتُ عَنبَرًا): قَالَ الشمنيُّ: بكسرِ الميمِ في الماضي على الأفصحِ وفَتْحِها في المُضارِعِ.

قولُه (مِن جُؤْنَةِ): -بِضَمِّ الجيمِ وهَمْزةٍ بَعْدَها، ويَجوزُ بالواوِ بغيرِ همزةٍ- سَلَّةٌ صغيرةٌ مُغَشَّاةٌ.

قولُه (فَيَظَلُّ): بِفَتْحِ الظاءِ وتشديدِ لامٍ.

قولُه (بقارورةٍ): أي بإناءٍ مِن زُجاجٍ.

---

(١) حديث (بُنِيَ الدِّينُ على النَّظَافة): قال الحافظُ أبو الفضل العراقيُّ في تخريج «الإحياء» [الإحياء ١/ ٤٩]: لَمْ أَجِدْه هكذا، وفي «الضُّعفاء» لابن حِبَّانَ [١١٢١] من حديث عائشة (تنظَّفُوا فإنَّ الإسلامَ نَظيفٌ)، وللطَّبَرانيِّ في «الأوسَط» [٧٣١١] من حديث ابن مَسعودٍ (والنظافةُ تدعُو إلى الإيمانِ)، وسَنَدُهما ضَعيفٌ. قلتُ: رَوى الترمذيُّ [٢٧٩٩] عَن سعدِ بن أَبي وَقَّاص مرفوعًا (إنَّ اللهَ نَظيفٌ يُحِبُّ النظافةَ؛ فنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكم).

(٢) حديثُ أَنَسٍ (ما شَمَمْتُ عَنْبَرًا...): أَسْنَدَه المُصَنِّفُ من طريقِ مُسْلم [٢٣٣٠].

(٣) حديثُ جابر بن سَمُرَةَ (أنَّه ﷺ مَسَحَ خَدَّه، قال: فوَجَدْتُ لِيَدِه بَرْدًا أو رِيحًا كأنَّما أَخْرَجَها مِن جُؤْنَةِ عَطَّارٍ): مُسلمٌ [٢٣٢٩].

(٤) حديث (أنَّه كانَ يَضَعُ يَدَه على رأسِ الصبيِّ فيُعْرَفُ مِن بَيْنِ الصِّبيانِ بريحِها): [ذكره أبو نعيم (٥٦٦)، والبيهقيُّ (١/ ٣٠٥) في «الدلائل»، وابن عساكر في «التاريخ» (٣/ ٣٦٢)].

(٥) حديثُ (أنَّه نامَ في دارِ أَنَسٍ فعَرِقَ...): مُسلمٌ [٢٣٣١].

وَذَكَرَ البُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ الكَبِيرِ عَنْ جَابِرٍ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ فِي طَرِيقِهِ، فَيَتْبَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ سَلَكَهُ مِنْ طِيبِهِ.(١)

وَذَكَرَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ أَنَّ تِلْكَ كَانَتْ رَائِحَتَهُ بِلَا طِيبٍ ﷺ.

وَرَوَى الحَرْبِيُّ عَنْ جَابِرٍ: أَرْدَفَنِي النَّبِيُّ ﷺ خَلْفَهُ، فَالتَقَمْتُ خَاتَمَ النُّبُوَّةِ بِفَمِي، فَكَانَ يَنِمُّ عَلَيَّ مِسْكًا.(٢)

وَقَدْ حَكَى بَعْضُ المُعْتَنِينَ بِأَخْبَارِهِ وَشَمَائِلِهِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَغَوَّطَ انْشَقَّتِ الأَرْضُ، فَابْتَلَعَتْ غَائِطَهُ وَبَوْلَهُ، وَفَاحَتْ لِذَلِكَ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ ﷺ، وَأَسْنَدَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ كَاتِبُ الوَاقِدِيِّ فِي هَذَا خَبَرًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: تَأْتِي الخَلَاءَ، فَلَا نَرَى لَكَ شَيْئًا مِنَ الأَذَى، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، أَوَ مَا عَلِمْتِ أَنَّ الأَرْضَ تَبْتَلِعُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ؛ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ؟!(٣)

قوله (يَنِمُّ): -بكسر النون وتُضَمُّ- أي يَجْلِبُ الريحَ ويُفُوحُ.

---

(١) حديث (أنَّه لَمْ يَكُنْ يَمُرُّ في طريق فيَتبَعُه أَحَدٌ إلّا عَرَفَ أنَّه سَلَكَه من طِيبه): عَزاه المُصَنِّفُ لـ«تاريخ البُخاريِّ الكَبير» [١٢٧٣]، وأَخْرَجَه بهذا اللفظ الدارميُّ [٧٢]، والبَيهقيُّ [٦/ ٦٩] من طريق أَبِي الزُّبَيْر عَن جابر، وأَخْرَجَ البَزّارُ [٧١١٨] وأبو يَعْلَى [٣١٢٥] بسَنَد جَيِّدٍ عن أَنَس (كانَ إذا مَرَّ في الطريقِ مِنْ طُرُقِ المَدينة وُجِدَ منه رائحةُ المِسْك، فيُقالُ: مَرَّ رَسولُ الله ﷺ من هذا الطريق).

(٢) حديثُ جابر (أَرْدَفَني رَسولُ الله ﷺ [خَلفَه]، فالتَقَمْتُ خاتَمَ النُّبُوَّةِ بِفَمي، فكانَ يَنِمُّ عليَّ مِسْكًا): ابنُ عَساكِرَ في تاريخه [١١/ ٢٣٠].

(٣) حديث (أنَّه كانَ إذا أَرادَ أَنْ يَتَغَوَّطَ انشَقَّتِ الأرضُ فابتَلَعَتْ غائطَه، وسَطَعَتْ لذلك رائحةٌ طَيِّبَةٌ): البَيهقيُّ [٦/ ٧٠] عنْ عائشة، وقالَ: موضوعٌ. وأَخرَجَ الحَكيمُ التِّرمذيُّ في «نَوادرِ الأُصول» مِن طَريق عبد الرحمن بن قَيْس -وهْوَ وَضّاعٌ كَذّابٌ- عَن عبد الملك بن عبد الله بن الوليد -وهْوَ مجهولٌ- عنْ ذَكْوانَ (أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يُرَى له ظِلٌّ في شَمْسٍ ولا قَمَرٍ، ولا أَثَرُ قَضاءِ حاجَة). وأَخْرَجَ الدارَقُطْنيُّ في «الأفراد» [أطراف الأفراد لابن القيسراني ٦٢٠١] بسَنَد ثابت عَن عائشةَ قالَتْ: (قُلْتُ: يا رسولَ الله، إنِّي أَراكَ تَدْخُلُ الخَلاءَ ثُمَّ يَجيءُ الذي يدخُلُ بَعْدَكَ، فلا يَرى لِما يَخْرُجُ منْك أَثَرًا؟ فقالَ: يا عائشةُ، أَمَا عَلِمْت أَنَّ الله أَمَرَ الأَرْضَ أَنْ تَبْتَلِعَ ما خَرَجَ مِنَ الأنبياء). وقَدْ عَزَا المُصَنِّفُ هذا الأخير لابن سعد، وقالَ: إنَّه غَيْرُ مَشْهُور. قُلْتُ: هُوَ أَقْوَى ما في الباب، وقَدْ قالَ ابنُ دِحْيَةَ في «الخَصائص» بَعْدَ إيراده: هذا سَنَدٌ ثابتٌ، وأَخْرَجَ الحاكمُ [٤/ ٧٢] بسَنَد فيه مُبهَمٌ من حديث لَيْلَى مَوْلاةِ عائشةَ قالَتْ: (دَخَلَ رسولُ الله ﷺ لقَضاء حاجَته، فدَخَلْتُ، فلَمْ أَرَ شَيْئًا، ووَجَدْتُ ريحَ المِسْك، فقُلْتُ: يا رسولَ الله، إنِّي لَمْ أَرَ شَيْئًا، قالَ: إنَّ الأرضَ أُمِرَتْ أَنْ تَكفِنَه منّا مَعاشرَ الأنبياء)، وله طُرُقٌ أُخْرَى أَوْرَدْناها في كِتاب «المعجزات»، فهْوَ ثابتٌ كَما قالَه ابنُ دِحْيَةَ.

وَهَذَا الخَبَرُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بِطَهَارَةِ هَذَيْنِ الحَدَثَيْنِ مِنْهُ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ، حَكَاهُ الإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنُ الصَّبَّاغِ فِي شَامِلِهِ، وَقَدْ حَكَى القَوْلَيْنِ عَنِ العُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرِ بْنُ سَابِقٍ المَالِكِيُّ فِي كِتَابِهِ «البَدِيعِ» فِي فُرُوعِ المَالِكِيَّةِ، وَتَخْرِيجِ مَا لَمْ يَقَعْ لَهُمْ مِنْهَا عَلَى مَذْهَبِهِمْ مِنْ تَفَارِيعِ الشَّافِعِيَّةِ.

وَشَاهِدُ هَذَا أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ يُكْرَهُ وَلَا غَيْرُ طَيِّبٍ، وَمِنْهُ حَدِيثُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «غَسَّلْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ مَا يَكُونُ مِنَ المَيِّتِ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا، فَقُلْتُ: طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا»[1]، قَالَ: «وَسَطَعَتْ مِنْهُ رِيحٌ لَمْ نَجِدْ مِثْلَهَا قَطُّ».

وَمِثْلُهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ حِينَ قَبَّلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ.[2]

وَمِنْهُ شُرْبُ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ دَمَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَصُّهُ إِيَّاهُ، وَتَسْوِيغُهُ ﷺ ذَلِكَ لَهُ، وَقَوْلُهُ (لَنْ تُصِيبَهُ النَّارُ)[3].

وَمِثْلُهُ شُرْبُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ دَمَ حِجَامَتِهِ، وَقَالَ لَهُ ﷺ: (وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْكَ)، وَلَمْ يُنْكِرْهُ.[4]

وَقَدْ رُوِيَ نَحْوٌ مِنْ هَذَا عَنْهُ ﷺ فِي امْرَأَةٍ شَرِبَتْ بَوْلَهُ، فَقَالَ لَهَا: (لَنْ تَشْتَكِي وَجَعَ بَطْنِكِ أَبَدًا)، وَلَمْ يَأْمُرْ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِغَسْلِ فَمٍ، وَلَا نَهَاهُ عَنْ عَوْدَةٍ.

---

(١) حديث عليٍّ (غَسَّلْتُ النبيَّ ﷺ فذهَبْتُ أَنْظُرُ...): الحاكمُ [٣/ ٥٩]، والبيهقيُّ [٦٦٢٦]، وابنُ ماجهْ [١٤٦٧]، وأبو داودَ في «المراسيل» [٤١٥].

(٢) حديث أبي بكر (أنَّه قبَّلَ النبيَّ ﷺ بَعْدَ مَوْته، وقالَ: طِبْتَ حيًّا ومَيِّتًا): البزَّارُ [١٠٣] عَن ابن عُمَرَ بسَنَد صَحيح. [والحديث في أخرجه البخاريُّ (٣٦٦٧) من حديث السيدة عائشة].

(٣) حديث (شُرْبُ مالكِ بن سِنَان دَمَه يَوْمَ أُحُد ومَصُّه إيَّاه، وقولُه له: لَنْ تُصيبَه النَّارُ): الطَّبَرانيُّ في «الأَوْسَط» [٩٠٩٨] عَن أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ (أَنَّ أَبَاه...)، ولَيْسَ في سَنَده مَن أُجْمِعَ على ضَعْفه، وأَخرجَ البيهقيُّ [الدلائل ٣/ ٢٦٦] من وَجْهٍ آخَرَ عن عمرَ بن السائبِ أنَّه بلَغَه... فذَكَرَه.

(٤) حديث (شُرْب عبد الله بن الزُّبَير دَمَ حِجَامَته فقالَ له: وَيْلٌ لَكَ مِنَ الناس، ووَيْلٌ لهم مِنْكَ): الحاكمُ [٣/ ٥٥٤]، والبَيهقيُّ [١٣٤٠٧]، والبزَّارُ [٢٢١٠]، والطبَرانيُّ [كما في «مجمع الزوائد» ٨/ ٢٧٠] وسَنَدُه جيِّدٌ.

وَحَدِيثُ هَـٰذِهِ المَرْأَةِ الَّتِي شَرِبَتْ بَوْلَهُ صَحِيحٌ، أَلْزَمَ الدَّارَقُطْنِيُّ مُسْلِمًا وَالبُخَارِيَّ إِخْرَاجَهُ فِي «الصَّحِيحِ»، وَاسْمُ هَـٰذِهِ المَرْأَةِ «بَرَكَةُ»، وَقِيلَ: هِيَ أُمُّ أَيْمَنَ، وَاخْتُلِفَ فِي نَسَبِهَا، وَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَتْ: (وَكَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَدَحٌ مِنْ عَيْدَانٍ، يُوضَعُ تَحْتَ سَرِيرِهِ، يَبُولُ فِيهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَبَالَ فِيهِ لَيْلَةً، ثُمَّ افْتَقَدَهُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَسَأَلَ «بَرَكَةَ» عَنْهُ، فَقَالَتْ: قُمْتُ، وَأَنَا عَطْشَانَةٌ، فَشَرِبْتُهُ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ)، رَوَى حَدِيثَهَا ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ.[1]

قوله (وكانَتْ تَخْدُمُ النبيَّ): بضَمِّ الدالِ وتُكْسَرُ -كَما في «القاموسِ».

قولُه (قَدَحٌ مِن عَيْدانٍ): بفَتْحِ عَيْنٍ مُهْمَلَةٍ[1].

---

(١) حديث (أنَّ امرأةً شَرِبَتْ بَوْلَه، فقالَ لها: لَنْ تَشْتَكي وَجَعَ بَطْنِك)، وهْيَ بَرَكةُ، وحديث أُمِّ أَيْمَنَ (أنَّها كانَتْ تَخْدُمُه، وأنَّه كانَ له قَدَحٌ من عَيْدانٍ يُوضَعُ تَحْتَ سَريره...): اختُلفَ في هذَين الحديثَين هَلْ هُما قَضيّتانِ أو قَضيةٌ واحدةٌ؟!

فرَوَى الحاكمُ [٤/ ٦٣] والدارَقُطنيُّ [«العلل» ٤١٠٦] عن أمِّ أَيْمَنَ قالَتْ: (قامَ رسولُ الله ﷺ منَ اللَّيْلِ إلى فَخّارةٍ في جانبِ البيت، فبالَ فيها، فقُمْتُ منَ الليلِ وأنا عَطْشانةٌ، فشَرِبْتُ ما فيها وأنا لا أَشْعُرُ، فلَمَّا أَصْبَحَ قال: يا أُمَّ أَيْمَنَ، قُومي فأَهْريقي ما في تلك الفَخّارة، قُلْتُ: قَدْ -والله- شَرِبْتُ ما فيها، فضَحِكَ، ثُمَّ قال: أَمَا والله إنَّه لا يَفْجَعُك بَطْنُك أَبَدًا). ورواه أبو يَعْلَى [كما في «المطالب العالية» (٣٨٢٣)] بلَفْظِ (لَنْ تَشْتَكي بطْنَك).

وأَخرَجَ عبدُ الرزّاق عن ابن جُرَيْج قال (أخبرْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَبُولُ في قَدَحٍ من عيدان ثُمَّ يوضَعُ تَحْتَ سَريره، فجاءَ فإذا القَدَحُ لَيْسَ فيه شَيْءٌ.. فقالَ لامرأةٍ يقالُ لها بَرَكَةُ كانَتْ تَخدُمُ أمَّ حَبيبةَ، جاءَتْ مَعَها من أرض الحَبَشة: أينَ البَولُ الذي كانَ في القَدَح؟ قالَتْ: شَرِبْتُه، قال: صَحَّحْتِ يا أُمَّ يوسُفَ -وكانَتْ تُكْنَى أمَّ يوسُفَ- فما مَرِضَتْ قَطُّ حَتَّى كانَ مَرَضُها الذي ماتَتْ فيه).

وأَخْرَجَ أبو داودَ [٢٤] وابنُ حِبّانَ [١٤٢٦] والحاكمُ [١/ ١٦٧] عَن أُمَيْمَةَ بنت رُقَيْقَةَ قالَتْ (كانَ لِرَسول الله ﷺ قَدَحٌ مِن عَيْدانٍ تحتَ سَريره يَبُولُ فيه باللَّيل). قالَ ابنُ دِحْيَةَ: الأَصَحُّ أَنَّهما قَضيَّتانِ وقَعَتا لِامرأَتَيْن، وبَرَكَةُ أُمُّ يوسُفَ غَيْرُ أُمِّ أَيْمَنَ، و«يفْجَع» بموحدة وجيم.

(١) جاء في «ذخيرة العقبى»: وقال الزركشي في تخريج أحاديث الرافعي: «عيدان» مختلف في ضبطه بالكسر والفتح، واللغتان بإزاء معنيين، فالكسر جمع عود، والفتح جمع عيدانة بفتح العين، قال أهل اللغة: هي النخلة الطويلة المتجردة، وهي بالكسر أشهر رواية، وفي كتاب تثقيف اللسان: مَنْ كَسَرَ العين فقد أخطأ، يعني لأنه أراد جمع عود وإذا اجتمعت الأعواد لا يتأتى منها قدح يحفظ الماء، بخلاف من فتح العين، فإنه يريد قَدَحا من خشب هذه صفته يُنْقَر ليحفظ ما يجعل فيه. اهـ. زهر ج١/ ص٣٢.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ وُلِدَ مَخْتُونًا، مَقْطُوعَ السُّرَّةِ[1]، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أُمِّهِ آمِنَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: (وَلَدْتُهُ نَظِيفًا مَا بِهِ قَذَرٌ)[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (ما رَأَيْتُ فَرْجَ النبيِّ ﷺ قَطُّ)[3].

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَوْصَانِي النَّبِيُّ ﷺ لا يُغَسِّلُهُ غَيْرِي؛ (فَإِنَّهُ لَا يَرَى أَحَدٌ عَوْرَتِي إِلَّا طُمِسَتْ عَيْنَاهُ)[4].

وَفِي حَدِيثِ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ نَامَ حَتَّى سُمِعَ لَهُ غَطِيطٌ، فَقَامَ، فَصَلَّى، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، قَالَ عِكْرِمَةُ: لأَنَّهُ كَانَ ﷺ محفوظًا[5].

***

قولُه (ابنُ جُرَيْجٍ) بالجيمينِ مُصغَّرًا.

قولُه (مَقطوعَ السُّرَّةِ): بضَمِّ السينِ.

قولُه (ما بِه قَذَرٌ): أيْ وَسَخٌ.

وقولُه (إلّا طُمِسَتْ عَيْناه): بصيغةِ المجهولِ، والطَّمْسُ المَحْوُ.

***

(١) حديث (أنَّه وُلِدَ مختونًا مقطوعَ السُّرَّة): الطَّبَرانيُّ في «الأَوْسَطِ» [٦١٤٨]، وأبو نُعَيم [٣/ ٢٤] والخَطيبُ [١/ ٣٤٦] من طُرُق عَنْ أَنَس مَرفوعًا (من كَرامَتي على رَبِّي أنِّي وُلِدْتُ مختونًا، ولَمْ يَرَ أحَدٌ سَوْأَتي). وصَحَّحه الضِّياءُ في «المُختارةِ» [١٨٦٤].
ووَرَدَ أيْضًا من حديثِ أبي هريرةَ وابنِ عُمَرَ، أخْرَجَها أبو نُعَيْم في «الدَّلائلِ» [٩٢] بسَنَدٍ ضَعيفٍ، وبالَغَ الحاكمُ [٢/ ٦٠١] فقال (تواتَرَتِ الأخبارُ بذلك).
وأخرَجَ ابنِ سَعد [١/ ١٠٣] والبيهقيُّ في «الدَّلائل» [١/ ١١٤] بسَنَد ضَعيفٍ عَن ابنِ عبّاس عَنْ أبيه قالَ (وُلِدَ النبيُّ ﷺ مَخْتُونًا مَسْرُورًا)، وأخرَجَه ابنُ جُمَيعٍ في معجَمِه [ص ٣٣٦] بسنَدٍ واهٍ عَن ابن عباس، ولَمْ يُذْكَرْ أباه.

(٢) حديث أنَّ أُمَّه آمِنَةَ قالَتْ (وَلَدْتُه نَظيفًا ما به قَذَرٌ): ابنُ سَعد في طَبقاته [١/ ١٠٢]: أنا عمرُو بنُ عاصم الكلابي، ثنا هَمّامُ بنُ يَحْيى، عَن إسحاقَ بنِ عبدِ الله أنَّ أُمَّ رسولِ الله ﷺ قالَتْ ....، فذَكَرَه.

(٣) حديث عائشةَ (ما رأيْتُ فَرْجَ رَسولِ الله ﷺ قَطُّ): الترمذيُّ في «الشَّمائلِ» [٣٤٢]، وابنُ ماجَهْ [٦٦٢].

(٤) حديث عليٍّ (أَوْصاني لا يُغَسِّلُه أَحَدٌ غَيْري؛ «فإنَّه لا يرَى أَحَدٌ عوْرَتِي إلا طُمِسَتْ عَيْناه»): البزّارُ [٩٢٥] والبَيهقيُّ [«الدلائل» ٧/ ٢٤٤].

(٥) حديث ابنِ عَبّاسٍ (أنَّه نَامَ حَتَّى سُمِعَ له غَطيطٌ، فقَامَ فصَلَّى ولَمْ يَتوَضَّأْ): الشيخانِ [البخاريُّ (٦٩٨)، ومسلمٌ (٧٦٣) بلفظ (ثُمَّ نَامَ حَتَّى نَفَخَ»)].

فَصْلٌ: [في وُفورِ عَقْلِه وذكاءِ لُبِّهِ وقُوةِ حَواسِّه ﷺ]

وأَمَّا وُفُورُ عَقْلِه، وَذَكَاءُ لُبِّه، وَقُوَّةُ حَوَاسِّه، وَفَصَاحَةُ لِسَانِه، وَاعْتِدَالُ حَرَكَاتِه، وَحُسْنُ شَمَائِلِه ﷺ؛ فَلَا مِرْيَةَ أَنَّهُ كَانَ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَذْكَاهُمْ، وَمَنْ تَأَمَّلَ تَدْبِيرَهُ أَمْرَ بَوَاطِنِ الخَلْقِ وَظَوَاهِرِهِمْ، وَسِيَاسَتَه لِلْعَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، مَعَ عَجِيبِ شَمَائِلِه، وَبَدِيعِ سِيَرِه، فَضْلًا عَمَّا أَفَاضَهُ مِنَ العِلمِ، وَقَرَّرَهُ مِنَ الشَّرْعِ دُونَ تعَلم سَبَقَ، وَلَا مُمَارَسَةٍ تَقَدَّمَتْ، وَلَا مُطَالَعَةٍ لِلْكُتُبِ مِنْهُ، لَمْ يَمْتَرِ فِي رُجْحَانِ عَقْلِهِ وَثُقُوبِ فَهْمِهِ لِأَوَّلِ بَدِيهَةٍ، وَهَذَا مَا لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْرِيرِهِ لِتَحَقُّقِهِ.

وَقَدْ قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: (قَرَأْتُ فِي أَحَدٍ وَسَبْعِينَ كِتَابًا، فَوَجَدْتُ فِي جَمِيعِهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلًا، وأَفْضَلُهُمْ رَأْيًا).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى (فَوَجَدْتُ فِي جَمِيعِهَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُعْطِ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ بَدْءِ الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَائِهَا مِنَ العَقْلِ فِي جَنْبِ عَقْلِهِ ﷺ إِلَا كَحَبَّةِ رَمْلٍ مِنْ بَيْنِ رِمَالِ الدُّنْيَا).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (كَانَ ﷺ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ يَرَى مِنْ خَلْفِهِ كَمَا يَرَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﷺ)[1]، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.

وَفِي «المُوَطَّأ»، عَنْهُ ﷺ: (إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي)[2]، وَنَحْوُهُ عَنْ أَنَسٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]، وَعَنْ عَائِشَةَ مِثْلُهُ، قَالَتْ: (زِيَادَةٌ زَادَه اللهُ إِيَّاهَا فِي حُجَّتِهِ)[4].

قولُه (مِنْ خَلْفِه كَما يَرى مِنْ بَيْنِ يَدَيْه): يَجوزُ في (مِنْ) أنْ تَكونَ جارّةً وأنْ تَكونَ مَوصولةً؛ قالَ النوويُّ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ لَه ﷺ إدراكًا في قَفاه يُبْصِرُ بِه»، قالَ الشمنيُّ: «جُمهورُ العُلَماءِ: إنَّ هذه الرؤيةَ رُؤيةُ عَيْنٍ حقيقةً».

قولُه (بَقيُّ بنُ مَخْلَدٍ): بفتحِ الموحَّدةِ وكَسْرِ القافِ وتشديدِ التحتيّةِ، و(مَخْلَدٍ): بفَتْحِ الميمِ واللّامِ بَيْنَهما خاءٌ معجَمةٌ.

---

(١) حديث (كانَ إذا قامَ في الصَّلاةِ يَرَى من خَلْفه كَما يَرَى من بَيْنِ يَدَيْه): ابنُ المُنذر [الدر المنثور ٦/ ٣٣٢] والبيهقيُّ [الدلائل ٦/ ٧٤] عنْ مجاهد مرسَلًا بهذا اللَّفْظ، وقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رِوايَةَ «الصحيحَين» [البخاريُّ (٤١٨)، ومسلمٌ (٤٢٤)] مَعْزُوَّةً إليهما.

(٢) [أخرجه مالك في الموطأ (٧٠) [كتاب قصر الصلاة في السفر]، ومن طريقه البخاري (٤١٨)، ومسلم (٤٢٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَالله عَنْهُ مرفوعًا].

(٣) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧١٩)، ومسلمٌ (٤٣٤)، من طريقين عن أنسٍ رَضِيَالله عَنْهُ مرفوعًا].

(٤) حديث عائشةَ (زِيادةٌ زادَه اللهُ إيَّاها في حُجَّته): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده مسندًا، وذكره العراقي في طرح التثريب (٢/ ٣٧٦)، ولم يعزه].

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: (إِنِّي لَأَنْظُرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ)(1)، وَفِي أُخْرَى: (إِنِّي لَأُبْصِرُ مِنْ قَفَايَ كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ)(2).

وَحَكَى بَقِيُّ بْنُ مَخْلَدٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرَى فِي الظُّلْمَةِ كَمَا يَرَى فِي الضَّوْءِ)(3).

وَالأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ فِي رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ المَلَائِكَةَ وَالشَّيَاطِينَ(4)، وَرُفِعَ النَّجَاشِيُّ لَهُ حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ(5)، وَبَيْتُ المَقْدِسِ حِينَ وَصَفَهُ لِقُرَيْشٍ(6)، وَالكَعْبَةُ حِينَ بَنَى مَسْجِدَهُ(7)، وَقَدْ حُكِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّه كَانَ يَرَى فِي الثُّرَيَّا أَحَدَ عَشَرَ نَجْمًا(8).

قولُه (والكعبةُ): أيْ ورُفِعَتِ الكعبةُ له حتّى رآها حينَ بَنى مَسجِدَه ﷺ.

---

(1) حديثُ (إِنِّي لَأَنْظُرُ من وَرائي كَمَا أَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ): عبدُ الرزّاقِ في جامِعِه [3737]، والحاكمُ [1/ 235] عَنْ أَبي هُريرةَ.

(2) حديث (إِنِّي لَأُبْصِرُ مِن قَفَايَ كَمَا أُبْصِرُ مِن بَيْنِ يَدَيَّ): مُسْلِمٌ [423].

(3) حديث عائشةَ (كانَ يَرَى في الظُّلْمةِ كَمَا يَرَى في الضَّوْءِ): ابن عدي [5/ 365] والبيهقي [6/ 75]، وأخرجه أيضًا [6/ 75] عن ابن عبّاس.

(4) [أمّا رؤية الملائكة فمنها ما أخرج البخاريُّ (3232)، ومسلم (174)، وغيرهما عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه: (رأى جبريل، له ستمائة جناح)، وفي رواية (رأى جبريل في صورته وخلقه ساد ما بين الأفق». وأما رؤيته للشاطين فمنها ما أخرجه البخاري (461)، مسلم (541)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (إنَّ عفريتًا من الجنّ تفلّت علي البارحة ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردتُ أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي)، قال روح (فرده خاسئًا»)].

(5) حديث (أنَّه رُفعَ له النجاشيُّ حتّى صَلَّى علَيْه): لَمْ أَجِدْه، إنَّما الواردُ (أنَّه رُفعَ إلَيْه معاويةُ بنُ معاويةَ المُزَنيُّ حينَ صلَّى عَلَيْه النبيُّ ﷺ...)، أخرجَه أبو يَعلَى [4268] والبيهقي [7033] من حديث أنس.

(6) حديث (أنَّه رُفع له بيتُ المَقدِس حينَ وَصَفَه لِقُريشٍ): الشيخانِ [البخاري (3886)، ومسلم (170)] عَن جابرِ بنِ عبدِ الله.

(7) حديث (أنَّه رُفعَتْ له الكَعبةُ حِينَ بَنَى مسجدَه): ابنُ بَكّارٍ في «أخبارِ المَدينةِ» عن ابن شهابٍ ونافعِ بنِ جُبيرِ بنِ مطعم مرسَلًا.

(8) حديث (أنَّه كانَ يَرَى في الثُّرَيَّا أحدَ عشرَ نَجمًا): لَمْ أَجِدْه.

وَهَذِهِ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى رُؤْيَةِ العَيْنِ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى رَدِّهَا إِلَى العِلْمِ، وَالظَّوَاهِرُ تُخَالِفُهُ، وَلَا إِحَالَةَ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ مِنْ خَوَاصِّ الأَنْبِيَاءِ وَخِصَالِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ العَدْلُ فِي كِتَابِهِ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ المُقْرِيُّ الفَرْغَانِيُّ، حَدَّثَتْنَا أُمُّ القَاسِمِ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِيهَا، حَدَّثَنَا الشَّرِيفُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَسَنِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَمَّا تَجَلَّى اللهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُبْصِرُ النَّمْلَةَ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ مَسِيرَةَ عَشَرَةِ فَرَاسِخَ)(١). وَلَا يَبْعُدُ عَلَى هَذَا أَنْ يَخْتَصَّ نَبِيُّنَا ﷺ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ هَذَا البَابِ بَعْدَ الإِسْرَاءِ وَالحُظْوَةِ بِمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى.

وَقَدْ جَاءَتِ الأَخْبَارُ أَنَّهُ صَرَعَ رُكَانَةَ أَشَدَّ أَهْلِ وَقْتِهِ(٢)، وَكَانَ دَعَاهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَصَارَعَ أَبَا رُكَانَةَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ شَدِيدًا، وَعَاوَدَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَصْرَعُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَشْيِهِ، كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا، وَهُوَ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ.(٣)

وَفِي صِفَتِهِ أَنَّ ضَحِكَهُ كَانَ تَبَسُّمًا(٤)، إِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا، وَإِذَا مَشَى مَشَى تَقَلُّعًا، كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ(٥).

***

(١) حديث (لَمَّا تجلَّى اللهُ لموسى كانَ يُبصرُ النَّمْلةَ...): الطَّبَرانيُّ في «الصَّغير» [لم أجده في المطبوع، وذكره في «الدر المنثور» (٣/ ٥٤٥)، وعزاه لأبي الشيخ من حديث أبي هريرة].

(٢) حديث (أنَّه صَرَعَ رُكَانَةَ أَشَدَّ أَهْلِ وَقْتِه...): أبو داودَ [٤٠٧٨] والتِّرمذيُّ [١٧٨٤].

(٣) حديثُ أَبي هُريرةَ (ما رأيتُ أَحَدًا أَسْرَعَ من رسولِ الله ﷺ في مَشْيه...): الترمذيُّ في «الشمائل» [١١٦]، والبيهقي في «الدلائل» [١/ ٢٠٩].

(٤) [أخرجه الترمذي في السنن (٣٦٤٢)، والشمائل (٢٢٩)، وغيره من حديث عبدالله بن الحارث رضي الله عنه، وفي حديث هند بن أبي هالة كما في الشمائل (٢٢٦) (جُلُّ ضَحِكِه التَّبَسُّمُ)].

(٥) [أخرجه الترمذي في السنن (٣٦٣٨)، والشمائل (٧)، وغيره من حديث الإمام عليٍّ رضي الله عنه].

وقولُه (حَدَّثَنا هَمَّامٌ): قالَ الشمنيُّ: كَذا في كثيرٍ مِنَ النُّسَخِ. قالَ الحَلَبيُّ وغيرُه: صَوابُه «هانِي بنُ يَحْيى»، وهَمّامٌ إنَّما أَثْبَتَه بَعضُ الكَتَبةِ ولَيْسَ في أَصْلِ السَّنَدِ.

قولُه (رُكانةَ): هوَ بِضَمِّ الراءِ وتخفيفِ الكافِ. وقولُه (أبا رُكانةَ): تَقَدَّمَ(١).

قولُه (لَنُجْهِدُ أنفُسَنا): بفتحِ النونِ والهاءِ، وفي نُسخةٍ بِضَمِّ النونِ وكَسْرِ الهاءِ؛ مِنْ «جَهَدَ دابَّتَه، وأَجْهَدَها»: حَمَلَ عَلَيْها فَوْقَ طاقَتِها.

***

(١) قال الشهاب في قوله (وصارع أبا ركانة في الجاهلية): أي قبل ظهور الإسلام بمكة، قال البرهان: الذي صح أنه ركانة، وأما أبو ركانة فلم يصح.

فَصْلٌ: [في فَصَاحةِ لِسَانِه وبلاغةِ قَوْلِه ﷺ]

وَأَمَّا فَصَاحَةُ اللِّسَانِ، وَبلاغَةُ القَوْلِ، فَقَدْ كَانَ النبيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ بِالمَحَلِّ الأَفْضَلِ، وَالمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، سَلَاسَةَ طَبْعٍ، وَبَرَاعَةَ مَنْزَعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةَ لَفْظٍ، وَجَزَالَةَ قَوْلٍ، وَصِحَّةَ مَعَانٍ، وَقِلَّةَ تَكَلُّفٍ.

أُوتِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَخُصَّ بِبَدَائِعِ الحِكَمِ، وَعُلِّمَ أَلْسِنَةَ العَرَبِ، فَكَانَ يُخَاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْهَا بِلِسَانِهَا، وَيُحَاوِرُهَا بِلُغَتِهَا، وَيُبَارِيهَا فِي مَنْزَعِ بَلَاغَتِهَا، حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَنْ شَرْحِ كَلَامِهِ وَتَفْسِيرِ قَوْلِهِ، مَنْ تَأَمَّلَ حَدِيثَهُ وَسِيَرَهُ عَلِمَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ، وَلَيْسَ كَلَامُهُ مَعَ قُرَيْشٍ وَالأَنْصَارِ وَأَهْلِ الحِجَازِ وَنَجْدٍ كَكَلَامِهِ مَعَ ذِي المِشْعَارِ الهَمْدَانِيِّ، وَطِهْفَةَ النَّهْدِيِّ[1]، وَقَطَنِ بْنِ حَارِثَةَ العُلَيْمِيِّ[2]، وَالأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ، وَوَائِلِ بْنِ حُجْرٍ الكِنْدِيِّ، ..

---

(١) قوله (ككلامِه مَعَ ذِي المِشْعار وطِهْفَةَ النَّهْدِيِّ): سيأتي في قوله (وقولَه لنَهْد: اللهُمَّ بارِكْ لهم في مَحْضِها)... إلخ. [ص١١٧].

(٢) قوله (وقَطَن بن حارثَةَ): المعروفُ حارثةُ بنُ قَطَنٍ؛ أخرجَ ابنُ سَعْدٍ [١/ ٣٥٥] عَن هشام بن الكَلْبيِّ عَن أَبي صالح -رَجُلٌ من بَني كنانةَ-، عَنْ رَبيعةَ بن إبراهيمَ الدِّمَشْقيِّ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كتَبَ لحارثةَ بن قَطَن كتابًا فيه (من محمد رسول الله لأَهْلِ دَوْمَةِ الجَنْدَلِ وما يَليها مِنْ طَوائف كَلْب مَعَ حارثَةَ بن قَطَن، لَنَا الضاحِيَةُ مِنَ البَقْلِ، ولَكُمُ الضامِنَةُ مِنَ النَّخْلِ، على الجارِيةِ العُشْرُ، وعلى الغائرة نِصْفُ العُشْر، لا تُجْمَعُ سارِحَتُكم، ولا تُعْدَلُ فارِدَتُكم، تُقيمونَ الصلاةَ لوَقْتِها، وتُؤْتُونَ الزَّكاةَ بحَقِّها، لا يُحْظَرُ عَلَيْكم النَّبَاتُ، ولا يُؤْخَذُ منْكم عُشْرُ البَتَاتِ، لكم بذلك العهْدُ والميثاقُ، ولنا عليكم النُّصحُ والوفاءُ وذِمَّةُ اللهِ ورسولِه. شَهِدَ اللهُ ومَن حَضَرَ مِنَ المسلِمينَ). أخرجَه ابنُ عَساكِرَ في تاريخه [١١/ ٣٩٨].

قولُه (سَلاسَةَ طَبْعٍ): مَنصوبٌ بِنَزْعِ الخافِضِ، ويَصِحُّ فَتْحُه على الظرفيةِ؛ أيْ «في سَلاسَةِ طَبْعٍ».

وقولُه (وبَراعَةَ مَنْزَعٍ): أيْ جَوْدَةَ لِسانٍ؛ قالَ الشمنيُّ: «البَراعَةُ»: مَصْدَرُ «بَرَعَ الرَّجُلُ» -بضَمِّ الراءِ وفَتْحِها-؛ أيْ فاقَ أقرانَه في العِلْمِ وغَيْرِه، و«المَنْزَعُ»: -بفتحِ الزايِ- المَأْخَذُ.

وقولُه (وإيجازَ مَقْطَعٍ): أيْ قَوْلٍ. قولُه (وجَزالَةَ قَوْلٍ): -بفَتْحِ الجيمِ والزّاي- خِلافُ الرَّكاكَةِ؛ أيْ قُوّةَ قَوْلٍ.

وقولُه (ويُحاوِرُها بلُغَتِها): -بالحاءِ المُهْمَلَةِ- أيْ يُجاوِبُها، وقولُه (ويُبارِيها): أيْ يُعارِضُها.

قولُه (مَعَ ذي المِشْعارِ): هوَ رَجُلٌ اسمُه مالِكٌ؛ بِكَسْرِ الميمِ وسُكونِ الشّينِ المعجَمةِ ثُمَّ عَيْنٍ مُهْمَلَةٍ، وقيلَ معجمةٌ. قوله (الهَمْدانيِّ): -بِسُكونِ الميمِ- نِسبةٌ إلى «هَمْدانَ» قَبيلةٍ مِنَ اليَمَنِ.

وقولُه (وطِهْفَةَ): بكَسْرِ المُهْمَلَةِ وسُكونِ الهاءِ، قولُه و(النَّهْديِّ): بِفَتْحِ النُّونِ، وسُكونِ الهاءِ.

وقولُه (وقَطَنٍ): بالقافِ والمُهْمَلَةِ المفتوحتَيْنِ بَعْدَهما نونٌ، وقولُه (بنِ حارِثَةَ): بالحاءِ المُهْمَلَةِ والمُثَلَّثَةِ، و(العُلَيْميِّ): بِضَمِّ العَيْنِ وفَتْحِ اللّامِ؛ مِنْ بَني عُلَيْمٍ.

وقولُه (ووائلِ بنِ حُجْرٍ): بضَمِّ الحاءِ وسُكونِ الجيمِ، وقولُه (الكِنْديِّ): بِكَسْرِ الكافِ وسُكونِ النّونِ.

.. وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقْيَالِ حَضْرَمَوْتَ وَمُلُوكِ اليَمَنِ.

وَانْظُرْ كِتَابَهُ إِلَى هَمْدَانَ:

(إِنَّ لَكُمْ فِرَاعَهَا وَوِهَاطَهَا وَعَزَازَهَا، تَأْكُلُونَ عِلافَهَا وَتَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا، لَنَا مِنْ دِفْئِهِمْ وَصِرَامِهِمْ مَا سَلَّمُوا بِالمِيثَاقِ وَالأَمَانَةِ، وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ الثِّلْبُ وَالنَّابُ، وَالفَصِيلُ وَالفَارِضُ، وَالدَّاجِنُ وَالكَبْشُ الحَوَرِيُّ، وَعَلَيْهِمْ فِيهَا الصَّالِغُ وَالقَارِحُ)[1].

(١) قوله (كتَابَه إلى هَمْدَانَ: إنَّ لَكُم فِرَاعَها ووهَاطَها...): الزَّجَّاجيُّ في أَماليه [ص ١٥٢] مُعْضَلًا.

وقولُه (مِنْ أَقْيالِ حَضْرَموتَ): «الأَقْيالُ» بِفَتْحِ الهَمْزةِ وسُكونِ القافِ وفَتْحِ المُثنّاةِ مِنْ تَحْتُ ثُمَّ أَلِفٍ ولامٍ؛ جَمْعُ «قَيْلٍ» بِفَتْحِ القافِ وسُكونِ المُثنّاةِ، وهوَ مَلِكٌ مِنْ مُلوكِ حِمْيَرَ، و«حَضْرَمَوْتُ»: اسمٌ لِبَلْدةٍ باليَمَنِ. اهـ شمنيٌّ.

وقولُه (إنَّ لَكُم فِراعَها): بِفاءٍ مَكسورةٍ وراءٍ وعَينٍ مُهْمَلةٍ، و«الفِراعُ»: ما عَلا مِنَ الأرضِ، وقولُه (ووِهاطَها): -بِكَسْرِ الواوِ وبالطّاءِ المُهْمَلةِ- جَمْعُ «وَهْطٍ» بفَتْحِ الواوِ وسُكونِ الهاءِ، وهوَ المُطْمَئِنُّ مِنَ الأرضِ، وقولُه (وعَزازَها): -بفَتْحِ العَيْنِ وبزائَيْنِ مُخفَّفَتَيْنِ- قالَ الشمنيُّ: هوَ ما اشتَدَّ مِنَ الأرضِ وصَلُبَ.

وقولُه (عِلافَها): -بكَسْرِ العَيْنِ المُهْمَلةِ وتخفيفِ اللّامِ- قالَ الشمنيُّ: جَمْعُ «عَلَفٍ»، وقولُه (عَفاءَها): أيْ نَبْتَ عَفائِها، قالَ الشمنيُّ: بِفَتْحِ العَينِ والفاءِ والمَدِّ، وهوَ ما لَيْسَ لِأَحَدٍ فيه مِلْكٌ، قالَ: ومِنْه الحديثُ: (أَقْطَعَ ﷺ مِن أَرْضِ المَدينةِ ما كانَ عَفاءً)[1]، مِنْ «عَفا الشيءُ»: إذا خَلُصَ.

وقولُه (لَنا مِن دِفْئِهِم وصِرامِهِم): «الدِّفْءُ»: بكَسْرِ المهمَلةِ والفاءِ الساكِنةِ وهَمْزةٍ، قالَ الشمنيُّ: مِنْ إبِلِهِم، (وصِرامِهِم): أيْ ثِمارِ نَخيلِهِم، وفي «اليَمَنيِّ»: الدِّفْءُ نِتاجُ إبِلِهِم. وقولُه (ما سَلَّموا): بِفَتْحِ السّينِ وتَشديدِ اللّامِ. وقولُه (بالميثاقِ): أيِ العَهْدِ؛ قالَ الشمنيُّ: لَعَلَّه أرادَ الإسلامَ؛ أيْ لا تُقْبَلُ صَدَقةٌ إلّا مِنَ المُسلِمينَ، وهوَ شَرْطُ الزَّكاةِ.

وقولُه (الثِّلْبُ): -بِكَسْرِ المُثَلَّثةِ وإسكانِ اللّامِ بَعْدَها باءٌ مُوحَّدةٌ؛ وهيَ مِنْ ذُكورِ الإبِلِ- الَّذي تكَسَّرَتْ أسنانُه، وقَدْ هَرِمَ، (والنّابُ): الهَرِمةُ مِنَ الإناثِ الَّتي طالَ نابُها.

وقولُه (والفَصيلُ والفارِضُ): (الفَصيلُ): وَلَدُ الناقةِ إذا فُصِلَ عَنْها، أيْ فُطِمَ، و(الفارِضُ): -بالفاءِ- المُسِنُّ مُطْلَقًا. وقولُه (والدّاجِنُ): المَعلوفُ في البَيْتِ مِنَ الشّياهِ، وقولُه (الحَوَريُّ): الجَيِّدُ -بفَتحِ الحاءِ المهمَلةِ وإسكانِ الواوِ[2]- نِسبةً إلى «الحَوَرِ»: جُلودٌ تُتَّخَذُ مِن جُلودِ الضأْنِ.

وقولُه (الصّالِغُ): بِفَتْحِ الصادِ المُهمَلةِ والغَيْنِ المعجَمةِ بَعْدَ اللّامِ، وفي نسخةٍ بالضادِ المعجَمةِ والعَينِ المهمَلةِ، قالَ في «الصِّحاحِ»: «الصَّلْغةُ»: الشّاةُ إذا أَسْقَطَتِ السِّنَّ الَّتي خَلْفَ السَّديسِ. وقولُه (والقارِحُ): -بالقافِ- أيِ الفَرَسُ القارِحُ، وهوَ الَّذي دَخَلَ في الخامِسِ.

(١) لم أجده بهذا اللفظ فيما اطَّلعتُ عليه مِن مصادر حديثيَّة. وذكره ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٢٦٦) [مادة: عفا]، ولم يعزه، ونقله عنه بعض أصحاب الحواشي.

(٢) في حاشية الشمني على الشفا: «بحاء مهملة وواو مفتوحتين وراء مكسورة وياء نسبة»، وكذا في شرح الملا.

وَقَوْلُهُ ﷺ لِنَهْدٍ: (اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ، وَافْجُرْ لَهُ الثَّمَدَ، وَبَارِكْ لَهُ فِي المَالِ وَالوَلَدِ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَانَ مُخْلِصًا، ..

لَكُمْ -يَا بَنِي نَهْدٍ- وَدَائِعُ الشِّرْكِ، وَوَضَائِعُ المِلْكِ، لَا تُلْطِطْ فِي الزَّكَاةِ، وَلَا تُلْحِدْ فِي الحَيَاةِ، وَلَا تَتَثَاقَلْ عَنِ الصَّلَوَاتِ، ..

وَكَتَبَ لَهُمْ فِي الوَظِيفَةِ الفَرِيضَةَ: وَلَكُمُ الفَارِضُ وَالفَرِيشُ وَذُو العِنَانِ الرَّكُوبُ وَالفَلُوُّ الضَّبِيسُ، لَا يُمْنَعُ سَرْحُكُمْ، وَلَا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ، وَلَا يُحْبَسُ دَرُّكُمْ، مَا لَمْ تُضْمِرُوا الإِمَاقَ، وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ، ..

قولُه (**لِنَهْدٍ**): -بفتحٍ فسُكونٍ- قَبيلةٌ باليَمَنِ.

وقولُه (**في مَحْضِها**): هوَ اللَّبَنُ الخالِصُ، وهوَ بالحاءِ المُهْمَلةِ، وفي الحديثِ: (ذلكَ مَحْضُ الإيمانِ)[1]. قوله (**ومَخْضِها**): -بالخاءِ المعجمةِ- ما مُخِضَ مِنَ اللَّبَنِ وأُخْرِجَ زُبْدُه، وقولُه (**ومَذْقِها**): -بالذّالِ المُعْجَمةِ بَعْدَها قافٌ- المَزْجُ والخَلْطُ، يُقالُ «مَذَقْتُ اللَّبَنَ»: أيْ خَلَطْتُه بالماءِ.

قولُه (**في الدَّثْرِ**): -بِفَتْحِ الدّالِ وإسكانِ المُثَلَّثةِ بَعْدَها راءٌ- الخِصْبُ والنَّباتُ الكثيرُ. قولُه (**الثَّمَدَ**): -بالمُثَلَّثةِ وتحريكِ الميمِ- الماءُ القَليلُ أَجْرِه لَه حَتّى يَصيرَ كَثيرًا.

قولُه (**وَدائعُ الشِّرْكِ**): أرادَ إحلالَها لَهم لِأَنَّها مالُ كافِرٍ قُدِرَ عَلَيْه مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ ولا شَرْطٍ.

وقولُه (**ووَضائعُ المِلْكِ**): جَمْعُ «وَضيعةٍ»؛ هيَ الوَظيفةُ التي تكونُ على المِلْكِ، الَّتي تَلْزَمُ المسلمينَ كالزَّكاةِ، لا نَزيدُ عليْكم فيها شَيْئًا.

وقولُه (**لا تُلْطِطْ في الزَّكاةِ**): -قالَ ابنُ الأثيرِ: رويَ خِطابًا لِنَهْيِ الجَمْعِ، والإفرادُ لا وَجْهَ له[2]- أيْ لا تَمْنَعِ الزَّكاةَ ولا تَجْحَدْ. وقولُه (**ولا تُلْحِدْ في الحَياةِ**): أيْ لا يَقَعْ مِنْك مَيْلٌ عَنِ الحَقِّ ما دُمْتَ حَيًّا.

قوله (**الفَريضةَ**): هيَ الهَرِمةُ، وهيَ الفارِضُ أيضًا. وقولُه (**والفَريشُ**): -بِفَتْحِ الفاءِ وكَسْرِ الرّاءِ بَعْدَها ياءٌ ساكِنةٌ وشينٌ مُعْجَمةٌ- قالَ في «الصحيحِ»: هيَ كُلُّ ذاتِ حافِرٍ بَعْدَ نَتاجِها بسبعةِ [أيّامٍ].

قولُه (**ذو العِنانِ**): -بِكَسْرِ العَينِ المُهْمَلةِ- قالَ ابنُ الأثيرِ: يُريدُ الفَرَسَ الذَّلولَ. قولُه (**والفَلُوُّ**): -بِفَتْحِ الفاءِ وضَمِّ اللّامِ وتشديدِ الواوِ- المُهْرُ.

قولُه (**سَرْحُكم**): -بفتحِ السينِ المهملةِ، وإسكانِ الراءِ، والحاءِ المهملةِ- أيْ ماشيَتُكم.

قولُه (**يُعْضَدُ... إلخ**): أيْ يُقْطَعُ؛ و«الطَّلْحُ»: شَجَرُ العِضاةِ. قولُه (**ولا يُحْبَسُ دَرُّكُم**): أيْ لَبَنُ ماشيَتِكم.

قولُه (**ما لَمْ تُضْمِروا الإماقَ**): أيْ تُخْفوا النِّفاقَ. قولُه (**الرِّباقَ**): جَمْعُ «رِبْقٍ»؛ وهوَ الحَبْلُ فيه عِدّةُ عُرًى يُشَدُّ بِها البَهْمُ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣) من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ»

(٢) قال الملا: نهي لم يُرد به واحدا معينا كما رواه البيهقي بل لكل من يأتي منه توجيه الخطاب وتوجه الكتاب.

قولُـه (**والذِّمّـةِ**): بِمَعنى العَهْـدِ. قولُـه (**فَعَلَيْـهِ الرُّبْـوةُ**): أيِ الزِّيـادةُ في الفَريضـةِ؛ عُقوبـةً لـه.

قولُـه (**العَباهِلـةِ**): أيِ المُلـوكِ. قولُـه (**الأَرْواعِ**): بِمَعْنـى الحِسـانِ الوُجـوهِ. قولُـه (**المَشـابيبِ**): أيِ الـرُّؤوسِ الزُّهْـرِ الألـوانِ السـارّةِ.

قولُـه (**فِي التِّيعـةِ**): هـيَ الأربَعـونَ مِـنَ الغَنَـمِ؛ قـالَ أَبـو سَـعيدٍ: أَدْنـى مـا يَجِـبُ مِـنَ الصَّدَقَـةِ؛ كالأربَعـينَ مِـنَ الغَنَـمِ فيهـا شـاةٌ، كَـما أنَّهـا في خَمْـسٍ مِـنَ الإبِـلِ.

قولُـه (**لا مُقْـوَرّةُ الأَلْيـاطِ**): يَعْنـي: لا مُسـتَرخيةٌ؛ و(الأَلْيـاطِ): في الأَصْـلِ جَمْـعُ «ليـطٍ»، وهـوَ القِشْرُ الـلّازِقُ بالعـودِ. قولُـه (**ولا ضِنـاكٌ**): أيْ مُكْتَنِـزةُ اللَّحْـمِ.

قولُـه (**وأَنْطـوا**): -بفتـحِ الهمـزةِ وسكونِ النـونِ- لُغَـةٌ يَمانيّـةٌ في «أَعْطـوا»، و(**السَّـبِجةَ**): بِمَعْنـى الوَسَـطِ في الصَّدقَـةِ. قولُـه (**وفي السُّـيوبِ**): أيِ الـرِّكازِ.

قولُـه (**مِـمْ بِكْـرٍ**): قـالَ ابـنُ الأَثـيرِ: «لُغَـةُ أَهْـلِ اليَمَـنِ؛ يُبْدِلـونَ لامَ التعريـفِ ميـمًا»، يَعْنـي: اللُّغَـةَ الحِمْيَرِيّـةَ.

قولُـه (**فاصْفَعـوه**): أيْ اضرِبـوهُ؛ والأصـلُ فيـه الـضربُ عـلى الـرأسِ. قولـه (**واسـتَوْفِضوهُ**): أيْ غَرِّبـوهُ وانْفـوهُ واطـرُدوه. قولُـه (**فَضَرِّجـوهُ**): أيْ أَدْمـوهُ بِالـضَّربِ. قولُـه (**بِالأَضاميـمِ**): أيِ الحِجـارةِ.

قولُـه (**ولا تَوْصيـمَ**): أيْ كَسَـلَ. قولُـه (**ولا غُمّـةَ**): أيْ لا تُسْـتَرُ ولا تُخْفـى فرائضُـه.

قولُـه (**يَتَرَفَّـلُ**): أيْ يَتَسَـوَّدُ ويَـتَرَأَّسُ؛ استعارةٌ مِـن ترفيـلِ الثـوبِ؛ أيْ إسـباغِه.

.. مَـنْ أَقَـرَّ فَلَـهُ الوَفَـاءُ بِالعَهْـدِ وَالذِّمَّـةِ، وَمَـنْ أَبَـى فَعَلَيْـهِ الرُّبْوَةُ)[1].

وَفِي كِتَابِـهِ ﷺ لِوَائِـلِ بْـنِ حُجْـرٍ: (إِلَى الأَقْيَـالِ العَبَاهِلَـةِ، وَالأَرْوَاعِ المَشَـابِيبِ)، وَفِيـهِ: (فِي التِّيْعَـةِ شَـاةٌ، لَا مُقْـوَرَّةُ الأَلْيَـاطِ، وَلَا ضِنَـاكٌ، وَأَنْطُـوا الثَّبَجَـةَ، وَفِي السُّـيُوبِ الخُمُـسُ، وَمَـنْ زَنَـى مِمْ بِكْـرٍ فَاصْفَعُـوهُ مِائَـةً، وَاسْـتَوْفِضُوهُ عَامًـا، وَمَـنْ زَنَـى مِـمْ ثَيِّـبٍ فَضَرِّجُـوهُ بِالأَضَامِيـمِ، وَلَا تَوْصِيـمَ فِي الدِّيـنِ، وَلَا غُمَّـةَ فِي فَرَائِـضِ اللهِ، وَكُلُّ مُسْـكِرٍ حَـرَامٌ، وَوَائِـلُ بْـنُ حُجْـرٍ يَتَرَفَّـلُ عَـلَى الأَقْيَـالِ)[2].

أَيْـنَ هَـذَا مِـنْ كِتَابِـهِ لِأَنَـسٍ فِي الصَّدَقَـةِ المَشْـهُورِ[3]، لَمَّـا كَانَ كَلَامُ هَـؤُلَاءِ عَـلَى هَـذَا الحَـدِّ، وَبَلَاغَتُهُـمْ هَـذَا النَّمَـطَ، وَأَكْثَـرُ اسْـتِعْمَالِهِمْ هَـذِهِ الأَلْفَـاظَ، اسْـتَعْمَلَهَا ﷺ مَعَهُـمْ؛ لِيُبَيِّنَ لِلنَّـاسِ مَـا نُـزِّلَ إِلَيْهِـمْ، وَلِيُحَـدِّثَ النَّـاسَ بِـمَا يَعْلَمُـونَ.

---

(١) حديث (قولَه لِنَهْدٍ: اللهُمَّ باركْ لَهم في مَحْضِهَا): أبو نُعَيْم في «مَعْرِفَةِ الصَّحابةِ» [٣٩٧٢]، والدَّيلَميُّ في «مُسْنَدِ الفِرْدَوسِ» مِنْ حديثِ عِمرانَ بن حُصَيْنٍ بتمامِه، وأبو نُعَيم [٣٩٧٤] مِن حديثِ حذيفةَ بن اليَمانِ مُختصَرًا.

(٢) حديث كتابِه لِوائِلِ بن حَجَر (إلى الأَقْيالِ العَباهِلَةِ...): الطَّبَرانيُّ في «الصَّغيرِ» [كما في «المجمع» (٩/ ٣٧٤، ٣٧٥)]، والخَطَّابِيُّ في «الغريب» [١/ ٢٨٠].

(٣) [أخرج البخاري (١٤٥٤، كتاب الزكاة - باب زكاة الغنم) من حديث أنس: أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين: بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله، فمن سألها من المسلمين على وجهها، فليعطها ومن سأل فوقها فلا يعط: في أربع وعشرين من الإبل، فما دونها من الغنم من كل خمس شاة].

وَكَقَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ: (فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْطِيَةُ، وَالْيَدَ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاةُ)، قَالَ: فَكَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلُغَتِنَا.(١)

وَقَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الْعَامِرِيِّ حِينَ سَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: (سَلْ عَنْكَ)، أَيْ سَلْ عَمَّا شِئْتَ، وَهِيَ لُغَةُ بَنِي عَامِرٍ.(٢)

وَأَمَّا كَلَامُهُ الْمُعْتَادُ وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ، وَجَوَامِعُ كَلِمِهِ وَحِكَمِهِ الْمَأْثُورَةِ، فَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِيهَا الدَّوَاوِينَ، وَجُمِعَتْ فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا الْكُتُبُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُوَازَى فَصَاحَةً، وَلَا يُبَارَى بَلَاغَةً، كَقَوْلِهِ: (الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ)(٣).

وَقَوْلُهُ: (النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ)(٤)، وَ(الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)(٥)، وَ(لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ)(٦)، وَ(النَّاسُ مَعَادِنُ)(٧)، وَ(مَا هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ)(٨)، ..

قولُه (الدَّواوينَ): جَمْعُ ديوانٍ بكَسْرِ المُهْمَلةِ فارِسيٌّ مُعَرَّبٌ.

قولُه (يوازى): -بِضَمِّ المُثنَّاةِ التحتيةِ- أيْ يُماثَلُ ويُقابَلُ.

---

(١) حديثُ عَطيةَ السَّعْديِّ: (فإنَّ اليَدَ العُلْيَا هِيَ المُنْطِيَةُ، واليَدَ السُّفْلَى هِيَ المُنْطَاةُ): الحاكمُ وصَحَّحه [٤/ ٣٢٧]، والبَيْهقيُّ [٧٨٨٤] من طَريقِ عُروةَ بن محمد بن عطيةَ السَّعْديِّ، عَن أَبيه، عَن جَدِّه قالَ: (قَدمتُ على رسول الله ﷺ فلمَّا رآني قالَ: ما أَغْناكَ اللهُ فلا تَسألِ النّاسَ شَيْئًا؛ فإنَّ اليَدَ العُلْيا هِيَ المُنْطِيَةُ، وإنَّ اليَدَ السُّفْلَى هِيَ المُنْطاةُ، وإنَّ مالَ اللهِ مَسؤولٌ ومُنْطًى، قالَ: فكلَّمَني رسولُ اللهِ ﷺ بلُغَتِنا).

(٢) حديثُ العامِريِّ (سَلْ عَنْكَ): أبو نُعَيْمٍ في «الدَّلائلِ» [كما في كنز العمال ١٢/ ٤٦٥] عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ.

(٣) حديث (المسلمُونَ تَتَكافَأُ دماؤُهم، ويَسْعَى بذِمَّتِهم أَدْناهم، وهُمْ يَدٌ على مَنْ سِوَاهم): أبو داوُدَ [٤٥٣٠] والنَّسائيُّ [(٤٧٣٤)، و(٤٧٣٥)] عَنْ عَليٍّ.

(٤) حديث (الناسُ كأَسْنانِ المُشْطِ): ابنُ لَالٍ في «مَكارِمِ الأخلاقِ» [وأخرجه أيضًا الدولابيُّ (٩٤٩)، والقضاعيُّ (١٩٥)، وغيرهم] عَن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ.

(٥) حديث (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ): الشَّيخانِ [البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلمٌ (٢٦٣٩) نحوه] مِن حَديثِ أَنَسٍ [وهو عند الشيخين أيضًا بلفظ المصنِّف من حديث ابن مسعودٍ].

(٦) حديث (لا خَيْرَ في صُحبةِ مَنْ لا يَرَى لَكَ ما تَرَى له): ابنُ عَديٍّ في «الكامِلِ» [٤/ ٢٢٥] عَن أَنَسٍ بسَنَدٍ ضَعيفٍ.

(٧) حديث (الناسُ مَعادِنُ): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٤٩٣)، ومسلمٌ (٢٥٢٦)] عَن أَبي هُريرةَ.

(٨) حديث (ما هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَه): ابنُ السمعانيِّ في تاريخِه مِن حديثِ عَليٍّ بسَنَدٍ فيه مَن لا يُعرَفُ حالُه. [وهو في «حلية الأولياء» (٧٥١٢) مُسنَدٌ لعمر بن عبدالعزيز].

.. و(الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، وَهُوَ بالخيارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ)(١)، وَ(رَحِمَ اللهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ)(٢)، وَقَوْلِهِ: (أَسْلِمْ تَسْلَمْ)، وَ(أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ)(٣)، وَ(إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ)(٤).

وَقَوْلِهِ: (لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَبْخَلُ بِمَا لَا يُغْنِيهِ)(٥)، وَقَوْلِهِ: (ذُو الوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا)(٦)، وَنَهْيِهِ عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَمَنْعٍ وَهَاتِ، وَعُقُوقِ الْأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ الْبَنَاتِ(٧)،

قولُه (أَحاسِنُكُم): جَمْعُ «أَحْسَنَ». قولُه (الْمُوَطَّؤونَ): -بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِ الواوِ والطاءِ المشدَّدةِ- اسمُ مَفْعولٍ مِنَ التوطِئةِ؛ بمَعْنى التمهيدِ، و«الأَكْنافُ»: -بالنونِ بَعْدَ الكافِ- الجَوانِبُ؛ والمُرادُ لازِمُه، وهو التواضُعُ.

قولُه (نَهْيِه عَنْ قِيلَ وقَالَ): -يَجوزُ بِناؤُهما؛ على أَنَّهما فِعْلانِ ماضِيانِ مُستَتِرٌ في كُلٍّ مِنْهما ضَميرٌ، وإعرابُهما؛ على إجْرائِهِما مُجْرى الأَسماءِ، ولا ضَميرَ فيهِما، وقيلَ: مَصْدَرانِ؛ يُقالُ: قُلْتُ قَوْلًا، وقالًا، وقيلًا- أَيِ التَّكَلُّمِ فيما لا يَعْني.

قولُه (وكَثْرةِ السُّؤالِ): قيلَ: مَسْأَلةُ النّاسِ أَمْوالَهُم؛ أَوِ التَّجَسُّسُ على أَخْبارِ النّاسِ. قولُه (وإضاعةِ المالِ): هو إنفاقُه فيما حَرَّمَ اللهُ.

قولُه (ووَأْدِ البَناتِ): -بِهَمْزةٍ ساكِنةٍ بَعْدَ واوٍ مفتوحةٍ- أَيْ دَفْنِهِنَّ في حالِ حَياتِهِنَّ؛ تَخْفيفًا لِمُؤْنَتِهِنَّ.

---

(١) حديث (المستشارُ مُؤْتَمَنٌ، وهُوَ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَكَلَّمْ): أحمدُ [٢٢٣٦٠] عَن أَبي مَسعودٍ بلَفْظِ (وهُوَ بالخِيارِ إِنْ شاءَ تَكَلَّمَ وإِنْ شاءَ سَكَتَ، فإِنْ تَكَلَّمَ فلْيَجتَهِدْ رأيَه) [هذه الزيادة لم أجدها في المطبوع]، وأخرجَ صَدْرَه فَقَطْ الأربعةُ [أبو داود (٥١٢٨)، والترمذيُّ (٢٨٢٢)، والنَّسائيُّ في الكبرى مُطوَّلًا (٦٥٨٣)، وابن ماجه (٣٧٤٥)] مِنْ حَديثِ أَبي هُرَيرةَ، والحاكمُ [٤/ ١٣٢] من حديثِ ابنِ عُمَرَ.

(٢) حديث (رَحِمَ اللهُ عَبْدًا قالَ خَيْرًا فغَنِمَ، أو سَكَتَ فسَلِمَ): أبو الشيخِ في الثوابِ مِن حديثِ أبي أُمامةَ، والدَّيلميُّ [٣٢٠٤] من حديثِ أَنَسٍ.

(٣) حديث (وأَسْلِمْ تَسْلَمْ، يؤتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ): الشيخانِ [البخاريُّ (٧)، ومسلمٌ (١٧٧٣)] في قِصَّةِ كتابه إلى هِرَقْلَ.

(٤) حديث (إِنَّ أَحَبَّكم إِليَّ وأَقْرَبَكم مِنِّي مجلسًا يَوْمَ القيامةِ...): الترمذيُّ عَنِ ابنِ مَسعودٍ، ورَوَاه [٢٠١٨] عَنْ جابرٍ إلى قوله (أَخْلاقًا».

(٥) حديث (لَعَلَّه كانَ يَتَكَلَّمُ بما لا يَعْنيه ويَبْخَلُ بما لا يُغْنيه): البيهقيُّ في «الشُّعَب» [١٠٣٤٢] من طريقِ سعيدِ بنِ الصَّلْتِ عَنِ الأعمَشِ، عَن أَبي سُفْيانَ، عَن أَنَسٍ (أُصيبَ رَجُلٌ من الصحابةِ يَوْمَ أُحُدٍ، فقالَتْ أُمُّه: يا بُنَيَّ لِتَهْنِكَ الشَّهادةُ، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: وما يُدْرِيكِ لَعَلَّه...) إلخ. وأَخرجَ التِّرمذيُّ [٢٣١٦] مِن حديثِ حَفصِ بنِ غِياثٍ، عَنِ الأعمَشِ، عَنْ أَنَسٍ قالَ: (تُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنَ الصحابةِ فقالُوا: أَبْشِرْ بالجَنَّةِ، فقالَ: أَوَلَا تَدرونَ؟! فلَعَلَّه قَدْ تَكَلَّمَ بما لا يعنيه، أو بَخِلَ بما لا يَنقُصُه). وأَخْرَجَه البيهقيُّ [الشعب ١٠٣٤١] من هذا الوَجْهِ أيضًا، وقال: هذا هُوَ المحفوظُ.

(٦) حديث (ذو الوَجْهَيْنِ لا يَكُونُ عِنْدَ اللهِ وَجيهًا): أَبو داوُدَ [٤٨٧٣] عَن عَمّارٍ بلَفْظِ (ذو الوجهَيْنِ في الدنيا ذُو لِسانَيْنِ في النارِ».

(٧) حديث (نَهْيِه عَنْ قِيلَ وقالَ...): الشيخانِ [البخاريُّ (١٤٧٧)، ومسلمٌ (٥٩٣)] عَنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ.

وَقَوْلِهِ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)[1]، وَ(خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا)[2]، وَقَوْلِهِ: (أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا؛ عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا)[3]، وَقَوْلِهِ ﷺ: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ)[4]، وَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ دُعَائِهِ: (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ فِي القَضَاءِ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ)[5].

إِلَى مَا رَوَتْهُ الكَافَّةُ عَنِ الكَافَّةِ مِنْ مَقَامَاتِهِ وَمُحَاضَرَاتِهِ وَخُطَبِهِ وَأَدْعِيَتِهِ وَمُخَاطَبَاتِهِ وَعُهُودِهِ مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرْتَبَةً لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ، وَحَازَ فِيهَا سَبْقًا لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ، وَقَدْ جُمِعَتْ مِنْ كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا، وَلَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يُفْرِغَ فِي قَالَبِهِ عَلَيْهَا، كَقَوْلِهِ: (الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ)[6]، وَ(مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ)[7]، ..

(١) حديث (اتَّقِ اللهَ حَيثُ كُنْتَ...): التِّرمذيُّ [١٩٨٧] والحاكمُ [١/ ٥٤] عَن أَبِي ذَرٍّ.

(٢) حديث (خَيْرُ الأُمورِ أَوْساطُها): ابنُ السَّمعانيِّ في تاريخه من حديث عَليٍّ.
[وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥١٢٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٥٣٩٠)، والبيهقي في الشعب (٦١٧٦) وانظر «المقاصد الحسنة» للسخاوي (٤٥٥)].

(٣) حديث (أَحْبِبْ حَبِيبَكَ...): البخاريُّ في «الأَدَبِ المفرَدِ» [١٣٢١ عن علي موقوفًا]، والتِّرمذيُّ [١٩٩٧] عَن أَبِي هُرَيرةَ.

(٤) حديث (الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامةِ): الشيخانِ [البخاريُّ (٢٤٤٧)، ومسلمٌ (٢٥٧٩)] عَن ابن عُمَرَ.

(٥) حديث (اللهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ رَحمةً...): التِّرمذيُّ [٣٤١٩] عَن ابنِ عَبَّاسٍ.

(٦) حديث (حَمِيَ الوَطِيسُ): مسلمٌ [١٧٧٥] عَن العَبّاسِ، والبَيْهَقِيُّ [٥/ ١٢٩] عَن جابرِ بن عَبدِالله أنَّه ﷺ قالَه يَوْمَ حُنَيْنٍ.

(٧) حديث (ماتَ حَتْفَ أَنْفِه): البَيهَقيُّ في «الشُّعَبِ» [١٣٧٢] عَن عبدِالله بن عَتيكٍ: (سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ماتَ حَتْفَ أنفه»، واللهِ إنَّها لَكَلمةٌ ما سَمِعْتُها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَرَبِ قَبْلَه).

قولُه (تَلُمُّ): بفتحِ المُثنَّاةِ الفوقيةِ، وضمِّ اللّامِ، و(شَعَثِي): -بِفَتْحِ أَوَّلِه وثانيه وكَسْرِ المُثَلَّثَةِ- أَيْ مُجْمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أَمْرِي.

قولُه (الكافَّةُ عَنِ الكافَّةِ): يُقالُ: «لَقيتُهُم كافَّةً»؛ أَيْ جَميعَهُم؛ وعَنْ سيبَوَيْهِ: لا يَجوزُ تَعريفُه؛ وإنَّما يُسْتَعْمَلُ مُنَكَّرًا مَنصوبًا على الحالِ، كـ«قاطِبةً».

قولُه (الوَطيسُ): -بِواوٍ مفتوحةٍ وطاءٍ مهمَلةٍ مكسورةٍ ومُثنّاةٍ تحتيَّةٍ- الضَّرْبُ في الحَرْبِ. وقولُه (حَتْفَ أَنْفِه): أيْ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ ولا ضَرْبٍ؛ قالَ الشمنيُّ: «إنْ قيلَ: كَيْفَ يَكونُ هذا مِن الألفاظِ الَّتي لَمْ يُسْبَقْ بِها ﷺ وقَدْ قالَ السَّمَوْأَلُ[1]: (وما ماتَ مِنّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه)؟! قالَ: أُجيبَ بأنَّ قائلَه عَبْدُ المَلِكِ الحارِثيُّ[2]، وهوَ إسلاميٌّ».

(١) السموأل بن غريض بن عادياء بن رفاعة الأزدي. شاعر جاهلي، ذو بيان وبلاغة، من أكثر الشعراء شهرة في وقته.

(٢) عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي: شاعر عباسي، ضاع أكثر شعره، وفي العلماء من يجزم بأن من شعره اللامية المنسوبة للسموأل.

.. و(لَا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ)[١]، وَ(السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِه)[٢] في أَخَوَاتِهَا مَا يُدْرِكُ النَّاظِرُ العَجَبَ في مُضَمَّنِهَا، وَيَذْهَبُ بِهِ الفِكْرُ في أَدَانِي حِكَمِهَا.

وَقَدْ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: مَا رَأَيْنَا الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ، فَقَالَ: (وَمَا يَمْنَعُنِي، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ؟!)[٣]، وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى (بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ)[٤].

فَجُمِعَ لَهُ بِذَلِكَ ﷺ قُوَّةُ عَارِضَةِ البَادِيَةِ وَجَزَالَتُهَا، وَنَصَاعَةُ أَلْفَاظِ الحَاضِرَةِ وَرَوْنَقُ كَلَامِهَا، إِلَى التَّأْيِيدِ الإِلَهِيِّ الَّذِي مَدَدُهُ الوَحْيُ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِعِلْمِهِ بَشَرِيٌّ.

وَقَالَتْ أُمُّ مَعْبَدٍ فِي وَصْفِهَا لَهُ: «حُلْوُ المَنْطِقِ، فَصْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ نُظِمْنَ»[٥].

وَكَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ، حَسَنَ النَّغْمَةِ ﷺ.

***

(١) حديث (لا يُلْدَغُ المؤمِنُ من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ): البخاريُّ عَن ابنِ عُمَرَ [متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاريُّ (٦١٣٣)، ومسلمٌ (٢٩٩٨)، وهو في «مسند أحمد» [٥٩٦٤] من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف].

(٢) حديث (السَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغَيْرِه): الدَّيْلَمِيُّ عَن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ [وأخرجه مسلم (٢٦٤٥) عن ابن مسعود موقوفًا، ورفعه غيره].

(٣) حديث (قالَ له أصحابُه: ما رأَيْنا الَّذي هُوَ أَفْصَحُ منْكَ...): البيهقيُّ في «الشُّعب» [١٣٦٣] من طريقِ عَبَّادِ بنِ العَوّامِ، عَن يونسَ بن محمدِ بنِ إبراهيمَ، عَن أبيه.

(٤) حديث (بَيْدَ أَنِّي من قُرَيْشٍ، ونَشَأْتُ في بَنِي سَعْدٍ): أَورَدَه أصحابُ الغَريبِ، ولا يُعرَفُ له إسنادٌ، وللطبرانيِّ [٦/ ٣٥] من حديث أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ: (أنا أَعْرَبُ العَرَبِ، وُلِدْتُ في قُرَيْشٍ، ونَشأتُ في بَني سَعْدٍ؛ فأنَّى يأتيني اللَّحْنُ).

(٥) حديث أُمِّ مَعْبَدٍ: تَقَدَّمَ [ص١٠٢].

قولُه (بَيْدَ): -بفتحِ الموحَّدةِ- قالَ ابنُ مالكٍ: «بمَعْنى (غَيْرَ)؛ على حَدِّ قولِه: ولا عَيْبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائبِ»، وقالَ ابنُ هِشامٍ في «المُغني»: «هيَ هُنا بمَعْنى (مِنْ أَجْلِ)».

قولُه (أُمُّ مَعْبَدٍ): -بِفَتْحِ الميمِ، وبالعَيْنِ المهمَلةِ، والموَحَّدةِ- وهيَ عاتِكةُ بنتُ خالدٍ الخُزاعيّةُ.

قولُه (فَصْلٌ): أيْ مَفصولٌ مُبينٌ. وقولُه (لا نَزْرٌ): -بِفَتْحِ النّونِ وسُكونِ الزّايِ- أيْ لا يَسيرٌ؛ فيُفْضيَ إلى الخَلَلِ. وقولُه (ولا هَذْرٌ): -بِفَتْحِ الهاءِ وسُكونِ الذّالِ المعجَمةِ- أيْ ولا كَثيرٌ.

قولُه (خَرَزاتٌ): أيْ جَواهرُ مُتَعاليةٌ ولآلِئُ مُتَغاليةٌ. وقولُه (نُظِمْنَ): -بِصيغةِ المَجهولِ- أيْ سُلِكْنَ في سِلْكِ كَلِماتِه.

قولُه (حَسَنَ النَّغْمةِ): -بفتحِ النونِ وسُكونِ الغَيْنِ المُعْجَمةِ- أيْ حَسَنَ الصَّوْتِ.

***

فَصْلٌ: [في شرف نسبه ﷺ]

وَأَمَّا شَرَفُ نَسَبِهِ ﷺ، وَكَرَمُ بَلَدِهِ وَمَنْشَئِهِ، فَمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَيْهِ، وَلَا بَيَانِ مُشْكِلٍ وَلَا خَفِيٍّ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ ﷺ نُخْبَةُ بَنِي هَاشِمٍ، وَنُخْبَةُ قُرَيْشٍ وَصَمِيمُهَا، وَأَشْرَفُ العَرَبِ وَأَعَزُّهُمْ نَفَرًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَمِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَكْرَمِ بِلَادِ اللهِ عَلَى اللهِ وَعَلَى عِبَادِهِ.

حَدَّثَنَا قَاضِي القُضَاةِ حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّدَفِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو الوَلِيدِ سُلَيْمَانُ بْنُ خَلَفٍ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ عَبْدُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ السَّرَخْسِيُّ وَأَبُو إِسْحَاقَ وَأَبُو الهَيْثَمِ، قَالُوا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ عَنْ عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

(بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى كُنْتُ مِنَ القَرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ)[1].

وَعَنِ العَبَّاسِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ مِنْ خَيْرِ قَرْنِهِمْ، ثُمَّ تَخَيَّرَ القَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ تَخَيَّرَ البُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا، وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا)[2].

وَعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.[3]

---

(١) حديث (بُعِثْتُ من خيرِ قُرونِ بَني آدَمَ...): أَسندَه المصنِّفُ مِن طَريقِ البُخاريِّ [٣٥٥٧].

(٢) حديث العبَّاس (إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ...): التِّرمذيُّ وحَسَّنَه [٣٦٠٧]، والبَيهقيُّ في «الدَّلائل» [١/ ١٦٩، ١٧٠].

(٣) حديث واثِلةَ (إنَّ اللهَ اصْطَفَى...): عَزاه المصنِّفُ للتِّرمذيِّ [٣٦٠٥]، وهْوَ في «صَحِيح مُسلِم» [٢٢٧٦].

قولُه (فَصْلٌ: وأَمَّا شَرَفُ نَسَبِهِ): أي المَنسوبِ إِلَيْهِ.

قولُه (وأَشْرَفُ العَرَبِ): في شرحِ الدلجيِّ: «أَفْضَلِ العَرَبِ -بِلا عاطِفٍ-؛ بالجَرِّ صِفةً لـ(قُرَيْشٍ)».

قولُه (عَبْدُ): مِنْ غَيْرِ إضافةٍ؛ فلا تُكْتَبُ هَمْزةُ «ابن» البَتَّةَ ولَوْ وَقَعَ أَوَّلَ الصحيفةِ.

قولُه (قالوا: حَدَّثَنا) وفي نُسخةٍ بِدونِ (قالوا).

قولُه (المَقْبُرِيِّ): بِفَتْحِ الميمِ، وضَمِّ المُوَحَّدةِ ويَجوزُ فَتْحُها؛ وقالَ التِّلْمْسانيُّ: «بِتَثْليثِ المُوَحَّدةِ».

قولُه (ثُمَّ تَخَيَّرَ البُيوتَ): أي البُطونَ.

قولُه (واثِلةَ): بمُثَلَّثةٍ مَكْسورةٍ. وقولُه (الأَسْقَعِ): ضُبِطَ بِفَتْحِ الهَمْزةِ وسُكونِ السِّينِ المهمَلةِ وفَتْحِ القافِ فعَيْنٍ مُهْمَلةٍ، وقالَ التِّلْمْسانيُّ: «بالسِّينِ، والصادِ، ويَجوزُ الزَّايُ».

وَفِي حَدِيثٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى اخْتَارَ خَلْقَهُ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ اخْتَارَ بَنِي آدَمَ فَاخْتَارَ مِنْهُمُ العَرَبَ، ثُمَّ اخْتَارَ العَرَبَ فَاخْتَارَ مِنْهُمْ قُرَيْشًا، ثُمَّ اخْتَارَ قُرَيْشًا فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ اخْتَارَ بَنِي هَاشِمٍ فَاخْتَارَنِي؛ فَلَمْ أَزَلْ خِيَارًا مِنْ خِيَارٍ، أَلَا مَنْ أَحَبَّ العَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَ العَرَبَ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ).(١)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قُرَيْشاً كَانَتْ نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، يُسَبِّحُ ذَلِكَ النُّورُ، وَتُسَبِّحُ المَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ أَلْقَى ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (فَأَهْبَطَنِي اللهُ إِلَى الأَرْضِ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوحٍ، وَقَذَفَ بِي فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ اللهُ تَعَالَى يَنْقُلُنِي مِنَ الأَصْلَابِ الكَرِيمَةِ وَالأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ أَبَوَيَّ، لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ).(٢)

وَيَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا الخَبَرِ شِعْرُ العَبَّاسِ المَشْهُورُ فِي مَدْحِ النَّبِيِّ ﷺ.(٣)

***

قولُه (أَلا مَنْ أَحَبَّ): (أَلا) لِلتنبيهِ.

قولُه (إِنَّ قُرَيشًا كانَتْ... إلخ) وفي بَعْضِ النُّسَخِ «إِنَّ النبيَّ... إلخ».

قولُه (في صُلْبِهِ): بِضَمٍّ فسُكونٍ، وفي «القاموسِ» بالضَّمِّ وبالتَّحريكِ.

قولُه (مِن بَيْنِ أَبَوَيَّ) وفي نسخةٍ «مِنْ أَبَوَيَّ».

وقولُه (عَلى سِفاحٍ): -بِكَسْرِ السِّينِ- أَيْ عَلى غَيْرِ نِكاحٍ.

***

(١) حديث ابن عُمرَ (إِنَّ اللهَ اختارَ خَلْقَه...): الطَّبَرانيُّ في «الكَبيرِ» [١٢/ ٤٥٥]، و«الأَوْسَطِ» [٦١٨٢] بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

(٢) حديثُ ابنِ عبّاسٍ (إِنَّ رُوحَه كانَتْ نُورًا...): ابنُ أَبي عُمَرَ العَدَنيُّ في مُسْنَدِه.

(٣) [سيأتي ذكر هذه الأبيات. انظر ص ٢١٠].

فَصْلٌ: [فيما تدعو ضرورةُ الحياةِ إليْهِ مِمَّا كانَ التمدُّحُ والكمالُ بِقلَّتِه]

وَأَمَّا مَا تَدْعُو ضَرُورَةُ الحَيَاةِ إلَيْهِ مِمَّا فَصَّلْنَاهُ فَعَلَى ثَلَاثَةِ ضُروبٍ: ضَرْبُ الفَضْلُ فِي قِلَّتِهِ، وَضَرْبُ الفَضْلُ فِي كَثْرَتِهِ، وَضَرْبٌ تَخْتَلِفُ الأَحْوَالُ فِيهِ.

فَأَمَّا مَا التَّمَدُّحُ وَالكَمَالُ بِقِلَّتِهِ اتِّفَاقًا، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، عَادَةً وَشَرِيعَةً، كَالغِذَاءِ وَالنَّوْمِ، وَلَمْ تَزَلِ العَرَبُ وَالحُكَمَاءُ قَدِيمًا تَتَمَادَحُ بِقِلَّتِهِمَا، وَتَذُمُّ بِكَثْرَتِهِمَا؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ دَلِيلٌ عَلَى النَّهَمِ وَالحِرْصِ وَالشَّرَهِ وَغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، مُسَبِّبٌ لِمَضَارِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، جَالِبٌ لِأَدْوَاءِ الجَسَدِ وَخُثَارَةِ النَّفْسِ وَامْتِلَاءِ الدِّمَاغِ، وَقِلَّتُهُ دَلِيلٌ عَلَى القَنَاعَةِ وَمِلْكِ النَّفْسِ وَقَمْعِ الشَّهْوَةِ، مُسَبِّبٌ لِلصِّحَّةِ وَصَفَاءِ الخَاطِرِ وَحِدَّةِ الذِّهْنِ.

كَمَا أَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ دَلِيلٌ عَلَى الفُسُولَةِ وَالضَّعْفِ وَعَدَمِ الذَّكَاءِ وَالفِطْنَةِ، مُسَبِّبٌ لِلْكَسَلِ وَعَادَةِ العَجْزِ وَتَضْيِيعِ العُمُرِ فِي غَيْرِ نَفْعٍ وَقَسَاوَةِ القَلْبِ وَغَفْلَتِهِ وَمَوْتِهِ.

وَالشَّاهِدُ عَلَى هَذَا مَا يُعْلَمُ ضَرُورَةً، وَيُوجَدُ مُشَاهَدَةً، وَيُنْقَلُ مُتَوَاتِرًا مِنْ كَلَامِ الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ وَالحُكَمَاءِ السَّالِفِينَ وَأَشْعَارِ العَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَصَحِيحِ الحَدِيثِ وَآثَارِ مَنْ سَلَفَ وَخَلَفَ مِمَّا لَا يُحْتَاجُ إِلَى الاسْتِشْهَادِ عَلَيْهِ اخْتِصَارًا، وَاقْتِصَارًا عَلَى اشْتِهَارِ العِلْمِ بِهِ.

قولُه (ثَلاثةِ ضُروبٍ) وفي نُسخةٍ «أَضْرُبٍ».

قولُه (الفَضْلُ في قِلَّتِه): هوَ الَّذي ذَكَرَه هُنا، والضَّرْبُ الثاني في فَصْلٍ ثانٍ، والثالثُ في فَصلٍ ثالثٍ.

قولُه (كالغِذاءِ): -بكسرِ الغينِ المعجمةِ- ما يُتَغَذَّى بِه مِنَ الطعامِ والشرابِ؛ وهوَ أَعَمُّ مِن «الغَداءِ» -بالفتحِ والدالِ المهمَلةِ-؛ ما يُؤْكَلُ أَوَّلَ النَّهارِ؛ ومِنَ «العَشاءِ» -بفَتْحِ المهمَلةِ-؛ ما يُؤْكَلُ مِن بَعْدِ الزَّوالِ إلى العِشاءِ -بالكَسْرِ-؛ فتَجويزُ الدلجيِّ ضَبْطَه بالمعجمةِ والمهمَلةِ ليسَ في مَحَلِّه المُستعمَلِ. اهـ المُلّا.

قولُه (بِكَثْرَتِهِما) وفي نسخةٍ بدونِ الموحَّدةِ.

قولُه (والشُّرْبِ): بتَثْليثِ المعجمةِ، والضَّمُّ ثُمَّ الفتحُ أَشهَرُ، والكَسْرُ في مَعْنى النَّصيبِ أَكْثَرُ.

قولُه (النَّهَمِ): -بفتحتينِ- أيِ الإفراطِ في شَهوةِ الطعامِ.

قولُه (والشَّرَهِ): -بفتحتَيْنِ- أيِ الحِرْصِ عَلَيْه، وهوَ مَعطوفٌ على «النَّهَمِ»، وفي بَعْضِ النُّسَخِ ضُبِطَ «الحِرْصِ» وما بَعْدَه بالرَّفْعِ، فيَكونُ خَبَرًا ثانيًا لِـ«أَنَّ»، ويُؤَيِّدُه قولُه الآتي مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ.

قوله (مُسَبِّبٌ): بِكَسْرِ الباءِ.

قولُه (وخُثارةِ النَّفْسِ): -بِضَمِّ الخاءِ المُعْجَمةِ- أيْ ثِقَلِها.

قولُه (ومِلْكِ النَّفْسِ): بِكَسْرِ الميمِ. قولُه (وَقَمْعُ الشَّهْوةِ): -بالرَّفْعِ- مُبتَدأٌ، وخَبَرُه (مُسَبِّبٌ)، وجَوَّزَ الدلجيُّ جَرَّه عَطْفًا على ما قَبْلَه.

قولُه (الفُسولةِ): -بِضَمِّ الفاءِ والمُهْمَلةِ- أيِ الرَّذالةِ.

وقولُه (والضَّعْفِ): بِفَتْحِ الضادِ المُعجمةِ وفَتْحِها.

قولُه (وتَضْييعِ العُمُرِ): بِضَمِّ العَينِ والميمِ ويُسَكَّنُ الثاني.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخَذَ مِنْ هَذَيْنِ الفَنَّيْنِ بِالأَقَلِّ، هَذَا مَا لَا يُدْفَعُ مِنْ سِيرَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَحَضَّ عَلَيْهِ؛ لَا سِيَّمَا لِارْتِبَاطِ أَحَدِهِمَا بِالآخَرِ.

حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الصَّدَفِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو الفَضْلِ الأَصْبَهَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ عَنْ صَالِحٍ أَنَّ يَحْيَى بْنَ جَابِرٍ حَدَّثَهُ عَنِ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

(مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)[1].

وَلِأَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ مِن كَثْرَةِ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «بِقِلَّةِ الطَّعَامِ يُمْلَكُ سَهَرُ اللَّيْلِ»، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لَا تَأْكُلُوا كَثِيرًا؛ فَتَشْرَبُوا كَثِيرًا؛ فَتَرْقُدُوا كَثِيرًا».

وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا كَانَ عَلَى ضَفَفٍ، أَيْ كَثْرَةِ الأَيْدِي.[2]

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شِبَعًا قَطُّ، وَأَنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ لَا يَسْأَلُهُمْ طَعَامًا وَلَا يَتَشَهَّاهُ، إِنْ أَطْعَمُوهُ أَكَلَ، وَمَا أَطْعَمُوهُ قَبِلَ، وَمَا سَقَوْهُ شَرِبَ)[3].

---

(١) حديث المِقْدام (ما مَلَأَ ابنُ آدَمَ وِعاءً...): أَسندَه من طريق الطَّبَرانيِّ [٢٠/ ٢٧٣] وهُوَ عِنْدَ النَّسائيِّ [الكبرى ٦٧٣٧]، والتِّرمذيِّ [٢٣٨٠]، والحاكم [٤/ ١٢١] وصَحَّحَه.

(٢) حديث (كانَ أَحَبُّ الطعام إِلَيْه ما كانَ على ضففٍ...): أبو يَعْلَى عن أنسٍ [٣١٠٨] وجابر [٢٠٤٥] بسَنَد جيِّد.

(٣) حديث عائشة (لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ النبيِّ ﷺ شِبَعًا قَطُّ...): سيأتي [انظر ص١٨٦].

قولُه (ما لا يُدْفَعُ... إلخ): بِصيغةِ المَجْهولِ.

قولُه (الأَصْبَهانِيُّ) وفي نُسخةٍ «الأَصْفَهانِيُّ»؛ بِفَتحِ الفاءِ وتُكْسَرُ.

قولُه (المِقْدام): بِكَسْرِ الميمِ، وقولُه (مِنْ بَطْنِه) ويُرْوى «مِنْ بَطْنٍ».

قولُه (حَسْبُ ابنِ آدَمَ): -بِسُكونِ السِّينِ- أيْ كافيه.

قولُه (أُكُلاتٌ): -بِضَمَّتَيْنِ، وقَدْ تُفتحُ الكافُ، وتُسَكَّنُ أيضًا كما صَرَّحَ بِهِ بَعْضُهم- جَمْعُ «أُكْلةٍ»؛ بالضمِّ والسكونِ.

قولُه (يُقِمْنَ صُلْبَه): بِضَمِّ أَوَّلِه.

قولُه (لا مَحالةَ): بِفَتْحِ الميمِ وتُضَمُّ.

وقولُه (فَثُلُثٌ): بِضَمَّتَيْنِ وتُسَكَّنُ.

قولُه (وثُلُثٌ لِنَفَسِه): -بِفَتْحِ الفاءِ- أيْ تَنَفُّسِه.

قولُه (على ضَفَفٍ): بِفَتْحِ المعجمةِ والفاءِ الأولى.

وقولُه (شِبَعًا): بكسرٍ ففَتْحٍ وتُسَكَّنُ.

قولُه (وأَنَّه كانَ): بِفَتحِ الهمزةِ فيكونُ مِن جُملةِ روايةِ عائشةَ، أوْ بالكسرِ على الاستئنافِ والضميرُ لِلشأنِ.

وَلا يُعْتَرَضُ هَذَا بِحَدِيثِ بَرِيرَةَ وَقَوْلِهِ: (أَلَمْ أَرَ البُرْمَةَ فِيهَا لَحْمٌ)[1]؛ إِذْ لَعَلَّ سَبَبَ سُؤَالِهِ ظَنُّهُ ﷺ اعْتِقَادَهُمْ أَنَّهُ لا يَحِلُّ لَهُ، فَأَرَادَ بَيَانَ سُنَّتِهِ؛ إِذْ رَآهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوهُ إِلَيْهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لا يَسْتَأْثِرُونَ عَلَيْهِ بِهِ، فَصَدَقَ عَلَيْهِمْ ظَنُّهُ، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَا جَهِلُوهُ مِنْ أَمْرِهِ بِقَوْلِهِ ﷺ: (هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ، وَلَنَا هَدِيَّةٌ).

وَفِي حِكْمَةِ لُقْمَانَ: (يَا بُنَيَّ، إِذَا امْتَلأَتِ المَعِدَةُ نَامَتِ الفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الأَعْضَاءُ عَنِ العِبَادَةِ).

وَقَالَ سَحْنُونُ: (لا يَصْلُحُ العِلْمُ لِمَنْ يَأْكُلُ حَتَّى يَشْبَعَ).

وَفِي صَحِيحِ الحَدِيثِ قَوْلُهُ ﷺ: (أَمَّا أَنَا فَلا آكُلُ مُتَّكِئًا)[2]، وَالاتِّكَاءُ هُوَ التَّمَكُّنُ لِلأَكْلِ، وَالتَّقَعْدُدُ فِي الجُلُوسِ لَهُ كَالمُتَرَبِّعِ وَشِبْهِهِ مِنْ تَمَكُّنِ الجِلْسَاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الجَالِسُ عَلَى مَا تَحْتَهُ، وَالجَالِسُ عَلَى هَذِهِ الهَيْئَةِ يَسْتَدْعِي الأَكْلَ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ جُلُوسُهُ لِلأَكْلِ جُلُوسَ المُسْتَوْفِزِ مُقْعِيًا[3]، وَيَقُولُ: (إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ)[4]، فَلَيْسَ مَعْنَى الحَدِيثِ فِي الاتِّكَاءِ المَيْلَ عَلَى شِقٍّ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ.

---

(١) حديث بَرِيرَةَ: الشيخان [البخاريُّ (٥٠٩٧)، ومسلمٌ (١٥٠٤)] عن عائشةَ.

(٢) حديث (أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا...): البخاريُّ [٥٣٩٨] عن ابن أَبي جُحَيْفَةَ.

(٣) حديث (إنَّه كانَ يَأكُلُ مُقْعيًا...): مسلمٌ [٢٠٤٤] عن أَنَس.

(٤) حديث (إنَّما أنا عَبْدٌ، آكُلُ كَمَا يأكُلُ العَبْدُ...): البَزَّارُ [٥٧٥٢] عن ابن عُمَرَ بسَنَد ضَعيف، وأَبو بَكْر الشافعيُّ في فَوائده من حَديث البَراء بهذه الجملة فقط، وابنُ سَعد [١/ ٣٨١] وأبو يَعْلَى [٤٩٢٠] من حديث عائشة بزيَادة (وأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ)، وسَنَدُه حَسَنٌ، ورَواه بهذه الزِّيادة أحمدُ في «الزُّهْد» [٢٢] عَن الحَسَن مُرْسَلًا، وعبدُ الرَّزَّاق في مُصَنَّفه [جامع معمر رقم ١٩٥٤٣] عَن أيوبَ مُرْسَلًا، و[جامع معمر رقم ١٩٥٥٤] عَنْ يَحْيَى بن أَبي كَثير مُرْسَلًا، وأَخْرَجَه الدَّيْلَميُّ [١٣٦٧ كما في «المداوي» لابن الصِّدِّيق] عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ بزيَادة (وأَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ العَبْدُ)، وأَخْرَجه بهذه الزِّيادة ابنُ أَبي شَيْبَةَ في مُسْنَده [٣٤٣٢٤] عَنْ رَجُل من بَني فَهْم، وابنُ عَديٍّ [٧/ ٢٨] من حديث أَنَس.

قولُه (ولا يُعْتَرَضُ): -بصيغةِ المَجْهولِ- أيْ «لا يَجوزُ لِأَحَدٍ أنْ يَعتَرِضَ... إلخ». وقولُه (بَريرةَ): بِفَتْحٍ فكَسْرٍ.

قولُه (البُرْمَةَ): -بِضَمِّ الباءِ- وهيَ القِدْرُ مِنَ الحِجارةِ. وقولُه (فيها لَحْمٌ): بفتحِ فسُكونِ الحاءِ وتُفْتَحُ. قولُه (لا يَستأثِرونَ): أيْ لا يَخْتَصّونَ، وقولُه (فصَدَّقَ عليْهم): بتشديدِ الدالِ وتخفيفِها.

قولُه (يا بُنَيَّ): بالتصغيرِ للشفقةِ، ويَجوزُ فَتحُ الياءِ وكَسْرُها. قولُه (المَعِدةُ): بفتحٍ فكسرٍ، ويَجوزُ كَسْرُهما، وإسكانُ العَينِ مَعَ فَتحِ الميمِ وكَسْرِها -على ما نقلَه الحلبيُّ-، وفي «القاموسِ»: «المَعِدةُ ككَلِمةٍ، وبالكَسرِ مَوضعُ الطعامِ».

قولُه (نامَتِ الفِكرةُ): أيْ غَفَلَتْ وماتَتْ. قولُه (وخَرِسَتِ الحِكْمةُ): -بكَسْرِ الراءِ- أيْ سَكَنَتْ. وقولُه (وقَعَدَتِ) وفي روايةٍ «وكَلَّتْ».

قولُه (سَحْنونُ): بفتحِ السينِ وضَمِّها. قولُه (الجِلْساتِ): -بكسر الجيمِ- جمعُ «جِلْسةٍ».

قولُه (المُسْتَوْفِزِ): أيْ كَجُلوسِ المُستوفِزِ؛ مِنِ «اسْتَوْفَزَ في قِعْدَتِه»: انتَصَبَ فيها غَيْرَ مُطْمَئِنٍّ.

قولُه (مُقْعيًا): الإقْعاءُ أنْ يَجْلِسَ على وَرِكَيْه.

وَكَذَلِكَ نَوْمُهُ ﷺ كَانَ قلِيلًا، شَهِدَتْ بِذَلِكَ الآثَارُ الصّحِيحَةُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ: (إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي)(١).

وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَى جَانِبِهِ الأَيْمَنِ(٢) اسْتِظْهَارًا عَلَى قِلَّةِ النَّوْمِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الجَانِبِ الأَيْسَرِ أَهْنَأُ؛ لِهُدوِّ القَلْبِ وَمَا يَتعَلَّقُ بِهِ مِنَ الأَعْضَاءِ البَاطِنَةِ حِينَئِذٍ لِمَيْلِهَا إِلَى الجَانِبِ الأَيْسَرِ؛ فَيَسْتَدْعِي ذَلِكَ الاسْتِثْقَالَ فِيهِ وَالطُّوْلَ، وَإِذَا نَامَ النَّائِمُ عَلَى الجَانِبِ الأَيْمَنِ تَعَلَّقَ القَلْبُ وَقَلِقَ؛ فَأَسْرَعَ الإِفَاقَةَ، وَلَمْ يَغْمُرْهُ الاسْتِغْرَاقُ.

***

قولُه (أَهْنَأُ): -بفتحِ النونِ فهَمْزةٍ- أيْ أَلَذُّ وأَشْهى، ويُرْوى «أَهْدَأُ»؛ أيْ أَسْكَنُ.

وقولُه (لِهُدوِّ القَلْبِ): -بالهَمْزِ ويُسَهَّلُ- أيْ سُكونِه.

قولُه (وقَلِقَ): -بفتحِ القافِ وكسرِ اللّامِ- أيْ لَمْ يَشْعُرْ.

قولُه (ولَمْ يَغْمُرْه): -بضمِّ الميمِ- أيْ لَمْ يَستوعِبْه.

***

(١) حديث (إِنَّ عَيْنَيَّ تنامان ولا يَنَامُ قَلْبِي): الشيخانِ [البخاريُّ (١١٤٧)، ومسلمٌ (٧٣٨)] عنْ عائشةَ.

(٢) حديث ([كان] نَومُه على الجانبِ الأَيْمَنِ): الترمذيُّ في «الشمائلِ» [٢٥٥]، والنَّسائيُّ في «اليوم والليلةِ» [٧٨٢] عَن البَرَاءِ.

فَصْلٌ: [فيما تدعو ضرورةُ الحَياةِ إليْهِ مِمَّا كان التمدُّحُ بِكثرته والفَخْرُ بوفورِه]

وَالضَّرْبُ الثَّانِي: مَا يَتَّفِقُ التَّمَدُّحُ بِكَثْرَتِهِ وَالفَخْرُ بِوُفُورِهِ، كَالنِّكَاحِ وَالجَاهِ.

أَمَّا النِّكَاحُ فَمُتَّفَقٌ فِيهِ شَرْعًا وَعَادَةً؛ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الكَمَالِ وَصِحَّةِ الذُّكُورِيَّةِ، وَلَمْ يَزَلِ التَّفَاخُرُ بِكَثْرَتِهِ عَادَةً مَعْرُوفَةً، وَالتَّمَادُحُ بِهِ سِيرَةً مَاضِيَةً.

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَسُنَّةٌ مَأْثُورَةٌ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَفْضَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً» مُشِيرًا إِلَيْهِ ﷺ[1]، وَقَدْ قَالَ ﷺ: (تَنَاكَحُوا؛ فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأُمَمَ يَومَ القِيامَةِ)[2]، وَنَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ[3] مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قَمْعِ الشَّهْوَةِ وَغَضِّ البَصَرِ اللَّذَيْنِ نَبَّهَ عَلَيْهِمَا ﷺ بِقَوْلِهِ: (مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ)[4]، حَتَّى لَمْ يَرَهُ العُلَمَاءُ مِمَّا يَقْدَحُ فِي الزُّهْدِ؛ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «قَدْ حُبِّبْنَ إِلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ فَكَيْفَ يُزْهَدُ فِيهِنَّ»، وَنَحْوُهُ لِابْنِ عُيَيْنَةَ.

---

(١) حديث ابنِ عبّاسٍ (أَفضَلُ هذه الأُمَّةِ أَكثَرُها نِساءً...): البُخاريُّ [٥٠٦٩].

(٢) حديث (تَناكَحُوا تَناسَلُوا...): ابنُ مَرْدَوَيْهِ في تفسيره عَن ابنِ عُمَرَ بسَنَدٍ ضَعيف، والطَّبَرانيُّ في «الأَوْسط» [٥٧٤٦] مِن حديثِ سَهْلِ بنِ حُنَيْفٍ (تزَوَّجُوا؛ فإنِّي مُكاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ).

(٣) حديث نَهْيِه عَنِ التبتُّلِ: الشيخانِ [البخاريُّ (٥٠٧٣)، ومسلمٌ (١٤٠٢)] عَن سعدِ بنِ أَبي وَقَّاص.

(٤) حديث (مَنْ كانَ ذا طَوْلٍ فلْيَتزَوَّجْ، فإنَّه أَغَضُّ للبَصَرِ وأَحْصَنُ للفَرْجِ): الشَّيخانِ [البخاريُّ (٥٠٦٥)، ومسلمٌ (١٤٠٠)] عَن ابنِ مَسْعود بلَفْظِ (مَن استطاعَ مِنكم الباءةَ...)، وأَخْرَجَه الطَّبَرانيُّ [١٠/ ١٢١] بلَفْظِ الكِتابِ بدُونِ (فإنَّه ...) إلخ.

قولُه (وصِحّةِ الذكوريةِ): بالرفعِ والجرِّ. قولُه (ماضيةً): -بتَخفيفِ الياءِ- أيْ قَديمةً.

قولُه (تَناكَحوا): زِيدَ في نسخةٍ: «تَناسَلوا». وقولُه (مُباهٍ): اسمُ فاعلٍ مِنَ المُباهاةِ؛ أيْ مُفاخِرٌ بكَثْرتِكم.

قولُه (الأُمَمَ): أيِ السالِفةَ (يَومَ القيامةِ) -كَما في نسخةٍ-، ولَفْظُ الطبَرانيِّ في «الأوسَطِ»: (مُكاثِرٌ)[1]، وفي روايةِ أَبي داودَ والنَّسائيِّ وابنِ ماجهْ (مُكاثِرٌ بكُم)[2].

قولُه (عَنِ التَّبتُّلِ): المُرادُ بـ«التبَتُّلِ» هُنا -على ما صَوَّبَه المُلَّا- انقِطاعُ الرَّجُلِ عَنِ النِّساءِ وعَكْسُه.

قولُه (طَوْلٍ): -بفَتحِ الطاءِ- أيْ قُدْرةٍ وسَعةٍ على المَهْرِ والنَّفَقةِ.

قولُه (حُبِّبْنَ): مِنَ التحبيبِ، أيْ جُعِلَتِ النِّساءُ مَحبوباتٍ.

وقولُه (فكَيْفَ يُزْهَدُ): بِصيغةِ المَجهولِ.

---

(١) المعجم الأوسط» للطبرانيِّ (٥٠٩٩) مِن حديثِ أنسٍ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) [كتاب النكاح]، والنَّسائيُّ (٣٢٢٧) [كتاب النكاح] عن معقل بن يسار، وابن ماجه (١٨٦٣) [أبواب النكاح]، عن أبي هريرة.

وَقَدْ كَانَ زُهَّادُ الصَّحابَةِ كَثِيري الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِيِّ، كَثِيري النِّكَاحِ، وَحُكِيَ فِي ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَالحَسَنِ وَابْنِ عُمَرَ وَغَيْرِهِمْ غَيْرُ شَيْءٍ، وَقَدْ كَرِهَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنْ يَلْقَى اللهَ عَزَبًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ النِّكَاحُ وَكَثْرَتُهُ مِنَ الفَضَائِلِ، وَهَذَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا قَدْ أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ حَصُورًا؛ فَكَيْفَ يُثْنِي اللهُ عَلَيْهِ بِالعَجْزِ عَمَّا تَعُدُّهُ فَضِيلَةً؟! وَهَذَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَتَّلَ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا قَدَّرْتَهُ لَنَكَحَ؟!

فَاعْلَمْ أَنَّ ثَنَاءَ اللهِ تَعَالَى عَلَى يَحْيَى بِأَنَّهُ حَصُورٌ لَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ هَيُوبًا أَوْ لَا ذَكَرَ لَهُ، بَلْ قَدْ أَنْكَرَ هَذَا حُذَّاقُ المُفَسِّرِينَ وَنُقَّادُ العُلَمَاءِ، وَقَالُوا: هَذِهِ نَقِيصَةٌ وَعَيْبٌ، وَلَا تَلِيقُ بِالأَنْبِيَاءِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْهِمْ-، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ، أَيْ لَا يَأْتِيهَا، كَأَنَّهُ حُصِرَ عَنْهَا، وَقِيلَ: مَانِعًا نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَقِيلَ: لَيْسَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فِي النِّسَاءِ.

فَقَدْ بَانَ لَكَ مِنْ هَذَا أَنَّ عَدَمَ القُدْرَةِ عَلَى النِّكَاحِ نَقْصٌ، وَإِنَّمَا الفَضْلُ فِي كَوْنِهَا مَوْجُودَةً، ثُمَّ قَمْعُهَا إِمَّا بِمُجَاهَدَةٍ نَفْسٍ كَعِيسَى، أَوْ بِكِفَايَةٍ مِنَ اللهِ كَيَحْيَى فَضِيلَةً زَائِدَةً؛ لِكَوْنِهَا مُشْغِلَةً فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَوْقَاتِ، حَاطَّةً إِلَى الدُّنْيَا.

ثُمَّ هِيَ فِي حَقِّ مَنْ أُقْدِرَ عَلَيْهَا وَمُلِّكَهَا، وَقَامَ بِالوَاجِبِ فِيهَا، وَلَمْ تَشْغَلْهُ عَنْ رَبِّهِ دَرَجَةٌ عُلْيَا، وَهِيَ دَرَجَةُ نَبِيِّنَا ﷺ الَّذِي لَمْ تَشْغَلْهُ كَثْرَتُهُنَّ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ عِبَادَةً لِتَحْصِينِهِنَّ وَقِيَامِهِ بِحُقُوقِهِنَّ وَاكْتِسَابِهِ لَهُنَّ وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهُنَّ، بَلْ صَرَّحَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حُظُوظِ دُنْيَاهُ هُوَ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ حُظُوظِ دُنْيَا غَيْرِهِ، فَقَالَ: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ)(1).

قولُه (والسَّراريِّ): -بتشديدِ الياءِ وتُخفَّفُ- جَمْعُ «سُريّةٍ»، وما كانَ مُفْرَدُه مُشَدَّدًا جازَ التشديدُ والتخفيفُ في جَمْعِه. قولُه (كثيري النِّكاحِ): أي الجِماعِ، ويَبْعُدُ أنْ يُرادَ بِهِ العَقْدُ.

وقولُه (غَيْرُ شَيْءٍ): أيْ شَيءٌ كَثيرٌ. قولُه (عَزَبًا): بِفَتْحِ الزاي؛ قيلَ: ويُسَكَّنُ.

قولُه (فإنْ قُلْتَ) وفي نسخة «فإنْ قيلَ».

قولُه (وهذا عيسى): بنُ مَرْيَمَ -كما في نسخةٍ- (تَبَتَّلَ مِنَ النِّساءِ) وفي نسخةٍ (قَدْ تَبَتَّلَ).

قولُه (هَيوبًا): فَعولٌ مِنَ الهَيْبَةِ. قولُه (حُصِرَ عَنْها): -بِصيغةِ المَجْهولِ- أيْ حُبِسَ.

قولُه (مُشْغِلةً): بضمِّ الميمِ وكسرِ الغَينِ أوْ بِفَتْحِهِما، وفي نسخةٍ: «شاغِلةً». قولُه (حاطّةً): -بتشديدِ الطاءِ- أيْ واضِعةً مُنْزِلةً له مِن عُلوِّ الحالاتِ.

قولُه (أُقْدِرَ): بصيغةِ المجهولِ. قولُه (ومُلِّكَها): بفتحِ الميمِ واللّامِ، أوْ بِضَمِّ الميمِ وكسرِ اللّامِ مُشَدَّدةً -على ما قالَه التلمسانيُّ.

قولُه (تَشْغَلْه): بفتحِ أوَّلِه وثالِثِه، وفي لُغةٍ بِضمِّ أوَّلِه وكَسْرِ ثالثِه. قولُه (عُلْيا): بضمٍّ مَعَ القَصْرِ، أوِ الفتحِ مَعَ المَدِّ.

(1) حديث (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكم ثَلَاثٌ...): الحاكمُ [2/ 160] والنَّسائيُّ [3939]، عَن أَنَس بدون لَفْظ (ثَلَاثٌ)؛ لَكِنْ عِنْدَ أَحْمَدَ من حديث عائشة (كانَ يُعجِبُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: النِّساءُ، والطِّيبُ،=

فَدَلَّ أَنَّ حُبَّهُ لِمَا ذُكِرَ مِنَ النِّسَاءِ وَالطِّيبِ اللَّذَيْنِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَا غَيْرِهِ، وَاسْتِعْمَالَهُ لِذَلِكَ لَيْسَ لِدُنْيَاهُ، بَلْ لِآخِرَتِهِ؛ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي التَّزْوِيجِ، وَلِلِقَاءِ الْمَلَائِكَةِ فِي الطِّيبِ، وَلِأَنَّهُ أَيْضًا مِمَّا يَحُضُّ عَلَى الْجِمَاعِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ وَيُحَرِّكُ أَسْبَابَهُ، وَكَانَ حُبُّهُ لِهَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَقَمْعِ شَهْوَتِهِ، وَكَانَ حُبُّهُ الْحَقِيقِيُّ الْمُخْتَصُّ بِذَاتِهِ فِي مُشَاهَدَةِ جَبَرُوتِ مَوْلَاهُ وَمُنَاجَاتِهِ.

وَلِذَلِكَ مَيَّزَ بَيْنَ الْحُبَّيْنِ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ، فَقَالَ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)، فَقَدْ سَاوَى ﷺ يَحْيَى وَعِيسَى فِي كِفَايَةِ فِتْنَتِهِنَّ، وَزَادَ فَضِيلَةً بِالْقِيَامِ بِهِنَّ.

وَكَانَ ﷺ مِمَّنْ أُقْدِرَ عَلَى الْقُوَّةِ فِي هَذَا، وَأُعْطِيَ الْكَثِيرَ مِنْهُ، وَلِهَذَا أُبِيحَ لَهُ مِنْ عَدَدِ الْحَرَائِرِ مَا لَمْ يُبَحْ لِغَيْرِهِ. وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ، قَالَ أَنَسٌ: وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ، خَرَّجَهُ النَّسَائِيُّ[1]، وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ أَبِي رَافِعٍ[2]. وَعَنْ طَاوُسٍ: أُعْطِيَ ﷺ قُوَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا فِي الْجِمَاعِ، وَمِثْلُهُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ.

وَقَالَتْ سَلْمَى مَوْلَاتُهُ: طَافَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً عَلَى نِسَائِهِ التِّسْعِ، وَتَطَهَّرَ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْأُخْرَى، وَقَالَ: (هَذَا أَطْيَبُ وَأَطْهَرُ)[3].

=والطَّعامُ، فأَصَابَ اثنتَيْنِ ولَمْ يُصِبْ واحدةً، أَصابَ النِّساءَ والطِّيبَ، ولَمْ يُصِبِ الطَّعامَ). إسنادُه صَحيحٌ؛ إلّا أنَّ فيه رَجُلٌ لَمْ يُسَمَّ [لم أجده في المطبوع وأخرجه ابن سعدٍ في «الطبقات» (١/ ٢٩٨) بهذا اللفظ، وهو عند أحمد (١٢٢٩٤) من حديث أنس].

(١) حديث أَنَس (أَنَّه كانَ يَدُورُ على نِسائه...): عَزاه المُصنِّفُ لِلنَّسائيِّ [٣١٩٨]، وهُوَ عِنْدَ البُخاريِّ [٢٦٨].

(٢) حديثُ أَبِي رافِعٍ في ذلك: أَبو داوُدَ [٢١٩]، قال أبو داود (حديثُ أنس أصحُّ من هذا)].

(٣) حديثُ سَلْمَى:(طَافَ على نسائه...): ابنُ سَعْدٍ [٨/ ١٧٣]، وأَخْرَجه أَبو داوُدَ [٢١٩] من طَريقِ سَلْمَى عَنْ أَبِي رافِعٍ.

قولُه (اللَّذَيْنِ) وفي نُسخةٍ «اللَّذَيْنِ هُما... إلخ»، وفي نسخةٍ «الَّتِي هِيَ».

قولُه (جَبَرُوتِ): أيْ عَظَموتِ قَدْرِه.

قولُه (مِمَّنْ أُقْدِرَ على القُوَّةِ): بصيغةِ المفعولِ.

قولُه (مِن عَدَدِ الحرائرِ): وهوَ التِّسْعُ. وقولُه (ما لَمْ يُبَحْ لِغَيْرِه): وهوَ الزائدُ على الأربَعِ.

قولُه (قَدْ رَوَيْنا): بفتحِ الراءِ والواوِ مخفَّفةً، وبضمِّ الراءِ وكسرِ الواوِ مشدَّدةً، ولا يَبْعُدُ أنْ يكونَ بِضَمِّ الراءِ وكسرِ الواوِ المخفَّفةِ بناءً على الحَذْفِ والإيصالِ.

قولُه (إحدى عَشْرَةَ): بكَسْرِ الشِّينِ وسُكونِها.

قولُه (صَفْوانَ بنِ سُلَيْمٍ): بالتصغيرِ.

قولُه (سَلْمَى): بفتحِ المهمَلَةِ والميمِ مَقْصورًا.

قولُه (طافَ... إلخ): هوَ كِنايةٌ عَنِ الجِماعِ وغَيْرِه، وفي نُسخةٍ بدونِها.

وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ) وَأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ[1].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِي ظَهْرِ سُلَيْمَانَ ﷺ مَاءُ مِائَةِ رَجُلٍ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثُمِائَةِ امْرَأَةٍ وَثَلَاثُمِائَةِ سُرِّيَّةٍ[2].

وَحَكَى النَّقَّاشُ وَغَيْرُهُ «سَبْعُمِائَةِ امْرَأَةٍ وَثَلَاثُمِائَةِ سُرِّيَّةٍ»[3].

وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى زُهْدِهِ وَأَكْلِهِ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَتَمَّتْ بِزَوْجِ أُورِيَاءَ مِائَةً، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص: ٢٣].

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ عَنْهُ ﷺ: (فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ: بِالسَّخَاءِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَكَثْرَةِ الجِمَاعِ، وَقُوَّةِ البَطْشِ)[4].

وَأَمَّا الجَاهُ فَمَحْمُودٌ عِنْدَ العُقَلَاءِ عَادَةً، وَبِقَدْرِ جَاهِهِ عِظَمُهُ فِي القُلُوبِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]؛ لَكِنْ آفَاتُهُ كَثِيرَةٌ، فَهُوَ مُضِرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ لِعُقْبَى الآخِرَةِ، فَلِذَلِكَ ذَمَّهُ مَنْ ذَمَّهُ، وَمَدَحَ ضِدَّهُ، وَوَرَدَ فِي الشَّرْعِ مَدْحُ الخُمُولِ، وَذَمُّ العُلُوِّ فِي الأَرْضِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ رُزِقَ مِنَ الحِشْمَةِ وَالمَكَانَةِ فِي القُلُوبِ وَالعَظَمَةِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ عِنْدَ الجَاهِلِيَّةِ وَبَعْدَهَا، وَهُمْ يُكَذِّبُونَهُ، وَيُؤْذُونَ أَصْحَابَهُ،

قوله (أورياءَ): -بضمٍّ همزةٍ؛ وقيلَ بفتحِها، فواوٍ ساكنةٍ وراءٍ مكسورةٍ وتحتيّةٍ ممدودةٍ- أيْ بزَوْجَتِهِ.

(١) حديثُ (قالَ سُلَيْمانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٤٢٤)، ومسلمٌ (١٦٥٤)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) حديثُ ابن عبّاس (كانَ في ظَهْر سُلَيمانَ ماءُ مائةِ رَجُل، وكانَ له ثَلَثُمائةِ امرأة، وثَلَثُمائةِ سُرِّيَّة): ابنُ جَرير في تفسيره [٢٠/ ١٠٠] مَوْقُوفًا.

(٣) حديث (أنَّه كانَ لسُلَيمانَ ثَلَثُمائة امرأة، وسَبْعُ مائةِ سُرِّيَّة): الحاكمُ في «المُستدرَك» [٢/ ٥٨٩] عَن محمدِ بن كَعْبٍ قال: بَلَغَني، فذَكَرَه...

(٤) حديث أنس (فُضِّلْتُ على النّاس بأربَعٍ...): الطَّبَرانيُّ في «الأَوْسَط» [٦٨١٦] بسَنَدٍ جَيِّد.

وَيَقْصِـدُونَ أَذَاهُ فِي نَفْسِـهِ خُفْيَـةً، حَتَّـى إِذَا وَاجَهَهُـمْ أَعْظَمُـوا أَمْـرَهُ، وَقَضَوْا حَاجَتَـهُ، وَأَخْبَارُهُ فِي ذَلِـكَ مَعْرُوفَـةٌ سَيَأْتِي بَعْضُهَـا.

وَقَـدْ كَانَ يَبْهَـتُ وَيَفْـرَقُ لِرُؤْيَتِـهِ مَـنْ لَمْ يَـرَهُ، كَـمَا رُوِيَ عَـنْ «قَيْلَـةَ» أَنَّهَـا لَمَّـا رَأَتْـهُ أُرْعِـدَتْ مِـنَ الفَـرَقِ، فَقَـالَ: (يَـا مِسْـكِينَةُ، عَلَيْـكِ السَّـكِينَةُ)[1].

وَفِي حَدِيـثِ أَبِي مَسْـعُودٍ أَنَّ رَجُـلًا قَـامَ بَـيْنَ يَدَيْـهِ فَأُرْعِـدَ، فَقَـالَ لَـهُ ﷺ: (هَـوِّنْ عَلَيْـكَ؛ فَـإِنِّي لَسْـتُ بِمَلِـكٍ...) الحَدِيـثَ[2].

وَأَمَّـا عَظِيـمُ قَـدْرِهِ بِالنُّبُـوَّةِ، وَشَرِيـفُ مَنْزِلَتِـهِ بِالرِّسَـالَةِ، وَإِنَافَـةُ رُتْبَتِـهِ بِالاصْطِفَـاءِ وَالكَرَامَـةِ فِي الدُّنْيَـا، فَأَمْـرٌ هُـوَ مَبْلَـغُ النِّهَايَـةِ، ثُـمَّ هُـوَ فِي الآخِـرَةِ سَـيِّدُ وَلَـدِ آدَمَ، وَعَـلَى مَعْنَـى هَـذَا الفَصْـلِ نَظَمْنَـا هَـذَا القِسْـمَ بِـأَسْرِهِ.

***

قولُـه (قَيْلَـةَ): بفتـحِ القافِ وسُـكونِ التحتيّةِ.

قولُه (أُرْعِدَتْ): بصيغةِ المَجهولِ.

***

(١) حديثُ قَيْلَةَ (أنَّها لمَّا رَأَتْه أُرْعِدَتْ مِنَ الفرَقِ، فقالَ: يا مسكينةُ عَلَيْكِ السَّكينةُ): أبو داوُدَ [٤٨٤٧]، والتِّرمذيُّ في «الشَّمائِلِ» [٦٤] بدون قولِه، وأَخْرَجَه ابنُ سَعْدٍ بتمامِه [١/ ٣١٧-٣٢٠].

(٢) حديث ابنِ مسعودٍ (أنَّ رَجُلًا قامَ بَيْنَ يَدَيْه فأُرْعِدَ...): البيهقيُّ [الدلائل ٥/ ٦٩] من طَريقِ قَيْسٍ عَنْه مَوْصُولًا، وعَنْ قَيْسٍ مُرْسَلًا، وقالَ: هُوَ المَحفوظُ، وأَخْرَجَ الحاكِمُ [٣/ ٤٧] مِثْلَه عَن قَيْسٍ عَنْ جَريرٍ مَوْصُولًا وصَحَّحَه.

فَصْلٌ: [فيما تَختَلِفُ فيهِ الحالاتُ في التَّمَدُّحِ بِه]

وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّالِثُ فَهُوَ مَا تَخْتَلِفُ فيهِ الحَالاَتُ فِي التَّمَدُّحِ بِهِ، وَالتَّفَاخُرِ بِسَبَبِهِ، وَالتَّفْضِيلِ لِأَجْلِهِ، ككَثْرَةِ المَالِ، فَصَاحِبُهُ عَلَى الجُمْلَةِ مُعَظَّمٌ عِنْدَ العَامَّةِ؛ لِاعْتِقَادِهَا تَوَصُّلَهُ بِهِ إِلَى حَاجَتِهِ؛ وَتَمَكُّنَ أَغْرَاضِهِ بِسَبَبِهِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ فَضِيلَةً فِي نَفْسِهِ.

فَمَتَى كَانَ المَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَصَاحِبُهُ مُنْفِقًا لَهُ فِي مُهِمَّاتِهِ، وَمُهِمَّاتِ مَنِ اعْتَرَاهُ وَأَمَّلَهُ، وَتَصْرِيفِهِ فِي مَوَاضِعِهِ، مُشْتَرِيًا بِهِ المَعَالِيَ وَالثَّنَاءَ الحَسَنَ وَالمَنْزِلَةَ فِي القُلُوبِ، كَانَ فَضِيلَةً فِي صَاحِبِهِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَإِذَا صَرَفَهُ فِي وُجُوهِ البِرِّ، وَأَنْفَقَهُ فِي سُبُلِ الخَيْرِ، وَقَصَدَ بِذَلِكَ اللهَ تعَالَى وَالدَّارَ الآخِرَةَ، كَانَ فَضِيلَةً عِنْدَ الكُلِّ بِكُلِّ حَالٍ.

وَمَتَى كَانَ صَاحِبُهُ مُمْسِكًا لَهُ، غَيْرَ مُوَجِّهِهِ وُجُوهَهُ، حَرِيصًا عَلَى جَمْعِهِ، عَادَ كُثْرُهُ كَالعَدَمِ، وَكَانَ مَنْقَصَةً فِي صَاحِبِهِ، وَلَمْ يَقِفْ بِهِ عَلَى جُدَدِ السَّلَامَةِ، بَلْ أوقَعَه فِي هُوَّةِ رذيلةِ البُخلِ ومَذَمَّةِ النذالةِ.

فإِذًا التَّمَدُّحُ بِالمَالِ وَفَضِيلَتُهُ عِنْدَ مُفَضِّلِهِ لَيْسَتْ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلتَّوَصُّلِ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَتَصْرِيفِهِ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ، فَجَامِعُهُ إِذَا لَمْ يَضَعْهُ مَوَاضِعَهُ، وَلَا وَجَّهَهُ وُجُوهَهُ غَيْرُ مَلِيٍّ بِالحَقِيقَةِ، وَلَا غَنِيٍّ بِالمَعْنَى، وَلَا مُمْتَدَحٍ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ العُقَلَاءِ، بَلْ هُوَ فَقِيرٌ أَبَدًا، غَيْرُ وَاصِلٍ إِلَى غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ؛ إِذْ مَا بِيَدِهِ مِنَ المَالِ المُوَصِّلِ لَهَا لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ، فَأَشْبَهَ خَازِنَ مَالِ غَيْرِهِ، وَلَا مَالَ لَهُ، فَكَأَنَّهُ لَيْسَ فِي يَدِهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَالمُنْفِقُ مَلِيٌّ غَنِيٌّ بِتَحْصِيلِهِ فَوَائِدَ المَالِ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ فِي يَدِهِ مِنَ المَالِ شَيْءٌ.

فَانْظُرْ سِيرَةَ نَبِيِّنَا ﷺ وَخُلُقَهُ فِي المَالِ، تَجِدْهُ قَدْ أُوتِيَ خَزَائِنَ الأَرْضِ وَمَفَاتِيحَ البِلَادِ، وَأُحِلَّتْ لَهُ الغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلَهُ،

قولُه (حاجَتِه) وفي نسخةٍ «حاجاتِه»، وقولُه (وأَمَّلَه): بتشديدِ الميمِ.

وقولُه (في القلوبِ) وفي نسخةٍ «مِنَ القُلوبِ».

قولُه (عادَ كُثْرُه): -بضمِّ الكافِ والراءِ؛ يقالُ: الحَمْدُ لله على القُلِّ والكُثْرِ- أيْ رَجَعَ كَثيرُه. وقولُه (كالعَدَمِ): أيْ بِمَنزلةٍ يَسيرةٍ.

قولُه (وكانَ مَنقَصةً): -بِفَتحِ القافِ وكَسْرِها- أيْ وكانَ المالُ نَقيصةً؛ لِما وَرَدَ أنَّ الأكثرينَ هُمُ الأَقَلّونَ يَوْمَ القيامةِ[1].

قولُه (جُدَدِ السَّلامةِ): بِفَتْحِ الجيمِ والدالِ المهمَلةِ؛ أيْ طريقِها المستويةِ، وبضمِّ الجيمِ جَمْعُ «جُدَّةٍ» كمُدَّةٍ؛ أيْ طُرُقِها. قولُه (في هوّةٍ): -بضَمِّ هاءٍ وتشديدِ واوٍ مفتوحةٍ- أيْ نَقيصةٍ. قولُه (ومَذَمّةِ) وفي نسخةٍ «ومَذَلّةِ»، و(النَّذالةِ): -بفتحِ النونِ والذالِ المعجَمةِ- الخَساسةُ. قولُه (الموَصِّلِ لَها): بالتشديدِ أوِ التخفيفِ، وفي نسخةٍ: «إلَيها».

قولُه (ومَفاتيحَ البِلادِ) وفي نسخةٍ صحيحةٍ: «مَفاتِحَ»؛ وهوَ كِنايةٌ عَنْ فَتْحِها علَيه وعلى أُمّتِه بَعْدَه، وجِبايةِ أموالِها إلَيْهم، واستخراجِ كُنوزِها لَدَيْهم.

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٦٤٤٤) [كتاب الرِّقاق]، ومسلمٌ (٩٤) [كتاب الزكاة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَفُتِحَ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ بِلَادُ الحِجَازِ وَاليَمَنِ وَجَمِيعُ جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَمَا دَانَى ذَلِكَ مِنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ، وَجُلِبَ إِلَيْهِ مِنْ أَخْمَاسِهَا وَجِزْيَتِهَا وَصَدَقَاتِهَا مَا لَا يُجْبَى لِلْمُلُوكِ إِلَّا بَعْضُهُ، وَهَادَتْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مُلُوكِ الأَقَالِيمِ فَمَا اسْتَأْثَرَ بِشَيْءٍ مِنْهُ وَلَا أَمْسَكَ مِنْهُ دِرْهَمًا، بَلْ صَرَفَهُ مَصَارِفَهُ، وَأَغْنَى بِهِ غَيْرَهُ، وَقَوَّى بِهِ المُسْلِمِينَ، وَقَالَ: (مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي أُحُدًا ذَهَبًا يَبِيتُ عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنِي)(١).

وَأَتَتْهُ دَنَانِيرُ مَرَّةً فَقَسَمَهَا وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ، فَدَفَعَهَا لِبَعْضِ نِسَائِهِ؛ فَلَمْ يَأْخُذْهُ نَوْمٌ حَتَّى قَامَ وَقَسَمَهَا، وَقَالَ: (الآنَ اسْتَرَحْتُ)(٢)، وَمَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ(٣).

وَاقْتَصَرَ مِنْ نَفَقَتِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَسْكَنِهِ عَلَى مَا تَدْعُوهُ ضَرُورَتُهُ إِلَيْهِ، وَزَهِدَ فِيمَا سِوَاهُ، فَكَانَ يَلْبَسُ مَا وَجَدَهُ، فَيَلْبَسُ فِي الغَالِبِ الشَّمْلَةَ وَالكِسَاءَ الخَشِنَ وَالبُرْدَ الغَلِيظَ، وَيَقْسِمُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ أَقْبِيَةَ الدِّيبَاجِ المُخَوَّصَةَ بِالذَّهَبِ، وَيَرْفَعُ لِمَنْ لَمْ يَحْضُرْهُ؛ إِذِ المُبَاهَاةُ فِي المَلَابِسِ، وَالتَّزَيُّنُ بِهَا لَيْسَتْ مِنْ خِصَالِ الشَّرَفِ وَالجَلَالَةِ، وَهِيَ مِنْ سِمَاتِ النِّسَاءِ، وَالمَحْمُودُ مِنْهَا نَقَاوَةُ الثَّوْبِ،

---

(١) حديث (ما يَسُرُّني أنَّ لي أُحُدًا ذَهَبًا...): الشيخان [البخاريُّ (٢٣٨٩)، ومسلمٌ (٩٩١)] عَن أبي هريرةَ.

(٢) حديث (أنَّه أَتَته دَنانيرُ فقسَمَها...): ابنُ سَعْدٍ [٢/ ٢٣٧] عَن عائشة بهذا اللفظ.

(٣) حديث (أنَّه ماتَ ودِرعُه مَرهونةٌ في نَفَقَة عِيالِه): البخاريُّ [٢٩١٦] عَن عائشةَ، والتِّرمذيُّ [١٢١٤] والنَّسائيُّ [٤٦٥١] عن ابنِ عبَّاس بلَفظ (مَرهونةٌ بعِشرينَ صَاعًا من طَعَامٍ أَخَذَه لأَهْلِه).

قولُه و(جَزيرةِ العَرَبِ): هيَ ما بَيْنَ أَقْصى عَدَنَ إلى رِيفِ العِراقِ طولًا، ومِن جُدَّةَ وما والاها مِن ساحِلِ البَحْرِ إلى طَرَفِ الشَّامِ عَرْضًا، وقالَ مالكٌ: هيَ الحِجازُ واليَمَنُ واليَمامةُ.

قولُه (وجُلِبَ إِلَيْه) وفي نسخةٍ «جُلِبَتْ».

قولُه (وهادَتْه) وفي نسخةٍ «هادَنَه»: أيْ صالحَه.

قولُه (أَغْنى بِهِ غَيْرَه): أيْ لِغِناه بِرَبِّه واستغنائِه بِقَلْبِه.

قولُه (إلَّا دينارًا): بالنَّصْبِ على الاستثناءِ، وفي نسخةٍ بالرَّفْعِ على البَدَلِ. قولُه (أَرْصُدُه لِدَيْني): -وهوَ بِفَتْحِ الهَمزةِ وضَمِّ الصادِ، وبِضَمٍّ وكَسْرٍ؛ مِنَ الإرصادِ- أيْ أَحْفَظُه، وفي نسخةٍ «لِلدَّيْنِ».

قولُه (وبَقِيَتْ مِنْها بَقِيَّةٌ): أيْ قَليلةٌ، وفي نسخةٍ «بَقِيَ مِنْها سِتَّةٌ». قولُه (ومَسْكَنِه): بفتحِ الكافِ وكَسْرِها. قولُه (وَزَهِدَ): بكَسْرِ الهاءِ. وقولُه (فكانَ يَلْبَسُ): بفَتْحِ الياءِ والباءِ. قولُه (الشَّمْلَةَ): -بالكَسْرِ(١)- الكِساءُ؛ وهوَ بالكَسْرِ. وقولُه (الخَشِنَ): بفتحٍ فكَسْرٍ.

قولُه (الدِّيباجِ): -بكسرِ الدالِ، وقَدْ تُفتَحُ- نَوعٌ مِنَ الحَريرِ، و(الأَقْبِيَةُ): صِنْفٌ مِنَ الثِّيابِ. قولُه (المُخَوَّصَةَ): -بتشديدِ الواوِ المَفتوحةِ- أيِ المَنسوجةَ.

قولُه (سِماتِ النِّساءِ): -بكَسْرِ السِّينِ- أيْ خِصالِ النِّسوةِ. قولُه (نَقاوةُ الثَّوْبِ): -بفَتْحِ النُّونِ- النظافةُ، وفي نسخةٍ بضَمِّها؛ وهيَ خِيارُه لَكِنَّه غَيْرُ مُلائِمٍ لِلمَقامِ.

---

(١) بل بالفتح هنا لأنها بمعنى الكساء، وإنما الكسر لهيئة الاشتمال.

وَالتَّوَسُّطُ فِي جِنْسِهِ، وَكَوْنُهُ لُبْسُ مِثْلِهِ غَيْرُ مُسْقِطٍ لِمُرُوءَةِ جِنْسِهِ مِمَّا لَا يُؤَدِّي إِلَى الشُّهْرَةِ فِي الطَّرَفَيْنِ.

وَقَدْ ذَمَّ الشَّرْعُ ذَلِكَ، وَغَايَةُ الفَخْرِ فِيهِ فِي العَادَةِ عِنْدَ النَّاسِ إِنَّمَا يَعُودُ إِلَى الفَخْرِ بِكَثْرَةِ المَوْجُودِ وَوُفُورِ الحَالِ، وَكَذَلِكَ التَّبَاهِي بِجَوْدَةِ المَسْكَنِ وَسَعَةِ المَنْزِلِ وَتَكْثِيرِ آلَاتِهِ وَخَدَمِهِ وَمَرْكُوبَاتِهِ، وَمَنْ مَلَكَ الأَرْضَ، وَجُبِيَ إِلَيْهِ مَا فِيهَا، فَتَرَكَ ذَلِكَ زُهْدًا وَتَنَزُّهًا، فَهُوَ حَائِزٌ لِفَضِيلَةِ المَالِيَّةِ، وَمَالِكٌ لِلْفَخْرِ بِهَذِهِ الخَصْلَةِ -إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةً-، زَائِدٌ عَلَيْهَا فِي الفَخْرِ، وَمُعْرِقٌ فِي المَدْحِ؛ بِإِضْرَابِهِ عَنْهَا، وَزُهْدِهِ فِي فَانِيهَا، وَبَذْلِهَا فِي مَظَانِّهَا.

***

قوله (وسَعةِ المَنْزِلِ): -بفتحِ السّينِ- أيْ مِن جِهةِ طولِها وعَرْضِها.

قوله (وجُبِيَ إلَيْه): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ أُتِيَ إلَيْه.

قوله (ومُعْرِقٌ): -بضمِّ أوَّلِه وكسرِ الراءِ وتُفْتَحُ- أيْ له عِرْقٌ؛ أيْ أَصْلٌ.

قولُه (بإضرابِه): -بكسرِ الهمزةِ- أيْ بِسَبَبِ إعراضِه.

قولُه (في مَظانِّها): -بفتحِ الميمِ وتشديدِ النونِ- أيْ مَحالِّها، وقَدْ تَصَحَّفَ [على] التلمسانيِّ وقالَ: أَرادَ مَواضِعَ البُخْلِ.

***

فَصْلٌ [في حُسْنِ خُلُقِه ﷺ]

وَأَمَّا الخِصَالُ المُكْتَسَبَةُ مِنَ الأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ وَالآدَابِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي اتَّفَقَ جَمِيعُ العُقَلَاءِ عَلَى تَفْضِيلِ صَاحِبِهَا وَتَعْظِيمِ المُتَّصِفِ بِالخُلُقِ الوَاحِدِ مِنْهَا، فَضْلًا عَمَّا فَوْقَهَا، وَأَثْنَى الشَّرْعُ عَلَى جَمِيعِهَا، وَأَمَرَ بِهَا، وَوَعَدَ بِالسَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ لِلْمُتَخَلِّقِ بِهَا، وَوَصَفَ بَعْضَهَا بِأَنَّهُ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ، وَهِيَ المُسَمَّاةُ بِحُسْنِ الخُلُقِ، وَهُوَ الاعْتِدَالُ فِي قُوَى النَّفْسِ وَأَوْصَافِهَا، وَالتَّوَسُّطُ فِيهَا دُونَ المَيْلِ إِلَى مُنْحَرِفِ أَطْرَافِهَا، فَجَمِيعُهَا قَدْ كَانَتْ خُلُقَ نَبِيِّنَا ﷺ عَلَى الانْتِهَاءِ فِي كَمَالِهَا، وَالاعْتِدَالِ فِي غَايَتِهَا، حَتَّى أَثْنَى اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، فَقَالَ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ، يَرْضَى بِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ بِسَخَطِهِ)[١]، وَقَالَ ﷺ: (بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ)[٢].

وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا)[٣]، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِثْلُهُ[٤].

وَكَانَ فِيمَا ذَكَرَهُ المُحَقِّقُونَ مَجْبُولًا عَلَيْهَا فِي أَصْلِ خِلْقَتِهِ وَأَصْلِ فِطْرَتِهِ، لَمْ تَحْصُلْ لَهُ بِاكْتِسَابٍ وَلَا بِرِيَاضَةٍ، إِلَّا بِجُودٍ إِلَهِيٍّ وَخُصُوصِيَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ.

(١) حديثُ عائشةَ (كانَ خُلُقُهُ القرآنَ، يَرْضَى برضَاه، ويَسْخَطُ بسَخَطه): أخرجَه بهذا اللفظ البَيْهقيُّ في «الدَّلائل» [١/ ٣٠٩، ٣١٠]، وصَدْرُه في «الصحيح» [مسلم (٧٤٦)].

(٢) حديث (بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارمَ الأخلاقِ): أحمدُ [٨٩٥٢] عَن مُعاذ، والبَزَّارُ [٨٩٤٩] عَن أَبي هُرَيرةَ.

(٣) حديثُ أَنس (كانَ أَحسَنَ الناسِ خُلُقًا): الشيخانِ [البخاريُّ (٦٢٠٣)، ومسلمٌ (٢١٥٠)].

(٤) حديث عَليٍّ مثلُه: أبو عُبَيد في «الغَريب».

قولُه (وَوَصَفَ بَعْضَها بأنَّه مِنْ أَجزاءِ النُّبوّة): كحديثِ السَّمْتِ الحَسَنِ والتُّؤَدة[١].

قولُه (الاعتِدالُ في قوى النَّفسِ): فإنَّ لَها ثَلاثَ قوًى: مَنْطِقيّةٌ؛ اعتِدالُها حِكْمةٌ، وشَهْويّةٌ؛ اعتِدالُها عِفّةٌ، وغَضَبيّةٌ؛ اعتِدالُها شَجاعةٌ.

قولُه (كانَ خُلُقُه القرآنَ): بالرفعِ، ويَجوزُ بالنصبِ، وفي بَعضِ النُّسَخِ بدونِ (يَرْضى بِرِضاه)، وفي بَعضِ النُّسخِ بزيادةِ «يَعْني التأدُّبَ بآدابِه، والتَّخلُّقَ بمَحاسِنِه، والالتِزامَ لِأَوامِره وزَواجِره».

قولُه (وأَصْلِ فِطْرَتِه) وفي بَعْضِ النُّسَخِ «وأَوَّلِ فِطْرَتِه».

(١) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من مسنده» (٥١٢)، الترمذيُّ (٢٠١٠) [أبواب البرِّ والصِّلة]، والطبرانيُّ في «الأوسط» (١٠١٧)، وغيرهم من حديث عبد الله بن سريج المزني بلفظ: «السَّمْتُ الحَسَنُ، وَالتُّؤَدَةُ وَالاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». وحسَّنه الترمذيُّ.

وَهَكَذَا سَائِرُ الأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ طَالَعَ سِيَرَهُمْ مُنْذُ صِبَاهُمْ إِلَى مَبْعَثِهِمْ حَقَّقَ ذَلِكَ كَمَا عُرِفَ مِنْ حَالِ عِيسَى وَمُوسَى وَيَحْيَى وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بَلْ غُرِزَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الأَخْلَاقُ فِي الجِبِلَّةِ، وَأُودِعُوا العِلْمَ وَالحِكْمَةَ فِي الفِطْرَةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، قَالَ المُفَسِّرُونَ: أَعْطَى اللهُ يَحْيَى العِلْمَ بِكِتَابِ اللهِ فِي حَالِ صِبَاهُ، وَقَالَ مَعْمَرٌ: كَانَ ابْنُ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَقَالَ لَهُ الصِّبْيَانُ: لِمَ لَا تَلْعَبُ؟ فَقَالَ: أَلِلَّعِبِ خُلِقْتُ؟!(١)

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صَدَّقَ يَحْيَى بِعِيسَى وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ، فَشَهِدَ لَهُ أَنَّهُ كَلِمَةُ اللهِ وَرُوحُهُ، وَقِيلَ: صَدَّقَهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؛ فَكَانَتْ أُمُّ يَحْيَى تَقُولُ لِمَرْيَمَ إِنِّي أَجِدُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِمَا فِي بَطْنِكِ تَحِيَّةً لَهُ.

وَقَدْ نَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى كَلَامِ عِيسَى لِأُمِّهِ عِنْدَ وِلَادَتِهَا إِيَّاهُ بِقَوْلِهِ لَهَا: ﴿أَن لَا تَحْزَنِي﴾ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ [مريم: ٢٤]، وَعَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ المُنَادِيَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَصَّ عَلَى كَلَامِهِ فِي مَهْدِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ حُكْمِ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ صَبِيٌّ وَهُوَ يَلْعَبُ، فِي قَضِيَّةِ المَرْجُومَةِ(٢)،

---

(١) حديث (أَنَّ يَحْيَى قالَ له الصِّبْيَانُ: لِمَ لا تَلْعَبُ؟ قال: أَلِلَّعبِ خُلِقْتُ؟!...): الدَّيلميُّ [٣٢٢٧] عَن مُعاذ بن جَبَل ولَمْ يُسْنِدْه، والحاكمُ في «التاريخ» عَن ابن عَبَّاس مَرفوعًا، وسَنَدُه واهٍ، وأَخْرَجَه أحمدُ في «الزُّهْد» [٣٩٧]، وابنُ أَبي حاتِمٍ في تفسيره [١٣٠٦١] عَن مَعْمَر، قال: بَلَغَني... فذكَرَه.

(٢) حديث سُلَيْمَانَ في قِصَّة المَرْجُومة: ابنُ عساكرَ في تاريخه [٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣] بسَنَده إلى ابن عبّاس (أَنَّ امرأةً حَسناءَ في بَني إسرائيلَ راوَدَها عَنْ نَفْسِها أربعةٌ من رُؤَسائهم، فامتَنَعَتْ على كُلٍّ منهم، فاتَّفَقُوا فيما بَيْنَهم علَيْها، فشَهِدُوا علَيْها عِنْدَ داوُدَ أَنَّها مَكَّنَتْ من نَفْسها كَلْبًا لها قَدْ عَوَّدَتْه ذلك منها، فأَمَرَ برَجْمها.. فلَمَّا كانَ عَشيَّةُ ذلك اليوم جَلَسَ سُلَيمانُ واجتَمَعَ مَعَه وِلْدان مثْلُه، فانتَصَبَ حاكمًا وتَزَيَّا أربعةٌ منْهم بزيِّ أولئكَ، وآخَرُ بزيِّ المرأة، وشَهِدُوا علَيْها بأَنَّها مَكَّنَتْ من نَفْسها كَلْبًا. فقالَ سُلَيمانُ:=

قولُه (بَلْ غُرِزَتْ): -بصيغةِ المَجهولِ- أيْ طُبِعَتْ.

قولُه (أَعْطى اللهُ يَحْيى) وفي نُسخةٍ: «أَعْطيَ يَحْيى»؛ بِبناءِ الفِعْلِ لِلمَفْعولِ.

وقولُه (مَعْمَرٌ): بِفَتْحِ المِيمَيْنِ.

قولُه (أَلِلَّعِبِ خُلِقْتُ؟!): بِهَمْزةِ الاستِفْهامِ، و«اللَّعِبُ» فيه لُغَتانِ: فَتْحُ اللّامِ وكَسْرُ العَيْنِ، وكَسْرُ أَوَّلِه وسُكونُ ثانيه.

قولُه (فَشَهِدَ لَه) وَفي نُسخةٍ: «وشَهِدَ لَه».

قولُه (وكُلًّا آتَيْنا حُكْمًا وعِلْمًا): أيْ مَعْرِفةً بِموجَبِ الحُكومةِ، وعِلْمًا بِسائِرِ القَضايا الشَّرْعيّةِ.

وقولُه (وقَدْ ذُكِرَ): بصيغةِ المَجْهولِ.

وقولُه (عَنْ حُكْمِ سُلَيمانَ) وفي نسخةٍ: «مِنْ حُكْمِ... إلخ»؛ وهيَ الّتي في أَصْلِ الدلجيِّ.

قولُه (في قَضيّةِ المَرْجومةِ): أيِ الّتي كانوا يُريدونَ أنْ يَرْجُموها، وفي نُسخةٍ «في قِصّةِ... إلخ».

وَفِي قِصَّةِ الصَّبِيِّ[1] مَا اقْتَدَى بِهِ دَاوُدُ أَبُوهُ، وَحَكَى الطَّبَرِيُّ أَنَّ عُمْرَهُ كَانَ حِينَ أُوتِيَ المُلْكَ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا.

وَكَذَلِكَ قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ، وَأَخْذِهِ بِلِحْيَتِهِ وَهُوَ طِفْلٌ.

وَقَالَ المُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]: أَيْ هَدَيْنَاهُ صَغِيرًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: اصْطَفَاهُ قَبْلَ إِبْدَاءِ خَلْقِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا وُلِدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يَأْمُرُهُ عَنِ اللهِ أَنْ يَعْرِفَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَذْكُرَهُ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ» وَلَمْ يَقُلْ «أَفْعَلُ»؛ فَذَلِكَ رُشْدُهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ إِلْقَاءَ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ وَمِحْنَتَهُ كَانَتْ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَإِنَّ ابْتِلَاءَ إِسْحَاقَ بِالذَّبْحِ كَانَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، وَإِنَّ اسْتِدْلَالَ إِبْرَاهِيمَ بِالكَوْكَبِ وَالقَمَرِ وَالشَّمْسِ كَانَ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا.

=فَرِّقُوا بَيْنَهم، فسَأَلَ أَوَّلَهم: ما كانَ لَوْنُ الكلب؟ فقالَ: أَسْوَدُ، فعَزَلَه، واستَدْعَى الآخَرَ فسَأَلَه عَنْ لَوْنه فقال: أَحْمَرُ، وقالَ الآخَرُ: أَغْبَشُ، وقالَ الآخَرُ: أَبْيَضُ، فأَمَرَ عِنْدَ ذلك بقَتْلِهم.. فحَكَى ذلك لِدَاوُدَ فاستَدْعَى مِنْ فَوْره أولئكَ الأربعةَ، فسأَلَهم مُتفرِقِينَ عَن لَوْنِ ذلك الكَلْب، فاختَلَفُوا عَلَيْه، فأَمَرَ بقَتْلِهم).

(١) حديث سُلَيمانَ في قصَّة الصَّبيِّ: الشَّيخان [البخاريُّ (٣٤٢٧)، ومسلمٌ (١٧٢٠)] عَن أَبي هُريرةَ مَرفُوعًا (بَيْنَمَا امرأتان مَعَهما ابنَان لَهُما، وجاءَ الذِّئبُ فأَخَذَ أَحَدَ الابنَيْن، فتَحاكَمَا إلى داوُدَ، فقَضَى به لِلكُبْرَى، فخرَجَتَا فدعَاهُما سُلَيمانُ فقالَ: هاتُوا بالسِّكِّينِ أَشُقُّه بَيْنَكما، فقالَتِ الصُّغْرَى: رَحِمَكَ اللهُ هُوَ ابنُها لا تَشُقُّه، فقضَى بِهِ لِلصُّغْرَى).

قولُه (وَحَكَى الطَّبَرِيُّ) وَفِي نُسخةٍ: «وقالَ الطَّبَرِيُّ».

قولُه (ومِحْنَتَه كانَتْ وهوَ ابنُ سِتَّ عَشْرةَ سَنةً): قالَ المُلَّا: وفي «عَيْنِ المَعاني» عَنِ ابنِ جُرَيْجٍ: سِتٌّ وعِشْرينَ إذْ أَقْسَمَ لَيَكِيدَنَّ أصنامَهم؛ فأَلْقَوْه فيها، فكانَتْ عَلَيْه بَرْدًا وسَلامًا.

قولُه (كانَ وهوَ ابنُ) وفي نسخةٍ بحَذْفِ (كانَ). وقولُه (ابنُ سَبْعِ سِنِينَ): وقيلَ: ثلاثَ عَشْرةَ سَنةً على أَحَدِ القولَيْنِ في الذَّبيحِ مَعَ خِلافٍ في الترجيحِ؛ حتّى تَوَقَّفَ السيوطيُّ في رسالةٍ لَه مُستقِلَّةٍ بَعْدَ ذِكْرِه الأَدِلَّةَ مِنَ الطرَفَيْنِ لَكِنَّ المَشْهورَ بَلِ الصحيحَ أَنَّه إسماعيلُ؛ لِحديثِ (أنا ابنُ الذَّبيحَيْنِ)[1] اهـ مُلَّا.

(١) ذكره بهذا اللفظ الحافظ ابن حجرٍ في «الفتح» (١٣/ ٣٧٨) قال: «وحديث: «أنا بن الذَّبيحَيْن» رُوِّيناهُ في الخُلَعِيَّاتِ مِن حديث مُعاويةَ ونقله عبدالله بن أحمد عن أبيه وابن أبي حاتم عن أبيه وأطنب ابن القيِّم في الهَدْي في الاستدلال لتَقْوِيَتِه»، و ذكره الحاكم في «المستدرك» مُعلَّقًا (٢/ ٦٠٩) فقال: «وقد كنتُ أرى مشايخَ الحديثِ قبلنا وفي سائرِ المُدُنِ التي طَلَبْنا الحديثَ فيه وهم لا يختلفون أنَّ الذَّبيحَ إسماعيلُ وقاعدتهم فيه قولُ النبيِّ ﷺ: «أَنا ابنُ الذَّبيحَيْنِ». وأخرج الطبريُّ في «التفسير» (١٩/ ٥٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٠٤) من حديث معاويةَ وفيه أنَّ أعرابيًّا قال للنبيِّ ﷺ: يا ابن الذَّبيحَيْنِ، فتبسَّمَ ولم يُنكِرْ عليه. وانظر «المقاصد الحسنة» للسخاويِّ (ص٥١).

وَقِيلَ: أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى يُوسُفَ وَهُوَ صَبِيٌّ عِنْدَمَا هَمَّ إِخْوَتُهُ بِإِلْقَائِهِ فِي الْجُبِّ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا...﴾ الآيَةَ [يوسف: ١٥]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذُكِرَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ حَكَى أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ أَخْبَرَتْ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ وُلِدَ حِينَ وُلِدَ بَاسِطًا يَدَيْهِ إِلَى الأَرْضِ، رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ.(١)

وَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: (لَمَّا نَشَأْتُ بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأَوْثَانُ، وَبُغِّضَ إِلَيَّ الشِّعْرُ)(٢)، وَ(لَمْ أَهُمَّ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ إِلاَّ مَرَّتَيْنِ، فَعَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ لَمْ أَعُدْ)(٣).

ثُمَّ يَتَمَكَّنُ الأَمْرُ لَهُمْ، وَتَتَرَادَفُ نَفَحَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَتُشْرِقُ أَنْوَارُ المَعَارِفِ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى يَصِلُوا الغَايَةَ، وَيَبْلُغُوا بِاصْطِفَاءِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالنُّبُوَّةِ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الخِصَالِ الشَّرِيفَةِ النِّهَايَةَ، دُونَ مُمَارَسَةٍ وَلَا رِيَاضَةٍ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وَقَدْ نَجِدُ غَيْرَهُمْ يُطْبَعُ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الأَخْلَاقِ دُونَ جَمِيعِهَا، وَيُولَدُ عَلَيْهَا، فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ اكْتِسَابُ تَمَامِهَا عِنَايَةً مِنَ اللهِ تَعَالَى، كَمَا نُشَاهِدُ مِنْ خِلْقَةِ بَعْضِ الصِّبْيَانِ عَلَى حُسْنِ السَّمْتِ أَوِ الشَّهَامَةِ

---

(١) [أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٥٠)، وأخرجه مطوّلًا عبدالرزاق في المصنف (٩٧١٨)، وانظر سيرة ابن هشام (١/ ١٦٥)].

(٢) حديث (لمَّا نشأتُ بُغِّض إليَّ الأوثانُ، وبُغِّض إليَّ الشِّعْرُ...): أبو نُعَيم في «الدَّلائل» [لم أجده في المطبوع، وأخرجه الآجري في الشريعة (٩٦٢)] عَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ.

(٣) حديث (لَمْ أَهُمَّ بشيْءٍ ممَّا كانت الجاهلية تَفعَله إلّا مرَّتَيْن...): البزّارُ [٦٤٠] بسَنَد صَحيح من حديث عَليٍّ بلَفْظ (ما هَمَمْتُ بشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الجاهليَّة يَعْمَلُونَ به غَيْرَ مَرَّتَيْن، كُلُّ ذَلكَ يَحُولُ اللهُ بَيْنِي وبَيْنَ ما أُريدُ، ثُمَّ ما هَمَمْتُ بعْدَها بشَيْءٍ حَتَّى أَكْرَمَني اللهُ برسالَته).

قولُه (أَوْحى اللهُ إلى يوسُفَ) وفي نسخةٍ: (أوحيَ إلى يوسُفَ)، و(يوسُفُ): بِضَمِّ السِّينِ وفَتْحِها وبكَسْرِها مع الهَمْز.

قولُه (وُلِدَ حينَ وُلِدَ باسِطًا): أيْ أَوَّلَ ما وُلِدَ باسِطًا يَدَيْه إلى الأرضِ، أيْ مُعتَمِدًا بيَدَيْه على الأرضِ، وقَدْ جاءَ كذلكَ مُفَسَّرًا بِقولِه (رافِعًا رأسَه... إلخ).

قولُه (بُغِّضَتْ): بتشديدِ الغَينِ المعجَمة.

قولُه (ولَمْ أَهُمَّ): -بتشديدِ الميم المَضمومةِ أوِ المفتوحةِ(١)- أيْ لَمْ أَقْصِدْ.

قولُه (وتُشْرِقُ): بِضَمِّ التَّاءِ وسُكونِ ما بَعْدَها وكسرِ الراءِ.

قولُه (على حُسْنِ السَّمْتِ أوِ الشَّهامةِ): أيْ على حُسْنِ الطريقةِ وهَيئةِ الخَيْرِ، أوِ الجَلَدِ وذَكاءِ الفُؤادِ؛ قالَ في «القاموس»: «السَّمْتُ: الطَّريقُ، وهَيْئةُ أَهْلِ الخَيرِ، والسَّيْرُ على الطريقِ بالظَّنِّ، وحُسْنُ النَّحْوِ، وقَصْدُ الشَّيْءِ»، وقالَ أيضًا: «الشَّهْمُ: الذَّكيُّ الفُؤادِ المُتَوَقِّدُ».

---

(١) يجوز في الميم الضم والفتح والكسر؛ الضم على الإتباع لحركة فاء الكلمة، والفتح تخفيفًا، والكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين.

أَوْ صِدْقِ اللِّسَانِ أَوِ السَّمَاحَةِ، وَكَمَا نَجِدُ بَعْضَهُمْ عَلَى ضِدِّهَا، فَبِالاكْتِسَابِ يَكْمُلُ نَاقِصُهَا، وَبِالرِّيَاضَةِ وَالمُجَاهَدَةِ يُسْتَجْلَبُ مَعْدُومُهَا، وَيَعْتَدِلُ مُنْحرِفُهَا، وَبِاخْتِلَافِ هَذَيْنِ الحَالَيْنِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِيهَا، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

وَلِهَذَا مَا قَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ: هَلْ هَذَا الخُلُقُ جِبِلَّةٌ أَوْ مُكْتَسَبَةٌ؟

فَحَكَى الطَّبَرِيُّ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ جِبِلَّةٌ وَغَرِيزَةٌ فِي العَبْدِ، وَحَكَاهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَالحَسَنِ، وَبِهِ قَالَ هُوَ.

وَالصَّوَابُ مَا أَصَّلْنَاهُ، وَقَدْ رَوَى سَعْدٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (كُلُّ الخِلَالِ يُطْبَعُ عَلَيْهَا المُؤْمِنُ إِلَّا الخِيَانَةَ وَالكَذِبَ)(١)، وَقَالَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ: (والجُرْأَةُ وَالجُبْنُ غَرَائِزُ يَضَعُهَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ)(٢).

وَهَذِهِ الأَخْلَاقُ المَحْمُودَةُ وَالخِصَالُ الجَمِيلَةُ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّا نَذْكُرُ أُصُولَهَا، وَنُشِيرُ إِلَى جَمِيعِهَا، وَنُحَقِّقُ وَصْفَهُ ﷺ بِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

***

(١) حديث (كُلُّ الخِلَالِ يُطْبَعُ عَلَيْها المؤمنُ إِلَّا الخِيَانةَ والكَذِبَ): ابنُ أَبِي شَيْبَةَ في «المُصَنَّف» [٢٢١٧٠] عَن أَبِي أُمامَةَ.

(٢) حديث عمَرَ (الجرأةُ والجُبْنُ غرائزُ يَضَعُها اللهُ حيثُ يَشاءُ): ابنُ جَرير وابنُ أَبِي حاتِم، وسَعِيدُ بنُ مَنصور في سُنَنه [٢٥٣٤]. [وأخرج صدره أيضًا: ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٦١٦)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٠٠) والدارقطني في السنن (٣٨٠٧) بلفظ: «الشجاعة والجبن غرائز في الرجال»].

قولُه (أَوِ السَّماحَةِ): أَيِ الجودِ والكَرَمِ.

قولُه (جِبِلَّةٌ): أَيْ خَلْقٌ وطَبْعٌ، قالَ في «القاموسِ»: «وجَبَلَهم اللهُ -تعالى- يَجْبُلُ -بِضَمِّ المُوَحَّدةِ وكَسْرِها-: خَلَقَهم، وعَلى الشيْءِ: طَبَعَه».

قولُه (الطَّبَرِيُّ): بتشديد الطاءِ المفتوحةِ، وفَتحِ الموحَّدةِ، وكَسْرِ الراءِ، و(السَّلَفِ): بِمَعْنى القُدَماءِ، و(الغَرِيزةُ): الطَّبِيعةُ؛ فهوَ تفسيرٌ لِما قَبْلَه.

قولُه (ما أَصَّلْناه): أَيْ جَعَلْناه أَصْلًا أَوْ ذا أَصْلٍ.

قولُه (كُلُّ الخِلالِ يُطْبَعُ عَلَيْها المُؤْمِنُ): (الخِلالِ): جَمْعُ «خَلَّةٍ» -بفتحِ الخاءِ؛ بمعنى «خَصْلَةٍ»؛ بِفَتْحِها أيضًا.

قولُه (والجُبْنُ): بضَمِّ الجيمِ وسُكونِ المُوَحَّدةِ وقَدْ تُضَمُّ.

قولُه (الخِصالُ الجَميلةُ): وفي نُسخةٍ «الخِصالُ الشَّريفةُ».

قولُه (ولَكِنّا نَذْكُرُ) وفي روايةٍ «ولَكِنْ... إلخ».

***

فَصْلٌ [في بيان أصول هذه الأخلاق]

أَمَّا أَصْلُ فُرُوعِهَا، وَعُنْصُرُ يَنَابِيعِهَا، وَنُقْطَةُ دَائِرَتِهَا، فَالعَقْلُ الَّذِي مِنْهُ يَنْبَعِثُ العِلْمُ وَالمَعْرِفَةُ، وَيَتَفَرَّعُ عَنْ هَذَا ثُقُوبُ الرَّأْيِ، وَجَوْدَةُ الفِطْنَةِ، وَالإِصَابَةُ، وَصِدْقُ الظَّنِّ، وَالنَّظَرُ لِلْعَوَاقِبِ وَمَصَالِحِ النَّفْسِ، وَمُجَاهَدَةُ الشَّهْوَةِ، وَحُسْنُ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ، وَاقْتِنَاءُ الفَضَائِلِ، وَتَجَنُّبُ الرَّذَائِلِ.

وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى مَكَانِهِ مِنْهُ ﷺ، وَبُلُوغِهِ مِنْهُ وَمِنَ العِلْمِ الغَايَةَ الَّتِي لَمْ يَبْلُغْهَا بَشَرٌ سِوَاهُ، وَإِذْ جَلَالَةُ مَحَلِّهِ مِنْ ذَلِكَ وَمِمَّا تَفَرَّعَ مِنْهُ مُتَحَقِّقٌ عِنْدَ مَنْ يَتَتَبَّعُ مَجَارِيَ أَحْوَالِهِ، وَاطِّرَادَ سِيَرِهِ، وَطَالَعَ جَوَامِعَ كَلِمِهِ، وَحُسْنَ شَمَائِلِهِ، وَبَدَائِعَ سِيَرِهِ، وَحِكَمَ حَدِيثِهِ، وَعِلْمِهِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، وَحِكَمِ الحُكَمَاءِ، وَسِيَرِ الأُمَمِ الخَالِيَةِ وَأَيَّامِهَا، وَضَرْبِ الأَمْثَالِ، وَسِيَاسَاتِ الأَنَامِ، وَتَقْرِيرِ الشَّرَائِعِ، وَتَأْصِيلِ الآدَابِ النَّفِيسَةِ وَالشِّيَمِ الحَمِيدَةِ إِلَى فُنُونِ العُلُومِ الَّتِي اتَّخَذَ أَهْلُهَا كَلَامَهُ ﷺ فِيهَا قِدْوَةً، وَإِشَارَاتِهِ حُجَّةً كَالعِبَارَةِ وَالطِّبِّ وَالحِسَابِ وَالفَرَائِضِ وَالنَّسَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَنُبَيِّنُهُ فِي مُعْجِزَاتِهِ ﷺ دُونَ تَعْلِيمٍ وَلَا مُدَارَسَةٍ وَلَا مُطَالَعَةِ كُتُبِ مَنْ تَقَدَّمَ وَلَا الجُلُوسِ إِلَى عُلَمَائِهِمْ، بَلْ نَبِيٌّ أُمِّيٌّ لَمْ يَعْرِفْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ، وَأَبَانَ أَمْرَهُ، وَعَلَّمَهُ وَأَقْرَأَهُ.

(فَصْلٌ: في بَيانِ أُصولِ هذه الأخلاقِ تَصْريحًا وإلى جَميعِها تَلويحًا)

قولُه (وعُنْصُرُ يَنابيعِها): -بضمِّ العَينِ والصادِ والفتحِ[1]- أيْ أصلُها الَّذي كأنَّها تَنْبُعُ مِنْه.

قولُه (ثُقوبُ الرَّأْيِ): أيْ نُفوذُه وأحكامُه.

قولُه (وَجَوْدَةُ الفِطْنَةِ): -بفَتحِ الجيمِ- أيْ حُسْنُ الفَهْمِ.

قولُه (والإصابةُ): بالرفعِ، وفي نسخةٍ بالجَرِّ؛ والمُرادُ إدراكُ الغَرَضِ على وَجْهِ الصَّوابِ.

قولُه (الغايةَ): أيْ بُلوغِه لِلغايةِ القُصْوى -كَما في نسخةٍ.

قولُه (تَفَرَّعَ... إلخ) وفي نُسخةٍ «ومِمّا يَتَفَرَّعُ». وقولُه (مُتَحَقِّقٌ) ويُرْوى «متحَقِّقةٌ»؛ أيْ ثابِتةٌ مَقطوعةٌ بِهِ.

قولُه (وَحِكَمَ حَديثِه): -بكسرِ الحاءِ المهمَلةِ وفَتْحِ الكافِ؛ جَمْعُ «حِكْمةٍ»- أيْ أحاديثَه المُشْتَمِلةَ على الحِكَمِ الكامِلةِ.

قولُه (والإنجيلِ): بكَسرِ الهمزةِ وفَتْحِها.

قولُه (قِدْوةً): -بتثليثِ القافِ والكسرُ أشْهَرُ، ثُمَّ الضمُّ- أيْ مُقْتَدًى بِهِ.

وقولُه (كالعِبارةِ): -بكَسْرِ العَيْنِ- مَصْدَرُ «عَبَرَ الرُّؤْيا، يَعْبُرُ»: بمعنى التعبيرِ والتفسيرِ.

وقولُه (والطِّبِّ): بتثليثِ الطاءِ وتشديدِ الباءِ، والكَسْرُ أَصَحُّ وأَفْصَحُ.

قولُه (والنَّسَبِ): بفتحتَيْنِ؛ مِنْ نَسَبْتُ الرَّجُلَ: عَزَوْتُه إلى أَبيهِ.

قولُه (لَمْ يَعْرَفْ): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ لَمْ يُشْتَهَرْ.

(١) أي بضم الصاد وفتحها؛ لغتان.

يُعْلَمُ ذَلِكَ بِالْمُطَالَعَةِ وَالبَحْثِ عَنْ حَالِهِ ضَرُورَةً، وَبِالبُرْهَانِ القَاطِعِ عَلَى نُبُوَّتِهِ نَظَرًا، فَلا نُطَوِّلُ بِسَرْدِ الأَقَاصِيصِ وَآحَادِ القَضَايَا؛ إِذْ مَجْمُوعُهَا مَا لَا يَأْخُذُهُ حَصْرٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ حِفْظٌ جَامِعٌ.

وَبِحَسَبِ عَقْلِهِ كَانَتْ مَعَارِفُهُ ﷺ إِلَى سَائِرِ مَا أَعْلَمَهُ اللهُ، وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِ مَا يَكُونُ، وَمَا كَانَ، وَعَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَعَظِيمِ مَلَكُوتِهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، حَارَتِ العُقُولُ فِي تَقْدِيرِ فَضْلِهِ عَلَيْهِ، وَخَرِسَتِ الأَلْسُنُ دُونَ وَصْفٍ يُحِيطُ بِذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي إِلَيْهِ.

***

وقولُه (يُعْلَمُ) بصيغةِ المَجْهولِ. قولُه (بِسَرْدِ الأقاصيصِ): أيْ بإيرادِ قِصَصِ الأنبياءِ مُتتابِعةً.

قولُه (وبِحَسَبِ عَقْلِه): بفَتْحِ الحاءِ والسّينِ؛ على ما في الأصولِ المُصَحَّحةِ، وضَبَطَه الأنطاكيُّ بِسُكونِ السينِ، وقالَ: أيْ بِعَقْلِه فَقَطْ، والصَّوابُ ما قُلْنا -كَذا قالَه المُلّا.

قولُه (ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ): مِن تفاصيلِ الشريعةِ وآدابِ الطَّريقةِ وأحوالِ الحَقيقةِ.

قولُه (في تقديرِ فَضْلِه عَلَيْه): أيْ في تقديرِ عِلْمِه لَدَيْه.

قولُه (وخَرِسَتِ الأَلْسُنُ): -بكَسْرِ الراءِ- أيْ سَكَتَتْ.

***

فَصْلٌ [فِي حِلْمِهِ واحْتِمالِهِ وعَفْوِهِ ﷺ]

وَأَمَّا الحِلْمُ وَالاحْتِمَالُ وَالعَفْوُ وَالقُدْرَةُ وَالصَّبْرُ عَلَى مَا يُكْرَهُ، وبَيْنَ هَذِهِ الأَلْقَابِ فَرْقٌ: فَإِنَّ الحِلْمَ: حَالَةُ تَوَقُّرٍ وَثَبَاتٍ عِنْدَ الأَسْبَابِ المُحَرِّكَاتِ. والاحْتِمَالَ: حَبْسُ النَّفْسِ عِنْدَ الآلامِ وَالمُؤْذِيَاتِ، وَمِثْلُهَا الصَّبْرُ، وَمَعَانِيهَا مُتَقَارِبَةٌ. وَأَمَّا العَفْوُ فَهُوَ: تَرْكُ المُؤَاخَذَةِ.

وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، فَقَالَ: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ...﴾ الآيَةَ [الأعراف: ١٩٩].

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَقَالَ لَهُ: حَتَّى أَسْأَلَ العَالِمَ، ثُمَّ ذَهَبَ فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ[١]، وَقَالَ لَهُ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ...﴾ الآيَةَ [لقمان: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآيَةَ [الأحقاف: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا...﴾ الآيَةَ [النور: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وَلَا خَفَاءَ بِمَا يُؤْثَرُ مِنْ حِلْمِهِ وَاحْتِمَالِهِ، وَأَنَّ كُلَّ

(١) حديث (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿خُذِ العَفْوَ﴾ الآيةَ- سأَلَ جبريلَ عَن تأويلِها...): ابنُ جَرير [١٠/ ٦٤٣]، وابنُ أَبي حاتِمٍ [٨٦٨٢]، وأبو الشَّيْخِ في تفاسيرِهم، وابنُ أَبي الدُّنْيا في «مَكارمِ الأخلاقِ» [٢٥] مِن طُرُقٍ مُرْسَلةٍ، وَوَصَلَه ابنُ مَرْدَوَيْهِ مِن حديثِ جابرٍ.

قولُه (علَى ما يُكْرَهُ): -بصيغةِ المَجهولِ- أيْ ما تكْرَهُه النَّفْسُ ويُخالِفُه الهَوى. قولُه (والاحتِمالَ): بالنَّصْبِ أوِ الرفعِ.

قولُه (وأَمَّا العَفْوُ فهوَ: تَرْكُ المُؤاخَذةِ): ولَعَلَّه المَحْوُ؛ ثُمَّ استُعْمِلَ في مَعْنى المُجاوَزةِ عَنْ مُجازاةِ المَعْصيةِ، ولَيْسَ مِن أَبْنيةِ المُبالَغةِ كَما قالَه الدلجيُّ.

قولُه (وهذا): أيْ ما ذَكَرَه مِنَ الأَخلاقِ الكَريمةِ.

قولُه (ثُمَّ ذَهَبَ فأَتاه): أيْ ذَهَبَ، فسَأَلَ رَبَّه، فأَخْبَرَه، فأَتاه؛ فَفي العِبارةِ حَذْفٌ.

قولُه (إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ... إلخ): المأمورُ بِهِ مِن مَكارِمِ الأَخلاقِ الثَّوابُ لِلإنسانِ بِفِعْلِه، ولا عِقابَ بالتَّرْكِ إلَّا صِلةَ الرَّحِمِ؛ فإنَّها واجِبةٌ مُطْلَقًا.

قولُه (أولو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ): أيْ أَصحابُ الصَّبْرِ مِنَ الأنبياءِ -عَلَيْهِم أفضلُ الصلاةِ والسلامِ-، و«مِنْ» بَيانيَّةٌ أوْ تَبعيضيَّةٌ.

وفي «القاموسِ»: «وأولو العَزْمِ مِنَ الرسلِ: الَّذينَ عَزَموا على أَمْرِ اللهِ فيما عَهِدَ إلَيْهِم؛ أَوْ هُمْ نوحٌ وإبراهيمُ وموسى ومحمدٌ[١] -علَيْهِم أَفْضَلُ الصلاةِ والسلامِ. قالَ الزمخشريُّ: أولو الجِدِّ والثَّباتِ والصَّبْرِ، أَوْ هُمْ نوحٌ وإبراهيمُ وإسحاقُ ويَعقوبُ ويوسُفُ وأيوبُ وموسى وداودُ وعيسى -عَلَيْهِم الصلاةُ والسلامُ».

قولُه (ولَمَنْ صَبَرَ): أيْ على أَذَى أوذيَه. وقولُه (وغَفَرَ): أيْ لِمَنْ نالَه بسوءٍ.

وقولُه (بِما يُؤْثَرُ): أيْ يُنْقَلُ. وقولُه (واحتِمالِه): عَطْفُ تفسيرٍ.

(١) عقَّب الزبيدي عليه في «التاج» بقوله: «أسقط من هذا القول عيسى، وهو الخامس، كما صرح به غير واحد».

حَلِيمٍ قَدْ عُرِفَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ، وَحُفِظَتْ عَنْهُ هَفْوَةٌ، وَهُوَ ﷺ لا يَزِيدُ مَعَ كَثْرَةِ الأَذَى إِلَّا صَبْرًا، وَعَلَى إِسْرَافِ الجَاهِلِ إِلَّا حِلْمًا.

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التَّغْلَبِيُّ وَغَيْرُهُ، قَالُوا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَتَّابٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ وَاقِدٍ القَاضِي وَغَيْرُهُ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ للهِ بِهَا)[1].

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَشُجَّ وَجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ شَدِيدًا، وَقَالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ! فَقَالَ: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ)[2].

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي -يَا رَسُولَ اللهِ- لَقَدْ دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]، وَلَوْ دَعَوْتَ عَلَيْنَا مِثْلَهَا لَهَلَكْنَا مِنْ عِنْدِ آخِرِنَا؛ فَلَقَدْ وُطِئَ ظَهْرُكَ، وَأُدْمِيَ وَجْهُكَ،

---

(١) حديث عائشة (ما خُيِّرَ في أمرَيْنِ قطُّ...): أسندَه من طريقِ مالكٍ في «المُوطَّأ» [كتاب حسن الخُلق رقم (٢)]، وهوَ في الصحيحَينِ [البخاريُّ (٦٧٨٦)، ومسلمٌ (٢٣٢٧)].

(٢) حديث (لَمَّا كُسِرَتْ رَبَاعيَتُه وشُجَّ وَجهُه يوْمَ أُحُد، شَقَّ ذلك على أصحابه، وقال: لَوْ دَعَوْتَ عليهم!! فقالَ: إنِّي لَمْ أُبعَثْ لَعَّانًا، ولكنِّي بُعِثْتُ داعيًا ورحمةً، اللهُمَّ اهْدِ قَوْمي فإنَّهم لا يَعلمونَ): البيهقيُّ في «الشُّعَب» [١٣٧٥] بهذا اللفظ عَن عبدالله بن عبيد وقالَ: مُرسَلٌ، ثُمَّ أَخرَجَه مختصَرًا [١٣٧٦]: (اللهُمَّ اغفرْ لقَوْمي فإنَّهم لا يَعلمون) فحسبَ، موصولًا عن سهلِ بن سعدٍ، وهوَ في الصحيحَينِ [البخاريُّ (٣٤٧٧)، ومسلمٌ (١٧٩٢)] مِن حديثِ ابن مسعودٍ أنَّه ﷺ حكَاه عَن نَبيٍّ مِن الأنبياءِ ضَرَبَه قَوْمُه.

قولُه (قَدْ عُرِفَتْ... إلخ): تَفَنُّنٌ في العِبارةِ بَيْنَ (عُرِفَتْ) و(حُفِظَتْ)، و(زَلَّةٌ) و(هَفْوَةٌ).

قولُه (التَّغْلَبِيُّ): نِسبةٌ إلى بَنِي تَغْلَبَ قَبيلةٍ مِنَ العَرَبِ مَشهورةٍ[1]، و(عَتَّابٍ): مُشَدَّدُ الثَّاني المَفتوحِ، و(وافِدٍ): بالفاءِ[2].

قولُه (ما لَمْ يَكُنْ إثْمًا): أيْ ذَنْبًا أوْ عَمَلَ ما لا يَحِلُّ. قولُه (وما انتقَمَ... إلخ): أيْ ما كافَأَ بالعُقوبةِ بِنَفْسِه ﷺ. قولُه (إلَّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ): -بالبِناءِ لِلمَجْهولِ- أيْ يُبالَغَ فيها.

وقولُه في الآيةِ (دَيَّارًا): أيْ مَن يَدورُ على الأرضِ، والتحقيقُ عِندَ أكابِرِ المُفَسِّرينَ أنَّ هذا صَدَرَ مِنه بَعْدَ أنْ أَعلَمَه اللهُ بأنَّه لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ؛ فَلا يَرِدُ: كَيْفَ دَعا عَلَيْهِم بالهَلاكِ مَعَ احتِمالِ وُقوعِ الإيمانِ مِنْ بَعْضِهِم.

قولُه (وُطِئَ ظَهْرُكَ): قالَ الشمنيُّ: أيْ نِيلَ ظَهْرُكَ بأذًى وهوَ إلْقاءُ سَلا الجَزورِ على ظَهْرِه؛ وإلَّا فحقيقةُ الوَطْءِ أنْ يَكونَ بالقَدَمِ، ولَمْ يَقَعْ له ذلك قَطُّ.

---

(١) قال الملا: (التّغلبيّ) بمثناة فوقية مفتوحة وسكون غين معجمة وفتح لام وتكسر نسبة إلى قبيلة، وأمّا ما وقع في بعض النسخ من الثاء المثلثة والعين المهملة فتصحيف في المبنى وتحريف في المعنى، مات سنة ثمان وخمسمائة.

(٢) قال الملا: بالفاء المكسورة أو القاف.

وقولُه (رَباعيتُكَ): -بالرَّفعِ- نائبُ فاعلِ (كُسِرَتْ) مَبْنيًّا لِلمَجْهولِ كسابِقَيْه مِنَ الوَطْءِ والإدْماءِ.

ولَمْ يَقَعْ هذا له ﷺ قطُّ إلّا في غَزْوة أُحُدٍ، وهذا في الحقيقةِ لِحِكَمٍ مِنْها: التَّسلِّي لِبَعْضِ أُمَّتِه في تحمُّلِ الإيذاءِ حيثُ كانَ هذا صَفْوةَ العالَمينَ وحَصَلَ له مِثْلُ هذا؛ ولِذا قالَ ﷺ: (ما أوذيَ أحَدٌ في الله مِثْلَ ما أوذيتُ)(١).

وقولُه (أَوِ اهْدِ): بِهَمْزِ وَصْلٍ، و«أَوْ» شَكٌّ مِنَ الراوي، أوْ لِلتنويعِ إنْ صَحَّ نِسْبتُها إلَيْه ﷺ.

قولُه (وَيْحَكَ): كَلِمةُ تَرَحُّمٍ تُقالُ لِمَنْ وَقَعَ في هَلَكةٍ لا يَسْتحِقُّها، و«وَيْلٌ»: كَلِمةُ هَلاكٍ تُقالُ لِمَنْ وَقَعَ في هَلَكةٍ يَسْتحِقُّها.

وقولُه (خِبْتُ وخَسِرْتُ): قالَ الشمنيُّ: رويَ بِضَمِّ التّاءِ الفوقيّةِ فيهما، قالَ: كَذا عَنِ المُزنيِّ حالَ القراءةِ عَلَيْه؛ لِأنَّه تَعلَّقَ بِعَدَمِ العَدْلِ الَّذي هوَ مَعْصومٌ مِنه ﷺ، وليُلائِمَ قَوْلَ القاضي «وَعَظَ نَفْسَه وذَكَّرَها».

قولُه (صَلْتًا): -بِفَتحِ الصادِ ويُضَمُّ- أيْ حالَ كَوْنِه مَسلولًا، أوِ التقديرُ صَلَتَه صَلْتًا(٢).

قولُه (خَيْرَ آخِذٍ): -بالمَدِّ- أيْ مُتَّصِفًا بالحِلْمِ والعَفْوِ.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٣٣) من حديث أنسٍ.

(٢) «صلَتَ» المتعدي بمعنى «ضرب»، وهو لا يناسب المقام، وإنما المناسب «أصلَتَ» بمعنى جرده من غمده.

وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُكَ، فَأَبَيْتَ أَنْ تَقُولَ إِلَّا خَيْرًا، فَقُلْتَ: (اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(١).

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى-: انْظُرْ مَا فِي هَذَا القَوْلِ مِنْ جِمَاعِ الفَضْلِ، وَدَرَجَاتِ الإِحْسَانِ، وَحُسْنِ الخُلُقِ، وَكَرَمِ النَّفْسِ، وَغَايَةِ الصَّبْرِ وَالحِلْمِ؛ إِذْ لَمْ يَقْتَصِرْ ﷺ عَلَى السُّكُوتِ عَنْهُمْ، حَتَّى عَفَا، ثُمَّ أَشْفَقَ عَلَيْهِم، وَرَحِمَهُمْ وَدَعَا وَشَفَعَ لَهُمْ؛ فَقَالَ: (اللهُمَّ اغْفِرْ)، أَوِ (اهْدِ)، ثُمَّ أَظْهَرَ سَبَبَ الشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ بِقَوْلِهِ (لِقَومِي)، ثُمَّ اعْتَذَرَ عَنْهُمْ بِجَهْلِهِمْ، فَقَالَ: (فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

ولَمَّا قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: اعْدِلْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ تعَالَى، لَمْ يَزِدْهُ فِي جَوَابِهِ أَنْ بَيَّنَ لَهُ مَا جَهِلَهُ، وَوَعَظَ نَفْسَهُ وَذَكَّرَهَا بِمَا قَالَ لَهُ، فَقَالَ: (وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟! خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ)(٢)، وَنَهَى مَنْ أَرَادَ مِنْ أَصْحَابِهِ قَتْلَهُ.

وَلَمَّا تَصَدَّى لَهُ غَوْرَثُ بْنُ الحَارِثِ لِيَفْتِكَ بِهِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُنْتَبِذٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَحْدَهُ قَائِلًا، وَالنَّاسُ قَائِلُونَ فِي غَزَاةٍ، فَلَمْ يَنْتَبِهْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقَالَ: اللهُ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي، فَقَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فَتَرَكَهُ وَعَفَا عَنْهُ، فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ:

(١) حديثُ أن عُمَرَ قال (بأَبي أنتَ وأُمِّي...): لا يُعرَفُ.

(٢) حديث (اعدل فإنَّ هذه قِسْمةٌ...): مسلمٌ [١٠٦٣]، وأخرجه البخاري أيضًا (٣١٣٨)] عَن جابر، والشَّيخان [البخاريُّ (٣٦١٠)، ومسلمٌ (١٠٦٤)] عَن أبي سَعيد، وفي الصحيحَين [البخاريُّ (٣١٥٠)، ومسلمٌ (١٠٦٢)] نَحْوُه عَن ابن مَسعود، وأَخرَجَه البَيْهقيُّ [الدلائل ٥/ ١٨٦، ١٨٧] عَن ابنِ عَمْرو.

جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ[1].

وَمِنْ عَظِيمِ خَبَرِهِ فِي العَفْوِ عَفْوُهُ عَنِ اليَهُودِيَّةِ الَّتِي سَمَّتْهُ فِي الشَّاةِ بَعْدَ اعْتِرَافِهَا عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الرِّوَايَةِ[2]، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤَاخِذْ لَبِيدَ بْنَ الأَعْصَمِ؛ إِذْ سَحَرَهُ، وَقَدْ أُعْلِمَ بِهِ، وَأُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْحِ أَمْرِهِ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فَضْلًا عَنْ مُعَاقَبَتِهِ[3].

وَكَذَلِكَ لَمْ يُؤَاخِذْ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَأَشْبَاهَهُ مِنَ المُنَافِقِينَ بِعَظِيمِ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ فِي جِهَتِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، بَلْ قَالَ لِمَنْ أَشَارَ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ: (لَا يُتَحَدَّثُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)[4].

وَعَنْ أَنَسٍ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَجَذَبَهُ أَعْرَابِيٌّ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَثَّرَتْ حَاشِيَةُ البُرْدِ فِي صَفْحَةِ عَاتِقِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْمِلْ لِي عَلَى بَعِيرَيَّ هَذَيْنِ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: المَالُ مَالُ اللهِ، وَأَنَا عَبْدُهُ، ..

(١) حديث (لمَّا تَصَدَّى له غَوْرَثُ بنُ الحارثِ لِيَفْتِكَ به...): البيهقيُّ [٣/ ٣٧٥، ٣٧٦] بهذا اللَّفظ من حَديث جابر بن عبد الله، وهوَ في الصحيحَيْنِ [البخاريُّ (٢٩١٠)، ومسلمٌ (٨٤٣)] بدُونِ سُقوطِ السَّيفِ، وقولِ النبيِّ ﷺ (مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي)، وجوابِ الأعرابيِّ.

(٢) حديثُ (عَفْوُه عَنِ اليَهوديةِ الَّتي سَمَّتْه...): الشَّيْخانِ [البخاريُّ (٢٦١٧)، ومسلمٌ (٢١٩٠)] عَنْ أَنَسٍ.

(٣) حديثُ (أَنَّه لَمْ يُؤاخِذْ لَبِيدَ بنَ الأَعْصَمِ إذْ سَحَرَه، ولا عَتَبَ عَلَيْه): أحمدُ [١٩٢٦٧] والنَّسائيُّ [٤٠٨٠]، والبَيهقيُّ في «الدَّلائل» [٦/ ٢٤٨] عَن زيد ابن أَرْقَمَ قالَ (سَحَرَ النبيَّ ﷺ رَجُلٌ مِن اليَهود، فاشتكى لذلك أيَّامًا، فجاءَه جبريلُ فقالَ: إنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهود سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عُقَدًا في بِئْر كذا وكذا، فبَعَثَ فاستخرَجَها فجاءَ بها فحَلَّها فقامَ كأنَّما نَشطَ مِنْ عِقالٍ، فما ذَكَرَ ذلك لِليهوديِّ، ولا رُئي في وَجْهه حَتَّى ماتَ).

(٤) حديثُ (لا يُتَحَدَّثُ أَنَّ محمَّدًا يَقْتُلُ أصحابَه): الشَّيخانِ [البخاريُّ (٤٩٠٥)، ومسلمٌ (٢٥٨٤)] عَن جابرٍ.

قولُه (اليَهوديَّةِ الَّتي سَمَّتْه): أيْ جَعَلَتْ له السُّمَّ في الشَّاةِ؛ وهيَ زَينبُ بِنتُ الحارثِ بنِ سَلَّامٍ -بتشديدِ اللامِ-.

قولُه (وقَدْ أُعْلِمَ بِهِ): -بِصيغةِ المَجهولِ- أيْ أَوْحى اللهُ إلَيْه. قولُه (بِشَرْحِ أَمْرِه): أيْ بَيانِ حالِه.

قولُه (عَبْدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ): أيِ ابنَ سَلولَ -بفتحِ المُهْمَلةِ-، وهيَ أُمُّه؛ فلا بُدَّ مِن تَنوينِ «أُبَيٍّ»، وكِتابةِ أَلِفِ بَعْدَها، ورَفْعِ «ابن»؛ لِأَنَّ «سَلولَ» أُمُّ عَبْدِ اللهِ وزَوجةُ أُبَيٍّ، فَلَوْ لَمْ يُفْعَلْ ذلكَ لَتُوُهِّمَ أَنَّ «سَلولَ» أُمُّ أُبَيٍّ، ولَيْسَ كذلكَ.

قولُه (بِعَظِيمِ ما نُقِلَ عَنْهم) وفي نسخةٍ: «مِنْهم».

قولُه (لا يُتَحَدَّثُ): بصيغةِ المَجهولِ، وفي نسخةٍ: «لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ»؛ بالبِناءِ لِلفاعِلِ.

قولُه (فجَذَبَه) وفي نسخةٍ «جَبَذَه»، والمَعْنى «فَجَرَّه».

قولُه (أَحْمِلْ لي): -بِفَتْحِ الهَمزةِ- أيْ أَعْطِني ما أَحْمِلُ لي، وفي نسخةٍ «أَحْمِلْني»؛ قالَ المُلَّا: «الظاهرُ أَنَّه تَصحيفٌ».

ثُمَّ قَالَ: وَيُقَادُ مِنْكَ -يَا أَعْرَابِيُّ- مَا فَعَلْتَ بِي، قَالَ: لَا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّكَ لَا تُكَافِئُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُحْمَلَ لَهُ عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرٌ، وعَلَى الآخَرِ تَمْرٌ.[1]

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُنْتَصِرًا مِنْ مَظْلِمَةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ، مَا لَمْ تَكُنْ حُرْمَةً مِنْ مَحَارِمِ اللهِ تعَالَى، وَمَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا ضَرَبَ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً)[2].

وَجِيءَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَكَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (لَنْ تُرَاعَ، لَنْ تُرَاعَ، وَلَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَمْ تُسَلَّطْ عَلَيَّ)[3].

وَجَاءَهُ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا عَلَيْهِ، فَجَبَذَ ثَوْبَهُ عَنْ مَنْكِبِهِ، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ، وَأَغْلَظَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ -يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ- مُطُلٌ، فَانْتَهَرَهُ عُمَرُ، وَشَدَّدَ لَهُ فِي القَوْلِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَبَسَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَنَا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ أَحْوَجَ يَا عُمَرُ، تَأْمُرُنِي بِحُسْنِ القَضَاءِ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي)، ثُمَّ قَالَ: (لَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثٌ)، وَأَمَرَ عُمَرَ يَقْضِيهِ مَالَهُ، وَيَزِيدُهُ عِشْرِينَ صَاعًا؛ لِمَا رَوَّعَهُ[4]، فَكَانَ

---

(١) حديثُ أَنَس (كُنْتُ مَعَ النبيِّ ﷺ، وعَلَيْه بُرْدٌ غَليظُ الحاشيةِ فجَبَذَه أعرابيٌّ...): الشيخان [البخاريُّ (٣١٤٩)، ومسلمٌ (١٠٥٧)] إلى قوله: (من مالِ الله الذي عِنْدَكَ، قال: فضَحِكَ وأَمَرَ له بعَطَاءٍ)، وأَخرَجَه بلَفْظِ المُصَنِّفِ البَيهقيُّ في «الآدَاب» [١٤٠] من حديثِ أَبي هريرةَ.

(٢) حديث عائشة (ما رأَيْتُ رسولَ الله ﷺ مُنتصِرًا من مَظْلِمَةٍ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٥٦٠)، ومسلمٌ (٢٣٢٨) بنحوه].

(٣) حديث (جِيءَ إِلَيْه برَجُلٍ فقيل: إنّ هذا أرادَ أَنْ يقتلَكَ...): أحمد [١٥٨٦٨]، والطبرانيُّ [٢/ ٢٨٤] بسندٍ صحيحٍ عن جَعْدَةَ.

(٤) حديث (أنَّه جاءَه زيدُ بنُ سَعْنَةَ يَتَقاضاه دَيْنًا...) بطُوله: البَيْهقيُّ [٦/ ٢٨٧] عَن محمدِ بنِ حَمْزةَ بن يوسُفَ بن عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ وهُوَ=

وقولُه **(ويُقَادُ مِنْكَ)**: -بالبِناءِ لِلمجهولِ- أيْ يُقْتَصُّ مِنكَ. وقولُه **(فَضَحِكَ النبيُّ ﷺ)**: أيْ تَعَجُّبًا. قولُه **(وعَلى الآخَرِ تَمْرٌ)**: وفي نسخةٍ «عَلى بَعيرٍ تَمْرٌ».

وقولُه **(مِنْ مَظْلِمةٍ)**: -بِكَسْرِ اللّامِ وتُفْتَحُ- أيْ ما يُطْلَبُ عِنْدَ الظُّلْمِ.

وقولُه **(وما ضَرَبَ خادِمًا ولا امرأةً)**: تخصيصٌ بَعْدَ تعميمٍ، وما قَتَلَ النبيُّ ﷺ بيَدِه الشريفةِ مباشَرةً إلّا أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ مِن كُفّارِ قُرَيْشٍ، وفي الحديثِ عَنْه ﷺ: (أَشْقى الأشقياءِ ما قتَلَه نَبيٌّ أو قتَلَ نَبيًّا)[1].

وقولُه **(ابنُ سَعْنَةَ)**: بِفَتْحِ السِّينِ فسُكونِ عَيْنٍ مُهْمَلتَيْنِ فنونٍ. قولُه **(عَنْ مَنْكِبِه)**: بكسرِ الكافِ. قولُه **(مُطُلٌ)**: بِضَمَّتينِ ويُسَكَّنُ الثاني.

وقولُه **(بَقيَ مِنْ أَجَلِه)**: -بفتحِ الجيمِ- أيْ مِنْ أَجَلِ دَيْنِه لا عُمْرِه.

قولُه **(ثَلاثٌ)**: أيْ ثَلاثةُ أيّام، وحُذِفَتْ تاؤه لِحَذْفِ المُمَيِّزِ الّذي هوَ «أَيّام»؛ كَما في حديثِ (مَنْ صامَ رمضانَ وأَتْبَعَه بِستٍّ مِنَ شَوّالٍ فكَأَنَّه صامَ الدَّهْرَ)[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٦٨) والبزّار (١٧٢٨) والطبرانيُّ في الكبير (١٠/ ٢١١) وغيرهم من حديث عبدالله بن مسعودٍ بلفظ: «أشدُّ النّاسِ عذابا يوم القِيامةِ، رجُلٌ قتلهُ نبيٌّ، أو قتل نبيّا...» الحديث.

(٢) أخرجه مسلمٌ (١١٦٤) [كتاب الصيام]، وغيره من حديث أبي أيوب الأنصاري. وفي الباب عن جماعة من الصحابة.

سَبَبَ إِسْلَامِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا بَقِيَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ إِلَّا حِلْمًا، فَاخْتَبَرْتُهُ بِهَذَا، فَوَجَدْتُهُ كَمَا وُصِفَ.

وَالحَدِيثُ عَنْ حِلْمِهِ ﷺ وَصَبْرِهِ وَعَفْوِهِ عِنْدَ المَقْدَرَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَأْتِيَ عَلَيْهِ، وَحَسْبُكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِمَّا فِي الصَّحِيحِ وَالمُصَنَّفَاتِ الثَّابِتَةِ مِمَّا بَلَغَ مُتَوَاتِرًا مَبْلَغَ اليَقِينِ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى مُقَاسَاةِ قُرَيْشٍ، وَأَذَى الجَاهِلِيَّةِ، وَمُصَابَرَةِ الشَّدَائِدِ الصَّعْبَةِ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ أَظْفَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ وَهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي اسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ، وَإِبَادَةِ خَضْرَائِهِمْ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ عَفَا وَصَفَحَ، وَقَالَ: مَا تَقُولُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، فَقَالَ: اذْهَبُوا، فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ[1].

قولُه (لَمْ أَخْبُرْهُمَا): بفتحِ الهمزةِ وضمِّ الموحَّدةِ.

قولُه (فاخْتَبَرْتُه): أي امتحَنتُه. وقولُه (كَمَا وُصِفَ): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ نُعِتَ في كُتُبِ المرسَلِينَ.

قولُه (عِنْدَ المَقْدَرَةِ): -بفتحِ الدالِ وضمِّها وحُكِيَ كَسْرُها- بِمَعْنى القُدرةِ.

قولُه (أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَأْتِيَ): لَيسَتْ «مِنْ» تفضيليةً؛ وإنَّما مَعناها مُتباعِدٌ أنْ تأتِيَ عَلَيْه.

قولُه (شَأْفَتِهم): بشينٍ معجمةٍ وهمزةٍ ساكِنةٍ وفاءٍ مخفَّفةٍ وتاءٍ فَوْقِيَّةٍ؛ في «الصِّحاحِ»: «الشأْفةُ قُرحةٌ تخرُجُ في أسفلِ القدَمِ، فتُكوى فتَذْهَبُ؛ يُقالُ في المَثَلِ: استأْصَلَ اللهُ شأْفتَه، أيْ أَذْهَبَه اللهُ كما أَذْهَبَ تلكَ القُرْحةَ بالكَيِّ». اهـ شُمُنيٌّ.

قولُه (وإبادةِ خضرائِهم): -بِفتحِ الخاءِ وإسكانِ الضادِ المعجمَتَيْنِ؛ بَعْدَهما راءٌ فهَمزةٌ ممدودةٌ- أيْ جماعَتِهم وأشخاصِهم.

قولُه (ما تقولونَ): «ما» استفهاميّةٌ، و«تقولونَ» بِمَعْنى «تَظُنُّونَ».

قولُه (خَيْرًا): مفعولٌ لمحذوفٍ، أيْ تَفْعَلُ بنا خيرًا. قولُه (الطُّلَقَاءُ): -بِضَمِّ الطاءِ المهملةِ وفَتْحِ اللامِ- جَمْعُ «طَليقٍ»؛ وهوَ الأسيرُ إذا أُطْلِقَ وخُلِّيَ سَبيلُه.

=مُعضَلٌ، ووَصَلَه ابنُ حِبَّانَ [٢٨٨]، والطَّبَرانيُّ [٥/ ٢٢٢]، وأبو نُعَيْم في «الدَّلائلِ» [٤٨] عَن عَبْدِ الله بن سَلَام، وسَنَدُه صَحيحٌ.

(١) حديث (أنَّه قالَ يَوْمَ فتح مَكَّةَ: ما تقُولونَ أنِّي فاعلٌ بكُمْ؟...): حُمَيْدُ بنُ زَنْجَوَيْهِ في كِتَابِ «الأموالِ» [٤٥٦] من طريق ابن أبي حُسَيْنٍ قالَ: لَمَّا فَتَحَ رسولُ الله ﷺ مَكَّةَ دَخَلَ البيتَ ثُمَّ خَرَجَ فوَضَعَ يَدَه على عِضَادَتَي البابِ، فقال: ماذا تقولونَ؟ فقالَ سُهيلُ بنُ عمرو: نقولُ خيرًا ونَظُنُّ خيرًا؛ أَخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، وقَدْ قَدَرْتَ، فقالَ: أقولُ كما قالَ أخي يوسُفُ: ﴿لا تثريبَ عَلَيْكم اليَوْمَ﴾. وأخرجَ النَّسائيُّ [السنن الكبرى ١١٢٣٤] عن أبي هريرةَ: لَمَّا فتحَ رسولُ الله ﷺ مَكَّةَ... الحديث، وفيه: جاءَ فأَخَذَ بعِضَادَتَي البَابِ، ثُمَّ قالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْش، ما تقولونَ؟ قالوا: نَقُولُ: ابنُ أخٍ وابنُ عَمٍّ رحيم كريم، ثُمَّ أعادَ عليهم القولَ، فقالوا مثْلَ ذلك، قال: فإنِّي أقولُ كما قالَ أخي يوسُفُ: ﴿لا تثريبَ عَلَيْكم اليومَ يَغفرُ اللهُ لَكُم وهوَ أرحَمُ الراحمينَ﴾. ولابن سَعْد [٢/ ١٤١] من طريق الزُّهْريِّ عَن بعضِ آلِ عُمَرَ بن الخَطَّاب قالَ: لَمَّا كانَ يَوْمُ الفَتْحِ قالَ رسولُ الله ﷺ: مَثَلي ومَثَلُكم كما قالَ يُوسُفُ لإخوته: ﴿لا تثريبَ عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكم وهُوَ أَرْحَمُ الراحِمينَ﴾.

وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هَبَطَ ثَمانُونَ رَجُلًا مِنَ التَّنْعِيمِ صَلاَةَ الصُّبْحِ؛ لِيَقْتُلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأُخِذُوا، فَأَعْتَقَهُمْ رَسُولُ اللهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ...﴾ الآيَةَ [الفتح: ٢٤][1].

وَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ وَقَدْ سِيقَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ جَلَبَ عَلَيْهِ الأَحْزَابَ، وَقَتَلَ عَمَّهُ وَأَصْحَابَهُ، وَمَثَّلَ بِهِمْ، فَعَفَا عَنْهُ وَلاطَفَهُ فِي القَوْلِ، وَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟! فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا أَحْلَمَكَ وَأَوْصَلَكَ وَأَكْرَمَكَ![2].

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبْعَدَ النَّاسِ غَضَبًا وَأَسْرَعَهُمْ رِضًا ﷺ[3].

***

قولُه (مِنَ التنعيمِ): قالَ الشمنيُّ: «هوَ مِن مكّةَ على ثلاثةِ أميالٍ مِنْ جهةِ المدينةِ والشّامِ؛ سُمّيَ بذلكَ لِأنَّ عَنْ يمينِه جبَلًا يُقالُ له (نَعيمٌ)، وعَنْ شِمالِه جبَلًا يُقالُ له (ناعِمٌ)، وبه وادٍ يُقالُ له (نَعْمانُ)».

وقولُه (فأُخِذوا): الآخِذُ لَهُم محمدُ بنُ مَسْلَمةَ ومَنْ مَعَه مِنَ الحَرَسِ.

قولُه (الأحزابَ): هُمْ أَهْلُ الخَنْدَقِ، وكانوا ثلاثةَ عَساكِرَ، وعِدَّتُهم عَشَرةَ آلافٍ، وكانَ ذلكَ في شَوّالٍ سَنةَ خَمْسٍ.

وقولُه (وقَتَلَ عمَّه): هوَ حَمزةُ، (وأصحابَه): قيلَ: سَبعونَ، وقيلَ: السَّبعونَ مِنَ الأنصارِ خاصّةً، وإسْنادُ القَتْلِ لِأبي سُفيانَ على وَجْهِ التَّجوُّزِ؛ لِكَوْنِه كانَ سَبَبًا فيه.

وقولُه (ومَثَّلَ بهِم): يُقالُ: مَثَلَ بالعَبْدِ يَمْثُلُ -كَقَتَلَ يَقْتُلُ-: إذا قَطَعَ أطرافَه أوْ أنْفَه أوْ أُذُنَه أوْ مَذاكيرَه؛ وأمّا «مَثَّلَ» -بالتشديدِ- فلِلْمبالَغةِ. اهـ شمنيٌّ.

***

(١) حديث أنس (هَبَطَ ثَمانُونَ رَجُلًا مِنَ التَّنْعِيم...): مسلمٌ [١٨٠٨]، والتِّرمذيُّ [٣٢٦٤]، وأبو داوُدَ [٢٦٨٨]، والنَّسائيُّ [الكبرى ٨٦١٤].

(٢) حديث قوله لأبي سُفيانَ (وَيْحَكَ يا أبا سُفْيانَ أَلَمْ يَئِنْ لكَ...): الطَّبَرانيُّ [٨/ ٩]، والبيهقيُّ [٥/ ٣٤] عَن ابن عبّاس بسَنَدٍ صَحيح.

(٣) حديث (كانَ أَبْعَدَ النّاس غَضَبًا، وأَسْرَعَهم رِضًى): هُوَ مِن المَعلوم، وأَخرَجَ أبو الشَّيْخ في كِتاب أخلاقه [١٧٥] من حديثِ عبدِالرحمن بن أَبْزَى (كانَ أَحْلَمَ النَّاس).

فَصْلٌ [في جُودِهِ وكَرمِهِ وسَخائِه ﷺ]

وَأَمَّا الجُودُ وَالكَرَمُ وَالسَّخَاءُ وَالسَّمَاحَةُ -وَمَعَانِيهَا مُتَقَارِبَةٌ، وَقَدْ فَرَّقَ بَعْضُهُمْ بَيْنَهَا بِفُرُوقٍ، فَجَعَلُوا الكَرَمَ: الإِنْفَاقَ بِطِيبِ النَّفْسِ فِيمَا يَعْظُمُ خَطَرُهُ وَنَفْعُهُ، وَسَمَّوْهُ أَيْضًا جُرْأَةً، وَهُوَ ضِدُّ النَّذَالَةِ، وَالسَّمَاحَةَ: التَّجَافِيَ عَمَّا يَسْتَحِقُّهُ المَرْءُ عِنْدَ غَيْرِهِ بِطِيبِ نَفْسٍ، وَهُوَ ضِدُّ الشَّكَاسَةِ، وَالسَّخَاءَ: سُهُولَةَ الإِنْفَاقِ، وَتَجَنُّبَ اكْتِسَابِ مَا لَا يُحْمَدُ، وَهُوَ الجُودُ، وَهُوَ ضِدُّ التَّقْتِيرِ-، فَكَانَ ﷺ لَا يُوَازَى فِي هَذِهِ الأَخْلَاقِ الكَرِيمَةِ، وَلَا يُبَارَى، بِهَذَا وَصَفَهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ.

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ الصَّدَفِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، أَنبَأَنَا القَاضِي أَبُو الوَلِيدِ البَاجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الهَرَوِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الهَيْثَمِ الكُشْمَيْهَنِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ السَّرَخْسِيُّ وَأَبُو إِسْحَاقَ البَلْخِيُّ، قَالُوا: أَنبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الفِرَبْرِيُّ، حَدَّثَنَا البُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنِ ابْنِ المُنْكَدِرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: (مَا سُئِلَ النبيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ لَا)[1].

(١) حديث جابر (ما سُئِلَ شيئًا قطُّ فقال: لا): أَسْنَدَه من طَرِيقِ البُخاريِّ [٦٠٣٤]، وأَخْرَجه مُسْلِمٌ [٢٣١١] أيضًا.

قولُه (بطيبِ النَّفْسِ): أيْ بِنَشاطِها وانبساطِها. قولُه (جُرْأةً): بِضَمِّ جيمٍ وسُكونِ راءٍ فهَمْزةٍ، ولَعَلَّ وَجْهَه تَلازُمُ السَّخاوةِ والشَّجاعةِ؛ فإنَّ أَحَدَهما بَذْلُ الرّوحِ، والآخَرَ بَذْلُ المالِ، والأَوَّلُ أَقْوى كَما لا يَخْفى. قولُه (هوَ ضِدُّ النَّذالةِ): -بفَتحِ النونِ والذالِ المعجَمةِ- أيِ الرَّذالةِ والسَّفالةِ.

قولُه (والسماحةَ التَّجافيَ): -بالنَّصْبِ- مَعطوفٌ على مَفعولَيْ (جعَلوا)، ويَجوزُ رَفْعُهما؛ أيْ والسَّماحةُ هيَ التَّباعُدُ والتَّنَحّي.

قولُه (الشَّكاسةِ): -بفتحِ الشينِ المعجَمةِ وسينٍ مهمَلةٍ بَعْدَ الألِفِ- أيْ صُعوبةِ الخَلْقِ والمضايَقةِ، وفي التنزيلِ: ﴿مُتَشاكِسونَ﴾ [الزمر: ٢٩]؛ أيْ مختَلِفونَ عَسِرونَ، وفي بَعْضِ الأحاديثِ [ما] يَدُلُّ على أنَّ المُرادَ بـ«السَّماحةِ» السَّخاوةُ الخاصَّةُ، وهيَ المُساهَلةُ.

قولُه (لا يوازى): بصيغةِ المفعولِ مهموزًا ومُسَهَّلًا. قولُه (ولا يُبارى): -بصيغةِ المجهولِ؛ وهوَ بالباءِ الموحَّدةِ والرّاءِ- أيْ لا يُعارَض.

وقولُه (الباجيُّ): بالمَوحَّدةِ والجيمِ، وقولُه (الهَيْثَم): بفتحِ الهاءِ وسُكونِ تحتيّةٍ فمُثَلَّثةٍ. قولُه (الكُشْمَيْهَنيُّ): بضَمٍّ، فسُكونِ شينٍ مُعجَمةٍ، وفَتْحِ ميمٍ -وتُكْسَرُ-، وسكونِ ياءٍ ففَتْحِ هاءٍ. قولُه (السَّرَخْسيُّ): بِفَتحِ الراءِ وسُكونِ الخاءِ، وقيلَ بالعَكْسِ، وضَبطَه التِّلِمْسانيُّ بكَسْرِ السّينِ الأولى، والمَشْهورُ هوَ الفَتْحُ. اهـ مُلّا. قولُه (الفِرَبْريُّ): بكَسْرِ الفاءِ وفَتْحِ راءٍ وسكونِ موَحَّدةٍ، وقالَ المُصنِّفُ: «يَجوزُ فَتْحُ الراءِ وكَسْرُها». قولُه (محمَّدُ بنُ كَثيرٍ): بالثّاءِ المُثَلَّثةِ.

قولُه (ما سُئِلَ رَسولُ اللهِ عَنْ شَيْءٍ فقالَ: لا)، وفي نسخةٍ «شَيْئًا»، والمَعْنى: ما سَأَلَه أَحَدٌ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا شَيْئًا فمَنَعَه، بَلْ كانَ يُعْطي أوْ يَعِدُه بالعَطاءِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وإمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهم ابْتِغاءَ رَحمةٍ مِن رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨]، ولا يُنافي ذلكَ قولُه ﴿قُلْتُ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكم عَلَيْه﴾ [التوبة: ٩٢]؛ أيِ الآنَ، وأَرْجو في المستقبَلِ.

وَعَنْ أَنَسٍ[1] وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ مِثْلُهُ[2]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (كَانَ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَأَجْوَدُ مَا كَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ إِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ)[3].

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ، وَقَالَ: «أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى فَاقَةً»[4].

وَأَعْطَى غَيْرَ وَاحِدٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى صَفْوَانَ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً[5].

وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُهُ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَقَدْ قَالَ لَهُ وَرَقَةُ ابْنُ نَوْفَلٍ: «إِنَّكَ تَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ»[6].

وَرَدَّ عَلَى هَوَازِنَ سَبَايَاهَا، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ[7]، وَأَعْطَى العَبَّاسَ مِنَ الذَّهَبِ مَا لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ[8].

---

(١) حديثُ أَنَسٍ مثْلُه: مُسْلِمٌ [٢٣١٢].

(٢) حديثُ سَهْلٍ مِثْلُه: الدارميُّ [٧٦]، والطَّيَالِسيُّ [١٨٢٦].

(٣) حديثُ ابنِ عَبّاسٍ (كانَ أَجْوَدَ النّاسِ بالخَيْرِ...): الشَّيْخانِ [البخاريُّ (٦)، ومسلمٌ (٢٣٠٨)].

(٤) حديثُ أَنَسٍ (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَه فأَعْطَاه غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ...): مُسْلِمٌ [٢٣١٢].

(٥) حديث (أنَّه أَعْطَى صَفْوانَ مائةً، ثُمَّ مائةً، ثُمَّ مِائةً): مُسْلِمٌ [٢٣١٣].

(٦) حديث (أَنَّ وَرَقَةَ قالَ له: إنَّكَ تَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ...): في الصحيحَيْنِ [البخاريُّ (٣)، ومسلمٌ (١٦٠)] لكنَّ القائلَ له هذا خديجةُ.

(٧) حديث (أنَّه رَدَّ على هَوازِنَ سَبَايَاها...): البخاريُّ [٢٣٠٧] عن مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ والمِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ.

(٨) حديث (أنَّه أَعْطَى العَبَّاسَ من الذَّهَبِ ما لَمْ يُطِقْ حَمْلَه): البخاريُّ [٤٢١] عن أَنَسٍ تَعْليقًا.

قولُه (وأَجْوَدُ ما كانَ في شَهْرِ رَمَضانَ): (ما) مصدريّةٌ؛ أيْ «وكانَ أَجْوَدُ أكوانِه باعتبارِ اختلافِ زَمانِه حاصِلًا في شَهْرِ... إلخ».

قولُه (أَجْوَدَ بالخَيْرِ مِنَ الرّيحِ... إلخ): أيْ في عُمومِ المَنْفعةِ والسُّرعةِ.

وقولُه (عَطاءَ مَنْ لا يَخْشى فاقةً): أيْ حاجةً لِكَرَمِ نَفْسِه وشَرَفِ طَبْعِه.

قولُه (ثُمَّ مائةً ثُمَّ مائةً): أيْ في وَقْتٍ واحِدٍ أَوْ في أزمنةٍ متعدِّدةٍ.

قولُه (تَحْمِلُ الكَلَّ): -بفتحِ الكافِ وتشديدِ اللّامِ- أيِ الثَّقيلَ مِنَ العيالِ واليَتيمِ.

قولُه (وتَكْسِبُ): بِفَتْحِ أَوَّلِه -ويُضَمُّ-، وبِكَسْرِ السّينِ، وقولُه (المَعْدومَ): بالواوِ، وفي نسخةٍ بِدونِ واوٍ.

قولُه (وَرَدَّ على هَوازِنَ): هيَ قَبيلةٌ مَعروفةٌ.

قولُه (وكانوا سِتّةَ آلافٍ): أيْ مِنَ النِّساءِ والذُّرِّيّةِ، ورَدَّ عليْهم مِنَ الأَموالِ أربَعةً وعِشْرينَ أَلْفًا مِنَ الإبِلِ، وأَكْثَرَ مِنْ أربَعينَ أَلْفًا مِنَ الغنَمِ، وأربَعةَ آلافِ أوقيّةٍ مِنَ الفِضّةِ؛ والأوقيّةُ أربَعونَ دِرهمًا، قيلَ: قَوَّمَ ذلكَ فبَلَغَ خَمْسَمائةِ أَلْفِ أَلْفٍ.

وَحُمِلَ إِلَيْهِ تِسعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَوُضِعَتْ عَلَى حَصِيرٍ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا يَقْسِمُهَا، فَمَا رَدَّ سَائِلًا حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا[1].

وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، وَلَكِنِ ابْتَعْ عَلَيَّ، فَإِذَا جَاءَنَا شَيْءٌ قَضَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا كَلَّفَكَ اللهُ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَكَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفِقْ وَلَا تَخَفْ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلالًا؛ فَتَبَسَّمَ النبيُّ ﷺ وَعُرِفَ البِشْرُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: (بِهَذَا أُمِرْتُ)، ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ[2].

وَذُكِرَ عَنْ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِقِنَاعٍ مِنْ رُطَبٍ يُرِيدُ طَبَقًا، وَأَجْرٍ زُغْبٍ يُرِيدُ قِثَّاءً،

(١) حديث (أنَّه حُمِلَ إِلَيْهِ تسعُونَ أَلْفًا، فوُضِعَتْ على حَصِير...): أبو الحَسَن ابنُ الضحّاك في «الشَّمائِل» عَنِ الحَسَنِ مُرْسَلًا.

(٢) حديث (أنَّ رَجُلًا سَأَلَه فقالَ: ما عِنْدي شَيْءٌ ولكن ابْتَعْ عَلَيَّ...): التِّرمذيُّ في «الشَّمائِل» [٣٣٨]، والخرائطيُّ في «مَكارِمِ الأخلاقِ» [٩٩] عَنْ عُمَرَ.

قولُه (**وحُمِلَ إِلَيْهِ**): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ أُتِيَ إِلَيْه. قولُه (**فوُضِعَتْ**): -بِصيغةِ المَجْهولِ- أيْ فسُكِبَتْ ونُثِرَتْ.

وقولُه (**على حَصيرٍ**): أيْ خَصَفةٍ. قولُه (**ثُمَّ قامَ إِلَيْها يَقْسِمُها**) وفي نسخةٍ «فَقَسَمَها».

قولُه (**فقالَ ما عِنْدي شَيْءٌ**): أيْ مِمّا عَيَّنْتَ أوْ على قَدْرِ ما بَيَّنْتَ.

قولُه (**ولكِنِ ابْتَعْ**): -أَمْرٌ مِنَ الابتياعِ؛ بباءٍ موحَّدةٍ، ثُمَّ مُثنّاةٍ فوْقيّةٍ- أيِ اشترِ واستَلِفْ مِقْدارَ ما تختارُ حَوالةً عَلَيَّ، وقالَ التلمسانيُّ: أيِ اعْدُدْ عَلَيَّ واحسُبْ، وجَوَّزَ الدلجيُّ تقديمَ المُثنّاةِ على المَوحَّدةِ، قالَ المُلّا: «ولَيْسَتْ عِنْدَنا في النُّسَخِ المُعْتَمَدةِ» اهـ؛ قُلْتُ: لا وُجودَ لِهَذا الضبطِ في النُّسَخِ التي تَحْتَ يَدي.

قولُه (**ما لا تَقْدِرُ علَيْه**): مِن تَحَمُّلِ الدَّيْنِ بِمُقْتَضى الوَعْدِ لِما وَرَدَ مِن أنَّ العِدةَ دَيْنٌ، والدَّيْنُ شَيْنٌ.

قولُه (**فكَرِهَ النبيُّ... إلخ**): بِناءً على جَبْرِ خاطِرِ السائلِ وما يَعْتَريه مِن خَيْبةِ الأَمَلِ.

قولُه (**أَنْفِقْ ولا تَخَفْ**): وفي نسخةٍ «ولا تَخْشَ»، وقولُه (**إقْلالًا**): أيْ تَقْليلًا. قولُه (**وعُرِفَ البِشْرُ**): -بصيغةِ المَجْهولِ- أيْ وظَهَرَ البَشاشةُ في وَجْهِه.

قولُه (**وذُكِرَ عَنْ مُعَوِّذٍ**) بصيغةِ المَجْهولِ، وفي نسخةٍ على بِناءِ الفاعِلِ، و(**مُعَوِّذ**): بِكَسْرِ الواوِ المُشَدَّدةِ -وتُفْتَحُ-، والذّالِ المُعْجَمةِ؛ وقيلَ: مُهْمَلةٌ، وقولُه (**بنِ عَفْراءَ**): -بِفَتْحِ العَيْنِ وسُكونِ الفاءِ فراءٍ مَمدودةٍ- اسمُ أُمِّه.

قولُه (**أتَيْتُ النبيَّ بِقِناعٍ**): بِكَسْرِ القافِ، وقولُه (**مِن رُطَبٍ**) وفي أَصْلِ الدلجيِّ بِدونِ «مِنْ»، وقولُه (**يُريدُ**): أيِ الرّاوي بِقَوْلِه «قِناعٍ» (**طَبَقًا**) بِفَتْحَتَيْنِ.

قولُه (**وأَجْرٍ**): -بِفَتْحِ الهَمْزةِ وسُكونِ الجيمِ وكَسْرِ الرّاءِ مُنَوَّنةً؛ جَمْعُ «جِرْوٍ» مُثَلَّثُ الجيمِ، والكَسْرُ أَشْهَرُ- أيْ قِثّاءٍ صِغارٍ. اهـ مُلّا.

قولُه (**زُغْبٍ**): -بِضَمِّ زايٍ؛ جَمْعُ «أَزْغَبَ»- أيْ ذَواتِ زَغَبٍ؛ أيْ صِغارِ الرِّيشِ. قولُه (**يُريدُ قِثّاءً**): أيْ مَوْصوفًا بِما ذُكِرَ، وهوَ بِكَسْرِ القافِ ويُضَمُّ؛ مَمْدودًا.

فَأَعْطَانِي مِلْءَ كَفِّهِ حَلْيًا وَذَهَبًا.[1]

قَالَ أَنَسٌ: كَانَ النبيُّ ﷺ لَا يَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَاسْتَلَفَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ نِصْفَ وَسْقٍ، فَجَاءَ الرَّجُلُ يَتَقَاضَاهُ، فَأَعْطَاهُ وَسْقًا، وَقَالَ: (نِصْفُهُ قَضَاءٌ، وَنِصْفُهُ نَائِلٌ)[3].

وَالخَبَرُ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ ﷺ كَثِيرٌ.

***

قولُه (مِلْءَ كَفِّه): وفي روايةٍ «مِلْءَ يَدَيْه»، وفي أُخرى «مِلْءَ يَدي»، وفي أُخرى «مِلْءَ كَفّي».

قولُه (حَلْيًا): بفتحٍ فسُكونٍ، وفي نسخةٍ بِضَمٍّ المُهْمَلةِ وكَسْرِ اللّامِ وتشديدِ التحتيّةِ.

***

(١) حديث مُعَوِّذ (أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ بِقِنَاعٍ من رُطَبٍ...): التِّرمذيُّ في «الشَّمائل» [١٩٤]، والطَّبَرانيُّ [٢٤/ ٢٧٣]، وأحمدُ [٢٧٠٢٣] عَن الرُّبَيِّعِ بنتِ مُعَوِّذٍ، وسَنَدُه حَسَنٌ.

(٢) حديث أنسٍ (كانَ لا يَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ): التِّرمذيُّ [٢٣٦٢].

(٣) حديث أَبي هريرةَ (أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُه فاستَسْلَفَ له نِصْفَ وَسْقٍ...): [أخرجه البزّار (٨٩٢٢)، وغيره].

فَصْلٌ [في شجاعته ونجدته ﷺ]

وَأَمَّا الشَّجَاعَةُ وَالنَّجْدَةُ فَالشَّجَاعَةُ: فَضِيلَةُ قُوَّةِ الغَضَبِ وَانْقِيَادِهَا لِلْعَقْلِ، وَالنَّجْدَةُ: ثِقَةُ النَّفْسِ عِنْدَ اسْتِرْسَالِهَا إِلَى المَوْتِ حَيْثُ يُحْمَدُ فِعْلُهَا دُونَ خَوْفٍ.

فَكَانَ النبيُّ ﷺ مِنْهُمَا بِالمَكَانِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، قَدْ حَضَرَ المَوَاقِفَ الصَّعْبَةَ، وَفَرَّ الكُمَاةُ وَالأَبْطَالُ عَنْهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَهُوَ ﷺ ثَابِتٌ لَا يَبْرَحُ، وَمُقْبِلٌ لَا يُدْبِرُ وَلَا يَتَزَحْزَحُ، وما مِنْ شُجَاعٍ إِلَّا وَقَدْ أُحْصِيَتْ لَهُ فَرَّةٌ، وَحُفِظَتْ عَنْهُ جَوْلَةٌ سِوَاهُ.

حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الجَيَّانِيُّ فِيمَا كَتَبَ لِي قَالَ: حَدَّثَنَا القَاضِي سِرَاجٌ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الأَصِيلِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ الفَقِيهُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ سَمِعَ البَرَاءَ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ: أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُهُ عَلَى بَغْلَتِهِ البَيْضَاءِ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، والنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ)، وَزَادَ غَيْرُهُ: (أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ)[1]،

---

(١) حديث البَرَاء (أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ...): أَسْنَدَه المُصَنِّفُ من طَرِيقِ البُخارِيِّ [٢٩٣٠]، وأَخْرَجَه مُسْلِمٌ [١٧٧٦] أيضًا.

(فَصْلٌ: وأَمَّا الشَّجاعةُ والنَّجْدةُ): -بِفَتْحِ النونِ وسُكونِ الجيمِ فدالٍ مُهْمَلةٍ- بِمَعْنى الشَّجاعةِ، وقيلَ: الإغاثةُ والإعانةُ.

قولُه (وفَرَّ الكُماةُ): أيْ هَرَبَ الكُماةُ، و(الكُماةُ): -بِضَمِّ الكافِ وتخفيفِ الميمِ- جَمْعُ «كَمِيٍّ» -بِفَتْحِ فكَسْرٍ فتَشْديدٍ- أيْ شُجاعٍ مُتَكَمٍّ في سِلاحِه. قولُه (والأَبْطالُ): بفتحِ الهَمزةِ جَمْعُ «بَطَلٍ» بِفَتحتَيْنِ، وهوَ الشُّجاعُ.

قولُه (لا يَبْرَحُ): -بِفَتْحِ الياءِ والرّاءِ- أيْ لا يَزولُ عَنْ مَكانِه، وقولُه (ولا يَتَزَحْزَحُ): أيْ لا يَتَبَعَّدُ عَنْ مواجَهةِ الكُفّارِ.

قولُه (وما مِنْ شُجاعٍ): بِتَثْليثِ أَوَّلِه، والضمُّ أَشْهَرُ. قولُه (أُحْصِيَتْ لَه فَرَّةٌ): -على صيغةِ المَجْهولِ- أيْ ضُبِطَتْ لَه ولَوْ مَرّةً واحدةً، وقولُه (جَوْلةٌ): -بِفَتْحِ الجيمِ وسُكونِ الواوِ- أيْ تَرَدُّدٌ.

قولُه (سِراجٌ): بِكَسْرِ السِّينِ المهمَلةِ وتخفيفِ الرّاءِ بَعْدَها أَلِفٌ فَجيمٌ، وقولُه (الأَصيليُّ): -بفَتْحِ الهَمْزةِ وكَسْرِ الصادِ المُهْمَلةِ، ويقالُ بالزّاي أيْضًا- نِسْبةً إلى بَلَدٍ بالمَغْرِبِ. قولُه (بَشّارٍ): بموحَّدةٍ وشينٍ مُعْجَمةٍ مُشَدَّدةٍ.

وقولُه (غُنْدَرٌ): بِضَمِّ الغَيْنِ المُعْجَمةِ فنونٍ ساكِنةٍ فدالٍ مُهْمَلةٍ مَفتوحةٍ؛ وقَدْ تُضَمُّ فراءٍ- هُذَليٌّ بَصْريٌّ. قولُه (سَمِعَ البَراءَ): بِفَتحِ المُوَحَّدةِ وتخفيفِ الرّاءِ؛ وهوَ ابنُ عازِبٍ.

قولُه (قالَ: نَعَمْ لَكِنَّ... إلخ) وفي نُسخةٍ بِدونِ «نَعَمْ»، وقولُه (لَمْ يَفِرَّ): بتشديدِ الرّاءِ المَفتوحةِ؛ ويَجوزُ كَسْرُها لِكَسْرِ ما قَبْلَها.

قولُه (أَنا النبيُّ لا كَذِبْ): بِسُكونِ الباءِ لِلوَزْنِ أوِ السَّجْعِ، وضُبِطَ في بَعْضِ النُّسَخِ بِفَتْحِ الباءِ على أصلِه في البِناءِ، وقولُه (المُطَّلِبْ): بِسُكونِ الباءِ؛ مَعَ أَنَّها في أَصْلِ الإعرابِ بالجَرِّ، ومَنْ قَرَأَ بالكَسْرِ أَرادَ إخراجَه مِنْ وَزْنِ الشِّعْرِ.

قِيلَ: فَمَا رُئِيَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَغْلَتِهِ.

وَذَكَرَ مُسْلِمٌ عَنِ العَبَّاسِ قَالَ: فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالكُفَّارُ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرْكِضُ بَغْلَتَهُ نَحْوَ الكُفَّارِ، وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِهَا، أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِهِ، ثُمَّ نَادَى (يَا لَلْمُسْلِمِينَ... الحَدِيثَ).[1]

وَقِيلَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا غَضِبَ -وَلَا يَغْضَبُ إِلَّا للهِ- لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ.[2]

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا رَأَيْتُ أَشْجَعَ وَلَا أَنْجَدَ وَلَا أَجْوَدَ وَلَا أَرْضَى مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.[3]

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ البَأْسُ -وَيُرْوَى: اشْتَدَّ البَأْسُ-، وَاحْمَرَّتِ الحَدَقُ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى العَدُوِّ مِنْهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى العَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا)[4].

وَقِيلَ: كَانَ الشُّجَاعُ هُوَ الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ ﷺ إِذَا دَنَا العَدُوُّ لِقُرْبِهِ مِنْهُ.

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، لَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ،

---

(١) حديثُ العبَّاس: عَزاه المُصنِّفُ لِمُسْلم [١٧٧٥].

(٢) حديث (كانَ إذا غَضِبَ -ولا يَغْضَبُ إلّا للهِ- لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِه شَيْءٌ): هُوَ في حديثِ ابنِ أَبِي هالَةَ [سيأتي ص١٩٦].

(٣) حديثُ ابنِ عُمَرَ (ما رَأَيْتُ أَشْجَعَ ولا أَنْجَدَ...): الدارِمِيُّ [٦٤].

(٤) حديثُ (كُنَّا إذا حَمِيَ البَأْسُ...): أحمدُ [١٠٤٢، و١٣٤٧]، والنَّسائيُّ [الكبرى ٨٥٨٥]، والطَّبَرانِيُّ، والبَيْهَقِيُّ في «الدَّلائل» [٣/ ٢٥٨] من طُرُقٍ عَنْه. وقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ [١٧٧٦] بَعْضَه من حَديثِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ.

قولُه (فَمَا رُئِيَ): -بِصيغةِ المَجْهولِ- أيْ ما أُبْصِرَ.

قولُه (فَطَفِقَ رَسولُ الله): -بِكَسْرِ الفاءِ وتُفْتَحُ- أيْ «فجَعَلَ... إلخ».

وقولُه (يُرْكِضُ بَغْلَتَه): أيْ يُحَرِّكُها ويَدْفَعُها.

قولُه (ثُمَّ نادى: «يا لَلْمسلِمينَ»): -بِفَتْحِ اللّامِ الأولى- أيْ أَقْبِلوا.

قولُه (ولا أَجْوَدَ): بالجيمِ، وضَبْطُ الدلجيِّ: (ولا أَحْوَذَ)؛ بمهمَلةٍ ومعجَمةٍ، مِنْ «حاذَ يَحُوذُ» أيْ جَمَعَ.

قولُه (إذا حَمِيَ البَأْسُ): بالهَمْزِ والتسهيلِ، وما وَقَعَ في أَصْلِ الدلجيِّ «إذا حَمِيَ الوَطِيسُ» لا أَصْلَ له في النُّسَخِ المُعْتَبَرَةِ.

قولُه (واحْمَرَّتِ الحَدَقُ): بفتحتَيْنِ؛ جَمْعُ «حَدَقةٍ»، وهيَ ما احتَوى علَيْه العَيْنُ مِن سَوادِها وبَياضِها.

قولُه (لَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدينةِ): -بِكَسْرِ الزّايِ- أيْ خافوا،

وقولُه (قِبَلَ الصَّوْتِ): -بِكَسْرِ القافِ وفَتْحِ الباءِ المُوَحَّدةِ- أيْ إلى جانِبِه.

فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَاجِعًا، قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَاسْتَبْرَأَ الخَبَرَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَالسَّيْفُ فِي عُنُقِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: (لَنْ تُرَاعُوا).[1]

وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: مَا لَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَتِيبَةً إِلَّا كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَضْرِبُ.[2]

وَلَمَّا رَآهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟ لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا»، وَقَدْ كَانَ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ حِينَ افْتَدَى يَوْمَ بَدْرٍ: عِنْدِي فَرَسٌ أَعْلِفُهَا كُلَّ يَوْمٍ فَرَقًا مِنْ ذُرَةٍ، أَقْتُلُكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى).

فَلَمَّا رَآهُ يَوْمَ أُحُدٍ شَدَّ أُبَيٌّ عَلَى فَرَسِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاعْتَرَضَهُ رِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هَكَذَا)، أَيْ خَلُّوا طَرِيقَهُ، وَتَنَاوَلَ الحَرْبَةَ مِنَ الحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ، فَانْتَفَضَ بِهَا انْتِفَاضَةً تَطَايَرُوا عَنْهُ تَطَايُرَ الشَّعْرَاءِ عَنْ ظَهْرِ البَعِيرِ إِذَا انْتَفَضَ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَطَعَنَهُ فِي عُنُقِهِ طَعْنَةً تَدَأْدَأَ مِنْهَا عَنْ فَرَسِهِ مِرَارًا، وَقِيلَ: بَلْ كَسَرَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، يَقُولُ: قَتَلَنِي مُحَمَّدٌ، ..

---

(1) حديثُ أَنَس (كانَ أَحْسَنَ النّاس...): الشَّيخانِ [البخاريُّ (٢٩٠٨)، ومسلمٌ (٢٣٠٧)].

(2) حديثُ عمْرانَ بن حُصَيْن (ما لَقِيَ رَسولُ الله كَتيبةً إلّا كانَ أوّلَ مَن يَضْرِبُ): أبو الشيخ في أخلاقه ﷺ [١٠٩].

قولُه (واستبْرَأَ الخَبَرَ): أيْ تَعَرَّفَ حقيقةَ الخَبَرِ.

قولُه (على فَرَسٍ [لِأَبي طَلْحةَ] عُرْيٍ): -بضمِّ العَينِ فسُكونِ الرّاءِ- أيْ لا سَرْجَ عَلَيْها.

قولُه (لَنْ تُراعوا): -بِضَمِّ التّاءِ والعَيْنِ- أيْ لا تَخافوا مَكروهًا[1].

قولُه (عِمْرانُ بنُ حُصَيْنٍ) وفي نسخةٍ «الحُصَيْنِ»، وقولُه (كَتيبةً): -بِفَتحِ الكافِ وكَسْرِ الفوْقيّةِ- أيْ جَماعةً عَظيمةً مِنَ الجَيْشِ.

قولُه (لا نَجَوْتُ إنْ نَجا): دَعا على نَفْسِه فأجابَه اللهُ فأَهْلَكَه ونَجا نَبِيُّه ﷺ.

قولُه (فَرَقًا مِنْ ذُرةٍ): -بفتحِ الفاءِ والراءِ وتُسَكَّنُ- كَيْلًا يَسَعُ ثَلاثةَ آصُعٍ، وقولُه (ذُرةٍ): بِضَمِّ الذّالِ وفَتْحِ الراءِ مُخَفَّفةً.

قولُه (فاعْتَرَضَه رِجالٌ): أيْ حالوا بَيْنَ النبيِّ وأُبَيٍّ.

وقولُه (الصِّمّةِ): بِكَسْرِ الصّادِ وتشديدِ الميم.

قولُه (انتَفَضَ بِها انتِفاضةً): أيْ حَرَّكَ بالحَرْبةِ تَحريكًا شَديدًا.

قولُه (تَطايُرَ الشَّعْراءِ): -بفَتْحِ المعجَمةِ وسُكونِ المُهْمَلةِ وبالمَدِّ؛ جَمْعُه «شُعْرٌ»[2]، بِضَمٍّ فسكونٍ- أيْ كَتَطايُرِ ذُبابٍ حُمْرٍ أوْ زُرْقٍ.

وقولُه (تَدَأْدَأَ مِنها): بفتحِ الفوقيّةِ وهَمْزةٍ ساكِنةٍ بَيْنَ دالَيْنِ مُهْمَلتَيْنِ ثُمَّ هَمْزةٍ مَفتوحةٍ، قيلَ: وأَصْلُ الهمزتَيْنِ هاءانِ.

وقولُه (بَلْ كَسَرَ ضِلَعًا): -بكَسرِ المعجَمةِ وفَتْحِ اللّامِ وتُسَكَّنُ- أيْ واحِدٌ مِنْ أضلاعِه.

---

(1) خبر بمعنى النهي.

(2) الشُّعْر، بضم الشين وسكن العَينِ: جَمْعُ شَعْراءَ، وَهِيَ ذِبّانٌ أَحمر، وَقِيلَ أَزرق، يَقَعُ عَلَى الإِبل وَيُؤْذِيهَا أَذى شَدِيدًا، وَقِيلَ: هُوَ ذُبابٌ كَثِيرُ الشَّعَر. لسان العرب.

.. وَهُمْ يقولُونَ: لَا بَأْسَ بِكَ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ مَا بِي بِجَمِيعِ النَّاسِ لَقَتَلَهُمْ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ: أَنَا أَقْتُلُكَ؟! وَاللهِ لَوْ بَصَقَ عَلَيَّ لَقَتَلَنِي، فَمَاتَ بِسَرِفَ فِي قُفُولِهِمْ إِلَى مَكَّةَ[1].

***

(١) حديث (لَمَّا رآه أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ يَوْمَ أُحُدٍ...)

الحديث: ابنُ سَعْد [٢/ ٤٦]، والبَيهقيُّ [٣/ ٢٥٨] عَن عُروةَ بن الزُّبَيْر، وسَعيدُ بنُ المُسيَّب مُرْسَلًا، وعبدُ الرزَّاق في مُصَنَّفه [٩٧٣١] عَن مِقْسَم مَوْلَى ابن عَبَّاس مُرْسَلًا، والواقِديُّ [١/ ٢٥٠] مَوْصُولًا عَنْ كَعْبِ بن مالِك.

قولُه (فَمَاتَ بِسَرِفَ): بِفَتْحِ السِّينِ و[كَسْرِ] الرَّاءِ ففاءٍ ممنوعًا مِنَ الصَّرْفِ ويجوزُ صَرْفُه[1].

قولُه (في قُفولِهم إلى مكَّةَ): -بِضَمِّ القافِ والفاءِ- أيْ رُجوعِ الكُفَّارِ مِنْ أُحُدٍ وهوَ مَعَهم.

***

(١) سِرَف: بفتح أوّله، وكسر ثانيه، وآخره فاء؛ وهو موضع على ستّة أميال من مكّة، وقيل: سبعة وتسعة واثني عشر. من معجم البلدان بتصرف واختصار.

فَصْلٌ [في حيائِهِ وإغْضائِهِ ﷺ]

وَأَمَّا الحَيَاءُ وَالإِغْضَاءُ فَالحَيَاءُ: رِقَّةٌ تَعْتَرِي وَجْهَ الإِنْسَانِ عِنْدَ فِعْلِ مَا يُتَوَقَّعُ كَرَاهَتُهُ، أَوْ مَا يَكُونُ تَرْكُهُ خَيْرًا مِنْ فِعْلِهِ، وَالإِغْضَاءُ: التَّغَافُلُ عَمَّا يَكْرَهُ الإِنْسَانُ بِطَبِيعَتِهِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، وَأَكْثَرَهُمْ عَنِ العَوْرَاتِ إِغْضَاءً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ...﴾ الآيَةَ [الأحزاب: ٥٣].

حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَتَّابٍ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، أنبأنا أَبُو القَاسِمِ حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَنَا عَبْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ مَوْلَى أَنَسٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ، وَكَانَ ﷺ لَطِيفَ البَشَرَةِ، رَقِيقَ الظَّاهِرِ، لَا يُشَافِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُهُ حَيَاءً وَكَرَمَ نَفْسٍ.(١)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ أَحَدٍ مَا يَكْرَهُهُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ كَذَا؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَصْنَعُونَ -أَوْ يَقُولُونَ- كَذَا)، يَنْهَى عَنْهُ، وَلَا يُسَمِّي فَاعِلَهُ.(٢)

(١) حديثُ أَبي سَعيدٍ (كانَ أَشَدَّ حَيَاءً...): أَسْنَدَه من طريق البخاريّ [٣٥٦٢]، وأخرَجَه مُسلمٌ [٢٣٢٠] أيضًا.

(٢) حديث عائشةَ (كان إذا بَلَغَه عَن أَحَدٍ ما يكرَهُه...): أبو داوُدَ [٤٧٨٨].

قولُه (ما يُتَوَقَّعُ كَرَاهَتُه): بِصيغةِ المَجْهولِ، وفي نسخةٍ «كَراهيَتُه».

قولُه (عَتَّابٍ): بفتحِ العَينِ المُهْمَلةِ وتشديدِ التّاءِ الفوقيّةِ.

وقولُه (القابِسيُّ): بالموَحَّدةِ.

وقولُه (المَرْوَزيُّ): بِفَتْحِ الميمِ وسُكونِ الرّاءِ وفَتْحِ الواوِ ثُمَّ زاي.

وقولُه (عَبْدانُ): بفتحِ المهمَلةِ والموَحَّدةِ.

قولُه (مِنَ العَذْراءِ): -بفَتحِ المهمَلةِ فسُكونِ المعجَمةِ وبالرّاءِ وبالمَدِّ- أيْ حياؤُه أَشَدُّ مِنَ العَذْراءِ.

وقولُه (في خِدْرِها): -بكسْرِ الخاءِ المُعْجَمةِ وسُكونِ الدّالِ المُهْمَلةِ- أيْ حالَ كَوْنِها في داخِلِ سِتْرِها.

قولُه (ولَكِنْ يقولُ: ما بالُ أقْوامٍ): بِصيغةِ الجَمْعِ لإفادةِ عُمومِ الحُكْمِ لَه ولِغَيْرِه.

وقولُه (أَوْ يقولونَ): شَكٌّ مِنَ الرّاوي.

وَرَوَى أَنَسٌ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئًا -وَكَانَ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ-، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: (لَوْ قُلْتُمْ لَهُ يَغْسِلُ هَذَا)[١]، وَيُرْوَى: (يَنْزِعُهَا).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي الصَّحِيحِ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَحَّاشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا سَخَّابًا بِالأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ.[٢]

وَقَدْ حُكِيَ مِثْلُ هَذَا الكَلَامِ عَنِ التَّوْرَاةِ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ[٣].

وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مِنْ حَيَائِهِ لَا يُثْبِتُ بَصَرَهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ[٤]، وَأَنَّهُ كَانَ يُكَنِّي عَمَّا اضْطَرَّهُ الكَلَامُ إِلَيْهِ مِمَّا يَكْرَهُ[٥]، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا رَأَيْتُ فَرْجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَطُّ[٦].

***

(١) حديثُ أَنَس (أَنَّه دَخَلَ عليْه رَجُلٌ بِه أَثَرُ صُفْرَةٍ...): أبو داوُدَ [٤١٨٢]، والتِّرمذيُّ في «الشَّمائل» [٣٢٩].

(٢) حديث عائشة (لَمْ يَكُنْ فاحِشًا...): التِّرمذيُّ وصَحَّحَه [٢٠١٦].

(٣) [انظر ص٦٠].

(٤) حديث (أَنَّه كانَ لا يُثْبِتُ بَصَرَه في وَجْهِ أَحَدٍ...): ذكَرَه صاحبُ «الإحياء» [٢/ ٣٦٠]، ولَمْ يَجِدْه العراقيُّ.

(٥) حديث (أَنَّه كانَ يَكْنِي عمَّا اضْطَرَّه الكَلامُ إِلَيْه مِمَّا يَكرَهُ...): هُوَ معلومٌ مِن أحوالِه وأقوالِه في الأحاديثِ المشهورةِ [منها حديث الصحيحين البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا وفيه: «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده»].

(٦) حديث عائشةَ (ما رَأَيْتُ فَرْجَه قَطُّ): تقدَّمَ [انظر ص١١١].

قولُه (ويُروى: «يَنْزِعُها»): بِكَسْرِ الزَّايِ، وأَمَّا قَوْلُ التلمسانيِّ «يَنْزَعُ: بفَتحِ الزايِ لا غَيرُ» فوَهَمٌ.

قولُه (ولا سَخَّابًا): -بتشديدِ المعجَمةِ- أيْ ولا صاحِبَ رَفْعِ صَوْتٍ.

قولُه (ولا يَجْزي بالسَّيِّئةِ): -بِفَتحِ الياءِ وكَسْرِ الزَّايِ- أيْ ولا يُجازي.

وقولُه (بنِ سَلامٍ): بتخفيفِ اللَّامِ.

قولُه (وأَنَّه كانَ يُكَنِّي): -بِضَمِّ الياءِ وتشديدِ النّونِ، أوْ بِفَتْحٍ وتَخفيفٍ- أيْ يُلَوِّحُ ولا يُصَرِّحُ، ويُعَرِّضُ.

***

فَصْلٌ [في حُسْنِ عِشْرتِه وأدبِه ﷺ]

وَأَمَّا حُسْنُ عِشْرَتِهِ، وَأَدَبُهِ، وَبَسْطُ خُلُقِهِ ﷺ مَعَ أَصْنَافِ الخَلْقِ، فَبِحَيْثُ انْتَشَرَتْ بِهِ الأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي وَصْفِهِ ﷺ: (كَانَ أَوْسَعَ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً)[1].

حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُشَرَّفٍ الأَنْمَاطِيُّ فِيمَا أَجَازَنِيهِ، وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الحَبَّالُ، قَالَ: أَنبأَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الأَعْرَابِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا هِشَامُ أَبُو مَرْوَانَ وَمُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّى، قَالَا: أَنبأَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

زَارَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَذَكَرَ قِصَّةً فِي آخِرِهَا: فَلَمَّا أَرَادَ الانْصِرَافَ قَرَّبَ لَهُ سَعْدٌ حِمَارًا وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ، فَرَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ سَعْدٌ: يَا قَيْسُ، اصْحَبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ قَيْسٌ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: (ارْكَبْ)، فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: (إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ)، فَانْصَرَفْتُ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (ارْكَبْ أَمَامِي؛ فَصَاحِبُ الدَّابَّةِ أَوْلَى بِمُقَدَّمِهَا)[2].

وَكَانَ ﷺ يُؤَلِّفُهُمْ وَلَا يُنَفِّرُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِشْرَهُ وَلَا خُلُقَهُ، ..

---

(١) حديثُ عَلِيٍّ (كانَ أَجْوَدَ الناسِ ...): التِّرمذيُّ في «الشَّمائل» [٦].

(٢) حديثُ قَيس بن سَعْد (زارنا رسول الله ﷺ...): أَسْنَدَه المُصَنِّفُ من طريقِ أَبي داوُدَ [٥١٨٥]، وأَخْرَجَه أيضًا النَّسائيُّ [«الكبرى» (١٠٠٨٤)، و«عمل اليوم والليلة» (٣٢٤)].

قولُه (كانَ أَوْسَعَ النّاسِ صَدْرًا): أَيْ لا يَمَلُّ ولا يَضْجَرُ. قولُه (وأَصْدَقَ النّاسِ لَهْجَةً): -بفتحِ اللّامِ والجيمِ بَيْنَهما هاءٌ ساكِنَةٌ- أَيْ وكانَ أَصْدَقَهم لِسانًا وبَيانًا.

قولُه (وأَلْيَنَهم عَريكَةً): أَيْ طَبيعةً.

قولُه (عَلِيُّ بنُ مُشَرَّفٍ): بفتحِ الراءِ المشدَّدةِ، وقولُه (الأَنْماطِيُّ): بفتحِ الهَمزةِ وسُكونِ النونِ.

وقولُه (الحَبّالُ): -بِفَتْحِ المهمَلةِ وتشديدِ المُوَحَّدةِ- مُحَدِّثٌ. وقولُه (النَّحّاسِ): بتشديدِ الحاءِ المُهْمَلةِ. وقولُه (زُرارةَ): بضمِّ الزّايِ فراءَيْنِ بينَهما أَلِفٌ.

قولُه (قَرَّبَ لَه): بتشديدِ الرّاءِ، وقولُه (وَطَّأَ): -بتشديدِ الطّاءِ فهمْزٍ- أَيْ رَحَلَ.

قولُه (اصْحَبْ رَسولَ الله): -بفَتْحِ الحاءِ- أَيْ كُنْ في صُحْبَتِه.

قولُه (أَوْلَى بِمُقَدَّمِها): -بفتحِ الدالِ المُشَدَّدةِ، وقَدْ تُخَفَّفُ- أَيْ بالرُّكوبِ في صَدْرِها.

وقولُه (يُؤَلِّفُهم): -بِتَشْديدِ اللّامِ- أَيْ يوقِعُ الأُلْفةَ فيما بَيْنَهم.

قولُه (ولا يُنَفِّرُهم): -بالتشديدِ وقيلَ: بِكَسْرِ الفاءِ المُخَفَّفةِ- أَيْ لا يَعْمَلُ شَيْئًا مِمّا يُنَفِّرُ طِباعَهم.

قولُه (ويَحْذَرُ النّاسَ): -بِفَتْحِ الذّالِ المُعْجَمةِ- أَيْ يَخافُهم، وتفسيرُه قَوْلُه (ويَحْتَرِسُ مِنهم): أَيْ يَحْتَرِزُ مِنْ مَكْرِ شِرارِهم.

.. وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ نَصِيبَهُ، لَا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ لِحَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرِفَ عَنْهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ؛ فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، بِهَذَا وَصَفَهُ ابْنُ أَبِي هَالَةَ.

وَكَانَ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ وَلَا فَحَّاشٍ وَلَا عَيَّابٍ وَلَا مَدَّاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤْيَسُ مِنْهُ.[1]

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ...﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ الآيَةَ [فصلت: ٣٤].

وَكَانَ يُجِيبُ مَنْ دَعَاهُ[2]، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَوْ كَانَتْ كُرَاعًا، وَيُكَافِئُ عَلَيْهَا[3].

قَالَ أَنَسٌ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ[4].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ لَبَّيْكَ.[5]

---

(١) حديث (أنَّه كانَ يُؤَلِّفُهم... إلى قوله: ولا يُؤْيَسُ مِنْه): هُوَ قِطعةٌ من حديثِ هندِ ابن أَبِي هالةَ [سيأتي ص١٩٦].

(٢) حديث (كانَ يُجِيبُ مَنْ دَعَاه...): ابنُ سَعْدٍ [١/ ٣٧٠] عَن حَمزةَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتْبَةَ: (كانَ لا يَدْعُوه أَحْمَرُ ولا أَسْوَدُ إلا أَجَابَه) وهُوَ مُرْسَلٌ.

(٣) حديث (كانَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ ولَوْ كُرَاعًا، ويُكَافِئُ علَيْها): البخاريُّ [٥١٧٨] عَن أَبِي هُرَيرة (لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ)، وأَخْرَجَ عَن عائشةَ [٢٥٨٥]: كانَ النبيُّ ﷺ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ، ويُثِيبُ علَيْها.

(٤) حديثُ أَنَسٍ (خَدَمْتُه عَشْرَ سِنِينَ...): البخاريُّ [٦٠٣٨] ومُسلِمٌ [٢٣٠٩].

(٥) حديث عائشةَ (ما كانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا من رسول الله ﷺ، ما دَعَاه أَحَدٌ من أصحابِه ولا أَهْلِ بَيْتِه إلّا قالَ: لَبَّيْكَ): أبو نُعيم في «دلائلِ النبوَّة» [١١٩] بسَنَدٍ وَاهٍ.

قولُه (يَتَفَقَّدُ): -وفي نسخةٍ «يَتَعَهَّدُ»- أَيْ لِيَزورَ مَريضَهم ويَدْعوَ لِغائِبِهم.

وقولُه (مَنْ جالَسَه أوْ قارَبَه لِحاجةٍ): أَيْ دينيّةٍ أوْ أُخرويّةٍ، و«أَوْ» لِلتنويعِ لا لِلترديدِ.

وقولُه (صابَرَه): أَيِ انتَظَرَه ﷺ.

قولُه (المُنْصَرِفَ عَنْه): -بالنصبِ- خَبَرٌ لِـ(كانَ).

قولُه (ولا سَخّابٍ): -بالسّينِ المُهْمَلةِ والخاءِ المُعجَمةِ، وفي نسخةٍ بالصّادِ- أَيْ صَيّاحٍ.

قولُه (ولا مَدّاحٍ): -بالدالِ المهملةِ والحاءِ- أَيْ لا يَمْدَحُ طَعامًا ولا يَذُمُّ، أوْ لا يُبالِغُ بالمَدْحِ إطْراءً.

قولُه (عَمّا لا يَشْتَهي): أَيْ لا يُحِبُّه قَوْلًا وفِعْلًا.

وقولُه (ولا يُؤْيَسُ): بِضَمِّ ياءٍ فسُكونِ هَمْزةٍ.

وَقَالَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ.(١)

وَكَانَ ﷺ يُمَازِحُ أَصْحَابَهُ وَيُخَالِطُهُمْ وَيُحَادِثُهُمْ، وَيُدَاعِبُ صِبْيَانَهُمْ، وَيُجْلِسُهُمْ فِي حِجْرِهِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الحُرِّ وَالعَبْدِ(٢)، وَالأَمَةِ وَالمِسْكِينِ، وَيَعُودُ المَرْضَى فِي أَقْصَى المَدِينَةِ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ المُعْتَذِرِ(٣).

قَالَ أَنَسٌ: مَا التَقَمَ أَحَدٌ أُذُنَ النَّبِيِّ ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ بِيَدِهِ فَيُرْسِلُ يَدَهُ حَتَّى يُرْسِلَهَا الآخَرُ، وَلَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ.(٤)

وَكَانَ يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَيَبْدَأُ أَصْحَابَهُ بِالمُصَافَحَةِ(٥)، لَمْ يُرَ قَطُّ مَادًّا رِجْلَيْهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ حَتَّى يُضَيِّقَ بِهِمَا عَلَى أَحَدٍ(٦).

يُكْرِمُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا بَسَطَ لَهُ ثَوْبَهُ، وَيُؤْثِرُهُ بِالوِسَادَةِ الَّتِي تَحْتَهُ، وَيَعْزِمُ عَلَيْهِ فِي الجُلُوسِ عَلَيْهَا إِنْ أَبَى.

قولُه (ويُداعِبُ صِبْيانَهم): أيْ يُلاعِبُهم؛ ففي «القاموس»: «الدُّعابةُ -بالضَّمِّ- اللَّعِبُ».

قولُه (ويُجْلِسُهم): بِضَمِّ أوَّلِه.

قولُه (في حِجْرِه): -بِفَتْحِ الحاءِ وكَسْرِها- أيْ في حِضْنِه تَطْييبًا لِقُلوبِ آبائِهم.

قولُه (ما الْتَقَمَ أَحَدٌ أُذُنَ رَسولِ الله... إلخ): بِضَمِّ الذالِ وسُكونِها.

قولُه (حتّى يُرْسِلَها الآخَرُ): -بِفَتحِ الخاءِ المُعْجَمةِ فراءٍ- نَقيضُ الأوَّلِ، وفي أصلِ الدلجيِّ بِكَسْرِ خاءٍ فذالٍ مُعْجَمةٍ، وهوَ تَصحيفٌ.

وقولُه (وكانَ يَبْدَأُ): أيْ يَبْتَدِئُ، وفي رِوايةٍ «يَبْدُرُ»: -بِضَمِّ الدالِ والرّاءِ- أيْ يُبادِرُ ويَسْبِقُ.

قولُه (ويَعْزِمُ عَلَيْه): أيْ يُؤَكِّدُ على الداخلِ.

---

(١) حديثُ جَرير (ما حَجَبَني مُنذُ أَسْلَمْتُ، ولا رآني إلا تَبَسَّمَ): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٠٣٥)، ومسلمٌ (٢٤٧٥)].

(٢) حديث (كانَ يُجيبُ دَعوةَ العَبْدِ): البَزّارُ [كما في «المجمع» (٩/ ٢٠)] عَنْ جابرٍ، والتِّرمذيُّ [١٠١٧]، وابنُ ماجَهْ [٤١٧٨] عَن أنَسٍ.

(٣) حديث (كانَ يَقْبَلُ عُذْرَ المعتَذِر): هُوَ مِن المعلوم، وفي «الصحيح» [البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلمٌ (٢٧٦٩)] في قِصَّةِ المتخلِّفِينَ عَن غَزوةِ تَبُوكَ: (فكانَ يَقْبَلُ أعذارَهم، ويَكِلُ سرائرَهم إلى الله).

(٤) حديث أَنَس (ما الْتَقَمَ أَحَدٌ...) إلى قوله: (بَيْنَ يَدَيْ جَليس له): أبو داوُدَ [٤٧٩٤]، والترمذي، والبيهقي في «الدَّلائل» [١/ ٣٢٠]، وأَخْرجَه البَزَّارُ عَنْ أبي هريرةَ [٨٥٤٨]، وابن عُمَرَ [٥٩٥٢].

(٥) حديث (كانَ يَبدَأُ مَنْ لَقِيَه بالسَّلام، ويَبْدَأُ أصحابَه بالمُصافَحة...): هُوَ في حديث ابن أَبي هالَةَ [سيأتي ص١٩٦]، وأَخْرَجَ أبو داوُدَ [٥٢١٤] عَنْ أَبي ذَرٍّ: (ما لَقِيتُه قَطُّ إلّا صافَحَني).

(٦) حديث (لَمْ يُرَ مادًّا رِجْلَيْه بَيْنَ يَدَيْ أصحابه...): الدارَقُطْنيُّ في «غرائب مالِكٍ» عَنْ أَنَسٍ، ووَهّاه، [وأخرجه أبو نعيم (٩/ ٢٥٠) من حديث جابر].

وَيُكَنِّي أَصْحَابَهُ، وَيَدْعُوهُمْ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَ فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ، وَيُرْوَى: بِانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَجْلِسُ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ يُصَلِّي إِلَّا خَفَّفَ صَلَاتَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَإِذَا فَرَغَ عَادَ إِلَى صَلَاتِهِ.(1)

وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ تَبَسُّمًا، وَأَطْيَبَهُمْ نَفْسًا مَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ قُرْآنٌ أَوْ يَعِظْ أَوْ يَخْطُبْ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الحَارِثِ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.(2)

وَعَنْ أَنَسٍ: كَانَ خَدَمُ المَدِينَةِ يَأْتُونَ النبيَّ ﷺ إِذَا صَلَّى الغَدَاةَ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا المَاءُ، فَمَا يَأْتُونَهُ بِآنِيَةٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الغَدَاةِ البَارِدَةِ، يُرِيدُونَ التَّبَرُّكَ.(3)

***

قولُه (ويُكنّي أصحابَه): -بتشديدِ النونِ- أيْ يجْعَلُ لهم كُنًى -جمْعُ كُنْيةٍ-؛ كأبي تُرابٍ وأبي هُرَيْرةَ وأُمِّ سَلَمَةَ.

قولُه (تكْرِمةً لهُم): بكسرِ الرّاءِ، وقولُ التِّلِمْسانيِّ «بِضَمِّ الرّاءِ» وَهَمٌ.

قولُه (ما لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْه قرآنٌ): بصيغةِ المَجهولِ، ويَصِحُّ كَوْنُه للفاعلِ.

قولُه (خَدَمُ المَدينةِ): -بفتحتَيْنِ- جَمْعُ «خادِمٍ»، أيْ خَدَمُ أَهْلِ المَدينةِ.

قولُه (فَما يَأْتونَه بآنيةٍ إلّا غَمَسَ يَدَه): أيْ «ما يُجاءُ بآنيةٍ إلّا غَمَسَ... إلخ»؛ أيْ أَدْخَلَ يَدَه.

***

(١) حديث (كانَ لا يَجلِسُ إلَيْه أَحَدٌ وهُوَ يُصَلِّي إلا خَفَّفَ صَلاتَه...): قال العراقيُّ في تخريج «الإحياء» [الإحياء ٢/٣٦٦]: لَمْ أَجِدْ له أَصْلًا.

(٢) حديثُ عَبْدِ اللهِ بنِ الحارث (ما رَأَيْتُ [أَحَدًا] أَكْثَرَ تَبَسُّمًا من رَسولِ اللهِ ﷺ): أحمدُ [١٧٧٠٤]، والتِّرمذيُّ [٣٦٤١] بسَنَدٍ حَسَنٍ.

(٣) حديثُ أَنَسٍ (كانَ خَدَمُ المَدينةِ...): مُسْلِمٌ [٢٣٢٤].

فَصْلٌ [في رأفَتِهِ ورحْمَتِهِ ﷺ بِجميعِ الخَلْقِ]

وَأَمَّا الشَّفَقَةُ وَالرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ بِجَمِيعِ الخَلْقِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِيهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ فَضْلِهِ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وَحَكَى نَحْوَهُ الإِمَامُ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ.

حَدَّثَنَا الفَقِيهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الخُشَنِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا إِمَامُ الحَرَمَيْنِ أَبُو عَلِيٍّ الطَّبَرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الغَافِرِ الفَارِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ ابْنُ الحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا أَبُو الطَّاهِرِ، أَخبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخبَرَنَا يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةً، وَذَكَرَ حُنَيْنًا، قَالَ: فَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ، ثُمَّ مِائَةً، ثُمَّ مِائَةً، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ.[١]

وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ قَالَ: (أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟)، قَالَ الأَعْرَابِيُّ: لَا، وَلا أَجْمَلْتَ، فَغَضِبَ المُسْلِمُونَ وَقَامُوا إِلَيْهِ، ..

(١) [صحيح مسلم (٢٣١٣) وغيره].

قولُه (والرأفةُ والرحمةُ) وفي نسخةٍ بتقديمِ الرحمةِ.

قولُه (عَزِيزٌ عَلَيْهِ... إلخ): ويوجَدُ زيادةٌ في بَعْضِ النُّسَخِ: «أيْ شَديدٌ شاقٌّ عَلَيْهِ عَنَتُكم ولِقاؤكم المكروهَ».

قولُه (فَوْرَكَ): بِفَتْحِ الفاءِ وسُكونِ الواوِ وفَتْحِ الرّاءِ، وهوَ مُنَوَّنٌ، وقَدْ يُمْنَعُ[١].

قولُه (الخُشَنيُّ): بِضَمِّ الخاءِ المُعْجَمةِ، وفَتْحِ الشّينِ، فنونٍ، فياءِ نِسْبةٍ.

قولُه (الطَّبَريُّ): بِفَتْحِ الطّاءِ والمُوَحَّدةِ. قولُه (الجُلُوديُّ): بِضَمِّ الجيمِ واللّامِ.

وقولُه (وذَكَرَ حُنَيْنًا): أيْ ذَكَرَ ما يَدُلُّ على أنَّه أَرادَ بِها حُنَيْنًا، و(حُنَيْنًا): بالتصغيرِ، وقولُه (أُمَيّةَ): تصغيرُ «أمةٍ».

قولُه (النَّعَمِ): -بفتحتَيْنِ- أي الإبِلِ والبَقَرِ والشّاةِ[٢]، وقيلَ: الإبِلُ والشّاةُ، وهوَ جَمْعٌ لا واحِدَ له مِنْ لَفْظِه، وفي رِوايةٍ: «مِنَ الغَنَمِ» بَدَلَ (النَّعَمِ).

قولُه (ورُويَ أنَّ أعرابيًّا): بصيغةِ المجهولِ؛ وقَدْ رَواه أَبو الشَّيْخِ والبَزّارُ.

(١) في هامش سابق قال في ضبطه: «بِضَمِّ الفاءِ وفَتْحِ الراءِ؛ ممنوعٌ مِنَ الصرفِ لِلعلَمِيّةِ والعُجْمةِ، وقيلَ: مَصروفٌ»، وفي هامش ثالث سيأتي قال بضم الفاء؛ على أن فتح الفاء أشهر ومنعه الصرف هو الصحيح وفق ما جاء في «حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع»؛ قال فيه: «ابْنُ فَوْرَكَ: مَمْنُوعٌ مِنْ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ، وَالْعُجْمَةِ وَفَتْحُ فَائِهِ أَشْهَرُ مِنْ ضَمِّهَا».

(٢) إما على أن (الشاة) مفرد في معنى الجمع؛ لأن الألف واللام للجنس، وإما أن نستبدل بالتاء همزة -ليناسب المعطوف عليه-؛ فتصير «شاءً» اسم جمع أو جمع؛ على خلاف بينهم في أصل الهمزة فيه.

قولُـه (وزادَه شَـيْئًا): أيْ عـلى مـا قَدَّمَـه إلَيْـه، وقولُـه (خَـيْرًا): -بالنَّصْـبِ- مفعـولٌ ثـانٍ لِـ(جَـزى)، و(مِـنْ) لِلتبعيـضِ.

قولُـه (إنَّـكَ قُلْـتَ مـا قُلْـتَ): أيْ شَـيْئًا عَظيـمًا مُسْـتَهْجَنًا قَبيحًـا.

قولُـه (فَقُـلْ بَـيْنَ أَيديهـم مـا قُلْـتَ) وفي نُسـخَةٍ «مِثْـلَ مـا قُلْـتَ».

قولُـه (أَوِ العَـشيُّ): بِفَتْحٍ فكَسْرٍ فتَشـديدٍ، و«أَوْ»: لِشَـكِّ الرّاوي.

قولُـه (فَزِدْنـاه): أيْ مِـنَ المـالِ. قولُـه (أَكَذلِـكَ): اسـتِفْهامُ تَقْريـرٍ؛ أيْ أَحَـقٌّ مـا نَقَلْتُـه عَنْـكَ؟ (قـالَ: نَعَـمْ... إلـخ).

قولُـه (فَقـالَ ﷺ): وفي نسـخَةٍ: «فَقـالَ النبيُّ ﷺ». قولُـه (مَثَـلي ومَثَـلُ هَـذا مَثَـلُ رَجُـلٍ... إلـخ): أيْ «شَـبَهي وشَـبَهُه العَجيـبُ الشَّـأْنِ مَثَـلُ رَجُـلٍ... إلـخ».

قولُـه (شَرَدَتْ عَلَيْـه): أيْ نَفَـرَتْ وذَهَبَـتْ في الأَرْضِ عَنْـه، أَوْ غَلَبَـتْ عَلَيْـه.

قولُـه (فـإنّي أَرْفَـقُ بِهـا مِنكـم وأَعْلَـمُ): أيْ بِحالِهـا وطَلَبِهـا وطَريـقِ أَخْذِهـا.

قولُـه (مِـنْ قُـمامِ الأرضِ): -بِضَـمِّ القـافِ وتخفيفِ الميـمِ- جَمْـعُ «قُمامـةٍ»، وهـيَ في الأصـلِ الكُناسـةُ.

قولُـه (واسْـتَناخَتْ): أيْ طَلَبَـتْ أنْ تَـبْرُكَ؛ وهـوَ بنـونٍ قَبْـلَ الأَلِـفِ وخـاءٍ مُعْجَمـةٍ بَعْدَهـا.

قولُـه (ورُويَ عَنْـه): بصيغـةِ المَجْهـولِ، وهـوَ مَـرْويٌّ مِـنْ طَريـقِ أَبي داوُدَ عَنْـه.

قولُـه (مَخافَـةَ أنْ تُفْـرَضَ عليْهِـم): عِلّـةٌ لِمـا قَبْلَـه، وفي نُسـخَةٍ: «خَـوْفَ أنْ تُفْـرَضَ».

.. فَأَشَـارَ إِلَيْهِـمْ أَنْ كُفُّـوا، ثُـمَّ قَـامَ وَدَخَـلَ مَنْزِلَهُ، وَأَرْسَـلَ إِلَيْـهِ وَزَادَهُ شَـيْئًا، ثُـمَّ قَـالَ: (أَحْسَـنْتُ إِلَيْـكَ؟) قَـالَ: نَعَـمْ؛ فَجَـزَاكَ اللهُ مِـنْ أَهْـلٍ وَعَشِـيرَةٍ خَـيْرًا، فَقَـالَ لَـهُ النَّبِـيُّ ﷺ: (إِنَّـكَ قُلْـتَ مَـا قُلْـتَ، وَفِي أَنْفُـسِ أَصْحَـابِي مِـنْ ذَلِـكَ شَيْءٌ؛ فَـإِنْ أَحبَبْـتَ فقُـلْ بَـيْنَ أَيدِيهـم مـا قُلْـتَ بَـيْنَ يَـدَيَّ؛ حَتَّـى يَذْهَـبَ مَـا فِي صُدُورِهِـمْ عَلَيْـكَ)، قَـالَ: نَعَـمْ.

فَلَـمَّا كَانَ الغَـدُ أَوِ العَـشِيُّ جَـاءَ، فَقَـالَ ﷺ: (إِنَّ هَـذَا الأَعْـرَابِيَّ قَـالَ مَـا قَـالَ فَزِدْنَـاهُ، فَزَعَـمَ أَنَّـهُ رَضِيَ؛ أَكَذَلِـكَ؟) قَـالَ: نَعَـمْ؛ فَجَـزَاكَ اللهُ مِـنْ أَهْـلٍ وَعِشِـيرَةٍ خَـيْرًا.

فَقَـالَ ﷺ: (مَثَـلِي وَمَثَـلُ هَـذَا مَثَـلُ رَجُـلٍ لَـهُ نَاقَـةٌ شَرَدَتْ عَلَيْـهِ، فَاتَّبَعَهَـا النَّـاسُ، فَلَـمْ يَزِيدُوهَـا إِلَّا نُفُـورًا، فَنَادَاهُـمْ صَاحِبُهَـا: خَلُّـوا بَيْنِـي وَبَـيْنَ نَاقَتِـي؛ فَـإِنِّي أَرْفَـقُ بِهَـا مِنْكُـمْ وَأَعْلَـمُ، فتَوجَّـهَ لَهَـا بَـيْنَ يَدَيْهَـا، فَأَخَـذَ لَهَـا مِـنْ قُـمَامِ الأَرْضِ، فَرَدَّهَـا حَتَّـى جَـاءَتْ وَاسْـتَنَاخَتْ، وَشَـدَّ عَلَيْهَـا رَحْلَهَـا، وَاسْـتَوَى عَلَيْهَـا، وَإِنِّي لَـوْ تَرَكْتُكُـمْ حَيْـثُ قَـالَ الرَّجُـلُ مَـا قَـالَ؛ فَقَتَلْتُمُـوهُ دَخَـلَ النَّـارَ)[1].

وَرُوِيَ عَنْـهُ ﷺ أَنَّـهُ قَـالَ: (لَا يُبَلِّغُنِـي أَحَـدٌ مِنْكُـمْ عَـنْ أَحَـدٍ مِـنْ أَصْحَـابِي شَـيْئًا؛ فَـإِنِّي أُحِـبُّ أَنْ أَخْـرُجَ إِلَيْكُـمْ وَأَنَـا سَـلِيمُ الصَّـدْرِ)[2].

وَمِـنْ شَـفَقَتِهِ عَـلَى أُمَّتِـهِ ﷺ تَخْفِيفُـهُ وَتَسْـهِيلُهُ عَلَيْهِـمْ، وَكَرَاهَتُـهُ أَشْـيَاءَ مَخَافَـةَ أَنْ تُفْـرَضَ عَلَيْهِـمْ، كَقَوْلِـهِ ﷺ:

(١) حديثُ (أنَّ أَعْرابيًّا جاءَه يَسأَلُ منه شَيْئًا فأَعطَاه، ثُمَّ قالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ قالَ: لا، ولا أَجْمَلْتَ...): البَزّارُ [٨٧٩٩]، وأبو الشَّيخ [أخلاق النبيِّ (١٧٧)] بسَنَدٍ ضَعيفٍ عَن أَبي هُرَيرة.

(٢) حديث (لا يُبَلِّغُني أَحَدٌ مِنْكم...): أبو داوُدَ [٤٨٦٠]، والتِّرمذيُّ [٣٨٩٦] عَن ابنِ مَسعودٍ.

(لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ)[1]، وَخَبَرَ صَلَاةِ اللَّيْلِ[2]، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الوِصَالِ[3]، وَكَرَاهَتِهِ دُخُولَ الكَعْبَةِ؛ لِئَلَّا يُعْنِتَ أُمَّتَهُ[4]، وَرَغْبَتِهِ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ سَبَّهُ وَلَعْنَهُ لَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ، وَأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ؛ فَيَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِهِ[5].

وَمِنْ شَفَقَتِهِ ﷺ أَنْ دَعَا رَبَّهُ وَعَاهَدَهُ، فَقَالَ: (أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً لَهُ وَرَحْمَةً وَصَلَاةً وطَهُورًا وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ القِيَامَةِ)[6].

وَلَمَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ: (إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرَ مَلَكَ الجِبَالِ؛ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ)، فَنَادَاهُ مَلَكُ الجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: (مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ)، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)[7].

---

(١) حديثُ (لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهم بالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ): الشيخانِ [أخرجه البخاريُّ (٨٨٧)، ومسلمٌ (٢٥٢) بلفظ (عند كل صلاة)، ورواه البخاري معلقًا بلفظ المصنف] عَن أبي هُريرةَ.

(٢) حديث (صَلَاةِ اللَّيْلِ في رَمَضَانَ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٩٢٤)، ومسلمٌ (٧٦١)] عَن عائشةَ.

(٣) حديثُ (نَهْيِه عَنِ الوِصَالِ): الشيخانِ [البخاريُّ (١٩٦٥)، ومسلمٌ (١١٠٣)] عَن أَبِي هُرَيرَةَ.

(٤) حديثُ (أَنَّه كَرِهَ دُخُولَ الكَعبةِ؛ لئَلَّا يُتعِبَ أُمَّتَه...): أبو داوُدَ [٢٠٢٩]، والتِّرمذيُّ [٨٧٣]، وصَحَّحه عَن عائشةَ.

(٥) حديث (أنَّه كانَ يَسْمَعُ بُكاءَ الصَّبِيِّ، فيَتَجَوَّزُ في صَلَاتِه): الشَّيخانِ [البخاريُّ (٧٠٨)، ومسلمٌ (٤٧٠)] عَن أَنَس.

(٦) حديث (أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَبْتُه...): الشَّيْخانِ [البخاريُّ (٦٣٦١)، ومسلمٌ (٢٦٠١)] عَن أَبِي هُرَيرَةَ.

(٧) حديث (لَمَّا كَذَّبَه قَوْمُه أَتَاه جِبريلُ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٢٣١)، ومسلمٌ (١٧٩٥)] عَن عائشةَ.

قولُه (خَبَرَ صَلاةِ اللَّيْلِ): بالجَرِّ والرَّفْعِ.

قولُه (لئَلَّا يُعْنِتَ أُمَّتَه): مِنْ أَعْنَتَ غَيْرَه؛ إذا أَوْقَعَه في العَنَتِ، وهوَ المَشَقَّةُ، وفي نسخةٍ «لِئَلَّا يُتْعِبَ أُمَّتَه»، وفي أُخْرى «لِئَلَّا تَتْعَبَ».

قولُه (فَيَتَجَوَّزُ): أيْ فيَقْتَصِرُ ويُخَفِّفُ.

قولُه (سَبَبْتُه أَوْ لَعَنْتُه): (أَوْ) لِلتنويعِ لا لِلشَّكِّ.

قولُه (أُطْبِقَ عَلَيْهِم الأَخْشَبَيْنِ): (أُطْبِقَ): -بفتحِ الهَمْزةِ[1] وكَسْرِ المُوَحَّدةِ- أيْ أوقِعَ وأَرْمِيَ، و(الأَخْشَبَيْنِ): -بالخاءِ والشِّينِ المعجَمَتَيْنِ فموَحَّدةٍ- تَثْنِيةُ «الأَخْشَبِ»، وهوَ الجَبَلُ الخَشِنُ.

---

(١) هي بضم الهمزة؛ من الإطباق، وقد ضبطها الملا بالضم، كما أن «طبق» -مخففا- لا يأتي متعديًا.

وَرَوَى ابْنُ الْمُنْكَدِرِ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالجِبَالَ أَنْ تُطِيعَكَ)، فَقَالَ: (أُؤَخِّرُ عَنْ أُمَّتِي لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا[1].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا رَكِبَتْ بَعِيرًا وَفِيهِ صُعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ تُرَدِّدُهُ، فَقَالَ لَهَا ﷺ: (عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ)[3].

***

(١) حديث عائشة (ما خُيِّرَ...): تَقَدَّمَ [ص١٤٥].

(٢) حديث ابنِ مسعودٍ (كانَ يَتَخَوَّلُنَا بالمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّآمةِ عَلَيْنا): الشَّيْخانِ [البخاريُّ (٦٨)، ومسلمٌ (٢٨٢١)].

(٣) حديث عائشة (أنَّها رَكِبَتْ بَعِيرًا وفيه صُعوبةٌ، فقالَ: عَلَيْكِ بالرِّفْقِ): أبو داوُدَ [٢٤٧٨] وبَعْضُه في «مُسْلِمٍ» [٢٥٩٤].

قولُه (إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا): أيْ أَهْوَنَهُما كَما اختارَ تأخيرَ العَذابِ عَنْ أُمَّتِه.

قولُه (يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظَةِ): -بالخاءِ المعجمةِ- أيْ يَتَعَهَّدُنا بالنصائحِ المُفيدةِ، وقولُه (السَّآمةِ): -بهَمْزةٍ مَمْدودةٍ- أيِ المَلالةِ.

قولُه (عَلَيْكِ بالرِّفْقِ): أيِ الزَمِي اللُّطْفَ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ في كُلِّ حالٍ.

***

فَصْلٌ [فِي خُلُقِهِ ﷺ فِي الوَفَاءِ وحُسْنِ العَهْدِ وصِلةِ الرَّحِمِ]

وَأَمَّا خلُقُهُ ﷺ فِي الوَفَاءِ، وَحُسْنِ العَهْدِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، فَحَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَامِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ محمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الحَبَّالُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا ابْنُ الأَعْرَابِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ عَنْ بُدَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي الحَمْسَاءِ قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا مَكَانَهِ، فَنَسِيتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَجِئْتُ، فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ: (يَا فَتَى، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ؛ أَنَا هَا هُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ).(١)

وَعَنْ أَنَسٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِهَدِيَّةٍ قَالَ: (اذْهَبُوا بِهَا إِلَى بَيْتِ فُلَانَةَ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةً لِخَدِيجَةَ، إِنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ خَدِيجَةَ).(٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ؛ لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيُهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا، وَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ أُخْتُهَا، فَارْتَاحَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ فَهَشَّ لَهَا، وَأَحْسَنَ السُّؤَالَ عَنْهَا،

---

(١) حديث عبد الله بن أبي الحَمْساء (بايَعْتُ...): أَسنَدَه من طَريق أَبي داوُدَ [٤٩٩٦]، وهْوَ من أفراده، وأَخْرَجه أيْضًا ابنُ مَنْدَهْ في «المعرفة»، والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق» [١٩٣].

(٢) حديثُ أَنَس (كانَ إذا أُتِيَ بهَدِيَّةٍ قالَ: اذْهَبُوا بها إلى بَيْتِ فُلانَةَ...): البخاريُّ في «الأَدَبِ المُفْرَد» [٢٣٢].

قولُه (بِقِراءَتِي عَلَيْه): القِراءةُ إحْدى وُجوهِ الرِّوايةِ على اختِلافٍ في أنَّها الأفضَلُ، والسَّماعَ مِنَ الشَّيْخِ هوَ الأَكْمَلُ.

قولُه (مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدٍ) وفي نُسخةٍ (بنُ أحمَدَ). قولُه (الحَبَّالُ): بِفَتْحِ الحاءِ المهمَلةِ وتشديدِ الموَحَّدةِ.

قولُه (محمدُ بنُ سِنانٍ): -بكَسرِ أوَّلِه- مصروفٌ. قولُه (طَهْمانَ): -بفَتحِ الطّاءِ المُهْمَلةِ، وسُكونِ الهاءِ- هوَ أَبو سَعيدٍ الخُراسانيُّ، وقولُه (بُدَيْلٍ): بِضَمِّ الموَحَّدةِ وفَتْحِ الدّالِ المُهْمَلةِ وسُكونِ التحتيّةِ.

قولُه (عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبي الحَمْساءِ): بِمُهْمَلتَيْنِ بَيْنَهما ميمٌ ساكِنةٌ فألِفٌ مَمدودةٌ، وفي نُسخةٍ بِخاءٍ مُعجَمةٍ فنونٍ؛ وهوَ تصحيفٌ، وفي نسخةٍ: «[عَنْ] أبي الحَمْساءِ».

قولُه (ما غِرْتُ): بِكَسْرِ الغَينِ المعجَمةِ وسُكونِ الرّاءِ، وقولُه (على امرأةٍ): أي مِن نِساءِ النبيِّ ﷺ (ما غِرْتُ): أي كَغَيْرَتي على خديجةَ، و«الغَيْرةُ» بفَتْحِ الغَيْنِ، والعامّةُ تَكْسِرُها، وقولُه (وإنْ كانَ): بِكَسْرِ همزةِ (إنْ) مُخَفَّفةً مِنَ الثقيلةِ.

قولُه (إلى خَلائِلِها): -جَمْعُ «خَليلةٍ»- أيْ صَدائِقِها.

وقولُه (فارْتاحَ إلَيْها): -وفي نُسخةٍ: «لَها»- أيْ فَرِحَ بِها وأَكْرَمَها، وقولُه (فَهَشَّ لَها): -بِتَشديدِ شينٍ مُعجَمةٍ- أيْ فَرِحَ لَها واستَبْشَرَ مِنها.

فَلَمَّا خَرَجَتْ قَالَ: (إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ).[1]

وَوَصَفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: كَانَ يَصِلُ ذَوِي رَحِمِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْثِرَهُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَقَالَ ﷺ: (إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ؛ غَيْرَ أَنَّ لَهُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا)[2].

وَقَدْ صَلَّى ﷺ بِأُمَامَةَ ابْنَةِ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ، فَحَمَلَهَا عَلَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا.[3]

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: وَفَدَ وَفْدٌ لِلنَّجَاشِيِّ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْدُمُهُمْ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: نَكْفِيكَ، فَقَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ).[4]

وَلَمَّا جِيءَ بِأُخْتِهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ الشَّيْمَاءِ فِي سَبَايَا هَوَازِنَ، وَتَعَرَّفَتْ لَهُ، بَسَطَ رِدَاءَهُ، وقَالَ لَهَا: (إِنْ أَحْبَبْتِ أَقَمْتِ عِنْدِي مُكَرَّمَةً مُحَبَّبَةً، أَوْ مَتَّعْتُكِ وَرَجَعْتِ إِلَى قَوْمِكِ)، فَاخْتَارَتْ قَوْمَهَا فَمَتَّعَهَا.[5]

وَقَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ، إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَتْ مِنْهُ، فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ، فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ:

---

(١) حديثُ عائشةَ (ما غِرْتُ على امرأةٍ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٨١٦)، ومسلمٌ (٢٤٣٥)].

(٢) حديث (إِنَّ آلَ فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَولِيَاءَ غَيْرَ أَنَّ لَهم رَحِمًا سأَبُلُّها بِبِلَالِها): البخاريُّ [البخاريُّ (٥٩٩٠)، وأخرج بعضه مسلمٌ (٢١٥)] عَن عَمْرِو بنِ العَاصِ.

(٣) حديث (أَنَّه صَلَّى بِأُمَامَةَ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٥١٦)، ومسلمٌ (٥٤٣)] عَن أَبِي قَتادَةَ.

(٤) حديثُ أَبِي قَتادة (وَفَدَ وَفْدُ النَّجاشِيِّ...): البيهقيُّ [الدلائل ٢/ ٣٠٧].

(٥) حديث (جِيءَ بأختِه مِن الرَّضاعةِ الشَّيْماءِ...): ابنُ إسحاقَ، والبيهقيُّ عَن قَتادةَ.

قولُه (عَلى مَنْ هوَ أَفْضَلُ مِنهم): أيْ عَدْلًا مِنه وإعطاءً لِكُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه؛ فلا يُفَضِّلُ آحادَ بَني هاشِمٍ على عالِمٍ مِنْ عُلَماءِ الدِّينِ.

وقولُه (إِنَّ آلَ أَبِي فُلانٍ): قالَ المُلَّا: «وفي أَصْلِ الحِجازيِّ (بَني فُلانٍ)، والمشهورُ الأولى؛ بَلْ قيلَ: إنَّ الثانيةَ خَطَأٌ».

وقولُه (سَأَبُلُّها): -بِضَمِّ موحَّدةٍ ولامٍ مُشَدَّدةٍ- أيْ سَأَصِلُها.

قولُه (يَخْدُمُهم): بضمِّ الدالِ وتُكْسَرُ؛ وإنَّما خَدَمَهُم بِنَفْسِه تَواضُعًا لِرَبِّه وإرشادًا لِأُمَّتِه.

قولُه (مِنَ الرَّضاعةِ): بفتحِ الراءِ وتُكْسَرُ، وفي نسخةٍ: «مِنَ الرَّضاعِ».

وقولُه (الشَّيْماءِ): بفتحِ الشِّينِ المعجَمةِ وسُكونِ التحتيَّةِ ممدودةً، وفي بَعْضِ النُّسَخِ بِلا ياءٍ، ذَكَرَها المُحِبُّ الطَّبَرِيُّ؛ وهَلْ هيَ بِنْتُ حَليمةَ أَوْ أُخْتُها؟؟ خِلافٌ.

قولُه (مُكَرَّمةً): -بِضَمِّ ميمٍ وفَتْحِ راءٍ- أيْ مُعَظَّمةً.

قولُه (مُحَبَّبةً): -بِضمٍّ ففتحٍ وتشديدٍ- أيْ محبوبةً.

قولُه (دَنَتْ مِنه): أيْ قَرُبَتْ؛ قيلَ: حليمةُ، وقيلَ: ثُوَيْبةُ.

قولُه (فبَسَطَ لَها رِداءَه): إجلالًا لها؛ إذْ هيَ التي كانَتْ تُرَبِّيه مَعَ أُمِّها حَليمةَ.

مَـنْ هَـذِهِ؟ فَقالُـوا: أُمُّـهُ الَّتِـي أَرْضَعَتْـهُ.(١)

وَعَـنْ عَمْـرِو بْـنِ السَّـائِبِ أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ كَانَ جَالِسًـا يَوْمًـا، فَأَقْبَلَ أَبُـوهُ مِـنَ الرَّضَاعَـةِ، فَوَضَـعَ لَـهُ بَعْـضَ ثَوْبِـهِ، فَقَعَـدَ عَلَيْـهِ، ثُـمَّ أَقْبَلَـتْ أُمُّـهُ فَوَضَـعَ لَهَا شِـقَّ ثَوْبِـهِ مِـنْ جَانِبِـهِ الآخَـرِ، فَجَلَسَـتْ عَلَيْـهِ، ثُـمَّ أَقْبَلَ أَخُـوهُ مِـنَ الرَّضَاعَـةِ، فَقَـامَ رَسُـولُ الله ﷺ فَأَجْلَسَـهُ بَيْـنَ يَدَيْـهِ.(٢)

وَكَانَ يَبْعَـثُ إِلَى ثُوَيْبَـةَ، مَـوْلَاةِ أَبِي لَهَـبٍ، مُرْضِعَتِـهِ بِصِلَـةٍ وَكِسْـوَةٍ، فَلَـمَّا مَاتَـتْ سَـأَلَ مَـنْ بَقِـيَ مِـنْ قَرَابَتِهَا، فَقِيـلَ: لَا أَحَـدَ.(٣)

وَفِي حَدِيـثِ خَدِيجَـةَ أَنَّهَـا قَالَـتْ لَـهُ ﷺ: أَبْشِرْ فَـوَالله لَا يُخْزِيـكَ اللهُ أَبَـدًا؛ إِنَّـكَ لَتَصِـلُ الرَّحِـمَ، وَتَحْمِـلُ الـكَلَّ، وَتَكْسِـبُ المَعْـدُومَ، وَتَقْـرِي الضَّيْـفَ، وَتُعِيـنُ عَـلَى نَوَائِـبِ الحَـقِّ.(٤)

***

(١) حديثُ ابن الطُّفَيْل (رأَيْتُه وأنا غُلَامٌ، إذْ أَقْبَلَتِ امرأةٌ...): أبو داودَ [٥١٤٤] بسَنَدٍ حَسَنٍ.

(٢) حديث عمرو بن السائب (أنّه كانَ جالسًا فأقبلَ أبوه من الرَّضاعة...): أبو داوُدَ [٥١٤٥] عنه أنَّه بَلَغه فذكَرَه.

(٣) حديث (أنَّه كانَ يَبْعَثُ إلى ثُوَيْبَةَ بصلَة وكِسْوةٍ...): ابنُ سَعْد [١/ ١٠٨]، أخبَرَنا الواقديُّ عَنْ غَيرِ واحدٍ من أهلِ العِلم، ومِن طَريقٍ آخَرَ [١/ ١٠٩] عَن القاسمِ بنِ عبّاسٍ اللهَبِيِّ مُرْسَلًا.

(٤) حديث (أنَّ خديجةَ قالَتْ له: أَبْشِر...): الشيخانِ [البخاريُّ (٤٩٥٣)، ومسلمٌ (١٦٠)] عَن عائشةَ.

قولُـه (أَبُـوه مِـنَ الرَّضاعـةِ): هـوَ الحـارثُ بـنُ عَبْـدِ العُـزّى. قولُـه (شِـقَّ ثَوْبِـه): -بكسرِ الشّينِ- أيْ طَرَفَـه. قولُـه (أَخُـوه مِـنَ الرَّضاعـةِ): هـوَ عَبْـدُ الله بـنُ الحـارِثِ.

وقولُـه (ثُوَيْبـةَ): بِضَـمِّ مُثَلَّثـةٍ وفَتْـحِ واوٍ فسُـكونِ تحتيّـةٍ فموَحَّـدةٍ.

قولُـه (أَبْـشِرْ): -بِفَتْـحِ الهَمـزةِ وكَسْرِ الشّـينِ- أيِ استَبْشِرْ. قولُـه (لا يُخْزِيـكَ اللهُ): -بضَـمِّ اليـاءِ وسُـكونِ الخـاءِ- أيْ لا يُهينُـكَ، وروايـةُ مُسْـلِمٍ: «لا يَحْزُنُـكَ»؛ مِـنَ الحُـزْنِ، وهـوَ بفَتْـحِ اليـاءِ وضَـمِّ الـزّايِ، أوْ بِضَـمِّ أَوَّلِـه وكَسْرِ ثالِثِـه.

قولُـه (الـكَلَّ): -بِفَتْـحٍ فتشـديدٍ- أيِ العاجِـزَ عَـنْ تحَمُّـلِ مُؤْنَـةِ عِيالِـه.

قولُـه (وتَكْسِـبُ المَعـدومَ): أيْ تَصِـلُ إلى كُلِّ مَعـدومٍ، وفي روايـةٍ بِضَـمِّ أَوَّلِـه؛ أيْ تُعطـي النّـاسَ مِـنَ الـشَّيْءِ المَعـدومِ.

قولُـه (وتَقْـري الضَّيْـفَ): -بِفَتْـحِ أَوَّلِـه وكَسرِ الـرّاءِ- أيْ تُطْعِمُهُـم، أيْ وهـذه صِفـاتُ مَـكارِمِ الأخـلاقِ، ومَـنْ كانَـتْ هـذه جِبِلَّتُـه لا يُصيبُـه مَكـروهٌ.

***

فَصْلٌ [في تواضُعِهِ ﷺ]

وَأَمَّا تَوَاضُعُهُ ﷺ عَلَى عُلُوِّ مَنْصِبِهِ، وَرِفْعَةِ رُتْبَتِهِ، فَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعًا، وَأَقَلَّهُمْ كِبْرًا، وَحَسْبُكَ أَنَّهُ خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا، فقَالَ لَهُ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ: (فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاكَ بِمَا تَوَاضَعْتَ لَهُ أَنَّكَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ)[1].

حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ بْنُ العَوَّادِ الفَقِيهُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ بِقُرْطُبَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ البَرِّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ المُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ دَاسَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نُمَيْرٍ عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ أَبِي العَنْبَسِ، عَنْ أَبِي العَدَبَّسِ، عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: (لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)[2]، وَقَالَ: (إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ).

وَكَانَ ﷺ يَرْكَبُ الحِمَارَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَعُودُ المَسَاكِينَ، وَيُجَالِسُ الفُقَرَاءَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ، وَيَجْلِسُ

---

(١) حديث (أنه خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا...): أحمدُ [٧١٦٠] عَن أَبِي هُرَيرةَ، والبَيْهَقيُّ [في «الشعب» (١٥٥)، والدلائل (١/ ٣٣٤)] عَن ابن عبّاس.

(٢) حديث أَبي أُمامةَ (لا تقوموا لي كَمَا تقومُ الأعاجم...): أَسْنَدَه مِن طَريقِ أَبي داوُدَ [٥٢٣٠]، وأَخرجَه أيضًا ابنُ ماجَهْ [(٣٨٣٦) بنحوه].

قولُه (خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكونَ نَبيًّا مَلِكًا): -بكَسْرِ اللّامِ- أيْ سُلْطانًا.

قولُه (فاخْتارَ أَنْ يَكونَ عَبْدًا): أَيْ تَباعُدًا عَمّا هوَ مِن شأنِ المُلوكِ مِنَ التَّكبُّرِ والتجَبُّرِ والتكاثُرِ لِلخَدَمِ.

قولُه (أَنَّكَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القيامةِ): وهَذا كَقَوْلِهِ ﷺ: (مَنْ تَواضَعَ لله رَفَعَه)[1].

قولُه (وأَوَّلُ شافِعٍ): أَيْ يَوْمَ القيامةِ لِلعامّةِ، أو في الجَنّةِ لِرَفْعِ دَرجاتِ الخاصّةِ.

وقولُه (العَوّادِ): بتشديدِ الواوِ، وقولُه (بِقُرْطُبةَ): -بِضَمِّ القافِ والطاءِ- بَلَدٌ بالمَغْرِب.

قولُه (أَبو عُمَرَ): بِضَمِّ العَينِ، وقولُه (داسةَ): بِتَخفيفِ السّينِ المُهْمَلةِ.

قولُه (عَبْدُ الله بْنُ نُمَيْرٍ): بِضَمِّ النُّونِ وفَتْحِ الميمِ، وقولُه (مِسْعَرٍ): -بِكَسْرِ الميمِ وفَتْحِ العَيْنِ- هوَ ابنُ كِدامٍ. قولُه (عَنْ أَبي العَنْبَسِ): بفتحِ العَينِ وسُكونِ النونِ فموحَّدةٍ مَفتوحةٍ فسينٍ مُهْمَلةٍ.

قولُه (مُتَوَكِّئًا على عَصًا): أَيْ مُعتَمِدًا. قولُه (ويُرْدِفُ خَلْفَه): مِنَ الإرداف؛ ومِنَ الثُّلاثيِّ بِكَسْرِ الدالِ في الماضي، وفي المستقبَلِ بِفَتْحِها.

قولُه (مُختَلِطًا بِهِم): أَيْ لا يَتَخَيَّرُ مَجْلِسًا يَتَرَفَّعُ بِهِ عَلَيْهِم.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٨٨) [كتاب البر والصِّلة والآداب]، وغيره من حديث أبي هريرة بلفظ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ».

بَيْنَ أَصْحَابِهِ مُخْتَلِطًا بِهِمْ حَيْثُمَا انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ جَلَسَ[1].

وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ).[2]

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، جَاءَتْهُ فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: (اجْلِسِي يَا أُمَّ فُلَانٍ، فِي أَيِّ طُرُقِ الْمَدِينَةِ شِئْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ حَتَّى أَقْضِيَ حَاجَتَكِ)، قَالَ: فَجَلَسَتْ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا.[3]

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ[4]، وَكَانَ يُدْعَى إِلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ وَالْإِهَالَةِ السَّنِخَةِ فَيُجِيبُ[5]، قَالَ: وَحَجَّ ﷺ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ، وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ مَا تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةَ)[6].

هَذَا، وَقَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ، وَأَهْدَى فِي حَجِّهِ ذَلِكَ مِائَةَ بَدَنَةٍ[7]،

---

(١) حديث (كانَ يَجْلِسُ حيثُمَا انتَهَى به المَجلسُ): هُوَ من حديثِ هند ابن أَبِي هالَةَ [سيأتي ص١٩٦].

(٢) حديثُ عُمَرَ (لا تُطْرُوني...): البُخاريُّ [٣٤٤٥].

(٣) حديث أَنَسٍ (أَنَّ امرأَةً كانَ في عَقلِها شيْءٌ...): مُسلِمٌ [٢٣٢٦].

(٤) حديث أنَسٍ (أنَّه كانَ يَرْكَبُ الحِمارَ، ويُجيبُ دعوةَ العَبْدِ، وكانَ يوْمَ قُرَيْظَةَ على حِمارٍ مَخْطُوم بحَبْلٍ من لِيفٍ علَيْه إكافٌ من لِيفٍ): أبو داوُدَ [الطيالسي ٢٢٦٢]، والبيهقيُّ [الدلائل ٤/ ٢٠٤] بتمامه [وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤١٧٨) بتمامه].

(٥) حديث (كانَ يُدْعَى إلى خُبْزِ الشَّعيرِ والإهالة السَّنِخَة، فيُجيبُ): الترمذيُّ في «الشمائل» [٣١٦]، وابنُ ماجَهْ عَنْ أَنَسٍ.

(٦) حديث (أنَّه حجَّ على رَحْلٍ رَثٍّ وعَلَيْه قَطيفةٌ ما تُساوي أربعةَ دَراهِمَ...): التِّرمذيُّ في «الشَّمائِلِ» [٣١٧]، والبَيهقيُّ [الدلائل ٥/ ٤٤٤]، وابنُ ماجَهْ [٢٨٩٠]، عَن أنَسٍ.

(٧) حديث (أنَّه أَهْدَى مائةَ بَدَنَة): مسلِمٌ [لم أجده بهذا اللفظ في مسلم] عَن جابرٍ [وأخرجه البخاريُّ (١٧١٨) من حديث عليٍّ].

قولُه (لا تُطْروني): مِنَ الإِطْراءِ وهوَ المبالَغةُ في الثَّناءِ، أيْ لا تُجاوِزوا الحدَّ في مَدْحي؛ بأنْ تَنْسِبوا إليَّ ما لا يَجوزُ في وَصْفي كَما أَطْرَتِ النَّصارى سَيِّدَنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتّى جَعَلوه ابنَ الله.

قولُه (والإهالةِ): -بكَسْرِ الهَمْزةِ- كُلُّ ما يُؤْتَدَمُ بِه مِنَ الأَدْهانِ، وقيلَ: ما أُذيبَ مِنَ الشَّحْمِ والأَلْيةِ.

قولُه (السَّنِخة): أي المُتَغيِّرةِ الرائحةِ، وهيَ بِفَتْحِ السِّينِ المُهْمَلةِ وكَسْرِ النّونِ.

قولُه (على رَحْلٍ رَثٍّ): -بتشديدِ المُثَلَّثةِ- أيْ خَلَقٍ بالٍ.

قولُه (اللهُمَّ اجْعَلْه حَجًّا): بِفَتْحِ الحاءِ وكَسْرِها على ما قُرِئَ بِهِما في السَّبْعِ.

قولُه (وأَهْدى في حَجِّه ذلكَ): أيْ عامَ الوَداعِ، مائةَ ناقةٍ لِأَجْلِ التَقَرُّبِ إلى الله عَزَّ وجَلَّ.

وَلَمَّا فُتِحَتْ عَلَيْهِ مَكَّةُ، وَدَخَلَهَا بِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ، طَأْطَأَ عَلَى رَحْلِهِ رَأْسَهُ حَتَّى كَادَ يَمَسُّ قَادِمَتَهُ؛ تَوَاضُعًا للهِ تَعَالَى[1].

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ قَوْلُهُ: (لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى، وَلَا تُفَضِّلُونِي بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ)[2]، و(لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى)[3]، و(نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْ لَبِثْتُ مَا لَبِثَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ)[4]، وَقَالَ لِلَّذِي قَالَ لَهُ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ قَالَ: (ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ)[5]، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ بَعْدَ هَذَا -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى-.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَالْحَسَنِ وَأَبِي سَعِيدٍ وَغَيْرِهِمْ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- فِي صِفَتِهِ ﷺ -وَبَعْضُهُمْ يَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ-: كَانَ فِي بَيْتِهِ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ،

(١) حديث (أنَّه لمَّا دَخَلَ مَكَّةَ طَأْطَأَ رأْسَه حَتَّى كادَ يَمَسُّ قادمَتَه...): ابنُ إسحاقَ، والبيهقيُّ عَن عائشةَ، والحاكمُ [٣/ ٤٧]، والبيهقيُّ [٥/ ٦٨-٦٩]، وأبو يَعْلَى [٣٣٩٣] عَن أنَسٍ.

(٢) حديث (لا تُفضِّلُوني على يونُسَ بن مَتَّى): لَمْ أَقِفْ علَيْه بهذا اللَّفْظِ، والَّذي في «صحيح البخاريِّ» [٣٤١٢] من حديثِ ابن مسعودٍ: (لا يَقولَنَّ أحَدُكم إنِّي خَيْرٌ مِن يونُسَ بن مَتَّى)، وفي الصحيحين [البخاريُّ (٣٣٩٥)، ومسلمٌ (٢٣٧٧)] من حديثِ ابن عبَّاسٍ، وأبي هُرَيرةَ [أخرجه البخاريُّ (٣٤١٦)، ومسلمٌ (٢٣٧٦)]: (ما يَنبَغِي لِعَبْدٍ أنْ يَقولَ إنِّي خَيْرٌ مِن يونُسَ بن مَتَّى)، ولأَبي داوُدَ [٤٦٧٠] من حديثِ عَبْدِ الله بن جَعفَرٍ: (لا يَنبَغِي لِنَبيٍّ أنْ يقولَ أنا أفْضَلُ مِن يونُسَ بن مَتَّى).

(٣) حديث (لا تُخَيِّرُوني على موسى): الشيخان [البخاريُّ (٢٤١٢)، ومسلمٌ (٢٣٧٤) نحوه] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، [وأخرجه بلفظ المصنِّف البخاريُّ (٢٤١١)، ومسلمٌ (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة].

(٤) حديث (نَحْنُ أَحقُّ بالشكِّ مِن إبراهيمَ، ولَوْ لَبِثْتُ ما لَبِثَ يوسفُ ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٣٧٢)، ومسلمٌ (١٥١)] عَن أَبي هُرَيرةَ.

(٥) حديث (أنَّه قالَ لِلَّذي قالَ له: يا خَيْرَ البَرِيَّةِ: ذاكَ إبراهيمُ): مسلمٌ [٢٣٦٩] عَن أنَسٍ.

قولُه (طَأْطَأَ على رَحْلِه): -بِهَمْزتَيْنِ أولاهما ساكِنةٌ، وثانيتُهما مَفتوحةٌ- أيْ خَفَضَ على رَحْلِه، وقولُه (يَمَسُّ): بِفَتْحِ الياءِ.

قولُه (على يونسَ بنِ مَتَّى): (يونسَ): مُثَلَّثُ النونِ وبالهَمْزِ؛ ففيه سِتُّ لُغاتٍ، و(مَتَّى): بفتحِ ميمٍ وتشديدِ مُثَنَّاةٍ فَوْقيَّةٍ، وهيَ أُمُّ يونسَ.

قولُه (ونَحْنُ أَحَقُّ بالشكِّ مِن إبراهيمَ): أيْ إذْ قالَ: (رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحيي الموتى)، وصَدَرَ ذلكَ مِنه تواضُعًا لِرَبِّه وهَضْمًا لِنَفْسِه، لا اعترافًا به في حَقِّ إبراهيمَ ولا في حَقِّ نَفْسِه؛ فكأنَّه قالَ: إذا كُنْتُ لَمْ أَشُكَّ في إحْياءِ اللهِ المَوْتى فإبراهيمُ بِعَدَمِ الشَّكِّ أَوْلى.

قولُه (ولَوْ لَبِثْتَ ما لَبِثَ يوسُفُ في السِّجْنِ): أيْ فَرْضًا وتقديرًا.

قولُه (في مَهْنَةِ أَهْلِه): بفتحِ الميمِ وكَسْرِها. قولُه (يَفْلي ثَوْبَه): بِكَسْرِ اللامِ. قولُه (ويَحْلُبُ شاتَه): بكَسْرِ اللامِ وفَتْحِها[1].

قولُه (ويَرْقَعُ ثَوْبَه): بفتحِ القافِ. قولُه (ويَخْصِفُ نَعْلَه): -بكَسْرِ الصَّادِ- أيْ يَخْرُزُها[2].

(١) (يحلب) بضم اللام وكسرها؛ لغتان نقلهما الأصمعي عن العرب؛ كذا في المعجمات، أما الفتح فلم يذكره أحد.

(٢) عود الضمير مؤنثًا لأن النعل مؤنثة؛ فتصغيرها «نعيلة».

وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ، وَيَقُمُّ البَيْتَ، وَيَعْقِلُ البَعِيرَ، وَيَعْلِفُ نَاضِحَهُ، وَيَأْكُلُ مَعَ الخَادِمِ، وَيَعْجِنُ مَعَهَا، وَيَحْمِلُ بَضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ[1].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ حَتَّى يَقْضِيَهَا حَاجَتَهَا.[2]

وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَأَصَابَتْهُ مِنْ هَيْبَتِهِ رِعْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ: (هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ القَدِيدَ).[3]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَخَلْتُ السُّوقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَاشْتَرَى سَرَاوِيلَ، وَقَالَ لِلْوَزَّانِ: (زِنْ وَأَرْجِحْ)، وَذَكَرَ القِصَّةَ، قَالَ: فَوَثَبَ إِلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُهَا، فَجَذَبَ يَدَهُ، وَقَالَ: (هَذَا تَفْعَلُهُ الأَعَاجِمُ بِمُلُوكِهَا، وَلَسْتُ بِمَلِكٍ؛ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ)، ثُمَّ أَخَذَ السَّرَاوِيلَ، فَذَهَبْتُ لِأَحْمِلَهُ، فَقَالَ: (صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِشَيْئِهِ أَنْ يَحْمِلَهُ)[4].

***

(١) حديث عائشةَ والحَسَن وأبي سَعيد وغيرِهم في صِفَته، أَمَّا حديثُ عائشة: فأخرَجه البخاريُّ [٦٧٦] بلَفْظ (كانَ في بيته في مَهْنَة أَهْله...)، والبيهقيُّ في «الدَّلائل» [(١/ ٣٢٨)، وأخرجه الترمذيُّ أيضًا في «الشمائل» (٣٢٥)] بلَفْظ (يَفْلي ثَوْبَه ويَحْلُبُ شاتَه ويَخْدُمُ نَفْسَه)، زادَ من طَريقٍ أُخْرى [١/ ٣٢٨] (ويَخْصِفُ نَعْلَه، ويَخيطُ ثَوْبَه)، وللبزَّار [٣١٢٨] من حديثِ أبي موسى (يَلْبَسُ الصُّوفَ، ويَعْقِلُ البَعيرَ).

(٢) حديثُ أَنَس (إنْ كانَتِ الأَمَةُ...): البخاريُّ [٦٠٧٢] تعليقًا، ووَصَلَه ابنُ ماجَهْ [٤١٧٧].

(٣) [أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٣/ ٤٧)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وصححه الحاكم ووافقه الذهبيُّ].

(٤) حديث أبي هريرة (أنه ﷺ اشتَرَى سَراويلَ...): الطبرانيُّ في «الأوسَط» [٦٥٩٤]، بسَنَدٍ ضَعيفٍ.

وقولُه (ويَخْدُمُ نَفْسَه): بضمِّ الدالِ وكسرِها، وقولُه (ويَقُمُّ البيتَ): -بضمِّ القافِ وكَسْرِها وتشديدِ الميمِ- أيْ يَكْنُسُه.

قولُه (ويَعْقِلُ البعيرَ): -بكسرِ القافِ- أيْ يَرْبِطُ رُكْبَتَيْه بالعِقالِ.

قولُه (ويَعْلِفُ ناضِحَه): بكسرِ اللامِ، قيلَ: ويُضَمُّ أوَّلُه.

قولُه (لَتأْخُذُ): بفتحِ اللامِ[1].

قولُه (حَتّى يَقْضيَها حاجتَها): أيِ النبيُّ بشفاعةٍ ونَحْوِها.

قولُه (لِلْوَزّانِ): -بتشديدِ الزّايِ- أيْ وَزّانِ الفِضّةِ.

قولُه (زِنْ): بِكَسْرِ الزّاي. وقولُه (وأَرْجِحْ): -بفتحِ هَمْزةٍ وكسْرِ جيمٍ- أيْ أَعْطِه راجِحًا.

قولُه (فوَثَبَ إلى يَدِ رَسولِ الله ﷺ): أيْ «فقامَ الوَزّانُ بسرعةٍ مُتوَجِّهًا إلى يَدِ... إلخ».

قولُه (يُقَبِّلُها): بتشديدِ المَوَحَّدةِ.

قولُه (أَنا رَجُلٌ مِنْكُم): أيْ بَشَرٌ مِثْلُكم، أوْ واحِدٌ مِنْ جِنْسِ عَرَبِكم؛ أُعامِلُكم بِمُعامَلَةِ أَدَبِكم.

***

(١) الفارقة الملازمة لـ«إن» المخففة من الثقيلة للتفريق بينها وبين «إن» النافية.

فَصْلٌ [في عَدْلِهِ ﷺ وأمانتِهِ وعِفَّتِهِ وصِدْقِ لَهْجَتِه]

وَأَمَّا عَدْلُهُ ﷺ وَأَمَانَتُهُ وَعِفَّتُهُ وَصِدْقُ لَهْجَتِهِ، فَكَانَ ﷺ آمَنَ النَّاسِ وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً مُنْذُ كَانَ، اعْتَرَفَ لَهُ بِذَلِكَ مُحَادُّوهُ وَعِدَاهُ.

وَكَانَ يُسَمَّى قَبْلَ نُبُوَّتِهِ الأَمِينَ، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: كَانَ يُسَمَّى الأَمِينَ بِمَا جَمَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الأَخْلَاقِ الصَّالِحَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]: أَكْثَرُ المُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَلَمَّا اخْتَلَفَتْ قُرَيْشٌ، وَتَحَازَبَتْ عِنْدَ بِنَاءِ الكَعْبَةِ فِيمَنْ يَضَعُ الحَجَرَ، حَكَّمُوا أَوَّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ دَاخِلٌ -وَذَلِكَ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ-، فَقَالُوا: هَذَا مُحَمَّدٌ، هَذَا الأَمِينُ قَدْ رَضِينَا بِهِ[1]، وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ: كَانَ يُتَحَاكَمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ[2]، وَقَالَ ﷺ: (وَاللهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، أَمِينٌ فِي الأَرْضِ)[3].

حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الصَّدَفِيُّ الحَافِظُ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ، حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى بْنُ زَوْجِ الحُرَّةِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ نَاجِيَةَ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

---

(١) حديث (لَمَّا اختلَفَتْ قُرَيْشٌ على بِنَاءِ الكَعبة...): أحمدُ في مسنَده [١٥٥٠٤]، والحاكمُ وصَحَّحه [١/ ٤٥٨]، وابن ماجه عن مجاهدٍ عن مَوْلَاه عَبدِالله بن السائب، وابنُ راهَوَيْهِ وابنُ أبي أسامةَ [٣٨٨] والطبرانيُّ في «الأوسطِ» عن عليِّ بن أبي طالب.

(٢) حديث الرَّبيع بنِ خُثَيم (كانَ يُتحاكَمُ إلَيْه في الجاهليةِ قَبْلَ الإسلامِ): ابنُ سَعْدٍ [١/ ١٥٧].

(٣) حديث (والله إنِّي لَأَمينٌ في السماءِ، أَمينٌ في الأرضِ): ابنُ أَبي شَيْبَةَ في مُسْنَدِه عَن أبي رافعٍ [وأخرجه عنه الطبرانيُّ في «الكبير» (١/ ٣٣١)].

قولُه (وَصِدْقُ لَهْجَتِهِ): أيْ مَنْطِقِه وحِكايَتِه.

قولُه (آمَنَ النّاسِ): -بِهمزتَيْنِ- أيْ أَعْظَمَهم أمانةً.

قولُه (مُحادُّوه): -بتشديدِ الدّالِ المَضمومةِ- أيْ مُخالِفوه. وقولُه (وعِداه): بكَسْرِ العَيْنِ مَقصورًا.

قولُه (مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ): أيْ مُكَرَّمٍ عِنْدَ المَلَأِ الأَعْلَى، ومَوصوفٍ بالأمانةِ في دَعْوى النُّبوّةِ ووَحْيِ الرِّسالةِ.

قولُه (وتَحازَبَتْ): -بالزّاي- أيْ وصارَتْ أحزابًا.

قولُه (خُثَيْم): بِضَمِّ المعجمةِ وفَتْحِ المُثَلَّثةِ، وقولُه (يُتَحاكَمُ): بصيغةِ المَجْهولِ.

قولُه (خَيْرُونٍ): -بفَتْحِ المعجَمةِ وضَمِّ الرّاءِ- بالمَنْعِ والصَّرْفِ، والثاني أَظْهَرُ. قولُه (السِّنْجِيِّ): -بكسرِ السِّينِ فسُكونِ نونٍ فجيمٍ- مَرْوَزِيٌّ.

قولُه (أَبو كُرَيْبٍ): -بالتصغيرِ- هَمْدانيٌّ كوفيٌّ.

قولُه (ناجيةَ بنِ كَعْبٍ): ناجيةُ: -بالنونِ فألِفٍ فجيمٍ مكسورةٍ فياءٍ مخفَّفةٍ- تابِعيٌّ.

أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ، وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ...﴾ الآيَةَ [الأنعام: ٣٣]، وَرَوَى غَيْرُهُ: «لَا نُكَذِّبُكَ، وَمَا أَنْتَ فِينَا بِمُكَذَّبٍ».

وَقِيلَ: إِنَّ الأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ لَقِيَ أَبَا جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الحَكَمِ، لَيْسَ هُنَا غَيْرِي وَغَيْرُكَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا؛ فَخَبِّرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ، صَادِقٌ أَمْ كَاذِبٌ؟ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ[1]. وَسَأَلَ هِرَقْلُ عَنْهُ أَبَا سُفْيَانَ، فَقَالَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا[2].

وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ لِقُرَيْشٍ: قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلَامًا حَدَثًا أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ، وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ، قُلْتُمْ: سَاحِرٌ، لَا وَاللهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ.[3]

وَفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ: مَا لَمَسَتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ لَا يَمْلِكُ رِقَّهَا[4]، وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي وَصْفِهِ ﷺ: أَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً[5]، وَقَالَ فِي «الصَّحِيحِ»: (وَيْحَكَ! فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟! خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ)[6].

---

(١) حديثُ أنَّ الأَخْنَسَ بنَ شَريقٍ (لَقِيَ أبا جَهْلٍ...): ابنُ إسحاقَ [ص ١٨٩] والبَيهقيُّ [٢/ ٢٠٦] عَنِ الزُّهريِّ قالَ: حُدِّثْتُ... فذكَرَه، وأخرَجَه ابنُ جَريرٍ [٩/ ٢٢٢] عَنِ السُّدِّيِّ.

(٢) حديث (سؤالِ هِرَقْلَ ...): في الصحيحين [سيأتي ص١٩١].

(٣) حديث (قالَ النضرُ بنُ الحارثِ لِقُرَيْشٍ...): ابنُ إسحاقَ [ص ٢٠٠] والبيهقيُّ [٢/ ٢٠١] عَنِ ابنِ عبَّاس.

(٤) حديث (ما لَمَسَتْ يدُه يَدَ امرأةٍ قَطُّ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٥٢٨٨)، ومسلمٌ (١٨٦٦)] عَن عائشةَ.

(٥) حديثُ عَلِيٍّ (كانَ أَصْدَقَ الناسِ لَهْجَةً): التِّرمذيُّ في «الشَّمائِلِ» [٦].

(٦) [تقدم ص١٤٦].

قولُه (لا نُكَذِّبُكَ): -بالتشديدِ والتخفيفِ- أيْ لا نَنْسِبُكَ إلى كَذِبٍ.

قولُه (فإنَّهم لا يُكَذِّبونَكَ): بالتشديدِ، وقَرَأَ نافِعٌ والكِسائيُّ بالتخفيفِ. قولُه (بِمُكَذَّبٍ): بتشديدِ الذّالِ المفتوحةِ.

قولُه (الأَخْنَسَ بنَ شَريقٍ): بِفتحِ الهَمزةِ وسُكونِ المعجَمةِ وفَتْحِ نونٍ فمُهْمَلةٍ، وفَتْحِ شينِ (شَريقٍ) وكسرِ رائِه. قولُه (يا أَبا الحَكَمِ): بفتحِ الحاءِ والكافِ. قولُه (وَما كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ): اعترافٌ بالحقِّ مِن أبي جَهْلٍ.

قولُه (هِرَقْلُ): بكسرِ الهاءِ وفَتْحِ الراءِ فسُكونٍ، وضُبِطَ بكسرتَيْنِ، وكَذا بِضَمَّتَيْنِ بَيْنَهما ساكِنٌ. قولُه (تَتَّهِمونَه): بتشديدِ التّاءِ الثانيةِ.

وقولُه (النَّضْرُ بنُ الحارِثِ): بفتحِ النونِ وسُكونِ الضادِ المُعجَمةِ. قولُه (حَدَثًا): -بفتحتَيْنِ- أيْ مِن حالِ صِغَرِه قَبْلَ أَوانِ كِبَرِه. قولُه (في صُدْغَيْهِ): -بضمٍّ فسكونٍ- الشَّعرُ المُتَدَلِّي ما بَيْنَ الأُذُنِ والعَيْنِ.

قولُه (لا يَمْلِكُ رِقَّها): -بكَسْرِ الراءِ وتشديدِ القافِ- أيْ لا يَمْلِكُها نِكاحًا أو مِلْكًا. قولُه (خِبْتُ وخَسِرْتُ إنْ لَمْ أَعْدِلْ): بِضَمِّ الدالِ وكَسْرِها[1].

---

(١) العدل ضد الجور مصدر «عَدَل يعدِل»: من باب «ضرَب»؛ أما «عدُل يعدُل» -من باب «كَرُمَ»- فبمعنى «صار عدلًا».

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَمْرَيْنِ إِلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ[1].

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ المُبَرِّدُ: قَسَمَ كِسْرَى أَيَّامَهُ، فَقَالَ: يَصْلُحُ يَوْمُ الرِّيحِ لِلنَّوْمِ، وَيَوْمُ الغَيْمِ لِلصَّيْدِ، وَيَوْمُ المَطَرِ لِلشُّرْبِ وَاللهْوِ، وَيَوْمُ الشَّمْسِ لِلْحَوَائِجِ.

قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ: مَا كان أَعْرَفَهُمْ بِسِيَاسَةِ دُنْيَاهُمْ! ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وَلَكِنْ نَبِيُّنَا ﷺ جَزَّأَ نَهَارَهُ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ[2]: جُزْءًا للهِ، وَجُزْءًا لِأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَكَانَ يَسْتَعِينُ بِالخَاصَّةِ عَلَى العَامَّةِ، وَيَقُولُ: (أَبْلِغُوا حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا آمَنَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ)[3].

(١) [تقدم ص١٤٥]

(٢) حديث (أنَّه جزَّأ نهارَه...): هُوَ بعضُ حديث هندِ بنِ أَبي هالةَ [سيأتي ص ١٩٦].

(٣) [أخرجه البزار (٤١٢١) وغيره من حديث أبي الدرداء مرفوعًا: بلفظ (من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام» وفي الباب عن السيدة عائشة وعلي وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ].

قولُه (المُبَرِّدُ): بفتحِ الرَّاءِ المُشَدَّدةِ[1]، وكانَ إمامًا في النَّحْوِ واللُّغةِ.

قولُه (قَسَمَ كِسْرى): (قَسَمَ): بتخفيفِ الثَّاني أَوْلى مِنْ تَشديدِها، و(كِسْرى): -بكَسْرِ الكافِ وفَتْحِ الرَّاءِ مَقصورًا- اسمٌ لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الفُرْسَ.

قولُه (خالَوَيْهِ): -بِضَمِّ اللَّامِ وفتحِ الياءِ فتاءٍ تُقْلَبُ هاءً عِنْدَ الوَقْفِ، وضُبِطَ أيضًا بِفَتْحِ اللَّامِ والواوِ وسُكونِ التحتيَّةِ وكَسْرِ هاءٍ[2]- نَحْويٌّ لُغَويٌّ، أَصْلُه مِنْ «هَمَذانَ»؛ بفَتْحِ الميمِ والمعجَمةِ.

قولُه (ما كانَ أَعْرَفَهم): قالَ المُلَّا: «الظاهرُ أنَّ (ما) زائدةٌ، ويُمكِنُ جَعْلُها موصولةً أو موصوفةً، أوْ (كانَ) زائدةً و(ما) تعجُّبيَّةً» اهـ.

قولُه (ولَكِنْ نَبيُّنا): بتخفيفِ (لَكِنْ).

قولُه (جُزْءًا): بالنصبِ، ويَجوزُ الرفعُ، ويُضَمُّ زاؤه، وقولُه (وجُزْءًا لِنَفْسِه): لِحديثِ (إنَّ لِنَفْسِكَ عليْكَ حَقًّا)[3].

قولُه (مَن لا يَستطيعُ إبلاغي): أيْ إبلاغَ حاجَتِه لي.

قولُه (آمَنَه اللهُ): -بفَتْحِ الهَمْزةِ مَمْدودًا- أيْ جَعَلَه في أَمْنٍ مِنَ الضَّرَرِ،

وقولُه (يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ): وهوَ وَقْتُ النفخةِ الثانيةِ، أوْ حالةُ الانصرافِ إلى العُقوبةِ.

(١) في «تاج العروس»: «(المبرِّد) بفَتْحِ الرَّاء المشدَّد عِنْد الأَكْثَر، وبَعْضهمْ يكسر، ورُوِيَ عَنْهُ أَنه كَانَ يَقُول بَرَّد الله مَن بَرَّدني». وقد كثر الخلاف والجدل حول هذه الراء؛ حتى قال أحد علماء شنقيط:

والكسر في راء المبرد واجبٌ * وبغير هذا ينطق الجهلاءُ

(٢) الضبط الأول ينسب لأهل الحديث، والضبط الثاني ينسب لأهل اللغة.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلاً: البخاريُّ (١٩٧٥)، ومسلمٌ (١١٥٩)، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا..

وَعَـنِ الحَسَـنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لَا يَأْخُـذُ أَحَـدًا بِقَـرْفِ أَحَـدٍ، وَلَا يُصَـدِّقُ أَحَـدًا عَـلَى أَحَـدٍ[١].

وَذَكَـرَ أَبُـو جَعْفَـرٍ الطَّـبَرِيُّ عَـنْ عَـلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ: (مَـا هَمَمْـتُ بِـشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْـلُ الجَاهِلِيَّـةِ يَعْمَلُـونَ بِـهِ غَـيْرَ مَرَّتَـيْنِ، كُلَّ ذَلِـكَ يَحُـولُ اللهُ بَيْنِـي وَبَـيْنَ مَـا أُرِيـدُ مِـنْ ذَلِـكَ، ثُـمَّ مَـا هَمَمْـتُ بِسُـوءٍ حَتَّـى أَكْرَمَنِـي اللهُ بِرِسَـالَتِهِ، قُلْـتُ لَيْلَـةً لِغُـلَامٍ كَانَ يَرْعَـى مَعِـي: لَـوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمِـي حَتَّـى أَدْخُـلَ مَكَّـةَ؛ فَأَسْـمُرَ بِهَـا كَـمَا يَسْـمُرُ الشَّـبَابُ، فَخَرَجْـتُ لِذَلِـكَ حَتَّـى جِئْـتُ أَوَّلَ دَارٍ مِـنْ مَكَّـةَ، سَـمِعْتُ عَزْفًـا بِالدُّفُـوفِ وَالمَزَامِـيرِ لِعُـرْسِ بَعْضِهِـمْ، فَجَلَسْـتُ أَنْظُـرُ، فَضُرِبَ عَـلَى أُذُنَيَّ، فَنِمْـتُ، فَـمَا أَيْقَظَنِـي إِلَّا مَـسُّ الشَّـمْسِ، فَرَجَعْـتُ، وَلَمْ أَقْـضِ شَـيْئًا، ثُـمَّ عَـرَانِي مَـرَّةً أُخْـرَى مِثْـلُ ذَلِـكَ، ثُـمَّ لَمْ أَهُـمَّ بَعْـدَ ذَلِـكَ بِسُـوءٍ)[٢].

***

(١) حديث الحَسَن (كانَ لا يأخُذُ أحَدًا بقَرْف أَحَد ولا يُصَدِّقُ أحَدًا على أحَدٍ): أبو داوُدَ في «المَراسيل» [٥١٤].

(٢) حديث عَليٍّ (ما هَمَمْتُ...): البزّارُ [٦٤٠] إلى قوله (برسالَته)، وأخْرَجه بتمامه ابنُ راهوَيْه في مُسْنَده، والبَيهقيُّ في «الدلائل» [٢/ ٣٣، ٣٤].

قولُـه (**لا يأخُـذُ أحَـدًا بِقَـرْفِ أحَـدٍ**): أيْ لا يُؤاخِـذُه ولا يُجازيـه بذَنْبِـه، و(**قَـرْفِ**): بفَتْـحِ القـافِ وسُـكونِ الـرّاءِ، وفي نُسـخةٍ «بِقَـذْفِ أَحَـدٍ» -بسُـكونِ الـذالِ المعجَمـةِ-؛ مِـنْ «قَذَفَـه بالمَكْـروهِ»: أيْ نَسَـبَه إلَيْـه.

قولُـه (**مـا هَمَمْـتُ بِـشَيْءٍ**): أيْ «مـا قَصَـدْتُ أَمْـرًا مِمّـا كانَ... إلـخ»، وقولُـه (**كُلَّ ذلـكَ**): ضُبِـطَ بالرفـعِ والنَّصـبِ؛ وهـوَ أظْهَـرُ، أيْ في جَميـعِ مـا ذُكِـرَ مِـنَ المَرَّتَـيْنِ.

قولُـه (**كانَ يَرْعـى مَعي**): أيْ غَنَمـي أوْ غَنَـمَ غَـيْري وهـوَ الأظْهَـرُ؛ لِقَوْلـه ﷺ: (مـا مِـن نَبـيٍّ إلّا وقَـدْ رَعاهـا) -يَعْنـي الغَنَـمَ-، قيـلَ: وأنـتَ يـا رسـولَ الله؟ قـالَ: (نَعَـمْ كُنْـتُ أَرْعاهـا عـلى قراريـطَ لِأَهْـلِ مَكّـةَ)[١].

قولـه (**فأَسْمُرَ بها**): -بِفَتْـحِ الهَمْـزةِ وضَـمِّ الميـمِ- أيْ أحادِثَ لَيْـلًا مُطْلَقًـا أوْ لَيْـلًا مُقْمِرًا.

قولـه (**أَسْمَعُ عَزْفًـا**): -بفتـحِ العَـينِ المُهْمَلَـةِ وسُـكونِ الـزايِ ثُـمَّ فـاءٍ- أيْ لَعِبًـا بالمَعـازِفِ وهـيَ المَلاهـي.

قولُـه (**فضُرِبَ عـلى أُذُنَيَّ**): بصيغـةِ المجهـولِ، وقولُـه (**أُذُنَيَّ**): -بضـمِّ الـذّالِ ويُسَـكَّنُ وبفتـحِ النـونِ وتشـديدِ يـاءِ المُتكلِّـمِ، أوْ بِكَسْرِ النـونِ وتخفيـفِ يـاءِ الإضافـةِ؛ عـلى إرادةِ الجِنْـسِ- أيْ أنامَنـي اللهُ إنامـةً ثَقيلـةً لا يَمْنَعُنـي عَـنِ النَّـوْمِ اضطـرابُ أصـواتٍ، ولا كَثْـرةُ حَـرَكاتٍ. وقولُـه (**فَنِمْـتُ**): بِكَسـرِ النونِ.

وقولُـه (**عَـراني مَـرّةً**): أيْ أَصابَنـي مَـرّةً. قولُـه (**ثُـمَّ لَمْ أَهُـمَّ**): -بِضَـمِّ الهـاءِ وتشـديدِ الميـمِ المفتوحـةِ، ويَجوزُ ضَمُّهـا وكَسْرُهـا- أيْ لَمْ أَقْصِـدْ.

***

(١) أخرجـه بهـذا اللفـظ البخـاريُّ (٢٢٦٢) [كتـاب الإجـارة]، وغـيره مـن حديـث أبي هريـرة، ولـه شـواهد في الصحيحـين وغيرهـا.

فَصْلٌ [فِي وَقَارِهِ ﷺ وصمْته وتُؤَدَتِه ومُروءَتِهِ وحُسْنِ هَدْيِهِ]

وَأَمَّا وَقَارُهُ ﷺ وَصَمْتُهُ وَتُؤَدَتُهُ وَمُرُوءَتُهُ وَحُسْنُ هَدْيِهِ، فَحَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الجَيَّانِيُّ، الحَافِظُ إِجَازَةً، وَعَارَضْتُ بِكِتَابِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ الدِّلَائِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الهَرَوِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا اللُّؤْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَلَامٍ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ وُهَيْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ خَارِجَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْقَرَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِهِ، لَا يَكَادُ يُخْرِجُ شَيْئًا مِنْ أَطْرَافِهِ[1].

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ: كَانَ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي المَجْلِسِ احْتَبَى بِيَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ جُلُوسِهِ ﷺ مُحْتَبِيًا[2]، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّهُ ﷺ تَرَبَّعَ، وَرُبَّمَا جَلَسَ القُرْفُصَاءَ[3]، وَهُوَ فِي حَدِيثِ قَيْلَةَ:

(١) حديث خارجَةَ: أَسْنَدَه من طَريقِ أَبي داوُدَ [«المراسيل» ٥٠٥].

(٢) حديث أَبي سَعيد (كانَ إذا جَلَسَ احتبى بيَدَيْه...): أَبو داوُدَ [٤٨٤٦] والتِّرمذيُّ في «الشمائل» [١٢٢].

(٣) حديث جابر بن سَمُرَةَ (أَنَّه تَرَبَّعَ...): مُسلمٌ [٦٧٠] وأَبو داوُدَ [٤٨٥٠].

(فصلٌ: وأَمّا وَقارُه... إلخ): -وهوَ بِفَتْحِ الواوِ- أَيْ رَزانَتُه.

قولُه (وتُؤَدَتُه): بِضَمِّ التاءِ وفَتْحِ الهَمْزةِ وتُبْدَلُ. قولُه (ومُروءَتُه): بِضَمَّتَيْنِ وسُكونِ الواوِ فهَمْزٍ وتُبْدَلُ وتُدْغَمُ فتُشَدَّدُ. اهـ مـلّا. قولُه (الجَيّانيُّ): بفتحِ الجيمِ وتشديدِ التحتيّةِ ثُمَّ نونٍ.

قولُه (إجازةً): أيْ نَوْعًا مِنْ أنواعِ الإجازةِ؛ ومِنْها المُناوَلةُ ولَوْ بالمُكاتَبةِ. قولُه (وعارَضْتُ): أيْ قابَلْتُ.

وقولُه (الدِّلّائيُّ): بِكسرِ الدّالِ المُهْمَلةِ، فلامٍ مُشَدَّدةٍ -وقَدْ تُخَفَّفُ-؛ بَعْدَها أَلِفٌ ممدودةٌ، وقولُه (الورّاقُ): بتشديدِ الراءِ، وقولُه (اللُّؤلُئيُّ): بِهمزتَيْنِ وتُبْدَلُ الأولى. قولُه (محمد بنُ سَلّامٍ): بتشديدِ اللّامِ. قولُه (حَجّاجُ بنُ محمَّدٍ) وفي نسخةٍ «الحَجّاجُ».

قولُه (أَوْقَرَ الناسِ): أيْ أكثَرَهم حِلْمًا، وأعظَمَهم تَجَمُّلًا في جَميعِ أوْقاتِ السَّنَةِ.

قولُه (لا يَكادُ يُخْرِجُ شَيْئًا مِنْ أطرافِه): مِنْ بُزاقِ فَمِه أوْ مُخاطِ أَنْفِه، ووَقَعَ في أَصْلِ الدلجيِّ (شَيْءٌ)؛ بالرَّفْعِ، وقالَ في قولِه (لا يَكادُ يَخْرُجُ): مبالَغةٌ في «لا يَخْرُجُ»؛ أيْ لا يَقْرُبُ أنْ يَظْهَرَ مِنْ تَحْتِ ثيابِه شَيْءٌ مِن أطرافِه.

قولُه (احْتَبى بيَدَيْه): بأنْ جَمَعَ بَيْنَ ظَهْرِه وساقَيْه؛ إمّا بيَدِه أوْ بِثَوْبِه، والاسمُ «الحُبْوةُ» -بضمِّ الحاءِ وكَسْرِها-، والعامّةُ تَقولُ: «حِبيةٌ»[1].

قولُه (القُرْفُصاءَ): بضمِّ القافِ والفاءِ -ورويَ بكَسْرِهما-، وبِمَدٍّ وقَصْرٍ فيهما، وعَنِ الفَرّاءِ: «إذا ضَمَمْتَ مَدَدْتَ، وإذا كَسَرْتَ قَصَرْتَ»؛ ومَعْناه أنْ يَجْلِسَ على أَلْيَتَيْهِ، مُلْصِقًا بَطْنَه بِفَخِذَيْه، مُحْتَبِيًا بيَدَيْه. قولُه (قَيْلَةَ): -بِفَتْحِ القافِ وسُكونِ الياءِ- بِنتُ مَخْرَمةَ العنبريّةُ، وقيلَ: العَدَويّةُ.

(١) أقول و(حِبية) واردة أيضا في المعجمات اسماً للاحتباء؛ جاء في «اللسان»: «احْتَبَى بِثَوْبِهِ احْتِبَاءً، والاحْتِبَاءُ بِالثَّوْبِ: الاشتِمالُ، وَالِاسْمُ الحِبْوَةُ والحُبْوَةُ والحِبْيَةُ»، وكذا في «القاموس» غير أنه ضبط «الحبوة» بالضم والفتح بدل الكسر.

وَكَانَ ﷺ كَثِيرَ السُّكُوتِ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يُعْرِضُ عَنْ مَنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ جَمِيلٍ، وَكَانَ ضَحِكُهُ تَبَسُّمًا، وَكَلَامُهُ فَصْلًا، لَا فُضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ، وَكَانَ ضَحِكُ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ التَّبَسُّمَ تَوْقِيرًا لَهُ وَاقْتِدَاءً بِهِ، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حُكْمٍ وَحَيَاءٍ وَخَيْرٍ وَأَمَانَةٍ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الْحُرَمُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَفِي صِفَتِهِ ﷺ يَخْطُو تَكَفُّؤًا، وَيَمْشِي هَوْنًا، كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ.(١)

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: إِذَا مَشَى مَشَى مُجْتَمِعًا، يُعْرَفُ فِي مِشْيَتِهِ أَنَّهُ غَيْرُ غَرِضٍ وَلَا وَكِلٍ، أَيْ غَيْرُ ضَجِرٍ وَلَا كَسْلَانَ.(٢)

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ أَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ.(٣)

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَانَ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرْتِيلٌ أَوْ تَرْسِيلٌ(٤).

---

(١) حديث قَيْلَةَ: (أَنَّه جَلَسَ القُرْفُصاءَ...): التِّرمذيُّ في «الشَّمائل» [١٢٠].

(٢) [أخرجه أحمد (٣٠٣٣)، وابن سعد (١/ ٤١٧) والبزار (٢٣٩١- كشف الأستار)، وغيرهم من حديث ابن عباس].

(٣) حديث ابن مَسعودٍ (إنَّ أَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٍ): البخاريُّ [٦٠٩٨].

(٤) حديث جابر بن عبد الله (كانَ في كَلامِه تَرتيلٌ أو تَرسيلٌ): أبو داوُدَ [٤٨٣٨]، وأخرجَه الإمامُ أحمدُ في «الزُّهْد» [٢٤٠] عَن جابرٍ وابنِ عُمَرَ مَعًا.

قولُه (وكَلامُه فَصْلًا): أيْ فَرْقًا بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وقولُه (لا فُضولَ): -بالفَتْحِ- أيْ «لا زيادةَ في كَلامِه».

قولُه (مَجْلِسُه مَجْلِسُ حُكْمٍ)(١): -بِضَمِّ الحاءِ وسُكونِ الكافِ- أيْ مَجْلِسُ عِلْمٍ بالأَحْكامِ؛ ولَوْ ثَبَتَ كَسْرُ الحاءِ وفَتْحُ الكافِ لَكانَ لَه وَجْهٌ وَجيهٌ في المَرامِ بأَنْ يَكونَ مَجْلِسُه لِلصُّحْبةِ مَلْآنَ مِنْ أنْواعِ الحِكْمةِ.

قولُه (لا تُرْفَعُ فيه الأَصْواتُ): بِبِناءِ الفِعْلِ لِلمَجْهولِ، وقولُه (ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ): -بِضَمٍّ فسُكونِ هَمْزٍ؛ وتُبْدَلُ، وفَتْحِ المُوَحَّدةِ المُخَفَّفةِ؛ وقَدْ تُشَدَّدُ- أيْ لا تُرْمى بِصَريحٍ، ولا تُذْكَرُ بِقَبيحٍ، وقولُه (الحُرَمُ): -بِضَمٍّ وفَتْحٍ- جَمْعُ الحُرْمةِ؛ وهيَ ما لا يَحِلُّ انْتِهاكُه، ويُرْوى بِضَمَّتَيْنِ بِمَعْنى «النِّساءِ مِنَ الأَهْلِ».

قولُه (كأَنَّما على رُؤوسِهِم الطَّيْرُ): يَجوزُ في مِثْلِه ثَلاثةُ أَوْجُهٍ بِحَسَبِ القِراءةِ، وهيَ: كَسْرُ الهاءِ وضَمُّ الميمِ، وكَسْرُهُما، وضَمُّهُما؛ وفي التَّشبيهِ تَنْبيهٌ على المُبالَغةِ في وَصْفِهِم بالسُّكوتِ والسَّكينةِ.

قولُه (وفي صِفَتِه): أيْ وجاءَ في نَعْتِ مَشْيِه (يَخْطو) -بِضَمِّ الطاءِ وسُكونِ الواوِ- أيْ يَمْشي.

وقولُه (تَكَفُّؤًا): -بِضَمِّ الفاءِ المُشَدَّدةِ فهَمْزٍ وتُبْدَلُ، وفي نُسخةٍ بِكَسْرِ الفاءِ وفَتْحِ الياءِ- أيْ تَمايُلًا إلى قُدّامٍ. قولُه (كأَنَّما يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ): -بِتَشديدِ الطاءِ- أيْ يَنْزِلُ مِنْ صَبَبٍ؛ بِفَتْحِ الصادِ والمُوَحَّدةِ الأُولى.

قولُه (مَشى مُجْتَمِعًا): أيْ مَشْيًا مُعْتَدِلًا، وقولُه (في مِشْيَتِه): بكَسْرِ الميمِ، وقولُه (غَرِضٍ): بفتحِ المعجمةِ وكَسرِ الراءِ وتنوينِ الضادِ المعجمةِ؛ مِنَ الغَرَضِ -بفتحتَيْنِ-، وهوَ الضَّجَرُ. قولُه (ولا وَكِلٍ): -بكَسْرِ الكافِ؛ على ما قالَه الدَّلْجِيُّ، وقالَ المُلّا: بفتحتَيْنِ- أيْ عاجِزٍ.

قولُه (أَحْسَنَ الهَدْيِ): -بفتحِ الهاءِ وسُكونِ الدالِ المهمَلةِ- أيْ السِّيرةِ والطَّريقةِ. قولُه (تَرْتيلٌ): أيْ تَبْيينٌ لِحروفِ البِناءِ.

---

(١) وفي نسخة «مجلس حِلْمٍ»، وهو ما أثبته الشهاب في شرحه.

قَالَ ابْنُ أَبِي هَالَةَ: كَانَ سُكُوتُهُ ﷺ عَلَى أَرْبَعٍ: عَلَى الحِلْمِ، وَالحَذَرِ، وَالتَّقْدِيرِ، وَالتَّفَكُّرِ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ العَادُّ أَحْصَاهُ.(١)

وَكَانَ ﷺ يُحِبُّ الطِّيبَ وَالرَّائِحَةَ الحَسَنَةَ، وَيَسْتَعْمِلُهُمَا كَثِيرًا، وَيَحُضُّ عَلَيْهِمَا، وَيَقُولُ: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)(٢).

وَمِنْ مُرُوءَتِهِ ﷺ نَهْيُهُ عَنِ النَّفْخِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ(٣)، وَالأَمْرُ بِالأَكْلِ مِمَّا يَلِي(٤)، وَالأَمْرُ بِالسِّوَاكِ، وَإِنْقَاءِ البَرَاجِمِ وَالرَّوَاجِبِ، وَاسْتِعْمَالِ خِصَالِ الفِطْرَةِ(٥).

***

(١) حديث عائشةَ (كانَ يُحَدِّثُ حَديثًا لَوْ عَدَّه العادُّ أَحْصَاه): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٥٦٧)، ومسلمٌ (٢٤٩٣)].

(٢) حديث (حُبِّبَ إِلَيَّ مِن دُنْيَاكم...): تَقَدَّمَ [ص ١٣٠].

(٣) حديث (نَهْيُه عَنِ النفخِ في الطَّعام والشَّرَابِ...): أحمدُ عَن ابنِ عبّاسٍ [٢٨١٧]، وهُوَ عندَ أَبي داوُدَ [٣٧٢٨] والتِّرمذيِّ وصَحَّحه [١٩٩٧] وابنِ ماجَهْ [٣٤٢٩]؛ إلّا أنَّهم قالوا: (في الإناءِ)، وللترمذيِّ وصَحَّحه [١٨٨٧] مِن حديثِ أَبي سَعيدٍ: (نَهى عَنِ النَّفْخِ في الشَّرَابِ).

(٤) حديث (الأَمْرُ بالأَكْلِ مِمَّا يَلِي...): الشيخانِ [البخاريُّ (٥٣٧٦)، ومسلمٌ (٢٠٢٢)] عَن عُمَرَ بنِ سَلَمَةَ.

(٥) حديث (الأمرُ بالسِّوَاكِ وإنقاءِ البَرَاجمِ والرَّوَاجبِ واستعمالِ خِصَالِ الفِطْرةِ): في الصحيحِ وغيرِه مِن طُرُقٍ، وَخِصَالُ الفِطْرةِ في حديثِ الصحيحين [البخاريُّ (٥٨٨٩)، ومسلمٌ (٢٥٧) من حديثِ أبي هريرة] خَمْسٌ: الخِتَانُ، والاستحدادُ، وقَصُّ الشاربِ، وتقليمُ الأظفارِ، ونَتْفُ الإِبْطِ. وزادَ مُسلِمٌ [٢٦١] في حديثِ عائشةَ: المَضْمَضَةَ، والاستنشاقَ، وإعفاءَ اللِّحْيَةِ، والاستنجاءَ، والسِّوَاكَ، وغَسْلَ البَرَاجمِ. وزادَ أَبو داوُدَ [٥٤] مِن حديثِ عَمّارٍ: الانتضاحَ، ومِن حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ [٥٤]: فَرْقَ الرأسِ [وأخرج حديث ابن عباس الطبراني (١٢/ ٢٥٠)، والحاكم (٢/ ٢٦٦)].

قولُه (كانَ سُكوتُه على أَرْبَعٍ): أيْ أربعةِ أَحْوالٍ.

قولُه (لَوْ عَدَّه العادُّ أَحْصاه): أيْ لَوْ أَحْصى عَدَدَ حُروفِه المُحْصي مِنْ أَهْلِ الحِسابِ لَقَدَرَ على إحصائِه.

قولُه (ومِنْ مُروءَتِه): أيْ أخلاقِه المَرْضيةِ.

قولُه (والأَمرُ بالأَكْلِ مِمّا يَلي): لِحديثِ الشيخَيْنِ ([قُلْ] بِسْمِ اللهِ، وكُلْ بيَمينِكَ، [وكُلْ] مِمَّا يَليكَ)(١)، والأَوْلى أنْ يَقولَ: «وأَمْرُه»؛ ليَحْسُنَ عَطْفُه على نَهْيِه.

قولُه (وإنْقاءِ البَراجِمِ): بالجَرِّ عَطْفًا على (السِّواكِ)، وفي نسخةٍ بالرَّفْعِ على أنَّ التقديرَ: «ومِنْ مُروءَتِه تَنظيفُ البَراجِمِ»؛ وهيَ جَمْعُ «بُرْجُمةٍ» -بالضَّمِّ-، والمُرادُ بها مَفاصِلُ الأصابعِ مِنْ ظاهِرِ الكَفِّ وباطِنِها.

***

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٦) [كتاب الأطعمة] ومسلمٌ (٢٠٢٢) [كتاب الأشربة]، وغيرهما من حديث عمرو بن أبي سلمة.

فَصْلٌ [في زُهْدِهِ ﷺ في الدُّنيا]

وَأَمَّا زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا ﷺ فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الأَخْبَارِ أَثْنَاءَ هَذِهِ السِّيرَةِ مَا يَكْفِي، وَحَسْبُكَ مِنْ تَقَلُّلِهِ مِنْهَا، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ زَهْرَتِهَا، وَقَدْ سِيقَتْ إِلَيْهِ بِحَذَافِيرِهَا، وَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِ فُتُوحُهَا إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ ﷺ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ، وَهُوَ يَدْعُو، وَيَقُولُ: (اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا)[1].

حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ القَاصِي وَالحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ وَالقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ الرَّازِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ الحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا شَبِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا مِنْ خُبْزٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ، وَلَوْ شَاءَ لَأَعْطَاهُ اللهُ مَا لا يَخْطُرُ بِبَالٍ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: مَا شَبِعَ آلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ حَتَّى لَقِيَ اللهَ تَعَالَى[2].

---

(١) حديث (اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ محمَّدٍ قُوتًا): الشيخانِ [البخاريُّ (٦٤٦٠)، مسلمٌ (١٠٥٥)] عن أبي هُرَيرةَ.

(٢) حديث (ما شَبِعَ...): أَسْنَدَه من طريقِ مُسلم [٢٩٧٠]، وروايةُ (مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ) [مسلم (٢٩٧٠)]، و(مِن خُبْزِ بُرٍّ) [أخرجها البخاريُّ (٥٤٢٣)، ومسلمٌ (٢٩٧٠) من حديث عائشة] كلاهما في «الصحيح»، والحديثُ في «البخاريِّ» أيضًا [(٥٤١٤) من حديث أبي هريرة بلفظ (خَرَجَ رسولُ الله ﷺ من الدُّنيا ولم يَشْبَعْ من خُبْزِ الشَّعِير»)].

(فَصْلٌ: وأَمَّا زُهْدُه في الدُّنْيا... إلخ): والزُّهْدُ عَدَمُ المَيْلِ لَها.

قولُه (وإعْراضِه عَنْ زَهْرَتِها): -بِفَتْحِ الزّايِ- أيْ زينَتِها وبَهْجَتِها. قولُه (بِحَذافيرِها): -جَمْعُ «حِذْفارٍ»، وقيلَ: «حُذْفورٌ»- أيْ بِأَسْرِها مِنْ أَوَّلِها وآخِرِها.

قولُه (إلى أنْ تُوُفِّيَ): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ كافيكَ مِمّا ذُكِرَ حالَ حُصولِه ذِكْرُ وَفاتِه[1]، وفي نسخةٍ بِحَذْفِ (إلى).

قولُه (اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ محمَّدٍ قوتًا): أيْ بُلْغةً تَسُدُّ رَمَقَهم.

قولُه (الجُلوديُّ): بِضَمِّ الجيمِ. قولُه (حَدَّثَنا ابنُ سُفْيانَ): وفي نسخةٍ «أبو سُفْيانَ». قولُه (عَنْ إبراهيمَ): أيِ النَّخَعيِّ.

قولُه (ما شَبِعَ رَسولُ اللهِ): -بِكَسْرِ المُوَحَّدةِ- أيْ ما أَكَلَ حَتّى شَبِعَ.

قولُه (تِباعًا): -بِكَسْرِ التّاءِ الفوقيّةِ؛ مَصْدَرُ «تابَعَ»- أيْ مُتابَعةً ومُوالاةً. قولُه (مِنْ خُبْزٍ): أيْ مُطْلَقًا بُرًّا أوْ غَيْرَه، ووَقَعَ في أَصْلِ الدلجيِّ «مِنْ خُبْزِ بُرٍّ».

قولُه (ولَوْ شاءَ لَأَعْطاه اللهُ ما لا يَخْطُرُ بِبالٍ): -و(يَخْطُرُ): بِكَسْرِ الطاءِ وضَمِّها- أيْ ما لَمْ يَمُرَّ في خِلالِ خَيالٍ.

---

(١) هذا التفسير لا يناسب الرواية المعتمدة عند الشارح وإنما يناسب الرواية الثانية وهي التي بإسقاط (إلى)؛ أما رواية الشارح فقد فسرها الملا بقوله: (وفي نسخة «إلى أن توفي»؛ على أنها متعلقة بـ«تقلله» إيماء إلى اختيار زهده في الدنيا باعتبار الحالة الأولى والأخرى؛ دفعًا لما توهم بعضهم من أنه ﷺ في آخر عمره اختار الغِنى).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وَلَا شَاةً وَلَا بَعِيرًا[1]، وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ: مَا تَرَكَ إِلاَّ سِلاَحَهُ وَبَغْلَتَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً[2].

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ مَاتَ، وَمَا فِي بَيْتِي شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي[3]، وَقَالَ لِي: (إِنِّي عُرِضَ عَلَيَّ أَنْ تُجْعَلَ لِي بَطْحَاءُ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَأَمَّا اليَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ، وَأَمَّا اليَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ[4]).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللهَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: أَتُحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ هَذِهِ الجِبَالَ ذَهَبًا، وَتَكُونَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ؟ فَأَطْرَقَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: (يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، قَدْ يَجْمَعُهَا مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ)، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: ثَبَّتَكَ اللهُ -يَا مُحَمَّدُ- بِالقَوْلِ الثَّابِتِ[5].

---

(١) حديثُ عائشةَ (ما ترَكَ دِينارًا ولا دِرهمًا ولا شاةً ولا بَعيرًا): مُسلِمٌ [١٦٣٥].

(٢) حديثُ عَمرِو بنِ الحارثِ (ما ترَكَ إلّا سِلاحَه وبَغلتَه وأرْضًا جعَلَها صَدقةً): البخاريُّ [٢٨٧٣].

(٣) حديثُ عائشةَ (ماتَ وما في بَيْتِي شَيْءٌ يأكُلُه ذو كَبِدٍ إلا شَطْرُ شَعيرٍ في رَفٍّ لي): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٠٩٧)، ومسلمٌ (٢٩٧٣)].

(٤) حديث (عُرِضَ عليَّ أنْ تُجعَلَ لي بَطحاءُ مَكَّةَ ذَهَبًا...): الترمذيُّ [٢٣٤٧] عن أبي أُمامةَ بلَفْظ: (فإذا جُعْتُ تضَرَّعْتُ إليْكَ وذَكَرْتُك، وإذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وحَمِدْتُكَ).

(٥) حديث (أتُحِبُّ أنْ أجْعَلَ هذه الجبالَ...): لم أجِدْه هكذا، ولكنْ أخرَجَ البيهقيُّ في «الزُّهْد» [٤٤٧] وغيرُه من طريقِ عَطاء عَن ابن عبّاس أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريلَ يوْمًا: (ما أمْسَى لآلِ محمد كَفُّ سَويق ولا سُفَّةُ دَقيق)، فأتاه إسرافيلُ، فقال: إنَّ اللهَ سَمِعَ ما ذكَرْتَ، فبعَثَني إليْكَ بمَفاتيحِ الأرض، وأمَرَني أنْ أعرِضَ عليْكَ: إنْ أحْبَبْتَ أنْ أُسَيِّرَ معَكَ جبالَ تِهامةَ زُمُرُّدًا وياقُوتًا وذَهبًا وفضّةً فعَلْتُ.

وأخرجَ ابنُ سَعد [١/ ٣٨١، ٤٦٥] وابنُ عَساكرَ في تاريخه [٤/ ٧٤، ١٠٧] من حَديث عائشةَ: (لَوْ شِئْتُ لَسارَتْ مَعي جبالُ الذَّهَب)، ولأحمدَ في «الزُّهد» [٧٦] عَنها: (واللهِ لَوْ شِئْتُ لأجْرَى اللهُ مَعي جبالَ الذهَب والفضة)، وللطَّبرانيِّ [٢٥/ ١٢١] نَحْوُه من حديث أُمِّ سُلَيْم: (لَوْ سألْتُ اللهَ أنْ يجعَلَ جبالَ تِهامة كُلَّها ذَهَبًا لفَعَلَ).=

قولُه (ولا دِرْهَمًا): بكَسْرِ الدالِ وفَتْحِ الهاءِ وتُكْسَرُ. قالَه المُلّا.

قولُه (ما تَرَكَ إلّا سِلاحَه): بكَسْرِ السّينِ، والمُرادُ سُيوفُه ورِماحُه ودُروعُه وغَيْرُ ذلكَ.

قولُه (وبَغْلَتَه): أي البَيْضاءَ، وهيَ دُلْدُلُ.

قولُه (ذو كَبِدٍ): -بفَتْحِ الكافِ وكَسْرِ المُوَحَّدةِ، ويَجوزُ سُكونُها مَعَ كَسْرِ وفَتْحِ الكافِ- أيْ ذو حَياةٍ، وخَصَّ الكَبِدَ لأنَّه مَنْبَعُ الدَّمِ.

قولُه (إلّا شَطْرُ شَعيرٍ): قالَ المُلّا: «لَعَلَّه نِصفُ صاعٍ»، وقالَ التِّرمذيُّ: «أيُّ شَيْءٍ مِن شَعيرٍ». وقولُه (في رَفٍّ): -بفتحِ الراءِ وتشديدِ الفاءِ- خَشَبٌ يُرْفَعُ عَنِ الأرضِ في جِدارِ البَيْتِ.

قولُه (عُرِضَ عَلَيَّ): بِبِناءِ الفِعْلِ لِلمفعولِ وحَذْفِ الفاعِلِ إجْلالًا لَه.

وقولُه (أنْ تُجْعَلَ لي): -بالتذكيرِ أوِ التأنيثِ- أيْ تُقْلَبَ لِأَجْلي.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنْ كُنَّا -آلَ مُحَمَّدٍ- لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ نَارًا، إِنْ هُوَ إِلَّا التَّمْرُ وَالمَاءُ[1]. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ مُحَمَّدٍ: هَلَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَشْبَعْ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ[2]، وَعَنْ عَائِشَةَ[3] وَأَبِي أُمَامَةَ[4] وَابْنِ عَبَّاسٍ[5] نَحْوُهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبِيتُ هُوَ وَأَهْلُهُ اللَّيَالِيَ المُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا لَا يَجِدُونَ عَشَاءً[6]. وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَا أَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى خِوَانٍ وَلَا فِي سُكُرُّجَةٍ، وَلَا خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ، وَلَا رَأَى شَاةً سَمِيطًا قَطُّ[7].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ[8]، وَعَنْ حَفْصَةَ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ مِسْحًا، نَثْنِيهِ ثِنْيَيْنِ فَيَنَامُ عَلَيْهِ، فَثَنَيْنَاهُ لَيْلَةً بِأَرْبَعٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: (مَا فَرَشْتُمُو لِي اللَّيْلَةَ؟)، فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: (رُدُّوهُ بِحَالِهِ؛ فَإِنَّ وَطْأَتَهُ مَنَعَتْنِي اللَّيْلَةَ صَلَاتِي)[9].

=وأَخْرَجَ أحمدُ [٢٤٤١٩] حديث: (الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ له، ومالُ مَنْ لا مالَ له، قَدْ يَجْمَعُها مَن لا عَقْلَ له) مختصرًا هكذا من حديث عائشة.

(١) حديث عائشةَ (إِنْ كُنَّا -آلَ محمد- نَمْكُثُ شَهْرًا ما نَستوقدُ نارًا إنْ هُوَ إلّا التمرُ والماءُ): الشيخانِ [البخاريُّ (٦٤٥٨)، ومسلمٌ واللفظ له (٢٩٧٢)].

(٢) حديثُ عبدِ الرحمن بن عَوْفٍ (ماتَ ولَمْ يَشْبَعْ هُوَ وأَهلُ بَيْتِه مِن خُبْزِ الشَّعِيرِ): الترمذيُّ في «الشمائل» [٣٥٩]، والبزَّارُ [١٠٦١] بسَنَدٍ حَسَنٍ.

(٣) حديث عائشة نحوُه: الشيخانِ [تقدم ص١٨٣].

(٤) حديث أَبِي أُمامةَ نَحوُه: الترمذيُّ [٢٣٥٩].

(٥) حديث ابن عبّاسٍ نَحْوُه: هوَ الّذي بَعْدَه، وقَدْ رَوَاه ابنُ سَعْدٍ من حديثِ أَبِي هريرةَ أَيْضًا بلَفْظِ حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ.

(٦) حديثُ ابن عبّاس (كانَ يَبِيتُ هُوَ وأهلُه الليالِيَ المتتابِعَةَ طاوِيًا لا يَجِدُونَ عَشاءً): التِّرمذيُّ وصَحَّحَه [٢٣٦٠]، وابنُ ماجَهْ [٣٣٤٨].

(٧) حديث أَنَسٍ (ما أَكَلَ على خِوَانٍ ولا فِي سُكُرُّجةٍ، ولا خُبِزَ له مُرَقَّقٌ، ولا رَأَى شَاةً سَمِيطًا قَطُّ): البخاريُّ [٥٤١٥] من غير لفظة (ولا رَأَى شَاةً سَمِيطًا قَطُّ)، و[٥٤٢١، ٦٤٥٧] بلفظ: (فما أعلم النبي رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط).

(٨) حديث عائشةَ (كانَ فِراشُه أَدَمًا حَشْوُه لِيفٌ): الشيخانِ [البخاريُّ (٦٤٥٦)، ومسلمٌ (٢٠٨٢)].

(٩) حديثُ حَفْصَةَ (كانَ فِراشُه مِسْحًا...): التِّرمذيُّ في «الشَّمائِلِ» [٣١٢].

وَكَانَ يَنَامُ أَحْيَانًا عَلَى سَرِيرٍ مَزْمُولٍ بِشَرِيطٍ حَتَّى يُؤَثِّرَ فِي جَنْبِهِ[1].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ شِبَعًا قَطُّ، وَلَمْ يَبُثَّ شَكْوَى إِلَى أَحَدٍ، وَكَانَتِ الفَاقَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الغِنَى، وَإِنْ كَانَ لَيَظَلُّ جَائِعًا يَلْتَوِي طُولَ لَيْلَتِهِ مِنَ الجُوعِ، فَلَا يَمْنَعُهُ صِيَامَ يَوْمِهِ، وَلَوْ شَاءَ سَأَلَ رَبَّهُ جَمِيعَ كُنُوزِ الأَرْضِ وَثِمَارَهَا وَرَغَدَ عَيْشِهَا، وَلَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي رَحْمَةً لَهُ مِمَّا أَرَى بِهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِي عَلَى بَطْنِهِ مِمَّا أَرَى بِهِ مِنَ الجُوعِ، وَأَقُولُ: نَفْسِي لَكَ الفِدَاءُ، لَوْ تَبَلَّغْتَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَقُوتُكَ!! فَيَقُولُ: (يَا عَائِشَةُ، مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! إِخْوَانِي مِنْ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، فَمَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ، فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ، فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ، وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ، فَأَجِدُنِي أَسْتَحْيِي -إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي- أَنْ يُقَصَّرَ بِي غَدًا دُونَهُمْ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخِلَّائِي)، قَالَتْ: فَمَا أَقَامَ بَعْدُ إِلَّا شَهْرًا حَتَّى تُوُفِّيَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْهِ[2].

***

(١) حديث (أنَّه كانَ يَنَامُ على سَرِيرٍ مَزمولٍ بشَرِيطٍ حَتَّى يُؤَثِّرَ في جَنْبِه): الشيخان [البخاريُّ (٤٩١٣)، ومسلمٌ (١٤٧٩) دون ذكر السرير] في حديثٍ طَويلٍ عَن عُمَرَ، والتِّرمذيُّ [٢٣٧٧] وابنُ ماجَهْ [٤١٠٩] عَن ابنِ مَسعودٍ.

(٢) حديثُ عائشةَ (لَمْ يَمْتَلِئْ...): الحديثُ بطُوله لَمْ أَقِفْ عَلَيْه هكذا؛ ولكنْ أَخرَجَه ابنُ أَبي حاتمٍ في تفسيره من حديثها [١٨٥٨٣] قالَتْ: ظَلَّ رسولُ الله ﷺ صائماً ثُمَّ طَوَاه، ثُمَّ ظَلَّ صائماً ثُمَّ طَواه، ثُمَّ ظَلَّ صائماً، قالَ: يا عائشةُ إنَّ الدنيا لا تَنبَغي لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ، يا عائشةُ إنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ من أُولي العَزْمِ من الرُّسُلِ إلا بالصبرِ على مَكروهِها، والصبرِ عنْ مَحبوبِها، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ مِنِّي إلا أنْ يُكلِّفَني ما كَلَّفَهم، فقالَ: ﴿اصبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وإنِّي واللهِ لأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا جَهْدِي، ولا قوَّةَ إلا باللهِ.

قولُه (ورَغَدَ عَيْشِها): -بِفَتْحِ الدالِ؛ عَطفًا على (جَميعَ)، أوْ بالجَرِّ؛ عَطفًا على (كُنوز)- أيْ سَعَتَه، و«الرَّغْدُ»: بفتحتَيْنِ ويُسَكَّنُ الثاني -عَلى ما في «القاموسِ».

قولُه (مِمَّا أَرى بِهِ مِنَ الجوعِ): أيْ مِنْ أَثَرِ جوعِه المختصِّ بِهِ.

قولُه (وأَقولُ: نَفْسي... إلخ): أيْ والحالُ أنِّي أَقولُ حينَئِذٍ: نَفْسي الفداءُ؛ بالمَدِّ. قولُه (يَقوتُكَ): -بِضَمِّ القافِ- أيْ لَوْ تَوَسَّعْتَ مِنَ البُلْغةِ وتَوَصَّلْتَ إلى المُتْعةِ بِقَدْرِ ما يُعينُكَ على الطاعةِ، لَكانَ أَوْلى مِنْ هَذِه الحالةِ.

قولُه (ما لي ولِلدُّنْيا): استفهامٌ إنكاريٌّ؛ أيْ لا حاجةَ لي إلى الدُّنْيا.

قولُه (فَقَدِموا عَلى رَبِّهِم): أيْ راضينَ بِقَضائِه، وصابِرينَ على بَلائِه.

قولُه (أَسْتَحْيِي): -بياءَيْنِ، وفي نسخةٍ بياءٍ واحدةٍ- أيْ فأَرى نَفْسي مُسْتَحْيِيةً[1].

قولُه (أن يُقَصَّرَ بي): بتشديدِ الصادِ المَفتوحةِ. وقولُه (دونَهم): أيْ دونَ مَرْتَبَتِهم.

قولُه (وأَخِلَّائي): أيْ أَحِبَّائي في المِلَّةِ.

***

(١) لما اعتمد في روايته لغة أهل الحجاز -بياءين- حُقَّ للوصف المفسِّر أن يأتي بلغتهم أيضًا.

فَصْلٌ [في خَوْفِهِ رَبَّهُ وطاعتِهِ لَهُ وشِدَّةِ عِبادَتِهِ ﷺ]

وَأَمَّا خَوْفُهُ رَبَّهُ، وَطاعَتُهُ لَهُ، وشِدَّةُ عِبادَتِهِ، فَعَلى قَدْرِ عِلْمِهِ بِرَبِّهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيمَا حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَتَّابٍ قِرَاءَةً مِنِّي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِمِ الطَرَابُلُسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الله الفَرَبْرِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)(1).

زَادَ فِي رِوَايَتِنَا عَنْ أَبِي عِيسَى التِّرْمِذِيِّ رَفَعَهُ إِلَى أَبِي ذَرٍّ: (أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ)(2)، رُوِيَ هَذَا الكَلَامُ: (وَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ) مِنْ قَوْلِ أَبِي ذَرٍّ نَفْسِهِ، وَهُوَ أَصَحُّ.

(1) حديث (لَوْ تَعلَمونَ ما أَعْلَمُ...): أسنَدَه من طريق البخاريِّ [(٦٤٨٥)، و(٦٦٣٧) من حديث أبي هريرة]، وأخرَجَه مسلمٌ أيضًا [(٩٠١) عن عائشة، و(٢٣٥٩) عن أنس].

(2) حديث أَبي ذَرٍّ (إنِّي أَرَى ما لا تَرَوْنَ...): عزاه إلى الترمذيِّ [٢٣١٢]، وأخرَجَه ابنُ ماجَهْ [٤١٩٠] أيضًا.

قولُه (فَعَلى قَدْرِ عِلْمِهِ بِرَبِّهِ): أيْ بِمِقْدارِ مَعْرِفَتِهِ بعَظَمَتِهِ.

قولُه (عَتَّابٍ): بتشديدِ المُثنَّاةِ الفوقيةِ. قولُه (الطَّرابُلُسِيُّ): بضَمِّ الباءِ الموحَّدةِ واللامِ. قولُه (الفِرَبْرِيُّ): بِكَسرٍ ففَتْحٍ فسُكونٍ، وقولُه (بُكَيْرٍ): بالتصغيرِ.

قولُه (عُقَيْلٍ): بِضَمِّ العَينِ المهمَلةِ وفَتْحِ القافِ، وقولُه (المُسَيَّبِ): بِكَسرِ الياءِ المُشدَّدةِ وفَتْحِها.

قولُه (أَطَّتِ السماءُ): -بِتَشديدِ الطَّاءِ- أيْ صَوَّتَتْ.

قولُه (وحُقَّ لَها): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ ويَنْبَغي لَها، وقولُه (أَنْ تَئِطَّ): أيْ بِكَثْرةِ ما عَلَيْها مِنَ المَلائكةِ؛ فكأنَّهم أَثقَلوها كَثْرةً وقوّةً حَتّى أَطَّتْ، وهوَ تَمثيلٌ لِلتلويحِ بِكَثْرَتِها.

قولُه (عَلى الفُرُشِ): -بِضَمَّتَيْنِ- جَمْعُ «فِراشٍ».

وقولُه (الصُّعُداتِ): -بِضَمَّتَيْنِ، جَمْعُ «صَعيدٍ(1)»- أيِ الطُّرُقاتِ.

وقولُه (تَجْأَرونَ): أيْ حالَ كَوْنِكم تَرْفَعونَ أصواتَكم وتَستغيثونَ.

قولُه (لَوَدِدْتُ): -بِكَسْرِ الدّالِ الأولى- أيْ تَمَنَّيْتُ، وقولُه (تُعْضَدُ): -بِصيغةِ المَجهولِ- أيْ تُقْطَعُ.

(1) «الصُّعُدات» جمع «صُعُدٍ»، و«صُعُدٌ» جمع «صَعيدٍ» كطريقٍ وطرقٍ وطرقاتٍ؛ فهي جمع الجمع، وقيل «الصُّعُداتُ» جمع «صُعْدَةٍ» كظُلْمةٍ، وهي فِناء باب الدار وممرّ الناس بين يديه. ينظر لسان العرب.

وَفِي حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[1]. وَنَحْوُهُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ[2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ يُطِيقُ؟![3] وَقَالَتْ: كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ[4]، وَنَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[5] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأُمِّ سَلَمَةَ[6] وَأَنَسٍ[7]، وَقَالَ: كُنْتَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ مُصَلِّيًا، وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ نَائِمًا.

وَقَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيلَةً، فَاسْتَاكَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ مَعَهُ، فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ الْبَقَرَةَ، فَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَمَكَثَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ: (سُبْحَانَ اللهِ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعَظَمَةِ)، ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةً سُورَةً يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ[8].

---

(١) حديث المُغيرة (أنَّه صَلَّى حتَّى تورَّمَتْ قَدَمَاه): الشيخانِ [البخاريُّ (٤٨٣٦)، ومسلمٌ (٦٤٧١، ٢٨١٩)].

(٢) حديث أَبِي هُريرةَ عنه نحوُه: ابنُ ماجَهْ [١٤٢٠]، والتِّرمذيُّ في «الشمائلِ» [٢٤٩].

(٣) حديث عائشةَ: (كانَ عَمَلُه دِيمَةً...): الشيخانِ [البخاريُّ (٦٤٦٦)، ومسلمٌ (٧٨٣)].

(٤) حديثُها (كانَ يَصومُ...): الشيخانِ [البخاريُّ (١٩٦٩)، ومسلمٌ (١١٥٦)].

(٥) حديثُ ابنِ عبّاسٍ نَحْوُه: الشيخانِ [البخاريُّ (١٩٧١)، ومسلمٌ (١١٥٧)].

(٦) حديثُ أُمِّ سَلَمَةَ نَحْوُه: الترمذيُّ [٢٨٤] والنَّسائيُّ [٢٣٥٢].

(٧) حديثُ أَنَسٍ نَحْوُه: البخاريُّ [١٩٧٢] والترمذيُّ [٧٦٩].

(٨) حديث عوف بن مالك (كُنْتُ مَعَه ليلةً فاسْتاكَ...): أبو داوُدَ [٨٧٣] دون ذكر (فاستاك)، والنَّسائيُّ [١١٣٢].

قولُه (حتّى انتفَخَتْ): أيْ تَوَرَّمَتْ.

قولُه (حَتّى تَرِمَ): -على وَزْنِ «تَعِدُ»- مُضارِعُ «وَرِمَ»، كـ«وَرِثَ»؛ بِمَعْنى «تَوَرَّمَتْ» -كَما في رِوايةٍ-، وأمّا تشديدُ الميمِ على ما في بَعْضِ النُّسَخِ فخَطَأٌ. قالَه المُلّا.

قولُه (أَتَكَلَّفُ هَذا): -بِحَذْفِ إِحْدى التاءَيْنِ وتشديدِ اللّامِ- أيْ تَتَحَمَّلُ هذا التحمُّلَ؟!

قولُه (ديمةً): -بكَسْرِ الدّالِ- أيْ دائمًا باعتِبارِ الغَلَبَةِ، فلا يُنافي تَرْكَه على سَبيلِ النُّدورِ.

قولُه (حتّى نَقولَ): بالنَّصْبِ، ورويَ بالرَّفْعِ، ورويَ بالوجهَيْنِ مخاطِبًا؛ والمَعْنى حَتّى نَظُنَّ.

قولُه (وتَعَوَّذَ): أيِ التَجَأَ مِنَ العُقوبةِ.

قولُه (فمَكَثَ): -بِضَمِّ الكافِ وفَتْحِها- أيْ لَبِثَ.

قولُه (ثُمَّ سورةً سورةً): أيْ ثُمَّ قَرَأَ في كُلِّ رَكْعةٍ سورةً.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ مِثْلُهُ، وَقَالَ: سَجَدَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنْهُ، وَقَالَ: حَتَّى قَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ وَالمَائِدَةَ[١]. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قَامَ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ القُرْآنِ لَيْلَةً[٢].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ[٣].

قَالَ ابْنُ أَبِي هَالَةَ: كَانَ ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، وَقَالَ ﷺ: (إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)[٤]، وَرُوِيَ: (سَبْعِينَ مَرَّةً).

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ سُنَّتِهِ، فَقَالَ: (المَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي، وَالعَقْلُ أَصْلُ دِينِي، وَالحُبُّ أَسَاسِي، وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي، وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسِي، وَالثِّقَةُ كَنْزِي، وَالحُزْنُ رَفِيقِي، وَالعِلْمُ سِلَاحِي، وَالصَّبْرُ رِدَائِي، وَالرِّضَا غَنِيمَتِي، وَالعَجْزُ فَخْرِي، وَالزُّهْدُ حِرْفَتِي، وَاليَقِينُ قُوَّتِي، وَالصِّدْقُ شَفِيعِي، وَالطَّاعَةُ حَسْبِي، وَالجِهَادُ خُلُقِي، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: (وَثَمَرَةُ فُؤَادِي فِي ذِكْرِهِ، وَغَمِّي لِأَجْلِ أُمَّتِي، وَشَوْقِي إِلَى رَبِّي)[٥].

***

(١) حديثُ حُذَيْفةَ مثلُه: مسلمٌ [٢٥٥] ولفظه: (كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد يشوص فاه بالسواك).

(٢) حديثُ عائشةَ (قامَ بآيةٍ منَ القرآنِ ليلةً): الترمذيُّ [٤٤٨]، وأَخْرَجه أحمدُ [٢١٣٢٨، ٢١٣٨٨] والنَّسائيُّ [١٠١٠] بسَنَدٍ صَحيحٍ عَن أَبِي ذَرٍّ، وفَسَّرَ الآيةَ ﴿إنْ تُعَذِّبْهم فإنَّهم عِبادُكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٨].

(٣) حديث عَبْدِ الله الشِّخِّير (أَتَيْتُه وهُوَ يُصَلِّي ولجَوفه أَزيزٌ...): أبو داوُدَ [٩٠٤] والنَّسائيُّ [١٢١٤]، وللترمذيِّ في «الشَّمائِل» [٣٠٥].

(٤) حديث (إنِّي لأَستغفرُ اللهَ مائةَ مَرَّةٍ): سيأتي [ص٥٥٨، أخرجه بهذا اللفظ مسلمٌ (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني، والحديث في الصحيحين بألفاظ متقاربة]

(٥) حديث عَلِيٍّ (المَعرفةُ رأسُ مالي...): موضوعٌ.

قولُه (حَتَّى قَرَأَ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ والنساءَ والمائدةَ): أيْ في رَكعةٍ واحدةٍ، والظاهرُ في أَرْبَعِ رَكَعاتٍ بِتَسليمةٍ أَوْ تَسليمَتَيْنِ.

قولُه (الشِّخِّيرِ): -بِكَسْرِ الشِّينِ المعجمةِ، ثُمَّ خاءٍ معجمةٍ مشدَّدةٍ- صَحابيٌّ.

قولُه (ولِجَوْفِه أزيزٌ): أيْ لِصَدْرِه أزيزٌ: أيْ حَنينٌ؛ وهوَ بكَسْرِ الزاي الأولى. قولُه (كَأَزِيزِ المِرْجَلِ): أيْ كغَلَيانِه؛ وهوَ بكَسْرِ الميمِ وفَتْحِ الجيمِ؛ قِدْرٌ مِنْ نُحاسٍ.

قولُه (والحُبُّ أَساسي): أيْ أَساسُ قَلْبي في حُضوري مَعَ رَبِّي.

قولُه (والرِّضا): -بالقَصْرِ- مَصْدَرٌ، وفي نُسخةٍ بالمَدِّ.

قولُه (والعَجْزُ فَخْري): أيْ أَفتخِرُ بإظهارِ العَجْزِ والافتِقارِ في مَرْتَبةِ العُبوديّةِ. قولُه (والجِهادُ خُلُقي): -بِضَمِّ الخاءِ المعجمةِ واللّامِ؛ وتُسَكَّنُ- أيْ دَأْبي.

***

فَصْلٌ [في كَمالِ صِفاتِ جَميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ]

قَالَ المؤلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى-: اعْلَمْ -وَفَّقَنا اللهُ وَإِيَّاكَ- أَنَّ صِفَاتِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ -صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمُ- مِنْ كَمالِ الخَلْقِ، وَحُسْنِ الصُّورَةِ، وَشَرَفِ النَّسَبِ، وَحُسْنِ الخُلُقِ، وَجَمِيعِ المَحَاسِنِ، هي هَذِهِ الصِّفَةُ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتُ الكَمالِ، وَالكَمالُ وَالتَّمامُ البَشَرِيُّ وَالفَضْلُ، الجَمِيعُ لَهُمْ -صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمُ-؛ إِذْ رُتْبَتُهُمْ أَشْرَفُ الرُّتَبِ، وَدَرَجاتُهُمْ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ.

وَلَكِنْ فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وَقَدْ قَالَ ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ...)، ثُمَّ قَالَ آخِرَ الحَدِيثِ: (عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ)[1].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (رَأَيْتُ مُوسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ، رَجِلٌ، أَقْنَى، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ، كَثِيرُ خِيلَانِ الوَجْهِ، أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ)[2].

(١) حديث (إِنَّ أَوَّلَ زُمْرةٍ يَدْخلونَ الجَنَّةَ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٣٢٧)، ومسلمٌ (٢٨٣٤)] عَن أَبي هُريرةَ.

(٢) حديث أَبي هُريرةَ (رأيْتُ مُوسَى فإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٣٩٤)، ومسلمٌ (١٧٢) من حديث أبي هريرة].

قولُه (مِنْ كَمالِ الخَلْقِ): بفَتْحِ الخاءِ. قولُه (وحُسْنِ الخُلُقِ): -بِضَمَّتَيْنِ- أي السِّيرة.

قولُه (والكَمالُ): بالرَّفْعِ، وقولُه (البَشَرِيُّ): أيِ المَنْسوبُ إلى جِنْسِ البَشَرِ.

قولُه (عَلى عِلْمٍ عَلى العالَمينَ): أيْ عالَمي زَمانِهِم.

قولُه (عَلى صورةِ القَمَرِ): أيْ في هَيْئَتِه مِنْ كَمالِ إنارَتِه.

قولُه (عَلى خَلْقِ رَجُلٍ): أيْ كُلُّهم على صورةِ رَجُلٍ واحِدٍ، وهذا على رِوايةِ فَتْحِ الخاءِ، والأَظْهَرُ الرفعُ[1].

قولُه (فإذا هوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ): -بِفَتْحِ الضادِ المعجَمةِ وسُكونِ الرّاءِ- أيْ خَفيفُ اللَّحْمِ.

قولُه (رَجِلٌ): -بِكَسْرِ الجيمِ، ورويَ فَتْحُها- أيْ شَعْرُه بَيْنَ الجُعودةِ والسُّبوطةِ. قولُه (أَقْنى): أيْ طَويلُ الأَنْفِ.

قولُه (شَنوءةَ): -بِفَتْحِ المعجَمةِ وتشديد النُّونِ[2]- قَبيلةٌ مِنَ اليَمَنِ.

قولُه (رَبْعةٌ): -بِفَتْحِ الرّاءِ وسُكونِ الباءِ المُوَحَّدةِ؛ وقَدْ تُفْتَح- أيْ ما بَيْنَ الطّولِ والقِصَرِ.

قولُه (ديماسٍ): -بِكَسْرِ الدالِ، وتُفْتَحُ- الكِنُّ[3]؛ كأنَّه مُخَدَّرٌ لَمْ يَرَ شَمْسًا.

(١) أي ضم الخاء.

(٢) ورد في «تاج العروس»: «(أَزْدُ شَنُوءَةَ) بالهَمْزِ، على فَعُولة ممدودة، (وقد تُشَدَّد الواوُ) غير مَهْمُوز قَالَه ابن السكّيت، قبيلَةٌ من اليمن»؛ أما تشديد النون فلم أجده.

(٣) الديماس هو الحمَّامُ أو الكِنُّ، والكِنُّ هو الستر، يعني في نضارته وكثرة ماء وجهه كأنه خرج من كِنٍّ. [زبدة المقتفى في تخريج ألفاظ الشفا]

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: (مُبَطَّنٌ، مِثْلُ السَّيْفِ)(١). قَالَ: (وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ بِهِ)(٢). وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ، فِي صِفَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ)(٣). وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْهُ ﷺ: (مَا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَعْدِ لُوطٍ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذِرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ)(٤)، وَيُرْوَى: (فِي ثَرْوَةٍ): أَيْ كَثْرَةٍ وَمَنَعَةٍ، وَحَكَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ قَتَادَةَ، وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ: (مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الوَجْهِ، حَسَنَ الصَّوْتِ؛ فَكَانَ نَبِيُّكُمْ أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتًا)(٥). وَفِي حَدِيثِ هِرَقْلَ: وَسَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَنْسَابِ قَوْمِهَا(٦).

وَقَالَ تَعَالَى فِي أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ...﴾ الآيَتَيْنِ [آل عمران: ٣٣-٣٤]. وَقَالَ فِي نُوحٍ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ...﴾ الآيَةَ [آل عمران: ٤٥].

(١) [أخرجه الخطابي في «غريب الحديث» عن السيدة أم سلمة (١/ ٣٠٢)، وعزاه للواقدي].

(٢) [متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٣٣٩٤) ومسلمٌ (١٦٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا].

(٣) [لم أجده في صفة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -ولعله خطأ من النساخ-، والحديث متفقٌ عليه في وصف عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أخرجه البخاريُّ (٥٩٠٢)، ومسلمٌ (١٦٩)، وغيرهما من حديث عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «أراني الليلة عند الكعبة، فرأيت رجلا آدم، كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال... فسألت: من هذا؟ فقيل: المسيح ابن مريم].

(٤) حديث أَبِي هُرَيرةَ (ما بَعَثَ اللهُ مِن بَعْدِ لُوطٍ نَبيًّا إلَّا في ذِرْوَةٍ مِن قَوْمِه): أبو يَعْلَى [٥٩٣٢ مختصرا] وابنُ جَرير [(١٢/ ٥١٢) بلفظ: «في ثروة من قومه»] من طُرُق، وأَخْرَجَه سَعيدُ بنُ منصورٍ في سُنَنِه [التفسير من سنن سعيد بن منصور ١٠٩٨] عَن ابنِ عَبّاسٍ مَوقوفًا بلَفْظِ (في عِزٍّ)، [وأخرجه أيضًا الترمذيُّ (٣١١٦)، وغيره].

(٥) حديث (ما بَعَثَ اللهُ نَبيًّا إلَّا حَسَنَ الصورة...): عَزَاه للدارَقُطْنِيِّ [«العلل» (١٢/ ١٣٥) من حديث أنسٍ]، وهُوَ في «الشمائل» لِلتِّرمذيِّ [٣٠٣] عَن قَتادةَ مُرْسَلًا.

(٦) حديث هِرَقْلَ: في الصحيحين [البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

قولُه (مُبَطَّنٌ): -بِتَشْديدِ الطاءِ المهمَلَةِ المفتوحةِ- أيْ ضامِرُ البَطْنِ.

قولُه (وأنا أَشْبَهُ وَلَدِ إبراهيمَ بِهِ): (وَلَد): -بِفَتْحِ الواوِ واللّامِ، وبِضَمٍّ فسُكونٍ- أيْ أولادِه مِنَ الأنبياءِ.

قولُه (مِنْ أُدْمِ الرِّجالِ): -بِضَمِّ الهَمْزةِ وسُكونِ الدّالِ المُهْمَلةِ- أيْ مِنْ سُمْرِهم.

قولُه (إنَّه أَوّابٌ): حيثُ كانَ يُفْطِرُ يَوْمًا ويَصومُ يَوْمًا، ويَنامُ بَعْضَ اللَّيْلِ ويَقومُ بَعْضَه.

وَقَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١]. وَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تكونوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى...﴾ الآيَةَ [الأحزاب: ٦٩]. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (كَانَ مُوسَى رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، مَا يُرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ؛ اسْتِحْيَاءً ...) الحَدِيثَ[1]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ الآيَةَ [الشعراء: ٢١].

وَقَالَ فِي وَصْفِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٤-٩٠].

فَوَصَفَهُمْ بِأَوْصَافٍ جَمَّةٍ مِنَ الصَّلَاحِ والهُدَى وَالحُكْمِ وَالاجْتِبَاءِ وَالنُّبُوَّةِ، وَقَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، و﴿[بِغُلَامٍ] عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣، الذاريات: ٢٨]. وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧-١٨]، وَقَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وَقَالَ فِي إِسْمَاعِيلَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ...﴾ الآيَتَيْنِ [مريم: ٥٤-٥٥]، وَفِي مُوسَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١]، وَفِي سُلَيْمَانَ ﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ إِلَى ﴿الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]، وَفِي دَاوُدَ: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وَقَالَ عَنْ يُوسُفَ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وَفِي مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، وَقَالَ فِي شُعَيْبٍ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

---

(١) حديث (كانَ مُوسى رجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا...): البخاري عن أبي هريرة [متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٣٤٠٤)، ومسلمٌ (٣٣٩)، وغيرهما].

قولُه (رَجُلًا حَيِيًّا): -بِكَسْرِ اليَاءِ الأولى وتشديدِ الثانيةِ- قيلَ: بِمَعْنى «شَدِيدِ الحَيَاءِ».

قولُه (سِتِّيرًا): -بكَسْرِ السِّينِ المهمَلةِ وتشديدِ المُثَنّاةِ فَوْقُ مَكسورةً- أيْ كَثيرَ التَّسَتُّرِ، وفي نُسخةٍ صحيحةٍ بِفَتْحٍ فكَسْرٍ تَحتيّةٍ مُخَفَّفةٍ، وقولُه (استِحْيَاءً) وفي نسخة «استحاءةً».

قولُه (سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصابرينَ): أيْ على حُكْمِ اللهِ وقَضائِه.

قولُه (وقالَ في شُعَيْبٍ: سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصالحِينَ): قالَ المُلّا: لَعَلَّ المُصَنِّفَ اختارَ تَزْيِينَ التلوينِ، والتفَنُّنَ في مَقامِ التحسينِ؛ فتارةً عَبَّرَ بـ«في»، وأُخرى بـ«عَنْ».

وَقَـالَ: ﴿وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ أُخَالِفَكُـمْ إِلَى مَـا أَنْهَاكُـمْ عَنْـهُ إِنْ أُرِيـدُ إِلا الإِصْـلاحَ مَـا اسْـتَطَعْتُ﴾ [هـود: ٨٨]، وَقَـالَ: ﴿وَلُوطًـا آتَيْنَـاهُ حُكْـمًا وَعِلْـمًا﴾ [الأنبيـاء: ٧٤]، وَقَـالَ: ﴿إِنَّهُـمْ كَانُـواْ يُسَـارِعُونَ فِي الخَـيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَـا رَغَبـاً وَرَهَبـاً وَكَانُـواْ لَنَـا خَاشِـعِينَ﴾ [الأنبيـاء: ٩٠]، قَـالَ سُـفْيَانُ: هُـوَ الحُـزْنُ الدَّائِـمُ.

فِي آيٍ كَثِـيرَةٍ، ذَكَـرَ فِيهَـا مِـنْ خِصَالِهِـمْ وَمَحَاسِـنِ أَخْلَاقِهِـم الدَّالَّـةِ عَـلَى كَمَالِهِـمْ، وَجَـاءَ مِـنْ ذَلِـكَ فِي الأَحَادِيـثِ كَثِـيرٌ، كَقَوْلِـهِ: (إِنَّـمَا الكَرِيـمُ ابْـنُ الكَرِيـمِ ابْـنِ الكَرِيـمِ ابْـنِ الكَرِيـمِ يُوسُـفُ بْـنُ يَعْقُـوبَ بْـنِ إِسْـحَاقَ بْـنِ إِبْرَاهِيـمَ، نَبِـيٌّ ابْـنُ نَبِـيٍّ ابْـنِ نَبِـيٍّ ابْـنِ نَبِـيٍّ)[1].

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ: (وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ، تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ، وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ)[2].

وَرُوِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَـعَ مَـا أُعْطِـيَ مِـنَ المُلْـكِ لَا يَرْفَـعُ بَـصَرَهُ إِلَى السَّـمَاءِ تَخَشُّـعًا وَتَوَاضُعًـا للهِ تَعَـالَى[3]، وَكَانَ يُطْعِـمُ النَّـاسَ لَذَائِـذَ الأَطْعِمَـةِ، وَيَـأْكُلُ خُبْـزَ الشَّـعِيرِ[4]، وَأُوحِـيَ إِلَيْـهِ: «يَـا رَأْسَ العَابِدِيـنَ، وَابْـنَ مَحَجَّـةِ الزَّاهِدِيـنَ»[5]، وَكَانَـتِ العَجُـوزُ تَعْتَرِضُـهُ وَهُـوَ عَـلَى الرِّيـحِ فِي جُنُـودِهِ؛ فَيَأْمُـرُ الرِّيـحَ فَتَقِـفُ، فَيَنْظُـرُ فِي حَاجَتِهَـا وَيَمْـضِي. وَقِيـلَ لِيُوسُـفَ: مَـا لَـكَ تَجُـوعُ، وَأَنْـتَ عَـلَى خَزَائِـنِ الأَرْضِ؟! قَـالَ: أَخَـافُ أَنْ أَشْـبَعَ؛ فَأَنْسَـى الجَائِـعَ.[6]

قولُـه (ولوطًـا آتَيْنـاه حُكْـمًا وعِلْـمًا): أيْ حِكْمـةً ونُبـوّةً وحُكومـةً في الخُصومـةِ.

قولُـه (هـوَ الحُـزْنُ الدّائـمُ)[1]: أيِ المـورِّثُ لِلمُسـارَعةِ إلى الخَـيْرِ.

قولُـه (إنّـما الكَريـمُ ... إلـخ): الإتْيـانُ بـ(إنَّـما) إيـماءٌ بِحَـصْرِ كَـرَمِ النَّسَـبِ وشَرَفِ الحَسَـبِ.

(١) أي قـال سـفيان في قولـه تعـالى في هـذه الآيـة: ﴿وكانـوا لنـا خاشـعين﴾ الخشـوع هـو الحـزن الدائـم. [زبـدة المقتفـى في تخريـج ألفـاظ الشـفا]

---

(١) حديث (إنَّ الكَريمَ ابنَ الكريم...): البخاريُّ [٣٣٩٠] عَن ابن عُمَرَ، وابنُ حِبّانَ [٥٧٧٦] والحاكمُ [٢/ ٣٤٦] عَن أَبي هُرَيرَةَ.

(٢) حديثُ أَنَس (وكذلك الأنبياءُ تَنامُ أَعيُنُهم ولا تَنامُ قُلوبُهم): البخاريُّ [٣٥٧٠].

(٣) حديث (أنَّ سُليمانَ كانَ لا يَرْفَعُ رأسَه إلى السماءِ تَخَشُّعًا وتَواضُعًا لله...): الطبرانيُّ عَن أَبي هُريرةَ مَرفوعًا [وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٤٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٢٧٠)، وغيرهما عن سلمان بن عامر، وهو معضل].

(٤) قوله (وكانَ يُطعِمُ الناسَ لَذائذَ الأطعمةِ، ويَأكُلُ خُبزَ الشَّعيرِ): أحمدُ في «الزُّهدِ» عَن فَرْقَدٍ السَّبَخيِّ [(٤٦٦) عن عطاء].

(٥) [ذكره الإمام الغزالي في الإحياء (٤/ ٣٤٢)، ولم أجده مسندا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

(٦) [أخرجه الدينوري في المجالسة (١٩٢) عن وهب بن منبه مقطوعًا].

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْهُ ﷺ: (خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)[1]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وَكَانَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ عَمَلًا بِيَدِهِ، يُغْنِيهِ عَنْ مَالِ بَيْتِ اللهِ. وَقَالَ ﷺ: (أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا)[2]، وَكَانَ يَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَفْتَرِشُ الشَّعَرَ، وَيَأْكُلُ خُبْزَ الشَّعِيرِ بِالمِلْحِ وَالرَّمَادِ[3]، وَيَمْزِجُ شَرَابَهُ بِالدُّمُوعِ[4]، وَلَمْ يُرَ ضَاحِكًا بَعْدَ الخَطِيئَةِ، وَلَا شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ؛ حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَزَلْ بَاكِيًا حَيَاتَهُ كُلَّهَا)[5]، وَقِيلَ: بَكَى حَتَّى نَبَتَ العُشْبُ مِنْ دُمُوعِهِ، وَحَتَّى اتَّخَذَتِ الدُّمُوعُ فِي خَدِّهِ أُخْدُودًا[6]، وَقِيلَ: كَانَ يَخْرُجُ مُتَنَكِّرًا؛ يَتَعَرَّفُ سِيرَتَهُ، فَيَسْمَعُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، فَيَزْدَادُ تَوَاضُعًا. وَقِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوِ اتَّخَذْتَ حِمَارًا، فَقَالَ: أَنَا أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ أَنْ يَشْغَلَنِي بِحِمَارٍ[7]، وَكَانَ يَلْبَسُ الشَّعَرَ، وَيَأْكُلُ الشَّجَرَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتٌ؛ أَيْنَمَا أَدْرَكَهُ النَّوْمُ نَامَ[8]،

قوله (خُفِّفَ عَلَى داودَ القرآنُ): أي قراءةُ الزَّبورِ.

قولُه (وألَنّا له الحديدَ): أيْ كالشَّمعِ حتّى يَتصرَّفَ فيه كيفَ يَشاءُ.

قولُه (حتّى نَبَتَ العُشْبُ): بضمِّ العَينِ وسُكونِ الشّينِ المهمَلتَيْنِ وهوَ الحَشيشُ.

قولُه (لَوِ اتَّخذْتَ لَكَ حِمارًا): أيْ لَوِ اخترْتَه لِتَركَبَه أحيانًا عِندَ الحاجةِ إليه.

---

(١) حديث أَبي هُريرةَ (خُفِّفَ على داودَ القرآنُ...) إلى قوله (مِنْ عَمَلِ يَده): البخاريُّ [٣٤١٧] عن أَبي هُريرةَ.

(٢) حديث (أَحَبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صَلَاةُ داوُدَ...) إلى قوله (ويُفْطِرُ يَوْمًا): الشَّيخانِ [البخاريُّ (١١٣١)، ومسلمٌ (١١٥٩)] عن عبدِ اللهِ بن عَمْرو.

(٣) حديث (أنَّه كانَ يَلْبَسُ الصُّوفَ، ويفترِشُ الشَّعَرَ، ويأكلُ خُبْزَ الشَّعيرِ بالمِلْحِ والرَّمادِ...): [ذكره الخازن في التفسير عن وهب ابن منبه].

(٤) حديث (أنَّه كانَ يَمْزِجُ شَرابَه بالدُّموعِ...): ابنُ أَبي حاتم عَن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ ومجاهدٍ موقوفًا [وأخرجه بلفظ المصنف أحمد في الزهد (٣٧٦) عن وهب بن منبه، وابن جرير (٢٠/ ٧٣) عن مجاهد].

(٥) قوله (ولا شاخِصًا بِبَصَرِه إلى السماءِ...): أحمدُ في «الزُّهْد». [وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة (٣١٨٩٣)] مِن طريقِ عَطاءِ بنِ السائبِ عَن أَبي عبدِ اللهِ الجَدَلِيِّ قالَ: (ما رَفَعَ داوُدُ رأسَه إلى السماءِ بَعْدَما أصابَ الخَطيئةَ حَتَّى ماتَ).

(٦) حديث (أنَّه بَكَى حَتَّى نَبَتَ العُشْبُ مِن دُموعِه...): ابنُ أَبي حاتمٍ [١٨٣٤٤] عَن أَنَسٍ مَرفوعًا، وعَنْ مجاهدٍ وغَيْرِه موقوفًا.

(٧) قوله (وقيلَ لِعيسى: لَو اتَّخَذْتَ حِمارًا! قالَ: أنا أَكْرَمُ على اللهِ مِن أَنْ يَشْغَلَني بحِمارٍ): ابنُ أَبي شَيبةَ في مُصَنَّفه [٣٤٢٣٥]، وأحمد في «الزُّهْد» [٣٠٩] عن ثابتٍ.

(٨) قوله (وكانَ يَلْبَسُ الشَّعَرَ، ويأكُلُ الشَّجَرَ، ولَمْ يَكُنْ له بَيْتٌ أينَما أَدرَكَه النومُ نَامَ): أَخرجَ ذلك ابنُ عَساكرَ في تاريخه [٤٧/ ٤١٤] عَن ابنِ عبّاسٍ،=

وَكَانَ أَحَبَّ الأَسَامِي إِلَيْهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مِسْكِينٌ[1]. وَقِيلَ: إِنَّ مُوسَى لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ تُرَى خُضْرَةُ البَقْلِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الهُزَالِ[2]، وَقَالَ ﷺ: (لَقَدْ كَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالفَقْرِ وَالقَمْلِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ العَطَاءِ إِلَيْكُمْ)[3].

وَقَالَ عِيسَى عليه السلام لِخِنْزِيرٍ لَقِيَهُ: اذْهَبْ بِسَلَامٍ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أُعَوِّدَ لِسَانِي النُّطْقَ بِسُوءٍ[4]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ طَعَامُ يَحْيَى العُشْبَ[5]، وَكَانَ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى اتَّخَذَ الدَّمْعُ مَجْرًى فِي خَدِّهِ[6]. وَحَكَى الطَّبَرِيُّ عَنْ وَهْبٍ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ يَسْتَظِلُّ بِعَرِيشٍ، وَكَانَ يَأْكُلُ فِي نُقْرَةٍ مِنْ حَجَرٍ، وَيَكْرَعُ فِيهَا -إِذَا أَرَادَ أَنْ يَشْرَبَ- كَمَا تَكْرَعُ الدَّابَّةُ؛ تَوَاضُعًا للهِ تَعَالَى بِمَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ مِنْ كَلَامِهِ[7].

وَأَخْبَارُهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِم- مَسْطُورَةٌ، وَصِفَاتُهُمْ فِي الكَمَالِ وَجَمِيلِ الأَخْلَاقِ وَحُسْنِ الصُّوَرِ وَالشَّمَائِلِ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ؛ فَلَا نُطَوِّلُ بِهَا، وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَى مَا نَجِدُهُ فِي كُتُبِ بَعْضِ جَهَلَةِ المُؤَرِّخِينَ أَوِ المُفَسِّرِينَ مِمَّا يُخَالِفُ هَذَا.

=وأحمدُ في «الزُّهد» عَن عُبَيد بن عُمَير ومجاهدٍ والشَّعْبيِّ.

(١) حديث (وكانَ أَحَبَّ الأَسامي إِلَيْه أَنْ يُقالَ له: مسكينٌ): أحمدُ في «الزُّهد» [٤٨٧] عن سَعيد بن عبد العزيز قال: بَلَغَني أنَّه ما من كَلمةٍ كانَتْ تُقالُ لِعيسى ابن مَريَمَ أَحَبَّ إِلَيْه من أَنْ يُقالَ: كانَ هذا المسكينُ.

(٢) حديث (أَنَّ موسى لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ كانَتْ تُرَى خُضرةُ البَقْلِ في بَطْنِه مِنَ الهُزَالِ): ابنُ أَبي حاتم [١٦٨٠٩] عَن ابنِ عَبَّاس مَوقوفًا.

(٣) حديث (لَقَدْ كانَ الأنبياءُ يُبْتَلَى أَحَدُهم بالفقرِ والقَمْلِ...): الحاكمُ [١/ ٤٠] عن أَبي سَعيدٍ وصَحَّحَه.

(٤) [أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٠٦) عن أنس رضي الله عنه موقوفًا].

(٥) حديث مجاهدٍ (كان طعامُ يَحيَى العُشْبَ...): أَحمدُ في «الزُّهد» [٤٦٥]، وابنُ أَبي حاتم. [وخرّج السيوطي بعده حديثا لم نجده في الأصل. قال: قوله (وكان يأكل مع الوحش لئلا يخالط الناس): أحمد في الزهد عن أبي إدريس الخولاني].

(٦) [أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٤٧)، وأحمد في الزهد (٤٦٥)، وبن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٤٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٩٠)، و غيرهم عن مجاهد مقطوعًا].

(٧) [أخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٤٣٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٠)].

قولُه (كانَتْ تُرى خُضْرةُ البَقْلِ): أي الَّذي كانَ يأكُلُه بَعْدَ خُروجِه مِنْ مِصْرَ خائفًا يَتَرَقَّبُ مُتَوَجِّهًا إلى مَدْيَنَ.

قولُه (الهُزالِ): -بِضَمِّ الهاءِ- نَقيضُ السِّمَنِ.

قولُه (يَستَظِلُّ بِعَريشٍ)[1]: هوَ بَيْتٌ مِنْ عيدانٍ تُنْصَبُ ويُظَلَّلُ عَلَيْها.

قولُه (وكانَ يأكُلُ في نُقْرةٍ): -بِضَمِّ النونِ وسُكونِ القافِ- أيْ حُفْرةٍ.

قولُه (ويَكْرَعُ فيها): بفتحِ الرّاءِ.

***

---

(١) جاء الفعل منفيا في نسخة الحمزاوي متنا وشرحا: «لا يستظل»، وهو تصحيف طباعي، حيث وردت العبارة مثبتة الفعل في نص الحديث، وكذلك في نسختي الشهاب والقاري.

فَصْلٌ [في حديثِ هِنْدِ بنِ أبي هالةَ في شمائله ﷺ]

قَالَ المؤلِّفُ -رَحِمَه اللهُ-: قَدْ أَتَيْنَاكَ -أَكْرَمَكَ اللهُ- مِنْ ذِكْرِ الأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ، وَالفَضَائِلِ المَجِيدَةِ، وَخِصَالِ الكَمَالِ العَدِيدَةِ، وَأَرَيْنَاكَ صِحَّتَهَا لَهُ ﷺ، وَجَلَبْنَا مِنَ الآثَارِ مَا فِيهِ مَقْنَعٌ، وَالأَمْرُ أَوْسَعُ؛ فَمَجَالُ هَذَا البَابِ فِي حَقِّهِ ﷺ مُمْتَدٌّ يَنْقَطِعُ دُونَ نَفَادِهِ الأَدِلَّاءُ، وَبَحْرُ عِلْمِ خَصَائِصِهِ زَاخِرٌ لَا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ.

وَلَكِنَّا أَتَيْنَا فِيهِ بِالمَعْرُوفِ مِمَّا أَكْثَرُهُ فِي الصَّحِيحِ وَالمَشْهُورِ مِنَ المُصَنَّفَاتِ، واقْتَصَرْنَا فِي ذَلِكَ بِقُلٍّ مِنْ كُلٍّ، وَغَيْضٍ مِنْ فَيْضٍ، وَرَأَيْنَا أَنْ نَخْتِمَ هَذِهِ الفُصُولَ بِذِكْرِ حَدِيثِ الحَسَنِ عَنِ ابْنِ أَبِي هَالَةَ[1]؛ لِجَمْعِهِ مِنْ شَمَائِلِهِ وَأَوْصَافِهِ كَثِيرًا، وَإِدْمَاجِهِ جُمْلَةً كَافِيَةً مِنْ سِيَرِهِ وَفَضَائِلِهِ، وَنَصِلُهُ بِتَنْبِيهٍ لَطِيفٍ عَلَى غَرِيبِهِ وَمُشْكِلِهِ.

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاهِرٍ التَّمِيمِيُّ، قَرَأْتُ عَلَيْهِ، أَخْبَرَكُمُ الفَقِيهُ الأَدِيبُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَسَنِ النَّيْسَابُورِيُّ، وَالشَّيْخُ الفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الحَسَنِ المُحَمَّدِيُّ، وَالقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ الوَخْشِيُّ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الخُزَاعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الهَيْثَمُ بْنُ كُلَيْبٍ الشَّاشِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ سَوْرَةَ الحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفيَانُ بْنُ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا جُمَيْعُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ العِجْلِيُّ إِمْلَاءً مِنْ كِتَابِهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مِنْ وَلَدِ أَبِي هَالَةَ -زَوْجِ خَدِيجَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-

---

(١) حديثُ هند بن أبي هالةَ: أَسْنَدَه المُصَنِّفُ في «الشَّمائل» للتِّرمذيِّ [٧]، وفي مشيخة ابن شَاذَانَ [٦١]، وأخرَجه أيضًا ابنُ سعد [١/ ٤٢٢] والبيهقيُّ في «الدَّلائل» [١/ ٢٨٥]، والطبرانيُّ في «الكبير» [٢٢/ ٤١٤].

قولُه (وأَرَيْنَاكَ صِحَّتَهَا): أيْ أَظْهَرْنا لَكَ صِحّةَ رِوايَتِها.

قولُه (ما فيه مَقْنَعٌ): -بفَتْحِ المِيمِ والنّونِ- ما يُقْنَعُ بِهِ ويُكْتَفى بِذِكْرِه.

قولُه (فمَجالُ هَذا): أيْ سَعَتُه ومَدارُه.

قولُه (نَفادِه): -بفتحِ النونِ ثُمَّ دالٍ مهمَلةٍ- أيْ فَراغِه.

قولُه (بِقُلٍّ مِنْ كُلٍّ): بِضَمِّ القافِ، وفي نسخةٍ «بِقُلٍّ مِنْ كُثْرٍ»، بِضَمِّ الكافِ، وهُما لُغَتانِ في القِلّةِ والكَثْرةِ؛ أيْ على نَقْلٍ قَليلٍ مِنْ كَثيرٍ.

قولُه (وغَيْضٍ مِنْ فَيْضٍ): بالضّادِ المُعجَمةِ فيهِما؛ و«الغَيْضُ»: النَّقْصُ، و«الفَيْضُ»: الزّيادةُ.

قولُه (الوَخْشيُّ): -بِفَتْحِ الواوِ وسُكونِ الخاءِ فشينٍ معجَمَتَيْنِ، وقيلَ: بالحاءِ المهمَلةِ- [نِسْبةٌ إلى «وَخْش»]، قَرْيةٍ مِنْ أعمالِ «بَلْخَ».

قولُه (الخُزاعيُّ): بِضَمِّ الخاءِ المُعْجَمةِ.

وقولُه (كُلَيْبٍ): بالتصغيرِ، وقولُه (الشّاشيُّ): -بِمُعجَمَتَيْنِ- مَنْسوبٌ إلى بَلَدٍ مِنْ وَراءِ النَّهْرِ.

قولُه (سَوْرةَ): بِفَتْحِ المهمَلةِ والراءِ، وقولُه (جُمَيْعُ): بالتصغيرِ.

يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ الله، عَنِ ابْنٍ لِأَبِي هَالَةَ، عَنِ الحسينِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ خَالِي هِنْدَ بْنَ أَبِي هَالَةَ..

قَالَ القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَقَرَأْتُ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي طَاهِرٍ أَحْمَدَ بْنِ الحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ خُذَادَادَ الكَرْجِيِّ البَاقِلَّانِيِّ، قَالَ: وَأَجَازَ لَنَا الشَّيْخُ الأَجَلُّ أَبُو الفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ خَيْرُونٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ شَاذَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ مِهْرَانَ الفَارِسِيُّ قِرَاءَةً مِنِّي عَلَيْهِ، فَأَقَرَّ بِهِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الحَسَنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ المَعْرُوفُ بِابْنِ أَخِي طَاهِرٍ العَلَوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ عَنْ أَخِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ:

قَالَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ -وَاللَّفْظُ بِهَذَا السَّنَدِ-: سَأَلْتُ خَالِي هِنْدَ بْنَ أَبِي هَالَةَ عَنْ حِلْيَةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ وَصَّافًا، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ، قَالَ:

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فَخْمًا مُفَخَّمًا، يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، أَطْوَلَ مِنَ المَرْبُوعِ، وَأَقْصَرَ مِنَ المُشَذَّبِ، عَظِيمَ الهَامَةِ، رَجِلَ الشَّعْرِ، إِنِ انْفَرَقَتْ عَقِيقَتُهُ فَرَقَ، وَإِلَّا فَلَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ إِذَا هُوَ وَفَّرَهُ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ، وَاسِعَ الجَبِينِ، أَزَجَّ الحَوَاجِبِ، سَوَابِغَ مِنْ غَيْرِ قَرَنٍ، ..

وقولُه (يُكَنّى): -بفتحِ الكافِ وتَشديدِ النّونِ المفتوحةِ، وبِسُكونِ الكافِ وتخفيفِ النّونِ- أيْ يُعْرَفُ.

قولُه (خُذاداد): -بِضَمِّ الخاءِ فذالٍ معجمتَيْنِ فأَلِفٍ فدالٍ مهمَلةٍ، وبَعْدَها أَلِفٌ فدالٌ مهمَلةٌ أوْ معجمةٌ- مَعْناه بالفارسيّةِ «عَطاءُ الله».

قولُه (الكَرْجيِّ): بِفَتْحِ الكافِ فسُكونِ الرّاءِ فجيمٍ. قولُه (الباقِلّانيِّ): بتشديدِ اللّامِ.

قولُه (خَيْرونٍ): تَقَدَّمَ ضَبْطُه. قولُه (شاذانَ): بالشِّينِ والذالِ المعجَمَتَيْنِ، وقولُه (مِهْرانَ): بِكَسْرِ الميمِ. قولُه (العَلَويُّ): بفتحتَيْنِ، وقولُه (الحُسَيْنِ): بالتصغيرِ.

قولُه (حِلْيةِ رَسولِ الله): -بِكَسْرِ الحاءِ وسُكونِ اللّامِ- أيْ صِفَتِه.

قولُه (فَخْمًا مُفَخَّمًا): أيْ عَظيمًا في العُيونِ مُكَرَّمًا في القُلوبِ.

قولُه (المُشَذَّبِ): -بتشديدِ الذّالِ المعجمةِ المفتوحةِ- أيِ الطَّويلِ.

قولُه (عَظيمَ الهامةِ): -بِفَتْحِ الميمِ، وبَعْدَها هاءٌ- أيْ كَبيرَ الرَّأْسِ.

قولُه (رَجِلَ الشَّعْرِ): -بِكَسْرِ الجيمِ وفَتْحِ العَيْنِ- أيْ مُتَكَسِّرَه قليلًا.

قولُه (عَقيقَتُه): أيْ شَعْرُ رأسِه. قولُه (وَفَّرَه): بتشديدِ الفاءِ، وقيلَ: بتَخْفيفِه.

قولُه (أَزْهَرَ اللَّوْنِ): أيْ أَبْيَضَ.

قولُه (أَزَجَّ الحَواجِبِ): -بتشديدِ الجيمِ الأولى- أيْ دَقيقَها مَعَ غَزارةِ شَعَرِها.

قولُه (مِنْ غَيْرِ قَرَنٍ): -بفَتْحِ القافِ والرّاءِ، وقَدْ تُسَكَّنُ- أيْ مِنْ دونِ اتِّصالٍ.

قولُه (**بَيْنَهُما عِرْقٌ**): بِكَسْرِ العَيْنِ المُهمَلةِ. قولُه (**أَقْنى العِرْنِينِ**): -بالكَسْرِ- أيْ طَويلَ الأنْفِ. قولُه (**كَثَّ اللِّحْيةِ**): -بتشديدِ المُثَلَّثةِ- أيْ غَزيرَ شَعْرِها. قولُه (**أَدْعَجَ**): أيْ شَديدَ سَوادِ الحَدَقةِ، وقولُه (**ضَليعَ الفَمِ**): أيْ واسِعَه. قولُه (**مُفَلَّجَ الأسْنانِ**): بتشديدِ اللّامِ المفتوحةِ.

قولُه (**المَسْرُبةِ**): -بِضَمِّ الراءِ- ما دَقَّ مِنْ شَعْرِ الصَّدْرِ. قولُه (**جيدُ دُمْيةٍ**): -بِضَمِّ الدالِ وسُكونِ الميمِ- صورةٌ تُعْمَلُ مِنْ عاجٍ أوْ رُخامٍ(١).

قولُه (**مُعْتَدِلَ الخَلْقِ**): -بِفَتْحِ الخاءِ- أيْ مُتَناسِبَ الأعْضاءِ. قولُه (**بادِنًا**): أيْ عَظيمَ البَدَنِ مِنْ جِهةِ اللَّحْمِ. قولُه (**مُتَماسِكًا**): أيْ لَيْسَ بِمُسْتَرْخي اللَّحْمِ.

قولُه (**سَواءَ البَطْنِ والصَّدْرِ**): -بإضافةِ (سَواءَ) إلى ما بَعْدَها- أيْ مُستَوِيَهُما. قولُه (**مُشيحَ الصَّدْرِ**): -بِضَمِّ الميمِ وكَسْرِ المُعجَمةِ فتحتيّةٍ ساكِنةٍ فمُهْمَلةٍ- أيْ باديَه، ورويَ «مَسيحَ» -بِفَتحِ الميمِ ومُهمَلتَينِ؛ مِنَ المِساحةِ والسِّياحةِ- أيْ عَريضَه. قولُه (**بَعيدَ ما بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ**): أيْ وَسيعَ ما بَيْنَ الكَتِفِ والعُنُقِ. قولُه (**ضَخْمَ الكراديسِ**): أيْ عَظيمَ رُؤوسِ العِظامِ.

قولُه (**أَنْوَرَ المُتَجَرَّدِ**): بفتحِ الرّاءِ المُشَدَّدةِ؛ وهوَ ما جُرِّدَ عَنْه ثَوْبُه مِنْ جَسَدِه. قولُه (**مَوْصولَ ما بَيْنَ اللَّبَّةِ والسُّرَّةِ**): -بِفَتحِ اللّامِ وتشديدِ المُوَحَّدةِ- أيْ مَوْضِعِ القِلادةِ؛ وهيَ الصَّدْرُ. قولُه (**كالخَطِّ**): -بتَشديدِ الطّاءِ المُهْمَلةِ- أيْ يَمْتَدُّ مُشابِهًا لِلخَطِّ المستطيلِ. قولُه (**عاريَ الثَّدْيَيْنِ**): -بِفَتْحِ فسُكونٍ- أيْ لَيْسَ علَيْهِما شَعْرٌ.

وقولُه (**الزَّنْدَيْنِ**): -بِفَتْحِ فسُكونٍ- أيْ عَظْمِ الذِّراعَيْنِ. قولُه (**رَحْبَ الراحةِ**): -بِفَتْحِ الرّاءِ وسُكونِ الحاءِ المهمَلةِ، وقَدْ يُضَمُّ أوَّلُه- أيْ وَسيعَ الكَفِّ.

قولُه (**شَثْنَ الكَفَّيْنِ**): -بِسُكونِ المُثَلَّثةِ، وقيلَ: بالفَوْقيّةِ، وهُما لُغَتانِ على ما في «القاموسِ»- أيْ يَميلانِ إلى غِلَظٍ وقِصَرٍ، أوْ إلى غِلَظٍ فَقَطْ. قولُه (**سَبْطَ العَصَبِ**): بفتحِ السينِ المهمَلةِ وسُكونِ الموحَّدةِ، وفي نسخةٍ بِكَسْرِها.

قولُه (**تَكَفُّؤًا**): بِضَمِّ الفاءِ المشدَّدةِ فهَمْزٍ أوْ واوٍ، وسَبَقَ ماضيه. وقولُه (**هَوْنًا**): أيْ بِرِفْقٍ وسُكونٍ. قولُه (**ذَريعَ المِشْيةِ**): -بالذّالِ المُعجَمةِ وكسرِ الميمِ- أيْ سَريعَها. قولُه (**مِنْ صَبَبٍ**): أيْ مُنْحَدَرٍ مِنَ الأرضِ.

.. بَيْنَهُما عِرْقٌ يُدِرُّهُ الغَضَبُ، أَقْنَى العِرْنِينِ، لَهُ نُورٌ يَعْلُوهُ، فَيَحْسَبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، أَدْعَجَ، سَهْلَ الخَدَّيْنِ، ضَلِيعَ الفَمِ، أَشْنَبَ، مُفَلَّجَ الأَسْنَانِ، دَقِيقَ المَسْرُبَةِ، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ، مُعْتَدِلَ الخَلْقِ، بَادِنًا مُتَمَاسِكًا، سَوَاءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ، مُشِيحَ الصَّدْرِ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، ضَخْمَ الكَرَادِيسِ، أَنْوَرَ المُتَجَرَّدِ، مَوْصُولَ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ وَالسُّرَّةِ بِشَعَرٍ يَجْرِي كَالخَطِّ، عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ وَالبَطْنِ مَا سِوَى ذَلِكَ، أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ وَالمَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ، طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ، رَحْبَ الرَّاحَةِ، شَثْنَ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، سَائِلَ الأَطْرَافِ -أَوْ قَالَ: سَائِنَ الأَطْرَافِ، وَسَائِرَ الأَطْرَافِ-، سَبْطَ العَصَبِ، خُمْصَانَ الأَخْمَصَيْنِ، مَسِيحَ القَدَمَيْنِ، يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ، إِذَا زَالَ زَالَ تَقَلُّعًا، وَيَخْطُو تَكَفُّؤًا، وَيَمْشِي هَوْنًا، ذَرِيعَ المِشْيَةِ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ،

---

(١) والمراد شدة بياضه وطوله، ويؤيده ما روي من أن عنقه ﷺ كإبريق فضة. [شرح الشهاب]

وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ جَمِيعًا، خَافِضَ الطَّرْفِ، نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، جُلُّ نَظَرِهِ المُلَاحَظَةُ، يَسُوقُ أَصْحَابَهُ، وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ.

قُلْتُ لَهُ: صِفْ لِي مَنْطِقَهُ، قَالَ:

كَانَ ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَ لَهُ رَاحَةٌ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، طَوِيلَ السُّكُوتِ، يَفْتَتِحُ الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، فَصْلًا لَا فُضُولَ فِيهِ وَلَا تَقْصِيرَ، دَمِثًا لَيْسَ بِالجَافِي وَلَا المُهِينِ، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ، لَا يَذُمُّ شَيْئًا، لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَاقًا وَلَا يَمْدَحُهُ، وَلَا يُقَامُ لِغَضَبِهِ إِذَا تُعُرِّضَ لِلْحَقِّ بِشَيْءٍ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا، إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَّبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا فَضَرَبَ بِإِبْهَامِهِ اليُمْنَى رَاحَتَهُ اليُسْرَى، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، وَيَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ.

وقولُه (**خافِضَ الطَّرْفِ**): أيْ بَصَرِه حَياءً مِنْ رَبِّه. قولُه (**جُلُّ نَظَرِه**): -بِضَمِّ الجيمِ وتشديدِ اللّامِ- أيْ مُعظَمُه. قولُه (**يَسوقُ أصحابَه**): أيْ يُقَدِّمُهم أمامَه.

قولُه (**مَنْطِقَه**): أيْ كَيْفيَّةَ آدابِ نُطْقِه.

قولُه (**دائمَ الفِكرةِ**): أيْ في أَمْرِ الآخِرةِ. قولُه (**بِأَشْداقِه**): أيْ جوانِبِ فَمِه. قولُه (**ويَتَكَلَّمُ بِجَوامِعِ الكَلِمِ**) [أي بالكَلِمِ الجوامِعِ لِمَبانٍ يسيرةٍ ومعانٍ كثيرةٍ][1]، وقولُه (**فَصْلًا**): أيْ حالَ كَوْنِ كَلامِه بَيِّنًا يَعْرِفُه كُلُّ أَحَدٍ.

قولُه (**دَمِثًا**): -بِفَتْحِ المُهمَلةِ [وكَسْرِ ميمٍ] فمُثَلَّثةٍ- أيْ لَيِّنَ الخُلُقِ. قولُه (**لَيْسَ بالجافي**): أيْ غَليظِ الطَّبْعِ. قولُه (**ولا المُهينِ**): -بِفَتْحِ الميمِ وضَمِّها- أيْ لا يُهينُ أَحَدًا مِنَ الناسِ[2]. وقولُه (**وإنْ دَقَّتْ**): أيْ قَلَّتْ.

قولُه (**ذَواقًا**): -بِفَتْحِ أَوَّلِه وتخفيفِ الواوِ- أيْ مأكولًا ومَشْروبًا؛ وأَمّا قولُه ﷺ: (إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الذَّواقينَ والذَّواقاتِ)[3]، فيَعْني بِها سَريعَ النِّكاحِ والطَّلاقِ. قولُه (**ولا يُقامُ لِغَضَبِه... إلخ**): بصيغةِ المَفْعولِ؛ والمَعْنى: «لا يقومُ أَحَدٌ مِنَ الخَلْقِ لِدَفْعِ غضَبِه إذا تَعَرَّضَ له أَحَدٌ في أَمْرِ رَبِّه».

قولُه (**قَلَّبَها**): -بتشديدِ اللّامِ وتخفيفِها- أيْ قَلَّبَ كَفَّيْه إلى السماءِ؛ إيماءً إلى أنَّه فِعْلُ الباري -عَزَّ وجَلَّ. قولُه (**وأَشاحَ**): -بِشينٍ مُعْجَمةٍ وحاءٍ مُهْمَلةٍ في آخِرِه- أيْ مالَ وانقَبَضَ.

قولُه (**غَضَّ طَرْفَه**): -بِفَتْحِ الطاءِ وسُكونِ الراءِ- أيْ غَمَّضَ عَيْنَيْه. قولُه (**ويَفْتَرُّ**): -بتَشْديدِ الرّاءِ- أيْ يُبْدي أسنانَه ضاحِكًا، وقولُه (**عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمامِ**): أيِ البَرَدِ النازِلِ.

---

(١) ساقط من الأصل وأثبتناه كما في شرح القاري.

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية»: «يروى بفتح الميم وضمها، فالضم، من الإهانة: أي لا يهين أحدًا من الناس، فتكون الميم زائدةً. والفتح من المهانة: الحقارة والصغر، وتكون الميم أصلية».

(٣) أخرجه البزار (٣٠٦٤) و(٣٠٦٦)، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٨)، وغيرهم من طرقٍ عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي الباب عن أبي هريرة وأبي أمامة وعبادة بن الصامت بأسانيد ضعيفة. قال عبد الحق الإشبيلي: ليس لهذا الحديث إسنادٌ قويٌّ، وقال ابن القطان: وصدق فيه، وهو حديث مصرَّحٌ في إسناده بالانقطاع. انظر بيان الوهم والإيهام (٢/ ٥٤٧).

قَالَ الحَسَنُ: فَكَتَمْتُهَا عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ زَمَانًا، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ، فَسَأَلَ أَبَاهُ عَنْ مَدْخَلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَخْرَجِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَجْلِسِهِ وَشَكْلِهِ، فَلَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا.

قَالَ الحُسَيْنُ: سَأَلْتُ أَبِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ دُخُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:

كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ، فَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَّأَ دُخُولَهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءًا للهِ، وَجُزْءًا لِأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى العَامَّةِ بِالخَاصَّةِ، وَلَا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا، فَكَانَ مِنْ سِيرَتِهِ فِي جُزْءِ الأُمَّةِ إِيثَارُ أَهْلِ الفَضْلِ بِإِذْنِهِ وَقَسْمَتُهُ عَلَى قَدْرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ؛ مِنْهُمْ ذُو الحَاجَةِ، وَمِنْهُمْ ذُو الحَاجَتَيْنِ، وَمِنْهُمْ ذُو الحَوَائِجِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهِمْ وَيَشْغَلُهُمْ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ وَالأُمَّةَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْهُمْ وَإِخْبَارِهِمْ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ، وَيَقُولُ: (لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنكُمُ الغَائِبَ، وَأَبْلِغُونِي حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغِي حَاجَتَهُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ سُلْطَانًا حَاجَةَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ)، لَا يُذْكَرُ عِنْدَهُ إِلَّا ذَلِكَ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَهُ.

قَالَ: فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ وَكِيعٍ: يَدْخُلُونَ رُوَّادًا، وَلَا يَتَفَرَّقُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ، وَيَخْرُجُونَ أَدِلَّةً، يَعْنِي فُقَهَاءَ.

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ مَخْرَجِهِ، كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟ قَالَ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْزُنُ لِسَانَهُ إلا فِيمَا يَعْنِيهِمْ، وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلَا يُفَرِّقُهُمْ، يُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ بِشْرَهُ وَخُلُقَهُ، وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ، وَيُحَسِّنُ الحَسَنَ وَيُصَوِّبُهُ، وَيُقَبِّحُ القَبِيحَ وَيُوَهِّنُهُ، مُعْتَدِلَ الأَمْرِ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ،

قولُه (ومَجْلِسِه): -بكَسْرِ اللَّامِ- أيْ كَيْفِيَّةِ جُلوسِه. قولُه (وشَكْلِه): بفتحِ أوَّلِه وجوِّزَ كَسْرُه.

قولُه (فكانَ إذا أَوى): بالقَصْرِ.

قولُه (يَدَّخِرُ): بتشديدِ الدَّالِ المُهْمَلةِ، وأَصْلُه «يَذْتَخِرُ» -بالمُعْجَمةِ والتَّاءِ-؛ قُلِبَتِ التَّاءُ دالًا مُهْمَلةً، فصارَ «يَذْدَخِرُ»، ثُمَّ قُلِبَتِ المعجَمةُ مُهْمَلةً، وحَصَلَ الإدغامُ.

قولُه (لِيُبَلِّغ): بالتشديدِ والتخفيفِ.

قولُه (لا يُذْكَرُ عِنْدَه): بصيغةِ المجهولِ.

قولُه (روَّادًا): -بِضَمِّ الراءِ وتشديدِ الواوِ- أيْ حالَ كَوْنِهم طالِبينَ مِنْه العِلْمَ.

قولُه (يَخْزُنُ لِسانَه): -بِضَمِّ الزايِ- أيْ يَجْعَلُه مَخزونًا.

قولُه (ويُؤَلِّفُهم): -بتشديدِ اللامِ- أيْ يوقِعُ الأُلْفةَ بَيْنَهم. قولُه (ولا يُفَرِّقُهم): -بتشديدِ الرَّاءِ- أيْ لا يَتكلَّمُ بِما يُنَفِّرُهم.

قولُه (مِنْ غَيْرِ أنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ): -بكَسْرِ الواوِ- أيْ يَمْنَعُ.

وقولُه (بِشْرَه): -بِكَسْرِ المُوَحَّدةِ- أيْ بَشاشةَ بشرة وَجْهِه.

قولُه (ويُحَسِّنُ): بتشديدِ السينِ وتُخَفَّفُ، وقولُه (ويُصَوِّبُه): -بتشديدِ الواوِ- أيْ يَحْكُمُ بِكَوْنِه صَوابًا.

قولُه (ويوَهِّنُه): -بكَسْرِ الهاءِ مُشَدَّدةً أوْ مخفَّفةً- أيْ يُظْهِرُ قُبْحَه وضَعْفَه.

لَا يَغْفُلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمَلُّوا، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عَتَادٌ، لَا يُقَصِّرُ عَنِ الحَقِّ وَلَا يُجَاوِزُهُ إِلَى غَيْرِهِ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعَمُّهُمْ نَصِيحَةً، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَازَرَةً.

فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ، كَيفَ كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟ فَقَالَ:

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ، وَلَا يُوَطِّنُ الأَمَاكِنَ، وَيَنْهَى عَنْ إِيطَانِهَا، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى القَوْمِ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ نَصِيبَهُ حَتَّى لَا يَحْسَبَ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ لِحَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُنْصَرِفُ عَنْهُ، مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ القَوْلِ، وَقَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ؛ فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الحَقِّ مُتَقَارِبِينَ مُتَفَاضِلِينَ فِيهِ بِالتَّقْوَى -وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى: صَارُوا عِنْدَهُ فِي الحَقِّ سَوَاءً-، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الأَصْوَاتُ، وَلَا تُؤْبَنُ فِيهِ الحُرَمُ، وَلَا تُنْثَى فَلَتَاتُهُ -وَهَذِهِ الكَلِمَةُ مِنْ غَيْرِ الرِّوَايَتَيْنِ[1]-، يَتَعَاطَفُونَ بِالتَّقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ، يُوَقِّرُونَ فِيهِ الكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيَرْفِدُونَ ذَا الحَاجَةِ، وَيَرْحَمُونَ الغَرِيبَ.

فَسَأَلْتُهُ عَنْ سِيرَتِهِ ﷺ فِي جُلَسَائِهِ، فَقَال:

كَانَ ﷺ دَائِمَ البِشْرِ، سَهْلَ الخُلُقِ، لَيِّنَ الجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ وَلَا فَحَّاشٍ، وَلَا عَيَّابٍ وَلَا مَزَّاحٍ، ..

(١) [يعني قوله: (وَلَا تُنْثَى فَلَتَاتُهُ) ثابت من غير الروايتين المذكورتين في سند هذا الحديث في بداية الفصل، وأخرجه بهذه الزيادة الترمذي في الشمائل (٣١٩)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤١٤)، وغيرهما].

قولُه (لا يَغْفُلُ): -بِضَمِّ الفاءِ- أيْ لا يُظْهِرُ الغَفْلَةَ. قولُه (أَوْ يَمَلّوا): -بفتحِ الميمِ وتشديدِ اللّامِ- أيْ يَسْأَموا.

قولُه (إلّا على ذِكْرٍ): مِنْ إفادةِ عِلْمٍ أوْ ذِكْرٍ، أوْ بيانِ حَمْدٍ وشُكْرٍ.

قولُه (ولا يوطِّنُ الأماكنَ، وينهى عَنْ إيطانِها): أيْ لا يَجعلُ لِنَفْسِه مَجْلِسًا مُعَيَّنًا؛ بِحَيثُ لا يَحُلُّ فيه غيرُه.

قولُه (أَوْ بِمَيْسورٍ مِنَ الْقَوْلِ): أيْ بِما تَيَسَّرَ له.

قولُه (متقاربينَ): كالأولادِ عِنْدَ الوالِدَيْنِ.

قولُه (مَجْلِسُ حِلْمٍ): أيْ وَقارٍ وسَكينةٍ.

قولُه (ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ): أيْ لا يُذْكَرْنَ فيهِ بِسوءٍ. قولُه (ولا تُنْثى): -بِضَمِّ أوَّلِه فنونٍ ساكنةٍ وفَتْحِ المُثَلَّثةِ- أيْ لا تُشاعُ ولا تُذاعُ.

قولُه (فَلَتاتُه): -بِفَتْحَتَيْنِ؛ وقَدْ تُسَكَّنُ اللّامُ- أيْ زَلّاتُ مَجْلِسِه.

قولُه (ويَرْفِدونَ ذا الحاجةِ): -بِضَمِّ الفاءِ وكَسْرِها، وحُكِيَ فَتْحُها- أيْ يُعْطونَ ذا الفاقةِ.

قولُه (دائمَ البِشْرِ): أيْ طَلاقةُ وَجْهِه غَيْرُ مُقَيَّدةٍ بِوَقْتٍ. قولُه (لَيِّنَ الجانبِ): -بتشديدِ الياءِ وتُخَفَّفُ- أيْ كامِلَ الرِّفْقِ.

قولُه (لَيْسَ بِفَظٍّ ولا غَليظٍ): أيْ لَيْسَ سَيِّئَ الخُلُقِ ولا قاسِيَ القَلْبِ. قولُه (ولا سَخّابٍ): أيْ صَيّاحٍ. قولُه (ولا فَحّاشٍ): أيْ ذو فُحْشٍ. وقولُه (ولا عَيّابٍ): أيْ على أَحَدٍ في حَضْرَتِه وغَيْبَتِه. قولُه (ولا مَزّاحٍ): -بالزّايِ- أيْ كَثيرِ المِزاحِ، وفي نسخةٍ «مَدّاحٍ» -بدالٍ مُهْمَلةٍ- أيْ يُبالِغُ في مَدْحِ أَحَدٍ.

يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤْيَسُ مِنْهُ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الرِّيَاءِ وَالإِكْثَارِ وَمَا لَا يَعْنِيهِ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا وَلَا يُعَيِّرُهُ وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، لَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الحَدِيثَ، مَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الجَفْوَةِ فِي المَنْطِقِ، وَيَقُولُ: (إِذَا رَأَيْتُمْ صَاحِبَ الحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ)، وَلَا يَطْلُبُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَتَجَوَّزَهُ فَيَقْطَعَهُ بِانْتِهَاءٍ أَوْ قِيَامٍ. هُنَا انْتَهَى حَدِيثُ سُفْيَانَ بْنِ وَكِيعٍ.

وَزَادَ الآخَرُ[1]: قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ سُكُوتُهُ ﷺ؟ قَالَ:

كَانَ سُكُوتُهُ عَلَى أَرْبَعٍ: عَلَى الحِلْمِ وَالحَذَرِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّفَكُّرِ؛ فَأَمَّا تَقْدِيرُهُ فَفِي تَسْوِيَةِ النَّظَرِ وَالاسْتِمَاعِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَمَّا تَفَكُّرُهُ فَفِيمَا يَفْنَى وَيَبْقَى، وَجُمِعَ لَهُ الحِلْمُ ﷺ فِي الصَّبْرِ؛ فَكَانَ لَا يُغْضِبُهُ شَيْءٌ يَسْتَفِزُّهُ، وَجُمِعَ لَهُ فِي الحَذَرِ أَرْبَعٌ: أَخْذُهُ بِالحَسَنِ؛ لِيُقْتَدَى بِهِ، وَتَرْكُهُ القَبِيحَ، لِيُنْتَهَى عَنْهُ، وَاجْتِهَادُ الرَّأْيِ بِمَا أَصْلَحَ أُمَّتَهُ، وَالقِيَامُ لَهُمْ بِمَا جَمَعَ لَهُمْ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وَرَضِيَ عَنْ أَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ[2].

***

قولُه (والإكْثارِ): أيْ مِنْ إكْثارِ القَوْلِ المُمِلِّ.

قولُه (ولا يُعَيِّرُه): -بتَشديدِ الياءِ- أيْ لا يَعيبُه بِعَيْبٍ.

قولُه (ولا يَطْلُبُ عَوْرَتَه): أيْ لا يُسيءُ الظَّنَّ بِهِ.

قولُه (فأَرْفِدوه): أيْ أَعطوه؛ وهوَ بِهَمزةِ قَطْعٍ أوْ وَصْلٍ.

قولُه (حَتّى يَتجَوَّزَه): أيْ يَتَخَلَّصَه.

قولُه (فَفيما يَفْنى ويَبْقى): أيْ يَفْنى مِنْ أحْوالِ الدُّنْيا، ويَبْقى مِنْ أعمالِ الآخِرةِ.

قولُه (لا يُغْضِبُه): -بِضَمِّ الياءِ وكَسْرِ الضادِ المُعْجَمةِ- أيْ لا يَحْمِلُه على غَضَبٍ.

***

(١) [أي الحسن بن علي راويًا عن أخيه الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. كذا في شرح القاري].

(٢) [كذا في الأصل، وفي نسخة القاري: «انتهى الوصف بحمد الله»].

فَصْلٌ فِي تَفْسِيرِ غَرِيبِ هَذَا الحَدِيثِ وَمُشْكِلِهِ

قَوْلُهُ «المُشَذَّبُ» أَي البَائِنُ الطُّولِ فِي نَحَافَةٍ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (لَيْسَ بِالطَّوِيلِ المُمَغَّطِ)(١).

و«الشَّعَرُ الرَّجِلُ»: الَّذِي كَأَنَّهُ مُشِطَ فَتَكَسَّرَ قَلِيلًا، لَيْسَ بِسَبْطٍ وَلَا جَعْدٍ. و«العَقِيقَةُ»: شَعَرُ الرَّأْسِ؛ أَرَادَ إِنِ انْفَرَقَتْ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا فَرَقَهَا، وَإِلَّا تَرَكَهَا مَعْقُوصَةً، وَيُرْوَى «عَقِيصَتُهُ».

و«أَزْهَرُ اللَّوْنِ»: نَيِّرُهُ، وَقِيلَ: أَزْهَرُ: حَسَنٌ، وَمِنْهُ «زَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا»: أَيْ زِينَتُهَا، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (لَيْسَ بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ، وَلَا بِالآدَمِ)(٢)، و«الأَمْهَقُ»: هُوَ النَّاصِعُ البَيَاضِ، و«الآدَمُ»: الأَسْمَرُ اللَّوْنِ، وَمِثْلُهُ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (أَبْيَضُ مُشْرَبٌ)(٣): أَيْ فِيهِ حُمْرَةٌ.

و«الحَاجِبُ الأَزَجُّ»: المُقَوَّسُ الطَّوِيلُ الوَافِرُ الشَّعَرِ، و«الأَقْنَى»: السَّائِلُ الأَنْفِ المُرْتَفِعُ وَسَطُهُ، و«الأَشَمُّ»: الطَّوِيلُ قَصَبَةِ الأَنْفِ، و«القَرَنُ»: اتِّصَالُ شَعَرِ الحَاجِبَيْنِ، وَضِدُّهُ «البَلَجُ»، وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أُمِّ مَعْبَدٍ وَصْفُهُ بِالقَرَنِ.

و«الأَدْعَجُ»: الشَّدِيدُ سَوَادِ الحَدَقَةِ، وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (أَشْكَلُ العَيْنِ، وأَسْجَرُ العَيْنِ)(٤) وَهِيَ الَّتِي فِي بَيَاضِهَا حُمْرَةٌ.

---

(١) حديث (لا بالطويلِ المُمَغَّطِ): الترمذيُّ [٣٦٣٨] والبيهقيُّ [«الدلائل» ١/ ٢٦٩] عَنْ عَلِيٍّ.

(٢) حديث (ليسَ بالأَبيَضِ الأَمْهَقِ، ولا بالآدَمِ): الشيخانِ [البخاريُّ (٣٥٤٨)، ومسلمٌ (٢٣٤٧)] عَن أَنَس.

(٣) حديث (أَبْيَضُ مُشْرَبٌ): التِّرمذيُّ [٣٦٣٨] والبَيهقيُّ [«الدلائل» ١/ ٢٦٩] عَن عَلِيٍّ.

(٤) حديث: (أشكل العين): مسلم [٢٣٣٩] عن جابر بن سمرة، [وقوله (أسجر العين» لم أقف عليه].

(فصلٌ: في تفسيرِ غريبِ هذا الحديثِ): أيْ مِنْ جهةِ المَبْنى. قولُه (ومُشْكِلِه): أيْ مِنْ جهةِ المَعْنى.

قولُه (المُمَغَّطِ): -بِفَتْحِ الميمِ الثانيةِ فمُعْجَمةٍ مُشَدَّدةٍ فمُهْمَلةٍ- أَيِ المُتَناهي طولًا والمُمْتَدِّ قامةً.

قولُه (والعقيقةُ): العَقيقةُ في الأَصْلِ الشَّعَرُ الَّذي وُلِدَ بِهِ الشخصُ؛ يُقالُ: عَقَّ عَنِ المولودِ؛ إذا حَلَقَ عقيقتَه.

قولُه (نَيِّرُه): -بتَشديدِ الياءِ المَكْسورةِ- أيْ مُشْرِقُه.

قولُه (والآدَمُ: الأَسمَرُ اللَّوْنِ) وما وَرَدَ في الحديثِ مِنْ أنَّه كانَ أَسْمَرَ اللَّوْنِ محمولٌ على أنَّ ما بَرَزَ مِنْه لِلشمسِ كانَ أَسْمَرَ، وما سَتَرَتْه ثيابُه كانَ أَبْيَضَ.

قولُه (مُشْرَبٌ): بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِ الرّاءِ مُخَفَّفةً أَوْ مُشَدَّدةً لِلمبالَغةِ.

قولُه (المُقَوَّسُ): -بفَتْحِ الواوِ المُشَدَّدةِ- أيِ المُشَبَّهُ بالقَوْسِ في نَوْعٍ مِنَ الإدارةِ.

قولُه (والقَرَنُ: اتِّصالُ... إلخ): بِفَتْحِ القافِ والرّاءِ وتُسَكَّنُ الرّاءُ.

وقولُه (وضِدُّه البَلَجُ): بِفَتْحِ المُوَحَّدةِ واللّامِ، وفي آخِرِه جيمٌ؛ وهوَ ظُهورُ الفَصْلِ علَيْهِما.

قولُه (وأَسْجَرُ العَيْنِ): بالمُهْمَلةِ والجيمِ، و«أَسْجَرُ» و«أَشْكَلُ» بِمَعْنًى واحِدٍ.

و«الضَّلِيعُ»: الوَاسِعُ، و«الشَّنَبُ»: رَوْنَقُ الأسنانِ وماؤُها، وقِيلَ: رِقَّتُها، وتحزيزٌ فيها، كَمَا يوجَدُ في أسنانِ الشَّبَابِ، و«الفَلَجُ»: فَرْقٌ بَيْنَ الثَّنَايَا، و«دَقِيقُ المَسْرُبَةِ»: خَيْطُ الشَّعَرِ الَّذِي بَيْنَ الصَّدْرِ وَالسُّرَّةِ.

«بَادِنٌ»: ذُو لَحْمٍ، و«مُتَمَاسِكٌ»: مُعْتَدِلُ الخَلْقِ، يُمْسِكُ بَعْضُهُ بَعْضًا، مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (لَمْ يَكُنْ بِالمُطَهَّمِ، وَلَا بِالمُكَلْثَمِ)[1]: أَيْ لَيْسَ بِمُسْتَرْخِي اللَّحْمِ، و«المُكَلْثَمُ»: القَصِيرُ الذَّقَنِ.

و«سَوَاءُ البَطْنِ وَالصَّدْرِ»: أَيْ مُسْتَوِيهِمَا، و«مُشِيحُ الصَّدْرِ»: إِنْ صَحَّتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فَتكُونُ مِنَ الإِقْبَالِ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِي «أَشَاحَ»، أَيْ أَنَّهُ كَانَ بَادِيَ الصَّدْرِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي صَدْرِهِ قَعَسٌ، وَهُوَ تَطَأْمُنٌ فِيهِ، وبه يتَّضِحُ قَوْلُهُ قَبْلُ: «سَوَاءُ البَطْنِ والصَّدْرِ»: أَيْ لَيْسَ بِمُتَقَاعِسِ الصَّدْرِ، وَلَا مُفَاضِ البَطْنِ، وَلَعَلَّ اللَّفْظَ «مَسِيحُ» -بِالسِّينِ وَفَتْحِ المِيمِ-، بِمَعْنَى «عَرِيضٍ»، كَمَا وَقَعَ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى، وَحَكَاهُ ابْنُ دُرَيْدٍ.

و«الكَرَادِيسُ»: رُؤُوسُ العِظَامِ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (جَلِيلُ المُشَاشِ وَالكَتَدِ)[2]، و«المُشَاشُ»: رُؤُوسُ المَنَاكِبِ، و«الكَتَدُ»: مُجْتَمَعُ الكَتِفَيْنِ، و«شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ»: لَحِيمُهُمَا، و«الزَّنْدَانِ»: عَظْمَا الذِّرَاعَيْنِ.

و«سَائِلُ الأَطْرَافِ»: أَيْ طَوِيلُ الأَصَابِعِ، وَذَكَرَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ أَنَّهُ رُوِيَ: «سَائِلُ الأَطْرَافِ، أَوْ قَالَ سَائِنُ بِالنُّونِ»، قَالَ: وَهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ؛ تُبْدَلُ اللَّامُ مِنَ النُّونِ إِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ بِهَا، وَأَمَّا عَلَى الرِّوَايَةِ الأُخْرَى (وَسَائِرُ الأَطْرَافِ) فَإِشَارَةٌ إِلَى فَخَامَةِ جَوَارِحِهِ كَمَا وَقَعَتْ مُفَصَّلَةً فِي الحَدِيثِ.

و«رَحْبُ الرَّاحَةِ»: أَيْ وَاسِعُهَا، وَقِيلَ: كَنَّى بِهِ عَنْ سَعَةِ العَطَاءِ وَالجُودِ.

---

(١) حديث (لَمْ يَكُنْ بالمُطَهَّمِ ولا بالمُكَلْثَمِ): التِّرمذيُّ والبيهقيُّ عَنْ عَلِيٍّ [تقدَّم في الحديث السابق].

(٢) حديث (جَلِيلُ المُشَاشِ والكَتَدِ): الترمذيُّ والبيهقيُّ عن عليٍّ [تقدَّم].

قولُه (رَوْنَقُ الأسنانِ وماؤُها): صَفاؤها وبَهاؤها.

قولُه (المُطَهَّمِ): بِتَشديدِ الهاءِ المفتوحةِ.

وقولُه (المُكَلْثَمِ): بِفَتْحِ المثلَّثةِ. قولُه (الذَّقَنِ): بِفَتْحِ المُعْجَمةِ والقافِ.

قولُه (قَعَسٌ): بفتحِ القافِ والمهملةِ؛ وهوَ خُروجُ الصَّدْرِ ودُخولُ الظَّهْرِ، ضِدُّ الحَدَبِ.

قولُه (وهوَ تطَأْمُنٌ فيه): -بفَتْحَتَيْنِ فسُكونِ هَمْزٍ؛ وقَدْ تُبْدَلُ- أي انخِفاضٌ.

قولُه (مُفاضِ البَطْنِ): -بِضَمِّ الميمِ ففاءٍ فمُعْجَمةٍ- أيْ ضَخْمِه.

قولُه (المُشاشِ): -بِضَمِّ الميمِ ومعجَمَتَيْنِ- أيْ ضَخْمُ رُؤوسِ العِظامِ.

قولُه (وسائلُ الأطرافِ): أيْ أطرافِ يَدَيْه ورِجْلَيْه.

قولُه (الأَنْباريِّ): -بِفَتْحِ الهَمْزةِ بَعْدَها نونٌ ساكِنةٌ- مَنْسوبٌ إلى مَدينةِ «أَنْبارَ».

قولُه (رَحْبُ الرّاحةِ): بِفَتْحِ الراءِ وضَمِّها.

و«خُمْصَانُ الأَخْمَصَيْنِ»: أَيْ مُتَجَافِي أَخْمَصِ القَدَمِ، وَهُوَ المَوْضِعُ الَّذِي لَا تَنَالُهُ الأَرْضُ مِنْ وَسَطِ القَدَمِ.

و«مَسِيحُ القَدَمَيْنِ»: أَيْ أَمْلَسُهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ: (يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ)، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ خِلَافُ هَذَا؛ قَالَ فِيهِ: (إِذَا وَطِئَ بِقَدَمِهِ وَطِئَ بِكُلِّهَا، لَيْسَ لَهُ أَخْمَصُ)(1)، وَهَذَا يُوَافِقُ مَعْنَى قَوْلِهِ «مَسِيحُ القَدَمَيْنِ»، وبه قَالُوا: سُمِّيَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، أَيْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْمَصُ، وَقِيلَ: «مَسِيحٌ» لَا لَحْمَ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَيْضًا يُخَالِفُ قَوْلَهُ «شَثْنُ القَدَمَيْنِ».

و«التَّقَلُّعُ»: رَفْعُ الرِّجْلِ بِقُوَّةٍ، و«التَّكَفُّؤُ»: المَيْلُ إِلَى سَنَنِ المَمْشَى وَقَصْدِهِ، و«الهَوْنُ»: الرِّفْقُ وَالوَقَارُ، و«الذَّرِيعُ»: الوَاسِعُ الخَطْوِ، أَيْ أَنَّ مَشْيَهُ كَانَ يَرْفَعُ فِيهِ رِجْلَيْهِ بِسُرْعَةٍ، وَيَمُدُّ خَطْوَهُ؛ خِلَافَ مِشْيَةِ المُخْتَالِ، وَيَقْصِدُ سَمْتَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِرِفْقٍ وَتَثَبُّتٍ دُونَ عَجَلَةٍ، كَمَا قَالَ (كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ).

وَقَوْلُهُ: «يَفْتَتِحُ الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ»: أَيْ لِسَعَةِ فَمِهِ، وَالعَرَبُ تَتَمَادَحُ بِهَذَا، وَتَذُمُّ بِصِغَرِ الفَمِ.

و«أَشَاحَ»: مَالَ وَانْقَبَضَ، و«حَبُّ الغَمَامِ»: البَرَدُ، وَقَوْلُهُ «فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالخَاصَّةِ عَلَى العَامَّةِ»: أَيْ جَعَلَ مِنْ جُزْءِ نَفْسِهِ مَا يُوَصِّلُ الخَاصَّةَ إِلَيْهِ، فَتُوَصِّلُ عَنْهُ لِلْعَامَّةِ، وَقِيلَ: يَجْعَلُ مِنْهُ لِلْخَاصَّةِ، ثُمَّ يُبْدِلُهَا فِي جُزْءٍ آخَرَ بِالعَامَّةِ.

و«يَدْخُلُونَ رُوَّادًا»: أَيْ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، وَطَالِبِينَ لِمَا عِنْدَهُ، «وَلَا يَنْصَرِفُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ»: قِيلَ: عَنْ عِلْمٍ يَتَعَلَّمُونَهُ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَيْ فِي الغَالِبِ وَالأَكْثَرِ.

و«العَتَادُ»: العُدَّةُ وَالشَّيْءُ الحَاضِرُ المُعَدُّ، و«المُوَازَرَةُ»: المُعَاوَنَةُ.

---

(1) حديث أبي هريرة (إذا وَطِئَ بقدَمه وَطِئَ بكُلِّها، لَيْسَ له أَخْمَصُ): البيهقيُّ [«الدلائل» 1/ 274].

قولُه (وخُمْصانُ): بِضَمِّ أوَّلِه.

قولُه (لَيْسَ لَه أَخْمَصُ): النفيُ مَحْمولٌ على المبالَغةِ، أوْ أنَّه مُدْرَجٌ مِنَ الرَّاوي بِحَسَبِ ما فَهِمَه مِنَ الحديثِ؛ قالَ المُلّا: وهذا أَحْسَنُ مِمّا جَمَعَ بِه المُصنِّف.

قولُه (شَثْنُ القَدَمَيْنِ): بالشِّينِ المعجمةِ وسُكونِ المُثلَّثةِ.

وقولُه (المَمْشى): بِفَتْحِ الميمِ الأولى وسُكونِ الثانيةِ؛ مَصْدَرٌ ميميٌّ، وفي نسخةٍ «المَشْيِ».

قولُه (وقَصْدِه): -بالجَرِّ- عَطْفٌ على (سَنَنِ).

قولُه (ويَقْصِدُ): بِكَسْرِ الصادِ.

قولُه (سَمْتَه): -بِفَتْحِ السينِ المُهْمَلةِ- أيْ مَقْصَدَه في طريقِه بِدونِ مَيْلٍ عَنْ وَسَطِه. وقولُه (صَبَبٍ): بفتحتَيْنِ، وفي نسخةٍ «مِنْ صُبوبٍ»؛ بِضَمَّتَيْنِ ومَدٍّ.

قولُه (بِصِغَرِ الفَمِ): الباءُ زائدةٌ أوْ سَبَبيّةٌ. وقولُه (البَرَدُ): بفتحتَيْنِ.

قولُه (رُوّادًا): -بِضَمِّ الراءِ وتشديدِ الواوِ- جَمْعُ «رائِدٍ».

قولُه (لا يَنْصَرِفونَ إلّا عَنْ ذَواقٍ): -بِفَتْحِ الذّالِ المعجمةِ- بِمَعْنى «مَذوقٍ»؛ مِنَ الذَّوْقِ المَعْنَويِّ أوِ الحِسّيِّ، وفي نسخةٍ «لا يَتفرَّقونَ».

قولُه (والعَتادُ): بفَتْحِ العَيْنِ المهمَلةِ، وقولُه (العُدّةُ): بِضَمِّ العَيْنِ.

وَقَوْلُهُ «لَا يُوطِنُ الأَمَاكِنَ»: أَيْ لَا يَتَّخِذُ لِمُصَلَّاهُ مَوْضِعًا مَعْلُومًا، وَقَدْ وَرَدَ نَهْيُهُ عَنْ هَذَا مُفَسَّرًا فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ[1]، و«صَابَرَهُ»: أَيْ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يُرِيدُ صَاحِبُهُ.

و«لَا تُؤْبَنُ فِيهِ الحُرَمُ»: أَيْ لَا يُذْكَرْنَ بِسُوءٍ، و«لَا تُنْثَى فَلَتَاتُهُ»: أَيْ لَا يُتَحَدَّثُ بِهَا، أَيْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَلْتَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أَحَدٍ سُتِرَتْ.

و«يُرْفِدُونَ»: يُعِينُونَ، و«الصَّخَّابُ»: الكَثِيرُ الصِّيَاحِ. وَقَوْلُهُ «وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ»: قِيلَ: مُقْتَصِدٍ فِي ثَنَائِهِ وَمَدْحِهِ، وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُسْلِمٍ، وَقِيلَ: إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ عَلَى يَدٍ سَبَقَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، و«يَسْتَفِزُّهُ»: يَسْتَخِفُّهُ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي وَصْفِهِ: (مَنْهُوسُ العَقِبِ)[2]: أَيْ قَلِيلُ لَحْمِهَا، و«أَهْدَبُ الأَشْفَارِ»: أَيْ طَوِيلُ شَعَرِهَا.

***

قولُه (ولا تُؤْبَنُ): بِضَمِّ أَوَّلِه والهَمْزِ، وقولُه (تُنْثى): بِضَمِّ أَوَّلِه وسُكونِ [النونِ وفَتْحِ] المُثَلَّثَةِ.

قولُه (لَمْ تَكُنْ فيه فَلْتَةٌ): قالَ المُلَّا: «فالنَّفْيُ مُنْصَبٌّ على القَيْدِ والمُقَيَّدِ مَعًا».

قولُه (يَسْتَفِزُّه): بتشديدِ الزّاي.

قولُه (وأَهْدَبُ الأَشْفارِ): أي أشفارِ العينَيْنِ، جَمْعُ «شُفْرٍ» -بالضَّمِّ-؛ وهوَ حروفُ الأجفانِ الَّتي يَنْبُتُ عَلَيْها الشَّعْرُ.

***

(١) حديث (النهي عَن إيطانِ الأماكنِ...): الحاكمُ وصحَّحه [١٨/ ٢٢٩]، والبيهقيُّ في سُنَنه [٢٧٢٧] عَن عبدِ الرحمن بن شِبْلٍ: (نَهَى رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُوطِنَ الرجُلُ المَكانَ كَما يُوطِنُه البَعيرُ) [وأخرجه عنه أيضًا أحمد (١٥٥٣٢)، وأبو داود (٨٦٢)، والنَّسائيُّ (١١١٢)، وابن ماجه (١٤٢٩)، وغيرهم].

(٢) حديث (مَنهوسُ العَقِبِ): مسلمٌ [٢٣٣٩] عَن جابرِ بنِ سَمُرةَ.

البابُ الثالثُ:

فِيمَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ الأخبَارِ وَمَشهُورِها بعَظِيم قَدْرِه عِنْدَ رَبِّه، وَمَنزِلَتِه، وَمَا خَصَّهُ بهِ في الدَّارَيْنِ من كَرامَتِه ﷺ

لاَ خِلَافَ أَنَّهُ -صَلَواتُ الله وَسَلَامُه عَلَيْهِ- أَكْرَمُ البَشَرِ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَفْضَلُ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- وَأَعْلاهُمْ دَرَجَةً، وَأَقْرَبُهُمْ زُلْفَى.

وَاعْلَمْ أَنَّ الأَحَادِيثَ الوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدِ اقْتَصَرْنَا مِنْهَا عَلَى صَحِيحِهَا وَمُنْتَشِرِهَا، وَحَصَرْنَا مَعَانِيَ مَا وَرَدَ مِنْهَا فِي اثْنَيْ عَشَرَ فَصْلًا:

***

قولُه (بِعَظِيمِ قَدْرِه): مُتَعَلِّقٌ بـ(وَرَدَ)، والباءُ لِلتعديةِ، أيْ بِمِقْدارِه العظيمِ.

قولُه (وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ): لِحديثِ التِّرْمذيِّ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القيامةِ، وبِيَدي لِواءُ الحَمْدِ ولا فَخْرَ)[1].

قولُه (وأَقْرَبُهم زُلْفى): أيْ تَقَرُّبًا.

قولُه (جِدًّا): -بِكَسْرِ الجيمِ وتشديدِ الدالِ المفتوحةِ مُنَوَّنًا- المُرادُ به المبالَغةُ في الكَثْرةِ.

***

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٦١٥) [باب فضل النبيِّ ﷺ]، وابن ماجه في (٤٣٠٨) [باب ذكر الشفاعة]، وغيرهما من حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي الباب عن عددٍ من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بأسانيد صحيحة.

الفَصْلُ الأَوَّلُ: فِيمَا وَرَدَ مِنْ ذِكْرِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالاصْطِفَاءِ، وَرِفْعَةِ الذِّكْرِ، وَالتَّفْضِيلِ، وَسِيَادَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَمَا خَصَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَزَايَا الرُّتَبِ، وَبَرَكَةِ اسْمِهِ الطَّيِّبِ

أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ العَدْلُ إِذْنًا بِلَفْظِهِ، قَالَ: أَخبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الفَرْغَانِيُّ، حَدَّثَتْنَا أُمُّ القَاسِمِ بِنْتُ أَبِي بَكْرِ بْنِ يَعْقُوبَ عَنْ أَبِيهَا، حَدَّثَنَا حَاتِمٌ -وَهُوَ ابْنُ عُقَيْلٍ- عَنْ يَحْيَى -وَهُوَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ- عَنْ يَحْيَى الحِمَّانِيِّ، حَدَّثَنَا قَيْسٌ عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(إِنَّ اللهَ قَسَمَ الخَلْقَ قِسْمَيْنِ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قِسْمًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أَصْحَابُ اليَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، ﴿وأصحابُ الشِّمَالِ﴾[الواقعة: ٤١]؛ فَأَنَا مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ، وَأَنَا خَيْرُ أَصْحَابِ اليَمِينِ، ثُمَّ جَعَلَ القِسْمَيْنِ أَثْلاثًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا ثُلُثًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصحابُ المَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصحابُ المَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ٨-١٠]؛ فَأَنَا مِنَ السَّابِقِينَ، وَأَنَا خَيْرُ السَّابِقِينَ، ثُمَّ جَعَلَ الثَّلاثَ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا قَبِيلَةً، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فَأَنَا أَتْقَى وَلَدِ آدَمَ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللهِ وَلَا فَخْرَ، ثُمَّ جَعَلَ القَبَائِلَ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا بَيْتًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]).[1]

(١) حديث ابن عباس (إِنَّ اللهَ قَسَمَ الخَلْقَ قِسْمَيْنِ...): الطبرانيُّ [٣/ ٥٦]، والبيهقيُّ في «الدَّلائل» [١/ ١٧٠].

قولُه (مِنْ مَزايا الرُّتَبِ): أيْ مِنَ الرُّتَبِ الدالَّةِ على مَزاياه.

قولُه (العَدْلُ): -بفتحِ العينِ وسكونِ الدالِ- التميميُّ، ماتَ سَنةَ إحدى وخَمسِمائةٍ. قولُه (الفَرْغانيُّ): -بفَتحِ الفاءِ- مَنْسوبٌ إلى «فَرْغانةَ» بَلْدةٍ بالمَشْرِقِ.

قولُه (وهوَ ابنُ عُقَيْلٍ): بالتصغيرِ، وقالَ التِّلِمْسانيُّ: بِفَتْحِ العَيْنِ المُهْمَلةِ وكَسْرِ القافِ. قولُه (الحِمّانيِّ): -بكسرِ الحاءِ المهمَلةِ وتشديدِ الميمِ وبَعْدَ الأَلِفِ نونٌ ثُمَّ ياءُ نِسبةٍ- حافظٌ كوفيٌّ.

قولُه (حَدَّثَنا قَيْسٌ): استَظْهَرَ الحَلَبيُّ أنَّه أبو محمدٍ قَيْسُ بنُ الرَّبيعِ الكوفيُّ، رَوى عَنْه أبو نَعيمٍ. قولُه (عَنْ عَبايةَ): بِفَتْحِ العَيْنِ والباءِ المُوَحَّدةِ فأَلِفٍ وبَعْدَها ياءٌ تَحتيّةٌ.

قولُه (قِسْمَيْنِ): -بكَسْرِ القافِ- أيْ شَقيًّا وسَعيدًا. قولُه (فَجَعَلَني مِنْ خَيْرِها قَبيلةً): وهُمُ العَرَبُ. قولُه (ولا فَخْرَ): أيْ ولا أقولُه افتِخارًا بِهِ؛ بَلْ تَحَدُّثًا بِنعمةِ اللهِ لِأَمْرِه سُبْحانَه وتَعالى بذلكَ في قولِه: ﴿وَأَمّا بِنِعمةِ رَبِّكَ فحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، أوْ ولا فَخْرَ لي بذلكَ؛ لِأَنَّه ليسَ مِنْ قِبَلي.

قولُه (بُيوتًا): أيْ بُطونًا وأَفْخاذًا. قولُه (فَجَعَلَني مِن خَيْرِها بَيْتًا): وهوَ بَيْتُ بَني هاشِمٍ، مِنْ بَطْنِ قُرَيْشٍ. قولُه (الرِّجْسَ): وَسَخُ الشِّرْكِ ودَنَسُ المَعْصيةِ.

وَعَـنْ أَبِي سَـلَمَةَ، عَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ قَـالَ: قَالُـوا: يَـا رَسُـولَ الله، مَتَـى وَجَبَـتْ لَـكَ النُّبُـوَّةُ؟ قَـالَ: (وَآدَمُ بَـيْنَ الـرُّوحِ والجَسَـدِ).[١]

وَعَـنْ وَاثِلَـةَ بْـنِ الأَسْـقَعِ قَـالَ: قَـالَ ﷺ: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَـى مِـنْ وَلَـدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَـى مِـنْ وَلَـدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِـي كِنَانَـةَ، وَاصْطَفَـى مِـنْ بَنِي كِنَانَـةَ قُرَيْشًـا، وَاصْطَفَى مِـنْ قُرَيْشٍ بَنِـي هَاشِـمٍ، وَاصْطَفَانِي مِـنْ بَنِي هَاشِـمٍ).[٢]

وَمِـنْ حَدِيـثِ أَنَـسٍ: (أَنَـا أَكْـرَمُ وَلَـدِ بَنِـي آدَمَ عَـلَى رَبِّي وَلَا فَخْـرَ)[٣]، وَفِي حَدِيـثِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ: (أَنَـا أَكْـرَمُ الأَوَّلِـينَ وَالآخِرِيـنَ وَلا فَخْـرَ)[٤].

وَعَـنْ عَائِشَـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنْـه ﷺ: (أَتَـانِي جِبْرِيـلُ، فَقَـالَ: قَلَّبْـتُ مَشَـارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا، فَلَـمْ أَرَ رَجُـلًا أَفْضَـلَ مِـنْ مُحَمَّـدٍ ﷺ، وَلَمْ أَرَ بَنِـي أَبٍ أَفْضَـلَ مِـنْ بَنِـي هَاشِـمٍ).[٥] وَعَـنْ أَنَـسٍ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ أُتِيَ بِالْـبُرَاقِ لَيْلَـةَ أُسْرِيَ بِـهِ، فَاسْـتَصْعَبَ عَلَيْـهِ، فَقَـالَ لَـهُ جِبْرِيـلُ: أَبِمُحَمَّـدٍ تَفْعَـلُ هَـذَا؟! فَـمَا رَكِبَـكَ أَحَـدٌ أَكْـرَمُ عَـلَى اللهِ مِنْـهُ، فَارْفَـضَّ عَرَقًـا.[٦]

وَعَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لَمَّـا خَلَـقَ اللهُ آدَمَ أَهْبَطَنِـي إِلَى الأَرْضِ فِي صُلْبِـهِ، وَجَعَلَنِـي فِي صُلْـبِ نُـوحٍ فِي السَّـفِينَةِ، وَقَـذَفَ بِي فِي النَّـارِ فِي صُلْـبِ إِبْرَاهِيـمَ، ثُـمَّ لَمْ يَـزَلْ يَنْقُلُنِـي فِي الأَصْـلَابِ الْكَرِيمَـةِ إِلَى الأَرْحَـامِ الطَّاهِـرَةِ، حَتَّـى أَخْرَجَنِي بَـيْنَ أَبَـوَيَّ، لَمْ يَلْتَقِيَـا عَـلَى سِـفَاحٍ قَـطُّ[٧].

---

(١) حديث أبي هريرة (مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قالَ: وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ): الترمذيُّ وصَحَّحَه [٣٦٠٩].

(٢) حديث واثِلَةَ: مسلمٌ [٢٢٧٦].

(٣) حديث أنَسٍ (أنا أكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ على رَبِّي، ولا فَخْرَ): الترمذيُّ [٣٦١٠].

(٤) حديث (أنا أكرمُ الأوَّلين والآخِرينَ ولا فَخْرَ): الترمذي [٣٦١٦].

(٥) حديث عائشة (أَتاني جبريلُ، فقالَ: قَلَّبْتُ مشارقَ الأرض...): الطَّبرانيُّ في «الأوسَط» [٦٢٨٥]، والبَيهقيُّ [«الدلائل» ١/ ١٧٦]، وأبو نُعَيم في «الدَّلائل».

(٦) حديث أنس (أنَّه أُتِيَ بالبُراق...): تقدَّمَ أوَّلَ الكتاب [انظر ص٤٦].

(٧) حديث ابن عبّاس (لَمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ...): ابنُ أَبي عُمَرَ العَدَنيُّ في مُسْنَده [كما في «إتحاف الخيرة» (٦٣٠٧)، و«المطالب العالية» (٤٢٠٩)، وذكره أبو سعد في «شرف المصطفى» (٧٨)].

قولُـه (كِنانَـة): بِكَسْرِ الكافِ.

قولُـه (قَلَّبْتُ مَشارِقَ الأرضِ... إلخ): بتخفيفِ اللّامِ وتشديدِها؛ وهوَ أبْلَغُ.

قولُـه (فارْفَضَّ عَرَقًا): -بتشديدِ الضادِ المُعْجَمةِ- أيْ سالَ عَرَقُه مِنْ شِدّةِ ما اعْتَراه.

قولُـه (في صُلْبِه): بِضَمِّ الصادِ المُهْمَلةِ، وحَكى التِّلِمْسانيُّ فَتْحَها.

قولُـه (لَمْ يَلْتَقِيا على سِفاحٍ): -بِكَسْرِ السِّينِ- أيْ عَلى حالٍ غَيْرِ نِكاحٍ.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمُّه، فيه بِقَوْلِهِ:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فِي الظِّلَالِ * وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتَ البِلادَ لَا بَشَرٌ * أَنْتَ وَلَا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ * أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ * إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِنْ * خِنْدِفَ عَلْيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ
وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأَرْ * ضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي * النُّورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ(١)

وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَبُو ذَرٍّ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا -وَفِي بَعْضِهَا (سِتًّا)- لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلِي، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ)، وَفِي رِوَايَةٍ بَدَلَ هَذِهِ الكَلِمَةِ: (وَقَالَ لِي سَلْ تُعْطَهْ)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (وَعُرِضَ عَلَيَّ أُمَّتِي، فَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ التَّابِعُ مِنَ المَتْبُوعِ).(٢)

---

(١) أبيات العبَّاس (مِن قبلِها طِبْتَ في الظِّلَال...): أَخْرَجَها أبو بَكرٍ الشافعيُّ في «الغيلانيات» [٢٨٥]، والطَّبَرانيُّ [٤/ ٢١٣] عن خُرَيْم بن أَوْس ابنِ حارِثَةَ [وأخرجه عنه أيضًا الحاكم (٣/ ٣٢٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٦٨)].

(٢) حديث (أُعطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلي...): قالَ المصنِّفُ: عَن أَبي ذَرٍّ: أَخْرَجَه أحمدُ [٢١٣١٤] والبَزَّارُ [٤٠٧٧] والبَيهَقيُّ [٥/ ٤٧٣]، وابنِ عُمَرَ: أَخْرَجَه الطَّبَرانيُّ [١٢/ ٤١٣] وأبو نُعَيْم في «الدَّلائل»، وابنِ عبّاس: أَخْرَجَه أحمدُ [٢٢٥٦] والبَزَّارُ [٤٧٧٦] وابنُ أَبي شَيبةَ [٣١٦٤٣] والبَيهقيُّ [٤٢٦٦]، وأَبي هريرة: أَخْرَجَه الشيخانِ [البخاريُّ (٦٩٩٨)، ومسلمٌ (٥٢٣)]، وجابر بن عَبدِ الله: أَخْرَجَه الشيخانِ [البخاريُّ (٤٣٨)، ومسلمٌ (٥٢١)].=

قولُه (فِي الظِّلَالِ): أيْ ظِلالِ الجَنَّةِ.

قولُه (وَفِي مُسْتَوْدَعٍ): بِفَتْحِ الدالِ؛ كَمَا في قولِه تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]. قولُه (يُخْصَفُ الوَرَقُ): بِصيغةِ المَجهولِ، والمَعْنى: «يُضَمُّ بَعْضُه إلى بَعْضٍ».

قولُه (وَأَهْلَهُ الغَرَقُ): -بِفَتْحِ المعجَمةِ والراءِ- أيْ مَنَعَهم مِنَ الكَلامِ، وظُهورِ المَرامِ.

قولُه (تُنْقَلُ): بِصيغةِ المَجْهولِ، وقولُه (صالِبٍ): -بِكَسرِ اللامِ وفَتْحِها- لُغةٌ في «الصُّلْبِ» -بالضمِّ.

قولُه (عالَمٌ بَدا طَبَقُ): بفتحِ اللّامِ، والمَعْنى: «إذا ذهَبَ قَرْنٌ»، وقيلَ لِلقَرْنِ «طَبَقٌ»؛ لِأَنَّه طِبقُ الأرضِ -بِكَسْرِ الطاءِ.

قولُه (مِنْ خِنْدِفَ): -بِكَسْرِ الخاءِ المعجَمةِ وسُكونِ النونِ وكَسْرِ الدّالِ المُهْمَلةِ -وقَدْ تُفْتَحُ- بَعْدَها فاءٌ- المُرادُ امرأةُ إلْياسَ بنِ مُضَرَ. وقولُه (عَلْياءَ): -بِفَتْحِ العَينِ؛ ممدودٌ- أيْ مَنزِلةً عُلْيا، وقولُه (النُّطُقُ): -بِضَمِّ النونِ والطاءِ؛ جَمْعُ «نِطاقٍ»- هيَ أعراضٌ مِنْ جِبالٍ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ.

قولُه (وسُبْلِ الرَّشادِ نَخْتَرِقُ): -بِسُكونِ مُوَحَّدةِ «السُّبْلِ»؛ لُغةٌ في ضَمِّها- جَمْعُ «السَّبيلِ».

قولُه (أُعْطِيتُ خَمْسًا): أيْ خَمْسَ خِصالٍ. قولُه (بِالرُّعْبِ): -بِسُكونِ العَينِ وضَمِّها- أيِ الفَزَعِ والخَوْفِ. قولُه (سَلْ تُعْطَهْ): بِصيغةِ المفعولِ فهاءِ السَّكْتِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: (بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ)(١)، قِيلَ: السُّودُ العَرَبُ؛ لِأَنَّ الغَالِبَ عَلَى أَلْوَانِهِمُ الأُدْمَةُ، وَغَيْرُهُم مِنَ السُّودِ، وَالحُمْرُ العَجَمُ، وَقِيلَ: البِيضُ وَالسُّودُ مِنَ الأُمَمِ، وَقِيلَ: الحُمْرُ الإِنْسُ، وَالسُّودُ الجِنُّ.

وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ جِيءَ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ)(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: (وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ)(٣).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: (إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ عَلَى الحَوضِ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي -وَاللهِ- لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا)(٤). وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ، وَعُلِّمْتُ خَزَنَةَ النَّارِ وَحَمَلَةَ العَرْشِ)(٥).

= قلتُ: ووَرَدَ أيضًا عن عَليٍّ: أَخرجَه أحمدُ [٧٦٣] والبَيهقيُّ [٥/ ٤٧٢ نحوه]، وأَبي موسى: أخرجَه أحمدُ [١٩٧٣٥]، والسائب بن يَزيدَ: أَخرجَه الطَّبرانيُّ [٧/ ١٥٤]، وأَبي سَعيدٍ: الطَّبَرانيُّ في «الأوسَط» [٧٤٣٩]، وابن عمرو: أحمدُ [٧٠٦٨].
رواية (ستا): مسلمٌ [٥٢٣] عَن أَبي هُريرةَ، رواية (وقيلَ لي: سَلْ تُعْطَهْ): هيَ في حديثِ أَبي ذَرٍّ. رواية (وعُرِضَ عَليَّ أُمَّتي فلَمْ يَخْفَ عَليَّ التابعُ مِنَ المتبوعِ): البَزَّارُ [«كشف الأستار» ٥٥]، والبَيهقيُّ [«الدلائل» ٢/ ٣٩٧] عَن أَبي هُريرةَ.

(١) حديث: (بُعِثْتُ إلى الأَحمَرِ والأَسْوَدِ): هُوَ في حديثِ أَبي ذَرٍّ [الحديث السابق].

(٢) حديثُ أَبي هُريرةَ: (نُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأُوتيتُ جَوامعَ الكَلِم، وبَيْنَا أنا نائمٌ إذْ جِيءَ بمَفاتيح خَزائنِ الأرضِ، فوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ): الشيخَانِ [البخاريُّ (٢٩٧٧)، ومسلمٌ (٥٢٣)].

(٣) رواية (وخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ): مُسْلمٌ [٥٢٣] عَنه.

(٤) حديثُ عُقْبَةَ بن عامرٍ: (أنا فَرَطٌ لَكم، وأَنَا شَهيدٌ عَلَيكم...): الشيخانِ [البخاريُّ (١٣٤٤)، ومسلمٌ (٢٢٩٦)] وأَبو داوُدَ [٣٢٢٣] والنَّسائيُّ [١٩٥٤].

(٥) حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو (أنا محمدٌ النبيُّ الأُمِّيُّ...): أَحمدُ [٦٦٠٦] بسَنَدٍ حَسَنٍ.

قولُه (بُعِثْتُ إلى الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ): ظاهِرُه عُمومُ الخَلْقِ كَما ذَهَبَ إِلَيْه بَعْضُهم، وقالَ ﷺ: (بُعِثْتُ حَتّى إلى الحَجَرِ والمَدَرِ والشَّجَرِ وجَميعِ الكائناتِ)(١).

قولُه (إنّي فَرَطٌ لَكُم): أَيْ أنا مُتَقَدِّمُكم، فَرَطُ صِدْقٍ لَكم.

قولُه (أوتيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ... إلخ): أَيْ أُعْطِيَ مَلَكَةً يَقْتَدِرُ بِها على إيجازِ الكَلامِ مَعَ اتِّساعِ المَعْنى بِنَظْمٍ لَطيفٍ.

قولُه (وعُلِّمْتُ... إلخ): بِضَمِّ العَيْنِ وتشديدِ اللّامِ المكسورةِ، ويَجوزُ تَخفيفُها مَعَ فَتْحِ أَوَّلِه. وقولُه (خَزَنَةَ النّارِ): أَيِ المَلائكةَ الموكَلينَ عَلَيْها، وكَبيرُهم يُسَمّى مالِكًا.

---

(١) لم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية. وبعثته للثقلين (الإنس والجن) ثابتة بالقرآن والسنَّة وإجماع الأمَّة، وللعلامة السيد عبدالله بن الصديق رسالة «قُرَّةُ العَيْنِ في أدلة إرسالِ النبيِّ ﷺ للثَّقَلَين». وأدخل بعض العلماء الملائكة، وللإمام السيوطي رسالة «تزيين الآرائك في إرسال النبي ﷺ إلى الملائك»، ودخول الجمادات لعله من باب قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والله أعلم.

قولُه (بَيْنَ يَدَيِ الساعةِ): أيْ قُدّامَها وقَريبًا مِنْها، أيْ مِنْ وُقوعِها؛ كَما رواه أحمدُ والشَّيْخانِ والتِّرْمذيُّ عَنْ أَنَسٍ: (بُعِثْتُ أنا والساعةَ كهاتَيْنِ)(١).

قولُه (الكَوْثَرَ): «فَوْعَلٌ»، مِنَ الكَثْرةِ، ومَعْناه الخَيْرُ الكَثيرُ، وَفي «النِّهايةِ»: «هوَ نَهْرٌ في الجنَّةِ». قولُه (يُنادى بِهِ في جَوْفِ السَّماءِ): أيْ وَقْتَ الأذانِ والخُطبةِ، أوْ فيما بَيْنَ أَهْلِ السَّماءِ. قولُه (فأنتَ تَمْشي في النّاسِ) وفي نسخةٍ «بالنّاسِ»، وفي أخرى «بَيْنَ النّاسِ». قولُه (ولَمْ أَصْنَعْ ذلكَ): أيْ غُفْرانَ ما تَقَدَّمَ وما تَأَخَّرَ -كَما ذَكَرَه الدلجيُّ-، أوِ الإشارةُ لجَميعِ ما تَقَدَّمَ -كَما استَظْهَرَه المُلّا.

قولُه (وجَعَلْتُ قُلوبَ أُمَّتِكَ... إلخ): فيه مَنْقَبةٌ عَظيمةٌ لِحُفّاظِ القُرآنِ مِنَ الأُمَّةِ كَما يُشيرُ إلَيْه قولُه تعالى: ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنّا له لَحافِظونَ﴾ [الحجر: ٩]، وفيه أيضًا تَنْبيهٌ على أنَّ الأُمَمَ السالِفةَ لَمْ يَحْفَظوا أشياءَ مِنْ صُحُفِهم.

قولُه (لَيْسَ عَلَيْهم حِسابٌ): فلا يَكونُ بِجَميعِهم عَذابٌ ولا حِجابٌ، ورويَ: «سَبْعُمائةِ أَلْفٍ مَعَ كُلِّ واحِدٍ سَبْعُمائةِ أَلْفٍ» -كَما ذَكَرَه التِّلْمسانيُّ. قولُه (وأَعْطاني أنْ لا تَجُوعَ أُمَّتي): أيْ جوعًا شَديدًا بِجَدْبٍ وقَحْطٍ؛ بِحَيثُ يَهْلِكُ جَميعُهم. قولُه (وطَيَّبَ لي وَلِأُمَّتي الغَنائِمَ): أيْ «وأَحَلَّ لي ولِأُمَّتي... إلخ»، و(الغَنائمَ): جَمْعُ «غَنيمةٍ»، ووَقَعَ في أصلِ الدلجيِّ: «المَغانِمَ» -جَمْعُ «مَغْنَمٍ»-، وهُما قَريبانِ في الدِّرايةِ، وإنَّما الكَلامُ في الرِّوايةِ.

قولُه (ولَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنا في الدّينِ مِنْ حَرَجٍ): أيْ تَضْييقٍ؛ وهوَ تَعْميمٌ بَعْدَ تخصيصٍ.

(١) متفق عليه أخرجه البخاريُّ (٦٥٠٤) [كتاب الرقاق]، ومسلمٌ (٢٩٥١) [كتاب الفتن وأشراط الساعة]، وغيرهما مِن حديث أنسٍ. وفي الباب عن عددٍ من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ: (بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ)(١)، وَمِنْ رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: سَلْ يَا مُحَمَّدُ! فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، مَا أَسْأَلُ؟! اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَاصْطَفَيْتَ نُوحًا، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: مَا أَعْطَيْتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؛ أَعْطَيْتُكَ الكَوْثَرَ، وَجَعَلْتُ اسْمَكَ مَعَ اسْمِي يُنَادَى بِهِ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ، وَجَعَلْتُ الأَرْضَ طَهُورًا لَكَ وَلِأُمَّتِكَ، وَغَفَرْتُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَأَنْتَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَغْفُورًا لَكَ، وَلَمْ أَصْنَعْ ذَلِكَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُ قُلُوبَ أُمَّتِكَ مَصَاحِفَهَا، وَخَبَأْتُ لَكَ شَفَاعَتَكَ وَلَمْ أَخْبَأْهَا لِنَبِيٍّ غَيْرِكَ)(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ حُذَيْفَةُ: (بَشَّرَنِي -يَعْنِي رَبَّهُ-، أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَعِي مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ، وَأَعْطَانِي أَنْ لَا تَجُوعَ أُمَّتِي وَلَا تُغْلَبَ، وَأَعْطَانِي النَّصْرَ وَالعِزَّةَ، وَالرُّعْبَ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْ أُمَّتِي شَهْرًا، وَطَيَّبَ لِي وَلِأُمَّتِي الغَنَائِمَ، وَأَحَلَّ لَنَا كَثِيرًا مِمَّا شَدَّدَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)(٣).

(١) حديث ابن عُمَرَ (بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ الساعةِ): أحمدُ [٥١١٥] بسَنَدٍ حَسَنٍ.

(٢) حديث (قالَ اللهُ: سَلْ يا محمدُ...): هوَ بَعْضُ حديثِ أبي هُريرةَ في الإسراءِ، أَخْرَجَه البَيهقيُّ [الدلائل ٢/ ٣٩٨].

(٣) حديث حُذَيْفَةَ (بَشَّرَني رَبِّي أَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ...): ابنُ عَساكرَ في تاريخِه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْهُ ﷺ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ)(١). مَعْنَى هَذَا عِنْدَ المُحَقِّقِينَ بَقَاءُ مُعْجِزَتِهِ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَسَائِرُ مُعْجِزَاتِ الأَنْبِيَاءِ ذَهَبَتْ لِلْحِينِ، وَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا الحَاضِرُ لَهَا، وَمُعْجِزَةُ القُرْآنِ يَقِفُ عَلَيْهَا قَرْنٌ بَعْدَ قَرْنٍ عِيَانًا لَا خَبَرًا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وفِيهِ كَلَامٌ يَطُولُ، هَذَا نُخْبَتُهُ، وَقَدْ بَسَطْنَا القَوْلَ فِيهِ، وَفِيمَا ذُكِرَ فِيهِ سِوَى هَذَا آخِرَ بَابِ المُعْجِزَاتِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ: كُلُّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نُجَبَاءَ مِنْ أُمَّتِهِ، وأُعْطِيَ نَبِيُّكُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ نَجِيبًا، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَعَمَّارٌ.(٢)

وَقَالَ ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَدْ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)(٣).

وَعَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنِّي عَبْدُ اللهِ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَعِدَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ)(٤).

(١) حديث أَبِي هُرَيرةَ (ما مِن نَبيٍّ مِن الأنبياءِ إلّا وقَدْ أُعْطِيَ...): الشيخانِ [البخاريُّ (٤٩٨١)، ومسلمٌ (١٥٢)].

(٢) حديث عَلِيٍّ (كُلُّ نَبيٍّ أُعْطِيَ سَبعةَ نُجباءَ...): التِّرمذيُّ وحَسَّنَه [٣٧٨٥]، وابنُ ماجَهْ.

(٣) حديث (إنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ...): الشيخانِ [البخاريُّ (١١٢)، ومسلمٌ (١٣٥٥) عن أبي هريرة].

(٤) حديث العِرْباض بن ساريةَ (إنِّي عَبدُ اللهِ، وخاتَمُ النبيِّينَ وإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِه، دَعْوةُ أَبي إبراهيمَ، وبِشارةُ عيسى): أحمدُ [١٧١٦٣] وابنُ حِبَّانَ [٦٤٠٤] والحاكمُ [٢/ ٦٠٠].

قولُه (عِيانًا): -بِكَسْرِ العَيْنِ- أَيْ مُعايَنةً. قولُه (وهذا نُخْبَتُه): أَيْ خُلاصَتُه. قولُه (آخِرَ بابِ المُعْجِزاتِ): أَيْ في آخِرِه بأَنَّه الأَلْيَقُ بِهِ.

قولُه (سَبْعةَ نُجَباءَ): أَيْ نُقَباءَ فُضَلاءَ، زِيدَ في رِوايةٍ «وُزَراءَ رُفَقاءَ».

قولُه (مِنهم أَبو بَكْرٍ... إلخ): لَفْظُ التِّرْمذيِّ: «قُلْنا: مَنْ هُمْ؟ قالَ: ابناي وجعفرٌ وحَمزةُ وأبو بكرٍ وعُمَرُ ومُصْعَبُ بنُ عُمَيرٍ وبلالٌ وسَلْمانُ وعمّارٌ وابنُ مَسْعودٍ وحُذَيْفةُ وأبو ذَرٍّ والمِقْدادُ»(١).

قولُه (إنَّ اللهَ قَدْ حَبَسَ عَنْ مَكّةَ الفِيلَ): لَمّا جاءَ بِهِ أَبْرَهةُ الحَبَشيُّ في جَيْشِه لِتَخريبِ الكَعْبةِ، فأَهْلَكَه اللهُ بِطَيْرٍ أَبابيلَ تَرْميهِم بحِجارةٍ مِنْ سِجِّيلٍ.

قولُه (العِرْباضِ): بِكَسْرِ العَيْنِ وسُكونِ الرّاءِ وضادٍ مُعْجَمةٍ في آخِرِه.

وقولُه (لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِه): أَيْ والحالُ أَنَّه لَساقِطٌ -أَيْ مطروحٌ- على الجَدالةِ؛ أَي الأرضِ الصُّلْبةِ، والمُرادُ بـ«طِينَتِه»: خِلْقَتُه.

قولُه (وعِدةُ أَبي إبراهيمَ): -بِكَسرِ العَيْنِ وفَتْحِ الدالِ المُخَفَّفةِ- أَيْ وَعْدُه؛ بِمُقْتَضى دُعائِه بقَوْلِه: ﴿رَبَّنا وابْعَثْ فيهِم رَسولًا﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٧٨٥) [أبواب المناقب].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَضَّلَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ، وَعَلَى الأَنْبِيَاءِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ-، قَالُوا: فَمَا فَضْلُهُ عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ؟ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِأَهْلِ السَّمَوَاتِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢]، قَالُوا: فَمَا فَضْلُهُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].(١)

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ -وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ(٢)، وَشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ(٣)، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ(٤)-، فَقَالَ: (نَعَمْ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ -يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]-، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَبَيْنَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِي خَلْفَ بُيُوتِنَا نَرْعَى بَهْمًا لَنَا، إِذْ جَاءَنِي رَجُلانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ -وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ (ثَلاثَةُ رِجَالٍ)-، بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلْجًا، فَأَخَذَانِي فَشَقَّا بَطْنِي وَقَلْبِي -وَقَالَ فِي غَيْرِ هَذَا الحَدِيثِ: (مِنْ نَحْرِي إِلَى مَرَاقِّ بَطْنِي)-، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا مِنْهُ قَلْبِي، فَشَقَّاهُ، فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ، فَطَرَحَاهَا، ثُمَّ غَسَلَا قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثَّلْجِ حَتَّى أَنْقَيَاهُ)(٥).

---

(١) حديثُ ابن عبّاس (إنَّ اللهَ فَضَّلَ محمدًا...): البيهقيُّ [٥/ ٤٨٦] والدارميُّ [٥٠] وابنُ أبي حاتم [١٢٢٠٦].

(٢) حديثُ أَبي ذَرٍّ نَحْوُه: أَخْرَجه الدارميُّ [١٦].

(٣) حديثُ شَدَّاد نَحْوُه: أبو نُعَيم في «الدَّلائل».

(٤) حديثُ أَنَس نَحْوُه: أَخْرَجه أبو نُعَيم أَيْضًا.

(٥) حديث خالد بن مَعْدَانَ: (أنَّ نفرًا قالُوا...): ابنُ إسحاقَ [ص ٥١] هَكذا مُرْسَلًا، وأَخْرَجه الدارميُّ [١٥] وأحمدُ [١٧٦٤٨] موصُولًا من طَريق خالد بن مَعْدَانَ عَنْ عَبدِ الرحمن بن عمرو السُّلَميِّ عَنْ عُتْبَةَ بنِ عَبدِ السُّلَميِّ بطُولِه.

قولُه (مَعْدانَ): بفَتحِ الميمِ وسُكونِ العَيْنِ فدالٍ مُهْمَلَتَيْنِ.

قولُه (وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُه): بِضَمِّ الراءِ وكَسْرِ الواوِ.

وقولُه (وَشَدّادٍ): بتَشديدِ الدالِ الأولى.

قولُه (نَرْعى بَهْمًا): -بفَتْحِ الموَحَّدةِ وسُكونِ الهاءِ- جَمْعُ «بَهْمةٍ»، وَلَدِ الضأْنِ ذَكَرًا كانَ أَوْ أنثى.

قولُه (بِطَسْتٍ): بفَتْحِ الطاءِ -وجوِّزَ كَسْرُها وضَمُّها- فسينٍ مُهْمَلةٍ وكذا بمُعجَمةٍ.

قولُه (إلى مَراقِّ بَطْني): -بفتحِ الميمِ وتخفيفِ الراءِ وتشديدِ القافِ؛ لا واحِدَ له مِنْ لَفظِه- أيْ مِنْ أَعْلى صَدْري إلى ما رَقَّ(١).

قولُه (عَلَقَةً): أيْ قِطْعةَ دَمٍ مُنعَقِدةً.

قولُه (حتّى أَنْقَياه): أيْ نَظَّفاه عَنْ تَلَوُّثِ تَعلُّقِ العَلَقةِ.

---

(١) أي ما رقَّ من البطن ولانَ.

قَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: (ثُمَّ تَنَاوَلَ أَحَدُهُمَا شَيْئًا، فَإِذَا بِخَاتَمٍ فِي يَدِهِ مِنْ نُورٍ، يَحَارُ النَّاظِرُ دُونَهُ، فَخَتَمَ بِهِ قَلْبِي؛ فَامْتَلأَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، ثُمَّ أَعَادَهُ مَكَانَهُ، وَأَمَرَّ الآخَرُ يَدَهُ عَلَى مَفْرِقِ صَدْرِي فَالتَأَمَ)(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: (إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَلْبٌ وَكِيعٌ -أَيْ شَدِيدٌ-، فِيهِ عَيْنَانِ تَنْظُرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فَوَزَنَنِي بِهِمْ، فَوَزَنْتُهُم، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فَوَزَنَنِي بِهِمْ، فَوَزَنْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فَوَزَنَنِي بِهِمْ، فَوَزَنْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: دَعْهُ عَنْكَ؛ فَلَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَهَا)(٢).

قَالَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: (ثُمَّ ضَمُّونِي إِلَى صُدُورِهِمْ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي وَمَا بَيْنَ عَيْنَيَّ، ثُمَّ قَالُوا: يَا حَبِيبُ، لَمْ تُرَعْ؛ إِنَّكَ لَوْ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ)، وَفِي بَقِيَّةِ هَذَا الحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِمْ: (مَا أَكْرَمَكَ عَلَى اللهِ؛ إِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلائِكَتَهُ)(٣).

قَالَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: (فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّيَا عَنِّي، فَكَأَنَّمَا أَرَى الأَمْرَ مُعَايَنَةً).

وَحَكَى أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيٌّ وَأَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ آدَمَ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ قَالَ: (اللهُمَّ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي)، وَيُرْوَى: (تَقَبَّلْ تَوْبَتِي)، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ: (مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا؟)، قَالَ: (رَأَيْتُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الجَنَّةِ مَكْتُوبًا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» -وَيُرْوَى: «مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي»-؛ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَكْرَمُ خَلْقِكَ عَلَيْكَ)، فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَغَفَرَ لَهُ(٤)، وَهَذَا عِنْدَ قَائِلِهِ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

---

(١) [أخرجه مطوّلًا أبو يعلى كما في إتحاف الخيرة (٧/ ١٧)، وابن عساكر في التاريخ (٣/ ٤٧٠)، وعزاه السيوطي أيضًا في الخصائص (١/ ٩٦) لأبي نعيم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه].

(٢) حديث (أنَّ جبريلَ قال: قَلْبٌ وَكيعٌ فيه عَيْنَان تُبْصِرَان، وأُذُنان تَسْمَعان...): الدارميُّ عَن ابن غَنم [٥٨]، وأبو نُعَيْم في «الدَّلائل» عَن يونُسَ بن مَيسرةَ بن حَلْبَس.

(٣) [نفس الرواية المخرجة في هامش (١)].

(٤) حديث (أنَّ آدمَ قال عِندَ مَعْصِيَته...) الحديث: البَيْهقيُّ [٥/ ٤٨٨، ٤٨٩] والطَّبَرانيُّ [«الأوسط» (٦٥٠٢)، و«الصغير» (٩٩٢)] مِنْ حَديثِ عُمرَ بسَنَد ضَعيف.

قولُه (يَحارُ الناظِرُ): أيْ يَتَحَيَّرُ.

قولُه (على مَفْرِقِ صَدْري): بفتحِ الميمِ والراءِ وتُكْسَرُ.

قولُه (زِنْه بِعَشَرةٍ): -بكسرِ الزايِ- مِنَ الوَزْنِ.

قولُه (وما بَيْنَ عَيْنَيَّ): بِصيغةِ التثنيةِ لا غَيْرُ.

قولُه (لَمْ تُرَعْ): -بِضَمِّ التاءِ وفَتْحِ الراءِ وسُكونِ المهمَلةِ؛ مِنَ الرَّوْعِ- أيْ لا تَفْزَعْ.

قولُه (لَقَرَّتْ عَيْناكَ): -بِفَتْحِ القافِ وتشديدِ الرَّاءِ- أيْ لَطابَتْ نَفْسُكَ.

قولُه (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِماتٍ): أيْ تَلَقّاها مِنْ إلْهامِه وإعلامِه؛ وإنْ كانَ المَشْهورُ عِنْدَ الجُمهورِ أنَّ المُرادَ بالكَلِماتِ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٣].

وَفِي رِوَايَةِ الآجُرِّيِّ: فَقَالَ آدَمُ: (لَمَّا خَلَقْتَنِي رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى عَرْشِكَ، فَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»؛ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَكَ مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ)، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، إِنَّهُ لَآخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ)[1]. قَالَ: وَكَانَ آدَمُ يُكْنَى بِأَبِي مُحَمَّدٍ[2]، وَقِيلَ: بِأَبِي البَشَرِ.

وَيُرْوَى عَنْ سُرَيْجِ بْنِ يُونُسَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ، عِبَادَتُهَا كُلُّ دَارٍ فِيهَا مُحَمَّدٌ أَوْ أَحْمَدُ؛ إِكْرَامًا مِنْهُمْ لِمُحَمَّدٍ ﷺ. وَرَوَى ابْنُ قَانِعٍ القَاضِي عَنْ أَبِي الحَمْرَاءِ قَالَ: قَالَ ﷺ: (لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، إِذَا عَلَى العَرْشِ مَكْتُوبٌ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، أَيَّدْتُهُ بِعَلِيٍّ»)[3].

وَفِي التَّفْسِيرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا)، قَالَ: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: (عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ، كَيْفَ يَنْصَبُ؟! عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ، كَيْفَ يَضْحَكُ؟! عَجَبًا لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا، كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا؟! أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مُحَمَّدٌ عَبْدِي وَرَسُولِي)[4].

قوله (وفي رواية الآجُرِّيِّ): -بِمَدِّ الهَمْزَةِ وضَمِّ الجيمِ وتشديدِ الرّاءِ بَعْدَها ياءُ النِّسْبةِ- هو أبو بَكْرٍ محمدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَبْدِ اللهِ البَغْداديُّ.

قوله (مَعَ اسمِكَ): أيْ مَقْرونًا بِهِ في عَرْشِكَ الَّذي هوَ أَعْظَمُ خَلْقِكَ.

قوله (يُكْنى): بِصيغةِ المَجْهولِ مُخَفَّفًا ومُثَقَّلًا.

قوله (سَيّاحينَ): -بِتَشْديدِ الياءِ- أيْ سائرينَ على وَجْهِ الأرضِ لِلعِبادةِ.

قوله (قانِع): بالقافِ وكَسْرِ النُّونِ فعَيْنٍ مُهْمَلةٍ.

وقوله (الحَمْراءِ): بِفَتْحِ الحاءِ المُهْمَلةِ وسُكونِ الميمِ فراءٍ مَمْدودةٍ.

قوله (أَيَّدْتُهُ بِعَلِيٍّ): لِقُوّةِ بَأْسِهِ حَتّى قالَ الدلجيُّ: قَدْ وَرَدَ أَنَّه حَمَلَ بابَ حِصْنِ خَيْبَرَ.

قوله (كَيْفَ يَنْصَبُ): -بِفَتْحِ الصادِ- أيْ كَيْفَ يَتْعَبُ.

---

(١) [أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٠٢)، والصغير (٩٩٢)، والآجري في الشريعة (٩٥٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٨٨)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٣٧) وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وضعَّفه البيهقيُّ من أجل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وصحَّحه الحاكم، وتعقَّبه الذهبيُّ فقال (بل موضوع». وقال السيد عبدالله بن الصِّديق في كتابه «الرد المحكم» (الموسوعة ١/ ١٨٠) (قد تغالى كلٌّ من هذين الحافظين الجليلين، وحَكَما على الحديث بما لا يُسلَّم، والإنصاف خلاف قولهما معًا، فالحديث ليس بصحيحٍ كما قال الحاكم، ولا بموضوع كما قال الذهبيُّ» ثُمَّ ردَّ السيِّد عبدالله كلام الذهبيِّ من ستة وجوهٍ وأتى بشواهد للحديث ترتقي به إلى درجة الحسن].

(٢) حديث (إنَّ آدَمَ يُكْنَى أبا محمَّد): البَيْهَقيُّ [٥/ ٤٨٩] عَن عَليٍّ مَرفُوعًا.

(٣) حديث أَبي الحمراءِ (لَمَّا أُسْرِيَ بِي...): ابنُ قانعٍ في «مُعْجَم الصحابة» [٣/ ٢٠٢]، والطَّبَرانيُّ [٥٢٦].

(٤) حديث ابن عَبَّاس (وكانَ تَحْتَه كَنزٌ...): الخطيبُ في «الرُّوَاة» عَن مالك، وقَدْ وَرَدَ مَرفوعًا مِن حديثِ أَبي ذَرٍّ أَخرَجَه البَزَّارُ [كما في «المجمع» (٧/ ٥٣)]، ومَوْقُوفًا على عُمَرَ بنِ الخَطّاب وعليِّ بنِ أبي طالبٍ أَخْرَجَها البيهقيُّ في «الشُّعَب» [(٢٠٩)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: عَلَى بَابِ الجَنَّةِ مَكْتُوبٌ: (إِنِّي أَنَا اللهُ، لا إِلَهَ إِلا أَنَا، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، لا أُعَذِّبُ مَنْ قَالَهَا)(١). وَذُكِرَ أَنَّهُ وُجِدَ عَلَى الحِجَارَةِ القَدِيمَةِ مَكْتُوبٌ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولٌ تَقِيٌّ مُصْلِحٌ وَسَيِّدٌ أَمِينٌ. وَذَكَرَ السِّمِنْطَارِيُّ أَنَّهُ شَاهَدَ فِي بَعْضِ بِلادِ خُرَاسَانَ مَوْلُودًا وُلِدَ، مَكْتُوبٌ عَلَى أَحَدِ جَنْبَيْهِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَعَلَى الآخَرِ «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، وَذَكَرَ الأَخْبَارِيُّونَ أَنَّ بِبِلادِ الهِنْدِ وَرْدًا أَحْمَرَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ بِالأَبْيَضِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ».

وَرُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ: إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا لِيَقُمْ مَنِ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، فَلْيَدْخُلِ الجَنَّةَ لِكَرَامَةِ اسْمِهِ ﷺ(٢)، وَرَوَى ابْنُ القَاسِمِ فِي سَمَاعِهِ، وَابْنُ وَهْبٍ فِي جَامِعِهِ، عَنْ مَالِكٍ: سَمِعْتُ أَهْلَ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: مَا مِنْ بَيْتٍ فِيهِ اسْمُ مُحَمَّدٍ إِلَّا نَمَى، وَرُزِقُوا، وَرُزِقَ جِيرَانُهُمْ. وَعَنْهُ ﷺ: (مَا ضَرَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدَانِ وَثَلاثَةٌ)(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى قُلُوبِ العِبَادِ، فَاخْتَارَ مِنْهَا قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ(٤)، وَحَكَى النَّقَّاشُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٣]، قَامَ خَطِيبًا، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الإِيمَانِ، إِنَّ اللهَ فَضَّلَنِي عَلَيْكُمْ تَفْضِيلًا، وَفَضَّلَ نِسَائِي عَلَى نِسَائِكُمْ تَفْضِيلًا... الحَدِيثَ)(٥)، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً.

***

قولُه (وذُكِرَ أنَّه): بِصيغةِ المَجهولِ في «ذُكِرَ» و«وُجِدَ»، وضَميرُ «أنَّه» للشَّأنِ.

قولُه (السِّمِنْطارِيُّ): -بِكَسْرِ المهمَلةِ بَعْدَها ميمٌ، وسُكونِ نونٍ فمُهْمَلةٍ- مِن جُملةِ المُحَدِّثينَ.

قولُه (الأَخْبارِيّونَ): بالخاءِ المُعْجَمةِ.

***

(١) حديث ابن عبّاس (على بابِ الجَنَّةِ مَكتوبٌ: إنِّي أنا اللهُ...): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، وقال الدلجي كما في شرح الشفا للقاري (١/ ٣٨٤): «لا أعلم مَن رواه عنه»].

(٢) حديث (إذا كانَ يومُ القيامةِ نادَى مُنادٍ...): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، ولم أجده بهذا اللفظ، وورد نحوه بأسانيد واهية وموضوعة].

(٣) حديث (ما ضَرَّ أحَدَكم أنْ يَكونَ...): ابنُ سَعْدٍ [٥/ ٥٤] أخبَرَنا مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ اليَساريُّ ثنا محمَّدُ بنُ عُمَرَ العُمَريُّ عَن أبيه مَرفوعًا به.

(٤) حديث ابن مَسعود (إنَّ اللهَ نَظَرَ إلى قُلوبِ العِبادِ...): أحمدُ [٣٦٠٠] والبَزّارُ [كما في «المجمع» (١/ ١٧٧)] والطَّبَرانيُّ [«الأوسط» (٣٦٠٢)، وفي «الكبير» (٩/ ١١٢) نحوه] ورجالُه ثِقاتٌ.

(٥) حديث (لَمّا نَزَلَتْ: ﴿وَمَا كانَ لَكُم أنْ تُؤْذُوا رسولَ اللهِ...﴾): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر].

فَصْلٌ فِي تَفْضِيلِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَرَامَةُ الإِسْرَاءِ مِنَ المُنَاجَاةِ، وَالرُّؤْيَةِ، وَإِمَامَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَالعُرُوجِ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهى، وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهُ الكُبْرَى

وَمِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ قِصَّةُ الإِسْرَاءِ، وما انطَوَتْ عَلَيْهِ مِن دَرَجاتِ الرِّفْعَةِ بِمَّا نَبَّهَ عَلَيْهِ الكِتَابُ العَزِيزُ، وَشَرَحَتْهُ صِحَاحُ الأَخْبَارِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ...﴾ الآية [الإسراء: ١]، وَقَالَ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم: ١-١٨].

فَلَا خِلافَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ فِي صِحَّةِ الإِسْرَاءِ بِهِ ﷺ فيه؛ إِذْ هُوَ نَصُّ القُرْآنِ، وَجَاءَتْ بِتَفْصِيلِهِ وَشَرْحِ عَجَائِبِهِ وَخَوَاصِّ مُحَمَّدٍ نَبِيِّنَا ﷺ فِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُنْتَشِرَةٌ، رَأَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ أَكْمَلَهَا، وَنُشِيرَ إِلَى زِيَادَةٍ مِنْ غَيْرِهِ يَجِبُ ذِكْرُهَا.

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ، وَالفَقِيهُ أَبُو بَحْرٍ بِسَمَاعِي عَلَيْهِمَا، وَالقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ شُيُوخِنَا، قَالُوا: أَنْبَأَنَا أَبُو العَبَّاسِ العُذْرِيُّ، أَنْبَأَنَا أَبُو العَبَّاسِ الرَّازِيُّ، أَنْبَأَنَا أَبُو أَحْمَدَ الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، أَنْبَأَنَا مُسْلِمُ بْنُ الحَجَّاجِ، أَنْبَأَنَا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ، أَنْبَأَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ البُنَانِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

أُتِيتُ بِالبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ، أَبْيَضُ، طَوِيلٌ، فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبُطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي

قولُه (بِعَبْدِه لَيْلًا): مَنصوبٌ على الظرفيّةِ، وتَنكيرُه لِلدِّلالةِ على تقليلِ المُدّةِ.

قولُه (والنَّجْمِ): أي الثُّرَيّا، أوْ نُجومِ السَّماءِ، أوِ الرُّجومِ مِنَ النُّجومِ، أوِ الكَواكِبِ إذا انْتَثَرَتْ. وقولُه (إذا هَوى): أيْ غَرَبَ أوْ طَلَعَ.

قولُه (أَبو بَحْرٍ): بِفَتحِ المَوَحَّدةِ وسُكونِ المُهْمَلةِ؛ وهوَ ابنُ العاصِ.

قولُه (العُذْريُّ): -بضمِّ المُهْمَلةِ وسكونِ الذالِ المُعْجَمةِ- نِسبةٌ إلى «عُذْرةَ»، قَبيلةٍ. وقولُه (الجُلوديُّ): بِضَمِّ الجيمِ. قولُه (فَرُّوخ): بِفَتْحِ الفاءِ وضَمِّ الراءِ المُشدَّدةِ فواوٍ ساكِنةٍ فمُعْجَمةٍ، غَيْرُ منصرِفٍ لِلعُجْمةِ والعَلَميّةِ. قولُه (البُنانيُّ): -بِضَمِّ المَوَحَّدةِ وتخفيفِ النّونِ بَعْدَها أَلِفٌ فنونٌ فياءٌ- نِسْبةٌ إلى قَبيلةِ «بُنانةَ».

قولُه (أُتيتُ بالبُراقِ): -بِضَمِّ الباءِ- لِشِدّةِ بَريقِه ولَمَعانِه، و(أُتيتُ): بِصيغةِ المَجهولِ.

قولُه (مُنْتَهى طَرْفِه): -بِفَتْحِ الطاءِ وسُكونِ الرّاءِ- أيْ نَظَرِه وبَصَرِه.

قولُه (المَقْدِس): وهوَ بِفَتْحِ الميمِ وسُكونِ القافِ وكَسْرِ الدّالِ، وعَلى زِنةِ «مُحَمَّدٍ»؛ لِأنَّ فيه يُتَقَدَّسُ مِنَ الذُّنوبِ، ولِأنَّه مُنَزَّهٌ عَنِ العُيوبِ.

قولُه (بالحَلْقةِ): بِسُكونِ اللامِ وفَتْحِها، وقولُه (يَرْبُطُ): بِضَمِّ الباءِ وكَسْرِها.

جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟! قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟! قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الخَالَةِ، عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَرَحَّبَا بِي، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَ الأَوَّلِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيَلَةِ،

قوله (قَالَ: مُحَمَّدٌ): أيْ هوَ، أوْ مَعي.

قولُه (فَرَحَّبَ بِي): -بتشديدِ الحاءِ المُهْمَلَةِ- أيْ قالَ لي: مَرْحَبًا.

قولُه (فإذا أنا بابْنَيِ الخالةِ): عيسى ويَحْيى لِأَنَّ أمَّ يَحْيى «إيشاعَ» أختُ مريمَ.

قولُه (ودَعَوا لي بِخَيْرٍ) وفي نسخةٍ صحيحةٍ «ودَعَيا لي» -بالياءِ-؛ ففي «القاموسِ»: «دَعَيْتُ: لُغةٌ في دَعَوْتُ».

قولُه (شَطْرَ الحُسْنِ): أيْ نِصْفَه أوْ بَعْضَه؛ والمُرادُ بالحُسْنِ جِنْسُه، أوْ حُسْنُ حَوّاءَ، أوْ حُسْنُ سارّةَ، أوْ حُسْنُ نَبيِّنا ﷺ؛ وهوَ الأظهرُ -كَذا في شَرْحِ المُلّا.

قولُه (مَكانًا عَلِيًّا): هوَ شَرَفُ النُّبوّةِ ومَقامُ القُرْبةِ.

قولُه (مُسْنِدًا ظَهْرَه): بِصيغةِ الفاعلِ مَنصوبًا على الحالِ كَما في «شَرْحِ مسلِمٍ» وغيرِه؛ وفي بَعْضِ نُسَخِ المصابيحِ مَرْفوعٌ على أنَّه خَبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أيْ «وهوَ مُسْنِدٌ ظَهْرَه... إلخ».

قولُه (ثُمَّ ذَهَبَ بي): أيْ جبريلُ، وضَبَطَه الأَنْطاكيُّ بِصيغةِ المَفعولِ.

قولُه (سِدْرةِ المُنْتَهى): أيْ يَنْتَهي عِلْمُ الخَلائقِ عِنْدَها، وخُصَّتِ السِّدْرةُ؛ لِأَنَّ ظِلَّها مَديدٌ، وطَعْمَها لَذيذٌ، ورائحتَها طَيِّبةٌ.

قولُه (الفِيَلةِ): -بِكَسْرِ الفاءِ وفَتْحِ الياءِ التحتيّةِ- جَمْعُ «فيلٍ».

قولُـه (كالقِـلالِ): -بِكَسْرِ القـافِ- جَمْـعِ «قُلّـةٍ»؛ كـ«قُبـابٍ» جَمْـعُ «قُبّـةٍ»، وفي رِوايـةٍ: «كَقِـلالِ هَجَـرَ»[1] -بفتحتيـنِ- مَحَلّـةٍ بِقُـرْبِ المدينـةِ يُعْمَـلُ بِهـا القِـلالُ، تَسَـعُ الواحِـدةُ مَـزادةً مِـنَ المـاءِ.

قولُـه (أَنْ يَنْعَتَهـا): أَيْ يَصِـفَ كَيْفِيّـةَ غَشْـيِتِها، أَوْ ماهيّـةِ مـا غَشْـيَها.

قولـه (فَسَـلْه التخفيـفَ): أيْ تخفيـفَ هـذا التكليـفِ، وإنْ كانَ مُتَضَمِّنًـا لِلتعريـفِ والتشريـفِ. قولُـه (وخَبَرْتُهم): -بِتَخفيـفِ الموَحَّـدةِ- أَيِ امتَحَنْتُهـم وعالَجْتُهـم فلقيـتُ مِنْهم الشِّـدّةَ وعَـدَمَ الطاقـةِ فيـما قَصَدتُـه بَيْنَهـم.

قولُـه (فَحَـطَّ عَنّـي خَمْسًـا): أَيْ فوَضَـعَ عَنّـي في ضِمْـنِ الحَـطِّ عَـنْ أُمّتـي، ولَمْ يَقُـلْ: «عَـنْ أُمّتـي»؛ لِئَـلّا يُتَوهَّـمَ بَقاءُ فريضـةِ الخَمْسـينَ علَيْـه. قولُـه (لا يُطيقـونَ ذلـكَ): أَيْ لا يَقْـدِرونَ عـلى هـذا القَـدْرِ أيضًـا.

قولُـه (كُلَّ يَـوْمٍ وليلـةٍ) وفي نسـخةٍ «في كُلِّ يَـوْمٍ وليلـةٍ». قولُـه (فَتِلْـكَ خَمْسـونَ صـلاةً): بِحَسَـبِ المضاعفَـةِ.

قولُـه (ومَـنْ هَـمَّ بِحَسَـنةٍ): أَيْ مِـن صَـلاةٍ نافِلـةٍ وغَيْرِها؛ بـأَنْ قَصَدَهـا وعَـزَمَ عـلى فِعْلِهـا، وقولُـه (كُتِبَـتْ): بِصيغـةِ المجهـولِ، ونَصْـبُ (حَسَـنةً) عـلى المَصدريـةِ.

قولُـه (لَمْ تُكْتَـبْ شَـيْئًا) أَيْ لَمْ تُكْتَـبْ تلـكَ السيئةُ شَـيْئًا. قولُـه (سَـيِّئةً واحـدةً): إذا نَـدِمَ وتَرَكَهـا لله؛ بَـلْ تُكْتَـبُ لـه حَسـنةً لِأَجْلِهـا كَـما وَرَدَ (كَتَبَهـا اللهُ عِنْـدَه حَسَـنةً كامِلـةً)[2].

قولُـه (حَتّـى اسـتَحْيَيْتُ): -بياءَيْـنِ، وفي نسـخةٍ بيـاءٍ واحِـدةٍ- قـالَ المُـلّا: «لَعَـلَّ وَجْـهَ الحَيـاءِ هـوَ أنَّ المبالَغـةَ في تخفيـفِ العِبـادةِ نَـوْعٌ مِـنَ الجَفـاءِ، والقِيـامَ بِـها تَعَـيَّنَ وتَحَتَّـمَ مِـنْ بـابِ الوَفـاءِ في تَحَمُّـلِ البَـلاءِ لِحُصـولِ الـوَلاءِ».

(١) أخرجها البخاريُّ (٣٨٨٧) [كتاب مناقب الأنصار].

(٢) متفقٌ عليه أخرجـه البخـاريُّ (٦٤٩١) [كتـاب الرقـاق]، ومسـلمٌ (١٣١) [كتـاب الإيـمان]، وغيرهمـا مـن حديـث ابـن عبـاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَإِذَا ثَمَرُهَـا كَالقِـلالِ، قَـالَ: فَلَـمَّا غَشِـيَهَا مِـنْ أَمْـرِ اللهِ مَـا غَـشِيَ تَغَـيَّرَتْ، فَـمَا يَسْـتَطِيعُ أَحَـدٌ مِـنْ خَلْـقِ اللهِ أَنْ يَنْعَتَهَـا مِـنْ حُسْـنِهَا، فَأَوْحَـى اللهُ إِلَيَّ مَـا أَوْحَـى، فَفَـرَضَ عَـلَيَّ خَمْسِـينَ صَـلاةً فِي كُلِّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ.

فَنَزَلْـتُ إِلَى مُوسَـى، فَقَـالَ: مَـا فَـرَضَ رَبُّـكَ عَـلَى أُمَّتِـكَ؟ قُلْـتُ: خَمْسِـينَ صَـلاةً، قَـالَ: ارْجِـعْ إِلَى رَبِّـكَ، فَسَـلْهُ التَّخْفِيـفَ؛ فَـإِنَّ أُمَّتَـكَ لَا يُطِيقُـونَ ذَلِـكَ؛ فَـإِنِّي قَـدْ بَلَـوْتُ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ وَخَبَرْتُهُـمْ، قَـالَ: فَرَجَعْـتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْـتُ: يَـا رَبِّ، خَفِّـفْ عَـنْ أُمَّتِـي، فَحَـطَّ عَنِّـي خَمْسًـا، فَرَجَعْـتُ إِلَى مُوسَـى، فَقُلْـتُ: حَـطَّ عَنِّـي خَمْسًـا، قَـالَ: إِنَّ أُمَّتَـكَ لَا يُطِيقُـونَ ذَلِـكَ، فَارْجِـعْ إِلَى رَبِّـكَ، فَسَـلْهُ التَّخْفِيـفَ، قَـالَ: فَلَـمْ أَزَلْ أَرْجِـعُ بَـيْنَ رَبِّي تَعَـالَى وَبَـيْنَ مُوسَـى حَتَّـى قَـالَ: يَـا مُحَمَّـدُ، إِنَّهُـنَّ خَمْـسُ صَلَـوَاتٍ كُلَّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ، لِـكُلِّ صَـلاةٍ عَـشْرٌ؛ فَتِلْـكَ خَمْسُـونَ صَـلاةً، وَمَـنْ هَـمَّ بِحَسَـنَةٍ فَلَـمْ يَعْمَلْهَـا كُتِبَـتْ لَـهُ حَسَـنَةً، فَـإِنْ عَمِلَهَـا كُتِبَـتْ لَـهُ عَـشْرًا، وَمَـنْ هَـمَّ بِسَـيِّئَةٍ فَلَـمْ يَعْمَلْهَـا لَمْ تُكْتَـبْ شَـيْئًا، فَـإِنْ عَمِلَهَـا كُتِبَـتْ سَـيِّئَةً وَاحِـدَةً، قَـالَ: فَنَزَلْـتُ حَتَّـى انْتَهَيْـتُ إِلَى مُوسَـى فَأَخْبَرْتُـهُ، فَقَـالَ: ارْجِـعْ إِلَى رَبِّـكَ، فَاسْـأَلْهُ التَّخْفِيـفَ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: فَقُلْـتُ: قَـدْ رَجَعْـتُ إِلَى رَبِّي حَتَّـى اسْـتَحْيَيْتُ مِنْـهُ.[1]

(١) حديث ثابتٍ عَن أنسٍ: أَسَنَدُه من طَريقِ مُسْلِمٍ [١٦٢].

قَالَ القَاضِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جَوَّدَ ثَابِتٌ -رَحِمَهُ اللهُ- هَذَا الحَدِيثَ عَنْ أَنَسٍ مَا شَاءَ، فَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ عَنْهُ بِأَصْوَبَ مِنْ هَذَا، وَقَدْ خَلَّطَ فِيهِ غَيْرُهُ عَنْ أَنَسٍ تَخْلِيطًا كَثِيرًا، لَا سِيَّمَا مِنْ رِوَايَةِ شَرِيكِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي أَوَّلِهِ مَجِيءَ المَلَكِ لَهُ، وَشَقَّ بَطْنِهِ، وَغَسْلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، وَهَذَا إِنَّمَا كَانَ وَهُوَ صَبِيٌّ، وَقَبْلَ الوَحْيِ، وَقَدْ قَالَ شَرِيكٌ فِي حَدِيثِهِ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَذَكَرَ قِصَّةَ الإِسْرَاءِ[1]، وَلَا خِلَافَ أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ الوَحْيِ، وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَةٍ، وَقِيلَ: قَبْلَ هَذَا.

وَقَدْ رَوَى ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ مِنْ رِوَايَةِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ أَيْضًا مَجِيءَ جِبْرِيلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ عِنْدَ ظِئْرِهِ، وَشَقَّهُ قَلْبَهُ، تِلْكَ القِصَّةَ مُفْرَدَةً مِنْ حَدِيثِ الإِسْرَاءِ، كَمَا رَوَاهُ النَّاسُ، فَجَوَّدَ فِي القِصَّتَيْنِ، وَفِي أَنَّ الإِسْرَاءَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ وَإِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى كَانَ قِصَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ مِنْ هُنَاكَ، فَأَزَاحَ كُلَّ إِشْكَالٍ أَوْهَمَهُ غَيْرُهُ.

وَقَدْ رَوَى يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ)، فَذَكَرَ القِصَّةَ.[2]

وَرَوَى قَتَادَةُ الحَدِيثَ بِمِثْلِهِ عَنْ أَنَسٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ[3]، وَفِيهَا تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَزِيَادَةٌ وَنَقْصٌ، وَخِلَافٌ فِي تَرْتِيبِ الأَنْبِيَاءِ فِي السَّمَاوَاتِ.

وَحَدِيثُ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَتْقَنُ وَأَجْوَدُ، وَقَدْ وَقَعَتْ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ زِيَادَاتٌ، نَذْكُرُ مِنْهَا نُكَتًا مُفِيدَةً فِي غَرَضِنَا:

مِنْهَا فِي حَدِيثِ ابْنِ شِهَابٍ، وَفِيهِ: قَوْلُ كُلِّ نَبِيٍّ لَهُ: (مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ)، إِلَّا آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَا لَهُ: (وَالابْنِ الصَّالِحِ).

(١) حديث شَريك عَنْ أنس: البُخاريُّ [٧٥١٧].

(٢) حديث ابن شِهاب عنْ أنَس عَنْ أبي ذرٍّ: الشيخان [البخاريُّ (٣٤٩)، ومسلمٌ (١٦٣)].

(٣) حديث أنس عَن مالكِ بن صَعصعةَ: الشيخانِ [البخاريُّ (٣٢٠٧)، ومسلمٌ (١٦٤)].

قولُه (جَوَّدَ ثابتٌ): -بتَشديدِ الواوِ- أيْ حَسَّنَ.

قولُه (وقَدْ خَلَّطَ فيه): -بتَشديدِ اللَّامِ- أيْ في هذا الحديثِ.

قولُه (عِنْدَ ظِئْرِه): -بكَسْرِ الظَّاءِ المُعْجَمةِ- أيْ مُرْضِعَتِه حليمة، أوْ زَوْجِها الَّذي لَبَنُها مِنْه.

قولُه (فجَوَّدَ في القِصَّتَيْنِ): أيْ قِصَّةِ الشَّقِّ وقِصَّةِ الإسراءِ.

قولُه (فُرِجَ): -بصيغةِ المجهولِ مُشَدَّدًا ومُخَفَّفًا- أيْ كُشِفَ وفُتِحَ، وقولُه (ففَرَجَ صَدْري): أيْ شَقَّ -كَما في رِوايةٍ.

قولُه (نُكَتًا): -بضَمِّ النّونِ ففَتْحِ الكافِ- جَمْعُ «نُكتةٍ» وجَمْعُها أيضًا «نِكاتٌ».

قولُه (فقالا لَه: «والابنِ الصالحِ»): أيْ بَدَلَ «والأخِ الصالحِ».

وَفِيهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ بِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلَامِ).(١)

وَعَنْ أَنَسٍ: (ثُمَّ انْطُلِقَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ سِدْرَةَ المُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ؟)، قَالَ: (ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ).

وَفِي حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ: (فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ -يَعْنِي مُوسَى- بَكَى، فَنُودِيَ مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: رَبِّ، هَذَا غُلَامٌ بَعَثْتَهُ بَعْدِي، يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِهِ الجَنَّةَ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَأَمَمْتُهُمْ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالتَفَتُّ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ).(٢)

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى أَتَى بَيْتَ المَقْدِسِ، فَنَزَلَ فَرَبَطَ فَرَسَهُ إِلَى صَخْرَةٍ، فَصَلَّى مَعَ المَلَائِكَةِ، فَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ، قَالُوا: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا الذي مَعَكَ؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، رَسُولُ الله، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، قَالُوا: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟! قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ اللهُ مِنْ أَخٍ وَخَلِيفَةٍ؛ فَنِعْمَ الأَخُ، وَنِعْمَ الخَلِيفَةُ، ثُمَّ لَقُوا أَرْوَاحَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَثْنَوْا عَلَى رَبِّهِمْ، وَذَكَرَ كَلَامَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وعيسى وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ، ثُمَّ ذَكَرَ كلامَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: وَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: (كُلُّكُمْ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ، وَأَنَا أُثْنِي عَلَى رَبِّي، الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الفُرْقَانَ فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ أُمَّتِي خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ أُمَّتِي أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمُ الأَوَّلُونَ وَهُمُ الآخِرُونَ،

---

(١) حديث ابن عباس (حَتَّى ظَهَرْتُ بِمُسْتَوًى...): البخاريُّ [٣٤٩] ومسنَدُ أحمدَ [٢١٢٨٨] وغيرُه، حديثٌ في الإسراءِ عن ابن عبَّاسٍ من طُرُقٍ.

(٢) حديث أبي هريرةَ: البيهقيُّ [«الدلائل» ٢/ ٣٥٨] وغيرُه.

قولُه (ثُمَّ عُرِجَ): بصيغةِ المفعولِ أو الفاعلِ. قولُه (بِمُسْتَوًى): -بصيغةِ المجهولِ(١)؛ في أَوَّلِه باءٌ أَوْ لامٌ- أيْ صَعِدْتُ بِمَكانٍ عالٍ أَوْ في مَكانٍ مُرْتَفِعٍ، وقيلَ: الباءُ بِمَعْنى «على».

قولُه (ثُمَّ انطُلِقَ بي): بصيغةِ المجهولِ والمعلومِ. قولُه (وقَدْ رأَيْتُني): -بِضَمِّ التاءِ- حِكايةٌ عَنْ نَفْسِه. قولُه (فحانَتِ الصَّلاةُ): أيْ دَنَتِ الصَّلاةُ الجامعةُ. قولُه (فأَمَمْتُهم): -بِتَخفيفِ الميمِ الأولى- أيْ صَلَّيْتُ بِهِم تلكَ الصَّلاةَ إمامًا. قولُه (فسَلِّمْ عَلَيْه): بصيغةِ الأمْرِ.

قولُه (إلى صَخْرةٍ): قَريبةٍ مِنْ صَخْرةِ بَيْتِ المَقْدِسِ، أوْ إلى صَخْرةٍ عَظيمةٍ مَعروفةٍ مشهورةٍ في وَسَطِ المَسْجِدِ الأَقْصى، قالَ البَرْقيُّ في «غَريبِ الموطأ»(٢): قيلَ: إنَّ مياهَ الأرضِ كُلَّها تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ صَخْرةِ بَيْتِ المَقْدِسِ، وهيَ مِنْ عجائبِ مخلوقاتِ الله -تعالى- في أرضِه ومِنْ غرائبِه؛ فإنَّها صَخْرةٌ صَمّاءُ في وَسَطِ المَسْجِدِ الأَقْصى مِثْلَ الجَبَلِ بَيْنَ السماءِ والأرضِ.

قولُه (فيه تِبْيانُ كُلِّ شَيْءٍ): أيْ مِنْ مُهِمّاتِ أُمورِ الدنيا والدِّينِ إمّا بالنَّصِّ أو بالإحالةِ على السُّنّةِ.

---

(١) اسم مكان على صيغة اسم المفعول.

(٢) جاء في الأصل -كما لدى القاري- «غريب المواطن»، والصواب «غريب الموطأ» -كما لدى الشهاب الخفاجي- كتاب لمحمد بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي المتوفى سنة ٢٤٩هـ.

وَشَرَحَ لِي صَدْرِي، وَوَضَعَ عَنِّي وِزْرِي، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحًا وَخَاتِمًا)، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: بِهَذَا فَضَلَكُمْ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَمِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ.

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَانْتُهِيَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)[1]، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَنْ يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ.

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ طَرِيقِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: (فَقِيلَ لِي: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِكَ خَلا عَلَى سَبِيلِكَ، وَهِيَ السِّدْرَةُ الْمُنْتَهَى، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا، وَإِنَّ وَرَقَةً مِنْهَا مُظِلَّةُ الْخَلْقِ، فَغَشِيَهَا نُورٌ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلائِكَةُ)، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦].

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (بَيْنَا أَنَا قَاعِدٌ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ دَخَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، ..

---

(١) حديث ابن مسعود: ابنُ عَرَفَةَ في جُزْئِه، وأبو نُعَيْم في «الدَّلائل» (والحديث أخرجه بهذا اللفظ مسلمٌ (١٧٣)).

قولُه (أَنَّه عُرِجَ بِهِ): بصيغةِ المجهولِ، فضميرُ «أَنَّه» لِلشَّأْنِ.

قولُه (وهيَ في السماءِ السادِسةِ): كَذا في «مُسلِمٍ»[1]، وهوَ الأَصَحُّ وقولُ الأكثَرينَ كَما قالَه النوويُّ في جميعِ أصولِه مِنَ المصنفِ، ومُقتَضى تسميتِها بـ«المُنْتَهى» أنَّها في السماءِ السابعةِ؛ ولِذا صَحَّ في بعضِ النُّسَخِ المعتمَدةِ بِلَفْظِ «السابعةِ»، وقَدْ جَمَعَ بينَهما النوويُّ بأنَّ أصلَها في السادسةِ، ومُعْظَمَها في السابعةِ. انتهى. وفي الرِّواياتِ الأخرى مِن حديثِ أَنَسٍ أنَّها فَوْقَ السماءِ السابعةِ، قالَ المُصَنِّفُ: «وخُروجُ النِّيلِ والفُراتِ مِن أصلِها مُؤْذِنٌ بأنَّها في الأرضِ»، قالَ المُلّا: «وفيه بَحْثٌ لا يَخْفى، ومَعَ تسليمِ ظاهِرِ ما ادَّعى يُمكِنُ الجَمْعُ بأنَّ مَبْدَأَها في الأرضِ، ومعظَمَها في السماءِ السادِسةِ، وانتهاءَها ومَحَلَّ إثمارِها وغَشَيانِ أنوارِها في السماءِ السابعةِ، ويؤيِّدُه قولُ المصنفِ: (إِلَيْها يَنْتَهي... إلخ)».

قولُه (يَنْتَهي إِلَيْها كُلُّ أَحَدٍ): أيْ روحُه أوْ عَمَلُه أوْ بِكُلِّيَّتِه عِنْدَ دخولِ جَنَّتِه.

قولُه (آسِنٍ): -بِهَمزةٍ، ممدودٌ ومقصورٌ؛ كما قُرِئَ بِهِما في السبعِ- أيْ غَيْرِ مُتَغَيِّرٍ طَعْمًا ولَوْنًا وريحًا. قولُه (مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى): أيْ مُخَلَّصٍ مِن خِلْطِ شَمْعٍ وغَيْرِه مِن فَضَلاتِ النحلِ.

قولُه (وغَشِيَتْها المَلائكةُ): أيْ بأنوارِهم المَلَكيّةِ فبَقِيَ نورٌ على نورٍ.

قولُه (وعَنْ أَنَسٍ) إلى قولِه (فقالَ تبارَكَ وتعالى) لا وُجودَ له في أصلِ الدلجيِّ والمُلّا هُنا؛ وإنَّما يأتي بَعْدُ.

قولُه (فَوَكَزَ... إلخ): -بالواوِ والزايِ- أيْ ضَرَبَ برِفْقٍ، وقولُه (كَتِفَيَّ): بتشديدِ الياءِ، وهوَ ضَرْبٌ بِلُطْفٍ ومَحَبّةٍ.

---

(١) صحيح مسلم (١٧٣) [كتاب الإيمان].

فَقُمْتُ إِلَى شَجَرَةٍ فِيهَا مِثْلُ وَكْرَيِ الطَّائِرِ، فَقَعَدَ فِي وَاحِدَةٍ، وَقَعَدْتُ فِي الأُخْرَى، فَنَمَتْ حَتَّى سَدَّتِ الخَافِقَيْنِ، وَلَوْ شِئْتُ لَمَسْتُ السَّمَاءَ، وَأَنَا أُقَلِّبُ طَرْفِي، وَنَظَرْتُ جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ حِلْسٌ لَاطِئًا، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللهِ عَلَيَّ، وَفُتِحَ لِي بَابُ السَّمَاءِ، وَرَأَيْتُ النُّورَ الأَعْظَمَ، وَلُطَّ دُونِيَ الحِجَابُ، وَفُرَجُهُ الدُّرُّ وَاليَاقُوتُ، ثُمَّ أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا شَاءَ أَنْ يُوحِيَ.

فَقَالَ تَبَارَكَ وَتعَالَى لَهُ: (سَلْ)، فَقَالَ: (إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تكلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَأَلَنْتَ لَهُ الحَدِيدَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الجِبَالَ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا، وَسَخَّرْتَ لَهُ الجِنَّ وَالإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالرِّيَاحَ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِهِ، وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَأَعَذْتَهُ وَأُمَّهُ مِن الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ.

فقَالَ لَهُ رَبُّهُ تعَالَى: (قَدِ اتَّخَذْتُكَ حَبِيبًا -فَهوَ مَكتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ «مُحمدٌ حَبِيبُ الرَّحْمَنِ»[1]-، وَأَرسَلْتُكَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَجعلْتُ أُمَّتَكَ هُمُ الأَوَّلُونَ وَهُمُ الآخِرونَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا يَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا، وَآخِرَهُمْ بَعْثًا،

(١) [قال الدلجي: هذا مدرج من كلام الرواي، إقامة بينة لصحة زيادة رواية أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

قولُه (وَكْرَيِ الطائرِ): أيْ مَكانَيْنِ مُماثِلَيْنِ لِلوَكْرينِ، وهوَ بفَتْحِ الواوِ عُشُّ الطائرِ. قولُه (نَمَتْ): -بفَتْحِ النونِ والميمِ؛ مِنَ النُّموِّ- أيْ زادتْ، وفي نسخةٍ «فَسَمَتْ» -بالسينِ المهمَلةِ؛ مِنَ السُّموِّ- أي ارتفعَتْ. قولُه (سَدَّتِ الخافِقَيْنِ): -بتشديدِ الدالِ- أيْ طَرَفَيِ السماءِ والأرضِ.

قولُه (لَمَسْتُ) وفي نسخةٍ «لَمِسْتُ» بكسرِ السينِ الأولى وفتْحِها. قولُه (وأنا أُقَلِّبُ طَرْفي): بتشديدِ اللامِ، و«الطَّرْفُ» -بسُكونِ الرّاءِ- بمَعْنى النَّظَرِ.

قولُه (حِلْسٌ): -بكسرِ المهمَلةِ وسكونِ اللامِ- أيْ كِساءٌ رَقيقٌ. قولُه (لاطِئًا[1]): -بكَسْرِ الطاءِ المُهْمَلةِ فهَمْزةٍ- أيْ لاصِقًا. و(لُطَّ): -بِضَمِّ اللامِ وتشديدِ الطاءِ- أيْ أُرْخيَ.

قولُه (وسَخَّرْتَ له الجِنَّ والإنسَ... إلخ): أيْ ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوّاصٍ * وآخَرينَ مُقَرَّنينَ في الأصفادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨]. قولُه (مُلْكًا لا ينبَغي لِأحَدٍ... إلخ): تعميمٌ بَعْدَ تخصيصٍ، وإعادةٌ لِما حَكاه اللهُ عَنْه ﴿رَبِّ اغفِرْ لي وهَبْ لي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

قولُه (فلَمْ يَكُنْ له عليْهما سَبيلٌ): لِقَوْلِه -تعالى-: ﴿إنَّ عِبادي لَيْسَ لكَ عليْهِم سُلْطانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، ولِاستِعاذةِ جَدَّتِه حَنّةَ امرأةِ عِمرانَ.

قولُه (وجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النبيِّينَ خَلْقًا): أيْ لِأنَّ اللهَ -سبحانَه- خَلَقَه قَبْلَ آدمَ، فقَذَفَه في صُلْبِه، فلَمْ يَزَلْ في صُلْبٍ كَريمٍ إلى رَحِمٍ طاهِرٍ مِنَ السِّفاحِ حَتّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيْه، فكانَ أَوَّلَهم خَلْقًا ووُجودًا، وآخِرَهم بَعْثًا وشُهودًا؛ مَعَ زيادةِ أنَّه أَعْظَمُهم خُلُقًا.

(١) جاء في شرح الملا: «(لاطئا) بكسر مهملة فهمزة أي لاصقا بما لطئ به من هيبة الله تعالى وشدة الخشية من كمال عظمته.. كذا قرره الدلجي بناء على نصب لاطئا في أصله، لكنه مخالف للأصول المصححة لأنه مرفوع على أنه نعت لقوله حلس».

وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي، وَلَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا).

وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا[1]: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِمَ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ المُقْحِمَاتُ. وَقَالَ[2]: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: ١١-١٢]: رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ.

وَفِي حَدِيثِ شَرِيكٍ أَنَّهُ رَأَى مُوسَى فِي السَّابِعَةِ -قَالَ: بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللهِ-، قَالَ: ثُمَّ عَلَا بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمْ أَظُنَّ أَنْ يُرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدٌ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ ﷺ صَلَّى بِالأَنْبِيَاءِ بِبَيْتِ المَقْدِسِ[3].

وَذَكَرَ البَزَّارُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الأَذَانَ جَاءَهُ جِبْرِيلُ بِدَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا: البُرَاقُ، فَذَهَبَ يَرْكَبُهَا، فَاسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا جِبْرِيلُ: اسْكُنِي؛ فَوَاللهِ مَا رَكِبَكِ عَبْدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، فَرَكِبَهَا حَتَّى أَتَى بِهَا إِلَى الحِجَابِ الَّذِي يَلِي الرَّحْمَنَ تَعَالَى، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ خَرَجَ مَلَكٌ مِنَ الحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟)، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَأَقْرَبُ الخَلْقِ مَكَانًا، وَإِنَّ هَذَا المَلَكَ مَا رَأَيْتُهُ مُنْذُ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ، فَقَالَ المَلَكُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقِيلَ لَهُ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: (صَدَقَ عَبْدِي؛ أَنَا أَكْبَرُ)، ثُمَّ قَالَ المَلَكُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقِيلَ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: (صَدَقَ عَبْدِي؛ أَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)، وَذَكَرَ مِثْلَ هَذَا فِي بَقِيَّةِ الأَذَانِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ جَوَابًا عَنْ قَوْلِهِ: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ»، وَقَالَ: ثُمَّ أَخَذَ المَلَكُ بِيَدِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَدَّمَهُ، فَأَمَّ أَهْلَ السَّمَاءِ، فِيهِمْ آدَمُ وَنُوحٌ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ، رَاوِيهِ: أَكْمَلَ اللهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الشَّرَفَ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ[4].

قولُه (خَوَاتِمَ سورةِ البقرةِ): هيَ مِن قولِه ﴿آمَنَ الرسولُ﴾ إلى آخِرِ السّورةِ -كما استظْهَرَه المُلّا.

قولُه (فاتِحًا وخاتِمًا): أيْ مَبْدأً للخَيْراتِ ومُنْتَهى للمَبرّاتِ.

قولُه (المُقْحِماتُ): أي السَّيِّئاتُ المُهْلِكاتُ.

قولُه (ثُمَّ عَلا بِهِ): أيْ جِبريلُ، وفي نُسخةٍ «عُلِيَ بي» بِصيغةِ المَفعولِ.

قولُه (يَلي الرحمنَ): أيْ عَرْشَه.

قولُه (لَأَقْرَبُ الخَلْقِ مَكانًا): أيْ في السَّماءِ أوْ مِنَ الحِجابِ لا مِنْ رَبِّ الأرْبابِ.

---

(١) حديثُ ابنِ مَسْعودٍ: (فأُعْطِيَ ثَلَاثًا...): مُسْلِمٌ [تقدم في الحديث السابق].

(٢) [أي قال ابن مسعود في قوله تعالى ..].

(٣) حديث أَنَس (بَيْنَا أنا قاعدٌ...): البَزّارُ [٧٣٨٩] والبيهقيُّ [٢/ ٣٦٩].

(٤) حديثُ عَليٍّ: عَزاه المصنِّفُ إلى البَزّارِ [٥٠٨].

قَالَ القَاضِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا فِي هَذَا الحَدِيثِ مِنْ ذِكْرِ الحِجَابِ فَهُوَ فِي حَقِّ المَخْلُوقِ، لَا فِي حَقِّ الخَالِقِ؛ فَهُمُ المَحْجُوبُونَ، وَالبَارِي -جَلَّ اسْمُهُ- مُنَزَّهٌ عَمَّا يَحْجُبُهُ؛ إِذِ الحُجُبُ إِنَّمَا تُحِيطُ بِمُقَدَّرٍ مَحْسُوسٍ، وَلَكِنْ حُجُبُهُ عَلَى أَبْصَارِ خَلْقِهِ وَبَصَائِرِهِمْ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ، كَمَا شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ، وَمَتَى شَاءَ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فَقَوْلُهُ فِي هَذَا الحَدِيثِ: (الحِجَاب)، وَ(إِذْ خَرَجَ مَلَكٌ مِنَ الحِجَابِ) يَجِبُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ حِجَابٌ حُجِبَ بِهِ مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ عَنِ الاطِّلَاعِ عَلَى مَا دُونَهُ مِنْ سُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعَجَائِبِ مَلَكُوتِهِ وَجَبَرُوتِهِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الحَدِيثِ قَوْلُ جِبْرِيلَ عَنِ المَلَكِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ وَرَائِهِ: (إِنَّ هَذَا المَلَكَ مَا رَأَيْتُهُ مُنْذُ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ)؛ فَدَلَّ أَنَّ هَذَا الحِجَابَ لَمْ يَخْتَصَّ بِالذَّاتِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ كَعْبٍ فِي تَفْسِيرِ سِدْرَةِ المُنْتَهَى قَالَ: «إِلَيْهَا يَنْتَهِي عِلْمُ المَلَائِكَةِ، وَعِنْدَهَا يَجِدُونَ أَمْرَ اللهِ، لَا يُجَاوِزُهَا عِلْمُهُمْ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (الَّذِي يَلِي الرَّحْمَنَ) فَيُحْمَلُ عَلَى حَذْفِ المُضَافِ، أَيْ يَلِي عَرْشَ الرَّحْمَنِ، أَوْ أَمْرًا مَا مِنْ عَظِيمِ آيَاتِهِ أَوْ مَبَادِئِ حَقَائِقِ مَعَارِفِهِ مِمَّا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أَيْ أَهْلَهَا.

وَقَوْلُهُ: (فَقِيلَ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: صَدَقَ أَنَا أَكْبَرُ)، فَظَاهِرُهُ أَنَّهُ سُمِعَ فِي هَذَا المَوْطِنِ كَلَامُ اللهِ،

قولُه (ولكِنْ حُجُبُه): بضمتَيْنِ جَمْعُ «حِجابٍ»، وبِفَتْحٍ فسُكونٍ مَصْدَرٌ. وقولُه (أبصارِ خَلْقِه): -بِفَتْحِ الهَمْزةِ- أيْ أعينُهم الظاهِرةِ.

قولُه (المَحْجوبونَ): أيِ المَمْنوعونَ عَنْ رُؤيَتِنا، وشُهودِ قُدْرَتِنا.

قولُه (عَنِ الاطِّلاعِ): بتشديدِ الطّاءِ.

قولُه (لا يُجاوِزُها عِلْمُهُمْ): أيْ فَهُمْ مَحْجوبونَ عَمّا وَراءَها.

قولُه (أوْ أَمْرًا ما): -بالنَّصْبِ- قالَ المُلّا: والظاهِرُ كَوْنُه مَجْرورًا أوْ مرفوعًا، ولعَلَّه أرادَ أنَّ (أيْ) بِمَعْنى يَعْني، أوْ أَعْني أَمْرًا مِنَ الأُمورِ اللّائقةِ بِمَرامِ هذا المَقامِ[1].

قولُه (واسأَلِ القَرْيةَ؛ أيْ أَهْلَها): يَعْني أنَّه مِن قَبيلِ مَجازِ الحَذْفِ، وهوَ أَشْهَرُ مِمّا قيلَ أنَّه مِنْ بابِ ذِكْرِ المَحَلِّ وإرادةِ الحالِ.

قولُه (فظاهِرُه أنَّه سُمِعَ): بِصيغةِ المجهولِ، وقالَ الدلجيُّ: أيْ سَمِعَ رَسولُ اللهِ.

(١) ما بعد «أي» التفسيرية يجوز فيه الإتباع والاستئناف وإضمار فعل؛ جاء في «اللسان»: «وقالَ أَبو عَمْرٍو: سَأَلْتُ المبرِّدَ عَن أَيْ مَفْتُوحَةٍ ساكِنَةَ الآخرِ ما يكونُ بَعْدَها فقالَ: يكونُ الَّذي بَعْدَها بَدَلاً، ويكونُ مُسْتأنفاً، ويكونُ مَنْصوباً؛ قالَ: وسَأَلْتُ أَحمدَ بن يَحْيَى فقالَ: يكونُ ما بَعْدَها مُتَرْجِماً، ويكونُ نصبا بفعلٍ مُضْمَرٍ، تقولُ: جاءَني أَخُوكَ أَي زيدٌ، ورأَيْتُ أَخاكَ أَي زيدا، ومَرَرْتُ بأَخِيكَ أَي زيدٍ، وتقولُ: جاءَني أَخُوكَ فيجوزُ فيهِ أَي زيدٌ وأَي زيدا، ومَرَرْتُ بأَخِيكَ فيجوزُ فيهِ أَي زيدٍ، أَي زيدا، أَي زيدٌ، ويقالُ: رأَيْتُ أَخاكَ أَي زيدا، ويَجوزُ أَي زيدٌ».

وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، أَيْ وَهُوَ لَا يَرَاهُ، حَجَبَ بَصَرَهُ عَنْ رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ صَحَّ القَوْلُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْطِنِ، بَعْدَ هَذَا أَوْ قَبْلَهُ رُفِعَ الحِجَابُ عَنْ بَصَرِهِ حَتَّى رَآهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

***

قولُه (كَما قالَ: وما كانَ لِبَشَرٍ أن يكلِّمَه اللهُ إلّا وَحْيًا): فإنَّ المُرادَ الوَحْيُ على طريقِ المُكاشَفةِ؛ لِأَنَّ الوَحْيَ إعلامٌ في حَقِّنا إمّا بالإلهامِ -وهوَ القَذْفُ في القَلْبِ-؛ كَما أوحيَ إلى أُمِّ موسى، أوْ في المَنامِ؛ كَما أوحيَ إلى إبراهيمَ في ذَبْحِ وَلَدِه، ولَيْسَ المُرادُ بالحِجابِ أنَّ هُناكَ حِجابًا يَفْصِلُ مَوْضِعًا عَنْ مَوْضِعٍ، أوْ يَدُلُّ على تحديدِ المَحْجوبِ، وإنَّما هوَ بِمَنْزِلةِ ما يُسْمَعُ مِنْ وراءِ الحِجابِ؛ حَيثُ لَمْ يُرَ المُتكلِّمُ واللهُ أَعلَمُ بالصوابِ. انتهى مُلّا.

قولُه (بِأَنَّ محمَّدًا رَأى رَبَّه): أيْ بِعَيْنِ البَصَرِ.

***

فَصْلٌ [فِي اخْتِلافِ السَّلَفِ والعُلماءِ فِي كَوْنِ الإِسْراءِ بِالرُّوحِ أو الجسَدِ؟]

ثُـمَّ اخْتَلَـفَ السَّـلَفُ وَالعُلَـمَاءُ، هَـلْ كَانَ إِسْرَاءٌ بِرُوحِـهِ أَوْ جَسَـدِهِ؟ عَـلَى ثَـلاثِ مَقَـالاتٍ:

فَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى أَنَّـهُ إِسْرَاءٌ بِالرُّوحِ وَأَنَّـهُ رُؤْيَـا مَنَام، مَـعَ اتِّفَاقِهِـمْ أَنَّ رُؤْيَـا الأَنْبِيَـاءِ حَـقٌّ وَوَحْـيٌ. وَإِلَى هَـذَا ذَهَـبَ مُعَاوِيَـةُ، وَحُكِـيَ عَـنِ الحَسَـنِ، وَالمشْـهُورُ عَنْـهُ خِلافُـهُ، وَإِلَيْـهِ أَشَـارَ مُحَمَّـدُ بْـنُ إِسْـحَاقَ[1]. وَحُجَّتُهُـمْ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَمَـا جَعَلْنَـا الرُّؤْيَـا الَّتِـي أَرَيْنَـاكَ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وَمَـا حَكَـوْا عَـنْ عَائِشَـةَ: مَـا فَقَـدْتُ جَسَـدَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ[2]، وَقَوْلُـهُ: (بَيْنَـا أَنَـا نَائِـمٌ)، وَقَـوْلُ أَنَـسٍ: وَهُـوَ نَائِـمٌ فِي المَسْـجِدِ الحَـرَامِ، وَذَكَـرَ القِصَّـةَ، ثُـمَّ قَـالَ فِي آخِرِهَـا: فَاسْـتَيْقَظْتُ وَأَنَـا بِالمَسْـجِدِ الحَـرَامِ[3].

وَذَهَـبَ مُعْظَـمُ السَّـلَفِ وَالمُسْـلِمِينَ إِلَى أَنَّـهُ إِسْرَاءٌ بِالجَسَـدِ، وَفِي اليَقَظَـةِ، وَهَـذَا هُـوَ الحَقُّ، وَهُـوَ قَـوْلُ ابْـنِ عَبَّـاسٍ، وَجَابِـرٍ، وَأَنَـسٍ، وَحُذَيْفَـةَ، وَعُمَـرَ، وَأَبِي هُرَيْـرَةَ، وَمَالِـكِ بْـنِ صَعْصَعَـةَ، وَأَبِي حَبَّـةَ البَـدْرِيِّ، وَابْـنِ مَسْـعُودٍ، وَالضَّحَّـاكِ، وَسَـعِيدِ بْـنِ جُبَيْرٍ، وَقَتَـادَةَ، وَابْنِ المُسَـيَّبِ، وَابْـنِ شِـهَابٍ، وَابْـنِ زَيْـدٍ، وَالحَسَـنِ، وَإِبْرَاهِيـمَ، وَمَسْرُوقٍ، وَمُجَاهِـدٍ، وَعِكْرِمَـةَ، وَابْـنِ جُرَيْـجٍ، وَهُـوَ دَلِيـلُ قَـوْلِ عَائِشَـةَ، وَهُـوَ قَـوْلُ الطَّـبَرِيِّ، وَابْـنِ حَنْبَـلٍ، وَجَمَاعَـةٍ عَظِيمَـةٍ مِـنَ المُسْـلِمِينَ، وَهُـوَ قَـوْلُ أَكْثَـرِ المُتَأَخِّرِيـنَ مِـنَ الفُقَهَـاءِ وَالمُحَدِّثِـينَ وَالمُتَكَلِّمِـينَ وَالمُفَسِّرِيـنَ.

(١) قوله (وإلى هذا ذهب معاويةُ ..) أخرَجَه عَنْه ابنُ إسحاقَ [كما في سيرة ابن هشام ١٠/ ٤٠٠] وابنُ جَرير [١٤/ ٤٤٥].

(٢) حديث عائشة (مَا فَقَدْتُ جَسَدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ): ابنُ إسحاقَ [كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٩] وابنُ جَرير [١٤/ ٤٤٥].

(٣) [متفق عليه أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢)، وغيرهما].

قولُـه (هَـلْ كانَ إِسْراءٌ بروحِـه): أيْ فَقَـطْ، وقولُـه (أَوْ جَسَـدِه): أيْ مَـعَ روحِـه في جَميـعِ إسرائِـه أوْ في بَعْضِـه كَـما سَـيَأتي في كَلامِـه.

قولُـه (حَـقٌّ ووَحْـيٌ): أيْ يُعْمَـلُ بِهـا بِخِـلافِ رُؤْيـا غَيْرِهـم، ويَـدُلُّ علَيْـه قولُـه -تعـالى-: ﴿إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، وحديـثُ (تَنـامُ أعيُنُهـم ولا تَنـامُ قُلوبُهـم)[1].

قولُـه (والمَشْـهورُ عَنْـه خِلافُـه): وهـوَ أنَّـه كانَ في اليَقَظَـةِ.

قولُـه (بَيْنـا أنـا نائـمٌ): أيْ في الحَطيـمِ، ورُبَّـما قـالَ: «في الحِجْـرِ».

قولُـه (وفي اليَقَظَـةِ): بِفَتْـحِ القـافِ، ولا يَجوزُ تَسْكينُه، وهـيَ ضِـدُّ المَنـامِ.

قولُـه (وأَبي حَبَّـةَ): بِفَتْـحِ الحـاءِ المُهْمَلَـةِ وتشـديدِ الموَحَّـدةِ، وقيـلَ بالنُّـونِ، وقيـلَ بالتحتيَّـةِ.

قولُـه (ومَـسْروقٍ): هـوَ ابـنُ الأَجْـدَعِ الهَمْـدانيُّ. قولُـه (وابْـنِ جُرَيْـجٍ): -بِجيمَـيْنِ- مُصَغَّـرٌ.

(١) أخرجـه البخـاريُّ (٣٥٧٠) [كتـاب المناقـب]، وغـيره مـن حديـث أنـسٍ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: كَانَ الإِسْرَاءُ بِالجَسَدِ يَقظَةً إِلَى بَيْتِ المَقدِسِ، وإلى السماءِ بالرُّوحِ، واحتَجُّوا بقولِه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، فَجَعَلَ المَسْجِدَ الأَقْصَى غَايَةَ الإِسْرَاءِ الذي وَقَعَ التَّعَجُّبُ فِيهِ بِعَظِيمِ القُدْرَةِ، والتَّمَدُّحِ بِتَشْرِيفِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ بِهِ، وَإِظْهَارِ الكَرَامَةِ لَهُ بِالإِسْرَاءِ إِلَيْهِ.

قَالَ هَؤُلَاءِ: وَلَوْ كَانَ الإِسْرَاءُ بِجَسَدِهِ إِلَى زَائِدٍ عَلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى لَذَكَرَهُ؛ فَيَكُونُ أَبْلَغَ فِي المَدْحِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ هاتانِ الفِرْقَتَانِ، هَلْ صَلَّى بِبَيْتِ المَقْدِسِ أَمْ لَا؟ فَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ وَغَيْرِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ صَلاتِهِ فِيهِ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ، وَقَالَ: وَاللهِ مَا زَالَا عَنْ ظَهْرِ البُرَاقِ حَتَّى رَجَعَا[١].

قَالَ القَاضِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وَالحَقُّ مِنْ هَذَا وَالصَّحِيحُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- أَنَّهُ إِسْرَاءٌ بِالجَسَدِ وَالرُّوحِ فِي القِصَّةِ كُلِّهَا، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الآيَةُ، وَصَحِيحُ الأَخْبَارِ، وَالاعْتِبَارُ، وَلَا يُعْدَلُ عَنِ الظَّاهِرِ وَالحَقِيقَةِ إِلَى التَّأْوِيلِ إِلَّا عِنْدَ الاسْتِحَالَةِ، وَلَيْسَ فِي الإِسْرَاءِ بِجَسَدِهِ، وَحَالَ يَقظَتِهِ اسْتِحَالَةٌ؛ ..

---

(١) حديث حذيفة (ما زالا على ظهر البراق حتى رجعا): أحمد [٢٣٢٨٥].

قولُه (وقالَتْ طائفةٌ): أيْ مِنَ الجامعينَ بَيْنَ الرِّواياتِ المختلِفةِ. قولُه (إلى بَيْتِ المَقْدِسِ): يُرْوى: يَقَظةً مِنَ المسجِدِ -أي الحرامِ- إلى المسجِدِ الأَقْصى.

قولُه (وإلى السماءِ بالرّوحِ): أيْ مَنامًا، وهذا يُشْبِهُ قَوْلَ المعتزِلةِ.

قولُه (فَجَعَلَ المَسْجِدَ الأَقْصى غايةَ... إلخ): هذا وَجْهُ الاحتِجاجِ. قولُه (بِعَظيمِ القُدْرةِ): أيِ المُؤَثِّرةِ وَفْقَ الإرادةِ حَيْثُ كانَ في سَيْرِه ساعةً طَيُّ مسافةٍ كَثيرةٍ، والتعجُّبُ مِنْ لَوازِمِ المُعْجِزةِ.

قولُه (قالَ هؤلاءِ): أيِ الذاهِبونَ إلى المَذْهَبِ الثالِثِ في الإسراءِ.

قولُه (الفِرْقَتانِ): أيِ الثانيةُ والثالثةُ. قولُه (واللهِ ما زالا): أيِ النبيُّ وجِبريلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قولُه (والصحيحُ -إنْ شاءَ اللهُ-): استِثْناءٌ لِلتَّبَرُّكِ بِمَنزِلةِ «واللهُ أَعْلَمُ». قولُه (وعَلَيْهِ تَدُلُّ الآيةُ وصَحيحُ الأخْبارِ): غايَتُه أنَّ دِلالةَ الآيةِ على الإسراءِ مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأقصى نَصٌّ قاطِعٌ يَكونُ جاحِدُه كافِرًا أو مُنافِقًا، ودِلالةَ الأحاديثِ على إسرائِه إلى السَّماءِ وسِدْرةِ المُنْتَهى ومَقامِ قابِ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنى ظَنِّيّةٌ مُنْكِرُها يَكونُ مُبْتَدِعًا فاسِقًا.

قولُه (والاعتِبارُ): -بالرَّفْعِ- مَعْطوفٌ على ما قَبْلَه على ما اقْتَصَرَ عليه الحَلَبيُّ، ولا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ مَجرورًا بالعَطْفِ على «الأخْبارِ»، والمُرادُ بِه المُقايَسةُ؛ يَعْني إذا ثَبَتَ إسراؤه مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصى مُعْجِزةً بِدِلالةِ الآيةِ فيَجوزُ إسراؤه إلى السماءِ بالمقايَسةِ المَقْرونةِ بالأحاديثِ الثابِتةِ؛ إذْ لا فَرْقَ بَيْنَهما في تَعَلُّقِ الإرادةِ والقُدْرةِ.

قولُه (ولا يُعْدَلُ): -بِصيغةِ المَجْهولِ- أيْ لا يُصْرَفُ.

قولُه (إلّا عِنْدَ الاستِحالةِ): أيِ العَقْليّةِ والشَّرْعيّةِ، (ولَيْسَ في الإسْراءِ بِجَسَدِه، وحالَ يَقَظَتِهِ اسْتِحالةٌ): أيْ لا شَرْعًا ولا عَقْلًا؛ حَتّى يُحتاجَ إلى تأويلٍ.

إِذْ لَوْ كَانَ مَنَامًا لَقَالَ: (بِرُوحِ عَبْدِهِ)، وَلَمْ يَقُلْ: ﴿بِعَبْدِهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، وَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمَا كَانَتْ فِيهِ آيَةٌ وَلَا مُعْجِزَةٌ، وَلَمَا اسْتَبْعَدَهُ الْكُفَّارُ وَلَا كَذَّبُوهُ فِيهِ، وَلَا ارتدَّ به ضعفاءُ مَنْ أَسلَمَ، وافتتَنُوا بِهِ؛ إِذْ مِثْلُ هذا مِن المَنامَاتِ لا يُنْكَرُ، بَلْ لَمْ يَكُنْ ذلك مِنْهم إلا وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ خَبَرَهُ إِنَّمَا كَانَ عَنْ جِسْمِهِ، وَحَالَ يَقظَتِهِ، إِلَى مَا ذُكِرَ فِي الحَدِيثِ مِنْ ذِكْرِ صَلاتِهِ بِالأَنْبِيَاءِ بِبَيْتِ المَقْدِسِ فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ أَوْ فِي السَّمَاءِ عَلَى مَا رَوَى، وَذِكْرِ مَجِيءِ جِبْرِيلَ لَهُ بِالبُرَاقِ، وَخَبَرِ المِعْرَاجِ، وَاسْتِفْتَاحِ السَّمَاءِ، فَيُقَالُ: وَمَنْ مَعَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ، وَلِقَائِهِ الأَنْبِيَاءَ فِيهَا، وَخَبَرِهِمْ مَعَهُ، وَتَرْحِيبِهِمْ بِهِ، وَشَأْنِهِ فِي فَرْضِ الصَّلَاةِ، وَمُرَاجَعَتِهِ مَعَ مُوسَى فِي ذَلِكَ، وَفِي بَعْضِ هَذِهِ الأَخْبَارِ: (فَأَخَذَ -يَعْنِي جِبْرِيلَ- بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ)، إِلَى قَوْلِهِ: (ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ بِمُسْتَوًى، أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ)، وَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَأَنَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَرَأَى فِيهَا مَا ذَكَرَهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ رَآهَا ﷺ، لَا رُؤْيَا مَنَامٍ[1].

وَعَنِ الحَسَنِ فِيهِ: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الحِجْرِ، جَاءَنِي جِبْرِيلُ، فَهَمَزَنِي بعقِبِهِ، فَقُمْتُ فَجَلَسْتُ، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَعُدْتُ لِمَضْجَعِي)، ذَكَرَ ذَلِكَ ثَلاثًا، فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: (فَأَخَذَ بِعَضُدِي، فَجَرَّنِي إِلَى بَابِ المَسْجِدِ، فَإِذَا بِدَابَّةٍ)، وَذَكَرَ خَبَرَ البُرَاقِ[2].

(١) حديث ابن عباس (هي رؤيا عين ...): البخاري [٣٨٨٨، ٤٧١٦، ٦٦١٣].

(٢) حديث الحسن (بينا أنا جالس في الحجر ...): ابن إسحاق (سيرة ابن هشام [١/ ٣٩٧]) وابن جرير من طريقه [١٤/ ٤١٥].

قولُه (وَلَوْ كانَ مَنامًا [لَمَا] كانت فيه آيةٌ) مَعَ أنَّ اللهَ -تباركَ وتعالى- قالَ: ﴿لَقَدْ رأى مِنْ آياتِ رَبِّه الكُبْرى﴾ [النجم: ١٨].

قولُه (فيُقالُ: ومَنْ مَعَكَ؟): أيْ بَعْدَما يُقالُ: «مَنْ أَنْتَ»، فيَقولُ: «جِبريلُ».

قولُه (وتَرْحيبهم بِهِ): أيْ وتَحيَّتهم بِهِ -كَما في نُسخةٍ-؛ وأَصْلُ الترحيبِ [قَوْلُ «مَرْحَبًا»].

قولُه (ومُراجعَتِهِ مَعَ موسى في ذلك): أيْ في تَخفيفِها، أوْ مُراجَعَتِه إلى اللهِ مَعَ مُساعَدَةِ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ.

قولُه (صَريفَ الأَقْلام): أيْ صَريرَها[1] -كَما في روايةٍ-؛ وقَدْ فَرَضَ علَيْه هُناكَ خَمْسينَ صَلاةً، فرَجَعَ فمَرَّ بموسى، فلَمْ يَزَلْ بَيْنَه وبَيْنَه؛ حَتّى قيلَ له: (هيَ خَمْسٌ وهُنَّ خَمْسونَ).

قولُه (لا رُؤْيا مَنامٍ): وإنْ كانَ رُؤْيا الأنبياءِ حَقًّا في ثُبوتِ المَرامِ.

قولُه (في الحِجْرِ): بِكَسْرِ الحاءِ المُهْمَلةِ وسُكونِ الجيمِ، وقالَ النوويُّ: إنَّه رأى لِبَعْضِ المُصَنِّفينَ على «المُهَذَّبِ» أنَّه يُقالُ بِفَتْحِ الحاءِ.

قولُه (بِعَضُدي): -بِصيغةِ الإفرادِ، وفيه أربَعُ لُغاتٍ: فَتْحُ العَيْنِ مَعَ ضَمِّ الضادِ، وكَسْرِها، وسُكونِها، وضَمُّ العَيْنِ مَعَ السُّكونِ- أيْ أَمْسَكَ ما فَوْقَ مِرْفَقي.

(١) ذكرها ابن حجر في إتحاف المهرة (١٧٤٤٠)، وصرير الأقلام: صوتها. «تاج العروس» للزبيديِّ (١٢/ ٣١٣).

وَعَنْ أُمِّ هَانِئٍ: مَا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ فِي بَيْتِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ، صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ، وَنَامَ بَيْنَنَا، فَلَمَّا كَانَ قُبَيْلَ الفَجْرِ، أَهَبَّنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ، وَصَلَّيْنَا، قَالَ: (يَا أُمَّ هَانِئٍ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ العِشَاءَ الآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتِ بِهَذَا الوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ الغَدَاةَ مَعَكُمُ الآنَ كَمَا تَرَوْنَ)[1]. وَهَذَا بَيِّنٌ فِي أَنَّهُ بِجِسْمِهِ.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ مِنْ رِوَايَةِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ: طَلَبْتُكَ -يَا رَسُولَ اللهِ- البَارِحَةَ فِي مَكَانِكَ، فَلَمْ أَجِدْكَ! فَأَجَابَهُ أَنَّ جِبْرِيلَ حَمَلَهُ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى[2].

وَعَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (صَلَّيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فِي مُقَدَّمِ المَسْجِدِ، ثُمَّ دَخَلْتُ الصَّخْرَةَ، فَإِذَا بِمَلَكٍ قَائِمٍ، مَعَهُ آنِيَةٌ ثَلَاثٌ)، وَذَكَرَ الحَدِيثَ[3].

وَهَذِهِ التَّصْرِيحَاتُ ظَاهِرَةٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ؛ فَتُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهَا.

---

(١) حديث أم هانئ: ابن إسحاق في السيرة [١/ ٤٠٢] والطبراني [١٠٥٩] وابن جرير [٤/ ٤١٤].

(٢) حديث شداد بن أوس: البيهقي [«الدلائل» ٢/ ٣٥٥]، وابن مردويه.

(٣) حديث عمر: ابن مردويه من طرق.

قولُه (أُمِّ هانِئٍ): -بِكَسْرِ النّونِ فهَمْزٍ- هيَ بِنْتُ أَبِي طالِبٍ.

قولُه (أَهَبَّنا): -بتشديدِ الموَحَّدةِ- أيْ أَيْقَظَنا.

قولُه (فَلَمّا صَلّى الصُّبْحَ): أيْ نَفْلًا، أوْ كانَتْ صلاتانِ فريضةً قَبْلَ الإسراءِ: صلاةٌ قَبْلَ طلوعِ الشمسِ، وصلاةٌ قَبْلَ غُروبِها، والأَظْهَرُ -كَما قالَه المُلّا- أَنَّه صَلّى الصُّبْحَ المعروضَ في ليلةِ الإسراءِ مِنْ جُملةِ الخَمْسِ.

قولُه (بِهَذا الوادي): أيْ وادي مَكّةَ لِإحاطةِ الجِبالِ بِها.

قولُه (وهذا بَيِّنٌ): -بِتَشْديدِ التحتيّةِ المكسورةِ- أيْ هذا الحديثُ بُرهانٌ ظاهِرٌ.

وقولُه (في أَنَّهُ بِجِسْمِهِ): أيْ لا بِروحِه فَقَطْ، ولا يُنافي قولَها (وَصَلَّيْنا) أَنَّها أَسْلَمَتْ عامَ الفَتْحِ وهوَ بَعْدَ الإسْراءِ؛ لِأَنَّ المُرادَ بِضَميرِ الجَمْعِ جَماعةٌ قَدْ أَسْلَموا قَبْلَ ذلكَ وصَلّوا هُناكَ.

قولُه (في مَكانِكَ): أيْ مَحَلِّكَ المُعْتادِ أَوَّلَ اللَّيْلةِ وآخِرَها.

قولُه (أَنَّ جِبْريلَ حَمَلَهُ... إلخ): أيْ «بِأَنَّه»؛ وهوَ المُتَبادَرُ فَلا احتياجَ إلى تَكَلُّفِ بَعْضِهِم بِقَوْلِه: التقديرُ: «فأَجابَه بِقَولِه: (إِنَّ جبريلَ حَمَلَني...)؛ مِنْ غَيْرِ نَصٍّ على كَسْرِ (أَنَّ)».

قولُه (فَإِذا بِمَلَكٍ قائِمٍ): بالجَرِّ أوْ بالرَّفْعِ بِناءً على عَدَمِ وُجودِ الباءِ -كَما في نسخةٍ.

قولُه (ظاهِرةٌ): أيْ في أَنَّ القِصّةَ كانَتْ يَقَظةً.

قولُه (غَيْرُ مُستَحيلةٍ): أيْ شَرْعًا وعَقْلًا، وثَبَتَتْ نَقْلًا.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنْهُ ﷺ: (فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَشَرَحَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ -إِلَى آخِرِ القِصَّةِ-، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي)(١).

وَعَنْ أَنَسٍ: (أُتِيتُ، فَانْطَلَقُوا بِي إِلَى زَمْزَمَ، فَشُرِحَ عَنْ صَدْرِي)(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الحِجْرِ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ أُثْبِتْهَا؛ فَكُرِبْتُ كَرْبًا مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ)(٣)، وَغَيْرُهُ وَنَحْوُهُ عَنْ جَابِرٍ(٤).

وَقَدْ رَوَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ، وَمَا تَحَوَّلَتْ عَنْ جَانِبِهَا)(٥).

***

قولُه (فُرِجَ): -بصيغةِ المفعولِ مُخَفَّفًا، وجوِّزَ مُشَدَّدًا- أيْ كُشِفَ وأُزِيلَ.

قولُه (سَقْفُ بَيْتِي): أُضيفَ إليْه تارةً لِأنَّه كانَ ساكِنًا فيه، وإلَيْها أُخرى؛ مِنْ حيثُ إنَّه كانَ مِلْكَها.

قولُه (فَشُرِحَ عَنْ صَدْرِي): الجارُّ والمجرورُ نائبُ الفاعلِ.

قولُه (لَقَدْ رأيتُني): بِضَمِّ تاءِ المُتكلِّمِ. قولُه (عَن مَسْرايَ): -بِفَتحِ ميمٍ وسُكونِ سينٍ- أيْ عَنْ عَلاماتِ سَيْرِي ومَكانِه.

قولُه (فَكُرِبْتُ كَرْبًا): -بِفَتْحٍ فسُكونٍ- أيْ غَمًّا يَأْخُذُ النَّفْسَ، والفِعلُ مَبْنيٌّ لِلمَجهولِ.

***

(١) حديث أبي ذر (فُرِجَ سقف بيتي ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٣٤٢)، ومسلمٌ (١٦٣)].

(٢) [أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٢٦٠)، وغيره].

(٣) حديث أبي هريرة (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني ...): مسلم [١٧٢].

(٤) حديث جابر نحوه: الشيخان [البخاريُّ (٣٨٨٦)، ومسلمٌ (١٧٠)].

(٥) [أخرجه ابن مردويه كما في الخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٢٧٢)].

فَصْلٌ: فِي إِبْطَالِ حُجَجِ مَنْ قَالَ إِنَّهَا نَوْمٌ

احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾، فَسَمَّاهَا «رُؤْيَا»، قُلْنَا: قَوْلُهُ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ يَرُدُّهُ؛ لِأَنَّهُ لا يُقَالُ فِي النَّوْمِ «أَسْرَى»، وَقَوْلُهُ: ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يُؤَيِّدُ أَنَّهَا رُؤْيَةُ عَيْنٍ وَإِسْرَاءٌ بِشَخْصٍ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الْحُلْمِ فِتْنَةٌ، وَلَا يُكَذِّبُ بِهِ أَحَدٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَرَى مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَنَامِهِ مِنَ الكَوْنِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَقْطَارٍ مُتَبَايِنَةٍ، عَلَى أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَا وَقَعَ فِي نُفُوسِ النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ، وَقِيلَ: غَيْرُ هَذَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّهُ قَدْ سَمَّاهَا فِي الحَدِيثِ مَنَامًا، وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: بَيْنَ النَّائِمِ وَاليَقْظَانِ، وَقَوْلُهُ أَيْضًا: وَهُوَ نَائِمٌ، وَقَوْلُهُ: (ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ)، فَلَا حُجَّةَ فِيهِ؛ إِذْ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّ أَوَّلَ وُصُولِ المَلَكِ إِلَيْهِ كَانَ وَهُوَ نَائِمٌ، أَوْ أَوَّلَ حَمْلِهِ وَالإِسْرَاءِ بِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، وَلَيْسَ فِي الحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ نَائِمًا فِي القِصَّةِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ (ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ وَأَنَا فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ)، فَلَعَلَّ قَوْلَهُ (اسْتَيْقَظْتُ) بِمَعْنَى أَصْبَحْتُ، أَوِ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمٍ آخَرَ بَعْدَ وُصُولِهِ بَيْتَهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ مَسْرَاهُ لَمْ يَكُنْ طُولَ لَيْلِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي بَعْضِهِ، وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ (اسْتَيْقَظْتُ وَأَنَا فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ) لِمَا كَانَ غَمَرَهُ مِنْ عَجَائِبِ مَا طَالَعَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَخَامَرَ بَاطِنَهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ المَلَأِ الأَعْلَى، وَمَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى؛ فَلَمْ يَسْتَفِقْ وَيَرْجِعْ إِلَى حَالِ البَشَرِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ بِالمَسْجِدِ الحَرَامِ.

قولُه (**في إبطالِ حُجَجِ مَنْ قالَ**): -بِضَمِّ حاءٍ وفَتْحِ جيمٍ- جَمْعُ «حُجَّةٍ»، وهوَ بِمَعْنى «دَليلٍ وبَيِّنَةٍ». قولُه (**إنَّها نَوْمٌ**) ويُروى «إنَّها رُؤْيا نَوْمٍ». قولُه (**في الحُلُمِ**): -بِضَمَّتَيْنِ وتُسَكَّنُ اللّامُ- بِمَعْنى الاحْتِلامِ[1]. قولُه (**مِنَ الكَوْنِ**): أيْ حُدوثَ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ، والأَلِفُ واللّامُ بَدَلٌ مِنَ المُضافِ إلَيْه؛ أيْ مِنْ كَوْنِه في ساعةٍ واحِدةٍ. قولُه (**مُتَبايِنةٍ**): أيْ في أطرافٍ مُخْتَلِفةٍ، وجَوانِبَ مُفْتَرِقةٍ، ونَواحي مُتَباعِدةٍ.

قولُه (**قضيةِ الحُدَيْبِيةِ**): هيَ بِتَخفيفِ التحتيةِ قَبْلَ هاءِ التأنيثِ مُصَغَّرًا، وكَثيرٌ مِنَ المُحَدِّثينَ على تشديدِها. قولُه (**في نُفوسِ الناسِ**): أيْ جَماعةٍ مِنْهم.

قولُه (**بَيْنَ النائمِ واليَقْظانِ**): بفتحتين[2]. قولُه (**فَلا حُجّةَ فيه**): أيْ في كُلِّ واحِدٍ مِنْها لِعَدَمِ تصريحٍ في الدِّلالةِ فيها. قولُه (**ولَيْسَ في الحديثِ**): أيْ في حديثٍ ما لا صَحيحٍ ولا ضَعيفٍ. قولُه (**بِمَعْنى أَصْبَحْتُ**): إذِ الاستيقاظُ غالِبًا يَكونُ حالةَ الإصْباحِ، فعَبَّرَ بِهِ عَنْه مَجازًا، وهذا لا يَخْفى بُعْدُه.

قولُه (**لِما كانَ غَمَرَه**): -بالغَيْنِ المُعْجَمةِ ثُمَّ الرّاءِ- أيْ لِأَجْلِ ما عَلا قَلْبَه وغَطّاه.

قولُه (**مِنْ مَلَكوتِ السَّمَواتِ والأَرْضِ**): قالَ المُحَقِّقونَ: إنَّ المُلْكَ ظاهِرُ العالَمِ، والمَلَكوتَ باطِنُه، وقيلَ: المَلَكوتُ المُلْكُ العَظيمُ.

---

(١) الحُلْمُ والحُلُمُ الرُّؤْيا، وحَلَمَ واحْتَلَمَ وانْحَلَمَ: رأى في المنامِ. [لسان العرب]

(٢) كذا في الأصل، والصحيح أنها بفتح فسكون، أما الاسم «يقظَة» فبفتحتين.

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ: أَنْ يَكُونَ نَوْمُهُ وَاسْتِيقَاظُهُ حَقِيقَةً عَلَى مُقْتَضَى لَفْظِهِ، وَلَكِنَّهُ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ، وَقَلْبُهُ حَاضِرٌ، وَرُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، وَقَدْ مَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الإِشَارَاتِ إِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا، قَالَ: تَغْمِيضُ عَيْنَيْهِ لِئَلَّا يَشْغَلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ عَنِ اللهِ، وَلَا يَصِحُّ هَذَا أَنْ يَكُونَ فِي وَقْتِ صَلَاتِهِ بِالأَنْبِيَاءِ، وَلَعَلَّهُ كَانَتْ لَهُ فِي هَذَا الإِسْرَاءِ حَالَاتٌ.

وَوَجْهٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنْ يُعَبَّرَ بِالنَّوْمِ هَهُنَا عَنْ هَيْئَةِ النَّائِمِ مِنَ الاضْطِجَاعِ، وَيُقَوِّيهِ قَوْلُهُ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْ هَمَّامٍ: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ)، وَرُبَّمَا قَالَ: (مُضْطَجِعٌ)، وَفِي رِوَايَةِ هُدْبَةَ عَنْهُ: (بَيْنَا أَنَا فِي الحَطِيمِ -وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ- مُضْطَجِعٌ)، وَقَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى: (بَيْنَ النَّائِمِ وَاليَقْظَانِ)، فَيَكُونُ سَمَّى هَيْئَتَهُ بِالنَّوْمِ؛ لِمَا كَانَتْ هَيْئَةُ النَّائِمِ غَالِبًا.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَاتِ مِنَ النَّوْمِ وَذِكْرِ شَقِّ البَطْنِ وَدُنُوِّ الرَّبِّ الوَاقِعَةَ فِي هَذَا الحَدِيثِ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ روايةِ شَرِيكٍ عَنْ أَنَسٍ؛ فَهِيَ مُنْكَرَةٌ مِن روايتِه إِذْ شَقُّ البطْنِ في الأحاديثِ الصحيحةِ إِنَّمَا كَانَ فِي صِغَرِهِ ﷺ، وَقَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَلِأَنَّهُ قَالَ فِي الحَدِيثِ: (قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ)، وَالإِسْرَاءُ بِإِجْمَاعٍ كَانَ بَعْدَ المَبْعَثِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ يُوهِنُ مَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ، مَعَ أَنَّ أَنَسًا قَدْ بَيَّنَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ أَنَّهُ إِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ مَرَّةً: (عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ)، وَفِي كِتَابِ مُسْلِمٍ: (لَعَلَّهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ) عَلَى الشَّكِّ، وَقَالَ مَرَّةً: (كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ).

وَأَمَّا قَوْلُ عَائِشَةَ: (مَا فُقِدَ جَسَدُهُ)، فَعَائِشَةُ لَمْ تُحَدِّثْ

قولُه (أَصْحابِ الإشاراتِ): وفي نُسخةٍ «أَهْلِ الإشاراتِ».

قولُه (مِنَ المَحسوساتِ عَنِ الله): -عَزَّ وجَلَّ- قالَ المُلّا: وفيه أَنَّ مَنْ وَصَلَ إلى حالةِ الجَمْعيّةِ وزالَ عَنْه مَرْتَبةُ التَّفْرِقةِ، لا يَحْجُبُه شُهودُ الكَثْرةِ عَنْ وُجودِ الوَحْدةِ، وبالعَكْسِ.

قولُه (وَوَجْهٌ رابِعٌ): أيْ شاهِدٌ بِأَنَّه كانَ يَقظةً ويُؤَوِّلُ ما يكونُ فيه مخالَفةٌ.

قولُه (وهوَ أنْ يُعَبَّرَ بالنَّوْمِ هاهُنا... إلخ): وَقَعَ في «الدلجيِّ» هُنا زياداتٌ -وكذا فيما قَبْلَه- مُكَرَّراتٌ لَيسَتْ في الأصولِ المعتمَدةِ والنُّسَخِ المُعْتَبَرةِ.

قولُه (عَبْدِ بْنِ): بالوَصْفِ [لا] بالإضافةِ. وقولُه (حُمَيْدٍ): -بالتصغيرِ- هوَ حافِظٌ كَبيرٌ شَهيرٌ، واسمُه عَبْدُ الحَميدِ. قولُه (هَمّام): -بِفَتْحِ الهاءِ وتشديدِ الميمِ- إمامٌ حافِظٌ. قولُه (هُدْبةَ): -بِضَمِّ الهاءِ وسُكونِ الدّالِ المُهْمَلةِ بَعْدَها موَحَّدةٌ- هوَ ابنُ خالدٍ القَيْسيُّ الجُهَنيُّ، ويُقالُ له: «هَدّابٌ»، قالَ الحَليميُّ: وفي نسخةٍ «مُعاويةَ» بَدَلَ (هُدْبةَ)، وهوَ غَيْرُ صَحيحٍ. قالَه المُلّا.

قولُه (مُنْكَرةٌ): بفتحِ الكافِ. قولُه (مِنْ غَيْرِ طريقٍ): أيْ مِن طُرُقٍ كَثيرةٍ.

قولُه (ما فُقِدَ جَسَدُه): بصيغةِ المَجهولِ، وفي أَصْلِ الدلجيِّ -وهوَ روايةٌ-: «ما فَقَدْتُ»؛ بِصيغةِ المُتكَلِّمِ.

بِهِ عَنْ مُشَاهَدَةٍ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ زَوْجَتَه، وَلَا فِي سِنِّ مَنْ يَضْبِطُ، وَلَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ وُلِدَتْ بَعْدُ، عَلَى الخِلَافِ فِي الإِسْرَاءِ، مَتَى كَانَ؟ فَإِنَّ الإِسْرَاءَ كَانَ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ -عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ- بَعْدَ البَعْثِ بِعَامٍ وَنِصْفٍ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ فِي الهِجْرَةِ بِنْتَ نَحْوِ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ، وَقَدْ قِيلَ: كَانَ الإِسْرَاءُ لِخَمْسٍ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَقِيلَ: قَبْلَ الهِجْرَةِ بِعَامٍ. وَالأَشْبَهُ أَنَّهُ لِخَمْسٍ، وَالحُجَّةُ لِذَلِكَ تَطُولُ، لَيْسَتْ مِنْ غَرَضِنَا.

فَإِذَا لَمْ تُشَاهِدْ ذَلِكَ عَائِشَةُ دَلَّ عَلَى أَنَّهَا حَدَّثَتْ بِذَلِكَ عَنْ غَيْرِهَا، فَلَمْ يُرَجَّحْ خَبَرُهَا عَلَى خَبَرِ غَيْرِهَا، وَغَيْرُهَا يَقُولُ خِلَافَهُ مِمَّا وَقَعَ نَصًّا فِي حَدِيثِ أُمِّ هَانِئٍ وَغَيْرِهِ.

وَأَيْضًا فَلَيْسَ حَدِيثُ عَائِشَةَ بِالثَّابِتِ، وَالأَحَادِيثُ الأُخَرُ أَثْبَتُ، لَسْنَا نَعْنِي حَدِيثَ أُمِّ هَانِئٍ وَمَا ذُكِرَتْ فِيهِ خَدِيجَةُ، وَأَيْضًا فَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ (مَا فَقَدْتُ)، وَلَمْ يَدْخُلِ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا إِلا بِالمَدِينَةِ، وَكُلُّ هَذَا يُوَهِّنُهُ، بَلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ صَحِيحُ قَوْلِهَا أَنَّهُ بِجَسَدِهِ لِإِنْكَارِهَا أَنْ تَكُونَ رُؤْيَاهُ لِرَبِّهِ رُؤْيَا عَيْنٍ، وَلَوْ كَانَتْ عِنْدَهَا مَنَامًا لَمْ تُنْكِرْهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، فَقَدْ جَعَلَ مَا رَآهُ لِلْقَلْبِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رُؤْيَا نَوْمٍ ووَحْيٌ، لَا مُشَاهَدَةُ عَيْنٍ وَحِسٍّ، قُلْنَا: يُقَابِلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى﴾؛ فَقَدْ أَضَافَ الأَمْرَ لِلْبَصَرِ، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾: أَيْ لَمْ يُوهِمِ القَلْبُ العَيْنَ غَيْرَ الحَقِيقَةِ، بَلْ صَدَّقَ رُؤْيَتَهَا، وَقِيلَ: مَا أَنْكَرَ قَلْبُهُ مَا رَأَتْهُ عَيْنُهُ.

***

قولُه (لَمْ تكُنْ حينَئذٍ زوجتَه): بالإضافةِ، وفي نسخةٍ «زَوْجةً»، أيْ له ﷺ.

قولُه (ولا في [سِنِّ] مَنْ يَضْبِطُ): -بِضَمِّ المُوَحَّدةِ وكَسْرِها- أيْ بَلْ ولا كانَتْ حينَئذٍ في سِنِّ مَن يحفَظُ الأمورَ.

قولُه (ومَنْ وافَقَه- بَعْدَ البَعْثِ) ويُرْوى «المَبْعَثِ».

قولُه (نَحْوِ ثَمانيةِ أَعْوامٍ): فكانَ الإسراءُ على هذا قَبْلَ وِلادَتِها بِنَحْوِ ثَلاثةِ أَعْوامٍ ونِصْفٍ؛ إذْ قَدْ سَكَنَ بِمَكَّةَ بَعْدَ البَعْثةِ ثَلاثةَ عَشَرَ عامًا.

قولُه (والأَشْبَهُ): أي الأظهَرُ.

قولُه (على أَنَّها حَدَّثَتْ بذلكَ عَنْ غَيْرِها): أيْ بِتاءِ المُتكَلِّمِ حِكايةً لِقَوْلِ مَنْ أَخْبَرَها باقيةً على صورتِها الأولى.

قولُه (فَلَمْ يُرَجَّحْ خَبَرُها على خَبَرِ غَيْرِها): أيْ لِروايَتِها له عَنْ مجهولٍ؛ بَلْ لِعَدَمِ ثُبوتِه.

قولُه (وأَيْضًا): مَصدَرُ «آضَ» بِمَعْنى «عادَ»، والمَعْنى «وقُلْتُ مُعاوِدًا... إلخ».

قولُه (لَسْنا): في نُسخةٍ صحيحةٍ «ولَسْنا». قولُه (حديثَ أُمِّ هانِئٍ): أيْ «ما أُسْرِيَ... إلخ».

قولُه (ووَحْيٌ): -بالجَرِّ- عَطْفٌ على (نَوْمٍ) كَما قالَ الدلجيُّ، والصَّوابُ بالرَّفْعِ؛ عَطْفٌ على (رُؤْيا). انتهى مُلّا.

***

فَصْلٌ [في رُؤيتهِ ﷺ لِرَبه واختِلافِ النَّاسِ فيها]

وَأَمَّا رُؤْيَتُهُ ﷺ لِرَبِّهِ -جَلَّ وَعَزَّ- فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا، فَأَنْكَرَتْهُ عَائِشَةُ.

حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ سِرَاجُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ الحَافِظُ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي وَأَبُو عَبْدِ الله بْنُ عَتَّابٍ الفَقِيهُ، قَالَا: حَدَّثَنَا القَاضِي يُونُسُ بْنُ مُغِيثٍ، أَنبأَنا أَبُو الفَضْلِ الصِّقِلِّيُّ، أَنبأَنا ثَابِتُ بْنُ القَاسِمِ بنِ ثَابِتٍ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، قَالَا: أَنبأَنا عَبْدُ الله بْنُ عَلِيٍّ، أَنبأَنا مَحْمُودُ بْنُ آدَمَ، أَنبأَنا وَكِيعٌ عَنِ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ! ثَلَاثٌ مَنْ حَدَّثَكَ بِهِنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ...﴾ الآيَةَ [الأنعام: ١٠٣]، وَذَكَرَ الحَدِيثَ[1].

وَقَالَ جَمَاعَةٌ بِقَوْلِ عَائِشَةَ، وَهُوَ المَشْهُورُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[2]، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ إِنَّمَا رَأَى جِبْرِيلَ[3]، وَاخْتُلِفَ عَنْهُ، وَقَالَ بِإِنْكَارِ هَذَا وَامْتِنَاعِ رُؤْيَتِهِ فِي الدُّنْيَا جَمَاعَةٌ مِنَ المُحَدِّثِينَ وَالفُقَهَاءِ وَالمُتَكَلِّمِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ، وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْهُ: رَآهُ بِقَلْبِهِ، وَعَنْ أَبِي العَالِيَةِ عَنْهُ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ ابن عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، يَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ[4].

---

(١) حديث مسروق (أنه قال لعائشة هل رأى محمد ربه...): مسلم [١٧٧].

(٢) حديث ابن مسعود (رأى جبريل): الشيخان [البخاري (٣٢٣٢)، ومسلمٌ (١٧٤)].

(٣) حديث أبي هريرة كذلك: مسلم [١٧٥].

(٤) حديث (أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله هل رأى محمد ربه قال نعم): ابن إسحاق [كما في الروض الأنف ٣/ ٢٧٢] عن عبد الله بن أبي مسلمة.

قولُه (جَلَّ وعَزَّ): أيْ عَظُمَ شأنُه وغَلَبَ سُلطانُه.

قولُه (فَأَنْكَرَتْهُ عائشةُ): أيْ كَونَها ووقوعَها، أوْ قَولَ مَسروقٍ لَها: «هَلْ رَأى محمَّدٌ رَبَّه»، وفي أصلِ الدلجيِّ: «فأنْكَرَتْها: أيِ الرؤيةَ المذكورةَ».

قولُه (حَدَّثَنا أَبي): أيْ عَبْدُ المَلِكِ، ووَهِمَ الحلبيُّ في قولِه: «أبوه القاضي سِراجٌ». قولُه (عَتَّابٍ): هوَ بالفَتْحِ والتشديدِ. قولُه (مُغيثٍ): [بِضَمِّ] أوَّلِه[1] وكَسرِ ثانيه.

قولُه (الصِّقِلِّيُّ): -بِكَسْرِ الصادِ وسُكونِ القافِ- نِسبةٌ إلى «صِقِلِّيَّةَ»، جَزيرةٍ مِنْ جزائرِ بَحْرِ العَرَبِ -ذَكَرَه الحلبيُّ وغيرُه-، ولِابْنِ خِلِّكانَ: «بِفتحتَيْنِ»، زادَ الحجازيُّ: «وتشديدِ اللامِ»، ولِلتلمسانيِّ: «بِفتحِ الصادِ والقافِ وكَسرِهما واللامُ مخفَّفةٌ مَعَهما».

قولُه (عَنْ عامِرٍ): هوَ الصَّوابُ لا ما قيلَ عَنْ مُجاهِدٍ.

قولُه (ثُمَّ قَرَأَتْ): أيْ لِلاستِشْهادِ على دَعْوى المُرادِ.

قولُه (لا تُدْرِكُه... إلخ): أُجيبَ بأنَّ الآيةَ دالّةٌ على عَدَمِ إحاطةِ حاسّةِ بَصَرٍ بحقيقتِه إذا تجلّى بِنورِ كَمالِه، وصِفةِ كِبْرياءِ جَلالِه.

---

(١) جاء في الأصل: «بفتح أوله».

وَالأَشْهَرُ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ طُرُقٍ، وَقَالَ: (إِنَّ اللهَ اخْتَصَّ مُوسَى بِالْكَلَامِ، وَإِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ، وَمُحَمَّدًا بِالرُّؤْيَةِ)(١)، وَحُجَّتُهُ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١١-١٣].

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: قِيلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَسَمَ كَلَامَهُ وَرُؤْيَتَهُ بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ؛ فَرَآهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ، وكَلَّمَهُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ.

وَحَكَى أَبُو الْفَتْحِ الرَّازِيُّ وَأَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ الْحِكَايَةَ عَنْ كَعْبٍ.

ورَوَى عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحَارِثِ، قَالَ: اجْتَمَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ وكَعْبٌ، فقَالَ ابنُ عبَّاسٍ: أَمَّا نَحْنُ بَنُو هَاشِمٍ فَنَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ رَأَى رَبَّهُ مرَّتَيْنِ؛ فَكَبَّرَ كَعْبٌ حَتَّى جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَسَمَ رُؤْيَتَهُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ومُوسَى، فَكَلَّمَهُ مُوسَى، ورَآهُ مُحَمَّدٌ بِقَلْبِهِ.(٢)

وَرَوَى شَرِيكٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ، قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ.(٣)

وَحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَرَبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: (رَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي، وَلَمْ أَرَهُ بِعَيْنِي).(٤)

---

(١) حديث ابن عباس (أن الله اختص موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة ومحمدًا بالرؤية): الحاكم [١/ ٦٤] والنَّسائيُّ [١١٤٧٥] والطبراني [١١٩١٤].

(٢) حديث عبد الله بن الحارث (اجتمع ابن عباس وكعب ...): الترمذي [٣٢٧٨].

(٣) [أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥١٦)، والدارقطني في الرؤية (٢٥٨)، والطبراني في الأوسط (١١٤١)، وغيرهم].

(٤) حديث محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس (أن النبي ﷺ سئل هل رأيت ربك فقال رأيته بفؤادي ولم أره بعيني): ابن أبي حاتم مرسلًا، وأخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: (قلنا يا رسول الله ...) فذكره موصولًا [٢٢/ ١٩].

قولُه (اخْتَصَّ موسى): مِنْ بَيْنِ سائِرِ الأنبياءِ -علَيْهِم الصلاةُ والسَّلامُ-؛ فلا يُنافي أنَّه ﷺ وَقَعَ له الكَلامُ، على وَفْقِ المَرامِ.

قولُه (وَإِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ): فيه ما تَقَدَّمَ في موسى؛ فإنَّ نَبِيَّنا ﷺ خَليلٌ وحَبيبٌ.

قولُه (فَرَآهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ): أيْ حَيثُ كانَ قابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنى، وعِنْدَ سِدْرةِ المُنْتَهى.

وقولُه (وَكَلَّمَه... إلخ): أيْ عِنْدَ الإرسالِ إلى فِرعونَ وبَعْدَ هَلاكِه ورُجوعِه ﷺ إلى الطُّورِ، وفيه أنَّ قائلَ هذا مَجْهولٌ؛ فلا استِدْلالَ بِه.

قولُه (في تَفسيرِ الآيةِ): أيْ قولِه تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى﴾.

قولُه (قالَ: رَأى النبيُّ... إلخ): فيه أنَّه مُبْهَمٌ يَحتَمِلُ احتمالَيْنِ، وأَغْرَبَ الدلجيُّ حَيْثُ قالَ: أيْ بِقَلْبِه بِشَهادةِ أوَّلِ الآيةِ.

قولُه (قالَ: رأَيْتُه... إلخ): هذا صَريحٌ في طَرَفَيِ الإثباتِ والنَّفْيِ، ولا يَضُرُّ كَوْنُ الحديثِ مُرْسَلًا؛ وأمَّا قولُ الدلجيِّ: «لَعَلَّه في الرُّؤيةِ الأولى» فلا يُقاوِمُ الحديثَ مِنْ وُجوهٍ يَعْلَمُها أهْلُه.

وَرَوَى مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ عَنْ مُعَاذٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (رَأَيْتُ رَبِّي، وَذَكَرَ كَلِمَةً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعلى...) الحديث[1].

وَحكَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَّ الحَسَنَ كَانَ يَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ، وَحَكَاهُ أَبُو عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيُّ عَنْ عِكْرِمَةَ، وَحَكَى بَعْضُ المُتَكَلِّمِينَ هَذَا المَذْهَبَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَحَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ مَرْوَانَ سَأَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ[2].

وَحَكَى النَّقَّاشُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ قَالَ: (أَنَا أَقُولُ بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بِعَيْنِهِ رَآهُ رَآهُ) حَتَّى انْقَطَعَ نَفَسُهُ، يَعْنِي نَفَسَ أَحْمَدَ، وَقَالَ أَبُو عُمَرَ: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: رَآهُ بِقَلْبِهِ، وَجَبُنَ عَنِ القَوْلِ بِرُؤْيَتِهِ فِي الدُّنْيَا بِالأَبْصَارِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: (لَا أَقُولُ رَآهُ وَلَا لَمْ يَرَهُ).

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِ الآيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ وَالحَسَنِ وَابْنِ مَسْعُودٍ، فَحُكِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ (رَآهُ بِقَلْبِهِ)، وَعَنِ الحَسَنِ وَابْنِ مَسْعُودٍ (رَأَى جِبْرِيلَ)، وَحَكَى عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: (رَآهُ)، وَعَنِ ابْنِ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، قَالَ: شَرَحَ صَدْرَهُ لِلرُّؤْيَةِ، وَشَرَحَ صَدْرَ مُوسَى لِلْكَلَامِ.

وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: إِنَّهُ رَأَى اللهَ بِبَصَرِهِ وَعَيْنَيْ رَأْسِهِ، وَقَالَ: كُلُّ آيَةٍ أُوتِيَهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَهَا نَبِيُّنَا ﷺ، وَخُصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ بِتَفْضِيلِ الرُّؤْيَةِ.

---

(١) حديث مالك بن يخامر عن معاذ (رأيتُ ربِّي فقال يا محمَّد فيمَ يَختَصِمُ الملأُ الأعلى ...): أحمد [٢٢١٠٩] والترمذيُّ وصحَّحه [٣٢٣٥].

(٢) حديث (أن مروان سأل أبا هريرة: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم): ابن إسحاق [كما في الروض الأنف ٣/ ٢٧١].

قولُه (بْنُ يُخامِرَ): -بِضَمِّ تَحتيَّةٍ فخاءٍ مُعْجَمةٍ، غَيْرُ مصروفٍ لِلعَلَميَّةِ ووَزْنِ الفِعْلِ- قيلَ: إنَّه صَحابيٌّ، والصحيحُ أنَّه تابعيٌّ.

قولُه (قالَ: رأَيْتُ ربِّي): فيه احتمالانِ إنْ كانَ في الإسراءِ؛ وإنْ كانَ حديثُ ابنِ يُخامِرَ بُيِّنَ في بَعْضِ الرِّواياتِ بِأنَّه في النَّوْمِ.

قولُه (أنَّ الحَسَنَ) أي البَصْريَّ.

قوله (وحَكاه): أيْ نَقَلَ مِثْلَه.

قولُه (الطَّلَمَنْكيُّ)[1]: بِفَتْحِ الطّاءِ المُهْمَلةِ واللّامِ والميمِ فنونٍ فكافٍ.

قولُه (لا أَقولُ... إلخ): فيه دِلالةٌ على غايةِ احتياطِه وتعارُضِ الأدِلّةِ عِنْدَه.

قولُه (فحُكيَ): بِصيغةِ المَجهولِ.

قولُه (كُلُّ آيةٍ): أيْ مُعْجِزةٍ.

قولُه (مِثْلَها): أيْ حَقيقةً ونَظيرَها صورةً.

---

(١) الإمام المقرئ المحقق المحدث الحافظ الأثري، أبو عمر أحمد ابن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، المعافري الأندلسي الطلمنكي. صنف كتبا كثيرة في السنة يلوح فيها فضله وحفظه وإمامته واتباعه للأثر. توفي ٤٢٩هـ. [سير أعلام النبلاء - الطبقة الثالثة والعشرون]

وَوَقَفَ بَعْضُ مَشَايِخِنَا فِي هَذَا، وَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ، وَلَكِنْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وَالحَقُّ الَّذِي لَا امْتِرَاءَ فِيهِ أَنَّ رُؤْيَتَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا جَائِزَةٌ عَقْلًا، وَلَيْسَ فِي العَقْلِ مَا يُحِيلُهَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى جَوَازِهَا فِي الدُّنْيَا سُؤَالُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا، وَمُحَالٌ أَنْ يَجْهَلَ نَبِيٌّ مَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ، وَمَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ لَمْ يَسْأَلْ إِلَّا جَائِزًا غَيْرَ مُسْتَحِيلٍ، وَلَكِنْ وُقُوعُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ مِنَ الغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ عَلَّمَهُ اللهُ، فَقَالَ لَهُ اللهُ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أَيْ لَنْ تُطِيقَ، وَلَا تَحْتَمِلَ رُؤْيَتِي، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ مِثَالًا بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنْ بِنْيَةِ مُوسَى وَأَثْبَتُ، وَهُوَ الجَبَلُ، وَكُلُّ هَذَا لَيْسَ فِيهِ مَا يُحِيلُ رُؤْيَتَهُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ فِيهِ جَوَازُهَا عَلَى الجُمْلَةِ، وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى اسْتِحَالَتِهَا وَلَا امْتِنَاعِهَا؛ إِذْ كُلُّ مَوْجُودٍ فَرُؤْيَتُهُ جَائِزَةٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ.

وَلَا حُجَّةَ لِمَنِ اسْتَدَلَّ عَلَى مَنْعِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الانعام: ١٠٣]؛ لِاخْتِلَافِ التَّأْوِيلَاتِ فِي الآيَةِ، وَإِذْ لَيْسَ يَقْتَضِي قَوْلُ مَنْ قَالَ فِي الدُّنْيَا الاسْتِحَالَةَ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الآيَةِ نَفْسِهَا عَلَى جَوَازِ الرُّؤْيَةِ وَعَدَمِ اسْتِحَالَتِهَا عَلَى الجُمْلَةِ، وَقَدْ قِيلَ: لَا تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ الكُفَّارِ، ..

قولُه (لا امْتِراءَ): هوَ افْتِعالٌ؛ مِنَ المِرْيةِ، وهيَ الشَّكُّ.

قولُه (وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ ما يُحِيلُها): أيْ تَوَهُّمٌ يَحْكُمُ باستِحالَتِها لِحُصولِ الجَزْمِ.

قولُه (سُؤالُ موسى... إلخ): أيْ مَعَ اعتِقادِه جَوازَ الرُّؤْيةِ في الدنيا.

قولُه (ومُحالٌ): أيْ ومِنَ المُحالِ.

قولُه (ولا تَحْتَمِلَ رُؤْيَتي): أيْ في دارِ الفَناءِ؛ لِأَنَّ اللِّقاءَ إنَّما يَكونُ في دارِ البَقاءِ، وحالُ الإسراءِ يُعَدُّ مِن أَمْرِ الآخِرةِ؛ بِدَليلِ الكُشوفاتِ والمَقاماتِ الدالَّةِ على قوّةِ نبيِّنا ﷺ في بِنْيَتِه بِخَرْقِ العاداتِ.

قولُه (وأَثْبَتُ): تفسيرٌ لـ «أَقْوى». قولُه (وهوَ الجَبَلُ): أيْ بِحَسَبِ الهَيْكَلِ الصُّوريِّ حَيْثُ قالَ: ﴿ولكِنِ انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنِ استَقَرَّ مكانَه فسَوْفَ تَراني﴾ [الأعراف: ١٤٣]. قولُه (ما يُحِيلُ... إلخ): أيْ يَقْتَضي رَدَّها ويَرى وُقوعَها مُحالًا.

قولُه (بَلْ فيه... إلخ): أيْ حَيْثُ عَلَّقَ الرؤيةَ على مُمْكِنٍ وهوَ استِقْرارُ الجَبَلِ. قولُه (إذْ كُلُّ مَوْجودٍ): أيْ لِأَنَّه -سُبحانَه- واجِبُ الوُجودِ، وكُلُّ مَوجودٍ جائزُ الرُّؤْيةِ. قولُه (فرُؤْيَتُه... إلخ): هكَذا قالَ الأشعريُّ.

قولُه (لاختِلافِ التأويلاتِ في الآيةِ): إذْ لا حُجّةَ مَعَ الاحتِمالِ، وقَدْ قيلَ: ﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ﴾: أيْ لا تُحيطُ بِه؛ ولا يَلْزَمُ مِن ذلك نَفْيُ الرُّؤْيةِ المُطْلَقةِ، وقيلَ: النَّفْيُ لَيْسَ عامًّا في الأوقاتِ والأشخاصِ، وأَغْرَبَ عِزُّ الدّينِ في قولِه: «لا تَراه المَلائكةُ».

قولُه (وإذْ لَيْسَ): -عَطْفٌ على «الاختِلافِ»، وقيلَ: على قَوْلِه: (كُلُّ مَوْجودٍ)، ولا يَخْفى بُعْدُه- أيْ «ولأنَّه لا يَقْتَضي... إلخ».

قولُه (وقَدْ قيلَ: لَا تُدْرِكُهُ [أَبْصَارُ الكفّارِ]): أيْ على أنَّ اللّامَ لِلعَهْدِ بِقَرينةِ قولِه: ﴿كَلَّا إنَّهم عَن رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجوبونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وَقِيلَ ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾: لَا تُحِيطُ بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ[1]، وَقَدْ قِيلَ: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُهُ الْمُبْصِرُونَ.

وَكُلُّ هَذِهِ التَّأْوِيلاتِ لَا تَقْتَضِي مَنْعَ الرُّؤْيَةِ، وَلَا اسْتِحَالَتَهَا، وَكَذَلِكَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَنْ تَرَانِي...﴾ الآية، وَقَوْلِهِ: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ لِمَا قَدَّمْنَاه، ولأَنَّهَا ليسَتْ على العموم، ولأَنَّ مَنْ قالَ: مَعْنَاها: «لَنْ تَراني في الدُّنيا» إِنَّمَا هوَ تأويلٌ، وأيضًا فليسَ فيه نَصُّ الامتناعِ، وإِنَّما جاءَتْ في حَقِّ موسَى، وحيثُ تَتطرقُ التأويلاتُ، وتَتسلطُ الاحتمالاتُ، فليسَ لِلقَطْعِ إِلَيْه سبيلٌ.

وقولُه: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: أيْ مِنْ سُؤَالِي مَا لَمْ تُقَدِّرْهُ لِي، وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الهُذَلِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾: أَيْ لَيْسَ لِبَشَرٍ أَنْ يُطِيقَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ مَنْ نَظَرَ إِلَيَّ مَاتَ.

وَقَدْ رَأَيْتُ لِبَعْضِ السَّلَفِ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مَا مَعْنَاهُ أَنَّ رُؤْيَتَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا مُمْتَنِعَةٌ؛ لِضَعْفِ تَرْكِيبِ أَهْلِ الدُّنْيَا وقُوَاهُمْ وَكَوْنِهَا مُتَغَيِّرَةً عَرَضًا لِلآفَاتِ وَالفَنَاءِ، فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى الرُّؤْيَةِ، فَإِذَا كَانَ فِي الآخِرَةِ، وَرُكِّبُوا تَرْكِيبًا آخَرَ، وَرُزِقُوا قُوًى ثَابِتَةً بَاقِيَةً، وَأَتَمَّ أَنْوَارَ أَبْصَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، قَوُوا بِهَا عَلَى الرُّؤْيَةِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ نَحْوَ هَذَا لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، قَالَ: لَمْ يُرَ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ بَاقٍ، وَلَا يُرَى البَاقِي بِالفَانِي، فَإِذَا كَانَ فِي الآخِرَةِ، وَرُزِقُوا أَبْصَارًا بَاقِيَةً رُئِيَ البَاقِي بِالبَاقِي.

وَهَذَا كلامٌ حَسَنٌ مَلِيحٌ، وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الاسْتِحَالَةِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ ضَعْفُ القُدْرَةِ، فَإِذَا قَوَّى اللهُ -سُبحَانَهُ وَتَعَالَى- مَنْ

---

(١) حديث ابن عباس (لا تدركه الأبصار ولا تحيط به): ابن جرير من طريق العوفي عنه [٩/ ٤٥٩].

[قولُه] (وقَدْ قيلَ: لَا تُدْرِكُهُ الأبصارُ، وإنما يدركه المبصرون): أيْ أنَّ الإدراكَ إنَّما يكونُ لِلبَصَرِ نَفْسِه.

قولُه (ولأنَّها لَيْسَتْ على العُمومِ): -في نسخةٍ: «مِنَ العُمومِ»- أيْ في نَفْيِها لِجَميعِ أفرادِ الإنسانِ في جَميعِ الأزمانِ؛ لِجَوازِ أنْ يَراه غَيْرُ موسى. قولُه (في حَقِّ موسى): أيْ خُصوصًا، ولا يَلْزَمُ مِن مَنْعِ الخُصوصِ مَعَ العُمومِ.

قولُه (فإذا كانَ): أيِ الشأنُ. قولُه (ورُكِّبوا تَرْكيبًا... إلخ): أيْ أَقْوى وأَبْقى مِنَ الأوَّلِ.

قولُه (قوًى ثابتةً): (قوًى) جَمْعُ «قوّةٍ»، و(ثابتةً) مِنَ الثُّبوتِ، وفي نسخةٍ «ثانيةً». قولُه (باقيةً): أيْ تامَّةً وافيةً. قولُه (وأَتَمَّ): بِصيغةِ الفاعلِ.

قولُه (قَووا بها... إلخ): أيْ لِأنَّ اللهَ -تعالى- يَخْلُقُهم في العُقْبى على أكْمَلِ خَلْقٍ مِنْهم في الدُّنيا -كما في الأخبارِ[1]؛ في قوّةِ الأكلِ والجِماعِ وغَيْرِ ذلكَ-؛ فلا تُنْكَرُ زيادةُ القوّةِ هُناكَ.

قولُه (ورُزِقوا... إلخ): أيْ وبَصائرَ قَويّةً.

قولُه (وهذا): أيْ ما قالَه مالِكٌ.

---

(١) منها ما أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٠)، وأبونعيم في صفة الجنة (٣/ ١٠٣)، والبيهقي في البعث والنشور (٤٢١)، وغيرهم من حديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «فمن كان من أهل الجنة كان على مسحة آدم، وصورة يوسف، وقلب أيوب...».

شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وأَقْدَرَهُ عَلَى حَمْلِ أَعْبَاءِ الرُّؤْيَةِ، لَمْ تَمْتَنِعْ فِي حَقِّهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا ذُكِرَ فِي قُوَّةِ بَصَرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ عليهما السلام وَنُفُوذِ إِدْرَاكِهِمَا بِقُوَّةٍ إِلَهِيَّةٍ مُنِحَاهَا لِإِدْرَاكِ مَا أَدْرَكَاهُ، وَرُؤْيَةِ مَا رَأَيَاهُ واللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ذَكَرَ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي أَثْنَاءِ أَجْوِبَتِهِ عَنِ الآيَتَيْنِ مَا مَعْنَاهُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام رَأَى اللهَ؛ فَلِذَلِكَ خَرَّ صَعِقًا، وَأَنَّ الجَبَلَ رَأَى رَبَّهُ؛ فَصَارَ دَكًّا، بِإِدْرَاكٍ خَلَقَهُ اللهُ لَهُ، واسْتَنْبَطَ ذَلِكَ -واللهُ أَعْلَمُ- مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، وَتَجَلِّيهِ لِلْجَبَلِ هُوَ ظُهُورُهُ لَهُ حَتَّى رَآهُ عَلَى هَذَا القَوْلِ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: شَغَلَهُ بِالجَبَلِ حَتَّى تَجَلَّى، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَاتَ صَعِقًا بِلَا إِفَاقَةٍ، وَقَوْلُهُ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى رَآهُ، وَقَدْ وَقَعَ لِبَعْضِ المُفَسِّرِينَ فِي الجَبَلِ أَنَّهُ رَآهُ.

وبِرُؤْيَةِ الجَبَلِ له اسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ بِرُؤيَةِ مُحَمَّدٍ نَبِيِّنَا لَهُ؛ إِذْ جَعَلَهُ دَلِيلًا عَلَى الجَوَازِ، وَلَا مِرْيَةَ فِي الجَوَازِ؛ إِذْ لَيْسَ فِي الآيَاتِ نَصٌّ بِالمَنْعِ.

وَأَمَّا وُجُوبُهُ لِنَبِيِّنَا، وَالقَوْلُ بِأَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ، فَلَيْسَ فِيهِ قَاطِعٌ أَيْضًا وَلَا نَصٌّ؛ إِذِ المُعَوَّلُ فِيهِ عَلَى آيَتَي «النَّجْمِ»، والتَّنَازُعُ فِيهِمَا مَأْثُورٌ، وَالاحْتِمَالُ لَهُمَا مُمْكِنٌ، وَلَا أَثَرَ قَاطِعٌ مُتَوَاتِرٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ، وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ خَبَرٌ عَنِ اعْتِقَادِهِ، لَمْ يُسْنِدْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَجِبَ العَمَلُ بِاعْتِقَادِ مُضَمَّنِهِ، وَمِثْلُهُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ، وَحَدِيثُ مُعَاذٍ مُحْتَمِلٌ لِلتَّأْوِيلِ، وَهُوَ مُضْطَرِبُ الإِسْنَادِ وَالمَتْنِ،

قولُه (وأَقْدَرَه): -في أصلِ الدلجيِّ: «قَدَّرَه»؛ بالتشديدِ- أيْ جعَلَه قادِرًا.

قولُه (أَعْباءِ): -بفَتحٍ فسُكونٍ- جَمْعُ «عِبْءٍ»؛ وهوَ الحِمْلُ الثَّقيلُ.

قولُه (ونُفوذِ): بالمعجَمةِ. قولُه (ورُؤْيةِ ما رَأَياه): أيْ في الجُمْلةِ؛ إذْ رُؤْيةُ موسى مُرَتَّبةٌ على نَظَرِه إلى الجَبَلِ بخِلافِ رُؤْيةِ نبيِّنا ﷺ.

قولُه (عَنِ الآيَتَيْنِ): هُما ﴿لا تُدْرِكُه﴾، و﴿لَنْ تَراني﴾.

قولُه (دكًّا): أيْ دَقًّا. قولُه (فإنِ استَقَرَّ مَكانَه): أيْ وبَقيَ على حالِه.

قولُه (أنَّه رآه): أيْ رَأى تَجَلِّيَ رَبِّه بإدراكٍ وعِلْمٍ خلَقَه فيه فانْدَكَّ، ونَقَلَ الماتُريديُّ عَنِ الأشعَريِّ أنَّ مَعْنى التَّجَلِّي خَلْقُ الحَياةِ والعِلْمِ والرُّؤْيةِ فرَآه، وهذا نَفْيٌ في إثْباتِ الرُّؤيةِ. اهـ دلجيٌّ.

قولُه (فَلَيْسَ فيه قاطِعٌ... إلخ): أيْ دَليلٌ صَريحٌ يُعَوَّلُ علَيْه. قولُه (مَأْثورٌ): أيْ بَيْنَ الأئمَّةِ في الكُتُبِ تفسيرًا وغَيْرَه.

قولُه (والاحتِمالُ): أيِ العَقْليُّ والنَّقْليُّ. قولُه (فيَجِبَ): منصوبٌ[1].

قولُه (مُضَمَّنِه): -مُشَدَّدُ الميمِ المفتوحةِ- أيْ مَضْمونِه؛ مِن رُؤيَتِه رَبَّه بعَيْنِه.

قولُه (مُضطَرِبُ الإسْنادِ والمَتْنِ): مِنَ المَعْلومِ أنَّ اضطِرابَ أَحَدِهما موجِبُ الضَّعْفِ للحديثِ، وإذا كانَ كذلكَ فلا استِدْلالَ بِه.

(١) منصوب بأن مضمرة وجوبًا بعد فاء السببية الواقعة جوابا للنفي، وجاء في الأصل المطبوع (منصوب عَطْفٌ على «يُعتَبَر») ولا وجود للفعل «يعتبر» في كلام المصنف.

وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ الآخَرُ مُخْتَلِفٌ مُحْتَمِلٌ مُشْكِلٌ؛ فَرُوِيَ: (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!)(١)، وَحَكَى بَعْضُ شُيُوخِنَا أَنَّهُ رُوِيَ: (نُورَانِيٌّ أُرَاهُ)، وَفِي حَدِيثِهِ الآخَرِ: سَأَلْتُهُ فَقَالَ: (رَأَيْتُ نُورًا).

وَلَيْسَ يُمْكِنُ الاحْتِجَاجُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى صِحَّةِ الرُّؤْيَةِ، فَإِنْ كَانَ الصَّحِيحُ (رَأَيْتُ نُورًا)(٢)، فَهُوَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ اللهَ، وَإِنَّمَا رَأَى نُورًا مَنَعَهُ وَحَجَبَهُ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى، وَإِلَى هَذَا يَرْجِعُ قَوْلُهُ: (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!)، أَيْ كَيْفَ أَرَاهُ مَعَ حِجَابِ النُّورِ المُغَشِّي لِلْبَصَرِ؟!، وَهَذَا مِثْلُ مَا فِي الحَدِيثِ الآخَرِ (حِجَابُهُ النُّورُ)(٣).

وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ (لَمْ أَرَهُ بِعَيْنِي، وَلَكِنْ رَأَيْتُهُ بِقَلْبِي مَرَّتَيْنِ)، وَتَلَا: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)(٤)، وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الإِدْرَاكِ الَّذِي فِي البَصَرِ فِي القَلْبِ، أَوْ كَيْفَ شَاءَ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

فَإِنْ وَرَدَ حَدِيثٌ نَصٌّ بَيِّنٌ فِي البَابِ اعْتُقِدَ، وَوَجَبَ المَصِيرُ إِلَيْهِ؛ إِذْ لَا اسْتِحَالَةَ فِيهِ وَلَا مَانِعَ قَطْعِيَّ يَرُدُّهُ، وَاللهُ تَعَالَى المُوَفِّقُ.

***

(١) حديث أبي ذر (نورٌ أنَّى أراه): مسلم [٢٩١].

(٢) حديث (رأيت نورًا): مسلم [٢٩٢].

(٣) حديث (حجابه النور): الطيالسي عن أبي موسى [٤٩٣ ولفظه: (حجابه النار)]، في حديث أصله في مسلم [١٧٩] أوّله: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام).

(٤) حديث (لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين وتلا ﴿ثم دنا فتدلى﴾): ابن جرير عن محمد بن كعب عن بعض الصحابة [تقدم ص٢٣٧].

قولُه (أَنّى أَراه): -بِفَتْحِ الهَمْزةِ وتشديدِ النّونِ- أيْ كَيْفَ أَراه. قولُه (نُورانيٌّ): بِضَمِّ النونِ وفَتْحِ الرّاءِ(١).

قولُه (وَلَيْسَ... إلخ): أيْ لِتَعارُضِ المعنيَيْنِ والإسنادَيْنِ.

قولُه (المُغَشّي): -بِصيغةِ الفاعِلِ مُخَفَّفًا أوْ مُشَدَّدًا- أيِ المُغَطّي. قولُه (مِثْلُ ما في الحديثِ... إلخ): أيْ مِنْ حَيثُ المَعْنى، وأَوَّلُ الحديثِ -كَما في «مُسْلِمٍ»: (إنَّ اللهَ لا يَنامُ، ولا يَنْبَغي لـه أنْ يَنامَ).

قولُه (لا إلَهَ غَيْرُه): أيْ حتّى يُمانِعَه ويُدافِعَه عَنْ مُرادِه في عِبادِه.

قولُه (ولا مانِعَ... إلخ): أيْ مِن جِهةِ العَقْلِ أوِ النَّقْلِ.

***

(١) في شرح الملا: «بفتح النون والراء بعده ألف فنون مكسورة وتحتية مشددة منونة».

فَصْلٌ [في مُناجاتِهِ ﷺ لِلَّهِ تَعالى]

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي هَـٰذِهِ القِصَّةِ مِنْ مُنَاجَاتِهِ لله، وكَلامِه مَعَه بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠] إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ الأَحَادِيثُ، فَأَكْثَرُ المُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ المُوحِيَ اللهُ إِلَى جِبْرِيلَ، وجِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ إِلَّا شُذُوذًا مِنْهُمْ؛ فَذُكِرَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ قَالَ: أَوْحَى إِلَيْهِ بِلا وَاسِطَةٍ، وَنَحْوُهُ عَنِ الوَاسِطِيِّ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ بَعْضُ المُتَكَلِّمِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَلَّمَ رَبَّهُ فِي الإِسْرَاءِ، وَحُكِيَ عَنِ الأَشْعَرِيِّ، وَذَكَرَهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنْكَرَهُ آخَرُونَ.

وَحَكَى النَّقَّاشُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ الإِسْرَاءِ، عَنْهُ ﷺ فِي قَوْلِهِ ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، قَالَ: (فَارَقَنِي جِبْرِيلُ، فَانْقَطَعَتِ الأَصْوَاتُ عَنِّي، فَسَمِعْتُ كَلامَ رَبِّي وَهُوَ يَقُولُ: لِيَهْدَأْ رَوْعُكَ يَا مُحَمَّدُ، ادْنُ، ادْنُ!)، وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ فِي الإِسْرَاءِ نَحْوٌ مِنْهُ.

وَقَدِ احْتَجُّوا فِي هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، فَقَالُوا: هِيَ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ: مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، كَتَكْلِيمِ مُوسَى، وَبِإِرْسَالِ المَلائِكَةِ، كَحَالِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَأَكْثَرِ أَحْوَالِ نَبِيِّنَا ﷺ، الثَّالِثُ: قَوْلُهُ (وَحْيًا)، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ تَقْسِيمِ صُوَرِ الكَلامِ إِلَّا المُشَافَهَةُ مَعَ المُشَاهَدَةِ، وَقَدْ قِيلَ: الوَحْيُ هُنَا هُوَ مَا يُلْقِيهِ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ وَاسِطَةٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ البَزَّارُ عَنْ عَلِيٍّ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ مَا هُوَ أَوْضَحُ فِي سَمَاعِ النَّبِيِّ ﷺ لِكَلامِ اللهِ مِنَ الآيَةِ، فَذَكَرَ فِيهِ: فَقَالَ المَلَكُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقِيلَ لِي مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: (صَدَقَ عَبْدِي؛ أَنَا أَكْبَرُ، أَنَا أَكْبَرُ)، وَقَالَ فِي سَائِرِ كَلِمَاتِ الأَذَانِ مِثْلَ ذَلِكَ[1].

(١) [تقدم تخريجه. انظر ص٢٢٥].

(فصلٌ: وأمّا ما وَرَدَ... إلخ): ذَكَرَ في هذا الفَصْلِ فَوائِدَ مُتَفرِّقَةً مِمّا وَقَعَ لَه ﷺ في لَيْلَةِ الإسراءِ.

قولُه (مِنْ مُناجاتِه لله وكلامه معه): أيْ مُكالَمَتِه سِرًّا وجَهْرًا على الترتيبِ واللَّفِّ.

قولُه (أَوْحى إِلَيْه... إلخ): أيْ كَما يَقْتَضيه مَقامُ الكَرامةِ وحالةُ المُباسَطةِ.

قولُه (أُدْنُ أُدْنُ): كُلٌّ بِضَمِّ أَوَّلِه؛ أَمْرٌ مِنَ «الدُّنوِّ»، وكُرِّرَ لِلتأكيدِ.

قولُه (إلّا وَحْيًا): أيْ كَلامًا خفيًّا يُدْرَكُ بِسُرعةٍ، وهوَ إمّا بِطَريقِ المُشافَهةِ؛ كَما وَقَعَ لِنَبِيِّنا ﷺ، أوِ الهاتِفِ؛ كَما لِموسى بِطُوًى.

قولُه (أَوْ مِن وَراءِ حِجابٍ): أيْ كَما وَقَعَ لِسائِرِ الأنبياءِ مِنَ الوَحْيِ الخَفيِّ، ولِبَعْضِ الأَصْفياءِ مِنَ الإلْهامِ الجَليِّ.

قولُه (وَلَمْ يَبْقَ مِنْ تَقْسيمِ صوَرِ الكَلامِ): أيِ المُنْحَصِرِ في هذا المَقامِ.

قولُه (إلّا المُشافَهةُ مَعَ المُشاهَدةِ): أيِ اللَّتَيْنِ اخْتَصَّ بِهِما نَبِيُّنا ﷺ، وفي نسخةٍ: «دونَ المُشافهةِ».

قولُه (مِنَ الآيةِ): أيْ مِنَ الاستِدْلالِ بِمَفْهومِها.

وَيَجِيءُ الكَلَامُ فِي مُشْكِلِ هَذَيْنِ الحَدِيثَيْنِ فِي الفَصْلِ بَعْدَ هَذَا مَعَ مَا يُشْبِهُهُ، وَفِي أَوَّلِ فَصْلٍ مِنَ البَابِ مِنْهُ.

وَكَلَامُ اللهِ لِمُحَمَّدٍ وَمَنِ اخْتَصَّهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ جَائِزٌ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ عَقْلًا، وَلَا وَرَدَ فِي الشَّرْعِ قَاطِعٌ يَمْنَعُهُ، فَإِنْ صَحَّ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ اعْتُمِدَ عَلَيْهِ، وَكَلَامُهُ تَعَالَى لِمُوسَى كَائِنٌ حَقٌّ مَقْطُوعٌ بِهِ، نَصَّ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ، وَأَكَّدَهُ بِالمَصْدَرِ؛ دَلَالَةً عَلَى الحَقِيقَةِ، وَرَفَعَ مَكَانَهُ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الحَدِيثِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ؛ بِسَبَبِ كَلَامِهِ[1]، وَرَفَعَ مُحَمَّدًا فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ حَتَّى بَلَغَ مُسْتَوًى، وَسَمِعَ صَرِيفَ الأَقْلَامِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ هَذَا أَوْ يَبْعُدُ سَمَاعُ الكَلَامِ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَصَّ مَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ!

***

قولُه (هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ): أيْ حديثِ ابنِ عبّاسٍ وعَلِيٍّ.

قولُه (وأَكَّدَه بالمَصْدَرِ): أيْ تكليمًا.

قولُه (ورَفَعَ مَكانَه): أي الحِسّيَّ المُشْعِرَ بِعُلُوِّ قُرْبِه المَعنويِّ.

قولُه (ورَفَعَ محمَّدًا... إلخ): أيْ كَما أَشارَ إلَيْه قولُه -سُبْحانَه-: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ...﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٥٣].

قولُه (وجَعَلَ بَعْضَهم... إلخ): أيْ في المَقاماتِ السّامية.

***

(١) [أخرجه مطوّلًا: البخاري (٧٥١٧)، وغيره من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفيه (وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله»)].

فَصْلٌ [في معنى الدنو والقرب]

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ وَظَاهِرِ الآيَةِ مِنَ الدُّنُوِّ وَالقُرْبِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٨-٩]، فَأَكْثَرُ المُفَسِّرِينَ أَنَّ الدُّنُوَّ وَالتَّدَلِّيَ مُنْقَسِمٌ مَا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَجِبْرِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَوْ مُخْتَصٌّ بِأَحَدِهِمَا مِنَ الآخَرِ، أَوْ مِنَ السِّدْرَةِ المُنْتَهَى.

قَالَ الرَّازِيُّ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ مُحَمَّدٌ[1]، دَنَا فَتَدَلَّى مِنْ رَبِّهِ، وَقِيلَ: مَعْنَى «دَنَا»: قَرُبَ، و«تَدَلَّى»: زَادَ فِي القُرْبِ، وَقِيلَ: هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، أَيْ قَرُبَ.

وَحَكَى مَكِّيٌّ وَالمَاوَرْدِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الرَّبُّ، دَنَا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَتَدَلَّى إِلَيْهِ[2]، أَيْ أَمْرُهُ وَحُكْمُهُ.

وَحَكَى النَّقَّاشُ عَنِ الحَسَنِ قَالَ: دَنَا مِنْ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَدَلَّى، فَقَرُبَ مِنْهُ، فَأَرَاهُ مَا شَاءَ أَنْ يُرِيَهُ مِنْ قُدْرَتِهِ وعَظَمَتِهِ، قَالَ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ، تَدَلَّى الرَّفْرَفُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ، فَدَنَا مِنْ رَبِّهِ، قَالَ: (فَارَقَنِي جِبْرِيلُ، وَانْقَطَعَتْ عَنِّي الأَصْوَاتُ، وَسَمِعْتُ كَلَامَ رَبِّي)، وَعَنْ أَنَسٍ فِي الصَّحِيحِ: (عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَدَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ، فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَيْهِ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً)، وَذَكَرَ حَدِيثَ الإِسْرَاءِ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: هُوَ مُحَمَّدٌ، دَنَا مُحَمَّدٌ مِنْ رَبِّهِ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ، قَالَ: وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَدْنَاهُ رَبُّهُ مِنْهُ حَتَّى كَانَ مِنْهُ كقَابِ قوسَيْنِ. وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: وَالدُّنُوُّ مِنَ اللهِ لَا حَدَّ لَهُ، وَمِنَ العِبَادِ بِالحُدُودِ، وَقَالَ أَيْضًا: انْقَطَعَتِ الكَيْفِيَّةُ عَنِ الدُّنُوِّ؛

---

(١) حديث ابن عباس (هو محمد ...): ابن أبي حاتم. [ورواه الطبراني (١١/ ١١٣٢٨)].

(٢) وفي رواية عنه (هو الرب دنا من محمد): ابن جرير [٢٢/ ١٤].

(فصلٌ: وأمّا ما وَرَدَ... إلخ): هذا الفَصْلُ في مُتَمِّماتِ هذه القِصّةِ، ومُكَمِّلاتِ هذه القضيّةِ.

قولُه (أَوْ أَدْنى): أيْ بَلْ أَقْرَبَ، وكَوْنُ (أَوْ) لِلتنويعِ أَنْسَبُ.

قولُه (أَوْ مُخْتَصٌّ): أيْ بِأَنَّ محمّدًا ﷺ أوْ جِبريلَ دَنا مِنَ الآخَرِ، وفيه أنّه لَمْ يَكُنْ بَيْنَهما بُعْدٌ حتّى يُقالَ (دَنا فَتَدَلّى)؛ فتَدَبَّرْ.

قولُه (بِمَعْنًى واحِدٍ): أيْ والجَمْعُ بَيْنَهما حينَئذٍ لِلتأكيدِ، والأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّ التأسيسَ هوَ الأَصْلُ والأكثَرُ.

قولُه (أَيْ أَمْرُه وحُكْمُه): يَعْني على حَذْفِ مُضافٍ، أوِ ارتِكابِ مَجازٍ.

قولُه (فقَرُبَ مِنه): أيْ قُرْبَ مَكانةٍ لا قُرْبَ مَسافةٍ، وقُرْبَ إنْعامٍ لا قُرْبَ إقْدامٍ، وقُرْبَ عِنايةٍ لا قُرْبَ غايةٍ.

قولُه (مُقَدَّمٌ ومُؤَخَّرٌ): أيْ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ. قولُه (تَدَلّى الرَّفْرَفُ): «الرَّفْرَفُ»: بِساطٌ أَخْضَرُ - مِنْ نَحْوِ الدِّيباجِ، وقيلَ: ما تَدَلّى مِنَ الأَسِرّةِ مِن غالي الثِّيابِ والبُسُطِ، وقيلَ: هيَ المَرافِقُ، وقيلَ: النَّمارِقُ، وقيلَ: كُلُّ ثَوْبٍ عَريضٍ، وقيلَ غَيْرُ ذلكَ.

أَلا تَرَى كَيْفَ حُجِبَ جِبْرِيلُ عَنْ دُنُوِّهِ، وَدَنَا مُحَمَّدٌ إِلَى مَا أُودِعَ قَلْبُهُ مِنَ المَعْرِفَةِ وَالإِيمَانِ، فَتَدَلَّى بِسُكُونِ قَلْبِهِ إِلَى مَا أَدْنَاهُ، وَزَالَ عَنْ قَلْبِهِ الشَّكُّ والارْتِيَابُ؟!

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اعْلَمْ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ إِضَافَةِ الدُّنُوِّ والقُرْبِ هُنَا مِنَ اللهِ أَوْ إِلَى اللهِ فَلَيْسَ بِدُنُوِّ مَكَانٍ، وَلَا قُرْبِ مَدًى، بَلْ هُوَ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ لَيْسَ بِدُنُوِّ حَدٍّ، وَإِنَّمَا دُنُوُّ النَّبِيِّ مِنْ رَبِّهِ، وَقُرْبُهُ مِنْه إِبَانَةُ عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ، وَتَشْرِيفُ رتْبَتِهِ، وَإِشْرَاقُ أَنْوارِ مَعْرِفَتِهِ، وَمُشَاهَدَةُ أَسْرَارِ غَيْبِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَمِنَ اللهِ تَعَالَى مَبَرَّةٌ وَتَأْنِيسٌ، وَبَسْطٌ وَإِكْرامٌ، وَيُتَأَوَّلُ فِيهِ مَا يُتَأَوَّلُ فِي قَوْلِهِ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا)(١) عَلَى أَحَدِ الوُجُوهِ، نُزُولَ إِفْضَالٍ وَإِجْمَالٍ، وَقَبُولٍ وَإِحْسَانٍ.

قَالَ الوَاسِطِيُّ: مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَنَا، جَعَلَ ثَمَّ مَسَافَةً، بَلْ كُلَّمَا دَنَا بِنَفْسِهِ مِنَ الحَقِّ تَدَلَّى بُعْدًا، يَعْنِي عَنْ دَرْكِ حَقِيقَتِهِ؛ إِذْ لَا دُنُوَّ لِلْحَقِّ وَلَا بُعْدَ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، فَمَنْ جَعَلَ الضَّمِيرَ عَائِدًا إِلَى اللهِ لَا إِلَى جِبْرِيلَ عَلَى هَذَا كَانَ عِبَارَةً عَنْ نِهَايَةِ القُرْبِ، وَلُطْفِ المَحَلِّ، وَإِيضَاحِ المَعْرِفَةِ، وَالإِشْرَافِ عَلَى الحَقِيقَةِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعِبَارَةً عَنْ إِجَابَةِ الرَّغْبَةِ، وَقَضَاءِ المَطَالِبِ، وَإِظْهَارِ التَّحَفِّي، وَإِنَافَةِ المَنْزِلَةِ وَالمَرْتَبَةِ مِنَ اللهِ لَهُ، ويُتَأَوَّلُ فِيهِ مَا يُتَأَوَّلُ فِي قَوْلِهِ: (مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)(٢)؛ قُرْبٌ بِالإِجَابَةِ وَالقَبُولِ، وإِتْيَانٌ بِالإِحْسَانِ، وَتَعْجِيلُ المَأْمُولِ.

***

(١) [متفقٌ عليه: البخاريُّ (١١٤٥)، ومسلمٌ (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ...)].

(٢) حديث (من تقرب مني شبرًا ...): البخاري عن أنس [(٧٥٣٦)، وأخرجه أيضًا مسلمٌ (٢٦٧٥)].

قولـه (وَزالَ عَنْ قَلْبِهِ الشَّكُّ والارْتِيابُ): أيْ عَنْ تَوَهُّمِ حُلولِ الشَّكِّ حَوْلَ ذلكَ الجَنابِ.

قولُه (ولا قُرْبِ مَدًى): -بِفَتْحِ الدالِ مَعَ أَوَّلِه مُنَوَّنًا- أيْ ولا قُرْبِ غايةٍ؛ تَعالى اللهُ عَنْ ذلكَ عُلوًّا كَبيرًا. قولُه (لَيْسَ بِدُنوِّ حَدٍّ): أي يُحَسُّ ببصَرٍ أوْ يُدرَكُ بِنظَرٍ.

قوله (وَمِنَ اللهِ تَعالى): أيْ مِن جِهَتِه سبحانَه؛ وهو متعلِّقٌ بآياتِه، ووقَعَ في أصلِ الدلجيِّ زيادةُ واوِ العَطْفِ، وهو مخالِفٌ لِما في الأُصولِ المعتبَرةِ. قوله (مَبَرَّةٌ): -بفتحِ الميمِ والباءِ وتشديدِ الراءِ- بمَعْنى البِرِّ، أيْ مَزيدُ جَزيلِ فوائدِه إلَيْه وجميلِ عوائدِه إلَيْه.

قوله (وَيُتَأَوَّلُ فيهِ ما يُتَأَوَّلُ): بصيغةِ المجهولِ فيهما.

قوله (ثَمَّ): -بفتحِ المثلَّثةِ وتشديدِ الميمِ- أيْ في ذلكَ المَقامِ. قوله (يَعْني): تفسيرٌ مِن المُصنِّفِ أو غيرِه، أيْ يُريدُ. قوله (عَنْ دَرْكِ حقيقتِه): -بِسُكونِ الراءِ وفتْحِها- أيْ بَعُدَ عن إدراكِ حقيقتِه وتَصوّرِها، أي مُنَزَّهٌ عن أن يُحاطَ به.

قوله (فمَنْ جعَلَ الضميرَ): ويُروى «فإنْ جَعَلَ الضميرَ». قوله (وإيضاحِ المَعْرفةِ): ويُروى «المَنْزلةِ» بَدَلَ المَعْرفةِ.

قوله (التَّحَفّي): -بفتحِ المثنّاة الفوقيةِ والحاءِ المهمَلةِ وتشديدِ الفاءِ المكسورةِ- أي المبالَغةِ في ظهورِ البِرِّ.

***

فَصْلٌ: فِي ذِكرِ تفضيلِه فِي القِيامَةِ بخصُوصِ الكَرامَةِ

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ، قَالَ: نَبَّأَنَا أَبُو الفَضْلِ وَأَبُو الحُسَيْنِ، قَالَا: نَبَّأَنَا أَبُو يَعْلَى، نَبَّأَنَا السِّنْجِيُّ، نَبَّأَنَا ابْنُ مَحْبُوبٍ، نَبَّأَنَا التِّرْمِذِيُّ، نَبَّأَنَا الحُسَيْنُ بْنُ يَزِيدَ الكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلامِ بْنُ حَرْبٍ عَنْ لَيْثٍ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا، لِوَاءُ الحَمْدِ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ)، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ زَخْرٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي لَفْظِ هَذَا الحَدِيثِ: (أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا قَائِدُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا أَنْصَتُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا، لِوَاءُ الكَرَمِ بِيَدِي، وأنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ، وَيَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ، كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ)[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (وَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ العَرْشِ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ المَقَامَ غَيْرِي)[2].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا نَبِيٌّ يَوْمَئِذٍ -آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ- إِلا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ)[3].

(١) حديثُ أنس (أنا أول الناس ...): أسنده من طريق الترمذي [٣٦١٠]، وروايةُ ابن زَخر: أبو نعيم في «الدلائل» [٢٤] من طريق ليث عن الربيع، وليس فيها ابن زحر، وهو عند البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٤) من رواية ليث عن ابن زحر عن الربيع].

(٢) حديث أبي هريرة (وأُكسَى حُلَّةً من حُلَلِ الجَنَّة ثُمَّ أقومُ عن يمين العرشِ ...): الترمذيُّ وحسَّنه [٣٦١١]، ابن ماجه.

(٣) حديث أبي سعيد (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ...): الترمذي وحسَّنه [٣١٤٨]، وابن ماجه [٤٣٠٨].

قولـه (بـنُ حَـرْبٍ): أيِ النَّهْـديُّ، يَـرْوي عَـنْ عَطـاءِ بـنِ السـائبِ وغَـيْرِه، وعـنِ ابـنِ مَعـينٍ ونحْـوِه، أَخْـرَجَ لـه الأئمّـةُ السـتّةُ.

قولـه (ابـنِ زَخْـرٍ): -بفتـحِ الـزايِ فسكونِ حـاءٍ مهمَلـةٍ فـراءٍ- وهـوَ عُبَيـدُ الله بـنُ زَحْـرٍ الإفريقـيُّ.

قولـه (إذا أَيِسـوا): رويَ «يَئِسـوا» -بتقديـمِ اليـاءِ- ومعنـاه قَطْـعُ الرَّجـاءِ، وفي نسـخةِ «أُبْلِسـوا» -بضـمِّ همْـزٍ وسـكونِ موحَّـدةٍ وكسرِ لامٍ فسينٍ مهملَـةٍ- أي يَئِسـوا وتحَيَّروا، ويقـالُ «المبلس»: الحَزيـنُ النـادمُ، وبِـه سُـمّيَ إبليـسُ -لَعَنَـه اللهُ- لِأَنَّـه أَبْلَسَ عَـنِ الخيرِ وأَيِسَ مِـن رَحْمَـةِ الله.

قولـه (وَأُكْسـى): -بصيغـةِ المجهـولِ- أيْ وأُلْبَـسُ.

قولـه (ومـا نَبِيٌّ): وفي نسـخةٍ «ولا نَبـيٌّ»، وفي نسـخةٍ صحيحـةٍ «ومـا مِـنْ نَبـيٍّ».

قولـه (آدَمُ): بالنصـبِ ويَجـوزُ رَفْعُـه[1]. قولـه (فَمَـنْ سِـواه): -بكَسرِ السـينِ وضمِّهـا- أي فمَـنْ بَعْـدَه.

(١) وجـه الرفـع عـلى البدليـة أو البيـان، ويجوز قطعـه بالنصب مفعـولا لفعـل محـذوف.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (أَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَ الجَنَّةِ، فَيُفْتَحُ لِي، فَأَدْخُلُهَا ومَنْ مَعِي مِنْ فُقَرَاءِ المُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ)(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ: (أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَعًا)(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَتَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ)، وَذَكَرَ حَدِيثَ الشفاعةِ(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (أَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ أَعْظَمَ الأَنْبِيَاءِ أَجْرًا يَوْمَ القِيَامَةِ)(٥).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: (أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ وعِيسَى فِيكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ)، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّهُمَا فِي أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَيَقُولُ: أَنْتَ دَعْوَتِي وَذُرِّيَّتِي فَاجْعَلْنِي مِنْ أُمَّتِكَ، وَأَمَّا عِيسَى فَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ بَنُو عَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَإِنَّ عِيسَى أَخِي لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ)(٦).

قوله (وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ): -بِفَتحِ الفاءِ المشدَّدةِ- أي أَوَّلُ مقبولٍ في الشفاعةِ. قوله (ولا فَخْرَ): أيْ في هذا المَقامِ إلا بالفَقْرِ، وأمَّا حديثُ: (الفَقْرُ فَخْري) فموضوعٌ كما صَرَّحَ بهِ الحُفَّاظُ.

قولُه (أنا أَوَّلُ الناسِ يَشْفَعُ) وفي نسخةٍ «مُشَفَّعٌ» بتشديدِ الفاءِ المفتوحةِ.

قوله (فيكم يومَ القيامةِ): أي محشورَيْنِ في جُمْلَتِكم، وتخصيصُ إبراهيمَ وعيسى عليهما السلام؛ لِقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨]، وأمَّا عيسى فلأنَّه يَتْبَعُه في مِلَّتِه بَعْدَ نزولِه مِن رَفْعَتِه ويُدْفَنُ بعْدَ مَوْتِه في تُرْبَتِه.

قوله (بَنو عَلَّاتٍ): -بفتحِ عينٍ مهمَلةٍ وتشديدِ لامٍ- أي أولادُ أُمَّهاتٍ مُختلِفاتٍ وأَبوهم واحدٌ، و«العَلَّاتُ» جمعُ «عَلَّةٍ»، وهي الضَّرَّةُ، سُمِّيَتْ بذلك لِأَنَّ الرَّجُلَ تَزَوَّجَها على أُولى كانَتْ قَبْلَها.

قوله (شَتَّى): -بتشديدِ تاءٍ، جمعُ «شَتيتٍ، كمَرْضى ومَريضٍ- أيْ مُتَفَرِّقاتٍ. قوله (وأنا أَوْلى النَّاسِ): ويُروى «فأنا»، أيْ أَحَقُّهم بِبِرِّه مِنْهم.

---

(١) حديث أبي هريرة (أنا سيد ...): مسلم [(٢٢٧٨)، وأخرجه أيضًا أبو داود (٤٦٧٣)، وغيرهما].

(٢) حديث ابن عباس (أنا حامل لواء الحمد ...): الترمذي [٣٦١٦].

(٣) حديث أنس (أنا أول الناس يشفع وأنا أكثر الأنبياء تبعًا): مسلم [١٩٦].

(٤) حديث أنس (أنا سيد الناس يوم القيامة وتدرون ممّ ذاكم ...) في الشفاعة: الشيخان [البخاري (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) من حديث أبي هريرة].

(٥) حديث أبي هريرة (أطمع أن كون أعظم الأنبياء أجرًا ...): [أخرجه أبو طاهر في المخلصيات (١/ ٣٨٥)، وهو في الصحيحين بنحوه].

(٦) حديث (أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم ...): [بيض له السيوطي ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

قَوْلُهُ (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ): هُوَ سَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَكِنْ أَشَارَ ﷺ لِانْفِرَادِهِ فِيهِ بِالسُّؤْدَدِ وَالشَّفَاعَةِ دُونَ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَجَأَ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَجِدُوا سِوَاهُ، وَالسَّيِّدُ هُوَ الَّذِي يَلْجَأُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ، فَكَانَ حِينَئِذٍ سَيِّدًا مُنْفَرِدًا مِنْ بَيْنِ البَشَرِ لَمْ يُزَاحِمْهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلَا ادَّعَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وَالْمُلْكُ لَهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ لَكِنْ فِي الآخِرَةِ انْقَطَعَتْ دَعْوَى الْمُدَّعِينَ لِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ لَجَأَ إِلَى مُحَمَّدٍ جَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّفَاعَةِ، فَكَانَ سَيِّدَهُمْ فِي الآخِرَةِ دُونَ دَعْوَى.

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ)[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، كِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا)[٢].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ نَحْوُهُ، وَقَالَ: (طُولُهُ مَا بَيْنَ عُمَانَ إِلَى أَيْلَةَ، يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الجَنَّةِ)[٣]، وَعَنْ ثَوْبَانَ مِثْلُهُ، وَقَالَ: (أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالآخَرُ مِن وَرِقٍ)[٤].

وَفِي رِوَايَةِ حَارِثَةَ بنِ وَهْبٍ: (كَمَا بَيْنَ المَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ)[٥].

---

(١) حديث أنس (آتي باب الجنة ...): مسلمٌ [١٩٧].

(٢) حديث ابن عمرو (حوضي مسيرة شهر ...): الشيخان [البخاريُّ (٦٥٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٩٢)].

(٣) حديث أبي ذر في الحوض: مسلمٌ [٢٣٠٠].

(٤) حديث ثوبان الحوض: مسلمٌ [٢٣٠٠].

(٥) حديث حارثة بن وهب: الشيخان [البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨)].

قولُه (آتي): -بِمَدِّ الهَمْزةِ- أيْ أَجيءُ. قوله (فأَسْتَفْتِحُ): أيْ أَطْلُبُ فَتْحَها لِأَدْخُلَها، و(الخازنُ): رِضْوانُ. قوله (بكَ أُمِرْتُ): الباءُ لِلسَّببيةِ.

قوله (وزَوايَاه): -بفتحِ الزاي، جَمْعُ زاويةٍ- أيْ نَواحيه. قوله (سَواءٌ): -بفتحِ السينِ والمدِّ- أيْ مُسْتَوِيةٌ لا تَزيدُ طولًا على عَرْضٍ.

قوله (مِنَ الْوَرِقِ): -بِكَسرِ الراءِ وسُكونِها، وحُكيَ كسرُ الواوِ وسكونُ الراءِ، ونُسِبا إلى الفرّاءِ، وحَكى فتْحَها الصنعانيُّ- أي الفِضّةِ أوِ الدراهمِ المضروبةِ. قوله (كيزانُهُ كَنُجومِ السَّماءِ): أيْ في الكَثْرةِ والإضاءةِ، و«الكيزانُ» جمعُ «كوزٍ»، وهيَ مِن ذَهَبٍ وفِضّةٍ.

قوله (عُمَانَ): بِضَمِّ العينِ وتخفيفِ الميمِ قريةٌ مِن قُرى اليَمَنِ، وبِفَتحِ العينِ وتشديدِ الميمِ قَرْيةٌ مِن قُرى الشّامِ.

قوله (أَيْلَةَ): -بفتحِ الهَمْزةِ وسكونِ التحتيةِ- قريةٌ في آخرِ طريقِ الشامِ بساحِلِ البَحْرِ. قوله (يَشْخُبُ): -بِفَتْحِ الخاءِ وضَمِّها-؛ مِن «شَخَبَ اللبَنُ» كمَنَعَ ونَصَرَ: [اشْتَدَّ وتَوالى] سَيْلُه.

قوله (وصَنْعاءَ): -بِفتحِ أوَّلِه وسكونِ ثانيه مَمدودًا- قاعدةُ اليَمَنِ ومَدينةٌ عُظْمى، وهيَ مِنْ عَجائبِ الدنيا -كَما قالَه الشافعيُّ.

وَقَالَ أَنَسٌ: (أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ)[1]، وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: (كَمَا بَيْنَ الكُوفَةِ وَالحَجَرِ الأَسْوَدِ)[2].

وَرَوَى حَدِيثَ الحَوْضِ أَيْضًا: أَنَسٌ، وَجَابِرُ بنُ سَمُرَةَ[3]، وَابْنُ عُمَرَ، وَعُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ[4]، وَحَارِثَةُ بنُ وَهْبٍ الخُزَاعِيُّ، وَالمُسْتَوْرِدُ[5]، وَأَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ[6]، وَحُذَيْفَةُ بنُ اليَمَانِ[7]، وَأَبُو أُمَامَةَ[8]، وَزَيْدُ بنُ أَرْقَمَ[9]، وَابْنُ مَسْعُودٍ[10]، وعبدُ الله بنُ زَيْدٍ[11]، وَسَهْلُ بنُ سَعْدٍ[12]، وَسُوَيْدُ بنُ جَبَلَةَ[13]، وَأَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ[14]، وَعَبدُ الله الصُّنَابِحِيُّ[15]، وَأَبُو هُرَيْرَةَ[16]، وَالبَرَاءُ[17]،

---

(١) حديث أنس: الشيخان [البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣)].

(٢) حديث ابن عمر: الشيخان [البخاريُّ (٦٥٧٧)، ومسلمٌ (٢٢٩٩)].

(٣) حديث جابر بن سمرة: مسلم [١٨٢٢].

(٤) حديث عقبة بن عامر: مسلم [٢٢٩٦].

(٥) حديث المستورد: الشيخان [البخاريُّ (٦٥٩٢)، ومسلمٌ (٢٢٩٨)].

(٦) حديث أبي برزة: أبو داود [٤٧٤٩]، وابن حبان [٦٤٥٨].

(٧) حديث حذيفة بن اليمان: مسلم [٢٤٨].

(٨) حديث أبي أمامة: ابن حبان [٦٤٥٧].

(٩) حديث زيد بن أرقم: أحمد [١٩٢٦٨، ١٩٢٩١].

(١٠) حديث ابن مسعود: الشيخان [البخاريُّ (٦٥٧٥)، مسلمٌ (٢٢٩٧)].

(١١) حديث عبد الله بن زيد: الشيخان [البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)].

(١٢) حديث سهل بن سعد: الشيخان [البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠)].

(١٣) حديث سويد بن جبلة: أبو زرعة الدمشقي في مسند الشاميين. [وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٥٩٣) عن سويد بن جبلة، عن العرباض بن سارية].

(١٤) حديث أبي سعيد: مسلم [٢٦].

(١٥) حديث عبد الله الصنابحي، صوابه الصنابح بن الأعسر: أخرجه أحمد [١٩٠٨٤] وابن ماجه [٣٩٤٤].

(١٦) حديث أبي هريرة: الشيخان [البخاريُّ (٢٣٦٧)، ومسلمٌ (٢٣٠٢)].

(١٧) حديث البراء: أحمد [(١٨٥٨٢) ولفظه: (اصبروا حتى تلقوني على الحوض)]، والطبرانيُّ [«الأوسط» (٣٣٨٤)].

قوله (وجابِرُ بنُ سَمُرَةَ): فيما رواه مسلِمٌ، وفي نسخةٍ «وسَمُرَةُ».

قوله (الخُزاعيُّ): بِضَمِّ أَوَّلِه.

قوله (والمستورِدُ): بصيغةِ الفاعلِ.

قوله (الصُّنابِحيُّ): بضمِّ الصادِ المهمَلة فنونٍ بَعْدَها أَلِفٌ فموَحَّدةٍ مكسورةٍ فحاءٍ مهمَلةٍ فياءِ نِسْبةٍ.

قوله (البَرَاءُ): بفتحتَيْنِ وتخفيفٍ مَعَ إِشْباعٍ.

***

وَجُنْدُبٌ(١)، وَعَائِشَةُ(٢) وَأَسْمَاءُ(٣) بِنْتَا أَبِي بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرَةَ(٤)، وَخَوْلَةُ بِنْتُ قَيْسٍ(٥)، وَغَيْرُهُمْ(٦).

***

(١) حديث جندب: الشيخان. [البخاريُّ (٦٥٨٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٩)].

(٢) حديث عائشة: مسلم [٢٢٩٤].

(٣) حديث أسماء بنت أبي بكر: الشيخان [البخاريُّ (٦٥٩٣)، ومسلمٌ (٢٧)].

(٤) حديث أبي بكرة: الطبراني [«مسند الشاميين» ٢٦٦٠].

(٥) حديث خولة بنت قيس: أحمد [٢٧٣١٦].

(٦) قوله (وغيرهم): روى حديثَ الحوْضِ خمسةٌ وخمسون صحابيًا خرَّجْتُ أحاديثَهم في الأحاديث المتواترة [قطف الأزهار (ص ٢٩٧) رقم (١١٠)] وأشير إلى الباقي هنا، وهم:

أبو بكر الصديق في صحيح ابن حبان [٦٤٧٦] وأبي عوانة [٤٤٣]،

وأبي بن كعب [ذكره البوصيري في إتحاف الخيرة، وعزاه لأبي يعلى] وأسامة بن زيد [السنة لابن أبي عاصم ٧١٧] وحذيفة بن أسيد [الكبير ٢٦٨٣] وزيد بن ثابت [الكبير ٤٩٢١] وحمزة بن عبد المطلب [في الطبراني عن زوجة حمزة بن عبدالمطلب (٣/ ٢٩٦٠)] والحسن بن علي [الكبير ٢٧٢٧] وسلمان [الدعاء للطبراني] وسمرة [الكبير ٧/ ٦٨٨١] وأبو الدرداء [في الأوسط ٣٩٧] وابن مسعود [في الكبير ١٠٤٠٢، ١٠٤٠٩] وأحاديثهم في الطبراني.

وأسيد بن حضير في الصحيحين [البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥)].

وابن عباس في البخاري [٦٥٨٤]. وأم سلمة في مسلم [٢٢٩٥].

وجابر بن عبد الله [١٤٧١٩، ١٥١٢٠] وعائذ بن عمرو [٦٥١٤] وثابت بن أرقم وخولة بنت حكيم [٢٧٣١٥] في المسند. ولقيط بن عامر في زيادات المسند [١٦٢٠٦]. وخباب بن الأرت في المستدرك [٢٦٢]. وكعب بن عجرة في الترمذي [٦١٤، ٢٢٥٩] والنسائي [٤٢٠٧، ٤٢٠٨].

وبريدة في مسند البزار [٤٣٨١]. وعتبة بن عبد [٦٤٥٠] والعرباض بن سارية [٧٢٣٩] في صحيح ابن حبان. وعمر بن الخطاب في البعث للبيهقي [١٥٩]، والنواس بن سمعان في [بياض بالأصل] لابن أبي الدنيا [وأخرجه الضياء في المنتقى ٩٣]. وعثمان بن مظعون ذكره ابن كثير في تاريخه [البداية والنهاية (١٩/ ٤٥٣)].

وعبد الرحمن بن عوف ذكره ابن منده في مستخرجه، ومعاذ بن جبل ذكره ابن القيم في الحاوي.

فَصْلٌ (فِي تَفْضِيلِهِ بِالمَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ)

جَاءَتْ بِذَلِكَ الآثَارُ الصَّحِيحَةُ، واخْتُصَّ ﷺ عَلى أَلْسِنَةِ المُسْلِمِينَ بِحَبِيبِ الله.

أَخْبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الخَطِيبُ وَغَيْرُهُ عَنْ كَرِيمَةَ بِنْتِ أَحْمَدَ، قَالَتْ: نَبَّأَ أَبُو الهَيْثَمِ، وَحَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ سَمَاعًا عَلَيْهِ، نَبَّأَ القَاضِي أَبُو الوَلِيدِ، نَبَّأَ عَبْدُ بْنُ أَحْمَدَ، نَبَّأَ أَبُو الهَيْثَمِ، نَبَّأَ عَبْدُ الله بنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ، نَبَّأَ عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدٍ، نَبَّأَ أَبُو عَامِرٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، نَبَّأَ أَبُو النَّضْرِ عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ)(1).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: (وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الله)، وَمِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ: (وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا)(2).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَلَسَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَنْتَظِرُونَهُ، قَالَ: فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُمْ، سَمِعَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ، فَسَمِعَ حَدِيثَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَجَبًا؛ إِنَّ اللهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ خَلْقِهِ خَلِيلًا، وَقَالَ آخَرُ: مَا ذَا بِأَعْجَبَ مِنْ كَلَامِ مُوسَى؛ كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، وَقَالَ آخَرُ: فَعِيسَى كَلِمَةُ الله وَرُوحُهُ، وَقَالَ آخَرُ: آدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ، وَقَالَ:

(قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَعَجَبَكُمْ، أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَمُوسَى نَجِيُّ الله، وَهُوَ كَذَلِكَ،

(1) حديث أبي سعيد (لو كنت متخذًا خليلًا ...): أسنده من طريق البخاري [٤٦٦].

(2) حديث ابن مسعودٍ كذلك: مسلم [٢٣٨٣].

قوله (والخُلّة): بضمِّ الخاءِ وتشديدِ اللّامِ.

قوله (واختُصَّ) هو بالصفتَيْنِ. قوله (أَلْسِنَةِ المسْلِمينَ): أيْ وألسِنةُ الخَلْقِ أقلامُ الحقِّ لا سيَّما وخَيْرُ أُمّةٍ لا تجتَمِعُ على ضَلالٍ.

قوله (عَنْ كَرِيمةَ): -بفَتْحِ الكافِ وكَسْرِ الرّاءِ- هيَ الحُرّةُ الزاهِدةُ.

قوله (وَحَدَّثَنا): بالواوِ الدالّةِ على تحويلِ السَّنَدِ وفي أصْلِ الحَلَبيِّ «وأخبَرَنا».

قوله (عَبْدُ بنُ أحمَدَ): -بالوَصْفِ لا بالإضافةِ- هوَ أبو ذرٍّ الهَرَويُّ. قوله (فُلَيْح): -بضَمِّ الفاءِ وفتحِ اللامِ فمُثنّاةٍ تحتيةٍ ساكنةٍ فمهمَلةٍ- عبدُ المَلِكِ بنُ سُلَيمانَ، مُعْتَدٌّ به في «الصحيحَيْنِ». قوله (عَن بُسْرٍ): بضمٍّ موحّدةٍ وسكونِ سينٍ مهمَلةٍ.

قوله (لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خليلًا): أيْ جعَلْتُه مخصوصًا بالصَّداقةِ والمَحبّةِ.

قوله (فخَرَجَ): أي من مَقامِه، أي مُتَوَجِّهًا لهم. قوله (إنَّ اللهَ): -بفتحِ الهَمْزةِ وكسرِها- على مَعْنى تَعَجُّبًا أوْ تَعَجَّبَ عَجَبًا.

قوله (وقالَ آخَرُ): أيِ البَعْضُ أو صَحابيٌّ.

قوله (فعيسى... إلخ): الفاءُ فَصيحةٌ؛ أيْ «إذا ذَكَرْتُم خليلَ اللهِ وكَليمَه في مَقامِ الافتِخارِ فاذْكُروا عيسى... إلخ».

قوله (وَآدمُ اصْطَفاهُ اللهُ): أيْ في أصْلِ خِلْقَتِه مِن غيرِ واسِطةٍ.

قوله (وموسى نَجيُّ اللهِ): قالَ -تعالى-: ﴿وقَرَّبْناه نَجيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وَعِيسَى رُوحُ اللهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَ الجَنَّةِ، فَيَفْتَحُ اللهُ لِي فَيُدْخِلُنِيهَا، وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ)[1].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: (إِنِّي اتَّخَذْتُكَ خَلِيلًا) فَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: «أسب حَبِيبُ الرَّحْمنِ»[2].

***

(١) حديث ابن عباس (جلس ناس ...): الدارمي [٤٨] والترمذي [٣٦١٦].

(٢) حديث أبي هريرة: هو حديثه في الإسراء مرَّ [انظر ص٢٢٣].

قوله (ولا فَخْرَ): أيْ ولا أَقولُ ذلك فَخرًا بَلْ تَحَدُّثًا بِنِعْمةِ رَبِّي.

قولـه (ومَعي فُقَراءُ المؤمنين): أيْ بِعُمومِهم على تفاوُتِ مَراتِبِهِم؛ ولا يُنافيه (ومَعي فُقَراءُ المهاجِرينَ)؛ لِأَنَّهم أَفْضَلُ فُقَراءِ المؤمنينَ.

قوله (ولا فَخْرَ): أيْ بِهذا أيضًا؛ فقَدْ وَرَدَ في الحديثِ القُدْسيِّ: (أَعْدَدْتُ لِعِبادي الصالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ)[1].

قوله (أسب): هَكَذا على هذه الصورةِ مِن غَيْرِ ضَبْطٍ، ولا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ بالتاءِ الفوقيةِ في آخِرِه، فارِسيٌّ، وفي نسخةٍ ضُبِطَ بِكَسرِ الهَمْزةِ وسكونِ المهمَلةِ وضَمِّ المُوَحَّدةِ، وفي أخرى بِفَتْحٍ وسُكونٍ وضَمِّ فَوْقيّةٍ، ولَعَلَّها كَلِمةٌ سُرْيانيةٌ بِدَليلِ ذِكْرِها في التوراةِ، أيْ «أنت» -كَما في نسخةٍ.

قوله (حبيبُ الرحمنِ): يُرْوى «أحمدُ حَبيبُ الرَّحمنِ».

***

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٤٧٨٠) [كتاب تفسير القرآن الكريم]، ومسلمٌ (٢٨٢٤) [كتاب الجنَّةِ وصِفَةِ نَعِيمِها وأَهْلِها]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ [فِي تَفْسِيرِ الخُلَّةِ، وَأَصْلِ اشْتِقَاقِهَا][1]

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ الخُلَّةِ، وَأَصْلِ اشْتِقَاقِهَا، فَقِيلَ: الخَلِيلُ المُنْقَطِعُ إِلَى اللهِ، الَّذِي لَيْسَ فِي انْقِطَاعِهِ إِلَيْهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ إِخْلَالٌ. وَقِيلَ: الخَلِيلُ المُخْتَصُّ، وَاخْتَارَ هَذَا القَوْلَ غَيْرُ وَاحِدٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَصْلُ الخُلَّةِ الاسْتِصْفَاءُ، وَسُمِّيَ إِبْرَاهِيمُ خليلَ اللهِ؛ لِأَنَّهُ يُوَالِي فِيهِ، وَيُعَادِي فِيهِ، وَخُلَّةُ اللهِ لَهُ نَصْرُه وَجَعْلُهُ إِمَامًا لِمَنْ بَعْدَهُ.

وَقِيلَ: الخَلِيلُ أَصْلُهُ الفَقِيرُ المُحْتَاجُ المُنْقَطِعُ، مَأْخُوذٌ مِنَ الخَلَّةِ، وَهِيَ الحَاجَةُ، فَسُمِّيَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ؛ لِأَنَّهُ قَصَرَ حَاجَتَهُ عَلَى رَبِّهُ، وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ بِهَمِّهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ قِبَلَ غَيْرِهِ إِذْ جَاءَهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ فِي المَنْجَنِيقِ لِيُرْمَى فِي النَّارِ، فَقَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا[2].

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بنُ فُورَكَ: الخُلَّةُ صَفَاءُ المَوَدَّةِ التي تُوجِبُ الاخْتِصَاصَ بِتَخَلُّلِ الأَسْرَارِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَصْلُ الخُلَّةِ المَحَبَّةُ، وَمَعْنَاهَا الإِسْعَافُ وَالإِلْطَافُ، والتَّرْفِيعُ والتَّشْفِيعُ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، فَأَوْجَبَ لِلْمَحْبُوبِ أَنْ لا يُؤَاخَذَ بِذُنُوبِهِ.

(١) [الكلام مستأنف في نسختي الشهاب والقاري بدون فصل. قال القاري: كذا في الأصول المعتبرة، ووقع في أصل الدلجي هنا «فصل»].

(٢) حديث (أن جبريل قال لإبراهيم وهو في المنجنيق: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا ...): أبو نعيم في الحلية [١/ ٢٠] عن مقاتل وسعيد من قولهما.

قوله (لَيْسَ... إلخ): أيْ في إعراضه عمّا سِواه نَقْصٌ وخَلَلٌ، وعلى ما ذُكِرَ الاشتقاقُ مِن «الخِلالِ» وهوَ الوَسَطُ[1]؛ إذِ الوُدُّ يَتَخَلَّلُ النفْسَ بحيثُ لا يَخْتَلُّ بِحُصولِ خَلَلٍ فيه حالَ خِلالِه، وفي هذا المعنى قولُه -تعالى-: ﴿وتَبَتَّلْ إليه تبتيلًا﴾ [المزمل: ٨]، وقولُه -سبحانَه-: ﴿ففِرّوا إلى الله...﴾ الآية [الذرايات: ٥٠].

قوله (**الاستصفاءُ**): أي الاختيارُ.

قوله (**يوالي فيه... إلخ**): أي أَحَبَّ وأَبغَضَ لِابتغاءِ رِضاه لا لِغَيْرِه.

قوله (**وهي الحاجةُ**): أيْ شِدَّتُها المُلجِئةُ إلى الفقْرِ.

قوله (**بِهَمِّه**): أيْ هِمَّتِه أوْ ما يَهُمُّه ويَغُمُّه لِما بَعْدَه. قوله (**قِبَلَ**): بِكَسْرِ أَوَّلِه.

قوله (**المَنْجَنيق**): بفَتْحِ أَوَّلِه أو كَسْرِه.

قوله (**والترفيعُ**): أيْ في مَقامِ الأُنْسِ، ولِبَعْضِهم هوَ التعظيمُ والتكريمُ. قوله (**والتشفيعُ**): أي قَبولُ الشفاعةِ.

قوله (**نَحنُ... إلخ**): أي أَتْباعُ ابْنَيْه عزيرٍ والمسيحِ؛ فهوَ على حذْفِ مُضافٍ.

(١) قال في لسان العرب: وفي المُحكَم: جُدُرها وما بينَ بُيوتِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيارِ﴾ يقال: جلسنا خِلالَ بُيوتِ الحَيِّ وخِلَالَ دُورِ القَوم: أي بينَ البُيُوتِ ووَسْطَ الدُّور. وقولُه تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ قال الأزهريّ: أي لأَسرَعوا، وقيل: لأَوْضَعوا مَراكِبَهم خِلالَكُم يَبغُونَكم الفِتْنةَ. وجعل «خِلالَكُم» بمَعْنى وَسْطَكم.

قَالَ: هَذَا، وَالخُلَّةُ مِنَّا أَقْوَى مِنَ البُنُوَّةِ، لِأَنَّ البُنُوَّةَ قَدْ تَكُونُ فِيهَا العَدَاوَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ عَدَاوَةٌ مَعَ خُلَّةٍ.

فَإِذًا تَسْمِيَةُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عليهما السلام بِالخُلَّةِ إِمَّا بِانْقِطَاعِهِمَا إِلَى اللهِ، وَوَقْفِ حَوَائِجِهِمَا عَلَيْهِ، وَالانْقِطَاعِ عَمَّنْ دُونَهُ، وَالإِضْرَابِ عَنِ الوَسَائِطِ وَالأَسْبَابِ، أَوْ لِزِيَادَةِ الاخْتِصَاصِ مِنْهُ تَعَالَى لَهُمَا، وَخَفِيِّ أَلْطَافِهِ عِنْدَهُمَا، وَمَا خَالَلَ بَوَاطِنَهُمَا مِنْ أَسْرَارِ إِلَهِيَّتِهِ، وَمَكْنُونِ غُيُوبِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، أَوْ لِاسْتِصْفَائِهِ لَهُمَا وَاسْتِصْفَاءِ قُلُوبِهِمَا عَمَّنْ سِوَاهُ حَتَّى لَمْ يُخَالِلْهُمَا حُبٌّ لِغَيْرِهِ.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ: الخَلِيلُ مَنْ لَا يَتَّسِعُ قَلْبُهُ لِسِوَاهُ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: (وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، لَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ).

واخْتَلَفَ العُلَمَاءُ أَرْبَابُ القُلُوبِ: أَيُّهُمَا أَرْفَعُ، دَرَجَةُ الخُلَّةِ أَوْ دَرَجَةُ المَحَبَّةِ؟

فَجَعَلَهُمَا بَعْضُهُمْ سَوَاءً، فَلَا يَكُونُ الحَبِيبُ إِلَّا خَلِيلًا، وَلَا الخَلِيلُ إِلَّا حَبِيبًا؛ لَكِنَّهُ خَصَّ إِبْرَاهِيمَ بِالخُلَّةِ، وَمُحَمَّدًا بِالمَحَبَّةِ.

وَبَعْضُهُمْ قَالَ: دَرَجَةُ الخُلَّةِ أَرْفَعُ، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ ﷺ: (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي)، فَلَمْ يَتَّخِذْهُ، وَقَدْ أَطْلَقَ المَحَبَّةَ ﷺ لِفَاطِمَةَ[1] وَابْنَيْهَا[2] وَأُسَامَةَ[3] وَغَيْرِهِمْ.

---

(١) حديث (أنه يحب فاطمة...): الترمذي عن بريدة [٣٨٦٨] وعائشة [٣٨٧٤]، قالا: كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ فاطمة.

(٢) حديث (أنه يحب الحسن والحسين...): الترمذي [٣٧٧٢] وغيره من طريق أنس.

(٣) حديث (أنه يحب أسامة ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٧٣٠)، ومسلمٌ (٢٤٢٦)، عن ابن عمر] وغيرهما من طرق.

قولـه (مِنْ أزواجِكم وأولادِكم): أيْ بَعْضُ أزواجِكم ... إلخ. قولـه (ولا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ عَدَاوَةٌ مَعَ خُلَّةٍ): أي لِأنَّهما ضِدّانِ، وهُما لا يَجْتَمِعانِ.

قولـه (والإضْرابِ): أيِ الإعراضِ والانصرافِ.

قولـه (مَنْ لا يَتَّسِعُ قَلْبُهُ): بتشديدِ التاءِ وكَسْرِ السينِ، ويُرْوى «لا يَتَّبِعُ قَلْبُه».

وقولـه (لِسِواهُ): أي على جِهةِ الشَّرِكةِ في المَحَبّةِ الأصليّةِ.

قولـه (لكِنْ): يُرْوى «ولَكِنْ»، وفي «الإكمالِ»: «خوّةُ الإسلامِ»؛ بِدونِ ألِفٍ.

قولـه (درجةُ الخُلّةِ... إلخ): هُما بالنّصبِ على التمييزِ أوِ الرفعِ على البَدَليةِ مِن (أيُّ)، وهذا وَجيهٌ لِما في الأوَّلِ مِنَ التعريفِ بالإضافةِ والتَّرْديدِ.

قولـه (وابْنَيْها): أيِ الحَسَنَيْنِ -رَضيَ اللهُ تعالى عَنْهم.

قولـه (وغَيْرِهم): أيْ كأبي بَكْرٍ وعُمَرَ وعائشةَ.

قوله (**وأَصْلُ المَحبّةِ**): أي المأخوذةِ مِن حَبّةِ القَلْبِ، أو أصلُ مَعْناها.

قوله (**ما يوافِقُ المُحِبَّ**): أي يُلائمُ طَبْعَه ويَسْتَلِذُّ به؛ وهذا على كَونِ (المُحِبّ) اسمَ فاعلٍ، ورويَ بفَتْحِ الحاءِ، وعَلَيْه فالمُرادُ به المَحبوبُ لكِنَّه مخالِفٌ لِلدِّرايةِ.

قوله (**ولكِنْ هَذا**): الإشارةُ لِلتعريفِ.

قوله (**المَيْلُ**): أيْ وُجودُ مَيَلانِ القَلبِ. قولُه (**بالوَفْقِ**): هوَ بفَتحِ الواوِ وسكونِ الفاءِ، أي الموافَقةِ.

قوله (**أسْبابِ القُرْبِ**): بِضَمٍّ فسكونٍ أوْ فَتْحٍ، ويُرادُ به على الثاني النَّوافلُ. قولُه (**كَشْفُ الحُجُبِ**): أي النفسانيّةِ.

قوله (**في الحديثِ**): أي القُدُسيِّ على ما رَواه البُخاريُّ، وأوَّلُه: (لا يَزالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إليَّ حَتّى أُحِبَّه؛ فإذا أَحْبَبْتُه...): أيْ أظْهَرْتُ حُبّي لَه؛ إذْ حُبُّه -تعالى- قَديمٌ لا بَعْدَ تَقَرُّبِ عَبْدِه.

قوله (**كُنْتُ سَمْعَه... إلخ**): زيدَ في رِوايةٍ: (ويَدَه الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَه التي يَمْشي علَيْها)[1]، والمَعْنى: «كُنْتُ حافِظَ أعضائِه؛ فلا يَهُمُّ إلا بمَرْضاتي، ولا يَسْعى إلّا في سَبيلي»، وقيلَ: «كُنْتُ أَسْعى إلى قَضاءِ حوائجِه، أو كُنْتُ أُظْهِرُ له ما يَتِمُّ به مَرامُه مِن مُشاهَدةِ قوّةِ أعضائِه وكَوْنِها مِن آثارِ قُدْرَتي». وهذا دَقيقٌ، ولَيْسَ المُرادُ مِنْه الحُلولَ والاتحادَ والاتِّصالَ كما تَوَهَّمَه أَهْلُ الضَّلالِ، ويَدُلُّ لِما ذَكَرْنا قولُه (**ولا يَنْبَغي... إلخ**).

قوله (**والانقِطاعِ إلى الله**): أيْ بِتَرْكِ الالْتِفاتِ إلى ما سِواه. وقولُه (**والإعْراضِ... إلخ**): أي بالتَّوَجُّهِ الكُلِّيِّ إلَيْه تعالى.

قوله (**وبِسَخَطِه**): أي لَيْسَ أسيرَ هَواه.

(١) أخرجها البخاري (٦٥٠٢)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وَأَكْثَرُهُمْ جَعَلَ المَحَبَّةَ أَرْفَعَ مِنَ الخُلَّةِ؛ لِأَنَّ دَرَجَةَ الحَبِيبِ لِنَبِيِّنَا أَرْفَعُ مِنْ دَرَجَةِ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ.

وَأَصْلُ المَحَبَّةِ المَيْلُ إِلَى مَا يُوَافِقُ المُحِبَّ، وَلَكِنْ هَذَا فِي حَقِّ مَنْ يَصِحُّ المَيْلُ مِنْهُ وَالانْتِفَاعُ بِالوَفْقِ، وَهِيَ دَرَجَةُ المَخْلُوقِ، فَأَمَّا الخَالِقُ -جَلَّ جَلَالُهُ- فَمُنَزَّهٌ عَنِ الأَغْرَاضِ؛ فَمَحَبَّتُهُ لِعَبْدِهِ تَمْكِينُهُ مِن سَعَادَتِهِ، وَعِصْمَتُهُ، وَتَوْفِيقُهُ، وَتَهْيِئَةُ أَسْبَابِ القُرْبِ، وَإِفَاضَةُ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَقُصْوَاهَا كَشْفُ الحُجُبِ عَنْ قَلْبِهِ؛ حَتَّى يَرَاهُ بِقَلْبِهِ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِبَصِيرَتِهِ لِيَكُونَ كَمَا قَالَ فِي الحَدِيثِ:

(فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ)[1].

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِن هَذَا سِوَى التَّجَرُّدِ للهِ، وَالانْقِطَاعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالإِعْرَاضِ عَنْ غَيْرِ اللهِ، وَصَفَاءِ القَلْبِ للهِ، وَإِخْلَاصِ الحَرَكَاتِ للهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ[2]؛ بِرِضَاهُ يَرْضَى، وَبِسَخَطِهِ يَسْخَطُ.

وَلِهَذَا عَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنِ الخُلَّةِ بِقَوْلِهِ:

(١) حديث (فإذا أحببته كنت سمعه ...): البخاريُّ [٦٥٠٢] عن أبي هريرة.

(٢) حديث (كان خلقه القرآن ...): تقدَّم [انظر ص١٣٧].

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي
وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيـلُ خَلِيلَا
فَإِذَا مَا نَطَقْتُ كُنْتَ حَدِيثِي
وَإِذَا مَا سَكَتُّ كُنْتَ الغَلِيلَا

فَـإِذًا مَزِيَّـةُ الخُلَّـةِ وَخُصُوصِيَّـةُ المَحَبَّـةِ حَاصِلَـةٌ لِنَبِيِّنَـا ﷺ بِـمَا دَلَّـتْ عَلَيْـهِ الآثَارُ الصَّحِيحَـةُ المُنْتَشِرَةُ المُتَلَقَّـاةُ بِالقَبُـولِ مِـنَ الأُمَّـةِ، وَكَفَـى بِقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُـلْ إِنْ كُنْتُـمْ تُحِبُّـونَ اللهَ فَاتَّبِعُـونِي يُحْبِبْكُـمُ اللهُ...﴾ الآيَـةَ [آل عمـران: ٣١].

حَكَى أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ هَـذِهِ الآيَـةَ لَمَّـا نَزَلَـتْ قَـالَ الكُفَّـارُ إِنَّـمَا يُرِيـدُ مُحَمَّـدٌ أَنْ نَتَّخِـذَهُ حَنَانًـا كَـمَا اتَّخَذَتِ النَّصَـارَى عِيسَـى؛ فَأَنْـزَلَ اللهُ غَيْظًـا لَـهُمْ وَرَغْـمًا عَـلَى مَقَالَتِهِـمْ هَـذِهِ الآيَـةَ: ﴿قُـلْ أَطِيعُـوا اللهَ وَالرَّسُـولَ﴾، فَـزَادَهُ شَرَفًـا بِأَمْرِهِـمْ بِطَاعَتِـهِ، وَقَرَنَهَـا بِطَاعَتِـهِ، ثُـمَّ تَوَعَّدَهُـمْ عَـلَى التَـوَلِّي عَنْـهُ بِقَوْلِـهِ: ﴿فَـإِنْ تَوَلَّـوْا فَـإِنَّ اللهَ لا يُحِـبُّ الكَافِرِيـنَ﴾ [آل عمـران: ٣٢].

وَقَـدْ نَقَـلَ الإِمَـامُ أَبُـو بَكْـرِ بـنُ فَـورَكَ عَـنْ بَعْـضِ المُتَكَلِّمِـينَ كَلَامًـا فِي الفَـرْقِ بَـيْنَ المَحَبَّـةِ وَالخُلَّـةِ يَطُـولُ، جُمْلَـةُ إِشَـارَتِهِ إِلَى تَفْضِيـلِ مَقَـامِ المَحَبَّـةِ عَـلَى الخُلَّـةِ، وَنَحْـنُ نَذْكُـرُ مِنْـهُ طَرَفًـا يَهْـدِي إِلَى مَـا بَعْـدَهُ.

فَمِـنْ ذَلِـكَ قَوْلُهُـم: الخَلِيـلُ يَصِـلُ بِالوَاسِـطَةِ، مِـنْ قَوْلِـهِ: ﴿وَكَذَلِـكَ نُـرِي إِبْرَاهِيـمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعـام: ٧٥]، وَالحَبِيـبُ يَصِـلُ لِحَبِيبِـهِ بِـهِ، مِـنْ قَوْلِـهِ: ﴿فَـكَانَ قَـابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَـى﴾ [النجـم: ٩].

قوله (قَدْ تَخَلَّلْتَ): أيْ تَداخَلْتَ، يَعْني لِحُبِّي إيّاكَ.

قولـه (فـإذا مـا): «مـا» زائـدةٌ. قولـه (كُنْـتَ حَديثي): أي لِما قيـلَ: مَـنْ أَحَـبَّ شيئًا أَكْثَـرَ مِـن ذِكْـراه.

قولـه (وإذا مـا سَـكَتُّ): عَنْـكَ أو عَـن غـيرِكَ أو عـن بَيـانِ حـالي مَعَـكَ. وقولـه (كُنْـتَ الغَليـلا): الغليـلُ -بالمعجَمةِ- حـرارةُ العطَـشِ، وفي نسـخةٍ (الدَّخيـلا): أي الـذي يُداخِـلُ ويُخالِـلُ بِـما في الصـدورِ.

قولـه (بِـما دَلَّـتْ... إلـخ): كحديـثِ: (لَـوْ كُنْـتُ مُتَّخِـذًا خَليـلًا لاتَّخَـذْتُ أبـا بَكْـرٍ).

قولـه (كَـما اتَّخَـذَتِ النصـارى عيسـى): أيْ وقَوْلُهُـم باطِـلٌ؛ فإنَّـه قـالَ ﷺ لَمّـا قيـلَ لـه: أَنَسْـجُدُ لَـكَ: (لَـوْ أَمَـرْتُ أَنْ يَسْـجُدَ أَحَـدٌ لِأَحَـدٍ لَأَمَـرْتُ أَنْ تَسْـجُدَ المـرأةُ لِزَوْجِهـا)[1]، وأيضًـا إنَّـما القـرآنُ في التوحيـدِ؛ فَـلا يُريـدُ ﷺ خِلافَـه[2].

قولـه (غَيْظًـا لهـم): أي زيـادةَ غيـظٍ. قولـه (ورَغْـمًا): -بتثليـثِ أَوَّلِـه؛ عـلى حكايـةِ الكَسْـرِ- أي رَدًّا.

قوله (لا يُحِبُّ الكافرينَ): أي لا يَرْضى عَنْهم.

(١) أخرجـه أحمـد (٢١٩٨٦)، ، والطـبرانيُّ في «الكبـير» (٢٠/ ٥٢)، والحاكـم في «المسـتدرك» (٤/ ١٩٠)، وغيرهـم مـن حديـث معـاذ بـن جبـلٍ. وصحَّحـه الحاكـم، وفي البـاب عـن عـددٍ مـن الصحابـة.

(٢) عبـارة المـلا: وأيضـا إنـما نـزل القـرآن مـن أولـه إلى آخـره عـلى رد أهـل الـشرك العنيـد وإثبـات التوحيـد عـلى وجـه التجريـد والتفريـد، فكيـف يتصـور لـه أن يريـد خـلاف ذلـك.

وَقِيلَ: الخَلِيلُ الَّذِي تَكُونُ مَغْفِرَتُهُ فِي حَدِّ الطَّمَعِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وَالحَبِيبُ الَّذِي مَغْفِرَتُهُ فِي حَدِّ اليَقِينِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ...﴾ الآية [الفتح: ٢].

وَالخَلِيلُ قَالَ: ﴿وَلا تُخْزِنِي﴾ [الشعراء: ٨٧]، وَالحَبِيبُ قِيلَ لَهُ: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ﴾ [التحريم: ٨]؛ فَابْتُدِئَ بِالبِشَارَةِ قَبْلَ السُّؤَالِ.

وَالخَلِيلُ قَالَ فِي المحبَّةِ: حَسْبِيَ اللهُ، وَالحَبِيبُ قِيلَ لَهُ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وَالخَلِيلُ قَالَ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وَالحَبِيبُ قِيلَ لَهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أُعْطِيَ بِلَا سُؤَالٍ.

وَالخَلِيلُ قَالَ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وَالحَبِيبُ قِيلَ لَهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ تَنْبِيهٌ عَلَى مَقْصِدِ أَصْحَابِ هَذَا المَقَالِ، مِنْ تَفْضِيلِ المَقَامَاتِ وَالأَحْوَالِ، فَـ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

***

قوله (في حَدِّ اليقينِ): أي الناجزِ الذي غيرُ مُتوقِّفٍ ولا متأخِّرٍ إلى حينٍ لِكَوْنِ صاحبِه مِن المُرادينَ.

قوله (بالبِشارةِ): أيْ بِنفْيِ الخِزْيِ عَنْه. قوله (قَبْلَ السؤالِ): أي والخليلُ سأَلَ.

قوله (لسانَ صِدقٍ): أيْ في الآخِرينَ، أي اجعَلْ لي ثَناءً جميلًا وذِكرًا جزيلًا إلى يومِ الدِّينِ. قوله (ورَفَعْنا لكَ ذِكْرَكَ): أي قَرَنّاه بِذِكْرِنا وكَتَبْناه على ساقِ العَرْشِ ونُحورِ الحورِ.

قوله (واجْنُبْني... إلخ): أي بَعِّدْني وإيّاهم عَن عِبادَتِها.

قوله (لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ): أي الدَّينَ المدَنَّسَ. وقوله (أَهْلَ البيتِ): نصبٌ على المَدْحِ أو النِّداءِ، ولَعَلَّ المُرادَ بالأهْلِ مَنْ كانَ في زَمَنِه ﷺ مِن أولادِه وذُرِّيَّتِه وأزواجِه.

قوله (مِن تفضيلِ... إلخ): أي لِلمَحَبّةِ والخُلّةِ وتفاوُتِ المَرْتَبَتَيْنِ في الحالِ والمآلِ.

قوله (على شاكِلَتِه): أيْ طَريقَتِه الَّتي تُشاكِلُ حالَه في الهُدى والضَّلالِ، أو عادَتِه وجِبِلَّتِه التي طُبِعَ عليها، كما قالَ -تعالى-: ﴿فأمّا مَن أَعْطى...﴾ الآيتَينِ [الليل: ٥-١٠].

قوله (بِمَنْ هوَ أَهْدى سَبيلًا): أيْ وبِغَيْرِه.

***

فَصْلٌ فِي تفضيلِه بِالشَّفَاعَةِ وَالْمَقَامِ المحمُودِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ الغَسَّانِيُّ الجَيَّانِيُّ فِيمَا كَتَبَ إِلَيَّ بِخَطِّهِ، حَدَّثَنَا سِرَاجُ بْنُ عَبْدِ اللهِ القَاضِي، نَبَّأَ أَبُو مُحَمَّدٍ الأَصِيلِيُّ، نَبَّأَ أَبُو زَيْدٍ وَأَبُو أَحْمَدَ، قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، نَبَّأَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبَانٍ، نَبَّأَ أَبُو الأَحْوَصِ عَنْ آدَمَ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًى، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، اشْفَعْ لَنَا! يَا فُلَانُ، اشْفَعْ لَنَا! حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: سُئِلَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ -يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾-، فَقَالَ: هِيَ الشَّفَاعَةُ[٢].

وَرَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ عَنْهُ ﷺ: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي حُلَّةً خَضْرَاءَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي، فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَقُولَ، فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ)[٣].

---

(١) حديث ابن عمر (أن الناس يصيرون جُثًا ...): أسنده من طريق البخاريِّ [٤٧١٨]، وأخرجه النَّسائيُّ [١١٢٣١] أيضًا.

(٢) حديث أبي هريرة (سُئل عن المقام المحمود فقال الشفاعة ...): أحمد [١٠٢٠٠] والبيهقيُّ [«الشعب» (٢٩٥)].

(٣) حديث كعب بن مالك (يحشر الناس يوم القيامة ...): أحمد [١٥٧٨٣].

قوله (بالشَّفاعةِ): أي العُظمى.

قوله (محمودًا): أي يَحْمَدُكَ فيه كُلُّ أَحَدٍ.

قوله (الغَسَّانيُّ): بإعجامِ أوَّلِه وإهمالِ ثانيه. قوله (الجَيَّانيُّ): بفتحِ المعجمةِ وتشديدِ الياءِ.

قوله (فيما كَتَبَ): أيْ بِه -كَما في نسخةٍ.

قوله (أَبَانٍ): بفتحِ الهمزةِ، وفيه الصرفُ وهوَ أَجْوَدُ مِن عدَمِه.

قوله (أبو الأحْوَصِ): بإهْمالِ ثانيه وجَرِّه، له أربعةُ آلافِ حديثٍ.

قوله (جُثًى): -بضمِّ جيمٍ فمُثَلَّثةٍ مُنَوَّنةٍ، مقصورٌ؛ جَمْعُ «جُثْوةٍ» بالضمِّ، وقَدْ تُكْسَرُ- ما جُمِعَ مِن تُرابٍ ونحْوِه ثُمَّ اسْتُعيرَ لِلجَماعةِ.

قوله (يا فُلانُ): أيْ قائلينَ يا فُلانُ... إلخ.

قوله (فأقولُ... إلخ): أي مِن المَحامِدِ والشفاعةِ. قوله (فذلكَ... إلخ): لا يُنافيه ما وَرَدَ مِن أنَّ المَقامَ المحمودَ هوَ أنْ يُجْلِسَه اللهُ مَعَه على كُرْسيِّه[١].

---

(١) ذكره الطبريُّ في «تفسيره» (١٥/ ٤٦-٤٧) عن حذيفة ومجاهد، ثم قال: «وأولى القولين في ذلك بالصَّواب ما صَحَّ به الخبرُ...» فذكر حديث أبي هريرة مرفوعًا أنَّ المقصود بالمقام المحمود: الشفاعة. وذكره أيضًا الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٤٢٦، ٤٢٧) وتكلَّم على الأقوال الواردة في معنى (المقام المحمود) فانظره هناك.

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ، وَذَكَرَ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ، قَالَ: (فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الجَنَّةِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ الَّذِي وُعِدَهُ)[1].

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ، عَنْهُ: (أَنَّهُ قِيَامُهُ عَنْ يَمِينِ العَرْشِ مَقَامًا لَا يَقُومُهُ غَيْرُهُ، يَغْبِطُهُ فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ)[2]، وَنَحْوُهُ عَنْ كَعْبٍ وَالحَسَنِ[3]، وَفِي رِوَايَةٍ: (هُوَ المَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لِأُمَّتِي فِيهِ)[4].

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنِّي لَقَائِمٌ المَقَامَ المَحْمُودَ)، قِيلَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: (ذَلِكَ يَوْمَ يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى...) الحَدِيثَ[5].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْهُ ﷺ: (خُيِّرْتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟! وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الخَطَّائِينَ)[6].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَاذَا وَرَدَ عَلَيْكَ فِي الشَّفَاعَةِ؟ فَقَالَ: (شَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا، يُصَدِّقُ لِسَانَهُ قَلْبُهُ)[7].

---

(١) [أخرجه البخاري (١٤٧٥) و(٧٤١٨)، وغيره].

(٢) [أخرجه مطوَّلًا: أحمد (٣٧٨٧)، والدارمي (٣٠٠٧)، والحاكم (٢/ ٣٦٤)، وغيرهم. وصحَّحه الحاكم، وتُعقِّب بأن فيه عثمان بن عمير وهو ضعيفٌ، وكذا قال الهيثميُّ في المجمع (١٠/ ٣٦٢)].

(٣) [حديث كعب تقدم، وحديث الحسن: ابن جرير في التفسير (١٥/ ٤٥)].

(٤) [أخرجه أحمد (١٠٨٣٩) وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعًا].

(٥) حديث ابن مسعود (إني لقائم المقام المحمود ...): أحمد [٣٧٨٧].

(٦) حديث أبي موسى (خيرت بين أن يدخل نصف أمتي ...): ابن ماجه [٤٣١١].

(٧) حديث أبي هريرة (ماذا وردَ عليك في الشفاعة ...): الحاكم [١/ ٦٩] وصحّحه، والبيهقي في الشُّعب.

قوله (الَّذي وُعِدَه): بالصيغتَيْن. قوله (يَغْبِطُه): -بفتحِ أوّلِه وكَسْرِ ثالثِه- أي يتمَنّاه. قوله (الذي أَشْفَعُ لِأمّتي فيه): أي ولغيرِهم بالتبعيّةِ، ويحتمِلُ جعْلَ الكُلِّ أُمّةً كما يدُلُّ له: (لَوْ كانَ موسى حَيًّا لَمَا وَسِعَه إلا اتِّباعي)[1].

قوله (إنّي لَقائمٌ... إلخ): اللّامُ المفتوحةُ لِلتأكيدِ في خبَرِ حَرْفِه، وقال الدلجيُّ: أيْ واللهِ إنّي لَقائمٌ، وهوَ وَهَمٌ، وقالَ أيضًا: وهذا مُرْشِدٌ إلى جوازِ القَسَمِ في الأمرِ العَظيمِ مَعَ أنّه لا خِلافَ في جوازِه؛ إلا أنَّ بَعْضَ العارفينَ لَمْ يَحْلِفْ في أمْرِ الدنيا لِحَقارَتِها. قوله (يَنْزِلُ اللهُ): -بفتحِ أوّلِه- أي يتَجَلّى.

قوله (خُيِّرْتُ): بصيغةِ المجهولِ، وروايةُ المصابيحِ: (أتاني آتٍ فخيَّرَني). قوله (ولكنَّها): يُرْوى «لا وَلَكِنَّها».

قوله (لِمَنْ شَهِدَ... إلخ): أيْ وإنْ لَمْ يَكُنْ مِن أُمّتي، أو التقديرُ: «وأنّي رسولُ اللهِ» اكتِفاءً بأحَدِ الجُزْأَيْنِ، وقيلَ: هذه الكَلِمةُ صارتْ عَلَمًا على الشهادتَيْنِ. قوله (مُخْلِصًا): أيْ لا لِعِلّةٍ. قوله (لسانَه قَلْبُه): أحدُهما بالنصْبِ أو الرفعِ والآخَرُ عَكْسُه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٣١)، والبزّار (كشف الأستار ١٢٤)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٩)، وغيرهم من حديث جابرٍ.

وَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أُرِيتُ مَا تَلْقَى أُمَّتِي مِن بَعْدِي، وَسَفْكَ بَعْضِهِمْ دِمَاءَ بَعْضٍ، وَسَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا سَبَقَ لِأُمَمٍ قَبْلَهُمْ، فَسَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُؤْتِيَنِي شَفَاعَةً يَوْمَ القِيَامَةِ فِيهِمْ، فَفَعَلَ). (١)

قَالَ حُذَيْفَةُ: يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حَيْثُ يُسْمِعُهُم الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا، سُكُوتًا ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]، فَيُنَادَى مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالمُهْتَدِي مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ البَيْتِ)، قَالَ: فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ. (٢)

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَالجَنَّةِ الجَنَّةَ، فَيَبْقَى آخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ الجَنَّةِ، وَآخِرُ زُمْرَةٍ مِنَ النَّارِ، فَتَقُولُ زُمْرَةُ النَّارِ لِزُمْرَةِ الجَنَّةِ: مَا نَفَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ؛ فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ، وَيَضِجُّونَ، فَيَسْمَعُهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، فَيَسْأَلُونَ آدَمَ وَغَيْرَهُ بَعْدَهُ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، فَكُلٌّ يَعْتَذِرُ حَتَّى يَأْتُوا مُحَمَّدًا، فَيَشْفَعَ لَهُمْ، فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ. (٣)

---

(١) حديث أمِّ حبيبة (أُريتُ ما تلقى أمتي من بعدي ...): الحاكم [١/ ٦٨]، والبيهقي في الشُّعب.

(٢) حديث حذيفة: (يجمع الله الناس في صعيد واحد ...): النَّسائيُّ [(١١٢٢٢) في الكبرى بمعناه مطولا] والبيهقي في الشُّعب [١/ ٤٨٧].

(٣) حديث ابن عباس (إذا دخلَ أهلُ النار النارَ ...): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عيه من مصادر].

قولـه (حَبِيبَةَ): أيْ أُمِّ المؤمنينَ -كَما لِلحاكمِ والبيهقيِّ. قولـه (مِن بَعْدِي): مُتَعَلِّقٌ بـ(تَلْقى).

قولـه (وسَفْكَ): مصدرٌ مضافٌ إلى فاعِلِه، أو ماضٍ، ويُؤَيِّدُه (وسَبَقَ). قولـه (ففَعَلَ): أيْ أَعْطاني ما سألْتُ.

و(في صَعيدٍ واحدٍ): أيْ أرْضٍ مُسْتَوِيةٍ لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا.

قولـه (يُسْمِعُهُم الدّاعي): بِضَمِّ أوَّلِه والمفعولُ محذوفٌ، أيْ صَوْتَه. قولـه (ويَنْفُذُهُمُ البَصَرُ): بفتحِ أوَّلِه. قولـه (لا تَكَلَّمُ): أي لا تَتَكلَّمُ.

قوله (لَيْسَ إِلَيْكَ): أي مَنسوبًا. قولـه (تَبارَكْتَ): أي تَكاثَرَ خَيْرُكَ. قولـه (ذَكَرَ اللهُ): أي ذَكَرَه بِقَوْلِه: ﴿عسى أنْ يَبْعَثَكَ...﴾ إلخ.

قولـه (وقالَ ابنُ عَبّاسٍ... إلخ): قالَ المُلّا: «لَفْظُه موقوفٌ وحُكْمُه مرفوعٌ» اهـ، والموقوفُ ما وُقِفَ لَفْظُه على الصَّحْبِ؛ فإنْ أُسْنِدَ مَتْنُه لِلنبيِّ فهوَ المرفوعُ، وإنْ أُسْنِدَ لِلتابعيِّ فهوَ المقطوعُ، فإنْ سَقَطَ مِنْ سَنَدِه راوٍ فهوَ المُنْقَطِعُ ما لَمْ يَكُنِ الصحابيَّ، وإلّا فهوَ مُرْسَلٌ؛ ولِذا قالَ الإمامُ البَيْقونيُّ: «ومُرْسَلٌ مِنْه الصحابيُّ سَقَطْ»، ولَمّا كانَ مَعْنى الحديثِ وارِدًا عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «وحُكْمُه مَرفوعٌ».

قولـه (زُمْرَةُ النارِ): أيِ الكُفّارُ. وقولـه (لِزُمْرَةِ الجَنّةِ): أيِ الواقعةِ في النارِ مِنَ الفُجّارِ. قولـه (ما نَفَعَكم إيمانُكم): أيِ المُجَرَّدُ عَنِ الطاعةِ. قولـه (ويَضِجّونَ): -بِفَتحِ الياءِ وكسرِ المعجمةِ وتشديدِ الجيمِ- أيْ ويَصيحونَ. قولـه (يَعْتَذِرُ): أيْ بِما عِنْدَه مِنَ الذّنْبِ الصّوريِّ والعِتابِ. قولـه (فيَشْفَعَ لَهم): أي والترددُ قيلَ على الأنبياءِ لِإظهارِ اختصاصِ نبيِّنا ﷺ بذلكَ.

وَنَحْوُهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا[1] وَمُجَاهِدٍ، وَذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[2].

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ لِيَزِيدَ الفَقِيرِ: سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ؟ -يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ- قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ، يَعْنِي مِنَ النَّارِ، وَذَكَرَ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ فِي إِخْرَاجِ الجَهَنَّمِيِّينَ، وَعَنْ شَيْبَانَ نَحْوُهُ، وَقَالَ: فَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ[3].

وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ[4] وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا -دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي حَدِيثِ بَعْضٍ- قَالَ ﷺ: (يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَهْتَمُّونَ -أَوْ قَالَ: فَيُلْهَمُونَ-، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا!)، وَمِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْهُ: (مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ)[5].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[6]: (وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ؛ فَيَقُولُونَ: أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ!

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ -زَادَ بَعْضُهُمْ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ: اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ؛ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ!

(١) حديث ابن مسعود نحوه: أحمد [٣٧٨٧] والطيالسي [٣٨٩].

(٢) حديث علي بن الحسين: الحاكم موصولا عنه عن أهل العلم. [وأخرجه الحارث بن أبي أسامة (١١٣١)، وغيره].

(٣) حديث جابر (سمعت بمقام محمد ...): مسلم [١٩١].

(٤) حديث أنس نحوه: أحمد [١٣٥٦٢].

(٥) حديث أنس في الشفاعة: تقدَّم [انظر ص٢٤٨].

(٦) حديث أبي هريرة فيها: الشيخان [البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)].

قوله (لِيَزِيدَ الفَقِيرِ): هو ابنُ صُهَيْبٍ الفقيرِ، وسُمّيَ بذلك لِأنّه كانَ يَشْكو فَقارَ ظَهرِه فهوَ بمَعْنى مَفْعولٍ. قوله (يُخرِجُ اللهُ بِهِ): أي بسببِه. قوله (في إخراجِ الجَهَنَّمِيّينَ): أيْ فوجًا فوجًا على حسَبِ المَراتِبِ. قوله (وعَنْ شَيْبانَ): في نسخةِ أنَسٍ، وفي أصلِ المُلّا زيادةٌ ليسَتْ في النُّسَخِ الصحيحةِ.

قوله (فيُلْهَمونَ): أي إلى طَلَبِ الشفاعةِ. قوله (زادَ بعْضُهم): أي في بَيانِ ما أُجْمِلَ مِن القولِ. قوله (مِن روحِه): أي الخاصِّ بتشريفِه وكرامتِه.

قوله (فَيَقولُ: إِنَّ رَبّي... إلخ): أي فَلا يُمْكِنُني أنْ أتَشَفَّعَ لا سيَّما وقَدْ نَهاني... إلخ. قوله (عَنِ الشَّجَرةِ): قيلَ: هيَ شَجَرةُ الكَرمِ، وقيلَ: السنبلةُ، وقيلَ: شجرةُ العِلمِ عليها معلومُ اللهِ مِن كلِّ لونٍ وطعْمٍ كَما تَقَدَّمَ، وقيلَ: هي النخلةُ والتينُ والكافورُ؛ ذكَرَه الحجازيُّ -ذكَره المُلّا. قوله (نَفْسي نَفْسي): أيْ أَهَمُّ عِندي مِن غَيْري، فألْزَمُها ولا أَجْتَرِئُ على غيرِ مَقامي، وفيه إيماءٌ لِقَولِه تعالى: ﴿يومَ تأتي كُلُّ نفسٍ تجادِلُ عَن نفْسِها﴾ [النحل: ١١١]. قوله (إلى نوحٍ): أيْ لِأنّه أوَّلُ أولي العَزْمِ مِن الرُّسلِ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا بَلَغَنَا، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي -قَالَ فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ: وَقَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي-، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ؛ فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللهِ!

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا -فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَذَبَهُنَّ-، نَفْسِي نَفْسِي، لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى؛ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّهُ عَبْدٌ آتَاهُ اللهُ التَّوْرَاةَ، وَكَلَّمَهُ، وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا-!

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا -وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، وَقَتْلَهُ النَّفْسَ-، نَفْسِي نَفْسِي، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى؛ فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ!

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ، عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ!

فَأُوتَى، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَخِرُّ سَاجِدًا.

قوله (**فيقولون**): أي فيأتون نوحًا فيقولون. قوله (**إلى أهلِ الأرضِ**): أيْ مِن الكُفّارِ والفُجّارِ فلا يُنافي أنَّ آدمَ أيضًا مُرْسَلٌ إلى أولادِه الأبرارِ وكذا شيثٌ وإدريسُ وَلَدُه على ما عَلَيه علماءُ الأخبارِ. اهـ مُلّا.

قوله (**وسَمّاكَ... إلخ**): أيْ حيثُ قالَ -سبحانَه-: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣]، أي مبالغًا في الشُّكرِ، أيْ معَ أنَّه قالَ: ﴿وقَليلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قوله (**قالَ**): أي النبيُّ ﷺ. قوله (**أَصابَ**): أي أَصابَها.

قوله (**أنتَ نَبيُّ اللهِ**): أي ورسولُه. قوله (**مِنْ أَهْلِ الأرضِ**): أيْ في زَمانِكَ.

قوله (**مِثْلَهُ**): أي ما تَقَدَّمَ، و(**ثَلاثَ كَلِماتٍ**) هيَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، و﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، و(إنَّها أُخْتي)[1] لِسارّةَ. قوله (**كَذَبَهُنَّ**): أيْ صورةً لا حقيقةً؛ فإنّه وَرّى بـ﴿فَعَلَه كَبيرُهم﴾: لِمَعْنى التبْكيتِ، وبـ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: لِما سَيَحصُلُ؛ إذْ كُلُّ مَن عاشَ يَسْقَمُ أو يَهْرَمُ، وبـ(إنَّها أُخْتي): لِأُخوّةِ الإسلامِ.

قوله (**لَسْتُ لَها**): أي الشفاعةِ العُظْمى. قوله (**ولَكِنْ... إلخ**): استدراكٌ لِدَفْعِ ما حَصَلَ مِن خَيْبةِ الأَمَلِ. قوله (**وَقَتْلَهُ النَّفْسَ**): عَطْفُ تفسيرٍ.

قوله (**فأوتى**): بصيغةِ المجهولِ. قوله (**أنا لها**): أي كائنٌ أو مُعَدٌّ أو مُدَّخَرٌ. قوله (**فأَنْطَلِقُ**): أي إلى العَرشِ أو بابِ الجَنّةِ. قوله (**وَقَعْتُ ساجِدًا**): أيْ شُكرًا لِما أَنْعَمَ عليَّ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٣٣٥٨)، ومسلمٌ (٢٣٧١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا أَنَّهُ يُلْهِمُنِيهَا اللهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَيَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي.

قَالَ فِي رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ: فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، يَا رَبِّ، أُمَّتِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ.

وَلَمْ يَذْكُرْ فِي رِوَايَةِ أَنَسٍ هَذَا الفَصْلَ، وَقَالَ مَكَانَهُ: ثُمَّ أَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ؛ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَذَكَرَ مِثْلَ الأَوَّلِ، وَقَالَ فِيهِ: مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، قَالَ: فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ، وَذَكَرَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ فِيهِ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، فَأَفْعَلُ، وَذَكَرَ فِي المَرَّةِ الرَّابِعَةِ: فَيُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ؛ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي، وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَمِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْهُ، قَالَ -فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ-: فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ، أَيْ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ.

قوله (بَيْنَ يَدَيْه): أي العَرْشِ أو رَبِّه؛ يَعْني في مَقامِ العُبوديةِ. قوله (لا أَقْدِرُ عَلَيْها): أي الآنَ.

قوله (فيَفْتَحُ... إلخ): وفي أخرى «بِمَحامِد». قوله (قَبْلي): أي ولا بَعْدي.

قوله (تُعْطَهْ): بِهاءِ السَّكْتِ. قوله (تُشَفَّعْ): أي تُقْبَلْ شفاعتُكَ.

قوله (مِن أُمَّتِكَ): أيْ أهلِ الإجابةِ. قوله (الأَيْمَنِ): أي الأقْرَبِ بِكَوْنِه يَمينًا. قوله (وَهُمْ... إلخ): أيْ إنِ اخْتاروا ذلك؛ وهذا دليلٌ على كَمالِ شَرَفِ أُمَّتِه به ﷺ.

قوله (هذا الفصْلَ): أيْ قولَه (فيُقالُ...) إلى (الأبوابِ).

قوله (يُسْمَعْ لكَ): أيْ كَلامُكَ.

قوله (مِنْ بُرَّةٍ... إلخ): [بِضَمِّ] أوَّلِه وتشديدِ ثانيه.

قوله (فأَخْرِجْه): أي مِن النارِ، أيِ التي هي مَوقِفُ العارِ.

قوله (مِثْلَ الأوَّلِ): أي (ثُمَّ أَخِرُّ... إلخ). قوله (فيه): أي الحديثِ.

قوله (مِن خَرْدَلٍ): هوَ حَبُّ الرَّشادِ. قوله (أَدْنى): كَرَّرَه ثلاثًا مبالَغةً في القِلّةِ. قوله (فيمَنْ): أي الشفاعةِ.

قوله (وجِبْرِيائي): قالَ المُلّا: الصحيحُ أنّه لُغةٌ في «الجَبَروتِ»، أي: وجَبَروتي المُشيرِ إلى أنّي لا أُبالي، وهو بكَسْرِ الجيمِ والراءِ ممدودًا.

قوله (فَلا أدري في الثالثةِ أو الرابعةِ): اعتراضٌ بَيْنَ (قالَ) ومقولِه.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ[1] وَعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ[2] وَأَبِي سَعِيدٍ[3] وَحُذَيْفَةَ[4] مِثْلُهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتَأْتِي الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ.

وَذَكَرَ فِي رِوَايَةِ أَبِي مَالِكٍ عَنْ حُذَيْفَةَ: فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَشْفَعُ، فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ، فَيَمُرُّونَ أَوَّلُهُمْ كَالبَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ وَالطَّيْرِ وَأَشَدِّ الرِّجَالِ، وَنَبِيُّكُمْ ﷺ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى يَجْتَازَ النَّاسُ، وَذَكَرَ آخِرَهُمْ جَوَازًا... الحَدِيثَ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ: فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ يَوْمَئِذٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْهُ ﷺ: (تُوضَعُ لِلأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا، وَيَبْقَى مِنْبَرِي لَا أَجْلِسُ عَلَيْهِ، قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي، مُنْتَصِبًا، فَيَقُولُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: مَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، عَجِّلْ حِسَابَهُمْ، فَيُدْعَى بِهِمْ، فَيُحَاسَبُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ بِشَفَاعَتِي، وَلَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى صِكَاكًا بِرِجَالٍ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، حَتَّى إِنَّ خَازِنَ النَّارِ لَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، مَا تَرَكْتَ لِغَضَبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ نِقْمَةٍ)[5].

وِمِنْ طَرِيقِ زِيَادٍ النُّمَيْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْفَلِقُ الأَرْضُ عَنْ جُمْجُمَتِهِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَمَعِي لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تُفْتَحُ لَهُ الجَنَّةُ وَلَا فَخْرَ، فَآتِي فَآخُذُ بِحَلْقَةِ الجَنَّةِ، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيُفْتَحُ لِي، فَيَسْتَقْبِلُنِي الجَبَّارُ تَعَالَى، فَأَخِرُّ سَاجِدًا)، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ. وَمِنْ رِوَايَةِ أُنَيْسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (لَأَشْفَعَنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ لِأَكْثَرَ مِمَّا فِي الأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَشَجَرٍ)[6].

---

(١) حديث أبي بكر: أحمد [١٥] وابن حبان [٦٤٧٦].

(٢) حديث عقبة: ابن أبي حاتم [١٢٢٤٥] وابن مردويه.

(٣) حديث أبي سعيد: الترمذي [٣١٤٨] وابن مردويه.

(٤) حديث حذيفة: ابن أبي داود في البعث [٢٨].

(٥) حديث ابن عباس (يوضع للأنبياء منابر ...): الحاكم [١/ ٦٥] والبيهقي في البعث.

(٦) حديث أنس (لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر ...): الطبراني في الأوسط [٥٣٦٠] لكن عن أُنَيْس الأنصاري لا أنس، وقد أخرجه أحمد [٢٢٩٤٣] عن بريدة بلفظ: (إني لأشفع).

قوله (ونَبِيُّكُم): يَعْني نفْسَه ﷺ على طريقةِ التجريدِ.

قوله (يُجِيزُ): -بضَمِّ أوَّلِه وكَسْرِ ثانيه- أي يَمْضي علَيْه ويَقْطَعُه.

قوله (مُنْتَصِبًا): أيْ على هيئةِ طالبِ الحاجةِ عِنْدَ صاحبِ النِّعمةِ.

قوله (صِكاكًا): -بكَسْرِ أوَّلِه؛ جَمْعُ «صَكٍّ»، فارسيٌّ معرَّبٌ- أي كُتُبًا.

وقوله (بِرجالٍ): أي بأشخاصٍ كُتِبَتْ أسماؤهم فيها.

قوله (جُمْجُمَتِه): -بضمِّ الجيمينِ- أي رأسِه.

قوله (فيَسْتَقْبِلُني): أي بتَجَلِّي الصِّفاتِ العُلا.

فَقَدِ اجْتَمَعَ مِنَ اخْتِلافِ أَلْفَاظِ هَذِهِ الآثَارِ أَنَّ شَفَاعَتَهُ ﷺ وَمَقَامَهُ المَحْمُودَ، مِنْ أَوَّلِ الشَّفَاعَاتِ إِلَى آخِرِهَا، مِنْ حِينِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ لِلْحَشْرِ، وَتَضِيقُ بِهِمُ الحَنَاجِرُ، ويَبْلُغُ مِنْهُمُ العَرَقُ وَالشَّمْسُ وَالوُقُوفُ مَبْلَغَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ الحِسَابِ، فَيَشْفَعُ حِينَئِذٍ لِإِرَاحَةِ النَّاسِ مِنَ المَوْقِفِ، ثُمَّ يُوضَعُ الصِّرَاطُ، وَيُحَاسَبُ النَّاسُ -كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحُذَيْفَةَ، وَهَذَا الحَدِيثُ أَتْقَنُ-، فَيَشْفَعُ فِي تَعْجِيلِ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَى الجَنَّةِ -كَمَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيثِ-، ثُمَّ يَشْفَعُ فِيمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ العَذَابُ وَدَخَلَ النَّارَ مِنْهُمْ حَسَبَمَا تَقْتَضِيهِ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ثُمَّ فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَيْسَ هَذَا لِسِوَاهُ ﷺ.

وَفِي الحَدِيثِ المُنْتَشِرِ الصَّحِيحِ: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَاخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي؛ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ)[1].

قَالَ أَهْلُ العِلْمِ: مَعْنَاهُ: دَعْوَةٌ أُعْلِمُوا أَنَّهَا تُسْتَجَابُ لَهُمْ، وَيَبْلُغُ فِيهَا مَرْغُوبَهُمْ، وَإِلَّا فَكَمْ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ مِنْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، وَلِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْهَا مَا لَا يُعَدُّ، لَكِنَّ حَالَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ بِهَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ، وَضُمِنَتْ لَهُمْ إِجَابَةُ دَعْوَةٍ فِيمَا شَاؤُوهُ يَدْعُونَ بِهَا عَلَى يَقِينٍ مِنَ الإِجَابَةِ، وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ وَأَبُو صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، فَاسْتُجِيبَتْ لَهُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُؤَخِّرَ دَعْوَتِي؛ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ)[2].

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي صَالِحٍ: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ)، وَنَحْوُهُ فِي رِوَايَةِ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ أَنَسٍ مِثْلُ رِوَايَةِ ابْنِ زِيَادٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ فَتَكُونُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ المَذْكُورَةُ مَخْصُوصَةً بِالأُمَّةِ، مَضْمُونَةَ الإِجَابَةِ، وَإِلَّا فَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ لِأُمَّتِهِ أَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، أُعْطِيَ بَعْضَهَا، وَمُنِعَ بَعْضَهَا، وَادَّخَرَ لَهُمْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ لِيَوْمِ الفَاقَةِ، وخَاتِمَةِ المِحَنِ، وَعَظِيمِ السُّؤْلِ وَالرَّغْبَةِ، جَزَاهُ اللهُ أَحْسَنَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَﷺ تَسْلِيمًا.

***

قوله (الحَناجِرُ): جمعُ «حَنْجَرةٍ» وهي الغَلْصَمةُ؛ كِنايةٌ عن ضيقِ الأحوالِ.

قوله (حَسَبَما تقتضيه): أي وَفْقَه ومِثْلَه.

قوله (المُنْتَشِرِ): أي المُشْتَهِر.

قوله (واختبَأْتُ): في روايةٍ «ادَّخَرْتُ».

قوله (مَعْناه): أي حديثِ: (لِكُلِّ نَبيٍّ... إلخ).

قوله (ويُبْلَغُ): -بصيغةِ المجهولِ- أي يوصَلُ.

قوله (ومُنِعَ بَعْضَها): أيْ مِن حيثُ إنَّها لَمْ تَكُنْ مضمونةَ الإجابةِ.

***

(١) حديث (لكل نبي دعوة ...): الشيخان [البخاريُّ (٦٣٠٥)، ومسلمٌ (٢٠٠)] عن أنسٍ.

(٢) حديث أبي هريرة (لكل نبيٍّ دعوةٌ دعى بها في أمته ....): مسلمٌ [١٩٩].

فَصْلٌ فِي تَفْضِيلِهِ فِي الجَنَّةِ بالكَوْثَرِ وَالوَسِيلَةِ، وَالدَّرَجَةِ الرفِيعَةِ وَالفَضِيلَةِ

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى التَّمِيمِيُّ وَالفَقِيهُ أَبُو الوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِمَا، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى الغَسَّانِيُّ، حَدَّثَنَا النَّمَرِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ المُؤْمِنِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ التَّمَّارُ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنِ ابْنِ لَهِيعَةَ وَحَيْوَةَ وَسَعِيدِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

(إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ تَعَالَى لِيَ الوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ)[1].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (الوَسِيلَةُ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ)[2].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ إِذْ عَرَضَ لِي نَهْرٌ، حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللهُ)، قَالَ: (ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى طِينَتِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِسْكًا)[3].

قوله (الرَّفيعةِ): أي العاليةِ. قوله (والفَضيلةِ): أي الصِّفةِ الزائدةِ.

قوله (النَّمَريُّ): بِفَتْحِ أَوَّلِه. قوله (التَّمّارُ): بتشديدِ الميمِ. قوله (لَهيعةَ): بفَتْحٍ فكَسْرٍ. قوله (وحَيْوةَ): بِفَتْحِ أَوَّلِه وسُكونِ ثانيه.

قوله (ثُمَّ سَلوا): في نسخةٍ «ثُمَّ اسْأَلوا».

قوله (وأَرْجو أنْ أكونَ أنا): هوَ إيماءٌ مِنْه ﷺ إلى أنَّه -تعالى- لا يَجِبُ عَلَيْه شَيْءٌ.

قوله (قِبابُ اللُّؤْلُؤِ): -بِكَسْرِ أَوَّلِه- جَمْعُ «قُبَّةٍ».

قوله (مِسْكًا): أيْ مِثْلَه.

---

(١) حديث ابن عمرو (إذا سمعتم المؤذن ...): أسنده من طريق أبي داود [٥٢٣] وهو عند مسلم [٣٨٤].

(٢) حديث أبي هريرة (الوسيلة أعلى درجة في الجنة): الترمذيِّ [٣٦١٢].

(٣) حديث أنس (بينا أنا أسير في الجنة إذا عرض لي نهر ...): الشيخان [البخاريُّ (٦٥٨١)، ومسلمٌ (لم أجده بهذا اللفظ في مسلم، وانظر حديث الكوثر فيه برقم ٤٠٠)].

وَعَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو مِثْلُهُ، قَالَ: (وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: (فَإِذَا هُوَ يَجْرِي، وَلَمْ يَشُقَّ شَقًّا، عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي)، وَذَكَرَ حَدِيثَ الحَوْضِ، وَنَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاس.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ: الكَوْثَرُ: الخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ[1].

وَقَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ: والنهرُ الَّذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخيرِ الَّذِي أعطاه اللهُ. وَعَنْ حُذَيْفَةَ فِيمَا ذَكَرَ ﷺ عَنْ رَبِّهِ: (وَأَعْطَانِي الكَوْثَرَ، نَهَرًا فِي الجَنَّةِ، يَسِيلُ فِي حَوْضِي).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)، قَالَ: أَلْفُ قَصْرٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ، تُرَابُهُنَّ المِسْكُ، وَفِيهِ مَا يُصْلِحُهُنَّ[2]، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: وَفِيهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الأَزْوَاجِ وَالخَدَمِ.

***

(١) حديث ابن عباس (الكوثر الخير الذي ....): البخاري [٦٥٧٨].

(٢) حديث ابن عباس في قوله تعالى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال (ألف قصر ...): ابن جرير [٢٤/ ٤٨٨] وابن أبي حاتم بسند صحيح [١٩٣٧٤].

و(مَجْراه): أيْ جَرَيانُ مائِه.

قوله (وَلَمْ يَشُقَّ شَقًّا): أيْ لَمْ يَمِلْ إلى شِقٍّ مِنْ أَحَدِ طَرَفَيْه بَلْ يَجْري جَرْيًا مُسْتَوِيًا.

و(يَسيلُ): أي يَنْصَبُّ.

قوله (وفيه ما يُصْلِحُهُنَّ): أي في كُلِّ قَصْرٍ ما يُزَيِّنُهُنَّ مِنَ الحورِ وغَيْرِها.

***

فَصْلٌ [في معنى الأحاديثِ الوَارِدةِ بِنَهْيِهِ ﷺ عنِ التَّفضيلِ]

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا تَقَرَّرَ مِنْ دَلِيلِ القُرْآنِ، وَصَحِيحِ الأَثَرِ، وَإِجْمَاعِ الأُمَّةِ كَونُهُ أَكْرَمَ البَشَرِ، وَأَفْضَلَ الأَنْبِيَاءِ، فَمَا مَعْنَى الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ بِنَهْيِهِ عَنِ التَّفْضِيلِ، كَقَوْلِهِ فِيمَا حَدَّثَنَاهُ الأَسَدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا السَّمَرْقَنْدِيُّ، حَدَّثَنَا الفَارِسِيُّ، حَدَّثَنَا الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنِي ابْنُ مُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ: سَمِعْتُ أَبَا العَالِيَةِ يَقُولُ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ ﷺ -يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)(١)، وَفِي غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ -يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ-: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ... الحَدِيثَ)(٢).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي اليَهُودِيِّ الَّذِي قَالَ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَلَطَمَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَقَالَ: تَقُولُ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟! فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ)، وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى)، وَذَكَرَ الحَدِيثَ، وَفِيهِ: (وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (وَمَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ)، وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)، وَفِي حَدِيثِهِ الآخَرِ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ، فَقَالَ: ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٤).

فَاعْلَمْ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ تَأْوِيلَاتٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ نَهْيَهُ عَنِ التَّفْضِيلِ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، فَنَهَى عَنِ التَّفْضِيلِ؛ إِذْ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْقِيفٍ، وَأَنَّ مَنْ فَضَّلَ بِلَا عِلْمٍ فَقَدْ كَذَبَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:

(١) حديث ابن عباس (ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى): أسنده من طريق مسلم [٢٣٧٧] ورواه البخاري أيضًا [٣٣٩٥].

(٢) حديث أبي هريرة مثله: الشيخان [البخاريُّ (٣٤١٦، ٤٦٣١)، ومسلمٌ (٢٣٧٦)].

(٣) حديث أبي هريرة (في اليهودي الذي قال والذي اصطفى موسى ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٤٠٨)، ومسلمٌ (٢٣٧٣)].

(٤) حديث (يا خير البرية ...): تقدَّم [انظر ص١٧٤].

قوله (مُثَنَّى): بِضَمِّ أَوَّلِه وفَتْحِ ثانيه وتشديدِ ثالِثِه مُنَوَّنًا.

قوله (مَتَّى): بِفَتْحِ الميمِ وتشديدِ المُثَنَّاةِ فَوْقُ.

قوله (في اليَهوديِّ الذي قَالَ): أيْ حينَ استَبَّ هو ورَجلٌ من الأنصارِ.

قوله (لا تُفَضِّلوا... إلخ): أي بأهوائكم وآرائكم.

قوله (فَجاءَه): أي النبيَّ ﷺ. قوله (يا خَيرَ البَرِيّةِ): أي خيرَ الخَلْقِ.

قوله (في هذه الأحاديثِ): أي الناهيةِ عَنِ التفضيلِ بَيْنَ الأنبياءِ. قوله (إلى توقيفٍ): أيْ سَماعٍ ونَصٍّ دالٍّ على التفضيلِ.

(لَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْهُ) لَا يَقْتَضِي تَفْضِيلَهُ هُوَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الظَّاهِرِ كَفٌّ عَنِ التَّفْضِيلِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَهُ ﷺ عَلَى طَرِيقِ التَّوَاضُعِ وَنَفْيِ التَّكَبُّرِ وَالعُجْبِ، وَهَذَا لَا يَسْلَمُ مِنَ الاعْتِرَاضِ.

الوَجْهُ الثالثُ: أَنْ لَا يُفَضِّلَ بَيْنَهُمْ تَفْضِيلًا يُؤَدِّي إِلَى تَنَقُّصِ بَعْضِهِمْ، أَوِ الغَضِّ مِنْهُ، لَا سِيَّمَا فِي جِهَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ بِمَا أَخْبَرَ لِئَلَّا يَقَعَ فِي نَفْسِ مَنْ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ بِذَلِكَ غَضَاضَةٌ وَانْحِطَاطٌ مِنْ رُتْبَتِهِ الرَّفِيعَةِ؛ إِذْ قَالَ تَعَالَى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]، ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فَرُبَّمَا يُخَيَّلُ لِمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ حَطِيطَتُهُ بِذَلِكَ.

الوَجْهُ الرَّابِعُ: مَنْعُ التَّفْضِيلِ فِي حَقِّ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ؛ فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ فِيهَا عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ؛ إِذْ هِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَتَفَاضَلُ، وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ فِي زِيَادَةِ الأَحْوَالِ وَالخُصُوصِ وَالكَرَامَاتِ وَالرُّتَبِ وَالأَلْطَافِ.

وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فِي نَفْسِهَا فَلَا تَتَفَاضَلُ، وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بِأُمُورٍ أُخَرَ زَائِدَةٍ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ مِنْهُمْ رُسُلٌ، وَمِنْهُمْ أُولُو عَزْمٍ، وَمِنْهُمْ مَن رُفِعَ مَكَانًا عَلِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُوتِيَ الحُكْمَ صَبِيًّا، وأُوتِيَ بَعْضُهُمُ الزَّبُورَ، وبَعْضُهُمُ البَيِّنَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ...﴾ الآيَةَ [الإسراء: ٥٥]، وَقَالَ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ الآيَةَ [البقرة: ٢٥٣].

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: وَالتَّفْضِيلُ المُرَادُ لَهُمْ هُنَا

قوله («إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْه» لا يقتضي... إلخ): ضميرا (مِنْه) و(هوَ) عائدانِ على يونسَ، وعَوْدُ الثاني على سيدِنا محمدٍ ﷺ بعيدٌ. قوله (كَفٌّ): -بتشديدِ الفاءِ- أي مَنْعٌ مِنْه.

قوله (على طَرِيقِ التواضُعِ): أي لإخوانِه أو لِربِّه -جَلَّ وعَزَّ. قوله (لا يَسْلَمُ مِنَ الاعْتِراضِ): أيْ في صِحّةِ التعليلِ، وبَحْثُ المُلّا بأنَّ الاعتراضَ إنّما يَرِدُ لَوْ ثَبَتَ نَفْيُه تواضُعًا بَعْدَ عِلْمِه بكَوْنِه أفْضَلَ الأنبياءِ أو بتفصيلِ التفضيلِ بَيْنَ الأصفياءِ، وأمّا قَبْلَ العِلْمِ فلا يَرِدُ اعتراضٌ أصْلًا مَعَ احتِمالِ حَمْلِ التواضُعِ مِن حيثُ إنّه لا مفضولَ إلّا وَقَدْ يوجَدُ فيه ما لا يوجَدُ في الفاضلِ. اهـ.

قوله (أَوِ الغَضِّ): -بغَينٍ وضادٍ مشدَّدةٍ، معجَمتينِ- أي الإغماضِ الذي هو كِنايةٌ عَن الإعراضِ. قوله (غَضاضةٌ): -بفَتْحِ أوَّلِه؛ فاعِلُ (يَقَعَ)- أي نَقْصٌ. قوله (وانحطاطٌ مِن رُتبَتِه): -بضمِّ الراءِ- أيْ تَنَزُّلُ مَرتَبَتِه. قوله (أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه): أي لَنْ نُضَيِّقَ علَيْه. قوله (حَطيطتُه): أيْ حَطُّ مَرْتَبَتِه.

قوله (والألْطافِ): أي أنواعِ المُلاطَفةِ مِن جِنْسِ المعاشَرةِ. قوله (زائدةٍ علَيْها): أي على حقيقتِها.

قوله (ومِنْهم أولو عَزْمٍ): أي حَزْمٍ وجِدٍّ واحتياطٍ. قوله (ومِنْهُمْ مَنْ أوتِيَ الحُكْمَ): أي الحِكْمةَ، أي فَهمَ التوراةِ أو الحِكمةَ أو النبوّةَ. وقوله (صَبِيًّا): أي في حالِ صِغَرِه، كيَحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أي قَبْلَ بُلوغِه.

قوله (قال اللهُ تعالى: ﴿ولَقَدْ فَضَّلْنا بعضَ النبيّينَ...﴾ إلخ): فالتفضيلُ ثابتٌ مقطوعٌ بِه بَيْنَ الأنبياءِ كأصحابِ الرسالةِ.

فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِثَلاثَةِ أَحْوَالٍ: أَنْ تَكُونَ آيَاتُهُ وَمُعْجِزَاتُهُ أَظْهَرَ وَأَشْهَرَ، أَوْ تَكُونَ أُمَّتُهُ أَزْكَى وَأَكْثَرَ، أَوْ يَكُونَ فِي ذَاتِهِ أَفْضَلَ وَأَظْهَرَ.

وَفَضْلُهُ فِي ذَاتِهِ رَاجِعٌ إِلَى مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ تَعَالَى مِنْ كَرَامَتِهِ وَاخْتِصَاصِهِ مِنْ كَلَامٍ أَوْ خُلَّةٍ أَوْ رُؤْيَةٍ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ أَلْطَافِهِ وَتُحَفِ وِلَايَتِهِ وَاخْتِصَاصِهِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ لِلنُّبُوَّةِ أَثْقَالًا، وَإِنَّ يُونُسَ تَفَسَّخَ مِنْهَا تَفَسُّخَ الرُّبَعِ)(1)، فَحَفِظَ ﷺ مَوْضِعَ الْفِتْنَةِ مِنْ أَوْهَامِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بِسَبَبِهَا جَرْحٌ فِي نُبُوَّتِهِ، أَوْ قَدْحٌ فِي اصْطِفَائِهِ، أَوْ حَطٌّ مِنْ رُتْبَتِهِ، وَوَهْنٌ فِي عِصْمَتِهِ؛ شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ.

وَقَدْ يَتَوَجَّهُ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ وَجْهٌ خَامِسٌ، وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ (أَنَا) رَاجِعًا إِلَى الْقَائِلِ نَفْسِهِ، أَيْ لَا يَظُنُّ أَحَدٌ -وَإِنْ بَلَغَ مِنَ الزَّكَاءِ وَالْعِصْمَةِ وَالطَّهَارَةِ مَا بَلَغَ- أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ لِأَجْلِ مَا حَكَى اللهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ دَرَجَةَ النُّبُوَّةِ أَفْضَلُ وَأَعْلَى، وَإِنَّ تِلْكَ الْأَقْدَارَ لَمْ تَحُطَّهُ عَنْهَا حَبَّةَ خَرْدَلٍ وَلَا أَدْنَى.

وَسَنَزِيدُ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا بَيَانًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فَقَدْ بَانَ لَكَ الْغَرَضُ، وَسَقَطَ بِمَا حَرَّرْنَاهُ شُبْهَةُ الْمُعْتَرِضِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

***

(1) حديث (إن للنبوة أثقالًا ...): ابن أبي حاتم في تفسيره [١٦/ ٣٧٦]، والحاكم في مستدركه عن وهب بن منبه [٢/ ٥٨٤].

قوله (مِنْ أَلْطَافِهِ): أي الخفيّة وهو بفتح الهَمْزة. قوله (وتُحَفِ وِلايَتِه): -بضمِّ التاءِ وفتحِ الحاءِ المهْمَلةِ- جمعُ تُحْفةٍ بمعنى الهدايةِ. قوله (واختِصاصِه): بالجرِّ عَطْفًا على مَدخولِ (إلى) في قوله (إلى ما خَصَّه).

قوله (أثقالًا): أي تكاليفَ مُثْقِلةً تَعرِضُ لها بسببِ التبليغِ.

قوله (تفسَّخَ مِنْها): أي تجرَّدَ عَنْها. قوله (تَفَسُّخَ الرُّبَعِ): بالنَّصبِ وبضمِّ الراءِ وفتحِ الموحَّدةِ، أي الفَصيلِ؛ وهوَ وَلَدُ الناقةِ يولَدُ في الربيعِ.

قوله (جَرْحٌ): -بفتحِ الجيمِ وسكونِ الراءِ- أي طَعْنٌ، وفي نسخةٍ «حَرَجٌ» -بفتحِ الحاءِ والراءِ وجيمٍ بَعْدَها-، والظاهرُ أنّه تصحيفٌ.

قوله (ووَهْنٌ في عِصْمَتِه): أي ضَعْفٌ.

قوله (وهوَ أنْ يكونَ «أنا» راجِعًا): أي لَفظُ (أنا) في الحديثِ السابقِ راجعٌ.

قوله (وإنْ بَلَغَ مِن الزّكاءِ): أيْ وَصَلَ مِن الفَهْمِ العالي، وهوَ بالذالِ المعجَمةِ -كما قالَه العَرَفيُّ-، أو بالزاي -كما في خطِّ المُصَنِّفِ.

قوله (وإنَّ تِلكَ الأقدارَ): -بِكَسرِ الهَمزةِ وفتحِها- أي المُقَدَّراتِ. وقوله (لَمْ تَحُطَّه): بتشديدِ الطاءِ.

قوله (فقَدْ بانَ لكَ الغرضُ): -بفتحِ الغينِ المعجَمةِ والراءِ- أي المقصودُ.

***

فَصْلٌ فِي أسمائِه، وَمَا تَضَمَّنَتْه مِن فضيلتِه ﷺ

حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بْنُ أَبِي تَلِيدٍ الفَقِيهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ نَصْرٍ، حَدَّثَنَا قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ)[1].

وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مُحَمَّدًا وَأَحْمَدَ، فَمِنْ خَصَائِصِهِ تَعَالَى لَهُ أَنْ ضَمَّنَ أَسْمَاءَهُ ثَنَاءَه، فَطَوَى أَثْنَاءَ ذِكْرِهِ عَظِيمَ شُكْرِهِ.

فَأَمَّا اسْمُهُ أَحْمَدُ فَـ«أَفْعَلُ» مُبَالَغَةً مِن صِفَةِ الحَمْدِ، وَمُحَمَّدٌ «مُفَعَّلٌ» مُبَالَغَةً مِنْ كَثْرَةِ الحَمْدِ، فَهُوَ ﷺ أَجَلُّ مِن «حَمِدَ»، وَأَفْضَلُ مِن «حُمِدَ»، وَأَكْثَرُ النَّاسِ حَمْدًا، فَهُوَ أَحْمَدُ المَحْمُودِينَ، وَأَحْمَدُ الحَامِدِينَ، وَمَعَهُ لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ لِيَتِمَّ لَهُ كَمَالُ الحَمْدِ، وَيَتَشَهَّرَ فِي تِلْكَ العَرَصَاتِ بِصِفَةِ الحَمْدِ، وَيَبْعَثَهُ رَبُّهُ هُنَاكَ مَقَامًا مَحْمُودًا كَمَا وَعَدَهُ، يَحْمَدُهُ فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ بِشَفَاعَتِهِ لَهُمْ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ فِيهِ مِنَ المَحَامِدِ، كَمَا قَالَ ﷺ: (مَا لَمْ يُعْطَ غَيْرُهُ).

---

(١) حديث جبير (لي خمسة أسماء ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٥٣٢)، ومسلمٌ (٢٣٥٤)].

قولـه (بْـنُ أَبي تَليـدٍ): بفتـحِ التـاءِ الفوقيـةِ وكـسْرِ الـلامِ، و(الفَقيـهُ): بالرفـعِ. وقولـه (أَصْبَغَ): -بفتـحِ الهَمْـزةِ وسـكونِ الصـادِ المُهْمَلـةِ وفتـحِ الموحَّـدةِ فغَـينٍ معجَمـةٍ- ممنـوعٌ مِـن الـصرفِ. وقولـه (وَضَّـاحٍ): بتشـديدِ الضـادِ المُعْجَمـةِ.

قولـه (يَمْحـو اللهُ بي الكُفـرَ): أي الكُفـرَ العـامَّ، أو غَلَبَتَـه عـلى ديـنِ الإسـلامِ. قولـه (يُحْشَرُ النّاسُ عَلى قَدَمي): بِبِنـاءِ الفِعـلِ لِلمجهـولِ وكـسْرِ الميـمِ مِـنْ (قَدَمـي)؛ عـلى الإفـرادِ.

قولـه (وأنـا العاقِـبُ): أي المُرْسَـلُ عَقِـبَ الأنبيـاءِ؛ فـلا نَبِـيَّ بَعْـدي، ونُـزولُ عيسـى في آخِـرِ الزَّمَـنِ ليـسَ بِـشَرْعٍ جَديـدٍ؛ بـلْ بشريعـةِ محمـدٍ ﷺ.

قولـه (فمِـنْ خصائِصِـه): مَصـدرٌ مضـافٌ إلى فاعلِـه، أيْ فمِـمّا خَصَّـه اللهُ. و(ضَمَّـنَ): -بتشـديدِ الميـمِ- أيْ تَضْمـينِ الله -سـبحانَه- أسـماءَه.

قولـه (فطَـوى): بالفـاءِ لا بالـواوِ كـما وَقَـعَ في أصـلِ الدلجـيِّ.

قولـه (مِـنْ كَثْـرةِ الحَمْـدِ): أيِ المحموديـةِ، أيِ المسـتفادةِ مِـن مَصْـدَرِه وهـوَ التحميـدُ.

قولـه (أَجَـلُّ مِـن «حَمِـدَ»): أيْ أَعْظَـمُ مِـن «حَمِـدَ»، وهـوَ بفَتْـحِ الحـاءِ وكَـسرِ الميـمِ.

وقولـه (وأَفْضَـلُ مِـن «حُمِـدَ»): بِضَـمِّ المهمَلـةِ وكـسرِ الميـمِ.

قولـه (لِيَتِـمَّ): بفتـحِ اليـاءِ التحتيـةِ وكـسْرِ المُثنّـاةِ فَـوْقُ.

وقولـه (العَرَصـاتِ): بفتـحِ الـراءِ- جمـعُ «عَرْصـةٍ» -بسـكونِ الـراءِ-؛ وهـيَ كُلُّ مَوْضِـعٍ واسـعٍ لا بِنـاءَ فيـه مِـنْ فِنـاءِ الـدارِ، والمُـرادُ بـه هنـا المَقامـاتُ.

وَسَمَّى اللهُ أُمَّتَهُ فِي كُتُبِ أَنْبِيَائِهِ بِالحَمَّادِينَ؛ فَحَقِيقٌ أَنْ يُسَمَّى مُحَمَّدًا وَأَحْمَدَ.

ثُمَّ فِي هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ مِنْ عَجَائِبِ خَصَائِصِهِ وَبَدَائِعِ آيَاتِهِ فَنٌّ آخَرُ، هُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى -جَلَّ اسْمُهُ- حَمَى أَنْ يُسَمَّى بِهِمَا أَحَدٌ قَبْلَ زَمَانِهِ، أَمَّا «أَحْمَدُ» الَّذِي أَتَى فِي الكُتُبِ، وَبَشَّرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، فَمَنَعَ اللهُ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُسَمَّى بِهِ أَحَدٌ غَيْرُه، وَلَا يُدْعَى بِهِ مَدْعُوٌّ قَبْلَهُ؛ حَتَّى لَا يَدْخُلَ لَبْسٌ عَلَى ضَعِيفِ القَلْبِ، أَوْ شَكٌّ.

وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ أَيْضًا لَمْ يُسَمَّ بِهِ وَاحِدٌ مِنَ العَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ، إِلَى أَنْ شَاعَ قُبَيْلَ وُجُودِهِ ﷺ وَمِيلَادِهِ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ، اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، فَسَمَّى قَوْمٌ قَلِيلٌ مِنَ العَرَبِ أَبْنَاءَهُمْ بِذَلِكَ؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ أَحَدَهُمْ هُوَ، واللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه.

وَهُمْ: مُحَمَّدُ بنُ أُحَيْحَةَ بنِ الجُلَاحِ الأَوْسِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ الأَنْصَارِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ بَرَاءٍ البَكْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ سُفْيَانَ بنِ مُجَاشِعٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ عِمْرَانَ الجُعْفِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ خُزَاعِيٍّ السُّلَمِيُّ، لَا سَابِعَ لَهُمْ. وَيُقَالُ: أَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ بِمُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ بنُ سُفْيَانَ، وَاليَمَنُ تَقُولُ: بَلْ مُحَمَّدُ بنُ اليُحْمِدِ، مِنَ الأَزْدِ.

ثُمَّ حَمَى اللهُ كُلَّ مَنْ تَسَمَّى بِهِ أَنْ يَدَّعِيَ النُّبُوَّةَ، أَوْ يَدَّعِيَهَا أَحَدٌ لَهُ، أَوْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ سَبَبٌ يُشَكِّكُ أَحَدًا فِي أَمْرِه، حَتَّى تَحَقَّقَتِ السِّمَتَانِ لَهُ ﷺ، وَلَمْ يُنَازَعْ فِيهِمَا.

قوله (**وَسَمّى اللهُ أُمَّتَهُ في كُتُبِ أَنْبيائِهِ بالحَمّادينَ**): كَما في حديثِ الدارميِّ عَن كَعْبٍ، يَحْكي عَن التوراةِ قالَ: نَجِدُ مَكتوبًا فيها: «محمدٌ رسولُ الله»، إلى أنْ قالَ: «وأُمَّتُه الحَمّادونَ يَحْمَدونَ اللهَ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ»[1].

قوله (**فَنٌّ آخَرُ**): أي نَوعٌ آخَرُ مِن أنواعِ كراماتِه.

قوله (**حَتّى لا يَدْخُلَ لَبْسٌ**): أي التِباسٌ؛ وهوَ بفتحِ اللّامِ.

قوله (**إلى أنْ شاعَ**): أي بإخبارِ الرُّهبانِ وغيْرِهم.

قوله (**أُحَيْحَةَ**): بضمِّ الهمْزةِ وفتْحِ المهمَلَتَيْنِ بَيْنَهما ياءٌ ساكِنةٌ. وقوله (**الجُلاحِ**): بضمِّ الجيمِ وتخفيفِ اللّامِ في آخِره حاءٌ مهمَلةٌ. قوله (**الأَوْسيُّ**): -بفتحِ الهمزةِ- نِسبةٌ إلى قَبيلةٍ مِن الأنصارِ.

وقوله (**مَسْلَمَةَ**): بفَتْحِ الميمِ وسكونِ السينِ المُهْمَلةِ وفتْحِ اللّامِ.

قوله (**بنُ بَراءٍ**): بموَحَّدةٍ وراءٍ مَمْدودةٍ، وفي نسخةٍ: بِدالٍ مهمَلةٍ مشدَّدةٍ ممدودةٍ أيضًا. وقوله (**البَكْريُّ**): بفتْحِ الباءِ وسكونِ الكافِ. قوله (**مُجاشِعٍ**): بضمِّ الميمِ وكسْرِ الشينِ المعجَمةِ.

قوله (**وَمُحَمَّدُ بنُ عِمْرانَ**): بِكَسْرِ العَينِ وسكونِ الميمِ. وقوله (**الجُعْفيُّ**): بضَمِّ الجيمِ. قوله (**خُزاعيٍّ**): بِضَمِّ الخاءِ وبالزّايِ. قوله (**السُّلَميُّ**): بضمِّ السينِ وفَتْحِ اللامِ.

قوله (**اليُحْمِدِ**): بضَمِّ أوَّلِه وكَسْرِ ثالِثِه. وقوله (**مِنَ الأَزْدِ**): «الأَزْدُ» قبيلةٌ مِن اليَمَنِ مَشهورةٌ.

قوله (**يُشَكِّكُ**): -بكَسْرِ الكافِ الأولى- أيْ يوقِعُ في الشَّكِّ. قوله (**حَتّى تَحَقَّقَتِ السِّمَتانِ**): -بكَسْرِ السينِ المهمَلةِ وفتْحِ الميمِ- أي العَلامَتانِ الدالّتانِ على الأحمَديّةِ والمُحَمَّديةِ. قوله (**وَلَمْ يُنازَعْ فيهِما**): -بِفَتْحِ الزايِ- أيْ لَمْ يُعارِضْه أَحَدٌ فيهِما.

---

(1) «سنن الدارمي» (10) [كتاب الإيمان والرؤية] من حديث ابن عبّاسٍ، عن كعب الأحبار رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

وَأَمَّا قَوْلُـهُ: (وَأَنَـا المَاحِـي الَّـذِي يَمْحُـو اللهُ بِيَ الكُفْـرَ)، فَفُسِّرَ فِي الحَدِيـثِ، وَيَكُـونُ مَحْـوُ الكُفْـرِ إِمَّـا مِـنْ مَكَّـةَ وَبِلَادِ العَـرَبِ، وَمَـا زُوِيَ لَـهُ مِـنَ الأَرْضِ وَوُعِـدَ أَنَّـهُ يَبْلُغُـهُ مُلْكُ أُمَّتِـهِ، أَوْ يَكُـونُ المَحْـوُ عَامًّـا، بِمَعْنَـى الظُّهُـورِ وَالغَلَبَـةِ، كَـمَا قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿لِيُظْهِـرَهُ عَـلَى الدِّيـنِ كُلِّـهِ﴾ [التوبـة: ٣٣]، وَقَـدْ وَرَدَ تَفْسِـيرُهُ فِي الحَدِيـثِ (أَنَّـهُ الَّـذِي مُحِيَـتْ بِـهِ سَـيِّئَاتُ مَـنِ اتَّبَعَـهُ)[1].

وَقَوْلُـهُ: (وَأَنَـا الحَـاشِرُ الَّـذِي يُحْشَرُ النَّـاسُ عَـلَى قَدَمِـي): أَيْ عَـلَى زَمَـانِي وَعَهْـدِي، أَيْ لَيْـسَ بَعْـدِي نَبِـيٌّ، كَـمَا قَـالَ تعَـالَى: ﴿وَخَاتَـمَ النَّبِيِّـينَ﴾ [الأحـزاب: ٤٠]، وَسُـمِّيَ «عَاقِبًـا»؛ لِأَنَّـهُ عَقَـبَ غَـيْرَهُ مِـنَ الأَنْبِيَـاءِ، [وفي الصَّحِيـحِ (أَنَـا العَاقِـبُ الَّـذِي لَيْـسَ بَعْـدِي نَبِـيٌّ)].

وَقِيـلَ: مَعْنَـى (عَـلَى قَدَمِـي): أَيْ يُحْشَرُ النَّـاسُ بِمُشَـاهَدَتِي، كَـمَا قَـالَ تَعَـالَى: ﴿لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَـلَى النَّـاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُـمْ شَـهِيدًا﴾ [البقـرة: ١٤٣]، وفِي الصَّحِيـحِ وَأَنَـا العَاقِـبُ الَّـذِي لَيْـسَ بَعْدِيَ نَبِـيٌّ، وَقِيـلَ: (عَـلَى قَدَمِـي): عـلى سـابِقَتِي، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿لَهُـمْ قَـدَمَ صِـدْقٍ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ﴾ [يونـس: ٢]، وَقِيـلَ: (عَـلَى قَدَمِـي): أَيْ قُدَّامِـي وَحَـوْلِي، أَيْ يَجْتَمِعُـونَ إِلَيَّ فِي القِيَامَـةِ، وَقِيـلَ: (قَدَمِـي): سُـنَّتِي.

وَمَعْنَـى قَوْلِـهِ ﷺ: (لَـه خَمْسَـةُ أَسْـمَاءٍ): قِيـلَ: إِنَّهَـا مَوْجُـودَةٌ فِي الكُتُـبِ المُتَقَدِّمَـةِ، وعِنْـدَ أُولِي العِلْـمِ مِـنَ الأُمَـمِ السَّـالِفَةِ، وَاللهُ أَعْلَـمُ، وَقَـدْ رُوِيَ عَنْـهُ ﷺ: (لِي عَـشَرَةُ أَسْـمَاءٍ)[2]، وَذَكَـرَ مِنْهَـا: «طَـهَ، وَيَـس»، حَـكَاهُ مَكِّـيٌّ.

وَقَـدْ قِيـلَ فِي بَعْـضِ تَفَاسِـيرِ «طـه» إِنَّـهُ يَـا طَاهِـرُ، يَـا هَـادِي، وَفِي «يَـس» يَـا سَـيِّدُ، حَـكَاهُ السُّـلَمِيُّ عَـنِ الوَاسِـطِيِّ وَجَعْفَـرِ بـن مُحَمَّـدٍ.

(١) حديث (الماحي الذي محيت به سيئات من اتبعه ...): البيهقي [«الدلائل» (١/ ١٥٥)] وأبو نعيم في الدلائل [١٩] عن جبير.

(٢) حديث (لي عشرة أسماء ...): تقدم أول الكتاب [انظر ص٦٩].

قولـه (ومـا زُوِيَ): -بِضَـمِّ الـزاي وكَـسْرِ الـواوِ- أي قُبِـضَ وجُمِـعَ.

قولـه (ووُعِـدَ): بصيغـةِ المجهـولِ.

قولـه (الَّـذي يُحْـشَرُ النّـاسُ عَـلى قَدَمـي): قَـدْ سَـبَقَ مَعْنـاه؛ إلّا أنّـه زادَ الموصـولَ هُنـا، ثُـمَّ لَمْ يَقُـلْ «عـلى قَدَمِـه»؛ لِأَنَّ قَصْـدَه الإخبـارُ عَـنْ نَفْسِـه، وأَعـادَه هُنـا لِلغَيْرِيّـةِ في قولـه (أيْ عـلى زَمـاني... إلـخ).

قولـه (وخاتَـمَ): بكـسرِ التـاءِ وفَتْحِهـا.

قولـه (عَقَـبَ غَـيْرَه): -بِفَتْـحِ القـافِ- أيْ خَلَـفَ، وزيـدَ في بعـضِ النُّسَـخِ المُصَحَّحـةِ هُنـا: (أنـا العاقِـبُ الَّـذي لَيْـسَ بَعْـدي نَبِـيٌّ)[1].

قولـه (وقيـلَ: «قَدَمـي» سُـنَّتي): وفي نسـخةٍ: «وقيـلَ: قَدَمـي عـلى سُـنَّتي»، أي عـلى قَـدْرِ مُتابَعَتـي.

قولـه (لي عَشَرةُ أسـماءٍ): الجمهـورُ عَـلى أنَّ مَفهـومَ العَـدَدِ لَيْـسَ بِحُجّـةٍ؛ فَـلا مُعارَضـةَ بيْنَـه وبـيْنَ مـا سَـبَقَ مِـن حديـثِ: (لي خمسـةُ أسـماءٍ).

قولـه (السُّـلَميُّ): بِضَـمٍّ ففتْـحٍ، وهـوَ أبـو عَبـدِ الرحمـنِ محمـدُ بـنُ عبـدِ الحُسَـينِ، صاحـبُ «تفسـيرِ الحقائـقِ».

(١) متفـقٌ عليـه أخرجـه البخـاريُّ (٣٥٣٢)، ومسـلمٌ، واللفـظ لـه (٢٣٥٤)، وغيرهمـا مـن حديـث جُبـير بـن مُطْعِـمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَذَكَرَ غَيْرُه: (لِي عَشَرَةُ أَسْمَاءٍ)، فَذَكَرَ الخَمْسَةَ التِي فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ، قَالَ: (وَأَنَا رَسُولُ الرحْمَةِ، وَرَسُولُ الرَّاحَةِ، وَرَسُولُ المَلاحِمِ)[1]، و(أَنَا المُقْتَفِي؛ قَفَّيْتُ النَّبِيِّينَ)[2]، و(أَنَا قَيِّمٌ)[3]، وَالقَيِّمُ: الكَامِلُ الجَامِعُ، كَذَا وَجَدْتُهُ، وَلَمْ أَرْوِه، وَأَرَى أَنَّ صَوَابَهُ (قُثَمُ)، بِالثَّاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَعْدُ عَنِ الحَرْبِيِّ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِالتَّقْسِيمِ.

وَقَدْ وَقَعَ أَيْضًا فِي كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ؛ قَالَ دَاوُدُ ؏: (اللهُمَّ ابْعَثْ لَنَا مُحَمَّدًا، مُقِيمَ السُّنَّةِ بَعْدَ الفَتْرَةِ)، فَقَدْ يَكُونُ «القَيِّمُ» بِمَعْنَاهُ.

وَرَوَى النَّقَّاشُ عَنْهُ ﷺ: (لِي فِي القُرْآنِ سَبْعَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وطَهَ وَيَس، وَالمُدَّثِّرُ، وَالمُزَّمِّلُ، وَعَبدُ اللهِ)[4].

وَفِي حَدِيثٍ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: (هِيَ سِتٌّ: مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَخَاتِمٌ، وَحَاشِرٌ، وَعَاقِبٌ، وَمَاحٍ).

(١) حديث (أنا رسول الرحمة ورسول الراحة ورسول الملاحم ...): ابن سعد [(١/ ١٠٤)] عن مجاهد مرسلًا: (أنا رسول الرحمة، أنا رسول الملحمة).

(٢) حديث (أنا المقفى ...): أبو نعيم [«الحلية» (٥/ ٩٩) عن أبي موسى] عن عوف بن مالك.

(٣) حديث (أنا قيّم): الديلمي في الفردوس عن جابر ولم يسنده ابنه.

(٤) حديث (لي في القرآن سبعة أسماء ...): لم أجده ولكن قال الذهبي عن بعضهم [«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٩)، «تاريخ الإسلام» (١/ ٤٨٧)] قال: لرسول الله ﷺ في القرآن خمسة أسماء محمد وأحمد وعبد الله ويس وطه.

قوله (المَلاحِم): -بفَتحِ الميمِ وكسْرِ الحاءِ المُهْمَلةِ- جمعُ «مَلْحَمةٍ»، وهيَ الحَرْبُ الشديدُ[1]، وأصلُها معركةُ القتالِ، وهيَ موضِعُه، ولا تعارُضَ بَيْنَ كَوْنِه رَسولَ الرحمةِ ورَسولَ المَلْحمةِ؛ إذْ هوَ سَلْمٌ لِأوليائه، حَرْبٌ لِأعدائه. قوله (وأنا المُقْتفي): بصيغةِ الفاعلِ، مِن بابِ الافتعالِ، وفي نسخةٍ «المُقَفّي»، بضمٍّ فسكونٍ ففاءٍ مكسورةٍ، بصيغةِ الفاعلِ؛ وهوَ أنسَبُ بقولِه (قَفَّيْتُ): بتشديدِ الفاءِ، وفي نسخةٍ بتخفيفِها، وفي نسخةٍ: «قَفَوْتُ» (النبيّينَ): أي جئتُ بَعْدَهم، وأمّا قولُ الدلجيِّ: قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنا على آثارِهم بِرُسُلِنا﴾ [الحديد: ٢٧] فيوهِمُ أنَّ الوصْفَ بصيغةِ المفعولِ، ولَيْسَ كذلكَ. انتهى مُلّا.

قوله (وأنا قَيِّمٌ): بتشديدِ الياءِ المكسورةِ. قوله (وأرى): -بِفَتْحِ الهَمْزةِ والراءِ- أي وأَظُنُّ، أو بِضَمِّ الهمزةِ وفتحِ الراءِ؛ أيْ أَذْهَبُ[2]. قوله (قُثَمُ) بالثاءِ المُثَلَّثةِ المفتوحةِ بَعْدَ القافِ المضمومةِ، وهوَ غَيْرُ مصروفٍ؛ لِأنَّه معدولٌ عَن «قاثِمٍ»، وهوَ المُعْطي.

قوله (وقَدْ وقَعَ): أي (القَيِّمُ) -بالتحتيةِ- (في كُتُبِ الأنبياءِ): أي الماضيةِ.

قوله (فقَدْ يكونُ القَيِّمُ بِمَعْناه... إلخ): أيْ بِمَعْنى «المُقيم» الواردِ بمعنى «المُقَوِّم»، كَما فُسِّرَ به الدعاءُ (اللهُمَّ أنتَ قَيِّمُ السماواتِ)؛ بمَعْنى مُقَوِّمُها ومُقيمُها، وتقييدُ الدلجيِّ له بالمُثَلَّثةِ بَعيدٌ.

قوله (وطَهَ ويس): وفي نسخةٍ تقديمٌ وتأخيرٌ بَيْنَهما.

قوله (عَنْ جُبَيْرٍ): بالتصغيرِ، وقوله (بنِ مُطْعِم): بضمِّ ميمٍ وكسرتَيْنِ. قوله (هيَ سِتٌّ): الظاهرُ «سِتّةٌ»، ولَعَلَّ وَجْهَ التذكيرِ تأنيثُ الضميرِ. قوله (وخاتِمٌ): بكَسْرِ التاءِ وفتحِها.

(١) الأعرف في الحرب التأنيث، وقد تذكَّر كما هنا.
(٢) الصواب العكس.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَيَقُولُ: (أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالمُقَفِّي، وَالحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ المَلْحَمَةِ، ونَبِيُّ الرَّحمةِ)[1]، وَيُرْوَى: نَبِيُّ المَرْحَمَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَكُلٌّ صَحِيحٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالَى.

وَمَعْنَى «المُقَفِّي» مَعْنَى «العَاقِبِ»، وَقِيلَ: المُتَّبِعُ لِلنَّبِيِّينَ.

وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالمَرْحَمَةِ وَالرَّاحَةِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وَكَمَا وَصَفَهُ بِأَنَّهُ ﴿يُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، و ﴿بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَقَدْ قَالَ فِي صِفَةِ أُمَّتِهِ: (إِنَّهَا أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ)[2]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، أَيْ يَرْحَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ فَبَعَثَهُ ﷺ رَبُّهُ -تَعَالَى- رَحْمَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَرَحِيمًا بِهِمْ، وَمُتَرَحِّمًا وَمُسْتَغْفِرًا لَهُمْ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ أُمَّةً مَرْحُومَةً، وَوَصَفَهَا بِالرَّحْمَةِ، وَأَمَرَهَا بِالتَّرَاحُمِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ)[3]، وَقَالَ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ يَومَ القِيَامَةِ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[4].

وَأَمَّا رِوَايَةُ (نَبِيِّ المَلْحَمَةِ) فَإِشَارَةٌ إِلَى مَا بُعِثَ بِهِ مِنَ القِتَالِ وَالسَّيْفِ ﷺ، وَهِيَ صَحِيحَةٌ، وَرَوَى حُذَيْفَةُ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى، وَفِيهِ: (وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، ونَبِيُّ المَلَاحِمِ)[5].

قوله (وأثنى عليه): أي ومدح التراحم وبالغ فيه ليكون سببًا لِرَحْمَتِه -سبحانه- الأُمَّةَ، وفي نسخةٍ (وأَثْنى عَلَيْها): أي على صِفةِ الرحمةِ.

قوله (إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِن عِبادِه الرُّحَماءَ): كما رواه الشيخانِ عَنْ أسامةَ بنِ زَيْدٍ؛ إلّا أنَّه بِلَفْظِ (يَرْحَمُ) بَدَلَ (يُحِبُّ).

قوله (يَرْحَمْكم مَن في السماءِ... إلخ): بالجَزْمِ والرفعِ في (يَرْحَم).

(١) حديث أبي موسى: مسلم [٢٣٥٥].

(٢) [أخرجه أحمد (١٩٦٧٨)، وأبو داود (٤٢٧٨)، وابن ماجه (٤٢٩٢)، والحاكم (٤/ ٤٤٤)، وغيرهم من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف. وأعله البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٣٩) وذكر أن فيه اضطرابًا].

(٣) حديث (إن الله يحب من عباده الرحماء): الشيخان [البخاري (١٢٨٤)، مسلم (٩٢٣)] عن أسامة بن زيد بلفظ «يرحم» بدل «يحب».

(٤) حديث (الراحمون يرحمهم الرحمن ...): أبو داود [٤٩٤١] والترمذي [١٩٢٤] عن ابن عمرو.

(٥) حديث حذيفة مثل حديث أبي موسى: أحمد [٢٣٤٤٥] والترمذي في «الشمائل» [٣٦٨].

وَرَوَى الحَرْبِيُّ فِي حَدِيثِهِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (أَتَانِي مَلَكٌ، فَقَالَ لِي: أَنْتَ قُثَمُ)[1]: أَيْ مُجْتَمِعٌ، قَالَ: وَالقُثُومُ: الجَامِعُ لِلْخَيْرِ، وَهَذَا اسْمٌ هُوَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ﷺ مَعْلُومٌ.

وَقَدْ جَاءَتْ مِنْ أَلْقَابِهِ ﷺ وَسِمَاتِهِ فِي القُرْآنِ عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ سِوَى مَا ذَكَرْنَاهُ، كَالنُّورِ، وَالسِّرَاجِ المُنِيرِ، وَالمُنْذِرِ وَالنَّذِيرِ، والمُبَشِّرِ وَالبَشِيرِ، وَالشَّاهِدِ وَالشَّهِيدِ، وَالحَقِّ المُبِينِ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَالرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، وَالأَمِينِ، وَقَدَمِ الصِّدْقِ، وَرَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ، وَنِعْمَةِ اللهِ، والعُرْوَةِ الوُثْقَى، والصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَالنَّجْمِ الثَّاقِبِ، وَالكَرِيمِ، وَالنَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وَدَاعِي اللهِ فِي أَوْصَافٍ كَثِيرَةٍ، وَسِمَاتٍ جَلِيلَةٍ.

وَجَرَى مِنْهَا فِي كُتُبِ اللهِ المُتَقَدِّمَةِ، وَكُتُبِ أَنْبِيَائِهِ، وَأَحَادِيثِ رَسُولِهِ، وَإِطْلَاقِ الأُمَّةِ جُمْلَةٌ شَافِيَةٌ:

كَتَسْمِيَتِهِ بِالمُصْطَفَى، وَالمُجْتَبَى، وَأَبِي القَاسِمِ، وَالحَبِيبِ، وَرَسُولِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالشَّفِيعِ المُشَفَّعِ، وَالمُتَّقِي، وَالمُصْلِحِ، وَالطَّاهِرِ، وَالمُهَيْمِنِ، وَالصَّادِقِ، وَالمَصْدُوقِ، وَالهَادِي، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وَسَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ المُتَّقِينَ، وَقَائِدِ الغُرِّ المُحَجَّلِينَ، وَحَبِيبِ اللهِ، وَخَلِيلِ الرَّحْمَنِ، ..

---

(١) حديث (أتاني ملك فقال أنت قثم ...): أبو نعيم في الدلائل عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس.

قوله (**والقُثُومُ**): -بفتحِ القافِ- الجامِعُ لِلخيرِ. قوله (**مَعلومٌ**): أي عِندَ أهْلِه، وهوَ قُثَمُ بنُ العبّاسِ، وقُثَمُ عَمُّ النبيِّ ﷺ، وهوَ شَقيقُ الحارثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ، وماتَ صغيرًا.

قوله (**وسِماتِه**): -بكَسْرِ أوَّلِه- جمعُ «سِمةٍ»، وهيَ العَلامةُ.

قوله (**كالنّورِ**): أيْ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جاءَكُم مِنَ اللهِ نورٌ﴾ [المائدة: ١٥]. قوله (**والحَقِّ المُبينِ**): كانَ مِن حَقِّ المُصَنِّفِ أنْ يَقولَ «والحَقِّ والمُبينِ» -بالعَطْفِ-؛ لِلإشارةِ إلى أنَّهما وَصْفانِ مُسْتقِلّانِ، ولِلإشعارِ بالإشارةِ لِقولِه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم﴾ [النحل: ٤٤]؛ فإنَّ وَصْفَه ﷺ بمجموعِ الحقِّ المُبينِ غيرُ معروفٍ، لا في الكِتابِ ولا في السُّنةِ.

قوله (**وخاتَمِ النبيّينَ**): وهوَ بفَتحِ التاءِ على الاسمِ، أيْ آخِرِهم، وبالكسرِ على الفاعلِ لِأنَّه خَتَمَ النبيّينَ؛ فهوَ خاتِمُهم، والتحقيقُ أنّ الخاتَمَ -بالفتحِ- ما يُخْتَمُ به مِنَ الطَّبْعِ.

قوله (**وقَدَمِ الصِّدْقِ**): أي مِن حيثُ إنّه أَوْحى اللهُ إلَيْه أنْ يُبَشِّرَ الذين آمَنوا أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ، وكانَ حَقُّ المُصَنِّفِ أنْ يأتِيَ به مُنَكَّرًا على طِبْقِ وُرودِه، وقيلَ: سُمّيَ «قَدَمَ صِدْقٍ» لِأنَّه يَشْفَعُ لَهم عِندَ ربِّهم.

قوله (**وأبي القاسِمِ**): هوَ كُنْيَتُه بِوَلَدِه «القاسِمِ».

قوله (**والمُتَّقي**): اسمُ فاعلٍ مِن الاتِّقاءِ، وأصْلُه «الموتَقي»؛ مِن الوِقايةِ مِمّا يوجِبُ العذابَ ويَقْتَضي الحِجابَ.

قوله (**والمُصْلِحِ**): أي لِما أَفْسَدَه غَيْرُه وغَيَّرَه مِن أمْرِ الدّينِ؛ ففي المتواترةِ: (ولَنْ يَقْبِضَه اللهُ حتّى يُقيمَ به المِلّةَ العَوْجاءَ)[1]، أي مِلّةَ إبراهيمَ، وسُمّيَتْ «عَوْجاءَ»؛ لِتغييرِ العَرَبِ إيّاها.

قوله (**وقائِدِ الغُرِّ**): -بِضَمِّ الغَينِ وتشديدِ الراءِ- أي البيضِ الوُجوهِ مِنْ آثارِ الوُضوءِ إطلاقًا لِاسمِ الجُزْءِ على الكُلِّ؛ إذِ الغُرّةُ بَياضُ الجبهةِ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ مُطَوَّلًا (٤٨٣٨) [كتاب تفسير القرآن]، وغيره من حديث عبد الله بن عمرو.

وَصَاحِبِ الحَوْضِ المَوْرُودِ، وَالشَّفَاعَةِ وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، وَصَاحِبِ الوَسِيلَةِ وَالفَضِيلَةِ، وَالدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَصَاحِبِ التَّاجِ وَالمِعْرَاجِ وَاللِّوَاءِ وَالقَضِيبِ، وَرَاكِبِ البُرَاقِ وَالنَّاقَةِ وَالنَّجِيبِ، وَصَاحِبِ الحُجَّةِ وَالسُّلْطَانِ وَالخَاتَمِ وَالعَلَامَةِ وَالبُرْهَانِ، وَصَاحِبِ الهِرَاوَةِ وَالنَّعْلَيْنِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ فِي الكُتُبِ ﷺ: المُتَوَكِّلُ، وَالمُخْتَارُ، وَمُقِيمُ السُّنَّةِ، وَالمُقَدَّسُ، [وَرُوحُ القُدُسِ]، وَرُوحُ الحَقِّ، وَهُوَ مَعْنَى «البَارْقَلِيطِ» فِي الإِنْجِيلِ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ: البَارْقَلِيطُ: الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ فِي الكُتُبِ السَّالِفَةِ: «مَاذْ مَاذْ»، وَمَعْنَاهُ «طَيِّبٌ طَيِّبٌ»، وَحِمْطَيَا، وَالخَاتِمُ، وَالحَاتِمُ، حَكَاهُ كَعْبُ الأَحْبَارِ، قَالَ ثَعْلَبٌ: فَالخَاتِمُ: الَّذِي خَتَمَ الأَنْبِيَاءَ، وَالحَاتِمُ: أَحْسَنُ الأَنْبِيَاءِ خَلْقًا وَخُلُقًا ﷺ.

وَيُسَمَّى بِالسُّرْيَانِيَّةِ «مُشَقَّحٌ، ومُشَفَّحٌ، وَالمُنْحَمِنَّا»، وَاسْمُهُ أَيْضًا فِي التَّوْرَاةِ «أَحْيَدُ»، رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ.

قولـه (**وصاحبِ الهِراوةِ**): -بكَسرِ الهاءِ- أي العَصاةِ[1]، وهوَ القَضيبُ، وقالَ الهَرَويُّ: الهِراوةُ هي العَصا الضخمةُ، وتَبِعَه الجَوْهريُّ.

قوله (**المُتوكِّلُ**): أي على ربِّه.

قولـه (**وروحُ القُدُسِ**): سُمّيَ بـه لِمَجيئِه بِما فيه حَياةُ الأرواحِ، و(القُدُس): بضمِّ القافِ والدالِ وتُسَكَّنُ.

قولـه (**البارْقَليطِ**): -بالباءِ الموحَّدةِ وسكونِ الراءِ وفتحِ القافِ وكسْرِ اللامِ وطاءٍ مهمَلةٍ بَعْدَ تحتيّةٍ ساكنةٍ- مَعْناه المُخَلِّصُ.

قولـه (**ماذْ ماذْ**): بضمِّ المعجمتَيْنِ معَ التنوينِ، أو بغيرِ تنوينٍ على المنعِ مِن الصرفِ لِلعلميةِ والعُجْمةِ[2]، أو بالسكونِ.

قولـه (**وحِمْطَيا**): -بكَسْرِ الحاءِ المُهْمَلةِ وفتحِها وسكونِ الميمِ وطاءٍ مُهْمَلةٍ ثُمَّ تحتيةٍ- أي حامي الحَرَمِ.

قوله (**والخاتِمُ والحاتِمُ**): بالمعجَمةِ في الأولى، والمهمَلةِ في الثانيةِ.

قولـه (**خَلْقًا وخُلُقًا**): -بفتحِ الخاءِ الأولى وضمِّ الخاءِ الثانيةِ- أي صورةً وسيرةً.

قولـه (**بالسُّرْيانيةِ**): بضمِّ السينِ وسكونِ الراءِ وتشديدِ الياءِ الثانيةِ، وهيَ اللغةُ الأولى الَّتي يَتكلَّمُ بها آدمُ والأنبياءُ، والألسنةُ ثلاثةٌ: سُرْيانيٌّ وعِبْرانيٌّ وعَرَبيٌّ.

قولـه (**مُشَقَّحٌ**): بضمِّ الميمِ وفتحِ الشينِ فقافٍ مشدَّدةٍ فحاءٍ مُنوَّنةٍ، وفي نسخةٍ بالفاءِ، لا يُعْرَفُ له مَعنًى.

قولـه (**والمُنْحَمِنّا**): -بضمِّ الميمِ، فنونٍ ساكنةٍ، فمهمَلةٍ مفتوحةٍ، فميمٍ مكسورةٍ، فَنونٍ مشدَّدةٍ مفتوحةٍ، وهوَ مقصورٌ- هوَ محمدٌ ﷺ.

قولـه (**أَحْيَدُ**): بفتحِ هَمْزةٍ وسكونِ مهمَلةٍ وفتحِ تحتيةٍ، وسُمّيَ بذلك لِأنَّه يُحيدُ أُمَّتَه مِن نارِ جهنمَ يومَ القيامةِ.

---

(١) بهاء التأنيث على لغة حكاها الأزهري في «عصا».

(٢) هذا الاسم الأعجمي ثلاثي ساكن الوسط؛ فالصرف فيه واجب، وجواز المنع غير صحيح، قال ابن يعيش في «شرح المفصل»: (فأمّا الاسم الأعجمي الثلاثيّ الساكنُ الوسطِ فمصروفٌ البتّة، نحو: «لُوطٍ»، و«نُوحٍ»)، وقال ابن هشام في «شرح قطر الندى»: «وَمن زعم من النَّحْويين أَن هَذَا النَّوْع يجوز فِيهِ الصّرْف وَعَدَمه فَلَيْسَ بمصيب».

وَمَعْنَى «صَاحِبِ القَضِيبِ»: أَيِ السَّيْفِ، وَقَعَ ذَلِكَ مُفَسَّرًا فِي الإِنْجِيلِ؛ قَالَ: (مَعَهُ قَضِيبٌ مِن حَدِيدٍ يُقَاتِلُ بِهِ، وَأُمَّتُهُ كَذَلِكَ)، وَقَدْ يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ القَضِيبُ المَمْشُوقُ الَّذِي كَانَ يُمْسِكُهُ ﷺ، وَهُوَ الآنَ عِنْدَ الخُلَفَاءِ.

وَأَمَّا «الهِرَاوَةُ التي وُصِفَ بِهَا» فَهِيَ فِي اللُّغَةِ: العَصَا، وَأُرَاهَا -واللهُ أَعْلَمُ- العَصَا المَذْكُورَةَ فِي حَدِيثِ الحَوْضِ: (أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ بِعَصَايَ لِأَهْلِ اليَمَنِ)[1].

وَأَمَّا «التَّاجُ» فَالمُرَادُ بِهِ العِمَامَةُ، وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ إِلَّا لِلْعَرَبِ، وَالعَمَائِمُ تِيجَانُ العَرَبِ.

وَأَوْصَافُهُ وَأَلْقَابُهُ وَسِمَاتُهُ فِي الكُتُبِ كَثِيرَةٌ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا مَقْنَعٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَكَانَتْ كُنيتُهُ المَشْهُورَةُ «أَبَا القَاسِمِ»، وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ لَمَّا وُلِدَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ جَاءَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ[2].

***

(وأُراها): أيْ أَظُنُّها.

و(أَذودُ): -بِضَمٍّ المعجَمةِ- أي أَدْفَعُ.

و(مَقْنَعٌ): -بفتحِ الميمِ والنونِ- أي مَحَلُّ كِفايةٍ.

***

(١) [أخرجه مسلم (٢٣٠١)، وغيره من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ (إني لَبِعُقْرِ حوضي أذودُ الناسَ لأهل اليمن، أضربُ بعصاي حتى يرْفَضَّ عليهم)].

(٢) حديث أنس (لما ولد إبراهيم جاءه جبريل فقال: السلام عليك أبا إبراهيم): البيهقي [«الدلائل» (١/ ١٦٤)].

فَصْلٌ فِي تَشْرِيفِ اللهِ تَعَالَى لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحُسْنَى، وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ العُلَا

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا أَحْرَى هَذَا الفَصْلَ بِفُصُولِ البَابِ الأَوَّلِ! لِانْخِرَاطِهِ فِي سِلْكِ مَضْمُونِهَا، وَامْتِزَاجِهِ بِعَذْبِ مَعِينِهَا؛ لَكِنْ لَمْ يَشْرَحِ اللهُ الصَّدْرَ لِلْهِدَايَةِ إِلَى اسْتِنْبَاطِهِ، وَلَا أَنَارَ الفِكْرَ لِاسْتِخْرَاجِ جَوْهَرِهِ وَالتِقَاطِهِ، إِلَّا عِنْدَ الخَوْضِ فِي الفَصْلِ الَّذِي قَبْلَهُ، فَرَأَيْنَا أَنْ نُضِيفَهُ إِلَيْهِ، وَنَجْمَعَ بِهِ شَمْلَهُ.

فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّ كَثِيرًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ بِكَرَامَةٍ خَلَعَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْمَائِهِ، كَتَسْمِيَةِ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ بِـ«عَلِيمٍ وَحَلِيمٍ»، وَإِبْرَاهِيمَ بِـ«حَلِيمٍ»، وَنُوحٍ بِـ«شَكُورٍ»، وَعِيسَى وَيَحْيَى بِـ«بَرٍّ»، وَمُوسَى بِـ«كَرِيمٍ وَقَوِيٍّ»، وَيُوسُفَ بِـ«حَفِيظٍ عَلِيمٍ»، وَأَيُّوبَ بِـ«صَابِرٍ»، وَإِسْمَاعِيلَ بِـ«صَادِقِ الوَعْدِ» كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الكِتَابُ العَزِيزُ مِنْ مَوَاضِعِ ذِكْرِهِمْ.

وَفَضَّلَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ حَلَّاهُ مِنْهَا فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، وَعَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ بِعِدَّةٍ كَثِيرَةٍ، اجْتَمَعَ لَنَا مِنْهَا جُمْلَةٌ، بَعْدَ إِعْمَالِ الفِكْرِ، وَإِحْضَارِ الذِّكْرِ؛ إِذْ لَمْ نَجِدْ مَنْ جَمَعَ مِنْهَا فَوْقَ اسْمَيْنِ، وَلَا مَنْ تَفَرَّغَ فِيهَا لِتَأْلِيفِ فَصْلَيْنِ، وَحَرَّرْنَا مِنْهَا فِي هَذَا الفَصْلِ نَحْوَ ثَلَاثِينَ اسْمًا، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى كَمَا أَلْهَمَ إِلَى مَا عَلَّمَ مِنْهَا وَحَقَّقَهُ، يُتِمُّ النِّعْمَةَ بِإِبَانَةِ مَا لَمْ يُظْهِرْهُ لَنَا الآنَ، وَيَفْتَحُ غَلَقَهُ.

فَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الحَمِيدُ)، وَمَعْنَاهُ المَحْمُودُ؛ لِأَنَّهُ حَمِدَ لِنَفْسِهِ، وَحَمِدَهُ عِبَادُهُ، وَيَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى الحَامِدِ بِنَفْسِهِ وَلِأَعْمَالِ الطَّاعَاتِ، وَسَمَّى النَّبِيَّ ﷺ مُحَمَّدًا وَأَحْمَدَ، فَمُحَمَّدٌ بِمَعْنَى مَحْمُودٍ، وَكَذَا وَقَعَ اسْمُهُ فِي زُبُرِ دَاوُدَ،

قوله (**الحُسنى**): جَمْعُ تأنيثٍ. وقوله (**العُلا**): -بِضَمِّ العَينِ- جَمْعُ «العُلْيا»، (**ووَصَفَه**): بفتحِ الواوِ والصادِ والفاءِ عَطْفًا على (سَمّاه)، ويَحْتَمِلُ المصدريةَ، ويَكُونُ عَطْفًا على (تَشْرِيفِ).

قوله (**بِعَذْبِ مَعِينها**): -بِفتحِ الميمِ وكسْرِ العَينِ- أي بِحُلْوِ مائِها.

قوله (**ولا أَنارَ الفِكْرَ**): بالنونِ؛ أيْ لا أَشْرَقَه، وفي نسخةٍ بالثَّاءِ المُثَلَّثةِ؛ أي ولا بَعَثَه لِاستخراجِ... إلخ.

قوله (بـ«بَرٍّ»): -بفتحِ الباءِ الثانيةِ وتشديدِ الراءِ- مُبالَغةُ «بارٍّ» -كَما في قولِه -تعالى-: ﴿وبَرًّا بوالِدَيْه﴾ [مريم: ١٤].

قوله (**بِأَنْ حَلَّاه**): -بفتحِ الحاءِ المُهْمَلةِ وتشديدِ اللامِ- أي زَيَّنَه. قوله (**بِعِدّةٍ كثيرةٍ**): -الباءُ لِلسببيةِ، وهيَ بِكَسْرِ العَينِ- أيْ بِجُمْلةٍ كَثيرةٍ.

قوله (**وإحضارِ الذِّكْرِ**): -بضمِّ المعجمةِ وكسْرِها- أي بَعْدَ إفراغِ الوُسْعِ تَفَكُّرًا.

قوله (**وحَرَّرْنا**): -بحاءٍ وراءَيْنِ مهمَلاتٍ، ويُرْوى «جَرَّدْنا» بالجيمِ والدالِ بعدَ راءٍ- أي أَخْرَجْنا.

قوله (**ولَعَلَّ اللهَ... إلخ**): أي أَرْجوه -سبحانَه- (**كَما أَلْهَمَ... إلخ**). قوله (**ويَفْتَحَ غَلَقَه**): «غَلَقَه» -بفتحتَينِ- أيْ إغلاقَه.

قوله (**ولِأَعْمالِ الطّاعاتِ**): أي بِمَعْنى ثَنائِه.

قوله (**في زُبُرِ داود**): -بضَمِّ أَوَّلِه وثانيه- أي صُحُفِه المَزْبورةِ، أي المكتوبةِ.

وأَحْمَدُ بِمَعْنَى: أَكْبَرِ مَنْ حَمِدَ، وَأَجَلِّ مَنْ حُمِدَ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا حَسَّانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّـــهُ * فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الرَّؤُفُ الرَّحِيمُ)، وَهُمَا بِمَعْنًى مُتَقَارِبٍ، وَسَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الحَقُّ المُبِينُ)، وَمَعْنَى «الحَقِّ» المَوْجُودُ وَالمُتَحَقِّقُ أَمْرُهُ، وَكَذَلِكَ «المُبِينُ»، أَيِ البَيِّنُ أَمْرُهُ وَإِلَهِيَّتُهُ، بَانَ وَأَبَانَ بِمَعْنًى، وَيَكُونُ بِمَعْنَى: المُبَيِّنِ لِعِبَادِهِ أَمْرَ دِينِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَسَمَّى النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]، وَقَالَ: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم﴾ [يونس: ١٠٨]، وَقَالَ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥]، قِيلَ: مُحَمَّدٌ، وَقِيلَ: القُرْآنُ، وَمَعْنَاهُ هَا هُنَا ضِدُّ البَاطِلِ، وَالمُتَحَقِّقُ صِدْقُهُ وَأَمْرُهُ، وَهُوَ بِمَعْنَى الأَوَّلِ، وَالمُبِينُ البَيِّنُ أَمْرُهُ وَرِسَالَتُهُ، أَوِ المُبَيِّنُ عَنِ اللهِ مَا بَعَثَهُ بِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (النُّورُ)، وَمَعْنَاهُ ذُو النُّورِ، أَيْ خَالِقُهُ، أَوْ مُنَوِّرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِالأَنْوَارِ، وَمُنَوِّرُ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ بِالهِدَايَةِ، وَسَمَّاهُ نُورًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، قِيلَ: مُحَمَّدٌ، وَقِيلَ: القُرْآنُ، وَقَالَ فِيهِ: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِوُضُوحِ أَمْرِهِ، وَبَيَانِ نُبُوَّتِهِ، وَتَنْوِيرِ قُلُوبِ المؤمنِينَ والعارِفِينَ بِمَا جاءَ بِهِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الشَّهِيدُ)، وَمَعْنَاهُ العَالِمُ، وَقِيلَ: الشَّاهِدُ عَلَى عِبَادِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَسَمَّاهُ شَهِيدًا وَشَاهِدًا، فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَقَالَ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَهُوَ بِمَعْنَى الأَوَّلِ.

قوله (بمَعْنى: أَكْبَرِ): أي أَعظَمِ.

قوله (إلى نَحْوٍ [مِنْ] هذا): أيْ ما قَرَّرْناه وما حَرَّرْناه.

قوله (الرَّؤُفُ الرحيمُ): أي ذو الرأفةِ والرحمةِ.

قوله (مُتَقارِب): أي في المُؤَدّى؛ وإنْ كانَتِ الرأفةُ شِدّةَ الرحمةِ.

قوله (ومَعادِهم): أي وأَمْرَ مَعادِهم في عُقْباهم.

قوله (وقُلْ إنّي أنا النذيرُ المُبِينُ): أي ظاهرُ الإنذارِ.

قوله (قيلَ: محمَّدٌ): أي كَذَّبوا بالنبيِّ الثابتِ نُبوَّتُه المُحقَّقِ معجِزَتُه؛ فلا التِفاتَ لِما قالَه الدلجيُّ، وهذا القليلُ لا دليلَ عَلَيْه.

قوله (أو المُبَيِّنُ): -بتشديدِ الياءِ المكسورةِ- أي المُظْهِرُ.

قوله (قَدْ جاءَكم مِن الله نورٌ وكِتابٌ... إلخ): قيل: المُرادُ بِهِما محمدٌ؛ لِأنّه كَما هوَ نورٌ عظيمٌ ومَنْشَأٌ لِجميعِ الأنوارِ، فهوَ كِتابٌ جامعٌ مُبِينٌ لِجميعِ الأسرارِ.

وقوله (وسِراجًا مُنيرًا): أي شَمْسًا مُضيئةً.

قوله (بمَعْنى الأَوَّلِ): استَظْهَرَ المُلّا أنَّه مِن الشهادةِ، فتَأَمَّلْ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الكَرِيمُ)، وَمَعْنَاهُ الكَثِيرُ الخَيْرِ، وَقِيلَ: المُفْضِلُ، وَقِيلَ: العَفُوُّ، وَقِيلَ: العَلِيُّ، وَفِي الحَدِيثِ المَرْوِيِّ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الأَكْرَمُ)[1]، وَسَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى كَرِيماً، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، قِيلَ: مُحَمَّدٌ، وَقِيلَ: جِبْرِيلُ، وَقَالَ ﷺ: (أَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ)، وَمَعَانِي الاسْمِ صَحِيحَةٌ فِي حَقِّهِ ﷺ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (العَظِيمُ)، وَمَعْنَاهُ الجليلُ الشأنِ، الذي كُلُّ شيءٍ دُونَه، وقالَ في النبيِّ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وَوَقَعَ فِي أَوَّلِ سِفْرٍ مِنَ التَّوْرَاةِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَسَتَلِدُ عَظِيمًا لِأُمَّةٍ عَظِيمَةٍ؛ فَهُوَ عَظِيمٌ، وَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الجَبَّارُ)، وَمَعْنَاهُ المُصْلِحُ، وَقِيلَ: القَاهِرُ، وَقِيلَ: العَلِيُّ العَظِيمُ الشَّأْنِ، وَقِيلَ: المُتَكَبِّرُ، وَسُمِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كِتَابِ دَاوُدَ بِـ«جَبَّار»، فَقَالَ: (تَقَلَّدْ -أَيُّهَا الجَبَّارُ- سَيْفَكَ؛ فَإِنَّ نَامُوسَكَ وَشَرَائِعَكَ مَقْرُونَةٌ بِهَيْبَةِ يَمِينِكَ)، وَمَعْنَاهُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ إِمَّا لِإِصْلَاحِهِ الأُمَّةَ بِالهِدَايَةِ وَالتَّعْلِيمِ، أَوْ لِقَهْرِهِ أَعْدَاءَهُ، أَوْ لِعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ عَلَى البَشَرِ، وَعَظِيمِ خَطَرِهِ، وَنَفَى عَنْهُ فِي القُرْآنِ جَبْرِيَّةَ التَّكَبُّرِ التي لَا تَلِيقُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الخَبِيرُ)، وَمَعْنَاهُ المُطَّلِعُ بِكُنْهِ الشَّيْءِ، العَالِمُ بِحَقِيقَتِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ المُخْبِرُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. قَالَ القَاضِي بَكْرُ بنُ العَلَاءِ: المَأْمُورُ بِالسُّؤَالِ غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ، وَالمَسْؤُولُ الخَبِيرُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلِ السَّائِلُ النَّبِيُّ، وَالمَسْؤُولُ اللهُ تَعَالَى، فَالنَّبِيُّ ﷺ خَبِيرٌ بِالوَجْهَيْنِ المَذْكُورَيْنِ قَبْلُ؛ قِيلَ: لِأَنَّهُ عَالِمٌ عَلَى غَايَةٍ مِنَ العِلْمِ بِمَا أَعْلَمَهُ اللهُ مِنْ مَكْنُونِ عِلْمِهِ وَعَظِيمِ مَعْرِفَتِهِ، مُخْبِرٌ لِأُمَّتِهِ بِمَا أَذِنَ لَهُ فِي إِعْلَامِهِمْ بِهِ.

---

(١) [أخرجه مطوّلًا: الحاكم (١/ ١٧)، وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة... فذكرها وذكر منها «الأكرم»].

قوله (المُفْضِلُ): -بضمِّ الميمِ وكسرِ الضادِ- أي ذو الإفضالِ.

(وَقِيلَ: جِبْرِيلُ): وهوَ قولُ الأكثرِ والأظهرُ.

قوله (ومن أسمائه -تعالى- العظيمُ): أي في القَدْرِ والرُّتْبةِ.

قوله (في أَوَّلِ سِفْرٍ): أي دفترٍ، وهوَ بكَسْرِ السينِ المهملةِ.

قوله (وسَتَلِدُ عَظِيمًا): صفةٌ لِمَوصوفٍ محذوفٍ، أي وَلَدًا عظيمًا. قوله (وعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ): أي في نُعوتِه.

قوله (الجَبّارُ): فَعّالٌ للمبالغةِ مِن الجَبْرِ. قوله (فإنَّ ناموسَكَ): أي صاحبَ سِرِّكَ الذي تُطْلِعُه على باطنِ أَمْرِكَ. قوله (بِهَيْبَةِ يَمينِكَ): أي قوّةِ تصرُّفِكَ.

قوله (على البشَرِ): أي جِنسِ بَني آدمَ. قوله (وَعَظِيمِ خَطَرِهِ): -بفتحِ الخاءِ والطاءِ- أي قَدْرِه ومَزِيَّتِه.

قوله (وما أنتَ عَلَيْهِم بِجَبّارٍ): أي قَهّارٍ تَقْهَرُهم على الإيمانِ.

قوله (بِكُنْهِ الشيءِ): بضمِّ الكافِ وسكونِ النونِ وكسْرِ الهاءِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الفَتَّاحُ)، وَمَعْنَاهُ: الحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، أَوْ فَاتِحُ أَبْوَابِ الرِّزْقِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْمُنْغَلِقِ مِنْ أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ، وَيَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى النَّاصِرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، أَيْ إِنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ النَّصْرُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُبْتَدِئُ النَّصْرِ وَالفَتْحِ.

وَسَمَّى اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالفَاتِحِ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ الطَّوِيلِ مِنْ رِوَايَةِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي العَالِيَةِ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَفِيهِ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (وَجَعَلْتُكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا)، وَفِيهِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ فِي ثَنَائِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَتَعْدِيدِ مَرَاتِبِهِ: (وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحًا وَخَاتِمًا)، فَيَكُونُ الفَاتِحُ هُنَا بِمَعْنَى الحَاكِمِ، أَوِ الفَاتِحِ لِأَبْوَابِ الرَّحْمَةِ عَلَى أُمَّتِهِ، وَالفَاتِحِ لِبَصَائِرِهِمْ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ وَالإِيمَانِ بِاللهِ، أَوِ النَّاصِرِ لِلْحَقِّ أَوِ المُبْتَدِئِ بِهِدَايَةِ الأُمَّةِ، أَوِ المُبَدَّإِ المُقَدَّمِ فِي الأَنْبِيَاءِ، أَوِ الخَاتِمِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ ﷺ (كُنْتُ أَوَّلَ الأَنْبِيَاءِ فِي الخَلْقِ، وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ)[1].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى فِي الحَدِيثِ (الشَّكُورُ)، وَمَعْنَاهُ المُثِيبُ عَلَى العَمَلِ القَلِيلِ، وَقِيلَ: المُثْنِي عَلَى المُطِيعِينَ، وَوَصَفَ بِذَلِكَ نَبِيَّهُ نُوحًا، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ نَفْسَهُ، فَقَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا): أَيْ مُعْتَرِفًا بِنِعَمِ رَبِّي، عَالِمًا بِقَدْرِ ذَلِكَ، مُثْنِيًا عَلَيْهِ، مُجْهِدًا نَفْسِي فِي الزِّيَادَةِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (العَلِيمُ، وَالعَالِمُ، والعَلَّامُ، وَعَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)، وَوَصَفَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالعِلْمِ، وَخَصَّهُ بِمَزِيَّةٍ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وَقَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

---

(١) حديث (كنت أول الأنبياء في الخلق ...) وكذا أكثر أحاديث الفصل: [ابن سعد (١/ ١٤٩) عن قتادة مرسلا (كُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ فِي الْخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ)، وعزاه في الكنز (١١/ ٤٥٢) قال: ابن لال، عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة].

قوله (وَمَعْنَاهُ: الحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ): كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افتَحْ بينَنا وبينَ قومِنا﴾ [الأعراف: ٨٩]: أي احكُمْ؛ لِأَنَّ الحُكْمَ فَتْحُ أَمْرٍ مُغْلَقٍ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ. قوله (والمُنْغَلِقِ): -بالنونِ الساكنةِ والغينِ المعجَمةِ وفتحِ اللامِ- أي المُشْكِلِ.

قوله (ورَفَعَ لِي ذِكْرِي): أي بَعْدَما شَرَحَ لِي صَدْرِي، ووَضَعَ عَنِّي وِزْرِي. قوله (وجَعَلَنِي فاتِحًا وخاتِمًا): أي بالنُّبوّةِ في عالَمِ الأرواحِ، وبالرسالةِ في عالَمِ الأشباحِ. قوله (أو المبتَدِئِ): -بكسرِ الدالِ- بمعنى «البادِئِ». قوله (أوِ المُبَدَّإِ): -بِضَمِّ الميمِ وفتحِ الموحَّدةِ وتشديدِ الدالِ المهمَلةِ ثُمَّ هَمْزةٍ مقصورةٍ- أي المُبْتَدَإِ.

قوله (وَمَعْنَاهُ المُثِيبُ): أي المُجازي. قوله (وقَدْ وَصَفَ النبيُّ ﷺ بذلكَ نفْسَه، فقالَ): أي في الحديثِ المتقدِّمِ -كما ذَكَره الترمذيُّ وغيرُه. قوله (لَئِنْ شكَرْتم لأَزِيدَنَّكم): أي نِعمةً على نِعمةٍ.

قوله (وخَصَّه بمَزِيَّةٍ مِنْه): أي بفضيلةٍ زائدةٍ مِنْه على غيْرِه. قوله (وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عظيمًا): أي بالنسبةِ لِبقيّةِ الأنبياءِ -عليْهم الصلاةُ والسلامُ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الأَوَّلُ وَالآخِرُ)، وَمَعْنَاهُمَا السَّابِقُ لِلأَشْيَاءِ قَبْلَ وُجُودِهَا، وَالبَاقِي بَعْدَ فَنَائِهَا، وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلا آخِرٌ، وَقَالَ ﷺ: (كُنْتُ أَوَّلَ الأَنْبِيَاءِ فِي الخَلْقِ، وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ)، وَفَسَّرَ بِهَذَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، فَقَدَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى نَحْوِ مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: (نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ)[1]، وَقَوْلُهُ: (أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَخَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَآخِرُ الرُّسُلِ ﷺ).

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (القَوِيُّ، وَذُو القُوَّةِ المَتِينُ)، وَمَعْنَاهُ القَادِرُ، وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، فَقَالَ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، قِيلَ: مُحَمَّدٌ، وَقِيلَ: جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الصَّادِقُ) فِي الحَدِيثِ المَأْثُورِ، وَوَرَدَ فِي الحَدِيثِ أَيْضًا اسْمُهُ ﷺ بِالصَّادِقِ وَالصَّدُوقِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الوَلِيُّ، وَالمَوْلَى)، وَمَعْنَاهُمَا النَّاصِرُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥]، وَقَالَ ﷺ: (أَنَا وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ)[2]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وَقَالَ ﷺ: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ)[3].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (العَفُوُّ)، وَمَعْنَاهُ الصَّفُوحُ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا نَبِيَّهُ ﷺ فِي القُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ، وَأَمَرَهُ بِالعَفْوِ، فَقَالَ: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وَقَالَ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ

(١) [متفق عليه أخرجه البخاري (٢٣٨)، ومسلم (٢٨٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا].

(٢) حديث (أنا ولي كل مؤمن): البخاريُّ عن أبي هريرة [٢٢٩٨]، وأحمد [١٤١٥٩] وأبو داود [٢٩٥٦] عن جابر بلفظ: (أنا أولى بكل مؤمن من نفسه).

(٣) حديث (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه): الترمذيُّ [٣٧١٣] عن أبي شريحة أو زيد بن أرقم وحسنه.

قوله (لَيْسَ له أَوَّلٌ): يَعْني وهوَ موجِدُ الأشياءِ. قوله (وفَسَّرَ بهذا): أي بِكَوْنِه أَوَّلَ الأنبياءِ خَلْقًا. قوله (وإِذْ أَخَذْنا مِن النبيين ميثاقَهم): أي بتبليغِ الرسالةِ لِلخَلْقِ. قوله (ومِنْكَ ومِن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى بنِ مريمَ): تخصيصُهم بالذِّكرِ لِشُهْرَتِهم على غيْرِهم مِن أربابِ الشرائعِ. قوله (السابقونَ): أي في البَعْثةِ يومَ القيامةِ، أو المَقْضيُّ لَهم قبْلَ الخَليقةِ -كَما صَرَّحَ به حديثُ مُسْلِمٍ[1]. قوله (وأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنّةَ): أي هوَ وأُمّتُه مِن البابِ الأوّلِ. قوله (في الحديثِ المأثورِ): أي المَرْويِّ عَن أَبي هريرةَ مرفوعًا[2]. قوله (ومِن أسمائِه تعالى الوَليُّ): قالَ اللهُ تعالى: (فاللهُ هوَ الوَليُّ). قوله (مَنْ كُنْتُ مَوْلاه فعَليٌّ مَوْلاه): أي مَنْ أَحَبَّني ووَلّاني فلْيوَلِّه؛ فإنّه مِنّي. قوله (وَمَعْناهُ الصَّفوحُ): أي كَثيرُ الإعراضِ عَن الاعتراضِ.

قوله (خُذِ العَفْوَ): أي خُذِ الخَصْلةَ الحميدةَ، وهيَ المجاوَزةُ عَن مُرتَكِبِ السيئةِ.

(١) صحيح مسلم (٨٥٦)، وغيره من حديث أبي هريرة بلفظ: «المقضي لهم قبل الخلائق».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٦١) [أبواب الدعاء] من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ العَفْوَ﴾، فَقَالَ: أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَقَالَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ فِي الحَدِيثِ المَشْهُورِ فِي صِفَتِهِ: (لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ).

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (الهَادِي)، وَهُوَ بِمَعْنَى تَوْفِيقِ اللهِ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ، وَبِمَعْنَى الدِّلَالَةِ وَالدُّعَاءِ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وَأَصْلُ الجَمِيعِ مِنَ المَيْلِ، وَقِيلَ: مِنَ التَّقْدِيمِ، وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ (طه): إِنَّهُ يَا طَاهِرُ، يَا هَادِي، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ تَعَالَى لَهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَالَ فِيهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، فَاللهُ مُخْتَصٌّ بِالمَعْنَى الأَوَّلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وَبِمَعْنَى الدِّلَالَةِ يَنْطَلِقُ عَلَى غَيْرِهِ تَعَالَى.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (المُؤْمِنُ، المُهَيْمِنُ)، وَقِيلَ: هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، فَمَعْنَى (المُؤْمِنِ) فِي حَقِّهِ تَعَالَى المُصَدِّقُ وَعْدَهُ عِبَادَهُ، وَالمُصَدِّقُ قَوْلَهُ الحَقَّ، وَالمُصَدِّقُ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ وَرُسُلِهِ، وَقِيلَ: المُوَحِّدُ نَفْسَهُ، وَقِيلَ: المُؤَمِّنُ عِبَادَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمِهِ وَالمُؤْمِنِينَ فِي الآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَقِيلَ: المُهَيْمِنُ بِمَعْنَى الأَمِينِ، مُصَغَّرٌ مِنْهُ، فَقُلِبَتِ الهَمْزَةُ هَاءً. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُمْ فِي الدُّعَاءِ: «آمِينَ» إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ مَعْنَى المُؤْمِنِ، وَقِيلَ: المُهَيْمِنُ بِمَعْنَى الشَّاهِدِ وَالحَافِظِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ أَمِينٌ وَمُهَيْمِنٌ وَمُؤْمِنٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى أَمِينًا، فَقَالَ: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، وَكَانَ ﷺ يُعْرَفُ بِالأَمِينِ، وَشُهِرَ بِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، وَسَمَّاهُ العَبَّاسُ فِي شِعْرِهِ مُهَيْمِنًا، فِي قَوْلِهِ:

ثُمَّ احْتَوَى بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِنْ * خِنْدِفَ عَلْيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ

قوله (أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ): أي وتَصِلَ مَن قطَعَكَ، وتعطيَ مَن حرَمَكَ. قوله (لَيسَ بِفَظٍّ ولا غليظٍ): أي سَيِّئِ الخُلُقِ جافي القلْبِ.

قوله (وهو بِمَعْنَى توفيقِ اللهِ تعالى): أي بِخَلْقِ الاهتداءِ فيه فيَصيرَ مُهْتَدِيًا به.

قوله (إلى دارِ السلامِ): أي الدارِ الَّتي يُسَلِّمُ اللهُ وملائكتُه على مَنْ فيها، أو التي فيها رؤيتُه. قوله (إنّكَ لا تَهدي مَن أحبَبْتَ): أي لا تَقْدِرُ أنْ تَخلُقَ فيه قَبولَ الهدايةِ.

قوله (المُؤمِنُ): بضمِّ الميمِ الأولى وكَسْرِ الثانيةِ. قوله (والمُصَدِّقُ [قَوْلَه] الحَقَّ): بالنَّصْبِ على أنّه نعتُ (قَوْلَه).

قوله (المُؤَمِّنُ): بتشديدِ الميمِ المكسورة، (وقيلَ: المُهَيْمِنُ بِمَعْنَى الأَمينِ، مُصَغَّرٌ مِنْهُ): أي مِن «المُؤْمِنِ» بِناءً على أنَّ أصْلَه «مُؤَيْمِنٌ» لا مِن «الأَمينِ».

قوله (آمينَ): قيلَ إنَّ (آمينَ) اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تعالى، بَرَّزَه النوويُّ في «التهذيبِ» بقولِه: إنّه مبنيٌّ وليسَ اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ -تعالى- مَبْنِيًّا، وأيضًا أسماءُ اللهِ -تعالى- لا تَثْبُتُ إلا بالقرآنِ أو السُّنةِ المتواترةِ، وقَدْ عُدِمَ الطريقانِ.

قوله (أَمينٌ... إلخ): أي مَصونٌ ورقيبٌ ومصدِّقٌ. قوله (فقالَ: مطاع ثم أمين): هذا جَرْيٌ على بَعْضِ التفاسيرِ، وقيلَ: المُرادُ بالأَمينِ في الآيةِ جبريلُ.

قوله (المُهَيمِنُ): مَرفوعٌ بـ(احْتَوى).

قِيلَ: المُرَادُ يَا أَيُّهَا المُهَيْمِنُ، قَالَهُ القُتَيْبِيُّ وَالإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ القُشَيْرِيُّ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أَيْ يُصَدِّقُ، وَقَالَ: (أَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي)؛ فَهَذَا بِمَعْنَى المُؤْمِنِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (القُدُّوسُ)، وَمَعْنَاهُ المُقَدَّسُ عَنِ النَّقَائِصِ، المُطَهَّرُ مِنْ سِمَاتِ الحَدَثِ، وَسُمِّيَ بَيْتُ المَقْدِسِ؛ لِأَنَّهُ يُتَطَهَّرُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمِنْهُ الوَادِي المُقَدَّسُ، وَرُوحُ القُدُسِ، وَوَقَعَ فِي كُتُبِ الأنبياءِ، فِي أَسْمَائِهِ ﷺ (المُقَدَّسُ): أَيِ المُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، أَيِ الَّذِي يُتَطَهَّرُ بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيُتَنَزَّهُ بِاتِّبَاعِهِ عَنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦]، أَوْ يَكُونُ مُقَدَّسًا بِمَعْنَى: مُطَهَّرًا مِنَ الأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، وَالأَوْصَافِ الدَّنِيَّةِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى (العَزِيزُ)، وَمَعْنَاهُ المُمْتَنِعُ الغَالِبُ، أَوِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، أَوِ المُعِزُّ لِغَيْرِهِ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمؤمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]: أَيِ الامْتِنَاعُ وَجَلَالَةُ القَدْرِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ، فَقَالَ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]، وَقَالَ تعالَى: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: ٣٩]، ﴿وبِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وَسَمَّاهُ اللهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا: أَيْ مُبَشِّرًا لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَنَذِيرًا لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى فِيمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ (طَه، وَيس)، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَيْضًا أَنَّهَا مِنْ أَسْمَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

***

قوله (أَمَنَةٌ): بفتحتَيْنِ.

قوله (القُدُّوسُ): صيغةُ مبالَغةٍ مِن النَّزاهةِ والطهارةِ، و(بَيْتُ المَقْدِسِ): نائبُ فاعلٍ، أو المفعولُ الثاني.

قوله (لأنه يُتطَهَّرُ): -بصيغةِ المجهولِ- أيْ يُتَنَظَّفُ.

قوله (ويُزَكِّيهِم): أيْ يُطَهِّرُهم مِمّا لا يَليقُ صُدورُه مِنْهم. قوله (الذَّميمةِ): -بذالٍ معجَمةٍ- أي الرديئةِ. قوله (والأوصافِ الدَّنيّةِ): -بتشديدِ الياءِ التحتيةِ؛ وأصلُه الهَمْزُ كَما في نُسخةٍ- أي الدناءةِ، بِمَعْنى الرداءةِ.

قوله (وَجَلالةُ القَدْرِ): برفعةِ الشأنِ للهِ -سبحانَه وتعالى.

قوله (والنِّذارةِ): بالنونِ المشدَّدةِ المَسكورةِ وبالمعجمةِ.

قوله (مُبَشِّرًا لِأَهْلِ طاعَتِهِ): أي في دارِ الثَّوابِ. قوله (ونذيرًا): أي مُنذِرًا لِأَهْلِ دارِ العِقابِ.

قوله (طَهَ ويس): في الطاءِ إشارةٌ إلى «طاهرٍ»، وفي الهاءِ إشارةٌ إلى «هادٍ»، وفي الياءِ إشارةٌ إلى قولِه (يَدُ اللهِ مبسوطةٌ)، وفي السِّينِ إشارةٌ إلى «سَيِّدٍ أو سميعٍ».

***

فَصْلٌ [فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى لا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلوقاتِهِ، ولا يُشَبَّهُ بِهِ]

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

وَهَا أَنَا أَذْكُرُ نُكْتَةً، أُذَيِّلُ بِهَا هَذَا الفَصْلَ، وَأَخْتِمُ بِهَا هَذَا القِسْمَ، وَأُزِيحُ الإِشْكَالَ بِهَا -فِيمَا تَقَدَّمَ- عَنْ كُلِّ ضَعِيفِ الوَهْمِ، سَقِيمِ الفَهْمِ، تُخَلِّصُهُ مِنْ مَهَاوِي التَّشْبِيهِ، وَتُزَحْزِحُهُ عَنْ شُبَهِ التَّمْوِيهِ، وَهُوَ:

أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَمَلَكُوتِهِ وَحُسْنَى أَسْمَائِهِ وَعُلَا صِفَاتِهِ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا يُشَبَّهُ بِهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ مِمَّا أَطْلَقَهُ الشَّرْعُ عَلَى الخَالِقِ وَعَلَى المَخْلُوقِ؛ فَلَا تَشَابُهَ بَيْنَهُمَا فِي المَعْنَى الحَقِيقِيِّ؛ إِذْ صِفَاتُ القَدِيمِ بِخِلَافِ صِفَاتِ المَخْلُوقِ، فَكَمَا أَنَّ ذَاتَهُ لَا تُشْبِهُ الذَّوَاتِ، كَذَلِكَ صِفَاتُهُ لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ؛ إِذْ صِفَاتُهُمْ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الأَعْرَاضِ والأَغْرَاضِ، وَهُوَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، بَلْ لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ.

وَكَفَى فِي هَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَللهِ دَرُّ مَنْ قَالَ مِنَ العُلَمَاءِ العَارِفِينَ المُحَقِّقِينَ: التَّوْحِيدُ إِثْبَاتُ ذَاتٍ غَيْرِ مُشْبِهَةٍ لِلذَّوَاتِ، وَلَا مُعَطَّلَةٍ عَنِ الصِّفَاتِ.

وَزَادَ هَذِهِ النُّكْتَةَ الوَاسِطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَيَانًا -وَهِيَ مَقْصُودُنَا-، فَقَالَ:

لَيْسَ كَذَاتِهِ ذَاتٌ، وَلَا كَاسْمِهِ اسْمٌ، وَلَا كَفِعْلِهِ فِعْلٌ، وَلَا كَصِفَتِهِ صِفَةٌ؛ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُوَافَقَةِ اللَّفْظِ، وَجَلَّتِ الذَّاتُ القَدِيمَةُ أَنْ تَكُونَ لَهَا صِفَةٌ حَدِيثَةٌ، كَمَا اسْتَحَالَ أَنْ تَكُونَ لِلذَّاتِ المُحْدَثَةِ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ.

وَهَذَا كُلُّهُ مَذْهَبُ أَهْلِ الحَقِّ والسُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

قوله (**أُذَيِّلُ بِهَا... إلخ**): -بِضَمِّ الهَمْزةِ وفتْحِ الذالِ وتشديدِ التحتيةِ المكسورةِ- أي أَجْعَلُ لها ذَيْلًا لِتَمامِ المَرامِ.

قوله (**وأُزِيحُ الإشكالَ بها**): أي أُزيلُ الإغلاقَ الواقعَ بالنُّكْتةِ، وهوَ بِضَمِّ الهَمْزةِ وكَسْرِ الزاي.

قوله (**ضَعيفِ الوَهْمِ**): بسكونِ الهاءِ وتَحَرُّكُ. قوله (**مَهاوي التَّشْبيه**): -بفتحِ الميمِ وكسْرِ الواوِ- جمعُ «مَهْواةٍ»، وهيَ الحُفرةُ العميقةُ المُهْلِكةُ.

وقوله (**وتُزَحْزِحُه عَن شُبَهِ التمويه**): -بضَمِّ الشينِ المعجَمةِ وفتحِ الموَحَّدةِ- أي وتُبْعِدُه عَنِ الشُّبُهاتِ المُمَوَّهةِ الخاليةِ عَنِ التنزيهِ.

قوله (**وعُلا صِفاتِه**): -بضمِّ العَينِ المهمَلةِ وفتْحِ اللامِ مقصورًا، ومَعْناه الرِّفْعةُ- أي وصِفاتُه العُلا.

قوله (**وَلا يُشَبَّهُ بِهِ**): أي ولا يُمَثَّلُ بِه شَيْءٌ مِن مكنوناتِه.

قوله (**عَنِ الأَعْراضِ والأغْراضِ**): الأولى بالمُهْمَلةِ، والثانيةُ بالمعجَمةِ.

قوله (**لَيْسَ كذاتِه ذاتٌ**): لِأنَّ ذاتَه موصوفةٌ بالقِدَمِ وذاتُ غَيْرِه بالعَدَمِ، وشَتّانَ بَيْنَهما.

(**وَجَلَّتِ الذّاتُ القَديمةُ**): أي عَظُمَتْ، وهوَ بفَتْحِ الجيمِ وتشديدِ اللّامِ المفتوحةِ.

وَقَدْ فَسَّرَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ القُشَيْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى- قَوْلَهُ هَذَا؛ لِيَزِيدَهُ بَيَانًا، فَقَالَ: هَذِهِ الحِكَايَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى جَوامِعَ مِنْ مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَكَيْفَ تُشْبِهُ ذاتُهُ ذَاتَ المُحْدَثَاتِ، وَهِيَ بِوُجُودِهَا مُسْتَغْنِيَةٌ؟! وكيفَ يُشْبِهُ فِعْلُهُ فِعْلَ الخَلْقِ، وَهُوَ لِغَيْرِ جَلْبِ أُنْسٍ، أَوْ دَفْعِ نَقْصٍ حَصَلَ، وَلَا بِخَوَاطِرَ وَأَغْرَاضٍ وُجِدَ، وَلَا بِمُبَاشَرَةٍ وَمُعَالَجَةٍ ظَهَرَ، وَفِعْلُ الخَلْقِ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الوُجُوهِ؟!

وَقَالَ آخَرُ مِنْ مَشَايِخِنَا: مَا تَوَهَّمْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ، أَوْ أَدْرَكْتُمُوهُ بِعُقُولِكُمْ، فَهُوَ مُحْدَثٌ مِثْلُكُمْ.

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ: مَنِ اطْمَأَنَّ إِلَى مَوْجُودٍ انتَهَى إِلَيْهِ فِكْرُهُ فَهُوَ مُشَبِّهٌ، وَمَنِ اطْمأَنَّ إِلَى النَّفْيِ المَحْضِ فَهُوَ مُعطِّلٌ، وَإِنْ قَطَعَ بِمَوْجُودٍ اعْتَرَفَ بِالعَجْزِ عَنْ دَرْكِ حَقِيقَتِهِ فَهُوَ مَوحِّدٌ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ذي النُّونِ المِصْرِيِّ: حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ تَعَالَى فِي الأَشْيَاءِ بِلَا عِلَاجٍ، وَصُنْعَهُ لَهَا بِلَا مِزَاجٍ، وَعِلَّةَ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، وَلَا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ، وَمَا تُصُوِّرَ فِي وَهْمِكَ فَاللهُ بِخِلافِهِ.

وَهَذَا كَلَامٌ عَجِيبٌ نَفِيسٌ مُحَقَّقٌ، وَالفَصْلُ الآخِرُ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَالثَّانِي تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وَالثَّالِثُ تفسيرٌ لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ثَبَّتَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ عَلَى التَّوْحِيدِ والإِثباتِ وَالتَّنْزِيهِ، وَجَنَّبَنَا طَرَفَي الضَّلَالَةِ وَالغَوَايَةِ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ، بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا معبُودَ سِوَاهُ.

***

قوله (مُسْتَغْنيةٌ): أي عَن جميعِ الأشياءِ لِقَولِه -تعالى-: ﴿يا أيُّها الناسُ أنتمُ الفقراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قوله (فهوَ مُحْدَثٌ): -بضمِّ الميمِ وسكونِ الحاءِ وفتحِ الدالِ المهملَتَيْنِ- أي حادِثٌ.

قوله (الجوَيْنيُّ): بالتصغيرِ، وهوَ المشهورُ بإمامِ الحرمَيْنِ.

قوله (فَهوَ مُشَبِّهٌ): -بكسْرِ المُوَحَّدةِ المشَدَّدةِ- أيْ فهوَ مِن أهْلِ التشبيهِ.

قوله (عَنْ دَرْكِ حقيقتِه): -بفتْحِ الدالِ المُهْمَلةِ وسكونِ الراءِ وفتْحِها- أيْ إدراكِ حقيقتِه.

قوله (بِلا مِزاجٍ): أي بلا خَلْطِ شَيءٍ بشَيْءٍ. قوله (وَعِلّةَ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ): أي مُجَرَّدُ صُنْعِه وظهورِ قدرتِه على وَفقِ إرادتِه.

قوله (وما تُصوِّرَ في وَهْمِكَ فاللهُ بِخِلافِه): -بِبِناء الفعلِ للمفعولِ أو للفاعلِ- أي وما خَطَرَ بخيالِكَ فاللهُ -سبحانه- بخِلافِ ذلك.

***

(البَابُ الرابعُ: فِيما أَظهَرَهُ اللهُ عَلى يَدَيْهِ مِن المُعجِزَاتِ، وَشَرَّفَه بِه مِن الخصَائِصِ وَالكَرامَاتِ)

قَالَ المؤلِّفُ -رَحِمَه اللهُ تعَالَى-:

حَسْبُ المُتَأَمِّلِ أَنْ يُحَقِّقَ أَنَّ كِتَابَنَا هَذَا لَمْ نَجْمَعْهُ لِمُنْكِرِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ وَلَا لِطَاعِنٍ فِي مُعْجِزَاتِهِ؛ فَنَحْتَاجَ إِلَى نَصْبِ البَرَاهِينِ عَلَيْهَا، وَتَحْصِينِ حَوْزَتِهَا؛ حَتَّى لَا يَتَوَصَّلَ الْمُطَاعِنُ إِلَيْهَا، وَنَذْكُرَ شَرْطَ الْمُعْجِزِ، وَالتَّحَدِّيَ، وَحَدَّهُ، وَفَسَادَ قَوْلِ مَنْ أَبْطَلَ نَسْخَ الشَّرَائِعِ وَرَدَّهُ؛ بَلْ أَلَّفْنَاهُ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ المُلَبِّينَ لِدَعْوَتِهِ، المُصَدِّقِينَ لِنُبُوَّتِهِ؛ لِيَكُونَ تَأْكِيدًا فِي مَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَمَنْمَاةً لِأَعْمَالِهِمْ، وَلِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ.

وَنِيَّتُنَا أَنْ نُثْبِتَ فِي هَذَا البَابِ أُمَّهَاتِ معجزَاتِهِ، وَمَشَاهِيرَ آيَاتِهِ؛ لِتَدُلَّ عَلى عَظِيمِ قَدْرِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَأَتَيْنَا مِنْهَا بِالمُحقَّقِ وَالصَّحِيحِ الإِسْنَادِ، وَأَكْثَرُهُ مِمَّا بَلَغَ القَطْعَ أَوْ كَادَ، وَأَضَفْنَا إِلَيْهَا بَعْضَ مَا وَقَعَ فِي مَشَاهِيرِ كُتُبِ الأَئِمَّةِ.

وَإِذَا تَأَمَّلَ المُتَأَمِّلُ المُنْصِفُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِن جَمِيلِ أَثَرِهِ، وَحَمِيدِ سِيَرِهِ، وَبَرَاعَةِ عِلْمِهِ، وَرَجَاحَةِ عَقْلِهِ وَحِلْمِهِ، وَجُمْلَةِ كَمَالِهِ، وَجَمِيعِ خِصَالِهِ، وَشَاهِدِ حَالِهِ، وَصَوابِ مَقَالِهِ، لَمْ يَمْتَرِ فِي صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِ دَعْوَتِهِ،وَقَدْ كَفَى هَذَا غَيْرَ وَاحِدٍ فِي إِسْلَامِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ، فَرُوِّينَا عَنِ التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ قَانِعٍ وَغَيْرِهِمَا بِأَسَانِيدِهِمْ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ سَلَامٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المَدِينَةَ جِئْتُهُ؛ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[1].

---

(١) حديث عبد الله بن سلام (لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة جئته ...): عزاه المصنف للترمذيِّ [٢٤٨٥] وأخرجه أيضًا أحمد [٢٣٨٣٣] والحاكم [٤/ ١٧٦] وابن ماجه [١٣٣٤].

قولـه (البَـابُ الرابـعُ: فيـما أظهَـرَه اللهُ... إلـخ): وهـذا البـابُ مِـن القِسـمِ الأوَّلِ مِـن المعجـزاتِ، أي مِـن الأمـورِ الخارقـةِ لِلعـادةِ، الشـاهِدِ وقوعُهـا مِنْهـم بِصِـدقِ دَعـوى الرسـالةِ.

قولـه (حَسْبُ المتأمِّلِ): بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وسكونِ السينِ المهْمَلةِ. قولـه (وَتحْصِينِ حَوْزَتِها): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وسكونِ الواوِ ثُمَّ زايٍ مفتوحةٍ- أي وحِفْظِ أفرادِها مجموعةً محصَّنةً. وقولـه (وحَدَّه) بالنصْبِ أيضًا، وهوَ بفتحِ الحاءِ وتشديدِ الدالِ.

قولـه (بَلْ أَلَّفْناه): -بتشديدِ اللّامِ- أي جَمَعْنا كِتابَنا هذا (لأهْلِ مِلَّتِه): أي لِأهْلِ إجابةِ دينِه. وقولـه (المُلَبِّينَ): -بتشديدِ الموحَّدةِ المكسورةِ- أي المُجيبينَ. قولـه (وَمَنْماةً لِأعْمالِهِمْ): -بفتحِ الميمِ وسكونِ النونِ وفتحِ الميمِ الثانيةِ- أي زيادةً لِأعمالِهم.

قولـه (لِتَدُلَّ... إلخ): -بفتحِ التاءِ الفوقيةِ- أي تلكَ المعجزاتِ الباهرةِ. قولـه (مِمّا بَلَغَ القَطْعَ): أي العِلمَ القطعيَّ أو الأمرَ اليقينَ.

رقولـه (وأَضَفْنا إِلَيْها): أي إلى المعجِزاتِ الثابتةِ بالكِتابِ والسُّنّةِ.

قولـه (وَرَجاحةِ عَقْلِه وَحِلْمِه): زيادةٌ على سائرِ العُقَلاءِ.

قولـه (فرُوِّينا): بصيغةِ المجهولِ وتشديدِ الواوِ، وبالبِناءِ لِلفاعلِ -كَما في روايةٍ-، والمَعْنى فوَصَلَ إلَيْنا روايةً... إلخ.

قولـه (فلَمّا استبَنْتُ وجْهَه): أي رأيتُ ظاهرَ وَجْهِه الدالَّ على صِدْقِ باطِنِه.

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-، حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ وَأَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ عَنْ أَبِي يَعْلَى البَغْدَادِيِّ، عَنْ أَبِي عَلِيٍّ السِّنْجِيِّ، عَنْ أَبِي مَحْبُوبٍ، عَنِ التِّرْمِذِيِّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وَابْنُ أَبِي عَدِيٍّ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ أَبِي جَمِيلَةَ الأَعْرَابِيِّ، عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَبِي أَوْفَى، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ... الحَدِيثَ.

وَعَنْ أَبِي رِمْثَةَ التَّيْمِيِّ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَعِي ابْنٌ لِي، فَأُرِيتُهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قُلْتُ: هَذَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ[1].

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ ضِمَادًا لَمَّا وَفَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)، قَالَ لَهُ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ؛ فَلَقَدْ بَلَغْنَ قَامُوسَ البَحْرِ، هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ[2].

وَقَالَ جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ: كَانَ رَجُلٌ مِنَّا يُقَالُ لَهُ: طَارِقٌ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ بِالمَدِينَةِ، فَقَالَ: هَلْ مَعَكُمْ شَيْءٌ تَبِيعُونَهُ؟ قُلْنَا: هَذَا البَعِيرُ، قَالَ: بِكَمْ؟ قُلْنَا: بِكَذَا وَكَذَا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، وَسَارَ إِلَى المَدِينَةِ، فَقُلْنَا: بِعْنَا مِنْ رَجُلٍ لَا نَدْرِي مَنْ هُوَ؟ وَمَعَنَا ظَعِينَةٌ، فَقَالَتْ: أَنَا ضَامِنَةٌ لِثَمَنِ البَعِيرِ، رَأَيْتُ وَجْهَ رَجُلٍ مِثْلَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَا يَخِيسُ بِكُمْ، فَأَصْبَحْنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ بِتَمْرٍ، فَقَالَ:

---

(١) حديث أبي رِمْثَة (أتيت النبي ﷺ ومعي ابن لي ...): ابن سعد [١/ ٤٢٧].

(٢) حديث (أن ضمادًا لما وفد عليه فقال له النبي ﷺ: إن الحمد لله نحمده ...): عزاه المصنف لمسلم [٨٦٨] وهو من حديث ابن عباس.

قوله (السِّنْجِيِّ): بكسرِ السينِ المهمَلةِ وسكونِ النونِ. وقوله (بَشَّارٍ): بفتحِ الموَحَّدةِ وتشديدِ الشينِ المعجَمةِ. وقوله (عَوْفِ بْنِ أَبِي جَمِيلَةَ): بِفَتحِ الجيمِ وكسْرِ الميمِ بَعْدَها ياءٌ تحتيّةٌ ساكنةٌ. قوله (رِمْثَةَ): بكسْرِ الراءِ وسكونِ الميمِ بَعْدَها ثاءٌ مُثَلَّثَةٌ.

قوله (فَأُرِيتُه): -بِصيغةِ المجهولِ- أي فأرانيه بَعْضُ مَنْ يَعْرِفُه مِن أصحابِه.

قوله (ضِمادًا): -بكَسْرِ الضادِ المعجَمةِ- هوَ ابنُ ثَعْلَبةَ.

قوله (إِنَّ الحَمْدَ للهِ): بكسرِ الهمزةِ وتشديدِ النونِ. قوله (فَلَقَدْ بَلَغْنَ قاموسَ البَحْرِ): -بالقافِ والميمِ- أي وَصَلْنَ لُجَّتَه أو قَعْرَه أو وَسَطَه، وفي نسخةٍ «قاعوسَ البَحْرِ» -بالعَينِ المهْمَلةِ-، وفي أخرى «قابوسَ» -بالموَحدةِ-، وفي أخرى «تاعوسَ» -بالتاءِ الفوقيّةِ والنونِ. قوله (هاتِ يَدَكَ): أي أَعْطِني يَدَكَ، و(أُبايِعْكَ): بسكونِ العينِ في جوابِ (هاتِ).

قوله (شَدّادٍ): بتشديدِ المهمَلةِ الأولى.

قوله (قُلْنا بِكَذا وكَذا): قال المُلّا: لَعَلَّ العطفَ في قولِه (وكَذا) لِبَيانِ عدَدَيْنِ.

قوله (وَسْقًا مِن تَمْرٍ): -بفتحِ الواوِ؛ وتكْسَرُ، وسكونِ السينِ المهمَلةِ- أي سِتّينَ صاعًا، والصاعُ أربعةُ أَمْدادٍ بِمَدِّ النبيِّ ﷺ. قوله (لا نَدْري مَن هوَ): أي لا نَعرِفُ اسمَه ولا صِفتَه.

قوله (ومَعَنا ظَعِينةٌ): أي امرأةٌ مُسافرةٌ.

قوله (لا يَخِيسُ): -بفتحِ الياءِ التحتيةِ- أي لا يَغْدِرُ.

أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذَا التَّمْرِ، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا، فَفَعَلْنَا[(1)].

وَفِي خَبَرِ الجُلُنْدَى مَلِكِ عُمَانَ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ الجُلُنْدَى: وَاللهِ، لَقَدْ دَلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الأُمِّيِّ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ آخِذٍ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَبْطَرُ، وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجَرُ، وَيَفِي بِالعَهْدِ، وَيُنْجِزُ المَوْعُودَ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ[(2)].

وَقَالَ نِفْطَوَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ، يَقُولُ: يَكَادُ مَنْظَرُهُ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَتْلُ قُرْآنًا، كَمَا قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ * لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالخَبَرِ

وَقَدْ آنَ أَنْ نَأْخُذَ فِي ذِكْرِ النُّبُوَّةِ وَالوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَبَعْدَهُ فِي مُعْجِزَةِ القُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنْ بُرْهَانٍ وَدِلَالَةٍ.

***

(١) حديث جامع بن شداد (كان رجل منا يقال له طارق ...): البيهقي [«الدلائل» (٥/ ٣٨٠)].

(٢) حديث الجُلَنْدي: وثيمة في كتاب الردة [كما في الإصابة لابن حجر ١/ ٦٣٧] عن ابن إسحاق.

قوله (وتكتالوا): أي وأنْ تكتالوا حتَّى تَقْبِضوا ثَمَنَ بَعيرِكم بِتَمامِه.

قوله (الجُلُنْدى): بضمِّ الجيمِ واللامِ وسكونِ النونِ بَعْدَها دالٌ مُهْمَلةٌ وألِفٌ مقصورةٌ أو ممدودةٌ على اختلافٍ في اللُّغةِ؛ قال في «القاموس»: «وجلنداءُ بضمِّ أولِه وفتحِ ثانيهِ مَمْدودةً، وبضمِّ ثانيهِ مَقْصورةً: اسْمُ مَلِكِ عُمانَ، ووهِم الجوهريُّ فَقَصَرَهُ مع فَتْحِ ثانيهِ» اهـ.

قوله (مَلِكِ عُمانَ): بضمِّ العينِ المهمَلةِ وتخفيفِ الميمِ -على ما اختارَه الحلبيُّ.

قوله (يُنْبيكَ بالخَبَرِ): أصلُه بالهَمْزِ إلا أنَّه سُكِّنَ لِضرورةِ النَّظْمِ.

قوله (بُرْهانٍ وَدِلالةٍ): -بفتحِ الدالِ وكسرِها- أي حُجَّةٍ وآيةٍ تُبينُ معانيَها.

***

فَصْلٌ [فِي مَعْنَى النُّبوَّةِ والرِّسالةِ والوَحْيِ]

اعْلَمْ أَنَّ اللهَ تعَالَى -جَلَّ اسْمُهُ- قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ المَعْرِفَةِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَالعِلْمِ بِذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَجَمِيعِ تَكْلِيفَاتِهِ ابْتِدَاءً دُونَ وَاسِطَةٍ لَوْ شَاءَ، كَمَا حُكِيَ عَنْ سُنَّتِهِ فِي بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

وَجَائِزٌ أَنْ يُوصِلَ إِلَيْهِمْ جَمِيعَ ذَلِكَ بِوَاسِطَةٍ تُبَلِّغُهُمْ كَلَامَهُ، وَتَكُونُ تِلْكَ الوَاسِطَةُ إِمَّا مِنْ غَيْرِ البَشَرِ، كَالمَلَائِكَةِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، أَوْ مِنْ جِنْسِهِمْ، كَالأَنْبِيَاءِ مَعَ الأُمَمِ، وَلَا مَانِعَ لِهَذَا مِنْ دَلِيلِ العَقْلِ، وَإِذَا جَازَ هَذَا وَلَمْ يَسْتَحِلْ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ بِمَا دَلَّ عَلَى صِدْقِهِمْ مِنْ مُعْجِزَاتِهِمْ، وَجَبَ تَصْدِيقُهُمْ فِي جَمِيعِ مَا أَتَوْا بِهِ؛ لِأَنَّ المُعْجِزَ مَعَ التَّحَدِّي مِنَ النَّبِيِّ قَائِمٌ مَقَامَ قَوْلِ اللهِ: «صَدَقَ عَبْدِي؛ فَأَطِيعُوهُ، وَاتَّبِعُوهُ»، وَشَاهِدٌ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا يَقُولُهُ، وَهَذَا كَافٍ، وَالتَّطْوِيلُ فِيهِ خَارِجٌ عَنِ الغَرَضِ، فَمَنْ أَرَادَ تَتَبُّعَهُ وَجَدَهُ مُسْتَوْفًى فِي مُصَنَّفَاتِ أَئِمَّتِنَا -رَحِمَهُمُ اللهُ تعَالَى-.

وَالنُّبُوَّةُ فِي لُغَةِ مَنْ هَمَزَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ «النَّبَأِ»، وَقَدْ لَا تُهْمَزُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَسْهِيلًا، وَالمَعْنَى أَنَّ اللهَ تعَالَى أَطْلَعَهُ عَلَى غَيْبِهِ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ نَبِيُّهُ، فَيَكُونُ نَبِيٌّ مُنَبَّأً -فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ-، أَوْ يَكُونُ مُخْبِرًا عَمَّا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ، وَمُنَبِّئًا بِمَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ -فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ-، وَيَكُونُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَهْمِزْهُ مِنَ «النَّبْوَةِ»، وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الأَرْضِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ لَهُ رُتْبَةً شَرِيفَةً، وَمَكَانَةً نَبِيهَةً، عِنْدَ مَوْلَاهُ مُنِيفَةً، فَالوَصْفَانِ فِي حَقِّهِ مُؤْتَلِفَانِ.

وَأَمَّا «الرَّسُولُ» فَهُوَ «المُرْسَلُ»، وَلَمْ يَأْتِ «فَعُولٌ» بِمَعْنَى «مُفْعَلٍ» فِي اللُّغَةِ إِلَّا نَادِرًا، وَإِرْسَالُهُ أَمْرُ اللهِ لَهُ بِالإِبْلَاغِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ التَّتَابُعِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَاءَ النَّاسُ

قوله (أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا): أيْ وَحْيَ إلهامٍ أو رُؤْيا نَوْمٍ كَما وَقَعَ لِسَيِّدنا آدمَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ.

قوله (معَ التَّحَدِّي مِن النبيِّ): أي طَلَبِ المعارَضةِ مِمَّنْ يَصِحُّ أنْ يَكونَ له وَصْفُ النبوّةِ ولَمْ يَكُنْ مِن أَهْلِ السِّحْرِ والمَكْرِ والاستدراجِ.

قوله (مَقامَ قولِ اللهِ): أي شهادتِه على تحقيقِ دَعْوَتِه.

قوله (فأطيعوه): أي في الأصولِ. وقوله (واتَّبِعوه): أي في الفُروعِ. قوله (فيما يقولُه): أي مِن الأخبارِ.

قوله (مَنْ هَمَزَ): هوَ نافعٌ دونَ القُرّاءِ. قوله (تَسْهيلًا): أي تخفيفًا وَجَبَ بِكَثْرةِ الاستعمالِ في قلب الهمزة وواو الإدغام[1].

قوله (وَمَكانةً نبيهةً): أي مَنْزِلةً لطيفةً. قوله (مُنيفةً): -مِن «أَنافَ» إذا أَشْرَفَ- أي مُشْرِفةً مرتفعةً.

قوله (مُؤْتَلِفانِ): أي مُجْتَمِعانِ ومُتَلازمانِ.

قوله (إلا نادرًا): أي قليلًا وُقوعُه.

قوله (بالإبلاغِ): أي في قولِه سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) عبارة الملا فيه هكذا: «أي تخفيفا أوجبه كثرة الاستعمال بجعل الهمزة واوا وإدغامها في مثلها»، وهي مقصود الشارح.

أَرْسَالًا، إِذَا تَبِعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكَأَنَّهُ أُلْزِمَ تَكْرِيرَ التَّبْلِيغِ، أَوْ أُلْزِمَتِ الأُمَّةُ اتِّبَاعَهُ.

وَاخْتَلَفَ العُلَمَاءُ: هَلِ النَّبِيُّ وَالرَّسُولُ بِمَعْنًى، أَوْ بِمَعْنَيَيْنِ؟

فَقِيلَ: هُمَا سَوَاءٌ، وَأَصْلُهُ مِنَ الإِنْبَاءِ، وَهُوَ الإِعْلَامُ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: ٥٢] فَقَدْ أَثْبَتَ لَهُمَا مَعًا الإِرْسَالَ، قَالُوا: وَلَا يَكُونُ النَّبِيُّ إِلَّا رَسُولًا، وَلَا الرَّسُولُ إِلَّا نَبِيًّا.

وَقِيلَ: هُمَا مُفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ؛ إِذْ قَدِ اجْتَمَعَا فِي النُّبُوَّةِ التي هِيَ الإِطْلَاعُ عَلَى الغَيْبِ، وَالإِعْلَامُ بِخَوَاصِّ النُّبُوَّةِ، أَوِ الرِّفْعَةِ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَحَوْزِ دَرَجَتِهَا، وَافْتَرَقَا فِي زِيَادَةِ الرِّسَالَةِ التي لِلرَّسُولِ، وَهُوَ الأَمْرُ بِالإِنْذَارِ وَالإِعْلَامِ كَمَا قُلْنَا، وَحُجَّتُهُمْ مِنَ الآيَةِ نَفْسِهَا التَّفْرِيقُ بَيْنَ الاسْمَيْنِ، وَلَوْ كَانَا شَيْئًا وَاحِدًا لَمَا حَسُنَ تَكْرَارُهُمَا فِي الكَلَامِ البَلِيغِ، قَالُوا: وَالمَعْنَى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّةٍ، أَوْ نَبِيٍّ وَلَيْسَ بِمُرْسَلٍ إِلَى أَحَدٍ.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ جَاءَ بِشَرْعٍ مُبْتَدَإٍ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُ رَسُولٍ وإِنْ أُمِرَ بِالإِبْلَاغِ وَالإِنْذَارِ.

وَالصَّحِيحُ وَالَّذِي عَلَيْهِ الجَمَّاءُ الغَفِيرُ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَأَوَّلُ الرُّسُلِ آدَمُ، وآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عَنْهُ ﷺ: (إِنَّ الأَنْبِيَاءَ مِائَةُ أَلْفٍ، وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ)(١)، وَذَكَرَ أَنَّ الرُّسُلَ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، أَوَّلُهُمْ آدَمُ.

---

(١) حديث أبي ذر في عدد الأنبياء والرسل: أحمد [٢١٥٤٦] وابن حبان [٣٦١].

قوله (بِمَعْنًى): أي فيُطلَقُ كُلٌّ على الآخَرِ. وقوله (أو بمعنيَيْنِ): أي فأَحَدُهما أَعَمُّ.

قوله (سَواءٌ): أي في الإيحاءِ لِكُلٍّ بالشرعِ.

قوله (واستَدَلّوا): أي على التسويةِ.

و(مُفْتَرِقانِ مِن وَجْهٍ): أي ومُجتمِعانِ مِن آخَرَ.

قوله (وحَوْزِ دَرَجتِهما) أيْ إحاطةِ مَرتَبةِ كُلٍّ مِنهما.

قوله (كَما قُلْنا): أي بَيَّنّا.

قوله (البَليغِ): أي البالغِ غايةَ البلاغةِ المعجِزةِ لِأَربابِ الفصاحةِ عَن قُدرةِ المعارَضةِ لِأَقْصَرِ سورةٍ.

قوله (مِنْ نَبِيٍّ): وفي نسخةٍ «مِن رسولٍ». قوله (لَيْسَ بِمُرْسَلٍ... إلخ): أي يَدْعو إلى طَريقٍ.

قوله (مبتَدَإٍ): أيْ ليسَ مُقَرِّرًا لِشَرعٍ سَبَقَ. قوله (ومَن لَم يأتِ به): أي بالمبتدإِ. قوله (وإِنْ أُمِرَ): أي ولَوْ أُمِرَ.

قوله (الجَمّاءُ): بفتحِ أوَّلِه وتشديدِ ثانيه ممدودًا، وفي نسخةٍ «الجَمُّ»، و(الغفيرُ): -بالمعجَمةِ والفاءِ- أي الكثيرُ مِن الجَمْعِ.

قوله (أنَّ كُلَّ... إلخ): أي لِأَنَّ الرسولَ مَن أوحيَ إليه بالتبليغِ، والنبيَّ أوحيَ إلَيْه لا بالتبليغِ أوْ بِهِ.

قوله (وآخِرُهم... إلخ): يَشْهَدُ له ﴿وخاتَمَ النبيّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قوله (وثلاثةَ عشَرَ): يُروى «خمسةَ عشَرَ».

فَقَدْ بَانَ لَكَ مَعْنَى النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَلَيْسَتَا عِنْدَ المُحَقِّقِينَ ذَاتًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَلَا وَصْفَ ذَاتٍ؛ خِلَافًا لِلْكَرَّامِيَّةِ فِي تَطْوِيلٍ لَهُمْ، وَتَهْوِيلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ تَعْوِيلٌ.

وَأَمَّا الوَحْيُ فَأَصْلُهُ الإِسْرَاعُ، فَلَمَّا كَانَ ﷺ يَتَلَقَّى مَا يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّهِ بِعَجَلٍ سُمِّيَ وَحْيًا، وَسُمِّيَتْ أَنْوَاعُ الإِلْهَامَاتِ وَحْيًا؛ تَشْبِيهًا بِالوَحْيِ إِلَى النَّبِيِّ، وَسُمِّيَ الخَطُّ وَحْيًا لِسُرْعَةِ حَرَكَةِ يَدِ كَاتِبِهِ، وَوَحْيُ الحَاجِبِ وَاللَّحْظِ سُرْعَةُ إِشَارَتِهِمَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]: أَيْ أَوْمَأَ وَرَمَزَ، وَقِيلَ: كَتَبَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: الوَحَا الوَحَا، أَيِ السُّرْعَةَ.

وَقِيلَ: أَصْلُ الوَحْيِ السِّرُّ وَالإِخْفَاءُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الإِلْهَامُ وَحْيًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أَيْ يُوَسْوِسُونَ فِي صُدُورِهِمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: ٧]، أَيْ أُلْقِيَ فِي قَلْبِهَا، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]، أَيْ مَا يُلْقِيهِ فِي قَلْبِهِ دُونَ وَاسِطَةٍ.

***

قوله (ولَيْسَتا [عِنْدَ المحقِّقينَ] ذاتًا... إلخ): البَداهةُ تَقْضي به.

قوله (للكرّاميّةِ): بتشديدِ الراءِ والياءِ. قوله (تطويلٍ لهم): أي كَثْرةِ تعليلٍ (وتهويلٍ): أي تخفيفٍ.

قوله (فأَصْلُه الإسراعُ): يَدُلُّ له حديثُ: (إذا أَرَدْتَ أمرًا فتدَبَّرْ عاقِبَتَه؛ فإنْ كانَ شَرًّا فانْتَه، وإنْ كانَ خيرًا فتوَحَّهْ)[1]: أيْ أَسرِعْ إليه؛ ذَكَرَه الدلجيُّ، والظاهرُ أنّه تصحيفٌ عليه، وأنّه بالجيمِ؛ أَمْرٌ مِن التَّوَجُّهِ.

قوله (بِعَجَلٍ): أي غَيْرِ تُؤَدةٍ.

قوله (الوَحا الوَحا): كُلٌّ بِمَدٍّ وقَصْرٍ.

قوله (السِّرُّ): أي الأسرارُ. قوله (سُمّيَ... إلخ): أي لخَفائه.

قوله (دونَ واسِطةٍ): يُفْهَمُ بمقابَلةِ ﴿أوْ مِن وراءِ حِجابٍ أو يُرْسِلَ رسولًا﴾، والأوّلُ لموسى، والثاني لجبريلَ.

***

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤١)، وهنّاد في «الزهد» (٥٣١) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور الهاشمي عن رجل. وعبد الله بن مسور مُتّهمٌ بالوضع. انظر «التاريخ الكبير» للبخاريِّ (٥/ ١٩٥)، و«الكامل» لابن عديٍّ (٥/ ٢٧٤). وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٨٥): «ضعيف جدا». ومن طريق أبي جعفر أيضًا أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٣٠٥)، لكن جعله عن ابن مسعودٍ.

فَصْلٌ [في مَعْنى المُعجِزة وأنواعِها]

اعْلَمْ أَنَّ مَعْنَى تَسْمِيَتِنَا مَا جَاءَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ «مُعْجِزَةً» هُوَ أَنَّ الخَلْقَ عَجَزُوا عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا، وَهِيَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

ضَرْبٌ هُوَ مِنْ نَوْعِ قُدْرَةِ البَشَرِ، فَعَجَزُوا عَنْهُ، فَتَعْجِيزُهُمْ عَنْهُ هُوَ فِعْلُ الله، دَلَّ عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِ، كَصَرْفِهِمْ عَنْ تَمَنِّي المَوْتِ، وَتَعْجِيزِهِمْ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِ القُرْآنِ عَلَى رَأْيِ بَعْضِهِمْ، وَنَحْوِهِ.

وَضَرْبٌ هُوَ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَتِهِم، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، كَإِحْيَاءِ المَوتَى، وَقَلْبِ العَصَا حَيَّةً، وَإِخْرَاجِ نَاقَةٍ مِنْ صَخْرَةٍ، وَكَلَامِ شَجَرَةٍ، وَنَبْعِ المَاءِ مِنْ بَيْنِ الأَصَابِعِ، وَانْشِقَاقِ القَمَرِ، مِمَّا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ مِنْ فِعْلِ الله تَعَالَى، وَتَحَدِّيهِ مَنْ يُكَذِّبُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ تَعْجِيزٌ لَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ المُعْجِزَاتِ التي ظَهَرَتْ عَلَى يَدِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَدَلَائِلَ نُبُوَّتِهِ، وَبَرَاهِينَ صِدْقِهِ مِنْ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مَعًا، وَهُوَ أَكْثَرُ الرُّسُلِ مُعْجِزَةً، وَأَبْهَرُهُمْ آيَةً، وَأَظْهَرُهُمْ بُرْهَانًا -كَمَا سَنُبَيِّنُهُ-، وَهِيَ فِي كَثْرَتِهَا لَا يُحِيطُ بِهَا ضَبْطٌ، فَإِنَّ وَاحِدًا مِنْهَا -وَهُوَ القُرْآنُ- لَا يُحْصَى عَدَدُ مُعْجِزَاتِهِ بِأَلْفٍ وَلَا أَلْفَيْنِ وَلَا أَكْثَرَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ تَحَدَّى بِسُورَةٍ مِنْهُ، فَعُجِزَ عَنْهَا.

قَالَ أَهْلُ العِلْمِ: وَأَقْصَرُ السُّوَرِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾، فَكُلُّ آيَةٍ أَوْ آيَاتٍ مِنْهُ بِعَدَدِهَا وَقَدْرِهَا مُعْجِزَةٌ، ثُمَّ فِيهَا نَفْسِهَا مُعْجِزَاتٌ؛ عَلَى مَا نُفَصِّلُهُ مِمَّا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ المُعْجِزَاتِ.

ثُمَّ مُعْجِزاتُهُ ﷺ عَلَى قِسْمَيْنِ:

قِسْمٌ مِنْهَا: عُلِمَ قَطْعًا، وَنُقِلَ إِلَيْنَا مُتَوَاتِرًا، كَالقُرْآنِ؛ فَلَا مِرْيَةَ، وَلَا خِلَافَ بِمَجِيءِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ، وَظُهُورِهِ مِنْ قِبَلِهِ، وَاسْتِدْلَالِهِ

قوله (هوَ أنَّ الخَلقَ... إلخ): أي فكأنَّها أَعجَزَتْهم وإلّا فالمُعْجِزُ حقيقةً هوَ اللهُ تعالى، كما أنَّه قادرٌ على إقدارِ العَبْدِ لنَحوِها.

قوله (وهي): الضميرُ للمُعجزةِ.

قوله (كصَرْفِهم): أي صَرْفِ الله الكُفّارَ. وقوله (وتعجيزِهم): عَطْفٌ على (صَرْفِ).

قوله (وقَلْبِ... إلخ): أي مُعجِزةً لموسى. وقوله (وإخراجِ... إلخ): معجزةً لصالحٍ.

وقوله (وكَلامِ شَجرةٍ): معجِزةً لموسى. قوله (ونَبْعِ الماءِ... إلخ): معجزةً لنبيِّنا ﷺ.

قوله (وتحدّيه): أي طَلَبُ معارَضَتِه.

قوله (وهيَ): أي مُعجِزاتُه. قوله (فعُجِزَ عَنْها): -بصيغةِ المجهولِ- أي عَجَزَ أهلُ المعاني عَنْها.

قوله (فكُلُّ آيةٍ... إلخ): أي فقولُه تعالى: ﴿فأْتوا بسورةٍ﴾ [البقرة: ٢٣] يَعُمُّ المَجازيّةَ والحقيقيّةَ.

قوله (عُلِمَ قَطْعًا): أي ذلك القِسْمُ عُلِمَ عِلْمَ قَطْعٍ يَدُلُّ له ما بَعْدَه. قوله (مُتواتِرًا): أي مُتتابِعًا.

بِحُجَّتِهِ، وَإِنْ أَنْكَرَ هَذَا مُعَانِدٌ جَاحِدٌ فَهُوَ كَإِنْكَارِهِ وُجُودَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا جَاءَ اعْتِرَاضُ الجَاحِدِينَ فِي الحُجَّةِ بِهِ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ وَجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ مُعْجِزٍ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً، وَوَجْهُ إِعْجَازِهِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً وَنَظَرًا، كَمَا سَنَشْرَحُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَالَ بَعْضُ أَئِمَّتِنَا:

وَيَجْرِي هَذَا المَجْرَى عَلَى الجُمْلَةِ أَنَّهُ قَدْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ ﷺ آيَاتٌ وَخَوارِقُ عَادَاتٍ إِنْ لَمْ يَبْلُغْ وَاحِدٌ مِنْهَا مُعَيَّنٌ القَطْعَ فَيَبْلُغُهُ جَمِيعُهَا، فَلَا مِرْيَةَ فِي جَرَيَانِ مَعَانِيهَا عَلَى يَدَيْهِ، وَلَا يَخْتَلِفُ مُؤْمِنٌ وَلَا كَافِرٌ أَنَّهُ جَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ عَجَائِبُ، وَإِنَّمَا خِلَافُ المُعَانِدِ فِي كَوْنِهَا مِنْ قِبَلِ اللهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا كَوْنَهَا مِنْ قِبَلِ اللهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ قَوْلِهِ: «صَدَقْتَ»؛ فَقَدْ عُلِمَ وُقُوعُ مِثْلِ هَذَا أَيْضًا مِنْ نَبِيِّنَا ﷺ ضَرُورَةً؛ لِاتِّفَاقِ مَعَانِيهَا، كَمَا يُعْلَمُ ضَرُورَةً جُودُ حَاتِمٍ، وَشَجَاعَةُ عَنْتَرَةَ، وَحِلْمُ الأَحْنَفِ؛ لِاتِّفَاقِ الأَخْبَارِ الوَارِدَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى كَرَمِ هَذَا، وَشَجَاعَةِ هَذَا، وَحِلْمِ هَذَا، وَإِنْ كَانَ كُلُّ خَبَرٍ بِنَفْسِهِ لَا يُوجِبُ العِلْمَ، وَلَا يَقْطَعُ بِصِحَّتِهِ.

وَالقِسْمُ الثَّانِي: مَا لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ الضَّرُورَةِ وَالقَطْعِ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ مُشْتَهِرٌ مُنْتَشِرٌ، رَوَاهُ العَدَدُ الكَثِيرُ، وَشَاعَ الخَبَرُ بِهِ عِنْدَ المُحَدِّثِينَ وَالرُّوَاةِ وَنَقَلَةِ السِّيَرِ وَالأَخْبَارِ، كَنَبْعِ المَاءِ مِنْ بَيْنِ الأَصَابِعِ، وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ، وَنَوْعٌ مِنْهُ اخْتَصَّ بِهِ الوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ، وَرَوَاهُ العَدَدُ اليَسِيرُ، وَلَمْ يَشْتَهِرِ اشْتِهَارَ غَيْرِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا جُمِعَ إِلَى غَيْرِهِ اتَّفَقَا فِي المَعْنَى، وَاجْتَمَعَا عَلَى الإِتْيَانِ بِالمُعْجِزِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

وَأَنَا أَقُولُ صَدْعًا بِالحَقِّ: إِنَّ كَثِيرًا مِن هَذِهِ الآيَاتِ المَأْثُورَةِ عَنْهُ ﷺ مَعْلُومَةٌ بِالقَطْعِ؛ أَمَّا انْشِقَاقُ القَمَرِ فَالقُرْآنُ نَصَّ بِوُقُوعِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ وُجُودِهِ، وَلَا يُعْدَلُ عَنْ ظَاهِرٍ إِلَّا بِدَلِيلٍ، وَجَاءَ بِرَفْعِ

قوله (مُعَيَّنٌ): أي مُشَخَّصٌ و مُبَيَّنٌ.

قوله (مِن قِبَلِ اللهِ): أي مِن جِهةِ المَبْدإِ الفَيّاضِ.

و(صَدَقْتَ): أي يا محمدُ فيما ادَّعَيْتَ مِن رسالتي.

قوله (على كَرَمِ... إلخ): الكَلامُ على النشرِ المُرَتَّب. قوله (كنَبْعِ الماءِ... إلخ): أي وحَنينِ الجِذعِ وكَلامِ الضَّبِّ وغيرِ ذلك.

قوله (كما قَدَّمْناه): أي مِن أنّه لا مِرْيةَ في جَرَيانِ مَعانيها على يدَيْه.

قوله (صَدْعًا بالحقِّ): أي جَهْرًا به، ومِنه قولُه سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

قوله (أمّا انشقاقُ القمرِ): أي بمكّةَ حينَ سألَه كُفّارُ قريشٍ آيةً.

قوله (وَأَخْبَرَ عَنْ وُجودِهِ): أي بقولِه سبحانه: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

قوله (ولا يُعْدَلُ عَنْ ظاهِرٍ): أي إلى التأويلِ؛ كَأَنْ يُقالَ: انشَقَّ بمعنى يَنْشَقُّ يومَ القيامةِ.

احْتِمَالِهِ صَحِيحُ الأَخْبَارِ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ؛ فَلَا يُوهِنُ عَزْمَنَا خِلَافُ أَخْرَقَ، مُنحَلٍّ عُرَى الدِّينِ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى سَخَافَةِ مُبْتَدِعٍ، يُلْقِي الشَّكَّ عَلَى قُلُوبِ ضُعَفَاءِ المُؤْمِنِينَ؛ بَلْ نُرْغِمُ بِهَذَا أَنْفَهُ، وَنَنْبِذُ بِالعَرَاءِ سُخْفَهُ.

وَكَذَلِكَ قِصَّةُ نَبْعِ المَاءِ، وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ رَوَاهَا الثِّقَاتُ وَالعَدَدُ الكَثِيرُ عَنِ الجَمَّاءِ الغَفِيرِ، عَنِ العَدَدِ الكَثِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الكَافَّةُ عَنِ الكَافَّةِ مُتَّصِلًا، عَمَّنْ حَدَّثَ بِهَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ، وَإِخْبَارُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَوَاطِنِ اجْتِمَاعِ الكَثِيرِ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ، وَفِي غَزْوَةِ بُوَاطٍ، وَغَزْوَةِ الحُدَيْبِيَةِ، وَغَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَمْثَالِهَا مِنْ مَحَافِلِ المُسْلِمِينَ، وَمَجْمَعِ العَسَاكِرِ.

وَلَمْ يُؤْثَرْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مُخَالَفَةٌ لِلرَّاوِي فِيمَا حَكَاهُ، وَلَا إِنْكَارٌ عَمَّا ذُكِرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ كَمَا رَوَاهُ، فَسُكُوتُ السَّاكِتِ مِنْهُمْ كَنُطْقِ النَّاطِقِ؛ إِذْ هُمُ المُنَزَّهُونَ عَنِ السُّكُوتِ عَلَى بَاطِلٍ، وَالمُدَاهَنَةِ فِي كَذِبٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رَغْبَةٌ وَلَا رَهْبَةٌ تَمْنَعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ مُنْكَرًا عِنْدَهُمْ، وَغَيْرَ مَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ، لَأَنْكَرُوهُ كَمَا أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَشْيَاءَ، رَوَاهَا مِنَ السُّنَنِ وَالسِّيَرِ وَحُرُوفِ القُرْآنِ، وَخَطَّأَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَوَهَّمَهُ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ، فَهَذَا النَّوْعُ كُلُّهُ يُلْحَقُ بِالقَطْعِيِّ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ؛ لِمَا بَيَّنَّاهُ.

قوله (فلا يوهِنُ عَزْمَنا): في نسخةٍ «ولا يوهِنُ»، والأولى أنسَبُ. قوله (خِلافُ أَخْرَقَ): أي مخالَفةُ أَحْمَقَ لا رِفْقَ عِنْدَه.

قوله (عُرى الدّينِ): جمعُ «عُرْوةٍ»، وهي ما يُتَمَسَّكُ به، وهُنا في أمْرِ الدّيانةِ، ومِنْه ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله (سَخافةِ مُبْتَدِعٍ): أي رِقّةِ [عقلِ] ضالٍّ عَدَلَ عَنِ الحَقِّ المُبينِ. و(يُلْقي) أي يوقِعُ.

قوله (بَلْ نُرْغِمُ... إلخ): أي نُلْصِقُه بالترابِ، يَعْني نُذِلُّه.

و(نَنْبِذُ): أيْ نَطْرَحُ. و(بالعَراءِ): أي الصحراءِ والفضاءِ ومكانِ الخَلاءِ. قوله (سُخْفَه): -بضَمِّ السينِ المُهْمَلةِ وبفتْحٍ وسكونٍ- أي رِقّةَ عَقْلِه.

قوله (وكذلك): أي انشقاقِ القَمَرِ في التواتر.

قوله (الكافّةُ): أي الجَماعةُ. قوله (وإخبارُهم): في نسخةٍ صحيحةٍ فَتحُ الهمزةِ ثُم الياءُ التحتيةُ، وما هُنا مِن كَسرِ الهَمزةِ والباءِ هوَ الكَثيرُ في النُّسَخِ.

قوله (بواطٍ): -بضمِّ الموَحَّدةِ وتُفْتَحُ- جَبَلٌ مِن جِبالِ جُهَيْنةَ. قوله (تَبوكَ): -بفتحِ الفوقيةِ- موضِعٌ بِطَرَفِ الشامِ بَيْنَه وبَيْنَ المدينةِ أربعَ عشْرةَ مرحلةً.

قوله (مِن مَحافِلِ): أي أماكنِ.

قوله (ولَمْ يُؤثَرْ): بصيغةِ المجهولِ.

قوله (كَنُطْقِ النّاطِقِ): أي بِمَنزِلةِ رِوايةِ الراوي مِنهم. قوله (المُنَزَّهونَ): أي المبرَّؤون.

قوله (وليسَ هناكَ... إلخ): أي ليسَ مَيْلٌ ولا فَزَعٌ. قوله (ووَهَّمَه): -بتشديدِ الهاءِ- أي نَسَبَ بعْضُهم بَعْضًا إلى الوَهَمِ.

قوله (فهذا النوعُ): أي الذي رَواه العَددُ اليَسيرُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ أَمْثَالَ الأَخْبَارِ التي لَا أَصْلَ لَهَا، وَبُنِيَتْ عَلَى بَاطِلٍ لَا بُدَّ -مَعَ مُرُورِ الأَزْمَانِ وَتَداوُلِ النَّاسِ وَأَهْلِ البَحْثِ- مِنَ انْكِشَافِ ضَعْفِهَا، وَخُمُولِ ذِكْرِهَا، كَمَا يُشَاهَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَخْبَارِ الكَاذِبَةِ وَالأَرَاجِيفِ الطَّارِئَةِ.

وَأَعْلَامُ نَبِيِّنَا ﷺ هَذِهِ، الوَارِدَةُ مِنْ طَرِيقِ الآحَادِ لَا تَزْدَادُ مَعَ مُرُورِ الزَّمَانِ إِلَّا ظُهُورًا، ومَعَ تَدَاوُلِ القرُونِ، وَكَثْرَةِ طَعْنِ العَدُوِّ، وَحِرْصِهِ عَلَى تَوْهِينِهَا وَتَضْعِيفِ أَصْلِهَا، وَاجْتِهَادِ المُلْحِدِ عَلَى إِطْفَاءِ نُورِهَا؛ إِلَّا قُوَّةً وَقَبُولًا، وَلَا لِلطَّاعِنِ عَلَيْهَا إِلَّا حَسْرَةً وَغَلِيلًا، وَكَذَلِكَ إِخْبَارُهُ عَنِ الغُيُوبِ، وَإِنْبَاؤُهُ بِمَا يَكُونُ وَكَانَ مَعْلُومًا مِنْ آيَاتِهِ عَلَى الجُمْلَةِ بِالضَّرُورَةِ، وَهَذَا حَقٌّ لَا غِطَاءَ عَلَيْهِ، وَقَدْ قَالَ بِهِ مِنْ أَئِمَّتِنَا القَاضِي، وَالأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرٍ، وَغَيْرُهُمَا -رَحِمَهُمُ اللهُ.

وَمَا عِنْدِي أَوْجَبَ قَوْلَ القَائِلِ إِنَّ هَذِهِ القِصَصَ المَشْهُورَةَ مِنْ بَابِ خَبَرِ الوَاحِدِ إِلَّا قِلَّةُ مُطَالَعَتِهِ لِلأَخْبَارِ وَرِوَايَتِهَا، وَشُغْلُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَعَارِفِ، وَإِلَّا فَمَنِ اعْتَنَى بِطُرُقِ النَّقْلِ، وَطَالَعَ الحَدِيثَ وَالسِّيَرَ لَمْ يَرْتَبْ فِي صِحَّةِ هَذِهِ القِصَصِ المَشْهُورَةِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَحْصُلَ العِلْمُ بِالتَّوَاتُرِ عِنْدَ وَاحِدٍ، وَلَا يَحْصُلُ عِنْدَ آخَرَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ بِالخَبَرِ كَوْنَ بَغْدَادَ مَوْجُودَةً، وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ، وَدَارُ الإِمَارَةِ وَالخِلَافَةِ، وَآحَادٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ اسْمَهَا، فَضْلًا عَنْ وَصْفِهَا.

وَهَكَذَا يَعْلَمُ الفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ بِالضَّرُورَةِ وَتَوَاتُرِ النَّقْلِ عَنْهُ أَنَّ مَذْهَبَهُ إِيجَابُ قِرَاءَةِ أُمِّ القُرْآنِ فِي

قولـه (والأَراجيـفِ الطَّارئـةِ): -بالهمـزِ ويُبْـدَلُ- أي الحكايـاتِ العارضـةِ.

قولـه (واجْتِهـادِ المُلْحِـدِ): أي بَـذْلِ الظـالمِ وُسْـعَه.

قولـه (إِخْبـارُهُ عَـنِ الغُيُـوبِ): مِـن قولـه ﷺ (بـلاءٌ يُصيبُ هـذه الأُمّـةِ حتّـى لا يَجِدَ الرَّجـلُ مَلجَـأً يَلجـأُ إِلَيْـه مِـن الظُّلْـمِ)(1).

قوله (وكانَ): أي وَبِما كانَ في الأَوَّلينَ.

قوله (لا غِطاءَ عَلَيْه): أي ولا مِرْيةَ لَدَيْه.

قولـه (مِـن بـابِ خَـبَرِ الواحِـدِ): أي إنَّـما هـيَ مِـن بـابِ خَـبَرِ الآحـادِ وهـيَ لا تُفيـدُ إلا ظَنًّـا بَيِّنًـا لا عِلْـمًا يقينًـا عـلى الوَجْـهِ الـذي ذَكَرْنـاه، أي مِـن أنَّهـا مِـن بـابِ التواتُـرِ مَعْنًـى وإنْ كانَـتْ مِـن أحاديـثِ الآحـادِ مَبْنًـى.

قولـه (وشُـغْلُه بغَـيْرِ ذلـك): -بضـمِّ الشـينِ وفتْحِهـا وبِضَمَّتَـيْنِ- أيْ وكثْـرةُ اشـتغالِه بِـما ذُكِـرَ.

قوله (وطالَعَ الحديثَ والسِّيَرَ): أي كُتُبَها.

وقولـه (ولَمْ يَرْتَـبْ): مِـن الارتيـابِ، أي لَمْ يَشُـكَّ.

قولـه (أَنَّ مَذْهَبَـه إيجـابُ قـراءةِ أُمِّ القـرآنِ): وهـيَ الفاتحـةُ مِـن غَـيْرِ بَسْـمَلةٍ.

---

(1) أخرجـه معمـر في «جامعـه» كـما في «مصنَّـف عبدالـرزَّاق» (٢٠٧٧٠)، والبغـويُّ في «شرح السُّـنَّة» (١٥/ ٨٥)، والعقيـلي في «الضعفـاء» (٤/ ٢٥٩) مـن حديـث أبي سـعيدٍ الخـدريِّ. والحديـث في ذكـر المهـدي ؏.

الصَّلَاةِ لِلْمُنْفَرِدِ وَالإِمَامِ، وَإِجْزَاءُ النِّيَّةِ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَنَّ الشَّافِعِيَّ يَرَى تَجْدِيدَ النِّيَّةِ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَالاقْتِصَارَ فِي المَسْحِ عَلَى بَعْضِ الرَّأْسِ، وَأَنَّ مَذْهَبَهُمَا القِصَاصُ فِي القَتْلِ بِالمُحَدَّدِ وَغَيْرِهِ، وَإِيجَابُ النِّيَّةِ فِي الوُضُوءِ، وَاشْتِرَاطُ الوَلِيِّ فِي النِّكَاحِ، وَأَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ يُخَالِفُهُمَا فِي هَذِهِ المَسَائِلِ، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِمَذَاهِبِهِمْ، وَلَا رَوَى أَقْوَالَهُمْ لَا يَعْرِفُ هَذَا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ، فَضْلًا عَمَّنْ سِوَاهُمْ.

وَعِنْدَ ذِكْرِنَا آحَادَ هَذِهِ المُعْجِزَاتِ نَزِيدُ الكَلَامَ فِيهَا بَيَانًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

***

قوله (وَإِجْزَاءُ النِّيَّةِ في أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ): أي وأنَّ مَذْهَبَه الاكتفاءُ بالنِّيَّةِ في أوَّلِ... إلخ.

قوله (وَأَنَّ الشَّافِعِيَّ يَرى تَجْدِيدَ النِّيَّةِ كُلَّ لَيْلَةٍ): أيْ وُجوبًا لا نَدْبًا.

قوله (وَأَنَّ مَذْهَبَهُما الْقِصاصُ في الْقَتْلِ بِالْمُحَدَّدِ وَغَيْرِهِ): أي وأنَّ مَذْهَبَ مالكٍ والشافعيِّ القَوْدُ في القتلِ بما يَجْرَحُ كالسِّنانِ، أو لَمْ يَجْرَحْ كالعَصا.

قوله (وَأَنَّ أَبا حَنيفةَ يخالِفُهُما في هَذِهِ المَسائِلِ): قال المُلّا: لِما قامَ عِنْدَه بِما صَحَّ مِن الدلائلِ. اهـ.

قوله (فَضْلًا عمَّنْ سِواه): أيْ مِمَّنْ لَمْ يُباشِرِ العلومَ أَصْلًا.

***

فَصْلٌ فِي إعجازِ القُرْآنِ

[الوجْهُ الأولُ: حُسْنُ تأليفِهِ]

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى: اعْلَمْ -وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ- أَنَّ كِتَابَ اللهِ العَزِيزَ مُنْطَوٍ عَلَى وُجُوهٍ مِنَ الإِعْجَازِ كَثِيرَةٍ، وَتَحْصِيلُهَا مِنْ جِهَةِ ضَبْطِ أَنْوَاعِهَا فِي أَرْبَعَةِ وُجُوهٍ:

أَوَّلُهَا: حُسْنُ تَأْلِيفِهِ، وَالتِئَامُ كَلِمِهِ، وَفَصَاحَتُهُ، وَوُجُوهُ إِيجَازِهِ، وَبَلاغَتُهُ الخَارِقَةُ عَادَةَ العَرَبِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَابَ هَذَا الشَّأْنِ، وَفُرْسَانَ الكَلَامِ، قَدْ خُصُّوا مِنَ البَلَاغَةِ وَالحِكَمِ مَا لَمْ يُخَصَّ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الأُمَمِ، وَأُوتُوا مِنْ ذَرَابَةِ اللِّسَانِ مَا لَمْ يُؤْتَ إِنْسَانٌ، وَمِنْ فَصْلِ الخِطَابِ مَا يُقَيِّدُ الأَلْبَابَ.

جَعَلَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ طَبْعًا وَخِلْقَةً، وفِيهِمْ غَرِيزَةً وَقُوَّةً، يَأْتُونَ مِنْهُ عَلَى البَدِيهَةِ بِالعَجَبِ، وَيُدْلُونَ بِهِ إِلَى كُلِّ سَبَبٍ، فَيَخْطُبُونَ بَدِيهًا فِي المَقَامَاتِ وَشَدِيدِ الخَطْبِ، وَيَرْتَجِزُونَ بِهِ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَيَمْدَحُونَ وَيَقْدَحُونَ وَيَتَوَسَّلُونَ وَيَتَوَصَّلُونَ وَيَرْفَعُونَ وَيَضَعُونَ؛ فَيَأْتُونَ بِالسِّحْرِ الحَلَالِ، وَيُطَوِّقُونَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ أَجْمَلَ مِنْ سِمْطِ اللَّآلِ، فَيَخْدَعُونَ الأَلْبَابَ، وَيُذَلِّلُونَ الصِّعَابَ، وَيُذْهِبُونَ الإِحَنَ،

قوله (**مُنْطوٍ**): أي مُشتملٌ.

قولـه (**وتحصيلُهـا**): مبتـدأٌ، أيْ وتحصيـلُ وُجـوهِ الكثْـرةِ بطريـقِ الإجمـالِ.

قولـه (**أَوَّلُهـا: حُسْـنُ تأْليفِـهِ**): أي تركيبـه بَيْنَ حُروفـه وكَلِماتِـه وسـوَرِه وقِصَصِه.

قوله (**ووُجوهُ إيجازِه**): أي مِن قَصْرٍ وحَذْفٍ.

قولـه (**والحِكَـمِ**): -بِكَسْرِ الحـاءِ المهْمَلـةِ وفتْـحِ الـكافِ- جمْـعُ حِكْمـةٍ، وهـيَ كَـمالُ العَقْـلِ وإتقـانُ العَمَـلِ.

قولـه (**وأوتـوا مِـنْ ذَرابـةِ اللِّسـانِ**): -بفَتْـحِ الـذالِ المعجَمـةِ- أيْ بَسـاطَتِه وحِدَّتِـه.

قولـه (**مـا يُقَيِّـدُ الألبـابَ**): -بِضَـمِّ اليـاءِ الأولى وفتْـحِ القـافِ وكـسْرِ اليـاءِ المشَـدَّدةِ- أي يَمْنَـعُ أربـابَ العقـولِ الخالصـةِ أنْ يأتـوا بِمِثْلِـه.

قولـه (**وفيهـم غَريـزةً**): أي سَـجيّةً. قولـه (**ويُدْلـونَ... إلـخ**): -بضـمِّ اليـاءِ والـلامِ- أي يَتَوَسَّـلونَ بِـه... إلـخ.

قوله (**وشَديدِ الخَطْبِ**): أي الأمرِ العظيمِ.

قولـه (**بالسِّحْرِ الحَـلالِ**): هـو مـا لَطُـفَ مَبْناه وشَرُفَ مَعْناه، ويُسـتعارُ لِلـكَلامِ البليـغِ، وقـد ورَدَ: (إنَّ مِـن البَيانِ لَسِـحْرًا)[1].

قولـه (**ويُطَوِّقـونَ**): -بِكَسْرِ الـواوِ المشـدَّدةِ- أي يَحْملـونَ.

قولـه (**سِـمْطِ الـلآلِ**): -بكسـرِ السـينِ المهمَلـةِ- هـو الخيـطُ مـا دامَ فيـه الخَـرَزُ.

قوله (**ويُذَلِّلونَ الصِّعابَ**): أي يُهوِّنونَها.

قولـه (**ويُذْهِبـونَ**): -بضـمِّ اليـاءِ وكـسْرِ الهـاءِ- أي يُزيلـونَ. وقولـه (**الإحَـنَ**): -بكَـسْرِ الهمـزةِ وفتـح الحـاءِ- جمـعُ «إحْنـةٍ» -بكسـرٍ فسـكونٍ-، وهـيَ الحِقْـدُ والضغينـةُ.

---

(١) أخرجـه البخـاريُّ (٥٧٦٧) [كتـاب الطـب]، وغـيره مِـن حديـث عبدالله بـن عمـر.

وَيُهَيِّجُونَ الدِّمَنَ، وَيُجَرِّؤُنَ الجَبَانَ، وَيَبْسُطُونَ يَدَ الجَعْدِ البَنَانِ، ويُصَيِّرُونَ النَّاقِصَ كَامِلًا، وَيَتْرُكُونَ النَّبِيهَ خَامِلًا.

مِنْهُمُ البَدَوِيُّ ذُو اللَّفْظِ الجَزْلِ، وَالقَوْلِ الفَصْلِ، وَالكَلَامِ الفَخْمِ، وَالطَّبْعِ الجَوْهَرِيِّ، وَالمَنْزَعِ القَوِيِّ.

وَمِنْهُمُ الحَضَرِيُّ ذُو البَلَاغَةِ البَارِعَةِ، وَالأَلْفَاظِ النَّاصِعَةِ، وَالكَلِمَاتِ الجَامِعَةِ، وَالطَّبْعِ السَّهْلِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي القَوْلِ القَلِيلِ الكُلْفَةِ، الكَثِيرِ الرَّوْنَقِ، الرَّقِيقِ الحَاشِيَةِ.

وَكِلَا البَابَيْنِ فَلَهُمَا فِي البَلَاغَةِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ، وَالقُوَّةُ الدَّامِغَةُ، وَالقِدْحُ الفَالِجُ، وَالمَهْيَعُ النَّاهِجُ.

لَا يَشُكُّونَ أَنَّ الكَلَامَ طَوْعُ مُرَادِهِمْ، وَالبَلَاغَةَ مِلْكُ قِيَادِهِمْ، قَدْ حَوَوْا فُنُونَهَا، وَاسْتَنْبَطُوا عُيُونَهَا، وَدَخَلُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَعَلَوْا صَرْحًا لِبُلُوغِ أَسْبَابِهَا،

قوله (ويُهَيِّجونَ): -بتشديدِ الياءِ التحتيةِ الثانيةِ- أي يُحَرِّكونَ. قوله (الدِّمَنَ): -بكَسْرِ الدالِ المهمَلةِ المشدَّدةِ وفتْحِ الميمِ- جَمْعُ «دِمْنةٍ»، وهيَ في الأصْلِ ما تُدَمِّنُه الإبلُ ونحوُها بأبوالِها وأبعارِها، أي تُلَبِّدُه في مَرابِضِها، ثُمَّ استُعْمِلَ في الحِقْدِ لِتَلَبُّدِه في باطِنِه.

قوله (ويُجَرِّؤُنَ): بتشديدِ الراءِ المكسورةِ بَعْدَها واوٌ مهموزةٌ مَعَ ضَمِّ أوَّلِه وفَتْحِ المعجَمةِ[1]. و(الجَبانَ): -بفتحِ الجيمِ والموحَّدةِ المخَفَّفةِ- ضِدُّ الشُّجاعِ. قوله (ويَبْسُطونَ): -بِضَمِّ السينِ- أي يَفْتَحونَ. قوله (ويُصَيِّرونَ): -بتشديدِ التحتيةِ الثانيةِ- أي يُحَوِّلونَ. قوله (ويَتْرُكونَ النبيهَ): أي المشهورَ بالنَّباهةِ. وقوله (خامِلًا): أيْ مجهولًا بَيانُه.

قوله (مِنهم البَدَويُّ): هوَ مَن يَسْكُنُ في الباديةِ. وقوله (ذو اللفْظِ الجَزْلِ): -بفتحِ الجيمِ وسكونِ الزاي- أي صاحبُ الألفاظِ الَّتي فيها الجَزالةُ والسلامةُ. قوله (الفَصْلِ): أي البَيِّنِ أَمْرُه. قوله (والطَّبْعِ الجَوْهَرِيِّ): هذا مَدْحٌ جَزيلٌ ووصْفٌ جَميلٌ. وقوله (المَنْزَعِ القَويِّ): -بفتْحِ الميمِ والزاي- أي المَشْرَبِ الصافي.

وقوله (الحَضَريُّ): -بفتحِ المهمَلةِ والمعجَمةِ- مَنْ يَسْكُنُ الحاضِرةَ. قوله (البارِعةِ): أي الفائقةِ. وقوله (الألْفاظِ الناصِعةِ): أي الخالصةِ مِن شوائبِ الرَّكاكةِ. قوله (القَليلِ الكُلْفةِ): أي اليَسيرِ المُؤْنةِ. قوله (الرَّوْنَقِ، الرَّقيقِ الحاشيةِ): أي الجزيلِ الحَسَنِ في المَبْنى، واللطيفِ الطَّرْفِ في المَعْنى.

قوله (البالغةُ): أي الواصلةُ مَقامَ النهايةِ. وقوله (الدّامغةُ): أي الماحِقةُ للأُمورِ الزاهقةِ، ومِنْه قولُه تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدْمَغُه﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقوله (والقِدْحُ): -بكَسْرِ القافِ- أي السَّهْمُ. قوله (الفالِجُ): -بكَسْرِ اللامِ- أي الفائزُ الغالبُ. قوله (المَهْيَعُ): -بفَتْحِ الميمِ والتحتيةِ- أي الطريقُ الواسعُ. وقوله (الناهِجُ): أي السبيلُ السالكُ.

قوله (مِلْكُ قِيادِهِم): بكَسْرِ الميمِ والقافِ؛ وهوَ حَبْلٌ تُرْبَطُ به الدابّةُ -ذَكَرَه الحلبيُّ-، أو ما يُقادُ به؛ فهوَ مِن القَوْدِ -كَما استظهَرَه المُلا. قوله (قَدْ حَوَوْا): -بفتحِ الواوِ الأولى وسكونِ الثانيةِ- أيْ حازوا. قوله (واسْتَنْبَطوا عُيونَها): أي استَخْرَجوا لُبابَها مِن مَعانيها. قوله (وعَلَوْا صَرْحًا): أي رَفَعوا بِناءً ظاهِرًا.

---

(١) هذا مذهب إمام النحاة سيبويه والبصريين، أما الأخفش والكوفيون فإنهم يرسمون الهمزة على ياء بعدها واو، وهو المشهور المعمول به في زماننا.

فَقَالُوا فِي الخَطِيرِ وَالمَهِينِ، وَتَفَنَّنُوا فِي الغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَتَقَاوَلُوا فِي القُلِّ وَالكُثْرِ، وَتَسَاجَلُوا فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ.

فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا رَسُولٌ كَرِيمٌ، بِكِتَابٍ عَزِيزٍ، لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، وَفُصِّلَتْ كَلِمَاتُهُ، وَبَهَرَتْ بَلَاغَتُهُ العُقُولَ، وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ، وَتَظَافَرَ إِيجَازُهُ وَإِعْجَازُهُ، وَتَظَاهَرَتْ حَقِيقَتُهُ وَمَجَازُهُ، وَتَبَارَتْ فِي الحُسْنِ مَطَالِعُهُ وَمَقَاطِعُهُ، وَحَوَتْ كُلَّ البَيَانِ جَوَامِعُهُ وَبَدَائِعُهُ، وَاعْتَدَلَ مَعَ إِيجَازِهِ حُسْنُ نَظْمِهِ، وَانْطَبَقَ عَلَى كَثْرَةِ فَوَائِدِهِ مُخْتَارُ لَفْظِهِ -وَهُمْ أَفْسَحُ مَا كَانُوا فِي هَذَا البَابِ مَجَالًا، وَأَشْهَرُ فِي الخَطَابَةِ رِجَالًا، وَأَكْثَرُ فِي الشِّعْرِ وَالسَّجْعِ ارْتِجَالًا، وَأَوْسَعُ فِي الغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقَالًا- بِلُغَتِهِمِ التي بِهَا يَتَحَاوَرُونَ، وَمَنَازِعِهِمُ التي عَنْهَا يَتَفَاضَلُونَ، صَارِخًا بِهَا فِي كُلِّ حِينٍ، وَمُقَرِّعًا لَهُمْ بِضْعًا وَعِشْرِينَ عَامًا عَلَى رُؤُوسِ المَلَإِ أَجْمَعِينَ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَقَالَ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]؛ وَذَلِكَ أَنَّ المُفْتَرَى أَسْهَلُ، وَوَضْعَ البَاطِلِ وَالمُخْتَلَقِ عَلَى الاخْتِيَارِ أَقْرَبُ، وَاللَّفْظُ إِذَا تَبِعَ المَعْنَى الصَّحِيحَ كَانَ أَصْعَبَ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: فُلَانٌ يَكْتُبُ كَمَا يُقَالُ لَهُ، وَفُلَانٌ يَكْتُبُ كَمَا يُرِيدُ،

قوله (**الخَطيرِ والمَهينِ**): أي العَظيم والحقير، و(**المَهين**): بفتحِ الميمِ. قوله (**الغَثِّ**): -بفتحِ الغينِ المعجَمةِ وتشديدِ المثلَّثةِ- أي المهزولِ. قوله (**في القُلِّ والكُثْرِ**): -بضَمِّ القافِ والكافِ- أي القليلِ والكثيرِ. قوله (**وتَساجَلوا**): -بالسينِ المهملَةِ والجيمِ المفتوحةِ- أي تَراسَلوا.

قوله (**فَما راعَهم**): أي أَفْزَعَهم. قوله (**أُحْكِمَتْ آياتُه**): أي نُظِّمَتْ نَظْمًا مُحكَمًا مُتْقَنًا لا يَغْشاه خَلَلٌ.

وقوله (**وفُصِّلَتْ كَلِماتُه**): أيْ مُيِّزَتْ وبُيِّنَتْ. قوله (**مُختارُ لَفظِهِ**): أي مِن إيجازِ مَبانيه.

قوله (**في الخَطابةِ**): أي في بابِ المُخاطَبةِ. قوله (**والسَّجْعِ**): أي الكلامِ المُقَفَّى في النثرِ. قوله (**ومَنازِعِهم**): أي مَحالِّ المُنازَعةِ، بمَعْنى المحارَبةِ في المَعاني. وقوله (**يتَفاضَلونَ**): أي يَتَغالبونَ، و(**صارِخًا بها**): أيْ حالَ كَوْنه ﷺ داعيًا لهم ومناديًا.

قوله (**ومُقَرِّعًا**): -بتشديدِ الراءِ المكسورةِ بَعْدَ القافِ- أي موبِّخًا. قوله (**بِضْعًا وعِشرينَ**): المرادُ بالبِضْعِ هُنا ثلاثةٌ، وهوَ ما بَيْنَ الثلاثِ إلى التِّسعِ. قوله (**المَلإِ**): -بالهَمْزِ- أي الرُّؤَساءِ والأشرافِ.

قوله (**أَمْ يقولونَ افْتَراه**): اقتباسٌ أَوْرَدَه شاهدًا على ثُبوتِ دَعْواه؛ أيْ بَلْ يقولونَ اختَلَقَه محمدٌ. قوله (**وادْعوا مَنِ استَطَعْتُمْ**): أي استَعينوا بِمَنْ يُمْكِنُ استعانتُكم به.

قوله (**بِمِثْلِ هذا القرآنِ**): أي في كَمالِ مَبْناه وبلاغةِ مَعْناه. قوله (**مُفْتَرَياتٍ**): أي مُختَلَقاتٍ مِن عِنْدِ أنفُسِكم.

وَلِلأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي فَضْلٌ، وَبَيْنَهُمَا شَأْوٌ بَعِيدٌ.

فَلَمْ يَزَلْ يُقَرِّعُهُم ﷺ أَشَدَّ التَّقْرِيعِ، وَيُوَبِّخُهُمْ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ، وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ، وَيَحُطُّ أَعْلَامَهُمْ، وَيُشَتِّتُ نِظَامَهُمْ، وَيَذُمُّ آلِهَتَهُمْ وَآبَاءَهُم، وَيَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِصُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، مُحْجِمُونَ عَنْ مُمَاثَلَتِهِ، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ بِالتَّكْذِيبِ، وَالإِغْرَاءِ بِالافْتِرَاءِ، وَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، و﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، و﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]، و﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وَالمُبَاهَتَةِ وَالرِّضَا بِالدَّنِيئَةِ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، و﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، و﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وَالادِّعَاءِ مَعَ العَجْزِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وَقَدْ قَالَ لَهُمُ اللهُ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا، وَمَنْ تَعَاطَى ذَلِكَ مِنْ سُخَفَائِهِمْ -كَمُسَيْلِمَةَ- كَشَفَ عُوَارَهُ لِجَمِيعِهِمْ.

وَسَلَبَهُمُ اللهُ مَا أَلِفُوهُ مِنْ فَصِيحِ كَلَامِهِمْ، وَإِلَّا فَلَمْ يَخْفَ عَلَى أَهْلِ المَيْزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ فَصَاحَتِهِمْ وَلَا جِنْسِ بَلَاغَتِهِمْ، بَلْ وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، وَأَتَوْا مُذْعِنِينَ مِنْ بَيْنِ مُهْتَدٍ وَبَيْنِ مَفْتُونٍ.

وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ المُغِيرَةُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قَالَ: وَاللهِ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً،

قوله (ولِلأَوَّلِ): أي مِنَ الكاتِبِينَ. قوله (شَأْوٌ -بالهَمْزِ بَعْدَ المعجَمةِ- بَعِيدٌ): أي فَرْقٌ بَعِيدٌ.

قوله (وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ): أي يَنْسِبُ عُقولَهم إلى السَّفَهِ. قوله (ويَذُمُّ آلِهَتَهم): أي يَعيبُها في حَدِّ ذاتِها بقَوْلِه ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]. قوله (وآباءَهم): أي يَعيبُهم [على عبادتِها] بقولِه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ١٤١].

قوله (ناكِصونَ): أي راجِعونَ القَهْقَرى. قوله (مُحْجِمونَ): أي متأخِّرونَ.

قوله (يُؤْثَرُ): أي يُروى عَن أَهْلِ بابِلَ وغيرِهم.

قوله (سِحْرٌ مستَمِرٌّ): أي في قوله ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، وقوله (وإفكٌ افتَراه): أي في ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتَراه﴾ [الفرقان: ٤].

وقوله (أساطيرُ الأوَّلينَ): أي في ﴿وقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

قوله (وفي أَكِنَّةٍ): أي في ﴿وقالوا قلوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]. قوله (وَقْرٌ): أي ثِقَلٌ وصَمَمٌ.

قوله (والْغَوْا فيه): أي بالخُرافاتِ مِنَ الكَلامِ.

(وقَدْ قالَ... إلخ): أي وإخبارُه -تعالى- صدقٌ.

قوله (سُخَفائِهم): أي سُفهائِهم.

قوله (على أَهْلِ المَيْزِ): أي أصحابِ التمييزِ. قوله (وبَيْنِ مَفْتونٍ): أي مستخبِرٍ.

قوله (لَحَلاوةً): في نسخةٍ «حَلاوةً».

وإنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّ أَعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، مَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ[1].

وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فَسَجَدَ وَقَالَ: سَجَدْتُ لِفَصَاحَتِهِ، وَسَمِعَ آخَرُ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مَخْلُوقًا لا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الكَلَامِ.

وَحُكِيَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَوْمًا نَائِمًا فِي المَسْجِدِ، فَإِذَا هُوَ بِقَائِمٍ عَلَى رَأْسِهِ يَتَشَهَّدُ بِشَهَادَةِ الحَقِّ، فَاسْتَخْبَرَهُ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ مِنْ بَطَارِقَةِ الرُّومِ مِمَّنْ يُحْسِنُ كَلَامَ العَرَبِ وَغَيْرَهَا، وَأَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَسْرَى المُسْلِمِينَ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِكُمْ، فَتَأَمَّلْتُهَا، فَإِذَا قَدْ جُمِعَ فِيهَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى عِيسَى بنِ مَرْيَمَ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وَحَكَى الأَصْمَعِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ جَارِيَةٍ، فَقَالَ لَهَا: قَاتَلَكِ اللهُ مَا أَفْصَحَكِ! فَقَالَتْ: أَوَيُعَدُّ هَذَا فَصَاحَةً بَعْدَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فَجَمَعَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ وَخَبَرَيْنِ وَبِشَارَتَيْنِ.

فَهَذَا نَوْعٌ مِنْ إِعْجَازِهِ، مُنْفَرِدٌ بِذَاتِهِ، غَيْرُ مُضَافٍ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالصَّحِيحِ مِنَ القَوْلَيْنِ، وَكَوْنُ القُرآنِ مِنْ

(١) حديث (لما سمع الوليد بن المغيرة ﴿إن الله يأمرنا بالعدل والإحسان﴾...): البيهقي [«الدلائل» (٢/ ١٩٩)] عن عكرمة مرسلًا.

قوله (لَطَلاوةً): -بفتحِ أوَّلِه- أي رَوْنَقًا وحُسْنًا. قوله (لَمُغْدِقٌ): -بكسْرِ الدالِ- اسمُ فاعلٍ، وفي نسخةٍ بدونِ الميمِ، وهوَ إشارةٌ إلى جريانِ معانيه في قالَبِ مَبانيه. وقوله (لَمُثْمِرٌ): إشارةٌ إلى غزارةِ فَهْمِه.

قوله (فلَمّا استيْئَسوا): أي يَئِسوا يأسًا كَبيرًا؛ فالسينُ والتاءُ للمبالغةِ. وقوله (خَلَصوا نَجيًّا): أي انعَزَلوا مُتناجينَ في تدبيرِ أمْرِهم.

قوله (فاستَخْبَرَه): أي طَلَبَ مِنْه الخبَرَ. قوله (من بَطارقةِ الرّوم): «بَطارِقة» جمعُ «بطريقٍ» -بكَسْرِ الموَحَّدة-، عكْسُ جَمْعِه؛ فإنّه بفتْحِها، ومعْناه الرئيسُ في لُغَتِهم، كالوزيرِ والأميرِ. قوله (من أَسْرى المسلمِينَ): أي بِبلادِ الرّومِ. قوله (من أحوالِ الدنيا... إلخ): أي مِن لَواحقِ المَعاشِ والمَعادِ.

قوله (سَمِعَ كَلامَ جاريةٍ): أي قولَها: أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِن ذُنوبي كُلِّها، فقال لها: مِمَّ تستغفرينَ ولَمْ يَجْرِ عليْكِ قَلَمٌ؟! فقالَتْ:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَنْبي كُلِّه
قَتَلْتُ إنسانًا لِغَيْرِ حِلِّه
مِثْلَ غَزالٍ ناعمٍ في دَلِّه
انتَصَفَ الليلُ ولَمْ أُصَلِّه

فقال لها... إلخ.

قوله (وأوحَيْنا إلى أمِّ موسى): أي أَشَرْنا إليْها إلهامًا أو مَنامًا. قوله (بَيْنَ أَمْرَيْنِ) هُما: أَرْضِعيه وألقيه، (ونَهْيَيْنِ) هُما: لا تَخافي ولا تَحْزَني.

قِبَلِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ أَتَى بِهِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً، وَكَوْنُهُ ﷺ مُتَحَدِّيًا بِهِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً، وَعَجْزُ العَرَبِ عَنِ الإِتْيَانِ بِهِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً، وَكَوْنُهُ فِي فَصَاحَتِهِ خَارِقًا لِلْعَادَةِ مَعْلُومٌ ضَرُورَةً لِلْعَالِمِينَ بِالفَصَاحَةِ وَوُجُوهِ البَلَاغَةِ، وَسَبِيلُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا عِلْمُ ذَلِكَ بِعَجْزِ المُنْكِرِينَ مِنْ أَهْلِهَا عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَاعْتِرَافِ المُقِرِّينَ بِإِعْجَازِ بَلَاغَتِهِ.

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وَقَوْلَهُ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]، وَقَوْلَهُ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وَقَوْلَهُ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وَقَوْلَهُ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا...﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وَأَشْبَاهَهَا مِنَ الآيِ، بَلْ أَكْثَرَ القُرْآنِ، حَقَّقْتَ مَا بَيَّنْتُهُ مِنْ إِيجَازِ أَلْفَاظِهَا، وَكَثْرَةِ مَعَانِيهَا، وَدِيبَاجَةِ عِبَارَتِهَا، وَحُسْنِ تَأْلِيفِ حُرُوفِهَا، وَتَلَاؤُمِ كَلِمِهَا، وَأَنَّ تَحْتَ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْهَا جُمَلًا كَثِيرَةً، وَفُصُولًا جَمَّةً، وَعُلُومًا زَوَاخِرَ، مُلِئَتِ الدَّوَاوِينُ مِنْ بَعْضِ مَا اسْتُفِيدَ مِنْهَا، وَكَثُرَتِ المَقَالَاتُ فِي المُسْتَنْبَطَاتِ عَنْهَا.

ثُمَّ هُوَ فِي سَرْدِ القِصَصِ الطِّوَالِ، وَأَخْبَارِ القُرُونِ السَّوَالِفِ التِي يَضْعُفُ فِي عَادَةِ الفُصَحَاءِ عِنْدَهَا الكَلَامُ، وَيَذْهَبُ مَاءُ البَيَانِ، آيَةٌ لِمُتَأَمِّلِهِ مِنْ رَبْطِ الكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَالتِئَامِ سَرْدِهِ، وَتَنَاصُفِ وُجُوهِهِ، كَقِصَّةِ يُوسُفَ عَلَى طُولِهَا، ثُمَّ إِذَا تَرَدَّدَتْ قِصَصُهُ اخْتَلَفَتِ العِبَارَاتُ عَنْهَا عَلَى كَثْرَةِ تَرَدُّدِهَا، حَتَّى تَكَادَ كُلُّ وَاحِدَةٍ تُنْسِي فِي البَيَانِ صَاحِبَتَهَا، وَتَنَاصَفُ فِي الحُسْنِ وَجْهَ مُقَابِلَتِهَا، وَلَا نُفُورَ لِلنُّفُوسِ مِن تَرْدِيدِهَا، وَلَا مُعَادَاةَ لِمُعَادِهَا.

***

قوله (وأنتَ إذا تأمَّلْتِ...) إلى جواب الشرطِ: أي فإنَّ في ﴿ولَكُم في القِصاصِ...﴾ غرابةَ المقابَلةِ وغيْرِها.

وفي ﴿ولَوْ ترى...﴾ غايةَ الحَثِّ مَعَ البَلاغةِ إلى غيرِ ذلك.

وفي ﴿ادفَعْ بالَّتي...﴾ حُسْنَ المقابَلةِ مَعَ الأمرِ بحُسْنِ الخُلُقِ والصبْرِ على دَفْعِ السيئةِ بالحَسَنةِ.

وفي ﴿وقيلَ... ﴾ بلاغةَ التنزيلِ في خِطابِ الأرضِ والسماءِ لإهلاكِ الأعداءِ وإنْجاءِ غيْرِهم وغيرِ ذلك.

وفي ﴿فكُلًّا أخَذْنا...﴾ بيانَ عدْلِ الله -سبحانَه وتعالى- في خَلْقِه معَ البلاغةِ العظيمةِ.

قوله (وتَلاؤم): أي توافُق. قوله (صاحِبَتَها): أي نظيرتَها.

قوله (لِمُعادِها): -بضمِّ أوَّلِه- أي مُكَرِّرِها.

***

فَصْلٌ: الوَجْهُ الثاني مِنْ إعْجازِ القُرآنِ
صورةُ نظْمِهِ العجيبِ

الوَجْهُ الثَّانِي مِنْ إِعْجَازِ القُرآنِ صُورَةُ نَظْمِهِ العَجِيبِ، وَالأُسْلُوبُ الغَرِيبُ، المُخَالِفُ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ العَرَبِ، وَمَنَاهِجِ نَظْمِهَا وَنَثْرِهَا الَّذِي جَاءَ عَلَيْهِ، وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَقَاطِعُ آيِهِ، وَانْتَهَتْ فَوَاصِلُ كَلِمَاتِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُوجَدْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ نَظِيرٌ لَهُ، وَلَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مُمَاثَلَةَ شَيْءٍ مِنْهُ، بَلْ حَارَتْ فِيهِ عُقُولُهُمْ، وَتَدَلَّهَتْ دُونَهُ أَحْلامُهُمْ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى مِثْلِهِ فِي جِنْسِ كَلامِهِمْ مِنْ نَثْرٍ أَوْ نَظْمٍ أَوْ سَجْعٍ أَوْ رَجَزٍ أَوْ شِعْرٍ،

وَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُ ﷺ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ، رَقَّ لَهُ، فَجَاءَهُ أَبُو جَهْلٍ مُنْكِرًا عَلَيْهِ، فقَالَ: واللهِ، مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَعْلَمُ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، واللهِ، مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا.

وَفِي خَبَرِهِ الآخَرِ حِينَ جَمَعَ قُرَيْشًا عِنْدَ حُضُورِ المَوْسِمِ، وَقَالَ: إِنَّ وُفُودَ العَرَبِ [تَرِدُ]؛ فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا لَا يُكَذِّبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَقَالُوا: نَقُولُ: كَاهِنٌ، قَالَ: واللهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، مَا هُوَ بِزَمْزَمَتِهِ وَلَا سَجْعِهِ، قَالُوا: مَجْنُونٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، وَلَا بِخَنِقِهِ وَلَا وَسْوَسَتِهِ، قَالُوا: فَنَقُولُ: شَاعِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ؛ قَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ، رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ، وَقَرِيضَهُ وَمَبْسُوطَهُ وَمَقْبُوضَهُ، مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، قَالُوا: فَنَقُولُ: سَاحِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، وَلَا نَفْثِهِ، وَلَا عَقْدِهِ، قَالُوا: فما تَقُولُ؟ قَالَ: مَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّ أَقْرَبَ القَوْلِ أَنَّهُ سَاحِرٌ، وَإِنَّهُ سِحْرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وابْنِهِ، والمَرْءِ وأَخِيهِ، وَالمَرْءِ وزَوْجِهِ، وَالمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ، فَتفَرَّقُوا وَجَلَسُوا عَلَى السُّبُلِ يُحَذِّرُونَ النَّاسَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي الوَلِيدِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ الآيَاتِ [المدثر: ١١-٢٤].(١)

(١) حديث (إن قريشًا اجتمعت عند حضور الموسم ...): في نزول ﴿ذرني ومن خلقت وحيدًا﴾، البيهقي [«الدلائل» (٢/ ١٩٨)] عن ابن عباس.

قوله (والأُسْلوبُ الْغَريبُ): قال المُلّا: كان المناسبُ «وأسلوبُه الغريبُ».

قوله (وَتَدَلَّهَتْ): بالدالِ المهمَلةِ، وفي نسخةٍ «وتَوَلَّهَتْ»، أي اندَهَشَتْ.

قوله (رَقَّ): أي تأثَّرَ بِسَماعِه القرآنَ. قوله (فقالَ): أي الوليدُ، وفي نسخةٍ تجريدُ الفعلِ مِن الفاءِ.

قوله (وُفودَ العَرَبِ): -جَمْعُ وَفْدٍ- أي أقوامَها.

قوله (نَقولُ: كاهنٌ): أي يُخْبِرُ عَن الكائناتِ في الأزمنةِ الآتيةِ، يَدَّعي معرفةَ أسرارِ المغيَّباتِ. قوله (بِزَمْزَمَتِهِ): -أي الكاهنِ- أيْ إحضارِه الجنَّ لإخبارِه بخَبَرِه.

قوله (ولا بِخَنِقِه): -بفتحِ الخاءِ وكسرِ النونِ وتُسَكَّنُ وتُفْتَحُ وبالقافِ- أي ليسَ مِمَّنْ أصابَه الجِنُّ.

قوله (ولا نَفْثِه): أي نَفْخِه؛ يُشيرُ لِقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النفّاثاتِ في العُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

قوله (والمَرْءِ وزَوْجِه): أي المَرْءِ وزوجَتِه.

قوله (وَحيدًا): حالٌ مِن ضميرِ (ذَرْني).

وَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ حِينَ سَمِعَ القُرْآنَ: «يَا قَوْم، قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُهُ وَقَرَأْتُهُ وَقُلْتُهُ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ؛ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا بِالسِّحْرِ وَلَا بِالكَهَانَةِ». وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ الحَارِثِ مِثْلَهُ[1].

وَفِي حَدِيثِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ، وَوَصَفَ أَخَاهُ أُنَيْسًا، فَقَالَ: «وَاللهِ مَا سَمِعْتُ بِأَشْعَرَ مِنْ أَخِي أُنَيْسٍ؛ لَقَدْ نَاقَضَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَنَا أَحَدُهُم، وَإِنَّهُ انْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ، وَجَاءَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ بِخَبَرِ النَّبِيِّ ﷺ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ؛ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَلَمْ يَلْتَئِمْ، وَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ، وَإِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»[2].

وَالأَخْبَارُ فِي هَذَا صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ، وَالإِعْجَازُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّوْعَيْنِ -الإِيجَازُ وَالبَلَاغَةُ بِذَاتِهَا، أَوِ الأُسْلُوبُ الغَرِيبُ بِذَاتِهِ- كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نَوْعُ إِعْجَازٍ عَلَى التَّحْقِيقِ، لَمْ تَقْدِرِ العَرَبُ عَلَى الإِتْيَانِ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا؛ إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خَارِجٌ عَنْ قُدْرَتِهَا، مُبَايِنٌ لِفَصَاحَتِهَا وَكَلَامِهَا، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ المُحَقِّقِينَ.

وَذَهَبَ بَعْضُ المُقْتَدَى بِهِم إِلَى أَنَّ الإِعْجَازَ فِي مَجْمُوعِ البَلَاغَةِ وَالأُسْلُوبِ، وَأَتَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلٍ تَمُجُّهُ الأَسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ القُلُوبُ، وَالصَّحِيحُ مَا قَدَّمْنَاهُ، وَالعِلْمُ بِهَذَا كُلِّهِ ضَرُورَةً وَقَطْعًا، وَمَنْ تَفَنَّنَ فِي عُلُومِ البَلَاغَةِ، وَأَرْهَفَ خَاطِرَهُ وَلِسَانَهُ أَدَبُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَا قُلْنَاهُ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي وَجْهِ عَجْزِهِمْ عَنْهُ؛ فَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ: إِنَّهُ مِمَّا جُمِعَ فِي قُوَّةِ جَزَالَتِهِ، وَنَصَاعَةِ أَلْفَاظِهِ، وَحُسْنِ نَظْمِهِ وَإِيجَازِهِ، وَبَدِيعِ تَأْلِيفِهِ وَأُسْلُوبِهِ، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ البَشَرِ، وَإِنَّهُ مِن بَابِ الخَوَارِقِ المُمْتَنِعَةِ عَنْ أَقْدَارِ الخَلْقِ عَلَيْهَا، كَإِحْيَاءِ المَوْتَى، وَقَلْبِ العَصَا، وَتَسْبِيحِ الحَصَا.

---

(١) [تقدم تخريج قول النضر. انظر ص١٧٧].

(٢) حديث أبي ذر في إسلامه وإسلام أخيه أنيس: مسلم [٢٤٧٣].

قوله (ناقَضَ): أيْ عارَضَ. قوله (أَقْراءِ الشِّعْرِ): -بفتحِ أوَّلِه ومَدِّ ثالثِه- أي طُرُقِه وأنواعِ بحورِه.

قوله (لَصادِقٌ): أي في دَعْوى الرسالةِ. قوله (وإنَّهم لكاذِبونَ): فيما يقولونَه.

قوله (الإيجازُ والبلاغةُ): بالرفعِ على أنَّهما خبرانِ لمحذوفٍ، أو بالجرِّ على البَدَليةِ.

قوله (في قوّةِ جَزالَتِه): أي لَطائفِ مَعانيه.

وقوله (ونصاعةِ ألفاظِه): أي خُلوصِ مَعانيه، وشرائفِ مَبانيه.

وَذَهَبَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ إِلَى أَنَّهُ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ مِثْلُهُ تَحْتَ مَقْدُورِ البَشَرِ، وَيُقْدِرَهُمُ اللهُ تعَالَى عَلَيْهِ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هَذَا، وَلَا يَكُونُ، فَمَنَعَهُمُ اللهُ هَذَا، وعَجَّزَهُمْ عَنْهُ، وَقَالَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَعَلَى الطَّرِيقَيْنِ فَعَجْزُ العَرَبِ عَنْهُ ثَابِتٌ، وَإِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِ البَشَرِ وَتَحَدِّيهِمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ قَاطِعٌ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّعْجِيزِ، وَأَحْرَى بِالتَّقْرِيعِ، وَالاحْتِجَاجُ بِمَجِيءِ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ بِشَيْءٍ لَيْسَ مِنْ قُدْرَةِ البَشَرِ لَازِمٌ، وَهُوَ أَبْهَرُ آيَةٍ، وَأَقْمَعُ دَلَالَةٍ.

وعلى كُلِّ حَالٍ فَمَا أَتَوْا فِي ذَلِكَ بِمَقَالٍ، بَلْ صَبَرُوا عَلَى الجَلَاءِ وَالقَتْلِ، وَتَجَرَّعُوا كَاسَاتِ الصَّغَارِ وَالذُّلِّ، وكَانُوا مِنْ شُمُوخِ الأَنْفِ وَإِبَاءَةِ الضَّيْمِ بِحَيْثُ لَا يُؤْثِرُونَ ذَلِكَ اخْتِيَارًا، وَلَا يَرْضَوْنَهُ إِلَّا اضْطِرَارًا، وَإِلَّا فَالمُعَارَضَةُ لَوْ كَانَتْ مِنْ قُدَرِهِمْ، وَالشُّغْلُ بِهَا أَهْوَنُ عَلَيْهِم، وَأَسْرَعُ بِالنُّجْحِ وَقَطْعِ العُذْرِ وَإِفْحَامِ الخَصْمِ لَدَيْهِمْ، وَهُمْ مَنْ هُمْ قُدْرَةً عَلَى الكَلَامِ، وَقُدْوَةً فِي المَعْرِفَةِ بِهِ لِجَمِيعِ الأَنَامِ.

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ جَهَدَ جَهْدَهُ، وَاسْتَنْفَدَ مَا عِنْدَهُ فِي إِخْفَاءِ ظُهُورِهِ وَإِطْفَاءِ نُورِهِ، فَمَا جَلَوْا فِي ذَلِكَ خَبِيئَةً مِن بَنَاتِ شِفَاهِهِمْ، وَلَا أَتَوْا بِنُطْفَةٍ مِنْ مَعِينِ مِيَاهِهِمْ مَعَ طُولِ الأَمَدِ، وَكَثْرَةِ العَدَدِ، وَتَظَاهُرِ الوَالِدِ وَمَا وَلَدَ؛ بَلْ أَبْلَسُوا، فَمَا نَبَسُوا، وَمُنِعُوا فَانْقَطَعُوا.

فَهَذانِ نَوْعَانِ مِن إِعْجَازِهِ.

***

(وعلى الطريقَيْنِ): أي كَوْنِه معجِزًا بِذاتِه ليسَ في قدرةِ البشَرِ الإتيانُ بِمِثْلِه، أو بتعجيزِ الله -سبحانَه- لَهُم عَن معارَضتِه.

قوله (وأَحْرى): أي أَلْيَقُ وأَوْلى.

قوله (على الجَلاءِ): -بفتحتينِ ومَدٍّ- أي الخُروجِ مِن أوطانِهم. قوله (الصَّغارِ): -بالفتحِ والغينِ المعجَمةِ- أي الحَقارةِ. قوله (مِن شُموخِ الأنفِ): أي رِفْعَتِه كِبرًا وعُتوًّا. وقوله (وإباءةِ الضَّيْمِ): بكسرِ أوَّلِه وموحَّدةٍ وياءٍ وهمْزةٍ بَعْدَ ألِفٍ.

قوله (النُّجْحِ): أي الظَّفَرِ. قوله (وإفحامِ الخَصْمِ): أي إلزامِه.

قوله (جَهَدَ جَهْدَه): الأوَّلُ فِعلٌ والثاني مَصْدَرٌ، وجيمُ الأوّلِ مفتوحةٌ وكذا الثاني ويُضَمُّ؛ والمعنى بَذَلَ جَهْدَه وبالَغَ (واستنْفَدَ): -بالمهملَةِ آخِرَه- أي استَفْرَغَ.

قوله (مِنْ مَعينِ مياهِهِمْ): أي ظواهرِ أنوارِ بلاغتِهم وأسرارِ فصاحتِهم.

(فهذانِ نوعانِ): أي اجتماعًا وانفرادًا.

***

فَصْلٌ: [الوَجْهُ الثالثُ من الإعْجازِ الإِخْبارُ بِالمُغيَّباتِ]

الوَجْهُ الثَّالِثُ مِنَ الإِعْجَازِ: مَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الإِخْبَارِ بِالمُغَيَّبَاتِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ وَلَمْ يَقَعْ فَوُجِدَ كَمَا وَرَدَ، وَعَلَى الوَجْهِ الَّذِي أَخْبَرَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيَة [النور: ٥٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ إِلَى آخِرِهَا [النصر: ١-٣].

فَكَانَ جَمِيعُ هَذَا كَمَا قَالَ، فَغَلَبَتِ الرُّومُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي الإِسْلَامِ أَفْوَاجًا، فَمَا مَاتَ ﷺ وَفِي بِلَادِ العَرَبِ كُلِّهَا مَوْضِعٌ لَمْ يَدْخُلْهُ الإِسْلَامُ، وَاسْتَخْلَفَ المُؤْمِنِينَ فِي الأَرْضِ، وَمَكَّنَ فِيهَا دِينَهُمْ، وَمَلَّكَهُمْ إِيَّاهَا مِنْ أَقْصَى المَشَارِقِ إِلَى أَقْصَى المَغَارِبِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ، فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[١].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]؛ فَكَانَ كَذَلِكَ، لَا يَكَادُ يُعَدُّ مَنْ سَعَى فِي تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِ مُحْكَمِهِ مِنَ المُلْحِدَةِ وَالمُعَطِّلَةِ، لَا سِيَّمَا القَرَامِطَةُ، فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ وَحَوْلَهُمْ وَقُوَّتَهُمُ اليَوْمَ نَيِّفًا عَلَى خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فَمَا قَدَرُوا عَلَى إِطْفَاءِ شَيْءٍ مِنْ نُورِهِ وَلَا تَغْيِيرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمِهِ، وَلَا تَشْكِيكِ المُسْلِمِينَ فِي حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ، وَالحَمْدُ للهِ.

(١) حديث (زُويت لي الأرض ...): مسلم [٢٨٨٩] عن ثوبان.

قوله (آمنينَ): حالٌ مِن الواوِ المحذوفةِ[١].

قوله (وهُمْ): أي الرّومُ، (مِن بَعْدِ غلَبِهم) أي لِلفُرْسِ سيغلِبونَهم.

قوله (ليُظْهِرَه): أي يُعْليَه.

قوله (والفَتحُ): أي فتحُ مَكّةَ، زادَها اللهُ شَرَفًا.

قوله (ودَخَلَ الناسُ... إلخ): أي بعْدَ فتحِ مَكّةَ. قوله (أفواجًا): أي فَوْجًا بَعْدَ فوْجٍ مِن أهْلِ مَكّةَ والطائفِ واليمَنِ وغيرِها.

قوله (واستَخْلَفَ): أي اللهُ -كَما في نسخةٍ.

قوله (كَما قالَ... إلخ): أي فيما رَواه مسلِمٌ. و(زويَتْ): جُمِعَتْ وطويَتْ.

قوله (وإنّا له لحافظونَ): أي مِن التحريفِ بالزيادةِ وغيرِها.

قوله (لا يكادُ يُعَدُّ): الفِعلُ الثاني بصيغةِ المجهولِ.

قوله (لا سيَّما القَرامِطةُ): أي لا مِثلَ الذينَ هُم أَتْباعُ حَمْدانَ القِرْمِطيِّ، فـ(سِيّ) بمعنى «مِثْل»، و(ما) موصولةٌ، و(القَرامطةُ) خبرٌ لِصَدْرِ الصلةِ المحذوفِ.

قوله (فَأَجْمَعوا كَيْدَهُمْ وحَوْلَهم): أي اتَّفَقوا على الكَيدِ والجُهْدِ. قوله (مِن كَلِمِه): في نسخةٍ «مِن كَلامِه».

(١) واو «تدخلون» المحذوفة.

قولـه (ومنـه): أي إعجـازِ القـرآنِ. قولـه (ويولّـونَ الدُّبُـرَ): المُـرادُ بالمعمـولِ الجِنْـسُ، كَما قُـرِئَ (ويولّـونَ الأدبـارَ). قولـه (إلا أذًى): أي ضَرَرًا يَسـيرًا بِطَعْـنٍ وتهديـدٍ في الدّيـنِ.

قولـه (ومـا فيـه... إلـخ): أي مِـن إيضـاحِ أقوالِهـم، وإفصـاحِ أحوالِهـم.

قولـه (لَـوْلا يُعَذِّبُنـا): أي هَـلّا يُعاقِبُنـا بِقَوْلِنا في محمدٍ طَعْنًـا مِنّـا فيـه وفي الإسـلامِ، ودَفْعًـا عَنّـا بالسّـامِ بَـدَلَ السَّـلامِ، قـالَ -تعـالى- لِعِلْمِـه بحالهـم: ﴿حَسْـبُهم جَهَنَّـمُ يَصْلَوْنَهـا...﴾ الآيـة [المجادلـة: ٨].

قولـه (ومِـنَ الذيـنَ هـادوا): أي بَعْـضِ اليهـودِ. قولـه (يَـوْمَ بَـدْرٍ): أي عـلى وَفْـقِ رِضاهـم مِـن الظَّفَـرِ بإحْـدى الطائفتَـيْنِ؛ أي القافلـةِ الراجعـةِ مِـن الشـامِ، والآتيـةِ مِـن بيـتِ الله الحـرامِ، زادَه اللهُ شَرَفًـا. قولـه (ذاتِ الشـوكةِ): أي صاحبـةِ السـلاحِ، يَعني العـيرَ المقبِلـةَ مَـعَ أَبي سُـفْيانَ.

قولـه (إنّـا كَفَيْنـاكَ المسـتهزئينَ): المـرادُ بالمعمـولِ: الوَليـدُ، وعَـديٌّ، والحـارثُ بـنُ قَيْـسٍ، والأَسْـودُ بـنُ عَبْـدِ يَغـوثَ، وابـنُ المُطَّلِـبِ، وأبـو لَهَـبٍ، والعـاصِ بـنُ وائـلٍ، وعُقبـةُ بـن أَبي مُعَيْـطٍ، والحَكَـمُ بـنُ أَبي العـاصِ؛ إلا أنّـه أَسْـلَمَ يـومَ الفتـحِ، والباقـونَ أُهلِكـوا بأنـواعٍ مِـن العُقوبـةِ. قوله (يُنَفِّـرونَ): بتشـديدِ الفـاءِ المكسـورةِ. قولـه (واللهُ يَعْصِمُـكَ مِـن النـاسِ): عِـدةٌ مِنـه -تعـالى- بِعِصْمـةِ روحِـه مِـن غَوائـلِ عَـدوِّه.

***

وَمِنْـهُ قَوْلُـهُ: ﴿سَـيُهْزَمُ الجَمْـعُ وَيُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ﴾ [القمـر: ٤٥]، وَقَوْلُـهُ: ﴿قَاتِلُوهُـمْ يُعَذِّبْهُـمُ اللهُ بِأَيْدِيكُـمْ...﴾ الآيـة [التوبـة: ١٤]، وَقَوْلُـهُ: ﴿هُـوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِيـنِ الحَـقِّ...﴾ الآيـة [التوبـة: ٣٣]، وَقَوْلُـهُ: ﴿لَـنْ يَضُرُّوكُـمْ إِلا أَذًى...﴾ الآيـة [آل عمـران: ١١١].

فـكَانَ كُلُّ ذَلِـكَ وَمَـا فِيـهِ مِـن كَشْـفِ أَسْرَارِ المُنَافِقِـينَ وَاليَهُـودِ، وَمَقالِهِـمْ وَكَذِبِهِـمْ فِي حَلِفِهِـمْ، وَتَقْرِيعِهِـمْ بِذَلِـكَ، كَقَوْلِـهِ: ﴿وَيَقُولُـونَ فِي أَنْفُسِـهِمْ لَـوْلا يُعَذِّبُنَـا اللهُ بِـمَا نَقُـولُ...﴾ الآيَـة [المجادلة: ٨]، وَقَوْلِـهِ: ﴿يُخْفُـونَ فِي أَنْفُسِـهِمْ مَـا لا يُبْـدُونَ لَـكَ...﴾ الآيَـة [آل عمـران: ١٥٤]، وَقَوْلِـهِ: ﴿وَمِـنَ الَّذِيـنَ هَـادُوا سَـمَّاعُونَ لِلكَـذِبِ...﴾ الآيَـة [المائـدة: ٤١]، وَقَوْلِـهِ: ﴿مِـنَ الَّذِيـنَ هَـادُوا يُحَرِّفُـونَ الكَلِـمَ عَـن مَّوَاضِعِـهِ وَيَقُولُـونَ سَـمِعْنَا وَعَصَيْنَـا وَاسْـمَعْ غَـيْرَ مُسْـمَعٍ وَرَاعِنَـا لَيّـاً بِأَلْسِـنَتِهِمْ وَطَعْنـاً فِي الدِّيـنِ﴾ [النسـاء: ٤٦].

وَقَـدْ قَـالَ مُبْدِيًـا مَـا قَـدَّرَهُ اللهُ، وَمَـا اعتقـدَهُ المؤمنـونَ يَـوْمَ بَـدْرٍ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُـمُ اللهُ إِحْـدَى الطَّائِفَتَـيْنِ أَنَّهَـا لَكُـمْ...﴾ الآيَـة [الأنفـال: ٧]، وَمِنْـهُ قَوْلُـهُ: ﴿إِنَّـا كَفَيْنَـاكَ المُسْـتَهْزِئِينَ﴾ [الحجـر: ٩٥]، وَلَمَّـا نَزَلَـتْ بَـشَّرَ النَّبِـيُّ ﷺ بِذَلِـكَ أَصْحَابَـهُ، بِـأَنَّ اللهَ كَفَـاهُ إِيَّاهُـمْ[1]، وَكَانَ المُسْـتَهْزِئُونَ نَفَـرًا بِمَكَّـةَ، يُنَفِّـرُونَ النَّـاسَ عَنْـهُ وَيُؤْذُونَـهُ فَهَلَكُـوا. وَقَوْلِـهِ: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُـكَ مِـنَ النَّـاسِ﴾ [المائـدة: ٦٧]، وَكَانَ كَذَلِـكَ عَـلَى كَثْـرَةِ مَـنْ رَامَ ضُرَّهُ، وَقَصَـدَ قَتْلَـهُ، وَالأَخْبَـارُ بِذَلِـكَ مَعْرُوفَـةٌ صَحِيحَـةٌ.

***

---

(١) حديث: (لما نزلت ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ بشر أصحابه بأن الله كفاه إياهم ...): الطبراني في الأوسط [٤٩٨٦] والبيهقي [الدلائل (٢/ ٣١٦)] وأبو نعيم [الدلائل (٢٠٣)] عن ابن عباس بمعناه.

فَصْلٌ: الوَجْهُ الرابعُ
ما أنبأَ بِهِ مِنْ أخْبارِ القُرونِ السَّالِفة

الوَجْهُ الرَّابِعُ: مَا أَنْبَأَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ القُرُونِ السَّالِفَةِ، وَالأُمَمِ البَائِدَةِ، وَالشَّرَائِعِ الدَّاثِرَةِ مِمَّا كَانَ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ القِصَّةَ الوَاحِدَةَ إِلَّا الفَذُّ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِي قَطَعَ عُمْرَهُ فِي تَعَلُّمِ ذَلِكَ، فَيُورِدُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ، وَيَأْتِي بِهِ عَلَى نَصِّهِ، فَيَعْتَرِفُ العَالِمُ بِذَلِكَ بِصِحَّتِهِ وَصِدْقِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَنَلْهُ بِتَعْلِيمٍ.

وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ ﷺ أُمِّيٌّ، لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، وَلَا اشْتَغَلَ بِمُدَارَسَةٍ وَلَا مُثَافَنَةٍ، وَلَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ، وَلَا جَهِلَ حَالَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُونَهُ ﷺ عَنْ هَذَا، فَيُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ مَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْهُ ذِكْرًا، كَقِصَصِ الأَنْبِيَاءِ، وَخَبَرِ مُوسَى وَالخَضِرِ، وَيُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، وَأَصْحَابِ أَهْلِ الكَهْفِ وَذِي القَرْنَيْنِ، وَلُقْمَانَ وَابْنِهِ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الأَنْبَاءِ، وَالقِصَصِ، وَبَدْءِ الخَلْقِ، وَمَا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى مِمَّا صَدَّقَهُ فِيهِ العُلَمَاءُ بِهَا، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَكْذِيبِ مَا ذُكِرَ مِنْهَا، بَلْ أَذْعَنُوا لِذَلِكَ، فَمِنْ مُوَفَّقٍ آمَنَ بِمَا سَبَقَ لَهُ مِنْ خَيْرٍ، وَمِنْ شَقِيٍّ مُعَانِدٍ خَاسِرٍ.

وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يُحْكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ النَّصَارَى وَاليَهُودِ -عَلَى شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ لَهُ، وَحِرْصِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَطُولِ احْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ، وَتَقْرِيعِهِمْ بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مَصَاحِفُهُمْ، وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لَهُ ﷺ، وَتَعْنِيتِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ أَخْبَارِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَسْرَارِ عُلُومِهِمْ وَمُسْتَوْدَعَاتِ سِيَرِهِمْ، وَإِعْلَامِهِ لَهُمْ بِمَكْتُومِ شَرَائِعِهِمْ وَمُضَمَّنَاتِ كُتُبِهِمْ، مِثْلُ سُؤَالِهِمْ عَنِ الرُّوحِ[1]،

---

(١) حديث سؤالهم عن الروح: الشيخان [البخاريُّ (٤٧٢١)، ومسلمٌ (٢٧٩٤)] عن ابن مسعود، والترمذي [٣١٤٠] عن ابن عباس.

قولـه (البائـدةِ): أي الفانيـةِ الهالِكـةِ. قولـه (الداثِـرةِ): أي الدارسـةِ.

قولـه (إلّا الفذُّ): -بفَتْحِ الفاءِ وتشديدِ الذّالِ المعجَمةِ- أي المُنفَرِدُ عَنْ أقرانِه في عُلوِّ شأنِه. قوله (على نَصِّه): أيْ مِن غَيْرِ تصرُّفٍ في لَفْظِه بَلْ كَما قَرأَه عليْه جبريلُ. قوله (فيَعْتَرِفُ العالِمُ): أي مِنْه -كَما في نُسخةٍ.

قوله (أُمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكْتُبُ): أي في جَميعِ عُمْرِه. وقوله (ولا مُثافنةٍ): -بالمثَلَّثةِ والفاءِ والنونِ- أي مُجالَسةٍ مَعَ الشُّعَراءِ والفُضَلاءِ، قالَ المُلّا: وفي نسخةٍ بالقافِ والباءِ الموَحَّدةِ، وهيَ تصحيفٌ، أو مِن ثُقوبِ الذِّهْنِ مُزاحَمةً في المَعْرِفةِ.

قوله (فيُنْزِلُ عَلَيْه): بصيغةِ الفاعلِ أوِ المفعولِ مُخَفَّفًا ومُشَدَّدًا. قوله (مِمّا صَدَّقَهُ فيهِ العُلَماءُ): أي مِن أهلِ الكِتابِ. وقوله (ما ذُكِرَ مِنْها): بصيغةِ الفاعلِ أو المفعولِ.

قوله (موَفَّقٍ): بتشديدِ الفاءِ المفتوحةِ. قوله (خاسِرٍ): وفي نسخةٍ «حاسِدٍ».

وقوله (عَنْ أَحَدٍ): في أصلِ الدلجيِّ «عَن واحدٍ».

قوله (مَصاحِفُهم): أي بِما اشتَمَلَتْ عليْه كُتُبُهم، قال المُلّا: والأظهَرُ أنْ يقولَ «صُحُفُهم» أوْ «صَحائفُهم».

قوله (ومُسْتَوْدَعاتِ): بفتحِ الدالِ مَعَ ضَمِّ أوَّلِه. قوله (سِيَرِهم): بكسْرِ السينِ وفتحِ الياءِ.

وَذِي القَرْنَيْنِ وَأَصْحَابِ الكَهْفِ[1]، وَعِيسَى، وَحُكْمِ الرَّجْمِ[2]، وَمَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ[3]، وَمَا حُرِّمَ عَلَيْهِم مِنَ الأَنْعَامِ وَمِنْ طَيِّبَاتٍ كَانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ، فَحُرِّمَتْ عَلَيْهِم بِبَغْيِهِمْ، وَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمُ التي نَزَلَ فِيهَا القُرْآنُ، فَأَجَابَهُمْ، وَعَرَّفَهُمْ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، فَمَا سُمِعَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُم أَنَّهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَكَذَّبَهُ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ صَرَّحَ بِصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِ مَقَالَتِهِ، وَاعْتَرَفَ بِعِنَادِهِ وَحَسَدِهِم إِيَّاهُ، كَأَهْلِ نَجْرَانَ، وَابنِ صُورِيَا، وَابْنَيْ أَخْطَبَ وَغَيْرِهِمْ.

وَمَنْ بَاهَتَ فِي ذَلِكَ بَعْضَ المُبَاهَتَةِ، وَادَّعَى أَنَّ فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لِمَا حَكَاهُ مُخَالَفَةً، دُعِيَ إِلَى إِقَامَةِ حُجَّتِهِ، وَكَشْفِ دَعْوَتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤]، فَقَرَّعَ وَوَبَّخَ وَدَعَا إِلَى إِحْضَارِ مُمْكِنٍ غَيْرِ مُمْتَنِعٍ؛ فَمِنْ مُعْتَرِفٍ بِمَا جَحَدَهُ، وَمُتَوَاقِحٍ يُلْقِي عَلَى فَضِيحَتِهِ مِنْ كِتَابِهِ يَدَهُ، وَلَمْ يُؤْثَرْ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَظْهَرَ خِلَافَ قَوْلِهِ مِنْ كُتُبِهِ، وَلَا أَبْدَى صَحِيحًا وَلَا سَقِيمًا مِنْ صُحُفِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ...﴾ الآيَتَيْنِ [المائدة: ١٥-١٦].

***

(١) حديث سؤالهم عن ذي القرنين وأصحاب الكهف: ابن إسحاق [«السيرة» (ص: ٢٠١)] عن ابن عباس، والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ٢٩٦)].

(٢) حديث سؤالهم عن الرجم: الشيخان [البخاري (٣٤٦٧) عن ابن عمر، مسلم (١٧٠٠)] عن البراء.

(٣) حديث سؤالهم عمّا حرم إسرائيل على نفسه: الترمذي [٣١١٧] عن ابن عباس.

قولـه (وذي القرنَيْنِ): أي فإنْ أجابَ عنْها أو سكَتَ فلَيْسَ بنَبيٍّ، وإنْ أجابَ عَنْ بَعْضٍ وسَكَتَ عَنْ بَعْضٍ فهوَ نَبيٌّ، فبَيَّنَ لَهم -كما رَواه الشيخانِ- قِصَّتَيْ أصحابِ الكهْفِ وذي القرنَيْنِ، وأبْهَمَ أمْرَ الرّوحِ كَما هوَ مُبْهَمٌ في التوراةِ.

قوله (وصِدْقِ مَقالَتِه): في نسخةٍ صحيحةٍ «مَقالةٍ»، وفي أُخرى: فَتْحُ الصادِ وتشديدُ الدالِ؛ على أنّه فِعْلٌ ماضٍ، و(مقالتَه) مَفعولُه. قوله (وحَسَدِهم): في نسخةٍ «وحَسَدِه». قوله (وابنِ صوريا): بضمِّ الصادِ وكسرِ الراءِ مقصورًا. قوله (وابْنَيْ أَخْطَبَ): بالخاءِ المعجمةِ، وابْناه يَهوديّانِ هَلَكا على كُفْرِهما.

قوله (ومَنْ باهَتَ): أي ومَنْ باحَثَ. قوله (فاتْلوها... إلخ): رويَ أنّه ﷺ لَمّا قالَ لهم ذلك بُهِتوا ولَمْ يَجْتَرِئوا على أنْ يأتوا بها، وهذا برهانٌ عظيمٌ على صِدْقِ نُبوَّتِه ودَعْوَتِه. قوله (فقَرَّعَ): بتشديدِ الراءِ. قوله (ومُتَواقِحٍ): -بالقافِ والحاءِ- أي قليلِ حَياءٍ. قوله (ولَمْ يُؤْثَرْ): بصيغةِ المجهولِ.

قوله (يا أهْلَ الكِتابِ): والمُرادُ بِهِم اليهودُ والنصارى. قوله (ويَعْفو عَنْ كَثيرٍ): أي مِمّا يُخْفونَه مِمّا لا ضرورةَ إلى تَبْيينِه، أو عَنْ كَثيرٍ منْكم. قوله (الآيتَيْنِ): يَعْني قولَه تعالى: (قَدْ جاءَكم مِنَ اللهِ نورٌ...) إلى قولِه (إلى صراطٍ مستقيمٍ).

***

فَصْلٌ [في وجوهٍ أُخرى مِن الإعْجازِ، منها ورودُ آياتٍ بِتَعْجيزِ قومٍ في قَضايا فما قَدَرُوا على فِعْلِها]

هَـٰذِهِ الوُجُوهُ الأَرْبَعَةُ مِنْ إِعْجَازِهِ بَيِّنَةٌ، لَا نِزَاعَ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ.

وَمِنَ الوُجُوهِ البيِّنَةِ فِي إِعْجَازِهِ مِنْ غَيْرِ هَـٰذِهِ الوُجُوهِ آيٌ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ لِلْيَهُودِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ أَعْظَمُ حَجَّةٍ، وَأَظْهَرُ دِلالَةٍ عَلَى صِحَّةِ الرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿فَتَمَنَّوُا المَوْتَ﴾، وَأَعلَمَهُمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، فَلَمْ يَتَمَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (والذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقُولُهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ إِلَّا غَصَّ بِرِيقِهِ)[1] -يَعْنِي: يَمُوتُ مَكَانَهُ-، فَصَرَفَهُمُ اللهُ عَنْ تَمَنِّيهِ، وَجَزَّعَهُمْ لِيُظْهِرَ صِدْقَ رَسُولِهِ، وَصِحَّةَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَتَمَنَّهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَكَانُوا عَلَى تَكْذِيبِهِ أَحْرَصَ لَوْ قَدَرُوا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، فَظَهَرَتْ بِذَلِكَ مُعْجِزَاتُهُ، وَبَانَتْ حُجَّتُهُ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الأَصِيلِيُّ: مِنْ أَعْجَبِ أَمْرِهِمْ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا وَاحِدٌ -مِنْ يَوْمِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ نَبِيَّهُ- يُقْدِمُ عَلَيْهِ وَلَا يُجِيبُ إِلَيْهِ، وَهَـٰذَا مَوْجُودٌ مُشَاهَدٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَهُ مِنْهُمْ.

---

(١) حديث (والذي نفسي بيده لا يقولها رجلٌ منهم إلا غصّ بريقه): البيهقيّ [«الدلائل» (٦/ ٢٧٤)] بهذا اللفظ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وأخرجه أحمد [٢٢٢٥] بسند جيد عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا).

قوله (آيٌ): -بِمَدِّ أوَّلِه- أي آياتٌ.

قوله (ولا قَدَروا على ذلك): أي بَلْ عَجَزوا عَنِ المعارَضةِ هُنالكَ.

قوله (مِن دونِ الناسِ): أي باقيهم كَما هيَ الدعوةُ بِقَوْلِهِم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هودًا...﴾ الآيَة [البقرة: ١١١].

قوله (إلا غَصَّ بريقِه): (غَصَّ) بفتحِ الغينِ المعجمةِ وتشديدِ الصادِ المهمَلةِ، لا بِضَمِّ أوَّلِه؛ لِأنَّه لازمٌ لا يُبْنى مفعولٌ له -ذَكَرَه الدلجيُّ-، والظاهرُ ما ضُبِطَ في بَعْضِ النُّسَخِ مِن أنَّه مَبنيٌّ لِلمجهولِ، وأنَّ مَعْناه «شَرِقَ بريقِه».

قوله (وجَزَّعَهُم): -بتشديدِ الزايِ- أي أدْخَلَ الخَوْفَ في قلوبِهم.

قوله (الأَصِيلِيُّ): بفتحٍ فكسْرٍ.

قوله (مِنْ يَوْمِ أمَرَ اللهُ... إلخ): أي بقولِه ﴿قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدارُ الآخِرةُ...﴾ الآية [البقرة: ٩٤].

وَكَذَلِكَ آيَةُ المُبَاهَلَةِ مِنْ هَذَا المَعْنَى، حَيْثُ وَفَدَ عَلَيْهِ أَسَاقِفَةُ نَجْرَانَ وَأَبَوُا الإِسْلَامَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ آيَةَ المُبَاهَلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فَامْتَنَعُوا مِنْهَا وَرَضُوا بِأَدَاءِ الجِزْيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ العَاقِبَ عَظِيمَهُمْ قَالَ لَهُمْ: قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ مَا لَاعَنَ قَوْمًا نَبِيٌّ قَطُّ، فَبَقِيَ كَبِيرُهُمْ وَلَا صَغِيرُهُمْ[1].

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ كَمَا كَانَ، وَهَذِهِ الآيَةُ أَدْخَلُ فِي بَابِ الإِخْبَارِ عَنِ الغَيْبِ، وَلَكِنْ فِيهَا مِنَ التَّعْجِيزِ مَا فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

***

(١) حديث آية المباهلة: الشيخان [البخاريُّ (٤٣٨٠) عن ابن عمر، ومسلمٌ (٢٤٢٠)] عن حذيفة، وله طرق أخرى.

قوله (آيَةُ المُبَاهَلَةِ): -بفَتْحِ الهاءِ- أي المُلاعَنَةِ والدُّعاءِ على الظالِمِ مِن الفريقَيْنِ.

قوله (مِن هذا المَعْنى): أي مِن حَيْثيةِ عَدَمِ الإجابةِ إلى ما دَعَتْ إلَيْه الآيةُ.

قوله (حيثُ وَفَدَ): -بفتحتَيْنِ- أي قَدِمَ. قوله (أَساقِفةُ نَجْرانَ): أي رؤساءُ النَّصارى، و«نَجْرانُ» بَلَدٌ معروفٌ.

قوله (فمَنْ حاجَّكَ فيه): أي خاصَمَكَ.

قوله (مِنَ التعجيز): أيْ لِقُرَيْشٍ وأمثالِهم.

قوله (ما في الَّتي قَبْلَها): أي مِنَ التعجيزِ لِنَصارى نَجْرانَ.

***

فَصْلٌ [فِي الرَّوعةِ التي تَلْحَقُ القُلوبَ عِند سَماعِه، والهيْبةِ التي تَعْتريها عِنْدَ تِلاوته]

وَمِنْهَا الرَّوْعَةُ الَّتِي تَلْحَقُ قُلُوبَ سَامِعِيهِ وَأَسْمَاعَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَالهَيْبَةُ الَّتِي تَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ تِلاوَتِهِ، لِقُوَّةِ حَالِهِ، وَإِنَافَةِ خَطَرِهِ، وَهِيَ عَلَى المُكَذِّبِينَ بِهِ أَعْظَمُ، حَتَّى كَانُوا يَسْتَثْقِلُونَ سَمَاعَهُ، وَيَزِيدُهُمْ نُفُورًا كَمَا قَالَ تَعَالَى، وَيَوَدُّونَ انْقِطَاعَهُ لِكَرَاهَتِهِمْ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: (إِنَّ القُرْآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعِبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ، وَهُوَ الحَكَمُ)[1].

وَأَمَّا المُؤْمِنُ فَلَا تَزَالُ رَوْعَتُهُ بِهِ وَهَيْبَتُهُ إِيَّاهُ مَعَ تِلاوَتِهِ تُولِيهِ انْجِذَابًا، وَتُكْسِبُهُ هَشَاشَةً لِمَيْلِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقِهِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وَقَالَ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ...﴾ الآيَة [الحشر: ٢١]، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا شَيْءٌ خُصَّ بِهِ أَنَّهُ يَعْتَرِي مَنْ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ وَلَا يَعْلَمُ تَفَاسِيرَهُ، كَمَا رُوِيَ عَنْ نَصْرَانِيٍّ أَنَّهُ مَرَّ بِقَارِئٍ، فَوَقَفَ يَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ: مِمَّ بَكَيْتَ؟ قَالَ: لِلشَّجَى وَالنَّظْمِ.

وَهَذِهِ الرَّوْعَةُ قَدِ اعْتَرَتْ جَمَاعَةً قَبْلَ الإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ لَهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَآمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، فَحُكِيَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِـ«الطُّورِ»، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ ﴿المُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَفِي رِوَايَةٍ: وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي[2].

(١) حديث (إن القرآن صعب مستصعب ...): الديلمي وغيره عن الحكم بن عمير، وسيأتي بطوله في القسم الثاني.

(٢) حديث جبير (أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٨٥٤) عن ابن عمر، ومسلمٌ (٤٦٣) مختصرا] وغيرهما.

(ومنْهـا الرَّوعـةُ): أي الخشـيةُ. قولـه (والهيبـةُ): أي العَظَمـةُ.

قولـه (وهـيَ): أي رَوْعَتُـه أو تِلاوتُـه. قولـه (نُفـورًا): أي هَرَبًـا مِـن اسْتِماعِه. قوله (مُسْتَصْعِبٌ): بكسرِ العَينِ وتُفتَحُ، وهـوَ تأكيدٌ لـ(صَعْبٌ).

قولـه (توليـهِ انْجِذابًـا): أي تُعطيه انجذابًـا، وفي نسخةٍ «انجبـاذًا»؛ أي إقْبـالًا. قولـه (هَشاشَـةً): -بفتحِ الهاءِ- أي ارتياحًـا واستبشـارًا وفَرَحًا وخِفَّةً. قولـه (تَقْشَعِرُّ... إلخ): أي تَرْتَعِدُ وتَنْقَبِضُ مِن الوَعيدِ.

قولـه (علـى أنّ هـذا): أي مـا يَغْشـى قُلـوبَ سـامِعيه.

قولـه (مِـمَّ بَكيْـتَ): في نسـخةٍ «لِمَ»، وفي أخـرى «مِـمَّ تَبْكـي».

قولـه (بالطّـورِ): أي بسـورةِ الطـورِ.

قولـه (أمْ هُـمُ الخالِقـونَ): معمولُـه محذوفٌ، أي الخالقـونَ أنفُسَهم.

قولـه (المُسَيْطِرونَ): أي المُغالِبـونَ على الأشياءِ يُدَبِّرونَهـا كَيْـفَ أَرادوا، و(أمْ) في المَواضـعِ الثلاثـةِ بِمَعْنـى «بَـلْ»، والاسـتفهامُ إنـكاريٌّ.

قولـه (مـا وَقَـرَ الإيـمانُ): أي ثَبَـتَ وتَمَكَّـنَ واسـتَقَرَّ.

وَعَنْ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ أَنَّهُ كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِ قَوْمِهِ، فَتَلَا عَلَيْهِ ﴿حم فُصِّلَتْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١-١٣]، فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ بِيَدِهِ عَلَى فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ، وَعُتْبَةُ مُصْغٍ، مُلْقٍ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ، مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّجْدَةِ، فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَامَ عُتْبَةُ لَا يَدْرِي بِمَ يُرَاجِعُهُ؟ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قَوْمِهِ حَتَّى أَتَوْهُ، فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: واللهِ لَقَدْ كَلَّمَنِي بِكَلَامٍ، واللهِ مَا سَمِعَتْ أُذُنَايَ بِمِثْلِهِ قَطُّ، فَمَا دَرَيْتُ مَا أَقُولُ لَهُ[1].

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِمَّنْ رَامَ مُعَارَضَتَهُ أَنَّهُ اعْتَرَتْهُ رَوْعَةٌ وَهَيْبَةٌ كَفَّ بِهَا عَنْ ذَلِكَ؛ يُحْكَى أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ طَلَبَ ذَلِكَ، وَرَامَهُ وَشَرَعَ فِيهِ، فَمَرَّ بِصَبِيٍّ يَقْرَأُ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤]، فَرَجَعَ وَمَحَا مَا عَمِلَ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَا يُعَارَضُ، وَمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَكَانَ أَفْصَحَ أَهْلِ وَقْتِهِ.

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ حَكَمٍ الْغَزَّالُ بَلِيغَ الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَانِهِ، فَحُكِيَ أَنَّهُ رَامَ شَيْئًا مِنْ هَذَا، فَنَظَرَ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ؛ لِيَحْذُوَ عَلَى مِثَالِهَا، وَيَنْسِجَ -بِزَعْمِهِ- عَلَى مِنْوَالِهَا، قَالَ: فَاعْتَرَتْنِي مِنْهُ خَشْيَةٌ وَرِقَّةٌ حَمَلَتْنِي عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ.

***

(١) حديث عتبة بن ربيعة (أنه كلمه في خلاف قومه فقرأ عليه أول فصلت ...): البغوي في تفسيره [(٤/ ١٢٨)] عن جابر بلفظ المصنف، وأبو يعلى [١٨١٨] بنحوه. ورواية (فجعل يقرأ وعتبة ملق يديه خلف ظهره): ابن إسحاق في السيرة [(ص: ٢٠٧)] عن محمد بن كعب القرظي قال: (حُدِّثت ...).

قوله (مِثْلَ صاعِقةِ عادٍ وَثَمودَ): أي مِثْلَ صاعقةِ قَوْمِ هودٍ وصالحٍ. قوله (أنْ يَكُفَّ): أي يُمْسِكَ على تِلاوَتِه، وهوَ معمولٌ لِـ(ناشَدَه)؛ أيْ ناشَدَه بالقَرابةِ أن يُمسِكَ عَنْ تِلاوَتِه ويَقِفَ في قراءتِه.

قوله (مُصْغٍ): أي مستمعٌ إلَيْه. قوله (إلى السجْدةِ): أي آيَتِها. قوله (بِمَ يُراجِعُه): أي يُحاوِرُه ويُرادِدُه. قوله (حَتّى أَتَوْه): أيْ إلى أنْ جاؤوا إلَيْه. قوله (فاعتَذَرَ إليْهم): أي عَن انقطاعِه عنْهم وعَدَمِ خروجِه إلَيْهم.

قوله (بِها): أي بتلكَ الرَّوْعةِ المقرونةِ بالهَيْبةِ.

قوله (المُقَفَّع): بضمِّ الميمِ وفتحِ القافِ وتشديدِ الفاءِ المفتوحةِ أو المكسورةِ وبمهمَلةٍ آخِرَه.

قوله (وَشَرَعَ فيهِ): أي فيما بَدا له على ظَنِّه أنَّ كَلامَه يُفيدُ مَرامَه مِنَ المُعارَضةِ في القرآنِ. قوله (فرَجَعَ): أي قَبْلَ أنْ يَسْمَعَ بَقيّةَ الآيةِ. قوله (ما عَمِلَ): أي على مِنْوالِ القرآنِ ظَنًّا مِنْه أنَّ مُهْمَلاتِه تَصْلُحُ لِلمعارَضةِ. قوله (وما هوَ... إلخ): أي حَتّى يُعارَضَ ويُناقَضَ.

قوله (الغَزّالُ): هوَ بتشديدِ الزّاي، وذُكِرَ أيضًا في قِسْمِ المُخَفَّفِ.

قوله (لِيَحْذوَ على مِثالِها): أي لِيَأْتِيَ على أسلوبِها. وقوله (ويَنْسِجَ): بكَسْرِ ثالثِه.

قوله (والإنابةِ): أي الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى، والإقبالِ عَلَيْه في طَلَبِ العَفْوِ والمَغْفِرةِ.

***

فَصْلٌ [في كَوْنِه آيةً باقيةً لا تُعْدَمُ ما بَقِيتِ الدُّنيا]

وَمِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ المَعْدُودَةِ كَوْنُهُ آيَةً بَاقِيَةً لَا تُعْدَمُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، مَعَ تَكَفُّلِ اللهِ بِحِفْظِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَقَالَ: ﴿لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وَسَائِرُ مُعْجِزَاتُ الأَنْبِيَاءِ انْقَضَتْ بِانْقِضَاءِ أَوْقَاتِهَا؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا خَبَرُهَا، وَالقُرْآنُ العَزِيزُ البَاهِرَةُ آيَاتُهُ، الظَّاهِرَةُ مُعْجِزَاتُهُ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ اليَوْمَ، مُدَّةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ وَخَمْسٍ وَثَلاثِينَ سَنَةً لِأَوَّلِ نُزُولِهِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا.. حُجَّتُهُ قَاهِرَةٌ، وَمُعَارَضَتُهُ مُمْتَنِعَةٌ، وَالأَعْصَارُ كُلُّهَا طَافِحَةٌ بِأَهْلِ البَيَانِ، وَحَمَلَةِ عِلْمِ اللِّسَانِ، وَأَئِمَّةِ البَلَاغَةِ وَفُرْسَانِ الكَلَامِ، وَجَهَابِذَةِ البَرَاعَةِ، وَالمُلْحِدُ فِيهِمْ كَثِيرٌ، وَالمُعَانِدُ لِلشَّرْعِ عَتِيدٌ، فَمَا مِنْهُمْ مَنْ أَتَى بِشَيْءٍ يُؤْثَرُ فِي مُعَارَضَتِهِ، وَلَا أَلَّفَ كَلِمَتَيْنِ فِي مُنَاقَضَتِهِ، وَلَا قَدَرَ فِيهِ عَلَى مَطْعَنٍ صَحِيحٍ، وَلَا قَدَحَ المُتَكَلِّفُ مِنْ ذِهْنِهِ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِزَنْدٍ شَحِيحٍ، بَلِ المَأْثُورُ عَنْ كُلِّ مَنْ رَامَ ذَلكَ إِلْقَاؤُهُ فِي العَجْزِ بِيَدَيْهِ، وَالنُّكُوصُ عَلَى عَقِبَيْهِ.

***

قوله (باقيةً): أي على صَفَحاتِ الزَّمانِ، مَتْلوّةً في كُلِّ مَكانٍ.

قوله (ما بَقِيَتِ الدُّنيا): أي مُدّةَ إرادةِ الله -تعالى- بقاءَها.

قوله (لا يأتيه الباطِلُ... إلخ): أي لا يجِدُ إلَيْه سَبيلًا ليتَعَلَّقَ بِه.

قوله (العَزيزُ): أي البَديعُ المَنيعُ.

قوله (مُدّةَ خَمْسِ مائةِ عامٍ وخَمْسٍ... إلخ): في نسخةٍ «وسَبْعٍ»، وفي أخرى «مُنذُ خَمْسِمائة... إلخ»، وهذا تاريخُ زَمَنِ المُصَنِّفِ؛ ولذا قالَ: (لِأَوَّلِ نُزولِهِ إلى وَقْتِنا هَذا).

قوله (طافِحةٌ): أي مَمْلوءةٌ وفائضةٌ. قوله (وحَمَلةِ عِلْمِ اللِّسانِ): المُرادُ بِهِم عُلَماءُ اللُّغةِ.

قوله (وجَهابِذةِ البَراعةِ): أي المَهَرةِ في تَقَدُّمِ الصِّناعةِ، وهوَ بفَتْحِ الجيمِ، جَمْعُ «الجِهْبِذِ»، و«البَراعةُ»: مصدرُ «بَرَعَ»؛ إذا فاقَ.

قوله (إلّا بزَنْدٍ شَحيحٍ): أي بإخراجِ النارِ عِنْدَ وَرْيِهِ فلَمْ يورِ بِقَدْحِه، وهوَ بفتحِ أوَّلِه.

قوله (والنُّكوصُ عَلى عَقِبَيْهِ): أي الرُّجوعُ إلى وَراءٍ.

***

فَصْلٌ [في وجوهٍ أخرى في إعْجازِ القُرْآن]

وَقَدْ عَدَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الأَئِمَّةِ وَمُقَلِّدِي الأُمَّةِ فِي إِعْجَازِهِ وُجُوهًا كَثِيرَةً.

مِنْهَا أَنَّ قَارِئَهُ لَا يَمَلُّهُ، وَسَامِعَهُ لَا يَمُجُّهُ، بَلِ الإِكْبَابُ عَلَى تِلَاوَتِهِ يَزِيدُهُ حَلَاوَةً، وتَرْدِيدُهُ يُوجِبُ لَهُ مَحَبَّةً، لَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا، وَغَيْرُهُ مِنَ الكَلَامِ -وَلَوْ بَلَغَ فِي الحُسْنِ وَالبَلَاغَةِ مَبْلَغَهُ- يُمَلُّ مَعَ التَّرْدِيدِ، وَيُعَادَى إِذَا أُعِيدَ، وَكِتَابُنَا يُسْتَلَذُّ بِهِ فِي الخَلَوَاتِ، وَيُؤْنَسُ بِتِلَاوَتِهِ فِي الأَزَمَاتِ، وَسِوَاهُ مِنَ الكُتُبِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ذَلِكَ؛ حَتَّى أَحْدَثَ أَصْحَابُهَا لَهَا لُحُونًا وَطُرُقًا يَسْتَجْلِبُونَ بِتِلْكَ اللُّحُونِ تَنْشِيطَهُمْ عَلَى قِرَاءَتِهَا.

وَلِهَذَا وَصَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ القُرْآنَ بِأَنَّهُ: لَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عِبَرُهُ، وَلَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، لَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢].[1]

وَمِنْهَا جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَمْ تَعْهَدِ العَرَبُ عَامَّةً، وَلَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ خَاصَّةً بِمَعْرِفَتِهَا، وَلَا القِيَامِ بِهَا، وَلَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الأُمَمِ، وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِهِمْ، فَجُمِعَ فِيهِ مِنْ بَيَانِ عِلْمِ الشَّرَائِعِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى طُرُقِ الحُجَجِ العَقْلِيَّاتِ، وَالرَّدِّ عَلَى فِرَقِ الأُمَمِ بِبَرَاهِينَ قَوِيَّةٍ، وَأَدِلَّةٍ بَيِّنَةٍ، سَهْلَةِ الأَلْفَاظِ، مُوجَزَةِ المَقَاصِدِ، رَامَ المُتَحَذْلِقُونَ بَعْدُ أَنْ يَنْصِبُوا أَدِلَّةً مِثْلَهَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا،

(١) حديث (لا يخلق على كثرة الرد ...): الترمذي [٢٩٠٦] عن علي بدون قوله (هو الذي أرشد الجن).

قوله (بَلِ الإِكْبَابُ): -بِكَسْرِ أَوَّلِهِ- أي الإقبالُ.

قوله (مَبْلَغَه): أي تَمامَ النَّظْمِ المُرادِ. (وَيُعادى إذا أُعِيدَ): أي يُكْرَهُ عِنْدَ إعادَتِه.

قوله (وَيُؤْنَسُ): بالهَمْزِ ويُسَهَّلُ. قوله (في الأَزَماتِ): -بِفَتْحِ أَوَّلِه وثانيه- جَمْعُ «أَزْمةٍ» -بِفَتْحٍ فسكونٍ-؛ وهيَ الشِّدَّةُ.

قوله (عَلى كَثْرةِ الرَّدِّ): أي مَعَ كَثْرةِ تَرْديدِه وتكريرِه. قوله (وَلا تَنْقَضي عِبَرُهُ): أي لا تَنْتَهي مَواعِظُه المُعْتَبَرةُ، و(عِبَرُه): بكَسْرٍ ففَتْحٍ. قوله (هوَ الفَصْلُ): أي البالِغُ في الفَرْقِ بَيْنَ الحَقِّ والباطلِ. قوله (قُرْآنًا عَجَبًا): أي مَقْروءًا عَجيبًا مِنْ جِهةِ جَزالَتِه وفَخامَتِه.

قوله (ولا القيامِ): أي الدَّوامِ والثَّباتِ عليْها.

قوله (فَجُمِعَ فيهِ): -بصيغةِ المجهولِ- أي جَمَعَ اللهُ فيه. قوله (عِلْمِ الشرائعِ): أي أصولِها وفروعِها مِنَ النَّقْليّاتِ. قوله (طُرُقِ الحُجَجِ): أي أنواعِ الدِلالاتِ. قوله (موجَزةِ المَقاصِدِ): -بصيغةِ المجهولِ- أي مختصَرةِ المَعاني.

قوله (رامَ المُتَحَذْلِقونَ): -بالحاءِ المُهمَلةِ والذالِ المعجَمةِ؛ مِنَ الحِذْقِ، زِيدَتِ اللامُ لِلمبالَغةِ- أي قَصَدَ المبالِغونَ في الحَذْلَقةِ، وأَظْهَروا المَهارةَ في مَقامِ الفَصاحةِ والبلاغةِ. قوله (بَعْدُ): أي بَعْدَ وُرودِها في عالَمِ وُجودِها.

كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، و﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إِلَى مَا حَوَاهُ مِنْ عُلُومِ السِّيَرِ، وَأَنْبَاءِ الأُمَمِ، وَالمَوَاعِظِ وَالحِكَمِ، وَأَخْبَارِ الدَّارِ الآخِرَةِ، وَمَحَاسِنِ الآدَابِ وَالشِّيَمِ. قَالَ اللهُ -جَلَّ اسْمُهُ-: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وَقَالَ ﷺ: (إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ هَذَا القُرْآنَ آمِرًا وَزَاجِرًا، وَسُنَّةً خَالِيَةً، وَمَثَلًا مَضْرُوبًا، فِيهِ نَبَأُكُمْ، وَخَبَرُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحَكَمُ مَا بَيْنَكُمْ، لَا يُخْلِقُهُ طُولُ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الحَقُّ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ أَقْسَطَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ طَلَبَ الهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِهِ قَصَمَهُ اللهُ، هُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَالنُّورُ المُبِينُ، وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وَحَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يُخْلِقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ)[1].

(١) حديث (إن الله أنزل هذا القرآن آمرًا وزاجرًا ...): هو حديث علي المذكور لكن في ألفاظ المصنف زيادة يسيرة، منها صدْرُه.

قوله (أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ): أي مَعَ سَعةِ قَدْرِهما وعِظَمِهما (بِقادِرٍ... إلخ). قوله (قُلْ يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ): أي لِبَقاءِ قُدْرَتِه على وَفْقِ إرادتِه. قوله (إلّا اللهُ لَفَسَدَتا): أي غَيْرُ اللهِ لَمْ توجَدا.

قوله (مِنْ عُلومِ السِّيَرِ): -بكَسْرٍ ففَتْحٍ؛ جَمْعُ «سيرةٍ»- أي أخبارِ النبيِّ ﷺ. قوله (والحِكَمِ): -بكَسْرٍ ففَتْحٍ- أي الكَلِماتِ المُرْشِدةِ إلى تكميلِ النُّفوسِ. قوله (وأَخْبارِ [الدارِ] الآخِرةِ): مِنَ النعيمِ لِأَهْلِ الجَنّةِ، والعَذابِ لِأَهْلِ الآخِرةِ. قوله (والشِّيَمِ): -بِكَسْرِ المعجَمةِ وفَتْحِ الياءِ التحتيةِ- أي الأخلاقِ.

قوله (ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شَيْءٍ): أي ما فَرَّطْنا في القرآنِ المَجيدِ مِنْ شَيْءٍ يَحْتاجُ إلَيْه أربابُ العُقولِ.

قوله (آمِرًا): أي بالمعروفِ نَدْبًا كانَ أو واجِبًا. وقوله (وزاجِرًا): أي عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ حَرامًا أو غَيْرَه. قوله (فيه نَبَأُكُمْ): أيْ خَبَرُكم. قوله (وحَكَمُ ما بَيْنَكُمْ): -بفَتْحِ المهمَلةِ والكافِ- أيْ والحَكَمُ فيما بَيْنَكم فيما لَكُم وعَلَيْكم.

قوله (لا يُخْلِقُهُ طولُ الرَّدِّ): بضَمِّ أَوَّلِه وكَسْرِ ثالثِه. قوله (قَصَمَه اللهُ): أي أَهْلَكَه. قوله (وحَبْلُ اللهِ المَتينُ): أي عَهْدُه. قوله (والشِّفاءُ النافِعُ): لِكُلِّ داءٍ وبَلاءٍ. قوله (لِمَنِ اتَّبَعَهُ): -بتشديد التاءِ- أي تَبِعَه.

وقوله (لا يَعْوَجُّ): بتشديدِ الجيمِ، وقوله (فيُقَوَّمَ): -بفَتْحِ الواوِ المشدَّدةِ ونَصْبِ الميمِ- أي لا يَميلُ عَنْ صَوْبِ الاستقامةِ فيَحْتاجَ إلى تقويمِ العدالةِ. قوله (فَيُسْتَعْتَبَ): أي فيَحتاجَ إلى العَتْبِ.

وَنَحْوُهُ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ، وَقَالَ فِيهِ: (وَلَا يَخْتَلِفُ وَلَا يُتَشَانُّ، فيه نَبَأُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ)(١).

وَفي الحَدِيثِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: (إِنِّي مُنَزِّلٌ عَلَيْكَ تَوْرَاةً حَدِيثَةً تَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، فِيهَا يَنَابِيعُ العِلْمِ، وَفَهْمُ الحِكْمَةِ، وَرَبِيعُ القُلُوبِ)(٢).

وَعَنْ كَعْبٍ: (عَلَيْكُم بِالقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ فَهْمُ العقولِ، وَنُورُ الحِكْمَةِ)(٣). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٧٦].

وَقَالَ تعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]؛ فَجُمِعَ فِيهِ مَعَ وَجَازَةِ أَلْفَاظِهِ وَجَوَامِعِ كَلِمِهِ أَضْعَافُ مَا فِي الكُتُبِ قَبْلَهُ الَّتِي أَلْفَاظُهَا عَلَى الضِّعْفِ مِنْهُ مَرَّاتٍ.

وَمِنْهَا جَمْعُهُ فِيهِ بَيْنَ الدَّلِيلِ وَالمَدْلُولِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ احْتَجَّ بِنَظْمِ القُرْآنِ، وَحُسْنِ وَصْفِهِ، وَإِيجَازِهِ وَبَلَاغَتِهِ، وَأَثْنَاءَ هَذِهِ البَلَاغَةِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ، فَالتَّالِي لَهُ يَفْهَمُ مَوْضِعَ الحُجَّةِ وَالتَّكْلِيفِ مَعًا مِنْ كَلَامٍ وَاحِدٍ وَسُورَةٍ مُنْفَرِدَةٍ.

وَمِنْهَا أَنْ جَعَلَهُ فِي حَيِّزِ المَنْظُومِ الَّذِي لَمْ يُعْهَدْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي حَيِّزِ المَنْثُورِ؛ لِأَنَّ المَنْظُومَ أَسْهَلُ عَلَى النُّفُوسِ، وَأَوْعَى لِلْقُلُوبِ،

---

(١) حديث ابن مسعود نحوه: الحاكم [١/ ٧٣٩].

(٢) حديث (قال الله يا محمد إني منزل عليك توراة حديثة ...): ابن الضريس في فضائل القرآن عن كعب، قال: (في التوراة...)، فذكره، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف [٣١٧٣٨] عن مغيث بن سمي مرفوعًا مرسلًا بلفظ (أنزلت علي توراة محدثة فيها نور الحكمة وينابيع العلم، ليفتح بها أعينًا عميًا وقلوبًا غلفًا وآذانًا صما).

(٣) [أخرجه الدارمي (٣٦٤٦)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص ٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٧٦)، وغيرهم].

قوله (وَلا يَخْتَلِفُ): -بالفاءِ- أي ليسَ مَحَلًّا لِلاخْتِلافِ.

قوله (ولا يُتَشانُّ): بضَمِّ الياءِ وفَتْحِها؛ فعَلى الضمِّ: أي لا يُكْرَهُ ولا يُتباغَضُ، وعلى الفتْحِ: أي لا يتعاندُ كَلِمُه.

قوله (حَديثةً): أي قريبةَ العهْدِ.

قوله (وقُلوبًا غُلْفًا): -بِضَمِّ الغينِ المعجَمةِ- أي ممنوعةً عَن طريقِ الوَفْقِ.

قوله (وَرَبيعُ القُلوبِ): أي فيها مِن الأسرارِ والأنوارِ نَظيرُ ما يَشْتَمِلُ عَلَيْه فَصْلُ الرَّبيعِ مِن إزهارِ أشْجارِ الأشْجارِ.

قوله (علَيْكم بالقرآنِ): أي خُذوا بمَبانيه. قوله (فإنَّه فَهْمُ العُقولِ): أي غايةُ فَهْمِ عُقولِ الفُحولِ.

قوله (فَجُمِعَ فيه مَعَ وَجازةِ أَلْفاظِهِ): -بصيغةِ المجهولِ- أي فجَمَعَ اللهُ في كَلامِه ما قَصَدَ مِنَ المَرامِ مَعَ اختِصارِ مَبانيه.

قوله (وَجَوامِعِ كَلِمِهِ): أي باعتبارِ كَثْرةِ المَعْنى.

قوله (على الضِّعْفِ): -بِكَسْرِ الضادِ المُعْجَمةِ- أي التَّزايُدِ.

قوله (احْتَجَّ بِنَظْمِ القُرْآنِ): أي بإدخالِ جَواهِرِ مَعْناه في سِلْكِ مَبْناه.

قوله (في حَيِّزِ المَنْظومِ): -بفتحِ الحاءِ المهْمَلةِ وتشديدِ التحتيّةِ المكسورةِ- أي في مَقامِه. قوله (في حَيِّزِ المَنْثورِ): أي المُتَفَرِّقِ الجامِعِ.

وَأَسْمَحُ فِي الآذَانِ، وَأَحْلَى عَلَى الأَفْهَامِ؛ فَالنَّاسُ إِلَيْهِ أَمْيَلُ، وَالأَهْوَاءُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ.

وَمِنْهَا تَيْسِيرُهُ تَعَالَى حِفْظَهُ لِمُتَعَلِّمِيهِ، وَتَقْرِيبُهُ عَلَى مُتَحَفِّظِيهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، وَسَائِرُ الأُمَمِ لَا يَحْفَظُ كُتُبَهَا الوَاحِدُ مِنْهُمْ، فَكَيْفَ الجَمَّاءُ عَلَى مُرُورِ السِّنِينَ؟! وَالقُرْآنُ مُيَسَّرٌ حِفْظُهُ لِلْغِلْمَانِ فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ.

وَمِنْهَا مُشَاكَلَةُ بَعْضِ أَجْزَائِهِ بَعْضًا، وَحُسْنُ ائْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَالتِئَامِ أَقْسَامِهَا، وَحُسْنُ التَّخَلُّصِ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى، وَالخُرُوجِ مِنْ بَابٍ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهِ، وَانْقِسَامُ السُّورَةِ الوَاحِدَةِ إِلَى أَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَخَبَرٍ وَاسْتِخْبَارٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَإِثْبَاتِ نُبُوَّةٍ وَتَوْحِيدٍ، وَتَقْرِيرٍ وَتَرْغِيبٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَوَائِدِهِ دُونَ خَلَلٍ يَتَخَلَّلُ فُصُولَهُ، وَالكَلَامُ الفَصِيحُ إِذَا اعْتَوَرَهُ مِثْلُ هَذَا ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَلَانَتْ جَزَالَتُهُ، وَقَلَّ رَوْنَقُهُ، وَتَقَلْقَلَتْ أَلْفَاظُهُ.

فَتَأَمَّلْ أَوَّلَ (ص)، وَمَا جُمِعَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارِ الكُفَّارِ وَشِقَاقِهِمْ وَتَقْرِيعِهِمْ بِإِهْلَاكِ القُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِمُحَمَّدٍ وَتَعَجُّبِهِمْ مِمَّا أَتَى بِهِ وَالخَبَرِ عَنِ اجْتِمَاعِ مَلَئِهِمْ عَلَى الكُفْرِ، وَمَا ظَهَرَ مِنَ الحَسَدِ فِي كَلَامِهِمْ وَتَعْجِيزِهِمْ وَتَوْهِينِهِمْ وَوَعِيدِهِمْ بِخِزْيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَتَكْذِيبِ الأُمَمِ قَبْلَهُمْ، وَإِهْلَاكِ اللهِ لَهُمْ، وَوَعِيدِ هَؤُلَاءِ مِثْلَ مُصَابِهِمْ،

قوله (وَتَقْرِيبُهُ عَلى مُتَحَفِّظِيهِ): أيْ طالِبي حِفْظِه غَيْبًا.

قولـه (حِفْظُـه لِلغِلْـمانِ): -بِكَسْرِ الغينِ المعجَمـةِ؛ جَمْـعُ «غُـلام»- أي الأولادِ الصِّغـارِ. وقولـه (في أقْـرَبِ مُـدّةٍ): كسَـنةٍ أو أقَـلَّ أو أكْثَـرَ؛ بِحَسَـبِ مَراتِـبِ جَـوْدةِ الذِّهْـنِ.

قولـه (وحُسْـنُ ائتـلافِ أنواعِهـا): مِـن أمْـرٍ ونَهْـيٍ ووعْـدٍ ووعيـدٍ وقِصّـةٍ وموعظـةٍ.

قولـه (وانقِسـامُ السّـورةِ الواحِـدةِ إلى أَمْرٍ وَنَهْيٍ... إلـخ): قـالَ المُلّا: وقَـدِ اجتمَعَـتْ هـذه الوُجـوهُ في قولِـه -تعـالى-: ﴿قالَـتْ نَملـةٌ يـا أيُّهـا النَّمْـلُ ادخلُـوا مسـاكِنَكم لا يَحْطِمَنَّكـم سـليمانُ وجُنـودُه﴾، مـعَ زيـادةِ الاعتـذارِ بِقَوْلِـه ﴿وهُـمْ لا يَشْـعُرونَ﴾ [النمـل: ١٨]، مـعَ التنبيـهِ لَـهُم في صَـدْرِ الآيـةِ بالنـداءِ، وتنزيـلِ النَّمْـلِ مَنْزِلـةَ العُقَـلاءِ، وغَـيْرِ ذلـك مِـن الإشـارةِ وغيرِهـا.

قولـه (إذا اعْتَـوَرَهُ): أي تَداوَلَـه، وفي أصـلِ الدلجـيِّ «إذا اعْـتَراه». قولـه (رَوْنَقُـه): أي حُسْـنُه وصَفـاؤُه وبَهْجَتُـه. قولـه (وتَقَلْقَلَـتْ ألفاظُـه): أي اضطَرَبَـتْ مَبانيهـا، وفي نسـخةٍ «تَقَلَّقَتْ» -بـلامٍ واحـدةٍ مشـدَّدةٍ-، أي صـارَتْ قَلِقـةً في المَبْنـى، وغَلِقـةً في المَعْنـى.

قولـه (وشِـقاقِهم): أيْ خِلافِهـم مَـعَ سَـيِّدِ المُرْسَـلينَ ﷺ، وقولـه (وتَقْريعِهـم): أي ومِـنْ تقريعِهـم.

قولـه (وَتَعَجُّبِهِـمْ مِمّـا أَتـى بِـهِ): حيـثُ قـالَ اللهُ تعـالى: (وعَجِبـوا أنْ جاءَهـم مُنْـذِرٌ مِنهـم).

قولـه (وَإِهْـلاكِ اللهِ لَـهُمْ): أي لِلمُكَذِّبيـنَ مِنهـم بِقَوْلِـه: ﴿كَذَّبَـتْ قَبْلَهـم قَـوْمُ نـوحٍ وعـادٌ وفِرْعَـونُ ذو الأوتـادِ * وَثَمُـودُ وَقَـوْمُ لُـوطٍ وَأَصْحَـابُ الْأَيْكَـةِ أُولَئِـكَ الْأَحْـزَابُ * إن كُلٌّ إلّا كَـذَّبَ الرُّسُـلَ فَحَـقَّ عِقَـابِ﴾ [ص: ١٢-١٤].

قوله (وَوَعيدِ هَؤلاءِ): أي قُرَيْشٍ وأضرابِهم.

وَتَصْبِيرِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَسْلِيَتِهِ بِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، ثُمَّ أَخَذَ فِي ذِكْرِ دَاوُدَ وَقِصَصِ الأَنْبِيَاءِ، كُلُّ هَذَا فِي أَوْجَزِ كَلَامٍ، وَأَحْسَنِ نِظَامٍ.

وَمِنْهُ الجُمْلَةُ الكَثِيرَةُ التي انْطَوَتْ عَلَيْهَا الكَلِمَاتُ القَلِيلَةُ.

وَهَذَا كُلُّهُ وَكَثِيرٌ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّهُ ذُكِرَ فِي إِعْجَازِ القُرْآنِ إِلَى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ذَكَرَهَا الأَئِمَّةُ لَمْ نَذْكُرْهَا؛ [إِذْ] أَكْثَرُهَا دَاخِلٌ فِي بَابِ بَلَاغَتِهِ، فَلَا نُحِبُّ أَنْ يُعَدَّ فَنًّا مُنْفَرِدًا فِي إِعْجَازِهِ إِلَّا فِي بَابِ تَفْصِيلِ فُنُونِ البَلَاغَةِ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ عَنْهُمْ يُعَدُّ فِي خَوَاصِّهِ وَفَضَائِلِهِ، لَا إِعْجَازِهِ، وَحَقِيقَةُ الإِعْجَازِ الوُجُوهُ الأَرْبَعَةُ التي ذَكَرْنَاهَا؛ فَلْيُعْتَمَدْ عَلَيْهَا، وَمَا بَعْدَهَا مِن خَوَاصِّ القُرْآنِ وَعَجَائِبِهِ التي لَا تَنْقَضِي، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

***

قوله (وقِصَصِ الأنبياءِ): أي حكاياتِهم؛ كسُلَيمانَ وأيّوبَ وغَيْرِهما.

قوله (ومنه الجُمْلةُ الكَثيرةُ): أي ومن إعْجازِ القرآنِ.

قوله (وعَجائِبه الّتي لا تَنْقَضي): أي لا تَنْتهي.

***

فَصْلٌ فِي انشِقَاقِ القَمَرِ وَحَبْسِ الشَّمْسِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢]: أَخْبَرَ تَعَالَى بِوُقُوعِ انْشِقَاقِهِ بِلَفْظِ المَاضِي، وَإِعْرَاضِ الكَفَرَةِ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَجْمَعَ المُفَسِّرُونَ وَأَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى وُقُوعِهِ.

أَخْبَرَنَا الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ مِنْ كِتَابِهِ، حَدَّثَنَا القَاضِي سِرَاجُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا الأَصِيلِيُّ، حَدَّثَنَا المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا الفِرَبْرِيُّ، حَدَّثَنَا البُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ عَنْ شُعْبَةَ وسُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ فَوْقَ الجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ ﷺ: (اشْهَدُوا).

وَفِي رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ: وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَفِي بَعْضِ طُرُقِ الأَعْمَشِ: بِمِنًى.

وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ الأَسْوَدُ، وَقَالَ: حَتَّى رَأَيْتُ الجَبَلَ بَيْنَ فُرْجَتَيِ القَمَرِ، وَرَوَاهُ عَنْهُ مَسْرُوقٌ أَنَّهُ كَانَ بِمَكَّةَ، وَزَادَ: فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: سَحَرَكُمُ ابنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا إِنْ كَانَ سَحَرَ القَمَرَ فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُ مِنْ سِحْرِهِ أَنْ يَسْحَرَ الأَرْضَ كُلَّهَا، فَاسْأَلُوا مَنْ يَأْتِيكُمْ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ: هَلْ رَأَوْا هَذَا؟ فَأَتَوْا، فَسَأَلُوهُمْ، فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ.

وَحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ عَنِ الضَّحَّاكِ مِثْلَهُ، وَقَالَ: [فَقَالَ] أَبُو جَهْلٍ: هَذَا سِحْرٌ؛ فَابْعَثُوا إِلَى أَهْلِ الآفَاقِ حَتَّى تَنْظُرُوا أَرَأَوْا ذَلِكَ أَمْ لَا؟ فَأَخْبَرَ أَهْلُ الآفَاقِ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ مُنْشَقًّا، فقالُوا -يَعْنِي الكُفَّارَ-: هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ،

قوله (اقْتَرَبَتِ السَّاعةُ): أي قَرُبَتْ غايةَ القُرْبِ. وقوله (وانْشَقَّ القَمَرُ): أي مُعجِزةً لِلنبيِّ ﷺ لَمّا سَأَلَه الكُفّارُ آيةً على نُبوّتِه. قوله (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ): أي دائمٌ مُتَتابِعُ الآياتِ والمعجِزاتِ.

قوله (بِلَفْظِ الماضي): أي فيَجِبُ تَحَقُّقُه حقيقةً، ولا يَجوزُ صَرْفُه إلى المَجازِ بلا ضرورةٍ، وحَمْلُه على أنّه سَيَنشَقُّ يومَ القيامةِ، وأنّه عَبَّرَ بالماضي لِتَحَقُّقِ وُقوعِه في المستقبَلِ.

قوله (الفِرَبْرِيُّ): بكَسْرِ الفاءِ وفَتْحِ الراءِ. قوله (مُسَدَّدٌ): بِفَتْحِ الدالِ المهمَلةِ المشدَّدةِ. قوله (مَعْمَرٍ): بفتحِ الميمَيْنِ.

قوله (فِرْقَتَيْنِ): أي فِلْقَتَيْنِ، أي قِطْعَتَيْنِ، وفي «الصحيحين» بِلَفْظِ «شِقَّتَيْنِ» -بكسرِ الشينِ المعجَمةِ-، أيْ نِصْفَيْنِ، وفي روايةٍ مِن حديثِ جُبَيْرٍ «فانشَقَّ القمَرُ باثنتَيْنِ»، وفي روايةِ أبي نُعَيْمٍ في «الدلائلِ»: «فصارَ قَمَرَيْنِ».

وقوله (فِرْقَةٌ): بالنصبِ على البدليةِ، وبالرفعِ على الابتداءِ. قوله (فَوْقَ الجَبَلِ): أي جبلِ حِراءٍ أو أبي قبيسٍ. وقوله (فِرْقَةٌ دونَه): أي أسْفَلَ مِنْه.

قوله (اشْهَدوا): خِطابٌ لِلمؤمنينَ؛ والمعنى: اشْهَدوا على مُعْجِزَتي، وأَخْبِروا مَن بَعْدي مِن أُمَّتي، أو لِلكفّارِ فإنّهم أهْلُ الإنكارِ؛ والمَعنى عليْه: اشهَدوا على نُبوَّتي.

قوله (بَيْنَ فُرْجَتَيِ القَمَرِ): بضمِّ الفاءِ وفتحِها. قوله (سَحَرَكم ابنُ أَبي كَبْشَةَ): -بفتحِ الكافِ وسكونِ الباءِ الموحَّدةِ فشينٍ معجَمةٍ- يَعنونَ به النبيَّ ﷺ.

وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلْقَمَةُ، فَهؤُلَاءِ الأَرْبَعَةُ عَنْ عَبْدِ اللهِ[(١)].

وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ ابْنِ مَسْعُودٍ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، مِنْهُمْ أَنَسٌ[(٢)]، وَابْنُ عَبَّاسٍ[(٣)]، وَابْنُ عُمَرَ[(٤)]، وَحُذَيْفَةُ[(٥)]، وَعَلِيٌّ[(٦)]، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ[(٧)].

فَقَالَ عَلِيٌّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي حُذَيْفَةَ الأَرْحَبِيِّ: انْشَقَّ القَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَعَنْ أَنَسٍ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ فِرْقَتَيْنِ، حَتَّى أَرَاهُم حِرَاءً بَيْنَهُمَا، رَوَاهُ عَنْ أَنَسٍ قَتَادَةُ.

وَفِي رِوَايَةِ مَعْمَرٍ وَغَيْرِهِ عَنْ قَتَادَةَ: أَرَاهُمُ القَمَرَ مَرَّتَيْنِ انْشِقَاقَهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ﴾، وَرَوَاهُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَابْنُ ابْنِهِ جُبَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَرَوَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، وَرَوَاهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مُجَاهِدٌ، وَرَوَاهُ عَنْ حُذَيْفَةَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ الأَزْدِيُّ.

---

(١) حديث ابن مسعود في انشقاق القمر: أسنده من طريق البخاري [٤٨٦٥] وأخرجه مسلم أيضًا [٢٨٠٠]، ورواية مجاهد في الصحيحين [البخاري (٣٨٦٩)، مسلم (٢٨٠٠)]، ورواية الأسود في مسند أحمد [٣٩٢٤]، ورواية مسروق في الدلائل للبيهقيّ [٢/ ٢٦٥]، ورواية علقمة [الطبراني في الكبير (١٠/ ٧٤)].

(٢) حديث أنس: الشيخان [البخاري (٤٨٦٨)، مسلم (٢٨٠٢)].

(٣) حديث ابن عباس: الشيخان [البخاري (٣٨٧٠)، مسلم (٢٨٠٣)].

(٤) حديث ابن عمر: مسلم [٢٨٠٠] والترمذي [٣٢٨٨].

(٥) حديث حذيفة: ابن جرير [٢٢/ ١٠٨] وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل [الحلية (١/ ٢٨١)].

(٦) حديث علي: [أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٩٦)].

(٧) حديث جبير: أحمد [١٦٧٥٠] والبيهقي [«الدلائل» (٢/ ٢٦٨)].

قوله (فهؤلاءِ الأربعةُ): أي مجاهدٌ أو أبو مَعْمَرٍ والأسودُ ومسروقٌ وعلقمةُ.

قوله (الأَرْحَبِيِّ): -بفتحِ الهمْزةِ وسكونِ الراءِ المهمَلةِ ففتحِ الحاءِ المهمَلةِ فموحَّدةٍ مكسورةٍ فياءٍ- نِسبةٌ إلى قبيلةٍ مِن هَمْدانَ.

قوله (حَتّى أَراهُم حِراءً بَيْنَهُما): وهوَ جَبَلٌ على ثلاثةِ أميالٍ مِن مَكّةَ على يَسارِ المارِّ مِنْها إلى مِنًى، و«حِراءٌ» -بكسرِ الحاءِ المهمَلةِ- مُذَكَّرٌ[(١)].

قوله (السُّلَميُّ): -بضمِّ السينِ المهمَلةِ وفتْحِ اللّامِ- مُقرئُ الكوفةِ.

---

(١) قال سيبويه في «الكتاب»: «وأمّا قولهم قُباء وحراء فقد اختلفت العرب فيهما فمنهم من يذكر ويصرف؛ وذلك أنهم جعلوهما اسمين لمكانين كما جعلوا واسطًا بَلَدًا أو مكانًا، ومنهم من أنّث ولم يصرف وجعلهما اسمين لبقعتين من الأرض».

وَأَكْثَرُ طُرُقِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ صَحِيحَةٌ، وَالآيَةُ مُصَرِّحَةٌ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى اعْتِرَاضِ مَخْذُولٍ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا لَمْ يَخْفَ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ؛ إِذْ هُوَ شَيْءٌ ظَاهِرٌ لِجَمِيعِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يُنْقَلْ لَنَا عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَنَّهُمْ رَصَدُوهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَوْهُ انْشَقَّ، وَلَوْ نُقِلَ إِلَيْنَا عَمَّنْ لَا يَجُوزُ تَمَالُؤُهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ عَلَى الكَذِبِ، لَمَا كَانَتْ عَلَيْنَا بِهِ حُجَّةٌ؛ إِذْ لَيْسَ القَمَرُ فِي حَدٍّ وَاحِدٍ لِجَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَقَدْ يَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى آخَرِينَ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ قَوْمٍ بِضِدِّ مَا هُوَ مِن مُقَابِلِيهِمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ، أَوْ يَحُولُ بَيْنَ قَوْمٍ وَبَيْنَهُ سَحَابٌ أَوْ جِبَالٌ، وَلِهَذَا نَجِدُ الكُسُوفَاتِ فِي بَعْضِ البِلَادِ دُونَ بَعْضٍ، وَفِي بَعْضِهَا جُزْئِيَّةً، وَفِي بَعْضِهَا كُلِّيَّةً، وَفِي بَعْضِهَا لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا المُدَّعُونَ لِعِلْمِهَا، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وَآيَةُ القَمَرِ كَانَتْ لَيْلًا، وَالعَادَةُ مِنَ النَّاسِ بِاللَّيْلِ الهُدُوُّ وَالسُّكُونُ، وَإِيجَافُ الأَبْوَابِ، وَقَطْعُ التَّصَرُّفِ، وَلَا يَكَادُ يَعْرِفُ مِنْ أُمُورِ السَّمَاءِ شَيْئًا إِلَّا مَنْ رَصَدَ ذَلِكَ، وَاهْتَبَلَ بِهِ، وَلِذَلِكَ مَا يَكُونُ الكُسُوفُ القَمَرِيُّ كَثِيرًا فِي البِلَادِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُ بِهِ حَتَّى يُخْبَرَ، وَكَثِيرًا مَا يُحَدِّثُ الثِّقَاتُ بِعَجَائِبَ يُشَاهِدُونَهَا مِنْ أَنْوَارٍ وَنُجُومٍ طَوَالِعَ عِظَامٍ، تَظْهَرُ فِي الأَحْيَانِ بِاللَّيْلِ فِي السَّمَاءِ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهَا.

وَخَرَّجَ الطَّحَاوِيُّ فِي «مُشْكِلِ الحَدِيثِ» عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ مِن طَرِيقَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِ عَلِيٍّ، فَلَمْ يُصَلِّ العَصْرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَصَلَّيْتَ يَا عَلِيُّ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ ﷺ: (اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ فِي طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ؛ فَارْدُدْ عَلَيْهِ الشَّمْسَ شرقَها!)، قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَرَأَيْتُهَا غَرَبَتْ،

قوله (والآيةُ مُصَرِّحةٌ): -بكسْرِ الراءِ- أي دِلالةُ الآيةِ في هذه القضيةِ صريحةٌ.

قوله (وَلا يُلْتَفَتُ إلى اعْتِراضِ مَخْذولٍ): -بِناءِ الفِعلِ للمجهولِ- أي لا يُنظَرُ إلى اعتراضِ متروكِ النُّصرةِ مِن المُبتَدِعةِ، كطبَقةِ المعتزلةِ وجمهورِ الفلاسفةِ وعامّةِ المَلاحِدةِ الغافِلينَ عَنِ الحقيقةِ والمائلينَ إلى المَجازِ مُتمَسِّكينَ بأنَّ الأجرامَ العُلويّةَ لا يَتأتّى فيها الانخراقُ والالتئامُ اه مُلّا. وقوله (بأنَّه لو كانَ هذا): تَمَسُّكٌ ثانٍ.

قوله (تَمالُؤُهم): أي توافُقُهم وتواطُؤُهم.

قوله (لا يَعرِفُها إلا المُدَّعونَ): قالَ المُلّا: لَعَلَّ المُرادَ بِهم الحاذِقونَ والماهِرونَ في مَعرِفَتِها.

قوله (الهُدوُّ): بِضَمِّ الهاءِ والدالِ المُهمَلةِ فواوٍ مُشَدَّدةٍ أو ساكنةٍ بَعْدَها همْزةٌ على أصْلِ الكَلِمةِ. وقوله (والسُّكونُ): تفسيرٌ لِلهُدوِّ.

قوله (وَإيجافُ الأَبْوابِ): -بِكَسْرِ الهمْزةِ وسكونِ الياءِ التحتيةِ فجيمٍ- أي إغلاقُها بسُرعةٍ.

قوله (إلا مَن رَصَدَ ذلك): أي انتظَرَهم.

قوله (واهْتَبَلَ بِه): -بِموحَّدةٍ بَعْدَ مُثَنّاةٍ فوقيةٍ- أي اعْتَنى بِنَظَرِه.

قوله (وخَرَّجَ الطحاويُّ): -بتشديدِ الراءِ- أي أخْرَجَ. وقوله (بِنْتِ عُمَيْسٍ): بضمِّ العَينِ المهمَلةِ وفتحِ الميمِ فتحتيةٍ ساكنةٍ فسينٍ مهمَلةٍ.

ثُـمَّ رأيْتُها طَلَعَـتْ بَعْدَمَـا غَرَبَـتْ، وَوَقَفَـتْ عَـلَى الجِبَـالِ وَالأَرْضِ، وَذَلِـكَ بِالصَّهْبَـاءِ فِي خيْـبَرَ[1]. قَـالَ: وَهَـذَانِ الحَدِيثَـانِ ثَابِتَـانِ، وَرُوَاتُهُـمَا ثِقَـاتٌ.

وَحَكَـى الطَّحَـاوِيُّ أَنَّ أَحْمَـدَ بْـنَ صَالِـحٍ كَانَ يَقُـولُ: لَا يَنْبَغِـي لِمَـنْ سَـبِيلُهُ العِلْـمُ التَّغَفُّـلُ عَـنْ حِفْـظِ حَدِيـثِ أَسْـمَاءَ؛ لِأَنَّـهُ مِـنْ عَلَامَـاتِ النُّبُـوَّةِ.

وَرَوَى يُونُـسُ بـنُ بُكَـيْرٍ فِي «زِيَـادَةِ المَغَـازِي» بِرِوَايَتِـهِ عَـنِ ابـنِ إِسْـحَاقَ: لَمَّـا أُسْرِيَ بِرَسُـولِ اللهِ ﷺ، وَأَخْـبَرَ قَوْمَـهُ بِالرُّفْقَـةِ وَالعَلَامَـةِ التـي فِي العِـيرِ، قَالُـوا: مَتَـى تَجِـيءُ؟ قَـالَ: يَـوْمَ الأَرْبعَـاءِ، قَـالَ: فَلَـمَّا كَانَ ذَلِـكَ اليَـوْمُ أَشْرَفَـتْ قُرَيْـشٌ يَنْظُـرُونَ، وَقَـدْ وَلَّى النَّهَـارُ وَلَمْ تَجِـئْ، فَدَعَـا ﷺ، فَزِيـدَ لَـهُ فِي النَّهَـارِ سَـاعَةٌ، وَحُبِسَـتْ عَلَيْـهِ الشَّـمْسُ[2].

***

قولـه (**ثُـمَّ رأيْتُهـا طَلَعَـتْ**): أي رَجَعَـتْ عـلى أدراجِهـا مِـن مَغْرِبِهـا بَعْدَمـا غَرَبَـتْ.

قولـه (**وذلـك بالصَّهْبـاءِ**): -بالمَـدِّ ويُقْـصَرُ- موضِـعٌ عـلى مَرحلـةٍ مِـن خَيْـبَرَ.

قولـه (**ورواتُهُـما ثِقاتٌ**): أي فحينَئِـذٍ لا يُلْتَفَـتُ لِمَـن طَعَـنَ في رِجالِهـا.

قولـه (**بُكَـيْرٍ**): بضـمِّ البـاءِ الموحَّـدةِ وكسْرِ الـكافِ بَعْدَهـا يـاءٌ ساكنةٌ- فـراءٌ.

قولـه (**بالرُّفْقَـةِ**): -بضـمِّ الـراءِ ويجـوزُ تثليثُهـا- أي الجماعـةِ. وقولـه (**في العـيرِ**): أي القافلـةِ مِـنَ الإبـلِ، وهـوَ بِكَـسْرِ العَـينِ المهمَلـةِ.

وقولـه (**الأربعـاءِ**): بتثليـثِ الموحَّـدةِ والمَـدِّ والكسرُ أَجْـوَدُ، وقـال ابـنُ هشـامٍ: فيـه لغـاتٌ: فتـحُ الهَمـزةِ وكـسرُ البـاءِ، وكـسرُ الهمـزةِ وفتْـحُ البـاءِ، وكسْرُهمـا، قـالَ: وهـذه أفصـحُ اللغـاتِ.

قولـه (**وقَـدْ وَلَّى النهـارُ**): -بتشـديدِ الـلامِ المفتوحـةِ- أي أَدْبَـرَ.

***

(١) حديث أسماء بنت عميس في رد الشمس على علي بعدما غربت: الطبراني [(٢٤/ ١٤٤، ١٤٧، ١٥٢)] بأسانيد رجالٍ بعضِها ثقات.

(٢) [رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٤) من طريق يونس بن بكير. ووَرَد أنَّ الشمسَ رُدَّت على النبيِّ ﷺ، فرواه الطحاويُّ في «مشكل الآثار» (١٠٦٧)، و(١٠٦٨) من طريقين عن أسماء بنت عميس. وقال الطحاويُّ (هذان الحديثان ثابتان ورواتُهُما ثقات، ونُقل عن الإمام أحمد بن صالح المصريِّ أنه كان يقول (لا ينبغي لمن كان سبيله العلم التَّخلُّف عن حِفظ حديث أسماء، لأنه من علامات النبوة»، ورواه الطبرانيُّ في «الكبير» (٢٤/ ٣٩٠) بإسنادٍ حسنٍ كما نصَّ عليه الحافظُ أبو زُرعة ابن العراقيّ في «شرح التقريب» (٧/ ٢٤٧)، وفي الباب عن أبي هريرة كما عند الطبراني في الأوسط (٦٦٠٠)، وغيره. انظر «المقاصد الحسنة» للسخاوي (١/ ٣٦٥)، وللحافظ السيوطيِّ جزء «كشف اللَّبس عن حديث ردِّ الشمس»].

فَصْلٌ فِي نَبْعِ المَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِه وَتكْثِيرِهِ بِبَرَكَتِهِ عَلَيْهِ ﷺ

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

أَمَّا الأَحَادِيثُ فِي هَذَا فَكَثِيرَةٌ جِدًّا، وَرَوَى حَدِيثَ نَبْعِ المَاءِ مِنْ أَصَابِعِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ أَنَسٌ، وَجَابِرٌ، وَابْنُ مَسْعُودٍ.

حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ الفَقِيهُ -رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا القَاضِي عِيسَى بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِمِ حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ بْنُ الفَخَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ:

رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ وَحَانَتْ صَلاةُ العَصْرِ، فَالتَمَسَ النَّاسُ مَاءً لِلوُضُوءِ، فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ النبيُّ ﷺ بوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ، قَالَ: فَرَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّؤُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ.

وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَتَادَةُ، وَقَالَ: بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ يَغْمُرُ أَصَابِعَهُ، أَوْ لَا يَكَادُ يَغْمُرُ، قَالَ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: زُهَاءَ ثَلاثِمِائَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: وَهُمْ بِالزَّوْرَاءِ عِنْدَ السُّوقِ.

وَرَوَاهُ أَيْضًا حُمَيْدٌ وَثَابِتٌ وَالحَسَنُ عَنْ أَنَسٍ، وَفِي رِوَايَةِ حُمَيْدٍ: قُلْتُ: كَمْ كَانُوا؟ قَالَ: ثَمَانِينَ، وَنَحْوُهُ عَنْ ثَابِتٍ، عَنْهُ، وَعَنْهُ أَيْضًا: وَهُمْ نَحْوٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا.[1]

---

(١) حديث إسحاق عن أنس في نبع الماء: الشيخان [البخاريُّ (١٦٩)، ومسلمٌ (٢٢٧٩)]، رواية قتادة عنه: مسلم [(٢٢٧٩)، والبخاريُّ أيضًا (٣٥٧٢)]، رواية حميد عنه: البخاري [١٩٥]، رواية ثابت عنه: الشيخان [البخاريُّ (٢٠٠)، ومسلمٌ (٢٢٧٩)]، رواية الحسن عنه: البخاري [٣٥٧٤].

قوله (أَبو عُمَرَ بْنُ الفَخَّارِ): بفتحِ الفاءِ وتشديدِ الخاءِ المعجَمةِ.

وقوله (وحانَتْ صلاةُ العصرِ): أي قَرُبَ وَقْتُها.

قوله (بوَضوء): -بفتحِ الواوِ- أي ماءُ الوُضوءِ؛ بالضمِّ.

قوله (أَنْ يَتَوَضَّؤوا مِنْهُ): أي مِن الماءِ أو مِن الإناءِ.

قوله (فرأيتُ الماءَ يَنْبُعُ): -بتثليثِ الموحَّدةِ، والضمُّ أشهَرُ- أي يَفورُ.

قوله (مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ): (مِنْ) بمعنى «إلى».

قوله (يَغْمُرُ أَصابِعَهُ): -بسكونِ الغينِ المعجَمةِ وضمِّ الميمِ- أي يَسْتُرُها. وقوله (أَوْ لا يَكادُ): شَكٌّ مِن الراوي.

قوله (زُهاءَ ثَلاثِمائةٍ): -بضمِّ الزاي بَعْدَها هاءٌ ممدودةٌ- أي قَدْرَ ثَلَثِمائةٍ.

و(بالزَّوْراءِ): -بفتحِ الزاي وسكونِ الواوِ فراءٍ ممدودةٍ- مكانٌ معروفٌ بالمدينةِ.

قوله (حُمَيْدٌ): بالتصغيرِ.

وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ فَفِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ عَلْقَمَةَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: اطْلُبُوا مَنْ مَعَهُ فَضْلُ مَاءٍ، فَأُتِيَ بِمَاءٍ، فَصَبَّهُ فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ فِيهِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ.(١)

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ، عَنْ جَابِرٍ: عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، وَأَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، وَقَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ، وَفِيهِ: فَقُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا؛ كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً.(٢)

وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ جَابِرٍ، وَفِيهِ أَنَّهُ كَانَ بِالحُدَيْبِيَةِ.(٣)

وَفِي رِوَايَةِ الوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْهُ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ الطَّوِيلِ فِي ذِكْرِ غَزْوَةِ بُوَاطٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا جَابِرُ، نَادِ فِي النَّاسِ الوَضُوءَ، وَذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا قَطْرَةً فِي عَزْلَاءِ شَجْبٍ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَغَمَرَهُ وَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ؟! وَقَالَ: نَادِ بِجَفْنَةِ الرَّكْبِ، فَأَتَيْتُ [بِهَا] فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ. وَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَسَطَ يَدَهُ فِي الجَفْنَةِ، وَفَرَّقَ أَصَابِعَهُ، وَصَبَّ جَابِرٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ بِسْمِ اللهِ، كَمَا أَمَرَهُ، قَالَ: فَرَأَيْتُ المَاءَ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ فَارَتِ الجَفْنَةُ وَاسْتَدَارَتْ، فَاسْتَقَوا حَتَّى رَوُوا، فَقُلْتُ: هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ لَهُ حَاجَةٌ؟ فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الجَفْنَةِ وَهِيَ مَلْأَى.(٤)

(١) حديث ابن مسعود: البخاري [٣٥٧٩].

(٢) حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر: البخاري [٣٥٧٦].

(٣) حديث أنس عن جابر: الدارمي [٢٨].

(٤) [أخرجه مسلم (٣٠٠٦ - ٣٠١٤)، وغيره].

قوله (عَطِشَ النَّاسُ): بكسرِ الطاءِ المهمَلةِ. و(الحُدَيْبِيةِ): -بالتخفيفِ والتشديدِ- بِئْرٌ بَيْنَ مَكّةَ وجُدّةَ.

قوله (رَكْوةٌ): -بفتحِ الراءِ وتُضَمُّ- إناءٌ مِن جِلْدٍ.

(كَأمثالِ العُيونِ): أي ماءِ العيونِ، أو شَبَّهَ أصابعَ نَبيِّنا بِنَبعِ عيونِ الماءِ.

قوله (في [ذِكْرِ] غَزوةِ بُواطٍ): بضمِّ الباءِ الموَحَّدةِ وتخفيفِ الواوِ، وفي آخِرِه طاءٌ مهمَلةٌ. قوله (نادِ في الناسِ الْوَضوءَ): بفتحِ الواوِ.

قوله (في عَزْلاءِ شَجْبٍ): بإضافةِ (عَزْلاءِ) لِما بَعْدَه، و(عَزْلاء): -بفتحِ العَينِ المهمَلةِ وسكونِ الزايِ فلامٍ ممدودةٍ- فَمُ المَزادةِ الأسفلُ، والجَمعُ (عَزالِي)؛ بكسرِ اللامِ وفتحِها، و(الشَّجْبُ): -بفتحِ الشينِ المعجَمةِ وسكونِ الجيمِ وفي آخرِه موحَّدةٌ- ما بَلِيَ مِن القِربةِ.

قوله (فغَمَرَه): -بالراءِ- أي غَطّاه وسَتَرَه، وفي أصلِ الدلجيِّ: بالزايِ، أي كَبَسَه بيَدِه وعَصَرَه.

قوله (بِجَفْنةِ الرَّكْبِ): -بفتحِ الجيمِ وسكونِ الفاءِ- أكبرُ قِصاعِ الأطعمةِ.

قوله (وفَرَّقَ أصابعَه): -بتشديدِ الراءِ- أي نَشَرَها حتّى رَوَوا، أي بأجمَعِهم، وهوَ بِضَمِّ الواوِ الأولى.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ بِإِدَاوَةِ مَاءٍ، وَقِيلَ: مَا مَعَنَا -يَا رَسُولَ اللهِ- مَاءٌ غَيْرُهَا، فَسَكَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي رَكْوَةٍ، وَوَضَعَ إِصْبَعَهُ وَسَطَهَا، وَغَمَسَهَا فِي الْمَاءِ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَجِيئُونَ وَيَتَوَضَّؤُونَ ثُمَّ يَقُومُونَ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مِثْلُهُ[1].

وَمِثْلُ [هذا] فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ الْحَفِيلَةِ وَالْجُمُوعِ الْكَثِيرَةِ لَا تَتَطَرَّقُ التُّهْمَةُ إِلَى الْمُحَدِّثِ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَسْرَعَ شَيْءٍ إِلَى تَكْذِيبِهِ؛ لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ نفوسهم مِن ذَلِكَ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا مِمَّنْ لَا يَسْكُتُ عَلَى بَاطِلٍ، فَهَؤُلَاءِ قَدْ رَوَوْا هَذَا وَأَشَاعُوهُ، وَنَسَبُوا حُضُورَ الْجَمِّ الغَفِيرِ لَهُ، وَلَمْ ينكِرْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِم مَا حَدَّثُوا بِهِ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ فَعَلُوهُ وَشَاهَدُوهُ فَصَارَ كَتَصْدِيقِ جَمِيعِهِمْ لَهُم.

***

(١) حديث عمران بن حصين: الشيخان [البخاريُّ (٣٥٧١)، ومسلمٌ (٦٨٢)].

قوله (الشَّعْبِيِّ): بفتحِ المعجَمةِ.

قوله (بإداوةِ ماءٍ): وهو -بكَسْرِ الهَمزةِ- إناءٌ صغيرٌ مِن جِلْدٍ.

قوله (فسَكَبَها [رسولُ الله ﷺ] في رَكْوةٍ): أي صَبَّها في إناءٍ صغيرٍ مِن جِلْدٍ.

قوله (ووَضَعَ إصبَعَه): بتثليثِ الهمْزةِ والباءِ، والأشهَرُ كَسْرُ الهمْزةِ وفَتحُ الموحَّدةِ. وقوله (وَسَطَها): بفتحِ السينِ وسكونِها.

قوله (الحَفيلةِ): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وكسْرِ الفاءِ- المُمتلِئةُ المُجتمِعةُ.

قوله (لا تتطَرَّقُ التُّهْمةُ إلى المُحَدِّثِ): -بضمِّ التاءِ وسكونِ الهاءِ وتُفْتَحُ- أي لا تَتَوَصَّلُ تُهمةُ كَذِبِه إلى المُحَدِّثِ. قوله (لما جُبِلَتْ): -بصيغةِ المجهولِ- أي خُلِقَتْ. قوله (الجَمِّ الغَفيرِ): أي الجَمْعِ الكَثيرِ.

***

فَصْلٌ [في تفجيرِ الماءِ بِبَرَكَتِهِ وانبعاثِهِ بِمَسِّهِ ودَعْوتِه]

وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِه تَفْجِيرُ المَاءِ بِبَرَكَتِهِ، وَانبعَاثُهُ بِمَسِّهِ وَدَعْوَتِهِ، فِيمَا رَوَى مَالِكٌ فِي المُوطَّأ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي قِصَّةِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّهُمْ وَرَدُوا العَيْنَ وَهِيَ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ مِثْلِ الشِّرَاكِ، فَغَرَفُوا مِنَ العَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ غَسَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَأَعَادَهُ فِيهَا، فَجَرَتْ بِمَاءٍ كَثِيرٍ، فَاسْتَقَى النَّاسُ. قَالَ فِي حَدِيثِ ابنِ إِسْحَاقَ: فَانْخَرَقَ مِنَ المَاءِ مَا لَهُ حِسٌّ كَحِسِّ الصَّوَاعِقِ، ثُمَّ قَالَ: يُوشِكُ -يَا مُعَاذُ- إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَهُنَا، قَدْ مُلِئَ جِنَانًا.[1]

وَفِي حَدِيثِ البَرَاءِ[2] وَسَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ[3]، وَحَدِيثُهُ أَتَمُّ فِي قِصَّةِ الحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَبِئْرُهَا لَا تُرْوِي خَمْسِينَ شَاةً، فَنَزَحْنَاهَا فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَقَعَدَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَبَاهَا، قَالَ البَرَاءُ: وَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِدَلْوٍ مِنْهَا، فَبَصَقَ فَدَعَا، وَقَالَ سَلَمَةُ: فَإِمَّا دَعَا، وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، فَجَاشَتْ فَأَرْوَوْا أَنْفُسَهُمْ وَرِكَابَهُمْ. وَفِي غَيْرِ هَاتَيْنِ الرِّوَايَتَيْنِ فِي هَذِهِ القِصَّةِ مِنْ طَرِيقِ ابنِ شِهَابٍ فِي الحُدَيْبِيَةِ: فَأَخْرَجَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَوَضَعَهُ فِي قَعْرِ قَلِيبٍ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، فَرَوِيَ النَّاسُ حَتَّى ضَرَبُوا بِعَطَنٍ.[4]

---

(١) حديث معاذ بن جبل في رد العين في غزوة تبوك: مسلم [أخرجه مطوَّلًا: مالك في الموطأ (٢) [كتاب قصر الصلاة – باب الجمع بين الصلاتين في الحضر والسفر]، ومن طريقه مسلم (٧٠٦)، وغيرهما].

(٢) حديث البراء في بئر الحديبية: البخاري [٣٥٧٧].

(٣) حديث سلمة كذلك: مسلم [١٨٠٧].

(٤) [أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الدلائل (٤/ ١١٤)].

قولـه (وانبعاثُـه): -بالرفـعِ- أي جَرَيانُـه. قولـه (في المَوطَّـأ): بتشـديدِ الطـاءِ المفتوحـةِ فهمْـزةٍ، وقيـل ألـفٌ مقصـورةٌ.

قولـه (في قِصَّـةِ [غَـزْوةِ] تَبـوكَ): غـزوةٌ معروفـةٌ كانَـتْ سـنةَ تِسـعٍ مِـن الهجـرةِ.

قولـه (تَبِـضُّ): -بكسـرِ الموحَّـدةِ وتشـديدِ المهمَلـةِ- أي تَلْمَـحُ وتَلْمَـعُ. قولـه (فاسْـتَقى النّـاسُ): أي فشَرِبـوا مِنْـه وأَسْـقَوْا دَوابَّهـم.

قولـه (فانخَـرَقَ): -بالنـونِ والخـاءِ المعجَمـةِ بَعْدَهـا راءٌ- أي انفَجَـرَ وجَـرى. قولـه (مـا لـه حِـسٌّ): -بكسـرِ المهمَلـةِ وتشـديدِ الشـينِ المهمَلـةِ- أي صَـوْتٌ. قولـه (يوشِـكُ): أي يَقْـرُبُ. قولـه (قَـدْ مُلِـئَ): -بضـمِّ الميـمِ وكسـرِ الـلامِ- أي امتـلأَ. و(جِنانًـا): -بكسـرِ الجيـمِ- جمـعُ «جَنّـةٍ» -بفتحِهـا- البسـتانِ الكثـيرِ الأشـجارِ.

قولـه (لا تُـرْوي خمسـينَ شـاةً): -بضـمِّ التـاء وسـكون الـراء وكسـر الـواو- أي لا تَكْفـي خمسـينَ... إلـخ. وقولـه (جَباهـا): -بفتـحِ الجيمِ والموحَّـدة المخففـة مقصورًا- مـا حـوْلَ فَمِهـا، وبالكسـرِ مـا جُمِـعَ فيهـا مِـن المـاءِ، ويُـرْوى «شَـفاها» -بفتـحِ الشـينِ والفـاءِ- أي جانبِهـا. قولـه (فجاشَـتْ): -بالجيـمِ والشـينِ المعجَمـةِ- أي فـارَتْ. وقولـه (وركابَهـم): أي دَوابَّهـم. وقولـه (في قَعْـرِ قَليـبٍ): أي عُمْـقِ بِئْـرٍ.

قولـه (فَـرَوِيَ النّـاسُ [حَتّـى ضَرَبـوا] بِعَطَـنٍ): -بفتـح العيـن والطـاء- مَنْـزِلُ الإبـلِ.

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ شَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ العَطَشَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَدَعَا بِالمِيضَأَةِ، فَجَعَلَهَا فِي ضِبْنِهِ، ثُمَّ التَقَمَ فَمَهَا، فَاللهُ أَعْلَمُ أَنَفَثَ فِيهَا أَمْ لَا؟! فَشَرِبَ النَّاسُ حَتَّى رَوُوا وَمَلَؤُوا كُلَّ إِنَاءٍ مَعَهُمْ، فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا كَمَا أَخَذَهَا مِنِّي، وَكَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ رَجُلًا[١]، وَرَوَى مِثْلَهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ[٢].

وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ حَدِيثَ أَبِي قَتَادَةَ عَلَى غَيْرِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ بِهِمْ مُمِدًّا لِأَهْلِ مُؤْتَةَ عِنْدَمَا بَلَغَهُ قَتْلُ الأُمَرَاءِ، وَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا، فِيهِ مُعجِزَاتٌ وَآيَاتٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ إِعْلَامُهُمْ أَنَّهُمْ يَفْقِدُونَ المَاءَ فِي غَدٍ، وَذَكَرَ حَدِيثَ المِيضَأَةِ، قَالَ: وَالقَوْمُ زُهَاءُ ثَلَاثِ مِائَةٍ، وَفِي كِتَابِ مُسْلِم أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي قَتَادَةَ: احْفَظْ عَلَيَّ مِيضَأَتَكَ؛ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهَا نَبَأٌ، وَذَكَرَ نَحْوَهُ[٣].

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ حِينَ أَصَابَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَطَشٌ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِمْ، فَوَجَّهَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَعْلَمَهُمَا أَنَّهُمَا يَجِدَانِ امْرَأَةً بِمَكَانِ كَذَا، مَعَهَا بَعِيرٌ، عَلَيْهِ مَزَادَتَانِ... الحَدِيثَ، فَوَجَدَاهَا، وَأَتَيَا بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ فِي إِنَاءٍ مِنْ مَزَادَتَيْهَا، وَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ أَعَادَ المَاءَ فِي المَزَادَتَيْنِ، ثُمَّ فُتِحَتْ عَزَالِيهِمَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَمَلَؤُوا أَسْقِيَتَهُمْ حَتَّى لَمْ يَدَعُوا شَيْئًا إِلَّا مَلَؤُوهُ، قَالَ عِمْرَانُ: وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُمَا لَمْ تَزْدَادَا إِلَّا امْتِلَاءً، ثُمَّ أَمَرَ فَجُمِعَ لِلْمَرْأَةِ مِنَ الأَزْوَادِ حَتَّى مَلَأَ ثَوْبَهَا، وَقَالَ: ارْجِعِي فَإِنَّا لَمْ نَأْخُذْ مِنْ مَائِكِ شَيْئًا، وَلَكِنَّ اللهَ سَقَانَا... الحَدِيثَ بِطُولِهِ.

---

(١) حديث أبي قتادة: البيهقي [الدلائل (٤/ ٢٨٥)].

(٢) [تقدم. انظر ص٣٢٩].

(٣) حديث أبي قتادة الطويل: [البيهقي في «الدلائل» (٦/ ١٣٣)، وهو عند مسلم (٦٨١)].

قوله (بالمِيضَأة): بكسرِ الميمِ وسكونِ التحتيةِ وفتحِ الضادِ المعجمةِ والهمزةِ مقصورًا، وقد يُمَدُّ، وَزْنُها «مِفْعَلَةٌ» أو «مِفْعالةٌ». قوله (في ضِبْنِهِ): -بكسرِ الضادِ المعجمةِ وسكونِ الموحَّدةِ فنونٍ فهاءٍ- ما بَيْنَ الكَشْحِ إلى الإِبْطِ. قوله (أَنَفَثَ): أي أَنَفَخَ بريقٍ أو بلا ريقٍ.

قوله (فخُيِّلَ [إليَّ] أنها): الميضأةُ بصيغةِ المجهولِ؛ أي تَصَوَّرَ ذِهْني أنها... إلخ.

قوله (لِأَهْلِ مُؤْتَةَ): -بضمِّ الميمِ وسكونِ الهمزةِ وتُبْدَلُ واوًا- قريةٌ بَيْنَ تَبوكَ وحَوْرانَ. قوله (يَفْقِدونَ المَاءَ): -بكَسْرِ القافِ- أي بعْدَ مَوْتِه.

قوله (فوَجَّهَ رَجُلَيْنِ): -بتشديدِ الجيمِ- أي أَرْسَلَهما، وهُما عِمرانُ بنُ حُصَيْنٍ والإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ.

قوله (عَزالِيهما): -بفتحِ العينِ المهملةِ والزاي- تثنيةُ «عَزْلاءَ»[١]، وهو فَمُها الأسفلُ. قوله (لَمْ يَدَعوا شَيْئًا): أي لَمْ يَتْرُكوا شيئًا. قوله (إلّا امتِلاءً): -بكسرِ التاءِ؛ على المصدريةِ- أي مِن زيادةِ البَرَكةِ.

---

(١) (عزاليهما) لا أراها إلا جمعًا لـ«عزلاء» وهو فم المزادة الأسفل كما فسره، وهذا من باب وقوع الجمع موقع التثنية، كقول الله تعالى: (فقد صغت قلوبكما)، (فاقطعوا أيديهما)، أما قوله (تثنية عزلاء) فلا يصح؛ فإن تثنية «عزلاء»: «عزلاوان» رفعًا، و«عزلاوين» نصبًا وجرًّا.

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ، قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: هَلْ مِنْ وَضُوءٍ؟ فَجَاءَ رَجُلٌ بِإِدَاوَةٍ فِيهَا نُطْفَةٌ، فَأَفْرَغَهَا فِي قَدَحٍ، فَتَوَضَّأْنَا كُلُّنَا نُدَغْفِقُهُ دَغْفَقَةً، ونحنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً.(١)

وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ فِي جَيْشِ العُسْرَةِ وَذَكَرَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ العَطَشِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ، فَيَعْصُرُ فَرْثَهُ، فَيَشْرَبُهُ، فَرَغِبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الدُّعَاءِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ، فَانْسَكَبَتْ، فَمَلَؤُوا مَا مَعَهُمْ مِنْ آنِيَةٍ، وَلَمْ تُجَاوِزِ العَسْكَرَ.(٢)

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ رَدِيفُهُ بِذِي المَجَازِ: عَطِشْتُ وَلَيْسَ عِنْدِي مَاءٌ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ، وَضَرَبَ بِقَدَمِهِ الأَرْضَ، فَخَرَجَ المَاءُ، فَقَالَ: اشْرَبْ.(٣)

وَالحَدِيثُ فِي هَذَا البَابِ كَثِيرٌ، وَمِنْهُ الإِجَابَةُ بِدُعَاءِ الاسْتِسْقَاءِ وَمَا جَانَسَهُ.

***

قوله (هَلْ مِنْ وَضُوءٍ): -بفتحِ الواوِ- أي عِنْدَكم وَضوءٌ؟

قوله (بإداوةٍ): -بكسرِ الهَمْزةِ- أي إناءٍ صَغيرٍ.

قوله (نُدَغْفِقُهُ دغْفقةً): -بدالٍ مهملةٍ وغينٍ معجمةٍ ففاءٍ فقافٍ- أي نَصُبُّه صَبًّا كثيرًا.

قوله (فَيَعْصُرُ فَرْثَهُ): أي ما في كَرِشِه. قوله (فانسَكبَتْ): أي فانصَبَّ ماؤُها بكَثْرةٍ.

قوله (بِذي المَجازِ): -بفتحِ الميمِ والجيمِ فزايٍ- سوقٌ عِندَ عَرَفةَ مِن أسواقِ الجاهليّةِ. قوله (عَطِشْتُ): بكَسْرِ الطاءِ.

قوله (والحديثُ): أي الأحاديثُ؛ فاللامُ لِلجِنْسِ.

***

(١) [أخرجه مسلم (١٧٢٩)، وغيره].

(٢) حديث عمر في جيش العسرة: البزار [٢١٤] وابن خزيمة في صحيحه [١٠١] والبيهقي [٥/ ٢٣١].

(٣) حديث عمرو بن شعيب (أن أبا طالب قال عطشت ...): ابن سعد أخبرنا إسحاق ابن يوسف الأزرق حدثنا عبد الله بن عون عن عمرو أن أبا طالب قال كنت بذي المجاز ومعي ابن أخي فذكره [١/ ١٥٢].

فَصْلٌ وَمِنْ مُعجِزاتِه تكثيرُ الطَّعَامِ بِبَرَكَتِهِ وَدُعَائِهِ ﷺ

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا العُذْرِيُّ، حَدَّثَنَا الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ الحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ أَعْيَنَ، حَدَّثَنَا مَعْقِلٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ، فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقِ شَعِيرٍ، فَمَا زَالَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَامْرَأَتُهُ وَضَيْفُهُ حَتَّى كَالَهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ وَلَقَامَ بِكُمْ.(١)

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي طَلْحَةَ المَشْهُورُ، وَإِطْعَامُهُ ﷺ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ أَقْرَاصٍ مِن شَعِيرٍ جَاءَ بِهَا أَنَسٌ تَحْتَ يَدِهِ -أَيْ إِبْطِهِ-، فَأَمَرَ بِهَا فَفُتَّتْ، وَقَالَ فِيهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ.(٢)

وَحَدِيثُ جَابِرٍ فِي إِطْعَامِهِ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ صَاعِ شَعِيرٍ وَعَنَاقٍ، وَقَالَ جَابِرٌ: فَأُقْسِمُ بِاللهِ، لَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَصَقَ فِي العَجِينِ وَالبُرْمَةِ وَبَارَكَ(٣). رَوَاهُ عَنْ جَابِرٍ سَعِيدُ بْنُ مِينَاءٍ وَأَيْمَنُ. وَعَنْ ثَابِتٍ مِثْلُهُ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَامْرَأَتِهِ، وَلَمْ يُسَمِّهِمَا، قَالَ: وَجِيءَ بِمِثْلِ الكَفِّ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْسُطُهَا فِي الإِنَاءِ، وَيَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ، فَأَكَلَ مَنْ فِي البَيْتِ وَالحُجْرَةِ وَالدَّارِ، وَكَانَ ذَلِكَ قَدِ امْتَلَأَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَهُ ﷺ لِذَلِكَ، وَبَقِيَ بَعْدَمَا شَبِعُوا مِثْلُ مَا كَانَ فِي الإِنَاءِ(٤).

---

(١) حديث جابر (أن رجلًا أتى النبي ﷺ يستطعمه ...): أسنده من طريق مسلم [٢٢٨١].

(٢) حديث طعام أبي طلحة: الشيخان [البخاريُّ (٥٣٨١)، ومسلمٌ (٢٠٤٠)] عن أنس.

(٣) حديث جابر في إطعامه يوم الخندق ألف رجل: البخاري [٤١٠٢].

(٤) حديث ثابت عن رجل من الأنصار وامرأته: ابن سعد [١/ ١٧٧].

قوله (العُذْرِيُّ): بضمِّ العَينِ وسكونِ الذالِ المعجَمةِ، و(الجُلوديُّ): بضمِّ الجيمِ وتُفتَحُ. قوله (شَبيبٍ): بفتحِ الشينِ المعجَمةِ وكسْرِ الموحَّدةِ الأولى بَعْدَها تحتيةٌ ساكنةٌ.

قوله (أَعْيَنَ): -بفتحِ فسكونٍ ففتحتَيْنِ- أخرَجَ له الشيخانِ وأبو داودَ والنسائيُّ. قوله (مَعْقِلٌ): بفتحِ الميمِ وسكونِ العَينِ وكسْرِ القافِ.

(يَسْتَطْعِمُه): أي يَطلُبُ طعامًا مِنْه لِأهْلِه. قوله (وَسْقِ شَعيرٍ): -بفتحِ الواوِ وتُكسَرُ- سِتّونَ صاعًا، وشَطْرُ الشيءِ: نصفُه، وهوَ بِفَتْحِ الشّينِ، ولا يَصِحُّ كَسْرُه.

و(يَوْمَ الخَنْدَقِ): أي زَمَنَ حَفْرِه، وهوَ يَومُ الأحزابِ. قوله (وعَناقٍ): -بفتحِ العَينِ المهملةِ- وهوَ الأُنْثى مِن أَوْلادِ المَعْزِ.

قوله (وَإِنَّ بُرْمَتَنا): «البُرْمَةُ» -بضمِّ الموحَّدةِ- هيَ القِدْرُ مِن حَجَرٍ أو مَدَرٍ. قوله (لَتَغِطُّ): -بفتحِ التاءِ وكسرِ الغَيْنِ المعجَمةِ وتشديدِ المهمَلةِ- أي تَغْلي مِن حرارةٍ.

قوله (ميناءٍ): بكسرِ الميمِ ممدودًا ويُقْصَرُ. قوله (وأيمَنُ): بفتحِ الميمِ.

قوله (الحُجْرةِ): بضمِّ الحاءِ وتُفْتَحُ.

وَحَدِيثُ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ صَنَعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِأَبِي بَكْرٍ مِنَ الطَّعَامِ زُهَاءَ مَا يَكْفِيهِمَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ادْعُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَشْرَافِ الْأَنْصَارِ، فَدَعَاهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوا، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ سِتِّينَ، فَكَانَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ سَبْعِينَ، فَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ، وَمَا خَرَجَ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَتَّى أَسْلَمَ وَبَايَعَ، قَالَ أَبُو أَيُّوبَ: فَأَكَلَ مِنْ طَعَامِهِ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا(١).

وَعَنْ سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَصْعَةٍ فِيهَا لَحْمٌ، فتعاقَبُوها مِنْ غُدْوَةَ حَتَّى اللَّيْلِ، يَقُومُ قَوْمٌ، ويقْعُدُ آخَرُونَ(٢).

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثِينَ وَمِائَةً، وَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ عُجِنَ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، وَصُنِعَتْ شَاةٌ، فَشُوِيَ سَوَادُ بَطْنِهَا، قَالَ: وَأيْمُ اللهِ، مَا مِنَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ إِلَّا وَقَدْ حَزَّ حَزَّةً مِن سَوَادِ بَطْنِهَا، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا قَصْعَتَيْنِ، فَأَكَلْنَا أَجْمَعُونَ، وَفَضَلَ [فِي] القَصْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى البَعِيرِ(٣).

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ، وَمِثْلُهُ لِسَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَذَكَرُوا مَخْمَصَةً أَصَابَتِ النَّاسَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَدَعَا بِبَقِيَّةِ الْأَزْوادِ، فَجَاءَ الرَّجُلُ بِالْحَثْيَةِ مِنَ الطَّعَامِ وَفَوقَ ذَلِكَ، وَأَعْلَاهُمُ الَّذِي أَتَى بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ، فَجَمَعَهُ عَلَى نِطَعٍ، قَالَ سَلَمَةُ: فَحَزَرْتُهُ كَرِبْضَةِ العَنْزِ، ثُمَّ دَعَا

---

(١) حديث أبي أيوب: (أنه صنع لرسول الله ﷺ ...): الطبراني [الكبير (٤/ ١٨٥) رقم ٤٠٩٠] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٩٤)].

(٢) حديث سمرة بن جندب (أتي بقصعة لحم ...): الترمذي [٣٦٢٥] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٩٣)] وصححاه، والنسائي [الكبرى (٦٨٧٦)].

(٣) حديث عبد الرحمن بن أبي بكر (كنا ثلاثين ومائة ...): الشيخان [البخاريُّ (٢٦١٨)، ومسلمٌ (٢٠٥٦)].

قولـه (زُهَاءَ مَا يَكْفِيهِمَا): -بضمِّ الزاي- أي مِقدارَ ما يُشبِعُهما.

قولـه (جُنْدُبٍ): بضمِّ الجيمِ والدالِ وتُفْتَحُ، وحُكِيَ بِكَسْرِهما(١). قولـه (أُتِيَ النبيُّ بِقَصْعةٍ): أي جيءَ، و(قَصْعةٍ): بفتحِ القافِ لا بكسْرِها. قولـه (مِن غُدْوَةَ): بضمِّ الغينِ وسكونِ الدالِ وفتحِ الواوِ وما بعْدَها.

قولـه (وَصُنِعَتْ شاةٌ): بصيغةِ التأنيثِ لِلمجهولِ، ويحتمِلُ المتكلِّمَ على بِناءِ الفاعلِ. قولـه (وَأيْمُ اللهِ): بهمزةِ وَصْلٍ أو قطعٍ وضمِّ الميمِ ويُكسَرُ، مِن ألفاظِ القَسَمِ كعَمْرِ اللهِ وعَهْدِ اللهِ. قولـه (حَزَّ حَزَّةً): بفتحِ المهملتَيْنِ فيهما -ويَصِحُّ الضمُّ في الثانيةِ-، وتشديدِ ثانيهما. قولـه (قَصْعَتَيْنِ): أيْ جَفْنَتَيْنِ كبيرتَيْنِ.

قولـه (فَدَعا بِبَقِيّةِ الْأَزْوادِ): -جمعُ «الزادِ»، والباءُ زائدةٌ- أيْ فطَلَبَها لِيَدْعوَ فيها بالبَرَكةِ.

قولـه (عَلى نِطَعٍ): -المجرورُ بكسرِ النونِ وفتحِها مَعَ سُكونِ الطاءِ، وبفتحتَيْنِ، وكعِنَبٍ- بِساطٌ مِن الأَديمِ، وأفصحُ اللغاتِ فيه كَسْرُ الأَوَّلِ وفتحُ الثاني.

قولـه (فَحَزَرْتُه): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ والزاي فسكونِ الراءِ- أي قَدَّرْتُه. قولـه (كَرِبْضَةِ الْعَنْزِ): جُثَّتُها.

---

(١) اللغات الواردة فيه - على ما في المعجمات-: ضم الجيم والدال معًا، ضم الجيم وفتح الدال، كسر الجيم وفتح الدال؛ جاء في «القاموس»: «والجُنْدُبُ والجُنْدَبُ والجِنْدَبُ: جَرادٌ، واسمٌ».

النَّـاسَ بِأَوْعِيَتِهِـمْ، فَـمَا بَقِـيَ فِي الجَيْـشِ وِعَـاءٌ إِلَّا مَلَـؤُوهُ، وَبَقِـيَ مِنْـهُ[1].

وَعَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَـرَنِي النَّبِـيُّ ﷺ أَنْ أَدْعُـوَ لَـهُ أَهْـلَ الصُّفَّـةِ، فَتَتَبَّعْتُهُـمْ حَتَّـى جَمَعْتُهُـمْ، فَوُضِعَـتْ بَـيْنَ أَيْدِينَـا صَحْفَـةٌ، فَأَكَلْنَـا مَـا شِئْنَا وَفَرَغْنَـا وَهِـيَ مِثْلُهَـا حِـينَ وُضِعَـتْ، إِلَّا أَنَّ فِيهَـا أَثَـرَ الأَصَابِـعِ[2].

وَعَـنْ عَـلِيِّ بْـنِ أَبِي طَالِـبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جَمَـعَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ بَنِـي عَبْـدِ المُطَّلِـبِ، وَكَانُـوا أَرْبَعِـينَ، مِنْهُـمْ قَـوْمٌ يَأْكُلُـونَ الجَذَعَـةَ، وَيَشْرَبُـونَ الفَـرَقَ، فَصَنَـعَ لَـهُمْ مُـدًّا مِـنْ طَعَـامٍ، فَأَكَلُـوا حَتَّـى شَـبِعُوا، وَبَقِـيَ كَـمَا هُـوَ، ثُـمَّ دَعَـا بِعُـسٍّ، فَشَرِبُـوا حَتَّـى رَوُوا، وَبَقِـيَ كَأَنَّـهُ لَمْ يُـشْرَبْ [مِنْـهُ][3].

وَقَـالَ أَنَـسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ النَّبِـيَّ ﷺ حِـينَ ابْتَنَـى بِزَيْنَـبَ أَمَـرَهُ أَنْ يَدْعُـوَ لَهُ قَوْمًـا سَـمَّاهُمْ، وَكُلَّ مَـنْ لَقِيَـهُ حَتَّـى امْتَـلأَ البَيْـتُ وَالحُجْـرَةُ، وَقَـدَّمَ إِلَيْهِـمْ تَـوْرًا فِيـهِ قَـدْرُ مُـدٍّ مِـنْ تَمْـرٍ جُعِـلَ حَيْسًـا، فَوَضَعَـهُ قُدَّامَـهُ، وَغَمَـسَ ثَـلَاثَ أَصَابِعِـهِ، وَجَعَـلَ القَـوْمُ يَتَغَـدَّوْنَ وَيَخْرُجُـونَ، وَبَقِـيَ التَّـوْرُ نَحْـوًا مِمَّـا كَانَ، وَكَانَ القَـوْمُ أَحَـدًا أَوِ اثْنَـيْنِ وَسَـبْعِينَ، وَفِي رِوَايَـةٍ أُخْـرَى فِي هَـذِهِ القِصَّـةِ أَوْ مِثْلِهَـا: إِنَّ القَـوْمَ كَانُـوا زُهَـاءَ ثَـلَاثِ مِائَـةٍ، أَكَلُـوا حَتَّـى شَـبِعُوا، [وَقَـالَ لِي]: ارْفَـعْ، فَـلَا أَدْرِي حِـينَ وُضِعَـتْ كَانَـتْ أَكْثَـرَ، أَمْ حِـينَ رُفِعَـتْ[4].

قولـه (الجَذَعَـةَ): -بفتـحٍ فسكونٍ- هـيَ الشـاةُ الداخلـةُ في السَّنةِ الثانيـةِ إذا كانت مِـن المَعْزِ، ومـا أَتَـتْ عَلَيْـه ثمانيـةُ أشـهُرٍ مِـنَ الضَّـأْنِ، والمُـرادُ هُنـا الإبِـلُ -كَـما وَرَدَ مُفَـسَّرًا.

وقولـه (الفَـرَقَ): -بفتحتَـيْنِ أو فَتـحٍ وسـكونٍ- مِكْيَـالٌ.

قولـه (بِعُـسٍّ): -بضـمٍّ وتشـديدٍ- قَـدَحٌ مِـن خَشَـبٍ يَـرْوِي الثلاثـةَ ونحْوَهـا.

قولـه (ابْتَنَـى بِزَيْنَـبَ): أي تَـزَوَّجَ ودَخَـلَ بهـا ﷺ، ورَضيَ عَنْهـا؛ قـالَ الحلبـيُّ: «المعـروفُ أنَّ مِثْـلَ هـذه القِصـةِ في بِنائِـه بصفيّـةَ». مُـلّا باختصـارٍ.

قوله (قُدَّامَه): أي بَيْنَ يدَيْه.

قولـه (في هـذه القِصّـةِ): أي قِصّـةِ وَليمـةِ زينـبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قولـه (فَـلا أَدْري): في أصـلِ الدلجـيِ «فَـما أَدْري».

(١) حديث (أصاب الناس مخمصة في بعض مغازيه ...): عن أبي عمرة الأنصاري: ابن سعد [(١/ ١٨٠)] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٢١)]، وسلمة بن الأكوع: مسلم [١٧٢٩]، وأبي هريرة: مسلم [٢٧]، وعمر بن الخطاب: أبو يعلى [(١١٩٩) عن أبي هريرة] بسند جيد.

(٢) حديث أبي هريرة (أمرني أن أدعوَ أهلَ الصفة...): ابن أبي شيبة في المصنف [٣١٧١١]، والطبراني في الأوسط [٢٩٠٧] بسند جيد.

(٣) حديث علي (جمع بني عبد المطلب وكانوا أربعين ...): أحمد [١٣٧١] والبيهقي [«الدلائل» (٢/ ١٧٨)] وسنده جيد.

(٤) حديث أنس (حين أولم على زينب ...): الشيخان [البخاريُّ (٥١٦٦)، ومسلمٌ (١٤٢٨)] واللفظ لمسلم.

وَفِي حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ فَاطِمَةَ طَبَخَتْ قِدْرًا لِغَدَائِهِمَا، وَوَجَّهَتْ عَلِيًّا فِي طَلَبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيَتَغَدَّى مَعَهُمَا، فَأَمَرَهَا فَغَرَفَتْ مِنْهَا لِجَمِيعِ نِسَائِهِ صَحْفَةً صَحْفَةً، ثُمَّ لَهُ ﷺ ولِعَلِيٍّ، ثُمَّ لَهَا، ثُمَّ رَفَعَتِ القِدْرَ وَإِنَّهَا لَتَفِيضُ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ[1].

وَأَمَرَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُزَوِّدَ أَرْبَعَ مِائَةِ رَاكِبٍ مِنْ أَحْمَسَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هِيَ إِلَّا أَصْوُعٌ! فَقَالَ: اذْهَبْ، فَذَهَبَ، فَزَوَّدَهُمْ مِنْهَا وَكَانَ قَدْرَ الفَصِيلِ الرَّابِضِ مِنَ التَّمْرِ، وَبَقِيَ بِحَالِهِ، مِنْ رِوَايَةِ دُكَيْنٍ الأَحْمَسِيِّ، وَمِنْ رِوَايَةِ جَرِيرٍ، وَمِثْلُهُ مِنْ رِوَايَةِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الخَبَرُ بِعَيْنِهِ؛ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعُمِائَةِ رَاكِبٍ مِنْ مُزَيْنَةَ[2].

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ جَابِرٍ فِي دَيْنِ أَبِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَكَانَ قَدْ بَذَلَ لِغُرَمَاءِ أَبِيهِ أَصْلَ مَالِهِ، فَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ثَمَرِهَا كَفَافُ دَيْنِهِمْ، فَجَاءَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ بِجَدِّهَا وَجَعْلِهَا بَيَادِرَ فِي أُصُولِهَا، فَمَشَى فِيهَا وَدَعَا، فَأَوْفَى مِنْهَا جَابِرٌ غُرَمَاءَ أَبِيهِ، وَفَضَلَ مِثْلُ مَا كَانُوا يَجُدُّونَ كُلَّ سَنَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ، قَالَ: وَكَانَ الغُرَمَاءُ يَهُودًا، فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ[3].

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَصَابَ النَّاسَ مَخْمَصَةٌ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ شَيْءٌ مِنَ التَّمْرِ فِي المِزْوَدِ، [قَالَ]: فَأْتِنِي بِهِ، قَالَ: فَأَدْخَلَ يَدَهُ، فَأَخْرَجَ قَبْضَةً فَبَسَطَهَا وَدَعَا بِالبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ عَشَرَةً، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ

(١) حديث علي (أن فاطمة طبخت قدرًا ...): ابن سعد بسند منقطع [١/ ١٨٧].

(٢) حديث (أنه أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب ...): أحمد [١٧٥٧٦] والبيهقي [«الدلائل» (٥/ ٣٦٦)] عن النعمان بن مقرن وسنده صحيح.

(٣) حديث جابر في دين أبيه: البخاري [٢٣٩٥].

قوله (طَبَخَتْ قِدْرًا): أي طَبَخَتْ طَعامَ قِدْرٍ، أو هو مِن ذِكْرِ المَحَلِّ وإرادةِ الحالِّ. (لغَدائِهما): بمعجَمةٍ ومهمَلةٍ وفتْحِها.

قوله (أنْ يُزَوِّدَ): -بتشديدِ الواوِ المكسورةِ- أي يُعْطي الزادَ. قوله (مِن أَحْمَسَ): -بفتحِ الهمزةِ والميمِ- اسمُ رَجلٍ نُسِبَتْ إلَيْه قَبيلةٌ معروفةٌ. قوله (إلَّا أَصْوُعٌ): في نسخةٍ بِمَدِّ الهَمزةِ وعَدَمِ الواوِ. قوله (قَدْرَ الفَصيلِ الرّابِضِ): أي وَلَدِ الناقةِ الحَقيرِ أو البارِكِ، والوَصْفُ مكسورُ الموحَّدةِ.

قوله (دُكَيْنٍ): بالتصغيرِ وأوَّلُه دالٌ، وقيلَ راءٌ. قوله (بْنِ مُقَرِّنٍ): -بتشديدِ الراءِ المكسورةِ، وقيلَ بالسكونِ والتخفيفِ- هوَ أَحْمَسيٌّ أيضًا.

قوله (كَفافُ دَيْنِهِمْ): أي وَفاؤُه.

قوله (بِجَدِّها): -بفتحِ الجيمِ وتشديدِ الدالِ المهمَلةِ- أي بِقَطْعِ ثَمَرِها. قوله (بَيادِرَ): بفتحِ الموحَّدةِ وكسْرِ الدالِ المهمَلةِ. قوله (فمَشى فيها): الضميرُ للنبيِّ ﷺ.

قوله (مَخْمَصةٌ): أي مَجاعةٌ شَديدةٌ.

قوله (هَلْ مِنْ شَيْءٍ): أي هَلْ عِنْدَكَ بَعضُ شَيْءٍ؛ فـ(مِنْ) تبعيضيةٌ لا زائدةٌ كَما قالَ الدلجيُّ، ثُمَّ تنكيرُ (شيءٍ) لِلتقليلِ؛ فيُفيدُ المبالَغةَ في المطالَبةِ ولَوْ بِشيءٍ يَسيرٍ أو قَدْرٍ حَقيرٍ -ذَكَرَه المُلّا.

قوله (في المِزْوَدِ): -بكسرِ الميمِ وفتحِ الواوِ- وِعاءٌ مِن جِلْدٍ يُجْعَلُ فيه الزّادُ.

قوله (فأَكَلُوا... إلخ): أي فدَعَوْتُهم فأَكَلُوا... إلخ.

عَشَرَةً كَذَلِكَ، حَتَّى أَطْعَمَ الجَيْشَ كُلَّهُمْ وَشَبِعُوا، قَالَ: خُذْ مَا جِئْتَ بِهِ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ، وَكُلْ مِنْهُ وَلا تَكِلْه، وَاقْبِضْ مِنْهُ وَلَا تَكُبَّهُ، فَقَبَضْتُ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا جِئْتُ بِهِ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ وَأَطْعَمْتُ حَيَاةَ رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَى أَنْ قُتِلَ عُثْمَانُ، فَانْتُهِبَ مِنِّي فَذَهَبَ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَسْقٍ فِي سَبِيلِ اللهِ[1]، وَذُكِرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الحِكَايَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّ التَّمْرَ كَانَ بِضْعَ عَشْرَةَ تَمْرَةً.

وَمِنْهُ أَيْضًا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حِينَ أَصَابَهُ الجُوعُ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ قَدْ أُهْدِيَ لَهُ، وَأَمَرَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ أَهْلَ الصُّفَّةِ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا هَذَا اللَّبَنُ فِيهِمْ، كُنْتُ أَحَقَّ أَنْ أُصِيبَ مِنْهُ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَدَعَوْتُهُمْ، وَذَكَرَ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ أَنْ يَسْقِيَهُمْ، فَجَعَلْتُ أُعْطِي الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَأْخُذُهُ الآخَرُ حَتَّى رَوِيَ جَمِيعُهُمْ، قَالَ: فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ القَدَحَ، وَقَالَ: بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ؛ اقْعُدْ فَاشْرَبْ، فَشَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ: اشْرَبْ، وَمَا زَالَ يَقُولُهَا، وَأَشْرَبُ، حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، فَأَخَذَ القَدَحَ فَحَمِدَ اللهَ، وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ[2].

وَفِي حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى أَنَّهُ أَجْزَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةً، وَكَانَ عِيَالُ خَالِدٍ كَثِيرًا، يَذْبَحُ الشَّاةَ فَلَا تُبِدُّ عِيَالَهُ عَظْمًا عَظْمًا، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ مِن هَذِهِ الشَّاةِ، وَجَعَلَ فَضْلَتَهَا فِي دَارِ خَالِدٍ، وَدَعَا لَهُ بِالبَرَكَةِ، فَنَثَرَ ذَلِكَ لِعِيَالِهِ، فَأَكَلُوا وَأَفْضَلُوا، ذَكَرَ خَبَرَهُ الدُّولَابِيُّ[3].

---

(١) حديث أبي هريرة (أصاب الناس مخمصة ...): البيهقي [الدلائل (٦/ ١١٠)] بلفظ المصنف، والترمذي [٣٨٣٩] نحوه، وهي الرواية التي أشار إليها بقوله (وفي رواية: فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وسق في سبيل الله» وحسنه.

(٢) حديث أبي هريرة (حين أصابه الجوع فاستتبعه فوجد لبنًا في قدح ...): البخاري [٦٤٥٢].

(٣) حديث خالد بن عبد العزى (أنه أجزر شاة ...): البيهقي [الدلائل (٦/ ١١٥)] عنه.

قوله (ولا تكُبَّه): بفتحِ التاءِ وضمِّ الكافِ وتشديدِ الموحَّدةِ.

قوله (فقَدْ حَمَلْتُ): في نسخة «لَقَدْ». قوله (كَذا وكذا): كِنايةٌ عَنْ كَثْرةِ ما حَمَلَه.

قوله (ومِنْه): أي تكثيرِ الطعامِ بِبَرَكةِ دُعائِه ﷺ.

قوله (أَنا): تأكيدٌ لِلضميرِ في (بقيتُ).

قوله (ثُمَّ قالَ: اشْرَبْ): في أصلِ الدلجيِّ زيادةُ «فشَرِبْتُ». قوله (وما زالَ يقولُها): أي كَلِمةَ (اشْرَبْ).

قوله (حَتّى قُلْتُ: لا): أي لا أَشْرَبُ. قوله (بَعَثَكَ بالحَقِّ): أي إلى كافَّةِ الخَلْقِ. قوله (ما أَجِدُ): في نسخةٍ «لا أَجِدُ». وقوله (مَسْلَكًا): أي مَساغًا.

قوله (أَنَّه أَجْزَرَ لِلنبيِّ): أي أَعْطاه شاةً تَصْلُحُ لِلجَزْرِ، أي الذَّبْحِ.

قوله (عيالُ خالِدٍ): أي مَن يَعولُه، وهوَ بكسْرِ أوَّلِه. قوله (فَلا تُبِدُّ عيالَهُ): أي لا تَكْفيهم الشاةُ إذا فُرِّقَتْ عَلَيْهم.

قوله (الدّولابيُّ): -بضمِّ الدالِ- أنصاريٌّ.

وَمِنْ حَدِيثِ الآجُرِّيِّ فِي إِنْكَاحِ النَّبِيِّ ﷺ عَلِيًّا فَاطِمَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِلَالًا بِقَصْعَةٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أَمْدَادٍ أَوْ خَمْسَةٍ، وَيَذْبَحَ جَزُورًا لِوَلِيمَتِهَا، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ بِذَلِكَ، فَطَعَنَ فِي رَأْسِهَا، ثُمَّ أَدْخَلَ النَّاسَ رُفْقَةً [رُفْقَةً] يَأْكُلُونَ مِنْهَا حَتَّى فَرَغُوا، وَبَقِيَتْ مِنْهَا فَضْلَةٌ، فَبَرَّكَ فِيهَا، وَأَمَرَ بِحَمْلِهَا إِلَى أَزْوَاجِهِ، وَقَالَ: كُلْنَ وَأَطْعِمْنَ مَنْ غَشِيَكُنَّ[1].

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ: تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَنَعَتْ أُمِّي -أُمُّ سُلَيْمٍ- حَيْسًا، فَجَعَلَتْهُ فِي تَوْرٍ، فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: ضَعْهُ، وَادْعُ لِي فُلَانًا وَفُلَانًا وَمَنْ لَقِيتَ، فَدَعَوْتُهُمْ، وَلَمْ أَدَعْ أَحَدًا لَقِيتُهُ إِلَّا دَعَوْتُهُ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا زُهَاءَ ثَلَاثِمِائَةٍ، حَتَّى مَلَؤُوا الصُّفَّةَ وَالحُجْرَةَ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: تَحَلَّقُوا عَشَرَةً عَشَرَةً، وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى الطَّعَامِ، فَدَعَا فِيهِ وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا كُلُّهُمْ، فَقَالَ لِي: ارْفَعْ، فَمَا أَدْرِي حِينَ وُضِعَتْ كَانَ أَكْثَرَ، أَوْ حِينَ رُفِعَتْ[2].

وَأَكْثَرُ أَحَادِيثِ هَذِهِ الفُصُولِ الثَّلَاثَةِ فِي الصَّحِيحِ، وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَى مَعْنَى حَدِيثِ هَذَا الفَصْلِ بِضْعَةَ عَشَرَ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَوَاهُ عَنْهُمْ أَضْعَافُهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ، ثُمَّ مَنْ لَا يَنْعَدُّ بَعْدَهُمْ، وَأَكْثَرُهَا فِي قِصَصٍ مَشْهُورَةٍ، وَمَجَامِعَ مَشْهُودَةٍ، لَا يُمْكِنُ التَّحَدُّثُ عَنْهَا إِلَّا بِالحَقِّ، وَلَا يَسْكُتُ الحَاضِرُ لَهَا عَلَى مَا أُنْكِرَ مِنْهَا.

***

(١) حديث الآجري في إنكاح فاطمة لعلي: [الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٤١٠)].

(٢) حديث أنس (تزوج رسول الله ﷺ فصنعت أمي أم سليم ...): الشيخان [البخاريُّ (٥١٦٣)، ومسلمٌ (١٤٢٨) واللفظ لمسلم].

قوله (الآجُرِّيِّ): بهمزةٍ ممدودةٍ وضمِّ جيمٍ وتشديدِ راءٍ وفي آخِرِه ياءُ نِسبةٍ. قوله (وَيَذْبَحَ جَزورًا): وفي نسخةٍ «وبذَبْحِ جَزورٍ» -بمصدرٍ مضافٍ-، وفي أخرى وذَبَحَ جَزورًا.

قوله (فَبَرَّكَ): -بتشديدِ الراءِ- دَعا بالبَركةِ. قوله (مَنْ غَشيَكُنَّ): أي الذي أتاكُنَّ وحَضَرَ عِنْدَكُنَّ؛ وهوَ بفتحِ أوَّلِه وثالِثِه وكَسرِ ثانيه.

قوله (حَيْسًا): قالَ في «القاموسِ»: الحَيْسُ: الخَلْطُ، وتَمْرٌ يُخلَطُ بِسَمْنٍ وأَقِطٍ، فيُعْجَنُ شديدًا، ثم يُنْدَرُ منه نَواهُ، ورُبَّما جُعِلَ فيه سَويقٌ. قوله (في تَوْرٍ): في «القاموس» أنَّه إناءٌ يُشْرَبُ فيه، مُذَكَّرٌ.

قوله (زُهاءَ ثَلاثِمائةٍ): أي قَدْرَهم تقريبًا. قوله (تَحَلَّقوا): -بفتحِ اللامِ المُشَدَّدةِ- أي اصطَفّوا كالحَلْقةِ المُفرَغةِ. قوله (عَشَرةً عَشَرةً): أي كُلُّ عشَرةٍ حَلْقةٌ، أو كُلُّ حلقةٍ عشَرةٌ. قوله (حينَ رُفِعَتْ): هذا الفِعْلُ و(وُضِعَتْ) قَبْلَه مَبْنيّانِ لِلمجهولِ.

قوله (إلا بالحَقِّ): أي على وَفْقِ الصِّدْقِ حَذَرًا مِن التكذيبِ. قوله (على ما أُنْكِرَ): أي حَذَرًا مِن أنْ يُنْسَبَ إلَيْه ما لا يَليقُ.

***

فَصْلٌ فِي كَلَامِ الشَّجَرَةِ وَشَهَادَتِهَا لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وإجابَتِهَا دَعْوَتَه

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ غَلْبُونَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ فِيمَا أَجَازَنِيهِ عَنْ أَبِي عُمَرَ الطَّلَمَنْكِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْمُهَنْدِسِ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْبَغَوِيِّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِمْرَانَ الْأَخْنَسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ -وَكَانَ صَدُوقًا- عَنْ مُجَاهِدٍ، [عَنِ] ابْنِ عُمَرَ، قَالَ:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَدَنَا مِنْهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَعْرَابِيُّ، أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: إِلَى أَهْلِي، قَالَ: هَلْ لَكَ إِلَى خَيْرٍ؟! قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى مَا تَقُولُ؟ قَالَ: هَذِهِ الشَّجَرَةُ السَّمُرَةُ، وَهِيَ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَأَقْبَلَتْ تَخُدُّ الْأَرْضَ حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثًا، فَشَهِدَتْ أَنَّهُ كَمَا قَالَ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا.[1]

وَعَنْ بُرَيْدَةَ: سَأَلَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَقَالَ لَهُ: قُلْ لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ: رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُوكِ، قَالَ: فَمَالَتِ الشَّجَرَةُ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا، وَبَيْنَ يَدَيْهَا وَخَلْفَهَا، فَتَقَطَّعَتْ عُرُوقُهَا، ثُمَّ جَاءَتْ تَخُدُّ الْأَرْضَ، تَجُرُّ عُرُوقَهَا، مُغْبَرَّةً، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ إِلَى مَنْبِتِهَا، فَرَجَعَتْ، فَدَلَّتْ عُرُوقَهَا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ،

(١) حديث ابن عمر (كنا في سفر ...): الدارمي [١٦] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٤)] والبزار [(٣١٠) بمعناه عن عمر] بسند صحيح.

قوله (غَلْبُونَ): هوَ بفتحٍ وسكونٍ فضَمٍّ موَحَّدةٍ، وهوَ منصرِفٌ، وقَدْ يُمْنَعُ بناءً على أنَّ مُطلَقَ المزيدتَينِ عِلّةُ عَدَمِ الانصرافِ.

قوله (فيما أَجازَنيهِ): هذه لغةٌ، قال الحلبيُّ: والمعروفُ «أجازَه لي».

قوله (الطَّلَمَنْكيِّ): بتشديدِ اللامِ مفتوحةً فميمٍ مفتوحةٍ ونونٍ ساكنةٍ. قوله (المُهَنْدِسِ): بكسرِ الدالِ. قوله (البَغَويِّ): -بفتحتَينِ- وهوَ الحافظُ الكبيرُ الشهيرُ. قوله (الأَخْنَسيُّ): بفتحِ الهمزةِ وسكونِ المعجَمةِ وفتحِ النونِ.

قوله (إلى أَهْلي): وفي نسخةٍ بدونِ (إلى). قوله (إلى خَيرٍ): أي مِن أهلِكَ أو خَيرٍ مَحْضٍ. قوله (السَّمُرةُ): -بفتحِ السينِ وضمِّ الميمِ، وهيَ مِن الطَّلحِ- شَجَرٌ عظيمٌ له شَوْكٌ.

قوله (فأَقبَلَتْ): أي بمجَرَّدِ قولِه ﷺ [هذه الشجرة تشهد على حقيقة الإسلام]، قالَ المُلّا: وفي نسخةٍ صحيحةٍ «فادْعُها؛ فإنَّها تُجيبُكَ» . قوله (تَخُدُّ الأرضَ): -بضمِّ الخاءِ المعجَمةِ وتشديدِ الدالِ المهمَلةِ- أي تَشُقُّ الأرضَ وتَسْعى إلَيْه. قوله (قامَتْ): في نسخةٍ «وَقَفَتْ». قوله (كَما قالَ): أي النبيُّ ﷺ بأنَّ اللهَ واحدٌ لا شَريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُ الله ورسولُه.

قوله (وعَنْ بُرَيْدةَ): بضمِّ أوَّلِه مصغَّرًا.

قوله (فتَقَطَّعَتْ عُروقُها): أي المتعلِّقةُ بأصولِها واضطرَبَتْ في مكانِها مُتَوجِّهةً بجميعِ دواعيها إلى داعيها. قوله (مُغْبَرّةً): قالَ المُلّا: بتشديدِ الراءِ أو الباءِ. قوله (مَنْبِتِها): بكسرِ الموحَّدةِ سَماعًا، قالَ المُلّا وتُفتحُ قياسًا.

فاستقرَّتْ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: ائْذَنْ لِي، أَسْجُدْ لَكَ، قَالَ: لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، قَالَ: فَأْذَنْ لِي أُقَبِّلْ يَدَيْكَ وَرِجْلَيْكَ، فَأَذِنَ لَهُ[1].

وَفِي الصَّحِيحِ، فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الطَّوِيلِ: ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا بِشَجَرَتَيْنِ بِشَاطِئِ الوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ، فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالبَعِيرِ المَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَ بِالأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالمَنْصَفِ بَيْنَهُمَا قَالَ: التَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ، فَالتَأَمَتَا. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: فَقَالَ: يَا جَابِرُ، قُلْ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ: يَقُولُ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الحَقِي بِصَاحِبَتِكِ؛ حَتَّى أَجْلِسَ خَلْفَكُمَا، ففَعَلْتُ، فَرَجَعَتْ حَتَّى لَحِقَتْ بِصَاحِبَتِهَا، فَجَلَسَ خَلْفَهُمَا، فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ، وَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَالتَفَتُّ؛ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا، والشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقْفَةً، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، يَمِينًا وَشِمَالًا[2].

وَرَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ نَحْوَهُ؛ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ: هَلْ تَعْنِي مَكَانًا لِحَاجَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ الوَادِيَ مَا فِيهِ مَوْضِعٌ بِالنَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَرَى مِنْ نَخْلٍ أَوْ حِجَارَةٍ؟ قُلْتُ: أَرَى نَخَلَاتٍ مُتَقَارِبَاتٍ، قَالَ: انْطَلِقْ، وَقُلْ لَهُنَّ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) حديث بريدة: البزار [٤٤٥٠].

(٢) حديث جابر: مسلم [٣٠١٢].

قوله (أَسْجُدْ لَكَ): مجزومٌ في جوابِ الأمرِ، وفي نسخةٍ صحيحةٍ «أنْ أَسْجُدَ».

قوله (فأْذَنْ لي أُقَبِّلْ): وفي نسخةٍ «أَنْ أُقَبِّلَ».

قوله (الطويلِ): نعتٌ لـ(حَديثِ).

قوله (يَسْتَتِرُ بِهِ): أي مِن عُيونِ النَّاسِ.

قوله (فقالَ): أي لَهَا -كَما في نسخةٍ.

قوله (كالبَعيرِ المَخْشوشِ): -بخاءٍ وشينَيْنِ- أي الذي جُعِلَ في أنْفِه خِشاشٌ؛ عودٌ يُربَطُ يُجعَلُ في أنْفِه، فإنْ كانَ مِن شَعْرٍ فهوَ خِزامٌ.

قوله (بِالمَنْصَفِ): -بفتحِ الميمِ وإسكانِ النونِ وفتحِ الصادِ ويُكْسَرُ- أي وَسَطَ الطريقِ بَيْنَهما.

قوله (فالتَأَمَتا): -بفتحِ التاءِ والهمزةِ والميمِ- أي اجتَمَعَتا.

قوله (ففَعَلْتُ): أي كَما أَمَرَني رسولُ اللهِ ﷺ.

وقوله (فرَجَعَتْ): أي الشجرةُ، قالَ المُلّا: أي مِن حالِها التي كانَتْ علَيْها، وفي نسخةٍ «فزَحَفَتْ» -بالزاي والحاءِ المهمَلةِ والضادِ- أي انتَقَلَتْ مِن مَحَلِّها.

قوله (أُحْضِرُ): بضمِّ الهمزةِ وسكونِ المهمَلةِ وكسْرِ المعجَمةِ؛ وإنَّما فعَلَ ذلكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِئَلّا يَحُسَّ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّه قريبٌ مِنه فيَتأذَّى بِقُرْبِه.

قوله (فَقالَ بِرَأْسِهِ): أي فأَوْمَأَ بِه إلى الشجرتَيْنِ؛ قالَ المُلّا: لَعَلَّه كانَ وداعًا لِلشجرتَيْنِ، أو لِمَنْ هُناكَ مِن الملائكةِ، أو إذْنًا لَهُما كَما هوَ مُقتَضَى الأدبِ مِنهما؛ وإنْ كانَتِ الفاءُ تَأْبى ذلكَ.

قوله (هَلْ تَعْنِي): -بالمُثنّاةِ الفوقيّةِ- أي تَقْصِدُ وتَجِدُ، وضَبْطُه بالتحتيةِ تصحيفٌ.

يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَأْتِينَ لِمَخْرَجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقُلْ لِلْحِجَارَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ ذَلِكَ لَهُنَّ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ النَّخَلَاتِ يَتَقَارَبْنَ حَتَّى اجْتَمَعْنَ، وَالْحِجَارَةَ يَتَعَاقَدْنَ حَتَّى صِرْنَ رُكَامًا خَلْفَهُنَّ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ قَالَ لِي: قُلْ لَهُنَّ يَفْتَرِقْنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَرَأَيْتُهُنَّ وَالْحِجَارَةَ يَفْتَرِقْنَ حَتَّى عُدْنَ إِلَى مَوَاضِعِهِنَّ(١).

وَقَالَ يَعْلَى بنُ سَيَابَةَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ، وَذَكَرَ نَحْوًا مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ، وَذَكَرَ: فَأَمَرَ وَدِيَّتَيْنِ؛ فَانْضَمَّا، وَفِي رِوَايَةٍ: أَشَاءَتَيْنِ(٢)، وَعَنْ غَيْلَانَ بنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ مِثْلُهُ فِي شَجَرَتَيْنِ(٣)، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ فِي غَزَاةِ حُنَيْنٍ(٤).

وَعَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، وَهُوَ ابنُ سَيَّابَةَ أَيْضًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ رَآهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّ طَلْحَةً أَوْ سَمُرَةً جَاءَتْ، فَأَطَافَتْ بِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى مَنْبِتِهَا، فَقَالَ ﷺ: إِنَّهَا اسْتَأْذَنَتْ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيَّ.

وَفِي حَدِيثِ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: آذَنَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِالْجِنِّ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا لَهُ شَجَرَةٌ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْجِنَّ قَالُوا: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ قَالَ: هَذِهِ الشَّجَرَةُ؛ تَعَالَيْ يَا شَجَرَةُ، فَجَاءَتْ تَجُرُّ عُرُوقَهَا، لَهَا قَعَاقِعُ، وَذَكَرَ مِثْلَ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَوْ نَحْوَهُ(٥).

---

(١) حديث أسامة: البيهقي [الدلائل (٦/ ٢٥)] وأبو يعلى [كما في المطالب العالية ٣٨٠٨] بسند حسن.

(٢) حديث يعلى: أحمد [١٧٥٥٩] والبيهقي [«الدلائل» (٧/ ٤٢) مختصرا] والطبراني [٢٢/ رقم ٧٠٥] بسند صحيح.

(٣) حديث غيلان: [أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ٢٨٥].

(٤) حديث ابن مسعود: البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٢٠)]، والبزار [١٤٦٣]، والطبراني [«الكبير» (١٠/ ٧٩)] بسند حسن.

(٥) حديث ابن مسعود (آذنت النبي ﷺ بالجن شجر ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٨٥٩)، ومسلمٌ (٤٥٠)].

قوله (رُكامًا): -بضمِّ الراءِ- أي متراكمةً بَعْضُها فَوْقَ بعْضٍ. وقوله (خلفَهُنَّ): أي وَراءَ النَّخَلاتِ والحجارةِ.

قوله (بنُ سَيابةَ): -بسينٍ مهمَلةٍ بَعْدَها تحتيةٌ مخفَّفةٌ مفتوحتَيْنِ فألفٌ فموحَّدةٌ- قال المُلّا: أُمُّه، وأبوه مُرّةُ.

قوله (وذَكَرَ): أي يَعْلى. وقوله (وَديَّتَيْنِ): -بفتحِ الواوِ وكسْرِ الدالِ المهمَلةِ وتشديدِ التحتيةِ- أيْ نخلتَيْنِ صغيرتَيْنِ، وضَبطَه الشمنيُّ بفتحِ الواوِ وسكونِ الدالِ وتخفيفِ الياءِ. وقوله (فانضَمّا): وصَحَّحَ بعضُهم نسخةَ التأنيثِ. قوله (أَشاءَتَيْنِ): -بفتحِ الهمزةِ والشينِ المعجَمةِ الممدودةِ- بمعنى (وَديَّتَيْنِ).

قوله (عَنْ غَيْلانَ): بفتحِ الغينِ المعجَمةِ. قوله (في غَزاةِ): -بفتحِ الغَينِ- أي غَزْوةِ.

قوله (أَيْضًا): أي هُما واحدٌ لا اثنانِ. قوله (أو سَمُرةً): شَكٌّ مِن الراوي لِأنَّها مِن نَوْعِ الطَّلْحِ، قالَ المُلّا: والأظهرُ أنَّ السمُرةَ نَوْعٌ خاصٌّ مِنَ الطَّلْحِ.

قوله (آذَنَتِ النبيَّ ﷺ): -بهمزةٍ ممدودةٍ وفتحِ الذالِ والنونِ- أي أَعْلَمَتِ. قوله (قَعاقِعُ): -بفتحِ القافِ الأولى وكَسْرِ الثانيةِ؛ جَمْعُ «قَعْقَعةٍ»- أي حَرَكةُ صَوْتٍ.

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

فَهَـذَا ابـنُ عُمَـرَ وَبُرَيْـدَةُ وَجَابِـرٌ وَابْـنُ مَسْعُودٍ وَيَعْلَى بنُ مُـرَّةَ وَأُسَـامَةُ ابنُ زَيْـدٍ وَأَنَـسُ بْـنُ مَالِـكٍ وَعَلِيُّ بـنُ أَبِي طَالِـبٍ وَابْـنُ عَبَّـاسٍ وَغَيْرُهُـمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَـدِ اتَّفَقُـوا عَـلَى هَـذِهِ القِصَّـةِ نَفْسِـهَا أَوْ مَعْنَاهَـا، وَرَوَاهَـا عَنْهُـمْ مِـنَ التَّابِعِيـنَ أَضْعَافُهُـمْ، فَصَـارَتْ فِي انْتِشَـارِهَا مِـنَ القُـوَّةِ حَيْـثُ هِيَ.

وَذَكَـرَ ابـنُ فَـورَكَ أَنَّـهُ ﷺ سَـارَ فِي غَـزوَةِ الطَّائِـفِ لَيْـلًا، وَهُـوَ وَسِـنٌ، فَاعْتَرَضَتْـهُ سِـدْرَةٌ، فَانْفَرَجَـتْ لَـهُ نِصْفَيْـنِ حَتَّـى جَـازَ بَيْنَهُـمَا[1]، وَبَقِيَـتْ عَـلَى سَـاقَيْنِ إِلَى وَقْتِنَـا، وَهِـيَ هُنَـاكَ مَعْرُوفَـةٌ مُعَظَّمَـةٌ.

وَمِـنْ ذَلِـكَ حَدِيـثُ أَنَـسٍ: أَنَّ جِبْرِيـلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَـالَ لِلنَّبِـيِّ ﷺ، وَرَآهُ حَزِينًـا: أَتُحِـبُّ أَنْ أُرِيَـكَ آيَـةً؟ قَـالَ: نَعَـمْ، فَنَظَـرَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إِلَى شَـجَرَةٍ مِـنْ وَرَاءِ الـوَادِي، فَقَـالَ: ادْعُ تِلْـكَ الشَّـجَرَةَ، فَجَـاءَتْ تَمْشِي حَتَّـى قَامَـتْ بَـيْنَ يَدَيْـهِ، فَقَـالَ: مُرْهَـا فَلْتَرْجِـعْ، فَعَـادَتْ إِلَى مَكَانِهَـا[2].

وَعَـنْ عَـلِيٍّ نَحْـوُ هَـذَا، وَلَمْ يَذْكُـرْ فِيـه جِبْرِيـلَ؛ قَـالَ: اللهُـمَّ أَرِنِي آيَـةً لَا أُبَـالِي مَـنْ كَذَّبَنِي بَعْدَهَـا، فَدَعَـا شَـجَرَةً، وَذَكَـرَ مِثْلَـهُ، وَحُزْنُـهُ ﷺ لِتَكْذِيـبِ قَوْمِـهِ، وطَلَبُـهُ الآيَـةَ لَـهُـمْ لَا لَـهُ[3].

وَذَكَـرَ ابـنُ إِسْـحَاقَ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ أَرَى رُكَانَـةَ مِثْـلَ هَـذِهِ الآيَـةِ فِي شَـجَرَةٍ دَعَاهَـا، فَأَتَـتْ حَتَّـى وَقَفَـتْ بَـيْنَ يَدَيْـهِ، ثُـمَّ قَـالَ: ارْجِعِـي فَرَجَعَـتْ[4].

(١) حديث (أنه سار في غزوة الطائف ليلًا وهو وَسِنٌ ...): [بيض له السيوطي ولم يعزه].

(٢) حديث أنس (أن جبريل رآه حزينًا ...): الدارمي [٧٥٠٣] وابن ماجه [٤٠٢٨] والبيهقي [«الدلائل» (٢/ ١٥٤)].

(٣) حديث علي نحوه: لم أجده، إنما ورد أيضًا من حديث جابر أخرجه أبو نعيم [«الدلائل» عَنْ عُمَرَ (٢٩٠)].

(٤) حديث (أنه أرى ركانة مثل هذه الآية في شجرة دعاها ...): البيهقي [«الدلائل» (٢٩٩)] وأبو نعيم [«الدلائل» (٦/ ٢٥٢)] عن أبي أمامة.

قولـه (ابـنُ فـورَكَ): بضـمِّ الفـاءِ، يُـصْرَفُ ويُمْنَـعُ، قـالَ المُـلَّا: وهـوَ الأظهـرُ[1]. قولـه (وهـوَ وَسِـنٌ): -بفتـحِ الـواوِ وكَسْـرِ المهمَلـةِ- صِفـةٌ مشـبَّهةٌ مِـن «الوَسَـنِ» -بفتحتيـنِ-، وهـوَ أوَّلُ النَّـومِ.

قولـه (إلى وقْتِنـا): هـذا -كـما في نسـخة-، وهـذا باعتبـارِ زَمَنِـه؛ وأمَّـا الآنَ فليسَـتْ مشـهورةً.

قولـه (حَزِينًـا): أي مِـن تكذيـبِ قومِـه لـه. قولـه (فقـالَ): أي جِبريـلَ، ويَحْتَمِـلُ أي لِرَسـولِ الله.

قولـه (فَلْتَرجِـعْ): أي إلى مَنبِتِهـا -كـما في نسـخةٍ-، وفي نسـخةٍ «إلى مَكانِهـا».

(لتكذيـبِ قومِـه): أي فليـسَ حُزنُـه لِشَـأنِ حالِـه بَـلْ لِمَرضـاةِ ربِّـه؛ ولَعَـلَّ الحُـزْنَ هُنـا كانَ قَبْـلَ النهـيِ عَـن حُزْنِـه عـلى الكُفّـارِ.

قولـه (رُكانـةَ): -بضـمِّ الـراءِ- وهـوَ ابـنُ عَبْـدِ يَزِيـدَ، صَحـابيٌّ كانَ مشـهورًا بالقـوّةِ، وهـوَ الـذي صارَعَه النبـيُّ ﷺ؛ وأمّـا رُكانةُ المِصريُّ فقيلَ بِصُحْبَتِـه، وقيـلَ تابِعـيٌّ.

(١) جاء في «حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع»: «ابْنُ فَـورَكَ: مَمْنُوعٌ مِـنْ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّـةِ وَالْعُجْمَـةِ، وَفَتْـحُ فَائِـهِ أَشْـهَرُ مِـنْ ضَمِّهَـا».

وَعَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ ﷺ شَكَى إِلَى رَبِّهِ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَنَّهُمْ يُخَوِّفُونَهُ، وَسَأَلَهُ آيَةً يَعْلَمُ بِهَا أَنْ لَا مَخَافَةَ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنِ ائْتِ وَادِيَ كَذَا؛ فِيهِ شَجَرَةٌ، فَادْعُ غُصْنًا مِنْهَا يَأْتِكَ، فَفَعَلَ، فَجَاءَ يَخُطُّ الأَرْضَ خَطًّا، حَتَّى انْتَصَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَبَسَهُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: ارْجِعْ كَمَا جِئْتَ، فَرَجَعَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، عَلِمْتُ أَنْ لَا مَخَافَةَ عَلَيَّ[1].

وَنَحْوٌ مِنْهُ عَنْ عُمَرَ، وَقَالَ فِيهِ: أَرِنِي آيَةً لَا أُبَالِي مَنْ كَذَّبَنِي بَعْدَهَا، وَذَكَرَ نَحْوَهُ[2].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ هَذَا العِذْقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَدَعَاهُ فَجَعَلَ يَنْقزُ حتى أَتَاهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ، فَعَادَ إِلَى مَكَانِهِ، وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ[3].

***

(١) حديث الحسن (أنه شكى إلى ربه ...): البيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٤)] وهو مرسل.

(٢) حديث عمر نحوه: البزار [٣١٠] وأبو يعلى [٢١٥] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٣)] بسند حسن.

(٣) حديث ابن عباس: عزاه المصنف إلى الترمذي [٣٦٢٨] وأخرجه البخاري في التاريخ [٣/ ٣]، والدارمي [٢٤] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٥)].

قوله (**يُخَوِّفونَهُ**): -بضمِّ أوَّلِه- أي بإخراجِه -كما في آيةِ «الأنفالِ»-؛ ولعَلَّ هذا في صَدرِ الإسلامِ قَبْلَ نُزولِ قولِهِ -تعالى-: ﴿فاصْدَعْ بِما تؤمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، وآيةِ ﴿واللهُ يَعصِمُكَ مِنَ الناسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

قوله (**يأتِكَ**): بالجزمِ في جوابِ الأمرِ، وفي نسخةٍ بالياءِ مرفوعٌ ومجزومٌ على لُغةٍ[1].

قوله (**العِذْق**): -بكسرِ العينِ المهمَلةِ، وسكونِ الذالِ المعجَمةِ- أي العُرْجونَ بِما فيه مِنَ الشَّماريخِ.

قوله (**يَنْقُزُ**): بضمِّ القافِ وتُكسَرُ، وبِالزاي[2]- أي فَشَرَعَ يَثِبُ إلَيه متوجِّهًا لَدَيْه.

***

(١) وجزمه مع ثبوت الياء يخرج على وجهين: إما أن تكون الياء الثابتة هي لام الفعل حقيقة وقد خرج الفعل فيه على الأصل أي يجزم بالحركات كما الفعل الصحيح، أو أن تكون هذه الياء زائدة ناتجة عن إشباع حركة التاء، والياء التي هي لام الفعل محذوفة لأجل الجزم.

(٢) هكذا كما في شرح الملا، وجاء في الأصل: «بضمِّ الفاءِ وتُكسَرُ، ورويَ بالزاي» ولا يستقيم لأن الفعل (نَفَرَ) بابه «ضرب» في اللغة العالية، وضم فائه في المضارع لغة ضعيفة، والفعل (نَقَزَ) بابه «قعد» ويجوز أن يأتي على «ضرب»؛ فضبْطُ الشارح يدل على أنه يقصد الفعل «ينقز» -بالقاف والزاي- لا «ينفر».

فَصْلٌ فِي قِصَّةِ حَنِينِ الجِذْعِ [له ﷺ]

وَيُعَضِّدُ هَذِهِ الأَخْبَارَ حَدِيثُ أَنِينِ الجِذْعِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشْهُورٌ مُنْتَشِرٌ، والخَبَرُ بِهِ مُتَوَاتِرٌ، قَدْ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعَةَ عَشَرَ، مِنْهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ، وَبُرَيْدَةُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَالمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ؛ كُلُّهُمْ يُحَدِّثُ بِمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ(١). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَحَدِيثُ أَنَسٍ صَحِيحٌ.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعِ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ سَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: حَتَّى ارْتَجَّ المَسْجِدُ لِخُوَارِهِ، وَفِي رِوَايَةِ سَهْلٍ: وَكَثُرَ بُكَاءُ النَّاسِ لِمَا رَأَوْا بِهِ، وَفِي رِوَايَةِ المُطَّلِبِ: حَتَّى تَصَدَّعَ وَانْشَقَّ؛ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَسَكَتَ، زَادَ غَيْرُهُ: فَقَالَ ﷺ: إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ، وَزَادَ غَيْرُهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ تَحَزُّنًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَدُفِنَ تَحْتَ المِنْبَرِ.

(١) حديث أبي بن كعب: الدارمي [٣٦] وابن ماجه [١٤١٤] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ٦٧)]، وجابر بن عبد الله: البخاري [٣٥٨٥]، وأنس: الترمذي [٣٦٢٧]، وابن عمر: البخاري [٣٥٨٣]، وابن عباس: الدارمي [٣٩] والبيهقي [«الدلائل» (٢/ ٥٥٨)]، وسهل بن سعد: الشيخان [البخاري (٩١٧)، مسلم (٥٤٤)]، وأبي سعيد: الدارمي [٣٧]، وبريدة: الدارمي [٣٢]، وأم سلمة: البيهقي [«الدلائل» (٢/ ٥٦٣)]، والمطلب بن أبي وداعة: الزبير بن بكار في أخبار المدينة.

قوله (**وَيُعَضِّدُ**): وفي نسخةٍ بضمِّ الضادِ والدالِ. قوله (**أَنِينِ الجِذْعِ**): بفتحِ الهمزةِ وكسرِ النونِ، وفي نسخةٍ «حَنِينِ الجِذعِ»؛ أيْ شَوْقًا إِلَيْهِ، و(**الجِذعُ**): -بكسرِ الجيمِ- أصلُ النخلةِ، والمُرادُ به هُنا ما كانَ مِن عَمَدِ المسجدِ، وكانَ يَبكي عليْه حالَ الخُطبةِ.

قوله (**ابْنُ أَبِي وَدَاعةَ**): بفتحِ الواوِ.

قوله (**فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ**): -الفعلُ بصيغةِ المجهولِ- وصانعُه غُلامُ امرأةٍ مِن الأنصارِ مِن أَثْلِ الغابةِ، وله ثَلاثُ درَجاتٍ. قوله (**كَصَوْتِ العِشارِ**): أي صوتِ الناقةِ التي لِحَمْلِها عشَرةُ أشهُرٍ، والحاملِ مطلَقًا. قوله (**لِخُوارِه**): -بضمٍّ وواوٍ، وفي نُسخةٍ بالباءِ(١)- رَفْعِ صوتِه.

قوله (**فَوَضَعَ يَدَه عَلَيْه**): أيْ تَسليةً لِما لَدَيْه. قوله (**فَسَكَتَ**): أي حيثُ سَكَنَ إِلَيْه، وسيأتي في روايةٍ أنَّه عانَقَه بيَدَيْه.

قوله (**مِنَ الذِّكْرِ**): أي المَوعظةِ البَليغةِ في الخُطبةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الجمعة: ٩].

قوله (**لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْه... إلخ**): أي لَوْ لَمْ أَعتَنِقْه لاستَمرَّ باكيًا. قوله (**تَحَزُّنًا... إلخ**): هوَ -بِضَمِّ الزاي- إظهارُ الحُزْنِ الزائدِ على الصبرِ على خَيرِ خَلْقِ اللهِ ﷺ(٢)، وما أَلْطَفَ قَوْلَ مَنْ قالَ:

والصبرُ يُحْمَدُ في المَواطِنِ كُلِّها
إلا علَيْكَ فإنّه مَذْمـــــومُ

(١) أي باء السببية بدل اللام.

(٢) على فراقه ﷺ.

هَكَذَا فِي حَدِيثِ المُطَّلِبِ وَسَهْلِ بنِ سَعْدٍ وَإِسْحَاقَ عَنْ أَنَسٍ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنْ سَهْلٍ: فَدُفِنَتْ تَحْتَ منبَرِه، أو جُعِلَتْ فِي السَّقْفِ. وَفِي حَدِيثِ أُبَيٍّ: فَكَانَ إِذَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَّى إِلَيْهِ، فَلَمَّا هُدِمَ المَسْجِدُ أَخَذَهُ أُبَيٌّ، فَكَانَ عِنْدَهُ إِلَى أَنْ أَكَلَتْهُ الأَرْضُ وَعَادَ رُفَاتًا. وَذَكَرَ الإِسْفَرائِنِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَاهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَجَاءَهُ يَخْرِقُ الأَرْضَ، فَالتَزَمَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ، فَعَادَ إِلَى مَكَانِهِ.

وَفِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ: فَقَالَ -يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ-: إِنْ شِئْتَ أَرُدُّكَ إِلَى الحَائِطِ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ، تَنْبُتُ لَكَ عُرُوقُكَ، وَيَكْمُلُ خَلْقُكَ، وَيَجُرُّ ذلكَ خُوصًا وَثَمَرَةً، وَإِنْ شِئْتَ أَغْرِسُكَ فِي الجَنَّةِ، فَيَأْكُلُ أَوْلِيَاءُ اللهِ مِنْ ثَمَرِكَ، ثُمَّ أَصْغَى لَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَمِعُ مَا يَقُولُ، فَقَالَ: بَلْ تَغْرِسُنِي فِي الجَنَّةِ؛ فَيَأْكُلُ مِنِّي أَوْلِيَاءُ اللهِ، وَأَكُونُ فِي مَكَانٍ لَا أَبْلَى فِيهِ، فَسَمِعَهُ مَنْ يَلِيهِ، فَقَالَ ﷺ: قَدْ فَعَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: اخْتَارَ دَارَ البَقَاءِ عَلَى دَارِ الفَنَاءِ. فَكَانَ الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا بَكَى، وَقَالَ: يَا عِبَادَ اللهِ، الخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ لِمَكَانِهِ؛ فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَى لِقَائِهِ.

رَوَاهُ عَنْ جَابِرٍ حَفْصُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ -وَيُقَالُ: عَبْدُ اللهِ بنُ حَفْصٍ، وَأَيْمَنُ، وأَبُو نَضْرَةَ، وَابْنُ المُسَيَّبِ، وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي كَرِبٍ، وَكُرَيْبٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَرَوَاهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الحَسَنُ وَثَابِتٌ وَإِسْحَاقُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَرَوَاهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ نَافِعٌ وَأَبُو حَيَّةَ، وَرَواه أَبُو نَضْرَةَ وَأَبُو الوَدَّاكِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَعَمَّارُ بْنُ أَبِي عَمَّارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبُو حَازِمٍ وَعَبَّاسُ بْنُ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، وَكَثِيرُ بْنُ زَيْدٍ عَنِ المُطَّلِبِ، وَعُبَيْدُ اللهِ بنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ، والطُّفَيْلُ بْنُ أُبَيٍّ عَنْ أَبِيهِ.

قَالَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ: فَهَذَا حَدِيثٌ كَمَا تَرَاهُ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصِّحَّةِ، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحابَةِ مَنْ ذَكَرْنَا، وَغَيْرُهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ ضِعْفُهُمْ إِلَى مَنْ لَمْ نَذْكُرْهُمْ، وَبِمَنْ دُونَ هَذِهِ العِدَّةِ يَقَعُ العِلْمُ لِمَنِ اعْتَنَى بِهَذَا البَابِ، وَاللهُ المُثَبِّتُ عَلَى الصَّوَابِ.

***

قوله (أو جُعِلَتْ في السَّقْفِ): أي في سَقْفِ المسجِدِ. قوله (فلَمَّا هُدِمَ المسجدُ): أي عِندَ إرادةِ تجديدِه. قوله (الأرضُ): في نسخةٍ «الأَرَضَةُ»، أي الدابَّةُ المسمَّاةُ بالأَرَضةِ، وهيَ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿إلا دابّةُ الأرضِ تأكُلُ مِنسَأَتَه﴾ [سبأ: ١٤]. قوله (وعادَ رُفاتًا): أي صارَ فُتاتًا.

قوله (قَدْ فَعَلْتُ): أي قَبِلْتُ، أو جَزَمْتُ على هذا اللفظِ، أوْ غُرِسْتَ كَما أرَدْتَ. قوله (بهذا): أي الحديثِ. قوله (الخَشَبةُ تَحِنُّ... إلخ): أي تَميلُ مَعَ كونِها ليسَتْ مِن أهْلِ الرِّقَّةِ على الواسطةِ العُظمى، والسيِّدِ الأَسْمى، ﷺ وعلى آلِه وأصحابِه أجمعينَ.

قوله (وأَيْمَنُ): أي الحَبَشيُّ مَولى ابنِ أبي عمرةَ المخزوميِّ. قوله (وأَبو نَضْرةَ): -بفتحِ النونِ وسكونِ الضادِ المعجَمةِ- واسمُه المُنذرُ بنُ مالكٍ. قوله (ابْنُ أَبي كَرِبٍ): بفتحٍ فسكونٍ وكسرٍ، وهوَ مُنصَرِفٌ.

قوله (وأَبو الوَدَّاكِ): بتشديدِ الدالِ المهمَلةِ. قوله (ضِعفُهُمْ): -بكَسْرِ أوَّلِه- أي زائدٌ علَيْهِم.

***

فَصْلٌ: وَمِثْلُ هَذَا فِي سَائِرِ الجَمَادَاتِ

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ المُرَابِطِ، حَدَّثَنَا المُهَلَّبُ أَبُو القَاسِمِ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ، حَدَّثَنَا المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا الفَرَبْرِيُّ، حَدَّثَنَا البُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّى، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ، وَهُوَ يُؤْكَلُ، وَفِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: كُنَّا نَأْكُلُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الطَّعَامَ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ(١).

وَقَالَ أَنَسٌ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ كَفًّا مِنْ حَصًى، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ، ثُمَّ صَبَّهُنَّ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحْنَ، ثُمَّ فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّحْنَ(٢). وَرَوَى مِثْلَهُ أَبُو ذَرٍّ، وَذَكَرَ أَنَّهُنَّ سَبَّحْنَ فِي كَفِّ عُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا(٣).

وَقَالَ عَلِيٌّ: كُنَّا بِمَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِيهَا، فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرَةٌ وَلَا جَبَلٌ إِلَّا قَالَ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ.(٤)

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، عَنْهُ ﷺ، قَالَ: (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ)(٥)، قِيلَ: إِنَّهُ الحَجَرُ الأَسْوَدُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ: (لَمَّا اسْتَقْبَلَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرِّسَالَةِ جَعَلْتُ لَا أَمُرُّ

---

(١) حديث ابن مسعود في تسبيح الطعام: أسنده من طريق البخاري [٣٥٧٩]، وأخرجه الترمذي [٣٦٣٣].

(٢) حديث أنس في تسبيح الحصى: لم أجده، بل قال ابن حجر في شرح البخاري إنه لم يرد إلا من حديث أبي ذر من طريق واحدة [شرح البخاري (٦/ ٥٩٢)].

(٣) حديث أبي ذر مثله: البزار [٤٠٤٠] والطبراني في الأوسط [١٢٤٤] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ٦٤)].

(٤) حديث علي (كنا بمكة ...): الدارمي [٢١] والترمذي [٣٦٢٦] وحسنه.

(٥) حديث جابر بن سمرة (إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي): مسلم [٢٢٧٧].

قوله (في سائرِ الجماداتِ): أي بقيَّتِها أو جُمْلَتِها مِن غَيْرِ النَّباتاتِ الَّتي هيَ قريبةٌ مِنَ الحَيَواناتِ؛ فهيَ في بابِ المُعْجِزةِ أَقْرَبُ، وفي خَرْقِ العادةِ أَغْرَبُ.

قوله (المُرابِطِ): بِضَمِّ الميمِ وكسرِ الموحَّدةِ. قوله (المُهَلَّبُ): بتشديدِ اللامِ المفتوحةِ. قوله (الفَرَبْريُّ): بفتحِ الفاءِ ويُكْسَرُ.

قوله (وهوَ يُؤْكَلُ): جُملةٌ حاليَّةٌ. قوله (نَسْمَعُ تسبيحَه): أي تسبيحَ الطَّعامِ، والجملةُ حاليَّةٌ مِن ضميرِ (نَأْكُلُ).

قوله (وقالَ أَنَسٌ): في نسخةٍ «عَنْ أَنَسٍ». قوله (مِنْ حَصًى): أي حِجارةٍ دِقاقٍ. قوله (صَبَّهُنَّ): أي وَضَعَهُنَّ.

قوله (فَما اسْتَقْبَلَهُ شَجَرةٌ): في نسخةٍ «شَجَرٌ».

قوله (قيلَ: إنَّه الحَجَرُ الأَسْوَدُ): قيلَ أيضًا: إنَّه الحَجَرُ المَبْنيُّ للجِدارِ المُقابلِ لِدارِ أَبي بَكْرٍ.

قوله (لا أَمُرُّ): بفتحِ هَمزةٍ وضمِّ ميمٍ وتشديدِ راءٍ.

بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ)[1]، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَجَدَ لَهُ[2].

وَفِي حَدِيثِ العَبَّاسِ: إِذِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وعلى بَنِيهِ بِمُلَاءَةٍ، وَدَعَا لَهُم بِالسَّتْرِ مِنَ النَّارِ كَسَتْرِهِ إِيَّاهُمْ بِمُلَاءَتِهِ، فَأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ البَابِ وَحَوَائِطُ البَيْتِ آمِينَ آمِينَ[3].

وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ: مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ بِطَبَقٍ فِيهِ رُمَّانٌ وَعِنَبٌ، فَأَكَلَ مِنْهُ ﷺ فَسَبَّحَ[4].

وَعَنْ أَنَسٍ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ أُحُدًا، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ: (اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ)[5]، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي حِرَاءٍ، وَزَادَ: وَمَعَهُ عَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَقَالَ: (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ)[6]، وَالخَبَرُ فِي حِرَاءٍ أَيْضًا عَنْ عُثْمَانَ[7]، قَالَ: وَمَعَهُ عَشَرَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ، أَنَا فِيهِمْ، وَزَادَ عَبْدَ الرَّحْمنِ وسعدًا، قَالَ: وَنَسِيتُ الاثْنَيْنِ، وَفِي حَدِيثِ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ أَيضًا مِثْلُهُ[8]، وَذَكَرَ عَشَرَةً، وَزَادَ نَفْسَهُ.

قوله (بِحَجَرٍ ولا شَجَرٍ): في نسخةٍ «بِشَجَرٍ ولا حَجَرٍ».

قوله (بِمُلاءةٍ): -بميمٍ مضمومةٍ ولامٍ فألفٍ ممدودةٍ- رَيْطَةٌ كالمِلْحَفَةِ قِطعةٌ واحدةٌ.

قوله (أُسْكُفَّةُ البابِ): أي عَتَبَتُه.

قوله (فَسَبَّحَ): أي ما في الطَّبَقِ عِنْدَ أَكْلِه.

قوله (صَعِدَ): -بكسرِ العَينِ- أي طَلَعَ. و(أُحُدًا): بضمتينِ. قوله (فَرَجَفَ بِهِم): -بفتحِ الجيمِ- أي اضطَرَبَ.

قوله (اثْبُتْ أُحُدُ): أي يا أُحُدُ، ووَقَعَ في أصلِ الدلجيِّ بَعْدَ قوله (فرَجَفَ بهم): «فضَرَبَه بِرِجْلِه»، وهوَ غيرُ موجودٍ في النُّسَخِ المعتبَرَةِ.

قوله (في حِراءٍ): بكسرِ أوَّلِ المجرورِ ومَدِّ ثانيه. قوله (أَوْ شَهيدٌ): في روايةٍ «وسَعدُ بنُ أبي وقّاصٍ» بَدَلَ (عَليّ).

---

(١) حديث عائشة (لما استقبلني جبريل بالرسالة ...): البزار [١٤٠].

(٢) حديث جابر بن عبد الله (لم يكن يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له): البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٦٩)].

(٣) حديث العباس في تأمين أسكفة الباب: البيهقي عن أبي أسيد الساعدي [«الدلائل» (٦/ ٧٢)].

(٤) حديث جعفر بن محمد عن أبيه (مرض النبي ﷺ فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب فأكل منه فسبح): لم أجده.

(٥) حديث أنس (صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحدًا ...): البخاري [٣٦٧٥].

(٦) حديث أبي هريرة في حراء: مسلم [٢٤١٧].

(٧) حديث عثمان في حراء: الترمذي [٣٦٩٩] والنسائي [في الكبرى (٨١٠٠)].

(٨) حديث سعيد بن زيد مثله: الأربعة [أبو داود (٤٦٤٨)، الترمذي (٣٧٥٧) ابن ماجه (١٣٤)، النسائي (٨١٠٠)] وصححه الترمذي.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ حِينَ طَلَبَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ لَهُ ثَبِيرٌ: اهْبِطْ يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَلَى ظَهْرِي؛ فَيُعَذِّبَنِي اللهُ، فَقَالَ حِرَاءٌ: إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ(١).

وَرَوَى ابْنُ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثُمَّ قَالَ: يُمَجِّدُ الْجَبَّارُ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ؛ فَرَجَفَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ عَنْهُ(٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ حَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ صَنَمٍ مُثْبَتَةُ الْأَرْجُلِ بِالرَّصَاصِ فِي الْحِجَارَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ ﷺ الْمَسْجِدَ عَامَ الْفَتْحِ، جَعَلَ يُشِيرُ بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ إِلَيْهَا، وَلَا يَمَسُّهَا، وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ...﴾ الْآيَةَ [الإسراء: ٨١]، فَمَا أَشَارَ لِوَجْهِ صَنَمٍ إِلَّا وَقَعَ لِقَفَاهُ، وَلَا لِقَفَا صَنَمٍ إِلَّا وَقَعَ لِوَجْهِهِ، حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهَا صَنَمٌ، [وَمِثْلُه] فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَقَالَ: فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا، وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩](٣).

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُهُ مَعَ الرَّاهِبِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ؛ إِذْ خَرَجَ تَاجِرًا مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانَ الرَّاهِبُ لَا يَخْرُجُ إِلَى أَحَدٍ، فَخَرَجَ وَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمْ حَتَّى أَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا لَهُ، وَلَا يَسْجُدُ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وَذَكَرَ الْقِصَّةَ، ثُمَّ قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ الْفَيْءُ إِلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ(٤).

***

قوله (وزَهَقَ الباطلُ): أي اضْمَحَلَّ وذَهَبَ.

قوله (جاءَ الحقُّ وما يُبْدِئُ... إلخ): أي ظَهَرَ الحَقُّ، ولَمْ يَبْقَ للباطلِ ابتداءٌ ولا إعادةٌ، أي ابتداءُ خَلْقٍ أو ضَرٍّ ونَفْعٍ، أو إعادةُ ذلك.

***

---

(١) حديث (لما طلبته قريش قال له ثبير ...): [ذكره السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٥٦].

(٢) حديث ابن عمر: (أنه قرأ على المنبر ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ...): أحمد [٥٤١٤] بلفظ المصنف، ومسلم [(٢٧٨٨) بنحوه] والنسائي [في الكبرى (٧٦٤٨)] نحوه.

(٣) حديث ابن عباس (كان حول البيت ستون وثلثمائة صنم ...): البزار [١٨٠٠] والطبراني [١٠/ ١٩١]، وأخرجه الشيخان [البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١)] عن ابن مسعود نحوه، وأبو يعلى [٤٩٦٧ (عن ابن مسعود)] عن جابر بن عبد الله نحوه.

(٤) حديث الراهب: الترمذي [٣٦٢٠] عن أبي موسى وحسنه، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٢٤].

فَصْلٌ: فِي الآيَاتِ وَضُرُوبِ الحيَوانَاتِ

حَدَّثَنَا سِرَاجُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ، حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا القَاضِي [أبو] يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو الفَضْلِ الصَّقَلِّيُّ، حَدَّثَنَا ثَابِتُ بْنُ قَاسِمِ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو العَلَاءِ أَحْمَدُ بْنُ عِمْرَانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا مُجَاهِدٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ عِنْدَنَا دَاجِنٌ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَرَّ وَثَبَتَ مَكَانَهُ؛ فَلَمْ يَجِئْ، وَلَمْ يَذْهَبْ، وَإِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَاءَ وَذَهَبَ[1].

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي مَحْفِلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فجَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ قَدْ صَادَ ضَبًّا، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى؛ لَا آمَنْتُ بِكَ أَوْ يُؤْمِنَ هَذَا الضَّبُّ، وَطَرَحَهُ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا ضَبُّ؛ فَأَجَابَهُ بِلِسَانٍ مُبِينٍ، يَسْمَعُهُ القَوْمُ جَمِيعًا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، يَا زَيْنَ مَنْ وَافَى القِيَامَةَ، فَقَالَ: مَنْ تَعْبُدُ؟ فَقَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ عَرْشُهُ، وَفِي الأَرْضِ سُلْطَانُهُ، وَفِي البَحْرِ سَبِيلُهُ، وَفِي الجَنَّةِ رَحْمَتُهُ، وَفِي النَّارِ عِقَابُهُ، قَالَ: فَمَنْ أَنَا؟ قَالَ: رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ صَدَّقَكَ، وَقَدْ خَابَ مَنْ كَذَّبَكَ؛ فَأَسْلَمَ الأَعْرَابِيُّ[2].

وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ كَلَامِ الذِّئْبِ المَشْهُورَةُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: بَيْنَا رَاعٍ يَرْعَى غَنَمًا لَهُ، عَرَضَ الذِّئْبُ لِشَاةٍ مِنْهَا، فَأَخَذَهَا الرَّاعِي مِنْهُ، فَأَقْعَى الذِّئْبُ، وَقَالَ لِلرَّاعِي: أَلَا تَتَّقِي اللهَ؟! حُلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ رِزْقِي، قَالَ الرَّاعِي: العَجَبُ مِنْ ذِئْبٍ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الإِنْسِ، فَقَالَ الذِّئْبُ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟!

---

(١) حديث عائشة (كان عندنا داجن ...): أحمد [٢٤٨١٨] والبزار [٢٥٦] وأبو يعلى [٤٦٦٠] والطبراني [في الأوسط (٦٥٩١)] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٣١)] والدراقطني [في العلل (١٤/ ٣٣٩) رقم (٣٦٨٦)] وهو صحيح.

(٢) حديث عمر في الضب: الطبراني [الأوسط (٥٩٩٦)] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٣٨)] وقال (روي أيضًا من حديث عائشة وأبي هريرة، وما ذكرناه هو أمثل الأسانيد فيه على ضعفه».
قلتُ: وأخرجه ابن عساكر [«التاريخ» (٤/ ٣٨١)] من حديث علي أيضًا، وقال ابن دحية: حديث الضب موضوع.

قوله (بنُ فُضَيْلٍ): -بالتصغير- في بعضِ النُّسَخِ إسقاطُ (حَدَّثَنا محمدُ بنُ فُضَيْلٍ).

قوله (داجِنٌ): هوَ ما يألَفُ البيتَ مِن الحيوانِ كالطَّيْرِ وغَيْرِه، مِن المُداجَنةِ؛ أي المخالَطةِ والملازَمةِ.

قوله (في مَحْفِلٍ): -بفتحِ الميمِ وكسرِ الفاءِ- أي مُجْتَمَعٍ.

قوله (يا زَيْنَ مَن وافى القيامةَ): أي زينةَ مَن أتاها وحَضَرَها.

قوله (سُلْطانُه): أي مُلكُه المُظهَرُ شأنُه.

قوله (وفي البَحْرِ سَبيلُه): أي طريقُ آياتِه، ولَعَلَّ فيه اكتفاءً؛ فإنَّ في البَرِّ كذلك.

قوله (فَأَقْعى الذِّئْبُ): أي أَلصَقَ اسْتَه بالأرضِ، ونَصَبَ ساقَيْه وفَخِذَيْه، ووضَعَ يدَيْه على الأرضِ.

رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الحَرَّتَيْنِ، يُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ، فَأَتَى الرَّاعِي النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ: قُمْ فَحَدِّثْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ[١]، وَالحَدِيثُ فِيهِ قِصَّةٌ، وَفِي بَعْضِهِ طُولٌ.

وَرُوِيَ حَدِيثُ الذِّئْبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَفِي بَعْضِ الطُّرُقِ [عن أَبِي هُرَيْرَةَ]: فَقَالَ الذِّئْبُ: أَنْتَ أَعْجَبُ؛ وَاقِفًا عَلَى غَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ نَبِيًّا لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهُ عِنْدَهُ قَدْرًا؛ قَدْ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَأَشْرَفَ أَهْلُهَا عَلَى أَصْحَابِهِ يَنْظُرُونَ قِتَالَهُمْ، وَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَّا الشِّعْبُ، فَتَصِيرُ فِي جُنُودِ اللهِ، قَالَ الرَّاعِي: مَنْ لِي بِغَنَمِي؟ قَالَ الذِّئْبُ: أَنَا أَرْعَاهَا حَتَّى تَرْجِعَ، فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ غَنَمَهُ وَمَضَى، وَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَإِسْلَامَهُ وَوُجُودَهُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَاتِلُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: عُدْ إِلَى غَنَمِكَ، تَجِدْهَا بِوَفْرِهَا، فَوَجَدَهَا كَذَلِكَ، وَذَبَحَ لِلذِّئْبِ شَاةً مِنْهَا.[٢]

وَعَنْ أُهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ[٣]، وَإِنَّهُ كَانَ صَاحِبَ القِصَّةِ، وَالمُحَدِّثَ بِهَا، وَمُكَلِّمَ الذِّئْبِ، وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الأَكْوَعِ[٤]، وَإِنَّهُ كَانَ صَاحِبَ القِصَّةِ أَيْضًا، وَسَبَبَ إِسْلَامِهِ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ مِثْلَ هَذَا أَنَّهُ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ مَعَ ذِئْبٍ وَجَدَاهُ أَخَذَ ظَبْيًا، فَدَخَلَ الظَّبْيُ الحَرَمَ، فَانْصَرَفَ الذِّئْبُ فَعَجِبَا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ الذِّئْبُ: أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بِالمَدِينَةِ يَدْعُوكُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَتَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى؛ لَئِنْ ذَكَرْتَ هَذَا بِمَكَّةَ لَتَتْرُكَنَّهَا خُلُوفًا[٥]. وَقَدْ رُوِيَ مِثْلُ هَذَا الخَبَرِ، وَأَنَّهُ جَرَى لِأَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ[٦].

قوله (الحَرَّتَيْنِ): -بفتح الحاءِ وتشديد الراءِ- تثنيةُ «حَرَّةٍ»، وهيَ أرضٌ [ذاتُ] حجارةٍ سودٍ حَوْلَ المدينةِ.

قوله (ما قَدْ سَبَقَ): في نسخةٍ «مَنْ قَدْ سَبَقَ».

قوله (واقِفًا على غنَمِكَ): حالٌ على الضميرِ. قوله (مَنْ لي بغَنَمي): أي مَن يقومُ لي برعايةِ غَنَمي؟

قوله (تَجِدْها): مجزومٌ في جوابِ الأمرِ. و(بِوَفْرِها): -بفتحِ أوّلهِ وسكون ثانيه- أي تمامِها وكمالِها ما نَقَصَ شَيْءٌ مِنْها.

قوله (أُهْبانَ): بضمِّ الهمزةِ. قوله (فانصَرَفَ الذِّئبُ): أي تعظيمًا للحَرَمِ.

(١) حديث أبي سعيد (بينما راع ...): أحمد [١١٧٩٢] والبزار [٧٦٦٨] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٤١)] وصححه.

(٢) حديث أبي هريرة مثله: أحمد [٨٠٦٣] بسند جيد.

(٣) حديث أهبان مثله: البخاري في تاريخه [٢/ ٤٤] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ٤٣)].

(٤) حديث سلمة بن الأكوع مثله: [ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٦٣٩)].

(٥) حديث أن القصة جرت لأبي سفيان وصفوان بن أمية: [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٦) حديث أنها جرت لأبي جهل: [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

وَعَنْ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ: لَمَّا تَعَجَّبَ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ صَنَمِهِ، وَإِنْشَادِهِ الشِّعْرَ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ؛ فَإِذَا طَائِرٌ سَقَطَ، فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ، أَتَعْجَبُ مِنْ كَلَامِ ضِمَارٍ، وَلَا تَعْجَبُ مِنْ نَفْسِكَ؟! إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَنْتَ جَالِسٌ؛ فَكَانَ سَبَبَ إِسْلَامِه[1].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ رَجُلٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وآمَنَ بِهِ، وَهُوَ عَلَى بَعْضِ حُصُونِ خَيْبَرَ، وَكَانَ فِي غَنَمٍ يَرْعَاهَا لَهُمْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ لِي بِالغَنَمِ؟ قَالَ: أَحْصِبْ وُجُوهَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ أَمَانَتَكَ، وَيَرُدُّهَا إِلَى أَهْلِهَا، ففَعَلَ، فَسَارَتْ كُلُّ شَاةٍ حَتَّى دَخَلَتْ إِلَى أَهْلِهَا[2].

وَعَنْ أَنَسٍ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطَ أَنْصَارِيٍّ، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَفِي الحَائِطِ غَنَمٌ، فَسَجَدَتْ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ مِنْهَا... الحَدِيثَ[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطًا، فَجَاءَ بَعِيرٌ، فَسَجَدَ لَهُ، وَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَمِثْلُهُ فِي الجَمَلِ عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكٍ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَيَعْلَى بْنِ مُرَّةَ وعَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: وَكَانَ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الحَائِطَ إِلَّا شَدَّ عَلَيْهِ الجَمَلُ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ دَعَاهُ، فَوَضَعَ مِشْفَرَهُ فِي الأَرْضِ، وَبَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَخَطَمَهُ وَقَالَ: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ شَيْءٌ إِلَّا يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا عَاصِيَ الجِنِّ وَالإِنْسِ. وَمِثْلُهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى.

وَفِي خَبَرٍ آخَرَ فِي حَدِيثِ الجَمَلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُمْ عَنْ شَأْنِهِ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَبْحَهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ شَكَى كَثْرَةَ العَمَلِ وَقِلَّةَ العَلَفِ.

(١) حديث عباس بن مرداس في كلام الطائر: لم أقف عليه هكذا، وفي معجم الطبراني «الكبير» [كما في مجمع الزوائد ٨/ ٢٤٦] من حديثه قريب من هذا بسند لا بأس به.

(٢) حديث جابر (أن رجلًا أتى النبي ﷺ وهو على بعض حصون خيبر ...): البيهقي [«الدلائل» (٤/ ٢٢١)].

(٣) حديث أنس (دخل النبي ﷺ حائط الأنصاري ...): أحمد [١٢٦١٤]، والبزار [٦٤٥٢] بسند صحيح.

قولـه (ضِمَارٍ صَنَمِه): أي ضِمارٍ هوَ صَنَمُه، أو (صَنَم) بدلٌ مِن (ضِمارٍ).

قوله (قَالَ: أَحْصِبْ): -بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الصادِ- أي ارْمِ بالحَصْباءِ، وهيَ دِقاقُ الحَصى.

قوله (فسَجَدَتْ له): أي لِلنبيِّ ﷺ سجودَ تَحيّةٍ وإكرامٍ.

قوله (لا يدخُلُ أحدٌ الحائطَ ...): [أيْ] إلا حَمَلَ وصالَ عليْه حِفظًا لِلبستانِ.

قوله (فخَطَمَه): أي وضَعَ في رأسِه خِطامَه، أي رَسَنَه.

قوله (إلّا عاصيَ الجِنِّ والإِنْسِ): أي إلا كافرَ الثّقَلَيْنِ، والصيغةُ تحتمِلُ الإفرادَ والجمعَ، وحُذِفَتْ نونُه لِلجمعِ[1].

قوله (قال لهم): أي لِأهلِ العمَلِ.

(١) حذفت نونه للإضافة إن حملت الصيغة على الجمع.

وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ أَرَدْتُمْ ذَبْحَهُ بَعْدَ أَنِ اسْتَعْمَلْتُمُوهُ فِي شَاقِّ العَمَلِ مِنْ صِغَرِهِ، فَقَالُوا: نَعَمْ[١].

وَقَدْ رُوِيَ فِي قِصَّةِ العَضْبَاءِ، وَكَلامِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْرِيفِهَا لَهُ بِنَفْسِهَا، وَمُبَادَرَةِ العُشْبِ إِلَيْهَا فِي الرَّعْيِ، وَتَجَنُّبِ الوُحُوشِ عَنْهَا، وَنِدَائِهِمْ لَهَا: إِنَّكِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهَا لَمْ تَأْكُلْ وَلَمْ تَشْرَبْ بَعْدَ مَوْتِهِ حَتَّى مَاتَتْ، ذَكَرَهُ الإِسْفَرَائِنِيُّ[٢].

وَرَوَى ابنُ وَهْبٍ أَنَّ حَمَامَ مَكَّةَ أَظَلَّتِ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِهَا، فَدَعَا لَهَا بِالبَرَكَةِ[٣].

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ وزيدِ بْنِ أَرْقَمَ وَالمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ [قَالَ]: لَيْلَةَ الغَارِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى شَجَرَةً، فَنَبَتَتْ تُجَاهَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَتَرَتْهُ، وَأَمَرَ حَمَامَتَيْنِ فَوَقَفَتَا فِي فَمِ الغَارِ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: وَإِنَّ العَنْكَبُوتَ نَسَجَتْ عَلَى بَابِهِ، فَلَمَّا أَتَى الطَّالِبُونَ لَهُ وَرَأَوْا ذَلِكَ، قَالُوا: لَوْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ لَمْ تَكُنِ الحَمَامَتَانِ بِبَابِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ فَانْصَرَفُوا[٤].

(١) حديث الجمل عن أبي هريرة: البزار [٨٠٢٣] بسند حسن. وثعلبة بن أبي مالك: أبو نعيم [«الدلائل» (٢٨٢)]. وجابر بن عبد الله: أحمد [١٤٣٣٣] والدارمي [٢٠] والبزار والبيهقي [الدلائل (٦/ ١٨)]. ويعلى بن مرة: أحمد [١٧٥٤٨] والحاكم [٢/ ٦٧٤] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٢٠)] بسند صحيح. وعبد الله بن جعفر: مسلم [(٣٤٢)] وأبو داود [٢٥٤٩]. وعبد الله بن أبي أوفى: أبو نعيم [الدلائل (٢٨٦)] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٢٩)].

(٢) حديث (كلام العضباء له ومبادرة العشب إليها وتجنب الوحوش وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته ...): [انظر شرف المصطفى لأبي سعد ٣/ ٤١٨، ٤١٩].

(٣) حديث (أن حمام مكة أظلت النبي ﷺ يوم فتحها فدعا لها بالبركة): [بيض له السيوطي ولم يعزه].

(٤) حديث (أمر الله ليلة الغار شجرة فنبتت في وجهه وأمر حمامتين فوقفتا بفم الغار وأن العنكبوت نسجت على بابه ...): ابن سعد [١/ ٢٢٩] والبزّار [٤٣٤٤] والطبرانيُّ [٢٠/ ٤٤٣] والبيهقيُّ [«الدلائل» (٢/ ٤٨٢)] وأبو نعيم [٢٢٩] عن أنس وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة، وفيه: فَسَمَّتَ عليهما ودعا لهما، وانحدرا إلى الحرم فأفرخَ ذلك الزوجُ كل شيء في الحرم.

قولـه (فِي قِصَّةِ العَضْبَاءِ): هِيَ النَّاقةُ المشقوقةُ الأُذُنِ. قوله (ونِدائِهِم): الأظهرُ «ونِدائِها».

(أَظَلَّتِ النَّبِيَّ ﷺ): أي جَعَلَتْ عَلَيْهِ ظِلًّا.

قوله (تُجَاهَ النَّبِيِّ ﷺ): -بضمِّ التاءِ[١]- أي قُبالَتَه.

قوله (فوَقَفَتَا): بفاءٍ بعْدَها قافٌ، وفي روايةٍ «فوَقَعَتَا» بالعَينِ بَدَلَ الفاءِ.

قوله (فلَمَّا أَتَى الطالِبونَ له): لِسَيِّدِ الأخيارِ ﷺ.

(١) وكسرها كما في «اللسان».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ قُرْطٍ: قُرِّبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدَنَاتٌ خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ؛ لِيَنْحَرَهَا يَوْمَ عِيدٍ، فَازْدَلَفْنَ إِلَيْهِ، بِأَيِّهِنَّ يَبْدَأُ.(١)

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَحْرَاءَ، فَنَادَتْهُ ظَبْيَةٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: مَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: صَادَنِي هَذَا الأَعْرَابِيُّ، وَلِي خِشْفَانِ فِي ذَلِكَ الجَبَلِ؛ فَأَطْلِقْنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأُرْضِعَهُمَا وَأَرْجِعَ، قَالَ: وَتَفْعَلِينَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَطْلَقَهَا، فَذَهَبَتْ وَرَجَعَتْ، فَأَوْثَقَهَا، فَانْتَبَهَ الأَعْرَابِيُّ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: تُطْلِقُ هَذِهِ الظَّبْيَةَ، فَأَطْلَقَهَا، فَخَرَجَتْ تَعْدُو فِي الصَّحْرَاءِ، وَتَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.(٢)

وَمِنْ هَذَا البَابِ مَا رُوِيَ مِنْ تَسْخِيرِ الأَسَدِ لِسَفِينَةَ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ إِذْ وَجَّهَهُ إِلَى مُعَاذٍ بِاليَمَنِ، فَلَقِيَ الأَسَدَ، فَعَرَّفَهُ أَنَّهُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَهُ كِتَابُهُ، فَهَمْهَمَ وَتَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ، وَذَكَرَ فِي مُنْصَرَفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ أَنَّ سَفِينَةً تَكَسَّرَتْ بِهِ، فَخَرَجَ إِلَى جَزِيرَةٍ، فَإِذَا الأَسَدُ، فَقُلْتُ: أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ،

---

(١) حديث عبد الله بن قرط: (قُرب إلى رسول الله ﷺ بدنات ...): ابن منده وقال حديث مشهور، والطبراني [في الأوسط (٢٤٢١)]، وأبو نعيم [معرفة الصحابة ٤٣٤٤].

(٢) حديث أم سلمة (كان في صحراء فنادته ظَبية ...): الطبراني [٢٣/ ٣٣١].

(٣) حديث تسخير الأسد لسفينة إذ وجهه إلى معاذ: لم أقف عليه هكذا وأخرج البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٤٥)] أن ذلك وقع لسفينة حين ضل عن الجيش في أرض الروم.

قوله (عَبْدِ اللهِ بْنِ قُرْطٍ): بِضَمِّ القافِ وسكونِ الراءِ بَعْدَها طاءٌ مُهْمَلَةٌ.

قوله (قُرِّبَ إلى رسولِ الله): -بضمِّ القافِ وتشديدِ الراءِ المكسورةِ- أي أُدْنِيَ إلى النبيِّ ﷺ.

قوله (بَدَنَاتٌ): -بفتحاتٍ- جمعُ «بَدَنَةٍ»، وحُكِيَ بضَمِّ الباءِ والدالِ، وهيَ ناقةٌ أو بقرةٌ -كَما ذكَره الجوهريُّ-، أو الإبلُ فقطْ -كَما ذكَره [ابنُ] الأثيرِ.

قوله (فازْدَلَفْنَ إليْهِ): أي افتعَلْنَ مِنَ الزَّلَفِ، وهوَ القُرْبُ. قوله (بِأَيِّهِنَّ يَبْدَأُ): أي في نَحْرِها.

قوله (فنادَتْه ظَبْيَةٌ... إلخ): فالتَفَتَ ﷺ لها، فإذا هيَ موثَقةٌ وأعرابيٌّ نائمٌ (قالَ: ما حاجتُكِ... إلخ).

قوله (ولي خِشْفانِ): -بكسرِ الخاءِ وسكونِ الشينِ المعجَمةِ بَعْدَها فاءٌ- تَثنيةُ «خِشْفٍ»؛ وَلَدُ الظبْيةِ الصغيرُ. قوله (فأَطْلِقْني): -بالهَمْزةِ المفتوحةِ وكسرِ اللامِ- أي مِنَ القَيْدِ.

قوله (قالَ: وتَفْعَلينَ): أي أتقولينَ هذا القولَ وتفعلينَ هذا الرجوعَ؟ قوله (فأَوْثَقَها): أي فربَطَها النبيُّ.

قوله (ومِن هذا البابِ): أي بابِ طاعةِ الحيواناتِ خَرْقًا لِلعادةِ (ما رويَ... إلخ).

قوله (مَولى رسولِ الله ﷺ... إلخ): أَعْتَقَتْه أمُّ سلَمَةَ وشَرَطَتْ عليْه خدمةَ النبيِّ ﷺ، كُنيَتُه أبو عبدِ الرحمنِ على الأشهَرِ، ولَقَّبَه ﷺ «سَفينةَ».

(فَهَمْهَمَ): -بهاءَيْنِ بيْنَهما ميمٌ ساكنةٌ- فِعلٌ ماضٍ مِنَ الهَمْهَمةِ، وهيَ الكَلامُ بالخُفْيةِ.

فَجَعَلَ يَغْمِزُنِي بِمَنْكِبِهِ حَتَّى أَقَامَنِي عَلَى الطَّرِيقِ[1].

وَأَخَذَ ﷺ بِأُذُنِ شَاةٍ لِقَوْمٍ مِنْ عَبْدِ القَيْسِ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ خَلَّاهَا فَصَارَ لَهَا مِيسَمًا، وَبَقِيَ ذَلِكَ الأَثَرُ فِيهَا وَفِي نَسْلِهَا بَعْدُ[2].

وَمَا رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَمَّادٍ بِسَنَدِهِ مِنْ كَلَامِ الحِمَارِ الَّذِي أَصَابَهُ بِخَيْبَرَ، وَقَالَ لَهُ: اسْمِي يَزِيدُ بْنُ شِهَابٍ، فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ يعْفُورًا، وَأَنَّهُ كَانَ يُوَجِّهُهُ إِلَى دُورِ أَصْحَابِهِ، فَيَضْرِبُ عَلَيْهِمُ البَابَ بِرَأْسِهِ وَيَسْتَدْعِيهِمْ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا مَاتَ تَرَدَّى الحِمَارُ فِي بِئْرٍ جَزَعًا وَحَزَنًا فَمَاتَ[3].

وَحَدِيثُ النَّاقَةِ الَّتِي شَهِدَتْ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ لِصَاحِبِهَا أَنَّهُ مَا سَرَقَهَا، وَأَنَّهَا مِلْكُهُ[4].

وَفِي العَنْزِ الَّتِي أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي عَسْكَرِهِ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ عَطَشٌ، وَنَزَلُوا عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، وَهُمْ زُهَاءُ ثَلَاثِمِائَةٍ، فَحَلَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَرْوَى الجُنْدَ، ثُمَّ قَالَ لِرَافِعٍ: أَمْلِكْهَا، وَمَا أُرَاكَ، فَرَبَطَهَا فَوَجَدَهَا قَدِ انْطَلَقَتْ، وَرَوَاهُ ابْنُ قَانِعٍ وَغَيْرُهُ، وَفِيهِ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ الَّذِي جَاءَ بِهَا هُوَ الَّذِي ذَهَبَ بِهَا[5].

---

(١) حديث (أنه تكسرت به سفينة ...): البزار [٣٨٣٨] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٤٦)].

(٢) حديث (أخذه ﷺ باذن شاة فصار لها ميسَما وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها): [بيض له السيوطي ولم يعزه].

(٣) حديث (الحمار الذي أصابه بخيبر... إلى آخره): ابن حبان في الضعفاء [٢/ ٣٠٨] من حديث أبي منظور وقال: لا أصل له وإسناده ليس بشَيْءٍ.

(٤) حديث (الناقة التي شهدت عنده لصاحبها أنه ما سرقها ...): الطبراني [٥/ ١٤١] عن زيد بن ثابت بسند فيه مجاهيل، والحاكم [٢/ ٦٧٦] من حديث ابن عمرو، قال الذهبي إنه موضوع.

(٥) حديث (العنز التي أتته في عسكره ...): عزاه المصنف إلى ابن قانع [٣/ ١٤١]، وأخرجه ابن سعد [١/ ١٧٩] والبيهقي [الدلائل (٦/ ١٣٧)] عن نافع وكانت له صحبة، وأخرجه ابن عدي [٦/ ١٦٠] والبيهقي [الدلائل (٦/ ١٣٨)] عن سعد مولى أبي بكر.

قوله (يَغْمِزُنِي): -بسكونِ الغينِ المعجَمةِ وكسرِ الميمِ وضمِّها بَعْدَها زايٌ- أي يُشيرُ إليَّ ويَتحرَّكُ إليَّ. وقوله (بِمَنْكِبِه): -بفتحِ الميمِ وكسرِ الكافِ- أي بِما بَيْنَ كَتِفِه وعُنُقِه.

قوله (بَيْنَ إصبَعَيْه): بكسرِ الهمزةِ وفتحِ الموحَّدةِ، وجوِّزَ بتثليثِ كُلٍّ مِنْهما؛ فالوُجوهُ تسعةٌ.

قوله (مِيسَمًا): -بكسرِ الميمِ وفتحِ السينِ المُهْمَلةِ- أي صارَ أثَرا إصبَعيه لها علامةً. قوله (وفي نَسْلِها بَعْدُ): أي بَعْدَها.

قوله (يَعْفورًا): بالتنوينِ، وفي نسخةٍ «يَعْفورَ» كيَعقوبَ، وفي نسخةٍ «يَعفورا» بالقَصْرِ.

قوله (جَزَعًا): أي فَزَعًا. وقوله (وحَزَنًا): بفتحِ الحاءِ والزاي، أو بضمِّ الأوَّلِ وسكونِ الثاني.

قوله (أَمْلِكْها): -بفتحِ الهمزةِ وكسرِ اللامِ- أي أَوْثِقْها. قوله (وما أُراكَ): -بضمِّ الهمزةِ- أي ما أظُنُّكَ تُمْلِكُها وتحْفَظُها.

وَقَالَ لِفَرَسِهِ ﷺ، وَقَدْ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ: لَا تَبْرَحْ -بَارَكَ اللهُ فِيكَ- حَتَّى نَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِنَا، وَجَعَلَهُ قِبْلَتَهُ، فَمَا حَرَّكَ عُضْوًا حَتَّى صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ(١).

وَيُلْحَقُ بِهَذَا مَا رَوَاهُ الوَاقِدِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا وَجَّهَ رُسُلَهُ إِلَى المُلُوكِ، فَخَرَجَ سِتَّةُ نَفَرٍ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَأَصْبَحَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ القَوْمِ الذِينَ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ(٢).

وَالحَدِيثُ فِي هَذَا البَابِ كَثِيرٌ، وَقَدْ جِئْنَا مِنْهُ بِالمَشْهُورِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا وَقَعَ مِنْهُ فِي كُتُبِ الأَئِمَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

***

قوله (**لا تَبْرَحْ**): أي لا تُفارِقْ مكانَكَ. وقوله (**فَما حَرَّكَ عُضْوًا**): بضمِّ العَينِ وكسْرِها.

وقوله (**الْواقِديُّ**): -بكسرِ القافِ- قاضي العِراقِ.

قوله (**وَما وَقَعَ منه في كُتُبِ [الأئمةِ]**): أي المعروفينَ بالسُّنَّةِ.

***

(١) حديث (أنه قال لفرسه لا تبرح حتى نفرغ من صلاتنا ...): [بيض له السيوطي ولم يعزه].

(٢) حديث (أنه وجه رسله إلى الملوك فأصبح كل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بُعث إليهم): عزاه المصنف إلى الواقدي، وقد أخرجه ابن أبي شيبة [٣٦٦٢٨] في المصنف عن حاتم بن إسماعيل عن يعقوب عن جعفر بن عمرو قال: بعث رسول الله ﷺ أربعة نفر إلى أربعة وجوه، رجلًا إلى كسرى، ورجلًا إلى قيصر، ورجلًا إلى المقوقس، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي، فأصبح كل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بُعِثَ إليهم.

فَصْلٌ فِي إِحْيَاءِ المَوْتَى، وَكَلَامِهِمْ، وَكَلَامِ الصِّبْيَانِ وَالمَرَاضِعِ، وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ ﷺ

حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ الفَقِيهُ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، وَالقَاضِي أَبُو الوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ رُشْدٍ، وَالقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى التَّمِيمِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ سَمَاعًا وَإِذْنًا، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ الأَعْرَابِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ بَقِيَّةَ عَنْ خَالِدٍ -هُوَ الطَّحَّانُ-، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ يَهُودِيَّةً أَهْدَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا لَهُ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ مِنْهَا، وَأَكَلَ القَوْمُ، فَقَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ؛ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ، فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ، وَقَالَ لِلْيَهُودِيَّةِ: مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ؟ قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ، قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا فَقُتِلَتْ[(١)].

وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ أَنَسٌ، وَفِيهِ: قَالَتْ: أَرَدْتُ قَتْلَكَ، فَقَالَ: مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَى ذَلِكَ، فقالُوا: نَقْتُلُها؟ قَالَ: لَا[(٢)]. وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ رِوَايَةِ غَيْرِ وَهْبٍ، قَالَ: فَمَا عَرَضَ لَهَا. وَرَوَاهَا أَيْضًا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَفِيهِ: أَخْبَرَتْنِي بِهِ هَذِهِ الذِّرَاعُ، قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهَا[(٣)].

وَفِي رِوَايَةِ الحَسَنِ: إِنَّ فَخِذَهَا تُكَلِّمُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَقَالَتْ: إِنِّي مَسْمُومَةٌ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الخَبَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَفِيهِ: فَتَجَاوَزَ عَنْهَا.

---

(١) حديث أبي هريرة في اليهودية التي سمت الشاة: أسنده من طريق أبي داود [٤٥٠٩].

(٢) حديث أنس مثله: الشيخان [البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠)].

(٣) حديث جابر مثله: أبو داود [٤٥١٠] والبيهقي [«الدلائل» (٤/ ٢٦٢)].

(فصلٌ: في إحياءِ المَوْتى وكَلامِهِم) أي للأحياءِ. قولُه (وَكَلامِ الصِّبْيانِ): أي الأطفالِ قَبْلَ أَوانِ التَّكَلُّمِ.

وقولُه (والمَراضِعِ): عَطْفُ خاصٍّ على عامٍّ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ العطْفُ تفسيريًّا.

قولُه (مُحَمَّدُ بنُ رُشْدٍ): بضمِّ الراءِ وسكونِ الشينِ المعجمةِ. قولُه (سَماعًا وَإِذْنًا): أي روايةً وإجازةً.

قولُه (وَهْبُ بْنُ بَقِيَّةَ): بفتحِ الموحَّدةِ وكسرِ القافِ وتشديدِ الياءِ التحتيَّةِ المفتوحةِ. قولُه (الطحّانُ): بتشديدِ الحاءِ المهمَلةِ.

قولُه (مَصْلِيّةً): -بفتحِ الميمِ وكسرِ اللامِ وتحتيةٍ مشدَّدةٍ- أي مَشْويّةً.

وقولُه (سَمَّتْها): بتشديدِ الميمِ المفتوحةِ. وقولُه (البَراءِ): بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ وتخفيفِ الراءِ المفتوحةِ.

قولُه (وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا): بكسرِ اللامِ.

وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1]. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: مَا زَالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَادُّنِي، فَالآنَ أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي[2].

وَحَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنْ كَانَ المُسْلِمُونَ لَيُرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ شَهِيدًا مَعَ مَا أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ.

وَقَالَ ابنُ سَحْنُونَ: أَجْمَعَ أَهْلُ الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَتَلَ اليَهُودِيَّةَ الَّتِي سَمَّتْهُ[3]، وَقَدْ ذَكَرْنَا اخْتِلَافَ الرِّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَجَابِرٍ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ دَفَعَهَا لِأَوْلِيَاءِ بِشْرِ بْنِ البَرَاءِ، فَقَتَلُوهَا[4].

وَكَذَلِكَ قَدِ اخْتُلِفَ فِي قَتْلِهِ لِلَّذِي سَحَرَهُ؛ قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَعَفْوُهُ عَنْهُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَتَلَهُ.

وَرَوَى الحَدِيثَ البَزَّارُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: فَبَسَطَ يَدَهُ، وَقَالَ: كُلُوا بِسْمِ اللهِ، فَأَكَلْنَا، وَذَكَرَ اسْمَ اللهِ؛ فَلَمْ يَضُرَّ أَحَدًا مِنَّا[5].

قَالَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَقَدْ خَرَّجَ حَدِيثَ الشَّاةِ المَسْمُومَةِ أَهْلُ الصَّحِيحِ، وَخَرَّجَهُ الأَئِمَّةُ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، واخْتَلَفَ أَئِمَّةُ أَهْلِ النَّظَرِ فِي هَذَا البَابِ؛ فَمِنْ قَائِلٍ يَقُولُ: هُوَ كَلَامٌ يَخْلُقُهُ اللهُ فِي الشَّاةِ المَيْتَةِ أَوِ الشَّجَرَةِ أَوِ الحَجَرِ، وَحُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ يُحْدِثُهَا اللهُ تَعَالَى فِيهَا، وَيُسْمِعُهَا مِنْهَا دُونَ تَغْيِيرِ أَشْكَالِهَا، وَنَقْلِهَا عَنْ هَيْئَتِهَا، ..

---

(١) حديث أنس (فما زلت أعرفها في لهواته): الشيخان [البخاريُّ (٢٦١٧)، ومسلمٌ (٢١٩٠)].

(٢) حديث أبي هريرة (ما زالت أكلة خيبر تُعادّني ...): ابن سعد [٢/ ٢٠١]، وهو في الصحيح [٤٤٢٨] من حديث عائشة.

(٣) حديث(أنه قتل اليهودية التي سمته): أبو داود [٤٥١١] عن أبي سلمة مرسلًا، ووصله البيهقي [«الدلائل» (٤/ ٢٦٢)] عن أبي هريرة.

(٤) حديث ابن عباس أنه دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها: ابن سعد [٢/ ٢٠٢].

(٥) حديث أبي سعيد في قصة الشاة المسمومة: البزار [كشف الأستار (٢٤٢٤)]، قال ابن حجر: وهو منكر.

(في لَهَواتِ... إلخ): -بفتحِ اللامِ والهاءِ- جَمْعُ «لَهَاةٍ»، وهيَ اللَّحمةُ المُعَلَّقةُ في سقْفِ أقصى الفمِ.

قوله (أُكْلَةُ خَيْبَرَ): -بضمِّ الهمزةِ- أي لُقْمَتُها، و«خَيْبَرُ» بَلْدةٌ. قوله (تُعادُّني): -بضمِّ التاءِ وتشديدِ الدالِ المهمَلةِ- أي تُراجِعُني.

قوله (قَطَعَتْ أَبْهَري): -بفتحِ الهَمزةِ وسكونِ الموَحَّدةِ وفتحِ الهاءِ- عِرْقٌ يَكْتَنِفُ الصُّلْبَ والقَلْبَ، إذا قُطِعَ لَمْ يَبْقَ مَعَه حَياةٌ.

قوله (إنْ كانَ المسلِمونَ): (إنْ) مخفَّفةٌ مِن الثقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشأنِ.

وقوله (لَيُرَوْنَ): -بفتحِ اللامِ وضمِّ الياءِ- أي يَظُنُّونَ.

قوله (ويُسْمِعُها): -بضمِّ الياءِ وكسرِ الميمِ- أي مَنْ شاءَ مِن خلْقِه. وقوله (مِنْها): أي مِن الأصواتِ والحروفِ.

وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّيْخِ أَبِي الحَسَنِ وَالقَاضِي أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُمَا اللهُ تعَالَى، وآخَرُونَ ذَهَبُوا إِلَى إِيجَادِ الحَيَاةِ بِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ الكَلَامِ بَعْدَهُ، وَحُكِيَ هَذَا أَيْضًا عَنْ شَيْخِنَا أَبِي الحَسَنِ، وَكُلٌّ مُحْتَمَلٌ، واللهُ أَعْلَمُ؛ إِذْ لَمْ نَجْعَلِ الحَيَاةَ شَرْطًا لِوُجُودِ الحُرُوفِ وَالأَصْوَاتِ؛ إِذْ لَا يَسْتَحِيلُ وُجُودُهَا مَعَ عَدَمِ الحَيَاةِ بِمُجَرَّدِهَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ عِبَارَةً عَنِ الكَلَامِ النَّفْسِيِّ فَلَا بُدَّ مِنْ شَرْطِ الحَيَاةِ لَهَا؛ إِذْ لَا يُوجَدُ كَلَامُ النَّفْسِ إِلَّا مِنْ حَيٍّ، خِلَافًا لِلْجُبَّائِيِّ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مُتَكَلِّمِي الفِرَقِ فِي إِحَالَةِ وُجُودِ الكَلَامِ اللَّفْظِيِّ وَالحُرُوفِ وَالأَصْوَاتِ إِلَّا مِنْ حَيٍّ، مُرَكَّبٍ عَلَى تَرْكِيبِ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ النُّطْقُ بِالحُرُوفِ وَالأَصْوَاتِ، وَالتَزَمَ ذَلِكَ فِي الحَصَى وَالجِذْعِ وَالذِّرَاعِ، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ تعَالَى خَلَقَ فِيهَا حَيَاةً، وَخَرَقَ لَهَا فَمًا وَلِسَانًا وَآلَةً مَكَّنَهَا بِهَا مِنَ الكَلَامِ. وَهَذَا لَوْ كَانَ لَكَانَ نَقْلُهُ وَالتَّهَمُّمُ بِهِ آكَدَ مِنَ التَّهَمُّمِ بِنَقْلِ تَسْبِيحِهِ أَوْ حَنِينِهِ، وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السِّيَرِ وَالرِّوَايَةِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ فَدَلَّ عَلَى سُقُوطِ دَعْوَاهُ مَعَ أَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ فِي النَّظَرِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ.

وَرَوَى وَكِيعٌ رَفْعَهُ عَنْ فَهْدِ بْنِ عَطِيَّةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِصَبِيٍّ قَدْ شَبَّ، لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ، فَقَالَ: مَنْ أَنَا؟ فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ[1].

وَرُوِيَ عَنْ مُعَرِّضِ بْنِ مُعَيقِيبٍ: رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَجَبًا؛ جِيءَ بِصَبِيٍّ يَوْمَ وُلِدَ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَهُوَ حَدِيثُ مُبَارَكِ اليَمَامَةِ، وَيُعْرَفُ بِحَدِيثِ شَاصُونَةَ، اسْمِ رَاوِيهِ، وَفِيهِ: فَقَالَ لَهُ ﷺ: صَدَقْتَ -بَارَكَ اللهُ فِيكَ-، ثُمَّ إِنَّ الغُلَامَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بَعْدَهَا حَتَّى شَبَّ، فَكَانَ يُسَمَّى «مُبَارَكَ اليَمَامَةِ»، وَكَانَتْ هَذِهِ القِصَّةُ بِمَكَّةَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ[2].

وَعَنِ الحَسَنِ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ طَرَحَ بُنَيَّةً لَهُ فِي وَادِي كَذَا، فَانْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى الوَادِي، وَنَادَاهَا بِاسْمِهَا: يَا فُلَانَةُ، أَجِيبِي بِإِذْنِ اللهِ، فَخَرَجَتْ، وَهِيَ تَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ أَبَوَيْكِ قَدْ أَسْلَمَا، فَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أَرُدَّكِ

---

(١) حديث فهد بن عطية (أنه أتي بصبي قد شب ...): البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٦١)] عن شمر بن عطية عن بعض أشياخه.

(٢) حديث مُعرّض بن معيقيب مثله، وهو حديث مبارك اليمامة: البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٦٠)] وابن عساكر [٤/ ٣٨٧]. قال ابن دحية إنه موضوع.

قوله (مُتكلِّمي الفِرَقِ): أي الفِرَقِ الإسلاميةِ.

قوله (مَكَّنَها): بتشديدِ الكافِ.

قوله (أَوْ حَنينِهِ): أي الجِذْعِ.

قوله (فَهْدِ): بالفاءِ في أوَّلِه ودالٍ مهملةٍ في آخرِه.

قوله (قَدْ شَبَّ): أي صارَ شابًّا.

قوله (عَن مُعَرِّضٍ): بضمِّ الميمِ وتشديدِ الراءِ المكسورةِ. قوله (شاصونةَ): بضمِّ الصادِ وسكونِ الواوِ فنونٍ مفتوحةٍ. قوله (في حَجّةِ الوَداعِ): بكسرِ الواوِ وفتحِها، سِتّةَ عَشَرَ مِن الهجرةِ.

قوله (أَنَّهُ طَرَحَ بُنَيّةً): -بالتصغيرِ- أي لَه.

عَلَيْهِمَا! فقالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِمَا؛ وَجَدْتُ اللهَ خَيْرًا لِي مِنْهُمَا[1].

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ شَابًّا مِنَ الأَنْصَارِ تُوُفِّيَ، وَلَهُ أُمٌّ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ، فَسَجَّيْنَاهُ، وَعَزَّيْنَاهَا، فَقَالَتْ: مَاتَ ابْنِي؟ فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالَتْ: اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي هَاجَرْتُ إِلَيْكَ وَإِلَى نَبِيِّكَ؛ رَجَاءَ أَنْ تُعِينَنِي عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ، فَلَا تُحَمِّلَنَّ عَلَيَّ هَذِهِ المُصِيبَةَ، فَمَا بَرِحْنَا أَنْ كَشَفْنَا الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَطَعِمَ وَطَعِمْنَا[2].

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ دَفَنَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَكَانَ قُتِلَ بِاليَمَامَةِ، فَسَمِعْنَاهُ حِينَ أَدْخَلْنَاهُ القَبْرَ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، عُمَرُ الشَّهِيدُ، عُثْمَانُ البَرُّ الرَّحِيمُ، فَنَظَرْنَا فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ.

وَذُكِرَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ خَارِجَةَ خَرَّ مَيِّتًا فِي بَعْضِ أَزِقَّةِ المَدِينَةِ، فَرُفِعَ وَسُجِّيَ؛ إِذْ سَمِعُوهُ بَيْنَ العِشَاءَيْنِ، وَالنِّسَاءُ يَصْرُخْنَ حَوْلَهُ يَقُولُ: أَنْصِتُوا، أَنْصِتُوا، فَحُسِرَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، النَّبِيُّ الأُمِّيُّ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ، صَدَقَ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ عَادَ مَيِّتًا كَمَا كَانَ[3].

***

(١) حديث الحسن (أتى رجل فذكر أنه طرح بنية له في وادي كذا ...): [بيض له السيوطي ولم يعزه].

(٢) حديث أنس (أن شابًا من الأنصار توفي ...): ابن عدي [٥/ ٩٥] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ٥٠)].

(٣) حديث النعمان بن بشير أن زيد بن خارجة تكلم بعد الموت: الطبراني [٤/ ٢٠٢] وأبو نعيم [معرفة الصحابة ٢٤٩٩] وابن منده في مقدمة الصحابة، وأخرجه ابن أبي الدنيا [«من عاش بعد الموت» (٣)] من حديث أنس بن مالك.

قوله (فَسَجَّيْناه): -بتشديدِ الجيمِ- أي غَطَّيْناه. وقوله (وعَزَّيْناها): -بتشديدِ الزاءِ- أمَرْناها بالصَّبْرِ.

قوله (فلا تُحَمِّلَنَّ): بتشديدِ النونِ.

قوله (فَما بَرِحْنا): -بكسْرِ الراءِ- أي ما ذَهَبْنا.

قوله (ابْنِ شَمَّاسٍ): بتشديدِ الميمِ.

قوله (البَرُّ): بفتحِ الموحَّدةِ.

قوله (زَيْدَ بْنَ خارِجَةَ): بالخاءِ المعجَمةِ والجيمِ. قوله (في بَعْضِ أَزِقَّةِ المَدينةِ): -بكَسْرِ الزايِ وتشديدِ القافِ؛ جَمْعُ «زُقاقٍ»- أي بَعْضِ طُرُقِها المَسلوكةِ.

قوله (وسُجِّيَ): أي غُطِّيَ وَجْهُه. وقوله (يَصْرُخْنَ): -بضمِّ الراءِ- أي يَبْكِينَ بصياحِهِنَّ. قوله (أَنْصِتوا): -بفتحِ الهَمْزةِ وكسْرِ الصادِ فيهما- أي اسكُتوا. قوله (في الكِتابِ الأَوَّلِ): أي اللَّوْحِ المحفوظِ.[1]

***

(١) لطيفة: قال الشهاب الخفاجي: فإن قلتَ: المقام والفصل معقود لذكر معجزاته ﷺ بإحياء الموتى وإنطاق من ليس من أهل النطق له، وما في هذا الحديث ليس كذلك؟!! قلتُ: هو من أمته ﷺ وصحابته، وكلامه بعد موته كرامة له، وكرامات الأمة من جملة كراماته، وقد يقال إنه دليل على ما قبله ومؤكد له؛ لأنه إذا كان في أمته من يصدر عنه مثله فكيف لا يصدر عنه ﷺ.

فَصْلٌ فِي إبراءِ المَرْضَى وَذَوِي العَاهَاتِ

حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُشَرَّفٍ فِيمَا أَجَازَنِيهِ وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِه، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الحَبَّالُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ النَّحَّاسِ، حَدَّثَنَا أَبُو الوَرْدِ عَنِ البَرْقِيِّ، عَنِ ابْنِ هِشَامٍ، عَنْ زِيَادٍ البَكَّائِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَجَمَاعَةٌ ذَكَرَهُمْ بِقَضِيَّةِ أُحُدٍ بِطُولِهَا، قَالَ:

وَقَالُوا: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَيُنَاوِلُنِي السَّهْمَ لا نَصْلَ لَهُ، فَيَقُولُ: ارْمِ بِهِ[1]، وَقَدْ رَمَى رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى انْدَقَّتْ[2].

وَأُصِيبَتْ يَوْمَئِذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ -يَعْنِي ابْنَ النُّعْمَانِ- حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى وَجْنَتَيْهِ، فَرَدَّهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَأَحَدَّ[3].

وَرَوَى قِصَّةَ قَتَادَةَ عَاصِمُ بنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَيَزِيدُ بْنُ عِيَاضِ بْنِ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ، وَرَوَاهَا أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ.

وَبَصَقَ عَلَى أَثَرِ سَهْمٍ فِي وَجْهِ أَبِي قَتَادَةَ فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ، قَالَ: فَمَا ضَرَبَ عَلَيَّ وَلَا قَاحَ[4].

---

(١) حديث سعد بن أبي وقاص (كان رسول الله ﷺ يناولني السهم لا نصل به فيقول: ارم به ...): أسنده من طريق ابن إسحاق [ص: ٣٢٨] وأخرجه أيضًا البيهقي [«الدلائل» (٣/ ٢٣٩)].

(٢) حديث (أنه رمى عن قوسه يوم أحد حتى اندقت): ابن إسحاق [(ص: ٣٢٨)] والبيهقي [«الدلائل» (٣/ ٢٥١)] عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا.

(٣) حديث (أنه رد عين قتادة فكانت أحسن عينيه): ابن إسحاق [ص٣٢٨] عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا، ووصله ابن عدي [٥/ ٤٦٣] والبيهقي [«الدلائل» (٣/ ١٠٠)] عن عاصم عن جده قتادة، وأخرجه البيهقي [«الدلائل» (٣/ ٢٥٣)] من وجه آخر عن أبي سعيد الخدري عن قتادة.

(٤) حديث (أنه بصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد ...): البيهقي [«الدلائل» (٤/ ١٩٣)] عنه.

قوله (مُشَرَّفٍ): بضمِّ الميمِ وفتحِ المعجَمةِ وتشديدِ الراءِ المفتوحةِ. قوله (الحَبَّالُ): بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ. قوله (النحاسِ): بتشديدِ الحاءِ المهمَلةِ. قوله (البَرْقيِّ): بفتحِ الموحَّدةِ وسكونِ الراءِ. قوله (البَكّائيِّ): بفتحِ الموحَّدةِ وتشديدِ الكافِ.

قوله (لا نَصْلَ لَهُ): -بالصادِ المهمَلةِ- حَديدةُ السَّهْمِ والرُّمْحِ.

قوله (حتّى اندَقَّتْ): -بتشديدِ القافِ- أي انكَسَرَتْ.

قوله (يَعْني ابنَ النُّعْمانِ): -بضمِّ النونِ- وهوَ تفسيرٌ مِن الراوي.

قوله (حَتّى وَقَعَتْ عَلى وَجْنَتَيْهِ): -بتثليثِ الواوِ، والأفصحُ الفتحُ- أي فسالَتْ على أعْلى خَدِّه، (فَرَدَّها رسولُ الله... إلخ)، وكانَتْ أَحَدَّهما نَظَرًا، ولا تَرْمَدُ إذا رَمِدَتِ الأُخْرى.

قوله (ذي قَرَدٍ): -بفتحِ القافِ والراءِ فدالٍ مهمَلةٍ- ويقالُ لها غزوةُ الغابةِ.

قوله (وَلا قاحَ): مِن القَيحِ، وهيَ المِدّةُ التي لا يخالطُها دَمٌ.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ أَعْمَى قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ بَصَرِي، قَالَ: فَانْطَلِقْ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّي مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ بَصَرِي، اللهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، قَالَ: فَرَجَعَ، وَقَدْ كَشَفَ اللهُ عَنْ بَصَرِهِ(١).

وَرُوِيَ أَنَّ ابنَ مُلَاعِبِ الأَسِنَّةِ أَصَابَهُ اسْتِسْقَاءٌ، فَبَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ حَثْوَةً مِنَ الأَرْضِ، فَتَفَلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطَاهَا رَسُولَهُ، فَأَخَذَهَا مُتَعَجِّبًا، يُرَى أَنْ قَدْ هُزِئَ بِهِ، فَأَتَاهُ بِهَا وَهُوَ عَلَى شَفًا، فَشَرِبَهَا، فَشَفَاهُ اللهُ(٢).

وَذَكَرَ العُقَيْلِيُّ عَنْ حَبِيبِ بْنِ فُدَيْكٍ -وَيُقَالُ: فُرَيْكٍ- أَنَّ أَبَاهُ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ، فَكَانَ لَا يُبْصِرُ بِهِمَا شَيْئًا، فَنَفَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، فَأَبْصَرَ، فَرَأَيْتُهُ يُدْخِلُ الخَيْطَ فِي الإِبْرَةِ، وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ(٣).

وَرُمِيَ كُلْثُومُ بْنُ الحُصَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي نَحْرِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ، فَبَرَأَ(٤).

---

(١) حديث عثمان بن حنيف (أن أعمى قال ادع الله أن يكشف لي عن بصري ...): عزاه المصنف إلى النسائي [«الكبرى» (١٠٤١٩)] وأخرجه أيضًا الترمذي [٣٥٧٨] والحاكم [١/ ٤٥٨] والبيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٦٦)] وصححاه.

(٢) حديث (أن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء ...): الواقدي [١/ ٣٥٠] وأبو نعيم [الدلائل ١/ ٥١٣] عن عروة.

(٣) حديث حبيب بن فديك (أن أباه ابيضت عيناه ...): عزاه المصنف إلى العقيلي وأخرجه البيهقي [الدلائل (٦/ ١٧٣)] والطبراني [٤/ ٢٥] وأخرجه بلفظ ابن فديك ابنُ أبي شيبة [المصنف (٣١٨٠٤)] في مسنده.

(٤) حديث (رُمي كلثوم بن الحصين يوم أحد ...): [ذكره ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٤٤). وخرج السيوطي بعد هذا الموضع حديثًا جاء في بعض نسخ الشفا، قال: «حديث (أنه تفل على شجة عبد الله بن أنيس فلم تمد): الطبراني عنه» ولم أجده عند الطبراني، وأخرجه أبو نعيم في الدلائل (٤٤٤)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٩٣)، وكذا عزاه إليهما السيوطي في الخصائص].

قوله (النَّسائيُّ): بالقصر ويمد. قوله (حُنَيْفٍ): بضمِّ الحاءِ المهمَلةِ وفتحِ النونِ. قوله (وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّي مُحَمَّدٍ): أي مُلْتَجِئًا ومتوسِّلًا بِنَبِيِّي. قوله (شَفِّعْهُ): بتشديدِ الفاءِ. وقوله (فِيَّ): بتشديدِ الياءِ التحتيةِ.

قوله (مُلاعِبِ): بضمِّ الميمِ وكسرِ العَينِ. قوله (الأَسِنَّةِ): -بتشديدِ النونِ- جمعُ «سِنانٍ»، وهوَ الرُّمحُ؛ سُمِّيَ به لِتَقَدُّمِه وشَجاعَتِه.

قوله (استِسْقاءٌ): مَرَضٌ معروفٌ بِكَثْرةِ الشُّرْبِ لِلماءِ، وسَبَبُه اجتماعُ ماءٍ أَصْفَرَ في البَطْنِ. قوله (حَثْوةً): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وسكونِ المُثَلَّثةِ، لُغةٌ في «حَثْيةٍ»؛ بالياءِ- أي أَخْذَ قَبْضةً.

قوله (يُرى): -بضمِّ الياءِ أو فتحِها- أي يَظُنُّ أو يَعتَقِدُ. قوله (أَنْ قَدْ هُزِئَ بِه): بضمِّ الهاءِ وفَتْحِها، وكَسْرِ الزاي فهَمْزٍ، و(أَنْ) مُخَفَّفةٌ، واسمُها ضَميرُ الشأنِ، وضميرُ (بِهِ) راجعٌ إلى ابنِ المُلاعِبِ. قوله (شَفًا): -بفتحِ المعجمةِ مقصورًا مُنَوَّنًا- وهوَ حَرْفُ كُلِّ شيءٍ، ومنْه قولُه تعالى ﴿شَفَا حُفْرَةٍ...﴾ إلخ [آل عمران: ١٠٣].

قوله (العُقَيْلِيُّ): بضمِّ العَينِ وفتحِ القافِ.

وَتفَلَ في عَيْنَيْ عَلِيٍّ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَكَانَ رَمِدًا، فَأَصْبَحَ بَارِئًا[(١)].

وَنَفَثَ عَلَى ضَرْبَةٍ بِسَاقِ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ يَوْمَ خَيْبَرَ فَبَرِئَتْ[(٢)]، وَفِي رِجْلِ زَيْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ أَصَابَهَا السَّيْفُ إِلَى الكَعْبِ حِينَ قَتَلَ ابْنَ الأَشْرَفِ فَبَرِئَتْ[(٣)]، وعلى سَاقِ عَلِيِّ بْنِ الحَكَمِ يَوْمَ الخَنْدَقِ؛ إِذِ انْكَسَرَتْ، فَبَرِئَ مَكَانَهُ، وَمَا نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ[(٤)].

وَاشْتَكَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَجَعَلَ يَدْعُو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللهُمَّ اشْفِهِ، أَوْ عَافِهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، فَمَا اشْتَكَى ذَلِكَ الوَجَعَ بَعْدُ[(٥)].

وَقَطَعَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، فَجَاءَ يَحْمِلُ يَدَهُ، فَبَصَقَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَلْصَقَهَا فَلَصِقَتْ، رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ[(٦)].

وَمِنْ رِوَايَتِهِ أَيْضًا أَنَّ خُبَيْبَ بْنَ يَسَافَ أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِضَرْبَةٍ عَلَى عَاتِقِهِ، حَتَّى مَالَ شِقُّهُ، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَفَثَ عَلَيْهِ حَتَّى صَحَّ[(٧)].

وَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ، مَعَهَا صَبِيٌّ بِهِ بَلَاءٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَأُتِيَ بِمَاءٍ،

قوله (فلَصِقَتْ): بكسرِ الصادِ.

قوله (يَسافَ): بفتحِ الياءِ، وفي نسخةٍ «إِسافَ»؛ بكسرِ الهمزِ وفَتْحِها.

(١) حديث (أنه تفل في عيني علي يوم خيبر وكان رمدًا فأصبح بارئًا): الشيخان [البخاريُّ (٢٩٧٦)، ومسلمٌ (٢٤٠٤)] عن سهلِ بن سعد.

(٢) حديث (أنه نفث على ضربة بساق سلمة ...): البخاري [٤٢٠٦] عن سلمة.

(٣) حديث (أنه نفث في رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف في قتل كعب بن الأشرف ...): عبد بن حميد في تفسيره عن عكرمة، وأخرجه الواقدي [١/ ١٩٠] بأسانيد لكن قال «الحارث بن أوس» بدل «زيد بن معاذ»، وأخرجه البيهقي [«الدلائل» (٣/ ١٩٩)] من حديث جابر وقال بدلها «عباد بن بشر».

(٤) حديث (أنه نفث على ساق معاوية بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت ...): أبو القاسم البغوي في معجمه [٢٢٠٦].

(٥) حديث (اشتكى علي ...): البيهقي [٦/ ١٧٩] عنه.

(٦) حديث (قطع أبو جهل يوم بدر ..): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٧) حديث (أن خبيب بن يساف أصيب ...): ابن إسحاق والبيهقي عنه [أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٣٦٥) من طريق ابن إسحاق].

فَمَضْمَضَ فَاهُ، وَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَأَمَرَهَا بِسَقْيِهِ وَمَسِّهِ بِهِ، فَبَرَأَ الغُلَامُ، وَعَقَلَ عَقْلًا يَفْضُلُ عُقُولَ النَّاسِ[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا بِهِ جُنُونٌ، فَمَسَحَ صَدْرَهُ، فَثَعَّ ثَعَّةً، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ مِثْلُ الجَرْوِ الأَسْوَدِ فَسَعَى[2].

وَانْكَفَأَتِ القِدْرُ عَلَى ذِرَاعِ مُحَمَّدِ بْنِ حَاطِبٍ، وَهُوَ طِفْلٌ، فَمَسَحَ عَلَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، وَتَفَلَ فِيهِ، فَبَرَأَ لِحِينِهِ[3].

وَكَانَتْ فِي كَفِّ شُرَحْبِيلَ الجُعْفِيِّ سِلْعَةٌ تَمْنَعُهُ القَبْضَ عَلَى السَّيْفِ وَعِنَانِ الدَّابَّةِ، فَشَكَاهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَمَا زَالَ يَطْحَنُهَا بِكَفِّهِ حَتَّى رَفَعَهَا، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ.

وَسَأَلَتْهُ جَارِيَةٌ طَعَامًا وَهُوَ يَأْكُلُ، فَنَاوَلَهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الحَيَاءِ، فَقَالَتْ: إِنَّمَا أُرِيدُ مِنَ الَّذِي فِي فِيكَ، فَنَاوَلَهَا مَا فِي فِيهِ -وَلَمْ يَكُنْ ﷺ يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ-، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي جَوْفِهَا أُلْقِيَ عَلَيْهَا مِنَ الحَيَاءِ مَا لَمْ تَكُنِ امْرَأَةٌ بِالمَدِينَةِ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْهَا[4].

***

(١) حديث (أتته امرأة من خثعم ...): ابن أبي شيبة في المصنف [٢٣٥٨٤] عن أم جندب.

(٢) حديث ابن عباس (جاءت امرأة بابن لها به جنون ...): البيهقي [٦/ ١٨٢] وابن أبي شيبة [٢٣٥٨٠].

(٣) حديث (انكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب ...): النسائي [في الكبرى (٩٩٤٤)] والطيالسي [١٢٩٠] والبيهقي [٦/ ١٧٤] عنه.

(٤) حديث (سألته جارية طعامًا ...): الطبراني [٨/ ٢٠٠] عن أبي أمامة.

قوله (يَفْضُلُ عُقُولَ): -بضمِّ الضادِ وفتحِها- أي يَزِيدُ.

قوله (فَثَعَّ ثَعَّةً): -بمُثَلَّثةٍ ومُهْمَلةٍ مشدَّدةٍ فيها- أي قاءَ مَرَّةً. قوله (مِثْلُ الجَرْوِ): -بتثليثِ الجيمِ- وَلَدُ الكَلْبِ والسَّبُعِ. قوله (فَسَعَى): -بالسينِ والعَينِ المهمَلةِ المفتوحتَينِ- أي مَشَى، وفي نسخةٍ «فشُفِيَ»؛ بالشينِ المعجَمةِ والفاءِ، بصيغةِ المجهولِ.

قوله (وانْكَفَأَتِ): -بهَمزةٍ مفتوحةٍ بعْدَ الفاءِ- أي انقلَبَتِ. قوله (حاطِبٍ): بحاءٍ وطاءٍ مهملتَينِ.

قوله (شُرَحْبِيلَ): بضمِّ أوَّلِه. و(الجُعْفِيِّ): بضمِّ الجيمِ. قوله (سِلْعَةٌ): -بكَسْرِ السينِ وسُكونِ اللامِ- زياداتٌ تَحْدُثُ في الجَسَدِ. قوله (وَعِنانِ الدّابّةِ): -بكَسْرِ العَينِ- أي لجامِها. قوله (يَطْحَنُها): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ- أي يعالجُها بكَفِّه.

قوله (فيَمْنَعَه): بالنَّصبِ في جوابِ النفيِ. قوله (ما لَمْ تَكُنِ... إلخ): أي شَيءٌ عَظيمٌ مِنْه حتّى بسَببِه (لَمْ تَكُنِ... إلخ).

***

فَصْلٌ فِي إِجَابَةِ دُعَائِهِ ﷺ

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ جِدًّا، وَإِجَابَةُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِجَمَاعَةٍ دَعَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مُتَوَاتِرٌ عَلَى الجُمْلَةِ، وَمَعْلُومٌ ضَرُورَةً، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَعَا لِرَجُلٍ أَدْرَكَتِ الدَّعْوَةُ وَلَدَهُ، وَوَلَدَ وَلَدِهِ[(١)].

حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ العَتَّابِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِمِ حَاتِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا حَرَمِيٌّ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ، ادْعُ اللهَ لَهُ، قَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا آتَيْتَهُ. وَمِنْ رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ: قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللهِ؛ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ اليَوْمَ نَحْوَ المِائَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ: وَمَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَصَابَ مِنْ رَخَاءِ العَيْشِ مَا أَصَبْتُ، وَلَقَدْ دَفَنْتُ بِيَدَيَّ هَاتَيْنِ مِائَةً مِنْ وَلَدِي، لَا أَقُولُ سِقْطًا وَلَا وَلَدَ وَلَدٍ[(٢)].

وَمِنْهُ دُعَاؤُهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بِالبَرَكَةِ؛ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَلَوْ رَفَعْتُ حَجَرًا لَرَجَوْتُ أَنْ أُصِيبَ تَحْتَهُ ذَهَبًا، وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، وَمَاتَ فَحُفِرَ الذَّهَبُ مِنْ تَرِكَتِهِ بِالفُؤُوسِ حَتَّى مَجَلَتْ فِيهِ الأَيْدِي، وَأَخَذَتْ كُلُّ زَوْجَةٍ ثَمَانِينَ أَلْفًا، وَكُنَّ أَرْبَعًا، وَقِيلَ: مِائَةَ أَلْفٍ، وَقِيلَ: بَلْ صُولِحَتْ إِحْدَاهُنَّ؛ لِأَنَّهُ طَلَّقَهَا فِي مَرَضِهِ عَلَى نَيِّفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفًا، وَأَوْصَى بِخَمْسِينَ أَلْفًا بَعْدَ صَدَقَاتِهِ الفَاشِيَةِ فِي حَيَاتِهِ وَعَوَارِفِهِ

(١) حديث حذيفة (كان إذا دعا الرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده): أحمد [٢٣٢٧٧].

(٢) حديث أنس (قالت أمي خادمك ...): أسنده المصنف من طريق البخاريِّ [١٩٨٢]، وأخرجه مسلمٌ [٢٤٨٠] أيضًا رواية عكرمة عنه. رواية (وما أعلم أحدًا أصاب من رخاء العيش..): البيهقي، [وهو عند الطبرانيِّ في «الكبير» (٢٥/ ١٢٣)].

قوله ([واسِعٌ] جِدًّا): -بكسرِ الجيمِ وتشديدِ الدالِ- أي واسِعٌ [وِسْعًا كثيرًا].

قوله (العَتَّابِيُّ): بتشديدِ الفوقيَّةِ، و(حاتِمُ): بكسرِها. قوله و(القابِسيُّ): بكسرِ المُوَحَّدةِ. قوله (حَرَميٌّ): بفتحِ الحاءِ والراءِ.

قوله (قالَتْ أُمِّي): هيَ أُمُّ سُلَيْمٍ. قوله (لَيُعادُّونَ): -بضمِّ الياءِ وتشديدِ الدالِ- أي يَعُدُّ بعضُهم بَعْضًا. قوله (بيَدَيَّ): بتشديدِ الياءِ الثانيةِ.

قوله (فحُفِرَ الذَّهَبُ): -بصيغةِ المجهولِ- أي استُخْرِجَ. قوله (مِنْ تَرِكَتِه): -بفتحٍ فكسرٍ- أي مَتْروكاتِه. قوله (بالفُؤوسِ): بضمِّ الفاءِ والهمزِ وسكونِ الواوِ؛ جمعُ «فَأْسٍ» -بالهَمْزِ ويُبْدَلُ-، كرَأْسٍ ورُؤوسٍ. قوله (مَجَلَتْ... إلخ): -بفتحِ الجيمِ وكسرِها[(١)]- أي تَنَفَّطَتْ. قوله (على نَيِّفٍ): -بتشديدِ التحتيةِ المكسورةِ وتسكينِها- أي زيادةٍ بمعنى كَسْرٍ.

(١) في «القاموس»: «مَجَلَتْ يدُه، كنَصَرَ وفَرِحَ، مَجْلاً ومَجَلاً ومُجُولاً: نَفِطَتْ من العَمَلِ فمَرَنَتْ وصَلُبَتْ وثَخُنَ جِلدُها وتَعَجَّرَ وظَهَرَ فيها ما يُشْبِهُ البَثَرَ».

العَظِيمَةِ؛ أَعْتَقَ يَوْمًا ثَلَاثِينَ عَبْدًا، وَتَصَدَّقَ مَرَّةً بِعِيرٍ فِيهَا سَبْعُمِائَةِ بَعِيرٍ وَرَدَتْ عَلَيْهِ تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَتَصَدَّقَ بِهَا وَبِمَا عَلَيْهَا، وَبِأَقْتَابِهَا وَأَحْلَاسِهَا.

وَدَعَا لِمُعَاوِيَةَ بِالتَّمْكِينِ فِي البِلَادِ، فَنَالَ الخِلَافَةَ[(١)]، وَلِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنْ يُجِيبَ اللهُ دَعْوَتَهُ؛ فَمَا دَعَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ[(٢)]، وَدَعَا بِعِزِّ الإِسْلَامِ بِعُمَرَ أَوْ بِأَبِي جَهْلٍ؛ فَاسْتُجِيبَ لَهُ فِي عُمَرَ[(٣)]، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ[(٤)].

وَأَصَابَ النَّاسَ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ عَطَشٌ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ الدُّعَاءَ، فَدَعَا، فَجَاءَتْ سَحَابَةٌ، فَسَقَتْهُمْ حَاجَتَهُمْ، ثُمَّ أَقْلَعَتْ[(٥)]، وَدَعَا فِي الاسْتِسْقَاءِ فَسُقُوا، ثُمَّ شَكَوْا إِلَيْهِ المَطَرَ، فَدَعَا فَصَحَوْا[(٦)]. وَقَالَ لِأَبِي قَتَادَةَ: أَفْلَحَ وَجْهُكَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُ فِي شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَكَأَنَّهُ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ[(٧)].

وَقَالَ لِلنَّابِغَةِ: لَا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ، فَمَا سَقَطَتْ لَهُ سِنٌّ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ ثَغْرًا؛ إِذَا سَقَطَتْ لَهُ سِنٌّ نَبَتَتْ لَهُ أُخْرَى، ..

---

(١) حديث دعائه لمعاوية بالتمكين من البلاد: ابن سعد [«الطبقات الكبرى» (ص: ١٠٨)] ولفظه (اللهمَّ علِّمه الكتاب ومكِّن له في البلاد وقه العذاب).

(٢) حديث دعائه لسعد أن يجيب الله دعوته: الترمذيُّ [٣٧٥١] عن سعد موصولًا والبيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ١٨٩)] عن قيس بن أبي حازم مرسلًا أن رسول الله ﷺ قال (اللهمَّ استجب له إذا دعى) وقال مرسل حسن، وقد استجيب لسعد دعوات مخرجة في الصحيح وغيره.

(٣) حديث (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل): الترمذي [٣٦٨١] عن ابن عمر.

(٤) حديث ابن مسعود (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر): البخاري [٣٦٨٤ و ٣٨٦٣].

(٥) حديث (أصاب الناس عطش فسأله عمر الدعاء ...): [لم أجده هكذا، وورد مثله عن سيدنا عمر في غزوة العسرة ولكن الذي سأل النبي ﷺ سيدنا أبو بكر، أخرجه البزار (٢١٤)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣)، وغيرهم].

(٦) حديث أنه دعا في الاستسقاء فسقوا ثم شكوا إليه المطر فدعا فصحوا: الشيخان [البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧)] عن أنس.

(٧) حديث أنه قال لأبي قتادة (أفلح وجهك ...): البيهقي عنه. [وأخرجه الحاكم (٣/ ٤٨٠)].

قوله (وَتَصَدَّقَ مَرَّةً بِعِيرٍ): -بكسرِ العَينِ المهمَلةِ- أي قافلةٍ.

قوله (بأَقْتَابِها): جمعُ «قَتَبٍ» -بالتحريك، وهوَ لِلبَعيرِ كالإكافِ لِغَيْرِه.

قوله (وَأَحْلاسِها): جمعُ «حِلْسٍ»؛ كِساءٌ يَلي ظَهْرَ البَعيرِ تَحْتَ القَتَبِ.

قوله (ثُمَّ أَقْلَعَتْ): -بفتحِ الهمزةِ واللامِ- أي انْجَلَتْ. قوله (فَصَحَوْا): بفتحِ الصادِ وفتحِ وضمِّ الحاءِ المهمَلةِ.

قوله (شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ): -الأوَّلُ بفتحِ العَينِ وسُكونِها، والثاني بِفَتْحِ الباءِ والشّينِ- أي ظاهرِ جِلْدِه.

قوله (لا يَفْضُضِ اللهُ): -بضمِّ الضادِ الأولى وكسْرِ الثانيةِ- لا يُسْقِطُ. قوله (ثَغْرًا): -بفَتْحِ المثلَّثةِ وسكونِ الغينِ المعجَمةِ- أي سِنًّا، وقيلَ: ما تَقَدَّمَ مِنَ الأسنانِ.

وَعَاشَ عِشْرِينَ وَمِائَةً، وَقِيلَ: أَكْثَرَ مِنْ هَذَا[1]. وَدَعَا لِابْنِ عَبَّاسٍ: اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ[2]، فَسُمِّيَ بَعْدُ الحَبْرَ وَتَرْجُمَانَ القُرْآنِ.

وَدَعَا لِعَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ بِالبَرَكَةِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ، فَمَا اشْتَرَى شَيْئًا إِلَّا رَبِحَ فِيهِ[3]. وَدَعَا لِلمِقْدَادِ بِالبَرَكَةِ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ غَرَائِرُ مِنَ المَالِ[4]. وَدَعَا بِمِثْلِهِ لِعُرْوَةَ بْنِ أَبِي الجَعْدِ، فَقَالَ: فَلَقَدْ كُنْتُ أَقُومُ بِالكُنَاسَةِ، فَمَا أَرْجِعُ حَتَّى أَرْبَحَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَقَالَ البُخَارِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَكَانَ لَوِ اشْتَرَى التُّرَابَ رَبِحَ فِيهِ[5]. وَرُوِيَ مِثْلُ هَذَا لِغَرْقَدَةَ أَيْضًا[6].

وَنَدَّتْ لَهُ نَاقَةٌ، فَدَعَا فَجَاءَهُ بِهَا إِعْصَارُ رِيحٍ حَتَّى رَدَّهَا عَلَيْهِ[7]. وَدَعَا لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَأَسْلَمَتْ[8]. وَدَعَا لِعَلِيٍّ أَنْ يُكْفَى الحَرَّ وَالقُرَّ، فَكَانَ يَلْبَسُ فِي الشِّتَاءِ ثِيَابَ الصَّيْفِ، وَفِي الصَّيْفِ ثِيَابَ الشِّتَاءِ، وَلَا يُصِيبُهُ حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ[9]. وَدَعَا اللهَ لِفَاطِمَةَ ابْنَتِهِ أَنْ لَا يُجِيعَهَا، قَالَتْ: فَمَا جَاعَتْ بَعْدُ[10].

---

(١) حديث (أنه قال للنابغة «لا يفضض الله فاك» فما سقطت له سن): البيهقي [الدلائل ٦/ ٢] وابن أسامة [٨٩٤] عن النابغة.

(٢) حديث دعائه لابن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل): الشيخان [البخاريُّ (١٤٣)، ومسلمٌ (٢٤٧٧)].

(٣) حديث (أنه دعى لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئا إلا ربح فيه): البيهقي [الدلائل ٦/ ٢٢٠] عن عمرو بن حريث.

(٤) حديث (أنه دعى للمقداد بالبركة فكانت عنده غرائر من المال): [أخرجه البزار (٢١١٦)، وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٤٦١)].

(٥) حديث (أنه دعى لعروة بن أبي الجعد ...) الحديث: البخاري [٣٦٤٢]، ورواية (أنه كان يقوم بالكناسة ...) إلخ: أخرجها أحمد [١٩٣٦٢].

(٦) حديث دعائه لغرقدة: [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٧) حديث (أنه ندت له ناقة فدعا فجاءه بها إعصار ريح): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٨) حديث (أنه دعى لأم أبي هريرة فأسلمت): مسلم [٢٤٩١] عن أبي هريرة.

(٩) حديث (أنه دعى لعلي أن يكفى الحر والقر...) الحديث: ابن ماجه [١١٩] والبيهقي [٤/ ٢١٢] عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١٠) حديث (أنه دعى لابنته فاطمة أن لا يجيعها الله تعالى فما جاعت بعد): البيهقي=

قوله (فَسُمِّيَ بَعْدُ الحَبْرَ): أي بعْدَ دعائه ﷺ الحبْرَ؛ أي عالِمَ الأُمَّةِ، و(الحَبْرُ): بفتحِ الحاءِ وكسرِها. قوله (وتَرْجُمانَ): -بفتحِ التاءِ وضمِّ الجيمِ وضمِّهما، وحُكِيَ فَتْحُهما- أي مُفَسِّرَه.

قوله (غرائرُ): -بفتحِ المعجمةِ؛ جَمْعُ «غِرارةٍ» بالكسرِ- أي جَوالِقُ.

قوله (بالكُناسةِ): -بضمِّ الكافِ- موضِعٌ أو سوقٌ بالكوفةِ أو كُناساتُ دورِهم. قوله (أَرْبَحَ): -بفتحِ الموحَّدةِ- أي أَستفيدَ.

قوله (ونَدَّتْ): -بتشديدِ الدالِ المهملةِ- أي نَفَرَتْ.

قوله (أنْ يُكْفى): -بصيغةِ المجهولِ- أي يُحْفَظَ. قوله (والقُرَّ): -بفتحِ القافِ وضمِّها وتُكسرُ- البَرْدُ شَديدُه.

قوله (فَما جاعَتْ): أي بَعْدَ ذلك الدعاءِ.

وَسَأَلَهُ الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو آيَةً لِقَوْمِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ نَوِّرْ لَهُ، فَسَطَعَ لَهُ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، [أَخَافُ] أَنْ يَقُولُوا: مُثْلَةٌ، فَتَحَوَّلَ إِلَى طَرَفِ سَوْطِهِ، فَكَانَ يُضِيءُ فِي اللَّيْلَةِ المُظْلِمَةِ، فَسُمِّيَ ذَا النُّورِ[١].

وَدَعَا عَلَى مُضَرَ، فَأُقْحِطُوا حَتَّى اسْتَعْطَفَتْهُ قُرَيْشٌ، فَدَعَا لَهُمْ فَسُقُوا[٢]. وَدَعَا عَلَى كِسْرَى حِينَ مَزَّقَ كِتَابَهُ أَنْ يُمَزَّقَ مُلْكُهُ، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ بَاقِيَةٌ، وَلَا بَقِيَتْ لِفَارِسَ رِيَاسَةٌ فِي أَقْطَارِ الدُّنْيَا[٣].

وَدَعَا عَلَى صَبِيٍّ قَطَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ أَنْ يَقْطَعَ اللهُ أَثَرَهُ فَأُقْعِدَ[٤]. وَقَالَ لِرَجُلٍ رَآهُ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ: كُلْ بِيَمِينِكَ، فَقَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، فَقَالَ: لَا اسْتَطَعْتَ، فَلَمْ يَرْفَعْهَا إِلَى فِيهِ[٥]. وَقَالَ لِعُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ: اللهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِن كِلَابِكَ، فَأَكَلَهُ الأَسَدُ[٦]. وَقَالَ لِامْرَأَةٍ: أَكَلَكِ الأَسَدُ، فَأَكَلَهَا[٧].

=[الدلائل ٦/ ١٨٠] عن عمران بن حصين.

(١) حديث (سأله الطفيل آية ...): ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣] بلا سند، والبيهقي عنه [الدلائل ١/ ٢٣٨]، وابن جرير من طريق الكلبي.

(٢) حديث (دعى على مضر فأقحطوا ...): النسائي عن ابن عباس [الكبرى ١١١٣٨ عن ابن مسعود]، والبيهقي [٦٤٢٨] عن ابن مسعود، وأصله في الصحيحين [البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨)].

(٣) حديث (أنه دعى على كسرى حين مزق كتابه): البخاري [٢٩٣٩] عن ابن عباس.

(٤) حديث (أنه دعى على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع الله تعالى أثره فأقعد): أبو داود [٧٠٥، ٧٠٦] والبيهقي [الدلائل ٦/ ٢٤١].

(٥) حديث (أنه قال لرجل يأكل بشماله ...): مسلم [٢٠٢١] عن سلمة بن الأكوع.

(٦) حديث (أنه قال لعتبة «اللهم سلط عليه كلبا» ...): ابن إسحاق من طريق عروة بن الزبير عن هبّار بن الأسود، والحاكم [٢/ ٥٣٩] من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه، والبيهقي [١٠٠٥٢] من طريق أخرى.

(٧) حديث (أنه قال لامرأة «أكلك الأسد» فأكلها): ابن سعد [٨/ ١٥٠] في الطبقات من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أقبلت ليلى بنت الحطيئة إلى النبي ﷺ وهو مول ظهره للشمس وضربت على منكبه، فقال (من هذا أكله الأسد) فقالت: أنا بنت مطعم الطير ومبادي الريح، أنا ليلى بنت الحطيئة جئت لأعرض عليك نفسي تزوجني، قال: قد فعلت، فرجعت إلى قومها فقالت: قد تزوجني النبي ﷺ،=

و(الطُّفَيْلُ): بالتصغير. قوله (مُثْلَةٌ): -بتثليثِ الميمِ وسكونِ المُثَلَّثَةِ- أي تنكيلٌ.

قوله (حتّى استعطفَتْه قُرَيْشٌ): أي طَلَبوا مِنْه أنْ يَعْطِفَ عليهم. قوله (فسُقوا): أي أُعْطوا مَطَرًا.

قوله (كِسْرى): -بكسرِ الكافِ- لَقَبٌ لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الفُرْسَ.

قوله (فَلَمْ تَبْقَ لَهُ باقيةٌ): أي نَفْسٌ باقيةٌ.

قوله (لفارِسَ): -بكسرِ الراءِ- أي لِأهلِ فارسَ؛ بالصرفِ وعَدَمِه.

قوله (فأُقْعِدَ): -بصيغةِ المجهولِ- أي صارَ مُقْعَدًا.

وَحَدِيثُهُ المَشْهُورُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي دُعَائِهِ عَلَى قُرَيْشٍ، حِينَ وَضَعُوا السَّلَا عَلَى رَقَبَتِهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، مَعَ الفَرْثِ وَالدَّمِ، وَسَمَّاهُمْ، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ(١).

وَدَعَا عَلَى الحَكَمِ بنِ أَبِي العَاصِ، وَكَانَ يَخْتَلِجُ بِوَجْهِهِ، وَيَغْمِزُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، أَيْ: [لا]، فَرَآهُ، فَقَالَ: كَذَلِكَ، فَلَمْ يَزَلْ يَخْتَلِجُ إِلَى أَنْ مَاتَ(٢).

وَدَعَا عَلَى مُحَلِّمِ بْنِ جَثَّامَةَ، فَمَاتَ لِسَبْعٍ، ثُمَّ وُورِيَ، فَلَفَظَتْهُ الأَرْضُ، ثُمَّ وُورِيَ، فَلَفَظَتْهُ مَرَّاتٍ، فَأَلْقَوْهُ بَيْنَ صَدَّيْنِ، وَرَضَمُوا عَلَيْهِ بِالحِجَارَةِ، الصَّدُّ جَانِبُ الوَادِي(٣).

وَجَحَدَهُ رَجُلٌ بِبَيْعِ فَرَسٍ، وَهِيَ التي شَهِدَ فِيهَا خُزَيْمَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ الفَرَسَ بَعْدُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجُلِ، وَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَا تُبَارِكْ لَهُ فِيهَا، فَأَصْبَحَتْ شَاصِيَةً بِرِجْلِهَا، أَيْ رَافِعَةً.(٤)

وَهَذَا البَابُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ، وَاللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَعْلَمُ.

***

قوله (السَّلا): -بفتحِ السينِ المهمَلةِ مقصورًا- هوَ في البَهيمةِ كالمَشيمةِ لِبَني آدمَ، وهوَ جِلْدٌ رَقيقٌ يَخرُجُ مَعَ الوَلَدِ مِن بَطْنِ أُمِّه.

قوله (ويَغمِزُ): بكسرِ الميمِ. قوله (فَلَمْ يَزَلْ يَخْتَلِجُ): أي يرتَعِدُ.

قوله (مُحَلِّمٍ): بكسرِ اللامِ المشدَّدةِ. وقوله (جَثّامةَ): بضمِّ الجيمِ وتشديدِ المثلَّثةِ. قوله (فلَفَظَتْه): -بفتحِ الفاءِ والظاءِ المُشالةِ- أي قَذَفَتْه. قوله (وورِيَ): -بضمِّ أوَّلِه، مجهولُ «وارى»- أي سُتِرَ تحتَ الأرضِ. قوله (فألْقَوْه): بفتحِ القافِ. و(صَدَّيْنِ): -بفتحِ الصادِ وضَمِّها- جبَلَيْنِ أو واديَينِ. قوله (ورَضَموا... إلخ): -بفتحِ الراءِ والضادِ المعجَمةِ- أي كَوَّموا علَيه الحجارةَ... إلخ.

قوله (خُزَيمةُ): بالتصغيرِ. قوله (فَرَدَّ الفَرَسَ بَعْدُ): أي بَعْدَ حَجزِها وشهادةِ خُزيمةَ له. قوله (شاصيةً رِجْلَها): أي رافعةً لها بسببِ نَفْخِها.

***

=فقالوا: أنت امرأة غيراء، والنبي ﷺ صاحب نساء تغارين عليه فيدعو الله عليك، فاستقيليه نفسك، فرجعت فقالت: يا رسول الله أقلني، قال: قد أقلتك، فتزوجها مسعود بن أوس، فولدت له، فبينا هي في حائط من حيطان المدينة تغتسل إذ وثب عليها ذئب لقول النبي ﷺ، فأكل بعضها وأُدركت فماتت.

(١) حديث ابن مسعود في دعائه ﷺ على قريش حين وضعوا السلا على رقبته: الشيخان [البخاري (٣١٨٥)، ومسلم (١٧٩٤)].

(٢) حديث أنه دعى على الحكم بن أبي العاص ....: البيهقي [٢/ ٢٣٩، والحاكم أيضًا ٢/ ٦٢١] من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر وعن ابن عمرو عن هند بن خديجة.

(٣) حديث أنه دعى على محكم بن جثامة فمات فلفظته الأرض ....: البيهقي [٤/ ٣٠٩] عن قبيصة بن ذؤيب، وعن الحسن قال (بلغنا...) فذكره، وابن جرير [٧/ ٣٥٣] موصولا عن ابن عمر، والبيهقي [٧/ ١٢٧] عن عمران بن حصين ولم يسمِّ المدعو عليه، وفيه (فعنه نصْبُ الحجارة».

(٤) حديث دعائه ﷺ على الذي باعه الفرس ثم جحده فأصبحت شاصية: [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

فَصْلٌ فِي كَرامَاتِه وَبَرَكَاتِه وَانْقلَابِ الأعيَانِ لَهُ فِيمَا لَمَسَهُ أَوْ بَاشَرَه

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ الهَرَوِيُّ إِجَازَةً، وَحَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ سَمَاعًا، وَالقَاضِي أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمنِ وَغَيْرُهُمَا، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ القَاضِي، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَبُو إِسْحَاقَ وَأَبُو مُسْلِمٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا الثَّوْرِي، حَدَّثَنَا البُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَهْلَ المَدِينَةِ فَزِعُوا مَرَّةً، فَرَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ فَرَسًا لِأَبِي طَلْحَةَ كَانَ يَقْطُفُ -أَوْ بِهِ قِطَافٌ-، وَقَالَ غَيْرُه: يُبَطَّأُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ: وَجَدْنَا فَرَسَكَ بَحْرًا، فَكَانَ بَعْدُ لَا يُجَارَى[1].

وَنَخَسَ جَمَلَ جَابِرٍ، وَكَانَ قَدْ أَعْيَا، فَنَشِطَ حَتَّى كَانَ مَا يَمْلِكُ زِمَامَهُ[2]. وَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ بِفَرَسِ لِجُعَيْلٍ الأَشْجَعِيِّ خَفَقَهَا بِمِخْفَقَةٍ مَعَهُ، وَبَرَّكَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَمْلِكْ رَأْسَهَا نَشَاطًا، وَبَاعَ مِنْ بَطْنِهَا بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا[3]. وَرَكِبَ حِمَارًا قَطُوفًا لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَرَدَّهُ هِمْلَاجًا لَا يُسَايَرُ[4].

وَكَانَتْ شَعَرَاتٌ مِنْ شَعْرِه ﷺ فِي قَلَنْسُوَةِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، فَلَمْ يَشْهَدْ بِهَا قِتَالًا إِلَّا رُزِقَ النَّصْرَ[5].

---

(١) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٨٦٧)، ومسلمٌ (٢٣٠٧)، وغيرهما].

(٢) حديث نخسه ﷺ جمل جابر: الشيخان [البخاري (٥٠٧٩)، ومسلم (٧١٥)] عنه.

(٣) حديث أنه ضرب فرس جعيل بمخفقة: البيهقي [الدلائل ٦/ ١٥٣] عنه.

(٤) حديث (أنه ركب حمارا قطوفا فرده هملاجًا): ابن سعد [(١/ ١٧٦)] عن إسحاق بن عبد الله بن طلحة.

(٥) حديث (أنه كانت شعرات من شعره في قلنسوة خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالًا إلا رزق النصر): البيهقي [٦/ ٢٤٦] عنه.

قوله (وانْقلابِ الأعيانِ): أي بتَغَيُّرِها مِن حالتِها الأولى.

قوله (زُرَيْعٍ): بالتصغير. قوله (فَزِعوا): -بكسرِ الزاي- أي خافوا. قوله (يَقْطُفُ): -بضمِّ الطاءِ المهمَلةِ وكسْرِها- أي يُقارِبُ خَطْوَه في سرعةٍ، (أَوْ بِه قِطافٌ): شَكٌّ مِن الراوي. قوله (يُبَطَّأُ): -بفتحِ المهمَلةِ المشدَّدةِ فهمزةٍ- أي لِضيقِ الخُطا. قوله (لا يُجارى): -بضمِّ الياءِ وفتحِ الراءِ، مِن الجَرْيِ بالجيمِ- أي لا يُسابَقُ، أي لا يَسْبِقُه غيرُه.

قوله (ونَخَسَ): -بالنونِ والخاءِ المعجَمةِ، المفتوحتانِ- أي طَعَنَ. قوله (فنَشِطَ): -بكسرِ الشينِ المعجَمةِ- أي أَسْرَعَ.

قوله (لِجُعَيْلٍ): بضمِّ الجيمِ وفتحِ المهمَلةِ فتحتيةٍ ساكنةٍ. قوله (بمِخْفَقةٍ): -بكسرِ الميمِ وفتحِ الفاءِ- أي بِدِرَّةٍ. قوله (وبَرَّكَ): -بتشديدِ الراءِ- أي دَعا بالبَرَكةِ. قوله (نَشاطًا): -بفتحِ النونِ- أي مِن أجْلِ إسراعِها.

قوله (قَطوفًا): بفتحِ القافِ. قوله (هِمْلاجًا): -بكسرِ الهاءِ وسُكونِ الميمِ وآخِرُه جيمٌ- أي سَريعَ الهَرْوَلةِ. قوله (لا يُسايَرُ): -بصيغةِ المفعولِ- أي لا يُسايِرُه. قوله (في قَلَنْسوةِ خالدٍ): -بفتحِ القافِ واللامِ وضمِّ المهمَلةِ- ما يوضَعُ على الرأسِ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهَا أَخْرَجَتْ جُبَّةَ طَيَالِسَةٍ، وَقَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلْبَسُهَا، فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرْضَى يُسْتَشْفَى بِهَا[1]. وحَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ المَأْمُونِ، قَالَ: كَانَتْ عِنْدَنَا قَصْعَةٌ مِنْ قِصَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنَّا نَجْعَلُ فِيهَا المَاءَ لِلْمَرْضَى، فَيَسْتَشْفُونَ بِهَا.

وَأَخَذَ جَهْجَاهُ الغِفَارِيُّ القَضِيبَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ؛ لِيَكْسِرَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ، فَصَاحَ النَّاسُ بِهِ، فَأَخَذَتْهُ فِيهَا الأَكِلَةُ، فَقَطَعَهَا، وَمَاتَ قَبْلَ الحَوْلِ[2].

وَسَكَبَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئِهِ ﷺ فِي بِئْرِ قُبَاءٍ، فَمَا نَزَفَتْ بَعْدُ[3]، وَبَصَقَ فِي بِئْرٍ كَانَتْ فِي دَارِ أَنَسٍ، فَلَمْ يَكُنْ بِالمَدِينَةِ أَعْذَبُ مِنْهَا[4].

وَمَرَّ ﷺ عَلَى مَاءٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ: اسْمُهُ «بِيْسَانُ»، وَمَاؤُهُ مِلْحٌ، فَقَالَ: بَلْ هُوَ «نُعْمَانُ»، وَمَاؤُهُ طَيِّبٌ، فَطَابَ[5]، وَأُتِيَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَمَجَّ فِيهِ، فَصَارَ أَطْيَبَ مِنَ المِسْكِ[6]، وَأَعْطَى الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ لِسَانَهُ، فَمَصَّاهُ، وَكَانَا يَبْكِيَانِ عَطَشًا، فَسَكَتَا[7].

(١) حديث أسماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا (أنها أخرجت جبة طيالسة...): مسلم [٢٠٦٩] وأبو داود [٤٠٥٤] والنسائي [الكبرى ٩٥٤٦] وابن ماجه [٢٨١٩].

(٢) حديث (أخذ جهجاه القضيب..): ابن السكن في معرفة الصحابة عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. [وأخرجه ابن عساكر في التاريخ (٣٩/ ٣٢٩)].

(٣) حديث (أنه سكب من فضل وضوئه في بئر قباء فما نزفت بعد): البيهقي [«الدلائل» (٦/ ١٣٦)] عن أنس.

(٤) حديث (أنه بزق في بئر كانت في دار أنس ...): أبو نعيم [«الدلائل» (ص: ٤٤٤) رقم: ٣٦٦] عن أنس.

(٥) حديث (أنه مر على ماء فسأل عنه ...): [أخرجه الزبير بن بكار كما في إمتاع الإسماع للمقريزي (٥/ ١٤٤)، والخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٤١٦)].

(٦) حديث (أنه أتى بدلو من زمزم فمج فيه أطيب من المسك): ابن ماجه [٦٥٩] والبيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ٦٩)] عن وائل الحضرمي ولم يقل من زمزم.

(٧) حديث (أنه أعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه فرَويا): الطبرانيُّ [٣/ ٥٠] عن أبي هريرة.

قولـه (جُبَّـةَ طَيَالِسـةٍ): بالإضافـةِ، وفُـسِّرَتْ بالخَلَـقِ. قولـه (يَلْبَسُـها): بفتـحِ الموحَّـدةِ. و(قَصْعـةٌ): بفتـحِ القـافِ. قولـه (مِـنْ قِصـاعِ): بكسـرِ القـافِ.

قولـه (جَهْجَـاهٌ): -بالنـونِ[1]، وهـوَ بالجيمـينِ والهاءَيْـنِ- هـوَ ابـنُ سَـعْدٍ. و(الغِفـاريُّ): بكسرِ المعجَمـةِ. [قولـه (الأَكِلَـةُ) -بفتـح فكسـر ويسـكن، وبكسـر فسـكون، وبفتحتـين- أي الحكـة، وفي نسـخة بمـد فكسر. قولـه (فقطعهـا): أي ركبتـه، وتذكـير الضمـير العائـد إلى الأكلـة بتأويـل الـداء][2].

قولـه (وَضوئـه): بفتـحِ الـواوِ وضَمِّهـا- أي مـاءِ وُضوئِـه. قولـه (في بِئْـرِ قُبـاءٍ): -بهَمْـزٍ- مصروفٌ ويُمْنَـعُ، وقَـدْ يُقْـصَرُ. قولـه (فـما نَزَفَـتْ): أي فَنيـتْ.

قولـه (بِيْسـانُ): بكسـرِ الموحَّـدةِ وفتْحِهـا وسـكونِ التحتيـةِ. قولـه (مِلْـحٌ): بكسـرِ أوَّلـه وسـكونِ ثانيـه. قولـه (فمَـجَّ فيـه): -بفتـحِ الميـمِ وتشـديدِ الجيـمِ- أي أَلْقـى مِـن فيـه مـاءً. قولـه (فمَصّـاه): بتشـديدِ الصـادِ المهمَلـةِ.

(١) أي بالتنوين.

(٢) مـا بـين المعقوفـين مـن شرح الملا.

وَكَانَتْ لِأُمِّ مَالِكٍ عُكَّةٌ تُهْدِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ سَمْنًا، فَأَمَرَهَا ﷺ أَنْ لَا تَعْصُرَهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ مَمْلُوءَةٌ سَمْنًا، فَيَأْتِيهَا بَنُوهَا يَسْأَلُونَهَا الأُدْمَ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ، فَتَعْمِدُ إِلَيْهَا، فَتَجِدُ فِيهَا سَمْنًا، فَكَانَتْ تُقِيمُ أُدْمَهَا حَتَّى عَصَرَتْهَا[١].

وَكَانَ ﷺ يَتْفُلُ فِي أَفْوَاهِ الصِّبْيَانِ المَرَاضِعِ، فَيُجْزِئُهُمْ رِيقُهُ إِلَى اللَّيْلِ[٢].

وَمِنْ ذَلِكَ بَرَكَةُ يَدِهِ ﷺ فِيمَا لَمَسَهُ وَغَرَسَهُ لِسَلْمَانَ حِينَ كَاتَبَهُ مَوَالِيهِ عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ وَدِيَّةٍ يَغْرِسُهَا لَهُمْ، كُلُّهَا تَعْلَقُ وَتُطْعِمُ، وَعَلَى أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَامَ ﷺ، وَغَرَسَهَا لَهُ بِيَدِهِ إِلَّا وَاحِدَةً غَرَسَهَا غَيْرُهُ، فَأَخَذَتْ كُلُّهَا إِلَّا تِلْكَ الوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَرَدَّهَا، فَأَخَذَتْ. وَفِي كِتَابِ البَزَّارِ: فَأَطْعَمَ النَّخْلُ مِنْ عَامِهِ إِلَّا الوَاحِدَةَ، فَقَلَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَغَرَسَهَا، فَأَطْعَمَتْ مِنْ عَامِهَا، وَأَعْطَاهُ مِثْلَ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ بَعْدَمَا أَدَارَهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَوَزَنَ مِنْهَا لِمَوَالِيهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَبَقِيَ عِنْدَهُ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ[٣].

وَفِي حَدِيثِ حَنَشِ بْنِ عُقَيْلٍ: سَقَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ شَرْبَةً مِنْ سَوِيقٍ، شَرِبَ أَوَّلَهَا، وَشَرِبْتُ آخِرَهَا، فَمَا بَرِحْتُ أَجِدُ شِبَعَهَا إِذَا جُعْتُ، وَرِيَّهَا إِذَا عَطِشْتُ، وَبَرْدَهَا إِذَا ظَمِئْتُ[٤].

وَأَعْطَى قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ -وَصَلَّى مَعَهُ العِشَاءَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ مَطِيرَةٍ- عُرْجُونًا، وَقَالَ: انْطَلِقْ بِهِ؛ ..

---

(١) حديث (كان لأم مالك عُكَّة ...): مسلمٌ [٢٢٨٠] عن جابرٍ.

(٢) حديث (كان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيجزيهم ريقه إلى الليل): البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٢٢٦)] عن رزينة مولاته ﷺ وخصته بيوم عاشوراء.

(٣) حديث (أنه غرس لسلمان حين كاتبه مواليه ...): البيهقي [«الدلائل» (٢/ ٩٦)] عنه.

(٤) حديث حنش بن عقيل (سقاني شربة من سويق ...): رواه قاسم في الدلائل من طريق موسى بن عقبة عن المسور بن مخرمة.

قوله (**تُهْدي**): -بضم التاء وكسر الدال- أي تُرْسِلُ. قوله (**أَنْ لا تَعْصُرَها**): -بضمِّ الصاد- أي أَمَرَها بِتَرْكِ عصيرِها. قوله (**الأُدْمَ**): -بضمٍّ فسكونٍ وبضمتَيْنِ- ما يُؤتَدَمُ به. وقوله (**فَتَعْمِدُ إِلَيْها**): بكسرِ الميمِ.

قوله (**يَتْفُلُ**): بضمِّ الفاءِ وكسْرِها. قوله (**المَراضِعِ**): بفتحِ الميمِ. قوله (**فيُجْزِئُهم**): بضمِّ الياءِ وكسرِ الزاي.

قوله (**وَدِيَّةٍ**): -بتشديدِ الياءِ- صَغيرُ فَسيلِ النخلِ. قوله (**يَغْرِسُها**): بكسرِ الراءِ.

قوله (**تَعْلَقُ**): -بفتحِ اللامِ وضمِّها- أي تَحْبَلُ، (**وتُطْعِمُ**): بضمِّ التاءِ وكسرِ العينِ المهمَلةِ. قوله (**أوقيّةً**): بضمِّ الهمزةِ وتشديدِ الياءِ.

قوله (**البَزّارِ**): بتشديدِ الزاي وفي آخِره راءٌ. قوله (**الدَّجاجةِ**): بتثليثِ الدالِ.

قوله (**حَنَشٍ**): بفتحِ المهمَلةِ والنونِ.

قوله (**عُرْجونًا**): -بضمِّ أوَّلِه وثالِثِه- هوَ أصلُ الغَدَقِ الَّذي يَعْوَجُّ وتُقطَعُ مِنْه الشماريخُ، فيَبْقى على النَّخلِ يابسًا، وقيلَ: إذا يَبِسَ واعْوَجَّ وهوَ الملائمُ لِقولِه تعالى: ﴿حتى عادَ كالعُرجونِ القديمِ﴾ [يس: ٣٩].

فَإِنَّهُ سَيُضِيءُ لَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ عَشْرًا، وَمِنْ خَلْفِكَ عَشْرًا، فَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَتَرَى سَوَادًا، فَاضْرِبْهُ بِهِ حَتَّى يَخْرُجَ؛ فَإِنَّهُ الشَّيْطَانُ، فَانْطَلَقَ فَأَضَاءَ لَهُ العُرْجُونُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَوَجَدَ السَّوَادَ فَضَرَبَهُ حَتَّى خَرَجَ[1].

وَمِنْهَا دَفْعُهُ لِعُكَاشَةَ جِذْلَ حَطَبٍ، وَقَالَ: اضْرِبْ بِهِ، حِينَ انْكَسَرَ سَيْفُهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَعَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا صَارِمًا، طَوِيلَ القَامَةِ، أَبْيَضَ شَدِيدَ المَتْنِ، فَقَاتَلَ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَشْهَدُ بِهِ المَوَاقِفَ إِلَى أَنِ اسْتُشْهِدَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ، وَكَانَ هَذَا السَّيْفُ يُسَمَّى «العَوْنَ»[2]، وَدَفْعُهُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَدْ ذَهَبَ سَيْفُهُ عَسِيبَ نَخْلٍ، فَرَجَعَ فِي يَدِهِ سَيْفًا[3]،

وَمِنْهُ بَرَكَتُهُ ﷺ فِي دُرُورِ الشِّيَاهِ الحَوَائِلِ بِاللَّبَنِ الكَثِيرِ، كَقِصَّةِ شَاةِ أُمِّ مَعْبَدٍ[4]، وَأَعْنُزِ مُعَاوِيَةَ بْنِ ثَوْرٍ[5]، وَشَاةِ أَنَسٍ[6]، وَغَنَمِ حَلِيمَةَ مُرْضِعَتِهِ وَشَارِفِهَا[7]، وَشَاةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَكَانَتْ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا

---

(١) حديث (أنه أعطى قتادة بن النعمان عرجونًا فأضاء له ...): أحمد [١١٦٢٤] [وهو عند الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٥)] عن أبي سعيد بسند صحيح.

(٢) حديث (أنه أعطى عكاشة جَذْل حطبَ فعاد في يده سيفًا ...): البيهقي [«الدلائل» (٣/ ٩٩)] عن عكاشة.

(٣) حديث (أنه دفع لعبد الله بن جحش عسيب نخل فرجع سيفًا): البيهقي [الدلائل (٣/ ٢٥٠)] عن سعيد بن عبد الرحمن عن أشياخه.

(٤) حديث شاة أم معبد: ابن سعد [١/ ٢٣٠] والطبراني [٤/ ٤٨] عن أبي معبد الخزاعي.

(٥) حديث أعنُز معاوية بن ثور: ابن سعد [١/ ٣٠٤] وابن شاهين عن الجعد بن عبد الله.

(٦) حديث شاة أنس: [أبو يعلى (٤٢١٣)، والطبرني (٢٥/ رقم ٢٩٣) عن أنس بن مالك، عن أمه قال: كانت لها شاة...].

(٧) حديث غنم حليمة: أبو يعلى [٧١٦٣] والطبراني [٢٤/ ٢١٢] وغيرهما بسند حسن.

قوله (عَشْرًا): أي عشرة أذرُع أو نحوها، والتذكيرُ لحذفِ المميِّزِ[1]. قوله (سَوادًا): أي جِسْمًا ذا سَوادٍ أو شَخْصًا.

قوله (جِذْلَ حَطَبٍ): -بكسرِ الجيمِ وفتحِها- أي أَصْلَ حَطَبٍ. قوله (يَوْمَ بَدْرٍ): أي وَقْتَه. قوله (فعادَ): في نسخةٍ «فصارَ». وقوله (صارمًا): أي قاطِعًا.

قوله (شَديدَ المَتْنِ): أي قَوِيَّ الظَّهْرِ. قوله (المَواقِفَ): أي لِقِتالِ الكفَرةِ.

قوله (العَوْنَ): هوَ بالمصدَرِ لِلمبالَغةِ، أو بِمَعْنى المُعينِ. قوله (ودَفْعُه): أي ومِنْها دَفْعُه. قوله (عَسيبَ نَخْلٍ): أي جَريدةً مِنه لا خوصَ علَيْها.

قوله (الحَوائِلِ): -بالهمزِ- جمعُ «الحائلةِ»؛ وهيَ الشاةُ العديمةُ اللَّبَنِ. قوله (وَأَعْنُزِ مُعاويةَ): جَمْعُ قِلّةٍ لِـ«عَنْزٍ». قوله (وشارِفِها): أي المُسِنّةِ مِن النّوقِ التي كانَتْ لِحَليمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها.

قوله (لَمْ يَنْزُ عَلَيْها): أي لَمْ يَثِبْ ولَمْ يَعْلُ علَيْها.

---

(١) الذراع تذكر وتؤنث، والتأنيث أكثر؛ بل حمل بعضهم التذكير على الشذوذ غير المختار؛ لذا فتذكير العدد هنا على بابه من غير حاجة إلى قاعدة حذف التمييز.

فَحْلٌ[١]، وَشَاةِ الْمِقْدَادِ[٢].

وَمِنْ ذَلِكَ تَزْوِيدُهُ أَصْحَابَهُ سِقَاءَ مَاءٍ بَعْدَ أَنْ أَوْكَاهُ، وَدَعَا فِيهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُمُ الصَّلَاةُ نَزَلُوا فَحَلُّوهُ، فَإِذَا بِهِ لَبَنٌ طَيِّبٌ، وَزُبْدَةٌ فِي فَمِهِ، مِنْ رِوَايَةِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ[٣].

وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ وَبَرَّكَ، فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ فَمَا شَابَ[٤]، وَرُوِيَ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، مِنْهُمُ السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ[٥] وَمَدْلُوكٌ[٦].

وَكَانَ يُوجَدُ لِعُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ طِيبٌ يَغْلِبُ طِيبَ نِسَائِهِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى بَطْنِهِ وَظَهْرِهِ[٧]، وَمَسَحَ وَجْهَ آخَرَ، فَمَا زَالَ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ[٨]، وَمَسَحَ وَجْهَ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانَ، فَكَانَ لِوَجْهِهِ بَرِيقٌ حَتَّى كَانَ يُنْظَرُ فِي وَجْهِهِ كَمَا يُنْظَرُ فِي الْمِرْآةِ[٩]. وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ حَنْظَلَةَ بْنِ حِذْيَمٍ، وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، فَكَانَ حَنْظَلَةُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ قَدْ وَرِمَ وَجْهُهُ، وَالشَّاةِ قَدْ وَرِمَ ضَرْعُهَا، فَيُوضَعُ عَلَى مَوْضِعِ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَذْهَبُ الوَرَمُ[١٠].

---

(١) حديث شاة ابن مسعود: البيهقي [الدلائل (٦/ ٨٤)].

(٢) حديث شاة المقداد: مسلم [٢٠٥٥].

(٣) حديث (أنه زود أصحابه سقاء ماء فصار لبنًا): ابن سعد [١/ ١٧٢] عن سالم بن أبي الجعد مرسلًا.

(٤) حديث (أنه مسح رأس عبادة بن سعد فما شاب): الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد وسماه عبادة لا عمير.

(٥) حديث السائب بن يزيد مثله: البيهقي والطبراني.

(٦) حديث مدلوك مثله: البيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ٢١٥)] عنه.

(٧) حديث عتبة بن فرقد في الطيب: البيهقي [الدلائل (٦/ ٢١٦)] والطبراني [١٧/ ١٣٣].

(٨) حديث (أنه مسح على وجه رجل فما زال على وجهه نور): ابن سعد عن أبي وجزة السعدي أن رسول الله ﷺ مسح على وجه خزيمة بن سواد بن الحارث فصارت له غرة بيضاء.

(٩) حديث (أنه مسح وجه قتادة ...): أحمد [٢٠٣١٧] والبيهقي [الدلائل (٦/ ٢١٧)].

(١٠) حديث (أنه وضع يده على رأس حنظلة ...) بطوله: البيهقي [٦/ ٢١٤].

قوله (سِقَاءَ مَاءٍ): -بكسرِ أوَّلِه- أي وِعَاءَ مَاءٍ.

قوله (بَعْدَ أَنْ أَوْكَاهُ): -بألفٍ بَعْدَ الكافِ- أي رَبَطَه بالخَيطِ الذي يُشَدُّ به الوِعَاءُ.

قوله (في فَمِه): في نسخةٍ «في فيه».

قوله (مِن رِوايةِ حَمَّادٍ): متعلِّقٌ بـ(تزويدُه).

قوله (وبَرَّكَ): أي دَعَا بالبَرَكَةِ.

قوله (ومَدلوكٌ): هوَ ابنُ سُفْيانَ، وقالَ ابنُ حِبَّانَ: هوَ أبو سُفيانَ.

قوله (طيبٌ... إلخ): أي رائحةٌ.

وسَلَتَ الدَّمَ عَنْ وَجْهِ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، وَكَانَ جُرِحَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَدَعَا لَهُ فَكَانَتْ لَهُ غُرَّةٌ كَغُرَّةِ الفَرَسِ(١).

وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ قَيْسِ بنِ زَيْدٍ الجُذَامِيِّ، وَدَعَا لَهُ فَهَلَكَ وَهُوَ ابنُ مِائَةِ سَنَةٍ، وَرَأْسُهُ أَبْيَضُ، وَمَوْضِعُ كَفِّ رَسُولِ الله ﷺ وَمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ يَدُهُ مِنْ شَعْرِهِ أَسْوَدُ، فَكَانَ يُدْعَى «الأَغَرَّ»(٢)، وَيُرْوَى مِثْلُ هَذِهِ الحِكَايَةِ لِعَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ الجُهَنِيِّ(٣).

وَنَضَحَ فِي وَجْهِ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ نَضْحَةً مِنْ مَاءٍ، فَمَا يُعْرَفُ كَانَ فِي وَجْهِ امْرَأَةٍ مِنَ الجَمَالِ مَا بِهَا(٤).

وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ بِهِ عَاهَةٌ، فَبَرِئَ وَاسْتَوَى شَعَرُهُ(٥)، وَرُوِيَ مِثْلُهُ فِي خَبَرِ المُهَلَّبِ بْنِ قَبَالَةَ(٦)، وَعَلى غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالمَرْضَى وَالمَجَانِينِ، فَبَرَؤُوا.

وَأَتَاهُ رَجُلٌ بِهِ أُدْرَةٌ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْضِحَهَا بِمَاءٍ مِنْ عَيْنٍ مَجَّ فِيهِ فَفَعَلَ، فَبَرَأَ(٧).

وَعَنْ طَاوُسٍ: لَمْ يُؤْتَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَحَدٍ بِهِ مَسٌّ، فَصَكَّ فِي صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ المَسُّ(٨)، وَالمَسُّ الجُنُونُ.

قوله (وسَلَتَ الدَّمَ): أي مَسَحَه وأماطَه.

قوله (عَنْ وَجْهِ عائذ): بالمعجمة بَعْدَ الهَمزةِ.

قوله (يَوْمَ حُنَيْنٍ): في نسخةٍ «يَوْمَ أُحُدٍ».

قوله (الجُذاميِّ): بضمِّ الجيمِ.

قوله (به عاهةٌ): أي آفةٌ مِن فَزَعٍ ونَحْوِه.

قوله (به أُدْرَةٌ): -بضمٍّ وسكونٍ وفَتْحٍ- أي نَفخةٌ في خُصْيَتِه.

قوله (فصَكَّ): أي ضَرَبَ.

(١) حديث (أنه سَلَت الدم عن وجه عائذ ...): الطبراني [١٨/ ٢٠] عن عائذ.

(٢) حديث (أنه مسح على رأس قيس ...): [أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٧٢٤)].

(٣) حديث عمرو بن ثعلبة مثله: البيهقي [«الدلائل» (٦/ ٢١٥)] عنه.

(٤) حديث (أنه نضح في وجه زينب ...): ابن عبد البر في الاستيعاب [١٤/ ١٨٥٥].

(٥) حديث (أنه مسح على رأس صبي به عامة فبرأ ...): أبو نعيم [معرفة الصحابة (٣/ ١٢٣٦) رقم ٣٠٩٤] عن الوازع أنه انطلق إلى رسول الله ﷺ بابن له مجنون فمسح وجهه ودعا له فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة النبي ﷺ أعقل منه.

(٦) حديث المهلب بن قبالة: [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٧) حديث (أتاه رجل به أدرة ...): [ذكره ابن الأثير في النهاية (١/ ٣١)].

(٨) حديث طاوس (لم يؤت بأحد به مس فصك صدره إلا ذهب): [ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٩٣٨)].

وَمَجَّ فِي دَلْوٍ مِنْ بِئْرٍ، ثُمَّ صَبَّ فِيهَا، فَفَاحَ فِيهَا رِيحُ المِسْكِ[1].

وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الكُفَّارِ، وَقَالَ: شَاهَتِ الوُجُوهُ، فَانْصَرَفُوا يَمْسَحُونَ القَذَى عَنْ أَعْيُنِهِمْ[2].

وَشَكَا إِلَيْهِ أَبُو هُرَيْرَةَ النِّسْيَانَ، فَأَمَرَهُ بِبَسْطِ ثَوْبِهِ، وَغَرَفَ بِيَدِهِ فِيهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِضَمِّهِ فَفَعَلَ، فَمَا نَسِيَ شَيْئًا بَعْدُ[3]، وَمَا يُرْوَى عَنْهُ فِي هَذَا البَابِ كَثِيرٌ.

وَضَرَبَ صَدْرَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، وَدَعَا لَهُ، وَكَانَ ذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَى الخَيْلِ، فَصَارَ مِنْ أَفْرَسِ العَرَبِ وَأَثْبَتِهِمْ[4].

وَمَسَحَ رَأْسَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الخَطَّابِ، وَهُوَ صَغِيرٌ، وكَانَ دَمِيمًا، وَدَعَا لَهُ بِالبَرَكَةِ، فَفَرَعَ الرِّجَالَ طُولًا وَتَمَامًا[5].

***

قوله (ومَجَّ): أي صَبَّ مِن فَمِه. قوله (رِيحُ المِسْكِ): أي مِثْلُه.

قوله (شَاهَتِ الوُجوهُ): أي قَبُحَتِ.

قوله (وما يُرْوى عَنْه في هذا كَثيرٌ): أي عَنِ النبيِّ ﷺ في هذا المعنى، أو عَن أبي هريرةَ بسببِ ما فَعَلَ معَه الرسولُ.

قوله (وكانَ دَميمًا): -بمهمَلةٍ- أي قَبيحًا. قوله (ففَرَعَ): أي طالَ وعَلا وغَلَبَ.

***

(١) حديث (أنه مج في دلو ...): أحمد [١٨٨٣٨] عن وائل بن حجر.

(٢) حديث (أنه أخذ قبضة من تراب يوم حنين ...): مسلم [١٧٧٧] عن سلمة بن الأكوع.

(٣) حديث (شكى إليه أبو هريرة النسيان ...): الشيخان [البخاري (١١٩) ومسلم (٢٤٩٢)] عنه.

(٤) حديث (أنه ضرب صدر جرير ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٠٢٠)، ومسلمٌ (٢٤٧٦)] عنه.

(٥) حديث (أنه مسح رأس عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ...): الزبير بن بكَّار عن إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزبيري عن أبيه.

فَصْلٌ: وَمِنْ ذَلِكَ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنَ الغُيُوبِ وَمَا يَكونُ

وَالأَحَادِيثُ فِي هَذَا البَابِ بَحْرٌ لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَلَا يُنْزَفُ غَمْرُهُ، وَهَذِهِ المُعْجِزَةُ مِنْ جُمْلَةِ مُعْجِزَاتِهِ المَعْلُومَةِ عَلَى القَطْعِ، الوَاصِلِ إِلَيْنَا خَبَرُهَا عَلَى التَّوَاتُرِ؛ لِكَثْرَةِ رُوَاتِهَا، واتِّفَاقِ مَعَانِيهَا عَلَى الاطِّلاعِ عَلَى الغَيْبِ.

حَدَّثَنَا الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الوَلِيدِ الفِهْرِيُّ إِجَازَةً وَقَرَأْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ التُّسْتَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الهَاشِمِيُّ، حَدَّثَنَا اللُّؤْلُؤِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ:

قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامًا، فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ، فَأَعْرِفُهُ، فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ[١]، ثُمَّ قَالَ حُذَيْفَةُ: مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ؟! وَاللهِ؛ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَمِائَةٍ فَصَاعِدًا؛ إِلا قَدْ سَمَّاهُ لَنَا بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ[٢].

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: لَقَدْ تَرَكَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَّرَنَا مِنْهُ عِلْمًا[٣].

وَقَدْ خَرَّجَ أَهْلُ الصَّحِيحِ وَالأَئِمَّةُ مَا أَعْلَمَ بِهِ أَصْحَابَهُ ﷺ مِمَّا وَعَدَهُمْ بِهِ

قولـه (لا يُدْرَكُ... إلخ): بصيغةِ المجهولِ في الفعلينِ، ويجوزُ في الثاني فَتْحُ أوّلِه وكَسرُ ثالثِه. و(الغَمْرُ): الماءُ الكثيرُ، أي لا تُحاطُ غايتُه.

قوله (الفِهْريُّ): -بكَسْرِ الفاءِ- هوَ المعروفُ بالطرطوشيِّ.

قوله (التُّسْتَرِيُّ): بضمِّ أوَّلِه وفتحِ ثالثِه.

قوله (أَمْ تَناسَوْه): أي تكَلَّفوا نِسيانَه بِقِلّةِ اهتمامِهم بِه.

(١) حديث حذيفة (قام فينا ...): أسنده المُصنِّف من طريق أبي داود [٤٢٤٠] وأخرجه أيضًا البخاريُّ [٦٦٠٤] ومسلمٌ [٢٨٩١] إلى قوله «ثم إذا رآه عرفه».

(٢) حديث ثم قال حذيفة (ما أدري أنسي أصحابي.. إلى آخره): هو من أفراد أبي داود [٤٢٤٣] وظاهر صُنع المصنف أنه من تتمَّة الحديث الأوَّل بإسناده، وليس كذلك وإنما أخرجه منفصلًا بسندٍ آخَرٍ من طريق قبيصة بن ذؤيب عن أبيه عن حذيفة.

(٣) حديث أبي ذرٍّ (لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر ...): أحمد [٢١٣٦١] والطبرانيُّ [٢/ ١٥٥] بسند صحيح، وأخرجه أبو يعلى [٥١٠٩] والطبرانيُّ [كما في «المجمع» (٨/ ٢٦٤)] وابن منيع عن أبي الدرداء أيضًا.

مِنَ الظُّهُورِ عَلَى أَعْدَائِهِ[١]، وَفَتْحِ مَكَّةَ وَبَيْتِ المَقْدِسِ وَاليَمَنِ وَالشَّامِ وَالعِرَاقِ[٢]، وَظُهُورِ الأَمْنِ حَتَّى تَظْعَنَ المَرْأَةُ مِنَ الحِيرَةِ إِلَى مَكَّةَ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ[٣]، وَأَنَّ المَدِينَةَ سَتُغْزَى[٤]، وَتُفْتَحُ خَيْبَرُ عَلَى يَدِ عَلِيٍّ فِي غَدِ يَوْمِهِ[٥]. وَمَا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَيُؤْتَوْنَ مِنْ زَهْرَتِهَا[٦]، وَقِسْمَتِهِمْ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ[٧]، وَمَا يَحْدُثُ بَيْنَهُمْ مِنَ الفُتُونِ وَالاخْتِلَافِ وَالأَهْوَاءِ[٨]، وَسُلُوكِ سَبِيلِ مَنْ قَبْلَهُمْ[٩]، وَافْتِرَاقِهِمْ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، النَّاجِيَةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ[١٠].

---

(١) قوله (وقد خرج أهل الصحيح والأئمَّة ما أعلم به أصحابه من الظهور على أعدائه): الشيخان وغيرهما [هذا بابٌ واسعٌ والأحاديث الآتية في الصحيحين وغيرها جزء منه].

(٢) وفتح مكة: الشيخان [البخاريُّ (٣١٨٢)، ومسلمٌ (١٧٨٥)] وغيرهما من طرق. وبيت المقدس: البخاري [٣١٧٦] عن عوف بن مالك. واليمن والشام والعراق: الشيخان [البخاريُّ (١٨٧٥)، ومسلمٌ (١٣٨٨)] عن سفيان بن أبي زهير.

(٣) وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله: البخاريُّ [٣٥٩٥] عن عديِّ بن حاتم.

(٤) قوله (وأن المدينة ستُغزى): الشيخان [البخاريُّ (١٨٧٤)، ومسلمٌ (١٣٨٩)] عن أبي هريرة بلفظ (يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي». (تنبيه): هذا الأمر لم يقع بعدُ كما أخبر النوويُّ وغيره أنَّ ذلك إنما يقع قرب الساعة، وزعم المُصنِّف في «شرح مسلمٍ» [٩/ ١٥٩] أنه وقع فلذا ذكره فيما أخبر به، فوقع كما أخبر.

(٥) قوله (وتفتح خيبر على يدي علي في غد يومه): الشيخان [البخاريُّ (٢٩٤٢)، ومسلمٌ (٢٤٠٦)] عن سهل بن سعد.

(٦) قوله (وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها): الشيخان [البخاريُّ (١٤٦٥)، ومسلمٌ (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد] من طرق.

(٧) قوله (وقسمُهم كنوز كسرى وقيصر): الشيخان [البخاريُّ (٣٠٢٧)، ومسلمٌ (٢٩١٨)] من طرق عن أبي هريرة وغيره.

(٨) قوله (وما يحدث بينهم من الاختلاف والفتن): الشيخان [البخاريُّ (٥٢٥)، ومسلمٌ (١٤٤)] من طرق.

(٩) قوله (وسلوك سبيل من قبلهم): الشيخان [البخاريُّ (٣٤٥٦)، ومسلمٌ (٢٦٦٩)] عن أبي سعيد.

(١٠) قوله (وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة): أحمد [٨٣٩٦] وأبو داود [٤٥٩٦] والترمذيُّ [٢٦٤٠] والحاكم [١/ ٦، ١٢٨] عن أبي هريرة.

قوله (حتّى تَظْعَنَ المرأةُ مِن الحيرة... إلخ): أي إلى أنْ تَرْحَلَ إلى البيتِ لأمنِ ساكنه إلا مِن الله تعالى.

قوله (سَتُغْزى): مبنيٌّ لِلمفعولِ، وهوَ بالمعجَمةِ والزايِ بعْدَها.

قوله (ويُؤْتَوْنَ مِنْ زهْرَتِها): أي يُعْطَوْنَ مِن بَهْجَتِها.

قوله (النّاجيةُ مِنْها): أي مِن تلكَ الفِرَقِ.

وَأَنَّهَا سَتَكُونُ لَهُمْ أَنْمَاطٌ(1). وَيَغْدُو أَحَدُهُمْ فِي حُلَّةٍ، وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، وَتُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَتُرْفَعُ أُخْرَى، وَيَسْتُرُونَ بُيُوتَهُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ، ثُمَّ قَالَ آخِرَ الحَدِيثِ: وَأَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ(2). وَأَنَّهُمْ إِذَا مَشَوُا المُطَيْطَاءَ، وَخَدَمَتْهُمْ بَنَاتُ فَارِسَ وَالرُّومِ، رَدَّ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، وَسَلَّطَ شِرَارَهُمْ عَلَى خِيَارِهِمْ(3).

وَقِتَالَهُمُ التُّرْكَ وَالخُزْرَ وَالرُّومَ(4)، وَذَهَابَ كِسْرَى وَفَارِسَ حَتَّى لا كِسْرَى وَلاَ فَارِسَ بَعْدَهُ، وَذَهَابِ قَيْصَرَ حَتَّى لا قَيْصَرَ بَعْدَهُ(5)، وَذَكَرَ أَنَّ الرُّومَ ذَاتُ قُرُونٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ(6)، وَبِذَهَابِ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ مِنَ النَّاسِ(7)، وَتَقَارُبِ الزَّمَانِ(8)، وَقَبْضِ العِلْمِ، وَظُهُورِ الفِتَنِ وَالهَرْجِ(9)، وَقَالَ: (وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ)(10).

وَأَنَّهُ زُوِيَتْ لَهُ الأَرْضُ، فَأُرِيَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِهِ مَا زُوِيَ

---

(1) قوله (وأنها ستكون لهم أنماط): الشيخان [البخاريُّ (٣٦٣١)، ومسلمٌ (٢٠٨٣)] عن جابر.

(2) قوله (ويغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة...): الترمذيُّ [٢٤٧٦] عن عليٍّ وحسَّنه.

(3) قوله (وأنهم إذا مشوا المطيطاء ...): الترمذيُّ [٢٢٦١] عن ابن عمر.

(4) قوله (وقتالهم الترك والخزر والروم): [قتال الترك متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٩٢٨)، ومسلمٌ (٢٩١٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة، وقتال الروم أخرجه مسلم (٢٨٩٧)].

(5) قوله (وذهاب كسرى وفارس حتى لا فارس بعده، وذهاب قيصر فلا قيصر بعده): الشيخان [البخاريُّ (٢٩٢٨)، ومسلمٌ (٢٩١٢)] عن أبي هريرة بدون «فارس».
وأخرج الحارث [٧٠٢] عن ابن محيريز مرفوعًا (فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا أبدًا، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن».

(6) قوله (أن الروم ذوات قرون إلى آخر الدهر): تقدَّم [الحارث بن أبي أسامة في مسنده ٧٠٢].

(7) قوله (وبذهابِ الأمثل فالأمثل): البخاريُّ [(٦٤٣٤) بلفظ (الأول فالأول..»] عن مرداس الأسلميِّ.

(8) قوله (وتقارب الزمان): الترمذيُّ [٢٣٣٢]، عن أنس [وأخرجه أيضًا البخاريُّ (٧٠٦١)، ومسلمٌ (١٥٧) من حديث أبي هريرة].

(9) قوله (وقبض العلم وظهور الفتن والهرج): الشيخان [البخاريُّ (٨٥)، ومسلمٌ (١٥٧)] من طرق.

(10) حديث (ويل للعرب من شر قد اقترب): الشيخان [البخاريُّ (٣٣٤٦)، ومسلمٌ (٢٨٨٠)] عن زينب أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قوله (أَنماطٌ): -بفتحِ الهمزِ؛ جَمْعُ «نَمَطٍ»- ضَرْبُ فِراشٍ.

قوله (المُطَيْطاءَ) بضمِّ أولِه وفتحِ المهملتَيْنِ ممدودًا.

قوله (بَأْسهم): أي شِدّةَ عداوتِهم.

قوله (وذَهابِ كِسْرى): أي ذَهابِ مُلْكِه.

قوله (ذاتُ قُرونٍ): أي فكُلَّما ماتَ قَرْنٌ خَلَفَه آخَرُ.

قوله (والهَرْجِ): بفتحِ أولِه وسكونِ ثانيه.

قوله (وقال): أي النبيُّ ﷺ قوله (وَيْلٌ... إلخ): أي هَلاكٌ لهم؛ ولَعَلَّ المُرادَ بالشَّرِّ فِتنةُ عُثمانَ في المحاصَرةِ، وعَليٍّ مَعَ مُعاويةَ.

لَـهُ مِنْهَـا[1]، فَكَذَلِـكَ كَانَ؛ امْتَـدَّتْ فِي المَشَـارِقِ وَالمَغَـارِبِ مَـا بَـيْنَ أَرْضِ الهِنْـدِ أَقْـصَى المَشْرِقِ إِلَى بَحْـرِ طَنْجَـةَ حَيْـثُ لَا عِـمَارَةَ وَرَاءَهُ، وَذَلِـكَ مَـا لَمْ تَمْلِكْـهُ أُمَّـةٌ مِـنَ الأُمَـمِ، وَلَمْ يَمْتَـدَّ فِي الجَنُـوبِ وَلَا فِي الشَّـمَالِ مِثْـلَ ذَلِـكَ.

وَقَوْلُـهُ: (لَا يَـزَالُ أَهْـلُ الغَـرْبِ ظَاهِرِيـنَ عَـلَى الحَـقِّ حَتَّـى تَقُـومَ السَّـاعَةُ)[2]: ذَهَـبَ ابْـنُ المَدِينِـيِّ إِلَى أَنَّهُـمُ العَـرَبُ؛ لِأَنَّهُـمُ المُخْتَصُّـونَ بِالسَّـقْيِ بِـ«الغَـرْبِ»، وَهِـيَ الدَّلْـوُ، وَغَـيْرُهُ يَذْهَـبُ إِلَى أَنَّهُـمْ أَهْـلُ المَغْـرِبِ، وَقَـدْ وَرَدَ «المَغْـرِبُ» كَـذَا فِي الحَدِيـثِ بِمَعْنَـاهُ.

وَفِي حَدِيـثٍ آخَـرَ مِـنْ رِوَايَـةِ أَبِي أُمَامَـةَ: (لَا تَـزَالُ طَائِفَـةٌ مِـنْ أُمَّتِـي ظَاهِرِيـنَ عَـلَى الحَـقِّ، قَاهِرِيـنَ لِعَدُوِّهِـمْ حَتَّـى يَأْتِيَهُـمْ أَمْـرُ اللهِ، وَهُـمْ كَذَلِـكَ): قِيـلَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، وَأَيْـنَ هُـمْ؟ قَـالَ: بِبَيْـتِ المَقْـدِسِ[3].

وَأَخْـبَرَ بِمُلْـكِ بَنِـي أُمَيَّـةَ[4]، وَوِلَايَـةِ مُعَاوِيَـةَ، وَوَصَّـاهُ[5]، وَاتِّخَـاذِ بَنِـي أُمَيَّـةَ مَـالَ اللهِ دُوَلًا[6]، وَخُـرُوجِ وَلَـدِ العَبَّـاسِ بِالرَّايَـاتِ السُّـودِ[7]، وَمُلْكِهِـمْ أَضْعَـافَ مَـا مَلَكُـوا[8]، وَخُـرُوجِ المَهْـدِيِّ[9].

---

(١) قوله (وإنه زويت له الأرض...): تقدم [انظر ص٣٠٩].

(٢) حديث (لا يزال أهل الغرب ظاهرين): مسلم [١٩٢٥] عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) حديث أبي أمامة (لا تزال طائفة ...). الطبرانيُّ [٨/ ١٤٥] وعبدالله بن أحمد [زوائد المسند (٢٢٣٢٠)] وسنده صحيحٌ.

(٤) قوله (وأخبر بمُلْك بني أُميَّة): الحاكم [٣/ ١٧٥] والترمذيُّ [٣٣٥٠] عن الحسن بن علي، والبيهقي [٦/ ٥١١] عن أبي هريرة.

(٥) قوله (وولاية معاوية ووصاه): البيهقيُّ [٦/ ٤٤٦] من طرق عن معاوية.

(٦) قوله (واتِّخاذ بني أميَّة مال الله دُوَلًا): البيهقيُّ [«الدلائل» ٦/ ٥٠٧] عن أبي هريرة وأبي سعيدٍ ومعاوية وابن عبَّاس.

(٧) قوله (وخُروج وَلَد العبَّاس ...): أحمد [٨٧٧٥] والبيهقيُّ [٦/ ٥١٧] وغيرهما من طرق.

(٨) قوله (ومُلْكِهِمْ ضعفَ ما مَلَكُوا): العقيليُّ في «الضعفاء» [٣/ ٥] عن أبي بكرة.

(٩) قوله (وخروج المهديِّ): أصحاب السُّنن وغيرهم من طرق كثيرة [بلغت حدَّ التواتر، منها ما أخرجه وأخرجه أحمد (١١١٦٣)، وابن ماجه (٤٠٨٣)، والترمذي (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيدٍ مرفوعًا (يكون في أمَّتي المهدي...)].

قوله (زويَـتْ لـه): أي جُمِعَـتْ و ضُمَّـتْ.

قوله (إلى بَحْـرِ طَنْجَـةَ): المضافُ إليـه مَفتـوحُ الأوَّلِ والثالـثِ، ساكـنُ الثـاني، بَلْـدةٌ بالمَغْـرِبِ.

قوله (على الحَـقِّ): أي طَرِيقِـه.

قوله (وهـيَ الدَّلْـوُ): أي العظيمـةُ، في نسخةٍ «و هـوَ».

قوله (ووَصّاه): أي النبـيُّ -عَلَيـه أفضـلُ الصـلاةِ والسـلامِ.

وَمَا يَنَالُ أَهْلَ بَيْتِهِ، وَتَقْتِيلِهِمْ وَتَشْرِيدِهِمْ[1]، وَقَتْلِ عَلِيٍّ، وَأَنَّ أَشْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ، أَيْ لِحْيَتَهُ مِنْ رَأْسِهِ[2]، وَأَنَّهُ قَسِيمُ النَّارِ، يَدْخُلُ أَوْلِيَاؤُهُ الجَنَّةَ، وَأَعْدَاؤُهُ النَّارَ، فَكَانَ مِمَّنْ عَادَاهُ الخَوَارِجُ وَالنَّاصِبَةُ، وَطَائِفَةٌ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الرَّوَافِضِ كَفَّرُوهُ.

وَقَالَ: يُقْتَلُ عُثْمَانُ، وَهُوَ يَقْرَأُ فِي المُصْحَفِ[3]، وَأَنَّ اللهَ عَسَى أَنْ يُلْبِسَهُ قَمِيصًا، وَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ خَلْعَهُ[4]، وَأَنَّهُ سَيَقْطُرُ دَمُهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧][5]، وَأَنَّ الفِتَنَ لَا تَظْهَرُ مَا دَامَ عُمَرُ حَيًّا[6].

وَبِمُحَارَبَةِ الزُّبَيْرِ لِعَلِيٍّ[7]، وَبِنُبَاحِ كِلَابِ الحَوْأَبِ عَلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ[8]، وَأَنَّهُ يُقْتَلُ

قوله (وَأَنَّهُ قَسِيمُ النَّارِ): أي وا لجَنَّةِ.

قوله (والنَّاصِبةُ): أي الذينَ يَتَدَيَّنونَ ببُغْضِ عَلِيٍّ -كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه.

قوله (كَفَّروه): أي لِتَرْكِه -في زَعْمِهم- الخِلافةَ لِغَيْرِه.

قوله (وبنُباحِ... إلخ): «نُباح» مَضمومةُ الأوَّلِ، وهوَ الصِّياحُ.

و (الحَوْأَبِ): -بالمهمَلةِ- مَوْضِعٌ بَيْنَ البَصرةِ ومَكَّةَ، نَزَلَتْه عائشةُ لَمَّا تَوَجَّهَتْ لِلصُّلْحِ بَيْنَ عَلِيٍّ ومُعاويةَ.

---

(١) قوله (وما ينال أهل بيته وتقتيلهم وتشريدهم): الحاكم [٤/ ٤٨٧] من حديث أبي سعيدٍ بلفظ (إنَّ أهلَ بَيْتي سيَلْقَوْنَ من بَعْدي مِن أُمَّتي قَتْلًا وتَشْريدًا»، وضعَّفه الذهبيُّ.

(٢) قوله (وقتلُ عليٍّ وأنَّ أشقاها الذي يُخَضِّبُ هذه من هذه): أحمد [١٨٣٢١] عن عمَّار بن ياسر، والطبرانيُّ [١/ ١٥٠] عن عليٍّ وصهيب [٨/ ٣٨] وجابر بن سمرة [٢/ ٢٤٧] وغيرهم.

(٣) قوله (وقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف): الشيخان [البخاريُّ (٣٦٧٤)، ومسلمٌ (٢٤٠٣)] عن أبي موسى.

(٤) قوله (وأنَّ الله عسى أن يُلْبِسَهُ قَميصًا وأنهم يُريدون خَلْعَه): الترمذيُّ [٣٧٠٥] وابن ماجه [١١٢] عن عائشة، والبيهقيُّ [٦/ ٣٩٢] عن ابن عمرو.

(٥) وقوله (وأنه سيقطر دمه على قوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾): الحاكم [٣/ ١٠٣] عن ابن عبَّاسٍ، لكن قال الذهبيُّ أنه موضوعٌ.

(٦) قوله (وأنَّ الفتنَ لا تظهرُ ما دام عمرُ حيًّا): الشيخان [البخاريُّ (٣٥٨٦)، ومسلمٌ (١٤٤)] عن حذيفة، والبيهقيُّ [٦/ ٣٨٦] عن عمر.

[ملحوظة: أورد السيوطي في المناهل بعد هذا الموضع حديثين ليسا في معظم النسخ:

- قوله (وأخبر بمقتل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): هو في حديث حذيفة «كسر الباب» [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٤٣٥)، ومسلمٌ (١٤٤)، وغيرهما].

- قوله (وأنه يقتل شهيدا): البزار [٦٠٠٥] عن جابر أنه ﷺ قال لعمر: (عش حميدا ومت شهيدا) وفي قصة أحد: (وشهيدان) [البخاري ٣٦٧٥].

(٧) قوله (وبمحاربة الزبير لعليٍّ): البيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ٤١٤) بلفظ (يا زُبَيْرُ، أما والله لتُقاتلَنَّهُ وأنتَ له ظالمٌ»] من طرقٍ.

(٨) قوله (ونَبْحُ كِلابِ الحَوْأَب على بعضِ أزواجه): أحمد [٢٤٢٥٤] والبزَّار [٣٢٧٥] والبيهقيُّ=

حَوْلَهَا قَتْلَى كَثِيرَةٌ، وَتَنْجُو بَعْدَمَا كَادَتْ، فَنَبَحَتْ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ خُرُوجِهَا إِلَى البَصْرَةِ[1]. وَأَنَّ عَمَّارًا تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ[2]، فَقَتَلَهُ أَصْحَابُ مُعَاوِيَةَ.

وَقَالَ لِعَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ: (وَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ، وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ)[3]. وَقَالَ فِي قُزْمَانَ وَقَدْ أَبْلَى مَعَ المُسْلِمِينَ: (إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)، فَقَتَلَ نَفْسَهُ[4]. وَقَالَ فِي جَمَاعَةٍ، فِيهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَسَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، وَحُذَيْفَةُ: (آخِرُكُمْ مَوْتًا فِي النَّارِ)، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْأَلُ عَنْ بَعْضٍ، فَكَانَ سَمُرَةُ آخِرَهُمْ مَوْتًا، هَرِمَ، وَخَرِفَ، فَاصْطَلَى بِالنَّارِ، فَاحْتَرَقَ فِيهَا[5]. وَقَالَ فِي حَنْظَلَةَ الغَسِيلِ: (سَلُوا زَوْجَتَهُ عَنْهُ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ المَلَائِكَةَ تُغَسِّلُهُ)، فَسَأَلُوهَا، فَقَالَتْ: إِنَّهُ خَرَجَ جُنُبًا، وَأَعْجَلَهُ الحَالُ عَنِ الغُسْلِ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَرَأَيْنَا رَأْسَهُ تَقْطُرُ مَاءً[6].

وَقَالَ: الخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ[7]، وَلَنْ يَزَالَ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا أَقَامُوا الدِّينَ[8].

قوله (في قُزْمَانَ): أي في حَقِّه، وهوَ مضمومُ الأوَّلِ ساكنُ الثاني، رَجُلٌ مِن المنافقينَ قاتَلَ قِتالًا شديدًا.

قوله (وخَرِفَ): -بكسرِ الراءِ- أي أصابَه خَلَلٌ وخَبَلٌ في عَقْلِه.

=[٦/ ٤١٠] عن عائشة بسند صحيح.

(١) قوله (وأنَّه يُقتلُ حولها قَتْلَى كثيرٌ وتنجو بعدما كادت): البزَّار عن ابن عباس [«كشف الأستار» (٣٢٧٣)] بسند صحيح.

(٢) قوله (وإن عمَّارًا تَقْتُلُه الفئةُ الباغية): الشيخان [البخاريُّ (٢٨١٢)، ومسلمٌ (٢٩١٥) من حديث أبي سعيد] وغيرهما من طرق.

(٣) قوله (وقال لعبد الله بن الزُّبير ويلٌ للنَّاسِ مِنك): تقدَّم [انظر ص١٠٩].

(٤) قوله (وقال في قزمان ...): الشيخان [البخاريُّ (٢٨٩٨)، ومسلمٌ (١١٢)] عن سهل بن سعد.

(٥) قوله (وقال في جماعة فيهم أبو هريرة ...) إلى آخره: الطبرانيُّ [«الأوسط» (٦٢٠٦)] والبيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ٤٥٨)] من طُرق عن أبي هريرة موصولة ومنقطعة ومرسلة. وروى قضية احتراقه بلاغًا عن بعض أهل العلم، وأخرج ابن عساكر في تاريخه [٧/ ٥١] عن محمد بن سيرين أن سمرة كان أصابه كراز شديد وكان لا يكاد يدفأ فأمر بقدر عظيمة فملأت ماء وأوقد تحتها واتخذ فوقها مجلسًا وكان يصل إليه بخارها فيدفئه، فبينما هو كذلك إذ خسف به فاحترق.

(٦) قوله (وقال في حنظلة الغسيل...) إلى آخره: ابن إسحاق [١/ ٣٢٣، ٣٣٣] عن عاصم بن عمر عن قتادة، والسراج عن عبدالله بن الزبير.

(٧) حديث الخلافة في قريش: الترمذيُّ [٣٩٣٦] عن أبي هريرة، وأحمد [١٧٦٥٤] عن عتبة بن عبد.

(٨) حديث (لن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين): البخاريُّ [٣٥٠٠] عن معاوية [والحديث متفقٌ عليه من حديث ابن عمر].

وَقَالَ: (يَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ)(١)، فَرَأَوْهُمَا الحَجَّاجَ وَالمُخْتَارَ، وَبِأَنَّ مُسَيْلِمَةَ يَعْقِرُهُ اللهُ(٢)، وَأَنَّ فَاطِمَةَ أَوَّلُ أَهْلِهِ لُحُوقًا بِهِ(٣)، وَأَنْذَرَ بِالرِّدَّةِ(٤)، وَبِأَنَّ الخِلَافَةَ بَعْدَهُ ثَلَاثُونَ، ثُمَّ [تَكُونُ] مُلْكًا(٥)، فَكَانَتْ كَذَلِكَ بِمُدَّةِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ.

وَقَالَ: (إِنَّ هَذَا الأَمْرَ بَدَأَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، ثُمَّ يَكُونُ رَحْمَةً وَخِلَافَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا، ثُمَّ يَكُونُ عُتُوًّا وَجَبَرُوتًا وَفَسَادًا فِي الأُمَّةِ)(٦).

وَأَخْبَرَ بِشَأْنِ أُوَيْسٍ القَرَنِيِّ(٧)، وَبِأُمَرَاءَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا(٨)، وَسَيَكُونُ فِي أُمَّتِهِ ثَلَاثُونَ كَذَّابًا، فِيهِمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ(٩)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: ثَلَاثُونَ دَجَّالًا كَذَّابًا(١٠)، آخِرُهُم الدَّجَّالُ الكَذَّابُ، كُلُّهُمْ يَكْذِبُ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ.

قوله (فِي ثَقِيفٍ): -بفتحٍ فكسرٍ- أبو قبيلةٍ.

قوله (يَعْقِرُه اللهُ): -بكسرِ القافِ- أي يُهْلِكُه.

قوله (لُحوقًا بِه): أي مَوْتًا ووُصولًا إليه.

قوله (عَضوضًا): -بفتحِ العينِ المهمَلةِ- أي سَلطنةٌ خاليةٌ عَن الرحمةِ. قوله (عُتوًّا): -بضمتَيْنِ فتشديدٍ- أي تكَبُّرًا. وقوله (وجَبَروتًا): -بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ- أي تجَبُّرًا.

قوله (القَرَنِيِّ): -بفتحتين- أي مَنسوبٍ إلى بَطْنٍ مِن مُرادٍ؛ قَبيلةٍ باليَمَنِ.

---

(١) حديث (يكون في ثقيف كذَّابٌ ومُبيرٌ): مسلمٌ [٢٥٤٥] عن أسماء بنت أبي بكر.

(٢) قوله (وبأنَّ مُسَيْلِمَةَ يَعْقِرُهُ اللهُ): الشيخان [البخاريُّ (٣٦٢٠)، ومسلمٌ (٢٢٧٣)] عن ابن عباس.

(٣) قوله (وأنَّ فاطمة أوَّل أهله لُحوقًا به): الشيخان [البخاريُّ (٣٦٢٤)، ومسلمٌ (٢٤٥٠)] عن عائشة.

(٤) قوله (وأنذر بالرِّدَّة): الشيخان [البخاريُّ (٦١٦٦)، ومسلمٌ (٦٦)] عن ابن عمر.

(٥) قوله (وأن الخلافة بعده ثلاثون ثم يكون ملكًا): الأربعة [أبو داود (٤٦٤٧)، والترمذيُّ (٢٢٢٦)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٨٠٩٩)، وابن ماجه] وأحمد [٢١٩٢٨] وابن حِبَّان [٦٩٤٣] عن سفيان.

(٦) حديث (إنَّ هذا الأمر بدأ ...): البزَّار [١٢٨٢] عن أبي عبيدة، والبيهقيُّ عنه وعن معاذ بن جبل [٦/ ٣٤٠].

(٧) قوله (وأخبر بشأن أويس): مسلمٌ [٢٥٤٢] عن عمر.

(٨) قوله (وبأمراء يؤخِّرون الصَّلاة): مسلمٌ [٦٤٨] عن أبي ذرٍّ.

(٩) حديث (سيكون في أمَّتي ثلاثون كذَّابًا فيهم أربع نسوة): أحمد [٢٣٣٥٨] والطبرانيُّ [٣/ ١٦٩] والبزَّار [٢٨٨٨] بسندٍ صحيح عن حذيفة [بلفظ: في أمَّتي كذَّابونَ ودَجَّالونَ سبعةٌ وعِشرونَ، مِنهمْ أربعُ نِسْوَةٍ، ولفظ البزَّار «إنَّ بين يَدَي السَّاعَةِ كذَّابينَ»].

(١٠) حديث (ثلاثون دَجَّالًا ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٦٠٩)، ومسلمٌ (١٥٧)] عن أبي هريرة.

وَقَالَ: يُوشِكُ أَنْ يَكْثُرَ فِيكُمُ العَجَمُ، يَأْكُلُونَ فَيْئَكُمْ، وَيَضْرِبُونَ رِقَابَكُمْ[(١)]، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَسُوقَ النَّاسَ بِعَصَاهُ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ[(٢)]. وَقَالَ: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، [وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ])[(٣)]. وَقَالَ: (لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ)[(٤)]، وَقَالَ: (هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ أُغَيْلِمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ)[(٥)]، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَاوِيهِ: لَوْ شِئْتُ سَمَّيْتُهُمْ لَكُمْ، بَنُو فُلَانٍ وَبَنُو فُلَانٍ. وَأَخْبَرَ بِظُهُورِ القَدَرِيَّةِ[(٦)] وَالرَّافِضَةِ[(٧)]، وَسَبِّ آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا[(٨)]، وَقِلَّةِ الأَنْصَارِ حَتَّى يَكُونُوا كَالمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَلَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَتَبَدَّدُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ جَمَاعَةٌ[(٩)]، وَأَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ بَعْدَهُ أَثَرَةً[(١٠)].

وقوله (يأكلون فَيْئَكم): -بفتحِ الفاءِ وسكونِ الياءِ مهموزًا- أي أموالكم.

قوله (ولا يُؤْتَمَنون): بفتحِ الميمِ.

وقوله (ويَنْذُرونَ): بضمِّ المعجَمةِ وكسرِها.

قوله (أُغَيْلِمَةٍ): تصغيرُ تحقيرٍ لـ«غِلْمَةٍ» -جمعُ غُلامٍ-، يَعْني صِبيانًا.

قوله (أَثَرةً): -بفتحِ الهمزةِ والمثلَّثةِ، وبكسرٍ فسكونٍ- أي إيثارَ الناسِ أنفُسَهم عَلَيْهم فيما هُمْ أَوْلى به مِن العَطايا.

---

(١) حديث (يوشك أن يكثر فيكم العجم ...): البزَّار [٢٨٨٢] عن حذيفة وعبد الله بن عمرو [٢٣٧٠]، والطبراني عن أبي موسى بسند صحيح [وعزاه الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٣١١) من حديث أبي هريرة].

(٢) حديث (لا تقوم الساعة ...): الشيخان [البخاريُّ (٧١١٧)، ومسلمٌ (٢٩١٠)] عن أبي هريرة.

(٣) حديث (خيركم قرني ...): مسلمٌ [(٢٥٣٥)، وأخرجه أيضًا البخاريُّ (٢٦٥١)] عن عمران بن حصين.

(٤) حديث (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه ...): البخاريُّ [٧٠٦٨] عن أنس.

(٥) حديث أبي هريرة (هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش): الشيخان [البخاريُّ (٣٦٠٥)، ومسلمٌ].

(٦) قوله (وأخبر بظهور القَدَريَّة): الترمذيُّ [٢١٤٩] عن ابن عبَّاسٍ، وأبو داود [٤٦٩١] والحاكم [١/ ٨٥] والبيهقيُّ [٢٠٨٦٩] عن ابن عمر.

(٧) قوله (والرافضة): البيهقيُّ [٦/ ٥٤٧، ٥٤٨] عن عليٍّ، و البزَّار [٤٩٩] عن ابن عبَّاسٍ.

(٨) قوله (وأخبر بسب آخر هذه الأمَّة أوَّلها): البغوي [التفسير (٥/ ٦١)] عن عائشة مرفوعًا (لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»، ولابن ماجه [٢٦٣] من حديث جابر (يسب آخر هذه الأمة أولها..).

(٩) قوله (وقِلَّة الأنصار حتى يكونوا كالمِلْح في الطَّعام): البخاريُّ [٣٦٢٨] عن ابن عبَّاسٍ.

(١٠) قوله (وأنهم سيلقون بعده أثرة): الشيخان [البخاريُّ (٤٣٣٠)، ومسلمٌ (١٠٦١)] عن عبد الله بن زيد.

وَأَخْبَرَ بِشَأْنِ الخَوَارِجِ وَصِفَتِهِمْ وَالمُخَدَّجِ الَّذِي فِيهِمْ، وَأَنَّ سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ[1]، وَتَرَى رُعَاةَ الغَنَمِ رُؤُوسَ النَّاسِ، وَالحُفَاةَ العُرَاةَ يَتَبَارَوْنَ فِي البُنْيَانِ[2]، وَأَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنَّ قُرَيْشًا وَالأَحْزَابَ لَا يَغْزُونَهُ أَبَدًا، وَأَنَّهُ هُوَ يَغْزُوهُمْ[3]، وَأَخْبَرَ بِالمُوتَانِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ[4]، وَمَا وَعَدَ مِنْ سُكْنَى البَصْرَةِ[5]، وَأَنَّهُمْ يَغْزُونَ فِي البَحْرِ كَالمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ[6]، وَأَنَّ الدِّينَ لَوْ كَانَ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِسَ[7].

وَهَاجَتْ رِيحٌ فِي غَزَاتِهِ، فَقَالَ: هَاجَتْ لِمَوْتِ مُنَافِقٍ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى المَدِينَةِ وَجَدُوا ذَلِكَ[8]. وَقَالَ لِقَوْمٍ مِنْ جُلَسَائِهِ: ضِرْسُ أَحَدِكُمْ فِي النَّارِ أَعْظَمُ مِنْ أُحُدٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَذَهَبَ القَوْمُ -يَعْنِي: مَاتُوا-، وَبَقِيتُ أَنَا وَرَجُلٌ، فَقُتِلَ مُرْتَدًّا يَوْمَ اليَمَامَةِ[9].

وَأَعْلَمَ بِالَّذِي غَلَّ خَرَزًا مِنْ خَرَزِ يَهُودَ، فَوُجِدَتْ فِي رَحْلِهِ[10]، وَبِالَّذِي

قوله (والمُخَدَّج): -بضمِّ الميمِ وسكونِ المعجَمةِ وفتحِ الدالِ المخفَّفةِ وبالجيمِ- أي الناقِصِ.

قوله (التحليقُ): أي حَلْقُ شُعورِهم.

قوله (يَتَبارَوْنَ): -بفتحِ الراءِ- أي يَتَفاخَرونَ.

قوله (رَبَّتَها): أي سَيِّدَتَها؛ فإنَّ وَلَدَ الأَمةِ مِن سَيِّدِها كسَيِّدِها.

قوله (وَأَخْبَرَ بِالموتانِ): -بضمِّ الميمِ وفتحِها- أي الوَباءِ.

قوله (خَرَزًا مِنْ خَرَزِ يَهودَ): -بفتحِ الخاءِ المعجَمةِ والراءِ فزايٍ- وهيَ الجَواهِرُ.

(١) قوله (والخوارج وأنهم يخرجون على خير فرقة من الناس، وأن أباهم رجل أسود له ثدي كثدي المرأة، وأن سيماهم التحليق): الشيخان من طرق عن أبي سعيدٍ [البخاريُّ (٣٦١٠)، ومسلمٌ (١٠٦٤)] وعليٍّ [البخاريُّ (٣٦١١)، ومسلمٌ (١٠٦٦)].

(٢) قوله (وترى رعاء الغنم ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٠)، ومسلمٌ (١٠)] عن ابن عمر.

(٣) قوله (وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا ...): البخاري [٤١٠٩] عن سليمان بن صرد.

(٤) قوله (وأخبر بالموتان بعد فتح بيت المقدس): البخاري [٣١٧٦] عن عوف بن مالك.

(٥) قوله (وما وعد من سكنى البصرة): أبو داود [٤٣٠٧] عن أنسٍ.

(٦) قوله (وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة): الشيخان [البخاريُّ (٢٧٨٨)، ومسلمٌ (١٩١٢)] عن أنس.

(٧) قوله (وإنَّ الدين لو كان منوطًا ...» الشيخان [البخاريُّ (٤٨٩٧)، ومسلمٌ (٢٥٤٦)] عن أبي هريرة.

(٨) قوله (وهاجت ريح ...): مسلمٌ [٢٧٨٢] عن جابرٍ.

(٩) قوله (وقال لقوم ...): الطبرانيُّ عن رافع بن خديج [أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (١٢/ ٤٠٢)، و«الأوسط» (٢٤١٠) من حديث ابن عمر].

(١٠) قوله (وأعلم بالذي غل خرزًا): أبو داود [٢٧١٠] والنَّسائيُّ [١٩٥٩] عن زيد بن خالد الجهني.

غَلَّ الشَّمْلَةَ، وَحَيْثُ هِيَ[1]، وَنَاقَتُهُ حِينَ ضَلَّتْ، وَكَيْفَ تَعَلَّقَتْ بِالشَّجَرَةِ بِخِطَامِهَا[2]، وَبِشَأْنِ كِتَابِ حَاطِبٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ[3]، وَبِقَضِيَّةِ عُمَيْرٍ مَعَ صَفْوَانَ حِينَ سَارَّهُ وَشَارَطَهُ عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ عُمَيْرٌ النَّبِيَّ ﷺ قَاصِدًا لِقَتْلِهِ، وَأَطْلَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الأَمْرِ وَالسِّرِّ، أَسْلَمَ[4].

وَأَخْبَرَ بِالمَالِ الَّذِي تَرَكَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ عِنْدَ أُمِّ الفَضْلِ بَعْدَ أَنْ كَتَمَهُ، فَقَالَ: مَا عَلِمَهُ غَيْرِي وَغَيْرُهَا؛ فَأَسْلَمَ[5]، وَأَعْلَمَ بِأَنَّهُ سَيَقْتُلُ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ[6]، وَفِي عُتْبَةَ بِنِ أَبِي لَهَبٍ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ كَلْبُ اللهِ[7]، وَعَنْ مَصَارِعِ أَهْلِ بَدْرٍ، فَكَانَ كَمَا قَالَ[8].

وَقَالَ فِي الحَسَنِ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ [عَظِيمَتَيْنِ][9]، وَلِسَعْدٍ: لَعَلَّكَ تُخَلَّفُ؛ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيَسْتَضِرَّ بِكَ آخَرُونَ[10].

---

(١) قوله (وبالذي غل الشملة): الشيخان [البخاريُّ (٤٢٣٤)، ومسلمٌ (١١٥)] عن أبي هريرة.

(٢) قوله (وحبسُ ناقته حين ضلت وكيف تعلقت بالشجرة): البيهقي [«الدلائل» (٤/ ٥٩)] عن عروة مرسلًا.

(٣) حديث (وبشأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة): الشيخان [البخاريُّ (٣٠٠٧)، ومسلمٌ (٢٤٩٤)] عن عليٍّ.

(٤) حديث (وبقضية عُمَيْرٍ مع صَفْوان ...): البيهقي [الدلائل ٣/ ١٤٧] والطبراني [١٧/ ١٧٧] عن عروة، وابن إسحاق [سيرة ابن هشام ١/ ٦٦١] والطبراني [١٧/ ١١٨] عن محمد بن جعفر بن الزبير، وإسنادهما جيد على إرسالهما.

(٥) قوله (وأخبر بالمال الذي تركه العباس ...): البيهقي [الدلائل ٣/ ١٤٢].

(٦) قوله (وأعلم أنه سيقتل أُبيَّ بن خلف): البيهقيُّ [٣/ ٢٥٨] عن عروة وسعيد بن المسيب مرسلًا. [وأورد السيوطي بعده حديثا ليس في الأصل: قوله (وأخبر بمقتل أُميَّة): البخاريُّ [٣٦٣٢] عن ابن مسعود].

(٧) [قال الملا: وفي نسخة «عتيبة» وهي الصواب. والحديث تقدم تخريجه ص٣١٧].

(٨) قوله (وعن مَصَارِعِ أهل بَدْرٍ): مسلمٌ [٢٨٧٣] عن عمر.

(٩) قوله (وقال في الحسن إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ ...): البخاريُّ [٣٦٢٩] عن أبي بَكْرَةَ.

(١٠) قوله (وقال لسعد لعلك تخلف ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٩٣٦)، ومسلمٌ (١٦٢٨)] عنه.

قوله (حاطِبٍ): بكسرِ الطاءِ.

و(حينَ سارَّه): -بتشديدِ الراءِ- أي خافتَه صَفْوانُ بقَتْلِه -عليه الصلاةُ والسلامُ.

قوله (يأكُلُه كَلْبُ اللهِ): وفي نسخةٍ «كَلْبٌ مِنْ كِلابِ اللهِ».

قوله (فكانَ كَما قالَ): أي كَما أَخْبَرَه في الحالِ.

قوله (فِئَتَيْنِ عظيمتَيْنِ): أي جَماعتَيْنِ كَثيرتَيْنِ مِن أشياعِه وأتباعِ مُعاويةَ.

قوله (لَعَلَّكَ تُخَلَّفُ): -بفتحِ اللامِ المشدَّدةِ- أي يُؤَخَّرُ مَوْتُكَ.

قوله (ويَسْتَضِرَّ): -بصيغةِ الفاعلِ، وفي نسخةٍ بصيغةِ المجهولِ- أي ويتَضَرَّرُ.

وَأَخْبَرَ بِقَتْلِ أَهْلِ مُؤْتَةَ يَوْمَ قُتِلُوا، وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ أَوْ أَزْيَدُ[1]، وَبِمَوْتِ النَّجَاشِيِّ يَوْمَ مَاتَ وَهُوَ بِأَرْضِهِ[2]، وَأَخْبَرَ فَيْرُوزَ، إِذْ وَرَدَ عَلَيْهِ رَسُولًا مِنْ كِسْرَى بِمَوْتِ كِسْرَى ذَلِكَ اليَوْمَ، فَلَمَّا حَقَّقَ فَيْرُوزُ القِصَّةَ أَسْلَمَ[3].

وَأَخْبَرَ أَبَا ذَرٍّ بِتَطْرِيدِهِ كَمَا كَانَ، وَوَجَدَهُ فِي المَسْجِدِ نَائِمًا، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْهُ؟ فَقَالَ لَه: أَسْكُنُ المَسْجِدَ الحَرَامَ، قَالَ: فَإِذَا أُخْرِجْتَ مِنْهُ... الحَدِيثَ[4]، وَبِعَيْشِهِ وَحْدَهُ، وَبِمَوْتِهِ وَحْدَه[5].

وَأَخْبَرَ أَنَّ أَسْرَعَ أَزْوَاجِهِ بِهِ لُحوقًا أَطْوَلُهُنَّ يَدًا، فَكَانَتْ زَيْنَبَ لِطُولِ يَدِهَا بِالصَّدَقَةِ[6]، وَأَخْبَرَ بِقَتْلِ الحُسَيْنِ بِالطَّفِّ، وَأَخْرَجَ بِيَدِهِ تُرْبَةً، وَقَالَ: فِيهَا مَضْجَعُهُ[7].

وَقَالَ فِي زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ: يَسْبِقُهُ عُضْوٌ مِنْهُ إِلَى الجَنَّةِ، فَقُطِعَتْ يَدُهُ فِي الجِهَادِ[8].

---

(١) قوله (وأخبر بقتل أهل مؤتة): البخاريُّ [٤٢٦٢] عن أنسٍ.

(٢) قوله (وبموت النجاشي يوم مات): الشيخان [البخاريُّ (١٢٤٥)، ومسلمٌ (٩٥١)] عن أبي هريرة.

(٣) قوله (وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولًا من كسرى بموت كسرى): البيهقيُّ [٣/ ٣٩٩، ٤٠٠].

(٤) قوله (وأخبر أبا ذر بتطريده): أحمد [٢١٢٩١] عنه.

(٥) قوله (وبعيشه وحده وموته وحده): أحمد [٢١٣٧٣] وابن راهويه في مسنديهما، والبيهقي [٥/ ٢٢١] عن ابن مسعود، وابن أبي أسامة [١٠١٩] عن أبي المثنى المكي.

(٦) قوله (وأن أسرع أزواجه لحوقًا ...): الشيخان [البخاريُّ (١٤٢٠)، ومسلمٌ (٢٤٥٢)] عن عائشة.

(٧) قوله (وبقتل الحسين بالطفِّ وأخرج بيده تربة وقال فيها مضجعه): البيهقيُّ [٦/ ٤٦٩] عن أم سلمة، وأم الفضل بنت الحارث، وعائشة وفي حديثها ذكر الطفِّ.

(٨) قوله (وقال في زيد بن صوحان ...): ابن عديٍّ [٨/ ٤٣٣] والبيهقيُّ [«الدلائل» ٦/ ٤١٦] عن عليٍّ.

قولـه (أَهْلِ مُؤْتَةَ): بضمِّ الميمِ فهمزةٍ ساكنةٍ وتُبْدَلُ.

قولـه (النَّجَاشِيِّ): -بفتحِ النونِ وتُكْسَرُ، وتخفيفِ الجيمِ وتُشَدَّدُ- لَقَبٌ لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الحَبَشَةَ، واسمُه أَصْحَمَةُ.

قولـه (فَيروزَ): -بكسرِ الفاءِ وفتْحِها وسكونِ الياءِ وضَمِّ الراءِ- غَيْرُ مُنصَرِفٍ لِلعلَمِيَّةِ والعُجْمةِ. قولـه (إِذْ وَرَدَ): وفي نسخةٍ «حينَ وَرَدَ».

قولـه (بِتَطْرِيدِه): أي بإخراجِه مِن المدينةِ. قولـه (كَما كانَ): أي كَما وقَعَ في زمانِ عُثمانَ بنِ عَفّانَ. قولـه (وبِعَيْشِه وحْدَه... إلخ): أي وأَخْبَرَ أنَّ أبا ذَرٍّ يَعيشُ وَحيدًا ويَموتُ فريدًا.

قولـه (بالطَّفِّ): -بفتحِ الطاءِ وتشديدِ الفاءِ- مَكانٌ بناحيةِ الكوفةِ على شَطِّ نَهْرِ الفُراتِ، واشْتَهَرَ الآنَ بـ «كَرْبَلاءَ». قولـه (تُرْبَةً): أي قَبْضَةً مِن التُّرابِ. قولـه (مَضْجَعُه): بفتحِ الميمِ وفتحِ الجيمِ وكسرِها.

قولـه (صوحانَ): بضمِّ الصادِ المهمَلةِ.

وَقَالَ فِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى حِرَاءٍ: اثْبُتْ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ[١]، فَقُتِلَ عَلِيٌّ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَطُعِنَ سَعْدٌ.

وَقَالَ لِسُرَاقَةَ: كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟![٢] فَلَمَّا أُتِيَ بِهِمَا لِعُمَرَ أَلْبَسَهُمَا إِيَّاهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا كِسْرَى، وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ. وَقَالَ: تُبْنَى مَدِينَةٌ بَيْنَ دِجْلَةَ وَدُجَيْلٍ، وَقُطْرُبُلَّ وَالصَّرَاةِ، تُجْبَى إِلَيْهَا خَزَائِنُ الْأَرْضِ، يُخْسَفُ بِهَا، يَعْنِي بَغْدَادَ[٣]. وَقَالَ: سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: «الْوَلِيدُ»، هُوَ شَرٌّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ[٤]. وَقَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ[٥]. وَقَالَ لِعُمَرَ فِي سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو: عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا يَسُرُّكَ يَا عُمَرُ[٦]، فَكَانَ كَذَلِكَ؛ قَامَ بِمَكَّةَ مَقَامَ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَلَغَهُمْ مَوْتُ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَطَبَ بِنَحْوِ خُطْبَتِهِ، وَثَبَّتَهُمْ، وَقَوَّى بَصَائِرَهُمْ، وَقَالَ لِخَالِدٍ حِينَ وَجَّهَهُ لِأُكَيْدِرَ: إِنَّكَ تَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَرَ[٧]. فَوُجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ ﷺ.

---

(١) وقوله (وقال في الذين كانوا معه على حراء اثبت ...): تقدم [ص٣٤٧].

(٢) قوله (وقال لسراقة كيف بك إذا لبستَ سِوارَي كِسْرَى ...): البيهقيُّ [«الدلائل» ٦/ ٣٢٥].

(٣) قوله (وقال تُبنى مدينة ...): الخطيب في «التاريخ» [١/ ٥٤] وأبو نعيم في «الدلائل» عن جرير بن عبدالله. قال أحمد بن حنبل: ما حدث به أحد ثقة، ومداره على عمار بن سيف وهو مغفل.

(٤) حديث (سيكون في هذه الأُمَّة رجلٌ يُقال له الوليد ...): أحمد [١٠٩] والبيهقيُّ [«الدلائل» ٦/ ٥٠٥] وحسَّنه.

(٥) حديث (لا تقوم الساعة حتى تقتتل ...): الشيخان [البخاريُّ (٧١٢١)، ومسلمٌ (١٥٧)] عن أبي هريرة.

(٦) قوله (وقال لعمر في سهيل ...): البيهقيُّ [«الدلائل» ٦/ ٣٦٧] عن الحسن بن محمد مرسلًا.

(٧) حديث (وقال لخالد ...): ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٦] والبيهقيُّ [«الدلائل» ٥/ ٢٥٠] عن يزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر مرسلًا، ووصله ابن منده في «معرفة الصحابة» [١/ ٢٩٤] من طريق آخر عن بجير بن بجرة الطائي، صحابي.

قوله (نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ): وفي نسخةٍ بـ«أَوْ» في الموضِعَيْنِ؛ فهيَ لِلتنويعِ، ولَفظُ «مُسْلِمٍ» موافِقٌ لِلنسخةِ الثانيةِ.

قوله (سِوارَيْ كِسْرى): «السِّوارُ» بكسرِ السينِ وضَمِّها، وجمعُه «أَسْوِرَةٌ»، وجمعُ الجمعِ «أَساوِرُ».

قوله (دِجْلَةَ): -بكسرِ الدالِ المهمَلةِ وفتْحِها- نَهْرٌ مشهورٌ بالعراقِ. قوله (وقُطْرُبُلَّ): -بضمِّ القافِ وسكونِ الطاء وضمِّ الراء وموحَّدةٍ فلامٍ مشدَّدةٍ ممنوعًا منِ الصَّرْفِ- مَوْضِعٌ بالعراقِ. قوله (والصَّراةِ): -بمهمَلةٍ مفتوحةٍ- نَهرٌ بالعراقِ.

قوله (تُجْبى): -بضمِّ أوَّلِه وسكونِ ثانيه وفتحِ ثالثِه- أي تُجْمَعُ.

قوله (يَوْمَ بَلَغَهم): بفتحِ اللامِ مُخَفَّفةً. قوله (وثَبَّتَهم): بتشديدِ الموحَّدةِ.

قوله (لِأُكَيْدِرَ): -بالتصغيرِ- مَلِكُ كِنْدةَ.

وَمِنْهَا مَا أَخْبَرَ بِهِ جُلَسَاءَهُ مِنْ أَسْرَارِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ وَكُفْرِهِمْ، وَقَوْلِهِمْ فِيهِ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَيَقُولُ لِصَاحِبِهِ: اسْكُتْ؛ فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ لَأَخْبَرَتْهُ حِجَارَةُ الْبَطْحَاءِ. وَإِعْلَامُهُ بِصِفَةِ السِّحْرِ الَّذِي سَحَرَهُ بِهِ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، وَكَوْنُهُ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ فِي جُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ، وَأَنَّهُ أُلْقِيَ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ[1]، فَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ، وَوُجِدَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ.

وَإِعْلَامُهُ قُرَيْشًا بِأَكْلِ الأَرَضَةِ مَا فِي صَحِيفَتِهِمُ الَّتِي تَظَاهَرُوا بِهَا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ، وَقَطَعُوا بِهَا رَحِمَهُمْ، وَأَنَّهَا أَبْقَتْ فِيهَا كُلَّ اسْمٍ للهِ، فَوَجَدُوهَا كَمَا قَالَ ﷺ[2]. وَوَصْفُهُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ بَيْتَ الْمَقْدِسِ حِينَ كَذَّبُوهُ فِي خَبَرِ الإِسْرَاءِ، وَنَعْتُهُ إِيَّاهُ نَعْتَ مَنْ عَرَفَهُ، وَإِعْلَامُهُمْ بِعِيرِهِمُ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَإِنْذَارُهُمْ بِوَقْتِ وُصُولِهَا[3]، فَكَانَ كُلُّهُ كَمَا قَالَ ﷺ.

إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَكُونُ، وَلَمْ تَأْتِ بَعْدَهُ، وَمِنْهَا مَا ظَهَرَتْ مُقَدِّمَاتُهَا، كَقَوْلِهِ: (عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينَةَ)[4]، وَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَآيَةِ حُلُولِهَا، وَذِكْرِ النَّشْرِ وَالْحَشْرِ، وَأَخْبَارِ الأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَعَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ.

وَبِحَسْبِ هَذَا الْفَصْلِ أَنْ يَكُونَ دِيوَانًا مُفْرَدًا يَشْتَمِلُ عَلَى أَجْزَاءٍ وَحْدَهُ، وَفِيمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ نُكَتِ الأَحَادِيثِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا كِفَايَةٌ، وَأَكْثَرُهَا فِي الصَّحِيحِ، وَعِنْدَ الأَئِمَّةِ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

***

قوله (حَتَّى إِنْ... إلخ): (إنْ) مخفَّفةٌ. قوله (حِجارةُ البَطْحاءِ): أي صِغارُ الحَصى، وَقَعَ يَوْمَ فَتحِ مَكَّةَ.

قوله (مُشْطٍ): -بتثليثِ الميمِ وسكونِ الشينِ وبضمِّها- ما يُمَشَّطُ به. قوله (في جُفِّ طَلْعِ نَخْلةٍ): -بضمِّ الجيمِ وتشديدِ الفاءِ- أي وِعائِه وغِشائِه الذي يكونُ فَوْقَه. قوله (ذَرْوانَ): بفتحِ أوَّلِه وسكونِ ثانيه.

قوله (ولَمْ تَأْتِ بَعْدَه): أي لَمْ تَقَعْ عَقِبَ زَمَنِ إخبارِه.

قوله (مُقَدِّماتُها): بكسرِ الدالِ وفتحِها، وفي نسخةٍ «مُقَدِّماتُه».

قوله (قُسْطَنْطِينَةَ): فيها سِتُّ لُغاتٍ: فَتحُ الطاءِ الأولى وضَمُّها مَعَ تخفيفِ الياءِ الأخيرةِ وتشديدِها، ومَعَ حَذْفِها وحذفِ النونِ، والقافُ مضمومةٌ على كُلِّ حالٍ.

***

(١) قوله (وإعلامه بصفة السِّحر...): الشيخان [البخاريُّ (٥٧٦٥)، ومسلمٌ (٢١٨٩)] عن عائشة.

(٢) قوله (إعلامه قريشا بأكل الأرضة ...): البيهقي [الدلائل ٢/ ٣١٥] عن الزهري.

(٣) قوله (ووصفه بيت المقدس... وإعلامهم بعيرهم): مرًّا في «الإسراء» [انظر ص١١٣].

(٤) حديث (عمران بيت المقدس خراب يثرب ...): أبو داود [٤٢٩٤] عن معاذ بن جبل.

فَصْلٌ فِي عِصْمَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّاسِ، وكِفَايَتِه مَنْ آذَاهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] قِيلَ: بِكَافٍ مُحَمَّدًا أَعْدَاءَهُ المُشْرِكِينَ، وَقِيلَ: غَيْرُ هَذَا، وَقَالَ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وَقَالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الصَّدَفِيُّ قِرَاءَةً عَلَيْهِ، وَالفَقِيهُ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ المَعَافِرِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى البَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى الحَافِظُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا الحَارِثُ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ سَعِيدٍ الجُرَيْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ القُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا؛ فَقَدْ عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ.(١)

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا نَزَلَ بِمَنْزِلٍ اخْتَارَ لَهُ أَصْحَابُهُ شَجَرَةً يَقِيلُ تَحْتَهَا، فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ، فَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقَالَ: اللهُ، فَأُرْعِدَتْ يَدُ الأَعْرَابِيِّ، وَسَقَطَ سَيْفُهُ، وَضَرَبَ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى سَالَ دِمَاغُهُ؛ فَنَزَلَتِ الآيَةُ. وَقَدْ رُوِيَتْ هَذِهِ القِصَّةُ فِي الصَّحِيحِ، وَأَنَّ غَوْرَثَ بْنَ الحَارِثِ صَاحِبُ هَذِهِ القِصَّةِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَفَا عَنْهُ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.(٢)

وَقَدْ حُكِيَتْ مِثْلُ هَذِهِ الحِكَايَةِ أَنَّهَا جَرَتْ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدِ انْفَرَدَ مِنْ أَصْحَابِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ فَتَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ المُنَافِقِينَ، وَذَكَرَ مِثْلَهُ.(٣)

---

(١) حديث عائشة (كان يحرس ...): أسنده من طريق الترمذيِّ [٣٠٤٦] وأخرجه أيضًا البيهقيُّ [٢/ ١٨٤].

(٢) حديث (كان إذا نزل منزلًا ...): [البخاريُّ (٤١٣٥)، ومسلمٌ (٨٤٣)، وغيرهما من حديث جابر بألفاظ متقاربة].

(٣) حديث (أنه جرت له مثل هذه يوم بدر): [بيض له السيوطي ولم يعزه].

قوله (الصَّدَفِيُّ): -بفتحِ المهملةِ والدالِ- ابنُ سُكَّرَةَ.

و(المُعافِرِيُّ): بضمِّ الميمِ وفتحِها وكسرِ الفاءِ.

و(الصَّيْرَفِيُّ): هوَ المبارَكُ ابنُ عَبْدِ الجَبَّارِ.

قوله (الجُرَيرِيِّ): بضمِّ الجيمِ وفتحِ الراءِ.

قوله (يُحْرَسُ): -بصيغةِ المجهولِ- أي يُحْفَظُ.

قوله (يَقِيلُ تَحْتَها): -بفتحِ الياءِ وكسرِ القافِ- مِنَ القَيْلولةِ؛ نَوْمُ نِصْفِ النَّهارِ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ مِثْلُهَا فِي غَزْوَةِ غَطَفَانَ بِذِي أَمَرٍ مَعَ رَجُلٍ اسْمُهُ دُعْثُورُ بْنُ الحَارِثِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ أَسْلَمَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ الذينَ أَغْرَوْهُ -وَكَانَ سَيِّدَهُمْ وَأَشْجَعَهُمْ-، قَالُوا لَهُ: أَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ وَقَدْ أَمْكَنَكَ؟! فَقَالَ: إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ أَبْيَضَ طَوِيلٍ، دَفَعَ فِي صَدْرِي، فَوَقَعْتُ لِظَهْرِي، وَسَقَطَ [السَّيْفُ]، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَأَسْلَمْتُ، قِيلَ: فِيهِ نَزَلَتْ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١].

وَفِي رِوَايَةِ الخَطَّابِيِّ أَنَّ غَوْرَثَ بْنَ الحَارِثِ المُحَارِبِيَّ أَرَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ، مُنْتَضِيًا سَيْفَهُ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَبَّ مِنْ وَجْهِهِ مِنْ زُلَّخَةٍ زُلِخَهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَنَدَرَ سَيْفُهُ مِنْ يَدِهِ -والزُّلَّخَةُ: وَجَعُ الظَّهْرِ-، وَقِيلَ فِي قِصَّتِهِ غَيْرُ هَذَا، وَذُكِرَ أَنَّ فِيهِ نَزَلَتْ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ ...﴾ الآيَةَ.[١]

وَقِيلَ: كَانَ ﷺ يَخَافُ قُرَيْشًا، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ اسْتَلْقَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ شَاءَ فَلْيَخْذُلْنِي.[٢]

وَذَكَرَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: كَانَتْ حَمَّالَةُ الحَطَبِ تَضَعُ العِضَاهَ وَهِيَ جَمْرٌ عَلَى طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَأَنَّمَا يَطَؤُهَا كَثِيبًا أَهْيَلَ.[٣]

وَذَكَرَ ابنُ إِسْحَاقَ عَنْهَا أَنَّهَا لَمَّا بَلَغَهَا نُزُولُ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وَذِكْرُهَا بِمَا ذَكَرَهَا اللهُ مَعَ زَوْجِهَا مِنَ الذَّمِّ، أَتَتِ النبيَّ ﷺ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ مِنْ حِجَارَةٍ، فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَيْهِمَا لَمْ تَرَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، وَأَخَذَ اللهُ بِبَصَرِهَا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيْنَ صَاحِبُكَ؛ فَقَدْ

---

(١) حديث (أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان ...): الواقديُّ [١/ ١٩٥] والبيهقيُّ [٣/ ١٨٦] وأخرجه ابن إسحاق في «السيرة الكبرى» موصولاً عن جابر بن عبد الله، رواية الخطابي: [بيض لها السيوطي ولم يعزها].

(٢) حديث (أنه كان يخاف قريشًا ...): [أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٨/ ٥٧٠) في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾].

(٣) حديث (كانت حمالة الحطب...): ابن جرير [٢٤/ ٧١٩] في تفسيره عن عطية الجدلي مرسلا.

قوله (غَطَفَانَ): بفتح المعجمةِ والمهمَلةِ. و(أَمَرٍ): بفتح الهمزةِ والميمِ. و(دُعْثُورُ): بضمِّ أوَّلِه.

قوله (مُنْتَضِيًا سَيْفَه): -بالضادِ المعجَمةِ والتحتيةِ- أي سالًّا سَيْفَه.

قوله (زُلَّخَةٍ): بضمِّ الزاي وتشديدِ اللامِ المفتوحةِ فخاءٍ معجَمةٍ.

وقوله (زُلِخَها): بضمِّ أوَّلِه وكسرِ ثانيه مخفَّفةً.

قوله (فلْيَخْذُلْني): أي فلْيَقْتُلْني.

قوله (كَثِيبًا أَهْيَلَ): -بفتحِ الهمزةِ وسكونِ الهاءِ فتحتيةٍ فلامٍ- أي رَمْلًا سائلًا حيثُ لَمْ يَتضَرَّرْ بها.

بَلَغَنِي أَنَّهُ يَهْجُونِي، والله؛ لَوْ وَجَدْتُهُ لَضَرَبْتُ بِهَذَا الفِهْرِ فَاهُ.(١)

وَعَنِ الحَكَمِ بْنِ أَبِي العَاصِ: تَوَاعَدْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى إِذَا رَأَيْنَاهُ سَمِعْنَا صَوْتًا خَلْفَنَا، مَا ظَنَنَّا أَنَّهُ بَقِيَ بِتِهَامَةَ أَحَدٌ، فَوَقَعْنَا مَغْشِيًّا عَلَيْنَا، فَمَا أَفَقْنَا حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، ثُمَّ تَوَاعَدْنَا لَيْلَةً أُخْرَى، فَجِئْنَا حَتَّى إِذَا رَأَيْنَاهُ جَاءَتِ الصَّفَا وَالمَرْوَةُ، فَحَالَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ.(٢)

وَعَنْ عُمَرَ: تَوَاعَدْتُ أَنَا وَأَبُو جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ لَيْلَةً قَتْلَ رَسُولِ الله ﷺ، فَجِئْنَا مَنْزِلَهُ، فَتَسَمَّعْنَا لَهُ، فَافْتَتَحَ، وَقَرَأَ: ﴿الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١-٨]، فَضَرَبَ أَبُو جَهْمٍ عَلَى عَضُدِ عُمَرَ، وَقَالَ: انْجُ، وَفَرَّا هارِبَيْنِ؛ فَكَانَتْ مِنْ مُقَدِّمَاتِ إِسْلَامِ عُمَرَ.(٣)

وَمِنْ ذَلِكَ العِبْرَةُ المَشْهُورَةُ وَالكِفَايَةُ التَّامَّةُ، عِنْدَمَا أَخَافَتْهُ قُرَيْشُ، وَأَجْمَعَتْ عَلَى قَتْلِهِ، وَبَيَّتُوهُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم مِنْ بَيْتِهِ، فَقَامَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ عَلَى أَبْصَارِهِمْ، وَذَرَّ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَخَلَصَ مِنْهُمْ(٤)، وَحِمَايَتُهُ عَنْ رُؤْيَتِهِمْ فِي الغَارِ بِمَا هَيَّأَ اللهُ تعَالَى لَهُ مِنَ الآيَاتِ وَالعَنْكَبُوتِ الَّذِي نَسَجَ عَلَيْهِ؛ حَتَّى قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ حِينَ قَالُوا نَدْخُلُ الغَارَ: مَا أَرَبُكُمْ فِيهِ، وَعَلَيْهِ مِنْ نَسْجِ العَنْكَبُوتِ مَا أَرَى أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ مُحَمَّدٌ؟! وَوَقَفَتْ حَمَامَتَانِ عَلَى فَمِ الغَارِ، فَقَالَتْ قُرَيْشُ: لَوْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ الحَمَامُ(٥).

قوله (وَذَرَّ التُّرَابَ): -بدالٍ معجمةٍ فراءٍ مشدَّدةٍ- أي نَثَرَه وفرَّقَه.

قوله (ما أَرَبُكُمْ فيهِ): -بفتحِ الراءِ- أي أيُّ شيءٍ حاجَتُكم الداعيةُ لِدُخولِكم في الغارِ؟

قوله (ما أرى): -بضمِ الهمزةِ وفتحِها- أي ما أَظُنُّ.

---

(١) حديث (لما نزلت تبت يدي أبي لهب...): أبو يعلى [٥٣] والبيهقيُّ [٢/ ١٦٥] وابن أبي حاتم [١٩٥٢٢] عن أسماء بنت أبي بكرٍ.

(٢) حديث الحكم (تواعدنا ...): الطبرانيُّ [٣/ ٢١٣] وأبو نعيم في «الدلائل» [١٦٠] وسنده جيِّدٌ.

(٣) حديث عمر (تواعدت أنا وأبو جهم ...): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٤) حديث (لما أخافته قريش ...): ذكره ابن إسحاق [«سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٣)] وأخرجه عنه البيهقيُّ [«الدلائل» ٢/ ٤٦٩] وأخرجه ابن مردويه بسندٍ ضعيفٍ عن ابن عبَّاسٍ.

(٥) حديث (حمايته في الغار ...): تقدم [ص٩٢-٩٣].

وَقِصَّتُهُ مَعَ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ حِينَ الهِجْرَةِ، وَقَدْ جَعَلَتْ قُرَيْشٌ فِيهِ وَفِي أَبِي بَكْرٍ الجَعَائِلَ، فَأُنْذِرَ بِهِ، فَرَكِبَ فَرَسَهُ، وَاتَّبَعَهُ؛ حَتَّى إِذَا قَرُبَ مِنْهُ دَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَاخَتْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ، فَخَرَّ عَنْهَا، وَاسْتَقْسَمَ بِالأَزْلَامِ، فَخَرَجَ لَهُ مَا يَكْرَهُ، ثُمَّ رَكِبَ وَدَنَا، حَتَّى سَمِعَ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يَلْتَفِتُ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُتِينَا، فَقَالَ: لَا تَحْزَنْ؛ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، فَسَاخَتْ ثَانِيَةً إِلَى رُكْبَتَيْهَا، وَخَرَّ عَنْهَا، فَزَجَرَهَا، فَنَهَضَتْ وَلِقَوَائِمِهَا مِثْلُ الدُّخَانِ، فَنَادَاهُمْ بِالأَمَانِ، فَكَتَبَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَمَانًا كَتَبَهُ ابْنُ فُهَيْرَةَ، وَقِيلَ: أَبُو بَكْرٍ، وَأَخْبَرَهُمْ بِالأَخْبَارِ، وَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا يَتْرُكَ أَحَدًا يَلْحَقُ بِهِمْ، فَانْصَرَفَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: كُفِيتُمْ، مَا هَا هُنَا، وَقِيلَ: بَلْ قَالَ لَهُمَا: أَرَاكُمَا دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَنَجَا وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ ظُهُورُ النَّبِيِّ ﷺ.(١)

وَفِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّ رَاعِيًا عَرَفَ خَبَرَهُمَا، فَخَرَجَ يَشْتَدُّ؛ يُعْلِمُ قُرَيْشًا، فَلَمَّا وَرَدَ مَكَّةَ ضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ، فَمَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ، وَأُنْسِيَ مَا خَرَجَ لَهُ حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ.(٢)

وَجَاءَهُ -فِيمَا ذَكَرَ إِسْحَاقُ وَغَيْرُهُ- أَبُو جَهْلٍ بِصَخْرَةٍ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَقُرَيْشٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لِيَطْرَحَهَا عَلَيْهِ، فَلَزِقَتْ بِيَدِهِ، وَيَبِسَتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَقْبَلَ يَرْجِعُ القَهْقَرَى إِلَى خَلْفِهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ، فَفَعَلَ، فَانْطَلَقَتْ يَدَاهُ، وَكَانَ قَدْ تَوَاعَدَ مَعَ قُرَيْشٍ بِذَلِكَ، وَحَلَفَ لَئِنْ رَآهُ لَيَدْمَغَنَّهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْ شَأْنِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ عَرَضَ لِي فَحْلٌ دُونَهُ، فَمَا رَأَيْتُ قَطُّ مِثْلَهُ، هَمَّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ذَلِكَ جِبْرِيلُ، لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ.(٣)

وَذَكَرَ السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي المُغِيرَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ؛ لِيَقْتُلَهُ، فَطَمَسَ اللهُ عَلَى بَصَرِهِ؛ فَلَمْ يَرَ النَّبِيَّ ﷺ، وَسَمِعَ قَوْلَهُ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى نَادَوْهُ(٤).

قوله (جُعْشُمٍ): بضمِّ الجيمِ وشينٍ معجَمةٍ.

قوله (الجعائلَ): جَمعُ جَعيلةٍ أو جَعالةٍ، الأُجرةُ.

قوله (فساخَتْ): -بالخاءِ المعجَمةِ- أي غابَتْ.

قوله (بالأزلام): -جمعُ «زَلَمٍ»؛ بفتحتَيْنِ أو بِضَمٍّ ففتحٍ- سِهامٌ لا ريشَ بها.

قوله (أُتينا): -بصيغةِ المجهولِ- أي لَحِقَنا مَن طَلَبَنا. قوله (فُهَيْرةَ): بالتصغيرِ.

قوله (القَهْقَرى): -بفتحِ القافينِ مقصورًا- هوَ الرجوعُ إلى وراءُ.

قوله (إلى خَلْفِهِ): تأكيدٌ لِما قَبْلَه، أو تَجريدٌ لِمَعْناه مِن أصْلِه.

(١) حديث قصة سراقة في الهجرة: الشيخان [البخاريُّ (٣٦١٥)، ومسلمٌ (٢٠٠٩)] عن البراء.

(٢) حديث (أن راعيا عرف خبرهما فخرج يشتد...): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٣) حديث (جاءه أبو جهل بصخرة ...): أبو نعيم في «الدلائل» [١٥٦] عن ابن عبَّاسٍ.

(٤) حديث (أن رجلًا من بني المغيرة ...): أبو نعيم في «الدلائل» [١٥٣] عن ابن عبَّاسٍ،=

وَرُوِيَ أَنَّ فِي هَاتَيْنِ القِصتَيْنِ نَزلَتْ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا...﴾ الآيَتَيْنِ [يس: ٨-٩].

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُه فِي قِصَّتِهِ؛ إِذْ خَرَجَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فِي أَصْحَابِهِ، فَجَلَسَ إِلَى جِدَارِ بَعْضِ آطامِهِمْ، فَانْبَعَثَ عَمْرُو بنُ جَحَّاشٍ أَحَدُهُمْ لِيَطْرَحَ عَلَيْهِ رَحًى، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَانْصَرَفَ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِقِصَّتِهِمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ...﴾ الآيَةَ [المائدة: ١١] فِي هَذِهِ القِصَّةِ نَزَلَتْ[١].

وَحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُ فِي عَقْلِ الكِلابِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ، فَقَالَ لَهُ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ: اجْلِسْ -يَا أَبَا القَاسِمِ-؛ حَتَّى نُطْعِمَكَ وَنُعْطِيَكَ مَا سَأَلْتَنَا، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَوَامَرَ حُيَيٌّ مَعَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَأَعْلَمَ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَامَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ حَاجَتَهُ حَتَّى دَخَلَ المَدِينَةَ[٢].

وَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ مَعْنَى الحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَعَدَ قُرَيْشًا لَئِنْ رَأَى مُحَمَّدًا يُصَلِّي؛ لَيَطَأَنَّ رَقَبَتَهُ، فَلَمَّا صَلَّى النبيُّ ﷺ أَعْلَمُوهُ، فَأَقْبَلَ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ وَلَّى هَارِبًا نَاكِصًا عَلَى عَقِبَيْهِ، مُتَّقِيًا بِيَدَيْهِ، فَسُئِلَ، فَقَالَ: لَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ أَشْرَفْتُ عَلَى خَنْدَقٍ مَمْلُوءٍ نَارًا، كِدْتُ أَهْوِي فِيهِ، وَأَبْصَرْتُ هَوْلًا عَظِيمًا وَخَفْقَ أَجْنِحَةٍ قَدْ مَلَأَتِ الأَرْضَ، فَقَالَ ﷺ: تِلْكَ المَلَائِكَةُ لَوْ دَنَا لَاخْتَطَفَتْهُ عُضْوًا عُضْوًا، ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [العلق: ٦-١٩].[٣]

قوله (آطامِهِم): -بفتحِ الهَمزةِ- أي أَبْنيتِهم.

قوله (جَحّاشٍ): بفتحِ الجيمِ وتشديدِ الحاءِ -أو بكسْرِها وتخفيفِ الحاءِ-، بَعْدَها شينٌ معجَمةٌ.

قوله (خَنْدَقٍ): أي وادٍ.

=بلفظ: أن ناسًا من قريش قاموا ليأخذوه، فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم عُمي لا يبصرون، فقالوا: ننشدك الله والرحم، فدعى حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ إلى قوله ﴿لا يؤمنون﴾.

(١) حديث قصته إذ خرج إلى بني قريظة في نزول ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾: الكلبي في تفسيره.

(٢) حديث (أنه خرج إلى بني النضير يستعين ...): البيهقيُّ [«الدلائل» ٣/ ١٨٠] عن عروة.

(٣) حديث أبي هريرة (أن أبا جهل وعد قريشًا ...): مسلم [٢٧٩٧] والنَّسائيُّ [«الكبرى» ١١٦١٩].

وَيُرْوَى أَنَّ شَيْبَةَ بْنَ عُثْمَانَ الحَجَبِيَّ أَدْرَكَهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ -وَكَانَ حَمْزَةُ قَدْ قَتَلَ أَبَاهُ وَعَمَّهُ-، فَقَالَ: اليَوْمَ أُدْرِكُ ثَأْرِي مِنْ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا اخْتَلَطَ بِالنَّاسِ أَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَرَفَعَ سَيْفَهُ لِيَصُبَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ ارْتَفَعَ إِلَيَّ شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ أَسْرَعُ مِنَ البَرْقِ، فَوَلَّيْتُ هَارِبًا، وَأَحَسَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ، فَدَعَانِي، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي، وَهُوَ أَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا رَفَعَهَا إِلَّا وَهُوَ أَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ، وَقَالَ لِي: ادْنُ فَقَاتِلْ، فَتَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ أَضْرِبُ بِسَيْفِي، وَأَقِيهِ بِنَفْسِي، وَلَوْ لَقِيتُ أَبِي تِلْكَ السَّاعَةَ لَأَوْقَعْتُ بِهِ دُونَهُ.(١)

وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُمَيْرٍ: أَرَدْتُ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الفَتْحِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالبَيْتِ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قَالَ: أَفَضَالَةُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟ قُلْتُ: لَا شَيْءَ، فَضَحِكَ، وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي، فَسَكَنَ قَلْبِي؛ فَوَاللهِ مَا رَفَعَهَا حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ.(٢)

وَمِنْ مَشْهُورِ ذَلِكَ خَبَرُ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ، وَأَرْبَدَ بْنِ قَيْسٍ حِينَ وَفَدَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ عَامِرٌ قَالَ لَهُ: أَنَا أَشْغَلُ عَنْكَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاضْرِبْهُ أَنْتَ، فَلَمْ يَرَهُ فَعَلَ شَيْئًا، فَلَمَّا كَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ قَالَ لَهُ: واللهِ مَا هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَهُ إِلَّا وَجَدْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ أَفَأَضْرِبُكَ؟!(٣)

وَمِنْ عِصْمَتِهِ لَهُ تَعَالَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ اليَهُودِ وَالكَهَنَةِ أَنْذَرُوا بِهِ، وَعَيَّنُوهُ لِقُرَيْشٍ، وَأَخْبَرُوهُم بِسَطْوَتِهِ بِهِمْ، وَحَضُّوهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَعَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى حَتَّى بَلَغَ فِيهِ أَمْرُهُ. وَمِنْ ذَلِكَ نَصْرُهُ بِالرُّعْبِ أَمَامَهُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.(٤)

***

قوله (الحَجَبِيِّ): بفتح الحاءِ والجيمِ.

قوله (فَضالةَ): بفتح الفاءِ.

قوله (أَرْبَدَ): بفتحٍ فسكونٍ ففتحٍ.

قوله (بالرُّعْبِ): -بسكونِ العينِ وضمِّها- أي بالخَوْفِ.

***

(١) حديث (أن شيبة أدركه يوم حنين ...): أبو نعيم في «الدلائل» [١٤٤] من طريق عكرمة عن شيبة.

(٢) حديث فضالة (أردتُ قتلَ النبيِّ ﷺ عام الفتح ...): ابن إسحاق [«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٧)].

(٣) حديث عامر بن الطفيل وأربد بن قيس: البيهقيُّ [«الدلائل»٥/ ٣١٨] وابن إسحاق بلا سند، وأسنده أبو نعيم في الدلائل [(١٥٧) من حديث ابن عبَّاسٍ] عن عروة.

(٤) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٣٥)، ومسلمٌ (٥٢١)، وغيرهما من حديث جابر].

فَصْلٌ [فيما جَمَعَهُ اللهُ لَهُ مِنَ المعَارِفِ والعُلوم]

وَمِنْ مُعْجِزَاتِهِ البَاهِرَةِ مَا جَمَعَهُ اللهُ لَهُ مِنَ المَعَارِفِ وَالعُلُومِ، وَخَصَّهُ بِهِ مِنَ الاطِّلاعِ عَلَى جَمِيعِ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِأُمُورِ شَرَائِعِهِ، وَقَوَانِينِ دِينِهِ، وَسِيَاسَةِ عِبَادِهِ، وَمَصَالِحِ أُمَّتِهِ، وَمَا كَانَ فِي الأُمَمِ قَبْلَهُ، وَقَصَصِ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالجَبَابِرَةِ وَالقُرُونِ المَاضِيَةِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى زَمَنِهِ، وَحِفْظِ شَرَائِعِهِمْ وَكُتُبِهِمْ، وَوَعْيِ سِيَرِهِمْ، وَسَرْدِ أَنْبَائِهِمْ وَأَيَّامِ اللهِ فِيهِمْ، وَصِفَاتِ أَعْيَانِهِمْ، وَاخْتِلَافِ آرَائِهِمْ، وَالمَعْرِفَةِ بِمُدَدِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ، وَحِكَمِ حُكَمَائِهِمْ، وَمُحَاجَّةِ كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الكَفَرَةِ وَمُعَارَضَةِ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنَ الكِتَابِيِّينَ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ، وَإِعْلَامِهِمْ بِأَسْرَارِهَا وَمُخَبَّآتِ عُلُومِهَا، وَإِخْبَارِهِمْ بِمَا كَتَمُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَغَيَّرُوهُ، إِلَى الاحْتِوَاءِ عَلَى لُغَاتِ العَرَبِ وَغَرِيبِ أَلْفَاظِ فِرَقِهَا، وَالإِحَاطَةِ بِضُرُوبِ فَصَاحَتِهَا، وَالحِفْظِ لِأَيَّامِهَا وَأَمْثَالِهَا وَحِكَمِهَا وَمَعَانِي أَشْعَارِهَا، وَالتَّخْصِيصِ بِجَوَامِعِ كَلِمِهَا، إِلَى المَعْرِفَةِ بِضَرْبِ الأَمْثَالِ الصَّحِيحَةِ وَالحِكَمِ البَيِّنَةِ؛ لِتَقْرِيبِ التَّفْهِيمِ لِلْغَامِضِ، وَالتَّبْيِينِ لِلْمُشْكِلِ، إِلَى تَمْهِيدِ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الَّذِي لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا تَخَاذُلَ، مَعَ اشْتِمَالِ شَرِيعَتِهِ عَلَى مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ وَمَحَامِدِ الآدَابِ وَكُلِّ شَيْءٍ مُسْتَحْسَنٍ مُفَضَّلٍ لَمْ يُنْكِرْ مِنْهُ مُلْحِدٌ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ شَيْئًا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الخُذْلَانِ، بَلْ كُلُّ جَاحِدٍ لَهُ وَكَافِرٍ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ بِهِ إِذَا سَمِعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ صَوَّبَهُ، وَاسْتَحْسَنَهُ دُونَ طَلَبِ إِقَامَةِ بُرْهَانٍ عَلَيْهِ.

ثُمَّ مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الخَبَائِثِ، وَصَانَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ مِنَ المُعَاقَبَاتِ وَالحُدُودِ عَاجِلًا، وَالتَّخْوِيفِ بِالنَّارِ آجِلًا، مِمَّا لَا يَعْلَمُ وَلَا يَقُومُ بِهِ وَلَا بِبَعْضِهِ إِلَّا مَنْ مَارَسَ الدَّرْسَ وَالعُكُوفَ عَلَى الكُتُبِ وَمُثَافَنَةَ بَعْضِ هَذَا، إِلَى الاحْتِوَاءِ عَلَى ضُرُوبِ العُلُومِ وَفُنُونِ المَعَارِفِ، كَالطِّبِّ وَالعِبَارَةِ وَالفَرَائِضِ وَالحِسَابِ وَالنَّسَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العُلُومِ، مِمَّا اتَّخَذَ أَهْلُ هَذِهِ المَعَارِفِ كَلَامَهُ ﷺ فِيهَا قُدْوَةً وَأُصُولًا فِي عِلْمِهِمْ، كَقَوْلِهِ ﷺ: (الرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ)[1]، و(هِيَ عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ)[2].

قوله (بِمُدَدِهم): بضمِّ الميمِ.
وقوله (وحِكَمِ): بكسرِ الحاءِ وفتحِ الكافِ.
قوله (فِرَقِها): بكسرِ الفاءِ وفتحِ الراءِ.
قوله (وأعراضَهم): بفتحِ الهمزةِ.
(كالطِّبِّ): بتثليثِ الطاءِ.
قوله (قُدْوةً): -بتثليثِ القافِ- أي مُقْتَدًى.

---

(١) حديث (الرؤيا لأول عابر ...): ابن ماجه [٣٩١٥] عن أنس.

(٢) حديث (الرؤيا على رجل طائر): أبو داود [٥٠٢٠] والترمذيُّ [(٢٢٧٨)، و(٢٢٧٩)] وصحَّحه عن أبي رزين.

وَقَوْلِـه: (الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: رُؤْيَا حَقٍّ، وَرُؤْيَا يُحَدِّثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ)[1]، وَقَوْلِـه: (إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ)[2].

وَقَوْلِـه: (أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرَدَةُ)[3]، وَمَا رُوِيَ عَنْهُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، مِنْ قَوْلِهِ: (الْمِعِدَةُ حَوْضُ الْبَدَنِ، وَالْعُرُوقُ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ)، وَإِنْ كَانَ هَذَا حَدِيثًا لَا نُصَحِّحُهُ؛ لِضَعْفِهِ، وَكَوْنِهِ مَوْضُوعًا، تَكَلَّمَ بِهِ الدَّارَقُطْنِيُّ[4]، وَقَوْلِهِ: (خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ السَّعُوطُ وَاللَّدُودُ وَالْحِجَامَةُ وَالْمَشِيُّ)[5]، وَ(خَيْرُ الْحِجَامَةِ يَوْمَ سَبْعَ عَشْرَةَ، وَتِسْعَ عَشْرَةَ، وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ)[6]، وَ(فِي الْعُودِ الْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ)[7]، وَقَوْلِـه: (مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ)، إِلَى قَوْلِهِ: (فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ)[8].

وَقَوْلِـه، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ سَبَإٍ، أَرَجُلٌ هُوَ، أَمِ امْرَأَةٌ، أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: رَجُلٌ، وَلَدَ عَشَرَةً، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ... الْحَدِيثَ بِطُولِهِ[9]، وَكَذَلِكَ جَوَابُهُ فِي نَسَبِ قُضَاعَةَ[10]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا اضْطُرَّتِ الْعَرَبُ -عَلَى شُغْلِهَا بِالنَّسَبِ- إِلَى سُؤَالِهِ

قوله (الـبَرَدةُ): -بفتحِ الموحَّدةِ والراءِ- التُّخمةُ.

قوله (السَّعوطُ): بفتحِ السينِ.

---

(١) حديث (الرؤيا ثلاث ...): الشيخان [البخاريُّ (٧٠١٧)، ومسلمٌ (٢٢٦٣)] وغيرهما من حديث بضعة عشر من الصحابة.

(٢) حديث (إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب): الشيخان [البخاريُّ (٧٠١٧)، ومسلمٌ (٢٢٦٣)] عن أبي هريرة.

(٣) حديث (أصل كل داء البردة): الدارقطني في «العلل» [١٢/ ٧٣] عن أنسٍ وضعَّفه.

(٤) حديث أبي هريرة (المعدة حوض البدن ...): الطبراني في «الأوسط» [٤٣٤٣] وقد بيَّنَ المصنِّف أنه موضوعٌ.

(٥) حديث (خير ما تداويتم به ...): الترمذيُّ [٢٠٤٧] عن ابن عبَّاسٍ.

(٦) حديث (خير الحجامة ...): الحاكم [٤/ ٢٠٩] عن ابن عبَّاسٍ وصحَّحه.

(٧) حديث (في العود الهندي سبعة أشفية): البُخاري [متفق عليه، أخرجه البخاريُّ (٥٦٩٢)، ومسلمٌ (٢٢١٤)] عن أمِّ قيس.

(٨) حديث (ما ملأ ابن آدم ...): تقدَّم [ص١٢٦].

(٩) حديث (سئل عن سبأ ...): الترمذيُّ [٣٢٢٢] عن فروة بن مُسَيْكٍ، وأحمدُ [٢٨٩٨] عن ابن عبَّاسٍ.

(١٠) حديث (جوابه في نسب قضاعة): أحمد [٢٤٠٠٩/ ٧٩]، وأبو يعلى [كما في إتحاف الخيرة ١/ ٢٦٢] والبزار [كشف الأستار (٢٢١)] من طرق عن عمرو بن مرة الجهني أنه ﷺ قال (من كان هاهنا من=

عَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْلِه: (حِمْيَرُ رَأْسُ العَرَبِ وَنَابُهَا، وَمَذْحِجُ هَامَتُهَا وَغَلْصَمَتُهَا، وَالأَزْدُ كَاهِلُهَا وَجُمْجُمَتُهَا، وَهَمْدَانُ غَارِبُهَا وَذِرْوَتُهَا)[1]. وَقَوْلُه: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)[2]. وَقَوْلُه فِي الحَوْضِ: (زَوَايَاهُ سَوَاءٌ)[3]. وَقَوْلُه فِي حَدِيثِ الذِّكْرِ: (وَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرٍ؛ فَتِلْكَ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي المِيزَانِ)[4]. وَقَوْلِهِ وَمَرَّ بِمَوْضِعٍ: (نِعْمَ مَوْضِعُ الحَمَّامِ هَذَا)[5]، وَقَوْلِهِ: (مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ)[6]. وَقَوْلِهِ لِعُيَيْنَةَ أَوِ الأَقْرَعِ: (أَنَا أَفْرَسُ بِالخَيْلِ مِنْكَ)[7]. وَقَوْلِهِ لِكَاتِبِهِ: ضَعِ القَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ؛ فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لِلْمُمْلِي[8].

هَذَا مَعَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَكْتُبُ، وَلَكِنَّهُ أُوتِيَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى قَدْ وَرَدَتْ آثَارٌ بِمَعْرِفَتِهِ حُرُوفَ الخَطِّ وَحُسْنَ تَصْوِيرِهَا، كَقَوْلِهِ: (لَا تَمُدُّوا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)[9]، رَوَاهُ ابْنُ شَعْبَانَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

قوله (قُضاعة): بِضَمِّ القافِ.

قوله (غَلْصَمَتُها): -بفتحِ الغينِ المعجَمةِ فلامٍ ساكنةٍ- رأسُ الحُلْقومِ.

قوله (وَجُمْجُمَتُها): -بجيمَيْنِ مضمومتَيْنِ- عَظْمُ الرأسِ.

قوله (هَمْدانُ): بسُكونِ الميمِ.

قوله (وذِرْوَتُها): -بتثليثِ الذالِ المعجَمةِ- أي أَعْلاها.

قوله (لِلْمُمْلي): بضمِّ الميمِ الأولى، وكسرِ الثانيةِ[1].

=مَعدٌ فليقمْ، فقمت، فقال: اقعد، فقلت: ممن نحن؟ قال: أنتم من قضاعة بن مالك بن حمير»، وأخرج الطبرانيُّ [«الأوسط» (٣٤٥)، و«الكبير» (٧/ ١١٦)] مثله من حديث سبَرة وعقبة بن عامر.

(١) حديث (حمير رأس العرب ...): البزّار [٤١٠] عن عثمان قال ابن حجر: وهو مُنكَرٌ.

(٢) حديث (إن الزمان قد استدار ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٤٠٦)، ومسلمٌ (١٦٧٩)] عن أبي بكرة.

(٣) حديث في الحوض (زواياه سواء): هو في حديث ابن عمرو في الصحيحين [البخاريُّ (٦٥٧٩)، ومسلمٌ واللفظ له (٢٢٩٢)].

(٤) حديث الذكر: أبو داود [٥٠٦٥] عن ابن عمرو.

(٥) حديث (نعم موضع الحمام هذا): الطبراني [١/ ٣٢٠] عن أبي رافع بسندٍ ضعيفٍ.

(٦) حديث (ما بين المشرق والمغرب قِبْلَةٌ): الترمذيُّ [٣٤٤] عن أبي هريرة وصحَّحه.

(٧) حديث (أنا أفرس بالخيل منك): [أخرجه أحمد (١٩٤٤٦)، والطحاويُّ في «مشكل الآثار» (٨٠٤)، والطبرانيُّ في «مسند الشاميين» (٩٦٩)، وغيرهم عن عمر بن عبسة].

(٨) حديث (ضَع القَلَمَ على أُذُنِكَ فإنَّه أَذْكَرُ للمُمْلي): الترمذيُّ [٢٧١٤] عن زيد بن ثابت.

(٩) حديث ابن عبَّاس (لا تمد بسم الله الرحمن الرحيم): لم أجده، وللديلميِّ [١١٦٨] من حديث أنسٍ (إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمدَّ الرَّحْمَن»، وله [١٠٨٧] من حديث زيد بن ثابت (إذا كتبت فبين السين من بسم الله الرحمن الرحيم».

(١) كسر الثانية يكون في رواية (للمُمِلِّ).

وَقَوْلِهِ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ الَّذِي يُرْوَى عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: (أَلِقِ الدَّوَاةَ، وَحَرِّفِ القَلَمَ، وَأَقِمِ البَاءَ، وَفَرِّقِ السِّينَ، وَلَا تُعَوِّرِ المِيمَ، وَحَسِّنِ «اللهَ»، وَمُدَّ «الرَّحْمَنَ»، وَجَوِّدِ «الرَّحِيمَ»)[1]، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ الرِّوَايَةُ أَنَّهُ ﷺ كَتَبَ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُرْزَقَ عِلْمَ هَذَا، وَيُمْنَعَ الكِتَابَةَ وَالقِرَاءَةَ.

وَأَمَّا عِلْمُهُ ﷺ بِلُغَاتِ العَرَبِ، وَحِفْظُهُ مَعَانِيَ أَشْعَارِهَا، فَأَمْرٌ مَشْهُورٌ، قَدْ نَبَّهْنَا عَلَى بَعْضِهِ فِي أَوَّلِ الكِتَابِ، وَكَذَلِكَ حِفْظُهُ لِكَثِيرٍ مِنْ لُغَاتِ الأُمَمِ، كَقَوْلِهِ فِي الحَدِيثِ: (سَنَهْ سَنَهْ)[2]، وَهِيَ حَسَنَةٌ بِالحَبَشِيَّةِ، وَقَوْلِهِ: (وَيَكْثُرُ الهَرْجُ)[3]، وَهُوَ القَتْلُ بِهَا، وَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (أَشْكَنْبَ دَرْدَمْ)[4]، أَيْ وَجَعُ البَطْنِ بِالفَارِسِيَّةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُ بَعْضَ هَذَا، وَلَا يَقُومُ بِهِ، وَلَا بِبَعْضِهِ إِلَّا مَنْ مَارَسَ الدَّرْسَ، وَالعُكُوفَ عَلَى الكُتُبِ وَمُثَافَنَةَ أَهْلِهَا عُمْرَهُ، وَهُوَ رَجُلٌ -كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى- أُمِّيٌّ، لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَقْرَأْ، وَلَا عُرِفَ بِصُحْبَةِ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَلَا نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَهُمْ عِلْمٌ وَلَا قِرَاءَةٌ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ، وَلَا عُرِفَ هُوَ قَبْلُ بِشَيْءٍ مِنْهَا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ...﴾ الآيَة [العنكبوت: ٤٨]؛ إِنَّمَا كَانَتْ غَايَةُ مَعَارِفِ العَرَبِ النَّسَبَ، وَأَخْبَارَ أَوَائِلِهَا، وَالشِّعْرَ وَالبَيَانَ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بَعْدَ التَّفَرُّغِ لِعِلْمِ ذَلِكَ، وَالاشْتِغَالِ بِطَلَبِهِ، وَمُبَاحَثَةِ أَهْلِهِ عَنْهُ.

وَهَذَا الفَنُّ نُقْطَةٌ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ ﷺ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى جَحْدِ المُلْحِدِ لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ، وَلَا وَجَدَ الكَفَرَةُ حِيلَةً فِي دَفْعِ مَا نَصَصْنَاهُ إِلَّا قَوْلَهُمْ: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، و﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثُمَّ مَا قَالُوهُ مُكَابَرَةُ العِيَانِ، فَإِنَّ الَّذِي نَسَبُوا تَعْلِيمَهُ إِلَيْهِ إِمَّا سَلْمَانُ، أَوِ العَبْدُ

قوله (أَلِقِ الدَّوَاةَ): بكسرِ اللامِ.

قوله (وحَرِّفِ): بتشديدِ الراءِ المكسورةِ. قوله (ولا تُعَوِّرِ الميمَ): أي لا تَطْمِسْها.

قوله (ويَكْثُرُ الهَرْجُ): بفتحِ الهاءِ وسكونِ الراءِ فجيمٍ.

قوله (أَشْكَنْبَ): بفتحِ أوّلِه وسكونِ المعجمةِ وفتحِ الكافِ وسكونِ النونِ وتثليثِ الباءِ وتُسَكَّنُ. قوله (دَرْدَمْ): بدالَيْنِ مهملتينِ مفتوحتينِ بَعْدَهما راءٌ ساكنةٌ.

قوله (ومُثَافَنَةِ أَهْلِها): -بالمُثَلَّثَةِ والفاءِ والنونِ- أي مُجالَسةِ أَهْلِ العُلومِ.

---

(١) حديث معاوية (ألقِ الدواة ...): الديلميُّ في «مسند الفردوس» [٨٥٣٣].

(٢) حديث (سناه سناه» وهي حسنٌ بالحبشية: البخاريُّ [٣٨٧٤] عن أمِّ خالدٍ.

(٣) حديث (يكثر الهرج» وهو القتل بها: الشيخان وغيرهما من طرقٍ [منها البخاريُّ (٧٠٦١)، ومسلمٌ (١٥٧)].

(٤) حديث أبي هريرة (أشكَنبَ درد): ابن ماجه [٣٤٥٨].

الرُّومِيُّ، وَسَلْمَانُ إِنَّمَا عَرَفَهُ بَعْدَ الهِجْرَةِ وَنُزُولِ الكَثِيرِ مِنَ القُرْآنِ، وَظُهُورِ مَا يَنْعَدُّ مِنَ الآيَاتِ، وَأَمَّا الرُّومِيُّ فَكَانَ أَسْلَمَ، وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتُلِفَ فِي اسْمِهِ، وَقِيلَ: بَلْ كَانَ ﷺ يَجْلِسُ عِنْدَهُ، عِنْدَ المَرْوَةِ، وَكِلاهُمَا أَعْجَمِيُّ اللِّسَانِ، وَهُمُ الفُصَحَاءُ اللُّدُّ، وَالخُطَبَاءُ اللُّسْنُ، قَدْ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَةِ مَا أَتَى بِهِ، وَالإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، بَلْ عَنْ فَهْمِ وَصْفِهِ، وَصُورَةِ تَأْلِيفِهِ وَنَظْمِهِ، فَكَيْفَ بِأَعْجَمِيٍّ أَلْكَنَ؟!

نَعَمْ وَقَدْ كَانَ سَلْمَانُ أَوْ بَلْعَامُ الرُّومِيّ أَوْ يَعِيشُ أَوْ جَبْرٌ أَو يَسَارٌ -عَلَى اخْتِلافِهِمْ فِي اسْمِهِ- بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، يُكَلِّمُونَهُمْ مَدَى أَعْمَارِهِمْ، فَهَلْ حُكِيَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ مَا كَانَ يَجِيءُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؟! وَهَلْ عُرِفَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟! وَمَا مَنَعَ العَدُوَّ حِينَئِذٍ -عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِ، وَدُؤُوبِ طَلَبِهِ، وَقُوَّةِ حَسَدِهِ- أَنْ يَجْلِسَ إِلَى هذا، فَيَأْخُذَ عَنْهُ أَيْضًا مَا يُعَارِضُ بِهِ، وَيَتَعَلَّمَ مِنْهُ مَا يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى شَغْبِهِ، كَفِعْلِ النَّضْرِ بنِ الحَارِثِ بِمَا كَانَ يُمَخْرِقُ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ كُتُبِهِ؟! وَلَا غَابَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْمِهِ، وَلَا كَثُرَتِ اخْتِلافَاتُهُ إِلَى بِلادِ أَهْلِ الكِتَابِ، فَيُقَالَ: إِنَّهُ اسْتَمَدَّ مِنْهُمْ، بَلْ لَمْ يَزَلْ بَيْنَ أَظْهُرِهِم يَرْعَى فِي صِغَرِهِ وَشَبَابِهِ عَلَى عَادَةِ أَنْبِيَائِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ بِلادِهِمْ إِلَّا فِي سَفْرَةٍ أَوْ سَفْرَتَيْنِ لَمْ يَطُلْ فِيهِمَا مُكْثُهُ مُدَّةً يُحْتَمَلُ فِيهَا تَعْلِيمُ القَلِيلِ، فَكَيْفَ الكَثِيرُ؟! بَلْ كَانَ فِي سَفَرِهِ فِي صُحْبَةِ قَوْمِهِ وَرِفَاقِهِ وَعَشِيرَتِهِ، لَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ، وَلَا خَالَفَ حَالُهُ مُدَّةَ مُقَامِهِ بِمَكَّةَ مِنْ تَعْلِيمٍ وَاخْتِلَافٍ إِلَى حَبْرٍ أَوْ قَسٍّ أَوْ مُنَجِّمٍ أَوْ كَاهِنٍ، بَلْ لَوْ كَانَ هَذَا بَعْدُ كُلُّهُ لَكَانَ مَجِيءُ مَا أَتَى بِهِ فِي مُعْجِزِ القُرْآنِ قَاطِعًا لِكُلِّ عُذْرٍ، وَمُدْحِضًا لِكُلِّ حُجَّةٍ، وَمُجْلِيًا لِكُلِّ أَمْرٍ.

***

قوله (العِيانِ): أي المعايَنةِ. قوله (اللُّدُّ): -بضمِّ اللامِ وتشديدِ الدالِ- جمعُ «الألَدِّ»؛ وهوَ شَديدُ الخصومةِ. قوله (اللُّسْنُ): -بضمِّ اللامِ فسكونِ السينِ- جمعُ الألْسَنِ، وقيلَ: جَمعٌ لِلَّسِنِ -بفتحٍ فكسرٍ-؛ وهوَ المُطْلَقُ اللِّسانِ.

قوله (بَلْعامُ الروميُّ): بفتحِ الموحَّدةِ وسكونِ اللامِ، ويقالُ «بَلْعَمُ». قوله (أو يَعيشُ): بفتحِ الياءِ الأولى وكسرِ العَينِ. و(يَسارٌ): بفتحِ الياءِ.

قوله (على كثْرةِ عَدَدِه): -بكسرِ العينِ المهمَلةِ- أي أعدادِهم. قوله (على شَغْبِه): -بسكونِ المعجَمةِ الثانيةِ وفتحِها- أي تهيُّجِ شَرِّه. قوله (يُمَخْرِقُ): بضمِّ التحتيةِ وفتحِ الميمِ وسكونِ الخاءِ المعجَمةِ بَعْدَها راءٌ مكسورةٌ وقافٌ. اهـ شمنيٌّ.

قوله (مُكْثُه): -بضمِّ الميمِ وفتحِها- أي إقامتُه. قوله (ورِفاقِه): بكسرِ الراءِ. قوله (إلى حَبْرٍ): -بكسرِ الحاءِ وفتحِها- أي عالِمٍ يهوديٍّ. قوله (أو قَسٍّ): بفتحِ القافِ وكسرِها -وضَمُّها خطأٌ- فسينٍ مشدَّدةٍ.

قوله (ومُدْحِضًا): أي دافعًا. قوله (ومُجْلِيًا): بضمِّ الميمِ وسكونِ الجيمِ وتخفيفِ اللامِ.

***

فَصْلٌ [في أخبارِه ﷺ مع الملائكةِ والجِنّ]

وَمِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ وَكَرَامَاتِهِ وَبَاهِرِ آيَاتِهِ أَنْبَاؤُهُ مَعَ المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ، وَإِمْدَادُ اللهِ لَهُ بِالمَلَائِكَةِ، وَطَاعَةُ الجِنِّ لَهُ، وَرُؤْيَةُ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لَهُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ...﴾ الآية [التحريم: ٤]، وَقَالَ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...﴾ الآية [الأنفال: ١٢]، وَقَالَ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ...﴾ الآيَتَيْنِ [الأنفال: ٩-١٠]، وَقَالَ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ...﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩].

حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ العَاصِ الفَقِيهُ بِسَمَاعِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الغَافِرِ الفَارِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سُلَيْمَانَ الشَّيْبَانِيِّ، سَمِعَ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، قَالَ: رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ.

وَالخَبَرُ فِي مُحَادَثَتِهِ مَعَ جِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ المَلَائِكَةِ، وَمَا شَاهَدَهُ مِنْ كَثْرَتِهِمْ وَعِظَمِ صُوَرِ بَعْضِهِمْ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ مَشْهُورٌ، وَقَدْ رَآهُمْ بِحَضْرَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي مَوَاطِنَ مُخْتَلِفَةٍ، فَرَأَى أَصْحَابُهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ يَسْأَلُهُ عَنِ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ[1]، وَرَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ[2] وَأُسَامَةُ[3] وَغَيْرُهُمَا[4] عِنْدَهُ جِبْرِيلَ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ.

قوله (أَنْبَاؤُه): -بفتحِ الهمزةِ- أي أخبارُه.

قوله (جِبريلُ): بكسرِ الجيمِ وفتحِها.

قوله (دِحْيَةَ): -بكسرِ الدالِ وفتحِها- هوَ ابنُ خليفةَ الكَلْبيِّ المَشهورِ بالحَسَنِ الصوريِّ.

---

(١) حديث (رؤية أصحابه جبريل في صورة رجل يسأل عن الإيمان والإسلام): الشيخان [البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠)] وغيرهما من طرق.

(٢) حديث (رؤية ابن عباس جبريل في صورة دحية): الترمذيُّ [٣٨٢٢] بلفظ أن ابن عبَّاسٍ رأى جبريل مرَّتين [قال الترمذيُّ: هذا حديثٌ مُرسَلٌ، وأبو جَهْضَم لم يُدرك ابن عبَّاسٍ].

(٣) حديث (رؤية أسامة جبريل): الشيخان [البخاريُّ (٤٩٨٠)، ومسلمٌ (٢٤٥١)] عن أسامة، وفي حديثه أنَّ أمَّ سلمة رأته.

(٤) قوله (وغيرهما): قلتُ: كعائشة عند البيهقيِّ [٤/ ٨] وأم سلمة في الصحيحين [تقدم في حديث أسامه] ومحمد بن مسلمة عند البيهقيِّ [٧/ ٧٧] وحارثة بن النعمان عند البزَّار [«كشف الأستار» ٢٧١٠] والبيهقيِّ [٧/ ٧٤].

وَرَأَى سَعْدٌ عَلَى يَمِينِهِ وَعَلَى يَسَارِهِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فِي صُورَةِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ(١)، ومِثْلُهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ.

وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ زَجْرَ المَلَائِكَةِ خَيْلَهَا يَوْمَ بَدْرٍ(٢)، وَبَعْضُهُمْ رَأَى تَطَايُرَ الرُّؤُوسِ مِنَ الكُفَّارِ، وَلَا يَرَوْنَ الضَّارِبَ(٣)، وَرَأَى أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ يَوْمَئِذٍ رِجَالاً بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، مَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ(٤).

وَقَدْ كَانَتِ المَلَائِكَةُ تُصَافِحُ عِمْرَانَ بْنَ الحُصَيْنِ(٥)، وَأَرَى النَّبِيُّ ﷺ لِحَمْزَةَ جِبْرِيلَ فِي الكَعْبَةِ، فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ(٦)، وَرَأَى عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ الجِنَّ لَيْلَةَ الجِنِّ، وَسَمِعَ كَلَامَهُمْ، وَشَبَّهَهُمْ بِرِجَالِ الزُّطِّ(٧).

وَذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ أَنَّ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ لَمَّا قُتِلَ يَومَ أُحُدٍ أَخَذَ الرَّايَةَ مَلَكٌ عَلى صُورَتِه، فكَانَ النبيُّ ﷺ يَقولُ: تَقَدَّمْ يَا مُصْعَبُ، فقَالَ لَهُ المَلَكُ: لَسْتُ بِمُصْعَبٍ، فعَلِمَ أَنَّه مَلَكٌ(٨).

قوله (زَجْرَ المَلائِكَةِ): -بفتحِ الزاي وسكونِ الجيمِ- أي حَثُّهم و حَمْلُهم.

قوله (خَيْلٍ بُلْقٍ): -بضمِّ الباءِ وسكونِ اللامِ- جمعُ «أَبْلَق».

قوله (بِرجالِ الزُّطِّ): -بضمِّ الزاي وتشديدِ الطاءِ- قومٌ مِنَ الهُنودِ.

---

(١) حديث (رؤية سعد جبريل وميكائيل ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٠٥٤)، ومسلمٌ (٢٣٠٦)] عنه.

(٢) حديث (سمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر): مسلمٌ [١٧٦٣] عن عمر.

(٣) حديث رؤية بعضهم تطاير الرؤوس دون الضارب: البيهقيُّ [٣/ ٥٦] عن سهل بن حنيف وعن أبي واقد الليثي.

(٤) حديث (رأى أبو سفيان رجالًا ...): البيهقيُّ [٣/ ٥٧] عن سَهْل بن عمر، وأنه هو الذي رأى ذلك.

(٥) حديث (أن الملائكة كانت تصافح عمران بن حصين ...): ابن سعدٍ [٤/ ٢٨٨] عن قتادة، وفي صحيح مسلم [١٢٢٦] أنها كانت تُسَلِّم عليه.

(٦) حديث (أنه أرى حمزة جبريل في الكعبة ...): البيهقيُّ [٧/ ٨١] عن عمَّار بن أبي عمَّار مرسلًا.

(٧) حديث (أن ابن مسعود رأى الجن وسمع كلامهم وشبههم برجال الزط): البيهقيُّ [٢/ ٢٣١].

(٨) حديث (أن مصعب بن عمير لما قُتل ...): عزاه المصنِّف إلى ابن سعد [٣/ ١٢١]، وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» [٣٦٧٧٠] حديثَ زيد بن خباب، عن موسى بن عبيدة، حدَّثني محمد بن ثابت أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم أحد (أقدم مصعب) فقال له عبد الرحمن: يا رسول الله، ألم يقتل مصعب؟ قال (بلى ولكن ملك قام مكانه وتسمَّى باسمه).

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُصَنِّفِينَ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ شَيْخٌ بِيَدِهِ عَصًا، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: نَغمَةُ الجِنِّ؛ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا هَامَةُ بنُ الهِيمِ بْنِ لاقِسَ بنِ إِبْلِيسَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ لَقِيَ نُوحًا وَمَنْ بَعْدَهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَهُ سُوَرًا مِنَ القُرْآنِ(١).

وَذَكَرَ الوَاقِدِيُّ قَتْلَ خَالِدٍ -عِنْدَ هَدْمِهِ العُزَّى- لِلسَّوْدَاءِ التي خَرَجَتْ لَهُ نَاشِرَةً شَعْرَهَا، عُرْيَانَةً، فَجَزَلَهَا، وَأَعْلَمَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِك، فَقَالَ لَهُ: تِلْكَ العُزَّى(٢).

وَقَالَ ﷺ: إِنَّ شَيْطَانًا تَفَلَّتَ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ؛ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي...﴾ الآيَة [ص: ٣٥]، فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا(٣).

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ.

***

قوله (نَغمةُ الجِنِّ): -بفتح النونِ- أي حَرَكَتُه.

قوله (أنا هامةُ): بفتحِ الميمِ. وقوله (بنُ الهيمِ): بكسرِ الهاءِ وسكونِ الياءِ، وفي نسخةٍ صحيحةٍ بفتحِ الهاءِ وكسرِ التحتيةِ مشدَّدةً أو مخفَّفةً. قوله (لاقِسَ): بكسرِ القافِ.

قوله (فجَزَلَها): -بالجيمِ والزاي المخفَّفةِ وتُشَدَّدُ- أي قَطَعَها نِصفينِ.

قوله (البارِحةَ): أي الليلةَ الماضيةَ. قوله (أنْ أرْبِطَه): بكسرِ الباءِ وضَمِّها.

***

(١) حديث عمر في قصة هامة: البيهقيُّ [٥/ ٤١٨].

(٢) حديث (هدم خالد العزى وقتله السوداء): النَّسائيُّ [في «الكبرى» كما في «التحفة» (٥٠٥٤)] والبيهقيُّ [٥/ ٧٧] عن أبي الطُّفَيل.

(٣) حديث (إنَّ شيطانًا تفلَّت عليَّ ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٦١)، ومسلمٌ (٥٤١)] عن أبي هريرة.

فَصْلٌ [فِي إِخْبَارِ الرُّهْبَانِ وَالأَحْبَارِ وعُلَماءِ أَهْلِ الكُتُبِ عَنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ]

وَمِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ وَعَلَامَاتِ رِسَالَتِهِ ﷺ مَا تَرَادَفَتْ بِهِ الأَخْبَارُ عَنِ الرُّهْبَانِ وَالأَحْبَارِ وَعُلَمَاءِ أَهْلِ الكُتُبِ، مِنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ، وَاسْمِهِ وَعَلَامَاتِهِ، وَذِكْرِ الخَاتَمِ الَّذِي بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَمَا وُجِدَ مِنْ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِ المُوَحِّدِينَ المُتَقَدِّمِينَ مِنْ شِعْرِ تُبَّعٍ، وَالأَوْسِ بنِ حَارِثَةَ وَشِبْهِهِ، وَكَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، وَسُفْيَانَ بْنِ مُجَاشِعٍ، وَقُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ، وَمَا ذُكِرَ عَنْ سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ وَغَيْرِهِمْ، وَمَا عَرَّفَ بِهِ مِنْ أَمْرِهِ زَيْدُ بنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَوَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، وَعَثْكَلَانُ الحِمْيَرِيُّ، وَعُلَمَاءُ يَهُودَ، وَشَامُولُ عَالِمُهُمْ، صَاحِبُ تُبَّعٍ مِنْ صِفَتِهِ وَخَبَرِهِ، وَمَا أُلْفِيَ مِنْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مِمَّا قَدْ جَمَعَهُ العُلَمَاءُ، وَبَيَّنُوهُ، وَنَقَلَهُ عَنْهُمَا ثِقَاتٌ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، مِثْلُ ابْنُ سَلَامٍ، وَبَنِي سَعْيَةَ، وَابْنِ يَامِينَ، وَمُخَيْرِيقَ، وَكَعْبٍ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ يَهُودَ، وَبَحِيرَا، وَنَسْطُورَ، وَصَاحِبِ بُصْرَى، وَضَغَاطِرَ، وَأُسْقُفِّ الشَّامِ، وَالجَارُودِ، وَسَلْمَانَ، وَالنَّجَاشِيِّ، وَنَصَارَى الحَبَشَةِ، وَرَاهِبِ بُصْرَى، وَأَسَاقِفِ نَجْرَانَ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى.

وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ هِرَقْلُ وَصَاحِبُ رُومَةَ، عَالِمَا النَّصَارَى وَرَئِيسَاهُمْ، وَمُقَوْقِسُ صَاحِبُ مِصْرَ، وَالشَّيْخُ صَاحِبُهُ، وَابْنُ صُورِيَا، وَابْنُ أَخْطَبَ، وَأَخُوهُ، وَكَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، وَالزُّبَيْرُ بنُ بَاطِيَاءَ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ اليَهُودِ، وَمِمَّنْ حَمَلَهُ الحَسَدُ وَالنَّفَاسَةُ عَلَى البَقَاءِ عَلَى الشَّقَاءِ.

قوله (عَنِ الرُّهْبانِ والأَحْبارِ): أي مِن زُهّادِ النَّصارى وعُبّادِهم وعُلَماءِ اليهودِ.

قوله (تُبَّعٍ): -بضمِّ التاءِ وتشديدِ الموحَّدةِ- أحَدُ مُلوكِ اليَمَنِ. قوله (لُؤَيٍّ): -بضمِّ اللامِ ففتحِ همْزٍ وتُبْدَلُ وتشديدِ التحتيةِ- سابعُ أجدادِه ﷺ.

قوله (بْنِ ذي يَزَنَ): -بفتحِ الياءِ والزاي مصروفًا وممنوعًا- مِن ملوكِ حِمْيَرَ.

قوله (وما عَرَّفَ): -بتشديدِ الراءِ على بناءِ الفاعلِ لا المفعولِ كَما وَهِمَ الدلجيُّ- أي وما أَعْلَمَ. قوله (وعَثْكَلانُ): بفتحِ العينِ والكافِ ويُضَمّانِ. قوله (وشامولُ): بالشينِ المعجَمةِ، وفي آخِره لامٌ لا كافٌ كَما في أصلِ الدلجيِّ.

قوله (وما أُلْفِيَ): -بضمِّ الهمزةِ وكسرِ الفاءِ لا القافِ- أي ما وُجِدَ.

قوله (وبَني سَعْيَةَ): بفتحِ السينِ وسكونِ العينِ المهمَلتينِ. قوله (وبَحيرا): بفتحِ الموحَّدةِ وكسرِ المهمَلةِ فراءٍ ممدودًا ومقصورًا.

قوله (ونَسْطورَ): بفتحِ النونِ وسكونِ المهمَلةِ. قوله (وأُسْقُفِّ الشّامِ): بضمِّ الهَمْزةِ وقافٍ وتشديدِ الفاءِ. قوله (والجارودِ): أي ابنِ العَلاءِ.

قوله (مُقَوْقِسُ): بضمِّ الميمِ وكسرِ القافِ. قوله (وابْنُ صوريا): بضمِّ الصادِ وكسرِ الراءِ ممدودًا ومقصورًا. قوله (باطياءَ): بكسرِ الطاءِ.

وَالأَخْبَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ لَا تَنْحَصِرُ، وَقَدْ قَرَّعَ أَسْمَاعَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ فِي كُتُبِهِم مِنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ أَصْحَابِهِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِم بِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ صُحُفُهُمْ، وَذَمَّهُمْ بِتَحرِيفِ ذَلِكَ، وَكِتْمَانِهِ، وَلَيِّهِمْ أَلْسِنَتَهُمْ بِبَيَانِ أَمْرِهِ، وَدَعْوتِهِمْ إِلَى المُبَاهَلَةِ عَلَى الكَاذِبِ، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ نَفَرَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَإِبْدَاءِ مَا أَلْزَمَهُمْ مِنْ كُتُبِهِمْ إِظْهَارَهُ.

وَلَوْ وَجَدُوا خِلَافَ قَوْلِهِ لَكَانَ إِظْهَارُهُ أَهْوَنَ عَلَيْهِم مِنْ بَذْلِ النُّفُوسِ وَالأَمْوَالِ وَتَخْرِيبِ الدِّيَارِ وَنَبْذِ القِتَالِ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

.. إِلَى مَا أَنْذَرَ بِهِ الكُهَّانُ، مِثْلُ شَافِعِ بْنِ كُلَيْبٍ، وَشِقٍّ، وَسَطِيحٍ، وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ، وَخُنَافِرٍ، وَأَفْعَى نَجْرَانَ، وَجِذْلِ بْنِ جِذْلٍ الكِنْدِيِّ، وَابْنِ خَلَصَةَ الدَّوْسِيِّ، وسُعْدَى بِنْتِ كُرَيْزٍ، وَفَاطِمَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ، وَمَنْ لَا يَنْعَدُّ كَثْرَةً،

.. إِلَى مَا ظَهَرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الأَصْنَامِ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَحُلُولِ وَقْتِ رِسَالَتِهِ، وَسُمِعَ مِنْ هَوَاتِفِ الجَانِّ، وَمِنْ ذَبَائِحِ النُّصُبِ، وَأَجْوَافِ الصُّوَرِ، وَمَا وُجِدَ مِنَ اسْمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالرِّسَالَةِ مَكْتُوبًا فِي الحِجَارَةِ وَالقُبُورِ بِالخَطِّ القَدِيمِ مَا أَكْثَرُهُ مَشْهُورٌ، وَإِسْلَامُ مَنْ أَسْلَمَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ مَذْكُورٌ.

***

قوله (قَرَّعَ): بفتحِ القافِ وتشديدِ الراءِ.

قوله (وَشِقٍّ): بكسرِ الشينِ المعجَمةِ وتشديدِ القافِ. قوله (وسَطِيحٍ): بفتحٍ فكَسْرٍ. قوله (وَخُنافِرٍ): -بضمِّ الخاءِ وكسرِ الفاءِ- كاهنٌ.

قوله (وَأَفْعى نَجْرانَ): بفتحِ الهمزةِ وسكونِ الفاءِ فعَينٍ مهمَلةٍ مقصورًا.

قوله (وَجِذْلِ بْنِ جِذْلٍ): بكسرِ الجيمِ فيهما. قوله (الكِنْديِّ): بكسرِ الكافِ.

قوله (خَلَصَةَ): بفتحِ الخاءِ المعجَمةِ واللامِ. قوله (الدَّوْسيِّ): بفتحِ الدالِ. (وسُعْدَى): بضمِّ السينِ وفتحِ الدالِ مقصورًا.

قوله (وسُمِعَ... إلخ): -بصيغةِ المجهولِ- أي وما سُمِعَ مِن هواتفِ الجِنِّ.

قوله (ومِنْ ذبائحِ النُّصُبِ): جَمعُ «نَصيبٍ» بمعنى مَنصوبٍ لِلعبادةِ[1].

***

(١) ويقال في جمعه «أنصاب» فيكون مفردًا وجمعًا.

فَصْلٌ [فيما ظَهَرَ مِن الآياتِ عِنْدَ مَوْلِدِه ﷺ]

وَمِـنْ ذَلِكَ مَا ظَهَـرَ مِـنَ الآيَاتِ عِنْـدَ مَوْلِـدِهِ، وَمَـا حَكَتْـهُ أُمُّـهُ وَمَـنْ حَـضَرَهُ مِـنَ العَجَائِـبِ، وَكَوْنُـهُ رَافِعًـا رَأْسَـهُ عِنْدَمَـا وَضَعَتْـهُ، شَـاخِصًا بِبَـصَرِهِ إِلَى السَّـمَاءِ(١)، وَمَـا رَأَتْـهُ مِـنَ النُّـورِ الَّـذِي خَـرَجَ مَعَـهُ عِنْـدَ وِلادَتِـهِ.

وَمَـا رَأَتْـهُ إِذْ ذَاكَ أُمُّ عُثْمَانَ بْـنِ أَبِي العَـاصِ مِـنْ تَـدَلِّي النُّجُـومِ وَظُهُـورِ النُّـورِ عِنْـدَ وِلادَتِـهِ؛ حتى مَـا تَنْظُـرُ إِلَّا لِنُـورٍ(٢).

وَقَـوْلُ الشِّـفَاءِ أُمِّ عَبْـدِ الرَّحْمَـنِ بْـنِ عَـوْفٍ: لَمَّـا سـقَطَ ﷺ عَـلَى يَـدَيَّ وَاسْـتَهَلَّ، سَـمِعْتُ قَائِـلًا يَقُـولُ: رَحِمَـكَ اللهُ، وَأَضَـاءَ لِي مَـا بَـيْنَ المَـشْرِقِ وَالمَغْـرِبِ حَتَّـى نَظَـرْتُ إِلَى قُصُـورِ الـرُّومِ(٣).

وَمَـا تَعَرَّفَـتْ بِـه حَلِيمَـةُ وَزَوْجُهَـا ظِئْـرَاهُ مِـنْ بَرَكَتِـه، وَدُرُورِ لَبَنِهَـا لَـهُ وَلَبَـنِ شَـارِفِهَا، وَخِصْـبِ غَنَمِهَـا، وَسُرْعَـةِ شَـبَابِهِ، وَحُسْـنِ نَشْـأَتِهِ ﷺ(٤).

وَمَـا جَـرَى مِـنَ العَجَائِـبِ لَيْلَـةَ مَوْلِـدِهِ مِـنَ ارْتِجَـاجِ إِيـوَانِ كِـسْرَى وَسُـقُوطِ شُرُفَاتِـهِ، وَغَيْـضِ بُحَـيْرَةِ طَبَرِيَّـةَ، وَخُمُـودِ نَـارِ فَـارِسَ -وَكَانَ لَهَـا أَلْـفُ عَـامٍ لَمْ تَخْمُـدْ.(٥)

---

(١) حديث (أنه ولد رافعًا رأسه شاخصًا بصره إلى السماء): البيهقيُّ [١/ ١١٣] عن الزهريِّ.

(٢) حديث أم عثمان (أنها رأت تدلي النجوم): البيهقيُّ [١/ ١١٠]، والطبرانيُّ [٢٥/ ١٨٦].

(٣) حديث الشفاء (لما سقط على يدي ...): أبو نعيمٍ في «الدلائل» [١/ ١٣٥] عن عبد الرحمن بن عوف عن أمِّه الشفاء.

(٤) حديث خبر حليمة في بركته وحسن بشاشته: ابن إسحاق [١/ ٤٨، ٤٩]، والطبرانيُّ [٢٤/ ٢١٢]، وأبو يعلى [٧١٦٣]، وابن حِبَّان [٦٣٣٥]، والحاكم [٣/ ٢٥٤] والبيهقيُّ [١/ ١٣٢] عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالبٍ قال (حدِّثتُ عن حليمة...)، قال الذهبي: جيد الإسناد.

(٥) حديث (ما جرى من العجائب ليلة مولده... إلى قوله: لم تخمد): البيهقيُّ [الدلائل (١/ ١٢٦)] وابن أبي الدنيا وابن السكن في «معرفة الصحابة» عن مخزومٍ بن هانيء المخزومي عن أبيه.

قولـه (وَقَـوْلُ الشِّـفاءِ): بكسرِ الشينِ المعجَمةِ ممدودًا ومقصورًا، وما في الدلجيِّ مِن أنَّ (الشفاء) بفتحِ المعجَمةِ تصحيفٌ.

قولـه (واسْـتَهَلَّ): -بتشديدِ اللامِ- أي رَفَعَ صوتَـه.

قولـه (وَخِصْـبِ غَنَمِهـا): بكسرِ الخاءِ المعجَمةِ.

قولـه (شُرُفاتِـه): بضمِّ الشينِ المعجَمةِ والراءِ وتُفْتَحُ.

وَأَنَّـهُ كَانَ إِذَا أَكَلَ مَـعَ عَمِّـهِ أَبِي طَالِـبٍ وَآلِـهِ وَهُـوَ صَغِـيرٌ شَـبِعُوا وَرَوُوا، فَـإِذَا غَـابَ، فَأَكَلُـوا فِي غَيْبَتِـهِ لَمْ يَشْـبَعُوا، وَكَانَ سَـائِرُ وَلَـدِ أَبِي طَالِـبٍ يُصْبِحُـونَ شُـعْثًا، وَيُصْبِـحُ هُـوَ ﷺ صَقِيـلًا، دَهِينًـا، كَحِيـلًا[١]. قَالَـتْ أُمُّ أَيْمَـنَ حَاضِنَتُـهُ: مَـا رَأَيْتُـهُ ﷺ شَـكَا جُوعًـا وَلَا عطَشًـا، صَغِـيرًا وَلَا كَبِـيرًا[٢].

وَمِـنْ ذَلِـكَ حِرَاسَـةُ السَّـمَاءِ بِالشُّـهُبِ، وَقَطْـعُ رَصَـدِ الشَّـيَاطِينِ، وَمَنْعُهُـم مِـنَ اسْتِرَاقِ السَّـمْعِ، وَمَـا نَشَـأَ عَلَيْـهِ مِـنْ بُغْـضِ الأَصْنَـامِ، وَالعِفَّـةِ عَـنْ أُمُـورِ الجَاهِلِيَّـةِ، وَمَـا خَصَّـهُ اللهُ بِـهِ مِـنْ ذَلِـكَ وَحَمَـاهُ، حَتَّـى فِي سَـتْرِهِ فِي الخَـبَرِ المَشْـهُورِ عِنْـدَ بِنَـاءِ الكَعْبَـةِ؛ إِذْ أَخَـذَ إِزَارَهُ لِيَجْعَلَـهُ عَـلَى عَاتِقِـهِ لِيَحْمِـلَ عَلَيْـهِ الحِجَـارَةَ، وَتَعَـرَّى، فَسَـقَطَ إِلَى الأَرْضِ حَتَّـى رَدَّ إِزَارَهُ عَلَيْـهِ، فَقَـالَ لَـهُ عَمُّـهُ: مَـا بَالُـكَ؟ فَقَـالَ: إِنِّي نُهِيـتُ عَـنِ التَّعَـرِّي[٣].

وَمِـنْ ذَلِـكَ إِظْـلَالُ اللهِ تعَـالَى لَـهُ بِالغَـمَامِ فِي سَـفَرِهِ[٤]، وَفِي رِوَايَـةٍ أَنَّ خَدِيجَـةَ وَنِسَـاءَهَا رَأَيْنَـهُ لَمَّـا قَـدِمَ، وَمَلَـكَانِ يُظِلَّانِـهِ، فَذَكَـرَتْ ذَلِـكَ لِمَيْسَـرَةَ، فَأَخْبَرَهَـا أَنَّـهُ رَأَى ذَلِـكَ مُنْـذُ خَـرَجَ مَعَـهُ فِي سَـفَرِهِ[٥]، وَقَـدْ رُوِيَ أَنَّ حَلِيمَـةَ رَأَتْ غَمَامَـةً تُظِلُّـهُ، وَهُـوَ عِنْدَهَـا[٦]، وَرُوِيَ ذَلِـكَ عَـنْ أَخِيـهِ مِـنَ الرَّضَاعَـةِ.

قولـه (شَـبِعوا وَرَوُوا): بكسرِ الموحَّـدةِ وضـمِّ الـواوِ.

قولـه (شُـعْثًا): -بضـمِّ أوَّلـه جمـعُ «أَشْـعَث»- أي مُغْـبَرَّةً شـعورُهم ووجوهُهـم.

قولـه (حِراسـةُ السَّـماءِ): -بكسرِ الحـاءِ المهمَلـةِ- أي حِفْظُهـا.

(١) حديث (أنه كان إذا أكل مع عمه.. إلى قوله: دهينًا كحيلًا): ابن سعد [١/ ١١٩، ١٢٠] عن ابن عبَّاسٍ ومجاهد وإسماعيل بن أبي حبيبة في حديث طويل، دخل حديث بعضهم في حديث بعض.

(٢) حديث أم أيمن (ما رأيته شكى جوعًا ...): ابن سعدٍ [١/ ١٦٨] وأبو نعيم في «الدلائل» [١٠٦].

(٣) حديث تعرِّيه عند بناء الكعبة: الشيخان [البخاريُّ (١٥٨٢)، ومسلمٌ (٣٤٠)] عن جابر، والبيهقيُّ [«الدلائل» ٢/ ٣٢] عن ابن عبَّاسٍ.

(٤) حديث (إظلاله بالغمام في سفره ...): هو في حديث الراهب عند الترمذيِّ [٣٦٢٠] والبيهقيُّ [«الدلائل» ٢/ ٢٤] عن أبي موسى.

(٥) حديث (أنَّ خديجة ونساءها رأينه لمَّا قَدِمَ ومَلَكان يُظِلَّانه...): ابن سعدٍ [في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٠، ١٣١)] عن نفيسة بنت مُنْيَة.

(٦) حديث (أنَّ حليمة رأت غمامةً تُظِلُّه): الواقديُّ، وابن سعدٍ [١/ ١١٢]، وابن عساكر في تاريخه [٤/ ٣٦٠] من طريقه عن ابن عبَّاسٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا نَزَلَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَابِسَةٍ، فَاعْشَوْشَبَ مَا حَوْلَهَا، وَأَيْنَعَتْ هِيَ فَأَشْرَقَتْ وَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَغْصَانُهَا بِمَحْضَرِ مَنْ رَآهُ(١)، وَمَيْلُ فَيْءِ الشَّجَرَةِ إِلَيْهِ فِي الخَبَرِ الآخَرِ حَتَّى أَظَلَّتْهُ(٢).

وَمَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا ظِلَّ لِشَخْصِهِ فِي شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ نُورًا(٣)، وَأَنَّ الذُّبَابَ كَانَ لَا يَقَعُ عَلَى جَسَدِهِ وَلَا ثِيَابِهِ(٤).

وَمِنْ ذَلِكَ تَحْبِيبُ الخَلْوَةِ إِلَيْهِ حَتَّى أُوحِيَ إِلَيْهِ(٥)، ثُمَّ إِعْلَامُهُ بِمَوْتِهِ وَدُنُوِّ أَجَلِهِ(٦)، وَأَنَّ قَبْرَهُ فِي المَدِينَةِ(٧)، وَفِي بَيْتِهِ(٨)، وَأَنَّ بَيْنَ بَيْتِهِ وَبَيْنَ مِنْبَرِهِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ(٩).

قوله (وأَيْنَعَتْ): بالنونِ قبلَ التحتيةِ.

---

(١) حديث (أنه نزل في بعض أسفاره ...): [بيَّض له السيوطي، ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

(٢) حديث (ميل فيء الشجرة إليه): هو في حديث الراهب وقد تقدم [ص٣٤٨].

(٣) حديث (أنه كان لا ظل لشخصه ...): تقدم أول الكتاب [ص١٠٨].

(٤) حديث (أن الذباب كان لا يقع عليه): [بيَّض له السيوطي، ولم يعزه، وقال القاري في «المرقاه»(٧/ ٢٦٨١) (وفي «شفاء الصُّدُور»، و«تاريخ ابن النجَّار» مُسندًا «أنَّ النبيَّ ﷺ كان لا يَقَعُ على جَسَدِهِ ولا ثِيَابِهِ ذُبَابٌ أصلًا»، وفي «المواهب اللدنية» (٢/ ٢٠٠) (ونقل الفخر الرازي: أنَّ الذبابَ لا يقع على ثيابه قطُّ، وأنه لا يمتص دمه البعوض»)].

(٥) حديث أنه ﷺ حُبِّبَ إليه الخَلْوةُ حتى أُوحِيَ إليه: الشيخان [البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)] عن عائشة.

(٦) حديث (إعلامه بموته ودنو أجله ...): الشيخان [البخاريُّ (٦٢٨٥)، ومسلمٌ (٢٤٥٠)] وغيرهما من طرقٍ.

(٧) حديث (أن قبره في المدينة): أبو نعيم في «الدلائل»، [وأخرجه الرويانيُّ في مسنده (١٣٠١)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٢٠/ ٢٠٥)، وابن عديٍّ في «الكامل» (٧/ ٢٦)] عن معقل بن يسار بلفظ: المدينة مهاجري ومضجعي من الأرض [وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٣/ ٣١٠) (وفيه عبدالسَّلام بن أبي الجَنُوبِ، وهو متروكٌ»)].

(٨) حديث (أن قبره في بيته): البيهقيُّ [٧/ ٢٥٩] عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٩) حديث (أن بيته ومنبره روضة من رياض الجنة): سيأتي [ص٥٣٧].

وَتَخْيِيرُ الله لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ حَدِيثُ الوَفَاةِ مِنْ كَرَامَاتِهِ، وَتَشْرِيفِهِ، وَصَلَاةِ المَلَائِكَةِ عَلَى جَسَدِهِ -عَلَى مَا رَوَيْنَاهُ فِي بَعْضِهَا[1].

وَاسْتِئْذَانِ مَلَكِ المَوْتِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ عَلَى غَيْرِهِ قَبْلَهُ، وَنِدَائِهِمُ الَّذِي سَمِعُوهُ أَنْ لَا تَنْزِعُوا عَنْهُ القَمِيصَ عِنْدَ غُسْلِهِ[2].

وَمَا رُوِيَ مِنْ تَعْزِيَةِ الخَضِرِ وَالمَلَائِكَةِ أَهْلَ بَيْتِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، إِلَى مَا ظَهَرَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ كَرَامَاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ فِي حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ، كَاسْتِسْقَاءِ عُمَرَ بِعَمِّهِ[3]، وَتَبَرُّكِ غَيْرِ وَاحِدٍ بِذُرِّيَّتِهِ.

***

***

(١) حديث الوفاة بطوله. الشافعي في سننه، والعدنيُّ في مسنده، والبيهقيُّ في «الدلائل» [حديث تخييره أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» (٧/ ١٦٢)، عن مولى الحكم بن أبي العاص وقال: هذا مرسل وهو شاهد لحدث أبي مويهبة. وحديث صلاة الملائكة على جسده أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» (٧/ ٢٣١). وحديث استئذان مَلَك الموت عليه أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» (٧/ ٢١١). وتعزيه الخضر أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» (٧/ ٢٦٩)] وفيه تخييرُه واستِئذانُ مَلَكِ الموت عليه وتعزيةُ الخضر.

(٢) حديث (ندائهم الذي سمعوه أن لا تنزعوا عنه القميص): أبو داود [٣١٤١]، والبيهقيُّ [٧/ ٢٤٢] وصحَّحه عن عائشة، وأخرجه البيهقيُّ [٧/ ٢٤٢] عن بريدة.

(٣) حديث استسقاء عمر بعمه: البخاريُّ [١٠١٠، ٣٧١٠].

فَصْلٌ [فِي أَنَّ مُعْجِزَاتِه ﷺ أظهَرُ مِن سائِرِ المُعْجِزاتِ]

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

قَدْ أَتَيْنَا فِي هَذَا البَابِ عَلَى نُكَتٍ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ وَاضِحَةٍ، وَجُمَلٍ مِنْ عَلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ مُقْنِعَةٍ، فِي وَاحِدٍ مِنْهَا الكِفَايَةُ وَالغُنْيَةُ، وَتَرَكْنَا الكَثِيرَ سِوَى مَا ذَكَرْنَا، وَاقْتَصَرْنَا مِنَ الأَحَادِيثِ الطِّوَالِ عَلَى عَيْنِ الغَرَضِ، وَفَصِّ المَقْصِدِ، وَمِنْ كَثِيرِ الأَحَادِيثِ وَغَرِيبِهَا عَلَى مَا صَحَّ وَاشْتَهَرَ إِلَّا يَسِيرًا مِنْ غَرِيبِهِ مِمَّا ذَكَرَهُ مَشَاهِيرُ الأَئِمَّةِ، وَحَذَفْنَا الإِسْنَادَ فِي جُمْهُورِهَا؛ طَلَبًا لِلاخْتِصَارِ، وَبِحَسْبِ هَذَا البَابِ لَوْ تُقُصِّيَ أَنْ يَكُونَ دِيوَانًا جَامِعًا يَشْتَمِلُ عَلَى مُجَلَّدَاتٍ عِدَّةٍ.

وَمُعْجِزَاتُ نَبِيِّنَا ﷺ أَظْهَرُ مِنْ سَائِرِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَثْرَتُهَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ نَبِيٌّ مُعْجِزَةً إِلَّا وَعِنْدَ نَبِيِّنَا مِثْلُهَا أَوْ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْهَا، وَقَدْ نَبَّهَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنْ أَرَدْتَهُ فَتَأَمَّلْ فُصُولَ هَذَا البَابِ وَمُعْجِزَاتِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، تَقِفْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا كَوْنُهَا كَثِيرَةً فَهَذَا القُرْآنُ، وَكُلُّهُ مُعْجِزٌ، وَأَقَلُّ مَا يَقَعُ الإِعْجَازُ فِيهِ عِنْدَ بَعْضِ أَئِمَّةِ المُحَقِّقِينَ بِسُورَةِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾، أَوْ آيَةٍ فِي قَدْرِهَا، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ كُلَّ آيَةٍ مِنْهُ -كَيْفَ كَانَتْ- مُعْجِزَةٌ، وَزَادَ آخَرُونَ أَنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْهُ مُعْجِزَةٌ؛ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَلِمَةٍ، أَوْ كَلِمَتَيْنِ.

وَالحَقُّ مَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]؛ فَهُوَ أَقَلُّ مَا تَحَدَّاهُمْ بِهِ، مَعَ مَا يَنْصُرُ هَذَا مِنْ نَظَرٍ وَتَحْقِيقٍ يَطُولُ بَسْطُهُ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فَفِي القُرْآنِ مِنَ الكَلِمَاتِ نَحْوٌ مِنْ سَبْعَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ كَلِمَةٍ وَنَيِّفٍ عَلَى عَدَدِ بَعْضِهِم، وَعَدَدُ كَلِمَاتِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ عَشْرُ كَلِمَاتٍ، فَيَتَجَزَّأُ القُرْآنُ عَلَى نِسْبَةِ عَدَدِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ أَزْيَدَ مِنْ سَبْعَةِ آلَافِ جُزْءٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُعْجِزٌ فِي نَفْسِهِ.

قوله (على نُكَتٍ): -بضمِّ النونِ وفتحِ الكافِ- أي لَطائفَ.

قوله (والغُنْيةُ): بضمِّ الغينِ وسكونِ النونِ.

قوله (الطِّوالِ): بكسرِ الطاءِ.

قوله (ونَيِّفٍ): بتشديدِ الياءِ وتخفيفِها.

ثُمَّ إِعْجَازُهُ -كَمَا تَقَدَّمَ- بِوَجْهَيْنِ: مِنْ طَرِيقِ بَلَاغَتِهِ، وَطَرِيقِ نَظْمِهِ؛ فَصَارَ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذَا العَدَدِ مُعْجِزَتَانِ، فَتَضَاعَفَ العَدَدُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، ثُمَّ فِيهِ وُجُوهُ إِعْجَازٍ أُخَرَ، مِنَ الإِخْبَارِ بِعُلُومِ الغَيْبِ؛ فَقَدْ يَكُونُ فِي السُّورَةِ الوَاحِدَةِ مِنْ هَذِهِ التَّجْزِئَةِ الخَبَرُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنَ الغَيْبِ، كُلُّ خَبَرٍ مِنْهَا بِنَفْسِهِ مُعْجِزٌ؛ فَتَضَاعَفَ العَدَدُ كَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ وُجُوهُ الإِعْجَازِ الأُخَرُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا تُوجِبُ التَّضْعِيفَ.

هَذَا فِي حَقِّ القُرْآنِ، فَلَا يَكَادُ يَأْخُذُ العَدُّ مُعْجِزَاتِهِ، وَلَا يَحْوِي الحَصْرُ بَرَاهِينَهُ، ثُمَّ الأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ، وَالأَخْبَارُ الصَّادِرَةُ عَنْهُ ﷺ فِي هَذِهِ الأَبْوَابِ، وَعَمَّا دَلَّ عَلَى أَمْرِهِ مِمَّا أَشَرْنَا إِلَى جُمْلَةٍ مِنْهُ تَبْلُغُ نَحْوًا مِنْ هَذَا.

الوَجْهُ الثَّانِي: وُضُوحُ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ؛ فَإِنَّ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ كَانَتْ بِقَدْرِ هِمَمِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وَبِحَسَبِ الفَنِّ الَّذِي سَمَا فِيهِ قَرْنُهُ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَايَةُ عِلْمِ أَهْلِهِ السِّحْرُ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ مُوسَى بِمُعْجِزَةٍ تُشْبِهُ مَا يَدَّعُونَ قُدْرَتَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَجَاءَهُمْ مِنْهَا مَا خَرَقَ عَادَتَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي قُدْرَتِهِمْ، وَأَبْطَلَ سِحْرَهُمْ، وَكَذَلِكَ زَمَنُ عِيسَى أَغْنَى مَا كَانَ الطِّبُّ، وَأَوْفَرَ مَا كَانَ أَهْلُهُ، فَجَاءَهُمْ أَمْرٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَأَتَاهُمْ مَا لَمْ يَحْتَسِبُوهُ مِنْ إِحْيَاءِ المَيِّتِ، وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ دُونَ مُعَالَجَةٍ وَلَا طِبٍّ، وَهَكَذَا سَائِرُ مُعْجِزَاتِ الأَنْبِيَاءِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَجُمْلَةُ مَعَارِفِ العَرَبِ وَعُلُومِهَا أَرْبَعَةٌ: البَلَاغَةُ، وَالشِّعْرُ، وَالخَبَرُ، وَالكِهَانَةُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ القُرْآنَ الخَارِقَ لِهَذِهِ الأَرْبَعَةِ فُصُولٍ، مِنَ الفَصَاحَةِ وَالإِيجَازِ وَالبَلَاغَةِ الخَارِجَةِ عَنْ نَمَطِ كَلَامِهِمْ، وَمِنَ النَّظْمِ الغَرِيبِ، وَالأُسْلُوبِ العَجِيبِ الَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا فِي المَنْظُومِ إِلَى طَرِيقِهِ، وَلَا عَلِمُوا فِي أَسَالِيبِ الأَوْزَانِ مَنْهَجَهُ، وَمِنَ الإِخْبَارِ عَنِ الكَوَائِنِ وَالحَوَادِثِ وَالأَسْرَارِ وَالمُخَبَّآتِ وَالضَّمَائِرِ، فَتُوجَدُ عَلَى مَا كَانَتْ، وَيَعْتَرِفُ المُخْبَرُ عَنْهَا بِصِحَّةِ ذَلِكَ وَصِدْقِهِ، وَإِنْ كَانَ أَعْدَى العَدُوِّ، فَأَبْطَلَ الكِهَانَةَ الَّتِي تَصْدُقُ مَرَّةً، وَتَكْذِبُ عَشْرًا، ثُمَّ اجْتَثَّهَا مِنْ أَصْلِهَا بِرَجْمِ الشُّهُبِ، وَرَصْدِ النُّجُومِ.

قوله (إِعْجَازٍ أُخَرَ): بضمِّ الهمزةِ وفتحِ الخاءِ المعجمةِ.

قوله (إِلَى جُمْلَةٍ): -بضمِّ الجيمِ وفتحِ الميمِ- أي إلى جُمَلٍ مِن فَضْلِه.

قوله (والكَهانَةُ): -بكسرِ الكافِ وفتحِها- وهيَ مزاوَلةُ الخَبَرِ عَنِ الكائناتِ.

قوله (عَنْ نَمَطِ... إلخ): -بفتحِ النونِ والميمِ- أي نَوْعِه.

قوله (ومِنَ الإِخبارِ): بكسرِ الهمزةِ.

قوله (ويَعْتَرِفُ المُخْبَرُ... إلخ): -بفتحِ الموحَّدةِ- أي مَنْ أُخْبِرَ عَنْها.

قوله (ثُمَّ اجْتَثَّها): -بتشديدِ المثلَّثةِ- أي اقْتَلَعَها.

قوله (ورَصْدِ النُّجومِ) -بفتحِ الصادِ المهمَلةِ- أي جَعْلِها مُعَدّةً لحفظِ السماءِ.

وَجَاءَ مِنَ الأَخْبَارِ عَنِ القُرُونِ السَّالِفَةِ، وَأَنْبَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَالأُمَمِ البَائِدَةِ، وَالحَوَادِثِ المَاضِيَةِ مَا يُعْجِزُ مَنْ تَفَرَّغَ لِهَذَا العِلْمِ عَنْ بَعْضِهِ عَلَى الوُجُوهِ التي بَسَطْنَاهَا وَبَيَّنَّا المُعْجِزَ فِيهَا، ثُمَّ بَقِيَتْ هَذِهِ المُعْجِزَةُ الجَامِعَةُ لِهَذِهِ الوُجُوهِ إِلَى الفُصُولِ الأُخَرِ التي ذَكَرْنَاهَا فِي مُعْجِزَاتِ القُرْآنِ ثَابِتَةً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، بَيِّنَةَ الحُجَّةِ لِكُلِّ أُمَّةٍ تَأْتِي، لَا يَخْفَى وُجُوهُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ نَظَرَ فِيهِ، وَتَأَمَّلَ وُجُوهَ إِعْجَازِهِ، إِلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الغُيُوبِ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ، فَلَا يَمُرُّ عَصْرٌ وَلَا زَمَنٌ إِلَّا وَيَظْهَرُ فِيهِ صِدْقُهُ بِظُهُورِ مُخْبَرِهِ عَلَى مَا أَخْبَرَ، فَيَتَجَدَّدُ الإِيمَانُ، وَيَتَظَاهَرُ البُرْهَانُ، وَلَيْسَ الخَبَرُ كَالعِيَانِ، وَلِلْمُشَاهَدَةِ زِيَادَةٌ فِي اليَقِينِ، وَالنَّفْسُ أَشَدُّ طُمَأْنِينَةً إِلَى عَيْنِ اليَقِينِ مِنْهَا إِلَى عِلْمِ اليَقِينِ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ عِنْدَهَا حَقًّا.

وَسَائِرُ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ انْقَرَضَتْ بِانْقِرَاضِهِمْ، وَعُدِمَتْ بِعَدَمِ ذَوَاتِهَا، وَمُعْجِزَةُ نَبِيِّنَا ﷺ لَا تَبِيدُ وَلَا تَنْقَطِعُ، وَآيَاتُهُ تَتَجَدَّدُ وَلَا تَضْمَحِلُّ.

وَلِهَذَا أَشَارَ ﷺ بِقَوْلِهِ فِيمَا حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَبُو إِسْحَاقَ وَأَبُو الهَيْثَمِ، قَالُوا: حَدَّثَنَا الفِرَبْرِيُّ، حَدَّثَنَا البُخَارِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ)[1]، هَذَا مَعْنَى الحَدِيثِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَهُوَ الظَّاهِرُ وَالصَّحِيحُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَذَهَبَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الحَدِيثِ وَظُهُورِ مُعْجِزَةِ نَبِيِّنَا ﷺ إِلَى مَعْنًى آخَرَ مِنْ ظُهُورِهَا؛ بِكَوْنِهَا وَحْيًا وَكَلَامًا لَا يُمْكِنُ التَّخْيِيلُ فِيهِ، وَلَا التَّحَيُّلُ عَلَيْهِ وَالتَّشْبِيهُ، وَإِنَّ غَيْرَهَا مِنْ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ قَدْ رَامَ المُعَانِدُونَ لَهَا بِأَشْيَاءَ، طَمِعُوا فِي التَّخْيِيلِ بِهَا عَلَى الضُّعَفَاءِ، كَإِلْقَاءِ السَّحَرَةِ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ، وَشِبْهِ هَذَا مِمَّا يُخَيِّلُهُ السَّاحِرُ أَوْ يَتَحَيَّلُ فِيهِ.

قوله (مِن الأخبارِ): بفتحِ الهمزةِ.

قوله (البائدةِ): أي الهالكةِ.

قوله (مِنَ الغُيوبِ): -بضمِّ الغينِ وكسرِها- أي المغيَّباتِ.

قوله (بِظُهورِ مُخْبَرِهِ): بضمِّ الميمِ وفتحِ الموحَّدةِ.

قوله (كالعيانِ): بكسرِ أوَّلِه.

قوله (ولا تَضْمَحِلُّ): -بتشديدِ اللامِ- أي لا تَزولُ أصْلًا.

قوله (ولا التَّحَيُّلُ): -بالحاءِ المهمَلةِ- مِن الحيلةِ.

---

(١) [تقدم تخريجه. انظر ص٢١٣].

وَالقُرْآنُ كَلَامٌ لَيْسَ لِلْحِيلَةِ وَلَا لِلسِّحْرِ فِي التَّخْيِيلِ فِيهِ عَمَلٌ؛ فَكَانَ مِنْ هَذَا الوَجْهِ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ المُعْجِزَاتِ، كَمَا لَا يَتِمُّ لِشَاعِرٍ وَلَا خَطِيبٍ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ خَطِيبًا بِضَرْبٍ مِنَ الحِيَلِ والتَّمْوِيهِ.

وَالتَّأْوِيلُ الأَوَّلُ أَخْلَصُ وَأَرْضَى، وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ الثَّانِي مَا يُغَمَّضُ الجَفْنُ عَلَيْهِ ويُغْضَى.

وَجْهٌ ثَالِثٌ عَلَى مَذْهَبِ مَنْ قَالَ بِالصَّرْفَةِ وَأَنَّ المُعَارَضَةَ كَانَتْ فِي مَقْدُورِ البَشَرِ فَصُرِفُوا عَنْهَا، أَوْ عَلَى أَحَدِ مَذْهَبَيْ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَنَّ الإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِهِمْ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ قَبْلُ، وَلَا يَكُونُ بَعْدُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُقْدِرْهُمْ، وَلَا يُقْدِرُهُمْ عَلَيْهِ، وَبَيْنَ المَذْهَبَيْنِ فَرْقٌ بَيِّنٌ.

وَعَلَيْهِمَا جَمِيعًا، فَتَرْكُ العَرَبِ الإِتْيَانَ بِمَا فِي مَقْدُورِهِمْ أَوْ مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِهِمْ، وَرِضَاهُمْ بِالبَلَاءِ وَالجَلَاءِ والسِّبَاءِ وَالإِذْلَالِ وَتَغْيِيرِ الحَالِ، وَسَلْبِ النُّفُوسِ وَالأَمْوَالِ، وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِيزِ، وَالتَّهْدِيدِ وَالوَعِيدِ، أَبْيَنُ آيَةٍ لِلْعَجْزِ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَالنُّكُولِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَأَنَّهُمْ مُنِعُوا مِنْ شَيْءٍ هُوَ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِهِمْ.

وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الإِمَامُ أَبُو المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ وَغَيْرُهُ؛ قَالَ: وَهَذَا عِنْدَنَا أَبْلَغُ فِي خَرْقِ العَادَةِ بِالأَفْعَالِ البَدِيعَةِ فِي أَنْفُسِهَا، كَقَلْبِ العَصَا حَيَّةً، وَنَحْوِهَا؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَسْبِقُ إِلَى بَالِ النَّاظِرِ بِدَارًا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اخْتِصَاصِ صاحِبِ ذَلِكَ بِمَزِيدِ مَعْرِفَةٍ فِي ذَلِكَ الفَنِّ، وَفَضْلِ عِلْمٍ، إِلَى أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ صَحِيحُ النَّظَرِ، وَأَمَّا التَّحَدِّي لِلْخَلَائِقِ المِئِينَ مِنَ السِّنِينَ بِكَلَامٍ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِمْ؛ لِيَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَلَمْ يَأْتُوا، فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ تَوَفُّرِ الدَّوَاعِي عَلَى المُعَارَضَةِ، ثُمَّ عَدَمِهَا إِلَّا أَنْ مَنَعَ اللهُ الخَلْقَ عَنْهَا، بِمَثَابَةِ مَا لَوْ قَالَ نَبِيٌّ: آيَتِي يَمْنَعُ اللهُ القِيَامَ عَنِ النَّاسِ مَعَ مَقْدِرَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَارْتِفَاعِ الزَّمَانَةِ عَنْهُم، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ، وَعَجَّزَهُم اللهُ تَعَالَى عَنِ القِيَامِ، لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَبْهَرِ آيَةٍ، وَأَظْهَرِ دِلَالَةٍ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَقَدْ غَابَ عَنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ وَجْهُ ظُهُورِ آيَتِهِ عَلَى سَائِرِ آيَاتِ الأَنْبِيَاءِ؛ حَتَّى احْتَاجَ لِلْعُذْرِ عَنْ ذَلِكَ بِدِقَّةِ أَفْهَامِ العَرَبِ، وَذَكَاءِ أَلْبَابِهَا، وَوُفُورِ عُقُولِهَا،

قوله (ما يُغَمَّضُ): -بصيغةِ المفعولِ مُخَفَّفًا أو مشدَّدًا كما قال الحلبيُّ- أي يُغَطَّي.

و(الجَفْنُ): -بفتحِ الجيمِ وسكونِ الفاءِ- غِطاءُ العَيْنِ.

قوله (بَيِّنٌ): بتشديدِ التحتيةِ المكسورةِ.

قوله (والجَلاءِ): -بفتحِ الجيمِ- أي الخُروجِ مِن أوطانِهم.

قوله (الجُوَيْنيُّ): بالتصغيرِ.

قوله (بِدارًا): -بكسرِ الموحَّدةِ- أي مُبادرةً.

وَأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا المُعْجِزَةَ فِيهِ بِفِطْنَتِهِمْ، وَجَاءَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ إِدْرَاكِهِمْ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ القِبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ لَمْ يَكُونُوا بِهَذِهِ السَّبِيلِ، بَلْ كَانُوا مِنَ الغَبَاوَةِ وَقِلَّةِ الفِطْنَةِ؛ بِحَيْثُ جَوَّزَ عَلَيْهِم فِرْعَوْنُ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَجَوَّزَ عَلَيْهِمُ السَّامِرِيُّ ذَلِكَ فِي العِجْلِ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَعَبَدُوا المَسِيحَ مَعَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى صَلْبِهِ، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فَجَاءَتْهُمْ مِنَ الآيَاتِ الظَّاهِرَةِ البَيِّنَةِ لِلأَبْصَارِ بِقَدْرِ غِلَظِ أَفْهَامِهِمْ مَا لَا يَشُكُّونَ فِيهِ، ومَعَ هَذَا فَقَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَى المَنِّ والسَّلْوَى، وَاسْتَبْدَلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

وَالعَرَبُ -عَلَى جَاهِلِيَّتِهَا- أَكْثَرُهَا يَعْتَرِفُ بِالصَّانِعِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَتَقَرَّبُ بِالأَصْنَامِ إِلَى اللهِ زُلْفَى، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَحْدَهُ قَبْلَ الرَّسُولِ ﷺ بِدَلِيلِ عَقْلِهِ وَصَفَاءِ لُبِّهِ، وَلَمَّا جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِكِتَابِ اللهِ فَهِمُوا حِكْمَتَهُ، وَتَبَيَّنُوا بِفَضْلِ إِدْرَاكِهِمْ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مُعْجِزَتَهُ، فَآمَنُوا بِهِ، وَازْدَادُوا كُلَّ يَوْمٍ إِيمَانًا، وَرَفَضُوا الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي صُحْبَتِهِ، وَهَجَرُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَقَتَلُوا آبَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ فِي نُصْرَتِهِ، وَأُتِيَ فِي مَعْنَى هَذَا بِمَا يَلُوحُ لَهُ رَوْنَقٌ، وَيُعْجَبُ مِنْهُ زِبْرِجٌ، لَوِ احْتِيجَ إِلَيْهِ وَحُقِّقَ لَكِنَّا قَدَّمْنَا فِي بَيَانِ مُعْجِزَةِ نَبِيِّنَا وَظُهُورِهَا مَا يُغْنِي عَنْ رُكُوبِ بُطُونِ هَذِهِ المَسَالِكِ وَظُهُورِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

***

قوله (**بحَسَبِ إدراكِهم**): -بفتحِ السينِ المهمَلةِ- أي بِمُقْتَضى إدراكِهم.

قوله (**وَجَوَّزَ عَلَيْهِمُ السَّامِرِيُّ**): مِن عُظَماءِ بَني إسرائيلَ، واسمُه موسى بنُ ظَفَرٍ.

قوله (**ما لا يَشُكّونَ**): (ما) فاعلُ (جاءَ) في قولِه (**فجاءَتْهم مِن الآياتِ**... إلخ).

قوله (**وَلَمْ يَصْبِروا على المَنِّ والسَّلْوى**): أي على أكْلِهما.

قوله (**وَقَتَلوا آباءَهُمْ**... إلخ): أي وسائرَ أقارِبِهم وأحِبّائِهم.

قوله (**يَلوحُ**): أي يَلْمَعُ، (**وَيُعْجَبُ مِنْهُ**): بصيغةِ المفعولِ. قوله (**زِبْرِجٌ**): -بكسرِ الزاي والراءِ، بَيْنَهما موحَّدةٌ ساكنةٌ، وفي آخِره جيمٌ- أي زينةٌ مِن ذَهَبٍ وجَوْهَرٍ.

قوله (**واللهُ المستَعانُ**): -وفي نسخةٍ «وباللهِ أَسْتَعينُ»- أي في كُلِّ وَقْتٍ وحينٍ، وفي بَعْضِ النُّسَخِ زيادةُ «وهوَ حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكيلُ».

***

بسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم

القِسْمُ الثَّاني: فيما يَجِبُ على الأنامِ، مِنْ حُقُوقِهِ ﷺ

قالَ القاضي أَبو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

وهذا قِسْمٌ لَخَّصْنَا فِيهِ الكَلَامَ في أربَعَةِ أبوابٍ، على ما ذَكَرْناه أَوَّلَ الكِتَابِ، ومَجْمُوعُها في وُجُوبِ تَصْدِيقِهِ واتِّباعِهِ في سُنَّتِه، وَطاعَتِه ومَحَبَّتِه، ومُناصَحَتِه وتَوقِيرِه وبِرِّه، وحُكْمِ الصَّلاةِ عَلَيْه والتَّسْلِيم، وزيارَةِ قَبْرِهِ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

***

قوله (القِسْمُ الثَّاني): أي مِن الأقسَامِ الأربعةِ التي حُصِرَ الكتابُ فيها.

(فيما يَجِبُ على الأنامِ): أي الخَلْقِ، قال الدَّلجيُّ: وهُوَ كُلُّ ما على الأرضِ مِنْ دابَّةٍ، والمرادُ المكَلَّفونَ.

قوله (مِنْ حُقُوقِهِ... إلخ): أيْ مِمَّا أَوْجَبَه اللهُ عليْهِمْ إكرامًا له واحترامًا.

قوله (ومَجْمُوعُها): أي أبوابُ هذا القِسْمِ الأربَعةُ (في وجوبِ تَصْدِيقِه): أي الإيمانِ به في جَميعِ ما جَاءَ به عنْ ربِّه.

قوله (واتِّباعِه في سُنَّتِه): أي في وُجُوبِ متابَعتِه في شريعتِه وطريقةِ حقيقتِه.

قوله (وطاعَتِه): أيْ في وُجوبِ امتِثالِ أوامِره واجتنابِ ذَواجِره كَمَا بَيَّنَه في فُصُولِ البابِ الأَوَّلِ.

قوله (وَمَحَبَّتِه): أيْ في وُجوبِ مَحبَّتِه، والمَحَبَّةُ مَيْلُ النفسِ إلى المحبوبِ، قَدْ أَوْجَبَها اللهُ علَيْنا، وقَدْ وَشَّحَ بِهَا المُصَنِّفُ فُصولَ البابِ الثاني، قالَ المُلَّا: والواجبُ على المسْلمِ أنْ يَجْعلَ محبَّتَه تابعةً لِمَا يُحِبُّه النبيُّ؛ لِمَا وَرَدَ: (لا يُؤمِنُ أحدُكمْ حتَّى يَكُونَ هَواه تَبَعًا لِمَا جِئتُ به)[1].

قوله (ومُنَاصَحَتِه): -مِن النُّصْحِ؛ وهوَ لُغَةً: الخُلُوصُ، وشَرعًا: إرادةُ الخيرِ لِلمنْصوحِ له- أيْ فيَجِبُ قَبُولُ نُصْحِه له في أمْرِه ونَهْيِه، والمُناصَحةُ مفاعَلةٌ، قَصْدُها المبالَغةُ في النُّصْحِ.

***

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٥)، والحكيم في «نوادر الأصول» (٤/ ١٦٤) والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٠٤)، والخطيب في «التاريخ» (٥/ ١٣٣) مِن حديث عبدالله بن عمرو.
وذكره الإمام النووي في «الأربعين النووية» (٤١) وصحَّحه، وتعقَّبه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم» (٢/ ٣٩٤)، من وجوهٍ، وقال: «تصحيح هذا الحديث بعيدٌ جدًّا مِن وجوهٍ...» وذكرها. وذكره الحافظ ابن حجرٍ في «فتح الباري» (١٣/ ٢٨٩) من حديث أبي هريرة، قال: «أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثِقاتٌ وقد صحَّحه النوويُّ في آخر الأربعين». والله أعلم.

البَابُ الأَوَّلُ:
فِي فَرْضِ الإيمانِ به، ووُجوبِ طاعتِه، واتِّباعِ سُنَّتِه

إذا تقَـرَّرَ بـِمَا قَدَّمْنَـاهُ ثُبـوتُ نُبُوَّتِـه وصِحَّـةُ رسـالتِه، وَجَـبَ الإيـمانُ بـِهِ وتصْديقُـه فِيـمَا أَتَـى بـه.

قـالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿فآمِنُـوا بـاللهِ ورَسُـولِه والنُّـورِ الـذي أَنْزَلْنـا﴾ [التغابـن: ٨]، وقـالَ: ﴿إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ شـاهِدًا ومبَـشِّرًا ونَذيـرًا * لِتُؤْمِنُـوا بـالله ورَسُـولِهِ﴾ [الفتـح: ٨-٩]، وقـالَ: ﴿فآمِنُـوا بـالله ورَسُـولِهِ النَّبِـيِّ الأُمِّـيِّ...﴾ الآيـة [الأعـراف: ١٥٨].

(البـابُ الأَوَّلُ: في فَـرْضِ الإيـمانِ بـه): أي التصْديـقِ؛ بمَعنَـى حديـثِ النفْـسِ التابِـعِ لِلمعْرِفـةِ، أيْ قَـوْلِ النفْـسِ: آمَنْـتُ وصَدَّقْـتُ نُبُوَّتَـه ورسَـالتَه ومَـا جَـاءَ بـه، لا مُجرَّدِ التصديـقِ مِـن غـيْرِ إذْعـانٍ؛ فـإنَّ هـذا لا يَكفِـي لِوُجُـودِهِ مَـعَ بَعْـضِ أَهْـلِ الكُفْـرِ كَـما أَخْـبَرَ البـارِي -جَـلَّ شـأنُه- بقوْلـه: ﴿الذيـنَ آتَيْناهـم الكِتَـابَ يَعْرِفونَـه﴾ [البقـرة: ١٤٦] أيْ أنَّـه عـلى الحَـقِّ كَـما يعْرِفـونَ أبناءَهـمْ، والتكليـفُ بالمعرفـةِ والتصديـقِ مِـن حيْـث أسـبابُهُما فـلا يَردانِهـا مِـنْ مقولـة الكيـف عـلى التحقيـق.

قولـه (ثُبـوتُ نُبُوَّتِـه): أي بظهـورِ معْجِزاتِـه. وقولـه (وصِحَّةُ رسـالتِه): أي بوُضـوحِ آياتِه.

وقولـه (وَجَـبَ الإيـمانُ بـه): لِأَنَّـه فَـرْعُ ثبوتِهـما كتَوَقُّـفِ المشروطِ عـلى شَرطِـه. وقولـه (وتصْديقُـه فِيـمَا أَتَـى بـه): عطـفُ تفسـيرٍ عِنْـدَ مَـن يَقـولُ: «الإيـمانُ تصديـقٌ فقـطْ». اهـ دَلجي، قـال المُلَّا: قولُـه «وتصديقُـه فيـما أَتَـى بـه» أي مِـن عنْـدِ ربِّـه مِـنَ الوحْـي الجَلِيِّ، أو مِـنْ طَريـقِ الوَحْـيِ الخَفِـيِّ؛ وبهـذا غايَـرَ مـا قَبْلَـه؛ فـلا وَجْـهَ لِقَـوْلِ الدّلجـيِّ إنَّـه عَطـفُ تفسـيرٍ لِأنَّ المحقِّقِيـنَ عـلى أنَّ الإيـمانَ هُـوَ التصديـقُ، والإقـرارَ شَرْطٌ لِإجـراءِ الأحـكامِ، والأعـمالَ شَرْطُ كـمالٍ. اهـ. قلتُ: حيـثُ قيَّـدَ الدّلجـيُّ كونَـه عطـفَ تفسـيرٍ عِنْـدَ مَـن يقـولُ... إلـخ؛ فـلا حاجـةَ لِلتَـوَرُّكِ عليْـه، وإنْ كانَ ظاهـرُ عِبارتـه يُوهِـمُ أنَّـه جَـارٍ عـلى خِـلافِ التحقيـقِ مِـنْ كَـوْنِ الإيـمانِ مُرَكَّبًـا مِـن التصديـقِ والإقـرارِ.

قوله (والنُّورِ الذي أَنْزَلْنا): هُو القرآنُ؛ إذْ هوَ بإعجازِه ظاهِرٌ بنَفْسِه، مُظْهِرٌ لِغَيْرِه.

قولـه (شـاهدًا): قـال المُلّا والدَّلجيُّ: أي بتصديـقِ مَـنْ بَعثـتُ إلَيْهـم إيـاكَ، أيْ وبتكذيبِهـمْ. قولـه (لِتُؤْمِنُوا): -قُـرِئَ بالخِطـابِ والغَيبـةِ في السّـبعةِ- أيْ تصَدِّقُـوا، قـال الدّلجيُّ: الخِطَـابُ لـه ولِأُمَّتِـه، أو لهـمْ تنزيـلًا لِخطابِـه مَنزلـةَ خِطَابِهـم. اهـ، قـال المـلّا: والأظهَـرُ أنَّ الضَّمـيرَ لِلأمّـةِ على قـراءَةِ الخِطَـابِ والغَيْبـةِ -كَـما يَـدُلُّ عَلَيْـه سِـيَاقُ الـكَلَامِ.

قولـه (الأُمِّـيِّ): أي المنسـوبِ إلى أمِّ القُـرَى، وهِـيَ مَكَّـةُ المُشَرَّفـةُ؛ قـالَ تعـالى: ﴿لِتُنْـذِرَ أَمَّ القرى ومَـنْ حوْلهـا﴾ [الشـورى: ٧]. قـالَ المُلَّا: ويَحتمِـلُ المنسـوبَ إلى أُمّـةِ العَـرَبِ الَّتِـي غالبُهـا لم يَقـرأْ ولم يَكتـبْ كَـما وَرَدَ: (إنَّـا أُمَّـةٌ أميّـةٌ لا نكتُـبُ ولا نحسُـبُ)[1]، أو المنسُـوبَ إلى الأُمِّ؛ يَعني عـلى الوصْـفِ الـذي خَـرَجَ بـه مـنْ بَطـنِ أُمِّـهِ مِـن غـيرِ اكتسـابٍ لِـشيءٍ مِـن الكِتابـةِ والقِـراءةِ. ومَـعَ ذلـكَ أَظهَـرَ المعجـزاتِ الباهـرةَ وأتـى بأخبـارِ الأمـم الماضيـة، فعـدمُ القـراءةِ في حقِّـه كـمالٌ، وإن كان نقصـا في غـيره.

---

(١) متفـقٌ عليـه أخرجـه البخـاريُّ (١٩١٣) [كتـاب الصَّـوم]، ومسـلمٌ (١٠٨٠) [كتـاب الصِّيـام]، وغيرهمـا مـن حديـث عبدالله ابـن عمـر.

فالإيمانُ بالنَّبِيِّ محمَّدٍ ﷺ واجبٌ مُتعَيِّنٌ، لا يَتِمُّ إيمانٌ إلا بهِ، ولا يَصِحُّ إسْلامٌ إلا مَعَهُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

حَدَّثَنَا أَبُو محمَّدٍ الخُشَنِيُّ الفَقِيهُ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا الإمامُ أَبُو عَلِيٍّ الطَّبَرِيُّ، حَدَّثَنا عَبْدُ الغافِرِ الفارسيُّ، حَدَّثَنا ابنُ عَمْرَوَيْهِ، حَدَّثَنا أَبُو سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا أُمَيَّةُ بْنُ بِسْطامٍ، حَدَّثَنا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ عَنِ العَلاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هريرةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ:

(أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ويُؤْمِنُوا بي وبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإذَا فَعَلُوا ذلكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوالَهُمْ إلاَّ بِحَقِّهَا،

قوله (لا يَتِمُّ إيمان إلا به، ولا يصح... إلخ): قال المُلَّا: هذا بناءً على تَغايُرِهما، والحقُّ اتحادُهُما فإنه لا يعتبر شرعًا مسْلِمٌ غيرُ مؤمنٍ ولا العكس، بشهادة ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].
أقول: والتحقيقُ تغايرُهما مفهومًا، وأن الإيمانَ حقيقتُه الانقيادُ البَاطنيُّ والإسْلامُ الانقيادُ الظاهري لِأَجْلِ إجراءِ أحكامِ الشرعِ الظاهريةِ عليْه، فقاعدتُهما على التحقيقِ كالفقيرِ والمِسْكينِ إذا افترَقَا اجْتَمَعَا، وإذا اجْتَمَعَا افترَقَا، نَعَمْ هُما متلازمانِ في المَاصَدَق شرعًا.

قوله (الخُشَنِيُّ): -بضمِّ الخاءِ وفتحِ الشينِ المعْجَمتَيْنِ- نِسْبَةٌ إلى قبيلةِ خُشَيْنَةَ، قال المُلّا: وَفي نسخةٍ بزيادةِ «الفَقيه»، وهي موافِقةٌ لِلنُّسَخِ الصحيحةِ الَّتِي بِيَدَيَّ.

قوله (بِقِراءَتِي عَلَيْه): أيْ لا مُجَرَّدِ إجازةٍ، وهذه وسْطى، وأعْلى طُرقِ التحمُّلِ السَّماعُ مِن الشيخِ، ويَليها سَماعُ الشيْخِ مِنَ التلميذِ، وهذه اشترَطُوا فيها أنْ لا يَكُونَ هنَاكَ نَوْعُ غفلةٍ بنحوِ نُعاسٍ مِن الشيخِ، وَإلا فلا عِبْرَةَ بهذا، وَيَليها رُتْبةُ الإجازةُ.

قوله (حَدَّثَنا): -وفي نسْخةٍ «أَنْبَأنَا»- أيْ أَخْبَرَنا، والتحديثُ والإخبارُ بِمَعْنًى واحِدٍ.

قوله (الطَّبَرِيُّ): بفتحِ المهْمَلةِ والموحَّدةِ. وقوله (الفارسيُّ): بكسْر الراءِ، وفي نسخةٍ «القاريُّ»، وهو تصحيفٌ.

قوله (ابنُ عَمْرَوَيْه): بفتحِ المهْمَلةِ وسُكونِ الميمِ وفتحِ الراءِ وَواوٍ فسُكونِ تحتيّةٍ، وضُبطَ أيْضًا بضمِّ رَاءٍ وسكونِ واوٍ وتحتيّةٍ وفوقيةٍ مفتوحتَيْنِ. قوله (أبو سُفيانَ[1]): هوَ راوي «صَحيحِ مسْلِمٍ» عَنْه.

قوله (أبو الحُسَيْنِ): هوَ مُسْلِمٌ، صاحبُ «الصّحيحِ». قوله (بنُ بِسْطامٍ): بكسرِ المَوَحّدةِ وفتْحِها، ويُصرَفُ ويُمنَعُ. قوله (بنُ زُرَيْعٍ): -بضمِّ الزاي مصغَّرًا- أَخْرَجَ له الأئمةُ السِّتَّةُ. قوله (رَوْحٌ): -بفتحِ الراءِ- أخرَجَ له السّتّةُ ما عدَا الترمذيَّ. قوله (عَنِ العَلاءِ): هوَ أَحَدُ عُلَماءِ المَدينةِ، رَوَى عنه شُعبةُ والإمامُ مالكٌ.

قوله (حَتَّى يَشْهَدُوا... إلخ): في روايةٍ «حتَّى يَقُولُوا». وقوله (ويُؤْمِنُوا بِي وبِمَا جِئتُ به): أيْ ممّا أَمَرَني به. وقوله (فإذا فعَلوا ذلك): أيْ آمَنُوا بها والتَزَموا.

قوله (إلّا بحقِّها): أيْ إلا بحقٍّ يَتعلَّقُ بها كقَتْلِ نفسٍ بعُدْوانٍ، أو زِنًا بَعْدَ إحْصانٍ، أو كُفْرٍ بَعْدَ إيمانٍ.

---

(١) جاء في أصل الشرح: «قوله (ابن سفيان): وفي النسخ الصحيحة: أبو سفيان»، على الرغم من إثبات الشارح للاسم صحيحا في متن الكتاب.

وقولـه (وحِسـابُهم عـلَى): أي فِيـمَا يُضْمِـرونَ مِـن كُفْـرٍ ومَعْصيـةٍ؛ فالحُكْـمُ بالإيـمانِ لِظَواهرهـم، واللهُ متوَلٍّ لِسَرائرهـم. اهـ ملّا، وفيـه إشـارةٌ لِقـولِ الإمـامِ الشـافعيِّ «أُمِـرْتُ أنْ أَحكُـمَ بالظاهـرِ، واللهُ يَتـولى السّرائـرَ». قـال السيوطيُّ: ومَـا اشْـتهَرَ أنـه نُقِلَ عـن رسـولِ الله ﷺ هَـذا اللفـظُ لا أصْـل لـه، وإنَّـما هُـو مِـنْ كلامِ الشَّـافعيِّ.

(وتصديقُـه فِي جميـعِ مـا جـاء بـه): أي مِـنْ معتَقَداتِـه. قولـه (ومـا قالَـه): أي وفي جَميـعِ مقولاتِـه مِـن مأموراتِـهِ ومَنهيّاتِـه. قولـه (شَـهادَةَ اللِّسَـانِ): بالنصـبِ معمـولُ المَصـدرِ، وبالرفـعِ خَـبَرٌ.

قولـه (في هـذا الحديـثِ نفسِـه): أي بعينِـه إلاّ إنـه (مِـن رِوايـةِ ابـنِ عُمـرَ) أي لا مِـن أبِي هريـرةَ.

وقولـه (وقَـدْ زادَه): أي النبـيُّ (وُضوحًـا). قولـه (أَركانَ الإِسْـلام): أي الخمسَـةَ كَـمَا ورَدَ (بُنِـيَ الإسْـلامُ عـلى خَمْـسٍ)(١). قولـه (فقَـدْ قَـرَّرَ): أي النبيُّ ﷺ. وقولـه (أنَّ الإيـمانَ بِـه): أيْ بـالله سُبْحانه. وقوله (محتـاجٌ): وفي نسْـخةٍ يَحتـاجُ. وقولـه (بالجَنَـانِ): -بفتـحِ الجيـمِ- أي الاعتقـادِ الجـازمِ بالقلـبِ.

قولـه (وهـذه الحـالُ المحمُـودةُ التامّـةُ): وفي نسـخةٍ «هـيَ المحمـودةُ التامّـةُ»، أي عِنـدَ الخَاصّـةِ والعَامّـةِ، قـال الدّلجـيُّ: مـؤذِنٌ بـأنّ العَقـدَ بالجَنـانِ كافٍ، وإنْ لم يُنطَـقْ بـه، والنُّطْـقَ شَرْطٌ لِإجْـراءِ الأحـكامِ فقـطْ. اه. وهـذا مناقِـضٌ لِقولِـه إنَّ المصنـفَ ذاهـبٌ إلى أنّ الْإِسْـلامَ اسْـمٌ لِفعـلِ القلـبِ واللسَـانِ، وعليْـه بعْـضُ الأشْـعَرِية، والتحقيـقُ مـا دَرَجَ عليْـه المصنِّـفُ مِـنْ كونِـه شرْطًـا لا شـطرًا، والأعـمال شرطًـا لِلكـمالِ.

(١) متفـقٌ عليـه أخرجـه البخـاريُّ (٨) [كتـاب الإيـمان]، ومسلـمٌ (١٦) [كتـاب الإيـمان]، وغيرهـما مـن حديـث عبـدالله بـن عمـر.

وحِسَـابُهُمْ عـلى الله تعـالى)(١). قـالَ القـاضي أَبُـو الفَضْلِ:

والإِيـمانُ بِـه ﷺ هُـوَ تَصْديـقُ نُبُوَّتِـهِ ورِسَـالَتِه، وتَصْدِيقُـه في جَمِيـعِ مـا جـاءَ بـهِ، ومـا قالَـه، ومُطابَقَـةُ تَصْدِيـقِ القَلْـبِ بذلِـكَ شَـهادَةَ اللِّسَـانِ بأنَّـه رَسُـولُ الله ﷺ، فـإذا اجتَمَـعَ التَصْديـقُ بِـهِ بالقَلْـبِ، والنُّطْـقُ بالشَّـهادةِ بذلِـكَ، تَـمَّ الإيـمانُ بِـه، والتصديـقُ لـه كَـمَا وَرَدَ في هَـذا الحَديـثِ نَفْسِـهِ مِـنْ رِوايَـةِ عَبْـدِ الله بـنِ عُمَـرَ: (أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَتَّـى يَشْـهَدُوا أَنْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، وأَنَّ محمَّـدًا رَسُـولُ الله)(٢).

وَقَـدْ زادَهُ وُضُوحًـا في حَديـثِ جِبْرِيـلَ؛ إذْ قـالَ: أَخْـبِرْنِي عَـنِ الإِسْـلامِ، فقَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: (أَنْ تَشْـهَدَ أَنْ لا إِلَـهَ إِلّا اللهُ، وأَنَّ محمَّـدًا رسُـولُ الله)، وذَكَـرَ أَركانَ الإِسْـلامِ، ثُـمَّ سَـأَلَه عَـنِ الإيـمانِ، فقَـالَ: (أَنْ تُؤْمِـنَ بـالله ومَلائكتِـهِ وكُتُبِـهِ ورُسُـلِه...) الحديـثَ(٣).

فَقَـدْ قَـرَّرَ أَنَّ الإيـمانَ بِـه مُحتـاجٌ إِلَى العَقْـدِ بالجَنـانِ، والإِسْـلامَ بِـه مُضْطَـرٌّ إِلىَ النُّطْـقِ باللِّسَـانِ، وهَـذه الحَـالُ المحمُـودَةُ التّامَّـةُ.

(١) حديث أبي هريرة: (أمرت أن أقاتل الناس ...): أسنده من طريق مسلم [٢٠]، وأخرجه البخاريُّ أيضًا [١٣٩٩].

(٢) حديث ابن عمر مثله. الشيخان [البخاريُّ (٢٥)، ومسلمٌ (٢٢)، والحديث نصَّ على تواتره عددٌ من الحُفَّاظ، انظر «الأزهار المتناثرة» للحافظ السيوطي (رقم ٤)، و«نظم المتناثر من الحديث المتواتر» لسيدي محمد جعفر الكتاني (ص ٣٩ رقم ٩)، وأفرده السيد أحمد بن الصِّدِّيق الغُماريُّ في جزءٍ حديثيٍّ، جمع فيه طُرُقَهُ وأثبت تواتره وسمَّاه (تعريف الساهي اللاه بتواتر حديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)].

(٣) حديث جبريل في الإسلام. تقدَّم [انظر ص٤٠٠].

وأَمَّا الحالُ المذمُومَةُ فالشَّهادَةُ باللِّسانِ دُونَ تَصْديقٍ بالقَلْبِ، وهَذا هُوَ النِّفَاقُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إذا جاءَكَ المُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، أَيْ كاذِبُونَ في قولِهِمْ ذلك عَنِ اعتقادِهِمْ وتَصْديقِهِمْ، وهُمْ لا يَعتقِدونَهُ.

فلَمَّا لمْ تُصَدِّقْ ذلك ضَمائِرُهُمْ لَمْ يَنفعْهُمْ أنْ يَقُولُوا بألسنَتِهم ما ليسَ في قُلوبِهِمْ، فخَرَجُوا عَنِ اسْمِ الإيمانِ، ولَمْ يَكُنْ لَهم في الآخرةِ حُكْمُهُ؛ إذْ لمْ يَكُنْ مَعَهُمْ [إيمانٌ]، ولَحِقُوا بالكافِرينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وبَقِيَ علَيْهِمْ حُكْمُ الإسْلامِ بإظهارِ شَهادةِ اللِّسانِ في أحْكامِ الدُّنْيا المتعلِّقَةِ بالأئِمَّةِ، وحُكَّامِ المسْلِمِينَ الذينَ أحكامُهُمْ على الظَّواهِرِ بِما أَظْهَرُوه مِنْ عَلاماتِ الإسْلامِ؛ إذْ لَمْ يُجْعَلْ لِلبَشَرِ سَبيلٌ إِلَى السَّرائِرِ، ولا أُمِرُوا بالبَحْثِ عَنْها؛ بَلْ نَهى النَّبيُّ ﷺ عَنِ التحكُّمِ عَلَيْها وذمَّ ذلكَ، وقالَ: (هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِه؟!)(١).

ولِلْفَرْقِ بَيْنَ العَقْدِ وَالقَوْلِ مَا جُعِلَ في حَديثِ جِبْرِيلَ؛ الشَّهادَةُ مِنَ الإسْلامِ، والتَّصْديقُ مِنَ الإيمانِ.

---

(١) حديث (هلا شققت عن قلبه): الشيخان [البخاريُّ (٦٨٧٢)، ومسلمٌ (٩٦)] عن أسامة بن زيد، والبيهقيُّ [٧/ ١٢٧] عن عمران بن حصين.

قولـه (قالوا نَشْهدُ إنّكَ لَرسولُ الله): قالَ الملَّا: أيْ توهيمًا مِنهم أنّه شهادةٌ وافَقَتْ فيها قلوبُهمْ ألسنتَهم لا زَعمًا مِنهم كَما قالَه الدَّلجيُّ؛ لِأنّهمْ ما يَزعمونَ ذلك، حيثُ يَعلمونَ حقيقةَ ما هُنالك.

قوله (واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه): احْتِراسٌ مِنْ نَفْيِ رِسالتِه المُتَوَهَّمِ مِنْ قولِه ﴿واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ ولِذا فسَّرَه المُصَنِّف بقولِه (أي كاذبونَ في قولِهِمْ): أيْ في دَعْواهم (ذلك): أيْ كَوْنَكَ رَسُولَ الله صادرًا عَنِ اعتقادِهِم.

قوله (ضمائِرُهمْ): -وَفي نسخةٍ «ضَميرُهم»- وهوَ يَحْتَمِلُ الرَّفعَ والنصْبَ. قوله (حُكْمُه): أي الإيمانِ؛ فلا يُحْشَرونَ مَعَ المؤمِنِينَ. قوله (إذْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ): أيْ إيمانٌ كَما في نسْخةٍ، وهيَ الصّحيحةُ. قوله (بالكافِرِينَ): وفي نسخةٍ «بالكُفَّارِ». قوله (في الدَّرْكِ): -بفتحِ الراءِ وسكونِها- أي الطبقةِ السُّفْلَى.

قوله (بإظهارِ شَهادةِ اللِّسانِ): أيْ بِسَببِ إظهارِهَا مِنْهُمْ.

قوله (بالأئمةِ): أيْ أئمةُ الدِّينِ مِنَ العُلَماءِ العامِلِينَ. وقوله (وحُكَّام... إلخ): أي مِنَ القضاةِ والسَّلاطِينِ.

قوله (بِما أَظْهَرُوه): أي أهلُ النِّفاقِ. (إذْ لم يُجعَلْ): مبْنيٌّ لِلمجهُولِ. قوله (ولا أُمِرُوا): -بضمِّ أوَّلِه، مبنيٌّ لِلمجهولِ أيضًا- أي الأئمةُ والحُكّامُ، وفي نُسْخةٍ بالإفرادِ. وقوله (وذَمَّ ذلك): أي التَّحكُّمَ. وقوله (هَلَّا شقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ): خِطابًا لِأسامةَ بنِ زَيدٍ لَمَّا قَتَلَ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادَةِ اجتهادًا مِنْه أنّه إنَّما قالَها مُضْطرًّا مُكرَهًا، واعتَذَرَ بذلك بيْنَ يَديْه ﷺ، فقالَ: (هَلَّا شَقَقْتَ... إلخ) بعْدَ أنْ قال له: أَقَتَلْتَه بعْدَ أنْ أَسْلَمَ؟! فاعْتَذَرَ بِما ذُكِرَ.

قوله (ولِلفَرْقِ): وفي نسخةٍ (والفرق). وقوله (مَا جُعِلَ في حَديثِ... إلخ): بالبناءِ لِلمجهولِ أو لِلفاعلِ، و«ما» مصْدَريَّةٌ أوْ موْصُولةٌ. وقوله (الشَّهادَةُ): بالرفعِ أو النصْبِ.

قوله (والتَّصْديقُ مِنَ الإيمانِ): أَيْ وَجعلُهُ فيه مِنْه بقولِه مُجِيبًا لهُ عنْ سُؤَالِهِ عَنْه: أنْ تُؤمِنَ... إلخ.

وبقِيَتْ حالتَانِ أُخْريانِ بَيْنَ هَذَيْنِ:

إحْداهما: أنْ يُصدِّقَ بقَلْبِه، ثُمَّ يُخْتَرَمَ قَبْلَ اتِّسَاعِ وَقْتِ الشَّهادةِ بلِسَانِه؛ فاختُلِفَ فِيه:

فشَرَطَ بَعْضُهُمْ أنَّ مِنْ تمَامِ الإيمانِ القوْلَ بالشَّهادةِ.

ورآهُ بعضُهُمْ مُؤْمنًا مسْتَوْجبًا لِلْجنَّةِ؛ لقوْلِهِ ﷺ: (يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ)[1]، فلَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَا في القَلْبِ، وهَذا مُؤْمِنٌ بقَلْبِه، غيْرُ عَاصٍ ولا مُفَرِّطٍ بتَرْكِ غيْرِه، وهَذا هُوَ الصَّحيحُ في هَذا الوَجْهِ.

الثانِيَةُ: أنْ يُصدِّقَ بقَلْبِه، ويَطُولَ مَهْلُهُ، وعَلِمَ مَا يَلْزَمُه مِنَ الشَّهادةِ، فلَمْ يَنْطِقْ بها جُمْلَةً، ولا اسْتَشْهَدَ في عُمُرِهِ ولا مَرَّةً، فهَذا اختُلِفَ فِيهِ أيْضًا:

فقِيلَ: هُوَ مُؤْمِنٌ؛ لأنَّه مُصدِّقٌ، والشَّهادةُ مِنْ جُمْلَةِ الأعْمالِ؛ فهُوَ عَاصٍ بتَرْكِها، غيْرُ مُخَلَّدٍ.

وقِيلَ: لَيْسَ بمُؤْمِنٍ حَتَّى يُقارِنَ عَقْدَهُ شَهادةٌ؛ إذِ الشَّهادةُ إنْشَاءُ عَقْدٍ، والتزامُ إيمانٍ، وهِيَ مُرْتَبِطةٌ مَعَ العَقْدِ،

---

[1] حديث (يخرج من النَّار مَن كانَ في قَلْبه مثْقال ذرَّةٍ من إيمان): الشيخان [البخاريُّ (٧٤٣٩)، ومسلمٌ (١٨٣)] عن أبي سعيدٍ.

قوله (يُخْتَرَمَ): بضَمِّ أوَّله وسكونِ المعجَمةِ، مبْنيٌّ لِلمفعُولِ.

قوله (يُخْرَجُ مِنَ النارِ): بضمِّ الياءِ، مبْنيٌّ لِلمجهولِ، ويَصِحُّ بِناؤُهُ لِلفاعلِ.

قوله (ويَطُولَ مَهْلُهُ): -بفتحِ الميمِ وسكونِ الهاءِ وتُحرَّكُ- أيْ زمانُه.

قوله (فهُوَ عاصٍ): وفي نُسْخة «وهُوَ». قوله (غيْرُ مُخَلَّدٍ): أيْ في النَّارِ كَما في نسْخةٍ.

والجُمهورُ على أنَّ النُّطقَ شَرْطٌ لِإجراءِ الأحكامِ، لا شَطْرٌ كَما تَقدَّمَ، وهَذا الذي أشارَ إليْه العَلّامةُ الدلجيُّ بقولِه «هُوَ الحقُّ ولا يَعْصِي عندَ مَنْ يقولُ الإيمانُ هُوَ التَّصديقُ فقطْ» أي عِصْيانًا يَقتضي التأبيدَ كَما سيأتي الكَلامُ.

فلَا يَرِدُ عَلَيْه مَا تَعَقَّبَه به المُلّا بقَولِه: إنَّ قولَ الدَّلجيِّ مخالِفٌ لِلإجْماعِ، وإنَّ مَنْ تَرَكَ النُّطْقَ بالشَّهادَةِ مَعَ القُدرةِ غَيْرُ ناجٍ سواءٌ عِنْدَ مَنْ يَقولُ: الإقرارُ شَطْرٌ، وكذا عندَ مَنْ يَقولُ: إنّه شَرْطٌ حيثُ لا يُوجَدُ المشروطُ بِدُونِ الشّرطِ حالَ إمكانِ وُجودِه؛ فبَطَلَ قولُ الدّلجيِّ: «وهذا -كَما مَرَّ عِندَ المحقِّقِينَ- هُوَ الحقُّ، ولا يَعْصِي عندَ مَنْ يقولُ الإيمانُ هُوَ التصْديقُ فقطْ». اهـ.

والإنصافُ ما قالَه الدَّلجيُّ لِمَا عَلِمْتَ، وتَعَقُّبُه بأنّه لا يوجَدُ المشروطُ بدونِ شرطِه حَالَ إمكانِ وُجُودِه.. عَدَمُ ظُهُورِه في غايةِ الظهورِ؛ وذلك لِأنَّ هَذا مشروطٌ في مَاهيَّةٍ لا يَتحقَّقُ وُجودُها في نفْسِ الأمرِ ولا في الخارجِ بِدُونِ شَرْطِها كالوُضوءِ لِلصَّلاةِ مَثَلًا، والتصديقُ الذي هوَ حقيقةُ الإيمانِ الذي هو الإذعانُ الباطنيُّ لا يَتَوَقَّفُ ثُبُوتُ حقيقتِه في نفسِ الأمرِ على النُّطْقِ إنّما النطقُ لِإجراءِ الأحكامِ كَما مرَّ.

قوله (حَتَّى يُقارِنَ عَقْدَهُ): أي اعتقادَه بالجَنانِ (شهادةٌ): أي إقرارًا، وفي نسخةٍ «شَهادةُ اللِّسانِ» وهيَ بالرفعِ فاعلٌ مؤخَّرٌ و(عَقْدَه) مَفعُولٌ مُقدَّمٌ، ويَصِحُّ العَكسُ، لأنَّ مَنْ قارَنَ شيئًا فقدْ قارَنَه ذلك الشيءُ.

ولا يَتِـمُّ التَّصْديـقُ مَـعَ المُهْلَـةِ إلَّا بِهـا، وهَـذا هُـوَ الصَّحِيـحُ.

وهَـذا نَبْـذٌ يُفْـضِي إلَى مُتَّسَـعٍ مِـنَ الـكَلَامِ في الإسْلامِ والإيمانِ وأبوابِهِما، وفي الزِّيَـادَةِ فِيهِـما والنُّقْصـانِ.

وهـذا التَّجَـزِّي[1] مُمتَنِـعٌ عـلى مُجَـرَّدِ التصديـقِ، لا يَصِـحُّ فيـهِ جُمْلَـةً، وإنَّـما يَرجِـعُ إلى مـا زادَ عَلَيْـه مِـنْ عَمَـلٍ، أَوْ قَـدْ يَعْـرِضُ فِيـهِ لِاختـلافِ صِفَاتِـه وتَبايُـنِ حَالاتِـه مِـنْ قُـوَّةِ يَقـينٍ، وتَصْحيـحِ اعتقـادٍ، ووُضُـوحِ مَعْرِفَـةٍ، ودَوَامِ حَالَـةٍ، وحُضُـورِ قَلْـبٍ.

وفي بَسْـطِ هَـذا خُـرُوجٌ عَـنْ غَـرَضِ التَّأْليـفِ، وفِيـما ذَكَرْنَـاهُ غُنْيَـةٌ فِيـما قَصَدْنَـا إنْ شَـاءَ اللهُ تعـالى.

***

قولـه (مَـعَ المُهْلَـةِ): -بضـمٍّ فسُـكونٍ- أي مـعَ الإهمـالِ زمانًـا يسَـعُه القيـامُ بشَـطرِه أو شرطِـه.

قولـه (وهَـذا): القَـوْلُ الثاني (هُـوَ الصّحيـحُ): قـالَ المُلّا: أيْ في أنّـه ليـسَ بمؤمـنٍ لِعَـدَمِ قِرانِـه عَقْـدَ جَنَانِـه بإقـرارِ لِسانِه مَـعَ تَمَكُّنِـه مِـنْ بَيَانِـه في مُهْلَـةِ زَمانِـه، قـالَ: وأمَّـا قـولُ الدّلجـيِّ «إنَّ هَـذا ممَّـا يَقـولُ بـه مَـنْ يَجعَـلُ الأعـمالَ جُـزءًا مِنْـه» فخَطَـأٌ ظاهِـرٌ؛ إذْ أجمَـعَ أهْـلُ السُّـنةِ عـلى أنَّ الأعـمالَ لَيْسَـتْ جُـزْءًا مِـن حقيقـةِ الإيـمانِ خِلافًـا لِلخَـوارِجِ والمعتزلـةِ... إلى أنْ قـالَ: «فبَطَـلَ قـولُ الدّلجـيِّ: إنّ الإيـمانَ قـولٌ وعمَـلٌ واعتقـادٌ -كَـما هـوَ مَذهـبُ الفقهـاءِ والمحدّثِـينَ-، أو قـوْلٌ واعتقـادٌ -كَـما هـوَ مَذهـبُ أبي حَنيفـةَ». اهـ، قـالَ: ولا يَخْفَـى أنَّ هَـذا غَفلـةٌ مِنْـه عَـنْ تحقيـقِ الأشـعَرِيِّ وأَتْباعِـه. اهـ.

أَقـولُ: إنَّ هَـذا التـورُّكَ عَـلى هَـذا الإمَـامِ ناشـئٌ عَـنْ عَـدَمِ تأمُّـلٍ في مَقالاتِـه؛ فـإنَّ صَريـحَ كَلامِـه في عَمَـلٍ خـاصٍّ، وهـوَ النُّطـقُ بالشَّـهادةِ كَـما هـوَ مـصرَّحٌ بـه في المتْـنِ، وهَـذا هـو محَـلُّ الخِـلافِ بَـيْنَ أهْـلِ السُّـنّةِ في كوْنِـه شرْطًـا أو شَـطرًا، والحـقُّ -كَـما مَـرَّ عَنْـه- أنّـه شَرطٌ تَبعًـا لِلمُحقِّقِـينَ، وأمَّـا بقيَّـةُ الأعـمالِ فهِـيَ كَـمالٌ كَـما هـوَ صَريـحُ كَلامِـه؛ ولِـذا قـالَ: أمَّـا عِنْـدَ مَـنْ يَقـولُ إنّـه التصْديـقُ فقـطْ ولمْ يَترُكْهـا آبِيًـا فهـوَ كَـما مَـرَّ عَـن المحقِّقِـينَ مؤمِـنٌ يَنفعـهُ إيمانُـهُ عِنـدَ ربِّـه، وأمّـا نقلُـه عَنْـه أنَّ الإيـمانَ مُرَكَّـبٌ مِـن قـولٍ وعَمَـلٍ واعتِقـادٍ فهَـا هِـيَ نسـخةٌ بَـيْنَ أيْدينـا ليـسَ هـذا القـولُ فيهـا، وعـلى فـرْضِ وُجـودِه في بعْـضِ النُّسَـخِ فمحمُـولٌ عـلى الكامـلِ، فنسْـبتُه لِلغَفلـةِ عـنْ تحقيـقِ الأشـاعرةِ تَـورّكٌ ناشـئٌ عـنْ عـدمِ التأمـلِ؛ كيـفَ وصَريـحُ كلامِـه أوّلًا وآخِـرًا ناطـقٌ بذلـك؟!

قولـه (نَبْـذٌ): -بفتـحِ النـونِ وسُـكونِ الموحَّـدةِ بَعْدَهـا ذالٌ معجَمـةٌ- أي شيْءٌ يسـيرٌ، وَفي بعْـضِ النسَـخِ «وهـذه نُبَـذٌ» -بضـمِّ النـونِ وفتـحِ الموحَّـدة؛ جَمْـعُ نُبْـذَةٍ- وهـيَ القِطعـةُ، وهـو الموافِـقُ لِمَا في «القامـوسِ»، ومـا ذَكَـرَه الدّلجـيُّ مِـن قولِـه «بنـونٍ وبـاءٍ موحَّـدةٍ مفتوحتَـيْنِ» مخالِـفٌ لِمَا في «القامـوسِ».

***

(1) [وفي نسـخة: «وهـل التجـزي»، والتجـزي هـو قبـول الزيـادة والنقصـان أصـلًا، كـما في شرح المـلا].

فَصْلٌ [في وُجوبِ طاعتِه ﷺ]

وأَمَّا وُجُوبُ طَاعَتِه، فإذَا وَجَبَ الإيمانُ بِه، وتَصْدِيقُه فيما جاءَ بِه، وَجَبَتْ طاعَتُه؛ لِأَنَّ ذلكَ مِمَّا أَتَى بِه.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَه﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقَالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقَالَ: ﴿وأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقَالَ: ﴿وإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وقَالَ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقَالَ: ﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ ومَا نَهاكُمْ عَنْه فانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقَالَ: ﴿ومَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ ... ﴾ الآيةَ [النساء: ٦٩]، وقَالَ: ﴿ومَا أَرْسَلْنا مِنْ رسُولٍ إلا لِيُطاعَ بإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤].

فجَعَلَ تَعالى طاعَةَ رَسُولِهِ طاعَتَهُ، وقَرَنَ طاعَتَه بطَاعَتِه، وَوعَدَ على ذلكَ بجَزِيلِ الثَّوَابِ، وأَوْعَدَ علَى مُخَالَفَتِه بسُوءِ العِقَابِ، وأَوْجَبَ امتِثَالَ أَمْرِه واجْتِنَابَ نَهْيِه.

قَالَ المُفَسِّرُونَ والأَئِمَّةُ: طاعَةُ الرَّسُولِ في التِزامِ سُنَّتِه، والتَّسْليمِ لِمَا جَاءَ بِه.

وقالُوا: وَمَا أَرْسَلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إلَّا فَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلَه إلَيْه.

وقَالُوا: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فِي سُنَّتِه يُطِعِ اللهَ في فرائِضِه.

وسُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنْ شَرائِعِ الإسْلامِ، فَقَالَ: ﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ: يُقالُ: أَطِيعُوا اللهَ في فَرائِضِه، والرَّسُولَ في سُنَّتِه.

وقِيلَ: أَطِيعُوا اللهَ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، والرَّسُولَ فِيمَا بَلَّغَكُمْ.

ويُقَالُ: أَطِيعُوا اللهَ بالشَّهادَةِ لَه بالرُّبُوبِيَّةِ، والنَّبِيَّ بالشَّهادَةِ لَهُ بالنُّبوَّةِ.

قوله (لِأَنَّ ذلك): أيْ وُجوبَ طاعَتِه، وقوله (مِمّا أَتَى به): أيْ مِن جملةِ ما جاءَ به مِن الدِّينِ بالضرورة.

قوله (وقالوا): أي أئمّةُ الدِّينِ مِن المحدِّثينَ والمفسِّرينَ.

وقولُه (على مَنْ أَرْسَلَه إلَيْه): قالَ تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنا مِن رسُولٍ إلّا لِيُطَاعَ بإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤].

قوله (يُطِعِ اللهَ): جوابُ الشَّرْطِ؛ والمَعْنى: مَنْ يُطِعِ الرسُولَ فِيما أَمَرَ بِه ونَهَى عَنْه مِمَّا لَمْ يُصَرِّحْ بِه القرآنُ الكريمُ، يُطِعِ اللهَ في فرائِضِه الثابِتَةِ في الفُرْقانِ العَظيمِ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُ ونَهْيَه عَنْ رَبِّه ﴿وما يَنطِقُ عَنِ الهَوَى﴾ [النجم: ٣].

قوله (والنَّبِيَّ بالشَّهادَةِ لَهُ بالنُّبوَّةِ): أي المقترِنةِ بالرِّسالةِ على قَوْلِ الأكثَرِ، وفي نُسْخةٍ «بالرِّسالةِ».

حَدَّثَنا محمَّدُ بنُ عَتَّابٍ بقِراءَتي عليْهِ، حَدَّثَنا حاتِمُ بْنُ محمَّدٍ، حَدَّثَنا أَبو الحَسنِ عليُّ بنُ خلَفٍ، حَدَّثَنا عبْدُ الله، حدَّثَنا محمّدُ بنُ أحمدَ، حدَّثَنا محمَّدُ بنُ يوسُفَ، حدَّثَنا البُخاريُّ عَنْ عَبْدانَ، أخْبرَنا عبْدُ الله، حدَّثَنا يُونُسُ عَن الزُّهريِّ، قالَ: حدَّثَنا أَبو سَلَمةَ بنُ عبْدِ الرحمنِ أنَّه سَمِعَ أبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطاعَ اللهَ، ومَنْ عَصَاني فقَدْ عَصَى اللهَ، ومَنْ أَطاعَ أَمِيرِي فقَدْ أَطاعَنِي، ومَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي)(١).

فطَاعةُ الرَّسُولِ مِن طاعةِ الله؛ إذِ اللهُ أَمَرَ بطَاعَتِه، فطاعتُه امتِثالٌ لِما أَمَرَ اللهُ به، وطَاعةٌ لَه.

وقَدْ حَكَى اللهُ عَنِ الكُفّارِ في دَرَكاتِ جهَنَّمَ: ﴿يوْمَ تُقَلَّبُ وجُوهُهُمْ في النّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، فتَمَنَّوْا طاعتَهُ حيثُ لا ينفعُهُمُ التَّمنِّي.

وقالَ ﷺ: (إذا نَهيْتُكم عَنْ شَيْءٍ فاجْتَنِبُوهُ، وإذَا أَمَرْتُكُم بأَمْرٍ فأْتُوا مِنْه مَا اسْتطَعْتُم)(٢).

وفي حَديثِ أَبي هُرَيْرَةَ عَنْهُ ﷺ: (كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إلَّا مَنْ أَبَى، قالُوا: وَمَنْ يأْبَى؟! قالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)(٣).

(١) حديث أبي هريرة (مَن أطاعني ...): أسنده من طريق البخاريِّ [٧١٣٧]، وأخرجه مسلمٌ [١٨٣٥] أيضًا.

(٢) حديث (إذا نهيتكم عن شيء ...): الشيخان [البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلمٌ (١٣٣٧)] عن أبي هريرة.

(٣) حديث أبي هريرة (كلكم يدخل الجنة إلا من أبى ...): الحاكم [(١/ ٥٥)، وأخرجه أيضًا أحمد (٨٧٢٨)، وفي الباب عن أبي سعيد].

قولُه (بنُ عَتَّابٍ): بفتحِ وتشديدِ الفوْقيةِ.

وقَولُه (بنُ خلَفٍ): بفتحتَيْنِ. و(عَبْدَانَ): بفتحٍ فسُكونِ مُوحَّدةٍ؛ غيرُ مصروفٍ.

وقولُه (ومَنْ أَطاعَ أَمِيري فقَدْ أَطاعَنِي): أي بطريقِ القِيَاسِ لِأَنَّ طاعتَه مِنْ طاعتِه لَكِنْ؛ بِشَرْطِ أنْ يأمُرَ بطاعةٍ لا بمعْصيةٍ؛ لِحَديثِ (لا طاعةَ لِمخلوقٍ في معْصِيةِ الخالقِ)(١).

وقولُهُ (إلّا مَنْ أَبى): أي امتَنَعَ مِنْ دُخولِ الجَنّةِ، والظاهِرُ أنَّه اسْتثناءٌ منقَطِعٌ -كَذا قالَ المُلّا-؛ والمرادُ بالأمّةِ أمّةُ الإجابةِ، ودُخولُ الجنَّةِ أعَمُّ مِن أنْ يَكُونَ أوَّلًا أو آخِرًا، ولا يَبْعُدُ أنْ يكونَ الاسْتثناءُ متَّصِلًا على أنَّ المُرادَ بالأمّةِ أمّةُ الدَّعوةِ، وأنّ المعْصيةَ مختصَّةٌ بالكُفرِ.

وقولُه (قالُوا: ومَنْ يأْبى): وفي نسخةٍ «يا رسُولَ الله، ومَنْ يَأْبى»، أيْ عَنْ دُخولِ الجَنّةِ.

(١) أخرجه أحمد (١٠٩٥) من حديث عليٍّ بإسنادٍ صحيحٍ. وفي الباب عن ابن عمر، وعِمران بن حُصينٍ، والحَكَمِ بن عمرٍو الغِفاريِّ.

وفي الحديثِ الآخَرِ الصَّحيحِ عَنْهُ ﷺ: (مَثَلِي ومَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فقالَ: يا قَوْمِي، إنِّي رأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وإنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيانُ؛ فالنَّجَاءَ، فأَطَاعَتْهُ طائفةٌ مِنْ قَوْمِه، فأَدْلَجُوا، فانْطَلَقُوا على مَهْلِهِمْ، فنَجَوْا، وكَذَّبَتْ طائفةٌ مِنْهُمْ، فأَصْبَحُوا مَكانَهُمْ، فصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ، فأَهْلَكَهُمْ واجْتاحَهُمْ، فذلكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي واتَّبَعَ ما جِئْتُ بِهِ، ومَثَلُ مَنْ عَصَانِي وكَذَّبَ ما جِئْتُ بِه مِنَ الحَقِّ)[1].

وفي الحديثِ الآخَرِ، في مَثَلِه: (كمَثَلِ مَنْ بَنَى دارًا، وجَعَلَ فِيها مَأْدُبَةً، وبَعَثَ داعِيًا، فمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدارَ وأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، ومَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ولَمْ يَأْكُلْ مِنَ المأدُبَةِ)[2].

فالدَّارُ الجَنَّةُ، والدَّاعي محمَّدٌ ﷺ؛ فَمَنْ أَطَاعَ محمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى محمَّدًا فقَدْ عَصَى اللهَ، ومحمَّدٌ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ.

***

وقوله (**بعَيْنَيَّ**): بصيغةِ التثنيةِ لِلمُبالَغةِ في التأكيدِ.

وقوله (**وإنِّي أنا النذيرُ العُرْيانُ**): قال الشمني: هذا مَثَلٌ ضَرَبَه ﷺ مُبالَغةً في صِدْقِ النِّذارةِ؛ لِأَنَّ النَّذيرَ إذا كانَ عُرْيانًا كانَ أَبْيَنَ.

وقوله (**فالنَّجَاءَ**): -بفتحِ النونِ قَبْلَ الجيمِ مَمْدودًا، وقَدْ يُقْصَرُ، وهُوَ منصوبٌ على الإغراءِ- أي الزَمُوا النَّجاةَ، وفي نسخةٍ «النَّجاءَ» مرةً واحدةً[1].

وقوله (**فأَدْلَجُوا**): بقطعِ الهَمزةِ وسُكونِ الدَّالِ، وفي بعْضِ النُّسَخِ تَشديدُهَا ووَصْلُ الهَمزةِ. وقوله (**على مَهْلِهِم**): بسُكونِ الهاءِ وتُفْتَحُ.

وقولُه (**فصَبَّحَهُمُ الجيْشُ**): بتشديدِ المُوَحَّدَةِ. وقوله (**واجْتاحَهُمْ**): -بسُكُونِ الجيمِ مَعَ وَصْلِ الهَمْزةِ، والحاءِ المهْمَلةِ في آخِرِه- أَيْ اسْتَأْصَلَهُمْ.

وقوله (**في مَثَلِه**): أيْ تمثيلِه.

قوله (**مَأْدُبَةً**): -بضمِّ الدالِ المهْمَلةِ وفتحِها- طَعامٌ صُنِعَ لِدَعْوَةٍ أو عُرْسٍ -كَما في «القاموسِ».

وقوله (**فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ**): بسُكونِ الراءِ، وفي نسْخةٍ بفتحِ الرَّاءِ مشدَّدةً؛ أيْ فَصَلَ بينَهم بإعزازِ المُطيعينَ وإذلالِ العاصينَ.

***

(١) حديث (مثلي ومثل ما بعثني الله به ...): البخاريُّ [٧٢٨٣] عن أبي موسى.

(٢) حديث (في مَثَلِه كمثل من بنى دارًا وجعل منها مأدبة ...): الشيخان [البخاريُّ (٧٢٨١)، ولم أجده في صحيح مسلم] عن جابر.

(١) وهو ما في نسختنا. قال الشهاب الخفاجي: وهو في غالب النسخ مرة واحدة، وفي بعضها «النجاء النجاء» مرتين للتأكيد، أو أحدهما إشارة إلى أمر الدنيا، والأخرى إيماء إلى أمر العقبى.

فَصْلٌ [في وُجوبِ اتِّباعه ﷺ وامتِثالِ سُنَّته]

وأمَّا وجُوبُ اتِّباعِه، وامتِثالِ سُنَّتِه، والاقتداءِ بِهَدْيِه، فقَدْ قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣١]، وقالَ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقَدْ قالَ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أيْ يَنْقادُونَ لِحُكْمِكَ؛ يُقالُ: سَلَّمَ، واسْتَسْلَمَ، وأَسْلَمَ، إذَا انْقادَ، وَقالَ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٢١].

قالَ محمّدُ بنُ عَليٍّ التِّرمِذيُّ: الأُسْوَةُ في الرَّسُولِ الاقتداءُ بهِ، والاتِّباعُ لِسُنَّتِه، وتَرْكُ مُخالَفَتِه في قولٍ أوْ فِعْلٍ.

وقالَ غيرُ واحِدٍ مِنَ المفسِّرينَ بمَعْناهُ، وقِيلَ: هُوَ عِتابٌ لِلمتخلِّفينَ عَنْه.

وقالَ سَهْلٌ في قولِه تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، قالَ: بمُتابَعَةِ السُّنَّةِ، فأَمَرَهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ، ووَعَدَهم الاهتداءَ باتِّباعِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَرْسَلَهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُزَكِّيَهمْ ويُعَلِّمَهُم الكِتابَ والحِكمةَ، ويَهدِيَهمْ إلى صِراطٍ مستقيمٍ، ووَعَدَهمْ مَحبَّتَه تعالى في الآيةِ الأُخرى، ومَغْفِرَتَهُ إذا اتَّبعُوهُ وآثَرُوهُ على أَهْوائِهمْ ومَا تَجْنَحُ إلَيْهِ نُفُوسُهمْ، وأنَّ صِحَّةَ إيمانِهمْ بانقيادِهِمْ لَه، وَرِضاهُمْ بحُكْمِه، وتَرْكِ الاعْتِراضِ عَلَيْه.

قولُه (يُحْبِبْكُمُ اللهُ): -جَوابُ الأمرِ- أيْ يَرْضَ عنْكم ويَكْشِفْ حُجُبَ قلوبِكم.

قولُه (فَلا وَرَبِّكَ): زِيدَتْ (لا) لِتأكيدِ مَعْنَى القَسَمِ كَما قالَهُ الدّلجيُّ تَبَعًا لِغَيْرِه، قالَ المُلّا: لَكِنْ يأْباه الجَمْعُ بَيْنَ الفاءِ والواوِ، فالأظهَرُ أنَّ تقديرَهُ «فلَيْسَ الأمرُ كَما يَظُنُّونَ مِنْ أنَّهمْ يَصِلُونَ إلى اللهِ مِنْ غيرِ أنْ يَتَّبِعُوا رسُولَه وربِّكَ».

قوله (حَرَجًا): أي ضِيقًا.

قولُه (أُسْوَةٌ): -بكسْرِ الهمزةِ وضَمِّها- أيْ خَصْلَةٌ حَسَنَةٌ.

وقولُه (بِمَعْنَاهُ): أيْ بمَعْنَى قولِ الحَكيمِ؛ وإنِ اختَلَفَا في المَبْنَى، وهُوَ غيرُ صاحِبِ «الجامعِ»[1].

وقوْله (عِتَابٌ): أيْ مَلامةٌ مِن اللهِ (للمُتَخَلِّفِينَ عَنْه): أيْ في غزَواتِه.

وقوله (بمُتَابَعَةِ السُّنَّةِ): وفي نسخةٍ «سُنَّتِه».

قولُه (ودِينِ الحَقِّ): أي المِلَّةِ الثابتةِ. و(الحِكْمةَ): العِلْمُ النافعُ.

قولُه (في الآيَةِ الأُخْرَى): وهيَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣١]. وقولُه (وآثَرُوه): -بألِفٍ ممدودةٍ- أيْ قَدَّمُوه علَى أنفسِهم. قولُه (تَجْنَحُ): -بفتحِ النونِ- أي تَمِيلُ إلَيْه نُفُوسُهُم مِنْ مَحبَّةِ الجاهِ والمالِ مَثَلًا.

---

(١) أي أن المذكور هو الحكيم الترمذي محمد بن علي (ت ٣٢٠هـ)، وهو غير الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ)، صاحب كتاب «الجامع» المعروف بسنن الترمذي.

ورُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّ قَوْمًا قالُوا: يا رسُولَ الله، إنَّا نُحِبُّ اللهَ، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني...﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣١][1]. ورُوِيَ أَنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ وغَيْرِه، وأَنَّهُمْ قالُوا: «نَحْنُ أَبْناءُ الله وأَحِبَّاؤُه، ونَحْنُ أَشَدُّ حُبًّا لله»، فأَنْزَلَ اللهُ الآيةَ[2].

وقالَ الزَّجَّاجُ: مَعْناهُ: إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ -أَنْ تَقْصِدُوا طَاعَتَهُ- فافْعَلُوا ما أَمَرَكُمْ بِهِ؛ إذْ مَحَبَّةُ العَبْدِ لله ولِلرَّسُولِ طاعتُهُ لَهُما، ورِضاهُ بِما أَمَرا، ومَحَبَّةُ الله لَهُمْ عَفْوُهُ عَنْهُمْ وإنعامُه عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ، ويُقَالُ: الحُبُّ مِنَ الله عِصْمَةٌ وتَوْفيقٌ، ومِنَ العِبَادِ طَاعةٌ، كَمَا قالَ القَائِلُ:

تَعْصِي الإلَهَ وأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ * هذا لَعَمْري في القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حَبُّكَ صادِقًا لأَطَعْتَهُ * إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ويُقَالُ: مَحَبَّةُ العَبْدِ لله تَعْظيمُه لَهُ وهَيْبَتُهُ مِنْه، ومَحَبَّةُ الله لَه رَحْمَتُه لَهُ وإرادَتُه الجَميلَ لَهُ، وتكُونُ بمَعْنَى مَدْحِهِ وثَنَائِه عَلَيْهِ. قالَ القُشَيْرِيُّ: فإذَا كانَ بمَعْنَى الرَّحمةِ والإرادَةِ والمَدْحِ كَانَ مِنْ صِفاتِ الذَّاتِ.

وسَيَأْتي بَعْدُ في ذِكْرِ مَحَبَّةِ العَبْدِ غَيْرُ هَذا بحَوْلِ الله تَعالى.

حدَّثَنا أَبُو إسْحاقَ إبراهيمُ بْنُ جَعفرٍ الفَقِيهُ، قالَ: حَدَّثَنا أَبُو الأَصْبَغِ عِيسَى بْنُ سَهْلٍ، وَحَدَّثَنا أَبُو الحَسَنِ يُونُسُ بْنُ مُغيثٍ الفَقِيهُ بِقِراءَتي عَلَيْهِ، قالا: حَدَّثَنا حاتِمُ بْنُ محمَّدٍ، حَدَّثَنا أَبُو حَفْصٍ الجُهَنِيُّ، حدَّثَنا أَبُو بَكرٍ الآجُرِّيُّ، قالَ:

---

(١) حديث الحسن (أن قومًا قالوا إنا نحب الله فأنزل الله ﴿قل إن كنتم تحبون الله ...﴾ الآية): ابن المنذر في تفسيره [١/ ١٦٩].

(٢) قوله (وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف... إلى آخره): [الثعلبي في تفسيره (٣/ ٥٠)].

قوله (أَبْنَاءُ الله): زَعْمًا مِنهمْ أَنَّهمْ أشياعُ عُزَيْرٍ، وهُمْ يَدَّعُونَ بُنُوَّتَه.

قوله (فأَنْزَلَ اللهُ الآيةَ): هِيَ ﴿قُلْ إنْ كُنتُمْ...﴾ إلخ.

قوله (عِصْمَةٌ): أي حِفْظٌ له عَنِ المَعْصِيَةِ مَعَ جَوازِ الوُقوعِ في غيرِ الأنبياءِ.

قوله (كَمَا قالَ القائلُ): قالَ المُلَّا: قِيلَ رابعَةُ العَدَوِيةُ، وفي «الإحياءِ» أنَّ قائلَه عبْدُ الله بنُ المبَارَكِ[1].

قوله (هذا): أي الجَمْعُ بَيْنَ اختيارِ المعْصيَةِ وإظهارِ المَحبَّةِ. قوله (لَعَمْري): -بفتحِ العيْنِ؛ اعتراضٌ بَيْنَ المبتدإ وخَبَرِه أَقسَمَ بِه- أي والله لَبَقائي.

وقوله (في القِيَاسِ): وفي نسخةٍ «في الفِعَالِ». وقوله (مُطِيعُ): وفي نسخةٍ «يُطِيعُ».

قوله (وثَنَائه علَيْه): أي على العَبْدِ عِنْدَ مَلائكتِهِ أو على أَلْسِنَةِ خَلْقِهِ؛ فإنَّها أَقْلَامُ الحَقِّ.

قوله (الأَصْبَغِ): بفتحِ الهَمزَةِ والمُوحَّدَةِ فغيْنٍ معْجَمةٍ. قوله (بْنُ سَهْلٍ، وحَدَّثَنا): وفي نسخةٍ «وأَخْبَرَنا». قوله (بْنُ مُغِيثٍ): اسْمُ فاعلٍ مِنَ الإغاثةِ.

قوله (حَاتِمُ): بكسرِ الفوْقيَّةِ. وقوله (الجُهَنِيُّ): -بضمٍّ ففتحٍ- نِسْبَةٌ إلى قبيلةِ «جُهَيْنَةَ». قوله (الآجُرِّيُّ): بهمزةٍ ممْدُودةٍ وضَمِّ جيمٍ وتشْديدِ راءٍ.

---

(١) «إحياء علوم الدِّين» (٤/ ٣٣١)، وقيل المحمود بن الحسن الوراق كما في «زهر الأداب وثمرة الألباب» (١/ ١٣٩)

حدَّثَنا إبْراهيمُ بْنُ مُوسَى الجَوْزِيُّ، حدَّثَنا داوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حدَّثَنا الوَلِيدُ بْنُ مسْلِمٍ عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ خالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ عبْدِ الرحمنِ بْنِ عمْرٍو السُّلَمِيِّ وحُجْرٍ الكَلاعِيِّ، عَنْ العِرْباضِ بْنِ سَارِيَةَ في حَدِيثِهِ في مَوعِظَةِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (فعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا علَيْهَا بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحْدَثٍ بِدْعةٌ، وكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ)[1].

زَادَ في حَدِيثِ جَابرٍ بمَعْنَاهُ: (وكُلُّ ضَلالةٍ في النَّارِ)[2].

وفي حَدِيثِ أبِي رافعٍ عَنْه ﷺ: (لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكُمْ مُتَّكِئًا على أرِيكتِه يأتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أمْرِي مِمَّا أمَرْتُ بِهِ ونَهَيْتُ عَنْهُ، فيَقُولُ: لا أدْرِي، مَا وَجَدْنا في كِتَابِ الله اتَّبَعْنَاهُ)[3].

---

(١) حديث العرباض (عليكم بسنتي ...): الحاكم [١/ ٩٥، ٩٧]، والترمذيُّ [٢٦٧٦] وصحَّحاه، وأبو داود [٤٦٠٧].

(٢) حديث جابر (وكلُّ ضَلَالة في النَّار): مسلمٌ [(٨٦٧) دون هذه الزيادة، وأخرجه النَّسائيُّ (١٥٧٨)، وابن خزيمة (١٧٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٩) من حديث جابر وزادوا جميعا فيه (وكل ضلالة في النار)].

(٣) حديث أبي رافع (لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُم مُتَّكِيًا على أريكَتِه ...): أبو داود [٤٦٠٥]، والترمذيُّ [٢٦٦٣]، وابن ماجه [١٣].

وقولُه (**الجَوْزِيُّ**): بفتحِ الجيمِ وسُكونِ الواوِ وكَسْرِ الزايِ. اهـ. شَمُنِّيٌّ. قولُه (**السُّلَمِيِّ**): بضمٍّ ففتحٍ، وفي بَعْضِ النُّسخِ «الأَسْلَمِيِّ». قولُه (**وحُجْرٍ**): بضمٍّ مهمَلةٍ وسُكونِ جيمٍ. و(**الكَلاعِيِّ**): بفتحِ الكافِ. وقولُهُ (**العِرْباضِ**): بكَسْرِ العَيْنِ المهْمَلةِ وفي آخِرِه ضَادٌ معْجَمةٌ.

وقولُه (**عَضُّوا عَلَيْهَا**): بفتحِ العَيْنِ وتشديدِ الضَّادِ. قولُه (**بالنَّواجِذِ**): -بالذَّالِ المعْجَمةِ؛ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِشِدَّةِ التمسُّكِ بالدِّينِ- أي تمَسَّكُوا بهَا كَمَا يَتَمَسَّكُ العَاضُّ بجميعِ أضراسِهِ.

قولُه (**وكُلَّ بِدْعَةٍ**): بالنصْبِ وفي نسخةٍ بالرفعِ، وخَصَّ مِنْهَا الأئمةُ البِدْعَةَ الحَسَنةَ لِحَدِيثِ (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسنةً فلَه أجْرُهَا وأَجْرُ مَن عَمِلَ بِهَا)[1]؛ ولِذا قالَ أَميرُ المؤمِنِينَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ في التَّراويحِ: (نِعْمَتِ البِدْعةُ هَذه)[2] وسمَّاها بِدعةً لِأنَّه ﷺ لمْ يَسُنَّها لَهُمْ؛ وإنَّما صَلَّاها لياليَ ثُمَّ تَرَكَها خَشيَةَ أنْ تُفرَضَ علَيْهِمْ فيَعْجَزُوا عنْها، ولا جَمَعَ لَها النَاسَ، ولمْ تكُنْ في زمَنِ أبِي بَكْرٍ، وعُمَرُ هوَ الذي ندَبَهمْ إليْها، وجمَعَهمْ علَيْها؛ فلِهَذا سَمَّاها بدعةً، وفي الحقيقةِ سُنَّةٌ لِحَديثِ (اقتَدُوا بالذين مِنْ بَعْدِي أَبِي بكْرٍ وعُمَرَ)[3].

قولُه (**لا أُلْفِيَنَّ**): -بضمِّ الهَمزةِ وكسْرِ الفاءِ ونونٍ مشدَّدَةٍ- أيْ لا أَجِدَنَّ. وقولُه (**على أرِيكَتِهِ**): أيْ جالِسًا على سَرِيرِه مُسْتَوِيًا مُتَمَكِّنًا، والعَامّةُ لا تَعرِفُ المُتَّكِئَ إلا مَنْ مَالَ في قُعُودِه مُعتَمِدًا على أَحَدِ شِقَّيْه.

وقولُه (**يأتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي**): أيْ يَبْلُغُه أَمْرٌ مِنْ أُمُورِي، أو مِنْ مأمورِي بدليلِ قولِه (مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ)؛ على أنَّ «مِن» فيه بيانيةٌ. وقولُه (**فيَقُولُ: لا أَدْرِي**): أيْ غيْرَ القرآنِ والحديثِ؛

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٠١٧) [كتاب العلم]، وغيره من حديث جرير بن عبدالله. وفي الباب عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٠١٠) [كتاب صلاة التراويح]، وغيره من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٦)، والترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، والبزَّار (٢٨٢٧)، والطبرانيُّ (٩/ ٧٢)، وغيرهم من حديث حذيفة.

وفي حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: صَنَعَ رسُولُ الله ﷺ شَيئًا تَرخَّصَ فيهِ، فتنَزَّهَ عَنْه قَوْمٌ، فبَلَغَ ذلكَ رَسُولَ الله ﷺ، فحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ قالَ: ما بالُ قَوْمٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؛ فوَاللهِ إنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللهِ، وأَشَدُّهُمْ لهُ خَشْيَةً.(١)

ورُوِيَ عَنْه ﷺ أَنَّه قالَ: (القرآنُ صَعْبٌ مُسْتَصْعِبٌ علَى مَنْ كَرِهَهُ، وهُوَ الحَكَمُ، فمَنِ اسْتَمْسَكَ بحَدِيثِي وفَهِمَهُ وحَفِظَه، جَاءَ مَعَ القرآنِ، ومَنْ تَهاوَنَ بالقرآنِ وحَدِيثِي خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ، أُمِرَتْ أُمَّتِي أَنْ يأخُذُوا بِقَوْلِي، ويُطِيعُوا أَمْرِي، ويَتَّبِعُوا سُنَّتِي، فَمَنْ رَضِيَ بَقَوْلِي فَقَدْ رَضِيَ بالقرآنِ)(٢).

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ومَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ...﴾ الآيةَ [الحشر: ٧].

(١) حديث عائشة (صنع شيئًا ترخَّصَ فيه ...): الشيخان [البخاريُّ (٧٣٠١)، ومسلمٌ (٢٣٥٦)].

(٢) حديث (القرآن صعب ...) الحديث بطوله: أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي عن الحكم عن عمير الثماليِّ [وأخرجه أيضًا الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٥٧٣)].

جاءَ مُحذِّرًا مِن تَرْكِ امْتِثالِ أوامِرِه واجْتِنابِ زَواجِرِه لِأَنَّه ﷺ جاء مبيِّنًا لِما في القرآنِ مِنَ الأحكامِ؛ قالَ تعالى: ﴿وما آتاكم الرسُولُ فخُذُوهُ...﴾ الآيةَ [الحشر: ٧]، ﴿وأَنزَلْنا إليْكَ الذِّكْرَ...﴾ الآيةَ [النحل: ٤٤].

قوله (**ترخَّصَ**): -بفتحِ المُثَنَّاةِ والراءِ وتشديدِ المعجمةِ- قالَ المُلَّا: أي اختارَ الرُّخْصَةَ على العَزِيمةِ عَمَلًا بقَوْلِه ﷺ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُه كَما تُؤْتَى عزائمُه)(١)، والظاهرُ أنَّ ما تَرَخَّصَ فيه هُوَ الإفطارُ في السَّفَرِ أو القَصْرُ وهوَ الأظهَرُ بقولِه ﷺ: (صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِها عليْكم فاقْبَلُوا صَدَقَتَه)(٢)، ومِنْ هُنا أَوْجَبَه أبو حَنيفةَ.

قوله (**ما بالُ قَوْمٍ**): أي مَا حَالُهم وشأنُهم، أيْ في عَدَمِ عمَلِهم بالرُّخصَةِ الَّتي صَنَعَها. قوله (**وأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً**): إذْ بقَدْرِ المَعْرِفةِ باللهِ تَكُونُ الخَشْيةُ مِنْ مَهابَتِه.

وقوله (**صَعْبٌ**): أيْ باعتبارٍ و(**مسْتَصْعِبٌ**): بكسرِ العينِ وتُفتَحُ. قوله (**كَرِهَه**): أيْ لَمْ يَتَلَذَّذْ بِمُقْتَضاهُ؛ ومفهومُه أنه سَهْلٌ مُتَيَسِّرٌ على مَنْ أَحَبَّه وارْتَضاهُ. وقوله (**الحَكَمُ**): -بفتحتَيْنِ- العَدْلُ أو ذُو الحِكْمةِ مِنْ كَمالِ الفَضْلِ.

وقوله (**اسْتَمْسَكَ بحديثِي**): تمثيلٌ لِلرِّضا به. قوله (**وفَهِمَه**): أي القرآنَ مِن جِهةِ مَعْناه. وقوله (**وحَفِظَه**): أي مِنْ جِهةِ مَبْناهُ، أيْ ضَبَطَ حُكْمَه وَراعاه. وقوله (**مَعَ القرآنِ**): أيْ بعِلْمِه وعَمَلِه بِهِما.

قوله (**مَنْ تَهاوَنَ بالقرآنِ وَحَدِيثِي... إلخ**): بأنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِما ولَوْ حَفِظَهما وفَهِمَهما. وقوله (**أُمِرَتْ أُمَّتِي**): بصيغةِ المجهُولِ المؤنَّثِ، وفي نسْخةٍ بصيغةِ الفاعلِ المُتكَلِّمِ.

وقوله (**ويَتَّبِعُوا سُنَّتِي**): لِقَوْلِه تعالى ﴿واتَّبِعوه لعلَّكم تهتَدونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله (**فقَدْ رَضِيَ بالقرآنِ**): لِأَمْرِه بالرِّضا به المُفادِ بالأمرِ بأخْذِه بِما ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ ﴿وما آتاكُم الرسولُ...﴾ الآيةَ [الحشر: ٧]، ولا حاجةَ لِقَوْلِ المُلَّا: «وفي الكَلامِ قلبٌ لِلمبالَغةِ، أي فَمَنْ رَضِيَ بالقرآنِ فقَدْ رَضِيَ بقَوْلِي».

---

(١) أخرجه أحمد (٥٨٦٦)، وابن حِبَّان (٢٧٤٢)، والبيهقيُّ (٥٤١٥) وغيرهم من حديث ابن عمر، وفي الباب عن جماعة من الصحابة.

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٦)، وغيره من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقالَ ﷺ: (مَنِ اقْتَدَى بِي فهُوَ مِنِّي، ومَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فلَيْسَ مِنِّي)[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (إِنَّ أَحْسَنَ الحدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمَّدٍ، وشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها)[2].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: (العِلْمُ ثَلاثةٌ؛ فَمَا سِوَى ذلكَ فهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قائمةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عادِلَةٌ)[3]. وعَنِ الحَسَنِ بْنِ أَبِي الحَسَنِ: قالَ ﷺ: (عَمَلٌ قَليلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ)[4].

وقالَ ﷺ: (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ العَبْدَ الجَنَّةَ بالسُّنَّةِ تَمَسَّكَ بِهَا)[5]. وعَنْ أَبِي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: (المُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي لـه أَجْرُ مائةِ شهيدٍ)[6].

---

(١) حديث (من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني): عبد الرزاق في مصنفه [١٠٣٧٩] من مرسل الحسن بلفظ (من استن بسنتي فهو مني... إلى آخره)، وعجزه في الصحيحين [البخاريُّ (٥٠٦٣)، ومسلمٌ (١٤٠١)] من حديث أنس.

(٢) حديث أبي هريرة (إن أحسن الحديث كتاب الله ...): [أخرجه بهذا اللفظ البخاريُّ (٦٠٩٨)، وغيره].

(٣) حديث ابن عمرو (العلم ثلاثة ...): أبو داود [٢٨٨٥] وابن ماجه [٥٤].

(٤) حديث الحسن (عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة): عبد الرزّاق في مصنَّفه [جامع معمر بن راشد ٢٠٥٦٨] عن معمر عن زيد عنه مرسلًا، وأخرجه الديلميُّ [٤٠٩٨] موصولًا من حديث ابن مسعود.

(٥) حديث (إن الله يدخل العبد الجنة بالسنة تمسك بها): [أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٢١٥) من طريق أبي صالح كاتب الليث قال: حدثني الليث قال: حدثني محمد بن عجلان عن عبد الملك بن مسلم اللخمي من أهل الشام قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال... فذكره].

(٦) حديث أبي هريرة (المتمسِّك بسُنَّتي ...): الطبرانيُّ في «الأوسط» [٥٤١٤].

قولـه (فهُوَ مِنِّي): أي مُتَّصِلٌ بي ومَعِي، أوْ مِن أشْياعِي وأتْباعِي.

قولـه (وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ): بفتحِ أوَّلِها وسكونِ ثانيها، بِمَعْنَى السَّمْتِ والطَّرِيقةِ؛ قالَ المُلَّا: وضُبِطَ في بعْضِ النُّسَخِ بضمِّ الهاءِ وفتْحِ الدَّالِ كقولِه (قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ). قولـه (مُحْدَثاتُها): جمْعُ «مُحْدَثَةٍ» -بالفتحِ- وهيَ التي لَمْ تُعْرَفْ مِنْ كِتَابٍ وسُنَّةٍ وإجماعٍ.

قولـه (أوْ سُنَّةٌ قائمةٌ): أيْ أحاديثُ ثابتةٌ مستمِرَّةٌ. وقولـه (أوْ فريضةٌ عادلةٌ): أيْ في القِسْمةِ، أو عادِلةٌ مُساوِيةٌ في العَمَلِ بها الكِتابَ والسُّنَّةَ.

وقولـه (في سُنَّةٍ): «في» بمَعْنَى «مَعَ». وقولـه (بالسُّنةِ تَمَسَّكَ بها): أي عَمِلَ بها وانتَفَعَ فنَجَا، وفي نسخةٍ «يتَمَسَّكُ بها» اهـ مُلَّا. قولـه (تَمَسَّكَ بها): قال الدّلجيُّ: تمثيلٌ لِلمعْلومِ بالمحسُوسِ تَصْويرًا لِلسّامِعِ كأنَّه يَنْظُرُ إليْهِ لِيُحكِمَ اعتقادَه فينجوَ.

قولـه (عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي): وذلكَ عِنْدَ الفِتَنِ الَّتي القاعدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القَائمِ، والقائمُ فيها خَيْرٌ مِنَ الماشي، والماشي فيها خَيْرٌ مِنَ السَّاعي -كَما في الحديثِ[1]؛

---

(١) متفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ (٣٦٠١) [كتاب المناقب]، ومسلمٌ (٢٨٨٦) [كتاب الفتن وأشراط الساعة]، من حديث أبي هريرة.

والمرادُ أكثرُ الأمَّةِ، وإلا فالخيرُ لا يَنْقطِعُ كما في الحديثِ (لا تزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتي على الحقِّ حتَّى يأتيهمْ أمرُ اللهِ)(١).

قوله (اثنَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً): أيْ مذهبًا، وفي نسخةٍ «مِلَّةً».

قوله (تَفْتَرِقُ): وفي روايةٍ «سَتَفْتَرِقُ» (على ثَلاثٍ وسبْعِينَ).

وقوله (الَّذي أنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وأَصْحَابِي): أي مِنْ متابَعَةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

قوله (مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي): أي أَظْهَرَها بعَمَلِه بِهَا، وحَثِّه الغَيْرَ عَلَيْها.

قوله (فقَدْ أحْيَاني): أيْ رَفَعَ ذِكْري. وقوله (ومَنْ أحْيَاني كانَ مَعِي): أيْ مشارِكًا لي في عُلُوِّ قَدْرِي، وفي نسْخةٍ «كأنَّه مَعِيَ في الجنَّةِ». اهـ مُلّا.

قوله (قَدْ أُمِيتَتْ... إلخ): مِنْ تَرْكِ ذِكْرِهَا والعَمَلِ بهَا. وقوله (شَيْئًا): مفعُولُ (يَنْقُصَ)(٢).

وقوله (بِدْعَةَ ضَلالَةٍ): بالإضافةِ أو بالوَصْفِ.

***

وقالَ ﷺ: (إنَّ بَنِي إسْرائيلَ افتَرَقُوا على اثْنَيْنِ وسَبْعِينَ فِرقَةً، وإنَّ أُمَّتِي تفْتَرِقُ على ثَلاثٍ وسَبْعِينَ، كُلُّها في النَّارِ إلا واحدةً، قالُوا: ومَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: الَّذي أنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وأَصْحَابِي)(١).

وعَنْ أَنَسٍ قالَ ﷺ: (مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أحْيَانِي، ومَنْ أحْيَانِي كَانَ مَعِي)(٢).

وعَنْ عمرِو بْنِ عَوْفٍ المُزَنيِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لِبلالِ بْنِ الحارِثِ: (مَنْ أحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي، فإنَّ لَه مِنَ الأجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِها مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شيئًا، ومَنِ ابتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلالَةٍ لا تُرْضِي اللهَ ورسُولَهُ كانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لا يَنقُصُ ذلكَ مِنْ أَوْزارِ النَّاسِ شَيْئًا)(٣).

***

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٣١١) [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة] من حديث المغيرة بن شعبة، ومسلمٌ (١٩٢٠) [كتاب الإمارة] من حديث ثوبان، وغيره.

(٢) أو مفعول مطلق؛ أي لا ينقص من أجورهم شيئًا من النقصان؛ لأن «نقص» يأتي لازمًا ومتعديًا لواحد ومتعديًا لاثنين.

(١) حديث (إن بني إسرائيل افترقوا ...): الترمذيُّ [٢٦٤١] عن ابن عمرٍو بهذا اللفظ.

(٢) حديث أنس (من أحيا سنتي ...): الترمذيُّ [٢٦٧٨] وحسنه، وابن ماجه.

(٣) حديث عمرو بن عوف (من أحيا سنة ..): الترمذيُّ [٢٦٧٧] وحسَّنه وابن ماجه [٢٠٩].

فَصْلٌ [فيما ورد عن السلف والأئمة من اتّباع سُنَّته ﷺ]

وأَمَّا مَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ والأئمَّةِ مِنَ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، والاقتداءِ بهَدْيِهِ وسِيرَتِه، فحدَّثنا الشَّيْخُ أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بْنُ عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ أَبِي تَلِيدٍ الفقيهُ سَمَاعًا عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنا أَبُو عُمَرَ الحافِظُ، قَالَ: حدَّثَنا سَعِيدُ بْنُ نَصْرٍ، حدَّثَنا قاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ، ووَهْبُ بنُ مَسَرَّةَ، قَالَا: حدَّثَنا محمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ، قَالَ: حدَّثَنا يَحْيَى بْنُ يحيَى، قَالَ: حدَّثَنا مالِكٌ عنْ أَنَسِ بنِ شِهَابٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ أَنَّه سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، فقَالَ: يا أَبَا عَبْدِ الرحمنِ: إنَّا نَجِدُ صَلاَةَ الخَوْفِ وصَلاةَ الحَضَرِ في القرآنِ، ولا نَجِدُ صَلاَةَ السَّفَرِ، فَقَالَ ابنُ عُمَرَ: يا ابْنَ أَخِي، إنَّ اللهَ بَعَثَ إلَيْنَا محمَّدًا ﷺ، ولا نَعْلَمُ شَيْئًا، فإنَّما نَفْعَلُ كَما رَأَيْنَاهُ يفْعَلُ.[1]

وقَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ: سَنَّ رسُولُ اللهِ ﷺ، ووُلاةُ الأَمْرِ بَعْدَهُ سُنَنًا، الأَخْذُ بهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللهِ، واسْتِعْمَالٌ لِطَاعَةِ اللهِ، وقُوَّةٌ على دِينِ اللهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ تغييرُهَا ولا تَبْدِيلُهَا ولا النظَرُ في رَأْيِ مَنْ خالَفَها، مَنِ اقْتَدَى بِهَا فهُوَ مهْتَدٍ، ومَنِ انتصَرَ بِهَا فهُوَ منْصُورٌ، ..

(١) حديث ابن عمر (أنه سُئل إنا نجد صلاة الخوف ...): أسنده في «الموطأ» [(٧) كتاب صلاة السفر]، وأخرجه النَّسائيُّ [١٤٣٤]، وابن ماجه [١٠٦٦].

قوله (وسِيرَتِه): عَطفُ تفسيرٍ؛ إذِ الهَدْيُ السِّيرةُ.

قوله (ولا نَجِدُ صَلاَةَ السَّفَرِ): أيْ في القرآنِ. وقوله (ولا نَعْلَمُ شَيْئًا): أيْ فاقْتَدَيْنَا به في أفعالِه وأقوالِه وتقريرَاتِه، أيْ وَقَدْ رَأَيْنَاهُ يَقصُرُ في السَّفَرِ فقَصَرْنا مَعَه.

قولُه (سَنَّ رسُولُ اللهِ ﷺ): أيْ شَرَعَ طريقةً مُرضِيَةً. وقوله (وَوُلاةُ الأمْرِ): أيْ وسَنَّ الخُلفاءُ الراشِدُونَ بَعْدَه، (سُنَنًا): أي موافِقةً لِقواعدِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، كجَمْعِ عُمرَ الناسَ على أُبَيِّ بنِ كعبٍ في صَلاةِ التراويحِ، وأمْرِ عُثمانَ بكِتابةِ المصاحفِ ثُمَّ بَعْثِها إلى الآفاقِ.

قوله (وقُوَّةٌ على دِينِ اللهِ): أي تقويةٌ على كَمالِ مِلَّتِه، وجَمالِ شريعَتِه. (ولا النظَرُ في رَأْيِ مَن خالَفَها): أي بلا دليلٍ شَرْعِيٍّ، قالَ الدّلجيُّ: مِنْ إجماعٍ أو قِياسٍ بشَهادةِ قولِ ناصرِ السُّنةِ الشّافعيِّ: «لا يَحِلُّ لِأَحدٍ إذا صَحَّ حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يَقولَ برأيِه؛ بَلْ عليه أنْ يَتَّبِعَه»، قالَ: وكَفَاكَ هذا حاكمًا بالِغًا، قولُ مَنْ قالَ بنُفُوذِ شَهادةِ الزُّورِ ظاهرًا وباطِنًا؛ لَوْ أَقامَ رجُلٌ شاهِدَيْ زُورٍ أنَّ فُلانةَ امْرَأتُه، وشَهِدا بذلكَ، جازَ له أنْ يَطأَهَا مَعَ عِلْمِه بأنَّها ليسَتْ زوجتَه، وهذا لمْ يَرِدْ به كِتابٌ ولا سُنَّةٌ. اهـ.

قالَ المُلَّا: وقَدْ تَسَفَّهَ الدّلجيُّ مِنْ قِلَّةِ فَهْمِه، وكَثْرةِ جَهْلِه، وسُوءِ ظَنِّه بالإمامِ الأعظَمِ؛ حيثُ قالَ: «وكَفَاكَ هَذَا حاكمًا... إلى آخرِ ما سبَقَ لكَ»، ولا يَخْفَى أنَّ الخَلْقَ عِيالٌ على أبي حَنيفةَ في الفِقْهِ كَما صَرَّحَ به الشافعيُّ؛ فهَلْ يُتَصَوَّرُ لِإمامِ المجتهدِينَ، أنْ يَتكَلَّمَ برَأْيِه المجَرَّدِ في أمرِ الدِّينِ، أوْ يُتَوَهَّمُ أنْ يكونَ جاهلًا بالكِتابِ والسُّنَّةِ؟! إلى أنْ قالَ: على أنَّ (شاهِداكِ زوَّجَاكِ) منقولٌ عنْ عليٍّ، ثم قال بعد الشنيع الأكبَرِ: ولمْ يَعْرِفْ هَذا أنَّ المجتهدَ أسيرُ الدَّليلِ، كَما قالَ الشافعيُّ بجَوازِ نكاحِ الرجُلِ بِنْتَه الحاصلةَ مِنَ الزِّنا نظَرًا إلى ما قامَ عِنْدَه مِنَ الدّليلِ، معَ عدَمِ الالتفاتِ إلى القُبحِ الصُّوريِّ في هذا القِيلِ. اهـ.

.. ومَنْ خالَفَها واتَّبَعَ غَيْرَ سَبيلِ المؤمنينَ ولَّاهُ اللهُ ما تَوَلَّى، وأَصْلاهُ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصيرًا.[1]

وقالَ الحَسَنُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ: عَمَلٌ قليلٌ في سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثيرٍ في بِدْعَةٍ. وقالَ ابنُ شِهابٍ: بَلَغَنا عَنْ رِجالٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ قالُوا: الاعتِصامُ بالسُّنَّةِ نَجاةٌ.[2]

وكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عُمَّالِه بِتَعَلُّمِ السُّنَّةِ والفرائِضِ واللَّحْنِ[3]، أي اللُّغَةِ، وقالَ: إنَّ ناسًا يُجادِلُونَكم -يَعْني بالقرآنِ-؛ فخُذُوهُم بالسُّنَنِ، فإنَّ أَصْحابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بكِتابِ اللهِ[4].

وفي خَبَرِهِ حِينَ صَلَّى بِذِي الحُلَيْفَةِ رَكعتَيْنِ، فقالَ: أَصْنَعُ كَما رأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُ[5]،

(١) حديث عمر بن عبد العزيز (سئل رسول ﷺ ...): اللالكائي في «السنة» [١٣٤].

(٢) حديث الزهري (بلغنا عن رجال من أهل العلم: الاعتصام بالسنة نجاة): اللالكائي في «السنة» [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٥)، وأخرجه أيضًا الدارمي (١٠٤)، وغيره].

(٣) حديث (أن عمر كتب بتعلم السنة والفرائض واللحن): سعيد بن منصور في سننه [١].

(٤) حديث (أن عمر قال إن ناسًا ...): الدارميُّ [١٢٩].

(٥) حديث (أنه صلى بذي الحليفة ركعتين ...): مسلمٌ [٦٩٢].

أقولُ -وباللهِ التوفيقِ-: إنّ الواجبَ على أمثالِنا المقلِّدِينَ التسليمُ لِما قالَتْه أئمةُ الدِّينِ وإنْ لمْ نعرفْ له وجْهًا؛ فإنَّ الإمامَ الأعظمَ لا يجهلُ ما صَحَّ في البخاريِّ عنْه ﷺ: (رُبَّما أحَدُكم يكونُ أَلْحَنَ بحُجّتِه مِنَ الآخرِ فأَقْضِي له -أي على مُقتَضَى صلاحِ حُجَّتِه- إنَّما أَقطعُ له قِطعةً مِنَ النّارِ)[1]، ولِذا قالَتِ الأئمةُ الثلاثةُ -ووافَقَهم صاحِبا الإمامِ محمّدٌ وأبو يوسُفَ-: «إنّ حُكْمَ الحاكمِ يرفَعُ الخِلافَ لا يُحِلُّ حرامًا» يَعْني باطنًا، وقولُه (شاهِداكِ زوَّجاكِ) محتمِلٌ، أيْ بحسَبِ ظاهرِ الشرعِ مَعَ عدَمِ حِلِّيَّتِها لهُ باطِنًا إنْ كانَ كاذبًا في دَعْواهُ الزوْجيةِ لها، ولَعَلَّ الإمامَ نظَرَ إلى أنَّ هذا ينزلُ مَنزلةَ العَقْدِ، فبَنَى عَلَيْه حِلّيّتَها لهُ باطنًا؛ وبالجُملةِ فهُوَ أَدْرَى بالسُّنةِ مِنَ المقتَدِينَ، ولا يَنبغِي لِأمثالِنا إلا كمالُ الأدَبِ معَ الأئمةِ والتسليمُ.

قولُه (**فهو منصُورٌ**): وَفي نسْخةٍ «منصوب». وقولُه (**عَمَلٌ قليلٌ في سُنَّةٍ... إلخ**): كَرَّره لِذكرِه موقوفًا بعْدَ أنْ ذَكَرَهُ مرفوعًا توكيدًا لهُ.

قولُه (**بتعَلُّمِ السُّنَّةِ**): أي الأحاديثِ أو السُّنَنِ، وفي نسخةٍ «بتعليمِ السُّنَّةِ لِلناسِ». قولُه (**أي اللُّغَةِ**): تفسيرٌ لِلَّحْنِ، وهوَ مِنْ أَحَدِ رُواةِ الحديثِ، والمرادُ باللغةِ أصُولُها الشاملةُ لِعلْمِ الصرفِ، وفروعُها المركَّبةُ الشاملةُ لِعلمِ النحوِ وعِلمِ البيانِ والمَعاني.

قولُه (**فخُذُوهُم بالسُّنَنِ**): -وفي نسخةٍ «بالسُّنّةِ»- أي غالِبُوهمْ بالأحاديثِ النبويةِ دونَ العَمَلِ بظواهرِ الآياتِ القرآنيةِ؛ ولِذا قالَ المصنِّفُ: (إنَّ أصْحابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بكِتابِ اللهِ)، قالَ المُلّا: أصحابُ السُّننِ العُلماءُ بالحديثِ المُبينِ لِلكِتابِ، وأمّا قولُ الدّلجيِّ كالبخاريِّ ومسْلمٍ وأبي داودَ فخارجٌ عَن صَوْبِ الصّوابِ. اهـ. أقولُ -وباللهِ التوفيقِ-: إنّ التأمّلَ والإنصافَ، في نُطقِ الدلجيِّ بالكافِ كافٍ، فالتورّكُ

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٢٦٨٠) [كتاب الشهادات]، ومسلمٌ (١٧١٣) [كتاب الأقضية]، وغيرهما من حديث السيِّدة أم سلمة.

وَعَنْ عَلِيٍّ حِينَ قَرَنَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: تَرَى أَنِّي أَنْهَى النَّاسَ عَنْهُ، وتَفْعَلُهُ؟! فقالَ لَه: لَمْ أَكُنْ أَدَعُ سُنَّةَ رسُولِ الله ﷺ لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ[١]. وعَنْه: أَلاَ إِنِّ لَسْتُ بِنَبِيٍّ، ولا يُوحَى إِلَيَّ؛ ولَكِنِّي أَعْمَلُ بكِتَابِ الله وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا اسْتَطَعْتُ[٢]. وكانَ ابنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: القَصْدُ في السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الاجتهادِ في البِدْعَةِ[٣]. وقالَ ابنُ عُمَرَ: صَلاَةُ السَّفَرِ رَكعتَانِ، مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ كَفَرَ[٤].

وقالَ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ: عَلَيْكم بالسَّبيلِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّه مَا على الأرضِ مِنْ عَبْدٍ على السَّبيلِ والسُّنَّةِ ذَكَرَ اللهَ في نفْسِهِ، ففاضَتْ عَيْناهُ مِنْ خَشْيَةِ الله فيُعَذِّبَه اللهُ أَبَدًا، أَوْ ما على الأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ على السَّبيلِ والسُّنَّةِ ذَكَرَ اللهَ في نفْسِهِ فاقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ الله إِلّا كانَ مَثَلُه كمَثَلِ شَجَرَةٍ قَدْ يَبِسَ وَرَقُهَا، بَيْنَمَا هِيَ كذلك إِذْ أَصَابَتْها رِيحٌ شَدِيدةٌ، فتَحَاتَّ عَنها وَرَقُها، إلّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ خطاياهُ كَمَا تَحَاتَّ عَنِ الشجَرةِ وَرَقُها، فإِنَّ اقتصَادًا في سَبيلٍ وسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتهادٍ في خِلَافِ سَبيلٍ وسُنَّةٍ، وانظُرُوا أَنْ يَكُونَ عَمَلُكُمْ -إِنْ كانَ اجْتهادًا أَوِ اقتصَادًا- أَنْ يَكُونَ على مِنْهاجِ الأنبياءِ وسُنَّتِهِمْ.[٥]

---

(١) حديث علي حين قرن: البخاريُّ [١٥٦٣] والنَّسائيُّ [٢٧٢٣].

(٢) [أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٧٧)، وغيره].

(٣) حديث ابن مسعود (القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة): الدارميُّ [٢٣٦]، والطبرانيُّ في «الكبير» [١٠/ ٢٠٧]، وأخرجه اللالكائي في «السنة» [١٤] عنه، وعن أبي الدرداء أيضًا [١١٥].

(٤) حديث ابن عمر (صلاة السفر ركعتان ...): عبد بن حميد في مسنده [٨٢٩] بسندٍ صحيح.

(٥) حديث أبي بن كعب (عليكم بالسبيل والسنة ...):=

عليْه مجرَّدُ تعسُّفٍ وعدمُ إنصافٍ؛ فإنَّه لا يَخْفَى فَضْلُ البخاريِّ ومَنْ ذُكِرَ مَعَه؛ على أنَّه لا حَصْرَ في كلامِ الدلجيِّ.

قولُه (فقالَ له عُثْمانُ): وهوَ الصوابُ بخِلافِ ما في نسخةٍ «فقال له عُمر». وقولُه (تَرَى): أي تعلَمُ. وقولُه (أَنْهَى النَّاسَ عَنْه): أي عَنِ القِرانِ أو التمتُّعِ. وقولُه (قالَ): أي عليٌّ لِعُثْمانَ. وقولُه (أَدَعُ): أي وادِعًا وتارِكًا سُنَّةَ رسُولِ الله... إلخ. وإنَّما نَهَى عثمانُ عَنِ المُتعَةِ في أشهُرِ الحجِّ لِيَكونَ أشهُرُ الحَجِّ لِلحَجِّ لا غَيْرُ، وتَكونَ العمْرةُ في غيْرِها حتَّى يُزارَ البيْتُ في أشهُرِ الحجِّ وغيْرِها. وقولُه (وعَنْه): أي عَن عليٍّ.

قولُه (القَصْدُ في السُّنَّةِ): أي التوسّطُ في العَمَلِ بها، قال المُلّا: أي أحسَنُ مِنَ المبالَغةِ في بَذْلِ الوُسْعِ والكثرةِ مِن الطاعةِ في حالِ الأخذِ بهَا، قال: وأمّا تقييدُ الدّلجيِّ بالضلالةِ فناشئٌ مِن بَعْضِ الجهالةِ. أقولُ: إنَّه بالتأمّلِ في عِبارةِ الدلجيِّ، بلْ بالبَداهَةِ ترْجعُ لِمَقالتِه؛ وإنَّما الَّذي حَمَلَه على الاعتراضِ عَدَمُ الإنصافِ، ونَصُّ الدلجيِّ: «أيْ خيرٌ مِن بَذْلِ الوُسعِ والطّاعةِ في العَملِ مُتلَبِّسًا بِبِدْعةٍ»، وأفعَلُ التفضيلِ ليْسَ على بابِه. وقولُه (مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ كَفَرَ): حيثُ كانَ جاحِدًا لها، ومجرَّدُ المخالَفةِ لا يَستلزِمُ كُفرًا. قولُه (على السَّبيلِ والسُّنَّةِ): أيْ على طريقِ الكِتابِ والسُّنّةِ. قولُه (فيُعَذِّبَه): -بالنَّصْبِ- أي إلا لَمْ يُعَذِّبْه أبَدًا. قولُه (إلّا كانَ مَثَلُه): -بفتحتَيْنِ- أيْ صِفتُه. قولُه (بَيْنَمَا هِيَ كذلك): وفي النسخةِ الصّحيحَةِ «فهِيَ كذلكَ». وقولُه (فتَحَاتَّ): -بالحاءِ المهْمَلةِ- أي تناثَرَ.

وكَتَبَ بَعْضُ عُمَّالِ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ إلى عُمَرَ بحالِ بَلَدِهِ وكَثْرَةِ لُصُوصِهِ، هَلْ يأخُذُهمْ بالظِّنَّةِ، أوْ يَحْمِلُهُمْ على البيِّنَةِ وما جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ؟ فكَتَبَ إليْهِ عُمَرُ خُذْهمْ بالبيِّنَةِ وما جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ، فإنْ لمْ يُصْلِحْهُمُ الحَقُّ فلا أَصْلَحَهُمُ اللهُ. وعَنْ عَطَاءٍ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فإنْ تنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ والرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أيْ إلَى كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وقَالَ الشافِعيُّ: لَيْسَ في سُنَّةِ رسُولِ اللهِ ﷺ إلّا اتِّبَاعُهَا.

وقالَ عُمَرُ -ونَظَرَ إلى الحَجَرِ الأَسْوَدِ-: إنَّكَ حَجَرٌ لا تنفَعُ ولا تَضُرُّ، ولَوْلا أَنِّي رأيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ، ثُمَّ قَبَّلَه[1].

وَرُئِيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يُدِيرُ نَاقَتَهُ في مَكَانٍ، فسُئِلَ، فقَالَ: لا أَدْري؛ إلَّا أَنِّي رأيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ فعَلَه ففعَلْتُه[2]. وقَالَ أبُو عُثْمانَ الجُنَيْدِيُّ: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ على نَفْسِهِ قَوْلًا وفِعْلًا نَطَقَ بالحِكمةِ، ومَنْ أَمَّرَ الهَوَى على نفْسِهِ نطَقَ بالبِدْعةِ. وقالَ سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ: أُصُولُ مَذْهَبِنا ثَلاثَةٌ: الاقتداءُ بالنَّبيِّ ﷺ في الأَخْلاقِ والأفعَالِ، والأَكْلُ مِنَ الحَلالِ، وإخْلاصُ النِّيَّةِ في جَمِيعِ الأعْمالِ.

وَجَاءَ في التفسيرِ، في قَوْلِهِ تعَالى: ﴿والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] أنَّه الاقتِداءُ برسُولِ اللهِ ﷺ، وحُكِيَ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا مَعَ جَماعةٍ تَجَرَّدُوا ودَخَلُوا الماءَ، فاستعمَلْتُ الحَديثَ: (مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلا يدْخُلُ الحمَّامَ إلا بمِئْزَرٍ)[3]، ولَمْ أَتَجَرَّدْ، فرأَيْتُ تلكَ اللَّيْلَةَ قائلًا يَقُولُ لي: يا أَحْمَدُ، أَبْشِرْ فإنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ باسْتِعْمالِكَ السُّنَّةَ، وجَعَلَكَ إمَامًا يُقْتَدَى بِكَ، قُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جبْرِيلُ.

***

=الأصبهاني في «الترغيب» [٤٨٨]، واللالكائي في «السنة» [١٠].

(١) حديث عمر في الحجر الأسود: الشيخان [البخاريُّ (١٥٩٧)، ومسلمٌ (١٢٧٠)].

(٢) حديث عبد الله بن عمر (أنه أدار ناقته): أحمد [٤٨٧٠] والبزّار [كشف الأستار (١٢٨)] بسندٍ صحيحٍ.

(٣) حديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر): الترمذيُّ [٢٨٠١] عن جابرٍ.

وقوله (بالظِّنَّةِ): -بكسْرِ الظاءِ المعجَمةِ وتشديدِ النونِ المفتوحَةِ- أي التُّهمةِ.

وقوله (ونظَرَ إلى الحَجَرِ الأسْوَدِ): جُملةٌ حاليّةٌ. وقوله (إنَّكَ والله... إلخ): كَما في نسخةٍ. وقوله (لا تنفعُ ولا تَضُرُّ): أيْ في حَدِّ ذاتِكَ؛ فلا يُنافي في ما ورَدَ مِنْ أنّه يَشهدُ لِمَن اسْتَلَمَهُ يومَ القيامةِ.

وقوله (أبو عثمانَ الحُمَيديُّ): -بضمِّ الحاءِ المهمَلةِ وفتحِ الميمِ، وضبطَه الشمنيُّ أيْضًا بحاءٍ مكسُورةٍ فمثنّاةٍ تحتيّةٍ ساكنةٍ فراءٍ مكسُورةٍ وياءٍ للنسبَةِ، وأمّا نسَخُ «الجُنَيْدِيّ» -بالجيمِ المضمُومَةِ- فتحريفٌ.

وقوله (فاستَعمَلْتُ الحَديثَ): أي إطلاقَ الحديثِ. وقوله (إلا بمِئْزَرٍ): -بكسرِ الميمِ وسُكونِ الهمزةِ وفتحِ زاي- أي إلا بإزارٍ يَسْتُرُ عَورتَه.

***

فَصْلٌ
[في أنَّ مخالَفةَ أمْرِهِ وتبديلَ سُنَّتِهِ ضلالٌ وبِدْعةٌ]

ومُخالَفَةُ أَمْرِه وتَبْدِيلُ سُنَّتِه ضَلَالٌ وبِدْعَةٌ مُتَوَعَّدٌ مِنَ اللهِ عَلَيْه بالخِذْلَانِ والعَذَابِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ...﴾ الآيَةَ [النور: ٦٣]، وقَالَ: ﴿ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ له الهُدَى ...﴾ الآية [النساء: ١١٥].

حَدَّثَنا أَبُو محمَّدٍ عَبْدُ الله بْنُ جَعْفَرٍ، وعَبْدُ الرحمنِ بْنُ عَتَّابٍ بِقِراءَتِي عَلَيْهِمَا، قالَا: حدَّثَنا أبو القاسِمِ حَاتِمُ بْنُ محمَّدٍ، قالَ: حدَّثَنا أبو الحَسَنِ القابِسِيُّ، حدَّثَنا أَبُو الحُسينِ بْنُ مَسْرُورٍ، حدَّثَنا الدَّبَّاغُ، حدَّثَنا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمانَ، حدَّثَنا سَحْنُونُ بْنُ سَعِيدٍ، حدَّثَنا أَبُو القاسِم، حدَّثَنا مالِكٌ عَنِ العَلَاءِ بنِ عبْدِ الرحمنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرةَ أنَّ رسُولَ الله ﷺ خَرَجَ إلى المَقْبَرَةِ، وذَكَرَ الحديثَ في صِفَةِ أُمَّتِه، وفِيه:

(فَلَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذادُ البَعِيرُ الضَّالُّ، فأُنَادِيهِمْ، أَلَا هَلُمَّ، أَلَا هَلُمَّ، أَلَا هَلُمَّ! فيُقَالُ: إنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: فسُحْقًا فسُحْقًا فسُحْقًا).(١)

ورَوَى أَنَسٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: (مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فلَيْسَ مِنِّي).(٢)

وقالَ: (مَنْ أَدْخَلَ في أَمْرِنَا ما لَيْسَ مِنْه فهُوَ رَدٌّ).(٣)

---

(١) حديث أبي هريرة (فليذادن رجال عن حوضي ...): مسلمٌ [٢٤٩].

(٢) حديث أنس (من رغب عن سنتي فليس مني): الشيخان [تقدم ص٤٢٩].

(٣) حديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ): الشيخان [البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ (١٧١٨)] عن عائشة.

وقولـه (الحُسَيْنِ بنُ مسْرورٍ): وفي نسخةٍ صحيحَةٍ «الحَسَنِ».

وقولُـه (سَحْنونُ): بفتحِ سينٍ وضمِّ نونٍ.

وقولـه (إلَى المَقْبَرةِ): -بتثليثِ الباءِ والفتحُ أفصَحُ- والظاهرُ -كَمَا قالَ المُلَّا- مقبَرَةُ البَقِيعِ في المدينةِ.

وقولـه (فلَيُذادَنَّ): -بفتحِ اللامِ القسميّةِ وضمِّ الياءِ وذالٍ معجَمةٍ فألِفٍ ودالٍ مُهمَلةٍ فنونٍ مشدَّدةٍ؛ مِن الذَّوْدِ وهُوَ الطَّردُ والبُعْدُ- أي فلَيُصَدَّنَّ ويُمْنَعَنَّ.

وقولـه (أَلَا هَلُمَّ): أيْ تعالَوْا وأَقبِلُوا؛ لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤنَّثُ في لُغةِ الحجَازِيِّينَ(١).

وقولـه (فسُحْقًا): -بإسْكانِ الحاءِ المهْمَلةِ وضمِّها- أي فبُعْدًا.

---

(١) أي لا تلحقه الضمائر لأنه اسم فعل لا فعل عندهم.

وروى ابنُ أبي رافع عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال: (لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم مُتَّكِئًا على أريكته يأتيه الأمرُ من أمري مِمَّا أمرتُ به، أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعناه)[1]، زاد في حديث المِقْدام: (ألا وإنَّ ما حرَّم رسول الله ﷺ مثل ما حرَّم الله)[2].

وقال ﷺ -وجيء بكتاب في كتف-: (كفى بقوم حُمْقًا -أو قال: ضلالًا- أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى غير نبيِّهم، أو كتاب غير كتابهم)، فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآية [العنكبوت: ٥١][3].

وقال ﷺ: (هلك المُتنطِّعون)[4].

وقال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: لستُ تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملتُ به؛ إنِّي أخشى -إن تركتُ شيئًا من أمره- أن أزيغ[5].

***

قوله (في كتف): أي من الشاة.

قوله (حُمْقًا): -بضمٍّ فسكونٍ- أي حماقةً وجهالةً.

وقوله (المُتنطِّعون): -بضمِّ الميم وفتح المثنَّاة فوقُ وفتح النون وكسر الطَّاء مشدَّدةً- أي المتعمِّقون المبالغون في الأمور.

وقوله (أن أزيغ): أي أميل عن الحقِّ.

***

(١) حديث أبي رافع (لا أُلْفِيَنَّ ...): تقدَّم [انظر ص٤٢٧].

(٢) حديث المِقْدام مثله: الترمذيُّ [٢٦٦٤] والحاكم [١/ ١٠٩].

(٣) حديث (أنه جيء بكتاب ...) في نزول ﴿أولم يكفهم ...﴾ الآية: ابن أبي حاتم [١٧٣٨٠]، والدارميُّ [٥١٧] عن يحيى بن جعدة.

(٤) حديث (هلك المُتنطِّعون): مسلمٌ [٢٦٧٠] عن ابن مسعود.

(٥) حديث (قال أبو بكر لست تاركًا شيئًا ...): البخاريُّ [(٣٠٩٣)]، وأخرجه أيضًا مسلمٌ (١٧٥٩)] وأبو داود [٢٩٧٠].

البَابُ الثَّانِي: فِي لُزُومِ مَحَبَّتِه ﷺ

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكَفَى بهَذا حَضًّا وتنبيهًا ودِلالةً وحُجَّةً على إلزامِ مَحبَّتِه، ووُجُوبِ فَرْضِها، وعِظَمِ خطَرِها، واستحقاقِه لها ﷺ؛ إذْ قَرَّعَ تعالى مَنْ كانَ مالُه وولَدُه وأهلُه أَحبَّ إليه مِنَ اللهِ ورسُولِه، وأوْعَدَهم بقولِه تعالى: ﴿فتَرَبَّصُوا حَتَّى يأتِيَ اللهُ بأمْرِه﴾، ثُمَّ فَسَّقَهُمْ بتَمامِ الآيةِ، وأعلَمَهم أنَّهم مِمَّنْ ضَلَّ ولَمْ يَهْدِه اللهُ تعالى.

حدَّثَنا أبُو عَلِيٍّ الغَسَّانيُّ الحافِظُ فِيما أجازَنِيه، وهُوَ مِمَّا قَرَأْتُه على غَيْرِ واحِدٍ، قالَ: حدَّثَنا سِرَاجُ بْنُ عبْدِ اللهِ القاضي، حدَّثَنا أبُو محمَّدٍ الأَصِيلِيُّ، حدَّثَنا المَرْوَزِيُّ، حدَّثَنا أبُو عبْدِ اللهِ محمَّدُ بْنُ يوسُفَ، حدَّثَنا محمَّدُ بْنُ إسْماعِيلَ، حدَّثَنا يَعْقوبُ بْنُ إبراهيمَ، حدَّثَنا ابنُ عُلَيَّةَ عَنْ عَبْدِ العزيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أنَسِ بْنِ مالِكٍ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ:

قوله (وأزواجُكم): أيْ أشباهُكم مِنْ نسَائكمْ ورجالِكُمْ.

قوله (وعَشِيرَتُكم): مِن العِشْرةِ -بكسْرِ المُهْمَلَةِ وسُكونِ المعْجَمةِ-، وفي قراءةٍ (وعَشِيراتُكم) بصيغةِ الجمْعِ السّالِمِ[1]، أي جميعُ أقاربِكم أو كلُّ مَنْ تعاشرونَه وتصاحِبُونَه.

قوله (أَحَبَّ إلَيْكم): أي حُبًّا اختياريًّا.

قوله (فتَرَبَّصُوا): أمرُ تهديدٍ، أيْ فانتَظِرُوا حتّى... إلخ.

وقوله (فكَفَى بهَذا): أي التهْديدِ والوعيدِ.

وَقَوْلُهُ (حَضًّا): -بفتحِ الحاءِ وتشديدِ الضّادِ- أيْ تَحريضًا وَحَثًّا.

وقوله (وعِظَم): بكسرِ العينِ، وفي نسْخةٍ «وعَظِيم» بفتحِ العَيْنِ. وقوله (خطَرِها): -بفتح الخاء المعجمة والطّاء المهْملة- أي القَدْرِ.

قوله (لها): أي المحبَّةِ الكاملةِ.

وقوله (إذْ قَرَّعَ): -بفتح القاف وتشديد الراء- أي وَبَّخَ مَنْ كانَ مالُه... إلخ.

وقوله (أَحبَّ إلَيْه): أي إلى نفْسِه.

وقوله (ثُمَّ فَسَّقَهمْ): -بتشديدِ السِّينِ- أي نَسَبَهمْ إلى الفِسْقِ.

وقوله (أوْعَدَهم): مِنَ الإيعادِ يُسْتَعْمَلُ في الشرِّ، والوَعْدُ في الخيرِ غالِبًا، ويَنْدُرُ في الشرِّ.. وفي مَبْدَإ «مَناهلِ الصَّفا في تخريجِ أَحاديثِ الشِّفَا» لخاتِمةِ الحُفّاظِ السّيوطيِّ: «الحمدُ للهِ الذي إذا وَعَدَ وَفَى، وإذا أوْعَدَ عفَى».

قوله (الغسّانيُّ): بفتحِ الغينِ المعجَمةِ وتشديدِ المهْملةِ.

قوله (الأَصِيليُّ): بفتحٍ فكسْرٍ.

وقوله (المَرْوَزِيُّ): بفتحِ الميمِ والواوِ.

(١) قراءة عاصم الكوفي: بتفخيم الراء وبعدها ألف، وإسكان الميم.

(لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ ووالِدِه والنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُهُ[2].

وعَنْ أَنَسٍ عَنْه ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ ورَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إِلاَّ لله، ..

(١) حديث أنس (لا يؤمن أحدكم ...): أسنده من طريق البخاريِّ [١٥]، وأخرجه مسلمٌ [٤٤] أيضًا.

(٢) حديث أبي هريرة مثله: الشيخان [البخاريُّ (١٤)، ولم أجده في «صحيح مسلم»].

وقوله (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكم): -قال المُلّا: الخِطَابُ يَشمَلُ الموجودِينَ ومَنْ بَعْدَهم مِن المَوْلودِينَ، وفي روايةِ مسْلِمٍ: (عَبْدٌ)- أيْ لا يَكْمُلُ إيمانُ أَحَدٍ؛ بِدَليلِ رِوايةِ ابنِ حِبَّانَ: «لا يَبْلُغُ أَحَدُكم حقيقةَ الإيمانِ»[1].

(حَتَّى أَكُونَ... إلخ): أيْ أَشَدَّ حُبًّا، أيْ حُبًّا اختياريًّا يُوجِبُ إكرامًا له ﷺ.

ولَيْس المرادُ الحُبَّ الطَّبيعيَّ التابعَ لِهَوَى النفْسِ؛ فإنَّ مَحَبَّةَ الإنسانِ لِنَفْسِه مِنْ حيثُ الطبْعُ أَشَدُّ مِن مَحَبَّةِ غيْرِه، وكَذا محبّةُ ولَدِه ووالِدِه أَشَدُّ مِنْ مَحَبَّةِ غيرِهمْ، وهَذا الحبُّ ليسَ بداخلٍ تحتَ اختيارِ الشَّخصِ بلْ خارجٌ عنْ حدِّ الاسْتطاعةِ؛ فلا مؤاخَذةَ به؛ ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها﴾ [البقرة: ٢٨٦]، بل المرادُ الحبُّ العقليُّ الاختياريُّ الذي هُوَ إيثارُ ما يَقْتَضِي العقلُ رُجْحانَه وإنْ كانَ على خِلافِ الطّبْعِ، قالَ[2]: ألا تَرَى أنّ المريضَ يَكْرَهُ الدَّوَاءَ بِطَبْعِه؛ ومعَ ذلك يَميلُ إليْه باختيارِه، ويَهْوَى تناوُلَه بمقتَضَى عقلِه لَمَّا عَلِمَ أو ظَنَّ أنَّ صَلاحَه فيه، وكذلكَ المؤمنُ إذا عَلِمَ أنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمرُ ولا يَنْهَى إلا بما فيه صَلَاحُ دِينِه ودُنْيَاه وآخِرَتِه وعُقْبَاه، وتَيَقَّنَ أنَّه ﷺ أَشفَقُ الناسِ عليْه وأَلْطَفُهم إِلَيْه، تَرَجَّحَ جانبُ أمرِه بمقتضى عقلِه على أمرِ غيرِه، وهذا أَوَّلُ درَجاتِ الإيمانِ، وأَمَّا كمالُه فهُوَ أنْ يصيرَ طَبْعُه تابعًا لِعَقْلِه في حبِّه ﷺ، ومِن مَحَبَّتِه ﷺ نصْرُ سُنَّتِه وإظْهارُها.

وقوله (وعَنْ أَنَسٍ عَنْه ﷺ): كَما في «الصّحيحَينِ». وقولُه (مَنْ كُنَّ فيه): أيْ وُجِدْنَ، أي اجتمَعْنَ. وقوله (حلاوةَ الإيمانِ): أي في قلْبِه كَمَنْ يَجِدُ حَلاوةَ العسَلِ مَن تَناوَلَهُ؛ غيرَ أنَّ الالتِذاذَ بالأوَّلِ عَقليٌّ رُوحانيٌّ، والثاني حِسِّيٌّ نَفسانيٌّ.

قوله (أحبَّ إليْه): بَدَلٌ مِنْ (ثَلاثٌ)، أو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ[3]. وقوله (مِمَّا سِوَاهُمَا): ولمْ يَقُلْ «مِمَّن سِوَاهما» لِعُمومِ (ما) -كَما قال المُلَّا- والمعْنى: مِن كلِّ شيءٍ مِمَّا عَداهما، وفي تثنيةِ ضميرِهما هُنَا معَ إنكارِه ﷺ على خَطيبٍ ثَنَّاهما -كَما مَرَّ- بقوْلِه: «ومَن يَعْصِهما فَقَدْ غَوَى» (بئسَ الخَطيبُ أنتَ، قلْ: ومَنْ يَعصِ اللهَ ورسُولَه)[4]؛ إشارَةً إلى أنَّ المعْتبَرَ في المحبَّتَينْ هوَ مجموعُهُما لا كُلُّ واحدةٍ بانفِرادِها، ودلالةً على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن العِصْيانَيْنِ مستقِلٌّ بلُزومِ الغَوايةِ له بشَهادةِ العَطْفِ، وقيلَ: المَنعُ في حَقِّ غيْرِه، والشارعُ يَجوزُ له ما لا يجوزُ لِغَيْرِه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٣٥) بلفظ: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير».

(٢) أي الملا؛ فهذا قوله نصًّا.

(٣) (أحبَّ) خبر يكون منصوب به؛ أما ما يتحدث عنه الشارح فهو المصدر المؤول (أن يكون...).

(٤) أخرجه مسلم (٨٧٠)، وغيره من حديث عدي بن حاتم.

وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ)[1].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه قالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلاَّ نفْسِي الَّتي بَيْنَ جَنْبَيَّ، فقَالَ له النَّبِيُّ ﷺ: (لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نفْسِهِ)، فقالَ عُمَرُ: والَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ؛ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نفْسِي الَّتي بَيْنَ جَنْبَيَّ، فقالَ له النَّبِيُّ ﷺ: الآنَ يا عُمَرُ.[2]

قالَ سَهْلٌ: مَنْ لَمْ يَرَ وِلايةَ الرَّسُولِ ﷺ عليه في جَمِيعِ الأَحْوالِ، ويَرَى نفْسَه في مِلْكِهِ لا يَذُوقُ حَلاوَةَ الإيمانِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ ....) الحَدِيثَ[3].

***

وقوله (يُقْذَفَ في النَّارِ): -بضمِّ الياءِ وسكونِ القافِ- أي يُرْمَى لِأَنَّ المرْءَ لا يَكْمُلُ إيمانُهُ حتَّى يَعْتقِدَ أنَّ اللهَ تعالى هُوَ المُنْعِمُ على الإطلاقِ، وأنَّ النبيَّ ﷺ هوَ واسطَةُ كُلِّ نِعْمةٍ، سَاعٍ في إصْلاحِ شأنِه ورِفعَةِ مَكانِه، وذلك يَستَوْجِبُ المَحبَّةَ.

وقولُهُ (لَأَنْتَ): أيْ واللهِ لَأَنْتَ.

وقوله (جَنْبَيَّ): -صفةٌ كاشفةٌ- أيْ رُوحِي الَّتي في بَدَني، وهذا مِن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَرَى على صِدْقِ مَقالِه وحُسْنِ مَرامِه؛ حيْثُ ظَنَّ أنَّ المرادَ بمَحبّتِه ﷺ هُوَ الحُبُّ الطبيعيُّ في هَذا المَقامِ، فبَيَّنَ له سيِّدُ العالَمِينَ مقالَه؛ إذِ المرادُ اختيارُ ما يُوجِبُ مَحبَّةَ اللهِ ورَسُولِهِ ورِضَاه على مَحبَّةِ المخلوقِينَ، فلَمّا تَفطَّنَ لِهذا المَعْنَى عُمرُ قالَ: والذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ لَأَنتَ... إلخ.

قوله (الآنَ يا عُمرُ): أيْ في هَذا الزَّمانِ قَدِ اسْتَقَمْتَ إيمانًا وتَكَمَّلْتَ إيقانًا، قال المُلّا: ولا يَبْعُدُ أنْ يكونَ الاسْتِفْهامُ مُقَدَّرًا إبطاءً لِهذا الأمْرِ الذي وَجَبَ أنْ يَكونَ مِنْ أوّلِ الوهْلَةِ.

قوله (وِلايةَ الرَّسُولِ): أيْ أَمْرَهُ وحُكْمَهُ (عليْه) جارِيًا على نفْسِهِ (في جميعِ الأحْوالِ)، وفي نسخةٍ «في جميعِ أحوالِه».

***

(1) حديث أنس (ثلاث من كن فيه ...): الشيخان [البخاريُّ (١٦)، ومسلمٌ (٤٣)].

(2) حديث عمر (أنه قال لأنت أحب ...): البخاريُّ [٦٦٣٢] عن عبدالله بن هشام.

(3) حديث (لا يؤمن أحدكم حتى كون أحب إليه من نفسه): هو معنى الذي قبله.

فَصْلٌ فِي ثَوَابِ مَحَبَّتِهِ ﷺ

حدَّثَنا أَبو محمَّدِ بْنُ عَتَّابٍ بِقراءَتِي عَلَيْهِ، حدَّثَنا أَبُو القَاسِمِ حَاتِمُ بْنُ محمَّدٍ، حدَّثَنا أَبُو الحُسَينِ عَلِيُّ بْنُ خَلَفٍ، حدَّثَنا أَبو زيدٍ المَرْوَزِيُّ، حدَّثَنا محمَّدُ بنُ يُوسُفَ، حدَّثَنا محمّدُ بنُ إسْماعيلَ، حدَّثَنا عَبْدَانُ، حدَّثَنا أَبِي، حدَّثَنا شُعْبَةُ عَنْ عمرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فقَالَ: يا رسُولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ؟ قالَ: ما أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قالَ: ما أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صَدَقَةٍ؛ ولَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه، قالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ[(١)].

وعَنْ صَفْوَانَ بنِ قُدَامَةَ، قالَ: هَاجَرْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فأَتَيْتُه، فقُلْتُ: يا رَسُولَ الله، ناوِلْنِي يَدَكَ أُبَايِعْكَ، فَنَاوَلَنِي يَدَهُ، فقُلْتُ: يا رسُولَ الله، إِنِّي أُحِبُّكَ، فقالَ: (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)[(٢)].

ورَوَى هَذَا اللفْظَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ، وأَبُو مُوسَى، وأَنَسٌ، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ بِمَعْنَاهُ.[(٣)]

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ حَسَنٍ وحُسَيْنٍ، فقَالَ: (مَنْ أَحَبَّنِي وأَحَبَّ هَذَيْنِ وأباهُما

(١) حديث أنس (أن رجلًا سأل: متى الساعة ...): أسنده من طريق البخاريِّ [٦١٧١]، وأخرجه مسلمٌ أيضًا [٢٦٣٩].

(٢) حديث صفوان (المرء مع من أحب): الترمذيُّ [(٢٣٨٧)، وصحَّحه] والنَّسائيُّ [«الكبرى» (١١١١٤)].

(٣) قوله: ورواه أيضًا ابن مسعودٍ: الشيخان [البخاريُّ (٦١٦٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٠)]، وأبو موسى: الشيخان [البخاريُّ (٦١٧٠)، ومسلمٌ (٢٦٤١)]، وأنسٌ: الشيخان [البخاريُّ (٦١٧١)، ومسلمٌ (٢٦٣٩)]، وأبو ذرٍّ: أحمد [٢١٣٧٩] وأبو داود [٥١٢٦] وابن حِبَّان [٥٥٦].

قوله (بْنُ عَتَّابٍ): بتشديدِ الفوقيةِ. قوله (بنُ خَلَفٍ): بفتحتَيْنِ.

قوله (أنَّ رَجُلًا): قيلَ هو عُمرُ بْنُ الخطّابِ، وقيلَ أبُو موسى.

وقوله (مَتَى السَّاعةُ): أي القِيامةُ، كأنَّه أَظْهَرَ الشَّوْقَ إِلَيْها.

قوله (ما أعدَدْتَ لها): أي لِما يُصيبُكَ مِن أهوالِها وشَدائِدِ أحْوالِها.

قوله (ولكنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسُولَه): أيْ فيما يُوجِبُ رِضاهما مِنَ الفرائِضِ، والمَنفيُّ أوَّلًا المُؤكَّدُ بـ«مِن» الزائدةِ: العبادةُ النافلةُ.

قوله (بنِ قُدَامةَ): بضمِّ القافِ. وقوله (أُبايِعْكَ): بالجزمِ على جَوابِ الأمْرِ، ويجُوزُ رَفْعُه على الاسْتئنافِ.

قوله (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ): أجابَ بحُكمٍ عامٍّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المَعِيّةَ على قَدْرِ المَحبّةِ الموجِبةِ لِلطّاعةِ، وزادَ في روايةِ التِّرمذيِّ (وله ما اكتَسَبَهُ)[(١)].

قال الملا: وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ قُربَ المعيّةِ، على قَدْرِ كسْبِ الجمعيّةِ؛ فالناقصُ في الصّلاحِ مَعَ محبَّةِ أكْمَلِ الصّالحينَ يُحشَرُ معهُمْ.

قوله (أَخَذَ بِيَدِ حَسَنٍ وحُسَيْنٍ): قالَ المُلّا: الظّاهِرُ أنَّ أحَدَهما عَنْ يَمينه والآخَرَ عَنْ شِمالِه، (فقالَ: مَنْ أَحَبَّنِي وأَحَبَّ هذَيْنِ... إلخ): أيْ لِأجْلِي أو لِذَواتِهِم المُشتمِلةِ على حُسْنِ صِفاتِهِم.

(١) «سنن الترمذيِّ» (٢٣٨٦) [أبواب الزهد].

وأُمَّهُمَا كانَ معِي في دَرَجَتِي يَوْمَ القِيامَةِ)[1].

ورُوِيَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فقَالَ: يا رَسُولَ الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وإِنِّي لَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى أَجِيءَ فأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وإِنِّي ذَكَرْتُ مَوْتِي ومَوْتَكَ، فعَرَفْتُ أَنَّكَ إذا دَخَلْتَ الجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، فإِنْ دَخَلْتُها لا أَرَاكَ، فأَنْزَلَ اللهُ تعَالى: (ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ... الآيةَ)، فدَعَا بِهِ، فقَرَأَهَا عَلَيْهِ[2].

وَفي حَدِيثٍ آخَرَ: كَانَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لا يطْرِقُ، فَقَالَ: مَا بالُكَ؟ فقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي أَتَمَتَّعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكَ، فإذا كانَ يَوْمُ القيامةِ رَفَعَكَ اللهُ بتفضيلِه، فأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ.[3]

وفي حَدِيثِ أَنَسٍ: (مَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي في الجَنَّةِ)[4].

***

وقوله (كانَ مَعِي): أي مُقَرَّبًا عِنْدي (في دَرَجَتِي): أيْ في جِواري أو في درَجةِ أَهْلِ بيْتِي.

قوله (حَتَّى أَجِيءَ): -بِمَدِّ الهَمزةِ- أي أحْضُرَ لديكَ (فأَنْظُرَ إِلَيْكَ) لِتَقَرَّ عيْنِي ويَسْكُنَ قَلْبِي.

وقوله (فأَنزَلَ اللهُ تعالى): أي تبشيرًا لِلعُشّاقِ.

قوله (فأولئكَ مَعَ الَّذينَ... إلخ): أي المحبُّونَ لِأحبابِي. قوله (أَنْعَمَ اللهُ عليْهِمْ): أي بِنِعْمَةِ المَعيّةِ والقُرْبِ.

قوله (يَنْظُرُ إليْه): أيْ إلى وَجْهِهِ الشريفِ.

قوله (لا يطْرِقُ): بكسرِ الراءِ، وفي نسخةٍ «ما يَطرِفُ» بالفاءِ؛ أي لا يَغُضُّ بَصَرَه لدَيْه.

وقوله (فَقَالَ: مَا بالُكَ): أيْ شَأْنُكَ. وقوله (بِأَبِي أنْتَ وأُمِّي): أي أَفْدِيكَ بهما. وقوله (مِنَ النَّظَرِ): -ويُرْوَى «بالنَّظَرِ إليكَ»- أيْ في الدُّنْيَا.

قوله (كَانَ مَعِي في الجَنَّةِ): أيْ وإنَّ تَفاوُتَ الدرجةِ على تَفاوتِ مَراتبِ المَحبَّةِ المقتَضِيَةِ لِحُسْنِ الطاعةِ على وَفقِ المتابَعَةِ.

***

(١) حديث علي (أنه أخذ بيد حسن وحسين ...): الترمذيُّ [٣٧٣٣].

(٢) حديث (أن رجلًا أتى النبي ﷺ ...) في نزول ﴿ومن يطع الله والرسول ...﴾ الآية: الطبرانيُّ [١٢/ ٨٦]، وابن مردويه [كما في الدر المنثور (٢/ ٥٨٨)] عن عائشة وابن عبَّاسٍ.

(٣) حديث (كان رجل ينظر إليه لا يطرق ...): [بيض له السيوطي ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

(٤) حديث أنس (من أحبني كان معي في الجنة ...): الأصبهانيُّ في «الترغيب» [٢٥٤].

فصلٌ فِيمَا رُوِيَ عَنِ السَّلَفِ والأَئِمَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وشَوْقِهِمْ لَهُ

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ، حَدَّثَنَا العُذْرِيُّ، حَدَّثَنَا الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا الجُلُودِيُّ، حَدَّثَنَا ابنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرحمنِ عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رآنِي بأَهْلِهِ وَمَالِهِ)[1]، ومِثْلُه عَنْ أَبِي ذَرٍّ[2].

وقَدْ تَقَدَّمَ حَديثُ عُمَرَ، وقَوْلُه لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الصَّحابَةِ في مِثْلِه.

وعَنْ عَمرِو بْنِ العَاصِ: مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.[3]

وعَنْ عَبْدَةَ بِنْتِ خالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، قالَتْ: مَا كانَ خالِدٌ يَأْوِي إِلَى فِرَاشٍ إِلاَّ وهُوَ يَذْكُرُ مِنْ شَوْقِهِ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وإِلَى أَصْحَابِهِ مِنَ المهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ يُسَمِّيهِمْ، ويَقولُ: «هُمْ أَصْلِي وفَصْلِي، وإِلَيْهِمْ يَحِنُّ قَلْبِي، طَالَ شَوْقِي إِلَيْهِمْ؛ فعَجِّلْ -رَبِّ- قَبْضِي إِلَيْكَ»، حَتَّى يَغْلِبَهُ النَّوْمُ.[4]

ورُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: والَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ؛ لَإِسْلَامُ أَبِي طالبٍ كانَ أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ إِسْلامِهِ -يَعْنِي أَبَاهُ، أَبَا قُحَافَةَ-؛ وذلكَ أَنَّ إِسْلامَ أَبِي طالِبٍ

---

(١) حديث أبي هريرة (من أشد أمتي ...): أسنده من طريق مسلم [٢٨٣٢].

(٢) حديث أبي ذرٍّ مثله: [أخرجه أحمد في «المسند» (٢١٣٨٥)].

(٣) [أخرجه مسلم (١٢١)، وغيره].

(٤) [حلية الأولياء (٥/ ٢١٠)].

قوله (العُذْرِيُّ): بضمِّ العينِ وسُكونِ الذالِ المعجمةِ. وقوله (الجُلُودِيُّ): بضمِّ الجيمِ. قوله (قُتَيْبَةُ): -بالتَّصغيرِ- لَقَبُه، وهوَ ابنُ سعيدٍ. وقوله (عَنْ سُهَيْلٍ): بالتصْغيرِ، وفي نسْخةٍ «سَهْلٍ».

قوله (مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي): وفي نسخةٍ «مِنْ أَشَدِّ الناسِ لي». وقوله (ناسٌ): أيْ جماعةٌ، وهُوَ مبتدأٌ خَبرُه الجارُّ والمجرورُ المتقَدِّمُ.

وقولُهُ (بنِ العاصِ): وفي نسخةٍ «العاصي»، قال الملَّا: والأوّلُ هوَ الصّوابُ اه ملَّا، وفي «الصّفويِّ» نقلًا عَن النوَويِّ ما يشهَدُ لِكُلٍّ.

قوله (يُسَمِّيهِمْ): أي يَذْكُرُهمْ بأسْمائهِمْ واحدًا بَعْدَ واحدٍ. وقولُهُ (أَصْلِي): أيْ في أُصُولِ الدِّينِ (وفَصْلِي): أي في فروعِ المجتهدِينَ، أو بِمَنْزلةِ آبائي وأوْلادي. وقوله (يَحِنُّ قَلْبِي): -بكسْرِ الحاءِ- أي يَميلُ. وقوله (فعَجِّلْ رَبِّ- قَبْضِي): أي مسَارَعةً إلى رحْمَتِكَ.

قوله (حتَّى يَغْلِبَهُ النومُ): أي يُكرِّرُ الجملةَ الأخيرةَ؛ لِأَنَّ مَوْتَ الأقرانِ الأخيارِ يُوجِبُ الأحْزانَ.

وقوله (ورُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ): وفي نسْخةٍ «وعَنْ أَبِي بَكرٍ... إلخ». قوله (لَإِسْلامُ) بلامٍ مفتوحةٍ معَ كسْرِ الهمزةِ. قوله (قُحافةَ): -بضمِّ القافِ- عاشَ بَعْدَ ابنِه الصِّدِّيقِ، واسْمُه عُثمانُ بنُ عامرٍ، ولَعَلَّه قالَ ذلكَ -كَما في المُلَّا- حينَ أَسْلمَ أبوهُ عامَ الفتحِ، وهَنَّأَهُ النبيُّ ﷺ.

كانَ أَقَرَّ لِعَيْنِكَ مِنْ إِسْلامِهِ[1]، ونَحْوُهُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَهُ لِلْعبَّاسِ: أَنْ تُسْلِمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُسْلِمَ الخَطَّابُ؛ لِأَنَّ ذلكَ أَحَبُّ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ[2].

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قُتِلَ أَبُوهَا وزَوْجُهَا وأَخُوهَا يَوْمَ أُحُدٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ، فقالَتْ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ؟ قالُوا: خَيْرًا، هُوَ بِحَمْدِ اللهِ كَمَا تُحِبِّينَ، قالَتْ: أَرِنِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فلَمَّا رَأَتْهُ قالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ.[3]

وسُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَيْفَ كانَ حُبُّكُمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قالَ: كانَ -واللهِ- أَحَبَّ إِلَيْنا مِنْ أَمْوالِنَا وأَوْلادِنا وأَبْنائِنَا وأُمَّهاتِنَا، ومِنَ الماءِ البارِدِ على الظَّمَإِ.[4]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قالَ: خَرَجَ عُمَرُ لَيْلَةً يَحْرُسُ، فَرَأَى مِصْبَاحًا في بَيْتٍ، وإِذَا عَجُوزٌ تنفُشُ صُوفًا، وتَقُولُ:

عَلَى مُحَمَّدٍ صَلاةُ الأَبْرَارْ
صَلَّى عَلَيْهِ الطَّيِّبُونَ الأَخْيَارْ
قَدْ كُنْتَ قَوَّامًا بُكًا بالأَسْحَارْ

(١) حديث (أنَّ أبا بكرٍ قال: لإسلام أبي طالب كان أقرَّ لعيني من إسلام أبي): ابن عساكر في تاريخه [٦٦/ ٣٢٦] عن ابن عمر.

(٢) حديث (قال عمر للعباس: أن تسلم أحب إليَّ من أن يسلم الخطاب): البزّار [٤٩٢٤] والبيهقيُّ عن ابن عبّاس.

(٣) حديث (أنَّ امرأةً من الأنصار قُتل أبوها ...): ابن إسحاق [كما في الروض الأنف (١/ ٢٨، ٢٩)]، والبيهقيُّ عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص مرسلًا.

(٤) حديث (سُئل عليٌّ كيف كان حبكم ...): [بيّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

وقوله (أنْ تُسْلِمَ): بفتحِ الهمزةِ وسُكونِ النونِ؛ مصْدريةٌ، و«تُسْلِمَ»: بضمِّ أوَّلِه.

وقوله (لأنَّ ذلك أحبُّ إلى رسولِ الله): أي بحَسَبِ ميلِهِ الطبيعيِّ.

وقَوْلُهُ (فقالَتْ: مَا فَعَلَ رسُولُ الله): بصيغةِ الفاعلِ. وقوله (قالُوا: خيرًا): وفي نسْخةٍ «بخيرٍ»، (هو) -وفي نسْخةٍ «وهُوَ»- (بحَمْدِ الله كَمَا تُحِبِّينَ): أيْ مِنَ الصِّحَّةِ والعَافيَةِ.

وقولُهُ (قالَتْ): أيْ لِبَعْضِ الأصْحابِ. (أَرِنيه): -بفتحِ الهمزةِ وكسْرِ الراءِ- أيْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي لَدَيْه، وفي نسخةٍ «أَرُونِيه»؛ بصيغةِ الجمْعِ.

قوله (كُلُّ مُصيبَةٍ): أيْ مِنْ قتلِ أبٍ وأخٍ وزوجٍ. وقوله (بعْدَكَ): أيْ سَلامتِكَ. وقوله (جَلَلٌ): -بلامَيْنِ بعْدَ جيمٍ مفتوحةٍ- أيْ هَيِّنٌ.

قوله (على الظَّمَإِ): بفتحتَيْنِ مقصُورًا ويجُوزُ مَدُّه؛ وهوَ شِدَّةُ العطَشِ، وفي إعادةِ الجارِّ إشعَارٌ بأنَّه أشَدُّ نفْعًا لأنه روحُ الروحِ، وإيماءٌ إلى أنَّه أحَبُّ إليْهم مِنْ أرواحِهم.

وقوله (تنفُشُ صُوفًا): بضَمِّ الفاءِ والشينِ المعجَمةِ. وقوله (وتَقُولُ): أيْ وهيَ تُنشِدُ رَجَزًا.

قوله (قَدْ كُنْتَ): أيْ أنتَ (قوَّامًا): أي كَثِيرَ القِيامِ، وفي روايةٍ «صَوَّامًا»: أيْ كثيرَ الصِّيامِ. قوله (بُكًا): بضمِّ الموحَّدةِ مقصُورًا منوَّنًا؛ لغةٌ في الممْدُودِ- أيْ ذو بُكاءٍ، أو أُريدَ بهِ المبَالغَةُ، وقيلَ: البُكاءُ برَفعِ الصَّوت ممْدُود، والدَّمْعُ بلا صَوْتٍ مقصُور، قالَ الملَّا: وفي بعْضِ النُّسَخِ «بَكَّاءً» -بتشديدِ الكافِ والمدِّ والتنوينِ-؛ غيْرَ أنَّه لا يَسْتقيمُ وَزْنًا، وكذا في نسخَةٍ مَنوَّنًا بدونِ مَدٍّ.

يا لَيْتَ شِعْرِي والمَنَايَا أَطْوَارْ
هَلْ تَجْمَعَنِّي وَحَبِيبِيَ الدَّارْ؟

تَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ، فَجَلَسَ عُمَرُ يَبْكِي، وَفِي الحِكَايَةِ طُولٌ.(١)

ورُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ خَدِرَتْ رِجْلُه، فقِيلَ لَهُ: اذْكُرْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْكَ، يَزُلْ عَنْكَ، فصَاحَ يا محمَّدَاهْ، فانْتَشَرَتْ.(٢)

ولمَّا احْتُضِرَ بِلالٌ نادَتِ امرأَتُهُ: وَا حُزْنَاهْ، فقَالَ: وا طَرَبَاهْ؛ غَدًا أَلْقَى الأَحِبَّهْ.. محمَّدًا وحِزْبَهْ.

ويُرْوَى أَنَّ امرأَةً قالَتْ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: اكْشِفِي لِي قَبْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فكَشَفَتْهُ لَها، فبَكَتْ حَتَّى ماتَتْ.

ولمَّا أَخْرَجَ أَهْلُ مَكَّةَ زَيْدَ بْنَ الدَّثِنَةِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، قالَ له أَبو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: أَنْشُدُكَ اللهَ يا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ محمَّدًا الآنَ عِنْدَنا مكانَكَ تُضْرَبُ عنُقُه، وأنْتَ في أَهْلِكَ؟

---

(١) حديث زيد بن أسلم (خرج عمر ليلةً يحرس ...): ابن المبارك في «الزهد» [١٠٢٤].

(٢) حديث (أن ابن عمر خدرت رجله ...): ابن السنّي في «عمل اليوم والليلة» [(١٦٨)، (١٧٠)، (١٧٢)].

وقوله (يا ليْتَ شِعْرِي): أيْ أَتَمَنَّى عِلْمِي، أي بُغْيَتِي. وقوله (هَلْ تَجْمَعَنِّي): بفتحِ الميمِ وضمِّ العَيْنِ وتخفيفِ النُّونِ، وفي نسخةٍ بفتحِ العَينِ وتشديدِ ما بَعْدَها(١). وقوله (وحَبِيبِيَ): بفتحِ الياءِ لغةً، لا كَما قالَ الأَنطاكيُّ ضرورةً.

قوله (فجَلسَ عُمرُ يَبْكِي): أيْ لِلاشتيَاقِ أو لِلفِراقِ.

قوله (خَدِرَتْ رِجْلُه): -بفتحِ معْجَمةٍ وكسْرِ مهْمَلةٍ- أيْ فَتَرَتْ عن الحركةِ. اهـ ملّا. وقوله (يَزُلْ عَنْكَ): -بضَمِّ الزايِ- أي يَزولُ عنكَ هذا الانقباضِ.

وقوله (يا محمَّداهْ): -بسُكونِ الهاءِ لِلنّدبةِ(٢)- قَصَدَ بهذا الصِّيَاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إظهارًا لِلمَحبّةِ في ضِمْنِ الاسْتغاثةِ.

قوله (احْتُضِرَ): بصيغةِ المفعُولِ. وقوله (نادَتِ امرأَتُه): وهيَ صحَابِيّةٌ. وقوله (وا حُزْنَاهْ): بضمِّ حاءٍ وسُكون زايٍ، ويجُوزُ فتْحُهُما.

وقوله (وا طربَاهْ): أيْ فرَحَاهْ، وفي نُسْخَةٍ «بلْ وا طَرَبَاهْ». وقوله (أَلْقَى): وفي نسخةٍ «نَلْقَى». وقوله (وحِزْبَهْ): وفي نسخةٍ «وصَحْبَهْ».

وقوله (أنَّ امرأَةً... إلخ): أيْ طَلَبَتْ مِن السيِّدةِ عائشةَ أنْ تَكشفَ لها عَن أَسْتارِ القبرِ الشريفِ فكَشَفَتْه لها. وقوله (حَتَّى ماتَتْ): أيْ حُزنًا على فِراقِه، وشَوقًا إلَى لِقائِه.

قوله (الدَّثِنَةِ): بدالٍ مهْمَلَةٍ مفتوحَةٍ فمُثلَّثةٍ مكسورةٍ وتُسكَّنُ فنونٍ مفتوحَةٍ مخفَّفَةٍ وهَاءِ تَأنيثٍ.

قوله (أَنْشُدُكَ): قالَ الملا: بضَمِّ الشينِ، أيْ أسْأَلُكَ اللهَ، أيْ أقسمُ عليكَ به، وفي نسْخةٍ صحيحةٍ «أنشُدُكَ باللهِ». وقوله (تُضْرَبُ عُنُقُه): بصيغةِ المجهُولِ، والعُنُقُ بضمَّتَيْنِ. قوله (وأنْتَ): وفي نسخةٍ «وإنَّك».

---

(١) هذا من مشطور السريع، وتفعيلته الأولى (مستفعلن) التي تتكون من سببين خفيفين فوتد مجموع لا يجوز فيها حذف النون في الحشو لأنها واقعة في وتد مجموع؛ فالكفُّ هنا غير صحيح، وعليه فالصواب الضبط الثاني وهو فتح العين وتشديد النون.

(٢) هاء السكت، وهي هاء موضوعة للوقف لخفاء ألف الندبة، فتأتي الهاء لتبيينها، فإذا وصلت لم تزدها إلا ضرورة خلافا للفراء.

فقالَ زيدٌ: والله؛ ما أُحِبُّ أنَّ محمَّدًا الآنَ في مكانِهِ الَّذي هُوَ فيهِ أَنْ تُصيبَهُ شَوْكَةٌ وإنِّي جَالِسٌ في أَهْلِي.

فقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ما رأيتُ مِنَ النَّاسِ أحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كحُبِّ أَصْحابِ محمَّدٍ محمَّدًا.(١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كانَتِ المرْأَةُ إذا أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ أَحْلَفَهَا باللهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، ولا رَغْبَةً بأَرْضٍ عَنْ أرْضٍ، ومَا خَرَجَتْ إلاَّ حُبًّا للهِ وَرَسُولِهِ.(٢)

ووَقَفَ ابنُ عُمَرَ علَى ابْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ قَتْلِهِ، فاسْتَغْفَرَ لَه، وَقَالَ: كُنْتَ -واللهِ- فِيما عَلِمْتُ صَوَّامًا قَوَّامًا، تُحِبُّ اللهَ ورسُولَهُ.(٣)

***

(١) حديث (لما أخرج أهل مكة زيد بن الدَّثِنَّة ...): البيهقيُّ [٣/ ٣٢٦] عن عروة.

(٢) حديث ابن عبَّاس (كانت المرأة إذا أتت ...): ابن جرير [٢٢/ ٥٧٥]، والبزَّار [كما في «المجمع» (٧/ ١٢٣)].

(٣) حديث (وقف ابن عمر على ابن الزبير بعد قتله ...): [أخرجه مطوَّلًا مسلم (٢٥٤٥)، وغيره عن أبي نوفل].

قوله (**ما أُحِبُّ**): بضمِّ الهمزَةِ.

وقوله (**تُصِيبَه شوكةٌ**): أيْ فضلًا عَنْ أنْ تُصِيبَه محنَةٌ فَوقَها. (**وإنِّي**): وفي نسْخةٍ «وأنَا»، ومُرادُه بهذا المعنَى؛ يَعني: وأنا في هذه الحالةِ فكيفَ إذا كُنتُ فيما بينَ أهلي ومَالي؟! وفي بعضِ السِّيَرِ أنَّ الذي قيلَ له ذلك هوَ خُبَيْبُ بنُ عَدِيٍّ حِينَ رُفِعَ على الخشبَةِ.

قوله (**مِنْ بُغْضِ زَوجٍ**): أي مِنْ أجْلِ كراهةِ زَوْجٍ لها؛ يَعْني: فهاجَرَتْ لِذلك. قوله (**ولا رَغبَةً**): بالنصْبِ عَطفًا على محلِّ الجارِ والمجرورِ(١). قوله (**وما خَرَجَتْ**): أيْ عَن أرضِها مهاجِرةً إلى رسُولِ الله إلّا حُبًّا لله ورسُولِه.

وقوله (**وقالَ: كُنتَ والله**): وفي نسخةٍ «والله كُنتَ». وقوله (**فيما علِمْتُ**): هيَ مُدَّةُ عِلْمِي (**صَوَّامًا قَوَّامًا**): أي كثيرَ الصِّيامِ والقِيامِ، تُحبُّ اللهَ ورسُولَه.

صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، ورَضِيَ اللهُ عَنْ أَصْحابِهِ أجْمَعِينَ.

***

(١) أو بالجر عطفا على المجرور (بغض).

فَصْلٌ في عَلَامَةِ مَحَبَّتِهِ ﷺ

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئًا آثَرَهُ، وآثَرَ مُوافَقَتَه، وإلا لم يَكُنْ صَادِقًا في حُبِّهِ، وكانَ مُدَّعِيًا؛ فالصَّادِقُ في مَحبَّةِ النَّبيِّ ﷺ مَنْ تَظْهَرُ علاماتُ ذلكَ عَلَيْهِ، وأوَّلُها الاقتداءُ به، واسْتِعْمالُ سُنَّتِهِ، واتِّباعُ أقوالِهِ وأفعالِهِ، وامتِثالُ أَوامِرِه، واجْتِنَابُ نَواهِيهِ، والتَّأَدُّبُ بآدَابِهِ في عُسْرِهِ ويُسْرِه، ومَنْشَطِهِ ومَكْرَهِهِ، وَشَاهِدُ هَذا قَوْلُه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ...﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣١]، وإيثارُ ما شَرَعَهُ وحَضَّ عليه على هَوَى نَفْسِهِ، ومُوافقَةِ شَهْوَتِه، قالَ اللهُ العَظيمُ: ﴿والذينَ تَبوَّؤُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم ولا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وإِسْخاطُ العِبَادِ في رِضَى اللهِ تعالى.

حَدَّثَنا القاضي أَبُو عَلِيٍّ الحافظُ، حَدَّثَنا أَبُو الحسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ وأَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرونَ، قالَا: حدَّثَنا أبو يَعْلَى البَغْداديُّ، حدَّثَنا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِيُّ، حدَّثَنا مُحمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنا أبو عِيسَى، حَدَّثَنا مُسْلِمُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنا مُحمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ عَنْ أَبِيه، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي زَيْدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، قالَ:

قالَ أَنَسُ بْنُ مالِكٍ: قالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: (يا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وتُمْسِيَ لَيْسَ في قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فافْعَلْ، ثُمَّ قالَ لي: يا بُنَيَّ، وذلك مِنْ سُنَّتِي؛ فَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، ومَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي في الجَنَّةِ)[1].

(١) حديث أنس (يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ...): الترمذيُّ [٢٦٧٨] وحسَّنه.

قولُه في (في عَلَامَةِ مَحَبَّتِهِ ﷺ): قال المُلَّا: وَفي أَصْلِ الدّلجيِّ «في علامةِ حُبِّه». وقولُه (اعلَمْ أَنَّ): وفي نسخةٍ «أَنَّه».

قوله (آثَرَه): -بالمَدِّ- أي اختارَهُ.

قوله (أَوَّلُها): أَيْ أَوَّلُ عَلَاماتِ الحُبِّ.

قولُه (والتَّأَدُّبُ): بتاءٍ مشدَّدةٍ وفتحِ هَمزةٍ. قولُه (ومَنْشَطِهِ ومَكْرَهِهِ): -بفتحِ أَوَّلِهما وثالثِهما- مصْدَرانِ بمعْنَى النشاطِ والكراهةِ، أو اسْمَا زمانٍ؛ أَيْ في حَالِ سَعَتِه وضِيقِه. (وإيثارُ مَا شَرَعَهُ): أَيْ وشاهَدَه، وأَيْضًا تقديمُ مَا أَظْهَرَهُ مِن الشرعِ.

قولُه (ولا يَجِدُونَ في صدُورِهِمْ): كذا في النسَخِ المصَحَّحةِ، قال المُلَّا: ووقَعَ في أَصْلِ الدّلجيِّ «في أنفُسِهِمْ». (حَاجَةً): أي حَزَازَةً.

وقولُه (ويُؤْثِرُونَ): أَيْ يُقَدِّمُونَ المُهاجِرِينَ على أنفُسِهِم.

قولُه (خَصَاصَةٌ): أَيْ مَجاعةٌ وشِدَّةُ حَاجَةٍ؛ قالَ المُلَّا: حتَّى إِنَّ مَنْ كانَ عِنْدَه دارانِ وبُسْتَانانِ تَرَكَ أحسَنَهما لِلمهَاجرينَ.

وقولُه (وإِسْخاطُ العِبَادِ): أَيْ وشاهِدُه أيْضًا إِسْخَاطُ العِبَادِ (في رِضَا اللهِ): أَيْ تحصيلِ رِضاه.

وقولُه (يا بُنَيَّ): بِكسْرِ الياءِ المُشَدَّدةِ وفتحِها؛ لغتَانِ، وهوَ تصْغيرُ شَفَقَةٍ.

قولُه (غِشٌّ): -بكسْرٍ- أَيْ حِقْدٌ وحسَدٌ.

فمَنِ اتَّصَفَ بهَذه الصِّفَةِ فهُوَ كامِلُ المَحَبَّةِ لله تعَالى ورسُولِه، ومَنْ خالَفَهَا في بعْضِ هَذه الأُمُورِ فهُوَ ناقِصُ المَحَبَّةِ، ولا يَخْرُجُ عَنِ اسْمِهَا، ودَلِيلُه قَوْلُه ﷺ لِلَّذِي حَدَّهُ في الخمرِ، فلَعَنَهُ بَعْضُهمْ، وقَالَ: مَا أكْثَرَ ما يُؤْتَى بهِ! فقَالَ ﷺ: لا تَلْعَنْهُ؛ فإنَّه يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ[1].

وَمِنْ عَلَاماتِ مَحَبَّةِ النَّبيِّ ﷺ كَثْرةُ ذِكْرِهِ له، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ ذِكْرَهُ[2].

ومنْهَا كَثْرَةُ شَوْقِهِ إلى لِقائِه، فكُلُّ حَبِيبٍ يُحِبُّ لِقَاءَ حَبِيبِه، وفي حَدِيثِ الأَشْعَرِيِّينَ عِنْدَ قُدُومِهِمُ المدينَةَ أَنَّهم كانُوا يَرْتَجِزُونَ: (غَدًا نَلْقَى الأَحِبَّهْ مُحمَّدًا وحِزْبَهْ)[3]، وتَقدَّمَ قَوْلُ بِلالٍ، ومِثْلَه قَالَ عَمَّارٌ حِينَ قُتِلَ، وكَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ خالِدِ بْنِ مَعْدَانَ.

ومِنْ عَلَامَاتِه مَعَ كَثْرَةِ ذِكْرِه تَعظِيمُه له وتَوقِيرُه عِنْدَ ذِكْرِه، وإظهَارُ الخُشُوعِ والانكسَارِ مَعَ سَمَاعِ اسْمِهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحاقَ التُّجِيبِيُّ: كانَ أَصْحابُ النَّبيِّ ﷺ بَعْدَه لا يَذْكُرونَه إلَّا خَشَعُوا واقْشَعَرَّتْ جُلُودُهم وبكَوْا، وكذلكَ كَثِيرٌ مِنَ التَّابِعِينَ مِنهمْ مَنْ يَفْعَلُ ذلك مَحبَّةً له وشَوْقًا إلَيْه، ومِنْهُمْ يَفعَلُه تَهَيُّبًا وتَوْقِيرًا.

ومِنْهَا مَحَبَّتُه لِمَنْ أَحَبَّ النَّبيَّ ﷺ، ومَنْ هوَ بسَبَبِهِ مِنْ آلِ بَيْتِه وأصْحابِه مِنَ المُهَاجِرِينَ والأنصَارِ، وعَدَاوَةُ مَنْ عاداهم، وبُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ وسَبَّهُمْ؛ فمَنْ أَحَبَّ شيئًا أَحَبَّ مَنْ يُحِبُّ.

(١) حديث (قوله للذي حده في الخمر لا تلعنه ...): البخاريُّ [٦٧٨٠] عن عمر.

(٢) حديث (من أحب شيئًا أكثر ذكره): أبو نعيم والديلميُّ عن عائشة.

(٣) حديث الأشعريين وارتجازهم (غدًا نلقى الأحبة محمدًا وصحبه): البيهقيُّ [٥/ ٣٥١] عن أنس.

قوله (ولا يَخرجُ عن اسْمِها): أي معَ هَذا عنِ اسْمِ المحبَّةِ، فيجُوزُ إطلاقُ المَحبَّةِ عليْهِ في الجملةِ؛ ولِذا قال المصَنفُ: (ودليلُه... إلخ).

وفي صحيحِ البخاريِّ: فقالَ بعْضُ القومِ «أخزاكَ اللهُ»[1]، قالَ بعضُ الحُفّاظِ: القائلُ بذلك عُمرُ. وهو عَبدُ الله المُلَقَّبُ بـ«الحِمارِ»، وكان يُهْدِي لِلنَّبيِّ ﷺ ويُضحِكُه، فلَعَنَه بعْضُهمْ.

وقوله (لا تَلْعَنْه؛ فإنَّه يُحبُّ اللهَ ورَسُولَه) وفي هَذا الحَديثِ بِشارَةٌ عظيمَةٌ، وإشارَةٌ جَسِيمَةٌ لِعُصَاةِ المؤمنينَ، وحُجّةٌ واضحَةٌ، وبَيِّنَةٌ لائحَةٌ لِأهلِ السنَّةِ.

قوله (قَالَ ابْنُ إِسْحاقَ التُّجِيبيُّ): -بفتحِ التَّاءِ وكسْرِ الجيمِ وياءٍ مشدَّدةٍ بَعْدَ الباءِ- نسْبَةٌ إلى «تُجِيبَ» بَطْنٍ مِن كِنْدَةَ، منْهم كِنانةُ.[2]

قوله (أَحَبَّ مَنْ يُحِبُّ): وفي نسخةٍ «مَنْ يُحبُّه»، أي ذلكَ المحبُوبَ.

(١) «صحيح البخاري» (6777) [كتاب الحدود].

(٢) في حاشية الشمني: تجيب بضم أوله عند المحدّثين وكثير من الأدباء وبفتحه عنه الباقين.

وقَدْ قَالَ ﷺ في الحَسَنِ والحُسَيْنِ: (اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُما؛ فأَحِبَّهُما)[1]، وفي روايةٍ في الحَسَنِ: (فأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّه)[2]، وقالَ: (مَنْ أَحَبَّهُما فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ، ومَنْ أَبْغَضَهما فَقَدْ أَبْغَضَني، ومَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ)[3].

وَقالَ ﷺ: (اللهَ اللهَ في أَصْحابِي؛ لا تَتَّخِذُوهم غَرَضًا، فمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، ومَنْ أَبْغَضَهم فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، ومَنْ آذاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فقَدْ آذَى اللهَ، ومَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ).[4]

وقالَ في فاطِمةَ: (إنَّها بَضْعَةٌ مِنِّي، يُغْضِبُنُي ما أَغْضَبَهَا).[5]

وقالَ لِعائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في أُسامةَ بنِ زَيْدٍ: أَحِبِّيهِ؛ فإنِّي أُحِبُّهُ[6]، وقالَ: (آيَةُ الإِيمانِ حُبُّ الأَنْصارِ، وآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُهُمْ)[7].

وفي حَديثِ ابنِ عُمَرَ: (مَنْ أَحَبَّ العَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، ومَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ)[8].

قوله (اللهَ اللهَ): -بالنصْبِ فيهما- أي اتَّقُوهُ واحْذَرُوه (في أصْحابي) لا تَذكُرُوهم بسُوءٍ.

قوله (غَرَضًا): -بمعجَمَتَيْنِ- أيْ هدَفًا، وفي نسْخةٍ «عَرَضًا»، قال المُلَّا: والظاهِر أنّه تصْحيفٌ.

قوله (إنَّما بَضْعَةٌ مِنِّي): -بفتح الموحَّدة وتكسَرُ- أيْ جزءٌ.

قوله (يُغْضِبُنُي ما أَغْضَبَهَا): وَفي نسْخةٍ «ما يُغْضِبُها».

قوله (وقال لِعائشةَ في أُسامةَ بنِ زيدٍ): أي في حَقِّه.

---

(١) حديث في الحسن والحسين (اللهم إني أحبهما فأحببهما): الشيخان [البخاريُّ (٣٧٣٥) عن أسامة بن زيد، ولم أجده في «صحيح مسلم»]، والترمذيُّ [٣٧٨٢] عن البراء، والترمذي [٣٧٦٩] عن أسامة وحسَّنه.

(٢) روايةٌ في الحسن (فأحبَّ مَن يحبه): الشيخان [البخاريُّ (٣٧٤٩)، ومسلمٌ (٢٤٢٢)] عن البراء.

(٣) حديث (مَن أحبَّهما فقد أحبَّني...): الطبرانيُّ [«المجمع» (٩/ ١٨١)] عن سلمان نحوه، وأخرج البزَّار صدره [١٨٢٠] عن ابن مسعود، وأخرج النَّسائيُّ [«الكبرى» (٨١١٢)]، وابن ماجه [١٤٣] من حديث أبي هريرة بلفظ «من أحب الحسن والحسين فقد أحبَّني ومَن بغضهما فقد أبغضني».

(٤) حديث (الله الله في أصحابي ...): أحمد [٢٠٥٤٩]، والترمذيُّ [٣٨٦٢] عن ابن مُغَفَّلٍ.

(٥) حديث في فاطمة (إنها بضعة مني): الشيخان [البخاريُّ (٣٧١٤)، ومسلمٌ (٢٤٤٩)] عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة.

(٦) حديث (أنه قال لعائشة في أسامة بن زيد: أحبيه فإني أحبه): الترمذيُّ [٧٠٥٨] عن عائشة وحسَّنه.

(٧) حديث (آية الإيمان حُبُّ الأنصار ...): الشيخان [البخاريُّ (١٧)، ومسلمٌ (٧٤)] عن أنسٍ.

(٨) حديث ابن عمر (من أحب العرب ...): البيهقيُّ في «الشعب» [١٣٣٠].

فبالحقيقةِ مَنْ أَحَبَّ شيئًا أَحَبَّ كُلَّ شَيْءٍ يُحِبُّه، وهَذِهِ سِيرَةُ السَّلَفِ حَتَّى فِي المُبَاحَاتِ وشَهَوَاتِ النَّفْسِ، وقَدْ قالَ أَنَسٌ حِينَ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيِ القَصْعَةِ: فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ.(١)

وهذا الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وابْنُ جَعْفَرٍ، أَتَوْا سَلْمَى، وسَأَلُوهَا أَنْ تَصْنَعَ لَهُم طَعَامًا مِمَّا كانَ يُعْجِبُ النَّبِيَّ ﷺ.(٢)

وكانَ ابْنُ عُمَرَ يَلْبَسُ النِّعَالَ السِّبْتِيَّةَ، ويَصْبُغُ بالصُّفْرةِ؛ إذْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَفْعَلُ نَحْوَ ذلكَ.(٣)

ومِنْهَا بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَ اللهَ ورَسُولَه، ومُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، ومُجَانَبَةُ مَنْ خالَفَ سُنَّتَهُ وابْتَدَعَ فِي دِينِهِ، واسْتِثْقالُه كُلَّ أَمْرٍ يُخَالِفُ شَرِيعَتَهُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهَؤُلاءِ أَصْحَابُه ﷺ، قَدْ قَتَلُوا أَحِبَّاءَهُمْ، وقاتَلُوا آباءَهُمْ وأَبْنَاءَهُمْ فِي مَرْضَاتِه، وقالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ: لَوْ شِئْتَ لَأَتَيْتُكَ بِرَأْسِهِ، يَعْنِي أَبَاهُ(٤).

(١) حديث أنسٍ في تتبّع الدُّباء: مسلمٌ [٢٠٤١].

(٢) حديث (أنّ الحسن وابن العباس وابن جعفر أتوا سلمى ...): الترمذيُّ في «الشمائل» [١٦٩].

(٣) حديث (كان ابن عمر يلبس النعال ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٨٥١)، ومسلمٌ (١١٨٧)].

(٤) حديث قول ابن أُبي (إن شئت لأتيتك برأسه): البزّار [٧٩٧٨] عن أبي هريرة.

قوله (فبالحقيقةِ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَحَبَّ كُلَّ شَيْءٍ يُحِبُّه): أيْ يُحِبُّ ذلكَ الشيءَ أو يُحِبُّه ذلكَ الشيءُ.

قوله (وَشَهواتِ النفسِ): أيْ فيُحِبّونَ ما اشتَهاه ويُكَلِّفونَ أنفُسَهُمْ بمُوافَقةِ ما يَهْواه.

وقوله (يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ): بالمدِّ بعْدَ دالٍ مشدَّدةٍ ويُقْصَرُ.

قوله (مِن حوالَيِ القَصْعةِ): -بفتحِ اللامِ والقافِ- أيْ مِن أطرافِها لِكَمالِ محبَّتِه له ﷺ.

قوله (أَتَوْا سَلْمى): أي خادمتَه ﷺ.

قوله (مِمّا كانَ يُعْجِبُ... إلخ): أيْ يَشتهيه ويُحسِنُ أكْلَه، فقالتْ: يا بُنَيَّ لا تشتهيه اليومَ، قالَ: بلى اصنَعِيه لنا، فقامَتْ وأَخَذَتْ شيئًا مِنَ الشَّعيرِ فطَحَنَتْه، ثُمَّ جعلَتْه في قِدْرٍ وصَبَّتْ عليه شيئًا مِنْ زيْتٍ، ودَقَّتِ الفُلْفُلَ والتوابلَ فقرَّبَتْه، فقالتْ: هذا مِمّا كانَ يُعجِبُ النبيَّ ﷺ، ويُحْسِنُ أكْلَه.

قوله (يَلْبَسُ): بفتحِ الموحَّدةِ. وقوْلُهُ (السِّبتيّةَ): -بكسْرِ السّينِ- نِسْبةٌ إلى السِّبْتِ، وهوَ جِلْدُ البَقَرِ المدبوغُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لِأنّ شَعْرَها قد ثُبِتَ عنها، أيْ أُزِيلَ. وقوله (ويَصْبُغُ): بتثليثِ الموحَّدةِ. وقوله (بالصُّفرةِ): أي باطنِها.

قوله (واسْتثقالُه كُلَّ أمرٍ يُخالِفُ شريعتَه): أيْ مِنْ قولٍ وفِعْلٍ، وفي نسخةٍ «واسْتثقالُ كلِّ أمْرٍ».

وقوله (لَأَتَيْتُكَ برأسِهِ، يَعْني): يريدُ بضميرِه (أباهُ): أي عبْدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ. والحديثُ رواه البخاريُّ(١)، وقالَ ذلكَ لَمّا هَمُّوا بأبيهِ حينَ بَلَغَ رسولَ اللهِ ﷺ أنَّه قالَ: (لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ)، وعَنَى بالأعزِّ نفْسَه، وبالأذلِّ رسولَ اللهِ ﷺ، فأتَى ابْنُه عبْدُ اللهِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وقالَ: يا رسولَ اللهِ، بلَغَني أنَّكَ تُريدُ قتْلَ عبْدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ لِما بلَغَكَ عنه؛

(١) لم أجده في البخاري، والحديث أخرجه السيوطي عن البزار. انظر تخريج رقم (٤) في هامش المتن.

فإنْ كنتَ فاعلًا فمُرْني به، وأنا أَحمِلُ إليْكَ رأسَهُ فوالله لَقَدْ عَلِمَتِ الخَزْرَجَ ما كانَ بها رجُلٌ أَبَرَّ بوالدَيْه مِنِّي، وإنِّي أخشى أَنْ تَأمُرَ به غيْري فيَقْتلَه؛ فلا تَدَعَنِي نفْسي أَنْ أَنْظُرَ إلى قاتلِ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ في النّاسِ يَمْشِي فأقتُلَه فأقتُلَ مؤمنًا بكافرٍ، فأَدْخلَ النّارَ، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: (بلْ نَرْفُقُ به ونُحسِنُ صُحبتَه ما بَقِيَ معَنا).

قوله (**كانَ خُلُقُه القُرْآنَ**): أي كانَ ممتثِلًا بأوامرِه، ومنتهِيًا عنْ زواجرِه، ومُتمسِّكًا بآدابِه وما اشتَمَلَ عليْه مِن مكارمِ أخلاقِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿خُذِ العفوَ وأْمرْ بالعُرْفِ ...﴾ الآية [الأعراف: ١٩٩].

قوله (**عَلَامَةُ حُبِّ الآخِرةِ بُغْضُ الدُّنْيا**): أيْ لِأنهما لا يجتمعانِ؛ لِقولِه ﷺ (مَنْ أَحبَّ آخِرتَه أَضرَّ بدُنياه، ومَنْ أَحبَّ دنياهُ أَضرَّ بآخِرَتِه؛ فآثِرُوا ما يَبْقى على مَا يَفْنَى)(١).

قوله (**أَنْ لا يَدَّخِرَ مِنْهَا إلا زادًا**): أيْ قَدْرَ ما يَتزوّدُ.

قوله (**بُلْغةً**): -بضمٍّ فسُكونٍ- أي مِقدارَ ما يُبلِّغُه إلى الآخرةِ، قال المُلّا: فإنَّ تحصيلَ الزّيادةِ على قَدْرِ الضّرورةِ وَبَالٌ وحَسْرةٌ؛ فإنَّ حلالَها حِسابٌ، وحَرامَها عِقابٌ، والاشتغالَ بها حِجابٌ.

قوله (**فإنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرآنَ**): أيْ تلاوتَه ومتابَعتَه.

قوله (**وسَعْيُه في مصَالِحِهِم**): أي الدّينيّةِ والدنيويةِ الضروريةِ.

وقوله (**ودَفْعُ المَضَارِّ عَنْهُم**): أيْ بَعْدَ وُقُوعِها ووصُولِها، وفي نسْخةٍ «ورَفعُ المَضَارِّ عَنْهم»، أيْ عِندَ خَوْفِ حُصُولِها.

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٩٧)، وعبد بن حميد (٥٦٨)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٦٢)، وابن حِبَّان (٧٠٩)، والحاكم (٤/ ٣١٩)، وغيرهم من حديث أبي موسى الأشعريّ. وصحَّحه الحاكم، فردَّه الذهبي بقوله: «فيه انقطاعٌ».
وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٢٤٩): «رواه أحمد والبزَّار والطبرانيُّ، ورجالهم ثقاتٌ». وله شواهد عن ابن مسعودٍ وابن عبَّاسٍ وابن عمر، فالحديث حسنٌ لغيره والله أعلم.

ومِنْهَا أَنْ يُحِبَّ القرآنَ الَّذِي أَتَى بِهِ ﷺ، وهَدَى به، واهْتَدَى، وتَخَلَّقَ به حَتَّى قالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كانَ خُلُقُه القُرْآنَ)(١).

وحُبُّهُ لِلقرآنِ تِلاوَتُه، والعَمَلُ بِهِ، وتَفَهُّمُه، وَيُحِبَّ سُنَّتَه، ويَقِفَ عِنْدَ حُدُودِهَا.

قالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله: عَلَامةُ حُبِّ الله حُبُّ القُرآنِ، وعَلَامَةُ حُبِّ القرآنِ وحُبِّ الله حُبُّ النَّبيِّ ﷺ، وعَلَامةُ حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ حُبُّ السُّنَّةِ، وعَلَامَةُ حُبِّ السُّنَّةِ حُبُّ الآخِرَةِ، وعَلَامَةُ حُبِّ الآخِرةِ بُغْضُ الدُّنْيا، وَعَلَامَةُ بُغْضِ الدُّنْيا أَنْ لا يَدَّخِرَ مِنْهَا إلا زادًا أَوْ بُلْغَةً إِلَى الآخِرةِ.

وقالَ ابنُ مَسْعُودٍ: لا يَسْأَلُ أَحَدٌ عَنْ نفْسِهِ إلَّا القُرْآنَ، فإنْ كَانَ يُحِبُّ القُرآنَ فهُوَ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ.(٢)

ومِنْ عَلَامَاتِ حُبِّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَفقَتُه على أُمَّتِه، ونُصْحُه لَهُمْ، وسَعْيُه في مَصَالِحِهِمْ، ودَفْعُ المَضَارِّ عَنْهُمْ، كَمَا كَانَ ﷺ بالمؤْمِنِينَ رَؤُفًا رَحيمًا.

(١) [تقدم تخريجه. انظر ص١٣٧].

(٢) **حديث ابن مسعودٍ (لا يسأل أحدكم عن نفسه ...): البيهقيُّ في «الآداب» [٨٥٦]، وابن الضريس في «فضائل القرآن».**

وَمِنْ عَلَامَةِ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ زُهْدُ مُدَّعِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِيثَارُ الفَقْرِ، وَاتِّصَافُهُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ لِأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: إِنَّ الفَقْرَ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنْكُمْ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى الوَادِي -أَوِ الجَبَلِ- إِلَى أَسْفَلِهِ[1].

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحِبُّكَ، فَقَالَ: انظُرْ مَا تَقُولُ! قَالَ: واللهِ؛ إِنِّي أُحِبُّكَ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، قَالَ: إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلفَقْرِ جِلْبَابًا[2]، ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِمَعْنَاهُ.

***

قوله (مُدَّعِيها): أيْ قِلَّةُ رغبةِ مدَّعِي محَبَّةِ النَّبيِّ ﷺ في الدنيا الَّتي هيَ دارُ الأكدارِ ومَقامُ الآلامِ.

قوله (أو الجَبَلِ): شكٌّ مِنَ الراوي؛ فإنّ اللهَ -سُبْحانه- ربَّى أكثرَ الأوْلياءِ والأصْفياءِ بوصْفِ الفقرِ المُؤدِّي إلى المَسْكنةِ بخِلافِ الغِنَى؛ فإنه غالبًا يُؤدِّي إلى العُجْبِ والغرورِ.

وقوله (بنِ مُغَفَّلٍ): بتشديدِ الفاءِ بعدَ الغيْنِ المفتوحةِ.

قوله (فأَعِدَّ لِلفقرِ جلبَابًا): -بفتحِ همزةٍ وكسرِ عينٍ وتشديدِ دالٍ مفتوحةٍ ويجُوزُ كَسْرُها- أيْ فهَيِّئْ لِلفقرِ جلبَابًا وهُوَ الإزارُ، وفي نسخةٍ «تِجْفافًا» -بكسْرِ الفوْقيّةِ وسُكونِ الجيمِ- أي اتَّخِذْ له عدَّةً ووِقايَةً؛ وكَنَى بالتِّجْفافِ والجلبابِ عَنِ الصَّبْرِ لِأنه يَسْتُرُ الفقْرَ كَما يَسْتُرُ البَدَنَ، وقال ابنُ الأعرابيّ: أيْ لِفَقْرِ الآخرةِ، يَعْني يَعْملُ عَمَلًا لا يَكونُ فِي الآخرةِ فَقيرًا مُفْلِسًا حقيرًا.

***

(١) حديث (الفقر إلى من يحبني أسرع من السيل ...): هو بعض الحديث الذي بعده.

(٢) حديث عبد الله بن مُغَفَّل (قال رجل يا رسول الله إني أحبك...): الترمذيُّ [٢٣٥٠] وحسَّنه.

فَصْلٌ
في مَعْنَى المَحَبَّةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وحَقِيقَتِها

اخْتَلَفَ النَّاسُ في تَفسيرِ مَحبَّةِ الله ومَحَبَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وكثُرَتْ عِباراتُهُمْ في ذلِكَ، ولَيْسَتْ تَرْجِعُ بالحَقيقَةِ إلى اختِلافِ مَقَالٍ؛ ولكِنَّها اختِلافُ أَحْوَالٍ؛ فقَالَ سُفْيانُ: المَحَبَّةُ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ؛ كأَنَّه التفَتَ إلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ... ﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣١].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: مَحبَّةُ الرَّسُولِ اعْتِقَادُ نُصْرَتِه، والذَّبُّ عَنْ سُنَّتِهِ، والانقِيَادُ لَهَا، وَهَيْبَةُ مُخَالَفَتِهِ. وقَالَ بَعْضُهُمْ: المَحَبَّةُ دَوَامُ الذِّكْرِ لِلمَحْبُوبِ. وقَالَ آخَرُ: إيثَارُ المَحْبُوبِ. وقَالَ آخَرُ: المَحَبَّةُ: الشَّوْقُ إِلَى المَحْبُوبِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: المَحَبَّةُ مُوَاطَأَةُ القَلْبِ لِمُرَادِ الرَّبِّ؛ يُحِبُّ مَا يُحِبُّ، ويَكْرَهُ ما يَكْرَهُ.

وقالَ آخَرُ: المَحَبَّةُ مَيْلُ القَلْبِ إلى مُوَافِقٍ لَهُ.

وأَكْثَرُ العِبَارَاتِ المُتَقَدِّمَةِ إشَارَةٌ إِلَى ثَمَراتِ المَحَبَّةِ دُونَ حَقِيقَتِها، وحَقِيقَةُ المَحَبَّةِ المَيْلُ إلى ما يُوَافِقُ الإِنْسَانَ.

وتَكُونُ مُوافَقَتُهُ لَهُ إِمَّا لاسْتِلْذَاذِهِ بإدْرَاكِهِ، كَحُبِّ الصُّوَرِ الجَميلَةِ والأَصْوَاتِ الحَسَنَةِ والأَطْعِمَةِ والأَشْرِبَةِ اللذيذَةِ وأَشْبَاهِهَا مِمَّا كُلُّ طَبْعٍ سَلِيمٍ مَائِلٌ إِلَيْهَا لِمُوَافَقَتِهَا لَهُ،

أَوْ لاسْتِلذاذِهِ بإِدْراكِهِ بحَاسَّةِ عَقْلِهِ وقَلْبِهِ مَعَانِيَ بَاطِنَةً شريفةً، كمَحبَّةِ الصَّالِحِينَ، والعُلَماءِ، وأَهْلِ المَعْرُوفِ، والمأثُورِ عَنْهُمُ السِّيَرُ الجَمِيلَةُ والأفعَالُ الحَسنَةُ؛ فإِنَّ طَبْعَ الإِنسَانِ مائِلٌ إلى الشَّغَفِ بأَمْثَالِ هَؤُلاءِ حَتَّى

قوله (تَرجِعُ بالحقيقةِ): وفي نسْخةٍ «في الحقيقةِ».

وقولُه (إلى اختلافِ مَقَالٍ): أيْ لاتفاقِ ما فيها في المآلِ. وقوله (لَكِنَّها اختلافُ أَحْوالٍ): أيْ كَما قالَ الشاعِرُ:

عِباراتُنا شَتَّى وحُسْنُكَ واحِدٌ
وكُلٌّ إلى ذاكَ الجَمالِ يُشيرُ

وقوله (مُوَاطَأَةُ القَلْبِ): أيْ موافَقَتُه. قوله (يُحِبُّ ما يُحِبُّ): أيْ يُحِبُّ المُحِبُّ ما يُحِبُّ المحبُوبُ، وفي نسْخةٍ صحيحَةٍ «ما أَحَبَّ». قوله (ويَكرهُ ما يَكْرَهُ): وفي نسخةٍ «ما كَرِهَ».

قوله (وتكونُ مُوافقتُهُ له): أيْ ويَحصُلُ مُوافقةُ القلبِ لِلإنسانِ ومَيْلُه له (إما... إلخ).

قوله (كحُبِّ الصُّوَرِ): ويُرْوى «الصُّورةِ»، (الجميلةِ): أيْ مِنَ المُبصَرَاتِ؛ أَعَمُّ مِنَ الحيوَاناتِ أو النباتاتِ أو الجَماداتِ.

قوله (والأصْواتِ الحَسَنةِ): أيْ مِنَ المَسْمُوعاتِ. قوله (وأشباهِها): كحُبِّ الرائحةِ الطَّيِّبةِ مِنَ المشمُوماتِ.

قوله (لموافقتِها له): أيْ بمُقْتَضَى طبْعِهِ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مُوافقةِ شريعتِه.

قوله (مَعَانِيَ): بالفتحِ مفعُولٌ لِلمصْدرِ. قوله (باطنةً شريفةً): أيْ مَبنيَّةً على مَعَانٍ لطيفةٍ.

قوله (إلى الشَّغَفِ): بالغَيْنِ المعْجَمةِ، وقيلَ بالمهْمَلةِ، وقُرِئَ بِهِما قولُه تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]؛ مِنَ الشَّغَفِ، أيْ مِنَ الحُبِّ.

يَبْلُغَ التَّعَصُّبَ بقَوْمٍ لِقَوْمٍ، والتَّشَيُّعَ مِنْ أُمَّةٍ في أخرى ما يُؤَدِّي إلى الجَلَاءِ عَنِ الأَوْطانِ، وهَتْكِ الحُرَمِ، واخْتِرامِ النُّفوسِ.

أَوْ يَكُونَ حُبُّه إيَّاهُ لِمُوافَقَتِه لَه مِنْ جِهَةِ إحْسَانِه له وإنْعامِه عَلَيْه، فَقَدْ جُبِلَتِ القُلُوبُ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إلَيْها.

فَإذَا تقَرَّرَ لَكَ هَذا، نَظَرْتَ إلى هَذِهِ الأسْبَابِ كُلِّهَا في حَقِّهِ ﷺ؛ فعَلِمْتَ أَنَّه ﷺ جَامِعٌ لِهَذِه المَعَاني الثلاثَةِ المُوجِبَةِ لِلْمَحَبَّةِ.

أَمَّا جَمَالُ الصُّورَةِ والظَّاهِرِ، وكَمَالُ الأَخْلَاقِ والباطِنِ، فقَدْ قَرَّرْنَا مِنْها قَبْلُ فيما مَرَّ مِنَ الكِتَابِ مَا لا يَحْتاجُ إلى زِيَادَةٍ.

وأَمَّا إحْسَانُه وإنْعَامُه عَلَى أُمَّتِه فقَدْ مَرَّ مِنْهُ في أَوْصَافِ الله تعالى مِنْ رأفَتِه بِهِمْ، ورَحْمَتِه لَهُمْ، وهِدَايَتِه إيَّاهُمْ، وشَفَقَتِه عَلَيْهِمْ، واسْتِنْقَاذِهِمْ بِه مِنَ النَّارِ، وأَنَّه بالمُؤمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ، ورَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وبَشِيرًا، ونَذِيرًا، وداعِيًا إلَى الله بإذْنِه وسِرَاجًا منيرًا، ويَتْلُو عليْهِم آياتِه، ويُزَكِّيهِمْ، ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ، ويَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛

قوله (حَتَّى يَبْلُغَ): أي الشَّغَفُ. قوله (**التَّعَصُّبَ**): بالنصبِ؛ مفعُولٌ لـ(يَبْلُغَ) وكذلك (والتشَيُّعَ)، ومِنْه حديثُ (القَدَرِيةُ شيعةُ الدَّجّالِ)[1]، وفي نسخةٍ صحيحَةٍ «حَتّى يَبْلُغَ التعصبُ بِقَوْمٍ لِقَوْمٍ والتشيُّعُ». (مِنْ أُمَّةٍ): أي طائفةٍ (في أخرى): أيْ في جَماعةٍ، وفي نُسْخةٍ «في آخَرِينَ».

قوله (**ما يُؤَدِّي**): أيْ ما ذُكِرَ مِنَ التعصُّبِ والتَّشَيُّعِ. وقوله (**إلى الجَلَاءِ**): -بالفتح والمدِّ- أي الخروج. وقوله (**وَهَتْكِ الحُرَمِ**): بضمٍّ ففتحٍ، (**واخْتِرامِ النُّفوسِ**): -بخاءٍ مُعجَمةٍ- أي اسْتِئصالِها باقتطاعِ الأرواحِ مِن الأشباحِ. وقوله (**مِن جِهَةِ إحْسَانِه له**): وفي نسخةٍ «إليْه».

قوله (**هذه الأسبابِ**): أي أسبابِ المَحَبَّةِ مِن الجَمالِ الصُّوريِّ والكَمالِ المعنويِّ والإحسانِ الوَفِيِّ. قوله (**كُلِّها**): أي جميعِها. قوله (**في حَقِّه**): أيْ موجُودةٌ وثابتةٌ في حَقِّه ﷺ. قوله (**الموجِبَةِ لِلمَحبّةِ**): أي عَلى وَجْهِ التَّامِ.

قوله (**فقَدْ قرَّرْنا منْها**): أي مِنَ الشَّمائِلِ الدّالَّةِ علَيْهِما، والفضَائلِ المشيرَةِ إليْهِما. قوله (**قَبْلُ**): أيْ قَبْلَ هذا البابِ.

قوله (**إحسانُه**): أي الدُّنيويُّ الصُّوريُّ. وقوله (**وإنعامُه**): الدينيُّ الأُخرويُّ. قوله (**فقَدْ مَرَّ**): ويُرْوَى «مَضَى... إلخ». وقوله (**مِنْه**): أي بعضُه. قوله (**في أوصَافِ الله تعالى**): أيْ فِيما أعْطاهُ اللهُ تعالى وأَثْنى عَلَيْه مِنَ الصِّفاتِ الجَميلةِ.

قوله (**واسْتِنقاذِهم... إلخ**): أي اسْتخلاصِهم. وقوله (**بالمؤمِنينَ رَؤُفٌ... إلخ**): أي بحسَبِ مَراتبِ إيمانِهم ومَناقبِ إنعامِهمْ (**وبَشِيرًا**): بالنصْبِ على الحكايةِ، والتقديرُ «كانَ مبَشِّرًا لِلمؤْمِنينَ... إلخ»، وفي نسخةٍ «ومبَشِّرًا».

قوله (**آياتِه**): أي آياتِ القرآنِ المشتَمِلةِ على مُعْجِزاتِه، (**ويُعَلِّمُهم الكِتابَ**): أي أحكامَهُ الخَفِيّةَ. وقوله (**والحِكمةَ**): أي السُّنةَ الجَلِيَّةَ.

---

[1] أخرجه مُطَوَّلا أبو داود (٤٦٩٢) [كتاب السُّنَّة]، والفريابي في «كتاب القدر» (٢٣٧)، والبيهقيُّ في «السنن» (٢٠٨٧٠)، وغيرهم من حديث حذيفة بإسنادٍ ضعيفٍ.

فَأَيُّ إِحْسَانٍ أَجَلُّ قَدْرًا وأَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ إِحْسَانِه إلى جَمِيعِ المؤمِنِينَ؟!

وأَيُّ إِفضَالٍ أَعَمُّ مَنْفَعَةً وأَكْثَرُ فائدَةً مِنْ إِنْعامِهِ على كافَّةِ المُسْلِمِينَ؟! إِذْ كَانَ ذَرِيعَتَهُمْ إِلَى الهِدَايَةِ، ومُنْقِذَهُمْ مِنَ العَمَايَةِ، وداعِيَهُمْ إِلَى الفَلَاحِ والكَرَامَةِ، ووَسِيلَتَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، وشَفِيعَهُمْ، والمُتكَلِّمَ عَنْهُمْ، والشَّاهِدَ لَهُمْ، والمُوجِبَ البَقَاءَ الدَّائِمَ، والنَّعِيمَ السَّرْمَدَ.

فقَدِ اسْتَبَانَ لَكَ أَنَّهُ ﷺ مُسْتَوْجِبٌ لِلمَحَبَّةِ الحقيقيَّةِ، شَرْعًا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ صَحِيحِ الآثَارِ، وعَادةً وجِبِلَّةً بِمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا لإِفاضَتِهِ الإحسَانَ، وعُمُومِهِ الإِجْمَالَ.

فإذا كانَ الإنسانُ يُحِبُّ مَنْ مَنَحَهُ في دُنْيَاهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ مَعْرُوفًا، أو اسْتَنقَذَهُ مِنْ هَلَكَةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ مُدَّةَ التَّأَذِّي بِهَا قَلِيلٌ مُنْقَطِعٌ، فَمَنْ مَنَحَهُ مَا لَا يَبِيدُ مِنَ النَّعِيمِ، وَوَقَاهُ ما لا يَفْنَى مِنْ عَذَابِ الجَحِيمِ أَوْلَى بالحُبِّ.

قوله (**خَطَرًا**): أي أَمْرًا. وقوله (**إِفضَالٍ**): أي إكرامٍ وإقبالٍ.

قوله (**كافَّةِ المسْلِمِينَ**): أي جَمِيعِ المنقادِينَ ولَوْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ والمنافِقِينَ.

قوله (**ذَرِيعتَهُمْ**): أيْ وَسِيلةَ أَهْلِ الإسلامِ. قوله (**مِنَ العَمَايةِ**): -بفتحِ العَيْنِ- أيْ أَعلى الغَوايةِ.

قوله (**الفَلَاحِ**): أي الفَوزِ والنجاحِ. قوله (**والكرامةِ**): أي يَحمِلُهم على الصَّلاحِ.

قوله (**والمُتَكلِّمَ عَنْهُمْ**): أي في إلزامِ الحُجّةِ بمَا يُلْقَى عَلَيْه.

قوله (**والشاهِدَ لهم**): أي مُزَكِّيهم بالخيْرِ.

قوله (**والمُوجِبَ**): أي الطالبَ، وفي نسخةٍ «المُحِبَّ... إلخ». قوله (**السَّرْمَدَ**): أي المستمِرَّ الذي لا نِهايةَ له.

قوله (**شَرْعًا**): أيْ وطَبْعًا. وقوله (**بما قَدَّمْناه**): يُرْوَى «لِمَا مَرَّ».

قوله (**آنِفًا**): أي زَمانًا قريبًا؛ وهوَ بِمَدِّ الهمزةِ وقصْرِها، وقدْ قُرِئَ بِهِمَا في السَّبْعَةِ.

قوله (**وعُمُومِه الإجمالَ**): أي المعَامَلةَ بالجميلِ في جَميعِ الأَوْقاتِ والأحْوَالِ.

قوله (**يُحِبُّ**): أيْ بِطَبْعِه. وقوله (**مَنْ مَنَحَه**): أي أَعطاهُ. قوله (**مَرَّةً أو مَرَّتَينِ**): أيْ ولَوْ على وَصْفِ القِلَّةِ.

قوله (**معْروفًا**): أي ما عُرِفَ حُسْنُه شَرْعًا وطَبْعًا، وفي الحَديثِ: (أَهْلُ المعْروفِ في الدّنيا أَهْلُ المعروفِ في العُقْبَى)[1].

قوله (**مِنْ هَلَكَةٍ**): بفتحتينِ، والأَوْلَى أنْ يُقالَ «مِنْ مَهْلَكَةٍ».

قوله (**ما لا يَبِيدُ**): أي ما لا يَنْفَدُ ولا يَنْقُصُ.

قوله (**مِنَ النَّعيمِ**): أي المقيمِ بجَنَّةٍ طيبَةٍ وحَالةٍ حَسَنةٍ، ويُرْوَى «مِنَ النِّعَمِ».

قوله (**أَوْلَى**): في نسخةٍ «فهُوَ أَوْلَى».

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٢١) من حديث قَبِيصَةَ بن بُرْمَةَ الأَسَديِّ بلفظ: (أَهْلُ المَعْرُوفِ في الدُّنيا هُمْ أَهْلُ المَعْرُوفِ في الآخِرَةِ، وأَهْلُ المُنْكَرِ في الدُّنيا هُمْ أَهْلُ المُنْكَرِ في الآخِرَةِ). وفي البابِ عن جماعةٍ.

فـإذا كانَ يُحَبُّ بالطَّبْـعِ مَلِـكٌ لِحُسْـنِ سِـيرَتِهِ، أَوْ حَاكِـمٌ لِمَا يُؤْثَـرُ مِـنْ قِـوَامِ طَرِيقَتِهِ، أَوْ قَـاضٍ بَعِيـدُ الـدَّارِ لِمَـا يُشَـادُ مِـنْ عِلْمِـهِ أَوْ كَـرَمِ شِـيَمِهِ، فَمَـنْ جَمَـعَ هَـذِهِ الخِصَـالَ عَـلى غايَـةِ مَرَاتِـبِ الكَـمَالِ أَحَـقُّ بالحُـبِّ، وَأَوْلَى بالمَيْـلِ.

وقَـدْ قَـالَ عَـلِيُّ بْـنُ أَبِي طَالِـبٍ رضي الله عنه في صِفَتِـهِ ﷺ: مَـنْ رآهُ بَدِيهَـةً هَابَـه، ومَـنْ خَالَطَـهُ مَعْرِفَـةً أَحَبَّـهُ.

وذَكَرْنَـا عَـنْ بَعْـضِ الصَّحَابَـةِ رضي الله عنهم أَنَّـه كانَ لا يَـصْرِفُ بَـصَرَهُ عَنْـه مَحَبَّـةً فِيـهِ ﷺ.

***

قولـه (**يُحَـبُّ**): بصيغـةِ المجهـولِ. قولـه (**بالطَّبْـعِ**): أي بِحُكْـمِ أصـلِ الجِبلَّـةِ. قولـه (**سـيرَته**): أيْ معامَلَتِـهِ في رَعِيَّتِـه.

قولـه (**لِمَـا يُؤْثَـرُ**): أي يُـرْوَى ويُخْـبَرُ عَنْـه. قولـه (**مِـنْ قِـوَامِ طريقتِـه**): -بكسـرِ القـافِ- أي مِـن اعتـدالِ سِـيرتِه.

قولـه (**أَوْ قـاضٍ**): -بمعجَمـةٍ، قـالَ الدّلجـيُّ: أو مهْمَلـةٍ، أي مُشـدَّدةٍ- أيْ واعِـظٌ.

قولـه (**يُشـادُ**): -مبْنـيٌّ للمجْهـولِ- أيْ يُشـاعُ ويُـذاعُ، ويُـرْوى «فشَـا»، أي ظَهَـرَ. قولـه (**كَـرَمِ شِـيَمِه**): أيْ حُسْـنِ أخلاقِـهِ، ويُـرْوَى «شِـيمَتِه».

قولـه (**عـلى غايـةِ... إلـخ**): [شِـبْهُ] جُملـةٍ منصُـوبٌ عـلى الحـالِ[1].

قوله (**وأَوْلَى بالمَيْلِ**): أيْ إليْه، و(**بدِيهةً**): أيْ في أوَّلِ وَهْلَةٍ.

قولـه (**هَابَـه**): أيْ توقـيرًا وتعظيـمًا. قولـه (**مَعْرِفـةً**): بالنصْـبِ؛ تمييـزٌ، أيْ عِلـمًا بكريـمِ خِصَالِـه وعميـمِ فِعالِـه.

***

(١) في محل نصب.

فَصْلٌ فِي وُجُوبِ مُنَاصَحَتِهِ ﷺ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ولا على الَّذينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لله ورسُولِه...﴾ الآيَةَ [التوبة: ٩١]، قَالَ أَهْلُ التفسِيرِ: ﴿إذَا نَصَحُوا لله ورَسُولِهِ﴾: إذا كانُوا مُخْلِصِينَ مُسْلِمِينَ في السِّرِّ والعَلَانِيَةِ.

حَدَّثَنَا الفَقِيهُ أَبُو الوَلِيدِ بقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ محمَّدٍ، حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الله، حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ المؤْمِنِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ التَّمَّارُ، حَدَّثَنَا أَبُو داوُدَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ»، قالُوا: لِمَنْ يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «لله، ولِكِتابِهِ، ولِرَسُولِه، ولِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وعَامَّتِهِمْ».[1]

قَالَ أَئِمَّتُنَا -رَحِمَهُمُ اللهُ-: النَّصِيحَةُ لله ولِرَسُولِه وأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ وَاجِبَةٌ.

قَالَ الإمامُ أَبُو سُلَيْمانَ البُسْتِيُّ: النَّصِيحَةُ كَلِمَةٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ جُمْلَةِ إِرَادَةِ الخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَه، ولَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهَا بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ تَحْصُرُهَا، ومَعْنَاهَا في اللُّغَةِ الإخْلاصُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَصَحْتُ العَسَلَ إذَا خَلَّصْتُهُ مِنْ شَمَعِه.

(١) حديث تميم (إن الدين النصيحة ...): أسنده من طريق أبي داود [٤٩٤٤] وهو عند مسلم [٥٥].

قوله (مُناصَحَتِه): «مفاعَلَةٌ» مِنَ النُّصْحِ؛ وهُوَ الخُلُوصُ، يُقالُ: نَصَحْتُه، ونَصَحْتُ لَه.

قوله (إذا نَصَحُوا لله ورَسُولِه): أيْ بِمَا قَدَرُوا عَلَيْه مِن فعْلٍ أوْ قَوْلٍ يَعُودُ للإسْلامِ والمسْلِمِينَ بالصَّلاحِ، وأَخْلَصُوا بالطَّاعَةِ لَهما سِرًّا وعَلانيةً في أمْرِهِمَا.

قوله (عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ): نِسْبَةٌ إلى جَدِّه «الدَّار»، ويقالُ «الدَّيريُّ» أيْضًا نِسْبَةٌ إلى دَيْرٍ كانَ يَتَعبَّدُ فيه قبْلَ الإسْلامِ، أَسْلَمَ سنَةَ تِسْعٍ مِن الهِجْرةِ، وكانَ نَصْرانيًّا قبْلَ ذلك، وتُوُفِّيَ سَنةَ أربعِينَ؛ ومِن مَناقِبِه الفِخَامِ أنَّه ﷺ رَوَى عَنْه حديثَ الجَسَّاسَةِ على المِنبَرِ كَما في آخرِ «صَحيحِ مسْلمٍ»[1]، وفيها روايةُ الفاضلِ عَن المفْضُولِ، والتابعِ عَن المتبُوعِ.

وقوله (إنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ): ثلاثَ مَرّاتٍ للمبالَغةِ، وفي نسْخةٍ (إنَّما الدِّينُ... إلخ).

قوله (واجِبَةٌ): أي فَرْضُ عَيْنٍ على كُلِّ أحَدٍ، وفي «شَرحِ مُسْلمٍ» للنَوويِّ عَن بعضِهِمْ أنَّها فرضُ كفايةٍ؛ يَسْقُطُ بقِيامِ البعْضِ عَنِ الباقِينَ.

قوله (البُسْتِيُّ): -بضمِّ موحَّدةٍ وسُكونِ سِينٍ ففَوْقيَّةٍ- بَلَدٌ بسِجِسْتَانَ، والمرادُ به الخطّابيُّ. اهـ ملّا.

قوله (عَنْ جُمْلَةِ): بالتنوينِ بدونِ إضافةٍ وبالإضافةِ -كَما في كثيرٍ مِن النُّسَخِ-؛ وعلى الأوّلِ تقديرُه: «هيَ إرادةُ الخيْرِ... إلى آخِرِه». قوله (يُعَبَّرَ عَنْها): أي عَنْ تلك الجُمْلةِ. قوله (بكلمةٍ واحدةٍ): أي غيْرِ هَذه الكلمةِ. قوله (تَحصُرُهَا): أي تَجْمَعُ مَعْنَاها. قوله (ومَعْنَاها): أي النصيحَةِ. قوله (إذا خَلَّصْتَه): -بتشديدِ اللّامِ وفتحِ التّاءِ- أيْ ميَّزْتَه بنارٍ لَطِيفَةٍ. قوله (شَمَعِه): بفتحِ الميمِ وتُكْسَرُ؛ ففِي «القاموسِ»: «مُحرَّكةٌ وتَسْكِينُ الميمِ مُوَلَّدٌ».

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٤٢) [كتاب الفتن وأشراط السّاعة] من حديث فاطمة بنت قيس.

وقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي إِسْحاقَ الخَفَّافُ: النُّصْحُ فِعْلُ الشَّيْءِ الَّذِي بِهِ الصَّلاحُ والمُلاءَمَةُ، مَأْخُوذٌ مِنَ النِّصَاحِ، وهُوَ الخَيْطُ الَّذِي يُخَاطُ بِهِ الثَّوْبُ، وقَالَ أَبُو إِسحاقَ الزَّجَّاجُ نَحْوَهُ.

فَنَصِيحَةُ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- صِحَّةُ الاعْتِقَادِ لَهُ بالوَحْدَانِيَّةِ، ووَصْفُهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وتَنْزِيهُهُ عَمَّا لا يَجُوزُ عَلَيْهِ، والرَّغْبَةُ فِي مَحَابِّهِ، والبُعْدُ عَنْ مَسَاخِطِهِ، والإِخْلَاصُ فِي عِبَادَتِهِ.

والنَّصِيحَةُ لِكِتابِهِ: الإِيمانُ بِهِ، والعَمَلُ بِمَا فِيهِ، وتَحْسِينُ تِلَاوَتِهِ، والتَّخَشُّعُ عِنْدَهُ، والتَّعْظِيمُ لَهُ، وتَفَهُّمُهُ والتَّفَقُّهُ فِيهِ، والذَّبُّ عَنْهُ مِنْ تَأْوِيلِ الغَالِينَ وطَعْنِ المُلْحِدِينَ.

والنَّصِيحَةُ لِرَسُولِهِ: التَّصْدِيقُ بِنُبُوَّتِهِ، وبَذْلُ الطَّاعَةِ لَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ ونَهَى عَنْهُ، قالَهُ أَبُو سُلَيْمانَ.

وقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ومُوَازَرَتُهُ ونُصْرَتُهُ وحِمَايَتُهُ حَيًّا ومَيِّتًا، وإِحْيَاءُ سُنَّتِهِ بالطَّلَبِ والذَّبِّ عَنْهَا ونَشْرِهَا، والتَّخَلُّقُ بأَخْلاقِهِ الكَرِيمَةِ وآدَابِهِ الجَمِيلَةِ.

وقَالَ أَبُو إبرَاهِيمَ إِسْحَاقُ التُّجِيبِيُّ: نَصِيحَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ التَّصْدِيقُ بِمَا جَاءَ بِهِ، والاعْتِصَامُ بِسُنَّتِهِ ونَشْرُهَا والحَضُّ عَلَيْهَا، والدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ وَإِلَى كِتابِهِ وَإِلى رَسُولِهِ وإِلَيْهَا وإِلَى العَمَلِ بِهَا.

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مِنْ مَفْرُوضَاتِ القُلُوبِ اعْتِقَادُ النَّصِيحَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قوله (الخَفَّافُ): بتشديدِ الفاءِ الأُولَى.

قوله (النُّصْحُ): بضمِّ النّونِ. قوله (والمُلاءمةُ): -بضمِّ الميمِ وتخفيفِ اللّامِ بعْدَهَا أَلِفٌ وهمزةٌ- هِيَ الموافقةُ بَيْنَ الأشياءِ. اهـ شُمُنِّيٌّ.

قوله (مِنَ النِّصَاحِ): بكَسْرِ النونِ وتخفيفِ الصّادِ والحاءِ المهمَلَتَينِ.

قوله (فَنَصِيحَةُ اللهِ... إلخ): أيْ نصيحَةُ العبْدِ للهِ. قوله (بالوَحْدَانيةِ): أيْ في الأُلُوهيّةِ والربُوبيَّةِ.

قوله (عَمَّا لا يَجُوزُ): أيْ إطلاقُه علَيْه مِن النُّعُوتِ السَّلبيّةِ.

قوله (مَحَابِّه): -بتشديدِ المُوَحَّدةِ- أي المَيْلُ في كُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرْضَاه. قوله (عَنْ مَسَاخِطِه): -بفتحِ الميمِ والسّينِ بعْدَها أَلِفٌ وكَسْرِ الخاءِ- أيْ عَنْ جَميعِ ما يَكْرَهُه ويَنْهَاهُ.

قوله (والتعظِيمُ لَه): أيْ لِكِتَابِه بأَدَبٍ يَقْتَضِي إجْلالَه، وبوصْفٍ يُوجِبُ إكمالَه.

قوله (والتَّفَقُّهُ فيه): أيْ طَلَبُ الفَهْمِ لِمَبَانِيه، والعِلْمِ بمَعَانيه.

قوله (والذَّبُّ عَنْه): أي الدَّفعُ. وقوله (الغالِينَ): -بالغَينِ المعجمةِ؛ مِن الغُلُوِّ- أي المجاوزِينَ الحَدَّ؛ كالمعتزلةِ وأضرابِهم. قوله (وطَعْنِ المُلْحِدِينَ): أي مِنَ الزّنادقةِ.

قوله (ومُوازَرَتُه): أي النصيحةُ لِرسولِه هيَ مُعَاوَنَتُه ومعَاضَدَتُه في دِينِه ومِلَّتِه. قوله (ونُصْرَتُه): أيْ إعانَتُه على أعدائِه.

قوله (والحَضُّ علَيْها): أي الحَثُّ والتحْريضُ لِمَنْ يَعْمَلُ بهَا. قوله (وإليْها): أيْ وإلى سُنَّتِه.

قوله (مِنْ مَفروضاتِ القُلُوبِ): أي مِن الواجباتِ المُؤَكَّدةِ علَيْها.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الآجُرِّيُّ وغَيْرُهُ: النُّصْحُ لـه يَقْتَضِي نُصْحَيْنِ: نُصْحًا فِي حَيَاتِه، ونُصْحًا بَعْدَ مَمَاتِهِ؛ ففي حَيَاتِه نُصْحُ أَصْحابِه لَهُ بالنَّصْرِ والمُحَامَاةِ عَنْهُ، ومُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ لَهُ، وبَذْلِ النُّفُوسِ والأَمْوَالِ دُونَه، كَمَا قَالَ تعَالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٢٣]، وقَالَ: ﴿وينْصُرُونَ اللهَ ورَسولَه...﴾ الآيةَ [الحشر: ٨].

وأَمَّا نَصيحَةُ المُسْلِمِينَ لَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فالتِزَامُ التَّوْقِيرِ والإِجْلَالِ، وشِدَّةُ المَحَبَّةِ لَهُ، والمُثَابَرَةُ على تَعلُّمِ سُنَّتِهِ، وَالتَّفَقُّهُ في شَرِيعَتِهِ، ومَحَبَّةُ آلِ بَيْتِه وأَصْحابِه، ومُجَانَبَةُ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِ وانحَرَفَ عَنْهَا، وبُغْضُهُ والتَّحذِيرُ مِنْه، والشَّفَقَةُ على أُمَّتِهِ، والبَحْثُ عَنْ تَعرِيفِ أَخْلَاقِهِ وسِيَرِهِ وَآدابِهِ، والصَّبْرُ على ذلِكَ.

فعَلى ما ذَكَرَهُ تكُونُ النَّصيحَةُ إِحْدَى ثَمَرَاتِ المَحَبَّةِ، وعَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

وحَكَى الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ القُشَيْرِيُّ أَنَّ عَمْرًا ابْنَ اللَّيْثِ، أَحَدَ مُلُوكِ خُرَاسَانَ ومَشَاهِيرِ الثُّوَّارِ، المَعْرُوفَ بالصَّفَّارِ رُؤِيَ فِي النَّوْمِ، فقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقَالَ: غَفَرَ لِي، فقِيلَ: بِمَاذا؟

قَالَ: صَعِدْتُ ذِرْوَةَ جَبَلٍ يَوْمًا، فأَشْرَفْتُ على جُنُودِي، فأعجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ، فتَمَنَّيْتُ أَنِّي حَضَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فأَعَنْتُه ونَصَرْتُه، فشَكَرَ اللهُ لِي ذلكَ، وغَفَرَ لِي.

قوله (الآجُرِّيُّ): بِمَدِّ هَمزَةٍ وضمِّ جيمٍ وتشديدِ راءٍ.

قوله (والمُحَامَاةِ): أي المُدافعَةِ (عَنْهُ): أي عَنْ ذاتِه.

وقوله (دُونَه): أي عِنْدَه حِمايةً لِجَنَابِه، ورعايةً لِأحوالِه.

قوله (ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْه): أي مِنَ الثَّبَاتِ مَعَه حَالَ بَلائِه ورَخائِه.

قوله (والمُثَابَرَةُ): -بالمُثَلَّثَةِ والباءِ الموحَّدَةِ- أي المواظَبَةُ (على تَعَلُّمِ سُنَّتِه): وفي نسْخةٍ «على تَعليمِ سُنَّتِه».

قوله (والتَّفَقُّهُ): -بالرفعِ والجرِّ- أي التَّفَهُّمُ.

قوله (وبُغْضُه): -بالرَّفْعِ- أيْ عَدَاوَتُه. قوله (والتحذيرُ منه): أيْ مِنْ صُحْبَتِه.

قوله (ومَشَاهيرِ الثُّوَّارِ): -وهُوَ بالثاءِ المُثَلَّثَةِ المضمُومةِ وتشديدِ الواوِ، وفي آخِره راءٌ- الأَبْطالُ. اهـ شُمُنِّيٌّ.

قوله (بالصَّفَّارِ): بتشديدِ الفاءِ. قوله (رُؤِيَ): بضمِّ الراءِ وكسْرِ الهمزةِ على أنَّه مجهُولٌ، ورُوِيَ بكسْرِ الراءِ فتحتيَّةٍ [ساكنةٍ، فهَمزةٍ] مفتوحةٍ[1].

قوله (صَعِدْتُ): -بكسْرِ عينِه- أيْ طَلَعْتُ. وَقوله (ذِرْوَةَ): -بكسْرِ المعجَمةِ وضَمِّها، ويُحْكَى فتْحُها- أي أَعلَاهُ. قوله (فشَكَرَ اللهُ... إلخ): أي جازَاني بمثُوبتِه وذَكَرَني عِنْدَ مَلائكتِه لِصِدْقِ طَوِيَّتِي.

(١) (رِيءَ) بكسر الراء فتحتية ساكنة فهمزة مفتوحة، مجهول «رَاءَ»، لغة في «رَأى»؛ قال ابن سيده في «المحكم»: «راءَ لغة في رأى».

وأَمَّا النُّصحُ لِأئمَّةِ المسْلِمينَ فطاعَتُهُمْ في الحَقِّ، ومَعُونَتُهُمْ فِيهِ، وأَمْرُهُمْ بِهِ، وتَذْكِيرُهُمْ إيَّاهُ على أَحْسَنِ وَجْهٍ، وتَنْبِيهُهُمْ على مَا غَفَلُوا عَنْهُ وكُتِمَ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ المُسْلِمينَ، وتَرْكُ الخُروجِ علَيْهِمْ وتَضْرِيبِ النَّاسِ وإفسَادِ قُلُوبِهِمْ عَلَيْهِمْ.

والنُصْحُ لِعامَّةِ المُسْلِمينَ إرْشَادُهمْ إلى مَصَالِحِهِمْ، ومَعُونَتُهُمْ في أَمْرِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ بالقَوْلِ والفِعْلِ، وتَنبِيهُ غافِلِهِمْ، وتَبْصِيرُ جَاهِلِهِمْ، ورَفْدُ مُحْتَاجِهِمْ، وسَتْرُ عَوْرَاتِهِمْ، ودَفْعُ المَضَارِّ عَنْهُمْ، وَجَلْبُ المَنَافِعِ إلَيْهِمْ.

***

قوله (**فطاعَتُهُمْ في الحَقِّ**): أيْ ثابتةٌ على الخَلْقِ، وروَى الحاكمُ عنْ عِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ: (لا طاعةَ لِمخلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالقِ)[1]، وحديثُ البخاريِّ ومسْلِمٍ: (لا طَاعةَ في معْصيةِ اللهِ إنَّما الطّاعةُ في المعْروفِ)[2].

وقدْ خطَبَ عمرُ بنُ عبْدِ العزيزِ حين وُلِّيَ الخلافةَ فقالَ: أطيعوني ما أَطَعْتُ اللهَ؛ فإذا عَصَيْتُه فَلا طاعةَ لي علَيْكم.

قوله (**وكُتِمَ عَنْهم**): -بصيغةِ المفعُولِ- أيْ سُتِرَ عَنْهُمْ.

وقوله (**وتَرْكُ الخُروجِ عليْهِمْ**): أي بالبَغْيِ ولَوْ جارُوا. قوله (**وتَضريبِ الناسِ**): -بالضادِ المعْجَمةِ- أيْ وتَرْكُ إغراءِ العَامّةِ وتحريشِهم.

وقوْله (**وتبصيرُ جاهِلِهمْ**): أيْ بتعريفِ مَا جَهِلَه. (**ورَفْدُ محتاجِهِمْ**): أيْ مُعَاوَنةُ فُقَرائِهِمْ في حَالِ بَلائِهِمْ وعَنَائِهِمْ.

وقوله (**وسَتْرُ عَوْراتِهِمْ**): أيْ باللِّبَاسِ وسَتْرُ عيُوبِهِمْ عَنِ النّاسِ.

قوله (**وجَلْبُ المَنافعِ**): -بفتحِ الجيمِ وسُكونِ اللّامِ- مصْدَرٌ؛ وأمَّا «الجَلَبُ» -مُحَرَّكٌ- فما جُلِبَ مِنْ خيلٍ وغيرِه كَما في «القامُوسِ»، قالَ المُلّا: فقولُ الحلَبيِّ هنا هُوَ بسُكونِ اللّامِ وفتْحِها لَيْسَ في مَحَلِّه[3].

***

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» وصحَّحه (٣/ ٤٤٣). وقد تقدَّم من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٧٢٥٧) [كتاب أخبار الآحاد]، ومسلمٌ (١٨٤٠) [كتاب الإمارة]، وغيرهما من حديث الإمام عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) عبارة «القاموس»: «جَلَبَهُ يَجْلِبُهُ ويَجْلُبُه جَلْباً وجَلَباً»، وعبارة «تاج العروس» توضيحا لعبارة «القاموس»: «(جَلَبَهُ يَجْلِبُهُ)، بالكسر، (ويَجْلُبُه) بالضم، (جَلْباً وجَلَباً) محرَكةً»؛ وبه يظهر أن «الجلَب» -محركة- تأتي مصدرًا وتأتي اسمًا للمجلوب.

البابُ الثالثُ:
في تَعْظِيمِ أَمْرِه ووُجُوبِ تَوْقِيرِه وبِرِّه

قَـالَ اللهُ العظيـمُ: ﴿يـا أيُّهـا النَّبِـيُّ إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا ومُبَـشِّرًا وَنَذِيـرًا﴾ [الأحـزاب: ٤٥]، ﴿إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا ومُبَـشِّرًا وَنَذِيـرًا * لِتُؤْمِنُـوا بـاللهِ وَرَسُـولِهِ وتُعَـزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتـح: ٨-٩].

وقـالَ: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لَا تُقَدِّمُـوا بَـيْنَ يَـدَيِ اللهِ وَرَسُـولِهِ وَاتَّقُـوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَـمِيعٌ عَلِيـمٌ * يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لَا تَرْفَعُـوا أَصْوَاتَكُـمْ فَـوْقَ صَـوْتِ النَّبِـيِّ وَلَا تَجْهَـرُوا لَـهُ بِالْقَـوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِكُـمْ لِبَعْـضٍ أَن تَحْبَـطَ أَعْمَالُكُـمْ وَأَنتُـمْ لَا تَشْـعُرُونَ * إِنَّ الَّذِيـنَ يَغُضُّـونَ أَصْوَاتَهُـمْ عِنـدَ رَسُـولِ اللهِ أُولَئِـكَ الَّذِيـنَ امْتَحَـنَ اللهُ قُلُوبَهُـمْ لِلتَّقْـوَىٰ لَـهُم مَّغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيـمٌ﴾ [الحجـرات: ١-٣]، وقـالَ: ﴿لا تَجْعَلُـوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكـم كدُعَـاءِ بَعْضِكُـمْ بعْضًـا﴾ [النـور: ٦٣].

فأَوْجَـبَ اللهُ تعـالى تَعْزِيـرَهُ وتَوْقِـيرَهُ، وأَلْـزَمَ إِكْرَامَـهُ وتعْظيمَـه، قـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ: تُعَـزِّرُوهُ: تُجِلُّـوهُ[١]، وَقـالَ: المُـبَرِّدُ: تُعـزِّرُوهُ: تُبَالِغُـوا في تَعْظِيمِـه، وَقـالَ الأخْفَـشُ: تَنْصُرُونَـهُ، وقـالَ الطَّـبَرِيُّ: تُعِينُـوهُ، وقُـرِئَ: تُعـزِّزُوهُ، بزاءَيْـنِ مِـنَ «العِـزِّ».

ونَهَـى عَـنِ التَّقَـدُّمِ بَـيْنَ يَدَيْـهِ بالقَـوْلِ وسُـوءِ الأَدَبِ بسَـبْقِهِ بالـكَلَامِ عـلى قَـوْلِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ وغَـيْرِه، وهُـوَ اختِيـارُ ثَعْلَـبٍ.

وقـالَ سَـهْلُ بْـنُ عَبْـدِ اللهِ: لا تَقُولُـوا قَبْـلَ أَنْ يَقُـولَ، وإذا قـالَ فاسْـمَعُوا لَـهُ وأَنْصِتُـوا.

---

(١) حديث ابن عبَّاسٍ (تعزروه: تجلوه): ابن أبي حاتمٍ، وابن جريرٍ [٢١/٢٥١].

قوله (وبِرِّه): -بكسْرِ الباءِ- أيْ إحسَانِه.

قولـه (وتُعَـزِّرُوه... الآيـةَ بكَمالِهـا): الخِطَـابُ عـلى الالتِفـاتِ، وفي قـراءةٍ بالغَيبَـةِ[١]، قـالَ المُلَّا: والظاهـرُ أنَّ الضَّمائرَ لله؛ لِقَولِـه سُبحانَه: ﴿وتُسَبِّحُوهُ﴾، ومَنْ فَرَّقَ فقدْ أَبْعَدَ.

ثُـمَّ اعلَـمْ أنَّ قولَـه (قـالَ اللهُ -تعـالى-: يـا أيُّهـا النبـيُّ إنّـا أرسَـلْناكَ...) إلى قولِـه (وتُوَقِّـرُوه) هكَـذا وَقَـعَ في أكثَـرِ الأصُـولِ، وهَـذه الآيـةُ في سُـورةِ الفَتْـحِ، ولَيـسَ فيهـا ﴿يـا أيُّهـا﴾؛ وإنَّـما هُـوَ ﴿إنّـا أرسَـلْناكَ﴾ كـمَا هُـوَ في بَعْـضِ النُّسَـخِ[٢].

قولـه (لا تَرْفَعُـوا أصْواتَكـم فَـوْقَ صَـوْتِ النبـيِّ): أيْ لا تُجـاوِزُوا بأصواتِكـم حَـدًّا يَبْلُـغُ صَوْتَـه. قولـه (أنْ تَحْبَـطَ أعمالُكـمْ): أيْ مَخافَـةَ حُبُوطِهـا.

قولـه (عِنْـدَ رسُـولِ اللهِ ﷺ): أيْ مُراعـاةً لِـلأدَبِ والإجـلالِ. قولَـه (امتَحَـنَ اللهُ... إلـخ): أي دَرَّبَهـا ومَرَّنَهـا. قولـه (تَعزيـرَه): -بالـرَّاءِ في آخِـرِه- أي تَعظيمَـه وتَوقـيرَهُ.

قولـه (بِسَـبْقِه بالـكَلامِ): ويُـرْوَى «في الـكَلامِ». قولـه (ثَعْلَـبٍ): هـوَ العلّامـةُ المُحَـدِّثُ شـيخُ اللُّغـةِ والعربيّـةِ أبـو العبَّـاسِ أحمدُ بـنُ يَزيـدَ الشَّـيْبانيُّ، مولاهـم البَغداديُّ، مَوْلِـدُه سَـنَةَ مائتَـيْنِ.

---

(١) قراءة ابن كثير المكي وأبي عمرو بن العلاء باليـاء في الأفعـال الثلاثـة.

(٢) قـال الشـهاب الخفاجـي: ..فقيـل: كأنـه بـدأ بآيـة الأحـزاب وثنّـى بآيـة الفتـح، فسـقط الفاصـل بينهـا سـهوا، أو بيّـض لـه فوصلـه الناسـخ.

ونُهُوا عَنِ التَّقَدُّمِ والتَّعَجُّلِ بقَضَاءِ أَمْرٍ قَبْلَ قَضَائِه فيه، وأَنْ يَفْتَاتُوا بشَيْءٍ في ذَلِكَ مِنْ قِتَالٍ أوْ غَيْرِه مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ إِلَّا بأَمْرِه ولا يَسْبِقُوهُ به، وإِلَى هَذا يَرْجِعُ قَوْلُ الحَسَنِ ومُجَاهِدٍ والضَّحَّاكِ والسُّدِّيِّ والثَّوْرِيِّ.

ثُمَّ وَعَظَهُمْ وحَذَّرَهُمْ مخالَفَةَ ذلكَ، فقَالَ: ﴿واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، قَالَ المَاوَرْدِيُّ: اتَّقُوه يَعْنِي فِي التَّقَدُّمِ، وقَالَ السُّلَمِيُّ: اتَّقُوا اللهَ فِي إِهْمَالِ حَقِّهِ وتَضْيِيعِ حُرْمَتِهِ؛ إِنَّه سَمِيعٌ لِقَوْلِكُمْ، عَلِيمٌ بِفِعْلِكُمْ.

ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ، والجَهْرِ لَهُ بالقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ، وقِيلَ: كَمَا يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا باسْمِهِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيٌّ: أَيْ لا تُسَابِقُوهُ بالكَلَامِ، وتُغْلِظُوا لَه بالخِطَابِ، ولا تُنَادُوهُ باسْمِهِ نِدَاءَ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ؛ ولَكِنْ عَظِّمُوهُ ووَقِّرُوهُ ونَادُوهُ بأَشْرَفِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُنَادَى بِه؛ يَا رَسُولَ اللهِ، يَا نَبِيَّ اللهِ، وهَذَا كَقَوْلِهِ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ. وقَالَ غَيْرُهُ: لا تُخَاطِبُوهُ إِلَّا مُسْتَفْهِمِينَ.

ثُمَّ خَوَّفَهُمُ اللهُ -تَعَالَى- بحَبْطِ أَعْمَالِهِمْ إِنْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْه.

قِيلَ: نَزَلَتِ الآيَةُ فِي وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ[1]، وقِيلَ: فِي غَيْرِهِمْ، أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فنَادَوْهُ يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، اُخْرُجْ إِلَيْنَا؛ فذَمَّهُمُ اللهُ تعَالى بالجَهْلِ، ووَصَفَهُمْ بأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْقِلُونَ.

---

(١) حديث أن آية الحجرات نزلت في وفد بني تميم: ابن جرير [٢١/ ٣٤٢ عن الزبير]، وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم.

قوله (وأَنْ يَفْتَاتُوا): -«الافتِعَالُ» مِنَ الفَوْتِ- أي يَسْبِقُوه بِشَيْءٍ منفرِدِينَ برَأْيِهِمْ دونَه فِي تصَرُّفِهِمْ.

قوله (ولا يَسْبقوه): ولَوْ في أمرِ دنياهِمْ، والواجبُ أَنْ يَكونُوا تابِعِينَ لَه في جميعِ قَضَاياهم مِنْ أُمُورِ دُنْياهم وأُخْرَاهم.

قوله (في إهمالِ حقِّه): أَيْ في الأوامِرِ وتَضْييعِ حُرْمَتِه في الزَّوَاجِرِ. قوله (إنَّه سَمِيعٌ): وفي نسْخةٍ صحيحَةٍ «إنَّ اللهَ سَميعٌ... إلخ».

قوله (وتُغْلِظُوا): بضمِّ التاءِ وكسْرِ اللّامِ. قوله (ولا تُنَادُوهُ باسْمِه): أي العَلَمِ كمُنَاداةِ ﴿بَعْضِكم بعْضًا﴾ أيْ باسْمِه الذي سَمَّاهُ به أبُوه. قوله (أنْ يُنَادَى به): أيْ مِنْ وَصْفِ رِسَالةٍ، أو نَعتِ نُبُوَّةٍ؛ بأَنْ تقولُوا (يا رسُولَ اللهِ... إلخ): أيْ وأمثالَها كـ«يا حَبيبَ الله، يا خليلَ الله»، وهذا في حيَاتِه، وكذا بَعْدَ وَفاتِه.

قوله (وهَذا): أيْ مَقولُ مَكِّيٍّ. وقوله (كقَوْلِه): أي الله سبحانَه. قوله (التأوِيلَيْنِ): أي التفسيرَيْنِ المَشْهُورَينِ في الآيةِ.

قوله (وقَالَ غَيْرُهُ): أيْ غَيْرُ مَكِّيٍّ. قوله (مُسْتفهِمِينَ): أيْ عنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ تُريدونَ صُدورَهُ مِنكم أَيَجُوزُ هذا أمْ لا؟ وفي روايَةٍ «إلا مُشْفِقِينَ»: أي وَجِلِينَ خائِفِينَ.

قوله (بحَبْطِ أعمالِهم): -بفتحِ الحاءِ وسكونِ الموحَّدةِ- أي بِحُبُوطِها وإبْطالِها.

قوله (قِيلَ نَزَلَتِ الآيَةُ): وهِيَ قولُه تعالى ﴿إنَّ الذينَ يُنادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجُراتِ﴾.

وقِيلَ: نَزَلَتِ الآيَةُ الأُولَى فِي مُحَاوَرَةٍ كانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتِلَافٍ جَرَى بَيْنَهُمَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا[1].

وقِيلَ: نَزَلَتْ فِي ثابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ خَطِيبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مُفَاخَرَةِ بَنِي تَمِيمٍ، وكانَ فِي أُذُنَيْهِ صَمَمٌ، فكَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، فلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَقَامَ فِي مَنْزِلِهِ، وخَشِيَ أَنْ يَكُونَ حَبِطَ عَمَلُهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ هَلَكْتُ؛ نَهَانَا اللهُ أَنْ نَجْهَرَ بِالقَوْلِ، وأَنَا امْرُؤٌ جَهِيرُ الصَّوتِ؟!

فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا ثَابِتُ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ! فقُتِلَ يَوْمَ اليَمَامَةِ[2].

ورُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ: واللهِ -يَا رَسُولَ اللهِ- لا أُكَلِّمُكَ بَعْدَهَا أَبَدًا إِلَّا كَأَخِي السِّرَارِ[3].

---

(١) حديث أن الآية الأولى أنزلت في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر: البخاريُّ [٤٣٦٧] عن عبدالله بن الزبير.

(٢) حديث أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس: الشيخان [البخاريُّ (٣٦١٣)، ومسلمٌ (١١٩)] عن أنس، وابن جرير [٢١/ ٣٤٠] بلفظ المصنِّف.

(٣) حديث (أن أبا بكر لما نزلت قال لا أكلمك إلا كأخي السِّرار): البزّار [٥٦] من طريق طارق بن شهاب عنه.

وأَبْعَدَ الدّلجيُّ حيثُ قالَ: المرادُ بالآيةِ قولُه تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرسُولِ بينكم...﴾ إلخ، ومِمَّا يَدُلُّ على ما اخترْنَاه قولُ المُصنِّفِ (**وقيلَ نَزَلَتِ الآيةُ الأُولى**): أيْ ما قَبْلَ هذه الآيةِ، وهيَ ﴿لا تَرْفَعُوا أصْواتكم﴾. اهـ مـلّا.

قولـه (**مُحاوَرَةٍ**): -بحاءٍ مهْمَلةٍ- أي مكالمَةٍ ومُجاوبةٍ. قولـه (**واختِلافٍ جَرَى... إلخ**): ويُرْوَى «لِاختلافٍ». قولـه (**حتى ارتفعَتْ أصْواتُهما**): أي أمامَه، فنُهِيَا عنْ ذلك، وغيرُهما كذلك؛ لِأنّ العِبْرَةَ بعُمُومِ اللّفظِ لا بخصُوصِ السببِ.

قولـه (**وقيلَ نَزَلَتْ في ثابتٍ... إلخ**): كَما رُوِيَ عَن ابنِ عبَّاسٍ. قولـه (**شَمَّاسٍ**): بتشديدِ الميمِ وتُخَفَّفُ.

قولـه (**في مُفاخَرةِ بَنِي تَميمٍ**): مِنَ الفَخْرِ وهوَ الكِبْرُ والشَّرَفُ والعُظْمُ، فعَنْ جَابرٍ: جَاءَتْ بَنُو تميمٍ فنَادَوْا على البابِ: اخرُجْ إلينا يا محمّدُ، نحنُ ناسٌ مِنْ بَنِي تميمٍ؛ جِئْنَا بشَاعِرنا وخَطيبنا لِنَشْعَرَكَ ونُفاخِرَكَ، فخَرجَ رسُولُ الله ﷺ، فقالَ: مَا بالشِّعْرِ بُعِثْتُ، ولا بالفَخْرِ أُمِرْتُ؛ ولكِنْ هاتُوا، فقامَ شابٌّ مِنْهمْ، فذَكَرَ فضْلَه وفَضْلَ قَوْمِه، فقالَ النّبيُّ لِثابتٍ: قُمْ فأَجِبْه، فقامَ فأجابَه، وكانَ أَحْسَنَ قوْلًا.[1]

قولـه (**صَمَمٌ**): أي ثِقَلٌ. وقولـه (**يَرْفَعُ صَوْتَه**): أيْ عِنْدَ تَكلُّمِه، ورُبَّما تَأذّى النبيُّ به.

قولـه (**هَذه الآيةُ**): أي آيةُ ﴿لا تَرْفَعُوا﴾. قولـه (**ثُمَّ أتَى النبيَّ**): أيْ بَعْدَ تفَقُّدِه ﷺ واطِّلاعِه على خَبَرِه. وقولـه (**أتَى النّبيَّ**): أيْ مُعْتَذِرًا. قولـه (**خَشِيتُ**): أيْ بَعْدَ نزولِ هذه الآيةِ. قولـه (**أنْ نَجْهَرَ بالقَوْلِ**): مطلقًا في الشَّرْعِ. وقولـه (**امرُؤٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ**): أيْ بالطّبْعِ. قولـه (**فقُتِلَ يَوْمَ اليمَامةِ**): في خِلافةِ الصِّدِّيقِ تحْقيقًا للكَرامةِ.

قولـه (**لمَّا نَزَلَتْ هَذه الآيةُ**): وهيَ ﴿لا تَرْفَعُوا أصْواتَكمْ﴾. قولـه (**لا أُكَلِّمُكَ بَعْدَها**): وفي نسْخَةٍ صحيحَةٍ «بَعْدَ هَذه». اهـ مـلّا. قولـه (**إلّا كأخِي السِّرارِ**): -بكسرِ السّينِ المهْمَلةِ- أيْ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الصحابة (١٠٥٦)، وابن عساكر (٩/ ١٨٨)، وغيرهما.

وأَنَّ عُمَرَ كانَ إذا حَدَّثَهُ حَدَّثَهُ كَأَخِي السِّرَارِ، ما كَانَ يُسْمِعُ رَسُولَ الله ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ(١)، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى فِيهِم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ...﴾ الآيَة [الحجرات: ٣].(٢)

وقِيلَ: نَزَلَتْ ﴿إِنَّ الذينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ٨] في غَيْرِ بَنِي تَمِيمٍ، نَادَوْهُ باسْمِهِ.

ورَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ في سَفَرٍ، إذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ، أَيَا مُحَمَّدُ، أَيَا مُحَمَّدُ، أَيَا مُحَمَّدُ، فقُلْنَا لَهُ: اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ؛ فإنَّكَ قَدْ نُهِيتَ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ.(٣)

وقَالَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ الآيَة [البقرة: ١٠٤].

---

(١) حديث (أن عمر ما كان يسمعه بعدها ...): هو في حديث البخاريِّ [٤٨٤٥].

(٢) حديث (أنزل الله فيهم ﴿إن الذين يغضون أصواتهم ...﴾): في حديث ابن جرير [٢١/ ٣٤٠].

(٣) حديث صفوان (بينا النبي ﷺ في سفر ...): الترمذيُّ [٣٥٣٥] والنَّسائيُّ [«الكبرى» (١١١١٤)].

إلَّا مُشَابِهًا لِصَاحِبِ النَّجْوَى، وقَالَ ابنُ الأثيرِ: المُسَارَرَةُ. اهـ شُمُنِّيٌّ.

قوله (**ما كانَ يُسْمِعُ**): بضمِّ الياءِ التحتيَّةِ وكسْرِ الميمِ. قوله (**بَعْدَ هَذه الآيَةِ**): وفي نسْخةٍ «بَعْدَ الآيَةِ»: أيْ بَعْدَ نُزولِها.

قوله (**يَسْتَفْهِمَه**): أي النَّبيُّ مِنْ عُمَرَ عَمَّا سَارَرَه بهِ لِكَمالِ إخفائِه.

قوله (**فيهِمْ**): أيْ في أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وأمثالِهما.

قوله (**يغُضُّونَ أصْواتَهمْ... إلخ**): مراعاةً لِلأدَبِ أو محاذَرَةً مِن مخالَفةِ الإلَهِ.

قوله (**امْتَحَنَ اللهُ... إلخ**): أيْ جَرَّبَهَا ومَرَّنَهَا علَيْه حتَّى صَارُوا أقوِيَاءَ.

قوله (**عَسَّالٍ**): بفتحِ العيْنِ والسِّينِ المشدَّدةِ المُهْملتَيْنِ. اهـ شُمُنِّيٌّ، وهوَ صحَابيٌّ مشهورٌ قَدْ أخرجَ عَنْه النَّسائيُّ والتِّرمذيُّ كَذَا ذَكَرَ المُلَّا.

قوله (**بَيْنَا النبيُّ**): بألفٍ مُعَوَّضةٍ عَنِ المضافِ إليْهِ، ويُرْوَى «بَيْنَمَا».

قوله (**أعرابيٌّ**): نسْبَةٌ إلى عَرَبِ الباديَةِ مِمَّن آثَارُ الجَهْلِ عليْهم [باديَةٌ].

قوله (**جَهْوَرِيٍّ**): بفتحِ الجيمِ وسُكونِ الهاءِ وفتحِ الوَاوِ، في «الصِّحَاحِ»: جَهَرَ بالقولِ رَفَعَ بهِ صَوْتَه، وجَهْوَرَ، وهُوَ رَجُلٌ جَهْوَرِيُّ الصوتِ، وجَهِيرُ الصوتِ. اهـ شُمُنِّيٌّ.

قوله (**أَيَا مُحَمَّدُ**): ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وفي بعْضِ النُّسَخِ مرَّتَانِ، وهِيَ الَّتِي شَرَحَ علَيْها المُلَّا.

قوله (**اغْضُضْ**): -بالضمِّ- أي اخفِضْ.

قوله (**قالَ اللهُ تعالى**): أي تَعْظيمًا وتعليمًا لَنَا.

قوله (**لا تَقُولُوا راعِنَا**): بمَعْنَى راقِبْنا وتَأَنَّ علَيْنا، أيْ لا تُخاطِبُوهُ بهِ.

قوله (**لِأَنَّ مَعْنَاهَا**): أي مفهومَ كَلِمةِ (راعِنَا) وهوَ الأَمْرُ بالمراعاةِ مِن بابِ المفاعَلةِ.

قوله (**ارْعَنَا**): -بفتحِ العَيْنِ- أَمْرٌ مِنَ الرِّعايةِ. وقوله (**نَرْعَكَ**): مجزومٌ على أنَّه جَوابُ الأمرِ، وهوَ قولُه (**ارْعَنَا**).

قوله (**أَنْ يُرْعَى**): -بصيغةِ المجْهُولِ- أيْ يُلاحَظَ ويُحافَظَ.

قوله (**بل كانَتِ اليهُودُ تُعَرِّضُ... إلخ**): مِن التعريضِ بمعْنَى الكِنَايةِ.

قوله (**بالرُّعونةِ**): وهيَ الحَماقةُ، والمعْنى تُلوِّحُ بهذه الكلمةِ المسْتعمَلةِ في مَبْنَاها مُرَادًا بها غَيْرُ مقتضَاها مِنْ مَبْنَاهَا.

قوله (**لِلذَّريعةِ**): أي الوسيلةِ إلى مقاصِدِهم الشَّنِيعَةِ.

وقوله (**ومَنْعًا لِلتَّشَبُّهِ**): أيْ تَشَبُّهِ المؤمِنِينَ. وقوله (**بِهِم**): أيْ باليَهُودِ.

***

قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: هِيَ لُغَةٌ كَانَتْ فِي الأَنْصَارِ نُهُوا عَنْ قَوْلِهَا؛ تَعْظِيمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وتَبْجِيلًا له لِأَنَّ مَعْنَاهَا: ارْعَنَا نَرْعَكَ، فنُهُوا عَنْ قَوْلِهَا؛ إِذْ مُقْتَضَاهَا: كَأَنَّهُمْ لا يَرْعَوْنَهُ إِلَّا بِرِعايَتِهِ لَهُمْ، بَلْ حَقُّه أَنْ يُرْعَى عَلى كُلِّ حَالٍ.

وقِيلَ: بَلْ كانَتِ اليَهُودُ تُعَرِّضُ بِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ بالرُّعُونَةِ؛ فَنُهِيَ المُسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا قَطْعًا لِلذَّرِيعَةِ، ومَنْعًا لِلتَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي قَوْلِهَا لِمُشَارَكَةِ اللَّفْظِ[1]، وقِيلَ غَيْرُ هَذا، واللهُ أَعْلَمُ.

***

(١) حديث (كانت اليهود تُعَرِّض بها، أي: راعنا فنزلت الآية): أبو نعيمٍ في «الدلائل» [٥] عن ابن عبَّاس.

فَصْلٌ فِي عادَةِ الصَّحَابَةِ فِي تَعْظِيمِهِ ﷺ، وإِجْلَالِه، وتَوقِيرِه

حدَّثَنا القَاضي أَبُو عَلِيٍّ الصَّدَفِيُّ وأَبُو بَحْرٍ الأَسَدِيُّ بسَمَاعِي عَلَيْهِما في آخَرِينَ، قالُوا:

حَدَّثَنا أَحْمدُ بنُ الحُسَيْنِ، حَدَّثَنا محمدُ بنُ عِيسَى، حَدَّثَنا إبراهيمُ بْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنا محمَّدُ بْنُ مُثَنَّى وأَبُو مَعْنٍ الرَّقَاشِيُّ وإِسْحاقُ بنُ منصُورٍ، قالُوا:

حَدَّثَنا الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنا حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ، حَدَّثَنا يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ ابنِ شُمَاسَةَ المَهْرِيِّ، قالَ:

حَضَرْنا عَمْرَو بْنَ العَاصِ، فذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا فيهِ عَنْ عَمْرٍو، قالَ:

«وما كانَ أَحَدُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، ولا أَجَلَّ فِي عَيْنَيَّ مِنْه، ومَا كنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إجْلالًا له، ولَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ ما أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ».[1]

ورَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كانَ يَخْرُجُ على أَصْحابِهِ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنْصارِ، وهُمْ جُلُوسٌ، ..

---

(١) حديث عمرو (ما كان أحد أحب إليّ ...): أسنده من طريق مسلمٌ [١٢١].

قوله (الصَّدَفِيُّ): -بفتحتَيْنِ- هُوَ ابنُ سُكَّرَةَ. قوله (بَحْرٍ): بفتحِ المُوَحَّدةِ وسُكونِ المهْمَلةِ. قوله (الأَسَدِيُّ): -بفتحتَيْنِ- نِسْبَةٌ إلى قبيلةٍ. قوله (في آخَرِينَ): أيْ مَعَ جَماعةٍ أُخَرَ مِنَ المَشايخِ أو مِنَ التَّلامذةِ، ويُؤَيِّدُ الأوَّلَ قَوْلُ المُصنِّف (قالوا)، والثانيَ ما في بَعضِ النُّسَخِ «قالَا».

قوله (الحُسَيْنِ): بالتصغيرِ، وَفي بَعْضِ النُّسَخِ «الحَسَنِ»، وصَوَّبَ المُلَّا الثانيَ. قوله (عيسَى): أي الجُلُوديِّ. قوله (مُثَنَّى): اسْمُ مفعُولٍ مِنَ التثنيةِ. وقوله (مَعْنٍ): بفتحٍ فسُكونٍ. وقولهُ (الرَّقَاشِيُّ): -بفتحِ الراءِ وتخفيفِ القافِ ثُمَّ شِينٍ معْجَمةٍ- بَصْرِيٌّ ثِقَةٌ. قوله (وإِسْحاقُ بنُ مَنصُورٍ): هذا هُوَ الكَوْسَجُ الحافظُ.

قوله (قالُوا): أي الثلاثةُ. قوله (مَخْلَدٍ): -بفتحِ الميمِ وسُكونِ الخاءِ وفتحِ اللّامِ- أَبُو عاصِمٍ الشَّيْبانيُّ البَصْريُّ، رُوِيَ عَنْه أَنَّه قالَ: «ما دَلَّسْتُ قَطُّ، ولا اغتَبْتُ أحَدًا منذُ عَقَلْتُ»، رَوَى عَنْه البخاريُّ وغيرُه، أَخْرَجَ له الأئمةُ السِّتَّةُ.

قوله (حدَّثنا): وفي نسْخةٍ «أنبأنا». قوله (حَيْوَةُ): بفتحٍ فسُكونٍ. قوله (شُرَيْحٍ): بالتصْغيرِ. قوله (يَزِيدُ بنُ أَبِي حَبِيبٍ): عالِمُ أهلِ مِصْرَ، وكانَ حَبَشيًّا، مِنَ العُلَماءِ الحُكَماءِ. قوله (شُمَاسَةَ): بضمِّ الشينِ المعْجمةِ وفتحِها فميمٍ مخفَّفةٍ وبَعْدَ الألِفِ سينٌ مهْمَلةٌ واسمُه عبدُ الرحمنِ. قوله (المَهْرِيِّ): بفتحِ الميمِ وسُكونِ الهاءِ فراءٍ.

قوله (فذَكَرَ): أي ابنُ شُمَاسَةَ، وفي نسخةٍ «فذَكَرَ لَنَا».

قوله (ولا أَجَلَّ): أيْ ولا أَعْظَمَ. قوله (في عَيْنَيَّ مِنْه): وفي نسْخة بصيغةِ التثنيةِ. قوله (أُطِيقُ): -بضمِّ الهمزةِ- أيْ أَقْدِرُ. قوله (ولَوْ سُئِلْتُ): وفي نسخةٍ «ولَوْ شِئتُ». قوله (أَنْ أَصِفَه): أيْ أَذْكُرَ نَعْتَ ظاهِرِ خَلْقِه. قوله (ما أَطَقْتُ): أيْ لِعَدَمِ إحاطَتِي بأَوْصَافِه خُبْرًا.

قوله (التِّرْمِذِيُّ): صَاحبُ السُّنَنِ لا الحكيمُ التِّرمذيُّ ولا الحاكمُ. قوله (كانَ): أي النبيُّ.

.. فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ، فَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِ بَصَرَهُ إِلّا أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ، فإِنَّهُما كانَا يَنْظُرانِ إِلَيْهِ، ويَنْظُرُ إِلَيْهِما، ويَتَبَسَّمانِ إِلَيْهِ، ويَتَبَسَّمُ إِلَيْهِما.[1]

ورَوَى أُسامةُ بْنُ شَرِيكٍ، قالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وأَصْحابُهُ حَوْلَه، كأَنَّما على رؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.[2]

وفي حديثِ صِفَتِهِ: إذا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ؛ كَأَنَّما على رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ.

وقالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ وَجَّهَتْهُ قُرَيْشٌ عامَ القَضِيَّةِ إلى رَسُولِ الله ﷺ، ورأَى مِنْ تَعْظِيمِ أصْحابِهِ لَه ما رَأَى، وأَنَّه لا يَتَوَضَّأُ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ، وكادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَيْه، ولَا يَبْصُقُ بُصاقًا ولا يَتَنَخَّمُ نُخامةً إِلَّا تَلَقَّوْهَا بأكُفِّهِمْ، فدَلَكُوهَا في وُجُوهِهِم وأَجْسَادِهِمْ، ولا تَسْقُطُ مِنْهُ شَعْرَةٌ إِلَّا ابْتَدَرُوهَا، وإذا أَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، ومَا يُحِدُّونَ إِلَيْه النَّظَرَ

---

(١) حديث (كان يخرج على أصحابه ...): عزاه المصنِّف إلى الترمذيِّ [٣٦٦٨] وأخرجه أيضًا الحاكم [١/ ١٢١].

(٢) حديث أسامة بن شريك (أتيته وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير): الأربعة [أبوداود (٣٨٥٥)، والترمذيُّ (٢١٥٩)، والنَّسائيُّ («الكبرى» ٧٥١١ و ٧٥١٢)، وابن ماجه (٣٤٣٦)] وصحَّحه الترمذيُّ.

قولـه (**فلا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنهُم إِلَيْه بَصَرَهُ**): إجلالًا لِحَضْرِه. قولـه (**فإنَّهما كانَا يَنظُرانِ إِلَيْه ويَنْظُرُ إليهما**): أي لِكَمالِ فَضْلِهما على غَيْرِهما.

قولـه (**شَرِيكٍ**): -بفتحِ الشينِ المعجَمةِ وكسرِ الراءِ- ثَعْلَبِيٌّ كوفيٌّ، قَدْ رَوَى عَنْه أَصْحابُ السُّنَنِ الأربعةُ.

قولـه (**حَوْلَه**): وفي نسخةٍ «حَوْلَهُ جُلُوسٌ»؛ أي جالسُونَ. وقولـه (**الطَّيْرُ**): -بالرفعِ- أي بحَيْثُ لَوْ يَكونُ طَيْرٌ على رُؤوسِهِمْ لا يَتَحَرَّكُ لِسُكونِهِمْ حَالَ جلوسِهِمْ.

قولـه (**صِفَتِه**): -بكسْرِ الصّادِ المُهْمَلةِ وفتحِ الفاءِ- أيْ نَعْتِه، وتَصَحَّفَ بعضُهُمْ بصَفيّةَ أمِّ المؤمِنِينَ ولَيْسَ لها هَذا الحديثُ.

قولـه (**عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ**): أي الثقفيُّ -على ما رَواهُ البخاريُّ عَنِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أَبِي العَاصِ.

قولـه (**وَجَّهَتْه قُرَيْشٌ**): أيْ أرْسَلَتْه. قولـه (**عامَ القَضِيَّةِ**): أي قضيةِ صُلْحِ الحدَيْبِيَةِ، أيْ في طَلَبِ الصُّلحِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الهجرةِ النَّبويةِ؛ سُمِّيَ بهَا لِأنَّه كانَ كُتِبَ فيها: «هذا ما قاضَى ﷺ» أيْ صَالَحَ، وأمَّا ما ذَكَرَه الأَنْطاكيُّ مِنْ أنَّ القضيّةَ كانَتْ في السّنةِ السّابعَةِ بَعْدَ الحديبيَةِ فهُوَ وَهَمٌ. اهـ ملّا.

قولـه (**ورأَى**): أي عُرْوَةُ. قولـه (**ما رَأَى**): أي مِمّا لا يَكادُ يُسْتَقْصَى. وقولـه (**وأنَّه**): بالفتحِ عَطْفًا على (ما رَأَى)، وبالكسرِ علَى الجملةِ الحاليّةِ. اهـ ملّا.

قولـه (**ابتَدَرُوا وَضُوءَه**): -بفتحِ الواوِ وقَدْ تُضَمُّ- أيْ سَارَعُوا إلى بَقِيَّةِ ما تَوَضَّأَ بهِ مِنَ الماءِ، أوْ إلى ما تقاطَرَ فيهِ مِنَ الأعضاءِ.

قولـه (**ولا يَبْصُقُ**): -بضَمِّ الصّادِ- أيْ لا يَبْزُقُ. وقولـه (**بُصاقًا**): أيْ بُزاقًا مِنَ الفَمِ. قولـه (**نُخامةً**): -بضَمِّ النّونِ- ما يَخْرُجُ مِنْ أقصَى الحَلْقِ. قولـه (**فدَلَكُوها [في] وُجُوهِهِم...إلخ**): أيْ بالَغُوا في مَسْحِ أعْضائِهِم بِهَا.

قوله (**مِنْه شَعْرَةٌ**): بسُكونِ العَينِ وتُفْتَحُ.

قولـه (**أَمَرَهُم بأمْرٍ**): أيْ مِن أمْرٍ أو نَهْيٍ. قولـه (**وما يُحِدُّونَ**): -بضَمِّ أوّلِه وكسْرِ ثانيه وتشديدِ دالِه- أيْ ما يَشْخَصُونَ.

تَعْظِيمًا لـه، فلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ قَالَ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ، والنَّجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِ، وإِنِّي -واللهِ- مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمِهِ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وفِي رِوَايَةٍ: إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ مُحَمَّدًا أَصْحَابُهُ، وقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لا يُسْلِمُونَه أَبَدًا.[١]

وعَنْ أَنَسٍ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ والحَلَّاقُ يَحْلِقُهُ، وأَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ.[٢]

ومِنْ هَذَا لَمَّا أَذِنَتْ قُرَيْشٌ لِعُثْمَانَ فِي الطَّوَافِ بِالبَيْتِ حِينَ وَجَّهَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فِي القَضِيَّةِ أَبَى، وقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.[٣]

وفِي حَدِيثِ طَلْحَةَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا لِأَعْرَابِيٍّ جَاهِلٍ: سَلْهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ، وكَانُوا يَهَابُونَه ويُوَقِّرُونَه،

---

(١) حديث عروة بن مسعود حين وجهته قريش: البخاريُّ [٢٧٣١] عن المِسْوَر بن مَخْرمة ومروان بن الحكم.

(٢) حديث أنس (لقد رأيته والحلاق يحلقه ...): مسلمٌ [٢٣٢٥].

(٣) حديث (لما أذنت قريش لعثمان في الطواف ...): البيهقيُّ [٤/ ١٣٣] عن عروة، وابن سعدٍ عن سلمة بن الأكوع.

قوله (وقَيْصَرَ): أيْ وجِئتُ قَيْصَرَ، وهوَ لَقَبُ مَلِكِ الرُّومِ.

قوله (النَّجاشيَّ): بفتحِ النّونِ وتُكْسَرُ.

قوله (إنْ رأيْتُ): -(إنْ) نافيةٌ بمَعْنَى «ما»- أيْ ما أبْصَرْتُ وما عَلِمْتُ.

قوله (لا يُسْلِمُونَه): -بضمِّ الياءِ وسُكونِ السّينِ وكسْرِ اللّامِ- أيْ لا يَخْذُلونَه؛ مِنْ «أَسْلَمْتُه إلى شَيْءٍ»، ثُمَّ خُصَّ بالإلقاءِ في المَهْلَكةِ بدليلِ حديثِ (إنِّي وَهَبْتُ لِخالَتِي غُلامًا وقُلْتُ لها: لا تُسْلِمِيه حَجَّامًا ولا صائغًا ولا قَصَّابًا)[١]، أيْ لا تُعْطِيه لِمَنْ يَعَلِّمُه إحدى [هذه] الصّنائعِ. اهـ ملّا.

قوله (والحَلَّاقُ يَحْلِقُه): أيْ يَحْلِقُ شَعْرَ رأسِهِ إمَّا بَعْدَ عُمرةٍ أو بَعْدَ حَجٍّ.

واختُلِفَ في اسمِ مَنْ حَلَقَ رأسَ النّبيِّ ﷺ، والصحيحُ المشهورُ أنَّه مَعْمَرُ بنُ عَبدِ العزيزِ العَدَويُّ كَما ذَكَرَه النَّوَويُّ في «شَرْحِ مُسْلِمٍ»، وفي «صَحيحِ البُخاريِّ»: «زَعَمُوا أنَّه مَعْمَرٌ»، وفي «الشُّمُنّيِّ»: «الذي حَلَقَ له ﷺ في عُمْرةِ الجِعْرانةِ أبو هِنْدٍ»، وأمّا الذي حَلَقَ له في حِجَّةِ الوَداعِ ففي «شَرحِ مُسْلِمٍ» لِلنَّوويِّ: المَشهورُ أنّه مَعْمَرُ بنُ عبْدِ اللهِ العَدَويُّ، وقيلَ اسْمُهُ خِراشُ بْنُ أُمَيَّةَ بنِ رَبيعةَ الكُلَبِيُّ بضَمِّ الكافِ؛ منسُوبٌ إلى كُلَيبِ بنِ حبشيَّةَ.

قوله (لأَفْعَلَ): -بكسْرِ اللّامِ الأُولَى وفتحِ الأخيرةِ- أيِ الطَّوافَ وَحْدِي. قوله (حَتَّى يَطُوفَ رسُولُ اللهِ... إلخ): لِكَمالِ أَدَبِه وجَمالِ طَلَبِه.

قوله (طَلْحَةَ): أي ابنِ عبْدِ اللهِ أحَدِ العشَرَةِ المبشَّرينَ.

قوله (سَلْه): يَعْنُونَ النبيَّ. قوله (عَنْ مَنْ قَضَى نَحْبَه): أيْ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ المؤمِنينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْه فمِنْهم مَنْ قَضَى نَحْبَه ومِنْهم مَنْ يَنتظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أمْرَ قضائِه.

قوله (ويُوَقِّرُونَه): أيْ يُعظِّمُونَه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٢)، وأبو داود (٣٤٣٠)، وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. بإسنادٍ ضعيفٍ

قولـه (فسَـأَلَه): أي الأعـرابيُّ. وقولـه (فأعْـرَضَ عَنْـه): أيْ عَـنْ جَوَابِه.

قولـه (هَـذا ممَّـنْ قَـضَى نَحْبَـه): فكَأنَّـه ألْـزَمَ نفسَـه أنْ يَصْـدُقَ اللهَ في قتـلِ أعْدائِـه في الحـربِ، وقَـدْ وَفَّى بعَهْـدِه يـوْمَ أُحُـدٍ، وقيـل المُـرَادُ بالنَّحْـبِ المَـوْتُ؛ فكأنّـه التَـزَمَ أنْ يُقاتِـلَ حتَّـى يَمـوتَ.

قولـه (قَيْلَـةَ): -بقـافٍ مفتوحَـةٍ فيَـاءٍ تحتيَّـةٍ سَـاكنةٍ- بنـتُ مَخْرَمَـةَ العَنْبَرِيَّـةِ.

قولـه (القُرْفُصَـاءَ): -بضـمِّ القـافِ والفـاءِ- أيْ جِلْسَـةَ المُحْتَبِـي بيَدَيْـه. قولـه (أُرْعِـدْتُ): أي اضطَرَبْـتُ. قولـه (مِـنَ الفَـرَقِ): أي الخـوفِ والفَـزَعِ.

قولـه (وفي حديـثِ المُغـيرةِ): أي الـذي رَوَاه الحاكِـمُ في «علـومِ الحديـثِ»، والبَيْهقـيُّ في «المَدْخـلِ».

قولـه (يَقْرَعُـونَ بَابَـه): أيْ يَضْرِبونَـه. قولـه (بالأظافـيرِ): -وفي نسْـخةٍ «بالأظافِـرِ»- أيْ ضَربًـا خفيفًـا تعظيـمًا وتكريـمًا وتشريفًـا.

قولـه (فأُوَخِّـرُهُ سِـنِينَ): وفي نسْـخةٍ «فأُؤَخِّـرُ». وقولـه (سِـنِينَ) بصيغـةِ الجَمْـعِ، وفي نسْـخةٍ «سَـنَتَيْنِ». قولـه (مِـنْ هَيْبَتِـه): أيْ مِـنْ كَـمالِ هَيْبَتِـه.

***

فسَـأَلَهُ، فأَعْـرَضَ عَنْـه إذْ طَلَـعَ طَلْحَـةُ، فقَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: هَـذا مِمَّـنْ قَـضَى نَحْبَـهُ.[1]

وفي حَدِيـثِ قَيْلَـةَ: فلَـمَّا رَأَيْـتُ رَسُـولَ الله ﷺ جَالِسًـا القُرْفُصَـاءَ أُرْعِـدْتُ مِـنَ الفَـرَقِ، وذلـكَ هَيْبَـةً لـهُ وتَعظيـمًا.[2]

وفي حَديـثِ المُغِـيرَةِ: كانَ أَصْحـابُ النَّبِـيِّ ﷺ يَقْرَعُـونَ بَابَـهُ بالأظَافِـيرِ.[3]

وقـالَ البَـرَاءُ بْـنُ عَـازِبٍ: لَقَـدْ كُنْـتُ أُرِيـدُ أَنْ أَسْـأَلَ رَسُـولَ الله ﷺ عَـنِ الأَمْـرِ، فأُؤَخِّـرُهُ سِـنِينَ مِـنْ هَيْبَتِـهِ.[4]

***

(١) حديث طلحة (أنهم قالوا لأعرابيٍّ سله عمن قضى نحبه ...): الترمذيُّ [٣٢٠٣] وحسَّنه.

(٢) [أخرجـه البخـاري في الأدب المفـرد (١١٧٨)، وأبـو داود (٤٨٤٧)، والترمـذي في الشـمائل (١٢٨)، وغيرهـم]

(٣) حديث المغيرة (كانوا يقرعون بابه بالأظافير: الحاكم في «علوم الحديث» [١/ ١٩]، والبيهقيُّ في «المدخل» [٦٥٩].

(٤) حديث البراء (لقد كنت أريد ...): أبو يعلى [كما في «إتحاف الخيرة» للبوصيريِّ (١/ ٢٣٩)، و«المقاصد العالية» لابن حجرٍ (٣٥٩٠)].

فَصْلٌ [في أنَّ حُرْمتَه ﷺ بعْدَ موْته كحُرْمتِه حالَ حياتِه]

واعْلَمْ أنَّ حُرْمَةَ النَّبيِّ ﷺ بعْدَ مَوْتِهِ وتوقيرَه وتَعْظيمَه لازمٌ كَما كانَ حَالَ حيَاتِه، وذلكَ عِنْدَ ذِكْرِه ﷺ، وذِكْرِ حَديثِه وسُنَّتِه، وسَماعِ اسْمِه وسِيرَتِه، ومُعَامَلَةِ آلِه وعِتْرَتِه، وتَعْظِيمِ أَهْلِ بيْتِه وصَحَابَتِه.

قَالَ أَبُو إبْراهِيمَ التُّجِيبِيُّ: واجِبٌ على كُلِّ مُؤْمِنٍ مَتَى ذكَرَهُ أوْ ذُكِرَ عِنْدَه أَنْ يَخْضَعَ وَيَخْشَعَ وَيَتوَقَّرَ، ويَسْكُنَ مِنْ حَرَكَتِه، ويَأخُذَ في هَيْبَتِه وإجْلَالِه بِمَا كانَ يَأخُذُ بِه نَفْسَه لَوْ كانَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَتَأَدَّبَ بِمَا أَدَّبَنَا اللهُ بِه.

قَالَ القَاضي أبو الفضْلِ رضي الله عنه: وهَذِهِ كانَتْ سِيرَةَ سَلَفِنَا الصَّالِحِ وَأَئِمَّتِنَا المَاضِينَ رضي الله عنهم.

حَدَّثَنَا القَاضي أَبُو عبْدِ الله محمّدُ بنُ عبْدِ الرحمنِ الأشعَرِيُّ وأَبُو القَاسِمِ أحمدُ بنُ بَقِيٍّ الحَاكِمُ وغَيْرُ وَاحِدٍ فيمَا أجَازُونيهِ، قالُوا:

حَدَّثَنَا أَبُو عبَّاسٍ أحْمَدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ دِلْهاثٍ، حدَّثَنا أبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ فِهْرٍ، حدَّثَنا أَبُو بَكْرٍ محمَّدُ بنُ أحْمَدَ بنِ الفَرَجِ، حدَّثَنا أَبُو الحَسَنِ عَبْدُ الله بْنُ المُنْتَابِ، حدَّثَنا يَعْقُوبُ بْنُ إسْحَاقَ بْنِ أَبي إسْرَائيلَ، حدَّثنا ابنُ حُمَيْدٍ، قالَ:

قوله (وتوقيرَه وتعظيمَه): -بنصبهما- أيْ بَعْدَ وفاتِه كحالِ حَيَاتِه، لِأنَّه الآنَ حَيٌّ يُرْزَقُ في عُلُوِّ دَرَجاتِه ورفعةِ حالاتِه.

قوله (وسُنَّتِه): أيْ ذِكْرِ طريقَتِه. قوله (وسِيرَتِه): أي في جميعِ هَيْئاتِه مِن حَرَكاتِه وسَكَناتِه.

قوله (ومُعَامَلَةِ آلِه): أيْ أهْلِ بَيْتِه. قوله (وعِتْرَتِه): -بكسرِ أوّلِه- أيْ ذُرِّيَّتِه وقَرابَتِه. قوله (أهْلِ بيتِه): أيْ مِنْ أزواجِه وخُدَّامِه ومَواليه.

قوله (أبُو إبْراهيمَ): وفي نسْخةٍ بزيادةِ «إسحاق». قوله (التُّجِيبيُّ): بضمِّ التاءِ -وتُفْتَحُ- وكسْرِ الجيمِ.

قوله (مَتَى ذَكَرَهُ): أيْ بنَفْسِه. وقوله (أو ذُكِرَ عِنْدَه): أيْ على لِسَانِ غيرِه. قوله (أنْ يَخْضَعَ): أيْ ظاهِرًا. وقوله (يَخْشَعَ): أيْ باطِنًا. وقوله (يَتَوَقَّرَ): أيْ يَتكَلَّفُ الوَقارَ والرَّزانَةَ في هَيْئَتِه.

قوله (وإجْلالِه): أيْ في تعظيمِه وإكرامِه. قوله (لَوْ كانَ بَيْنَ يَدَيْه): أيْ لَوْ فُرِضَ أمَامَ عَيْنَيْه. قوله (وَيَتَأَدَّبَ): بالنصْبِ أو الرفعِ. قوله (بِما أدَّبَنا اللهُ به): أيْ مِنْ وجوبِ تعْظيمِه وتكريمِه.

قوله (سَلَفِنَا الصَّالِحِ): يُرْوَى «الصَّالِحِينَ»، أي المتقدِّمِينَ مِن الصَّحابةِ والتابِعينَ. قوله (وأئمَّتِنا الماضِينَ): أي العُلماءِ العَامِلِينَ.

قوله (بَقِيٍّ): بفتحِ الموحَّدةِ وكسْرِ القافِ وتشديدِ الياءِ التحتيَّةِ. قوله (وغَيْرُ واحِدٍ): أيْ وكثيرونَ. قوله (أجَازُونيه): هذا لغةٌ في «أجازُوه لي». قوله (قالُوا): أي كُلُّهم.

قوله (دِلْهاثٍ): بكسْرِ الدَّالِ وسُكُونِ اللَّامِ وتثليثِ آخِره[1]. قوله (فِهْرٍ): بكسرِ الفاءِ وسُكونِ الهاءِ وبعْدَها راءٌ. قوله (الفَرَجِ): بفتحِ الفاءِ والراءِ فجيمٌ. قوله (المُنْتابِ): بضمِّ الميمِ وسُكونِ النونِ ففوْقيَّةٍ. قوله (حُمَيْدٍ): بالتصْغيرِ.

(١) أي وثاء مثلثة في آخره.

نَاظَـرَ أَبُـو جعفـرٍ أَمـيرُ المؤمِنِـينَ مَالِـكًا في مسْـجِدِ رسُـولِ الله ﷺ، فقَـالَ لـه مالِـكٌ:

يَـا أمـيرَ المؤمِنِـينَ، لا تَرْفَـعْ صَوْتَـكَ فِي هَـذا المَسْـجِدِ؛ فَـإِنَّ اللهَ تعَـالى أَدَّبَ قَوْمًـا، فقَـالَ: ﴿لا تَرْفعُـوا أصْوَاتَكُـمْ فَـوْقَ صَـوْتِ النبـيِّ...﴾ الآيَـة [الحجـرات: ٢]، ومَـدَحَ قَوْمًـا، فقَـالَ: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يَغُضُّـونَ أَصْوَاتَهُـمْ عنْـدَ رَسُـولِ الله...﴾ الآيَـة [الحجـرات: ٣]، وذَمَّ قوْمًـا، فقَـالَ: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يُنادُونَـكَ مِـنْ وراءِ الحجُـراتِ...﴾ الآيَـة [الحجـرات: ٤]، وإنَّ حُرْمَتَـه مَيْتًـا كَحرْمتِـهِ حَيًّـا.

فَاسْتكَانَ لَهَا أَبُو جَعْفَرٍ، وقالَ:

يـا أَبَـا عَبْـدِ الله، أَسْـتَقْبِلُ القِبْلَـةَ وَأَدْعُـو أَمْ أَسْـتَقْبِلُ رَسُـولَ الله ﷺ؟ فقَـالَ:

ولِمَ تَـصْرِفُ وَجْهَـكَ عَنْـهُ وهُـوَ وَسِـيلتُكَ ووَسِـيلَةُ أَبِيـكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الله يَـوْمَ القيامـةِ؟! بَـلِ اسـتَقْبِلْهُ واسْتَشْـفِعْ بِـهِ فَيُشَـفِّعَكَ اللهُ؛ قَـالَ اللهُ تعَـالى: ﴿ولَـوْ أَنَّهُـمْ إِذْ ظَلَمُـوا أنفُسَـهُمْ جـاؤُك فَاسْـتَغفَرُوا اللهَ

قولـه (نَاظَـرَ): أيْ بَـادَلَ وباحَـثَ. وقولـه (أَبُـو جَعْفَـرٍ): هـوَ المنصـورُ عبدُ الله بـنُ محمّـدِ بـنِ علـيِّ بـنِ عبـدِ الله بـنِ عبَّـاسٍ، ثـاني خُلَفَـاءِ بَنِـي العَبَّـاسِ. قولـه (أَمِـيرُ المؤْمِنِـينَ): قَـالَ المُـلَّا: إطْـلَاقُ هـذا عَلَيْـهِ غَـيْرُ معْـرُوفٍ بَـيْنَ المُصَنِّفِـينَ.

قولـه (فقَـالَ لـه): أي مالِـكٌ -كَـمَا في أصْـلٍ صحيـحٍ. قولـه (في هـذا المسْـجِدِ): خصُوصًـا بقُـرْبِ قـبْرِه -عليْـه الصّـلاةُ والسَّـلامُ. قولـه (فـإنَّ اللهَ تعـالى): وفي نسْـخةٍ «عَـزَّ وجَـلَّ».

قولـه (الآيـةَ): وهِـيَ ﴿ولا تَجْهَـرُوا لـه بالقَـوْلِ كجَهْـرِ بَعْضِكـم لِبَعْـضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أعمالُكـم وأنتـمْ لا تَشْـعُرُونَ﴾.

وقولـه (عِنْـدَ رسـولِ الله... الآيـةَ): وهِـيَ ﴿أولئِـكَ الذِيـنَ امْتَحَـنَ اللهُ قُلُوبَهُـمْ لِلتقْـوَى لَـهُـم مَّغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيـمٌ﴾. قولـه (وذَمَّ قَوْمًـا): أيْ مِـنَ الأَعْـرابِ. قولـه (مَيْتًـا): بالتشـديدِ والتخفيـفِ.

وقولـه (فاسْـتكَانَ): أيْ خَضَـعَ وخَشَـعَ لِمَقالـةِ مالِـكٍ، وفيـه تنبيـهٌ عـلى أنَّـه يَجِـبُ التـأدُّبُ بَـيْنَ يَـدَيِ العَـالِمِ؛ لِمَا رُوِيَ مِـن أنَّ الشَّـيْخَ في قومِـه كَالنّبِـيِّ في أُمَّتِـه. قولـه (وقـالَ): أيْ أَبُـو جَعْفَـرٍ لِمَالِـكٍ.

قولـه (أَسْـتَقْبِلُ القِبْلَـةَ): اسْـتفهامُ اسْترشـادٍ، والتقديـرُ «أأَسْـتقبِلُها». قولـه (وأَدْعُـو): أي اللهَ -سُـبحانَه وتعـالى- بَعْـدَ الزيـارةِ.

قولـه (وهُـوَ وَسِـيلَتُكَ): أي والحَـالُ أنَّـه... إلـخ: وفي نسخـةٍ «فهُـوَ». قولـه (ووَسِـيلةُ أَبِيـكَ آدَمَ... إلـخ): وكَـذا سَـائرُ الأنامِ.

قولـه (يَـوْمَ القيامـةِ): كَـمَا يُشِـيرُ إِلَيْـه قوْلُـه ﷺ: (آدَمُ فمَـنْ دُونَـه تَحْـتَ لِوَائِـي يَـوْمَ القيامـةِ)[1].

قولـه (واسْتَشْـفِعْ بـه): أي اطلُـبْ شـفاعتَه، واجعَلْـه وَسـيلتَكَ في قَضَـاءِ مُرَادَاتِـكَ وأَدَاءِ حَاجَاتِـكَ. قولـه (فيُشَـفِّعَكَ): -بتشـديدِ الفـاءِ- أي يَقْبَـلَ اللهُ بـه شـفاعتَكَ، وفي نسْـخةٍ «فيُشَـفِّعَه» أيْ فيَقبَـلَ شـفاعتَه في حَقِّـكَ، ويَعفُـوَ عَـنْ ذَنْبِـكَ.

قولـه (ولَـوْ أنَّهُـمْ إذْ ظَلَمُـوا أنفُسَـهمْ): أيْ بالمَعْصِيَـةِ. وقولـه (جَـاؤُكَ): أي لِلمَعـذِرةِ والتَّوْبـةِ.

---

(١) أخرجـه الترمـذيُّ (٣٦١٥) [بـاب فضـل النبـيِّ ﷺ]، وابـن ماجـه في سُـننه (٤٣٠٨) [بـاب ذكـر الشـفاعة] مـن حديـث أبي سـعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي البـاب عـن عـددٍ مـن الصحابـة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بأسـانيد صحيحـة.

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقالَ مالكٌ، وقَدْ سُئِلَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: ما حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أَحَدٍ إلَّا وأَيُّوبُ أَفْضَلُ مِنْهُ، قالَ: وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ، فَكُنْتُ أَرْمُقُهُ ولا أَسْمَعُ مِنْه؛ غَيْرَ أَنَّهُ كانَ إذا ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَه، فلَمَّا رأَيْتُ مِنْه ما رَأَيْتُ، وإجْلالَه لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ.

وقالَ مُصْعَبُ بنُ عبدِ الله: كانَ مالكٌ إذا ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ، ويَنْحَنِي حتَّى يَصْعُبَ ذلكَ على جُلَسَائِهِ، فقيلَ لهُ يومًا في ذلكَ، فقالَ:

لَوْ رأَيْتُمْ ما رأَيْتُ لَما أَنكَرْتُمْ علَيَّ ما تَرَوْنَ، ولَقَدْ كُنْتُ أَرَى محمَّدَ بْنَ المُنْكَدِرِ -وكانَ سَيِّدَ القُرَّاءِ-، لا نَكادُ نَسْأَلُه عَنْ حَدِيثٍ أبدًا إلَّا يَبْكِي حتَّى نَرْحَمَهُ، ولقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بنَ محمَّدٍ -وكانَ كثيرَ الدُّعابَةِ والتَّبَسُّمِ-، فإذَا ذُكِرَ عِنْدَه النَّبيُّ ﷺ اصْفَرَّ، وما رأَيْتُهُ يُحدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ إلا على طَهارةٍ، ..

قوله (**وَاسْتَغْفَرَ لهم الرسُولُ**): فيه الْتِفاتٌ عَدَلَ به تفخيمًا لِشأنه ﷺ وتعظيمًا لِاسْتغفارِه. اهـ دلجيٌّ. قوله (**تَوَّابًا رحيمًا**): أيْ مَنعُوتًا بِهذَيْنِ الوَصْفَيْنِ حِينَ تابَ علَيْهِم ورَحِمَهُم بعَدَمِ المؤاخَذةِ على ما صَدَرَ.

قوله (**عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيانِيِّ**): أيْ عَنْ مَقامِهِ ومَرْتَبَتِه، قالَ ابنُ قُرْقُولٍ: هوَ بفتحِ السِّينِ ومِنهم مَنْ يَضُمُّها، وبكسرِ التاءِ المُثَنَّاةِ الفوقيَّةِ، كانَ يَبِيعُ السَّخْتِيانَ. اهـ شمُنِّيٌّ. قوله (**عَنْ أَحَدٍ**): أيْ مِن أَتْباعِ التَّابِعِينَ.

قوله (**وقالَ**): أيْ مالكٌ لِلدّلالةِ على ذلكَ. قوله (**وحَجَّ**): أيْ أيُّوبُ. قوله (**أَرْمُقُه**): -بضمِّ [الميم]- أيْ أَنظُرُ إلَيْه وأَتأمَّلُ لَدَيْه. قوله (**ولا أَسْمَعُ مِنْهُ**): أي كَلامًا يَكُونُ عَلَيْهِ، أوْ لا أَسْمَعُ مِنه حديثًا يُحدِّثني به. قوله (**بَكَى**): قالَ المُلَّا: الظاهرُ «يَبْكِي». وقوله (**حَتَّى أَرْحَمَه**): أيْ مِنْ شِدَّةِ بُكائِه وكثرةِ عَنائِه شَوْقًا إلَيْه ﷺ.

قوله (**ما رَأَيْتُ**): أيْ مِن حُسْنِ فِعالِهِ ما يَقتَضِي بَعْضَ كمالِه. وَقوْلُه (**كَتَبْتُ عَنْه**): أي الحديثَ ورَوَيْتُ عَنْه العِلْمَ.

قوله (**مُصْعَبُ**): بضمِّ الميمِ وسُكونِ الصّادِ.

قوله (**إذا ذَكَرَ النَّبِيَّ**): وفي نسْخةٍ بصيغةِ المفعُولِ، وهوَ يَشملُ ما ذَكَرَهُ أو ذُكِرَ عِنْدَه بدَليلِ النسخةِ الأخرى «فإذا ذُكِرَ عِنْدَه النبيُّ». قوله (**حَتَّى يَصْعُبَ**): -بضمِّ العينِ- أيْ يَشْتَدَّ.

وقوله (**لَوْ رأَيْتم ما رَأَيْتُ**): أيْ لَوْ عَرَفْتُمْ ما عَرَفْتُ مِنْ جَلالِ مَقامِهِ وجَمالِ بَهائِه.

قوله (**لَما أَنْكَرْتم**): بفتحِ اللّامِ وتخفيفِ الميمِ. وقوله (**ما تَرَوْنَ**): أي تُبْصِرُونَ مِن اضْطرابِ حَالي مِنْ مشاهَدَةِ جَمالِه، ومُطالَعَةِ كمالِهِ.

قوله (**إلّا يَبْكِي**): مِنْ لَوْعَةِ الاحْتِراقِ بِلَذْعَةِ الافتِراقِ.

قوله (**ولَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بنَ محمَّدٍ**): أي الصَّادقَ -كَما في نسْخةٍ، وهُوَ بالنَّصْبِ لَقَبٌ لِجعْفَرٍ، ولَقَبُ أَبِيهِ «الباقِرُ»، قالَ المُلَّا: وهُوَ ابنُ زَيْنِ العَابِدِينَ بنِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ أميرِ المؤمِنينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالبٍ.

قوله (**الدُّعابَةِ**): -بضمِّ الدّالِ المُهْمَلةِ- المِزاحُ. وقوله (**والتَّبَسُّمِ**): أيْ لِكَمالِ خَلْقِه وجَمالِ خُلُقِه. قوله (**اصْفَرَّ**): -بتشديدِ الراءِ- أي تَغَيَّرَ لَوْنُه وتَحَوَّلَ كَوْنُه.

ولَقَـدِ اخْتَلَفْـتُ إِلَيْـهِ زَمَانًـا فَـمَا كُنْـتُ أَرَاهُ إِلَّا عـلى ثَـلَاثِ خِصَـالٍ: إِمَّـا مُصَلِّيًـا، وَإِمَّـا صَامِتًـا، وإِمَّـا يَقْـرَأُ القُـرْآنَ، ولا يَتَكَلَّـمُ فِيـمَا لا يَعْنِيـهِ، وكانَ مِـنَ العُلَـمَاءِ والعُبَّـادِ الَّذِيـنَ يَخْشَـوْنَ اللهَ -عَـزَّ وجَـلَّ،

.. ولَقَـدْ كَانَ عَبْـدُ الرَّحْمنِ بْـنُ القَاسِـمِ يَذْكُـرُ النَّبِـيَّ ﷺ، فَيُنْظَـرُ إلى لَوْنِـهِ، كَأَنَّـهُ نُـزِفَ مِنْـهُ الـدَّمُ، ولَقَـدْ جَـفَّ لِسَـانُه في فِيـهِ هَيْبَـةً لِرَسُـولِ اللهِ ﷺ،

.. ولَقَـدْ كُنْـتُ آتِي عَامِـرَ بْـنَ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ الزُّبَـيْرِ، فـإذَا ذُكِـرَ عِنْـدَهُ النَّبِـيُّ ﷺ بَكَـى حَتَّـى لا يَبْقَـى في عَيْنَيْـهِ دُمُـوعٌ،

.. ولَقَـدْ رَأَيْـتُ الزُّهْـرِيَّ، وكَانَ مِـنْ أَهْنَـإِ النَّـاسِ وأَقْرَبِهِـمْ، فـإذا ذُكِـرَ عِنْـدَهُ النَّبِـيُّ ﷺ فكَأَنَّـهُ مـا عَرَفَـكَ ولا عَرَفْتَـهُ،

.. ولَقَـدْ كُنْـتُ آتِي صَفْـوَانَ بْـنَ سُـلَيْمٍ، وَكَانَ مِـنَ المُتَعَبِّدِيـنَ المجتَهِدِيـنَ، فـإذا ذُكِـرَ النَّبِـيُّ ﷺ بَكَـى، فَـلَا يَـزَالُ يَبْكِـي حَتَّـى تَقُـومَ النَّـاسُ عَنْـهُ وَيَتْرُكُـوهُ.

قولـه (**اختَلَفْـتُ**): أيْ تَـرَدَّدْتُ. قولـه (**أَرَاهُ**): أيْ أُشـاهِدُه. قولـه (**ثَـلَاثِ خِصَـالٍ**): أي إحـدى حـالاتٍ ثَـلاثٍ.

قولـه (**صَامِتًـا**): أيْ سـاكِتًا مُتَفكِّـرًا. قولـه (**وإِمَّـا يَقْـرأُ القـرآنَ**): الأَوْلَى «وإمَّـا قارِئًـا لِلقـرآنِ» -كَـما ذَكَـرَهُ المُـلَّا.

قولـه (**لا يَعْنِيـه**): -بفتـحِ اليـاءِ وكَسْرِ النُّـونِ- أيْ يَنْفَعُـه في دِينِـه عَمَـلًا بِقَوْلِـه تعـالى: ﴿والذيـنَ هُـمْ عَـنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُـونَ﴾ [المؤمنـون: ٣]، وامتِثـالًا لِقَوْلِـهِ ﷺ: (مِـنْ حُسْـنِ إِسْـلامِ المَـرْءِ تَرْكُـه مـا لا يَعْنِيـه)[1].

قولـه (**وكانَ**): أي الإمـامُ جَعْفـرٌ الصّـادقُ. قولـه (**مِـنَ العُلَـماءِ العُبَّـادِ**): أيْ مِمَّـنْ جَمَـعَ بَـيْنَ العِلْـمِ والعَمَـلِ وتَـرْكِ الهَـوَى وطُـولِ الأَمَـلِ.

قولـه (**يَخْشَـوْنَ اللهَ**): أيْ يخافـونَ عُقُوبَتَـه. قولـه (**عَـزَّ**): أيْ شـأْنُه وسُـلطانُه. وقولـه (**وجَـلَّ**): أيْ برْهَانُـه.

قوله (**عَبْدُ الرحمنِ بنُ القاسِمِ**): أي ابنُ محمّدِ بنِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ.

قولـه (**فيُنْظَـرُ إلى لَوْنِـه**): بصيغـةِ المفْعُـولِ. قولـه (**نُـزِفَ**): -بضـمِّ النـونِ وكَسْرِ الـزايِ- أيْ سَـالَ.

قولـه (**جَـفَّ لِسَـانُه**): -بفتـحِ الجيـمِ وتشـديدِ الفـاءِ- أي يَبِـسَ. قولـه (**في فِيـه**): أيْ فلَـمْ يَنطِـقْ عـلى تَمـامِ كَلامِـه (هَيْبَـةً... إلـخ).

قوله (**بنِ الزُّبَيْرِ**): أي ابنِ العَوّامِ، العَابِدِ الكبيرِ القَدْرِ.

قولـه (**الزُّهْـرِيَّ**): هـوَ محمّـدُ بـنُ شِـهَابٍ. قولـه (**أَهْنَـإِ النّـاسِ**): -بفتـحِ الهَمـزَةِ وسُـكونِ الهـاءِ فنـونٍ فهَمْـزةٍ- أيْ أَلْطَفِهـم في العِشْـرةِ. وقولـه (**وأَقْرَبِهِمْ**): أيْ في المَـوَدَّةِ. قولـه (**ولا عَرَفْتَـه**): أيْ لِتَغَيُّرِ حالِـه واختِـلَافِ مَقالِـه في مَقَـامِ إجْلالِـه.

قولـه (**سُـلَيم**): -بالتصْغـيرِ- وهُـوَ الإمَـامُ القُـدْوَةُ المَـدَنيُّ الَّـذي يُسْتَشْـفَى بِذِكْـرِهِ، يَـرْوِي عَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ وعبْـدِ اللهِ بـنِ جَعْفـرٍ وابـنِ المُسَـيِّبِ وعَـنْ مالـكٍ وغـيرِه.

قولـه (**مِـنَ المُتَعَبِّدِيـنَ المجتَهِدِيـنَ**): رُوِيَ أنَّـه لَمْ يَضَـعْ جَنْبَـهُ عـلى الأرضِ أربَعِـينَ سَـنَةً. قولـه (**ويَتْرُكُـوهُ**): أيْ حَـذَرًا مِـن رُؤيَتِـه عـلى تلـكَ الحالَـةِ المُحْزِنَـةِ.

---

(١) أخرجـه أحمـد (١٧٣٧)، والترمـذيُّ (٢٤٧٠)، وابـن ماجـه (٣٩٧٦)، وابـن حِبَّـان (٢٢٩)، وغيرهـم مـن حديـث أبي هريـرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهـو مـن الأحاديـث التـي عليهـا مـدار الإسـلام كـما قـال بعـض العلـماء.

ورُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّه كَانَ إِذا سَمِعَ الحَدِيثَ أَخَذَهُ العَوِيلُ والزَّوِيلُ.

ولَمَّا كَثُرَ عَلى مَالِكٍ النَّاسُ قِيلَ لَهُ: لَوْ جَعَلْتَ مُسْتَمْلِيًا يُسْمِعُهُمْ! فقَالَ: قَالَ اللهُ تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، وَحُرْمَتُهُ حَيًّا وَمَيْتًا سَوَاءٌ.

وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ رُبَّمَا يَضْحَكُ، فإذا ذُكِرَ عِنْدَه حديثُ النَّبِيِّ ﷺ خَشَعَ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ إِذَا قَرَأَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ أَمَرَهُمْ بِالسُّكُوتِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.

ويَتَأَوَّلُ أَنَّهُ يَجِبُ لَهُ مِنَ الإنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ حَدِيثِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عِنْدَ سَمَاعِ قَوْلِهِ ﷺ.

***

قوله (**العَوِيلُ**): -بفتحِ العَيْنِ المهْمَلةِ وكسْرِ الواوِ- أيْ صَوْتُ الصَّدْرِ بالبُكَاءِ. وقوله (**والزَّوِيلُ**): -بفَتحِ الزّايِ وكسْرِ الواوِ- أي القَلَقُ والعَنَاءُ، وأصْلُ «الزَّوِيلِ» عدَمُ الاسْتقرارِ؛ يُقالُ «زالَ عَنْ مَكانِه يَزُولُ زَوَالًا وزَيْلًا». اه مُلَّا.

قوله (**كَثُرَ على مالكٍ الناسُ**): أي اجْتَمَعُوا عَلَيْه بكَثْرةٍ بَعْدَما كانُوا بوَصْفِ قِلَّةٍ. قوله (**مُسْتَمْلِيًا**): أي مُبَلِّغًا لِلناسِ كُلِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ وبُعْدِ بَعْضِهِمْ، وجوابُ (لَوْ) محذوفٌ؛ أيْ «لَكَانَ حَسَنًا».

قوله (**سَواءٌ**): لِأنَّ فَناءَه في الحقيقةِ بَقَاءٌ؛ فإنَّه حَيٌّ يُرْزَقُ، وأنَّ وُجُوبَ حُرْمَتِه بَعْدَ وَفاتِه كهِيَ قَبْلَهَا؛ فلا يَحِلُّ انتهاكُها.

قوله (**ابنُ سِيرِينَ**): مِنْ أَجِلَّاءِ التابِعِينَ. وقوله (**يَضْحَكُ**): أيْ يَتَبَسَّمُ.

قوله (**خَشَعَ**): أي خَافَ وخَضَعَ وتَواضَعَ، كذا في نسْخةٍ، والظاهِرُ أنَّه مُكَرَّرٌ لِمَا سيَأتي في الفصْلِ الَّذي يَلِيه.

قوله (**عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ**): أَحَدُ الأعلامِ في الحديثِ، رَوَى عَنْه أحْمدُ، وهُوَ أَعْلَمُ الناسِ بالحَديثِ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ المَدِينِيِّ.

قوله (**أَمَرَهمْ بالسُّكوتِ**): رِعايةً لِحُرْمَتِه، وعِنَايةً لِمَقُولَتِه. قوله (**وقَالَ**): أيْ عَبْدُ الرحمنِ مُقْتَبِسًا مِنَ القرآنِ.

قوله (**فَوْقَ صَوْتِ النبيِّ**): وكذا فَوْقَ صَوْتِ رَاوي حديثِه.

قوله (**عِنْدَ قِراءةِ حَدِيثِه**): أَيْ رِوايَتِه بَعْدَ مَماتِه. قوله (**عِنْدَ سَماعِ**): أيْ كَلامِ نفْسِه ﷺ في حَالِ حياتِه.

***

فَصْلٌ في سِيرَةِ السَّلَفِ في تَعْظِيمِ رِوَايَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وسُنَّتِهِ

حدَّثَنا الحُسَيْنُ بْنُ محمَّدٍ الحافظُ، حدَّثَنا أَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ، حَدَّثَنا أَبُو بَكْرٍ البَرْقانيُّ وغيرُهُ، حدَّثَنا أَبُو الحَسَنِ الدَّارَقُطْنِيُّ، حدَّثَنا عَلِيُّ بْنُ مَبْشِرٍ، حدَّثَنا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ القَطَّانُ، حدَّثَنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حدَّثَنا المَسْعُودِيُّ عَنْ مُسْلِمٍ البَطِينِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ:

اخْتَلَفْتُ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ سَنَةً، فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ إِلَّا أَنَّهُ حَدَّثَ يَوْمًا، فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»، ثُمَّ عَلَاهُ كَرْبٌ حَتَّى رَأَيْتُ العَرَقَ يَتَحَدَّرُ عَنْ جَبِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذا إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى، أَوْ فَوْقَ ذَا، أَوْ مَا دُونَ ذَا، أَوْ مَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْ ذَا.(1)

(1) حديث (اختلفت إلى ابن مسعود سنة ...): الدارمي [(٢٩٢) بنحوه، وأخرجه بهذا اللفظ الشاشي (٦٦٧)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٩/ ١٢١)، وغيرهما].

(في سِيرةِ السَّلَفِ): أي طريقَتِهِم المأثورةِ عَنْهُمْ. قوله (وسُنَّتِه): أيْ طريقتِه المحمُودةِ.

قوله (حَدَّثَنا الحُسَيْنُ... إلخ): هوَ ابنُ سُكَّرَةَ. قوله (خَيرُونٍ): بفتحِ الخاءِ المعجَمةِ وسُكونِ الياءِ التحتيَّةِ وضمِّ الراءِ، يُمنَعُ ويُصْرَفُ. قوله (البَرْقانيُّ): -بفتحِ المُوحَّدةِ- هُوَ الحافظُ الإمامُ أَحَدُ الأعلامِ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ غالبٍ الخُوارَزْميُّ الشافعيُّ شَيْخُ بَغدادَ، صَنَّفَ التصانيفَ، وخرَّجَ على الصَّحيحَيْنِ، رَوى عَنْه الخَطيبُ والبَيْهقيُّ وأبُو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ، قالَ الخَطيبُ: كَتَبْنا عَنْهُ، تُوفِّيَ ببَغدادَ سَنةَ خَمْسٍ وعِشرينَ وأَرْبَعِمائَةٍ.

قوله (الدَّارَقُطْنِيُّ): بفَتْحِ الراءِ وتُسَكَّنُ. قوله (مَبْشِرٍ): بفتحِ الميمِ وسُكونِ الموحَّدَةِ وكسْرِ الشينِ المعجَمةِ. قوله (سِنَانٍ): بكسرِ السِّينِ المهْمَلةِ وتنوينِ آخِرِه. وقوله (القَطَّانُ): -بفتحِ القافِ وتشديدِ الطّاءِ- هُوَ الحافظُ أبو جعفرٍ الواسِطيُّ، رَوى عَنْه الشيْخانِ وغيرُهما، قالَ ابنُ أبي حَاتِمٍ: هُوَ إمامُ أهْلِ زمانِه. قوله (يَزيدُ بنُ هارُونَ): هُوَ ابنُ خالدٍ الواسِطيُّ السُّلَميُّ أَحَدُ الأعلامِ الحافظُ المُتْقِنُ كَما قالَ أحْمدُ.

قوله (المَسْعُوديُّ): هوَ عبْدُ الرحمنِ بنُ عوفِ بنِ عُتْبَةَ الكوفيُّ أَحَدُ الأعلامِ. قوله (البُطَيْنِ): -بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ وكسْرِ الطَّاءِ المهْمَلةِ- أبُو عبدُ اللهِ مسْلِمُ بنُ عِمرانَ الكُوفيُّ، يَروِي عَنْ أَبِي وائلٍ وعَليِّ بنِ الحُسَيْنِ وغَيْرِهما. قوله (عَمْرُو بنُ مَيْمونٍ): أي الأَزْدِيُّ.

وقوله (اختَلَفْتُ إلى ابنِ مسْعُودٍ... إلخ): أيْ تَردَّدْتُ إلى خِدْمَتِه. وقوله (فَما سَمِعْتُه يقولُ... إلخ): أيْ بصَريحِ اسْمِه وكَأنَّه كانَ يَكتفي بضميرِ اسْمِه. قوله (عَلاه كَرْبٌ): -بفتحِ الكافِ وسُكونِ الراءِ- أي غَلَبَه غَمٌّ يأخذُ النفَسَ.

قوله (يَتَحَدَّرُ): -بتشديدِ الدالِ، وفي نسخةٍ «يَنحَدِرُ» بالنونِ- أي يَسيلُ نازلًا. قوله (عَنْ جَبِينه): وفي نسخةٍ «عَنْ وُجْهَتِه».

قوله (ثُمَّ قالَ: هَكذا): أيْ قالَ ابنُ مسْعُودٍ حديثَه الذي رَوَيْتُه لَكُم عَنْه ﷺ بهَذا اللَّفظِ. قوله (أوْ فَوقَ ذا): أي بقليلٍ، وإنَّما قالَ (إنْ شاءَ اللهُ) لِكَمالِ احتياطِه. وقوله (أوْ ما دُونَ ذا): أيْ ببَعْضِ شَيْءٍ، وهَذا كلُّه مسْتفادٌ مِنَ الدُّخولِ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّدًا فلْيَتَبَوَّأْ

وَفِي رِوَايَةٍ: فَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ[1]. **وفي رِوَايَةٍ: وقَدْ تَغَرْغَرَتْ عَيْنَاهُ وانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ**[2].

وَقَالَ إبراهيمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ قُرَيْمٍ الأَنْصَارِيُّ قَاضِي المَدِينَةِ: مَرَّ مالكُ بْنُ أَنَسٍ على أَبِي حَازِمٍ، وهُوَ يُحَدِّثُ، فجازَهُ وقالَ: إنِّي لَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا أَجْلِسُ فيه، فكَرِهْتُ أَنْ آخُذَ حَدِيثَ رسُولِ الله ﷺ وأَنَا قائِمٌ.

(١) [أخرجها الدارمي (٢٩٣)، وغيره].

(٢) [أخرجها أحمد (٤٣٢١)، والدارمي (٢٧٨)، وابن ماجه (٢٣)، وغيرهم].

مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ)[1]. قولُه (**فتَرَبَّدَ**): -بفتحِ المُثَنَّاةِ الفوقيةِ والراءِ وتشديدِ الموحَّدةِ بَعْدَهَا دالٌ مهْمَلَةٌ- أيْ تغَيَّرَ. اهـ شُمُنِّيّ، كَمَا وَرَدَ (إذا نَزَلَ عَلَيْه الوَحْيُ ارْبَدَّ وَجْهُه)[2]، وفي بَعْضِ النُّسَخِ زيادةُ «إلى الغُبْرَةِ»؛ وهِيَ سَوَادٌ مَشُوبٌ بِبَيَاضٍ.

قولُه (**وقَدْ تَغَرْغَرَتْ عَيْنَاهُ**): وفي نسخةٍ «فَقَدْ... إلخ»: أي امتَلأَتْ عَيْنَا ابنِ مَسْعُودٍ دَمْعًا يَتَرَدَّدُ فيهمَا مِن الغَرْغرةِ. قولُه (**أَوْدَاجُه**): جَمعُ «وَدَجٍ»، وهُوَ مَا أَحَاطَ بالعُنُقِ مِنْ عُروقِ الحَلْقِ الَّتِي يَقْطَعُهَا الذابِحُ.

قولُه (**قُرَيْم**): -تصْغيرُ «قَرْمٍ»- بضمِّ القافِ وفتحِ الراءِ اهـ شُمُنِّيّ، أي مِقْدامٍ في المعركةِ. قولُه (**مالكُ بنُ أنَسٍ**): هُوَ إمامُ دارِ الهجرة. قولُه (**حازِم**): -بالحاءِ المهْمَلَةِ وكسْرِ الزاي- هُوَ مسْلمةُ بنُ دِينارٍ الأعرَجُ أَحَدُ الأعلامِ.

قولُه (**فجَازَه**): أيْ جَازَ المَوْضِعَ أو الشيْخَ، وهُوَ بمعنَى «جازَ بِه»، والمَعْنَى: لَمْ يَجْلِسْ إلَيْه لِيَأْخُذَ الحديثَ عَنْه. قولُه (**وقالَ إنِّي لَمْ أَجِدْ**): أي اعتذارًا لِمَنْ أَوْرَدَ عَلَيْه السؤالَ بلسانِ المَقَالِ. قولُه (**أنْ آخُذَ**): أي أَسْمَعَ وأتَحَمَّلَ (حديثَ رسُولِ الله... إلخ)، قالَ الدلجيُّ: «والعَجَبُ مِنْه -رحِمَه اللهُ- أنَّه كانَ معَ مُبالَغَتِه في تعظيمِ رسُولِ الله ﷺ يُقَدِّمُ عليْه عَمَلَ أَهْلِ المدينةِ وإنْ خالَفَه، ويَقُولُ: هذا الحديثُ لَمْ يَصْحَبْه عَمَلٌ، فجَعَلَ العَمَلَ بحديثِه ﷺ مَشْرُوطًا بعَمَلِ غيْرِه مَعَ قولِه -تعالى-: (وما آتاكم الرسولُ فخُذُوه)، ولمْ يوافقْهُ أحَدٌ مِنْ عُلَماءِ الأمْصارِ على ذلكَ».

أَقُولُ: إنَّ عَجَبَ الدَّلجيِّ إلى قولِه «فجَعَلَ العَمَلَ بحديثِه مشروطًا بعَمَلِ غيْرِه» ناشِئٌ مِن سُوءِ أَدَبِه وعدَمِ فَهْمِه؛ فإنَّ مِثْلَهُ لا يَحُومُ حَوْلَ مَدارِكِ الأئمةِ حَتَّى يتعجَّبَ على حَسَبِ ما قامَ بذِهْنِه، بَلْ ما عَمِلَ الإمامُ بعَمَلِ أَهْلِ المدينةِ تارِكًا العَمَلَ بظاهِرِ حديثٍ إلَّا لِكَوْنِ أَهْلِ المدينةِ أدْرَى بمَقالِه وأفعالِه ﷺ، فلَوْلَا أنَّه تَطَرَّقَ إلَيْه نَسْخٌ أو لَمْ يَصِحَّ لَمَا عَمِلُوا على خِلَافِه، فرَبُّ الدَّارِ أَدْرَى بما فِيهَا؛ فتَقديمُ عَمَلِ المدينةِ على الحديثِ لَيْسَ مِنْ بابِ تَرْكِ العَمَلِ بالحديثِ، بَلْ مِن بابِ الانتقالِ للحديثِ الأقْوَى مِنْ قولِه وفِعْلِه ﷺ، فلَيْسَ كَما فَهِمَ الدلجيُّ أنَّه مِنْ بابِ التَّرْكِ للحديثِ، فعَجَبٌ مِن سُوءِ أَدَبِه مَعَ الإمامِ الجليلِ الَّذي هوَ حُجَّةُ الله في أرْضِه؛ كيفَ والإمامُ الشافعِيُّ -عالِمُ قريشٍ وإمَامُ السُّنَّةِ- يَقُولُ: «الإمامُ مالكٌ شَيْخِي وعَنْه أَخَذْتُ العِلْمَ». فالواجبُ على أمْثالِنا المقلِّدينَ، غايةُ سُلوكِ الأدَبِ مَعَ الأئمةِ المجتهِدينَ، فهُمْ أَدْرَى بمَدارِكِ السُّنَّةِ.

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاري (108) [كتاب العلم]، ومسلم (2) [مقدمة الإمام مسلم]، وغيرهما من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والحديث متواتر؛ انظر: «الأزهار المتناثرة» للسيوطيِّ (ص٢٣)، و«نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للسيِّد محمَّد ابن جعفر الكتَّانيِّ (رقم٢) وللسيِّد أحمد بن الصِّدِّيق جزآن مخطوطان في طُرُقه وتواتُره.

(٢) ذكره ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٨٣).

وقالَ مَالكٌ: جَاءَ رَجُلٌ إلى ابنِ المُسَيَّبِ، فسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، فجَلَسَ وحَدَّثَه، فقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فقَالَ: إنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَنَا مُضْطَجِعٌ.

ورُوِيَ عَنْ محمَّدِ ابْنِ سِيرِينَ أنَّهُ قَدْ يَكُونُ يَضْحَكُ، فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَه حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ خَشَعَ.

وَقالَ أَبُو مُصْعَبٍ: كَانَ مالكُ ابْنُ أَنَسٍ لا يُحَدِّثُ بحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلا وَهُوَ على وُضُوءٍ؛ إجْلالًا لَهُ.

وحَكَى مالِكٌ ذلِكَ عَنْ جَعْفَرِ ابْنِ محمَّدٍ.

ولَقَدْ أَحسَنَ المحقِّقُ المُلَّا في هذا المَحَلِّ في قولِهِ: وَلا يَخْفَى أنَّ المجتَهِدَ أَسيرُ الدَّليلِ، وأُصُولُ الفقهاءِ مختلفةٌ في التعليلِ، فمَذْهَبُ مَالكٍ أنَّ عَمَلَ أهلِ المدينةِ مُقَدَّمٌ؛ لِأَنَّهم أَخذُوا عَنْ آبائِهِمْ مِنَ المهاجِرِينَ والأنصارِ التابِعِينَ لِسَيِّدِ الأبْرارِ، ومُقَدَّمٌ على حديثٍ بظاهِرِهِ يُخالِفُهُم، فكأَنَّه جَعَلَ عَمَلَهم بمنزلةِ إجماعِهِم، وهَذا يُشْبِهُ اختلافَ أُصُولِ علماءِ الحنفيّةِ؛ وهُوَ أنَّ الراويَ إذا عَمِلَ بخلافِ روايتِه دَلَّ على أنَّ حديثَه منسُوخٌ أو تَوَهَّمَ في نَقْلِه ورَجَعَ عَنْه بفِعْلِه، ونظيرُ هذا عَمَلُ أَهْلِ مَكَّةَ في الطَّوافِ بإرسَالِ اليَدِ حَيْثُ يَكونُ بمَنزلةِ الإجْماعِ المانِعِ مِنْ أنْ يَكُونَ وَضْعُ اليَدِ فيه مُسْتَحَبًّا بَلْ يُحْكَمُ فيه بأنَّه مَكْروهٌ لِكَوْنِه بِدْعةً. اهـ.

وقَدْ تَهَوَّرَ الدّلجيُّ في آخِرِ كَلامِهِ[1] وارْتَقَى مِنْ سُوءِ أَدَبِه إلى ما يُوجِبُ إسَاءَةَ الظَّنِّ بَيْنَ الأئمَّةِ مِن نَقْلِه عَنِ الإمامِ الشافعيِّ أنَّه مَكَثَ سَنَةً مُسْتَخِيرًا في مخالَفةِ الإمَامِ مالكٍ في هذه.. فإنَّ هذا كُلَّه لا يُسَلَّمُ صِحَّةَ نقْلِه عَنِ الإمامِ مُطْلَقُ مسْلِم فضلاً عَنْ كُمَّلِهِمْ، وما أَدْرَى مَا الحامِلُ لِمثلِ هذا النقلِ المقطوعِ بعَدَمِ صِدْقِه؟! فإنَّ الواجبَ علَيْنا اعتقادُ أنَّ الأئمةَ طَهَّرَ اللهُ قلوبَهم وألسنتَهم مِن نِسْبةِ أحَدِهم إلى مخالَفةِ رسُولِ اللهِ، بلْ يُحكمُ بما قامَ عِنْدَه مِنْ مَدارِكِ السُّنَّةِ مِن غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِقَدْحِه في غيرِه، فكانَ الواجبُ مِنَ الدّلجيِّ أنْ لا يَتعرَّضَ لِمثْلِ هذا الكلامِ على فَرْضِ وُقوعِه في بَعْضِ كُتُبِ تواريخَ كاذبةٍ، بلْ يُحْسِنُ الظنَّ ما أَمْكَنَ فيما يُنْقَلُ عَنْهم.

قوله (**ابنِ المُسَيَّبِ**): بتشديدِ الياءِ المفتوحَةِ، وقَدْ تُكْسَرُ. اهـ ملا. قوله (**عَنْ حديثٍ**): أي مِنْ سُنَّةِ رسُولِ اللهِ ﷺ. قوله (**فجَلَسَ وحَدَّثَه**): قالَ المُلّا: ولَعَلَّه كانَ مَريضًا فتكَلَّفَ في جُلوسِه.

قوله (**وَدِدْتُ**): -بكسرِ الدالِ الأُولى- أي أَحْبَبْتُ وتَمَنَّيْتُ. قوله (**لم تتَعَنَّ**): -بالعَينِ المهْمَلةِ وتشديدِ النونِ- أي لَمْ تتكَلَّفِ العناءَ لِنَفْسِكَ بسَببِ جُلوسِكَ.

قوله (**ورُوِيَ**): -بصيغةِ المجهُولِ- أي نُقِلَ. وقوله (**سِيرِينَ**): يُمنَعُ صَرْفُه لِلعلميّةِ وزيادةِ الياءِ والنونِ على مَذْهَبِ الفارسيِّ، يَرْوِي عَنْ أبي هريرةَ وعِمرانَ بنِ الحُصَينِ. قوله (**فإذا ذُكِرَ**): بالبناءِ لِلمجْهُولِ.

قوله (**أبو مصْعبٍ**): هوَ أحمدُ بنُ أبي بكرِ بنِ القاسِمِ بنِ الحارثِ بنِ زُرارةَ بنِ مصْعَبِ بنِ عبْدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، أبو مُصْعبٍ الزُّهْريُّ العَوْفيُّ، قاضي المدينةِ. قوله (**إجْلالًا له**): أي لِحديثِه -عليْه الصَّلاةُ والسلامُ.

قوله (**حَكَى مالكٌ ذلك**): أي مِثْلَ ذلك. قوله (**جَعْفرِ بنِ محمَّدٍ**): هوَ الصّادقُ.

---

(1) لم ينقل الشيخ العِدوي كلام الدلجي الذي جاء فيه هذا النقل، المقطوع بعدم صدقه عن الإمام الشافعي، وأورد نص الدلجي بتمامه ملا علي القاري في شرحه.

وقَالَ مُصْعَبُ بنُ عبْدِ الله: كانَ مَالِكٌ إذا حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ توَضَّأَ وتهَيَّأَ ولَبِسَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ يُحَدِّثُ، قالَ مُصْعَبٌ: فَسُئِلَ عَنْ ذلِكَ، فقالَ: إنَّهُ حَدِيثُ رَسُولِ الله ﷺ.

قالَ مُطَرِّفٌ: كانَ إذا أتَى النَّاسُ مالِكًا خَرَجَتْ إلَيْهِمُ الجارِيَةُ، فتقُولُ لهُمْ: يقُولُ لكُمُ الشَّيْخُ: تُرِيدُونَ الحَدِيثَ أَوِ المَسَائِلَ؟ فإنْ قالُوا: المَسَائِلَ، خَرَجَ إلَيْهِمْ، وإنْ قالُوا: الحَدِيثَ، دَخَلَ مُغْتَسَلَهُ، واغْتَسَلَ وتَطَيَّبَ، ولَبِسَ ثِيَابًا جُدُدًا، ولَبِسَ سَاجَه وتَعَمَّمَ، ووَضَعَ على رَأْسِهِ رِدَاءَهُ، وتُلْقَى لَهُ مِنَصَّةٌ يَخْرُجُ فيَجْلِسُ علَيْها، وعَلَيْهِ الخُشُوعُ، ولا يَزَالُ يُبَخَّرُ بالعُودِ حتَّى يَفْرُغَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ.

قَالَ غَيْرُهُ: ولَمْ يَكُنْ يَجْلِسُ على تِلْكَ المِنَصَّةِ إلا إذَا حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ.

وقَالَ ابنُ أَبِي أُوَيْسٍ: فقِيلَ لِمَالِكٍ في ذَلِكَ، فقَالَ: أُحِبُّ أَنْ أُعَظِّمَ حَدِيثَ رَسُولِ الله ﷺ، ولا أُحَدِّثُ بهِ إلا على طَهَارَةٍ، مُتمَكِّنًا.

قوله (**مُصْعَبُ بنُ عبْدِ الله**): أي ابنُ مصْعَبِ بنِ ثابتٍ الزُّبَيْرِيُّ.

قوله (**وتَهَيَّأَ**): أيْ أَصْلَحَ هَيْئَتَه بالمُشْطِ ونحوِه. وقوله (**ولَبِسَ ثِيَابَه**): أي غَيَّرَ ثِيابَ البِذْلَةِ.

قوله (**فسُئِلَ**): أيْ مالكٌ. قوله (**فقالَ: إنَّه حديثُ... إلخ**): أي المَقامُ مَقامُ تحديثِه ﷺ، فيَجِبُ التوقيرُ على الخَلْقِ.

قوله (**مُطَرِّفٌ**): -بتشديدِ الراءِ المكسورةِ- هُوَ ابنُ عبدِالله بنِ مُطَرِّفِ بنِ سُلَيْمانَ بنِ يَسَارٍ، أبو مُصْعَبٍ اليَسَارِيُّ المَدَنِيُّ، مَوْلَى مَيمونةَ الهِلَاليةِ، وهُوَ ابنُ أُخْتِ الإمامِ مالكِ بنِ أَنَسٍ.

قوله (**أَتَى النَّاسُ**): أيْ وَقَفُوا على بابِه. قوله (**الجاريةُ**): أي الخادمةُ أَوَّلًا بإِذْنِه لِتُعْلِمَه مَنْ هُوَ.

قوله (**تُريدون الحديثَ أو المَسَائِلَ**): أي الأحاديثَ النَّبويّةَ أو الفروعَ الفقهيةَ.

قوله (**خَرَجَ إلَيْهِمْ**): أيْ على هَيْئَتِه مِنْ غيرِ تغيُّرِ حَالتِه. وقوله (**مُغْتَسَلَه**): أي مَوضعَ اغتسالِه. قوله (**جُدُدًا**): -بضمتَيْنِ- جمْعُ جَديدٍ، كسَريرٍ وسُرُرٍ.

قوله (**سَاجَه**): بالإضافةِ إلى ضميرِه، وهوَ بالسينِ المهْمَلَةِ والجيمِ الطَّيْلَسَانُ، وفي «القاموسِ» الطَّيلَسَانُ الأخضَرُ أوِ الأسْوَدُ والجَمْعُ «سِيجانٌ»، والسَّاجُ أيضًا ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ. اهـ.

قوله (**وتُلْقَى**): -بصيغةِ المجهُولِ- أيْ تُوضَعُ له (**مِنَصَّةٌ**): -بكسرِ الميمِ وفتحِ النونِ وتشديدِ الصّادِ المهْمَلةِ- سَريرُ العَرُوسِ، وقيلَ: مثلُ المِخَدَّةِ العَاليةِ، وقيلَ: المرادُ بها الكُرْسِيُّ. قوله (**يُبَخَّرُ**): بتشديدِ الخاءِ المعْجَمةِ المفتوحةِ وتُكسَرُ، ويرْوَى «يتبَخَّرُ».

قوله (**قالَ غيرُه**): أيْ غيرُ مُطَرِّفٍ.

قوله (**ابنُ أَبِي أُوَيْسٍ**): هوَ إسْماعيلُ بنُ عبدِ الله بنِ أُوَيْسٍ الأصبحيُّ ابنُ أختِ مالكِ بنِ أنَسٍ. قوله (**ولا أُحَدِّثَ**): بالنَّصْبِ والرفعِ. قوله (**مُتمَكِّنًا**): أي على حالةٍ فاضلةٍ لا مُتَّكِئًا.

قَـالَ: وكَانَ يَكْـرَهُ أَنْ يُحَـدِّثَ فِي الطَّرِيـقِ، أَوْ وهُـوَ قَائِـمٌ، أَوْ مُسْـتَعْجِلٌ، وقَـالَ: أُحِـبُّ أَنْ أُفَهِّـمَ حَدِيـثَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ.

قَـالَ ضِرَارُ بْـنُ مُـرَّةَ: كَانُـوا يَكْرَهُـونَ أَنْ يُحَدِّثُوا عـلى غَـيْرِ وُضُـوءٍ. ونَحْـوُهُ عَـنْ قَتَـادَةَ.

وكانَ الأَعْـمَشُ إِذَا أَحَـبَّ أَنْ يُحَـدِّثَ عـلى غَـيْرِ وُضُـوءٍ تَيَمَّـمَ.

وكانَ قَتَـادَةُ لا يُحَـدِّثُ إلا عـلى طَهَـارَةٍ، ولا يَقَـرَأُ حَدِيـثَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إلا عـلى وُضُـوءٍ.

قَـالَ عَبْـدُ اللهِ بْـنُ المُبَـارَكِ: كُنْـتُ عِنْـدَ مَالِـكٍ وَهُـوَ يُحَدِّثُنـا، فلَدَغَتْـهُ عَقْـرَبٌ سِـتَّ عَـشْرَةَ مَـرَّةً، وهُـوَ يَتَغَـيَّرُ لَوْنُـه ويَصْفَـرُّ، ولا يَقْطَـعُ حَدِيـثَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فلَـمَّا فَـرَغَ مِـنَ المَجْلِسِ وتَفَـرَّقَ عَنْـهُ النَّـاسُ، قُلْـتُ لَـهُ: يـا أَبَـا عَبْـدِ اللهِ، لَقَـدْ رَأَيْـتُ مِنْـكَ عَجَبًـا! قَـالَ: نَعَـمْ، إِنَّـمَا صَبَرْتُ إِجْـلَالًا لِحَدِيـثِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ.

قَـالَ ابْـنُ مَهْـدِيٍّ: مَشَـيْتُ يَوْمًـا مَـعَ مالِـكٍ إِلَى العَقِيـقِ، فسَـأَلْتُه عَـنْ حَدِيـثٍ، فانْتَهَـرَنِي، وقَـالَ لِي: كُنْـتَ فِي عَيْنِـي أَجَـلَّ مِـنْ أَنْ تَسْـأَلَ عَـنْ حَدِيـثِ رسُـولِ اللهِ ﷺ ونَحْـنُ نَمْشِي.

وسَـأَلَهُ جَرِيـرُ بْـنُ عَبْـدِ الحميـدِ بْـنِ عَبْـدِ اللهِ القَـاضي عَـنْ حَدِيـثٍ وهُـوَ قَائِـمٌ، فأَمَـرَ بحَبْسِـهِ، فقِيـلَ لـه: إِنَّـهُ قـاضٍ، قَـالَ: القَـاضي أَحَـقُّ مَـنْ أُدِّبَ.

قولـه (قَـالَ): أي ابـنُ أُوَيْـسٍ. وقولـه (وكانَ): أي خالُـهُ مالـكٌ. قولـه (يُحَـدِّثَ): -بكَـسْرِ الـدَّالِ المشـدَّدةِ- أيْ يَتكَلَّـمَ بالحديـثِ النّبـويِّ في الطريـقِ حَالـةَ السَّـيْرِ.

(أو مستَعْجِلٌ): خوفًا مِنَ الخطإِ، ومِنْ ثَمَّ قيل:

قَدْ يُدرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حاجَتِهِ * وقَدْ يَكُونُ مَعَ المستعجِلِ الزَّلَلُ

قولـه (وَقَـالَ: أُحِـبُّ): أيْ قـالَ مالـكٌ، أيْ في تعليـلِ ذلـك (أُحِـبُّ... إلـخ). قولـه (أُفَهِّـمَ): بضـمِّ الهمـزةِ وفتـحِ الفَـاءِ وتشـديدِ الهـاءِ اهـ. شـمنيٌّ.

قولـه (مُـرَّةَ): -بضـمِّ الميـمِ وتشـديدِ الـرَّاءِ- أي أبـو سِـنانٍ الشـيْبانيُّ الكـوفيُّ. وقولـه (كانُـوا): أي السَّـلَفُ. وقولـه (أَنْ يُحَدِّثُـوا): أي الحديـثَ -كَـمَا في نسـخةٍ.

قوله (الأعمَشُ): أيْ سُليمانُ بنُ مِهْرانَ.

قولـه (سِـتَّ عَـشْرَةَ مَـرَّةً): [ووقـع في أصـل الدلجـي «ستة عـشر مـرة» فقـال:][1] صَوابُـه «سِـتَّ عـشْرَةَ مَـرَّةً»؛ إذِ التـاءُ إنَّـما تَلحـقُ في مثـلِ هـذا التركيـبِ ثـانيَ جُزْأَيْـهِ. وفي بَعـضِ النُّسَـخِ بتجريـدِ التَّـاءِ.

قوله (ويَصْفَرُّ): أي ويَنْحَلُّ إلى صُفْرَةٍ مِنْ أَثَرِ السُّمِّ.

قولـه (ولا يَقْطَـعُ حَديـثَ... إلـخ): محافَظـةً عـلى إكمالِـه، ومراعـاةً لِإجْلالِـه.

قولـه (إلى العَقِيـقِ): قـالَ الجوهـريُّ: كُلُّ مَسِـيلٍ شَـقَّه مَـاءُ السَّـيْلِ فهُـوَ عَقيـقٌ، وقـالَ الحلبيُّ: العَقيـقُ وادٍ عَلَيْـه مـالٌ مِـنْ أمـوَالِ المدينـةِ. اهـ. قولـه (فانتَهَـرَني): أيْ زَجَـرَني.

قولـه (وسَـأَلَه): أيْ مالِـكًا. قولـه (وهُـوَ قائِـمٌ): حـالٌ مِـنْ «مالـكٍ» أوْ مِـن «جَريـرٍ» اهـ مـلّا. وقولـه (فأَمَـرَ): أيْ مالـكٌ.

قولـه (مَـنْ أُدِّبَ): -بصيغـةِ المجهُـولِ- أي هُـوَ أَوْلَى لِيَتـأَدَّبَ بـه غَيْرُه.

---

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من شرح القاري ليستقيم السياق.

وذُكِرَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ الغَازِي سَأَلَ مَالِكًا عَنْ حَدِيثٍ وهُوَ واقِفٌ، فَضَرَبَهُ عِشْرِينَ سَوْطًا، ثُمَّ أَشْفَقَ عَلَيْهِ فحَدَّثَه عِشْرِينَ حَدِيثًا، فقَالَ هِشَامٌ: وَدِدْتُ لَوْ زَادَنِي سِيَاطًا، ويَزِيدُنِي حَدِيثًا.

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ صَالِحٍ: كانَ مَالِكٌ واللَّيْثُ لا يَكْتُبَانِ الحَدِيثَ إلا وهُمَا طَاهِرَانِ، وكانَ قَتَادَةُ يَسْتَحِبُّ أَنْ لا يَقْرَأَ أَحَادِيثَ رَسُولِ الله ﷺ إلا عَلَى وُضُوءٍ، ولا يُحَدِّثُ إلا عَلَى طَهَارَةٍ، وكانَ الأعْمَشُ إذا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ وَهُوَ على غَيْرِ وُضُوءٍ تَيَمَّمَ.

***

قولـه (**وذُكِرَ**): -بصيغةِ المفعُولِ- أي وحُكِيَ. قوله (**الغـازي**): -وفي نسخةٍ «الغَازِ» بلا يَاءٍ- قالَ الحلبيُّ: هذا هشامُ بنُ الغازِ بنِ ربيعةَ الجُرَشيُّ.

قوله (**أَشْفَقَ عَلَيْه**): أي حَنَّ عليه لِمَا وَقَعَ له مِنَ الإهانةِ لَدَيْه. قوله (**فحَدَّثَه عِشرينَ حديثًا**): اسْتِمالةً لِخاطِرِه، وأمَّا قولُ الدّلجيِّ «أيْ خَافَ عليه لِضَربِه إيَّاهُ بلا ذنبٍ يُوجِبُ ذلك» فغيرُ مسْتقيمٍ؛ لِأَنَّه يَلْزَمُ مِنْ ذلك إسْنَادُ الذنْبِ لِلإمامِ مالكٍ، مَعَ أنَّ لِلأستاذِ تأديبَ الطَّالبِ بِما يَرَى هنالكَ.

قوله (**فقَالَ هشامٌ**): وفي نسخةٍ «قَالَ». قوله (**وَدِدْتُ**): -بكسْرِ الدَّالِ- أي تَمَنَّيْتُ وأحبَبْتُ. قوله (**ويَزِيدُني حَدِيثًا**): أي لِكُلِّ سَوْطٍ.

قوله (**عبْدُ الله بنُ صَالحٍ**): قالَ المُلَّا: الظّاهرُ أنَّه أبو صَالحٍ الجُهَنيُّ كاتبُ اللَّيْثِ.

قوله (**يَسْتَحِبُّ**): -بصيغةِ الفاعِلِ- أي يَسْتحسِنُ. قوله (**أنْ لا يَقْرَأَ**): أيْ هُوَ أوْ أَحَدٌ، ولا يَبعُدُ أنْ يُضبَطَ بصيغةِ المفعُولِ[1]. قوله (**ولا يُحَدِّثُ إلَّا على طهارةٍ**): تأكيدٌ لِمَا قَبْلَه. قوله (**تيَمَّمَ**): أي اعتناءً بحديثِه ﷺ.

***

(١) بتأنيث الفعل مبنيًّا لما لم يسمَّ فاعله.

فَصْلٌ [في أنَّ بِرَّ آلِهِ وذُرِّيَّتِهِ مِنْ تَوْقيرِهِ ﷺ]

ومِنْ توْقيرِهِ ﷺ وبِرِّهِ بِرُّ آلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وأُمَّهَاتِ أَزْواجِهِ كَمَا حَضَّ ﷺ عَلَيْه، وسَلَكَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهمْ أجمَعِينَ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تطهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقالَ تعالى: ﴿وأزواجُه أمَّهاتُهمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

أَخْبَرَنا الشَّيْخُ أَبو محمَّدِ بْنُ أَحْمَدَ العَدْلُ مِنْ كِتَابِه، وكَتَبْتُ مِنْ أَصْلِهِ، حَدَّثَنا أَبو الحُسَيْنِ المُقْرِئُ الفَرْغَانِيُّ، حَدَّثَتْنِي أُمُّ القَاسِمِ بِنْتُ الشَّيْخِ أَبي بَكْرٍ الخَفَّافِ، قالَتْ: حَدَّثَنِي أَبي، حدَّثنا حَاتِمٌ -هُوَ ابنُ عُقَيْلٍ-، حَدَّثَنا يَحْيَى -هُوَ ابنُ إِسْمَعِيلَ-، حَدَّثَنا يَحْيَى -هُوَ الحِمَّانِيُّ-، حَدَّثَنا وَكِيعٌ عَنْ أَبِيه، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ مَسْرُوقٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ، قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: (أَنْشُدُكُمُ اللهَ وأَهْلَ بَيْتِي) ثَلَاثًا. قُلْنا لِزَيدٍ: مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ قالَ: آلُ عَلِيٍّ، وآلُ جَعْفَرٍ، وآلُ عَقِيلٍ، وآلُ العبَّاسِ.[1]

وقالَ ﷺ: (إِنِّي تَارِكٌ فِيكم ما إِنْ أَخَذْتُم بهِ لَنْ تَضِلُّوا، كِتَابَ اللهِ وعِتْرَتِي، أَهْلَ بَيْتِي؛ فانظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُوني فِيهِمَا).[2]

وقالَ ﷺ: (مَعْرِفَةُ آلِ محمَّدٍ بَراءةٌ مِنَ النَّارِ، وحُبُّ آلِ محمَّدٍ جَوَازٌ على الصِّرَاطِ، والوِلَايَةُ لِآلِ محمَّدٍ أَمَانٌ مِنَ العَذَابِ).[3]

---

(١) حديث زيد بن أرقم (أنشدكم الله في أهل بيتي): مسلمٌ [(٢٤٠٨) بلفظ (أُذَكِّرُكُم الله في أهل بيتي)].

(٢) حديث (إني تارك فيكم ما إن أخذتم ...): الترمذيُّ [٣٧٨٨] عن جابر وزيد بن أرقم وحسَّنه. [بلفظ: «... ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»].

(٣) حديث (مَعْرِفَةُ آلِ محمَّدٍ بَراءَةٌ مِنَ النَّار ...): [أسنده القاضي عياض في «الغنية في شيوخ القاضي عياض» (ص ١٦٠) من حديث المقداد بن الأسود].

قوله (وذُرِّيَّته): يُطلَقُ على الواحِدِ والجَمْعِ.

قوله (كَمَا حَضَّ... إلخ): أي حَثَّ ﷺ على بِرِّ مَنْ ذُكِرَ.

قوله (ابنُ عُقَيْلٍ): بضمِّ العَيْنِ وفَتْحِها وكسرِ القافِ وفتْحِها. قوله (الحِمَّانِيُّ): بكسْرِ الحاءِ المهْمَلةِ وتشديدِ الميمِ اهـ شُمُنِّيٌّ.

قوله (عَنْ يَزِيدَ بنِ حَيَّانَ): بفتحِ الحاءِ المهْمَلةِ وتشديدِ المُثَنَّاةِ التحتيةِ.

قوله (أَنْشُدُكم اللهَ... إلخ): أي أَسأَلُكم وأُقْسِمُ عَلَيْكم باللهِ أَنْ تَرْقُبُوني وتُرَاعُوني.

وقوله (ثَلَاثًا): أيْ قالَها ثَلاثَ مَرَّاتٍ مُبالَغةً في الحَثِّ. قوله (قُلْنا لِزَيْدٍ): هُوَ ابنُ أرْقَمَ.

قوله (ما إنْ أخَذْتُمْ به)[1]: «مَا» نكرةٌ موْصُوفةٌ، صِفَتُه «إنْ أخَذْتُم به»، أيْ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَشْمَلُ مَعَ قِلَّةِ لَفْظِه مَعَانيَ كثيرةً؛ ففيه مبالَغةُ الوَجَازةِ، أو موصُولةٌ، صِلَتُها قوله «كتاب الله»[2].

قوله (عِتْرَتِي): بمُثَنَّاةٍ فوقيةٍ بَعْدَها راءٌ.

---

(١) جاء في الشرح (ما إن تمسكتم به)، وما أثبتناه هو الوارد في رواية الشفا كما أثبتها السيوطي والشهاب والقاري وغيرهم.

(٢) صلتها الجملة الشرطية، و(كتاب الله) بدل من (ما).

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: مَعْرِفَتُهُم هِيَ مَعْرِفَةُ مَكَانِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وإذا عَرَفَهُمْ بذلكَ عَرَفَ وُجُوبَ حَقِّهِمْ، وحُرْمَتَهُمْ بِسَبَبِهِ.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ -وذَلِكَ في بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ-، دَعَا فاطِمَةَ وحَسَنًا وحُسَيْنًا، فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ، وعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ هؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا).(١)

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ المُبَاهَلَةِ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا وحَسَنًا وَحُسَيْنًا وَفاطِمَةَ، وقَالَ: (اللهمَّ هؤُلاءِ أَهْلِي).(٢)

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ في عَلِيٍّ: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ(٣)، اللهُمَّ والِ مَنْ وَالاهُ، وعَادِ مَنْ عَادَاهُ).(٤)

وقالَ فيهِ: (لا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُكَ إلا مُنَافِقٌ).(٥)

وقَالَ لِلعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإِيمانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ للهِ ورَسُولِهِ، وَمَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي، وإِنَّما عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ.(٦)

(١) حديث عمر بن أبي سلمة (لمَّا نَزَلَتْ آية: ﴿إنَّما يُريدُ اللهُ﴾...): الترمذيُّ [٣٧٨٧].

(٢) حديث سعد بن أبي وقاص (لمَّا نَزَلَتْ آيَةُ المُبَاهَلَةِ ...): مسلمٌ [٢٤٠٤].

(٣) حديث (مَنْ كنتُ مَوْلاهُ فعَلِيٌّ مَوْلَاهُ): تقدَّم [انظر ص٢٨٤].

(٤) حديث (اللهمَّ وَالِ مَن والاهُ وعَادِ مَن عَادَاهُ): أحمد [٢٣٥٦٣] عن أبي أيوب الأنصاريِّ.

(٥) حديث (لا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ...): مسلمٌ [٧٨] عنه.

(٦) [أخرجه أحمد (١٧٥١٦)، والترمذي (٣٧٥٨)، وابن ماجه (١٤٠)، والنسائي في الكبرى (٨١٢٠)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وقوله: «إنما عم الرجل صنو أبيه» أخرجه مسلم (٩٨٣)].

قوله (وعَنْ عُمَرَ بنِ أَبِي سَلَمَةَ): رَبِيبُه ﷺ وابنُ أَخِيهِ مِنَ الرَّضاعِ، أَرضَعَتْهما ثُوَيْبَةُ مَوْلاةُ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ.

قوله (أَهْلَ البَيْتِ): نُصِبَ على النِّداءِ أو المَدْحِ.

قوله (دَعَا): جَوَابُ «لَمَّا» في قوله «لَمَّا نَزَلَتْ». قوله (فجَلَّلَهم بكِسَاءٍ): -بالجيمِ وتشديدِ اللَّامِ الأُولَى- أيْ غَطَّاهمْ به.

قوله (لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ المُباهَلَةِ): هيَ قولُه تعالى: ﴿فمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ...﴾ الآيةَ [آل عمران: ٦١].

قوله (في عَلِيٍّ): أيْ في شَأنِه.

قوله (اللهُمَّ وَالِ): أي أَحِبَّ. وقوله (وعَادِ): أي أَبْغِضْ.

قوله (إلَّا مُؤْمِنٌ): أيْ كاملُ الإيمانِ.

قوله (ومَنْ آذَى عَمِّي): يَعْنِي العَبَّاسَ. قوله (صِنْوُ أَبِيهِ): -بكسرِ الصادِ المهمَلةِ وسُكونِ النونِ- أيْ مِثْلُ.

وقَالَ لِلْعَبَّاسِ: أُغْدُ عَلَيَّ -يَا عَمِّ- مَعَ وَلَدِكَ، فجَمَعَهُمْ وجَلَّلَهُمْ بمُلَاءَتِه، وقَالَ: (هَذَا عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي، وهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فاسْتُرْهُمْ مِنَ النَّارِ كَسَتْرِي إِيَّاهُمْ)، فأَمَّنَتْ أُسْكُفَّةُ البَابِ وحَوَائِطُ البَيْتِ: آمِينَ، آمِينَ.(١)

وكَانَ يَأْخُذُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ والحَسَنَ، ويَقُولُ: (اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا؛ فَأَحِبَّهُمَا).(٢)

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ارْقُبُوا محمَّدًا في أَهْلِ بَيْتِهِ(٣). وقَالَ أَيْضًا: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي(٤).

وَقَالَ ﷺ: (أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حَسَنًا وحُسَيْنًا)(٥).

وقَالَ: (مَنْ أَحَبَّنِي، وأَحَبَّ هَذَيْنِ -وأَشَارَ إِلَى حَسَنٍ وحُسَيْنٍ-، وأَبَاهُمَا وأُمَّهُمَا، كَانَ مَعِيَ في دَرَجَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ)(٦).

وقالَ ﷺ: مَنْ أَهَانَ قُرَيْشًا أَهَانَه اللهُ(٧)، وقَالَ: قَدِّمُوا قُرَيْشًا ولا تَقَدَّمُوهَا(٨).

وقالَ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ: (لا تُؤْذِينِي في عَائِشَةَ).(٩)

---

(١) حديث أنه قال (اغد علي مع ولدك ...): البيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ٧١)] عن أبي أسيد الساعديِّ.

(٢) حديث (أنه كانَ يأخذُ بيد أسامة والحسن ...): البخاريُّ [٣٧٣٥] عن أسامة.

(٣) حديث: قال أبو بكر (ارْقُبُوا محمَّدًا في أَهْلِ بَيْتِه): البخاري [٣٧١٣، و٣٧٥١].

(٤) حديث (لَقَرَابَةُ رسول الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أَنْ أَصِلَ من قَرَابَتِي): الشيخان [البخاريُّ (٣٧١٢)، ومسلمٌ (١٧٥٩)].

(٥) حديث (أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا): الترمذيُّ [٣٧٧٥] وحسَّنه، وابن ماجه [١٤٤] عن يعلى بن مُرَّة. [وأخرجه عنه أيضًا البخاري في الأدب المفرد (٤٦٣)، وغيره بلفظ: «حسين مني وأنا منه، أحب الله من أحب الحسن والحسين، سبطان من الأسباط»، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨١): «رواه الترمذي باختصار ذكر الحسن»].

(٦) حديث (مَن أحبَّني ....): تقدَّم [انظر ص٤٤١].

(٧) حديث (مَن أَهَانَ قُرَيْشًا أَهَانَهُ اللهُ): الترمذيُّ [٣٩٠٥] عن سعد بن أبي وقَّاص وحسَّنه.

(٨) حديث (قدِّموا قُريشًا ولا تَقدَّموها): البزَّار [٤٦٥] عن عليٍّ، وابن أبي شيبة [٣٢٣٨٦] عن سهل بن أبي خيثمة.

(٩) حديث (لا تُؤْذِيني في عائشة): البخاريُّ [٣٧٧٥] عنها أنه قاله لأُمِّ سَلَمَة.

قولـه (اغْـدُ عَـلَيَّ): أي ائتِنِـي غُـدْوَةَ، أيْ أَوَّلَ النهـارِ. قولـه (مَعَ ولَـدِكَ): أيْ مِـنْ ذكـورٍ وإنـاثٍ.

قولـه (وهـؤلاءِ): أيْ وَلَـدُ العَبَّـاسِ أَوْ مَـنْ مَعَهُـمْ.

قولـه (أُسْكُفَّةُ البـابِ): أيْ عَتَبَتُـه.

قولـه (آمِـينَ آمِـينَ): بالمـدِّ أَشْـهَرُ مِـنَ القَـصْرِ، وهُـوَ اسْـمٌ(١) بُنِـيَ عـلى الفتـحِ، مَعْنَاهُ «اسْـتَجِبْ». اهـ دلجـيٌّ.

قولـه (وَلا تَقَدَّمُوهـا): أيْ في جميـعِ الأمُـورِ بشـهادةِ ظاهـرِ الحديـثِ.

---

(١) اسم فعل أمر.

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ الحارِثِ: رأيْتُ أَبا بَكْرٍ، وجَعَلَ الحَسَنَ على عُنُقِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: بأَبِي، شَبِيهٌ بالنَّبِيِّ ﷺ، وليسَ شَبِيهًا بعَلِيٍّ، وعَلِيٌّ يَضْحَكُ.(١)

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ حَسَنٍ، قالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ في حَاجَةٍ، فقالَ لي: إذا كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فأَرْسِلْ إِلَيَّ، أَو اكْتُبْ؛ فإِنِّي أَسْتَحِي مِنَ الله أَنْ يَرَاكَ على بَابِي.

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قالَ: صَلَّى زَيْدُ بْنُ ثابتٍ على جِنَازَةِ أُمِّهِ، ثُمَّ قُرِّبَتْ إِلَيْهِ بَغْلَتُه لِيَرْكَبَهَا، فجَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فأَخَذَ برِكَابِه، فَقَالَ زَيْدٌ: خَلِّ عَنْه يا ابْنَ عَمِّ رسُولِ الله ﷺ، فقالَ: هكذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بالعُلَماءِ، فقَبَّلَ زَيْدٌ يَدَ ابنِ عبَّاسٍ، وقالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنا ﷺ.(٢)

ورَأَى ابْنُ عُمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَسَامةَ بْنِ زَيْدٍ، فقَالَ: لَيْتَ هَذا عَبْدِي، فقِيلَ له: هُوَ محمَّدُ بْنُ أَسَامةَ، فطَأْطَأَ ابْنُ عُمَرَ رَأْسَهُ، ونَقَرَ بيَدِه إلى الأرْضِ، وقالَ: لَوْ رآهُ رسُولُ الله ﷺ لأَحَبَّهُ.

وقالَ الأَوْزَاعِيُّ: دَخَلَتْ بِنْتُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ صاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، ومَعَها مَوْلًى لها يُمْسِكُ بِيَدِهَا، فقَامَ لها عُمَرُ، ومَشَى إِلَيْها حتّى جعَلَ يَدَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ويَدَاهُ في ثِيَابِه، ومَشَى بها حَتَّى أَجْلَسَها على مَجْلِسِهِ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْها ومَا تَرَكَ لها حاجَةً إلا قَضَاها، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأَرْضَاهُ، وقَدَّسَ رُوحَهُ، وبَرَّدَ ضَرِيحَه.

ولَمَّا فَرَضَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لابْنِهِ عَبْدِ الله في ثَلاثَةِ آلافٍ، ولأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ في ثَلاثةِ آلافٍ وخَمْسِمائةٍ، قالَ عبْدُ الله لأَبِيهِ: لِمَ فَضَّلْتَه؟! فوَالله ما سَبَقَنِي إلى مَشْهَدٍ، فقَالَ لَه: لأَنَّ أَبَاهُ زيدًا كانَ أَحَبَّ إلى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَبِيكَ، وأُسَامَةُ أَحَبُّ إليْهِ مِنْكَ، فآثَرْتُ حِبَّ رَسُولِ الله ﷺ على حِبِّي.(٣)

قوله (خَلِّ عَنْه): أيْ دَعْه وتَباعَدْ عَنْه.

قوله (فقَالَ له): أيْ عُمَرُ لِابنِه.

قوله (فآثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ الله على حُبِّي): بضَمِّ الحَاءِ وكسْرِهَا في المَوْضِعَيْنِ اهـ شُمُنِّيٌّ.

---

(١) حديث عقبة (رأيتُ أبا بكرٍ والحسنُ على عُنُقِه ...): البخاريُّ [٣٥٤٢].

(٢) حديث (صلَّى زيدُ بن ثابت على جَنَازَةٍ ...): الحاكم [٣/ ٤٢٨] وصحَّحه، والبيهقي في «المدخل» [٦٧٠]، والطبرانيُّ [٥/ ١٠٧].

(٣) حديث (لمَّا فَرَضَ عمرُ لابنه ....): الترمذيُّ [٣٨١٣] وحسَّنه.

وبَلَغَ مُعَاوِيَةَ أنَّ كَابِسَ بْنَ رَبِيعَةَ يُشَبَّهُ برسُولِ الله ﷺ، فلَمَّا دَخَلَ علَيْه مِنْ بابِ الدَّارِ قامَ عَنْ سَرِيرِه وتلقَّاهُ، وقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وأقْطَعَهُ المِرْغَابَ؛ لِشَبَهِهِ صُورَةَ رَسولِ الله ﷺ.(١)

ورُوِيَ أنَّ مَالِكًا -رَحِمَهُ اللهُ- لَمَّا ضَرَبَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمانَ، ونَالَ مِنْه مَا نَالَ، وحُمِلَ مَغْشِيًّا عَلَيْه، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ فأَفَاقَ، فقالَ: أُشْهِدُكُمْ أنِّي جَعَلْتُ ضَارِبِي في حِلٍّ، فسُئِلَ بَعْدَ ذلكَ، فقالَ: خِفْتُ أنْ أَمُوتَ، فألْقَى النَّبيَّ ﷺ، فأَسْتَحْيِيَ مِنْهُ أنْ يَدْخُلَ بَعْضُ آلِه النَّارَ بسَبَبِي، وقيلَ: إنَّ المَنْصُورَ أَقَادَهُ مِنْ جعْفَرٍ، فقَالَ له: أَعُوذُ باللهِ، واللهِ ما ارتَفَعَ مِنْهَا سَوْطٌ عَنْ جِسْمِي إلا وقَدْ جَعَلْتُهُ في حِلٍّ؛ لِقَرَابَتِه مِنْ رَسُولِ الله ﷺ.

وقالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: لَوْ أَتَانِي أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وعَلِيٌّ لَبَدَأْتُ بحَاجَةِ عَلِيٍّ قَبْلَهُما؛ لِقُرْبَاهُ مِنْ رسُولِ الله ﷺ، ولَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّماءِ إلَى الأَرْضِ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أُقَدِّمَهُ عَلَيْهِما.

وقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ماتَتْ فُلَانَةُ، لِبَعْضِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ، فسَجَدَ، فقِيلَ لَهُ: أَتَسْجُدُ هَذِه السَّاعةَ؟! فقَالَ: أَلَيْسَ قالَ ﷺ: (إذا رَأَيْتُمْ آيَةً فاسْجُدُوا)، وأيُّ آيَةٍ أعْظَمُ مِنْ ذَهَابِ أَزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ؟!(٢)

وكَانَ أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ يَزُورانِ أُمَّ أَيْمَنَ، مَوْلَاةَ رسُولِ الله ﷺ، وكانَا يَقُولَانِ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يَزُورُهَا(٣). ولَمَّا وَرَدَتْ حَليمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلى النَّبيِّ ﷺ بَسَطَ لها رِدَاءَهُ، وقَضَى حَاجَتَهَا، فلَمَّا تُوُفِّيَ وَفَدَتْ عَلى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، فصَنَعَا بِهَا مِثْلَ ذلكَ(٤).

***

(١) حديث (بَلَغَ معاوية أنَّ كابس بن ربيعة ...): ابن عساكر [٥٠/ ٤].

(٢) حديث (قيل لابن عبَّاسٍ ماتت فلانةٌ ...): أبو داود [١١٩٧] والترمذيُّ [٣٨٩١] وحسَّنه.

(٣) حديث (كان أبو بكرٍ وعمر يزوران أمَّ أيمن ...): مسلمٌ [٢٤٥٤] عن أنسٍ.

(٤) حديث (لمَّا وَرَدَتْ حَليمةُ السَّعْدِيَّة ...): ابن سعدٍ [١/ ١١٤] عن عمر بن سعدٍ مُرسلًا.

قوله (كَابِسَ): بالموحَّدةِ بَعْدَهَا سينٌ مهْمَلةٌ. قوله (المِرْغَابَ)(١): بكسْرِ الميمِ وسُكونِ الراءِ وتخفيفِ الغيْنِ المعْجَمةِ، وفي آخرِه مُوَحَّدةٌ اهـ شُمُنِّيٌّ.

قوله (إنِّي جَعلْتُ ضَارِبِي... إلخ): أي الَّذي أَمَرَ بضَرْبِي.

قوله (أَقَادَهُ): أيْ طَلَبَ أنْ يَقْتَصَّ لَه.

قوله (عَيَّاشٍ): -بفتحِ العَيْنِ المُهْمَلةِ وتشديدِ المُثنَّاةِ التحتيَّةِ، وفي آخرِه سِينٌ معْجَمةٌ- هُوَ ابنُ سَالمٍ الأسَديُّ الخَيَّاطُ المقريُّ أحَدُ الأعلامِ. اهـ شُمنِّيٌّ.

قوله (أُمَّ أَيْمَنَ): واسْمُها بَرَكةُ. قوله (لَمَّا وَرَدَتْ حليمةُ السَّعديةُ): أيْ أُمُّه مِنَ الرَّضَاعةِ. قوله (وقَضَى حَاجَتَهَا): رِعَايةً لِحُرْمةِ [أمومةِ](٢) الرَّضَاعِ.

قوله (وَفَدَتْ): أيْ أُمُّه أوْ أُخْتُهُ.

***

(١) قال الشهاب: اسم أرض بمرو الشاهجان، أو قرية بهراة، كانت ذات غلة كثيرة.

(٢) جاء في الشرح «لحرمة أخوة الرضاع» وهو ما يناسب ما جاء في سيرة الدمياطي أن الواردة عليه إنما هي ابنتها الشيماء أخته من الرضاعة.

فَصْلٌ [في أنَّ توقيرَ أصْحابِهِ وبِرَّهُم مِنْ تَوْقيرِهِ وبِرّهِ ﷺ]

ومِنْ تَوْقيرِهِ وبِرِّهِ ﷺ تَوْقيرُ أَصْحابِهِ وبِرُّهُمْ، ومَعْرِفَةُ حَقِّهِمْ، والاقتداءُ بِهِمْ، وحُسْنُ الثَّناءِ عَلَيْهِمْ، والاسْتِغْفارُ لَهُم، والإِمْساكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ومُعاداةُ مَنْ عاداهُمْ، والإِضْرابُ عَنْ أَخْبارِ المُؤَرِّخينَ وجَهَلَةِ الرُّواةِ وضُلَّالِ الشِّيعَةِ والمُبْتَدِعينَ، القادِحَةِ في أَحَدٍ مِنْهُمْ، وأَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ فيما نُقِلَ مِنْ مِثْلِ ذلكَ فيما كانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الفِتَنِ أَحْسَنُ التَّأْويلاتِ، ويُخَرَّجَ لَهُمْ أَصْوَبُ المَخارِجِ؛ إذْ هُمْ أَهْلُ ذلِكَ، ولا يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بسُوءٍ، ولا يُغْمَصَ عَلَيْهِ أَمْرٌ، بَلْ تُذْكَرُ حَسَناتُهُمْ وفَضائِلُهُمْ وَحَميدُ سِيرَتِهِمْ، ويُسْكَتُ عَمَّا وراءَ ذلِكَ، كَما قالَ ﷺ: (إذا ذُكِرَ أَصْحابي فأَمْسِكُوا)(1).

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ...﴾ إلى آخِرِ السُّورَةِ [الفتح: ٢٩].

وَقالَ: ﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) حديث (إذا ذُكِرَ أصحابي فَأَمسِكُوا): الطبرانيُّ [١٠/١٠٤٤٨]، وابن أبي أسامة [٧٤٢] عن ابن مسعودٍ.

قوله (ومِنْ توقيرِه): أي تعظيمِه. قوله (وبِرِّه): أيْ ومِن إحسانِه ﷺ (توقيرُ أصْحابِه وبِرُّهمْ). وقوله (ومعرفةُ حَقِّهمْ): أيْ حقوقِهم مِن فَتْحِ البِلادِ ودَفْعِ أهْلِ الفسادِ [وإيصال أنواع العلوم إلى أصناف العباد](1).

قوله (وحُسْنُ الثَّناءِ علَيْهِمْ): أي إجمالًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عَنْه﴾ [التوبة: ١٠٠].

قوله (والإمْساكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ): أيْ ما وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشاجُرِ والاختلافِ الصّادرِ عَنْهمْ باجتِهادٍ، فلِمُصيبِهمْ أجْرانِ ولِمُخطِئِهم أَجْرٌ واحدٌ.

قوله (ومُعاداةُ مَنْ عاداهم): أيْ مِن الرافضةِ والنّاصبةِ. قوله (المُؤَرِّخينَ): -بفتحِ الهَمزةِ وكَسْرِها- أيْ عَنْ تَقَوُّلِ أصْحابِ التّواريخِ فإنَّ غالِبَهُمْ غَيْرُ صَحيحٍ بَلْ كَذِبٌ صَريحٌ. وقوله (والمُبتَدِعينَ): أيْ في الدِّينِ كبَعْضِ المعتزلةِ.

قوله (وأَنْ يُلْتَمَسَ): بصيغةِ المجهولِ. قوله (أَحْسَنُ التأويلاتِ): إذْ كُلُّهمْ عُدُولٌ بشَهادةِ الله لَهم حيثُ قالَ: ﴿وكذلكَ جَعَلْناكم أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أيْ عُدُولًا. وقوله (ويُخَرَّجَ لَهُم): -بتشديدِ الراءِ المفتوحةِ- أيْ يُحْمَلَ لِأَفعالِهمْ. وقوْلُهُ (أَصْوَبُ المَخارِجِ): أي المَحامِلِ. قوله (ولا يُغْمَصَ): -بصَادٍ مُهْمَلَةٍ على صيغةِ المجهُولِ- أي لا يُعابَ.

قوله (أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم): أي بالنِّسْبةِ إلى الأبرارِ، وسَائرِ المؤمِنينَ ولَوْ مِنَ الفُجّارِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ على المؤمِنينَ أَعِزَّةٍ علَى الكافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله (مِنَ المُهاجِرينَ): وهُمْ مَنْ أَسْلَمَ قَبْلَ الهِجرةِ. وقوله (والأنصارِ): أَهْلُ بَيْعَةِ العَقَبةِ الأُولَى.

(١) تمام العبارة كما عند القاري.

وقـال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ...﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣].

حدَّثَنا القاضي أبُو عليٍّ، حدَّثنا أبُو الحُسَيْنِ وأبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ، حدَّثنا أبُو يَعْلَى، حَدَّثَنا السِّنْجِيُّ، حَدَّثَنا محمَّدُ بنُ مَحْبُوبٍ، حدَّثَنا التِّرْمِذِيُّ، حدَّثَنا الحُسَيْنُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حدَّثَنا سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ زائِدةَ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي، أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ).[(١)]

وقالَ: (أَصْحَابِي كالنُّجُومِ بأَيِّهِمُ اقتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ)[(٢)]. وعَنْ أَنَسٍ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَثَلُ أَصْحابِي مَثَلُ المِلْحِ في الطَّعامِ، لا يَصْلُحُ الطَّعَامُ إلاَّ بِهِ).[(٣)]

وقالَ: (اللهَ اللهَ في أَصْحابِي؛ لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا، فمَنْ أَحَبَّهُمْ فبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، ومَنْ أَبْغَضَهُمْ فبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، ومَنْ آذاهُمْ فَقَدْ آذاني، ومَنْ آذاني فقَدْ آذَى اللهَ، ومَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ).[(٤)]

(١) حديث حذيفة (اقْتَدُوا باللَّذين من بَعْدي أبو بكرٍ وعمر..): أسنده من طريق الترمذيِّ [٣٦٦٢]، وأخرجه أيضًا ابن ماجه [٩٧].

(٢) حديث (أصحابي كالنُّجوم بأيِّهم اقْتَدَيْتُم اهْتَدَيْتُم): عبد بن حميد [٧٨٣] عن ابن عمر.

(٣) حديث أنس (مثل أصحابي كمَثَلِ المِلْحِ في الطَّعام ...): البزَّار [٦٦٩٨]، وأبو يعلى [٢٧٦٢].

(٤) حديث (الله الله في أصحابي ...): تقدَّم [انظر ص٤٤٨].

وقوله (وقالَ: لَقَدْ رَضِيَ... إلخ): وفي نسْخَةٍ «وَقالَ تعَالى: لَقَدْ... إلخ».

قوله (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرةِ): وتُسَمَّى «بَيْعَةَ الرِّضْوانِ».

وقوله (ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْه): مِنْ قِتالِهم أعداءَ الله، وثَباتِهم مَعَ الرَّسُولِ.

قوله (حَدَّثَنا الحُسَيْنُ): وفي نسخةٍ «الحَسَنُ». قوله (الصَّبَّاحِ): -بتشديدِ المُوحَّدةِ- وهُوَ البَزَّارُ -بِراءٍ في آخِرِه.

قوله (ابنِ عُمَيْرٍ): بالتصْغيرِ. وقوله (عَنْ رِبْعِيٍّ): بكَسْرِ الرَّاءِ وسُكونِ المَوحَّدةِ وكسْرِ العَيْنِ المهْملَةِ فبتشديدِ التحتيَّةِ.

وقوله (ابنِ حِرَاشٍ): -بكسْرِ الحاءِ المهمَلةِ وتخفيفِ الراءِ، وآخِرُه شِينٌ معجَمةٌ- هُوَ أبو مَرْيَمَ العَبْسيُّ، حُجَّةٌ قانِتٌ لله، لَمْ يَكذِبْ قَطُّ.

قالَ المُلَّا: وحَلَفَ لا يَضْحَكُ حَتَّى يَعْلَمَ أينَ مصيرُه؛ فما ضَحِكَ إلَّا بَعْدَ مَوْتِه، تُوُفِّيَ عَنْ أربعٍ ومائةٍ.

قوله (يوشِكُ أنْ يَأخُذَه): -بكَسْرِ الشّينِ وتُفتَحُ[(١)]- أيْ يَقْرُبُ أنْ يَأخُذَه، ولعَلَّ الحديثَ مُقْتبَسٌ مِنْ مجمُوعِ قوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ ورسُولَه لَعَنَهمُ اللهُ في الدُّنْيا والآخِرةِ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٥٧].

(١) قال الجوهري في «الصحاح»: «والعامة تقول: يوشَك بفتح الشين، وهي لغة رديئة»، وجزم الحريري بعدم صحتها؛ قال في «الدرّة»: «ويَقُولُونَ: يُوشَك أن يفعل كَذا بفَتْح الشين، والصَّواب فِيهِ كسرهَا، لِأَن المَاضِيَ مِنْهُ «أوشَكَ»، فَكَانَ مضارعه «يُوشِك».

وقَالَ: (لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ).(١)

وَقَالَ: (مَنْ سَبَّ أَصْحابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والمَلائكةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا ولا عَدْلًا).(٢)

وقَالَ: (إذا ذُكِرَ أَصْحابِي فأَمْسِكُوا)، وقَالَ في حَدِيثِ جَابِرٍ: (إنَّ اللهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي على جَمِيعِ العَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ، واخْتَارَ لي مِنْهم أرْبعةً: أَبَا بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمَانَ، وعَلِيًّا، فجَعَلَهُمْ خَيْرَ أَصْحَابِي، وفِي أَصْحَابِي كُلِّهِمْ خَيْرٌ).(٣)

وقَالَ: (مَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحَبَّنِي، ومَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي).(٤)

قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وغَيْرُهُ: مَنْ أَبْغَضَ الصَّحابَةَ وسَبَّهُمْ فلَيْسَ لَه في فَيْءِ المُسْلِمِينَ حَقٌّ، ونَزَعَ بآيَةِ الحَشْرِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ الآيةَ [الحشر: ١٠]، وقَالَ: مَنْ غاظَهُ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ فهُوَ كافِرٌ؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ: خَصْلَتَانِ مَنْ كانَتَا فيهِ نَجَا: الصِّدْقُ، وحُبُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: مَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، ومَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَوْضَحَ السَّبِيلَ، ومَنْ أَحَبَّ عُثْمَانَ فقَدِ اسْتَضَاءَ بِنُورِ الرَّحْمنِ،

(١) حديث (لا تَسُبُّوا أصحابي ...): مسلمٌ [٣٦٧٣، وأخرجه البخاريُّ (٣٦٧٣)] عن أبي سعيدٍ.

(٢) حديث (مَن سَبَّ أصحابي ...): الديلميُّ عن عويم بن مساعدة، وأبو نعيم في «الحلية» [٣/ ٣٥٠] عن جابرٍ.

(٣) حديث جابر (إنَّ اللهَ اختارَ أصحابي ...): البزّار [المجمع ١٠/ ١٦]، والديلميُّ بهذا اللفظ.

(٤) حديث (مَن أحبَّ عمر فقد أحبني ...): الطبرانيُّ في «الأوسط» [٦٧٢٦] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ بسندٍ حسنٍ.

قولـه (لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي): قَالَ النَّوَوِيُّ: وهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الفَوَاحِشِ، ويُعَزَّرُ عِنْدَ الجُمْهُورِ.

قولـه (مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ): وفي نُسْخَةٍ صحيحَةٍ «مُدَّ أصحابِي»، وهُوَ بضَمٍّ وتشديدٍ؛ وخُصَّ بالذِّكْرِ لِأَنَّه أَقَلُّ ما كانُوا يَتَصَدَّقُونَ بِه.

قولـه (ولا نَصِيفَه): -بفتحِ النُّونِ وكسرِ الصَّادِ- لِمَا قارَنَه مِنْ صِدْقِ النِّيَّةِ وصَفاءِ الطَّوِيَّةِ مَعَ شِدَّةِ الحاجَةِ.

قولـه (صَرْفًا): -بفتحِ الصَّادِ وسُكونِ الرَّاءِ- أَيْ تَوْبَةً أو نافلةً. وقوْلـه (ولا عَدْلًا): -بفتحِ العَينِ وسُكونِ الدَّالِ- أَيْ فِدْيَةً أو فريضةً.

وقولـه (فلَيْسَ لَه في فَيْءِ المُسْلِمِينَ حَقٌّ): أَيْ فِيما يُنالُ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ.

قولـه (ونُزِعَ): -بنونٍ مضمومةٍ فزايٍ فمُهمَلةٍ؛ بصيغةِ المجهولِ- أَيْ بَعُدَ عَنِ الفَيْءِ؛ فلا حَقَّ لَه فيه.

قولـه (مَنْ غاظَه أَصْحابُ مُحَمَّدٍ فهُوَ كافرٌ): أَيْ حقيقةً إنْ كانَ ذلكَ بُغْضًا في الإسْلامِ.

وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى، وَمَنْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ، وَمَنِ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَخَافُ أَنْ لَا يَصْعَدَ لَهُ عَمَلٌ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى يُحِبَّهُمْ جَمِيعًا وَيَكُونَ قَلْبُهُ لَهُمْ سَلِيمًا.

وَفِي حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَاضٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ؛ فَاعْرِفُوا لَهُ ذَلِكَ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَاضٍ عَنْ عُمَرَ وَعَنْ عَلِيٍّ وَعَنْ عُثْمَانَ وَعَنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ؛ فَاعْرِفُوا لَهُمْ ذَلِكَ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لِأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَةِ، أَيُّهَا النَّاسُ، احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي وَأَخْتَانِي، لَا يُطَالِبَنَّكُمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَظْلِمَةٍ؛ فَإِنَّهَا مَظْلِمَةٌ لَا تُوهَبُ فِي القِيَامَةِ غَدًا).(١)

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْمُعَافَى بْنِ عِمْرَانَ: أَيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ مِنْ مُعَاوِيَةَ؟ فَغَضِبَ وَقَالَ: لَا يُقَاسُ بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، مُعَاوِيَةُ صَاحِبُهُ وَصِهْرُهُ وَكَاتِبُهُ وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِ اللهِ.

وَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِجِنَازَةِ رَجُلٍ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: (كَانَ يُبْغِضُ عُثْمَانَ فَأَبْغَضَهُ اللهُ).(٢)

وَقَالَ ﷺ فِي الأَنْصَارِ: (اعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ).(٣)

قوله (مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى): وفي نسخةٍ «فقدِ استَمسَكَ».

قوله (وأَخَافُ أَنْ لا يَصْعَدَ): -بفتحِ أوَّلِه ويُضَمُّ- أي لا يَطْلَعَ له عَمَلٌ إلى السَّماءِ.

قوله (في أَصْحَابِي وأَصْهَارِي): أي خُصُوصًا وهُمْ آباءُ زَوجاتِه أبو بَكرٍ وعُمَرُ وأبو سُفيانَ.

قوله (وأَخْتَانِي): أيْ أزواجِ بَنَاتِي عُثْمانَ وعليٍّ وأبو العَاصِ.

قوله (لا يُطالِبَنَّكم أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَظْلِمَةٍ): بكسرِ اللامِ؛ مِنَ الظُّلْمِ وهُوَ الجَوْرُ، وبالفتحِ اسْمُ ما يأخُذُه الظالمُ.

قوله (لِلمُعَافَى): -بفتحِ الفاءِ- ابنُ عِمْرانَ.

قوله (وصِهْرُه... إلخ): أَخٌ لِأُمِّ حَبيبَةَ؛ مِنْ أُمَّهاتِ المؤمنينَ.

قوله (اعفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ): أي عَثَراتِهم، (واقبَلُوا مِن مُحْسِنِهِمْ): أي كمالاتِهِمْ.

---

(١) حديث خالد بن سعيد (أيها الناس إني راضٍ ....): الطبرانيُّ [٩١١١]، وابن منده [«معرفة الصحابة» (ص ٦٢٢)] من طريق سهل بن يوسف بن سهل بن مالك الأنصاري ابن أخي كعب بن مالك عن أبيه عن جدِّه، وقال ابن منده غريب لا يعرف إلَّا من هذا الوجه.

(٢) حديث (أُتي بجنازة رجلٍ فلم يُصَلِّ عليه ...): الترمذيُّ [٣٧٠٩] عن جابرٍ وضعَّفه.

(٣) حديث في الأنصار (اعفُوا عن مُسيئِهم ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٨٠١)، ومسلمٌ (٢٥١٠)] عن أنسٍ وابن عبَّاس نحوه.

وقَالَ: (احْفَظُونِي في أَصْحَابِي وأَصْهَارِي؛ فإنَّه مَنْ حَفِظَنِي فِيهِمْ حَفِظَه اللهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ومَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِيهِمْ تَخَلَّى اللهُ عَنْهُ، ومَنْ تَخَلَّى اللهُ عَنْه يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ).(١)

وعَنْهُ ﷺ أَنَّه قَالَ: (مَنْ حَفِظَنِي في أَصْحَابِي كُنْتُ لَهُ حَافِظًا يَوْمَ القِيَامَةِ)(٢)، وقَالَ: (مَنْ حَفِظَنِي في أَصْحَابِي وَرَدَ عَلَيَّ الحَوْضَ، ومَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي في أَصْحَابِي لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الحَوْضَ ولَمْ يَرَنِي إلا مِنْ بَعِيدٍ)(٣).

قَالَ مالِكٌ: هَذَا النَّبِيُّ ﷺ، مُؤَدِّبُ الخَلْقِ، الَّذي هَدَانا اللهُ بِهِ وَجَعَلَه رحْمَةً لِلعَالَمِينَ، يَخْرُجُ في جَوْفِ اللَّيْلِ إلى البَقِيعِ(٤)، فَيَدْعُو لَهُمْ ويَسْتَغْفِرُ كالمُوَدِّعِ لَهُمْ، وبذلك أَمَرَهُ اللهُ، وأَمَرَ النَّبِيُّ بِحُبِّهِمْ ومُوَالاتِهِمْ ومُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُمْ.

ورُوِيَ عَنْ كَعْبٍ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ محمَّدٍ إلا لَهُ شَفَاعَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ(٥)، وطَلَبَ رَجُلٌ مِنَ المُغِيرَةِ بْنِ نَوْفَلٍ أَنْ يَشْفَعَ له يَوْمَ القِيَامَةِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ: لَمْ يُؤْمِنْ بِالرَّسُولِ مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ أَصْحَابَه، ولَمْ يُعِزَّ أَوَامِرَهُ ﷺ.

***

قولـه (وأَصْهَارِي): أيْ خُصُوصًا، ولَعَلَّه تَغْلِيبٌ يَشْمَلُ الأَخْتَانَ أَيْضًا، جَمْعُ «خَتَنٍ»، أقارِبُ زَوْجِ الرَّجلِ، والأَحْمَاءُ أقارِبُ زَوْجِ المرأةِ، والأَصْهارُ يَعُمُّ الجميعَ.

قوله (تَخَلَّى اللهُ عَنْه): أيْ تَبَرَّأَ مِنْه.

قوله (إلَّا له شَفاعةٌ يَوْمَ القِيامَةِ): أيْ لِمَنْ بَيْنَه وبَيْنَه زِيادةُ المَوَدَّةِ.

***

(١) حديث (احفظوني في أصحابي ...): أبو نعيم [معرفة الصحابة ٥٤٣٩] والديلمي عن عياض الأنصاري، [وأخرجه عنه أيضًا الطبرانيُّ (١٣/ ٣٦٩)]، وابن منيعٍ [«معرفة الصحابة» (ص ٦٢٢)] عن أنسٍ.

(٢) حديث (مَن حَفِظَني في أصحابي كنتُ له حافِظًا يومَ القِيامَةِ): سعيد بن منصور في سننه عن عطاء بن أبي رباح مرسلًا. [وأخرجه عن عطاء أيضا: أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (١٠)].

(٣) حديث (مَن حَفِظَني في أصحابي ورَدَ عَلَيَّ الحوضَ ...): الطبرانيُّ [١٢/ ٢٨٣] عن ابن عمر بسندٍ ضعيفٍ.

(٤) حديث (أنه خَرَجَ في جَوْفِ الليلِ إلى البقيع ...): مسلمٌ [٩٧٤] عن عائشة.

(٥) حديث كعب (ليس أحد من أصحاب محمد ﷺ إلا له شفاعة يوم القيامة): ابن سعدٍ [٥/ ٢٣] بلفظ (ليس مؤمن من آل محمَّدٍ...).

فَصْلٌ [في أنَّ إعظامَ جميعِ أسْبابِه، وإكرامَ مَشاهِدِه وأمكِنَتِه مِنْ إعظامِه وإكْبارِه ﷺ]

وَمِـنْ إعْظامِـهِ وإكْبَـارِهِ إعْظَـامُ جَمِيـعِ أَسْـبابِه، وإكْـرَامُ مَشَـاهِدِهِ وأَمْكِنَتِـهِ مِـنْ مَكَّـةَ والمَدِينَـةِ، ومَعَاهِـدِهِ ومـا لَمَسَـهُ ﷺ، أَوْ عُـرِفَ بِـهِ.

ورُوِيَ عَـنْ صَفِيَّـةَ بِنْـتِ نَجْـدَةَ، قالَـتْ: كانَ لِأَبي مَحْذُورَةَ قُصَّـةٌ في مُقَدَّمِ رأْسِـهِ، إذا قَعَدَ وأَرْسَـلَها أَصَابَـتِ الأَرْضَ، فقِيلَ لَـهُ: أَلَا تَحْلِقُهَـا؟! فَقَـالَ: لَمْ أَكُـنْ بالَّـذي أَحْلِقُهـا وقَـدْ مَسَّـهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِيَـدِه.(١)

وكانَـتْ في قَلَنْسُـوَةِ خالِـدِ بْـنِ الوَلِيـدِ شَـعَرَاتٌ مِـنْ شَـعْرِهِ ﷺ، فسَـقَطَتْ قَلَنْسُـوَتُهُ في بَعْضِ حُرُوبِـه، فشَـدَّ عَلَيْهـا شَـدَّةً، أَنْكَرَ عَلَيْهِ أصْحـابُ النَّبِيِّ ﷺ كَثْرَةَ مَـنْ قُتِـلَ فِيهَـا، فقَـالَ: لَمْ أَفْعَلْهـا بِسَـبَبِ القَلَنْسُـوَةِ، بَـلْ لِما تَضَمَّنَتْـهُ مِـنْ شَـعْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِئَـلَّا أُسْـلَبَ بَرَكَتَهَـا، وتَقَـعَ في أَيْـدِي المُشْرِكِـينَ.(٢)

(١) حديث (كان لأبي محذورة قصة ...): [أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٨٩) عن صفية بنت مَجْزَأَةَ].

(٢) حديث (كان في قلنسوة خالد بن الوليد ...): أبو يعلى [٧١٨٣].

قولـه (وَمِـنْ إعظامِـهِ): أيْ تَعْظِيـمِ قَـدْرِه، وقولـه (وإكبـارِه): أيْ إعْظـامِ أَمْـرِه. وقولـه (إعظـامُ جَمِيـعِ أسْـبابِه): أي أَسْبابِ وُصْلَتِـه ومَوَدَّتِـه، وفي حديـثٍ: (كُلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ مُنقَطِـعٌ إلَّا نَسَبي)(١).

قولـه (وأَمْكِنَتِـه مِـنْ مَكَّـةَ): كبَيْـتِ خديجـةَ مَهْبَـطِ الوَحْـيِ، ودارِ الأَرْقَـمِ، وغَـارِ حِـرَاءٍ وثَـوْرٍ. قولـه (أَوْ عُـرِفَ بِـه): -بصيغـةِ المجهـولِ- أيْ مِمَّـا يُمْكِـنُ إكرامُـه الآنَ.

قولـه (نَجْـدَةَ): بفتـحِ النّـونِ وسُـكونِ الجيمِ فـدالٍ مهمَلـةٍ. قولـه (لِأَبِي مَحْذُورةَ): هُـوَ مُؤَذِّنُـه -عليْـه الصَّـلاةُ والسَّـلامُ. قولـه (قُصَّـةٌ في مُقَـدَّمِ رأْسِـهِ): -بضـمِّ القـافِ وتشـديدِ الصَّـادِ المُهمَلـةِ- مـا أَقْبَـلَ عـلى الجَبْهَـةِ مِـنْ شَـعْرِ الـرَّأْسِ. قولـه (أَلَا تَحْلِقُهـا): أيْ أَلَا تُقَصِّرُهـا بحَلْـقٍ أوْ بقَـصٍّ. قولـه (لَمْ أَكُـنْ بالَّـذِي أَحْلِقُهـا): آثَـرَ التكلُّـمَ رعايـةً لِلمَعْنَـى عـلى الغَيْبَـةِ باعتبـارِ المَبْنَـى مَـعَ أَنَّهـا هُنَـا هِـيَ القِيـاسُ بِدِلالـةِ إعـادةِ الضمـيرِ إلى «الَّـذي».

قولـه (في قَلَنْسُـوَةِ خالـدٍ): بفَتحتَيـن فسُـكونِ النـون وضـمِّ [السينِ وفتـحِ] الـواوِ. قولـه (شَـعَرَاتٌ مِـنْ شَـعْرِه): الأوَّلُ محـرَّكُ العَيْنِ، والثـاني سَـاكنُها، ويُـرْوَى «مِـنْ شَـعَراتِه».

قولـه (فشَـدَّ عَلَيْهـا شَـدَّةً): -بفتـحِ الشـينِ- أيْ رَبْطَـةً طالَـتْ فيهـا المُـدَّةُ. قولـه (أَنْكَـرَ علَيْـه... إلـخ): وفي نسـخةٍ «حَتَّـى أَنْكَـرَ... إلـخ». قولـه (فقـالَ): أيْ خالـدٌ معتـذِرًا.

قولـه (لِئَـلَّا أُسْـلَبَ): -بصيغـةِ المجهـولِ- أي لِئَـلَّا أُنْـزَعَ. وقولـه (بَرَكَتَهـا): -بالنَّصـبِ- مفعُـولٌ ثـانٍ.

(١) أخرجـه الطـبرانيُّ في «الكبـير» (٣/ ٤٥)، و«الأوسـط» (٥٦٠٦)، وأبـو نعيـم في «الحليـة» (٧/ ٣١٤) عـن جابر أنـه سـمع عمـر بـن الخطـاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقـول للنـاس حـين تـزوج ابنـة عـليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ألا تُهنُّـوني؟!، سـمعتُ رسـولَ الله ﷺ يقـول: (ينقطـعُ يـومَ القيامـة كلُّ سَـبَبٍ ونَسَـب إلَّا سَـبَبِي ونسـبِي). وقـال الحافـظ الهيثمـيُّ في «المجمـع» (٩/ ١٧٣): «رجالـه رجـال الصحيـح، غـير الحسـن بـن سـهل وهـو ثقـةٌ»، وصحَّحـه أيضًـا التـاج السـبكيُّ في أول «طبقـات الشـافعية الكـبرى» (١/ ١٩٢)، وللحديـث مـع هـذا شـواهد عـن عمـر وابـن عبَّـاسٍ والمسـور بـن مخرمـة وعبـد الله بـن الزبـير وعبـدالله بـن عمـر وغيرهـم.

ورُؤِيَ ابْنُ عُمَرَ واضِعًا يَدَهُ على مَقْعَدِ رسولِ الله ﷺ مِنَ المِنْبَرِ، ثُمَّ وَضَعَهَا على وَجْهِهِ.(١)

ولِهَذا كانَ مالكٌ -رَحِمَه اللهُ تعالى- لا يَرْكَبُ دَابَّةً بالمَدِينَةِ، وكانَ يَقُولُ: أَسْتَحْيِي مِنَ الله أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً فيهَا رَسُولُ الله ﷺ بحَافِرِ دَابَّةٍ.

ويُرْوَى أنَّه وَهَبَ لِلشَّافِعِيِّ كُرَاعًا كَثِيرًا عِنْدَه، فقَالَ الشَّافِعِيُّ: أَمْسِكْ مِنْهَا دَابَّةً، فأَجَابَه بمِثْلِ هَذا الجَوَابِ.

وقَدْ حَكَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّلَمِيُّ عَنْ أَحْمدَ بْنِ فَضْلَوَيْهِ الزَّاهِدِ، وكانَ مِنَ الغُزَاةِ الرُّمَاةِ أنَّه قَالَ: مَا مَسِسْتُ القَوْسَ بيَدِي إلا على طَهَارَةٍ مُنْذُ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ القَوْسَ بيَدِه.

وقَدْ أَفْتَى مَالِكٌ فِيمَنْ قَالَ: تُرْبَةُ المَدِينَةِ رَدِيئَةٌ، يُضْرَبُ ثَلاثِينَ دِرَّةً، وأَمَرَ بحَبْسِهِ وكَانَ لَهُ قَدْرٌ، وقَالَ: مَا أَحْوَجَهُ إلى ضَرْبِ عُنُقِهِ!! تُرْبَةٌ دُفِنَ فيهَا النَّبِيُّ ﷺ يَزْعُمُ أنَّهَا غَيْرُ طَيِّبَةٍ!!

وفي الصَّحِيحِ أنَّه ﷺ قالَ في المدينةِ: (مَنْ أَحْدَثَ فيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا ولاَ عَدْلًا).(٢)

---

(١) حديث (رُؤِيَ ابن عمر واضعًا يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر): ابن سعد [١/ ٢٥٤] عن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عبد القاري أنه نظر ... فذكره.

(٢) حديث (من أحدث فيها حدثا...): الشيخان عن أنس [البخاري (٧٣٠٦)، ومسلم (١٣٦٦)] وعلي [البخاري (٧٣٠٠)، ومسلم (١٣٧٠)].

قوله (ورُؤِيَ ابنُ عُمَرَ): -مَاضٍ مجهُولٌ؛ مِنَ الرُّؤيةِ- أيْ أُبْصِرَ.

قوله (علَى مَقْعَدِ رسُولِ الله): أي مَوضِعِ قُعودِه.

قوله (أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً): أيْ جُملةَ تُرابٍ دُفِنَ فيهَا رسُولُ الله (بحافِرِ دابَّةٍ).

قوله (كُرَاعًا): -بضَمِّ أوَّلِه- أيْ خَيْلًا.

قوله (السُّلَمِيُّ): بضمِّ السِّينِ وفتْحِ اللّامِ. قوله (فَضْلُويَهْ): بضمِّ اللامِ، وهوَ نَظيرُ «نِفْطُويَهْ».

قوله (مِنَ الغُزَاةِ الرُّمَاةِ): -بضمِّ أوَّلِهما؛ جَمعُ «الغَازِي والرامِي»- يَعْنِي مِمَّنْ يُحْسِنُهما.

قوله (ما مَسِسْتُ): بكسْرِ السِّينِ الأولى وقَدْ تُفْتَحُ.

وقوله (فيمَنْ قالَ: تُربةُ المَدينةِ رَدِيئةٌ): ويُرْوَى «إنَّ تُرْبَةَ»، و(رَدِيئةٌ) -بالهَمزِ وقَدْ تُشَدَّدُ، وهِيَ «فَعيلةٌ» مِنَ الرَّداءةِ- أيْ خبيثةٌ.

وقوله (يُضْرَبُ): بصيغةِ المجهُولِ، وفي نسخةٍ «بِضَرْبِ»؛ بالباءِ السببيةِ والصيغةِ المصدريةِ.

قوله (دِرَّةً): -بكسرِ الدالِ وتشديدِ الراءِ- آلةُ التعزيرِ، ونَصبُها على التمييزِ.

قوله (يَزْعُمُ أنَّها غَيْرُ طَيِّبَةٍ): أيْ مَعَ أنَّه ﷺ سَمَّى المَدينةَ «طابةَ وطِيبَةَ».

قوله (مَنْ أَحْدَثَ فيها حَدَثًا): أيْ أَمْرًا مُبتدَعًا مُنْكَرًا لا يُعْرَفُ في السُّنّةِ.

قوله (آوَى): -بالمَدِّ ويقصَرُ- أيْ ضَمَّ إليْه أو إلَيْها.

وقوله (مُحْدِثًا): بكسْرِ الدَّالِ اسمُ فاعلٍ؛ أيْ جانيًا بأنْ أجارَهُ ونَصرَه على خَصْمِه، أوْ بفتحِها فيكُونُ نفْسَ الأمْرِ المبتَدَعِ.

وحُكِيَ أَنَّ جَهجَاهًا الغِفَارِيَّ أَخَذَ قَضِيبَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَدِ عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتَنَاوَلَهُ؛ لِيَكْسِرَهُ على رُكْبَتِهِ، فصَاحَ به النَّاسُ، فأَخَذَتْه الآكِلَةُ في رُكْبَتِهِ فقطَعَهَا ومَاتَ قَبْلَ الحَوْلِ.

وقالَ ﷺ: (مَنْ حَلَفَ على مِنْبَرِي كاذِبًا فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ).(١)

وحُدِّثْتُ أَنَّ أَبَا الفَضْلِ الجَوْهَرِيَّ لَمَّا وَرَدَ المدينَةَ زَائِرًا، وَقَرُبَ مِنْ بُيُوتِهَا تَرَجَّلَ وَمَشَى بَاكِيًا، مُنْشِدًا:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا
فُؤَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبَّا
نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً
لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا

وحُكِيَ عَنْ بَعْضِ المُرِيدِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّه لَمَّا أَشْرَفَ على مَدِينَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْشَأَ يَقُولُ مُتَمَثِّلًا:

رُفِعَ الحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرِي
قَمَرٌ تُقَطَّعُ دُونَهُ الأَوْهَامُ

(١) حديث (مَن حَلَفَ على مِنبري كاذبًا ...): مالك [كتاب الأقضية (١٠)]، وأبو داود [٣٢٤٦]، والنَّسائيُّ [الكبرى (٥٩٧٣)]، وابن ماجه [٢٣٢٥] عن جابر، وابن ماجه [٢٣٢٦] عن أبي هريرة.

قوله (**جَهْجَاهًا**): بفتحِ أوّلِه، وفي نسخةٍ «جَهْجاه» بلا تنوينٍ.

وقوله (**الغِفَارِيّ**): -بكَسْرِ أوّلِه- قال الحلبيُّ: وهَذا هوَ ابنُ مسْعُودٍ، وقالَ أبو عمرو هُوَ ابنُ سَعْدٍ، وقال الطّبريُّ: المحدِّثون يَزِيدون فيه الهاءَ، والصَّوابُ «جَهْجَا».

قوله (**الآكِلَةُ**): -بِمَدٍّ وكسْرِ كافٍ- مَرَضٌ معْروفٌ.

قوله (**فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ**): تهديدٌ شديدٌ، ووَعيدٌ أكيدٌ.

قوله (**وحُدِّثْتُ**): -بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الدّالِ- أيْ حُكِيَ لي.

قوله (**وقَرُبَ مِنْ بُيُوتِها**): بضمِّ الباءِ وكَسْرِها. وقولُهُ (**تَرَجَّلَ**): -بتشديدِ الجيمِ- أيْ نَزَلَ عَنْ دابَّتِه.

قوله (**رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنا**): أي أَثَرَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا. وقوله (**فُؤَادًا**): أيْ قَلْبًا.

قوله (**عَنِ الأَكْوارِ**): جَمْعُ «كُورٍ» -بالضَّمِّ- رَحْلُ النَّاقةِ بأدَاتِه، كالسَّرْجِ بآلَتِه لِلفَرَسِ.

قوله (**لِمَنْ بانَ**): أيْ ظَهَرَ رَسْمُه. وقوله (**أَنْ نُلِمَّ**): أيْ نَنْزِلَ.

وقوله (**رَكْبًا**): مِنْ أسْماءِ الجَمْعِ كنَفَرٍ ورَهْطٍ، أو جَمْعُ «راكِبٍ» كَصَحْبٍ وصاحِبٍ.

قوله (**وحُكِيَ عَنْ بَعْضٍ**): وفي روايةٍ «ورُوِيَ». وقوله (**أَنْشَأَ**)(١): ويُرْوَى «أَنْشَدَ».

قوله (**رُفِعَ الحِجَابُ لَنَا**): -بصيغةِ المجهُولِ- أيْ كُشِفَ الَّذي كانَ بَيْنَنَا وبيْنَ مَنْ قَصَدْنا جَنَابَ حَضْرَتِه. قوله (**فلَاحَ لِنَاظِري... إلخ**): أيْ لَمَعَ ولَمَحَ.

وقوله (**تُقَطَّعُ**): -بصيغةِ المضارعِ مجهُولًا، بحذفِ إحدى التائيْنِ تخفيفًا أو بصيغةِ الماضي معْلومًا- أي تَضْمَحِلُّ.

(١) وقوله (متمثلا): قال الشهاب: إنشاد شعر الغير في مقام يناسبه، وهو من قصيدة لأبي نواس ابن هانئ في مدح محمد الأمين الخليفة ابن هارون الرشيد، قصد المتمثل بها مدح النبي ﷺ لموافقة اسمه اسمه، وهذا نوع من البلاغة قريب من التضمين، وهو أن يورد شعر الغير في مقام يكون أحق به من صاحبه.

وَإِذَا المَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ محمـــدًا
فظُهُورُهُنَّ على الرِّحَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى
فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَــامُ

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ المَشَايِخِ أَنَّهُ حَجَّ مَاشِيًا، فَقِيلَ لَه في ذلكَ، فقَالَ: العَبْدُ الآبِقُ يأْتِي إلى بَيْتِ مَوْلَاهُ راكِبًا، لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَمْشِيَ على رَأْسِي ما مَشَيْتُ على قَدَمِي.

قالَ القاضي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وجَدِيرٌ لِمَوَاطِنَ عُمِّرَتْ بالوَحْيِ والتنزيلِ، وتَرَدَّدَ بِهَا جِبْرِيلُ وميكائيلُ، وعَرَجَتْ مِنْهَا المَلَائكةُ والرُّوحُ، وَضَجَّتْ عَرَصَاتُهَا بالتَّقْدِيسِ والتسبيحِ، واشتَمَلَتْ تُرْبَتُهَا على سَيِّدِ البَشَرِ، وانتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مَا انْتَشَرَ، مَدَارِسُ آياتٍ، ومَسَاجِدُ وصَلَوَاتٌ، ومَشَاهِدُ الفَضَائِلِ والخَيْرَاتِ، ومَعَاهِدُ البَرَاهِينِ والمُعْجِزَاتِ، ومَنَاسِكُ الدِّينِ، ومَشَاعِرُ المُسْلِمِينَ، ومَوَاقِفُ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، ومُتَبَوَّأُ خاتَمِ النَّبِيِّينَ..

قوله (**وإذا المَطِيُّ**): جَمْعُ «مَطِيَّةٍ»، وهيَ الَّتي يُرْكَبُ مَطَاهَا، أيْ ظَهْرُهَا. قوله (**على الرِّحَالِ**): -بالمُهْمَلَةِ- جَمْعُ «رَحْلٍ»، وهُوَ البَعيرُ، وفي نسخةٍ بالجيمِ.

قوله (**مَنْ وَطِئَ الثَّرَى**): أي التُّرابَ. قوله (**وذِمَامُ**): -بكسرِ أوَّلِه- أي عَهْدٌ وأَمَانٌ، والأبياتُ لِأَبِي نُوَاسٍ الحَكَمِيِّ يَمْدَحُ بِهَا أَمِينَ الدَّولةِ -كَذا بخطِّ السَّخَاوِيِّ.

قوله (**يأتِي إلى بيتِ مَوْلَاه... إلخ**): أيْ أيأتِي؟ وفي نسخةٍ «إلى بابِ مَوْلاه»، وفي أُخرى «لا يأتِي».

قوله (**ما مَشَيْتُ على قَدَمِي**): وهذا عَلَامةُ الحُبِّ الصَّادِقِ، وفي نسخةٍ بتشديدِ اليَاءِ.

قوله (**وجَدِيرٌ**): -خَبَرٌ مُقَدَّمٌ- أي حَقِيقٌ ولَائِقٌ. وقوله (**لِمَوَاطِنَ**): أيْ مَكَّةَ والمدينةِ. وقوله (**عُمِّرَتْ**): بصيغةِ المجهولِ مُخَفَّفًا ومُشَدَّدًا.

قوله (**وتَرَدَّدَ بها**): وفي نسخةٍ «وتَرَدَّدَ فيها»، أيْ في الإتيانِ إِلَيْهَا (**جِبْرِيلُ... إلخ**).

قوله (**والرُّوحُ**): أيْ أرواحُ الأنبياءِ والمُرْسَلِينَ، أو الرُّوحُ الأَمِينُ.

قوله (**ضَجَّتْ**): -بتشديدِ الجيمِ- أيْ صَوَّتَتْ. وقوله (**عَرَصَاتُها**): أيْ أَماكِنُها وجِهَاتُها.

قوله (**مَدَارِسُ آياتٍ**): جَمْعُ «مِدْرَاسٍ»، «مِفْعَالٌ»، مِنَ الدَّرسِ، وهُوَ مَكَانُه، وفي الحديثِ: (تدارَسُوا القُرآنَ)(1)، أيْ تَعَاهَدُوه بِتِلاوَتِه، وهَذا خَبَرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أيْ «وهَذه مَدَارِسُ آياتٍ». قوله (**وصَلَوَاتٌ**): أيْ دَعَوَاتٌ أو عِبَادَاتٌ. قوله (**ومَعَاهِدُ البَرَاهِينِ**): أي الدِّلالاتِ الواضِحَاتِ. قوله (**ومَنَاسِكُ الدِّينِ**): جَمْعُ «مَنْسَكٍ» -بفتحِ مُهْمَلَةٍ وكسرِها- هُوَ المُتَعَبَّدُ -بفتحِ البَاءِ. قوله (**ومَشَاعِرُ المُسْلِمِينَ**): -جَمْعُ مَشْعَرٍ- أي معالِمُهم الَّتي نَدَبَ اللهُ إليها مِنْ فِعْلٍ واجِبٍ وتَرْكِ حَرَامٍ. قوله (**ومَوَاقِفُ سَيِّدِ المُرسَلِينَ**): أيْ أَماكِنُ وُقُوفِه. قوله (**ومُتَبَوَّأُ خاتَمِ... إلخ**): بفتحِ الواوِ وكسرِها، وفتحِ تاءِ (خاتَمِ)، ويُرْوَى «مَثْوَاه».

---

(1) لم أجده بهذا اللفظ، وورد لفظ التدارس في القرآن الكريم في عدة آحاديث، منها ما أخرجه أحمد (17394)، وغيره، وفيه: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتدارس القرآن، قال: «تعلموا القرآن واقتنوه».

حَيْثُ انفجَرَتِ النُّبُوَّةُ، وأَيْنَ فاضَ عُبَابُها، ومَوَاطِنُ طُوِيَتْ فيهَا الرِّسَالَةُ، وأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدَ المُصْطَفَى تُرابُها، أَنْ تُعَظَّمَ عَرَصَاتُها، وتُتَنَسَّمَ نَفَحاتُهَا، وتُقَبَّلَ رُبُوعُهَا وجُدُرَاتُها، وأَنْشَدَ:

يَا دَارَ خَيْرِ المرسَلِينَ ومَنْ بِهِ
هُدِيَ الأَنَامُ وخُصَّ بالآيَاتِ

عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وصَبَابَةٌ
وَتَشَوُّقٌ مُتَوَقِّدُ الجَمَرَاتِ

وعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلَأْتُ مَحَاجِرِي
مِنْ تِلْكُمُ الجُدُرَاتِ والعَرَصَاتِ

لَأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَيْبِي بَيْنَها
مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ والرَّشَقَاتِ

قوله (**انفجَرَت... إلخ**): أي ظَهَرَتْ ظُهُورَ الماءِ النازِلِ مِنَ السَّماءِ.

قوله (**عُبَابُها**): -بضمِّ أوَّلِه- مُعظَمُ السَّيْلِ وارتفاعُه وكثرةُ تَمَوُّجِه -كذا في «القاموسِ».

قوله (**ومَوَاطِنُ طُوِيَتْ فيهَا الرسَالةُ**): وفي نسْخةٍ «مَهْبِطُ الرسالةِ».

قوله (**وأَوَّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدَ المُصْطَفَى تُرابُها**): بالرَّفعِ كَما في بعْضِ الأُصُولِ، والأظهَرُ نَصْبُه.

قوله (**أَنْ تُعَظَّمَ**): بتشديدِ الظاءِ المفتوحَةِ.

وقوله (**عَرَصَاتُها**): -بفتحتيْنِ- جَمعُ «عَرْصَةٍ» -بفتحٍ فسُكونٍ-، وهِيَ في الأَصْلِ كُلُّ مَكَانٍ واسعٍ لا بِنَاءَ فيه، والتقديرُ «تَعظِيمُ أماكِنِها»، وهُوَ المبتدأُ المُقَدَّمُ خَبَرُه، وإنَّما قُدِّمَ عَلَيْه لِمَزيدِ تشويقِ السّامِعِ إِلَيْه، ومِنْ ثَمَّةَ طولِ الكَلامِ في المُسْنَدِ لِيَحسُنَ كُلَّ الحُسْنِ في المَرَامِ؛ إذْ بازديادِ طُولِه يَزدادُ حُسْنُه، كَما أنَّ بازديادِ عِلْمِه يَزْدادُ الشَّوقُ إِلَيْه، ومنْه قولُ الشاعرِ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِها
شَمْسُ الضُّحَى وأَبُو إسحاقَ والقَمَرُ

قوله (**وتُتَنَسَّمَ**): -بالبِنَاءِ لِلمجهولِ- أي تُنْشَقَ، وفي نسْخةٍ «وتُشَمَّ». قوله (**نَفَحاتُها**): جَمعُ «نَفْحةٍ» مِن نَفَحَ الطِّيبُ: إذا فَاحَ.

قوله (**وتُقَبَّلَ**): بتشديدِ الموحَّدةِ المفتُوحةِ. و(**رُبُوعُها**): -بضمتينِ- جمعُ «رَبْعٍ» -بفتحٍ فسُكونٍ، وهُوَ المَنزِلُ. قوله (**وجُدُرَاتُها**): بضمِّ الجيمِ وبالفَوْقيةِ في آخِرِها لا بالنونِ.

قوله (**يا دارَ خيْرِ المرسَلِينَ**): ويُرْوَى «زَينِ المرسَلِينَ».

قوله (**لَوْعَةٌ**): أي شِدَّةُ مَحبَّةٍ وكَثْرةُ مَوَدَّةٍ. قوله (**وصَبَابَةٌ**): -بفتحِ أوَّلِها- أيْ رِقَّةُ شَوْقٍ ودِقَّةُ ذَوْقٍ.

وقوله (**مَحَاجِري**): -بفتحِ الميمِ- أيْ نَوَاظِري. قوله (**مِنْ تِلْكُمُ الجُدُرَاتِ والعَرَصاتِ**): بضمتينِ في الأوَّلِ وفتحتيْنِ في الثاني.

قوله (**لَأُعَفِّرَنَّ**): -بتشديدِ الفَاءِ المكسورةِ- أيْ لَأُلَوِّثَنَّ. قوله (**مَصُونَ شَيْبِي**): مِنْ إضافةِ الصِّفةِ لِمَوْصُوفِها.

قوله (**والرَّشَقاتِ**): بفتحتيْنِ فقافٍ، ولَعَلَّ مَعْنَاهَا رَمْيُ سَائرِ الأعْضاءِ على تلكَ الأجزاءِ، مِنَ الرَّشْقِ وهُوَ الرَّمْيُ بالنَّبْلِ، وفي أصْلِ الدّلجيِّ بالفاءِ؛ جَمعُ «رَشْفَةٍ»، وهيَ مَصُّ المُحِبِّ رِيقَ مَحبوبِه. اهـ ملَّا.

لَوْلَا العَوَادِي والأَعَادِي زُرْتُها
أَبَدًا ولَوْ سَحْبًا على الوَجَنَاتِ
لَكِنْ سَأُهْدِي مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتِي
لِقَطِينِ تِلْكَ الدَّارِ والحُجُرَاتِ
أَزْكَى مِنَ المِسْكِ المُفَتَّقِ نَفْحَةً
تَغْشَاهُ بالآصَالِ والبُكُرَاتِ
وتَخُصُّهُ بِزَوَاكِي الصَّلَوَاتِ
ونَوَامِيَ التَّسْلِيمِ والبَرَكَاتِ

***

قوله (لَولا العَوَادِي): جمعُ «عادِيَةٍ»، وهيَ شُغْلٌ يَصرِفُكَ عَنِ الشيءِ.

قوله (ولَوْ سَحْبًا): -مِنْ قولِكَ «سَحَبْتُ الشيْءَ فانسَحَبَ»: أي جَرَرْتَه فانجَرَّ- أيْ سَيْرًا ومشْيًا.

قوله (على الوَجَناتِ): -بفتحتينِ- جمْعُ «وَجْنَةٍ» -بفتحٍ وسُكُونٍ-، ويُكسَرُ أوَّلُها ويُضَمُّ، وهيَ أَعْلَى الخَدِّ.

قوله (مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتي): أي التحيّةِ الحافلةِ الكثيرةِ الكاملةِ.

قوله (لقَطِينِ تلكَ الدّارِ): مِنْ قَطَنَ بالمكانِ: إذا لَزِمَه، وفي حديثِ الإفاضَةِ: (نَحنُ قَطِينُ الله)[1]، أيْ سُكّانُ حَرَمِه. قوله (والحُجُراتِ): -بضمتيْنِ- جمعُ «حُجْرةٍ» -بضمٍّ فسُكونٍ-، وهيَ بَيْتٌ صَغيرٌ مِنَ الدّارِ.

قوله (أزْكَى مِنَ المِسْكِ): -بمعْجَمةٍ- أيْ أَهْدَى مِن كَثيرِ التحيّةِ. وقَوْله (المُفَتَّقِ): -بمُثَنَّاةٍ فوقيّةٍ مشدَّدَةٍ- أي المُشَقَّقِ.

قوله (تَغْشَاهُ بالآصَالِ): أيْ تَحُلُّ بَرَكاتُه بالآصَالِ، جمْعُ «أَصِيلٍ»: مِنْ بَعْدِ العَصْرِ إلى المغربِ -كذا قالَه الدّلجيُّ-، والأَوْلَى أنْ يُقالَ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ، قوله (والبُكُراتِ): -بضمتينِ- جمْعُ «بُكْرَةٍ» -بضمٍّ فسُكونٍ- أي أوّلُ النّهارِ، والمُرادُ بِهِمَا الدَّوامُ في اللَّيالي والأيّامِ.

قوله (بزَوَاكِيَ الصَّلَواتِ): -بفتحِ الياءِ- أيْ بظواهِرِها وكذا (نَوَامِيَ)، ويُرْوَى «بفَضَائِلِ الصَّلَواتِ ولَطَائِفِ التسْليمِ»، ولَوْ رُوِيَ «بشَرائِفِ الصلواتِ ولَطَائفِ التسليمِ» لَكَانَ أَلْطَفَ. اهـ ملّا.

***

(١) أخرجه الترمذيُّ وصحَّحه (٨٨٤) [أبواب الحج] من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، والحديث أصله في الصحيحين.

البَابُ الرَّابِعُ
فِي حُكْمِ الصَّلَاةِ والتَّسْلِيمِ، وفَرْضِ ذلك وفَضِيلَتِه

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْه وسَلِّمُوا تسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: مَعْنَاهُ: إِنَّ اللهَ ومَلائِكتَهُ يُبارِكُونَ على النَّبِيِّ[1]، وقِيلَ: إِنَّ اللهَ يَتَرَحَّمُ على النَّبِيِّ، ومَلائكتَه يَدْعُونَ لَهُ.

قَالَ المبرِّدُ: أَصْلُ الصَّلَاةِ التَّرَحُّمُ، وهِيَ مِنَ الله رَحْمَةٌ، ومِنَ المَلائكَةِ رِقَّةٌ واسْتِدْعَاءٌ لِلرَّحْمَةِ مِنَ الله.

وقَدْ وَرَدَ في الحديثِ صِفَةُ صَلَاةِ المَلائِكَةِ على مَنْ جَلَسَ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ: (اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ ارْحَمْهُ)[2]، فَهَذَا دُعَاءٌ.

وقَالَ بَكْرٌ القُشَيْرِيُّ: الصَّلَاةُ مِنَ الله تعالى لِمَنْ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ رَحْمَةٌ، ولِلنَّبِيِّ ﷺ تَشْرِيفٌ وزِيَادَةُ تكرِمَةٍ.

وقَالَ أَبُو العَالِيَةِ: صَلَاةُ الله ثَنَاؤُهُ عَلَيْه عِنْدَ المَلائكَةِ، وصَلَاةُ الملائكةِ الدُّعَاءُ.

قَالَ القَاضي أَبُو الفَضْلِ: وقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ في حَدِيثِ تَعليمِ الصَّلَاةِ عَلَيْه بَيْنَ لَفْظِ الصَّلَاةِ ولَفْظِ البَرَكَةِ[3]، فَدَلَّ على أَنَّهما بمَعْنَيَيْنِ.

(١) حديث ابن عبَّاس (يصلون: يباركون ...): ابن جريرٍ [١٩/ ١٧٤]، وابن أبي حاتم.

(٢) حديث (صلاة الملائكة على من جلس ينتظر ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٧٧)، ومسلمٌ (٦٤٩)] عن أبي هريرة.

(٣) [وذلك فيما أخرجه البخاري (٣٣٦٩) ومسلم (٤٠٧)=

(البابُ الرابعُ): أيْ مِنَ القِسْمِ الثاني (في حُكْمِ الصَّلاةِ والتسليمِ): أي عَلَيْه، قالَ الملَّا: واختِيرَ «التسْليمُ» على «السَّلَامِ» مَعَ أنَّ كِلَيْهما مصْدَرَ «سَلَّمَ»[1] لإفادةِ زيادةِ التوكيدِ ولِتحَقُّقِ مُطابَقةِ لَفْظِ التنزيلِ ﴿صَلُّوا عَلَيْه وسَلِّمُوا تسْليمًا﴾.

قوله (وفَضِيلتِه): وفي نسخةٍ «وفَضْلِه».

قوله (يُبَارِكُونَ على النَّبِيِّ): أيْ إنَّ اللهَ يُبارِكُ لهُ في أمْرِه، ويَزِيدُ في قَدْرِه، ويَدْعُو الملائكةُ رَبَّهم أنْ يَرْفَعَ ذِكْرَه.

قوله (وهِيَ مِنَ الله رَحْمةٌ): وفي نسخَةٍ «فهِيَ». وقوله (رِقَّةٌ): أيْ مُوجِبَةٌ لِلرّحمة.

قوله (وقَدْ وَرَدَ): ورُوِيَ «وقَدْ رُوِيَ».

قوله (يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ): أي الآتيةَ وأَذانَها وإقامتَها. قوله (فهَذا دُعاءٌ): لَكِنَّه لا يَليقُ بالأُمَّةِ.

قوله (وقالَ بَكْرٌ): وفي نسْخَةٍ «أبُو بَكْرٍ». قوله (تشْرِيفٌ): أيْ رَحْمةٌ خاصَّةٌ.

قوله (وصَلَاةُ المَلائكةِ الدُّعاءُ): أيْ بزِيَادَةِ الإكرامِ والإنعامِ لِلنبيِّ.

قوله (وقَدْ فَرَّقَ): -بتشديدِ الراءِ وتخفيفها- أيْ فَصَلَ.

قوله (فدَلَّ على أنَّهما بمعْنَيَيْنِ): أي الصَّلَاةَ والبَرَكَةَ متغايرانِ.

(١) التسليم مصدر «سلَّم»، والسلام اسم في معنى المصدر.

وأَمَّا التَّسْلِيمُ الذي أَمَرَ اللهُ تعالى بِهِ عِبَادَه فقالَ القاضي أَبُو بَكْرِ بْنُ بُكَيْرٍ: نَزَلَتْ هَذه الآيةُ على النَّبيِّ ﷺ، فأَمَرَ اللهُ أَصْحابَهُ أَنْ يُسَلِّمُوا عَلَيْهِ، وكذلكَ مَنْ بَعْدَهُمْ أُمِرُوا أَنْ يُسَلِّمُوا على النَّبيِّ ﷺ عِنْدَ حُضُورِهِمْ قَبْرَهُ وعِنْدَ ذِكْرِه.

وفِي مَعْنَى السَّلَامِ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: السَّلَامَةُ لَكَ ومَعَكَ، وتكُونُ السَّلَامةُ مَصْدَرًا كاللَّذَاذِ واللَّذَاذَةِ.

والثَّاني: أَيِ السَّلَامُ على حِفْظِكَ وَرِعَايَتِكَ مُتَوَلٍّ لَهُ وكَفِيلٌ به، ويَكُونُ هُنَا السَّلَامُ اسْمَ اللهِ تعالى.

الثَّالثُ: أَنَّ السَّلَامَ بمَعْنَى المُسَالَمَةِ لَهُ والانْقِيَادِ كَمَا قالَ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

***

=من حديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»].

قوله (أَمَرَ اللهُ به عِبَادَه): أيْ بِقَوْلِه (وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)، يَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ بمَعْنَى الانقيادِ، كَمَا قالَ تعالى: ﴿فَلَا وربِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ويَحتمِلُ التسْليمُ بمَعْنى التحيّةِ، أو خُصوصُ الدُّعاءِ بالسَّلامِ مِنَ الآفَةِ.

قوله (أَبُو بَكْرِ بنُ بُكَيْرٍ): بضمِّ الموحَّدةِ فكافٍ مفتوحةٍ فتحتيَّةٍ ساكنةٍ.

قوله (السَّلامةُ لَكَ ومَعَكَ): أيْ حاصِلةٌ لَكَ ومَصْحُوبةٌ مَعَكَ. قوله (كاللَّذَاذِ واللَّذَاذةِ): فإنَّهما مَصْدَرانِ مِنْ «لَذِيذٍ»؛ إلا أنَّهُما مِنَ الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ، والأَوَّلانِ مِنَ المَزيدِ.

قوله (أنَّ السَّلامَ): أي اسْمَه. قوله (مُتَوَلٍّ له): مِن حِفْظِكَ ورِعايَتِكَ.

قوله (المُسَالَمَةِ له): أي المصَافحةِ والموافَقَةِ.

قوله (فلا وربِّكَ): أيْ فلَيْسَ الأَمْرُ كَما زَعَمُوا، وقيلَ: التقديرُ «فوربِّكَ بشهادةِ (فوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ)، زِيدَتْ فيه (لا) لِتَأكيدِ القَسَمِ. قوله (مِمَّا قَضَيْتَ): أي حَكَمْتَ. قوله (ويُسَلِّمُوا): أيْ ويَنْقَادُوا لِما حَكَمْتَ به.

***

فَصْلٌ [في فرضية الصلاة على النبي ﷺ]

اِعْلَمْ أَنَّ الصَّلَاةَ على النَّبِيِّ ﷺ فَرْضٌ في الجُمْلَةِ، غَيْرُ مُحَدَّدٍ بوَقْتٍ؛ لِأَمْرِ الله تعالى بالصَّلَاةِ عَلَيْه، وحَمَلَ الأَئِمَّةُ والعُلَماءُ لهُ على الوُجُوبِ، وأَجْمَعُوا عَلَيْه، وحَكَى أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ أَنَّ مَحْمِلَ الآيَةِ عِنْدَه على النَّدْبِ، وادَّعَى فِيه الإِجْمَاعَ، ولَعَلَّهُ فيما زَادَ على مَرَّةٍ، والواجِبُ مِنْهُ الَّذي يَسْقُطُ به الحَرَجُ ومَأْثَمُ تَرْكِ الفَرْضِ مَرَّةٌ، كالشَّهادَةِ لهُ بالنُّبُوَّةِ، ومَا عَدَا ذلكَ مَنْدُوبٌ، مُرَغَّبٌ فِيه، مِنْ سُنَنِ الإِسْلامِ وشِعَارِ أَهْلِه.

قَالَ القاضي أَبُو الحَسَنِ بْنُ القَصَّارِ: المَشْهُورُ عَنْ أَصْحابِنَا أَنَّ ذلكَ واجِبٌ في الجُمْلَةِ على الإنسانِ، وفَرْضٌ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بهِ مَرَّةً مِنْ دَهْرِه، مَعَ القُدْرَةِ على ذلكَ.

وقَالَ القاضي أَبُو بَكْرِ بْنُ بُكَيْرٍ: افْتَرَضَ اللهُ على خَلْقِهِ أَنْ يُصَلُّوا على نَبِيِّهِ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، ولَمْ يَجْعَلْ ذلك لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ، فالواجِبُ أَنْ يُكْثِرَ المَرْءُ مِنْهَا، ولا يَغْفُلَ عَنْهَا.

قَالَ القاضي أَبُو محمَّدِ بْنُ نَصْرٍ: الصَّلاةُ على النَّبِيِّ ﷺ واجِبَةٌ في الجُمْلَةِ.

قَالَ القاضي أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ: ذَهَبَ مالِكٌ وأَصْحابُه وغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ إلى أَنَّ الصَّلَاةَ على النَّبِيِّ ﷺ فَرْضٌ بالجُمْلَةِ بعَقْدِ الإِيمانِ، لا يَتَعَيَّنُ في الصَّلَاةِ، وأَنَّ مَنْ صَلَّى عَلَيْه مَرَّةً واحِدَةً مِنْ عُمْرِه سَقَطَ الفَرْضُ عَنْه.

وقَالَ أَصْحَابُ الشافِعِيِّ: الفَرْضُ مِنْهَا الذي أَمَرَ اللهُ بهِ ورَسُولُه ﷺ هُوَ في الصَّلاةِ، وقالُوا: وأَمَّا في غَيْرِهَا فلا خِلَافَ أَنَّها غَيْرُ واجِبَةٍ.

وأَمَّا في الصَّلاةِ فحَكَى الإِمَامَانِ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ والطَّحَاوِيُّ وغَيْرُهُما إِجْمَاعَ جَمِيعِ المُتَقَدِّمِينَ والمُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَماءِ الأُمَّةِ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ على النَّبِيِّ ﷺ في التَّشَهُّدِ غَيْرُ واجِبَةٍ.

قوله (فَرْضٌ في الجُمْلَةِ): أَيْ واجِبٌ مقطوعٌ بِه، وفي نُسْخَةٍ «على الجُمْلَةِ» أَيْ إِجْمالًا.

وقوله (غَيْرُ مُحَدَّدٍ): -وفي نسْخةٍ «غَيْرُ مَحدودٍ»- أي غيرُ مُؤَقَّتٍ ومُقَدَّرٍ بِوَقْتٍ.

قوله (وحَمَلَ الأئمةُ): يَحتمِلُ مَصْدَرًا وماضِيًا -كَما في نسختَيْنِ صحيحتَيْنِ.

قوله (أَنْ يَأْتِيَ به): أَيْ بهذا الفَرْضِ، وفي نسْخةٍ «بِهَا»، أَيْ بالصَّلاةِ.

قوله (أَبُو بَكْرِ بنُ بُكَيْرٍ): بضمِّ موَحَّدةٍ وفتحِ الكافِ.

قوله (إلى أنَّ الصَّلاةَ): وفي نسْخةٍ بحذفِ (إلى).

قوله (الإمامانِ أَبُو جَعْفَرٍ): وفي نسْخَةٍ «أَبَوا جَعْفَرٍ» بلفظِ التثنيةِ؛ فإنَّهُ كُنْيَةٌ لَهُمَا.

قوله (على أنَّ الصَّلاةَ... إلخ): وعارَضَهُما الدَّلَجِيُّ بنَقْلِ النوَوِيِّ في «شرح المُهذَّبِ» ومسْلمٍ وابْنِ كَثيرٍ وغيرِهِمْ الوُجُوبَ فيْه.

وشَذَّ الشَّافعيُّ في ذلك، فقالَ: «مَنْ لَمْ يُصَلِّ على النَّبيِّ ﷺ مِنْ بَعْدِ التَّشهُّدِ الأخيرِ، وقَبْلَ السَّلامِ، فَصَلاتُهُ فاسِدَةٌ، إنْ صَلَّى عَلَيْهِ قَبْلَ ذلكَ لَمْ يُجْزِه»، ولا سَلَفَ لَهُ في هَذا القَوْلِ، وَلا سُنَّةَ يَتَّبِعُها.

وقَدْ بالَغَ في إنْكارِ هَذِه المسْألَةِ عَلَيْه؛ لِمُخالَفَتِهِ فيها مَنْ تَقَدَّمَه جَماعةٌ، وشَنَّعُوا عَلَيْهِ الخِلافَ فيها، مِنْهُمُ الطَّبَرِيُّ والقُشَيْرِيُّ وغَيْرُ واحِدٍ.

وقالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ المُنْذِرِ: يُسْتَحَبُّ أَنْ لا يُصَلِّيَ أَحَدٌ صَلاةً إلَّا صَلَّى فيها عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فإنْ تَرَكَ ذلكَ تارِكٌ فصَلاتُه مُجْزِئَةٌ في مَذْهَبِ مالِكٍ وأَهْلِ المَدينَةِ وسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وأَهْلِ الكُوفَةِ مِنْ أَصْحابِ الرَّأْيِ وغَيْرِهِمْ، وهُوَ قَوْلُ جُلِّ أَهْلِ العِلْمِ.

وحُكِيَ عَنْ مالِكٍ وسُفْيَانَ أنَّها في التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ مُسْتَحَبَّةٌ، وأنَّ تارِكَها في التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ مُسِيءٌ، وشَذَّ الشَّافِعِيُّ، وأَوْجَبَ على تارِكِها في الصَّلاةِ الإعادَةَ، وأَوْجَبَ إسْحاقُ الإعادَةَ مَعَ تَعَمُّدِ تَرْكِها دُونَ النسْيانِ.

وحَكَى أَبُو مُحمَّدٍ عَنْ أَبِي زَيْدٍ، عَنْ محمَّدِ بْنِ المَوَّازِ أَنَّ الصَّلاةَ على النَّبيِّ ﷺ فَرِيضَةٌ، قالَ أَبُو محمَّدٍ: يُرِيدُ لَيْسَتْ في فرائضِ الصَّلاةِ، وَقالَهُ محمَّدُ بْنُ عَبْدِ الحَكَمِ وغَيْرُهُ، وحَكَى ابْنُ القَصَّارِ وعَبْدُ الوَهَّابِ أَنَّ محمَّدَ بْنَ المَوَّازِ يَرَاها فَرِيضَةً في الصَّلاةِ، كقَوْلِ الشَّافِعِيِّ.

وحَكَى أَبُو يَعْلَى العَبْدِيُّ المالِكِيُّ عَنِ المَذْهَبِ فيها ثَلاثَةَ أَقْوالٍ في الصَّلاةِ: الوُجُوبُ، والسُّنَّةُ، والنَّدْبُ.

وقَدْ خالَفَ الخَطَّابِيُّ مِنْ أَصْحابِ الشَّافِعِيِّ وغَيْرُهُ الشَّافِعِيَّ في هذِهِ المَسْأَلَةِ؛ قالَ الخَطَّابِيُّ: ولَيْسَتْ بواجِبَةٍ في الصَّلاةِ، وهُوَ قَوْلُ جَماعَةِ الفُقَهاءِ إلا الشَّافِعِيَّ، ولا أَعْلَمُ له فيها قُدْوَةً، والدَّلِيلُ على أنَّها لَيْسَتْ مِنْ فُرُوضِ الصَّلاةِ عَمَلُ السَّلَفِ الصَّالحِ قَبْلَ الشَّافِعِيِّ، وإجْماعُهُمْ عَلَيْه.

قوله (وشَذَّ الشَّافعيُّ في ذلك): أي انفَرَدَ بوجُوبِها وعَدَمِ صِحَّةِ الصَّلاةِ بدُونِها.

قوله (التشهُّدِ الأخيرِ): وفي نسخَةٍ «الآخِرِ»، وهُوَ «أَشْهَدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسُولُهُ».

قوله (قبْلَ ذلك): أيْ قبْلَ «أَشْهَدُ أنَّ محمَّدًا... إلخ».

قوله (لَمْ يُجْزِه): قالَ المُلَّا: وكانَ حقُّه أنْ يَقولَ «لَمْ يُجْزِئْه» كَما في نسْخَةٍ صحيحَةٍ؛ لِأنَّه مهمُوزٌ، مِنْ «أَجزَأَهُ يُجزِئُهُ»: إذا كَفاهُ.

قوله (جُلِّ أَهْلِ العِلْمِ): بضمِّ الجيمِ وتشديدِ اللّامِ، وفي نسْخةٍ «جُمَلِ» -بضمِّ الجيمِ وفتحِ الميم وتخفيفِ اللّام- أيْ أكْثَرِهِمْ.

قوله (العَبْديُّ): بفتحِ العيْنِ المهْمَلَةِ وسُكونِ الموحَّدةِ.

قوله (الوُجُوبُ والسُّنَّةُ والنَّدبُ): هُوَ -كَما قالَ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ ومَالكٌ- على اللَّفِّ والنشْرِ المُرَتَّبِ؛ الأَوَّلُ لِلأوَّلِ وهَلُمَّ جَرًّا.

قوله (قُدْوَةً): -بضمِّ القافِ وكَسْرِها ويُحْكَى فتْحُها- أيْ مُقْتَدًى بِه.

قوله (فُرُوضِ الصَّلاةِ): وفي نسْخَةٍ «فَرائِضِ».

وقـدْ شَـنَّعَ النَّـاسُ عليْـهِ هَـذه المسْـألَةَ جِـدًّا، وهَـذا تَشَـهُّدُ ابْـنِ مَسْـعُودٍ الَّـذي اخْتَـارَهُ الشـافعيُّ(١)، وهُـوَ الَّـذي علَّمَـهُ لـه النَّبـيُّ ﷺ، لَيْـسَ فيـهِ الصَّـلاةُ عـلى النَّبـيِّ ﷺ، وكَذلـكَ كلُّ مَـنْ رَوَى التَّشَـهُّدَ عَـنِ النَّبـيِّ ﷺ -كأَبِي هُرَيـرةَ وَابْـنِ عبَّـاسٍ وجَابِـرٍ وابْـنِ عُمَـرَ وأَبِي سَـعِيدٍ الخُـدْرِيِّ وأَبِي مُوسَـى الأَشْـعَرِيِّ وعَبْـدِ اللهِ بْـنِ الزُّبَـيْرِ(٢)- لَمْ يَذْكُـرُوا فيـهِ صَـلاةً علـى النَّبـيِّ ﷺ، وقَـدْ قـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ وجَابِـرٌ: كانَ النَّبـيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَـا التَّشَـهُّدَ كَـمَا يُعَلِّمُنَـا السُّـورَةَ مِـنَ القُـرآنِ، ونَحْـوُهُ عَـنْ أَبِي سَـعِيدٍ، وقـالَ ابْـنُ عُمَـرَ: كَانَ أَبُـو بَكْـرٍ يُعَلِّمُنَـا التَّشَـهُّدَ عـلَى المِنْـبَرِ كَـمَا تُعَلِّمُـونَ الصِّبْيَـانَ فِي الكُتَّـابِ(٣)، وعَلَّمَـهُ أيْضًـا عـلى المِنْـبَرِ عُمَـرُ بْـنُ الخَطَّـابِ(٤).

وفِي الحديـثِ: (لا صَـلاةَ لِمَـنْ لَمْ يُصَـلِّ عَـلَيَّ)(٥) قـالَ ابْـنُ القَصَّـارِ: مَعْنَـاهُ: كَامِلَـةً، أَوْ لِمَـنْ لَمْ يُصَـلِّ عَـلَيَّ فِي عُمْـرِهِ مَـرَّةً، وضَعَّـفَ أَهْـلُ الحَدِيـثِ كُلُّهُـمْ رِوايَـةَ هَـذا الحَدِيـثِ، وفِي حَدِيـثِ أَبِي جَعْفَـرٍ عَـنِ ابْـنِ مَسْـعُودٍ، عَـنِ النَّبـيِّ ﷺ: (مَـنْ صَـلَّى صَـلاةً لَمْ يُصَـلِّ فِيهَـا عَـلَيَّ وعَـلَى أَهْـلِ بَيْتِـي لَمْ تُقْبَـلْ مِنْـهُ)(٦)، وقَـدْ رُوِيَ مَوْقُوفًـا مِـنْ قِبَـلِ ابْـنِ مَسْـعُودٍ. قـالَ الدَّارَقُطْنِـيُّ: الصَّـوَابُ أَنَّـه مِـنْ قَـوْلِ أَبِي جَعْفَـرٍ محمَّـدِ بْـنِ عَلِيِّ بْـنِ الحُسَـيْنِ: (لَـوْ صَلَّيْـتُ صَـلاةً لَمْ أُصَـلِّ فيهَـا عـلى النَّبـيِّ ﷺ وَلا عَـلَى أَهْـلِ بَيْتِـه لَرَأَيْـتُ أنَّهَـا لا تَتِـمُّ)، ورَاوِيـهِ عَـنْ أَبِي جَعْفَـرٍ جَابِـرٌ الجَعْفِـيُّ، وهُـوَ ضَعِيـفٌ ﷺ.

***

(١) [قال القاري: الثابت عنه -أي الشافعي- في كتب أصحابه أن الذي اختاره تشهُّد ابن عباس].

(٢) حديث ابن مسعودٍ في التشهُّد: الشيخان [البخاري (٦٢٦٥)، ومسلم (٤٠٢)]، وأبي هريرة: ابن مردويه في كتاب التشهُّد، وابن عبَّاس: مسلم [٤٠٣]، وجابر: الحاكم [١/ ٢٦٧] والنَّسائيُّ [١١٧٥]، وابن عمر: أبو داود [٩٧١]، وأبي سعيد: ابن مردويه، وأبي موسى: مسلم [٤٠٤]، وابن الزبير: الطبراني [١٣/ ١٢٨]، ورواه صحابةٌ آخرون تتمة أربعة وعشرين.

(٣) حديث ابن عمر (كان أبو بكر يعلمنا التشهُّد ...): ابن أبي شيبة في مصنَّفه [٢٩٩٩].

(٤) حديث (أنَّ عمرَ كان يُعَلِّمُه على المِنبر ...): مالك [كتاب الصلاة (٥٣)]، والحاكم [١/ ٢٦٥]، والبيهقيُّ [٢٨٣٨].

(٥) حديث (لا صلاة لمن لا يُصَلِّي عليَّ): الحاكم [١/ ٢٦٩]، والدارقطني [١٣٤٢]، والبيهقيُّ [٣٩٦٧] عن سهل بن سعدٍ.

(٦) حديث ابن مسعودٍ (من صلى صلاة ...): [أخرجه الدارقطني في سننه (١٣٤٣) عن أبي مسعودٍ الأنصاري، وضعَّفه الدارقطني].

قولـه (لَمْ يَذْكُـرُوا فيـهِ صَـلاةً علـى النَّبـيِّ): يَعْنِـي ولَـوْ كانَـتِ الصَّـلاةُ فَرْضًـا كالتشـهُّدِ لَمَـا تَرَكُوهَـا؛ لَكِـنْ يُحْتَمَـلُ تأخـيرُ وجوبِ الصَّلاةِ بَعْـدَ تقديـمِ فـرضِ التشـهُّدِ، فـلا يَكـونُ الـتَّرْكُ لهـا مِنْهُـمْ قاضيًـا بعَـدَمِ الوُجـوبِ.

قولـه (لَمْ تُقْبَـلْ مِنْـه): قـالَ المـلَّا: أي قَبُـولًا كامِـلًا، أَقـولُ: قاعـدةُ الفِعْـلِ إذا دَخَـلَ علَيْـه النفـيُ كالنَّكِـرةِ، فالمتبـادَرُ مِنْـهُ انصِبَابُـه علـى أَصْـلِ الفِعْـلِ سِـيًّا، وقَيْـدُ الكَـمالِ غَـيْرُ مذكـورٍ في الحديـثِ.

***

فَصْلٌ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُرَغَّبُ

مِنْ ذَلِكَ فِي تَشَهُّدِ الصَّلَاةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ التَّشَهُّدِ وَقَبْلَ الدُّعَاءِ.

حَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْبَلْخِيُّ، حَدَّثَنَا الْفَارِسِيُّ عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْخُزَاعِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْهَيْثَمِ بْنِ كُلَيْبٍ، عَنْ أَبِي عِيسَى الْحَافِظِ قَالَ: حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلَانَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ، نَا أَبُو هَانِئٍ الْخَوْلَانِيُّ أَنَّ عَمْرَو بْنَ مَالِكٍ الْجَنْبِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ فُضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ، يَقُولُ:

سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَجِلَ هَذَا، ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ)[1]، وَيُرْوَى مِنْ غَيْرِ هَذَا السَّنَدِ: (بِتَمْجِيدِ اللهِ)[2]، وَهُوَ أَصَحُّ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: الدُّعَاءُ وَالصَّلَاةُ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ[3].

---

(١) حديث فضالة (سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ ...): أسنده من طريق الترمذيِّ [٣٤٧٧]، وأخرجه أيضًا أبو داود [١٤٨١]، والنَّسائيُّ [١٢٨٤]، وابن حِبَّان [١٩٦٠]، والحاكم [١/ ٢٦٨].

(٢) [أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، والنسائي في الكبرى (١٢٠٨)، وغيرهم وقال الترمذي: «حسن صحيح»].

(٣) حديث عمر (الدُّعاءُ مُعَلَّقٌ بين السَّماءِ والأرضِ ....): الترمذيُّ [٤٨٦].

قوله (وَيُرَغَّبُ): -بصيغةِ المجهولِ- مِنَ الترغيبِ، وفي نسخةٍ «وَيُتَرَغَّبُ».

قوله (الْهَيْثَم): -بفتحِ الهاءِ وسُكونِ التحتيّةِ وفتحِ المُثَلَّثَةِ- وهُوَ ابنُ كُلَيْبٍ.

قوله (عَبْدُ اللهِ بنُ يَزِيدَ): وَفي نُسْخَةٍ «زَيْدٍ»، والصَّوَابُ الأَوَّلُ. قوله (حَيْوَةُ): بفتحِ الحاءِ المُهْمَلَةِ وسُكونِ المُثنَّاةِ التحتيَّةِ.

قوله (نَا): وَفي نسْخَةٍ «حَدَّثَنَا».

قوله (أَبُو هَانِئٍ): بكسرِ النُّونِ فهمْزٍ. قوله (الخَوْلانيُّ) بفتحِ الخاءِ المُعْجَمةِ. قوله (عَمْرَو بنَ مَالِكٍ): وفي نسْخَةٌ «عُمَرَ»، والصَّوابُ بالواوِ.

قوله (الجَنْبِيَّ): -بفتحِ الجيمِ وسُكونِ النُّونِ فموحَّدةٍ فياءٍ- بَطْنٌ مِنْ مَذْحِجٍ البَصْرِيِّ.

قوله (فُضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ): وفي نسخةٍ «بنَ عُبَيْدِ اللهِ»؛ قالَ المُلَّا: والصَّوابُ الأَوَّلُ.

قوله (عَجِلَ هذا): بكسْرِ الجيمِ مخفَّفةً، وفي نُسْخةٍ «عَجَّلَ» بتشديدِ الجيمِ المفتوحةِ.

قوله (بتَمْجِيدِ اللهِ): أَيْ بِتَعْظِيمِهِ، وهُوَ بتقديمِ الميمِ على الجيمِ، بَدَلَ «تحميدِه» بتقديمِ الحاءِ على الميمِ.

قوله (ولا يَصْعَدُ): بفتحِ المثنَّاةِ التحتيّةِ وضَمِّها.

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَعْنَاهُ، وقَالَ: (وعَلَى آلِ محمَّدٍ)[١]. ورُوِيَ أَنَّ الدُّعَاءَ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلِّيَ الدَّاعِي على النَّبِيِّ ﷺ.

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إذا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ شَيْئًا فلْيَبْدَأْ بِحَمْدِه والثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُه، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَسْأَلْ؛ فإِنَّه أَجْدَرُ أَنْ يُنْجِحَ.[٢]

وعَنْ جابِرٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لا تَجْعَلُونِي كَقَدَحِ الرَّاكِبِ؛ فإِنَّ الرَّاكِبَ يَمْلَأُ قَدَحَه، ثُمَّ يَضَعُه، ويَرْفَعُ مَتَاعَهُ، فإِنِ احْتَاجَ إِلَى شَرَابٍ شَرِبَهُ، أَوْ إِلَى الوُضُوءِ تَوَضَّأَ، وإلا أَهْرَاقَهُ؛ ولَكِنِ اجْعَلُونِي في أَوَّلِ الدُّعَاءِ وأَوْسَطِهِ وآخِرِه).[٣]

وقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: لِلدُّعَاءِ أَرْكَانٌ وأَجْنِحَةٌ وأَسْبَابٌ وأَوْقَاتٌ، فإِنْ وافَقَ أَرْكَانَهُ قَوِيَ، وإِنْ وافَقَ أَجْنِحَتَهُ طَارَ في السَّمَاءِ، وإِنْ وَافَقَ مَوَاقِيتَهُ فَازَ، وإِنْ وَافَقَ أَسْبَابَه أَنْجَحَ؛ فَأَرْكَانُه حُضُورُ القَلْبِ، والرِّقَّةُ والاسْتِكَانَةُ والخُشُوعُ، وتَعَلُّقُ القَلْبِ بِاللهِ، وقَطْعُهُ لِلأَسْبَابِ، وأَجْنِحَتُهُ الصِّدْقُ، ومَوَاقِيتُه الأَسْحَارُ، وأَسْبَابُه الصَّلَاةُ على محمَّدٍ ﷺ.

وفي الحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ بَيْنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ لا يُرَدُّ)[٤]، وفي حَدِيثٍ آخَرَ: (كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ دُونَ السَّمَاءِ، فإذا جاءَتِ الصَّلَاةُ عَلَيَّ صَعِدَ الدُّعَاءُ)[٥].

وفي دُعَاءِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الَّذِي رَوَاهُ عَنْه حَنَشٌ، فقَالَ في آخِرِه:

(١) حديث علي مرفوعًا نحوه: أبو الشيخ في «الثواب» والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٧٤]، ولفظه: (محجوبٌ حتَّى يُصَلَّى على محمَّدٍ وأهل بيته).

(٢) حديث ابن مسعود (إذا أراد أحدكم ...): عبد الرزَّاق [جامع معمر بن راشد (١٩٦٤٢)]، والطبرانيُّ [المجمع (١٠/ ١٥٥)] بسندٍ صحيحٍ.

(٣) حديث جابر (لا تجعلوني كقَدَحِ الرَّاكِبِ ...): البزَّار [المجمع (١٠/ ١٥٥)]، وأبو يعلى، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٧٦].

(٤) حديث (الدعاء بين الصلاتين علي لا يُرد): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، وذكره ابن الجوزي في «بستان الواعظين» (ص ٢٩٨) ولم يعزه].

(٥) [أخرجه الترمذي (٤٨٦)، وغيره من حديث عمر بن الخطاب: «قال: إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء، حتى تصلي على نبيك ﷺ» وفي الباب عن علي وأنس مرفوعًا وموقوفًا بألفاظ متقاربة].

قوله (وعَلَى آلِ محمَّدٍ): وروايةُ الإمامِ البَيهقيِّ في «شُعَبِ الإيمانِ»: «الدُّعاءُ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلَّى على محمَّدٍ وأهلِ بَيْتِهِ».

قوله (أَنْ يُنْجِحَ): بضمِّ الياءِ وكسرِ الجيمِ أوْ بفتحِهَا؛ مِنْ نَجَحَ وأَنْجَحَ، إذا أَصَابَ طَلِبَتَه.

قوله (لا تَجْعَلُوني كقَدَحِ الرّاكبِ): أيْ حيثُ يُعلِّقُه مِنْ وَرَائِه، ويلتفِتُ إِلَيْهِ عِنْدَ حَاجتِه، أيْ لا تُؤخِّروني عِنْدَ الذِّكْرِ كتأخيرِ الرَّاكِبِ يُعلِّقُ قَدَحَهُ في آخِرِ رَحْلِه بَعْدَ فَرَاغِهِ مِن التَّعبِيَةِ. قوله (أَهْرَاقَه): قالَ الشمنِّيُّ: «يُقالُ: أَرَاقَ الماءَ يُرِيقُه، وهَرَاقَه يُهَرِيقُه؛ بفتحِ الهاءِ» انتهى.

قوله (وقَطْعُه لِلأسبَابِ): وفي نسخةٍ «مِنَ الأسبَابِ». قوله (حَنَشٌ): -بفتحِ المُهْمَلَةِ فنُونٍ فشينٍ معْجَمةٍ- هُوَ ابنُ عبدِ اللهِ شَيْبَانَ.

واسْتَجِبْ دُعَائِي، ثُمَّ تَبْدَأُ بالصَّلَاةِ على النَّبِيِّ ﷺ، فتَقُولُ: اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ على محمَّدٍ عَبْدِكَ ونَبِيِّكَ ورَسُولِكَ أَفْضَلَ ما صَلَّيْتَ على أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَجْمَعِينَ آمِينَ.[1]

ومِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَسَمَاعِ اسْمِهِ أَوْ كِتَابِهِ أَوْ عِنْدَ الأَذَانِ، وقَدْ قَالَ ﷺ: (رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَه فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ)[2].

وَكَرِهَ ابْنُ حَبِيبٍ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ الذَّبْحِ، وكَرِهَ سَحْنُونُ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، وقالَ: لا يُصَلَّى عَلَيْهِ إلا على طَرِيقِ الاحْتِسَابِ وَطَلَبِ الثَّوَابِ. قالَ أَصْبَغُ عَنِ ابْنِ القاسِمِ: مَوْطِنَانِ لا يُذْكَرُ فيهما إلا اللهُ، الذَّبِيحَةُ والعُطَاسُ، فلا تَقُلْ فيهما بعْدَ ذِكْرِ اللهِ: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، ولَوْ قالَ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ: «صَلَّى اللهُ على محمَّدٍ» لَمْ تَكُنْ تَسْمِيَةً لهُ مَعَ اللهِ، وقالَه أَشْهَبُ، قالَ: ولا يَنبَغِي أَنْ تَجْعَلَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فيهِ اسْتِنَانًا.

ورَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الأَمْرَ بالإكْثارِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَوْمَ الجُمعةِ[3].

ومِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ والسَّلَامِ دُخُولُ المَسْجِدِ؛ قالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ شَعْبانَ: وَيَنْبَغِي لِمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وعلى آلِهِ، وَيَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ، ويُبَارِكَ عَلَيْهِ وعلى آلِه، ويُسَلِّمَ تَسْلِيمًا، ويَقُولَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وإذا خَرَجَ فَعَلَ مِثْلَ ذلِكَ، وجَعَلَ مَوْضِعَ «رَحْمَتِكَ» «فَضْلِكَ»[4].

---

(١) حديث حنش عن ابن عبَّاس: [بيَّض له السيوطي ولم يعزه].

(٢) حديث (رغم أنف رجل ...): مسلمٌ [(٢٥٥١) وليس فيه لفظ المصنف، وأخرجه بهذا اللفظ أحمد (٧٤٥١)، والترمذيُّ (٣٥٤٥)، وابن حِبَّان (٩٠٨)، وغيرهم] عن أبي هريرة.

(٣) حديث أوس (في الأمر بالإكثار من الصلاة على النبي يوم الجمعة): عزاه المصنِّف إلى النَّسائيِّ [١٣٧٤]، وأخرجه أيضًا أبو داود [١٠٤٧]، وابن ماجه [١٦٣٦]، وابن حِبَّان [٩١٠]، والحاكم [١/ ٢٧٨] وصحَّحه.

(٤) حديث (الصلاة لداخل المسجد وخارجه ...): سيأتي [انظر ص ٥٣٠].

قوله (أنْ تُصَلِّيَ): أيْ بأَنْ تُصَلِّيَ، وفي نُسْخةٍ «فتَقُولُ: اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ أنْ تُصَلِّيَ... إلخ». قوله (آمِينَ): بمَدٍّ وبقَصْرٍ.

قوله (رَغِمَ أَنْفُ): -بكَسْرِ المعجمةِ وتُفْتَحُ- أيْ لَصِقَ بالتُّرابِ، كِنايةٌ عَنِ الذُّلِّ.

قوله (سَحْنُونُ): بفتحٍ فسُكونٍ فضمٍّ، منْصَرِفٌ.

قوله (لا يُذْكَرُ فِيهما): أيْ بصيغةِ المَجهُولِ. قوله (والعُطَاسُ): بضمِّ العَيْنِ المُهْمَلةِ. قوله (فَلَا تَقُلْ): بصيغةِ الخطابِ، وفي نُسْخةٍ بالغَيبةِ مجْهُولًا.

قوله (بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ: صَلَّى اللهُ على محمَّدٍ): وفي نسخةٍ «وصَلَّى اللهُ».

قوله (تَسْمِيَةً): وفي نُسْخةٍ «تَسْمِيَتَه». قوله (وقالَهُ أَشْهَبُ): أيْ ذَكَرَهُ أيْضًا.

قوله (اسْتِنَانًا): -وفي نُسخةٍ «اسْتِئنَافًا»- أيْ سُنَّةً واستحسانًا.

قوله (عَنْ أَوْسٍ): وفي نسْخةٍ «أُوَيْسٍ» بالتصْغيرِ.

وقوله (ويُسَلِّمَ تَسْلِيمًا): أيْ عَلَيْهِ وعلى آلِه -كَما في نُسْخةٍ.

وقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١]: إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي البَيْتِ أَحَدٌ فَقُلِ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: المُرَادُ بِالبُيُوتِ هُنَا المَسَاجِدُ[1].

وقَالَ النَّخَعِيُّ: إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي المَسْجِدِ أَحَدٌ فَقُلِ: «السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي البَيْتِ أَحَدٌ فَقُلِ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصالحِينَ»، وَعَنْ عَلْقَمَةَ: إِذَا دَخَلْتُ المَسْجِدَ أَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ-، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه، صَلَّى اللهُ وَمَلَائِكَتُه عَلَى مُحَمَّدٍ». وَنَحْوُهُ عَنْ كَعْبٍ إِذَا دَخَلَ وَإِذَا خَرَجَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّلَاةَ، وَاحْتَجَّ ابْنُ شَعْبَانَ لِمَا ذَكَرَهُ بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّه ﷺ كَانَ يَفْعَلُه إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ، وَمِثْلُه عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، وَذَكَرَ السَّلَامَ وَالرَّحْمَةَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا الحَدِيثَ آخِرَ القِسْمِ، وَالاخْتِلَافَ فِي أَلْفَاظِهِ.

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَيْضًا الصَّلَاةُ عَلَى الجَنَائِزِ، وَذُكِرَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهَا مِنَ السُّنَّةِ[2].

وَمِنْ مَوَاطِنِ الصَّلَاةِ الَّتِي مَضَى عَلَيْهَا عَمَلُ الأُمَّةِ وَلَمْ تُنْكِرْهَا الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى آلِهِ فِي الرَّسَائِلِ، وَمَا يُكْتَبُ بَعْدَ البَسْمَلَةِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ، وَأُحْدِثَ عِنْدَ وِلَايَةِ بَنِي هَاشِمٍ، فَمَضَى بِهِ عَمَلُ النَّاسِ فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْتِمُ بِهَا أَيْضًا الكُتُبَ، وَقَالَ ﷺ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ المَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الكِتَابِ)[3].

---

(١) حديث ابن عبَّاسٍ (البيوت هنا المساجد ...): ابن أبي حاتمٍ [١٤٨٩٤]، وابن جرير [(١٧/ ٣٨١)].

(٢) حديث أبي أمامة (من السُّنَّة الصَّلاةُ عليه في صَلاةِ الجنازة): النَّسائيُّ بسندٍ صحيح [لم أجد ذكر الصلاة على النبيِّ في لفظ النَّسائيِّ، ورواه الشافعيُّ في مسنده (٥٨١)، والحاكم (١/ ٥١٢)، والبيهقيُّ (٦٩٥٩)، وغيرهم من حديث أبي أمامة بن سهل]، وأبو أمامة هو أبي سهل، وهو صحابي كما قاله النووي في «شرح المهذب» [٥/ ٢٣٣]، وليس هو الباهليَّ.

(٣) حديث (مَن صَلَّى عَلَيَّ في كِتاب ...): سيأتي [انظر ص٥١٣].

قوله (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا): بكَسْرِ الباءِ وضَمِّها.

قوله (إذا لَمْ): وفي نسخةٍ «فإنْ لَمْ يَكُنْ... إلخ».

قوله (فقُلِ: السَّلامُ على النَّبيِّ): لِأَنَّ رُوحَه حاضرةٌ في بيوتِ أهلِ الإسْلامِ.

قوله (ولَمْ يَذْكُرِ الصَّلاةَ): أي كَعْبٌ بخِلَافِ عَلْقَمَةَ.

قوله (وذَكَرَ السَّلامَ): وفي نسْخةٍ «فذَكَرَ».

قوله (آخِرَ القِسْمِ): الثَّاني، وفي نُسْخةٍ «في آخِرِ القِسْمِ».

قوله (وأُحْدِثَ عِنْدَ وِلَايةِ بَنِي هَاشِمٍ): بِبناءِ الفِعْلِ لِلمجْهُولِ.

وَمِنْ مَوَاطِنِ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تَشَهُّدُ الصَّلاةِ؛ حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِمِ خَلَفُ بْنُ إبراهيمَ المُقْرِئُ الخَطِيبُ -رَحِمَهُ اللهُ- وغَيْرُهُ، قَالَ: حَدَّثَتْنِي كَرِيمَةُ بِنْتُ محمَّدٍ، قالَتْ: حدَّثَنا أَبُو الهَيْثَمِ، حدَّثَنا محمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حدَّثَنا محمَّدُ بْنُ إسْماعيلَ، حدَّثَنا أَبُو نُعَيْمٍ، حدَّثَنا الأَعْمَشُ عَنْ شَقِيقِ بْنِ مَسْلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قالَ: (إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ: التَّحِيَّاتُ للهِ والصَّلَوَاتُ والطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه، السَّلَامُ عَلَيْنَا وعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ؛ فإنَّكُمْ إذا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ للهِ صَالِحٍ في السَّمَاءِ والأَرْضِ)[1]، هَذا أَحَدُ مَوَاطِنِ التسْلِيمِ عَلَيْهِ، وسُنَّتُهُ أَوَّلَ التَّشَهُّدِ.

وقَدْ رَوَى مالِكٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ ذلكَ إذَا فَرَغَ مِنْ تَشَهُّدِهِ وأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ، واسْتَحَبَّ مَالِكٌ في «المَبْسُوطِ» أَنْ يُسَلِّمَ بِمِثْلِ هَذَا قَبْلَ السَّلَامِ، قَالَ محمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَرَادَ مَا جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ وابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا كانَا يَقُولَانِ عِنْدَ سَلامِهِمَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه، السَّلَامُ علَيْنا وعلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عليْكُمْ[2].

واسْتَحَبَّ أَهْلُ العِلْمِ أَنْ يَنْوِيَ الإنْسانُ عِنْدَ سَلَامِهِ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ في السَّمَاءِ والأَرْضِ مِنَ المَلائكةِ وبَنِي آدَمَ والجِنِّ.

وَقَالَ مَالِكٌ في «المجمُوعةِ»[3]: وأُحِبُّ لِلْمَأْمُومِ -إذا سَلَّمَ إمَامُهُ- أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ علَى النَّبِيِّ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنا وعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

***

(١) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٨٣١)، ومسلمٌ (٤٠٢)، وغيرهما].

(٢) [حديث السيدة عائشة أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٥٥)، والبيهقي (٢٨٤٠)، وغيرهما. وحديث عبدالله بن عمر أخرجه مالك في الموطأ (٥٤)، والبيهقي (٢٨٣٢)، وغيرهما].

(٣) [قال الشهاب: قيل أراد بها «المدونة»].

قوله (حَدَّثَنَا أَبُو القاسِمِ): وَفِي نُسخةٍ «قالَ: حَدَّثَنَا... إلخ».

قوله (قالَ: حَدَّثَتْني): وفي نسخةٍ صحيحةٍ «قالُوا حَدَّثَتْنا».

قوله (بِنْتُ محمَّدٍ): وفي نسْخةٍ «بِنتُ أحْمَدَ».

قوله (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ... إلخ): قالَ المُلَّا: «اعتَمَدَ الدّلجيُّ على أصْلِه السّقيمِ؛ قالَ: ظاهِرُهُ على أنَّه موْقوفٌ علَيْهِ، وهُوَ في حُكْمِ المرفوعِ» اهـ.

قوله (في المبسُوطِ): وفي نُسْخةٍ «في المَبسُوطةِ».

قوله (أنْ يَنْوِيَ الإنسانُ): أي المُصَلِّي إمامًا كانَ أوْ مَأمُومًا أوْ منفَرِدًا.

قوله (عِنْدَ سَلامِه): وفي نسْخةٍ «حِينَ... إلخ». وقوله (كُلَّ عَبْدٍ): وفي نُسْخةٍ «عَلَى كُلِّ عَبْدٍ».

***

قولـه (**حَدَّثَنـا أبـو إسْـحاقَ**): وفي نسـخةٍ «قـالَ: حَدَّثَنـا». قولـه (**أَبُـو الأَصْبَـغِ**): بفتـحِ الهَمـزةِ والموحَّـدةِ فغَـيْنٍ معْجَمـةٍ. قولـه (**عَتَّـابٍ**): بتشـديدِ الفَوقيـةِ. قولـه (**واقِـدٍ**): بكَسْـرِ القـافِ.

قولـه (**عَـنْ عَبْـدِ الله بـنِ أَبِي بَكْـرِ بـنِ حَـزْمٍ**): وفي نُسْـخةٍ «بـنِ عُمَـرَ بـنِ حَـزْمٍ». قولـه (**سُـلَيْمٍ الزُّرَقِـيِّ**): بضـمِّ الـزاي وفتْـحِ الـراءِ المخفَّفـةِ فقـافٍ ويـاءٍ تحتيـةٍ، و«سُـلَيم» بالتصْغـيرِ. وقولـهُ (**أَبُـو حُمَيْـدٍ**): بالتصْغـيرِ.

قولـه (**كَيْـفَ نُصَـلِّي عَلَيْـكَ**): أي حَـالَ الصَّـلاةِ وغيْرِهَـا. قولـه (**قُولُـوا**): رُبَّـمَا يُسْـتَدَلُّ بـه عـلى فريضـةِ الصَّـلاةِ عَلَيْـه في الصَّـلاةِ؛ لِأَنَّ الأَصْـلَ في الأَمْـرِ الوُجُـوبُ، والإجماعُ عـلى عَـدَمِ الوُجُـوبِ في غَـيْرِ الصَّـلَاةِ. وقولـه (**كَـمَا صَلَّيْـتَ عـلى إبراهيـمَ**): التشـبيهُ مِـنْ بـابِ إلحـاقِ مـا لَمْ يَشْـتَهِرْ بِـمَا اشـتَهَرَ، أَوْ مِـنْ حَيْـثُ تَقَدُّمُـه زَمَنًـا، أَوْ عـلى حَـدِّ قولـه تعـالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]، مِـنْ بـابِ التشـبيه، عـلى حَـدِّ قولِـهِ:

وبَدَا الصَّباحُ كَأَنَّ غُرَّتَه
وَجْهُ الخَليفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

وكـونُ المُشَـبَّهِ بـه أَقْـوَى أغلبـيٌّ لِمَـا ذُكِـرَ وهـو الأنطاكـي. (**وبـارِكْ عـلى محمَّـدٍ**): وفي نسْـخةٍ «اللهُـمَّ بـارِكْ». قولـه (**السَّـلامُ كَـمَا قَـدْ عَلِمْتُـمْ**): -بكَسْـرِ لامٍ مخفَّفـةٍ مَـعَ فَتْـحِ أوَّلـه، أو مشـدَّدةٍ مَـعَ ضَـمٍّ- أيْ كَـمَا عَرَفْتُـمْ في التَّشَـهُّدِ.

قولـه (**بـنِ عُجْـرَةَ**): -بضَـمِّ المهْمَلـةِ وسُـكونِ الجيـمِ- وهُـوَ مِـن أصحـابِ الشَّـجَرةِ.

قولـه (**كَـمَا صَلَّيْـتَ عـلى إبراهيـمَ**): وفي نسـخةٍ «عـلى آلِ إبراهيـمَ».

فَصْلٌ في كَيْفيَّةِ الصَّلاةِ عَلَيْهِ والتَّسْلِيمِ

حَدَّثَنـا أَبُـو إسْـحَاقَ إبْراهيـمُ بْـنُ جَعْفَـرٍ الفَقِيـهُ بِقِـراءَتِي عَلَيْـه، حدَّثَنـا القـاضي أَبُو الأَصْبَـغِ، حدَّثَنـا أَبُو عَبْـدِ الله بْنُ عَتَّـابٍ، حدَّثَنـا أَبُـو بَكْـرِ بْـنُ واقِـدٍ وغَـيْرُهُ، حدَّثَنـا أَبُـو عِيسَـى، حدَّثَنـا عُبَيْـدُ الله، حدَّثَنـا يَحْيَـى، حدَّثَنـا مالِـكٌ عَـنْ عَبْـدِ الله بْـنِ أَبِي بَكْـرِ بْـنِ حَـزْمٍ، عَـنْ أَبِيـه، عَـنْ عَمْـرِو بْـنِ سُـلَيْمٍ الزُّرَقِـيِّ أَنَّـه قـالَ: أَخْـبَرَنِي أَبُـو حُمَيْـدٍ السَّـاعِدِيُّ أَنَّهُـمْ قالُـوا: يـا رسُـولَ الله، كَيْـفَ نُصَـلِّي عَلَيْـكَ؟ فقَـالَ: قُولُـوا: اللَّهُـمَّ صَـلِّ عـلى محمَّـدٍ وأزواجِـهِ وَذُرِّيَّتِـهِ كَـمَا صَلَّيْـتَ عـلى إبْراهيـمَ، وبَـارِكْ عـلى محمَّـدٍ وأَزْواجِـهِ وَذُرِّيَّتِـهِ كَـمَا بَارَكْـتَ عـلى إبراهيـمَ؛ إنَّـكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ[1].

وفي رِوايَـةِ مالِـكٍ عَـنْ أَبِي مَسْـعُودٍ الأَنْصَـارِيِّ، قـالَ: قُولُـوا: اللهُـمَّ صَـلِّ عـلى محمَّـدٍ وعـلَى آلِـه كَـمَا صَلَّيْـتَ عـلى آلِ إبْراهيـمَ، وبـارِكْ عَـلى محمَّـدٍ وآلِ محمَّـدٍ كَـمَا بارَكْـتَ عـلى إبراهيـمَ؛ إنَّـكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ، والسَّـلامُ كَـمَا قَـدْ عَلِمْتُـمْ.[2]

وفي رِوايَـةِ كَعْـبِ بْـنِ عُجْـرَةَ: اللهُـمَّ صَـلِّ عـلَى محمَّـدٍ وآلِ محمَّـدٍ كَـمَا صَلَّيْـتَ عـلى إبْراهيـمَ، وبَـارِكْ عـلى محمَّـدٍ وآلِ محمَّـدٍ كَـمَا بَارَكْـتَ عـلى إبراهيـمَ؛ إنَّـكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ.[3]

---

(١) حديث أبي حميد الساعدي (كيفَ نُصَلِّي عليك؟ ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٣٦٩)، ومسلمٌ (٤٠٧)].

(٢) [موطأ مالك (٦٧)].

(٣) رواية كعب بن عجرة: الأئمَّة الستة [البخاريُّ (٣٣٧٠)، ومسلمٌ (٤٠٦)، وأبو داود (٩٧٦)، والترمذي ()، والنسائيُّ (١٢٨٧)، وابن ماجه (٩٠٤)].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو في حَدِيثِه: «اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ، النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وعلى آلِ محمَّدٍ».(١)

وفي رِوايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: «اللهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ»، وذَكَرَ مَعْنَاهُ.(٢)

وحَدَّثَنا القاضِي أَبُو عَبْدِ الله التَّمِيمِيُّ سَمَاعًا عَلَيْهِ، وأَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ طَرِيفٍ النَّحْوِيُّ بِقِراءَتِي عَلَيْهِ، قالا: حدَّثَنا أَبُو عَبْدِ الله بْنُ سَعْدُونَ الفَقِيهُ، حدَّثَنا أَبُو بَكْرٍ المُطَّوِّعِيُّ، قالَ: حدَّثَنا أَبُو عَبْدِ الله الحاكِمُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي دارِمٍ الحافِظِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ العِجْلِيِّ، عَنْ حَرْبِ بْنِ الحَسَنِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ المُسَاوِرِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ خالِدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ الحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ:

عَدَّهُنَّ في يَدِي رَسُولُ الله ﷺ، وقالَ: عَدَّهُنَّ في يَدِي جِبْرِيلُ، وقالَ: هَكَذا نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِ رَبِّ العِزَّةِ:

اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كَما صَلَّيْتَ على إبْراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كَما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ وتَرَحَّمْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كَما تَرَحَّمْتَ على إبْراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ وتَحَنَّنْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كَما تَحَنَّنْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ،

(١) حديث عقبة بن عمرو: مسلمٌ [٤٠٥].

(٢) رواية أبي سعيدٍ الخدريِّ: البخاريُّ [٤٧٩٨].

قوله (وعلى آلِ محمَّدٍ): قالَ الشافعيُّ رحمه الله: هُم مَنْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِم الزَّكاةُ. قالَ الدلجيُّ: ويُؤَيِّدُه قولُه ﷺ لِلحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ: (إنَّا -آلَ محمَّدٍ- لا تَحِلُّ لَنا الصدقةُ)(١)، قال المُلاَّ: والأَظْهَرُ أنَّ المُرادَ جميعُ أَقارِبِه وأَهْلِ بَيْتِه، قالَ: أوْ جميعُ الأُمَّةِ، ورَجَّحَه النوويُّ في «شَرْحِ المُهَذَّبِ» اهـ.

قلتُ: والأَحسَنُ أنَّه لا يُطلَقُ القولُ فيه؛ بَلْ يُفَسَّرُ باعتبارِ المَقاماتِ والقرائنِ، فمَقامُ الزَّكاةِ بَنُو هاشمٍ لا المُطَّلِبِ عِنْدَ مالكٍ، أوْ هُما مَعًا عِنْدَ الشافعيِّ، أوْ هُما وبَنُو جَعْفَرٍ وبَنُو العَبَّاسِ وبَنُو عقيلٍ عِنْدَ أَبِي حَنيفةَ، ومَقامُ المَدْحِ أَتقياءُ أُمَّتِه، ومَقامُ الدُّعاءِ -كَما هُنا- جميعُ الأُمَّةِ، وهَذا الَّذي حَقَّقَه العَلَّامَةُ الأَميرُ على «عبْدِ السَّلامِ».

قوله (طَرِيفٍ): بفتحِ الطَّاءِ المُهْمَلةِ. قوله (سَعْدُونَ): بفتحِ السِّينِ وضمِ الدَّالِ المُهْمَلتَيْنِ. قوله (المُطَّوِّعِيُّ): بفتحِ الواوِ المُشَدَّدةِ. وقوله (دارِمٍ): بكسرِ الراءِ. قوله (العِجْلِيِّ): بكسْرِ العيْنِ المُهْمَلةِ وسُكونِ الجيمِ. وقوله (عَنْ حَرْبٍ): بالمُوَحَّدةِ، وفي نسخةٍ «حَارِثٍ» بالمثَلَّثةِ. قوله (يَحْيَى بنِ المُسَاوِرِ): بضَمِّ الميمِ وكسْرِ الواوِ.

قوله (عَدَّهُنَّ): أي الكَلِماتِ (في يَدِي): وفي نسخةٍ بالتثنيةِ. وقولُه (رَسُولُ الله... إلخ): بالرفعِ فاعلُ «عَدَّ». قوله (نَزَلَتْ) بسُكونِ التَّاءِ، وفي نسخةٍ «نَزَلَتْ بِهِنَّ».

قوله (إنَّكَ حَمِيدٌ... إلخ): وفي نسخةٍ «رَبَّنا إنَّكَ حَمِيدٌ... إلخ».

قوله (وتَحَنَّنْ): أي أَظْهِرِ الحَنَانَ، أي الرحمةَ والرِّزْقَ والبَرَكةَ.

(١) أخرجه أحمد (١٧٣١)، والطبراني (٣/ ٢٧٤١)، وغيرهما.

قولـه (أَنْ يَكْتَـالَ): -بفتـحِ اليـاءِ، ويُـرْوَى بضمِّهـا- أي يأخُذَ الأجْـرَ. قولـه (أَهْـلَ البَيْـتِ): بالنصْـبِ عـلى المَـدْحِ، أو بتقديـرِ «يَعْنِـي»، وَفي نُسْـخةٍ بالجَـرِّ بَـدَلٌ مِـنَ الضّمـيرِ في «عَلَيْنَـا».

قولـه (وَاجْتَهِـدُوا فِي الدُّعَـاءِ): أَيْ بَعْـدَ التحريمـةِ، وفي الركـوعِ والسُّـجودِ.

قوله (الكِنْدِيِّ): بكسْرِ الكافِ.

قولـه (دَاحِـيَ المَدْحُـوَّاتِ): -بتشْـديدِ الـواوِ، وفي روايـةٍ بتشـديدِ اليـاءِ؛ اسْـمُ مفعُـولٍ مِـن دَحَـا يَدْحُـو وَيَدْحِـي- أيْ يـا بَاسِـطَ المَبْسُـوطاتِ كالأرضِ.

وقولـه (بـارِئَ المَسْـمُوكاتِ): أيْ خَالِـقَ المَرْفوعَـاتِ، مِـنْ «سَـمَكَه»: إذا رَفَعَـه كالسَّـمَواتِ.

قولـه (الفاتـحِ لِمَـا أُغْلِـقَ): بصيغـةِ المجهـولِ، وفي الحديـثِ عَنْـه ﷺ: (أُوتيـتُ مفَاتيـحَ خزائِـنِ السّـموات والأرض)[1].

وقولـه (والمُعْلِـنِ الحَـقَّ بالحَـقِّ): -يُقـرَأُ بالجَـرِّ عـلى الإِضَافـةِ، وبالنصْـبِ عـلى المفعُوليـةِ بنـزع الخافـض- أي المُظْهِـرِ الأمـرَ الحَـقَّ بالحَـقِّ، أيْ بطريـقِ الصِّـدْقِ، أو بإعانـةِ الحَـقِّ -جَـلَّ وعَـزَّ-.

قولـه (والدَّامِـغِ لِجَيْشَـاتِ الأباطيـلِ): أي القامـعِ لِظُهُورِهـا والدافـعِ لِشُرورِهـا حكـم مـا أمـروا؛ لِـذا قـالَ المُصنِّـف (كَـمَا حُمِّـلَ): بضـمِّ الحـاءِ وتشـديدِ الميـمِ المكسُـورةِ.

قولـه (فاضطَلَـعَ): -بضَـادٍ معجَمـةٍ، «افتعـالٌ»، مِـنَ الضَّلاعَـةِ؛ وهِـيَ القُـوَّةُ- أيْ فقَـوِيَ ونَهَـضَ. قولـه (مسْـتَوفِزًا): -بكسـرِ الفـاءِ بَعْدَهـا زايٌ- أيْ ناهِضًـا.

(١) متفـقٌ عليـه أخرجـه البخـاريُّ (٢٩٧٧) [كتـاب الجهـاد والسِّـير]، ومسـلمٌ (٥٢٣) [كتـاب الصـلاة]، وغيرهـما مـن حديـث أبي هريـرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفـظ (وبينـا أنـا نائـم أُتيـت بمفاتيـح خزائـن الأرض، فوضعـت في يـدي). وفي البـاب عـن جماعـةٍ.

اللهُـمَّ وسَـلِّمْ عـلى محمَّـدٍ وعـلَى آلِ محمَّـدٍ كَـما سَـلَّمْتَ عـلى إبراهيـمَ وعـلَى آلِ إبْراهيـمَ إنَّـكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ.[1]

وعَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ، عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ: مَـنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَـالَ بالمِكْيَـالِ الأَوْفَى إذَا صَـلَّى عَلَيْنَـا -أَهْـلَ البَيْـتِ-، فلْيَقُـلْ: اللهُـمَّ صَـلِّ عـلى محمَّـدٍ النَّبِـيِّ، وَأَزْوَاجِـهِ أُمَّهـاتِ المؤمِنِـينَ، وَذُرِّيَّتِـهِ وأَهْـلِ بَيْتِـه، كَـما صَلَّيْـتَ عـلى إبْراهيـمَ إنَّـكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ.[2]

وَفي رِوايَـةِ زَيْـدِ بْـنِ خارِجَـةَ الأَنْصَـارِيِّ: سَـأَلْتُ النَّبِـيَّ ﷺ كَيْـفَ نُصَـلِّي عَلَيْـكَ؟ فقـالَ: صَلُّـوا عَـلَيَّ واجْتَهِـدُوا في الدُّعَـاءِ، ثُـمَّ قُولُـوا: اللَّهُـمَّ بـارِكْ عـلى محمَّـدٍ وعـلى آلِ محمَّـدٍ كَـما بارَكْـتَ عـلى إبراهيـمَ إنَّـكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ.[3]

وعَـنْ سَـلامَةَ الكِنْـدِيِّ: كانَ عَـلِيٌّ يُعَلِّمُنـا الصَّـلَاةَ عـلى النَّبِـيِّ ﷺ:

اللهُـمَّ داحِـيَ المَدْحُـوَّاتِ، وبـارِئَ المَسْـمُوكاتِ، اجْعَـلْ شَرَائِـفَ صَلَوَاتِـكَ، ونوامـيَ بَرَكاتِـكَ، ورَأْفَـةَ تَحَنُّنِـكَ عـلى محمَّـدٍ عبْـدِكَ ورَسُـولِكَ، الفاتِـحِ لِمَـا أُغْلِـقَ، والخاتِـمِ لِمَـا سَـبَقَ، والمُعْلِـنِ الحَـقَّ بالحَـقِّ، والدَّامِـغِ لِجَيْشَـاتِ الأَبَاطيـلِ كَـما حُمِّـلَ فاضْطَلَـعَ بأَمْـرِكَ بطَاعَتِـكَ، مُسْـتَوْفِزًا في مَرْضاتِـكَ، واعِيًـا

(١) حديث عليٍّ (وعدَّهن في يدي ...): البيهقيُّ في «الشعب» [١٤٨٥].

(٢) حديث أبي هريرة (من سره أن يكتال ...): أبو داود [٩٨٢].

(٣) رواية زيد بن خارجة، الديلمي في «مسند الفردوس» [(٥٨٧١) من حديث أبي هريرة].

لِوَحْيِكَ، حَافِظًا لِعَهْدِكَ، مَاضِيًا على نَفَاذِ أَمْرِكَ حَتَّى أَوْرَى قَبَسًا لِقَابِسٍ، آلاءُ الله تَصِلُ بأَهْلِهِ أَسْبَابَه، به هُدِيَتِ القُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الفِتَنِ والإِثْمِ، وأَبْهَجَ مُوضِحَاتِ الأَعْلامِ ونائراتِ الأحكامِ ومُنِيراتِ الإِسْلامِ، فهُوَ أَمِينُكَ المأْمُونُ، وخازِنُ عِلْمِكَ المخزُونِ، وشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وبَعِيثُكَ نِعْمَةً، ورَسُولُكَ بالحقِّ رحْمَةً، اللهُمَّ افْسَحْ لهُ في عَدْنِكَ، واجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، مُهنَّئاتٍ له غَيْرَ مُكَدَّرَاتٍ مِنْ فَوْزِ ثوابِكَ المَحْلُولِ، وجَزِيلِ عَطائِكَ المَعْلُولِ، اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلى بِنَاءِ النَّاسِ بنَاءَهُ، وأكرِمْ مَثْوَاهُ لَدَيْكَ ونُزُلَه، وأَتْمِمْ لهُ نُورَهُ، وَأَجْزِهِ مِنَ ابْتعاثِكَ لَهُ مَقبولَ الشَّهادَةِ، ومَرْضِيَّ المَقالَةِ، ذا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وخُطَّةٍ فَصْلٍ، وبُرْهَانٍ عَظِيمٍ.(١)

وعَنْه أيضًا في الصَّلَاةِ على النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٥٦]، لَبَّيْكَ -اللهمَّ رَبِّي- وسَعْدَيْك، صَلَوَاتُ الله البَرِّ الرَّحيمِ والملائكةِ المقرَّبينَ والنَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، ومَا سَبَّحَ لَكَ مِنْ شَيْءٍ يا رَبَّ العَالَمِينَ، على محمّدِ بْنِ عَبْدِ الله خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وسَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ المتَّقِينَ، ورَسُولِ رَبِّ العَالَمِينَ، الشَّاهِدِ البَشِيرِ، الدَّاعِي إِلَيْكَ بإِذْنِكَ السِّرَاجِ المُنِيرِ، وعَلَيْهِ السَّلامُ.

---

(١) حديث عليٍّ (اللهمَّ داحي المَدْحُوَّات ...): الطبرانيُّ في «الأوسط» [٩٠٨٩]، وابن أبي شيبة في «المصنف» [٢٩٥٢٠] وسعيد بن منصور.

وقولُه (ماضِيًا): أيْ جارِيًا (على نَفَاذِ أمرِكَ): أي إمضائِه.

وقولُه (حَتَّى أَوْرَى قَبَسًا): مِنْ أَوْرَيْتُ الزَّنْدَ: إذا قَدَحْتَه فأَخرَجْتَ نارَه، والقَبَسُ -بفتحتينِ- ما اقتُبِسَ، أيْ أُخِذَ مِنَ النارِ، فاستُعيرَتِ النَّارُ هنا لِلنُّورِ، والجملةُ غايةٌ لِمَا قَبْلَها، أي لَمْ يَزَلْ مُجاهِدًا في إبلاغِ ما أُمِرَ به مُرَغِّبًا في موافَقتِه، مُرَهِّبًا مِنْ مخالَفتِه حَتَّى أَظْهَرَ دِينًا بيِّنًا كالقَبَسِ نُورًا نَيِّرًا.

قولُه (لِقَابِسٍ): أيْ لِطَالبِ النورِ، الموجِبِ لِلحضُورِ والسُّرورِ. قولُه (أَسْبَابَه): -بالنصْبِ- أي وسَائلَه.

قولُه (وأَبْهَجَ): أي عَيَّنَ وبَيَّنَ، وسَقَطَ في أصْلِ الدلجيِّ لَفْظُ «وأَبْهَجَ»، فقالَ: «مُوضِحاتِ» متعلِّقٌ بـ«هُدِيَتْ».

قولُه (فهُوَ أمينُكَ): بضمِّ الهاءِ وسُكونِها لُغتانِ مشهُورتانِ، وقراءتانِ متواترتانِ. قولُه (في عَدْنِكَ): أيْ في جَنَّةِ عَدْنِكَ، ويُروى «في عِدَتِكَ»، ولَعَلَّهُ بكَسْرِ العَينِ وتخفيفِ الدَّالِ بمَعْنَى «وعْدِكِ».

قولُه (وَاجْزِهِ): بهمزةِ وَصْلٍ وسُكونِ جيمٍ وَزايٍ مَكسُورةٍ، ومِنْه قولُهُ تعالى: ﴿وجَزَاهم بِمَا صَبَرُوا ...﴾ إلخ [الإنسان: ١٢].

قولُه (مُهَنِّئاتٍ): -بكسْرِ النُّونِ المشدَّدةِ، وفي نسْخةٍ بفتحِهَا- مِنْ هَنَأَنِي الطَّعامُ يَهْنَؤُنِي: إذا سَاغَ بلا تَنغيصٍ.

قولُه (مِنْ فَوْزِ ثَوَابِكَ): -بالزّايِ- أيْ مِنْ أَجْلِ الظَّفَرِ بأجْرِكَ.

قولُه (أَعْلِ عَلى بِنَاءِ): -بفتحِ الهَمْزَةِ وكَسْرِ اللّامِ- أمرٌ مِنَ الإعْلاءِ، وَفي نُسْخةٍ «عَلِّ» -بفتحِ العَيْنِ وتشديدِ اللّامِ المَكْسُورةِ- أمْرٌ مِنَ التَّعْلِيةِ.

قولُه (وأَتْمِمْ): وفي نسْخةٍ «وأَتِمَّ» بتشديدِ الميمِ. قولُه (وأَجْزِهِ): بفتحِ الهَمزةِ وسُكونِ الجيمِ فزايٍ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: اللهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وبَرَكَاتِكَ ورَحْمَتَكَ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وخاتَمِ النبيِّينَ، محمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ إمَامِ الخَيْرِ ورَسُولِ الرَّحْمَةِ، اللَّهُمَّ ابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا يَغْبِطُهُ فيهِ الأَوَّلُونَ والآخِرُونَ، اللهُمَّ صَلِّ علَى محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ على إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وبارِكْ على محمَّدٍ وعَلى آلِ محمَّدٍ كَمَا بارَكْتَ على إبْراهيمَ وآلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.[1]

وكَانَ الحَسَنُ البَصْريُّ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَشْرَبَ بالكَأْسِ الأَوْفَى، مِنْ حَوْضِ المُصْطفَى، فلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ صَلِّ علَى محمَّدٍ وعلى آلِه وأصْحَابِهِ وأَوْلَادِهِ وأَزْوَاجِه وذُرِّيَّتِه وأَهْلِ بَيْتِه وأصْهَارِه وأنْصَارِهِ وأَشْيَاعِهِ ومُحِبِّيهِ وأُمَّتِهِ وعَلَيْنا مَعَهُمْ أَجْمَعِينَ يا أَرحَمَ الراحِمِينَ.

وعَنْ طاوُسٍ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ أَنَّه كانَ يَقُولُ: اللهُمَّ تَقبَّلْ شَفاعةَ محمَّدٍ الكُبْرَى، وارْفَعْ درَجَتَه العُلْيَا، وآتِهِ نُزُلَه في الآخِرَةِ والأُولَى، كَمَا آتَيْتَ إبْراهيمَ ومُوسَى.[2]

وعَنْ وُهَيْبِ بْنِ الوَرْدِ أَنَّه كانَ يَقُولُ في دُعَائِه: اللهُمَّ أَعْطِ محمَّدًا أَفْضَلَ ما سَأَلَكَ لِنَفْسِهِ، وأَعْطِ محمّدًا أفْضَلَ ما سَأَلَكَ لهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ، وأَعْطِ محمّدًا أَفْضَلَ مَا أَنْتَ مَسْؤُولٌ لهُ إلى يومِ القيامَةِ.

وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ أَنَّه كَانَ يَقُولُ: إذَا صَلَّيْتُم علَى النبيِّ ﷺ فأَحْسِنُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ؛ فإنَّكُمْ لا تَدْرُونَ لَعَلَّ ذلك يُعْرَضُ عَلَيْهِ، وقُولُوا: اللهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ ورَحْمَتَكَ وبَرَكاتِكَ على سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وخَاتَمِ النبيِّينَ، محمَّدٍ عبْدِكَ ورَسُولِكَ إمَامِ الخَيْرِ وقائِدِ الخَيْرِ ورَسُولِ الرَّحمةِ، اللَّهُمَّ ابعَثْهُ مَقامًا محمُودًا يَغْبِطُهُ فيهِ الأَوَّلُونَ والآخِرُونَ، اللهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعَلَى آلِ محمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ على آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كَمَا بارَكْتَ على إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

(١) حديث ابن مسعود (اللهم اجعل صلواتك ...): ابن ماجه [٩٠٦]، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٥٣].

(٢) حديث ابن عبَّاس (اللهمَّ تَقبَّل ...): إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة» [(٥٢)، وأخرجه أيضًا عبدالرزَّاق في «المصنف» (٣١٠٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٩٠٠)].

قوله (بالكَأْسِ الأَوْفَى): أي بالحظِّ الأَوْفَى.

قوله (وُهَيْبٍ): -بالتصْغيرِ- وفي نسخةٍ «وَهْبٍ».[1]

قوله (على إبراهيمَ): زِيدَ في نسْخةٍ «في العالَمِينَ».

(١) قال الشهاب: وهيب بن الورد، ويقال ابن أبي الورد، المخزومي المكي، الزاهد الثقة مولاهم، واسمه عبد الوهاب، ووهيب لقبه، وكنيته أبو عثمان، روى عن عطاء مرسلا وغيره، وروى عنه كثير، وأخرج له مسلم وأصحاب السنن، وله أحاديث ومواعظ، توفي سنة ثلاثة وخمسين ومائة.

وَمَا يُؤْثَرُ فِي تَطْوِيلِ الصَّلَاةِ وَتَكْثِيرِ الثَّنَاءِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَغَيْرِهِمْ كَثِيرٌ.

وَقَوْلُهُ: «وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عُلِّمْتُمْ» هُوَ مَا عَلَّمَهُمْ فِي التَّشَهُّدِ مِنْ قَوْلِهِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ-، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ.

وَفِي تَشَهُّدِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: السَّلَامُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ، السَّلَامُ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ، السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَنْ غَابَ مِنْهُمْ وَمَنْ شَهِدَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمُحَمَّدٍ، وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ، وَاغْفِرْ لِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَاغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَمَا وَلَدَا وَارْحَمْهُمَا، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ عَلِيٍّ الدُّعَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْغُفْرَانِ، وَفِي حَدِيثِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَيْضًا قَبْلُ الدُّعَاءُ لَهُ بِالرَّحْمَةِ، وَلَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ الْمَعْرُوفَةِ.

وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُدْعَى لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ، وَإِنَّمَا يُدْعَى لَهُ بِالصَّلَاةِ وَالْبَرَكَةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِهِ، وَيُدْعَى لِغَيْرِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ. وَلَمْ يَأْتِ هَذَا فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ، وَحُجَّتُهُ قَوْلُهُ فِي السَّلَامِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

***

قوله (في تطويل): وفي نسخة «من تطويل».

قوله (على أهل البيت): وفي نسخة «عن».

قوله (وقوله: والسلام): أي قول ابن مسعود.

قوله (ولوالديَّ): قال الدلجي: لعل الناسخ زاد الألف سهوًا، وإنما الدعاء بهما لولديه الحسن والحسين[1].

قوله (وفي حديث الصلاة عليه): ويُروى «في حديث الصلاة»، وهو خبر مقدم.

قوله (قبلُ): مبني على الضم.

قوله (الدعاءُ): مبتدأ مؤخر.

قوله (كما ترحَّمت): -بتشديد الحاء- وفي نسخة «تراحمت».

وقوله (السلام عليك -أيها النبي- ورحمة الله وبركاته): من خط المؤلف، لا من الرواية

***

(١) وقال القاري معقبا: والأظهر أنه قال ذلك لتعليم غيره، لا للدعاء لنفسه.

فَصْلٌ في فَضِيلَةِ الصَّلاةِ على النَّبِيِّ، والتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ، والدُّعَاءِ لَهُ ﷺ

حدَّثَنا أَحْمَدُ بْنُ محمَّدٍ الشَّيْخُ الصَّالِحُ مِنْ كِتَابِهِ، حدَّثَنا القاضي يُونُسُ بْنُ مُغِيثٍ، حدَّثَنا أَبُو بَكْرِ بْنُ مُعَاوِيَةَ، حدَّثَنا النَّسَائِيُّ، حدَّثَنا سُوَيْدُ بْنُ نَصْرٍ، حدَّثَنا عَبْدُ اللهِ بْنُ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ، قالَ: أَخْبَرَنِي كَعْبُ بْنُ عَلْقَمَةَ أَنَّه سَمِعَ عَبْدَ الرحمنِ بْنَ جُبَيْرٍ مَوْلَى نافعٍ أَنَّه سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (إذا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، وصَلُّوا عَلَيَّ؛ فإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ؛ فإنَّها مَنْزِلَةٌ في الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ تعالى، وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنا هُوَ، فمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ)(١).

ورَوَى أَنَسُ بْنُ مالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، ورَفَعَ له عَشْرَ دَرَجَاتٍ)(٢)، وفي رِوَايَةٍ: (وكَتَبَ له عَشْرَ حَسَنَاتٍ)(٣).

وعَنْ أَنَسٍ عَنْه ﷺ: (أَنَّ جِبْرِيلَ نادَاني، فقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ورَفَعَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ)(٤).

ومِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرحمنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْه ﷺ: (لَقِيتُ جِبْرِيلَ، فقَالَ لي: إِنِّي أُبَشِّرُكَ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ومَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ)(٥).

---

(١) حديث ابن عمر (إذا سمعتم المؤذن ...): أسنده من طريق النَّسائيِّ [٦٧٨]، وهو عند مسلم [٣٨٤].

(٢) حديث أنس (مَن صَلَّى عَلَيَّ ...): البيهقيُّ في «الشعب» بلفظه [١٤٥٥]، والحاكم [١/ ٥٥٠]، والنَّسائيُّ [١٢٩٧] نحوه.

(٣) [أخرجها تمام في فوائده (٧٠٣)].

(٤) حديث أنسٍ (أَنَّ جبريل ناداني ...): ابن أبي شيبة في «مسنده» [وأخرجه أيضًا البزَّار (٦٢٥٠)، وأبو يعلى (١٤٢٥) وغيره عن أنس عن أبي طلحة بنحوه].

(٥) حديث عبد الرحمن بن عوف (لقيت جبريل ...): الحاكم وصحَّحه [١/ ٥٥٠]، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٥٦].

قولـه (مُغِيثٍ): بضمٍّ فكسْرٍ.

قولـه (سُوَيْدُ): بالتَّصْغيرِ.

قولـه (بْنُ نَصْرٍ): بالمهْمَلةِ.

قولـه (جُبَيْرٍ): بالتصْغيرِ.

قولـه (عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ): وفي نسخةٍ «عَمْرٍو».

قولـه (ثُمَّ سَلُوا): أي اللهَ -كَمَا في نُسْخَةٍ.

قولـه (حَلَّتْ عَلَيْـه الشَّفاعةُ): ويُرْوَى «شَفَاعَتِي»، وفي نسْخَةٍ «حَلَّتْ لَـه».

قولـه (أَنَّ اللهَ يَقُولُ): بكسْرِ الهمزةِ وفتْحِها.

ونحْوُهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الحَدَثَانِ وعُبَيْدِ الله بْنِ أَبِي طَلْحَةَ.(١)

وعَنْ زَيْدِ بْنِ الحُبَابِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ قَالَ: اللهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ، وأَنْزِلْهُ المُنْزَلَ المُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَجَبَتْ لهُ شَفَاعَتِي).(٢)

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهمْ عَلَيَّ صَلَاةً).(٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ ﷺ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ المَلَائكةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا بَقِيَ اسْمِي فِي ذلكَ الكِتَابِ).(٤)

وعَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ؛ فَلْيُقِلَّ مِنْ ذلِكَ عَبْدٌ أَوْ لِيُكْثِرْ).(٥)

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذا ذَهَبَ رُبُعُ اللَّيْلِ قَامَ، فقَالَ: يَا أيُّها النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ؛ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فيهِ، فقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يا رَسُولَ الله، إنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتي؟ فقَالَ: ما شِئْتَ، قَالَ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، وإنْ زِدْتَ فهُوَ خَيْرٌ، قَالَ: النِّصْفَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فإنْ زِدْتَ فهُوَ خَيْرٌ، قَالَ: الثُّلُثَيْنِ؟

(١) حديث أبي هريرة نحوه: الدارميُّ [٢٩٧٩]، ومالك بن أوس: إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة» [٥] عنه عن عمر بن الخطاب، وأبي طلحة: سيأتي [انظر ص٥١٤].

(٢) حديث زيد بن الحُباب من قال (اللهم صل على محمد ...): [أخرجه أحمد (١٦٩٩١)، وابن أبي عاصم (٨٢٧)، والبزار (٢٣١٥)، وغيرهم].

(٣) حديث ابن مسعود (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة عليّ ...): الترمذيُّ [٤٨٤]، وابن حِبَّان [٩١١].

(٤) حديث أبي هريرة (مَن صَلَّى عَلَيَّ في كتاب ...): الطبرانيُّ في «الأوسط» [١٨٣٥]، وأبو الشيخ في «الثواب» [والمستغفريُّ في الدعوات كما في تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي (٢/ ٧٦٣)] بسندٍ ضعيف. [وقال الحافظ السيوطي في تدريب الراوي (١/ ٥٠٤): «وهذا الحديثُ وإن كان ضعيفًا فهو ممَّا يحسنُ إيرادُهُ في هذا المعنَى»].

(٥) حديث عامر بن ربيعة (مَن صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً ...): أحمد [١٥٦٨٠]، وابن ماجه [٩٠٧]، والطبرانيُّ في «الأوسط» [١٦٥٤] بسندٍ حسن.

قوله (أَوْسٍ): بفتحٍ فسُكونٍ. قوله (الحَدَثَانِ): بفتحِ الحاءِ والدالِ المهْمَلتَينِ بعْدَهما مُثَلَّثةٌ.

قوله (الحُبَابِ): بضمِّ الحاءِ المهْمَلةِ فموحَّدَتَيْنِ.(١)

قوله (المُنْزَلَ): وفي روايةٍ «المَقعَدَ».

قوله (مِنْ ذلكَ عَبْدٌ): وفي نُسْخةٍ بحذفِ «عَبدٌ».

قوله (رُبُعُ اللَّيْلِ): بضَمِّ الراءِ والباءِ ويُسَكَّنُ الثاني، وفي روايةِ المَصابيحِ «إذا ذَهَبَ ثُلُثَاه».

قوله (الراجفةُ): أي النفخةُ الأُولَى.

قوله (قَالَ: الثُّلُثَيْنِ): بضمَّتَينِ ويُسَكَّنُ الثاني.

(١) قال القاري: هذا الحديث سقط منه رجال، فإن زيد بن الحباب ليس من الصحابة ولا من التابعين ولا من أتباعهم... نعم هذا الحديث محفوظ من رواية رويفع بن ثابت الأنصاري مرفوعًا.

قَالَ: مَا شِئْتَ، وإنْ زِدْتَ فهُوَ خَيْرٌ، قَالَ: يا رَسُولَ الله، فَأَجْعَلُ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ؟ قَالَ: إذًا تُكْفَى هَمَّكَ، ويُغْفَرَ ذَنْبُكَ.(١)

وعَنْ أَبي طَلْحَةَ: دَخَلْتُ على النَّبيِّ ﷺ، فرَأَيْتُ مِنْ بِشْرِهِ وطَلَاقَتِهِ مَا لَمْ أَرَهُ قَطُّ، فَسَأَلْتُه، فَقَالَ: (وما يَمْنَعُنِي وقَدْ خَرَجَ جِبْرِيلُ آنِفًا، فَأَتَانِي بِبِشَارَةٍ مِنْ رَبِّي، أَنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكَ؛ أُبَشِّرُكَ أَنَّه لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ يُصَلِّي عَلَيْكَ إلَّا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ومَلائِكَتُهُ بِهَا عَشْرًا).(٢)

وعَنْ جابرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ ﷺ: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّداءَ: اللَّهُمَّ، رَبَّ هَذِه الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ والصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ محمَّدًا الوَسِيلَةَ والفَضِيلَةَ، وابْعَثْهُ مَقامًا محمُودًا الَّذي وعَدْتَه، حَلَّتْ له الشَّفَاعةُ يَوْمَ القِيامَةِ).(٣)

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبي وَقَّاصٍ: (مَنْ قالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: وأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأَنَّ محمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه، رَضِيتُ باللهِ رَبًّا، وبمحمَّدٍ رَسُولًا، وَبالإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لهُ).(٤)

ورَوَى ابْنُ وَهْبٍ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ سَلَّمَ [عَلَيَّ] عَشْرًا فكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً).(٥)

وفِي بَعْضِ الآثَارِ: (لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوامٌ مَا أَعْرِفُهُمْ إلَّا بِكَثْرَةِ صَلاتِهِمْ عَلَيَّ).(٦)

---

(١) حديث أُبيِّ بن كعبٍ (كان إذا ذهب ربع الليل...): الترمذيُّ [٢٤٥٧] وحسَّنه.

(٢) حديث أبي طلحة (دخلت على النبي ﷺ...): النَّسائيُّ [١٢٨٣]، وابن حِبَّان [٩١٥]، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٦٠] بسندٍ صحيحٍ.

(٣) [أخرجه البخاري (٦١٤)، وغيره].

(٤) حديث سعد (من قال حين يسمع المؤذن ...): مسلمٌ [٣٨٦].

(٥) حديث (من سلم عليّ عشرًا فكأنما أعتق رقبة ...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

(٦) حديث (ليردن علي أقوام ...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

قوله (إذًا تُكْفَى): بصيغةِ المفعُولِ المخاطَبِ وتنوينِ (إذًا)، وفي نسخةٍ «يُكْفَى».

وقوله (ويُغْفَرَ): بصيغةِ المجهُولِ منصُوبًا.

قوله (بِشْره): -بكَسْرِ المُوَحَّدةِ- أيْ بشاشَتِه.

قوله (آنِفًا): بالْقَصْرِ والمَدِّ.

وقوله (أنَّ الله): بفتحِ الهَمْزةِ.

قوله (أنَّه ليسَ): بكسْرِ الهَمْزةِ(١).

قوله (الوَسِيلةَ): وفي نُسْخةٍ «والدَّرَجَةَ الرفيعَةَ».

قوله (مَقامًا محمُودًا): وفي نسخةٍ «المَقامَ المَحمُودَ».

---

(١) وفتحها؛ الكسر على أن جملتها مقول قول مفهوم من لفظ (أبشرك)، والفتح على أن المصدر المسبوك منصوب بنزع الخافض، أي «أبشرك بأنه...».

وفي آخَرَ: (إِنَّ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً).(١)

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمْحَقُ لِلذُّنُوبِ مِنَ المَاءِ البَارِدِ لِلنَّارِ، والسَّلَامُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الرِّقَابِ ﷺ.(٢)

***

قوله (أبي بكرٍ الصّديقِ): وفي نسخةٍ بدونِ (الصِّدِّيقِ).

***

(١) حديث (إن أنجاكم يوم القيامة ...): الأصبهانيُّ في ترغيبه [١٦٦٧، و١٦٨٧] عن أنسٍ.

(٢) حديث أبي بكرٍ (الصلاة على النبيِّ ﷺ ...): الأصبهانيُّ في ترغيبه [١٦٨٣] بلفظ (الصلاة عليه أفضل من عتق الرقاب، وحبه أفضل من مهج الأنفس، أو قال: من ضرب السيف في سبيل الله).

فَصْلٌ فِي ذَمِّ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وإثْمِه

حَدَّثَنَا القَاضِي الشَّهِيدُ أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-، حَدَّثَنَا أَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ وأَبُو الحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ، قالا: حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى، حَدَّثَنَا السِّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إبراهِيمَ الدَّوْرَقِيُّ، حَدَّثَنَا رِبْعِيُّ بْنُ إبرَاهِيمَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَه فلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، ورَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَه، ورَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَه أَبَوَاهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّةَ)، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: وأَظُنُّه قَالَ: (أَوْ أَحَدُهُما)[1].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ المِنْبَرَ، فقَالَ: آمِينَ، ثُمَّ صَعِدَ، فقَالَ: آمِينَ، ثُمَّ صَعِدَ، فقَالَ: آمِينَ، فسَأَلَهُ مُعَاذٌ عَنْ ذلكَ، فقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي، فقَالَ: يا مُحَمَّدُ، مَنْ سُمِّيتَ بَيْنَ يَدَيْه فلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَماتَ فدَخَلَ النَّارَ فأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فقُلْتُ: آمِينَ، وقَالَ فِيمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْه فَماتَ مِثْلَ ذلكَ، ومَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْه أَوْ أَحَدَهُما فلَمْ يَبَرَّهُما فَماتَ مِثْلَه.[2]

(1) حديث أبي هريرة (رغم أنف رجل ...): أسنده من طريق الترمذيِّ [3545] وهو عند مسلم [(2551) مختصرًا دون هذا اللفظ].

(2) حديث (أنه صعد المنبر فقال آمين ...): الطبرانيُّ عن أنسٍ [المجمع» (10/ 166)] وابن عبَّاسٍ [11/ 82] وعبد الله بن الحارث بن جزء [بنحوه، كما في «المجمع» (10/ 165)، والبزَّار أيضًا (3790)] وكعب ابن عجرة [19/ 144] ومالك بن الحويرث [19/ 291]، والبزَّار عن جابر بن سمرة [4277] وأبي هريرة [8116] وعمَّار بن ياسر [1405].

قوله (خَيْرُونٍ): بالمنعِ والصَّرْفِ.

قولـه (وأَبُـو الحُسَيْنِ): وفي نسْخةٍ «وأبُو الحَسَنِ»، والصَّوابُ بالتصْغيرِ.

قولـه (رِبْعِـيٌّ): بكَسرِ الراءِ وسُكُونِ الموحَّدةِ.

قوله (رَغِمَ): بكسْرِ الغيْنِ وفتحِها.

وقوله (ذُكِرْتُ): بصيغة المجْهُولِ.

قولـه (الكِبَرَ): بالنصْبِ على المفعُوليّةِ مِنْ (أَدْرَكَ).

وقولـه (فلَمْ يُدْخِلاه): بضمِّ الياءِ وكسْرِ الخاءِ.

قولـه (صَعِدَ): بكسْرِ العيْنِ. قولـه (آمِينَ): بالمَدِّ ويجوزُ قَصْرُه.

قولـه (مَنْ سُمِّيتَ): بضمِّ السِّينِ وتشديدِ الميمِ المكسورةِ على لَفْظِ الخِطَابِ.

قولـه (مِثْلَ ذلك): بالرفعِ، ويجوزُ نَصْبُه، بَلْ هُوَ الأظهرُ قالَه المُلّا.

قولـه (ومَنْ أَدْرَكَ): وفي نسخةٍ «قالَ: ومَنْ... إلخ».

قولـه (فَماتَ مِثْلَه): وفي نسخةٍ «مِثْلَ ذلك».

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْهُ ﷺ أَنَّه قالَ: (البَخِيلُ الَّذي ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ).[1]

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ محمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَه فلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ أُخْطِئَ [بِه] طَرِيقَ الجَنَّةِ).[2]

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: (إِنَّ البَخِيلَ كُلَّ البَخِيلِ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَه فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ).[3]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: قالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: (أَيُّمَا قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسَهُمْ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللهَ وَيُصَلُّوا على النَّبيِّ ﷺ كانَتْ عَلَيْهِم مِنَ اللهِ تِرَةٌ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وإِنْ شَاءَ غَفَرَ لهُمْ).[4]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ عَلَيَّ نَسِيَ طَرِيقَ الجَنَّةِ).[5]

---

(١) حديث علي (البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل علي ...): الترمذيُّ [(٣٥٤٦) من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا] وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٦٥]، وورد أيضًا من حديث ابنه الحسين أخرجه النَّسائيُّ [الكبرى (٩٨٠١)].

(٢) حديث جعفر بن محمد عن أبيه (من ذكرت عنده ...): البيهقيُّ في «الشعب» [١٤٧٢] هكذا مرسلًا، وأخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» [٣/ ١٢٨] موصولًا عن الحسين بن عليٍّ.

(٣) [قال القاري: وقد تقدم هذا الحديث، والظاهر أن هذا من زيادة الكتّاب، والله أعلم بالصواب].

(٤) حديث أبي هريرة (أيما قوم جلسوا ...): أبو داود [(٥٠٥٩) بلفظ «لم يَذكُرِ اللهَ فيه»]، والترمذيُّ [٣٣٨٠] وحسَّنه، والحاكم [١/ ٤٩٦] وصحَّحه.

(٥) حديث أبي هريرة (من نسي الصلاة علي نسي طريق الجنة ...): البيهقيُّ [١٤٧٢] في «الشعب».

قولُه (أُخْطِئَ... إلخ): بضمِّ الهمْزةِ وكسْرِ الطّاءِ، وجوّزَ الدّلجيُّ كونَهُ مَبْنيًّا لِلفاعلِ أيضًا.

قوله (مَجْلِسَهم): وفي نسخةٍ «مَجْلِسًا».

قوله (تِرَةٌ)[1]: -بمثناةٍ فوْقيّةٍ مكسُورةٍ وراءٍ مخففةٍ مفتوحة- أيْ مَنقصَةٌ.

قوله (نَسِيَ طريقَ... إلخ): ضَبَطَهُ الدّلجيُّ بضمِّ الأوّلِ وتشديدِ الثاني، وتَبِعَه الأنطاكيُّ.

---

(١) جاء في الأصل المطبوع «دائرة»، وهو خطأ طباعي، بدليل الضبط المذكور الخاص بكلمة «ترة». والتاء في «ترة» عوض عن واوها المتروكة، كـ«عدة»، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وعَنْ قتَادَةَ، عَنْهُ ﷺ: (مِنَ الجَفَاءِ أَنْ أُذْكَرَ عِنْدَ الرَّجُلِ فلا يُصَلِّيَ عَلَيَّ).(١)

وعَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، عَنْهُ ﷺ: (ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا، ثُمَّ تفرَّقُوا على غَيْرِ صَلَاةٍ على النَّبِيِّ ﷺ إلا تفرَّقُوا على أَنْتَنَ مِنْ رِيحِ الجِيفَةِ).(٢)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: (لا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِسًا لا يُصَلُّونَ فيهِ على النَّبِيِّ ﷺ إلَّا كانَتْ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً، وإِنْ دَخَلُوا الجَنَّةَ؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنَ الثَّوَابِ).(٣)

وحَكَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ، قالَ: إِذَا صَلَّى الرَّجُلُ على النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً في المَجْلِسِ أَجْزَأَ عَنْهُ مَا كانَ في ذلكَ المَجْلِسِ ﷺ.

***

قوله (مِنَ الجَفَاءِ): -بفتحِ الجيمِ والمَدِّ- ضِدُّ الوَفاءِ.

قوله (على غَيْرِ صَلَاةٍ): وفي نسخةٍ «مِنْ غَيْرِ».

قوله (أَجْزَأَ): -بالهَمزةِ، و«أَجْزَى» لُغَةٌ فيهِ- أيْ كَفَى.

***

(١) حديث قتادة (من الجفاء أن أذكر ...): عبدالرزَّاق في جامعه [عن محمد بن علي ٣١٢١] أخبرنا مَعْمَر عنه مرفوعًا.

(٢) حديث (ما جلس قوم ...): البيهقيُّ في «الشعب» [شعب الإيمان (١٤٧٠)، وأخرجه أيضًا النَّسائيُّ في «الكبرى» (٩٨٠٣)].

(٣) حديث أبي سعيد (لا يجلس قوم ...): سعيد بن منصور، والبيهقيُّ في «الشعب» [(١٤٧٠)، وأخرجه أيضًا النسائي في الكبرى (١٠١٧١)].

فَصْلٌ فِي تَخْصِيصِهِ ﷺ بِتَبْلِيغِ صَلَاةِ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ أَوْ سَلَّمَ مِنَ الأَنَامِ

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ محمَّدٍ، حَدَّثَنا أَبُو عُمَرَ الحافِظُ، حدَّثَنا أَبُو عَبْدِ المُؤْمِنِ، حدَّثَنا ابْنُ دَاسَةَ، حدَّثَنا أَبُو دَاوُدَ، حدَّثَنا ابنُ عَوْفٍ، حدَّثَنا المُقْرِئُ، حَدَّثَنا حَيْوَةُ عَنْ أَبِي صَخْرٍ حُمَيْدِ بْنِ زِيادٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: (ما مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي؛ حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْه السَّلَامَ).(١)

وذَكَرَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ، ومَنْ صَلَّى عَلَيَّ نائِيًا بُلِّغْتُهُ).(٢)

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ، يُبَلِّغُونَنِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ)(٣)، ونَحْوُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(٤). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ: (أَكْثِرُوا مِنَ السَّلَامِ على نَبِيِّكُمْ كُلَّ جُمُعَةٍ؛ فإِنَّه يُؤْتَى بِهِ مِنْكُمْ فِي كُلِّ جُمعَةٍ)(٥)، وفي رِوايَةٍ: (فإِنَّ أَحَدًا لا يُصَلِّي عَلَيَّ إلا عُرِضَتْ صَلَاتُه عَلَيَّ حِينَ يَفْرُغُ مِنْها)(٦)، وعَنِ الحَسَنِ، عَنْهُ ﷺ: (حَيْثُما كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي)(٧).

---

(١) حديث أبي هريرة (ما مِن أحدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ ...): أسنده من طريق أبي داود [٢٠٤١]، وأخرجه أيضًا أحمد [١٠٨١٥]، والبيهقيُّ [١٠٢٧٠] وسنده حسنٌ.

(٢) حديث أبي هريرة (مَن صَلَّى عَلَيَّ عند قبري ...): أبو الشيخ في «الثواب»، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٨١].

(٣) حديث ابن مسعودٍ (إنَّ لله مَلائكَةً سَيَّاحين ...): أحمد [٣٦٦٦]، والنَّسائيُّ [١٢٨٢]، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٤٨٠].

(٤) [أخرجه بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس (٦٨٦)، وأخرجه أحمد (٨٨٠٤)، وأبو داود (٢٠٤٢)، وغيرهما، وفيه: «وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تُبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»].

(٥) حديث ابن عمر (أكثروا من السلام ...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

(٦) حديث (أن أحدًا لا يصلي علي ...): [أخرجه ابن ماجه (١٦٣٧) من حديث أبي الدرداء مرفوعًا].

(٧) حديث الحسن بن علي (حيثما كنتم ...): أبو يعلى [٦٧٦١].

قولـه (حدَّثَنا): وفي نسْخةٍ «أَنْبَأَنا».

قوله (دَاسَةَ): بمهْمَلَتَيْنِ. قوله (صَخْرٍ): بفتحِ المهْمَلةِ وسُكونِ المعْجَمةِ. و(حُمَيْدٍ): بالتصْغيرِ. قوله (قُسَيْطٍ): بضمِّ القافِ وفتحِ المهْمَلةِ فسُكونِ تحتيةٍ.

قوله (بُلِّغْتُه): -بصيغةِ المجهُولِ مُشَدَّدًا- أيْ بَلَّغَنِيه الملائكةُ، وفي روايةٍ «أُبْلِغْتُه».

قوله (وعَنِ ابنِ مسْعودٍ): وفي نسخةٍ «وعَنْ أَبِي»، والصَّوابُ الأَوَّلُ.

قوله (إِنَّ للهِ): بفتحِ الهمزةِ وكَسْرِها. قوله (يُبَلِّغُونَنِي): بتخفيفِ النونِ وتشديدِها.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ ويُصَلِّي عَلَيْهِ إِلَّا بُلِّغَهُ[1]، وذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ العَبْدَ إِذا صَلَّى على النَّبيِّ ﷺ عُرِضَ عَلَيْهِ اسْمُهُ.

وعَنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: إِذا دَخَلْتَ المَسْجِدَ فَسَلِّمْ عَلى النَّبيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (لا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيدًا، ولا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكم قُبُورًا، وصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كُنْتُمْ؛ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)[2].

وفي حَدِيثِ أَوْسٍ: (أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ)[3]، وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ: رَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّوْمِ، فقُلْتُ: يا رسُولَ الله، هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَكَ فيُسَلِّمُونَ عَلَيْكَ، أَتَفْقَهُ سَلامَهُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، وأَرُدُّ عَلَيْهِمْ[4].

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ في اللَّيْلَةِ الزَّهْرَاءِ، واليَوْمِ الأَزْهَرِ؛ فإِنَّهُما يُؤَدِّيَانِ عَنْكُمْ، وإِنَّ الأَرْضَ لا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ، وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إلا حَمَلَها مَلَكٌ حتَّى يُؤَدِّيَهَا إِلَيَّ، ويُسَمِّيَهِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: [إِنَّ] فُلانًا يَقُولُ كَذَا وكَذَا)[5].

***

(١) حديث ابن عباس (ليس أحد ...): البيهقي في «الشعب» [١٤٨٢]، وابن راهويه في مسنده.

(٢) حديث الحسن بن علي (إذا دخلت المسجد ...): [أبو يعلى (٦٧٦١) وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٥٠١٦)].

(٣) حديث أوس (أكثروا من الصلاة عليّ في يوم الجمعة ...): أبو داود [١٥٣١] والنَّسائيُّ [١٣٧٤].

(٤) [أخرجه البيهقي في الشعب (٣٨٦٨)].

(٥) حديث ابن شهاب (أكثروا من الصلاة علي في الليلة الزهراء واليوم الأزهر ...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده مسندًا بتمامه فيما اطلعت عليه، وأخرج صدره الطبراني في «الأوسط» (٢٤١)، وغيره].

قوله (عُرِضَ عَلَيْهِ اسْمُهُ): أي اسْمُ المُصَلِّي عَلَيْهِ بخُصُوصِه.

قوله (إذا دَخَلْتَ المَسْجِدَ فسَلِّمْ): أيْ إذا أرَدْتَ دُخولَهُ، أو إذا حَقَّقْتَ وُصُولَه (فسَلِّمْ... إلخ).

قوله (لا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيدًا): أيْ قَبْرِي كَما في روايةٍ، والمَعْنَى: لا تَجْعَلُوا زيارةَ قَبْرِي عِيدًا، ومَعْنَاهُ النَّهْيُ عَنِ الاجْتِماعِ لِزيارتِه ﷺ كاجتماعِهِم لِلعِيدِ مِنَ الأَيَّام. اهـ مُلَّا. قوله (ولا تَتَّخِذُوا بيُوتَكم قُبُورًا): أيْ كالقُبُورِ لا يُصَلَّى فيهَا. وقوله (وصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كُنْتُمْ): أيْ قَرِيبًا أوْ بَعِيدًا. قوله (فَإِنَّ صَلاتَكم مَعْروضةٌ عَلَيَّ): أيْ مِنْ غَيْرِ واسطةٍ، أو مِنْ غَيْرِ انتظارِ رابطةٍ.

قوله (سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ): -بضمِّ السِّينِ وفتحِ الحاءِ المُهْمَلتَيْن فتحيّةٍ سَاكنةٍ- مَدَنِيٌّ. قوله (أَتَفْقَهُ سَلامَهُمْ): أيْ أَتَعْرِفُ كَلامَهم وتَدْرِي مَرامَهم.

قوله (واليَوْمِ الأزهَرِ): أي الأَنْوَرِ، ويُرْوَى: «في اللّيْلةِ الغَرَّاءِ واليومِ الأَغَرِّ»، يَعْنِي ليلةَ الجُمُعَةِ ويومَهَا.

قوله (يَقُولُ كَذَا وكَذَا): كِنايَةٌ عَنْ ألفاظِ الصَّلاةِ والسَّلام إجمالًا وتفصيلًا وتكثيرًا وتقليلًا.

***

فَصْلٌ فِي الاخْتِلَافِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

قَالَ القَاضِي -وَفَّقَه اللهُ-: عامَّةُ أَهْلِ العِلْمِ مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ الصَّلَاةِ على غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لا تَجُوزُ الصَّلَاةُ على غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ[1]، ورُوِيَ عَنْهُ: لا تَنبَغِي الصَّلَاةُ على أَحَدٍ إِلَّا النَّبِيِّينَ[2].

وقالَ سُفْيَانُ: يُكْرَهُ أَنْ يُصَلَّى إِلا عَلَى نَبِيٍّ.

ووَجَدْتُ بِخَطِّ يَدِ بَعْضِ شُيُوخِ مَذْهَبِ مالِكٍ أَنَّه لا يَجُوزُ أَنْ يُصَلَّى على أَحَدٍ مِنَ الأنبياءِ سِوَى محمَّدٍ ﷺ، وهَذا غَيْرُ مَعْرُوفٍ مِنْ مَذْهَبِه، وقَدْ قَالَ مَالِكٌ في «المَبْسُوطَةِ» لِيَحْيَى بْنِ إِسْحاقَ: أَكْرَهُ الصَّلاةَ على غَيْرِ الأنبياءِ، ومَا يَنبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَدَّى مَا أُمِرْنا بِهِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى: لَسْتُ آخُذُ بقَوْلِه، ولا بَأْسَ بالصَّلَاةِ على الأنبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وعَلَى غَيْرِهِمْ، واحْتَجَّ بحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، وبِمَا جاءَ في حَدِيثِ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلاةَ عَلَيْه، وفيهِ: (وعَلَى أَزْوَاجِهِ، وعلى آلِهِ).

وقَدْ وَجَدْتُ مُعَلَّقًا عَنْ أَبِي عِمْرانَ الفَاسِيِّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَرَاهَةَ الصَّلَاةِ على غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: وبِه نَقُولُ، ولَمْ يَكُنْ مسْتَعْمَلًا فِيمَا مَضَى.

(١) حديث ابن عبَّاس (لا تجوز الصَّلاةُ على غير النبيِّ ﷺ ...): البيهقيُّ في «الشعب» [١٤٨٣]، وسعيد بن منصور في سننه.

(٢) حديث ابن عبَّاس (لا ينبغي الصَّلاة على أحدٍ إلَّا النبيين): القاضي إسماعيل في كتاب «فضل الصلاة».

قوله (قَالَ القَاضِي -وفَّقَهُ اللهُ): وفي نسخةٍ «قال القاضي أبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ».

قوله (ووَجَدْتُ بخَطِّ يَدِ بَعْضِ شُيُوخٍ): وفي نسخةٍ بدونِ (يَدِ).

وقوله (في المَبْسُوطةِ): وفي نسخةٍ «في المَبْسُوطِ».

قوله (ومَا يَنبَغِي لنا أنْ نَتَعَدَّى): أيْ بالجَمْعِ بينَ الصَّلاةِ والسَّلامِ لِغَيْرِ الأنبِيَاءِ.

وقوله (بحَدِيثِ ابنِ عُمَرَ): هُوَ أنَّه كانَ يُصَلِّي على النَّبيِّ وعلى أبي بَكرٍ وعُمَرَ[1].

قوله (عَنْ أَبِي عِمرانَ الفاسِيِّ): بالفاءِ والسِّينِ، وفي نسخةٍ «القَابِسيِّ» بالقافِ وبمُوَحَّدةٍ بَعْدَ الأَلِفِ فسينٍ مهْمَلةٍ.

قوله (وبِه نَقُولُ): وَفي نسخةٍ «وبِه أقولُ».

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٦٨) كتاب قصر الصلاة - باب ما جاء في الصلاة على النبي ﷺ.

وَقَـدْ رَوَى عَبْـدُ الـرَّزَّاقِ عَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: (صَلُّـوا عـلى أَنبيَـاءِ اللهِ ورُسُـلِهِ؛ فَـإِنَّ اللهَ بَعَثَهُـمْ كَـمَا بَعَثَنِـي)[١]، قَالُـوا: والأَسَـانِيدُ عَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ لَيِّنَـةٌ.

والصَّلَاةُ فِي «لِسَانِ العَـرَبِ» بمَعْنَى التَّرَحُّـمِ والدُّعَـاءِ، وذلـك عـلى الإِطْـلَاقِ حَتَّى يَمْنَـعَ مِنْـهُ حَدِيـثٌ صَحِيـحٌ أَوْ إِجْمَـاعٌ.

وقَـدْ قَـالَ تَعَـالَى: ﴿هُـوَ الَّـذِي يُصَـلِّي عَلَيْكـم ومَلائكَتُـه...﴾ الآيَـة [الأحـزاب: ٤٣]، وقـالَ تعـالى: ﴿خُـذْ مِـنْ أَمْوَالِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَهِّرُهُـمْ وتُزَكِّيهِـم بِهَـا...﴾ الآيَـةَ [التوبـة: ١٠٣]، وقـالَ تعـالى: ﴿أُولَئِـكَ عَلَيْهِـمْ صَلَـوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ ورَحْمَـةٌ﴾ [البقـرة: ١٥٧].

وقَـالَ ﷺ: (اللهُـمَّ صَـلِّ عَـلى آلِ أَبِي أَوْفَى)[٢]، وكَانَ إِذَا أَتَـاهُ قَـوْمٌ بِصَدَقَتِهِـمْ قَـالَ: اللَّهُـمَّ صَـلِّ عَـلى آلِ فُـلَانٍ[٣].

وفي حديـثِ الصَّـلاةِ: (اللَّهُـمَّ صَـلِّ عَـلى محمَّـدٍ، وعَـلى أَزْوَاجِـهِ وذُرِّيَّتِـهِ)، وفي آخَـرَ: (وعَـلَى آلِ محمّـدٍ)[٤]، قِيـلَ: أَتْبَاعُـهُ، وقِيـلَ: أُمَّتُـه، وقِيـلَ: آلُ بَيْتِـه، وقِيـلَ: الأَتْبَـاعُ والرَّهْـطُ والعَشِـيرَةُ، وقيـلَ: آلُ الرَّجُـلِ وَلَـدُه، وقِيـلَ: قَوْمُـه، وقِيـلَ: أَهْلُـه الَّذِيـنَ حُرِّمَـتْ عَلَيْهِـمُ الصَّدَقَـةُ.

وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ آلُ محمَّدٍ؟ قالَ: (كُلُّ تَقِيٍّ).[٥]

---

(١) حديث أبي هريرة (صَلُّوا على أنبياء الله ...): عبدالرزّاق في جامعه [٣١١٨]، والقاضي إسماعيل [٤٥] بسندٍ ضعيف.

(٢) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٤٩٧)، ومسلمٌ (١٠٧٨)، وغيرهما من حديث عبدالله بن أبي أوفى].

(٣) حديث (اللهمَّ صَلِّ على آل أبي أوفى وكان إذا أتاه قوم ...): الشيخان [البخاريُّ (١٤٩٧)، ومسلمٌ (١٠٧٨)] عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٤) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٣٦٩)، ومسلمٌ (٤٠٧)، وغيرهما من حديث أبي حميد الساعدي. ورواية: «وعلى آل محمد» أخرجها البخاري (٤٧٩٨)، وغيره عن أبي سعيد].

(٥) حديث أنس (آل محمد كل تقي): الطبرانيُّ في «الأوسط» [٣٣٣٢]، وابن مردويه.

قولـه (فَـإِنَّ اللهَ بَعَثَهـم كَـمَا بَعَثَنِـي): وفي نسْـخةٍ «فـاللهُ بَعَثَهـم... إلـخ».

قولـه (قالُـوا: والأَسَـانيدُ): أيْ قـالَ يَحْيَـى وأتباعُـه، أو جُمْهُـورُ العُلَـماءِ، وهُـوَ الظّاهِـرُ مِـن قولـه (والأَسَـانيدُ... إلـخ).

قولـه (بمَعْنـى التَّرَحُّـمِ والدُّعَـاءِ): أيْ ونَحْوِهمـا مِـنَ الاسْـتغفارِ وحُسْـنِ الثَّنَـاءِ. وقولـه (وذلـك عـلى الإِطـلاقِ): أيْ بالاتفـاقِ.

قولـه (وكانَ إذا أَتَـاهُ قَـوْمٌ بِصَدَقَتِهِـمْ): هُـوَ مِـنْ تَتِمَّـةِ الحَدِيـثِ. وقولـه (وفي حديـثِ الصَّـلَاةِ): أيْ في التشَـهُّدِ.

قولـه (وقيـلَ: الأَتْبَـاعُ والرَّهْـطُ): ويُـرْوَى «الأتبـاعُ»، وهُـمُ الرَّهْـطُ، والرَّهْـطُ قبيلـةُ الرَّجُـلِ، وعشـيرتُه قومُـه.

قولـه (قـالَ: كُلُّ تَقِـيٍّ): الظَّاهـرُ «إنَّ كُلَّ تَقِـيٍّ مِنْهُـمْ». اهـ مـلّا.

وَيَجِيءُ عَلى مَذْهَبِ الحَسَنِ أَنَّ المُرَادَ بِآلِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٌ نَفْسُه؛ فإنَّه كانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ عَلى النَّبِيِّ ﷺ: (اللهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وبَرَكاتِكَ عَلى آلِ مُحَمَّدٍ)، يُرِيدُ نَفْسَهُ؛ لأَنَّه كَانَ لا يُخِلُّ بالفَرْضِ، وَيَأْتِي بالنَّفْلِ؛ لِأَنَّ الفَرْضَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ هُوَ الصَّلاةُ عَلى مُحَمَّدٍ نَفْسِه، وهَذا مِثْلُ قَوْلِه ﷺ: (لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داوُدَ)[1]، يُرِيدُ مِنْ مَزَامِيرِ داود.

وفي حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ فِي الصَّلاةِ: (اللهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وأزواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ)، وفي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّه كانَ يُصَلِّي عَلى النَّبِيِّ ﷺ وعَلى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي «المُوَطَّإِ» مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى الأَنْدُلُسِيِّ، والصَّحِيحُ مِنْ رِوَايَةِ غَيْرِه: (وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ)، ورَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ: كُنَّا نَدْعُو لِأَصْحابِنا بالغَيْبِ، فنَقُولُ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ مِنْكَ عَلى فُلانٍ صَلَوَاتِ قَوْمٍ أَبْرَارٍ، الَّذِينَ يَقُومُونَ باللَّيْلِ ويَصُومُونَ بالنَّهارِ)[2].

قالَ القاضي -وَفَّقَه اللهُ تعالى-: والَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ المحَقِّقُونَ وأَمِيلُ إِلَيْهِ مَا قالَهُ مَالِكٌ وسُفْيَانُ -رَحِمَهُما اللهُ تعالى-، ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -واخْتَارَهُ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ الفُقَهاءِ والمُتَكَلِّمِينَ- أَنَّه لا يُصَلَّى عَلى غَيْرِ الأنبياءِ عِنْدَ ذِكْرِهِمْ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الأنبياءُ تَوْقِيرًا لَهُمْ وتَعْزِيزًا كَمَا يَخُصُّ اللهُ تعالى عِنْدَ ذِكْرِه بالتَّنزِيهِ والتقْدِيسِ والتعْظِيمِ، ولا يُشَارِكُهُ فيهِ غَيْرُهُ، كذَلِكَ يَجِبُ تَخصِيصُ النبيِّ ﷺ وسَائِرِ الأنبياءِ بالصَّلاةِ والتسْليمِ، ولا يُشَارَكَ فيهِ سِوَاهُمْ كَمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ،

(١) حديث (لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود): الشيخان [البخاريُّ (٥٠٤٨)، ومسلمٌ (٧٩٣)] عن أبي موسى.

(٢) حديث أنس (كنَّا ندعو لأصحابنا بالغيب ...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

قوله (يُرِيدُ نَفْسَهُ): وفي بَعْضِ النُّسَخِ بدونِ ذلك، والنسْخَةُ الأُولى لا تُلائِمُ[1].

قوله (لِأَنَّ الفَرْضَ الذي أَمَرَ اللهُ بِه): أَيْ في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ...﴾ إلخ [الأحزاب: ٥٦]. وقوله (وهَذا مِثْلُ قَوْلِه): أَيْ كونُ الآلِ مُقحَمًا مِثْلَ... إلخ. قوله (لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمارًا): أَيْ أُوتِيَ أبو موسى الأشعَرِيُّ صَوْتًا حَسَنًا.

قوله (وفي حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ في الصَّلاةِ): أَيْ في ألفاظِها. قوله (يَحْيَى الأندلسِيِّ): بفتحِ الهمزةِ والدّالِ المهْمَلةِ وضمِّ لامٍ، وقيلَ: بضمِّ الثَّلاثةِ، وقُيِّدَ به لِلاحترازِ عَن يَحْيَى بنِ يَحْيَى النِّيسابُورِيِّ.

قوله (والصحيحُ مِنْ روايةِ غَيْرِه): لا وُجُودَ لِهذا في بَعْضِ النُّسَخِ.

قوله (قالَ القاضي -وَفَّقَهُ اللهُ-... إلخ): وفي أُخرى بدونِ (وَفَّقَه اللهُ)، وفي نسْخةٍ «قالَ الفَقِيهُ القاضي». وقولُهُ (عِنْدَ ذِكْرِهِمْ): أَيْ إفرادًا، وإنَّما تَجُوزُ اتِّباعًا. قوله (شَيْءٌ يَخْتَصُّ به الأنبياءُ): -وفي نسْخةٍ «يُخَصُّ... إلخ»- أَيْ عُرْفًا وعَادَةً، وفيهِ رَدٌّ على «الرافضَةِ».

قوله (ولا يُشارِكُهُ فيهِ غَيْرُه): فيُقالُ: «قالَ اللهُ تعالى، عَزَّ وجَلَّ»؛ وإنْ كانَ الأنبياءُ أَعِزَّةً وأَجِلَّاءَ. قوله (ولا يُشَارَكَ فيهِ سِواهُمْ): بِبِناءِ الفِعْلِ لِلمَفعُولِ والفاعلِ، وفي نسْخةٍ «ولا يُشارِكُهُمْ... إلخ».

(١) التي تضمنت عبارة (يريد نفسه).

بقَوْلِهِ: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويُذْكَرُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الأَئِمَّةِ وغَيْرِهِمْ بالغُفْرَانِ والرِّضَى، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَقُولُونَ ربَّنَا اغْفِرْ لنَا ولِإخوانِنا الَّذينَ سَبَقُونا بالإِيمانِ...﴾ الآيَةَ [الحشر: ١٠]، وقَالَ: ﴿والذينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحسَانٍ...﴾ الآيَةَ [التوبة: ١٠٠].

وأيْضًا فهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ معْروفًا في الصَّدْرِ الأَوَّلِ كَمَا قَالَ أَبُو عِمْرانَ، وإنَّمَا أَحْدَثَتْهُ الرَّافِضَةُ والشِّيعَةُ في بَعْضِ الأَئِمَّةِ فشَارَكُوهُمْ عِنْدَ الذِّكْرِ لَهُمْ بِالصَّلاةِ وسَاوَوْهُمْ بالنَّبِيِّ ﷺ أيضًا في ذلك، وأَيْضًا فإِنَّ التَّشَبُّهَ بأَهْلِ البِدَعِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، فتَجِبُ مُخَالَفَتُهُمْ فِيمَا التَزَمُوهُ مِن ذلِكَ.

وذِكْرُ الصَّلَاةِ عَلَى الآلِ والأَزْواجِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بحُكْمِ التَّبَعِ والإِضَافَةِ إِلَيْهِ، لا على التخْصيصِ قالُوا: وصَلَاةُ النَّبِيِّ ﷺ على مَنْ صَلَّى عَلَيْه مَجْرَاها مَجْرَى الدُّعَاءِ والمُواجَهَةِ لَيْسَ فيهَا مَعْنَى التَّعظيمِ والتَّوْقِيرِ، قالُوا: وقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فكذلكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ مخالِفًا لِدُعَاءِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وهُوَ اخْتِيارُ الإِمَامِ أَبِي المُظَفَّرِ الإِسْفَرَايِنِيِّ مِنْ شُيُوخِنَا، والحافِظِ أَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

***

قوله (وَقَالَ -تعالى-: والَّذِينَ اتَّبَعُوهم بإحسانٍ): وفي نسْخةٍ مِنْ أَوَّلِ قوْلِه: (والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأنصارِ والَّذِينَ... إلخ). وقوله (بإحْسانٍ): أيْ بإيمانٍ وَطاعةٍ إلى يَوْمِ القِيَامةِ.

قوله (والإِضَافَةِ إِلَيْهِ): أيْ فهُوَ جائزٌ لا على سبيلِ الاسْتقلالِ.

قوله (قالوا: وصَلاةُ...): أيْ قَالَ العُلَماءُ المحقِّقونَ.

قوله (والمواجَهَةِ): أي حُسْنِ المقابَلَةِ حالَ المعَاشَرَةِ.

قوله (كدُعاءِ بَعْضِكم بَعْضًا): أيْ في المنَاداةِ باسْمِهِ في رَفعِ الصَّوتِ عندَه.

قوله (الإسْفَرايِنيِّ): -بكسْرِ الهَمْزةِ وتفتحُ، وفتحِ الفاءِ وتُكسَرُ- مِنَ الفقهاءِ المالكيّةِ.

***

فَصْلٌ فِي زِيَارَةِ قَبْرِهِ ﷺ، وَفَضْلِ مَنْ زَارَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ يُسَلِّمُ وَيَدْعُو

وَزِيَارَةُ قَبْرِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْمُسْلِمِينَ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا، وفَضِيلَةٌ مُرَغَّبٌ فِيهَا؛ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَه شَفاعَتِي)(١).

حدَّثَنا القاضي أَبُو عَلِيٍّ، حدَّثَنا أَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ، حدَّثَنا الحُسَيْنُ بْنُ جَعْفَرٍ، حدَّثَنا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ الدَّارَقُطْنِيُّ، حدَّثَنا القَاضِي المَحَامِلِيُّ، حدَّثَنا مُحمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، حدَّثَنا موسَى بْنُ هِلَالٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ نافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، فذَكَرَهُ.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ زارَنِي في المدينَةِ مُحْتَسِبًا كانَ في جِوارِي، وكُنْتُ له شَفِيعًا يَوْمَ القِيَامَةِ)(٢)، وفي حَدِيثٍ آخَرَ: (مَنْ زارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فكأَنَّما زارَنِي في حَيَاتِي)(٣).

وكَرِهَ مالِكٌ أَنْ يُقَالَ: زُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ، وقَدِ اخْتُلِفَ في مَعْنَى ذلكَ، فقِيلَ: كَرَاهَةُ الاسْمِ لِمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: (لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ القُبُورِ)(٤)، وهَذَا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ: (نُهِيتُمْ عَنْ زِيارَةِ القُبُورِ فزُورُوهَا)(٥)، ..

---

(١) حديث ابن عمر (من زار قبري وجبت له شفاعتي): ابن خزيمة في صحيحه [كما في البدر المنير (٦/ ٢٩٦)] متوقفًا في ثبوته، والبزَّار، والطبرانيُّ [كما في «المجمع» (٤/ ٢)]، وله طرقٌ وشواهد حسَّنه لأجلها الذهبيُّ.

(٢) حديث أنس (من زارني في المدينة ...): [أخرجه الذهبيُّ في «الميزان» (١/ ٩١) من حديث ابن عمر].

(٣) حديث (من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي): سعيد بن منصور في سننه، والدارقطني [٢٦٩٤]، والبيهقيُّ في السنن [١٠٢٧٤]، والطبرانيُّ [١٢/ ٤٠٦] عن ابن عمر.

(٤) حديث (لعن الله زوارات القبور ...): أحمد [٨٤٤٩]، والترمذيُّ [١٠٥٦]، وابن حِبَّان [٣١٧٨] عن أبي هريرة.

(٥) حديث (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها): مسلمٌ [٩٧٧] عن بريدة.

قوله (مُجْمَعٌ عَلَيْهَا): -ويُرْوَى «مُجْتَمَعٌ عَلَيْهَا»- أي مُجْتَمَعٌ على كونِها سُنَّةً. قوله (وَجَبَتْ لَه شَفاعَتِي): أي حَقَّتْ وثَبَتَتْ له شفاعَتِي، وفي نسخةٍ «حَلَّتْ... إلخ». وقوله (مَنْ زارَنِي في المدينة محتسِبًا): أيْ ناوِيًا ذلك الجَنابَ، وطالِبًا لِلثوابِ لا لِغَرَضٍ آخَرَ. وقوله (كانَ في جِوَارِي): -بكَسْرِ الجيمِ- أي مُجاوَرَتِي، وفي نسخةٍ بضمِّ الجيمِ، أيْ في ذِمَّتِي وعَهْدِي. قوله (مَنْ زارَنِي بَعْدَ مَوْتِي): وَفي روايةٍ «بَعْدَ وفاتي». قوله (فقِيلَ: كراهةُ الاسْمِ): -وفي نسْخةٍ «كَراهِيَةُ الاسْمِ»- أي اسْمِ الزِّيارةِ. قوله (لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ القُبُورِ): -بفتحِ الزايِ وتشديدِ الواوِ- أي المُبالِغاتِ في زيارةِ القبُورِ. وقوله (نَهَيْتُهم عَنْ زيارَةِ... إلخ): وفي نسْخَةٍ «نَهَيْتُكُمْ». وقوله (فزُورُوها): وفي نسْخَةٍ زيادةُ «ولا تَقُولُوا هُجْرًا» -بضمِّ الهاءِ وسُكونِ الجيمِ- أيْ كَلامًا يُوجِبُ إِثْمًا.

.. وقَوْلُه: (مَنْ زَارَ قَبْرِي) فَقَدْ أَطْلَقَ اسْمَ الزِّيَارَةِ، وقِيلَ: لِأَنَّ ذلك لِمَا قِيلَ: «إِنَّ الزَّائِرَ أَفْضَلُ مِنَ المَزُورِ»، وهَذا أَيْضًا لَيْسَ بشَيْءٍ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ زائِرٍ بهَذِه الصِّفَةِ، ولَيْسَ عُمُومًا، وقَدْ وَرَدَ في حَدِيثِ أَهْلِ الجَنَّةِ زِيارتُهُمْ لِرَبِّهِمْ، ولَمْ يُمنَعْ هَذَا اللَّفْظُ في حَقِّهِ.

وقَالَ أَبُو عُمَرَ[1]: وإِنَّما كَرِهَ مالكٌ أَنْ يُقَالَ: «طَوَافُ الزِّيَارَةِ»، و«زُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ»؛ لاسْتِعْمالِ النَّاسِ ذلك بَيْنَهُمْ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وكَرِهَ تَسْوِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ النَّاسِ بِهَذَا اللَّفْظِ، و[أَحَبَّ] أَنْ يُخَصَّ بأَنْ يُقَالَ: «سَلَّمْنا على النَّبِيِّ ﷺ»، وأَيْضًا فإِنَّ الزِّيَارَةَ مُباحَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَوَاجِبٌ شَدُّ المَطِيِّ إِلَى قَبْرِهِ ﷺ، يُرِيدُ بالوُجُوبِ هُنَا وُجُوبَ نَدْبٍ وتَرْغِيبٍ وتَأْكِيدٍ.

والأَوْلَى عِنْدِي أَنَّ مَنْعَه وكَرَاهَةَ مالكٍ لَه؛ لِإِضَافَتِهِ إِلى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وأَنَّه لَوْ قَالَ: زُرْنا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكْرَهْهُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ بَعْدِي، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ على قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ)[2]؛ فحَمَى إِضَافَةَ هَذا اللَّفْظِ إِلى القَبْرِ، والتَّشَبُّهَ بِفِعْلِ أُولئكَ قَطْعًا لِلذَّرِيعَةِ، وحَسْمًا لِلْبَابِ، واللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ إِسْحاقُ بْنُ إِبْراهيمَ الفَقِيهُ: ومِمَّا لَمْ يَزَلْ مِنْ شَأْنِ مَنْ حَجَّ المُرُورُ بالمَدِينَةِ، والقَصْدُ إِلى الصَّلَاةِ في مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ، والتَّبَرُّكُ بِرُؤْيَةِ رَوْضَتِهِ ومِنْبَرِهِ، وقَبْرِهِ ومَجْلِسِهِ، ومَلَامِسِ يَدَيْهِ، ومَوَاطِئِ قَدَمَيْهِ، وَالعَمُودِ الَّذِي كانَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ، ويَنْزِلُ جِبْرِيلُ بالوَحْيِ فيهِ عَلَيْهِ، وبِمَنْ عَمَرَهُ وقَصَدَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، والِاعْتِبَارُ بذَلِكَ كُلِّهِ.

وقَالَ ابْنُ أَبِي فُدَيْكٍ: سَمِعْتُ بَعْضَ مَنْ أَدْرَكْتُ يَقُولُ: بَلَغَنَا أَنَّه مَنْ وَقَفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَلَا هذِه الآيَةَ: ﴿إِنَّ اللهَ ومَلَائِكَتَه يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]،

---

(١) [هكذا في الأصل المطبوع، وفي نسخة الشهاب والقاري «أبو عِمران»، قال القاري: «أبو عِمران» أي الفاسي، وفي كثير من النسخ «أبو عمر» وهو ابن عبد البر].

(٢) [أخرجه بهذا اللفظ: مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار (٨٥)، وأخرجه بنحوه: الحميدي (١٠٥٥)، وأحمد (٧٣٥٨)، وأبو يعلى (٦٦٨١) عن أبي هريرة مرفوعًا].

قوله (وواجِبٌ شَدُّ المَطِيِّ): وفي نُسْخةٍ «شَدُّ الرِّحَالِ».

قوله (وأنَّه لَوْ قالَ: زُرْنا... إلخ): بكسرِ الهَمزةِ وفتحِها.

قوله (اللهُمَّ لا تجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا): أي كالوَثَنِ، وهُوَ الصَّنَمُ.

وقوله (اشْتَدَّ غَضَبُ الله على قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ): أي يَسْجُدُونَ لها كَما يَسْجُدونَ لِلأَوْثانِ كَما فَعَلَهُ بَعْضُ النَّصارَى.

قوله (ومَجْلِسِه): أيْ مَحَلِّ جُلُوسِهِ في المَسْجِدِ الحَرامِ، ومَكانِ صَلاتِه عِنْدَ الأُسطواناتِ وغَيْرِها.

قوله (والعَمُودِ الَّذي كانَ يَسْتَنِدُ إِلَيْه): وفي نُسْخةٍ «يَسْنُدُ... إلخ».

قوله (وبِمَنْ عَمَرَهُ): أيْ والتبرُّكُ بمَنْ عَمَرَ مَسْجِدَه مَبْنًى ومَعْنًى.

قوله (والاعتِبارُ بذلكَ... إلخ): بالرَّفعِ.

قوله (وقَالَ ابْنُ [أبي] فُدَيْكٍ): بالتصْغيرِ.

ثُمَّ قَالَ: صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، مَنْ يَقُولُهَا سَبْعِينَ مَرَّةً، نَادَاهُ مَلَكٌ: صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا فُلَانُ، فَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ حَاجَةٌ.[١]

وعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَهْرِيِّ: قَدِمْتُ على عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، فلَمَّا وَدَّعْتُهُ قَالَ: لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، إِذَا أَتَيْتَ المَدِينَةَ سَتَرَى قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ[٢]، قَالَ غَيْرُهُ: وكَانَ يُبْرِدُ إِلَيْهِ البَرِيدَ مِنَ الشَّامِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: رَأَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَتَى قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ، فوَقَفَ فرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّه افْتَتَحَ الصَّلاةَ، فسَلَّمَ على النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

قَالَ مالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ: إِذَا سَلَّمَ على النَّبِيِّ ﷺ ودَعَا، يَقِفُ ووَجْهُهُ إِلَى القَبْرِ، لا إِلَى القِبْلَةِ، ويَدْنُو ويُسَلِّمُ، وَلا يَمَسُّ القَبْرَ بيَدِه. وقَالَ فِي «المَبْسُوطِ»: لا أَرَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ يَدْعُو؛ ولَكِنْ يُسَلِّمُ وَيَمْضِي.

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ وِجَاهَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَجْعَلِ القِنْدِيلَ الَّذِي فِي القِبْلَةِ عِنْدَ القَبْرِ على رَأْسِهِ.

وقَالَ نافِعٌ: كانَ ابْنُ عُمَرَ يُسَلِّمُ على القَبْرِ؛ رأَيْتُه مائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ يَجِيءُ إِلَى القَبْرِ، فيَقُولُ: السَّلَامُ على النَّبِيِّ، السَّلَامُ على أَبِي بَكْرٍ، السَّلَامُ على أَبِي، ثُمَّ يَنْصَرِفُ[٣]، وَرُئِيَ واضِعًا يَدَهُ على مَقْعَدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المِنْبَرِ، ثُمَّ وَضَعَها على وَجْهِهِ[٤].

---

(١) حديث ابن أبي فديك (سمعت بعض من أدركت ...): [أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٣٨٧٢)].

(٢) [أخرجه البيهقي في الشعب (٣٨٧٠) من طريق ابن أبي الدنيا].

(٣) حديث نافع (كان ابن عمر يسلم ...): مالكٌ [كتاب قصر الصلاة في السفر (٦٨)]، والبيهقيُّ [«الشعب» (٣٨٥٤)].

(٤) حديث (رؤي ابن عمر واضعًا يده ...): ابن سعدٍ [١/ ٢٥٤] عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القاري: أنه نظر إليه.. فذكره.

قوله (فَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ حَاجَةٌ): بل تُرفَعُ، وفي نسخةٍ «لَمْ تَسْقُطْ لَكَ».

قوله (المَهْرِيِّ): بفتحِ الميمِ وسُكونِ الهاءِ فراءٍ فياءِ نِسْبَةٍ. قوله (فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ): يَجُوزُ قطعُ همزِهِ وكسْرُ رائِه، ويَجُوزُ وَصْلُ أَوَّلِه وفتحُ الراءِ. قوله (وكَانَ يُبْرِدُ إِلَيْهِ البَرِيدَ): -بضمِّ الياءِ وسُكونِ الموحَّدةِ وكسرِ الراءِ- أَيْ يُوَجِّهُ ويُسَيِّرُ[١]. قوله (ويَدْنُو): أَيْ ويَقْرُبُ مِنَ القَبْرِ قُرْبًا يُناسِبُ الأَدَبَ في حَقِّه -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

قوله (قَالَ ابنُ [أبي] مُلَيْكَةَ): -بالتصْغيرِ- تابِعيٌّ تَيْمِيٌّ، مُؤَذِّنُ ابنِ الزُّبَيْرِ. قوله (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ وِجَاهَ): -بكَسْرِ الواوِ وتُضَمُّ- أَيْ في مُواجَهَتِه ومُقابَلَتِه. قوله (فلْيَجْعَلِ القِنْدِيلَ الذي في القِبْلَةِ عِنْدَ القَبْرِ على رأْسِهِ): و«القِنديلُ» بكَسْرِ القافِ معْروفٌ، وأمَّا بفَتْحِه فهُوَ عَظْمُ الرأْسِ. وقوله (مائةَ مَرَّةٍ أو أَكْثَرَ): -وفي نسخةٍ «وأَكْثَرَ»- بمعْنَى «بَلْ أَكْثَرَ».

قوله (السَّلامُ على أَبِي): وفي نسخةٍ «السَّلامُ على أَبِي حَفْصٍ»، وهوَ كُنيةُ «عُمَرَ»، وهَذا أَقْرَبُ إلى الأدَبِ. (ثُمَّ يَنْصَرِفُ): ولَمْ يَزِدْ على ذلكَ. رواه البَيْهقيُّ وغيْرُه.

---

(١) قال الشهاب: (وكان يبرد إليه البريد من الشام) لأنها كانت مقر الخلفاء، أي يرسل رسولا إلى رسول الله ﷺ ليبلغه سلامه ويقرأه السلام، لا لقصد غير ذلك البتة، وكان ذلك في صدر زمن التابعين ولم ينكر ذلك أحد منهم.

وعَنِ ابْنِ قُسَيْطٍ والعُتْبِيِّ: كانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إذا خَلا المَسْجِدُ جَسُّوا رُمَّانَةَ المِنْبَرِ الَّتِي علَى القَبْرِ بمَيَامِنِهِمْ، ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا القِبْلَةَ يَدْعُونَ.[1]

وَفِي «المُوَطَّأِ» مِنْ رِوايَةِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى اللَّيْثِيِّ أَنَّه كانَ يَقِفُ على قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فيُصَلِّي على النَّبِيِّ، وعلَى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ.

وعِنْدَ [ابْنِ] القَاسِمِ والقَعْنَبِيِّ: ويَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

قَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ: يَقُولُ المُسَلِّمُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ-، ورَحْمَةُ الله وبَرَكَاتُه، قَالَ فِي «المَبْسُوطِ»: ويُسَلِّمُ على أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ.

قالَ القاضِي أَبُو الوَلِيدِ البَاجِيُّ: وعِنْدِي أَنَّه كانَ يَدْعُو لِلنَّبِيِّ ﷺ بلَفْظِ الصَّلَاةِ، ولِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ كَمَا فِي حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ مِنَ الخِلَافِ.

وقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: ويَقُولُ إذَا دَخَلَ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ: «بِسْمِ الله، وسَلَامٌ على رَسُولِ الله، السَّلَامُ عَلَيْنا مِنْ رَبِّنَا، وصَلَّى الله ومَلَائِكَتُه على محمَّدٍ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وافْتَحْ لِي أَبْوابَ رَحْمَتِكَ وجَنَّتِكَ، واحْفَظْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»،

.. ثُمَّ اقْصِدِ الرَّوْضَةَ -وهِيَ ما بَيْنَ القَبْرِ والمِنْبَرِ-، فارْكَعْ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ وُقُوفِكَ بالقَبْرِ تَحْمَدُ الله فِيهِمَا، وتَسْأَلُه تَمَامَ ما خَرَجْتَ إِلَيْهِ، والعَوْنَ عَلَيْهِ، وإنْ كانَتْ رَكْعَتَاكَ فِي غَيْرِ الرَّوْضَةِ أَجْزَأَتَاكَ، وَفِي الرَّوْضَةِ أَفْضَلُ.

(١) حديث ابن قسيط: ابن سعد [١/ ٢٥٤].

قوله (**وعَنِ ابنِ قُسَيْطٍ**): بفتحِ قافٍ وكسْرِ مهْملةٍ، أو بالتصْغيرِ؛ قالَ الملّا: وهوَ الأصَحُّ. وقوله (**العُتْبِيِّ**): قالَ الملّا: هوَ بضمٍّ عَينٍ وسُكونِ فوقيّةٍ وموَحّدةٍ.

قوله (**جَسُّوا**): -بفتحِ الجيمِ وتشديدِ السّينِ المهْمَلةِ- أي مَسُّوا. (**رُمَّانةَ المِنبرِ**): أي العُقدةَ المشابِهَةَ لِلرّمّانةِ الّتي كانَ يأخُذُها ﷺ بيمينِه. وقوله (**بمَيَامِنِهِمْ**): متعلِّقٌ بـ«جَسُّوا»، أيْ تَمَسَّحُوا بأيمانِهم طَلَبًا لِليُمْنِ والبَرَكةِ.

قوله (**يقولُ المسَلِّمُ**): -بتشديدِ اللامِ المكسورةِ- أي الزائرُ.

وقوله (**بلَفْظِ الصّلاةِ**): أي بأنْ يقولَ: «الصَّلاةُ عليْكَ يا نبيَّ الله»، قالَ الملّا: ولا شَكَّ أنَّ الجمْعَ بيْنَها وبَيْنَ السَّلامِ أفْضَلُ وأكْمَلُ.

قوله (**كَمَا في حديثِ ابنِ عُمَرَ مِنَ الخِلافِ**): أي المُتقدِّمِ حَيْثُ جاءَ في روايةٍ أخرى عَنْه أنَّه كانَ يَقولُ: «السَّلامُ على النبيِّ ﷺ، السَّلامُ على أَبِي بَكْرٍ، السَّلامُ على أَبِي»، وفي روايةٍ: كانَ يُصَلِّي على النبيِّ ﷺ وعلى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ.

قوله (**مسْجدَ النبيِّ**): وفي نسْخةٍ «مسْجدَ الرّسُولِ».

قوله (**السَّلامُ عَلَيْنا**): زادَ الملّا: أيْ وعلى عِبادِ الله الصّالِحينَ.

قوله (**وصَلَّى اللهُ وملائكتُه... إلخ**): قالَ الملّا: الأَوْلَى زيادةُ «وسَلَّمَ».

قوله (**ثُمَّ اقصِدِ الرّوضةَ**): فيه التِفاتٌ، أيْ ثُمَّ تَوَجَّهْ. قوله (**رَكْعتَيْنِ**): أي قِيامًا بحَقِّ الرُّبُوبيّةِ كَمَا هوَ مقتَضَى العبُوديّةِ. قوله (**تَحْمَدُ الله**): -بفتحِ التّاءِ والميمِ- أيْ حَالَ كوْنِكَ مُثْنِيًا على الله. وقوله (**فيهِمَا**): أيْ في الركعتَيْنِ، وفي نسخةٍ «فيها»، أي الصّلاةِ.

وقَدْ قالَ ﷺ: (مَا بَيْنَ بَيْتِي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، ومِنْبَرِي عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الجَنَّةِ)(١)،

.. ثُمَّ تَقِفُ بالقَبْرِ مُتَوَاضِعًا مُتَوَقِّرًا، فتُصَلِّي عَلَيْهِ، وتُثْنِي بِمَا يَحْضُرُكَ، وتُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، وتَدْعُو لَهُمَا، وأَكْثِرْ مِنَ الصَّلَاةِ في مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ باللَّيْلِ والنَّهَارِ، ولا تَدَعْ أَنْ تَأْتِيَ مَسْجِدَ قُبَاءٍ، وقُبُورَ الشُّهَدَاءِ.

قَالَ مالِكٌ في كِتَابِ محمَّدٍ: وَيُسَلِّمُ على النَّبِيِّ ﷺ إذا دَخَلَ وخَرَجَ -يَعْنِي في المدينةِ-، وفِيما بَيْنَ ذلك، قالَ محمَّدٌ: وإذا خَرَجَ جَعَلَ آخِرَ عَهْدِهِ الوُقُوفَ بالقَبْرِ، وكَذلكَ مَنْ خَرَجَ مُسَافِرًا.

ورَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ فاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: (إذَا دَخَلْتَ المَسْجِدَ فصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوابَ رَحْمَتِكَ، وإذا خَرَجْتَ فصَلِّ على النَّبِيِّ ﷺ، وقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ)، وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «فلْيُسَلِّمْ» مَكَانَ «فَلْيُصَلِّ» فِيهِ(٢).

ويَقُولُ إذا خَرَجَ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ). وَفِي أُخْرَى: (اللهُمَّ احْفَظْنِي مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ)(٣).

---

(١) حديث (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على ترعة من ترع الجنة): رواه هكذا بلفظه وتمامه الدارقطني [العلل (١٣/ ٥٥)] عن ابن عُمرَ، ورواه بتمامه لكن بلفظ: (بيتي) بدل (قبري) أحمد [١٥١٨٧] عن جابر، والبزَّار [٧٣ نحوه] عن أبي بكر [وأخرجه بنفس بلفظ المصنِّف عن أبي هريرة (٨٢٠٠)]، ورواه بلفظ (قبري) لكن بدون الجملة الأخيرة البيهقيُّ [١٠٢٨١] عن أبي هريرة، والطبرانيُّ في «الأوسط» [٦١٠] عن ابن عمر، وروى الجملة الأخيرة فقط أحمد [٢٢٨٤١] وأبو عوانة [كما في إتحاف المهرة (٦/ ١١٥)] عن سهل بن سعد.

(٢) حديث فاطمة (إذا دخلت المسجد ...): [أخرجه أحمد (٢٦٤١٦)، وغيره]، رواية (فليسلم): أبو داود [٤٦٥] عن أبي حميد وأسيد.

(٣) حديث (اللهمَّ احفظني من الشيطان ...): ابن ماجه [(٧٧٣) بلفظ: «اعصمني من الشيطان» وأخرجه بلفظ المصنف النسائي في الكبرى (٩٨٣٩) البزّار (٨٥٤٣)] عن أبي هريرة.

قولـه (مـا بَيْنَ بَيْتِي): أي المختصِّ بعائشةَ المعبَّرِ عَنْه في روايةِ «ما بَيْنَ قبري»، (ومِنبَرِي روضةٌ مِنْ رياض الجَنَّةِ): أي حقيقةً بأنْ يَنتقلَ إليْها حالَ وُصُولِها، أو وسيلةً بأنْ تكونَ العبَادةُ فيها سَبَبًا لِدُخولِها، أو هُمَا مِنَ الجَنَّةِ حَقيقةً مِثْلَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ؛ احْتِمالاتٌ، ولا مانِعَ مِن الجَمْعِ.

قوله (على تُرْعَةٍ): -بضمِّ الفوْقيَّةِ وسُكونِ راءٍ فعَيْنٍ مهْمَلةٍ- أي رَوْضةٍ مرتفعَةٍ.

وقوله (ثُمَّ تَقِفُ بالقَبْرِ): أيْ قريبًا مِنه، ومُقْبِلًا عَلَيْهِ بكليَّةِ قلبِكَ، سالكًا غايةَ الأدَبِ، متوسِّلًا به إلى ربِّكَ.

قوله (مسْجِدَ قُبَاءٍ): أيْ لا تَتْرُكْ إتيانَ ذلك المسْجِدِ؛ فإنَّه ﷺ كانَ يأتِيها كُلَّ سَبْتٍ راكبًا وماشيًا، و(قُبَاءٌ): يُمَدُّ ويُقْصَرُ، ويؤنَّثُ ويُذَكَّرُ، ويُصْرَفُ ويُمنَعُ، والأشْهَرُ مَدُّه وتذكيرُه وصَرْفُه.

قوله (جَعَلَ آخِرَ عَهْدِهِ الوُقُوفَ بالقبْرِ): أيْ لِلزيارةِ قِيَاسًا على طَوَافِ الوَداعِ.

وعَنْ محمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قالَ: كانَ النَّاسُ يَقُولُونَ إذا دَخَلُوا المَسْجِدَ: (صَلَّى اللهُ ومَلَائِكَتُه على محمَّدٍ، السَّلامُ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ، باسْمِ اللهِ دَخَلْنا، وبِاسْمِ اللهِ خَرَجْنَا، وعَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا)، وكانُوا يَقُولُونَ إذا خَرَجُوا مِثْلَ ذلكَ.

وعَنْ فاطمةَ أيْضًا: كانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ قالَ: (صَلَّى اللهُ علَى محمَّدٍ وسَلَّمَ)[1]، ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ حَديثِ فاطمةَ قَبْلَ هَذا، وَفِي رِوَايَةٍ: (حَمِدَ اللهَ، وَسَمَّى وصَلَّى علَى النَّبِيِّ ﷺ)، وذَكَرَ مِثْلَهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: (بِسْمِ اللهِ، والسَّلامُ على رَسُولِ اللهِ)[2].

وعَنْ غَيْرِهَا: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا دَخَلَ المَسْجِدَ قالَ: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، ويَسِّرْ لِي أَبْوَابَ رِزْقِكَ)[3].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيُصَلِّ على النبيِّ ﷺ، ولْيَقُلْ: اللهُمَّ افْتَحْ لِي[4].

وقالَ مالكٌ في «المَبْسُوطِ»: ولَيْسَ يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ المسْجدَ وخَرَجَ مِنْه مِنْ أَهْلِ المَدِينةِ الوُقُوفُ بالقَبْرِ، وإنَّما ذلكَ لِلْغُرَباءِ.

وقالَ فيهِ أيْضًا: لا بَأْسَ لِمَنْ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ خَرَجَ إلى سَفَرٍ أَنْ يَقِفَ على قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فيُصَلِّي عَلَيْه ويَدْعُو له ولِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، فقِيلَ لهُ: إنَّ ناسًا مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لا يَقْدَمُونَ مِنْ سَفَرٍ

(١) حديث فاطمة (كان إذا دخل المسجد ...): أحمد [٢٦٤١٩]، والبيهقيُّ في «الدعوات» [٦٧]، رواية (حمد الله وسمَّى وصَلَّى): [أخرجها أبي طاهر في المخلصيات (٢٧٩٩)، وابن عساكر في التاريخ (٧٠/ ١٣)].

(٢) رواية (بسم الله والسلام على رسول الله): الترمذيُّ [٣١٤]، وابن ماجه [٧٧١].

(٣) حديث (كان إذا دخل المسجد ...): [أخرجه أبو عوانة (١٢٣٦) من حديث أبي حميد الساعدي].

(٤) حديث أبي هريرة (إذا دخل أحدكم المسجد...): ابن حبان [٢٠٤٧]، وابن خزيمة [٤٥٢]، وابن ماجه [٧٧٣]، والنسائي [٩٠] في «اليوم والليلة».

قوله (قالَ: كانَ النَّاسُ يقولونَ): المُرادُ بالنَّاسِ الصَّحابةُ.

وقوله (باسمِ اللهِ دَخَلْنا): أي مُستعينينَ باسْمِه، وخَرَجْنا مُتمسِّكينَ باسْمِه.

قوله (إذا دَخَلَ المسجدَ قالَ: صَلَّى اللهُ على محمَّدٍ): وفي نُسخةٍ «ﷺ»، قالَ المُلّا: أَخرَجَه أحمدُ والبَيْهقيُّ في «الدَّعواتِ».

قوله (وذَكَرَ مِثْلَه): قالَ المُلّا: هذا نَقْلٌ بالمَعْنَى، وقدْ ثَبَتَ باختلافِ المَبْنَى؛ فلا عِبْرةَ بقَولِ الدَّلجيِّ: «لا أَدْري مَن رَواها».

قوله (بِسْمِ اللهِ، والسَّلامُ على رسُولِ اللهِ): وفي نُسخةٍ: «والصَّلاةُ» بَدَلَ «والسَّلامُ».

قوله (أبوابَ رَحْمَتِكَ): أي الدُّنيويَّةِ والأخرويةِ.

قوله (وإنَّما ذلك للغُرَباءِ): أي مِنَ الزائرينَ دونَ المُقيمينَ، قالَ المُلّا: وهذا كَما قالَ العُلَماءُ: إنَّ صَلاةَ النّافلةِ في مَكّةَ أفضَلُ لِلمقيمينَ، والطَّوافَ أفضَلُ للغرباءِ النّازلةِ بها.

قوله (لا بأسَ لِمَنْ قَدِمَ مِن سَفَرٍ): -بكسْرِ الدّالِ- أي نَزَلَ. وقوله (لا يَقْدَمُونَ): -بفتحِ الدّالِ- أيْ لا يَجيئونَ.

ولا يُرِيدُونَـه يَفْعَلُـونَ ذلِـكَ في اليَـوْمِ مَـرَّةً أَوْ أَكْثَـرَ، ورُبَّـمَا وَقَفُـوا في الجُمعـةِ أَوْ في الأَيَّـامِ المَـرَّةَ أَوِ المَرَّتَـيْنِ أَوْ أَكْثَـرَ عِنْـدَ القَـبْرِ، فيُسَـلِّمُونَ ويَدْعُـونَ سَـاعةً، فقَـالَ: لَمْ يَبْلُغْنِي هَـذا عَـنْ أَحَـدٍ مِـنْ أَهْلِ الفِقْـهِ بِبَلَدِنَـا، وتَرْكُـه وَاسِـعٌ، ولا يُصْلِـحُ آخِـرَ هَـذِه الأُمَّـةِ إلا مَـا أَصْلَـحَ أَوَّلَهَـا، ولَمْ يَبْلُغْنِـي عَـنْ أَوَّلِ هَـذِهِ الأُمَّـةِ وصَدْرِهـا أَنَّهُـمْ كانُـوا يَفْعَلُـونَ ذَلِـكَ، ويُكْـرَهُ إلا لِمَـنْ جَـاءَ مِـنْ سَـفَرٍ أَوْ أَرَادَهُ.

قَـالَ ابْـنُ القَاسِـمِ: ورَأَيْـتُ أَهْـلَ المَدِينَـةِ إذا خَرَجُـوا مِنْهـا أَوْ دَخَلُوهَـا أَتَـوُا القَـبْرَ فسَـلَّمُوا، قَـالَ: وذلِـكَ رَأْيٌ.

قَـالَ البَاجِـيُّ: ففَـرَّقَ بَـيْنَ أَهْـلِ المَدِينَـةِ والغُرَبَـاءِ؛ لأَنَّ الغُرَبَـاءَ قَصَـدُوا لِذلِـكَ، وأَهْـلَ المدينَـةِ مُقِيمُـونَ بِهَـا، لَمْ يَقْصِدُوهَـا مِـنْ أَجْـلِ القَـبْرِ والتَّسْـلِيمِ.

وقَـالَ ﷺ: (اللهُـمَّ لا تَجْعَـلْ قَـبْرِي وَثَـنًا يُعْبَـدُ، اشْـتَدَّ غَضَـبُ اللهِ عـلى قَـوْمٍ اتَّخَـذُوا قُبُـورَ أَنبِيَائِهِمْ مسَـاجِدَ).[1]

وقَالَ: (لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا).[2]

(١) حديث (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله...): مالكٌ في «الموطأ» [كتاب قصر الصلاة في السفر (٨٥)] عن عطاء بن يسار مرسلًا، وعبد الرزاق في مصنفه [١٥٨٧] عن معمر عن زيد بن أسلم مرسلًا.

(٢) حديث (لا تجعلوا قبري عيدًا ...): إسماعيل القاضي [٢٠]، وابن أبي شيبة في «المصنف» [٧٥٤٢] موصولًا عن عليٍّ، وسعيد بن منصور في سننه من طريقين مرسَلَين.
[وأخرجه أبو داود (٢٠٤٢) وأحمد (٨٨٠٤) وغيره من حديث أبي هريرة].

قوله (ولا يُرِيدُونَه): أي لا يَقصِدونَ السَّفَرَ غالبًا.

قولـه (ورُبَّـمَا وَقَفُـوا في الجُمُعَـةِ): -بضـمّ الجيـم والميـم وتُسَـكَّنُ- أيْ في الأُسـبُوعِ.

قولـه (لَمْ يَبْلُغْنِـي هـذا عَـنْ أَحَـدٍ مِـنْ أَهْـلِ الفِقْـهِ): أيْ مِـنَ المتقدِّمِـينَ، (بِبَلَدِنـا): يَعْني المدينَـةَ.

قوله (وتَرْكُه واسِعٌ): أيْ جَائزٌ.

قولـه (أَتَـوُا القَـبْرَ فسَـلَّمُوا): قـالَ المـلَّا: لا شَـكَّ أنَّ الزِّيـارَةَ في تَيْنِـكَ الحَالتَـيْنِ أكثَـرُ اسْـتحبابًا وأظهَـرُ أَرَبًـا، لَكِـنْ لا يَلْـزَمُ مِنْـه أنَّهـم لَمْ يكونـوا فيـما بـيْنَ ذلـكَ مِـنَ الواقِفِـينَ هنالـكَ. اهـ.

قوله (قالَ الباجيُّ): بالموَحَّدَةِ والجيمِ.

قولـه (ففَـرَّقَ بَـيْنَ أَهْـلِ المدينـةِ والغربـاءِ): أيْ ففَـرَّقَ مالـكٌ -بتشـديدِ الـراءِ؛ وفي نسْـخةٍ بفتـحٍ فسُـكونٍ- أيْ فَصَـلَ.

ومِنْ كِتَابِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ الهِنْدِيِّ فِيمَنْ وَقَفَ بالقَبْرِ: لا يَلْصَقُ بالقَبْرِ ولا يَمَسُّهُ، ولا يَقِفُ عِنْدَه طَوِيلًا.

وفي «العُتْبِيَّةِ»: يَبْدَأُ بالرُّكُوعِ قَبْلَ السَّلَامِ في مَسْجِدِ النَّبيِّ ﷺ، وأَحَبُّ مَوَاضِعِ التَّنَفُّلِ فِيهِ مُصَلَّى النَّبيِّ ﷺ؛ حَيْثُ العَمُودُ المُخَلَّقُ، وأَمَّا فِي الفَرِيضَةِ فالتَّقَدُّمُ في الصُّفُوفِ والتَّنَفُّلُ فِيهِ لِلْغُرَبَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ التَّنَفُّلِ فِي البُيُوتِ. واللهُ أَعْلَمُ.

***

قوله (لا يَلْصَقُ بالقبرِ): لِأَنَّه ناشِئٌ عَن قِلَّةِ الأدبِ مَعَ رسُولِ الله ﷺ. وقوله (ولا يَمَسُّه): أيْ لِعَدَمِ وُرُودِه، بلْ وَرَدَ النَّهْيُ عَن مَسِّهِ ولَمسِهِ.

قوله (وفي العُتْبِيَّةِ): -بضمّ العَين المهْملة، وسُكون الفوقيّة، وكسْر الموحّدة، وتشديد التحتيّة- منسُوبةٌ إلى فَقيهِ الأندُلسِ محمّدِ بنِ أحمَدَ بنِ عبْدِ العَزيزِ العُتْبيِّ القُرطبيِّ، مصَنِّفها، وهوَ مِنْ مَوَالي عُتبَةَ بنِ أَبي سُفْيانَ، أَخذَ عَنْ يحيَى بنِ يحيَى اللَّيْثيِّ وطبَقَتِه.

قوله (يَبْدأُ بالرّكوعِ): أي بصَلاةِ التحيَّةِ لِلمسْجِدِ.

وقوله (في مَسْجِدِ النبيِّ... إلخ): أيْ قِيَاسًا على حَالِ حَيَاتِه؛ فإنّه قدْ وَرَدَ أنَّ واحدًا مِنَ الصّحابةِ دَخَلَ المسْجِدَ، فجاءَ وسَلَّمَ على النبيِّ ﷺ، فقال له: ارجِعْ وصَلِّ ركعتينِ، وسَلِّمْ عَلَيَّ[1]، قالَ الملاَّ: وفيه إيماءٌ إلى تقديمِ الحُرْمةِ الربُوبيّةِ على تعظيمِ الخِدْمَةِ النَّبويّةِ.

قوله (حيثُ العَمُودُ المُخَلَّقُ): -بضمِّ الميمِ وفتحِ الخاءِ المعْجَمةِ ولامٍ مشدَّدةٍ مَفتوحَةٍ- أي المُبَخَّرُ أو المُطْلَى بالخَلُوقِ -بفتحِ أوَّلِه-، وهُوَ نَوعٌ مِنَ الطِّيبِ المُعَبَّقِ.

قوله (فالتقدُّمُ في الصُّفوفِ): أي أفضَلُ لِلمَأمومِينَ، وأمَّا الإمامُ فلا شَكَّ أنَّ مَقَامَه الأفضلَ مُصَلَّاهُ الأكمَلُ.

قوله (أَحَبُّ إليَّ مِنَ التنفُّلِ في البيوتِ): فيه الحسَنَةُ بمائةِ ألْفٍ، فالنّوافلُ في البيوتِ أَفْضَلُ لهم ولَوْ كانُوا مِنَ الغُرَبَاءِ.

***

(١) لم أجده في ما اطلعت عليه من مصادر حديثية، وذكره القاري في «شرح الشفا» (٢/ ١٥٨) ولم يعزه.

فَصْلٌ
فِيما يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَدَبِ سِوَى ما قَدَّمْنَاهُ، وفَضْلِهِ وفَضْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ وفي مَسْجِدِ مَكَّةَ، وذِكْرِ قَبْرِهِ ومِنْبَرِه، وفَضْلِ سُكْنَى المَدِينَةِ ومَكَّةَ

قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ أَيُّ مَسْجِدٍ هُوَ؟ قَالَ: (مَسْجِدِي هَذا)[١].

وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ المُسَيَّبِ وزَيْدِ بْنِ ثابتٍ وابْنِ عُمَرَ ومالِكِ بْنِ أَنَسٍ وغَيْرِهِمْ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّه مَسْجِدُ قُبَاءٍ[٢].

حدَّثَنا هِشامُ بْنُ أَحْمَدَ الفَقِيهُ بِقِراءَتِي عَلَيْهِ، حدَّثَنا الحُسَيْنُ بْنُ محمَّدٍ الحافِظُ، حدَّثَنا أَبُو عُمَرَ النَّمِرِيُّ، حدَّثَنا أَبُو محمَّدُ بْنُ عَبْدِ المُؤْمِنِ، حدَّثَنا أَبُو بَكْرِ بْنُ دَاسَةَ، حدَّثَنا أَبُو دَاوُدَ، حدَّثَنا مُسَدَّدٌ، حدَّثَنا سُفْيانُ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(١) حديث (سئل أي مسجد هو ...): مسلمٌ [١٣٩٨] وغيره عن أبي سعيد، وأحمد [٢١١٠٧] عن سهل بن سعد وأُبيِّ بن كعب.

(٢) حديث ابن عبَّاسٍ (إنه مسجد قباء): ابن أبي حاتمٍ [١٠٠٧٦].

(فصْلٌ فِيمَا يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ مسْجدَ النبيِّ مِنَ الأَدَبِ) وفي نسْخةٍ «مِنَ الآدابِ». قوله (وفضلِ سُكْنَى المدينةِ ومكَّةَ): أي سُكّانِها ومُجاوِرِي مَكانِهما، وقَدَّمَ «المدينةَ» بِناءً على مُعتَقَدِ مالكٍ ومَنْ وافقَه على ذلك.

قوله (قالَ: مَسْجِدِي هذا): رواه مسْلِمٌ، والترمذيُّ وصحَّحَه، والنَّسائيُّ عَنْ أبي سَعيدٍ وغيْرِه، وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ: (هُوَ مسْجدُكم هذا، مسْجدُ المدينةِ)[١]، قالَ الملّا: فكانَ الأَوْلَى لِلمُصَنِّفِ أنْ يقولَ: فقَدْ ورَدَ أوْ يُنْسَبُ... إلخ.

قوله (رُوِيَ): -بصيغةِ المجهُولِ- موْضوعةٌ لِلتمريضِ غالبًا.

قوله (سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ): -بفتحِ الياءِ وكسْرِها- وهوَ مِنْ أكابرِ التابعِينَ، فكانَ الأَوْلَى أنْ يؤخِّرَه عَنْ قولِه (وزيدِ بنِ ثابتٍ... إلخ)، ثُمَّ يقولُ بَعْدَه (ومالكِ بنِ أَنَسٍ). اهـ ملّا.

قوله (وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أنَّه مسْجدُ قُباءٍ): أيْ لِأنَّه أَسَّسَه رسُولُ اللهِ ﷺ، وصَلَّى فيه أيَّامَ إقامتِه بِها مِنْ يَوْمِ الاثنينِ إلى يومِ الجُمُعَةِ، وهُوَ أَوْفَقُ لِلقصّةِ في سَبَبِ نزولِ الآيةِ. اهـ ملّا.

قوله (حَدَّثَنا هشامُ بنُ أحْمدَ): وفي نسْخةٍ «هَاشِمُ». وقوله (الحُسَيْنُ بنُ محمّدٍ): بالتصْغيرِ، وفي نسْخةٍ «الحَسَنُ»، وهُوَ الأصَحُّ. اهـ ملّا. قوله (أَبُو عُمَرَ النَّمِرِيُّ): -بفتحِ النونِ وكسرِ الميمِ- وهُوَ ابنُ عبْدِ البَرِّ حافظُ الغَرْبِ.

قوله (حدَّثنا مُسَدَّدٌ): بفتحِ الدّالِ المشدَّدةِ الأُولى.

(١) «صحيح مسلم» (١٣٩٨) [كتاب الحاج].

(لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا لِثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الحَرَامِ، ومَسْجِدِي هَذَا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى).[1]

وقَدْ تَقَدَّمَتِ الآثَارُ في الصَّلَاةِ والتَّسْلِيمِ على النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ دُخُولِ المَسْجِدِ الحَرَامِ.

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ (أنَّ النَّبِيَّ ﷺ إذا دَخَلَ المَسْجِدَ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وسُلْطَانِه القَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ).[2]

وقَالَ مالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: سَمِعَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَوْتًا في المَسْجِدِ، فدَعَا بِصَاحِبِهِ، فقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فقَالَ: رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ، فقَالَ: لَوْ كُنْتَ مِنْ هاتَيْنِ القَرْيَتَيْنِ لَأَدَّبْتُكَ؛ لِأَنَّ مَسْجِدَنا لا يُرْفَعُ فيهِ الصَّوْتُ[3].

(١) حديث أبي هريرة (لا تشد الرحال ...): أسنده من طريق أبي داود [٢٠٣٣]، وهو في الصحيحين [البخاريُّ (١١٨٩)، ومسلمٌ (١٣٩٧)].

(٢) حديث ابن عمر (وكان إذا دخل المسجد ...): أبو داود [٤٦٦].

(٣) حديث (سمع عمر صوتًا ...): البخاريُّ [٤٧٠ بنحوه]، والنَّسائيُّ [«الكبرى» (١١٨٤٨) مختصرًا].

قوله (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَّا لِثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ): لِفَضْلِها على غيْرِها في كوْنِها مَشَاهِدَ، وفي بعْضِ النُّسَخِ «إلَّا [إلى] ثَلاثَةِ».

وقوله (مَسْجِدِ الحَرَامِ): -بالجَرِّ- بَدَلٌ مِنْ (ثَلَاثَةِ)، وفي نسْخةٍ «المسْجِدِ الحرامِ».

قوله (ومَسْجِدِي هذا): يَعْني مسْجدَ المدينةِ، احْترازًا مِنْ نَحْوِ مسْجِدِ قُبَاءٍ، فلا يَدلُّ على حَصْرِ فَضْلِ مسْجِدِه على مَا كانَ مشارًا إلَيْهِ في مَشْهَدِه.

قوله (والمسْجِدِ الأقْصى): وهوَ الأبعَدُ مِنَ المَسَاجِدِ بالنسْبَةِ إلى العَرَبِ، وهوَ الذي بِبَيْتِ المَقْدِسِ، وهوَ مَسْجدُ كثيرٍ مِنَ الأنبياءِ، وقدْ دَخَلَه النبيُّ ﷺ، وصَلَّى فيه ليلةَ الإسْراءِ اهـ ملَّا.

قوله (وقدْ تقدَّمَتِ الآثارُ في الصَّلاةِ والتسْليمِ): وفي نسْخةٍ «والسَّلامِ». وقوله (عِنْدَ دخولِ المسْجِدِ): أيْ مطلَقِ المسَاجِدِ، فبالأَوْلى مراعاتُها في أفضلِ المَشاهِدِ.

قوله (عَمْرِو بنِ العَاصِ): الصَّوابُ فيه تَركُ الياءِ في آخِره اهـ ملَّا[1]. وقوله (إذا دَخَلَ المسْجِدَ): أي جِنْسَ المسْجِدِ.

قوله (فدَعَا بصاحِبِه): أي طَلَبَ صاحبَ الصوتِ. وقوله (مِنْ ثَقِيفٍ): أي مِنْ أَهْلِ الطّائفِ.

قوله (لأنَّ مَسْجِدَنا لا يُرْفَعُ فيه): لِمَا وَرَدَ مِنْ قوله تعالى: ﴿لا تَرْفَعُوا أصْواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وهوَ حاضرٌ بَعْدَ مَماتِه كَمَا كانَ في حَالِ حيَاتِه، فيكونُ مُوجِبًا لِمُراعاتِه.

(١) على أن الإمام النووي قال في شرحه على مسلم: «وأمّا العاصي فأكثرُ ما يأتي في كُتُبِ الحديث والفقه ونحوها بحذف الياء وهي لُغةٌ، والفصيحُ الصّحيحُ العاصي بإثبات الياء»، والجمهور على ما قال النووي، وهو الفصيح عند أهل العربية. وفي «عقود الزبرجد» للسيوطي: «قال ابن ماكولا: ابن العاصي: بإثبات الياء على الأصح ولكن العامة قد لهجت بحذفها منه.
وذكر أبو جعفر محمد بن إدريس معاذ الجرجاني في كلامه على كامل المبرد: وجدت بخط الآمدي، قال أبو بكر، قال أبو العباس هو عمرو بن العاصي بإثبات الياء، لأنه اعتصى بالسيف، أي: أقام السيف مقام العصا، وليس هو من العصيان. انتهى.
وقال النووي في «شرح مسلم»: الفصيح في (العاصي) إثبات الياء، ويجوز حذفها، وهو الذي يستعمله معظم المحدِّثين، أو كلّهم.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَمَّدَ الْمَسْجِدَ بِرَفْعِ الصَّوْتِ، وَلا بِشَيْءٍ مِنَ الأَذَى، وَأَنْ يُنَزَّهَ عَمَّا يُكْرَهُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الفَضْلِ: حَكَى ذَلِكَ كُلَّهُ الْقَاضِي إِسْمَعِيلُ فِي مَبْسُوطِهِ، فِي بَابِ «فَضْلِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ»، وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ أَنَّ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ هَذَا الْحُكْمُ.

قَالَ الْقَاضِي إِسْمَعِيلُ: وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: وَيُكْرَهُ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ الْجَهْرُ عَلَى الْمُصَلِّينَ فِيمَا يُخَلِّطُ عَلَيْهِمْ صَلَاتَهُمْ، وَلَيْسَ مِمَّا تُخَصُّ بِهِ الْمَسَاجِدُ رَفْعُ الصَّوْتِ، قَدْ كُرِهَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ فِي مَسَاجِدِ الْجَمَاعَاتِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَمَسْجِدَ مِنًى.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْهُ ﷺ: (صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ؛ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ).(١)

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ-: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى هَذَا الاسْتِثْنَاءِ عَلَى اخْتِلافِهِمْ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمدينةِ؛ فَذَهَبَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ أَشْهَبَ عَنْهُ -وَقَالَهُ ابْنُ نَافِعٍ صَاحِبُهُ وَجَمَاعَةُ أَصْحَابِهِ- إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِأَلْفِ صَلَاةٍ، إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ بِدُونِ الأَلْفِ.

وَاحْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ)(٢)، فَتَأْتِي فَضِيلَةُ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ بِتِسْعِمِائَةٍ، وَعَلَى غَيْرِهِ بِأَلْفٍ،

---

(١) حديث أبي هريرة (صلاة في مسجدي ...): الشيخان [البخاريُّ (١١٩٠)، ومسلمٌ (١٣٩٤)].

(٢) حديث عمر (صلاة في المسجد الحرام ...): الحميديُّ في مسنده [٩٧٠].

قوله (لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتعمَّدَ المسْجدَ بِرَفعِ الصَّوتِ): أي يَقْصِدَ، وفي نسْخةٍ صحيحةٍ «أَنْ يَعْتَمدَ». وقوله (ولا بِشَيْءٍ مِنَ الأذى): أيْ مِنْ دخولِهِ فيهِ، أو رميِهِ مِنْ بُصَاقٍ ونحْوِه. وقوله (أَنْ يُنَزَّهَ عَمَّا يُكْرَهُ): أيْ مِن بَيعِه وشرائِه وحَلْقِ رأسِه وقصِّ ظُفُرِه وغيرِه.

قوله (كُلُّهم مُتَّفِقُونَ أَنَّ حُكْمَ سَائِرِ المسَاجِدِ هذا الحكمُ): قَالَ الملَّا: أَقولُ: لَكِنْ لا شُبْهَةَ في تَفاوُتِ مَراتبِ المسَاجِدِ في هذا الحُكمِ وغيرِه مِنَ المَقاصدِ.

قوله (فِيما يُخَلِّطُ عَلَيْهِمْ صَلاتَهُمْ): -بتشديدِ اللَّامِ المكسُورةِ- أيْ يُلَبِّسُ عَلَيْهِم صَلاتَهُمْ مِنْ جِهَةِ القِراءَةِ وعَدَدِ الرَّكَعاتِ.

قوله (قَدْ كُرِهَ رَفْعُ... إلخ): -بصيغةِ المفعولِ- أيْ كَرِهَ جَماعةٌ رَفْعَ... إلخ.

قوله (اخْتَلَفَ النَّاسُ في مَعْنَى هذا الاسْتثناءِ): يَعْنِي قولَه (إلَّا المَسْجدَ الحرَامَ) هَلْ يُفيدُ الزّيادةَ أو النقصانَ أو الاسْتواءَ؟!

قوله (وجَماعةُ أصْحابِه): بالإضافةِ، وفي نسخةٍ «وجَماعةٌ مِنْ أصْحابِه»، أي مِنْ أصْحابِ مالِكٍ.

قوله (أفضَلُ مِنَ الصّلاةِ فيه بِدُونِ الألْفِ): أي فالاسْتثناءُ لِبَيانِ النقْصِ في الجملةِ، وسيَأتي ما يَرُدُّ هذه المَقولةَ.

وهَـذَا مَبْنِـيٌّ عـلى تَفضِيـلِ المَدِينَـةِ عـلى مَكَّـةَ عـلى مَـا قَدَّمْنـاهُ، وهُـوَ قَـوْلُ عُمَـرَ بْـنِ الخَطَّـابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومالِـكٍ وأَكْثَـرِ المَدَنِيِّـينَ.

وذَهَـبَ أَهْـلُ مَكَّـةَ والكُوفـةِ إلى تَفْضِيـلِ مَكَّـةَ، وهُـوَ قَـوْلُ عَطَـاءٍ وابْـنِ وَهْـبٍ وابْـنِ حَبِيـبٍ مِـنْ أَصْحَـابِ مالِـكٍ، وحَـكَاهُ السَّـاجِيُّ عَـنِ الشَّـافِعِيِّ، وحَمَلُـوا الاسْـتِثْنَاءَ في الحديـثِ المُتَقَـدِّمِ عـلى ظاهِـرِهِ، وأَنَّ الصَّـلَاةَ في المَسْـجِدِ الحَـرَامِ أَفْضَـلُ.

واحْتَجُّـوا بحَدِيـثِ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ الزُّبَـيْرِ عَـنِ النَّبـيِّ ﷺ بِمِثْـلِ حَدِيـثِ أَبِي هُرَيْـرَةَ، وفِيـهِ: (وصَـلَاةٌ في المَسْـجِدِ الحَـرَامِ أَفْضَـلُ مِـنَ الصَّـلَاةِ في مَسْـجِدِي هَـذا بِمِائَـةِ صَـلَاةٍ).[1]

ورَوَى قَتَـادَةُ مِثْلَـهُ، فيَـأْتِي فَضْـلُ الصَّـلَاةِ في المَسْـجِدِ الحَـرَامِ -عـلى هَـذا- عـلى الصَّـلَاةِ في سَـائِرِ المَسَـاجِدِ بِمِائَـةِ أَلْـفِ صَـلَاةٍ.

ولَا خِـلَافَ أَنَّ مَوْضِـعَ قَـبْرِهِ أَفْضَـلُ بِقَـاعِ الأَرْضِ.

(١) حديث ابن الزبير مثل حديث أبي هريرة وزاد (وصلاة في المسجد ...): أحمد [١٦١١٧]، وابن حِبَّان [١٦٢٠].

قولـه (وهَـذا مَبْنـيٌّ عـلى تفضيـلِ المدينـةِ عـلى مَكَّـةَ): قـالَ المُـلَّا: أَقـولُ: بـلْ تفضيـلُ المدينـةِ عـلى مَكَّـةَ مَبْنـيٌّ عـلى هَـذا؛ إذْ سَـبَبُ تفضيـلِ المكانـينِ بموجَـبِ تشريـفِ المسْـجِدَينِ، وإلا فـلا شَـكَّ أَنَّ مَكَّـةَ لِكَوْنِهـا مِـنَ الحَـرَمِ المحـترَمِ إجْماعًـا أفضـلُ مِـنْ نَفْـسِ المدينـة مـا عَـدا التربـةَ السّـكينةَ؛ فإنَّهـا أفضَـلُ مِـن الكعبـةِ، بـلْ مِـنَ العَـرشِ عـلى مَـا قالَـه جماعـةٌ، ثُـم قـالَ: والحاصِـلُ أنّـه إنْ ثبَـتَ أفضَليّـةُ مسْـجِدِ المدينـةِ يـدلُّ عـلى فضـلِ المجـاوَرةِ بهـا؛ لأنّ المقصـودَ مِـن السُّـكنَى فيهـا إتيـانُ العِبـاداتِ بهـا. اهـ.

قولـه (وذَهَـبَ أهـلُ مَكَّـةَ والكوفـةِ إلى تفضيـلِ مكَّـةَ): لِمَا رُوِيَ عَـنْ عبـدِ الله بـنِ الحمْـراءِ قـالَ: رأيـتُ رسُـولَ الله ﷺ عـلى الحَـزْوَرةِ، فقـالَ: (وَالله إنّـكِ لَخَيْرُ أرضِ الله إلى الله، ولـولا أَنّي أُخْرِجْـتُ مِنْـكِ لَمـا خَرَجْـتُ)[1].

قولـه (وحَـكَاهُ السَّـاجِيُّ): -بالسِّـينِ المهْمَلـةِ والجيـمِ- مُحـدِّثُ البـصْرةِ.

قولـه (واحْتجُّـوا): أي لِتَفضيـلِ مَكَّـةَ عـلى المدينـةِ. وقولـه (وأنَّ الصَّـلاةَ في المسْـجِدِ): أيْ وزِيـدَ في حديـثِ ابـنِ الزبـيرِ.

قولـه (أفضَـلُ مِـنَ الصَّـلَاةِ في مَسـجِدِي هـذا بمِائـةِ صَـلاةٍ): قـال المُـلّا: فهـذا منطُـوقٌ وَقَـعَ صَريحًـا، فـلا يُعَارِضُـه مَفهُـومٌ ولَـوْ كانَ صَحيحًـا. اهـ.

قولـه (ورَوَى قَتـادةُ مِثْلَـه): -وفي نسـخةٍ «ورِيءَ عَـنْ قتـادةَ مِثْلُهُ»- أي مِثْـلَ حديـثِ ابـنِ الزُّبَـيْرِ.

قولـه (بمائـةِ ألْـفٍ): قـالَ الحجـازيُّ: وَيُـرْوَى «بمائـةٍ وألْـفٍ»، وهـوَ تَصْحيـفٌ كـمَا اسْـتَظْهَرَه المُلّا.

(١) أخرجـه أحمـد (١٨٧١٥)، والترمـذيُّ (٤٢٦٧)، والدارمـيُّ (٢٧٠٥)، وابـن ماجـه (٣١٠٨)، وابـن حِبَّـان (٣٧٠٨)، والحاكـم (٣/ ٧)، وغيرعـم مـن حديـث عبدالله بـن عـديٍّ بـن حمـراءَ الزُّهـريِّ. وصحَّحـه الترمـذي والحاكـم.

وقَـالَ القَـاضي أَبُـو الوَليـدِ الباجِـيُّ: الَّـذِي يَقْتَضِيـهِ الحَدِيـثُ مُخَالَفَـةُ حُكْـمِ مَكَّـةَ لِسَـائِرِ المَسَـاجِدِ، ولا يُعْلَـمُ مِنْـهُ حُكْمُهـا مَـعَ المَدِينَـةِ، وذَهَـبَ الطَّحَـاوِيُّ إلى أَنَّ هَـذَا التَّفْصِيـلَ إِنَّـمَا هُـوَ في صَـلاةِ الفَـرْضِ، وذَهَـبَ مُطَـرِّفٌ -مِـنْ أصْحابِنَـا- إلَى أَنَّ ذلِـكَ في النَّافِلَـةِ أَيْضًـا، قـالَ: وجُمُعَـةٌ خَـيْرٌ مِـنْ جُمُعَـةٍ، ورَمَضَـانُ خَـيْرٌ مِـنْ رَمَضَـانَ.

وقَـدْ ذَكَـرَ عَبْـدُ الـرَّزَّاقِ في تَفْضِيـلِ رَمَضَـانَ بالمَدِينَـةِ وغَيْرِهَـا حَدِيثًـا نَحْـوَهُ[1].

وقَـالَ ﷺ: (مَـا بَـيْنَ بَيْتِـي ومِنْـبَرِي رَوْضَـةٌ مِـنْ رِيَـاضِ الجَنَّـةِ)[2]، ومِثْلُـه عَـنْ أَبي هُرَيْـرَةَ وأَبي سَـعِيدٍ[3]، وزادَ: (ومِنْـبَرِي عـلى حَـوْضِي)، وفي حَدِيـثٍ آخَـرَ: (مِنْـبَرِي عـلى تُرْعَـةٍ مِـنْ تُـرَعِ الجَنَّـةِ)[4].

وقَـالَ الطَّـبَرِيُّ: فيـهِ مَعْنَيَـانِ: أَحَدُهُـما: أَنَّ المُـرَادَ بالبَيْـتِ بَيْـتُ سُـكْنَاهُ عـلَى الظَّاهِـرِ، مَـعَ أَنَّـه رُوِيَ مَـا يُبَيِّنُـه (بَـيْنَ حُجْـرَتي ومِنْـبَرِي)، والثَّـانِي: أَنَّ البَيْـتَ هُنَـا القَـبْرُ، وهُـوَ قَـوْلُ زَيْـدِ بْـنِ أَسْـلَمَ في هَـذا الحَدِيـثِ، كَـمَا رُوِيَ (بَـيْنَ قَـبْرِي ومِنْـبَرِي).

(١) حديث: تفضيل رمضان بالمدينة والجمعة فيها): الطبرانيُّ [١/ ٣٧٢] عن بلال بن الحارث.

(٢) حديث (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي): الشيخان [البخاريُّ (١١٩٦)، ومسلمٌ (١٣٩١)] بهذا اللفظ عن أبي هريرة.

(٣) حديث أبي سعيد مثله: مالكٌ في «الموطأ» [كتاب القبلة (١٠)].

(٤) حديث (ومنبري على ترعة من ترع الجنة): تقدَّم [انظر ص٥٢٩].

قولـه (البَاجِـيُّ): بموحَّـدَةٍ وجيـمٍ. وقولـه (الـذِي يَقْتَضِيـه الحديـثُ): أي الـواردُ في فَضْـلِ المسْـجِدَينِ.

قولـه (ولا يُعْلَـمُ مِنْـه حُكْمُهـا مَـعَ المدينَـةِ): أيْ في أيَّتِهـا أفضـلُ مِـن الأُخْـرَى، قـال المُـلّا: إلَّا أنَّـه يَـدُلُّ عـلى أنَّ المجـاوَرَةَ بمَكَّـةَ والمداوَمـةَ في مسْـجِدِها بالجماعـةِ أَفْضَـلُ مِـنَ المجَـاوَرةِ بالمدينَـةِ؛ لِمَا يَتَرَتَّـبُ عليْهـا مِـنْ مَزيـدِ المضاعَفـةِ، إلَّا أنَّ حديـثَ (حَسَـنَةُ الحَـرَمِ بمائـةِ ألْـفٍ)[1] -إنْ ثَبـتَ- صريـحٌ في أنَّ نَفـسَ مَكَّـةَ أَفضـلُ مِـنْ نفسِ المدينـةِ مـا عَـدَا البُقْعَـةَ الشريفَـةَ.

قولـه (وذَهَـبَ مُطَـرِّفٌ): بضـمِّ الميـمِ وكسْرِ الـراءِ المشَـدَّدة.

قولـه (ورَمَضَـانُ خَـيْرٌ مِـنْ رَمَضَـانَ)، وفي «الجامـعِ الصَّغـيرِ»: (رَمَضَـانُ بالمدينـةِ خَـيْرٌ مِـنْ ألْـفِ رَمَضَـانَ فيـمَا سِـوَاها مِـنَ البُلْـدانِ، وجُمُعَـةٌ بالمدينـةِ خَـيْرٌ مِـنْ أَلْـفِ جُمعـةٍ فيـمَا سِـوَاهَا مِـن البُلْـدانِ)[2].

(١) أخرجـه البـزَّار (٤٧٤٥)، وابـن خزيمـة (٢٧٩١)، والأزرقـي في أخبـار مكـة (٢/ ٧)، والطبراني في الأوسـط (٢٦٧٥)، والحاكـم (١/ ٤٦٠)، وغيرهـم مـن حديـث ابـن عبـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي بعـض الروايـات: «بألـف حسـنة».

(٢) أخرجـه الطـبرانيُّ في «الكبـير» (١/ ٣٧٢)، والضيـاء كـما في «كنـز العـمال» (١٢/ ٢٣٤) مـن حديـث بـلال بـن الحـارث المزنيِّ. وقـال الهيثمـيُّ في «المجمـع» (٣/ ٣٠١): «وفيـه كثـيرُ بـن عبـدالله، وهـو ضعيـفٌ». وذكـره الذهبـيُّ في «الميـزان» (٣/ ٤٧٣)، وقـال: «هـذا باطـلٌ، والإسـناد مُظلـمٌ... لم يُحسـن ضيـاء الديـن بإخراجـه في «المختـارة». وقـال السـيِّد أحمـد بـن الصِّدِّيـق في «المـداوي» (٤/ ١٤٢): «قلـت: لا دليـل للذهبـيِّ عـلى ذلـك، والحديـث الصحيـح بـل المتواتـر: «صـلاةٌ في مسـجدي هـذا أفضـل مـن ألـف صـلاة فيـما سـواه...» شـاهدٌ لـه وناطـقٌ بمعنـاه في الجمعـة، وقـد ذهـبَ بعـضُ الفقهـاء إلى القـول بـأنَّ سـائر الأعـمال بالمدينـة كذلـك، فـلا يتهيَّـأ الجـزم ببطلانـه مـع وجـود شـاهده الصحيـح».

قَـالَ الطَّـبَرِيُّ: وَإذا كانَ قَـبْرُهُ في بَيْتِـهِ اتَّفَقَـتْ مَعَـانِي الرِّوَايَـاتِ، ولَمْ يَكُـنْ بَيْنَهـا خِـلَافٌ؛ لِأَنَّ قَـبْرَهُ في حُجْرَتِـهِ، وهُـوَ بَيْتُـهُ.

وقَوْلُـهُ: (ومِنْـبَرِي عَـلى حَـوْضِي)، قيـلَ: يَحْتَمِـلُ أَنَّـه مِنْـبَرَهُ بعَيْنِـهِ الَّـذِي كانَ في الدُّنْيـا، وهُـوَ أَظْهَـرُ، والثاني: أَنْ يَكُـونَ لـهُ هُنَـاكَ مِنْـبَرٌ، والثَّالِـثُ: أَنَّ قَصْـدَ مِنْبَرِهِ والحُضُورَ عِنْدَهُ لِمُلَازَمَـةِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَـةِ، يُـورِدُ الحَـوْضَ، ويُوجِـبُ الـشُّرْبَ مِنْـهُ. قالَـه الباجِـيُّ.

وقَوْلُـهُ: (رَوْضَـةٌ مِـنْ رِيَـاضِ الجَنَّـةِ) يَحْتَمِـلُ مَعْنَيَـيْنِ: أَحَدُهُـما: أَنَّـهُ مُوجِـبٌ لِذلِـكَ، وأَنَّ الدُّعـاءَ والصَّـلَاةَ فيـهِ يَسْـتَحِقُّ ذلِـكَ مِـنَ الثَّوَابِ كَـمَا قِيـلَ: (الجَنَّـةُ تَحْـتَ ظِـلَالِ السُّـيُوفِ)[1]، والثَّـاني: أَنَّ تِلْـكَ البُقْعَـةَ قَـدْ يَنْقُلُهـا اللهُ، فتَكُـونُ في الجَنَّـةِ بِعَيْنِهَـا. قالَـه الـدَّاوُدِيُّ.

ورَوَى ابْـنُ عُمَـرَ وَجَماعـةٌ مِـنَ الصَّحَابَـةِ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ قـالَ في المَدِينَةِ: (لا يَصْـبِرُ عَـلى لَأْوَائِهَـا وشِـدَّتِهَا أَحَـدٌ إلا كُنْـتُ لـه شَـهِيدًا أَوْ شَـفِيعًا يَـوْمَ القِيَامَـةِ)[2].

وقـالَ فِيمَـنْ تَحَمَّـلَ عَـنِ المَدِينَـةِ: (والمَدِينَـةُ خَـيْرٌ لهـمْ لَـوْ كانُـوا يَعْلَمُـونَ)[3]، وقـالَ: (إِنَّـما المَدِينَـةُ كالكِـيرِ، تَنْفِـي خَبَثَهَـا، ويَنْصَـعُ طَيِّبُهَـا)[4]، وقـالَ: (لا يَخْـرُجُ أَحَـدٌ مِـنَ المَدِينَـةِ رَغْبَـةً عَنْهَـا إلا أَبْدَلَهَـا اللهُ خَيْرًا مِنْه)[5].

---

(١) حديث (الجنة تحت ظلال السيوف): الشيخان [البخاريُّ (٢٨١٨)، ومسلمٌ (١٧٤٢)] عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٢) حديث ابن عمر في المدينة (لا يصبر على لأوائها ...): مسلمٌ [١٣٧٧].

(٣) حديث (والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون): الشيخان [البخاريُّ (١٨٧٥)، ومسلمٌ (١٣٨٨)] عن سفيان بن أبي زهير.

(٤) حديث (إنما المدينة كالكير ...): الشيخان [البخاريُّ (٧٢٠٩)، ومسلمٌ (١٣٨٣)] عن جابر.

(٥) حديث (لا يخرج أحد من المدينة ..): مسلمٌ [من حديث أبي هريرة (١٣٨١)] عن جابر.

قولـه (لِأَنَّ قَـبْرَه) عَلَيْـه السَّـلامُ (في حجْرتِـه). قولـه (وهـوَ): أي حجرَتُـه، وذُكِّـرَ لِتَذكـيرِ خَـبَرِه.

قولـه (وهُـوَ أَظْهَـرُ): أي مِـنْ غَـيْرِه مِـنَ الأقـوالِ، وذلـك بـأنْ تُنْقَـلَ تلـكَ البُقْعَـةُ بعيْنِهـا إلى أَرْضِ الآخِـرَةِ.

قولـه (عـلى لَأْوَائِهـا): -بفتـحِ الـلّامِ وسُـكونِ الهَمْـزَةِ والمَـدِّ- أيْ ضِيـقِ المدينـةِ وعَنَائِهـا. وقولـه (وشِـدَّتِها): أيْ وشِـدَّةِ بَلَائِهـا.

قولـه (أوْ شَـفِيعًا): قـالَ النـوويُّ: و(أَوْ) هنـا بمَعْنَـى الـواوِ، أوْ هِـيَ لِلتقسـيمِ فيَكـونُ شَـهِيدًا لِبَعْـضٍ شَـفيعًا لِآخريـنَ، أو شـهِيدًا لِلمُطيـعِ شَـفيعًا لِلمذْنِبـينَ، أو شَـهِيدًا لِمَـنْ مـاتَ في حَيَاتِـه شَـفِيعًا لِمَـنْ عـاشَ بَعْـدَ وَفَاتِـه.

قولـه (فِيمَـنْ تَحَمَّـلَ): أيْ تَحَـوَّلَ عَـنِ المدينـةِ إلى غَيْرِهـا.

قولـه (كالكِـيرِ): -بكَسْـرِ الـكافِ- وهـوَ كِـيرُ الحَـدَّادِ. وَقولـه (تَنْفِـي): بفتـحِ التّـاءِ وسُـكونِ النـونِ وكَسْـرِ الفـاءِ. وقولـه (خَبَثَهَـا): بِفتحتَـيْنِ أو بفتـحٍ وسُـكونٍ. وقولـه (ويَنْصَـعُ): -بفتـحِ أَوّلِـه وسـكونِ نُونِـه وصَـادٍ مفتوحَـةٍ فعَـيْنٍ مهْمَلَتَـيْنِ- أيْ ويَخْلُـصُ. وقولـه (طَيِّبُهَـا): -بفتـحِ طـاءٍ مهمَلـةٍ وتحتيـةٍ مشـدَّدةٍ مَكْسُـورَةٍ أَوْ بِكَسْـرٍ فسُـكونٍ- وهُـوَ مرْفُـوعٌ عـلى أنّـه فاعـلٌ، وفي بعـضِ النُّسَـخِ «تَنْصَـعُ» بالتّأنيـثِ.

ورُوِيَ عَنْـهُ ﷺ أَنَّـه قـالَ: (مَـنْ مَـاتَ في أَحَـدِ الحَرَمَـيْنِ حَاجًّـا أَوْ مُعْتَمِـرًا بعَثَـهُ اللهُ يَـوْمَ القِيَامَـةِ لَا حِسَـابَ عَلَيْـهِ ولا عَـذَابَ)، وفِي طَرِيـقٍ آخَـرَ: (بُعِـثَ يَـوْمَ القِيَامَـةِ مِـنَ الآمِنِـينَ)(١)، وعَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ: (مَنِ اسْـتَطَاعَ أَنْ يَمُـوتَ بالمَدِينـةِ فَلْيَمُـتْ بهَـا؛ فـإِنِّي أَشْـفَعُ لِمَـنْ يَمُـوتُ بهَـا)(٢).

وقـالَ تعَـالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْـتٍ وُضِـعَ لِلنَّـاسِ لَلَّـذِي بِبَكَّـةَ مُبَارَكًا وَهُـدًى لِّلْعَالَمِـينَ * فِيـهِ آيَـاتٌ بَيِّنَـاتٌ مَّقَـامُ إِبْرَاهِيـمَ وَمَـن دَخَلَـهُ كَانَ آمِنًـا﴾ [آل عمـران: ٩٦-٩٧]، قـالَ بَعْـضُ المُفَسِّرِيـنَ: آمِنًـا مِـنَ النَّـارِ، وقِيـلَ: كانَ يَأْمَـنُ مِـنَ الطَّلَـبِ مَـنْ أَحْـدَثَ حَدَثًـا في الجاهِلِيَّـةِ ولَجَـأَ إِلَيْـهِ، وهَـذا مِثْـلُ قَوْلِـهِ تعـالَى: ﴿وإِذْ جَعَلْنَـا البَيْـتَ مَثَابَـةً لِلنَّـاسِ وأَمْنًـا﴾ [البقـرة: ١٢٥] عـلَى قَـوْلِ بَعْضِهِـمْ.

وحُكِـيَ أَنَّ قَوْمًـا أَتَوْا سَـعْدُونَ الخَـوْلَانِيَّ بالمُنَسْـتِيرِ، فأَعْلَمُـوهُ أَنَّ «كُتَامَـةَ» قَتَلُـوا رَجُـلًا، وأَضْرَمُـوا عَلَيْـهِ النَّـارَ طُـولَ اللَّيْـلِ، فلَـمْ تَعْمَـلْ فِيـهِ، وبَقِـيَ أَبْيَـضَ البَـدَنِ، فقَـالَ: لَعَلَّـه حَـجَّ ثَـلَاثَ حِجَـجٍ، قالُـوا: نَعَـمْ، قـالَ: حُدِّثْـتُ أَنَّ مَـنْ حَـجَّ حَجَّـةً أَدَّى فَرْضَـهُ،

(١) حديث (من مات في أحد الحرمين حاجًّا ...): البيهقيُّ في السنن [١٠٢٧٣]، والدارقطني [٢٦٩٤] عن عائشة بسند ضعيفٍ. رواية (بعث من الآمنين): البيهقيُّ في السنن [١٠٢٧٣] عن عمر، والطبرانيُّ [٦١٠٤] عن جابر وسلمان.

(٢) حديث ابن عمر (من استطاع أن يموت ....): الترمذيُّ [٣٩١٧] وصحَّحه، وابن ماجه [٣١١٢]، وابن حبَّان [٣٧٤١].

قولـه (فـإِنِّي أَشْـفَعُ لِمَـنْ يَمُـوتُ بِهَـا): أَيْ قبْـلَ أَنْ أَشْـفعَ لِمَـنْ مـاتَ في غيْرِهَـا، قـالَ التِّلِمْسَـانيُّ: ورُوِيَ «فإنَّهَـا تَشـفَعُ»، وفي نسخةٍ «وإنِّي لَأَشـفَعُ... إلـخ»، وقَـدْ أَجْمَعُـوا أَنَّ المَـوْتَ بالمدينـةِ أَفْضَـلُ مِـنْ غيْرِهَـا.

قولـه (لَلَّـذي بِبَكَّـةَ): وهِـيَ لُغَـةٌ بِـ«مَكَّـةَ»، مِنْ بَكَّـه: إذا دَقَّـه لِأَنَّهَـا تَـدُقُّ أعنـاقَ الجَبَابـرةِ، أوْ لِأَنَّ النَّـاسَ يُزَاحِـمُ بَعْضُهُـم بعْضًـا في الطَّـوَافِ.

قولـه (وقيـلَ: كانَ يأمَـنُ مِـنَ الطَّلَـبِ): وفي نسْـخةٍ «بَـلْ كَانَ يَأْمَـنُ... إلـخ». وقولـه (مَـنْ أَحْـدَثَ حَدَثًـا): أَيْ جَنَـى جِنايـةً مِـنْ قتْـلِ نَفْـسٍ أَوْ قَطْـعِ جَارحـةٍ... إلـخ.

قولـه (في الجاهليـةِ ولَجَـأَ إِلَيْـه): -بالهمـزةِ- أي الْتَجَـأَ وعـاذَ، وأمَّـا قـول التلمسـاني: ورُوِيَ «أَوْ لَجَـأَ» بالتنويـعِ فـلَا يَصِـحُّ في مَقَـامِ التفريـعِ.

قولـه (مَثَابـةً لِلنّـاسِ): أي مَرْبَعًـا لهـمْ أو مَـكانَ مَثوبـةٍ لهـمْ. قولـه (وأَمْنًـا، عـلى قـولِ بعضِهـمْ): أي مِـن العُلَـماءِ الحنفيّـةِ، أو مَعْنَـاهُ: يأمَـنُ مَـنْ حجَّـه أو اعتمَـرَهُ أوْ دَخَلَـه مِـنْ عـذابِ الآخِـرةِ.

وقولـه (سَـعْدُونَ): بفتـحِ السِّـينِ وسُـكونِ العَـيْنِ وضـمِّ الـدَّالِ، والقيـاسُ صَرْفُـه هُـوَ وحَمْـدُونَ إِلَّا أَنَّهـما وَقَعَـا في كُتُـبِ الحديـثِ مِـنَ الأُصُـولِ المعتمَـدةِ غـيْرَ مَصْروفَـيْنِ. وقولـه (الخَـوْلَانيِّ): بفتـحِ الخـاءِ المعجَمـةِ وسُـكونِ الـواوِ فنـونٍ قَبْـلَ يـاءِ النِّسْـبَةِ. قولـه (بالمُنَسْـتِيرِ): -بضـمِّ الميـمِ وفتـحِ النّـونِ -وتُكْسَـرُ- وسـكونِ المهْمَلـةِ وفوقيّـةٍ مكسـورةٍ وتحتيـةٍ سَـاكنةٍ فـراءٍ- مَـكانٌ بالقَـيرَوانِ. وقولـه (كُتَامَـةَ): -بضـمِّ الـكافِ ففوقيّـةٍ- قَبيلـةٌ.

قولـه (وأَضْرَمُـوا عَلَيْـه النَّـارَ): -بالضـادِ المُعْجَمـةِ- أي أَشـعَلُوا. وقولـه (فلَـمْ تَعْمَـلْ فيـه): أيْ لَمْ تُؤَثِّـرْ فيـه شَـيْئًا.

قولـه (حَـجَّ ثَـلَاثَ حِجَـجٍ): أيْ مَقبولـةً، وهِـيَ بكَسْرِ الحـاءِ وفتـحِ الجيـمِ الأُولَى، جَمْـعُ «حِجَّـةٍ» بفتـحِ الحـاءِ أو كسرِهَـا.

وَمَنْ حَجَّ ثَانِيَةً دَايَنَ رَبَّه، وَمَنْ حَجَّ ثَلَاثَ حِجَجٍ حَرَّمَ اللهُ شَعْرَهُ وبَشَرَهُ عَلَى النَّارِ.

ولمَّا نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إلى الكَعْبَةِ قالَ: (مَرْحَبًا بِكِ مِنْ بَيْتٍ، ما أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ).[1]

وفي الحَدِيثِ عَنْه ﷺ: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو اللهَ عِنْدَ الرُّكْنِ الأَسْوَدِ إلا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ، وكذلكَ عِنْدَ المِيزَابِ).[2]

وعَنْه ﷺ: (مَنْ صَلَّى خَلْفَ المَقَامِ ركعتَيْنِ غُفِرَ له مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تأَخَّرَ، وحُشِرَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الآمِنِينَ).[3]

قالَ الفَقِيهُ القاضي أَبُو الفَضْلِ: قَرَأْتُ على القاضِي الحافِظِ أَبِي عَلِيٍّ -رَحِمَه اللهُ- حدَّثَنَا أَبُو العبَّاسِ العُذْرِيُّ، قالَ: حدَّثَنا أَبُو أُسامَةَ محمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بنِ محمَّدٍ الهَرَوِيُّ، حدَّثَنا الحُسَيْنُ بْنُ رَشِيقٍ، سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ محمَّدَ بْنَ الحَسَنِ بْنِ راشِدٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ محمَّدَ بْنَ إِدْرِيسَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُمَيْدِيَّ قالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ قالَ: سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ دِينَارٍ قالَ: سَمِعْتُ ابْنَ

(١) حديث (لما نظر إلى الكعبة ...): الطبرانيُّ في «الأوسط» عن ابن عمر وجابر [أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٦٩٥) من حديث جابر، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢)، وغيره من حديث ابن عمر، وأخرجه بلفظ المصنِّف البيهقيُّ في «الشعب» (٣٧٢٥) من حديث ابن عبَّاسٍ].

(٢) حديث (ما من أحدٍ يدعو الله عند الركن الأسود ...): رويناه في رسالة الحسن البصريِّ إلى أهل مكة [ص ٢٦].

(٣) حديث (مَن صَلَّى خَلْفَ المقام ...): رويناه في رسالة الحسن البصريِّ إلى أهل مكة [ص ٢٠].

قوله (ومَنْ حَجَّ ثانيةً دايَنَ رَبَّه): أيْ أقْرَضَهُ قَرْضًا حَسَنًا، وفي أَصْلِ الدّلجيِّ «دانَ رَبَّه»، والظّاهِرُ أنّه تصْحيفٌ لِما في نسخةٍ مِنْ زِيادَةِ «فيُنادِي غَدًا مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ الله: مَنْ كانَ له عِنْدَ الله دَيْنٌ فلْيَقُمْ».

قوله (ولمَّا نَظَرَ رسُولُ الله إلى الكعبَةِ): أيْ يومَ الفتحِ، أو وَقْتَ هِجْرتِه إلى المدينةِ، أوْ في حِجَّةِ الوَداعِ. وقولُه (قالَ: مَرحَبًا بِكِ): -يحْتَمِلُ التّأنيثَ والتّذكيرَ- أيْ سَهْلًا وفَضْلًا.

قوله (عِنْدَ الرُّكنِ الأسْوَدِ): في المُلّا: اعترَضَ بعْضُ المَلاحِدَةِ، فقالَ: كيْفَ يُسَوِّدُ الحَجَرَ خطايا أهْلِ الشِّرْكِ، ولا يُبيِّضُه توْحيدُ أهْلِ المعْرفةِ والإيمانِ؟! وأُجِيبَ بأنَّ بَقاءَهُ أسْوَدَ إنَّما كانَ لِلاعتبارِ لِيُعْلَمَ أنَّ الخَطَايَا إذا أثَّرَتْ في الحَجَرِ فتأثيرُها في القُلوبِ أعْظَمُ وأكثَرُ، ولِلحَجَرِ آياتٌ بَيِّناتٌ؛ مِنْها أنْ لا يَسخَنَ بالنّارِ، ومِنْها حِفْظُ الله -تعالى- له مِنَ الضَّياعِ، إلى غيرِ ذلكَ.

قوله (حَدَّثَنا أبو العبَّاسِ العُذْرِيُّ): -بضمِّ العَينِ وسكونِ الذالِ المعْجَمةِ- وفي نُسْخةٍ «حَدَّثَكَ».

قوله (الهَرَوِيُّ): -بفتحِ الهاءِ والرّاءِ- منسوبٌ إلى «هَرَاةَ» -بكَسْرِ أوّلِها[1]- مدينةٌ عظيمَةٌ بخُراسانَ. وقوله (بنُ رَشِيقٍ): -بفتحِ الراءِ وكسْرِ الشّينِ المعْجَمةِ- هُوَ اليَشْكُرِيُّ، مِصريٌّ مشهُورٌ. قوله (سَمِعْتُ أبا الحَسَنِ): وفي نسْخةٍ «أبا الحُسَيْنِ». وقوله (الحُمَيْدِيَّ): -بالتصْغيرِ- وهُوَ المَكِّيُّ القُرشِيُّ.

(١) هي بفتح الهاء كما ضبطت في معجم البلدان وغيره، والنسبة إليها تكون بقلب الألف واوا فنقول «هروي» دون تغيير في حركة فاء الكلمة.

عَبَّاسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (ما دَعَا أَحَدٌ بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ إلا اسْتُجِيبَ لَهُ)(١).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلا اسْتُجِيبَ لِي، وقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ إلا اسْتُجِيبَ لِي، وقَالَ سُفْيَانُ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ تعالى بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ عَمْرٍو إلا اسْتُجِيبَ لِي، قَالَ الحُمَيْدِيُّ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ تعالى بِشَيْءٍ فِي هذا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ سُفْيَانَ إلا اسْتُجِيبَ لِي، وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ تَعَالى بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنَ الحُمَيْدِيِّ إلا اسْتُجِيبَ لِي، وقَالَ أَبُو الحَسَنِ بْنُ رَاشِدٍ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ تعالى بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ إلا اسْتُجِيبَ لِي، وقَالَ أَبُو أُسَامَةَ: وما أَذْكُرُ أَنَّ الحَسَنَ بْنَ رَشِيقٍ قَالَ فِيهِ شَيْئًا، وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنَ الحَسَنِ بْنِ رَشِيقٍ إلا اسْتُجِيبَ لِي مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وأَنَا أَرْجُو أَنْ يُسْتَجَابَ لِي مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ، قَالَ العُذْرِيُّ: وأَنَا فَمَا دَعَوْتُ اللهَ تعالى بِشَيْءٍ فِي هَذَا المُلْتَزَمِ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ أَبِي أُسَامَةَ إلا اسْتُجِيبَ لِي، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وأَنَا فَقَدْ دَعَوْتُ اللهَ فِيهِ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ اسْتُجِيبَ لِي بَعْضُهَا، وأَرْجُو اللهَ تَعَالى مِنْ سَعَةِ فَضْلِهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِي بَقِيَّتَهَا!

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ: ذَكَرْنَا نُبَذًا مِنْ هَذِهِ النُّكَتِ فِي هَذَا الفَصْلِ -وإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنَ البَابِ- لِتَعَلُّقِهَا بِالفَصْلِ الَّذِي قَبْلَهُ حِرْصًا عَلَى تَمَامِ الفَائِدَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

---

(١) حديث ابن عبَّاس في إجابة الدعاء في الملتزم: أسنده المصنِّف مُسَلْسَلًا، وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقيُّ [٩٧٦٦] في سننهما من طريق أبي الزبير عن ابن عبَّاس قال: (المُلْتَزَم ما بين الرُّكن والباب لا يسأل اللهَ أحدٌ فيه شيئًا إلَّا أعطاه. قال أبو الزبير وقد دعوتُ الله مرة هناك فاستجاب لي).

قوله (المُلْتَزَمِ): -بضَمِّ الميمِ وفتحِ الزَّايِ- وهُوَ ما بَيْنَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ وبابِ الكَعْبَةِ، وهُوَ أَرْبعَةُ أَذْرُعٍ كَما قالَ الأزرقيُّ.

قوله (وقالَ أَبُو الحَسَنِ): وفي نسْخَةٍ «أَبُو الحُسَيْنِ». وقوله (قالَ فيه شَيْئًا): أَيْ مِثْلَ مَا سَبَقَ عَنْ بَقِيَّةِ مشايخِ السّلسلةِ، وعلى هذا فالمَسَلْسَلُ هُنا منقطِعٌ.

فائدةٌ: ذَكَرَ الإمامُ الكِرمانيُّ -شارحُ «البخاريِّ»- أَنَّ مَنْ صَلَّى ركعتيْنِ في حِجْرِ إسْماعيلَ، ودَعَا اللهَ وهُوَ واضِعٌ جَبْهَتَه على الحجرِ المقابلِ لِميزابِ الرحمَةِ في كُلِّ سَجْدةٍ خمسًا وعشرينَ مَرَّةً -فالجملةُ مائةٌ- إلَّا اسْتجيبَ لَه.

قوله (مِنْ سَعَةِ فَضْلِه): -بكسْرِ السِّينِ وفتحِهَا- أَيْ وُسْعِ كرَمِه.

قوله (ذَكَرْنا نُبَذًا... إلخ): وفي نسْخةٍ «قَدْ ذَكَرْنَا»، و(نُبَذًا): -بضمِّ النونِ وفتحِ المُوحَّدةِ فذالٍ معجَمةٍ- أَيْ قَدْرًا يسيرًا. وقوله (مِنْ هَذه النُّكَتِ): -بضمِّ النّونِ وفتحِ الكافِ- جَمْعُ «النُّكتةِ»، وهيَ النُّقطةُ، والمُرادُ بهَا الفوائدُ اللطيفةُ، والعوائِدُ المُنيفةُ.

***

القِسْمُ الثَّالِثُ:

فِيمَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ومَا يَسْتَحِيلُ أَوْ يَجُوزُ عَلَيْه، وَمَا يَمْتَنِعُ أَوْ يَصِحُّ مِنَ الأَحْوَالِ البَشَرِيَّةِ أَنْ يُضَافَ إِلَيْه

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ومَا محمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]، وقَالَ تعَالى: ﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقَالَ تعالى: ﴿ومَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن المُرْسَلِينَ إلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ويَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

فمحمَّدٌ ﷺ وسَائِرُ الأَنبيَاءِ مِنَ البَشَرِ أُرْسِلُوا إِلَى البَشَرِ، ولَوْلَا ذلكَ لَمَا أَطَاقَ النَّاسُ مُقَاوَمَتَهُمْ والقَبُولَ عَنْهُمْ ومُخَاطَبَتَهُمْ.

قَالَ اللهُ تعَالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ولَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، أَيْ لَمَا كَانَ إلا في صُورَةِ البَشَرِ الَّذِي يُمْكِنُكُمْ مُخَاطَبَتُهُمْ؛ إِذْ لا تُطِيقُونَ مُقَاوَمَةَ المَلَكِ ومُخَاطَبَتَه ورُؤْيَتَهُ إذا كانَ على صُورَتِهِ.

وقَالَ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، أَيْ لا يُمْكِنُ فِي سُنَّةِ اللهِ تعَالى إِرْسَالُ المَلَكِ إلا لِمَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِ، أَوْ مَنْ خَصَّهُ اللهُ تعَالى واصْطَفَاهُ وقَوَّاهُ على مُقَاوَمَتِه، كالأَنبيَاءِ والرُّسُلِ.

قوله (وما محمّدٌ إلّا رَسُولٌ): أيْ مِنْ جملةِ الرُّسُلِ، لا مِنَ المَلَائكةِ الَّذِينَ لا يموتونَ إلَّا عِنْدَ النَّفخةِ الأُولَى.

قوله (وأُمُّه صِدِّيقةٌ): أيْ لا أُلُوهِيَّةَ لها ولا نُبُوَّةَ، وإنَّما هِيَ كَثِيرةُ الصِّدْقِ والتَّصْدِيقِ بالحقِّ.

قوله (قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم): أيْ لا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ، وإنّما أنا أَتَمَيَّزُ عَنْكم بالوَحْيِ.

قوله (لَمَا أَطَاقَ النّاسُ مقاوَمَتَهُمْ): أيْ لَمَا استطاعوا مقابَلَتَهمْ ومُلابَسَتَهُمْ لِضَعْفِ البِنْيَةِ البشريةِ وقوَّةِ القُدْرةِ المَلَكيّةِ. قوله (والقَبُولَ عَنْهم): أيْ في تبليغِهم ما أُرسِلُوا به إِلَيْهِمْ، قالَ الحجَازيُّ: ويُرْوَى «والقَبُولَ عَلَيْهِمْ»، واسْتَظْهَرَ المُلَّا تَصْحِيفَ هذه الروايةِ.

قوله (الَّذي يُمكِنُكم مخاطَبَتُهم)[1]: أَفْرَدَ نَظَرًا إلى لفظِ «البَشَرِ»، وفي نسخةٍ «الذينَ» نَظَرًا إلى المَعْنَى، وفي نسخةٍ «يُمكِنُهمْ» بَدَلَ «يمكِنُكم».

قوله (يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ): أي ظاهِرِينَ كَما يَمْشِي بَنُو آدَمَ فيهَا سَاكِنِينَ. وقوله (لَنَزَّلْنا عَلَيْهم مِنَ السَّماءِ... إلخ: أيْ لا يُمْكِنُ في سُنَّةِ الله إرسَالُ المَلَكِ إلَّا لِمَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِ): لِلتَّمَكُّنِ مِنَ المخالَطةِ.

قوله (كالأنبياءِ والرُّسُلِ): فيَقومونَ بِدَعْوةِ الخَلْقِ إلى طريقِ الحَقِّ.

---

(١) جاء في نسخة الشهاب «مخالطتهم»، وقال: أي معاشرتهم والاختلاط معهم، وفي نسخة «مخاطبتهم»، وفي أخرى «مخاللتهم» أي اتخاذهم أخلاء، وهي متقاربة معنى. اهـ.

قولـه (وبِنْيَتُهـمْ): أَيْ أبْدانُهـم المُرَكَّبَـةُ مِـنْ أشْـباحِهِمْ وأرْواحِهِـمْ، أو الممتزِجـةُ مِـن العَنـاصرِ الأربَعـةِ بالوَجْـهِ المعْتَـبَرِ.

قولـه (والمَوتِ والفَنَاءِ): لعَلَّـه عَطـفُ تفسِـيرٍ، وإلّا فالفَنَـاءُ لا يَطـرأُ عـلى مُطلَـقِ الأرواحِ، وأمَّـا الأشْـباحُ فقَـدْ وَرَدَ أنَّ الأرْضَ لا تـأكُلُ أجسـادَ الأنبيـاءِ[1].

قولـه (بِصِفـاتِ المَلائكـةِ): أيْ في دَوامِ الذِّكْـرِ والحُضُـورِ مِـنْ غـيرِ السَّـآمةِ.

قولـه (ولا ضَعْـفُ الإنسَـانيَّةِ): -بفتـحِ الضـادِ وضمِّهـا- أي فُتورُهـا وقُصُورُهـا؛ فهُـمْ أَتَـمُّ أفعَـالًا، وأَصْـدَقُ أقـوالًا.

قوله (لَمَا أطَاقُوا الأَخْذَ): أي العِلْمَ أو تَلَقِّيَ الوَحْيِ.

قولـه (ومُخَالَتِهـم): -بتشـديدِ الـلّامِ- أي مُخالَطَتِهـم -كَـمَا في نسـخةٍ.

قولـه (ومَـنْ أُرْسِـلُوا): بصيغـةِ المجهـولِ. وقولـه (مُخالَطَتَهـم): وفي نسـخةٍ «مخاطَبَتَهـمْ» أي الأخـذَ مِنْهُـمْ والانتِفَـاعَ بأمرِهـمْ ونهيِهـمْ.

قولـه (كَـمَا تقَـدَّمَ مِـنْ قـولِ الله تعـالى): وهـوَ: ﴿ولَـوْ جَعَلْنَـاهُ مَلَـكًا... ﴾ الآيـةَ [الأنعام: ٩]، وقَوْلُـه: ﴿قُـلْ لَـوْ كانَ في الأرضِ ملائكـةٌ... ﴾ إلـخ الآيـةَ [الإسراء: ٩٥].

قولـه (فجُعِلُـوا): -بِبنـاءِ الفِعْـلِ لِلمجْهـولِ- أي خُلِقُـوا متوسِّـطِينَ بَـيْنَ الأرْواحِ المَلَكِيَّـةِ والأشْـباحِ البَشَرِيَّـةِ.

فالأنبِيـاءُ والرُّسُـلُ وَسَـائِطُ بَـيْنَ الله وَبَـيْنَ خَلْقِـهِ، يُبَلِّغُونَهُـمْ أَوَامِـرَهُ ونَوَاهِيَـه، وَوَعْـدَهُ ووَعِيـدَه، ويُعَرِّفُونَهُـمْ بِـمَا لَمْ يَعْلَمُـوهُ مِـنْ أَمْـرِهِ وَحَقِّـهِ، وجَلَالِـهِ وسُـلْطَانِه، وجَبَرُوتِـه ومَلَكُوتِـه.

فظَوَاهِرُهُـمْ وأجْسَـادُهُمْ وبِنْيَتُهُـمْ مُتَّصِفَـةٌ بأوْصَـافِ البَشَرِ، طَـارٍ عَلَيْهـا مـا يَطْـرَأُ عـلى البَـشَرِ مِـنَ الأَعْـراضِ وَالأَسْـقَامِ والمَـوْتِ والفَنَـاءِ ونُعُـوتِ الإنْسَـانِيَّةِ.

وأَرْواحُهُـمْ وبَوَاطِنُهُـمْ مُتَّصِفَـةٌ بأَعْـلَى مِـنْ أَوْصَـافِ البَـشَرِ، مُتَعَلِّقَـةٌ بالمَـلَإِ الأَعْـلَى، مُتَشَـبِّهَةٌ بصِفَـاتِ المَلائِكَـةِ، سَـلِيمَةٌ مِـنَ التَّغَـيُّرِ والآفَـاتِ، لا يَلْحَقُهـا غالِبًـا عَجْـزُ البَشَرِيَّـةِ ولا ضَعْـفُ الإِنْسَـانيَّةِ؛ إذْ لَـوْ كانَـتْ بَوَاطِنُهُـمْ خَالِصَـةً لِلبَشَرِيَّـةِ كظَوَاهِرِهِـمْ لَمَـا أَطَاقُـوا الأَخْـذَ عَـنِ المَلائكَـةِ ورُؤْيَتَهُـمْ ومُخَاطَبَتَهُـمْ ومُخَالَّتَهـم كَـما لا يُطِيقُـه غَيْرُهُـمْ مِـنَ البَـشَرِ.

ولَـوْ كانَـتْ أَجْسَـامُهُمْ وظواهِرُهـمْ مُتَّسِـمَةً بنُعُـوتِ المَلائكـةِ وبخِـلافِ صفاتِ البَـشَرِ لَمَـا أَطَـاقَ البَـشَرُ ومَـنْ أُرْسِـلُوا إِلَيْـهِ مُخَالَطَتَهـمْ كَـمَا تَقَـدَّمَ مِـنْ قَـوْلِ الله تعَـالى.

فجُعِلُـوا مِـنْ جِهَـةِ الأَجْسَـامِ والظَّوَاهِـرِ مَـعَ البَـشَرِ، ومِـنْ جِهَـةِ الأرْوَاحِ والبَوَاطِـنِ مَـعَ المَلائكَـةِ كَـمَا قَـالَ ﷺ: (لَـوْ كُنْـتُ مُتَّخِـذًا

(١) أخرجـه ابـن أبي شـيبة (٨٦٩٧)، وأحمـد (١٦١٦٢)، وابـن ماجـه (١٠٨٥) و(١٦٣٦) والدارمـي (١٧١٨)، وأبـو داود (١٠٤٧) و(١٥٣١)، والنَّسـائي في «المجتبـى» (١٣٧٤)، وفي «الكـبرى» (١٦٦٦)، وابـن خزيمـة (١٧٣٣) و(١٧٣٤)، وابـن حِبّان (٩١٠)، والطـبرانيُّ في «الكبـير» (٥٨٩)، والحاكـم (١/ ٢٧٨) و(٤/ ٥٦٠)، وأبـو نعيـم في «المعرفـة» (٩٧٦) مـن حديـث أوس بـن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وصحَّحـه الحاكـم ووافقـه الذهبـيُّ، وصحَّحـه النـوويُّ في «الأذكار» (ص ٢٠٦). ولـه شـاهد مـن حديـث أبي الـدرداء وأبي أمامـة، وأبي هريـرة.

مِـنْ أُمَّتِـي خَلِيـلًا لَاتَّخَـذْتُ أَبَـا بَكْـرٍ خَلِيـلًا؛ ولَكِـنْ أُخُـوَّةُ الإِسْـلامِ، لَكِـنَّ صَاحِبَكُـمْ خَلِيـلُ الرَّحْمَـنِ)[1]**، وكَـمَا قَـالَ: (تَنَـامُ عَيْنَـايَ ولا يَنَـامُ قَلْبِـي)**[2]**، وقَـالَ: (إِنِّي لَسْـتُ كَهَيْئَتِكُـمْ؛ إِنِّي أَظَـلُّ يُطْعِمُنِـي رَبِّي ويَسْـقِينِي)**[3]**؛ فَبَوَاطِنُهُـمْ مُنَزَّهَـةٌ عَـنِ الآفَـاتِ، مُطَهَّـرَةٌ عَـنِ النَّقَائِـصِ والاعتِـلَالاتِ.**

وهَـذِهِ جُمْلَـةٌ لَـنْ يَكتَفِـيَ بِمَضْمُونِهَـا كُلُّ [ذِي] هِمَّـةٍ، بَـلِ الأَكْثَرُ يَحْتَـاجُ إِلى بَسْـطٍ وتَفْصِيـلٍ؛ عَلَى مَـا نَـأْتِي بِـه بَعْـدَ هَـذا فِي البَابَـيْنِ بِعَـوْنِ اللهِ تعـالى، وهُـوَ حَسْـبُنَا ونِعْـمَ الوَكِيـلُ.

***

(١) حديث (لو كنت متخذًا خليلًا ..): تقدَّم [انظر ص٢٥٢].

(٢) حديث (تنام عيناي ...): تقدَّم [انظر ص١٢٨].

(٣) حديث (إني لست كهيئتكم ...): الشيخان [البخاريُّ (١٩٢٢)، ومسلمٌ (١١٠٢)] عن ابن عمر و[البخاريُّ (١٩٦٥)، ومسلمٌ (١١٠٣) عن] أبي هريرة، و[البخاريُّ (٧٢٤١)، ومسلمٌ (١١٠٤) عن] أنس، و[البخاريُّ (١٩٦٤)، ومسلمٌ (١١٠٥) عن] عائشة.

قولـه (**لَـوْ كُنْـتُ مُتَّخِـذًا مِـنْ أُمَّتِـي خَليـلًا... إلـخ**): أيْ حَبِيبًـا يَتَخَلَّـلُ محَبَّتُـه خِـلالَ قَلْبِـي.

قولـه (**إِنِّي أَظَـلُّ يُطْعِمُني رَبِّي... إلخ**): بفتحِ الظّاءِ المعْجَمةِ وتشـديدِ الـلَّامِ، وقولُـه (**يُطْعِمُنـي رَبِّي ويَسْـقِيني**) محَلُّهـما النصْـبُ عـلى الخَبَرِيّـةِ لِـ«أَظَـلُّ» إنْ كانَـتْ ناقصَـةً، أو الحاليّـةِ المتداخِلـةِ إنْ كَانَـتْ تامَّـةً، وفي روايـةٍ (أَبِيـتُ عِنْـدَ رَبِّي... إلـخ).

قوله (**والاعتِلالاتِ**): أي المُمِلَّةِ على الأَجْسامِ الحَيَوانيّةِ.

قوله (**وهَذه جملةٌ**): أيْ هذه النُّبْذةُ قضيّةٌ مجْمَلةٌ.

قولـه (**ونِعْـمَ الوَكيـلُ**): أيْ هُـوَ أَفضَـلُ مَـنْ تُـوكَلُ إِلَيْـه الأمُـورُ، ويُعتَمَـدُ علَيْـه وتَطمئِـنُّ إِلَيْـه الصُّـدورُ.

***

البَابُ الأَوَّلُ:
فِيما يَخْتَصُّ بالأُمُورِ الدِّينيّةِ، والكَلَامِ في عِصْمَةِ نَبِيِّنَا محمّدٍ ﷺ، وسَائِرِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

قَالَ القاضِي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

اعْلَمْ أَنَّ الطَّوَارِئَ مِنَ التغيُّراتِ والآفاتِ على آحَادِ البَشَرِ لا يَخْلُو أَنْ تَطْرَأَ على جِسْمِهِ أَوْ على حَوَاسِّهِ بغَيْرِ قَصْدٍ واخْتِيَارٍ، كَالأَمراضِ والأسْقامِ، أَوْ تَطْرَأَ بِقَصْدٍ وَاخْتِيَارٍ، وكُلُّهُ في الحقيقةِ عَمَلٌ وفِعْلٌ، ولَكِنْ جَرَى رَسْمُ المَشَايِخِ بتَفْصِيلِهِ إلى ثلاثةِ أَنْوَاعٍ: عَقْدٍ بالقَلْبِ، وقَوْلٍ باللِّسانِ، وعَمَلٍ بالجَوَارِحِ.

وجَمِيعُ البَشَرِ تَطْرَأُ عَلَيْهِمُ الآفاتُ والتَّغَيُّراتُ بالاختيارِ وبغَيْرِ الاختيارِ في هَذِهِ الوُجُوهِ كُلِّهَا.

والنَّبِيُّ ﷺ -وإِنْ كانَ مِنَ البَشَرِ ويَجُوزُ على جِبلَّتِهِ مَا يَجُوزُ على جِبِلَّةِ البَشَرِ- فقَدْ قامَتِ البَراهِينُ القَاطِعَةُ، وتَمَّتْ كَلِمَةُ الإجْماعِ على خُرُوجِهِ عَنْهُمْ، وتَنْزِيهِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِن الآفاتِ الَّتي تَقَعُ على الاختِيَارِ وعلى غَيْرِ الاختيارِ، كَمَا سَنُبَيِّنُه -إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى- فِيمَا نَأْتِي به بَعْدُ مِنَ التفاصيلِ، واللهُ المُسْتَعَانُ.

***

قولُه (قَالَ القاضي أَبُو الفَضْلِ -رَحِمَه الله): وفي نسخةٍ «رَضِيَ اللهُ عَنْه»، وهذا مِنْ مُلحَقاتِ بعْضِ تَلامِذَتِه.

قولُه (اعلَمْ أَنَّ الطَّوارئَ): -بالهمزَةِ- جَمعُ «الطَّارِئِ»، وهْوَ ما يَطْرَأُ ويَحدُثُ.

وقولُه (مِن التَّغيُّراتِ): أي الموجِبةِ لِلفُتوراتِ.

قولُه (على آحادِ البَشَرِ): أي عَوامِّهم، ويُروَى «أجسَادِ البَشَرِ»: أي أبْدانِهِمْ.

قولُه (والتغيُّراتُ): -بضمِّ الياءِ التحتيّةِ المشدَّدةِ- أي الحالاتُ المخْتلفةُ بالانتقَالِ مِنْ حَالةٍ إلى حَالةٍ لِنِقْمَةٍ ومِحْنَةٍ، وكَسْرٍ وجَبْرٍ، وغيرِه.

قولُه (على جِبِلَّتِه): -بكسْرِ الجيمِ فموحَّدةٍ وبلامٍ مُشدَّدةٍ- أيْ خِلْقَتِه.

قولُه (وتَمَّتْ كَلِمَةُ الإجماعِ): أيْ ثَبَتَتْ.

***

فَصْلٌ فِي حُكْمِ عَقْدِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَقْتِ نُبُوَّتِهِ

اعْلَمْ -مَنَحَنَا اللهُ وإِيَّاكَ تَوفِيقَه- أَنَّ مَا تَعلَّقَ مِنْه بطَرِيقِ التوحيدِ والعِلْمِ باللهِ تعَالى وصفاتِهِ والإِيمانِ بِه وبِمَا أُوحِيَ إِلَيْه، فَعَلَى غايَةِ المعْرفةِ، ووُضُوحِ العِلْمِ واليَقِينِ، والانتِفاءِ عَنِ الجَهْلِ بشَيْءٍ مِنْ ذلك أَوِ الشَّكِّ أَوِ الرَّيْبِ فِيهِ، والعِصْمَةِ مِنَ كُلِّ مَا يُضَادُّ المَعْرِفَةَ بذلكَ واليَقِينَ.

هَذا ما وَقَعَ إِجْمَاعُ المسْلِمِينَ عَلَيْه، ولا يَصِحُّ بالبَراهِينِ الوَاضِحَةِ أَنْ يَكُونَ فِي عُقُودِ الأنبياءِ سِوَاهُ.

ولا يُعْتَرَضُ على هَذا بِقَوْلِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قلْبي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إِذْ لَمْ يَشُكَّ إِبْراهيمُ فِي إِخْبَارِ اللهِ تعالى لهُ بإِحْيَاءِ المَوْتَى، ولَكِنْ أَرَادَ طُمَأْنِينَةَ القَلْبِ، وتَرْكَ المُنَازَعةِ لِمشاهَدةِ الإِحْيَاءِ، فحَصَلَ لَهُ العِلْمُ الأَوَّلُ بوُقُوعِه، وأَرادَ العِلْمَ الثَّانيَ بكَيْفِيَّتِهِ ومُشَاهَدَتِه.

الوَجْهُ الثاني: أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام إِنَّمَا أَرَادَ اخْتِيَارَ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّه وعِلْمَ إِجابةِ دَعْوَتِه؛ بسُؤَالِ ذلكَ مِنْ رَبِّه، ويَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أَيْ: لَمْ تُصَدِّقْ بِمَنْزِلَتِكَ مِنِّي وخُلَّتِكَ واصْطِفائِكَ؟!

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّه سَأَلَ زِيَادَةَ يَقِينٍ وقُوَّةَ طُمَأْنِينَةٍ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الأَوَّلِ شَكٌّ؛ إِذِ العُلُومُ النَّظَرِيَّةُ والضَّرُورِيَّةُ قَدْ تَتَفَاضَلُ فِي قُوَّتِهَا، وطَرَيَانُ الشُّكُوكِ عَلى الضَّرُورِيَّاتِ مُمْتَنِعٌ، ومُجَوَّزٌ فِي النَّظَرِيَّاتِ، فَأَرَادَ الانْتِقَالَ مِنَ النَّظَرِ أَوِ الخَبَرِ إِلَى المُشَاهَدَةِ،

قوله (عَقْدِ... إلخ): هوَ أحكامُهُ ولزومُه على الشيءِ وحقيقتُه.

قوله (مَنَحَنَا اللهُ وإِيَّاكَ): الخِطابُ عَامٌّ، والجملةُ دُعَائِيَّةٌ.

قوله (بطَرِيقِ التوحيدِ): أَيْ توحيدِ الذاتِ، وتفريدِ الصِّفاتِ. وقوله (وصِفاتِه): أي الثُّبُوتيَّةِ والسَّلبيَّةِ والفِعْلِيَّةِ والإضافيةِ. وقوله (وبِمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْه): أي مِنَ الوَحْيِ الجَلِيِّ أَوِ الخَفِيِّ.

قوله (فعَلى غايةِ المعْرفةِ): أَيْ بِجُزْئِيَّاتِه. وقوله (ووُضُوحِ العِلْمِ واليَقِينِ): أي بِكُلِّيَّاتِه.

قوله (مِنْ كُلِّ ما يُضَادُّ): -بتشديدِ الدَّالِ- أَيْ يُنَافِي.

قوله (ولا يَصِحُّ بالبَراهينِ): وفي نسخةٍ «فَلَا».

قوله (ولا يُعْتَرَضُ... إلخ): أَيْ على قَوْلِنَا هذا، والفِعْلُ مَبْنِيٌّ لِلمجهُولِ.

قوله (ولَكِنْ أَرَادَ طُمأنينَةَ القَلْبِ): أَيْ بمشاهَدةِ فِعلِ الرَّبِّ إِذْ لَيْسَ الخَبَرُ كالمعايَنةِ.

قوله (فحَصَلَ له العِلْمُ الأَوَّلُ): وهُوَ عِلْمُ اليَقِينِ، والعِلْمُ الثاني عَيْنُ اليَقِينِ.

قوله (إِنَّمَا أَرَادَ اختِيَارَ مَنزلتِه): أَيْ باعتبارِ مَرْتبَتِه، ورِفعةِ مكانتِه. قوله (وعِلْمَ إِجابةِ دَعْوتِه): وفي نُسْخةٍ «إجابَتِه دعوتَه».

قوله (أَيْ: لَمْ تُصَدِّقْ): وفي نسخةٍ «أَيْ: أَلَمْ تُصَدِّقْ». وقوله (وخُلَّتِكَ): -بضمِّ الخاءِ وتشديدِ اللَّامِ- أَيْ وكونِكَ خَلِيلًا عِنْدِي.

قوله (ومُجَوَّزٌ): -بفتحِ الواوِ المشدَّدةِ، وفي نسْخةٍ «ويُجَوَّزُ»- أَيْ طَرَيَانُها وجَرَيَانُهَا. وقوله (مِنَ النَّظَرِ): أي السَّابقِ. وقوله (الخَبَرِ): أي الصَّادقِ.

قولـه (فلَيْسَ الخَبَرُ كالمُعايَنةِ): اقتِبـاسٌ مِـنْ قولـه ﷺ: (لَيْـسَ الخَـبَرُ كالمعايَنـةِ)[1].

قولـه (قـالَ بَعْضُهـمْ): يُـرْوَى «قَـوْلُ بَعْضِهِـمْ». قولـه (أَقْـدِرْني): -بفتـحِ الهمـزةِ وكـسْرِ الـدَّالِ- أي قَـدِّرْني وقَـوِّني.

قولـه (لَكِـنْ لِيُجـاوَبَ): -بفتـحِ الـواوِ- وفي نُسْـخةٍ «لِيُجَـابَ».

قولـه (فيَـزْدادَ قُرْبُـهُ): -بالإضافـةِ- أيْ كَـمالُ قُرْبِـهِ بمَعْرفـةِ منزلتِـه عِنْـدَ رَبِّـه.

قولـه (أنْ تَظُـنَّ هـذا بإبْراهيـمَ): إذْ قَـدْ وَرَدَ أنَّـهُ لَمَّـا نَزَلَـتْ: ﴿وإذْ قـالَ إبْراهيـمُ رَبِّ أَرِني ...﴾ إلـخ [البقـرة: ٢٦٠] سَـمِعَ قَـوْمٌ ذلـكَ، فقالُـوا: شَـكَّ إبراهيـمُ، ولَمْ يَشُـكَّ نَبيُّنـا.

قولـه (إمَّـا عـلى طَريـقِ الأَدَبِ): أيْ مَـعَ إبراهيـمَ لِأَنَّـهُ بمَنزلـةِ الأَبِ.

قولـه (إنْ حُمِلَـتْ): بضـمِّ الحـاءِ وكـسْرِ الميـمِ المخفَّفـةِ. وقولـه (عـلى اختبـارِ... إلـخ): -بالموحَّـدةِ- أي امتحـانِ كَمالِـه -كَـما في الوَجْـهِ الثَّـاني.

قولـه (فـإنْ كُنْـتَ في شَـكٍّ): أيْ قَلَـقٍ واضطِـرابٍ. قولـه (فاسْـأَلِ الذيـنَ): قُـرِئَ بالتخفيـفِ والنقـلِ. قولـه (يَقْرَؤُنَ الكِتابَ مِنْ قَبلِكَ): فإنَّهُـمْ مُحيطُـونَ عِلْـمًا بصِحَّـةِ مـا أَنْزَلْنـا إلَيْـكَ مِـنْ رَبِّـكَ.

قولـه (أنْ يَخْطُـرَ ببَالِـكَ): -بضـمِّ الطّـاءِ- أيْ أنْ يَمُـرَّ بخيالِـكَ، (فيـما أُوحِـيَ إليْـه): وَفي نسـخةٍ «فيـما أَوْحَـى اللهُ إلَيْـه».

والتَّرَقِّـيَ مِـنْ عِلْـمِ اليَقيـنِ إلى عَـيْنِ اليَقيـنِ، فلَيْـسَ الخَـبَرُ كالمُعايَنَـةِ، ولِهَـذا قـالَ سَـهْلُ بْـنُ عَبْـدِ اللهِ: سَـأَلَ كَشْـفَ غِطَـاءِ العِيَـانِ؛ لِيَـزْدادَ بنُـورِ اليَقيـنِ تَمَكُّنـًا في حالِـهِ.

الوَجْـهُ الرَّابِـعُ: أَنَّـه لَمَّـا احْتَـجَّ عـلى المُشْرِكيـنَ بـأَنَّ رَبَّـه تعـالى يُحْيِـي ويُمِيـتُ طَلَـبَ ذلِـكَ مِـنْ رَبِّـه؛ لِيَصِـحَّ احْتِجاجُـه عِيَانـًا.

الوَجْـهُ الخامـسُ: قـالَ بَعْضُهـمْ: هُـوَ سُـؤَالٌ عَـلَى طَريـقِ الأَدَبِ، المُـرادُ: أَقْـدِرْني عـلى إحْيَـاءِ المَوْتَـى، وقَوْلُـه: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِـي﴾ عَـنْ هَـذه الأُمْنِيَّـةِ.

الوَجْـهُ السَّـادِسُ: أنَّـه أَرَى مِـنْ نَفْسِـهِ الشَّـكَّ، وَمـا شَـكَّ؛ لَكِـنْ لِيُجـاوَبَ؛ فَيَـزْدادَ قُرْبُـه.

وقَـوْلُ نَبيِّنـا ﷺ: (نَحْـنُ أَحَـقُّ بالشَّـكِّ مِـنْ إبراهيـمَ) نَفْـيٌ لِأَنْ يَكُـونَ إبْراهيـمُ شَـكَّ، وإبْعَـادٌ للخَواطِـرِ الضَّعِيفَـةِ أَنْ تَظُـنَّ هَـذا بإبْراهيـمَ، أَيْ: نَحْـنُ مُوقِنُـونَ بالبَعْـثِ وإحْيَـاءِ اللهِ المَوْتَـى؛ فلَـوْ شَـكَّ إبْراهيـمُ لَكُنَّـا أَوْلَى بالشَّـكِّ مِنْـه، إمَّـا عـلى طَريـقِ الأَدَبِ، أَوْ أَنْ يُريـدَ أُمَّتَـهُ الَّذيـنَ يَجُـوزُ عَلَيْهِـمُ الشَّـكُّ، أَوْ عـلى طَريـقِ التَّواضُـعِ والإشْـفَاقِ إنْ حُمِلَـتْ قِصَّـةُ إبْراهيـمَ عـلى اخْتِبـارِ حَالِـهِ أَوْ زِيَـادَةِ يَقينِـهِ.

فـإنْ قُلْـتَ: فَـما مَعْنَـى قَوْلِـهِ: ﴿فَـإنْ كُنْـتَ في شَـكٍّ مِمَّـا أَنْزَلْنَـا إلَيْـكَ فاسْـأَلِ الَّذيـنَ يَقْـرَؤُنَ الكِتـابَ مِـنْ قَبلِـكَ ...﴾ الآيتَـيْنِ [يونـس: ٩٤-٩٥]؟

فاحْـذَرْ -ثَبَّـتَ اللهُ قَلْبَـكَ- أَنْ يَخْطُـرَ ببالِـكَ مـا ذَكَـرَهُ فيـه بَعْـضُ المفسِّريـنَ عَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ أَوْ غَـيْرِهِ مِـنْ إثْبَـاتِ شَـكٍّ لِلنَّبـيِّ ﷺ فيـما أُوحِـيَ إلَيْـه، وأَنَّـه مِـنَ البَشَـرِ، فمِثْـلُ هَـذا لا يَجُـوزُ عَلَيْـه جُمْلَـةً؛ بَـلْ قـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ: لَمْ يَشُـكَّ النَّبِـيُّ ﷺ،

(١) أخرجـه أحمـد وابـن معـين والطـبراني والعسـكري، وأورده السـخاوي في المقاصـد الحسـنة.

ولَمْ يَسْأَلْ[1]، ونَحْوُه عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ والحَسَنِ، وحَكَى قَتَادَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَا أَشُكُّ ولا أَسْأَلُ)[2]، وعَامَّةُ المفسِّرِينَ على هَذَا.

واخْتَلَفُوا في مَعْنَى الآيَةِ، فقِيلَ: المُرادُ: قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لِلشَّاكِّ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ...﴾ الآيَةَ، قالُوا: وفِي السُّورةِ نَفْسِهَا مَا دَلَّ على هَذا التَّأْويلِ، قَوْلُه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤].

وقِيلَ: المُرادُ بالخِطَابِ العَرَبُ وَغَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَالَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ...﴾ الآيَةَ [الزمر: ٦٥]، والخِطَابُ لَهُ، والمُرادُ غَيْرُهُ، ومِثْلُه ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩]، ونَظِيرُهُ كَثِيرٌ.

قَالَ بَكْرُ بْنُ العَلَاءِ: أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [يونس: ٩٥]، وهُوَ ﷺ كانَ المُكَذَّبَ فيما يَدْعُو إِلَيْهِ، فكَيْفَ يَكُونُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِهِ؟! فهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على أَنَّ المُرادَ بالخِطَابِ غَيْرُهُ. ومِثْلُ هَذِه الآيَةِ قَوْلُه: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، المَأْمُورُ هَا هُنَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، والنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الخَبِيرُ المَسْؤُولُ لا المُسْتَخْبِرُ السَّائِلُ.

وقَالَ: إِنَّ هَذا الشَّكَّ الَّذِي أُمِرَ غَيْرُ النَّبِيِّ بِسُؤَالِ الذينَ يَقْرَؤُونَ الكِتَابَ إِنَّمَا هُوَ فيما قَصَّهُ اللهُ مِنْ أَخْبَارِ الأُمَمِ، لا فيما دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ والشَّرِيعَةِ.

---

(١) حديث ابن عبَّاس (لم يشك ولم يسأل): ابن أبي حاتم [أخرجه ابن المُنذر وابن أبي حاتم وابن مرْدَوَيْه والضياء في المختارة كما في الدر المنثور (٤/ ٣٨٩)].

(٢) حديث قتادة أنه قال (ما أشك ولا أسأل...): ابن جرير [١٢/ ٢٨٨].

قولـه (قَالَ: مَا أَشُكُّ ولا أَسْأَلُ): لِنَزاهتِه وبَراءَةِ سَاحَتِهِ عَنِ الشَّكِّ لِعِصْمَتِه.

قوله (واختَلَفُوا في مَعْنَى الآيَةِ): هِيَ قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾. قوله (قُلْ يا أيُّها النّاسُ): وفي نسْخَةٍ «أيْ وهُوَ قولُه تعالى: قُلْ يا أيُّها... إلخ».

قوله (والخِطَابُ له، والمُرادُ غيرُه): كَمَا في قولِهم «اسْمَعِي يا جارةُ»، أو هُوَ واردٌ على سبيلِ الفَرْضِ والتقديرِ، كَمَا يُفْرَضُ المُحَالُ في مَقَامِ التقريرِ.

قوله (ومِثْلُه: فلا...): أيْ ومِثْلُ التأويلِ السّابقِ في قولِه: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ التأويلُ في قولِه ﴿فَلَا تَكُ...﴾ إلخ. قوله (ونَظِيرُه كَثِيرٌ): أيْ نظيرُ ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ كَثِيرٌ في القرآنِ. كقولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ...﴾ الآيةَ [البقرة: ١٤٥].

قوله (كانَ المُكَذَّبَ): بفتحِ الذّالِ المعْجَمةِ المشدَّدةِ؛ وهوَ منصوبٌ على أنّه خَبَرُ (كانَ). قوله (فكَيْفَ يَكُونُ مِمَّنْ كَذَّبَ به): يُرْوَى «يُكَذِّبُ».

قوله (لا المُسْتخبِرُ السَّائِلُ): فإنَّ هذا شأنُ آحادِ الأُمَّةِ أو الخبيرِ المسْؤولِ به غيرُه، أي اسْأَلْ عَنْه تعالى يُخْبِرْكَ بجلالِ ذاتِه وكَمَالِ صِفاتِه.

قوله (إنَّ هَذا الشَّكَّ): وفي نُسْخَةٍ «الشاكَّ». وقوله (الَّذِي أُمِرَ): -بصيغةِ المجهولِ- وفي نسخةٍ «أُمِرَ بِهِ». قوله (فيما قَصَّه اللهُ): -وفي نسْخَةٍ «نَصَّه»؛ بالنونِ بَدَلَ القافِ- يعْني فيما حَكَاهُ اللهُ لِنبيِّه.

ومِثْلُ هَـذَا قَوْلُـه تعـالى: ﴿واسْـأَلْ مَـنْ أَرْسَـلْنَا مِـنْ قَبْلِـكَ مِـنْ رُسُـلِنَا...﴾ الآيـة [الزخـرف: ٤٥]، المُـرادُ بـه المُشْرِكُـونَ، والخِطَـابُ مُواجَهَـةً لِلنَّبِـيِّ ﷺ، قالَـه القُتَبِـيُّ.

وقِيـلَ: مَعْنَـاهُ: سَـلْنَا عَمَّـنْ أَرْسَـلْنَا مِـنْ قَبْلِـكَ، فَحُـذِفَ الخافِـضُ، وتَـمَّ الـكَلَامُ، ثُـمَّ ابْتَـدأَ: ﴿أَجَعَلْنَـا مِـنْ دُونِ الرَّحْمَـنِ آلِهَـةً يُعْبَـدُونَ﴾، عـلى طَرِيـقِ الإِنْـكَارِ، أيْ مَـا جَعَلْنَـا، حَـكَاهُ مَكِّـيٌّ.

وقِيـلَ: أُمِـرَ النَّبِـيُّ ﷺ أَنْ يَسْـأَلَ الأَنْبِيَـاءَ لَيْلَـةَ الإِسْراءِ عَـنْ ذلِـكَ، فـكَانَ أَشَـدَّ يَقِينًـا مِـنْ أَنْ يَحْتَـاجَ إلى السُّـؤَالِ، فَـرُوِي أَنَّـهُ قـالَ: (لا أَسْـأَلُ؛ قَـدِ اكْتَفَيْـتُ)، قالَـه ابـنُ زَيْـدٍ.

وقِيـلَ: سَـلْ أُمَـمَ مَـنْ أَرْسَـلْنَا هَـلْ جَاؤُهُـمْ بِغَـيْرِ التوحيـدِ؟! وهُـوَ مَعْنَـى قَـوْلِ مُجاهِـدٍ والسُّـدِّيِّ والضَّحَّـاكِ وقَتَـادَةَ.

والمُـرَادُ بهـذا والَّـذِي قَبْلَـه إعْلامُـهُ بِـمَا بُعِثَـتْ بِـهِ الرُّسُـلُ -صَلَـوَاتُ الله عَلَيْهِـمْ-، وأَنَّـه تعالى لَمْ يَـأْذَنْ في عِبادَةِ غَيْرِهِ لِأَحَـدٍ رَدًّا عـلَى مُشْرِكِـي العَـرَبِ وغَيْرِهِـمْ في قَوْلِهِـمْ: ﴿مَـا نَعْبُدُهُـمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَـا إلى الله زُلْفَـى﴾ [الزمر: ٣].

وكذلِـكَ قَوْلُـه تَعَـالى: ﴿والَّذِيـنَ آتَيْنَاهُـم الكِتَـابَ يَعْلَمُـونَ أَنَّـه مُنَـزَّلٌ مِـنْ رَبِّـكَ بالحَـقِّ فَـلَا تَكُونَـنَّ مِـنَ المُمْتَرِيـنَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، أَيْ في عِلْمِهِـمْ بأَنَّـكَ رَسُـولُ الله، وإِنْ لَمْ يُقِـرُّوا بذلِـكَ، وليسَ المرادُ بـه شَكَّهُ فيما ذُكِـرَ في الآيَـةِ.

وَقَـدْ يَكُـونُ أَيْضًـا عـلى مِثْـلِ مَـا تَقَـدَّمَ، أَيْ: قُـلْ لِمَـنِ امْـتَرَى -يـا مُحَمَّـدُ- في ذلِـكَ: لا تَكُونَـنَّ مِـنَ المُمْتَرِيـنَ،

قولـه (مِثْـلُ هَـذا): أيْ مِثْـلُ مـا أُرِيـدَ بـه غـيرُه ﷺ مِـنَ الخِطـابِ وسُـؤالِ الّذيـن يَقـرؤنَ.

قولـه (القُتَبِـيُّ): بضـمِّ القـافِ وسُـكونِ التّـاءِ وفتحِهـا والموحَّـدةِ، وفي نسْـخةٍ «القُتَيْبِـيُّ» بقـافٍ مَضمُومـةٍ ففوقيـةٍ مفتوحـةٍ فتَحْتيّـةٍ سـاكِنَةٍ فمُوحَّـدةٍ فبَـاءٍ تحتيـةٍ، وَكِلَاهُمَـا هُـوَ محمّـدُ أَبُـو عَبْـدِ الله بْـنُ مُسْـلمِ بـنِ قُتَيْبَـةَ.

قولـه (وقِيـلَ: أُمِـرَ النَّبِـيُّ ﷺ): -بصيغـةِ المفعـولِ، وفي نسـخةٍ بصيغـةِ الفَاعـلِ- أي أَمَـرَ اللهُ النبـيَّ.

قولـه (سَـلْ أُمَـمَ مَـنْ أرْسَـلْنا): وفي نسْـخةٍ بـدونِ (سَـلْ). وقولـه (هَـلْ جاؤهـمْ بغـيرِ التوحيـدِ): اسْـتفهامُ إنـكارٍ.

قولـه (لِيُقَرِّبُونـا إلى الله زُلْفَـى): وكَـذا في قولِهِـمْ ﴿هؤلاء شفعاؤنا عِنْدَ الله﴾ [يونس: ١٨].

قولـه (أنّـه مُنـزَّلٌ): بالتشـديدِ والتخفيـفِ. قولـه (وإنْ لَمْ يُقِـرُّوا بذلـك): أيْ مـا ذُكِـرَ مِـنْ حقيقـةِ مـا لَدَيْـكَ وحَقيقـةِ الكِتـابِ المنـزَّلِ علَيْـكَ ﴿حَسَـدًا مِـنْ عِنْـدِ أنفُسِـهِمْ مِـنْ بَعْـدِ مـا تَبَيَّنَ لَـهُمُ الحَـقُّ﴾ [البقـرة: ١٠٩].

قولـه (في الآيَـةِ): وهِـيَ قوْلُـه ﴿فـإنْ كُنْـتَ في شَـكٍّ﴾ [يونـس: ٩٤]؛ إذِ المُـرادُ هُنَـا شَـكُّهمْ في كَوْنِـه رسُـولَ الله، وهنَـاكَ الشَّـكُّ فيـما أَنْـزَلَ اللهُ، ولَمْ يَقَـعْ شَـكٌّ مِنْـه ﷺ.

قولـه (عَلَى مِثْـلِ مـا تَقَـدَّمَ): أيْ مِـنْ أنّـه ﷺ أُمِـرَ أَنْ يَقـولَ لِلشّـاكِّ: ﴿فـإنْ كُنْـتَ في شَـكٍّ مِمَّـا أَنْزَلْنَـا إلَيْـكَ﴾، أوْ عـلى أنّـه المخاطَـبُ والمـرادُ غَـيْرُه.

قوله (لِمَنِ امترَى): أيْ لِمَنْ شَكَّ.

بدَلِيلِ قَوْلِهِ أَوَّلَ الآيَةِ: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ...﴾ الآيَة [الأنعام: ١١٤]، وأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُخَاطِبُ بذلِكَ غَيْرَهُ، وقِيلَ: هُوَ تقرِيرٌ، كقَوْلِهِ: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ.

وقِيلَ: مَعْنَاهُ: ما كُنْتَ فِي شَكٍّ فاسْأَلْ، تَزْدَدْ طُمَأْنِينَةً وَعِلْمًا إلى عِلْمِكَ ويقينِكَ.

وقِيلَ: إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ فِيما شَرَّفْنَاكَ وفضَّلْنَاكَ بِهِ فاسْأَلْهُمْ عَنْ صِفَتِكَ فِي الكُتُبِ ونَشْرِ فضَائِلِكَ.

وحُكِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّ المُرادَ: إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ غَيْرِكَ فِيمَا أَنْزَلْنا.

فإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يوسف: ١١٠]، على قِراءَةِ التَّخْفِيفِ؟

قُلْنا: المَعْنَى فِي ذلِكَ مَا قالَتْهُ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَظُنَّ ذلِكَ الرُّسُلُ برَبِّها، وإِنَّما مَعْنَى ذلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمَّا اسْتَيْئَسُوا ظَنُّوا أَنَّ مَنْ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ كَذَبُوهُمْ. وعَلى هَذَا أَكْثَرُ المُفَسِّرِينَ.

وقِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي (ظَنُّوا) عَائِدٌ على الأَتْبَاعِ والأُمَمِ، لا عَلَى الأنبياءِ والرُّسُلِ، وهُوَ قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ والنَّخَعِيِّ وابنِ جُبَيْرٍ وجَمَاعَةٍ مِنَ العُلَماءِ، وبِهَذا المَعْنَى قَرَأَ مجاهِدٌ (كَذَبُوا) بالفَتْحِ.

فَلا تَشْغَلْ بالَكَ مِنْ شَاذِّ التَّفْسِيرِ بِسِوَاهُ مِمَّا لا يَلِيقُ بمَنْصِبِ العُلَماءِ، فكَيْفَ بالأنبياءِ؟!

قوله (بدليلِ قوْلِه أوَّلَ الآيةِ): -وفي نسخةٍ «في أوَّلِ الآيةِ»- أي الَّتِي فيها ﴿والذينَ آتيْناهمُ الكِتابَ﴾.

قوله (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا): -استفهامٌ إنكاريٌّ- أيْ أَطْلُبُ غَيْرَه -تعالى- يَحْكُمُ بيْنِي وبَيْنَكم لِيَظْهَرَ المُحِقُّ مِنَّا والمُبْطِلُ مِنْكُم؟!! لا يَكُونُ ذلكَ مِنِّي أَبَدًا، ولا أَبْتَغِي غَيْرَه أحَدًا.

قوله (يُخاطِبُ): -بكَسْرِ الطَّاءِ- ويُرْوَى «خاطَبَ».

قوله (وقيلَ: هُوَ تقريرٌ): أيْ لِمُشْرِكِي قرَيشٍ يَحْمِلُهم على الإقرارِ لِمَا يَعرفونَ مِنْ أنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ مِنْ دُونِه آلِهَةً، وتوْبيخُهُمْ على عبادَةِ الأصْنامِ.

قوله (اتَّخِذُوني وأُمِّيَ): بفتحِ الياءِ وسُكونِها.

قوله (وقيلَ: مَعْناهُ: ما كُنْتَ في شَكٍّ): أيْ علَى أنَّ «إنْ» نافيةٌ، وأَخْطَأَ الدّلجيُّ خطَأً فاحِشًا في قولِه «ما» هُنَا مصْدَرِيّةٌ، أي مُدَّةَ كوْنِكَ في شَكٍّ. اهـ مُلَّا.

قوله (وظَنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا): بصيغةِ المجهولِ.

وقوله (عَلَى قِراءةِ التخفيفِ): أيْ كَما قَرَأَ بِه الكوفيونَ لِأَنَّ ظاهِرَها ظَنُّهُمْ أنَّهُمْ قَدْ أُخْلِفُوا ما وَعَدَهم اللهُ مِنَ النَّصْرِ مَعَ نَزاهَتِهِمْ مِنْ أَنْ يَظُنُّوا برَبِّهِمْ ذلكَ.

قوله (كَذَبُوهُمْ): بتخفيفِ الذالِ، والضّميرُ الأوَّلُ لِلموعودِينَ مِنْ أتْباعِ الرُّسُلِ، والضميرُ الثاني لِلرُّسُلِ.

قوله (عائدٌ على الأَتْباعِ والأُمَمِ): الواوُ بمعنَى «أوْ».

قوله (قَرَأَ مجاهِدٌ: «كَذَبُوا» بالفتحِ): أيْ بفتْحِ الكافِ والذالِ والتخفيفِ، [أيْ] إنَّ الأُمَمَ ظَنُّوا أنَّ رُسُلَهمْ كَذَبُوا في قولِهِمْ بالنصْرِ عَلَيْهِمْ.

وقوله (فلا تَشْغَلْ): بفتحِ التاءِ والغَيْنِ المعجمَةِ، وفي نسخةٍ بفتحِ التاءِ وكسْرِ الغَينِ إلَّا أنَّها لُغَةٌ رديئةٌ.

قوله (بمنصبِ العُلَماءِ): -بكسْرِ الصّادِ- أيْ مقامِهِمْ ومَرتبتِهِمْ.

وقولـه (**في حديـثِ السِـيرَةِ**): أي سـيرةِ النّبـيِّ ﷺ في ابتـداءِ النُّبـوَّةِ.

وقوْلُـه (**لَيْـسَ مَعْنـاهُ الشّـكَّ فيـما أتَـاه مِـنَ اللهِ**): وفي نسْـخَةٍ «فِيـما آتَـاهُ اللهُ»، أي مِـن النّبـوّةِ والرّسـالَةِ.

قولـه (**مقاوَمـةَ الملَـكِ**): فإنَّـه في غايـةِ القُـوَّةِ القَويّـةِ (**وأعبَـاءَ الوَحْـيِ**): -بالنّصْـب- أيْ لا يَحْتمـلُ أثقـالَ تَحمُّـلِ الوَحْـيِ وتبليغِـه، وهـوَ جَمْـعُ «عِـبْءٍ» بكَسـرِ العَـيْنِ المهْمَلـةِ مهمـوزًا.

قولـه (**لِيَنْخَلِـعَ قَلْبُـه**): قـالَ المُـلّا: لَعَـلَّ الـلاّمَ لِلعَاقبـةِ، وفي نُسْـخةٍ «فيَنْخَلِـعَ» بالفَـاءِ منْصُوبًـا، أيْ فيـزُولَ حينَئـذٍ قلْبُـه عَـنْ مكانِـه.

وقولـه (**هـذا عـلى مـا وَرَدَ**): أيْ هـذا التأويـلُ عـلى مـا وَرَدَ.
وقولـه (**في الصّحيـحِ**): أي صحيـحِ البُخـاريِّ وغـيْرِه.

قولـه (**قَبْـلَ لُقْيَـاهُ الملَـكَ**): ويُـرْوَى «قَبْـلَ لِقائِـه الملَـكَ»، ولَعَلَّـه تكَـرَّرَ مِنْـه. اهـ مـلّا.

قولـه (**مـا عُرِضَـتْ عَلَيْـه**): بصيغـةِ المجهـولِ، وفي نسـخةٍ بصيغـةِ الفاعِـلِ، واسْـتَظْهَرَهُ المـلّا. وقولُـه (**مِـنَ العَجائـبِ**): أيْ مِـنْ خَـوارِقِ العَـادَةِ.

قولـه (**وسَـلَّمَ عَلَيْـه الحجَـرُ والشّـجَرُ**): المُـرادُ بِهِـما الجِنسُ.
قولـه (**لِأوَّلِ حَالـةِ بِنْيَـةُ البشريـةِ**): -بالتنويـنِ، ويُـرْوَى بالإضافـةِ- أي في أوَّلِ وَهْلـةٍ مِـنْ أحْوالِـه، وقولُـه (**بِنْيَـةُ**) -بكَسْـرِ الموحّـدةِ وسُـكونِ النّـونِ- لِضَعْفِهـا عَـنِ القُـوَّةِ الملَكيّـةِ.

وقوله (**وفي الصحيحِ**): أي صحيحِ البخاريِّ.

قولـه (**أوَّلُ مـا بُـدِئَ بِـهِ**): -بصيغـةِ المجهـولِ- أي ابتُـدِئَ بِـهِ.
قولـه (**الرُّؤْيَـا الصَّادقـةُ**): وفي روايـةٍ: الصَّالحـةُ مِـنَ النَّـومِ.

قولـه (**حُبِّـبَ إليْـهِ الخَـلاءُ**): -بالمَـدِّ- أي الخَلْـوةُ لِفَـراغِ القَلْـبِ بالذِّكْـرِ والفِكْـرِ. قولـه (**إلى أنْ جـاءَهُ الحـقُّ**): وروايـةُ الشّـيخَيْنِ «حتّـى جَـاءَهُ الحـقُّ». قولـه (**غـارِ حِـراءٍ**): -بكَسْـرِ الحـاءِ وتخفيـفِ الـراءِ- جَبَـلٌ عـلى ثلاثـةِ أميَـالٍ مِـن مَكَّـةَ، يُمَـدُّ ويُقْصَـرُ، ويُذَكَّـرُ باعتبـارِ المَكانِ فيُـصْرَفُ، ويؤنَّـثُ باعتبـارِ البُقْعـةِ فـلا يُـصرَفُ، والغَـارُ الكهـفُ والثُّقْـبُ بالجبَـلِ، وكـذا المَغـارةُ.

وكَذَلِـكَ مَـا وَرَدَ في حَدِيـثِ السِّـيرَةِ ومُبْتَـدَإِ الوَحْـيِ مِـنْ قَوْلِـه لِخَدِيجَـةَ: (لَقَـدْ خَشِـيتُ عـلى نَفْـسِي)[1]، لَيْـسَ مَعْنَـاهُ الشَّـكَّ فِيـمَا أَتَـاهُ مِـنَ اللهِ بَعْـدَ رُؤْيَـةِ المَلَـكِ، ولَكِـنْ لَعَلَّـه خَـشِيَ أَنْ لا تَحْتَمِـلَ قُوَّتُـهُ مُقَاوَمَـةَ المَلَـكِ وأَعْبَـاءَ الوَحْـيِ لِيَنْخَلِـعَ قَلْبُـه أَوْ تَزْهَـقَ نَفْسُـهُ، هـذا عـلى مـا وَرَدَ في الصَّحِيـحِ أَنَّـه قـالَ بَعْـدَ لِقَائِـهِ المَلَـكَ.

أَوْ يَكُـونُ ذلـكَ قَبْـلَ لُقْيَـاهُ المَلَـكَ وإِعْـلامِ اللهِ تَعـالى لَـهُ بالنُّبُـوَّةِ لِأَوَّلِ مَـا عُرِضَـتْ عَلَيْـهِ مِـنَ العَجَائِـبِ، وسَـلَّمَ عَلَيْـهِ الحَجَرُ والشَّـجَرُ، وبَدَأَتْـهُ المَنَامَـاتُ والتَّبَاشِـيرُ، كَـمَا رُوِيَ في بَعْضِ طُـرُقِ هـذا الحَدِيـثِ أَنَّ ذلـكَ كانَ أَوَّلًا في المَنَامِ، ثُـمَّ أُرِيَ في اليَقَظَـةِ مِثْـلَ ذلـكَ تَأْنِيسًـا لَـهُ ﷺ؛ لِئَـلَّا يَفْجَـأَهُ الأَمْـرُ مُشَـافَهَةً ومُشَـاهَدَةً، فـلا تَحْتَمِلُـهُ لِأَوَّلِ حَالـةٍ بِنْيَـةُ البَشَرِيَّـةِ.

وفي «الصَّحِيـحِ» عَـنْ عَائِشَـةَ: أَوَّلُ مـا بُـدِئَ بِـه رسُـولُ اللهِ ﷺ مِـنَ الوَحْـيِ الرُّؤْيَـا الصَّادِقَـةُ، قالَـتْ: ثُـمَّ حُبِّـبَ إِلَيْـهِ الخَـلَاءُ، وقالَـتْ: إلى أَنْ جَـاءَهُ الحَـقُّ، وهُـوَ في غَـارِ حِـرَاءٍ... الحَدِيـثَ[2].

---

(١) حديث قوله لخديجة (لقد خشيت على نفسي ...): الشيخان [البخاريُّ (٣)، ومسلمٌ (١٦٠)] عن عائشة.

(٢) حديث عائشة (أوَّلُ ما بُدئ به من الوحي ...): الشيخان [نفس الحديث السابق].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ بمكَّةَ خَمْسَ عَشْرةَ سَنَةً، يَسْمَعُ الصَّوْتَ، ويَرَى الضَّوْءَ سَبْعَ سِنِينَ، ولا يَرَى شَيْئًا، وثَمَانِ سِنِينَ يُوحَى إِلَيْهِ.(١)

وقَدْ رَوَى ابْنُ إِسْحاقَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ -وذَكَرَ جِوارَه بغارِ حِراءٍ- قالَ:

(فجَاءَنِي، وأَنَا نائِمٌ، فقالَ: اقْرَأْ، فقُلْتُ: مَا أَقْرَأُ -وذَكَرَ نَحْوَ حديثِ عَائِشَةَ في غَطِّهِ لَه، وإقرائِه ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ...﴾ السُّورَةَ-، قالَ: فانْصَرَفَ عَنِّي، وهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، فكَأَنَّمَا صُوِّرَتْ في قَلْبِي، ولَمْ يَكُنْ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ شَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ، ثُمَّ قُلْتُ: لا تَحَدَّثُ عَنِّي قُرَيْشٌ بِهَذا أَبَدًا؛ لَأَعْمِدَنَّ إلى حالِقٍ مِنَ الجَبَلِ، فلَأَطْرَحَنَّ نَفْسِي مِنْه، فلَأَقْتُلَنَّها، فبَيْنَما أَنا عَامِدٌ لِذلِكَ إِذْ سَمِعْتُ مُنادِيًا يُنادِي مِنَ السَّماءِ: يَا مُحمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وأَنَا جِبْرِيلُ، فرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا جِبْرِيلُ في صُورةِ رَجُلٍ)، وذَكَرَ الحديثَ.(٢)

---

(١) حديث ابن عباس (مكث بمكة خمس عشرة سنة ...): ابن سعد [١/ ٢٢٤].

(٢) حديث ابن إسحاق عن بعضهم في ذكر جواره بغار حراء: [البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٤٦، ١٤٧)].

قوله (مَكَثَ... إلخ): -بضمِّ الكافِ وفتحِها- أيْ لَبِثَ. وقوله (خَمْسَ عشْرةَ سَنَةً): بسُكونِ «عشْرةَ»، وبالكسر لغةُ تميمٍ.

قوله (وثَمَانِ سِنينَ يُوحَى إليْه): هذا إنما يتمشَّى على القولِ بأنَّه ﷺ عاشَ خمسًا وستينَ سنَةً، والصَّحيحُ أنَّ عمْرَه ثلاثٌ وسِتُّونَ؛ فبَعْدَ البَعْثةِ بمكَّةَ ثَلاثَ عَشْرةَ سَنَةً على الصَّحيحِ، وبالمدينةِ عَشْرٌ بلا خِلافٍ، وقيلَ: المُرادُ بـ«ثَلاثٌ وسِتُّونَ» ما عَدَا سَنَةَ الولادةِ والوَفاةِ فبهما يَتِمُّ خَمسٌ وسِتُّونَ، وفي المسْألةِ قولٌ آخرُ وهُوَ أنَّه ﷺ عاشَ سِتِّينَ سَنَةً، وهوَ محمُولٌ على إسْقاطِ الكَسرِ.

قوله (وذَكَرَ جِوارَه): -بكسْرِ الجيمِ ويُضمُّ- أي مجاوَرتَه وإقامتَه مُتَعَبِّدًا.

قوله (وأنا نائِمٌ) أي حقيقةً أو صُورةً، أي مُضطجِعٌ على هيئةِ النائمِ، قال المُلَّا: ولا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ النَّوْمُ كِنايةً عَنِ الغَفلةِ أو الاسْتغراقِ في الفِكْرِ.

قوله (فقلْتُ: ما أَقرأُ): أيْ أيَّ شَيْءٍ أَقرأُ، ف(مَا) اسْتفهاميّةٌ، ويؤيِّدُه روايةُ «ومَا أَقْرَأُ»، أوْ (مَا) نافيةٌ بدَلالةِ دخولِ الباءِ في خبَرِها في روايةِ البخاريِّ «ما أَنَا بقارِئٍ».

قوله (في غَطِّه): -بفتحِ معجَمةٍ وتشديدِ مهْمَلةٍ- أيْ في ضمِّ جِبْريلَ له ضَمًّا شديدًا.

قوله (وهَبَبْتُ): بفتحِ الموحَّدةِ الأُولى. قوله (كأنَّما صُوِّرَتْ): أي مُثِّلَتْ ونُقِشَتْ وتَشَكَّلَتْ سُورةُ (اقرَأْ) في قَلْبي... إلخ.

قوله (ثُمَّ قُلْتُ: لا تَحَدَّثُ): أيْ قُلْتُ في نفْسِي: (لا تَحَدَّثُ)، بفتحِ الفوْقيّةِ على أنَّه حُذِفَ مِنه إحدَى التَّاءَيْنِ، أيْ لا تَتَحَدَّثُ.

قوله (لَأَعْمِدَنَّ): -بفتحِ اللامِ والهمزةِ وكسْرِ الميمِ وتُفتَحُ وتشديدِ النونِ- أيْ لَأَقصِدَنَّ. وقوله (إلى حالِقٍ مِنَ الجَبَلِ): -بمهمَلةٍ وكسْرِ لامٍ- أيْ مكانٍ عَالٍ.

قوله (فبَيْنَما أنا عَامِدٌ لِذلِك): أيْ قاصِدٌ لِطَرْحِ النَّفْسِ.

قوله (فإذا جِبْريلُ في صُورةِ رَجُلٍ): وفي نُسْخةٍ «عَلى صُورةِ رَجُلٍ».

فقد بيَّنَ في هذا أنَّ قولَه لِما قالَ، وقصْدَهُ لِما قصدَ إنَّما كانَ قبلَ لِقاءِ جبْريلَ عليه السلام، وقبلَ إعلامِ اللهِ تعالى لهُ بالنُّبُوَّةِ، وإظهارِ اصْطِفائِه له بالرِّسالةِ.

ومثلُه حديثُ عمرو بْنِ شُرَحْبيلَ أنَّه ﷺ قالَ لِخديجةَ: (إنِّي إذا خَلَوْتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِداءً، وقدْ خَشِيتُ -واللهِ- أنْ يكُونَ هذا لِأمْرٍ)[1]، ومِنْ روايةِ حمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لِخديجةَ: (إنِّي لأَسْمَعُ صَوْتًا، وأَرَى ضَوْءًا، وأَخْشَى أنْ يكُونَ بِي جُنُونٌ)[2].

وعلى هذا يُتأَوَّلُ -لَوْ صَحَّ- قَوْلُهُ في بَعْضِ هذهِ الأحاديثِ: (إنَّ الأَبْعَدَ شاعِرٌ أَوْ مجنُونٌ)[3]، وأَلْفاظٌ يُفْهَمُ مِنْها مَعاني الشَّكِّ في تَصْحيحِ ما رَآهُ، وأنَّه كانَ كُلُّه في ابْتِداءِ أَمْرِه، وقَبْلَ لِقاءِ المَلَكِ لَهُ وإعْلامِ اللهِ له أنَّه رَسُولُهُ؛ فكَيْفَ وبَعْضُ هذهِ الأَلْفاظِ لا تَصِحُّ طُرُقُها؟! وأمَّا بَعْدَ إعْلامِ اللهِ تعالى لَهُ ولِقائِهِ المَلَكَ فلا يَصِحُّ فيهِ رَيْبٌ، ولا يَجُوزُ علَيْه شَكٌّ فيما أُلْقِيَ إلَيْه.

وقَدْ رَوَى ابْنُ إسْحاقَ عَنْ شُيُوخِهِ أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يُرْقَى بمكَّةَ مِنَ العَيْنِ قَبْلَ أنْ يُنْزَلَ عَلَيْه، فلَمَّا نَزَلَ عَلَيْه القرآنُ أَصابَه نَحْوُ ما كانَ يُصيبُه، فقالَتْ

(١) حديث عمرو بن شرحبيل (أنه قال لخديجة ...): البيهقي [«الدلائل» ٢/ ١٥٨].

(٢) حديث حماد بن سلمة (أنه قال لخديجة ...): الطبرانيُّ [١٢/ ١٨٦]، وابن منيع في مسنده [كما في إتحاف الخيرة (٧/ ٢٤٦)] موصولاً عن حماد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عبَّاس.

(٣) [أخرجه أحمد (١/ ٢٧١)، والبزَّار (٢٠٠)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (٢٥) من طريق ابن عباس].

وَقوله (لِما قالَ): أي لِخديجةَ[1] (لَقدْ خَشِيتُ...) إلى آخِرِهِ. قوله (وإظهارِ اصْطفائِه... إلخ): وفي نسخةٍ «وإظهارِه اصْطفاءَهُ».

قوله (عَمْرِو بنِ شُرَحْبِيلَ): -بضَمٍّ معجمةٍ وفتحِ راءٍ وسُكونِ مهْملةٍ وكسْرِ مُوَحَّدةٍ فتحتيَّةٍ ساكنةٍ- وهُوَ غيرُ منصرِفٍ.

قوله (أنْ يكُونَ هَذا لِأمْرٍ): أيْ لَمْ أُحِطْ بِه خُبرًا يُرْهِقُنِي مِنْ أمْرِي عُسْرًا، قالَتْ: (مَعاذَ اللهِ ما كانَ اللهُ لِيفعَلَ ذلك بِكَ إنَّكَ لَتُؤدِّي الأمانةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ...) الحديثَ.

قوله (يُتَأَوَّلُ -لَوْ صَحَّ): بصيغةِ المجهُولِ.

قوله (وألفاظٌ يُفْهَمُ مِنْها): أيْ وإنَّ في هذه الأحاديثِ ألفاظًا، ويُروَى «وألفاظُها يُفهَمُ... إلخ».

قوله (كانَ كُلُّه في ابتداءِ أمْرِه... إلخ): أيْ مِمَّا يَنفِي عَنْه الشَّكُّ فيما آتاهُ اللهُ واختصَّه به مِنَ المِنَحِ الإلهيَّةِ ما لَمْ يؤتِه سِواهُ.

قوله (لا تَصِحُّ طُرُقُها): أي أسانيدُها لِكَوْنِ بَعْضِ مَنْ فيهَا مُتَّهَمًا أو مَجْهُولًا.

قوله (فِيما أُلْقِيَ إلَيْه): أي مِنَ المَعارفِ الرَّبَّانيَّةِ، والعَوارفِ السُّبحانيَّةِ.

قوله (كانَ يُرْقَى): -بصيغةِ المجهُولِ- أي يُعَوَّذُ بالعُوَذِ التي يُرْقَى بِها.

وقوله (قبلَ أنْ يُنزَّلَ عَلَيْه): أي الوحيُ أو القرآنُ، وهوَ بصيغةِ الفاعلِ أو المفعولِ مُخَفَّفًا أو مشدَّدًا، ويؤيِّدُ الثانيَ قولُه (فلَمَّا نَزَلَ عليه القرآنُ... إلخ).

(١) أي قوله لخديجة (لقد خشيت على نفسي)؛ فـ«ما» مصدرية، أي قوله لهذا القول، أو موصولة عائدة على القول، أي قوله للكلام الذي قاله.

لـه خَديجَـةُ: أُوَجِّـهُ إِلَيْـكَ مَـنْ يَرْقِيـكَ؟ فقـالَ: (أَمَّـا الآنَ فَـلا).(١)

وحَدِيـثُ خَديجَـةَ واخْتِبارُهـا أَمْـرَ جِبْرِيـلَ بكَشْـفِ رَأْسِـهَا... الحَديـثَ(٢)، إنَّـما ذلـكَ في حَـقِّ خَديجَـةَ؛ لِتُحَقِّـقَ صِحَّـةَ نُبُـوَّةِ رسُـولِ الله ﷺ، وأَنَّ الَّـذي يأْتِيـهِ مَلَـكٌ، ويَـزُولَ الشَّـكُّ عَنْها، لا أَنَّهـا فَعَلَـتْ ذلِـكَ لِلنَّبـيِّ ﷺ، وليَخْتَـبِرَ هُـوَ حَالَـهُ بذلِـكَ، بَـلْ قَـدْ وَرَدَ في حَديـثِ عَبْدِ الله بْـنِ محمّدِ بْـنِ يَحْيَى بْـنِ عُـرْوَةَ، عَـنْ هِشَام، عَـنْ أَبِيـهِ، عَـنْ عَائِشَـةَ أَنَّ وَرَقَـةَ أَمَـرَ خَديجَـةَ أَنْ تَخْـبُرَ الأَمْـرَ بذلـكَ(٣).

وفي حَديـثِ إِسْـماعيلَ بْـنِ أَبِي حَكيـمٍ أَنَّهـا قالَـتْ لِرَسُـولِ الله ﷺ: يـا ابْـنَ عَمِّـي هَـلْ تَسْـتَطِيعُ أَنْ تُخْـبِرَني بِصَاحِبِـكَ إذا جَـاءَكَ؟ قـالَ: نَعَـمْ، فلَـمَّا جـاءَ جِبْرِيـلُ أَخْبَرَهـا، فقالَـتْ لـه: اجْلِـسْ إِلى شِـقِّي، وذَكَـرَ الحَديـثَ إِلى آخِـرِه(٤)، وفيـهِ: فقالَـتْ: مَـا هَـذا بشَـيْطَانٍ، هَـذا المَلَـكُ يـا ابْـنَ عَمِّـي، فاثْبُـتْ وأَبْشِرْ، فآمَنَـتْ بـهِ.

(١) حديث ابن إسحاق عن شيوخه (أنه كان يرقي ...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه].

(٢) حديث خديجة في اختبارها أمر جبريل بكشف رأسها: ابن إسحاق [١/ ١٣٤]، والبيهقيُّ [٢/ ١٥١] عن فاطمة بنت الحسين، وأبو نعيم في «الدلائل» موصولًا [١٦٤] من طريق أمِّ سلمة عن خديجة ومن حديث عائشة [١٦٥].

(٣) حديث عروة عن عائشة (أن ورقة أمر خديجة أن تخبُرَ الأمر بذلك): أبو نعيم في «الدلائل» [(١٦٤، ١٦٥) من حديث عائشة، وأم سلمة].

(٤) حديث إسماعيل بن حكيم (أنها قالت يا ابن عم ...): ابن إسحاق [ص ١٣٣] والبيهقيُّ [الدلائل ٢/ ١٥١] وأبو نعيم.

قولـه (أُوَجِّـهُ): -بتشـديدِ الجيـمِ المكسُـورةِ- أيْ أُرْسِـلُ. وقولـه (مَـنْ يَرْقِيـكَ): بفتـحِ اليـاءِ وكَسْرِ القـافِ.

وقولـه (أَمَّـا الآنَ فـلا): أيْ بَعْـدَ نـزُولِ القـرآنِ فـلا حَاجَـةَ لي بـه اكتفـاءً بربِّـه وكِتابِـه؛ إذْ هُـوَ هُـدًى وشـفاءٌ.

قولـه (واختبارُهـا): أي امتحـانُ خَديجَـةَ. قولـه (لِتُحَقِّـقَ صِحَّـةَ نُبُـوَّةٍ): وفي نسْـخةٍ «صِـدْقَ نُبُـوَّةٍ... إلـخ».

قولـه (وَيَـزولَ الشَّـكُّ عَنْهـا): أيْ لِيَرتفـعَ التـردُّدُ لَهـا الناشـئُ مِمَّـا قـالَ لهـا مِـن نحـوِ (لَقَـدْ خَشِـيتُ عـلى نفسـي، وأَخشـى أنْ يكـونَ بي جنـونٌ).

قولـه (وليَخْتَـبِرَ هُـوَ): أي النبيُّ ﷺ، وفي نسْـخةٍ بـدُون «هُـوَ». وَقولـه (حَالَـه بذلـكَ): أيْ فيكـونَ عـلى بَصيرةٍ مِـنْ أمْـرِه هنالـكَ.

وقولـه (أنَّ وَرَقَـةَ أَمَـرَ خديجَـةَ): هـوَ ابـنُ نَوفـلِ بـنِ أَسَـدٍ، وهِـيَ بنـتُ خُوَيلـدِ بـنِ أسَـدٍ. قولـه (أنْ تَخْـبُرَ الأمـرَ): أيْ تَمتحـنَ وتُجـرِّبَ، وفي نسْـخةٍ «تَختـبرَ».

قولـه (قالَـتْ لِرسُـولِ الله: يـا ابـنَ عَمِّـي): لِأَنَّهـا تَجتمـعُ مَـعَ النبـيِّ ﷺ نَسَبًا في قُـصَيٍّ؛ لِأنَّـه ﷺ محمّـدُ بـنُ عبْـدِ الله بـنِ عبْـدِ المطَّلـبِ بـنِ هاشـمِ بـنِ عبْـدِ مَنـافِ بـنِ قُـصَيٍّ، وهـيَ خديجـةُ بنـتُ خُوَيلـدِ بـنِ أسَـدِ بـنِ عَبْـدِ العُـزَّى بـنِ قُـصَيٍّ.

قولـه (اجلِـسْ إلى شِـقِّي): -بكَسْرِ الشّـينِ وتشديدِ القـافِ- تُريـدُ أَحَـدَ جَنْبَيْهـا.

قولـه (فآمَنَـتْ بِـهِ): أيْ حِينَئِـذٍ، أو آمَنَـتْ قَبْـلُ لَكِـنِ اطمأنَّـتْ بـه، فحَصَـلَ لهـا عَـيْنُ اليقـينِ بَعْـدَ عِلْـمِ اليَقـينِ؛ فهـيَ أوَّلُ مَـنْ آمَـنَ بـهِ مطلَقًـا، أو مِـن النِّسَـاءِ.

قوله (**فهذا يدلُّ على أنَّها مُسْتثبِتةٌ**): -اسْمُ فاعلٍ مِن بابِ الاستفعالِ مِنَ الثَّباتِ- أيْ طالبةٌ لِلوثوقِ، وفي نسخةٍ بدونِ «على».

قوله (**مَعْمَرٍ**): -بفتحِ الميمَيْنِ بيْنَهما عينٌ مهْمَلةٌ ساكنةٌ- هوَ ابنُ راشدٍ. وقوله (**في فَتْرةِ الوَحْيِ**): -بفتحِ الفاءِ- أي انقطاعِه عَنْه سَنتَينِ ونصْفَ -كَذا ذَكَره الدلجيُّ.

قوله (**فَحَزِنَ النَّبيُّ**): -بكسْرِ الزايِ- أيْ صارَ ذا حُزْنٍ بسَبَبِ فُتورِ الوَحْيِ. قوله (**كَيْ يَتَرَدَّى**): أيْ يَقصِدَ السُّقوطَ، ويُرْوَى «كادَ يَتَرَدَّى». وقوله (**شواهِقِ الجِبالِ**): أيْ أعاليها.

قوله (**ولا أنَّ النبيَّ ﷺ قالَه**): فيكونُ مرْفوعًا، أو قالَه صَحابيٌّ فيكونُ موْقوفًا.

قوله (**إلَّا مِن جِهَةِ النبيِّ... إلخ**): ولعَلَّهُ ﷺ حَدَّثَ عائشةَ بخَبَرِ فتْرةِ الوحْيِ، وقال فيه: (فحَزِنْتُ... إلخ)، بلفظِ المتكلِّمِ، فرَوَتْه عنه بلفظِ الغَيْبةِ.

قوله (**لِما أحْرَجَه**): -بالحاءِ المهْمَلةِ- أيْ مِنْ أجْلِ ما ضَيَّقَ عليْه البالَ.

قوله (**عَقِيلٍ**): -بفتحٍ فكسْرٍ- هُوَ ابنُ أَبِي طالبٍ.

قوله (**بِدارِ النَّدْوةِ**): -بفتحِ النونِ وسُكونِ الدالِ المهْمَلةِ- وهُوَ مَكانُ اجتماعِهِم حيث يَتشاوَرُونَ في مَهامِّهِم، وهِيَ دارٌ بَناها قُصَيُّ بنُ كَعْبٍ، وجَعَلَ بابَها إلى الكعبةِ لِيَجتمِعَ فيها العَرَبُ لِلمُشاوَرَةِ ولِلخِتانِ ولِلنِّكاحِ.

قوله (**وتَزَمَّلَ في ثِيابِه**): أيْ تَلَفَّفَ. وقوله (**وتَدَثَّرَ فيها**): أيْ تَغَطَّى بها.

قوله (**ولَمْ يَرِدْ شَرْعٌ بالنَّهْيِ عَنْ ذلك**): أيْ عَنِ التَّرَدِّي مِنَ الجَبَلِ لِأنَّه كانَ أوَّلَ الإسْلامِ، وفي نسْخةٍ «ولَمْ يَرِدْ بَعْدُ نَهْيٌ عَنْ ذلك».

فهذا يَدُلُّ على أنَّها مُسْتَثْبِتَةٌ بما فَعَلَتْه لِنَفْسِها، ومُسْتَظْهِرَةٌ لإيمانِها، لا لِلنَّبيِّ ﷺ.

وقَوْلُ مَعْمَرٍ في فَتْرَةِ الوَحْيِ: «فحَزِنَ النبيُّ ﷺ -فيما بَلَغَنا- حُزْنًا، غَدا مِنْه مِرارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ شَواهِقِ الجِبالِ»[1] لا يَقْدَحُ في هذا الأصْلِ؛ لِقَوْلِ مَعْمَرٍ عَنْه: «فيما بَلَغَنا»، ولَمْ يُسْنِدْهُ، ولا ذَكَرَ راوِيَه، ولا مَنْ حَدَّثَ بِه، ولا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَه، ولا يُعْرَفُ مِثْلُ ذلكَ إلا مِنْ جِهَةِ النَّبيِّ ﷺ؛ مَعَ أنَّه يُحْمَلُ على أنَّه كانَ أوَّلَ الأمْرِ كما ذَكَرْناه، وأنَّه فَعَلَ ذلك لِما أحْرَجَهُ مِنْ تَكْذيبِ مَنْ بَلَّغَهُ، كَما قالَ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

ويُصَحِّحُ مَعْنَى هذا التَّأويلِ حَديثٌ رَواهُ شَريكٌ عَنْ عبدِ اللهِ بْنِ محمَّدِ بْنِ عَقيلٍ، عَنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ أنَّ المُشْرِكينَ لَمَّا اجْتَمَعُوا بدارِ النَّدْوَةِ؛ لِلتَّشاوُرِ في شَأْنِ النَّبيِّ ﷺ، واتَّفَقَ رَأْيُهُمْ على أنْ يَقُولُوا: إنَّهُ ساحِرٌ، اشْتَدَّ ذلكَ عَلَيْهِ، وتَزَمَّلَ في ثِيابِهِ وتَدَثَّرَ فيها، فأتاهُ جِبْريلُ، فقالَ: يا أيُّها المُزَّمِّلُ، يا أيُّها المُدَّثِّرُ[2].

أوْ خافَ أنَّ الفَتْرَةَ لِأمْرٍ أوْ سَبَبٍ مِنْه؛ فخَشِيَ أنْ تَكُونَ عُقُوبَةً مِنْ رَبِّه، ففَعَلَ ذلكَ بنَفْسِهِ، ولَمْ يَرِدْ شَرْعٌ بالنَّهْيِ عَنْ ذلكَ، فيُعْتَرَضَ بِه.

---

(١) حديث مَعْمَرٍ في فترة الوحي: أحمد [٢٥٩٥٩]، والبيهقيُّ [٢/ ١٣٥].

(٢) حديث شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر (أنَّ المشركين لما اجتمعوا بدار الندوة ...): البزّار [٢٢٧٦]، وأخرج الطبرانيُّ [٢٠٩٦] نحوه عن ابن عبّاسٍ.

وَنَحْوُ هَذَا فِرَارُ يُونُسَ ﷺ خَشْيَةَ تكذيبِ قَوْمِهِ لَهُ؛ لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ العَذَابِ، وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى فِي يُونُسَ: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] مَعْنَاهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ.

قَالَ مَكِّيٌّ: طَمِعَ فِي رَحْمَةِ اللهِ، وأَنْ لا يُضَيِّقَ عَلَيْه مَسْلَكَه فِي خُرُوجِهِ، وقِيلَ: حَسَّنَ ظَنَّهُ بمَوْلاهُ، وأَنْ لا يَقْضِيَ عَلَيْهِ بالعُقُوبَةِ.

وقِيلَ: نُقْدِرُ عَلَيْه مَا أَصَابَهُ، وقَدْ قُرِئَ ﴿نُقَدِّرَ عَلَيْه﴾ بالتَّشْدِيدِ، وقِيلَ: نُؤَاخِذُه بغَضَبِه وذَهَابِه.

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ: أَفَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ؟ عَلى الاسْتِفْهَامِ، ولا يَلِيقُ أَنْ يُظَنَّ بنَبِيٍّ أَنْ يَجْهَلَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ رَبِّهِ.

وَكَذلِكَ قَوْلُه: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾، الصَّحِيحُ: مُغَاضِبًا لِقَوْمِه؛ لِكُفْرِهِمْ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ والضَّحَّاكِ وغَيْرِهما، لا لِرَبِّه؛ إِذْ مُغَاضَبَةُ اللهِ مُعَادَاةٌ لَهُ، ومُعَادَاةُ اللهِ تَعَالى كُفْرٌ لا تَلِيقُ بالمُؤْمِنِينَ؛ فَكَيْفَ بالأَنْبِيَاءِ؟!

(**وَنَحْوُ هَذا فِرارُ يُونُسَ**): حيثُ ذَهَبَ مغاضِبًا لِقَوْمِه، متبرِّمًا مِنْ تكذيبِهِم، و«يونسُ» فيه ستُّ لُغاتٍ: ضمُّ النونِ وفتحُها وكسْرُها؛ مَعَ تَرْكِ الهَمْزِ وبِه.

قوله (**لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ العذابِ**): ورَجَاءَ أنْ يؤمِنُوا به بَعْدُ؛ فقَدْ رُوِيَ أنَّهُمْ لَمَّا فَقَدُوهُ خافُوا نُزولَه عليْهِمْ، فاسْتغاثوا برَبِّهِمْ، وقالُوا: يا حيُّ حينَ لا حَيَّ، ويا حيُّ مُحْيِيَ المَوْتَى، ويا حَيُّ لا إلَهَ إلَّا أنْتَ[1]، إلى غيرِ ذلك.

قوله (**مَعْنَاهُ أنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْه**): كَمَا قالَ تعالى ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ويَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦]، وليسَ المُرادُ أنَّه -سُبْحانَه وتَعالى- غيرُ قادِرٍ عَلَيْهِ، لِأَنَّ هَذا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ كافرٍ فَضْلًا عَنْ مُؤْمِنٍ لا سِيَّما الأنبياءُ والرُّسُلُ.

قوله (**وقيلَ: حَسَّنَ ظَنَّه بِمَوْلاهُ**): لِمَا وَرَدَ في الحديثِ القدسيِّ: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)[2]، قالَ المُلا: لكنَّه غَفَلَ أنَّ حَسَناتِ الأبرارِ سَيِّئاتِ المقرَّبينَ.

قوله (**وقيلَ: نُقْدِرُ عليْه ما أَصابَه**): أيْ مِنَ الابتلاءِ ببَطْنِ الحُوتِ، و(نُقْدِرُ): بضمِّ أوَّلِهِ وسُكونِ ثانيه وكسْرِ الدَّالِ، مخفَّفُ «قَدَّرَ»، كذا ضَبَطَه الدّلجيُّ، وهُوَ غيرُ صحيحٍ -كَمَا قالَ المُلا، وصَوَّبَ المُلا أنَّه تخفيفُ «أَقْدَرَ» بمَعْنَى «قَدَّرَ» مشدَّدًا، وقَدْ ضَبَطَه الحِجازيُّ بضمِّ النونِ وفتحِ القافِ وتشديدِ الدَّالِ المكسُورةِ. وقوله (**قَدْ قُرِئَ «نُقَدِّرَ» بالتشديدِ**): أيْ بتشديدِ الدَّالِ المكسُورةِ، وقُرِئَ أيْضًا (نُقَدَّرَ) مبنيًّا لِلفاعِلِ وللمفعُولِ، مخَفَّفًا ومثَقَّلًا.

قوله (**وقالَ ابنُ زيدٍ**): وفي نسخةٍ «أَبُو زيدٍ»، وفي أخرى «أَبُو يَزِيدَ»، وصَوَّبَ المُلا الأُولى[3]. قوله (**على الاسْتفهامِ**): أي الداخلِ على صَدْرِ الكَلَامِ، وحُذِفَ تخفيفًا لِدَلالةِ المَقامِ، والمعنَى: «إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا أفَظَنَّ».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٠٦٠٢)، والطبري في التفسير (١٢/ ٢٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٥٨) من كلام أبي الجلد جيلان بن أبي فروة الأسدي، تُوفِّي في حدود سنة (٧٠) وكان ممن يقرأ كتب الأوائل.

(٢) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (رقم ٧٤٠٥) [كتاب التوحيد]، ومسلمٌ (رقم ٢٦٧٥) [كتاب التوبة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقِيلَ: مُسْتَحْيِيًا مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَسِمُوهُ بالكَذِبِ، أَوْ يَقْتُلُوهُ كَمَا وَرَدَ فِي الخَبَرِ. وقِيلَ: مُغَاضِبًا لِبَعْضِ المُلُوكِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى أَمْرٍ أَمَرَهُ اللهُ تعالى بهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ آخَرَ، فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: غَيْرِي أَقْوَى عَلَيْهِ مِنِّي، فَعَزَمَ عَلَيْهِ، فخَرَجَ لِذلِكَ مُغَاضِبًا.

وقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْ إِرْسَالَ يُونُسَ ﷺ ونُبُوَّتَهُ إِنَّمَا كانَ بَعْدَ أَنْ نَبَذَهُ الحُوتُ، واسْتَدَلَّ مِنَ الآيَةِ بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فنَبَذْنَاهُ بالعَرَاءِ وهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]، ويُسْتَدَلُّ أيْضًا بقَوْلِهِ: ﴿ولا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وذَكَرَ القِصَّةَ، ثُمَّ قالَ: ﴿فاجْتَبَاهُ رَبُّه فجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]، فتكُونُ هَذِه القِصَّةُ إذًا قَبْلَ نُبُوَّتِهِ.

فإنْ قِيلَ: فمَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: (إنَّه لَيُغَانُ على قَلْبِي؛ فأَسْتَغْفِرُ اللهَ كُلَّ يَوْمٍ مائةَ مَرَّةٍ)، وفي طَرِيقٍ: (فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[1]؟

فاحْذَرْ أَنْ يَقَعَ ببالِكَ أَنْ يَكُونَ هَذا الغَيْنُ وَسْوَسَةً أوْ رَيْبًا وَقَعَ في قَلْبِهِ ﷺ؛ بَلْ أَصْلُ الغَيْنِ في هَذا مَا يَتَغَشَّى القَلْبَ ويُغَطِّيهِ، قالَهُ أَبُو عُبَيْدٍ، وأَصْلُهُ مِنْ غَيْنِ السَّمَاءِ وَهُوَ إِطْبَاقُ الغَيْمِ عَلَيْهَا.

وقالَ غَيْرُهُ: والغَيْنُ شَيْءٌ يُغَشِّي القَلْبَ ولا يُغَطِّيهِ كُلَّ التَّغْطِيَةِ، كالغَيْمِ الرَّقِيقِ الَّذي يَعْرِضُ في الهَوَاءِ، فلَا يَمْنَعُ ضَوْءَ الشَّمْسِ.

وكَذَلِكَ لا يُفْهَمُ مِنَ الحديثِ أَنَّه يُغَانُ على قَلْبِهِ مائةَ مَرَّةٍ أوْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ في اليَوْمِ؛ إذْ لَيْسَ يَقْتَضِيهِ لَفْظُهُ الَّذي ذَكَرْنَاهُ، وهُوَ أَكْثَرُ الرِّوايَاتِ، وإنَّمَا هَذا عَدَدُ الاسْتِغْفَارِ لا الغَيْنِ؛ فيَكُونُ المُرَادُ بهَذَا الغَيْنِ إشارَةً إلى غَفَلَاتِ قَلْبِهِ، وفَتْرَةِ نَفْسِهِ، وسَهْوِها عَنْ مُدَاوَمَةِ الذِّكْرِ ومُشَاهَدَةِ الحَقِّ بِمَا كَانَ ﷺ دُفِعَ إلَيْهِ مِنْ مُقَاسَاةِ البَشَرِ، وسِيَاسَةِ الأُمَّةِ، ومُعَانَاةِ الأَهْلِ، ومُقَاوَمَةِ الوَلِيِّ والعَدُوِّ، ومَصْلَحَةِ النَّفْسِ، وكُلِّفَهُ مِنْ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ، وحَمْلِ الأَمَانَةِ، وهُوَ في هَذا كُلِّهِ في طاعةِ رَبِّهِ، وعِبَادَةِ خَالِقِهِ.

---

(١) حديث (إنه ليغان على قلبي ...): مسلمٌ [٢٧٠٢] عن الأعز المزنيِّ. رواية (في اليوم أكثر من سبعين مرة): البخاري [٦٣٠٧] عن أبي هريرة.

قوله (ونُبُوَّتَه): -بتقديمِ النونِ على الموحَّدةِ- عَطفٌ على (إرسالَ). قوله (كانَ بَعْدَ... إلخ): اسْمُ (كانَ) محذوفٌ عائدٌ على الإرسَالِ.

قوله (أوْ رَيْبًا): أيْ شَكًّا، وهوَ مَعْطوفٌ على الوسوسةِ.

قوله (وقالَ غَيْرُهُ): أيْ قالَ غيرُ أبو عُبَيْدٍ.

قوله (يُغَشِّي القَلْبَ): -بتشديدِ الشينِ وتخفيفِها- أيْ يَسْتُرُه.

قوله (لا يُفْهَمُ): بصيغةِ المجهُولِ لِيَكُونَ أَعَمَّ.

قوله (مِنْ مُقاسَاةِ البَشَرِ): أيْ مِنْ مكابَدَةِ لَوَازِمِ البَشَرِيَّةِ مِنَ الأكلِ والشُّربِ وسَائرِ المقتضَيَاتِ الطَّبيعيَّةِ.

قوله (كُلِّفَه): -بصيغةِ المجهُولِ- أيْ وبِمَا كَلَّفَه اللهُ حَمْلَه مِنْ أعبَاءِ... إلخ.

قوله (وعِبَادةِ خالِقِه): أيْ فلا يكونُ الاستغفارُ على الحقيقةِ مِنَ التوبةِ عَنِ المَعْصِيَةِ، وإنَّمَا هوَ حالَةٌ أدْنَى إلى حَالَةٍ أَعْلَى.

ولَكِنْ لَمَّا كانَ ﷺ أَرْفَعَ الخَلْقِ عِنْدَ الله تعالى مَكانَةً، وأَعْلاهُم دَرَجَةً، وأَتَمَّهُمْ بِهِ مَعْرِفَةً، وكانَتْ حَالُه عِنْدَ خُلُوصِ قَلْبِهِ، وخُلُوِّ هَمِّهِ، وتَفَرُّدِهِ بربِّه، وإِقْبالِه بكُلِّيَّتِهِ عَلَيْه، ومَقامه هُنالِكَ أَرْفَعَ حالَيْهِ، رأى ﷺ حَالَ فَتْرَتِهِ عَنْها، وشُغْلِهِ بِسِواهَا غَضًّا مِنْ عَلِيِّ حَالِهِ، وخَفْضًا مِنْ رَفِيعِ مَقامِهِ؛ فاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْ ذلِكَ. هَذا أَوْلَى وُجُوهِ الحَدِيثِ وأَشْهَرُهَا.

وإلى مَعْنَى ما أَشَرْنا إِلَيْهِ مَالَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وحَامَ حَوْلَه، فقَارَبَ ولَمْ يَرِدْ، وقَدْ قَرَّبْنا غامِضَ مَعْنَاه، وكَشَفْنا لِلمُسْتَفِيدِ مُحَيَّاهُ، وهُوَ مَبْنِيٌّ على جَوَازِ الفَتَراتِ والغَفَلاتِ والسَّهْوِ في غَيْرِ طريقِ البَلاغِ على ما سَيَأْتِي.

وذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَرْبابِ القُلُوبِ ومَشْيَخَةِ المُتَصَوِّفَةِ مِمَّنْ قالَ بتَنْزِيهِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ هَذا جُمْلَةً، -وأَجَلُّه أَنْ يَجُوزَ عَلَيْه في حَالٍ سَهْوٌ أَوْ فَتْرَةٌ- إِلَى أَنَّ مَعْنَى الحديثِ ما يُهِمُّ خاطِرَهُ ويَغُمُّ فِكْرَهُ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِهِ ﷺ؛ لاهْتِمامِهِ بِهِمْ وكَثْرَةِ شَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، فيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ.

قالُوا: وقَدْ يَكُونُ الغَيْنُ هُنا على قَلْبِهِ السَّكِينَةَ الَّتِي تَتَغَشَّاهُ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]، ويَكُونُ اسْتِغْفارُهُ ﷺ عِنْدَهَا إِظْهَارًا لِلعُبُودِيَّةِ والافْتِقارِ.

وقَالَ ابْنُ عَطاءٍ: اسْتِغْفارُهُ وفِعْلُهُ هَذا تَعْرِيفٌ لِلأُمَّةِ، يَحْمِلُهُمْ على الاسْتِغْفارِ. قالَ غَيْرُهُ: ويَسْتَشْعِرُونَ الحَذَرَ، ولا يَرْكَنُونَ إلى الأَمْنِ.

قوله (ولَكِنْ): أي الاستغفارُ مَعَ هذا له سَبَبٌ، وهُوَ أنَّه (لَمَّا كانَ... إلخ).

قوله (رَأَى ﷺ): هُوَ جَوابُ (لَمَّا). قوله (غَضًّا): -بتشديدِ المعجمةِ الثانيةِ- أيْ نَقْصًا وانْحطاطًا.

قوله (وأَشْهَرُها): أي وأَظْهَرُها فِيما قَرَّرْناه، وفي نسخةٍ «وأَشْهَدُها»، أيْ وأَبْيَنُها وأَدَلُّها فيما ذَكَرْناهُ.

قوله (إلى مَعْنَى ما أَشَرْنا إليه): كَما في نسخةٍ، وفي نسخةٍ: «وإلى ما أَشَرْنا به فيه مِنْ تأويلِ الحديثِ».

قوله (وحَامَ حَوْلَه): أيْ دَارَ في جوانبِه. قوله (ولَمْ يَرِدْ): أي أَحَدٌ حُكمَه، وقيلَ: لَمْ يَصِلْه؛ على أنَّه مِنْ «وَرَدَ».

قوله (وكَشَفْنا لِلمُسْتَفِيدِ مُحَيَّاه): -بضمِّ الميمِ وتشديدِ الياءِ- أيْ نِقابَ وَجْهِه، وحِجابَ أَمْرِه، وفي نسخةٍ «مُخَبَّاه» -بخاءٍ معجمةٍ وتشديدِ موحَّدةٍ- أي مَخْفِيَّه، وأَصْلُه الهمزُ كَما في قولِه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ [النمل: ٢٥]، فكأنَّه أَبْدَلَ لِلتخفيفِ مُراعاةً لِلسجعِ.

قوله (الفَتَراتِ): أي التكاسُلِ في الطّاعاتِ، والتغافلِ عَنِ العِباداتِ. قوله (في غَيْرِ طريقِ البَلاغِ): أيْ تبليغِ الآياتِ وما يَتَعَلَّقُ بأمورِ الرِّسالاتِ.

قوله (ومَشْيَخَةِ المتصوِّفةِ): -بفتحِ الميمِ وكسْرِ الشينِ المعْجَمةِ وسُكونِها- أيْ مَشايِخِهِمْ في الطَّريقِ.

قوله (ويَغُمُّ فِكْرَهُ): بفتحِ الياءِ وضمِّ الغينِ المعجمةِ لا بكَسْرِها كَما ذَكَرَهُ الحلبيُّ، وفي نسْخةٍ «يُغِمُّ» -بضمِّ أوَّلِه- أيْ وقَدْ يَشْغَلُ خاطِرَه.

قوله (تَتَغَشّاهُ): أيْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْه مما يَخْشَعُ له قلبُه، وفي نسْخةٍ «تَغْشاهُ».

قوله (ويَسْتَشْعِرونَ الحَذَرَ): وفي نسْخةٍ «الحَظْرَ»، أي المَنْعَ لها عَنِ المَعْصيةِ.

وقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِه الإغَانَةُ حَالَةَ خَشْيَةٍ وإِعْظَامٍ تَغَشَّى قَلْبَهُ، فيَسْتَغْفِرُ حِينَئِذٍ شُكْرًا لله تعالى، ومُلَازَمَةً لِعُبُودِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ في مُلَازَمَةِ العِبَادَةِ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[1].

وعَلَى هَذه الوُجُوهِ الأَخِيرَةِ يُحْمَلُ مَا رُوِيَ في بَعْضِ طُرُقِ هَذا الحديثِ عَنْهُ ﷺ: (إِنَّه لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً، فأَسْتَغْفِرُ الله).

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقَوْلِه تعالى لِنُوحٍ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]؟

فاعْلَمْ أَنَّه لا يُلْتَفَتُ في ذلِكَ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ في آيَةِ نَبِيِّنَا ﷺ: لا تَكُونَنَّ مِمَّنْ يَجْهَلُ أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ على الهُدَى، وفي آيَةِ نُوحٍ: لا تَكُونَنَّ مِمَّنْ يَجْهَلُ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]؛ إِذْ فِيهِ إِثْبَاتٌ لِلْجَهْلِ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الله تعالى، وذَلِكَ لا يَجُوزُ على الأنبِيَاءِ، والمَقْصُودُ وَعْظُهُمْ أَنْ لا يَتَشَبَّهُوا في أُمُورِهِمْ بِسِمَاتِ الجَاهِلِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾، ولَيْسَ في آيَةٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِمْ على تلكَ الصِّفَةِ الَّتِي نَهَاهُمْ عَنِ الكَوْنِ عَلَيْهَا، فكَيْفَ وآيَةُ نُوحٍ قَبْلَهَا: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؟!

فحَمْلُ مَا بَعْدَهَا على مَا قَبْلَهَا أَوْلَى؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا قَدْ يَحْتَاجُ إلى إِذْنٍ، وقَدْ تَجُوزُ إِبَاحَةُ السُّؤَالِ فيه ابْتِدَاءً، فنَهَاهُ اللهُ أَنْ يَسْأَلَه عَمَّا طَوَى عَنْه عِلْمَه، وأَكَنَّه مِنْ غَيْبِهِ مِنَ السَّبَبِ المُوجِبِ لِهَلَاكِ أُمَّتِهِ، ثُمَّ أَكْمَلَ اللهُ تعالى نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ بإِعْلَامِه ذلِكَ، بقَوْلِه: ﴿إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، حَكَى مَعْنَاهُ مَكِّيٌّ.

قوله (أنْ لا يَتَشَبَّهُوا في أُمُورِهِم): وَفي نسْخةٍ «أنْ لا يَتَّسِمُوا» -بتشديدِ التَّاءِ- أي لا يَتَّصِفُوا. وقوله (بِسِمَاتِ): بكسْرِ السِّينِ.

قوله (وأَكَنَّه مِنْ غَيْبِه): أيْ سَتَرَه عَنْ إدْراكِه بالبَصَرِ والبَصِيرةِ، وهُوَ بتشديدِ النونِ.

قوله (لِهَلَاكِ أُمَّتِه): وَفي نسْخةٍ «لإِهْلاكِ أُمَّتِه».

(١) الشيخانِ [البخاريُّ (٤٨٣٦)، ومسلمٌ (٦٤٧١، ٢٨١٩) من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا].

كذلكَ أُمِرَ نبيُّنا في الآيةِ الأُخرى بالتزامِ الصَّبْرِ على إعْراضِ قَوْمِهِ، ولا يَحْرَجُ عِنْدَ ذلكَ؛ فيُقارِبَ حالَ الجاهِلِ بشِدَّةِ التَّحَسُّرِ، حَكاهُ أبو بكرِ بنُ فُورَكَ.

وقيلَ: مَعْناهُ الخِطابُ لأُمَّةِ محمَّدٍ، أيْ فلا تكونُوا مِنَ الجاهِلِينَ، حَكاهُ أبو محمَّدٍ مَكِّيٌّ، وقالَ مِثلَه في القرآنِ كَثيرٌ.

فبِهذا الفَضْلِ وَجَبَ القَوْلُ بعِصْمَةِ الأنبياءِ -عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِنْه بَعْدَ النُّبُوَّةِ قَطْعًا.

فإنْ قُلْتَ: فإذا قَرَّرْتَ عِصْمَتَهُمْ مِنْ هذا، وأنَّهُ لا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذلكَ، فَما مَعْنَى إذًا وَعِيدِ اللهِ لِنَبِيِّنا ﷺ على ذلكَ إنْ فَعَلَه، وتَحْذيرِهِ مِنْه، كقَوْلِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ...﴾ الآيةَ [الزمر: ٦٥]، وقَوْلِهِ: ﴿ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ...﴾ الآيةَ [يونس: ١٠٦]، وقَوْلِهِ: ﴿إذًا لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الحَياةِ وضِعْفَ المَماتِ ...﴾ الآيةَ [الإسراء: ٧٥]، وقَوْلِهِ: ﴿لَأَخَذْنا مِنْهُ باليَمِينِ﴾ الآيةَ [الحاقة: ٤٥]، وقَوْلِهِ: ﴿وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقَوْلِه: ﴿فإنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقَوْلِهِ: ﴿وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَه﴾ [المائدة: ٦٧]، وقَوْلِه: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ﴾ [الأحزاب: ١]؟

فاعْلَمْ -وَفَّقَنا اللهُ وإيَّاكَ- أنَّه ﷺ لا يَصِحُّ ولا يَجُوزُ عَلَيْهِ أنْ لا يُبَلِّغَ، ولا أنْ يُخالِفَ أَمْرَ رَبِّهِ، ولا أنْ يُشْرِكَ، ولا يَتَقَوَّلَ على اللهِ ما لا يَجِبُ، أوْ يَفْتَرِيَ عَلَيْهِ، أوْ يُضَلَّ، أوْ يُخْتَمَ على قَلْبِهِ، أوْ يُطِيعَ الكافِرينَ؛ لَكِنَّ اللهَ تعالى أَمَرَهُ بالمُكاشَفَةِ والبَيانِ في البَلاغِ لِلمُخالِفينَ، وأنَّ إبْلاغَهُ إنْ لَمْ يَكُنْ بِهذه السَّبيلِ فكأنَّه ما بَلَّغَ، ..

قولُه (في الآيةِ الأُخرى بالتِزامِ الصَّبْرِ): هيَ قولُه تعالى: ﴿ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا...﴾ إلخ [الأنعام: ٣٤].

قولُه (ولا يَحْرَجُ): -بالحاءِ المُهمَلةِ وفتحِ الراءِ- أيْ لا يَضيقُ صَدْرُهُ.

قوله (فورَكَ): بضمِّ الفاءِ وفتحِ الراءِ.

قولُه (وَجَبَ القَوْلُ): وفي نسخةٍ «فهذا الفضلُ أَوْجَبَ القَولَ»، وفي أُخرى «يُوجِبُ القولَ».

قولُه (فَما مَعْنَى إذًا وَعِيدِ اللهِ): وفي نسخةٍ بدونِ (إذًا).

قولُه (وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ): أيْ إنْ لَمْ تَفْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ مِنْ تبليغِ جميعِ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ فَما بَلَّغْتَ... إلخ.

قولُه (يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ): أيْ دُمْ على تَقْواه، وفي نسخةٍ بدونِ (يا أيُّها النَّبيُّ).

قولُه (أوْ يُضَلَّ): بصيغةِ المجهولِ، وفي نسخةٍ بفتحِ الياءِ وكسرِ الضَّادِ.

قولُه (أوْ يُخْتَمَ على قَلْبِه): بالبناءِ لِلمفعُولِ.

وَطَيَّبَ نَفْسَهُ، وقَوَّى قَلْبَه بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، كَما قالَ -عَزَّ وجَلَّ- لِمُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام: ﴿لا تَخَافَا﴾ [طه: ٤٦]؛ لِتَشْتَدَّ بَصَائِرُهُمْ في الإبْلَاغِ وإظْهَارِ دِينِ الله، ويَذْهَبَ عَنْهُمْ خَوْفُ العَدُوِّ المُضْعِفُ لِليَقِينِ.

وأَمَّا قَوْلُه: ﴿ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأقاويلِ...﴾ الآيةَ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿إذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، فمَعْنَاهُ أَنَّ هَذا جَزَاءُ مَنْ فَعَلَ هَذا، وجَزَاؤُكَ لَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ، وهُوَ لا يَفْعَلُه.

وكَذلكَ قَوْلُه: ﴿وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فالمُرَادُ غَيْرُهُ، كَما قالَ: ﴿إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٤٩]، وقَوْلُه: ﴿فإنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقَوْلُهُ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ومَا أَشْبَهَهُ، فالمُرَادُ غَيْرُهُ، وأَنَّ هذا حَالُ مَنْ أَشْرَكَ، والنَّبِيُّ ﷺ لا يَجُوزُ عَلَيْه هَذا.

وقَوْلُه: ﴿اتَّقِ اللهَ ولا تُطِعِ الكافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فلَيْسَ فيهِ أَنَّه أَطَاعَهُمْ، واللهُ يَنْهَاهُ عَمَّا يَشَاءُ، وَيَأْمُرُهُ بِمَا يَشَاءُ، كَما قالَ: ﴿ولا تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهم...﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٢]، ومَا كَانَ طَرَدَهُمْ، ولا كانَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

***

قوله (وَيَذْهَبَ عَنْهم): -بفتحِ الياءِ- أيْ يَزُولَ، وفي نسْخةٍ بضمِّ الياءِ، أيْ يُزِيلَ.

قوله (المُضْعِفُ): -بتخفيفِ العينِ وتشديدِها- أي المُوهِنُ.

قوله (فلَيْسَ فيه أنَّه أطاعَهم): إذْ لا يَلْزَمُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الإطاعةِ مخالَفةُ الطاعةِ.

***

فَصْلٌ [في عِصْمَةِ الأنبياءِ قَبْلَ النُّبُوةِ]

وأَمَّا عِصْمَتُهُمْ مِنْ هَذَا الفَنِّ قَبْلَ النُّبُوَّةِ فَلِلنَّاسِ فيهِ خِلَافٌ، والصَّوَابُ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مِنَ الجَهْلِ باللهِ تعالى أَوْ صِفَاتِهِ أَوِ التَّشْكِيكِ في شَيْءٍ مِنْ ذلكَ.

وقَدْ تَعَاضَدَتِ الأَخْبَارُ والآثَارُ عَنِ الأنبياءِ بتَنْزِيهِهِم عَنْ هَذِهِ النَّقِيصَةِ مُنْذُ وُلِدُوا، ونَشْأَتِهِمْ على التَّوْحِيدِ والإيمانِ، بَلْ على إشراقِ نُورِ المَعَارِفِ ونَفَحَاتِ أَلْطَافِ السَّعَادةِ، كَمَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ في البابِ الثَّاني مِنَ القِسْمِ الأَوَّلِ مِنْ كِتابِنَا هَذَا، ولَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَخْبَارِ أَنَّ أَحَدًا نُبِّئَ واصْطُفِيَ مِمَّنْ عُرِفَ بِكُفْرٍ وإشراكٍ قَبْلَ ذلكَ، ومُسْتَنَدُ هَذا البابِ النَّقْلُ.

وقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بأَنَّ القُلُوبَ تَنْفِرُ عَنْ مَنْ كانَتْ هَذِه سَبِيلَه.

وأَنَا أَقُولُ: إنَّ قُرَيْشًا قَدْ رَمَتْ نَبِيَّنَا ﷺ بكُلِّ مَا افْتَرَتْهُ، وعَيَّرَ كُفَّارُ الأُمَمِ أَنْبِياءَهَا بكُلِّ مَا أَمْكَنَهَا واخْتَلَقَتْه، بِمَا نَصَّ اللهُ عَلَيْهِ، أَوْ نَقَلَتْهُ إِلَيْنَا الرُّوَاةُ، ولَمْ نَجِدْ في شَيْءٍ مِنْ ذلكَ تَعْبِيرًا لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ برَفْضِهِ آلِهَتَهُ، وتَقْرِيعِه بذَمِّهِ بتَرْكِ مَا كانَ قَدْ جامَعَهُمْ عَلَيْهِ.

ولَوْ كانَ هَذا لَكانُوا بذَلِكَ مُبَادِرِينَ، وبتَلَوُّنِهِ في مَعْبُودِهِ مُحْتَجِّينَ، ولَكَانَ تَوْبِيخُهُمْ لَهُ بنَهْيِهِمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ قَبْلُ أَفْظَعَ وأَقْطَعَ في الحُجَّةِ مِنْ تَوْبِيخِهِ بنَهْيِهِمْ عَنْ تَرْكِهِمْ آلِهَتَهُمْ، وما كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ؛ فَفِي إِطْبَاقِهِمْ على الإعْراضِ عَنْه دَلِيلٌ على أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا سَبِيلًا إِلَيْهِ؛ إذْ لَوْ كانَ لَنُقِلَ، ولَمَا سَكَتُوا عَنْه

(وأَمَّا عِصْمَتُهُم مِن هذا الفَنِّ... إلخ): أيْ مِنْ نَوعِ المَعْصِيَةِ مَعَ الإجماعِ على عِصْمَتِهم مِنَ الكُفْرِ.

قوله (مِنَ الجَهْلِ باللهِ وصِفاتِه): أي الثُّبُوتيَّةِ والسَّلبيَّةِ والفِعْليَّةِ والإضافيَّةِ.

قوله (تَعَاضَدَتِ الأخبارُ): أيْ تعاوَنَتْ وتواتَرَتِ الأخبارُ.

قوله (هذه النقيصَةِ): أيْ مَنْقَصَةِ الجَهْلِ في مَرتبةِ المعْرفةِ.

قوله (ولَمْ يَنقُلْ أَحَدٌ... إلخ): أيْ لا مِنَ الكُفّارِ ولا مِنَ الأَبرارِ.

قوله (أنَّ أَحَدًا نُبِّئَ): ويُرْوَى «تنبأ»، أيْ جُعِلَ نَبيًّا في مَقامِ الاستئناسِ. قوله (قَبْلَ ذلك): أيْ قبْلَ إظهارِ الرِّسَالةِ والنُّبوّةِ.

قوله (عَنْ مَنْ كانَتْ هَذه سَبِيلَه): وفي نسْخةٍ «عَنْ كُلِّ مَنْ... إلخ».

قوله (قَدْ رَمَتْ نَبِيَّنَا): أيْ ذَمَّتْه بجميعِ ما قَدَرَتْ عليه مِنْ نِسْبَةِ مَا لا يَليقُ بجَنابِهِ الرَّفيعِ.

قوله (وعَيَّرَ): -بتشديدِ الياءِ- أيْ وعَابَ. قوله (واختَلَقَتْه): أي اختَرَعَتْه.

قوله (برَفْضِه آلِهَتَه): أيْ بتَرْكِه آلِهَتَه مِنَ الأَصْنَامِ بَعْدَ التِزامِ عِبادَتِها. وقولُهُ (وتَقْرِيعِه): أيْ تَوبيخِه.

قوله (وبتَلَوُّنِه في مَعبُودِه): أيْ تَغَيُّرِه في مَعْبُودٍ غيْرِه. قوله (أَفْظَعَ): -بالفَاءِ والظَّاءِ المُعجَمَةِ- أيْ أَشْنَعَ.

قوله (إذْ لَوْ كانَ لَنُقِلَ): أيْ إذْ لَوْ وَجَدُوا سَبِيلًا إِلَيْه لَنُقِلَ... إلخ.

كَمَا لَمْ يَسْكُتُوا عِنْدَ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ، وقالُوا: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، كَمَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ.

وقَدِ اسْتَدَلَّ القَاضِي القُشَيْرِيُّ على تَنْزِيهِهِمْ عَنْ هَذا بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقَوْلِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، قالَ: فطَهَّرَهُ اللهُ في المِيثَاقِ، وبَعِيدٌ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ المِيثَاقَ قَبْلَ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَأْخُذَ مِيثَاقَ النبِيِّينَ بالإيمانِ بِه ونَصْرِهِ قَبْلَ مَوْلِدِه بدُهُورٍ، ويُجَوِّزَ عَلَيْه الشِّرْكُ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الذُّنوبِ، هَذا مَا لا يُجَوِّزُهُ إِلَّا مُلْحِدٌ، هذا مَعْنَى كَلامِهِ.

وكَيْفَ يَكُونُ ذلكَ، وقَدْ أَتَاهُ جِبريلُ، وشَقَّ قَلْبَه صَغِيرًا، واسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، وقالَ: هَذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ، ومَلَأَهُ حِكْمَةً وإيمانًا[1]، كَمَا تَظَاهَرَتْ بِه أَخْبارُ المَبْدَإِ؟!

ولا يُشَبِّهُ عَلَيْكَ بِقَوْلِ إبْراهِيمَ في الكَوْكَبِ وَالقَمَرِ والشَّمْسِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ فإنَّه قَدْ قِيلَ: كانَ هذا في سِنِّ الطُّفُولِيَّةِ وابْتِدَاءِ النَّظَرِ والاستِدْلالِ، وقَبْلَ لُزُومِ التَّكْلِيفِ.

وذَهَبَتْ مُعْظَمُ الحُذَّاقِ مِنَ العُلَماءِ والمُفَسِّرِينَ إلى أنَّه إنَّما قالَ ذلك مُبَكِّتًا لِقَوْمِهِ، ومُسْتَدِلًّا عَلَيْهِم.

وقِيلَ: مَعْنَاهُ الاسْتِفْهَامُ الوارِدُ مَوْرِدَ الإنْكَارِ، والمُرَادُ: فهَذَا رَبِّي؟! قالَ الزَّجَّاجُ: قَوْلُه: ﴿هَذا رَبِّي﴾، أَيْ على قَوْلِكم، كَمَا قالَ: ﴿أَيْنَ شُرَكائِي﴾ [فصلت: ٤٧]، أَيْ عِنْدَكُمْ.

وَيَدُلُّ على أَنَّه لَمْ يَعْبُدْ شَيْئًا مِن ذلك، ولا أَشْرَكَ باللهِ قَطُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَوْلُ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- عَنْهُ: ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وقَوْمِه ما تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]، ثُمَّ قالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُم ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ

(١) حديث (أن جبريل أتاه وشق قلبه صغيرًا ...): مسلمٌ [١٦٢] عن أنسٍ.

قوله (لَمْ يَسْكُتُوا عِنْدَ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ): أي صَرْفِها عَنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إلى الكَعْبَةِ.

قوله (وإذْ أَخَذْنا مِنَ النبيِّينَ مِيثاقَهم): أيْ عَهْدَهم بِتَبْليغِ الرِّسالةِ والدُّعاءِ إلى التوحيدِ.

قوله (ويُجَوِّزُ): بسُكونِ الواوِ وفَتْحِها مُشَدَّدةً.

قوله (وشَقَّ قَلْبَه صَغِيرًا): أي صَدْرَهُ في حَالِ صِغَرِه وهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلمانِ، وفي نسْخةٍ «وشَقَّ صَدْرَه». قوله (وقالَ: هَذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ): أي صُورةٌ.

قوله (كَمَا تَظاهَرَتْ بِه أخبارُ المَبْدَإِ): أيْ تَواتَرَتْ أَحاديثُ بَدْءِ خِلْقَتِهِ وظُهُورِ آثارِ نُبُوَّتِه إلى مُنْتَهَى صِفَتِه في أَسْرارِ رِسَالتِه.

قوله (ولا يُشَبِّهُ عَلَيْكَ): -بتشديدِ المُوَحَّدةِ المفتوحةِ- أي لا يَلْتَبِسُ عَلَيْكَ.

قوله (وقَبْلَ لُزومِ التكليفِ): أي بالأُمورِ الشرعيَّةِ.

قوله (وذَهَبَتْ مُعْظَمُ الحُذَّاقِ): -جَمْعُ «حَاذِقٍ»؛ بالذَّالِ المعْجَمةِ- أي المُتْقِنِينَ. قوله (مُبَكِّتًا): -بتشديدِ الكافِ المكسُورةِ- أي حَالَ كَوْنِه مُوَبِّخًا.

قوله (ومُسْتَدِلًّا عليْهِمْ): أيْ بِبُطْلانِ دِينِهِمْ وما تُخُيِّلَ إليْهم مِنَ اعتقادِهم الفَاسِدِ.

قوله (طَرْفَةَ عَيْنٍ): أيْ لَمْحَةً.

* أَنْتُمْ وآباؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وقالَ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، أيْ مِنَ الشِّرْكِ، وقَوْلُه: ﴿وَاجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإنْ قُلْتَ: فَما مَعْنَى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]؟!

قِيلَ: أيْ إنْ لَمْ يُؤَيِّدْنِي بمَعُونَتِهِ أَكُنْ مِثْلَكُمْ في ضَلالِكُمْ وعِبادَتِكُمْ، على مَعْنَى الإشْفاقِ والحَذَرِ، وإلَّا فهُوَ مَعْصُومٌ في الأَزَلِ مِنَ الضَّلالِ.

فإنْ قُلْتَ: فَما مَعْنَى قَوْلِه: ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، ثُمَّ قالَ بَعْدُ عَنِ الرُّسُلِ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا على الله كَذِبًا إنْ عُدْنا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]؟

فَلا تُشْكِلُ عَلَيْكَ لَفْظَةُ العَوْدِ، وأَنَّها تَقْتَضِي أَنَّهُمْ إنَّما يَعُودُونَ إلى ما كانُوا فِيهِ مِنْ مِلَّتِهِمْ، فَقَدْ تَأْتِي هَذه اللَّفْظَةُ في كَلامِ العَرَبِ لِغَيْرِ ما لَيْسَ لَهُ ابْتِداءٌ، بمَعْنَى الصَّيْرُورَةِ، كَما جاءَ في حَدِيثِ الجَهَنَّمِيِّينَ: (عَادُوا حُمَمًا)[1]، ولَمْ يَكُونُوا قَبْلُ كذلكَ، ومِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: «فَعادَا بَعْدُ أَبْوَالَا»، وما كانَا قَبْلُ كذلكَ.

(١) حديث (الجهنميين عادوا حمماً ...): الشيخان [البخاريُّ (٦٥٦٠)، ومسلمٌ (١٨٤)] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ.

قوله (الأَقْدَمونَ): أي أَسْلافُكم المتقدِّمونَ.

قوله (واجنُبْني وبَنِيَّ): أيْ وبَعِّدْنِي أَنا وبَنِيَّ مِنْ صُلْبِي (أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ)، بلْ ثَبِّتْنَا على دِينِ الإسْلامِ.

قوله (لَنُخْرِجَنَّكم مِنْ أَرْضِنَا أوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا): أَقْسَمُوا لَيَكُونَنَّ أَحَدُ الأمرينِ إمَّا إخراجُهم مِنْ قَرْيَتِهم، أو عَوْدُهُمْ في مِلَّتِهِمْ، ولَمْ يَكونوا قطُّ على طَرِيقَتِهِمْ.

قوله (قَدِ افتَرَيْنا... إلخ): هَذا جَوابٌ عَنْ شُعَيْبٍ ومَنْ تَبِعَه مِنَ المؤمِنِينَ.

قوله (أنَّهمْ إنَّما يَعُودُونَ): وفي بعْضِ النُّسَخِ بدُونِ (إنَّما). وقوله (إلى ما كانُوا): ويُروَى: «لِما كانُوا».

قوله (لغَيْرِ ما لَيْسَ له ابتداءٌ): وَفي نُسْخةٍ «لِما لَيْسَ له ابتِداءٌ»، وهِيَ الصَّوابُ.

قوله (عادُوا حُمَمًا): -بضَمِّ الحاءِ المهْمَلةِ وفتْحِ الميمِ- أيْ صارُوا فَحْمًا سُودًا. قوله (ولَمْ يَكونُوا قَبْلُ كذلكَ): يَعْني حُمَمًا، وفي نسْخَةٍ «قَبلَ ذلكَ». قوله (فعَادَا بَعْدُ أَبْوالًا) بِبِناءِ الظَّرْفِ على الضمِّ، وهَذا عَجْزُ بيتٍ وصَدْرُهُ:

تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ
شِيبَا بِمَاءٍ فعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

وفي بَعْضِ النُّسَخِ البيتُ بتَمامِه، و(قَعْبانِ) ضُبِطَ بِكَسْرِ النونِ على أنَّه تَثْنِيَةُ «قَعْبٍ»، وهُوَ -بفتحِ القافِ وسُكونِ العَينِ المُهْمَلةِ فمُوَحَّدةٍ- القَدَحُ الضَّخْمُ، وفي بَعْضِ النُّسَخِ بِفَتْحِ النونِ على البِناءِ[1]، و(شِيبَا) -بصيغةِ المجهُولِ- أيْ خُلِطَا فعَادَا أي القَعْبانِ، والمُرادُ ما فِيهما مِنَ اللَّبَنِ؛ مِنْ إطلاقِ المَحَلِّ وارادةِ الحَالِّ، كقولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أيْ أَهْلَهَا.

(١) لا مجال للقول بالبناء بمفهومه الاصطلاحي في (قعبان)؛ فهو معرب معطوف بـ(لا) على (المكارم)، وربما قصد الشارح بقوله (البناء) لغة من يلتزم الألف وفتح النون، ولكنه عبر بلفظ البناء تجوزا لكونهما متشابهين في لزوم صورة واحدة ثابتة، ولم يقصد البناء الاصطلاحي.

فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الإسراء: ٧٥]؟

فَلَيْسَ هُوَ مِنَ الضَّلَالِ الذي هُوَ الكُفْرُ؛ قِيلَ: ضَالًّا عَنِ النُّبُوَّةِ، فَهَدَاكَ إِلَيْهَا، قالَهُ الطَّبَرِيُّ.

وقِيلَ: وَجَدَكَ بَيْنَ أَهْلِ الضَّلَالِ، فَعَصَمَكَ مِنْ ذَلِكَ، وهَدَاكَ لِلْإِيمانِ وإِلَى إِرْشَادِهِمْ، ونَحْوُه عَنِ السُّدِّيِّ وغَيْرِ واحِدٍ.

وقِيلَ: ضَالًّا عَنْ شَرِيعَتِكَ، أَيْ لا تَعْرِفُهَا، فهَدَاكَ إِلَيْها، والضَّلَالُ هُنَا التَّحَيُّرُ؛ ولِهَذَا كانَ ﷺ يَخْلُو بغَارِ حِرَاءٍ في طَلَبِ ما يَتَوَجَّهُ به إِلَى رَبِّه، ويَتَشَرَّعُ بِهِ حتَّى هَدَاهُ اللهُ إلى الإِسْلَامِ، قالَ مَعْنَاهُ القُشَيْرِيُّ.

وقِيلَ: لا تَعْرِفُ الحَقَّ، فهَدَاكَ إِلَيْه، وهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [الإسراء: ٧٥]. قالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (لَمْ تَكُنْ له ضَلَالَةُ مَعْصِيَةٍ)[1]. وقِيلَ: (هَدَى) أَيْ بَيَّنَ أَمْرَكَ بالبَراهِينِ. وقِيلَ: ووَجَدَكَ ضَالًّا بَيْنَ مَكَّةَ والمَدِينَةِ، فهَدَاكَ إلى المَدِينَةِ، وقِيلَ: المَعْنَى: فوَجَدَكَ فهَدَى بِكَ ضَالًّا.

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ: ووَجَدَكَ ضَالًّا عَنْ مَحَبَّتِي لَكَ في الأَزَلِ، أَيْ لا تَعْرِفُهَا، فمَنَنْتُ عَلَيْكَ بمَعْرِفَتِي، وقَرَأَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: ﴿ووَجَدَكَ ضَالٌّ فهَدَى﴾ [الإسراء: ٧٥]، أَيْ اهْتَدَى بِكَ.

وقالَ ابْنُ عَطَاءٍ: ووَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، أَيْ مُحِبًّا لِمَعْرِفَتِي، والضَّالُّ المُحِبُّ، ومِنْه قَوْلُه تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القَدِيمِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، أَيْ مَحَبَّتِكَ القَدِيمَةِ، ولَمْ يُرِيدُوا هَا هُنَا في الدِّينِ؛ إِذْ لَوْ قالُوا ذلكَ في نَبِيِّ اللهِ لَكَفَرُوا، ومِثْلُه عِنْدَ هَذا قَوْلُه: ﴿إِنَّا لنَرَاهَا في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الإسراء: ٧٥]، أَيْ مَحَبَّةٍ بَيِّنَةٍ.

وقالَ الجُنَيْدُ: ووَجَدَكَ مُتَحَيِّرًا في بَيَانِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ فهَدَاكَ لِبَيانِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ [الإسراء: ٧٥] الآيَةَ، وقِيلَ: ووَجَدَكَ لَمْ يَعْرِفْكَ أَحَدٌ بالنُّبُوَّةِ حَتَّى أَظْهَرَكَ، فهَدَى بِكَ السُّعَدَاءَ، ولا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُفَسِّرِينَ قالَ فيهَا: ضَالًّا عَنِ الإِيمانِ.

(١) حديث ابن عبَّاسٍ (لم تكن له ضلالة معصية): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية].

قولـه (وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ): أي مِنْ أُمورِ الدنيا وأحكامِ اليَقينِ.

قولـه (لَمْ تَكُنْ لـه ضلالةُ معصيةٍ): بالإضافةِ، وفي نسخةٍ «ضَلالةٌ في مَعصيةٍ»؛ بَلْ ضلالةُ طَاعةٍ لَمْ يَدْرِ طريقَ كمالِها.

قولـه (أيْ لا تَعرِفُها): أي على الوجهِ الأكمَلِ.

قولـه (وقَرأَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ: ووَجَدَكَ ضَالٌّ): -بالرفعِ على أنَّه فاعلٌ- أي مُتَحَيِّرٌ (فهَدَى): أي اهتَدَى بِكَ في المَآلِ.

قولـه (قالَ فيها): أي في هذه الآيةِ (ضالًّا عَنِ الإيمانِ) قال المُلَّا: أقولُ لَوْ فُرِضَ أنْ يُقالَ يَجِبُ أنْ يُؤَوَّلَ بتفاصيلِ أحْكامِه كَمَا في قولـه تعالى: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وكَذَلكَ في قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُه: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، أَيْ مِنَ المُخْطِئِينَ الفاعِلِينَ شَيْئًا بِغَيْرِ قَصْدٍ، قالَه ابْنُ عَرَفَةَ، وَقالَ الأَزْهَرِيُّ: مَعْنَاهُ: مِنَ النَّاسِينَ، وقَدْ قِيلَ ذلكَ في قَوْلِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، أَيْ ناسِيًا، كَمَا قالَ تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِه: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ فالجَوَابُ أَنَّ السَّمَرْقَنْدِيَّ قالَ: مَعْنَاهُ: ما كُنْتَ تَدْرِي قَبْلَ الوَحْيِ أَنْ تَقْرَأَ القُرآنَ، ولا كَيْفَ تَدْعُو الخَلْقَ إلى الإيمانِ. وقالَ بَكْرٌ القاضِي نَحْوَهُ، وقالَ: ولا الإيمانُ الَّذِي هُوَ الفَرائِضُ والأَحْكامُ قالَ: فكانَ قَبْلُ مُؤْمِنًا بتَوْحِيدِه، ثُمَّ نَزَلَتِ الفَرائِضُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَدْرِيهَا قَبْلُ، فَزَادَ بالتَّكْلِيفِ إيمانًا، وهُوَ أَحْسَنُ وُجُوهِهِ.

فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِه: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]؟ فاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ بمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، بَلْ حَكَى أَبُو عُبَيْدٍ الهَرَوِيُّ أَنَّ مَعْنَاهُ: لَمِنَ الغافِلِينَ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ؛ إِذْ لَمْ تَعْلَمْهَا إلَّا بِوَحْيِنَا.

وكَذَلكَ الحَدِيثُ الَّذِي يَرْوِيهِ عُثْمانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِسَنَدِه عَنْ جابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَشْهَدُ مَعَ المُشْرِكِينَ مَشاهِدَهُمْ، فَيَسْمَعُ مَلَكَيْنِ خَلْفَه، أَحَدُهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ حَتَّى تَقُومَ خَلْفَهُ، فقالَ الآخَرُ: كَيْفَ أَقُومُ خَلْفَه، وعَهْدُه باسْتِلَامِ الأَصْنَامِ؟! فَلَمْ يَشْهَدْهُمْ بَعْدُ[1].

فهَذَا حَديثٌ أَنْكَرَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ جِدًّا، وقالَ: وهُوَ مَوْضُوعٌ، أَوْ شَبِيهٌ بالمَوْضُوعِ، وقالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: يُقالُ: إِنَّ عُثْمانَ وَهِمَ في إِسْنَادِهِ،

(١) حديث جابر (أنه كان يشهد مع المشركين مشاهدهم): ابن عديٍّ [٥/ ٢٠٧]، والبيهقيُّ [«الدلائل» ٢/ ٣٥]، وأبو يعلى [١٨٧٧] وقد قال المصنِّف عن أحمد بن حنبل: إنه منكرٌ وموضوعٌ أو شبيهٌ بالموضوع، وكذا قال الذهبي: إنه منكر.

قوله (وكذلك): أي مِثْلُ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ مِمَّا يُورِثُ إشكالاتٍ، ويُدفَعُ في الحالِ والمَآلِ.

قوله (أَنْ تَضِلَّ إحداهما): بفتحِ همزةِ (أنْ) وكَسْرِها[1].

قوله (ثُمَّ نَزَلَتِ الفَرائضُ): أي مِنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والحَجِّ وغيرِهَا.

قوله (فزَادَ بالتكليفِ إيمانًا): أي بتكليفِ كُلِّ فَرْضٍ إيقانًا.

قوله (إذ لَمْ تَعْلَمْهَا إلا بوَحْيِنا): كَمَا أَشارَ إليه قولُه -سبحانَه وتعالى-: ﴿نَحْنُ نقصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

قوله (كانَ يَشْهَدُ): وفي نسخةٍ «كانَ شَهِدَ». وقوله (مَشاهِدَهم): أي مَحاضِرَهم.

قوله (أَنْكَرَه أحمدُ بْنُ حَنْبَلٍ جِدًّا): -بكسْرِ الجيمِ وتشديدِ الذالِ المهمَلَةِ- إنكارًا بَليغًا.

قوله (أو شَبِيهٌ): ويُرْوَى «أوْ يُشَبَّهُ» -بتشديدِ الموحَّدةِ المفتوحَةِ.

قوله (وَهِمَ): -بكسرِ الهاءِ وتُفتَحُ- أي غَلِطَ وأَخْطَأَ.

(١) بالكسر قراءة حمزة على أنها شرطية، والفاء في (فتذكِّر) وما في حيزها جواب الشرط عنده على تقدير مبتدإ بعد الفاء؛ ليسوغ دخول الفاء في الجواب.

والحديثُ في الجُمْلَةِ مُنكَرٌ غيرُ مُتَّفَقٌ على إِسْنادِهِ؛ فَلا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ.

والمَعْرُوفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ خِلافُه عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ قَوْلِه: (بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأَصْنامُ)[1]، وقَوْلِهِ في الحديثِ الآخَرِ الَّذي رَوَتْهُ أُمُّ أَيْمَنَ حِينَ كَلَّمَهُ عَمُّهُ وآلُه في حُضُورِ بَعْضِ أَعْيادِهِم، وعَزَمُوا عَلَيْهِ فِيهِ بَعْدَ كَراهِيَةٍ لِذلكَ، فخَرَجَ مَعَهُمْ ورَجَعَ مَرْعُوبًا، فقالَ: (كُلَّما دَنَوْتُ مِنْها مِنْ صَنَمٍ تَمَثَّلَ لي رَجُلٌ أَبْيَضُ طَويلٌ يَصِيحُ بِي: وَرَاءَكَ، لا تَمَسَّه)[2]؛ فَما شَهِدَ لَهُمْ بَعْدُ عِيدًا.

وقَوْلِهِ في قِصَّةِ بَحِيرا، حِينَ اسْتَحْلَفَ النَّبِيَّ ﷺ باللَّاتِ والعُزَّى إذْ لَقِيَه بالشَّامِ في سَفْرَتِهِ مَعَ عَمِّه أَبي طَالِبٍ، وهُوَ صَبِيٌّ، ورَأَى فِيهِ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ، فاخْتَبَرَهُ بذلكَ، فقالَ لهُ النَّبِيُّ ﷺ: لا تَسْأَلْني بِهِما؛ فَوَاللهِ ما أَبْغَضْتُ شَيْئًا بُغْضَهُما، فقالَ له بَحِيرا: فبِاللهِ إلَّا مَا أَخْبَرْتَني عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، فقالَ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ.[3]

وكذلكَ المَعْرُوفُ مِنْ سِيرَتِهِ ﷺ، وتَوْفِيقِ اللهِ تعالى له أَنَّه كانَ قَبْلَ نُبُوَّتِه يُخالِفُ المُشْرِكِينَ في وُقُوفِهِمْ بمُزْدَلِفَةَ في الحَجِّ، فكانَ يَقِفُ هُوَ بعَرَفَةَ[4]؛ لِأَنَّه كانَ مَوْقِفَ إبراهيمَ عليه السلام.

***

قوله (على إِسْنادِه): أي إِسْنادِ هذا الحَديثِ لِلنبيِّ ﷺ.

قوله (بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأَصْنامُ): -بصيغَةِ المجهولِ- أي بَغَّضَها اللهُ لِي مِنْ حَالِ الصِّغَرِ إلى الكِبَرِ.

قوله (تَمَثَّلَ لي رَجُلٌ): ويُرْوَى «شَخْصٌ».

قوله (بَحِيرا): بفتحِ الموحَّدةِ وكسْرِ الحاءِ المُهْمَلَةِ مَقصورًا ومَمدودًا، وقَدْ رَوَاها ابنُ سَعْدٍ. قوله (فاختَبَرَه بذلك): أي فامتَحَنَه بَحِيرا بذلك الاستحْلافِ. قوله (لا تَسألْني بِهِمَا): أي باللَّاتِ والعُزَّى.

قوله (وتوفيقِ الله تعالى له): أي في تحقيقِ مُراعاةِ شرائعِ الأحكامِ.

قوله (لأَنَّه كانَ مَوقِفَ إبراهيمَ): بَلْ ومَوْقِفَ سَائرِ الأنبياءِ مِنْ آدَمَ وغَيْرِه.

***

(١) [أخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في التاريخ (٣/ ٤٦٩) من حديث شداد بن أوس مطوَّلًا].

(٢) حديث أمِّ أيمن (حين كلمه عمه ...): ابن سعدٍ [١/ ١٥٨] من رواية ابن عبَّاسٍ.

(٣) حديث بحيرا (حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى ..): ابن سعدٍ [١/ ١٣٠] عن نفيسة بنت مُنْيَة.

(٤) [مخالفة المشركين في الوقوف بمزدلفة أخرجها البخاري (٤٥٢٠)، ومسلم (١٢١٩) من طريقين عن السيدة عائشة رضي الله عنها: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ (البقرة: ١٩٩)].

فَصْلٌ [في أنه لا يُشترطُ في حَقِّ الأنبياءِ العِصمةُ مِن عَدَمِ مَعرفتِهم ببَعضِ أُمورِ الدُّنيا]

قَالَ القاضِي أَبُو الفَضْلِ: قَدْ بَانَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ عُقُودُ الأنبياءِ في التَّوْحيدِ والإيمانِ والوَحْيِ، وعِصْمَتُهُمْ في ذلكَ على مَا بيَّنَّاهُ؛ فأَمَّا مَا عَدَا هَذا البابَ مِنْ عُقُودِ قُلُوبِهِمْ فَجِمَاعُهَا أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ عِلْمًا ويَقِينًا على الجُمْلَةِ، وأَنَّهَا قَدِ احْتَوَتْ مِنَ المَعْرِفَةِ والعِلْمِ بأُمُورِ الدِّينِ والدُّنْيَا مَا لا شَيْءَ فَوْقَهُ، ومَنْ طَالَعَ الأَخْبَارَ، واعْتَنَى بالحَديثِ، وتَأَمَّلَ ما قُلْنَاهُ، وَجَدَهُ، وقَدْ قَدَّمْنَا مِنْهُ في حَقِّ نَبِيِّنَا ﷺ في البابِ الرابعِ، أَوَّلَ قِسْمٍ مِنْ هَذَا الكِتَابِ مَا يُنَبِّهُ على ما وَرَاءَهُ؛ إِلَّا أَنَّ أَحْوالَهُمْ في هَذِهِ المَعَارِفِ تَخْتَلِفُ.

فأَمَّا مَا تَعَلَّقَ مِنهَا بأُمُورِ الدُّنْيَا فَلَا يُشْتَرَطُ في حَقِّ الأَنْبِيَاءِ العِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الأنبياءِ ببَعْضِهَا واعْتِقَادِهَا على خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، ولا وَصْمَ عَلَيْهِم فيهِ؛ إِذْ هِمَمُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بالآخِرَةِ وأَنْبَائِها وأَمْرِ الشَّرِيعَةِ وقَوَانِينِهَا، وأُمُورُ الدُّنْيَا تُضَادُّهَا، بخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِينَ ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنْيَا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، كَمَا سَنُبَيِّنُ هَذَا -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى- في البابِ الثَّانِي.

ولَكِنَّهُ لا يُقَالُ: إِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ فإِنَّ ذلكَ يُؤَدِّي إلى الغَفْلَةِ والبَلَهِ، وهُمُ المُنَزَّهُونَ عَنْه، بَلْ قَدْ أُرْسِلُوا إلى أَهْلِ الدُّنْيَا، وقُلِّدُوا سِيَاسَتَهُمْ وهِدَايَتَهُمْ، والنَّظَرَ في مَصَالِحِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ، وهَذَا لا يَكُونُ مَعَ عَدَمِ العِلْمِ بأُمُورِ الدُّنْيَا بالكُلِّيَّةِ. وأَحْوَالُ الأَنْبِيَاءِ وسِيَرُهُمْ في هَذَا البَابِ مَعْلُومَةٌ، ومَعْرِفَتُهُمْ بذلكَ كُلِّهِ مَشْهُورَةٌ.

قوله (عُقُودُ الأنبياءِ في التوحيدِ): أي مَا عُقِدَ عليهِ قلوبُهم.

قوله (فأَمَّا مَا عَدَا هذا البابَ): -بالنصبِ والجرِّ[1]- أي غيرُ بابِ التوحيدِ وما يَتعلَّقُ به.

قوله (فجِمَاعُها): -بكسرِ الجيمِ- أي ما أُجْمِعَ عليه أو جُمْلَتُها.

قوله (واعتِقَادِها): أي ومِن عَدَمِ اعتقادِهم إيَّاها. قوله (على خِلَافِ مَا هِيَ عليهِ): أي على خِلَافِ حقيقتِها كَما يُشيرُ إليه قولُه ﷺ لِلأنصارِ وهُم يُؤَبِّرُونَ النَّخْلَ: (لا عَلَيْكم أنْ لا تَفْعَلُوا)، فتَرَكُوا تأبيرَه، فلَم يُلْقَحْ مِنه لِذلك إلا قليلٌ، فقالَ: (أنتمْ أَعْرَفُ بدُنْيَاكم)[2].

قوله (ولا وَصْمَ): -بسكونِ الصَّادِ المُهْمَلةِ- أي لا عَيْبَ لهم، ولا عَتْبَ عليهم.

قوله (وقَوَانِينِها): أي ضوابطِها الكُلِّيَّةِ المشتمِلةِ على المَسائلِ الجزئيةِ. قوله (وأُمورُ الدنيا تُضادُّها): أي كتَضَادِّ الضَّرتَينِ.

قوله (وهُمْ عَنِ الآخِرةِ هُمْ غافِلُونَ): أي مَعَ أنَّهم في أَمْرِ دُنْيَاهم غَافِلُونَ.

قوله (والبَلَهِ): -بفتحتَيْنِ- أي البَلاهَةِ المُنافِيَةِ لِكَمالِ العَقْلِ والفَطَانةِ.

---

(١) في أسلوب الاستثناء المعتاد نحو (جاء القوم ما عدا زيدا) يوجب جمهور النحاة نصب ما بعد «عدا» على اعتبارها فعلًا، و«ما» موصولًا حرفيًا، وأجاز بعض الكوفية جره على اعتبار «ما» زائدة، و«عدا» حرف جر.

(٢) أخرجه بنحوه مسلمٌ (٢٣٦٣) [كتاب الفضائل]، وغيره من حديث السيِّدة عائشة، وأنس رضي الله عنهما.

وأَمَّا إِنْ كَانَ هَـذا العَقْـدُ فِيـمَا يَتعَلَّـقُ بالدِّيـنِ فـلَا يَصِـحُّ مِـنَ النَّبـيِّ ﷺ إلَّا العِلْـمُ بـه، ولا يَجُوزُ عَلَيْـه جَهْلُـه جُمْلَـةً؛ لِأَنَّـه لا يَخْلُـو أَنْ يَكُـونَ حَصَـلَ عَقْـدُهُ بذلـكَ عَـنْ وَحْـيٍ مِـنَ الله، فهُـوَ مَـا لا يَصِـحُّ الشَّـكُّ مِنْـه فيـهِ -عـلى مـا قَدَّمْنَـاهُ- فكَيْـفَ الجَهْـلُ؟! بَـلْ حَصَـلَ لَـه العِلْـمُ اليَقِـينُ، أَوْ يَكُـونَ فَعَـلَ ذلـكَ باجْتِهَـادِهِ فِيـمَا لَمْ يَنْـزِلْ عَلَيْـه فيـه شَيْءٌ، عـلى القَـوْلِ بتَجْوِيـزِ وُقُـوعِ الاجْتِهَـادِ مِنْـهُ في ذلـكَ؛ عـلى قَـوْلِ المُحَقِّقِـينَ، وعَـلَى مُقْتَـضَى حَدِيـثِ أُمِّ سَـلَمَةَ: (إِنِّي إِنَّـمَا أَقْـضِي بَيْنَكُـمْ بِرَأْيِـي فِيـمَا لَمْ يُنْـزَلْ عَـلَيَّ فيـه) خَرَّجَـه الثِّقَـاتُ[1]، وكَقِصَّـةِ أَسْرَى بَـدْرٍ[2]، والإِذْنِ لِلمتخلِّفـينَ[3] عـلى رَأْيِ بَعْضِهِـمْ، فـلا يَكُـونُ أَيْضًـا مَـا يَعْتَقِـدُهُ مِمَّـا يُثْمِـرُهُ اجْتِهَـادُهُ إلا حَقًّـا وصحيحًـا.

هَـذَا هُـوَ الحَـقُّ الـذي لا يُلْتَفَـتُ إلى خِـلَافِ مَـنْ خَالَـفَ فِيـهِ مِمَّـنْ أَجَـازَ عَلَيْـه الخَطَـأَ في الاجتهـادِ أَنْ لَـوْ قَـامَ عَلَيْـه دَلِيـلٌ، لا عَـلَى القَـوْلِ بِتَصْوِيـبِ المُجْتَهِدِيـنَ الَّـذي هُـوَ الحَـقُّ والصَّـوَابُ عِنْدَنـا، ولا عَـلَى القَـوْلِ الآخَـرِ بـأَنَّ الحَـقَّ في طَـرَفٍ واحِـدٍ؛ لِعِصْمَـةِ النَّبـيِّ ﷺ مِـنَ الخَطَـإِ في الاجْتِهَـادِ في الشَّرْعِيَّـاتِ، ولِأَنَّ القَـوْلَ في تَخْطِئَـةِ المُجْتَهِدِيـنَ إِنَّـمَا هُـوَ بَعْـدَ اسْـتِقْرَارِ الـشَّرْعِ، ونَظَـرُ النَّبـيِّ ﷺ واجْتِهَـادُهُ إِنَّـمَا هُـوَ فِيـمَا لَمْ يُنْـزَلْ عَلَيْـه فِيـهِ شَيْءٌ، ولَمْ يُـشْرَعْ لَـهُ قَبْـلُ.

هَـذا فِيـمَا عَقَـدَ عَلَيْـه النَّبـيُّ ﷺ قَلْبَـه، فأَمَّـا فِيـمَا لَمْ يَعْقِـدْ عَلَيْـهِ قَلْبَـه مِـنْ أَمْـرِ النَّـوازِلِ الشرعِيَّـةِ، فقَـدْ كانَ لا يَعْلَـمُ مِنهـا أَوَّلًا إِلَّا مَـا عَلَّمَـهُ اللهُ شَـيْئًا فشَـيْئًا، حتَّـى اسْـتَقَرَّ عِلْـمُ جُمْلَتِهـا عِنْـدَهُ؛ إمَّـا بوَحْـيٍ مِـنَ الله، أَوْ إِذْنٍ لـه أَنْ يَـشْرَعَ في ذلـكَ، أَوْ يَحْكُـمَ بِـمَا أَرَاهُ اللهُ، وقَـدْ كَانَ يَنْتَظِـرُ الوَحْـيَ في كَثِـيرٍ مِنْها،

---

(١) حديث أمِّ سلمة (إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل عليَّ فيه): أبو داود [٣٥٨٥].

(٢) حديث قصة أسرى بدر: مسلمٌ [١٧٦٣] وغيره من طرقٍ.

(٣) حديث الإذن للمتخلِّفين: ابن جرير [١١/ ٦٥٢] وغيره من طرقٍ عن ابن عبَّاسٍ وغيره.

قولـه (فيـمَا لَمْ يُنْـزَلْ): بصيغـةِ المفعولِ أو الفاعـلِ. قولـه (خَرَّجَـه الثِّقَـاتُ): أي خَـرَّجَ حديـثَ أُمِّ سَـلَمَةَ الثِّقـاتُ مِـنَ الـرُّوَاةِ كأَبِي داودَ.

قولـه (والإِذْنِ لِلمُتَخَلِّفِينَ): أي مِـنَ المنافِقِـينَ عَـنْ غَـزوَةِ تَبُـوكَ حيْـثُ نَـزَلَ فيهـا: ﴿عَفَـا اللهُ عَنْـكَ لِمَ أَذِنْـتَ لَـهُمْ﴾ [التوبـة: ٤٣].

قولـه (لا عـلى القـولِ بتَصويـبِ المجتهِديـنَ): فِيـمَا لا قاطـعَ فيـه مِـنْ مَسَـائلِ الفُـرُوعِ.

قولــه (ولَمْ يُـشْرَعْ لـه قَبْـلُ): بِبِنَـاءِ الظَّـرْفِ عـلى الضَـمِّ، أي قَبْـلَ نَظَـرِه واجتهـادِه.

قولـه (فَقَـدْ كانَ لا يَعْلَـمُ مِنها أَوَّلًا): أي قَبْـلَ الوَحْـيِ والإذنِ.

قولــه (حَتَّـى اسـتقَرَّ عِلْـمُ جُمْلَتِهـا): أي إجمـالًا وتفصيـلًا، ويُـرْوَى «عِلْـمُ جَمِيعِهَـا».

قولــه (أَوْ يَحْكُـمَ بِـمَا أَراه اللهُ): كَـمَا أَشَـارَ إِلَيْـه قولُـه تعـالى: ﴿إِنَّـا أنزَلْنـا عليْـكَ الكِتَـابَ بالحَـقِّ لِتَحْكُـمَ بَـيْنَ النّـاسِ بِـمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النسـاء: ١٠٥].

قولـه (في كَثِـيرٍ مِنْهـا): أي مِـنَ النَّـوازِلِ، ولَمْ يُبـادِرْ إلى الاجتهـادِ فيهـا، ولَعَلَّـه في الأُمـورِ الكُلِّيَّـةِ، لا في المَسَـائلِ الفَرعيَّـةِ!!

ولكِنَّه لَمْ يَمُتْ حَتَّى اسْتَقَرَّ عِلْمُ جَمِيعِهَا عِنْدَه ﷺ، وتَقَرَّرَتْ مَعَارِفُهَا لَدَيْه على التحقِيقِ، ورُفِعَ الشَّكُّ والرَّيْبُ، وانتفَى الجَهْلُ.

وبالجُمْلَةِ فَلَا يُصِحُّ مِنْه الجَهْلُ بشَيْءٍ مِنْ تَفاصيلِ الشَّرْعِ الَّذي أُمِرَ بالدَّعْوَةِ إلَيْه؛ إذْ لا تَصِحُّ دَعْوَتُه لِمَا لا يَعْلَمُه.

وَأَمَّا مَا تَعَلَّقَ بعقْدِه مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وخَلْقِ الله، وتَعْيِينِ أَسْمائه الحُسْنَى، وآيَاتِه الكُبْرَى، وأُمُورِ الآخِرَةِ، وأَشْراطِ السَّاعَةِ، وأَحْوالِ السُّعَداءِ والأَشْقِياءِ، وعِلْمِ ما كانَ وما يَكُونُ مِمَّا لَمْ يَعْلَمْه إلَّا بوَحيٍ، فعَلَى ما تَقَدَّمَ مِن أنَّه مَعْصُومٌ فيه، ولا يَأْخُذُه فِيمَا أُعْلِمَ به مِنْه شَكٌّ ولا رَيْبٌ، بَلْ هُو فيه عَلَى غايَةِ اليَقِينِ.

لَكِنَّه لا يُشْتَرَطُ له العِلْمُ بجَمِيعِ تَفاصيلِ ذلك، وإنْ كانَ عنْدَهُ مِنْ عِلْمِ ذلكَ ما ليسَ عِنْدَ جَميعِ البَشَرِ؛ لِقَوْلِه ﷺ: (إنِّي لا أَعْلَمُ إلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي)[1].

ولِقَوْلِه: (ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ [بَلْهَ ما اطَّلَعْتُمْ عَلَيْه، اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ]: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]).[2]

وقَوْلِ مُوسَى لِلخَضِرِ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وقَوْلِه ﷺ: (أَسْأَلُكَ بأَسْمائِكَ الحُسْنَى، ما عَلِمْتُ مِنْها وما لَمْ أَعْلَمْ)[3]، وقَوْلِه: (أَسْأَلُكَ بكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ)[4].

(١) حديث (إني لا أعلم إلَّا ما عَلَّمني رَبِّي): البيهقيُّ [«الدلائل» ٦/ ٢٩٥].
(٢) [متفق عليه أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا].
(٣) حديث (أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم): الديلمي عن أنس.
(٤) حديث (أسألكَ بكلِّ اسم ...): أحمد [(٣٧١٢) عن ابن مسعود].

قوله (حَتَّى اسْتَقَرَّ عِلْمُ جَمِيعِها): وفي نسخةٍ «حَتَّى اسْتَفْرَغَ»، أي اسْتَوْفَى. قوله (ورُفِعَ الشَّكُّ): بصيغةِ المجهولِ.

قوله (وأَمَّا ما تَعَلَّقَ بعَقْدِه): أي بِجَزْمِ قَلْبِه في مَعرِفةِ رَبِّه. قوله (وخَلْقِ الله): أي سائرِ مخلوقاتِه العُلويةِ والسفليةِ. قوله (وتَعيِينِ أسْمائه الحُسْنَى): أي المُشْتَمِلةِ عَلَى أوصَافِ الجَمالِ، وصِفاتِ الجَلالِ. قوله (وآيَاتِه الكُبْرَى): أي العُظْمَى مِنْ عَجائِبِ مَخلوقاتِه. قوله (وأشراطِ السَّاعَةِ): أي عَلاماتِها. قوله (مِمَّا لَمْ يَعْلَمْه): ويُرْوَى «مِمَّا لا يَعْلَمُه». قوله (فِيمَا أُعْلِمَ): بِبِناءِ الفِعْلِ لِلمجهُولِ.

قوله (مَا ليسَ عِندَ جميعِ البَشَرِ): أي إفرادًا وجَمْعًا.

قوله (مَا أُخْفِيَ لَهم): بصيغةِ المفعولِ، وقَرَأَ حمزةُ بصيغةِ المتكلِّمِ.

قوله (على أنْ تُعَلِّمَنِ): وفي نسخةٍ بإثباتِ الياءِ.

قوله (مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا): بسكونِ الشينِ، وقَرَأَ أبُو عمْرٍو بفَتْحِها.

قوله (أوِ استأثَرْتَ به): أي انفَرَدْتَ بعِلْمِه عَنْ غَيْرِكَ.

وقَـدْ قـالَ تَعـالى: ﴿وفَـوْقَ كُلِّ ذِي عِلْـمٍ عَلِيـمٌ﴾ [يوسـف: ٧٦]، قـالَ زَيْـدُ بْـنُ أَسْـلَمَ وغَـيْرُهُ: حَتَّى يَنْتَهِـيَ العِلْـمُ إلى الله تعَـالى، وهَـذا مِمَّـا لا خَفَـاءَ بِـه؛ إذْ مَعْلُومَاتُـه تَعالى لا يُحَاطُ بِهَـا، ولا مُنْتَهَـى لَهَـا.

هَـذَا حُكْـمُ عَقْـدِ النَّبِـيِّ ﷺ في التوحيـدِ والـشَّرْعِ والمَعَـارِفِ والأُمُـورِ الدِّينِيَّـةِ.

***

قولـه (إذْ معلوماتُـه تعـالى لا يُحَـاطُ بهـا): قـالَ تعـالى: ﴿ولا يُحِيطـونَ بـه عِلْـمًا﴾ [طـه: ١١٠]، وقـالَ تعـالى: ﴿ولا يُحِيطـونَ بِـشَيْءٍ مِـن عِلْمِـه إلَّا بِـما شـاءَ﴾ [البقـرة: ٢٥٥].

***

فَصْلٌ [في عِصْمتِه ﷺ مِنَ الشَّيطانِ]

واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ مُجْمِعَةٌ على عِصْمةِ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطانِ، وكِفايَتِهِ مِنْهُ لا في جِسْمِهِ بأَنْواعِ الأذَى، ولا عَلَى خاطِرِهِ بالوَسْوَاسِ.

وقَدْ أَخْبَرَنَا القاضِي الحافِظُ أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَى-، قالَ: حدَّثَنا أَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ العَدْلُ، حدَّثَنا أَبُو بَكْرٍ البَرْقانيُّ وغَيْرُه، حدَّثَنا أَبُو الحَسَنِ الدَّارَقُطْنِيُّ، حدَّثَنا إسْماعيلُ الصَّفَّارُ، حدَّثَنا عَبَّاسٌ التَّرْقُفِيُّ، حدَّثَنا مُحمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حدَّثَنا سُفْيَانُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قالَ:

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَكَّلَ بِهِ اللهُ قَرِينَهُ مِنَ الجِنِّ، وقَرِينَهُ مِنَ المَلائكَةِ)، قالُوا: وإِيَّاكَ يا رسُولَ اللهِ؟ قالَ: (وإِيَّايَ، ولَكِنَّ اللهَ تعالَى أَعانَنِي عَلَيْهِ، فأَسْلَمَ)[(١)].

زادَ غَيْرُهُ عَنْ مَنْصُورٍ: (فَلَا يَأْمُرُنِي إلَّا بخَيْرٍ)[(٢)]. وعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِمَعْناه[(٣)].

ويُرْوَى: (فأَسْلَمُ) بضَمِّ المِيمِ، أَيْ فأَسْلَمُ أَنا مِنْه، وصَحَّحَ بَعْضُهُمْ هذهِ الرِّوايَةَ ورَجَّحَهَا. ورُوِيَ: (فأَسْلَمَ)، يَعْنِي القَرِينَ أنَّه انْتَقَلَ عَنْ حَالِ كُفْرِهِ إلى الإسْلامِ، فصَارَ لا يَأْمُرُ إلَّا بخَيْرٍ، كالمَلَكِ، وهُوَ ظاهِرُ الحديثِ، ورَوَاه بَعْضُهُمْ: (فاسْتَسْلَمَ).

---

(١) حديث ابن مسعود (ما منكم مِن أحدٍ إلَّا وُكِّل به قرينه ...): مسلمٌ [٢٨١٤].

(٢) [مسلم (٢٨١٤)].

(٣) [مسلم (٢٨١٥)].

(فصلٌ: واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ مُجمِعَةٌ... إلخ): وفي بَعْضِ النُّسَخِ «مجتَمِعَةٌ».

قوله (بأنواعِ الأذَى): كالجُنُونِ والإغماءِ.

قوله (بالوَسْوَاسِ): أي بجِنْسِه الَّذي يُوَسْوِسُ به في صُدُورِ النَّاسِ، وفي نسخةٍ «بالوَسَاوِسِ».

قوله (البَرْقانيُّ): بفتحِ الباءِ المُوَحَّدةِ. قوله (الصَّفَّارُ): بتشديدِ الفاءِ. قوله (التَّرْقُفِيُّ): -بفتحِ المُثنَّاةِ الفوقيةِ، ثُمَّ راءٍ ساكنةٍ، ثُمَّ قافٍ مضمومَةٍ، ثُمَّ فاءٍ مكسورةٍ، ثُمَّ ياءِ نِسبَةٍ- ثِقَةٌ مُتَعَبِّدٌ، أَخرَجَ له ابنُ ماجَهْ.

قوله (مَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ): «مِنْ» زائدةٌ لِلتأكيدِ. قوله (إلَّا وَكَّلَ به اللهُ... الحديثَ): وفي نسخةٍ «إلَّا وَكَّلَ اللهُ»، وفي نسخةٍ أخرى «إلَّا وَقَدْ وَكَّلَ».

قوله (وإِيَّاكَ يا رسولَ اللهِ): أي وأنتَ وَكَّلَ بِكَ قَرينَكَ مِنَ الجِنِّ؟ قالَ: وإِيَّايَ... إلخ.

قوله (فأَسْلَمَ): -بفتحِ الميمِ- أي انْقَادَ، وقيلَ: آمَنَ.

قوله (ويُرْوَى: فأَسْلَمُ، بضمِّ الميمِ): أي وفتحِ هَمزةِ المُتكلِّمِ، مأخوذٌ مِنَ السَّلَامةِ.

قوله (ورُوِيَ: فأَسْلَمَ): بصيغةِ الماضي المعلومِ. قوله (وهُوَ ظاهِرُ الحديثِ): أي بِناءً على الفِعلِ الماضي؛ مَعَ أنَّه يَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ مَعْناه «انْقادَ واسْتَسْلَمَ».

قالَ القاضِي أَبو الفَضْلِ رَضِوَاللهُعَنْهُ:

فَإذا كانَ هَذا حُكْمَ شَيْطَانِه وقَرِينِهِ المُسَلَّطِ على كُلِّ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ، فكَيْفَ بِمَنْ بَعُدَ عَنْه، ولَمْ يَلْزَمْ صُحْبَتَهُ، ولا أُقْدِرَ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ، وقَدْ جَاءَتِ الآثارُ بِتَصَدِّي الشَّيَاطِينِ لَه في غَيْرِ مَوْطِنٍ رَغْبَةً في إطْفَاءِ نُورِه، وإمَاتَةِ نَفْسِهِ، وإدْخَالِ شُغْلٍ عَلَيْهِ؛ إذْ يَئِسُوا مِنْ إغْوَائِه، فانْقَلَبُوا خاسِرِينَ، كَتَعَرُّضِهِ لَهُ في صَلَاتِه، فأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ وأَسَرَهُ.

فَفِي الصِّحَاحِ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْهُ ﷺ: (إنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي) -قالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ[1]: (في صُورَةِ هِرٍّ)- (فَشَدَّ عَلَيَّ، يَقْطَعُ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فذَعَتُّه، ولَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوثِقَهُ بِسَارِيَةٍ حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إلَيْهِ، فذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، فَرَدَّهُ اللهُ خاسِئًا)[2].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْه ﷺ: (إنَّ عَدُوَّ اللهِ إبْلِيسَ جَاءَنِي بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ؛ لِيَجْعَلَهُ في وَجْهِي)، والنَّبِيُّ ﷺ في الصَّلَاةِ، وذَكَرَ تَعَوُّذَهُ باللهِ مِنْهُ، ولَعْنَه لَه، (ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ)، وذَكَرَ نَحْوَهُ، وقالَ: (لَأَصْبَحَ مُوثَقًا، يَتَلَاعَبُ بِه وِلْدَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ)[3].

(١) [أي زيادة على ما في الصحيحين].

(٢) حديث أبي هريرة (إنَّ الشيطانَ عَرَضَ لي..): الشيخان [البخاريُّ (١٢١٠)، ومسلمٌ (٥٤١)].

(٣) حديث أبي الدرداء (إنَّ عَدُوَّ الله إبليسَ جاءَني ...): مسلمٌ [٥٤٢].

قولـه (على كُلِّ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ): وَفِي نسخةٍ «عَلَى بَنِي آدمَ».

قوله (فكَيْفَ بِمَنْ بَعُدَ): أي مِن شياطينِ الجنِّ.

قوله (على الدُّنُوِّ مِنْه): أي القُرْبِ مِن حُضُورِه.

قوله (في غَيْرِ مَوْطِنٍ): وفي نسخةٍ «في كُلِّ مَوْطِنٍ».

قولـه (وإدخَالِ شُغْلٍ): بضمِّ الشينِ وسُكونِ المعجَمةِ، وبضمتَينِ، وبفتْحٍ وسكونٍ.

قوله (مِنْ إغوائِه): أي إضلالِه وإفسادِ أمْرِه.

قوله (فانقَلَبُوا خاسِرِينَ): أي فرَجَعُوا خائِبِينَ.

قولـه (فشَدَّ عَلَيَّ): -بتشديدِ الدالِ- أي حَمَلَ... إلى آخِره. قولـه (فأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْه): أي فأَقْدَرَنِي مِنْ أَخْذِه، وقَوَّانِي على قَهْرِه.

قولـه (فَذَعَتُّه): بذالٍ معجَمةٍ، وقيلَ: مهمَلةٍ، وأَنْكَرَ الخَطابيُّ المهمَلَةَ، وصَحَّحَها غَيْرُه وصَوَّبَه؛ وإنْ كانَتِ المعجَمةُ أَوْضَحَ. اهـ مُلَّا[1].

قولـه (بِسَارِيَةٍ): أي أُسطوانةٍ، وفي روايةٍ «إلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوارِي المسجِدِ»[2].

قولـه (فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي): أي تَذَكَّرْتُ قَوْلَ... إلخ، وفي روايةٍ «دَعْوَةَ أَخِي».

قولـه (إنَّ عَدُوَّ اللهِ): يَجوزُ فَتْحُ الهمزةِ وكَسْرُهَا.

قولـه (جاءَنِي بشِهَابٍ): أيْ بشُعْلَةٍ مُضِيئةٍ.

قوله (لَأَصْبَحَ مُوثَقًا): بفتحِ المُثَلَّثةِ.

(١) ومعنى «ذعته»: خنقته خنقا شديدا أو دفعته دفعا شديدا.

(٢) أخرجها البخاريُّ (٤٦١) [كتاب الصلاة]، و(٤٨٠٨) [كتاب تفسير القرآن]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِوَاللهُعَنْهُ

وكذلِكَ في حَدِيثِهِ في الإِسْرَاءِ، وطَلَبُ عِفْرِيتٍ لـه بشُعْلَةِ نـارٍ، فعَلَّمَهُ جِبْرِيلُ مَا يَتعَوَّذُ بـه مِنْـهُ[1]، ذَكَرَهُ في «المُوطَّـإِ».

ولَمَّا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَذَاهُ بمُبَاشَرَتِـهِ تَسَبَّبَ بالتَّوَسُّطِ إِلى عِـدَاهُ، كقَضِيَّتِـهِ مَعَ قُرَيْشٍ في الائْتِمَارِ بقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وتَصَوُّرِهِ في صُورَةِ الشَّيْخِ النَّجْدِيِّ[2]، ومَرَّةً أُخْرَى في غَزْوَةِ بَدْرٍ في صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مالِكٍ[3]، وهُوَ قَوْلُـه تعالَى: ﴿وإِذْ زَيَّنَ لَـهُم الشَّيْطَانُ أَعْمالَهُـم...﴾ الآيَةَ [الأنفال: ٤٨]، ومَرَّةً يُنْذِرُ بشَأْنِه عِنْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ[4]، وكُلُّ هَـذا فَقَدْ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَهُ، وعَصَمَه ضُرَّهُ وشَرَّهُ.

وقَدْ قالَ ﷺ: (إِنَّ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كُفِيَ مِنْ لَمْسِهِ، فجاءَ لِيَطْعَنَ بيَدِهِ في خاصِرَتِه حِينَ وُلِدَ فطَعَنَ في الحِجَابِ)[5].

وقالَ ﷺ حِينَ لُدَّ في مَرَضِهِ، وقِيلَ لـه: خَشِينَا أَنْ تَكُونَ بِكَ ذَاتُ الجَنْبِ، فقَالَ: (إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَكُنِ اللهُ لِيُسَلِّطَهُ عَلَيَّ)[6].

فإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؟

فَقَدْ قالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: إِنَّهَا راجِعَةٌ إِلى ﴿وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ﴾

---

(١) حديث في الإسراء (إنه طلبه عفريت بشعلة نار ...): البيهقيُّ [٧/ ٩٥] عن عبدالرحمن بن خَنْبَش.

(٢) حديث (مجيء الشيطان إلى قريش في الائتمار بقتله وتصوره بصورة الشيخ النجدي): ابن أبي حاتم [٨٩٩٤] عن ابن عبَّاسٍ.

(٣) حديث (مجيئه في غزوة بدر في صورة سراقة): ابن أبي حاتمٍ [٩١٥٧] عن ابن عبَّاس.

(٤) [أخرجه مطوَّلاً أحمد (١٥٧٩٨)، وغيره من حديث كعب بن مالك].

(٥) حديث (إنَّ عيسى كُفِي من لمسه ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٢٨٦) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٣٦٦)] عن أبي هريرة.

(٦) حديث (حين لُدَّ في مرضه ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٤٥٨)، ومسلمٍ (٢٢١٣) بنحوه] عن عائشة.

قولـه (وطَلَـبُ عِفْرِيـتٍ): -بضـمِّ المُوَحَّـدةِ- مُضـافٌ إلى مَـا بَعْـدَه.

قولـه (في المُوطَّـإِ): بالهمـزِ وتَرْكِـه.

قولـه (إلى عِـدَاه): -بكسرِ العَينِ، وهُوَ اسمُ جَمْعٍ- أي أعدائِـه مِـنْ كُفَّـارِ قُرَيْـشٍ.

قولـه (في الائتِـمارِ): أي التَّشَـاوُرِ.

قولـه (يُنْـذِرُ بشَـأْنِه): أي يُخْـبِرُ حالَـه ﷺ لِيُخَـوِّفَ النَّـاسَ مِنْـه ويُحَذِّرَهـم عَنْـه.

قولـه (عِنْـدَ بَيعَـةِ العَقَبَـةِ): أي عَقَبَـةِ مِنًـى السُّـفلَى.

قولـه (وعَصَمَـه ضُرَّه): بفتـحِ الضَّـادِ المعْجَمـةِ وضَمِّهَـا، ويُـروَى «وعَصَمَـه مِـن خـيرِه وشَرِّه».

قولـه (كُفِـيَ مِـنْ لَـمْسِه): -بِبِنَـاءِ الفِعْـلِ لِلمجهُـولِ- أي وُقِـيَ، أي حُفِـظَ. قولـه (لِيَطْعَـنَ): -بفتـحِ العَـينِ وضمِّهـا- أي لِيَـضْرِبَ.

قولـه (فطَعَـنَ في الحِجَـابِ): وهِـيَ المَشِـيمةُ، أي الغِشَـاءُ الَّـذي يَكـونُ الجَنِـينُ داخِلَـه، وقِيـلَ: حِجَـابٌ بَـيْنَ مَرْيَـمَ والشَّـيطَانِ.

[الأعراف: ٢٠٠]، ثُمَّ قالَ: ﴿وإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزْغٌ﴾، أيْ يَستَخِفَّنَّكَ غَضَبٌ يَحمِلُكَ على تَرْكِ الإعرَاضِ عَنهُمْ، فاسْتَعِذْ باللهِ.

وقِيلَ: النَّزْغُ هُنا الفَسَادُ، كَما قالَ تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيطَانُ بَيْنِي وبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقِيلَ: يَنْزَغَنَّكَ: يُغْرِيَنَّكَ وَيُحَرِّكَنَّكَ، والنَّزْغُ أَدْنَى الوَسْوَسَةِ، فَأَمَرَهُ اللهُ تعالى أَنَّه مَتَى تَحَرَّكَ عَلَيْهِ غَضَبٌ عَلى عَدُوِّه، أَوْ رَامَ الشَّيْطَانُ مِنْ إغْرَائِه بِه وخَواطِرِ أَدَانِي وَسَاوِسِه، مَا لَمْ يُجْعَلْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَيْهِ، أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنْهُ، فيُكْفَى أَمْرَهُ، ويَكُونُ سَبَبَ تَمَامِ عِصْمَتِهِ؛ إذْ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْه بأكثَرَ مِنَ التَّعَرُّضِ له، ولَمْ يُجْعَلْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ. وقَدْ قِيلَ في هَذِه الآيَةِ غَيْرُ هَذا.

وكذلكَ لا يَصِحُّ أَنْ يَتَصَوَّرَ لَهُ الشَّيْطَانُ في صُورَةِ المَلَكِ ويَلْبِسَ عَلَيْهِ، لا في أَوَّلِ الرِّسَالةِ ولا بَعْدَها، والاعْتِمَادُ في ذلكَ دَلِيلُ المُعْجِزَةِ، بَلْ لا يَشُكُّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنَ اللهِ المَلَكُ ورَسُولُهُ حَقِيقَةً؛ إِمَّا بعِلْمٍ ضَرُورِيٍّ يَخْلُقُهُ اللهُ لَهُ، أَوْ بُرْهَانٍ يُظْهِرُهُ اللهُ لَدَيْهِ؛ لِتَتِمَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وعَدْلًا، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ.

فإنْ قِيلَ: ما مَعْنَى قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]؟

فاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّاسِ في مَعْنَى هذه الآيَةِ أَقاوِيلَ، مِنْهَا السَّهْلُ والوَعْثُ، والسَّمِينُ والغَثُّ، وأَوْلَى مَا يُقَالُ فِيهَا مَا عَلَيْهِ الجُمْهُورُ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ التَّمَنِّيَ هَا هُنَا التِّلَاوَةُ، وإِلْقَاءُ الشَّيْطَانِ فيهَا شَغْلُهُ بخَوَاطِرَ وأذكارٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا لِلتَّالي

قوله (يُغْرِيَنَّكَ): مِن الإغراءِ -بالغَينِ المعجَمةِ والراءِ- وهُوَ الإلزامُ، وفي نسخةٍ «يُغْوِيَنَّكَ» -بالواوِ- مِنَ الإغواءِ.

قوله (أَدْنَى الوَسْوَسَةِ): أي حَديثِ النَّفْسِ والخَطْرةِ التي لَيسَ لها عِبْرَةٌ.

قوله (مِنْ إغرائِه بِه): أي تسليطِه، وفي نسخةٍ «مِنْ إغوائِه» -بالواو- أي إضلالِه.

قوله (مَا لَمْ يُجْعَلْ): -بصيغةِ المجْهُولِ- أي لَمْ يُقَدِّرِ اللهُ له سبيلًا.

قوله (فيُكْفَى أَمْرَه): -بِبِناءِ الفعْلِ للمفعُولِ ونصبِ (أَمْرَه)، ويَحتمِلُ بِنَاءَه للفاعِلِ- أي فيَكْفِي اللهُ أَمْرَه، ويَدْفَعُ شَرَّه.

قوله (ورَسُولُه): أي إنَّه هوَ المرسَلُ إلَيْه بوَحْيِه.

قوله (والوَعْثُ): -بسكونِ العَينِ وكسْرِها وبالمُثَلَّثَةِ- الطريقُ العَسِيرُ، ومِنْه مَا وَرَدَ: (اللهمَّ أَعوذُ بِكَ مِن وَعْثاءِ السفَرِ)(١)، وفي نسخةٍ «والوَعْرُ»، أي الصَّعبُ الوصولِ.

قوله (والغَثُّ): -بفتحِ الغينِ المعجَمةِ وتشديدِ المثلَّثةِ- المهزولُ الضعيفُ الرَّدِيُّ.

قوله (شَغْلُه): -بفتحِ الشينِ المعجَمةِ وضَمِّها، وَفي نسخةٍ «إشغالُه»- أي شَغْلُ الشيطانِ إيَّاهُ.

(١) أخرجه مسلمٌ (١٣٤٢) [كتاب الحج]، وغيره من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

حَتَّى يُدْخِلَ عَلَيْهِ الوَهَمَ والنِّسْيَانَ فِيمَا تَلاهُ، أَوْ يُدْخِلَ غَيْرَ ذَلِكَ عَلَى أَفْهَامِ السَّامِعِينَ مِنَ التحْرِيفِ وَسُوءِ التَّأْوِيلِ مَا يُزِيلُهُ اللهُ ويَنْسَخُهُ، ويَكْشِفُ لَبْسَهُ، ويُحْكِمُ آياتِهِ.

وسيَأْتِي الكَلامُ عَلى هذِه الآيةِ بَعْدُ بأَشْبَعَ مِنْ هَذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وقَدْ حَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ إنْكارَ قَوْلِ مَنْ قَالَ بتَسْلِيطِ الشَّيْطَانِ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وغَلَبَتِهِ عَلَيْه، وَأَنَّ مِثْلَ هَذا لا يَصِحُّ، وقَدْ ذَكَرْنا قِصَّةَ سُلَيْمانَ مُبَيَّنَةً بَعْدَ هَذا، ومَنْ قالَ: إنَّ الجَسَدَ هُوَ الوَلَدُ الَّذي وُلِدَ لهُ.

وقالَ أَبُو محمَّدٍ مَكِّيٌّ في قِصَّةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقَوْلِهِ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ﴾ [ص: ٤١]: إنَّه لا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَأَوَّلَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذي أَمْرَضَهُ، وأَلْقَى الضُّرَّ في بَدَنِه، ولا يَكُونُ ذلِكَ إلا بِفِعْلِ اللهِ وأَمْرِهِ؛ لِيَبْتَلِيَهُمْ ويُثَبِّتَهُمْ، قالَ مَكِّيٌّ: وقَدْ قِيلَ: إنَّ الَّذي أَصَابَهُ بِهِ الشيْطَانُ مَا وَسْوَسَ بهِ إلى أَهْلِهِ.

فإنْ قُلْتَ: فَما مَعْنَى قَوْلِهِ تعالى عَنْ يُوشَعَ: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقَوْلِه تعالى عَنْ يُوسُفَ: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقَوْلِ نَبِيِّنا ﷺ حِينَ نَامَ عَنِ الصَّلاةِ يَوْمَ الوَادِي: (إنَّ هَذا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ)[1]، وقَوْلِ مُوسَى في وَكْزِهِ: ﴿هَذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]؟

فاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الكَلامَ قَدْ يَرِدُ في جَمِيعِ هَذا على مَوْرِدِ مُسْتَمِرِّ كَلامِ العَرَبِ في وَصْفِهِمْ كُلَّ قَبِيحٍ مِنْ شَخْصٍ أَوْ فِعْلٍ بالشَّيْطَانِ أَوْ فِعْلِه، كَما قالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشياطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]،

(١) حديث (حين نام عن الصلاة في الوادي فقال إن هذا واد به شيطان): مسلمٌ [٦٨٠] عن أبي هريرة.

قولـه (الوَهَمَ): أي السَّهْوَ والخطأَ. قوله (على أفهَامِ): في نسخةٍ «في أفهَامِ».

قولـه (ويَنْسَخُه): أي يَرْفَعُه. قولـه (ويَكْشِفُ لَبْسَه): -بفتحِ اللامِ- أي ويُبينَ خَلْطَه.

قوله (بتَسليطِ): وفي نسخَةٍ «بتَسلُّطِ».

قوله (وأنَّ مِثْلَ هذا لا يَصِحُّ): يَعنِي: وإذا كانَ لا يَصِحُّ تَسَلُّطُ الشيطانِ على مُلْكِ سليمانَ في الأمُورِ الدُّنيويَّةِ، فبالأَوْلَى عَدَمُ تَسَلُّطِه على الأنبياءِ في الأمورِ الدينيّةِ والأُخرويّةِ.

قولـه (ومَنْ قالَ: إنَّ الجَسَدَ هوَ الوَلَدُ): أي في قولـه تعالى ﴿وأَلْقَيْنا على كُرْسِيِّه جَسَدًا﴾ [ص: ٤٣].

قوله (بِنُصْبٍ): -بضمِّ النونِ وسكونِ المهمَلةِ، وقُرِئَ بفتحِهَا- أي بِتَعَبٍ.

قولـه (لِيَبْتَلِيَهُم): أي يختبرَهم ويمتحنَهم. وقولـه (ويُثَبِّتَهم): -مِنَ التثبيتِ أوِ الإثباتِ- أي يؤيِّدَهم بالعِصْمَةِ، ويُقَوِّيَهم بالحِكمةِ.

قولـه (ومَا أَنْسَانِيه): بكَسْرِ الهاءِ، والضمُّ لِلإمَامِ حَفْصٍ.

قولـه (في وَكْزِه): وهوَ ضَرْبُه في صَدْرِه. قولـه (هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ): لِصُدورِه مِنْه قَبْلَ أنْ يُؤْذَنَ لـه في ضَرْبِه.

قولـه (عَلَى مَوْرِدِ مُسْتَمِرِ): وفي نسخةٍ «مَوْرِدًا مستَمِرًّا»، بالنصْبِ وبحذفِ (على). قولـه (كأَنَّه رُؤُسُ الشياطِينِ): لِتَناهِي قُبْحِه.

وقالَ ﷺ: (فَلْيُقاتِلْهُ؛ فإنَّما هُوَ شَيْطَانٌ)(١). وأَيْضًا فإنَّ قَوْلَ يُوشَعَ لا يَلزَمُنَا الجَوابُ عَنْه؛ إذْ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ في ذلِكَ الوقتِ نُبُوَّةٌ مَعَ مُوسَى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وإِذْ قالَ موسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، والمَرْوِيُّ أَنَّه إنَّما نُبِّئَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى، وقيلَ: قُبَيْلَ مَوْتِه، وقَوْلُ مُوسَى كانَ قَبْلَ نُبُوَّتِه بدَليلِ القُرآنِ، وقِصَّةُ يُوسُفَ قَدْ ذُكِرَ أنَّها كانَتْ قَبْلَ نُبُوَّتِه.

وقَدْ قالَ المُفَسِّرُونَ في قَوْلِه: ﴿فأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ [يوسف: ٤٢] قَوْلَيْنِ: أحَدُهما: أنَّ الَّذي أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ أَحَدُ صَاحِبَيِ السِّجْنِ، ورَبُّه المَلِكُ، أَيْ أَنْسَاه أَنْ يَذْكُرَ لِلمَلِكِ شَأْنَ يُوسُفَ.

وأَيْضًا فإنَّ مِثْلَ هَذا مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ لَيْسَ فيه تَسَلُّطٌ على يُوسُفَ ويُوشَعَ بوَسْوَاسٍ ونَزْعٍ، وإنَّما هُوَ اشْتِغَالُ خَواطِرِهِما بأُمُورٍ أُخَرَ، وتَذْكِيرُهما مِنْ أُمُورِهما ما يُنْسِيهما ما نَسِيَا.

وأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: (إنَّ هَذا وادٍ به شَيْطَانٌ) فَلَيْسَ فيه ذِكْرُ تَسَلُّطِه عَلَيْه، ولا وَسْوَسَتِه له، بَلْ إنْ كانَ بمُقْتَضَى ظاهِرِه فَقَدْ بَيَّنَ أَمْرَ ذلِكَ الشَّيْطَانِ بقَوْلِه: (إنَّ الشيْطَانَ أَتَى بِلالًا، فَلَمْ يَزَلْ يُهْدِئُهُ كَما يُهْدَأُ الصَّبِيُّ حَتَّى نامَ)(٢)؛ فاعْلَمْ أَنَّ تَسَلُّطَ الشَّيْطَانِ في ذلِكَ الوَادي إنَّما كَانَ على بِلالٍ المُوَكَّلِ بِكِلَاءَةِ الفَجْرِ، هذا إنْ جَعَلْنا قَوْلَهُ: (إنَّ هَذا وَادٍ به شَيْطَانٌ) تَنْبيهًا على سَبَبِ النَّوْمِ عَنِ الصَّلَاةِ، وأَمَّا إنْ جَعَلْنَاهُ تَنْبيهًا على سبَبِ الرَّحيلِ عَنِ الوَادي، وعِلَّةً لِتَرْكِ الصَّلَاةِ بِه، وهُوَ دليلُ مَسَاقِ حَديثِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَلَا اعتِرَاضَ به في هَذا البابِ لِبَيَانِه وارْتِفَاعِ إِشْكالِه.

***

(١) حديث (فليقاتله فإنما هو شيطان): الشيخان [البخاريُّ (٥٠٩)، ومسلمٌ (٥٠٥)] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ.

(٢) حديث (إن الشيطان أتى بلالًا فلم يزل يُهدئه ...): مالكٌ [كتاب وقوت الصلاة (٢٦)] عن زيد بن أسلم، والبيهقيُّ [٤/ ٢٧٣] من طريقه.

قولُه (ورَبُّه المَلِكُ): بكسرِ اللامِ.

قولُه (بِوَسْواسٍ): وفي نسخةٍ «بوَسَاوِيسَ».

قولُه (اشتِغالُ خَواطِرِهِما): وفي نسخةٍ «بِشَغْلِ خواطِرِهما»: أي بسَبَبِه، وفي أخرى بصيغةِ المضارِعِ، وفي أخرى «شَغْلُ» بصيغَةِ المَصدرِ.

قولُه (يُهْدِئُه): -بضمِّ الياءِ وكسرِ الدالِ المهمَلةِ والهمزِ؛ مِن الإهداءِ أو التهدئة- أي يُسكِّنُه عَنِ الحرَكَةِ.

قولُه (كَما يُهْدَأُ الصبيُّ): -بصيغةِ المجهُولِ- بأنْ يُضرَبَ عليه بالكَفِّ على وَجْهِ اللُّطْفِ لِيَنامَ.

قولُه (بِكِلَاءَةِ الفَجْرِ): -بكسرِ الكافِ وفتحِ اللامِ الممدودةِ، وفي نسخةٍ «بكِلَاءَتِه الفَجرَ»- أي حِراسَتِه لِيُخبِرَهم بطلوعِ الفجرِ لِأَجلِ الصّلاةِ.

***

فَصْلٌ [في عصمته ﷺ فيما يُخبِرُ بِه عَنْ رَبِّهِ]

وأَمَّـا أَقْوالُـه ﷺ فقامَـتِ الدَّلائِـلُ الواضِحَـةُ بِصِحَّـةِ المُعْجِـزَةِ عـلى صِدْقِـهِ، وأَجْمَعَتِ الأُمَّـةُ فِيـمَا كانَ طَرِيقُـهُ البَـلَاغَ أَنَّـه مَعْصُـومٌ فيـهِ مِـنَ الإِخْبَـارِ عَـنْ شَيْءٍ مِنْهَـا، بِخِـلافِ مَـا هُـوَ بِـهِ لا قَصْـدًا أَوْ عَمْـدًا، ولا سَـهْوًا وَغَلَطًـا.

أَمَّـا تَعَمُّـدُ الخُلْـفِ في ذلـكَ فمُنْتَـفٍ؛ بدَليـلِ المُعْجِـزَةِ القَائمـةِ مَقَـامَ قَـوْلِ الله تعـالى: «صَـدَقَ عَبْـدِي فِيـمَا قَـالَ» اتِّفَاقًـا، وبِإِطْبَـاقِ أَهْـلِ المِلَّـةِ إِجْمَاعًـا.

وأَمَّـا وُقُوعُـه عـلى جِهَـةِ الغَلَـطِ في ذلـكَ فبِهَـذِه السَّـبِيلِ عِنْـدَ الأُسْـتَاذِ أَبِي إِسْـحاقَ الإِسْـفَرَايِنيِّ ومَـنْ قَـالَ بقَولِـهِ، وَمِـنْ جِهَـةِ الإِجْمَـاعِ فقَـطْ، ووُرُودِ الـشَّرْعِ بانْتِفَـاءِ ذلـكَ، وعِصْمَـةِ النَّبِـيِّ ﷺ لا مِـنْ مُقْتَـضَى المُعْجِـزَةِ نَفْسِـهَا عِنْـدَ القـاضِي أَبِي بَكْـرٍ البَاقِـلَانيِّ ومَـنْ وافَقَـه؛ لِاختـلافٍ بَيْنَهُـمْ في مُقتـضَى دَليـلِ المعْجِـزَةِ، لا نُطِيـلُ بِذِكْـرِهِ؛ فَيَخْـرُجَ عَـنْ غـرَضِ الكِتَـابِ، فلْنَعْتَمِـدْ عـلى مـا وَقَـعَ عَلَيْـهِ إِجْمَـاعُ المسْـلِمينَ أَنَّـهُ لا يَجُـوزُ عَلَيْـهِ خُلْـفٌ في القَـوْلِ في إِبْـلَاغِ الشريعَـةِ، والإِعْـلَامِ بـمَا أَخْـبَرَ بـه عَـنْ رَبِّـه، وَمَـا أَوْحَـاهُ إِلَيْـهِ مِـنْ وَحْيِـهِ لا عـلى وَجْـهِ العَمْـدِ، ولا عـلى غَـيْرِ عَمْـدٍ، ولا في حالَتَـي الرِّضَـا والسَّـخَطِ، والصِّحَّـةِ والمَـرَضِ،

وفي حَدِيـثِ عَبْـدِ الله بْـنِ عَمْـرٍو: قُلْـتُ لِرَسُـولِ الله ﷺ: يـا رَسُـولَ الله، أَكْتُـبُ كُلَّ مـا أَسْـمَعُ مِنْـكَ؟ قـالَ: نَعَـمْ، قُلْـتُ: في الرِّضَـا والغَضَـبِ؟ قـالَ: نَعَـمْ؛ فـإِنِّي لا أَقُـولُ في ذلـكَ كُلِّـهِ إِلَّا حَقًّـا.[1]

وَلْنَرِدْ ما أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ دَليلِ المُعْجِزةِ عَلَيْهِ بيَانًا، فنَقُولُ:

(١) حديث ابن عمرو (قلت: يا رسول الله، اكتب كل ما أسمع...): أحمد [٦٥١٠]، والحاكم [١/ ١٠٥] وصحَّحه، وأبو داود [٣٦٤٦].

قولـه (فقامَـتِ الدَّلائلُ الواضحـةُ): وفي نسـخةٍ «فقَـدْ قامَـتِ الدَّلالـةُ اللائحةُ».

قولـه (بِصِحَّـةِ المعجـزةِ عـلى صِدْقِـه): كانشـقاقِ القمَـرِ وغـيرِه مِـنْ خَـوارقِ العـاداتِ.

قولـه (فِيـما كانَ طريقُـه البَـلاغَ): أي تبليـغَ الشرائـعِ والأحـكامِ.

قولـه (مِنَ الإخبـارِ عَـنْ شَيْءٍ): -بكسرِ الهمـزةِ- أي الإعلامِ.

قولـه (أَمَّـا تَعَمُّـدُ الخُلْـفِ): -بضـمِّ الخـاءِ- وهُـوَ إِخْـلافُ المَوْعِـدِ، وهُـوَ في المسـتقبَلِ كالكَـذِبِ في المـاضي.

قولـه (البَاقِـلَّانيِّ): بكسرِ القـافِ وتشـديدِ الـلَّامِ.

قولـه (ومَـا أَوْحَـاه إِلَيْـه): وفي نسـخةٍ «وبِـمَا أَوْحَـاه».

قولـه (في حَالَتَـي الرِّضَـا والسَّـخَطِ): بكسْرِ الـراءِ وتُضَـمُّ، المَحبَّـةُ، و«السَّـخَطِ» بفتحتَـينِ، وبضَـمٍّ فسـكونٍ.

قولـه (ولْنَـرِدْ)[1]: -بفتـحِ النـونِ وكـسرِ الـراءِ؛ مِـنَ الـوُرُودِ- أي ولْنَذْكُـرْ، (ولا يُبَلِّـغُ): -بالتشـديدِ والتخفيـفِ- أي لا يُخْـبِرُ.

(١) وفي نسخة الشهاب: «ولنزد».

إذًا قامَتِ المعْجِزَةُ على صِدْقِه، وأنَّه لا يَقُولُ إلَّا حَقًّا، ولا يُبَلِّغُ عَنِ الله تعالى إلا صِدْقًا، وأَنَّ المُعْجِزةَ قائِمَةٌ مَقَامَ قَوْلِ الله تعالى لَهُ: «صَدَقْتَ فيمَا تَذْكُرُهُ عَنِّي»، وهُوَ يَقُولُ: «إنِّي رَسُولُ الله إلَيْكُمْ لِأُبَلِّغَكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إلَيْكُمْ ولِأُبَيِّنَ لَكُمْ ما نُزِّلَ عَلَيْكُمْ»، ﴿ومَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤]، و﴿قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بالحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، ﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عَنْه فانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]؛ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجَدَ مِنْه في هَذا البابِ خَبَرٌ بخِلَافِ مُخْبَرِه على أَيِّ وَجْهٍ كانَ.

فَلَوْ جَوَّزْنَا الغَلَطَ والسَّهْوَ لَمَا تَمَيَّزَ لَنَا مِنْ غَيْرِه، ولاخْتَلَطَ الحَقُّ بالباطِلِ، فالمعجِزَةُ مُشْتَمِلَةٌ على تَصْدِيقِه جُمْلَةً واحِدَةً مِنْ غَيْرِ خُصُوصٍ، فتَنْزِيهُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ ذلكَ كُلِّهِ وَاجِبٌ بُرْهَانًا وإِجْمَاعًا كَمَا قالَهُ أَبُو إِسْحَاقَ.

***

قوله (صَدَقْتَ فِيما تَذْكُرُه عَنِّي): ورُوِيَ «صَدَقَ عَبْدِي فِيمَا يَذْكُرُه... إلخ».

قوله (لِأُبَلِّغَكم): -بالتشديد والتخفيف- أي لِأُخْبِرَكم.

قوله (ما نُزِّلَ عَلَيْكم): بِبِناءِ الفِعْلِ لِلفاعلِ مُخَفَّفًا، أو لِلمفعولِ مُثَقَّلًا.

قوله (مُخْبَرِه): -بضمِّ الميمِ وفتحِ الموحَّدةِ- أي مَا أَخْبَرَ بِه.

***

فَصْلٌ [فِي رَدِّ شُبَهٍ مُتعلِّقةٍ بِعِصْمتِهِ ﷺ في إبْلاغِ الشَّريعةِ]

وقَدْ تَوجَّهَتْ ها هُنا لِبَعْضِ الطَّاعِنِينَ سُؤَالاتٌ:

مِنْهَا مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ «والنَّجمِ»، وقالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ والعُزَّى * ومَنَاةَ الثالِثَةَ الأُخْرى﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، قالَ: (تلْكَ الغرانيقُ العُلَى، وإِنَّ شفاعَتَها لَتُرْتَجى)، ويُرْوَى (لَتُرْتَضَى)، وفي رِوايَةٍ: (إِنَّ شَفَاعَتَها لَتُرْتَجَى، وإِنَّها لَمَعَ الغَرانِيقِ العُلَى)، وفي أُخْرَى: (والغَرانِقَةُ العُلَى، تلكَ لِلشَّفاعَةِ تُرْتَجَى)، فلَمَّا خَتَمَ السُّورةَ سَجَدَ وسَجَدَ مَعَه المُسْلِمُونَ والكُفَّارُ لَمَّا سَمِعُوهُ أَثْنَى على آلِهَتِهِمْ.(١)

ومَا وَقَعَ في بَعْضِ الرِّواياتِ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَلْقاهَا على لِسانِه، وأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ تَمَنَّى أَنْ لَوْ نَزَلَ عَلَيْه شَيْءٌ يُقارِبُ بَيْنَهُ وبَيْنَ قَوْمِهِ، وفي رِوايةٍ أُخْرى: أَنْ لا يُنْزَلَ عَلَيْه شَيْءٌ يُنَفِّرُهُمْ عَنْهُ، وذَكَرَ هذه القِصَّةَ، وأَنَّ جبْريلَ جَاءَهُ فعَرَضَ عَلَيْه هَذِهِ السُّورَةَ، فلَمَّا بَلَغَ الكَلِمَتَيْنِ قالَ له: مَا جِئْتُكَ بِهاتَيْنِ، فَحَزِنَ لِذَلِكَ النبيُّ ﷺ، فأَنْزَلَ اللهُ تَسْلِيَةً لَهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، وقوْلَه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣].

(١) حديث (أنه قرأ سورة والنجم ....): قال المصنف تبعًا للقاضي أبي بكر بن العربي أنه لا أصل له. وقال ابن حجر: ليس كما قالاه، فقد ورد ذلك من طريق تقتضي أن للحديث أصلًا؛ فأخرجه ابن جرير [١٦/ ٦٠٧] وابن أبي حاتم [١٣٩٩٨] وابن المنذر [كما في «الدر المنثور» ٦/ ٦٥] من طرق عن سعيد بن جبير مرسلًا، ووصله البزَّار [٥٠٩٦] وابن مردويه [كما في «الدر المنثور» ٦/ ٦٦] من طريق آخر عنه عن ابن عبَّاسٍ فيما أحسب وإسناده جيد. وأخرجه النحاس بسند فيه الواقدي عن ابن عبَّاسٍ، وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه، وابن جرير من طريق العوفي عنه وعن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي العالية وكلها مرسلة، وابن أبي حاتم عن السدي وموسى بن عقبة في المغازي عن الزهري، وهذه الطرق الكثيرة تدل على أن للقصة أصلًا وقد استوعبتها في التفسير المسند [انظر: ٦/ ٦٥ -٧٠].

قوله (اللَّاتَ): صنَمُ ثَقيفٍ بالطائفِ. قوله (والعُزَّى): تأنيثُ «الأَعَزِّ»، شجرةٌ كانَتْ لِهُزَيلٍ وخُزاعةَ.

قوله (الغرانيقُ العُلَا): جمعُ «غُرْنُوقٍ» بضمِّ المعجَمةِ والنونِ، وبكسرِها وفتحِ النونِ، ويُقالُ «غُرْنَيْقٌ» -بضمِّ المعجَمةِ وسكونِ الراءِ وفتحِ النونِ، ويقالُ كقِنْديلٍ، وهِيَ في الأصْلِ الذَّكَرُ مِن طيرِ الماءِ طَويلِ العُنُقِ، قيلَ: هُوَ الكُرْكِيُّ.

قوله (إنَّ شفاعتَها لَتُرْتجى): -بصيغةِ المجهولِ- أي تُتوَقَّعُ.

قوله (لَمَّا سَمِعُوه): بفتحِ اللامِ وتشديدِ الميمِ، أو بكسرِ اللامِ وتخفيفِ الميمِ.

قوله (يُنَفِّرُهم عَنْه): -بتشديدِ الفاءِ- أي يُبْعِدُهم عَنْه.

قوله (فعَرَضَ علَيْه هذه السُّورةَ): أي سُورةَ النَّجْمِ، وفي نسخةٍ بدونِ (هذه).

فاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّ لَنا في الكَلامِ على مُشْكِلِ هَذا الحَديثِ مَأْخَذَيْنِ: أَحَدُهُما: في تَوْهِينِ أَصْلِهِ، والثَّاني: على تَسْليمِهِ.

أَمَّا المَأْخَذُ الأَوَّلُ: فيَكْفِيكَ أَنَّ هَذا لَمْ يُخَرِّجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّحَّةِ، ولا رَوَاهُ ثِقَةٌ بسَنَدٍ سَليمٍ مُتَّصِلٍ، وإنَّما أُولِعَ بِهِ وبمِثْلِهِ المُفَسِّرُونَ والمؤرِّخُونَ المُولَعُونَ بكُلِّ غَريبٍ، المُتَلَقِّفُونَ مِنَ الصُّحُفِ كُلَّ صحيحٍ وسَقيمٍ.

وصَدَقَ القاضي بَكْرُ بْنُ العَلاءِ المالِكِيُّ حيْثُ قالَ: لَقَدْ بُلِيَ النَّاسُ ببَعْضِ أَهْلِ الأَهْواءِ والتفاسيرِ، وتَعَلَّقَ بذلِكَ المُلْحِدُونَ مَعَ ضَعْفِ نَقَلَتِهِ، واضْطِرابِ رِواياتِهِ، وانقِطاعِ إِسْنادِهِ، واخْتِلافِ كَلِماتِهِ، فقائِلٌ يَقُولُ: إنَّهُ في الصَّلاةِ، وآخَرُ يَقُولُ: قالَها في نادِي قَوْمِهِ حينَ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ السُّورَةُ، وآخَرُ يَقُولُ: قالَها، وقَدْ أَصابَتْهُ سِنَةٌ، وآخَرُ يَقُولُ: بَلْ حَدَّثَ نَفْسَهُ، فسَها، وآخَرُ يَقُولُ: إنَّ الشَّيْطانَ قالَها على لِسانِه، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا عَرَضَها على جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ قالَ: ما هكَذا أَقْرَأْتُكَ، وآخَرُ يَقُولُ: بَلْ أَعْلَمَهُمُ الشَّيْطانُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرَأَها، فلَمَّا بَلَغَ النَّبيَّ ﷺ ذلكَ قالَ: «واللهِ، ما هكَذا نُزِّلَتْ»، إلى غَيْرِ ذلِكَ مِنَ اخْتِلافِ الرُّواةِ.

ومَنْ حُكِيَتْ عَنْه هَذِه الحِكايَةُ مِنَ المُفَسِّرينَ والتابعِينَ، لَمْ يُسْنِدْها أَحَدٌ مِنْهُمْ، ولا رَفَعَها إلى صاحِبٍ، وأَكْثَرُ الطُّرُقِ عَنْهُمْ فيها ضَعيفَةٌ واهِيَةٌ، والمَرْفُوعُ فيهِ حَديثُ شُعْبَةَ عَنْ أَبي بِشْرٍ، عَنْ سَعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيما أَحْسِبُ -الشَّكُّ في الحَديثِ- أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ بمَكَّةَ، وذَكَرَ القِصَّةَ.

قالَ أَبُو بَكْرٍ البَزَّارُ: هَذا الحديثُ لا نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَنِ النَّبيِّ ﷺ بإسْنادٍ مُتَّصِلٍ يَجُوزُ ذِكْرُهُ إلا هَذا، ولَمْ يُسْنِدْهُ عَنْ شُعْبَةَ إلا أُمَيَّةُ بْنُ خالِدٍ، وَغَيْرُهُ يُرْسِلُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَإِنَّما يُعْرَفُ عَنِ الكَلْبِيِّ، عَنْ أَبي صالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

قوله (مأخَذَيْنِ): أي طريقَيْنِ نَمْنَعُ بِهِما مَن يَتَشَبَّثُ بهذه الرِّوَاياتِ.

قوله (في تَوْهِينِ أصْلِه): أي تضعيفِ نَقْلِه.

قوله (سَليم): أي سالِمٍ الاضطرابِ والعِلَّةِ. وقوله (مُتَّصِلٍ): أي مَرفوعًا أو موقوفًا، بَلْ رَواه جماعةٌ بأسانيدَ ضَعيفةٍ.

قوله (والمؤرِّخُونَ): -بالهمزةِ وتَرْكِه- أي أربابُ التواريخِ. قوله (المُولَعُونَ): -بضمِّ الميمِ وفتحِ اللامِ- أي الحَريصُونَ.

وقوله (المُتَلَقِّفُونَ): وفي نسخةٍ «المُلَفِّقونَ» -بتشديدِ الفاءِ المكسُورةِ بَعْدَها قافٌ- أي المُرَقِّعُونَ.

قوله (لَقَدْ بُلِيَ): -بضمِّ الموحَّدةِ وكسْرِ اللامِ- أي ابتُلِيَ. قوله (المُلْحِدُونَ): أي المائلونَ عَنِ الحَقِّ.

قوله (سِنَةٌ): -بكسرِ السينِ وتخفيفِ النونِ- أي نُعاسٌ.

قوله (ما هكَذا نُزِّلَتْ): بصيغةِ المجهُولِ مشدَّدًا، أو المعلومِ مُخَفَّفًا.

قوله (ضَعيفةٌ واهِيَةٌ): أي مُنكَرةٌ جِدًّا.

قوله (عَنْ أَبي بِشْرٍ): -بكسرِ الموحَّدةِ وسُكونِ الشينِ المعجَمةِ- تابِعِيٌّ. قوله (قالَ أبو بَكْرٍ البَزَّارُ): بتشديدِ الزّاي وراءٍ في آخِره.

فَقَدْ بَيَّنَ لَكَ أَبُو بَكْرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّه لا يُعْرَفُ مِنْ طَرِيقٍ يَجُوزُ ذِكْرُهُ سِوَى هَذا، وفِيه مِنَ الضَّعْفِ مَا نَبَّه عَلَيْه، مَعَ وُقُوعِ الشَّكِّ فيه كما ذَكَرْنَاهُ، الَّذي لا يُوثَقُ بِه، ولا حَقِيقَةَ مَعَهُ.

وأَمَّا حَديثُ الكَلْبِيِّ فمِمَّا لا تَجُوزُ الرِّوَايةُ عَنْه، ولا ذِكْرُهُ؛ لِقُوَّةِ ضَعْفِهِ وكَذِبِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ البَزَّارُ -رَحِمَهُ اللهُ.

والَّذي مِنْه في الصَّحيحِ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرَأَ «والنَّجْم»، وهُوَ بمَكَّةَ، فسَجَدَ مَعَه المُسْلِمُونَ والمُشرِكُونَ، والإِنْسُ والجِنُّ.[1]

هَذَا تَوْهِينُه مِنْ طَرِيقِ النَّقْلِ، فأَمَّا مِنْ جِهَةِ المَعْنَى فقَدْ قامَتِ الحُجَّةُ، وأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ على عِصْمَتِهِ ﷺ ونَزَاهَتِه عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الرَّذِيلَةِ؛ إِمَّا مِنْ تَمَنِّيهِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْه مِثْلُ هذا مِنْ مَدْحِ غَيْرِ اللهِ، وهُوَ كُفْرٌ، أَوْ أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَيْه الشَّيْطَانُ، ويُشَبَّهَ عَلَيْه القُرآنَ حَتَّى يَجْعَلَ فيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، ويَعْتَقِدَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ مِنَ القُرآنِ ما لَيْسَ مِنْهُ حَتَّى يُنَبِّهَهُ جبْريلُ عليه السلام، وذلك كُلُّهُ مُمْتَنِعٌ في حَقِّهِ ﷺ، أَوْ يَقُولَ ذلكَ النبيُّ ﷺ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ عَمْدًا، وذلكَ كُفْرٌ أَوْ سَهْوٌ، وهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

وقَدْ قَرَّرْنا بالبرْهَانِ والإِجْماعِ عِصْمتَه ﷺ مِنْ جَرَيَانِ الكُفْرِ على قَلْبِهِ أَوْ لِسَانِه؛ لا عَمْدًا ولا سَهْوًا، أَوْ أَنْ يَتَشَبَّهَ عَلَيْه ما يُلْقِيهِ المَلَكُ مِمَّا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، أَوْ يَكُونَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، أَوْ يَتَقَوَّلَ على الله تعالى لا عَمْدًا ولا سَهوًا ما لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْه، وقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ...﴾ الآيةَ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقالَ: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وضِعْفَ المَمَاتِ...﴾ الآيةَ [الإسراء: ٧٥].

ووَجْهٌ ثانٍ: وهُوَ اسْتِحالَةُ هَذِهِ القِصَّةِ نَظَرًا وعُرْفًا؛ وذلكَ أَنَّ هذا الكَلَامَ لَوْ كَانَ كَمَا رُوِيَ لَكَانَ بَعِيدَ الالتِئَامِ، مُتَنَاقِضَ الأَقْسَامِ،

(١) حديث (أنه قرأ النجم وهو بمكة ...): الشيخان [البخاريُّ (١٠٧١)، ولم أجده في صحيح مسلم] عن ابن عبَّاس.

قولُه (الذي لا يُوثَقُ): (الذي) صِفَةٌ لِلشَّكِّ، والضميرُ في (به) يَعودُ إِلَيْه، أي مَعَ وُقوعِ الشَّكِّ الَّذي لا يُوثَقُ بِهِ.

قولُه (والَّذي مِنْه): أي مِن حديثِ سُورةِ النَّجْم. قولُه (وهُوَ بمَكَّةَ): أي قَبْلَ الهِجرةِ.

قولُه (الرَّذِيلةِ): أي الخَصْلةِ الدَّنِيئةِ، ويُرْوَى «النَّقِيصَةِ».

قولُه (أو أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَيْه الشيطَانُ): أي أوْ مِنْ أَنْ يَتَسَلَّطَ عليْه الشيطَانُ.

قولُه (ويُشَبَّهَ): -بتشديدِ الموَحَّدَةِ- أي يُلَبَّسَ.

قولُه (مِنْ جَرَيانِ الكُفْرِ على قَلْبِه): أيْ باعتقادِ جَنَانِه.

قولُه (أَوْ أَنْ يَتَشَبَّهَ عليْه مَا يُلقِيه): أي أوْ مِنْ [أنْ] يَتَلَبَّسَ علَيْه مَا يُلْقِيه.

قولُه (أو يَتَقَوَّلَ): أيْ أوْ مِنْ أنْ يَفْتَرِيَ على اللهِ، وهْوَ لا يَتَقَوَّلُ عَنِ اللهِ.

قولُه (ما لَمْ يُنْزَلْ علَيْهِ): بصيغةِ المجْهُولِ أو المعروفِ.

قولُه (ضِعْفَ الحَيَاةِ وضِعْفَ المَمَاتِ): أيْ عَذَابًا مُضاعَفًا في الدُّنيا وبَعْدَ الوَفَاةِ.

قولُه (مُتناقِضَ الأقسَامِ): أي متبايِنَ المَرام.

مُمْتَزِجَ المَدْحِ بالذَّمِّ، مُتخاذِلَ التَّأْليفِ والنَّظْمِ، ولَمَّا كانَ النَّبيُّ ﷺ ولا مَنْ بحَضْرَتِه مِنَ المُسْلِمينَ وصَنادِيدِ المُشْرِكينَ مِمَّنْ يَخْفَى عَلَيْهِ ذلِكَ، وهَذا لا يَخْفَى على أَدْنَى مُتَأَمِّلٍ، فكَيْفَ بمَنْ رَجَحَ حِلْمُهُ، واتَّسَعَ في بابِ البَيانِ ومَعْرِفَةِ فَصيحِ الكَلامِ عِلْمُهُ؟!

ووَجْهٌ ثالِثٌ: أَنَّه قَدْ عُلِمَ مِنْ عادَةِ المنافِقينَ ومُعانِدي المُشْرِكينَ، وضَعَفَةِ القُلوبِ والجَهَلَةِ مِنَ المسْلِمينَ، نُفُورُهُمْ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وتَخْليطُ العَدُوِّ على النبيِّ ﷺ لِأَقَلِّ فِتْنَةٍ، وتَعْييرُهُم المُسْلِمينَ، والشَّماتُ بِهِمْ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، وارْتِدادُ مَنْ في قَلْبِهِ مَرَضٌ مِمَّنْ أَظْهَرَ الإسْلامَ لِأَدْنَى شُبْهَةٍ، ولَمْ يَحْكِ أَحَدٌ في هَذِه القِصَّةِ شَيْئًا سِوَى هَذِه الرِّوايَةِ الضَّعيفَةِ الأَصْلِ، ولَوْ كانَ ذلك لَوَجَدَتْ قُرَيْشٌ بها على المُسْلِمينَ الصَّوْلَةَ، ولَأَقامَتْ بها اليَهودُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ، كَما فَعَلُوهُ مُكابَرَةً في قِصَّةِ الإسْراءِ حَتَّى كانَتْ في ذلِكَ لِبَعْضِ الضُّعَفاءِ رِدَّةٌ، وكَذَلِكَ ما رُوِيَ في قِصَّةِ «القَضِيَّةِ»[1]، ولا فِتْنَةَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِه البَلِيَّةِ لَوْ وُجِدَتْ، ولا تَشْغِيبَ لِلْمُعادِي حِينَئِذٍ أَشَدُّ مِنْ هَذِه الحادِثَةِ لَوْ أَمْكَنَتْ، فَما رُوِيَ عَنْ مُعانِدٍ فيها كَلِمَةٌ، ولا عَنْ مُسْلِمٍ بسَبَبِها بِنْتُ شَفَةٍ؛ فَدَلَّ على بُطْلِها، واجْتِثاثِ أَصْلِها.

ولا شَكَّ في إدْخالِ بَعْضِ شَياطِينِ الإنْسِ والجِنِّ هذا الحَديثَ على بَعْضِ مُغَفَّلِي المُحَدِّثِينَ؛ لِيُلَبِّسَ بِهِ على ضُعَفاءِ المُسْلِمينَ.

ووَجْهٌ رابِعٌ: ذَكَرَ الرُّواةُ لِهَذِه القَضِيَّةِ أَنَّ فيها نَزَلَتْ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ الآيَتَيْنِ [الإسراء: ٧٣-٧٤][2].

وهَاتانِ الآيَتانِ تَرُدَّانِ الخَبَرَ الَّذي رَوَوْهُ؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ أَنَّهُمْ كادُوا

(١) [قضية الحديبية، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام رأى رؤيا عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه، فصده المشركون فرجع إلى المدينة، فكان رجوعه بعد أن أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم].

(٢) قوله (ذكر الرواة بهذه القصة أن فيها نزلت: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾): ابن أبي حاتم [١٣٣٥٤] عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ.

قوله (متخاذِلَ التأليفِ): -بالخاءِ والذالِ المعجمتينِ- متفاعِلٌ؛ مِن الخِذلانِ، وهو تركُ النصرِ. وقوله (والنَّظْمِ): أي نَظْمِ الكَلامِ.

قوله (صَنادِيدِ المشركِينَ): أي رُؤَسائِهم في مَكَّةَ مِن قُرَيْشٍ وغَيْرِه.

قوله (فكَيْفَ بمَنْ رَجَحَ): وفي نسخةٍ «فكَيْفَ مِمَّنْ»، و(رَجَحَ): -بفتحِ الجيمِ المخفَّفةِ- أي غَلَبَ.

قوله (ومعانِدي المشركِينَ): وفي نسخةٍ «ومُعانَدةِ»، وفي أخرى «ومُعاداةِ».

قوله (لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ): أي في أَوَّلِ ساعةٍ. قوله (الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ): -بالفاءِ والنونِ المفتوحتَيْنِ بَيْنَهما تحتيّةٌ ساكنةٌ- أي الحِينَ بَعْدَ الحِينِ.

قوله (الصَّوْلَةَ): أي الاستطالةَ والغَلَبَةَ. قوله (ولا تَشْغِيبَ): -بالشينِ والغينِ المعجمتينِ- أي لا تَهَيُّجَ لِلفتنةِ والشَّرِّ. قوله (للمُعادِي): أي لِلعَدُوِّ.

قوله (بِنْتُ شَفَةٍ): أي لفظةٌ تَخْرُجُ مِن الشَّفَةِ.

قوله (مُغَفَّلِي المُحَدِّثِينَ): -بفتحِ الفاءِ المشدَّدةِ- أي الغافِلِينَ عَن الدِّرايةِ. قوله (لِهذه القَضِيَّةِ): -وفي نسخةٍ «القِصَّةِ»- الواقعةِ في سورةِ النَّجْمِ. قوله (لَيَفْتِنونَكَ): أي يُضِلّونَكَ. قوله (تَرُدَّانِ الخَبَرَ): أي تُنافيانِه وتُعارِضانِه.

يَفْتِنُونَهُ؛ حَتَّى يَفْتَرِيَ، وأَنَّهُ لَوْلَا أَنْ ثَبَّتَهُ لَكَادَ يَرْكَنُ إِلَيْهِمْ، فمَضْمُونُ هَذا ومَفْهُومُه أَنَّ اللهَ تعالى عَصَمَهُ مِنْ أَنْ يَفْتَرِيَ، وثَبَّتَهُ حَتَّى لَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهِمْ قَلِيلًا، فكَيْفَ كَثِيرًا، وهُمْ يَرْوُونَ في أَخْبارِهِم الوَاهِيَةِ أَنَّهُ زَادَ على الرُّكُونِ والافتِراءِ بمَدْحِ آلِهَتِهِمْ، وأَنَّهُ قالَ ﷺ: «افْتَرَيْتُ على اللهِ، وقُلْتُ ما لَمْ يَقُلْ»، وهَذا ضِدُّ مَفْهُومِ الآيَةِ، وَهِي تُضَعِّفُ الحَدِيثَ لَوْ صَحَّ، فكَيْفَ ولا صِحَّةَ لَهُ؟!

وهَذا مِثْلُ قَوْلِهِ في الآيَةِ الأُخْرى: ﴿ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عليْكَ ورَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ منْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ...﴾ الآيَةَ [النساء: ١١٣].

وقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ: كُلُّ ما في القرآنِ «كادَ» فهُوَ ما لا يَكُونُ[1]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَكادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]، ولَمْ يَذْهَبْ، و﴿أَكادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ولَمْ يَفْعَلْ.

قالَ القُشَيْرِيُّ القاضِي: ولَقَدْ طالَبَتْهُ قُرَيْشٌ وثَقِيفٌ إِذْ مَرَّ بآلِهَتِهِمْ أَنْ يُقْبِلَ بوَجْهِهِ إِلَيْها، ووَعَدُوهُ الإيمانَ به إِنْ فَعَلَ، فَمَا فَعَلَ، ومَا كانَ لِيَفْعَلَ، قالَ ابْنُ الأَنْبارِيِّ: ما قارَبَ الرَّسُولُ، ولا رَكَنَ.

وقَدْ ذُكِرَتْ في مَعْنَى الآيَةِ تَفاسِيرُ أُخَرُ، مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ نَصِّ اللهِ تعالى عَلَى عِصْمَةِ رَسُولِه يَرُدُّ سَفْسَافَهَا، فلَمْ يَبْقَ في الآيَةِ إِلا أَنَّ اللهَ تعالى امْتَنَّ على رَسُولِهِ بعِصْمَتِهِ وتَثْبِيتِهِ مِمَّا كَادَهُ بِهِ الكُفَّارُ، ورامُوهُ مِنْ فِتْنَتِهِ، ومُرَادُنا مِنْ ذلكَ كُلِّهِ تَنْزِيهُه وعِصْمَتُهُ ﷺ، وهُوَ مَفْهُومُ الآيَةِ.

---

(١) حديث ابن عبَّاسٍ (كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون): ابن أبي حاتم [٧٤٢].

قوله (حَتَّى لَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهم): وفي نسخةٍ «لَمْ يَكُنْ يَرْكَنُ».

قوله (الواهيةِ): أي الضعيفةِ المُنْكَرةِ.

قوله (الرُّكونِ): أي المَيْلِ إِلَيْهم.

قوله (وهي تُضَعِّفُ الحديثَ لَوْ صَحَّ): لِأنَّ دلالةَ القرآنِ قطعيةٌ، وروايةَ الحديثِ ظَنِّيَّةٌ.

قوله (لَهَمَّتْ طائفةٌ مِنهم أنْ يُضِلُّوكَ): عَنِ الحقِّ بَيْنَ الناسِ.

قوله (وَمَا يَضُرُّونكَ مِن شَيْءٍ): أي لِأَنَّ وَبَالَ إضلالِهم رَجَعَ إِلَيْهم.

قوله (فهو ما لا يكونُ): -ويُروى «ما لَمْ يَكنْ»- أي إذا كانَ الكَلامُ موجَبًا لِأنَّ نفسَ المقاربةِ تَدُلُّ على عدَمِ الواقعةِ؛ كادَ يَفعَلُه: قارَبَ ولَمْ يَفعَلْ؛ فإنْ كانَتْ مجرَّدةً تُنبئُ عَن نَفيِ الفعلِ، وإنْ كانَتْ مقرونةً بالجَحْدِ تُنبئُ عَن وقوعِه.

قوله (وثَقِيفٌ): أي قبيلتُه مِن أهلِ الطَّائفِ.

قوله (فما فَعَلَ): أي الإقبالَ الصُّوريَّ.

قوله (ولا رَكَنَ): أي ولا مالَ إِلَيْهم فيما قَصَدُوه.

قوله (يَرُدُّ سَفسافَها): أي رَدِيئَها، وأَصْلُ السَّفسافِ مَا يَطِيرُ مِن غُبارِ الدقيقِ إذا نُخِلَ.

قوله (ورامُوه مِنْ فِتْنَتِه): أي وقَصَدُوا بَعْضَ مِحْنَتِه وبَلِيَّتِه، لِيَفْتَرِيَ على ربِّه ما يخالِفُ مُقْتَضَى نُبُوَّتِه ورِسالَتِه.

وأَمَّـا المَأْخَـذُ الثَّـانِي: فهُـوَ مَبْنِيٌّ عـلى تَسْـلِيم الحديـثِ لَـوْ صَـحَّ، وقَـدْ أَعَاذَنـا اللهُ مِـنْ صِحَّتِـهِ؛ ولَكِـنْ عـلى ذلـكَ مِـنْ حَـالٍ فَقَـدْ أَجَـابَ عَـنْ ذلـكَ أَئِمَّـةُ المُسْـلِمِينَ بأَجْوِبَـةٍ، مِنْهَـا الغَـثُّ والسَّـمِينُ.

فمِنْهَـا مَـا رَوَاهُ قَتَـادَةُ ومُقاتِـلٌ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ أَصَابَتْـهُ سِـنَةٌ عِنْـدَ قـراءَةِ هَـذِهِ السُّـورةِ، فجَـرَى هَـذا الـكَلَامُ عـلى لِسَـانِه بحُكْـمِ النَّـوْمِ.

وهَـذا لا يَصِـحُّ؛ إذْ لا يَجُـوزُ عـلى النَّبِـيِّ ﷺ مِثْلُـه في حَالَـةٍ مِـنْ أَحْوالِـه، ولا يَخْلُقُـهُ اللهُ عـلى لِسَـانِه، ولا يَسْـتَوْلِي الشَّـيْطانُ عَلَيْـه في نَـوْمٍ ولا يَقَظَـةٍ لِعِصْمَتِـهِ في هَـذَا البـابِ مِـنْ جَمِيـعِ العَمْـدِ والسَّـهْوِ.

وَفي حديـثِ الكَلْبِـيِّ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ حَـدَّثَ نَفْسَـهُ، فقَـالَ ذلـكَ الشَّـيْطَانُ عـلى لسَـانِه، وفي رِوايـةِ ابـنِ شِـهَابٍ عَـنْ أَبِي بَكْـرِ بْـنِ عَبْـدِ الرحمـنِ، قـالَ: وَسَـهَا فَلَـمَّا أُخْـبِرَ بذلـك قـالَ: إنَّـما ذلِـكَ مِـنَ الشَّـيْطَانِ.

وكُلُّ هَـذا لا يَصِـحُّ أَنْ يَقُولَـهُ ﷺ لا سَـهْوًا ولا قَصْـدًا، ولا يَتَقَوَّلَـه الشَّـيْطَانُ عـلى لِسَـانِهِ.

وقِيـلَ: لَعَـلَّ النَّبِـيَّ ﷺ قالَـه أَثْنَـاءَ تِلَاوَتِـهِ عـلى تقديـرِ التقريـرِ والتوبيـخِ لِلكُفَّـارِ، كقَـوْلِ إبْراهيـمَ: ﴿هـذا رَبِّي﴾ [الأنعـام: ٧٦]، عـلى أَحَـدِ التَّأْويـلاتِ، وكقَوْلِـهِ: ﴿بَـلْ فَعَلَـه كَبِيرُهـمْ هَـذا﴾ [الأنبيـاء: ٦٣]، بَعْـدَ السَّـكْتِ وبَيَـانِ الفَصْـلِ بَـيْنَ الكَلَامَـيْنِ، ثُـمَّ رَجَـعَ إلى تِلَاوَتِـهِ، وهَـذا مُمْكِـنٌ مَـعَ بَيَـانِ الفَصْـلِ، وقَرِينَـةٍ تَـدُلُّ عـلى المُـرَادِ، وأَنَّـه لَيْـسَ مِـنَ المَتْلُـوِّ، وهُـوَ أَحَـدُ مَـا ذَكَـرَهُ القـاضي أَبُـو بَكْـرٍ. ولا يُعْـتَرَضُ عـلى هَـذا بِـما رُوِيَ أَنَّـه كانَ في الصَّـلاةِ؛ فقَـدْ كانَ الـكَلَامُ قَبْـلُ فيهَـا غَـيْرَ مَمْنُـوعٍ.

والَّـذِي يَظْهَـرُ ويَتَرَجَّـحُ في تأْويلِـهِ عِنْـدَه وعِنْـدَ غَـيْرِه مِـنَ المُحَقِّقِـينَ عـلى تَسْـلِيمِهِ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كانَ كَـما أَمَـرَهُ رَبُّـهُ يُرَتِّـلُ القُـرْآنَ تَرْتِيـلًا، ويُفَصِّـلُ الآيَ في تِلَاوَتِـه تَفْصِيـلًا، كَـما رَوَاهُ الثِّقَـاتُ عَنْـه؛ فيُمْكِـنُ تَرَصُّـدُ الشَّـيْطَانِ لِتلْـكَ السَّـكَتَاتِ، ودَسُّـه فيهَـا مـا اخْتَلَقَـهُ مِـنْ تِلْـكَ الكَلِـماتِ، مُحَاكِيًـا نَغْمَـةَ النَّبِـيِّ ﷺ؛ بحَيْـثُ يَسْـمَعُهُ مَـنْ دَنَـا إلَيْـهِ مِـنَ الكُفَّـارِ، فَظَنُّوهـا مِـنْ قَـوْلِ النَّبِـيِّ ﷺ،

قولـه (وأَمَّـا المَأْخَـذُ الثـاني): أي في الـكَلامِ عـلى مُشْـكِلِ هـذا الحديـثِ.

قولـه (ولكِـنْ عـلى ذلـك مِـن حَـالٍ): وفي نسْـخةٍ «ولَكِـنْ عـلى كُلِّ حَـالٍ».

قولـه (الغـثُّ والسـمينُ): الأَوَّلُ بفتـحِ المعجَمةِ وتشـديدِ المُثَلَّثـةِ، أي القـولُ الضعيـفُ والقـويُّ.

قولـه (إنَّـما ذلـك مِـن الشـيْطَانِ): أي مِـن إلقائِـه.

قولـه (وكُلُّ هـذا): أي جميـعُ مَـا ذَكَرْنَـاه بحَسَـبِ الظاهـرِ (لا يَصِـحُّ... إلـخ).

قولـه (عـلى تقديـرِ التقريـرِ): أي التسـليمِ في صِحَّتِـه.

قولـه (هـذا رَبِّي): أي هـذا الحَقـيرُ أو المخلـوقُ مِثْـلُ رَبِّي.

قولـه (بَـلْ فَعَلَـه كَبِيرُهـم هـذا): أي عـلى وَجْـهِ التَّوْرِيَـةِ الَّتِـي هـيَ مِـن مَعاريـضِ الـكَلَامِ.

قولـه (تَـدُلُّ عـلى المُـرَادِ): أي مِـن أَنَّـه إنَّـما قالَـه تَوْبِيخًـا وتقبيحًـا لِقَوْلِهـم.

قولـه (يُرَتِّـلُ القـرآنَ ترتيـلًا): أي يَقـرَؤُه مترتِّـلًا.

وأَشَاعُوهَا، ولَمْ يَقْدَحْ ذلكَ عِنْدَ المُسْلِمِينَ؛ لِحِفْظِ السُّورَةِ قَبْلَ ذلِكَ على مَا أَنْزَلَهَا اللهُ، وتَحَقُّقِهِمْ مِنْ حَالِ النَّبيِّ ﷺ في ذَمِّ الأَوْثَانِ وعَيْبِهَا مَا عُرِفَ عَنْه.

وقَدْ حَكَى مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ في مَغَازِيه نَحْوَ هَذا، وقالَ: إنَّ المُسْلِمِينَ لَمْ يَسْمَعُوهَا، وإنَّمَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ذلك في أسْمَاعِ المُشْرِكِينَ وقُلُوبِهِمْ، ويَكُونُ مَا رُوِيَ مِنْ حُزْنِ النَّبيِّ ﷺ لِهذِه الإشاعَةِ والشُّبْهَةِ وسَبَبِ هذِه الفِتْنَةِ، وقَدْ قالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إِلَّا إذا تَمَنَّى...﴾ الآية [الحج: ٥٢]، فمَعْنَى «تَمَنَّى» تَلَا؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أَيْ تِلَاوَةً، وقَوْلُه: ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ﴾ [الحج: ٥٢]، أَيْ يُذْهِبُه ويُزِيلُ اللَّبْسَ به، ويُحْكِمُ آياتِه.

وقِيلَ: مَعْنَى الآيَةِ هُوَ مَا يَقَعُ لِلنَّبيِّ ﷺ مِنَ السَّهْوِ إذا قَرَأَ، فيَنْتَبِهُ لِذلكَ، ويَرْجِعُ عَنْه. وهَذا نَحْوُ قَوْلِ الكَلْبيِّ في الآيةِ أنَّه حَدَّثَ نَفْسَه، وقالَ: ﴿إذَا تَمَنَّى﴾، أَيْ حَدَّثَ نَفْسَه، وفي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرحمنِ نَحْوُهُ. وهَذا السَّهْوُ في القِراءَةِ إنَّمَا يَصِحُّ فِيمَا لَيْسَ طَرِيقُهُ تَغْيِيرَ المَعَانِي، وتَبْدِيلَ الألْفَاظِ، وزِيَادَةَ مَا لَيْسَ مِنَ القُرآنِ؛ بَلِ السَّهْوُ عَنْ إسْقَاطِ آيَةٍ مِنْهُ أَوْ كَلِمَةٍ، ولَكِنَّه لا يُقَرُّ على هَذا السَّهْوِ، بَلْ يُنَبَّهُ عَلَيْه، ويُذَكَّرُ به لِلحِينِ على مَا سَنَذْكُرُهُ في حُكْمِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ السَّهْوِ، ومَا لا يَجُوزُ.

ومِمَّا يَظْهَرُ في تَأْوِيلِه أَيْضًا أَنَّ مُجَاهِدًا رَوَى هَذه القِصَّةَ: (والغَرَانِقَةُ العُلَا)، فإنْ سَلَّمْنا القِصَّةَ قُلْنَا: لا يَبْعُدُ أَنَّ هَذا كانَ قُرآنًا، والمُرادُ بـ(الغَرانِقَةُ العُلَا، وإنَّ شَفاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى) المَلائكةُ على هَذه الرِّوَايَةِ.

وبِهَذا فَسَّرَ الكَلْبيُّ «الغَرانِقَةَ» أَنَّهَا المَلائكَةُ؛ وذلكَ أَنَّ الكُفَّارَ كانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الأَوْثَانَ والملائكةَ بَنَاتُ الله، كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُم، ورَدَّ عَلَيْهِم في هَذِه السُّورَةِ بقَوْلِه: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَه الأُنْثَى﴾ [النجم: ٢١]، فأَنْكَرَ اللهُ كُلَّ هَذا مِنْ قَوْلِهِم.

قوله (قَبْلَ ذلك): أي قَبْلَ وَسْوَسَةِ الشيطانِ. قوله (لِحِفْظِ السُّورةِ): ويُرْوَى «بحِفْظِ السُّورَةِ»، أي بسبَبِ حِفْظِهم سورةَ النَّجْمِ.

قوله (وعَيْبِها): أي عَيْبِه إيَّاهَا. قوله (مُوسى بنُ عُقْبَةَ): ابنُ أَبِي عَيَّاشٍ[1].

قوله (أيْ تِلَاوةً): أي مُجَرَّدَ قِراءةٍ خاليةٍ عَن دِرايةٍ.

قوله (ويُزِيلُ اللَّبْسَ): -بفتحِ اللام- أي يُزِيلُ خَلْطَ الحَقِّ بالباطلِ بسَبَبِه. قوله (ولكِنَّه لا يُقَرُّ): -بصيغةِ المجهُولِ وتشديدِ الراءِ- أي لا يَتْرُكُه على هذا السهْوِ.

قوله (كَمَا حَكَى الله عَنهم): بِقولِه تعالى: ﴿وجَعَلُوا الملائكةَ الذين هُمْ عِبَادُ الرَّحمنِ إناثًا...﴾ الآيةَ [الزخرف: ١٩].

---

(١) جاء في الأصل المطبوع «محمد بن عقبة»، وفي نسخة الشهاب والقاري «موسى بن عقبة»، وهو الصواب.
قال الشهاب: كذا في جل النسخ، وفي بعضها «محمد بن عقبة» ... وهو موسى بن عقبة بن أبي عياش ... ثبت ثقة، توفي سنة إحدى أو اثنين وأربعين ومائة، وأخرج له الستة، ومغازيه من أصح المغازي كما قاله مالك.

وَرَجَاءُ الشَّفَاعةِ مِنَ المَلائكةِ صَحيحٌ، فلَمَّا تَأَوَّلَهُ المُشرِكُونَ على أَنَّ المُرادَ بِهذا الذِّكرِ آلِهَتُهُمْ، ولَبَّسَ عَلَيْهِم الشَّيْطانُ ذلكَ، وزَيَّنَهُ في قُلُوبِهِمْ، وأَلْقاهُ إِلَيْهِم، نَسَخَ اللهُ مَا أَلْقَى الشيْطانُ، وأَحْكَمَ آياتِهِ، ورَفَعَ تِلَاوَةَ تِلْكَ اللَّفْظَتَيْنِ اللَّتينِ وَجَدَ الشَّيْطانُ بِهِمَا سَبِيلًا لِلْإِلْبَاسِ، كَمَا نُسِخَ كَثِيرٌ مِنَ القُرآنِ، ورُفِعَتْ تِلاوَتُهُ.

وكانَ في إِنْزالِ اللهِ تعالى لِذلكَ حِكْمَةٌ، وفي نَسْخِهِ حِكْمَةٌ؛ لِيُضِلَّ بهِ مَنْ يَشَاءُ، ويَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ، وما يُضِلُّ بهِ إلا الفاسِقِينَ، و﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، والقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّه الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فيُؤْمِنُوا بِهِ فتُخْبِتَ له قُلُوبُهُم...﴾ الآيةَ [الحج: ٥٣-٥٤].

وقِيلَ: إِنَّ النبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرَأَ هَذه السُّورَةَ، وبَلَغَ ذِكْرَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ الثالثةِ الأُخْرَى، خافَ الكُفَّارُ أَنْ يَأتِيَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَمِّهَا، فسَبَقُوا إلى مَدْحِهَا بِتِلكَ الكَلِمَتَيْنِ؛ لِيُخَلِّطُوا في تِلَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، ويُشَغِّبُوا عَلَيْهِ عَلى عادَتِهِمْ وقَوْلِهِم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القرآنِ وَالغَوْا فيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ونُسِبَ هذا الفِعْلُ إلى الشَّيْطانِ لِحَمْلِهِ لَهُمْ عَلَيْهِ، وأَشاعُوا ذلكَ عَلَيْهِ، وأَذَاعُوهُ، وأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَه، فحَزِنَ لِذلكَ مِنْ كَذِبِهِمْ وافترائِهِمْ عَلَيْهِ، فسَلَّاهُ اللهُ بقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ...﴾ الآيةَ [الحج: ٥٢]، وبَيَّنَ لِلنَّاسِ الحَقَّ مِنْ ذلكَ مِنَ الباطِلِ، وحَفِظَ القُرْآنَ، وأَحْكَمَ آيَاتِه، ودَفَعَ ما لَبَّسَ به العَدُوُّ، كَمَا ضَمِنَهُ اللهُ تعالى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قوله (سَبِيلًا لِلإلباسِ): أي لِلشبهَةِ المُفتِنةِ لِلناسِ.

قوله (ورُفِعَتْ تِلاوَتُه): أي مَعَ حُكْمِه أو بدُونِ حُكْمِه؛ مِنها آيةُ الرَّجْمِ، ومِنْها مَا وَرَدَ: (لَوْ كانَ لِابنَ آدمَ وادِيَانِ مِن ذَهَبٍ لَابْتَغَى ثالثًا، ولَنْ يَمْلَأَ جوفَ ابنِ آدَمَ إلَّا الترابُ ويَتُوبُ اللهُ على مَنْ تابَ)[1].

قوله (وما يُضِلُّ به إلا الفاسِقِينَ): أي الخارِجينَ مِن طريقِ وفاتِه.

قوله (لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ): أي خِلَافٍ بَعِيدٍ عَن طريقِ الصَّوابِ.

قوله (ولِيَعْلَمَ الّذين أُوتُوا العِلْمَ): أي مِنَ المؤمِنِينَ.

قوله (فتُخْبِتَ لهُ قُلُوبُهم): أي تَطْمَئِنَّ زيادةً على إيقانِهِم.

قوله (ويُشَغِّبُوا): -بتشديدِ الغينِ المعجمةِ- أي يُثِيرُوا الشرَّ ويُهَيِّجُوا الفتنةَ.

قوله (وأَذَاعُوْه): أي أَفْشَوْه فيما بَيْنَهمْ.

قوله (وما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رسولٍ... إلخ): إيماءٌ إلى أنَّ هذا مِنَ السُّنةِ الَّتي قَدْ خَلَتْ في عِبادِه.

قوله (ودَفَعَ ما لَبَّسَ): بتشديدِ الموحَّدةِ.

قوله (وكَمَا ضَمِنَه اللهُ): أيْ تَكَفَّلَه وضَمِنَ حِفْظَه المفهومَ مِن قولِه ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ...﴾ إلخ [الحجر: ٩].

(١) أخرجه أحمد (٢١١١١)، وابن حِبَّان (٣٢٣٧)، والضياء في «المختارة» (١٢٠٩)، وغيرهم من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بإسناد صحيح. وفي الباب عن عددٍ من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

ومِنْ ذلكَ مَا رُوِيَ مِنْ قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّه وَعَدَ قَوْمَه بالعَذابِ عَنْ رَبِّه، فلَمَّا تَابُوا كُشِفَ عَنْهُمُ العَذابُ، فقالَ: لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ كَذَّابًا أَبَدًا، فذَهَبَ مُغَاضِبًا.

فاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّه لَيْسَ في خَبَرٍ مِنَ الأَخْبَارِ الوَارِدَةِ في هَذا البَابِ أَنَّ يُونُسَ قالَ لهمْ: إِنَّ اللهَ مُهْلِكُكُمْ، وإِنَّما فيهِ أَنَّه دَعَا عَلَيْهِمْ بالهَلَاكِ، والدُّعاءُ لَيْسَ بخبَرٍ يُطلَبُ صِدْقُه مِنْ كَذِبِه؛ لَكِنَّهُ قالَ لَهُمْ: إِنَّ العَذَابَ مُصبِّحُكُمْ وَقْتَ كذا وكذا، فكَانَ ذلك كَما قالَ، ثُمَّ رَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ العَذَابَ وتَدارَكَهُمْ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ...﴾ الآيةَ [يونس: ٩٨].

ورُوِيَ في بَعْضِ الأَخْبارِ أَنَّهُمْ رأَوْا دَلائِلَ العَذابِ ومَخايِلَهُ، قالَهُ ابنُ مَسْعُودٍ[(١)]. وقالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: غَشَّاهُمُ العَذَابُ كَما يُغَشِّي الثَّوْبُ القَبْرَ.

فإنْ قُلْتَ: فَما مَعْنَى ما رُوِيَ مِنْ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي سَرْحٍ كانَ يَكْتُبُ لِرسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا، وسَارَ إلى قُرَيْشٍ، فقالَ لهمْ: إِنِّي كُنْتُ أُصَرِّفُ محمَّدًا حيْثُ أُرِيدُ؛ كانَ يُمْلِي عَلَيَّ (عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، فأَقُولُ: أَوْ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، فيَقولُ: نَعَمْ كُلٌّ صَوَابٌ.[(٢)]

وفي حَدِيثٍ آخَرَ: فيَقُولُ لهُ النَّبِيُّ ﷺ: اكْتُبْ كذَا، فيَقُولُ: أَكْتُبُ كذَا؟ فيَقُولُ: اكْتُبْ كَيْفَ شِئْتَ، ويَقُولُ لهُ: اكْتُبْ (عليمًا حكيمًا)، فيَقُولُ: أَكْتُبُ (سَميعًا بَصيرًا)؟ فيَقُولُ لهُ: اكْتُبْ كيفَ شِئْتَ[(٣)].

(١) حديث ابن مسعود (أن قوم يونس رأوا دلائل العذاب ومخايله): ابن مردويه [كما في الدر ٤/ ٢٩٢] مرفوعًا، وابن أبي حاتم [١٠٥٩٧] موقوفًا.

(٢) حديث (أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب ...): ابن جرير [٩/ ٤٠٥] عن عكرمة.

(٣) قوله (وفي حديث آخر فيقول له اكتب كذا...): ابن جرير [٩/ ٤٠٥] عن السدِّي.

قولـه (تابُوا): أي بَعْدَ خُروجِه وظهورِ مُقَدِّمَةِ وَعِيدِه. قوله (كُشِفَ عَنْهم العَذابُ): قِيلَ في يومِ جُمُعةٍ في عاشوراءَ. قوله (فذَهَبَ مُغاضِبًا): أي على هَيئةِ الغَضْبانِ.

قوله (إلا قَوْمَ يُونُسَ): استثناءٌ منقطِعٌ مِن (القُرَى)؛ إذِ المرادُ أهلُها؛ أي لَكِنْ قومُه.

قوله (ومَخايِلَه): أي مَظانَّه، جَمْعُ «مَخِيلةٍ» [أي مَظِنَّةٍ] أو سحابةٍ فيها عقوبَةٌ.

قوله (عَبْدَ اللهِ بنَ أَبِي سَرْحٍ): -بفتحِ السِّينِ المهمَلةِ وسكونِ الراءِ، وفي آخِرِه حاءٌ مُهمَلةٌ- أَسْلَمَ قبلَ الفتحِ.

قوله (ارتَدَّ مشركًا): وفي روايةٍ «كافرًا». قوله (وسَارَ): وفي نسخةٍ «وَصَارَ».

قوله (كُلٌّ صَوابٌ): أي في نفسِ الأمرِ؛ إذْ نَزَلَ عليه بهذا كتابٌ، فيكونُ مِن السَّبعةِ الأحرُفِ الَّتِي نُسِخَتْ مِن كُلِّ بابٍ.

قوله (اكتُبْ كذا): كِنايةٌ عَمَّا كانَ يأمُرُه بكتابتِه. قوله (فيَقولُ): أي ابنُ أَبِي سَرْحٍ.

وفي الصَّحيحِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَصرَانِيًّا كانَ يَكْتُبُ لِلنَّبيِّ ﷺ بَعْدَمَا أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ، وكانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي محمَّدٌ إلا مَا كَتَبْتُ لهُ.[1]

فاعْلَمْ -ثَبَّتَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ على الحَقِّ، ولا جَعَلَ لِلشَّيْطَانِ وتَلْبِيسِهِ الحَقَّ بالباطِلِ إلَيْنا سَبِيلًا- أَنَّ مِثْلَ هَذه الحِكايَةِ أَوَّلًا لا تُوقِعُ في قَلْبِ مُؤْمِنٍ رَيْبًا؛ إِذْ هِيَ حِكايَةٌ عَمَّنِ ارْتَدَّ وكَفَرَ باللهِ، ونَحْنُ لا نَقْبَلُ خَبَرَ المُسْلِمِ المُتَّهَمِ، فكَيْفَ بكافرٍ افتَرَى هُوَ ومِثْلُه على اللهِ ورُسُلِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذا؟!

والعَجَبُ لِسَلِيمِ العَقْلِ يَشْغَلُ بمِثْلِ هذه الحِكايَةِ سِرَّه، وَقَدْ صَدَرَتْ مِنْ عَدُوٍّ كافرٍ مُبْغِضٍ لِلدِّينِ، مُفتَرٍ على اللهِ ورَسُولِه، ولَمْ يَرِدْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، ولا ذَكَرَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّه شَاهَدَ ما قالَه وافْتَرَاهُ على نَبِيِّ اللهِ، و﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بآياتِ اللهِ...﴾ الآيةَ [النحل: ١٠٥].

ومَا وَقَعَ مِنْ ذِكْرِهَا في حَدِيثِ أَنَسٍ، وظاهِرِ حِكَايَتِها لهُ فَلَيْسَ فيه مَا يَدُلُّ على أَنَّه شاهَدَها، ولَعَلَّهُ حَكَى مَا سَمِعَ، وقَدْ عَلَّلَ البَزَّارُ حَدِيثَهُ ذلكَ، وقالَ: رَوَاهُ ثابتٌ عَنْه، ولَمْ يُتابَعْ عَلَيْه، ورَوَاهُ حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ، قالَ: وأَظُنُّ حُمَيْدًا إِنَّما سَمِعَهُ مِنْ ثابِتٍ.

قالَ القاضي أَبُو الفَضْلِ:

ولِهَذَا -واللهُ أَعلَمُ- لَمْ يُخَرِّجْ أَهْلُ الصَّحيحِ حَدِيثَ ثابِتٍ ولا حُمَيْدٍ، والصَّحيحُ حَدِيثُ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ رَفِيعٍ عَنْ أَنَسٍ الَّذي خَرَّجَه أَهْلُ الصِّحَّةِ، وذَكَرْنَاهُ، ولَيْسَ فيهِ عَنْ أنسٍ قَوْلُ شَيْءٍ مِنْ ذلكَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ إلا مِنْ حِكايَتِهِ عَنِ المُرْتَدِّ النَّصْرانيِّ، ولَوْ كانَتْ صَحيحةً لَمَا كانَ فيهَا قَدْحٌ ولا تَوْهِيمٌ للنبيِّ ﷺ فيما

قولُه (وفي الصَّحيحِ): أي صحيحِ البخاريِ مِن طريقِ عَبدِ العزيزِ، وفي «مُسْلِمٍ» مِن طريقِ ثابتٍ، كلاهما عَن أَنَسٍ. قولُه (مَا يَدْرِي محمدٌ إلا مَا كَتَبْتُ له): وفي نسخةٍ «مَا يَدْرِي محمدٌ مَا كَتَبْتُ له»، أي مَا يَشعُرُ بكِتابَتي فيما غَيَّرْتُ سَهْوًا أو قَصْدًا.

قولُه (رَيْبًا): أي شَكًّا وشُبهةً. وقولُه (ونحنُ): أي معاشرُ المحدِّثينَ.

قولُه (مُبْغِضٌ لِلدِّينِ): اسمُ فاعلٍ مِن «أَبْغَضَ» ضِدُّ «أَحَبَّ»، ورُوِيَ «مُنَغِّصٌ» مِنَ التنغيصِ، وهُوَ التكديرُ، ورُوِيَ بالقافِ مِنَ النَّقْصِ.

قولُه (أَنَّه شاهَدَها): أي الحكايةَ أو القضيَّةَ، وفي نسخةٍ «شَاهَدَه»، أي الحاكيَ حالَ إسلامِه.

قولُه (ولَمْ يُتابَعْ): بصيغةِ المجهولِ. وقولُه (ورَوَاه حُمَيْدٌ): أي الطَّويلُ.

قولُه (لَمْ يُخَرِّجْ أَهلُ الصَّحيحِ): وفي نسخةٍ «أهلُ الصِّحةِ».

قولُه (عبدِ العزيزِ بنِ رَفيعٍ): هُوَ تابعيٌّ جليلٌ ثِقةٌ، رَوَى عَنِ ابنِ عَبّاسٍ وابنِ عُمَرَ، ورَوَى عنه شُعبةَ وأبي بكرِ بنِ عَيَّاشٍ، تُوُفِّيَ سَنةَ ثَلاثٍ ومائةٍ، وأَخرَجَ له الأئمةُ السِّتةُ.

قولُه (لَمَا كانَ فيها): أي في مضمونِها. وقولُه (قَدْحٌ): أي طَعْنٌ.

قولُه (ولا توهيمٌ): أي نِسبةٌ إلى الوَهَمِ، وفي نسخةٍ «ولا تَوْهِينٌ»: أي نسبةٌ إلى الوَهْنِ.

---

[1] حديث أنس (أنّ نصرانيًا كان يكتب ...): البخاريُّ [(٣٦١٧)، وأخرجه مسلمٌ أيضًا (٢٧٨١)].

أُوحِيَ إِلَيْهِ، ولا جَوازٌ لِلنِّسْيَانِ والغَلَطِ عَلَيْهِ والتحريفِ فِيمَا بَلَّغَهُ، ولا طَعْنٌ في نَظْمِ القرآنِ، وأنَّه مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ إذْ لَيْسَ فيه -لَوْ صَحَّ- أَكْثَرُ مِنْ أَنَّ الكاتِبَ قَالَ لَه: (عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، أَوْ كَتَبَهُ، فقالَ لَه النَّبيُّ: كذلكَ هُوَ، فَسَبَقَهُ لِسانُه أَوْ قَلَمُهُ لِكَلِمةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ مِمَّا نَزَلَ على الرَّسُولِ ﷺ قَبْلَ إظْهَارِ الرَّسُولِ لها، إذْ كانَ مَا تقدَّمَ مِمَّا أَمْلَاهُ الرَّسُولُ يَدُلُّ عَلَيْهَا، ويَقْتَضِي وُقُوعَهَا بِقُوَّةِ قُدْرَةِ الكاتِبِ على الكَلَامِ، ومَعْرِفَتِهِ به، وجَوْدَةِ حِسِّهِ وفِطْنَتِهِ، كَمَا يَتَّفِقُ ذلكَ لِلْعَارِفِ إذا سَمِعَ البَيْتَ أَنْ يَسْبِقَ إلى قافِيَتِهِ، أَوْ مُبْتَدأَ الكَلامِ الحَسَنِ إلى مَا يَتِمُّ بِهِ، ولا يَتَّفِقُ ذلكَ في جُمْلَةِ الكَلَامِ، كَمَا لا يَتَّفِقُ ذلكَ في آيَةٍ ولا في سُورَةٍ.

وكذلكَ قَوْلُه ﷺ -إنْ صَحَّ-: (كُلٌّ صَوَابٌ)؛ فَقَدْ يَكُونُ هَذا فيما كانَ فيهِ مِنْ مَقَاطِعِ الآيِ وَجْهَانِ وقِرَاءَتَانِ، أُنْزِلَتَا جَمِيعًا على النَّبيِّ ﷺ، فأَمْلَى إحْدَيْهِمَا، وتَوَصَّلَ الكاتِبُ بِفِطْنَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ بِمُقْتَضَى الكَلَامِ إلى الأُخْرَى، فذَكَرَهَا لِلنَّبيِّ ﷺ قَبْلَ ذِكْرِه لَهَا، فصَوَّبَهَا لَهُ النَّبيُّ ﷺ، ثُمَّ أَحْكَمَ اللهُ -تعالى- مِنْ ذلك مَا أَحْكَمَ، ونَسَخَ مَا نَسَخَ، كَمَا قَدْ وُجِدَ ذلك في بَعْضِ مَقَاطِعِ الآيِ، مِثْلُ قَوْلِه تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وهَذِه قِرَاءَةُ الجُمْهُورِ، وقَدْ قَرَأَ جماعةٌ: (فإنَّكَ أنتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ)، ولَيْسَتْ مِنَ المُصْحَفِ.

قوله (والتحريفِ): أي الزَّيغِ والمَيلِ.

قوله (ولا طَعْنٌ في نَظْمِ القرآنِ): أي لا مِن جِهَةِ مَبانِيه، ولا مِن طريقِ مَعَانِيه.

قوله (كذلكَ هُوَ): أي مِثْلُ ما قُلْتَه أو كَتَبْتَه.

قوله (ويَقْتَضِي وُقُوعَهَا): أي في مَحَلِّها اللائقِ لها.

قوله (ومَعْرِفَتِه بِه): أي بالكَلَامِ نَظْمًا ونَثْرًا في ترتيبِ المَرَامِ.

قوله (وجَوْدَةِ حِسِّه): أي إدراكِه ودِرَايَتِه. وقوله (وفِطْنَتِه): أي سُرْعةِ فَهْمِه عِنْدَ سَمَاعِ رِوايَتِه.

قوله (كُلٌّ صوابٌ): أي كُلُّ ما قُلْتَه أو كَتَبْتَه.

قوله (إنْ صَحَّ): وفي نسخةٍ «إنْ صَحَّتْ».

قوله (مَقاطعِ الآياتِ): أي رُؤُسِهَا ومَوَاقِفِها، ويُرْوَى «الآيِ».

قوله (وَجْهانِ وقراءتانِ): أي جَائزَانِ مُتواتِرتانِ[1].

قوله (ومَعرِفَتِه بمُقْتَضَى الكَلامِ): ومَا يَتَعَلَّقُ بفصَاحتِه وبَلاغتِه.

قوله (قَدَّمْنَاه): على مَا يُشِيرُ إليه.

قوله (ثُمَّ أَحْكَمَ اللهُ -تعالى- مِن ذلك): أي مِمَّا ذَكَرَ مِن (عَلِيم حَلِيم) بَدَلَ (غَفور رَحِيم).

قوله (ونَسَخَ مَا نَسَخَ): أي أَزَالَه لِحِكمةٍ اقتَضَتْ ذلك؛ كقولِه تعالى: (الشيخُ والشيخَةُ إذا زَنَيَا فارجُمُوهما البَتَّةَ)[2].

قوله (ولَيْسَتْ مِنَ المُصْحَفِ): -وفي نسخةٍ «ولَيْسَتْ في المُصحَفِ»- أي فهِيَ مَتْلُوَّةٌ لا مكتوبةٌ.

---

(١) أي وجهان جائزان، وقراءتان متواترتان.

(٢) هذا مِمَّا رُفع ونُسخ مِن القرآن، وأخرجه عبدالرزاق (٥٩٩٠)، والطيالسي (٥٤٢)، و أحمد (٢١٢٠٧)، وابن حِبَّان (٤٤٢٨)، والحاكم (٢/ ٤١٥) وغيرهم مِن حديث أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبيُّ. ونسخ التلاوة مبحثٌ أصوليٌّ تكلم فيه العلماء.

قولـه (كيـفَ نُنْشِرُهَـا): بالـراءِ وهْـيَ قـراءةُ نافـعٍ وابـنِ كَثـيرٍ، وبالـزايِ في قـراءةٍ.

قولـه (ويَقْـضِ الحَـقَّ): بضـادٍ معجَمـةٍ مكسُـورَةٍ في قـراءةِ ابـنِ عمـرٍو وابـنِ عامـرٍ وحَمـزةَ والكسـائيِّ، وحَـذفُ يائِـه في الرسـمِ عـلى خِـلافِ القِيَـاسِ تَنزيـلًا لِلوَقْـفِ مَنزلـةَ الوصـلِ؛ أي يَقْـضِي القَضَـاءَ الحَـقَّ، وبِصَـادٍ مهمَلـةٍ مشـدَّدةٍ؛ أي يُتبِعُـه ويَحكيـه.

قولـه (ولا يُسَبِّبُ لِلنبـيِّ غَلَطًـا): -بتشـديد البـاءِ الأُولى المكسُـورَة- أي لا يَصِـيرُ سَـببًا... إلـخ.

وقوله (ولا وَهَمًا): -بفتحِ الهاءِ وسكونِها- أي تَوَهُّمًا.

قولـه (وقَـدْ قيـلَ: إنَّ هـذا): أي قـولَ ابـنِ أَبِي سَرْحٍ لِقُرَيْـشٍ بَعْـدَ رِدَّتِـه «كُنْـتُ أُصَرِّفُ محمَّـدًا كَيْـفَ أُرِيـدُ».

قولـه (كَيْـفَ شـاءَ): عـلى نهـجِ المطلـوبِ، ويُـروى «بـمَا شـاءَ»، وكثـيرًا مَـا يَقَـعُ مِثـلُ ذلـك الاختـلافِ بَـيْنَ المُمْـلِي وَالمُمْـلَى عَلَيْـه ثُـمَّ يَحْصُـلُ الائتـلافُ.

***

وكذلـكَ كَلِـمَاتٌ جـاءَتْ عـلى وَجْهَـيْنِ في غَـيْرِ المَقَاطِـعِ، قَـرَأَ بِهِـمَا مَعًـا الجُمْهُـورُ، وثَبَتَـا في المُصْحَـفِ؛ مِثْـلُ: ﴿وانْظُـرْ إلى العِظَـامِ كَيْـفَ نُنْشِرُهَـا﴾، و﴿نُنْشِـزُهَا﴾ [البقـرة: ٢٥٩]، و﴿يَقْـضِ الحَـقَّ﴾، و﴿ يَقُـصُّ الحَـقَّ﴾ [الأنعـام: ٥٧].

وكُلُّ هـذَا لا يُوجِـبُ رَمْيًـا، ولا يُسَـبِّبُ لِلنَّبِـيِّ ﷺ غَلَطًـا ولا وَهَمًـا.

وقَـدْ قِيـلَ: إنَّ هَـذا يَحْتَمِـلُ أَنْ يَكُـونَ فيـما يَكْتُبُـه عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ إلى النَّـاسِ غَـيْرَ القـرآنِ، فيَصِـفُ اللهَ تعـالى في ذلـكَ ويُسَـمِّيهِ كَيْـفَ شَـاءَ.

***

فَصْلٌ [في عِصْمَتِه ﷺ فيما يُخْبِرُ بِه عَنْ أمُورِ الدُّنيا وأحْوالِ نفسِه]

هذَا القَوْلُ فِيمَا طَرِيقُه البَلَاغُ، وأَمَّا مَا لَيْسَ سَبِيلُهُ سَبِيلَ البَلَاغِ مِنَ الأَخْبارِ الَّتِي لا مُسْتَنَدَ لَهَا إِلى الأَحْكَامِ ولا أَخْبارِ المَعَادِ، ولا تُضَافُ إلى وَحْيٍ؛ بَلْ في أُمُورِ الدُّنْيَا وأَحْوَالِ نَفْسِهِ، فالَّذِي يَجِبُ اعتِقادُهُ تَنْزِيهُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَنْ يَقَعَ خَبَرُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذلِك بِخِلَافِ مُخْبَرِه؛ لا عَمْدًا ولا سَهْوًا ولا غَلَطًا، وأَنَّه مَعْصُومٌ مِنْ ذلكَ في حالِ رِضَاهُ، وفي حَالِ سَخَطِهِ وجِدِّهِ ومَزْحِهِ وصِحَّتِهِ ومَرَضِهِ.

ودَلِيلُ ذلك اتِّفاقُ السَّلَفِ وإِجْماعُهُمْ عَلَيْهِ، وذَلِكَ أَنَّا نَعْلَمُ مِنْ دِينِ الصَّحابَةِ وعَادَتِهِمْ مُبادَرَتَهُمْ إلى تَصْدِيقِ جَمِيعِ أَقْوالِهِ، والثِّقَةَ الثِّقَةَ بِجَمِيعِ أَخْبارِهِ في أَيِّ بَابٍ كانَتْ، وعَنْ أَيِّ شَيْءٍ وَقَعَتْ، وأَنَّه لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَوَقُّفٌ ولا تَرَدُّدٌ في شَيْءٍ مِنْهَا، ولا اسْتِثْباتٌ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ ذلكَ هَلْ وَقَعَ فيهَا سَهْوٌ أَمْ لا؟

ولَمَّا احْتَجَّ ابْنُ أَبِي الحُقَيْقِ اليَهُودِيُّ على عُمَرَ حِينَ أَجْلاهُمْ مِنْ خَيْبَرَ بِإِقْرارِ رَسُولِ الله ﷺ لَهُمْ، واحْتَجَّ عَلَيْهِ عُمَرُ بقَوْلِهِ ﷺ: (كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ)، فقَالَ اليَهُودِيُّ: كانَتْ هُزَيْلَةً مِنْ أَبِي القَاسِمِ، فقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ يا عَدُوَّ الله.[1]

وأَيْضًا فإِنَّ أَخْبارَهُ وآثَارَهُ وسِيَرَهُ وشَمَائِلَهُ مُعْتَنًى بِهَا، مُسْتَقْصًى تَفَاصِيلُهَا، ولَمْ يَرِدْ في شَيْءٍ مِنْهَا اسْتِدْرَاكُهُ ﷺ لِغَلَطٍ في قَوْلٍ قالَهُ، أَوِ اعْتِرافُهُ بِوَهَمٍ في شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ،

---

(١) حديث (لما احتجَّ ابن أبي الحقيق على عمر...): البخاريُّ [٢٧٣٠].

قولـه (لا مُسْتَنَدَ لهـا إلى الأحكامِ): المتعلِّقةِ بالأمورِ الدنيويةِ في حسنِ المَعاشِ. وقوله (ولا أخبارِ المَعادِ): -بفتح الميم- أي أحاديثِ الأحوالِ الأُخرويةِ. قوله (بَلْ في أُمورِ الدنيا): أي التي ليسَ لها تعلقٌ بالأُخرى.

قوله (بخِلافِ مُخْبَرِه): -بضم الميم وفتح الموحَّدَة- أي بضِدِّ ما أَخْبَرَ به. قوله (سَخَطِه): -بفتحتينِ وبضمٍّ فسكونٍ- أي كراهَتِه وغَضَبِه.

قوله (والثِّقَةَ بجميعِ أخبارِه): أي أحاديثِه وآثارِه. قوله (وعَنْ أيِّ شَيْءٍ): وفي نسخةٍ «وفي أيِّ شَيْءٍ».

قوله (وأنَّه): أي الشأنَ، وفي نسخةٍ صحيحةٍ «وأنَّهُمْ».

قوله (في شَيْءٍ مِنْها): أي مِن صِحَّةِ أقوالِه وأفعالِه وثُبوتِ أحوالِه.

قوله (ولا استِثْباتٌ): أي طَلَبُ ثَباتٍ نَشَأَ عَن تَرَدُّدٍ بَعْدَ نَقْلِ ثِقاتٍ.

قوله (الحُقَيْقِ): بضمِّ الحاءِ المُهْمَلةِ وفتحِ القافِ الأُولى وسكونِ التحتيَّةِ.

قوله (حِينَ أَجْلاهم): أي أَخرَجَهم. قوله (بإقرارِ... إلخ): مُتعلِّقٌ بـ«احتجَّ» أي استدلالُ اليهوديِّ بتقريرِه بقولِه ﷺ لابنِ أبي الحُقَيْقِ: (كَيْفَ بِكَ). قوله (إذا أُخْرِجْتَ): بصيغةِ المجهولِ المخاطَبِ. قوله (كانَتْ هُزَيْلَةً): تصغيرُ «هزْلَةٍ»، وهيَ المَرَّةُ مِن الهَزْلِ.

قوله (وشَمائلَه): جَمْعُ «شِمالٍ» -بالكسرِ، وهوَ الخُلُقُ- أي الجِبِلِّيَّةَ مِنْ صِفاتِ كَمالِه.

قوله (مُعْتَنًى بها): بصيغةِ المجهولِ، وكذا (مستَقْصًى).

ولَـوْ كَانَ ذلـكَ لَنُقِـلَ كَـمَا نُقِـلَ فِي قِصَّتِـهِ ﷺ ورُجُوعِـهِ عَـمَّا أَشَـارَ بِـهِ عـلى الأَنْصَـارِ فِي تَلْقِيـحِ النَّخْـلِ(١)، وكَانَ ذلـكَ رَأْيًـا لا خَـبَرًا.

وغَـيْرُ ذَلِـكَ مِـنَ الأُمُـورِ الَّتِـي لَيْسَـتْ مِـنْ هَـذَا البَـابِ، كَقَوْلِـهِ: (واللهِ لا أَحْلِـفُ عـلى يَمِـينٍ فـأَرَى خَـيْرًا مِنْهَـا إلا فَعَلْـتُ الَّـذِي حَلَفْـتُ عَلَيْـهِ، وكَفَّـرْتُ عَـنْ يَمِينِي)(٢)، وقَوْلِـه: (إِنَّكُـمْ تَخْتَصِمُـونَ إِلَيَّ...) الحَدِيـثَ(٣)، وقَوْلِـه: (اسْـقِ -يـا زُبَـيْرُ- حَتَّـى يَبْلُـغَ المـاءُ الجَـدْرَ)(٤)، كَـمَا سَـنُبَيِّنُ كُلَّ مـا فِي هَـذا مِـنْ مُشْـكِلٍ فِي هَـذا البـابِ والَّـذِي بَعْـدَهُ إِنْ شَـاءَ اللهُ تعـالى مَـعَ أَشْـبَاهِهَا.

وأَيْضًـا فـإِنَّ الكَـذِبَ مَتَـى عُـرِفَ مِـنْ أَحَـدٍ فِي شَيْءٍ مِـنَ الأَخْبَـارِ بِخِـلَافِ مَـا هُـوَ عـلى أَيِّ وَجْـهٍ كَانَ، اسْـتُرِيبَ بِخَـبَرِه، واتُّهِـمَ فِي حَدِيثِـه، ولَمْ يَقَـعْ قَوْلُـه فِي النُّفُـوسِ مَوْقِعًـا، ولِهَـذا تَـرَكَ المُحَدِّثُـونَ والعُلَـمَاءُ الحَدِيـثَ عَمَّـنْ عُـرِفَ بالوَهَـمِ والغَفْلَـةِ وسُـوءِ الحِفْـظِ وكَثْـرَةِ الغَلَـطِ مَـعَ ثِقَتِـهِ.

وأَيْضًـا فـإِنَّ تَعَمُّـدَ الكَـذِبِ فِي أُمُـورِ الدُّنْيَـا مَعْصِيَـةٌ، والإِكْثَـارَ مِنْـه كَبِـيرَةٌ بإِجْمَـاعٍ، مُسْـقِطٌ لِلمُـروءَةِ، وكُلُّ هَـذا مِمَّـا

(١) حديث (لما أشار على الأنصار في تلقيح النخل): مسلمٌ عن طلحة [٢٣٦١] ورافع بن خديج [٢٣٦٢] وأنس [٢٣٦٣].

(٢) حديث (واللهِ لا أَحْلَفُ عَلَى يَمِينٍ فَأرَى غَيْرَهَا ...): الشيخان [البخاريُّ (٣١٣٣)، ومسلمٌ (١٦٤٩)] عن أبي موسى.

(٣) حديث (إنكم تَخْتَصِمُون إليَّ ...): الشيخان [البخاريُّ (٢٦٨٠)، ومسلمٌ (١٧١٣)] عن أمِّ سلمة.

(٤) حديث (اسق يا زبير ...): الأئمَّة الستة [البخاريُّ (٢٣٥٩)، ومسلمٌ (٢٣٥٧)، وأبو داود (٣٦٣٧)، والترمذيُّ (١٣٦٣)، والنَّسائيُّ (٥٤٠٧)، وابن ماجه (١٥)] عن ابن الزبير.

قولـه (ولَـوْ كانَ ذلـك): أي مَـا ذُكِـرَ مِـنَ الغَلَـطِ والوَهَـمِ.

قولـه (فِي تَلقيـحِ النَّخْـلِ): أيْ تأبِيرِهَـا، وهْـوَ جَعْـلُ شَيءٍ مِـنَ النَّخْـلِ الذَّكَـرِ فِي الأُنْثَـى.

قولـه (رَأْيًـا): أي عَـنْ نَفْسِـه. وقولـه (لا خَبَرًا): أي عَـنْ وَحْـيِ رَبِّـه، ومِـنْ ثَـمَّ قَـالَ: (أَنتُـمْ أَعْلَـمُ بِدُنْيَاكُـم).

قولـه (كقولـه: واللهِ لا أَحْلِـفُ عـلى يَمِـينٍ): أي عـلى عَقْـدٍ وعَـزْمٍ عـلى شَيْءٍ مِمَّـا يُحْلَـفُ عَلَيْـه.

قولـه (إِنَّكُـم تَخْتَصِمُـونَ إِلَيَّ): الحديـثُ بتمامِـه: (ولَعَـلَّ بَعْضَكـم أَلْحَـنُ بحُجَّتِـه مِـن بَعْـضٍ؛ فمَـنِ اقتَطَعْـتُ لـه مِـنْ حَـقِّ أَخِيـه شـيئًا فكَأَنَّـما أَقتطِـعُ لـه قطعـةً مِـنَ النَّـارِ).

قوله (مَعَ أشباهِها): أي نَظائرِها.

قولـه (فـإنَّ الكَـذِبَ مَتَـى عُـرِفَ مِـن أَحَـدٍ فِي شَيْءٍ... إلـخ): أي ولَـوْ جُزْئِيًّـا. قولـه (اسـتُرِيبَ بِخَـبَرِه): بصيغَـةِ المجهـولِ.

قولـه (ولَمْ يَقَـعْ قولُـه في النفـوسِ مَوْقِعًـا): أي لَمْ يُؤَثِّـرْ فِيهـا تأثـيرًا تَقْبَلُـه وتَطْمَئِـنُّ بِـه.

قولـه (ولِهَـذا): أي كَـوْنِ الكَـذِبِ يُـورِّثُ المُحَدِّثِـينَ الرِّيبَـةَ فِي الخَـبَرِ والتهمـةَ (تَـرَكَ... إلـخ)، وفي نسـخَةٍ «مَـا تَـرَكَ» عـلى أنَّ (مَـا) موصُولَـةٌ، واسـتغرَبَ المُـلَّا كَوْنَهَـا مَزِيـدةً لِلتأكيـدِ كَـمَا ذَكَـرَه الدلجيُّ.

قولـه (مَـعَ ثِقَتِـه): أي اعتـمادِه فِي دِيَانَتِـه وَأَمَانَتِـه فِي رِوايتِـه.

قولـه (فـإنَّ تَعَمُّـدَ الكَـذِبِ فِي أُمُـورِ الدنيـا معصِيَـةٌ): ويُـرْوَى «مَنْقَصَـةٌ»، أي خَصْلَـةٌ ذَميمَـةٌ.

يُنَزَّهُ عَنْهُ مَنْصِبُ النُّبُوَّةِ، والمَرَّةُ الواحِدَةُ مِنْهُ فِيمَا يُسْتَبْشَعُ ويُشَنَّعُ مِمَّا يُخِلُّ بِصَاحِبِهَا ويُزْرِي بِقَائِلِهَا لاحِقَةٌ بِذلِكَ.

وأَمَّا فِيمَا لا يَقَعُ هذا المَوْقِعَ فإِنْ عَدَدْنَاهَا مِنَ الصَّغَائِرِ فَهَلْ تَجْرِي على حُكْمِهَا في الخِلَافِ فيهَا؟ مُخْتَلَفٌ فِيهِ، والصَّوَابُ تَنْزِيهُ النُّبُوَّةِ عَنْ قَلِيلِهِ وكَثِيرِهِ، وَسَهْوِهِ وعَمْدِهِ؛ إِذْ عُمْدَةُ النُّبُوَّةِ البَلَاغُ والإِعْلَامُ والتَّبْيِينُ، وتَصْدِيقُ ما جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وتَجْوِيزُ شَيْءٍ مِنْ هَذا قادِحٌ في ذلكَ، ومُشَكِّكٌ فِيهِ، مُنَاقِضٌ لِلمُعْجِزَةِ.

فَلْنَقْطَعْ عن يَقِينٍ بأَنَّهُ لا يَجُوزُ على الأَنْبِيَاءِ خُلْفٌ في القَوْلِ في وَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ؛ لا بِقَصْدٍ ولا بِغَيْرِ قَصْدٍ، ولا نَتَسَامَحُ مَعَ مَنْ تَسَامَحَ في تَجْوِيزِ ذلِكَ عَلَيْهِمْ حَالَ السَّهْوِ فِيمَا لَيْسَ طَرِيقُهُ البَلَاغَ، نَعَمْ، وبأَنَّه لا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الكَذِبُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، ولَا الاتِّسَامُ بِهِ في أُمُورِهِمْ وأَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ؛ لِأَنَّ ذلك كانَ يُزْرِي ويُرِيبُ بِهِمْ، ويُنَفِّرُ القُلُوبَ عَنْ تَصْدِيقِهِمْ بَعْدُ.

وانْظُرْ أَحْوَالَ أَهْلِ عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قُرَيْشٍ وغَيْرِهَا مِنَ الأُمَمِ، وسُؤَالَهُمْ عَنْ حَالِهِ في صِدْقِ لِسَانِهِ، ومَا عُرِّفُوا بِهِ مِنْ ذلكَ، واعْتَرَفُوا بِهِ مِمَّا عُرِفَ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ النَّقْلِ على عِصْمَةِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْه قَبْلُ وبَعْدُ.

وقَدْ ذَكَرْنَا مِنَ الآثَارِ فيهِ في البابِ الثاني أَوَّلَ الكِتَابِ مَا يُبَيِّنُ لَكَ صِحَّةَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ.

***

قوله (**مَنْصِبُ النُّبُوَّةِ**): -بفتحِ الميمِ وكسرِ الصادِ- أي ساحَةُ الرِّسَالَةِ.

قوله (**فيما يُسْتَبْشَعُ**): بصيغةِ المجهولِ؛ مِن مادّةِ البَشَاعةِ، وهِيَ القَبَاحَةُ. وقوله (**ويُشَنَّعُ**) مِن التشنيعِ، وفي نسخةٍ «يُسْتَبْشَعُ» مِن البَشَاعةِ، وهِيَ الكراهَةُ، وفي أخرى «ويُشَاعُ» مِن الإشاعةِ، وفي أُخرى «ويُشَيَّعُ». قوله (**وتُزْرِي بقائِلِها**): أي تَعِيبُه وتَنْقُصُه.

قوله (**وأمَّا فيما لا يَقَعُ هَذا المَوقعَ**): أي مِن الأمرِ المستَبْشَعِ كالكَذِبةِ الواحدةِ في حَقيرةٍ مِنَ الدنيا.

قوله (**فهَلْ تَجْرِي على حُكْمِها**): أي حُكْمِ المَرَّةِ الواحدَةِ مِنَ الكَذِبِ. وقوله (**في الخِلَافِ فيها**): أي قَبْلَ البَعثةِ هَلْ يَصْدُرُ مِن الأنبياءِ صغيرةٌ أم لا؟

قوله (**إذْ عُمْدَةُ النبوةِ**): أي مَدَارُ أُمورِهَا المقرونةِ بالرِّسَالةِ. قوله (**والتَّبيينُ**): أي لِمَا أُنزِلَ إِلَيْهم مِن الإِبهَامِ. قوله (**ومُشَكِّكٌ فِيه**): أي ومُوقِعٌ في الرِّيبَةِ.

قوله (**فلْنَقْطَعْ عَنْ يَقينٍ**): أي لا عَنْ ظَنٍّ وتخمينٍ.

قوله (**ولا نَتَسامَحُ**): أي نحنُ، وفي نسخةٍ بصيغةِ المجهولِ، أي ولا يَنْبَغِي أنْ يُتَسَامَحَ ويُتَسَاهَلَ.

قوله (**قَبْلَ النبوةِ**): أي قَبْلَ إظهارِهَا. وقوله (**ولا الاتِّسَامُ**): -بتشديدِ التاءِ- افتِعالٌ؛ مِنَ الوَسْمِ، وهْوَ العَلَامَةُ. قوله (**عَنْ تصديقِهم بَعْدُ**): أي بَعْدَ إرسَالِهم بِمَا أُمِرُوا بتبليغِ أحْوَالِهم.

قوله (**وما عُرِّفُوا به**): بتشديدِ الراءِ مبنيًّا لِلمفعولِ أو الفاعلِ، مشدَّدًا ومخفَّفًا.

قوله (**واتَّفَقَ أهْلُ النقْلِ**): وفي نسخةٍ بدونِ (أَهْلُ). قوله (**قَبْلُ وبَعْدُ**): أي قَبْلَ البَعْثَةِ وبَعْدَهَا.

***

فَصْلٌ [في رَدِّ اعتِراضاتٍ وشُبهٍ أخرى]

فـإنْ قُلْـتَ: فَـمَا مَعْنَـى قَوْلِـهِ ﷺ في حَديـثِ السَّـهْوِ الَّـذي حَدَّثَنَـا بـهِ الفَقيـهُ أَبُـو إِسْـحاقَ إبْراهيـمُ بْـنُ جَعْفَـرٍ، قـالَ: حَدَّثَنَـا القـاضِي أَبُـو الأَصْبَـغِ بْـنُ سَـهْلٍ، قـالَ: حدَّثَنـا حَاتِـمُ بْـنُ محمّـدٍ، قـالَ: حدَّثَنـا أَبُـو عَبْـدِ اللهِ بْـنُ الفَخَّـارِ، حَدَّثَنـا أَبُـو عِيسَـى، حَدَّثَنَـا عُبَيْـدُ اللهِ، حَدَّثَنـا يَحْيَـى عَـنْ مَالِـكٍ، عَـنْ دَاوُدَ بْـنِ الحُصَيْـنِ، عَـنْ أَبِي سُـفْيَانَ مَـوْلَى ابْـنِ أَحْمَـدَ أَنَّـه قـالَ:

سَـمِعْتُ أَبَـا هُرَيْـرَةَ، يَقُـولُ: صَـلَّى رَسُـولُ اللهِ ﷺ صَـلَاةَ العَـصْرِ، فسَـلَّمَ في رَكْعَتَـيْنِ، فقَـامَ ذو اليَدَيْـنِ، فقَـالَ: يـا رَسُـولَ اللهِ، أَقَـصُرَتِ الصَّـلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ فقـالَ: رَسُـولُ اللهِ ﷺ: (كُلُّ ذلـكَ لَمْ يَكُـنْ)، وفي رِوَايَـةٍ أُخْـرى: (مَـا قَـصُرَتِ الصَّـلَاةُ، ومَـا نَسِـيتُ... الحديـث بِقِصَّتِـهِ)، فأَخْـبَرَ بنَفْـيِ الحالتَـيْنِ، وأَنَّهُـما لَمْ يَكُونَـا، وقَـدْ كانَ أَحَـدُ ذلكَ، كَـمَا قـالَ لـه ذو اليَدَيْـنِ: قَـدْ كانَ بَعْـضُ ذلـكَ يـا رَسُـولَ اللهِ؟[1]

فاعْلَـمْ -وَفَّقَنَـا اللهُ وإيَّـاكَ- أَنَّ لِلْعُلَـماءِ في ذلِـكَ أَجْوِبَـةً، بَعْضُهـا بِصَـدَدِ الإنْصَـافِ، ومِنْهَـا مَـا هُـوَ بِنِيَّـةِ التَّعَسُّـفِ والاعْتِسَـافِ، وهَـا أَنَـا أَقُـولُ:

أَمَّـا عـلى القَـوْلِ بتَجْوِيـزِ الوَهْـمِ والغَلَـطِ فيـما لَيْـسَ طَرِيقُـهُ مِـنَ القَـوْلِ البَـلَاغَ -وهُـوَ الَّـذِي زَيَّفْنَـاهُ مِـنَ القَوْلَـيْنِ-، فَـلَا اعْـتِرَاضَ بِهَـذا الحَديـثِ وشِـبْهِهِ.

وأَمَّـا عـلى مَذْهَـبِ مَـنْ يَمْنَـعُ السَّـهْوَ والنِّسْـيَانَ في أَفْعالِـهِ جُمْلَـةً، ويَـرَى أَنَّـهُ في مِثْـلِ هَـذا عَامِـدٌ لِصُـورَةِ النِّسْـيَانِ لِيَسُـنَّ، فهُـوَ صَـادِقٌ في خَـبَرِهِ لِأَنَّـه لَمْ يَنْـسَ، ولا قَـصُرَتْ؛

(١) حديث أبي هريرة في السهو: الشيخان [البخاريُّ (٤٨٢)، ومسلمٌ (٥٧٣)].

قولـه (في حَديـثِ السَّـهْوِ): أي الحديـثِ الـدالِّ على السَّـهْوِ.

قولـه (الأَصْبَـغِ): بفتـحِ الهَمـزةِ والموحَّـدةِ بَعْدَهـا غَـيْنٌ معجَمـةٌ. قولـه (الفَخَّـارِ): بفتـحِ الفـاءِ وتشـديدِ الخـاءِ المعجَمـةِ. قولـه (داوُدَ بْـنِ الحُصَـيْنِ): بضَـمِّ الحَـاءِ وفتـحِ الصَّـادِ المُهْمَلَتَـيْنِ.

قولـه (أَقَـصُرَتِ الصَّـلاةُ): عـلى بِنَـاءِ المفعـولِ مِـنَ القَـصْرِ؛ ضِـدُّ الإتمـامِ، أوْ بفتـحِ فضَـمٍّ؛ بتـاءِ تأنيـثٍ عـلى صيغـةِ الفاعـلِ بِمَعْنَـى النَّقْـصِ، قالَـه ابـنُ الأَثـيرِ، وقـالَ النـوويُّ: كِلَاهـما صحيـحٌ، والأَوَّلُ أشـهَرُ وأَصَـحُّ. قولـه (أَمْ نَسِـيتَ): بفتـحِ النـونِ وكسرِ الشـينِ المهمَلـةِ ثُـمَّ تـاءِ خِطـابٍ.

قولـه (مـا قَـصُرَتِ الصَّـلاةُ): بصيغـةِ الغائبَـةِ لِلفاعـلِ. قولـه (وَمَـا نَسِـيتُ): بصيغـةِ المتكَلِّـمِ، و«مَـا» يُحتَمَـلُ أنْ تكـونَ نافيـةً أو اسـتفهاميَّةً، ويُؤَيِّـدُ الأَوَّلَ أنَّـه في روايـةٍ أُخـرى (لَمْ أَنْـسَ ولَمْ تُقْـصَرْ)[1]. قولـه (أَحَـدُ ذلـك): أي أَحَـدُ مـا ذُكِـرَ مِـنَ الحالتَـيْنِ في الواقِـعِ.

قولـه (بِصَـدَدِ الإنصـافِ): أي مُتَمَسِّـكٌ بطريـقِ الإنصَـافِ في الرجـوعِ إلى الحَـقِّ.

قولـه (التَّعَسُّـفِ والاعتِسَـافِ): «التعسُّـفُ» هـوَ الخُـروجُ عَـنِ الجـادَّةِ، ورُكـوبُ الأمـرِ بالمَشَـقَّةِ، وفي مَعْنَـاه «الاعتسَـافُ». وقولـه (زَيَّفْنَـاه): أي ضَعَّفْنـاه.

قولـه (عَامِـدٌ لِصـورةِ النسيانِ): أي كالعامِـدِ في هـذه الصّـورةِ.

(١) أخرجهـا البخـاريُّ (٤٨٢) [كتـاب الصـلاة]، وغـيره مـن حديـث أبي هريـرة رَضِيَاللهُعَنْهُ.

ولَكِنَّهُ على هَذا القَولِ تَعَمَّدَ هَذا الفِعْلَ في هَذِه الصُّورَةِ لِيَسُنَّهُ لِمَنِ اعْتَرَاهُ مِثْلُه، وهُوَ قَولٌ مَرْغُوبٌ عَنْه، نَذْكُرُهُ في مَوْضِعِه.

وأَمَّا على إحالَةِ السَّهْوِ عَلَيْهِ في الأَقوالِ، وتَجْوِيزِ السَّهْوِ عَلَيْه فِيمَا لَيْسَ طَرِيقُهُ القَوْلَ -كَمَا سَنَذْكُرُهُ-، فَفِيهِ أَجْوِبَةٌ:

مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ عَنِ اعْتِقَادِهِ وضَمِيرِه؛ أَمَّا إِنْكَارُ القَصْرِ فَحَقٌّ وصِدْقٌ ظاهِرًا وبَاطِنًا، وأَمَّا النِّسْيانُ فأَخْبَرَ ﷺ عَنِ اعْتِقَادِهِ، وأَنَّه لَمْ يَنْسَ في ظَنِّهِ، فكَأَنَّهُ قَصَدَ الخَبَرَ بِهَذا عَنْ ظَنِّهِ؛ وإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ، وهَذَا صِدْقٌ أَيْضًا.

ووَجْهٌ ثَانٍ: أَنَّ قَوْلَهُ (ولَمْ أَنْسَ) راجِعٌ إِلَى السَّلَامِ، أَيْ إِنِّي سَلَّمْتُ قَصْدًا، وسَهَوْتُ عَنِ العَدَدِ، أَيْ لَمْ أَسْهُ في نَفْسِ السَّلامِ، وهَذا مُحْتَمَلٌ، وفيه بُعْدٌ.

ووَجْهٌ ثالِثٌ: -وهُوَ أَبْعَدُ- مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُم؛ وإِنِ احْتَمَلَهُ اللَّفْظُ مِنْ قَوْلِهِ: (كُلُّ ذلِكَ لَمْ يَكُنْ)، أَيْ لَمْ يَجْتَمِعِ القَصْرُ والنِّسْيانُ، بَلْ كانَ أَحَدُهُما، ومَفْهُومُ اللَّفْظِ خِلَافُهُ مَعَ الرِّوَايَةِ الأُخْرى الصَّحِيحَةِ، وهُوَ قَوْلُه: (مَا قَصُرَتِ الصَّلَاةُ، ومَا نَسِيتُ).

هَذا مَا رَأَيْتُ فيهِ لِأَئِمَّتِنا، وكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الوُجُوه مُحْتَمِلٌ لِلَّفْظِ على بُعْدِ بَعْضِها، وتَعَسُّفِ الآخَرِ مِنْهَا.

قالَ القاضي أَبُو الفَضْلِ: والَّذِي أَقُولُ، ويَظْهَرُ لي أَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ هَذِهِ الوُجُوه كُلِّها أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ (لَمْ أَنْسَ) إِنْكارٌ لِلَّفْظِ الَّذِي نَفَاهُ عَنْ نَفْسِه، وأَنْكَرَهُ على غَيْرِه، بِقَوْلِه: (بِئْسَمَا لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَذا وكَذا؛ ولَكِنَّهُ نُسِّيَ)[1]، وبِقَوْلِهِ في بَعْضِ رِوَايَاتِ الحَدِيثِ الآخَرِ: (لَسْتُ أَنْسَى؛ ولَكِنْ أُنَسَّى)[2].

---

(١) حديث (بئسما لأحدكم أن يقول نسيت...): الشيخان [البخاري (٥٠٣٢)، ومسلم (٧٩٠)، وغيرهما] عن ابن مسعود.

(٢) حديث (لستُ أَنسَى ولكنّي أُنسَّى): سيأتي [انظر ص٦١٢].

قوله (أَخْبَرَ عَنِ اعتقادِه وَضَمِيرِه): أي بحَسَبِ نُطْقِه بقولِه (كُلُّ ذلكَ لَمْ يَكُنْ).

قوله (وإنْ لَمْ يَنطِقْ بِه): أي وإنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِه، وإنْ لَمْ يَقُلْ (لَمْ أَنْسَ فيما أَظُنُّ).

قوله (وهُوَ أَبْعَدُ): أي مِن جِهَةِ النَّقْلِ والعقلِ في تَحَقُّقِ المَعْنَى.

قوله (بَلْ كانَ أَحَدُهُما): هذا بِحَسَبِ مَفهومِ المَعْنَى، وهُوَ غيرُ المعتَبَرِ عِنْدَ الجُمْهُورِ.

قوله (وهُوَ قولُه: مَا قَصُرَتِ الصَّلاةُ ومَا نَسِيتُ): فإنّه دالٌّ على نَفْيِ وُجودِهِمَا كِلَيْهِمَا.

قوله (مَا رأيْتُ فيه لِأئِمَّتِنا): أي المالكيةِ وغيرِهم، فيُشِيرُ إلى أنَّه مِمَّا ظَهَرَ لَه.

قوله (إنكارٌ لِلَّفظِ الَّذي نَفَاه عَنْ نَفْسِه): لِأنَّ أصْلَ النسيانِ التَّرْكُ، فكَرِهَ عليه السَّلامُ أنْ يَقولَ: تَرَكْتُ باختِيَارِي.

قوله (ولَكِنَّه نُسِّيَ): -بضمِّ النونِ وتشديدِ السِّينِ- أي أَنْسَاه اللهُ إيَّاه، ولِأَبي عُبَيْدٍ: (بِئْسَ مَا لِأَحَدِكم أنْ يَقولَ نَسِيتُ آيةَ كَيْتَ وكَيْتَ؛ ليسَ هُوَ نَسِيَ، ولكِنَّه نُسِّيَ)، وهُوَ أَبْيَنُ مِنَ الأَوَّلِ.

قوله (لَسْتُ أَنْسَى): بفتحِ الهَمزةِ والسِّينِ، (ولَكِنْ أُنَسَّى): بصيغةِ المجهُولِ مُشَدَّدًا، ويَجُوزُ مُخَفَّفًا.

فلَمَّا قالَ له السَّائِلُ: أَقَصُرَتِ الصَّلاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ أَنْكَرَ قَصْرَهَا كَمَا كانَ، ونِسْيانَهُ هُوَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وأَنَّه إِنْ كَانَ جَرَى شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ فَقَدْ نُسِّيَ حَتَّى سَأَلَ غَيْرَهُ، فتَحَقَّقَ أَنَّه نُسِّيَ، وأُجْرِيَ عَلَيْه ذلكَ؛ لِيَسُنَّ، فَقَوْلُهُ على هَذا: (لَمْ أَنْسَ، وَلَمْ تُقْصَرْ)، أَوْ (كُلُّ ذلِكَ لَمْ يَكُنْ) صِدْقٌ وحَقٌّ، ولَمْ تُقْصَرْ ولَمْ يَنْسَ حقيقةً؛ ولكِنَّهُ نُسِّيَ.

ووَجْهٌ آخَرُ، اسْتَثَرْتُه مِنْ كَلَامِ بَعْضِ المَشَايِخِ؛ وذلكَ أَنَّه قالَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَسْهُو ولا يَنْسَى، ولِذلكَ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ النِّسْيَانَ، قالَ: لِأَنَّ النِّسْيَانَ غَفْلَةٌ وآفَةٌ، والسَّهْوَ إِنَّمَا هُوَ شُغْلُ بَالٍ، فكانَ ﷺ يَسْهُو في صَلَاتِهِ، ولا يَغْفُلُ عَنْها، وكَانَ يَشْغَلُهُ عَنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ مَا في الصَّلَاةِ شَغْلًا بِهَا لا غَفْلَةً عَنْها؛ فهَذَا إِنْ تُحُقِّقَ على هَذا المَعْنَى لَمْ يَكُنْ في قَوْلِه: (مَا قَصُرَتْ، ومَا نَسِيتُ) خُلْفٌ في قَوْلٍ.

وَعِنْدِي أَنَّ قَوْلَهُ (مَا قَصُرَتْ، ومَا نَسِيتُ) بِمعْنَى التَّرْكِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ وَجْهَيِ النِّسْيَانِ، أَرَادَ -واللهُ أَعْلَمُ-: إِنِّي لَمْ أُسَلِّمْ مِنْ رَكْعَتَيْنِ تَارِكًا كَمَالَ الصَّلَاةِ؛ ولكِنِّي نَسِيتُ، وَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، والدَّلِيلُ على ذلِكَ قَوْلُه ﷺ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (إِنِّي لَأَنْسَى أَوْ أُنَسَّى لِأَسُنَّ)[1].

وأَمَّا قِصَّةُ كَلِمَاتِ إبْرَاهِيمَ المَذْكُورَةُ في الحَدِيثِ أَنَّهَا كَذِباتُه الثَّلَاثُ[2] المَنْصُوصَةُ في القُرآنِ مِنْهَا اثْنَتَانِ، قَوْلُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، و﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقَوْلُه لِلمَلِكِ عَنْ زَوْجَتِهِ: «إِنَّهَا أُخْتِي»، فاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّ هَذِهِ كُلَّها خَارِجَةٌ عَنِ الكَذِبِ؛

(١) [سيأتي تخريجه. انظر ص٦١٢].

(٢) حديث (إبراهيم في كذباته الثلاث): الشيخان [البخاريُّ (٣٣٥٨)، ومسلمٌ (٢٣٧١)] عن أبي هريرة.

قوله (فلَمَّا قالَ له السّائلُ): هوَ ذُو اليَدَيْنِ. قوله (فقَدْ نُسِّيَ): بصيغةِ المجهولِ مُشَدَّدًا. قوله (فتَحَقَّقَ أنَّه نُسِّيَ): بصيغةِ المجهولِ مُشَدَّدًا.

قوله (وأُجْرِيَ... إلخ): بالبِناءِ لِلمفعُولِ. قوله (لِيَسُنَّ): -بالبِنَاءِ لِلفاعلِ- أي لِيَجعَلَه سُنَّةً تَقْتَدِي بهَا الأُمَّةُ.

قوله (ولَمْ تُقْصَرْ): بالبِنَاءِ لِلْفاعلِ أو المفعُولِ. قوله (ولكِنَّه نُسِّيَ): أي أَنْسَاهُ اللهُ إيَّاه.

قوله (وآفَةٌ): أي بَلِيَّةٌ ناقصَةٌ؛ ولِذا قالَ تعالى: ﴿فلا تَنْسَى﴾، أي باختيارِكَ ﴿إلَّا مَا شاءَ اللهُ﴾ بأَنْ يُنسِّيكَ مِنْ غَيْرِ تقصيرٍ مِنْكَ.

قوله (إنَّما شُغْلُ): -بضمٍّ وسُكونٍ وبضمتينِ- أي اشتغالُ حَالٍ. قوله (ولا يَغْفُلُ): -بضمِّ الفاءِ- أي ولا يَذْهَلُ. قوله (خُلْفٌ): -بضمِّ الخاءِ المعجمَةِ- أي خِلَافٌ.

قوله (أنَّها كَذِباتُه): جمعُ «كَذِبةٍ»؛ بفتحٍ فكسرٍ في المفرَدِ والجمعِ خِلافًا لِلتلمسانيِّ حيثُ قالَ: بفتحِ الذالِ؛ جمعُ «كَذْبةٍ» بسُكونِها.

قوله (مِنها اثنتانِ، قولُه: إنِّي سَقِيمٌ): المذكورَةُ في سورةِ الصّافّاتِ بَعْدَ قولِه: ﴿فنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٨].

قوله (بَلْ فَعَلَه كبيرُهم هذا): في سورةِ الأنبياءِ. قوله (إنَّها أُخْتِي): أي في الإسْلامِ؛ خَشيةَ أنْ يَقْتُلَه لَوْ قالَ: إنَّها زَوجَتِي، ولَقَدْ نَجَّاهَا اللهُ مِنْه بِمَا اعتَرَاه مِنَ الخَوْفِ، وأَخدَمَها هاجرَ أُمَّ إسمعيلَ أَبِي العَرَبِ جَدِّ المصطَفَى ﷺ.

قوله (عَنِ الكَذِبِ): بفتحِ الكافِ وكسرِ الذالِ، ويَجوزُ كسرُ أَوَّلِه وسُكونِ ثانيه.

لا في القَصْدِ، ولا في غَيْرِهِ، وهِيَ داخِلَةٌ في بَابِ المَعَارِيضِ الَّتِي فيهَا مَنْدُوحَةٌ عَنِ الكَذِبِ.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فقَالَ الحَسَنُ وغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ سَأَسْقَمُ، أَيْ أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ مُعَرَّضٌ لِذلكَ، فاعْتَذَرَ لِقَوْمِهِ مِنَ الخُرُوجِ مَعَهُمْ إلى عِيدِهِمْ بهَذا. وقِيلَ: بَلْ سَقِيمٌ بِمَا قُدِّرَ عَلَيَّ مِنَ المَوْتِ. وقِيلَ: سَقِيمُ القَلْبِ بِمَا أُشَاهِدُهُ مِنْ كُفْرِكُمْ وعِنَادِكُمْ. وقِيلَ: بَلْ كانَتِ الحُمَّى تَأْخُذُهُ عِنْدَ طُلُوعِ نَجْمٍ مَعْلُومٍ، فَلَمَّا رَآهُ اعْتَذَرَ بعادَتِهِ. وكُلُّ هَذا لَيْسَ فيهِ كَذِبٌ، بَلْ هُوَ خَبَرٌ صَحِيحٌ، صِدْقٌ.

وقِيلَ: بَلْ عَرَّضَ بسَقَمِ حُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وضَعْفِ مَا أَرَادَ بَيَانَهُ لهُمْ مِنْ جِهَةِ النُّجُومِ الَّتِي كانُوا يَشْتَغِلُونَ بِهَا، وأَنَّه أَثْنَاءَ نَظَرِه في ذلِكَ، وقَبْلَ اسْتِقامَةِ حُجَّتِه عَلَيْهِمْ في حَالِ سُقْمٍ ومَرَضِ حَالٍ مَعَ أَنَّه لَمْ يَشُكَّ هُوَ، ولا ضَعُفَ إيمانُه؛ ولَكِنَّه ضَعُفَ في اسْتِدْلالِهِ عَلَيْهِمْ وسَقُمَ نَظَرُه، كَمَا يقالُ: حُجَّةٌ سَقيمةٌ، ونظَرٌ مَعلولٌ؛ حَتَّى أَلْهَمَه اللهُ -تعالى- باستدلالِه وصِحَّةِ حُجَّتِه عَلَيْهم بالكَوْكَبِ والشَّمْسِ والقمَرِ ومَا نَصَّهُ اللهُ، وقَدْ قَدَّمْنَا بيَانَه.

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَه كَبِيرُهُمْ هَذا...﴾ الآيةَ فإنَّه عَلَّقَ خَبَرَهُ بِشَرْطِ نُطْقِهِ؛ كأَنَّه قالَ: إنْ كانَ يَنْطِقُ فهُوَ فِعْلُهُ على طَرِيقِ التَّبْكِيتِ لِقَوْمِهِ، وهَذا صِدْقٌ أيضًا، ولا خُلْفَ فيهِ.

وأَمَّا قَوْلُهُ: «أُخْتِي» فَقَدْ بَيَّنَ في الحَديثِ، وقالَ: «فإنَّكِ أُخْتِي في الإسْلامِ»، وهُوَ صِدْقٌ، واللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فإنْ قُلْتَ: فهَذا النَّبيُّ قَدْ سَمَّاهَا كَذِبَاتٍ، وقالَ: (لَمْ يَكْذِبْ إبْراهِيمُ إلَّا ثَلاثَ كَذِبَاتٍ)(١)، وقالَ في حَديثِ الشَّفاعَةِ: (ويَذْكُرُ كَذِبَاتِهِ)(٢)،

(١) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٣٥٨) ومسلمٌ (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة].

(٢) حديث الشفاعة ويذكر كذباته: الشيخان [البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤)] عن أبي هريرة.

قوله (مُعَرَّضٌ لِذلك): -بتشديدِ الراءِ المفتوحَةِ- أي مُعَرَّضٌ لِلسُّقْمِ.

قوله (وعِنَادِكُم): بالمَيْلِ عَنْ طريقِ الحَقِّ والأَدَبِ.

قوله (اعتَذَرَ بِعَادَتِه): التي تَعتَرِيه عِنْدَ طُلُوعِه وتَغَيُّرِه.

قوله (بَلْ عَرَّضَ): -بتشديدِ الراءِ- أي نَقَدَه.

قوله (في حَالِ سُقْمٍ): -بفتحتينِ وبضمٍّ فسكونٍ- أي تَغَيُّرِ بَالِه.

قوله (ولا ضَعُفَ إيمانُه): بَلْ قَوِيَ بُرهانُه في كُلِّ سَاعَةٍ.

قوله (وسَقُمَ نَظَرُه): أي فِكْرِه فيما يتوجَّه إليهم.

قوله (فهُوَ على طريقِ التبكيتِ): أي التوبيخِ والتقريعِ لِقومِه في اعتقادِهم الفاسدِ في ألوهيّةِ كواكبَ وحِجارةٍ لا تَضُرُّ ولا تَنفعُ.

قوله (أُخْتي في الإسْلامِ، وهُوَ صِدْقٌ): وقَدْ رُوِيَ أنَّها كانَتْ بِنتَ عَمِّه، ومِثْلُ هذه يقالُ لها الأختُ في النَّسَبِ أيضًا.

قوله (**فمَعْنَاه أنَّه لَمْ يَتكلَّمْ... إلخ**): أي مَعْنَى وَصْفِها بِكَوْنِها كَذِبَاتٍ. قوله (**وإنْ كانَ حَقًّا في الباطِنِ**): أي في نَفْسِ الأمْرِ. قوله (**إلَّا هذه الكَلِماتِ**): أي الثلاثَ، وهي: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، و﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُم﴾، و«هَذه أُختِي».

قوله (**أَشْفَقَ إبراهيمُ بمؤاخَذتِه بها**): أي خافَ لِعُلُوِّ شأنِ الأنبياءِ عَنِ الكِنايةِ.

قوله (**وَرَّى**): بغيرِ هاءٍ بتشديدِ الراءِ؛ مِنَ التوريةِ، وهِيَ الإخفاءُ كأنَّه جَعَلَ الشيءَ وَراءَه، وجَعَلَ غيرَه نُصْبَ عَيْنَيْه، وقيل: «وَرَّى» سَتَرَ مَقصِدَه وأظهرَ غيرَه. قوله (**لِئَلَّا يأخُذَ عَدُوُّه حِذْرَه**): -بكسرِ الحاءِ المهمَلةِ- أي احتراسَه واحترازَه. قوله (**والتعريضِ بِذِكْرِه**): أي التلويحِ به وعَدَمِ التصريحِ بمقصِدِه، وقَدْ وَرَدَ: (استَعِينُوا على قَضاءِ حَوائِجِكم بالكِتمانِ)[1]، وفي الصحيحِ: (الحَربُ خَدْعَةٌ)[2].

قوله (**وِجْهَتُنا**): -بكسرِ الواوِ- أي جِهَةُ قَصْدِنا. قوله (**يَدْخُلُه الخُلْفُ**): -بضمِّ المعجَمةِ الثانيةِ- أي الإخلافُ، فيترتَّبُ عليه الكَذِبُ في القَولِ.

قوله (**إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْه**): بأنْ يَقولَ: «اللهُ أعلَمُ»، أو يقولَ: «أنا، واللهُ أعْلَمُ»؛ ومِن هُنَا تَأدَّبَ العُلَماءُ في أجوبَتِهم بقولِهم «واللهُ أعْلَمُ».

---

(١) أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة «الكبير» (٢٠/ ٩٤)، و«الأوسط» (٢٤٥٥)، و«الصغير» (١١٨٦)، وأبونعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٥)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٦٢٢٨)، وغيرهم من حديث معاذِ بن جبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وضعَّفه الحافظ العراقيُّ في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ١٨٨)، وكذلك ضعَّفه الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٥). وذكره ابن الجوزيِّ في «الموضوعات» (٢/ ١٦٥) وتعقَّبه السيوطيُّ في «اللآلئ» (٢/ ٦٩).

(٢) حديثٌ متواترٌ مخرَّجٌ في الصحيحين وغيرهما. انظر «الأزهار المتناثرة» للسيوطيِّ (ص٢٥٥). وفي «خدعة» ثلاث لُغاتٍ مَشهوراتٍ اتفقوا على أنَّ أفصحهنَّ خَدْعة -بفتح الخاء وإسكان الدال- والثانية: ضمُّ الخاء مع إسكان الدال، والثالثة: ضمُّها مع فتح الدال، وأنه بفتح الخاء للمرَّة. أي أنَّ الحرب ينقضي أمرها بخدعة واحدةٍ. فإنها قد تقوم مقام الحرب. وبضمِّها مع السكون اسمٌ مِن الخِداع. وبضَمِّها مع الفتح معناه أنها تعتاد الخداع وتكثره كاللعبة والضحكة أي أنَّ الحرب تخدع الرِّجال وتُمنِّيهم ولا تفي لهم». انظر: «حاشية السِّندي على سنن ابن ماجه» (٢/ ١٩٣).

فمَعْنَاهُ أَنَّه لَمْ يَتكلَّمْ بِكَلَامٍ صُورَتُهُ صُورَةُ الكَذِبِ -وإنْ كانَ حَقًّا في الباطِنِ- إلا هَذِه الكَلِماتِ، ولَمَّا كَانَ مَفْهُومُ ظاهِرِهَا خِلَافَ باطِنِهَا أَشْفَقَ إبْراهيمُ بمُؤاخَذَتِه بِهَا.

وأَمَّا الحديثُ: (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أَرادَ غَزْوَةً وَرَّى بغَيْرِهَا)[1]، فلَيْسَ فيهِ خُلْفٌ في القَوْلِ؛ إنَّما هُوَ سَتْرٌ لِمَقْصِدِهِ لِئَلَّا يَأْخُذَ عَدُوُّهُ حِذْرَهُ، وكَتْمُ وَجْهِ ذَهَابِه بِذِكْرِ السُّؤَالِ عَنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، والبَحْثِ عَنْ أَخْبارِه، والتعريضِ بِذِكْرِهِ، لا أَنَّه يَقُولُ: تَجَهَّزُوا إلى غَزْوَةِ كَذَا، أَوْ وِجْهَتُنا إلى مَوْضِعِ كَذَا خِلَافَ مَقْصِدِه، فهَذَا لَمْ يَكُنْ، والأَوَّلُ لَيْسَ فيهِ خَبَرٌ يَدْخُلُهُ الخُلْفُ.

فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَدْ سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ ذلكَ؛ إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ... الحَدِيثَ[2]،

---

(١) حديث (كان إذا أراد غزوةً ورَّى بغيرها): الشيخان [البخاريُّ (٢٩٤٧)، ومسلمٌ (٢٧٦٩)] عن كعب بن مالك.

(٢) حديث (سُئل موسى: أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ ...): الشيخان [البخاريُّ (١٢٢)، ومسلمٌ (٢٣٨٠)] عن أُبَيِّ بن كعبٍ.

وفيهِ: (قالَ: بَلْ لنا عَبْدٌ بمَجمَعِ البَحرَيْنِ أَعلَمُ مِنْكَ)، وهَذا خَبَرٌ قَدْ أنبأَ اللهُ أَنَّه لَيْسَ كذلِكَ؟

فاعْلَمْ أَنَّه قَدْ وَقَعَ في هَذا الحديثِ مِنْ بَعْضِ طُرُقِهِ الصَّحيحَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ)، فإذا كانَ جَوابُه على عِلْمِه فهُوَ خَبَرٌ حَقٌّ وصِدْقٌ، ولا خُلْفَ فيهِ ولا شُبْهَةَ، وعلى الطَّريقِ الآخَرِ فمَحْمَلُهُ على ظَنِّهِ ومُعْتَقَدِهِ كَما لَوْ صَرَّحَ بهِ؛ لِأَنَّ حالَه في النُّبُوَّةِ والاصْطِفاءِ يَقْتَضِي ذلكَ، فيَكُونُ إخْبارُه بذَلكَ أيْضًا عَنِ اعْتقادِهِ وحِسْبَانِه صِدْقًا لا خُلْفَ فيه.

وقَدْ يُريدُ بقَوْلِهِ: أَنَا أَعْلَمُ بِمَا تَقْتَضِيهِ وَظائفُ النُّبُوَّةِ مِنْ عُلُومِ التَّوْحِيدِ، وأُمُورِ الشَّريعَةِ، وسِيَاسَةِ الأُمَّةِ، ويَكُونُ الخَضِرُ أَعْلَمَ مِنْه بأُمُورٍ أُخَرَ مِمَّا لا يَعْلَمُه أَحَدٌ إلا بإعْلامِ اللهِ مِنْ عُلُومِ غَيْبِهِ، كالقِصَصِ المَذْكُورَةِ في خَبَرِهِمَا، فكانَ مُوسَى أَعْلَمَ على الجُمْلَةِ بِمَا تَقَدَّمَ، وهَذا أَعْلَمُ عَلى الخُصُوصِ بِمَا أُعْلِمَ، ويَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعالى: ﴿وعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وعَتْبُ اللهِ ذلكَ عَلَيْهِ -فيما قالَه العُلَماءُ- إنْكارُ هذا القَولِ عَلَيْه؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْه، كَما قالَتِ المَلائكَةُ: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، أَوْ لِأَنَّه لَمْ يَرْضَ قَوْلَه شَرْعًا، وذلكَ -واللهُ أَعْلَمُ- لِئَلَّا يَقْتَدِيَ به فيهِ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ كَمالَهُ في تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ وعُلُوِّ دَرَجَتِهِ مِنْ أُمَّتِه؛ فيَهْلِكَ لِمَا تَضَمَّنَه مِنْ مَدْحِ الإنْسانِ نفْسَهُ، ويُورِثُه ذلكَ مِنَ الكِبْرِ والعُجْبِ والتَّعاطِي والدَّعْوَى،

قوله (**بمَجْمَعِ البحرَيْنِ**): وهُوَ مُلْتَقَى بَحْرَيْ فارِسَ والرُّوم مِمَّا يَلِي المَشرِقِ. قوله (**وهذا**): أي قولُ موسى (أنا أَعْلَمُ).

قوله (**أَعْلَمَ مِنْكَ**): بنصبِ (أَعْلَمَ) على أنّه مفعولٌ ثانٍ.

قوله (**وعلى الطريقِ الآخَرِ**): أي المَرْوِيِّ عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ.

قوله (**كَما لَوْ صَرَّحَ به**): أي بِظَنِّه ومُعْتَقَدِه؛ كأَنْ يَقولَ: أنا أعلَمُ فيما أَظُنُّه وأَعتَقِدُه.

قوله (**يَقتَضِي ذلك**): أي كَوْنَه أَعْلَمَ النَّاسِ في زمانِه. قوله (**وحِسْبانِه**): أي ظَنِّه، وهوَ بكسرِ الحاءِ المهمَلةِ لا بضَمِّها كَما تَوَهَّمَه الدلجيُّ.

قوله (**وسِيَاسَةِ الأُمَّةِ**): أي بحلولِ الزواجرِ والمَنهِيَّاتِ، وهُوَ لا يُنافي أنْ يَكونَ غَيْرُهُ أَعْلَمَ مِنه في غيرِها.

قوله (**ويَكونُ الخَضِرُ أَعْلَمَ مِنه**): أي مِن موسى ولَوْ كانَ مِن أُمَّتِه على القولِ بوِلايتِه.

قوله (**كالقِصَصِ المَذكورَةِ في خَبَرِهما**): كقِصَّةِ السفينَةِ والغُلامِ والجِدارِ.

قوله (**بِما تَقَدَّمَ**): مِن عُلُومِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ وأمورِ الشريعَةِ وأحكامِ السياسَةِ.

قوله (**بِما أُعْلِمَ**): بصيغَةِ المجْهُولِ. وقوله (**ويَدُلُّ عليْه**): أي على أنَّ ما أُعلِمَه خاصٌّ.

قوله (**وعَتْبُ الله**): -بسكونِ التاءِ- أي ويَدُلُّ عليْه عِتابُه. قوله (**مَنْ لَمْ يَبلُغْ كمالَه**): أي كمالَ موسى مِن جِهةِ مَرْتَبَتِه.

قوله (**فيَهْلِكَ**): -بالنصبِ- أي يَضِيعَ مَنْ يَقتَدِي به مِن أُمَّتِه في قولِه (أنا أعلَمُ) مِن غيرِ تفويضٍ واستثناءٍ.

قوله (**ويُورِثَه ذلك مِن الكِبْرِ والعُجْبِ**): إلَّا أنْ يَكونَ تَحدُّثًا بنعمةِ رَبِّه ظاهرًا وباطنًا.

قولـه (فغَيْرُهـم بمَدْرَجَـةِ سَـبيلِها): -بفتـحِ الميـمِ والـراءِ- أي مَسْـلَكِ طريقِهـا[1]. قولـه (ودَرَكِ ليلِهـا): -بفتـحِ الـراءِ- بـأنْ يُدْرِكَـه ظلامُهـا.

قولـه (وليُقْتَـدَى بـه): -بصيغَـةِ المجهُـولِ- أي لِيَقْتَـدِيَ غـيرُه بـه.

قوله (مِنْ مِثْلِ هذا): أي مَدْحِ النفْسِ.

قولـه (ولا فَخْـرَ): أي لا أقـولُ افتخـارًا لِنَفْـسي بَـلْ تَحدُّثًـا بنعمـةِ رَبِّي.

قولـه (لِقَوْلِـه فيـه: أنـا أَعلـمُ مِـن موسى): قـالَ المـلا: الصـوابُ مَـا في بعـضِ النُّسـخِ، وهـوَ «لِقَوْلِـه فيـه أنَّـه أَعلَـمُ مِـن موسـى»، ويَكـونُ الضمـيرُ المضـافُ إليْـه القـولُ عَائـدًا علـى الله، والضمـيرُ المنصُـوبُ بـ«أنّ» عائـدًا عـلى الخَـضِرِ.

قولـه (وأَمَّـا الأنبيـاءُ فيتفاضلـونَ في المَعَـارِفِ): كَـمَا قـال تعـالى: ﴿ولَقَـدْ فَضَّلْنـا بَعْـضَ النبيِّـينَ عـلى بَعْـضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وكَـذا في الدرجَـاتِ كَـمَا قـالَ: ﴿وَرَفَـعَ بَعْضَهُـمْ درجَـاتٍ﴾ [البقـرة: ٢٥٣].

قولـه (في ذلـك شـيئًا): أي كَـوْنَ نَبِـيٍّ غيرِهمَـا حينَئـذٍ، وقولـه (يُعَـوَّلُ عَلَيْـه): أي يُعتَمَـدُ ويُسْـتَندُ إليْـهِ.

قوله (فيما دُفِعَ إليْه): بصيغَةِ المجهولِ[2].

***

(١) قـال القـاري: وفي نسـخة «سـيلها» أي ممرهـا.

(٢) قـال الشـهاب: أي فيـما جعلـه الله تعـالى منوطًـا بـه منتهيًـا إليـه علمـه ممـا غيـب علمـه عـن غـيره.

وإنْ نُـزِّهَ عَـنْ هَـذِهِ الرَّذائِـلِ الأَنبيـاءُ فغَيْرُهُـمْ بمَدْرَجَـةِ سَـبيلِهَا، ودَرَكِ لَيْلِهَـا؛ إلا مَـنْ عَصَمَـه اللهُ تعـالى، فالتَّحَفُّـظُ مِنْهَـا أَوْلَى لِنَفْسِـهِ، ولِيُقْتَـدَى بِـه.

ولِهَـذَا قـالَ ﷺ تَحفُّظًـا مِـن مِثْـلِ هَـذا مِمَّـا قَـدْ أُعْلِـمَ بِـهِ: (أَنَـا سَـيِّدُ وَلَـدِ آدَمَ، ولا فَخْـرَ)[1].

وهَـذا الحَديـثُ إِحْـدَى حُجَـجِ القَائِلِـينَ بنُبُـوَّةِ الخَـضِرِ؛ لِقَوْلِـه فيـهِ: (أَنَـا أَعْلَـمُ مِـنْ مُوسَـى)، ولا يَكُـونُ الـوَلِيُّ أَعْلَـمَ مِـنَ النَّبِـيِّ، وأَمَّـا الأنبيـاءُ فيَتَفاضَلـون فِي المَعَـارِفِ، ولِقَوْلِـهِ: ﴿مَـا فَعَلْتُـهُ عَـنْ أَمْـرِي﴾ [الكهـف: ٨٢]، فـدَلَّ عـلَى أَنَّـه بوَحْـيٍ.

ومَـنْ قـالَ: إِنَّـه لَيْـسَ بنَبِـيٍّ قـالَ: يَحْتَمِـلُ أَنَّـهُ فَعَلَـهُ بأَمْـرِ نَبِـيٍّ آخَـرَ، وهَـذا يُضَعَّـفُ؛ لأَنَّـهُ مَـا عَلِمْنـا أَنَّـه كَانَ فِي زَمَـنِ مُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِـيٌّ غَـيْرُهُ إِلَّا أَخَـاهُ هَـارُونَ، ومَـا نَقَـلَ أَحَـدٌ مِـنْ أَهْـلِ الأَخْبَـارِ فِي ذلـك شَـيْئًا يُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ.

وإذا جَعَلْنَـا (أَعْلَـمَ مِنْـكَ؟) لَيْـسَ عـلى العُمُـوم، وإنَّـمَا هُـوَ على الخُصُـوصِ وفي قَضَايَـا مُعَيَّنَـةٍ، لَمْ يَحْتَـجْ إِلَى إِثْبَـاتِ نُبُـوَّةِ الخَضِرِ.

ولِهَـذَا قـالَ بَعْـضُ الشُّـيُوخِ: كانَ مُوسَـى أَعْلَـمَ مِـنَ الخَـضِرِ فيما أَخَـذَ عَـنِ الله، والخَـضِرُ أَعْلَـمَ فيـما دُفِـعَ إِلَيْـهِ [مِنْ مُوسَـى][2].

وَقالَ آخَرُ: إِنَّمَا أُلْجِئَ مُوسَى إِلَى الخَضِرِ لِلتَّأْديبِ لا لِلتَّعْلِيمِ.

***

(١) [تقدم تخريجه، انظر ص ٧٠، ٢٤٧].

(٢) [هكـذا في النسـخة المطبوعـة وفي نسـخة القـاري، وبدونـه في نسـخة الشـهاب. قـال القـاري: (مـن موسـى) متعلـق بــ «أعلـمَ»].

فَصْلٌ [في عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالجوارح من الأعمال]

وأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بالجَوارِحِ مِنَ الأَعْمالِ -ولا يَخْرُجُ مِنْ جُمْلَتِها القَوْلُ باللِّسانِ فيما عَدا الخَبَرَ الَّذي وَقَعَ فيهِ الكَلامُ، ولا الاعْتِقادُ بالقَلْبِ فيما عدا التَّوحيدَ، وما قَدَّمْناهُ مِنْ مَعارِفِهِ المُخْتَصَّةِ بهِ- فأَجْمَعَ المُسْلِمُونَ على عِصْمَةِ الأنبياءِ مِنَ الفَواحِشِ والكَبائِرِ المُوبِقاتِ، ومُسْتَنَدُ الجُمْهُورِ في ذلكَ الإِجْماعُ الَّذي ذَكَرْناهُ، وهُوَ مَذْهَبُ القاضي أَبي بَكرٍ، ومَنَعَها غَيْرُهُ بدَليلِ العَقْلِ مَعَ الإجْماعِ، وهُوَ قَوْلُ الكافَّةِ، واخْتارَهُ الأُسْتاذُ أَبُو إِسْحاقَ.

وكذلكَ لا خِلافَ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كِتْمانِ الرِّسالَةِ والتَّقْصيرِ في التَّبْليغِ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذلكَ يَقْتَضِي العِصْمَةَ مِنْهُ المُعْجِزَةُ، مَعَ الإجْماعِ على ذلكَ مِنَ الكافَّةِ، والجُمْهُورُ قائِلٌ بأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ذلكَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالى، مُعْتَصِمُونَ باخْتِيارِهِمْ وكَسْبِهِمْ إلا حَسَنًا النَّجَّارَ؛ فإِنَّهُ قالَ: لا قُدْرَةَ لهُمْ على المَعاصِي أَصْلًا.

وأَمَّا الصَّغائِرُ فَجَوَّزَها جَماعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وغَيْرِهِمْ على الأنبياءِ، وهُوَ مَذْهَبُ أَبي جَعْفَرٍ الطَّبَرِيِّ وغَيْرِه مِنَ الفُقَهاءِ والمُحَدِّثينَ والمُتَكَلِّمينَ، وسَنُورِدُ بَعْدَ هذا ما احْتَجُّوا بهِ.

وذَهَبَتْ طائِفَةٌ أُخْرَى إلى الوَقْفِ، وقالُوا: العَقْلُ لا يُحِيلُ وُقُوعَها مِنْهُمْ، ولَمْ يَأْتِ في الشَّرْعِ قاطِعٌ بأَحَدِ الوَجْهَيْنِ.

قوله (ولا يَخْرُجُ): بالواوِ لا بالفاءِ كَما في نسْخةٍ؛ لِأَنَّ جوابَ «أَمَّا» سَيَجيءُ، والجملةُ فيما بينَهما معترِضةٌ، والتقديرُ: والحالُ أنَّه لا يَخْرُجُ.

قوله (فيما عَدَا التوحيدَ): وما يَتْبَعُه مِنَ الإيمانِ والإسْلامِ والإحْسانِ ومَراتبِ الإيقانِ والإتقانِ ممَّا عُقِدَتْ عَلَيْه قُلوبُ الأنبياءِ.

قوله (والكَبائرِ المُوبِقاتِ): -بكسرِ الموحَّدةِ- أي المُهلِكاتِ، وهُوَ عَطْفُ تَفسيرٍ.

قوله (الأستاذُ): بالمُهْمَلةِ والمعجَمةِ.

قوله (مَعْصومونَ مِنْ كِتْمانِ الرِّسالةِ): لِقولِه تعالى: ﴿يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ...﴾ إلخ [المائدة: ٦٧]. قوله (مِنْه المعجِزةُ): بالرفعِ، ويُروَى «مُقْتَضَى العِصمةِ».

قوله (مَعَ الإجماعِ عَلى ذلك): أي على ما ذُكِرَ مِن أنَّ عِصمتَهم مِن قِبَلِ الله باختيارِهم وكَسْبِهم واقتدارِهم. قوله (إلَّا حَسَنًا النَّجّارَ): وفي نسخةٍ «خِلافًا لِلنجّارِ»، وفي أخرى «إلَّا حُسَيْنًا النجّارَ» بالتصغيرِ[1].

قوله (مِنَ السَّلَفِ وغيرِهم): مِنَ الخَلَفِ كإمامِ الحرمَينِ مِنْ أهلِ السُّنةِ وأَبي هاشمٍ مِنَ المعتزلةِ.

قوله (العقلُ لا يُحِيلُ وُقوعَها): أي الصّغائرِ ولا الكبائرِ. وقوله (ولَمْ يأْتِ في الشرعِ): مِنَ الكِتابِ والسُّنّةِ. قوله (بأَحَدِ الوجهَيْنِ): أي بجوازِ صُدورِها وعَدَمِ صدورِها عَنهم.

---

(١) قال القاري: وهو حسن بن محمد النجار الذي تنسب له الطائفة النجارية، وهم فرق من المبتدعة الضالة وافقوا أهل السنة في بعض أصولهم، ووافقوا القدرية في نفي الرؤية، ووافقوا المعتزلة في بعض المسائل، ولهم مقالات كفروا بها.

وذَهَبَتْ طَائفَةٌ أُخْرى مِنَ المُحَقِّقِينَ مِنَ الفُقَهَاءِ وَالمُتَكَلِّمِينَ إِلَى عِصْمَتِهِمْ مِنَ الصَّغَائِرِ كَعِصْمَتِهِمْ مِنَ الكَبَائِرِ.

قالُوا: لِاخْتِلَافِ النَّاسِ في الصَّغائِرِ، وتَعْيِينِها مِنَ الكَبائِرِ وإِشْكالِ ذلكَ، وقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وغَيْرِهِ: «إِنَّ كُلَّ مَا عُصِيَ اللهُ بِهِ فهُوَ كَبِيرَةٌ»[1]، وأَنَّه إِنَّما سُمِّيَ الصَّغِيرُ مِنْهَا بالإِضافَةِ إِلى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، ومُخَالَفَةُ البارِي في أَيِّ أَمْرٍ كَانَ يَجِبُ كَوْنُه كَبِيرَةً.

قَالَ القَاضي أَبُو محمّدٍ عَبْدُ الوَهَّابِ: لا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ في مَعَاصِي الله تعالى صَغِيرَةً إلا على مَعْنَى أَنَّها تُغْتَفَرُ باجْتِنَابِ الكَبَائِرِ، ولا يَكُونُ لها حُكْمٌ مَعَ ذلكَ، بِخِلَافِ الكَبائِرِ إذا لَمْ يُتَبْ مِنْهَا فَلا يُحْبِطُهَا شَيْءٌ، والمَشِيئَةُ في العَفْوِ عَنْها إلى الله تعالى، وهُوَ قَوْلُ القَاضي أَبِي بَكْرٍ وجَمَاعَةِ أَئِمَّةِ الأَشْعَرِيَّةِ وكَثِيرٍ مِنْ أَئِمَّةِ الفُقَهَاءِ.

وقَالَ بَعْضُ أَئِمَّتِنا: ولا يَجِبُ علَى القَوْلَيْنِ أَنْ يُخْتَلَفَ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عن تكرارِ الصَّغائرِ وكَثْرَتِها؛ إِذْ يُلْحِقُها ذلكَ بالكَبائِرِ، ولا في صَغِيرَةٍ أَدَّتْ إلى زَوَالِ الحِشْمَةِ، وأَسْقَطَتِ المُروءَةَ، وأَوْجَبَتِ الإِزْرَاءَ وَالخَسَاسَةَ، فهَذا أَيْضًا مِمَّا يُعْصَمُ مِنْهُ الأَنبياءُ إِجْمَاعًا؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذا يَحُطُّ مَنْصِبَ المُتَّسِمِ بِه، ويُزْرِي بصاحِبِهِ، ويُنَفِّرُ القُلُوبَ عَنْهُ، والأَنْبِيَاءُ مُنَزَّهُونَ عَنْ ذلِكَ، بَلْ يَلْحَقُ بهَذا ما كانَ مِنْ قَبِيلِ المُبَاحِ، فأَدَّى إلى مِثْلِهِ؛ لِخُروجِهِ بِمَا أَدَّى إِلَيْهِ عَنِ اسْمِ المُبَاحِ إلى الحَظْرِ.

وقَدْ ذَهَبَ بعْضُهُمْ إلى عِصْمَتِهِمْ مِنْ مُوَاقَعَةِ المَكْرُوهِ قَصْدًا، وقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الأَئِمَّةِ على عِصْمَتِهِمْ مِنَ الصَّغائِرِ بالمَصِيرِ

(١) حديث ابن عبَّاسٍ (كل ما عُصِيَ الله به فهو كبيرةٌ): ابن جريرٍ [٦/ ٦٥٢].

قوله (وأنَّهُ... إلخ): إلى آخِرِه بفتحِ الهَمزةِ، والضميرُ للشأنِ.

قوله (إلى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنه): كالمَسِّ وَالقُبْلَةِ والمعانَقةِ والمعالَجَةِ بالنسْبَةِ إلى المجامَعَةِ. قوله (يَجِبُ كونُه كبيرَةً): أي مِن حيثُ إنَّه مخالَفةٌ لِصَاحِبِ الكِبرياءِ وَالعَظَمَةِ.

قوله (إنَّ في مَعاصي الله... إلخ): وفي نسخةٍ بحَذفِ «إنَّ».

قوله (أنَّها تُغتَفَرُ باجتنابِ الكبائرِ): أي مَعَها لا بِعَينِ اجتنابِها فإنَّه مَذهبُ المعتزلةِ، بلْ بشَرْطِ اجتنابِها لكنْ بسَبَبِ أعمالٍ حسَنةٍ بيَّنَها الشارعُ.

قوله (إذا لَمْ يُتَبْ مِنها): بصيغةِ المفعولِ والفاعلِ. وقوله (فلا يُحْبِطُها): أي لا يُذْهِبُها ولا يَرْفَعُها.

قوله (وقالَ بَعضُ أَئِمَّتِنا): مِنْ أَهْلِ السُّنّةِ أو المالكيّةِ.

قوله (ولا يَجِبُ على القولَيْنِ أنْ يُخْتَلَفَ): الأظهرُ: «ويَجِبُ على القولَينِ أنْ لا يُخْتَلَفَ».

قوله (وأَسْقَطَتِ المُروءةَ): بالهمزِ، والإبدالِ والإدْغامِ؛ وهِيَ الفُتُوَّةُ وكمالُ الرجوليةِ.

قوله (يَحُطُّ مَنصِبَ المُتَّسِمِ بِه): أي يُضِيعُ مَنْصِبَ المَوصُوفِ بِه. قوله (ويُزْرِي بِصَاحِبِه): -بفتحِ الياءِ- أي يُحَقِّرُه. وقوله (ويُنَفِّرُ): -بتشديدِ الفاءِ- أي يَطْرُدُ. قوله (الحَظْر): -بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وسكونِ الظاءِ المعجَمةِ- أي المَنْعِ.

إلى امْتِثَالِ أَفْعَالِهِمْ، واتِّبَاعِ آثارِهِمْ وسِيرَتِهِم مُطْلَقًا، وجُمْهُورُ الفُقَهاءِ على ذلِكَ مِنْ أصْحابِ مالِكٍ والشَّافعيِّ وأَبي حنيفَةَ مِنْ غَيْرِ التِزام قَرِينةٍ؛ بَلْ مُطْلَقًا عند بَعْضِهِمْ، وإِنِ اخْتَلَفُوا في حُكْمِ ذَلِكَ، وحَكَى ابْنُ خُوَيْزِ مِنْدَاذَ وأَبُو الفَرَجِ عَنْ مَالِكٍ التِزَامَ ذلكَ وُجُوبًا، وهُوَ قَوْلُ الأَبْهَرِيِّ وابْنِ القَصَّارِ وأَكْثَرِ أَصْحَابِنَا، وقَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ العِرَاقِ وابنِ سُرَيْجٍ والإِصْطَخْرِيِّ وابْنِ خَيْرَانَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ، وأَكْثَرُ الشَّافِعِيَّةِ على أنَّ ذلك نَدْبٌ.

وذَهَبَتْ طَائفَةٌ إلى الإِبَاحَةِ، وقَيَّدَ بَعْضُهُمُ الاتِّبَاعَ فيما كانَ مِنَ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، وعُلِمَ بِهِ مَقْصِدُ القُرْبَةِ، ومَنْ قَالَ بالإِبَاحَةِ في أفعالِهِ لَمْ يُقَيِّدْ، قَالَ: فلَوْ جَوَّزْنا عَلَيْهِمُ الصَّغائِرَ لَمْ يُمْكِنِ الاقتِداءُ بِهِمْ في أفعالِهِمْ؛ إذْ لَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ مِنْ أَفعَالِهِ يَتَمَيَّزُ مَقْصِدُهُ بِهِ مِنَ القُرْبَةِ أَوِ الإِباحَةِ أَوِ الحَظْرِ أَوِ المَعْصِيَةِ، ولا يَصِحُّ أَنْ يُؤْمَرَ المَرْءُ بامْتِثَالِ أَمْرٍ لَعَلَّهُ مَعصِيَةٌ؛ لا سِيَّما عِنْدَ مَنْ يَرَى مِنَ الأُصُولِيِّينَ تَقْدِيمَ الفِعْلِ على القَوْلِ إذا تعَارَضَا.

ونَزِيدُ هذا حُجَّةً بِأَنْ نَقُولَ: مَنْ جَوَّزَ الصَّغائِرَ، ومَنْ نَفَاهَا عَنْ نَبِيِّنا ﷺ مُجْمِعُونَ على أَنَّه لا يُقَرُّ على مُنْكَرٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وأَنَّه مَتَى رَأَى شَيْئًا فسَكَتَ عَنْهُ ﷺ دَلَّ على جَوَازِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ هذا حالَهُ في حَقِّ غَيْرِهِ، ثُمَّ يُجَوِّزُ وُقُوعَهُ مِنْهُ في نَفْسِهِ؟!

قوله (مُطْلَقًا): أي مِن غَيْرِ قَيْدِ أَنْ تَقَعَ أفعالُهم وأقوالُهم قَصْدًا، كَما قالَ تعالى: ﴿أولئكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللهُ فبِهُداهم اقْتَدِه﴾ [الأنعام: ٩٠].

قوله (مِنْ غَيْرِ التزامِ قرينةٍ): أيْ دالَّةٍ على وُقوعِ قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ في أفعالِهم.

قوله (ابنُ خُوَيْزِ مِنْدَاذَ): بضمِّ الخاءِ المُعجَمةِ وفتحِ الواوِ المخفَّفةِ وسكونِ التحتيةِ وفتحِ الزَّايِ وكسرِها وكَسْرِ الميمِ وسكونِ النونِ فدالٍ مهمَلةٍ فألِفٍ فذالٍ معجَمةٍ أو فذالَيْنِ معجَمَتينِ.

قوله (الأَبْهَرِيِّ): بفتحِ الهَمزةِ والهاءِ. قوله (وابنِ القَصَّارِ): بتشديدِ الصَّادِ. قوله (سُرَيْجٍ): بسينٍ مهمَلةٍ مضمومةٍ، وفي آخِرِه جيمٌ؛ وهوَ العَبَّاسُ البَغداديُّ. (والإِصْطَخْرِيِّ): -بكَسْرِ الهَمزةِ وفَتْحِ الطَّاءِ وسكونِ الخاءِ المُعْجَمَةِ- وهوَ شيخُ ابنِ سُرَيْجٍ. قوله (وابنِ خَيْرَانَ): بالخاءِ المعجَمةِ وسكونِ التحتيّةِ فراءٍ فألِفٍ فنونٍ.

قوله (وذَهبَتْ طائفةٌ): أي مِنْهم أو مِن غيرِهم.

قوله (وعُلِمَ به مَقصِدُ القُرْبَةِ): أي التَّقرُّبِ في الأَحْوالِ الأُخرويَّةِ.

قوله (مَقْصِدُه): -بكسرِ الصّادِ- أي مَطْلَبُه.

قوله (أو الإباحَةِ): مِمَّا لا يَتَرَتَّبُ على فِعْلِه مَدْحٌ ولا ذَمٌّ، ولا ثَوابٌ ولا عِقابٌ.

قوله (أو الحَظْرِ): أي المَنْعِ حَرامًا أو مكروهًا أو خِلافَ الأَوْلى.

قوله (إذا تَعارَضَا): وجُهِلَ المتأخِّرُ مِنهما، وهُمْ أصحابُ الشافعيّ.

قوله (لا يُقَرُّ): -بضمِّ الياءِ وفتحِ القافِ وتشديدِ الراءِ- قالَ المُلّا: وأَخْطَأَ الحلبيُّ في قولِه «يقِرُّ» بكسرِ القافِ وتَبِعَه غيرُه مِنَ المُحشِّينَ.

قوله (فسَكَتَ عَنْه... إلخ): أيْ لَمْ يُنْكِرْه على فاعلِه.

وعَلَى هَـذَا المَأْخَـذِ يَجِبُ عِصْمَتُهُـمْ مِـنْ مُوَاقَعَـةِ المَكْرُوهِ كَمَا قِيـلَ؛ إِذِ الحَظْـرُ أَوِ النَّـدْبُ عـلى الاقتـداءِ بِفعْلِـهِ يُنَـافِي الزَّجْـرَ والنَّهْـيَ عَـنْ فِعْلِ المَكْرُوهِ.

وأَيْضًـا فَقَـدْ عُلِـمَ مِـنْ دِيـنِ الصَّحَابَـةِ قَطْعًـا الاقتـداءُ بأَفعَـالِ النَّبِـيِّ ﷺ كَيْـفَ تَوَجَّهَـتْ وَفِي كُلِّ فَـنٍّ كالاقتـداءِ بأَقْوَالِهِـمْ، فَقَـدْ نَبَـذُوا خَواتِيمَهُـمْ حِـينَ نَبَـذَ خَاتِمَـهُ[1]، وخَلَعُـوا نِعَالَهُـم حِـينَ خَلَـعَ[2]، واحْتِجاجُهُـمْ بِرُؤْيَـةِ ابْـنِ عُمَـرَ جَالِسًـا لِقَضَـاءِ حَاجَتِـهِ، مُسْـتَقْبِلًا بَيْـتَ المَقْـدِسِ[3]، واحْتَـجَّ غَـيْرُ واحِـدٍ مِنْهُـمْ فِي غَـيْرِ شَيْءٍ مِمَّا بابُـه العِبَـادةُ أَوِ العَـادَةُ بِقَوْلِـهِ: «رأَيْـتُ رَسُـولَ الله ﷺ يَفْعَلُـه»[4].

وقَـالَ ﷺ: (هَـلَّا خَبَّرْتِيهَـا أَنِّي أُقَبِّـلُ وأَنَـا صَائِـمٌ!)[5]، وقالَـتْ عَائِشَـةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مُحْتَجَّـةً: (كُنْـتُ أَفْعَلُـهُ أَنَـا ورَسُـولُ الله ﷺ)[6]، وغَضِـبَ ﷺ عـلى الـذي أُخْـبِرَ

قولـه (إِذِ الحَظْـرُ): أَيْ المَنعُ عَـنْ تَـركِ الاقتـداءِ عـلى وَجْـهِ الحُرمـةِ، قـالَ المُـلَّا: والأظهـرُ أَنْ يَقـولَ «إِذِ الوجـوبُ... إلـخ».

قولـه (وفي كُلِّ فَـنٍّ): أي نـوعٍ مِـن أفعالِـه قَصْدًا أو سَـهْوًا مِـنْ غَـيْرِ تفرقـةٍ بَـيْنَ فِعْلٍ مِـن أفعالِـه.

قولـه (حِـينَ نَبَـذَ خاتِمَـه): -بكسرِ التـاءِ وفتحِهَـا- أَيْ حِـينَ طَـرَحَ... إلـخ.

قولـه (واحتجاجُهـم): -بالرفـعِ- أي ومِـنْ دِيـنِ الصَّحَابَـةِ اسـتدلالُهم بجَـوازِ محـاذاةِ القِبلـةِ حَـالَ قَضـاءِ الحَاجَـةِ اسـتقبالًا واسـتدبارًا.

قولـه (هَـلَّا خَبَّرْتِيهـا): -بتشـديدِ الموحَّـدَةِ وإشـبَاعِ كسْرَةِ التـاءِ- أي المرأةَ التي سَـأَلَتْكِ. قولـه (أَنِّي أُقَبِّـلُ وأنـا صَائِـمٌ): فقالَـتْ: قَـدْ أخبَرْتُهـا وذَهَبَـتْ إلى زوجِهـا فأَخْبَرَتْـه.

قولـه (كُنْـتُ أفعَلُـه أنـا ورسُـولُ الله): قـالَ الدلجيُّ: لا يُعْرَفُ مخرَّجُـه، وإنَّمـا المعروفُ غُسْلُها مَـعَ رسُـولِ الله ﷺ.

(1) حديث (أنهم نَبَذُوا خَوَاتِيمَهُمْ حينَ نَبَذَ خَاتَمَه): الشيخان [البخاريُّ (٥٨٦٧)، ومسلمٌ (٢٠٩١)] عن ابنِ عمرَ.

(2) حديث (أنهم خَلَعوا نعالهم حين خَلَعَ): أحمد [١١١٥٣]، وأبو داود [٦٥٠]، والحاكم [١/ ٢٦٠] عن أبي سعيدٍ (أنه صَلَّى في نَعْلَيْه ثُمَّ نَزَعَ فنزَعَ النَّاسُ نعالَهُم).

(3) حديث (رؤية ابن عمر أباه جالسًا لقضاء حاجته ...): الشيخان [البخاريُّ (١٤٥)، ومسلمٌ (٢٦٦)].

(4) [وردت هـذه العبـارة عـن عـدد مـن الصحابـة، في الصحيحـين وغيرهمـا، منهـم عـلي بـن أبي طالـب وعبدالله بـن عمـر وواثلـة وابـن مسـعود وأنـس وغيرهـم. مـن ذلـك مـا أخرجـه البخـاري (٤٣٠) عـن نافـع، قـال: رأيـت ابـن عمـر يصـلي إلى بعيـره، وقـال: رأيـت النبـي ﷺ يفعلـه].

(5) حديث (هلا خبَّرتيها أني أُقبِّل وأنا صائمٌ ...): مالكٌ في «الموطأ» [كتاب الصيام (١٣)] عن عطاء بن يسار: أَنَّ رجلًا قَبَّلَ امرأتَه وهو صائمٌ فوَجَدَ مِن ذلك وَجْدًا شديدًا، فأرسلَ امرأتَهُ تسأَلُ عن ذلك، فدخلَتْ عَلَى أُمِّ سلمةَ فذكرتْ لها ذلك، فأخبرتها أُمُّ سلمةَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ يقبل وهو صائمٌ، فرجعت فأخبرت زوجها، فقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ يحل الله لرسوله ما يشاء، فرجعت امرأته إلى أم سلمة فوجدت عندها رسول الله ﷺ، فقال: ما بالُ هذه المرأة؟ فأخبرته أمُّ سلمةَ، فقال (ألا أخبرتيها أَنِّي أفعل ذلك)، فقالت: قد أخبرتُها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ، يحلُّ اللهُ لرسوله ما يشاءَ، فغَضِبَ رسولُ الله ﷺ وقالَ (إِنِّي لأَتْقَاكُمْ للهِ وأَعْلَمُكُم بحُدُودِه).

(6) حديث عائشة (كنتُ أفعله أنا ورسولُ الله): [مالكٌ في «الموطأ» كتاب الصيام (١٤)].

بِمِثْلِ هَذا عَنْهُ، فقَالَ: (يُحِلُّ اللهُ لِرَسُولِهِ مَا يَشاءُ)، وَقالَ: (إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ، وأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِهِ).

والآثَارُ في هَذا أكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحاطَ بِهَا؛ لَكِنَّه يُعْلَمُ مِنْ مجمُوعِهَا عَلَى القطْعِ اتِّبَاعُهُمْ أفعَالَهُ واقتداؤُهُمْ بِهَا، ولَوْ جَوَّزُوا عليْهِ المخالَفَةَ في شَيْءٍ مِنْهَا لَمَا اتَّسَقَ هذا، ولَنُقِلَ عَنْهُمْ، وظَهَرَ بَحْثُهُمْ عَنْ ذلكَ، ولَمَا أَنْكَرَ ﷺ على الآخَرِ قَوْلَه واعتِذارَهُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ.

وأَمَّا المُباحَاتُ فجَائِزٌ وُقُوعُهَا مِنْهُمْ؛ إذْ لَيْسَ فيهَا قَدْحٌ؛ بَلْ هِيَ مَأْذُونٌ فيهَا، وأَيْدِيهِمْ كَأَيْدِي غَيْرِهِمْ مُسَلَّطَةٌ عَلَيْهَا.

إلا أَنَّهُم بِمَا خُصُّوا بِهِ مِنْ رَفِيعِ المَنْزِلَةِ، وشُرِحَتْ لَهُ صُدُورُهُمْ مِنْ أَنْوارِ المَعْرِفَةِ، واصْطُفُوا بِهِ مِنْ تَعَلُّقِ بالِهِمْ باللهِ والدَّارِ الآخِرَةِ، لا يَأْخُذُونَ مِنَ المُباحَاتِ إلا الضَّرُوراتِ مِمَّا يَتَقَوَّوْنَ بِهِ على سُلُوكِ طَرِيقِهِمْ، وصَلاحِ دِينِهِمْ، وضَرُورَةِ دُنْيَاهُمْ، ومَا أُخِذَ على هَذِهِ السَّبِيلِ التَحَقَ طَاعَةً، وصَارَ قُرْبَةً كَمَا بَيَّنَّا مِنْهُ أَوَّلَ الكِتَابِ طَرَفًا في خِصَالِ نَبِيِّنَا ﷺ.

فَبَانَ لَكَ عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ عَلَى نَبِيِّنَا، وعَلَى سَائِرِ أَنْبِيائِهِ؛ بِأَنْ جَعَلَ أَفْعَالَهُمْ قُرُبَاتٍ وطاعاتٍ بَعِيدَةً عَنْ وَجْهِ المُخالَفَةِ ورَسْمِ المَعْصِيَةِ.

***

قوله (في شيءٍ مِنْهَا): أي مِن أفعالِه. وقوله (لَمَا اتَّسَقَ): أي لَمَا استَوى وما انتَظَمَ.

قوله (فجائزٌ وُقُوعُها مِنْهم): بَلْ مُتَحَقِّقٌ صُدورُها عنْهم.

قوله (مُسَلَّطةٌ عَلَيْها): بجَوازِ الامتدادِ إِلَيْها؛ فَقَدْ وَرَدَ في الحديثِ (أنَّ اللهَ -سبْحانَه- أَمَرَ المؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ به المُرْسَلِينَ، فقالَ تعالى: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ ما رَزَقْناكم واشكُرُوا للهِ إنْ كُنْتم إيَّاه تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢])[1].

قوله (إلّا أنَّهم): أي الأنبياءَ وكذا أتباعَهُم الكُمَّلَ مِنَ الأصفِياءِ. قوله (واصطُفُوا): -بصيغةِ المجهُولِ مخفَّفةَ الفاءِ- أي مِن اختيارِ الله لهم.

قوله (إلّا الضروراتِ): لِزُهْدِهم في الدنيا، وتَوَجُّهِهم إلى العُقْبَى، وطَلَبِهم رِضَى المَوْلَى.

قوله (على سُلوكِ طَرِيقِهم): في تقويةِ أبدانِهم وتهيئةِ زادِهم لِمَعادِهم. قوله (وضَرورةِ دُنْيَاهم): على أُمورِ أُخْراهم مِمَّا لا بُدَّ مِنْه.

قوله (وما أُخِذَ على هذه السَّبيلِ): أي وَفْقَ الشريعةِ.

قوله (عَظِيمُ فَضْلِ الله على نَبِيِّنا): أي خصُوصًا كَمَا قالَ تعالى: ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

***

(١) أخرجه مسلمٌ (١٠١٥) [كتاب الزكاة]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والآية: البقرة ٢٥٤.

قولـه (فَمَنَعَهـا قَـوْمٌ): بِنَـاءً عـلى عمُـومِ العِصمَـةِ الشـاملةِ لِلأحـوالِ المتقدِّمـةِ والمتأخِّـرةِ.

وقولـه (وجَوَّزَهـا آخَـرُونَ): حيـثُ خَصُّـوا العِصمَـةَ بحـالِ النبـوَّةِ.

قولـه (فكيـف والمسـألةُ تَصوُّرُهَـا كالمتنِـعِ): أي المسـتحيلِ في الذِّهْـنِ.

قولـه (إذِ الأحـكامُ الشرعيـةُ): أي مِـن الواجـبِ والمنـدوبِ والحـرامِ... إلـخ. قولـه (وتَقَـرُّرِ الشريعَـةِ): أي بأُصُولِهـا وفروعِهـا كَـمَا هِـيَ.

قولُـه (بهـذه المَقالـةِ عَلَيْهـا): أي عـلى صِحَّـةِ تلـكَ الحالـةِ أو المَقالـةِ (فذَهَـبَ سَـيْفُ السُّـنَّةِ): أي القاطـعُ في الحُجَّـةِ. قولُـه (ومُقْتَـدَى فِـرَقِ الأُمَّـةِ)[1]: أي في عِلـمِ الـكَلامِ والمَسَـائلِ المهمّـةِ (إلى أنَّ طريـقَ العِلْـمِ بذلـك النقـلُ): أي فوائـدُ الأثَـرِ بكَوْنِـه ﷺ مُتَّبِعًـا لِلـشَرعِ (مِـن طريـقِ السَّـمعِ): أي الـواردِ عـلى أَلْسِـنَةِ نَقَلَـةٍ يكُونـونَ في مَرْتَبَـةِ الجَمْـعِ.

قولـه (وحُجَّتُـه): أي القـاضي أَبي بَكـرٍ، (في العَـادَةِ): أي في جَـرْيِ العَـادَةِ الغالبـةِ عَلَيْنـا.

قولـه (مَـا اهْتُبِـلَ بـه): -بضـمِّ الفوقيـةِ وكـسرِ الموحَّـدةِ- أي اغتُنِـمَ بـه. قولـه (ولَفَخَـرَ): -بفتـحِ الخـاءِ المعجَمـةِ- أي لافتَخَـرَ بـه.

قوله (ولَمْ يُؤْثَرْ شَيءٌ): أي لَمْ يُرْوَ شيءٌ.

فَصْلٌ [في عصمتهم قبل النبوة]

وقَـدِ اخْتُلِـفَ في عِصْمَتِهِـمْ مِـنَ المَعَـاصِي قَبْـلَ النُّبُـوَّةِ، فمَنَعَهَـا قَـوْمٌ، وجَوَّزَهـا آخَـرُونَ.

والصَّحيـحُ -إنْ شَـاءَ اللهُ تعـالى- تَنْزِيهُهُـم مِـنْ كُلِّ عَيْـبٍ، وعِصْمَتُهُـمْ مِـنْ كُلِّ مـا يُوجِـبُ الرَّيْـبَ، فكَيْـفَ والمَسْـأَلَةُ تَصـوُّرُهَـا كَالمُمْتَنِـعِ؛ فـإِنَّ المَعَـاصِيَ والنَّوَاهِـيَ إنَّـمَا تكُـونُ بَعْـدَ تقَـرُّرِ الـشَّرْعِ.

وقَـدِ اخْتَلَـفَ النـاسُ في حَـالِ نَبِيِّنَـا ﷺ قَبْـلَ أَنْ يُوحَـى إِلَيْـهِ هَـلْ كانَ مُتَّبِعًـا لِـشَرْعٍ قَبْلَـهُ أَمْ لا؟

فقَـالَ جَمَاعَـةٌ: لَمْ يَكُـنْ مُتَّبِعًـا لِـشَيْءٍ، وهَـذا قَـوْلُ الجُمْهُـورِ، فالمَعَـاصِي عـلى هَـذا القَـوْلِ غَـيْرُ مَوْجُـودَةٍ ولا مُعْتَـبَرَةٍ في حَقِّـهِ حِينَئِـذٍ؛ إذِ الأَحْـكامُ الشَّرْعيَّـةُ إِنَّـمَا تَتَعلَّـقُ بالأَوَامِـرِ والنَّوَاهِـي، وتَقَـرُّرِ الشَّريعَـةِ.

ثُـمَّ اخْتَلَفَـتْ حُجَـجُ القَائِلِـينَ بِهَـذِه المَقَالَـةِ عَلَيْهـا: فذَهَـبَ سَـيْفُ السُّـنَّةِ ومُقْتَـدَى فِـرَقِ الأُمَّـةِ، القَـاضِي أَبُـو بَكْـرِ بْـنُ الطَّيِّـبِ إلى أَنَّ طَرِيـقَ العِلْـمِ بذَلِـكَ النَّقْـلُ ومَـوَارِدُ الخَـبَرِ مِـنْ طَرِيـقِ السَّـمْعِ، وحُجَّتُـه أَنَّـه لَـوْ كانَ ذلـك لَنُقِـلَ، ولَمَـا أَمْكَـنَ كَتْمُـهُ وسَـتْرُهُ في العَـادَةِ؛ إذْ كَانَ مِـنْ مُهِـمِّ أَمْـرِه، وأَوْلَى مَـا اهْتُبِـلَ بِـهِ مِـنْ سِـيرَتِه، ولَفَخَـرَ بـه أَهْـلُ تلـكَ الشريعَـةِ، ولَاحْتَجُّـوا بِـهِ عَلَيْـهِ، ولَمْ يُؤْثَـرْ شَيْءٌ مِـنْ ذلـكَ جُمْلَـةً.

وذَهَبَـتْ طائِفَـةٌ إلى امْتِنَـاعِ ذلِـكَ عَقْـلًا، قالُـوا: لِأَنَّـه يَبْعُـدُ أَنْ يَكُـونَ مَتبوعًـا مَـنْ عُـرِفَ تَابِعًـا،

(1) قـال الشـهاب: هـو القـاضي أبـو بكـر محمـد بـن الطيب بن محمـد بـن جعفـر بـن القاسـم الباقـلاني، صاحـب التآليـف الجليلـة، وحامـل لـواء أهـل السـنة، الثقـة الـذي يـضرب المثـل بسـعة علمـه وشـدة ذكائـه، وانتهـى لـه النظـر في الأصلـين عـلى أصـل الأشـعري، وأرسـل إلى ملـك الـروم وناظـر أحبارهـم في قصـة غريبـة لـه، وتـوفي في ذي القعـدة سـنة ثـلاث وأربعمائـة، و كانـت لـه جنـازة لم يـر مثلهـا، وإنـما مدحـه -وإن كان حقيقـا بذلـك- إشـارة إلى ترجيـح هـذا المذهـب وأنـه لا ينبغـي العـدول عنـه.

وبَنَوْا هَذا على التَّحْسِينِ والتَّقْبِيحِ، وهِي طَرِيقَةٌ غَيْرُ سَدِيدَةٍ، وَاسْتِنَادُ ذلك إلَى النَّقْلِ -كَمَا تَقَدَّمَ ذلِكَ لِلقاضِي أَبِي بَكْرٍ- أَوْلَى وأَظْهَرُ.

وقَالَتْ طائِفَةٌ أُخْرَى بالوَقْفِ في أَمْرِهِ ﷺ، وتَرْكِ قَطْعِ الحُكْمِ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ في ذلك؛ إذْ لَمْ يُحِلِ الوَجْهَيْنَ مِنهَا العَقْلُ، ولا اسْتَبَانَ عِنْدَهَا في أَحَدِهِمَا طَرِيقُ النَّقْلِ، وهُوَ مَذْهَبُ أَبِي المَعَالِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وذَهَبَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى، وقالَتْ: إنَّه كانَ عَامِلًا بِشَرْعِ مَنْ قَبْلَهُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا هَلْ يَتَعَيَّنُ ذلكَ الشَّرْعُ أَمْ لا؟ فَوَقَفَ بَعْضُهُمْ عَنْ تَعْيِينِه وَأَحْجَمَ، وجَسَرَ بَعْضُهُمْ على التعيينِ وصَمَّمَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ هَذِهِ المُعَيِّنَةُ فيمَنْ كانَ يَتَّبِعُ، فقِيلَ: نُوحٌ، وقِيلَ: إبْرَاهِيمُ، وقِيلَ: مُوسَى، وقِيلَ: عِيسَى صَلَوَاتُ اللهِ على جَمِيعِهِمْ.

فَهَذِه جُمْلَةُ المَذَاهِبِ في هَذِه المَسْأَلَةِ، والأَظْهَرُ فِيهَا مَا ذَهَبَ إلَيْهِ القاضي أَبُو بَكْرٍ، وأَبْعَدُهَا مَذَاهِبُ المُعَيِّنِينَ؛ إذْ لَوْ كانَ شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ لَنُقِلَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، ولَمْ يَخْفَ جُمْلَةً.

ولا حُجَّةَ لَهُمْ في أَنَّ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِرُ الأَنْبِياءِ، فلَزِمَتْ شَرِيعَتُهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهَا؛ إذْ لَمْ يَثْبُتْ عُمُومُ دَعْوَةِ عيسى، بَلِ الصَّحِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِنَبِيٍّ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ إلا لِنَبِيِّنَا ﷺ.

قوله (في أَمْرِه ﷺ): أي في شأنِه قَبْلَ بَعْثِه. قوله (إذْ لَمْ يُحِلِ): أي لَمْ يَمْنَعِ.

(ثُمَّ اختَلَفُوا): أي الفرقةُ الثالثةُ.

قوله (فوَقَفَ بَعْضُهم... إلخ): لِعَدَمِ ما يَدُلُّ على تَبْيِينِه. قوله (وأَحْجَمَ): بتقديم الحاء على الجيم أي تأخر، وبعكسه أي تَقَدَّمَ.[1]

وقوله (وجَسَرَ بَعْضُهم): أي اجترَأَ واقتحَمَ، ومِنْه قول الشاعرِ:

مَنْ راقَبَ الناسَ ماتَ غَمًّا * وَفازَ باللَّذَّةِ الجَسُورُ

قوله (وصَمَّمَ): أي عَزَمَ علَيْه وجَزَمَ.

(المُعَيِّنَةُ): -بكسرِ الياءِ التحتية- صِفةٌ لِلفرقةِ.

قوله (فيمَنْ كانَ يَتَّبِعُ): مِن أربابِ النبوّةِ قَبْلَ البَعثةِ، (فقيلَ: نوحٌ): قال المُلا: وهْوَ بَعيدٌ بحسَبِ الزمَانِ وكذا باعتبارِ معرفةِ أحكامِ هذا الشأنِ مَعَ أنَّ دِينَه منسوخٌ لِظُهورِ نُبُوَّةِ خليلِ الرحمنِ.

قوله (وَقيل: إبراهيمُ): وهْوَ الظاهرُ، والأظهرُ أنَّه تابعٌ لإسمعيلَ، وأمَّا مُوسَى وعيسى فلا يَصِحُّ لأنَّ مِلَّةَ الأوَّلِ نُسِخَتْ بعيسى، وهُوَ وعيسى أُرْسِلَا إلى بَنِي إسرائيلَ.

قوله (المُعَيِّنِينَ): بكسرِ الياءِ المشدَّدةِ.

قوله (آخِرُ الأنبياءِ): أي أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ.

قوله (لَمْ يَثْبُتْ عُمومُ دعوةِ عيسى): كَمَا يَدُلُّ علَيْه قولُه تعالى: ﴿وإذْ قالَ عيسى ابنُ مَريمَ يا بَنِي إسرائيلَ إنِّي رسولُ اللهِ إلَيْكم﴾ [الصف: ٦].

قوله (إلَّا لِنَبِيِّنا): فإنَّ دَعْوتَه عامّةٌ لِلإنسِ والجِنِّ بلْ إلى الخَلْقِ كافَّةً.

---

(١) قال الزبيدي في «التاج»: (أَحْجَمَ عَنْهُ) إِحْجاماً: (كَفَّ)، كَأَحْجَمَ، بِتَقْدِيمِ الحَاءِ. وَقَالَ شيخُنا: كِلاهُمَا من الأَضْدادِ يستعملان بمعنَى تَقَدَّمَ وبِمَعْنَى تَأَخَّرَ.

ولا حُجَّـةَ أَيْضًـا لِلْآخَـرِ في قَوْلـِهِ تعـالَى: ﴿أَنِ اتَّبِـعْ مِلَّـةَ إِبْراهيـمَ حَنِيفًـا﴾ [النحـل: ١٢٣]، ولِلآخَرِيـنَ في قَوْلـِهِ تعـالى: ﴿شَرَعَ لَكُـمْ مِـنَ الدِّيـنِ مَـا وَصَّى بِـهِ نُوحًـا﴾ [الشورى: ١٣]، فَحَمْـلُ هَـذِهِ الآيَـةِ عـلى اتِّبَاعِهِـمْ في التَّوْحِيـدِ، كَقَوْلـِهِ تعَـالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِيـنَ هَدَاهُـمُ اللهُ فَبِهُدَاهُـمُ اقْتَـدِهْ﴾ [الأنعـام: ٩٠]، وقَـدْ سَـمَّى اللهُ تعَـالى فيهِـمْ مَـنْ لَمْ يُبْعَـثْ، ولَمْ تكُـنْ لـهُ شَرِيعَـةٌ تخُصُّـه؛ كيُوسُـفَ بْـنِ يَعْقُـوبَ، عـلى قَـوْلِ مَـنْ يَقُـولُ: إنَّـه ليْـسَ برَسُـولٍ، وَقَـدْ سَـمَّى اللهُ تعـالى جَماعَـةً مِنْهُـمْ في هَـذِهِ الآيـةِ، وشَرَائِعُهُـمْ مُخْتَلِفَـةٌ، لا يُمْكِـنُ الجَمْـعُ بَيْنَهَـا؛ فَـدَلَّ عـلى أَنَّ المُـرَادَ مَـا اجْتَمَعُـوا عَلَيْـه مِـنَ التَّوْحِيـدِ وعِبَـادَةِ اللهِ تعـالى.

وبَعْـدَ هَـذَا فَهَـلْ يَلْـزَمُ مَـنْ قـالَ بِمَنْـعِ الاتِّبَـاعِ هـذا القَـوْلُ في سَـائِرِ الأنبيـاءِ غَـيْرِ نَبِيِّنَـا ﷺ، أَوْ يُخَالِفُـونَ بَيْنَهُـمْ؟

أَمَّـا مَـنْ مَنَـعَ الاتِّبَـاعَ عَقْـلًا فيَطَّـرِدُ أَصْلُـه في كُلِّ رَسُـولٍ بِـلَا مِرْيَـةٍ، وأَمَّـا مَـنْ مَـالَ إلى النَّقْـلِ فأَيْنَـمَا تَصَـوَّرَ لَـهُ وتَقَـرَّرَ اتَّبَعَـهُ، ومَـنْ قَـالَ بالوَقْـفِ فعَـلَى أَصْلِـهِ، ومَـنْ قَـالَ بوُجُـوبِ الاتِّبَـاعِ لِمَـنْ قَبْلَـه يَلْزَمُـه بمَسَـاقِ حُجَّتِـهِ في كُلِّ نَبِـيٍّ.

***

قولـه (أولئـكَ الذيـن هَـدَى اللهُ): أي هَدَاهـم واجْتبَاهُـم واصْطَفَاهـم. وقولـه (اقْتَـدِهْ): بسُـكونِ الهـاءِ لِلسَّـكْتِ، وفي قـراءةٍ بكَـسْرِ الهـاءِ.

قولـه (إنَّـه لَيْـسَ برَسُـولٍ): وهـذا مـردودٌ بقَولـه تعـالى: ﴿ولَقَـدْ جاءَكـم يوسـفُ مِـنْ قَبْـلُ بالبيِّنَـاتِ﴾ [غافـر: ٣٤]، نَعَـمْ لَمْ يُعـرَفْ لـه شريعـةٌ تخُصُّـه.

قولـه (فيَطَّـرِدُ): -بتشـديدِ الطـاءِ- أيْ فيَسْـتَمِرُّ. قولـه (بـلا مِرْيَـةٍ): -بكسرِ الميـمِ وضَمِّهـا- أي بغـيرِ شَـكٍّ وشُـبهَةٍ.

قولـه (فأَيْنَـما تَصَـوَّرَ لـه): بصيغـةِ الفاعـلِ، وقيـلَ: بالمفعـولِ.

***

فَصْلٌ [فيما يكون من الأعمال بغير قصد وتعمد كالسهو والنسيان]

هَـذَا حُكْـمُ مـا تكُـونُ المُخالَفَـةُ فيـهِ مِـنَ الأعْـمالِ عَـنْ قَصْـدٍ، وهُـوَ مَـا يُسَـمَّى مَعْصِيَـةً، ويَدْخُـلُ تحْـتَ التَّكْلِيـفِ.

وأمَّـا مَـا يَكُـونُ بِغَـيْرِ قَصْـدٍ وتَعَمُّـدٍ -كالسَّـهْوِ، والنِّسْيانِ في الوَظائِـفِ الشَّرْعِيَّـةِ مِمَّـا تَقَرَّرَ الـشَّرْعُ بِعَـدَمِ تَعَلُّـقِ الخِطَـابِ بـه، وتَـرْكِ المؤاخَـذَةِ عَلَيْـهِ-، فأَحْـوَالُ الأنبيَـاءِ في تَـرْكِ المُؤاخَـذَةِ بـهِ، وكَوْنـهِ لَيْـسَ بِمَعْصِيَـةٍ لَـهُمْ مَعَ أُمَمِهِـمْ سَـوَاءٌ.

ثُمَّ ذلكَ على نَوْعَيْنِ:

- مَـا طَرِيقُـهُ البَـلاغُ، وتَقْرِيـرُ الـشَّرْعِ، وتَعَلُّـقُ الأَحْكامِ، وتَعْلِيـمُ الأُمَّـةِ بالفِعْـلِ، وأَخْذُهُـمْ باتِّبَاعِـهِ فيهِ،

- ومَا هُوَ خارِجٌ عَنْ هَذا مِمَّا يَخْتَصُّ بِنَفْسِهِ.

أَمَّـا الأَوَّلُ فحُكْمُـه عِنْـدَ جَماعـةٍ مِـنَ العُلَـماءِ حُكْـمُ السَّـهْوِ في القَـوْلِ في هـذا البـابِ، وقَـدْ ذَكَرْنـا الاتِّفَـاقَ عـلى امْتِنَـاعِ ذلـكَ في حَـقِّ النَّبِـيِّ ﷺ، وعِصْمَتِـهِ مِـنْ جَـوازِهِ عَلَيْـهِ قَصْـدًا أَوْ سَـهْوًا، فكَذَلـكَ قالُـوا: الأفعَـالُ في هـذا البـابِ لا يَجُـوزُ طُـرُوُّ المُخالَفَـةِ فيهـا، لا عَمْـدًا ولا سَـهْوًا؛ لِأَنَّهَـا بِمَعْنَـى القَـوْلِ مِـنْ جِهَـةِ التَّبْلِيـغِ والأَداءِ، وطُـرُوُّ هَـذِهِ العَـوارِضِ عَلَيْهَـا يُوجِـبُ التَّشْـكِيكَ، ويُسَـبِّبُ الطَّاعِـنَ، واعتَـذَرُوا عَـنْ أَحَاديـثِ السَّـهْوِ بِتَوْجيهَـاتٍ نَذْكُرُهَـا بَعْـدَ هَـذا إِنْ شَـاءَ اللهُ تعـالى، وإِلَى هَـذا مَـالَ أَبُـو إِسْـحَاقَ.

قولـه (ويَدْخُـلُ تحْـتَ التكليـفِ): أي ويُؤاخَـذُ بـه فاعلُـه.

قولـه (وتَـرْكِ المُؤاخَـذةِ عَلَيْـه): كالسَّـهوِ في الصَّلاةِ والـكلامِ والنسيـانِ في القِيَامِ.

قولـه (ثُـمَّ ذلـك): أي عَـدَمُ المؤاخَـذةِ بالسـهْوِ والنسـيَانِ.

قولـه (وتقريـرُ الـشرعِ): فيـما يعمَـلُ بـه مِـن الأصْـلِ والفـرعِ.

قولـه (وتَعلُّـقُ الأحـكامِ): أَمْـرًا ونَهْيًـا وحَـدًّا وسَـائِرِ شرائـعِ الإسْـلامِ ومَـا هُـوَ خـارِجٌ.

قولـه (مِمَّـا يَختَـصُّ بنَفْسِـه): مِـنْ واجبَـاتٍ ومندوبَـاتٍ ومُباحَـاتٍ ومكروهَـاتٍ ومحرَّمَـاتٍ.

قولـه (عـلى امتنـاعِ ذلـك): أي امتنـاعِ المخالَفَـةِ في القَـولِ (فكذلـك): أيْ مِثـلَ مـا قالـوا في بَـابِ القَـولِ بعِصمـةِ النبـيِّ.

قولـه (مِمَّا يَجوزُ طُرُوُّ المخالَفةِ فيها): بضَمِّ الطاءِ والـراءِ وتشـديدِ الـواوِ، أو بالهَمـزةِ بَعْـدَ واوٍ سَـاكنةٍ كحـدوثٍ لفظًـا ومَعْنًـى، وفي نسـخَةٍ «طَـرْدُ» -بـدالٍ مُهمَلَـةٍ بِزنَـةِ «ضَرْبٍ»- أي اطِّـرَادُ.

قولـه (مِـن جِهَـةِ التبليـغِ والأداءِ): إذِ الأُمَـمُ مأمـورونَ بمتابَعَـةِ الأنبيـاءِ قـولًا وفعْـلًا.

قولـه (ويُسَبِّبُ الطاعِـنَ): اسمُ فاعلٍ مِنْ طَعَنَ فيـه[1].

قوله (بَعْدَ هذا): أي في فصلٍ على حِدَةٍ.

(١) وفي نسـخة الشـهاب والقـاري «ويسـبب المطاعـن». قـال القـاري: (ويسـبب المطاعـن) مـن الطوائـف المخالفـة، والمطاعـن جمـع مطعـن، محـل الطعـن، وفي نسـخة (ويسـبب الطاعـن) اسـم فاعـل مـن طعـن فيـه: إذا عـاب وقـدح.

قوله (مِنَ الفُقَهاءِ والمتكلِّمِينَ): أي مِن أصحَابِ الأصولِ.

قولـه (والأحْكامِ الشرعَيـةِ): مِـنَ الأمـورِ العِلميّـةِ والعَمليّـةِ. (سَـهْوًا): منصـوبٌ بنَـزْعِ الخافـضِ، أي عَـنْ سَـهْوٍ.

قولـه (وفَرَّقُـوا): أي المجوِّزُونَ لـه. قولـه (بَـيْنَ ذلـك): أي الفعـلِ مِـن الأفعَـالِ الشرعيّـةِ.

قوله (تُناقِضُها): أي تُعَارِضُ المُعجِزةَ.

قولـه (فغَـيْرُ مُناقِـضٍ لهـا): أي لِلمعجِـزةِ لِأنَّهـا لَيْسَـتْ مِـن جِنْسِـهَا. قولـه (ولا قـادِحٌ في النبـوّةِ): لِثُبوتِهـا مَـعَ وُقُوعِـهِ مِنْهـا لِعَـدَمِ مُنافاتِـه لهَـا.

قولـه (مِـنْ سِـمَاتِ البَـشَرِ): -بكَسْرِ السـينِ- أي علاماتِـه لِأنَّ الإنسَـانَ مُشْـتَقٌّ مِـنَ النسـيانِ[1]، وأَوَّلُ النـاسِ أَوَّلُ الناسِـيَن؛ فقَـدْ قـالَ تعـالى في حـقِّ آدمَ: ﴿فنَسِيَ﴾ [طـه: ١١٥]. قولـه (أُنَسَّـى): بضـمِّ الهمـزَةِ.

(هُنَا): أي في هذا المَحَلِّ بخصُوصِه.

قولـه (إنِّي لَأَنْسَـى): -بفتـحِ الهَمـزةِ والسِّـينِ- أي بإنسـائِه جَـلَّ وعَـزَّ.

وقولـه (أوْ أُنَسَّـى): بصيغـةِ المفعـولِ مُشَـدَّدًا ويَجـوزُ مُخَفَّفًا. قولـه (لِأَسُـنَّ): -بفتـحِ الهَمـزةِ وضـمِّ السّـينِ وتشـديدِ النّـونِ- أي لِأُبَـيِّنَ لَكـم مَـا يَفعلُـه أَحَـدٌ مِنْكـم نسـيانًا.

قولـه (وتَمـامٌ عَلَيْـه في النِّعمَـةِ): حيـثُ أَمَـرَ الأُمَّـةَ بـأنْ يَقْتَـدُوا بـه فيـمَا صَـدَرَ عَنْـه عـلى جِهَـةِ السَّـهْوِ والغَفْلَـةِ؛ ولَعَـلَّ فيـه إيـماءً إلى قولِـه: ﴿ويُتِـمَّ نِعمتَـه عليْـكَ﴾ [الفتـح: ٢].

وقولـه (بَعيـدةٌ عَـنْ سِـمَاتِ النَّقْـضِ): -بالضـادِ المعجَمـةِ- أي عَـنْ وُرُودِ النقْـضِ.

---

(١) عـلى مذهـب الكوفيـين؛ فالهمـزة عندهـم زائـدة، ووزنـه «إفعـان»، والأصـل «إنسـيان» عـلى إفعـلان إلا أنـه لمـا كثـر في كلامهـم وجـرى عـلى ألسـنتهم حذفـوا منـه اليـاء التـي هـي الـلام لكثرتـه في استعمالهم، والحـذف لكثـرة الاسـتعمال كثـير في كلامهـم؛ ولهـذا يـرد إلى أصلـه في التصغـير، فيقـال «أنيسـيان»، أمـا عنـد البصريـين -وقـال بـه بعـض الكوفيـين أيضًـا- فهـو مشـتق مـن الأنـس؛ فالهمـزة أصـل ووزنـه فِعـلان.

وذَهَـبَ الأكثَـرُ مِـنَ الفُقَهـاءِ والمُتكلِّمِينَ إلى أنَّ المُخالَفَـةَ في الأفْعَـالِ البَلاَغيَّـةِ والأحـكام الشَّرْعيَّـةِ سَـهْوًا وعَـنْ غَـيْرِ قَصْـدٍ مِنْـهُ جَائِـزَةٌ عَلَيْـه، كَـمَا تَقَـرَّرَ مِـنْ أَحَاديـثِ السَّـهْوِ في الصَّـلَاةِ، وفَرَّقُـوا بَـيْنَ ذلـكَ، وبَـيْنَ الأقـوالِ البَلَاغِيَّـةِ؛ لِقِيَـامِ المُعْجِـزَةِ عـلى الصِّـدْقِ في القَـوْلِ، ومُخَالَفَـةُ ذلـك تُنَاقِضُهـا.

وأَمَّـا السَّـهْوُ في الأَفْعَـالِ فغَـيْرُ مُناقِـضٍ لها، ولا قَـادِحٌ في النُّبُـوَّةِ؛ بَـلْ غَلَطَـاتُ الفِعْـلِ، وغَفَـلَاتُ القَلْـبِ مِـنْ سِـمَاتِ البَـشَرِ، كَـمَا قَـالَ ﷺ: (إنَّـمَا أَنَـا بَـشَرٌ أَنْسَـى كَـمَا تَنْسَـوْنَ، فـإذا نَسِـيتُ فَذَكِّـرُونِي)[1]، نَعَـمْ، بَـلْ في حَالَـةِ النِّسْـيَانِ والسَّـهْوِ هُنَـا في حَقِّـهِ ﷺ سَـبَبُ إِفَـادَةِ عِلْـمٍ، وتَقْرِيـرِ شَرْعٍ، كَـمَا قَـالَ ﷺ: (إنِّي لَأَنْسَـى أَوْ أُنَسَّـى؛ لِأَسُـنَّ)[2]، بَـلْ قَـدْ رُوِيَ: (لَسْـتُ أَنْسَـى ولَكِـنْ أُنَسَّـى لِأَسُـنَّ).

وهَـذِهِ الحَالَـةُ زِيَـادَةٌ لَـهُ في التَّبْلِيـغِ، وتَمَـامٌ عَلَيْـهِ في النِّعمَـةِ، بَعِيـدَةٌ عَـنْ سِـمَاتِ النَّقْـضِ وأغـراضِ الطَّعْـنِ؛ فَـإِنَّ القَائلِـينَ بِتَجْوِيـزِ

---

(١) حديث (إنما أنا بَشَرٌ أَنْسَى ...): الشيخان [البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢)] عن ابن مسعودٍ.

(٢) حديث (إني لأَنْسَى أو أُنَسَّى لأسُنَّ): مالكٌ في «الموطأ» بلاغًا [كتاب السهو (٢)] وهو أحد بلاغاته التي لم تعرف موصولة.

ذلكَ يَشْتَرِطُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقَرُّ على السَّهْوِ والغَلَطِ، بَلْ يُنَبَّهُونَ عَلَيْه، ويُعَرَّفُونَ حُكْمَه بالفَوْرِ -على قَوْلِ بَعْضِهِمْ، وهُوَ الصَّحيحُ-، وقَبْلَ انْقِرَاضِهِمْ -على قَوْلِ الآخَرِينَ.

وأَمَّا مَا لَيْسَ طَرِيقُهُ البَلَاغَ، ولا بَيَانَ الأَحْكَامِ مِنْ أَفْعَالِهِ ﷺ، وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وأَذْكَارِ قَلْبِهِ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ لِيُتَّبَعَ فيهِ، فالأكْثَرُ مِنْ طَبَقَاتِ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ على جَوازِ السَّهْوِ والغَلَطِ عَلَيْهِ فيهَا، ولُحُوقِ الفَتَرَاتِ والغَفَلَاتِ بِقَلْبِهِ، وذلكَ بِما كُلِّفَهُ مِنْ مُقَاسَاةِ الخَلْقِ، وسِيَاسَةِ الأُمَّةِ، ومُعَانَاةِ الأَهْلِ، ومُلاحَظَةِ الأَعْدَاءِ؛ ولَكِنْ لَيْسَ على سَبِيلِ التَّكْرَارِ ولا الاتِّصَالِ، بَلْ على سَبِيلِ النُّدُورِ، كَمَا قالَ ﷺ: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، فأَسْتَغْفِرُ الله)[1]، ولَيْسَ في هَذا شَيْءٌ يَحُطُّ مِنْ رُتْبَتِهِ، ويُنَاقِضُ مُعْجِزَتَهُ.

وذَهَبَتْ طَائفةٌ إلى مَنْعِ السَّهْوِ والنِّسْيَانِ، والغَفَلَاتِ والفَتَرَاتِ في حَقِّهِ ﷺ جُمْلَةً، وهُوَ مَذْهَبُ جَماعةِ المُتَصَوِّفَةِ، وأَصْحابِ عِلْمِ القُلُوبِ والمَقَامَاتِ، ولَهُمْ في هَذِهِ الأَحاديثِ مَذَاهِبُ نَذْكُرُهَا بَعْدَ هَذا إنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

***

(1) [تقدم تخريجه. انظر ص٥٥٨].

قولُه (لا تُقَرُّ): -بضمِّ التاءِ وفتحِ القافِ وتشديدِ الراءِ- أي لا تَبْقَى ولا تُترَكُ.

قوله (ويُعَرَّفونَ): بصيغَةِ المجهولِ مُشَدَّدَ الراءِ.

قولُه (مِنْ طَبَقاتِ عُلَماءِ الأُمَّةِ): وكذا مِن طوائفِ مَشايخِ المِلَّةِ.

قولُه (والغَلَطِ عَلَيْه فيها): أي في أفعالِه حِينَ نُزولِ الوارداتِ إلَيْه وَلا يَلْحَقُه بذلك مَعَرَّةٌ ولا مَنْقَصَةٌ.

وقولُه (الفَتَراتِ): أي الزلَّاتِ بالنِّسْبَةِ لِعُلُوِّ الحَالاتِ.

قولُه (بِما كُلِّفَه): -بصيغةِ المجهولِ- أي بِما طَوَّقَه الحَقُّ، ويُروَى «بِما تَكَلَّفَه».

قولُه (وسِيَاسةِ الأُمَّةِ): أي محافَظتِهم، ويُروَى «وسِيَاساتِ الأُمَّةِ».

قولُه (ومعاناةِ الأهلِ): أي ملاحظةِ أحوالِهم مِن «عاناه: إذا قاساه».

قولُه (لَيُغانُ على قَلْبِي... إلخ): بصيغَةِ المجهولِ، والمَعْنى: قَدْ يُحْجَبُ قلبي عَن مشاهَدَةِ رَبِّي بالاشتغالِ بأَمْرِه.

***

فَصْلٌ فِي الكَلَامِ على الأَحَادِيثِ المَذْكُورِ فِيهَا السَّهْوُ مِنْه ﷺ

قَـدْ قَدَّمْنَـا فِي الفُصُـولِ قَبْـلَ هَـذا مَـا يَجُـوزُ فيـهِ عَلَيْـهِ السَّـهْوُ، ومَـا يَمْتَنِـعُ، وأَحَلْنَـاهُ فِي الأَخْبَـارِ جُمْلَـةً، وَفِي الأَقْـوَالِ الدِّينِيَّـةِ قَطْعًـا، وأَجَزْنَـا وُقُوعَـهُ فِي الأَفْعَـالِ الدِّينِيَّـةِ عـلى الوَجْـهِ الَّـذي رَتَّبْنَـاهُ، وأَشَرْنَـا إلى مَـا وَرَدَ فِي ذلـكَ، ونَحْـنُ نَبْسُـطُ القَـوْلَ فيـهِ، ونَقُـولُ:

الصَّحِيـحُ مِـنَ الأَحَاديـثِ الـوارِدَةِ فِي سَـهْوِهِ ﷺ فِي الصَّـلَاةِ ثَلَاثَـةُ أَحاديـثَ:

- الأَوَّلُ: حَدِيـثُ ذِي اليَدَيْـنِ فِي السَّـلَامِ مِـنَ اثْنَتَـيْنِ[1]،

- الثَّـانِي: حَدِيـثُ ابْـنِ بُحَيْنَـةَ فِي القِيَـامِ مِـنَ اثْنَتَـيْنِ[2]،

- الثَّالِـثُ: حَدِيـثُ ابْـنِ مَسْـعُودٍ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ صَـلَّى الظُّهْـرَ خَمْسًـا[3].

---

(١) حديث: ذي اليدين في السهو: الشيخان [البخاريُّ (٤٨٢)، ومسلمٌ (٥٧٣)] عن أبي هريرة.

(٢) حديث ابن بحينة: الشيخان [البخاريُّ (٨٢٩)، ومسلمٌ (٥٧٠)].

(٣) حديث ابن مسعود (أنه صَلَّى الظُّهْرَ خَمْسًا): الشيخان [البخاريُّ (١٢٢٦)، ومسلمٌ (٥٧٢)].

قولـه (في الفصُـولِ): السّـابقة. قولـه (وأَحَلْنـاه في الأخبـار): أي جَعَلْنـا وُقـوعَ السـهوِ مُحـالًا... إلـخ، والأخبـارُ بفتـحِ الهمـزةِ وكسرِهَـا. قولـه (جُملـةً): أي مِـن غَـيرِ تَفرقـةٍ بَـيْنَ كونِهـا دينيّـةً أو دنيويّـةً. قولـه (وأَجَزْنـا وُقوعَـه): أي وُقـوعَ السَّـهْوِ.

قولـه (مِـنِ اثنتَـيْنِ): أي ركعتـينِ في إحـدَى صَـلاتَي العَـشِيِّ الظُّهـرِ أو العـصْرِ.

قولـه (بُحَيْنَـةَ): -بضـمِّ الموحَّـدةِ وفتـحِ المهْمَلـةِ وسـكونِ اليـاءِ التحتيّـةِ وفتـحِ النـونِ- هِـيَ أمُّ عبـدِ الله زَوجُ مَالِـكٍ، مُطَّلبيّـةٌ قرشـيّةٌ، ابـنِ القِشْـبِ -بكسرِ القـافِ وسـكونِ الشـينِ المعجَمـةِ فموحَّـدةٍ.

قولـه (صَـلَّى الظُّهـرَ خَمْسًـا): اعْلَـمْ أنَّ أحاديـثَ السَّـهوِ كثـيرةٌ، والصَّحيـحُ مِنْهـا خمسَـةُ أحَاديـثَ: حديـثُ أبي هريـرةَ: (سَـجَدَ سَـجْدتَيْنِ)[1]، وحديـثُ أَبِي سَـعيدٍ: (سَـجَدَ قَبْـلَ السَّـلامِ)[2]، وحديـثُ ابـنِ مسْـعُودٍ: (في القيـامِ إلى خامسَـةٍ)[3]، وحديـثُ ذو اليَدَيْـنِ: (في السَّـلامِ مِـنِ اثنتَـيْنِ)[4]، وحديـثُ ابـنِ بُحَيْنَـةَ: (في القِيـامِ مِـنِ اثنتَـيْنِ)[5].

---

(١) متفـقٌ عليـه، أخرجـه البخـاريُّ (١٢٢٧)، ومسـلمٌ (٥٧٣)، وغيرهمـا مـن حديـث أبي هريـرة قـال: صـلى بنـا النبـي ﷺ الظهـر -أو العـصر- فسـلم، فقـال لـه ذو اليديـن: الصـلاة يـا رسـول الله أنقصـت؟ فقـال النبـي ﷺ لأصحابـه: «أحـق مـا يقـول؟» قالـوا: نعـم، فصـلى ركعتـين أخريـين، ثـم سـجد سـجدتين

(٢) أخرجـه مسـلمٌ (٥٧١) [كتـاب المسـاجد ومواضـع الصـلاة]، وغـيره مـن حديـث أبي سـعيد قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إذا شـك أحدكـم في صلاتـه، فلـم يـدر كـم صلى ثلاثـا أم أربعـا، فليطـرح الشـك وليبـن على مـا استيقن، ثـم يسـجد سـجدتين قبـل أن يسـلم، فـإن كان صلى خمسـا شـفعن لـه صلاتـه، وإن كان صلى إتمامـا لأربـع كانتـا ترغيـما للشـيطان».

(٣) أخرجـه البخـاريُّ (١٢٢٦)، ومسـلمٌ (٥٧٢)، وغيرهمـا مـن حديـث عبـدالله بـن مسـعود أن رسـول الله ﷺ صلى الظهـر خمسـا، فقيـل لـه: أزيـد في الصـلاة؟ فقـال: «ومـا ذاك؟» قـال: صليـت خمسـا، فسـجد سـجدتين بعـد مـا سـلم.

(٤) تقدم من حديث أبي هريرة.

(٥) متفـقٌ عليـه؛ أخرجـه البخـاريُّ (١٢٢٥)، ومسـلمٌ (٥٧٠) مـن حديـث ابـن بحينـة، قـال: «إن رسـول الله ﷺ قـام مـن اثنتـين مـن الظهـر لم يجلـس بينهـما، فلـما قـضى صلاتـه سـجد سـجدتين، ثـم سـلم بعـد ذلـك».

وهَـذِهِ الأَحَاديثُ مَبْنِيَّـةٌ عـلى السَّـهْوِ في الفِعْـلِ الَّـذي قَرَّرْنَـاهُ، وحِكْمَـةُ الله فيـهِ لِيُسْـتَنَّ بـهِ؛ إِذِ البَـلَاغُ في الفِعْلِ أَجْـلَى مِنْـهُ بالقَـوْلِ، وأَرْفَـعُ لِلاحْتِـمالِ، وشَرْطُـهُ أَنْ لا يُقَرَّ عـلى هَـذا السَّـهْوِ، بَـلْ يُشْـعَرُ بـهِ لِيَرْتَفِعَ الالتِبـاسُ، وتَظْهَرَ فائـدَةُ الحِكْمَـةِ فيـهِ كَـما قَدَّمْنَـاهُ، وأَنَّ السَّـهْوَ والنِّسْـيَانَ في حَقِّـهِ ﷺ غَـيْرُ مُضَـادٍّ لِلمُعْجِـزَةِ، ولا قـادِحٍ في التَّصْديـقِ.

وقَـدْ قـالَ ﷺ: (إِنَّـمَا أَنَـا بَـشَرٌ مِثْلُكُـمْ، أَنْسَـى كَمَا تَنْسَـوْنَ، فَـإذا نَسِيتُ فَذَكِّـرُونِي)[1]، وقـالَ: (رَحِـمَ اللهُ فُلانًـا؛ لَقَـدْ أَذْكَـرَنِي كَـذَا وكَـذَا آيَـةً كُنْـتُ أَسْـقَطْتُهُنَّ)[2]، ويُـرْوَى (أُنْسِـيتُهُنَّ)، وقـالَ ﷺ: (إِنِّي لأَنْسَـى أَوْ أُنَسَّـى لِأَسُـنَّ)، قِيـلَ: هَـذا اللَّفْـظُ شَـكٌّ مِـنَ الـرَّاوي، وقَـدْ رُوِيَ: (إِنِّي لا أَنْسَـى ولَكِـنْ أُنَسَّـى لِأَسُـنَّ)، وذَهَـبَ ابْـنُ نافِـعٍ وعيسَـى بْـنُ دِينَـارٍ إِلَى أَنَّـه لَيْـسَ بِشَـكٍّ، وَأَنَّ مَعْنَـاهُ التَّقْسِـيمُ، أَيْ: «أَنْسَـى أَنَـا، أو يُنَسِّـيني اللهُ».

قـالَ القَـاضي أَبُـو الوَليـدِ الباجـيُّ: يَحْتَمِـلُ مـا قـالَاهُ أَنْ يُريـدَ: إِنِّي أَنْسَى في اليَقَظَـةِ وأُنَسَّى في النَّـوْمِ، أَوْ أَنْسَـى عـلى سَـبيلِ عَـادَةِ البَـشَرِ مِـنَ الذُّهُـولِ عَـنِ الـشَّيْءِ والسَّـهْوِ، أَوْ أُنَسَّـى مَـعَ إِقْبَـالِي عَلَيْـهِ وتَفَرُّغِـي لَـهُ، فَأَضَـافَ أَحَـدَ النِّسْـيَانَيْنِ إِلى نَفْسِـهِ؛ إِذْ كانَ لَـهُ بَعْـضُ السَّـبَبِ فيـهِ، وَنَفَـى الآخَـرَ عَـنْ نَفْسِـهِ؛ إِذْ هُـوَ فيـهِ كالمُضْطَـرِّ.

وذَهَبَـتْ طَائفَـةٌ مِـنْ أَصْحَـابِ المَعَـاني والـكَلَامِ عـلى الحديـثِ إِلَى أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كانَ يَسْـهُو في الصَّـلاةِ، ولا يَنْسَـى؛ لِأَنَّ النِّسْـيَانَ ذُهُـولٌ وغَفْلَـةٌ وآفَـةٌ.

---

(١) [تقدم تخريجه. انظر ص٦١٢].

(٢) حديث (رَحِمَ اللهُ فُلانًا ذَكَّرَني كَذَا وكَذَا آية ...): الشيخان [البخاريُّ (٢٦٥٥)، ومسلمٌ (٧٨٨)] عن عائشة.

قولـه (في الفِعْـلِ): أي لا في الإخبـارِ قولـه (لِيُسْـتَنَّ بـه): -بالبِناءِ لِلمفعولِ- أي لِيُقْتَـدَى بـه في أمـرِه.

قوله (أَجْلَى): -بالجيم- أيْ أظهَرُ.

قولـه (بَـلْ يُشْـعَرُ بـه): -بصيغـةِ المفعُـولِ- أي بَـلْ يُعْـرَفُ.

قوله (ولا قادِحٍ في التصديقِ): أي بالرسالةِ.

وقوله (فذَكِّرُوني): أي فأَعْلِمُوني.

قولـه (رَحِـمَ اللهُ فُلانًـا): كِنايـةٌ عَـنْ رَجُـلٍ. قولـه (أَسْـقَطْتُهُنَّ): أي تَرَكْتُهُـنَّ نِسـيَانًا. قولـه (ويُـرْوَى «أُنْسِـيتُهُنَّ»): بصيغـةِ المجهُـولِ.

قولـه (لَأَنْسَـى): بفتـحِ الـلَّامِ والهَمْـزِ والسِّـينِ. وقولـه (أَوْ أُنَسَّـى): بصيغَـةِ المجهُـولِ مشَـدَّدًا ويَجوزُ مُخَفَّفًـا. وقولـه (لِأَسُـنَّ): -بضَـمِّ السِّـينِ وتشـديدِ النـونِ- أي لِأُبَيِّنَ مَـا يَترتَـبُ عـلى السـهْوِ.

قولـه (الباجِـيُّ): بالمُوحَّـدةِ والجيـمِ. وقولـه (يَحْتَمِـلُ مـا قـالَاه): أي ابـنُ نافـعٍ وابـنُ دِينـارٍ.

قولـه (إني أَنْسَـى): -بالبِنـاءِ لِلفاعِـلِ- [(في اليقظـة) لتـأتي السـهو فيهـا اختيـارا، (وأُنَسَّـى) -بالبنـاء للمجهـول- في النـوم لتأتيـه فيهـا اضطـرارًا].[1]

قولـه (بَعْـضُ السـبَبِ فيـه): وهُـوَ سَـبَبُ اختيـارٍ بمبَاشَرتِـه.

قولـه (مِـن أصحـابِ المَعَـاني): وهُـمْ بَعـضُ الصّوفيّـةِ مِـن أربـابِ المَعـالي، (والـكَلَامِ عـلى الحديـثِ): أي وذَوِي التَّكَلُّـمِ عـلى حديـثِ سَـهْوِه. قولـه (وآفَـةٌ): أي عاهـةٌ مُؤَدِّيَـةٌ إلى زَوالِ المُـدرِكِ مِـنَ القُـوَّةِ المُدرِكَـةِ.

---

(١) ما بين المعقوفين تمام العبارة كما لدى القاري.

قَالَ: والنَّبِيُّ ﷺ مُنَزَّهٌ عَنْهَا، والسَّهْوُ شُغْلٌ، فكَانَ ﷺ يَسْهُو فِي صَلَاتِهِ، ويُشْغِلُه عَنْ حَرَكاتِ الصَّلَاةِ مَا فِي الصَّلاةِ، شُغْلًا بِهَا لا غَفْلَةً عَنْهَا، واحْتَجَّ بِقَوْلِهِ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى: (إِنِّي لا أَنْسَى).

وذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إلى مَنْعِ هَذا كُلِّهِ عَنْهُ، وقالُوا: إِنَّ سَهْوَهُ ﷺ كانَ عَمْدًا وقَصْدًا؛ لِيَسُنَّ. وهَذا قَوْلٌ مَرْغُوبٌ عَنْهُ، مُتَناقِضُ المَقَاصِدِ، لا يُحْلَى مِنْه بِطَائِلٍ؛ لِأَنَّه كَيْفَ يَكُونُ مُتَعَمِّدًا سَاهِيًا فِي حَالٍ؟!

ولا حُجَّةَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّه أُمِرَ بِتَعَمُّدِ صُورَةِ النِّسْيَانِ لِيُسَنَّ؛ لِقَوْلِهِ: (إِنِّي لَأَنْسَى أَوْ أُنَسَّى)، فَقَدْ أَثْبَتَ أَحَدَ الوَصْفَيْنِ، ونَفَى مُنَاقَضَةَ التَّعَمُّدِ والقَصْدِ، وقَالَ: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ)، وقَدْ مَالَ إِلى هَذا عَظِيمٌ مِنَ المُحَقِّقِينَ مِنْ أَئِمَّتِنَا، وهُوَ أَبُو المُظَفَّرِ الإِسْفِرَائِنِيُّ، ولَمْ يَرْتَضِهِ غَيْرُهُ، ولا أَرْتَضِيهِ.

ولا حُجَّةَ لِهَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: (إِنِّي لا أَنْسَى ولَكِنْ أُنَسَّى)؛ إِذْ لَيْسَ فيهِ نَفْيُ حُكْمِ النِّسْيَانِ بالجُمْلَةِ، وإِنَّمَا فيهِ نَفْيُ لَفْظِهِ، وكَرَاهَةُ لَقَبِهِ، كَقَوْلِهِ: (بِئْسَ مَا لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا وكَذا، ولَكِنَّهُ نُسِّيَ)[1]، أَوْ نَفْيُ الغَفْلَةِ وقِلَّةِ الاهْتِمَامِ بِأَمْرِ الصَّلَاةِ عَنْ قَلْبِهِ؛ لَكِنْ شُغِلَ بِهَا عَنْها، ونَسِيَ بَعْضَهَا بِبَعْضِهَا، كَمَا تَرَكَ الصَّلَاةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ حَتَّى خَرَجَ وَقْتُهَا، وشُغِلَ بالتَّحَرُّزِ مِنَ العَدُوِّ عَنْهَا[2]،

(١) [متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٥٠٣٢)، ومسلمٌ (٧٩٠)، وغيرهما من حديث ابن مسعودٍ].

(٢) حديث (أنه تَرَكَ الصَّلاةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ حتَّى خَرَجَ وَقْتُهَا ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٩٦)، ومسلمٌ (٦٣١) من حديث جابر بن عبدالله].

قوله (لا غَفْلَةً عَنْهَا): فلا يَتْرُكُها عَنْ عِلْمٍ فيهَا غَيْرَ مُبَالٍ بِهَا. قوله (لا أَنْسَى): بصيغةِ النفْيِ.

قوله (وذهَبَتْ طائفةٌ): هُمْ بعضُ الصوفيةِ[1]. قوله (لِيَسُنَّ): بصيغةِ الفاعلِ والمفعولِ.

قوله (لا يُحْلَى): -بالحاءِ المهمَلةِ على صيغةِ المفعُولِ- أي لا يُظْفَرُ. قوله (بِطَائِلٍ): أي بنَفْعٍ حَاصِلٍ. وقوله (في حَالٍ): أي واحِدٍ وزَمَانٍ مُتَّحِدٍ.

قوله (ولا حُجَّةَ لِهاتَيْنِ الطائفتَيْنِ): أي القائلةِ بأنَّه ﷺ كانَ يَسْهُو في صَلاتِه ولا يَنْسَى، والقائلةِ بأنَّ سَهْوَه كانَ عَمْدًا أو قَصْدًا.

قوله (إِنِّي لا أَنْسَى ولكِنْ أُنَسَّى): الأُولَى بصيغَةِ الفاعلِ.

قوله (نَفْيُ لَفْظِه): أي مَبْنَاه (بِئْسَ مَا لِأَحَدِكم أنْ يَقولَ نَسِيتُ... إلخ)؛ لِاعترافِه بدُخولِه تَحْتَ وَعِيدٍ صَرِيحٍ.

قوله (ولكنَّه نُسِّيَ): -بتشديدِ السِّينِ المهمَلةِ- أي أَنْسَاه اللهُ مِنْ غَيْرِ تقصيرٍ إيَّاه لِعارِضٍ أو مَرَضٍ.

قوله (شُغِلَ بِها عَنْها): أي بالصَّلاةِ عَنِ الصَّلاةِ؛ يَعْنِي بِفِعْلِ بَعْضِها عَن فِعْلِ بَعْضِها.

قوله (يَوْمَ الخَنْدَقِ): أي زمانَ حَفْرِ الخَنْدَقِ وهِيَ غَزوةُ الأحزابِ، وكانَتْ في السَّنَةِ الخامسةِ بَعْدَ الهِجرةِ في شَهْرِ شَوَّالٍ.

(١) كما صرح به في آخر الفصل الذي قبل هذا.

فَشُغِلَ بطاعَةٍ عَنْ طاعَةٍ. وقِيلَ: إنَّ الَّذِي تُرِكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ أَرْبَعُ صَلَواتٍ: الظُّهْرُ، والعَصْرُ، والمَغْرِبُ، والعِشَاءُ[1].

وبه احْتَجَّ مَنْ ذَهَبَ إلى جَوازِ تأخيرِ الصَّلاةِ في الخَوْفِ إذا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ أَدائِها إلى وَقْتِ الأَمْنِ، وهُوَ مَذْهَبُ الشَّامِيِّينَ، والصَّحِيحُ أَنَّ حُكْمَ صَلاةِ الخَوْفِ كانَ بَعْدَ هذا؛ فهُوَ ناسِخٌ لهُ.

فإنْ قُلْتَ: فَما تَقُولُ في نَوْمِهِ ﷺ عَنِ الصَّلاةِ يَوْمَ الوادِي[2]، وقَدْ قالَ: (إنَّ عَيْنَيَّ تَنامانِ، ولا يَنامُ قَلْبِي)[3]؟

فاعْلَمْ أَنَّ لِلعُلَماءِ في ذلكَ أَجْوِبَةً:

مِنْها: أَنَّ المُرادَ بأَنَّ هذا حُكْمُ قَلْبِهِ عِنْدَ نَوْمِهِ وعَيْنَيْهِ في غالِبِ الأَوْقاتِ، وقَدْ يَنْدُرُ مِنْهُ ﷺ غَيْرُ ذلكَ كَما يَنْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ خِلافُ عادَتِهِ، ويُصَحِّحُ هذا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُ ﷺ في الحَدِيثِ نَفْسِهِ: (إنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْواحَنا)، وقَوْلُ بِلالٍ فيهِ: «ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُها قَطُّ». ولكِنْ مِثْلُ هذا إنَّما يَكُونُ مِنْهُ لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ اللهُ مِنْ إثْباتِ حُكْمٍ، وتَأْسِيسِ سُنَّةٍ، وإظْهارِ شَرْعٍ، كَما قالَ في الحَدِيثِ الآخَرِ: (ولَوْ شاءَ اللهُ لأَيْقَظَنا، ولكِنْ أَرادَ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ)[4].

الثَّانِي: أَنَّ قَلْبَهُ لا يَسْتَغْرِقُهُ النَّوْمُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ الحَدَثُ فيهِ، لِما رُوِيَ أَنَّهُ كانَ مَحْرُوسًا، وأَنَّهُ كانَ يَنامُ حَتَّى يَنْفُخَ،

---

(١) حديث (أنه تَرَكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ أربعَ صَلَواتٍ ...): الترمذيُّ [١٧٩]، والنَّسائيُّ [٦٦٢] عن ابن مسعودٍ.

(٢) حديث نومه بالوادي: تقدَّم [انظر ص٥٧٧].

(٣) [تقدم تخريجه. انظر ص١٢٨].

(٤) [أخرجه بهذا اللفظ الشاشي في مسنده (٢٩٠)، وبنحوه عند الطيالسي (٣٧٥)، وأحمد (١٠٥٤٨)، والنسائي في الكبرى (٨٨٠٣)، وغيرهم مطوَّلًا، وفيه: «لو أراد أن لا تناموا عنها، لم تناموا، ولكن أراد أن تكونوا لمن بعدكم، فهكذا لمن نام أو نسي»].

قوله (فشُغِلَ بطاعَةٍ عَنْ طاعَةٍ): أي شُغِلَ بحراسَةِ المَدينَةِ عَنْ أداءِ الصَّلاةِ الوُسْطَى.

قوله (فهُوَ ناسِخٌ له): ولا يَبْعُدُ أنْ يُقالَ إنَّما كانَ ناسِخًا إذا كانَ قادرًا على التمَكُّنِ مِن أدائِها بصَلاةِ الخوفِ.

قوله (يَوْمَ الوادي): موضِعٌ بِجوارِ مَكَّةَ.

قوله (ولا يَنامُ قَلْبِي): هذا مِن خصائصِ الأنبياءِ عليهم السلام كَما قالَ النوويُّ.

قوله (بأَنَّ هذا حُكْمُ قَلْبِه): أي الذي ذَكَرَه مِنَ اليَقَظةِ حُكْمُ قَلْبِه.

قوله (قَدْ يَنْدُرُ مِنْه): بضمِّ الدالِ.

قوله (ويُصَحِّحُ هذا التأويلَ): أي الذي أفادَ أنَّ قَلْبَه لا يَنامُ غالبًا وقَدْ يَنامُ نادرًا.

قوله (وقَوْلُ بِلالٍ فيه): أي في حديثِ صَلاةِ الوادِي.

قوله (ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نومةٌ مِثْلُها قَطُّ): لِشِدَّةِ تَعَبِ السَّيْرِ وقُوَّةِ نَصَبِ السَّهَرِ.

قوله (إنَّما يَكونُ مِنْه): أي مِن النبيِّ ﷺ لِأَمْرٍ يُرِيدُه اللهُ عَزَّ وجَلَّ.

قوله (وتأسيسِ سُنَّةٍ): أي تأصيلِ قَضيةٍ.

قوله (ولَوْ شاءَ اللهُ لأيقَظَنا): أي مِن مَنامِنا ظاهرًا وباطِنًا.

قوله (الثاني): أي مِنَ الأجوبَةِ.

قوله (حَتَّى يَكونَ مِنه الحَدَثُ فيه): أي ناقِضُ الوُضوءِ في نومِه.

قوله (حتى يَنْفُخَ): بضمِّ الفاءِ.

وقولـه (يُسْـمَعَ): بصيغَـةِ المجهُـولِ. قولـه (غَطِيطُـه): أي ترديـدُ صَوْتِـه الخَـارجِ مَـعَ نفَسِـه. قولـه (ولا يَتَوَضَّـأُ): لِعَـدَمِ نَقْـضِ وُضوئِـه مَـع يَقَظَـةِ قَلْبِـه.

قولـه (فيـه نَوْمُـه مَـعَ أَهْلِـه): أي ميمونـةَ بنتِ الحارثِ خالـةِ ابنِ عَبّـاسٍ. قولـه (فـلا يُمْكِـنُ الاحتجـاجُ عـلى وُضوئِـه): أي لِكَـونِ وُضوئِـه (لِمُجرَّدِ النومِ) مَـعَ أَهْلِـه.

قولـه (أو لِحَـدَثٍ آخَـرَ) إذْ لَمْ يَثْبُـتْ أنّـه ﷺ تَوَضَّـأَ مِـن لَـمْسِ امـرأةٍ قَـطُّ فتدَبَّـرْ!! قالَـه المُلّا.

قوله (ولَمْ يَتَوَضَّأْ): اكتفاءً بالوُضوءِ الّذي تقدَّمَ.

قولـه (وليـسَ هـذا مِـن فِعْـلِ القَلْـبِ): إذْ قَـدْ يَكـونُ الشـخصُ مستيقظًا ولم يكـن مطّالِعًـا لِمَطلَـعِ الشـمسِ، لا سِيَّما إذا كانَ مغمضًـا عينـه، خصوصًـا في بقـاءِ القمـرِ إلى آخِـرِ الليْـلِ.[1]

قولـه (إنَّ اللهَ قَبَـضَ أرواحَنـا): أي المدركـةَ لِلأمـورِ الظاهـرةِ. قولـه (في حِـينٍ غَـيْرِ هـذا): وهُـوَ قَبْـلَ هـذا الوقـتِ لِإدراكِ الْوقـتِ.

قولـه (اكلأْ لَنـا الصُّبـحَ): -بكسـرِ همـزةِ وصـلٍ في أوّلـه وفتـحِ لامِـه وهمـزةٍ سَـاكنةٍ في آخِـرِه- أي احفَـظْ... إلـخ.

قولـه (ولا يَصِـحُّ مِمَّـن نامَـتْ عَيْنُـه): وكـذا مِمَّـن اسـتغرَقَ في شـهودِ رَبِّـه وعَـدَمِ التفاتِـه لِغَـيرِه.

قوله (عَنْ مراعَاتِه): أي محافَظةِ أوقاتِه.

قولـه (عَـنِ القـولِ «نَسِيتُ»): في حديـثِ (لا يَقولَـنَّ أَحدُكـم نَسِـيتُ آيـةَ كيـتَ وكَيـتَ، بَـلْ هُـوَ نُـسِّيَ)[2] بضـمِّ النـونِ وتشـديدِ السـينِ المهمَلـةِ.

(١) قـال الشـهاب: (وليـس هـذا) أي رؤيـة الشـمس (مـن فعـل القلـب) لأنـه إنـما يـدرك المعقـولات دون المحسوسـات.

(٢) متفـقٌ عليـه أخرجـه البخـاريُّ (٥٠٣٢) [كتـاب فضائـل القـرآن]، ومسـلمٌ (٧٩٠) [كتـاب صـلاة المسـافرين وقصرهـا]، وغيرهمـا مـن حديـث عبدالله بـن مسـعودٍ رضي الله عنه.

وَحَتَّـى يُسْـمَعَ غَطِيطُـهُ، ثُـمَّ يُصَـلِّي ولا يَتَوَضَّـأُ[1]، وحَديـثُ ابْـنِ عَبَّـاسٍ المَذْكُـورُ فيـهِ وُضُـوءُهُ عِنْـدَ قِيامِـهِ مِـنَ النَّـوْمِ فِيـهِ نَوْمُـهُ مَـعَ أَهْلِـهِ[2]، فَـلا يُمْكِـنُ الاحْتِجـاجُ عـلى وُضُوئِـهِ بِمُجَـرَّدِ النَّـوْمِ؛ إذْ لَعَـلَّ ذلكَ لِمُلامَسَـةِ الأَهْـلِ، أَوْ لِحَـدَثٍ آخَـرَ، فكَيْـفَ وَفي آخِـرِ الحَديـثِ نَفْسِـهِ: (ثُـمَّ نَـامَ حَتَّـى سَـمِعْتُ غَطِيطَـهُ، ثُـمَّ أُقِيمَـتِ الصَّـلاةُ فَصَـلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّـأْ)؟!

وقِيـلَ: لا يَنَـامُ قَلْبُـهُ مِـنْ أَجْـلِ أَنَّـه يُوحَـى إِلَيْـهِ في النَّـوْمِ، ولَيْـسَ في قِصَّـةِ الـوادِي إِلَّا نَـوْمُ عَيْنَيْـه عَـنْ رُؤْيَـةِ الشَّـمْسِ، ولَيْـسَ هَـذَا مِـنْ فِعْـلِ القَلْـبِ، وقَـدْ قـالَ ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَبَـضَ أَرْوَاحَنـا، ولَـوْ شَـاءَ لَرَدَّهَـا إِلَيْنَـا في حِـينٍ غَـيْرِ هَـذَا)[3].

فـإِنْ قِيـلَ: فلَـوْلا عَادَتُـهُ مِـنَ اسْـتِغراقِ النَّـوْمِ لَمَـا قـالَ لِبِـلالٍ: (اكْلأْ لَنَـا الصُّبْـحَ)؟!

فقيـلَ في الجَـوَابِ: إِنَّـه كانَ مِـنْ شـأْنِه ﷺ التغليـسُ بالصُّبْـحِ، وَمُراعَـاةُ أَوَّلِ الفَجْـرِ، ولا يَصِـحُّ مِمَّـنْ نامَـتْ عَيْنُـه؛ إذْ هُـوَ ظاهِـرٌ يُـدْرَكُ بالجَـوارِحِ الظّاهِـرَةِ، فَـوَكَّلَ بِـلالًا بمُراعَـاةِ أَوَّلِـهِ لِيُعْلِمَـهُ بذَلـكَ كَـما لَـوْ شُـغِلَ بِشُـغْلٍ غَـيْرِ النومِ عَـنْ مُراعَاتِـه.

فـإِنْ قِيـلَ: فَـما مَعْنَـى نَهْيِـهِ ﷺ عَنِ القَـوْلِ «نَسِـيتُ»،

(١) حديث (أنّه كانَ يَنامُ حَتَّى يُسْمَعُ غَطِيطُه): تقدَّم [انظر ص١١١].

(٢) حديث ابن عبَّاس في مَبيتِه عندَ خالَتِه مَيْمُونَةَ: الشيخان [البخاريُّ (١١٧)، ومسلمٌ (٧٦٣)].

(٣) [أخرجـه مالـك في الموطـأ (٢٦) عـن زيـد بـن أسـلم مرسـلًا].

وقَدْ قالَ ﷺ: (إنِّي أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، وإذا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي)، وقالَ: (لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وكذا آيةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا)؟

فاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّهُ لا تَعارُضَ في هَذِهِ الأَلْفَاظِ.

أَمَّا نَهْيُه عَنْ أَنْ يُقالَ: نَسِيتُ آيةَ كذا فمَحْمُولٌ على مَا نُسِخَ لَفظُهُ مِنَ القُرآنِ، أَيْ أَنَّ الغَفْلَةَ في هَذا لَمْ تكُنْ مِنْهُ، ولكِنَّ اللهَ اضْطَرَّهُ إِلَيْها لِيَمْحُوَ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتَ، وَمَا كانَ مِنْ سَهْوٍ أَوْ غَفْلَةٍ مِنْ قِبَلِهِ تَذَكَّرَهَا صَلُحَ أَنْ يُقالَ فيهِ: أَنْسَى.

وقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذا مِنْهُ ﷺ على سَبِيلِ الاسْتِحْبَابِ أَنْ يُضِيفَ الفِعْلَ إِلى خَالِقِهِ، والآخَرَ على طَرِيقِ الجَوَازِ لاكْتِسَابِ العَبْدِ فيه. وإِسْقَاطُهُ ﷺ لِمَا أَسْقَطَ مِنْ هذِهِ الآياتِ جَائزٌ عَلَيْهِ بَعْدَ بَلاغِ مَا أُمِرَ بِبَلاغِهِ وتَوْصِيلِهِ إِلى عِبَادِه، ثُمَّ يَسْتَذْكِرُهَا مِنْ أُمَّتِهِ، أَوْ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ؛ إلا مَا قَضَى اللهُ نَسْخَهُ ومَحْوَهُ مِنَ القُلُوبِ، وتَرْكَ اسْتِذْكارِه.

وقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُنَسَّى النَّبِيُّ ﷺ مَا هَذا سَبِيلُهُ كَرَّةً، ويَجُوزُ أَنْ يُنَسِّيَهُ مِنه قَبْلَ البَلاغِ بِمَا لا يُغَيِّرُ نَظْمًا، ولا يُخَلِّطُ حُكْمًا، مِمَّا لا يُدْخِلُ خَلَلًا في الخَبَرِ، ثُمَّ يُذَكِّرُهُ إِيَّاهُ، ويَسْتَحِيلُ دَوَامُ نِسْيَانِه لَهُ لِحِفْظِ اللهِ كِتَابَهُ، وتَكْلِيفِهِ بَلاغَهُ.

***

قوله (**وكذا آيةً كُنْتُ أُنْسِيتُها**): المناسبُ للسؤالِ الواردِ «نَسِيتُها» لِيَرُدَّ الإشكالَ بينَ النهيِ عَن نِسبةِ النسيانِ إلى نفسِه وبَيْنَ إتيانِه في لفظِه.

قوله (**لا تَعارُضَ... إلخ**): أي عِندَ المحقِّقينَ مِن الحُفّاظ.

قوله (**اضطَرَّه إليها**): أي إلى نسيانِها. قوله (**ويُثْبِتَ**): بالتشديدِ والتخفيفِ، وهَذا أحَدُ مَعاني قولِه تعالى: ﴿فلا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى ٦-٧].

قوله (**صَلُحَ... إلخ**): -بضمِّ اللامِ وفتحِها- أي صَحَّ. وقوله (**أَنْسَى**): بفتحِ الهمزةِ لا بضمِّها كما تَوَهَّمَه الدلجيُّ.

قوله (**وقَدْ قيلَ... إلخ**): أي قيلَ في الجوابِ عَن إيرادِ السؤالِ المتضمِّنِ للإشكالِ.

قوله (**لاكتسابِ العبْدِ فيه**): أي بنوعِ تَسَبُّبٍ وتقصيرٍ مِنه.

قوله (**لِمَا أَسْقَطَ مِن هذه الآياتِ**): حَقُّ العِبارةِ «لِبَعضِ الآياتِ»، وهيَ التي ذَكَّرَه إيّاها بَعضُ الأُمَّةِ.

قوله (**وتَرْكَ استذكارِه**): أي في بَقِيَّةِ الأيامِ؛ فإنَّه مِن أنواعِ نَسْخِ الكَلامِ.

قوله (**وقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُنَسَّى**): بصيغةِ المفعولِ والفاعلِ.

قوله (**مِمَّا لا يُدخِلُ خَلَلًا في الخَبَرِ**): أي في المَبْنى والمَعْنى.

قوله (**لحفظِ اللهِ كِتابَه**): بقولِه ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩].

***

فَصْلٌ في الرَّدِّ على مَنْ أَجازَ عَلَيْهِمُ الصَّغائِرَ، والكَلَامِ على مَا احْتَجُّوا به في ذلكَ

اِعْلَمْ أَنَّ المجوِّزِينَ لِلصَّغائِرِ على الأَنْبِيَاءِ مِنَ الفُقَهَاءِ والمُحَدِّثِينَ ومَنْ شَايَعَهُمْ على ذلك مِنَ المُتكلِّمِينَ احْتَجُّوا على ذلكَ بظَواهِرَ كَثِيرةٍ مِنَ القُرآنِ والحَديثِ إِنِ التَزَمُوا ظَوَاهِرَهَا أَفْضَتْ بِهِم إلى تَجْوِيزِ الكَبَائِرِ وخَرْقِ الإِجْماعِ ومَا لا يَقُولُ به مُسْلِمٌ؛ فكَيْفَ وكُلُّ مَا احْتَجُّوا بهِ مِمَّا اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنَاهُ، وتَقَابَلَتِ الاحْتِمَالَاتُ في مُقْتَضَاهُ، وجَاءَتْ أَقَاوِيلُ فيهَا لِلسَّلَفِ بخِلَافِ مَا التَزَمُوهُ مِنْ ذلكَ؟!

فإذا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهم إِجْماعًا، وكانَ الخِلافُ فيمَا احْتَجُّوا به قَدِيمًا، وقامَتِ الدَّلائِلُ على خَطَإِ قَوْلِهِمْ وصِحَّةِ غَيْرِه، وَجَبَ تَرْكُهُ، والمَصِيرُ إلى مَا صَحَّ، وهَا نَحْنُ نَأْخُذُ في النَّظَرِ فيهَا إِنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فَمِنْ ذلكَ قَوْلُه تعالى لِنَبِيِّنَا محمَّدٍ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقَوْلُهُ: ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ولِلمؤمِنِينَ والمؤمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقَوْلُه: ﴿ووَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢-٣]، وقَوْلُه: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقَوْلُه: ﴿لولا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقَوْلُه: ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى...﴾ الآيةَ [عبس: ١-٢].

ومَا قَصَّ مِنْ قَصَصِ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، كَقَوْلِهِ:

قوله (على ما احتَجُّوا به في ذلك): أي ما استَدَلُّوا به مِنَ الظواهِرِ هُنالكَ.

قوله (ومَنْ شايَعَهم): أي تابَعَهُمْ. قوله (مِنَ المتكلِّمِينَ): أي كأَبِي جعفرٍ الطَّبَرِيِّ وغيْرِه.

قوله (التزَمُوا ظواهِرَها): مِن غيرِ أنْ يُؤَوِّلُوا أكثَرَها، واتَّخَذوهَا مَذهبًا وطريقةً.

قوله (ومَا لا يَقولُ به مسلِمٌ): أيْ مِنْ تجويزِ الكَبائرِ بَعْدَ البَعثةِ.

قوله (وجَاءَتْ أقاويلُ): -جمعُ «أقوالٍ»؛ جَمْعُ «قَوْلٍ»- أي أقوالٌ كثيرةٌ.

قوله (والمصيرُ إلى مَا صَحَّ): دَليلُه عقلًا ونَقلًا على أنَّ متابَعَةَ السَّلَفِ أَوْلَى مِن مُوافقةِ الخَلَفِ.

قوله (في النظَرِ فيها): أي في التأَمُّلِ والتفكُّرِ في الأَدِلَّةِ ومَا يترَتَّبُ عليْها مِن حُكْمِ المَسألةِ.

قوله (ووَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ): أي ثِقَلَ أعباءِ النبوة. قوله (الذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ): أي كَسَرَه لَولا أنَّ اللهَ -سبحانه- سَهَّلَ أمْرَه لَدَيْه.

قوله (لِمَ أَذِنْتَ لهم): أيْ لِلمنافِقِينَ المتخلِّفِينَ إعلامًا بأنَّ إذنَه لهم كانَ مِن بابِ تَرْكِ الأَولى كَمَا بَيَّنَهُ بِقولِه ﴿حتى يَتبيَّنَ لكَ الذين صَدَقُوا...﴾ إلخ.

قوله (لولا كِتابٌ مِنَ اللهِ): أي حُكْمٌ أَزَلِيٌّ ظَهَرَ مِنْه.

قوله (عَبَسَ): أي كَلَحَ وَجْهُه وتَغَيَّرَ لَوْنُه. وقوله (وتَوَلَّى): أيْ أَعْرَضَ و(الأعمى) هوَ ابنُ أُمِّ مكتومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُؤَذِّنُه ﷺ.

قوله (مِنْ قَصَصِ غَيْرِه): -بفتحِ القافِ- أي حكايةِ غيْرِه.

﴿وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وقَوْلِهِ: ﴿فلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا له شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]، وقَوْلِهِ عَنْهُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقَوْلِهِ عَنْ يُونُسَ: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ومَا ذُكِرَ مِنْ قِصَّتِهِ وقِصَّةِ داوُدَ، وقَوْلِهِ: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاسْتَغْفَرَ رَبَّه وَخَرَّ راكِعًا وأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]، وقَوْلِهِ: ﴿ولَقَدْ هَمَّتْ به وهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، ومَا قَصَّ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ، وقوْلِهِ عَنْ مُوسَى: ﴿فوَكَزَهُ مُوسَى فقَضَى عَلَيْهِ...﴾ الآيةَ [القصص: ١٥].

وقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ في دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وأَخَّرْتُ، وأَسْرَرْتُ وأَعْلَنْتُ)[1]، ونَحْوُه مِنْ أَدْعِيَتِهِ ﷺ، وذِكْرُ الأنبياءِ في المَوْقِفِ ذُنُوبَهُمْ في حَدِيثِ الشَّفَاعةِ، وقَوْلُه: (إِنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِي، فأَسْتَغْفِرُ اللهَ)[2]، وفي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[3].

وقَوْلُه تعالى عَنْ نُوحٍ: ﴿وإلا تَغْفِرْ لِي...﴾ الآيةَ [هود: ٤٧]، وقَدْ كانَ قالَ اللهُ لَهُ: ﴿ولا تُخَاطِبْنِي في الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، وقالَ عَنْ إبْراهِيمَ: ﴿والَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقَوْلُه عَنْ مُوسَى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقَوْلِهِ: ﴿ولَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]، إلى مَا أَشْبَهَ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ.

(١) حديث (اللهمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ ...): مسلمٌ [(٧٧١) مطوَّلًا] عن عليٍّ [وأخرجه أيضًا البخاريُّ (٧٤٤٢) من حديث ابن عبَّاسٍ].

(٢) [تقدم تخريجه. انظر ص٥٥٨].

(٣) [تقدم تخريجه. انظر ص٥٥٨].

قوله (وعَصَى آدَمُ رَبَّه): بأكلِ الشجَرةِ نِسيَانًا أوْ خطَأً.

وقوله (فغَوَى): أي ضَلَّ عَنِ المطلوبِ.

قوله (فلَمَّا آتاهمَا صالحًا جَعَلَا له... إلخ): ضَميرُ (آتاهما) لِآدَمَ وحَوّاءَ، حَكَى الزَّجّاجُ أنَّ إبليسَ -لَعَنَه اللهُ- جاءَ لِحَوَّاءَ، فقالَ: أتَدْرِي مَا في بَطْنِكِ؟ قالَتْ: لا، قالَ: لَعَلَّه بَهِيمَةٌ، وإنْ دَعَوْتُ اللهَ أنْ يَجْعَلَه إنسانًا أَفَتُسَمِّيه عَبْدَ الحارثِ؟ وإبليسُ اسمُه الحَارثُ.

قوله (رَبَّنا ظَلَمْنا): أي قولِ اللهِ حِكايةً عَنْ آدَمَ وحَوّاءَ: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنا) بِوَضْعِ الشيءِ في غيرِ مَوْضِعِه.

قوله (وخَرَّ راكعًا): أي سَقَطَ حَالَ كَوْنِه راكعًا.

قوله (فوَكَزَه مُوسى): أي ضَرَبَه، وضميرُ غير «وَكَزَه» لِلقِبْطِيِّ الذي وَجَدَه موسى يُخاصِمُ رَجُلًا مِنْ بَنِي إسرائيلَ.

قوله (اللهمّ اغفِرْ لي مَا قَدَّمْتُ): أي مِنَ التقصيرِ في العُبوديّةِ، ومَا أعْلَنْتُ مِنَ العَوارضِ الإنسانيةِ، وما أَسرَرْتُ مِنَ الخواطرِ النَّفسانيةِ.

قوله (أنْ يَغفِرَ لي خَطيئتي): أي خَطَأً أو مَا كانَ مِنْ عَمْدٍ في صُورةِ ذَنْبٍ.

قوله (تُبْتُ إِلَيْكَ): أي رَجَعْتُ عَن سُؤالِي بَعْدَمَا أظهَرْتُ لَكَ حَالِي.

قوله (ولَقَدْ فَتَنَّا سُليمانَ): أي ابتَلَيْنَاه بالجاهِ الدُّنيَوِيِّ.

فأمَّا احْتِجَاجُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فهذا قَدِ اختَلَفَ المُفسِّرُونَ فيهِ، فقِيلَ: المُرَادُ ما كانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وبَعْدَهَا. وقِيلَ: المُرَادُ مَا وَقَعَ لَكَ مِنْ ذَنْبٍ ومَا لَمْ يَقَعْ.. أَعْلَمَهُ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ.

وقِيلَ: المُتقَدِّمُ ما كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، والمُتأَخِّرُ عِصْمَتُكَ بَعْدَهَا -حَكَاهُ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرٍ. وقِيلَ: المُرَادُ بذلكَ أُمَّتُهُ ﷺ.

وقِيلَ: المُرَادُ مَا كَانَ عَنْ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ وتَأْوِيلٍ -حَكَاهُ الطَّبَرِيُّ، واخْتَارَهُ القُشَيْرِيُّ. وقِيلَ: مَا تَقَدَّمَ لِأَبِيكَ آدَمَ، ومَا تَأَخَّرَ مِنْ ذُنُوبِ أُمَّتِكَ -حَكَاهُ السَّمَرْقَنْدِيُّ والسُّلَمِيُّ عَنِ ابْنِ عَطَاءٍ.

وبِمِثْلِهِ والَّذِي قَبْلَهُ يُتَأَوَّلُ قَوْلُهُ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...﴾ الآيَةَ [محمد: ٢٩]، قَالَ مَكِّيٌّ: مُخاطَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ هَا هُنَا مُخاطَبَةٌ لِأُمَّتِهِ.

وقِيلَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمَّا أُمِرَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ولا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] سُرَّ بذلكَ الكُفَّارُ[1]، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وبِمَا لِلمُؤْمِنِينَ في الآيَةِ الأُخْرَى بَعْدَهَا -قالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ.

فمَقْصِدُ الآيَةِ: إنَّكَ مَغْفُورٌ لَكَ، غَيْرُ مُؤاخَذٍ بذَنْبٍ أَنْ لَوْ كانَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: المَغْفِرَةُ هُنَا تَنْزِيهٌ مِنَ العُيُوبِ.

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢-٣]، فقِيلَ: مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ والحَسَنِ ومَعْنَى قَوْلِ قَتَادَةَ. وقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ حُفِظَ قَبْلَ نُبوَّتِهِ مِنْهَا وعُصِمَ، ولَوْلا ذلكَ لَأَثْقَلَتْ ظَهْرَهُ، حَكَى مَعْنَاهُ السَّمَرْقَنْدِيُّ.

وقِيلَ: المُرادُ بذلكَ مَا أَثْقَلَ ظَهْرَهُ مِنْ أَعْباءِ الرِّسَالةِ حَتَّى بَلَّغَهَا، حَكَاهُ المَاوَرْدِيُّ والسُّلَمِيُّ.

(١) حديث (لما أمر أن يقولَ: وما أدري ...): ابن جرير [٢١/ ١٢١] عن الحسن البصريِّ وعكرمة.

قوله (فأمّا احتجاجُهم): أي استدلالُ المجوِّزينَ لِلصغائرِ على الأنبياءِ.

قوله (واختاره القُشَيريُّ): هوَ عبدُ الكريمِ بنُ هَوازنَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ إمَامُ الشريعَةِ والحقيقةِ، وصاحبُ «الرسَالَةِ» في الطريقةِ.

قوله (حَكَاه السمَرْقَنْديُّ): هوَ الإمامُ أبو الليثِ، مِن أكابرِ الحنفيَّةِ.

قوله (السُّلَمِيُّ): -بضمِّ السِّينِ وفتحِ اللامِ- هُوَ أبو عَبْدِ الرحمنِ الصُّوفيُّ صاحبُ الطبَقاتِ الصُّوفيةِ.

قوله (مَا يُفْعَلُ بِي ولا بِكُم): أي تفصيلًا لِحالي وحَالِكم.

وقوله (سُرَّ بذلك الكفّارُ): -بضمِّ السّينِ وتشديدِ الراءِ- أي فَرِحَ.

قوله (فمَقْصِدُ الآيةِ): -بكَسْرِ الصَّادِ- أي مُرادُها. قوله (تنزيهٌ مِنَ العُيُوبِ): أي تَبرئةٌ مِن العيُوبِ كَما في نُسخَةٍ؛ لِأنَّ أَصْلَ التَّبرئةِ السَّترُ، فهُوَ كالعِصمةِ في مَعْنَى السَّترِ مِن الحِجَابِ.

قوله (حُفِظَ قَبلَ نبوته): بصيغةِ المجهولِ، وكذا (عُصِمَ).

قوله (مِنْ أَعْبَاءِ الرسَالةِ): -بفتحِ الهمزةِ- أي أثقالِها وتَصَبُّرِ أحوالِها.

وَقِيلَ: حَطَطْنَا عَنْكَ ثِقْلَ أَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ، حَكَاهُ مَكِّيٌّ.

وقِيلَ: ثِقْلَ شُغْلِ سِرِّكَ وحَيْرَتِكَ وطَلَبِ شَرِيعَتِكَ حَتَّى شَرَعْنَا ذلكَ لَكَ، حَكَى مَعْنَاهُ القُشَيْرِيُّ.

وقِيلَ: مَعْنَاهُ: خَفَّفْنَا عَنْكَ مَا حُمِّلْتَ بِحِفْظِنَا لِمَا اسْتُحْفِظْتَ، وحُفِظَ عَلَيْكَ، ومَعْنَى «أَنْقَضَ» أَيْ كَادَ يَنْقُضُهُ.

فيَكُونُ المَعْنَى على مَنْ جَعَلَ ذلكَ لِمَا قَبْلَ النُّبُوَّةِ اهْتِمَامَ النَّبِيِّ ﷺ بِأُمُورٍ فَعَلَهَا قَبْلَ نُبُوَّتِهِ، وَحَرُمَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، فعَدَّهَا أَوْزَارًا، وثَقُلَتْ عَلَيْهِ وأَشْفَقَ مِنْهَا، أَوْ يَكُونُ الوَضْعُ عِصْمَةَ اللهِ لَهُ، وكِفَايَتَهُ مِنْ ذُنُوبٍ لَوْ كَانَتْ لَأَنْقَضَتْ ظَهْرَهُ، أَوْ يَكُونُ مِنْ ثِقَلِ الرِّسَالَةِ، أَوْ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِ وشَغَلَ قَلْبَهُ مِنْ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ وإِعْلَامِ اللهِ تعالى له بِحِفْظِ ما اسْتَحْفَظَهُ مِنْ وَحْيِهِ.

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] فأَمْرٌ لَمْ يَتَقَدَّمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فيهِ مِنَ اللهِ نَهْيٌ فَيُعَدَّ مَعْصِيَةً، ولا عَدَّهُ اللهُ عَلَيْهِ مَعْصِيَةً، بَلْ لَمْ يَعُدَّهُ أَهْلُ العِلْمِ مُعَاتَبَةً، وغَلَّطُوا مَنْ ذَهَبَ إلى ذلكَ.

قالَ نِفْطَوَيْهِ: وقَدْ حَاشَاهُ اللهُ مِنْ ذلكَ، بَلْ كَانَ مُخَيَّرًا في أَمْرَيْنِ.

قالُوا: وَقَدْ كانَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ما شاءَ فِيمَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ فيهِ وَحْيٌ، وكَيْفَ وقَدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَعْلَمَهُ اللهُ بِمَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّهِمْ أنه لَوْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا لِنِفَاقِهِمْ، وأَنَّه لا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيمَا فَعَلَ.

قوله (ثِقْلَ أيامِ الجاهليةِ): أي أثقالَ آثامِهم ومشاهَدَةِ أعلامِهم المنكَرةِ في الشرائعِ الإسلاميّةِ.

قوله (وحَيْرَتِكَ): أي تحيُّرِكَ في باطِنِكَ وظاهِرِكَ.

قوله (مَا حُمِّلْتَ): -بضمِّ الحاءِ المهمَلةِ وتشديدِ الميمِ المكسورةِ- أي كُلِّفتَ حَمْلَه.

قوله (لِمَا اسْتُحْفِظْتَ): بكسرِ اللامِ وتخفيفِ الميمِ أَوْ بالفتحِ والتشديدِ، و«اسْتُحْفِظْتَ» -بالبناءِ للمجهولِ- أي استُرْعِيتَ.

قوله (أيْ كادَ يَنْقُضُه): أي قارَبَ ولَمْ يَنْقُضْ.

قوله (وأَشْفَقَ مِنْها): أي خافَ مِن غايةِ خَشيتِه مِن اللهِ وتصوُّرِ عَظَمتِه.

قوله (مِن ثِقَلِ الرِّسالَةِ): أي بأدائِها إلى الأمَّةِ، وخَلاصِه عنِ الكَفالةِ.

قوله (فيُعَدَّ): -بالنصبِ- أي حتى يُعَدَّ مخالَفتُه سَيِّئةً. قوله (بَلْ لَمْ يَعُدَّه): بفتحِ الدالِ المشدَّدةِ وضمِّها.

قوله (وغَلَّطُوا): -بتشديدِ اللامِ وبالطاءِ المهمَلةِ- أي نَسَبُوا إلى الغَلَطِ.

قوله (نِفْطَوَيْه): بكسرِ النونِ وسكونِ الفاءِ وفتحِ الطاءِ المهمَلةِ وواوٍ مفتوحَةٍ وتحتيةٍ ساكنةٍ وهاءٍ مكسورةٍ.

قوله (فِيمَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْه): بالبناءِ للفاعِلِ والمفعُولِ. قوله (فلَمَّا أَذِنَ لَهم): أي لِبَعْضِهم وهُمُ المنافقونَ بِناءً على ظَنِّه أنَّهم مؤمنونَ، وكانَ الإذنُ مُختصًّا بالمؤمِنينَ لِقولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾ [النور: ٦٢]؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يأمُرْ بالاستغفارِ للمنافِقينَ.

قولـه (لَمْ يُلزِمْـكَ ذَنْبًـا): أي وَضَـعَ عَنْـكَ شـيئًا لَـوْ لَمْ يَضـعْ لَـكانَ ذنبًـا.

قولـه (هُـوَ اسـتفتاحُ كلامٍ): لِمَـن يكـونُ مِـن أهـلِ الإكـرامِ.

قولـه (أَصْلَحَـكَ اللهُ... إلـخ): خِطـابٌ لِلملـوكِ أو الأمـراءِ وسَـائرِ العظـماءِ.

قولـه (عَافـاكَ اللهُ): مِـن المعَافـاةِ، وفيـه نُكتـةٌ خَفيّـةٌ صوفيـةٌ؛ أي عافـاكَ عَنْـكَ، وخلَّصَـكَ مِنـكَ، حتّـى تَكـونَ بِكُلِّيّتِـكَ لَنـا وبِنـا، وآخِـذًا عَنَّـا، وآمِنًـا مِنَّـا.

قولـه (وأَمَّـا قولُـه في أُسَـارَى بَـدْرٍ... إلـخ): هُـوَ ﴿مَـا كَانَ لِنَبِـيٍّ أَن يَكُـونَ لَـهُ أَسْرَىٰ حَتَّـىٰ يُثْخِـنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيـدُونَ عَـرَضَ الدُّنْيَـا وَاللَّهُ يُرِيـدُ الْآخِـرَةَ وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيـمٌ * لَّـوْلَا كِتَـابٌ مِّـنَ اللَّهِ سَـبَقَ لَمَسَّـكُمْ فِيـمَا أَخَذْتُـمْ عَـذَابٌ عَظِيـمٌ﴾.

قولـه (مَـا كانَ هـذا لِنَبـيٍّ غَـيرِكَ): مـكانُ فضلِـكَ ورِفعـةُ قَـدْرِكَ. قولـه (ولَمْ تَحِـلَّ لِنبَـيٍّ): بِبِنـاءِ الفِعْـلِ لِلمجهُـولِ والفاعـلِ، والأَوْلَى لِمناسَـبَةِ (أُحِلَّـتْ) هِـيَ الأُولَى.

قولـه (المَعْنِـيُّ بالخِطَـابِ): -بكَـسرِ النـونِ وتشـديدِ اليَـاءِ- أي المقصـودُ... إلـخ.

قولـه (والاسـتكثارِ مِنْهـا): لِنفْسِـهِ، وهُـمْ بَعـضُ الضُّعفَـاءِ المؤمِنِـينَ. قولـه (ولَيْـسَ المُـرادُ بهـذا): أي الخِطـابِ المشـتمِلِ عـلى العِتَـابِ (النبـيَّ... إلـخ).

قولـه (ولا عِلْيَـةَ أصحابِـه): -بكَسْرِ العـينِ المهمَلَـةِ وسُـكونِ الـلّامِ وفتـحِ التحتيـةِ؛ جَمـعُ «عَـلِيٍّ»، مِثـلُ صَبـيٍّ وصِبيَـةٍ- أي أشرافَهُـمْ.

قوله (يَعْطِفَ علَيْهم): بكسرِ الطّاءِ.

ولَيْـسَ «عَفَـا» هُنَـا بِمَعْنَـى «غَفَـرَ»، بَـلْ كَـمَا قـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: (عَفَـا اللهُ لَكُـمْ عَـنْ صَدَقَـةِ الخَيْـلِ وَالرَّقِيـقِ)(1) ولَمْ تَجِـبْ عَلَيْهِـمْ قَـطُّ، أَيْ لَمْ يُلْزِمْكُـم ذلـكَ. ونَحْـوُهُ لِلقُشَـيْرِيِّ، قـالَ: وإِنَّـمَا يَقُـولُ «العَفْـوُ لا يَكُـونُ إِلَّا عَـنْ ذَنْـبٍ» مَـنْ لَمْ يَعْـرِفْ كَلامَ العَـرَبِ، قـالَ: وَمَعْنَـى ﴿عَفَـا اللهُ عَنْـكَ﴾، أَيْ لَمْ يُلْزِمْـكَ ذَنْبًـا.

قـالَ الـدَّاوُدِيُّ: رُوِيَ أَنَّهَـا كانَـتْ تَكْرِمَـةً. قـالَ مَكِّـيٌّ: هُـوَ اسْـتِفْتَاحُ كَلَامٍ، مِثْـلُ: أَصْلَحَـكَ اللهُ، وأَعَـزَّكَ اللهُ، وحَكَـى السَّـمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ مَعْنَـاهُ: عَافَـاكَ اللهُ.

وَأَمَّـا قَوْلُـهُ فِي أُسَـارَى بَـدْرٍ: ﴿مَـا كانَ لِنَبِـيٍّ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ أَسْرَى...﴾ الآيَتَيْنِ [الأنفال: ٦٧-٦٨]، فلَيْـسَ فيـهِ إِلْـزَامُ ذَنْـبٍ لِلنَّبِـيِّ ﷺ، بَـلْ فيـهِ بَيَـانُ مَـا خُـصَّ بـه وفُضِّـلَ مِـنْ بَـيْنِ سَـائِرِ الأَنْبِيَـاءِ، فكَأَنَّـه قـالَ: «مَـا كانَ هَـذا لِنَبِـيٍّ غَـيْرِكَ» كَـمَا قـالَ ﷺ: (أُحِلَّـتْ لِيَ الغَنَائِـمُ، ولَمْ تَحِـلَّ لِنَبِـيٍّ قَبْـلِي)(2).

فـإِنْ قِيـلَ: مَـا مَعْنَـى قَوْلِـهِ: ﴿تُرِيـدُونَ عَـرَضَ الدُّنْيَـا...﴾ الآيَـةَ؟! قِيـلَ: المَعْنِـيُّ بالخِطَـابِ مَـنْ أَرَادَ ذلـكَ مِنْهُـمْ، وتَجَـرَّدَ غَرَضُـه لِعَـرَضِ الدُّنْيَـا وَحْـدَهُ والاسْـتِكْثَارِ مِنْهَـا، ولَيْـسَ المُـرَادُ بِهَـذَا النَّبِـيَّ ﷺ ولا عِلْيَـةَ أَصْحَابِـه، بَـلْ قَـدْ رُوِيَ عَـنِ الضَّحَّـاكِ أَنَّهَـا نَزَلَـتْ حِـينَ انْهَـزَمَ المُشْرِكُـونَ يَـوْمَ بَـدْرٍ(3)، واشْـتَغَلَ النَّـاسُ بالسَّـلْبِ وجَمْـعِ الغَنَائِـمِ عَـنِ القِتَـالِ حَتَّـى خَـشِيَ عُمَـرُ أَنْ يَعْطِـفَ عَلَيْهِـمُ العَـدُوُّ.

---

(1) حديث (عَفَى اللهُ لَكُمْ عن صَدَقَةِ الخَيْلِ والرَّقِيقِ): الأربعة [أبو داود (١٥٧٤)، والترمذيُّ (٦٢٠)، والنَّسائيُّ (٢٤٧٧)، وابن ماجه (١٧٩٠)] عن عليٍّ بلفظ (قد عَفَوْتُ لَكُمْ).

(2) [متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١)، وغيرهما من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا].

(3) حديث الضحاك (أنها نزلت حين انهزم...): [بيَّض له السيوطيُّ ولم يعزه ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر].

ثُمَّ قَالَ اللهُ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾، واخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ؛ فقِيلَ: مَعْنَاهَا: لَوْلَا أَنَّه سَبَقَ مِنِّي أَنْ لا أُعَذِّبَ أَحَدًا إلا بَعْدَ النَّهْيِ لَعَذَّبْتُكُمْ. فهَذَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الأَسْرَى مَعْصِيَةً.

وقِيلَ: المَعْنَى: لَوْلا إِيمَانُكُمْ بالقُرْآنِ -وهُوَ الكِتَابُ السَّابِقُ؛ فاسْتَوْجَبْتُمْ بِه الصَّفْحَ- لَعُوقِبْتُمْ على الغَنَائِمِ. ويُزَادُ هَذَا القَوْلُ تَفْسِيرًا أَوْ بَيَانًا بأَنْ يُقَالَ: لَوْلَا مَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بالقُرآنِ، وكُنْتُمْ مِمَّنْ أُحِلَّتْ لَهُم الغَنَائِمُ لَعُوقِبْتُمْ كَمَا عُوقِبَ مَنْ تَعَدَّى.

وَقِيلَ: لَوْلا أَنَّه سَبَقَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ أَنَّهَا حَلَالٌ لَكُمْ لَعُوقِبْتُمْ؛ فهَذا كُلُّه يَنْفِي الذَّنْبَ والمَعْصِيَةَ لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ ما أُحِلَّ لَهُ لَمْ يَعْصِ؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

وقِيلَ: بَلْ كَانَ ﷺ قد خُيِّرَ في ذلكَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إلى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: خَيِّرْ أَصْحَابَكَ فِي الأُسَارَى إِنْ شَاؤُوا القَتْلَ، وإِنْ شَاؤُوا الفِدَاءَ؛ على أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ عَامَ المُقْبِلِ مِثْلُهُم، فَقَالُوا: الفِدَاءَ، ويُقْتَلَ مِنَّا[1].

وهَذَا دَلِيلٌ على صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ، وأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إلا مَا أُذِنَ لَهُمْ فِيهِ؛ لَكِنْ بَعْضُهُمْ مَالَ إلى أَضْعَفِ الوَجْهَيْنِ، مِمَّا كانَ الأَصْلَحُ غَيْرَه مِنَ الإِثْخَانِ والقَتْلِ؛ فعُوتِبُوا على ذلكَ، وبُيِّنَ لَهُمْ ضَعْفُ اخْتِيارِهِمْ، وتَصْوِيبُ اخْتِيَارِ غَيْرِهِمْ، وكُلُّهُمْ غَيْرُ عُصَاةٍ ولا مُذْنِبِينَ، وإِلَى نَحْوِ هَذا أَشَارَ الطَّبَرِيُّ.

وقَوْلُه ﷺ في هذِهِ القِصَّةِ: (لَوْ نَزَلَ عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ مَا نَجَا مِنْهُ إلا عُمَرُ)[2] إِشَارَةٌ إلى هَذا مِنْ تَصْوِيبِ رَأْيِه ورَأْيِ مَنْ أَخَذَ بمَأْخَذِهِ

(١) حديث عليٍّ (جاءَ جبريلُ ...): الترمذيُّ [١٥٦٧] وحسَّنه، والنَّسائيُّ [الكبرى ٨٦٠٨] وفيه فقال: (إنَّ اللهَ قد كرِهَ ما صنع قومك، وقد أمرك أن تُخيِّرَهم...) الحديث.

(٢) حديث (لو نَزَلَ منَ السَّماءِ عَذَابٌ ما نَجَا منه إلَّا عُمَرُ): الخطيب في «الرواة عن مالك» عن أبي هريرة [ذكره الواقدي في «المغازي» (ص ١١٠)].

قوله (مِنَ اللهِ سَبَقَ): أي في القَدَرِ، وتَحقَّقَ الأمرُ بالأثَرِ.

قوله (وهُوَ الكِتَابُ السَّابِقُ): أي القديمُ أو المقدَّمُ على غيرِه مِن الكِتابِ اللاحِقِ.

قوله (فاستَوْجَبْتُمْ بِه الصَّفْحَ): أي الإعراضَ أو العَفْوَ عَنِ اختيارِكم الأغراضَ.

قوله (كَمَا عُوقِبَ مَنْ تَعَدَّى): أي تجاوَزَ عَنِ الحَدِّ في العِصْيَانِ.

قوله (عامَ المُقبِلِ): أي في السَّنةِ الآتيةِ مِن غزوةِ أُحُدٍ.

قوله (فقالُوا): أي جمهورُهم، ومِنْهم الصِّدِّيقُ، و(الفِدَاءَ): بالرفعِ؛ أي مختارُنا الفداءُ، وبالنصبِ؛ أي نَختارُ الفِداءَ.

قوله (إلى أَضْعَفِ الوجهَيْنِ): أي في نفْسِ الأمرِ، وإنْ كانَ هُوَ أقواهما في رأيِهِ.

قوله (مِنَ الإثخانِ): وهُوَ تكثيرُ القتلِ في العَدُوِّ.

قوله (وبُيِّنَ لَهم): بصيغةِ المفعُولِ. قوله (وكُلُّهم غيرُ عُصَاةٍ... إلخ): لِكَوْنِهِم مجتهدِينَ في أمْرِ الدِّينِ.

قولـه (وإبـادةِ عَـدُوِّه): أي إفنائِهـم وإهلاكِهـم مِـن أصلِـه، وذلـك لِمَـا وَرَدَ في حَقِّـه دُعـاءُ النبـيِّ ﷺ: «اللهـمَّ أَعِـزَّ الإسْـلامَ بعُمَـرَ»[١]. قولـه (لِأَنَّـه أَوَّلُ مَـن أَشـارَ إلى قتلِهـم): وتَبِعَـه بَعـضُ الصَّحابـةِ في الأثَـرِ[٢]. قولـه (لِمَـا جَـازَ أنْ يُظَـنَّ): -بصيغَـةِ المجهُـولِ- أي يَظُـنَّ أَحَـدٌ... إلـخ.

قولـه (بْـنِ كَيْسَـانَ): -بفتـحِ الـكافِ وسُـكونِ التحتيةِ فمهمَلةٍ- مَـوْلَى هشامِ بـنِ المُغيرةِ المَخزوميِّ.

قولـه (قَبْـلَ بَـدْرٍ بأَزْيَـدَ مِـن عَـامٍ): بَـلْ كانَـا في سَنَةٍ واحـدةٍ؛ فـإنَّ ذلـك في رَجَـبٍ في السَّـنةِ الثانيـةِ، وبَـدرٌ في رمضـانَ، فيَكـونُ قَبْـلَ بَـدْرٍ بشَـهرٍ.

قولـه (كانَ عـلى تأويـلٍ وبَصـيرةٍ): أي اجتهـادٍ صَـادرٍ عَـنْ فكـرةٍ. وقولـه (وعَـلَى مَـا تَقَـدَّمَ قَبْـلُ): ببِنـاءِ الظرفِ عـلى الضـمِّ، و(مِثْلُه): -بالرفـع- فاعـلُ (تَقَـدَّمَ). قولـه (واللهُ أَعلَـمُ): جُملـةٌ معترِضـةٌ بَـيْنَ الفِعلِ ومفعولِـه. قولـه (أو تذنيـبٍ): نسبـةٌ إلى ذَنْبٍ.

قولـه (هـذا مَعْنَـى كلامِـه): أي كلام بَكـرِ بـنِ العَـلاءِ، وتَمـامُ مَرامِـه. قولـه (المُتَصَـدَّى لـه): -بصيغَـةِ المجهـولِ- أي المُتَعَـرَّضَ لـه بالتوجُّـهِ والإقبـالِ. قولـه (مِمَّـنْ لا يَتَزَكَّـى): أي لا يَتَطَهَّـرُ مِـن الـشِّركِ في الاسـتقبالِ. قولـه (كَشَـفَ): أي بَـيَّنَ وظَهَـرَ (لَـكَ حَـالَ الرَّجُلَـيْنِ): مَـنِ الأَعْمَـى في الظواهـرِ، والبَصـيرِ في السرائـرِ، [ومَـنْ عكسُـهُ][٣].

(١) أخرجـه بهـذا اللفـظ الحاكـم في «المسـتدرك»، وصحَّحـه (٣/ ٨٣) مـن حديـث ابن عبَّـاس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا. ولـه شـاهدٌ مـن حديـث السيدة عائشـة رَضِيَاللَّهُعَنْهَا.

(٢) مـن ذلـك حكـم سـعد بـن معـاذ في بنـي قريظـة، قـال: تقتـل مقاتلتهـم، وتسـبي ذراريهـم، فقـال لـه النبي ﷺ: «قضيـت بحكـم الله». متفـقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، وغيرهمـا مـن حديـث أبي سـعيد الخـدري رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٣) ما بين المعقوفين تمام العبارة كما عند القاري.

في إعْـزَازِ الدِّيـنِ وإظهَـارِ كَلِمَتِـهِ وإِبَـادَةِ عَـدُوِّهِ، وأَنَّ هَـذِه القَضِيَّـةَ لَـو اسْـتَوْجَبَتْ عَذابًـا نَجَـا مِنْـهُ عُمَـرُ ومِثْلُـه. وعَـيَّنَ عُمَـرَ؛ لِأَنَّـهُ أَوَّلُ مَـنْ أَشَـارَ إلى قَتْلِهِـمْ؛ ولَكِـنَّ اللهَ لَمْ يُقَـدِّرْ عَلَيْهِـم في ذلـكَ عَذَابًـا لِحِلِّـهِ لَـهُم فِيـما سَـبَقَ.

وقَـالَ الـدَّاوُدِيُّ: والخَـبَرُ بهَـذا لا يَثْبُـتُ، ولَـوْ ثَبَـتَ لِمَـا جَـازَ أَنْ يُظَـنَّ أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ حَكَـمَ بِـمَا لا نَـصَّ فيـهِ، ولا دَلِيـلَ مِـنْ نـصٍّ، ولا جُعِـلَ الأَمْـرُ فيـه إِلَيْـهِ، وقَـدْ نَزَّهَـه اللهُ عَـنْ ذلِـكَ.

وقَـالَ القَـاضِي بَكْـرُ بْـنُ العَـلَاءِ: أَخْـبَرَ اللهُ نَبِيَّـهُ في هَـذِهِ الآيَـةِ أَنَّ تَأْوِيلَـهُ وَافَـقَ مَـا كُتِـبَ لَـهُ مِـنْ إِحْـلَالِ الغَنَائِـمِ والفِـدَاءِ، وقَـدْ كَانَ قَبْـلَ هَـذا فَـادَوْا في سَرِيَّـةِ عَبْـدِ اللهِ بـنِ جَحْـشٍ الَّتِـي قُتِـلَ فيهَـا ابْـنُ الحَضْرَمِـيِّ بالحَكَـمِ بْـنِ كَيْسَـانَ وصاحِبِـهِ[١]، فَـما عَتَـبَ اللهُ ذلـكَ عَلَيْهِـمْ، وذلـكَ قَبْـلَ بَـدْرٍ بأَزْيَـدَ مِـنْ عَـامٍ، فهَـذَا كُلُّـه يَـدُلُّ عـلى أَنَّ فِعْـلَ النَّبِـيِّ ﷺ في شَـأْنِ الأُسَـارَى كَانَ عـلى تَأْوِيـلٍ وبَصِـيرَةٍ، وعـلى مَـا تَقَـدَّمَ قَبْـلُ مِثْلُـه، فَلَـمْ يُنْكِـرْهُ اللهُ عَلَيْهِـمْ؛ لَكِـنَّ اللهَ تَعـالى أَرَادَ لِعِظَـمِ أَمْـرِ بَـدْرٍ، وكَثْـرَةِ أَسْرَاهَـا -واللهُ أَعْلَـمُ- إظهَـارَ نِعْمَتِـهِ، وتأكيـدَ مِنَّتِـهِ بِتَعْرِيفِهِـمْ مَـا كَتَبَـهُ في اللَّـوْحِ المَحْفُـوظِ مِـنْ حِـلِّ ذلـك لَـهُـمْ؛ لا عَـلَى وَجْـهِ عِتَـابٍ وإِنْـكَارٍ أَوْ تَذْنِيـبٍ. هـذا مَعْنَـى كَلَامِـهِ.

وأَمَّـا قَـوْلُ اللهِ: ﴿عَبَسَ وتَـوَلَّى * أَنْ جَـاءَهُ الأَعْمى...﴾ الآيَـاتِ [عبس: ١-٢] فلَيْـسَ فيهَـا إِثْبَـاتُ ذَنْـبٍ لَـهُ ﷺ بَـلْ إِعْـلَامُ اللهِ لـه أَنَّ ذلـكَ المُتَصَـدَّى لَـهُ مِمَّـنْ لا يَتَزَكَّـى، وأَنَّ الصَّـوَابَ والأَوْلَى كانَ لَـوْ كَشَـفَ لـه حَـالَ الرَّجُلَـيْنِ

(١) حديث المفاداة في سرية عبد الله بن جحش: البيهقيُّ [«الدلائل» (٣/ ١٨)] عن الزهريِّ، وابن إسحاق عن عروة.

لاختارَ الإقبالَ علَى الأعمَى. وفعلُ النبيِّ ﷺ لِما فعَلَ، وتَصدِّيهِ لِذلكَ الكافِرِ كانَ طاعةً لله، وتَبْليغًا عنْهُ، واسْتِئْلافًا لَهُ كَما شَرَعَهُ اللهُ لَهُ، لا معصيةً ولا مُخالَفةً لهُ، ومَا قصَّهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ ذلكَ إعْلامٌ بحَالِ الرَّجُلَيْنِ، وتَوْهينُ أَمْرِ الكافِرِ عِنْدَهُ، والإشَارةُ إلَى الإعْراضِ عَنْهُ بقَوْلِهِ: ﴿وما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾. وقِيلَ: المُرادُ بـ﴿عَبَسَ وتَوَلَّى﴾ الكافِرُ الَّذي كَانَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ، قالَهُ أَبُو تَمَّامٍ.

وأَمَّا قِصَّةُ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، وقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وتَصْريحُهُ تَعالى عَلَيْهِ بالمَعْصِيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، أَيْ جَهِلَ، وقِيلَ: أَخْطَأَ، فإِنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَخْبَرَ بعُذْرِه بِقَوْلِهِ: ﴿ولَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ له عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. قالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَسِيَ عَداوَةَ إبليسَ له ومَا عَهِدَ اللهُ إلَيْهِ مِنْ ذلكَ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ ولِزَوْجِكَ...﴾ الآيةَ [طه: ١١٧]. قِيلَ: نَسِيَ ذلكَ بِمَا أَظْهَرَ لَهُمَا، وقالَ ابْنُ عبَّاسٍ: إنَّما سُمِّيَ الإنْسَانُ إنْسَانًا لأنَّه عُهِدَ إلَيْهِ فنَسِيَ[1].

وقِيلَ: لَمْ يَقْصِدِ المُخالَفَةَ اسْتِحْلالًا لها؛ ولَكِنَّهُما اغْتَرَّا بحَلِفِ إبْلِيسَ لَهُمَا ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وتَوَهَّما أَنَّ أَحَدًا لا يَحْلِفُ باللهِ حانِثًا، وقَدْ رُوِيَ عُذْرُ آدمَ بمِثْلِ هَذا في بَعْضِ الآثارِ، وقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: حَلَفَ باللهِ لَهُما حَتَّى غَرَّهُما، والمُؤْمِنُ يُخْدَعُ.

(١) حديث ابن عبَّاس (إنما سُمِّي الإنسانُ؛ لأنه عُهِدَ إليه فنسي): ابن أبي حاتم [١٣٥٤٦].

قوله (وتَصدِّيه): أي في تَعرُّضِه.

قوله (واستئلافًا له): أي طَلَبًا لِأُلْفَتِه.

قوله (بحَالِ الرَّجُلَيْنِ): أي المؤمِنِ والكافِرِ، والصَّالحِ والفاجِرِ.

قوله (أبو تمَّام): بتشديدِ الميم الأُولَى.[1]

قوله (فتكُونَا مِنَ الظالِمينَ): أي العاصِينَ، فيَكونُ النهيُ لِلتحريمِ، أو لِلتنزيهِ إنْ فَسَّرْنا الظالِمينَ بالواضعِينَ لِلأشياءِ في غيرِ مَوْضِعِهَا.

قوله (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرةِ): وهيَ شجرةُ الكَرْمِ، وقيلَ: السُّنبلةُ، وقيل: شجرةُ العِلْمِ؛ عليها معْلومُ اللهِ مِن كُلِّ لَونٍ وطَعمٍ، وقيل غيرُ ذلكِ.

قوله (أَخْطَأَ): في اجتهادِه حيثُ ظَنَّ أنَّ الإشارَةَ إلى الشجرةِ بِعَيْنِها، والحالُ أنَّ النهيَ مُتَوَجِّهٌ لِجِنْسِها.

قوله (مِنْ قَبْلُ): أي قَبْلِ خروجِه مِن الجَنَّةِ، أو قبلِ ظهورِ الذُّرِّيَّةِ.

قوله (ولَمْ نَجِدْ له عَزْمًا): على المخالَفةِ، أو لَمْ نَجِدْ له عَزيمةً جَزْمًا على الموافقةِ؛ فإنّه لَمَّا اشتبَهَ عليْه الحالُ مِنْ أنَّ النهيَ عَنْ عَيْنِ تلكَ الشجرَةِ أوْ جِنْسِها كانَتِ العزيمَةُ أنْ يَجْتَنِبَها بالكُلِّيَّةِ.

قوله (لأنَّه عُهِدَ إليْه): بصيغةِ المجهولِ.

قوله (استحلالًا لها): أي جَعْلَها حَلالًا.

وقوله (حَانِثًا): أي كاذِبًا كَذِبًا يُوجِبُ الحِنْثَ، أي الإثْمَ.

(١) قال الشهاب: أبو تمام الشاعر صاحب كتاب الحماسة، وهو قول في غاية الضعف، بعيد من السياق.

وقَدْ قِيلَ: نَسِيَ وَلَمْ يَنْوِ المُخالَفَةَ؛ فلِذلكَ قالَ: ﴿ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أيْ قَصْدًا لِلمُخالَفَةِ، وأكْثَرُ المُفَسِّرِينَ على أنَّ العَزْمَ هُنا الحَزْمُ والصَّبْرُ.

وقِيلَ: كانَ عِنْدَ أكْلِهِ سَكْرانَ، وهَذا فيهِ ضَعْفٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ خَمْرَ الجَنَّةِ أنَّها لا تُسْكِرُ، فإذا كانَ ناسِيًا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً، وكذلكَ إنْ كانَ مُلَبَّسًا عَلَيْهِ غالِطًا؛ إذِ الاتِّفاقُ عَلَى خُرُوجِ النَّاسِي والسَّاهِي عَنْ حُكْمِ التَّكْلِيفِ.

وقالَ الشَّيْخُ أبو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ وغَيْرُهُ: إنَّهُ يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ ذلكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، ودَلِيلُ ذلكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، فذَكَرَ أنَّ الاجْتِباءَ والهِدايَةَ كانا بَعْدَ العِصْيانِ.

وقِيلَ: بَلْ أكَلَها مُتَأوِّلًا، وهُوَ لا يَعْلَمُ أنَّها الشَّجَرَةُ الَّتي نُهِيَ عَنْها؛ لأنَّهُ تَأوَّلَ نَهْيَ اللهِ عَنْ شَجَرَةٍ مَخْصُوصَةٍ لا عَلى الجِنْسِ، ولِهَذا قِيلَ: إنَّما كانَتِ التَّوْبَةُ مِنْ تَرْكِ التَّحَفُّظِ، لا مِنَ المُخالَفَةِ، وقِيلَ: تَأوَّلَ أنَّ اللهَ لَمْ يَنْهَهُ عَنْها نَهْيَ تَحْرِيمٍ.

فإنْ قِيلَ فعَلَى كُلِّ حالٍ فقَدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، وقالَ: ﴿فتَابَ عَلَيْهِ﴾، وقَوْلُهُ في حَدِيثِ الشَّفاعَةِ -ويَذْكُرُ ذَنْبَهُ-: (وإنِّي نُهِيتُ عَنْ أكْلِ الشَّجَرَةِ فعَصَيْتُ)؟! فسَيَأْتِي الجَوابُ عَنْهُ وعَنْ أشْباهِهِ مُجْمَلًا آخِرَ الفَصْلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وأمَّا قِصَّةُ يُونُسَ فقَدْ مَضَى الكَلامُ على بَعْضِها آنِفًا، ولَيْسَ في قِصَّةِ يُونُسَ نَصٌّ على ذَنْبٍ؛ وإنَّما فيهِ ﴿أبَقَ﴾ [الصافات: ١٤٠]، و﴿ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقَدْ تَكَلَّمْنا عَلَيْهِ.

وقِيلَ: إنَّما نَقَمَ اللهُ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ عَنْ قَوْمِهِ فارًّا مِنْ نُزُولِ العَذابِ. وقِيلَ: بَلْ لَمَّا وَعَدَهُمُ العَذابَ، ثُمَّ عَفا اللهُ عَنْهُمْ

قوله (نَسِيَ ولَمْ يَنْوِ المخالفةَ): وهذا الذي استَظْهَرَه المُلّا.

قوله (وقيلَ كانَ عِنْدَ أكلِه سَكرانَ): أي مِنْ حُبِّ المَوْلَى كَما قيلَ في آيةِ ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتم سُكارَى﴾ [النساء: ٤٣] مِن حُبِّ الدنيا، أو مِن خَمْرِ الجَنَّةِ.

قوله (مُلَبَّسًا): -بتشديدِ الموحَّدةِ المفتوحةِ- أي مُخَلَّطًا.

قوله (فتابَ عَلَيْه): أي فوَفَّقَه لِلتوبةِ والثَّباتِ على الطَّاعةِ، أو فرَجَعَ عليه بِقَبولِ التوبةِ.

قوله (وقيلَ بَلْ أكَلَها مُتَأوِّلًا): لِأنَّ المَنْهِيَّ عَنه لَمْ يَكُنْ مصرَّحًا. قوله (لا عَلَى الجِنسِ): الشاملِ لها ولِغيرِها، فَأكَلَا مِمَّا عَداها. قوله (مِنْ تَرْكِ التحفُّظِ): وهوَ التحرُّزُ ورعايةُ الأحْوَطِ في بابِ الموافقةِ.

قوله (وعَنْ أشباهِه): مِمَّا وَقَعَ لِغَيْرِ آدَمَ مِن إخوانِه وأمثالِه. قوله (آخِرَ الفَصْلِ): [يعني في الفَصْلِ] الَّذي يَلِي آخِرَ هذا الفَصْلِ. قوله (آنِفًا): -بِمَدِّ الهَمزةِ وقَصْرِها، وقَدْ قُرِئَ بِهِما في السَّبعةِ[1]- أي قريبًا.

قوله (وإنَّما فيه «أَبَقَ»): أي مِن مَوْلاه أو مِن أُمَّتِه أو على نفسِه. قوله (وقيلَ إنَّما نَقَمَ اللهُ): -بفتحِ القافِ وكسرِها- أي أنْكَرَ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ومِنهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]

قَالَ: والله لا أَلْقَاهُمْ بِوَجْهٍ كاذِبٍ أَبَدًا. وَقِيلَ: بَلْ كَانُوا يَقْتُلونَ مَنْ كَذَبَ، فخَافَ ذلكَ. وقِيلَ: ضَعُفَ عَنْ حَمْلِ أَعْبَاءِ الرِّسَالةِ، وقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْهُمْ، وهَذا كُلُّه لَيْسَ فيه نَصٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ إلا على قَوْلٍ مَرْغُوبٍ عَنْهُ. وقَوْلُه: ﴿أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠] قالَ المُفَسِّرُونَ: تباعَدَ.

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فالظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فهَذا اعْتِرَافٌ مِنْه عِنْدَ بَعْضِهِمْ بِذَنْبِهِ؛ فإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِخُرُوجِهِ عَنْ قَوْمِهِ بغَيْرِ إِذْنِ رَبِّهِ، أَوْ لِضَعْفِهِ عَمَّا حُمِّلَهُ، أَوْ لِدُعائِه بالعَذَابِ عَلَى قَوْمِهِ، وقَدْ دَعَا نُوحٌ بِهَلَاكِ قَوْمِهِ، فَلَمْ يُؤَاخَذْ.

وقَالَ الواسِطِيُّ في مَعْنَاهُ: نَزَّهَ رَبَّهُ عَنِ الظُّلْمِ، وأَضَافَ الظُّلْمَ إلى نَفْسِهِ اعْتِرَافًا واسْتِحْقَاقًا. ومِثْلُ هذا قَوْلُ آدَمَ وحَوَّاءَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ إِذْ كَانَا السَّبَبَ في وَضْعِهِما في غَيْرِ المَوْضِعِ الَّذِي أُنْزِلا فيه، وإِخْراجِهِما مِنَ الجَنَّةِ، وإِنْزالِهِما إلى الأَرْضِ.

وَأَمَّا قِصَّةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1] فَلَا يَجِبُ أَنْ يُلْتَفَتَ إلى مَا سَطَّرَهُ فيها الأَخْبَارِيُّونَ عن أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ بَدَّلُوا وغَيَّرُوا، ونَقَلَهُ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ، ولَمْ يَنُصَّ اللهُ على شَيْءٍ مِنْ ذلِكَ، ولا وَرَدَ في حَدِيثٍ صَحِيحٍ.

والَّذِي نَصَّ اللهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]،

(١) حديث قصة داود: ابن أبي حاتم [«الدر المنثور» ٧/ ١٥٥] عن ابن عبَّاس موقوفًا، و[«الدر المنثور» ٧/ ١٥٦] عن أنس مرفوعًا بسندٍ واهٍ.

قوله (والله لا أَلْقاهم بوَجْهٍ كاذِبٍ): أي صورةً حَيَاءً مِن الخَلْقِ بمقتَضَى العادَةِ البشريّةِ، وهُوَ بالوصْفِ أو الإضافةِ.

قوله (أَعْبَاءِ الرسَالةِ): أي أثقالِها وشدائِدِ أهوالِها ومكابَرةِ أحوالِها. قوله (لَمْ يَكْذِبْهم): -بفتحِ الياءِ- بَلْ صَدَقَ لَهم، وقَدْ صَدَقَ كلامُه بآثارِ العذابِ ومُقَدِّمةِ العِقابِ.

قوله (قَالَ المفسِّرُونَ: تباعَدَ): أي عَنْ قَومِه تَباعُدَ المملوكِ عَن مَالكِه.

قوله (فالظُّلمُ وَضْعُ الشيءِ في غيرِ مَوْضِعِه): حَتَّى قيلَ لِمَن وَضَعَ حُبَّ غَيْرِ رَبِّه في صَدرِه وقَلْبِه هُوَ ظالمٌ لِنَفْسِه، ومِنْه قولُ ابنِ الفارضِ:

عَلَيْكَ بها صِرْفًا وإنْ شِئْتَ مَزْجَها
فعَدْلُكَ عَنْ ظَلْمِ الحبيبِ هُوَ الظُّلْمُ

قوله (عَمَّا حُمِّلَهُ): -بصيغةِ المجهولِ- أي كُلِّفَه.

قوله (وقَالَ الواسطِيُّ في مَعْنَاه): أي في مَعنى قولِه: ﴿سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظالِمِينَ﴾.

قوله (وحَوَّاءَ): -بالمدِّ- «فَعلاءُ»، مِنَ الحياةِ، وهْيَ أُمُّ بَنِي آدَمَ، وسَمَّاها آدمُ حَوَّاءَ حِينَ خُلِقَتْ مِن ضِلْعِه، فقيلَ له: مَنْ هذه؟ فقالَ: امرأةٌ. قيلَ: ومَا اسمُهَا؟ قالَ: حَوَّاءُ. قيل: ولِمَ ذلك؟ قالَ: لِأَنَّها خُلِقَتْ مِن حَيٍّ.

قوله (وإنزالِهما إلى الأرضِ): وهْيَ مَكانُ المِحنةِ والمَشَقَّةِ ودارُ الكُلْفةِ.

قوله (إلى مَا سطَّرَه): -بتشديدِ الطّاءِ وتُخَفَّفُ- أي كَتَبَه (الأخبارِيُّونَ): -بفتحِ الهمزة- أي الناقِلونَ. قوله (عَنْ أهْلِ الكِتابِ): أي اليهودِ والنَّصارى. قوله (أَنَّما فَتَنَّاه): أي ابتَلَيْناه وامتَحَنَّاه. قولُهُ (فاستَغْفَرَ رَبَّه): أي طَلَبَ غفرانَه في دُنْيَاه وأُخْرَاه.

وقَوْلُـه فيـهِ: ﴿إِنَّـهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، فمَعْنَـى (فَتَنَّـاهُ) اخْتبَرْنَـاهُ، و(أَوَّابٌ) قَـالَ قَتَـادَةُ: مُطِيـعٌ، وهَـذَا التَّفْسِـيرُ أَوْلَى.

قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ[1] وَابْـنُ مَسْـعُودٍ[2]: مَـا زَادَ دَاوُدُ عـلى أَنْ قَـالَ لِلرَّجُـلِ: انْـزِلْ لِي عَـنِ امْرَأَتِـكَ وأَكْفِلْنِيهـا، فعَاتَبَـهُ اللهُ عـلى ذلـكَ، ونَبَّهَـهُ عَلَيْـه، وأَنْكَـرَ عَلَيْـهِ شُـغْلَه بالدُّنْيَـا، وهَـذا الَّـذِي يَنْبَغِـي أَنْ يُعَـوَّلَ عَلَيْـهِ مِـنْ أَمْـرِه. وقَـدْ قِيـلَ: خَطَبَهَـا عـلى خِطْبَتِـهِ. وقِيـلَ: بَلْ أَحَـبَّ بقَلْبِـهِ أَنْ يُسْتَشْـهَدَ.

وحَكَـى السَّـمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ ذَنْبَـهُ الَّـذِي اسْـتَغْفَرَ مِنْـهُ قَوْلُـه لِأَحَـدِ الخَصْمَـيْنِ: ﴿لَقَـدْ ظَلَمَـكَ﴾ [الأنبيـاء: ٨٧]، فظَلَّمَـهُ بِقَـوْلِ خَصْمِـهِ، وقِيـلَ: بَـلْ لِمَـا خَـشِيَ عـلى نَفْسِـهِ، وظَـنَّ مِـنَ الفِتْنَـةِ بِـمَا بُسِـطَ لَـهُ مِـنَ المُلْـكِ والدُّنْيَـا.

وإِلَى نَفْـيِ مَـا أُضِيـفَ فِي الأَخْبَـارِ إِلى داوُدَ مِـنْ ذلـكَ ذَهَـبَ أَحْمَـدُ بْـنُ نَـصْرٍ وأَبُـو تَمَّـامٍ وَغَيْرُهُمَـا مِـنَ المُحَقِّقِـينَ، وقَـالَ الـدَّاوُدِيُّ: لَيْـسَ فِي قِصَّـةِ دَاوُدَ وأَوْرِيَـاءَ خَـبَرٌ يَثْبُـتُ، ولا يُظَـنُّ بِنَبِـيٍّ مَحَبَّـةُ قَتْـلِ مُسْـلِمٍ.

وقِيـلَ: إِنَّ الخَصْمَـيْنِ اللَّذَيْـنِ اخْتَصَـمَا إِلَيْـهِ رَجُـلانِ فِي نَتَـاجِ غَنَـمٍ عـلى ظَاهِـرِ الآيَـةِ، وقِيـلَ: بَـلْ لِمَـا خَـشِيَ عـلى نَفْسِـهِ، وظَـنَّ مِـنَ الفِتْنَـةِ لِمَـا بُسِـطَ لَـهُ مِـنَ المُلْـكِ والدُّنْيَـا.

وأَمَّـا قِصَّـةُ يُوسُـفَ وإِخْوَتِـهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فلَيْـسَ عـلى يُوسُـفَ مِنْهَـا تَعَقُّـبٌ، وأَمَّـا إِخْوَتُـهُ فلَـمْ تَثْبُـتْ نُبُوَّتُهُـمْ؛ فيَلْـزَمَ

---

(١) حديث ابن عبَّاسٍ (ما زاد داود على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك واكفلنيها): ابن أبي حاتم [١٨٣٤٦].

(٢) حديث ابن مسعودٍ مثله: الفريابيُّ في تفسيره [كما في الدر المنثور ٧/ ١٦١].

قولـه (إِنَّـه أَوَّابٌ): كَثِـيرُ الأَوْبَـةِ حَتَّـى عَـنِ الخَطْـرةِ.

قولـه (انـزِلْ لِي عَـنِ امرأتِـكَ): أي طَلِّقْهـا لِأَنِّي أُرِيـدُ أَنْ أتزوَّجَهـا، وأَكَّـدَ الأمـرَ بقولِـه (وأَكفِلْنِيهـا): أي أَعْطِنِيهـا.

قولـه (وأَنْكَـرَ علَيْـه شُـغْلَه بالدنيـا) وقِلَّـةَ رغبتِـه عَـنِ الأُخـرى.

قولـه (وقَـدْ قيـلَ: خَطَبَهـا عـلى خِطْبَتِـه): أي قبْـلَ زواجِـه، وهـذا مكـروهٌ في دِينِنَـا.

قوله (بِمَا بُسِطَ له): أي وُسِّعَ عَلَيْه.

قولـه (مـا أُضِيـفَ في الأَخبـارِ إلى داودَ): أي مـا نُسِـبَ إِلَيْـه.

قولـه (وأَوْرِيـاءَ): بفتـحِ الهَمـزةِ وضَمِّهـا وسـكونِ الـواوِ وكسرِ الـراءِ فتحتيـةٍ فألِـفٍ ممدودةٍ.

وقولـه (ولا يُظَـنُّ... إلـخ): -بصيغَـةِ المجهـولِ- أي ولا يَنبغـي أنْ يُظَـنَّ بِنَبِـيٍّ مَحبّـةُ قتْـلِ مسْـلِمٍ.

قولـه (رَجُـلانِ): أي لا مَلَـكانِ، وهـوَ مرفـوعٌ عـلى كونـه خـبرَ (إنَّ)، وفي حاشـيَةِ التلمسـانيِّ: قيـلَ صَوَابُـه «رَجُلَـيْنِ» نَصبًـا، ووُجِّـهَ الألِـفُ إمَّـا عـلى لُغَـةِ بَنِـي الحَـارثِ، فالألِـفُ في الجـرِّ والنَّصـبِ كألِـفِ المقصـورِ، أو خـبرًا لِمبتدإٍ محـذوفٍ؛ أي هُمَـا رَجُـلانِ، وهـوَ بَعِيـدٌ. اهـ مـلّا.

وقولـه (عـلَى ظاهـرِ الآيـةِ): فيَكـونُ الاختصـامُ تحقيقًـا لا تمثيـلًا.

قولـه (وأَمَّـا قِصّـةُ يوسُـفَ): بضـمِّ اليـاءِ والسـينِ، أشـهَرُ لغاتِـه مِـن تثليـثِ السـينِ مَـعَ الهَمْـزِ وعَدَمِه.

قولـه (تَعَقُّـبٌ): أي اعتراضٌ.

قولـه (وأَمَّـا إخوتُـه فلَـمْ تَثْبُـتْ نُبُوَّتُهـم): أي عِنْـدَ بَعْـضِ العُلَـماءِ فـلا إشـكالَ.

الـكَلَامُ عـلى أَفعَالِهـمْ، وذِكْـرُ الأَسْبَاطِ وعَدُّهُـمْ في القُرآنِ عِنْدَ ذِكْرِ الأَنْبِيَاءِ قَالَ المُفَسِّرُونَ: يُرِيدُ مَنْ نُبِّئَ مِنْ أَبْنَاءِ الأَسْبَاطِ.

وقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ كانُوا حِينَ فَعَلُوا بِيُوسُفَ مَا فَعَلُوهُ صِغَارَ الأَسْنَانِ، ولِهَذا لَمْ يُمَيِّزُوا يُوسُفَ حِينَ اجْتَمَعُوا بِهِ، ولِهَذَا قالُوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، وإِنْ ثَبَتَتْ لَـهُمْ نُبُوَّةٌ فَبَعْدَ هَذا، واللهُ أَعْلَمُ.

وأَمَّا قَوْلُ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿ولَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، فعَلَى مَذْهَبِ كَثِيرٍ مِنَ الفُقَهاءِ والمُحَدِّثِينَ أَنَّ هَمَّ النَّفْسِ لا يُؤَاخَذُ بِهِ، ولَيْسَ سَيِّئَةً؛ لِقَوْلِه ﷺ عَنْ رَبِّهِ: (إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ)[1]؛ فَلَا مَعْصِيَةَ في هَمِّهِ إِذًا.

وأَمَّا على مَذْهَبِ المُحَقِّقِينَ مِنَ الفُقَهاءِ والمُتَكَلِّمِينَ فَإِنَّ الهَمَّ إِذَا وُطِّنَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ سَيِّئَةٌ، وأَمَّا مَا لَمْ تُوَطَّنْ عَلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ هُمُومِهَا وخَوَاطِرِهَا فهُوَ المَعْفُوُّ عَنْهُ، وهَذَا هُوَ الحَقُّ، فيَكُونُ -إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى- هَمُّ يُوسُفَ مِنْ هَذا، ويَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ومَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...﴾ الآيةَ [يوسف: ٥٣] أَيْ أُبَرِّئُهَا مِنْ هذا الهَمِّ. أَوْ يَكُونُ مِنْه ذلكَ على طَرِيقِ التواضُعِ والاعترافِ بِمُخَالَفَةِ النَّفْسِ لِمَا زُكِّيَ قَبْلُ وبُرِّئَ، فكَيْفَ وقَدْ حَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَهُمَّ، وأَنَّ الكَلَامَ فيه تَقْدِيمٌ وتَأْخِيرٌ،

(١) حديث (إذا هَمَّ عبدي بسيِّئة ...): مسلمٌ [١٢٨] عن أبي هريرة.

قولـه (وذِكْرُ الأسباطِ... إلخ): أي لَيْسَ تصريحًا في كَوْنِهم مِنْ أَهْلِ الأنبياءِ، والأسبَاطِ: أي أولادِ يَعقوبَ، وأحفادِ إسماعيلَ وإسحاقَ، وسُمُّوا بذلك لِأَنَّه وُلِدَ لِكُلِّ واحدٍ مِنْهم جماعَةٌ، وسِبْطُ الرَّجُلِ حَافِدُه، ومِنْه قِيلَ لِلحَسَنِ والحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا سِبطَا رسولِ الله ﷺ.

قولـه (نَرْتَعْ ونَلْعَبْ): على قراءةِ النونِ[1]، والظاهرُ أنَّها محمولةٌ على التغليبِ لِقراءةِ (يَرْتَعْ ويَلْعَبْ) بصيغةِ الغَيْبَةِ، والرَّتْعُ الأَكْلُ رَغَدًا، ثُمَّ كونُ كُلِّهم صِغارًا في غايةِ البُعْدِ عَقْلًا ونَقْلًا؛ على أنَّ لَعِبَ الكِبارِ لا يُستبعَدُ شَرْعًا وعُرْفًا. اهـ مُلَّا.

قولـه (وهَمَّ بِها): هَمَّ مَعصيَةٍ ومكايَدةٍ، والباءُ لِلسببيَّةِ فيهِا، أو هَمَّ فِكرةٍ وخَطْرةٍ شَفَقةً عليْها.

قولـه (لَولا أنْ رَأَى بُرهانَ رَبِّه): أي لولا النبوةُ ولَوازِمُها مِنَ العِصمةِ.

قولـه (فلَمْ يَفْعَلْها): أي تَرَكَها خوفًا مِنِّي فلَمْ يَثْبُتْ علَيْها ظاهرًا وباطنًا مِن أجْلِي.

قولـه (إذا وُطِّنَتْ... إلخ): -بضمِّ الواوِ وتشديدِ الطاءِ المهمَلةِ المكسُورَةِ- أي استَقَرَّتْ.

قولـه (فيَكُونُ... إلخ): أي كَمَا هُوَ اللائقُ مِن حُسْنِ الظنِّ في الأنبياءِ.

قولـه (وما أُبَرِّئُ نَفْسِي): أي مِنَ التقصيرِ، ولا أُزَكِّيها بِكَمالِ النظافةِ والطَّهارَةِ.

قولـه (لِما زُكِّيَ): -بصيغةِ المجهولِ فيهما- أي لِما زَكَّاه النِّسوةُ، وبرَّأْنَه قَبْلَ ذلك، وشَهِدْنَ له بالعِصمَةِ.

قولـه (أنَّ يوسفَ لَمْ يَهُمَّ): أي أصلًا، وهُوَ بضمِّ الهاءِ.

(١) بالنون في الفعلين وبإسكان العين: قراءة أبي عمرو ابن العلاء وابن عامر الدمشقي، وبكسر العين: قراءة ابن كثير المكي.

قوله (ولَقَدْ راوَدْتُه عَنْ نَفْسِه): أي طَالَبْتُه أنْ يُجامِعَنِي، وقَصَدْتُ مِنْه أنْ يوافِقَنِي.

قوله (لِنَصْرِفَ عَنْه السُّوءَ): أي الصغيرة؛ وهِيَ نحوُ الهَمِّ، (والفحشاءَ): أي الكبيرة كالزِّنا.

قوله (وقالَتْ هَيْتَ لَكَ): فيه قراءاتٌ[1]، أي هَلُمَّ إلى ما أدعوكَ إلَيْه. قوله (وقيلَ: المَلِكُ): صَوابُه العزيزُ أو وَزيرُ المَلِكِ.

قوله (وقيلَ: هَمَّ بِها): أي نَظَرَ إلَيْها نَظَرَ غَضَبٍ أو أَدَبٍ. قوله (وقيلَ: هَمَّ بِضَرْبِهَا ودَفْعِهَا): عَنْ نَفْسِه، وكُفِيَ شَرَّها، وهذا كالتَّكرارِ لِما تَقَدَّمَ واللهُ أعلَمُ. اهـ مُلَّا عَلِيّ. قوله (ما زالَ النساءُ يَمِلْنَ): بفتحِ الياءِ وكسرِ الميمِ.

قوله (كانَ مِنَ القِبْطِ): -بكسرِ القَافِ- أُمَّةٌ مِن أَهْلِ مِصْرَ. قوله (كانَ مِنَ القِبْطِ الَّذِين كانُوا على دِينِ فِرعونَ): وهوَ الوَليدُ بنُ مُصْعَبٍ، وفرعونُ لَقَبٌ لِكُلِّ مَلِكٍ مُلِّكَ مِصرَ، كقَيصَرَ لِلرومِ، وكسرى لِلفُرْسِ، والنَّجاشِيِّ لِلحَبَشَةِ، وتُبَّعِ لِليَمَنِ، وخَاقَانَ لِلتُّرْكِ.

قوله (أنَّه قَبْلَ نُبُوَّةِ مُوسَى): لِأنَّه خَرَجَ بَعْدَ قَتْلِه، واجتَمَعَ بشُعَيْبٍ، وتَزَوَّجَ بِنْتَه. قوله (وَكَزَهُ بالعَصَا): أي لا بآلَةٍ مِنَ السِّلاحِ. وقوله (هذا مِنْ عَمَلِ الشيطانِ): محمولٌ علَيْه، أي إنَّه مِنْ عَمَلٍ يُحِبُّه الشَّيْطَانُ.

قوله (ظَلَمْتُ): حيثُ ضَرَبْتُه مِنْ غيرِ أنْ أكونَ مأمورًا بِه (فاغفِرْ لي) مَا صَدَرَ عَنِّي.

قوله (جُرَيْج): -بالجيمَينِ- القُرَشِيُّ.

قوله (وقَدْ قيلَ: إنَّ هذا): أي القَتْلَ مَعَ أنَّه كانَ خَطَأً كانَ قَبْلَ النبوَّةِ... إلخ.

---

(١) حكى السمين في «الدر» تسع قراءات فيها؛ خمسًا في السبع، وأربعًا في الشاذ.

أيْ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، ولَوْلَا أنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّه لَهَمَّ بِهَا.

وقَدْ قَالَ اللهُ تعَالى عَنِ المَرْأَةِ: ﴿ولَقَدْ رَاوَدْتُه عَنْ نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقَالَ تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقَالَ: ﴿وغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وقالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إنَّه رَبِّي...﴾ الآيةَ [يوسف: ٢٣]، قِيلَ في «رَبِّي»: اللهُ تعالى، وقِيلَ: المَلِكُ.

وقِيلَ: هَمَّ بِهَا أيْ بِزَجْرِهَا ووَعْظِهَا، وقِيلَ: هَمَّ بِهَا أيْ غَمَّهَا امْتِناعُهُ عَنْهَا، وقِيلَ: هَمَّ بِهَا أيْ نَظَرَ إلَيْهَا، وقِيلَ: هَمَّ بِضَرْبِهَا ودَفْعِهَا.

وقِيلَ: هَذا كُلُّه كانَ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ، وقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ: مَا زالَ النِّسَاءُ يَمِلْنَ إلَى يُوسُفَ مَيْلَ شَهْوَةٍ حَتَّى نَبَّأَهُ اللهُ، فأَلْقَى عَلَيْهِ هَيْبَةَ النُّبُوَّةِ، فشَغَلَتْ هَيْبَتُهُ كُلَّ مَنْ رَآهُ عَنْ حُسْنِهِ.

وأَمَّا خَبَرُ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَتِيلِهِ الَّذِي وَكَزَهُ، فَقَدْ نَصَّ اللهُ تعالى أَنَّه مِنْ عَدُوِّهِ، قَالَ: كَانَ مِنَ القِبْطِ الَّذِينَ كانُوا علَى دِينِ فِرْعَوْنَ، ودَلِيلُ السُّورَةِ في هَذا كُلِّهِ أَنَّه قَبْلَ نُبُوَّةِ مُوسَى، وقَالَ قَتَادَةُ: وَكَزَهُ بالعَصَا، ولَمْ يَتَعَمَّدْ قَتْلَه؛ فعَلَى هَذَا لا مَعْصِيَةَ في ذلكَ.

وقَوْلُه: ﴿هَذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، وقَوْلُه: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ذلكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّه لا يَنبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَقْتُلَ حَتَّى يُؤْمَرَ، وقَالَ النَّقَّاشُ: لَمْ يَقْتُلْهُ عَنْ عَمْدٍ مُرِيدًا لِلْقَتْلِ، وإنَّمَا وَكَزَهُ وَكْزَةً يُرِيدُ بِهَا دَفْعَ ظُلْمِهِ، قَالَ: وقَدْ قِيلَ: إنَّ هَذا كانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ،

وَهُوَ مُقْتَضَى التِّلَاوَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّتِهِ: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، أَيِ ابْتَلَيْنَاكَ ابْتِلَاءً بَعْدَ ابْتِلَاءٍ، قِيلَ: فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: إِلْقَاؤُهُ فِي التَّابُوتِ وَالْيَمِّ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَخْلَصْنَاكَ إِخْلَاصًا، قَالَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: فَتَنْتُ الْفِضَّةَ فِي النَّارِ إِذَا خَلَّصْتُهَا، وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ مَعْنًى: الِاخْتِبَارُ وَإِظْهَارُ مَا بَطَنَ؛ إِلَّا أَنَّهُ اسْتُعْمِلَ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ فِي اخْتِبَارٍ يُؤَدِّي إِلَى مَا يُكْرَهُ.

وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ جَاءَهُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَفَقَأَهَا... الْحَدِيثَ[1]، لَيْسَ فِيهِ مَا يَحْكُمُ عَلَى مُوسَى بِالتَّعَدِّي وَفِعْلِ مَا لَا يَجِبُ لَهُ؛ إِذْ هُوَ ظَاهِرُ الْأَمْرِ، بَيِّنُ الْوَجْهِ، جَائِزُ الْفِعْلِ لِأَنَّ مُوسَى دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ أَتَاهُ لِإِتْلَافِهَا، وَقَدْ تَصَوَّرَ لَهُ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنَّهُ عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَدَافَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ مُدَافَعَةً أَدَّتْ إِلَى ذَهَابِ عَيْنِ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي تَصَوَّرَ لَهُ الْمَلَكُ فِيهَا امْتِحَانًا مِنَ اللهِ لَهُ، فَلَمَّا جَاءَهُ بَعْدُ، وَأَعْلَمَهُ اللهُ أَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَيْهِ اسْتَسْلَمَ.

وَلِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ أَجْوِبَةٌ، هَذَا أَسَدُّهَا عِنْدِي، وَهُوَ تَأْوِيلُ شَيْخِنَا الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْمَازَرِيِّ، وَقَدْ تَأَوَّلَهُ قَدِيمًا ابْنُ عَائِشَةَ وَغَيْرُهُ عَلَى صَكِّهِ وَلَطْمِهِ بِالْحُجَّةِ، وَفَقْءِ عَيْنِ حُجَّتِهِ، وَهُوَ كَلَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي هَذَا الْبَابِ فِي اللُّغَةِ مَعْرُوفٌ.

(١) حديث (أنَّ مَلَكَ الموتِ جاءَ موسى فلَطَمَهُ ...): الشيخان [البخاريُّ (١٣٣٩)، ومسلمٌ (٢٣٧٢)] عن أبي هريرة.

وقوله (وهُوَ مُقْتَضَى التِّلاوةِ): لِقَولِه تعالى ﴿فخَرَجَ مِنها خائفًا يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالِمينَ﴾ [القصص: ٢١].

قوله (وقِيلَ: مَعْناه أَخْلَصْناكَ إخلاصًا): لِأَنَّ ابتلاءَه إنَّما هُوَ لِلتهذيبِ لا لِلتعذيبِ.

قوله (فَتَنْتُ الفِضَّةَ في النارِ: إذا خَلَّصْتُها): أي إذا أَذَبْتُها وصَفَّيْتُها مِنْ غيرِها مِمَّا اختلَطَ بها. قوله (الاختبارُ): أي الامتحانُ. قوله (إلى مَا يُكْرَهُ): -بصيغةِ المجهُولِ- أي إلى أَمْرٍ مَكروهٍ في الطبعِ.

قوله (جاءَه فلَطَمَ عَيْنَه): أي جاءَ موسى مَلَكُ الموتِ مُصَوَّرًا بصورةِ إنسَانٍ. قوله (ما لا يَجِبُ له): لَعَلَّ المناسِبَ مَا لا يَجُوزُ. قوله (ولا يُمكِنُ أنّه عَلِمَ حينَئِذٍ... إلى آخِره): أي لا يُتصَوَّرُ في حَقِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا غيرِه مِن سَائرِ الأَنامِ أنّه... إلخ.

قوله (بَعْدُ) أي بَعْدَ ذَهابِه إلى الله ورجوعِه مِن عِنْدِ مَوْلاه. قوله (هذا أَسَدُّها عِنْدِي): -بسينٍ مُهمَلةٍ وتشديدِ الدالِ- أي أَقْوَاها وأقوَمُها، ومنْه قولُ الشاعرِ: «أُعلِّمُه الرِّمايةَ كُلَّ يَومٍ * فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُه رَمَانِي». وقيلَ في البيتِ: إنَّها بالمعجَمةِ.

قوله (المازَرِيِّ): -بفتحِ الزايِ وهوَ الأكثرُ وقَدْ يُكسَرُ، وهُوَ منسوبٌ لِـ«مَازَرَ» بَلدةٌ بجزيرةِ صَقَلِّيَّةَ، وقيلَ قبيلةٌ تُسَمَّى «مازَرَ»- أَفْتَى وهوَ ابنُ عشرينَ سَنَةً. قوله (وهُوَ كَلامٌ مستعمَلٌ في هذا البابِ في اللغةِ معروفٌ): فإنَّه يقالُ: صَكَّه: ضَرَبَه على الوَجهِ بباطِنِ الراحةِ، ولَطَمَه: غَلَبَه بالحُجَّةِ، وفَقَأَ عَيْنَه وعَوَّرَها: إذا أَفْحَمَه بحُجَّتِه وأَلْزَمَه إلزامًا لا يُمكِنُه الجوابُ عَنْه، والظاهرُ أَنَّ المَعْنى الأَوَّلَ حَقيقيٌّ، والآخَرَ مَجازيٌّ.

وأَمَّا قِصَّةُ سُلَيْمانَ، ومَا حَكَى فيهَا أَهْلُ التَّفسيرِ مِنْ ذَنْبِهِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]، فمَعْنَاهُ: ابْتَلَيْنَاهُ، وابْتِلَاؤه ما حُكِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ علَى مائةِ امْرأةٍ، أَوْ تِسْعٍ وتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِينَ بفَارِسٍ يُجاهِدُ في سَبيلِ الله، فقالَ له صَاحِبُه: قُلْ: «إنْ شَاءَ اللهُ»، فلَمْ يَقُلْ، فلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلا امْرأةٌ واحِدَةٌ جاءَتْ بشِقِّ رَجُلٍ، قالَ رسُول الله ﷺ: (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قالَ «إنْ شَاءَ اللهُ» لَجَاهَدُوا في سَبيلِ الله)[1].

قالَ أَصْحابُ المَعَاني: والشِّقُّ هُوَ الجَسَدُ الَّذي أُلْقِيَ على كُرسيِّهِ حِينَ عُرِضَ علَيْهِ، وهِيَ عُقُوبَتُه ومِحْنَتُهُ، وقِيلَ: بَلْ ماتَ، فأُلْقِيَ عَلى كُرْسيِّهِ مَيْتًا، وقِيلَ: ذَنْبُهُ حِرْصُهُ على ذلكَ وتَمَنِّيهِ،

وقِيلَ: لِأنَّه لَمْ يَسْتَثْنِ لِمَا اسْتَغْرَقَهُ مِنَ الحِرْصِ، وغَلَبَ عَلَيْهِ مِنَ التَّمَنِّي، وقِيلَ: عُقُوبَتُهُ أَنْ سُلِبَ مُلْكَهُ، وذَنْبُه أَنْ أَحَبَّ بِقَلْبِهِ أَنْ يَكُونَ الحَقُّ لِأَخْتانِه على خَصْمِهِمْ، وقِيلَ: وُوخِذَ بِذَنْبٍ قارَفَهُ بَعْضُ نِسَائِهِ.

ولا يَصِحُّ مَا نَقَلَهُ الأَخْبارِيُّونَ مِنْ تَشَبُّهِ الشَّيْطانِ بِهِ، وتَسَلُّطِهِ على مُلْكِهِ، وتَصَرُّفِهِ في أُمَّتِهِ بالجَوْرِ في حُكْمِهِ[2]؛ لِأَنَّ الشَّياطِينَ لا يُسَلَّطُونَ على مِثْلِ هَذا، وقَدْ عُصِمَ الأنبياءُ مِنْ مِثْلِه.

---

(١) حديث (لأطوفنَّ الليلة ...): تقدَّم أول الكتاب [انظر ص ١٣٢، متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٢٤٢) ومسلم (١٦٥٤)، وغيرهما].

(٢) حديث (قصَّة سليمان في تَشَبُّه الشيطانُ به، وتَسَلُّطه على مُلْكه وتَصَرُّفه في أمته): قال المصنِّف: هو من خرافات الأخباريين، أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح [١٨٣٥٥] عن ابن عبَّاسٍ موقوفًا، لكنه مما أخذه عنِ الإسرائيليات كما بينته في التفسير المسند.

قوله (فمَعْنَاه ابتَلَيْنَاه): أي امتحَنَّاه واختبَرْنَاه. قوله (لَأطوفَنَّ الليلةَ): -وفي روايةٍ «لَأُطِيفَنَّ» بضمِّ الهمزةِ- أي أدورَنَّ، والمُرادُ: أُوَاقِعَنَّ الليلةَ.

قوله (كُلُّهُنَّ يأتِينَ): أي كُلُّ واحدةٍ منهُنَّ تَأْتِي. قوله (بفارِسٍ): أي بمولودٍ يَكْبُرُ ويَصِيرُ راكبَ فَرَسٍ.

قوله (فلَمْ تحمِلْ): -بكسرِ الميمِ- أي فلَمْ تَحْبَلْ مِنهُنَّ... إلخ. قوله (جاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ): -بكَسْرِ الشينِ وتشديدِ القافِ- أي بِنِصْفِه، وفي صحيحِ مُسْلِمٍ: (فولَدَتْ له بِنِصْفِ إنسانٍ)[1].

قوله (لجَاهَدُوا): أي لجَاءَتْ كُلُّ واحِدَةٍ بوَلَدٍ وكَبُرَ وقاتَلَ فَوْقَ الفَرَسِ.

قوله (وقيلَ: بَلْ مَاتَ) الولدُ (فأُلْقِيَ... إلخ): وهوَ الظاهرُ مِن إطلاقِ الجَسَدِ والعُدُولِ عَنِ الوَلَدِ، وهذا يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ مِنْ أَصْلِه نَزَلَ مَيْتًا.

قوله (وقيلَ: عُقوبَتُه أنْ سُلِبَ مُلْكَه): أي حُكْمَه في رَعِيَّتِه، وهذا امتحانٌ مِن الله لِأربابِ الجاهِ.

قوله (لِأختانِه): -بفتحِ الهمزَةِ؛ جَمْعُ «الخَتَنِ»- أي أَصْهارِه أوْ كُلِّ مَنْ كانَ مِن قِبَلِ المرأةِ كالأَبِ والأَخِ.

قوله (وُوخِذَ): -مجهولُ [واخَذَ، كـ: وُورِيَ مجهولُ] وَارَى- أي عُوقِبَ.

قوله (وتَسَلُّطِه على مُلْكِه): أي سَريرِ دَوْلَتِه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٤) من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنْ سُئِلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ سُلَيْمَانُ في القِصَّةِ المَذْكُورَةِ «إنْ شاءَ اللهُ»؟ فعَنْهُ أَجْوِبَةٌ، أحدُهَا: مَا رُوِيَ في الحديثِ الصَّحيحِ[1] أَنَّه نَسِيَ أَنْ يَقُولَهَا، وذلكَ لِيَنْفُذَ مُرَادُ الله، والثاني: أَنَّه لَمْ يَسْمَعْ صَاحِبَهُ، وشُغِلَ عَنْهُ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، لَمْ يَفْعَلْ هَذَا سُلَيْمَانُ غَيْرَةً على الدُّنْيا، ولا نَفَاسَةً بِهَا؛ ولَكِنْ مَقصِدُهُ في ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ المُفَسِّرُونَ أَنْ لا يُسَلَّطَ عَلَيْهِ أَحَدٌ كَمَا سُلِّطَ عَلَيْه الشَّيْطَانُ الَّذي سَلَبَهُ إيَّاهُ مُدَّةَ امْتِحَانِه على قَوْلِ مَنْ قالَ ذَلِكَ. وقِيلَ: بَلْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَه مِنَ الله فَضِيلَةٌ وَخَاصَّةٌ يَخْتَصُّ بِهَا كَاخْتِصَاصِ غَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله ورُسُلِه بخَوَاصَّ مِنْهُ، وقِيلَ: لِيَكُونَ ذلكَ دَلِيلًا وحُجَّةً على نُبُوَّتِه، كَإِلَانَةِ الحَدِيدِ لِأَبِيهِ، وإحْيَاءِ المَوْتَى لِعِيسَى عليه السلام، واختِصَاصِ محمَّدٍ ﷺ بالشَّفَاعَةِ، ونَحْوِ هَذا.

وأَمَّا قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام فظَاهِرَةُ العُذْرِ، وأَنَّهُ أَخَذَ فيها بالتَّأْوِيلِ وظَاهِرِ اللَّفْظِ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]، فَطَلَبَ مُقْتَضَى هَذا اللَّفْظِ، وأَرَادَ عِلْمَ مَا طُوِيَ عَنْهُ مِنْ ذلكَ، لا أَنَّهُ شَكَّ في وَعْدِ الله، فبَيَّنَ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ الَّذِينَ وَعَدَهُ بنَجَاتِهِمْ لِكُفْرِه وعَمَلِهِ الذي هُوَ غَيْرُ صَالِحٍ، وَقَدْ أَعْلَمَهُ اللهُ أَنَّه مُغْرِقُ الذينَ ظَلَمُوا، وَنَهَاهُ عَنْ مُخَاطَبَتِهِ فِيهِمْ، فأُوخِذَ بهَذَا التَّأْوِيلِ، وعُوتِبَ عَلَيْهِ، وأَشْفَقَ هُوَ مِنْ إِقْدَامِهِ على رَبِّه لِسُؤَالِه ما لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ في السُّؤَالِ فيهِ، وكَانَ نُوحٌ فِيمَا حَكَاهُ النَّقَّاشُ لا يَعْلَمُ بكُفْرِ ابْنِه، وقِيلَ في الآيَةِ غَيْرُ هَذا، وكُلُّ هَذا لا يَقْضِي على نُوحٍ بمَعْصِيَةٍ سِوَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَأْوِيلِهِ وإِقْدَامِهِ بالسُّؤَالِ فِيمَا لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فيه، ولا نُهِيَ عَنْهُ.

(١) [حديث مسلم المذكور آنفا].

قوله (وذلكَ لِيَنْفُذَ مُرَادُ الله): على وَفقِ مَا قَدَّرَه وقَضَاه، فهذا كقَوْلِه: ﴿ولا تَقولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فاعلٌ ذلك غَدًا إِلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الكهف: ٢٣].

قوله (لَمْ يَفْعَلْ هذا سليمانُ): أي لَمْ يَصْدُرْ عَنْه هذا القولُ. وقوله (غَيْرَةً): -بفتحِ الغَينِ وتُكسَرُ- أي حِرْصًا. اه مُلَّا. قوله (ولا نَفاسَةً بِهَا): أي لا رَغْبَةً فيها، وهوَ بفتحِ النونِ.

قوله (وخَاصَّةٌ): -بتشديدِ المُهمَلةِ- أي مَزِيَّةٌ (كاختصَاصِ غيْرِه... إلخ): كالتَّكليمِ لِسَيِّدِنا موسى، والخُلَّةِ لِسَيِّدِنا إبراهيمَ صَلَواتُ الله عَلَيْهِمَا.

وقوله (لِيَكُونَ ذلك): أي بَقاءُ المُلْكِ.

قوله (بالشفاعةِ): أي العُظْمَى وهيَ المَقامُ المحمُودُ.

قوله (وأَمَّا قِصَّةُ نوحٍ): اسمُه عبْدُ الغفّارِ على مَا قِيلَ، وسُمِّيَ نُوحًا لِكَثْرَةِ بُكائِه وتَضَرُّعِه في دُعائِه إلى الكَبيرِ المُتَعالِ، وهُوَ مُنصَرِفٌ ويَجوزُ مَنْعُه.

قوله (وأَرَادَ عِلْمَ مَا طُوِيَ): -بِبِناءِ الفِعلِ لِلمجهولِ- أي خَفِيَ.

قوله (فأُوخِذَ): مِنَ المؤاخَذةِ، بالواوِ والهَمزةِ، قراءتانِ ولُغَتانِ، وهُوَ بالبِناءِ لِلمجهُولِ.

قوله (لا يَعْلَمُ بكُفْرِ ابنِه): لِمُتابَعَتِه لِأُمِّه في الكُفْرِ.

ومَا رُوِيَ في الصَّحيحِ مِنْ أَنَّ نَبِيًّا قَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فحَرَّقَ قَرْيَةَ النَّمْلِ، فأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ!(١)، فلَيْسَ في هَذا الحَديثِ ما يَقْتَضِي أَنَّ هَذا النَّبِيَّ أَتَى مَعْصِيَةً، بَلْ فَعَلَ ما رآهُ مَصْلَحَةً وصَوابًا بِقَتْلِ مَنْ يُؤْذِي جِنْسَهُ، ويَمْنَعُ المَنْفَعَةَ بِمَا أَبَاحَ اللهُ. أَلا تَرَى أَنَّ هَذا النَّبِيَّ كانَ نَازِلًا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فلَمَّا آذَتْهُ النَّملةُ تَحَوَّلَ بِرِجْلِهِ عَنْها مَخافَةَ تَكْرارِ الأَذَى عَلَيْهِ؟!

ولَيْسَ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ مَا يُوجِبُ عَلَيْهِ مَعْصِيَةً؛ بَلْ نَدَبَهُ إلى احْتِمالِ الصَّبْرِ، وتَرْكِ التَّشَفِّي، كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ إِذْ ظَاهِرُ فِعْلِهِ إِنَّمَا كانَ لِأَجْلِ أَنَّها آذَتْهُ هُوَ في خَاصَّتِهِ، فكَانَ انتِقامًا لِنَفْسِهِ، وقَطْعَ مَضَرَّةٍ يَتَوَقَّعُهَا مِنْ بَقِيَّةِ النَّمْلِ هُنَاكَ، ولَمْ يَأْتِ في كُلِّ هَذا أَمْرًا نُهِيَ عَنْهُ؛ فيُعَصَّى بِه، ولا نَصَّ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بذلكَ، ولا بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ مِنْهُ، واللهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: (مَا مِنْ أَحَدٍ أَلَمَّ بِذَنْبٍ، أَوْ كَادَ إِلَّا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا)(٢)، أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ؟ فَالجَوابُ عَنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذُنُوبِ الأَنْبِيَاءِ الَّتِي وَقَعَتْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وعَنْ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ.

***

(١) حديث (أَنَّ نبيًّا قرصته نملة ...): الشيخان [البخاريُّ (٣٠١٩)، ومسلمٌ (٢٢٤١)] عن أبي هريرة.

(٢) حديث (ما مِن أحدٍ إلَّا ألَمَّ بذنب أو كادَ إلَّا يحيى بن زكريَّا...): أحمد [٢٢٩٤] عن ابن عبَّاس مرفوعًا بلفظ (إلَّا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة) وسنده ضعيفٌ، وأخرجه البزَّار [٢٣٥١] عن ابن عمر مرفوعًا.

قولـه (قَرْيَةَ النَّمْلِ): أي جُحْرَهـا، و(حَرَّقَ) بتشديدِ الراءِ. قولـه (تُسَبِّحُ): يَدُلُّ لِهذا قولُـه تعالى: ﴿وإِنْ مِن شيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِه﴾ [الإسراء: ٤٤].

قولـه (كَما قالَ اللهُ تعالى: ولَئِنْ صَبَرْتُم... إلخ): بَحَثَ في هذا المُلَّا عَلِيٌّ بأنَّ الصبرَ على أَذَى الحَيَوانِ لَيْسَ كالصَّبرِ على مَضَرَّةِ أفرادِ الإنسانِ اه.

قولـه (وقَطْعَ مَضَرَّةٍ يَتَوَقَّعُهَا): أي يُمكِنُ حُصُولُها في المستقْبَلِ. قولـه (مِنْ بَقِيَّةِ النمْلِ هُناك): بَيَانٌ لِوَجْهِ إحراقِ جَميعِ النملِ غَيرِ المُؤْذِيَةِ لـه. قولـه (فيُعَصَّى): -بضمِّ الياءِ وفتحِ الصادِ المشدَّدَةِ- أي حَتَّى يُنسَبَ إلى المَعْصِيَةِ.

قولـه (فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْه بذلك): أي بأنَّه أَتَى بمعصيَةٍ. قولـه (والاستغفارِ مِنْه): أي طَلَبِ مَغفرةٍ لِذَنبٍ أَتَاه.

قولـه (أَلَمَّ بذنْبٍ): أي وَقَعَ مِنْه ذلك قليلًا. وقولـه (أَوْ كادَ): أي قارَبَ أنْ يُلِمَّ بـه، فهوَ بمَعْنى «هَمَّ» في الروايةِ الأخرى، وحَاصلُ مَا هنا أنَّ هذا الحديثَ يُخالِفُ ما مَرَّ مِن عِصمَةِ الأنبياءِ، وهْوَ غَيرُ ما استَدَلَّ بِه المخالِفُونَ، وأَجَابَ النوويُّ عَنْ هذا بأنَّ هذا الحديثَ ضَعيفٌ لا يَجُوزُ الاحتجاجُ بـه، رَواه أبو يَعْلَى المَوصليُّ في مُسْنَدِه، وفي إسنادِه عَلِيُّ بنُ زَيدِ بنِ جدعانَ(١).

***

(١) وهو ضعيفٌ. انظر: «التقريب» لابن حجرٍ (ت-٤٧٣٤).

فَصْلٌ [في دَفْعِ شُبَهٍ متعلقة بِنَفي المعاصي عنِ الأنبياءِ]

فإنْ قُلْتَ: فإذا نَفَيْتَ عَنْهُمْ -صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِم- الذُّنُوبَ والمَعَاصِيَ بِمَا ذَكَرْتَه مِن اختلافِ المُفَسِّرينَ وتأويلِ المُحَقِّقِينَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِه تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وَمَا تَكَرَّرَ في القرآنِ والحديثِ الصَّحيحِ مِنِ اعتِرَافِ الأنبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ، وتَوْبَتِهِمْ واسْتِغْفَارِهم، وبُكَائِهِمْ على ما سَلَفَ مِنْهُمْ وإشفاقِهِمْ، وهَلْ يُشْفَقُ ويُتَابُ ويُسْتَغْفَرُ مِنْ لا شَيْءٍ؟!!

فَاعْلَمْ -وَفَّقَنا اللهُ وإيَّاكَ- أنَّ دَرَجَةَ الأنبِيَاءِ في الرِّفْعَةِ والعُلُوِّ، والمَعْرِفَةِ باللهِ تعالى، وسُنَّتِهِ في عِبَادِهِ، وعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وقُوَّةِ بَطْشِهِ مِمَّا يَحْمِلُهُمْ على الخَوْفِ مِنْهُ جَلَّ جَلالُهُ، والإشْفَاقِ مِنَ المُؤاخَذَةِ بِمَا لا يُؤاخَذُ بِهِ غَيْرُهُمْ، وأنَّهُمْ في تَصَرُّفِهِمْ بأُمُورٍ لَمْ يُنْهَوْا عَنْهَا ولا أُمِرُوا بِهَا، ثُمَّ أُخِذُوا عَلَيْهَا وعُوتِبُوا بِسَبَبِهَا، أَوْ حَذِرُوا مِنَ المُؤاخَذَةِ بِهَا، وأَتَوْهَا على وَجْهِ التَّأْوِيلِ أَوِ السَّهْوِ أَوْ تَزَيُّدٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا المُبَاحَةِ، خائِفُونَ وَجِلُونَ.

قوله (**والمَعَاصِي**): عَطْفُ تفسيرٍ أوْ مِن عَطْفِ السَّبَبِ على مُسَبَّبِه لِأَنَّ الذنبَ الإثْمُ المترتِّبُ على المَعصِيَةِ بمخالَفَةِ أمْرِ الله.

قوله (**مِنِ اعترافِ الأنبياءِ بِذُنوبِهم**): في الدُّنْيا أو يَوْمَ القيامةِ، أيْ كَمَا تَقَدَّمَ مِن نَحْوِ قَوْلِهم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنا أنفُسَنا﴾ [الأعراف: ٢٣]. قوله (**وبُكائِهم على مَا سَلَفَ مِنهم**): كداودَ عليه السلام؛ فإنَّه بَكَى حَتَّى بَلَّتْ دُموعُه الأرضَ[1]. وقوله (**وإشفاقِهم**): أي خَوْفِهم مِنَ الله.

قوله (**وهَلْ يُشْفَقُ ويُتابُ**): بصيغةِ المجهولِ. قوله (**مِنْ لا شَيْءٍ**): أي مِن غيرِ شَيْءٍ صَدَرَ يُخْشَى مِنْه حَتَّى يفعَلَ ما ذُكِرَ، وفي نسخةٍ «مَنْ لا يُسِيءُ»[2] أي لا يُذنِبُ.

قوله (**وسُنَّتِه**): -مجرورٌ عَطْفًا على مَا قَبْلَه- أي معرِفَتِهم باللهِ في معامَلَةِ عبادِه في سَخَطِه ورِضَاه. قوله (**جَلَّ جَلالُه**): هذا في مَوْقِعِه مُناسِبٌ غايةَ المناسَبةِ، أي عَظُمَتْ عَظَمَتُه مبالَغةً في وَصْفِه بالعَظَمةِ في ذاتِه وصِفاتِه، و«الجليلُ» مِن أسمائِه -تعالى- أَبْلَغُ مِنَ الكبيرِ والعظيمِ؛ لِأَنَّه كمالُ الذاتِ والصفاتِ، وإسنادُه مَجازيٌّ، كجَدَّ جِدُّه، وفيه مُبالَغةٌ قُرِّرَتْ في المَعاني.

قوله (**ثُمَّ أُخِذُوا**): -وفي نسخةٍ «وُوخِذُوا»- أي عُوقِبُوا.

قوله (**أو حَذِرُوا**): -بفتحِ الحاءِ والذالِ المعجمةِ- أي احْتَرَسُوا، وفي نسخةٍ «حُذِّرُوا» -بصيغةِ المَجهولِ مَعَ تشديدِ الذالِ المكسورةِ- أي خُوِّفُوا.

قوله (**أَوِ السَّهْوِ**): أي الخَطَإِ والغَفْلةِ. قوله (**أَوْ تَزَيُّدٍ**): -بفتحِ التاءِ والزاي وتشديدِ الياءِ- أي عَلَى وَجْهِ طَلَبِ زِيادةٍ.

قوله (**وَجِلُونَ**): أي حَذِرُونَ مضطرِبونَ، وهوَ خبرُ «أَنَّ» في قولِه (أنَّهم في تَصَرُّفِهم)، وما بينَهما اعتراضٌ.

---

(١) أخرجه مطوَّلاً ابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٧٤)، وفي «التاريخ» (١/ ٤٨٣)، والحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» (المسندة رقم ٨٣٥)، وغيرهما من حديث أنسٍ رضي الله عنه مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ، وفيه: «فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً سَاجِدًا حَتَّى نَبَتَ الزَّرْعُ مِنْ دُمُوعِهِ عَلَى رَأْسِهِ...». وجاء بألفاظ أخرى موقوفًا ومقطوعًا، والله أعلم.

(٢) لتستقيم العبارة على هذه الرواية قال القاري: على أن الأفعال الثلاثة فيما قبله مبنية للفاعل.

قوله (الرَّذْلِ): -بفتحِ الراءِ وسكونِ الذالِ المعجَمةِ- أي المَذمومِ الرَّدِيِّ. قوله (ومِنْه ذَنَبُ... إلخ): «الذَّنَبُ» بفتحتينِ معروفٌ. قوله (رُذَالُهم): -بضمِّ الراءِ وفتحِ ثانيه، علَى وَزْنِ «فُعَالٍ»؛ جمعُ «رَذْلٍ»، وفي نسخةٍ «أَرْذَالُهم»، جمعُ «أَرْذَلَ»- أي خِسَاسُهم.

قوله (فكَأَنَّ): بتشديدِ النونِ لِلتشبيه، وفي نسخةٍ «فكانَتْ». قوله (والعَلَانِيَةِ): بتخفيفِ الياءِ، مصْدَرٌ كصَلاحيَةٍ، وهوَ مقابِلُ السِّرِّ؛ بمَعْنَى الخَفِيِّ مِنَ الإعْلامِ.

قوله (وغَيْرُهم): -بالرفعِ- أي غيرُ الأنبياءِ. وقوله (يَتَلَوَّثُ): أي يَتلطَّخُ. قوله (هذه المَسَاءَةُ): وفي نسخةٍ «الهَنَاتُ» -بفتحِ الهاءِ والنونِ- أي العَثَراتُ، وفي أخرى «الهَيْئَاتُ» -بفتحِ الهاءِ وسكونِ الياءِ والهَمزَةُ ممدودةٌ- أي الحالاتُ. قوله (والمخالَفَةُ): أي في الطاعةِ إلا أنَّه إنْ كانَ عَنْ عَمْدٍ فذَنْبٌ ومَعْصيَةٌ، وإلّا فزَلَّةٌ وعَثْرةٌ. قوله (وتَرْكٌ): أي تَرْكُ طَاعَةٍ إما حقيقةً أو صورةً.

قوله (الَّتِي نُهِيَ عَنْها): أي بِعَينِها أو غيرِها مِنْ جِنْسِها، فأَكَلَ مِنْها غَيْرَ عالِمٍ أنَّها هِيَ بخصوصِها، وهذا مَعْنَى قولِه (فنَسِيَ).

قوله (إذْ أكَلَها): (إذْ) تعليليّةٌ. قوله (أُمْنِيَّتُه): -بضمِّ الهَمزةِ وكسرِ النونِ وتشديدِ التحتيّةِ- وهْيَ مَا يُتَمَنَّى، والجمعُ «أَمَانِيُّ» مُشَدَّدًا ويُخَفَّفُ.

قوله (أُوخِذَ): -وفي نسخةٍ «وُوخِذَ»؛ بواوَيْنِ- أي عُوتِبَ. قوله (اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ): أي سَيِّدِكَ لِيُخَلِّصَنِي مِن هذا السِّجْنِ. قوله (بِضْعَ سِنِينَ): قِيلَ: لَبِثَ فيه سَبْعَ سِنِينَ وهوَ الأكثرُ، وقيلَ: تِسْعًا أي بَعْدَ قولِه (اذكُرْنِي)، وقبلُ ثلاثَ سِنِينَ، فالمجموعُ اثنا عشَرَ؛ عَدَدُ حروفِ (اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ).

قوله (أُنْسِيَ يوسُفُ): -بصيغةِ المجهولِ- أي أَنْسَاه الشيْطَانُ.

وهِيَ ذُنُوبٌ بالإضافةِ إلى عَلِيِّ مَنْصِبِهِمْ، ومَعَاصٍ بالنِّسْبَةِ إلى كَمَالِ طاعَتِهِمْ، لا أَنَّهَا كَذُنُوبِ غَيْرِهِمْ ومَعَاصِيهِمْ، فإِنَّ الذَّنْبَ مَأْخُوذٌ مِنَ الشَّيْءِ الدَّنِيِّ الرَّذْلِ، ومِنْهُ ذَنَبُ كُلِّ شَيْءٍ، أَيْ آخِرُهُ، وأَذْنَابُ النَّاسِ رُذَالُهُمْ.

فكَأَنَّ هَذِه أَدْنَى أفعالِهِمْ، وأَسْوَأُ مَا يَجْرِي مِنْ أَحْوالِهِم؛ لِتَطْهِيرِهِم وتَنْزِيهِهِمْ، وعِمَارَةِ بَوَاطِنِهِمْ وظَوَاهِرِهِمْ بالعَمَلِ الصَّالِحِ، والكَلِمِ الطَّيِّبِ، والذِّكْرِ الظَّاهِرِ والخَفِيِّ، والخَشْيَةِ لله، وإِعْظَامِهِ في السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ.

وغَيْرُهُمْ يَتَلَوَّثُ مِنَ الكَبَائِرِ والقَبَائِحِ والفَوَاحِشِ بِمَا تَكُونُ بالإِضَافَةِ إِلَيْهَا هَذِه المَسَاءَةُ في حَقِّهِ كالحَسَنَاتِ، كَمَا قِيلَ: حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ المُقَرَّبِينَ، أَيْ يَرَوْنَهَا بالإِضَافَةِ إلى عَلِيِّ أَحْوَالِهِمْ كالسَّيِّئَاتِ، وَكَذَلِكَ العِصْيَانُ: التَّرْكُ والمُخالَفَةُ؛ فعَلَى مُقْتَضَى اللَّفْظَةِ كَيْفَمَا كانَتْ مِنْ سَهْوٍ أَوْ تَأْوِيلٍ فهِيَ مخالَفَةٌ وتَرْكٌ.

وقَوْلُهُ: (غَوَى) أَيْ جَهِلَ أَنَّ تِلْكَ الشَّجَرَةَ هِيَ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا، والغَيُّ الجَهْلُ، وقِيلَ: أَخْطَأَ مَا طَلَبَ مِنَ الخُلُودِ إِذْ أَكَلَهَا، وخَابَتْ أُمْنِيَّتُهُ.

وهَذا يُوسُفُ عليه السلام قَدْ أُوخِذَ بِقَوْلِهِ لِأَحَدِ صَاحِبَيِ السِّجْنِ: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، قِيلَ: أُنْسِيَ يُوسُفُ ذِكْرَ الله، وقِيلَ: أُنْسِيَ صَاحِبُه أَنْ يَذْكُرَهُ لِسَيِّدِهِ المَلِكِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَوْلَا كَلِمَةُ يُوسُفَ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ)(1)، قَالَ ابْنُ دِينَارٍ: لَمَّا قَالَ ذَلِكَ يُوسُفُ قِيلَ لَهُ: أَتَّخَذْتَ مِنْ دُونِي وَكِيلًا؟! لَأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَنْسَى قَلْبِي كَثْرَةُ الْبَلْوَى(2).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: آخَذَ الأَنْبِيَاءَ بِمَثَاقِيلِ الذَّرِّ لِمَكَانَتِهِمْ عِنْدَهُ، وَتَجَاوَزَ عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ لِقِلَّةِ مُبَالَاتِهِ بِهِمْ فِي أَضْعَافِ مَا أَتَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ.

وَقَدْ قَالَ الْمُحْتَجُّ لِلْفِرْقَةِ الأُولَى عَلَى سِيَاقِ مَا قُلْنَاهُ: إِذَا كَانَ الأَنْبِيَاءُ يُؤَاخَذُونَ بِهَذَا مِمَّا لَا يُؤَاخَذُ بِهِ غَيْرُهُمْ مِنَ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا ذَكَرْتَهُ وَحَالُهُمْ أَرْفَعُ، فَحَالُهُمْ إِذًا فِي هَذَا أَسْوَأُ حَالًا مِنْ غَيْرِهِمْ!!

فَاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّا لَا نُثْبِتُ لَكَ الْمُؤَاخَذَةَ فِي هَذَا عَلَى حَدِّ مُؤَاخَذَةِ غَيْرِهِمْ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُمْ يُؤَاخَذُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي دَرَجَاتِهِمْ، وَيُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ؛ لِيَكُونَ اسْتِشْعَارُهُمْ لَهُ سَبَبًا لِمَنْمَاةِ رُتَبِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

وَقَالَ لِدَاوُدَ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥]، وَقَالَ بَعْدَ قَوْلِ مُوسَى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

---

(١) حديث (لولا كلمة يوسف ما لبث في السجن ما لبث): ابن جرير [١٣/ ١٧٣]، والطبرانيُّ [١١/ ٢٤٩] من حديث ابن عبَّاسٍ، وابن مردويه من حديث أبي هريرة، وأبو الشيخ من مرسل الحسن وعكرمة [كما في «الدر المنثور» ٤/ ٥٤١].

(٢) حديث (لما قال ذلك يوسف قيل له ...): ابن أبي حاتمٍ [١١٦٣٨] موصولًا عن أنسٍ موقوفًا.

قوله (مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ): أي مُدَّةَ لَبْثِه.

قوله (قِيلَ لَه): أي بالوحْيِ الخَفِيِّ وهْوَ الإلهامُ أو الوحْيِ الظاهِرِ.

قوله (أَتَّخَذْتَ... إلخ): استفهامٌ إنكاريٌّ مُقَدَّرًا أو مُقَرَّرًا. قوله (لَأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ): أي عَنْ غَيْرِي لِتَطْمَئِنَّ إلى أمرِي، وتُسَلِّمَ لِقَضائِي.

قوله (آخَذَ الأنبياءَ): بالمدِّ وفتحِ الخاءِ، وفي نسخةٍ «يؤاخِذُ» بصيغةِ المفعولِ. وقوله (بِمَثاقِيلِ الذَّرِّ): أي مِن مُحَقَّراتِ الأَمْرِ. قوله (وتَجَاوَزَ): وفي نسخةٍ «وتَجَاوُزُه»، وفي أخرى «ويَتَجاوَزُ». قوله (لِقِلَّةِ مُبَالاتِه بِهِم): أي مَا فَعَلُوه.

قوله (لِلفِرْقَةِ الأُولَى): أي القائلةِ بإثْبَاتِ المَعْصِيَةِ للأنبياءِ بَعْدَ البَعْثةِ. قوله (وحَالُهم أَرْفَعُ): أي والحالُ أنَّهم أَرْفَعُ دَرجةً في الواقعِ.

قوله (أَنَّا لا نُثْبِتُ لَكَ): بالتشديدِ والتخفيفِ.

قوله (عَلَى حَدِّ مُؤاخَذَةِ غَيْرِهم): مِنْ حُصولِ الحِجابِ الدُّنيوِيِّ والأُخْرَوِيِّ وحُلولِ العِقَابِ.

قوله (ويُبْتَلَوْنَ): -بضمِّ الياءِ وفتحِ اللامِ على بِناءِ الفِعلِ للمجهولِ- أي ويُمْتَحَنُونَ.

قوله (لِمَنْمَاةِ رُتَبِهم): -بفتحِ الميمِ الأُولَى- أي لِزِيادَةِ مَرَاتِبِهم.

قوله (كَمَا قَالَ: ثُمَّ اجْتَبَاهُ... إلخ): وقالَ في حَقِّ يونُسَ: ﴿فاجْتَبَاه رَبُّه فجَعَلَه مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠].

وقالَ بَعْدَ ذِكْرِ فِتْنَةِ سُلَيْمانَ وإنابَتِهِ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٦-٤٠].

قالَ بَعْضُ المُتكلِّمينَ: زَلَّاتُ الأنبياءِ في الظَّاهرِ زَلَّاتٌ، وفي الحَقيقةِ كَرامَاتٌ وزُلَفٌ، وأشارَ إِلَى نَحْوِ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ.

وأَيْضًا فَلْيُنَبَّهْ غَيْرُهُمْ مِنَ البَشَرِ مِنْهُمْ أَوْ مِمَّنْ لَيْسَ في دَرَجاتِهِمْ بِمُؤاخَذَتِهِمْ بذلكَ، فَيَسْتَشْعِرُوا الحَذَرَ، ويَعْتَقِدُوا المُحاسَبَةَ؛ لِيَلْتَزِمُوا الشُّكْرَ على النِّعَمِ، ويُعِدُّوا الصَّبْرَ على المِحَنِ بمُلاحَظَةِ ما وَقَعَ بأَهْلِ هَذا النِّصابِ الرَّفيعِ المَعْصُومِ، فَكَيْفَ بِمَنْ سِواهُمْ؟

ولِهَذا قالَ صالحٌ المُرِّيُّ: ذِكْرُ داوُدَ بَسْطَةٌ لِلتَّوَّابينَ، وقالَ ابنُ عَطاءٍ: لَمْ يَكُنْ ما نَصَّ اللهُ مِنْ قِصَّةِ صاحِبِ الحُوتِ نَقْصًا لهُ، ولَكِنِ اسْتِزادَةً مِنْ نَبِيِّنا ﷺ.

وأَيْضًا فيُقالُ لَهُم: فإنَّكُمْ ومَنْ وافَقَكُمْ تَقُولُونَ بِغُفْرانِ الصَّغائِرِ باجْتِنابِ الكَبائرِ، ولا خِلافَ في عِصْمَةِ الأَنْبِياءِ مِنَ الكَبائِرِ، فَمَا جَوَّزْتُمْ مِنْ وُقُوعِ الصَّغائِرِ عَلَيْهِمْ هِيَ مَغفورَةٌ على هَذا؛ فَمَا مَعْنَى المُؤاخَذَةِ بِها إِذًا عِنْدَكُمْ، وخَوْفِ الأَنْبِياءِ وتَوْبَتِهِمْ مِنْها وهِيَ مَغْفُورَةٌ لَوْ كانَتْ؟!

فَمَا أَجابُوا به فهُوَ جَوابُنا عَنِ المُؤاخَذَةِ بأَفْعالِ السَّهْوِ أَوِ الخَطَأِ، وقَدْ قِيلَ: إنَّ كَثْرَةَ اسْتِغْفارِ النَّبيِّ ﷺ وتَوْبَتِهِ وغَيْرِه مِنَ الأَنْبِياءِ عليهم السلام عَلَى وَجْهِ مُلازَمَةِ الخُضُوعِ والعُبُوديَّةِ والاعْتِرافِ بالتَّقْصِيرِ شُكْرًا للهِ على نِعَمِهِ،

قوله (قالَ بَعْضُ المُتكلِّمينَ): أي مِنْ أربابِ الإشاراتِ. قوله (زَلَّاتٌ): أي عَثَراتٌ تَستوجِبُ بحَسَبِ ظاهِرِها المَلامَاتِ. قوله (وزُلَفٌ): -بضمِّ الزاي وفتحِ اللّامِ- أي وقُرُباتٌ.

قوله (فلْيُنَبَّهْ): بصيغةِ المجهولِ مِنَ التنبيهِ. قوله (غيرُهم مِنَ البَشَرِ): كالأولياءِ والعُلَماءِ.

قوله (أوْ مِمَّن لَيْسَ في دَرَجاتِهِم مِنْ أهلِ النبوّةِ لِتفاوُتِ مَرْتَبتِهِم).

قوله (ويُعِدُّوا): -بضمِّ الياءِ، وكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وتشديدِ الدّالِ- أي ويُهَيِّئُوا.

قوله (النِّصابِ): أي القَدْرِ الكاملِ مِنَ النَّصَبِ.

قوله (المُرِّيُّ): -بضمِّ الميمِ وتشديدِ الراءِ- نِسبةٌ إلى قبيلةِ بَني مُرَّةَ.

قوله (ذِكْرُ داوُدَ بَسطةٌ): أي ذِكْرُ اللهِ قِصَّةَ داوُدَ تَسليةٌ ونشاطٌ وسَبَبُ انبساطٍ لِلمذنِبينَ لِيَتهَيَّؤُا لِلتوبةِ.

قوله (فيقالُ لهم): أي لِلقائلينَ بجَوازِ صُدورِ المَعصيَةِ مِن أربابِ النُّبُوّةِ بَعْدَ البَعثةِ بطريقِ الإلزامِ في القضيّةِ.

قوله (تَقولونَ بِغُفرانِ): أي أتَقولونَ... إلخ. وقوله (باجتنابِ الكبائرِ): أي بمُجَرَّدِ اجتنابِها، فيَلْزَمُ مِنه غفرانُ الكبائرِ.

قوله (فمَا مَعْنَى المؤاخذةِ بها إذًا): أي حينَئِذٍ مَعَ قولِكم إنَّهم منزَّهونَ عَنِ الكبائرِ. وقوله (وخَوْفِ الأنبياءِ): أي ومَا مَعْنَى خوفِ الأنبياءِ مِنَ الصغائرِ؟!

قوله (والاعترافِ بالتقصيرِ): أي في القِيامِ بحَقِّ العبوديةِ وجَمالِ الألوهيةِ.

كَمَا قَالَ ﷺ، وقَدْ أُمِّنَ مِنَ المُؤاخَذةِ بِمَا تَقَدَّمَ وَمَا تأخَّرَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)(١)، وَقَالَ: (إِنِّي أَخْشَاكُمْ للهِ، وأَعْلَمُكُمْ بِمَا أَتَّقِي)(٢).

قَالَ الحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ: خَوْفُ المَلَائِكَةِ والأَنْبِيَاءِ خَوْفُ إِعْظَامٍ وتَعَبُّدٍ للهِ لِأَنَّهُمْ آمِنُونَ.

وقِيلَ: فَعَلُوا ذلكَ؛ لِيُقْتَدَى بِهِمْ، ويَسْتَنَّ بِهِمْ أُمَمُهُمْ كَمَا قَالَ: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، ولَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)(٣).

وأَيْضًا فَإِنَّ فِي التَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ مَعْنًى آخَرَ لَطِيفًا أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ العُلَمَاءِ، وهُوَ اسْتِدْعاءُ مَحَبَّةِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فإحْدَاثُ الرُّسُلِ والأَنْبِيَاءِ التَّوْبَةَ والاسْتِغْفَارَ والإِنَابَةَ والأَوْبَةَ فِي كُلِّ حِينٍ اسْتِدْعَاءٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ تعالى، والاسْتِغْفارُ فيهِ مَعْنَى التَّوْبَةِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ لِنَبِيِّهِ بَعْدَ أَنْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ والمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ١١٧]، وقَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

***

(١) الشيخان [متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا].

(٢) [متفق عليه أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

(٣) [متفق عليه أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا].

قوله (وقَدْ أُمِّنَ): أي أُعْطِيَ الأَمْنَ، وهُوَ بضمِّ الهمزةِ وكسرِ الميمِ المشدَّدةِ، مصدرٌ مِن بابِ التفعيلِ، لا كَمَا قالَ الأنطاكيُّ: «الظاهرُ أنَّه غلطٌ؛ إذِ البناءُ للمجهولِ مِن هذا البابِ «أُومِنَ» بالميمِ المخفَّفةِ، وأصلُه «أُؤْمِنَ» قُلِبَتِ الهمزةُ الثانيةُ واوًا لِسُكونِها وانضمامِ ما قَبْلَها على مقتَضَى القواعدِ التصريفيةِ اهـ؛ لَكِنْ قالَ المُلَّا: «نَعَمْ هذا مُقْتَضاها لَوْ أُرِيدَ مجهولُ «آمَنَ» مِن بابِ الإفعالِ»، وفي نسخةٍ «أَمِنَ» بفتحٍ فكسْرٍ.

قوله (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكورًا): أي كثيرَ الشُّكرِ لِرَبِّي على مَغفِرةِ ذَنْبِي.

قوله (وقِيلَ: فَعَلُوا ذلكَ): أيْ إظهارَ التوبةِ والاستغفارِ. قوله (لَوْ تَعْلَمونَ مَا أَعْلَمُ): أي مِن الأهوالِ، وشدائدِ الأحوالِ.

قوله (التَّوَّابِينَ): أي الذينَ يَرْجِعُونَ إلى اللهِ. قوله (والأَوْبَةَ): أي الانتقالَ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ.

قوله (والاستغفارُ فِيهِ مَعْنَى التَّوبةِ): كَمَا أنَّ فيها مَعْنَى الاستغفارِ؛ فهُمَا متلازِمَانِ في مَقَامِ الاعتبارِ.

قوله (لَقَدْ تابَ اللهُ على النبيِّ): وذِكْرُ النبيِّ تحسينٌ لِلتوبةِ، وكذا ذِكرُ المهاجرينَ والأنصارِ جَبْرٌ لِخواطرِ أربابِ الانكسارِ، مِنَ الثلاثةِ الَّذينَ خُلِّفُوا وأَظْهَرُوا التوبةَ والاستغفارِ.

قوله (فسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ): أي اجمَعْ في دعائِكَ بَيْنَ التسبيحِ والحَمْدِ في ثَنائِه المشعِرِ بنَفْيِ الصِّفاتِ السَّلبيةِ وبإثباتِ النعوتِ الثبوتيةِ. قوله (إنَّه كانَ تَوَّابًا): أي كثيرَ الرجوعِ عليْكَ بالرحمَةِ.

***

فَصْلٌ [في فَوائِدِ ما تقرَّرَ في أمْرِ عِصْمَته ﷺ]

قَدِ اسْتَبَانَ لَكَ -أَيُّهَا النَّاظِرُ- بِمَا قَرَّرْنَاهُ مَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِصْمَتِهِ ﷺ عَنِ الجَهْلِ بِاللهِ تعَالى وصِفَاتِهِ، أَوْ كَوْنِهِ عَلى حَالَةٍ تُنَافِي العِلْمَ بِشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ جُمْلَةً بَعْدَ النُّبُوَّةِ عَقْلًا وإِجْمَاعًا، وقَبْلَهَا سَمْعًا ونَقْلًا، ولا بِشَيْءٍ مِمَّا قَرَّرَهُ مِنْ أُمُورِ الشَّرْعِ وأَدَّاهُ عَنْ رَبِّهِ مِنَ الوَحْيِ قَطْعًا، عَقْلًا وشَرْعًا، وعِصْمَتِهِ عَنِ الكَذِبِ وخُلْفِ القَوْلِ مُنْذُ نَبَّأَهُ اللهُ تعَالى وأَرْسَلَهُ، قَصْدًا أَوْ غَيْرَ قَصْدٍ، وَاسْتِحالَةَ ذلِكَ عَلَيْهِ شَرْعًا وإِجْمَاعًا ونَظَرًا وبُرْهَانًا، وتَنْزِيهِهِ عَنْهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ قَطْعًا، وتَنْزِيهِهِ عَنِ الكَبَائِرِ إِجْمَاعًا، وعَنِ الصَّغَائِرِ تَحْقِيقًا، وعَنِ اسْتِدَامَةِ السَّهْوِ والغَفْلَةِ، واسْتِمْرَارِ الغَلَطِ والنِّسْيانِ عَلَيْهِ فِيمَا شَرَعَهُ لِأُمَّتِهِ، وعِصْمَتِهِ في كُلِّ حَالاتِهِ مِنْ رِضًى وغَضَبٍ وجِدٍّ ومَزْحٍ، مِمَّا يَجِبُ لَكَ أَنْ تَتَلَقَّاهُ باليَمِينِ، وتَشُدَّ عَلَيْهِ يَدَ الضَّنِينِ، وتُقَدِّرَ هَذِهِ الفُصُولَ حَقَّ قَدْرِهَا، وتَعْلَمَ عَظِيمَ فائِدَتِهَا وخَطَرِهَا.

فَإِنَّ مَنْ يَجْهَلُ مَا يَجِبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ، ولا يَعْرِفُ صُورَةَ أَحْكَامِهِ لا يَأْمَنُ أَنْ يَعْتَقِدَ في بَعْضِهَا خِلافَ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَلا يُنَزِّهُهُ عَمَّا لا يَجِبُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ؛ فَيَهْلِكَ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي، ويَسْقُطَ في هُوَّةِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ؛ إِذْ ظَنُّ الباطِلِ بِهِ، واعتِقادُ مَا لا يَجُوزُ عَلَيْهِ يُحِلُّ بِصَاحِبِهِ دَارَ البَوَارِ، ولِهَذَا مَا احْتَاطَ النَّبِيُّ ﷺ على الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ رَأَيَاهُ لَيْلًا وهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي المَسْجِدِ مَعَ صَفِيَّةَ، فقَالَ لَهُمَا: (إِنَّهَا صَفِيَّةُ)، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمْ شَيْئًا؛ فَتَهْلِكَا)[1]. هَذِهِ -أَكْرَمَكَ اللهُ- إِحْدَى فَوَائِدِ مَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الفُصُولِ.

(١) حديث (إنها صفيَّة ...): الشيخان [البخاريُّ (٢٠٣٨)، ومسلمٌ (٢١٧٥)] عن صفية.

قولُه (مِنْ عِصمَتِهِ ﷺ): [وكذا عصمةُ سائرِ الأنبياءِ عليهم السلام].

قولُه (بِشَيْءٍ مِن ذلك): أي مِمَّا ذُكِرَ مِنَ الذاتِ والصفاتِ. قولُه (جُملةً): أي على سبيلِ الإجمالِ لا التفسيرِ؛ إذْ لا يُحيطُ به أَحَدٌ.

قولُه (سَمْعًا ونَقْلًا): المُرادُ بالسَّمعِ مَا سُمِعَ مِنَ النبوةِ، وبالنقلِ مَا نُقِلَ عَنِ الأئمةِ، والمناسِبُ لِلسَّجْعِ تأخيرُ (سَمْعًا). قولُه (فِيمَا شَرَعَهُ لِأُمَّتِهِ): أي مِنَ الأحكامِ التكليفيّةِ. قولُه (ومَزْحٍ): أي فلا يَتَكَلَّمُ فيهِ إلَّا بالحقِّ، فكَيْفَ مَعَ الجِدِّ؟!

قولُه (يَدَ الضَّنِينِ): -بالضادِ المعجمةِ- أي البخيلِ. (وتَقْدِرَ... إلخ): -بكَسْرِ الدالِ وضَمِّها- أي تَعْرِفَ. وقولُه (خَطَرِهَا): -بفتحتَينِ، وحُكِيَ سكونُ الطَّاءِ- أي منزلتِها وقَدْرِها.

قولُه (في هُوَّةِ الدَّرْكِ): -بضمِّ الهاءِ وتشديدِ الواوِ- الوَهْدَةُ العميقةُ، و(الدَّرْكِ) بفتحِ الراءِ وسُكونِها.

قولُه (يُحِلُّ بصاحِبِه): -بفتحِ الياءِ وضَمِّ الحاءِ وتُكْسَرُ وتشديدِ اللامِ- أي يَنْزِلُ.

قولُه (فقالَ لَهُما: إنَّها صَفِيَّةُ): أي إحدَى أُمَّهَاتِ المؤمِنِينَ. قولُه (يَجْرِي مِنِ ابنِ آدَمَ): أي يُسَلَّطُ عَلَيْهِ وَساوِسَه في العُروقِ الَّتِي هِيَ مَجْرَى الدَّمِ. قولُه (أنْ يَقذِفَ): أي يُلْقِيَ ويَرْمِيَ.

وَلَعَلَّ جَاهِلًا لا يَعْلَمُ بِجَهْلِهِ إذا سَمِعَ شَيْئًا مِنْهَا يَرَى أَنَّ الكَلامَ فيهَا جُمْلَةً مِنْ فُضُولِ العِلْمِ، أَوْ أَنَّ السُّكُوتَ أَوْلَى، وقَدِ اسْتَبَانَ لَكَ أَنَّهُ مُتَعَيِّنٌ لِلفَائِدَةِ الَّتي ذَكَرْنَاهَا.

وفائدةٌ ثانيةٌ يُضْطَرُّ إِلَيْهَا في أُصُولِ الفِقْهِ، ويَنْبَنِي عَلَيْهَا مَسَائِلُ لا تَنْعَدُّ مِنَ الفِقْهِ، ويُتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ تَشْغِيبِ مُخْتَلِفِي الفُقَهَاءِ في عِدَّةٍ مِنْهَا، وهِيَ الحُكْمُ في أَقْوالِ النَّبِيِّ ﷺ وأَفعَالِهِ. وهُوَ بابٌ عَظِيمٌ وأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أُصُولِ الفِقْهِ، ولا بُدَّ مِنْ بِنائِهِ على صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ في إخبارِهِ وبَلَاغِهِ، وأَنَّهُ لا يَجُوزُ عَلَيْهِ السَّهْوُ فيهِ، وعِصْمَتِهِ مِنَ المُخالَفَةِ في أَفْعالِهِ عَمْدًا. وبِحَسَبِ اخْتِلافِهِمْ في وُقُوعِ الصَّغَائِرِ وَقَعَ اخْتِلَافٌ في امْتِثَالِ الفِعْلِ، بَسْطُ بَيانِهِ في كُتُبِ ذَلِكَ العِلْمِ، فَلا نُطَوِّلُ بِهِ.

وفَائِدَةٌ ثالِثَةٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الحاكِمُ والمُفْتِي فِيمَنْ أَضَافَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ، ووَصَفَهُ بِهَا. فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا يَجُوزُ ومَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ ومَا وَقَعَ الإِجْماعُ فِيهِ والخِلَافُ كَيْفَ يُصَمِّمُ فِي الفُتْيَا في ذلِكَ، ومِنْ أَيْنَ يَدْرِي هَلْ مَا قالَهُ فيهِ نَقْصٌ أَوْ مَدْحٌ؟!

فإِمَّا أَنْ يَجْتَرِئَ على سَفْكِ دَمِ مُسْلِمٍ حَرَامٍ، أَوْ يُسْقِطَ حَقًّا ويُضَيِّعَ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وبِسَبِيلِ هَذَا مَا قَدِ اخْتَلَفَ أَرْبَابُ الأُصُولِ وأَئِمَّةُ العُلَماءِ والمُحَقِّقِينَ في عِصْمَةِ المَلائِكَةِ.

***

قولـه (**ولَعَلَّ جاهِلًا**): أي عَنْ مَراتِبِ العِلْمِ. وقولـه (**لا يَعْلَمُ بِجَهْلِهِ**): أيْ يَجْهَلُ كَوْنَهُ جاهِلًا، وهَذا يُسَمَّى جَهْلًا مُرَكَّبًا. و(**مِنْ فُضُولِ العِلْمِ**): أي زوائِدِه. و(**أَنَّه مُتَعَيِّنٌ**): أي الكَلامُ في عِصمَتِهم واجبَةٌ مَعْرفتُه على أَهْلِ الإِسْلامِ.

قولـه (**يُضطَرُّ**): -بصيغَةِ المجهولِ- أي يُحتاجُ. قولـه (**لا تنعَدُّ**): أي لِكَثْرَتِها، وهذه لُغَةٌ رديئَةٌ في «لا تُعَدُّ»، وفي حاشِيَةِ التِّلمسانِيِّ: «لا تَبْعُدُ» مِنَ البُعْدِ، ومَعْنَاه قريبَةٌ تُبْنَى عليْهَا المَسَائلُ.

قولـه (**ويُتَخَلَّصُ بها**): -بصيغَةِ المَجهُولِ- أي ويَحصُلُ الخَلاصُ. قولـه (**مِنْ تشغيبِ مختَلِفي الفقهاءِ**): أي تَهْيِيجِهم الشَّرَّ والفتنةَ. قولـه (**وهِيَ**): أي الفائدةُ المضطرُّ إِلَيْها في أصُولِ الفِقْهِ وغيْرِها. قولـه (**في إخبارِه**): بكسْرِ الهمزةِ وفتحِها. وقولـه (**وبَلَاغِه**): أي تَبليغِه.

قولـه (**وبِحَسَبِ اختلافِهم**): بفتحِ السينِ، وَأَبْعَدَ الحَلبيُّ فقالَ: بسكونِ السِّينِ هُنَا. قولـه (**في امتثالِ الفِعلِ**): أي بمُجَرَّدِ صُدُورِه مِنْهُمْ. قولـه (**بَسْطُ بيَانِه**): -بصيغةِ المَصْدَرِ- أي شَرْحُ بَيَانِ امتثالِ الفِعلِ. قولـه (**في كُتُبِ ذلك العِلْمِ**): أي عِلْمِ الأصُولِ في الدِّينِ المَذكورِ فيه اختلافُهم في وُقوعِ الصَّغائرِ مِنهم، أو عِلْمِ أصولِ الفِقْهِ.

قولـه (**والمُفْتِي**): أي مُجِيبُ السَّائلِ عَنْ مَسألَتِه الحادثةِ. قولـه (**والخِلافُ**): أي ولَمْ يُعرَفْ مَحَلُّ الخِلافِ ومَوْضِعُ الاتفاقِ. قولـه (**في الفُتْيَا**): بضمِّ الفاءِ، وأمَّا «الفَتْوَى» بفتحِها، وقَدْ تُضَمُّ، وكلاهما اسمٌ لِلْإِفتاءِ.

قولـه (**في ذلك**): أي الّذي يَجِبُ له... إلخ، أي أَوْ يَمتَنِعُ عليْه. قولـه (**على سَفْكِ**): أي إراقَتِه مِن غيرِ استحقاقٍ.

قولـه (**مَا قَدِ اختلَفَ... إلخ**): (ما) زائدةٌ أو موصُولةٌ. قولـه (**في عصمةِ الملائكةِ**): المقرَّبينَ، والمعتمَدُ أنَّهم كالأنبياءِ والمرسَلينَ، في تنزيهِهم عَنِ المخالَفةِ في أمْرِ الدِّينِ، صَلَواتُ اللهِ وسَلَامُه عليْهم أجمَعينَ.

***

فَصْلٌ فِي القَوْلِ فِي عِصْمَةِ المَلَائِكَةِ

أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلى أَنَّ المَلَائِكَةَ مُؤْمِنُونَ فُضَلاءُ، واتَّفَقَ أَئِمَّةُ المُسْلِمِينَ عَلى أَنَّ حُكْمَ المُرْسَلِينَ مِنْهُمْ حُكْمُ النَّبِيِّينَ، سَوَاءً فِي العِصْمَةِ مِمَّا ذَكَرْنَا عِصْمَتَهُمْ مِنْهُ، وأَنَّهُمْ فِي حُقُوقِ الأَنْبِيَاءِ والتَّبْلِيغِ إِلَيْهِم كالأَنْبِيَاءِ مَعَ الأُمَمِ، واخْتَلَفُوا فِي غَيْرِ المُرْسَلِينَ مِنْهُمْ؛ فَذَهَبَتْ طائفةٌ إلى عِصْمَةِ جَمِيعِهِمْ مِنَ المَعَاصِي، واحْتَجُّوا بِقَوْلِ الله تعالى: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وبِقَوْلِهِ: ﴿ومَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]، وبِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وبِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ويُسَبِّحُونَه وَلَه يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، ونَحْوِهِ مِنَ السَّمْعِيَّاتِ.

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلى أَنَّ هَذَا خُصُوصٌ لِلمُرْسَلِينَ مِنْهُم والمُقَرَّبِينَ، واحْتَجُّوا بأَشْيَاءَ ذَكَرَهَا أَهْلُ الأَخْبَارِ وَالتَّفَاسِيرِ، نَحْنُ نَذْكُرُهَا -إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى- بَعْدُ، ونُبَيِّنُ الوَجْهَ فيها.

والصَّوَابُ عِصْمَةُ جَمِيعِهِمْ، وتَنْزِيهُ نِصَابِهِمُ الرَّفِيعِ عَنْ جَمِيعِ مَا يَحُطُّ مِنْ رُتَبِهِمْ ومَنْزِلَتِهِمْ عَنْ جَلِيلِ مِقْدَارِهِمْ.

ورَأَيْتُ بَعْضَ شُيُوخِنَا أَشَارَ إلى أَنْ لا حَاجَةَ لِلفَقِيهِ إلى الكَلَامِ في عِصْمَتِهِمْ، وأَنَا أَقُولُ: إِنَّ لِلْكَلَامِ فِي ذلِكَ مَا لِلْكَلَامِ فِي عِصْمَةِ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الفَوَائِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى فائِدَةِ الكَلَامِ في الأَقْوالِ والأَفْعَالِ؛ فَهِيَ سَاقِطَةٌ هَا هُنَا.

(فِي عصمةِ الملائكةِ): و«المَلائكةُ» جَمْعُ «مَلَكٍ»، وأصلُه «مَلأَكٌ»، حُذِفَ الهَمزةُ بَعْدَ نَقْلِ حركتِها لِكَثْرةِ الاستعمالِ، وقيلَ: أصلُه «مَأْلَكٌ»، مِن الأَلُوكةِ، وهْيَ الرِّسَالةُ، فأُخِّرَتْ، ثُمَّ جُمِعَ، وقَدْ تُحْذَفُ الهاءُ، فيقالُ: «مَلَائِكُ».

قولُه (فُضَلاءُ): -بضمِّ الفاءِ وفتحِ الضادِ المعجَمَةِ- أي فاضِلونَ في قَدْرِهم عِندَ رَبِّهِمْ.

قولُه (سَواءً): أي مستَوِينَ (في العِصْمةِ): وتَعظيمِ الحُرمَةِ.

قوله (مِنْه): أي مِنَ السَّهْوِ في القولِ.

قولُه (واختَلَفُوا في غَيْرِ المُرْسَلِينَ): هلْ هُمْ معْصُومونَ أَمْ لا.

قولُه (مَا أَمَرَهم): أي فيما أَمَرَهم بِه في الماضي. قولُه (ومَا مِنَّا): أي معاشرَ الملائكةِ. قولُه (الصَّافُّونَ): أي الحافُّونَ حَوْلَ العَرْشِ أو الصَّافُّونَ أقدامَنا في الصَّلاةِ.

قولُه (بَرَرَةٍ): أي أتقياءَ مُطيعِينَ في مَقامِ رِضَاه. قولُه (لا يَمَسُّه): أي القرآنَ المحفوظَ أَوِ اللَّوحَ المحفوظَ.

قولُه (والصوابُ عِصمَةُ جَميعِهم): أي الملائكةِ مِن جِنسِ المَعصيَةِ. قولُه (وتَنزيهُ نِصابِهم): أي تَبرئةُ سَاحَةِ مَنصِبِهم.

قولُه (سِوَى فائدةِ الكَلَامِ في الأقوالِ والأفعَالِ): لِعَدَمِ اطِّلاعِنا على ما يَصْدُرُ مِنهم مِن قَوْلٍ وفِعْلٍ مُفَصَّلًا، وإنَّما نَعرِفُ أحوالَهم مُجْمَلًا.

فَمِمَّا احْتَجَّ بِهِ مَنْ لَمْ يُوجِبْ عِصْمَةَ جَمِيعِهِمْ قِصَّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[1]، وَمَا ذَكَرَ فِيهَا أَهْلُ الأَخْبَارِ وَنَقَلَهُ المُفَسِّرُونَ، وَمَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي خَبَرِهِمَا وَابْتِلَائِهِمَا.

فَاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّ هَذِهِ الأَخْبَارَ لَمْ يُرْوَ مِنْهَا شَيْءٌ لا سَقِيمٌ وَلا صَحِيحٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا يُؤْخَذُ بِقِيَاسٍ، وَالَّذِي مِنْهُ فِي القُرْآنِ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، وَأَنْكَرَ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ، وَهَذِهِ الأَخْبَارُ مِنْ كُتُبِ اليَهُودِ وَافْتِرَائِهِمْ كَمَا نَصَّهُ اللهُ أَوَّلَ الآيَاتِ مِنِ افْتِرَائِهِمْ بِذَلِكَ عَلَى سُلَيْمَانَ وَتَكْفِيرِهِمْ إِيَّاهُ، وَقَدِ انْطَوَتِ القِصَّةُ عَلَى شُنَعٍ عَظِيمَةٍ، وَهَا نَحْنُ نُحَبِّرُ فِي ذَلِكَ مَا يَكْشِفُ غِطَاءَ هَذِهِ الإِشْكَالَاتِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَاخْتُلِفَ أَوَّلًا فِي هَارُوتَ وَمَارُوتَ هَلْ هُمَا مَلَكَانِ أَوْ إِنْسِيَّانِ؟ وَهَلْ هُمَا المُرَادُ بِالمَلَكَيْنِ أَمْ لا؟ وَهَلِ القِرَاءَةُ (مَلَكَيْنِ) أَوْ (مَلِكَيْنِ)؟

---

(١) حديث قصة هاروت وماروت: قال المصنِّف: لم يرو فيها شيءٌ صحيحٌ ولا سقيمٌ عن رسول الله ﷺ.
قلتُ: كلا والله، فقد رُوي فيها عن رسول الله ﷺ الصحيحُ وغيره كما استوعبت طرق القصة في التفسير المسند. وحاصل ذلك: أنَّ القصة وردت مرفوعة من حديث ابن عمر أخرجه أحمد في مسنده [٦١٧٨]، وابن حِبَّان في صحيحه [٦١٨٦]، والبيهقيُّ في «الشعب» [١٦٠]، وابن جرير في تفسيره [٢/ ٣٤٧]، وعبد ابن حميد في مسنده [٧٨٥]، وابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات» [٢٢٢]، وغيرهم من طرقٍ عنه. ووردت مرفوعة أيضًا باختصارٍ من حديث عليٍّ أخرجه ابن راهويه في مسنده، ومن حديث أبي الدرداء أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» [١٣٢]. ووردت موقوفة عن علي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وغيرهم بأسانيد عِدَّه صحيحة وغيرها.
قال ابن حجر في «شرح البخاري» [١٠/ ٢٢٥]: وفي «القول المسدد»: لهذه القصة طرقٌ تُفيد العلم بصحَّتها.

قوله (مَنْ لَمْ يُوجِبْ عِصمةَ جميعِهم): أي جميعِ أفرادِ الملائكةِ، بَلْ يُثْبِتُ عِصمَةَ جِنْسِهم الصادقِ عَلَى بَعْضِهم.

قوله (فِي خَبَرِهِمَا): أي هاروتَ ومَاروتَ. قوله (وابتلائِهما): أي ومَا رُوِيَ مِنِ اختبارِهما مِمَّا ذُكِرَ.

قوله (لَمْ يُرْوَ مِنْهَا شَيْءٌ لا سَقِيمٌ ولا صَحِيحٌ عَنْ رسولِ الله ﷺ... إلخ): وإنَّما رُوِيَتْ عَنْ عُلَماءِ اليهودِ والنَّصارَى، ولا يُعتَمَدُ على آثارِهم.

قوله (والَّذِي مِنْه): أي مِن خَبَرِ قِصَّتِها. قوله (في القرآنِ): أي في سُورةِ البَقرةِ.

قوله (مِنِ افترائِهم بذلكَ على سليمانَ وتكفيرِهم إيّاه): في قوله ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله (وقَدِ انطَوَتِ القِصَّةُ): أي احتَوَتْ واشتَمَلَتْ قِصَّةُ هاروتَ وماروتَ.

قوله (على شُنَعٍ): -بضمِّ المعجَمةِ وفتحِ النونِ- أي قبائحَ.

قوله (وهَا نَحنُ نُحَبِّرُ): الهاءُ لِلتنبيهِ، و(نُحَبِّرُ): -بضمِّ النونِ وفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وكسرِ الموحَّدةِ المشدَّدةِ- أي نُحَسِّنُ.

قوله (هَلْ هُمَا مَلَكانِ): وهْوَ الصّحيحُ، و(مَلَكانِ) بفتحِ اللَّامِ. قوله (أوْ إنسيَّانِ): أي منسُوبانِ إلى الإنسِ، أي آدميَّانِ، قالَ المُلَّا: ويمكِنُ الجمعُ بأنَّهما كانَا مَلَكَيْنِ، ثُمَّ تَشَكَّلا في صُورةِ رَجُلَيْنِ.

وهَلْ (مَا) في قَوْلِهِ: ﴿ومَا أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ﴾، ﴿ومَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] نافيَةٌ أَوْ مُوجِبَةٌ؟

فأَكْثَرُ المُفَسِّرِينَ على أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ النَّاسَ بالمَلَكَيْنِ لِتَعْلِيمِ السِّحْرِ وتَبْيِينِهِ، وأَنَّ عِلْمَه كُفْرٌ؛ فَمَنْ تَعَلَّمَهُ كفَرَ، ومَنْ تَرَكَه آمَنَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وتَعْلِيمُهُمَا لِلنَّاسِ له تَعْلِيمُ إِنْذَارٍ، يَقُولانِ لِمَنْ جَاءَ يَطْلُبُ تَعَلُّمَهُ: لا تفعَلُوا كَذَا؛ فإِنَّه يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وزَوْجِه، ولا تَتَخَيَّلُوا بِكَذا؛ فإِنَّه سِحْرٌ، فَلَا تكْفُرُوا.

فعَلَى هَذا فِعْلُ المَلَكَيْنِ طَاعَةٌ، وتَصَرُّفُهُما فِيمَا أُمِرَا به لَيْسَ بمَعْصِيَةٍ، وهِيَ لِغَيْرِهِما فِتْنَةٌ، ورَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ خالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ أَنَّه ذُكِرَ عِنْدَهُ هَارُوتُ ومَارُوتُ، وأَنَّهُمَا يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السِّحْرَ، فَقَالَ: نَحْنُ نُنَزِّهُهُمَا عَنْ هَذَا، فقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ﴾، فقَالَ خالِدٌ: لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِمَا.

فهَذَا خالِدٌ على جَلَالَتِهِ وعِلْمِهِ نَزَّهَهُمَا عَنْ تَعْلِيمِ السِّحْرِ الَّذِي قَدْ ذَكَرَ غَيْرُهُ أَنَّهُمَا مَأْذُونٌ لَهُمَا في تَعْلِيمِهِ بشَرِيطَةِ أَنْ يُبَيِّنَا أَنَّه كُفْرٌ، وأَنَّه امْتِحَانٌ مِنَ اللهِ وَابْتِلاءٌ؛ فكَيْفَ لا نُنَزِّهُهُمَا عَنْ كَبَائِرِ المَعَاصِي والكُفْرِ المَذْكُورَةِ في تِلْكَ الأَخْبَارِ؟! وقَالَ خالِدٌ: «لَمْ يُنْزَلْ» يُرِيدُ أَنَّ (مَا) نافِيَةٌ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ مَكِّيٌّ: وتَقْدِيرُ الكَلَامِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ يُرِيدُ بالسِّحْرِ الَّذِي افتَعَلَتْهُ عَلَيْه الشَّيَاطِينُ، واتَّبَعَهُمْ في ذلكَ اليَهُودُ.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ﴾: قَالَ مَكِّيٌّ: قِيلَ: جِبْرِيلُ ومِيكائيلُ، ادَّعَى اليَهُودُ عَلَيْهِمَا المَجِيءَ بِهِ، كَمَا ادَّعَوْا عِلْمَهُ على سُلَيْمَانَ، فأَكْذَبَهُمْ اللهُ في ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ولَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ ومَارُوتَ﴾، قِيلَ: هُمَا رَجُلَانِ تَعَلَّمَاهُ، قَالَ الحَسَنُ:

وقوله (أو موجِبَةٌ): أي ثابتةٌ موصولةٌ [معطوفةٌ] على (السِّحْرَ) على الصحيح.

قوله (آمَنَ): -بمَدِّ الهمزةِ- أي دامَ على إيمانِه ولَمْ يَكفُرْ؛ قالَ المُلّا: ولا يَبعُدُ أَنْ يَكونَ بفتحِ الهَمزةِ وكسْرِ الميمِ، أي أَمِنَ مِنَ الوقوعِ في الكفرِ. قوله (فإنَّه يُفَرِّقُ): أي سَبَبٌ لِلتفريقِ بَيْنَهما بإيجادِ اللهِ عِنْدَه البُغْضَ والنُّشُورَ في قلوبِهِما.

قوله (ولا تَتَخَيَّلُوا): -بخاءٍ معجَمَةٍ- مِنَ التخيُّلِ، والتخيُّلُ: الظَّنُّ علَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْه.

قوله (وهِيَ لِغَيرِهمَا فتنةٌ): أي ابتلاءٌ ومِحْنَةٌ. قوله (وابتلاءٌ): أي اختبارٌ لِخَلْقِه.

قوله (عَنْ كبائرِ المَعَاصِي): مِن قَتْلِ النفْسِ والزِّنَا وشُرْبِ الخَمْرِ. وقوله (والكُفْرِ): كالسُّجودِ لِلصَّنَمِ.

قوله (وتقديرُ الكَلامِ): أي على قولِ خالِدٍ تبَعًا لِابنِ عَبَّاسٍ.

قوله (يُرِيدُ بالسِّحْرِ الذي افتَعَلَتْهُ عَلَيْه الشيَاطينُ... إلخ): فإنَّ الشياطينَ كَتَبُوا السِّحْرَ ودَفَنُوه تَحْتَ كُرْسِيِّه، ثُمَّ لَمَّا ماتَ سليمانُ أو نُزِعَ مِنْه مُلْكُه استخرَجوه، وقالُوا: تَسَلُّطُه في الأرضِ بهذا السِّحْرِ فتعَلَّمُوه، وبعضُهم نَفَوْا نبوَّتَه. قوله (ولَكِنَّ الشياطينَ كَفَرُوا... إلخ): قُرِئَ في السبْعَةِ بتشديدِ النونِ وتخفيفِها. قوله (ببابِلَ): قريةٌ بالعراقِ، ومُنِعَ مِن الصَّرفِ لِلعَلَميَةِ والتَّأنيثِ أوِ العُجمَةِ.

هَـارُوتُ ومـارُوتُ عِلْجَـانِ مِـنْ أَهْـلِ بابِـلَ، وقَـرَأَ: ﴿وَمَـا أُنْزِلَـنا عـلَى المَلِكَـيْنِ﴾ بِكَسْرِ الـلَّامِ، وتكُونُ (مـا) إيجَابًـا عـلى هَـذا، وكذلـكَ قِـرَاءَةُ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْـنِ أَبْـزَى بِكَسْرِ الـلَّامِ؛ ولكِنَّـه قـالَ: المَلِكَانِ هَـا هُنَـا داوُدُ وسُـلَيْمانُ، وتكُـونُ (مَـا) نفيًـا عـلى مـا تَقـدَّمَ، وقِيـلَ: كانَـا مَلِكَـيْنِ مِـنْ بَنِـي إِسْرَائِيـلَ، فمَسَـخَهُما اللهُ، حَـكَاهُ السَّـمَرْقَنْدِيُّ.

والقِـرَاءَةُ بِكَسْرِ الـلَّامِ شـاذَّةٌ، فمَحْمَـلُ الآيَـةِ عـلى تَقْدِيـرِ أَبِي محمَّـدٍ مَكِّـيٍّ حَسَـنٌ يُنَـزِّهُ المَلائكَـةَ، ويُذْهِـبُ الرِّجْـسَ عَنْهُـمْ، ويُطَهِّرُهُـمْ تَطهِـيرًا، وقَـدْ وَصَفَهُـمُ اللهُ تعـالَى بأَنَّهُـمْ مُطهَّـرُونَ، و﴿كِـرَامٍ بَـرَرَةٍ﴾، ﴿لا يَعْصُـونَ اللهَ مـا أَمَرَهُـمْ﴾،

وَمِمَّـا يَذْكُرُونَـه قِصَّـةُ إِبْلِيسَ، وأَنَّـه كانَ مِـنَ المَلائكَـةِ، ورَئِيسًـا فيهم، ومِـنْ خُـزَّانِ الجَنَّـةِ، إلى آخِـرِ مَـا حَكَـوْهُ، وأَنَّـهُ اسْـتَثْنَاهُ مِـنَ المَلائكَـةِ بِقَوْلِـهِ: ﴿فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقـرة: ٣٤]، وَهـذا أَيْضًـا لَمْ يُتَّفَـقْ عَلَيْـهِ؛ بَـلِ الأَكْثَـرُ يَنْفُـونَ ذلـك، وأَنَّـه أَبُـو الجِـنِّ كَـمَا أَنَّ آدَمَ أَبُـو الإِنْـسِ، وهُـوَ قَـوْلُ الحَسَـنِ وقَتـادةَ وابْـنِ زَيْـدٍ.

وَقـالَ شَـهْرُ بْـنُ حَوْشَـبٍ: كَانَ مِـنَ الجِنِّ الَّذِيـنَ طَرَدَتْهُـمُ المَلائكَـةُ فِي الأَرْضِ حِـينَ أَفْسَدُوا، والاسْـتِثْناءُ مِـنْ غَـيْرِ الجِنْسِ شـائِعٌ فِي كَلَامِ العَـرَبِ، سَـائِغٌ، وقَـدْ قـالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿مَـا لَـهُـمْ بِـه مِـنْ عِلْـمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّـنِّ﴾ [النسـاء: ١٥٧]، ومـا رَوَوْه مِـنَ الأَخْبـارِ أَنَّ خَلْقًـا مِـنَ المَلائكةِ عَصَـوُا اللهَ، فَحُرِّقُـوا، وأُمِـرُوا أَنْ يَسْـجُدُوا لِآدَمَ، فَأَبَـوْا، فَحُرِّقُـوا، ثُـمَّ آخَـرُونَ كذَلِـكَ؛ حَتَّـى سَـجَدَ لـه مَـنْ ذَكَـرَ اللهُ إلا إبليـسَ[1]، فِي أَخْبـارٍ لا أَصْـلَ لَهَـا، تَرُدُّهَـا صِحَـاحُ الأَخْبَـارِ؛ فـلَا نَشْـتَغِلْ بِهَـا.

***

قولـه (عِلْجَـانِ): تثنيـةُ «عِلْـجٍ» بكَسْرِ أَوَّلِـه، وقَـدْ يُفتَـحُ، وهُـوَ الغَلِيـظُ القَـوِيُّ.

قولـه (بكَسرِ الـلَّامِ): هـذا بِنَـاءً عـلى أَنَّهـما كانَـا مِـنْ بابِـلَ، أُنـزِلَ عليْهِـم السِّـحرُ ابتـلاءً.

قولـه (أَبْزَى): بموحَّـدةٍ سَـاكنةٍ وزايٍ مقصـورًا.

قولـه (عـلى مَـا تَقَـدَّمَ): أي عَـنِ اليهـودِ أنَّهـم كانُـوا يَنسُـبونَ إنـزالَ السِّـحْرِ تـارَةً إلى جبريـلَ وميكائيـلَ، وتـارةً إلى داوُدَ وسُـلَيمانَ.

قولـه (ومِمَّـا يَذْكُرُونَـه): أي الطائفـةُ القائلـةُ بِعَـدَمِ عِصمـةِ جميعِهـم.

قولـه (ومِـنْ خُـزَّانِ الجَنَّـةِ): -بضـمِّ الخـاءِ وتشـديدِ الـزاي- أي خَزَنَتِها.

قولـه (حَوْشَـبٍ): بفتـحِ الحـاءِ فـواوٍ سَـاكنةٍ فشِـينٍ مفتوحَـةٍ فموحَّـدةٍ.

قولـه (سَـائِغٌ): -بسِـينٍ مهمَلـةٍ وغَـينٍ معجَمـةٍ- أي جائـزٌ؛ مِـن سـاغَ الـشرابُ في الحَلْـقِ، أي جـازَ بسـهولةٍ.

قولـه (فـلا نَشْـتَغِلْ بهـا): أي فينبَغـي أنْ لا نَشـتَغِلَ.

***

(١) حديث (أن خلقًا من الملائكة عصوا فحرّقوا ...): ابن أبي حاتم [٣٢٨] عن يحيى بن أبي كثيرٍ من قولِه، وهو منكرٌ، وابن جريرٍ [١٤/ ٦٥] عن ابن عبّاس.

البَابُ الثَّاني: فِيمَا يَخُصُّهُمْ فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، ويَطْرَأُ عَلَيْهِمْ مِنَ العَوَارِضِ البَشَرِيَّةِ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّه ﷺ وسَائِرَ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ مِنَ البَشَرِ، وأَنَّ جِسْمَهُ وظَاهِرَهُ خَالِصٌ لِلبَشَرِ، يَجُوزُ عَلَيْه مِنَ الآفَاتِ والتَّغْيِيرَاتِ والآلامِ والأَسْقَامِ، وتَجَرُّعِ كَأْسِ الحِمَامِ، مَا يَجُوزُ على البَشَرِ، وهَذَا كُلُّه لَيْسَ بنَقِيصَةٍ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِنَّمَا يُسَمَّى نَاقِصًا بالإِضَافَةِ إلى مَا هُوَ أَتَمُّ مِنْهُ وأَكْمَلُ مِنْ نَوْعِهِ.

وقَدْ كَتَبَ اللهُ عَلَى أَهْلِ هَذِه الدَّارِ: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وفِيهَا تَمُوتُونَ ومِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وخَلَقَ جَمِيعَ البَشَرِ بِمَدْرَجَةِ الغِيَرِ، فَقَدْ مَرِضَ ﷺ واشْتَكَى، وأَصَابَه الحَرُّ والقُرُّ، وأَدْرَكَهُ الجُوعُ والعَطَشُ، ولَحِقَه الغَضَبُ والضَّجَرُ، ونَالَهُ الإِعْيَاءُ والتَّعَبُ، ومَسَّهُ الضَّعْفُ والكِبَرُ، وسَقَطَ فَجُحِشَ شِقُّهُ[(١)]، وشَجَّهُ الكُفَّارُ وكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وسُقِيَ السُّمَّ، وسُحِرَ[(٢)]، وتَدَاوَى[(٣)]،

(١) حديث (أنه سقط فجُحِشَ شقه): الشيخان [البخاريُّ (٧٣٢)، ومسلمٌ (٤١١)] عن أنس.

(٢) أحاديث (أنه شُجَّ وكُسِرتْ رُباعيتُه وسُقي السُّمَّ وسُحِر ...): تقدَّمت [انظر: ص١٤٥، و١٤٧] وكذا أكثر أحاديث الفصل.

(٣) حديث (أنه تداوى): هو معلومٌ من الأحاديث الصحيحة [منها ما أخرجه البخاريُّ (٥٦٨٣)، ومسلمٌ (٢٢٠٥) من حديث جابر بلفظ (إنْ كَانَ في شيءٍ من أَدْوِيَتِكُمْ -أو: يكون في شيءٍ من أدويَتِكُمْ- خَيْرٌ، ففي شَرْطَةِ مِحْجَم، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أنْ أَكْتَوِيَ)].

قوله (مِنَ الآفاتِ): أي العاهاتِ. وقوله (والتغييراتِ): كالقبضِ والبسطِ والغَمِّ والفرَحِ.

قوله (وتَجَرُّعِ كأسِ الحِمامِ): التجرُّعُ الشُّربُ بمُهْلةٍ، وقيلَ ابتلاعُه بعَجَلةٍ، والحِمامُ -بالكسرِ- المَوْتُ.

قوله (على البَشَرِ): أي جِنْسِ بَنِي آدَمَ.

قوله (لَيْسَ بنَقيصَةٍ): أي ولا في غيره مِنَ الأنبياءِ.

قوله (ومِنْها تُخْرَجونَ): بصيغةِ المجهُولِ في قراءةٍ، وبصيغةِ الفاعلِ في أخرى.

قوله (بِمَدْرَجَةِ الغِيَرِ): «المَدْرجَةُ» بفتحِ الميمِ وسُكونِ الدالِ، والراءِ والجيمِ، و«الغِيَرُ» بكسرِ المعجمَةِ وفتحِ التحتيةِ، مِن غَيَّرْتُ الشيءَ فتغَيَّرَ، والمَعْنَى: في مَسْلَكِ التغْيِيرِ.

قوله (والقُرُّ): -بضمِّ القافِ وفتحِها- البَرْدُ مُطلَقًا، وقيلَ: بَرْدُ الشِّتاءِ.

قوله (ولَحِقَه الغَضَبُ): أي إذا رَأَى خِلافَ ما يُرضِي اللهَ. قوله (والضَّجَرُ): -بفتحتَيْنِ- المَلَلُ.

قوله (فجُحِشَ): -بضمِّ الجيمِ وكسرِ الحاءِ المُهمَلةِ فشينٍ معجمَةٍ- أي خُدِشَ.

قوله (وشَجَّهُ الكُفّارُ): «الشَّجُّ» في الأصْلِ ضَرْبُ الرأسِ وكسْرُه وشَقُّه، ثُمَّ استُعمِلَ في غيرِه مِنَ الأعضاءِ، والمَعْنَى: جَرَحُ وَجْهَه الكريمَ يَوْمَ أُحُدٍ ابنُ قَمِئَةَ.

قوله (رَبَاعِيَتَه): بتخفيفِ التحتيةِ على زِنَةِ الثَّمانيةِ، وهِيَ الَّتي بَيْنَ الثَّنِيّةِ.

قوله (وسُقِيَ السُّمَّ): بِبناءِ الفِعلِ لِلمجْهُولِ وتَثليثِ السِّينِ إلّا أنَّ الفتحَ أَفْصَحُ ويَلِيه الضمُّ.

واحْتَجَمَ[1]، وتَنَشَّرَ[2]، وتَعَوَّذَ[3]، ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ، فتُوُفِّيَ ﷺ، ولَحِقَ بالرَّفِيقِ الأَعْلَى، وتَخَلَّصَ مِنْ دَارِ الامْتِحَانِ وَالبَلْوَى.

وهَذِهِ سِمَاتُ البَشَرِ الَّتِي لا مَحِيصَ عَنْهَا، وأَصَابَ غَيْرَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا، فقُتِّلُوا قَتْلًا، ورُمُوا في النَّارِ، ونُشِرُوا بالمَنَاشِيرِ، ومِنْهُمْ مَنْ وَقَاهُ اللهُ ذلكَ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ، ومِنْهُمْ مَنْ عَصَمَهُ كَمَا عَصَمَ بَعْدُ نَبِيَّنَا ﷺ مِنَ النَّاسِ؛ فَلَئِنْ لَمْ يَكْفِ نَبِيَّنَا رَبُّه يَدَ ابْنِ قِمْئَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، ولا حَجَبَه عَنْ عُيُونِ عِدَاهُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ أَهْلَ الطَّائِفِ، فَلَقَدْ أَخَذَ على عُيُونِ قُرَيْشٍ عِنْدَ خُرُوجِهِ إلى ثَوْرٍ، وأَمْسَكَ عَنْه سَيْفَ غَوْرَثٍ، وحَجَرَ أَبِي جَهْلٍ، وفَرَسَ سُرَاقَةَ، ولَئِنْ لَمْ يَقِهِ مِنْ سِحْرِ ابْنِ الأَعْظَمِ، فلَقَدْ وَقَاهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ سَمِّ اليَهُودِيَّةِ.

وهَكَذَا سَائِرُ أَنْبِيَائِهِ مُبْتَلًى ومُعَافًى، وذلكَ مِنْ تَمَامِ حِكْمَتِهِ؛ لِيُظْهِرَ شَرَفَهُمْ في هَذِه المَقَامَاتِ، ويُبَيِّنَ أَمْرَهُمْ، ويُتِمَّ كَلِمَتَه فِيهِمْ، ولِيُحَقِّقَ بامْتِحَانِهِمْ بَشَرِيَّتَهُمْ، ويَرْتَفِعَ الالتِبَاسُ على أَهْلِ الضَّعْفِ فِيهِمْ؛ لِئَلَّا يَضِلُّوا بِمَا يَظْهَرُ مِنَ العَجَائِبِ على أَيْدِيهِمْ ضَلَالَ النَّصَارَى بِعِيسَى، وَلِيَكُونَ في مِحْنَتِهِمْ تَسْلِيَةٌ لِأُمَمِهِمْ، ووُفُورٌ لِأُجُورِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَمَامًا على الَّذي أَحْسَنَ إلَيْهِمْ.

قَالَ بَعْضُ المُحَقِّقِينَ: وهَذِه الطَّوَارِئُ والتَّغَيُّرَاتُ المَذْكُورَةُ

---

(١) حديث (أنه احتجم): الشيخان وغيرهما من طرق [منها: البخاريُّ (١٨٣٦)، ومسلمٌ (١٢٠٣) من حديث عبدالله بن بُحينة].

(٢) حديث (أنه تنشر): لم أقف عليه، بل في الصحيح [البخاريُّ (٥٧٦٥)] عن عائشة أنها قالت له لما سُحِرَ (أفلا؟ -أي تنشَّرت- قال أما الله فقد شفاني).

(٣) حديث (أنه تعوَّذ): الترمذيُّ [٢٠٥٨]، والنَّسائيُّ [٥٤٩٤] عن أبي سعيد: كان يتعوَّذ من أعين الجانِّ وأعين الأنس، فلما نزلت المُعوِّذتان أخذ بهما وترك ما سواهما، وفي الصحيحين [البخاريُّ (٤٤٣٩)، ومسلمٌ (٢١٩٢)] عن عائشة: (كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوِّذات).

قوله (وتَنَشَّرَ): بتشديد الشينِ المعجمَةِ، وهوَ مِن النُّشرةِ، مِثْلُ التعويذِ والرُّقيَةِ.

قوله (ثُمَّ قَضَى نَحْبَه): أي نَذْرَه، وهوَ كنايةٌ عَن الموتِ؛ إذْ أصلُه النَّذْرُ، وكُلُّ حَيٍّ لا بُدَّ أنْ يَموتَ فكأنَّه نَذرٌ لازمٌ له، فإذا ماتَ فقَدْ قَضَاه.

قوله (فتُوُفِّيَ... إلخ): -بصيغةِ المجهولِ- أي تَوَفَّاه اللهُ تعالى، (ولَحِقَ بالرَّفِيقِ الأَعْلَى): أي مِنَ النبيِّينَ والمَلائكةِ، وقيلَ: هُوَ مُرتفَقُ الجَنَّةِ، وقيلَ: الرَّفِيقُ اسمٌ لِكُلِّ سَماءٍ، وأرادَ (الأعلى) لِأنَّ الجَنَّةَ فَوْقَ ذلك.

قوله (سِمَاتُ البَشَرِ): -بكسرِ المُهْمَلَةِ- أي عَلاماتُ البَشَرِ. قوله (فقُتِّلُوا): بالتشديد.

قوله (يَدَ ابنِ قِمْئَةَ): بكسرِ القافِ وسكونِ الميمِ فهَمْزة. قوله (عِدَاهُ): -بكسرِ العينِ المهمَلَةِ وتُضَمُّ- اسمُ جَمْعٍ لِلعَدُوِّ.

قوله (إلى ثَوْرٍ): أي إلى غارٍ في جَبَلِ ثَوْرٍ عَنْ يَمِينِ مَكَّةَ. قوله (غَوْرَثٍ): -بالغَينِ المعجمَةِ- هوَ ابنُ الحَارثِ الغطفَانيّ، و(سُرَاقَةَ): بضمِّ السِّينِ المُهْمَلَةِ.

قوله (على أهلِ الضُّعْفِ): بضمِّ الضَّادِ وتُفْتَحُ.

قوله (وهَذِهِ الطَوارِئُ): -بالهَمزِ وقَدْ لا يُهْمَزُ- العوارِضُ مِن الآفاتِ.

إِنَّمَا تَخْتَصُّ بأَجْسَامِهِم البَشَرِيَّةِ المَقْصودِ بِهَا مُقَاوَمَةُ البَشَرِ، ومُعَانَاةُ بَنِي آدَمَ لِمُشَاكَلَةِ الجِنْسِ، وأَمَّا بَوَاطِنُهُمْ فمُنَزَّهَةٌ غالِبًا عَنْ ذلِكَ، مَعْصُومَةٌ مِنْهُ، مُتَعَلِّقَةٌ بالمَلَأِ الأَعْلى والملائكةِ لِأَخْذِهَا عَنْهُمْ، وتَلَقِّيهَا الوَحْيَ مِنْهُمْ.

قَالَ: وَقَدْ قَالَ ﷺ: (إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ ولا يَنَامُ قَلْبِي)، وقَالَ: (إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِينِي)، وقَالَ: (لَسْتُ أَنْسَى ولَكِنْ أُنَسَّى لِيُسْتَنَّ بِي)[1]، فأَخْبَرَ أَنَّ سِرَّهُ وبَاطِنَهُ ورُوحَهُ بِخِلَافِ جِسْمِهِ وَظَاهِرِهِ، وأَنَّ الآفَاتِ الَّتِي تَحُلُّ ظاهِرَهُ مِنْ ضَعْفٍ وجُوعٍ، وسَهَرٍ ونَوْمٍ لا يَحُلُّ مِنْهَا شَيْءٌ باطِنَه، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ البَشَرِ في حُكْمِ الباطِنِ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ إذا نَامَ اسْتَغْرَقَ النَّوْمُ جِسْمَهُ وقَلْبَهُ، وهُوَ ﷺ في نَوْمِهِ حَاضِرُ القَلْبِ كَمَا هُوَ في يَقَظَتِهِ؛ حَتَّى قَدْ جَاءَ في بَعْضِ الآثَارِ أَنَّه كانَ مَحْرُوسًا مِنَ الحَدَثِ في نَوْمِهِ[2] لِكَوْنِ قَلْبِهِ يَقْظَانَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وكَذلكَ غَيْرُهُ إذا جَاعَ ضَعُفَ لِذلكَ جِسْمُهُ، وخَارَتْ قُوَّتُهُ، فَبَطَلَتْ بالكُلِّيَّةِ جُمْلَتُه، وهُوَ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّه لا يَعْتَرِيهِ ذَلِكَ، وأَنَّه بخِلَافِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ رَبِّي يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ).

وكَذلكَ أَقُولُ: إِنَّه في هَذِه الأَحْوالِ كُلِّهَا مِنْ وَصَبٍ وَمَرَضٍ، وسِحْرٍ وغَضَبٍ لَمْ يَجْرِ على باطِنِهِ مَا يَخُلُّ بِه، ولا فَاضَ مِنْه على لِسَانِهِ وجَوارِحِه ما لا يَلِيقُ بِهِ، كَمَا يَعْتَرِي غَيْرَهُ مِنَ البَشَرِ مِمَّا نَأْخُذُ بَعْدُ في بَيَانِه.

***

قوله (مُقاوَمَةُ البَشَرِ): أي مُداخَلتُهم. قوله (معصومَةٌ مِنه): أي مُبَرَّأَةٌ ومُبْعَدةٌ عَنْه.

قوله (ولا يَنَامُ قَلْبِي): أي غالبًا لِمَا سَبَقَ في نَوْمِ الوادي.

قوله (كهَيْئَتِكم): أي صِفَتِكم مِن جَميعِ الوُجوهِ.

قوله (ويَسْقِينِي): بفتحِ الياءِ وَضَمِّها، يُقالُ: سَقَاه وأَسْقَاه؛ قالَ تعالى: ﴿وسَقَاهم رَبُّهم﴾ [الإنسان: ٢١]، وقالَ تعالى: ﴿وأَسْقَيْناكم﴾ [المرسلات: ٢٧].

قوله (تَحُلُّ): -بضمِّ الحاءِ وكسرِهَا- أي تَنْزِلُ.

قوله (وخارَتْ قُوَّتُه): -بالفاءِ المعجمَةِ- أي فَتَرَتْ.

قوله (لا يَعتَرِيه ذلك): أي لا يَغْشَاه ضَعْفٌ.

قوله (مِن وَصَبٍ): -بفتحتينِ- أي أَلَمٍ وتَعَبٍ. قوله (مَا يَخُلُّ به): -بفتحِ الياءِ وكسرِ الخاءِ المعجمَةِ- أي لِضَعْفٍ في باطِنِه. قوله (ولا فاضَ): أي ولا سَالَ.

قوله (في بَيَانِه): أي في بَيَانِ شأنِه وتَبيينِ بُرهانِه.

***

(١) [تقدمت هذه الأحاديث الثلاثة. انظر ص١٢٨، ٥٤٥، ٦١٢].

(٢) حديث (أنه كان محروسًا من الحَدَث في نومه): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، وقال ملا علي القاري في شرحه: ولعل المراد ما رواه سعيد بن منصور عن عكرمة عن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس في قصة صلاة الليل في بيت ميمونة، وفيه: ثُمَّ وَضَعَ رأسَهُ حتَّى أغفى وسمعت نحنحة، ثُمَّ جاء بلال فاستيقظ فقام فصلَّى بأصحابه، قال سعيد بن جبير: فقلت لابن عبَّاس: ما أحسن هذه، فقال ابن عبَّاسٍ: إنها ليست لك ولأصحابك، إن رسول الله ﷺ كان يُحفظ].

فَصْلٌ [في رَدِّ مَطاعِنَ مُتعلِّقةٍ بحَديثِ السِّحْرِ]

فَـإِنْ قُلْـتَ: فَقَـدْ جَـاءَتِ الأَخْبَـارُ الصَّحيحَـةُ أَنَّـه ﷺ سُـحِرَ كَـمَا حَدَّثَنَـا الشَّـيْخُ أَبُـو محمَّـدٍ العَتَّـابيُّ بقِـراءَتِي عَلَيْـهِ، قَـالَ: حَدَّثَنَـا حَاتِـمُ بْـنُ محمَّـدٍ، حَدَّثَنَـا أَبُـو الحَسَـنِ عَلِيُّ بْـنُ خَلَـفٍ، حدَّثَنـا مُحَمَّـدُ بْـنُ أَحْمَدَ، حدَّثَنـا مُحمَّـدُ بْـنُ يوسُـفَ، حدَّثَنـا البُخـاريُّ، حدَّثَنـا عُبَيْـدُ بْـنُ إِسْـماعيلَ، قـالَ: حدَّثَنـا أَبُـو أُسـامَةَ عَـنْ هِشَـامِ بْـنِ عُـرْوَةَ، عَـنْ أَبِيـهِ، عَـنْ عَائِشَـةَ رَضِوَاللَّهُ عَنْهَا، قالَـتْ: (سُـحِرَ رَسُـولُ الله ﷺ حَتَّـى إِنَّـه لَيُخَيَّـلُ إِلَيْـه أَنَّـهُ فَعَـلَ الـشَّيْءَ ومَـا فَعَلَـهُ)، وفي رِوايَـةٍ أُخْرَى: (حَتّـى كانَ يُخَيَّـلُ إِلَيْـه أَنَّـه يَـأْتِي النِّسَـاءَ ولا يَأْتِيهِـنَّ...) الحَديـثَ[1]، وإذا كانَ هَـذا مِـنَ التِبـاسِ الأَمْـرِ عـلى المَسْـحُورِ فكَيْـفَ حَـالُ النَّبِـيِّ في ذلـكَ، وكَيْـفَ جَـازَ عَلَيْـهِ وهُـوَ مَعْصُـومٌ؟!

فاعْلَـمْ -وفَّقَنَـا اللهُ وإِيَّـاكَ- أَنَّ هَـذا الحَديـثَ صَحيـحٌ مُتَّفَـقٌ عَلَيْـهِ، وقَـدْ طَعَنَـتْ فيـهِ المُلْحِـدَةُ، وتَذَرَّعَـتْ بـهِ لِسُـخْفِ عُقُولِهـا، وتَلْبيسِـهَا عـلى أَمْثَالِهـا إِلَى التَّشْـكِيكِ في الـشَّرْعِ، وقَـدْ نَـزَّهَ اللهُ الـشَّرْعَ والنَّبـيَّ عَـمَّا يُدْخِـلُ في أَمْـرِهِ لَبْسًـا، وإِنَّـمَا السِّـحْرُ مَـرَضٌ مِـنَ الأَمْـراضِ، وعَـارِضٌ مِـنَ العِلَـلِ يَجُـوزُ عَلَيْـه كأَنْـوَاعِ الأَمْـراضِ مِمَّـا لا يُنْكَـرُ ولا يَقْـدَحُ في نُبُوَّتِـه.

وأَمَّـا مَـا وَرَدَ أَنَّـه كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْـه أَنَّـه فَعَـلَ الـشَّيْءَ ومَـا يَفْعَلُـهُ، فَلَيْـسَ في هَـذا مَـا يُدْخِـلُ عَلَيْـهِ داخِلَـةً في شَيْءٍ مِـنْ تَبْليغِـهِ أَوْ شَريعَتِـه، أَوْ يَقْـدَحُ في صِدْقِـهِ لِقِيَـامِ الدَّليـلِ والإِجْمـاعِ عـلى عِصْمَتِـهِ مِـنْ هَـذا، وإِنَّـمَا هَـذا فيـمَا يَجُـوزُ طُـرُوءُهُ عَلَيْـهِ في أُمُـورِ دُنْيَـاهُ الَّتـي لَمْ يُبْعَـثْ بِسَـبَبِهَا، ولا فُضِّـلَ مِـنْ أَجْلِهـا، وهُـوَ فِيهـا عُرْضَـةٌ لِلآفـاتِ كَسَـائِرِ البَـشَرِ؛ فَغَـيْرُ بَعيـدٍ أَنْ يُخَيَّـلَ إِلَيْـهِ مِـنْ أُمُورِهَـا مَـا لا حَقيقـةَ لَـهُ، ثُـمَّ يَنْجَـلِيَ عَنْـه كَـمَا كانَ.

---

(١) [الروايـة الأولى متفـقٌ عليهـا؛ أخرجهـا البخـاريُّ (٥٧٦٣)، ومسـلمٌ (٢١٨٩)، مـن حديـث السـيدة عائشـة رَضِوَاللَّهُ عَنْهَا. والروايـة الثانيـة: أخرجهـا البخـاريُّ (٥٧٦٥)].

قولـه (سُـحِرَ): أي أَثَّـرَ علَيْـه السِّـحرُ.

قولـه (العَتَّـابيُّ): بفتـحِ العَـينِ وتشـديدِ المُثَنّـاةِ الفوقيـةِ فمُوَحَّـدةٍ.

قولـه (أَنّـه فَعَلَ الـشيْءَ): أي مِـن الجِماعِ وغَـيْرِه.

قولـه (كانَ يُخَيَّـلُ إِلَيْـه أَنَّـه يـأْتي النِّسَـاءَ... إلـخ): أي يَظُـنُّ أَنّـه واقَعَهُـنَّ والحـالُ أَنّـه لَمْ يُجامِعْهـنّ.

قولـه (المُلْحِـدَةُ): أي الطائفـةُ الزائغـةُ في العقيـدَةِ.

قولـه (وتَذَرَّعَـتْ): -بـذالٍ معجَمـةٍ، مِـنَ الذريعـةِ- أي تَوَسَّـلَتْ، وفي نسـخةٍ «تَدَرَّعَـتْ» -بـدالٍ مُهمَلـةٍ- أي تَسَـلَّحَتْ بِـه لِإظهَـارِ الحُجَـجِ الداحضَـةِ.

قولـه (لِسُخْفِ عُقُولِهـا): -بضـمِّ السـينِ المهمَلـةِ وسـكونِ الخـاءِ المعجَمَـةِ- أي رَقِّهـا.

وقولـه (لَبْسًـا): -بفتـحِ الـلامِ- أي خَلْطًـا واشـتباهًا.

قولـه (عُرْضَـةٌ لِلآفـاتِ): أي هَدَفًـا لِلعاهَـاتِ.

وَأَيْضًا فَقَدْ فَسَّرَ هَذَا الفَصْلَ الحَدِيثُ الآخَرُ مِنْ قَوْلِهِ: (حَتَّى يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلا يَأْتِيهِنَّ)، وقَدْ قَالَ سُفْيَانُ: وهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، وَلَمْ يَأْتِ فِي خَبَرٍ مِنْهَا أَنَّهُ نُقِلَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ قَوْلٌ بِخِلَافِ مَا كَانَ أَخْبَرَ أَنَّهُ فَعَلَهُ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، وإِنَّمَا كَانَتْ خَوَاطِرَ وتَخَيُّلاتٍ، وقَدْ قِيلَ: إِنَّ المُرَادَ بِالحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ يَتَخَيَّلُ الشَّيْءَ أَنَّهُ فَعَلَهُ ومَا فَعَلَهُ لَكِنَّهُ تَخْيِيلٌ لا يَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ؛ فتَكُونُ اعْتِقَادَاتُهُ كُلُّهَا عَلَى السَّدَادِ، وأَقْوَالُهُ عَلَى الصِّحَّةِ.

هَذَا مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنَ الأَجْوِبَةِ لِأَئِمَّتِنَا عَنْ هَذَا الحَدِيثِ مَعَ مَا أَوْضَحْنَاهُ مِنْ مَعْنَى كَلامِهِمْ، وَزِدْنَاهُ بَيَانًا مِنْ تَلْوِيحَاتِهِمْ، وكُلُّ وَجْهٍ مِنْهَا مُقْنِعٌ.

لَكِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي فِي الحَدِيثِ تَأْوِيلٌ أَجْلَى وأَبْعَدُ مِنْ مَطَاعِنِ ذَوِي الأَضَالِيلِ يُسْتَفَادُ مِنْ نَفْسِ الحَدِيثِ، وهُوَ أَنَّ عَبْدَ الرَّزَّاقِ قَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ عَنِ ابْنِ المُسَيَّبِ وعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وقَالَ فِيهِ عَنْهُمَا: سَحَرَ يَهُودُ بَنِي زُرَيْقٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَجَعَلُوهُ فِي بِئْرٍ حَتَّى كَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُنْكِرَ بَصَرَهُ، ثُمَّ دَلَّهُ اللهُ عَلَى مَا صَنَعُوهُ، فَاسْتَخْرَجَهُ مِنَ البِئْرِ[1]. ورَوَى نَحْوَهُ الوَاقِدِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ وعُمَرَ بْنِ الحَكَمِ.

وذُكِرَ عَنْ عَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ: حُبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ سَنَةً، فَبَيْنَا هُوَ نَائِمٌ؛ إِذْ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ... الحَدِيثَ[2].

(١) حديث ابن المسيب وعروة في السحر: عبد الرزاق في مصنَّفه [١٠٠١٨] عن معمر عن الزهريِّ عنهما به.

(٢) حديث عطاء الخراساني عن يحيى بن يعمر (حبس عن عائشة سنة ...): عبدالرزَّاق في مصنَّفه [«جامع معمر» ١١/ ١٤] عن معمَر عن عطاء به.

قوله (ولَمْ يأتِ في خبرٍ مِنها): أي مِن أحاديثِ سِحْرِه ﷺ، أو مِنَ الأخبارِ الصحيحةِ.

قوله (فتكُونُ اعتقاداتُه كُلُّها): أي المتعلِّقةُ بأحوالِ الآخرةِ والدنيا مَبنيَّةً على الصوابِ.

قوله (لأَئمَّتِنا): أي أئمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ. قوله (مِنْ تلويحاتِهم): أي إشاراتِهم مِن غيْرِ تصريحٍ. قوله (مُقْنِعٌ): بضمِّ الميمِ وكسرِ النونِ، ويَجُوزُ فَتْحُها على أنَّه مَصدَرٌ للمبالَغةِ أو اسمُ مَكانٍ.

قوله (أَجْلَى): -بالجيمِ- أي أَظْهَرُ وأَوْضَحُ. قوله (الأَضاليلِ): جمعُ ضِلِّيلٍ، مُبالَغةٌ في الضَّلالِ[1].

قوله (زُرَيْقٍ): بضمِّ الزاي وفتحِ الراءِ. وقوله (فجَعَلُوه في بِئْرٍ): هِيَ ذَرْوَانُ.

قوله (عُمَرَ بنِ الحَكَمِ): بفتحِ المُهْمَلةِ والكافِ. وقوله (وذُكِرَ): بصيغةِ المجهُولِ. قوله (بنِ يَعْمَرَ): بفتحِ الياءِ وسكونِ [العينِ] وفتحِ الميمِ وقَدْ تُضَمُّ. قوله (حُبِسَ رسولُ اللهِ ﷺ... إلخ): أي مُنِعَ عَنْ قُرْبانِها، وهُوَ بضمِّ الحاءِ المُهمَلةِ وكسْرِ المُوَحَّدةِ، (إذْ أتَاه مَلَكانِ): ميكائيلُ وجبريلُ.

(١) الأضاليل جمع (أضلولة)؛ قال في «اللسان»: «وَفُلَانٌ صَاحِبُ أَضَالِيلَ، وَاحِدَتُهَا أُضْلُولَةٌ».

قَالَ عَبْدُ الرزَّاقِ: حُبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا خَاصَّةً سَنَةً حَتَّى أَنْكَرَ بَصَرَهُ.[١]

وروَى **محمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **مَرِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فحُبِسَ عَنِ النِّسَاءِ والطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فهَبَطَ عَلَيْهِ مَلَكَانِ، وذَكَرَ القِصَّةَ**[٢].

فَقَدِ اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ مَضْمُونِ هَذِه الرِّوايَاتِ أَنَّ السِّحْرَ إِنَّمَا سُلِّطَ على ظاهِرِهِ وجَوَارِحِهِ، لا على قَلْبِه واعتِقَادِهِ وعَقْلِهِ، وأَنَّهُ إِنَّمَا أَثَّرَ في بَصَرِهِ، وحَبَسَهُ عَنْ وَطْءِ نِسائِهِ وطَعامِه، وأَضْعَفَ جِسْمَهُ وأَمْرَضَهُ، ويَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: (**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّه يأتي أَهْلَهُ ولا يأتِيهنَّ**)، أَيْ يَظْهَرُ لَهُ مِنْ نَشاطِهِ ومُتَقَدِّمِ عادَتِهِ القُدْرَةُ على النِّساءِ، فإذا دَنا مِنْهُنَّ أَصابَتْهُ أُخْذَةُ السِّحْرِ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ على إتيانِهِنَّ كَما يَعْتَرِي مَنْ أُخِّذَ واعْتُرِضَ.

وَلَعَلَّه لِمِثْلِ هَذا أَشارَ سُفْيَانُ بقَوْلِهِ: وهَذا أَشَدُّ ما يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، ويَكُونُ قَوْلُ عائِشَةَ في الرِّوايَةِ الأُخْرَى: (**إِنَّه لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ ومَا فَعَلَهُ**) مِنْ بابِ ما اخْتَلَّ مِنْ بَصَرِهِ كَما ذُكِرَ في الحديثِ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ رَأَى شَخْصًا مِنْ بَعْضِ أَزْواجِهِ، أَوْ شاهَدَ فِعْلًا مِنْ غَيْرِهِ، ولَمْ يَكُنْ على ما يُخَيَّلُ إِلَيْهِ لِما أَصابَهُ في بَصَرِهِ وضَعْفِ نَظَرِهِ، لا لِشَيْءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ في مَيْزِهِ.

وإذا كانَ هَذا لَمْ يَكُنْ فِيما ذُكِرَ مِنْ إِصابَةِ السِّحْرِ لَهُ وتأثِيرِهِ فيهِ ما يُدْخِلُ لَبْسًا، ولا يَجِدُ بِه المُلْحِدُ المعْتَرِضُ أُنْسًا.

***

(١) [جامع معمر بن راشد (١١/ ١٣)].

(٢) حديث ابن عبَّاس (مرض النبيُّ ﷺ وحُبس عن النساء ...): **البيهقيُّ [٦/ ٢٤٨] بسندٍ ضعيف.**

قوله (**محمدُ بنُ سَعِيدٍ**): بفتحِ السِّينِ المهمَلَةِ وسكونِ المهمَلَةِ. قوله (**والطعامِ والشَّرابِ**): أي عَنِ الكَثْرةِ كعَادَتِه فِيهِمَا.

قوله (**فإذا دَنَا مِنهنّ**): أي على قَصْدِ مُواقعَتِهِنَّ. قوله (**أُخْذَةُ السِّحْرِ**): بضمِّ الهَمزةِ وسكونِ الخاءِ فذالٍ معجَمَةٍ، وهيَ رُقيَةٌ كالسِّحْرِ.

قوله (**مَنْ أُخِّذَ**): -بضمِّ الهَمزةِ وتشديدِ الخاءِ- أي حُبِسَ عَن وَطْءِ امرأةٍ. قوله (**واعتُرِضَ**): بصيغةِ المجهولِ أيضًا؛ مِنَ العَرَضِ بالتحريكِ، وهوَ ما يَعرِضُ للإنسانِ مِن حوادِثِ الدَّوَرانِ.

قوله (**مِنْ بَابِ ما اختَلَّ مِن بَصَرِه**): أي لأنَّه كِنايَةٌ عَن جِماعِه مَعَ أَهْلِه كَما تَقَدَّمَ.

قوله (**لا لِشَيْءٍ طَرَأَ**): -بفتحِ الطاءِ والرَّاءِ والهمزِ- أي عَرَضَ. قوله (**في مَيْزِه**): -بفتحِ الميمِ وسكونِ التحتيةِ وبالزاي- أي تمييزِهِ بَيْنَ الأشياءِ.

قوله (**مَا يُدْخِلُ لَبْسًا**): أي خَلْطًا في باطِنِه، وهوَ بفتحِ اللَّامِ وسكونِ المُوَحَّدةِ.

قوله (**ولا يَجِدُ به المُلْحِدُ المعتَرِضُ**): أي المائلُ عَنِ الحَقِّ.

***

فَصْلٌ [في أحوالِهِ ﷺ في أُمورِ الدُّنيا]

هــذا حَالُــهُ في جِسْــمِهِ، فأَمَّــا أَحْوَالُــه في أُمُــورِ الدُّنْيَــا فنَحْــنُ نَسْــبُرُهَا عــلى أُسْــلُوبِهَا المُتَقَــدِّمِ بالعَقْــدِ والقَــوْلِ والفِعْــلِ.

أَمَّــا العَقْــدُ مِنهَــا فَقَــدْ يَعْتَقِــدُ في أُمُــورِ الدُّنْيَــا الــشَّيْءَ عــلى وَجْــهٍ، ويَظْهَــرُ خِلَافُــه، أوْ يَكُــونُ مِنْــهُ عــلى شَــكٍّ أَوْ ظَــنٍّ، بِخِــلَافِ أُمُــورِ الــشَّرْعِ كَــمَا حَدَّثَنَــا أَبُــو بَحْــرٍ سُــفْيَانُ ابْــنُ العَــاصِي وغَــيْرُ واحــدٍ سَــمَاعًا وقِــراءَةً، قالُــوا: حَدَّثَنَــا أَبُــو العَبَّــاسِ أَحْمَــدُ بْــنُ عُمَــرَ، قَــالَ: حَدَّثَنَــا أَبُــو العبَّــاسِ الــرَّازِيُّ، حَدَّثَنــا أَبُــو أَحْمَــدَ بْــنُ عَمْرَوَيْــهِ، حَدَّثَنَــا ابْــنُ سُــفْيَانَ، حَدَّثَنــا مُسْــلِمٌ، حَدَّثَنــا عَبْــدُ الله بْــنُ الرُّومِــي وعَبَّــاسٌ العَنْــبَرِيُّ، وأَحْمَــدُ المَعْقَــرِيُّ، قالُــوا: حَدَّثَنَــا النَّــضْرُ بْــنُ محمَّــدٍ، قَــالَ: حَدَّثَنِــي عِكْرِمَــةُ، حَدَّثَنَــا أَبُــو النَّجَــاشِيِّ، قَــالَ: حَدَّثَنــا رافِــعُ بْــنُ خُدَيْــجٍ، قَــالَ: قَــدِمَ رَسُــولُ الله ﷺ المَدِينــةَ، وهُــمْ يَأْبُــرُونَ النَّخْــلَ، فقَــالَ: (مَــا تَصْنَعُــونَ؟) قالُــوا: كُنَّــا نَصْنَعُــهُ، فقَــالَ: (لَعَلَّكُــمْ لَــوْ لَمْ تَفْعَلُــوا كانَ خَــيْرًا)، فتَرَكُــوهُ فنَفَضَــتْ، فذَكَــرُوا ذلــكَ لــه، فقَــالَ: (إِنَّــمَا أَنَــا بَــشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُــمْ بِــشَيْءٍ مِــنْ دِينِكُــمْ فَخُــذُوا بِــهِ، وإِذَا أَمَرْتُكُــمْ بِــشَيْءٍ مِــنْ رَأْيِــي فإِنَّــمَا أَنَــا بَــشَرٌ)[1].

(هــذا حالُــه): أي هــذا الَّــذِي ذَكَرْنــاه في الفصــلِ المتقــدِّمِ مِــنَ الأمــراضِ وَالأعــراضِ النازلــةِ حَاصــلٌ لــه (في جســمِه) مِــن ظاهــرِ جَسَــدِه وباطِنــه.

قولــه (نَسْــبُرُها): بنــونٍ مفتوحــةٍ وســينٍ سَــاكنةٍ وبموحَّــدةٍ مضمومَــةٍ فــراءٍ؛ مِــن سَــبَرَهَا، أو بضــمِّ النــونِ فكســرِ الموحَّــدةِ؛ مِــن أَسْــبَرَهَا، أي نُورِدُهَــا. وقولــه (عــلى أسـلوبها المتقـدِّمِ): أي طريقهــا السَّــابقِ. وقولــه (بالعَقْــدِ): أي الاعتقــادِ.

قولــه (عــلى شَــكٍّ): أي تَــرَدُّدٍ، والشــكُّ مَــا اســتوَى طَرَفــاه، والظــنُّ مَــا تَرَجَّــحَ أَحَــدُ طَرَفَيْــه.

قولــه (أبــو بَحْــرٍ): بفتــحِ البــاءِ المَوحَّــدةِ وسـكونِ الحـاءِ المهمَلـةِ. وقولــه (العــاصِ): بحَــذْفِ اليَــاءِ في آخِــره. قولــه (عَمْرَوَيْــهِ): بفتــحِ العــينِ المُهمَلــةِ وسـكونِ الميـمِ وفتـحِ الـراءِ. قولـه (وأَحْمَدُ المَعْقِـرِيُّ): بفتـحِ الميـمِ وسـكونِ العَـينِ المُهْمَلـةِ وكـسْرِ القـافِ.

قولــه (يَأْبُــرونَ): -بضــمِّ البــاءِ الموحَّــدةِ، وفي نســخةٍ «يُؤَبِّــرُونَ» بضــمِّ أوَّلِــه وكــسرِ البــاءِ المشــدَّدةِ- أي يُلْقِحُــونَ النخْــلَ بوَضــعِ طَلْــعِ ذُكورِهَــا فيهــا. قولــه (لَــوْ لَمْ تفعلُــوا كانَ خــيرًا): أي لَــوْ تَرَكْتُــمُ التأبيرَ لِلنَّخــلِ كانَ خَــيْرًا مِــن تأبيرِهَــا. قولــه (فنَفَضَــتْ): -بفتــحِ النــونِ والفــاءِ والضَّــادِ المُعجَمَــةِ- أي أَلْقَــتْ حَمْلَهَــا مِــن التَّمــرِ، ورُوِيَ «فنَقَصَــتْ» -بالقــافِ والصــادِ المهمَلــةِ-، وهــوَ تصحيــفٌ، وعــلى فَــرْضِ صِحَّتِهــا إمَّــا بمَعْنَــى أَسْــقطَتْ أو قَلَّــتْ في الحَمْــلِ، وإمّــا قَلَّــتْ في نَفْسِــهَا مَــعَ كثرَتِهــا، أي صَــارَتْ حَشَــفًا، ورُوِيَ «نَصَبَــتْ» بصــادٍ مهمَلــةٍ فموحَّــدةٍ، ورُوِيَ بغــينٍ معجَمــةٍ بَعْدَهــا صــادٌ مهمَلــةٌ، ولا مَعْنَــى لِهاتَــيْنِ الروايتَــيْنِ، قــالَ ابــنُ قُرْقــولٍ: في هــذه اللفظــةِ رِوايــاتٌ كُلُّهَــا مصحَّفــةٌ إلا الأُولَى.

قولــه (فقــالَ: إنَّــمَا أنــا بَــشَرٌ): أي أُصيــبُ وأَخْطَــأُ في أمــورِ الدنيا الَّتِــي لَمْ يُــوحَ إِلَيَّ فيهــا شيءٌ. قولــه (فخُــذُوا بــه): أي تمَسَّــكوا بِــه، ولا تُخالِفُــوا فيــه. قولــه (مِــن رأْيِــي): أي في أُمــورِ الدنيــا الصِّرفــةِ. قولــه (فإنَّــمَا أنــا بَــشَرٌ): مِثْلُكــم قَــدْ أَرَى رَأْيًــا والأمــرُ بخِلافِــه في أمــورِ الدنيــا، فــلا يَجِــبُ اتِّبَاعُــه. اهـ شــهابٌ.

(١) حديث رافع بن خديج (في تلقيح النخل ...): أسنده من طريق مسلم [٢٣٦١].

وفي رِوايَةِ أَنَسٍ: (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُمْ)(١). وفي حَدِيثٍ آخَرَ: (إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلا تُؤَاخِذُونِي بالظَّنِّ)(٢).

وفي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ في قِصَّةِ الخَرْصِ: فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ؛ فَمَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ فهُوَ حَقٌّ، ومَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي فإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أُخْطِئُ وأُصِيبُ)(٣).

وَهَذَا عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فِيمَا قالَهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ في أُمُورِ الدُّنْيَا، وظَنِّهِ مِنْ أَحْوَالِهَا، لا مَا قالَهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ واجتِهادِهِ في شَرْعٍ شَرَعَهُ وسُنَّةٍ سَنَّهَا.

وَكَمَا حَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا نَزَلَ بأَدْنَى مِيَاهِ بَدْرٍ قَالَ لَهُ الحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ: أَهَذَا مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ والحَرْبُ والمَكِيدَةُ؟ قَالَ: لا، بَلْ هُوَ الرَّأْيُ والحَرْبُ والمَكِيدَةُ، قَالَ: فإِنَّهُ لَيْسَ بمَنْزِلٍ؛ انْهَضْ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ القَوْمِ فَنَنْزِلَهُ،

(١) حديث أنس (أنتم أعلم بأمر دنياكم): مسلمٌ [٢٣٦٣].

(٢) حديث (إنما ظننت ظنًّا فلا تؤاخذوني بالظن): مسلمٌ [٢٣٦١] عن طلحة.

(٣) حديث ابن عبَّاس في قصة الخرص: البزّار [٤٧٢٦] بسندٍ حسنٍ.

قوله (فلا تؤاخِذُوني بالظَّنِّ): أي لا تجِدُوا علَيَّ في أنفُسِكم كَدَرًا فيما ظَنَنْتُه خيرًا لكم فتبَيَّنَ خِلافُه. قالَ المُلَّا: وعِندِي أنَّه ﷺ أصابَ في ذلك الظنِّ، وإنَّما وَقَعَ التغيُّرُ بحَسَبِ جَرَيانِ العادةِ، ولَوْ صَبَرُوا على نُقصانِ سَنَةٍ أو سَنَتَيْنِ لَرَجَعَ النخيلُ إلى حالِه الأوَّلِ، ورُبَّما كانَ يَزِيدُ على القَدْرِ المعتادِ. ثُمَّ قالَ: وفي القضيةِ إشارةٌ إلى التوكُّلِ وعَدَمِ المبالَغةِ في الأسبابِ، وقَدْ غَفَلَ عَنْها أربابُ المعالجَةِ مِنَ الأصحابِ، واللهُ أعلَمُ بالصَّوابِ. باختصارٍ.

قوله (في قِصَّةِ الخَرْصِ): -بفتحِ الخاءِ المعجمةِ وسكونِ الراءِ فصادٍ مهملةٍ- وهوَ الحَزْرُ والتخمينُ لِمَا على الشجَرِ مِنَ الرُّطَبِ تَمْرًا، ومِنَ العِنَبِ زَبِيبًا، وأمَّا الخِرْصُ -بكَسْرِ الخاءِ- فاسمٌ لِلمَخروصِ، وقِصَّتُه ذَكَرَها المُلَّا.

قوله (فَمَا حَدَّثْتُكم عَنِ الله): أي عَنْ وَحْيِه سَواءٌ كانَ بالوَحْيِ الجَلِيِّ أو الخَفِيِّ. وقوله (فهُوَ حَقٌّ): أي صِدْقٌ وصَوابٌ لا يَجوزُ الخُلْفُ فيه.

قوله (في شَرْعٍ شَرَعَه): أي بَيَّنَه وأَظْهَرَه. وقوله (سَنَّها): أي جَعَلَها أَمْرًا مُتَّبَعًا، والمرادُ الطريقةُ لا ما قابَلَ الفَرْضَ، وهذا مَبْنِيٌّ على أنَّه ﷺ كانَ يجتهِدُ في بَعْضِ الأحيانِ، وهُوَ الصَّحيحُ كَما هُوَ مُقَرَّرٌ في كُتُبِ الأصولِ، ولا حُجَّةَ لِمَنْ مَنَعَ مُتمسِّكًا بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤-٥]؛ لِأنَّه إذا أُذِنَ له فيه كانَ وَحْيًا مَعَ أنَّه إلهامٌ، وإلهامُ الأنبياءِ قِسْمٌ مِنَ الوَحْيِ. اهـ شهابٌ.

قوله (الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ): بضمِّ الحاءِ المهمَلةِ وبموحَّدتينِ. اهـ شمنيٌّ.

قوله (أَهَذا مَنزِلٌ أَنزَلَكَه اللهُ): أي هذا المَحَلُّ الذي أَنْزَلْتَنا فيه أَمَرَكَ اللهُ بالنزولِ فيه؟ وقوله (أَمْ هُوَ الرأيُ): أي رأيٌ مِنْكَ بلا أمرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ. وقوله (والحَرْبُ): أي أمْ هُوَ مَحَلٌّ مناسبٌ لِمحارَبةِ الأعداءِ. قوله (قالَ: لا): أي فقالَ النبيُّ مجيبًا لِلحُبابِ: لَمْ يأمُرْني اللهُ بنُزولِه، بَلْ هُوَ الرأيُ. قوله (فإنَّه ليسَ بمَنزِلٍ): أي قالَ له الحُبابُ: ليسَ هذا بمناسبٍ لِمَا ذَكَرْتَ؛ لِأنَّه بَعيدٌ عَنِ الماءِ، وكَثيرُ الرمْلِ.

قوله (انهَضْ حتَّى نأتِيَ): -بفتحِ الهاءِ بعْدَها ضادٌ معجمةٌ، وهوَ القيامُ بسرعةٍ- أي هُمَّ وانتقِلْ بِنا حتَّى نأتِيَ... إلخ.

ثُمَّ نُعَوِّرَ مَا وَراءَهُ مِنَ القُلُبِ، فنَشْرَبَ ولا يَشْرَبُونَ، فقالَ: أَشَرْتَ بالرَّأْيِ، وفَعَلَ مَا قالَهُ[1]، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى لـه: ﴿وشَاوِرْهمْ في الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأَرَادَ مُصَالَحَةَ بَعْضِ عَدُوِّهِ على ثُلُثِ تَمْرِ المَدِينَةِ، فاسْتَشَارَ الأَنْصَارَ، فلَمَّا أَخْبَرُوهُ بِرَأْيِهِمْ رَجَعَ عَنْهُ[2].

فمِثْلُ هَذَا وأَشْباهُهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الَّتِي لا مَدْخَلَ فِيهَا لِعِلْمِ دِيَانَةٍ، ولَا اعْتِقادِهَا، ولا تعْليمِهَا يَجُوزُ عَلَيْهِ فِيمَا ذَكَرْنا؛ إِذْ لَيْسَ في هَذَا كُلِّهِ نَقِيصَةٌ ولا مَحَطَّةٌ، وإِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ اعْتِيادِيَّةٌ، يَعْرِفُهَا مَنْ جَرَّبَهَا وجَعَلَهَا هَمَّهُ، وشَغَلَ نَفْسَه بِهَا، والنَّبِيُّ مَشْحُونُ القَلْبِ بِمَعْرِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، مَلْآنُ الجَوانِحِ بِعُلُومِ الشريعَةِ، مُقَيَّدُ البَالِ بِمَصَالِحِ الأُمَّةِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ؛ ولَكِنْ هَذا إِنَّمَا يَكُونُ في بعْضِ الأُمُورِ، ويَجُوزُ في النَّادِرِ وفيما سَبِيلُهُ التَّدْقيقُ في حِرَاسَةِ الدُّنْيَا واسْتِثْمارِهَا، لا في الكَثيرِ المُؤْذِنِ بالبَلَهِ والغَفْلَةِ.

وقَدْ تَوَاتَرَ بالنَّقْلِ عَنْه ﷺ مِنَ المَعْرِفَةِ بأُمُورِ الدُّنْيَا وَدَقَائِقِ مَصَالِحِهَا وسِيَاسَةِ فِرَقِ أَهْلِهَا مَا هُوَ مُعْجِزٌ في البَشَرِ مِمَّا قَدْ نَبَّهْنَا عَلَيْهِ في بابِ مُعْجِزاتِهِ مِنْ هَذا الكِتَابِ.

***

(١) حديث (لما نزل بأدنى مياه بدر قال الحباب ..): ابن إسحاق [كما في سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٠)]، والبيهقيُّ [٣/ ٣٣١] عن عروة والزهريِّ وجماعةٍ.

(٢) حديث (أنه أراد مصالحة بعض عدوه على ثلث تمر المدينة...): البزَّار [٨٠١٧] عن أبي هريرة قال: جاء الحارثُ الغطفانيُّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّدُ، ناصِفْنا تمرَ المدينة وإلَّا ملأناها عليك خَيْلًا ورِجالًا، فقال: حتَّى أَسْتَأمِرَ السُّعُود، سعد بن عُبادة وسعد بن معاذ، فشاورهما فقالا: لا والله، ما أعطينا الدَّنِيَّةَ مِن أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام.

قوله (ثُمَّ نُعَوِّرَ): بتشديدِ الواوِ المكسُورةِ بَعْدَ العَينِ المهمَلةِ أوِ الغينِ المعجمةِ على مَا قِيلَ؛ فمَعْنَى الأوَّلِ نُفْسِدَهَا علَيْهِم، ومَعنَى الثاني نُذْهِبَهَا في الأرضِ ونَدْفِنَهَا. وقوله (مِنَ القُلُبِ): -بضمِّ القافِ واللَّامِ- جَمعُ «قَلِيبٍ»، وهُوَ البئرُ.

قوله (وقَدْ قَالَ اللهُ تعالى له: (وشاوِرْهم في الأمْرِ... إلخ): وقالَ تعالَى: ﴿وأَمْرُهم شُورَى بَيْنَهم﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قوله (رَجَعَ عَنْه): أي عَنْ رأيِه.

قوله (فمِثْلُ هذا): أي ما ذُكِرَ عَنِ الحُبَابِ في غزوةِ بَدْرٍ، وعَنِ الأنصَارِ في وَقعةِ الأحزابِ. قوله (ولا مَحَطَّةٌ): أي عَن رِفعةِ مَقامِه. قوله (اعْتِيادِيَّةٌ): أي اعتادَهَا النَّاسُ. قوله (وجَعَلَهَا هَمَّه): أي غايةُ هِمَّتِه فيها، وشَغَلَ نَفْسَه بِهَا.

قوله (مشحونُ القَلْبِ): أي مَمْلوءٌ بمَعرفةِ رَبِّه -جَلَّ وعَزَّ- وما يترتَّبُ علَيْهَا مِنَ الآدابِ. قوله (مَلْآنُ الجوانِحِ): أي الأضلاعِ، وفي نسخةٍ «الجَوَارِحِ».

قوله (مُقَيَّدُ البالِ): أي مَربوطُ القَلْبِ في جميعِ الحالاتِ (بِمَصَالِحِ الأُمَّةِ... إلخ).

قوله (في حِراسَةِ الدنيا): -بكسرِ الحاءِ- أي محافَظتِه علَيْهَا. قوله (واستثمارِها): أي تحصيلِ ثِمَارِهَا وغايَتِها المترتِّبةِ عَلَيْهَا.

قوله (المُؤْذِنِ بالبَلَهِ): -بفتحِ الباءِ المُوَحَّدةِ واللَّامِ- أي المُشْعِرِ بالبَلَاهَةِ.

***

فَصْلٌ [فيما يعتقِدُهُ ﷺ في أمُورِ أحْكامِ البَشَرِ]

وأَمَّا مَا يَعْتَقِدُهُ فِي أُمُورِ أَحْكَامِ البَشَرِ الجَارِيَةِ على يَدَيْهِ وقَضَايَاهُمْ، ومَعْرِفَةِ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ، وعِلْمِ المُصْلِحِ مِنَ المُفْسِدِ، فبهَذِهِ السَّبِيلِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَقْضِيَ لَهُ على نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فمَنْ قَضَيْتُ لهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْءٍ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فإِنَّمَا أَقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ).

حدَّثَنا الفَقِيهُ أَبُو الوَلِيدِ -رَحِمَهُ اللهُ-، حدَّثَنا الحُسَيْنُ بْنُ محمَّدٍ الحافِظُ، حدَّثَنا أَبُو عُمَرَ، حدَّثَنا أَبُو محمَّدٍ، حدَّثَنا أَبُو بَكْرٍ، حدَّثَنا أَبُو دَاوُدَ، حدَّثَنا محمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنا سُفْيَانُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قالَتْ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ... الحديثَ[1].

وفي رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ: (فلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فأَحْسِبَ أَنَّه صَادِقٌ، فأَقْضِيَ له)[2].

وتَجْرِي أَحْكَامُه ﷺ على الظَّاهِرِ، ومُوجَبِ غَلَبَاتِ الظَّنِّ؛ بِشَهَادَةِ الشَّاهِدِ، ويَمِينِ الحالِفِ، ومُرَاعَاةِ الأَشْبَهِ، ومَعْرِفَةِ العِفَاصِ والوِكَاءِ مَعَ مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللهِ تعالى في ذلكَ؛ ..

---

(١) حديث أمِّ سلمة (إنما أنا بشر ...): أسنده من طريق أبي داود [٣٥٨٣]، وهو في الصحيحين [البخاريُّ (٢٤٥٨)، ومسلمٌ (١٧١٣)].

(٢) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٤٥٨)، ومسلمٌ (١٧١٣)].

قوله (وأَمَّا ما يَعْتَقِدُه... إلخ): بفتحِ الياءِ وسكونِ العينِ المُهْمَلةِ وفتحِ المُثَنَّاةِ الفوقيةِ وكسرِ القافِ، ورُوِيَ بضَمِّ أَوَّلِه وفتحِ ثالِثِه والقافِ كَمَا في حَاشيةِ الحِجَازِيِّ.

قوله (أَلْحَنَ بِحُجَّتِه): أي أَعْرَفَ وأَفْطَنَ بخُصُومَتِه.

قوله (على نَحْوِ ما أَسْمَعُ): بالإضافةِ، وفي نسخةٍ بكسرِ الواوِ مُنَوَّنَةً.

قوله (محمَّدُ بنُ كَثِيرٍ): -بفتحِ الكافِ وكسرِ الثاءِ المُثَلَّثَةِ- هُوَ العَبْدِيُّ البصريُّ.

قوله (زينبَ بِنتِ أُمِّ سَلَمَةَ): رَبِيبةُ النبيِّ عَلَيْه أفضلُ الصّلاة والسّلام، وكانَ اسمُها بَرَّةَ -بفتحِ الموحَّدةِ-، فقالَ النبيُّ ﷺ: فلا تُزَكُّوا أنفُسَكم؛ اللهُ أَعْلَمُ بأهلِ البرِّ منْكم، فسَمَّاها زَيْنَبَ.

قوله (أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ): أي أَفْصَحَ.

قوله (فأَحْسِبَ أنَّه صَادِقٌ): أي أَظُنَّ أنَّ كَلامَه مطابِقٌ لِمَا في نَفْسِ الأمرِ.

قوله (وموجَبِ غَلَبَاتِ الظَّنِّ): أي مُقْتَضَى غَلَبَاتِ... إلخ، و(مُوجَب) بفتحِ الجيمِ.

قوله (ومَعرفةِ العِفَاصِ): -بكَسْرِ العَينِ المهمَلةِ بَعْدَها فاءٌ فألِفٌ فصادٌ مكسُورةٌ- الوِعاءُ الَّذي يَكونُ فيه الشيْءُ.

وقوله (والوِكَاءِ): -بكَسْرِ الواوِ وفتحِ الكافِ ممدودًا- خَيْطُ الوِعَاءِ، والمُرادُ كُلُّ ما يُرْبَطُ مِنْ صُرَّةٍ وغَيْرِها.

فإنَّـه تعـالى لَـوْ شـاءَ لَأطْلَعَـهُ عـلى سَرائـرِ عِبـادِهِ ومُخبَّـآتِ ضَمائِـرِ أُمَّتـه، فتَـوَلَّى الحُكْـمَ بَيْنَهُـمْ بِمُجَـرَّدِ يَقينِـهِ وعِلْمِـه دُونَ حاجَـةٍ إِلى اعْـترافٍ أَوْ بَيِّنَـةٍ أَوْ يَمِـينٍ أَوْ شُـبْهَةٍ، ولَكِـنْ لَمَّـا أَمَـرَ اللهُ أُمَّتَـه باتِّبَاعِـهِ والاقْتِـداءِ بـهِ في أَفْعَالِـهِ وأَحْوالِـهِ وقَضَايَـاهُ وسَـيْرِه، وكَانَ هَـذا لَـوْ كانَ مِمَّـا يَخْتَـصُّ بِعِلْمِـه، ويُؤْثِـرُهُ اللهُ بـهِ لَمْ يَكُـنْ لِلْأُمَّـةِ سَـبِيلٌ إِلَى الاقْتِـدَاءِ بـهِ في شَيْءٍ مِـنْ ذلِـكَ، ولا قَامَـتْ حُجَّـةٌ بِقَضِيَّـةٍ مِـنْ قَضَايَـاهُ لِأَحَـدٍ في شَريعَتِـهِ؛ لِأَنَّـا لا نَعْلَـمُ مـا أُطْلِـعَ عَلَيْـهِ هُـوَ في تِلْـكَ القَضِيَّـةِ لِحُكْمِـهِ هُـوَ إِذًا في ذلِـكَ بالمَكْنُـونِ مِـنْ إِعْـلامِ اللهِ لَـهُ بِـمَا أَطْلَعَـهُ عَلَيْـهِ مِـنْ سَرائِرِهِـمْ، وهَـذا مَـا لا تَعْلَمُـه الأُمَّـةُ.

فأَجْرَى اللهُ أَحْكامَـهُ عـلى ظواهِرِهِـم الَّتي يَسْتَوِي فيهَـا هُـوَ وغَـيْرُهُ مِـنَ البَـشَرِ؛ لِيَتِـمَّ اقْتِـدَاءُ أُمَّتِـه بـهِ في تَعْيِـينِ قَضَايَـاهُ وتَنْزِيـلِ أَحْكامِـه، ويَأْتُـونَ مَـا أَتَـوْا مِـنْ ذلـكَ عـلى عِلْـمٍ ويَقِـينٍ مِـنْ سُـنَّتِه؛ إِذِ البَيَـانُ بالفِعْـلِ أَوْقَـعُ مِنْـهُ بالقَـوْلِ، وأَرْفَـعُ لِاحْتِـمالِ اللَّفْـظِ وتَأْوِيـلِ المُتَأَوِّلِ، فَـكَانَ حُكْمُـه عـلى الظَّاهِـرِ أَجْـلَى في البَيَـانِ، وأَوْضَـحَ في وُجُـوهِ الأَحْـكام، وأَكْثَـرَ فَائِـدَةً لِموجِبَـاتِ التَّشَـاجُرِ والخِصَـام، ولِيَقْتَـدِيَ بذلِـكَ كُلِّـهِ حُـكَّامُ أُمَّتِـهِ، ويُسْـتَوْثَقَ بِـمَا يُؤْثَـرُ عَنْـهُ، ويَنْضَبِـطَ قَانُـونُ شريعَتِـهِ.

وَطَـيُّ ذلـك عَنْـهُ مِـنْ عِلْـمِ الغَيْـبِ الَّـذي اسْـتَأْثَرَ بـهِ ﴿عـالِمُ الغَيْـبِ فَـلَا يُظْهِـرُ عـلى غَيْبِـه أَحَـدًا * إِلَّا مَـنِ ارْتَـضَى مِـنْ رَسُـولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فيُعْلِمُـه مِنْـه بِـمَا شـاءَ، ويَسْـتَأْثِرُ بِـمَا شَـاءَ، وَلا يَقْـدَحُ هَـذا في نُبُوَّتـه، ولا يَفْصِـمُ عُـرْوَةً مِـنْ عِصْمَتِـه.

***

قولـه (ومُخبَّـآتِ): جمـعُ «مُخبَّـأَةٍ» -اسـمُ مفعـولٍ- أي مكتومـةٍ، وخَبايـا الأرضِ في الحديـثِ الـزَّرْعُ لِاسـتتاره إذا بُـذِرَ. وقولـه (ضَمائـرِ أُمَّتـه): أي مـا أَضْمَـرُوهُ.

قولـه (هُـوَ إِذًا في ذلـك بالمكنـونِ): أي هُـوَ حينَئِـذٍ في وَقْـتِ وُرودِهـا بالمسـتورِ.

قوله (وهذا): أي الأمرُ المكنونُ.

قولـه (لِموجِبَـاتِ التشـاجُرِ): -بضـمِّ الجيـمِ- أي النِّـزاعِ.

قولـه (إِلَّا مَـنِ ارتَـضَى مِـن رَسـولٍ): مَلَـكًا كانَ أو بَـشَرًا.

قولـه (ولا يَفْصِـمُ): -بفتـحِ اليـاءِ وسـكونِ الفـاءِ وكـسْرِ الصـادِ- أي لا يَحُـلُّ (عُـرْوةً).

***

فَصْلٌ [فِي أَقْوالِهِ ﷺ الدُّنيَوِيّةِ]

وَأَمَّا أَقْوالُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ أَحْوالِهِ وَأَحْوالِ غَيْرِهِ، وَمَا يَفْعَلُهُ أَوْ فَعَلَهُ، فَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الخُلْفَ فِيهَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وعَلَى أَيِّ وَجْهٍ مِنْ عَمْدٍ أَوْ سَهْوٍ، أَوْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضٍ، أَوْ رِضًى أَوْ غَضَبٍ، وأَنَّه ﷺ مَعْصُومٌ مِنْهُ. هَذَا فِيمَا طَرِيقُهُ الخَبَرُ المَحْضُ مِمَّا يَدْخُلُه الصِّدْقُ والكَذِبُ.

فأَمَّا المَعَارِيضُ المُوهِمُ ظاهِرُهَا خِلَافَ بَاطِنِهَا فجَائِزٌ وُرُودُهَا مِنْه فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ لا سِيَّمَا لِقَصْدِ المَصْلَحَةِ كَتَوْرِيَتِهِ عَنْ وَجْهِ مَغَازِيهِ لِئَلَّا يَأْخُذَ العَدُوُّ حِذْرَهُ، وكَمَا رُوِيَ مِنْ مُمَازَحَتِهِ ودُعَابَتِهِ لِبَسْطِ أُمَّتِه، وتَطْيِيب قلوبِ المُؤْمِنِينَ مِنْ صَحَابَتِهِ، وتأْكِيدًا فِي تَحَبُّبِهِمْ ومَسَرَّة نُفُوسِهِمْ، كَقَوْلِهِ: (لَأَحْمِلَنَّكَ على ابْنِ النَّاقَةِ)[1]، وقَوْلِه لِلْمَرْأَةِ الَّتِي سَأَلَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا: (أَهُوَ الَّذِي بِعَيْنِه بَيَاضٌ)[2]، وهَذا كُلُّه صِدْقٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ جَمَلٍ ابْنُ نَاقَةٍ، وكُلَّ إِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ بَيَاضٌ، وقَدْ قَالَ ﷺ: (إِنِّي لَأَمْزَحُ، ولا أَقُولُ إلا حَقًّا)[3]، هَذا كُلُّه فِيما بابُه الخَبَرُ.

(١) حديث (لأحملنك على ابن الناقة): أبو داود [٤٩٩٨]، والترمذيُّ [٢٠١١] وصحَّحه عن أنس.

(٢) حديث (هو الذي بعينه بياض): ابن أبي الدنيا [والزبير بن بكار في كتاب «الفكاهة» كما ذكره العراقي في تخريج «أحاديث الإحياء» (٣/ ١٢٩)] وغيره من حديث عبد الله بن سهم الفهري.

(٣) حديث (إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا): أحمد [٨٤٨١]، والترمذيُّ [١٩٩٠]، والطبرانيُّ في «الأوسط» واللفظ له [٨٧٠٦] عن أبي هريرة، وسنده حسنٌ، وأخرجه الطبراني في الثلاثة [«الكبير» (١٣٤٤٣)، و«الأوسط» (٩٩٥)، و«الصغير» (٧٧٩)] عن ابن عمر بسندٍ حسنٍ.

قولـه (مِنْ إخبـارِه): -بِكَسْرِ الهَمزةِ- أي إعلامِه. قوله (وما يَفعَلُه أوْ فَعَلَه): أي في المستقبَلِ والماضي. قوله (أنَّ الخُلْفَ): أي الخِلَافَ أو الإخلافَ، وفُسِّرَ بالكَذِبِ. قوله (معصومٌ): أي في إخبارِه في جميعِ أحْوالِه.

قوله (الخَبَرُ المَحْضُ): أي الذي ليسَ فيه تَورِيَةٌ. قوله (مِمَّا يَدْخُلُه الصِّدْقُ والكَذِبُ): بالنسبةِ لِغَيْرِ النبيِّ ﷺ.

قوله (لا سِيَّما لِقَصْدِ المَصلَحةِ): أي المتعلِّقةِ بأمورِ الآخِرةِ. قوله (كتَوْرِيَتِه عَنْ وَجْهِ مغازِيه): يَعْنِي أنَّه إذا قَصَدَ غَزْوَةً وَرَّى بِغَيْرِها سَتْرًا لِمَقصودِه مِنَ العَدُوِّ لِئَلَّا يَبْلُغَه الخَبَرُ، وفي الحديثِ: (إنَّ في المَعاريضِ لَمَندوحةً عَنِ الكَذِبِ)[1].

قوله (ودُعابَتِه): -بِضَمِّ الدالِ المهمَلةِ- أي مُلاعَبَتِه، ومِنْه قولُه لِجابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (هَلَّا بِكْرًا تُداعِبُها). قوله (لِبَسْطِ أُمَّتِه): أي لِانبساطِه معَهم. قوله (مِنْ صَحابَتِه): الأظهَرُ كَما قالَ المُلَّا: (مِنْ) تبعيضيةٌ لا بَيانيةٌ كَما قالَه الدلجيُّ لِأنَّ مِزاحَه ﷺ لَمْ يَكُنْ مَعَ جَميعِ أصحابِه. قوله (وتأكيدًا في تَحَبُّبِهم): أي مَيْلِهم إلَيْه.

(١) روي هذا الحديث عن عِمران بن حُصَين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوفًا ومرفوعًا: فأخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، والطحاويُّ في «شرح مشكل الآثار» (٧/ ٣٧٠)، والبيهقيُّ في «السُّنن» (٢٠٨٤٢). وأخرجه مرفوعًا: أبو الشيخ في «الأمثال» (٢٣٠)، وابن عديٍّ في «الكامل» (٣/ ٥٦٧)، والقضاعيُّ في «مسند الشهاب» (١٠١١)، والبيهقيُّ في «السنن» (٢٠٨٤٣). وصحَّح البيهقيُّ، والهيثميُّ الموقوفَ، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ١٣٠): «رواه الطَّبرانيُّ، ورجالُه رجالُ الصَّحيحِ».

فأمَّا ما بابُه غيرُ الخَبَرِ مِمَّا صُورتُه صُورةُ الأمْرِ والنَّهْيِ في الأُمُورِ الدُّنْيَويَّةِ؛ فلا يَصِحُّ مِنْهُ أيْضًا ولا يَجُوزُ عَلَيْهِ أنْ يَأمُرَ أحَدًا بِشَيْءٍ أوْ يَنْهَى أحَدًا عَنْ شَيْءٍ، وهُوَ يُبْطِنُ خِلافَهُ، وقَدْ قالَ ﷺ: (ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ تَكُونَ لَهُ خائِنَةُ الأعْيُنِ)(١)، فكَيْفَ أنْ تَكُونَ لَهُ خائِنَةُ قَلْبٍ؟!

فإنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ في قِصَّةِ زَيْدٍ: ﴿وإذْ تَقُولُ لِلَّذِي أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأنْعَمْتَ عَلَيْهِ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٣٧]؟!

فاعْلَمْ -أكْرَمَكَ اللهُ-، ولا تَسْتَرِبْ في تَنْزِيهِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ هَذا الظَّاهِرِ، وأنْ يَأمُرَ زَيْدًا بِإمْساكِها وهُوَ يُحِبُّ تَطْلِيقَهُ إيَّاها كَمَا ذُكِرَ عَنْ جَماعَةٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ، وأصَحُّ مَا في هَذا ما حَكاهُ أهْلُ التَّفْسِيرِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ أنَّ اللهَ تعالى كانَ أعْلَمَ نَبِيَّهُ أنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أزْواجِهِ(٢)، فلَمَّا شَكاها إلَيْهِ زَيْدٌ قالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللهَ﴾، وأخْفَى مِنْهُ في نَفْسِهِ مَا أعْلَمَهُ اللهُ بِهِ أنَّهُ سَيَتَزَوَّجُها مِمَّا اللهُ مُبْدِيهِ ومُظْهِرُهُ بِتَمامِ التَّزْوِيجِ، وطَلاقِ زَيْدٍ لها.

ورُوِيَ نَحْوُهُ عن عَمْرِو بنِ فائِدٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ، قالَ: نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام على النَّبِيِّ ﷺ، يُعْلِمُهُ أنَّ اللهَ يُزَوِّجُهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ(٣)، فذَلِكَ الَّذِي أخْفَى في نَفْسِهِ، ويُصَحِّحُ هَذا قَوْلُ المُفَسِّرِينَ في قَوْلِهِ بَعْدَ هَذا: ﴿وكانَ أمْرُ اللهِ مَفعُولًا﴾، أيْ لا بُدَّ لَكَ أنْ تَتَزَوَّجَها.

ويُوَضِّحُ هَذا أنَّ اللهَ تعالى لَمْ يُبْدِ مِنْ أمْرِهِ مَعَها غَيْرَ زَواجِهِ لها، فدَلَّ أنَّهُ الَّذِي أخْفاهُ عليه السلام مِمَّا كانَ أعْلَمَهُ بِهِ تعالى، وقَوْلُهُ تعالى في القِصَّةِ: ﴿ما كانَ على النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فدَلَّ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَرَجٌ في الأمْرِ.

---

(١) حديث (ما كان لنبيٍّ أن يكون له خائنة الأعين): أبو داود [٢٦٨٣]، والنَّسائيُّ [٤٠٦٧] عن سعد بن أبي وقَّاص.

(٢) حديث عليِّ بن حسين (إن الله كان أعلم نبيه ..): ابن أبي حاتم [١٧٦٩٥].

(٣) حديث الزهري (نزل جبريل ...): [ذكره ابن الملقن في «البدر المنير» (٧/ ٤٧٣) عن علي زين العابدين والزهريِّ].

قوله (وهو يُبطِنُ خِلافَه): أي يُضْمِرُه.

قوله (أنْ تكونَ له خائنةُ الأعْيُنِ): أي إيماؤه بها على وَجْهِ الخِيانةِ.

قوله (أنْعَمَ اللهُ): أي بالإسْلامِ. قوله (وأنعَمْتَ عَلَيْه): أي بالعِتقِ.

قوله (بنُ فائدٍ): بالفاءِ في أوَّلِه ودالٍ في آخِرِه.

قوله (أنَّ اللهَ لَمْ يُبْدِ مِن أمْرِه): أي لَمْ يُظْهِرْ مِن شأنِه.

قَالَ الطَّبَرِيُّ: مَا كَانَ اللهُ لِيُؤَثِّمَ نَبِيَّهُ فِيمَا أَحَلَّ مِثَالَ فِعْلِهِ لِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، أَيْ مِنَ النَّبِيِّينَ فِيمَا أَحَلَّ لَهُمْ، وَلَوْ كَانَ عَلَى مَا رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ[1]، مِنْ وُقُوعِهَا فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا أَعْجَبَتْهُ، وَمَحَبَّتِهِ طَلَاقَ زَيْدٍ لَهَا لَكَانَ فِيهِ أَعْظَمُ الحَرَجِ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ مَدِّ عَيْنَيْهِ لِمَا نُهِيَ عَنْهُ مِنْ زَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَكَانَ هَذَا نَفْسَ الحَسَدِ المَذْمُومِ الَّذِي لَا يَرْضَاهُ وَلَا يَتَّسِمُ بِهِ الأَتْقِيَاءُ؛ فَكَيْفَ بِسَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟!

قَالَ القُشَيْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَهَذَا إِقْدَامٌ عَظِيمٌ مِنْ قَائِلِهِ، وَقِلَّةُ مَعْرِفَةٍ بِحَقِّ النَّبِيِّ -ﷺ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ وَمَجَّدَ كَثِيرًا-، وَبِفَضْلِهِ، وَكَيْفَ يُقَالُ: رَآهَا فَأَعْجَبَتْهُ، وَهِيَ بِنْتُ عَمَّتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مُنْذُ وُلِدَتْ، وَلَا كَانَ النِّسَاءُ يَحْتَجِبْنَ مِنْهُ ﷺ، وَهُوَ زَوَّجَهَا لِزَيْدٍ. وَإِنَّمَا جَعَلَ اللهُ طَلَاقَ زَيْدٍ لَهَا، وَتَزْوِيجَ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهَا لِإِزَالَةِ حُرْمَةِ التَّبَنِّي، وَإِبْطَالِ سَبَبِهِ كَمَا قَالَ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وَنَحْوُهُ لِابْنِ فُورَكَ.

وَقَالَ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ: فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الفَائِدَةُ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ لِزَيْدٍ بِإِمْسَاكِهَا؟ فَهُوَ أَنَّ اللهَ أَعْلَمَ نَبِيَّهُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ طَلَاقِهَا إِذْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمَا أُلْفَةٌ، وَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ مَا أَعْلَمَهُ اللهُ بِهِ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدٌ خَشِيَ قَوْلَ النَّاسِ: يَتَزَوَّجُ امْرَأَةَ ابْنِهِ؛ فَأَمَرَهُ اللهُ بِزَوَاجِهَا لِيُبَاحَ مِثْلُ ذَلِكَ لِأُمَّتِهِ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾.

وَقَدْ قِيلَ: كَانَ أَمْرُهُ لِزَيْدٍ بِإِمْسَاكِهَا قَمْعًا لِلشَّهْوَةِ، وَرَدًّا لِلنَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا، وَهَذَا إِذَا جَوَّزْنَا عَلَيْهِ أَنَّهُ رَآهَا فَجْأَةً وَاسْتَحْسَنَهَا،

---

(١) حديث قتادة: عبد بن حميد في تفسيره [كما في «الدر المنثور» ٦/ ٦١٧].

قوله (لِيُؤَثِّمَ): -بتشديد المُثَلَّثَةِ- أي يَنْسُبَه إلى الإثم.

قوله (مِثَالَ فِعْلِه): أي فِعْلِ الله.

قوله (ولَوْ كانَ): أي مَا أَخْفَاه.

قوله (أَنَّهَا زَوجَتُه): أي في آخِرِ الأمرِ.

قوله (وأَخْفَى في نَفْسِه... إلخ): أي مِنْ أَنَّهَا سَتَصِيرُ زوجَتَه.

ومِثْلُ هذا لا نُكْرَةَ فِيهِ؛ لِمَا طُبِعَ عَلَيْهِ ابْنُ آدَمَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ لِلْحَسَنِ، وَنَظْرَةُ الفَجْأَةِ مَعْفُوٌّ عَنْهَا، ثُمَّ قَمَعَ نَفْسَهُ عَنْهَا، وأَمَرَ زَيْدًا بِإِمْسَاكِهَا.

وإِنَّمَا تُنْكَرُ تلْكَ الزِّيَادَاتُ الَّتِي فِي القِصَّةِ، والتَّعْوِيلُ والأَوْلَى مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، وحَكَاهُ السَّمَرْقَنْدِيُّ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَطَاءٍ، وصَحَّحَهُ واسْتَحْسَنَهُ القَاضِي القُشَيْرِيُّ، وعَلَيْهِ عَوَّلَ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ، وقَالَ: إِنَّه مَعْنَى ذلكَ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ. قَالَ: والنَّبِيُّ ﷺ مُنَزَّهٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ النِّفَاقِ فِي ذلِكَ، وإِظْهَارِ خِلَافِ مَا فِي نَفْسِهِ، وقَدْ نَزَّهَهُ اللهُ عَنْ ذلكَ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. قَالَ: وَمَنْ ظَنَّ ذلكَ بالنَّبِيِّ فَقَدْ أَخْطَأَ.

قَالَ: ولَيْسَ مَعْنَى الخَشْيَةِ هُنَا الخَوْفَ، وإِنَّمَا مَعْنَاهُ الاسْتِحْيَاءُ، أَيْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا: تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ، وأَنَّ خشْيَتَهُ ﷺ مِنَ النَّاسِ كَانَتْ مِنْ إِرْجَافِ المُنَافِقِينَ واليَهُودِ وتَشْغِيبِهِمْ عَلى المُسْلِمِينَ؛ بِقَوْلِهِمْ: تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ بَعْدَ نَهْيِهِ عَنْ نِكَاحِ حَلَائِلِ الأَبْنَاءِ كَمَا كَانَ، فعَتَبَه اللهُ تعالى عَلى هذا، وَنَزَّهَه عَنِ الالتفاتِ إِلَيْهِمْ فِيمَا أَحَلَّه لَهُ، كَمَا عَتَبَه عَلَى مُرَاعَاةِ رِضَى أَزْوَاجِهِ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ...﴾ الآيةَ [التحريم: ١].

كَذَلِكَ قَوْلُه هُنَا: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، وقَدْ رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ وعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لَوْ كَتَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ الآيَةَ)[1]؛ لِمَا فِيهَا مِنْ عَتْبِهِ وإِبْدَاءِ مَا أَخْفَاهُ.

***

قوله (لا نُكْرَةَ فيه): -بضمٍّ النونِ وسكونِ الكافِ- اسمٌ مِنَ الإنكارِ.

قوله (مِنِ استحسانه لِلْحَسَنِ): -بفتحتينِ أو بضمٍّ فسكونٍ- أي مَيْلِ طَبْعِه إلى الأَمْرِ المستَحْسَنِ.

قوله (فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَه): أي قَضَاه وقَدَّرَه.

قوله (مِنْ إرجافِ المنافِقِينَ... إلخ): أي إخبارِ سوءٍ وتزلزلٍ.

***

---

(١) حديث عائشة (لو كتم شيئًا لكتم هذه الآية ...): الترمذيُّ [٣٠٦٨] وصحَّحه.

فَصْلٌ [في الكَلامِ على حديثِ وَصيَّتِه ﷺ في مَرَضِه]

فإنْ قُلْتَ: قَدْ تَقَرَّرَتْ عِصْمَتُهُ ﷺ في أَقْوالِه في جَميعِ أحْوالِه، وأنَّه لا يَصِحُّ مِنْهُ فيهَا خُلْفٌ ولا اضْطِرابٌ في عَمْدٍ ولا سَهْوٍ، وَلا صِحَّةٍ ولا مَرَضٍ، ولا جِدٍّ ولا مَزْحٍ، ولا رِضًى ولا غَضَبٍ؛ ولَكِنْ مَا مَعْنَى الحديثِ في وَصِيَّتِه ﷺ الَّذي حَدَّثَنا بِه القاضي الشهيدُ أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-، قالَ: حَدَّثَنا القَاضِي أبو الوَليدُ، قَالَ: حَدَّثَنا أَبُو ذرٍّ، قالَ: حَدَّثَنا أَبُو محمَّدٍ وأَبُو الهَيْثَمِ وأَبُو إِسْحاقَ، قالُوا: حَدَّثَنا محمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنا محمَّدُ بْنُ إِسْماعيلَ، قالَ: حَدَّثَنا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الله، قالَ: حَدَّثَنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عن مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قالَ:

لَمَّا احتُضِرَ ﷺ، وفي البَيْتِ رِجالٌ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: (هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ)، فقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ غَلَبَه الوَجَعُ... الحَديثَ، وفي رِوايَةٍ: (ائتوني أَكْتُبُ لَكُمْ كِتابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا)، فتَنَازَعُوا فقالُوا: ما لَه، أَهَجَرَ؟! اسْتَفْهِمُوهُ! فقالَ: (دَعُونِي؛ فإنَّ الَّذي أَنَا فيهِ خَيْرٌ)، وَفي بَعْضِ طُرُقِه: إنَّ النَّبيَّ يَهْجُرُ؟! وَفي رِوايَةٍ: هَجَرَ؟! ويُرْوَى: أَهُجْرٌ؟! ويُرْوَى: أَهُجْرًا، وفيهِ: فقالَ عُمَرُ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدِ اشْتَدَّ بِه الوَجَعُ، وعِنْدَنا كِتابُ الله حَسْبُنَا، وكَثُرَ اللَّغَطُ، فقَالَ: (قُومُوا عَنِّي)، وفي رِوايَةٍ: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ البَيْتِ، واخْتَصَمُوا؛ فمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَرِّبوا يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ الله ﷺ كِتابًا، ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قالَ عُمَرُ[1].

قَالَ أَئِمَّتُنا في هَذا الحَديثِ: إنَّ النَّبيَّ غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الأَمْراضِ ومَا يَكُونُ مِنْ عَوارِضِهَا مِنْ شِدَّةِ وَجَعٍ وغَشْيٍ ونَحْوِه مِمَّا يَطْرَأُ على جِسْمِهِ، مَعْصُومٌ أَنْ يَكُونَ مِنْه مِنَ القَوْلِ أَثْناءَ ذلِك مَا يَطْعَنُ في مُعْجِزَتِه،

قوله (ولا جِدٌّ): -بكسرِ الجيمِ- ضِدُّ الهَزْلِ.

قوله (لَمَّا احتُضِرَ): -بصيغةِ المفعُولِ- أي احْتضر والمعنى: قَرُبَ أَجَلُه. قوله (أَكْتُبْ): بصيغَةِ المتكلمِ مجزومًا عَلى جوابِ الأمرِ.

قوله (أَهَجَرَ): -بفتحِ الهمزةِ والهاءِ والجيمِ على أنَّ الهمزةَ لِلاستفهامِ الإنكاريِّ- مِنَ الهُجْرِ -بضمِّ الهاءِ- أي الهَذَيانِ. قوله (استَفْهِمُوه): -بِكَسْرِ الهاءِ- أي استَخْبِرُوه. قوله (يَهْجُرُ): بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ؛ بتقديرِ الاستفهامِ الإنكاريِّ. قوله (ويُرْوَى: أَهُجْرًا): بهمزةِ الاسْتفهَامِ وضمِّ الهاءِ وسكونِ الجيمِ منصُوبًا، والتقديرُ: أَيَهْجُرُ هُجْرًا؟! قوله (اللَّغَطُ): -بفتحِ الغينِ المعجَمةِ والطاءِ المهمَلةِ- أي اختلافُ الأصْواتِ.

قوله (أئمَّتُنا): أي المالكيةُ. قوله (وغَشْيٍ): -بفتحِ الغيْنِ المعجَمةِ وسكونِ الشينِ- أي إغماءٍ.

---

(١) حديث ابن عبّاس (لما احتضر ...): أسنده من طريق البخاريِّ [١١٤]، وأخرجه مسلمٌ أيضًا [١٦٣٧]. رواية (ما له أَهَجَرَ؟): في البخاريِّ [٣١٦٨]، رواية (هجر استفهموه): عند الإسماعيلي في «المستخرج»، رواية (هجر): في البخاريِّ [٣٠٥٣]، رواية (أهجرًا): [عزاها المصنف فيما يلي لأبي إسحاق المستملي أحد رواة الصحيح]، رواية (واختلف أهل البيت): في الصحيح [البخاري (٤٤٣٢)، ومسلم (١٦٣٧)].

ويُؤدِّي إلى فَسَادٍ في شَرِيعَتِهِ مِنْ هَذَيَانٍ أَوِ اخْتِلَالٍ في كَلَامٍ؛ وعَلَى هَذا لا يَصِحُّ ظَاهِرُ رِوايَةِ مَنْ رَوَى في الحديثِ «هَجَرَ»؛ إِذْ مَعْنَاهُ هَذَى، يُقالُ: هَجَرَ هُجْرًا: إِذا هَذَى، وأَهْجَرَ هُجْرًا: إِذا أَفْحَشَ، و«أَهْجَرَ» تَعْدِيَةُ «هَجَرَ»، وإِنَّما الأَصَحُّ والأَوْلَى «أَهَجَرَ» على طَرِيقِ الإِنْكارِ على مَنْ قالَ: لا نَكْتُبُ.

وهَكَذا رِوايَتُنا فيه في صحيحِ البُخارِيِّ مِنْ رِوايَةِ جَمِيعِ الرِّواياتِ في حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ المُتقدِّمِ، وفي حديثِ محمّدِ بْنِ سَلَامٍ عَنِ ابنِ عُيَيْنَةَ، وكَذا ضَبَطَهُ الأَصِيلِيُّ بِخَطِّهِ في كِتابِه، وغَيْرُه مِنْ هَذِهِ الطُّرُقِ، وكَذا مَا رَوَيْنَاهُ عَنْ مُسْلِمٍ في حَدِيثِ سُفْيَانَ وعَنْ غَيْرِه.

وقَدْ يُحْمَلُ عَلَيْهِ رِوايَةُ مَنْ رَوَى «هَجَرَ»؟ على حَذْفِ أَلِفِ الاسْتِفهامِ، والتَّقْدِيرُ «أَهَجَرَ»؟ أَوْ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُ القَائِلِ «هَجرَ»، أَوْ «أَهْجَرَ» دَهْشَةً مِنْ قائِلِ ذلِكَ، وحَيْرَةً لِعَظِيمِ مَا شَاهَدَ مِنْ حَالِ الرَّسُولِ وشِدَّةِ وَجَعِه، وهَوْلِ المَقَامِ الَّذِي اخْتُلِفَ فِيهِ عَلَيْه، والأَمْرِ الَّذِي هَمَّ بالكِتابِ فيهِ حَتَّى لَمْ يَضْبِطْ هذا القائِلُ لَفْظَهُ، وأَجْرَى الهُجْرَ مُجْرَى شِدَّةِ الوَجَعِ؛ لا أَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّه يَجُوزُ عَلَيْهِ الهُجْرُ، كَمَا حَمَلَهُمُ الإِشفاقُ على حِراسَتِهِ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ونَحْوِ هَذا. وأَمَّا عَلَى رِوايَةِ «أَهُجْرًا» -وَهِيَ رِوايَةُ أَبِي إِسْحَاقَ المُسْتَمْلِي في الصَّحِيحِ، في حَدِيثِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ رِوايَةِ قُتَيْبَةَ- فَقَدْ يَكُونُ هَذَا رَاجِعًا إلى المُخْتَلِفِينَ عِنْدَهُ ﷺ، ومُخَاطَبَةً لَهُمْ مِنْ بَعْضِهِمْ، أَيْ جِئْتُمْ باخْتِلَافِكُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وبَيْنَ يَدَيْهِ هُجْرًا ومُنْكَرًا مِنَ القَوْلِ؟! و«الهُجْرُ» بِضَمِّ الهاءِ: الفُحْشُ في المَنْطِقِ.

وقَدِ اخْتَلَفَ العُلَماءُ في مَعْنَى هَذا الحَدِيثِ، وكَيْفَ اخْتَلَفُوا بَعْدَ أَمْرِهِ لَهُمْ ﷺ أَنْ يَأْتُوهُ بالكِتابِ، فقالَ بَعْضُهُمْ: أَوَامِرُ النَّبِيِّ ﷺ يُفْهَمُ إِيجَابُها مِنْ نَدْبِها مِنْ إِباحَتِها بِقَرائِنَ، فلَعَلَّه قَدْ ظَهَرَ مِنْ قَرائِنِ قَوْلِهِ ﷺ لِبَعْضِهِمْ مَا فَهِمُوا أَنَّه لَمْ يَكُنْ مِنه عَزْمَةً، بَلْ أَمْرٌ رَدَّهُ إِلَى اخْتِيارِهِمْ، وبَعْضُهُمْ لَمْ يَفْهَمْ ذلِكَ؛ فقالَ: «اسْتَفْهِمُوهُ»، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا كَفَّ عَنْهُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ عَزْمَةً، ولِمَا رَأَوْهُ مِنْ صَوابِ رَأْيِ عُمَرَ.

قوله (مِنْ هَذَيانٍ): -بفتحِ الهاءِ والذالِ المعجَمَةِ- أي كَلَامٍ مَهجورٍ.

قوله (يقالُ: هَجَرَ هُجْرًا): -بفتحِ الجيمِ؛ أي الأُولى، وسكونِ الثانيةِ- إذا هَذَى. قوله (وأَهْجَرَ هُجْرًا): -بفتحِ الهَمزةِ وسُكونِ الهاءِ- قالَ المُلَّا: وهذا وَهَمٌ مِن المصنِّفِ، والصَّوابُ أَنَّهما لُغتانِ.

قوله (محمدِ بنِ سَلَامٍ): بتخفيفِ اللامِ، وقد تُشَدَّدُ، وهُوَ البيكنديُّ الحافظُ.

قوله (وكذا): أي أَهَجَرَ؛ بفتحاتٍ.

قوله (قولُ القائلِ: هَجَرَ): بفتحِ الهاءِ والجيمِ. قوله (وأَجْرَى الهُجْرَ): بضمِّ الهاءِ الفُحشُ، وبفتحِها الهَذَيانُ. قوله (مُجْرَى): بضمِّ الميمِ وتفتحُ. قوله (يَجُوزُ عَلَيْهِ الهُجْرُ): بضمِّ الهاءِ أو فتحِها. (كَمَا حَمَلَهم الإِشفاقُ عَلَى حراستِه): أي محافظَتِه.

قوله (المُسْتَمْلِي): -بضمِّ الميمِ وسكونِ المُهمَلةِ بَعْدَها مُثَنَّاةٌ فوقيةٌ- أَحَدُ رُواةِ البخاريِّ.

ثُمَّ هؤُلاءِ قالُوا: ويَكُونُ امْتِناعُ عُمَرَ إمَّا إشْفاقًا على النَّبيِّ ﷺ مِن تَكْليفِه في تلْكَ الحالِ إمْلاءَ الكِتابِ، وأنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مَشَقَّةٌ مِنْ ذلِكَ، كَما قالَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ اشْتَدَّ بِه الوَجَعُ، وقِيلَ: خَشِيَ عُمَرُ أنْ يَكْتُبَ أمُورًا يَعْجِزُونَ عَنْها؛ فيَحْصُلُونَ في الحَرَجِ بالمُخالَفَةِ، ورَأى أنَّ الأوْفَقَ بالأُمَّةِ في تلكَ الأُمُورِ سَعَةُ الاجْتِهادِ، وحُكْمُ النَّظَرِ، وطَلَبُ الصَّوابِ، فيَكُونُ المُصِيبُ والمُخْطِئُ مَأْجُورًا، وقَدْ عَلِمَ عُمَرُ تَقَرُّرَ الشَّريعَةِ، وتَأْسِيسَ المِلَّةِ، وأنَّ اللهَ قالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوْلُهُ ﷺ: (أُوصِيكُمْ بِكِتابِ اللهِ وَعِتْرَتِي)[1]، وقَوْلُ عُمَرَ: (حَسْبُنا كِتابُ اللهِ) رَدٌّ على مَنْ نازَعَهُ، لا عَلى أمْرِ النَّبيِّ ﷺ، وقَدْ قِيلَ: خَشِيَ عُمَرُ تَطَرُّقَ المُنافِقِينَ ومَنْ في قَلْبِه مَرَضٌ لِما كُتِبَ في ذلِكَ الكِتابِ في الخَلْوَةِ، وأنْ يَتَقَوَّلُوا في ذلكَ الأقاوِيلَ، كادِّعاءِ الرَّافِضَةِ الوَصِيَّةَ وغَيْرِ ذلِكَ.

وقِيلَ: إنَّه كانَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ على طَرِيقِ المَشْوَرَةِ والاخْتِبارِ، هَلْ يَتَّفِقُونَ على ذلكَ أمْ يَخْتَلِفُونَ؟ فلَمَّا اخْتَلَفُوا تَرَكَهُ.

وقالَتْ طائفَةٌ أُخْرَى: إنَّ مَعْنى الحَديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ مُجيبًا في هَذا الكِتابِ لِما طُلِبَ مِنْه؛ لا أنَّهُ ابْتَدَأَ بالأمْرِ بِه، بَلِ اقْتَضاهُ مِنْهُ بَعْضُ أصْحابِه، فأجابَ رَغْبَتَهُمْ، وكَرِهَ ذلكَ غَيْرُهُمْ لِلْعِلَلِ الَّتي ذَكَرْناها، واسْتَدَلَّ في مِثْلِ هذِه القِصَّةِ بقَوْلِ العَبَّاسِ لِعَليٍّ رضي الله عنهما: انْطَلِقْ بِنا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فإنْ كانَ الأمْرُ فِينا عَلِمْناه، وكَراهَةِ عَليٍّ هَذا، وقَوْلِه: وَاللهِ لا أفْعَلُ... الحديثَ[2]، واسْتَدَلَّ بقَوْلِه: (دَعُوني؛ فإنَّ الَّذي أنا فيهِ خَيْرٌ)، أي الَّذي أنا فيهِ خَيْرٌ مِنْ إرْسالِ الأمْرِ، وتَرْكِكُم وكِتابَ اللهِ، وأنْ تَدْعُوني مِمَّا طَلَبْتُمْ، وذُكِرَ أنَّ الَّذي طُلِبَ كِتابَتُهُ أمْرَ الخِلافَةِ بَعْدَهُ، وتَعْيِينُ ذلِكَ.

***

(١) حديث (أوصيكم بكتاب الله وعِترتي): الطبرانيُّ [٣/ ٦٦ من حديث جابر] وغيره من طرقٍ [والترمذي (٣٧٨٦)].

(٢) حديث (قول العباس لعليٍّ انطلق بنا ..): البخاريُّ [٤٤٤٧] عن ابن عبَّاس.

قوله (خَشِيَ عُمَرُ أنْ يَكْتُبَ): بصيغةِ الفاعلِ والمفعُولِ. قوله (أُوصِيكم بكِتابِ الله): أي بِما فيه مِمَّا يَتعَلَّقُ بالأوامِرِ والنَّواهي.

قوله (يَتقَوَّلوا في ذلك الأقاويلَ): أي الباطلةَ افتراءً مِنْ عِنْدِ أنفُسِهم.

قوله (المَشْوَرَة): -بفتحِ الميمِ وسكونِ الشينِ المعجَمَةِ، وفي نسخةٍ بضمِّ المعجَمَةِ وسكونِ الواوِ- أي المشاوَرةِ.

قوله (بَلِ اقتَضاه): أي طَلَبَهُ. قوله (واسْتَدَلَّ): بصيغةِ الفاعِلِ، وفي نسخةٍ بصيغةِ المجهُولِ.

قوله (دَعُوني): أي اترُكُوني. قوله (فإنَّ الذي أنا فيه خَيْرٌ): وهْوَ الإعراضُ عَنِ الدنيا، والإقبالُ على العُقْبَى.

قوله (وأنْ تَدْعُوني): بفتحِ الدالِ.

قوله (كِتابَتُهُ): خبَرُ (أنَّ) في قولِه (أنَّ الَّذي طُلِب)، وقوله (أمرَ الخِلافة) منصوب على المفعولية.

***

فَصْلٌ [فِي ذِكْرِ شُبْهَةٍ أُخرى مُتعلِّقةٍ بِعصْمَتِه ﷺ في رِضاه وغَضَبِه]

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهُ حَدِيثِهِ أَيْضًا الَّذِي حَدَّثَنَاهُ الفَقِيهُ أَبُو محمَّدٍ الخُشَنِيُّ بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الطَّبَرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الغافِرِ الفَارِسِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو محمَّدٍ الجُلُودِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا إبراهيمُ بْنُ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ الحَجَّاجِ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ سَعيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ سَالِمٍ مَوْلَى النَّصْرِيِّينِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

(اللهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ، وإِنِّي قَدِ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، فأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُه، أَوْ سَبَبْتُه، أَوْ جَلَدْتُه، فاجْعَلْها لَهُ كَفَّارَةً وقُرْبَةً تُقَرِّبُه بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ القِيَامَةِ)[1]، وفي رِوايَةٍ: (فأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ دَعْوَةً)، وفي رِوايَةٍ: (لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ)[2]، وفي رِوايَةٍ: (فأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمينَ سَبَبْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُه، أَوْ جَلَدْتُه، فاجْعَلْهَا لَهُ زَكاةً وصَلَاةً ورَحْمَةً)[3]. وكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَلْعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ، ويَسُبُّ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ السَّبَّ، ويَجْلِدُ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ الجَلْدَ، أَوْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذلكَ عِنْدَ الغَضَبِ وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ هذا كُلِّهِ؟

فاعْلَمْ -شَرَحَ اللهُ صَدْرَكَ- أَنَّ قَوْلَهُ أَوَّلًا (لَيْسَ لَهَا بأَهْلٍ) أَيْ عِنْدَكَ -يا رَبِّ- في بَاطِنِ أَمْرِه؛ فَإِنَّ حُكْمَهُ ﷺ عَلى الظَّاهِرِ كَمَا قَالَ، ولِلحِكْمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا،

(١) حديث أبي هريرة (اللهم إنما محمد بشر ...): أسنده من طريق مسلم [٢٦٠١].

(٢) [أخرجه مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) [أخرجه مسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

قولـه (الخُشَنِيُّ): بضمِّ الخاءِ المعجَمةِ وفتحِ الشينِ المعجَمةِ أيضًا. قوله (الفارِسِيُّ): بكسرِ الراءِ. قوله (الجُلُودِيُّ): بضمِّ الجيمِ واللَّامِ. قوله (النَّصْرِيِّينَ): -بالنونِ والصادِ المهمَلةِ- هوَ ابنُ عبدِ الله النصريُّ.

قوله (إِنَّمَا محمدٌ): وفي نسخةٍ «إنَّ محمّدًا». قوله (كَمَا يَغضَبُ البَشَرُ): إلّا أنَّ غَضَبَه لله بخِلَافِ مَنْ سِوَاه.

قوله (لَنْ تُخْلِفَنِيه): أي أبدًا، فأسألُكَ الوَفاءَ بعَهْدِكَ. قوله (وقُرْبَةً تُقرِّبُه): أي قُرْبَ مَكانةٍ لَا مَكانٍ.

قوله (أو جَلَدْتُه): أي ضَرَبْتُه بيَدِي، أو ضُرِبَ بأمْرِي. قوله (سَبَبْتُه): أي شَتَمْتُه. وقوله (أو لَعَنْتُه): أي طَرَدْتُه عَنْ مَكانِي أوْ لَعَنْتُه بِلِسَانِي.

قوله (فاجْعَلْها له زَكاةً): أي طَهارةً وبَرَكةً. وقوله (وصَلَاةً): أي ووُصْلةً لِقُرْبِه. قوله (كما قال): أي كقولِه: (نَحنُ نَحكُمُ بالظاهرِ، واللهُ يَتَولَّى السّرائرَ)، لَيسَ مِن كلامِ النبوةِ بهذا اللفظِ، بَلْ هوَ مِن كَلَامِ الشافعيِّ.[1]

قوله (وللحكمةِ التي ذَكَرْناها): أي مِن أنَّ أحكامَه إنَّما كانَتْ جاريَةً على موجَباتِ غَلَباتِ ظَنِّه لِيَقْتَدِيَ به أُمَّتُه في حُكْمِه.

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ١٦٢): حديث (أُمِرْتُ أَنْ أَحْكُمَ بِالظَّاهِرِ، واللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ)، اشتهر بين الأصوليين والفقهاء، ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له.

فحكَمَ ﷺ بجَلْدِه، أَوْ أَدَّبَه بِسَبِّهِ أَوْ لَعْنِه بِمَا اقْتَضَاهُ عِنْدَهُ حَالُ ظاهِرِه، ثُمَّ دَعَا لَهُ ﷺ -لِشَفَقَتِهِ عَلى أُمَّتِه، ورَأْفَتِه ورَحْمَتِه لِلمُؤْمِنِينَ الَّتِي وَصَفَهُ اللهُ بِهَا، وحَذَرِه أَنْ يَتَقَبَّلَ فِيمَنْ دَعَا عَلَيْه دَعْوَتَهُ- أَنْ يَجْعَلَ دُعَاءَهُ وفِعْلَه لَه رَحْمَةً، فهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: (لَيْسَ لها بأَهْلٍ)؛ لا أَنَّهُ ﷺ يَحْمِلُهُ الغَضَبُ ويَسْتَفِزُّهُ الضَّجَرُ لأَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ هَذا بِمَنْ لا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ مُسْلِمٍ، وهَذا مَعْنًى صَحِيحٌ.

ولا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: (أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ) أَنَّ الغَضَبَ حَمَلَهُ عَلى مَا لا يَجِبُ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِهَذا أَنَّ الغَضَبَ للهِ حَمَلَه عَلى مُعَاقَبَتِه بلَعْنِه أَوْ سَبِّه، وأَنَّه كَانَ مِمَّا يُحْتَمَلُ ويَجُوزُ عَفْوُهُ عَنْه، أَوْ كَانَ مِمَّا خُيِّرَ بَيْنَ المُعاقَبَةِ فيهِ والعَفْوِ عَنْه، وقَدْ يُحْمَلُ أَنَّه خَرَجَ مَخْرَجَ الإشْفَاقِ وتَعْلِيمِ أُمَّتِهِ الخَوْفَ والحَذَرَ مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ، وقَدْ يُحْمَلُ مَا وَرَدَ مِنْ دُعَائِهِ هُنَا، ومِنْ دَعَوَاتِهِ عَلى غَيْرِ واحِدٍ في غَيْرِ مَوْطِنٍ عَلى غَيْرِ العَقْدِ والقَصْدِ، بَلْ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ العَرَبِ، ولَيْسَ المُرَادُ بِهَا الإجابَةَ، كَقَوْلِه: (تَرِبَتْ يَمِينُكَ)[1]، و(لا أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَكَ)[2]،

---

(١) حديث (تربت يمينك): الشيخان [البخاريُّ (٤٧٩٦)، ومسلمٌ (١٤٤٥)] عن عائشة وغيرها.

(٢) حديث (لا أشبع الله بطنه): مسلمٌ [٢٦٠٤] عن ابن عبَّاس أنه قاله لمعاوية، زاد البيهقيُّ في «الدلائل» [٦/ ٢٤٣]: فما شبع بطنه أبدًا.

قوله (**فحكَمَ ﷺ**): أي بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ لَه مِن قَرائِنِ المَقامِ. قوله (**لَعْنِه**): بصيغةِ المَصدرِ، أو الخَبَرِ.

قوله (**ورَأْفَتِه**): أي شِدَّةِ رأفتِه لِخاصَّتِهِم، وإرادةِ نِعمتِه لِعامَّتِهِم. قوله (**فِيمَن دَعَا عَلَيْه دَعْوَتَه**): [أي في دَعْوَتِه عَلَيْه، وفي نُسْخَةٍ: فيما دَعا عليه دَعْوَتَه]. قوله (**رحمةً**): أي نازِلةً عَلَيْه وواصِلةً إِلَيْه.

قوله (**ويَسْتَفِزُّه**): -بتشديدِ الزايِ- أي يَسْتَخِفُّه. وقوله (**الضَّجَرُ**): -بفتحتَينِ- ضِيقُ الصَّدْرِ.

قوله (**بهذا**): أي الَّذي ذُكِرَ مِن قولِه (**أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ**). قوله (**حَمَلَه على مُعاقَبَتِه... إلخ**): إِذْ وَرَدَ أَنَّه (ما انتقَمَ رسولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِه قَطُّ [إلا] أَنْ تُنْتَهَكَ حرمةُ اللهِ فينتقِمَ له)[1].

قوله (**ويَجُوزُ عَفْوُه عَنْه**): أي عَن مَن عاقَبَه بِلَعْنٍ أو غَيْرِه. قوله (**والعَفْوِ عَنْه**): وفي نسخةٍ «أو العَفْوِ عَنْه».

قوله (**يُحْمَلُ**): أي دُعاؤُه ﷺ لِمَنْ عاقَبَه. قوله (**وتعليمِ أُمَّتِه الخَوْفَ والحَذَرَ**): شفقةً مِنْه عليْهِم.

قوله (**مِنْ دعائِه هُنا**): أي في موضعِ المعاقَبةِ ومَقامِ الغَضَبِ. قوله (**على غَيْرِ العَقْدِ**): أي عَقْدِ القَلْبِ. وقوله (**القَصْدِ**): أي قَصْدِ المعاقَبةِ.

قوله (**بِمَا جَرَتْ به عَادةُ العَرَبِ**): أي على وَفْقِ مَا جَرَتْ بِه عَادتُهم حيثُ لا يُريدونَ وُقوعَ الأمرِ.

قوله (**وليسَ المُرادُ بها**): أي بِدَعَواتِه ﷺ.

قوله (**تَرِبَتْ يَمينُكَ**): -بكَسْرِ الراءِ- أي خَسِرَتْ، وقيلَ: امتلأَتْ تُرابًا، وقيلَ غيرُ ذلكَ، واستَظْهَرَ المُلَّا أَنَّ (أَتْرَبَتْ) بمَعْنَى «استَغْنَتْ».

قوله (**ولا أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَكَ**): قالَه لِمُعاويةَ لكنْ بِلَفظِ (لا أَشبَعَ اللهُ بَطْنَه).

---

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٣٥٦٠) [كتاب المناقب]، ومسلمٌ (٢٣٢٧) [كتاب الفضائل]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

و(عقرى حلقى)[1]، وغيرها من دعواته.

وقد ورد في صفته ﷺ في غير حديث أنه لم يكن ﷺ فحاشا، وقال أنس: لم يكن سبابا ولا فاحشا ولا لعانا، وكان يقول لأحدنا عند المعتبة: (ما له، ترب جبينه!)[2]، فيكون حمل الحديث على هذا المعنى، ثم أشفق ﷺ من موافقة أمثالها إجابة، فعاهد ربه -كما قال في الحديث- أن يجعل ذلك للمقول له زكاة ورحمة وقربة.

وقد يكون ذلك إشفاقا على المدعو عليه وتأنيسا له؛ لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي ﷺ وتقبل دعائه ما يحمله على اليأس والقنوط.

وقد يكون ذلك سؤالا منه لربه لمن جلده أو سبه على حق، وبوجه صحيح أن يجعل ذلك له كفارة لما أصاب، وتمحية لما اجترم، وأن تكون عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران، كما جاء في الحديث الآخر، (ومن أصاب من ذلك شيئا، فعوقب فهو كفارة له)[3].

فإن قلت: فما معنى حديث الزبير، وقول النبي ﷺ له حين تخاصمه مع الأنصاري في شراج الحرة:

(١) حديث (عقرى حلقى ...): الشيخان [البخاريُّ (١٥٦١)، ومسلمٌ (١٢١١)] عن عائشة أنه قاله لصفية.

(٢) حديث أنس (لم يكن سبابًا ..): البخاريُّ [٦٠٣١].

(٣) حديث (ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفَّارة): الشيخان [البخاريُّ (٤٨٩٤)، ومسلمٌ (١٧٠٩)] عن عبادة بن الصامت.

قوله (وعقرى حلقى): قاله لصفية بنت حيي بن أخطب، و(عقرى) من العقر، وهو عقرت الدواب، ومن العقرة، وهي رفع الصوت، ومعنى (حلقى): أصابها وجع في حلقها، وقيل غير ذلك، والمعنى: عقر الله جسدها، وأصابها بوجع في حلقها.

قوله (فحاشا): أي لم يكن منسوبا إلى قول الفحش، وكذا يقال في قوله (لعانا وسبابا). لاقوله (عند المعتبة): -بفتح الفوقية وتكسر- أي عند العتب. قوله (إجابة): أي من أن يجيبها الله في الدنيا والأخرى. قوله (أن يجعل ذلك): أي الدعاء. وقوله (له زكاة): أي طهارة له.

قوله (وتأنيسا له): أي تلطفا بحاله. قوله (من استشعار الخوف): أي إدراكه من الله. قوله (والقنوط): -بضم القاف- أشد اليأس.

قوله (وتمحية): مصدر «محى» مشددا للمبالغة، أي وكثرة محو. وقوله (لما اجترم): أي اكتسبه من العيوب كما جاء في الحديث الآخر، وهو: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم بذلك فأجره على الله)[1]. قوله (فعوقب به): أي جوزي به في الدنيا.

قوله (في شراج الحرة): -بكسر الشين المعجمة- جمع «شرجة»، وهي مسيل الماء إلى السهل، و«الحرة» -بفتح [الحاء] وتشديد الراء المهملتين- أرض صلبة يعلوها حجارة سود، وهي مكان معروف بطيبة، كان فيها وقعة يزيد المشهورة.

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١٨) [كتاب الإيمان]، ومسلمٌ (١٧٠٩) [كتاب الحدود]، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(اِسْقِ -يَا زُبَيْرُ- حَتَّى يَبْلُغَ الكَعْبَيْنِ)، فقالَ لَهُ الأَنْصَارِيُّ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ -يَا رَسُولَ اللهِ! فتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: (اسْقِ -يَا زُبَيْرُ-، ثُمَّ احْبِسْ حَتَّى يَبْلُغَ الجَدْرَ... الحديثَ)[1]؟

فَالجَوَابُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنَزَّهٌ أَنْ يَقَعَ بِنَفْسِ مُسْلِمٍ مِنْه فِي هَذِه القِصَّةِ أَمْرٌ يُرِيبُ؛ ولَكِنَّه ﷺ نَدَبَ الزُّبَيْرَ أَوَّلًا إلى الاقتصارِ على بَعْضِ حَقِّهِ على طَرِيقِ التَّوَسُّطِ والصُّلْحِ، فلَمَّا لَمْ يَرْضَ بذَلِكَ الآخَرُ، ولَجَّ وقَالَ مَا لا يَجِبُ، اسْتَوْفَى النَّبِيُّ ﷺ للزُّبَيْرِ حَقَّهُ، ولِهَذا تَرْجَمَ البُخَارِيُّ على هَذا الحَدِيثِ «بابٌ إذا أَشَارَ الإمامُ بالصُّلْحِ، فَأَبَى حُكِمَ عَلَيْهِ بالحُكْمِ»، وذَكَرَ في آخِرِ الحَدِيثِ: فاسْتَوْفَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَئِذٍ للزُّبَيْرِ حَقَّهُ.

وقَدْ جَعَلَ المُسْلِمُونَ هَذا الحَدِيثَ أَصْلًا في قَضِيَّتِهِ، وفيهِ الاقتداءُ بالنَّبِيِّ ﷺ في كُلِّ مَا فَعَلَهُ في حَالِ غَضَبِهِ ورِضَاهُ، وأَنَّه وإنْ نَهَى أَنْ يَقْضِيَ القَاضِي وَهُوَ غَضْبَانُ[2] فإِنَّهُ في حُكْمِهِ في حَالِ الغَضَبِ والرِّضَى سَوَاءٌ؛ لِكَوْنِه فِيهِمَا مَعْصُومًا. وغَضَبُ النَّبِيِّ ﷺ في هَذَا إِنَّمَا كَانَ للهِ تعالى، لا لِنَفْسِهِ، كَمَا جَاءَ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ[3].

وَكَذَلِكَ الحَدِيثُ في إِقادَتِه عُكَّاشَةَ مِنْ نَفْسِهِ[4]، لَمْ يَكُنْ لِتَعَمُّدٍ حَمَلَهُ الغَضَبُ عَلَيْه، ..

---

(١) حديث (اسق يا زبير ...): تقدَّم [انظر ص٥٩٤].

(٢) حديث (نهى أن يقضي القاضي وهو غضبان): الشيخان [البخاريُّ (٧١٥٨)، ومسلمٌ (١٧١٧)] عن أبي بكرة.

(٣) [حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المتفق عليه: (والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله). أخرجه البخاريُّ (٦٧٨٦)، ومسلمٌ (٢٣٢٧)].

(٤) حديث (إقادته عكاشة من نفسه ...): أبو نعيم في «الحلية» [(٤/ ٧٣)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٣/ ٥٨)] عن ابن عبَّاس.

قوله (فتَلَوَّنَ): أي فتَغَيَّرَ حيث احْمَرَّ واصفرَّ غضبًا لله سبحانه.

قوله (حَتَّى يَبْلُغَ الجَدْرَ): أي جَدْرَ الحديقةِ أو أُصُولَ الكَرْمِ، وهُوَ بفتحِ الجيمِ وسكونِ الدالِ المهمَلةِ، ورُوِيَ بضمِّ أوَّلِه جَمْعُ «جِدَارٍ»، وبذالٍ معجمَةٍ مِن جَذْرِ الحِسَابِ -بالفتحِ وبالكسرِ، أَرَادَ به مَبْلَغَ تَمَامِ السَّقْيِ. قوله (يُرِيبُ): -بضمِّ أوَّلِه وفَتْحِه- أي شَيْءٌ يُوقِعُ في الرِّيبَةِ.

قوله (وَلَجَّ): -بتشديدِ الجيمِ- أي وبالَغَ في طَلَبِ الحُكْمِ المُقَرَّرِ. قوله (استَوْفَى النبيُّ): جَوابُ (لَمَّا)، أي أَخَذَ... إلخ.

قوله (تَرْجَمَ البخاريُّ): أي عَنْوَنَ. وقوله (بابٌ): بالرفعِ مُنَوَّنًا على الحكايةِ والنصبِ على المَحَلِّ، وبالإضافةِ منصوبًا على أنَّه مفعولُ (تَرْجَمَ). وقوله (حُكِمَ عليْه): بالبِنَاءِ للفاعلِ أو المفعُولِ.

قوله (فاستَوْفَى): وفي نسخةٍ «فاسْتَوْعَى»، وهيَ بمَعنَى الأُولى. قوله (أَصْلًا في قَضِيَّتِه): أي في مِثْلِ حُكْمِ الزُّبَيرِ. وقوله (وفيه الاقتداءُ): أي أَخْذُ الاقتداءِ والاهتداءِ به عَلَيْه السلامُ. قوله (لِكَوْنِه فِيهِما): أي في الغَضَبِ والرِّضَى.

قوله (وغَضَبُ النبيِّ): أيْ في أمرِ الزبيرِ معَ خَصمِه. قوله (في إقادَتِه): -بالقافِ؛ مِنَ القَوْدِ- أي في قِصَاصِه. وقوله (عُكَّاشَةَ): بضمِّ العينِ وتشديدِ الكافِ وتُخَفَّفُ. قوله (لَمْ يَكُنْ لِتَعَمُّدٍ): أي ضَرْبُه ﷺ له لَمْ يَكُنْ لِقَصْدٍ، وفي نسخةٍ «لِتَعَدٍّ» -بتشديدِ الدالِ- أي لِتَجَاوُزِ حَدٍّ.

بَـلْ وَقَـعَ فِي الحَدِيـثِ نَفْسِـهِ أَنَّ عُكَّاشَـةَ قَـالَ لَـهُ: وضَرَبْتَنِـي بالقَضِيـبِ، فَـلَا أَدْرِي أَعَمْـدًا أَمْ أَرَدْتَ ضَرْبَ النَّاقَـةِ؟ فقَـالَ لَـهُ النَّبـيُّ ﷺ: (أُعِيـذُكَ -يَـا عُكَّاشَـةُ- أَنْ يَتَعَمَّـدَكَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ).

وكذلِـكَ فِي حَدِيثِـهِ الآخَـرِ مَـعَ الأَعْـرَابِيِّ حِـينَ طَلَـبَ ﷺ الاقْتِصَـاصَ مِنْـهُ، فقَـالَ الأَعْـرابيُّ: قَـدْ عَفَـوْتُ عَنْـكَ، وكَانَ النَّبـيُّ ﷺ قَـدْ ضَرَبَـهُ بالسَّـوْطِ لِتَعَلُّقِـهِ بِزِمَـامِ ناقَتِـهِ مَـرَّةً بَعْـدَ أُخْـرَى، والنَّبِـيُّ يَنْهَـاهُ، ويَقُـولُ لَـهُ: تُـدْرِكُ حَاجَتَـكَ! وهُـوَ يَأْبـى، فَضَرَبَـهُ بَعْـدَ ثَـلاثِ مَـرَّاتٍ[1].

وهَـذَا مِنْـه ﷺ لِمَـنْ لَمْ يَقِـفْ عِنْـدَ نَهْيِـهِ صَـوَابٌ ومَوْضِـعُ أَدَبٍ؛ لكِنَّـه ﷺ أَشْـفَقَ -إِذْ كَانَ حَـقَّ نَفْسِـهِ- مِـنَ الأَمْـرِ حَتَّـى عَفَـا عَنْـهُ.

وأَمَّـا حَدِيـثُ سَـوَادِ بْـنِ عَمْـرٍو: أَتَيْـتُ النَّبِـيَّ ﷺ وأَنَـا مُتَخَلِّـقٌ، فقَـالَ: (وَرْسٌ وَرْسٌ، حُـطَّ حُـطَّ)، وغَشِـيَنِي بقَضِيـبٍ فِي يَـدِه فِي بَطْنِـي، فأَوْجَعَنِـي، قُلْـتُ: القِصَـاصَ يَـا رَسُـولَ اللهِ، فكَشَـفَ لِي عَـنْ بَطْنِـهِ[2]، فإِنَّـمَا ضَرَبَـهُ ﷺ لِمُنْكَـرٍ رَآهُ بِـهِ، ولَعَلَّه لَمْ يُـرِدْ بِضَرْبِـهِ بالقَضِيـبِ إِلَّا تَنْبِيهَـهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنْـهُ إِيجَاعٌ لَمْ يَقْصِدْهُ طَلَـبَ التَّحَلُّـلَ مِنْـهُ عـلى مـا قَدَّمْنَـاه.

***

قولـه (حِـينَ طَلَـبَ ﷺ الاقتصـاصَ مِنْـه): أي مِـن نَفْسِـه الشريفـةِ لِلأعـرابيِّ.

قولـه (بِزِمَـامِ ناقَتِـه): -بكسرِ الـزاي- أي بخِطامِهَـا.

قولـه (وأَمَّـا حديـثُ سَـوَادٍ): بفتـحِ السّـين المهمَلـة وتخفيـفِ الـواوِ.

قولـه (وأنـا مُتخَلِّـقٌ): أي متلطِّـخٌ بالخَلـوقِ مِـنَ الطِّيـبِ؛ يقـالُ: خَلَّقَـه تخليقًـا: طَيَّبَـه، فتَخَلَّـقَ بـه كـما في «القامـوسِ».

قولـه (وَرْسٌ وَرْسٌ): مَعْنَـاه التهديـدُ في النهـيِ عَـنْ لُبْسِـه أَوْ تَطَيُّبِـه، وهْـوَ نبـتٌ أصفَـرُ يُصبَـغُ بـه، وكُـرِّرَ لِلتأكيـدِ، كـ(حُـطَّ) -بضـم الحـاء وتشـديد الطّـاء المهمَلتـين- أي ضَـعْ عَنْـكَ هـذا بلُبْـسِ غـيرِه.

قولـه (وغَشِـيَنِي): أي لحِقَنِـي، وفي نسـخَةٍ «فغَـشِيَ في بَطْنِـي»: أي مَوقِعًـا ضَرْبَـه في بَطْنِي.

قولـه (قُلْـتُ: القِصَـاصَ): -بالنصْـبِ- مفعـولٌ لِمحـذوفٍ، نحـوَ اسْـأَلُكَ القِصَـاصَ.

قولـه (إلا تنبيهَــه): أي بِـضَرْبٍ لَطِيـفٍ في مَقَـامِ التأديـبِ. قولـه (طَلَـبَ التحلُّـلَ مِنْـه): أي في قَـدْرِ الزائـدِ عـلى مَـا يَسـتَحِقُّه.

***

(١) حديث (أقادته الأعرابي الذي ضربه ثلاثًا ...): [أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٨٠٣٧)].

(٢) حديث سواد بن عمرو (أتيت النبي ﷺ وأنا متخلق ...): البغويُّ في «معجم الصحابة» [١١٧٥]، وأخرجه ابن سعدٍ [٣/ ٥١٦]، وعبد الرزاق في جامعه [١٨٠٣٩] عن الحسن، قال: كان سواد بن عمرو متخلِّقًا .. فذكره.

فَصْلٌ [في أفْعالِهِ ﷺ الدُّنيَوِيّةِ]

وأَمَّا أَفْعَالُه ﷺ الدُّنْيَوِيَّةُ فحُكْمُهُ فيهَا مِنْ تَوَقِّي المَعَاصِي والمَكْرُوهَاتِ مَا قَدَّمْنَاهُ، ومِنْ جَوَازِ السَّهْوِ والغَلَطِ في بَعْضِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ، وكُلُّهُ غَيْرُ قَادِحٍ في النُّبُوَّةِ، بَلْ إِنَّ هَذا فيها على النُّدُورِ؛ إِذْ عَامَّةُ أَفْعَالِهِ على السَّدَادِ والصَّوَابِ، بَلْ أَكْثَرُها أَوْ كُلُّها جَارِيَةٌ مَجْرَى العِبَاداتِ والقُرَبِ على مَا بَيَّنَّا؛ إِذْ كَانَ ﷺ لا يَأْخُذُ مِنْهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا ضَرُورَتَهُ ومَا يُقِيمُ بِهِ رَمَقَ جِسْمِهِ، وفِيهِ مَصْلَحَةُ ذاتِهِ الَّتِي بِهَا يَعْبُدُ رَبَّه، ويُقِيمُ شَرِيعَتَه، ويَسُوسُ أُمَّتَهُ، ومَا كَانَ فِيمَا بَيْنَه وبَيْنَ النَّاسِ مِنْ ذلكَ فبَيْنَ مَعْرُوفٍ يَصْنَعُهُ، أَوْ بِرٍّ يُوَسِّعُهُ، أَوْ كَلَامٍ حَسَنٍ يَقُولُهُ أَوْ يَسْمَعُهُ، أَوْ تَأَلُّفِ شَارِدٍ، أَوْ قَهْرِ مُعَانِدٍ، أَوْ مُدَارَاةِ حَاسِدٍ، وكُلُّ هَذَا لَاحِقٌ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِ، مُنْتَظِمٌ في زَاكِي وَظَائِفِ عِبَادَتِهِ.

وقَدْ كَانَ يُخَالِفُ في أَفْعَالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِحَسَبِ اختِلافِ الأَحْوَالِ، ويُعِدُّ لِلأُمُورِ أَشْبَاهَهَا؛ فيَرْكَبُ في تَصَرُّفِهِ لِمَا قَرُبَ الحِمَارَ، وَفِي أَسْفَارِهِ الرَّاحِلَةَ، وقَدْ يَرْكَبُ البَغْلَةَ في مَعَارِكِ الحَرْبِ دَلِيلًا على الثَّبَاتِ، ويَرْكَبُ الخَيْلَ، ويُعِدُّهَا لِيَوْمِ الفَزَعِ وإِجَابَةِ الصَّارِخِ.

وكذلِكَ في لِبَاسِهِ وسَائِرِ أَحْوَالِهِ وأَفْعَالِهِ بِحَسَبِ اعْتِبَارِ مَصَالِحِهِ ومَصَالِحِ أُمَّتِهِ.

وكَذَلِكَ يَفْعَلُ الفِعْلَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مُسَاعَدَةً لِأُمَّتِهِ، وسِيَاسَةً وكَرَاهِيَةً لِخِلَافِهَا، وإِنْ كَانَ قَدْ يَرَى غَيْرَه خَيْرًا مِنْهُ، كَمَا يَتْرُكُ الفِعْلَ لِهذا، وقَدْ يَرَى فِعْلَهُ خَيْرًا مِنْهُ.

قولـه (مِن تَوَقِّي المَعَاصِي... إلخ): أي مِن تَحَفُّظِه عنهما.

قوله (عَلَى السَّدَادِ): أي الاستقامَةِ.

قوله (والقُرَبِ): -بضمِّ القافِ وفتحِ الراءِ- أي القُرُباتِ.

قوله (على مَا بَيَّنَّا): أي مِن أنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ، والمباحاتِ بها تَنْقَلِبُ طَاعَاتٍ.

قوله (ويَسُوسُ أُمَّتَه): أي يُراعِيهم ويُؤَدِّيهم بما فيه نظامُها.

قوله (فبَيْنَ معروفٍ يَصْنَعُه): أي فأَمْرُه دائرٌ بَيْنَ فِعْلِ معروفٍ يَصْنَعُه إِلَيْهِم.

قوله (أَوْ يَسْمَعُه): -بفتحِ الياءِ والميمِ- أي يَسْمَعُه مِنْهم، وفي نسخةٍ بضمِّ الياءِ وكسرِ الميمِ؛ أي يَرْوِيه لَهم.

قوله (أَوْ تَأَلُّفِ شارِدٍ): أي نافِرٍ بِطَبْعِه. قوله (أَوْ قَهْرِ مُعَانِدٍ): أي مُنْكِرٍ جاحِدٍ.

قوله (أو مُدارَأَةِ حَاسِدٍ): أي مُدافَعَتِه، وهُوَ مِن الدَّرْءِ بالهَمْزِ.

قوله (فِي زاكِي وظائفِ عِبادتِه): أي زائِدِها في مَقَامِ فوائِدِها.

قوله (ويُعِدُّ): -بضمِّ الياءِ وكسرِ العَينِ وتشديدِ الدالِ- أي ويُهَيِّئُ.

قوله (وفي أسفارِه الراحلةَ): لِصَبْرِهَا على شِدَّةِ السَّيْرِ.

قوله (ويُعِدُّها لِيَوْمِ الفَزَعِ): أي يُهَيِّئُها لِوَقْتِ الإغاثَةِ.

وقوله (وإجابَةِ الصَّارِخِ): أي الصّائحِ لِلإعْلامِ بالحَادِثَةِ الواقعةِ.

وقَـدْ يَفْعَـلُ هَـذا في الأُمُـورِ الدِّينيَّـةِ مِمَّـا لَـهُ الخِيَـرَةُ في أَحَـدِ وَجْهَيْـهِ، كَخُرُوجِـهِ مِـنَ المَدِينَـةِ لِأُحُـدٍ وكَانَ مَذْهَبُـه التَّحَصُّـنَ بِهَـا، وتَرْكِـهِ قَتْـلَ المُنافِقِـينَ وهُـوَ عَـلى يَقِـينٍ مِـنْ أَمرِهـمْ؛ مُؤَالَفَـةً لِغَيْرِهِـمْ، ورِعَايَـةً لِلمُؤْمِنِـينَ مِـنْ قَرَابَتِهِـمْ، وكَرَاهَـةً لِأَنْ يَقُـولَ النَّـاسُ: إنَّ محمَّـدًا يَقْتُـلُ أَصْحابَـه، كَـمَا جَـاءَ في الحَديـثِ[1]، وتَرْكِـهِ بِنَـاءَ الكَعْبَـةِ عـلى قَوَاعِـدِ إبراهيـمَ؛ مُراعـاةً لِقُلُـوبِ قُرَيْـشٍ وتَعْظِيمِهِـمْ لِتَغْيِيرِهَـا، وحَـذَرًا مِـنْ نِفَـارِ قُلُوبِهِـمْ لِذلِـكَ، وتَحْرِيـكِ مُتَقَـدِّمِ عَدَوَاتِهِـمْ لِلدِّيـنِ وأَهْلِـهِ، فَقَـالَ لِعَائِشَـةَ في الحَديـثِ الصَّحيـحِ: (لَـوْلَا حِدْثَـانُ قَوْمِـكِ بالكُفْـرِ لَأَتْمَمْـتُ البَيْـتَ عـلى قَوَاعِـدِ إبْرَاهيـمَ)[2].

ويَفْعَـلُ الفِعْـلَ ثُـمَّ يَتْرُكُـه لِكَـوْنِ غَـيْرِهِ خَـيْرًا مِنْـهُ، كَانْتِقالِـهِ مِـنْ أَدْنَـى مِيَـاهِ بَـدْرٍ إلى أَقْرَبِهَـا لِلعَـدُوِّ مِـنْ قُرَيْـشٍ، وكَقَوْلِـهِ: (لَـوِ اسْـتَقْبَلْتُ مِـنْ أَمْـرِي مَـا اسْـتَدْبَرْتُ مَـا سُـقْتُ الهَـدْيَ)[3].

ويَبْسُـطُ وَجْهَـهُ لِلكافِـرِ والعَـدُوِّ رَجَـاءَ اسْـتِئْلافِهِ، ويَصْـبِرُ لِلْجَاهِـلِ، ويَقُـولُ: (إِنَّ مِـنْ شَرِّ النَّـاسِ مَـنِ اتَّقَـاهُ النَّـاسُ لِـشَرِّهِ)[4]، ويَبْـذُلُ لَـهُ الرَّغَائِـبَ؛ لِيُحَبِّـبَ إِلَيْـهِ شَرِيعَتَـهُ وَدِيـنَ رَبِّـه.

ويَتَـوَلَّى في مَنْزِلِـهِ مَـا يَتَـوَلَّاهُ الخَـادِمُ مِـنْ مَهْنَتِـهِ، وَيَتَسَـمَّتُ في مُلَاءَتِـه حَتَّـى لا يَبْـدُوَ مِنْـهُ شَيْءٌ مِـنْ أَطْرَافِـه، حَتَّـى كَأَنَّ عـلى رُؤُسِ جُلَسَـائِهِ

(١) [متفق عليه أخرجه البخاري (٤٥٠٥) ومسلم (٢٥٨٤)، وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله، وفيه: ... فسمع بذلك عبد الله بن أبي، فقال: فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»].

(٢) حديث (تركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم) وقوله (لولا حَدَثَانُ قَوْمكِ بالكُفْرِ...): الشيخان [البخاريُّ (١٥٨٣)، ومسلمٌ (١٣٣٣)] عن عائشة.

(٣) حديث (لو اسْتَقْبَلْتُ من أمري ما اسْتَدْبَرْتُ ما سُقْتُ الهَدْيَ...): الشيخان [البخاريُّ (٧٢٢٩)، ومسلمٌ (١٢١١)] عن عائشة.

(٤) حديث (إنَّ من شرِّ النَّاس مَن اتَّقاهُ النَّاسُ لشرِّه) وأوّله (بئس أخو العشيرة): الشيخان [البخاريُّ (٦٠٣٢)، ومسلمٌ (٢٥٩١)] عن عائشة.

قولـه (مِمَّـا لـه الخِـيَرَةُ): -بِكَسْرِ الخاءِ وفَتْحِ الياءِ وتُسَكَّنُ- اسمٌ مِن «خَـارَ» بِمَعْنَـى «اختَـارَ».

قولـه (كخُروجِـه مِـنَ المدينَـةِ لِأُحُـدٍ): حِـينَ محارَبَـةِ أَبِي سُـفْيانَ وقَوْمِـه. قولـه (وتَرْكِـه قَتْـلَ المنافِقِـينَ): أي وكَتَرْكِـه ﷺ قَتْـلَ... إلـخ، وكـذا يقـالُ في قولـه (وتَرْكِـه بِنَـاءَ الكَعبَـةِ).

قولـه (نِفَـارِ قُلوبِهِـم): أي تنافُرِهـا، وهـوَ بكسـرِ النـونِ. قولـه (لَـوْلا حِدْثَـانُ): -بكسرِ الحَـاءِ- أي قُـرْبُ عَهْدِهـم. قولـه (لَأَتْمَمْـتُ البَيْـتَ... إلـخ): أي لَأَسَّسْـتُ أو بَنَيْـتُ.

قولـه (مَـنِ اتَّقَـاه النـاسُ): أي خافُـوه واحتَرَسُـوا. قولـه (ويَبْـذُلُ لـه): -بِضَـمِّ الـذالِ المعجَمـةِ- أي يُعْطِـي مَـنْ ذُكِـرَ.

قولـه (ويَتَـوَلَّى في مَنْزِلِـه مَـا يَتَـوَلّاه): أي يَقـومُ فيـه بـما يَقـومُ، وفي نسـخةٍ «مَـا يَتَـوَلَّى». قولـه (مِـنْ مَهْنَتِـه): -بفتـحِ الميـمِ هُـوَ الرِّوايـةُ، وقَـدْ تُكْسَرُ، وقيـلَ: خَطَـأٌ- أي خِدْمَـةِ مَنْزِلِـه. قولـه (ويَتَسَـمَّتُ): -بتشـديدِ الميـمِ، مِـنَ السَّـمْتِ، وهـوَ الهيئـةُ الحَسَـنةُ- أي يُظْهِـرُ السَّـمْتَ الحَسَـنَ.

وقولـه (في مُلَاءَتِـه): -بضـمِّ الميـمِ ممْـدودًا، وقيـلَ: مقصُـورًا مهمـوزًا- أي في إزارِه. قولـه (حَتَّـى كَأَنَّ): بتشـديدِ النـونِ.

الطَّيْرَ، ويَتَحدَّثُ مَعَ جُلَسَائِه بِحَدِيثِ أَوَّلِهِمْ، ويَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْه، ويَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْه، وَقَدْ وَسِعَ النَّاسَ بِشْرُهُ وَعَدْلُهُ، لا يَسْتَفِزُّهُ الغَضَبُ، ولا يُقَصِّرُ عَنِ الحَقِّ، ولا يُبْطِنُ عَلى جُلَسَائِه؛ يَقُولُ: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ).

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ لِعَائِشَةَ فِي الدَّاخِلِ عَلَيْهِ: (بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ)! فَلَمَّا دَخَلَ أَلانَ لَهُ القَوْلَ وَضَحِكَ مَعَه، فَلَمَّا سَأَلَتْهُ عَنْ ذلِكَ قَالَ: (إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ)، وكَيْفَ جَازَ أَنْ يُظْهِرَ لَهُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ، وَيَقُولَ فِي ظَهْرِهِ مَا قَالَ؟!

فالجَوابُ أَنَّ فِعْلَهُ ﷺ كَانَ اسْتِئْلافًا لِمِثْلِه، وتَطْيِيبًا لِنَفْسِه؛ لِيَتَمَكَّنَ إيمانُهُ، ويَدْخُلَ فِي الإِسْلَامِ بِسَبَبِهِ أَتْبَاعُهُ، ويَرَاهُ مِثْلُهُ فَيَنْجَذِبَ بذلِكَ إِلَى الإِسْلامِ، ومِثْلُ هَذا عَلى هَذا الوَجْهِ قَدْ خَرَجَ مِنْ حَدِّ مُدَارَاةِ الدُّنْيَا إِلى السِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ، وقَدْ كَانَ يَسْتَأْلِفُهُمْ بِأَمْوَالِ اللهِ العَرِيضَةِ، فكَيْفَ بالكَلِمَةِ اللَّيِّنَةِ؛ قَالَ صَفْوَانُ: (لَقَدْ أَعْطَانِي وهُوَ أَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيَّ)[1].

وقَوْلُهُ فيه: (بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ) غَيْرُ غِيبَةٍ، بَلْ هُوَ تَعْرِيفٌ لِمَا عَلِمَهُ مِنْهُ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ؛ لِيُحْذَرَ حَالُهُ، ويُحْتَرَزَ مِنْه، ولا يُوثَقَ بِجَانِبِهِ كُلَّ الثِّقَةِ؛ لا سِيَّمَا وقد كَانَ مُطَاعًا مَتْبُوعًا، ومِثْلُ هذا إِذا كَانَ لِضَرُورةٍ ودَفْعِ مَضَرَّةٍ لَمْ يَكُنْ بِغِيبَةٍ بَلْ كَانَ جَائِزًا، بَلْ واجِبًا فِي بَعْضِ الأَحْيانِ، كَعَادَةِ المُحَدِّثِينَ فِي تَجْرِيحِ الرُّوَاةِ والمُزَكِّينَ فِي الشُّهُودِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى المُعْضِلِ الوارِدِ فِي حَدِيثِ بَرِيرَةَ

(1) [أخرجه مسلم (٢٣١٣)، وغيره].

قوله (بِحَدِيثِ أَوَّلِهِم): أي بِحِكَايَةِ أوائِلِهِم.

قوله (بِشْرُه): -بكسرٍ فسُكونٍ- أي طَلاقةُ وَجْهِه، وبَشاشةُ حَدِيثِه.

قوله (لا يَستَفِزُّه الغَضَبُ): أي لا يُزْعِجُه.

قوله (وَلا يُبْطِنُ): -بضمِّ الياءِ وكسْرِ الطّاءِ- أي لا يُضْمِرُ.

قوله (ويَقولَ في ظَهْرِه): أي في غَيْبَتِه.

قوله (أَنَّ فِعْلَه... إلخ): أي ضَحِكَه وإِلَانةَ قولِه له. وقوله (استئلافًا): أي تألُّفًا. قوله (فيَنْجَذِبَ): أي يَنْقادَ.

قوله (بأموالِ الله العَريضةِ): أي بإعطاءِ الأموالِ الكثيرةِ. قوله (حَتَّى صَارَ أَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيَّ): لِأَنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ.

قوله (غيرُ غِيبَةٍ): -بكسرِ الغَينِ- وهيَ أَنْ تذكُرَ أخاكَ المسلِمَ بما يكرهُه.

قوله (ولا يُوثَقَ): أي لا يُعتَمَدَ، وفي نسخةٍ «لا يَثِقَ». وقوله (مُطَاعًا): -بضمِّ الميمِ- يفسِّرُه قولُه (مَتبوعًا) أي لِقَومِه.

قوله (والمُزَكِّينَ): بكسرِ الكافِ عَطْفٌ على (المُحَدِّثِينَ)، وفي نسخةٍ بِضَمِّها على أنّه عَطْفٌ على (الرواةِ).

قوله (المُعْضِلِ): -بكسرِ الضّادِ المُعْجَمَةِ- أي الداءِ العُضَالِ الذي أَعْيَا إعياءً شديدًا[1]. قوله (بَرِيرةَ): برائينِ على وزنِ «فَعِيلةٍ»[2].

(1) قال الشهاب: اسم فاعل من أعضل الأمر إذا إشكل وأعيا، وكان هذا مشكلا لما سيأتي، وليس المراد بالمعضل هنا مصطلح أهل الحديث.

(2) وهي بنت صفوان، مولاة السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي حبشية أو قبطية.

مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِعَائِشَةَ وَقَدْ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ مَوَالِيَ بَرِيرَةَ أَبَوْا بَيْعَهَا إِلا أَنْ يَكُونَ لَهُم الوَلَاءُ، فقَالَ لَهَا ﷺ: اشْتَرِيها واشْتَرِطِي لَهُمُ الوَلَاءَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا، فقَالَ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ، كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فهُوَ بَاطِلٌ)[1]، والنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَمَرَهَا بالشَّرْطِ لَهُمْ، وعَلَيْهِ بَاعُوا، وَلَوْلَاهُ -واللهُ أَعْلَمُ- لَمَا باعُوهَا مِنْ عَائِشَةَ كَمَا لَمْ يَبِيعُوهَا قَبْلُ حَتَّى شَرَطُوا ذلكَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَبْطَلَه ﷺ وهُوَ قَدْ حَرَّمَ الغِشَّ والخَدِيعَةَ؟

فاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنَزَّهٌ عَمَّا يَقَعُ فِي بَالِ الجَاهِلِ مِنْ هَذا، وَلِتَنْزِيهِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ ذلِكَ مَا قَدْ أَنْكَرَ قَوْمٌ هَذِه الزِّيَادَةَ، قَوْلَه: (اشْتَرِطِي لَهُم الوَلَاءَ)؛ إِذْ لَيْسَتْ فِي أَكْثَرِ طُرُقِ الحَدِيثِ، ومَعَ ثَبَاتِهَا فَلَا اعْتِرَاضَ بهَا؛ إِذْ يَقَعُ «لَهُمْ» بِمَعْنَى «عَلَيْهِمْ»، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿أولئكَ لَهُم اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقالَ: ﴿وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]؛ فعَلَى هَذا: «اشْتَرِطِي عَلَيْهِمُ الوَلَاءَ لَكِ»، ويَكُونُ قِيَامُ النَّبِيِّ ﷺ ووَعْظُهُ لِمَا سَلَفَ لَهُمْ مِنْ شَرْطِ الوَلَاءِ لِأَنْفُسِهِمْ قَبْلَ ذلكَ.

ووَجْهٌ ثَانٍ: أَنَّ قَوْلَهُ ﷺ: (اشْتَرِطِي لَهُمْ الوَلاءَ) لَيْسَ عَلَى مَعْنَى الأَمْرِ؛ لَكِنْ عَلى مَعْنَى التَّسْوِيَةِ والإِعْلام بِأَنَّ شَرْطَهُ لَهُمْ لا يَنْفَعُهُمْ بَعْدَ بَيَانِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ قَبْلُ أَنَّ الوَلاءَ لِمَنْ أَعْتَقَ، فكَأَنَّهُ قَالَ لَهَا: اشْتَرِطِي أَوْ لا تَشْتَرِطِي؛ فإِنَّهُ شَرْطٌ غَيْرُ نَافِعٍ، وإِلَى هَذَا ذَهَبَ الدَّاوُدِيُّ وغَيْرُهُ، وتَوْبِيخُ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ،

(١) حديث بريرة: الشيخان [البخاريُّ (١٤٩٣)، ومسلمٌ (١٥٠٤)].

قولـه (أَبَوْا بَيْعَهَا): أي امتنَعُوا عَنْه. قولـه (الوَلَاءُ): -بفتحِ الواوِ- أي وَلَاءُ عِتْقِها؛ فإنَّهم كاتَبُوها فعَجِزَتْ. قولـه (مَا بَالُ أَقْوَامٍ): أي مَا حَالُهم وشأنُهم. قولـه (لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ): أَيْ وَلا في سُنَّةِ رَسولِه.

قولـه (وَلَوْلَاهُ): أي وَلَوْلا شَرْطُ عَائشةَ لِوَلَائِها لَهم (لَمَا باعُوهَا). قولـه (كَمَا لَمْ يَبِيعُوهَا قَبْلُ): أي قَبْلَ قَبولِ عَائشةَ شَرْطَهم.

قولـه (وهُوَ قَدْ حَرَّمَ الغِشَّ): أي بِقَولِه: (مَنْ غَشَّنَا فلَيْسَ مِنَّا)[1].

قولـه (في بَالِ الجاهِلِ): أي قَلْبِ الغافلِ. قولـه (مَا قَدْ أَنْكَرَ): (ما) زائدةٌ أَوْ مَوْصولةٌ. قولـه (قَدْ أَنْكَرَ قَوْمٌ هذه الزيادَةَ): أَعْنِي قولَه (اشتَرِطِي).

قولـه (ومَعَ ثَباتِها): أي ومَعَ صِحَّةِ هذه الزيادَةِ. قولـه (إِذْ يَقَعُ «لَهُم» بِمَعْنَى «عَلَيْهِم»): لِأَنَّ حُروفَ الجَرِّ يَنوبُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ في مَحَلِّه[2].

قولـه (لَهُمُ اللّعنةُ): أي عَلَيْهم، واستظهَرَ المُلّا كَوْنَها لِلاختصَاصِ، والتقديرُ: أي «اللعنةُ حاصلةٌ لَهم دُونَ غَيْرِهم». قولـه (فَلَها): أي فعَلَيْهَا.

قولـه (اشتَرِطِي عَلَيْهم... إلخ): لِأَنَّ الوَلَاءَ لِمَنْ أَعْتَقَ.

قولـه (على مَعْنَى الأمرِ): المجزومِ بِهِ لِلتأكيدِ. قولـه (لَهُم قَبْلُ): أي قبلَ قولِه «اشْتَرِطِيه لَهم»: (اشتَرِطِي أو لا تَشْتَرِطِي)؛ فالحذفُ مِن بابِ الاكتفاءِ، والمَعْنَى: وإنْ لَمْ تَشْتَرِطِي...

(١) أخرجه مسلمٌ (١٠١) [كتاب الإيمان]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) هو مذهب الكوفيين وغيرهم كالمبرد واختاره بعض المتأخرين، أما البصريون فقد منعوا قياسيته.

وتَقْريعُهُمْ على ذلك يَدُلُّ على عِلْمِهِمْ بِهِ قَبْلَ هَذَا.

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: (اشْتَرِطِي لَهُمُ الوَلَاءَ) أَيْ أَظْهِرِي لَهُمْ حُكْمَه، وَبَيِّنِي عِنْدَهُم سُنَّتَه أَنَّ الوَلَاءَ إِنَّما هُوَ لِمَنْ أَعْتَقَ، ثُمَّ بَعْدَ هذا قَامَ هُوَ ﷺ مُبَيِّنًا ذَلِكَ، وَمُوَبِّخًا عَلَى مُخَالَفَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنْه فيه.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى فِعْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَخِيهِ إِذْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِهِ، وَأَخَذَهُ بِاسْمِ سَرِقَتِهَا، وَمَا جَرَى عَلَى إِخْوَتِه فِي ذلِكَ، وَقَوْلِهِ: (إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وَلَمْ يَسْرِقُوا؟

فَاعْلَمْ -أَكْرَمَكَ اللهُ- أَنَّ الآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِعْلَ يُوسُفَ كَانَ عَنْ أَمْرِ اللهِ تعالى؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ...﴾ الآيةَ [يوسف: ٧٦]، فَإِذَا كَانَ كذلكَ فَلَا اعْتِرَاضَ بِهِ، كَانَ فِيهِ مَا فِيهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ يُوسُفَ كَانَ أَعْلَمَ أَخَاهُ بِـ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [يوسف: ٦٩]، فَكَانَ مَا جَرَى عَلَيْهِ بَعْدَ هَذا مِنْ وَفْقِهِ ورَغْبَتِهِ، وعلى يَقِينٍ مِنْ عُقْبَى الخَيْرِ لَهُ بِهِ وإِزَاحَةِ السُّوءِ والمَضَرَّةِ عَنْهُ بذلِكَ.

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فَلَيْسَ مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ، فَيَلْزَمَ عَلَيْهِ جَوَابٌ يَحُلُّ شُبَهَهُ، ولَعَلَّ قَائِلَهُ -إِنْ حُسِّنَ لَهُ التَّأْوِيلُ كَائِنًا مَنْ كَانَ- ظَنَّ عَلى صُورَةِ الحَالِ ذلكَ، وقَدْ قِيلَ: قَالَ ذلكَ لِفِعْلِهِمْ قَبْلُ بِيُوسُفَ وبَيْعِهِمْ لَهُ، وقِيلَ غَيْرُ هَذا، ولا يَلْزَمُ أَنْ نُقَوِّلَ الأَنْبِيَاءَ مَا لَمْ يَأْتِ أَنَّهُمْ قَالُوهُ حَتَّى يُطْلَبَ الخَلَاصُ مِنْهُ، ولا يَلْزَمُ الاعْتِذَارُ عَنْ زَلَّاتِ غَيْرِهِمْ.

***

قوله (وتَقريعُهم على ذلك): أي تصميمُهم على شَرْطِهم، وامتناعُهم عَنْ بَيْعِهَا.

قوله (إِذْ جَعَلَ السِّقايةَ): أي الصَّاعَ الذي كانَ يُسْقَى فيه، ويُكَالُ به أيضًا لِعِزَّةِ الغَلَّةِ في وَقْتِه. وقوله (في رَحْلِهِ): أي في وَسَطِ مَتَاعِ أَخِيه. قوله (كذلك كِدْنا لِيُوسُفَ): أي بَيَّنَّا الكَيْدَ له بأَنْ أَوْحَيْنا إِلَيْه لِيَأْخُذَ أَخاه في دِينِ المَلِكِ لِأَنَّه أَوْلَى مِنْ حُكْمِ غَيْرِه. وقوله (في دِينِ المَلِكِ): أي حُكْمِه.

قوله (كانَ فيه مَا فيه): المَعنى: أيُّ شيءٍ كانَ فيه بَعْدَ أَنْ يَكُونَ ذلك بأمرِ الله سبْحَانه؛ لِأَنَّ المُلْكَ مُلْكُه، ومَا حَوَاه عَبِيدُه وإِمَاؤُه، ولِلمالِكِ التصرفُ في مُلْكِه كيفَ يَشَاءُ.

قوله (وأيضًا فإِنَّ يوسفَ... إلخ): أي يُمكِنُ أَنْ يقالَ في دفعِ الإشكالِ: إِنَّ يوسفَ... إلخ.

قوله (فلا تَبْتَئِسْ): أي لا تَحْزَنْ. وقوله (ورَغْبَتِه): أي مَيْلِه في إقامَتِه. قوله (وإزاحَةِ السُّوءِ): أي إزالَتِه، و(السُّوءِ) بضمِّ السينِ وفَتْحِها.

قوله (أَيَّتُها العِيرُ): أي أصحابَ الإبلِ ذاتِ الأَحْمَالِ. وقوله (إنَّكم لَسَارِقُونَ): أي في ظَنِّنَا. وقوله (فلَيْسَ مِن قولِ يوسُفَ): أي بَلْ مِن مُنادِيه. وقوله (فيَلْزَمُ عليه... إلخ): أي فلا يَلْزَمُ عَلَيْه... إلخ. قوله (إِنْ حُسِّنَ): -مَبنيٌّ لِلمجهُولِ مَعَ تشديدِ السينِ- أي صُحِّحَ. وقوله (كائنًا مَنْ كانَ): أي بأمْرِ يوسُفَ وغَيْرِه.

قوله (أَنْ نُقَوِّلَ الأنبياءَ): -بتشديدِ الواوِ المكسورةِ- أي نَنسُبَ إِلَيْهِم.

***

فَصْلٌ [في الحِكْمَةِ في إجْراءِ الأمراضِ على الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ]

فإنْ قِيلَ: فَمَا الحِكْمَةُ في إجْرَاءِ الأمْراضِ وَشِدَّتِها عَلَيْهِ وعلى غَيْرِه مِنَ الأنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ ومَا الوَجْهُ فِيمَا ابْتَلاهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ البَلَاءِ، وامْتِحانِهِم فيما امتُحِنُوا بِهِ، كأيُّوبَ، ويَعْقُوبَ، ودَانِيَالَ، ويَحْيَى، وزَكَرِيَّا، وعِيسَى، وإبْرَاهيمَ، ويُوسُفَ، وغَيْرِهِمْ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ- وَهُمْ خِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ وأَحِبَّاؤُهُ وأَصْفِيَاؤُهُ؟

فاعْلَمْ -وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكَ- أَنَّ أَفْعَالَ اللهِ تعالى كُلَّهَا عَدْلٌ، وكَلِمَاتِهِ جَمِيعَهَا صِدْقٌ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، يَبْتَلِي عِبَادَهُ كَمَا قَالَ لَهُمْ: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وَ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فامْتِحانُه إِيَّاهُمْ بِضُرُوبِ المِحَنِ زِيَادَةٌ فِي مَكَانَتِهِمْ، ورِفْعَةٌ في دَرَجاتِهِمْ، وأَسْبَابٌ لِاسْتِخْرَاجِ حَالَاتِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالشُّكْرِ، والتَّسْلِيمِ والتَّوَكُّلِ والتَّفْوِيضِ، والدُّعَاءِ والتَّضَرُّعِ مِنْهُمْ، وتأْكِيدٌ لِبَصَائِرِهِمْ في رَحْمَةِ المُمْتَحَنِينَ، والشَّفَقَةِ عَلى المُبْتَلِينَ، وتَذْكِرَةٌ لِغَيْرِهِمْ، ومَوْعِظَةٌ لِسِوَاهُمْ لِيَتَأَسَّوْا في البَلَاءِ بِهِمْ، ويَتَسَلَّوْا في المِحَنِ بِمَا جَرَى عَلَيْهِمْ، ويَقْتَدُوا بِهِمْ في الصَّبْرِ، ومَحْوٌ لِهَنَاتٍ فَرَطَتْ مِنْهُمْ، أَوْ غَفَلَاتٍ سَلَفَتْ لَهُمْ؛ لِيَلْقَوُا اللهَ تعالى طَيِّبِينَ مُهَذَّبِينَ، ولِيَكُونَ أَجْرُهُمْ أَكْمَلَ، وثَوَابُهُمْ أَوْفَرَ وأَجْزَلَ.

قوله (ومَا الوَجْهُ): أي التوجيهُ الوَجِيهُ. قوله (فيما امتُحِنُوا بِه): مِنَ الضَّرَرِ فصَبَرُوا كَمَا شَكَرُوا على السَّرَاءِ.

قوله (ودَانِيَالَ)[1]: بكسرِ النونِ. قوله (خِيرتُه مِنْ خَلْقِه): -بكسرِ الخاءِ وسكونِ الياءِ وتُفْتَحُ- أي مُختارُه.

قوله (يَبْتَلِي عِبادَه): أي يَمتحِنُهم.

قوله (كيفَ تعملونَ): أي مِنَ الخَيرِ والشرِّ. قوله (ويَعلمَ الصّابرينَ): بِنَصْبِ الفِعْلِ على إضْمارِ «أنْ»، والواوُ في (جَاهَدُوا) لِلجمعِ. قوله (ونَبْلُوَ أخبارَكم): قُرِئَ بالنونِ والياءِ في السبْعَةِ.

قوله (في مَكانَتِهم): أي مَنزِلَتِهم.

قوله (والتفويضِ): أي الاعتمادِ على رَبِّ العِبادِ. قوله (الممتَحَنِينَ): بفتحِ الحاءِ. وقوله (لِيَتأَسَّوْا): -بفتح التاء والهمزة وتشديد السّين المفتوحة- أي لِيَقْتَدُوا. وقوله (لِيَتَسَلَّوْا): أي يكونُوا بِهم سَلْوَةً تُذْهِبُ حُزْنَهم.

قوله (ويَقْتَدُوا بِهم في الصَّبرِ): أي على مَا حَصَلَ فيهم مِنَ المَصائبِ.

قوله (ومَحْوٌ لِهَناتٍ): أي مِن جُملةِ الحُكْمِ في ابتلائِهم محوٌ... إلخ، والهَنَاتُ جَمْعُ «هَنَةٍ»، وهيَ الهَفوةُ اليَسيرَةُ، ويُكْنَى بِهَا عَنِ القبائحِ.

قوله (مُهَذَّبِينَ): أي مُخَتَّصِينَ في الظاهرِ والباطنِ. قوله (وأَجْزَلَ): أي أَعْظَمَ وأَتَمَّ كَمًّا وكَيْفًا.

---

[1] قال القاري: ويقال إنه نبي غير مرسل، وكان في أيام بخت نصر.

حَدَّثَنَا القَاضِي أَبُو عَلِيٍّ الحَافِظُ، حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ وَأَبُو الفَضْلِ بْنُ خَيْرُونٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى البَغْدَادِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فالأَمْثَلُ[1]؛ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي على الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ، وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (مَا يَزَالُ البَلَاءُ بالمُؤْمِنِ في نَفْسِهِ وولَدِه ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ ومَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)[2].

وعَنْ أَنَسٍ عَنْه ﷺ: (إذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدِه الخَيْرَ عَجَّلَ لَه العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا، وإِذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدِه الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِيَ به يَوْمَ القيامَةِ)، وفي حَدِيثٍ آخَرَ: (إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ لِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ)[3].

---

(١) حديث سعد (أيُّ النَّاس أَشَدُّ بلاءً؟ ...): أسنده من طريق الترمذيِّ [٢٣٩٨]، وأخرجه أيضًا النَّسائيُّ [الكبرى (٧٤٣٩)]، وابن ماجه [٤٠٢٣]، والحاكم [١/ ٤٠].

(٢) حديث أبي هريرة (ما يزال البلاء ..): الترمذيُّ [٢٣٩٩] وصحَّحه.

(٣) حديث (إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابْتلاهُ ليَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ ...): الديلميُّ [٩٧٠] عن أبي هريرة.

قوله (خَيْرُونٍ): -بفتحِ الخاءِ وسُكونِ الياءِ فضمِّ الراءِ- ممْنُوعٌ مِنَ الصَّرفِ[1]. قوله (البغداذيُّ): المعروفُ بزوجِ الحُرَّةِ، وهوَ بالدالِ المهمَلَةِ ثُمَّ المعجمةِ على الروايةِ المعتمدةِ. قوله (السِّنْجِيُّ): بكسرِ السينِ المهمَلَةِ المشدَّدَةِ. قوله (بَهْدَلَةَ): بفتحِ الموحَّدةِ وسكونِ الهاءِ وفتحِ المهمَلَةِ واللّامِ وسكونِ الهاءِ السّاكنةِ.

قوله (الأمْثَلُ فالأمْثَلُ): أي الأَشْبَهُ فالأَشْبَهُ.

قوله (على حَسَبِ دِينِه): بفتح السِّينِ، والمُرادُ به الدِّينِ هُنَا الطاعَةُ.

قوله (ما عَلَيْه خَطيئةٌ): يؤاخَذُ بهَا.

قوله (قُتِلَ)[2]: وفي قراءةٍ «قاتَلَ» بأَلِفٍ بَعْدَ القافِ[3]. قوله (رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ): جمعُ «رِبِّيٍّ»؛ منسوبٌ إلى الرَّبِّ، وفيه تغييرٌ كتغييراتِ النَّسَبِ، وواحِدُه «رِبِّيٌّ» بكسرِ الراءِ.

قوله (حَتَّى يُوافِيَ به): -بكَسْرِ الفاءِ وفتحِها- أي يأْتِيَ أو يُؤتَى بذنبِه كامِلًا.

قوله (لِيَسْمَعَ تَضَرُّعَه): أي تَذَلُّلَه.

---

(١) يمنع ويصرف، وقد تقدم ضبطه.

(٢) وهي قراءة نافع المدني، وابن كثير المكي، وأبي عمرو بن العلاء، ويعقوب.

(٣) وهي قراءة ابن عامر الدمشقي، وعاصم وحمزة والكسائي الكوفيين، وأبي جعفر، وخلف العاشر.

وحَكَى السَّمَرْقَنْدِيُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَكْرَمَ عَلى الله تعالى كانَ بَلاؤُهُ أَشَدَّ؛ كَيْ يَتَبَيَّنَ فَضْلُهُ، ويَسْتَوْجِبَ الثَّوابَ، كَما رُوِيَ عَنْ لُقْمَانَ أَنَّه قالَ: «يَا بُنَيَّ، الذَّهَبُ والفِضَّةُ يُخْتَبَرانِ بالنَّارِ، والمُؤْمِنُ يُخْتَبَرُ بالبَلَاءِ».

وقَدْ حُكِيَ أَنَّ ابتلاءَ يَعْقُوبَ بِيُوسُفَ التِفاتُه في صَلَاتِهِ إِلَيْهِ ويُوسُفُ نائِمٌ مَحبَّةً لَهُ.

وقِيلَ: بَلِ اجْتَمَعَ يَوْمًا هُوَ وابْنُهُ يوسُفُ على أَكْلِ حَمَلٍ مَشْوِيٍّ وهُما يَضْحَكَانِ، وكَانَ لَهُمْ جَارٌ يَتِيمٌ، فشَمَّ رِيحَهُ واشْتَهاهُ، وبَكَى وبَكَتْ جَدَّةٌ لَهُ عَجُوزٌ لِبُكَائِه، وبَيْنَهُما جِدَارٌ، ولا عِلْمَ عِنْدَ يَعْقُوبَ وابْنِهِ، فعُوقِبَ يَعْقُوبُ بالبُكَاءِ أَسَفًا على يُوسُفَ إِلَى أَنْ سَالَتْ حَدَقَتَاهُ، وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ، فَلَمَّا عَلِمَ بذلك كَانَ بَقِيَّةَ حَيَاتِه يَأْمُرُ مُنادِيًا يُنَادِي عَلَى سَطْحِهِ: أَلَا مَنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَتَغَدَّ عِنْدَ آلِ يَعْقُوبَ، وعُوقِبَ يُوسُفُ بالمِحْنَةِ الَّتِي نَصَّ اللهُ عَلَيْها.

ورُوِيَ عَنِ اللَّيْثِ أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ أَيُّوبَ أَنَّه دَخَلَ مَعَ أَهْلِ قَرْيَتِهِ عَلَى مَلِكِهِمْ، فكَلَّمُوهُ في ظُلْمِهِ، وأَغْلَظُوا له إِلَّا أَيُّوبَ؛ فإِنَّه رَفَقَ بِهِ مَخَافَةً على زَرْعِهِ، فَعَاقَبَهُ اللهُ بِبَلَائِه. ومِحْنَةُ سُلَيْمَانَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ نِيَّتِهِ في كَوْنِ الحَقِّ في جَنْبَةِ أَصْهَارِه، أَوْ لِلعَمَلِ بالمَعْصِيَةِ في دَارِه ولا عِلْمَ عِنْدَهُ.

وهَذِه أَيْضًا فائدةُ شِدَّةِ المَرَضِ والوَجَعِ بالنَّبِيِّ ﷺ؛ قالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا رَأَيْتُ الوَجَعَ على أَحَدٍ أَشَدَّ مِنْهُ على رَسُولِ الله ﷺ[1].

وعَنْ عَبْدِ الله: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ في مَرَضِهِ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا! قالَ: أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ، قُلْتُ: ذلكَ أَنَّ لَكَ الأَجْرَ مَرَّتَيْنِ! قالَ: أَجَلْ، ذلكَ كذلكَ[2].

(١) حديث عائشة (ما رأيتُ الوَجَعَ عَلَى أَحَدٍ ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٦٤٦)، ومسلمٌ (٢٥٧٠)].

(٢) حديث عبد الله (رأيتُ النبيَّ ﷺ في مرضه ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٦٤٧)، ومسلمٌ (٢٥٧١)].

قوله (يا بُنَيَّ): بفتح الياءِ الأخيرَةِ وكسرِها مَعَ التشديدِ، قراءتانِ ولُغَتانِ.

قوله (يُخْتَبَرانِ): أي يُمتَحنانِ، وهوَ بصيغَةِ المجهُولِ.

قوله (على أَكْلِ حَمَلٍ): -بفتحِ المهمَلةِ والميمِ- هوَ الجَذَعُ مِنَ الضأْنِ. قوله (أَسَفًا): أي لِلتأسُّفِ والحُزْنِ، وهوَ بفتحِ السِّينِ المهمَلةِ. قوله (فَلْيَتَغَدَّ): مِنَ الغَداءِ، وهوَ طَعَامُ أَوَّلِ النهارِ، وهوَ بالمهمَلةِ.

قوله (بالمِحْنَةِ): بنونٍ بعْدَ الحاءِ المهمَلةِ، كذا ضَبَطُوه، لا «بالمَحبَّةِ» بالموحَّدةِ.

قوله (في جَنْبَةِ أصهارِه): -بفتحِ الجيمِ والنونِ وسكونِها وموحَّدةٍ- تَعني الجانبَ، وفي نسخةٍ «جِهَةِ».

قوله (أَشَدَّ مِنه): أي مِنَ الوَجَعِ. قوله (يُوعَكُ): بصيغَةِ المجهُولِ. وقوله (وَعْكًا): -بسكونِ العَينِ وتُحرَّكُ- أي شِدَّةَ الحُمَّى. قوله (أَجَلْ): أي نَعَمْ. قوله (أَجَلْ ذلك): أي الأَمْرُ، وقوله (كذلك): الأظهَرُ: «لِذلك» باللامِ.

وفي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا وَضَعَ يَدَهُ عَلى النَّبِيِّ ﷺ، فقَالَ: واللهِ مَا أُطِيقُ أَضَعُ يَدِي عَلَيْكَ مِنْ شِدَّةِ حُمَّاكَ! فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّا -مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ- يُضَاعَفُ لَنَا البَلَاءُ؛ إِنْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُبْتَلَى بالقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ، وإِنْ كَانَ النبيُّ لَيُبْتَلَى بالفَقْرِ، وإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بالبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بالرَّخَاءِ)[1].

وعَنْ أَنَسٍ عَنْه ﷺ: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وإِنَّ اللهَ إِذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فلَهُ السَّخَطُ)[2].

وقَدْ قَالَ المُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]: إِنَّ المُسْلِمَ يُجْزَى بمَصَائِبِ الدُّنْيَا، فتَكُونُ لهُ كَفَّارَةً، ورُوِيَ هذا عَنْ عائِشَةَ[3] وأُبَيٍّ[4] ومُجاهِدٍ.

وقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْه ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِه خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ)[5]. وقَالَ فِي رِوَايَةِ عائِشَةَ: (مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إِلَّا يُكَفِّرُ اللهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا)[6].

---

(١) حديث أبي سعيد (أن رجلًا وضع يده ...): الحاكم [٧٨٤٨] وابن ماجه [٤٠٢٤].

(٢) حديث أنس (إنَّ عِظَمَ الجزَاء ...): الترمذيُّ وحسَّنه [٢٣٩٦].

(٣) حديث عائشة في قوله (من يعمل سوءًا يجز به ...): أحمد [٢٤٣٦٨، ٢٥٨٣٥] والحاكم [٣٢٠٣].

(٤) حديث أبي بكر مثله: أحمد [٦٨] والحاكم [٤٤٥٠] وابن حبَّان [٢٩١٠] والبزَّار [٢٠] من طرق. [وحديث أبي بن كعب أخرجه الطبري في التفسير (٧/ ٥١٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٤)، والبيهقي في الشعب (٩٣٥٧). وحديث مجاهد أخرجه الطبري في التفسير (٧/ ٥١٧)].

(٥) حديث (مَن يُرِد اللهُ به خيْرًا يصب منه...): البخاريُّ [٥٦٤٥] عن أبي هريرة.

(٦) حديث عائشة (ما مِن مُصيبة...): مسلمٌ [٢٥٧٢]، وأخرجه أيضًا البخاريُّ (٥٦٤٠)].

قوله (وَضَعَ يَدَه على النبيِّ ﷺ): لِيَنْظُرَ الحُمَّى الَّتِي نَزَلَتْ به أخفيفةٌ أم شديدةٌ. قوله (إِنَّا -معشَرَ الأنبياءِ): بالنصبِ على الاختصاصِ. قوله (يضاعَفُ لَنا البَلاءُ): أي على قَدْرِ مَا لَنَا مِن المَرتبةِ عِنْدَ الكبيرِ المتعالِ.

قوله (إنْ كانَ النبيُّ لَيُبْتَلَى): (إنْ) مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشأنِ محذوفٌ، و«أل» في (النبيُّ) لِلاستغراقِ. وقوله (الفَقْرِ): أي الجُوعِ. قوله (كَمَا تفرَحونَ بالرَّخاءِ): المستلزِمِ لِلنَّعْماءِ؛ لِشِدَّةِ يَقِينِهِم في أمْرِ الدِّينِ.

قوله (مَعَ عِظَمِ البَلاءِ): -بِكَسْرِ العَيْنِ وفتحِ الظاءِ المعجَمةِ، ويَجوزُ ضَمُّ العَينِ مَعَ سكونِ الظاءِ- فمَنْ كانَ بَلاؤه أكبَرَ فجزاؤه أوْفَرُ.

قوله (فلَه الرِّضَى): أي مِن رَبِّه جَلَّ وعَزَّ، وكثرةُ الثوابِ. وقوله (ومَنْ سَخِطَ): -بكسر السِّين- أي كَرِهَ.

قوله (يُصِبْ مِنْه): -بضمِّ الياءِ وكسرِ الصَّادِ المهمَلةِ وتُفْتَحُ- أي يُنزِلْ بِه مكروهًا.

قوله (حَتَّى الشَّوْكَةُ): بفتحِ الشينِ وسكونِ الواو وفتحِ الكافِ وضم التاءِ[1]؛ على أنَّ (الشوكةُ) مبتدأٌ، والخبرُ قولُه (يُشاكُها)، وهوَ بضمِّ الياءِ، والضميرُ المستترُ عائدٌ لِلمؤمِنِ، والبارزُ لِلشوكةِ.

---

(١) جوَّزوا فيها الجر على أن حتى جارة، والرفع على أنها ابتدائية، والنصب بتقدير عامل.

وقالَ في رِوايَةِ أَبي سَعِيدٍ: (مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أَذًى ولا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)(١).

وَفي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يُحَتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ)(٢).

وحِكْمَةٌ أُخْرَى أَوْدَعَهَا اللهُ في الأَمراضِ لِأَجْسَامِهِمْ وتَعَاقُبِ الأَوْجَاعِ عَلَيْهَا وشِدَّتِها عِنْدَ مَمَاتِهِمْ؛ لِتَضْعُفَ قُوَى نُفُوسِهِمْ، فَيَسْهُلَ خُرُوجُهَا عِنْدَ قَبْضِهِمْ، وتَخِفَّ عَلَيْهِمْ مَؤُونَةُ النَّزْعِ وشِدَّةُ السَّكَرَاتِ بِتَقَدُّمِ المَرَضِ وضَعْفِ الجِسْمِ والنَّفْسِ لِذلِكَ، خِلَافُ مَوْتِ الفَجْأَةِ وأَخْذِهِ كَمَا يُشَاهَدُ مِنَ اخْتِلافِ أَحْوَالِ المَوْتَى مِنَ الشِّدَّةِ واللِّينِ والصُّعُوبَةِ والسُّهُولَةِ.

وقَدْ قَالَ ﷺ: (مَثَلُ المُؤْمِنِ مَثَلُ خَامَةِ الزَّرْعِ تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ هَكَذا وهَكَذا)(٣).

وَفي رِوايَةِ أَبي هُرَيْرَةَ: (مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تكفَؤُهَا، فإذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وكذلكَ المُؤْمِنُ يُكفَأُ بالبَلاءِ، ومَثَلُ الكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهُ اللهُ)(٤).

مَعْنَاهُ أَنَّ المُؤْمِنَ مُرَزًّأ، مُصَابٌ بالبَلَاءِ وَالأَمْرَاضِ بِتَصْرِيفِهِ بَيْنَ أَقْدَارِ اللهِ، مُنْطَاعٌ لِذَلِكَ، لَيِّنُ الجَانِبِ بِرِضَاهُ وقِلَّةِ سَخَطِهِ، كَطَاعَةِ خَامَةِ الزَّرْعِ وانْقِيَادِهَا لِلرِّيحِ وَتَمَايُلِهَا لِهُبُوبِهَا

(١) حديث أبي سعيد (ما يصيب المؤمن ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٦٤١)، ومسلمٌ (٢٥٧٣)، من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة].

(٢) حديث ابن مسعودٍ (ما مِن مُسْلم يُصيبه أذًى ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٦٤٨)، ومسلمٌ (٢٥٧١)].

(٣) حديث (مَثَلُ المُؤمِنِ مَثَلُ خَامَةِ الزَّرْعِ ...): الشيخان [البخاريُّ (٥٦٤٣)، ومسلمٌ (٢٨١٠)] عن كعب بن مالك وجابر.

(٤) رواية أبي هريرة: مسلمٌ [(٢٨٠٩)، وأيضًا البخاريُّ (٥٦٤٤)].

قوله (مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ): -بفتحِ أَوَّلِها وثانيهَا- أي تَعَبٍ ووَجَعٍ على اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرَتَّبِ.

قوله (ولا حَزَنٍ): -بضمٍّ الحاءِ والزاي، أو بفَتحِهِمَا- أي غَمٍّ.

قوله (إلّا حاتَّ): -بتشديد التاءِ الفوقيةِ، مِن بَابِ المغالَبةِ لِلمبالَغةِ- أي أَسْقَطَ.

قوله (وتَخِفَّ عليْهِم مَؤُونَةَ النَّزْعِ): أي ثِقَلَ خروجِ أرواحِهم. قوله (كَمَا يشاهَدُ): بالبِناءِ لِلمجهُولِ.

قوله (مَثَلُ خامَةِ الزرْعِ): -بالخاءِ المعجمَةِ وتخفيفِ الميمِ- أي طَاقَتِه.

قوله (تُفَيِّئُها): -بضمِّ التاءِ الفوقيةِ والفاءِ وتحتيةٍ مشدَّدةٍ مكسُورةٍ فهمزةٍ مضمُومَةٍ- أي تُمِيلُهَا (هكذا وهكذا): أي عَنْ يَمينِها وعَنْ يسَارِها.

قوله (تكفَؤُها): -بفتحِ الفاءِ وكسرِها- أي تَقْلِبُهَا. وقوله (يُكْفَأُ): -بصيغَةِ المجْهُولِ- أي يُقْلَبُ ويَتغيَّرُ حالُه.

قوله (كَمَثَلِ الأَرْزةِ): -بسكونِ الراءِ وفَتْحِهَا- أي شَجَرَتِها وهُوَ خَشَبٌ معروفٌ.

قوله (حتَّى يَقْصِمَه اللهُ): -بسكون القافِ وكسر الصادِ المهمَلةِ- أي يُهْلِكَه.

قوله (مُرَزًّأ): -بضمِّ الميمِ وفتحِ الراءِ وتشديدِ الزاي المفتوحَةِ وتخفيفِهَا كَمَا في نسخةٍ- أي مُبْتَلًى بالرَّزَايَا.

قوله (مُنْطَاعٌ لِذلكَ): -بضم الميمِ وسكونِ النونِ- أي مُنقَادٌ لِلذي أُصِيبَ بِهِ، وفي نسخةٍ «مُطَاعٌ».

وَتَرَنُّحِهَا مِنْ حَيْثُ مَا أَتَتْهَا، فَإِذَا أَزَاحَ اللهُ تعالى عَنِ المُؤْمِنِ رِيَاحَ البَلَاءِ فَاءَ واعْتَدَلَ صَحِيحًا، كَمَا اعْتَدَلَتْ خَامَةُ الزَّرْعِ عِنْدَ سُكُونِ رِيَاحِ الجَوِّ، رَجَعَ إِلَى شُكْرِ رَبِّهِ ومَعْرِفَةِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ بِرَفْعِ بَلَائِهِ؛ مُنْتَظِرًا رَحْمَتَهُ وثَوَابَهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ بِهَذِهِ السَّبِيلِ لَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِ مَرَضُ المَوْتِ ولا نُزُولُه، ولا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ سَكَرَاتُه وَنَزْعُه؛ لِعَادَتِهِ بِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الآلامِ، ومَعْرِفَةِ مَا لَهُ فيهَا مِنَ الأَجْرِ، وتَوْطِينِهِ نَفْسَهُ على المَصَائِبِ، وَرِقَّتِها وضَعْفِهَا بِتَوَالِي المَرَضِ أَوْ شِدَّتِه.

والكَافِرُ بخِلافِ هَذا، مُعَافًى في غَالِبِ حَالِه، مُمَتَّعٌ بِصِحَّةِ جِسْمِهِ كالأَرْزَةِ الصَّمَّاءِ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللهُ هَلاكَهُ قَصَمَهُ لِحِينِهِ عَلَى غِرَّةٍ، وأَخَذَهُ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ لُطْفٍ ولا رِفْقٍ، فَكَانَ مَوْتُهُ أَشَدَّ عَلَيْهِ حَسْرَةً، ومُقَاسَاةُ نَزْعِهِ مَعَ قُوَّةِ نَفْسِهِ وَصِحَّةِ جِسْمِهِ أَشَدَّ أَلَمًا وعَذَابًا، ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ، كَانْجِعَافِ الأَرْزَةِ، وكَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، وكَذَلِكَ عَادَةُ اللهِ في أَعْدَائِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ...﴾ الآيَةَ [العنكبوت: ٤٠]، ففَجَأَ جَمِيعَهُمْ بالمَوْتِ على حَالِ عُتُوٍّ وغَفْلَةٍ، وصَبَّحَهُمْ بِهِ على غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ، بَغْتَةً، وَلِهَذَا كَرِهَ السَّلَفُ مَوْتَ الفُجَاءَةِ، ومِنْهُ في حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَخْذَةً كَأَخْذَةِ الأَسَفِ[1]، أَيِ الغَضَبِ، يُرِيدُ «مَوْتَ الفُجَاءَةِ».

(١) حديث إبراهيم (كانوا يَكْرَهُونَ أَخْذَةً كأَخْذَةِ الأَسَفِ): سعيد بن منصور في سننه، وابن أبي الدنيا في ذكر الموت [وأخرجه ابن ابي شيبة في المصنف (١٢٠٠٦)، وأخرج الطبراني (٨/ ٧٦٠٣) عن أبي أمامة: قال: «كان النبي ﷺ يتعوذ من موت الفجأة، وكان يعجبه أن يمرض قبل أن يموت»].

قوله (وتَرَنُّحِهَا): -بنونٍ مشدَّدةٍ مضمومة بَعْدَ الراءِ المفتوحَةِ- أي دَوَرانِهَا في تَغَيُّرِ أحْوالِهَا.

قوله (فإذا أَزَاحَ اللهُ): أي أَذْهَبَ.

وقوله (رِيَاحِ الجَوِّ): -بفتحِ الجيمِ وتشديدِ الواوِ المكسُورةِ- أي هَواءِ جَوِّ السَّمَاءِ.

قوله (قَصَمَه لِحِينِه): أي هَلَكَه في وَقْتِه فورًا.

وقوله (على غِرَّةٍ): -بكَسرِ الغينِ المعجَمَةِ وتشديدِ الراءِ المفتوحَةِ- أي على حِينِ غرورٍ وغَفْلَةٍ.

قوله (ولَعذابُ الآخِرةِ أَشَدُّ): أي أَقْوَى، وفي نسخةٍ زيَادةُ (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ).

قوله (كانجِعافِ): -بالنونِ والجيمِ- أي انقلاعِهَا مِن أَصْلِها، وفي نسخةٍ «انخِفافِ» -بالخاءِ المعجَمَةِ- أي ضَعْفِ.

قوله (وكذلك عَادَةُ اللهِ في أعدائِه): أي مَعَ أَعْدائِه؛ فإنَّها خِلافُ عادتِه مَعَ أَصْفيائِه وأَحِبَّائِه.

قوله (حَاصِبًا): أي رِيحًا عاصِفةً.

قوله (ومِنْهم مَنْ أَخَذَتْه الصَّيْحَةُ): كثَمُودَ فأَصْبَحُوا في دِيَارِهم جَاثِمِينَ.

قوله (على حالِ عُتُوٍّ): -بضمِّ المهمَلَةِ ومُثَنَّاةٍ فوقيةٍ وواوٍ مُشَدَّدةٍ- أي تَكَبُّرٍ وتَمَرُّدٍ.

قوله (وصَبَّحَهُم... إلى آخِرِه): أي وجاءَهم بالمَوْتِ، وهُوَ بتشديدِ المُوَحَّدةِ.

قوله (الأَسَفِ): بفتحِ السِّينِ المُهْمَلَةِ، وفي نسخَةٍ بكسرِها، أي الغَضْبانِ المُتَأَسِّفِ.

وحِكْمَةٌ ثَالِثَةٌ: أَنَّ الأَمْرَاضَ نَذِيرُ المَمَاتِ، وبِقَدْرِ شِدَّتِها شِدَّةُ الخَوْفِ مِنْ نُزُولِ المَوْتِ؛ فَيَسْتَعِدُّ مَنْ أَصَابَتْهُ وعَلِمَ تَعَاهُدَهَا لَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ، ويُعْرِضُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا الكَثِيرَةِ الأَنْكَادِ، ويَكُونُ قَلْبُه مُعَلَّقًا بالمَعَادِ، فيَتَنَصَّلُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْشَى تِبَاعَتَهُ مِنْ قِبَلِ الله تعالى وقِبَلِ العِبَادِ، ويُؤَدِّي الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا، ويَنْظُرُ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ وَصِيَّةٍ فِيمَنْ يُخَلِّفُهُ، أَوْ أَمْرٍ يَعْهَدُهُ.

وهَذا نَبِيُّنَا ﷺ المَغْفُورُ لهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه ومَا تَأَخَّرَ، قَدْ طَلَبَ التَّنَصُّلَ في مَرَضِهِ مِمَّنْ كَانَ له عَلَيْهِ مَالٌ أَوْ حَقٌّ في بَدَنٍ، وأَقَادَ مِنْ نَفْسِهِ ومَالِهِ، وأَمْكَنَ مِنَ القِصَاصِ مِنْه عَلَى مَا وَرَدَ في حَدِيثِ الفَضْلِ[1] وحَدِيثِ الوَفَاةِ[2]، وأَوْصَى بالثَّقَلَيْنِ بَعْدَهُ، كِتَابِ الله وَعِتْرَتِه، وبالأَنْصَارِ عَيْبَتِهِ، ودَعَا إِلَى كَتْبِ كِتَابٍ لِئَلَّا تَضِلَّ أُمَّتُه بَعْدَه؛ إِمَّا في النَّصِّ عَلى الخِلَافةِ، أَوْ مَا اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ، ثُمَّ رَأَى الإِمْسَاكَ عَنْه أَفْضَلَ وخَيْرًا.

وهَكَذَا سِيرَةُ عِبَادِ الله المُؤْمِنِينَ وأَوْلِيَائِه المُتَّقِينَ، وهَذَا كُلُّه يُحْرَمُهُ غَالِبًا الكُفَّارُ لإِمْلَاءِ الله لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا، ولِيَسْتَدْرِجَهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ؛ قَالَ تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وهُم يَخِصِّمُونَ...﴾ الآية [يس: ٤٩-٥٠].

ولِذَلِكَ قَالَ ﷺ في رَجُلٍ مَاتَ فُجْأَةً: (سُبْحَانَ الله، كَأَنَّه عَلى غَضَبٍ، المَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ وَصِيَّتَهُ)[3].

---

(١) [حديث الأعرابي أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٣٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣١)، والبيهقي في الشعب (٩/ ٥٠٦)، وغيرهم عن حبيب بن مسلمة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابيا لم يتعمده، فأتاه جبريل ﷺ فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: اقتص مني، فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي، فدعا له بخير].

(٢) [تقدم تخريجه. انظر ص٤٠٨].

(٣) حديث (قوله في رجلٍ ماتَ فَجْأَةً ...): أبو يعلى [٤١٢٢] وابن=

قوله (فيَتَنَصَّلُ): -مِنْ بابِ التَّفَعُّلِ- أي فيَتَخَلَّصُ، وفي نسخةٍ «فيَنْتَصِلُ». قوله (تِبَاعَتَه): بكسرِ التاءِ الفوقيةِ، لا بفتْحِها كَمَا تَوَهَّمَه الدّلجيُّ.

قوله (فِيمَن يُخَلِّفُه): -بتشديدِ اللَّامِ المكسورةِ- أي فِيمَنْ يُعَقِّبُه مِن وَلَدٍ.

قوله (قَدْ طَلَبَ التنصُّلَ): أي التخلُّصَ.

قوله (وأَقَادَ مِن نَفْسِه وَمَالِه): أي أَعْطَى القَوْدَ مِنهما مُستَحِقَّه.

قوله (وأَوْصَى بالثَّقَلَيْنِ بَعْدَه كِتَابِ الله): بالجَرِّ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَه، ويَجُوزُ نَصْبُه ورَفْعُه[1]، و(الثَّقَلَيْنِ) الجِنُّ والإنسُ.

قوله (وعِتْرَته): -بكَسْرِ العَيْنِ المهمَلةِ- أي أَقَارِبِه. قوله (عَيْبَتِه): -بفَتْحِ العينِ المهْمَلةِ وسكونِ التحتيّةِ فباءٍ مُوَحَّدَةٍ- أي مَوْضِعِ سِرِّه.

قوله (يُحْرَمُه غالِبًا الكُفَّارُ): بصيغةِ المجهولِ. قوله (لإِملاءِ الله لَهم): أي إِمْهَالِهم إلى انقطاعِ آجالِهم.

قوله (إلّا صَيْحةً واحدةً): هِيَ النَّفخةُ الأُولى.

وقوله (يَخِصِّمُونَ): -بفتحِ الخاءِ وكَسْرِها والاختِلاسِ- أي والحالُ أنَّهم يَخْتَصِمونَ في معامَلاتِهم، وفي قراءةٍ بسُكونِ الخاءِ المعجَمةِ وكسرِ الصّادِ المُهمَلةِ مِن «خَصَمَ»: إذا اختَصَمَ. اهـ مُلَّا.

---

(١) على القطع؛ فإنَّ كلَّ ما جاز إبداله مما قبله جاز قَطْعُه إلى الرفعِ خبرًا لمبتدأ محذوف، أو النصب مفعولًا لفعل محذوف.

وَقَالَ: (مَوْتُ الفُجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنِ، وأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلكافِرِ أَوِ الفَاجِرِ)[1].

وذلكَ لِأَنَّ المَوْتَ يَأْتِي المُؤْمِنَ وهُوَ غالبًا مُسْتَعِدٌّ لهُ، مُنْتَظِرٌ لِحُلُولِهِ؛ فهَانَ أَمْرُهُ عَلَيْهِ كَيْفَمَا جَاءَ، وأَفْضَى إلى راحَتِهِ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وأَذَاهَا، كَمَا قَالَ ﷺ (مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ مِنْهُ)[2].

وتَأْتِي الكَافِرَ والفَاجِرَ مَنِيَّتُه على غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ ولا أُهْبَةٍ ولا مُقَدِّمَاتٍ مُنْذِرَةٍ مُزْعِجَةٍ، ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]؛ فكَانَ المَوْتُ أَشَدَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ، وفِرَاقُ الدُّنْيَا أَفْظَعَ أَمْرٍ صَدَمَهُ، وأَكْرَهَ شَيْءٍ لَهُ.

وإِلَى هَذا المَعْنَى أَشَارَ ﷺ بِقَوْلِهِ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ)[3].

***

=أبي الدنيا من حديث أنس.

(١) حديث (مَوْتُ الفَجْأَةِ راحةٌ للمُؤْمِنِ ...): أحمد [٢٥٠٤٢] عن عائشة بسند صحيح.

(٢) حديث (مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ مِنه): الشيخان [البخاريُّ (٦٥١٢)، ومسلمٌ (٩٥٠)] عن أبي قتادة.

(٣) حديث (مَن أَحَبَّ لقاءَ الله ...): الشيخان [البخاريُّ (٦٥٠٧)، ومسلمٌ (٢٦٨٣)] عن عبادة بن الصامت.

قوله (مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ مِنْه): أَمَّا المُسْتَرِيحُ فالمؤمِنُ يَمُوتُ فيَسْتَرِيحُ مِنْ تَعَبِ الدُّنيا، وأَمَّا المُسْتراحُ مِنْه فالظالِمُ يَمُوتُ فيَسْتَرِيحُ مِنْه العِبَادُ.

قوله (مَنِيَّتُه): -بتشديدِ الياءِ التحتيّةِ- أي مَوْتُه. قوله (ولا أُهْبَةٍ): -بضمِّ الهمزةِ وسكون الهاء- أي استعْدادٍ.

قوله (ولا مُقَدِّماتٍ): -بكَسرِ الدالِ وتُفتَحُ- مِن قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ، أو مِنَ المتقدم، وهُوَ قُدْمَةٌ: أي مَا تَقَدَّمَه مِنَ الأمراضِ ونَحْوِها. وقوله (مُنذِرَةٍ مُزْعِجَةٍ): أي مُخَوِّفةٍ مُقْلِقَةٍ.

قوله (فتَبْهَتُهم): أي تُحَيِّرُهم وتُدْهِشُهم.

قوله (وفِرَاقُ الدُّنْيَا أَفْظَعَ): أي أَشْنَعَ وأَمَرَّ، وهُوَ بالفاءِ والظّاءِ المعجَمةِ. قوله (أَمْرٍ صَدَمَه): أي أَصابَه بِشِدَّةٍ وهُوَ غافلٌ عَنْه.

قوله (مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ الله): أي بقُدومِه عَلَيْه عِندَ الموتِ. قوله (أَحَبَّ اللهُ لقَاءَه): أي بإكرامِه لَه في جِوارِه لِلمَلإِ الأعلى. قوله (ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله): أَنْ يَسْخَطَه، وعَدَمُ رِضاه بقبضِ رُوحِه.

***

القِسْمُ الرَّابِعُ:

فِي تَصَرُّفِ وُجُوهِ الأَحْكَامِ، فِيمَنْ تَنَقَّصَه أَوْ سَبَّهُ ﷺ

قَالَ القاضي أَبُو الفَضْلِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:

قَـدْ تَقَـدَّمَ مِـنَ الكِتَـابِ والسُّـنَّةِ وإِجْمَـاعِ الأُمَّـةِ مَـا يَجِـبُ مِـنَ الحُقُـوقِ لِلنَّبِـيِّ ﷺ ومَـا يَتعَـيَّنُ لَـهُ مِـنْ بِـرٍّ وتَعْظِيـمٍ وتَوْقِـيرٍ وإِكْـرَامٍ، وبِحَسَـبِ هَـذَا حَـرَّمَ اللهُ تعَـالى أَذَاهُ في كِتَابِـهِ، وأَجْمَعَـتِ الأُمَّـةُ عـلى قَتْـلِ مُتَنَقِّصِـهِ ﷺ مِـنَ المُسْـلِمِينَ وسَـابِّهِ؛ قَـالَ اللهُ تعَـالى: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يُـؤْذُونَ اللهَ ورَسُـولَه لَعَنَهُـمُ اللهُ في الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةِ وأَعَـدَّ لَـهُمْ عَذَابًـا مُهِينًـا﴾ [الأحـزاب: ٥٧]، وَقَـالَ: ﴿والَّذِيـنَ يُـؤْذُونَ رَسُـولَ الله لَـهُمْ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ﴾ [التوبـة: ٦١]، وقَـالَ تَعَـالى: ﴿ومَـا كَانَ لَكُـمْ أَن تُـؤْذُوا رَسُـولَ الله وَلَا أَن تَنكِحُـوا أَزْوَاجَـهُ مِـن بَعْـدِهِ أَبَـدًا إِنَّ ذَلِكُـمْ كَانَ عِنـدَ الله عَظِيـمًا﴾ [الأحـزاب: ٥٣]، وقَـالَ تعـالى فِي تَحْرِيـمِ التعْرِيـضِ لَـه: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لَا تَقُولُـوا رَاعِنَـا وَقُولُـوا انظُرْنَـا وَاسْـمَعُوا وَلِلْكَافِرِيـنَ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ﴾ [البقـرة: ١٠٤]، وذلِـكَ أَنَّ اليَهُـودَ كانُـوا يقُولُـونَ: رَاعِنَـا يـا محمَّـدُ، أَيْ أَرْعِنَـا سَـمْعَكَ، واسْـمَعْ مِنَّـا، ويُعَرِّضُـونَ بالكَلِمَـةِ يُرِيـدُونَ الرُّعُونَـةَ؛ فَنَهَـى اللهُ المؤْمِنِيـنَ عَـنِ التَّشَـبُّهِ بِهِـمْ، وقَطَـعَ الذَّرِيعَـةَ بِنَهْـيِ المؤْمِنِيـنَ عَنْهـا؛ لِئَـلَّا يَتَوَصَّـلَ بهَـا الكَافِـرُ والمُنَافِـقُ إلى سَـبِّهِ والاسْـتِهْزَاءِ بِـه.

وقِيـلَ: بَـلْ لِمَـا فِيهَـا مِـنْ مُشَـارَكَةِ اللَّفْـظِ لِأَنَّهَـا عِنْـدَ اليَهُـودِ بِمَعْنَـى «اسْـمَعْ لا سَـمِعْتَ!».

وقِيـلَ: بَـلْ لِمَـا فِيهَـا مِـنْ قِلَّـةِ الأَدَبِ وعَـدَمِ تَوْقِـيرِ النَّبِـيِّ ﷺ وتَعْظِيمِـهِ لِأَنَّهَـا فِي لُغَـةِ الأَنْصَـارِ بمَعْنَـى «ارْعَنَـا نَرْعَـكَ»، فنُهُـوا عَـنْ ذلـكَ؛ إِذْ مُضَمَّنَـه أَنَّهُـمْ لا يَرْعَوْنَـهُ إِلَّا بِرِعَايَتِـهِ لَـهُمْ، وهُـوَ ﷺ وَاجِـبُ الرِّعَايَـةِ بِـكُلِّ حَـالٍ.

قولـه (مِـنْ بِـرٍّ): أي إحسَـانٍ وطَاعـةٍ. قولـه (وبِحَسَـبِ هـذا): -بفتـح السِّـين- أي بِقَـدْرِ مَـا يَجِـبُ لـه. قولـه (عـلى قَتْـلِ مُتَنَقِّصِـه): بنَـوْعٍ مِـن أنـواعِ التحقـيرِ. وقولـه (وسَـابِّه): أي شـاتِمِه.

قولـه (لَعَنَهـم اللهُ): أي أَبْعَدَهـم عَـنِ الرحمَـةِ. قولـه (لَهـم عَـذابٌ أَلِيـمٌ): أي مُـؤْلِمٌ بفتـحِ الـلّامِ وَكسرِهَـا.

قولـه (أَنْ تُـؤْذُوا رسـولَ الله): أي بنـوعٍ مِـنْ أنـواعِ الأَذَى؛ سَـواءٌ كانَ في حَيَاتِـه أَمْ بَعْـدَ وَفاتِـه. قولـه (ولا أَنْ تَنْكِحُـوا أزواجَـه): أي مُطلَقًـا سَـواءٌ كانَ بَعْـدَ مَماتِـه أو في حياتِـه بَعْـدَ فِراقِـه لَهُـنَّ دَخَـلَ بِهِـنَّ أَوْ لا.

قولـه (أَيْ أَرْعِنَـا سَـمْعَكَ): بفتـحِ الهَمـزةِ وكسرِ العَيـنِ، والمَعْنَـى: رَاعِنَـا بِسَـمْعِكَ وأَلْقِـه إِلَيْنَـا.

وقولـه (ويُعَرِّضُـونَ بالكَلِمَـةِ): -بتشـديدِ الـراءِ المكسُـورةِ- أي يُلَوِّحُـونَ بالكَلِمَـةِ. وقولـه (يُرِيـدونَ الرُّعُونَـةَ): أي الحَماقَـةَ، و«الرُّعونَـةُ» بضَـمِّ الـراءِ.

قولـه (وقَطَـعَ الذَّرِيعَـةَ): أي سَـدَّ بَـابَ الفَسَـادِ.

قولـه (بِمَعْنَـى: ارْعَنَـا نَرْعَـكَ): بوَصـلِ الهمـزَةِ [وفتـحِ] العَـيْنِ؛ أَمْـرٌ مِـنَ الرِّعَايَـةِ. وقولـه (نَرْعَـكَ): أي نَرعَـاكَ وحَذَفَـتِ الأَلِـفُ لِأَنَّـه مجـزومٌ في جَـوابِ الأمـرِ.

قولـه (إِذْ مُضَمَّنُـه): -بضَـمِّ الميـمِ وفتـحِ الضَّـادِ المعجَمـةِ وتشـديدِ الميـمِ المفتوحَـةِ- أي مَضْمونُـه.

وهَـذا هُـوَ ﷺ، قَـدْ نَهَـى عَـنِ التَّكَنِّي بكُنْيَتِـهِ، فقـالَ: (تَسَـمَّوْا باسْـمِي، ولا تكَنَّـوْا بكُنْيَتِـي) صِيَانـةً لِنَفْسِـهِ، وحِمَايَـةً عَـنْ أَذَاهُ؛ إذْ كانَ النَّبِـيُّ ﷺ اسْـتَجَابَ لِرَجُـلٍ نـادَاهُ: يَـا أَبَـا القَاسِـمِ، فقَـالَ لَـهُ: لَمْ أَعْنِـكَ، إنَّـمَا دَعَـوْتُ هَـذَا[1]، فَنَهَـى حِينَئِـذٍ عَـنِ التكَنِّي بِكُنْيَتِـهِ؛ لِئَـلَّا يَتَـأَذَّى بإجَابَـةِ دَعْـوَةِ غَـيْرِهِ مِمَّـنْ لَمْ يَدْعُـهُ، ويَجِـدَ بذَلِـكَ المُنَافِقُـونَ والمُسْـتَهْزِئونَ ذَرِيعَـةً إِلَى أَذَاهُ والإِزْرَاءِ بِـهِ، فَيُنَادُونَـهُ، فـإذَا التفَـتَ قالُـوا: إِنَّـمَا أَرَدْنَـا هَـذا لِسِوَاهُ تَعْنِيتًـا لَـهُ، واسْـتِخْفَافًا بحَقِّـهِ عـلى عَـادَةِ المُجَّـانِ والمسْـتَهْزِئِينَ، فَحَمَـى ﷺ حِمَـى أَذَاهُ بِـكُلِّ وَجْـهٍ، فحَمَـلَ مُحَقِّقُـو العُلَـماءِ نَهْيَـهُ عَـنْ هَـذا عـلى مُـدَّةِ حَيَاتِـه، وأَجَـازُوهُ بَعْـدَ وَفَاتِـهِ لِارْتِفَـاعِ العِلَّـةِ.

ولِلنَّـاسِ في هَـذا الحديـثِ مَذَاهِـبُ لَيْـسَ هَـذا مَوْضِعَهـا، ومَـا ذَكَرْنَـاهُ هُـوَ مَذْهَـبُ الجُمْهُـورِ، والصَّـوَابُ -إِنْ شَـاءَ اللهُ تعـالى-، أَنَّ ذَلِـكَ عـلى طَرِيـقِ تَوْقِـيرِهِ وتَعْظِيمِـهِ، وعَـلَى سَـبِيلِ النَّـدْبِ وَالاسْـتِحْبَابِ، لا عَـلَى التَّحْرِيـمِ، ولِذَلِـكَ لَمْ يَنْـهَ عَـنِ اسْـمِهِ لِأَنَّـهُ قَـدْ كَانَ اللهُ مَنَـعَ مِـنْ نِدَائِـهِ بِـهِ، بِقَوْلِـه: ﴿لا تَجْعَلُـوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكُـم...﴾ [النور: ٦٣]، وإِنَّـما كَانَ المسْـلِمُونَ يَدْعُونَـهُ «يَـا رسُـولَ اللهِ» ﷺ، و«يَـا نَبِـيَّ اللهِ»، وقَـدْ يَدْعُـوهُ بِكُنْيَتِـهِ «أَبَـا القَاسِـمِ» بَعْضُهُـمْ في بَعْـضِ الأَحْـوَالِ، وقَـدْ رَوَى أَنَـسٌ عَنْـهُ ﷺ مَـا يَـدُلُّ عـلى كَرَاهَـةِ التَّسَمِّي باسْـمِهِ، وتَنْزِيهِـهِ عَـنْ ذلـكَ إِذَا لَمْ يُوَقَّـرْ، فقَـالَ: (تُسَـمُّونَ أَوْلادَكُـمْ محمَّـدًا ثُـمَّ تَلْعَنُونَهُـمْ؟!)[2].

---

(١) حديث (أنه اسْتَجابَ لِرَجُلٍ نادى أبا القاسم فقال: لم أَعْنِكَ فقال: تَسَمَّوا باسْمِي ولا تكَنَّوا بكُنْيَتِي): الشيخان عن أنس [البخاريُّ (٢١٢١)، ومسلمٌ (٢١٣١)].

(٢) حديث أنس (تُسَمُّونَ أَوْلادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعَنُونَهُمْ...): الحاكم [٤/ ٢٩٣]، والبزّار [كما في «المجمع» (٨/ ٤٨)]، وأبو يعلى [٣٣٨٦] وسنده حسنٌ.

قولـه (عَـنِ التَّكَنِّـي بِكُنْيَتِـه): هِـيَ أبـو القاسِـمِ.

قولـه (ولا تَكَنَّـوْا بِكُنْيَتِـي): مُخَفَّفًـا أو مُشَـدَّدًا. وقولـه (بِكُنْيَتِـه): بضـمِّ الـكافِ وتُكْـسَرُ.

قولـه (لَمْ أَعْنِـكَ): -بفتـحٍ فسـكونٍ فكَسـرٍ- أي لَمْ أَقْصِـدْكَ.

قولـه (والإِزْراءِ بِـهِ): أي الاسـتحقارِ بِدَعْوَتِـه.

قولـه (تَعْنِيتًـا): مِـنَ العَنَـتِ -بفتـحِ العيـنِ والنـونِ- المَشَـقَّةِ.

قولـه (على عَـادَةِ المُجَّـانِ): -بضـمِّ الميـمِ وفتحِ الجيـمِ- جَمْعُ الماجِـنِ، وهُـوَ الـذي لا يُبَـالِي بـما صَنَـعَ.

قولـه (فحَمَـى ﷺ حِمَـى أَذَاهُ): -بفتـحِ الحـاءِ المهمَلـةِ في الأُولى وكَسْرِهـا في الثانيـةِ- أي صَـانَ حَريـمَ سَـاحَتِه مِـنْ أَذًى يَلْحَقُـهُ.

قولـه (لِارتفـاعِ العِلَّـةِ): هـيَ إيـذاؤُه في تلـكَ الحَالـةِ لا المَنْـعُ مُطلَقًـا كَـما صوَّبَـه الدلجيُّ؛ بَـلِ الصَّـوابُ مَـا قالَـه المُصَنِّـفُ ومَشَـى علَيْـه المـلا.

قولـه (يَدْعُـوه): -بالإفـرادِ- أي يَدْعُـوه الداعـي، وفي نسـخةٍ «يَدْعُونَـه» بصيغـةِ الجمـعِ، وهـوَ الصّـوابُ كَـما قالَـه المـلا.

قولـه (إذا لَمْ يُوَقَّـرْ): أي يُعَظَّـمْ حَـقَّ تعظيمِـه.

قولـه (تُسَـمُّونَ أولادَكـم... إلـخ): بِتَقْديـرِ الاسـتفهامِ الإنـكاريِّ التوبيخيِّ، ومحَـطُّ الإنـكارِ قولُـه (ثُـمَّ تَلْعَنُونَهـم).

ورُوِيَ أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ إِلى أَهْلِ الكُوفةِ: لا يُسَمَّى أَحَدٌ باسْمِ النَّبيِّ ﷺ، حَكَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ، وحُكِيَ عَنْ محمَّدِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلى رَجُلٍ اسْمُهُ محمَّدٌ ورَجُلٌ يَسُبُّهُ، ويَقُولُ: فَعَلَ اللهُ بِكَ -يَا مُحَمَّدُ- وصَنَعَ، فقَالَ عُمَرُ لابنِ أَخِيهِ محمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الخَطَّابِ: لا أَرَى محمَّدًا ﷺ يُسَبُّ بِكَ؛ واللهِ لا تُدْعَى محمَّدًا مَا دُمْتُ حَيًّا، وسَمَّاهُ عَبْدَ الرَّحْمنِ، وأَرَادَ أَنْ يَمْنَعَ لِهَذا أَنْ يُسَمَّى أَحَدٌ بأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ إِكْرَامًا لَهُمْ بذلكَ، وغَيَّرَ أَسْمَاءَهُمْ، وقَالَ: لا تُسَمُّوا بأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ أَمْسَكَ.[1]

والصَّوابُ جَوازُ هَذا كُلِّهِ بَعْدَهُ ﷺ بدَليلِ إِطْبَاقِ الصَّحابَةِ على ذلكَ، وقَدْ سَمَّى جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ابنَهُ محمَّدًا، وكَنَّاهُ بأَبِي القَاسِمِ، ورُوِيَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَذِنَ في ذلِكَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2].

وقَدْ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ ذلكَ اسْمُ المَهْدِيِّ وكُنْيَتُهُ[3]، وقَدْ سَمَّى بِهِ النَّبيُّ ﷺ محمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ، ومحمَّدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، ومحمَّدَ بْنَ ثابتِ بْنِ قَيْسٍ، وغَيْرَ واحِدٍ، وَقَالَ: (مَا ضَرَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ في بَيْتِهِ محمَّدٌ ومحمَّدَانِ وثَلَاثَةٌ)[4].

وقَدْ فَصَّلْنَا الكَلَامَ في هَذا القِسْمِ على بابَيْنِ كَما قَدَّمْنَاه.

***

(١) [ابن سعد (٥/ ٥٠) وأحمد (١٧٨٩٦)].

(٢) حديث (أنه أذِنَ لعليٍّ ..): أبو داود [٤٩٦٧]، والترمذيُّ [٢٨٤٣] وصحَّحه عن عليٍّ أنه قال: يا رسول الله أرأيتَ إن ولد لي بعدك أسمِّيه محمَّدًا أو أكنِّيه بكنيتك؟ قال: نعم.

(٣) حديث (إخباره أنَّ ذلك اسم المهديِّ وكُنيته): أبو داود [٤٢٨٢]، والترمذيُّ [٢٢٣٠] وغيرهما عن ابن مسعودٍ، والمهدي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ولم أقف على تعيين الكنية.

(٤) [أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/ ٥٤) عن عثمان العمري مرسلاً. وأخرجه أيضًا الصيرفي في فضائل التسميه بأحمد ومحمد (رقم ٣) عن عبدالله بن زهير مرسلاً أيضًا].

قوله (لا يُسَمَّى أَحَدٌ): بصيغةِ المجهولِ، ويَجُوزُ بصيغةِ الفاعلِ.

قوله (لا أَرَى محمدًا... إلخ): (لا) نافيةٌ، أي لا أَرْضَى. قوله (يُسَبُّ بِكَ): أي في ضِمْنِ سَبِّكَ.

قوله (ثُمَّ أَمْسَكَ): أي عُمَرُ عَن مَنْعِهِم.

قوله (أَذِنَ في ذلك لِعَلِيٍّ): أي في تسمِيَةِ وَلَدِه محمدًا، وبكُنْيَتِه بأَبِي القاسِمِ؛ فقَدْ رَوَى أبو داودَ والترمذيُّ مِن حَديثِ محمدِ بنِ الحنفيةِ عَن عَلِيٍّ بلَفْظِ (قَالَ -أي عليٌّ-: يا رسُولَ الله، أرأَيْتَ إنْ وُلِدَ لي بَعْدَكَ أُسَمِّيه محمدًا، وأُكَنِّيه بكُنيَتِكَ؟ قالَ: نعم).

قوله (أنَّ ذلك): أي مجموعَ الاسْمِ والكنيةِ.

***

قولـه (**مِـنْ تعريـضٍ أو نَـصٍّ**): أي تلويـحٍ أَوْ تصْريحٍ مِـن ذَمٍّ وشَـتْمٍ. وقولـه (**في نَفْسِـه**): أي ذاتِـه وصِفاتِـه. وقولـه (**أو نَسَـبِه**): بفتحِ النـونِ والسِّـينِ. وقولـه (**أَوْ دِينِـه**): أي شَريعَتِـه.

قولـه (**أَوِ الإزراءِ عَلَيْـه**): أي استخفافًا بِحَقِّـه. قولـه (**أَوِ التصغيـرِ لِشَـأْنِه**): أي التحقيـرِ لِعَظِيـمِ شـأْنِه. وقولـه (**أَوِ الغَـضِّ**): -بفتـحِ الغـينِ المعجمـةِ بَعْدَهَـا ضـادٌ معجَمـةٌ- أي النقـصِ والخَفْـضِ.

وقولـه (**عـلى هـذا المَقصِـدِ**): -بِكَسرِ الصّـادِ- أي الـذي قَصَدْنـا. قولـه (**ولا نَمْـتَرِي**): أي لا نَشُـكُّ.

وقولـه (**بِمَنْصِبِـه**): -بكسرِ الصـادِ- أي بمَقامِـه. قولـه (**أَوْ عَبِـثَ**): بفتـحِ العـينِ المهمَلـةِ وكسرِ البـاءِ الموحَّـدةِ؛ أي لَعِـبَ، وبفتحِهـا؛ أي خَلَـطَ.

قولـه (**جِهَتِـه العزيـزةِ**): -بفتـحِ العـينِ المهمَلـةِ وزاءَيـنِ بينَهـا يـاءٌ سَـاكنةٌ- أي جَانِبِـه الكريـمِ، وفي نسـخَةٍ بغينٍ معجَمـةٍ وراءٍ ثُـمَّ زايٍ؛ وهـيَ الطبيعَـةُ.

قولـه (**بِسُـخْفٍ**): -بضـمِّ السِّـينِ المهمَلـةِ وسـكونِ الخـاءِ المعجَمـةِ- أي بِرِقَّـةٍ قبيحَـةٍ. قولـه (**وهُجْـرٍ**): -بضـمِّ الهـاءِ وسـكونِ الجيـمِ- أي فُحْـشٍ.

قولـه (**أَوْ عَـيَّرَهُ**): -بالعـينِ المهمَلـةِ بَعْدَهـا يـاءٌ مشـدَّدةٌ- أي عَابَـه. قولـه (**أَوْ غَمَصَـه**): -بغَينٍ معجَمـةٍ وصَـادٍ مهمَلـةٍ- أي حَقَّـرَه.

قولـه (**الجَائـزةِ والمعهـودةِ... إلـخ**): كالجُـوعِ والإغـماءِ وغَيْرِهمـا.

قولـه (**إلى هَلُـمَّ جَـرًّا**): مِـنَ الجَرِّ بمَعْنـى السَّـحْبِ، والمَعْنـى: اسـتَمَرَّ الإجمـاعُ واتَّصَـلَ مِـنْ عَصْرِهـم إلى عَصْرِنـا، وكـذا إلى مَـا بَعْـدَه، ونَصْـبُ (جَـرًّا) عـلى المَصْـدَرِ أو الحَـالِ أو التمييـزِ. وقولـهِ (**مَـنْ سَـبَّ النبيَّ يُقْتَـلُ**): أي صِيَانـةً لِقَـدْرِه.

البابُ الأَوَّلُ: في بَيَانِ ما هُوَ في حَقِّهِ ﷺ سَبٌّ أَوْ نَقْصٌ، مِنْ تَعْرِيضٍ أَوْ نَصٍّ

قالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

اعْلَـمْ -وَفَّقَنَـا اللهُ وإيَّـاكَ- أَنَّ جَمِيـعَ مَـنْ سَـبَّ النَّبِـيَّ ﷺ، أَوْ عَابَـهُ، أَوْ أَلْحَـقَ بِـهِ نَقْصًـا في نَفْسِـهِ أَوْ نَسَـبِهِ أَوْ دِينِـهِ أَوْ خَصْلَـةٍ مِـنْ خِصَالِـه، أَوْ عَـرَّضَ بِـهِ، أَوْ شَـبَّهَهُ بِـشَيْءٍ عـلى طَرِيـقِ السَّـبِّ لَـه، أَوِ الإِزْرَاءِ عَلَيْـهِ، أَوِ التَّصْغِـيرِ لِشَـأْنِه، أَوِ الغَـضِّ مِنْـه أَوِ العَيْـبِ لَـهُ، فَهُـوَ سَـابٌّ لَـهُ، والحُكْـمُ فِيـهِ حُكْـمُ السَّـابِّ، يُقْتَـلُ كَـمَا نُبَيِّنُـهُ إِنْ شَـاءَ اللهُ تعـالى، ولا نَسْـتَثْنِي فَصْـلًا مِـنْ فُصُـولِ هَـذا البَـابِ عَـلَى هَـذا المَقْصِـدِ، ولا نَمْـتَرِي فيـه، تَصْرِيحًـا كَانَ أَوْ تَلْوِيحًـا.

وكَذَلِـكَ مَـنْ لَعَنَـهُ أَوْ دَعَـا عَلَيْـهِ، أَوْ تَمَنَّـى مَضَـرَّةً لَـهُ، أَوْ نَسَـبَ إِلَيْـهِ مَـا لا يَلِيـقُ بِمَنْصِبِـهِ عـلى طَرِيـقِ الـذَّمِّ، أَوْ عَبِـثَ في جِهَتِـهِ العَزِيـزَةِ بِسُـخْفٍ مِـنَ الـكَلَامِ وهُجْـرٍ، ومُنْكَـرٍ مِـنَ القَـوْلِ وزُورٍ، أَوْ عَـيَّرَهُ بِـشَيْءٍ مِمَّـا جَـرَى مِـنَ المِحْنَـةِ والبَـلَاءِ عَلَيْـه، أَوْ غَمَصَـهُ بِبَعْـضِ العَـوَارِضِ البَشَرِيَّـةِ الجَائِـزَةِ والمَعْهُـودَةِ لَدَيْـهِ، وهَـذَا كُلُّـهُ إِجْمَـاعٌ مِـنَ العُلَـماءِ وأَئِمَّـةِ الفَتْـوَى مِـنْ لَـدُنِ الصَّحَابَـةِ -رِضْـوَانُ اللهِ عَلَيْهِـمْ- إِلَى هَلُـمَّ جَـرًّا.

قَـالَ القَـاضِي أَبُـو بَكْـرِ بْـنُ المُنْـذِرِ: أَجْمَـعَ عَـوَامُّ أَهْـلِ العِلْـمِ عَـلَى أَنَّ مَـنْ سَـبَّ النَّبِـيَّ ﷺ يُقْتَـلُ، ومِمَّـنْ قَـالَ ذلـكَ مَالِـكُ بْـنُ أَنَـسٍ، واللَّيْـثُ، وأَحْمَـدُ، وإِسْـحَاقُ، وهُـوَ مَذْهَـبُ الشَـافِعِيِّ. قَـالَ القَـاضِي أَبُـو الفَضْـلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **وهُـوَ مُقْتَـضَى قَـوْلِ أَبِي بَكْـرٍ الصِّدِّيـقِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،

ولا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ عِنْدَ هَؤُلاءِ، وَبِمِثْلِهِ قالَ أَبُو حَنِيفَةَ وأَصْحَابُه، والثَّوْرِيُّ، وأَهْلُ الكُوفَةِ، والأَوْزاعِيُّ في المُسْلِمِ؛ لَكِنَّهُمْ قالُوا: هِيَ رِدَّةٌ، ورَوَى مِثْلَهُ الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ مَالِكٍ، وحَكَى الطَّبَرِيُّ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وأَصْحَابِهِ مِثْلَهُ فِيمَنْ تَنَقَّصَهُ ﷺ، أَوْ بَرِئَ مِنْه، أَوْ كَذَّبَه، وقَالَ سَحْنُونُ فِيمَنْ سَبَّهُ: ذَلِكَ رِدَّةٌ كَالزَّنْدَقَةِ.

وعَلَى هَذا وَقَعَ الخِلَافُ في اسْتِتَابَتِهِ، وتَكْفِيرِه، وَهَلْ قَتْلُهُ حَدٌّ أَوْ كُفْرٌ؟ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ في البَابِ الثَّانِي إِنْ شَاءَ اللهُ تعَالَى.

وَلا نَعْلَمُ خِلَافًا في اسْتِبَاحَةِ دَمِهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الأَمْصَارِ وسَلَفِ الأُمَّةِ، وقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ واحِدٍ الإِجْمَاعَ على قَتْلِهِ وتَكْفِيرِه، وَأَشَارَ بَعْضُ الظَّاهِرِيَّةِ -وهُوَ أَبُو محمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الفَارِسِيُّ- إِلَى الخِلَافِ في تكْفِيرِ المُسْتَخِفِّ بِه، والمَعْرُوفُ مَا قَدَّمْنَاهُ.

قَالَ محمدُ بْنُ سَحْنُونَ: أَجْمَعَ العُلَمَاءُ أَنَّ شَاتِمَ النَّبِيِّ ﷺ، المُتَنَقِّصَ له كافِرٌ، والوَعِيدُ جَارٍ عَلَيْهِ بِعَذَابِ الله لَهُ، وحُكْمُه عِنْدَ الأُمَّةِ القَتْلُ، ومَنْ شَكَّ في كُفْرِهِ وعَذَابِه فَقَدْ كَفَرَ، واحْتَجَّ إِبْراهِيمُ بْنُ حُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ الفَقِيهُ في مِثْلِ هَذا بِقَتْلِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ مالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ؛ لِقَوْلِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «صَاحِبُكُمْ».

وقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الخَطَّابِيُّ: لا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ اخْتَلَفَ فِي وُجُوبِ قَتْلِهِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا. وقَالَ ابْنُ القَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِي كِتَابِ ابنِ سَحْنُونَ، و«المَبْسُوطِ»، و«العُتْبِيَّةِ»، وحَكَاهُ مُطَرِّفٌ عَنْ مَالِكٍ في كِتَابِ ابْنِ حَبِيبٍ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ المُسْلِمِينَ قُتِلَ، ولَمْ يُسْتَتَبْ. قَالَ ابْنُ القَاسِمِ في «العُتْبِيَّةِ»: مَنْ سَبَّه، أَوْ شَتَمَهُ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ تَنَقَّصَهُ، فإِنَّه يُقْتَلُ، وحُكْمُهُ عِنْدَ الأُمَّةِ القَتْلُ كالزِّنْدِيقِ، وَقَدْ فَرَضَ اللهُ تَوْقِيرَهُ وبِرَّهُ.

قوله (وبِمِثْلِه قَالَ أَبو حنيفةَ): أي بِمِثْلِ قَوْلِ مَنْ ذُكِرَ بقَتْلِ مَنْ سَبَّه، لا بِعَدَمِ قَبولِ تَوْبَتِه كَما تَوَهَّمَه الدلجيُّ.

قوله (لَكِنَّهم قالُوا): أي العلماءُ كأَبي حَنيفةَ ومَنْ بَعْدَه. قوله (هِيَ رِدَّةٌ): أي ارتدادٌ، فيُسْتَتابُ قائلُه، فإنْ أَبَى قُتِلَ.

قوله (أَوْ بَرِئَ مِنْه): أي تَبَرَّأَ مِنْه بأَنْ قَطَعَ صُحْبَتَه. وقوله (أَوْ كَذَّبَه): أي في أقوالٍ مِنْ أقوالِه.

قوله (وتَكْفِيرِه): أي خُروجِه مِنَ الإِسْلامِ.

قوله (المُتَنَقِّصَ له): صِفةٌ كاشفةٌ لِـ(شَاتِمَ).

قوله (وحُكْمُه): أي في الدنيا. وقوله (عِنْدَ الأُمَّةِ): أي عِنْدَ الأئمّةِ.

قوله (بِقَتْلِ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ مَالِكَ): بإضافةِ المَصدرِ لِفاعِلِه، ونَصْبِ (مَالِكَ) على المفعُوليَّةِ.

قوله (نُوَيْرَةَ): بضمِّ النونِ وفتحِ الواوِ وسكونِ الياءِ التحتيّةِ وفَتْحِ الراءِ؛ عَلَى أَنَّه تصغيرُ «نَارٍ»، أو «نَوْرَةٍ»، وهُوَ التميميُّ اليربوعيُّ.

قوله (العُتْبِيَّةِ): -بضمِّ العينِ وسكونِ التاءِ وكَسْرِ الموحَّدةِ وتشديدِ الياءِ التحتيّةِ- اسمُ كِتَابٍ.

قوله (وقَدْ فَرَضَ اللهُ تَوْقِيرَه وبِرَّه): أي تَعْظِيمَه وطَاعَتَه؛ قَالَ تعالَى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

وفِي «المَبْسُوطِ» عَنْ عُثْمانَ بْنِ كِنانَةَ: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ المُسْلِمِينَ قُتِلَ أَوْ صُلِبَ حَيًّا، ولَمْ يُسْتَتَبْ، والإمَامُ مُخَيَّرٌ في صَلْبِهِ حَيًّا أَوْ قَتْلِهِ. ومِنْ رِوايَةِ أَبِي المُصْعَبِ وابْنِ أَبِي أَوْسٍ: سَمِعْنَا مالِكًا يَقُولُ: مَنْ سَبَّ رَسُولَ الله ﷺ، أَوْ شَتَمَهُ، أَوْ عَابَهُ، أَوْ تَنَقَّصَهُ، قُتِلَ، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، ولا يُسْتَتَابُ.

وَفِي كِتَابِ مُحمَّدٍ: أَخْبَرَنَا أَصْحَابُ مَالِكٍ أَنَّه قَالَ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ قُتِلَ، ولَمْ يُسْتَتَبْ.

وقَالَ أَصْبَغُ: يُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَسَرَّ ذلكَ أَوْ أَظْهَرَهُ، ولا يُسْتَتَابُ؛ لِأَنَّ تَوْبَتَهُ لا تُعْرَفُ.

وقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الحَكَمِ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كافرٍ قُتِلَ، ولَمْ يُسْتَتَبْ. وحَكَى الطَّبَرِيُّ مِثْلَهُ عَنْ أَشْهَبَ، عَنْ مَالِكٍ. ورَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ: مَنْ قَالَ: إنَّ رِدَاءَ النَّبِيِّ ﷺ -ويُرْوَى: زِرَّ النَّبِيِّ ﷺ- وَسِخٌ، أَرَادَ بِهِ عَيْبَهُ، قُتِلَ.

وقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: أَجْمَعَ العُلَماءُ عَلَى أَنَّ مَنْ دَعَا عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ بالوَيْلِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنَ المَكْرُوهِ، أَنَّهُ يُقْتَلُ بِلَا اسْتِتَابَةٍ.

وأَفْتَى أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ فِيمَنْ قَالَ فِي النَّبِيِّ ﷺ «الحَمَّالُ يَتِيمُ أَبِي طالبٍ» بالقَتْلِ. وأَفْتَى أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ بقَتْلِ رَجُلٍ سَمِعَ قَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ إذْ مَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ واللِّحْيَةِ، فقَالَ لَهُمْ: تُرِيدُونَ تَعْرِفُونَ صِفَتَهُ؟ هِيَ صِفَةُ هَذَا المَارِّ فِي خَلْقِهِ ولِحْيَتِهِ، قَالَ: ولَا تُقْبَلُ تَوْبَتُه، وقَدْ كَذَبَ -لَعَنَهُ اللهُ-، ولَيْسَ يَخْرُجُ مِنْ قَلْبٍ سَلِيمِ الإيمانِ.

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي سُلَيْمانَ، صَاحِبُ سَحْنُونَ: مَنْ قَالَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان أَسْوَدَ، يُقْتَلُ.

قولـه (كِنَانَة): بكسر الكافِ. قوله (مَنْ شَتَمَ النبيَّ ﷺ قُتِلَ): أي ذُبِحَ.

قولـه (أَوْ صُلِبَ حَيًّا): أي ويُطْعَنُ ويُتْرَكُ إلى أنْ يَصِيرَ مَيْتًا. قولـه (ولَمْ يُسْتَتَبْ): أي لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُه.

قولـه (أَبِي المُصْعَبِ): -بضمِّ الميمِ وفتحِ العينِ المهمَلةِ- هُوَ الزُّهريُّ العَوفيُّ قاضي المدينةِ. قوله (ابنِ أَبِي أَوْسٍ): -بفتحِ الهَمزةِ وسكونِ الواوِ- ابنُ أُخْتِ مَالِكٍ. قولـه (ولا يُستتابُ): أي لِأَنَّ حَدَّه القَتلُ وإنْ تَابَ.

قولـه (أَصْبَغُ): بفتحِ الهمزةِ وسكونِ الصادِ المُهْمَلةِ وفتحِ الموحَّدةِ وآخِرُه غَينٌ معجمَةٌ. قولـه (أَسَرَّ ذلك): أي أَخْفَاه وثَبَتَ عليْه بالبيِّنةِ. وقولـه (أو أَظْهَرَه): أي بإقرارِه. قولـه (ولا يُستتابُ): أي لا تُعْرَضُ لـه التوبةُ، أو لا تُقبَلُ توبتُه.

قولـه (ويُرْوَى: زِرَّ النبيِّ): وهوَ بكسرِ الزاي وتشديدِ الراءِ، مَا يُشَدُّ بـه أطرافُ الجَيْبِ. وقولـه (وَسِخٌ): -بفتحِ الواوِ وكسرِ السِّينِ المهمَلةِ- أي دَنِسٌ. قولـه (بالوَيْلِ): أي الهَلاكِ.

قولـه (القابِسِيُّ): بكسرِ الباءِ الموحَّدةِ. قولـه (تُرِيدونَ تَعرِفونَ صِفتَه): أيْ أَتُرِيدونَ أنْ تَعرِفوا صِفةَ النبيِّ ﷺ.

قولـه (مَنْ قَالَ: إنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ أَسْوَدَ يُقتَلُ): لِأَنَّـه ﷺ كانَ أَبيضَ، كأنَّما صِيغَ مِن فِضَّةٍ علَى ما رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

(١) أخرجه الترمذيُّ في «الشمائل» (١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

وقالَ في رَجُلٍ قِيلَ لَهُ: لا، وَحَقِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: فَعَلَ اللهُ بِرَسُولِ اللهِ كذا وكذا، وذَكَرَ كَلَامًا قَبِيحًا، فقِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ يا عَدُوَّ اللهِ؟! فَقَالَ لَهُ أَشَدَّ مِنْ كَلَامِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ قالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ بِرَسُولِ اللهِ العَقْرَبَ، فقالَ ابْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ لِلَّذِي سَأَلَهُ: اشْهَدْ عَلَيْهِ وأَنَا شَرِيكُكَ، يُرِيدُ في قَتْلِهِ وثَوابِ ذَلِكَ، قالَ حَبِيبُ بْنُ الرَّبِيعِ: لِأَنَّ ادِّعَاءَهُ التَّأْوِيلَ في لَفْظٍ صُرَاحٍ لا يُقْبَلُ؛ لِأَنَّهُ امْتِهَانٌ، وهُوَ غَيْرُ مُعَزِّرٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ولا مُوَقِّرٍ لَهُ؛ فوَجَبَ إِبَاحَةُ دَمِهِ.

وأَفْتَى أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ عَتَّابٍ في عَشَّارٍ قالَ لِرَجُلٍ: أَدِّ المَكْسَ، وَاشْكُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وقالَ: إِنْ سَأَلْتُ أَوْ جَهِلْتُ فَقَدْ جَهِلَ وسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ، بالقَتْلِ.

وأَفْتَى فُقَهَاءُ الأَنْدُلُسِ بِقَتْلِ ابْنِ حَاتِمٍ المُتَفَقِّهِ الطُّلَيْطُلِيِّ، وَصَلْبِهِ؛ بِمَا شُهِدَ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ اسْتِخْفَافِهِ بِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ، وتَسْمِيَتِهِ إِيَّاهُ أَثْنَاءَ مُنَاظَرَتِهِ باليَتِيمِ وخَتَنِ حَيْدَرَةَ، وزَعْمِهِ أَنَّ زُهْدَهُ لَمْ يَكُنْ قَصْدًا، ولَوْ قَدَرَ عَلَى الطَّيِّبَاتِ أَكَلَهَا، إِلَى أَشْبَاهٍ لِهَذَا.

وَأَفْتَى فُقَهَاءُ القَيْرَوَانِ وأَصْحَابُ سَحْنُونَ بِقَتْلِ إِبْراهِيمَ الفَزَارِيِّ، وَكَانَ شَاعِرًا مُتَفَنِّنًا في كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ، وكَانَ مِمَّنْ يَحْضُرُ مَجْلِسَ القاضِي أَبِي العَبَّاسِ بْنِ أَبِي طالِبٍ لِلْمُنَاظَرَةِ، فرُفِعَتْ عَلَيْهِ أُمُورٌ مُنْكَرَةٌ مِنْ هَذا البَابِ في الاسْتِهْزَاءِ باللهِ وأَنْبِيائِهِ ونَبِيِّنا ﷺ، فأَحْضَرَ لَهُ القاضِي يَحْيَى بْنَ عُمَرَ وغَيْرَهُ مِنَ الفُقَهاءِ، وأَمَرَ بِقَتْلِهِ وصَلْبِهِ، فطُعِنَ بالسِّكِّينِ، وَصُلِبَ مُنَكَّسًا، ثُمَّ أُنْزِلَ وأُحْرِقَ بالنَّارِ، وحَكَى بَعْضُ المُؤَرِّخِينَ أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَتْ خَشَبَتُهُ، وزالَتْ عَنْهَا الأَيْدِي اسْتَدَارَتْ،

قوله (وأَنَا شَرِيكُكَ): أَيْ في الأَمْرِ المنسُوبِ إِلَيْهِ. قوله (لَفْظٍ صُرَاحٍ): -بضمِّ الصّادِ المُهْمَلَةِ وتُكْسَرُ- مبالَغةُ «صَرِيحٍ». قوله (غَيْرُ مُعَزِّرٍ): -بكَسْرِ الزايِ بَعْدَها راءٌ- أَيْ غَيْرُ مُبَجِّلٍ.

قوله (عَتَّابٍ): -بفتحِ العيْنِ المهْمَلةِ وتشديدِ المُثنَّاةِ الفوْقيّةِ. قوله (في عَشَّارٍ): أي مَكَّاسٍ.

قوله (أَدِّ): -بفتحِ الهمزةِ وتشديدِ الدَّالِ المهْملَةِ المكسُورةِ- أَمْرٌ مِنَ التَّأديةِ، أي أَعْطِ (المَكْسَ).

قوله (واشْكُ): -بضمِّ الكافِ وكَسْرِها- أي أَظْهِرِ الشَّكْوَى.

قوله (الأَنْدُلُسِ): بفتحِ الهَمْزةِ وضمِّها وفتحِ الدالِ وضمِّ اللامِ[1]. قوله (الطُّلَيْطُلِيِّ): بضمِّ الطَّاءَيْنِ المهْمَلتَيْنِ وفتحِ اللّامِ الأُولى وسُكونِ الياءِ التحتيةِ وكسْرِ اللّامِ الثانيةِ بَعْدَها ياءُ نِسْبَةٍ.

قوله (وصَلْبِهِ): -بفتحِ الصَّادِ المُهْمَلةِ- أي جَعْلِه على جِذْعٍ. قوله (ولَوْ قَدَرَ): -بفتحِ الدّالِ وكَسْرِها- أَيْ تَمَكَّنَ.

قوله (القَيْرَوَانِ): -بفتحِ القافِ والراءِ بينَهما ياءٌ سَاكنةٌ- بَلَدٌ مَعْرُوفٌ. قوله (وأَصْحابُ سَحْنُونَ): بفتحِ السّينِ وضمِّها. وقوله (الفَزَارِيِّ): بفتحِ الفاءِ والزّايِ. قوله (في كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ): أي الأدبيّةِ والعَقليّةِ لا الشَّرعيّةِ كما قالَه المُلَّا.

قوله (فرُفِعَتْ عَلَيْهِ أُمُورٌ): أَيْ ثَبَتَتْ. وقوله (مِنْ هَذا البابِ): أَيْ بابِ الاستخفافِ بعَلِيِّ الجَنابِ. قوله (وأَمَرَ): أي أبو العَبَّاسِ. قوله (فطُعِنَ): -بصيغةِ المجْهُولِ- أَيْ ضُرِبَ في بَطْنِهِ.

---

(١) في «اللسان»: «وأَنْدُلُس: جَزِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَزْنُها أَنْفُعُلٌ»، وضبطها ياقوت في المعجم بفتح الهمزة وضم الدال وفتحها وضم اللام ليس إلّا، وضبطها الزبيدي بضم الهمزة والدال واللام.

وحَوَّلَتْهُ عَنِ القِبْلَةِ، فكَانَ ذَلكَ آيَةً لِلجَمِيعِ، وكَبَّرَ النَّاسُ، وجَاءَ كَلْبٌ فوَلَغَ في دَمِهِ، فَقَالَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ: صَدَقَ رَسُولُ الله ﷺ، وذَكَرَ حَدِيثًا عَنْهُ ﷺ أَنَّه قالَ: (لا يَلِغُ الكَلْبُ في دَمِ مُسْلِمٍ)[1].

وقَالَ القَاضِي أَبُو عَبْدِ الله بْنُ المُرَابِطِ: مَنْ قَالَ «إنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُزِمَ» يُسْتَتَابُ، فإِنْ تَابَ وإِلَّا قُتِلَ لِأَنَّه تَنْقِيصٌ لَهُ؛ إذْ لا يَجُوزُ ذلكَ عَلَيْهِ في خاصَّتِهِ؛ إذْ هُوَ على بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِه، ويَقِينٍ مِنْ عِصْمَتِهِ.

وقَالَ حَبِيبُ بْنُ رَبِيعٍ القَرَوِيُّ: مَذْهَبُ مالِكٍ وأَصْحابِهِ أَنَّ مَنْ قَالَ فِيهِ ﷺ مَا فِيهِ نَقْصٌ قُتِلَ دُونَ اسْتِتَابَةٍ، وَقَالَ ابْنُ عَتَّابٍ: الكِتَابُ والسُّنَّةُ مُوجِبَانِ أَنَّ مَنْ قَصَدَ النَّبِيَّ ﷺ بأَذًى أَوْ نَقْصٍ؛ مُعَرِّضًا أَوْ مُصَرِّحًا -وإِنْ قَلَّ-، فقَتْلُه واجِبٌ.

فهَذا البَابُ كُلُّه مِمَّا عَدَّهُ العُلَماءُ سَبًّا أَوْ نَقْصًا يَجِبُ قَتْلُ قائِلِه، لَمْ يَخْتَلِفْ في ذلكَ مُتَقَدِّمُهُمْ ولا مُتَأَخِّرُهُمْ، وإِنِ اخْتَلَفُوا في حُكْمِ قَتْلِهِ على مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ، ونُبَيِّنُه بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

وكَذلكَ أَقُولُ: حُكْمُ مَنْ غَمَصَهُ أَوْ عَيَّرَهُ بِرِعَايَةِ الغَنَمِ، أَوِ السَّهْوِ، أَوِ النِّسْيَانِ، أَوِ السِّحْرِ، أَوْ مَا أَصَابَهُ مِنْ جَرْحٍ، أَوْ هَزِيمَةٍ لِبَعْضِ جُيُوشِهِ، أَوْ أَذًى مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ شِدَّةٍ مِنْ زَمَنِهِ، أَوْ بالمَيْلِ إلى نِسَائِهِ، فحُكْمُ هَذا كُلِّهِ لِمَنْ قَصَدَ بهِ نَقْصَهُ القَتْلُ، وقَدْ مَضَى مِنْ مَذَاهِبِ العُلَماءِ في ذلكَ، ويَأْتِي مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

***

(١) حديث (لا يلغ الكلبُ في دمِ مسلم): لم أجده، وبلغني عن ابن حجرٍ أنه قال «لا أصل له».

قوله (فوَلَغَ في دَمِهِ): -بفتحِ اللامِ وكَسْرِهَا- أيْ شَرِبَ مِنْهُ بطَرَفِ لِسَانِه.

قوله (المُرابِطِ): بكسرِ الموحَّدةِ.

وقوله (هُزِمَ): بصيغةِ المجهولِ.

قوله (القَرَوِيُّ): -بفتحِ القافِ والراءِ- نِسْبَةٌ إلى القَرْيَةِ أو إلى القَيْرَوانِ.

قوله (مُتَقَدِّمُهم ولا مُتأخِّرُهم): أيْ مِنْ عُلَماءِ المالكيَّةِ.

قوله (على ما أَشَرْنا إِلَيْهِ): في أنَّه هَلْ يُسْتَتَابُ أوْ لا، وهَلْ إذا تَابَ يُتْرَكُ أو يُقْتَلُ حَدًّا ولا يُسْتتاب ويُقْتَلُ كالزِّنديقِ؟

قوله (حُكْمُ مَنْ غَمَصَه): أي عابَه. وقوله (أوْ عَيَّرَهُ): -بتشديدِ الياءِ- أي احْتَقَرَهُ.

قوله (مِنْ جَرَحٍ): بفتحِ الحاءِ والراءِ بَعْدَهَا جيمٌ، وفي نسْخةٍ: بضَمِّ الجيمِ وسُكونِ الراءِ بَعْدَهَا حَاءٌ مهْمَلةٌ؛ أيْ جُراحةٍ.

***

فَصْلٌ فِي الحُجَّةِ
فِي إيجَابِ قَتْلِ مَنْ سَبَّه أَوْ عَابَه ﷺ

فَمِنَ القُرْآنِ لَعْنَةُ الله لِمُؤْذِيهِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وقِرَانُه تعالى أَذَاهُ بأَذَاه، ولا خِلَافَ فِي قَتْلِ مَنْ سَبَّ الله، وأَنَّ اللَّعْنَ إنَّما يَسْتَوْجِبُهُ مَنْ هُوَ كَافِرٌ، وحُكْمُ الكافِرِ القَتْلُ؛ فقالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقالَ فِي قَاتِلِ المُؤْمِنِ مِثْلَ ذلك، فَمِنْ لَعْنَتِهِ فِي الدُّنْيَا القَتْلُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقالَ فِي المُحَارِبِينَ وذَكَرَ عُقُوبَتَهُمْ: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ الآيةَ [المائدة: ٣٣]، وَقَدْ يَقَعُ القَتْلُ بِمَعْنَى اللَّعْنِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، و﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ [المنافقون: ٤]، أَيْ لَعَنَهُمُ اللهُ.

ولِأَنَّه فَرَّقَ بَيْنَ أَذَاهُما وأَذَى المُؤْمِنِينَ، وَفِي أَذَى المُؤْمِنِينَ مَا دُونَ القَتْلِ مِنَ الضَّرْبِ والنَّكَالِ، فَكَانَ حُكْمُ مُؤْذِي اللهِ ونَبِيِّهِ أَشَدَّ مِنْ ذلكَ، وهُوَ القَتْلُ.

وقَالَ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ...﴾ الآيةَ [النساء: ٦٥]، فَسَلَبَ اسْمَ الإيمانِ عَمَّنْ وَجَدَ فِي صَدْرِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَائِه، ولَمْ يُسَلِّمْ لَهُ، ومَنْ تَنَقَّصَهُ فَقَدْ نَاقَضَ هَذا.

وقَالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ولا يُحْبِطُ العَمَلَ إِلَّا الكُفْرُ، والكَافِرُ يُقْتَلُ.

وقَالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾ ثُمَّ قالَ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

قوله (لِمُؤْذِيه): أي المُؤْذِي لِنَبِيِّه.

قوله (ولا خِلافَ فِي قَتْلِ مَنْ سَبَّ الله): عَمْدًا لا خَطَأً وإِكْرَاهًا.

قوله (فَمِنْ لَعْنَتِهِ فِي الدُّنيا القَتْلُ): أَيْ إمّا قِصاصًا وإمّا حَدًّا.

قوله (أَيْنَما ثُقِفُوا): أَيْ وُجِدُوا.

قوله (وقَالَ فِي المُحَارِبِينَ): أَيْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ.

قوله (الخَرَّاصُونَ): أَيْ لُعِنَ الكَذَّابُونَ المُفْتَرُونَ.

قوله (والنَّكَالِ): أي العُقُوبَةِ.

قوله (حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ): أَيْ يَجْعَلُوكَ حَكَمًا فِيمَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الاختلافِ. وقوله (حَرَجًا): أي ضِيقًا.

قوله (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ): بِسَبَبِ انْضِمامِ خَفضِ حُرمةِ النبيِّ مع رفعِ الصوتِ، وإلَّا فمُجَرَّدُ رفعِ الصوتِ لا يُحْبِطُ العَمَلَ، لِأَنَّ المَعَاصِيَ مُطْلَقًا لا تُحْبِطُ الحَسَناتِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قوله (وإذا جَاؤُكَ): أي اليَهُودُ والنَّصَارى.

وقوله (حَيَّوْكَ): أَيْ سَلَّمُوا عَلَيْكَ. قوله (بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ): أَيْ بِلَفْظٍ لم يَأْمُرُ اللهُ بِهِ.

وقالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثُمَّ قالَ: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، قالَ أَهلُ التَّفسيرِ: كَفَرْتُم بِقَوْلِكُمْ في رَسُولِ الله.

وأَمَّا الإِجْماعُ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ، وأَمَّا الآثارُ فَحَدَّثَنا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الله أَحْمَدُ بْنُ محمَّدِ بْنِ غَلْبُونَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي ذَرٍّ الهَرَوِيِّ إجازَةً، قالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ الدَّارَقُطْنِيُّ وأَبُو عُمَرَ بْنُ حَيْوَةَ، قالا: حَدَّثَنا محمَّدُ بْنُ نُوحٍ، حَدَّثَنا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ محمَّدِ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ زَبالَةَ، حَدَّثَنا عَبْدُ الله بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّه، عَنْ محمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الحَسَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: (مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فاقْتُلُوهُ، ومَنْ سَبَّ أَصْحابِي فاضْرِبُوه)[١].

وفي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، وقَوْلُه: (مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ؛ فإنَّه يُؤْذِي اللهَ وَرَسُولَهُ)[٢]، ووَجَّهَ إِلَيْهِ مَنْ قَتَلَهُ غِيلَةً دُونَ دَعْوَةٍ، بِخِلافِ غَيْرِهِ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَعَلَّلَ بِأَذَاهُ لَه؛ فَدَلَّ أَنَّ قَتْلَهُ إِيَّاهُ لِغَيْرِ الإِشْراكِ، بَلْ لِلأَذَى.

وَكَذَلِكَ قَتَلَ أَبَا رَافِعٍ[٣]، قالَ البَرَاءُ: وكَانَ يُؤْذِي رَسُولَ الله ﷺ، ويُعِينُ عَلَيْهِ. وكَذلكَ أَمْرُهُ يَوْمَ الفَتْحِ بِقَتْلِ ابْنِ خَطَلٍ وجَارِيَتَيْهِ اللَّتَيْنِ كانَتا تُغَنِّيَانِ بِسَبِّهِ ﷺ[٤].

---

(١) حديث عليٍّ (مَن سَبَّ نبيًّا ..): الطبرانيُّ في «الأوسط» [٤٦٠٢، ولفظه (مَن شَتَمَ الأنبياءَ قُتِلَ، ومَن شَتَمَ أصحابي جُلِد)] بسندٍ ضعيفٍ.

(٢) حديث (مَن لِكَعْبِ بن الأشرف ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٠٣٧)، ومسلمٌ (١٨٠١)] عن جابر.

(٣) حديث البراء (أنه أمرَ بقتْلِ أبي رافع): البخاريُّ [٤٠٣٩].

(٤) حديث أمره بقتل ابن خطل وجاريتيه: أخرجه بلفظ المصنِّف ابن إسحاق [ابن هشام في السيرة عن ابن اسحاق (٢/ ٤١٠)]، والبيهقيُّ [١٦٨٨٠] عن عبد الله بن أبي=

قوله (أُذُنٌ): -بضمِّ الهمزةِ والذالِ المعْجمةِ وتُسكَّنُ- الجارحةُ المعْروفةُ.

قوله (ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ): أي المنافقِينَ. وقوله (لَيَقُولُنَّ): في مَقامِ الإنكارِ مُعْتذِرِينَ.

قوله (بِقَوْلِكم في رَسُولِ الله): قَوْلًا لا يَليقُ بمَقامِهِ.

قوله (غَلْبُونَ): بفتحِ الغيْنِ المعجمةِ وسُكونِ اللّامِ مصْروفًا، وقدْ يُمْنَعُ.

قوله (الهَرَوِيِّ): بفتحِ الهاءِ وتُكْسَرُ. قوله (حَيْوَةَ): بفتحِ الحاءِ المهمَلةِ وسُكونِ الياءِ وفَتْحِ الواوِ، وفي نسْخةٍ «حَيُّويَهْ» بمهْمَلةٍ مفتوحةٍ وتشديدِ الياءِ التحتيَّةِ المضْمومةِ فواوٍ ساكنةٍ فتحتيَّةٍ مفتوحةٍ. قوله (زَبالَةَ): بفَتْحِ الزَّايِ وَالمُوَحَّدةِ.

قوله (مَنْ لِكَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ): أي مَنْ يَتَصدَّى لِقَتْلِه. قوله (ووَجَّهَ): -بتشديدِ الجيمِ- أيْ أَرْسَلَ. وقوله (غِيلَةً): -بكَسْرِ المعْجَمةِ- أي مُخادَعَةً.

قوله (خَطَلٍ): بفتحِ المعْجَمةِ والمهْمَلةِ. قوله (وَجارِيَتَيْه... إلخ): سارَّةَ وفَرْتَنا؛ بالفاءِ والتَّاءِ والنونِ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسُبُّهُ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يَكْفِينِي عَدُوِّي؟ فَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا، فَبَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَتَلَهُ[١].

وَكَذَلِكَ أَمَرَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِيهِ مِنَ الكُفَّارِ وَيَسُبُّهُ، كَالنَّضْرِ بْنِ الحَارِثِ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعَهِدَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ قَبْلَ الفَتْحِ وَبَعْدَهُ، فَقُتِلُوا إِلَّا مَنْ بَادَرَ بِإِسْلَامِهِ قَبْلَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ. وَرَوَى البَزَّارُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ نَادَى: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا لِي أُقْتَلُ مِنْ بَيْنِكُمْ صَبْرًا؟! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِكُفْرِكَ وَافْتِرَائِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[٢].

وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَبَّهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَنْ يَكْفِينِي عَدُوِّي؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، فَبَارَزَهُ، فَقَتَلَهُ الزُّبَيْرُ[٣]. وَرُوِيَ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تَسُبُّهُ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يَكْفِينِي عَدُوَّتِي؟ فَخَرَجَ إِلَيْهَا خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَقَتَلَهَا[٤]. وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا كَذَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَبَعَثَ عَلِيًّا وَالزُّبَيْرَ لِيَقْتُلَاهُ[٥].

قوله (مُعَيْطٍ): بضمِّ الميمِ وفتحِ العينِ المهملةِ وسُكونِ التحتيَّةِ.

قوله (إِلَّا مَنْ بَادَرَ بِإِسْلَامِهِ... إلخ): كَكَعْبِ بنِ زُهَيْرِ بنِ أَبِي سُلْمَى -بضمِّ السِّينِ- صَاحِبِ قَصِيدةِ «بانَتْ سُعَادُ».

قوله (مَا لِي أُقْتَلُ): بصيغةِ المجهُولِ.

=بكر بن حزم مرسلًا وأخرج الشيخان [البخاريُّ (٣٠٤٤)، ومسلمٌ (١٣٥٧)] عن أنس أنه أمرَ بقَتْلِ ابن خطل، وأخرج أبو داود [٢٦٨٣] والبيهقيُّ [١٣٢٧٧] عن سعد بن أبي وقَّاصٍ (لما كان يومَ فتح مكة أمَّنَ رسول الله ﷺ النَّاسَ إلَّا أربعة نفرٍ وامرأتين).

(١) حديث (أن رجلًا كان يسبه ..): [بيَّض له السيوطي ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه].

(٢) حديث ابن عبَّاسٍ (أنَّ عقبة بن أبي معيطٍ نادى ...): البزَّار [«كشف الأستار» (١٧٨١)] بسندٍ ضعيفٍ.

(٣) حديث (أنَّ رجلًا سَبَّه فقال ...): عبد الرزَّاق في جامعه [٩٧٠٤] عن عكرمة مولى ابن عبَّاسٍ مرسلًا.

(٤) حديث (أنَّ امرأةً كانت تَسبُّه ...): عبد الرزَّاق في جامعه [٩٧٠٥] من طريق عروة عن رجلٍ من ألفين.

(٥) حديث (أنَّ رَجُلًا كَذَبَ عَلَيْه فَبَعَثَ عَلِيًّا ...): عبد الرزَّاق [٩٧٠٧] عن سعيد بن جُبير هكذا مختصرًا. وأخرجه البيهقيُّ [«الدلائل» (٦/ ٢٨٤)] عن سعيد بن جُبير قال: جاءَ رجلٌ إلى قريةٍ من قُرى الأنصار فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ أرسلني إليكم وأمركم أن تُزوِّجوني فلانة، فبلغ النبيَّ ﷺ فأرسل عليًّا والزبير فقال اذهبا فإن أدركتماه فاقتلاه، ولا أراكما تدركانه فذهبا فوجداه قد لدغته حيَّةٌ فقتلته. ثُمَّ أخرجه من وجهٍ آخر [«الدلائل» (٦/ ٢٨٥)] موصولًا عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن الحارث وسَمَّى الرجلَ الذي كَذَبَ جُدْجُد الجُندعي.

ورَوَى ابْـنُ قَانِـعٍ أَنَّ رَجُـلًا جَـاءَ إِلَى النَّبِـيِّ ﷺ، فقَـالَ: يَـا رَسُـولَ الله، سَـمِعْتُ أَبِي يَقـولُ فيـكَ قَـوْلا قَبيحًـا فقَتَلْتُـهُ، فلَـمْ يَشُـقَّ ذلِـكَ عَـلى النَّبِـيِّ ﷺ[1].

وبَلَـغَ المُهاجِـرَ بْـنَ أَبِي أُمَيَّـةَ أَمِـيرَ اليَمَـنِ لأَبِي بَكْـرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ امْـرَأَةً هُنَـاكَ فِي الـرِّدَّةِ غَنَّـتْ بِسَـبِّ النَّبِـيِّ ﷺ، فقَطَـعَ يَدَهَـا، ونَـزَعَ ثَنِيَّتَهَـا، فبَلَـغَ ذلِـكَ أَبَـا بَكْـرٍ، فقَـالَ لَـهُ أَبُـو بَكْـرٍ: لَـوْلَا مَـا فعَلْـتَ لأَمَرْتُـكَ بِقَتْلِهَـا؛ لِأَنَّ حَـدَّ الأَنْبِيَـاءِ لَيْـسَ يُشْـبِهُ الحُـدُودَ.

وعَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ: هَجَـتِ امْـرَأَةٌ مِـنْ خَطْمَـةَ النَّبِـيَّ ﷺ، فقَـالَ: مَـنْ لِي بِهَـا؟ فقَـالَ رَجُـلٌ مِـنْ قَوْمِهَـا: أَنَـا يَـا رَسُـولَ الله، فنَهَـضَ، فقَتَلَهَـا، فأَخْبَـرَ النَّبِـيَّ ﷺ بِذَلِـكَ، فقَـالَ: لا يَنْتَطِـحُ فِيهَـا عَنْـزَانِ.

وعَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ: أَنَّ أَعْمَـى كَانَـتْ لَـهُ أُمُّ وَلَـدٍ تَسُـبُّ النَّبِـيَّ ﷺ، فيَزْجُرُهَـا فَـلا تَنْزَجِـرُ، فلَـمَّا كانَـتْ ذَاتَ لَيْلَـةٍ جَعَلَـتْ تَقَـعُ فِي النَّبِـيِّ ﷺ وتَسُـبُّهُ، فقَتَلَهَـا، وأَعْلَـمَ النَّبِـيَّ ﷺ بِذَلِـكَ، فأَهْـدَرَ دَمَهَـا[2].

وفي حَدِيـثِ أَبِي بَـرْزَةَ الأَسْـلَمِيِّ: كُنْـتُ يَوْمًـا جَالِسًـا عِنْـدَ أَبِي بَكْـرٍ، فغَضِـبَ عَـلَى رَجُـلٍ مِـنَ المُسْـلِمِينَ، وحَكَـى القَـاضِي إِسْـمَاعِيلُ وغَـيْرُ واحِـدٍ مِـنَ الأَئِمَّـةِ فِي هَـذا الحَدِيـثِ أَنَّـه سَـبَّ أَبَـا بَكْـرٍ، ورَوَاهُ النَّسَـائِيُّ: أَتَيْـتُ أَبَـا بَكْـرٍ وقَـدْ أَغْلَـظَ لِرَجُـلٍ، فَـرَدَّ عَلَيْـه، قَـالَ: فقُلْـتُ: يَـا خَلِيفَـةَ رَسُـولِ الله، دَعْنِـي أَضْـرِبْ عُنُقَـهُ! فَقَـالَ: اجْلِـسْ فلَيْـسَ ذلِـكَ لِأَحَـدٍ إِلَّا لِرَسُـولِ الله ﷺ[3].

قَـالَ القَـاضِي أَبُـو محمَّـدِ بْـنُ نَـصْرٍ: ولَمْ يُخَالِـفْ عَلَيْـهِ أَحَـدٌ؛ فاسْـتَدَلَّ الأَئِمَّـةُ بِهَـذَا الحَدِيـثِ عَـلَى قَتْـلِ مَـنْ أَغْضَـبَ النَّبِـيَّ ﷺ بِـكُلِّ مَـا أَغْضَبَـهُ، أَوْ آذَاهُ، أَوْ سَـبَّهُ.

قولـه (فلَـمْ يَشُـقَّ): أي لَمْ يَصْعُبْ.

قولـه (غَنَّـتْ): -بفتـحِ الغَـيْنِ والنـونِ المشـدَّدةِ- أيْ تَغنَّـتْ وتَنَغَّمَـتْ.

قولـه (خَطْمَـةَ): -بفتـحِ المعْجَمـةِ وسُـكونِ الطَّـاءِ المهْمَلـةِ- اسْـمُ قَبِيلَـةٍ.

قولـه (مَـنْ لي بِهـا): أي مَـنْ يَقـومُ بِقَتْلِهـا لِأَجْـلِي.

قولـه (فقَـالَ رَجُـلٌ مِـنْ قومِهَـا): هُـوَ عُمَـيرُ بْـنُ عَـدِيٍّ.

قولـه (عَنْـزانِ): -بفتـحِ المهْمَلـةِ وسُـكونِ النُّـونِ وزايٍ- تَثْنِيَـةُ «عَنْـزٍ».

قولـه (جَعَلَـتْ تَقَـعُ): أيْ شَرَعَتْ.

قولـه (أَبِي بَـرْزَةَ): بفتـحِ البـاءِ الموَحَّـدةِ وسُكونِ الـرَّاءِ فـزايٍ.

قولـه (دَعْنِـي أَضْرِبْ): أي اتْرُكْنِـي أَضْرِبْـه؛ بسُـكونِ البـاءِ، وقيـلَ برَفْعِهـا.

(١) حديث (أنَّ رَجُلًا قالَ: سمعتُ أبي ...): عزاه لابن قانع [«معجم الصحابة» (٣/ ٤٦)].

(٢) حديث ابن عبَّاس (أنَّ أعمى كانت له أُمُّ وَلَدٍ ...): أبو داود [٤٣٦١]، والحاكم [٤/ ٣٥٤] وصحَّحه، والبيهقيُّ [١٣٣٧٥] في سننه.

(٣) حديث أبي برزة (أتيتُ أبا بكر ..): عزاه المصنِّف للنَّسائيِّ [٤٠٧٧]، وأخرجه أيضًا أبو داود [٤٣٦٣]، والحاكم [٤/ ٣٥٤]، وصحَّحه والبيهقيُّ [١٣٣٧٧] في سننه.

ومِنْ ذلكَ كِتابُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ إلَى عَامِلِهِ بالكُوفَةِ، وَقَدِ اسْتَشَارَهُ في قَتْلِ رَجُلٍ سَبَّ عُمَرَ، فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ: إنَّهُ لا يَحِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِسَبِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إلَّا رَجُلًا سَبَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ حَلَّ دَمُهُ.

وسَأَلَ الرَّشِيدُ مَالِكًا في رَجُلٍ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ فُقَهَاءَ العِرَاقِ أَفْتَوْهُ بِجَلْدِه؛ فغَضِبَ مَالِكٌ، وقَالَ: يَا أَمِيرَ المؤمِنِينَ، مَا بَقَاءُ الأُمَّةِ بَعْدَ شَتْمِ نَبِيِّهَا؟! مَنْ شَتَمَ الأَنْبِيَاءَ قُتِلَ، ومَنْ سَبَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ جُلِدَ.

قالَ القاضِي أَبُو الفَضْلِ:

كَذَا وَقَعَ في هَذِهِ الحِكَايَةِ، رَوَاهَا غَيْرُ واحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ مَنَاقِبِ مَالِكٍ ومُؤَلِّفِي أَخْبَارِهِ وَغَيْرِهِمْ، ولا أَدْرِي مَنْ هَؤُلاءِ الفُقَهَاءُ بالعِرَاقِ الَّذِينَ أَفْتَوُا الرَّشِيدَ بِمَا ذُكِرَ؟! وقَدْ ذَكَرْنَا مَذْهَبَ العِرَاقِيِّينَ بِقَتْلِهِ، ولَعَلَّهُمْ مِمَّنْ لَمْ يَشْتَهِرْ بِعِلْمٍ، أَوْ مَنْ لا يُوثَقُ بِفَتْوَاهُ، أَوْ يَمِيلُ بِهِ هَوَاهُ، أَوْ يَكُونُ مَا قَالَهُ يُحْمَلُ عَلَى غَيْرِ السَّبِّ، فيَكُونُ الخِلَافُ هَلْ هُوَ سَبٌّ أَوْ غَيْرُ سَبٍّ؟ أَوْ يَكُونُ رَجَعَ وَتَابَ عَنْ سَبِّهِ، فَلَمْ يَقُلْهُ لِمَالِكٍ على أَصْلِهِ، وإلَّا فالإجْمَاعُ على قَتْلِ مَنْ سَبَّهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

ويَدُلُّ عَلَى قَتْلِهِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ والاعْتِبَارِ أَنَّ مَنْ سَبَّهُ أَوْ تَنَقَّصَهُ ﷺ فَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَامَةُ مَرَضِ قَلْبِهِ، وبُرْهَانُ سُوءِ طَوِيَّتِهِ وكُفْرِهِ؛ ولِهَذا مَا حَكَمَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ بالرِّدَّةِ، وهِيَ رِوَايَةُ الشَّامِيِّينَ عَنْ مَالِكٍ والأَوْزَاعِيِّ، وقَوْلُ الثَّوْرِيِّ وأَبَا حَنِيفَةَ والكُوفِيِّينَ.

والقَوْلُ الآخَرُ أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى الكُفْرِ، فيُقْتَلُ حَدًّا، وإنْ لَمْ يُحْكَمْ لَهُ بالكُفْرِ إلَّا أَنْ يَكُونَ مُتَمَادِيًا عَلَى قَوْلِهِ، غَيْرَ مُنْكِرٍ لَهُ ولا مُقْلِعٍ عَنْهُ؛ فَهَذَا كَافِرٌ، وقَوْلُهُ إمَّا صَرِيحُ كُفْرٍ كالتَّكْذِيبِ ونَحْوِهِ، أَوْ مِنْ كَلِمَاتِ الاسْتِهْزَاءِ أَوِ الذَّمِّ، فاعْتِرَافُهُ بِهَا، وَتَرْكُ تَوْبَتِهِ عَنْهَا دَلِيلُ اسْتِحْلَالِهِ لِذَلِكَ، وهُوَ كُفْرٌ أَيْضًا، فَهَذَا كَافِرٌ بِلَا خِلَافٍ؛

قوله (فقَدْ حَلَّ دَمُه): لِخُروجِهِ عَنْ دِينِهِ قَطْعًا.

قوله (كذا وَقَعَ في هَذه الحِكَايَةِ): أيْ مِنْ أَنَّ فُقَهَاءَ العِرَاقِ أَفْتَوُا الرَّشِيدَ بِجَلْدِهِ.

قوله (والاعتِبَارِ): أيْ طَرِيقِ القِيَاسِ.

قوله (كالتَّكْذِيبِ ونَحْوِهِ): كَنِسْبَةِ إبليسَ رَبَّهُ لِلجَوْرِ والظُّلْمِ في كَوْنِهِ أَمَرَهُ بالسُّجُودِ لِآدَمَ مَعَ زَعْمِهِ أنَّه خَيْرٌ مِنْه.

قوله (وهُوَ كُفْرٌ): أي اسْتِحلالُ المَعْصِيَةِ كُفْرٌ.

قولـه (إنْ كانَ مـا يَقـولُ محمَّـدٌ): أي مِـنْ أنَّـه سَـيَفتَحُ قُصُورَ الشـامِ.

قولـه (أنَّ حُكْمَـه حُكْـمُ الزِّنديـقِ يُقتَـلُ): أيْ كُفْـرًا لا حـدًّا، ولا تُقبَـلُ تَوْبَتُـه.

قولـه (مَـنْ غَـيَّرَ دِينَـه... إلـخ): وفي رِوايـةِ البخـاريِّ وغَـيْرِه «بَـدَّلَ»[1].

قولِه (يُحَدُّ): أيْ يُعَزَّرُ على ما هُوَ مُقَرَّرٌ.

قولـه (وشُـفوفِ مَنْزِلَتِـه): أيْ زيادتِهـا، وهْـوَ بضـمِّ الشـينِ المعجَمـةِ والفـاءِ الأُولى، مِـنَ الشِّـفِّ بالكَـسْرِ[2].

***

قـالَ اللهُ تعـالى في مِثْلِـه: ﴿يَحْلِفُـونَ بـاللهِ مَـا قَالُـوا ولَقَـدْ قَالُـوا كَلِمَـةَ الكُفْـرِ وَكَفَـرُوا بَعْـدَ إِسْـلَامِهِمْ...﴾ الآيـة [التوبـة: ٧٤]، قـالَ أَهْـلُ التَّفْسِـيرِ: هِـيَ قَوْلُهُـمْ: إنْ كَانَ مَـا يَقُـولُ مُحَمَّـدٌ حَقًّـا لَنَحْـنُ شَرٌّ مِـنَ الحَمِـيرِ، وقِيـلَ: بَـلْ قَـوْلُ بَعْضِهِـمْ: مَـا مَثَلُنَـا ومَثَـلُ مُحَمَّـدٍ إِلَّا قَـوْلُ القَائِـلِ: سَـمِّنْ كَلْبَـكَ يَأْكُلْـكَ، و﴿لَئِـنْ رَجَعْنَـا إِلَى المَدِينَـةِ لَيُخْرِجَـنَّ الأَعَـزُّ مِنْهَـا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وقَـدْ قِيـلَ: إنَّ قَائِـلَ مِثْـلِ هَـذا إنْ كانَ مُسْـتَتِرًا بـِهِ أَنَّ حُكْمَـه حُكْـمُ الزِّنْدِيـقِ، يُقْتَـلُ، ولأَنَّـهُ قَـدْ غَـيَّرَ دِينَـهُ، وقَـدْ قـالَ ﷺ: (مَـنْ غَـيَّرَ دِينَـهُ فاضْرِبُـوا عُنُقَـهُ)، ولأَنَّ لِحُكْـمِ النَّبِـيِّ ﷺ في الحُرْمَـةِ مَزِيَّـةً عَـلَى أُمَّتِـهِ، وسَـابُّ الحُـرِّ مِـنْ أُمَّتِـهِ يُحَـدُّ؛ فكَانَـتِ العُقُوبَـةُ لِمَـنْ سَـبَّهُ ﷺ القَتْـلَ؛ لِعَظِيـمِ قَـدْرِه، وشُـفُوفِ مَنْزِلَتِـه عَـلَى غَـيْرِه.

***

(١) أخرجـه البخـاريُّ (٣٠١٧) [كتـاب الجهـاد والسِّـير]، وغـيره مـن حديـث ابـن عبَّـاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) بالفتح والكسر؛ في «القامـوس»: «والشَّـفُّ، ويُكْـسَرُ: الربـحُ، والفَضْـلُ».

فَصْلٌ [في صَفْحِهِ ﷺ
عنْ بَعْضِ مَن أذاهُ استِئلافًا لِلقُلوبِ]

فـإِنْ قُلْـتَ: فَلِـمَ لَمْ يَقْتُـلِ النَّبِـيُّ ﷺ اليَهُـودِيَّ الَّـذِي قـالَ لـه: السَّامُ عَلَيْكُـمْ[1]، وهَـذَا دُعَـاءٌ عَلَيْـهِ، ولا قَتَـلَ الآخَـرَ الَّـذِي قـالَ لـهُ: إنَّ هَـذِه قِسْمَةٌ مَـا أُرِيـدَ بِهَـا وَجْـهُ الله[2]، وقَـدْ تَـأَذَّى النَّبِـيُّ ﷺ مِـنْ ذلِـكَ، وَقـالَ: (قَـدْ أُوذِيَ مُوسَـى بِأَكْثَـرَ مِـنْ هَـذا فصَـبَرَ)، ولا قَتَـلَ المُنافِقِـينَ الَّذِيـنَ كَانُـوا يُؤْذُونَـهُ في أَكْثَـرِ الأَحْيَـانِ؟

فاعْلَـمْ -وَفَّقَنَـا اللهُ وإِيَّـاكَ- أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كانَ أَوَّلَ الإِسْـلام يَسْـتَأْلِفُ عَلَيْهِ النَّـاسَ، ويُمَيِّـلُ قُلُوبَهُـمْ إلَيْـهِ، ويُحَبِّـبُ إلَيْهِـم الإيـمانَ، ويُزَيِّنُـهُ في قُلُوبِهِـمْ، ويُدَارِئُهـمْ ويقُـولُ لِأَصْحابِـهِ: (إِنَّـمَا بُعِثْتُـمْ مُيَسِّرِيـنَ، وَلَمْ تُبْعَثُـوا مُنَفِّرِينَ)[3]، ويَقُـولُ: (يَـسِّرُوا ولا تُعَـسِّرُوا، وَسَـكِّنُوا ولا تُنَفِّـرُوا)[4]، ويَقُـولُ: (لاَ يَتَحَـدَّثُ النَّـاسُ أَنَّ محمَّـدًا يَقْتُـلُ أَصْحابَـهُ)[5]. وكَانَ ﷺ يُـدَارِئُ الكُفَّـارَ والمُنافِقِـينَ، ويُجْمِـلُ صُحْبَتَهُـمْ، ويُغْـضِي عَنْهُـمْ، ويَحْتَمِـلُ مِـنْ أَذَاهُـمْ، ويَصْـبِرُ عـلى جَفَائِهِـمْ مـا لا يَجُـوزُ لَنَـا اليَـوْمَ الصَّـبْرُ لَـهُـمْ عَلَيْـهِ، وكَانَ يُرْفِقُهُـمْ بالعَطَـاءِ والإِحسَـانِ، وبِذَلِـكَ أَمَـرَهُ اللهُ تعـالى، فقـالَ: ﴿ولا تَـزَالُ تَطَّلِـعُ عـلى خَائِنَـةٍ مِنْهُـمْ إِلَّا قَلِيـلًا مِنْهُـمْ فاعْـفُ عَنْهُـمْ واصْفَـحْ...﴾ الآية [المائـدة: ١٣]، وقـالَ: ﴿ادْفَـعْ بالَّتِـي هِـيَ أَحْسَـنُ...﴾ الآية [فصلت: ٣٤].

---

(١) حديث (اليهودي الذي قال له السام عليكم): البخاريُّ [٦٩٢٦] عن أنس.

(٢) حديث (الرَّجُل الذي قال له: إنَّ هذه قِسمَةٌ ...): تقدَّم أوَّل الكتاب [انظر ص١٤٦].

(٣) حديث (إنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرين ...): الشيخان [البخاريُّ (٦١٢٨)، ومسلمٌ (٢٨٤) ذكر القصة بدون لفظة المصنف] عن أبي هريرة.

(٤) حديث (يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا وسَكِّنُوا ولا تُنَفِّرُوا ...): الشيخان [البخاريُّ (٦١٢٥)، ومسلمٌ (١٧٣٤)] عن أنس.

(٥) حديث (لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ...): [البخاريُّ (٤٩٠٥)، ومسلمٌ (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبدالله].

قولـه (الَّـذِي قـالَ لـه): أيْ قـالَ لِلنَّبِيِّ خاصَّـةً، أوْ لَـه ولِمَـنْ مَعَـه.

قولـه (السَّـامُ عَلَيْكُـم): أي المَـوْتُ.

قولـه (كانَ أَوَّلَ الإِسْـلامِ): أيْ في أَوَّلِ ظُهُـورِه. قولـه (ويُمَيِّـلُ قُلُوبَهـم): -بالتشديدِ والتخفيـفِ- أي يُحَـوِّلُ. قولـه (ويُدَارِئُهـم): -مِـنَ الـدَّرْءِ، مهمُـوزٌ- أي يُدافِعُهـمْ.

قولـه (مُيَسِّرِيـنَ): -بكَـسْرِ السِّـينِ- أيْ مُسَـهِّلِينَ. وقولـه (مُنَفِّرِيـنَ): -بتشـديدِ الفَـاءِ المكسُـورةِ- أيْ مُشَـدِّدِينَ. قولـه (ويُجْمِـلُ صُحْبَتَهـمْ): -مِـنْ أَجْمَـلَ: إذا أَحْسَـنَ- أيْ يُحْسِـنُ.

قولـه (مـا لا يَجُـوزُ لَنَـا اليَـوْمَ الصَّـبْرُ لَـهُـمْ): أيْ لِلمنافِقِـينَ.

قولـه (وكَانَ يُرْفِقُهُـمْ): -بضَـمِّ اليـاءِ وسُكونِ الـرَّاءِ وكسرِ الفـاءِ- مِـنَ الرِّفْـقِ، وهْـوَ لِـينُ الجانـبِ؛ ضِـدُّ العُنْـفِ. قولـه (تَطَّلِـعُ عـلى خائنـةٍ مِنْهـمْ): أي خِيَانَـةٍ تَصْـدُرُ مِنْهـم. قولـه (واصْفَـحْ): أي أَعْـرِضْ عَنْهُـمْ. قولـه (ادْفَـعْ بالَّتِي هِـيَ أَحْسَـنُ): أي ادفَـعِ السَّـيِّئَةَ الَّتـي وَرَدَتْ عَلَيْـكَ مِـنْ جِهَتِهِـمْ بالحَسَـنةِ الَّتـي هِـيَ أَحْسَـنُ مِـنَ العُقوبـةِ والمُكافَـأَةِ بِمِثْلِهـا.

قولـه (وأَظْهَـرَه اللهُ عـلى الدِّيـنِ كُلِّـه): أي جَمِيعِـه حَسَـبَما وَعَـدَه بـه بقولـه تعـالى: ﴿هُـوَ الـذي أَرْسَـلَ رَسُـولَه بالهُـدَى ودِيـنِ الحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عـلى الدِّيـنِ كُلِّـه﴾ [التوبـة: ٣٣].

قولـه (ومَـنْ عَهِـدَ بِقَتْلِـه): أي وكفِعْلِـه بِقَتْـلِ مَـنْ أَوْصَى بِقَتْلِـه.

قولـه (غِيلَـةً): -بكَسْرِ الغيْنِ المعْجَمـةِ- أي خُفْيَـةً.

قولـه (أو غَلَبَـةً): -بفتـحِ الغَيْنِ المعجَمـةِ والـلَّامِ- أي شُـهرَةً وعَلانِيَـةً.

قولـه (مَـنْ لَمْ يَنْظِمْـه): -بكَسْرِ الظَّـاءِ المعْجَمـةِ- أيْ لَمْ يَشْمَلْه (سِـلْكُ صُحْبَتِـه): أيْ خَيْـطُ مَحَبَّتِـه.

قولـه (النَّـضْرِ): بالضَّـادِ المعْجَمـةِ بعْـدَ النـونِ. قولـه (وعُقْبَـةَ): ابـنُ أَبِي مُعَيْـطٍ؛ بضـمِّ العَـيْنِ المهْمَلـةِ وسُـكونِ القـافِ.

قولـه (وكذلـكَ هَـدَرَ دَمَ جَمَاعـةٍ): أيْ أَبْطَـلَ، و(هَدَرَ) بفتـحِ الهـاءِ والـدَّالِ والـرَّاءِ. قولـه (ككَعْـبِ بـنِ زُهَـيْرٍ): بضـمِّ الـزايِ وفتـحِ الهـاءِ بَعْدَهـا يـاءٌ سَـاكِنَةٌ. وقولـه (الزِّبَعْـرَى): -بكسرِ الـزايِ والبـاءِ الموحَّـدةِ وسُـكونِ العَـينِ المهْمَلـةِ فـراءٍ، مَقصـورٌ- هـوَ القُـرَشِيُّ الشـاعرُ المشـهُورُ.

قولـه (خُفْيَـةً): بضـمِّ الخـاءِ وكَسْرِهَـا. قولـه (ويَحْلِفُونَ بـالله مـا قالُـوا): كَـمَا أَخـبَرَ اللهُ عَنهـم في القـرآنِ المَجِيد. وقولـه (عـلى هَنَاتِهِـم): أي زَلَّاتِهِم.

قولـه (كَـمَا صَـبَرَ أُولُـو العَـزْمِ مِـنَ الرُّسُـلِ): الأَصَـحُّ أنَّ (مِـنْ) تَبعيضيّـةٌ لا بيانيّـةٌ لِأَنَّ أُولِي العَـزْمِ محمَّـدٌ ونـوحٌ وإبراهيـمُ وموسـى وعيسـى.

قولـه (حَتَّـى فَـاءَ كَثِـيرٌ مِنْهُـم): أيْ رَجَـعَ إلى الإسْـلام. قولـه (وحُمَـاةٌ): -بضَـمِّ الحـاءِ المهْمَلـةِ بَعْدَهـا ميـمٌ مُخَفَّفَـةٌ- أيْ قُضَـاةٌ.

قوله (ومَنْ لَمْ يَصِلْ رُتْبَةَ الشَّهادةِ): أي الكاملةِ.

وذَلـكَ لِحَاجَـةِ النَّـاسِ لِلتَّأَلُّـفِ أَوَّلَ الإِسْـلام، وجَمْـعِ الكَلِـمِ عَلَيْـهِ، فلَـمَّا اسْـتَقَرَّ وأَظْهَـرَهُ اللهُ عـلَى الدِّيـنِ كُلِّـهِ قَتَـلَ مَـنْ قَـدَرَ عَلَيْـهِ واشْـتَهَرَ أَمْـرُهُ، كَفِعْلِـهِ بابْـنِ خَطَـلٍ، ومَـنْ عَهِـدَ بقَتْلِـهِ يَـوْمَ الفَتْـحِ، ومَـنْ أَمْكَنَـه قَتْلُهُ غِيلَـةً مِـنْ يَهُـودٍ وغَيْرِهِـم، أَوْ غَلَبَـةً مِمَّـنْ لَمْ يَنْظِمْـهُ قَبْـلُ سِـلْكُ صُحْبَتِـه، والانْخِـراطُ في جُمْلَـةِ مُظْهِـرِ الإِيـمانِ بِـه مِمَّـنْ كَانَ يُؤْذِيـهِ، كَابْـنِ الأَشْـرَفِ، وأَبِي رَافِـعٍ، والنَّـضْرِ، وعُقْبَـةَ، وَكَذَلِـكَ هَـدَرَ ﷺ دَمَ جَمَاعـةٍ سِـوَاهُمْ، كَكَعْـبِ بْـنِ زُهَـيْرٍ، وابْـنِ الزِّبَعْـرَى، وغيْرِهِمَـا مِمَّـنْ آذَاهُ حَتَّـى أَلْقَـوْا بأَيْدِيهِـمْ، ولَقُـوهُ مُسْـلِمِينَ.

وبَوَاطِـنُ المُنَافِقِـينَ مُسْـتَتِرَةٌ، وحُكْمُـه ﷺ عـلى الظَّـاهِـرِ، وأَكْثَـرُ تِلْـكَ الكَلِـماتِ إِنَّـمَا كَانَ يَقُولُهـا القَائِـلُ مِنْهُـمْ خُفْيَـةً مَـعَ أَمْثَالِـه، ويَحْلِفُـونَ عَلَيْهـا إذا نُمِيَـتْ، ويُنْكِرُونَهَـا، و﴿يَحْلِفُـونَ بـالله مَـا قَالُـوا ولَقَـدْ قَالُـوا كَلِمَـةَ الكُفْـرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وَكَانَ مَـعَ هَـذا يَطْمَـعُ في فَيْئَتِهِـمْ، ورُجُوعِهِـمْ إِلَى الإِسْـلامِ وَتَوْبَتِهِـمْ؛ فيَصْـبِرُ ﷺ عَـلَى هَنَاتِهِـمْ وَجَفْوَتِهِـمْ، ﴿كَـمَا صَـبَرَ أُولُـو العَـزْمِ مِـنَ الرُّسُـلِ﴾ [الأحقـاف: ٣٥]، حَتَّـى فَـاءَ كَثِـيرٌ مِنْهُـم باطِنًا كَـمَا فَـاءَ ظاهِـرًا، وأَخْلَـصَ سِرًّا كَـمَا أَخْلَـصَ جَهْـرًا، ونَفَـعَ اللهُ بَعْـدُ بكَثِـيرٍ مِنْهُـمْ، وقَـامَ مِنْهُـمْ لِلدِّيـنِ وُزَرَاءُ وأَعْـوَانٌ، وحُمَـاةٌ وأَنْصَـارٌ، كَـمَا جَـاءَتْ بِـهِ الأَخْبَـارُ.

وبِهَـذَا أَجَـابَ بَعْـضُ أَئِمَّتِنـا -رَحِمَهُـم اللهُ- عَـنْ هَـذَا السُّـؤَالِ، وقَـالَ: لَعَلَّـه لَمْ يَثْبُـتْ عِنْـدَهُ ﷺ مِـنْ أَقْوَالِهِـمْ مَـا رُفِـعَ، وإنَّـمَا نَقَلَـهُ الواحِـدُ ومَـنْ لَمْ يَصِـلْ رُتْبَـةَ الشَّـهَادَةِ في هَـذا البَـابِ مِـنْ صَبِـيٍّ، أَوْ عَبْـدٍ، أَوِ امْـرَأَةٍ، والدِّمَـاءُ لا تُسْـتَبَاحُ إِلَّا بِعَدْلَـيْنِ.

وَعَلَى هذا يُحْمَلُ أَمْرُ اليَهُودِ في السَّلَامِ، وأنَّهُمْ لَوَّوْا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ، فَلَمْ يُبَيِّنُوهُ؛ أَلَا تَرَى كَيْفَ نَبَّهَتْ عَلَيْهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؟! ولَوْ كَانَ صَرَّحَ بذلكَ لَمْ تَنْفَرِدْ بِعِلْمِهِ، ولِهَذا نَبَّهَ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَى فِعْلِهِم، وقِلَّةِ صِدْقِهِمْ في سَلَامِهِمْ، وَخِيَانَتِهِمْ في ذلكَ ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْنًا في الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، فقَالَ: (إِنَّ اليَهُودَ إذا سَلَّمَ أَحَدُهُمْ عَلَيْكُمْ فإِنَّما يَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ؛ فقُولُوا: عَلَيْكُمْ)[1].

وَكَذَلِكَ قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا البَغْدَادِيِّينَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْتُلِ المُنافِقِينَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ ولَمْ يَأْتِ أَنَّهُ قامَتْ بَيِّنَةٌ على نِفاقِهِمْ؛ فَلِهَذا تَرَكَهُمْ ﷺ، وأَيْضًا فإِنَّ الأَمْرَ كَانَ سِرًّا وَبَاطِنًا، وظاهِرُهُمُ الإِسْلامُ والإِيمانُ، وإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ بالعَهْدِ والجِوَارِ، والنَّاسُ قَرِيبٌ عَهْدُهُمْ بالإِسْلامِ، لَمْ يَتَمَيَّزْ بَعْدُ الخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ، وقَدْ شَاعَ عَنِ المَذْكُورِينَ في العَرَبِ كَوْنُ مَنْ يُتَّهَمُ بالنِّفَاقِ مِنْ جُمْلَةِ المُؤْمِنِينَ وصَحابَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وأَنْصَارِ الدِّينِ بِحُكْمِ ظَوَاهِرِهِمْ، فلَوْ قَتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِنِفَاقِهِمْ ومَا يَبْدُرُ مِنْهُمْ، وعِلْمِهِ بِمَا أَسَرُّوا في أَنْفُسِهِمْ، لَوَجَدَ المُنَفِّرُ مَا يَقُولُ، وَلا ارْتَابَ الشَّارِدُ، وأَرْجَفَ المُعَانِدُ، وارْتَاعَ مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ والدُّخُولِ في الإِسْلامِ غَيْرُ واحِدٍ، ولَزَعَمَ الزَّاعِمُ، وظَنَّ العَدُوُّ الظَّالِمُ أَنَّ القَتْلَ إِنَّمَا كَانَ لِلعَدَاوَةِ وطَلَبِ أَخْذِ التِّرَةِ.

وقَدْ رَأَيْتُ مَعْنَى مَا حَرَّرْتُه مَنْسُوبًا إلى مالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ. ولِهَذا قَالَ ﷺ: (لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحابَهُ)[2]، وقَالَ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللهُ عَنْ قَتْلِهِمْ)[3].

(١) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٢٥٧)، ومسلمٌ (٢١٦٤)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا].

(٢) [تقدم تخريجه. انظر ص٦٩٩].

(٣) [أخرجه أحمد (٢٣٦٧٠) عن عبيدالله بن عدي بن الخيار].

قولُه (لَوَّوْا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ): -بتشديدِ الواوِ الأُولَى وتخفيفِها- أي أَمَالُوهَا.

قولُه (ولَوْ كانَ صَرَّحَ بذلكَ... إلخ): أي لَوْ كَانَ اليَهُودِيُّ أو المنافِقُ صَرَّحَ... إلخ.

قولُه (لَمْ تَنْفَرِدْ بِعِلْمِهِ): رُوِيَ أَنَّهَا قالَتْ لَهُمْ: «عَلَيْكُم السَّامُ والذَّامُ»، وفي روايةٍ «واللَّعْنَةُ»، فقالَ: (مَهْلًا يا عائِشَةُ، أَلَمْ تَسْمَعِي ما أَقُولُ لهم؟! فإنَّ اللهَ يَسْتَجِيبُ لي فِيهم ولا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ فِيَّ)[1].

قولُه (لَيًّا بأَلْسِنَتِهِمْ): أَيْ تَحْرِيفًا بِهَا.

قولُه (فقُولُوا: عَلَيْكُم): أو وعَلَيْكُم.

قولُه (البَغْدَادِيِّينَ): -بالجَرِّ- صِفَةٌ لِلمضافِ إِلَيْهِ. قولُه (بِعِلْمِهِ فِيهِم): أَيْ بِمُجَرَّدِ عِلْمِهِ.

قوله (ولَمْ يَأْتِ): أَيْ في حديثٍ.

قولُه (والجِوَارِ): -بكسرِ الجيمِ وضَمِّها- أي الأَمَانِ؛ فهُوَ مِنَ الجِوارِ بمَعْنَى المُجاوِرِ.

قولُه (ومَا يَبْدُو): -بضَمِّ الدَّالِ المُهْمَلَةِ بَعْدَ مُوَحَّدَةٍ- أَيْ يَظْهَرُ لِلنَّاسِ.

قولُه (لَوَجَدَ المُنَفِّرُ): جَوابُ «لَوْ» في قولِه (فلَوْ قَتَلَهُمُ النَّبِيُّ... إلخ)، و«المُنَفِّرُ» بتشديدِ الفاءِ المكسُورَةِ. قولُه (وأَرْجَفَ المُعَانِدُ): -بكَسْرِ النُّونِ- هُوَ المُنْكِرُ الجاحِدُ، و«أَرْجَفَ» بصيغةِ المفْعُولِ أو الفاعِلِ.

قولُه (وطَلَبَ أَخْذَ التِّرَةِ): -بكَسْرِ التَّاءِ الفوْقِيَّةِ- أي النَّقْصِ.

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٦٤٠١) [كتاب الدعوات].

وهَـذَا بخِـلَافِ إِجْـرَاءِ الأَحْـكَامِ الظَّاهِـرَةِ عَلَيْهِـمْ مِـنْ حُـدُودِ الزِّنَـا والقَتْـلِ وشِـبْهِهِ؛ لِظُهُورِهَـا، واسْـتِوَاءِ النَّـاسِ في عِلْمِهَـا، وقَـدْ قَـالَ مُحَمَّـدُ بْـنُ المَـوَّازِ: لَـوْ أَظْهَـرَ المُنَافِقُـونَ نِفَاقَهُـمْ لَقَتَلَهُـمُ النَّبِـيُّ ﷺ، وَقَالَـه القَـاضِي أَبُـو الحَسَـنِ بْـنُ القَصَّـارِ.

وقَـالَ قَتَـادَةُ في تَفْسِيرِ قَوْلِـهِ تعـالى: ﴿لَئِـن لَّمْ يَنتَـهِ المُنَافِقُـونَ والَّذِيـنَ في قُلُوبِهِـمْ مَـرَضٌ والمُرْجِفُـونَ فِي المَدِينَـةِ لَنُغْرِيَنَّـكَ بِهِمْ ثُـمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فيهَـا إِلَّا قَلِيـلًا * مَلْعُونِـينَ أَيْنَـمَا ثُقِفُـوا أُخِـذُوا وقُتِّلُـوا تَقْتِيـلًا * سُـنَّةَ اللهِ...﴾ الآيَـةَ [الأحـزاب: ٦٠-٦٢]، قَـالَ: مَعْنَـاهُ إِذَا أَظْهَـرُوا النِّفَـاقَ، وحَكَـى مُحَمَّـدُ بْـنُ مَسْـلَمَةَ في «المَبْسُـوطِ» عَـنْ زَيْـدِ بْـنِ أَسْـلَمَ أَنَّ قَوْلَـه تعـالى: ﴿يـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ جَاهِـدِ الكُفَّـارَ والمُنَافِقِـينَ﴾ [التحريـم: ٩]، نَسَـخَتْ مـا كَانَ قَبْلَهَـا.

وقَـالَ بَعْـضُ مَشَـايِخِنَا: لَعَـلَّ القَائِـلَ: «هَـذِهِ قِسْـمَةٌ مَـا أُرِيـدَ بِهَـا وَجْـهُ اللهِ»، وقَوْلَـه: «اعْـدِلْ» لَمْ يَفْهَـمِ النَّبِـيُّ ﷺ الطَّعْـنَ عَلَيْـه والتُّهَمَـةَ لَـهُ، وإِنَّـمَا رآهَـا مِـنْ وَجْـهِ الغَلَـطِ فِي الـرَّأْيِ وأُمُـورِ الدُّنْيَـا، والاجتِهَـادِ في مَصَالِـحِ أَهْلِهَـا، فَلَـمْ يَـرَ ذلِـكَ شَـيْئًا، ورَأَى أَنَّـهُ مِـنَ الأَذَى الـذِي لَـهُ العَفْـوُ عَنْـه، والصَّـبْرُ عَلَيْـهِ؛ فلِذلِـكَ لَمْ يُعَاقِبْـهُ، وكَذَلِـكَ يُقَـالُ في اليَهُـودِ إِذْ قالُـوا «السَّـامُ عَلَيْكُـمْ»: لَيْـسَ فيـه صَرِيـحُ سَـبٍّ ولا دُعَـاءٍ إِلَّا بِـمَا لا بُـدَّ مِنْـهُ مِـنَ المَـوْتِ الـذِي لا بُـدَّ مِـنْ لَحَاقِـهِ جَمِيـعَ البَشَرِ، وَقِيـلَ: بَـلِ المُـرَادُ «تَسْـأَمُونَ دِينَكُـمْ»، والسَّـأْمُ والسَّـآمَةُ: المَـلَالُ، وهَـذا دُعَـاءٌ عَـلى سَـآمَةِ الدِّيـنِ، لَيْـسَ بصَرِيـحِ سَـبٍّ، ولِهَـذا تَرْجَـمَ البُخَـارِيُّ عـلى هَـذا الحَدِيـثِ «بـابٌ إذا عَـرَّضَ الذِّمِّـيُّ أَوْ غَـيْرُهُ بِسَـبِّ النَّبِـيِّ ﷺ». قَـالَ بَعْـضُ عُلَمَائِنـا: ولَيْـسَ هَـذا بتَعْرِيـضٍ بالسَّـبِّ، وإِنَّـمَا هُـوَ تَعْرِيـضٌ بـالأَذَى. قَـالَ القَـاضي أَبُـو الفَضْـلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَـدْ قَدَّمْنَـا أَنَّ الأَذَى والسَّـبَّ في حَقِّـهِ ﷺ سَـوَاءٌ.

وقَـالَ القَـاضي أَبُـو مُحَمَّـدِ بْـنُ نَـصْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُجِيبًـا عَـنْ هَـذا الحديـثِ بِبَعْـضِ مـا تَقَـدَّمَ، ثُـمَّ قَـالَ: وَلَمْ يَذْكُـرْ في الحَدِيـثِ هَـلْ كانَ هَـذَا

قولـه (وهَـذَا بخِـلَافِ): أي عَـدَمُ إجـراءِ الـكَلَامِ عَلَيْهِـمْ مِـنْ حَيْـثُ بَواطِنُهـم المَسْتورةُ لَدَيْهِـمْ بِخِـلَافِ... إِلـخ.

قولـه (وشِـبْهِه): كحَـدِّ القَـذْفِ وَالـشُّرْبِ والسَّرِقَـةِ.

قولـه (المَـوَّازِ): بفتـحِ الميـمِ وتشـديدِ الـواوِ المفتوحَـةِ بعْدَهَـا زايٌ. قولـه (القَصَّـارِ): بفتـحِ القـافِ بَعْدَهَـا صَـادٌ مهْمَلَـةٌ مشـدَّدةٌ، ومـا في أَصْـلِ الدّلجـيِّ مِـن ضَبْطِـه بالضـادِ المُهْمَلَـةِ بَعْدَهـا فـاءٌ تَصْحيـفٌ كَـمَا قالَـه المُـلَّا.

قولـه (لَنُغْرِيَنَّـكَ): أي نُسَـلِّطَنَّكَ عَلَيْهِـمْ بـأَنْ تَفْعَـلَ بِهِـم مَـا يَكُـونُ عِـبْرَةً لِغيرِهِـمْ.

قولـه (مَلْعُونِـينَ): أيْ مَبْعُودِيـنَ عَـنْ رَحْمَـةِ اللهِ ورَحْمَـةِ رسُـولِه، ونَصْبُ (مَلْعُونِـينَ) عـلى الحـالِ.

قولـه (قَـالَ: مَعْنَـاهُ: إذا أَظْهـرُوا): أيْ قَـالَ قَتـادةُ: مَعْنَـى ﴿لَئِـن لَّمْ يَنتَـهِ المُنَافِقُـونَ﴾: إذا أَظْهَـرُوا... إلـخ.

قولـه (والسَّـأْمُ والسَّـآمةُ): بالهَمْـزِ فِيهِـمَا.

قولـه (ولِهَـذا تَرْجَـمَ): أيْ لِكَوْنِـه لَيـسَ بِصَرِيـحِ سَـبٍّ تَرْجَـمَ... إلـخ.

قولـه (ولَيْـسَ هـذا بتَعْرِيـضٍ): أيْ قَـوْلُ اليَهُـودِ: «السَّـامُ عَلَيْكـم» لَيْـسَ بتَعريـضٍ.

قولـه (محمّـدِ بـنُ نَـصْرٍ): بالصّـادِ المهْمَلَـةِ.

اليَهُودِيُّ مِنْ أَهْلِ العَهْدِ والذِّمَّةِ، أَوِ الحَرْبِ؟ ولا يُتْرَكُ مُوجَبُ الأَدِلَّةِ لِلأَمْرِ المُحْتَمَلِ.

والأَوْلَى في ذلكَ كُلِّهِ، والأَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الوُجُوهِ مَقْصَدُ الاسْتِئْلافِ والمُداراةِ على الدِّينِ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، ولِذَلِكَ تَرْجَمَ البُخارِيُّ على حَدِيثِ القِسْمَةِ والخَوارِجِ «بَابٌ مَنْ تَرَكَ قِتالَ الخَوارِجِ لِلتَّأَلُّفِ، ولِئَلَّا يَنْفِرَ النَّاسُ عَنْهُ»، ولِما ذَكَرْنا مَعْناهُ عَنْ مالِكٍ، وقَرَّرْناهُ قَبْلُ.

وقَدْ صَبَرَ ﷺ لَهُمْ على سِحْرِهِ وسَمِّهِ -وهُوَ أَعْظَمُ مِنْ سَبِّهِ- إلى أَنْ نَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وأَذِنَ لَهُ في قَتْلِ مَنْ عَيَّنَهُ مِنْهُمْ، وأَنْزَلَهُمْ مِن صَيَاصِيهِمْ، وقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وكَتَبَ على مَنْ شاءَ مِنْهُمُ الجَلاءَ، وأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ، وخَرَّبَ بُيُوتَهُمْ بأَيْدِيهِمْ وأَيدِي المُؤْمِنِينَ، وكاشَفَهُمْ بالسَّبِّ، فقالَ: يا إِخْوَةَ القِرَدَةِ والخَنازِيرِ، وحَكَّمَ فِيهِمْ سُيُوفَ المُسْلِمِينَ، وأَجْلاهُمْ مِنْ جِوارِهِمْ، وأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ ودِيارَهُمْ وأَمْوالَهُمْ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا، وكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى.

فإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ جاءَ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عائِشَةَ أَنَّه ﷺ ما انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ في شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ؛ فَيَنْتَقِمَ للهِ[1]!!

فاعْلَمْ أَنَّ هَذا لا يَقْتَضِي أَنَّه لا يَنْتَقِمُ مِمَّنْ سَبَّهُ أَوْ آذاهُ أَوْ كَذَّبَهُ؛ فإِنَّ هَذِهِ مِنْ حُرُماتِ اللهِ الَّتِي انْتَقَمَ لَها،

(١) حديث عائشة (ما انتقم لنفسه ...): [البخاريُّ (٦٧٨٦)، ومسلمٌ (٢٣٢٧)].

قولـه (ولا يُتْرَكُ مُوجَبُ الأَدِلَّةِ): -بفتحِ الجيمِ- أي مُقْتَضاه مِنَ القَتْلِ. (مَقْصَدُ الاسْتِئْلافِ): -بفتحِ الصادِ وكَسْرِها- أي لِمَحْضِ طَلَبِ الأُلْفَةِ.

قوله (بابٌ): بالتنوينِ، وفي نسخةٍ بالإضافةِ. قوله (الخَوارِج): هُمْ طائفةٌ مشهُورةٌ مِن أَهْلِ البِدْعةِ يَكْرهُونَ أَهْلَ بيتِ النبُوَّةِ. وقوله (لِئَلَّا يَنْفِرَ النَّاسُ): -بكسْرِ الفاءِ- مِنَ النَّفْرِ.

قوله (على سِحْرِه): -بكَسْرِ السِّينِ المهْمَلةِ- أيْ ما سُحِرَ به. قوله (في قَتْلِ مَنْ عَيَّنَه): بالموحَّدةِ أو النونِ، ورُوِيَ «خَيَّنَه» -بالخاءِ المعْجَمةِ- مِنَ الخِيانَةِ، ويَحْتمِلُ بالمُوحَّدةِ، أيْ نَسَبَه إلى الخَيْبَةِ، وفي نُسْخةٍ «مَنْ حَيَّنَه مِنْهم» -بفتحِ الحاءِ المهْمَلةِ وتشديدِ التحتيَّةِ المفتوحَةِ فنونٍ مفتوحَةٍ؛ مِنَ الحَيْنِ، وهْوَ الهَلاكُ- أي أَهْلَكَه، وقيلَ «مَنْ حَيَّنَه»: أي انتَظَرَ وَقْتَه.

قوله (مِنْ صَيَاصِيهِمْ): -بفتحِ الصّادِ الأُولَى- أيْ حُصُونِهِمْ. قوله (وقَذَفَ في قُلُوبِهِم الرُّعْبَ): أي أَلْقَى اللهُ في قلُوبِهم الخَوْفَ الشديدَ، و(الرُّعْبَ) بسُكونِ العَينِ وضَمِّهَا.

قوله (الجَلاءَ): -بفتحِ الجيمِ وكَسْرِها والمَدِّ- أي الخروجَ مِنْ أوطانِهِمْ.

قوله (وكاشَفَهُمْ بالسَّبِّ): أيْ ظاهَرَهم بالطَّعنِ والتعييرِ. قوله (فقالَ: يا إِخْوَةَ القِرَدةِ... إلخ): خِطابًا لِشُبَّانِهِمْ ومَشايِخِهِمْ، وفيه إيماءٌ إلى قوله تعالى: ﴿وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]. قوله (وحَكَّمَ فيهِمْ): بتشْديدِ الكافِ. قوله (مِنْ جِوارِهم): -بكَسْرِ الجيمِ وضمِّها- أيْ مُجاوَرَتِهِمْ. قوله (وكَلِمةُ الَّذينَ كَفَروا السُّفْلَى): أيْ في الدُّنيا والآخِرةِ.

قوله (إلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ): بصيغةِ المجهولِ أو بصيغةِ الفَاعِلِ.

وإنَّما يكُونُ مَا لا يَنْتَقِمُ لَهُ فِيهَا تَعَلَّقَ بسُوءِ أَدَبٍ أَوْ مُعَامَلَةٍ مِنَ القَوْلِ أَوِ الفِعْلِ فِي النَّفْسِ والمَالِ مِمَّا لَمْ يَقْصِدْ فاعلُهُ بِه أَذاهُ، لَكِنْ مِمَّا جُبِلَتْ عَلَيْهِ الأَعْرَابُ مِنَ الجَفَاءِ والجَهْلِ، أَوْ جُبِلَ عَلَيْهِ البَشَرُ مِنَ الغَفْلَةِ، كَجَبْذِ الأَعْرَابِيِّ إِزارَهُ حَتَّى أَثَّرَ فِي عُنُقِهِ[1]، وَكَرَفْعِ صَوْتِ الآخَرِ عِنْدَهُ[2]، وكَجَحْدِ الأَعْرابِيِّ شِراءَهُ مِنْهُ فَرَسَهُ الَّتِي شَهِدَ فيهَا خُزَيْمَةُ[3]، وكَمَا كَانَ مِنْ تَظَاهُرِ زَوْجَيْهِ عَلَيْهِ، وأَشْبَاهِ هَذا مِمَّا يَحْسُنُ الصَّفْحُ عَنْهُ.

أَوْ يَكُونُ هَذا مِمَّا آذاهُ بِهِ كَافِرٌ رَجَا بَعْدَ ذلِكَ إِسْلامَهُ، كَعَفْوِهِ عَنِ اليَهُودِيِّ الَّذِي سَحَرَهُ، وعَنِ الأَعْرَابِيِّ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَهُ، وعَنِ اليَهُودِيَّةِ الَّتِي سَمَّتْهُ، وقَدْ قِيلَ: قَتَلَهَا[4]، ومِثْلُ هذا مِمَّا بَلَغَهُ مِنْ أَذَى أَهْلِ الكِتَابِ والمُنافِقِينَ، وصَفَحَ عَنْهُمْ رَجَاءَ اسْتِئْلافِهِمْ، واسْتِئْلافِ غَيْرِهِمْ بِهِمْ كَمَا قَرَّرْنَاهُ قَبْلُ، وبِاللهِ التَوْفِيقُ.

***

(١) حديث (جَبْذ الأَعْرَابيُّ إِزَارَهُ ...): [البخاريُّ (٣١٤٩)، ومسلمٌ (١٠٥٧)].

(٢) حديث (رفع صوت الأعرابي عنده): [الترمذيُّ (٣٥٣٥)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (١١١١٤) وابن حِبَّان (٥٦٢)، وغيرهم].

(٣) حديث الفرس التي شهد فيها خزيمة: [أحمد (٢١٨٨٣)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧)، وغيرهم من حديث خزيمة بن ثابت].

(٤) حديث الأعرابي الذي أراد قتله: [البخاريُّ (٢٩١٠)، ومسلمٌ (٨٤٣)]، واليهوديُّ الذي سَحَرَهُ: [البخاريُّ (٥٧٦٣)، ومسلمٌ (٢١٨٩)] واليهودية التي سَمَّته: [البخاريُّ (٥٧٧٧)] تقدمت.

قولـه (أَوْ مُعَامَلَةٍ): أيْ مَعَ أَحَدٍ مِنَ العَرَبِ (ما لَمْ يَقْصِدْ فاعلُهُ بِه أَذاه): أيْ أَذى النَّبيِّ ﷺ.

قولـه (مِمَّا جُبِلَتْ عَلَيْهِ الأَعْرَابُ): أي مِنَ الطِّبَاعِ الَّتي خُلِقَتْ وطُبِعَتْ.

وقولُه (مِنَ الجَفَاءِ): بفتحِ الجيمِ والفَاءِ مَعَ المدِّ، وهُوَ غِلَظُ الطَّبْعِ. قولـه (وجُبِلَ عَلَيْه البَشَرُ): أي جِنسُ البَشَرِ.

قولـه (كَجَبْذِ الأعْرابيِّ): -بالجيمِ وَالباءِ الموحَّدَةِ فذالٍ معْجَمةٍ- أي جَذْبِه. قولـه (إزارَه): وفي نسخةٍ «رِداءَهُ»، وهي الصَّوابُ، ويَدُلُّ على خَطَإِ النُّسْخةِ الأُولَى قولُه (حَتَّى أَثَّرَ في عُنُقِه)؛ إلَّا أنْ يُحْمَلَ الإزارُ على المِلْحَفَةِ أوْ كُلِّ ما يَسْتُرُ كَمَا أَفادَه المُلَّا.

قولـه (وكَرَفْعِ صَوْتِ الآخَرِ): أي الأعرابيِّ.

قولـه (وكَجَحْدِ الأَعْرابيِّ): مِن إضافةِ المَصْدَرِ لِفاعِلِه، ومعْمُولُ المصْدَرِ (شِرَاءَهُ)، والضَّميرُ فيه راجِعٌ لِلنَّبيِّ، والضَّميرُ في (مِنْه) راجِعٌ لِلأعرابيِّ.

قولـه (تَظَاهُرِ زَوْجَيْهِ عليْهِ): أي تَعاوُنِ، وفي نسخةٍ «زَوْجَتَيْهِ»، والأُولَى أَفْصَحُ.

قولـه (مِمَّا يَحْسُنُ الصَّفْحُ عَنْه): أي يُسْتحسَنُ الإعْراضُ عَنْه.

قولـه (وصَفَحَ عَنْهمْ): أي أَعْرَضَ عَنْ أذاهمْ.

***

فَصْلٌ [فيمَنْ يسَبُّ النَّبيَّ ﷺ غيرَ قاصِدٍ لِلسَّبِّ والإِزْراءِ ولا مُعْتقِدٍ له]

قالَ الفَقِيهُ القاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

تَقَدَّمَ الكَلامُ في قَتْلِ القاصِدِ لِسَبِّهِ ﷺ، والإِزْرَاءِ بِهِ وغَمْصِهِ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ مِنْ مُمْكِنٍ أَوْ مُحَالٍ، فهَذا وَجْهٌ بَيِّنٌ، لا إِشْكَالَ فِيهِ.

الوَجْهُ الثَّانِي لاحِقٌ بِهِ في البَيَانِ والجَلَاءِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ القائِلُ لِمَا قَالَ في جِهَتِهِ ﷺ غَيْرَ قاصِدٍ لِلسَّبِّ والإِزْرَاءِ، ولا مُعْتَقِدٍ لَهُ؛ ولَكِنَّه تكَلَّمَ في جِهَتِهِ ﷺ بكَلِمَةِ الكُفْرِ مِنْ لَعْنِهِ، أَوْ سَبِّهِ، أَوْ تكْذِيبِهِ، أَوْ إِضَافَةِ ما لا يَجُوزُ عَلَيْهِ، أَوْ نَفْيِ مَا يَجِبُ لَهُ مِمَّا هُوَ في حَقِّهِ ﷺ نَقِيصَةٌ، مِثْلُ أَنْ يَنْسُبَ إِلَيْهِ إِتْيَانَ كَبِيرَةٍ، أَوْ مُدَاهَنَةٍ في تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَوْ في حُكْمٍ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ يَغُضَّ مِنْ مَرْتَبَتِهِ أَوْ شَرَفِ نَسَبِهِ أَوْ وُفُورِ عِلْمِهِ أَوْ زُهْدِهِ، أَوْ يُكَذِّبَ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ أُمُورٍ أَخْبَرَ بِهَا ﷺ وتَوَاتَرَ الخَبَرُ بِهَا عَنْ قَصْدٍ لِرَدِّ خَبَرِهِ، أَوْ يَأْتِيَ بِسَفَهٍ مِنَ القَوْلِ، أَوْ قَبِيحٍ مِنَ الكَلامِ ونَوْعٍ مِنَ السَّبِّ في جِهَتِهِ، وإِنْ ظَهَرَ بِدَلِيلِ حَالِهِ أَنَّه لَمْ يَتَعَمَّدْ ذَمَّهُ، ولَمْ يَقْصِدْ سَبَّهُ؛ إِمَّا لِجَهَالَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى مَا قالَهُ، أَوْ لِضَجَرٍ أَوْ سُكْرٍ اضْطَرَّهُ إِلَيْهِ، أَوْ قِلَّةِ مُرَاقَبَةٍ وضَبْطٍ لِلِسَانِهِ وعَجْرَفَةٍ وتَهَوُّرٍ في كَلَامِهِ.

فحُكْمُ هَذا الوَجْهِ حُكْمُ الوَجْهِ الأَوَّلِ، القَتْلُ دُونَ تَلَعْثُمٍ؛ إِذْ لا يُعْذَرُ أَحَدٌ في الكُفْرِ بالجَهَالَةِ، ولا بِدَعْوَى زَلَلِ اللِّسَانِ، ولا بِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ؛ إِذْ كَانَ عَقْلُهُ في فِطْرَتِهِ سَلِيمًا ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ وبِهَذا أَفْتَى الأَنْدَلُسِيُّونَ عَلَى ابْنِ حَاتِمٍ في نَفْيِهِ الزُّهْدَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ.

قوله (والإِزْرَاءِ بِهِ): وفي نسْخَةٍ «والازْدِراءِ بِهِ»، وهُوَ بِمَعْنَى الاحْتِقارِ.

قوله (والجَلَاءِ): أَيْ في الظُّهُورِ وعَدَمِ الخَفَاءِ.

قوله (نَقِيصَةٌ): أَيْ مَنْقَصَةٌ.

قوله (مِثْلُ): بالنَّصْبِ ويَجوزُ رَفْعُه.

قوله (أَنْ يَنْسُبَ): -بصيغةِ الفاعلِ- أَيْ يَنْسُبَ القاتلُ إِلَيْهِ... إلخ.

قوله (أَوْ يَغُضَّ): -بضَمِّ الغَيْنِ وتشديدِ الضَّادِ المعْجَمَتَيْنِ- أَيْ يَخْفِضَ.

قوله (بِسَفَهٍ مِنَ القَوْلِ): أَيْ بسَفاهةٍ في عِبَارَةٍ.

قوله (أَوْ لِضَجَرٍ): -بفتحِ الضَّادِ المُعْجَمَةِ والجيمِ- أَيْ قَلَقٍ.

قوله (أَوْ عَجْرَفَةٍ): أَيْ قِلَّةِ مبَالَاةٍ ومُجَازَفَةٍ.

قوله (وتَهَوُّرٍ في كَلَامِهِ): أَيْ جَراءَةٍ في نُطْقِهِ.

قوله (دُونَ تَلَعْثُمٍ): أَيْ تَوَقُّفٍ.

قوله (في فِطْرَتِهِ سَلِيمًا): أَيْ خِلْقَتِهِ وجِبِلَّتِهِ سَلِيمًا؛ بأَنْ لا يَكُونَ مَجْنُونًا.

قوله (الأَنْدَلُسِيُّونَ): -بفتحِ الهمزةِ وضَمِّ الدَّالِ واللَّامِ وبفَتْحِهِما[1]- نِسْبَةٌ إلى «أَنْدَلُسَ» إقليمٌ معْرُوفٌ مِنَ الغَرْبِ.

---

(١) في اللسان لم تضبط اللام إلا بالضم، ونصَّ ياقوت في المعجم على أنها بالضم ليس إلَّا؛ قال: بفتح الهمزة وضم الدال وفتحها وضم اللام ليس إلَّا.

وقَالَ محمَّدُ بْنُ سَحْنُونَ فِي المَأْسُورِ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَيْدِي العَدُوِّ: يُقْتَلُ إِلَّا أَنْ يُعْلَمَ تَنَصُّرُهُ أَوْ إِكْرَاهُهُ.

وعَنْ أَبِي محمَّدِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ: لا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِدَعْوَى زَلَلِ اللِّسَانِ فِي مِثْلِ هَذا.

وأَفْتَى أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ فِيمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي سُكْرِهِ: يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ هَذا ويَفْعَلُه فِي صَحْوِهِ، وأَيْضًا فإنَّه حَدٌّ لا يُسْقِطُهُ السُّكْرُ، كَالقَذْفِ والقَتْلِ وسَائِرِ الحُدُودِ لِأَنَّه أَدْخَلَهُ عَلى نفْسِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ زَوَالِ عَقْلِه بِهَا، وإِتْيَانِ مَا يُنْكَرُ مِنْه، فهُوَ كَالعَامِدِ لِمَا يَكُونُ بِسَبَبِهِ؛ وعلى هَذَا أَلْزَمْنَاهُ الطَّلَاقَ والعِتَاقَ والقِصَاصَ والحُدُودَ.

ولا يُعْتَرَضُ على هَذا بحَدِيثِ حَمْزَةَ، وقَوْلِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي[1]، قَالَ: فعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّه ثَمِلٌ، فانْصَرَفَ؛ لِأَنَّ الخَمْرَ كانَتْ حينَئِذٍ غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، فلَمْ يَكُنْ فِي جِناياتِها إِثْمٌ، وكَانَ حُكْمُ مَا يَحْدُثُ عَنْها مَعْفُوًّا عَنْه كَمَا يَحْدُثُ مِنَ النَّوْمِ وَشُرْبِ الدَّوَاءِ المَأْمُونِ.

***

قولـه (فِي المَأْسُورِ): أي بأَيْدِي الكُفَّارِ.

قولـه (تَنَصُّرُه): أيْ دُخولُه في مَذْهَبِ النَّصَارى.

قولـه (وسَائِرِ الحُدُودِ): أي المانِعَةِ مِنْ قُرْبانِ الحَرَامِ؛ كالزِّنا، والمترتِّبِ علَيْهِ؛ كالرَّجْمِ.

قولـه (على عِلْمٍ): أي مَعَ عِلْمِه بِمَا يَترَتَّبُ علَيْهَا مِنْ زَوالِ عَقْلِهِ... إلخ.

قولـه (ثَمِلٌ): -بفتحِ الثاءِ المثلَّثَةِ وكسْرِ الميمِ- أيْ سَكْرانُ.

قوله (المأمُونِ): أيْ عاقِبَتُه.

***

(1) حديث (قول حمزة هل أنتم إلّا عبيدٌ لأبي ...): الشيخان [البخاريُّ (٤٠٠٣)، ومسلمٌ (١٩٧٩)] عن عليٍّ.

فَصْلٌ [فيمَنْ يَقْصِدُ إلى تَكْذيبِهِ ﷺ أو نَفْي نُبوَّته أو رِسالتِه أو وجودِه]

الوَجْـهُ الثالـثُ: أَنْ يَقْصِـدَ إلى تَكْذِيبِـهِ فِيـمَا قالَـهُ أَوْ أَتَـى بِـهِ، أَوْ يَنْفِـيَ نُبُوَّتَـهُ أَوْ رِسَـالَتَهُ أَوْ وُجُـودَهُ، أَوْ يَكْفُـرَ بِـه، انْتَقَلَ بِقَوْلِـهِ ذلـكَ إلى دِيـنٍ آخَـرَ غَـيْرِ مِلَّتِـهِ أَمْ لا؛ فهَـذَا كافِـرٌ بإجْمَاعٍ، يَجِـبُ قَتْلُـه.

ثُـمَّ يُنْظَـرُ فـإِنْ كانَ مُصَرِّحًـا بذلِـكَ كانَ حُكْمُـه أَشْـبَهَ بحُكْـمِ المُرْتَـدِّ، وقَـوِيَ الخِـلَافُ في اسـتِتَابَتِهِ، وعَـلَى القَـوْلِ الآخَـرِ لا تُسْـقِطُ القَتْـلَ عَنْـهُ تَوْبَتُـهُ؛ لِحَـقِّ النَّبـيِّ ﷺ إنْ كَانَ ذَكَـرَهُ بنَقِيصَـةٍ فِيـمَا قالَـهُ مِـنْ كَـذِبٍ أَوْ غَـيْرِه؛ وإنْ كانَ مُسْـتَتِرًا بذلِـكَ فحُكْمُـه حُكْـمُ الزِّنْدِيـقِ، لا تُسْـقِطُ قَتْلَـهُ التَّوْبَـةُ عِنْدَنـا كَـمَا سَـنُبَيِّنُه.

قـالَ أَبُـو حَنيفَـةَ وأَصْحابُـه: مَـنْ بَـرِئَ مِـنْ محمَّـدٍ أَوْ كَذَّبَـه فهُـوَ مُرْتَـدٌّ، حَـلَالُ الـدَّمِ إِلَّا أَنْ يَرْجِـعَ.

وَقـالَ ابـنُ القَاسِـمِ في المُسْـلِمِ إذا قـالَ إنَّ محمَّـدًا لَيْـسَ بنَبِـيٍّ، أَوْ لَمْ يُرْسَـلْ، أَوْ لَمْ يُنْـزَلْ عَلَيْـه قُـرآنٌ، وإنَّـمَا هُـوَ شَيْءٌ تَقَوَّلَـه: «يُقْتَـلُ».

قـالَ: وَمَـنْ كَفَـرَ بِرَسُـولِ الله ﷺ وأَنْكَـرَهُ مِـنَ المُسْـلِمِينَ فهُـوَ بمَنْزِلَةِ المُرْتَـدِّ، وَكَذَلِـكَ مَـنْ أَعْلَـنَ بتَكْذِيبِـه فهُـوَ كالمُرْتَـدِّ يُسْـتَتَابُ، وكَذَلِـكَ قـالَ فِيمَـنْ تَنَبَّـأَ وزَعَـمَ أَنَّـه يُوحَـى إِلَيْـهِ، وقالَـه سَـحْنُونُ، وقـالَ ابْـنُ القَاسِـمِ: دَعَـا إلى ذلـكَ سِرًّا أَوْ جَهْـرًا.

وقَـالَ أَصْبَـغُ: وهُـوَ كالمُرْتَـدِّ؛ لِأَنَّـه كُفْـرٌ بكِتَـابِ الله، مَـعَ الفِرْيَـةِ على الله. وقـالَ أَشْـهَبُ في يَهُـودِيٍّ تَنَبَّـأَ، أَوْ زَعَـمَ أَنَّـه أُرْسِـلَ إلى النّـاسِ، أَوْ قَـالَ إنَّ بَعْـدَ نَبِيِّكُـمْ نَبِـيٌّ: إِنَّـهُ يُسْـتَتَابُ إنْ كانَ مُعْلِنًـا بذلِـك؛ فـإِنْ تـابَ، وإلَّا قُتِـلَ، وذلِـكَ لِأَنَّـه مُكَـذِّبٌ لِلنَّبِـيِّ ﷺ في قَوْلِـه: (لا نَبِـيَّ بَعْـدِي)[1]، مُفْـتَرٍ عـلى الله في دَعْـوَاهُ عَلَيْـهِ الرِّسَـالَةَ والنُّبُـوَّةَ.

(١) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ، (٣٤٥٥)، ومسلمٌ (١٨٤٢)، من حديث أبي هريرة. وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص].

قولـه (فِيـما قالَـه): أي فِيـمَا تواتَـرَ عَنْـه. وقولـه (أَوْ أَتَـى بِـه): أَيْ مِـنْ أَحْـكامِ الإِسْـلامِ.

قولـه (أَوْ رِسَـالَته): أي إلى غَـيْرِ العَـرَبِ.

قولـه (وعـلى القَـوْلِ الآخَـرِ): أي النّاسـخِ لِلقَـوْلِ الأوَّلِ.

قولـه (وإنْ كانَ مُسْـتَتِرًا): [افتعـالٌ] مِـنَ السِّـتر ضِـد الإخفـاء، وفي نسـخةٍ «مسْـتَسِرًّا» -بتشـديد الـرَّاءِ- مِـنَ الاسْـتسرَارِ، اسْـتفعَالٌ، مِـن السَّـتْرِ، أي الكَتْـمِ، لا مِـنَ السُّـرورِ كَـمَا توهَّمَـهُ الدّلجـيُّ. انتهـى مُـلَّا.

قوله (عِنْدَنا): أيْ مَعَاشِرَ المالِكِيَّة.

قوله (حَلَالُ الدَّمِ): أيْ قَبْلَ تَوْبَتِهِ.

قولـه (ابـنُ القاسِـمِ): مِـنْ أصْحـابِ مَالِـكٍ. قولـه (أَوْ لَمْ يُرْسَـلْ): أَيْ إلى الثَّقَلَـيْنِ كافَّـةً.

قوله (قالَ): أي ابنُ القاسِمِ.

قولـه (فِيمَـنْ تَنَبَّـأَ): أي ادَّعَـى أَنَّـه نَبِـيٌّ.

قولـه (مَـعَ الفِرْيَـةِ): -بكسْرِ الفَـاءِ- أي الافـتراءِ.

وقَالَ محمَّدُ بْنُ سَحْنُونَ: مَنْ شَكَّ فِي حَرْفٍ مِمَّا جَاءَ بِه مُحَمَّدٌ ﷺ عَنِ الله تعالى، فهُوَ كافِرٌ جَاحِدٌ، وقالَ: مَنْ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ حُكْمُهُ عِنْدَ الأُمَّةِ القَتْلَ.

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ صَاحِبُ سَحْنُونَ: مَنْ قالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَسْوَدَ قُتِلَ؛ لَمْ يَكُنْ ﷺ بِأَسْوَدَ، وقالَ نَحْوَهُ أَبُو عُثْمَانَ الحَدَّادُ، قالَ: لَوْ قالَ: إِنَّه مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِيَ، أَوْ إِنَّه كَانَ بِتاهَرْتَ ولَمْ يَكُنْ بِتِهَامَةَ قُتِلَ؛ لِأَنَّ هَذا نَفْيٌ.

قالَ حَبِيبُ بْنُ رَبِيعٍ: تَبْدِيلُ صِفَتِهِ ومَوَاضِعِهِ كُفْرٌ، والمُظْهِرُ لَه كافِرٌ، وفيه الاسْتِتَابَةُ، والمُسِرُّ لَه زِنْدِيقٌ، يُقْتَلُ دُونَ اسْتِتَابَةٍ.

***

قوله (أَوْ إِنَّه كانَ بِتاهَرْتَ): -وفي نسْخةٍ «بِتَهَرْتَ»، وهْوَ بمُثنَّاةٍ فوقيّةٍ في أَوَّلِهِ وآخِرِهِ وبفتحِ الهاءِ وسُكونِ الراءِ- مَكانٌ بِأَقْصَى المَغْرِبِ.

قوله (بِتِهَامَةَ): -بكسْرِ التاءِ- أيْ مَكَّةَ أوْ أَرْضِ الحِجَازِ.

***

فَصْلٌ [فيمَنْ بأتى بِكَلامٍ مُجمَلٍ يُمكِنُ حمْلُه على النَّبِيِّ ﷺ أو غَيْرِه]

الوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الكَلَامِ بمُجْمَلٍ، ويَلْفِظَ مِنَ القَوْلِ بمُشْكِلٍ يُمْكِنُ حَمْلُهُ على النَّبِيِّ أَوْ غَيْرِه، أَوْ يَتَرَدَّدُ فِي المُرَادِ بِهِ مِنْ سَلَامَتِهِ مِنَ المَكْرُوهِ أَوْ شَرِّهِ، فهَا هُنَا مُتَرَدَّدُ النَّظَرِ، وحَيْرَةُ العِبَرِ، ومَظِنَّةُ اخْتِلَافِ المُجْتَهِدِينَ، ووَقْفَةُ اسْتِبْرَاءِ المُقَلِّدِينَ؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فَمِنْهُمْ مَنْ غَلَّبَ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ وحَمَى حِمَى عِرْضِهِ؛ فجَسَرَ على القَتْلِ، ومِنْهُمْ مَنْ عَظَّمَ حُرْمَةَ الدَّمِ، ودَرَأَ الحَدَّ بالشُّبْهَةِ؛ لِاحْتِمَالِ القَوْلِ، وقَتْلُ المُؤْمِنِ مِنَ المُوبِقَاتِ.

وقَدِ اخْتَلَفَ أَئِمَّتُنَا فِي رَجُلٍ أَغْضَبَهُ غَرِيمُهُ، فقَالَ لَهُ: «صَلِّ على النَّبِيِّ ﷺ»، فقَالَ له الطَّالِبُ: «لا صَلَّى اللهُ على مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ»!

فَقِيلَ لِسَحْنُونَ: هَلْ هُوَ كَمَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ شَتَمَ المَلائِكَةَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: لا، إذا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْتَ مِنَ الغَضَبِ؛ لِأَنَّه لَمْ يَكُنْ مُضْمِرًا لِلشَّتْمِ.

وقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ البَرْقِيُّ، وأَصْبَغُ بْنُ الفَرَجِ: لا يُقْتَلُ؛ لِأَنَّه إِنَّمَا شَتَمَ النَّاسَ، وهَذَا نَحْوُ قَوْلِ سَحْنُونَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْذِرْهُ بالغَضَبِ فِي شَتْمِ النَّبِيِّ ﷺ، ولَكِنَّه لَمَّا احْتَمَلَ الكَلَامُ عِنْدَهُ، ولَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ على شَتْمِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ شَتْمِ المَلَائِكَةِ، ولا مُقَدِّمَةٌ يُحْمَلُ عَلَيْهَا كَلامُهُ، بَلِ القَرِينَةُ تَدُلُّ على أَنَّ مُرَادَهُ النَّاسُ غَيْرُ هؤلاءِ لِأَجْلِ قَوْلِ الآخرِ لَهُ: «صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ»، فحُمِلَ قَوْلُه وسَبُّهُ لِمَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ الآنَ لِأَجْلِ أَمْرِ الآخَرِ لَهُ بِهَذا عِنْدَ غَضَبِهِ. هَذا مَعْنَى قَوْلِ سَحْنُونَ، وهُوَ مُطَابِقٌ لِعِلَّةِ صَاحِبَيْهِ.

وذَهَبَ الحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ القَاضِي وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ هَذَا إِلَى القَتْلِ.

قوله (ويَلْفِظَ): -بكَسْرِ الفاءِ- أيْ يَنْطِقَ.

قوله (بِمُشْكِلٍ): -بلامٍ في آخِرِه- أيْ بمُعْضِلٍ، ومَا في الدّلجيِّ مِنْ ضَبْطِه بكافَيْنِ تَصْحيفٌ.

قوله (مُتَرَدَّدُ النَّظَرِ): -بتشديدِ الدَّالِ الأُولَى المفتوحَةِ- أي مَحَلُّ تَرَدُّدٍ.

قوله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ): أيْ لِيَضِلَّ مَنْ ضَلَّ عَنْ حُجَّةٍ واضحَةٍ.

قوله (مَنْ غَلَّبَ): -بتشديدِ اللَّامِ- أي قَدَّمَ.

قوله (وحَمَى حِمَى... إلخ): -بكَسْرِ الحاءِ الأُولَى وكَسْرِ الثَّانيَةِ- أيْ صَانَ سَاحَةَ عِرْضِهِ... إلخ.

قوله (البَرْقِيُّ): بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ.

قوله (وأَصْبَغُ بنُ الفَرَجِ): بالجيمِ.

وتَوَقَّفَ أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ فِي قَتْلِ رَجُلٍ قَالَ: «كُلُّ صَاحِبِ فُنْدُقٍ قَرْنَانٌ، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا مُرْسَلًا»، فَأَمَرَ بِشَدِّهِ بِالقُيُودِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ حَتَّى يُسْتَفْهَمَ البَيِّنَةَ عَنْ جُمْلَةِ أَلْفَاظِهِ، وَمَا يَدُلُّ عَلَى مَقْصِدِهِ، هَلْ أَرَادَ أَصْحَابَ الفَنَادِقِ الآنَ؟ فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ فَيَكُونُ أَمْرُهُ أَخَفَّ. قَالَ: وَلَكِنْ ظَاهِرُ لَفْظِهِ العُمُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ فُنْدُقٍ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ، وَقَدْ كَانَ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَنِ اكْتَسَبَ المَالَ، قَالَ: وَدَمُ المُسْلِمِ لا يُقْدَمُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَمْرٍ بَيِّنٍ، وَمَا تَرِدُ إِلَيْهِ التَّأْوِيلاتُ لا بُدَّ مِنْ إِمْعَانِ النَّظَرِ فِيهِ. هَذَا مَعْنَى كَلامِهِ.

وَحُكِيَ عَنْ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ- فِيمَنْ قَالَ: لَعَنَ اللهُ العَرَبَ، وَلَعَنَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَنَ اللهُ بَنِي آدَمَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الأَنْبِيَاءَ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ- أَنَّ عَلَيْهِ الأَدَبَ بِقَدْرِ اجْتِهَادِ السُّلْطَانِ.

وَكَذَلِكَ أَفْتَى فِيمَنْ قَالَ: لَعَنَ اللهُ مَنْ حَرَّمَ المُسْكِرَ، وَقَالَ: لَمْ أَعْلَمْ مَنْ حَرَّمَهُ، وَفِيمَنْ لَعَنَ حَدِيثَ (لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ)[1]، وَلَعَنَ مَنْ جَاءَ بِهِ- أَنَّهُ إِنْ كَانَ يُعْذَرُ بِالجَهْلِ وَعَدَمِ مَعْرِفَةِ السُّنَنِ فَعَلَيْهِ الأَدَبُ الوَجِيعُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْ بِظَاهِرِ حَالِهِ سَبَّ اللهِ تَعَالَى، وَلا سَبَّ رَسُولِهِ، وَإِنَّمَا لَعَنَ مَنْ حَرَّمَهُ مِنَ النَّاسِ عَلَى نَحْوِ فَتْوَى سَحْنُونَ وَأَصْحَابِهِ فِي المَسْأَلَةِ المُتَقَدِّمَةِ.

وَمِثْلُ هَذَا مَا يَجْرِي فِي كَلَامِ سُفَهَاءِ النَّاسِ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: يَا ابْنَ أَلْفِ خِنْزِيرٍ، وَيَا ابْنَ مِائَةِ كَلْبٍ، وَشِبْهِهِ مِنْ هُجْرِ القَوْلِ، وَلا شَكَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي مِثْلِ هَذَا العَدَدِ فِي آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَلَعَلَّ بَعْضَ هَذَا العَدَدِ مُنْقَطِعٌ إِلَى آدَمَ ﷺ؛ فَيَنْبَغِي الزَّجْرُ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ مَا جَهِلَ قَائِلُهُ مِنْهُ، وَشِدَّةُ الأَدَبِ فِيهِ، وَلَوْ عُلِمَ أَنَّهُ قَصَدَ سَبَّ مَنْ فِي آبَائِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَى عِلْمٍ لَقُتِلَ.

---

(١) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢١٤٠)، ومسلمٌ (١٥١٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

قوله (فُنْدُقٍ): -بضمِّ الفاءِ وسُكونِ النونِ وضمِّ الدّالِ وفتحِها- الخانُ في عُرْفِ أَهْلِ مِصْرَ.

قوله (قَرْنَانٌ): -بفتحِ القافِ- نَعْتُ سُوءٍ في الرَّجلِ، وهُوَ الَّذي يتغافَلُ عَنْ فُجُورِ امْرأتِه وابنتِهِ وأختِه وقرابَتِه.

قوله (حَاضِرٌ لِبَادٍ): أيْ سُوقِيٌّ لِبَدَوِيٍّ.

قوله (ومِثْلُ هَذا ما يَجْرِي): (ما) زائدةٌ ومَوْصُولةٌ.

قوله (مِنْ هُجْرِ القَوْلِ): -بضمِّ الهاءِ وسُكونِ الجيمِ- أيْ فُحْشِه.

وقَـدْ يُضَيَّـقُ القَـوْلُ فِي مِثْـلِ هَـذا لَـوْ قَـالَ لِرَجُـلٍ هَاشِـمِيٍّ: «لَعَـنَ اللهُ بَنِـي هَاشِـم»، وقـالَ: أَرَدْتُ الظَّالِـمِينَ مِنْهُـمْ، أَوْ قَـالَ لِرَجُـلٍ مِـنْ ذُرِّيَّـةِ النَّبِـيِّ ﷺ قَـوْلًا قَبِيحًـا فِي آبائِـهِ، أَوْ مِـنْ نَسْـلِهِ أَوْ وَلَـدِهِ، عَـلَى عِلْـمٍ مِنْـهُ أَنَّـه مِـنْ ذُرِّيَّـةِ النَّبِـيِّ ﷺ، ولَمْ تَكُـنْ قَرِينَـةٌ فِي المَسْـأَلَتَيْنِ تَقْتَـضِي تَخْصِيـصَ بَعْـضِ آبائِـهِ، وإِخْـرَاجَ النَّبِـيِّ مِمَّـنْ سَـبَّهُ مِنْهُـمْ.

وقَـدْ رَأَيْـتُ لِأَبِي مُوسَـى بْـنِ مَنَـاسٍ فِيمَـنْ قَـالَ لِرَجُـلٍ: «لَعَنَـكَ اللهُ إِلَى آدَمَ» أَنَّـه إِنْ ثَبَـتَ ذلِـكَ عَلَيْـهِ قُتِـلَ.

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رضي الله عنه:

وقَـدْ كَانَ اخْتَلَـفَ شُـيُوخُنَا -رَحِمَهُـمُ اللهُ تعـالى- فِيمَـنْ قَـالَ لِشَـاهِدٍ شَـهِدَ عَلَيْـهِ بِـشَيْءٍ، ثُـمَّ قَـالَ لَـهُ: تَتَّهِمُنِـي؟! فقـالَ لَـهُ الآخَـرُ: الأَنْبِيَـاءُ يُتَّهَمُـونَ، فكَيْـفَ أَنْـتَ؟! فكَانَ شَـيْخُنَا أَبُـو إِسْـحَاقَ إِبْراهِيـمُ بْـنُ جَعْفَـرٍ يَـرَى قَتْلَـهُ؛ لِبَشَـاعَةِ ظَاهِـرِ اللَّفْـظِ، وكَانَ القَـاضِي أَبُـو مُحَمَّـدِ بْـنُ مَنْصُـورٍ يَتَوَقَّـفُ عَـنِ القَتْـلِ؛ لِاحْتِـمَالِ اللَّفْـظِ عِنْـدَه أَنْ يَكُـونَ خَـبَرًا عَمَّـنِ اتَّهَمَهُـمْ مِـنَ الكُفَّـارِ، وأَفْتَـى فِيهَـا قَـاضِي قُرْطُبَـةَ أَبُـو عَبْـدِ اللهِ بْـنُ الحَجَّـاجِ بِنَحْـوٍ مِـنْ هَـذا، وشَـدَّدَ القَـاضِي أَبُـو مُحَمَّـدٍ تَصْفِيـدَهُ، وأَطَـالَ سَـجْنَهُ، ثُـمَّ اسْـتَحْلَفَهُ بَعْـدُ عـلى تَكْذِيـبِ مَـا شُـهِدَ بـه عَلَيْـهِ؛ إِذْ دَخَـلَ فِي شَـهَادَةِ بَعْضِ مَـنْ شَـهِدَ عَلَيْـهِ وَهْـنٌ، ثُـمَّ أَطْلَقَـهُ.

وشَـاهَدْتُ شَـيْخَنَا القَـاضِيَ أَبَـا عَبْـدِ اللهِ مُحَمَّـدَ بْـنَ عِيسَـى أَيَّـامَ قَضَائِـهِ أُتِيَ بِرَجُـلٍ هَاتَـرَ رَجُـلًا اسْـمُهُ مُحَمَّـدٌ، ثُـمَّ قَصَـدَ إِلَى كَلْـبٍ، فضَرَبَـهُ بِرِجْلِهِ، وقَـالَ لَـهُ: قُـمْ يَـا مُحَمَّـدُ، فأَنْكَـرَ الرَّجُـلُ أَنْ يَكُـونَ قَـالَ ذلِـكَ، وشَـهِدَ عَلَيْـهِ لَفِيـفٌ مِـنَ النَّـاسِ، فأَمَـرَ بِـه إِلَى السِّـجْنِ، وتَقَـصَّى عَـنْ حَالِـهِ، وهَـلْ يَصْحَـبُ مَـنْ يُسْـتَرَابُ بِدِينِـهِ؟ فلَـمَّا لَمْ يَجِـدْ مَـا يُقَـوِّي عَلَيْـهِ الرِّيبَـةَ بِاعْتِقَـادِهِ ضَرَبَـهُ بالسَّـوْطِ، وأَطْلَقَـهُ.

***

قوله (تَتَّهِمُنِي): أي أَتَتَّهِمُنِي؟

قولـه (لِبَشَـاعَةِ ظَاهِـرِ اللفْـظِ): أيْ لِكَرَاهتِـهِ.

قولـه (قُرْطُبَـةَ): بضـمِّ القـافِ والطـاءِ المُهْمَلَـةِ.

قولـه (وتَقَـصَّى): -بقـافٍ وصَـادٍ مهْمَلَـةٍ مشَـدَّدةٍ- أي اسْـتَقْصَى.

***

فَصْلٌ [فيمَنْ يَقصِدُ التَّرْفيعَ لِنَفْسِه أو لِغَيْرِه، أوِ الهَزْلَ والتَّنديرَ]

الوَجْهُ الخامِسُ: أَنْ لا يَقْصِدَ نَقْصًا، ولا يَذْكُرَ عَيْبًا ولا سَبًّا؛ لَكِنَّهُ يَنْزِعُ بِذِكْرِ بَعْضِ أَوْصافِهِ، أَوْ يَسْتَشْهِدُ بِبَعْضِ أَحْوالِهِ ﷺ الجائِزَةِ عَلَيْهِ في الدُّنْيا عَلى طَريقِ ضَرْبِ المَثَلِ أَوِ الحُجَّةِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِه، أَوْ عَلَى التَّشَبُّهِ بِه، أَوْ عِنْدَ هَضيمَةٍ نَالَتْهُ، أَوْ غَضَاضَةٍ لِحَقَتْه، لَيْسَ عَلَى سَبيلِ التَّأَسِّي وطَريقِ التَّحقيقِ؛ بَلْ عَلى مَقْصِدِ التَّرْفيعِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِه، أَوْ سَبيلِ التَّمْثيلِ وعَدَمِ التَّوْقيرِ لِنَبِيِّهِ ﷺ، أَوْ قَصْدِ الهَزْلِ وَالتَّنْديرِ بِقَوْلِهِ.

كَقَوْلِ القائِلِ: إِنْ قيلَ فِيَّ السُّوءُ فَقَدْ قيلَ في النَّبِيِّ ﷺ، أو: إِنْ كُذِّبْتُ فَقَدْ كُذِّبَ الأنبياءُ، أو: إِنْ أَذْنَبْتُ فَقَدْ أَذْنَبُوا، أَوْ أَنَا أَسْلَمُ مِنْ أَلْسِنَةِ النَّاسِ ولَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ أَنْبِياءُ الله تعالى ورُسُلُهُ؟! أَوْ: قَدْ صَبَرْتُ كَما قَدْ صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، أَوْ: كَصَبْرِ أَيُّوبَ، أَوْ: قَدْ صَبَرَ نَبِيُّ الله على عِداهُ، وحَلُمَ على أَكْثَرَ مِمَّا صَبَرْتُ.

وكَقَوْلِ المُتَنَبِّي:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَها اللَّـ * ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

ونَحْوِهِ مِنْ أَشْعارِ المُتَعَجْرِفينَ في القَوْلِ، المُتَساهِلينَ في الكَلامِ، كَقَوْلِ المَعَرِّيِّ:

كُنْتَ مُوسَى وَافَتْهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ * غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمَا مِنْ فَقِيرِ

عَلَى أَنَّ آخِرَ البَيْتِ شَديدٌ وداخِلٌ في بابِ الإِزْراءِ والتَّحْقيرِ بالنَّبِيِّ، وتَفْضيلِ حالِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ.

وكذلكَ قَوْلُه:

لَوْلَا انْقِطَاعُ الوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ * قُلْنَا مُحَمَّدُ مِنْ أَبِيهِ بَدِيلُ

هُوَ مِثْلُهُ فِي الفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ * لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جِبْرِيلُ

قوله (لَكِنَّه يَنْزِعُ بِذِكْرِ... إلخ): أي يَميلُ ويَنْجَذِبُ.

قوله (أَوْ غَضاضَةٍ): -بالغَيْنِ والضَّادِ المعْجمتيْنِ- أي مَذَلَّةٍ وحَقارةٍ.

قوله (الترفيعِ): -بالفاءِ- أيْ على طريقِ إعْلائِه.

قوله (أَوْ قَصْدِ الهَزْلِ): بصيغةِ الماضي أو المَصْدَرِ المُضافِ. قوله (والتَّنْديرِ): مَصدرُ «نَدَّرَ» -بدالٍ مُهْمَلةٍ مشدَّدةٍ، مَعْناه الإسْقاطُ.

قوله (إنْ قيلَ فِيَّ السُّوءُ): -بتشديدِ الياءِ، و(السُّوءُ): بضمِّ السّينِ وفتحِها كَما قُرِئَ بِهِما في السَّبْعَةِ- أيْ إنْ ذُكِرَ في حَقِّي السُّوءُ. قوله (أو إنْ كُذِّبْتُ): بتشديدِ الذالِ مجْهولًا.

قوله (على عِداه): بكسْرِ العَيْنِ. قوله (وحَلُمَ): -بضمِّ اللامِ- أيْ تحَمَّلَ.

قوله (تَدارَكَها اللهُ): جُمْلةٌ دُعائيّةٌ معْترِضةٌ.

قوله (المُتَعَجْرِفينَ): أي المتجازِفينَ.

قوله (المَعَرِّيِّ): -بفتحِ الميمِ والعينِ المُهْمَلةِ وتشديدِ الراءِ- هُوَ أبُو العَلاءِ اللُّغويُّ. قوله (كُنْتَ): بالخِطَابِ.

قوله (شَديدٌ): أيْ في القُبْحِ عِنْدَ تَدَبُّرِهِ. قوله (والتحقيرِ): تفسيرٌ لِلإزراءِ. قوله (مُحمّدُ): بالضمِّ، و(بَديلُ): لُغَةٌ في «بَدَلٍ».

فصَدْرُ البَيْتِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الفَصْلِ، شَدِيدٌ لِتَشبيهِهِ غَيْرَ النَّبِيِّ فِي فَضْلِهِ بالنَّبِيِّ ﷺ، والعَجُزُ مُحْتَمِلٌ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ الفَضيلَةَ نَقَّصَتِ المَمْدوحَ، والآخَرُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْهَا، وهَذِهِ أَشَدُّ.

ونَحْوٌ مِنْهُ قَوْلُ الآخَرِ:

وإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاتُهُ * صَفَّقَتْ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبْرِينْ

وكَقَوْلِ الآخَرِ مِنْ أَهْلِ العَصْرِ:

فَرَّ مِنَ الخُلْدِ وَاسْتَجَارَ بِنَا * فصَبَّرَ اللهُ قَلْبَ رِضْوَانِ

وكَقَوْلِ حَسَّانَ المَصِيصِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ الأَنْدُلُسِ في محمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ المَعْرُوفِ بالمُعْتَمِدِ، وَفِي وَزِيرِهِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زَيْدُونَ:

كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَبُو بَكْرٍ الرِّضَا * وَحَسَّانَ حَسَّانٌ وَأَنْتَ محمَّدُ

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ، وإِنَّمَا أَكْثَرْنَا بِشَاهِدِها مَعَ اسْتِثْقَالِنَا حِكَايَتَهَا لِتَعْرِيفِ أَمْثِلَتِهَا، ولِتَسَاهُلِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ في وُلُوجِ هَذَا البَابِ الضَّنْكِ، واسْتِخْفَافِهِمْ فَادِحَ هَذَا العِبْءِ، وقِلَّةِ عِلْمِهِمْ بعَظِيمِ مَا فِيهِ مِنَ الوِزْرِ، وكَلَامِهِمْ فِيهِ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، ويَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ؛ لا سِيَّمَا الشُّعَرَاءُ، وأَشَدُّهم فِيهِ تَصْرِيحًا، ولِلِسَانِهِ تَسْرِيحًا ابْنُ هَانِئٍ الأَنْدُلُسِيُّ، وابْنُ سُلَيْمَانَ المَعَرِّيُّ، بَلْ قَدْ خَرَجَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِهِمَا عَنْ هَذَا إِلَى حَدِّ الاسْتِخْفَافِ والنَّقْصِ وصَرِيحِ الكُفْرِ، وقَدْ أَجَبْنَا عَنْهُ.

وغَرَضُنَا الآنَ الكَلَامُ في هَذَا الفَصْلِ الَّذِي سُقْنَا أَمْثِلَتَهُ، فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا وإِنْ لَمْ تَتَضَمَّنْ سَبًّا، ولا أَضَافَتْ إِلَى المَلَائِكَةِ والأَنْبِيَاءِ عليهم السلام نَقْصًا، -ولَسْتُ أَعْنِي عَجُزَيْ بَيْتَيِ المَعَرِّيِّ-، ولا قَصَدَ قَائِلُهَا إِزْرَاءً وَغَضًّا، فَمَا وَقَّرَ النُّبُوَّةَ، ولا عَظَّمَ الرِّسَالَةَ، ولا عَزَّرَ حُرْمَةَ المُصْطَفَى، ولا عَزَّزَ حُظْوَةَ الكَرَامَةِ، حَتَّى شَبَّهَ مَنْ شَبَّهَ فِي كَرَامَةٍ نَالَهَا، أَوْ مَعَرَّةٍ قَصَدَ الانْتِفَاءَ مِنْهَا، أَوْ ضَرْبِ مَثَلٍ لِتَطْيِيبِ مَجْلِسِهِ،

قوله (مِنْ هَذَا الفَصْلِ): -بالصَّادِ المُهْمَلَةِ- أي النَّوعِ مِنَ الكلامِ.

قوله (نَقَّصَتِ... إلخ): -بتشديدِ القافِ- أي خَفَّضَتْه.

قوله (ما رُفِعَتْ): (ما) زائدةٌ، والراياتُ جَمْعُ «رايَةٍ»، و(صَفَّقَتْ): -بتشديدِ الفاءِ- مِنَ التصْفيقِ، بمَعْنَى التصْويتِ.

قوله (رِضْوَانِ): -بكسْرِ الراءِ وضَمِّهَا- خازِنُ الجنَّةِ.

قوله (المَصِيصِيِّ): نِسْبَةٌ إلى «مَصِيصَةَ» -كسَفينةٍ، بالشَّامِ، ولا يُشَدَّدُ، كذَا في «القَامُوسِ».

قوله (عَبَّادٍ): بتشديدِ الموَحَّدةِ.

قوله (في وُلُوجِ): أيْ دُخولِ، و(الضَّنْكِ): -بفتحِ الضَّادِ المعْجَمةِ وسُكونِ النونِ- أي الطَّريقِ الضَّيِّقِ.

قوله (العِبْءِ): -بكسْرِ المهْمَلةِ وسُكونِ الموحَّدةِ بَعْدَها هَمزَةٌ- الحِمْلُ، و(الفادِحُ): -بالفاءِ وكسرِ الدَّالِ والحاءِ المهْملتيْنِ- الثِّقَلُ.

قوله (ابنُ هَانِئٍ): بكسرِ النونِ فهمْزٍ وقدْ يُسَهَّلُ.

قوله (ولا عَزَّرَ): -بتشديدِ الزَّايِ في آخِرِه راءٌ- أيْ ولا قَوَّى.

قوله (حُظْوَةَ): -بضَمِّ الحاءِ المُهْمَلةِ وكسْرِهَا وسُكونِ الظَّاءِ المعْجَمةِ- أي المَرْتَبَةَ.

أَوْ إِغْلَاءٍ فِي وَصْفٍ لِتَحْسِينِ كَلَامِهِ بِمَنْ عَظَّمَ اللهُ خَطَرَهُ، وشَرَّفَ قَدْرَهُ، وَأَلْزَمَ تَوْقِيرَهُ وبِرَّهُ، ونَهَى عَنْ جَهْرِ القَوْلِ لهُ، ورَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ، فَحَقُّ هَذا -إِنْ دُرِئَ عَنْهُ القَتْلُ- الأَدَبُ والسَّجْنُ، وَقُوَّةُ تَعْزِيرِهِ بِحَسَبِ شُنْعَةِ مَقَالِهِ، ومُقْتَضَى قُبْحِ مَا نَطَقَ بِهِ، ومَأْلُوفِ عَادَتِهِ لِمِثْلِهِ أَوْ نُدُورِهِ، أَوْ قَرِينَةِ كَلَامِهِ، أَوْ نَدَمِهِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُ.

ولَمْ يَزَلِ المُتَقَدِّمُونَ يُنْكِرُونَ مِثْلَ هَذا مِمَّنْ جَاءَ بِهِ، وَقَدْ أَنْكَرَ الرَّشِيدُ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ قَوْلَهُ:

فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ * فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَصِيبِ

قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ اللَّخْنَاءِ، أَنْتَ المُسْتَهْزِئُ بِعَصَى مُوسى! وأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ عَسْكَرِهِ مِنْ لَيْلَتِهِ. وذَكَرَ القُتَيبِيُّ أَنَّ مِمَّا أُخِذَ عَلَيْهِ أَيْضًا، وَكُفِّرَ بِهِ أَوْ قَارَبَ- قَوْلَهُ فِي محمَّدٍ الأَمِينِ، وتَشْبِيهَه إِيَّاهُ بالنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَالَ:

تَنَازَعَ الأَحْمَدَانِ الشِّبْهَ فَاشْتَبَهَا * خَلْقًا وَخُلْقًا كَمَا قُدَّ الشِّرَاكَانِ

وقَدْ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلَهُ:

كَيْفَ لا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ * مَنْ رَسُولُ اللهِ مِنْ نَفَرِهْ

لِأَنَّ حَقَّ الرَّسُولِ، ومُوجَبَ تَعْظِيمِهِ، وإِنَافَةَ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ ولا يُضَافُ، فالحُكْمُ فِي أَمْثَالِ هَذا مَا بَسَطْنَاهُ فِي طَرِيقِ الفُتْيَا.

وعَلَى هَذا المَنْهَجِ جَاءَتْ فُتْيَا إِمَامِ مَذْهَبِنَا مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وأَصْحَابِهِ فِي «النَّوادِرِ» مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْهُ فِي رَجُلٍ عَيَّرَ رَجُلًا بالفَقْرِ، فقَالَ لَه: تُعَيِّرُنِي بالفَقْرِ وقَدْ رَعَى النَّبِيُّ ﷺ الغَنَمَ، فقَالَ مَالِكٌ: قَدْ عَرَّضَ بِذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَرَى أَنْ يُؤَدَّبَ.

قَالَ: ولا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الذُّنُوبِ إذا عُوتِبُوا أَنْ يَقُولُوا: قَدْ أَخْطَأَتِ الأَنْبِيَاءُ قَبْلَنَا. وقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ لِرَجُلٍ: انْظُرْ لَنَا كاتِبًا يَكُونُ أَبُوهُ عَرَبِيًّا، فقَالَ كاتِبٌ لَه: قَدْ كانَ أَبُو النَّبِيِّ ﷺ كافِرًا، فقَالَ: جَعَلْتَ هَذا مَثَلًا! فعَزَلَه، وقَالَ: لا تَكْتُبْ لِي أَبَدًا.

قوله (خَطَرَه): -بفتح الخاءِ المُعْجَمةِ والطَّاءِ المُهْمَلةِ- أيْ مَنْزِلَتَه.

قوله (إِنْ دُرِئَ): أيْ رُفِعَ. قوله (شُنْعَةِ... إلخ): -بضمٍّ فسُكونٍ- أي نكارَتِه.

قوله (بِكَفِّ خَصِيبِ): -بخاءٍ معجَمةٍ وصَادٍ مهْمَلةٍ- أيْ كَثِيرِ الخَيْرِ.

قوله (يا ابنَ اللَّخْنَاءِ): -بفتحِ اللَّامِ وسُكونِ الخاءِ المُعْجَمةِ فنونٍ فألِفٍ مَمْدودَةٍ؛ مِنَ اللَّخَنْ، وهُوَ النَّتْنُ- أي يا ابنَ المُنْتِنةِ.

قوله (القُتَيبِيُّ): بضمِّ القافِ وفتحِ التَّاءِ الفوْقيَّةِ.

قوله (خَلْقًا وخُلْقًا): أيْ صُورةً وسِيرةً.

قوله (ومُوجَبَ): -بفتحِ الجيمِ- أيْ مُقْتَضَى.

قوله (الفُتْيَا): -بضمِّ الفاءِ- لُغَةٌ في «الفَتْوَى».

قوله (عَرَّضَ): -بتشديدِ الرَّاءِ- أيْ لَوَّحَ.

وقَدْ كَرِهَ سَحْنُونُ أَنْ يُصَلَّى على النَّبيِّ ﷺ عِنْدَ التَّعجُّبِ إلَّا عَلى طَرِيقِ الثَّوابِ والاحْتِسَابِ؛ تَوْقِيرًا لَهُ وتَعْظِيمًا كَمَا أَمَرَنَا اللهُ تَعالَى.

وسُئِلَ القَابِسِيُّ عَنْ رَجُلٍ قَالَ لِرَجُلٍ قَبِيحٍ: كَأَنَّه وَجْهُ نَكِيرٍ، ولِرَجُلٍ عَبُوسٍ: كأَنَّه وَجْهُ مالِكٍ الغَضْبَانِ، فقَالَ: أَيَّ شَيْءٍ أَرَادَ بهَذَا -ونَكِيرٌ أَحَدُ فَتَّانَي القَبْرِ، وهُمَا مَلَكانِ-، فَمَا الَّذي أَرَادَ؟ أَرَوْعٌ دَخَلَ عَلَيْه حِينَ رآهُ مِنْ وَجْهِه، أَمْ عَافَ النَّظَرَ إِلَيْهِ لِدَمَامَةِ خَلْقِه؟ فَإِنْ كانَ هَذا فهُوَ شَدِيدٌ؛ لِأَنَّه جَرَى مَجْرَى التَّحقِيرِ والتَّهْوِينِ، فهُوَ أَشَدُّ عُقُوبَةً، ولَيْسَ فِيه تَصْرِيحٌ بالسَّبِّ لِلمَلَكِ، وإِنَّمَا السَّبُّ واقِعٌ على المُخَاطَبِ، وَفي الأَدَبِ بالسَّوْطِ والسِّجْنِ نَكَالٌ لِلسُّفَهاءِ. قَالَ: وأَمَّا ذاكِرُ مَالِكٍ خازِنِ النَّارِ فَقَدْ جَفَا الَّذي ذَكَرَهُ عِنْدَمَا أَنْكَرَ مِنْ عُبُوسِ حالِ الآخَرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ المُعَبِّسُ لَهُ يَدٌ، فيُرْهَبُ بعُبْسَتِه، فيُشَبِّهُهُ القائِلُ على طَرِيقِ الذَّمِّ لِهَذا في فِعْلِه، ولُزُومِه في ظُلْمِه صِفَةَ مَالِكٍ المَلَكِ المُطِيعِ لِرَبِّه في فِعْلِه، فيَقُولُ: كَأَنَّه للهِ يَغْضَبُ غَضَبَ مَالِكٍ، فيَكُونُ أَخَفَّ، ومَا كانَ يَنْبَغِي لَهُ التَّعَرُّضُ لِمِثْلِ هَذا، ولَوْ كَانَ أَثْنَى على العَبُوسِ بعُبْسَتِه، واحْتَجَّ بِصِفَةِ مالِكٍ كَانَ أَشَدَّ، ويُعَاقَبُ المعاقَبَةَ الشَّدِيدَةَ، ولَيْسَ في هَذا ذَمٌّ لِلمَلَكِ، ولَوْ قَصَدَ ذَمَّهُ لَقُتِلَ.

وقَالَ أَبُو الحَسَنِ أيْضًا في شَابٍّ مَعْرُوفٍ بالخَيْرِ قالَ لِرَجُلٍ شَيْئًا، فقَالَ له الرَّجُلُ: اسْكُتْ؛ فإِنَّكَ أُمِّيٌّ، فقَالَ له الشَّابُّ: أَلَيْسَ كَانَ النَّبيُّ ﷺ أُمِّيًّا؟! فَشُنِّعَ عَلَيْهِ مَقالُه، وَكَفَّرَهُ النَّاسُ، وأَشْفَقَ الشَّابُّ مِمَّا قالَ، وأَظْهَرَ النَّدَمَ عَلَيْه، فقالَ أَبُو الحَسَنِ: أَمَّا إِطْلاقُ الكُفْرِ عَلَيْه فخَطَأٌ؛ لَكِنَّهُ مُخْطِئٌ في اسْتِشْهادِه بِصِفَةِ النَّبيِّ ﷺ، وكَوْنُ النَّبيِّ أُمِّيًّا آيَةٌ له، وكَوْنُ هَذا أُمِّيًّا نَقِيصَةٌ فيه وَجَهالَةٌ، ومِنْ جَهالَتِه احْتِجاجُهُ بِصِفَةِ النَّبيِّ ﷺ؛ لَكِنَّهُ إِذا اسْتَغْفَرَ وتَابَ، واعْتَرَفَ ولَجَأَ إِلَى اللهِ فيُتْرَكُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ لا يَنْتَهي إِلَى حَدِّ القَتْلِ، ومَا طَرِيقُهُ الأَدَبُ فطَوْعُ فاعِلِه بالنَّدَمِ عَلَيْه يُوجِبُ الكَفَّ عَنْه.

ونَزَلَتْ أيْضًا مَسْأَلَةٌ اسْتَفْتَى فيهَا بَعْضُ قُضَاةِ الأَنْدُلُسِ شَيْخَنا القَاضيَ أَبا مُحَمَّدِ ابْنَ مَنْصُورٍ -رَحِمَه اللهُ- في رَجُلٍ تَنَقَّصَهُ آخَرُ بِشَيْءٍ، فقالَ لَه: إِنَّمَا تُرِيدُ نَقْصِي بقَوْلِكَ، وأَنَا بَشَرٌ، وجَمِيعُ البَشَرِ يَلْحَقُهُمُ النَّقْصُ حَتَّى النَّبيُّ ﷺ، فأَفْتَاهُ بإِطَالَةِ سَجْنِه، وإِيجَاعِ أَدَبِه؛ إِذْ لَمْ يَقْصِدِ السَّبَّ، وكانَ بَعْضُ فُقَهاءِ الأَنْدُلُسِ أَفْتَى بقَتْلِه.

***

قولـه (أَرَوْعٌ): -بفتحِ الراءِ- أيْ أَفَزَعٌ؟

قولـه (لِدَمامةِ): بالدالِ المهْمَلةِ، وقيل بالمعْجمةِ- أيْ حقارةِ صُورتِه.

قولـه (المُعَبِّسُ): بتشديدِ الموحَّدةِ المكسُورةِ.

وقولـه (فيُرْهَبُ): -بصيغةِ المجهُولِ مخفَّفًا ومشدَّدًا- أيْ فيُخافُ.

قولـه (بعُبْسَتِه): أي بعُبُوسِه.

***

فَصْلٌ [فيمَنْ يَقولُ ذلِكَ حاكِيًا عَنْ غَيْرِه]

الوَجْـهُ السَّـادِسُ: أَنْ يَقُـولَ القائِـلُ ذلـكَ حَاكِيًـا عَـنْ غَـيْرِه، وآثِـرًا عَـنْ سِـواهُ، فهَـذا يُنْظَـرُ في صُـورَةِ حِكايَتِـه، وقَرِينَـةِ مَقالَتِـه، ويَخْتَلِـفُ الحُكْـمُ باخْتِـلافِ ذلـكَ عـلى أَرْبعَـةِ أَوْجُـهٍ: الوُجُـوبِ، والنَّـدْبِ، والكَرَاهَـةِ، والتَّحْرِيـمِ.

فـإِنْ أَخْـبَرَ بـه عـلى وَجْـهِ الشَّـهادَةِ، والتَّعْرِيـفِ بِقائِلِـه، والإِنْـكارِ والإِعْـلامِ بقَولِـه، والتَّنْفِـيرِ مِنْـهُ، وَالتجْرِيـحِ لـه، فهَـذَا مِمَّـا يَنْبَغِـي امْتِثالُـهُ، ويُحْمَـدُ فاعِلُـه، وَكَذلِـكَ إِنْ حَـكَاهُ في كِتَـابٍ أَوْ في مَجْلِـسٍ عـلى طَرِيـقِ الـرَّدِّ لـه، والنَّقْـضِ عَـلى قائِلِـهِ، والفُتْيَـا بِـمَا يَلْزَمُـه، وهـذا مِنْـهُ مَـا يَجِـبُ، ومِنْـهُ مَـا يُسْـتَحَبُّ بِحَسَـبِ حـالاتِ الحاكِـي بِذَلِـكَ والمَحْكِـيِّ عَنْـه.

فَـإِنْ كَانَ القَائِـلُ لِذَلِـكَ مِمَّـنْ تَصَـدَّى لِأَنْ يُؤْخَـذَ عَنْـهُ العِلْـمُ أَوْ رِوايَـةُ الحديـثِ، أَوْ يُقْطَـعَ بحُكْمِـهِ أَوْ شَـهادَتِهِ أَوْ فُتْيَـاهُ في الحُقُـوقِ، وَجَـبَ عـلى سَـامِعِهِ الإِشَـادَةُ بِـمَا سُـمِعَ مِنْـهُ، وَالتَّنْفِـيرُ لِلنَّـاسِ عَنْـهُ، والشَّـهادَةُ عَلَيْـهِ بِـمَا قَالَـهُ، وَوَجَـبَ عَـلَى مَـنْ بَلَغَـهُ ذلـكَ مِـنْ أُمَّـةِ المُسْـلِمِينَ إِنْـكارُهُ، وبَيَـانُ كُفْـرِهِ وفَسَـادِ قَوْلِـهِ؛ لِقَطْـعِ ضَرَرِه عَـنِ المُسْـلِمِينَ، وقِيَامًـا بحَـقِّ سَـيِّدِ المُرسَـلِينَ، وكَذلِـكَ إِنْ كَانَ مِمَّـنْ يَعِـظُ العامَّـةَ، أَوْ يُـؤَدِّبُ الصِّبْيَـانَ؛ فَـإِنَّ مَـنْ هَـذِهِ سَرِيرَتُـه لا يُؤْمَـنُ عَـلَى إِلْقَـاءِ ذلِكَ في قُلُوبِهِـمْ، فيَتَأَكَّـدُ في هـؤلاءِ الإيجـابُ لِحَـقِّ النَّبـيِّ ﷺ، ولِحَـقِّ شَرِيعَتِـه.

وإِنْ لَمْ يَكُـنِ القَائِـلُ بِهَـذِهِ السَّـبِيلِ فالقِيَـامُ بحَـقِّ النَّبِـيِّ ﷺ واجِـبٌ، وحِمَايَـةُ عِرْضِـهِ مُتَعَـيِّنٌ، ونُصْرَتُـه عَـنِ الأَذَى حَيًّـا ومَيِّتًـا مُسْـتَحَقٌّ عـلى كُلِّ مُؤْمِـنٍ؛ لَكِنَّـه إذا قَـامَ بِهـذَا مَـنْ ظَهَـرَ بِـهِ الحَـقُّ، وفُصِلَـتْ بِـهِ القَضِيَّـةُ، وَبَـانَ بِـه الأَمْـرُ، سَـقَطَ عَـنِ البَاقِـي الفَـرْضُ، وَبَقِـيَ الاسْـتِحبابُ فِي تَكْثِيرِ الشَّـهادَةِ عَلَيْـهِ، وعَضْـدِ التَّحْذِيـرِ مِنْـهُ، وَقَـدْ أَجْمَـعَ السَّـلَفُ عـلى بَيَـانِ حَـالِ المُتَّهَـمِ في الحَدِيـثِ؛ فكَيْـفَ بِمِثْـلِ هَـذا؟!

وقَـدْ سُـئِلَ أَبُـو محمَّـدِ بْـنُ أَبِي زَيْـدٍ عَـنِ الشَّـاهِدِ يَسْـمَعُ مِثْـلَ هَـذا في

قولـه (وآثِـرًا): -بهَمـزةٍ ممْـدودةٍ وكسـرِ الثـاءِ المُثلَّثـةِ- أيْ ناقِـلًا.

قولـه (والتجريـح): بتقديـم الجيـمِ عـلى الحـاءِ، يقـالُ: جَرَحَـه -بالتخفيـفِ والتشـديدِ- أي ذَكَـرَ عَيْبَـه.

قولـه (مِمَّـنْ تَصَـدَّى): أي تَعَـرَّضَ وتَصَـدَّرَ.

قولـه (مِمَّـنْ يَعِـظُ العامَّـةَ): أيْ يَزجُرُهـم عَـنِ الأُمـورِ المُحرَّمَـةِ.

قولـه (وحِمَايـةُ عِرْضِـه): أيْ صِيَانَتُـه.

قولـه (مُسْـتَحَقٌّ): -بفتـحِ الحـاءِ المهمَلـةِ- أيْ فَـرْضُ عَـيْنٍ.

قولـه (وفُصِلَـتْ بِـه): -بضَـمِّ الفـاءِ وتشـديدِ الصّـادِ المُهْمَلـةِ المكسُـورةِ- أي انفَصَلَـتْ بِـه.

قولـه (وعَضْـدِ التحذيـر): -بفَتـحِ العـيْنِ المُهمَلـةِ وسُـكونِ الضَّـادِ المعْجَمـةِ- أي نُصْرَتِـه.

حَقِّ الله تعالى، أَيَسَعُهُ أَنْ لا يُؤَدِّيَ شَهَادَتَه؟ قالَ: إِنْ رَجَا نَفَاذَ الحُكْمِ بِشَهَادَتِه فلْيَشْهَدْ، وكَذَلِكَ إِنْ عَلِمَ أَنَّ الحاكِمَ لا يَرَى القَتْلَ بِمَا شَهِدَ بِهِ، ويَرَى الاسْتِتابَةَ والأَدَبَ، فلْيَشْهَدْ، ويَلْزَمُهُ ذلكَ.

وأَمَّا الإِبَاحَةُ لِحكايَةِ قَوْلِهِ لِغَيْرِ هذَيْنِ المَقْصِدَيْنِ فَلَا أَرَى لَهَا مَدْخَلًا في البَابِ، فلَيْسَ التَّفَكُّهُ بِعِرْضِ النَّبِيِّ ﷺ، والتَّمَضْمُضُ بِسُوءِ ذِكْرِهِ لِأَحَدٍ؛ لا ذَاكِرًا ولا آثِرًا لِغَيْرِ غَرَضٍ شَرْعِيٍّ بِمُبَاحٍ، وأَمَّا لِلْأَغْراضِ المتقدِّمَةِ فمُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الإِيجَابِ وَالاسْتِحْبابِ.

وقَدْ حَكَى اللهُ تعالى مَقَالَاتِ المُفْتَرِينَ عَلَيْهِ وعَلَى رُسُلِهِ في كِتَابِهِ عَلَى وَجْهِ الإِنْكارِ لِقَوْلِهِمْ، والتَّحذيرِ مِنْ كُفْرِهِمْ، والوَعيدِ عَلَيْهِ، والرَّدِّ عليْهِمْ بِمَا تَلاهُ اللهُ عليْنَا في مُحْكَمِ كِتَابِهِ، وكذلكَ وَقَعَ مِنْ أَمْثَالِهِ في أَحَاديثِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّحيحَةِ علَى الوُجُوهِ المُتَقَدِّمَةِ.

وأَجْمَعَ السَّلَفُ وَالخَلَفُ مِنْ أَئِمَّةِ الهُدَى عَلَى حِكَايَاتِ مَقَالَاتِ الكَفَرَةِ والمُلْحِدِينَ في كُتُبِهِمْ ومَجَالِسِهِمْ؛ لِيُبَيِّنُوهَا لِلنَّاسِ، ويَنْقُضُوا شُبَهَهَا عَلَيْهِمْ، وإِنْ كَانَ وَرَدَ لِأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ إِنْكارٌ لِبَعْضِ هَذَا عَلَى الحارِثِ بْنِ أَسَدٍ، فَقَدْ صَنَعَ أَحْمَدُ مِثْلَهُ في الرَّدِّ على الجَهْمِيَّةِ والقَائِلِينَ بالمَخْلُوقِ، وَفي هَذِهِ الوُجُوهِ السَّائغةِ الحِكَايَةُ عَنْهَا.

فأَمَّا ذِكْرُهَا عَلَى غَيْرِ هَذا مِنْ حِكَايَةِ سَبِّهِ وَالإِزْرَاءِ بِمَنْصِبِهِ على وَجْهِ الحِكَايَاتِ والأَسْمَارِ وَالطُّرَفِ، وأَحَادِيثِ النَّاسِ ومَقَالَاتِهِمْ في الغَثِّ والسَّمِينِ، ومَضَاحِكِ المُجَّانِ ونَوَادِرِ السُّخَفَاءِ، والخَوْضِ في قِيلٍ وَقَالٍ ومَا لا يَعْنِي، فكُلُّ هذا مَمْنُوعٌ، وبَعْضُهُ أَشَدُّ في المَنْعِ والعُقُوبَةِ مِنْ بَعْضٍ.

قوله (أَنْ لا يُؤَدِّيَ شهادتَه): أَيْ عِنْدَ حَاكِمٍ لِيُؤَدِّبَه بحسَبِ حالِه.

قوله (نَفاذَ الحُكْمِ): -بفتحِ النونِ- أَيْ تَنفيذَهُ.

قوله (فلَيْسَ التفكُّهُ): أي التفَوُّهُ مِنْ غَيْرِ غَرَضٍ شَرْعِيٍّ. قوله (والتمَضْمُضُ): -بضادَيْنِ معجَمَتَيْنِ بَيْنَهما ميمٌ مفتوحَةٌ- أي التحرُّكُ والتكَثُّرُ.

قوله (للأغراضِ المتقدِّمَةِ): كالشَّهادةِ والرَّدِّ والنقضِ. وقوله (فمُتَرَدِّدٌ): بفتحِ الدالِ المهمَلةِ الأُولى المشدَّدةِ.

قوله (والتحذير): أي تحذيرِ غَيْرِهم.

قوله (الجَهْمِيَّةِ): طائفةٌ مِنْ أَصْحابِ جَهْمِ بنِ صَفْوانَ. قوله (والقائلِينَ بالمخلوقِ): أي بِخَلْقِ القرآنِ، وهْوَ قولُ المعتزلةِ.

قوله (السّائغةِ): -بالسِّينِ المهمَلةِ والغَينِ المعجمةِ- أي الجائزةِ.

قوله (والأَسْمارِ): جَمْعُ «سَمَرٍ» -بفتحتَيْنِ وتُسَكَّنُ- وهْوَ حديثُ اللَّيْلِ. وقوله (والطُّرَفِ): -بضَمِّ الطَّاءِ المهْمَلةِ بعْدَها راءٌ ففاءٌ- جمعُ طُرْفةٍ، وهُوَ مَا يُسْتطرَفُ.

قوله (في الغَثِّ): -بالثاءِ المثلَّثةِ بَعْدَ الغَينِ المعْجَمةِ- أي الهَزِيلِ.

وَقوله (ومَضاحِكِ المُجَّانِ): -بضمِّ الميمِ وتشديدِ الجيمِ- جمعُ «ماجِنٍ»، وهْوَ الَّذي لا يُبالِي بالكَلامِ في اللَّهْوِ والسُّخريةِ. قوله (ونَوادِرِ السُّخَفاءِ): جمعُ «سَخِيفٍ»، وهْوَ رَقيقُ العَقلِ. قوله (في قِيلٍ وقالٍ): بفتحِ لامَيْهِما على أنَّهما فِعْلانِ محكِيَّانِ، وبجَرِّهما مُنَوَّنَيْنِ على أنَّهما اسمانِ مُعْرَبانِ لِأَنَّهُما مَصْدَرانِ.

فَمَا كَانَ مِنْ قائِلِهِ الحاكِي لَهُ عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ بِمِقْدَارِ مَا حَكَاهُ، أَوَ لَمْ تَكُنْ عَادَتَهُ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الكَلامُ مِنَ البَشَاعةِ حَيْثُ هُوَ، وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى حاكِيهِ اسْتِحْسَانُهُ واسْتِصْوَابُه، زُجِرَ عَنْ ذلِكَ، ونُهِيَ عَنِ العَوْدَةِ إِلَيْهِ، وإِنْ قُوِّمَ بِبَعْضِ الأَدَبِ فَهُوَ مُسْتَوْجِبٌ لَهُ، وإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مِنَ البَشَاعَةِ حَيْثُ هُوَ كانَ الأَدَبُ أَشَدَّ. وقَدْ حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ مَالِكًا عَمَّنْ يَقُولُ: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فقَالَ مَالِكٌ: كافِرٌ فاقْتُلُوهُ، فقالَ: إِنَّمَا حَكَيْتُهُ عَنْ غَيْرِي، فقَالَ مَالِكٌ: إِنَّمَا سَمِعْنَاهُ مِنْكَ، وهَذَا مِنْ مَالِكٍ -رَحِمَهُ اللهُ- عَلَى طَرِيقِ الزَّجْرِ والتَّغْلِيظِ، بِدَلِيلِ أَنَّه لَمْ يُنفِّذْ قَتْلَهُ.

وإِنِ اتُّهِمَ هَذا الحَاكِي فِيمَا حَكَاهُ أَنَّه اخْتَلَقَهُ، ونَسَبَهُ إِلَى غَيْرِه، أَوْ كانَتْ تلكَ عَادَةً لَهُ، أَوْ ظَهَرَ اسْتِحْسانُه لِذَلِكَ، أَوْ كَانَ مُولَعًا بِمِثْلِهِ، والاسْتِخْفَافِ لَهُ، أَوِ التَّحَفُّظِ لِمِثْلِهِ وطَلَبِهِ، أَوْ رِوَايةِ أَشْعارِ هَجْوِهِ ﷺ وسَبِّهِ؛ فحُكْمُ هَذَا حُكْمُ السَّابِّ نَفْسِهِ، يُؤَاخَذُ بِقَوْلِهِ، ولا تَنْفَعُهُ نِسْبَتُهُ إِلَى غَيْرِه، فيُبَادَرُ بِقَتْلِهِ، وَيُعَجَّلُ إِلَى الهَاوِيَةِ أُمِّهِ.

وقَدْ قالَ أَبُو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ فِيمَنْ حَفِظَ شَطْرَ بَيْتٍ مِمَّا هُجِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: فهُوَ كُفْرٌ. وقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ مَنْ أَلَّفَ فِي الإِجْمَاعِ إِجْمَاعَ المُسْلِمِينَ عَلَى تَحْرِيمِ رِوايةِ مَا هُجِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وقِرَاءَتِهِ، وكِتَابَتِهِ، وتَرْكِهِ مَتَى وُجِدَ دُونَ مَحْوٍ.

ورَحِمَ اللهُ أَسْلَافَنَا المُتَّقِينَ المتَحَرِّزِينَ لِدِينِهِمْ؛ فَقَدْ أَسْقَطُوا مِنْ أَحادِيثِ المَغَازِي والسِّيَرِ مَا كانَ هَذا سَبِيلَهُ، وتَرَكُوا رِوَايَتَهُ إِلَّا أَشْيَاءَ ذَكَرُوهَا يَسِيرَةً، وغَيْرَ مُسْتَبْشَعَةٍ عَلَى نَحْوِ الوُجُوهِ الأُوَلِ؛ لِيَرَوْا نِقْمَةَ اللهِ مِنْ قَائِلِهَا، وأَخْذَهُ المُفْتَرِيَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ، وهَذَا أَبُو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ -رَحِمَهُ اللهُ- قَدْ تَحَرَّى فِي مَا اضْطُرَّ إِلَى الاسْتِشْهادِ بِهِ مِنْ أَهَاجِي أَشْعَارِ العَرَبِ فِي كُتُبِهِ، فَكَنَّى عَنِ اسْمِ المَهْجُوِّ بِوَزْنِ اسْمِهِ اسْتِبْرَاءً لِدِينِهِ، وتَحَفُّظًا مِنَ المُشَارَكَةِ فِي ذَمِّ أَحَدٍ بِرِوَايَتِهِ أَوْ نَشْرِه، فكَيْفَ بِمَا يَتَطَرَّقُ إِلَى عِرْضِ سَيِّدِ البَشَرِ ﷺ.

***

قولـه (البَشَاعةِ): -بتقديمِ الموحَّدةِ على الشِّينِ المُعْجَمةِ- أي الفاضحةِ. قولـه (وإِنْ قُوِّمَ): -بِضَمِّ القَافِ وكَسْرِ الواوِ المشدَّدةِ- أيْ إنْ قُوبِلَ ناقِلُه على سَبيلِ الحِكَايَةِ. قولـه (على طَرِيقِ الزَّجْرِ): أي الكَفِّ عَنْ هذا السُّؤالِ.

قولـه (اخْتَلَقَه): أي اخْتَرَعَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ. وقولـه (مُولَعًا): -بفَتحِ اللَّامِ- أيْ مُكْثِرًا بمِثْلِه... إلخ. قولـه (ويُعَجَّلُ إلى الهاوِيةِ أُمِّه): أي يسَارَعُ بِه إلى الهَاوِيَةِ، وقولـه (أُمِّه): بالجَرِّ بَدَلًا، أي مَأْوَاهُ ومَصِيرِه.

وقولـه (سَلَّامٍ): بتشديدِ اللَّامِ. قولـه (شَطْرَ بَيْتٍ): أي نِصْفَه. قولـه (وغَيْرَ مُسْتَبْشَعَةٍ): -بفتحِ الشِّينِ- أيْ غَيْرَ مكروهةٍ، وفي نُسْخةٍ «مُسْتَشْنَعَةٍ» أي مُسْتَقْبَحَةٍ. قولـه (الأُوَلِ): -بضمِّ الهمزةِ وتخفيفِ الواوِ؛ جَمْعُ «أُولَى»- أي الوُجُوهِ [السابقةِ].

***

فَصْلٌ [في حُكْمِ ذِكْرِ أحْوالِ النَّبيِّ ﷺ على طَرِيقِ الرِّوايةِ ومُذاكَرةِ العِلْمِ]

الوَجْهُ السَّابِعُ: أَنْ يَذْكُرَ مَا يَجُوزُ علَى النَّبيِّ، أَوْ يُخْتَلَفُ في جَوَازِه عَلَيْه، ومَا يَطْرَأُ مِنَ الأُمُورِ البَشَرِيَّةِ بِهِ ويُمْكِنُ إضافَتُها إِلَيْهِ، أَوْ يَذْكُرَ مَا امْتُحِنَ بِهِ، وصَبَرَ في ذَاتِ اللهِ تعَالى عَلَى شِدَّتِه مِنْ مُقَاسَاةِ أَعْدَائِه وأَذَاهُمْ لَه، ومَعْرِفَةَ ابْتِدَاءِ حَالِهِ وسِيرَتِه، ومَا لَقِيَهُ مِنْ بُؤْسِ زَمَنِهِ، ومَرَّ عَلَيْهِ مِنْ مُعَانَاةِ عِيشَتِهِ؛ كُلُّ ذلكَ علَى طَرِيقِ الرِّوَايَةِ ومُذَاكَرَةِ العِلْمِ، ومَعْرِفَةِ مَا صَحَّتْ مِنْه العِصْمَةُ لِلأَنْبياءِ، ومَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ، فهَذَا فَنٌّ خَارِجٌ عَنْ هَذِهِ الفُنُونِ السِّتَّةِ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ غَمْصٌ، ولا نَقْصٌ، ولا إِزْرَاءٌ، ولا اسْتِخْفَافٌ، لا في ظَاهِرِ اللَّفْظِ، ولا في مَقْصِدِ اللَّافِظِ؛ لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الكَلَامُ فِيهِ مَعَ أَهْلِ العِلْمِ، وفُهَمَاءِ طَلَبَةِ الدِّينِ مِمَّنْ يَفْهَمُ مَقَاصِدَهُ، ويُحَقِّقُ فَوَائِدَهُ، ويُجَنَّبُ ذلكَ مَنْ عَسَاهُ لا يَفْقَهُ، أَوْ يُخْشَى بِهِ فِتْنَتُهُ، فَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ تَعْلِيمَ النِّسَاءِ سُورَةَ يُوسُفَ؛ لِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ القِصَصِ لِضَعْفِ مَعْرِفَتِهِنَّ، ونَقْصِ عُقُولِهِنَّ وإِدْرَاكِهِنَّ.

وقَدْ قَالَ ﷺ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ باسْتِئْجَارِهِ لِرِعَايَةِ الغَنَمِ في ابْتِدَاءِ حَالِهِ، وقَالَ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَى الغَنَمَ)[1]، وأَخْبَرَنَا اللهُ بذَلِكَ عَنْ مُوسَى ﷺ، فهَذَا لا غَضَاضَةَ فِيهِ جُمْلَةً واحِدَةً لِمَنْ ذَكَرَهُ عَلَى وَجْهِهِ؛ بِخِلافِ مَنْ قَصَدَ بِهِ الغَضَاضَةَ والتَّحْقِيرَ، بَلْ كَانَتْ عَادَةَ جَمِيعِ العَرَبِ. نَعَمْ لِلأَنْبِيَاءِ في ذلكَ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ، وتَدْرِيجٌ للهِ تعَالى لَهُمْ إلى كَرَامَتِهِ، وتَدْرِيبٌ بِرِعَايَتِهَا لِسِيَاسَةِ أُمَمِهِمْ مِنْ خَلِيقَتِهِ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الكَرَامَةِ في الأَزَلِ ومُتَقَدِّمِ العِلْمِ.

قوله (مِنْ بُؤْسِ زَمَنِه): بضَمِّ الباءِ المُوَحَّدةِ وهمزةٍ ساكنةٍ، وَقَدْ تُبْدَلُ واوًا.

قوله (مِنْ مُعَانَاةِ عِيشَتِهِ): أَيْ مُقاسَاتِه في أَمْرِ عِيشَتِهِ.

قوله (غَمْصٌ): -بفتحِ الغينِ المعْجَمَةِ وسكونِ الميمِ فصَادٍ مُهْمَلَةٍ- أي عيبٌ.

قوله (وفُهَمَاءِ طَلَبَةِ الدِّينِ): -بضمِّ الفاءِ وفتْحِ الهاءِ- جَمْعُ «فَهِيمٍ»، أو «فَهِمٍ»، وهُوَ الفَطِنُ.

قوله (ويُجَنَّبُ): -بتشديدِ النونِ المفتوحةِ- أَيْ يُصَانُ.

قوله (لا غَضَاضَةَ فِيه): أَيْ لا مَنْقَصَةَ.

قوله (ومُتَقَدِّمِ العِلْمِ): -بكَسْرِ الدَّالِ المهمَلةِ- أَيْ سَابِقِه.

---

(١) حديث (ما من نبيٍّ إلَّا رَعَى الغنَمَ ...): البخاريُّ [٢٢٦٢] عن أبي هريرة، والشيخان [البخاريُّ (٣٤٠٦)، ومسلمٌ (٢٠٥٠)] عن جابرٍ [بلفظ «وَهَلْ مِن نبيٍّ إلَّا وَقَدْ رَعَاهَا»].

قولـه (مِـنْ مِنَـحِ الله): -بكَسْرِ الميـمِ وفَتْـحِ النُّـونِ وكَسْرِ الحـاءِ- جَمْـعُ «مِنْحَـةٍ»، وهِـيَ النِّعْمَـةُ.

قوله (عَلَى صَنَادِيدِ العَرَبِ): أيْ أكابِرِهِمْ.

قولـه (ومَـنْ نَـاوَاهُ): -مُفاعَلَـةٌ، وهْـوَ النُّهـوضُ؛ فأَصْلُـه الهَمْـزُ وأُبْـدِلَ- أيْ عَـادَاهُ.

قولـه (ونَمَّـى أَمْـرَه): -بتشـديدِ الميـمِ- أيْ زَكَّـى أَمْـرَه. قولـه (مِـنْ مِلْـكِ مَقَالِيدِهِـمْ): -جَمْـعُ «مِقْـلَادٍ»، بِمَعْنَى المِفْتـاحِ- أيْ بِمَـا مَلَكُـوهُ مِـن البِـلَادِ.

قوله (وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ): حَتَّى صَارُوا إخوانًا.

قولـه (المُسَـوِّمِينَ): -بفتـحِ الـواوِ وكَسْرِهَـا كَـمَا قُـرِئَ بِهِـمَا في السَّـبْعَةِ- أي مُعَلِّمِـينَ.

قولـه (ولَـوْ كانَ ﷺ ابـنَ مَلِـكٍ): بكسْـرِ الـلَّامِ. وقولُـهُ (أو ذَا أَشْـيَاعٍ): أي صَاحِـبَ أَتْبَـاعٍ.

قولـه (هِرَقْـلُ): بكسرِ الهـاءِ وفتـحِ الـرَّاءِ وسُـكونِ القـافِ، ويَجـوزُ إسـكانُ ثانيـه وكسْـرُ ثالِثِـه، وهْـوَ مُنْـصَرِفٌ[1]، والمُـرادُ بِـهِ عَظِيـمُ الـرُّومِ.

قوله (مِنْ مَلِكٍ): بكَسْرِ اللَّامِ.

قولـه (في الكُتُـبِ المُتقَدِّمَـةِ): كالتَّـوراةِ والإنجيـلِ. وقولـه (السَّـالِفَةِ): -بالـلَّامِ والفَـاءِ- أي السَّـابِقَةِ.

وقولـه (أَرْمِيَـا): بفتـحِ الهَمْـزَةِ وسُـكونِ الـرَّاءِ وكَسْرِ الميـمِ فتحتيَّـةٍ فألِـفٍ مَقْصُـورةٍ.

قولـه (ابـنُ ذِي يَـزَنَ): -بفَتْـحِ اليَـاءِ والـزايِ- غَـيْرُ مُنْـصَرِفٍ، واسْـمُه «سَـيْفٌ».

قولـه (وبَحِـيرَا): بفتـحِ الموحَّـدةِ وكَسْرِ الحـاءِ المُهْمَلَـةِ وسُـكونِ التحتيَّـةِ فـراءٍ بَعْدَهـا أَلِـفٌ مَقصُـورةٌ أو مَمْدودةٌ؛ وهْـوَ الراهِـبُ.

وكَذَلِـكَ قَـدْ ذَكَـرَ اللهُ يُتْمَـهُ وعَيْلَتَـهُ عـلَى طَرِيـقِ المِنَّـةِ عَلَيْـهِ، والتَّعْرِيـفِ بكَرَامَتِـهِ لَـه، فذِكْـرُ الذَّاكِـرِ لَهَـا عـلَى وَجْـهِ تَعْرِيـفِ حَالِـه، والخَـبَرِ عَـنْ مُبْتَدَئِـه، والتعجُّـبِ مِـنْ مِنَـحِ الله قِبَلَـهُ، وعَظِيـمِ مِنَّتِـهِ عِنْـدَهُ لَيْـسَ فيـهِ غَضَاضَـةٌ، بَـلْ فيـهِ دَلَالَـةٌ عَـلَى نُبُوَّتِـهِ، وصِحَّـةِ دَعْوَتِـهِ؛ إذْ أَظْهَـرَهُ اللهُ بَعْـدَ هَـذا عـلى صَنَادِيـدِ العَـرَبِ ومَـنْ نَـاوَاهُ مِـنْ أَشْرَافِهِـمْ شَـيْئًا فشَـيْئًا، ونَمَّـى أَمْـرَهُ حَتَّـى قَهَرَهُـمْ، وتَمَكَّـنَ مِـنْ مِلْـكِ مَقَالِيدِهِـمْ، واسْتِباحَةِ مَمَالِكِ كَثِـيرٍ مِـنَ الأُمَـمِ غَيْرِهِـم؛ بإظْهَـارِ الله تعـالى لـه، وتَأْيِيـدِهِ بنَـصْرِهِ وبالمؤْمِنِـينَ، وأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِهِـمْ، وإمْـدَادِهِ بالمَلَائِكَـةِ المُسَـوِّمِينَ، ولَـوْ كَانَ ﷺ ابْـنَ مَلِـكٍ، أَوْ ذَا أَشْـيَاعٍ مُتَقَدِّمِـينَ لَحَسِـبَ كَثِـيرٌ مِـنَ الجُهَّـالِ أَنَّ ذلـكَ مُوجِـبُ ظُهُـورِه، ومُقْتَـضَى عُلُـوِّه، ولِهَـذَا قـالَ هِرَقْـلُ حِـينَ سَـأَلَ أَبَـا سُـفْيَانَ عَنْـهُ: هَـلْ في آبائِـه مِـنْ مَلِـكٍ؟ ثُـمَّ قـالَ: ولَـوْ كَانَ في آبائِـه مَلِـكٌ لَقُلْنَـا: رَجُـلٌ يَطْلُـبُ مُلْـكَ أَبِيـهِ، وإذِ «اليُتْـمُ» مِـنْ صِفَتِـهِ وأَحَـدُ عَلَامَاتِـهِ في الكُتُـبِ المُتَقَدِّمَـةِ وأَخْبَـارِ الأُمَـمِ السَّـالِفَةِ، وكَـذَا وَقَـعَ ذِكْـرُهُ في كِتَـابِ أَرْمِيَـا، وبِهَـذا وَصَفَـهُ ابْـنُ ذِي يَـزَنَ لِعَبْـدِ المُطَّلِـبِ، وبَحِـيرَا لأَبِي طَالِـبٍ.

وكَذَلِـكَ إذَا وُصِـفَ بأَنَّـه أُمِّـيٌّ كَـمَا وَصَفَـهُ تعـالى بِـهِ فهِـيَ مِدْحَـةٌ لَـهُ، وفَضِيلَـةٌ ثَابِتَـةٌ فِيـهِ، وقاعِـدَةُ مُعْجِزَتِـهِ؛ إذْ مُعْجِزَتُـه العُظْمَـى مِـنَ القُـرْآنِ العَظِيـمِ إنَّـمَا هِـيَ مُتَعَلِّقَـةٌ بطَرِيـقِ المَعَـارِفِ والعُلُـوم مَـعَ مَـا مُنِـحَ ﷺ وفُضِّـلَ بِـه مِـنْ ذلـكَ كَـمَا قَدَّمْنَـاهُ في القِسْـمِ الأَوَّلِ، ووجُـودُ مِثْـلِ ذلِـكَ مِـنْ رَجُـلٍ لَمْ يَقْـرأْ ولَمْ يَكْتُـبْ، ولَمْ يُـدَارِسْ ولَا لُقِّـنَ- مُقْتَـضَى العَجَـبِ، ومُنْتَهَـى العِـبَرِ،

---

(١) اسـم ملـك مـن ملـوك الـروم، وهـو ممنـوع مـن الـصرف للعلميـة والعجمـة، ولا يجـوز صرفـه في غـير الشـعر إلا عـلى لغـة بنـي أسـد الذيـن يصرفـون الممنـوع مطلقـا.

ومُعْجِـزَةُ البَـشَرِ، ولَيْـسَ في ذلـكَ نَقِيصَـةٌ؛ إِذِ المطْلـوبُ مِـنَ الكِتابَـةِ والقِـراءَةِ المَعْرِفَـةُ، وإِنَّـمَا هِـيَ آلَـةٌ لَهـا، وَواسِـطَةٌ مُوَصِّلَـةٌ إِلَيْهـا، غَـيْرُ مُـرادَةٍ في نَفْسِهَا؛ فـإِذَا حَصَلَـتِ الثَّمَـرَةُ والمطْلُـوبُ اسْتُغْنِيَ عَـنِ الوَاسِـطَةِ والسَّـبَبِ.

والأُمِّيَّـةُ في غَـيْرِهِ نَقِيصَـةٌ؛ لأَنَّهَـا سَـبَبُ الجَهَالَـةِ، وعُنْـوَانُ الغَبَـاوَةِ؛ فسُـبْحَانَ مَـنْ بَايَـنَ أَمْـرَهُ مِـنْ أَمْـرِ غَـيْرِهِ، وجَعَـلَ شَرَفَـهُ فِيـمَا فِيـهِ مَحَطَّـةُ سِـوَاهُ، وحَيَاتَـهُ فِيـمَا فيـهِ هَـلَاكُ مَـنْ عَـدَاهُ، هَـذا شَـقُّ قَلْبِـهِ، وَإِخْـرَاجُ حُشْـوَتِهِ كَانَ تَمَامَ حَيَاتِـهِ، وغَايَـةَ قُـوَّةِ نَفْسِـهِ، وثَبَـاتَ رُوعِـهِ، وهُـوَ فِيمَـنْ سِـوَاهُ مُنْتَهَـى هَلَاكِـهِ، وَحَتْـمُ مَوْتِـهِ وَفَنَائِـهِ، وهَلُـمَّ جَـرًّا إِلَى سَـائِرِ مَـا رُوِيَ مِـنْ أَخْبَـارِهِ وسِـيَرِهِ، وتَقَلُّلِـهِ مِـنَ الدُّنْيَـا وَمِـنَ المَلْبَـسِ والمَطْعَـمِ والمَرْكَـبِ، وتَوَاضُعِـهِ، ومَهْنَتِـهِ نَفْسَـهُ فِي أُمُـورِهِ، وخِدْمَـةِ بَيْتِـهِ زُهْـدًا ورَغْبَـةً عَـنِ الدُّنْيَـا، وتَسْـوِيَةً بَـيْنَ حَقِيرِهَـا وخَطِيرِهَـا؛ لِسُرْعَـةِ فَنَـاءِ أُمُورِهَـا، وتَقَلُّـبِ أَحْوَالِهَـا.

كُلُّ هَـذَا مِـنْ فَضَائِلِـهِ ومَآثِـرِهِ وشَرَفِـهِ كَـمَا ذَكَرْنَـاهُ، فَمَـنْ أَوْرَدَ شَـيْئًا مِنْهَـا مَـوْرِدَهُ، وقَصَـدَ بِهَـا مَقْصِـدَهُ، كَانَ حَسَـنًا، وَمَـنْ أَوْرَدَ ذلِـكَ عَـلَى غَـيْرِ وَجْهِـهِ، وعُلِـمَ مِنْـهُ بِذَلِـكَ سُـوءُ قَصْـدِهِ، لَحِـقَ بالفُصُـولِ الَّتـي قَدَّمْنَاهَـا.

وكَذلِـكَ مَـا وَرَدَ مِـنْ أَخْبَـارِهِ وأَخْبَـارِ سَـائِرِ الأَنْبِيَـاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي الأَحَادِيـثِ مِمَّـا فِي ظَاهِـرِهِ إِشْـكَالٌ يَقْتَـضِي أُمُـورًا لا تَلِيـقُ بِهِـمْ بِحَـالٍ، ويَحْتَـاجُ إِلَى تَأْوِيـلٍ وتَـرَدُّدِ احْتِـمَالٍ؛ فَـلَا يَجِـبُ أَنْ يُتَحَـدَّثَ مِنْهـا إِلَّا بالصَّحِيـحِ، ولا يُـرْوَى مِنْهَـا إِلَّا المَعْلُـومُ الثَّابِـتُ، ورَحِـمَ اللهُ مَالِـكًا؛ فَقَـدْ كَـرِهَ التَّحَـدُّثَ بِمِثْـلِ ذلِـكَ مِـنَ الأَحَادِيـثِ المُوهِمَـةِ لِلتَّشْبِيهِ، والمُشْكِلَةِ المَعْنَـى، وقَـالَ: مَـا يَدْعُـو النَّـاسَ إِلَى التَّحَـدُّثِ بِمِثْـلِ هَـذَا؟ فَقِيـلَ لَـهُ: إِنَّ ابْـنَ عَجْـلَانَ يُحَـدِّثُ بِهَـا، فقَـالَ: لَمْ يَكُـنْ مِـنَ الفُقَهَـاءِ.

ولَيْـتَ النَّـاسَ وافَقُـوهُ -رَحِمَـهُ اللهُ- عَـلَى تَـرْكِ الحَدِيـثِ بِهَـا، وسَـاعَدُوهُ عَـلَى طَيِّهَـا؛ فأَكْثَرُهَـا لَيْـسَ تَحْتَـهُ عَمَـلٌ.

قولـه (وعُنْـوانُ الغَبَـاوَةِ): -بضَـمِّ العَـيْنِ وكَسْرِهَـا- أَيْ مُقَدِّمَةُ الضَّلَالَـةِ.

قولـه (حُشْـوَتِه): -بِضَـمِّ الحـاءِ المُهْمَلَـةِ وكَسْرِهَـا وسُـكُونِ الشِّـينِ المُعْجَمَـةِ- المُـرَادُ بِـهِ هُنَـا عَلَقَـةٌ سَـوْداءُ.

قولـه (وثَبَـاتَ رُوعِـه): -بِضَـمِّ الـرَّاءِ- أَيْ قَلْبِـه حَـالَ خَوْفِـه.

قولـه (وحَتْـمُ مَوْتِـه): -بالحَـاءِ المُهْمَلَـةِ- أَيْ وُجُـوبُ وُقوعِـه.

قولـه (ومَهْنَتِـه): بِفَتْـحِ الميـمِ وكَسْرِهَـا.

قوله (ومَآثِره): أَيْ مَفاخِرِه.

قولـه (لَحِـقَ بالفُصُـولِ): أَي السِّـتَّةِ؛ فيُقْتَـلُ أَوْ يُعَـزَّرُ أَوْ يُحْبَـسُ... إلـخ.

قولـه (ابـن عَجْـلَانَ)[1]: بفَتْـحِ أَوَّلِه.

---

(١) قال القاري: مع أنه كان شيخ مالك ومن أعلام التابعين بالمدينة، وروى عن أبيه وأنس بن مالك وغيرهما، وعنه شعبة ويحيى بن سعيد القطان ونحوهما.. فمعناه لم يكن يفقه ما ينشأ عن هذا من الفساد للعباد والخوض في الباطل لأهل الفساد، أو لم يكن من الفقهاء الذين يتأولون الأخبار بل ممن يبقي على ظاهر ما ورد من الآثار. والحاصل أن مالكا كره التحديث بأمثال ذلك في مجالس العامة لا التحديث المطلق المرتب عليه كتم العلم بالخاصة.

وقَـدْ حُكِـيَ عَـنْ جَمَاعَـةٍ مِـنَ السَّـلَفِ -بَـلْ عَنْهُـمْ عـلَى الجُمْلَـةِ- أَنَّهُـمْ كانُـوا يَكْرَهُـونَ الـكَلامَ فِيـمَا لَيْـسَ تَحْتَـهُ عَمَـلٌ.

والنَّبِـيُّ ﷺ أَوْرَدَهَـا عـلَى قَـوْمٍ عَـرَبٍ يَفْهَمُـونَ كَلامَ العَـرَبِ عـلى وَجْهِـهِ، وتَصَرُّفاتِهِـمْ في حقيقَتِـهِ ومَجَازِهِ، واسْـتِعَارَتِهِ وبَلِيغِـهِ وإيجَـازِهِ؛ فلَـمْ تكُـنْ في حَقِّهِـمْ مُشْـكِلَةً، ثُـمَّ جَـاءَ مَـنْ غَلَبَـتْ عَلَيْـهِ العُجْمَـةُ، ودَاخَلَتْـهُ الأُمِّيَّـةُ، فَـلَا يَـكَادُ يَفْهَـمُ مِـنْ مَقَاصِـدِ العَـرَبِ إِلَّا نَصَّهَـا وصَرِيحَهَـا، ولا يَتَحَقَّـقُ إِشَـارَاتِهَا إِلَى غَـرَضِ الإيجَـازِ، ووَحْيَهَـا، وَتَبْلِيغَهَـا، وتَلْوِيحَهَـا، فتَفَرَّقُـوا في تَأْوِيلِهـا أَوْ حَمْلِهـا عـلى ظاهِرِهَـا شَـذَرَ مَـذَرَ؛ فمِنْهُـمْ مَـنْ آمَـنَ بِـهِ ومِنْهُـمْ مَـنْ كَفَـرَ.

فأَمَّـا مَـا لا يَصِـحُّ مِـنْ هَـذِهِ الأَحَادِيـثِ فوَاجِـبٌ أَنْ لا يُذْكَـرَ مِنْهـا شَيْءٌ في حَـقِّ اللهِ ولا في حَـقِّ أَنْبِيَائِـهِ، ولا يُتَحَـدَّثَ بِهَـا، وَلا يُتَكَلَّـفَ الـكَلَامُ عَـلَى مَعَانِيهَـا، والصَّـوَابُ طَرْحُهَـا، وتَـرْكُ الشُّـغْلِ بها، إِلَّا أَنْ تُذْكَـرَ عـلَى وَجْـهِ التَّعْرِيـفِ بِأَنَّهَـا ضَعِيفَـةُ المَقَـادِ، وَاهِيَـةُ الإسْـنَادِ.

وقَـدْ أَنْكَـرَ الأَشْـيَاخُ عـلَى أَبِي بَكْـرِ بْـنِ فَـورَكَ تَكَلُّفَـهُ في مُشْـكِلِهِ الـكَلَامَ عـلى أَحَادِيـثَ ضَعِيفَـةٍ مَوْضُوعـةٍ لا أَصْـلَ لَهَـا، أَوْ مَنْقُولَـةٍ عَـنْ أَهْـلِ الكِتَـابِ الَّذِيـنَ يَلْبِسُـونَ الحَـقَّ بالباطِـلِ، كانَ يَكْفِيـهِ طَرْحُهَـا، ويُغْنِيـهِ عَـنِ الـكَلَامِ عَلَيْهَـا التَّنْبِيـهُ عَـلَى ضَعْفِهَـا؛ إِذِ المَقْصُـودُ بالـكَلامِ عَـلَى مُشْـكِلِ مَـا فِيهَـا إِزَالَـةُ اللَّبْـسِ بِهَـا، واجْتِثَاثُهَـا مِـنْ أَصْلِهـا وطَرْحُهـا أَكْشَـفُ لِلَّبْـسِ، وَأَشْـفَى لِلنَّفْـسِ.

***

قولـه (وقَـدْ حُكِـيَ): -بصيغـةِ المَجهُـولِ- أيْ رُوِيَ.

قولـه (مَـنْ غَلَبَـتْ عَلَيْـه العُجْمـةُ): -بضَـمٍّ أوَّلِـه- أي الكُنْيَـةُ العَجَميّـةُ.

قولـه (شَـذَرَ مَـذَرَ): -بفتْـحِ أوَّلِهِـا وكَسْرِه فمُعجَمَتَيْنِ؛ اسْمانِ جُعِـلَا اسْمًا واحـدًا- أيْ تفَرَّقُـوا في كُلِّ وَجْـهٍ.

قولـه (ضَعِيفـةُ المَقَـادِ): -بفتـحِ الميـمِ والقـافِ- أي ضَعيفـةُ الرِّجَـالِ[1].

قولـه (فَـوْرَكَ): بِضَـمٍّ وفتـحٍ وعَـدَمِ انـصَرافٍ لِلعَلَميّـةِ والعُجمـةِ، وقَـدْ يُـصْرَفُ لِعَـدَمِ ثُبـوتِ العِلَّـةِ الثانيـةِ.

قولـه (يَكْفِيـه): ضميـرُه لِابْـنِ فَـوْرَكَ. وقولـه (طَرْحُهَـا): أيْ نَبْذُهـا وَرَاءَ ظَهْـرِه.

قولـه (واجتِثاثُهـا): -مبتـدأٌ- أي اقتِطاعُهَـا، وخَـبَرُه (أَكْشَـفُ): أيْ اقتِطاعُهَـا أَبْـيَنُ.

***

(١) قـال الشـهاب: (المقـاد) -بفتـح الميم والقـاف وألـف ودال مهملـة- مـن قـدت الدابـة في سيرها، وهـو اسـم مـكان، منـه اسـتعير لطريـق روايتـه.

فَصْلٌ [فيما يجِبُ على المُتكلِّمِ مِنْ آدابٍ عِندَ ذِكْرِ النَّبيِّ ﷺ وذِكْرِ أحوالِه]

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى المُتَكَلِّمِ فِيمَا يَجُوزُ على النَّبيِّ ﷺ وَمَا لا يَجُوزُ، والذَّاكِرِ مِنْ حَالاتِهِ مَا قدَّمْنَاهُ في الفَصْلِ قَبْلَ هَذا على طَرِيقِ المُذَاكَرَةِ والتَّعْليمِ - أَنْ يَلْتَزِمَ في كَلَامِهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ ﷺ، وذِكْرِ تلكَ الأَحْوَالِ الواجِبَ مِنْ تَوْقِيرِه وتَعظِيمِه، ويُرَاقِبَ حَالَ لِسانِه، ولا يُهْمِلَهُ، وتَظْهَرَ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الأَدَبِ عِنْدَ ذِكْرِه.

فَإِذا ذَكَرَ مَا قَاسَاهُ مِنَ الشَّدَائِدِ ظَهَرَ عَلَيْهِ الإِشْفَاقُ، والارْتِمَاضُ والغَيْظُ عَلَى عَدُوِّه، ومَوَدَّةُ الفِدَاءِ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ، والنُّصْرَةُ لَهُ لَوْ أَمْكَنَتْهُ.

وإِذَا أَخَذَ في أَبْوَابِ العِصْمَةِ، وتَكَلَّمَ عَلَى مَجَارِي أَعْمَالِهِ وأَقْوَالِهِ ﷺ تَحَرَّى أَحْسَنَ اللَّفْظِ وآدَبَ العِبَارَةِ مَا أَمْكَنَهُ، واجْتَنَبَ بَشِيعَ ذلكَ، وهَجَرَ مِنَ العِبَارَةِ مَا يَقْبُحُ، كَلَفْظَةِ «الجَهْلِ»، و«الكَذِبِ»، و«المَعْصِيَةِ».

فَإِذَا تَكَلَّمَ في الأَقْوَالِ قَالَ: هَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الخُلْفُ فِي القَوْلِ، والإِخْبَارُ بِخِلَافِ مَا وَقَعَ سَهْوًا أَوْ غَلَطًا؟ ونَحْوَهُ مِنَ العِبَارَةِ، ويَتَجَنَّبُ لَفْظَةَ الكَذِبِ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

وإِذَا تَكَلَّمَ عَلَى العِلْمِ قَالَ: هَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَلَّا يَعْلَمَ إِلَّا مَا عُلِّمَ، وهَلْ يُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ بَعْضِ الأَشْيَاءِ حَتَّى يُوحَى إِلَيْهِ؟ ولا يَقُولُ: «يَجْهَلُ»؛ لِقُبْحِ اللَّفْظِ وبَشَاعَتِه.

قوله (**الوَاجِبَ مِنْ تَوقِيرِه وتَعظِيمِه**): صَدْرُه مَنْصُوبٌ بـ(ذِكْرِ)[1]، و«مِنْ» لِلْبَيَانِ.

قوله (**ويُرَاقِبَ**): أي ويُراعِيَ. قوله (**وتَظْهَرَ عَلَيْهِ... إلخ**): أي خوفًا مِنَ الله تبارَكَ وتَعالَى، [ونظيره ما] قالَه القُرَّاءُ: الواجِبُ على القارئِ إذا قَرَأَ آيةً فِيهَا نَقْلُ الكُفرِ -مِثلَ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]- أنْ يَخفِضَ صَوْتَه.

قوله (**الإشْفَاقُ**): أي الشَّفَقَةُ والرَّحمَةُ. قوله (**والارتِمَاضُ**): أي الاحتراقُ.

قوله (**في أبْوابِ العِصْمةِ**): في نسخةٍ «العَظَمةِ».

قوله (**كلَفْظَةِ الجَهْلِ... إلخ**): مَعْنَاه: لا يَنْسُبُ شَيْئًا مِنها ﷺ [إلَيه] ولا إلى غَيْرِه مِنَ الأنبياءِ صَلَوَاتُ الله وسَلامُه علَيْهم أجْمَعِينَ.

قوله (**ويَتَجَنَّبُ لَفظةَ الكَذِبِ**): أيْ إطلاقَها علَيه جُملةً واحدةً.

قوله (**هَلْ يَجُوزُ... إلخ**): يُشِيرُ إلَيْه قولُه تعالى: ﴿وعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

قوله (**أنْ لا يَكُونَ عِنْدَه... إلخ**): جَرَى على قوله تعالى: ﴿ولا يُحِيطُونَ بِه عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قوله (**ولا يَقُولُ: «يَجْهَلُ»**): أيْ بَلْ يَقُولُ: لا يَدْرِي مَثَلًا وَقْتَ مَجِيءِ السَّاعةِ.

---

(١) صدره معمول للفعل (يلتزم) أي ومما يجب على المتكلم في كذا أن يلتزم في كلامه الواجبَ من توقير النبي...، هذا ما عليه المعنى.

وإذَا تكلَّمَ في الأفْعَالِ قَالَ: هَلْ يَجُوزُ مِنْهُ المُخَالَفَةُ في بَعْضِ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، ومُوَاقَعَةُ بَعْضِ الصَّغَائِرِ؟ فَهُوَ أَوْلَى وَآدَبُ مِنْ قَوْلِهِ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَعْصِيَ، أَوْ يُذْنِبَ، أَوْ يَفْعَلَ كَذَا وكَذَا مِنْ أَنْوَاعِ المَعَاصِي؟ فَهَذَا مِنْ حَقِّ تَوْقِيرِهِ ﷺ، ومَا يَجِبُ لَهُ مِنْ تَعْزِيرٍ وإِعْظَامٍ ﷺ.

وقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ العُلَمَاءِ لَمْ يَتَحَفَّظْ مِنْ هَذا، فقَبُحَ مِنْه، ولَمْ أَسْتَصْوِبْ عِبَارَتَهُ فِيهِ، ووَجَدْتُ بَعْضَ الجائِرِينَ قَوَّلَهُ لِأَجْلِ تَرْكِ تَحَفُّظِهِ فِي العِبَارَةِ مَا لَمْ يَقُلْهُ، وشَنَّعَ عَلَيْهِ بِمَا يَأْبَاهُ ويُكَفِّرُ قائِلُهُ.

وإِنْ كَانَ مِثْلُ هَذا بَيْنَ النَّاسِ مُسْتَعْمَلًا في آدابِهِمْ، وحُسْنِ مُعَاشَرَتِهِمْ وَخِطَابِهِمْ، فاسْتِعْمالُهُ في حَقِّهِ ﷺ أَوْجَبُ، وَالتِزَامُهُ آكَدُ، فجَوْدَةُ العِبَارَةِ تُقَبِّحُ الشَّيْءَ أَوْ تُحَسِّنُهُ، وتَحْرِيرُهَا وتَهْذِيبُهَا يُعَظِّمُ الشَّيْءَ أَوْ يُهَوِّنُهُ؛ ولِهَذَا قَالَ ﷺ: (إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا)[1].

فأَمَّا مَا أَوْرَدَهُ علَى جِهَةِ النَّفْيِ عَنْهُ والتَّنْزِيهِ فَلَا حَرَجَ فِي تَسْرِيحِ العِبَارَةِ وتَصْرِيحِهَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ: لا يَجُوزُ عَلَيْهِ الكَذِبُ جُمْلَةً، ولا إِتْيَانُ الكَبَائِرِ بِوَجْهٍ، ولَا الجَوْرُ فِي الحُكْمِ على حَالٍ، ولَكِنْ مَعَ هَذَا يَجِبُ ظُهُورُ تَوْقِيرِهِ وتَعْظِيمِهِ وتَعْزِيرِهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ مُجَرَّدًا؛ فكَيْفَ عِنْدَ ذِكْرِ مِثْلِ هَذَا؟!

وقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ حَالاتٌ شَدِيدَةٌ عِنْدَ مُجَرَّدِ ذِكْرِهِ -كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي القِسْمِ الثَّانِي-، وكَانَ بَعْضُهُمْ يَلْتَزِمُ مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَ تِلاوَةِ آيٍ مِنَ القُرْآنِ حَكَى اللهُ فِيهَا مَقَالَ عِدَاهُ، ومَنْ كَفَرَ بآياتِهِ، وافْتَرَى عَلَيْهِ الكَذِبَ، فكَانَ يَخْفِضُ بِهَا صَوْتَهُ؛ إِعْظَامًا لِرَبِّهِ، وإِجْلَالًا لَهُ، وإِشْفَاقًا مِنَ التَّشَبُّهِ بِمَنْ كَفَرَ بِهِ.

***

قولـه (آدَبُ): -بِمَدِّ الهَمزةِ- أيْ أَكْثَرُ تَأَدُّبًا.

قوله (مِنْ تعزيرٍ): أي تَبْجِيلٍ.

قوله (فقَبُحَ مِنه): أيْ ما صَدَرَ عَنْه.

قوله (الجائِرِينَ): -بالجِيمِ- أي المائِلِينَ عَنِ الاقتصادِ في القَوْلِ، وفي رِوايةٍ بالحاءِ المُهْمَلَةِ.

قوله (في تَسْرِيحِ العِبَارةِ): أي إرسالِها وإطلاقِها.

قوله (مَقَالَ عِدَاه): أي قَوْلَ أعْدَائِه.

قوله (فكانَ يَخْفِضُ... إلخ): أيْ فِي حَالِ التِّلاوةِ حَذَرًا مِنَ التَّشَبُّهِ؛ عَنْ إبراهيمَ النَّخَعِيِّ أنَّه كانَ إذا قَرَأَ قولَه تعالى: ﴿وقالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ...﴾ إلخ [المائدة: ٦٤] خَفَضَ صَوْتَه تَأَدُّبًا مَعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

***

(١) حديث (إن من البيان لسحرا): البخاريُّ [٥٧٦٧] عن ابن عمر.

البابُ الثَّاني: في حُكْمِ سَابِّهِ وشانِئِهِ ومُتَنَقِّصِهِ ومُؤْذِيهِ، وعُقُوبَتِهِ، وذِكْرِ اسْتِتَابَتِهِ، وَوِرَاثَتِهِ

قَالَ القاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:

قَدْ قَدَّمْنَا مَا هُوَ سَبٌّ وأَذًى في حَقِّهِ ﷺ، وذَكَرْنَا إِجْمَاعَ العُلَمَاءِ على قَتْلِ فاعِلِ ذَلِكَ وقَائِلِهِ، وتَخْيِيرِ الإِمَامِ فِي قَتْلِهِ أَوْ صَلْبِهِ على مَا ذَكَرْنَاهُ، وقَرَّرْنَا الحُجَجَ عَلَيْهِ. وبَعْدُ،

فاعْلَمْ أَنَّ مَشْهُورَ مَذْهَبِ مالِكٍ وأَصْحَابِهِ، وأَقْوَالِ السَّلَفِ وجُمْهُورِ العُلَماءِ قَتْلُهُ حَدًّا لا كُفْرًا إِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ مِنْهُ؛ ولِهَذَا لا تُقْبَلُ عِنْدَهُمْ تَوْبَتُهُ، ولا تَنْفَعُهُ اسْتِقالَتُهُ ولا فَيْئَتُهُ -كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ-، وحُكْمُهُ حُكْمُ الزِّنْدِيقِ ومُسِرِّ الكُفْرِ فِي هَذا القَوْلِ، وسَوَاءٌ كَانَتْ تَوْبَتُهُ عَلَى هَذا بَعْدَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ والشَّهَادَةِ على قَوْلِهِ، أَوْ جَاءَ تَائِبًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّه حَدٌّ وَجَبَ، لا تُسْقِطُهُ التَّوْبَةُ، كَسَائِرِ الحُدُودِ.

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: إِذَا أَقَرَّ بالسَّبِّ، وَتَابَ مِنْه، وأَظْهَرَ التَّوْبَةَ قُتِلَ بالسَّبِّ؛ إِذْ هُوَ حَدُّهُ، وقَالَ أَبُو محمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ مِثْلَهُ، وأَمَّا مَا بَيْنَه وبَيْنَ اللهِ تعالى فَتَوْبَتُهُ تَنْفَعُهُ، وقَالَ ابْنُ سَحْنُونَ: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ المُوَحِّدِينَ، ثُمَّ تَابَ لَمْ تُزِلْ تَوْبَتُهُ عَنْه القَتْلَ.

وكَذَلِكَ اخْتُلِفَ فِي الزِّنْدِيقِ إِذا جَاءَ تَائِبًا، فَحَكَى القَاضِي أَبُو الحَسَنِ بْنُ القَصَّارِ في ذلكَ قَوْلَيْنِ، قَالَ: مِنْ شُيُوخِنَا مَنْ قَالَ: أَقْتُلُهُ بِإِقْرَارِهِ؛ لِأَنَّه كَانَ يَقْدِرُ على سَتْرِ نَفْسِهِ، فلَمَّا اعتَرَفَ خِفْنَا أَنَّه خَشِيَ الظُّهُورَ عَلَيْهِ، فَبَادَرَ بذلكَ، ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَقْبَلُ تَوْبَتَهُ؛ لِأَنِّي أَسْتَدِلُّ على صِحَّتِهَا بِمَجِيئِهِ، فكَأَنَّنَا وَقَفْنَا على باطِنِهِ؛ بِخِلَافِ مَنْ أَسَرَتْهُ البَيِّنَةُ.

قَالَ القاضِي أَبُو الفضْلِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: وهَذَا قَوْلُ أَصْبَغَ، ومَسْأَلَةُ سَابِّ النَّبِيِّ ﷺ أَقْوَى، لا يُتَصَوَّرُ فِيهَا الخِلافُ عَلَى الأَصْلِ المُتَقَدِّمِ؛ لِأَنَّ حَقَّهُ مُتَعَلِّقٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ولِأُمَّتِهِ بِسَبَبِهِ، لا تُسْقِطُهُ التَّوْبَةُ، كَسَائِرِ حُقُوقِ الآدَمِيِّينَ،

قوله (وشانِئِه): أيْ مُبْغِضه. وقوله (ومُتَنَقِّصِه): أيْ طالِبِ نَقْصِه.

قوله (وَوِراثَتِه): أيْ في تَرِكَتِه بَعْدَ مَوْتِه.

قوله (الزِّنْدِيق): هُوَ الَّذِي لا يَتَدَيَّنُ بِدِينٍ.

قوله (في هَذا القَوْلِ): هُوَ المَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ مالِكٍ.

قوله (إِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ مِنْه): أيْ أَظْهَرَها مِنْ عِنْدِ نَفْسِه.

قوله (ولِهَذا): أيْ لِكَوْنِه يُقْتَلُ.

قوله (إِذا أَقَرَّ بالسَّبِّ): أيْ لَه أَوْ لِغَيْرِه مِنَ الأنبياءِ علَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلَامُ.

قوله (مَنْ قالَ: أَقْتُلُه): أي أَحْكُمُ بِقَتْلِه.

قوله (خِفْنَا): أيْ ظَنَنَّا، ومِنْه قولُه تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَنْ لا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قوله (مَنْ أَسَرَتْه البَيِّنَةُ): أيْ أَخَذَتْه وقَيَّدَتْه.

قوله (أَقْوَى): أيْ أَشَدُّ مِنْ مَسْأَلةِ الزِّنْدِيقِ.

والزِّنديقُ إذا تابَ بَعْدَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ فَعِنْدَ مالِكٍ واللَّيْثِ وأَحْمَدَ وإسْحاقَ لا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، وعِنْدَ الشافِعِيِّ تُقْبَلُ، واختُلِفَ فِيهِ عَنْ أَبي حَنيفَةَ وأَبي يُوسُفَ، وحَكَى ابْنُ المُنْذِرِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ: يُسْتَتابُ.

قالَ محمَّدُ بْنُ سَحْنُونَ: ولَمْ يَزُلِ القَتْلُ عَنِ المُسْلِمِ بالتَّوْبَةِ مِنْ سَبِّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْ دِينٍ إِلَى غَيْرِه، وإِنَّما فَعَلَ شَيْئًا حَدُّهُ عِنْدَنا القَتْلُ، لا عَفْوَ فِيهِ لِأَحَدٍ، كالزِّنْديقِ؛ لِأَنَّه لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْ ظاهِرٍ إِلَى ظاهِرٍ.

وقالَ القاضي أَبُو محمَّدِ بنُ نَصْرٍ مُحْتَجًّا لِسُقُوطِ اعْتِبارِ تَوْبَتِهِ: والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَنْ سَبَّ اللهَ تعالى على مَشْهُورِ القَوْلِ باسْتِتابَتِه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَرٌ، والبَشَرُ جِنْسٌ تَلْحَقُه المَعَرَّةُ إلَّا مَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ تعالى بِنُبُوَّتِه، والبارِيَ تعالى مُنَزَّهٌ عَنْ جَميعِ المَعَايِبِ قَطْعًا، ولَيْسَ مِنْ جِنْسٍ تَلْحَقُهُ المَعَرَّةُ، ولَيْسَ سَبُّهُ ﷺ كالارْتِدادِ المَقْبُولِ فِيهِ التَّوْبَةُ؛ لِأَنَّ الارْتِدادَ مَعْنًى يَنْفَرِدُ بِهِ المُرْتَدُّ، لا حَقَّ فِيهِ لِغَيْرِهِ مِنَ الآدَمِيِّينَ، فقُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، ومَنْ سَبَّ النَّبِيَّ تَعَلَّقَ فيهِ حَقٌّ لِآدَمِيٍّ، فكَانَ كالمُرْتَدِّ، يُقْتَلُ حِينَ ارْتِدادِهِ، أَوْ يُقْذَفُ؛ فإِنَّ تَوْبَتَه لا تُسْقِطُ عَنْهُ حَدَّ القَتْلِ والقَذْفِ، وأَيْضًا فإِنَّ تَوْبَةَ المُرْتَدِّ إذا قُبِلَتْ لا تُسْقِطُ ذُنُوبَه مِنْ زِنًا وسَرِقَةٍ وغَيْرِهِما، ولَمْ يُقْتَلْ سابُّ النَّبِيِّ ﷺ لِكُفْرِهِ لَكِنْ لِمَعْنًى يَرْجِعُ إلى تعظيمِ حُرْمَتِهِ، وزَوالِ المَعَرَّةِ بِهِ، وذلكَ لا تُسْقِطُهُ التَّوْبَةُ.

قالَ القاضي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يُرِيدُ -واللهُ أَعْلَمُ- لِأَنَّ سَبَّهُ لَمْ يَكُنْ بِكَلِمَةٍ تَقْتَضِي الكُفْرَ، ولكِنْ بِمَعْنَى الإِزْراءِ والاسْتِخْفافِ، أَوْ لِأَنَّ بِتَوْبَتِهِ وإِظْهارِ إِنابَتِهِ ارتَفَعَ عَنْهُ اسْمُ الكُفْرِ ظاهِرًا، واللهُ أَعْلَمُ بِسَرِيرَتِهِ، وبَقِيَ حُكْمُ السَّبِّ عَلَيْهِ. وقالَ أَبُو عِمْرانَ القابِسِيُّ: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلام قُتِلَ، ولَمْ يُسْتَتَبْ؛ لِأَنَّ السَّبَّ مِنْ حُقُوقِ الآدَمِيِّينَ الَّتي لا تَسْقُطُ عَنِ المُرْتَدِّ.

وكَلامُ شُيُوخِنا هؤُلاءِ مَبْنِيٌّ عَلَى القَوْلِ بِقَتْلِهِ حَدًّا لا كُفْرًا، وَهُوَ يَحْتاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ.

قوله (مِنْ دِينٍ): أيْ هُوَ حَقٌّ. وقولُهُ (إلى غَيْرِه): أيْ إلى دِينٍ هُوَ باطِلٌ.

قوله (إلى ظاهِرٍ): بَلِ انتقَلَ إلى باطِنٍ.

قوله (تَلْحَقُه المَعَرَّةُ): أي المَشَقَّةُ والكَراهَةُ.

قوله (لَمْ يَكُنْ بِكَلِمةٍ تَقْتَضِي الكُفْرَ): أيْ في نَفْسِ الأمْرِ.

قوله (ولكِنْ بِمَعْنَى الإِزْراءِ... إلخ): هذا غَرِيبٌ؛ لِأَنَّ الطَّعْنَ في نُبُوَّتِه، والقَدْحَ في نَعْتِهِ مُناقِضٌ لِلإِقْرارِ بالرِّسالَةِ.

قوله (واللهُ أَعْلَمُ بِسَرِيرَتِه): أيْ فالشَّرْعُ له الظّاهِرُ.

قوله (وبَقِيَ... إلخ): أيْ عِنْدَ المالِكِيَّةِ، فيُقْتَلُ حَدًّا لا كُفْرًا، وأَمَّا عِنْدَ غَيْرِهِم: حُكْمُ السَّبِّ والكُفْرِ ارتَفَعَ بتَوْبَتِه.

قوله (إلى تفصيلٍ): هُوَ إنْ سَبَّه بِما لا يَقْضِي إلى الكُفْرِ قُتِلَ حَدًّا، وكَذا بِما يَقْضِي إلَيْه إنْ تابَ، وإلَّا قُتِلَ كُفْرًا.

وأمَّا عَلَى رِوَايَةِ الوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ مالكٍ ومَنْ وَافَقَهُ على ذلكَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وقَالَ بِهِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، فَقَدْ صَرَّحُوا أَنَّه رِدَّةٌ، قالُوا: وَيُسْتَتَابُ مِنْهَا، فإِنْ تَابَ نُكِّلَ، وإِنْ أَبَى قُتِلَ؛ فَحَكَمَ لهُ بِحُكْمِ المُرْتَدِّ مُطْلَقًا في هَذَا الوَجْهِ.

والوَجْهُ الأَوَّلُ أَشْهَرُ وأَظْهَرُ لِمَا قَدَّمْنَاهُ، ونَحْنُ نَبْسُطُ الكَلَامَ فِيهِ، فنَقُولُ: مَنْ لَمْ يَرَهُ رِدَّةً فهُوَ يُوجِبُ القَتْلَ فِيهِ حَدًّا، وإِنَّمَا يَقُولُ ذلكَ مَعَ فَصْلَيْنِ: إِمَّا مَعَ إِنْكَارِه مَا شُهِدَ بهِ عَلَيْهِ، أَوْ إِظْهَارِهِ الإِقْلَاعَ والتَّوْبَةَ عَنْهُ؛ فَنَقْتُلُه حَدًّا لِثَبَاتِ كَلِمَةِ الكُفْرِ عَلَيْهِ في حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ، وتَحْقِيرِه مَا عَظَّمَ اللهُ مِنْ حَقِّهِ، وأَجْرَيْنَا حُكْمَه في مِيرَاثِه وغَيْرِ ذَلِكَ حُكْمَ الزِّنْدِيقِ إِذَا ظَهَرَ عَلَيْه وأَنْكَرَ أَوْ تَابَ.

فإِنْ قِيلَ: وكَيْفَ تُثْبِتُونَ عَلَيْه الكُفْرَ، ويُشْهَدُ عَلَيْهِ بِكَلِمَةِ الكُفْرِ، ولا تَحْكُمُونَ عَلَيْه بِحُكْمِه مِنَ الاسْتِتَابَةِ وتَوَابِعِهَا؟

قُلْنَا: نَحْنُ، وإِنْ أَثْبَتْنَا له حُكْمَ الكَافِرِ في القَتْلِ فَلَا نَقْطَعُ عَلَيْهِ بذَلِكَ؛ لِإِقْرَارِه بالتَّوْحِيدِ والنُّبُوَّةِ، وإِنْكَارِه مَا شُهِدَ بِهِ عَلَيْهِ، أو زَعْمِهِ أَنَّ ذلك كَانَ مِنْه وَهَلًا ومَعْصِيَةً، وأَنَّه مُقْلِعٌ عَنْ ذَلِكَ، نَادِمٌ عَلَيْهِ، ولَا يَمْتَنِعُ إِثْبَاتُ بَعْضِ أَحْكَامِ الكُفْرِ عَلَى بَعْضِ الأَشْخَاصِ، وإِنْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُ خَصَائِصُهُ كَقَتْلِ تَارِكِ الصَّلَاةِ.

وأَمَّا مَنْ عُلِمَ أَنَّه سَبَّهُ مُعْتَقِدًا لِاسْتِحْلَالِه فَلَا شَكَّ في كُفْرِه بذلكَ، وكَذَلِكَ إِنْ كَانَ سَبُّهُ في نَفْسِهِ كُفْرًا كَتَكْذِيبِه أَوْ تكفيرِه ونَحْوِه، فهَذَا مِمَّا لا إِشْكَالَ فِيهِ، ويُقْتَلُ -وإِنْ تَابَ مِنْهُ-؛ لِأَنَّا لا نَقْبَلُ تَوْبَتَه، ونَقْتُلُهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ حَدًّا لِقَوْلِهِ ومُتَقَدِّمِ كُفْرِه، وأَمْرُهُ بَعْدُ إِلَى اللهِ المُطَّلِعِ علَى صِحَّةِ إِقلاعِه، العَالِمِ بِسِرِّه.

وكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يُظْهِرِ التَّوْبَةَ، واعْتَرَفَ بِمَا شُهِدَ بِه عَلَيْهِ، وصَمَّمَ عَلَيْهِ، فهَذَا كافِرٌ بِقَوْلِه، وباسْتِحْلَالِه هَتْكَ حُرْمَةِ الله تعالى وحُرْمَةِ نَبِيِّه، يُقْتَلُ كَافِرًا بِلَا خِلَافٍ.

فعَلى هذِه التَّفْصِيلاتِ خُذْ كَلامَ العُلَمَاءِ، ونَزِّلْ مُخْتلِفَ عِبَارَاتِهِمْ في الاحْتِجَاجِ عَلَيْهَا، وأَجْرِ اخْتِلَافَهُمْ في المُوَارَثَةِ وغَيْرِهَا على تَرْتِيبِهَا، تَتَّضِحْ لَكَ مَقَاصِدُهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تعَالى.

***

قوله (وَقَالَ بِهِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ): أيْ كَثِيرُونَ.

قوله (نُكِّلَ): -بِصِيغَةِ المَجهُولِ- أي عُوقِبَ عِبْرَةً لِغَيْرِه.

قوله (وَهَلًا): -بِفَتْحِ ثانِيهِ وسُكُونِه- أيْ غَلَطًا وسَهْوًا[1]، ويُرْوَى «وَهْمًا».

قوله (وصَمَّمَ عَلَيْه): أي عَزَمَ وحَزَمَ على مَا لَدَيْه.

قوله (في الاحتِجَاجِ عَلَيْهَا): أيْ على التفصيلاتِ مِنْ إجْراءِ أَحْكَامِ الإِسْلَامِ.

***

(١) قال الشهاب: (وَهَلا) أي خطأ وذهولا، وهو بفتحيتن من وهل إلى الشيء يهل -بالكسر كيعد- إذا ذهب وهمه إليه، أو من وهل -بالكسر- يوهل إذا غلط وسهى.

فَصْلٌ [في الاسْتِتابةِ]

إذَا قُلْنَا بالاسْتِتَابَةِ حَيْثُ تَصِحُّ فالاختِلافُ فِيهَا على الاختِلافِ في تَوْبَةِ المُرْتَدِّ؛ إِذْ لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا.

وقَدِ اختَلَفَ السَّلَفُ في وُجُوبِهَا، وصُورَتِها، ومُدَّتِها؛ فذَهَبَ جُمْهورُ العُلَماءِ إِلَى أَنَّ المُرْتَدَّ يُسْتَتَابُ، وَحَكَى ابْنُ القَصَّارِ أَنَّه إجْماعٌ مِنَ الصَّحابةِ على تَصْويبِ قَوْلِ عُمَرَ في الاسْتِتابَةِ، ولَمْ يُنْكِرْهُ واحِدٌ مِنهُم، وهُوَ قَوْلُ عُثْمانَ، وعَلِيٍّ، وابنِ مَسْعُودٍ، وبِه قالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، والنَّخَعِيُّ، والثَّوْرِيُّ، ومَالِكٌ وأَصْحابُهُ، والأَوْزَاعِيُّ، والشافِعِيُّ، وأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وإِسْحَاقُ، وأَصْحَابُ الرَّأْيِ.

وذَهَبَ طَاوُسٌ، ومحمَّدُ بْنُ الحَسَنِ، وعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، والحَسَنُ -في إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ- أَنَّه لا يُسْتَتَابُ، وقالَه عَبْدُ العزيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، وذَكَرَهُ عَنْ مُعَاذٍ، وأَنْكَرَهُ سَحنُونُ عَنْ مُعَاذٍ، وحَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ عَنْ أَبِي يُوسُفَ، وهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الظَّاهِرِ، قَالُوا: وتَنْفَعُهُ تَوْبَتُهُ عِنْدَ الله تعالى؛ ولَكِنْ لا تَدْرَأُ القَتْلَ عَنْه؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلُوه)[1]، وحُكِيَ أَيْضًا عَنْ عَطَاءٍ: إِنْ كَانَ مِمَّنْ وُلِدَ في الإِسْلامِ لَمْ يُسْتَتَبْ، ويُسْتَتَابُ الإِسْلامِيُّ.

وجُمْهُورُ العُلَماءِ على أَنَّ المُرْتَدَّ والمُرْتَدَّةَ في ذلكَ سَوَاءٌ، ورُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ: لا تُقْتَلُ المُرْتَدَّةُ، وتُسْتَرَقُّ[2]، وقالَه عَطَاءٌ وقَتَادَةُ، ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لا تُقْتَلُ النِّسَاءُ في الرِّدَّةِ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، وقَالَ مَالِكٌ: والحُرُّ والعَبْدُ، والذَّكَرُ والأُنْثَى في ذلكَ سَوَاءٌ.

وأَمَّا مُدَّتُها فمَذْهَبُ الجُمْهُورِ -ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ- أَنَّه يُسْتَتَابُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ يُحْبَسُ فيهَا، وقَدِ اخْتُلِفَ فيهِ عَنْ عُمَرَ، وهُوَ أَحَدُ قَوْلَي الشَّافِعِيِّ وقَوْلُ أَحْمَدَ وإِسْحاقَ، واسْتَحْسَنَهُ مَالِكٌ، وقَالَ: لا يَأْتِي الاسْتِظْهَارُ إِلَّا بخَيْرٍ، ولَيْسَ عَلَيْهِ جَماعَةُ النَّاسِ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو محمَّدِ بْنُ زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: يُرِيدُ في الاسْتِيناءِ ثَلاثًا.

قوله (في وُجُوبِهَا): أي الاستتابةِ.

قوله (وَبِه): أيْ بِقَوْلِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الصَّحابَةِ.

قوله (رَبَاحٍ): بفتحِ الرَّاءِ. قوله (النَّخَعِيُّ): بفتحِ النُّونِ والخاءِ المعجَمَةِ.

قوله (في ذَلِكَ): أيْ في قَتْلِ كُلٍّ مِنْهُم بالرِّدَّةِ.

قوله (ثَلاثَةَ أَيَّامٍ يُحْبَسُ فِيهَا): أيْ فإنْ تَابَ، وإلَّا قُتِلَ.

قوله (الاستِظْهَارُ): أي الانتِظارُ. قوله (في الاسْتِيناءِ): أي الاسْتِمْهَالِ.

(١) حديث (مَن بَدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلُوه): البخاريُّ [٦٩٢٢] عن ابن عبَّاسٍ.

(٢) حديث عليٍّ (لا تُقتل المرتدَّة ...): ابن أبي شيبة في «المصنَّف» [(٣٢٧٧٢) قال: عن عليٍّ، في المرتدة «تُسْتَتاب»] عنه موقوفًا [وعن عطاء (٢٨٩٩٥) في المرتدَّة، قال (لا تُقتل»].

وقَالَ مالكٌ أيْضًا: الَّذِي آخُذُ بِهِ فِي المُرْتَدِّ قَوْلُ عُمَرَ: يُحْبَسُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، ويُعْرَضُ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ؛ فَإنْ تَابَ، وإلَّا قُتِلَ.

وَقالَ أَبُو الحَسَنِ بْنُ القَصَّارِ: في تَأخِيرِهِ ثَلَاثًا رِوَايَتَانِ عَنْ مَالِكٍ: هَلْ ذلكَ واجبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ واسْتَحْسَنَ الاسْتِتابَةَ والاسْتِيناءَ ثَلاثًا أَصْحَابُ الرَّأْيِ.

ورُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ اسْتَتَابَ امْرَأَةً، فَلَمْ تَتُبْ، فَقَتَلَهَا. وقَالَ الشَّافِعِيُّ: مَرَّةً، وإِنْ لَمْ يَتُبْ مَكَانَهُ قُتِلَ، واسْتَحْسَنَهُ المُزَنِيُّ.

وقَالَ الزُّهْرِيُّ: يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فإِنْ أَبَى قُتِلَ. ورُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ: يُسْتَتَابُ شَهْرَيْنِ. وقَالَ النَّخَعِيُّ: يُسْتَتَابُ أَبَدًا -وَبِهِ أَخَذَ الثَّوْرِيُّ- مَا رُجِيَتْ تَوْبَتُهُ.

وحَكَى ابْنُ القَصَّارِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهُ يُسْتَتَابُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ في ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ ثَلَاثِ جُمَعٍ، في كُلِّ يَوْمٍ أَوْ جُمْعَةٍ مَرَّةً.

وَفِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ القَاسِمِ: يُدْعَى المُرْتَدُّ إِلَى الإِسْلامِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فإِنْ أَبَى ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

واخْتُلِفَ عَلَى هَذا: هَلْ يُهَدَّدُ أَوْ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ أَيَّامَ الاسْتِتابَةِ لِيَتُوبَ، أَمْ لا؟ فَقَالَ مَالِكٌ: مَا عَلِمْتُ في الاسْتِتابَةِ تَجْوِيعًا ولا تَعْطِيشًا، ويُؤْتَى مِنَ الطَّعَامِ بِمَا لا يَضُرُّهُ.

وقَالَ أَصْبَغُ: يُخَوَّفُ أَيَّامَ الاسْتِتابَةِ بالقَتْلِ، ويُعْرَضُ عَلَيْهِ الإِسْلامُ. وفي كِتَابِ أَبِي الحَسَنِ الطَّابِثِيِّ: يُوعَظُ في تِلْكَ الأَيَّامِ، وَيُخَوَّفُ بالنَّارِ، ويُذَكَّرُ بالجَنَّةِ.

قَالَ أَصْبَغُ: وأَيُّ المَوَاضِعِ حُبِسَ فِيهَا مِنَ السُّجُونِ مَعَ النَّاسِ، أَوْ وَحْدَهُ إذا اسْتُوثِقَ مِنْهُ سَوَاءٌ، ويُوقَفُ مَالُهُ خِيفَةَ أَنْ يُتْلِفَهُ عَلَى المُسْلِمِينَ، ويُطْعَمُ مِنْهُ ويُسْقَى.

قوله (ما رُجِيَتْ تَوْبَتُه): هَذا قَيْدٌ لِقَوْلِ النَّخَعِيِّ، وجُمْلَةُ (وَبِهِ أَخَذَ الثَّوْرِيُّ) مُعْتَرِضَةٌ.

قوله (وفِي كِتَابِ محمَّدٍ): أي ابنِ المَوَّازِ.

قوله (هَلْ يُهَدَّدُ): أيْ بالقَتْلِ والضَّرْبِ.

قوله (أَوْ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ... إلخ): أي بالجُوعِ والعَطَشِ ونَحْوِهِما.

قوله (الطَّابِثِيِّ): بطَاءٍ مُهْمَلَةٍ ثُمَّ مُوَحَّدةٍ مكسُورَةٍ فمُثَلَّثةٍ فياءِ نِسْبَةٍ.[1]

قوله (في تِلكَ الأَيَّامِ): أيْ أَيَّامِ الاسْتِتابَةِ.

(١) قال الشهاب: نسبة لطابث، وهي قرية قريبة من البصرة. وهو من جملة العلماء المشهورين، وفي نسخة: أبو الحسين.

وكَذَلِكَ يُسْتَتَابُ أَبَدًا كُلَّمَا رَجَعَ وارْتَدَّ، وقَدِ اسْتَتَابَ النَّبِيُّ ﷺ نَبْهَانَ الَّذِي ارْتَدَّ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسًا[1].

وقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ: يُسْتَتَابُ أَبَدًا كُلَّمَا رَجَعَ. وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وأَحْمَدَ، وقَالَهُ ابْنُ القاسِمِ.

وقَالَ إِسْحَاقُ: يُقْتَلُ فِي الرَّابِعَةِ. وقَالَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ: إِنْ لَمْ يَتُبْ فِي الرابِعَةِ قُتِلَ دُونَ اسْتِتَابةٍ، وإِنْ تَابَ ضُرِبَ ضَرْبًا وَجِيعًا، ولَمْ يَخْرُجْ مِنَ السِّجْنِ حَتَّى يَظْهَرَ عَلَيْهِ خُشُوعُ التَّوْبَةِ.

قَالَ ابنُ المُنْذِرِ: ولا نَعْلَمُ أَحَدًا أَوْجَبَ على المُرْتَدِّ فِي المَرَّةِ الأُولَى أَدَبًا إِذا رَجَعَ، وهُوَ على مَذْهَبِ مَالِكٍ والشَّافِعِيِّ والكُوفِيِّ.

***

(١) حديث (أنه ﷺ استتاب الذي ارتدَّ أربع مرَّات أو خمسًا): أبو يعلى [١٧٨٥] عن جابر بسندٍ ضعيفٍ.

قوله (نَبْهَانَ): -بنونٍ مَفتوحَةٍ بَعْدَهَا مُوَحَّدةٌ سَاكنةٌ- أَحَدُ ثلاثةٍ مِنَ الصَّحابةِ يُدْعَوْنَ بِهَذا الاسْمِ.

قوله (حَتَّى يَظْهَرَ عليْهِ خُشُوعُ التَّوْبَةِ): أيْ آثَارُ صِحَّتِها.

قوله (وهُوَ على مَذْهَبِ مالِكٍ): أيْ عَدَمُ وُجوبِ الأَدَبِ عَلَى المُرْتَدِّ إذَا رَجَعَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَذْهَبِ... إلخ.

قوله (والكُوفِيِّ): يَعْنِي بِهِ أَبَا حَنِيفَةَ.

***

فَصْلٌ [فيمَنْ يُدرأُ عنهُ القَتْلُ]

هـذا حُكْـمُ مَـنْ ثَبَـتَ عَلَيْـهِ ذلِـكَ بِـمَا يَجِـبُ ثُبُوتُـهُ مِـنْ إقْـرَارٍ أَوْ عُـدُولٍ لَمْ يُدْفَـعْ فِيهِـمْ.

فأَمَّـا مَـنْ لَمْ تَتِـمِّ الشَّـهادَةُ عَلَيْـهِ بِـمَا شَـهِدَ عَلَيْـهِ الوَاحِـدُ أَوِ اللَّفِيـفُ مِـنَ النَّـاسِ، أَوْ ثَبَـتَ قَوْلُـهُ؛ لَكِـنِ احْتَمَـلَ، ولَمْ يَكُـنْ صَرِيحًـا، وكذلـكَ إنْ تَـابَ عَـلَى القَـوْلِ بِقَبُـولِ تَوْبَتِـهِ، فهَـذَا يُـدْرَأُ عَنْـه القَتْـلُ، ويَتَسَـلَّطُ عَلَيْـهِ اجْتِهَـادُ الإمـامِ بِقَـدْرِ شُـهْرَةِ حالِـهِ، وقُـوَّةِ الشَّـهادَةِ عَلَيْـهِ وَضَعْفِهَـا، وكَثْـرَةِ السَّـماعِ عَنْـه، وصُـورَةِ حَالِـهِ مِـنَ التُهْمَـةِ في الدِّيـنِ، والنَّبْـزِ بالسَّـفَهِ والمُجُـونِ، فَمَـنْ قَـوِيَ أَمْـرُهُ أَذَاقَـهُ مِـنْ شَـدِيدِ النَّـكَالِ مِـنَ التَّضْيِيـقِ في السِّـجْنِ، والشَّـدِّ في القُيُـودِ إلَى الغَايَـةِ الَّتِي هِـيَ مُنْتَهَـى طاقَتِـه مِمَّا لا يَمْنَعُهُ القِيَـامُ لِضَرُورَتِـه، ولاَ يُقْعِـدُهُ عَـنْ صَلاَتِـه، وهُـوَ حُكْـمُ كُلِّ مَـنْ وَجَـبَ عَلَيْـه القَتْـلُ لَكِـنْ وُقِـفَ عَـنْ قَتْلِـهِ لِمَعْنًـى أَوْجَبَـه، وتُرُبِّـصَ بِـه لإِشْـكَالٍ وعَائِـقٍ اقْتَضَـاهُ أَمْـرُهُ، وحَـالاتُ الشِّـدَّةِ عَلَيْـهِ في نَكَالِـهِ تَخْتَلِـفُ بِحَسَـبِ اخْتِـلاَفِ حَالِـه.

وقَـدْ رَوَى الوَلِيـدُ عَـنْ مَالِـكٍ والأَوْزَاعِـيِّ أَنَّهَـا رِدَّةٌ، فَـإذَا تَـابَ نُـكِّلَ، ولِمَالِـكٍ في «العُتْبِيَّـةِ»، وكِتَـابِ محمَّـدٍ مِـنْ رِوَايَـةِ أَشْـهَبَ: إذَا تَـابَ المُرْتَـدُّ فَـلَا عُقُوبَـةَ عَلَيْـهِ، وَقَالَـهُ سَـحْنُونُ.

وَأَفْتَـى أَبُـو عَبْـدِ الله بْـنُ عَتَّـابٍ فِيمَـنْ سَـبَّ النَّبِـيَّ ﷺ، فشَـهِدَ عَلَيْـهِ شَـاهِدَانِ عُـدِّلَ أَحَدُهُمَـا- بـالأَدَبِ الوَجِيـعِ والتَنْكِيـلِ والسِّـجْنِ الطَّوِيـلِ حَتَّـى تَظْهَـرَ تَوْبَتُـهُ.

وقَـالَ القَابِسِـيُّ في مِثْـلِ هَـذَا: وَمَـنْ كَانَ أَقْـصَى أَمْـرِه القَتْـلَ، فعَـاقَ عَائِـقٌ أَشْـكَلَه في القَتْـلِ لَمْ يَنْبَـغِ أَنْ يُطْلَـقَ مِـنَ السِّـجْنِ، ويُسْـتَطَالُ سَـجْنُهُ، ولَـوْ كَانَ فيـهِ مِـنَ المُـدَّةِ مَـا عَسَـى أَنْ يُقِيـمَ، ويُحْمَـلُ عَلَيْـهِ مِـنَ القَيْـدِ مَـا يُطِيـقُ. وقـالَ في مِثْلِـهِ مِمَّـنْ أَشْـكَلَ أَمْـرُهُ: يُشَـدُّ في القُيُـودِ شَـدًّا، ويُضَيَّـقُ عَلَيْـهِ في السِّـجْنِ حَتَّـى يُنْظَـرَ فِيـمَا يَجِـبُ عَلَيْـه.

قولـه (أَوْ عُـدُولٍ): أيْ شَـهادةِ عَدْلَـيْنِ أَوْ أَكْثَـرَ. قولـه (لَمْ يُدْفَـعْ فِيهِـمْ): أيْ لَمْ يُطْعَـنْ في حَقِّهِـم.

قولـه (أو اللَّفِيـفُ): أي الطَّائفَـةُ المُلْتَفَّـةُ أو الجَمَاعَـةُ المختَلِفَـةُ.

قولـه (فهَـذَا يُـدْرَأُ عَنْـه... إلـخ): -يُحتَمَـلُ كَـوْنُ الفِعْـلِ مَبْنِيًّـا لِلمَفعُـولِ أو لِلفاعِـلِ- أيْ يُدْفَـعُ عَنْـهُ.

قولـه (والنَّبْـزِ): -بفتـحِ النُّـونِ وسُـكونِ المُوَحَّـدةِ فـزَايٍ- أَيْ ومِـنْ دُعَائِـه ونِدَائِـه. قولـه (والمُجُـونِ): بضـمِّ الميـمِ والجيـمِ.

وقولـه (النَّكَالِ): -بفتـحِ النُّـونِ- أي العُقُوبـةِ. قولـه (والشَّـدِّ): أي التشـديدِ.

قولـه (وُقِـفَ عَـنْ قَتْلِـه): -بِصِيغَـةِ المَجْهُـولِ- أَيْ تُوُقِّـفَ.

قولـه (عُـدِّلَ): -بضـمِّ العَـيْنِ المُهْمَلَـةِ وتشـديدِ الـدَّالِ- أي زُكِّـيَ أَحَدُهمـا دُونَ الآخَـرِ.

قولـه (بـالأَدَبِ): متعَلِّـقٌ (أَفْتَـى).

قولـه (فَعَـاقَ عَائِـقٌ): أيْ صَرَفَ صَـارِفٌ.

قولـه (وقـالَ في مِثْلِـه): أيْ قـالَ القَابِسِـيُّ.

وقَـالَ في مَسْـأَلةٍ أُخْـرَى مِثْلِهَـا: ولا تُهْـرَاقُ الدِّمـاءُ إلَّا بالأَمْـرِ الوَاضِـحِ، وَفِي الأَدَبِ بالسَّـوْطِ والسَّـجْنِ نَـكَالٌ لِلسُّـفَهاءِ، ويُعَاقَـبُ عُقُوبَـةً شَـدِيدَةً.

فأَمَّـا إنْ لَمْ يَشْـهَدْ عَلَيْـهِ سِـوَى شَـاهِدَيْنِ، فأَثْبَـتَ مِـنْ عَدَاوَتِهِـمَا أَوْ جُرْحَتِهِـمَا مَـا أَسْـقَطَهُمَا عَنْـهُ، وَلَمْ يُسْـمَعْ ذلـكَ مِـنْ غَيْرِهِمَـا، فأَمْرُهُ أَخَـفُّ لِسُـقُوطِ الحُكْـمِ عَنْـهُ، وكَأَنَّـه لَمْ يُشْـهَدْ عَلَيْـهِ، إلَّا أَنْ يَكُـونَ مِمَّـنْ يَلِيـقُ بِـهِ ذلِـكَ، ويَكُـونَ الشَّـاهِدَانِ مِنْ أَهْـلِ التَّبْرِيـزِ، فأَسْـقَطَهُمَا بعَـدَاوةٍ، فهُـوَ، وإنْ لَمْ يَنْفُـذِ الحُكْـمُ عَلَيْـه بِشَـهادَتِهِمَا فَـلَا يَدْفَـعُ الظَّـنُّ صِدْقَهُـمَا، ولِلحَاكِـمِ هُنَـا في تَنْكِيلِـهِ مَوْضِعُ اجْتِهـادٍ، واللهُ وَلِيُّ الإرْشَـادِ.

***

قولـه (ولا تُهْـرَاقُ الدِّمَـاءُ): -بضـمِّ التَّـاءِ وسُـكونِ الهَـاءِ وتُفْتَـحُ- أي لا تُصَـبُّ... إلـخ[1].

قولـه (نَـكَالٌ لِلسُّـفَهاءِ): أيْ زَجْـرٌ ورَدْعٌ لِلسُّـفَهاءِ.

قولـه (أوْ جُرْحَتِهـا): -بضمِّ الجيـمِ- أيْ طَعْنِهـا.

قولـه (وكَأَنَّـه لَمْ يُشْـهَدْ): بِصِيغَـةِ المَجْهُـولِ.

***

(١) من «الإراقة» والهاء مزيدة فيه.

فَصْلٌ [في حُكْمِ الذِّمِّيِّ إذا صرَّحَ بِسَبِّه أو اسْتخَفَّ بِقَدْرِه ﷺ]

هَـذَا حُكْـمُ المُسْلِمِ، فأمَّـا الذِّمِّـيُّ إذا صَرَّحَ بِسَبِّهِ، أَوْ عَـرَّضَ أَوِ اسْتَخَفَّ بِقَدْرِه، أَوْ وَصَفَـهُ بِغَيْرِ الوَجْـهِ الَّـذِي كَفَـرَ بِـهِ، فَـلَا خِـلَافَ عِنْدَنَـا فِي قَتْلِـهِ إِنْ لَمْ يُسْـلِمْ؛ لِأَنَّـا لَمْ نُعْطِهِ الذِّمَّـةَ أَوِ العَهْـدَ عـلى هَـذا، وهُـوَ قَـوْلُ عَامَّـةِ العُلَـمَاءِ إِلَّا أَبَـا حَنِيفَـةَ والثَّـوْرِيَّ وأَتْبَاعَهُـمَا مِـنْ أَهْـلِ الكُوفَـةِ؛ فإنَّهُـمْ قالُـوا: لا يُقْتَـلُ، لِأَنَّ مَـا هُـوَ عَلَيْـهِ مِـنَ الـشِّرْكِ أَعْظَـمُ؛ ولَكِـنْ يُـؤَدَّبُ ويُعَـزَّرُ.

واسْـتَدَلَّ بَعْـضُ شُـيُوخِنا عـلَى قَتْلِـهِ بِقَوْلِـهِ تعَـالى: ﴿وإِنْ نَكَثُـوا أَيْمَانَهُـمْ مِـنْ بَعْـدِ عَهْدِهِـمْ وَطَعَنُـوا فِي دِينِكُـمْ فَقَاتِلُـوا أَئِمَّـةَ الْكُفْـرِ...﴾ الآيـة [التوبـة: ١٢].

ويُسْـتَدَلُّ أَيْضًـا عَلَيْـهِ بقَتْـلِ النَّبِـيِّ ﷺ لِابْـنِ الأَشْرَفِ[١] وأَشْـبَاهِهِ، وَلِأَنَّـا لَمْ نُعَاهِدْهُـمْ، ولَمْ نُعْطِهِـم الذِّمَّـةَ عـلى هَـذا، ولا يَجُوزُ لَنَـا أَنْ نَفْعَـلَ ذلـكَ مَعَهُـمْ، فـإِذَا أَتَـوْا مَـا لَمْ يُعْطَـوْا عَلَيْـهِ العَهْـدَ ولا الذِّمَّـةَ فَقَـدْ نَقَضُـوا ذِمَّتَهُـمْ، وَصَـارُوا كُفَّـارًا أَهْـلَ حَـرْبٍ، يُقْتَلُـونَ لِكُفْرِهِـمْ. وأَيْضًـا فـإِنَّ ذِمَّتَهُـمْ لا تُسْـقِطُ حُـدُودَ الإِسْـلَامِ عَنْهُـمْ مِـنَ القَطْـعِ فِي سَرِقَـةِ أَمْوالِهِـمْ، والقَتْـلِ لِمَـنْ قَتَلُـوهُ مِنْهُـمْ، وإِنْ كَانَ ذلـكَ حَـلَالًا عِنْدَهُـمْ، فكَذَلِـكَ سَـبُّهُمُ النَّبِـيَّ ﷺ يُقْتَلُـونَ بِـه.

ووَرَدَتْ لِأَصْحَابِنَـا ظَوَاهِـرُ تَقْتَـضِي الخِـلَافَ إذا ذَكَـرَهُ الذِّمِّـيُّ بالوَجْـهِ الَّـذِي كَفَـرَ بِـهِ، سَـتَقِفُ عَلَيْهَـا مِـنْ كَلَامِ ابْـنِ القَاسِـمِ وابـنِ سَـحْنُونَ بَعْـدُ. وحَكَـى أَبُـو المُصْعَـبِ الخِـلَافَ فِيهَـا عَـنْ أَصْحابِـهِ المَدَنِيِّـينَ.

واخْتَلَفُـوا إِذا سَـبَّهُ ثُـمَّ أَسْـلَمَ، فقِيـلَ: يُسْـقِطُ إِسْـلَامُه قَتْلَـهُ؛ لِأَنَّ الإِسْـلَامَ يَجُـبُّ مَـا قَبْلَـهُ، بخِـلَافِ المُسْـلِمِ إِذا سَـبَّهُ ثُـمَّ تـابَ؛ لِأَنَّـا نَعْلَـمُ بَاطِنَـةَ الكافِـرِ فِي بُغْضِـهِ لَـهُ، وتَنَقُّصِـهِ بقَلْبِـهِ؛ لَكِنَّـا مَنَعْنَـاهُ مِـنْ إِظْهَـارِه، فَلَـمْ يَزِدْنَـا مَـا أَظْهَـرَهُ إِلَّا مُخالَفَـةً لِلْأَمْـرِ، ونَقْضًـا لِلْعَهْـدِ، فـإِذا رَجَـعَ عَـنْ دِينِـهِ الأَوَّلِ إِلَى الإِسْـلامِ سَـقَطَ مـا قَبْلَـهُ؛ قـالَ اللهُ تعَـالى: ﴿قُـلْ لِلَّذِيـنَ كَفَـرُوا إِنْ يَنْتَهُـوا يُغْفَـرْ لَـهُـمْ مَـا قَـدْ سَـلَفَ﴾ [الأنفـال: ٣٨].

(١) [تقدمت قصته. انظر ص٣٦٢].

قولـه (إذا صَرَّحَ بِسَبِّه): أيْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، (أَوْ عَرَّضَ): أي لَوَّحَ.

قولـه (وإنْ نَكَثُـوا أَيْمَانَهُـمْ): أي نَقَضُـوا مَـا بايَعُـوا عَلَيْـه مِـنَ الإيـمانِ.

قولـه (طَعَنُـوا في دِينِكـم): أيْ عَابُـوهُ.

قولـه (ويُسْـتَدَلُّ أيْضًـا عَلَيْـه): أيْ عَلَى قَتْـلِ الذِّمِّـيِّ الـذَّامِّ.

قولـه (في سَرِقَـةِ أمْوالِهِـم): أيْ أَمْـوَالِ المُسْلِمِينَ. قولـه (لِمَنْ قَتَلُـوهُ مِنْهُـمْ): أي مِـنَ المؤمِنِيـنَ.

قولـه (بالوَجْـهِ الَّـذِي كَفَـرَ بِـهِ): أي الذِّمِّـيُّ؛ كتكذيبِـه النُّبُوَّةَ أو الرسـالةَ العامَّـةَ.

قولـه (الخِلَافَ فِيهَـا): أي المَسْـأَلةِ.

قولـه (واختَلَفُـوا): أي المالكيَّـةُ.

قولـه (باطِنَـةَ الكافِـرِ): أيْ مُعْتَقَـدَه.

والمُسْلِمُ بخِلافِـهِ؛ إِذْ كانَ ظَنُّنَـا بباطِنِـه حُكْـمَ ظاهِـرِه، وخِـلَافَ مَـا بَـدَا مِنْـه الآنَ، فلَـمْ نَقْبَـلْ بَعْـدُ رُجُوعَـه، ولَا اسْـتَنَمْنَا إلى بَاطِنِـه؛ إِذْ قَـدْ بَـدَتْ سَرائِـرُهُ، ومَـا ثَبَـتَ عَلَيْـهِ مِـنَ الأحْـكامِ بَاقيَـةٌ عَلَيْـهِ، لَمْ يُسْـقِطْهَا شَيْءٌ.

وقِيـلَ: لا يُسْـقِطُ إِسْـلَامُ الذِّمِّـيِّ السَّـابِّ قَتْلَـه؛ لِأَنَّـهُ حَـقٌّ لِلنَّبِـيِّ ﷺ وَجَـبَ عَلَيْـهِ؛ لِانْتِهاكِـهِ حُرْمَتَـهُ، وقَصْـدِهِ إِلْحَاقَـه النَّقِيصَـةَ وَالمَعَـرَّةَ بِـهِ، فلَـمْ يَكُـنْ رُجُوعُـه إِلَى الإِسْـلَامِ بالـذِي يُسْـقِطُهُ كَـمَا وَجَـبَ عَلَيْـهِ مِـنْ حُقُـوقِ المُسْـلِمِينَ مِـنْ قَبْـلِ إِسْـلامِهِ مِـنْ قَتْـلٍ أَوْ قَـذْفٍ، وإِذا كُنَّـا لا نَقْبَـلُ تَوْبَـةَ المُسْـلِمِ فَـأَنْ لَّا نَقْبَـلُ تَوْبَـةَ الكافِـرِ أَوْلَى.

قـالَ مَالِـكٌ في كِتَـابِ ابْـنِ حَبِيـبٍ، و«المَبْسُـوطِ»، وابْـنُ القَاسِـمِ، وابْـنُ المَاجِشُـونِ، وابْـنُ عَبْـدِ الحَكَـمِ، وأَصْبَـغُ فِيمَـنْ شَـتَمَ نَبِيَّنَـا ﷺ مِـنْ أَهْـلِ الذِّمَّـةِ، أَوْ أَحَـدًا مِـنَ الأَنْبِيَـاءِ عليهم السلام قُتِـلَ إِلَّا أَنْ يُسْـلِمَ، وقالَـه ابْـنُ القَاسِـمِ في «العُتْبِيَّـةِ»، وعِنْـدَ محمَّـدٍ، وابْـنِ سَـحْنُونَ. وقَـالَ سَـحْنُون وَأَصْبَـغُ: لا يُقَـالُ لـه: «أَسْـلِمْ» ولا «لا تُسْـلِمْ»؛ ولَكِـنْ إِنْ أَسْـلَمَ فذَلِـكَ لـه تَوْبَـةٌ.

وفي كِتَـابِ محمَّـدٍ: أَخبَرَنـا أَصْحـابُ مالِـكٍ أَنَّـه قـالَ: مَـنْ سَـبَّ رَسُـولَ الله ﷺ، أَوْ غَـيْرَه مِـنَ النَّبِيِّـينَ مِـنْ مُسْـلِمٍ أَوْ كافِـرٍ قُتِـلَ، ولَمْ يُسْـتَتَبْ، ورُوِيَ لَنَـا عَـنْ مالِـكٍ: إِلَّا أَنْ يُسْـلِمَ الكافِـرُ.

وقَـدْ رَوَى ابْـنُ وَهْـبٍ عَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ أَنَّ راهِبًـا تَنـاوَلَ النبـيَّ ﷺ، فقـالَ ابْـنُ عُمَـرَ: فهَـلَّا قَتَلْتُمُـوهُ؟![1]

ورَوَى عِيسَـى عَـنِ ابـنِ القاسِـمِ في ذِمِّـيٍّ قـالَ: إِنَّ محمَّـدًا لَمْ يُرْسَـلْ إِلَيْنـا وإِنَّـمَا أُرْسِـلَ إِلَيْكُـمْ، وإِنَّـمَا نَبِيُّنَـا مُوسَـى أَوْ عيسَـى، ونَحْـوَ هَـذَا: لا شَيْءَ عَلَيْهِـم؛ لِأَنَّ اللهَ تعـالى أَقَرَّهُـمْ عـلى مِثْلِـهِ، وأَمَّـا إِنْ سَـبَّهُ فقـالَ: لَيْـسَ بِنَبِـيٍّ، أَوْ لَمْ يُرْسَـلْ، أَوْ لَمْ يُنْـزَلْ عَلَيْـه قُـرآنٌ، وإِنَّـمَا هُـوَ شَيْءٌ تَقَوَّلَـهُ، أَوْ نَحْـوَ هـذا، فيُقْتَـلُ.

قولـه (ولا اسْـتَنَمْنَا إلى بَاطِنِـهِ): أيْ ولا اطَّلَعْنَـا عَلَيْـه.

قولـه (وابْـنُ الماجِشُـونِ): -بكسـرِ الجيـمِ- قـالَ النـوويُّ: «الماجِشُـونُ» لَفْـظٌ أَعجَمِـيٌّ، وهْـوَ مِـنْ أَصْحَـابِ مالِـكٍ.

قولـه (موسـى أو عيسَـى): (أَوْ) لِلتنويـعِ.

قولـه (تَقَوَّلَـه): أي افْـتَرَاه.

---

(١) حديث (أَنَّ راهبًا): [كتاب المحاربة من موطأ ابن وهب (ص: ٢٤) قال: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن رجل، عن مجاهد، قال: ذكر عند عبد الله بن عمر راهبٌ تناول رسول الله فقال عبد الله بن عمر: فهلا قتلتموه].

قَالَ ابْنُ القَاسِمِ: وإذَا قَالَ النَّصْرَانِيُّ: دِينُنَا خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ، إِنَّمَا دِينكم دِينُ الحَمِيرِ، ونَحْوَ هذا مِنَ القَبِيحِ، أَوْ سَمِعَ المُؤَذِّنَ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّ محمَّدًا رَسُولُ الله، فقَالَ: كذلكَ يُعْطِيكُمُ اللهُ، فَفِي هَذَا الأَدَبُ الوَجِيعُ، والسَّجْنُ الطَّوِيلُ. قَالَ: وَأَمَّا إِنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ شَتمًا يُعْرَفُ فإنَّه يُقْتَلُ؛ إلَّا أَنْ يُسْلِمَ، قالَه مَالِكٌ غَيْرَ مَرَّةٍ، ولَمْ يَقُلْ: يُسْتَتَابُ. قَالَ ابْنُ القَاسِمِ: ومَحْمَلُ قَوْلِه عِنْدِي إِنْ أَسْلَمَ طَائِعًا.

وقَالَ ابْنُ سَحْنُونَ في سُؤَالاتِ سُلَيْمَانَ بْنِ سَالِمٍ في اليَهُودِيِّ يَقُولُ لِلمُؤَذِّنِ إذا تَشَهَّدَ: كَذَبْتَ: يُعَاقَبُ العُقُوبَةَ الوَجِيعَةَ مَعَ السَّجْنِ الطَّوِيلِ.

وفي «النَّوَادِرِ» مِنْ رِوَايَةِ سَحْنُونَ عَنْه: مَنْ شَتَمَ الأَنْبِيَاءَ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى بِغَيْرِ الوَجْهِ الَّذِي بِه كَفَرُوا، ضُرِبَتْ عُنُقُه إلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

قَالَ محمَّدُ بْنُ سَحْنُونَ: فإنْ قِيلَ: فَلِمَ قَتَلْتَه في سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، ومِنْ دِينِه سَبُّه وتَكْذِيبُه؟ قِيلَ: لِأَنَّا لَمْ نُعْطِهِمُ العَهْدَ على ذلك، ولا عَلَى قَتْلِنَا وأَخْذِ أَمْوَالِنَا، فإذَا قَتَلَ واحِدًا مِنَّا قَتَلْنَاهُ وإِنْ كَانَ مِنْ دِينِه اسْتِحْلالُهُ، فكذلكَ إِظْهَارُهُ لِسَبِّ نبيِّنا ﷺ.

قَالَ سَحْنُونُ: كَمَا لَوْ بَذَلَ لَنَا أَهْلُ الحَرْبِ الجِزْيَةَ عَلَى إقرارِهِمْ على سَبِّهِ لَمْ يَجُزْ لَنَا ذلِكَ في قَوْلِ قائلٍ، كَذلكَ يَنْتَقِضُ عَهْدُ مَنْ سَبَّ مِنْهُمْ، ويَحِلُّ لَنَا دَمُه، وكَمَا لَمْ يُحَصِّنِ الإسْلامُ مَنْ سَبَّهُ مِنَ القَتْلِ كذلك لا تُحَصِّنُهُ الذِّمَّةُ.

قَالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَحْنُونَ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ أَبِيهِ مُخَالِفٌ لِقَوْلِ ابْنِ القاسِمِ فِيمَا خَفَّفَ عُقُوبتَهُمْ فيه مِمَّا به كَفَرُوا فتَأَمَّلْ، ويَدُلُّ علَى أَنَّه خِلَافُ مَا رُوِيَ عَنِ المَدَنِيِّينَ في ذلِكَ.

فحَكَى أَبُو المُصْعَبِ الزُّهْرِيُّ، قَالَ: أُتِيتُ بنَصْرَانِيٍّ قَالَ: «وَالَّذي اصْطَفَى عيسى على محمَّدٍ»، فاخْتُلِفَ عَلَيَّ فيه، فضَرَبْتُه حَتَّى قَتَلْتُه -أَوْ عَاشَ يَوْمًا ولَيْلَةً-، وأَمَرْتُ مَنْ جَرَّ بِرِجْلِه، وطُرِحَ على مَزْبَلَةٍ، فأَكَلَتْهُ الكِلابُ، وسُئِلَ أَبُو المُصْعَبِ عَنْ نَصْرانِيٍّ قَالَ: «عيسى خَلَقَ محمَّدًا»، فقَالَ: يُقْتَلُ.

قولُه (مِنَ القَبِيحِ): أي قَبِيحِ الكَلامِ.

قولُه (وفي «النَّوَادِرِ»): كِتَابٌ لِابْنِ أَبِي زَيْدٍ.

قولُه (اسْتِحْلَالُه): أي عَدُّه حَلَالًا.

قولُه (أُتِيتُ): بِضَمِّ الهَمزةِ وَتاءِ المُتكَلِّمِ.

قولُه (فضَرَبْتُه): أيْ ضَرْبًا وَجِيعًا.

وقَالَ ابْنُ القَاسِمِ: سَأَلْنا مالِكًا عَنْ نَصْرانيٍّ بِمِصْرَ شُهِدَ عَلَيْهِ أَنَّه قالَ: مِسْكِينٌ مُحَمَّدٌ؛ يُخْبِرُكُمْ أَنَّه في الجَنَّةِ، فهُوَ الآنَ في الجَنَّةِ، ما لَه لَمْ يَنْفَعْ نَفْسَهُ إِذْ كانَتِ الكِلَابُ تَأْكُلُ سَاقَيْه، لَوْ قَتَلُوهُ اسْتَرَاحَ مِنْه النَّاسُ!! قالَ مَالِكٌ: أَرَى أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُهُ، قَالَ: وَلَقَدْ كِدْتُ أَنْ لا أَتَكَلَّمَ فيهَا بِشَيْءٍ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّه لا يَسَعُنِي الصَّمْتُ.

قَالَ ابْنُ كِنانةَ في «المَبْسُوطَةِ»: مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى فأَرَى لِلْإِمَامِ أَنْ يُحْرِقَهُ بالنَّارِ، وإِنْ شَاءَ قَتَلَهُ، ثُمَّ حَرَّقَ جُثَّتَهُ، وإِنْ شَاءَ أَحْرَقَهُ بالنَّارِ حَيًّا إذا تهافَتُوا في سَبِّهِ. ولَقَدْ كُتِبَ إلى مَالِكٍ مِنْ مِصْرَ -وذَكَرَ مَسْأَلَةَ ابْنِ القَاسِمِ المتقدِّمةَ-، قالَ: فأَمَرَنِي مَالِكٌ، فكَتَبْتُ إِلَيْهِ بِأَنْ يُقْتَلَ وتُضْرَبَ عُنُقُهُ، فكَتَبْتُ، ثُمَّ قلْتُ: يا أَبا عَبْدِ الله، وأَكْتُبُ ثُمَّ يُحْرَقُ بالنَّارِ؟ فقالَ: إِنَّه لَحَقِيقٌ بذَلِكَ، ومَا أَوْلَاهُ بِه! فكَتَبْتُه بِيَدِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَا أَنْكَرَهُ ولا عَابَه، ونَفَذَتِ الصَّحيفَةُ بذلكَ، فقُتِلَ، وحُرِّقَ.

وأَفْتَى عُبَيْدُ الله بْنُ يَحْيَى وابْنُ لُبَابَةَ في جَمَاعَةِ سَلَفِ أَصْحابِنا الأَنْدُلُسِيِّينَ بِقَتْلِ نَصْرانيَّةٍ اسْتَهَلَّتْ بِنَفْيِ الرُّبُوبِيَّةِ، ونُبُوَّةِ عِيسَى لله تعالَى، وتَكْذِيبِ محمَّدٍ فِي النُّبُوَّةِ، وبِقَبُولِ إِسْلَامِهَا ودَرْءِ القتلِ عَنْها بِه، وبِه قالَ غَيْرُ واحدٍ مِنَ المتَأَخِّرِينَ، مِنْهُمُ القابِسيُّ وابْنُ الكاتِبِ.

وقالَ أَبُو القَاسِمِ بْنُ الجَلَّابِ في كِتَابِه: مَنْ سَبَّ اللهَ ورسُولَه مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كافِرٍ قُتِلَ، ولا يُسْتَتَابُ. وحَكَى القاضِي أَبُو محمَّدٍ في الذِّمِّيِّ يَسُبُّ ثُمَّ يُسْلِمُ روَايَتَيْنِ في دَرْءِ القَتْلِ عَنْهُ بإسْلامِه. وقالَ ابْنُ سَحْنُونَ: وحَدُّ القَذْفِ وشِبْهُه مِنْ حُقُوقِ العِبَادِ لا يُسْقِطُهُ عَنِ الذِّمِّيِّ إِسْلامُهُ؛ وإِنَّمَا يَسْقُطُ عَنْهُ بإسْلامِه حُدُودُ الله، فأَمَّا حَدُّ القَذْفِ فحَقٌّ لِلْعِبَادِ، كانَ ذلكَ لِنَبِيٍّ أَوْ غَيْرِه، فأَوْجَبَ عَلَى الذِّمِّيِّ إذا قَذَفَ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ أَسْلَمَ حَدَّ القَذْفِ، ولَكِنِ انْظُرْ مَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِ، هَلْ حَدُّ القَذْفِ في حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وهُوَ القَتْلُ لِزِيَادَةِ حُرْمَةِ النَّبِيِّ على غَيْرِه؟ أَمْ هَلْ يَسْقُطُ القَتْلُ بإسْلامِه، ويُحَدُّ ثَمانِينَ؟ فتَأَمَّلْهُ!!

***

قوله (شُهِدَ عَلَيْه): بصيغةِ المَجْهُولِ.

قوله (كِنَانَةَ): بكسرِ الكافِ.

قوله (ثُمَّ حَرَّقَ جُثَّتَه): -بضَمِّ الجيمِ وتشديدِ المُثَلَّثَةِ- أي جيفَتَه.

قوله (ولَقَدْ كُتِبَ): بصِيغةِ المجهُولِ.

قوله (ابنُ لُبَابَةَ): بضَمِّ اللَّامِ وبموَحَّدتينِ.

قوله (أبو القاسمِ ابنُ الجَلَّابِ): بفتحِ الجيمِ وتشديدِ اللَّامِ.

قوله (ولا يُسْتَتَابُ): أَيْ لا تُقْبَلُ تَوْبَتُه.

قوله (فأَوْجَبَ... إلخ): أَيْ أَوْجَبَ اللهُ وَرسُولُه على الذِّمِّيِّ.

***

فَصْلٌ في ميراثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، وغُسْلِهِ، والصَّلَاةِ عَلَيْهِ

اختَلَفَ العُلَماءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في مِيرَاثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ، فذَهَبَ سَحْنُونُ إِلَى أَنَّه لِجَماعةِ المسْلِمينَ مِنْ قِبَلِ أَنَّ شَتْمَ النبيِّ ﷺ كُفْرٌ يُشْبِهُ كُفْرَ الزَّنْدَقَةِ، وقالَ أَصْبَغُ: مِيراثُه لِوَرَثَتِه مِنَ المسْلِمينَ إنْ كانَ مُسْتَتِرًا بذلكَ، وإنْ كَانَ مُظْهِرًا لَه، مُسْتَهِلًّا بِه فميراثُه لِلمُسْلِمِينَ، ويُقْتَلُ على كُلِّ حَالٍ، ولا يُسْتَتَابُ.

قالَ أَبُو الحَسَنِ القابِسِيُّ: إنْ قُتِلَ وهُوَ مُنْكِرٌ لِلشَّهادَةِ فالحُكْمُ في مِيراثِه على ما أَظْهَرَ مِنْ إقرارِه -يَعْنِي لِوَرَثَتِهِ-، والقَتْلُ حَدٌّ ثَبَتَ عَلَيْه لَيْسَ مِنَ المِيراثِ في شَيْءٍ، وكذلكَ لَوْ أَقَرَّ بالسَّبِّ، وأَظْهَرَ التَّوْبَةَ يُقْتَلُ؛ إذْ هُوَ حَدُّه، وحُكْمُهُ في مِيراثِهِ وسَائِرِ أَحْكامِهِ حُكْمُ الإِسْلامِ، ولَوْ أَقَرَّ بالسَّبِّ، وتَمادَى عَلَيْهِ، وأَبَى التَّوْبَةَ مِنْهُ، فقُتِلَ على ذلكَ، كَانَ كَافِرًا، ومِيراثُه لِلمُسْلِمِينَ، وَلا يُغَسَّلُ، ولا يُصَلَّى عَلَيْهِ، ولا يُكَفَّنُ، وتُسْتَرُ عَوْرَتُه، ويُوارَى كَمَا يُفْعَلُ بالكُفَّارِ.

وقَوْلُ الشَيْخِ أَبِي الحَسَنِ في المُجاهِرِ المُتَمادِي بَيِّنٌ، لا يُمْكِنُ الخِلافُ فِيهِ؛ لِأَنَّه كافِرٌ، مُرْتَدٌّ، غَيْرُ تائِبٍ ولا مُقْلِعٍ، وهُوَ مِثْلُ قَوْلِ أَصْبَغَ، وكذلكَ في كِتابِ ابنِ سَحْنُونَ في الزِّنْدِيقِ يَتَمادَى علَى قَوْلِه، ومِثْلُه لِابْنِ القَاسِمِ في «العُتْبِيَّةِ»، ولِجَماعةٍ مِنْ أَصْحابِ مالكٍ في كِتابِ ابنِ حَبِيبٍ فِيمَنْ أَعْلَنَ كُفْرَهُ مِثْلُه.

قالَ ابْنُ القاسِمِ: وحُكْمُه حُكْمُ المُرْتَدِّ، لا يَرِثُهُ وَرَثَتُه مِنَ المُسْلِمِينَ ولا مِنْ أَهْلِ الدِّينِ الذي ارْتَدَّ إِلَيْهِ، ولا تَجُوزُ وَصَايَاهُ، ولا عِتْقُهُ -وقالَه أَصْبَغُ-، قُتِلَ على ذَلِكَ أَوْ مَاتَ عَلَيْه.

وقالَ أَبُو محمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ: وإنَّما يُخْتَلَفُ في مِيراثِ الزِّنْدِيقِ الذي يَسْتَهِلُّ بالتَّوْبَةِ، فلَا تُقْبَلُ مِنْهُ، فأَمَّا المُتَمادِي فلا خِلَافَ في أَنَّه لا يُورَثُ. وقالَ أَبُو محمَّدٍ فِيمَنْ سَبَّ اللهَ تعالى، ثُمَّ مَاتَ ولَمْ تُعَدَّلْ عَلَيْه بَيِّنَةٌ، أَوْ لَمْ تُقْبَلْ: إنَّه يُصَلَّى عَلَيْه.

قولـه (اختَلَفَ العُلَماءُ): أي المالكيَّةُ.

قولـه (مِنْ قِبَلِ): -بكَسْرِ القافِ وفَتْحِ المُوَحَّدَةِ- أي مِنْ جِهَةِ.

قولـه (مُسْتَهِلًّا): أيْ مُعْلِنًا.

قولـه (إذْ هُوَ حَدُّه): أيِ القَتلُ حَدُّه.

قولـه (وسَائِرِ أحْكامِه حُكْمُ الإسلامِ): مِنَ الصَّلاةِ عَلَيْهِ، وتَكفينِه، ودَفْنِه في قُبُورِ المُسْلِمِينَ.

قولـه (كَمَا يُفْعَلُ بالكُفَّارِ): أيْ مِنْ دَفْنِهِم في حُفْرةٍ.

قولـه (ولا تَجُوزُ وَصَايَاه... إلخ): أيْ لخروجِ مالِه بِرِدَّتِه [عَنْ مِلْكِه].

قولـه (فلَا تُقْبَلُ... إلخ): أيْ توبتُه في الظّاهِرِ؛ وإنْ قُبِلَتْ عِنْدَ اللهِ إنْ كانَ صادقًا.

قولـه (ولَمْ تُعَدَّلْ): -بتشديدِ الدَّالِ المفتوحةِ- أيْ لَمْ تُقَمْ.

قولـه (أنَّه يُصَلَّى عَلَيْهِ): أي احْتِياطًا.

ورَوَى أَصْبَغُ عَنِ ابْنِ القَاسِمِ فِي كِتَابِ ابْنِ حَبِيبٍ، فيمَنْ كَذَّبَ بالنبيِّ ﷺ أَوْ أَعْلَنَ دِينًا مِمَّا يُفَارِقُ بِهِ الإِسْلَامَ أَنَّ مِيرَاثَهُ لِلمُسْلِمِينَ، وقالَ بقَوْلِ مالِكٍ: «إِنَّ مِيرَاثَ المُرْتَدِّ لِلمُسْلِمِينَ؛ فلا يرِثُه وَرَثَتُه» رَبِيعَةُ، والشافعيُّ، وأَبو ثَوْرٍ، وَابْنُ أَبِي لَيْلَى، واخْتُلِفَ فيه عَنْ أَحْمَدَ.

وقالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طالِبٍ، وابنُ مسْعُودٍ، وابنُ المسَيَّبِ، والحَسَنُ، والشَّعْبِيُّ، وعُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، والحَكَمُ، والأَوْزَاعِيُّ، واللَّيْثُ، وإِسْحَاقُ، وأَبُو حَنِيفَةَ: يَرِثُهُ وَرَثَتُه مِنَ المسْلِمِينَ، وقِيلَ: ذَلِكَ فِيمَا كَسَبَه قَبْلَ ارتِدَادِهِ، ومَا كَسَبَهُ في الارتدادِ فَلِلْمُسْلِمِينَ.

وتَفْصِيلُ أَبِي الحَسَنِ في بَاقِي جَوَابِهِ حَسَنٌ بَيِّنٌ، وهُوَ عَلَى رَأْيِ أَصْبَغَ، وخِلَافُ قَوْلِ سَحْنُونَ، واخْتِلافُهُما عَلَى قَوْلِ مالِكٍ في مِيرَاثِ الزِّنْدِيقِ، فمَرَّةً وَرَّثَه ورَثَتَه مِنَ المُسْلِمِينَ، قامَتْ عَلَيْهِ بذلكَ بَيِّنَةٌ فأَنْكَرَها، أَوِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ وأَظْهَرَ التَّوْبَةَ، وقالَه أَصْبَغُ ومحمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وغَيْرُ واحِدٍ مِنْ أَصْحابِهِ؛ لِأَنَّه مُظْهِرٌ لِلإِسْلامِ بإِنكارِهِ أَوْ تَوْبَتِهِ، وحُكْمُه حُكْمُ المنافِقِينَ الَّذِينَ كانُوا على عَهْدِ رسُولِ اللهِ ﷺ.

ورَوَى ابنُ نافعٍ عَنْه في «العُتْبِيَّةِ» وكِتابِ محمَّدٍ أَنَّ مِيراثَه لِجَماعةِ المسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ مَالَه تَبَعٌ لِدَمِهِ، وقالَ بِه أَيْضًا جَماعةٌ مِنْ أَصْحابِه، وقالَه أَشْهَبُ، والمُغِيرَةُ، وعَبْدُ المَلِكِ، ومحمَّدٌ، وسَحْنُونُ. وذَهَبَ ابْنُ القاسِمِ في «العُتْبِيَّةِ» إِلَى أَنَّه إِنِ اعْتَرَفَ بِمَا شُهِدَ عَلَيْهِ بِه وتَابَ فقُتِلَ، فَلا يُورَثُ، وإِنْ لَمْ يُقِرَّ حَتَّى قُتِلَ أَوْ مَاتَ وُرِثَ، قالَ: وكذلكَ كُلُّ مَنْ أَسَرَّ كُفْرًا فإِنَّهُم يَتَوارَثُونَ بِوِرَاثَةِ الإِسْلامِ.

وسُئِلَ أَبُو القَاسِمِ بْنُ الكَاتِبِ عَنِ النَّصْرانِيِّ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فيُقْتَلُ: هَلْ يَرِثُهُ أَهْلُ دِينِه أَمِ المُسْلِمُونَ؟ فأَجَابَ أَنَّه لِلمسلِمِينَ لَيْسَ على جِهَةِ المِيراثِ؛ لِأَنَّه لا تَوَارُثَ بَيْنَ أَهْلِ مِلَّتَيْنِ، ولَكِنْ لِأَنَّه مِنْ فَيْئِهِمْ لِنَقْضِهِ العَهْدَ، هَذا مَعْنَى قَوْلِهِ واخْتِصارُهُ.

***

قوله (وابنُ المُسَيَّبِ والحَسَنُ): أي البَصْريُّ، وكِلاهما مِن أفاضِلِ التابِعِينَ.

قوله (واختِلافُهُما): أي أَصْبَغَ وسَحْنُونَ.

قوله (وَرَّثَه... إلخ): -بتشديد الرّاءِ- أيْ جَعَلَ وُرَّاثَه وَرَثَتَه... إلخ.

قوله (وحُكْمُه حُكْمُ المنافِقِينَ): وهُمُ المظهِرُونَ الإسْلامَ والمضمِرُونَ الكُفْرَ.

قوله (والمُغِيرةُ): بضَمِّ الميمِ.

***

البَابُ الثَّالِثُ: في حُكْمِ مَنْ سَبَّ اللهَ تعالى، ومَلائكَتَهُ، وأَنْبِيَاءَهُ، وكُتُبَهُ، وآلَ النَّبِيِّ ﷺ، وأَزْوَاجِه، وصَحْبَه

لا خِلَافَ أَنَّ سَابَّ الله تعالى مِنَ المُسْلِمِينَ كافِرٌ، حَلَالُ الدَّم، واختُلِفَ في اسْتِتَابَتِهِ؛ فقالَ ابْنُ القَاسِمِ في «المَبْسُوطِ»، وفي كِتَابِ ابنِ سَحْنُونَ ومحمَّدٍ -ورَوَاهُ ابْنُ القاسِمِ عَنْ مَالِكٍ في كِتَابِ إِسْحاقَ بْنِ يَحْيَى-: مَنْ سَبَّ اللهَ تعالى مِنَ المُسْلِمِينَ قُتِلَ ولَمْ يُسْتَتَبْ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ افْتَرَى عَلَى الله بارْتِدَادِهِ إلَى دِينٍ دَانَ بِهِ وأَظْهَرَهُ؛ فيُسْتَتَابُ، وإِنْ لَمْ يُظْهِرْهُ لَمْ يُسْتَتَبْ، وقالَ في «المَبْسُوطَةِ» مُطَرِّفٌ وعَبدُ المَلِكِ مِثْلَه.

وقالَ المَخْزُومِيُّ، ومحمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وابْنُ أَبِي حَازِمٍ: لا يُقْتَلُ المُسْلِمُ بالسَّبِّ حَتَّى يُسْتَتَابَ، وكَذلِكَ اليَهُودِيُّ والنَّصْرَانِيُّ، فإِنْ تَابُوا قُبِلَ مِنْهُمْ، وإِنْ لَمْ يَتُوبُوا قُتِلُوا، ولا بُدَّ مِنَ الاسْتِتَابةِ، وذَلِكَ كُلُّه كالرِّدَّةِ، وهُوَ الَّذِي حَكَاهُ القَاضِي ابْنُ نَصْرٍ عَنِ المَذْهَبِ.

وأَفْتَى أَبُو محمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- فِيمَا حُكِيَ عَنْه في رَجُلٍ لَعَنَ رَجُلًا ولَعَنَ اللهَ، فقَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَلْعَنَ الشَّيْطَانَ، فزَلَّ لِسَانِي، فقَالَ: يُقْتَلُ بظَاهِرِ كُفْرِهِ، ولا يُقْبَلُ عُذْرُهُ، وأَمَّا فِيمَا بَيْنَهُ وبَيْنَ الله تعالى فمَعْذُورٌ.

واخْتَلَفَ فُقَهاءُ قُرْطُبَةَ في مَسْأَلَةِ هَارُونَ بْنِ حَبِيبٍ أَخِي عَبْدِ المَلِكِ الفَقِيهِ، وكَانَ ضَيِّقَ الصَّدْرِ، كَثِيرَ التَّبَرُّمِ، وكَانَ قَدْ شُهِدَ عَلَيْهِ بشَهَادَاتٍ، مِنْهَا: أَنَّه قالَ عِنْدَ اسْتِقْلالِه مِنْ مَرَضٍ: لَقِيتُ في مَرَضِي هَذا ما لَوْ قَتَلْتُ أَبَا بَكْرٍ وعُمَرَ لَمْ أَسْتَوْجِبْ هَذا كُلَّهُ!

فأَفْتَى إِبْراهيمُ بْنُ حُسَيْنِ بْنِ خالدٍ بقَتْلِه، لِأَنَّ مُضَمَّنَ قَولِه تَجْوِيرٌ للهِ تعالى، وتَظَلُّمٌ مِنْه، والتَّعْرِيضُ فِيهِ كالتَّصْرِيحِ.

وأَفْتَى أَخُوهُ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ، وإبراهيمُ بنُ حُسَيْنِ بْنِ عَاصِمٍ، وسَعِيدُ بْنُ سُلَيْمانَ القاضي بطَرْحِ القَتْلِ عَنْهُ؛ إِلَّا أَنَّ القَاضِيَ رَأَى عَلَيْهِ التَّثْقِيلَ في الحَبْسِ، والشِّدَّةَ في الأَدَبِ؛ لِاحْتِمالِ كَلَامِه، وصَرْفِه إلى التَّشَكِّي.

قوله (حَتَّى يُسْتَتَابَ): أي على طريقِ الوجوبِ أوِ الاسْتحبابِ كَما عَلَيْه الجُمهورُ.

قوله (ولا يُقبَلُ عُذْرُه): أي لِاحتمالِ كَذِبِه مَعَ ظُهُورِ كُفْرِهِ.

قوله (قُرْطُبَةَ): بضَمِّ القَافِ والطاءِ بَيْنَهما راءٌ سَاكِنَةٌ.

قوله (لَمْ أَسْتَوْجِبْ هَذا): أي المَرَضَ الشديدَ.

قوله (وأَنَّ مُضَمَّنَ قَوْلِهِ): -بتشديدِ الميمِ الثانيةِ المفتوحَةِ- أيْ مَضْمُونَه.

قوله (رَأَى عَلَيْه التثقيلَ): أي التضييقَ والتنكيلَ.

قوله (إلى التَّشَكِّي): أي إظهارِ الشِّكايةِ مِنَ الخالقِ إلى المخلوقِ.

فَوَجْهُ مَنْ قالَ في سَابِّ الله تعالى بالاسْتِتَابَةِ أَنَّه كُفْرٌ ورِدَّةٌ مَحْضَةٌ، لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهَا حَقٌّ لِغَيْرِ الله تعالى، فأَشْبَهَ قَصْدَ الكُفْرِ بِغَيْرِ سَبِّ الله تعالى، وإظْهَارَ الانْتِقَالِ مِنْ دِينٍ إلى دِينٍ آخَرَ مِنَ الأَدْيَانِ المُخالِفَةِ لِلْإِسْلامِ.

ووَجْهُ تَرْكِ اسْتِتَابَتِهِ أَنَّه لَمَّا ظَهَرَ مِنْه ذلكَ بَعْدَ إظْهارِ الإسْلامِ قَبْلُ اتَّهَمْنَاهُ، وظَنَنَّا أَنَّ لِسَانَه لَمْ يَنْطِقْ بِه إلَّا وَهُوَ مُعْتَقِدٌ لَهُ؛ إِذْ لا يَتَسَاهَلُ في هَذَا أَحَدٌ، فحُكِمَ لَه بِحُكْمِ الزِّنْدِيقِ، ولَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ.

وإذَا انْتَقَلَ مِنْ دِينٍ إلى دِينٍ آخَرَ، وأَظْهَرَ السَّبَّ بمَعْنَى الارْتِدَادِ، فهَذَا قَدْ عُلِمَ أَنَّه قَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، بِخِلَافِ الأَوَّلِ المُسْتَمْسِكِ بِه، وَحُكْمُ هَذَا حُكْمُ المُرْتَدِّ، يُسْتَتَابُ على مَشْهُورِ مَذَاهِبِ أَكْثَرِ أَهْلِ العِلْمِ، وهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وأَصْحابِهِ على مَا بَيَّنَّاهُ قَبْلُ، وَذَكَرْنَا الخِلَافَ في فُصُولِهِ.

***

قوله (اتَّهَمْنَاه): -بتشديد التاءِ- أيْ أَوْقَعْنَاهُ في التُّهَمةِ بالكُفْرِ.

قوله (رِبْقَةَ الإسْلامِ): -بكَسْرِ الراءِ وسُكونِ الموحَّدةِ وفتحِ القافِ- أيْ قَيدَه وتَعَلُّقَه مِنْ عُنُقِه، فيُستَتابُ، فإنْ تابَ، وإلَّا قُتِلَ.

قوله (المُسْتَمْسِكِ بِهِ): أي بالإسلامِ.

***

فَصْلٌ [في حُكْمِ مَنْ يُضيفُ إلى اللهِ تعالى ما لا يَليقُ بِه، على طريقِ التأويلِ والخَطإِ المُفْضي إلى الهوى والبِدعة]

وأَمَّا مَنْ أَضَافَ إِلَى الله تعَالى مَا لا يَلِيقُ بِهِ، لَيْسَ علَى طَرِيقِ السَّبِّ، ولا الرِّدَّةِ وقَصْدِ الكُفْرِ؛ ولَكِنْ علَى طَرِيقِ التَّأْوِيلِ والاجْتِهَادِ والخَطَإِ المُفْضِي إِلَى الهَوَى والبِدْعةِ مِنْ تَشْبِيهٍ، أَوْ نَعْتٍ بِجَارِحَةٍ، أَوْ نَفْيِ صِفَةِ كَمَالٍ، فهَذَا مِمَّا اختَلَفَ السَّلَفُ والخَلَفُ في تكْفِيرِ قائِلِهِ ومُعْتَقِدِهِ، واختَلَفَ قَوْلُ مالِكٍ وأَصْحَابِهِ في ذلِكَ.

ولَمْ يَخْتَلِفُوا في قِتالِهِمْ إذا تَحَيَّزُوا فِئَةً، وأَنَّهُمْ يُسْتَتَابُونَ، فإِنْ تابُوا، وإِلَّا قُتِلُوا، وَإِنَّما اخْتَلَفُوا في المنْفَرِدِ مِنْهُمْ، فأَكْثَرُ قَوْلِ مالِكٍ وأَصْحابِهِ تَرْكُ القَوْلِ بتكْفِيرِهِمْ، وتَرْكُ قَتْلِهِمْ، والمُبالَغَةُ في عُقوبتِهِمْ، وإطالَةُ سَجْنِهِمْ حَتَّى يَظْهَرَ إِقْلاعُهُمْ، وتَسْتَبِينَ تَوْبَتُهُمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ بِصَبِيغٍ، وهَذا قَوْلُ محمَّدِ بْنِ المَوَّازِ في الخَوارِجِ، وقَوْلُ عبْدِ الملِكِ بْنِ الماجِشُونِ، وقَوْلُ سَحْنُونَ في جَمِيعِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ، وبِهِ فُسِّرَ قَوْلُ مَالِكٍ في «المُوَطَّإِ»، وما رَوَاهُ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، وعَنْ جَدِّهِ وعَمِّهِ مِنْ قَوْلِهِمْ في القَدَرِيَّةِ: يُسْتَتَابُونَ، فإِنْ تابُوا، وإِلَّا قُتِلُوا.

وقَالَ عِيسَى عَنِ ابْنِ القَاسِمِ في أَهْلِ الأَهْوَاءِ مِنَ الإِبَاضِيَّةِ والقَدَرِيَّةِ، وشِبْهِهِمْ مِمَّنْ خالَفَ الجَماعةَ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ والتحريفِ لِتَأْوِيلِ كِتَابِ الله تعالى: يُسْتَتَابُونَ، أَظْهَرُوا ذلِكَ أَوْ أَسَرُّوهُ، فإِنْ تابُوا، وإِلَّا قُتِلُوا، ومِيراثُهُمْ لِوَرَثَتِهِمْ.

وقَالَ مِثْلَهُ أَيْضًا ابْنُ القَاسِمِ في كِتَابِ محمَّدٍ في أَهْلِ القَدَرِ وغَيْرِهِمْ، قَالَ: واسْتِتَابَتُهُمْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: «اتْرُكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»، ومِثْلُه لـه في «المَبْسُوطِ» في الإِبَاضِيَّةِ والقَدَرِيَّةِ، وسَائِرِ أَهْلِ البِدَعِ، قَالَ: وهُمْ مُسْلِمُونَ، وإِنَّما قُتِلُوا لِرَأْيِهِمُ السُّوءِ، وبِهَذا عَمِلَ عُمَرُ ابْنُ عَبْدِ العَزِيزِ.

قولـه (أَوْ نَفْيِ صِفَةِ كَمالٍ): كنَفْيِ المعتزلةِ الصِّفَاتِ القديمةَ الذاتيةَ.

قولـه (واختَلَفَ قولُ مالِكٍ... إلخ): أي في أنَّه هَلْ يُكَفَّرُ مُعتَقِدُه أمْ لا؟

قولـه (حَتَّى يَظْهَرَ إقلاعُهُم): أي إعراضُهم عَنْه.

قولـه (كَما فَعَلَ عُمَرُ بصَبِيغٍ): بفتحِ الصادِ المهْمَلةِ وكسرِ الموحَّدةِ وسُكونِ الياءِ التحتيَّةِ فغَيْنٍ مُعْجَمةٍ.

قولـه (في جَميعِ أَهْلِ الأَهْواءِ): كالرافِضَةِ وغَيْرِهِمْ مِنَ المُبتَدِعةِ كالقَدَرِيةِ والمُرْجِئَةِ مِمَّنْ خالَفَ الكِتَابَ والسُّنَّةَ وإجْماعَ الأُمَّةِ.

قولـه (في القَدَريةِ): بفتحِ المُهْمَلةِ وسُكونِها.

قولـه (مِنَ الإباضِيَّةِ): -بكَسْرِ الهَمزةِ فمُوَحَّدةٍ مُخَفَّفةٍ بَعْدَها أَلِفٌ فضادٌ مُعجَمةٌ فياءُ نِسْبَةٍ- طائفةٌ مِن الخوارِجِ.

قولـه (وشِبْهِهم): -بفتحِ المعجَمةِ والموحَّدةِ، وبكَسْرٍ فسُكونٍ- أيْ وأمثالِهِمْ.

قولـه (ومِيراثُهُمْ لِوَرَثَتِهِمْ): إجْماعًا؛ لِأَنَّ قَتْلَهمْ إنَّما هُوَ لِارتكابِهِمُ البِدْعةَ زَجْرًا لَهُمْ عَنْها.

قولـه (اتْرُكُوا ما أنتُمْ عَلَيْه): أيْ مِنَ الاعتقادِ بالفاسِدِ، والعَمَلِ الكاسِدِ.

قَالَ ابْنُ القاسِمِ: مَنْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسى تَكْلِيمًا» اسْتُتِيبَ، فَإِنْ تَابَ، وإِلَّا قُتِلَ.

وابْنُ حَبِيبٍ وغَيْرُهُ مِنْ أَصْحابِنَا يَرَى تَكْفيرَهُمْ وتَكفيرَ أَمْثالِهِمْ مِنَ الخَوارِجِ والقَدَرِيَّةِ والمُرْجِئَةِ، وقَدْ رُوِيَ أَيْضًا عَنْ سَحْنُونَ مِثْلُه فِيمَنْ قَالَ: «لَيْسَ للهِ كَلامٌ» أَنَّه كافِرٌ.

واخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ مَالِكٍ، فأَطْلَقَ فِي رِوَايَةِ الشَّامِيِّيْنَ، أَبِي مُسْهِرٍ ومَرْوَانَ بْنِ محمَّدٍ الطَّاطَرِيِّ، الكُفْرَ عَلَيْهِمْ.

وقَدْ شُووِرَ فِي زَوَاجِ القَدَرِيِّ، فَقَالَ: لا تُزَوِّجْه؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ورُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا: «أَهْلُ الأَهْواءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ»، وقَالَ: مَنْ وَصَفَ شَيْئًا مِنْ ذَاتِ اللهِ تعالى، وأَشَارَ إِلى شَيْءٍ مِنْ جَسَدِه، يَدٍ أَوْ سَمْعٍ أَوْ بَصَرٍ قُطِعَ ذَلِكَ مِنْه؛ لِأَنَّه شَبَّهَ اللهَ بِنَفْسِهِ، وقَالَ فِيمَنْ قَالَ: «القُرْآنُ مَخْلُوقٌ»: كافِرٌ؛ فاقْتُلُوهُ، وقَالَ أَيْضًا فِي رِوَايَةِ ابنِ نَافِعٍ: يُجْلَدُ، ويُوجَعُ ضَرْبًا، ويُحْبَسُ حَتَّى يَتُوبَ، وَفِي رِوَايَةِ بِشْرِ بْنِ بَكْرٍ التِّنِّيسِيِّ عَنْهُ: يُقْتَلُ، ولا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

قَالَ القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ البَرْنَكَانِيُّ، والقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ العِرَاقِيِّينَ مِنْ أَصْحَابِنَا: جَوابُهُ مُخْتَلِفٌ، يُقْتَلُ المُسْتَبْصِرُ الدَّاعِيَةُ، وعَلَى هَذَا الخِلَافِ اخْتَلَفَ قَوْلُهُ فِي إِعَادَةِ الصَّلاةِ خَلْفَهُمْ.

وحَكَى ابنُ المُنْذِرِ عَنِ الشافعيِّ: لا يُسْتَتَابُ القَدَرِيُّ. وأَكْثَرُ أَقْوَالِ السَّلَفِ تَكفيرُهُمْ، ومِمَّنْ قَالَ به اللَّيْثُ، وابْنُ عُيَيْنَةَ، وابْنُ لَهِيعَةَ، ورُوِيَ عَنْهُمْ ذلك فِيمَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وقالَهُ ابْنُ المُبارَكِ، والأَوْدِيُّ، ووَكِيعٌ، وحَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، وأَبُو إِسْحاقَ الفَزَارِيُّ، وهُشَيْمٌ، وعَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ فِي آخَرِينَ، وهُوَ مِنْ قَوْلِ أَكْثَرِ المُحَدِّثِينَ والفُقَهاءِ والمُتَكَلِّمِينَ فِيهِمْ، وَفِي الخَوارِجِ والقَدَرِيَّةِ،

قوله (وإِلَّا قُتِلَ): لِكُفْرِهِ بالإِجْمَاعِ؛ لِإِنكارِهِ تَكْلِيمَه مَعَ وُرُودِه فِي القرآنِ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

قوله (والمُرْجِئَةِ): -بالهَمْزِ واليَاءِ- اسْمُ فاعلٍ، وهُمْ فِرْقَةٌ يَزْعُمُونَ أَنَّه لا يَضُرُّ مَعَ الإِيمانِ مَعْصِيَةٌ؛ كَمَا أَنَّه لا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طاعَةٌ.

قوله (الطَّاطَرِيِّ): -بفتحِ الطَّاءَيْنِ المُهْمَلَتيْنِ- كانَ يَبِيعُ ثِيَابًا بِيضًا يقالَ لها الطَّاطَرِيَّةُ.

قوله (قُطِعَ ذلك مِنْه): أَيْ سِيَاسَةً ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

قوله (التِّنِّيسِيِّ): -بِكَسْرِ الفوقيَّةِ والنونِ المشدَّدةِ المكسُورةِ فتحتيَّةٍ سَاكنةٍ وسِينٍ مُهْمَلَةٍ فتحتيةٍ- نِسْبَةٌ إِلَى مَوْضِعٍ قُرْبَ دُمياطَ أَكَلَه البحرُ المالحُ.

قوله (البَرْنَكانِيُّ): -بِمُوَحَّدةٍ مفتوحَةٍ فراءٍ سَاكنةٍ فنونٍ مفتوحَةٍ- نِسْبَةٌ إِلى ضَرْبٍ مِنَ الأَكْسِيَةِ.

قوله (لَهِيعَةَ): بفتحِ اللَّامِ وكَسْرِ الهاءِ وعَيْنٍ.

قوله (والأَوْدِيُّ): -بفتحِ الهَمزةِ وسُكونِ الواوِ- مَنسُوبٌ إلى قَبِيلةِ «أَوْدٍ»، و(غِيَاثٍ): بكسرِ المعجمةِ بَعْدَهَا تحتيَّةٌ. و(الفَزَارِيُّ): بفَتْحِ الفَاءِ وَالزاي.

وأَهْلِ الأَهْواءِ المُضِلَّةِ، وأَصْحَابِ البِدَعِ المُتَأَوِّلِينَ، وهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وكَذَلِكَ قالُوا في الوَاقِفَةِ والشَّاكَّةِ في هَذِهِ الأُصُولِ.

ومِمَّنْ رُوِيَ عَنْه مَعْنَى القَوْلِ الآخَرِ بِتَرْكِ تَكْفِيرِهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وابْنُ عُمَرَ، والحَسَنُ البَصْرِيُّ، وهُوَ رَأْيُ جَمَاعَةٍ مِنَ الفُقَهَاءِ النُّظَّارِ والمُتَكَلِّمِينَ، واحْتَجُّوا بِتَوْرِيثِ الصَّحابةِ والتَّابِعِينَ وَرَثَةَ أَهْلِ حَرُوراءَ ومَنْ عُرِفَ بالقَدَرِ مِمَّنْ مَاتَ مِنْهُمْ، ودَفْنِهِمْ في مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ، وجَرْيِ أَحْكَامِ الإِسْلامِ عَلَيْهِمْ.

قَالَ إِسْماعِيلُ القَاضي: وإِنَّما قَالَ مَالِكٌ في القَدَرِيَّةِ وسَائِرِ أَهْلِ البِدَعِ: «يُسْتَتَابُونَ، فَإِنْ تَابُوا، وَإِلَّا قُتِلُوا»؛ لِأَنَّه مِنَ الفَسَادِ في الأرضِ، كَمَا قَالَ في المُحَارِبِ: «إِنْ رَأَى الإِمامُ قَتْلَهُ -وإِنْ لَمْ يَقْتُلْ- قَتَلَهُ»، وفَسَادُ المُحَارِبِ إِنَّما هُوَ في الأَمْوالِ ومَصَالِحِ الدُّنْيا، وإِنْ كَانَ قَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا في أَمْرِ الدِّينِ مِنْ سَبيلِ الحَجِّ والجِهادِ، وفَسَادُ أَهْلِ البِدَعِ مُعْظَمُهُ عَلى الدِّينِ، وقَدْ يَدْخُلُ في أَمْرِ الدُّنْيا بِمَا يُلْقُونَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ مِنَ العَدَاوَةِ.

***

قوله (النُّظَّارِ): -بضمِّ النونِ وتشديدِ الظاءِ- جَمْعُ «الناظِرِ».

قوله (حَرُوراءَ): -بفتحِ المُهْمَلةِ وضمِّ الراءِ الأُولَى، يُمَدُّ ويُقْصَرُ- مَوْضِعٌ بالعِرَاقِ.

قوله (بِمَا يُلْقُونَ): بضمِّ الياءِ والقافِ.

***

فَصْلٌ فِي تَحقِيقِ القَوْلِ فِي إِكْفَارِ المُتَأَوِّلِينَ

قَدْ ذَكَرْنَا مَذاهِبَ السَّلَفِ في إِكْفَارِ أَصْحَابِ البِدَعِ والأَهْوَاءِ المُتَأَوِّلِينَ مِمَّنْ قَالَ قَوْلًا يُؤَدِّيهِ مَسَاقُه إلى كُفْرٍ هُوَ إِذَا وُقِفَ عَلَيْه لا يَقُولُ بِمَا يُؤَدِّيهِ قَوْلُه إِلَيْهِ.

وعلَى اخْتِلَافِهِم اخْتَلَفَ الفُقَهاءُ والمُتكَلِّمُونَ في ذلكَ: فمِنْهُمْ مَنْ صَوَّبَ التَّكْفِيرَ الَّذي قَالَ بِهِ الجُمْهُورُ مِنَ السَّلَفِ، ومِنهُمْ مَنْ أَبَاهُ ولَمْ يَرَ إِخْراجَهُمْ مِنْ سَوَادِ المُسْلِمِينَ، وهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الفُقَهاءِ والمتكَلِّمِينَ، وقالُوا: هُمْ فُسَّاقٌ، عُصَاةٌ، ضُلَّالٌ، ونُوَارِثُهُمْ مِنَ المسْلِمِينَ، ونَحْكُمُ لَهُم بأحْكامِهِمْ، ولِهَذا قالَ سَحْنُونُ: «لا إِعَادَةَ على مَنْ صَلَّى خَلْفَهُمْ في وَقْتٍ ولا غَيْرِه»، قالَ: وهُوَ قَوْلُ جَمِيعِ أَصْحَابِ مالِكٍ كُلِّهِمْ، مِنْهُمُ المُغِيرَةُ، وابْنُ كِنَانَةَ، وأَشْهَبُ، قالَ: لِأَنَّه مُسْلِمٌ، وذَنْبُه لَمْ يُخْرِجْهُ مِنَ الإِسْلَامِ.

واضْطَرَبَ آخَرُونَ في ذلكَ، ووَقَفُوا عَنِ القَوْلِ بالتَّكْفِيرِ أَوْ ضِدِّه، واخْتِلَافُ قَوْلَيْ مالِكٍ في ذلكَ وتَوَقُّفُه عَنْ إِعَادَةِ الصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ مِنْه، وإِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذا ذَهَبَ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ، إِمَامُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ والحَقِّ، وقالَ: إِنَّهَا مِنَ المُعْوِصَاتِ؛ إِذِ القَوْمُ لَمْ يُصَرِّحُوا باسْمِ الكُفْرِ، وإِنَّمَا قالُوا قَوْلًا يُؤَدِّي إِلَيْهِ، واضْطَرَبَ قَوْلُه في المَسْأَلَةِ عَلَى نَحْوِ اضْطِرَابِ قَوْلِ إِمَامِه مالِكِ بْنِ أَنَسٍ، حَتَّى قالَ في بَعْضِ كَلَامِه: «إِنَّهُم علَى رَأْيِ مَنْ كَفَّرَهُمْ بالتَّأْوِيلِ لا تَحِلُّ مُناكَحَتُهُمْ، ولا أَكْلُ ذَبائِحِهِمْ، ولا الصَّلَاةُ علَى مَيِّتِهِمْ، ويُخْتَلَفُ في مُوَارَثَتِهِمْ علَى الخِلَافِ في مِيراثِ المُرْتَدِّ»، وقالَ أَيْضًا: «نُوَرِّثُ مَيِّتَهُمْ وَرَثَتَهُمْ مِنَ المسْلِمِينَ، ولا نُوَرِّثُهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ»، وأَكْثَرُ مَيْلِهِ إِلَى تَرْكِ التَّكْفِيرِ بالمَآلِ.

وكَذلكَ اضْطَرَبَ فِيه قَوْلُ شَيْخِهِ أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ، وأَكْثَرُ قَوْلِه تَرْكُ التَّكْفِيرِ، وأَنَّ الكُفْرَ خَصْلَةٌ واحِدَةٌ، وهُوَ الجَهْلُ بوُجُودِ البَارِي تعالى. وقالَ مَرَّةً: «مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ جِسْمٌ أَوِ المَسِيحُ أَوْ بَعْضُ مَنْ يَلْقَاهُ في الطَّرِيقِ، فلَيْسَ بعَارِفٍ بِه، وهُوَ كافِرٌ»، ولِمِثْلِ هَذا ذَهَبَ أَبُو المَعَالِي في أَجْوِبَتِه لِأَبِي محمَّدٍ عَبْدِ الحَقِّ، وكَانَ سَأَلَهُ عَنِ المَسْأَلَةِ، فاعْتَذَرَ له بِأَنَّ الغَلَطَ فِيهَا يَصْعُبُ؛ لِأَنَّ إِدْخَالَ كَافِرٍ في المِلَّةِ، أَوْ إِخراجَ مُسْلِمٍ عَنْهَا عَظِيمٌ في الدِّينِ.

وقالَ غَيْرُهُمَا مِنَ المحَقِّقِينَ: الذِي يَجِبُ الاحْتِرَازُ مِنَ التَّكْفِيرِ في أَهْلِ التَّأْوِيلِ؛ فإِنَّ

قوله (إذا وُقِفَ عَلَيْه): -بصيغة المجهول- أي إذا أُطْلِعَ على حقيقة أَمْرِه.

قوله (واضطَرَبَ آخَرُونَ): أيْ مِنْ أصْحَابِ مالِكٍ.

قوله (مِنَ المُعْوِصَاتِ): -بِضَمِّ الميمِ وكَسْرِ الوَاوِ المُخَفَّفَةِ- أي المُشْكِلَاتِ.

قوله (نُوَرِّثُ): بضَمِّ النونِ وتشديدِ الراءِ.

قوله (أَنَّ اللهَ جِسْمٌ): أيْ كالأجْسَامِ. قوله (أَوْ بَعْضُ مَنْ يَلْقَاه في الطَّرِيقِ): كَمَا تَصَوَّرَ إبليسُ فَوْقَ عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، وصَوَّرَ في خاطِرِ بَعْضِ المُرِيدِينَ أَنَّه الإلَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ.

اسْتِباحةَ دِمَاءِ المُصَلِّينَ المُوَحِّدِينَ خَطَرٌ، والخطَأ في تَرْكِ أَلْفِ كافرٍ أَهْوَنُ مِنَ الخطَإِ في سَفْكِ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمِ مُسْلِمٍ واحِدٍ، وَقَدْ قالَ ﷺ: (فإذا قالُوهَا -يَعْنِي الشَّهادَةَ- عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأموالَهُم إِلَّا بِحَقِّهَا، وحِسَابُهُمْ على الله)[1]؛ فالعِصْمَةُ مَقْطُوعٌ بِهَا مَعَ الشَّهادةِ، ولا تَرْتَفِعُ ويُسْتَبَاحُ خِلافُهَا إِلاَّ بقاطِعٍ، ولا قَاطِعَ مِنْ شَرْعٍ ولا قِيَاسٍ عَلَيْهِ.

وأَلْفَاظُ الأَحَادِيثِ الوارِدَةِ في البابِ مُعَرَّضَةٌ لِلتَّأْوِيلِ؛ فَما جاءَ مِنْهَا في التَّصْرِيحِ بِكُفْرِ «القَدَرِيَّةِ»، وقَوْلُه: (لَا سَهْمَ لَهُمْ في الإِسْلامِ)[2]، وتَسْمِيَتُه الرَّافِضَةَ بالشِّرْكِ، وإِطْلاقُ اللَّعْنَةِ عَلَيْهِمْ[3]، وكذلكَ في الخَوارِجِ وغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ، فقَدْ يَحْتَجُّ بِهَا مَنْ يَقُولُ بالتَّكْفِيرِ، وقَدْ يُجِيبُ الآخَرُ بِأَنَّه قَدْ وَرَدَ مِثْلُ هَذِهِ الأَلْفَاظِ في الحديثِ في غَيْرِ الكَفَرَةِ على طَرِيقِ التَّغْلِيظِ، وكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ، وإِشْراكٍ دُونَ إِشْرَاكٍ، وقَدْ وَرَدَ مِثْلُه في الرِّيَاءِ، وعُقُوقِ الوالِدَيْنِ والزُّورِ، وغَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وإذا كانَ مُحْتَمِلًا لِلأَمْرَيْنِ فلَا يُقْطَعُ على أَحَدِهِمَا إِلَّا بِدَلِيلٍ قَاطِعٍ. وقَوْلُه في الخَوارِجِ: (هُمْ مِنْ شَرِّ البَرِيَّةِ)[4]، وهَذِه صِفَةُ الكُفَّارِ، وقالَ: (شَرُّ قَتِيلٍ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ)[5]، وقالَ ﷺ: (فإذا وَجَدْتُمُوهُمْ فاقْتُلُوهُمْ قَتْلَ عَادٍ)[6]، وظاهِرُ هذا الكُفْرُ، لا سِيَّمَا مَعَ تَشْبِيهِهِمْ بِعَادٍ؛ فيَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يَرَى تَكْفِيرَهُمْ، فيَقُولُ لَهُ الآخَرُ:

---

(١) حديث (فإذا قالوها عصموا ...): تقدَّم [انظر ص٤١٨].

(٢) [أخرجه الترمذي (٢١٤٩)، وابن ماجه (٦٢)، بلفظ: «صنفان من هذه الأمة ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية»].

(٣) [أخرج أبو يعلى (٦٧٤٩) عن السيدة فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: نظر النبي ﷺ إلى علي فقال: «هذا في الجنة، وإن من شيعته قوما يعلمون الإسلام، ثم يرفضونه، لهم نبز يسمون الرافضة من لقيهم فليقتلهم فإنهم مشركون»].

(٤) حديث (قوله: في الخوارج هُمْ من شَرِّ البريَّة ...): مسلمٌ [(١٠٦٧) ولفظه: هم شرُّ الخَلْق والخَلِيقة] عن أبي ذرٍّ.

(٥) وقوله (شرُّ قتيلٍ تحت أديم السماء، طُوبى لمن قَتَلَهم أو قتلوه): البيهقيُّ [١٦٧٨٣، عن أبي أمامة] عن أنسٍ.

(٦) وقوله (فإذا وَجدتموهم فاقتلوهم قَتْلَ عادٍ): الشيخان [البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤)] عن أبي سعيد.

قوله (خَطَرٌ): بفَتحِ الخاءِ والطَّاءِ، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بفَتحٍ فكَسْرٍ. قوله (مِحْجَمَةٍ): -بكَسْرِ الميمِ الأُولَى- آلةُ الحِجَامةِ.

قوله (عَصَمُوا): بفتحِ الصَّادِ أيْ حَفِظُوا. قوله (ويُسْتَباحُ خِلَافُهَا): أي مِنَ الدَّمِ والمَالِ. قوله (مُعَرَّضَةٌ... إلخ): -بتشديدِ الراءِ المفتوحَةِ- أيْ قابِلَةٌ لِلتأويلِ. قوله (وقولُه: ...): بالرَّفعِ عَطْفٌ على (مَا)، أيْ وضميرُه لِلنبيِّ. اهـ مُلَّا. قوله (وقَدْ يُجِيبُ الآخَرُ): وهُوَ القائلُ بِعَدَمِ التكفيرِ. قوله (والزُّورِ): أيْ شَهادةِ الزُّورِ، وهْيَ المُعَادِلَةُ لِلشِّرْكِ في قوْلِه تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]. قوله (مِنْ شَرِّ البَرِيَّةِ): -بالهَمْزِ والتشديدِ- أي الخَلِيقَةِ. قوله (أَدِيمِ السَّماءِ): أيْ ما ظَهَرَ مِنْهَا. قوله (طُوبَى): «فُعْلَى»؛ مِنَ الطِّيبِ. قوله (قتلَ عادٍ): أي كقَتْلِهِم.

إِنَّمَا ذلكَ مِنْ قَتْلِهِمْ لِخُروجِهِمْ على المُسْلِمِينَ، وبَغْيِهِمْ عَلَيْهِمْ بِدَلِيلِهِ مِنَ الحَدِيثِ نفْسِهِ: (يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ)؛ فَقَتْلُهُمْ هَا هُنَا حَدٌّ لا كُفْرٌ، وذِكْرُ عادٍ تَشْبِيهٌ لِلقَتْلِ وحِلِّهِ، لا لِلمَقْتُولِ، ولَيْسَ كُلُّ مَنْ حُكِمَ بِقَتْلِهِ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ، ويُعَارِضُهُ بِقَوْلِ خالِدٍ في الحَدِيثِ: «دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ يا رَسُولَ اللهِ»، فقالَ: (لَعَلَّهُ يُصَلِّي)[1].

فإِنِ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ ﷺ: (يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ)[2] -فأَخْبَرَ أَنَّ الإيمانَ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ-، وكذلكَ قَوْلُهُ ﷺ: (يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حتَّى يَعُودَ السَّهْمُ إلى فُوقِهِ)، وبِقَوْلِهِ ﷺ: (سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ)[3] -يَدُلُّ على أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنَ الإِسْلامِ بِشَيْءٍ-، أَجابَهُم الآخَرُونَ أَنَّ مَعْنَى (لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ) لا يَفْهَمُونَ مَعانِيَهُ بِقُلوبِهِمْ، ولا تَنْشَرِحُ له صُدُورُهُمْ، ولا تَعْمَلُ بهِ جَوَارِحُهُمْ، وعَارَضُوهُمْ بِقَوْلِهِ ﷺ: (ويَتَمَارَى في الفُوقِ)، فهَذا يَقْتَضِي التَّشَكُّكَ في حَالِهِ.

وإِنِ احْتَجُّوا بِقَوْلِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ في هذا الحَدِيثِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (يَخْرُجُ في هذهِ الأُمَّةِ)، ولَمْ يَقُلْ: «مِنْ هَذِهِ»، وتَحْرِيرِ أَبِي سَعِيدٍ الرِّوَايَةَ، وإِتقانِهِ اللَّفْظَ، أَجابَهُم الآخَرُونَ بأَنَّ العِبارَةَ بـ«في» لا تَقْتَضِي تَصْرِيحًا بِكَوْنِهِمْ مِنْ غَيْرِ الأُمَّةِ، بِخِلافِ لَفْظَةِ «مِنْ» الَّتِي هِيَ لِلتَّبْعِيضِ وكَوْنِهِمْ مِنَ الأُمَّةِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وعَلِيٍّ، وأَبِي أُمَامَةَ، وغَيْرِهِم في هَذا الحَدِيثِ: (يَخْرُجُ «مِنْ» أُمَّتِي)، و(سَيَكُونُ «مِنْ» أُمَّتِي)، وحُرُوفُ المَعَانِي مُشْتَرِكَةٌ؛ فَلا تَعْوِيلَ على إِخراجِهِمْ مِنَ الأُمَّةِ بـ«في»، ولا على إِدْخالِهِمْ فيها بـ«مِنْ»، لَكِنَّ أَبَا سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَجَادَ مَا شَاءَ في التَّنْبِيهِ الذي نَبَّهَ عَلَيْهِ، وهَذا مِمَّا يَدُلُّ على سَعَةِ فِقْهِ الصَّحابَةِ، وتَحْقِيقِهِمْ لِلمَعانِي، واسْتِنْباطِها مِنَ الأَلْفاظِ، وتَحْرِيرِهِمْ لَها، وتَوَقِّيهِمْ في الرِّوَايَةِ.

قوله (حَنَاجِرَهم): جَمْعُ «حَنْجَرَةٍ»، وهِيَ الحُلْقُومُ.

قوله (يَمْرُقُونَ): أيْ يَخْرُجُونَ بسُرعةٍ.

قوله (على فُوقِهِ): -بضَمِّ الفاءِ- مَوضِعُ الوَتَرِ مِنَ السَّهْمِ، وهُوَ تَعليقٌ بالمُحَالِ، كقوله تعالى: ﴿ولا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ ...﴾ الآية [الأعراف: ٤٠].

قوله (الفَرْثَ): أيْ مَا في الكَرِشِ، والمَعْنَى مَرَّ سَرِيعًا.

قوله (ويَتَمَارَى): -بصيغةِ المجهُولِ- أي يُجَادَلُ.

---

(١) حديث (قول خالد دعني أضرب عنقه فقال: لعله يصلي): الشيخان [البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)] عن أبي سعيد.

(٢) وقوله (يقرأونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُم، يَمْرُقُونَ من الدِّين كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة، ثُمَّ لا يَعُودونَ إليه): مسلمٌ [١٠٦٧] عن أبي ذرٍّ.

(٣) وقوله (سبق الفرث والدم): الشيخان [البخاريُّ (٦٩٣٣)، ومسلمٌ (١٠٦٤)] عن أبي سعيد.

هَـذِهِ المَذَاهِـبُ المَعْروفَـةُ لِأَهْـلِ السُّـنَّةِ ولِغَيْرِهـم مِـنَ الفِـرَقِ فيهـا مَقالاتٌ كَثِـيرَةٌ مُضْطَرِبَـةٌ سَـخيفَةٌ، أَقْرَبُها قَـوْلُ جَهْـم ومحمَّـدِ بْـنِ شَـبيبٍ: إِنَّ الكُفْـرَ بـالله الجَهْـلُ بـه، لا يَكْفُـرُ أَحَـدٌ بِغَـيْرِ ذلـكَ. وقـالَ أَبُـو الهُذَيْـلِ: إِنَّ كُلَّ مُتَـأَوِّلٍ كانَ تَأْويلُـهُ تَشْـبيهًا لله بِخَلْقِـهِ، وتَجْويـرًا في فِعْلِـه، وتَكْذِيبًـا لِخَـبَرِه فهُـوَ كافِـرٌ، وكُلُّ مَـنْ أَثْبَـتَ شَـيْئًا قَدِيـمًا لا يُقـالُ لـهُ «اللهُ» فهُـوَ كافِـرٌ. وقَـوْلُ بَعْـضِ المُتكَلِّمِـينَ: إِنْ كانَ مِمَّـنْ عَـرَفَ الأَصْـلَ، وبَنَـى عَلَيْـهِ، وكانَ فِيـمَا هُـوَ مِـنْ أَوْصَـافِ الله تعَـالى فهُـوَ كافِـرٌ، وإِنْ لَمْ يَكُـنْ مِـنْ هَـذَا البَـابِ ففَاسِـقٌ؛ إِلَّا أَنْ يَكُـونَ مِمَّـنْ لَمْ يَعْـرِفِ الأَصْـلَ، فهُـوَ مُخْطِـئٌ، غَـيْرُ كافـرٍ

وذَهَـبَ عُبَيْـدُ الله بْـنُ الحَسَـنِ العَنْبَرِيُّ إِلَى تَصْويـبِ أَقْـوالِ المُجتهِدِيـنَ في أُصُـولِ الدِّيـنِ فِيـمَا كانَ عُرْضَـةً لِلتَّأْويـلِ، وفـارَقَ في ذلـكَ فِـرَقَ الأُمَّـةِ؛ إِذْ أَجْمَعُـوا سِـوَاهُ عـلَى أَنَّ الحَـقَّ في أُصُـولِ الدِّيـنِ في واحِـدٍ، والمُخْطِـئُ فِيـهِ آثِـمٌ، عـاصٍ، فاسِـقٌ، وإِنَّـمَا الخِـلَافُ في تكْفِـيرِه.

وقَـدْ حَكَـى القَـاضِي أَبُـو بَكْـرٍ الباقِـلَانِيُّ مِثْـلَ قَـوْلِ عُبَيْـدِ الله عَـنْ دَاوُدَ الأَصْبَهَـانِيِّ، وقـالَ: حَكَـى قَـوْمٌ عَنْهُـما أَنَّهُـما قـالَا ذلـكَ في كُلِّ مَـنْ عَلِـمَ اللهُ مِـنْ حَالِـهِ اسْـتِفْرَاغَ الوُسْـعِ في طَلَـبِ الحَـقِّ مِـنْ أَهْـلِ مِلَّتِنـا أَوْ مِـنْ غَيْرِهِـمْ.

وقـالَ نَحْـوَ هَـذَا القَـوْلِ الجاحـظُ وثُمَامَـةُ في أَنَّ كَثِـيرًا مِـنَ العَامَّـةِ والنِّسَـاءِ والبُلْـهِ ومُقَلِّـدَةِ النَّصـارَى واليَهُـودِ وغَيْرِهِـمْ لا حُجَّـةَ لله تعالى عَلَيْهِـمْ؛ إِذْ لَمْ تَكُـنْ لَـهُمْ طِبَـاعٌ يُمْكِـنُ مَعَهَـا الاسْـتِدْلالُ، وقَـدْ نَحَـا الغَـزَالِيُّ قَرِيبًـا مِـنْ هَـذَا المَنْحَـى في كِتَـابِ «التَّفْرِقَـةِ».

وقائِـلُ هـذا كُلِّـهِ كافِـرٌ بالإِجْمَـاعِ عـلى كُفْـرِ مَـنْ لَمْ يُكَفِّـرْ أَحَـدًا مِـنَ النَّصَـارَى واليَهُـودِ، وكُلِّ مَـنْ فـارَقَ دِيـنَ الإِسْـلامِ، أَوْ وَقَـفَ في تكفيرِهِـمْ أَوْ شَـكَّ؛ قـالَ القَـاضِي أَبُـو بَكْـرٍ: لِأَنَّ التَّوْقِيـفَ وَالإِجْمَـاعَ اتَّفَقَـا عَـلَى كُفْرِهِـمْ؛ فَمَـنْ وَقَـفَ في ذلـكَ كَـذَّبَ النَّـصَّ والتوقيـفَ، أَوْ شَـكَّ، والتَّكْذِيـبُ والشَّـكُّ فيـهِ لا يَقَـعُ إِلَّا مِـنْ كافـرٍ .

***

قوله (أَبُو الهُذَيْلِ): بالتصْغيرِ.

قولـه (قَدِيـمًا): أَيْ كالأَرْواحِ وعُنْصرِ الأَشْـياءِ وقِـدَمِ العَـالَمِ كقَـولِ الحُكَـماءِ. قولـه (لا يُقـالُ... إلـخ): لَعَلَّـه احـتَرَزَ بـهِ عَـن صِفـاتِ الـذاتِ. قولـه (مِمَّنْ عَـرَفَ الأَصْـلَ): أَيْ مِـنَ الكِتَـابِ والسُّـنَّةِ.

قولـه (عُرْضَـةً لِلتأويـلِ): أي قابِـلًا لـه مِمَّـا لَمْ يَـرِدْ فِيـه نَـصٌّ صَرِيـحٌ، كتَأْويـلِ المُعْتزِلـةِ أَنَّ اللهَ -تعَـالى- مُتكَلِّـمٌ بِخَلْقِـه الـكَلَامَ في جِسْـمٍ مُتَمَسِّـكِينَ بشَـجَرةِ مُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ. قولـه (وفـارَقَ... إلـخ): أيْ لِمُوَافَقَتِهـا مِـنَ النَّاجِيَـةِ وغيْرِهَـا. قولـه (قـالَا ذلـك): أَيْ تَصْويـبَ المجتَهِدِيـنَ في أُصُـولِ الدِّيـنِ.

قولـه (الجاحـظُ): هُـوَ الكِنَـانِيُّ اللَّيْثِـيُّ البَـصْريُّ. قولـه (وثُمَامَـةُ): بضَـمِّ المُثَلَّثَـةِ، وكِلَاهمـا مِـنَ المعتَزِلـةِ. قولـه (البُلْـهِ): -بِضَـمِّ البَـاءِ جَمْـعُ «أَبْلَـه»- أي المُغْفَلُـونَ عَـنِ الـشَّرِّ.

قولـه (وقَـدْ نَحَـا الغَـزَالِيُّ): -بتشـديدِ الـزايِ وتخفيفِهـا- نِسْـبَةٌ إلى «الغَزَالَـةِ»، قَرْيَـةٌ مِـن قُـرَى «طُـوسَ». وقولـه (المَنْحَـى): أي المَسْـلَك.

***

فَصْلٌ فِي بَيَانِ مَا هُوَ مِنَ المَقَالاتِ كُفْرٌ، وَمَا يُتَوَقَّفُ أَوْ يُخْتَلَفُ فيهِ، ومَا لَيْسَ بِكُفْرٍ

اعْلَمْ أَنَّ تَحْقِيقَ هذا الفَصْلِ، وكَشْفَ اللَّبْسِ فيهِ مَوْرِدُهُ الشَّرْعُ، ولا مَجَالَ لِلْعَقْلِ فيهِ، والفَصْلُ البَيِّنُ في هَذَا أَنَّ كُلَّ مَقَالَةٍ صَرَّحَتْ بِنَفْيِ الرُّبُوبِيَّةِ أَوِ الوَحْدَانِيَّةِ، أَوْ عِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ الله، أَوْ مَعَ الله فَهِيَ كُفْرٌ، كَمَقَالَةِ الدَّهْرِيَّةِ وسَائِرِ فِرَقِ أَصْحَابِ الاثْنَيْنِ مِنَ الدِّيصَانِيَّةِ والمَانَوِيَّةِ وأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الصَّابِئِينَ والنَّصَارَى والمَجُوسِ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ أَوِ المَلائِكَةِ، أَوِ الشَّيَاطِينِ، أَوِ الشَّمْسِ أَوِ النُّجُومِ أَوِ النَّارِ أَوْ أَحَدٍ غَيْرِ الله تعالى مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ، وأَهْلِ الهِنْدِ والصِّينِ، والسُّودَانِ، وغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لا يَرْجِعُ إلى كِتَابٍ، وكذلكَ القَرَامِطَةُ، وأَصْحَابُ الحُلُولِ والتَّنَاسُخِ مِنَ البَاطِنِيَّةِ، والطَّيَّارَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ.

وكَذلكَ مَنِ اعْتَرَفَ بِإِلَهِيَّةِ الله تعالَى ووَحْدَانِيَّتِهِ؛ ولَكِنَّه اعْتَقَدَ أَنَّه غَيْرُ حَيٍّ، أَوْ غَيْرُ قَدِيمٍ، وأَنَّه مُحْدَثٌ أَوْ مُصَوَّرٌ، أَوِ ادَّعَى لَهُ وَلَدًا أَوْ صَاحِبَةً أَوْ وَالِدًا، أَوْ أَنَّه مُتَوَلِّدٌ مِنْ شَيْءٍ أَوْ كائِنٌ عَنْهُ، أَوْ أَنَّ مَعَه في الأَزَلِ شَيْئًا قديمًا غَيْرَهُ، أَوْ أَنَّ ثَمَّ صَانِعًا لِلعَالَمِ سِوَاهُ، أَوْ مُدَبِّرًا غَيْرَهُ؛ فذَلكَ كُلُّه كُفْرٌ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، كَقَوْلِ الإلَهِيِّينَ مِنَ الفَلاسِفَةِ والمُنَجِّمِينَ والطَّبَائِعِيِّينَ.

وكذلكَ مَنِ ادَّعَى مُجَالَسَةَ الله تعالى والعُرُوجَ إِلَيْهِ ومُكالمَتَهُ، أَوْ حُلُولَه في أَحَدِ الأَشْخاصِ، كَقَوْلِ بَعْضِ المُتَصَوِّفَةِ، والباطِنِيَّةِ، والنَّصَارى، والقَرَامِطَةِ، وكذلكَ نَقْطَعُ علَى كُفْرِ مَنْ قَالَ بِقِدَمِ العَالَمِ أَوْ بَقَائِهِ، أَوْ شَكَّ في ذلكَ علَى مَذْهَبِ بَعْضِ الفلاسِفَةِ والدَّهْرِيَّةِ، أَوْ قَالَ بِتَنَاسُخِ الأَرْوَاحِ وانتقالِها أَبَدَ الآبادِ في الأَشْخاصِ، وتَعْذِيبِهَا أَوْ تَنْعِيمِها فيها بِحَسَبِ زَكائِها وخُبْثِها.

وكذلكَ مَنِ اعْتَرَفَ بالإلَهِيَّةِ والوَحْدَانِيَّةِ، ولَكِنَّه جَحَدَ النُّبُوَّةَ مِنْ أَصْلِها عُمُومًا، أَوْ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ خصُوصًا، أَوْ أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ الله -عَزَّ وجَلَّ- عَلَيْهِمْ بَعْدَ عِلْمِه بذلكَ فهُوَ كافِرٌ بِلا

قوله (وكَشْفَ اللَّبْسِ): أي إزالةَ الخَلْطِ والشُّبْهةِ. قوله (ولا مَجَالَ): أيْ لا مَدْخَلَ.

قوله (بِنَفْيِ الرُّبُوبيَّةِ أَوِ الوَحْدانيَّةِ): كالمُعَطِّلَةِ والوَثَنِيَّةِ.

قوله (كمَقَالَةِ الدَّهْرِيَّةِ): وهُمُ النَّافونَ لِلأُلُوهِيَّةِ.

قوله (مِنَ الدِّيصَانِيَّةِ): -بكَسْرِ الدَّالِ المهْمَلَة وتُفْتَحُ- وهُمُ القائلونَ: النُّورُ حَيٌّ، والظُّلْمَةُ مَيِّتٌ.

قوله (والمَانَوِيَّةِ): -بفتحِ الميمِ وسكونِ الهَمزةِ وفَتْحِ النونِ- نسْبةٌ إلى «مانِي»، زِنديقٌ مشهورٌ.

قوله (بِعِبَادةِ الأَوْثَانِ): أي الأصنامِ.

قوله (الصِّينِ): مَملكةٌ بالمَشْرِقِ فيها التُّرْكُ مِنَ الكَفَرةِ. قوله (والسُّودانِ): -بضمِّ المهْمَلةِ- جَمْعُ «أَسْوَدَ»، وهُمْ كَثِيرونَ.

قوله (والطَّيَّارةِ مِنَ الرَّوَافِضِ): يُسَمَّونَ بالجناحيَّةِ.

قوله (والمُنَجِّمِينَ): أي الباحِثِينَ عَنِ النُّجومِ وأَحْوَالِها. قوله (بِحَسَبِ زَكائِها): -بالهَمْزِ- أي طِيبِ عُنْصُرِ هَا.

رَيْبٍ، كالبَرَاهِمَةِ، ومُعْظَمِ اليَهُودِ، والأُرُوسِيَّةِ مِنَ النَّصَارَى، والغُرابيَّةِ مِنَ الرَّوَافِضِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ المَبْعُوثَ إِلَيْهِ جبْرِيلُ، وكَالمُعَطِّلَةِ، والقَرامِطَةِ، والإِسْمَاعِيلِيَّةِ، والعَنْبَرِيَّةِ مِنَ الرافِضَةِ، وإِنْ كانَ بَعْضُ هؤُلاءِ قَدْ أَشْرَكُوا في كُفْرٍ آخَرَ مَعَ مَنْ قَبْلَهُم.

وكذلكَ مَنْ دَانَ بالوَحْدَانيَّةِ، وصِحَّةِ النُّبُوَّةِ، ونُبُوَّةِ نَبِيِّنا ﷺ، ولَكِنْ جَوَّزَ على الأنبِيَاءِ الكَذِبَ فِيمَا أَتَوْا بِهِ، ادَّعَى في ذلكَ المَصْلَحَةَ بزَعْمِهِ، أَوْ لَمْ يَدَّعِهَا؛ فهُوَ كافِرٌ بإِجْمَاعٍ، كالمُتَفَلْسِفِينَ، وبَعْضِ الباطِنِيَّةِ والرَّوَافِضِ، وغُلَاةِ المُتَصَوِّفَةِ، وأَصْحَابِ الإِبَاحَةِ؛ فإِنَّ هؤُلاءِ زَعَمُوا أَنَّ ظَوَاهِرَ الشَّرْعِ، وأَكْثَرَ ما جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الإِخْبَارِ عَمَّا كَانَ ويَكُونُ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ، والحَشْرِ والنَّشْرِ، والقِيَامَةِ، والجَنَّةِ والنَّارِ لَيْسَ مِنْها شَيْءٌ على مُقْتَضَى لَفْظِهَا ومَفْهُومِ خِطابِهَا، وإِنَّمَا خَاطَبُوا بِهَا الخَلْقَ عَلَى جِهَةِ المَصْلَحَةِ لَهُمْ؛ إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمُ التَّصْرِيحُ لِقُصُورِ أَفْهامِهِمْ؛ فمُضَمَّنُ مقالاتِهِمْ إِبْطالُ الشَّرائِعِ، وتَعْطِيلُ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، وتَكْذِيبُ الرُّسُلِ، والارْتِيَابُ فِيمَا أَتَوْا بِهِ.

وكذلكَ مَنْ أَضَافَ إِلَى نَبِيِّنا ﷺ تَعَمُّدَ الكَذِبِ فِيمَا بَلَّغَهُ وأَخْبَرَ بِهِ، أَوْ شَكَّ في صِدْقِهِ، أَوْ سَبَّهُ، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُبَلِّغْ، أَوِ اسْتَخَفَّ بِهِ أَوْ بأَحَدٍ مِنَ الأنبياءِ، أَوْ أَزْرَى عَلَيْهِمْ، أَوْ آذَاهُم، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ حَارَبَهُ فهُوَ كافِرٌ بإِجْمَاعٍ.

وكذلكَ نُكَفِّرُ مَنْ ذَهَبَ مَذْهَبَ بَعْضِ القُدَمَاءِ أَنَّ في كُلِّ جِنْسٍ مِنَ الحَيَوانِ نَذِيرًا أَوْ نَبِيًّا، مِنَ القِرَدَةِ والخَنَازِيرِ والدَّوَابِّ والدُّودِ وغَيْرِ ذلكَ، ويَحْتَجُّ بقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلَا فيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ إِذْ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ تُوصَفَ أَنْبِيَاءُ هذه الأجناسِ بصِفاتِهِمُ المَذْمُومَةِ، وفيهِ مِنَ الإِزْرَاءِ على هَذَا المَنْصِبِ المُنِيفِ مَا فيهِ مَعَ إِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ على خِلَافِهِ، وتكذيبِ قائِلِهِ.

وكَذَلكَ نُكَفِّرُ مَنِ اعْتَرَفَ مِنَ الأُصُولِ الصَّحيحَةِ بِمَا تَقَدَّمَ، وبنُبُوَّةِ نَبِيِّنا ﷺ، ولَكِنْ قَالَ: كَانَ أَسْوَدَ، أَوْ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِيَ، أَوْ لَيْسَ الَّذي كَانَ بمَكَّةَ والحِجَازِ، أَوْ لَيْسَ بقُرَشِيٍّ؛ لأَنَّ وَصْفَهُ بغَيْرِ صِفَاتِهِ المَعْلُومَةِ نَفْيٌ لَهُ، وتَكْذِيبٌ بِهِ.

قوله (والعَنْبَرِيَّةِ مِنَ الرافِضَةِ): وهُمُ المَنْسُوبونَ إلى عُبَيْدِ الله ابنِ الحَسَنِ العَنْبَرِيِّ.

قوله (وصِحَّةِ النبوَّةِ): أي نُبُوَّةِ الأنبياءِ جميعِهِم علَيْهِمُ الصَّلاةُ والسلامُ.

قوله (وأَصْحَابِ الإِباحَةِ): فِرْقَةٌ مِنْ غُلَاةِ المتصوِّفةِ[1].

قوله (مِنَ الإخبارِ): بكَسْرِ الهَمْزةِ. قوله (فمُضَمَّنُ مقالاتِهِمْ): -بضَمِّ المِيمِ الأُولَى وفَتْحِ الثانيةِ المُشَدَّدةِ- أيْ مَضمونُهَا. قوله (فِيمَا بَلَّغَهُ): -بتشديدِ اللَّامِ- أيْ وَصَلَهُ عَنْ رَبِّهِ.

قوله (وغَيْرِ ذلكَ): كالحَيَوانَاتِ المَائِيَّةِ والطُّيُورِ الهَوَائِيَّةِ.

قوله (المَنْصِبِ المُنِيفِ): -بكَسْرِ الصَّادِ المُهْمَلةِ وضَمِّ المِيمِ- أيْ مَنْصِبِ النُّبُوَّةِ الرَّفِيعِ.

(١) قال القاري: يدعون محبة الله ... ويزعمون أن العبد إذا بلغ في الحب غاية المحبة يسقط عنه التكليف ويكون عبادته بعد ذلك التفكر!!

وكَذَلِكَ مَنِ ادَّعَى نُبُوَّةَ أَحَدٍ مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ، أَوْ بَعْدَهُ، كالعِيسَوِيَّةِ مِنَ اليَهُودِ القَائِلِينَ بتخصيصِ رِسَالَتِهِ إِلَى العَرَبِ، وكالخُرَّمِيَّةِ القَائِلِينَ بتَوَاتُرِ الرُّسُلِ، وكَأَكْثَرِ الرافِضَةِ القائِلِينَ بِمُشَارَكَةِ عَلِيٍّ فِي الرِّسَالةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وبَعْدَهُ، وكذلكَ كُلُّ إِمَامٍ عِنْدَ هَؤُلاءِ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي النُّبُوَّةِ والحُجَّةِ، وكالبَزِيغِيَّةِ والبَيَانِيَّةِ مِنْهُم القَائِلِينَ بِنُبُوَّةِ بَزِيغٍ وبَيَانٍ وأَشْبَاهِ هَؤُلاءِ، أَوْ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ لِنَفْسِهِ، أَوْ جَوَّزَ اكْتِسَابَهَا والبُلُوغَ بِصَفَاءِ القَلْبِ إِلَى مَرْتَبَتِهَا، كَالفَلَاسِفَةِ وغُلاةِ المُتَصَوِّفَةِ.

وكذلكَ مَنِ ادَّعَى مِنهُمْ أَنَّه يُوحَى إِلَيْهِ -وإِنْ لَمْ يَدَّعِ النُّبُوَّةَ-، أَوْ أَنَّه يَصْعَدُ إِلَى السَّماءِ، ويَدْخُلُ الجَنَّةَ، ويَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، ويُعَانِقُ الحُورَ العِينَ؛ فهؤلاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ، مُكَذِّبُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لأَنَّه أَخْبَرَ أَنَّه ﷺ خاتَمُ النَّبِيِّينَ، ولا نَبِيَّ بَعْدَه، وأَخْبَرَ عَنِ الله أَنَّه خاتَمُ النَّبِيِّينَ، وأَنَّه أُرْسِلَ كافَّةً لِلنَّاسِ، وأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ على حَمْلِ هَذَا الكَلَامِ علَى ظاهِرِهِ، وأَنَّ مفهُومَهُ المُرَادُ بِهِ دُونَ تَأْوِيلٍ ولا تَخْصِيصٍ؛ فَلا شَكَّ فِي كُفْرِ هَؤُلاءِ الطَّوائِفِ كُلِّها قَطْعًا إِجْمَاعًا وسَمْعًا.

وكذلكَ وَقَعَ الإِجْمَاعُ علَى تَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ دافَعَ نَصَّ الكِتَابِ، أَوْ خَصَّ حَدِيثًا مُجْمَعًا على نَقْلِهِ، مقطُوعًا بِهِ، مُجْمَعًا على حَمْلِهِ علَى ظاهِرِهِ، كتكْفِيرِنَا الخَوَارِجَ بِإِبْطالِ الرَّجْمِ؛ ولِهَذَا نُكَفِّرُ مَنْ لَمْ يُكَفِّرْ مَنْ دَانَ بِغَيْرِ مِلَّةِ المُسْلِمِينَ مِنَ المِلَلِ، أَوْ وَقَفَ فِيهِمْ، أَوْ شَكَّ، أَوْ صَحَّحَ مَذْهَبَهُم، وإِنْ أَظْهَرَ مَعَ ذلكَ الإِسلامَ، واعْتَقَدَهُ، واعْتَقَدَ إِبْطالَهُ كُلَّ مَذْهَبٍ سِوَاهُ؛ فَهُوَ كافِرٌ بإِظهارِهِ مَا أَظْهَرَ مِنْ خِلَافِ ذلِكَ.

وكذلكَ نَقْطَعُ بتكفيرِ كُلِّ قائِلٍ قالَ قَوْلًا يُتَوَصَّلُ به إِلَى تَضْلِيلِ الأُمَّةِ، وتكفِيرِ جَمِيعِ الصَّحابةِ، كَقَوْلِ «الكُمَيْلِيَّةِ» مِنَ الرَّافِضَةِ بتكفيرِ جَمِيعِ الأُمَّةِ بَعْدَ مَوْتِ النبيِّ ﷺ؛ إِذْ لَمْ تُقَدِّمْ عَلِيًّا، وكَفَّرَتْ عَلِيًّا؛ إِذْ لَمْ يَتَقَدَّمْ، ويَطْلُبْ حَقَّه فِي التَّقْدِيمِ؛ فهؤُلاءِ قَدْ كَفَرُوا مِنْ وُجُوهٍ لأَنَّهُمْ أَبْطَلُوا الشَّرِيعَةَ بأَسْرِهَا؛ إِذْ قَدِ انقطَعَ نَقْلُهَا ونَقْلُ القُرآنِ؛ إِذْ نَاقِلُوهُ كَفَرَةٌ على زَعْمِهِمْ. وإِلَى هذا -واللهُ أَعْلَمُ- أَشَارَ مالكٌ -رَحِمَه اللهُ- فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ بِقَتْلِ مَنْ كَفَّرَ الصَّحابَةَ، ثُمَّ كَفَرُوا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيَّ ﷺ علَى مُقْتَضَى قَوْلِهِمْ، وزَعْمِهِمْ أَنَّه عَهِدَ إِلَى عَلِيٍّ وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّه يَكْفُرُ بَعْدَهُ، على قَوْلِهِمْ، لَعَنَةُ اللهِ عليهِم، وصَلَّى اللهُ علَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وعلَى آلِهِ.

قولُه (كالعِيسَوِيَّةِ): أصحابِ عِيسَى بنِ إِسْحاقَ بنِ يَعْقُوبَ الأَصْبَهَانِيِّ، كانَ مَوْجُودًا في خِلافةِ المَنْصُورِ.

قولُه (وكالبَزِيغِيَّةِ): بمُوَحَّدةٍ مفتوحةٍ وزَايٍ مَكْسُورةٍ فتحتيَّةٍ سَاكِنَةٍ فمُعْجَمةٍ أو مهْمَلَةٍ، وقولُه (والبَيَانِيَّةِ): بفتحِ الموحَّدةِ فتحتيَّةٍ بَعْدَهَا أَلِفٌ فنُونٌ، وقِيلَ: الصَّوَابُ بمُوَحَّدةٍ مضمُومَةٍ [ونُونَيْنِ] بَيْنَهما أَلِفٌ.

قولُه (الحُورَ العِينَ): أي البِيضَ الواسعةَ الأَعْيُنِ.

قولُه (على حَمْلِ هذا الكَلَامِ): الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

قولُه (بقَتْلِ مَنْ كَفَّرَ الصَّحابةَ): أي جميعَهم أو بعضَهم.

وكذلكَ نُكَفِّرُ بِكُلِّ فِعْلٍ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّه لا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ كافِرٍ، وإِنْ كَانَ صَاحِبُه مُصَرِّحًا بالإِسْلَامِ مَعَ فِعْلِه ذلكَ الفِعْلَ، كَالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، أَوْ لِلشَّمْسِ والقَمَرِ والصَّلِيبِ والنَّارِ، والسَّعْيِ إِلَى الكَنَائِسِ والبِيَعِ مَعَ أَهْلِهَا، والتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ مِنْ شَدِّ الزَّنانِيرِ، وفَحْصِ الرُّؤُسِ؛ فَقَدْ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ أَنَّ هَذا لا يُوجَدُ إِلَّا مِنْ كافرٍ، وأَنَّ هَذِه الأَفعَالَ عَلَامَةٌ عَلَى الكُفْرِ، وإِنْ صَرَّحَ فاعِلُهَا بالإِسْلَامِ.

وَكَذلكَ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى تَكْفِيرِ كُلِّ مَنِ اسْتَحَلَّ القَتْلَ، أَوْ شَرْبَ الخَمْرِ، أَوِ الزِّنَا، مِمَّا حَرَّمَ اللهُ -عَزَّ وجَلَّ- بَعْدَ عِلْمِهِ بِتَحْرِيمِهِ، كَأَصحابِ الإِباحَةِ مِنَ القَرَامِطَةِ، وبَعْضِ غُلَاةِ المُتَصَوِّفَةِ.

وكذلكَ يُقْطَعُ بتَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ كَذَّبَ وأَنْكَرَ قاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وَمَا عُرِفَ يَقِينًا بالنَّقْلِ المُتَواتِرِ مِنْ فِعْلِ النَّبيِّ ﷺ، ووَقَعَ الإِجْمَاعُ المُتَّصِلُ عَلَيْهِ، كَمَنْ أَنْكَرَ وُجُوبَ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، أَوْ عَدَدَ رَكَعَاتِها وَسَجَدَاتِها، ويَقُولُ: إِنَّمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْنَا في كِتَابِه الصَّلَاةَ على الجُمْلَةِ، وكَوْنُهَا خَمْسًا، وعَلَى هَذِهِ الصِّفاتِ والشُّروطِ لا أَعْلَمُه؛ إِذْ لَمْ يَرِدْ بِه في القُرآنِ نَصٌّ جَلِيٌّ، والخَبَرُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ خَبَرُ واحِدٍ.

وكَذلكَ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ قالَ مِنَ الخَوَارِجِ: «إِنَّ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ»، وعلَى تكفيرِ الباطِنِيَّةِ في قولِهِمْ: «إِنَّ الفرائِضَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ أُمِرُوا بِوِلَايَتِهِمْ، والخَبَائِثَ والمَحَارِمَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ أُمِرُوا بالبَرَاءَةِ مِنْهُمْ»، وقَوْلِ بَعْضِ المُتَصَوِّفَةِ: «إِنَّ العِبَادَةَ وطُولَ المُجَاهَدةِ إِذَا صَفَّتْ نُفُوسَهُمْ أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَى إِسْقَاطِها، وَإِبَاحَةِ كُلِّ شَيْءٍ لَهُمْ، وَرَفْعِ عُهَدِ الشَّرائِعِ عَنْهُمْ».

وكذلكَ إِنْ أَنْكَرَ مُنْكِرٌ مَكَّةَ، أَوِ البَيْتَ أَوِ المَسْجِدَ الحرَامَ، أَوْ صِفَةَ الحَجِّ، وقَالَ: الحَجُّ واجِبٌ في القُرْآنِ، واسْتِقْبالُ القِبْلَةِ كذلكَ؛ ولَكِنْ كَوْنُه عَلَى هَذِه الهَيْئَةِ المُتَعارَفَةِ، وأَنَّ تلكَ البُقْعَةَ هِيَ مَكَّةُ والبَيْتُ والمَسْجِدُ الحرَامُ لا أَدْرِي هَلْ هِيَ تِلْكَ أَوْ غَيْرُهَا؟! ولَعَلَّ النَّاقِلِينَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ فَسَّرَهَا بِهَذِهِ التَّفاسِيرِ غَلِطُوا ووَهِمُوا!

قولُه (والبِيَعِ): -بكَسْرٍ ففَتْحٍ- جَمْعُ «بِيعَةٍ»، مَعبَدُ النَّصَارى.

قولُه (بِزِيِّهِم): أيْ كِسْوتِهِمْ وهيئَتِهِمْ.

قولُه (مِنْ شَدِّ الزَّنانيرِ): -بِكَسْرِ أَوَّلِهِ[1]- مَا يَشُدُّ بِه النصَارى أوسَاطَهُمْ. قولُه (وفَحْصِ الرُّؤوسِ): بفتحِ الفاءِ وسُكونِ الحاءِ وبالصَّادِ المُهْمَلَتَينِ.

قولُه (الإجْماعُ المتَّصِلُ): الَّذي لَمْ يتخلَّلْه عَدَمُ إجْماعٍ.

قولُه (طَرَفَي النَّهارِ): أي بُكْرةً وعَشِيَّةً فَقَطْ.

قولُه (وأنَّ تلكَ البقعَةَ): أي المأمورَ بالحَجِّ إلَيْها.

وقولُه (غَلِطُوا): -بكسرِ اللامِ- أي أَخْطَؤُا.

وقولُه (وَهِمُوا): -بكَسْرِ الهاءِ- أي تَوَهَّمُوا.

(١) يقصد بكسر أول مفرده «زُنَّارٌ»، والمعروف فيه الضمُّ وليس الكسر.

فهَـذا ومثلُـهُ لا مِرْيَـةَ في تكْفِيـرِهِ إنْ كَانَ مِمَّـنْ يُظَـنُّ بـه عِلْـمُ ذلـكَ، ومِمَّـنْ خالَـطَ المُسْـلِمِينَ واشْـتَدَّتْ صُحْبَتُـهُ لَـهُمْ، إلَّا أَنْ يَكُـونَ حَدِيـثَ عَهْـدٍ بالإسْـلَامِ، فيُقَـالُ لـه: سَـبِيلُكَ أَنْ تَسْـأَلَ عَـنْ هَـذا الَّـذِي لَمْ تَعْلَمْـه بَعْـدُ كافَّـةَ المُسْـلِمِينَ، فـلَا تَجِـدُ بَيْنَهُـمْ خِلَافًـا كافَّـةً عَـنْ كافَّـةٍ، إلى مُعَـاصِرِي الرَّسُـولِ ﷺ أَنَّ هَـذِهِ الأُمُـورَ كَـمَا قِيـلَ لَـكَ، وأَنَّ تِلْـكَ البُقْعَـةَ هِـيَ مَكَّـةُ، والبَيْـتَ الَّـذي هُـوَ فيهَـا الكَعْبَـةُ والقِبْلَـةُ الَّتِـي صَـلَّى لَهَـا رَسُـولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ، وحَجُّـوا إلَيْهـا وطَافُـوا بهَـا، وأَنَّ تِلْـكَ الأَفعـالَ هِـيَ صِفَـاتُ عِبَـادَةِ الحَـجِّ، والمُـرَادُ بِـهِ، وهِـيَ الَّتِي فَعَلَهَـا النَّبِـيُّ ﷺ والمُسْـلِمُونَ، وأَنَّ صِفَـاتِ الصَّلَـوَاتِ المَذْكُـورَةَ هِـيَ الَّتِـي فَعَلَهَـا النَّبِـيُّ ﷺ، وشَرَحَ مُـرَادَ الله -عَـزَّ وجَـلَّ- بذلِـكَ، وأَبَـانَ حُدُودَهَـا، فيَقَـعُ لَـكَ العِلْـمُ كَـمَا وَقَـعَ لَـهُمْ، ولا تَرْتَـابُ بذَلِـكَ بَعْـدُ، والمُرْتَـابُ في ذلِـكَ، والمُنْكِـرُ بَعْـدَ البَحْـثِ وصُحْبَـةِ المُسْـلِمِينَ كافِـرٌ باتِّفَـاقٍ، ولا يُعْـذَرُ بقَوْلِـهِ «لا أَدْرِي»، ولا يُصَدَّقُ فِيـهِ، بَـلْ ظاهِـرُهُ التَّسَـتُّرُ عَـنِ التَّكْذِيـبِ؛ إذْ لا يُمْكِـنُ أَنَّـهُ لا يَـدْرِي.

وأَيْضًـا فإِنَّـهُ إذا جَـوَّزَ عـلَى جَمِيعِ الأُمَّـةِ الوَهْـمَ والغَلَـطَ فِيـمَا نَقَلُـوهُ مِـنْ ذَلِـكَ، وأَجْمَعُـوا أَنَّـهُ قَـوْلُ الرَّسُـولِ ﷺ وفِعْلُـهُ وتَفْسِـيرُه مُـرَادِ الله، أَدْخَـلَ الاسْـتِرَابَةَ في جَمِيـعِ الشَّرِيعَـةِ؛ إذْ هُـمُ النَّاقِلُـونَ لَهَـا ولِلْقُـرآنِ، وانْحَلَّـتْ عُـرَى الدِّيـنِ كَـرَّةً، ومَـنْ قـالَ هَـذا كافِـرٌ.

وكَذَلِـكَ مَـنْ أَنْكَـرَ القُـرْآنَ أَوْ حَرْفًـا مِنْـهُ، أَوْ غَـيَّرَ شَـيْئًا مِنْـه، أَوْ زَادَ فِيـهِ -كَفِعْـلِ الباطِنِيَّـةِ والإسْـمَاعِيلِيَّةِ-، أَوْ زَعَـمَ أَنَّـهُ لَيْـسَ بحُجَّـةٍ لِلنَّبِـيِّ ﷺ، أَوْ لَيْـسَ فيـهِ حُجَّـةٌ ولا مُعْجِـزَةٌ، كَقَـوْلِ هِشَـامِ البُوطِـيِّ، ومَعْمَـرٍ الصَّيْمَـرِيِّ: «إِنَّـه لا يَـدُلُّ عـلَى الله، ولا حُجَّـةَ فيـهِ لِرَسُـولِهِ، ولا يَـدُلُّ عـلَى ثَـوَابٍ ولا عِقَـابٍ ولا حُكْـمٍ»، ولا مُخَالَفَـةَ في كُفْرِهِمَـا بِهَـذَا القَـوْلِ، وكَذَلِـكَ تَكْفِيرُهُمَـا بإِنْكارِهِمَـا أَنْ يَكُـونَ في سَـائِرِ مُعْجِـزَاتِ النَّبِـيِّ ﷺ حُجَّـةٌ لَـه، أَوْ في خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ والأَرضِ دَلِيـلٌ عـلى الله تعـالى، لِمُخالَفَتِهِـم الإجْمَاعَ والنَّقْـلَ المُتَواتِـرَ عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ باحتجاجِـهِ بِهَـذا كُلِّـهِ، وتَصْرِيـحَ القُـرْآنِ بِـه.

قولـه (وَأَنَّ تلـكَ الأفعَـالَ): أي المتعلِّقـةَ بالحَـجِّ مِـنَ الإحـرامِ والطَّـوافِ والسَّـعْيِ والوُقـوفِ والحَلْـقِ وَالرَّمْـيِ. قولـه (المَذْكورَةَ): أيْ في الأحَاديـثِ الصَّحيحَـةِ المشـهورةِ مِـنَ التحريمـةِ والقِيَـامِ والقـراءةِ والركـوعِ والسُّـجُودِ والقَعْـدةِ. قولـه (وأَبَـانَ حُدودَهـا): أيْ أَظْهَـرَ أوقاتَهـا أوْ شرائطَهـا.

قولـه (والمُرْتَـابُ في ذلـك): الشـاكُّ فيـما ذُكِـرَ. قولـه (والمُنْكِـرُ بَعْـدَ البَحْـثِ): أي بَعْـدَ الفحـصِ عَنْهـا وحضـورِ المَعرفـةِ بِهَـا.

قولـه (ولا يُصَـدَّقُ فِيـهِ): أيْ في قولـه المنسـوبِ إلى جَهْلِـه. قولـه (بَـلْ ظاهِـرُه التَّسَـتُّرُ عَـنِ التكذيـبِ): عـلَى وَجْـهِ التصريـحِ اكتِفـاءً بالتَّلْويـحِ؛ فـإنَّ كُلَّ إنـاءٍ يَتَرَشَّـحُ بِـمَا فِيـه. قولـه (وانْحَلَّـتْ عُـرَى الدِّيـنِ): أي انفتَحَـتْ عُقَـدُه وعُهَـدُه. قولـه (البُوطِـيِّ): بضـمِّ البـاءِ وسُـكونِ الـواوِ، وفي نسـخةٍ «الفُوطِـيِّ»؛ بالفـاءِ. قولـه (ومَعْمَـرٍ): بسُـكونِ العَـيْنِ المهمَلـةِ بَـيْنَ ميمَـيْنِ مفتوحتَـيْنِ. قولـه (الصَّيْمَـرِيِّ): -بفتـحِ الصـادِ المهْمَلـةِ أو المعْجَمـةِ وسُـكونِ التحتيّـةِ وفتـحِ الميـمِ فـراءٍ بَعْدَهـا يـاءٌ- نِسـبَةٌ إلى بَلْـدةٍ أو قبيلـةٍ.

قولـه (ولا مُخالَفَـةَ): وفي نسْـخةٍ «ولا مَحالَـةَ»؛ بفتـحِ الميـمِ وضَمِّهـا.

وكذلكَ مَنْ أنْكرَ شَيْئًا مِمَّا نَصَّ فيهِ القرآنُ بَعْدَ عِلْمِهِ أنَّه مِنَ القُرآنِ الَّذي في أَيْدِي النّاسِ، ومصاحفِ المُسْلِمِينَ، ولَمْ يَكُنْ جاهِلًا بِه، ولا قَرِيبَ عَهْدٍ بالإسْلامِ، واحْتَجَّ لإنكارِهِ إِمَّا بأنَّه لَمْ يَصِحَّ النَّقْلُ عِنْدَهُ، ولا بَلَغَهُ العِلْمُ بِه، أَوْ لِتَجْوِيزِ الوَهْمِ على ناقِلِيهِ؛ فنُكَفِّرُهُ بالطَّرِيقَيْنِ المتقَدِّمَيْنِ؛ لِأَنَّه مُكَذِّبٌ لِلْقرآنِ، مُكَذِّبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّهُ تَسَتَّرَ بِدَعْوَاهُ.

وكَذَلِكَ مَنْ أنْكرَ الجَنَّةَ، أَوِ النَّارَ، أَوِ البَعْثَ، أَوِ الحِسَابَ، أَوِ القِيامَةَ فهُوَ كافِرٌ بإجْماعٍ؛ لِلنَّصِّ عَلَيْهِ، وإجْماعِ الأُمَّةِ على صِحَّةِ نَقْلِهِ مُتَواتِرًا، وكَذلكَ مَنِ اعتَرَفَ بذلكَ؛ ولَكِنَّه قالَ: إنَّ المُرادَ بالجَنَّةِ والنَّارِ، والحَشْرِ والنَّشْرِ، والثَّوابِ والعِقَابِ مَعْنًى غَيْرُ ظاهِرِهِ، وإنَّها لَذَّاتٌ رُوحَانِيَّةٌ، ومَعَانٍ بَاطِنَةٌ -كَقَوْلِ النَّصَارَى والفَلاسِفَةِ والباطِنِيَّةِ وبَعْضِ المُتَصَوِّفَةِ-، وزَعَمَ أنَّ مَعْنَى القِيامةِ المَوْتُ، أَوْ فَنَاءٌ مَحْضٌ، وانتِقَاضُ هَيْئَةِ الأفْلاكِ، وتَحْلِيلُ العَالَمِ، كقَوْلِ بَعْضِ الفَلاسِفَةِ، وكذلِكَ نَقْطَعُ بِتَكْفِيرِ غُلاةِ الرَّافِضَةِ في قَوْلِهِمْ: «إنَّ الأئِمَّةَ أفْضَلُ مِنَ الأنْبِياءِ».

فأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ مَا عُرِفَ بالتَّوَاتُرِ مِنَ الأَخْبَارِ والسِّيَرِ والبِلَادِ الَّتِي لا يَرْجِعُ إلى إبْطَالِ الشريعَةِ، ولا يُفْضِي إلى إنكَارِ قاعِدَةٍ مِنَ الدِّينِ، كإنكَارِ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَوْ مُوتَةَ، أَوْ وُجُودِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، أَوْ قَتْلِ عُثْمَانَ، أَوْ خِلَافَةِ عَلِيٍّ مِمَّا عُلِمَ بالنَّقْلِ ضَرُورَةً، ولَيْسَ في إنكارِهِ جَحْدُ شريعَةٍ؛ فلا سَبيلَ إلى تكفيرِهِ بجَحْدِ ذلِكَ، وإنْكَارِ وُقُوعِ العِلْمِ لهُ؛ إذْ لَيْسَ في ذلِكَ أَكْثَرُ مِنَ المُبَاهَتَةِ، كإنكارِ هِشَامٍ وعَبَّادٍ وَقْعَةَ الجَمَلِ ومُحَارَبَةَ عَلِيٍّ مَنْ خَالَفَهُ.

فأَمَّا إنْ ضَعَّفَ ذلكَ مِنْ أَجْلِ تُهْمَةِ النَّاقِلِينَ، ووَهَّمَ المُسْلِمِينَ أَجْمَعَ، فنُكَفِّرُهُ بذَلِكَ لِسَرَيَانِهِ إلى إبْطَالِ الشَّرِيعَةِ.

قولُه (وكذلكَ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا... إلخ): كوُجودِ المَلائكةِ ومَجِيءِ يَومِ القيامةِ.

قولُه (وكذلكَ مَنْ أَنْكَرَ الجَنَّةَ والنارَ): أيْ وُجودَهما بالكُلِّيَّةِ؛ فإنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ على أنَّهما مَوْجُودَتانِ، والمُعتزِلةَ على أنَّهما سَتُوجَدانِ.

قولُه (والنَّشْرِ): أي النُّشُورِ وهُوَ الخُروجُ مِنَ القُبُورِ، أو التَّفرُّقُ إلى الجَنَّةِ والنارِ.

قوله (رُوحَانيَّةٌ): بضمِّ الراءِ وفَتْحِها.

قولُه (أَوْ فَنَاءٌ مَحْضٌ): أي عَدَمٌ لَيْسَ بَعْدَه وُجُودٌ وبَقَاءٌ.

قولُه (وانتِقَاضُ هَيْئَةِ الأفلاكِ): أي انهِدامُها وتَغَيُّرُها.

قولُه (وتَحْليلُ العَالَمِ): أي فَسَادُه وخروجُه عَنْ نِظَامِ هَيْئَتِه الأَوَّلِيَّةِ.

قولُه (والسِّيَرِ): أي الآثارِ المُتَعَلِّقَةِ بالغَزَوَاتِ والشَّمائِلِ في الصِّفَاتِ.

قولُه (أَوْ مُوتَةَ): -بِضَمِّ الميمِ وسُكونِ الواوِ وتُبدَلُ همزةً- مكانٌ بأرضِ الشامِ.

قولُه (عَبَّادٍ): -بفتحِ العَيْنِ المُهملةِ وتشديدِ الموحَّدةِ- وهو الصَّيمَرِيُّ.

قولُه (وَقْعَةَ الجَمَلِ): وهيَ كانَتْ في خِلافةِ عَلِيٍّ.

قولُه (ووَهَّمَ المسْلِمينَ أَجْمَعَ): -بتشديدِ الهاءِ- أيْ نَسَبَهم إلى الوَهَمِ أجمعينَ.

فأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الإِجْمَاعَ المُجَرَّدَ الَّذي لَيْسَ طَرِيقُهُ النَّقْلَ المُتَوَاتِرَ عَنِ الشَّارِعِ، فأَكْثَرُ المُتَكَلِّمِينَ مِنَ الفُقَهَاءِ والنُّظَّارِ في هَذا البابِ قالُوا بتَكْفِيرِ كُلِّ مَنْ خالَفَ الإِجْمَاعَ الصَّحِيحَ، الجَامِعَ لِشُرُوطِ الإِجْمَاعِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ عُمُومًا، وحُجَّتُهُمْ قَوْلُه تعالى: ﴿ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ...﴾ الآيةَ [النساء: ١١٥]، وقَوْلُه ﷺ: (مَنْ خالَفَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ)[1]، وحَكَوُا الإِجْمَاعَ علَى تَكْفِيرِ مَنْ خالَفَ الإِجْمَاعَ.

وذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى التَّوَقُّفِ عَنِ القَطْعِ بتَكْفِيرِ مَنْ خالَفَ الإِجْمَاعَ الَّذي يَخْتَصُّ بنَقْلِهِ العُلَمَاءُ، وذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى التَّوَقُّفِ في تكفيرِ مَنْ خالَفَ الإِجْمَاعَ الكائِنَ عَنْ نَظَرٍ، كتَكْفِيرِ النَّظَّامِ بإِنْكارِهِ الإِجْمَاعَ؛ لِأَنَّه بقَوْلِهِ هَذا مُخالِفٌ إِجْمَاعَ السَّلَفِ علَى احْتِجاجِهِمْ بِهِ، خارِقٌ لِلْإِجْمَاعِ.

قالَ القاضِي أَبُو بَكْرٍ: القَوْلُ عِنْدِي أَنَّ الكُفْرَ باللهِ هُوَ الجَهْلُ بوُجُودِهِ، والإِيمانَ باللهِ هُوَ العِلْمُ بوُجُودِهِ، وأَنَّهُ لا يُكَفَّرُ أَحَدٌ بقَوْلٍ ولا رَأْيٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ الجَهْلَ باللهِ، فإِنْ عَصَى بقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ نَصَّ اللهُ ورَسُولُه، أَوْ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ أَنَّه لا يُوجَدُ إِلَّا مِنْ كافِرٍ، أَوْ يَقُومَ دَلِيلٌ علَى ذلك، فقَدْ كَفَرَ، لَيْسَ لِأَجْلِ قَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ، لَكِنْ لِمَا يُقارِنُه مِنَ الكُفْرِ؛ فالكُفْرُ باللهِ -عَزَّ وجَلَّ- لا يَكُونُ إِلَّا بأَحَدِ ثَلاثَةِ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: الجَهْلُ باللهِ تعالى. والثاني: أَنْ يَأْتِيَ فِعْلًا، أَوْ يَقُولَ قَوْلًا يُخْبِرُ اللهُ ورَسُولُه، أَوْ يُجْمِعُ المُسْلِمُونَ أَنَّ ذلكَ لا يَكُونُ إِلَّا مِنْ كافِرٍ، كالسُّجُودِ لِلصَّنَمِ، والمَشْيِ إِلَى الكَنائِسِ بالتِزامِ الزَّنانِيرِ مَعَ أَصْحَابِهَا في أَعيادِهِمْ، أَوْ يَكُونَ ذلكَ القَوْلُ أَوِ الفِعْلُ لا يُمْكِنُ مَعَهُ العِلْمُ باللهِ. قالَ: فهَذانِ الضَّرْبانِ، وإِنْ لَمْ يَكُونَا جَهْلًا باللهِ تعالى فهُمَا عَلَمٌ أَنَّ فاعِلَهُمَا كافِرٌ، مُنسَلِخٌ مِنَ الإِيمانِ.

(١) [أخرجه الطيالسيُّ (١١٦١) و(١١٦٢) وأحمد (١٧١٧٠)، والترمذيُّ وصحَّحه (٢٨٦٣) و(٢٨٦٤)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة (١٨٩٥)، وغيرهم من حديث الحارث الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

قوله (والنُّظَّارِ): -بضَمِّ النونِ وتشديدِ الظَّاءِ المعجَمةِ- جَمْعُ «ناظِرٍ»؛ بمَعْنَى المُناظِرِ، اسْمُ فاعِلٍ مِنَ المُناظَرةِ.

قوله (قِيدَ شِبْرٍ): -بقافٍ مَكسُورةٍ فياءٍ ساكنةٍ- أَيْ قَدْرَ شِبْرٍ.

قوله (رِبْقَةَ الإِسْلامِ): -بكَسْرِ الراءِ وسُكونِ المُوَحَّدةِ- أَيْ عُقْدَتَه.

قوله (وحَكَوا): أي الفُقَهاءُ.

قوله (كتكفيرِ النَّظَّامِ): -بفتحِ النُّونِ وتشديدِ الظَّاءِ المُعجَمةِ[1]- كانَ أَحَدَ فُرْسانِ المُتَكَلِّمِينَ مِنَ المُعْتَزِلةِ.

قوله (على ذلكَ): أي على أَنَّه لا يُوجَدُ إِلَّا مِنْ كافِرٍ لِكَوْنِه مِنْ شِعارِهِمْ.

قوله (فهُمَا عَلَمٌ): -بفتحِ العَيْنِ واللّامِ- أَيْ عَلامةٌ، وفي أَصْلِ التِّلِمسانيِّ «عِلْمٌ» -بكسرِ الأوَّلِ وسُكونِ الثاني- أَيْ دَلِيلٌ.

(١) في «التاج»: «والنَّظَّامُ، -كشَدَّادٍ- لقبُ إبراهيمَ ابنِ سَيَّارٍ، أبي إبراهيمَ المُعتزِليِّ».

فأَمَّا مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الله تعالى الذَّاتِيَّةِ، أَوْ جَحَدَهَا مُسْتَبْصِرًا في ذلكَ، كقَوْلِهِ: لَيْسَ بعَالِمٍ، ولا قادِرٍ، ولا مُرِيدٍ، ولا مُتكلِّمٍ، وشِبْهِ ذلكَ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ الوَاجِبَةِ له تعالى، فَقَدْ نَصَّ أَئِمَّتُنَا علَى الإجْمَاعِ علَى كُفْرِ مَنْ نَفَى عَنْهُ تعالى الوَصْفَ بِهَا، وأَعْرَاهُ عَنْها؛ وعَلَى هَذا حُمِلَ قَوْلُ سَحْنُونَ: (مَنْ قَالَ: «لَيْسَ للهِ كَلَامٌ» كافِرٌ)، وهُوَ لا يُكَفِّرُ المُتَأَوِّلِينَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

فأَمَّا مَنْ جَهِلَ صِفَةً مِنْ هَذِه الصِّفَاتِ فاخْتَلَفَ العُلَمَاءُ هَهُنَا، فكَفَّرَهُ بَعْضُهُمْ، وحُكِيَ ذلكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبَرِيِّ وغَيْرِه، وقالَ بِهِ أَبُو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ مَرَّةً، وذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا لا يُخْرِجُه عَنِ اسْمِ الإيمَانِ، وإِلَيْهِ رَجَعَ الأَشْعَرِيُّ، قالَ: لأَنَّهُ لَمْ يَعْتَقِدْ ذلكَ اعْتِقَادًا يَقْطَعُ بِصَوابِه، ويَرَاهُ دِينًا وشَرْعًا، وإِنَّمَا نُكَفِّرُ مَنِ اعتقَدَ أَنَّ مَقَالَهُ حَقٌّ، واحْتَجَّ هؤلاءِ بحَدِيثِ السَّوْدَاءِ[1]، وأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا طَلَبَ مِنْهَا التَّوْحِيدَ لا غَيْرُ، وبِحَدِيثِ القَائِلِ: «لَئِنْ قَدَّرَ اللهُ عَلَيَّ»، وفي رِوَايَةٍ فيه: «لَعَلِّي أَضِلُّ اللهَ»، ثُمَّ قالَ: (فغَفَرَ اللهُ لَهُ)[2]. قالُوا: ولَوْ بُوحِثَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى الصِّفَاتِ، وكُوشِفُوا عَنْها لَمَا وُجِدَ مَنْ يَعْلَمُها إِلَّا الأَقَلُّ.

وقَدْ أَجَابَ الآخَرُ عَنْ هَذَا الحديثِ بوُجُوهٍ، مِنْها: أَنَّ «قَدَرَ» بمَعْنَى «قَدَّرَ»، ولا يَكُونُ شَكُّهُ في القُدْرَةِ علَى إِحْيَائِه، بَلْ في نفْسِ البَعْثِ الَّذِي لا يُعْلَمُ إِلَّا بِشَرْعٍ، ولَعَلَّه لَمْ يَكُنْ وَرَدَ عِنْدَهُم بِهِ شَرْعٌ يُقْطَعُ عَلَيْهِ فيَكُونَ الشَّكُّ بِه حِينَئِذٍ فيه كُفْرٌ، فأَمَّا مَا لَمْ يَرِدْ بِه شَرْعٌ فهُوَ مِنْ مُجَوَّزَاتِ العُقُولِ. أَوْ يَكُونَ «قَدَرَ» بمَعْنَى «ضَيَّقَ»، ويَكُونَ مَا فَعَلَهُ بنَفْسِهِ إِزْرَاءً عَلَيْها، وغَضَبًا لِعِصْيَانِها.

---

(١) حديث السوداء: مسلمٌ [٥٣٧]، وأبو داود [٣٢٨٢]، والنَّسائيُّ [١٢١٨] عن معاوية بن الحكم السّلميِّ.

(٢) حديث (القائل لئن قَدَرَ اللهُ عليَّ): الشيخان [البخاريُّ (٣٤٨١)، ومسلمٌ (٢٧٥٦)] عن أبي هريرة. ورواية (لعلي أضِلُّ الله): أحمد [(٢٠٠١٢)].

قولُه (مِنْ صِفَاتِ الله تعالى الذاتيةِ): الحيَاةُ والعِلمُ والقدرةُ والإرادةُ... إلى آخِرِه.

قولُه (أَوْ جَحَدَها مُسْتَبْصِرًا): أيْ أَنْكَرَها بَعْدَمَا اعتَرَفَ بِها حَالَ كَوْنِه مُتيقِّنًا غَيْرَ شاكٍّ. قولُه (في ذلكَ): أيْ في جَحْدِهَا.

قولُه (وأَعْرَاهُ عَنْها): أيْ أَخْلَاهُ مِنْهَا. قولُه (لا يُكَفِّرُ المتأوِّلِينَ): أيْ مِنَ المعتزلةِ النَافِينَ قِدَمَهَا وزيادتَها علَى ذاتِه، والقائِلِينَ بأَنَّه -تعَالى- خَلَقَ الكَلَامَ في الشَّجَرَةِ.

قولُه (فاختَلَفَ العُلَماءُ هُنَا): أيْ في مَقَامِ تكفيرِه.

قولُه (لا غيرُ): أيْ لا غيرَ ذلكَ مِن تحقيقِ الصِّفَاتِ.

قولُه (لَئِنْ قَدَّرَ اللهُ علَيَّ): وفي نَسخةٍ بتخفيفِ الدَّالِ مِنَ القُدرةِ.

قولُه (أَضِلُّ اللهَ): -بفتحِ الهَمْزةِ والضَادِ وتُكْسَرُ ورَفْعِ اللَّامِ المُشَدَّدةِ- أيْ أَفُوتُه ويَخْفَى علَيْه مَكَانِي.

قولُه (ولَوْ بُوحِثَ أكثَرُ النَّاسِ): أيْ فَتَّشُوا عَنْ مَعرفتِها. قولُه (وكُوشِفُوا عنها): أيْ طُلِبَ مِنهم الكَشْفُ عَنْ بَيَانِهَا.

قولُه (أنَّ «قَدَرَ» بمعْنَى «قَدَّرَ»): -الأُولى بالتخفيفِ، والثانيةُ بالتشديدِ- أيْ حَكَمَ وقَضَى. قولُه (فهُوَ مِنْ مُجَوَّزَاتِ العقولِ): بتشديدِ الواوِ المفتوحَةِ.

وقِيلَ: إنَّمَا قالَ ما قالَه وهُوَ غَيْرُ عاقِلٍ لِكَلَامِه، ولا ضَابِطٍ لِلَفْظِه مِمَّا اسْتَوْلَى عَلَيْه مِنَ الجَزَعِ والخَشْيَةِ الَّتي أَذْهَلَتْ قَلْبَهُ؛ فلَمْ يُؤَاخَذْ بِه، وقِيلَ: كَانَ هَذا في زَمَنِ الفَتْرَةِ، وحَيْثُ يَنفَعُ مُجَرَّدُ التَّوحِيدِ، وقِيلَ: بَلْ هَذا مِنْ مَجَازِ كَلَامِ العَرَبِ الَّذي صُورَتُه الشَّكُّ، ومَعْنَاهُ التَّحْقِيقُ، وهُوَ يُسَمَّى «تَجَاهُلَ العَارِفِ»، ولَه أَمْثِلَةٌ في كَلَامِهِمْ، كَقَوْلِه -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وقَوْلِه -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فأَمَّا مَنْ أَثْبَتَ الوَصْفَ ونَفَى الصِّفَةَ، فقَالَ: أَقُولُ: عالِمٌ ولَكِنْ لا عِلْمَ لَهُ، ومُتَكَلِّمٌ ولَكِنْ لا كَلَامَ لَهُ، وهَكَذَا في سَائِرِ الصِّفَاتِ عَلَى مَذْهَبِ المُعْتَزِلَةِ، فمَنْ قالَ بالمَآلِ لِمَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ قَوْلُه، ويَسُوقُه إِلَيْهِ مَذْهَبُهُ كَفَّرَهُ؛ لأَنَّه إذا نَفَى العِلْمَ انْتَفَى وَصْفُ «عالِمٍ»؛ إذْ لا يُوصَفُ بـ«عَالِمٍ» إلَّا مَنْ له عِلْمٌ، فكَأَنَّهُمْ صَرَّحُوا عِنْدَه بِمَا أَدَّى إِلَيْهِ قَوْلُهُمْ، وهَكَذا عِنْدَ هَذا سَائِرُ فِرَقِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ المُشَبِّهَةِ والقَدَرِيَّةِ وغَيْرِهِمْ.

ومَنْ لَمْ يُؤَاخِذْهم بِمَآلِ قَوْلِهِمْ، ولا أَلْزَمَهُمْ مُوجَبَ مَذْهَبِهِمْ، لَمْ يَرَ إِكْفَارَهُمْ؛ قالَ: لِأَنَّهُمْ إِذَا وُقِّفُوا على هَذا قالُوا: لا نَقُولُ: لَيْسَ بعَالِمٍ، ونَحْنُ نَنْتَفِي مِنَ القَوْلِ بالمَآلِ الَّذي أَلْزَمْتُمُوهُ لَنا، ونَعْتَقِدُ نَحْنُ وأَنْتُمْ أَنَّه كُفْرٌ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ قَوْلَنَا لا يَؤُولُ إِلَيْهِ على مَا أَصَّلْنَاهُ، فعَلَى هَذَيْنِ المَأْخَذَيْنِ اخْتَلَفَ النَّاسُ في إِكْفَارِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وإذا فَهِمْتَهُ اتَّضَحَ لَكَ المُوجِبُ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ في ذلِكَ.

والصَّوَابُ تَرْكُ إِكْفَارِهِمْ، والإِعْرَاضُ عَنِ الحَتْمِ عَلَيْهِمْ بالخُسْرَانِ، وإِجْراءُ حُكْمِ الإِسْلامِ عَلَيْهِمْ في قِصَاصِهِمْ، وَوِراثاتِهِمْ، ومُنَاكَحاتِهِمْ، ودِيَاتِهِمْ، والصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ، ودَفْنِهِمْ في مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ، وسَائِرِ مُعَامَلاتِهِمْ؛ لَكِنَّهُمْ يُغْلَظُ عَلَيْهِمْ بِوَجِيعِ الأَدَبِ، وشَدِيدِ الزَّجْرِ والهَجْرِ حَتَّى يَرْجِعُوا عَنْ بِدْعَتِهِمْ.

قوله (أَذْهَلَتْ قَلْبَه): -وفي نسخةٍ «أَذْهَبَتْ»- أيْ أَغْفَلَتْ.

قوله (في زَمَنِ الفَتْرةِ): أي انقطاعِ الرِّسَالةِ؛ كَمَا بَيْنَ سَيِّدنا عِيسَى ونَبِيِّنا محمَّدٍ عليهما السلام.

قوله (وهُوَ يُسَمَّى... إلخ): -بصيغةِ المجهُولِ مُشَدَّدًا ومُخَفَّفًا- أيْ يُدْعَى تجاهُلَ... إلخ.

قوله (وهَكَذا في سَائِرِ الصِّفَاتِ): كـ«قادِرٍ»؛ ولا قُدرةَ له، و«مُرِيدٍ»؛ ولا إرَادَةَ لَهُ.

قوله (فمَنْ قالَ بالمَآلِ): أيْ بأَخْذِهِمْ بالمَرْجِعِ.

قوله (ولا أَلْزَمَهم مُوجَبَ مَذْهَبِهِمْ): بفتحِ الجيمِ.

قوله (لأَنَّهم إذا وُقِّفُوا): -بصيغةِ المجهُولِ مُشَدَّدًا أو مُخَفَّفًا- أي أُطْلِعُوا.

قوله (ونَعْتَقِدُ نَحْنُ): أي مَعشَرُ المُعْتزلةِ. وقوله (وأَنْتُمْ): أي أهْلُ السُّنَّةِ.

قوله (عَلَى ما أَصَّلْنَاهُ): -بتشديدِ الصَّادِ المُهْمَلةِ- أي جَعَلْنَاهُ أَصْلًا.

قوله (وإِجْراءُ حُكْمِ الإسْلامِ عَلَيْهِمْ): كسَائِرِ المسْلِمِينَ مِنْ حُرْمَةِ إِيذاءٍ، وعِصْمَةِ دَمٍ.

قوله (والصَّلاةِ عَلَيْهِمْ): أي إذا مَاتُوا، وخَلْفَهم إذا أَمُّوا.

وهَـذِهِ كانَـتْ سِـيرَةَ الصَّـدْرِ الأَوَّلِ فِيهِـمْ، فَقَـدْ كَانَ نَشَـأَ عَـلَى زَمَـانِ الصَّحَابَـةِ وبَعْدَهُـمْ في التَّابِعِـينَ مَـنْ قَـالَ بِهَـذِه الأَقْـوَالِ مِـنَ القَـدَرِ، ورَأْيِ الخَـوارِجِ، والاعتِـزَالِ، فَـمَا أَزَاحُـوا لَـهُـم قَـبْرًا، ولا قَطَعُـوا لِأَحَـدٍ مِنْهُـمْ مِيرَاثًـا؛ لَكِنَّهُـمْ هَجَرُوهُـمْ، وأَدَّبُوهُـمْ بالـضَّرْبِ والنَّفْـيِ والقَتْـلِ عـلى قَـدْرِ أَحْوالِهِـمْ؛ لِأَنَّهُـم فُسَّـاقٌ، ضُـلَّالٌ، عُصَـاةٌ، أَصْحَـابُ كَبَائِـرَ عِنْـدَ المُحقِّقِـينَ وأَهْلِ السُّـنَّةِ مِمَّـنْ لَمْ يُكفِّرْهُـمْ مِنهـا، خِلَافًـا لِمَـنْ رَأَى غَـيْرَ ذلِـكَ، وَاللهُ المُوَفِّـقُ لِلصَّـوَابِ.

قَـالَ القَـاضِي أَبُـو بَكـرٍ: وأَمَّـا مَسَـائِلُ الوَعْـدِ والوَعِيـدِ، والرُّؤْيَـةِ، والمَخْلُـوقِ، وخَلْـقِ الأفعَـالِ، وبَقَـاءِ الأَعْـرَاضِ والتَّوَلُّـدِ، وشِـبْهِهَا مِـنَ الدَّقَائِـقِ، فالمَنْـعُ مِـنْ إِكْفَـارِ المُتَوَلِّـينَ فيهَـا أَوْضَـحُ؛ إِذْ لَيْـسَ في الجَهْـلِ بِـشَيْءٍ مِنْهـا جَهْـلٌ بـالله تعـالى، ولا أَجْمَـعَ المُسْـلِمُونَ عـلَى إِكْفَـارِ مَـنْ جَهِـلَ شَـيْئًا مِنْهَـا، وقَـدْ قَدَّمْنَـا في الفَصْـلِ قَبْلَـهُ مِـنَ الـكَلَامِ وصُـورَةِ الخِـلَافِ في هَـذا مـا أَغْنَـى عَـنْ إِعَادَتِـه بِحَـوْلِ الله تعـالى.

***

قولـه (فَـما أَزاحُـوا لَهـمْ قَـبْرًا): -بالـزاي والحـاءِ المُهْمَلـةِ- أيْ فـمَا أَزالَ الصَّـدْرُ الأوَّلُ مَـعَ هَجْرِهـم لَهـم قَـبْرًا منفـردًا متميِّـزًا عَـنْ مقابـرِ المسْـلمينَ.

قولـه (مِمَّـنْ لَمْ يُكَفِّرْهُـمْ): أيْ يُكَفِّـرْ أربـابَ الآراءِ الكاسـدةِ، وأصحَـابَ التَّأويـلاتِ الفاسِـدَةِ.

قولـه (وبَقَـاءِ الأعـراضِ): بأنواعِهَـا، وهـوَ جَمْـعُ «عَـرَضٍ» بفتحتـينِ، وهـوَ في اصْطـلاحِ المتكلِّمِـينَ: مَـا لا بقـاءَ لـه، كالألْـوَانِ والأشْـكالِ والحَرَكـةِ والسُّـكونِ، والحـقُّ مـا عَلَيْـه الأشْـعَرِيُّ وأتباعُـه أنَّـه لا يَبْقَـى أكثَـرَ مِـنْ زمَـنٍ واحـدٍ؛ لِأَنَّهـا كُلَّهـا عـلى التَّقَـضِّي والتجَـدُّدِ، كالحَـرَكاتِ والأزمنَـةِ والأصْـواتِ، أوْ بَقَاؤُهَـا عِبَـارةٌ عَـنْ تَجَـدُّدِ أمثالِهـا كُلَّـما انقَـضَى واحِـدٌ تَجَـدَّدَ مِثْلُـه بمُجَـرَّدِ إرادتِـه تعـالى، بوَقْتِـه الـذي خَلَقَـه فيـهِ.

***

فَصْلٌ [في حُكْمِ الذِّمِّيِّ السَّابِّ للهِ تَعالى]

هَـذا حُكْـمُ المُسْلِمِ السَّـابِّ لله تعـالى، وأَمَّـا الذِّمِّـيُّ فَـرُوِيَ عَـنْ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ عُمَـرَ في ذِمِّـيٍّ تَنَـاوَلَ مِـنْ حُرْمَـةِ اللهِ غَـيْرَ مَـا هُـوَ عَلَيْـه مِـنْ دِينِـهِ، وحَـاجَّ فيـهِ، فخَـرَجَ عَلَيْـه ابْـنُ عُمَـرَ بالسَّـيْفِ، فطَلَبَـه فهَـرَبَ.

وقـالَ مالـكٌ في كِتَـابِ ابْـنِ حَبِيـبٍ و«المَبْسُـوطَةِ»، وابـنُ القَاسِـمِ في «المبْسُـوطِ»، وكِتَـابِ محمّـدٍ، وابـنِ سَـحْنُونَ: «مَـنْ شَـتَمَ اللهَ تعـالى مِـنَ اليَهُـودِ والنَّصـارَى بغَـيْرِ الوَجْـهِ الَّـذِي بـهِ كَفَـرَ، قُتِـلَ ولَمْ يُسْـتَتَبْ»، قـالَ ابْـنُ القَاسِـمِ: «إلَّا أَنْ يُسْلِـمَ»، قـالَ في «المَبْسُـوطَةِ»: «طَوْعًـا».

قـالَ أَصْبَـغُ: «لِأَنَّ الوَجْـهَ الَّـذي كَفَـرَ بـه هُـوَ دِينُهُـمْ، وعَلَيْـهِ عُوهِـدُوا مِـنْ دَعْـوَى الصَّاحِبَـةِ والشَّرِيـكِ والوَلَـدِ، وأَمَّـا غَـيْرُ هَـذَا مِـنَ الفِرْيَـةِ والشَّـتْمِ فلَـمْ يُعَاهَـدُوا عَلَيْـهِ؛ فهُـوَ نَقْـضٌ للعَهْـدِ».

قـالَ ابْـنُ القَاسِـمِ في كِتَـابِ محمَّـدٍ: «ومَـنْ شَـتَمَ مِـنْ غَـيْرِ أَهْـلِ الأَدْيـانِ اللهَ -عَـزَّ وجَـلَّ- بغَـيْرِ الوَجْـهِ الَّـذِي ذُكِـرَ في كِتَابِـهِ قُتِـلَ، إلَّا أَنْ يُسْـلِمَ».

وَقَـالَ المَخْزُومِـيُّ في «المَبسـوطَةِ»، ومحمَّـدُ بْـنُ مَسْـلَمَةَ، وابْـنُ أَبي حَـازِمٍ: «لا يُقْتَـلُ حَتَّـى يُسْـتَتَابَ، مُسْـلِمًا كَانَ أَوْ كَافِـرًا، فـإنْ تَـابَ، وإلَّا قُتِـلَ»، وقـالَ مُطَـرِّفٌ وعَبْـدُ المَلِـكِ مِثْـلَ قَـوْلِ مَالِـكٍ، وقـالَ أَبُـو محمَّـدِ بْـنُ أَبي زَيْـدٍ: «مَـنْ سَـبَّ اللهَ بغَـيْرِ الوَجْـهِ الَّـذي بـه كَفَـرَ، قُتِـلَ إلَّا أَنْ يُسْـلِمَ».

وقَـدْ ذَكَرْنَـا قَـوْلَ ابْـنِ الجَـلَّابِ قَبْـلُ، وذَكَرْنَـا قَـوْلَ عُبَيْـدِ اللهِ وابْـنِ لُبَابَـةَ وشُـيُوخِ الأَنْدَلُسِـيِّينَ في النَّصْرَانِيَّـةِ، وَفُتْياهُـمْ بقَتْلِهَـا؛ لِسَـبِّهَا بالوَجْـهِ الَّـذي كَفَـرَتْ بـهِ- لله تعـالى والنبـيِّ ﷺ، وإجْماعَهُـمْ عـلى ذلـكَ، وهُـوَ نَحْـوُ القَـوْلِ الآخَـرِ فِيمَـنْ سَـبَّ مِنْهُـمْ النَّبِـيَّ ﷺ بالوَجْـهِ الَّـذي كَفَـرَ بـه.

وقولـه (تَنـاوَلَ): أي تَكَلَّـمَ بـما لا يَجُـوزُ إقدامُـه عَلَيْـه.

قولـه (ولَمْ يُسْـتَتَبْ): أيْ لَمْ يُطْلَـبْ مِنْـه التوْبـةُ بالإسْـلامِ.

قولـه (وعَلَيْـه عُوهِـدُوا): أيْ أُعطُـوا العَهْـدَ.

قولـه (ومحمَّـدُ بْـنُ مَسْـلَمَةَ): بفَتْـحِ الميـمِ الأُولى والـلَّامِ.

قولـه (قَـدْ ذَكَرْنَـا قـولَ ابـنِ الجَـلَّابِ): بفتـحِ الجيـمِ وتشـديدِ الـلامِ، وفي آخِـرِه موحَّـدةٌ.

قولـه (وشُـيُوخِ الأَنْدَلُسِـيِّينَ): بفتـحِ الهَمْـزةِ وضَـمِّ الـدَّالِ.

قولـه (وإجماعَهُـمْ عـلى ذلـك): أيْ عـلى قَتْلِهـا بفُتْيَاهُـم.

ولا فَـرْقَ في ذلـكَ بَـيْنَ سَـبِّ الله تعَـالى وسَـبِّ نبيِّـهِ ﷺ؛ لِأَنَّـا عَاهَدْنَاهُـمْ عَـلى أَنْ لا يُظْهِـرُوا لَنَـا شَـيْئًا مِـنْ كُفْرِهِـمْ، ولا يُسْـمِعُونَا شَـيْئًا مِـنْ ذلـكَ؛ فمَتَـى فعَلُـوا شَـيْئًا مِنْـه فهُـوَ نَقْـضٌ لِعَهْدِهِـمْ.

واخْتَلَفَ العُلَماءُ في الذِّمِّيِّ إذا تَزَنْدَقَ؛ فقَالَ مالِكٌ ومُطَرِّفٌ وابْنُ عَبْدِ الحَكَمِ وأَصْبَغُ: «لا يُقْتَلُ؛ لِأَنَّه خَرَجَ مِنْ كُفْرٍ إلى كُفْرٍ»، وقَالَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ الماجِشُونِ: «يُقْتَلُ؛ لِأَنَّه دِينٌ لا يُقَرُّ عَلَيْه أَحَدٌ، ولا تُؤْخَذُ عَلَيْه جِزْيَةٌ»، قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: «ولا أَعْلَمُ مَنْ قالَه غَيْرَهُ».

***

قولـه (فهُـوَ نَقْـضٌ لِعَهْدِهِـمْ): أيْ ومُوجِـبٌ لِقَتْلِهِـم، فيَظْهَـرُ أنَّ مَنْشَـأَ الخِلَافِ بَيْنَ الأقـوالِ هُـوَ العَهْـدُ بِهِمْ.

***

فَصْلٌ [فِي حُكْمِ مُفْتَرِي الكَذِبِ على اللهِ تَعَالى]

هَذَا حُكْمُ مَنْ صَرَّحَ بِسَبِّهِ تعَالى، وإِضَافَةِ ما لا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وإِلَهِيَّتِه، فَأَمَّا مُفْتَرِي الكَذِبِ على اللهِ تَعَالى بادِّعَاءِ الإِلَهِيَّةِ أَوِ الرِّسَالَةِ، أَوِ النَّافِي أَنْ يَكُونَ اللهُ خالِقَهُ أَوْ رَبَّهُ، أَوْ قالَ: لَيْسَ لِي رَبٌّ، أَوِ المتكَلِّمُ بِمَا لا يُعْقَلُ مِنْ ذلكَ في سُكْرِهِ أَوْ غَمْرَةِ جُنُونِه، فلَا خِلَافَ فِي كُفْرِ قَائِلِ ذلِكَ ومُدَّعِيهِ مَعَ سَلَامَةِ عَقْلِهِ كَمَا قَدَّمْنَاه؛ لَكِنَّه تُقْبَلُ تَوْبَتُه على المَشهُورِ، وتَنْفَعُهُ إِنَابَتُهُ، وتُنَجِّيهِ مِنَ القَتْلِ فَيْئَتُه؛ لَكِنَّه لا يَسْلَمُ مِنْ عَظِيمِ النَّكَالِ، ولا يُرَفَّهُ عَنْ شَدِيدِ العِقَابِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ زَجْرًا لِمِثْلِهِ عَنْ قَوْلِهِ، ولَهُ عَنِ العَوْدَةِ لِكُفْرِهِ أَوْ جَهْلِهِ، إِلَّا مَنْ تَكَرَّرَ ذلكَ مِنْه، وعُرِفَ اسْتِهَانَتُه بِمَا أَتَى بِهِ؛ فَهُوَ دَلِيلٌ على سُوءِ طَوِيَّتِهِ، وكَذِبِ تَوْبَتِه، وصَارَ كالزِّنْدِيقِ الَّذِي لا نَأْمَنُ بَاطِنَه، ولا نَقْبَلُ رُجُوعَهُ.

وَحُكْمُ السَّكْرَانِ حُكْمُ الصَّاحِي، وأَمَّا المَجْنُونُ والمَعْتُوهُ فَمَا عُلِمَ أَنَّه قالَه مِنْ ذلك في حَالِ غَمْرَته وذَهَابِ مَيْزِهِ بالكُلِّيَّة، فلَا نَظَرَ فِيه، ومَا فَعَلَهُ مِنْ ذلِكَ في حَالِ مَيْزِهِ -وإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَقْلُه، وسَقَطَ تَكْلِيفُهُ- أُدِّبَ على ذَلِكَ؛ لِيَنْزَجِرَ عَنْهُ كَمَا يُؤَدَّبُ على قَبَائِحِ الأفعَالِ، ويُوَالَى أَدَبُه على ذَلِكَ حَتَّى يَنْكَفَّ عَنْه كَمَا تُؤَدَّبُ البَهِيمَةُ على سُوءِ الخُلُقِ حَتَّى تُرَاضَ.

وقَدْ حَرَّقَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَنِ ادَّعَى لَهُ الإِلَهِيَّةَ، وقَدْ قَتَلَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الحارِثَ المُتَنَبِّيَ، وصَلَبَهُ، وفَعَلَ ذَلِكَ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ الخُلَفَاءِ والمُلُوكِ بِأَشْبَاهِهِمْ، وأَجْمَعَ عُلَمَاءُ وَقْتِهِمْ على صَوَابِ فِعْلِهِمْ، والمُخَالِفُ في ذلك مِنْ كُفْرِهِمْ كافِرٌ.

وأَجْمَعَ فُقَهَاءُ بَغْدَادَ أَيَّامَ المُقْتَدِرِ مِنَ المَالِكِيَّةِ، وقاضِي قُضَاتِهَا أَبُو عُمَرَ المَالِكِيُّ عَلَى قَتْلِ الحَلَّاجِ وصَلْبِه؛ لِدَعْوَاهُ الإِلَهِيَّةَ،

قوله (أَوْ رَبَّه): أَيْ مُرَبِّيَه في عالَمِ ظُهورِه، ومدبِّرَه في جَمِيعِ أُمُورِه.

قوله (في سُكْرِه): أَيْ حَالَ ذَهَابِ عَقْلِه. قوله (فَيْئَتُه): -بِفَتْحِ الفَاءِ وتُكْسَرُ- أَيْ عَوْرَتُه.

قوله (مِنْ عَظِيمِ النَّكَالِ): -بفتحِ النُّونِ- أي العُقوبةِ. قوله (ولَا يُرَفَّهُ): -بِفَتْحِ الفاءِ- أَيْ لا يُخَفَّفُ غَمُّه.

قوله (عَلَى سُوءِ طَوِيَّتِهِ): أَيْ ضَمِيرِه وفَسَادِ نِيَّتِهِ. قوله (فِي حَالِ غَمْرَتِه): أَيْ وَقْتَ إِغمارِه.

قوله (ويُوَالَى أَدَبُه): أَيْ يُتابَعُ مِرارًا، و(يَنْكَفَّ عَنْه): بِمَعْنَى: فيَنْزَجِرَ عَنْه. قوله (عَلَى سُوءِ الخُلُقِ): مِنْ جُمُوحٍ وغَيْرِه.

قوله (حَتَّى تُرَاضَ): -بالبِنَاءِ لِلمَجْهُولِ- أَيْ إِلى أَنْ يَسْتَقِيمَ طَبْعُهَا.

قوله (مَنِ ادَّعَى... إِلخ): هُوَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَبَإٍ. قوله (المُتَنَبِّيَ): أي مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ كَذِبًا.

قوله (بِأَشْبَاهِهِم): أي مِنَ الشياطِينِ. قوله (مِنْ كُفْرِهِم): أي مِنْ جِهَةِ كُفْرِهِمْ.

قوله (المُقْتَدِرِ): أَيْ باللهِ؛ وهُوَ جَعْفَرُ بنُ المُعْتَضِدِ باللهِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ. قوله (مِنَ المالِكِيَّةِ): بَيَانٌ لِمَنْ أَجْمَعَ مِنْ فُقَهَاءِ بَغْدَادَ.

قوله (الحَلَّاجِ): هُوَ الحُسَيْنُ بنُ مَنصُورٍ.

والقَـوْلَ بالحُلُـولِ، وقَوْلِـهِ: «أَنَـا الحَـقُّ» مَـعَ تَمَسُّـكِهِ في الظَّاهِـرِ بالشَّريعَـةِ، ولَمْ يَقْبَلُـوا تَوْبَتَـهُ، وكَذلِـكَ حَكَمُـوا في ابْـنِ أَبِي العَزَقِـيرِ، وكانَ عـلَى نَحْـوِ مَذْهَـبِ الحَـلَّاجِ بَعْـدَ هَـذا أَيَّـامَ الـراضي، وقـاضِي قُضَـاةِ بَغْـدَادَ إِذْ ذاكَ أَبُـو الحُسَـيْنِ بْـنُ أَبِي عُمَـرَ المالِكـيُّ.

وقـالَ ابْـنُ عَبْـدِ الحَكَـمِ فِي «المَبْسُـوطِ»: «مَـنْ تَنَبَّـأَ قُتِـلَ»، وقـالَ أَبُـو حَنِيفـةَ وأَصْحَابُـه: «مَـنْ جَحَـدَ أَنَّ اللهَ خالِقُـهُ، أَوْ رَبُّـهُ، أَوْ قـالَ: «لَيْـسَ لِي رَبٌّ»، فهُـوَ مُرْتَـدٌّ».

وقـالَ ابْـنُ القَاسِـمِ في كِتَـابِ ابْـنِ حَبِيـبٍ، ومحمَّـدٌ في «العُتْبِيَّـةِ» فِيمَـنْ تَنَبَّـأَ: «يُسْـتَتَابُ أَسَرَّ ذَلِـكَ أَوْ أَعْلَنَـه، وهُـوَ كالمُرْتَـدِّ»، وقالَـهُ سَـحْنُونُ وغَـيْرُهُ.

وقالَـهُ أَشْـهَبُ في يَهُـودِيٍّ تَنَبَّـأَ وادَّعَـى أَنَّـهُ رَسُـولٌ إِلَيْنـا: «إِنْ كَانَ مُعْلِنًـا لِذَلِـكَ اسْـتُتِيبَ، فـإِنْ تَـابَ، وإِلَّا قُتِـلَ».

وقـالَ أَبُـو محمَّـدِ بْـنُ أَبِي زَيْـدٍ فِيمَـنْ لَعَـنَ بارِئَـهُ، وادَّعَـى أَنَّ لِسَـانَه زَلَّ، وإِنَّـما أَرَادَ لَعْـنَ الشـيْطانِ: «يُقْتَـلُ بِكُفْـرِهِ، ولا يُقْبَـلُ عُـذْرُهُ»، وعـلى هَـذا القَـوْلِ الآخَـرِ مِـنْ أَنَّـه لا تُقْبَـلُ تَوْبَتُـهُ.

وقـالَ أَبُـو الحَسَـنِ القَابِسِـيُّ في سَـكْرَانَ قـالَ: «أَنَـا اللهُ، أَنَـا اللهُ»: «إِنْ تَـابَ أُدِّبَ، فـإِنْ عَـادَ إِلَى مِثْـلِ قَوْلِـه طُولِـبَ مُطالَبَـةَ الزِّنْدِيـقِ؛ لِأَنَّ هـذا كُفْـرُ المُتَلاعِبِـينَ».

***

قولـه (والقَـوْلَ بالحُلُـولِ): جَـرَى عـلى قَـوْلِ المُتَصَوِّفَـةِ: إِنَّ السَّـالِكَ إِذا وَصَـلَ فرُبَّـما حَـلَّ اللهُ فِيـهِ كالمَـاءِ في العُـودِ الأَخْـضَرِ بحَيـثُ لا تَغايُـرَ ولا اثْنَيْنِيَّـةَ. اهـ مُـلَّا باختِصَـارٍ.

قولـه (حَكَمُـوا): أَيْ فُقَهـاءُ بَغْـدادَ مِـنَ المالِكِيَّـةِ.

قولـه (العَزَقِـيرِ): في نسـخةٍ «العَزَاقِـرِ» بالمهمَلـةِ أَوَّلَـه فيهـا، وفي أخـرى بالغـيْنِ المعجَمـةِ[1].

قولـه (فهُـوَ مُرْتَـدٌّ): أَيْ لا زِنديـقٌ، فيُسْـتَتابُ، فـإِنْ تـابَ، وإِلَّا قُتِـلَ.

قوله (تَنَبَّأَ): أَيْ ولَمْ يَدَّعِ الرِّسَالَةَ.

قولـه (بارِئَـه): أي خالِقَـه. قولـه (زَلَّ): أي زَلِـقَ وأَخْطَـأَ.

قولـه (المُتَلاعِبِـينَ): أي المُتَسَـتِّرِينَ لِلكُفْـرِ.

***

(١) قـال الشـهاب: وهـو محمـد بـن عـلي بـن أبي الغراقيـد، وكان شـاع أمـره ببغـداد وادعـى الألوهيـة وادعـى التناسـخ والحلـول.

فَصْلٌ [في حُكْمِ مَنْ أَتَى بِشيءٍ مِن سَقْطِ القَوْلِ يَقتضي الاستِخفافَ بِعظمةِ الله تعالى]

وَأَمَّا مَنْ تكَلَّمَ مِنْ سَقَطِ القَوْلِ وسُخفِ اللَّفْظِ مِمَّنْ لَمْ يَضْبطْ كَلَامَه وأَهْمَلَ لِسَانَهُ، بِمَا يَقتَضِي الاسْتِخْفَافَ بعظَمَةِ رَبِّه وجَلَالَةِ مَوْلَاهُ، أَوْ تَمَثَّلَ فِي بَعْضِ الأَشْيَاءِ بِبَعْضِ مَا عَظَّمَ اللهُ مِنْ مَلَكُوتِه، أَوْ نَزَعَ مِنَ الكَلام لِمَخْلُوقٍ بِمَا لا يَليقُ إِلَّا فِي حَقِّ خالِقِهِ غَيْرَ قَاصِدٍ لِلْكُفْرِ والاسْتِخْفَافِ، ولا عَامِدٍ لِلْإِلحَادِ، فَإِنْ تكَرَّرَ هذا مِنْه وعُرِفَ بِهِ دَلَّ على تَلَاعُبِه بِدِينِه، واسْتِخْفافِهِ بِحُرْمَةِ رَبِّه، وجَهْلِهِ بعَظِيمِ عِزَّتِهِ وكِبْرِيائِه، وهَذَا كُفْرٌ لا مِرْيَةَ فِيهِ، وكَذَلِكَ إِنْ كَانَ مَا أَوْرَدَهُ يُوجِبُ الاسْتِخْفَافَ والتَّنَقُّصَ لِرَبِّه.

وقَدْ أَفْتَى ابْنُ حَبِيبٍ وَأَصْبَغُ بْنُ خَلِيلٍ -مِنْ فُقَهاءِ قُرْطُبَةَ- بِقَتْلِ المَعْرُوفِ بابْنِ أَخِي عَجَبَ، وكَانَ خَرَجَ يَوْمًا، فَأَخَذَه المَطَرُ، فقَالَ: بَدَا الخَرَّازُ يَرُشُّ جُلُودَهُ، وكَانَ بَعْضُ الفُقَهاءِ بِهَا -أَبُو زَيْدٍ صَاحِبُ الثَّمَانِيَّةِ، وعَبْدُ الأَعْلَى بْنُ وَهْبٍ، وأَبَانُ بْنُ عِيسَى- قَدْ تَوَقَّفُوا عَنْ سَفْكِ دَمِهِ، وأَشَارُوا إِلَى أَنَّه عَبَثٌ مِنَ القَوْلِ يَكْفِي فيهِ الأَدَبُ، وأَفْتَى بِمِثْلِهِ القَاضِي حِينَئِذٍ مُوسَى بْنُ زِيَادٍ، فقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: دَمُهُ فِي عُنُقِي، أَيُشْتَمُ رَبٌّ عَبَدْنَاهُ، ثُمَّ لا نَنْتَصِرُ لَهُ؟! إِنَّا إِذَنْ لَعَبِيدُ سُوءٍ، مَا نَحْنُ لهُ بِعَابِدِينَ!! وبَكَى.

ورُفِعَ المَجْلِسُ إِلَى الأَمِيرِ بِهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الحَكَمِ الأَمَوِيِّ، وكانَتْ عَجَبُ خالةُ هَذا المَطْلُوبِ مِنْ حَظَايَاهُ، وأُعْلِمَ باخْتِلافِ الفُقَهاءِ، فخَرَجَ الإذنُ مِنْ عِنْدِهِ بِقَوْلِ ابْنِ حَبِيبٍ وَصَاحِبِهِ، وأَمَرَ بِقَتْلِه، فقُتِلَ وصُلِبَ بِحَضْرَةِ الفَقِيهَيْنِ، وعَزَلَ القَاضِيَ لِتُهْمَتِهِ بالمُدَاهَنَةِ فِي هَذِهِ القِصَّةِ، وَوَبَّخَ بَقِيَّةَ الفُقَهاءِ وسَبَّهُمْ.

وأَمَّا مَنْ صَدَرَتْ مِنْه مِنْ ذلكَ الهَنَةُ الواحِدَةُ، وَالفَلْتَةُ الشَّارِدَةُ مَا لَمْ يَكُنْ تَنَقُّصًا وإِزْرَاءً، فيُعَاقَبُ عَلَيْها، ويُؤَدَّبُ بِقَدْرِ مُقْتَضَاها،

قوله (مِنْ سَقَطِ القَوْلِ): (سَقَطِ -بفتحِ أوَّلِه وثانيهِ- مَعْنَاهُ الرَّدِيُّ. قوله (وسُخْفِ اللَّفْظِ): أيْ دَنِيِّه. قوله (الاسْتِخْفافَ): أي التَّهَاوُنَ.

قوله (أوْ نَزَعَ): -بفتحِ الزايِ- أيْ أَخَذَ. قوله (بِمَا لا يَلِيقُ... إلخ): أي كقولِ قائلٍ لِعَظِيمٍ مِنَ الأنَامِ: «يا ذا الجَلالِ والإكرامِ».

قوله (وهذا): أي الَّذي دَلَّ على تَلَاعُبِه. قوله (بابنِ أَخِي عَجَبَ): في نسخةٍ «بابنِ أُخْتِ عَجَبَ»، و(عَجَبَ) لا يَنصَرِفُ لِلعَلَمِيَّةِ مَعَ التَّأنيثِ. قوله (بَدَا الخَرَّازُ): أي ظَهَرَ، و(الخَرّازُ) بالمعجمةِ أوَّلَه، والزايِ آخِرَه.

قوله (دَمُه في عُنُقِي): أي قَتْلُه متعَلِّقٌ بذِمَّتِي وفي عُهْدَتِي أُطالَبُ بِه يَوْمَ القِيامةِ. قوله (أَيُشْتَمُ رَبٌّ): في نسخةٍ «رَبًّا». قوله (لا نَنْتَصِرُ له): أيْ لا نَنْتَقِمُ لِأجلِ رِضَاهُ.

قوله (إلى الأَمِيرِ بِهَا): أي بقُرْطُبَةَ. قوله (الأَمَوِيِّ): نِسْبَةٌ إلى بَنِي أُمَيَّةَ.

قوله (الفَقِيهَيْنِ): هُمَا ابنُ حَبِيبٍ وخَلِيلٍ. قوله (بالمُدَاهَنَةِ): أي المُلَايَنَةِ والمُمَالَقَةِ. قوله (وسَبَّهُمْ): أيْ لِتَوَقُّفِهِمْ عَنْ سَفْكِ دَمِه مَعَ وُضوحِ كُفْرِه.

قوله (الفَلْتَةُ الشَّارِدَةُ): أي الزَّلَّةُ الصَّادرةُ النادِرةُ.

وشُنْعَةِ مَعْنَاهَا، وصُورَةِ حَالِ قائِلِهَا، وشَرْحِ سَبَبِهَا ومُقَارِنِهَا، وقَدْ سُئِلَ ابنُ القَاسِمِ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- عَنْ رَجُلٍ نادَى رَجُلًا باسْمِهِ، فأَجَابَه: لَبَّيْكَ -اللهُمَّ- لَبَّيْكَ، قالَ: إنْ كَانَ جَاهِلًا، أَوْ قالَه على وَجْهِ سَفَهٍ فلَا شَيْءَ عَلَيْهِ. قالَ القاضي أبو الفَضْلِ: وشَرْحُ قَوْلِهِ أَنَّه لا قَتْلَ عَلَيْهِ، والجاهِلُ يُزْجَرُ ويُعَلَّمُ، والسَّفِيهُ يُؤَدَّبُ، ولَوْ قالَها عَلَى اعْتِقَادِ إنْزالِهِ مَنْزِلَةَ رَبِّه لَكَفَرَ. هَذا مُقْتَضَى قولِهِ.

وقَدْ أَسْرَفَ كَثِيرٌ مِن سُخَفاءِ الشُّعَراءِ ومُتَّهَمِيهِمْ في هَذا البَابِ، واسْتَخَفُّوا عَظِيمَ هَذه الحُرْمَةِ؛ فأَتَوْا مِنْ ذلكَ بِمَا نُنَزِّهُ كِتابَنا ولِسانَنا وأَقْلَامَنا عَنْ ذِكْرِه، ولَوْلا أَنَّا قَصَدْنا نَصَّ مَسَائِلَ حَكَيْنَاهَا لَمَا ذَكَرْنا شَيْئًا مِمَّا يَثْقُلُ ذِكْرُهُ عَلَيْنا مِمَّا حَكَيْناهُ في هَذِهِ الفُصُولِ.

وأَمَّا مَا وَرَدَ في هَذا مِنْ أَهْلِ الجَهَالَةِ وَأَغَالِيطِ اللِّسَانِ، كقَوْلِ بَعْضِ العَرَبِ:

«رَبَّ العِبادِ مَا لَنَا ومَا لَكَا * قَدْ كُنْتَ تَسْقِينا فمَا بَدَا لَكَا * أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ لا أَبَا لَكَا»

.. في أَشْباهٍ لِهَذا مِنْ كَلَامِ الجُهَّالِ، ومَنْ لَمْ يُقَوِّمْهُ ثِقَافُ تَأْدِيبِ الشَّرِيعَةِ والعِلْمِ في هَذا البابِ، فقَلَّما يَصْدُرُ إلَّا مِنْ جَاهِلٍ يَجِبُ تَعْليمُهُ وزَجْرُهُ، والإغْلَاظُ لَه عَنِ العَوْدَةِ إلى مِثْلِهِ.

قالَ أَبُو سُلَيْمانَ الخَطَّابِيُّ: وهَذا تَهَوُّرٌ مِنَ القَوْلِ، واللهُ -جَلَّ جَلالُهُ- مُنَزَّهٌ عَنْ هَذِهِ الأُمُورِ، وقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَوْنِ بنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ قالَ: لِيُعَظِّمْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَه في كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لا يَقُولَ: أَخْزَى اللهُ الكَلْبَ، وفَعَلَ به كَذَا وكَذا، قالَ: وكَانَ بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنا مِنْ مَشَايِخِنا قَلَّمَا يَذْكُرُ اسْمَ اللهِ -سُبْحانَهُ- إلَّا فيمَا يَتَّصِلُ بطَاعَتِهِ، وكَانَ يَقُولُ لِلإنْسانِ: جُزِيتَ خَيْرًا، وقَلَّمَا يَقُولُ: جَزاكَ اللهُ خَيْرًا؛ إعْظَامًا لاسْمِهِ تعالى أَنْ يُمْتَهَنَ في غَيْرِ قُرْبَةٍ.

وحَدَّثَنا الثِّقَةُ أَنَّ الإمَامَ أَبا بَكْرٍ الشَّاشِيَّ كَانَ يَعِيبُ عَلَى أَهْلِ الكَلامِ كَثْرَةَ خَوْضِهِمْ فِيه تعالى، وفي ذِكْرِ صِفاتِه إجْلَالًا لاسْمِهِ تعالى، ويَقُولُ: «هؤُلاءِ يَتَمَنْدَلُونَ باللهِ سُبْحانَهُ»، ويُنَزِّلُ الكَلامَ في هَذا البابِ تَنْزِيلَه في بَابِ سَابِّ النَّبِيِّ ﷺ على الوُجُوهِ الَّتي فَصَّلْناهَا، والمُوَفِّقُ اللهُ.

***

قوله (على وَجْهِ سَفَهٍ): أي خطأٍ لا عَن اعتِقادٍ.

قوله (ولَوْ قالَها): أي كلمة «لَبَّيْكَ... إلخ»، وضميرُ (إنزالِه) لِلمُجابِ.

قوله (أَسْرَفَ): أيْ تَجاوَزَ الحَدَّ.

قوله (في هذه الفُصُولِ): أي المتقدِّمةِ. قوله (لا أَبا لَكَ): قالَ ابنُ الأَثيرِ: هُوَ أَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ في المَدْحِ.

قوله (ما يَذْكُرُ اسْمَ الله): (مَا) مَصْدريّةٌ لا نافيةٌ.

قوله (الشَّاشِيَّ): نِسْبَةٌ إلى «شَاشٍ»؛ بلْدةٌ وراءَ النَّهرِ.

قوله (يَتَمَنْدَلُونَ): أيْ يَتناولونَه كالمِنْدِيلِ لِكَثْرةِ تَداوُلِ أَلسِنَتِهِمْ له في الأقاويلِ.

***

فَصْلٌ [فِي حُكْمِ من سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَمَلائكَتِهِ، أَوِ اسْتَخَفَّ بِهِمْ، أَوْ أَنْكَرَهُمْ وجَحَدَهُمْ]

وحُكْمُ مَنْ سَبَّ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ الله تَعالى ومَلائكَتِهِ، أَوِ اسْتَخَفَّ بِهِمْ، أَوْ كَذَّبَهُمْ فِيمَا أَتَوْا بِهِ، أَوْ أَنْكَرَهُمْ وجَحَدَهُمْ حُكْمُ نَبِيِّنَا ﷺ عَلَى مَسَاقِ مَا قَدَّمْنَاهُ.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ...﴾ الآيَة [النساء: ١٥٠]، وَقَالَ تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهَّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقَالَ تعَالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ ابْنِ حَبِيبٍ ومحمَّدٍ -وَقالَهُ ابْنُ القَاسِمِ، وابْنُ الماجِشُونِ، وابْنُ عَبْدِ الحَكَمِ، وأَصْبَغُ، وسَحْنُونُ- فِيمَنْ شَتَمَ الأنبياءَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ، أَوْ تَنَقَّصَهُ: قُتِلَ ولَمْ يُسْتَتَبْ، ومَنْ سَبَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قُتِلَ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ.

قوله (على مَسَاقِ ما قَدَّمْنَاهُ): أي نَهْجِه وسَبيله.

ورَوَى سَحْنُونُ عَنِ ابنِ القَاسِمِ: مَنْ سَبَّ الأَنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى بِغَيْرِ الوَجْهِ الَّذي بِهِ كَفَرَ، ضُرِبَتْ عُنُقُهُ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ، وقَدْ تَقَدَّمَ الخِلَافُ في هَذا الأَصْلِ.

وَقَالَ القَاضِي بِقُرْطُبَةَ سَعِيدُ بنُ سُلَيْمَانَ فِي بَعْضِ أَجْوِبَتِهِ: مَنْ سَبَّ اللهَ تعالى أَوْ مَلائكتَهُ قُتِلَ، وقَالَ سَحْنُونُ: مَنْ سَبَّ مَلَكًا مِنَ المَلائكةِ فعَلَيْهِ القَتْلُ.

وَفِي «النَّوَادِرِ» عَنْ مالكٍ فِيمَنْ قَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ أَخْطَأَ بالوَحْيِ، وإِنَّمَا كانَ النَّبِيُّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالبٍ: «اسْتُتِيبَ، فإِنْ تَابَ، وإِلَّا قُتِلَ»، ونَحْوُهُ عَنْ سَحْنُونَ، وهَذَا قَوْلُ الغُرَابِيَّةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، سُمُّوا بذَلِكَ لِقَوْلِهِمْ: وكانَ النَّبِيُّ أَشْبَهَ بِعَلِيٍّ مِنَ الغُرَابِ بالغُرَابِ.

وقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وأَصْحابُهُ عَلَى أَصْلِهِمْ: «مَنْ كَذَّبَ بأَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، أَوْ تَنَقَّصَ أَحَدًا مِنْهُمْ، أَوْ بَرِئَ مِنْهُ، أَوْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذلِكَ، فهُوَ مُرْتَدٌّ».

وقالَ أَبُو الحَسَنِ القَابِسِيُّ في الَّذي قالَ لِآخَرَ: كأَنَّه وَجْهُ مَالِكٍ الغَضْبانِ: «لَوْ عُرِفَ أَنَّه قَصَدَ ذَمَّ المَلَكِ قُتِلَ».

قالَ القَاضِي أَبُو الفَضْلِ: وهَذا كُلُّه فِيمَنْ تكَلَّمَ فِيهِمْ بِمَا قُلْنَاهُ عَلى جُمْلَةِ المَلائكَةِ والنَّبِيِّينَ، أَوْ عَلَى مُعَيَّنٍ مِمَّنْ حَقَّقْنَا كَوْنَهُ مِنَ المَلائكَةِ وَالنَّبِيِّينَ مِمَّنْ نَصَّ اللهُ تعالى عَلَيْهِ في كِتَابِهِ، أَوْ حَقَّقْنَا عِلْمَهُ بالخَبَرِ المُتَواتِرِ والمُشْتَهِرِ، المُتَّفَقِ عَلَيْهِ بالإجْماعِ القَاطِعِ، كَجِبْرِيلَ، ومِيكائِيلَ، ومَالِكٍ، وخَزَنَةِ الجَنَّةِ وجَهَنَّمَ، والزَّبَانِيَةِ، وحَمَلَةِ العَرْشِ المَذْكُورِينَ في القرآنِ مِنَ المَلائكَةِ، ومَنْ سُمِّيَ فِيهِ مِنَ الأنبِيَاءِ، وكَعِزْرَائِيلَ، وإِسْرَافِيلَ، ورِضْوَانَ، والحَفَظَةِ، ومُنْكَرٍ ونكِيرٍ مِنَ المَلائكَةِ المُتَّفَقِ على قَبُولِ الخَبَرِ بِهِما.

فأَمَّا مَنْ لَمْ تَثْبُتِ الأَخْبارُ بتَعْيِينِه، ولا وَقَعَ الإجْماعُ على كَوْنِهِ مِنَ المَلائكَةِ أوِ الأنبِيَاءِ، كهَارُوتَ ومَارُوتَ في المَلائكَةِ، والخَضِرِ، ولُقْمَانَ، وذِي القَرْنَيْنِ، ومَرْيَمَ، وآسِيَةَ، وخالِدِ بنِ سِنَانٍ المَذكورِ أَنَّه نَبِيُّ أَهْلِ الرَّسِّ، وزَرَادُشْتَ الَّذي تَدَّعِي المَجُوسُ والمُؤَرِّخُونَ نُبُوَّتَه، فلَيْسَ الحُكْمُ في سَابِّهِمْ والكافِرِ بِهِمْ كالحُكْمِ فِيمَنْ قَدَّمْنَاهُ؛ إِذْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُمْ تِلْكَ الحُرْمَةُ، ولَكِنْ يُزْجَرُ مَنْ تَنَقَّصَهُمْ وآذَاهُمْ، ويُؤَدَّبُ بِقَدْرِ حَالِ المَقُولِ فيهِمْ، لا سِيَّمَا مَنْ عُرِفَتْ صِدِّيقِيَّتُه وفَضْلُهُ مِنْهُمْ، وإِنْ لَمْ تَثْبُتْ نُبُوَّتُه.

وَأَمَّا إِنْكَارُ نُبُوَّتِهِمْ، أَوْ كَوْنِ الآخَرِ مِنَ المَلائكَةِ فإنْ كَانَ المُتَكَلِّمُ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فَلا حَرَجَ لِاخْتِلافِ العُلَماءِ في ذلكَ، وإِنْ كَانَ مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ زُجِرَ عَنِ الخَوْضِ في مِثْلِ هَذا، فإِنْ عَادَ أُدِّبَ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ الكَلامُ في مِثْلِ هَذَا، وقَدْ كَرِهَ السَّلَفُ الكَلامَ في مِثْلِ هَذا مِمَّا لَيْسَ تَحْتَهُ عَمَلٌ لِأَهْلِ العِلْمِ، فكَيْفَ لِلعَامَّةِ!!

***

قولُه (لَوْ عُرِفَ): أي مِنْ مَقامِه أو حَالِه.

قولُه (والزَّبَانِيَةِ): لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧-١٨]، مِنَ «الزَّبْنِ»، وهُوَ الدَّفْعُ.

قولُه (ولُقْمَانَ): قيلَ: كانَ حَكِيمًا، وقيلَ: كانَ نَبِيًّا.

قولُه (نَبِيُّ أَهْلِ الرَّسِّ): -بتشديدِ السِّينِ المُهْمَلَةِ- أي البِئْرِ غَيْرِ المَطْوِيَّةِ.

قولُه (وزَرَادُشْتَ): -بزاي مفتوحةٍ ويُضَمُّ فراءٍ فأَلِفٍ ودالٍ مُهْمَلَةٍ مضمُومَةٍ، وقيلَ: معجَمَةٍ مفتوحَةٍ- صَاحِبُ كِتَابِ المَجُوسِ.

***

فَصْلٌ [فِي حُكْم مَنِ اسْتَخَفَّ بالقُرْآنِ، أَوْ جَحَدَهُ، أَوْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ مِمَّا صُرِّحَ بِه فِيهِ]

واعْلَمْ أَنَّ مَنِ اسْتَخَفَّ بالقُرْآنِ، أَوْ بالمُصْحَفِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ سَبَّهما، أَوْ جَحَدَهُ، أَوْ حَرْفًا مِنْه أَوْ آيَةً، أَوْ كَذَّبَ بِه، أَوْ بِشَيْءٍ مِنْه، أَوْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ مِمَّا صُرِّحَ بِه فِيهِ مِنْ حُكْمٍ أَوْ خَبَرٍ، أَوْ أَثْبَتَ مَا نَفَاهُ أَوْ نَفَى ما أَثْبَتَهُ على عِلْمٍ مِنْه بذلِكَ، أَوْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فهُوَ كَافِرٌ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ بإجْماعٍ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وإنَّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

حَدَّثَنا الفَقِيهُ أَبُو الوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ أَحْمَدَ -رَحِمَه اللهُ تعالى-، حدَّثَنا أَبُو عَلِيٍّ، حدَّثَنا ابْنُ عَبْدِ البَرِّ، حدَّثَنا ابْنُ عبْدِ المؤْمِنِ، حدَّثَنا ابنُ داسَةَ، حدَّثَنا أَبُو داوُدَ، حدَّثَنا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حدَّثَنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: (المِرَاءُ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ)[1]، تُؤُوِّلُ بمَعْنَى «الشَّكِّ»، وبِمَعْنَى «الجِدَالِ».

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (مَنْ جَحَدَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَدْ حَلَّ ضَرْبُ عُنُقِهِ)[2]، وكَذَلِكَ إِنْ جَحَدَ التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ وكُتُبَ اللهِ المُنَزَّلَةَ، أَوْ كَفَرَ بِهَا، أَوْ لَعَنَهَا، أَوْ سَبَّهَا، أَوِ اسْتَخَفَّ بِهَا، فهُوَ كَافِرٌ.

وقَدْ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ أَنَّ القُرْآنَ المَتْلُوَّ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الأَرْضِ، المَكْتُوبَ فِي المُصْحَفِ بأَيْدِي المُسْلِمِينَ مِمَّا جَمَعَه الدَّفَّتَانِ، مِنْ أَوَّلِ ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، إِلَى آخِرِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، أَنَّه كَلامُ اللهِ، ووَحْيُه المُنَزَّلُ على نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَنَّ جَمِيعَ ما فيهِ حَقٌّ، وأَنَّ مَنْ نَقَصَ مِنْهُ حَرْفًا قاصِدًا لِذَلِكَ، أَوْ بَدَّلَه بِحَرْفٍ آخَرَ مَكانَه، أَوْ زَادَ فيهِ حَرْفًا مِمَّا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْه المُصْحَفُ الَّذِي وَقَعَ الإجْمَاعُ عَلَيْهِ، وأُجْمِعَ عَلَى أَنَّه لَيْسَ مِنَ القُرْآنِ، عامِدًا لِكُلِّ هَذا أَنَّه كافِرٌ.

(١) حديث أبي هريرة (المِراءُ في القُرْآنِ كُفْرٌ): أسنده من طريق أبي داود [٤٦٠٣].

(٢) حديث ابن عبَّاس (مَن جَحَدَ آيةً ...): ابن ماجه [٢٥٣٩].

قولـه (أو بالمُصْحَفِ): بضمِّ الميمِ وكَسْرِها، والأَوَّلُ أَشْهَرُ. قولـه (لَكِتَابٌ عَزِيزٌ): أي بَدِيعٌ أو مَنِيعٌ. قولـه (لا يأتيه الباطِلُ): أي الناسِخُ الذي يُبْطِلُه.

قولـه (وبِمَعْنَى الجِدَالِ): مِنْه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]. قولـه (الدَّفَّتانِ): -بتشديدِ الفاءِ- ما يَضُمُّه مِنْ جانِبَيْه. قولـه (أَوْ بَدَّلَه بحَرْفٍ آخَرَ مَكانَه): أَيْ ولَوْ لَمْ يُغَيِّرْ شأْنَهُ.

قولـه (وَقَعَ الإجماعُ عَلَيْه): أَيْ كتابةً وقراءةً. قولـه (وأُجْمِعَ): بصيغةِ المجهُولِ وَفِي نسخةٍ بصيغةِ الفاعِلِ.

قولـه (عامِدًا): أي لا سَاهِيًا ولا ناسِيًا. قولـه (لِكُلِّ هذا): أي الذي ذُكِرَ مِنَ النُّقْصانِ والزِّيادةِ. قولـه (أَنَّه كافِرٌ): أَيْ إِلَّا القراءاتِ الشَّاذَّةَ الَّتي ثَبَتَتْ في الجملةِ.

وَلِهَذا رَأَى مَالِكٌ قَتْلَ مَنْ سَبَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالفِرْيَةِ لأَنَّه خَالَفَ القرآنَ، ومَنْ خَالَفَ القرآنَ قُتِلَ، أَيْ لأَنَّه كَذَّبَ بِمَا فيهِ.

وقَالَ ابْنُ القَاسِمِ: مَنْ قَالَ: «إنَّ اللهَ تعالى لَمْ يُكَلِّمْ مُوسى تكْلِيمًا» يُقْتَلُ، وقالَهُ عَبْدُ الرحْمنِ بنُ مَهْدِيٍّ، وقالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَحْنُونَ فِيمَنْ قالَ: «المُعَوِّذَتَانِ لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللهِ»: تُضْرَبُ عُنُقُهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَذَّبَ بِحَرْفٍ مِنْه، وقالَ: وكَذلكَ إنْ شَهِدَ شَاهِدُ عَدْلٍ على مَنْ قَالَ: «إنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسى تكْلِيمًا»، وشَهِدَ آخَرُ عَلَيْهِ أَنَّه قَالَ: «إنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبْراهيمَ خَلِيلًا»؛ لأَنَّهُمَا اجْتَمَعَا عَلَى أَنَّه كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ.

وقَالَ أَبُو عُثْمَانَ بْنُ الحَدَّاد: جَمِيعُ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّوْحِيدَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الجَحْدَ لِحَرْفٍ مِنَ التَّنْزِيلِ كُفْرٌ.

وكانَ أَبُو العَالِيَةِ إذا قَرَأَ عِنْدَهُ رَجُلٌ لَمْ يَقُلْ لَهُ: لَيْسَ كَمَا قَرَأْتَ، ويَقُولُ: أَمَّا أَنَا فأَقْرَأُ كَذَا، فبَلَغَ ذلِكَ إبْراهيمَ، فقَالَ: أُرَاهُ سَمِعَ أَنَّهُ مَنْ كَفَرَ بحَرْفٍ مِنْه فقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ، وقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ: «مَنْ كَفَرَ بآيةٍ مِنَ القرآنِ فقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ»[1]. وقالَ أَصْبَغُ بْنُ الفَرَجِ: «مَنْ كَذَّبَ بِبَعْضِ القرآنِ فقَدْ كَذَّبَ بهِ كُلِّهِ، ومَنْ كَذَّبَ بِه فقَدْ كَفَرَ بِهِ، ومَنْ كَفَرَ بِهِ فقَدْ كَفَرَ باللهِ تعالى».

وقَدْ سُئِلَ القَابِسِيُّ عَمَّنْ خاصَمَ يَهُودِيًّا، فحَلَفَ له بالتَّوْراةِ، فقَالَ لهُ الآخَرُ: لَعَنَ اللهُ التَّوْرَاةَ، فشَهِدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ شَاهِدٌ، ثُمَّ شَهِدَ آخَرُ أَنَّه سَأَلَهُ عَنِ القَضِيَّةِ، فقَالَ: إنَّمَا لَعَنْتُ تَوْرَاةَ اليَهُودِ، فقَالَ أَبُو الحَسَنِ: الشَّاهِدُ الواحِدُ لا يُوجِبُ القَتْلَ،

قولُه (بالفِرْيَةِ): -بكَسْرِ الفاءِ- أي الإِفْكِ لِنُزُولِ القرآنِ في بَراءةِ ساحَتِها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قولُه (وقالَه عَبْدُ الرحمنِ): أيْ قالَ بِه، ونَصَّ عليْه عبْدُ الرحمنِ أيضًا مِنْ أصْحَابِ الشافِعِيِّ.

قولُه (إلَّا أنْ يَتُوبَ): قالَ النَّوويُّ في «شَرْحِ المُهَذَّبِ»: «أَجْمَعَ المسْلِمونَ على أنَّ المُعَوِّذَتينِ والفاتحةَ وسَائرَ السُّوَرِ المكتوبةِ في المُصْحَفِ قُرآنٌ، وأنَّ مَنْ جَحَدَ شَيئًا مِنْها كَفَرَ».

قولُه (عَلَى أَنَّه كَذَّبَ النَّبِيَّ): وفي نسخَةٍ «تكذيبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ»؛ يَعْنِي: ومُؤَدَّى شَهادَتِها واحِدٌ، وهُوَ تكذيبُ بَعْضِ القرآنِ الَّذي لَزِمَ مِنه تكذيبُهم لِلنبِيِّ، فصَحَّ تعليلُ المُصَنِّفِ خِلافًا لِمَا يُوهِمُه المُلَّا[1].

قولُه (يَنْتَحِلُ): -بنُونٍ سَاكنةٍ بَعْدَ يَاءٍ مفتوحَةٍ- أي يَنْتَسِبُ إلَيْه، ويَدَّعِي اعتقادَه.

قولُه (عِنْدَه رَجُلٌ): أي بِقِراءةٍ لَمْ يَعْرِفْهَا. وقولُه (أُرَاهُ): -بضَمِّ الهَمزةِ- أيْ أَظُنُّهُ.

قولُه (تَوْراةَ اليَهُودِ): أي الَّتي يَتَدارَسُونَها بَيْنَهم. قولُه (لا يُوجِبُ القَتْلَ): أي ولَوْ حُمِلَ على إطْلاقِه، ولَمْ يُقْبَلْ قَصْدُه.

---

(١) حديث ابن مسعود (مَن كفر بآية من القرآن فقد كفر به كله): عبد الرزاق في مصنفه نحوه [١٥٩٤٦].

(١) حيث قال: فإن مؤداهما واحد وهو تكذيب بعض القرآن، وهذا التعليل أولى من قوله (لأنهما اجتمعا على تكذيب النبي). اهـ

والثَّـانِي عَلَّـقَ الأَمْـرَ بِصِفَـةٍ تَحْتَمِـلُ التَّأْوِيـلَ؛ إِذْ لَعَلَّـه لا يَـرَى اليَهُـودَ مُتَمَسِّـكِينَ بِـشَيْءٍ مِـنْ عِنْـدِ الله تعـالى؛ لِتَبْدِيلِهِـمْ وَتَحْرِيفِهِـمْ، ولَـو اتَّفَـقَ الشَّـاهِدَانِ عـلَى لَعْـنِ التَّـوْرَاةِ مُجَـرَّدًا لَضَـاقَ التَّأْوِيـلُ.

وقَـدِ اتَّفَـقَ فُقَهَـاءُ بَغْـدَادَ عَـلَى اسْـتِتَابَةِ ابْـنِ شَـنَبُوذَ المُقْـرِئِ، أَحَـدِ أَئِمَّـةِ المُقْرِئِينَ المُتَصَدِّرِيـنَ بِهَـا، مَـعَ ابْـنِ مُجَاهِـدٍ؛ لِقِراءَتِـهِ وإِقْرَائِـه بِشَـوَاذَّ مِـنَ الحُـرُوفِ مِمَّـا لَيْـسَ في المُصْحَـفِ، وعَقَـدُوا عَلَيْـهِ بالرُّجُـوعِ عَنْـه، والتَّوْبَـةِ مِنْـهُ سِـجِلًّا أَشْـهَدَ فيـهِ بذلـكَ عـلَى نَفْسِـهِ في مَجْلِسِ الوَزِيـرِ أَبِي عَـلِيٍّ بْـنِ مُقْلَـةَ سَـنَةَ ثَـلاثٍ وعِشريـنَ وثَلاثِمِائَـةٍ، وكانَ فِيمَـنْ أَفْتَـى عليْـهِ بذَلِـكَ أَبُـو بَكْـرٍ الأَبْهَـرِيُّ وغَـيْرُهُ.

وأَفْتَـى أَبُـو محمَّـدِ بْـنُ أَبِي زَيْـدٍ بـالأَدَبِ فِيمَـنْ قـالَ لِصَبِـيٍّ: لَعَـنَ اللهُ مُعَلِّمَـكَ، ومَـا عَلَّمَـكَ، وقـالَ: أَرَدْتُ سُـوءَ الأَدَبِ، ولَمْ أُرِدِ القُـرْآنَ، قـالَ أَبُـو محمّـدٍ: «وأَمَّـا مَـنْ لَعَـنَ المُصْحَـفَ فإِنَّـهُ يُقْتَـلُ».

***

قولـه (بِصِفَـةٍ): أيْ خَاصَّـةٍ ناشِـئةٍ مِـنَ الإضافَـةِ، أيْ إضافَـةِ التَّـوْراةِ لِلْيَهُـودِ، وهـذا يَكْفِـي في دَفْـعِ نِسْبَةِ الكُفْـرِ لِقَائـلِ هَـذا، فـإنَّ بـابَ الكُفْـرِ شَـدِيدٌ؛ فلْيُلْتَمَـسْ في دَفْعِـهِ بـأيِّ بـابٍ مِـنَ التَأويـلاتِ المُحتَمَلَةِ مِـنَ اللَّفْـظِ، فـلا يَـرِدُ مَـا قالَـه المُـلَّا عـلى المُصَنِّـفِ.

قولـه (لَضَـاقَ التأويـلُ): أيْ لَمَـا احْتَمَـلَ شـيْئًا لِتَجَـرُّدِه عَـنِ التعليـقِ.

قولـه (ابـنِ شَـنَبُوذَ): بفتـحِ الشـينِ المعجَمـةِ ونـونٍ سـاكنةٍ كَـمَا صَرَّحَ بِـهِ الحَلَبِـيُّ، قـالَ: وكانَ مُجَـابَ الدعـوةِ.

قولـه (مَـعَ ابـنِ مُجَاهِـدٍ): متعلِّـقٌ بـ(اتَّفَـقَ)، وهْـوَ إمـامٌ جَليـلٌ في عِلْـمِ القِـراءَةِ. وقولـه (لِقِراءَتِـه): أي ابـنِ شَـنَبُوذَ بنفْسِـه، وقولـه (وإقرائِـه): أي لِغَـيْرِه، وقولـه (بِشَـوَاذَّ مِـنَ الحروفِ): أيْ مِـنَ القِـرَاءاتِ الَّتِـي لَمْ يَثْبُـتْ تَواتُرُهَـا.

قوله (عَقَدُوا عَلَيْه): أي الفُقَهَاءُ مَعَ ابنِ مُجاهِدٍ.

قولـه (والتَّوْبَـةِ مِنْـه): أيْ مِـنْ إقرائِـه الشَّـاذَّةَ لِلْغَـيْرِ، قـالَ المُـلَّا: وهـذا لا يُنـافِي جَـوَازَ الرِّوايـةِ الشـاذَّةِ، قـالَ: لِلفَـرْقِ بَـيْنَ القِـراءةِ والرِّوايَـةِ.

***

فَصْلٌ [في حُكْمِ سَبِّ آلِ بَيْتِه وأَصْحَابِهِ وأَزْوَاجِه ﷺ]

وسَبُّ آلِ بَيْتِهِ وأَصْحَابِهِ وأَزْوَاجِهِ ﷺ، وتَنَقُّصُهُمْ حَرَامٌ، مَلْعُونٌ فاعِلُهُ؛ حَدَّثَنَا القَاضِي الشهيدُ أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ-، حَدَّثَنا أَبُو الحُسَيْنِ الصَّيْرَفِيُّ وأَبُو الفَضْلِ العَدْلُ، قالَا: حَدَّثَنا أَبُو يَعْلَى، حَدَّثَنا أَبُو عَلِيٍّ السِّنْجِي، حَدَّثَنا ابْنُ مَحْبُوبٍ، حَدَّثَنا التِّرْمِذِيُّ، حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْراهِيمَ، حَدَّثَنا عَبِيدَةُ بْنُ أَبِي رَائِطَةَ عَنْ عَبْدِ الرحمنِ بنِ زِيَادٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: (اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي؛ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، ومَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، ومَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، ومَنْ آذَانِي فقَدْ آذَى اللهَ، ومَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ)[1].

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فمَنْ سَبَّهُمْ فعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا ولا عَدْلًا)[2].

وقالَ ﷺ: (لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فإنَّه يَجِيءُ قَوْمٌ في آخِرِ الزَّمَانِ يَسُبُّونَ أَصْحَابِي؛ فَلَا تُصَلُّوا عَلَيْهِمْ، ولا تُصَلُّوا مَعَهُمْ، ولا تُنَاكِحُوهُمْ، ولا تُجَالِسُوهمْ، وإِنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ)[3]، وعَنْه ﷺ: (مَنْ سَبَّ أَصْحابِي فاضْرِبُوهُ)[4].

وقَدْ أَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ سَبَّهُمْ وأَذَاهُمْ يُؤْذِيهِ، وأَذَى النَّبِيِّ ﷺ حَرَامٌ، وقالَ: (لا تُؤْذُونِي فِي أَصْحَابِي؛ ومَنْ آذَاهُمْ فقَدْ آذَانِي)[5]،

---

(١) حديث (الله الله في أصحابي ...): تقدم [انظر ص٤٤٨].

(٢) وحديث (لا تسبُّوا أصحابي فمَن سَبَّهم ...): تقدم [انظر ص٤٨٧].

(٣) حديث (لا تسبوا أصحابي فإنه يجيء قوم ...): [ابن عساكر (١٤/ ٣٤٤)، الخطيب (٨/ ٧٢٥)].

(٤) وحديث (من سب أصحابي...): تقدم [انظر ص٤٨٧، و أخرجه بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس (٥٦٨٨)، وأخرجه تمام في فوائده (٧٤١) بلفظ «فاجلدوه»].

(٥) [أحمد (٢٠٥٤٩)، والترمذيُّ (٣٨٦٢)، من حديث عبدالله بن مغفَّل].

قولُه (عَبِيدَةُ): ضَبَطَه الشُّمُنِّيُّ بفتحِ العَينِ، قالَ: وهُوَ الصَّوَابُ، وفي نسْخَةٍ بالتَّصْغيرِ بضَمِّ العَيْنِ، قالَ التِّلِمْسَانِيُّ: وهُوَ خَطَأٌ، وصَوَابُه بِفَتْحِ العَيْنِ كَمَا ذَكَرَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ. قولُه (بْنُ أَبِي رائِطَةَ): بالهَمْزِ قَبْلَ الطَّاءِ المُهْمَلَةِ.

وقولُه (اللهَ اللهَ): -بنَصْبِهما، وكَرَّرَهُ لِلتَّوْكِيدِ- أَيْ راقِبُوهُ أَوِ احْذَرُوا عِقابَه. وقولُه (غَرَضًا): أَيْ هَدَفًا لِلطَّعْنِ أو لِلَّعْنِ. وقولُه (فَبِحُبِّي): أَيْ فَبِسَبَبِ مَحَبَّتِهِ إِيَّايَ (أَحَبَّهُمْ)، أَوْ بسَبَبِ مَحَبَّتِي إِيَّاهم، وكِلاهُما حَسَنٌ. وقولُه (فقَدْ آذَى اللهَ): أَيْ خالَفَه؛ فكَأَنَّه آذاهُ.

قولُه (لا تَسُبُّوا أَصْحَابي): أي مُشْتَمِلِينَ علَى أَقَارِبِي وأَزْواجِي وأَحْبَابِي. قولُه (صَرْفًا): أي تَوْبَةً أَوْ نافِلَةً. قولُه (ولا عَدْلًا): أَيْ فِدْيَةً أو فَرِيضَةً.

قولُه (فَلَا تُصَلُّوا عَلَيْهِمْ): أَيْ إِنْ ماتُوا، قالَ المُلَّا: هَذا مَحْمُولٌ علَى ما إذا قامَ بِهَا البَعْضُ، أَيْ فالمَقْصُودُ الزَّجْرُ. وقولُه (ولا تُصَلُّوا مَعَهُمْ): أي إِنْ صَلُّوا أَئِمَّةً؛ فإِنَّهُمْ أَهْلُ بِدْعَةٍ. قولُه (ولا تُناكِحُوهم): أَيْ دِيَانَةً، وقولُه (فلا تَعُودُوهم): مبَالَغَةٌ في الإِهَانَةِ، والنَّهْيُ لِلتنزيهِ.

وَقَالَ ﷺ: (لا تُؤذُونِي فِي عَائِشَةَ)[1]، وقَالَ ﷺ فِي فاطِمةَ: (هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِينِي ما آذاهَا)[2].

وقَدِ اختَلَفَ العُلَماءُ في هَذا، فمَشْهُورُ مَذْهَبِ مالِكٍ في ذلكَ الاجْتِهادُ، والأَدَبُ الْمُوجِعُ، قالَ مالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: «مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ قُتِلَ، ومَنْ شَتَمَ أَصْحَابَهُ أُدِّبَ»، وقالَ أيْضًا: «مَنْ شَتَمَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَبا بَكْرٍ، أَوْ عُمَرَ، أَوْ عُثْمانَ، أَوْ مُعَاوِيَةَ، أَوْ عَمْرَو بْنَ العاصِ، فإنْ قالَ: كانُوا على ضَلَالٍ وكُفْرٍ قُتِلَ، وإنْ شَتَمَهُمْ بِغَيْرِ هَذا مِنْ مُشَاتَمَةِ النَّاسِ نُكِّلَ نَكَالًا شَدِيدًا».

وقالَ ابْنُ حَبِيبٍ: «مَنْ غَلا مِنَ الشِّيعَةِ إِلَى بُغْضِ عُثْمانَ، والبَرَاءَةِ مِنْه، أُدِّبَ أَدَبًا شَدِيدًا، ومَنْ زَادَ إلى بُغْضِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ فالعُقُوبَةُ عَلَيْهِ أَشَدُّ، ويُكَرَّرُ ضَرْبُه، ويُطَالُ سَجْنُهُ حَتَّى يَمُوتَ، ولا يُبْلَغُ به القَتْلَ إلّا في سَبِّ النَّبِيِّ ﷺ».

وقالَ سَحنُونُ: «مَنْ كَفَّرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ -ﷺ، ورَضِيَ عَنْهُمْ-، عَلِيًّا، أَوْ عُثْمانَ، أَوْ غَيْرَهما، يُوجَعُ ضَرْبًا»، وحَكَى مُحمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ عَنْ سَحْنُونَ فِيمَنْ قالَ فِي أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيٍّ إنَّهُمْ كانُوا على ضَلالٍ وكُفْرٍ: قُتِلَ، ومَنْ شَتَمَ غَيْرَهُمْ مِنَ الصَّحابَةِ بِمِثْلِ هَذا: نُكِّلَ النَّكَالَ الشَّدِيدَ.

وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ: «مَنْ سَبَّ أَبا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جُلِدَ، ومَنْ سَبَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قُتِلَ»، قِيلَ لهُ: لِمَ؟ فقَالَ: «مَنْ رَمَاهَا فَقَدْ خالَفَ القُرْآنَ»، وقالَ ابنُ شَعْبانَ عَنْهُ: لِأَنَّ

---

(١) وحديث (لا تؤذوني في عائشة): تقدم [انظر ص٤٨٢].

(٢) [متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩)، وغيرهما من حديث المِسور بن مَخْرَمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

قوله (في عائشة): ورواية الأَنْطاكيِّ بالإفرادِ خِطَابًا لِأُمِّ سَلَمَةَ، وتَمامُ الحديثِ: (فإِنَّ الوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وأنا في ثَوبِ امرأةٍ إلَّا عائشةَ).

قوله (بَضْعَةٌ مِنِّي): -بفتحِ المُوَحَّدةِ وتُكسَرُ- أي قِطعَةٌ مِنِّي. قوله (أُدِّبَ): أيْ جُلِدَ وضُرِبَ وَجِيعًا.

قوله (كانُوا على ضَلَالٍ وكُفْرٍ قُتِلَ): أيْ لِتكذيبِه لِلقرآنِ فِيمَا أَثْنَى بِه عَلَيهم. وقوله (نُكِّلَ): -بصيغةِ المَجهولِ مُشَدَّدًا ومُخَفَّفًا- أيْ زُجِرَ.

قوله (غَلَا): -بفَتْحِ الغَيْنِ المعْجَمةِ- أيْ تَجَاوَزَ الحَدَّ وتَعَدَّى. وقوله (والبَرَاءةِ مِنْه): أي التَّبَرِّي مِنْ مَحَبَّتِه. وقوله (ومَنْ زَادَ): -أيْ إلى ذلك كَمَا في نُسْخةٍ- أي ضَمَّ إلى بُغْضِ عُثْمانَ بُغْضَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ. وقوله (ويُكَرَّرُ ضَرْبُه): أيْ بِقَدْرِ زِيَادةِ بُغْضِ صَحْبِهِ ﷺ.

قوله (عَلِيًّا أوْ عُثْمانَ): خَصَّهُما بالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الخَوارِجَ قالُوا بتكفيرِهما بِناءً على قَواعِدِهم الفاسِدَةِ، وأصولِهم الكاسِدةِ، قالَ المُلَّا: وأَمَّا نِسْبَةُ الإمامِ مُعَاوِيَةَ ومَنْ مَعَه مِمَّنْ تَبِعَهُ في الخُرُوجِ عَلَى عَلِيٍّ والحَسَنِ لِلخطَأِ مِنْهُ في ذلك الخُرُوجِ، فجَائِزٌ. اه، قُلْتُ: والأَدَبُ الإمساكُ عَنِ التَّكَلُّمِ في ذلك؛ ولِذَا قالَ عالِمُ قُرَيْشٍ الإمامُ الشافعيُّ: «تِلْكَ دِمَاءٌ طَهَّرَ اللهُ مِنْها سُيُوفَنا؛ فنُطَهِّرُ مِنْها أَلْسِنَتَنَا».

قوله (مَنْ سَبَّ أَبا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جُلِدَ): قالَ المُحقِّقُ ابنُ حَجَرٍ في كِتابِه «الصَّواعِقِ»: مَنْ أَنْكَرَ صُحْبَةَ أَبِي بَكْرٍ كَفَرَ، ومَنْ أَنْكَرَ وُجُودَه فَسَقَ، قالَ: ولازِمُ المَذْهَبِ لَيْسَ بمَذْهَبٍ، فلا يَرِدُ أَنَّه يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ وُجُودِه نَفْيُ صُحْبَتِه.

اللهَ تعـالى قـالَ: ﴿يَعِظُكُـمُ اللهُ أَنْ تعُـودُوا لِمِثْلِـهِ أَبَـدًا إِنْ كُنْتُـم مُؤْمِنِـينَ﴾ [النـور: ١٧]، فمَـنْ عَـادَ لِمِثْلِـه فَقَـدْ كَفَـرَ.

وحكَـى أَبُـو الحَسَـنِ الصَّقِلِيُّ أَنَّ القَـاضِيَ أَبَـا بَكْـرِ بْـنَ الطَّيِّـبِ قـالَ: إِنَّ اللهَ تعَـالى إِذا ذَكَـرَ فِي القُـرْآنِ مَـا نَسَبَـه إِلَيْـه المُشْرِكُـونَ سَـبَّحَ نَفْسَـهُ بِنَفْسِـهِ، كقَوْلِـهِ تعَـالى: ﴿وقـالُـوا اتَّخَـذَ الرَّحمـنُ وَلَـدًا سُـبْحَانَه﴾ [الأنبيـاء: ٢٦]، في آيٍ كَثِـيرةٍ، وذكَـرَ تعـالى مَـا نَسَـبَه المُنافِقُـونَ إِلَى عائِشَـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقـالَ: ﴿ولَـوْلَا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ قُلْتُـمْ مـا يَكُـونُ لنَـا أَنْ نتكَلَّـمَ بِهَـذا سُـبْحَانَكَ﴾ [النـور: ١٦]، فسَـبَّحَ نَفْسَـهُ في تَبْرِئَتِهـا مِـنَ السُّـوءِ، كَـمَا سَـبَّحَ نَفْسَـهُ في تَنْزِيهِـهِ مِـنَ السُّـوءِ، وهَـذَا يَشْـهَدُ لِقَـوْلِ مَالِـكٍ في قَتْـلِ مَـنْ سَـبَّ عَائِشَـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. ومَعْنَـى هـذَا -واللهُ أَعْلَـمُ- أَنَّ اللهَ لَمَّـا عَظَّـمَ سَـبَّهَا كَـمَا عَظَّـمَ سَـبَّهُ، وكَانَ سَـبُّهَا سَـبًّا لِنَبِيِّـهِ ﷺ، وقَرَنَ سَـبَّ نَبِيِّـهُ وأَذَاهُ بـأَذَاهُ تعـالى، وكَانَ حُكْـمُ مُؤْذِيـه تَعَـالَى القَتْـلَ، كَانَ حُكْـمُ مُـؤْذِي نَبِيِّـهِ ﷺ كَذَلِـكَ كَـمَا قَدَّمْنَـاهُ.

وشَـتَمَ رَجُـلٌ عَائِشَـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالكُوفَـةِ، فقُـدِّمَ إِلَى مُوسَـى بْـنِ عِيسَـى العَبَّـاسِيِّ، فقَـالَ: مَـنْ حَـضَرَ هَـذا؟ فقَـالَ ابْـنُ أَبِي لَيْـلَى: أَنَـا، فجَلَـدَهُ ثَمانِـينَ، وحلَـقَ رأْسَـهُ، وأَسْـلَمَهُ لِلحَجَّـامِـينَ.

ورُوِيَ عَـنْ عُمَـرَ بْـنِ الخَطَّـابِ أَنَّـه نَـذَرَ قَطْـعَ لِسَـانِ عُبَيْـدِ اللهِ بْـنِ عُمَـرَ؛ إِذْ شَـتَمَ المِقْـدَادَ بْـنَ الأَسْـوَدِ، فكُلِّـمَ في ذلـكَ، فقَـالَ: دَعُـونِي أَقْطَـعْ لِسَـانَهُ حَتَّـى لا يَشْـتِمَ أَحَـدٌ بَعْـدُ أَصْحـابَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ.[١]

ورَوَى أَبُـو ذَرٍّ الهَـرَوِيُّ أَنَّ عُمَـرَ بْـنَ الخَطَّـابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُتِيَ بأَعْـرَابِيٍّ يَهْجُـو الأَنْصَـارَ، فقَـالَ: لَـوْلا أَنَّ لـه صُحْبَـةً لَكَفَيْتُكُمُـوهُ[٢].

(١) حديث عمر (أنه نذر قطع لسان عبيد الله ...): الخطيب وابن عساكر في تاريخه [٣٨/ ٦٠] من طرق عن البيهقي.

(٢) حديث (أن عمر أُتي بأعرابي يهجو الأنصار، فقال: لولا أن له صحبة لكفيتكموه): أخرجه محمد بن قدامة المروزي في كتاب الخوارج عن أبي سعيد الخدري بسند رجاله ثقات. [وأخرجه ابن أبي الجعد في مسنده (٢٦٥٧)، وابن عساكر في التاريخ (٥٩/ ٢٠٥)].

قولـه (سَـبَّحَ نَفْسَـه بنَفْسِـه): -وفي نُسـخةٍ «لِنَفْسِـه»- أيْ نَـزَّهَ نَفْسَـه مِـنَ الشَّرِيـكِ والوَلَـدِ والصَّاحِبَـةِ والبَنَـاتِ.

قولـه (في تَبْرِئَتِهـا مِـنَ السُّـوءِ): ومـا ذاكَ إِلَّا لِجَلالـةِ مَقامِهـا العَلِيِّ، في رَفِيـعِ صُحْبَـةِ النَّبِـيِّ ﷺ.

قولـه (وشَـتَمَ رَجُـلٌ عائشـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا): أيْ بِغَـيْرِ القَـذْفِ.

وقولـه (مَـنْ حَـضَرَ هَـذا): أي المَجْلِـسَ، أوْ هَـذا الرَّجُـلَ حِـينَ شَـتَمَ.

وقولـه (فقالَ ابْنُ أَبِي لَيْـلَى: أنا): وهُـوَ مِـنْ أَحَـدِ المُجْتَهِدِيـنَ، وقَـدْ تَـوَلَّى القَضَـاءَ، قـالَ المُـلَّا: ولَعَـلَّ هَـذا هُـوَ المُوجِـبُ لِلاكْتِفـاءِ.

قولـه (وأَسْـلَمَهُ لِلحَجَّـامِـينَ): أيْ لِيُعَذِّبُـوه بإخـراجِ دَمِـهِ لِزِيَـادةِ سِيَاسَـةٍ في أَمْـرِهِ.

قولـه (حَتَّـى لا يَشْـتِمَ أَحَـدٌ بَعْـدُ أَصْحـابَ رسُـولِ اللهِ ﷺ): وحيـثُ مَنَعُـوه، ولَمْ يُقِـرُّوه حَتَّـى يَفْعَـلَ لا يَكُـونُ إِجْمَاعًـا؛ فـلا يَجُـوزُ قَطْـعُ لِسَـانِ مَـنْ سَـبَّ صَحَابِيًّـا، وإِنَّـما أَرَادَ عُمَـرُ تَخْوِيفَـه أَوِ السِّيَاسَـةَ.

قولـه (لَـوْلَا أَنَّ لَـه صُحْبَـةً): أي لِلأَعْـرَابِيِّ صُحْبَـةٌ سَـابِقَةٌ لـه ﷺ، وفي بَعْـضِ النُّسَـخِ «لَـوْلَا أَنَّـه صُحْبَـةٌ».

قَالَ مالِكٌ: مَنْ تَنَقَّصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فلَيْسَ لهُ في هَذَا الفَيْءِ حَقٌّ؛ قَدْ قَسَمَ اللهُ تعَالى الفَيْءَ في ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ، فقَالَ تعالى: ﴿لِلفُقَراءِ المُهَاجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]، ثُمَّ قَالَ: ﴿والَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ والإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم ...﴾ الآيَة [الحشر: ٩]، وَهؤلاءِ الأَنْصَارُ، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿والَّذِينَ جاؤُا مِنْ بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِرْ لَنَا ولإخْوَانِنَا الَّذِينَ سبَقُونا بالإِيمَانِ...﴾ الآيَة [الحشر: ١٠]؛ فمَنْ تَنَقَّصَهُم فلا حَقَّ له في فَيْءِ المُسْلِمِينَ.

وفي كِتَابِ ابْنِ شَعْبَانَ: مَنْ قَالَ في واحِدٍ مِنْهُمْ: «إنَّه ابْنُ زانِيَةٍ»، وأُمُّه مُسْلِمةٌ حُدَّ عِنْدَ بَعْضِ أَصْحابِنَا حَدَّيْنِ: حَدًّا له، وحَدًّا لِأُمِّه، ولا أَجْعَلُهُ كقاذِفِ الجَماعَةِ في كَلِمَةٍ؛ لِفَضْلِ هَذا على غَيْرِه، ولقَوْلِه ﷺ: (مَنْ سَبَّ أَصْحابي فاجْلِدُوهُ). قَالَ: ومَنْ قَذَفَ أُمَّ أَحَدِهِم وهِيَ كَافِرَةٌ حُدَّ حَدَّ الفِرْيَةِ؛ لِأَنَّه سَبٌّ له، فإنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ هَذا الصَّحَابِيِّ حَيًّا قَامَ بِمَا يَجِبُ له، وإلَّا فمَنْ قَامَ بِهِ مِنَ المسْلِمِينَ كانَ على الإمَامِ قَبُولُ قِيَامِه.

قَالَ: ولَيْسَ هَذَا كَحُقُوقِ غَيْرِ الصَّحَابةِ؛ لِحُرْمَةِ هَؤُلاءِ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ، ولَوْ سَمِعَه الإمَامُ، وأَشْهَدَ عَلَيْهِ كَانَ وَلِيَّ القِيَامِ به، قَالَ: ومَنْ سَبَّ غَيْرَ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَفِيها قَوْلَانِ: أَحَدُهما: يُقْتَلُ؛ لِأَنَّه سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ بِسَبِّ حَلِيلَتِه، والآخَرُ: أَنَّهَا كسَائِرِ الصَّحابةِ يُجْلَدُ حَدَّ المُفْتَرِي، قَالَ: وبالأَوَّلِ أَقُولُ.

ورَوَى أَبُو المُصْعَبِ عَنْه فِيمَنْ سَبَّ مَنِ انْتَسَبَ إلَى آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ: يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيعًا، ويُشْهَرُ، ويُحْبَسُ طَوِيلًا حَتَّى تَظْهَرَ تَوْبَتُه؛ لِأَنَّهُ اسْتِخْفافٌ بِحَقِّ الرَّسُولِ ﷺ.

قوله (حَقٌّ): أي حِصَّةٌ وَنَصِيبٌ. قوله (في فَيْءِ المسْلِمِينَ): قَالَ المُلَّا: بَلْ يَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةِ المؤمِنِينَ؛ لِحَصْرِهِمْ في الأَصْنَافِ المذكورِينَ.

قوله (وحَدًّا لِأُمِّهِ): قَالَ المُلَّا: لَعَلَّه أَرَادَ بالأَوَّلِ التعزيرَ مُبالَغَةً في التحذيرِ.

وقوله (فاجْلِدُوه): أي فاضْرِبُوه كَمَا في رِوايَةٍ تَقَدَّمَتْ.

وقوله (الفِرْيَةِ): -بكَسْرِ الفاءِ- أي الكَذِبِ. قوله (فَفِيها): أي المسألةِ، أوْ فَفِي حَقِّهَا. (قَوْلَانِ): القَتْلُ أوِ الجَلْدُ. قوله (المُفْتَرِي): بضمِّ الفاءِ، وفي نسخةٍ «الفِرْيَةِ».

قوله (أَبُو المُصْعَبِ عَنْه): وفي بعضِ النُّسَخِ «عَنْ مالِكٍ».

قوله (إلى آلِ بَيْتِ النبيِّ ﷺ): مِنْ جِهَةِ القَرابةِ والنَّسَبِ المعروفِ، وظَهَرَ أَنَّه لَيسَ مِنْهُم.

وأَفْتَى أَبُو المُطَرِّفِ الشَّعْبِيُّ، فَقِيهُ مَالَقَةَ في رَجُلٍ أَنْكَرَ تَحْلِيفَ امْرَأَةٍ باللَّيْلِ، وَقَالَ: لَوْ كَانَتْ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مَا حُلِّفَتْ إِلَّا بالنَّهارِ، وصَوَّبَ قَوْلَه بَعْضُ المُتَّسِمِينَ بالفِقْهِ، فقَالَ أَبُو المُطَرِّفِ: ذِكْرُ هَذا لِابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ في مِثْلِ هَذَا يُوجِبُ عَلَيْهِ الضَّرْبَ الشَّديدَ والسَّجْنَ الطَّوِيلَ، والفَقِيهُ الَّذِي صَوَّبَ قَوْلَهُ هُوَ أَحَقُّ باسْمِ الفِسْقِ مِنَ اسْمِ الفِقْهِ، فيُتَقَدَّمُ إِلَيْهِ في ذلكَ، ويُزْجَرُ، ولا تُقْبَلُ فَتْوَاهُ ولا شَهادَتُه، وهِيَ جُرْحَةٌ ثابِتَةٌ فِيهِ، ويُبْغَضُ في الله تعالى.

وقَالَ أَبُو عِمْرَانَ في رَجُلٍ قَالَ: «لَوْ شَهِدَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»: أَنَّه إِنْ كَانَ أَرَادَ أَنَّ شَهادَتَهُ في مِثْلِ هَذا لا يَجُوزُ فِيهِ الشاهِدُ الواحِدُ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وإِنْ كَانَ أَرَادَ غَيْرَ هَذا فيُضْرَبُ ضَرْبًا يُبْلَغُ بِه حَدُّ المَوْتِ، وذَكَرُوهَا رِوَايَةً.

***

قوله (مَالَقَة): بفتح اللَّامِ والقافِ.

قوله (بَعْضُ المُتَّسِمِينَ): أي المُتَّصِفِينَ بِه نَظَرًا إلى أَنَّه أَرَادَ المُبالَغَةَ في النَّفْيِ، لا الإهَانَةِ.

قوله (فيُتَقَدَّمُ إِلَيْهِ في ذلكَ، ويُزْجَرُ): وفي نُسْخَةٍ «ولا يُؤَخَّرُ».

قوله (ولا شَهادَتُه): وهذا مِنْ بابِ الزَّجْرِ الشديدِ، ولَيْسَ على حقيقتِهِ، قالَ المُلَّا: وهُوَ مِنَ المجازَفَةِ في الكَلَامِ؛ فإنَّ غايَتَه أَنَّه أَخْطَأَ في فَتْوَاهُ، فلا يُوجِبُ له ذلك الفِسْقَ.

قوله (غَيْرَ هذا): أي المَعْنَى الذي ذُكِرَ مِمَّا يَقتَضِي إهَانَتَه فَرْضًا.

قوله (يُبْلَغُ): -بصِيغَةِ المَجْهُولِ- أيْ يُوصَلُ بضَرْبِه (حَدُّ المَوْتِ)، أو يُبْلَغُ هُوَ بالضَّرْبِ المَوْتَ.

قوله (وذَكَرُوها [روايةً]): أي مَقالَةَ أَبِي عِمرانَ [روايةً عن مالكٍ أو غيرِه من أصحابِه][1].

***

(١) تمام العبارة كما لدى القاري.

قولـه (وَانْتَجَـزَ): -بالنُّـونِ والجِيـمِ والـزاي- أي تَـمَّ وانقَـضَى. وقولـه (الغَـرَضُ): -بالغَـيْنِ- أي المَقْصِـدُ (الـذي انتَحَيْنـاهُ): -بالحَـاءِ المُهْمَلَـةِ- أي قَصَدْنـاهُ. وقولـه (مَقْنَـعٌ): -بفتـحِ الميـمِ- أي يَقْنَـعُ بـه عَـمَّا سِـوَاهُ.

قولـه (بُغْيَتِـه): -بكسْرِ أوَّلِـه ويُضَـمُّ- أيْ طَلِبَتِـه. وقولـه (ومَنْـزَعٌ): أيْ حُجَّـةٌ.

قولـه (سَـفَرْتُ): -بفَتْـحِ السِّـينِ والفـاءِ- أيْ كَشَـفْتُ. قولـه (وكَرَعْـتُ): -بفَتـحِ الـكافِ والـراءِ- أيْ وشَرِبْـتُ شُرْبًـا خاصًّـا بـمَا حَصَـلَ لي مِـنَ التوفيـقِ.

قولـه (لَمْ يُـورَدْ لها قَبْـلُ): أي لَمْ يُذْكَـرْ لها قَبْـلَ ذلـك. وقولـه (مَـشْرَعٌ): أي مَـوْرِدٌ بِـه يُنْتَفَـعُ.

قولـه (غَـيْرَ ما فَصْـلٍ): (مـا) صِلَـةٌ لِلمبالَغـةِ في الكَثرةِ. قولـه (وَدِدْتُ): بكسْرِ الـدّالِ الأُولَى.

قولـه (أوْ مُقْتَـدًى): وفي نُسْـخةٍ «أوْ مُفِيـدًا». وقولـه (أو فِيـه): أي فَمِـه، وهْـوَ تَجْنيسٌ تـامٌّ مَـعَ مَـا قَبْلَـهُ، وفي بَعْـضِ النُّسَـخِ «أوْ تَلْفِيـق»، وهْـوَ المُرَكَّـبُ المُتَشَـابِهُ.

وقولـه (أَرْوِيـه): -مِـنَ الرِّوَايَـةِ- أي أُخْـبِرُه. قولـه (أُرَوِّيـهِ): بضَـمِّ أوَّلِـهِ وتشـديدِ الـواوِ المَكْسُـورةِ.

قوله (الضَّـرَاعةِ): أيْ كَثْرةِ الخُضُوعِ.

قولـه (مَـا مِنْـه): -بسُكونِ النُّـونِ- أيْ بِقَبُـولِ شَيْءٍ وَقَـعَ مِنْـه، وفي بَعْضِ النُّسَـخِ النونُ مُشَـدَّدةٌ.

قولـه (ولِمَـا أَسْـهَرْنَا بـه جُفُونَنَـا): بالسِّـينِ المُهْمَلـةِ مَـعَ فَتْـحِ أوَّلِـه، وفي بَعْـضِ النُّسَـخِ بالشـينِ المُعْجَمـةِ.

قولـه (أَعْراضَنَـا): -بفَتْـحِ أوَّلِـه وسُـكونِ العَـيْنِ المُهْمَلَـةِ- أيْ أَشْـبَاحَنا.

قوله (إذا ذِيدَ): -بالمَجهُولِ كسَابِقِهِ- أيْ طُرِدَ.

قولـه (تَهَمَّـمَ): أي اعْتَنَـى (باكْتِتَابِـه واكتِسَـابِه): قـالَ المُـلَّا: ولَـوْ بِشِرائِـه.

[خاتمة الكتاب]

قـالَ القَـاضي أَبُـو الفَضْـلِ -رَضِيَ اللهُ عَنْـه، ورَحِمَـه-:

هُنَـا انْتَهَـى القَـوْلُ بِنَـا فِيـمَا حَرَّرْنَـاه، وانتَجَـزَ الغَـرَضُ الَّـذِي انتَحَيْنَـاه، واسْـتُوْفِيَ الـشَّرْطُ الَّـذي شَرَطْنَـاه، مِمَّـا أَرْجُـو أَنْ يكـونَ في كُلِّ قِسْـمٍ مِنْـه لِلْمُرِيـدِ مَقْنَـعٌ، وفي كُلِّ بـابٍ مَنْهَـجٌ إلى بُغْيَتِـه ومَنْزَعٌ.

وقَـدْ سَـفَرْتُ فِيـه عَـنْ نُكَـتٍ تُسْـتَغْرَبُ وتُسْـتَبْدَعُ، وَكَرَعْـتُ في مَشَـارِبَ مِـنَ التَّحْقِيـقِ لَمْ يُـورَدْ لَهَـا قَبْـلُ في أَكْثَـرِ التَّصَانيـفِ مَـشْرَعٌ، وأَوْدَعْتُـه غَـيْرَ مَـا فَصْـلٍ، وَدِدْتُ لَـوْ وَجَـدْتُ مَـنْ بَسَـطَ قَبْلِيَ الـكَلَامَ فِيـه، أَوْ مُقْتَـدًى يُفِيدُنِيـه، عَـنْ كِتَابِـهِ أَوْ فِيـه؛ لِأَكْتَفِـيَ بِـمَا أَرْوِيـهِ عَـمَّا أُرَوِّيـهِ.

وإلَى اللهِ تعـالى جَزِيـلُ الضَّـرَاعَـةِ في المِنَّـةِ بِقَبُـولِ مَـا مِنْـهُ لِوَجْهِـه، والعَفْـوِ عَـمَّا تَخَلَّلَـهُ مِـنْ تَزَيُّـنٍ وتَصَنُّـعٍ لِغَـيْرِه، وأَنْ يَهَـبَ لَنَـا ذَلِـكَ بِجَمِيـلِ كَرَمِـهِ وَعَفْـوِه؛ لِمَـا أَوْدَعْنَـاهُ مِـنْ شَرَفِ مُصْطَفَـاهُ وأَمِـينِ وَحْيِـه، ولِمَـا أَسْـهَرْنَا بِـهِ جُفُونَنَـا لِتَتَبُّـعِ فَضائِلِـه، وأَعْمَلْنَـا فِيـهِ خَوَاطِرَنَـا مِـنْ إِبْـرَازِ خَصَائِصِـه وَوَسَـائِلِه،

.. وَأَنْ يَحْمِـيَ أَعْرَاضَنَـا عَـنْ نَـارِهِ المُوقَـدَةِ كَحِمَايَتِنَـا كَرِيـمَ عِرْضِـه ﷺ، ويَجْعَلَنَـا مِمَّـنْ لا يُـذَادُ إذا ذِيـدَ المُبَـدِّلُ عَـنْ حَوْضِـه، ويَجْعَلَـهُ لَنَـا ولِمَـنْ تَهَمَّـمَ باكْتِتَابِـه واكتِسَـابِه، سَـبَبًا يَصِلُنَـا بِأَسْـبَابِه، وَذَخِـيرَةً نَجِدُهـا يَـوْمَ تَجِـدُ كُلُّ نَفْـسٍ مَـا عَمِلَـتْ مِـنْ خَـيْرٍ مُحْـضَرًا نَحُـوزُ بِهَـا رِضَـاهُ وجَزِيـلَ ثَوَابِـهِ،

.. وَيَخُصَّنَا بِخِصِّيصَى زُمْرَةِ نَبِيِّنَا وَجَمَاعَتِه، وَيَحْشُرَنَا فِي الرَّعِيلِ الأَوَّلِ وَأَهْلِ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِه. وَنَحْمَدُه تعَالَى عَلَى مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنْ جَمْعِهِ وَأَلْهَمَ، وَفَتَحَ البَصِيرَةَ لِدَرْكِ حَقَائِقَ مَا أَوْدَعْنَاهُ وَفَهَّمَ، وَنَسْتَعِيذُهُ -جَلَّ اسْمُهُ- مِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ، وَعِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَعَمَلٍ لا يُرْفَعُ.

قوله (**بِخِصِّيصَى**): -بكَسْرِ الخاءِ والصَّادِ المشدَّدةِ وألِفٍ مقصُورَةٍ، ومَدُّه خَطَأٌ؛ وهُوَ مَصْدَرٌ بمَعْنَى الخصوصيَّة، أوِ اسْمُ مُبَالَغةٍ في التخصيصِ- أيْ بِمَنْ هُوَ مِنْ خَوَاصِّ زُمرةِ نَبِيِّنَا ﷺ.

وقوله (**في الرَّعِيلِ الأَوَّلِ**): -وفي نسْخةٍ: «مَعَ» بَدَلَ (في)، وهُوَ بفتحِ الراءِ وكسْرِ العيْنِ- أي الجَمْعِ الأَوَّلِ مِنْ أهلِ السَّعادةِ في الأَزَلِ، وهُمْ عُلَمَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وقِيلَ: هُمُ الزُّمْرةُ الأُولَى الَّتِي تَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ فيَكونُ قوْلُه (**أَهْلِ البَابِ الأَيْمَنِ**) تَعْمِيمٌ بَعْدَه، وقالَ المُلَّا: «لِلتفسيرِ»، ولَمْ أَعْرِفْ وَجْهَه.

قوله (**وَنَحْمَدُه تعالى**): أي نُثْنِي عَلَيْه بِمَا يُوافِي نِعَمَه، ويُكَافِي مَزِيدَه. قوله (**وأَلْهَمَ**): -بصيغةِ الماضي- قالَ الشِّهابُ: وهُوَ إِلْقاءُ الخَيْرِ في القَلْبِ.

تَنْبِيهٌ: قَدْ ذَكَرْنَا آنِفًا في لَفْظِ (خِصِّيصَى) نَقْلًا عَنِ المُلَّا أنَّه لا يُمَدُّ مُخَطِّئًا لِلإمامِ التِّلْمِسَانِيِّ، ثُمَّ بَعْدَ اتِّبَاعِي لِلمُلَّا رَأَيْتُ في «القاموسِ» ما يَشْهَدُ لِلتِّلْمِسانيِّ مِنْ جَوَازِ مَدِّه، ونَصُّه: «خَصَّه بالشَّيْءِ خَصًّا وخُصُوصًا وخُصُوصيَّةً، ويُفْتَحُ، وخِصِّيصَى، ويُمَدُّ» اهـ. وذَكَرَ المُحَقِّقُ الشِّهَابُ أنَّ لِهذه اللَّفظةِ نِزَاعًا كَبِيرًا سَبَقَ بَيْنَ الحافظِ السُّيوطيِّ والحافظِ السَّخَاوِيِّ؛ فالَّذِي جَزَمَ بِه السُّيوطيُّ أنَّهُ بِأَلِفٍ مَقصُورَةٍ ويُمَدُّ -كَمَا في «القامُوسِ» والتِّلمسَانيِّ- مَصْدَرٌ بِمَعْنَى «الاختصَاصِ»، وذَهَبَ السَّخَاوِيُّ إلى أنَّه مُثَنَّى «خِصِّيصٍ» -بوَزْنِ «صِدِّيقٍ»؛ ففَسَّرَهُ بِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، قالَ الحافظُ السُّيوطيُّ: وأنَا أَقُولُ: ما ادَّعَاه باطِلٌ روايةً ولُغَةً ومَعْنًى؛ أَمَّا الرِّوايةُ فإِنَّ الَّذي تَلَقَّيْنَاهُ مِنَ المُعْتَبَرِينَ، وضَبطَه مَنْ يُرْجَعُ إلَيْه في النَّقْلِ أنَّه بالأَلِفِ لا غَيْرُ كَمَا نَبَّه عَلَيْه الحافِظُ البُرْهانُ الحَلَبِيُّ في شَرْحِه لِلشِّفاءِ، وشَيْخُنا الإمامُ تَقِيُّ الدِّينِ الشُّمُنِّيُّ في حَاشِيَته عليْه، وكذلكَ قَرَأْنَاهُ علَيْه، وسَمِعْنَاه مِنْ غَيْرِه، وأَمَّا لُغَةً فقالَ الجَوْهريُّ في «الصِّحَاحِ» و«القامُوسِ» و«المُجْمَلِ»: خَصَّه بالشَّيْءِ خَصًّا وخُصُوصيَّةً -بالفتحِ- وخِصِّيصَى ويُمَدُّ، فهؤلاءِ أَيِمَّةُ اللُّغةِ قالُوا «خِصِّيصَى» -بالأَلِفِ المقصُورةِ- مَصْدَرُ «خَصَّه»، ولَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنهمْ إِنَّ «خِصِّيصًا» سُمِعَ مَصْدَرًا ولا صِفَةً، قال: وأَمَّا بُطْلانُه مَعْنًى فلِأَنَّ المَقصُودَ مِنَ الكَلامِ المَصْدَرُ لا الوَصْفُ، والمُرادُ: أنْ يَخُصَّنَا بهذه الخُصُوصيَّةِ؛ وهوَ أنْ نَكُونَ مِنْ جُملةِ الجَماعةِ المَنْسُوبِينَ إلى النَّبِيِّ ﷺ، والزُّمْرةِ الدَّاخِلِينَ تَحْتَ لِوائِه، ولَيْسَ المُرادُ الاختِصَاصَ بالذَّواتِ، قالَ: وهذا مِمَّا لا يَخْفَى على جَاهِلٍ؛ فَضْلًا عَنْ عَالِمٍ. قالَ الشِّهابُ: وأنَا أَقولُ: الَّذي يَقْبَلُه الطَّبْعُ مَا قالَه السُّيوطيُّ، وهُوَ أنَّ (خِصِّيصَى) مَصْدَرٌ؛ فإنَّ النَّقْلَ والعَقلَ شاهِدانِ لَه. اهـ.

قوله (**وفَتَحَ البَصِيرَةَ**): قالَ الشِّهابُ: أيْ قُوَّةَ النَّفْسِ المُدْرِكةَ في الباطِنِ؛ بمَنْزِلةِ البَصَرِ في الظاهِرِ؛ وجَعْلُها كالعَيْنِ تَخَيُّلًا قالَ: (**لِدَرْكِ**) -بفتحٍ فسُكونٍ- أيْ إدْراكِ... إلخ. وقوْلُه (**وفَهَّمَ**): -بتشديدِ الهاءِ- أيْ أَلْهَمَ.

وقوله (**لا يَنْفَعُ**): أيْ لِعَدَمِ الإخلاصِ فيه. وقوْله (**لا يُرْفَعُ**): أيْ لا يُقْبَلُ لِعَدَمِ صِدْقِ النِّيَّةِ والصَّلاحِ فيه ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

فهُـوَ الجَـوَادُ الَّـذِي لا يَخِيـبُ مَـنْ أَمَّلَـه، ولا يَنْتَـصِرُ مَـنْ خَذَلَـه، ولا يَـرُدُّ دَعْـوَةَ القَاصِدِيـنَ، ولا يُصْلِـحُ عَمَـلَ المُفْسِـدِينَ، وهُـوَ حَسْـبُنَا ونِعْـمَ الوَكِيـلُ.

وَصَلَوَاتُـه عـلَى سَـيِّدِنا محمَّـدٍ خاتَـمِ النَّبِيِّـينَ، وعـلَى آلِـه وأَصْحابِـه أَجْمَعِينَ، وسَـلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِـيرًا إِلَى يَـوْمِ الدِّيـنِ، والحَمْـدُ لله رَبِّ العَالَمِـينَ.

***

قولـه (فهُـوَ الجَـوَادُ): -بتخفيـفِ الـواوِ- بمَعْنَـى «الكَريـمِ»، قـالَ الشِّـهابُ: وهُـوَ مِـنْ أَسْـماءِ الله تعـالى كَـمَا ذَكَـرَهُ المُحَقِّـقُ ابـنُ حَجَـرٍ والنـوويُّ والتِّرْمِـذِيُّ والبَيْهقِـيُّ في الأَسْـماءِ والصِّفـاتِ.

قولـه (لا يَخِيـبُ مَـنْ أَمَّلَـه): -و(يَخِيـبُ) يُخَفَّـفُ ويُشَـدَّدُ- أَيْ لا يُحْـرَمُ مَـنْ قَصَـدَه. قولـه (دَعْـوَةَ القاصِدِيـنَ): لِمَا في الحديـثِ: (إِنَّ اللهَ يَسـتَحِي أَنْ يَـرُدَّ يَـدَ عَبْـدِه صِفْـرًا إذا رَفَعَهـا)[1].

وقوْلـه (وحَسْـبُنا اللهُ ونِعْـمَ الوَكِيـلُ): خَتَـمَ بهَـا كِتَابَـه تَأَسِّـيًا بالخليـلِ؛ فَفِـي «البَـدْرِ المُنِـيرِ» لِلقُطْـبِ الشَّـعْرانيِّ عَنْـه ﷺ: (آخِـرُ مـا تكَلَّـمَ بِـه إِبْراهيـمُ حِـينَ أُلْقِـيَ في النـارِ «حَسْـبِيَ اللهُ ونِعْـمَ الوَكِيـلُ»)[2]، قـالَ العَـارِفُ ابـنُ عَطَـاءِ الله في تَنويـرِهِ: وفي هَـذا هِدَايَـةٌ لِلمُسْـتَبْصِرينَ؛ وهْـوَ أَنَّ مَـنْ خَـرَجَ عَـنْ تدبـيرِه لِنَفْسِـهِ فـاللهُ سُـبْحانَه هُـوَ المتَـوَلِّي لـه حُسْـنَ تَدْبـيرِه؛ أَلَا تَـرَى أَنَّ إِبْراهيـمَ لَمَّـا لَمْ يُدَبِّـرْ لِنَفْسـه بَـلْ أَلْقَاهَـا إلى الله وأَسْـلَمَهَا إِلَيْـه كانَ عاقبـةُ الاسْتِسْـلامِ وجُـودَ السَّـلامةِ والإكـرامِ، وبقـاءَ الثَّنـاءِ الحَسَـنِ عـلى مَـرِّ اللَّيـالي والأَيَّـامِ!! اهـ...

***

وهَذا آخِرُ ما يَسَّرَ اللهُ جَمْعَه؛ أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمْ،
مُتوَسِّلًا إِلَيْه بِوَجاهةِ وَجْهِ نَبِيِّه الكَرِيمْ،
أَنْ يَجْعَلَه خالِصًا لِوَجْهِه العَظِيمْ، وشافِيًا لِقَلْبِيَ السَّقِيمْ.

اللَّهُمَّ ارزُقْنَا عِزًّا بالانتسابِ إِلَيْك، وراحةً في قلوبِنَا بالتوكُّلِ علَيْك،
واجْعَلْنَا مِمَّنْ دَخَلَ مَيَادِينَ الرِّضَا، وكَرَعَ مِنْ تَسْنِيمِ التسْليمِ لِلقَضَا،
وأُلْبِسَ خِلَعَ التخصيصْ، وذاقَ حَلاوَةَ الوَصْلِ بغَيْرِ تَنغِيصْ؛
وارِثِينَ لِسُنَّةِ رَسولِكَ، مُقتَبِسِينَ مِنْ نُورِ بَهْجَةِ خَلِيلِكَ،
صَلَّى اللهُ عَلَيْه وعَلى آلِه وذُرِّيَّتِه وأَهْلِ بَيْتِه وسَلَّمَ.

***

---

(١) أخرجـه أحمـد» (٢٣٧١٤) و(٢٣٧١٥)، وابـن ماجـه (٣٨٦٥)، والترمـذيُّ (٣٨٧٢)، وابـن حِبَّـان (٨٧٦) و(٨٨٠)، وغيرهـم مـن حديـث سـلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفـظ: «إِنَّ اللهَ حَيِـيٌّ كَرِيـمٌ يَسْـتَحْيِي إذا رَفَـعَ الرَّجُـلُ إليـهِ يَدَيْـهِ أَنْ يَرُدَّهُمَـا صِفْـرًا خَائِبَتَـيْنِ». وحسَّـنه الترمـذيُّ.

(٢) أخرجـه البخـاريُّ في صحيحـه (٤٥٦٤) [كتـاب تفسـير القـرآن]، وغـيره مـن حديـث ابـن عبـاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا موقوفًـا.

[تقريظ العلامة الأبياري]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حَمْدُكَ يَا مُبْدِيَ طَوَالِعِ النَّيِّرَاتْ، ومُبْدِئَ عَوَالِمِ الْكائنَاتْ، مِنْ مَدَدِ فَضْلِكَ الفَيَّاض، وشُكْرُكَ يَا مُسْدِيَ اللُّهَى السَّابِقاتْ، وهَادِيَ النُّهَى الزائغَاتْ، مِنْ لَأْلَاءِ آلائِكَ الَّتِي لا يَعْتَوِرُهَا انقباض؛ فلَكَ الحَمْدُ أَنْ جَعَلْتَ الْآثَارَ النَّبَوِيَّةَ لِأَمْراضِ القلوبِ البَشَرِيَّةِ شِفَا، وأَنْقَذْتَ بمَعْرِفَةِ الحُقُوقِ المصْطَفَوِيَّةِ أفئِدَةً كانَتْ مِنَ الجُرُفِ الجَهْلِيَّةِ على شَفَا، حَمْدًا يَلِيقُ بِسُبُحَاتِ وَجْهِكَ الْكَرِيمْ، ويَسُوقُ إلى الدُّخولِ في حَظِيرَةِ حَضْرَةِ جَنابِكَ الرحيمْ.

وَأُصَلِّي وأُسَلِّمُ علَى رَسُولِكَ الْأَعْظَمْ، الَّذِي فَتَقْتَ بِهِ أَكْمَامَ أَزْهارِ الْأسْرارْ، وصَفِيِّكَ الْأَكْرَمْ، الَّذِي فَتَحْتَ بِهِ أَبْوَابَ المَعَارِفِ وأَقْفَالَ الْأنوارْ.. سَيِّدِنا محمَّدٍ الَّذِي مَلَأَ الْأَكْوَانَ نُورًا وهُدَى، وأَوْضَحَ مَعَالِمَ الشَّرِيعَةِ وَقَدْ كَانَتْ طَرَائِقَ قِدَدَا، وعَلَى آلِه الْأَكْرَمِين، وصَحَابَتِه أجمَعِين!!

أَمَّا بَعْدُ،

فأَقُولُ -وأَنا أَفْقَرُ خَلْقِ الله إِلَى انتِشَاقِ نَفَحاتِ رَحَمَاتِهْ، وأَحْوَجُهُمْ إِلَى اقتِطَافِ زَهَرَاتِ مَرْضَاتِهْ، عَبْدُ الهَادِي نَجَا الإِبيَارِي؛ لا زَالَ كَوْكَبُ لُطْفِ الله بِهِ وبإخوانِه في قَدَرِه الجَارِي، على مَمَرِّ الأَيَّامِ سَارِي-:

إِنَّ مِنْ نِعَمِ الله الجَزِيلةِ الْغَرَّاءْ، ومِنَنِهِ الجَلِيلَةِ الزَّهْرَاءْ، الَّتِي يَفُوحُ في أَرْجاءِ الأقطارِ أَرَجُ نَفْعِهَا، ويَلُوحُ في آفَاقِ الأَكْوَانِ عِظَمُ وَقْعِهَا، طَبْعَ مَتْنِ «الشِّفَاءِ»؛ لا سِيَّمَا بِشَرْحِهِ الَّذِي أَلَّفَه الحَبْرُ الْهُمَامْ، والبَدْرُ التَّمَامْ، الَّذِي شَنَّ كَتِيبَةَ ذِهْنِه علَى العُلُومِ تَحْصِيلًا وتَحْرِيرًا، وَوَلِعَ بعَرائِسِ نَفَائِسِ الفُنُونِ العَقْلِيَّةِ والنَّقْلِيَّةِ تَصْنِيفًا وتقريرًا، مَنْ تَبَلَّجَتِ المَهَارِقُ بِنُورِ بَرَاعَتِهْ، وتَبَرَّجَتِ الحَقَائِقُ بِلَطَائِفِ عِبارَتِهْ، العَلَّامَةُ الأُسْتَاذُ الشيخُ حَسَنٌ العِدْوِيُّ الحَمزاوي، لا زالَ نَفْعُه عَمِيمًا لِكُلِّ حَاضِرٍ وبَادٍ وكُلِّ مُحَدِّثٍ ورَاوِي.

وإِنَّه لَشَرْحٌ تَنْشَرِحُ بِهِ صُدُورُ السُّنَّةِ السَّنِيَّهْ، وتُصْبِحُ بِه أَعِنَّةُ عَوارِفِ المَعَارِفِ لِذَوِي القُلُوبِ الْواعِيَةِ ثَنِيَّهْ، اجْتَمَعَتْ فِيهِ المَحَاسِنُ المُتَفَرِّقَهْ، حَتَّى صَارَ مَيْدَانًا لِرَكْضِ جِيَادِ الفُهُومِ المُتَسَابِقَهْ، يُطْرِبُ طائِرُ فصَاحَتِه المَسْموعْ، ويُخْجِلُ التَّطَبُّعَ بَدِيعُ بَيَانِه المَطْبُوعْ، بإيضاحٍ تَتَضَاءَلُ له الكَوَاكِبُ النَّيِّرَاتْ، وإِفْصَاحٍ تَتَصَاغَرُ له أُنُوفُ الفُصَحاءِ المُشْمَخِرَّاتْ، وبَيَانٍ شَافٍ ولَفْظٍ مُفِيدْ، واختِصَارٍ كافٍ ومَعْنًى سَدِيدْ.

فـوَرَبِّ السَّماءِ والأرْضِ إنَّـه لَكِتَـابٌ كَرِيـمْ، ونَبَـأٌ مِـنْ أَنْبَـاءِ الْبَلَاغَـةِ -لَـوْ تَعْلَمُـونَ- عَظِيـمْ، تَتبَـيَّنُ بِـه مَنَاهِـجُ الهُـدَى، وتَخِـرُّ لِآيَـاتِ بَيَانِـه البَيِّنَـاتِ الفُضَـلاءُ لِلأَذْقَـانِ سُـجَّدًا؛ فأَثَابَـهُ اللهُ عَلَيْـه أَجْـزَلَ ثَـوَابْ، وأَدَامَ بِـه النَّفْـعَ إلى يَـوْمِ المَـآبْ.

وَمُـذْ أَشْرَقَـتْ لَوَامِـعُ جَمْعِـهْ، وأَوْرَقَـتْ يَوَانِـعُ طَبْعِـهْ، بَعْـدَ تَصْحِيحِـه عـلى يَـدِ المُؤَلِّـفِ أَدَامَ اللهُ وُجُـودَهُ وَجُـودَهْ، وأَبْقَـى بَقَـاءَ المَلَـوَانِ سُـعُودَهْ، قُلْـتُ مُؤَرِّخًـا لِلطَّبْـعِ والتأليـفْ، حَسَـبَمَا خَطَـرَ بالخَاطِرِ الضَّعِيفْ:

لله تَقْرِيـرٌ عَـلَى مَتْـنِ الشِّـفَا * حَسَـنٌ أَتَـى مِـنْ كُلِّ فَـنٍّ بالحَسَـنْ
هُـوَ قُـرَّةٌ لِلنَّاظِرِيـنَ وَبَهْجَـةٌ * لِلعَارِفِـينَ ورَوْضَـةٌ لِـذَوِي الفِطَـنْ
أَلْفَاظُـهُ كَالزَّهْـرِ أَوْ كَالزُّهْـرِ أَوْ * كَالـدُّرِّ لَكِـنْ لا يُقَاوِمُهَـا ثَمَـنْ
أَمَّـا مَعَانِيـهِ وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا * هِـيْ فَهْـيَ أَسْرَارُ المَعَـارِفِ والمِنَـنْ
قَـدْ لَاحَ بَـدْرًا فِي دَيَاجِـي المُعْضَـلَا * تِ فَأَشْرَقَـتْ بِضِيَائِـهِ سُـنَنُ السَّـنَنْ
وَاسْـتَبْشَرَتْ كُلُّ النُّفُـوسِ بِطَبْعِـهِ الـ * ـزَّاهِي وَقَـدْ طَرَحَـتْ بِـهِ تَـرَحَ الحَـزَنْ
مَـدَدٌ إِلَهِـيٌّ بِـهِ تُشْـفَى الصُّـدُو * رُ مِـنَ الوَسَـاوِسِ، والنُّفُـوسُ مِـنَ الوَهَـنْ
مَـدَدٌ إِلَهِـيٌّ شِـفَاءٌ لِلشِّـفَا * مِـنْ سُـوءِ فَهْـمٍ فِيـهِ أَوْ وَهْـمٍ أَجَـنْ
مَـدَدٌ أَفَـاضَ عَـلَى الأَنَـامِ مَعَارِفًـا * تَبْقَـى مَحَاسِـنُهَا وَإِنْ فَنِـيَ الزَّمَـنْ
قَـدْ رَاقَ طَبْعًـا حِـينَ لَاحَ فَأَرِّخُـوا * طَبْـعُ الشِّـفَا بالـشَّرْحِ أَحْسَـنَهُ حَسَـنْ
(٨١) (٤١٢) (٥٤١) (١٢٤) (١١٨)

سنة ١٢٧٦ هـ

***

فهرس المحتوى

***

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٨/٨٠٠٩

الترقيم الدولي ISBN
978-977-848-007-8

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر
info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com



خير جليس في الزمان كتاب